يناير ٢٠٠٠ • الثمن جنيهان

الهلال

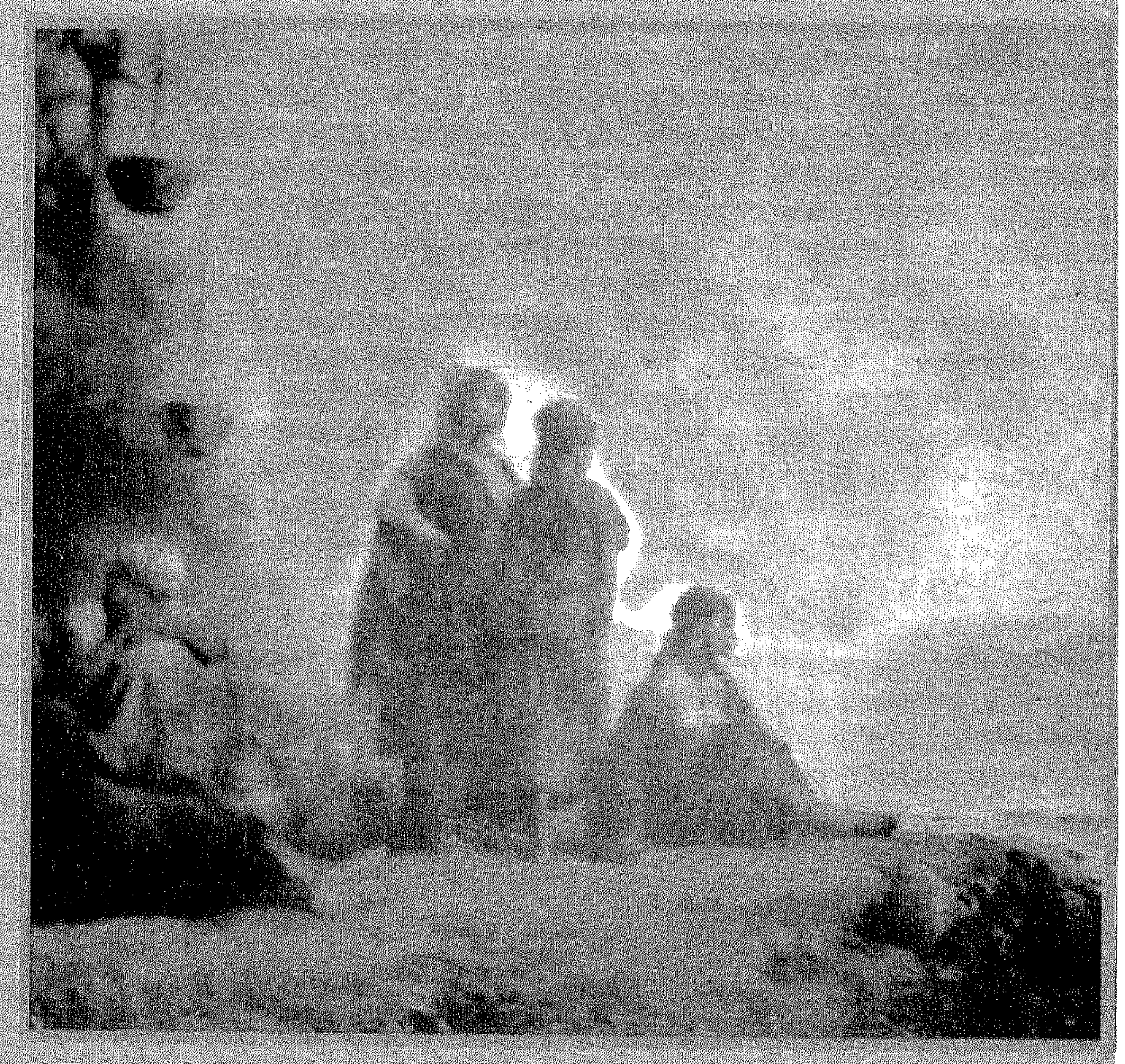


من نصف قرن كيف رأى الكتاب سنة ٢٠٠٠؟

مائة عام من التنوير

أصفهان .. نصف العالم

عدد ممتاز



النيـــل

للفنان الفرنسى
فرومنتان يوچينى

اهداءات ٢٠٠٣
أسرة أ.د/رمزي ذكي
القاهرة



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

العام الثامن بعد المائة

يناير ٢٠٠٠ ● رمضان ١٤٢٠ هـ

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

الإدارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت . ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب : ٦١ - العتبة - الرقم البريدى : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت ٣٦٢٥٤٨١ - تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX . ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى : darhilal@idsc . gov . eg

مصطفى نبيل رئيس التحرير

حلمى التونى المستشار الفني

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المدير الفني

ثمن النسخة سوريا ٦٠ ليرة - لبنان ٣٠٠٠ ليرة - الأردن ١٢٠٠ فلس - الكويت ٧٥٠ فلسا، السعودية ١٠ ريالات - تونس ١.٧٥٠ دينار - المغرب ١٥ درهماً - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبو ظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - الجمهورية اليمنية ١٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار - إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة - المملكة المتحدة ١.٥ جك

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ١٨ جنيها داخل ج م. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٠ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيوني زغلول - ص ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت - ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

هـذا العـدد



تصميم الغلاف
الفنان
محمود الشيخ

فكر وثقافة

الجامعة هي المستقبل

الهلال سنة ٢٠٠٠ والمستقبل

جزء خاص

فنون

[redacted]

قصة وشعر

[redacted]

الأبواب الثابتة

عزيزى القارئ

نحو ألفية جديدة

كل عام وأنت بخير وسعادة.. وفى هذا العام يلتقى المسلمون والأقباط فى ميقات أعيادهم، مؤكدين وحدتهم، ونرجو أن نلتقى معا على الخير فى الأعوام المقبلة، نقدم إليك التهنئة ونتلقى منك - عزيزى القارىء - التشجيع الذى اعتاد «الهلال» أن يتلقاه من قرائه الذين تتابعوا على مر الأجيال..

إن بداية كل عام جديد، تفاجئنا بمرور الأيام، فما بالك ونحن أمام ألفية جديدة، وقرن جديد، وعقد جديد، ونقف وجها لوجه أمام مفصل زمني واضح، ويمضى الزمن، وتدور الأيام وتتجدد الحياة، والزمن فى أحد جوانبه هو التغير والتطور المستمر، دول تقوم ، وأخرى تنهار وتتهاوى، وهى فرصة سانحة للنظر فيما حولنا، وتأمل أحوالنا ، ما مضى وما هو آت .. إنها لحظة مناسبة للمراجعة والتحفز للعمل.

ويحلو عندها حديث الذكريات ، ومراجعة حصاد الأيام القائمة، فمائة عام إنقضت من حياة الثقافة العربية، التى كانت ولاتزال مجلة «الهلال» سجلاً أميناً لأبرز اجتهاداتها وابداعاتها، ومنبراً رفيعاً لألمع كتابها ومفكريها ، تابعت إنجازات العصر فى مختلف المجالات، تعرضها وتتحاور معها ، وتكاد تعبر عن الأسئلة الرئيسية التى فجرها المثقف العربى طوال السنوات المائة الأخيرة، فى السعى من أجل الخروج بالثقافة العربية وبالواقع العربى .. من وهدة التخلف الفكرى إلى آفاق نهضة شاملة، وتأكيداً وتطويراً للهوية العربية ولحاقاً وتفاعلاً مع العصر.

وكما نتأمل فى حصاد الماضى، دأبت الهلال على العمل على استشراف المستقبل، تطل عليه وتسعى لكشف أحداث المقبل من الأيام حتى نستعد لها ، فكما أن «الوقت كالسيف إذا لم تقطعه قطعك»، فإذا لم تستعد للمستقبل خرجت خاسراً مدحوراً ، والفارق بين الدول المتقدمة والأخرى المتخلفة أن الأولى تتوقع ما تأتى به الأيام، وتستعد وتخطط لمواجهته .. ويشعر صاحب القلم بالرضا حين يرى أن لكلمته فائدة فى صرح بناء بلاده.

ومن يتصفح أعداد «الهلال» خلال القرن الماضى، لا يفوته أن يلاحظ أن أحلام الكتاب فى كثير من الحالات تحولت إلى واقع قائم، وحتى ولو بعد حين، فعرفت بلادنا

كتابا يدعون لليقظة والتحرر والنهضة، وتجد على صفحات «الهلال» إرهاصات ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ ، وترى موجة من الحلم يعقبها تحقيق الآمال وإنجاز الأحلام على أرض الواقع.

ودأبت «الهلال» على تناول قضايا المستقبل، والدعوة إلى الاعداد له، ونشر «الهلال» فى يناير سنة ١٩٥٠ عددا ممتازا عن سنة ٢٠٠٠ يضم مقالات قيمة لكبار مفكرينا فيما عسى أن يكون عليه المستقبل في مصر والعالم سنة ٢٠٠٠، وعادت «الهلال» فى يناير سنة ١٩٥٩ تتناول ذات التنبؤات، وقدم كل كاتب رؤيته لهذا العام، ويمكن فى نظرة على العددين أن نتبين قدرة العقل العربى على التنبؤ ورؤية المستقبل، لذا نعيد نشر بعض هذه المقالات فى هذا العدد، مصورة ومنقولة كما نشرت فى حينها، بعضها نعين نشره بلا تعليق، والبعض الآخر مع التعليق عليه من الاجيال اللاحقة من الكتاب، ونرى من خلال إعادة القراءة، إلى أى مدى صدقت رؤية هؤلاء الكتاب للمستقبل.

ولابد لنا أن نتوقف ونعترف، بأن العقل العربى عجز عن اكتشاف خطر الصهيونية فى النصف الأول من القرن العشرين، ولم نحذر – فى ظل الأفكار الليبرالية السائدة فى مصر بين ثورة ١٩١٩ وبين قيام إسرائيل سنة ١٩٤٨ – من التحركات الصهيونية القائمة فى البلدان العربية، كما لم يصل إلى خيال أحد ما جرى خلال النصف الثانى من القرن العشرين !! .

ونتساءل اليوم ، كما تساءل الذين جاءوا قبلنا، ماذا يخبىء لنا القرن الحادى والعشرين؟ وهو القرن الذى لا حياة فيه إلا للأمم التى تأخذ بأسباب التقدم فى كل تنظيماتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وحاول على الدوام حملة الأقلام من أهل الفكر والفن والعلم أن يقدموا خبرتهم ومساهماتهم الفكرية الجادة إلى القراء.

ونستقبل اليوم القرن الجديد بآمال واسعة وأحلام كبيرة، عسى لها أن تتحقق، ولا يغيب عنا أن نتساءل: كيف تم إجهاض النهضة الحديثة أيام محمد على باشا..؟ ثم .. كيف انحسر مشروع النهضة الذى نادت به ثورة يوليو ١٩٥٢ ..؟!

ففى الاجابة على هذه التساؤلات مفتاح المستقبل.

وتبدو آفاق المستقبل اليوم، مرتبطة بالنجاح الذى تحرزه مصر والعرب فى إرساء أركان الحرية والتقدم ..

المحـــــــرر

هذه ذكريات ثلاثة من كبار كتابنا يتحدثون عن بعض مشاهد القرن العشرين

مصر

تسترجع أخلاقياتها العريقة

بقلم :
د. أحمد أبو زيد

خضعت مصر خلال، الخمسين سنة الأخيرة، من القرن العشرين لكثير من عوامل التغير وعدد من الضغوط الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى تركت آثارا عميقة فى اخلاق المصريين وطباعهم وشمائلهم وقيمهم التقليدية المتوارثة التى ارتبطت بهم او ارتبطوا هم بها منذ عهود طويلة بحيث اصبحت تؤلف عنصرا اساسيا مميزا لشخصيتهم الاجتماعية والثقافية، ولذا تعتبر هذه التغيرات والضغوط بمثابة عامل انكسار حاد فى استمرار النسق الأخلاقى والقيمى ترتب عليه ظهور سلوكيات تختلف تماما عما تعارف عليه المجتمع المصرى خلال تاريخه القديم والحديث على السواء. ●●

ربما كان أهم هذه العوامل ماطرأ على نظام الحكم من تبديل أساسى بعد ثورة ١٩٥٢ وظهور طبقة حاكمة جديدة لها توجهاتها ونظرتها الجديدة التى تدخلت بشكل مباشر أو غير مباشر فى تشكيل أخلاقيات الناس، وبصرف النظر عما حققته الثورة من طفرة تنموية حقيقية وهائلة لا يمكن التهوين من شأنها، فإن سلوكيات بعض المسئولين الرسميين ساعدت على انتشار الاستهانة بأقدار الناس وتحطيم كثير من القيم الاجتماعية والاخلاقية، وذلك لما تبين من أن أخلاقيات هؤلاء المسئولين من أصحاب القرار وأعضاء المجالس النيابية لم تكن فوق الشبهات وبخاصة فيما يتعلق باستغلال النفوذ لتحقيق مصالح خاصة، أو تكوين ثروات طائلة بأساليب غير مشروعة فكانوا بذلك بمثابة قدوة سيئة للآخرين.

وقد عرفت مصر خلال تلك الفترة ذاتها حكم الفرد الذى يتخفى وراء مظاهر ودعاوى وادعاءات ديمقراطية زائفة، وشعر المصريون بحسهم الرقيق الدقيق المرهف بالقيود المفروضة على حرية التفكير والتعبير عن الرأى، وظهر من بين الحكام من وصف نفسه بأنه «كبير العيلة» بكل ما ترمز اليه هذه العبارة القصيرة من نظام بطريركى متسلط، وان كان يتخفى ويتستر وراء دعاوى «أخلاق القرية» وكانت نتيجة ذلك كله أن أصبح الحصول على المال والثروة هدفا ينبغى تحقيقه بمختلف الوسائل والأساليب، كما أصبح المصريون أكثر ميلا الى السلبية واللامبالاة وتراجعت روح المبادأة والمبادرة الى حد كبير.

أم الصابرين

ولقد كان الصبر دائما إحدى الصفات والخصائص المميزة للإنسان المصرى خلال كل فترات التاريخ المصرى الطويل بحيث عرفت مصر بأنها «أم الصابرين»، كما اعتبر الصبر قيمة اجتماعية وأخلاقية وليس مجرد أسلوب للسلوك. ولم يكن الصبر يعنى العجز وإنما كان يعنى دائما القدرة على تحمل المصاعب فى قوة وجلد وإيمان. ولكن يبدو ان الصبر طال خلال هذه الفترة الطويلة بحيث كاد يتحول الى استسلام وبخاصة بعد أن انتشرت اخبار الفساد الذى لا يجد من يواجهه أو ما يردعه. وظهرت إزاء ذلك بعض حركات التمرد التى اتخذت من الإرهاب أسلوبا للتعبير عن الرفض ووصل الإرهاب الى حد الاعتداء الاجرامى على حياة الأبرياء من مصريين وأجانب، ودخل العنف قاموس السياسة من أوسع الأبواب وامتد الى جوانب كثيرة من الحياة المدنية، بل وقامت بعض محاولات الاعتداء على حياة رؤساء الدولة انفسهم ونجحت احدى هذه المحاولات ، وبدا كما لو كان العنف الدموى أصبح إحدى السمات المميزة للإنسان المصرى ولسلوك المصريين الذين عرفوا خلال كل تاريخهم بالدماثة والعفة وهدوء النفس والطمأنينة والشعور بالأمان. كما ظهر على الجانب الآخر المقابل الميل إلى الانزواء واعتزال الحياة العادية لدى بعض قطاعات المجتمع مع الالتجاء الى رحاب الدين ونشأت اثر ذلك حركات متطرفة واتجاهات تأخذ الدين بفهم خاطىء ونظرة ضيقة أدت بأصحابها الى «الدروشة» والإيمان بقوة السحر وفاعلية الشعوذة،كما هجرت أعداد غير قليلة من

المثقفين أرض مصر الى بلاد أخرى عربية وأجنبية كانوا يرون - وربما كانوا مخطئين فى ذلك - أنها تتيح لهم هامشا أوسع من حرية من حرية التفكير والتعبير عن الرأى واثبات الذات .

وقد اسهمت وسائل الاعلام المختلفة وبخاصة التيلفزيون فى تعميق هذا التغيير بما كانت تحمله من صور مختلفة وخلابة لأساليب جديدة وغريبة ومغرية للحياة فى المجتمعات الأخرى وبخاصة المجتمعات الغربيةوأمريكا بالذات، وأدى ذلك إلى نشر أنماط من القيم والسلوك والعلاقات الاجتماعية والنظرة الى الحياة تتناقض تماما مع القيم والمثل العليا الاصيلة وتشجع على التخلص من كل القيود الاجتماعية وتدعو الى التحرر من التقاليد المتوارثة باعتبار ذلك هو الصورة المثلى للانسان المتحضر الراقى الذى يعتز بشخصيته المستقلة. وكان من الطبيعى ازاء ذلك الزخم الاعلامى الذى لا يخضع لسياسة إعلامية رشيدة أن تتأثر الأجيال الشابة والصاعدة بتلك الأنماط والأساليب السلوكية التى تدعو إلى العنف والزهو بالجريمة والتحرر الجنسى والتفكك العائلى. وقد تكون هذه هى صورة الأوضاع الاجتماعية السائدة بالفعل فى الغرب أو على الأقل فى بعض المجتمعات الغربية، أى أنها تنتمى الى وتتلاءم مع ثقافات معينة لها معاييرها التى تختلف عن معايير الثقافة المصرية التى هى فى جوهرها ثقافة اسلامية ذات ابعاد ومقومات خاصة ومتميزة، ولكن المهم أن هذه العلاقات الاجتماعية الجديدة الوافدة بتأثير وسائل الإعلام تعكس وتشجع على تمرد الشباب على السلطة بكل أنواعها وعلى رفض القيم الأخلاقية التقليدية التى أصبحت تمثل فى نظرهم الجمود والتخلف.

الهجرة بحثا عن الرزق

ودفعت الأوضاع الاقتصادية الصعبة التى أحاطت بمصر خلال هذه الفترة ذاتها أعدادا كبيرة من المصريين إما إلى الهجرة إلى بعض البلاد الأوربية وأمريكا، وإما إلى الخروج إلى الدول العربية البترولية بحثا عن عمل يدر عليهم دخلا كبيرا لا يتوافر لهم فى مصر، فكان ذلك على حساب التماسك العائلى وضعف الإشراف والتوجيه المباشر للشباب الذين تخلفوا فى مصر لسبب أو لآخر مما ساعد على مزيد من التحرر من السلطة الأبوية وإتاحة الفرصة للانحراف والخروج على القيم والأخلاقيات والسلوكيات المصرية الأصيلة من ناحية، كما بذر فى النفوس من الناحية الأخرى بذور الجشع وحب المال والتضحية بالعلاقات الحميمة فى سبيل الحصول على الثروة بل والتضحية بالشعور بالانتماء القوى للوطن من أجل المصلحة الخاصة، كما غرس لدى الكثيرين الشعور بالاستعلاء المزيف المستمد من الوفرة المادية والمالية التى يعجز الوطن عن إتاحتها للغالبية العظمى من أبنائه.

وتمخض ذلك كله عن ظهور أساليب سلوكية واتجاهات أخلاقية جديدة لم يكن للمجتمع المصرى عهد بها من قبل، كما طفا على السطح كثير من مظاهر التنكر لأنماط الحياة التقليدية التى ترتكز على تماسك الأسرة، بل والعائلة الكبيرة والتى تعلى من شأن علاقات التكافل الاجتماعى والشعور بالانتماء للوطن والاعتزاز به

والتمسك بمبادئ الشرف فى التعامل وفى السلوك الشخصى، وسادت بين الأجيال الشابة بدلا من ذلك روح اللامبالاة وتبلد الشعور بالمسئولية وعدم الاهتمام بأخلاقيات العمل والتنصل من الالتزامات العائلية، مع ازدياد الشعور بالإحباط والهزيمة إزاء المتاعب الاقتصادية ووطأة سلطة الدولة والقيود المفروضة على الحريات السياسية، وقد تفشى الالتجاء إلى العنف فى حل أصغر وأتفه المشكلات. وكان ذلك أحد مظاهر التمرد على الكبت الاجتماعى والقهر السياسى.

ومع ذلك كان هناك شعور عام بعدم الرضا عن تلك السلوكيات والأخلاقيات، وهذه علامة صحية وإيجابية تدل على الرفض وعلى الرغبة فى الإصلاح وتغيير هذه الجوانب السلبية المدمرة للقيم الأخلاقية إلى أوضاع أخرى أكثر إيجابية وأكثر تعبيرا عن الروح المصرية الحقيقية التى خبا بريقها تحت وطأة الظروف القاسية الطارئة. فثمة إذن فجوة بين الواقع المتدهور والمتمثل فى السلوك السائد الآن وبين المثال الذى يرغب الكثيرون فى إحيائه والعودة إليه للتخلص من ذلك التدهور الأخلاقى الذى يتعارض تماما مع ما كان يألفه المجتمع المصرى خلال العصور الماضية. ومع تنامى هذه الرغبة فى التغيير فإن المتوقع هو أن يشهد المستقبل عودة إلى أخلاقيات وسلوكيات وقيم أكثر إيجابية وتتجاوز السلبيات الحالية، وبذلك يتم وصل ما سبق انفصاله ولكن مع إدخال شئ من التعديل الذى يتلاءم مع الظروف المستجدة التى سوف تسود عالم الغد مع عدم التنكر للقيم الأخلاقية المصرية الأصيلة.

ومع أن عالم الغد سوف يغلب عليه التفكير العلمى العقلانى الموضوعى الذى ظهر واضحا فى القرن العشرين، فالظاهر أن العالم سوف يراجع نفسه حول الأمور الروحية والأخلاقية التى طال إهمالها وسوف يعطى قدرا كبيرا من الاهتمام للجوانب اللاعقلانية فى حياة البشر ويحاول التعمق فى دراستها وفهمها وتقدير الدور الذى تلعبه فى توجيه السلوك الانسانى. وإذا كان مفكرو القرن العشرين قد نادوا بالعولمة فإن هناك اتجاها آخر مناوئا للعولمة المتوحشة التى تؤدى إلى إهدار الشخصية القومية والقضاء على الهوية الثقافية للشعوب النامية والمستضعفة، وقد بدأت بالفعل بعض الأصوات ترتفع فى قوة وإصرار تنادى بضرورة الارتباط بالثقافة القومية والعمل على تغذية الشعور بالانتماء الوطنى ثقافيا، واجتماعيا، وسياسيا، وهو ما سوف ينطبق على مصر. وهذا معناه أن الإنسان المصرى سوف يدرك مدى خطورة العولمة على كيان الوطن وبالتالى على كيانه هو نفسه كإنسان، ولذا سوف يزداد اهتمامه بعناصر الثقافة المصرية التقليدية الراسخة التى تعطى مصر شخصيتها المتميزة، وسوف يدرك أنه لا مفر له من أن يعود إلى ذلك التراث الثقافى المصرى العريق بكل إبداعاته وقيمه ومثله العليا وأخلاقياته وعاداته وتقاليده حتى يسترد كيانه الذى بدا باهتا فى العقود الخمسة الأخيرة من القرن العشرين

ممارسة حرية التفكير

وسوف يزداد هذا الشعور بالانتماء

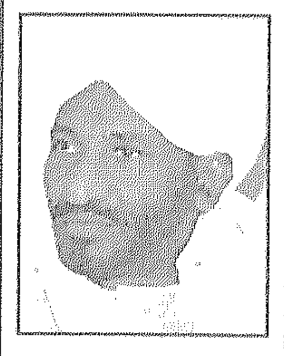
والعزة نتيجة التغيرات الجذرية التى لابد أن تطرأ على النظام السياسي والذى بدأت بوادره تظهر بالفعل فى السنوات القليلة الماضية. والتى سوف تتمثل فى إقرار النظام الديمقراطى والتمتع بالحقوق السياسية كاملة وممارسة حرية التفكير والتقدم وإبداء الرأى مما يحقق الشعور الحقيقى والعميق بالمواطنة. وسوف يساعد على حدوث هذه التغييرات انتشار التعليم بأنواعه المختلفة واتساع وتنوع مجالات المعرفة وأساليب الاطلاع على ما يحدث فى العالم من تغيرات، واعتراف العالم كله بالحقوق المدنية للأفراد مما يؤلف نوعا من الضغط على المجتمع المصرى لإقرار هذه الحقوق بطريقة لالبس فيها ولا غموض، وحينئذ سوف يشعر الإنسان المصرى العادى بأنه شريك فعلى فى اتخاذ القرار وأن من حقه محاسبة المفسدين ومحاربة الفساد. كما سيكون موقفه أكثر إيجابية من أمور الحكم واختيار من يمثله فى المجالس النيابية، أو سيعتبر نفسه مسئولا مسئولية مباشرة وحقيقية عن ذلك الاختيار، وبذلك يخرج من حالة السلبية واللامبالاة إلى ايجابية فعالة ومثمرة.

وسوف يساعد على تحقيق هذا الموقف الايجابى من الحياة ككل وليس فقط من أسلوب الحكم تنفيذ مشروعات التنمية التى تهتم بها الدولة الآن وبخاصة تلك التى يتم تنفيذها فى المناطق النائية، وتشجيع الشباب على الارتياد مما يؤدى إلى تنمية روح التحدى والمخاطرة والاقبال على التعمير والعمل الجاد حيث يجد الشباب خلاصا له من البطالة التى تمسك بخناقهم. وسوف يدفع ذلك الكثيرين إلى البقاء فى مصر والمشاركة فى مشروعات التعمير بدلا من الهجرة والعمل فى الخارج خاصة وأن أسلوب معاملة المصريين فى بعض الدول البترولية بدأ يتغير ويحمل معه كثيرا من المهانة التى لم تكن معروفة من قبل، وسوف يؤدى ذلك إلى إعادة التماسك والتآلف إلى الأسرة المصرية التى سوف تشرف على أبنائها بعد أن افتقد هؤلاء الأبناء الرعاية نتيجة غياب الوالدين، وبذلك يمكن علاج كثير من الانحرافات بين الشباب. بل إن روح التحدى التى سوف تملك على المصريين أمرهم سوف تدفع إلى الابتكار والخلق والاختراع وارتياد مجالات جديدة من العمل والنشاط تتناسب مع القدرات الحقيقية الكامنة، وبذلك يتحول التبلد والجمود واللامبالاة إلى نشاط وحركة وعمل وإسهام وتحمل للمسئولية مع تقدير العواقب، وكلها تدفع إلى الارتقاء بالذات والمجتمع وإيقاظ الشعور بالانتماء بعد طول اختفاء.

وليست هذه أحلاما أو توهمات، وقراءة تاريخ مصر الطويل واستقراء أحداثه كلها تشير إلى قدرة المصريين على استرداد ما يبدو أنهم فقدوه من اقبال على العمل، والنظرة الايجابية إلى الحياة، واحترام التقاليد، وتقدير القيم الأخلاقية، والتمسك بالمثل العليا، وهذه القدرة هى سر استمرار مصر والمصريين فى الوجود رغم كل الصعاب والمعوقات مع إمكان التكيف مع الظروف المتغيرة دون تفريط فى المقومات الأساسية المميزة.

أقوال
معاصرة


نجيب محفوظ


الصادق المهدى


نور الشريف

● «معظم وسائل الاعلام العربية تروّج ما يمكن أن نسميه جهامة التراث»!

المطرب السورى صباح فخرى

● «فى هذه الفترة لابد من بقاء الرقابة ، حتى لا نترك المجتمع نهبا لتجار الفن»!

الممثل نور الشريف

● «الرقابة العربية على الأعمال الدرامية المعاصرة.. تخنقنا»!

الاديب المسرحى السورى هانى السعدى

● «لا خير فى علم غير مصحوب بالاخلاق»!

المفكر د. فؤاد زكريا

● «بعد نشر أى نص لى. لا أقرؤه أبدا»!

الاديب نجيب محفوظ

● «القاضى الذى يريد أن يشتغل بالسياسة، فليستقيل»!

المستشار مقبل شاكر
رئيس نادى القضاة

● «وطنى حيث يقرأ شعرى»!

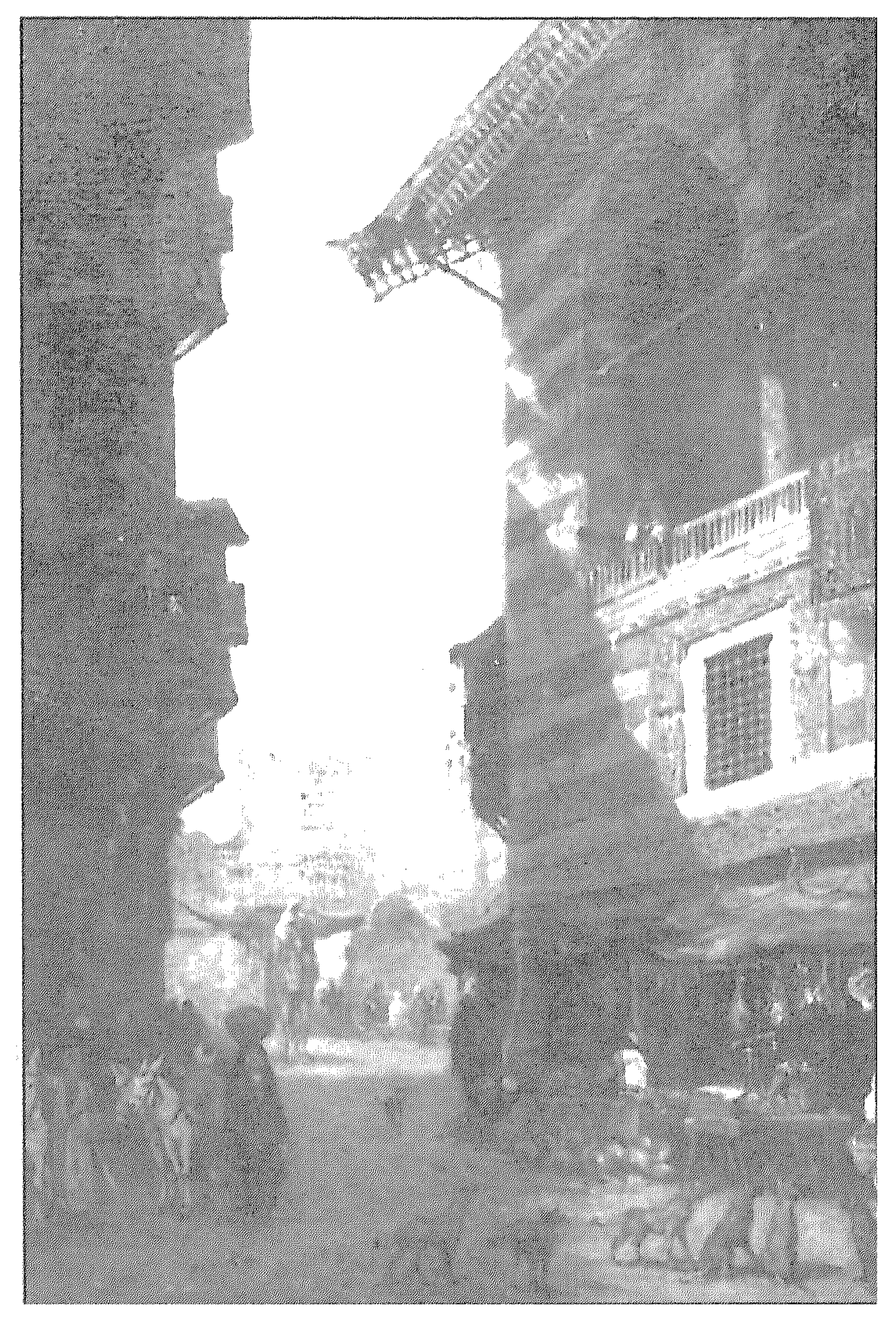
الشاعرة الكوسوفية فلورا بروفينا
والمحكوم عليها فى صربيا بالسجن اثنى عشر عاما

● «لا يوجد وعى كاف بوجود برامج أجنبية بقيادة الولايات المتحدة خطها الأساسى أن السودان شأن إفريقى، وليس عربيا إفريقيا»!

الصادق المهدى
زعيم حزب الأمة السودانى

● «أفلامى تعبير عن حاجتى الدائمة إلى الحنان»!

المخرج السورى عبداللطيف عبدالحميد
صاحب فيلم نسيم الروح



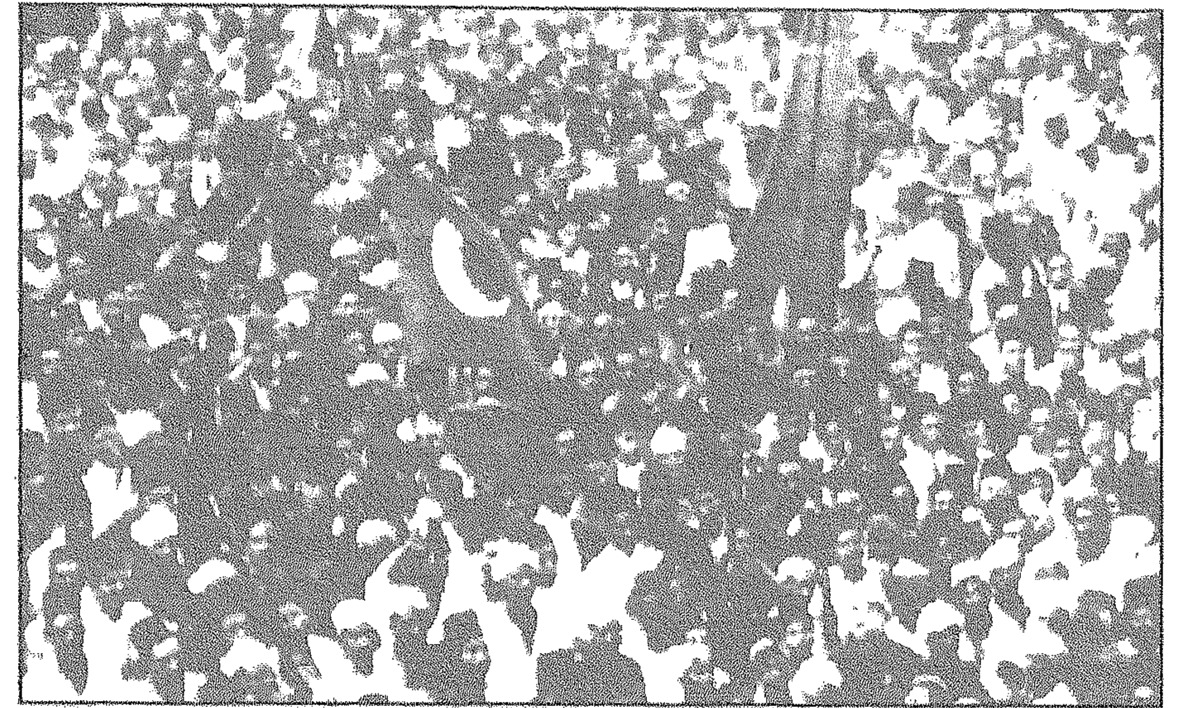
سيرتي

ومصر في القرن العشرين

بقلم : د. مصطفى سويف

عشت القدر الأكبر من عمرى على شغف متجدد بالنظر فى موضوع نقطة التماس والتداخل بين الذات والحياة الاجتماعية، بأضيق وأرحب معانيها . ومما زاد هذا الشغف تمكنا من نفسى أننى كنت أعود دوما من الطواف حوله سالما وغانما، حتى لقد استقر فى نفسى أننى على هذا الدرب بصدد معين للمعرفة والحكمة والامتاع لا ينضب .

ولقد واجهت نقطة التماس هذه (أو الإلتقاء) أول ما واجهتها فى بواكير شبابى الأكاديمى عندما كنت أدرس موضوع الإبداع في الشعر، حيث تكشفت لى «الحاجة إلى النحن» باعتبارها أساسا من أهم الأسس النفسية للإبداع فى الشعر خاصة وفى الفن عامة . ثم تقدمت بي الأيام فإذا بى أواجه الملتقى نفسه مرة أخرى حين تبين لى أن الجذر النفسى العميق لتكامل الفرد مع مجتمعه إنما يتمثل فى التوتر المتصاعد دوما بين الفرد والجماعة كما يفصح عن نفسه منذ بواكير الطفولة ، من خلال النمو اللغوى والنمو الحركى للصغير؛ فكل من الوظيفتين تنمو حسب تصميم ديالكتى يمضى نحو تعميق الفردية والاجتماعية معا داخل شخصية الطفل، وفى هذا الطراز من تشعيب النمو تكمن إنسانية الصغير البشرى، مميزة إياه كيفيا عن أى طفل آخر فى السلسلة الحيوانية .



ثورة ١٩١٩



سعد زغلول أحمد شوقى الملك فاروق الملك فؤاد

عبده الحامولى ملك حفنى ناصف سيد درويش



وتقدمت بى الأيام والأعوام بعد ذلك، وأنا أواصل المسيرة فى دراساتى ولا أفتأ أواجه نقطة الالتقاء أو التماس هذه باعتبارها جذرا عميقا وراء ما أحاول التصدى لبحثه من موضوعات فى هذا الفرع أو ذاك من فروع التخصص، كان آخرها ما تبين لى ولغيرى من الباحثين من دور حاسم يقوم به هذا الجذر فى أمور الصحة والمرض النفسيين، وهو دور يمتد ليشمل تحديد احتمالات الإصابة بالمرض النفسى ، وشدة الإصابة ، واحتمالات الشفاء .

من وحى هذه الاعتبارات وأمثالها اخترت موضوع الحديث الراهن، لم أجد أفضل منه لتقديم شهادة تضم إلى عشرات الشهادات التى تنشر هذه الأيام عن القرن العشرين، وفى هذه الشهادة أعرض لمسيرتى ومصر طوال ثلاثة أرباع هذا القرن ، محاولا أن أسجل وقع الأحداث العامة على نفسى ، أحداث الوطن ، والعالم من حوله، وما كان من اشتباك ذلك كله مع أحداث نموى وارتقائى ، وما قد يكون من نتائج هذا التشابك من عناصر فى الصورة التى صرت إليها .

ولست أدعى هنا أننى سأحاول التأريخ لهذه الفترة من الزمن المصرى بموضوعية المؤرخ المتخصص ، ولكن اجتهادى سوف ينصرف إلى بيان الكيفية التى نفذت بها الأحداث العامة إلى نفسى، وكيف قرأتها ، وماهى الشفرة التى اختزنت بها فى عقلى ووجدانى ، ثم كيف أسهم هذا كله فى تشكيل هويتى الاجتماعية الحضارية بوجه خاص .

المخاض ثم الميلاد :

جاء توقيت ميلادى فى ساعات الصباح (من يوم ١٧ يوليه ١٩٢٤) بعد مخاض استغرق ساعات طوال، وشق على أمى حتى كاد أن يزهق روحها ، هكذا حكت لى جدتى . وهكذا التحمت أفراح الأسرة مع أفراح مصر ، وكانت قد مضت بالكاد سنتان على تباشير الاستقلال الوطنى (فبراير سنة ١٩٢٢) بعد كفاح مرير انتهى بثورة عارمة (سنة ١٩١٩) كلفت البلاد قدرا كبيرا من دماء الشهداء ، شبابا وشيبا ، ورجالا ونساء ، من مختلف الطبقات والملل .

وأقدم الذكريات عندى ذكرى بصرية لتاريخ يكتبه مدرس على السبورة ينتهى بسنة ١٩٢٩ ، بينما أنا جالس ضمن تلاميذ الفرقة الأولى ج فى مدرسة قايتباى الأولية بحى كوبرى القبة . وتترامى إلىّ حول هذه الذكرى ذكريات أخرى عن السكن فى أحد بيوت الأوقاف القديمة ، ومن حوله حديقة تحيط بها معالم الحى، حيث تبدو الشوارع متسعة

وخالية من المارة إلا من رائح هناك وغاد هنا، وبقايا قراريط من أرض زراعية يرويها جدول صغير ، يستمد مياهه من ماكينة للرى أقيمت قرب البوابة فى حديقة مسكنى . فى ذلك الوقت كانت الأسرة ، والبيت بحديقته ، والحى هى كل عالمى . وكان هذا العالم مغلفا بالهدوء ، فالأصوات خفيضة ، والحركات متئدة ، والنفوس مسالمة، فى هذا العالم كنت أتحرك جيئة وذهابا فى نظام لا يختل بين قطبية المدرسة والبيت ، وفى رحابه تلقيت أولى المنظومات اللازمة لبناء معرفتى ووجدانى وسلوكياتى . وكان الأسلوب الأمثل للأسرة فى تقطير المعلومات التى يسمح لها بالوصول إلى أذنى وآذان أخواتى هو إبعادنا أو تقريبنا من مجالس الكبار . وفى هذا الإطار ترامت إلى مسامعى معلومات كثيرة مزودة بشحناتها الوجدانية المناسبة ، لا أذكر منذ متى بدأت تترامى، ولا من كان مضطلعا بها أكثر من غيره ، ولكن كل ما أستطيع الشهادة به أنها كانت دائما تتناثر فى أحاديث الأسرة من حولى، وظلت تتناثر على هذا النحو لسنوات عديدة. فى البدء لم أكن أفهم معظمها ، كان الكم الأكبر من إدراكى ينحصر فى القدرة على التفرقة بين ما يخص الأسرة وما يتناول محيطا أوسع من الأسرة ، وعلى مر الأيام استطاع عقلى الصغير أن يسجل لقطات هنا ولقطات هناك، ثم أخذت بعض هذه اللقطات تلتحم مع البعض مكونة مساحات من الاستيعاب متفاوتة فيما بينها اتساعا ووضوحا .

فى هذا السياق سمعت عن الثورة الوطنية (ثورة سنة ١٩١٩) ؛ كانوا يتحدثون عنها باكبار وإجلال أشعرنى بأنها كانت حدثا قارب حد القداسة ، وكانوا يتحدثون عن وحدة الأمة خلف سعد ، وأن واقع هذه الوحدة تحقق بشكل لا يكاد يصدق وذلك فى صورة توكيلات وتوقيعات على هذه التوكيلات جمعت من المواطنين العاديين فى طول البلاد وعرضها ، وأن القبض على سعد جاء بنتيجة معاكسة تماما لما أراده المحتل الانجليزى إذ استفز مزيدا من الغضب والثورة بدلا من إشاعة الخوف وإيثار السلامة، وقد خلقت هذه الأحاديث وأمثالها انطباعا عندى لا أزال أجد بقاياه قابعة فى نفسى حتى الآن، مؤداه أن سعدا انفرد بالساحة السياسية، فهم لم يكونوا يذكرون سواه ، اللهم إلا مصطفى

كامل، وكانت سيرته تشي حينئذ بأنه كان رمزا للتضحية والاستشهاد أكثر مما كان علامة على الطريق نحو الفاعلية السياسية المنجزة .

وكان أفراد الأسرة وضيوفهم ينخرطون بين الحين والحين فى أحاديث عامة أخرى، وكانت هذه الأحاديث تتناول عوالم أخرى غير عالم السياسة ؛ كانوا يتكلمون في أمور الاقتصاد فيذكرون بنك مصر وفضله فى تأسيس صناعات وطنية متعددة ، وفى هذا السياق يشيدون باسم طلعت حرب لنبوغه الاقتصادي وإخلاصه الوطنى ، وكانوا يتكلمون عن مختار ، الفنان الذى أبدع تمثال نهضة مصر ، ويطوفون بسيرة المسرح الغنائى فيذكرون الشيخ سلامة حجازى ، وربما استعادوا على استحياء بعض أنغامه وهو يغني «إن كنت فى الجيش صاحب العلم فأنا فى غرامى صاحب الألم» ، ويذكرون سيد درويش وهو يغنى «يا عزيز عينى وأنا بدى أروح بلدى» وربما عاد بهم هذا الحديث إلى سيرة الغناء في أول القرن، فيذكرون بحنين ملؤه تقدير عاطفى واضح أسماء عبده الحامولى ، ومحمد عثمان ، وعبدالحى حلمى . وكثيرا ما كانت هذه السير تجلب معها أحاديث عن قاسم أمين، وعن باحثة البادية (ملك حفنى ناصف) ، لينتهى بهم المطاف إلى أحمد شوقى .

ويبدو لى من تقليب النظر فى رصيد ذكرياتى المبكرة هذه أن أفراد عائلتى كانوا على قدر ما من البصيرة بأن البلد كان فى مسيرة نهضة شاملة متكاملة ، وأن ما يتحدثون عنه إنما هو لقطات لبعض مظاهر هذه النهضة التى بدأت ولم تتوقف مسيرتها منذ بداية القرن. وأنها مع ذلك كانت تتعثر من حين لآخر، أو ربما كانت تدخل في أطوار كمون بين الحين والحين، وأن هذا الكمون لم يكن منه بد لحماية الجذوة ، ومن ثم كانت الصحوة أو الصحوات المتعاقبة تأتى بمزيد من الحيوية ، والغالب أن بصيرة الأسرة فى هذه الرؤيا كانت حدسية إجمالية أكثر منها تحليلية واضحة المعالم والأبعاد، والغالب أيضا أنهم كانوا يجمعون إلى هذه البصيرة مزاجا يغلب عليه الرضا والتفاؤل أكثر من توجهات السخط والتشاؤم ، وأنا الآن أتأمل ما لهذا الماضى العائلى من حضور فى ذاكرتى ، وأعاينه «كباقى الوشم فى ظاهر اليد» ، وقد تناثرت فى نسيجه مناطق فارغة وأخرى مغبشة ، ربما تآكلت معالمها بمرور الزمن ، وربما تداخلت مع غيرها فانطمست الرسوم فى هذا وذاك ، ومع ذلك فلا يزال هذا الماضى يحتفظ بتوجهاته ودلالاته الرئيسية ، وأرجح (وإن

كنت لا أقطع بشئ فى هذا الصدد) أنه أسهم بنصيب فى تشكيل ما أنا عليه من مزاج أقرب إلى الرضا والتفاؤل رغم القتامة التى تغلب على الأجواء المباشرة من حولى، وأرجح كذلك أنه شارك بفاعلية فى انشغال وجدانى بما هو عام وفى ترحيبى بهذا الانشغال ، فالعام بالنسبة لى قيمة، ومعايشته فضيلة ، وفى مقابل ذلك أضيق بالخاص كلما اضطررت إلى الاكتراث له (تحت وطأة مطالب الحياة الضاغطة) ، وأعترف بذلك على مضض وربما على استحياء .

الصحبة فى الثلاثينيات :

وعبرت مصر إلى الثلاثينيات وأنا بصحبتها ، وأصابتنا فاتحة العبور بالاكتئاب ؛ فقد ووجهت مصر بالأزمة الاقتصادية الطاحنة (١٩٢٩-١٩٣٢) ، وبحكومات مستبدة، أشهرها حكومة محمد محمود ثم حكومة إسماعيل صدقى التى كان من أهم إنجازاتها السلبية إلغاء دستور سنة ١٩٢٣ .

أما أنا فقد فرض علىّ فى ذلك الوقت أن أعاين الموت عن قرب ؛ وليس فى ذاكرتى ما يشير إلى أننى عرفت معنى الموت من قبل أو خبرت تداعياته الاجتماعية . مات خالي الأصغر ، عن ثمانية وعشرين عاما؛ وكان قرة عين أمه وأخوته لما كان يتحلى به من حضور وطموح ونقاء . حصل على ليسانس الحقوق وكان فى طريقه إلى الحصول على الدكتوراه وإذا بالموت يجهض هذه المسيرة . وضرب الزلزال أسرته فلم تعد أبدا إلى سيرتها الأولى ، وكان نصيبى من هذا كله أننى تلقيت بيانا عمليا مفصلا عن المعانى والتداعيات الاجتماعية للموت؛ عرفت فى هذا السياق زيارة المقابر، ومحترفات العديد والندابات ، وعرفت طقوس الخمسان والأربعين والذكريات السنوية، وعرفت كذلك الأدعيات وقراءات القرآن المهداة إلى روح الميت، وعاينت الصدقات ذات القوالب الطقسية المحددة كأنها القربان ؛ عرفت أمورا فى هذا المجال لا أول لها ولا آخر . وعرفت كيف يكون الحزن غلالة تغطى كل شئ ، وكيف يكون فى الوقت ذاته بطانة تكشف عن نفسها فى كل شئ .

فى ذلك الوقت كانت الضربات التى تكيلها حكومات الأقليات للآمال الوطنية التى لم تكن قد فقدت زخمها بعد ضربات بالغة الأذى ، فقد شجعت الانجليز والقصر الملكى وشجعها هؤلاء على أن

يلعب كل فريق لعبته ابتغاء الحصول على مكاسب تخص دائرته ، وتفككت في هذا السبيل أوصال الجبهة الوطنية التى كانت من قبل سدا منيعاً فى وجوه الطامعين الغاصبين وتبددت جهود استكمال الاستقلال الوطنى الذى كانت بدايته بالكاد قد أرسيت فى فبراير سنة ١٩٢٢ ، ومع ذلك ظلت فى نفوس الناس جذوة لم تخمد فى مواجهة جيش الاحتلال الذى ظل قابعا فى ثكنات قصر النيل (حيث تقوم الآن مبانى جامعة الدول العربية)، مبقيا بذلك على المشاعر الوطنية المبهمة التى ظلت تجيش تحت السطح كالأخلاط الساخنة تحت سطح الأرض لتتفجر بعد ذلك حمما ملتهبة فى منتصف الثلاثينيات.

فى هذه الفترة من أوائل الثلاثينيات ، كان انتقالى من التعليم الأولى إلى التعليم الابتدائى (سنة ١٩٣١ -١٩٣٢) ، ومع هذه النقلة بدأ عالمى يتسع بعض الشئ، فلم يعد يقتصر على الأسرة والمدرسة وما يطلان عليه من أرض الحى ، بل أصبح يمتد ليشمل عالم الأوتوبيس ، وأحياء السكاكينى وغمرة والظاهر، والطريق الذى يربطها بكوبرى القبة .

التحقت بمدرسة الظاهر الابتدائية، وكانت تقوم وراء كوبرى الشرابية ، واقتضى ذلك أن استقل الأوتوبيس معتمدا على نفسى ، وأن أتعهد بالتنمية والصقل مجموع المهارات الاجتماعية اللازمة للتعامل الآمن والسليم مع السائق ومحصل التذاكر والركاب، وكانت الأسرة مطمئنة ، وامتد اطمئنانها ليشملنى ، وكان الطريق آمنا ، وكان الناس مسالمين، فلم يحدث أبدا ما يعكر الصفو. ثم اقتضى انتقال الأسرة إلى مسكن فى حى عابدين أن ينتهى بى المطاف إلى مدرسة القربية الابتدائية (بالقرب من ميدان الفلكى) . وكان الفناء الواسع سمة رئيسية فى المدرستين (الظاهر والقربية) ، وكانت هيبة الناظر والمدرسين سمة أخرى فى المدرستين ، وكان المناخ التربوى فيهما يجمع بين السماحة والانضباط معا . وكان هذا كله يفصح عن نفسه فى مشاعر الحبور التى كانت تحتوينى أثناء رحلتى كل صباح إلى المدرسة ، وأنا الآن لا أذكر شيئا مفصلا عن تعليمى كما تلقيته فى تلك المرحلة ، ولكنى أذكر إجمالا أن كل شئ كان يمضى فى سلاسة ، وأذكر أننى بدأت أتعلم اللغة الانجليزية منذ السنة الأولى ، وأننى اشتركت فى بعض المسابقات الثقافية التى كانت تجرى داخل المدرسة ، وتفوقت فى مسابقة الدين، وكوفئت على ذلك بمصحف فخم الطباعة لازلت أحتفظ به فى مكتبتى ، وأذكر أمورا أخرى متناثرة، حول امتحان الشهادة الابتدائية : فقد عقد الامتحان فى سرادق

كبير أقيم بعيدا عن المدرسة ، وكانت لنا أرقام جلوس تسلمنا بطاقاتها قبل موعد الامتحان بأسابيع عدة ، وكان توزيع هذه البطاقة علينا إيذانا بتولد شعور بالرهبة عندنا جميعا أنا وزملائى ، وكانت رهبة مسعدة لنا ولعائلاتنا إذ كانت تعنى (فى نظرنا) اعترافا رسميا بأننا أصبحنا كبارا بمعنى ما ، وكانت هذه المشاعر تزداد كثافة مع اقتراب موعد الامتحان فنزداد شعورا بالتوتر والسعادة معا ، وعندما حل اليوم الموعود وذهبت إلى السرادق فوجئت بعدد من الآباء والأمهات يقفون بالقرب من مدخله ، وقد صحبوا أبناءهم ثم وقفوا هناك بعد أن دخل الأبناء ، وكانوا أثناء وقوفهم بالمدخل يتلون بالهمس آيات من القرآن الكريم يشفعونها بدعوات لأبنائهم ولنا جميعا بالتوفيق ، وخيل إلىّ عندئذ أننى كنت على باب مسجد أهم بدخوله والتبرك بمن فيه وما فيه ، وكأننى كنت من قبل فى انتظار إشارة من هذا المستوى الإنسانى الرفيع ليتأكد لى أننى بصدد أمر جاد لا هذر فيه. ثم جاءت علامة أخرى لتحسم الأمر عندما حل موعد الامتحان الشفوى ، وإذا بامتحان اللغة الانجليزية يشارك فيه مع الممتحن المصرى مفتش (أو موجه بلغة أيامنا الخالية) انجليزى الجنسية ، كان الرجل باسم الثغر ، خفيض الصوت ، يغلب عليه الحنو والتشجيع ، وقد مكث معنا (فى لجنتنا) دقائق ثم ما لبث أن انصرف ليتنقل بين اللجان المختلفة . ثم بعد هذا وذاك اكتملت دائرة الأهمية والاهتمام الاجتماعى الذى كان الامتحان يحظى به عندما ظهرت (بعد شهر أو نحو ذلك) النتائج فى إحدى الجرائد اليومية واسعة الانتشار معلنة أرقام جلوس الناجحين فى الشهادة الابتدائية .

العام ١٩٣٥ - ١٩٣٦ :

كان العام ١٩٣٥ - ١٩٣٦ عاما فاصلا فى حياتى الشخصية ، وفى مسار مصر ، والعالم ، كان مثالا للأعوام المفصلية فى التاريخ ، على مستويات عدة؛ فأما بالنسبة لى فقد كان نجاحى فى امتحان الشهادة الابتدائية فى مايو ١٩٣٦ حدثا فاصلا بين مرحلتين هامتين : الأولى مرحلة ضآلة دور الوعى فى حياتى (كأننى كنت من السائرين نياما) ، والثانية مرحلة تنامى نصيب الوعى فى هذه الحياة، ولا أزال أذكر الفرق بكل وضوح بين شخصى وأنا فى المدرسة الابتدائية ، وشخصيتى التى بدأت تتشكل وأنا أجتاز تعليمى الثانوى .

وأما بالنسبة لمصر فقد اندلعت الثورة فى نوفمبر سنة ١٩٣٥ ، كانت الهتافات موجهة ضد الانجليز لاستكمال الاستقلال، وكانت موجهة فى الوقت نفسه ضد عبث القصر وأحزاب الأقلية الذين انصرفت عنايتهم إلى التمكن من كرسى الحكم بأى ثمن. وآفاق الساسة على أن ألاعيبهم لابد لها من نهاية، فإذا لم يحددوا هم أنفسهم هذه النهاية فستحدد لهم . ولكنهم كانوا كالسائرين نياما ، وفجأة بدأت أحداث الثورة ، وفجأة نفضت انجلترا يدها منهم لأن أحداثا عالمية خطيرة بدأت تأخذ مجراها ، ولابد من إعداد العدة لمواجهة مستقبل متفجر . وفى هذا المناخ تراجع القصر الملكى فأصدر مرسوما (فى ديسمبر ١٩٣٥) بإعادة العمل بدستور سنة ١٩٢٣ ، وأجريت الانتخابات ، وجاء حزب الأغلبية (الوفد) إلى الحكم. وبدأت انجلترا تدخل فى مفاوضات جادة مع الحكومة المصرية ، انتهت بعقد معاهدة سنة ١٩٣٦ ، خطوة أخرى محدودة تضاف إلى خطوة فبراير سنة ١٩٢٢ ، وفى هذه الأثناء مات الملك فؤاد (فى ٢٨ أبريل سنة ١٩٣٦) وخلفه ابنه فاروق .

أما عن الأحداث العالمية التى أرغمت الجميع على أن يأخذوا الأمور بقدر معقول من الجدية فتتلخص فى أن نذر الحرب العالمية الثانية بدأت تلوح فى الأفق، وكان أوضح النذر تنامى الفاشية فى أوروبا ، وكان أقرب هذه النذر إلى الحدود المصرية زحف الجيوش الايطالية من الصومال (وكانت مستعمرة ايطالية) على صحراء الاوجادين داخل الحبشة فى أكتوبر سنة ١٩٣٥ ثم دخولها أديس أبابا فى مايو ١٩٣٦ وتبع ذلك إعلان الحبشة جزءا من الامبراطورية الايطالية ، وفى الشهر نفسه أعلنت إيطاليا انسحابها من عصبة الأمم، بما يعنى أنها قررت أن تسقط من حسابها معايير النظام الدولى القائم . أما عن بقية عناصر الفاشية المتنامية فى أوروبا فكان على رأسها استقرار الأمر للنازية فى ألمانيا ، واندلاع الحرب الأهلية فى أسبانيا، ومساعدة ايطاليا وألمانيا إلى المساعدة الچنرال فرانكو زعيم الفاشية فى أسبانيا .

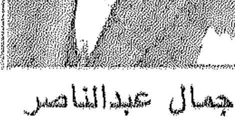
كانت هذه الأحداث (الداخلية والخارجية) فى تجمعها معا على هذا النحو المكثف علامة فاصلة فى تاريخ تقدم القوى الفاعلة فى مصر ، وانتقالها بتصوراتها وشعاراتها ، من مستوى للعمل السياسى أقرب إلى السذاجة إلى مستوى جديد من العمل والفكر أو من العمل الواعى لم تعهده من قبل . وفى يقينى أننا جميعا ، أجيال الآباء وأجيال الأبناء ، بحاجة إلى مزيد من النظر والتفكر فى خطى هذه الرحلة ودروسها ، سواء من هذه الخطى مارويت عنه، أو ما أرجو أن أرويه فى القريب.

ذكريات سياسية

خمسة عشر عاما فى دنيا السياسة (١٩٦١ - ١٩٧٦)

بقلم :
د. رشدى سعيد

ظللت ومنذ عودتى من البعثة فى سنة ١٩٥١ منكبا على معملى ومعطيا كل وقتى للبحث العلمى ولتدريب الطلاب فقد كان همى كله منذ أن بدأت عملى بقسم الچيولوچيا بجامعة القاهرة «بناء قسم رفيع المستوى يصبح ندا لأعرق الجامعات» كما كتبت فى المقال الذى نشرته فى مجلة الهلال (مايو سنة ١٩٩١) بمناسبة مرور خمسين سنة على تخرجى من كلية العلوم - كانت الآمال والطموحات فى ذلك الوقت تسمح لنا بأن نحلم بأن نرى كلية العلوم بجامعة القاهرة ندا لزميلتها بجامعة هارڤارد أعظم الجامعات بالولايات المتحدة .

جمال عبدالناصر



كمال رمزى



حسين هيكل



لطفى الخولى

وعلى طول السنوات العشر الأولى التى تلت عودتى من البعثة لم يكن هناك مكان لأحد فى ميدان العمل السياسى الذى كان رجال الثورة قد احتكروه وحصروا العمل فيه على مجموعة صغيرة من الثقاة مما أحدث تباعدا مع المثقفين الذين كان رجال الثورة يتوجسون منهم - وقد أحدث انفصال سوريا فى سنة ١٩٦١ من دولة الوحدة التى أقامتها مع مصر فى سنة ١٩٥٨ تغيرا فى توجهات القيادة السياسية المصرية بعد أن تأكد لها أن هذا الانفصال هو جزء من مؤامرة كبيرة تدبرها قوى خارجية للتخلص منها مما دفع القيادة السياسية درءاً لهذه المؤامرة إلى الالتجاء إلى الشعب وتعبئته وكسب ثقته والارتباط به بميثاق للعمل الوطنى يعرض للاستفتاء عليه من قواه العاملة التى تحددت فى اجتماعات لجنة تحضيرية تشكلت لهذا الغرض فى مؤتمر تم تشكيله من هذه القوى بغرض اقرار الميثاق - وفوجئت بوجود اسمى بين اعضاء كل من اللجنة والمؤتمر اللذان انعقدا فى سنتى ١٩٦١ ، ١٩٦٢ على التوالى .

الحب المفقود

وكان أعضاء اللجنة التحضيرية والمؤتمر معينين فلم تكن القيادة السياسية وحتى ذلك التاريخ على ثقة من أن أنصارها يمكن أن ينجحوا لو دخلوا الانتخابات العامة سواء لعضوية المؤتمر أو مجلس الشعب الذى كانت القيادة تعد لإعادته بعد توقف طويل - فحتى ذلك الوقت كانت القيادات الشعبية لازالت فى معظمها فى يد القيادات التقليدية والتى كان بينها وبين الثورة حب مفقود ، فقد تضررت من القوانين التى أتت بها الثورة بدءاً من قانون الاصلاح الزراعى الذى تم سنة ١٩٥٢ ونهاية بالتأميمات التى حدثت سنة ١٩٦١ وهى التأميمات التى تمت فى ذلك الوقت تحت مسمى القوانين

الاشتراكية - وكانت كلمة الاشتراكية من الكلمات المقبولة حينئذ كما كان هدف «تذويب الفوارق بين الطبقات من أهم الأهداف التي جاءت بها الثورة والتي لم تكن تقل في أهميتها عن مبدأ التخلص من الاستعمار ، وقد بدأت الثورة حياتها بعدد من الإصلاحات التي كان الكثيرون يتطلعون لرؤيتها حتى من قبل مجيئها كتحديد الملكية الزراعية وإصدار قانون جديد للعمل والتوسع في مجانية التعليم وتوفير الخدمات الصحية لقاعدة كبيرة من المواطنين .. واهتمت الثورة بالعمل على توسيع قاعدة الثروة في البلاد والقيام ببرنامج ضخم للتنمية تضمن بناء السد العالي وتنفيذ خطة طموحة للتصنيع كانت الثورة تأمل في أن يقوم بها القطاع الخاص الذي سعت إلى تشجيعه اصدار التشريعات المناسبة إلا أن هذا القطاع لم يستجب لهذا المسعى فقد كان مملوكا في أغلبه للأجانب كما أن أصحاب رؤوس الأموال كانوا مرتابين في نوايا النظام الذي كان يرفع شعار العدل الاجتماعي وتذويب الفوارق بين الطبقات .. ولما لم يأتي رأس المال طوعاً أقدمت الحكومة على تأميمه بدءاً بقناة السويس ثم بالشركات الأجنبية فالمصرية واستخدمت الحكومة هذه الأموال في بناء قاعدة اقتصادية واسعة استوعبت القوة العاملة بكاملها - وفي خلال ذلك كله دخلت الحكومة في صدام مع أصحاب رؤوس الأموال الذين شجعوا التمرد وتحالف جزء منهم مع اليمين الديني مما دفع الحكومة للقيام بعمليات قمعية آثارت الاشمئزاز . وأدى التصادم إلى توقف كل أشكال المشاركة الشعبية في الحكم لمدة قاربت السنوات العشر وحتى سنة ١٩٦٤

وكان المقصود من عمل اللجنة التحضيرية استبعاد القيادات القديمة واعداد قيادات جديدة من المستفيدين من القوانين الاشتراكية تمهيداً لدفعهم لخوض معركة الانتخابات لمجلس الشعب الذي كان يجري الاعداد لإقامته - وتمخض اجتماع اللجنة التحضيرية بالفعل عن «عزل» الكثير من القيادات القديمة ودفع قيادات جديدة من بين العمال والفلاحين ممن استفادوا من الثورة والذين تقرر حجز نصف عدد مقاعد المجالس الشعبية المنتخبة على الأقل لممثليهم .

كسب ثقة المثقفين

أما المؤتمر العام فقد استهدف وضع ميثاق يكون أساساً لإنشاء تنظيم سياسي كان يؤمل أن ينضم تحت لوائه كل قوى الشعب العامل وهكذا ظهر تنظيم الاتحاد الاشتراكي الذي لعب دوراً هاما في توجيه شئون الأمة حتى حله في منتصف سبعينات القرن العشرين.

وليست لدي أية معرفة بمن يمكن أن يكون قد رشحني لعضوية اللجنة والمؤتمر فقد كانت هذه الأمور تجري في سرية تامة إلا أني أكاد أن أقطع بأن الترشيح لم يأتي عن طريق الأجهزة أو القيادات

التقليدية بل وأنه وفى الأغلب مرتبط بالحملة التى قادتها جريدة الأهرام التى كان يرأس تحريرها فى ذلك الوقت الأستاذ محمد حسنين هيكل لكسب ثقة المثقفين وبناء الجسور معهم والتى بدأتها قبل ذلك بسنوات عندما استكتبت عددا منهم فى صفحة الرأى التى استحدثتها الجريدة وخصصتها لكتاباتهم - وكان الأستاذ لطفى الخولى المسئول عن هذه الصفحة قد سمع عنى من زملائه الذين كان البعض منهم يحضر محاضراتى فى الجامعة ويعجب بها ودعانى للكتابة فى صفحة الرأى فبدأت وفى تردد شديد وبين الحين وطول الحين الكتابة عن الجامعات والبحث العلمى وأهميتها فى بناء المجتمع.

وكانت الأزمة مع المثقفين قد أخذت شكلا جادا بعد أحداث سنة ١٩٥٤ والتى أحدثت إنقساماً فى قيادة الثورة بسبب إلحاح الجناح الذى كان يقوده محمد نجيب رئيس الجمهورية فى ذلك الوقت بضرورة العودة إلى النظام البرلمانى وهو الأمر الذى خشى منه جناح آخر فيها بقيادة جمال عبد الناصر بأن يصفى مثل هذا الاجراء الثورة ويعيد الأمور إلى ما كانت عليه قبلها. وكان من رأى هذا الجناح الأخير والذى كانت له الغلبة فى هذا الصراع أن تؤجل عملية الانتخابات حتى يتم تثبيت قواعد الثورة ويبنى لها تنظيم سياسى تكون له من الشعبية ما يمكنه من الدخول فى الانتخابات ضد القيادات التقليدية - وقد أدى هذا الانقسام إلى انشقاق صفوف المثقفين وإلى إطباق الثورة على الجامعة وطرد عدد كبير من أساتذتها فى سنة ١٩٥٤ وهو العمل الذى سمى وقتها بمذبحة الجامعة . وقد كان صراع سنة ١٩٥٤ موضوع كتابات كثيرة ممن عاصروه.

وفى سنة ١٩٦٤ أحست القيادة السياسية أنه قد أصبح لها تنظيما سياسياً له من القيادات والشعبية ما يمكنها من البدء فى تجربة المشاركة الشعبية فى الحكم . وكان هذا التنظيم السياسى يضم تحالفا من قوى الشعب العاملة التى كانت قد تحددت صفاتها فى اللجنة التحضيرية التى سبقت مؤتمر الميثاق - وأعلن عن فتح باب الترشيح للبرلمان وشجع الناس للترشيح وللإدلاء بأصواتهم فى الانتخاب - ولم يكن هناك أى قيد على الترشيح فقد تكفلت القواعد التى وضعتها اللجنة التحضيرية بابعاد القيادات التقليدية - وتقدم للترشيح لهذا البرلمان بالفعل عدة مئات كانوا من بين أبناء الطبقة المتوسطة الذين حاول النظام أن يدفعهم ليحلوا محل القيادات السابقة من أصحاب الأراضى ومن رجال الأعمال الذى كان قد تم تحجيمهم ثم عزلهم خلال السنوات العشر السابقة - وكان معظم المرشحين من المستفيدين من الثورة والنظام الجديد الذى جاءت به وكانوا على

استعداد للدفاع عنها والعيش مع أهدافها - وكانت انتخابات هذا البرلمان نزيهة فى عمومها فلم يكن هناك سبب يدفع الحكومة للتدخل فيها فقد كان كل المرشحين من رجالها .

تغيير قانون الانتخاب

وفاجئت نتيجة الانتخابات القيادة السياسية لأنها لم تسفر إلا عن نجاح قبطى واحد هو الأستاذ جميل جورجى بشاى الذى انتخب عن دائرة صدفا بالصعيد مما دفع بها لأن تحاول تدارك الوضع بتغيير قانون الأنتخاب ليعطى لرئيس الجمهورية الحق فى تعيين عشرة أعضاء بمجلس الشعب - ولاشك أن هذه النتيجة كانت على الأقل فى جزء منها بسبب الإبعاد الذى حدث للأقباط من ميدان الخدمة العامة ومن الحياة السياسية وتنظيماتها التى كان يضاف إليها وفى آخر لحظة عندما يحتاج الأمر إلى قبطى بغرض استكمال الشكل .. وفى جزئه الآخر إلى تواطىء أجهزة الداخلية التى اشتهرت بارتيابها لنوايا الأقباط كما يتضح ذلك من الطريقة التى ترسم بها الدوائر الانتخابية حيث تقطع المدن والأحياء التى يسكنها الأقباط حتى لا تكون لهم فى أى منها أغلبية - وللداخلية فى هذا المجال تاريخ ينبغى للمهتمين بمستقبل مصر النظر فيه واصلاحه فمنها خرجت الشروط العشرة التى ألحقت بالخط الهمايونى المنظم لبناء الكنائس والتى تجعل من بنائها أمرا صعباً. والخط الهمايونى هو أحد الفرمانات التى أصدرها الباب العالى فى سنة ١٨٥٦ تحت ضغط الانتفاضات المتكررة للأقليات المسيحية فى أرجاء الدولة العثمانية لاعتماد الحقوق الخاصة بالمسيحيين بحيث «لايمنع أحد من اجراء فريضة ديانته ولا يلقى من أجل ذلك جوراً أو أذية ولا يجبر على ترك دينه وتؤخذ التدابير اللازمة والفورية لأجل تأمين أهل كل مذهب مهما بلغ عددهم» وبحيث «يساوى فى الوظائف العامة بين المسلمين والمسيحيين» وبحيث «تصبح الخدمة العسكرية واجبة على المسيحى كما هى واجبة على المسلم» وبحيث «تزال كلية من المحرارت الديوانية جميع التعبيرات والألفاظ والتمييزات التى تتضمن الاساءة إلى فئة من الناس بسبب المذهب أو اللسان أو الجنسية» «نص الفرمان على أنه يقدم طلب بناء الكنائس من بطريرك الطائفة إلى الباب العالى ليصدر رخصة بنائها - وطبق الفرمان على مصر التى كانت جزءاً من الدولة العثمانية وظل ساريا حتى صدور دستور سنة ١٩٢٣ عندما ألغيت كل الفرمانات العثمانية والخطوط الهماونية بما فيها ذلك الخط - إلا أن وزارة الداخلية المصرية لم تأخذ بهذا الإلغاء واستمرت فى تطبيق الخط وأضافت إلى حقوق الحاكم فى إصدار رخصة بناء الكنائس رخصة ترميمها أيضاً ووضعت فى سنة ١٩٣٤ شروطا عشرة ينبغى على طالب الترخيص استيفائها وهى أن تكون

مانعة لبناء الكنائس – وعلى الرغم من وجود أى سند قانونى أو دستورى لهذه الحقوق أو الشروط وارتفاع الشكوى منها إلا أن أحدا لم يقم بالغائها حتى اليوم.

أعود إلى انتخابات سنة ١٩٦٤ والتى أتصور أن جمال عبد الناصر ربما كان الوحيد من قيادات الثورة الذى أزعجته نتيجتها فقد رأى دلالاتها الخطيرة على عمق الصدع الذى حدث فى صفوف الوطن وعلى قوة التيار المتشدد الذى استطاع أن يفرض جدول أعماله على الدولة وعلى التنظيم السياسى . وراود الكثيرون الأمل فى أن يكون تعيين الأقباط فى البرلمان مؤقتا حتى تتم إعادتهم إلى صفوف الجماعة الوطنية فيدخلوا البرلمان بالانتخاب كما ينبغى أن يكون عليه الحال فى أية دولة متمدنة إلا أن هذا الأمر لم يتم وهكذا أصبح وجود الأقباط بالبرلمان ومنذ ذلك التاريخ وحتى اليوم راجع إلى عطف الحاكم لا إلى إرادة الشعب .

اختيار لم أسعد به !

وتم اختيارى عضوا معينا بمجلس الشعب فى برلمان سنة ١٩٦٤ – ولم أكن سعيدا بهذا الاختيار فقد أكد لى ما كنت قد بدأت أشعر به منذ عودتى من البعثة من أننى بالفعل قد أصبحت الآن فى الوطن وزاد من عدم سعادتى ماعرفته من أن اختيار الأعضاء المعينين من الأقباط فيما عداى كان قد تم من قائمتين أعدت واحدة منها بطريركية الأقباط وأعد الأخرى الدكتور كمال رمزى استينو الوزير القبطى بالوزارة بعد مرورها على قلم شئون الأقباط بالأجهزة التى كان يشرف عليها أحد ضباط الصف الثانى من قادة الثورة، وكان أمر زج البطريركية فى اختيار السياسيين أمراً مثيرا للألم وإشارة إضافية إلى تزايد اعتماد الدولة على المؤسسة الدينية فى علاج المشاكل الزمنية وصد الاتجاه الذى لم أكن أحب أن أراه أن ؟؟ كما كان الطلب من الوزير القبطى بالوزارة بأن يرشح أقباطاً للتعيين بالبرلمان مثيراً للأسى فقد كان اعترافا بعزلة الأقباط الذين لم يعد أحدا خارجا عنهم يعرفهم.

ومن غرائب الأمور أن الدولة التى كثيرا ماتقتحم المؤسسة الدينية فى أعمالها الزمنية هو نفسها التى تصمم على ألا يدخل الدين السياسة والتى تمنع انشاء الأحزاب القائمة على أساس الدين ويعود سبب هذا التناقض إلى هشاشة مؤسسات المجتمع المدنى التى تقف الدولة حجر عثرة أمام نموها والتى كان من الممكن أن تجد فيها أداة للاتصال بالناس وأن يجد الناس فيها منبراً يتجمعون حوله وتدفع هشاشة هذه المؤسسات الدولة بل والناس أيضاً إلى اللجوء إلى المؤسسة الدينية كبديل لها عندما تريد أن تجد منبراً للتعبير عن آرائها ولذا فعلى الرغم من أن الحكومة تخشى بأسى هذه المؤسسة وتخشى من إفلاتها من سيطرتها إلا أنها كثيراً

ماتضطر للجوء إليها عندما يكون لديها شيء تريد أن تقرره ، وقد لجأت الحكومة بالفعل لهذه المؤسسة للحصول على موافقتها على معاهدة الصلح مع إسرائيل وعلى قوانين الغاء الاصلاح الزراعى بل وعلى تأييد ترشيح رئيس الجمهورية لفترة جديدة للرياسة ، ولو كان لدى الحكومة مؤسسات مدنية قوية كالنقابات والأحزاب والجمعيات الاهلية لما اضطرت أن تفعل ذلك بل ولما اضطر الناس إلى زيادة الاعتماد على المؤسسة الدينية للتعبير عن آرائهم .

ومهما كان الأمر فقد كنت الوحيد من بين المعنيين من الأقباط الذى جاء اسمه من خارج القائمتين كما يكن تخمين ذلك من ظهور اسمى الثنائى الذى اشتهرت به فى القرار الجمهورى القاضى بتعيينى عضوا بمجلس الشعب وكان هذا علامة على أن اسمى لم يمر على أجهز الأمن التى كانت تحرص على أن يظهر الاسم ثلاثياً فقد كان تقصى أسماء الجدود من أهم مهامها!

مجلس الشعب

لم يكن مجلس الشعب الذى دخلته فى سنة ١٩٦٤ برلمانا بالمعنى الذى تعارفت عليه الديمقراطيات الغربية ذات الأحزاب المتعددة فقد كان أعضاؤه ينتمون إلى تنظيم سياسى واحد ومقتنعون بصحة سياسة هذا التنظيم وسياسة الحكومة التى بزغت منه والتى كانوا على استعداد للاشادة بها تحت كل الظروف .. كما أن أحدا منهم لم يراوده التفكير فى إحراجها أو تغييرها فلم يكن مبدأ تبادل السلطة أو حق البرلمان فى تعيينها أو عزلها واردا - وفى الحقيقة فإن المجلس كان بمثابة المنبر الذى استخدمته الحكومة للإعلان عن برامجها كما استخدمه الأعضاء للتعبير عن مطالب الجماهير وشكاواهم - وكان للأعضاء حرية فى فقد وزارات الخدمات ولكن حريتهم كانت مقيدة عندما كان الأمر يمس وزارات ومؤسسات الخارجية والجيش والرياسة - وكانت ميزانية الدولة العامة ومشروعات القوانين تمر فى سهولة ودون مناقشة حقيقة إلا عندما ترغب القيادة السياسية فى اثارة موضوع معين للتعهد لتعديل تريد تمريره .. وكان تسيير العمل يتم عن طريق رؤساء اللجان الذين كانوا يختارون من الثقاة ذوى الصلة الوثيقة بأمين التنظيم السياسى بالمجلس والذى كان المحرك الحقيقى للعمل - وكان من أهم واجبات رئيس اللجنة كما كان الحال مع رئيس المجلس هو تمرير القوانين والاتفاقيات وغيرها من شئون الدولة دون إثارة حتى ولو جاء ذلك عن طريق «الكروتة» - وقد رأيت البرلمان فى مرات يمرر ميزانية الدولة فى ساعات قليلة ويقبل أن تدرج ميزانيات وزارات ومؤسسات كاملة تحت رقم واحد دون أية تفاصيل وهو تقليد لازال ساريا .

وقد ظل هذا النمط من الديمقراطية المحدودة التى بدأت ببرلمان سنة ١٩٦٤

سائداً فى مصر على الرغم من التغييرات الهائلة التى حدثت فى مصر والعالم وعلى الرغم من التغيير الكامل لشكل البرلمان فى مصر ذاتها بعد انفتاح السبعينات عندما تخلت القيادة السياسية عن فكرة التنظيم السياسى الواحد وشجعت انشاء ثلاثة منابر للتعبير عن مختلف الاتجاهات السياسية التى احتواها التحالف القديم - وقد أصبحت هذه المنابر أحزاباً سياسية فيما بعد أضيفت إليها بعد ذلك الكثير من الأحزاب الأخرى التى تشكلت فى ظل قانون ينظم تشكيلها - ويحتوى هذا القانون على الكثير من القيود التى تحد من التشكيل للأحزاب - وقد أجريت فى مصر ثلاثة انتخابات تحت مظلة التنظيم السياسى الواحد (١٩٦٤ ، ١٩٦٩ ، ١٩٧١) عينت عضوا فى ثلاثتها - كما أجريت بعد خروجى من البرلمان خمسة انتخابات تحت نظام تعدد الأحزاب (١٩٧٦، ١٩٨٠، ١٩٨٥، ١٩٩٠ ، ١٩٩٥) لم يحظى الأقباط بالنجاح فى أى منها بأية نسبة معقولة مما اضطر القيادة السياسية إلى زيادة عددهم عن طريق التعيين .. ولحقت المرأة بالأقباط فى مضمار ضعف التمثيل بالبرلمان مما اضطر القيادة إلى استخدام حق تعيين الأعضاء لزيادة تمثيلها أيضاً.

ولم يكن للبرلمان والحق يقال مصداقية كبيرة وقد حاولت ولمرات عديدة اقتراح عدد من الاصلاحات التى كنت أعتقد أنها يمكن أن تصلح هذا الحال وأن تزيد من مصداقيته وأن تجعله مفيداً بالفعل لتحسين أداء الحكومة وصورتها . وكنت قد تقدمت بخطوة أولى نحو هذا الاتجاه بتقديم اقتراح يمكن التنظيم السياسى من تحسين اختياره لمرشحه ويعطى مقياسا لأداء أعضاء البرلمان حتى يمكن الحكم عليهم بمعايير موضوعية بدلا من الاعتماد على الشائعات والتقارير التى كثيرا ماتتسم بالهوى - وقد عرضت على الرئيس السادات عندما كان رئيساً لمجلس الشعب أن يكون أخذ الأصوات على الأقل فى حالة مشروعات القوانين الهامة بالنداء بالاسم حتى يكون موقف كل عضو فى البرلمان معروفا ومسجلا فيمكن بذلك أن تكون لدى القيادة وجمهور الناخبين سجل بمواقف النائب من مختلف القضايا عندما يحين وقت إعادة انتخابه - إلا أن هذا الاقتراح قد رفض بل وقوبل بالاستهزاء فقد كان تمرير القوانين يتم بسهولة أكثر عندما كان الرأى يؤخذ برفع الأيدى والنداء بالموافقة بعد ذلك ومهما كان عدد رافعى الأيدى.

ولم أرى من قيادة البرلمان أى جهد ينفق لتوسيع آفاق النواب وإعدادهم للعمل الكبير الذى ينتظر منهم كما يحدث فى الكثير من البرلمانات التى تقيم الدورات لتعريف الأعضاء وخاصة الجدد منهم بدور البرلمان أو أن تعمل لإتاحة المعلومات متعددة المصادر لهم حتى تأتى أسئلتهم

وتعليقاتهم مدعمة بالبيانات والمستندة إلى أساس - ولا يستطيع المرء أن يتصور أن من الممكن أن يكون للبرلمان بحالته التى عرفتها أى دور فى ميدانى التشريع أو الرقابة وهما الدوران اللذان يشكلان ميدان العمل الأساسيين له - أما عن ميدان الرقابة فهو غير وارد على الاطلاق لأن نظام الحكم فى مصر لايعرف مبدأ المحاسبة ويقوم على تأكيد هيبة الحاكم ولا يشجع أحداً على فضحة أو الاقلال من مقامه مهما بلغت تجاوزاته .. ولذا فلم يحدث أبداً أن سمح للبرلمان بأن يدين وزيرا أو مسئولا أو أن يتسبب حتى فى احراجه فضلا عن دفعه للاستقالة أو تعريضه للإقالة - والانتقال إلى جدول الأعمال هو نهاية كل مساءلة حدثت للوزراء فى كل البرلمانات التى كانت منها أو التى جاءت بعد أن خرجت منها - وفى الحقيقة فإن موضوع الرقابة والمحاسبة هى من الأمور التى يستحيل تنفيذها بأى قدر من الجدية بالنظر إلى السرية التى تدار بها شئون مصر وإلى صعوبة الحصول على المعلومات وفى أى ميدان - وجاء وقت كانت فيه حتى أساسيات الاحصاء العام سرية وغير متاحة للجمهور .. ولذا فإن تحقيق مبدأ الرقابة ينبغى أن يبدأ بتحقيق مبدأ الشفافية .

خطب عفى عليها الزمن

وللحق فإن تمكين البرلمان من أداء أعماله كما ينبغى أن يكون عليه عمل البرلمان سواء فى الرقابة أو التشريع هو أن يصعب تصور حدوثه فى مصر فى الوقت الحاضر - ويعود ذلك فى نظرى إلى أمرين يتعلق الأول بنوعية النواب أنفسهم الذين يفرزهم مناخ فكرى عام لايختلف كثيراً عما كان سائداً فى العصر الوسيط . وكنت أتصور ، بحكم نشأته فى المدينة وفي وسط فضل العيش في العصر، أن هذا المناخ الفكرى قد اختفى وأصبح فى ذمة التاريخ حتى جاءت عضويتى بالمجلس حين اكتشفت قدر تغلغله بل ارتفاع صوته بعد تصاعد نجم التيار السلفى فى السبعينات والذى توقفت الدنيا عنده منذ نيف وألف سنة - وقد استمعت خلال عضويتى بالمجلس إلى مئات الخطب والتداخلات التى كانت تستشهد بقصص قديمة ومقولات ساذجة استخرجت من كتب قديمة وتكرر استخدامها فى كل موضوع - وكنت كلما استمعت إلى هذه الخطب والتداخلات تعود إلى الصورة التى رسمها إدوارد لين لمصر فى ثلاثينات القرن التاسع عشر فى كتابه الشهير «عادات وتقاليد المصريين المحدثين! وكأن مصر وقفت عند عتبة العصر الوسيط لاتريد الخروج منه .. وكان لين قد زار مصر فى القرن التاسع عشر ووصف عادات أهل مدنها ونظرتهم إلى أمورهم التى كانوا يعتقدون أنها ليست فى أيديهم بل فى أيدى قوى خفية وأن حلها لايحتاج إلى العمل والتمحيص بل إلى التقرب إلى الوسطاء الذين لهم القدرة على ارضائها بكتابة الأحجبة أو القيام بأعمال معينة أو

بتقديم الذبائح والهدايا أو بحرق الشموع أو بترديد كلمات بعينها – أما عن الرزق فلم يكن يجيىء أبداً عن طريق العمل بل كان يجيىء بخبطات من الحظ وبلا حساب – أما فى ميدان الثقافة فقد كانت محدودة تملى إملاء ولا يجوز نقدها أو الاختلاف معها وكانت كلها مستمدة من كتب قليلة خطت فى أغلبها منذ أكثر من ألف سنة.

ولم يكن الاعتقاد بوجود هذه القوى الخفية متصوراً مع أعضاء مجلس الشعب بل كان منتشراً بين عدد كبير من الوزراء وصانعى القرار وقد رأيت بعينى وزراء يحملون الأحجبة ويحضرون الأرواح – ومنهم من كان يستطلع الطالع ويستكشف المستقبل باستخدام المنجمين – ومنهم من كان يحج إلى عارفى الأسرار من المشايخ فى المغرب وغيرها من البلاد فى أقاصى الأرض . وقد أمرت هيئة البترول المصرية ، ضد توصيات كل خبرائها، بحفر بئر لاستخراج البترول فى وادى النطرون بناء على توصية أعطتها سيدة اشتهرت بقدراتها التنجيمية فى أحد جلساتها مع أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة فى الخمسينات.

وازدادت معرفتى بهذا المناخ الفكرى عندما عينت عضوا فى اللجنة التى شكلها مجلس الشعب فى سنة ١٩٧٢ لتقصى الحقائق بشأن الأحداث الطائفية التى حدثت بمدينة الخانكة إلى الشمال الشرقى من القاهرة برياسة الدكتورة جمال العطيفى رحمه الله .. وكان المجلس قد شكل هذه اللجنة فى أعقاب المسيرة التى قام بها قساوسة الأقباط فى شوارع الخانكة احتجاجاً على إغلاق الشرطة لأحد كنائسها والتى ارادوا فتحها والصلاة فيها – وأزعجت المسيرة رئيس الجمهورية ازعاجاً شديداً خاصة وأنها جاءت بعد سنة واحدة من تنصيب قداسة البابا شنودة الثالث بطريركا على الأقباط وقيل أن الرئيس صمم على الانتقام من البطريرك، إلا أن بعض عقلاء الأمة عملوا على تهدئة الموقف ونصحوا الرئيس بان يشكل لجنة تتقص الحقائق قبل الإقدام على أى عمل ضدر البطريرك وقبل الرئيس النصيحة وتشكلت اللجنة وأخذ رئيسها عمله بجد وصاحبته فى الكثير من جولاته التى أخذتنا إلى المؤسسات الدينية الرسمية وإلى كل بؤر التوتر الطائفى التى وصلتنا أية أخبار عنها .. وقد أتاحت لى هذه الجولات رؤية أماكن ولقاء قطاع من الشعب ما كان من الممكن أن تتاح لى فرحة رؤيتها وزرعنا مصر من سوهاج وحتى الاسكندرية .. وقابلنا من قيل لنا أنه من المبشرين وتحدثنا مع قسس الكنائس وشيوخ المساجد الأهلية والحكومية ومع رجال الجميعات الأهلية الاسلامية والمسيحية ومع مشايخ الطرق الصوفية وعرفت من هذه اللقاءات صورة الآخر الدينى فى الفولكلور الشعبى عند فقداء

المدن والمساكين على هوامشها فصورة الأقباط عند المسلمين هى أنهم أثرياء كنائسهم وأديرتهم مليئة بالذهب وهم بخلاء يديرون الاقتصاد المصرى من تحت ستار عددهم كبير فى الوظائف وهم متعصبون ولديهم خطط بعيدة المدى لتغيير مصر وبناء الكنائس فى كل مكان فيها (وكثيرا ما كان شارع رمسيس بالقاهرة يعطى لنا كمثل لكثرة عدد الكنائس فى أهم شارع فى عاصمة أكبر دولة إسلامية) وبالتبشير بين المسلمين وبالتخطيط لمنع زيادة أعدادهم ولحجب العلاج عنهم أو لتعليم أبنائهم ولذا فهم يدخلون كليات الطب والصيدلة والتربية للاستيلاء على مهن التطبيب وبيع الدواء والتعليم .. ولا تختلف كثيراً صورة المسلمين عند الأقباط وإن كان الكلام هنا يتزايد عن الاضطهاد الذى يتعرضون له والخطط التى تعد لإفقارهم وإذلالهم ومنعهم من ممارسة شعائرهم الدينية أو الحصول على الوظائف .. وسمعنا منهم من أكد لنا أنه جاءته من مصادر وثيقة أن الرئيس أنور السادات وعد فى إجتماع للمؤتمر الاسلامى عقد فى جدة فى سنة ١٩٦٥ بأن تتخلص مصر من أقباطها فى ظرف خمسين سنة إما بأسلمتهم أو بإجبارهم على الهجرة منها!!

الفتنة !

ولابد لى أن أذكر القارىء بأن الصورة التى رسمتها فى السطور السابقة عن الآخر الدينى هى الصورة التى خرجنا بها من مقابلاتنا مع من كانت لهم علاقة بالفتنة أو ممن كانوا يعيشون فى بؤر التوتر الطائفى - وهى فى الأغلب غير الصورة التى يرى بها المصريون عامة الآخر الدينى فمعظم الناس من لم يتعرضوا للمدرسة أو الجامعة التى وقعت فى قبضة المتطرفين الدينيين أو انضم لهم أو استمع لدروسهم يحمل تراثا عرقيا من التسامح وقبول الآخر واحترام الأديان السماوية وأماكن عبادتها والقائمين عليها - وقد قصدت من تسجيل ماسمعته فى ميدان العلاقات الطائفية تنبيه المسئولين عن التربية والتعليم والقائمين على مؤسسات المجتمع المدنى لمواجهة هذا الموقف الجديد قبل أن يستفحل خاصة وأنى لاحظت أن الكثير من التوجسات التى ذكرتها والتى تبدو سخيفة وبلا أساس كان لها صدى حتى وصل إلى آذان صانع القرار نفسه .. وهناك الكثير من القرارات التى اتخذت بسبب هذه التوجسات .. ففى سبعينات القرن العشرين أمرت مكاتب الشهر العقارى بضرورة وضع ديانة البائع والمشترى فى كل التسجيلات التى تتم فيها وبدا لى أن هذا أمر غريب إلا أنى سرعان ماعرفت أن صانع القرار قد توجس خيفة من أن يكون لدى الأقباط خطة لشراء جزء كبيرمن أراضى الصعيد تمهيداً لاعلان دولة مستقلة فيه (وقد ذكر الرئيس السادات فى إحدى خطبه بالبرلمان فى منتصف السبعينات موضوع هذه الدولة المستقلة)

ولذا فقد طلب من مكاتب الشهر العقارى تسجيل ديانة المشترين والبائعين حتى يمكن مراقبة هذه الخطة إن وجدت وبطبيعة الحال فقد كان الأمر كله كما دلت التسجيلات محض اختلاق من أوله إلى آخره .. وبالمثل فقد كان هدم الكنيسة الانجليزية على قمة شارع رمسيس (والتى أعيد بنائها فى شارع جانبى بالزمالك) وإعادة بناء جامع أولاد عنان عند تقاطع شارعى رمسيس والجمهورية ليكون أعلى مبنى فى مصر جزءاً من خطة لتغيير شكل شارع رمسيس الذى سمعنا خلال جولاتنا أنه لايصح أن يكون مليئا بالكنائس ومن الشارع الرئيسى لعاصمة أكبر دولة إسلامية .. وقد فاجئتنى كما فاجئت الدكتور العطيفى هذه الملاحظة والتى جاءت على لسان أكثر من شخص فقمت معه لنزور شارع رمسيس لنراه بأعين هؤلاء فوجدنا به بالفعل عدداً من الكنائس ولكنها كانت فى معظمها لغير الأقباط من أبناء مصر .. أما عن الكنيسة الأنجليزية التى كانت تقع عند قمة شارع رمسيس والتى هدمها فقد بنيت بناء على اتفاقية وقعتها الحكومة المصرية مع الحكومة البريطانية فى أوائل القرن العشرين منحت الحكومة المصرية بمقتضاها قطعة الأرض هذه لبناء كنيسة مقابل قطعة من الأرض منحتها الحكومة البريطانية لمصر فى لندن لبناء جامع عليها وهى الجامع الذى لازال قائماً فى مكانه حتى اليوم .

الأمر الثانى الذى يجعل تمكين البرلمان من أداء أعماله صعبا هو أنه يمثل جسما غريبا فى مجتمع لاتحكم أى جزء من العملية الديمقراطية .. فالمصرى لايمارس الحوار أو اختيار من يمثله على أى مستوى ومنذ مولده وحتى مماته .. فليس هناك فى تقاليدنا مايسمح للفتى أو الفتاة أن يناقشا أى شىء فى منزلهما الذى يقف فيه الأب سيدا كما أنه ليس من تقاليد مدارسنا أن نسمح لهم بذلك عند دخولهم الجامعات فاننا نحاصر التجربة حتى نجعلها مجدية – أما على المستوى البلدة أو الحى أو المحافظة فليست هناك مشاركة من أى نوع فى إدارة شئونها .. فالعمدة ورئيس المدينة أو الحى والمحافظ معينون والمجالس البلدية والمحلية تكاد أن تكون بالتعيين وبل أية سلطة أو تقاليد فى الحوار . ولذا فمن الصعب أن يتصور المرء أن يكون للبرلمان مكان فى مثل هذا المجتمع السلطوى الذى لا يتردد الفرد فيه على الحوار وممارسة حق الاختيار فالديمقراطية منظومة متكاملة يتعلم فيها المواطن الحوار والمشاركة فى إدارة شئونه فى المنزل والمدرسة والحى أو البلدة التى يعيش فيها .

المجلات النسائية في مصر

بقلم : د. ليلى عبدالمجيد

●● صحافة المرأة فى مصر مرآة عاكسة لنهضة المرأة المصرية على مدى ما يزيد عن قرن من الزمان منذ أن صدرت أول صحيفة نسائية فى مصر «الفتاة» عام ١٨٩٢ ، فقد ارتبطت فترات ازدهار هذه المجلات بالمد والجزر فى الاهتمام العام بمكانة المرأة وحصولها على حقوقها الإنسانية المشروعة.

ومن الملاحظ أن فترات ازدهار هذه الصحافة كما وتنوعا ارتبطت بصحوة المرأة المصرية فى نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين خاصة العقدين الأول والثانى منه، ثم عادت هذه الصحف لتنهض مرة أخرى فى منتصف القرن الذى يودعنا بعد قليل مع المد الثورى الذى شهده المجتمع المصرى، والذى امتدت آثاره لأوضاع المرأة المصرية وحصولها على حقوقها السياسية .

وفى عقد التسعينات عادت قضايا المرأة وتقييم أوضاعها فى كافة المجالات وما نالته من حقوق وتنميتها لتشغل حيزا رئيسيا فى أجندة المجتمع المصرى ●●

أستاذ ووكيل كلية الإعلام جامعة القاهرة

مجلة الفتاة
ودعوة إلى صحوة نسائية

عندما ظهرت مجلة «الفتاة» لهند نوفل كأول صحيفة نسائية عرفتها مصر عام ١٨٩٢ كانت المرأة المصرية تعيش فى أسر الحريم تعانى من التخلف والجهل وتقاليد المجتمع القاسية، وكانت نسبة القارئات محدودة نظرا لقلة عدد المتعلمات، رغم وجود بعض المدارس القليلة لتعليم البنات - فى ذلك الحين - ومنها مدرسة القابلات بأبى زعبل التى انشئت عام ١٨٩٣ كأول مدرسة للبنات بهدف تخريج قابلات لمعالجة النساء المصريات وتوليدهن بطريقة صحية، والتى لم تلق أى اقبال من البنات فى البداية ، ثم مدرسة السيوفية التى أنشأتها جشم آمنت هانم أفندى زوجة الخديو إسماعيل عام ١٨٧٣، وان أغلقت أبوابها بعد عدة سنوات ، ثم اعيد فتحها عام ١٨٨١ تحت اسم المدرسة السنية ، إلى جانب بعض الكتاتيب .



ورغم ذلك لم يكن هناك وعى كاف بين الآباء بأهمية تعليم بناتهم بل اعتبر البعض ذلك عارا أو رجسا من عمل الشيطان .

وكان لازما على المرأة المصرية أن تنتظر سنوات حتى جاء قاسم أمين بدعوته التى أكد فيها أنه لا رجاء فى نقل مصر إلى مصاف الدول الراقية والأمم المتحضرة إلا إذا تعلمت المرأة وكسرت أغلال الجهل ونبذت الخرافات وخلعت حجاب التأخر وشاركت الرجل المصرى فى صنع حضارته المرتقبة.



وبالطبع أثارت أفكاره الكثير من الجدل والخلاف بين مؤيديه والمعارضين له.

وكان المجتمع المصرى فى تلك الفترة يعج بخليط من الفئات والثقافات فكان هناك الاتراك والشراكسة والأجانب والشوام والأغلبية المصرية من الفلاحين وصغار التجار والصناع وصغار الموظفين وعلماء الدين (علماء الأزهر).



وفى حين كانت المرأة المصرية تحجب فى بيتها عند بلوغها سن الثامنة لتتعلم المهارات التى تعدها لتكون زوجة كالطهى والخياطة وغير ذلك ، كانت المرأة الشامية - من بنات الأسر التى هاجرت لمصر هربا من التعنت فى ظل الحكم التركى - متعلمة إذ كان آباؤهن يسمحون لهن بالذهاب لمدارس الارساليات التى لم يكن يوجد غيرها لتعليم الفتيات إلا المدرستان الحكوميتان وبعض الكتاتيب، ومدارس الجمعيات

القبطية، كما سبق الإشارة .

لهذا كان من الطبيعى أن تكون هند نوفل أول صاحبة مجلة نسائية فى مصر فتاة لبنانية ، وأن يكون محررو مجلتها وكتابها من النساء المتعلمات اللاتى تعلمن فى مدارس الارساليات الأجنبية ومدرسة المولدات.

الدعوة إلى تعليم المرأة

وقد شهدت الفترة من عام ١٨٩٢ حتى عام ١٩١٩ صدور العديد من المجلات النسائية التى اختلفت توجهاتها، ومن هذه المجلات «مرآة الحسناء» لصاحبها سليم سركيس وصدرت عام ١٨٩٦، وفى العام نفسه صدرت مجلة «الفردوس» و«أنيس الجليس» عام ١٨٩٨ و«العائلة» عام ١٨٩٩، و«السعادة» عام ١٩٠٢، «السيدات والبنات» لصاحبتها روز انطوان عام ١٩٠٣ ، «فتاة الشرق» للبيبة هاشم عام ١٩٠٦ ، جريدة «الريحانة» لجميلة حافظ عام ١٩٠٨، وفى العام نفسه صدرت مجلة «ترقية الفتاة» لفاطمة نعمت راشد ، وكذلك مجلة «الجنس اللطيف» فى عام ١٩٠٨ أيضا، ومجلة «العفاف» عام ١٩١٠ و«فتاة النيل» عام ١٩١٣.

ويمكن أن نجمل أهم الملاحظات التالية على المجلات النسائية فى تلك الفترة :

١ - إن هذه المجلات ركزت اهتمامها على الأمور النسائية كالطهى والشئون المنزلية والأزياء ورعاية الأبناء ، وحاولت أن تعبر عن رأى المرأة فى وقت لم يكن متاحا للمرأة أن تعبر عن رأيها .

كما اهتمت بنشر الروايات والقصص المؤلفة والمترجمة عن الأدب العالمى

٢ - إن معظم هذه المجلات ركزت على الدعوة إلى ضرورة تعليم المرأة.

٣ - إن بعض هذه المجلات اعتمدت على المواد المترجمة من المجلات النسائية العالمية الإنجليزية والأمريكية والفرنسية ، وكذلك الكتب ، وكان هذا أمرا طبيعيا نظرا لقلة عدد الكتاب والمحررين فى هذه المجلات ، كما أن بعضها استهدف تقديم نموذج المرأة الأوروبية ومن ذلك مجلة «السيدات والبنات» التى كانت تهتم بتقديم ترجمات لحياة نساء شهيرات فى العالم، ومجلة «فتاة الشرق» التى كانت أغلب موضوعاتها مترجمة عن الإنتاج الفرنسى.

ونقلت بعض هذه المجلات أغلب ما نشرته من موضوعات عن الصحف اليومية المصرية مثل مجلة «الجنس اللطيف» .

٤ - إن بعض هذه المجلات أصدرها رجال ، وإن استخدموا أسماء النساء فى الكتابة على صفحاتها مثل سليم سركيس الذى أصدر «مرآة الحسناء» وكان يستخدم اسم فتاة هى مريم زهر.

٥ - إن أغلب هذه المجلات شهرية ، وإن صدرت بعضها نصف شهرية مثل «مرآة الحسناء» ، جريدة «الريحانة» التى صدرت بحلوان .

٦ – إن بعضها صدر من خارج القاهرة ، بل أن أول مجلة وهى «الفتاة» صدرت من الاسكندرية ، وكذلك «السيدات والبنات» ، وأن «الريحانة» صدرت من إحدى ضواحى القاهرة وحلوان .

٧ – إن أول مجلة نسائية أصدرتها مصرية هى «الريحانة» عام ١٩٠٨ و«ترقية الفتاة» لفاطمة نعمت راشد فى العام نفسه وقبل ذلك كانت هذه المجلات تصدرها شاميات فقط.

٨ – إن معظم هذه المجلات لم تستمر فى الصدور طويلا، وذلك لقلة عدد قرائها وقارئاتها لانتشار الأمية بين المصريات ، وأيضا لصعوبة الاستمرار فى إيجاد مصدر لتمويل عملية إصدارها .

وتوقفت بعض هذه المجلات عندما تزوجت صاحبتها مثل «الفتاة» لهند نوفل التى تعتبر رائدة المجلات النسائية فى مصر، وهذا يعكس رؤية هذا العصر لعمل المرأة بعامة وعملها فى الصحافة بخاصة على أنه مسألة مؤقتة وليس له أهمية الحياة الزوجية نفسها.

المجلات النسائية
والمشاركة السياسية للمرأة

مع نهاية العقد الثانى من القرن العشرين كانت الصورة قد تغيرت إلى حد ما، وانتشر تعليم المرأة ، فضلا عن خروجها للحياة العامة واشتراكها فى المظاهرات لأول مرة فى مارس عام ١٩١٩ احتجاجا على نفى سعد زغلول ورفاقه ، ومكافحة من أجل استقلال الوطن واجلاء المحتل، مضحية بدمائها وروحها مثلها مثل الرجل وسقطت أول شهيدة من النساء وهى شفيقة محمد .

كما خلعت المرأة الحجاب واعلنت عن سفورها، وسافرت وفود نسائية مصرية لحضور بعض المؤتمرات النسائية فى الخارج مثل مؤتمر روما النسائى عام ١٩٢٣ ، إلى جانب تأسيس جمعية الاتحاد النسائى المصرى.

ويمكن أن نقسم المجلات النسائية فى تلك المرحلة إلى :

١ – مجلات كانت تصدر قبل عام ١٩١٩ واستمرت فى الصدور مثل مجلة «فتاة الشرق» والتى استمرت حتى عام ١٩٣٩، ومجلة «الجنس اللطيف» وظلت تصدر حتى عام ١٩٢١، وكذلك «العفاف» وظلت تصدر حتى العام نفسه.

٢ – مجلات كانت تصدر قبل عام ١٩١٩ وتوقفت ثم عادت للصدور فى فترة تالية مثل «السيدات والبنات» التى عادت لتصدر من جديد عام ١٩٣١ باسم «السيدات والرجال».

٣ – مجلات جديدة صدرت بعد عام ١٩١٩ ومنها مجلة «المرأة المصرية» لصاحبتها بلسم عبد الملك، مجلة «الأمل» وصدرت عام ١٩٢٥ لمنيرة ثابت ، مجلة «أمهات المستقبل» لتفيدة علام ، وبدأت تصدر منذ عام ١٩٣٠ ، مجلة «فتاة مصر» فى العام نفسه

لصاحبتها هانم عسقلانى مجلة «المصرية» لهدى شعراوى عام ١٩٣٧ ، ومجلة «الفتاة» لنبوية موسى فى العام نفسه ، الضياء لصاحبتها منيرة رزق برسوم عام ١٩٢٢ ، وان توقفت فى العام نفسه ، مجلة «شجرة الدر» لصاحبتها منيرة منصور وصدرت عام ١٩٢٢ أيضاً، ومجلة «العروسة» لاسكندر مكاريوس وصدرت عام ١٩٢٥ ، و«النهضة النسائية» لصاحبتها لبيبة أحمد وصدرت عام ١٩٢١ ، ومجلة «الطالبة» عام ١٩٣٨ .

ومن الامور الجديرة بالملاحظة حول المجلات فى تلك الفترة الممتدة حتى قيام الحرب العالمية الثانية :

١ - التنوع الكبير فى مضمون هذه المجلات ، وامتد اهتمامها لموضوعات لم تكن المجلات النسائية تهتم بها من قبل ، وهو أمر طبيعى مع تطور أوضاع المرأة ومكانتها التى كان على هذه المجلات أن تعكسها ومن ذلك .

- تناول موضوعات خاصة بمشاركة المرأة فى الحياة العامة والسياسية وما ترتب على ذلك من انعكاسات على حياة المرأة ثقافيا واجتماعياً واقتصادياً.

- بعض المسائل الاجتماعية التى كانت مثارة فى ذلك الحين - كخروج المرأة للعمل بعد حصولها على قدر من التعليم ، ومحاربة بعض العادات الاجتماعية المتخلفة والخرافات كالزار والمبالغة فى الافراح والمآتم.

- التركيز على قضايا التعليم وقوانينه خاصة فى مجلة «الفتاة» لنبوية موسى التى هاجمت بعض سياسات وزارة المعارف وقتها الخاصة بالتعليم الحر، كذلك قضية استبدال المعلمات والناظرات الوطنيات بالاجانب فى مدارس البنات، وشاركت فى هذه الحملة أيضاً مجلة « المصرية » لصاحبتها بلسم عبد الملك.

وخاضت مجلة «الامل» معركة زواج المعلمات والاستغناء عنهن بمجرد زواجهن مما دفع وزارة المعارف لاصدار قانون يبيح للمعلمة الزواج واستمرارها فى العمل ، كما دافعت عن نبوية موسى فى معركتها ضد وزير المعارف.

- التعبير عن كفاح المرأة ، وتكوين رأى عام نسائى، والدفاع عن الحقوق الاجتماعية للمرأة فى الخارج وغير ذلك.

- الاهتمام من جانب بعض المجلات بتبسيط العلوم مثلما كانت تفعل لبيبة هاشم فى مجلتها «فتاة الشرق».

- تناول قضايا السفور بعد أن خلعت المرأة الحجاب.

- التأريخ للمجتمعات النسائية التى بدأت تظهر لأول مرة فى تاريخ مصر الحديث، مسجلة نشاط المرأة الاجتماعى والسياسى.

كما عرضت بعض هذه المجلات لتاريخ الحركات النسوية السياسية فى العالم.

- إلى جانب الاهتمامات التقليدية الخاصة بشئون المنزل وتربية الابناء والعلاقات الزوجية وأمور التجميل والأزياء، ومشاكل الفتاة المراهقة.

٢ – بدأت المجلات النسائية فى تلك المرحلة تولى اهتماما للحياة والقضايا العامة وليس فقط الشئون النسائية التقليدية ، ليس فقط فى مصر بل وفى الوطن العربى أيضاً بعد أن ظلت الصحافة النسائية منعزلة تماماً عن الحياة السياسية فى البلاد فى العقدين الأولين من القرن العشرين رغم الأحداث الكبيرة التى ارتبطت بكفاح الشعب المصرى ضد الإحتلال مثل حادث دنشواى، اعلان الحماية البريطانية على مصر عام ١٩١٤، نشوب ثورة ١٩١٩ وقيام السيدات بمظاهرتهن الأولى فى ١٦ مارس ١٩١٩ والثانية فى ٢٠ مارس من العام نفسه .

وقد ارتبط هذا التوجه الجديد بصدور مجلة «المرأة المصرية» عام ١٩٢٠ والتى اهتمت بالاحداث السياسية التى مرت بحياة المرأة كعودة سعد زغلول وزوجه من الخارج والاستقبال الشعبى لهما ، واستمرت عدة مجلات فى الاتجاه نفسه مثل مجلة «الفتاة» لنبوية موسى، ومجلة «الأمل» لمنيرة ثابت.

وامتد اهتمام بعض هذه المجلات للقضايا العربية مثل قضية فلسطين وهجرة اليهود إلى فلسطين والمطالبة بالوحدة العربية ، والحديث عن واجبات المرأة فى ساحة الحرب بعد قيام الحرب العالمية الثانية .

وقد جعلت مجلة «الامل» بالذات السياسة هدفا من أهدافها إذ أكدت على السعى بالطرق المشروعة للحصول على الاستقلال التام لوادى النيل طبقاً لبرنامج الوفد ، واهتمت مجلة «المصرية» لهدى شعراوى بما يدور فى البرلمان من أمور تهم المرأة مثل التعليم التجارى للبنات وأيضاً اهتمت بقضية فلسطين، والحرب العالمية الثانية .

ومن اللافت للنظر أنه فى الوقت نفسه عابت تفيدة علام فى مجلتها «أمهات المستقبل» على هدى شعراوى اشتراكها فى السياسة واعتبرته عبئاً لا مبرر له.

٣ – تنوعت صيغ واهتمامات المجلات النسائية التى صدرت فى تلك المرحلة بين مجلات اهتمت بالشئون السياسية كالأمل والفتاة والمصرية بل وارتبط بعضها بالأحزاب السياسية مثل الأمل التى أسسها الوفد لتناصر آرائه ، وكانت مجلة «النهضة النسائية» من أنصار الاخوان المسلمين ، وطالبت نبوية موسى باتحاد كل الأحزاب من أجل مصلحة الأمة.

إلى جانب مجلات نسائية ركزت على الاهتمام الأدبى كفتاة الشرق والنهضة النسائية والمرأة المصرية والجنس اللطيف، والسيدات والرجال ، ومجلات ركزت على شئون المجتمع مثل مجلة «العروسة» وكانت تهدف إلى الربح من خلال التركيز على نشر صور الممثلات وملكات الجمال والرقص فى مسارح العالم ومغامرات ملوك أوروبا وامرائها.

كما غيرت مجلة «فتاة الشرق» أسلوبها وأصبحت تميل إلى الإثارة منذ أواخر عام ١٩٣٩ حينما تولى الاشراف عليها ميشيل طمان وذلك بتركيزها على موضوعات الصالونات والأمريكيات الحسناوات.

وعبرت بعض المجلات عن جمعيات نسائية مثل «ترقية الفتاة» ، «النهضة النسائية»، « أمهات المستقبل » ، «المصرية».

٤ - كانت المجلات النسائية في تلك الفترة هى صحف رأى بالدرجة الأولى دافعت عن حقوق المرأة فى التعليم والعمل والسفور ، والمطالبة بتحديد حد أدنى لسن الزواج وتقييد الطلاق وتعدد الزوجات، وإن كان هذا لم يمنع من أن بعض هذه الصحف طالبت ببقاء المرأة فى منزلها فهو مكانها الطبيعى فى رأى هذه المجلات.

٥ - استمرار الاتجاه الخاص بقيام بعض الرجال باصدار مجلات نسائية مثل «المرأة الحديدية» لصاحبها عبد الوهاب العبدى، «العروسة» لاسكندر مكاريوس.

٦ - كانت نسبة كبيرة من صاحبات هذه المجلات من المدرسات اللاتى كن يعتبرن الصحافة مدرسة تساهم فى تعليم المرأة وتثقيفها ومن هؤلاء روز حداد وبلسم عبد الملك وملك سعد وتفيدة علام ونبوية موسى.

٧ - كانت أغلب المجلات النسائية التى ظهرت فى تلك المرحلة اسبوعية مثل العروسة ، العفاف ، الضياء ، الفتاة لنبوية موسى شجرة الدر لمنيرة محمد منصور.

وإن كان بعضها قد صدر نصف شهرى مثل «المصرية» لهدى شعراوى «فتاة مصر» لصاحبتها هانم عسقلان، وبعضها شهرى مثل النهضة النسائية لصاحبتها لبيبة أحمد.

٨ - كانت أهم الأسباب التى أدت إلى توقف هذه المجلات هى الأزمات المالية ، وزواج صاحباتها توقف « الامل » بعد زواج صاحبتها من عبد القادر حمزة صاحب جريدة البلاغ ، قلة الاشتراكات فى الوقت الذى اقتصر فيه توزيع بعضها على هذه الاشتراكات ، انتشار الأمية بين النساء.

ومن الملاحظ أن بعض هذه المجلات استمرت فى الصدور لسنوات طويلة ، فلبيبة هاشم استطاعت أن تستمر فى إصدار مجلتها «فتاة الشرق» ٣٤ سنة متواصلة ، وبلسم عبد الملك ظلت تصدر مجلتها «المرأة المصرية» ١٩ سنة ، وظلت لبيبة أحمد تصدر مجلتها «النهضة النسائية لمدة ١٨ سنة.

٩ - واجهت هذه المجلات صعوبات فى تحريرها واخراجها مثل فتاة مصر ، الضياء، شجرة الدر، أمهات المستقبل.

١٠ - صدرت فى تلك الفترة جريدة يومية نسائية هى الجهاد عام ١٩٢٤ غير أنه صدر منها عدد واحد ثم توقفت، وتعد بذلك أول جريدة يومية نسائية وآخر جريدة حتى الآن.

ومع قيام الحرب العالمية الثانية تأثر المجتمع المصرى كله بظروف الحرب اقتصاديا واجتماعياً، وتأثرت الصحف ومن بينها المجلات النسائية وقد استمرت بعض المجلات فى الصدور خلال المرحلة من عام ١٩٣٩ حتى ١٩٥٢ ، ومنها مجلة «المصرى» والتى توقفت عن الصدور عام ١٩٤٠، ومجلة «الفتاة» لنبوية موسى التى ظلت تصدر حتى عام ١٩٤٣.

موجة جزر فى تاريخ المجلات النسائية

وشهدت تلك الفترة صدور عدد محدود من المجلات النسائية وهى مجلة «شيك» لفاطمة راشد عام ١٩٤١ «وفتاة الغد» عام ١٩٤٥ لفاطمة راشد أيضاً مجلة «بنت النيل» التى صدرت عام ١٩٤٥ لصاحبتها د. درية شفيق ، ومجلة «السيدات المسلمات» وأصدرتها زينب الغزالى عام ١٩٥١.

وأهم مايمكن ملاحظته على المجلات النسائية فى تلك المرحلة :

١ - قلة عدد المجلات النسائية التى صدرت خلال تلك المرحلة الممتدة من عام ١٩٣٩ حتى عام ١٩٥٢ إذ لم تزد على أربع صحف ، إلى جانب مجلتين كانتا تصدران من قبل واستمرتا فى الصدور.

٢ - استمرت هذه المجلات تعالج الموضوعات نفسها ، فركزت مجلة «المصرية» ومجلة «الفتاة» على القضايا الاجتماعية والسياسية وقضايا تحرير المرأة واستهدفت «فتاة الغد» مساعدة المرأة على أن تكون زوجة صالحة عالمة بالشئون النسوية وتربية الأطفال، وان تتعلم لكن يمكنها أن تعول اسرتها بعد وفاة زوجها إلى جانب الاهتمام بالموضة والأزياء والتجميل وشئون المنزل، وصدرت مجلة «بنت النيل» كلسان حال اتحاد بنت النيل بهدف انعاش الحركة النسائية وترقية المرأة المصرية ماديا ومعنويا من خلال نقل الثقافة المنزلية الأوربية لتمكنها من الارتقاء بالمنزل المصرى ودافعت المجلة عن حقوق المرأة السياسية وطالبت باصدار التشريعات التى تكفل ذلك.

وكان لمجلة «السيدات المسلمات» توجهاتها الاسلامية واهتمت بشئون المرأة المسلمة.

٣ - شهدت تلك الفترة تحسنا ملموساً فى الأساليب الانتاجية للمجلات النسائية خاصة فى مستوى طبعاتها .

مجلة حواء والمرأة الجديدة بعد ثورة يوليو

وتأتى ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ وحتى منتصف السبعينات لتحدث تغييرات سياسية واقتصادية واجتماعية فى المجتمع المصرى ككل.

وقد انعكست هذه الأوضاع على المرأة المصرية ، التى اهتمت بها حكومة الثورة وأدى ذلك إلى حصولها على حقوقها السياسية بموجب دستور عام ١٩٥٦.

وفى سبتمبر عام ١٩٦٢ اختيرت الدكتورة حكمت أبو زيد لتصبح أول وزيرة مصرية.

وكان من الطبيعى أن تعكس المجلات النسائية هذه التغيرات والتطورات على أوضاع المرأة ومكانتها فى المجتمع وتأثيرات ذلك على الأسرة المصرية، من هنا صدرت مجلة «حواء» عام ١٩٥٥ ومازالت تصدر حتى الآن وهى تعد بذلك أطول المجلات النسائية عمراً فى تاريخ الصحافة المصرية مستهدفة مخاطبة المرأة والرجل معا باعتبار أن الحياة

شركة بينهما بفكر جديد يحاول أن يغطي الاهتمامات المتعددة للمرأة المصرية الجديدة إذ اهتمت المجلة بتغطية اهتماماتها التقليدية كأنثى وامرأة كالموضة والجمال ، واهتماماتها كزوجة وأم مسئولة عن شئون منزلها من طهى وديكور ورعاية الابناء والعلاقات الزوجية .

وقدمت المجلة النماذج النسائية البارزة والموضوعات الاجتماعية والنفسية والعاطفية .

وكان أهم مايميز مجلة حواء التى أطلق عليها فى البداية «حواء الجديدة»:

١ - أنها صدرت فى البداية شهرية ثم تحولت إلى مجلة اسبوعية منذ إبريل ١٩٥٧.

٢ - أن دار الهلال أوكلت مهمة رئاسة تحريرها لأمينة السعيد وكانت بذلك أول سيدة فى تاريخ المجلات النسائية ترأس مجلة لاتملكها.

٣ - انها جاءت متطورة من ناحية الفن الصحفى وأسلوب إخراجها وطباعتها فنوعت فى الفنون الصحفية التى استخدمتها بين الموضوع الصحفى والمقال والقصة القصيرة والاقصوصة والفنون الاخبارية والندوة وعروض الكتب والفنون الصحفية التى تقدم مواد الخدمات كتقديم تجارى لست البيت وطريقة عمل بعض الأكلات ، كما اهتمت بمساهمة القارئات والقراء من خلال أبواب بريد القراء بها.

واهتمت بأسلوب إخراجها فاستعانت بالرسوم التعبيرية واستخدمت الألوان فى تلوين بعض الأزياء والاطباق التى تقدمها على صفحاتها.

وإن مرت المجلة بمراحل عدة شهدت كل منها تغيرات فى حجم الاهتمام بنوعيات المضمون المختلفة التى تلبى الاحتياجات المتعددة للمرأة المصرية ، وكذلك فى شكلها وإخراجها وطباعتها .

وظهرت فى تلك المرحلة أيضاً بعض المجلات النسائية التى لم تستمر فى الصدور طويلاً ، إذ صدرت مجلة «فتيات مصر» شهرية عام ١٩٥٦ كلسان حال لاتحاد فتيات مصر وتوقفت عن الصدور عام ١٩٥٧.

كما أصدرت دار أخبار اليوم مجلة «هى» عام ١٩٦٤ واستمرت فى الصدور عدة خمسة شهور فقط، معتمدة بشكل أساسى على المواد المترجمة عن المرأة فى الخارج ، مركزة على الاهتمام بالأزياء والموضوعات الفنية وعلاقة عمل المرأة بجمالها ورشاقتها وملابس بنت ١٦ سنة وماتحبه من أغنيات .

وظلت مجلة «حواء» وحدها ولمدة ٣٥ سنة حتى أوائل التسعينيات تتحمل مسئولية مخاطبة المرأة المصرية ومناقشة قضاياها ومشكلاتها فى ظل التغيرات التى شهدتها مصر وخاصة منذ منتصف السبعينات من الاتجاه نحو الانفتاح الاقتصادى وتطوره لسياسة السوق والخصخصة والاقتصاد الحر، والعودة مرة أخرى إلى التعدد الحزبى، وآثار ذلك على الأوضاع الاجتماعية للمجتمع المصرى.

والحقيقة أن واقع المرأة المصرية وقضاياها قد عاد ليطرح نفسه وبالحاح فى العقدين الأخيرين سعيا لمراجعة هذه الأوضاع وتطويرها حتى تحتل المرأة مكانتها اللائقة وتحصل على كافة حقوقها الاجتماعية والسياسية ، إلي جانب التصدى للعقبات التى مازالت تحول دون انطلاقها بكامل قدراتها للمشاركة فى تنمية مجتمعها.

وقد ظهرت مجلة «نصف الدنيا» عن مؤسسة الأهرام فى فبراير ١٩٩٠ كمجلة أسبوعية ترأس تحريرها سناء البيسى محاولة أن تقدم نموذجا مختلفا للمجلات النسائية التى تجمع بين الموضوعات التى تركز على اهتمامات المرأة المختلفة وبين الموضوعات الاجتماعية العامة.

كما ظهرت مجلتان توقفتا بعد فترة وهما مجلة «نون» فصلية صدرت عام ١٩٨٩ عن جمعية تضامن المرأة العربية ورأست تحريرها نوال السعداوى وتوقفت عام ١٩٩٠ ، وإن طرحت المجلة نفسها كمجلة نسائية مختلفة تخاطب المرأة كانسان وعقل وليس كأداة جنس واستهلاك ..

وصدرت مجلة ذات توجه اسلامى هى (هاجر) كملحق شهرى لمجلة المختار الاسلامى لمواجهة ما أسمته الدوائر الاستعمارية والغربية على المرأة المسلمة لتدمير المجتمع الاسلامى ، ولكنها توقفت بعد عامين فقط لضعف امكانياتها المادية.

ومن الملاحظات العامة على ما تقدمه المجلات النسائية الآن:

١ - إن الموضوعات الخاصة بالاهتمامات التقليدية للمرأة كالموضة والطهى والتجميل وشئون المنزل تشغل حيزا كبيراً من اهتمامها كما تهتم هذه المعلومات - وإن كان ذلك بدرجة أقل نسبيا - بالموضوعات الخاصة بالمرأة والأسرة كتربية الابناء ورعايتهم صحيا ونفسيا واجتماعياً وتعليمياً وثقافياً ، والعلاقات الزوجية.

وتأتى الموضوعات المتعلقة بقضايا المرأة المصرية والتنمية فى ذيل قائمة اهتمامات هذه المجلات ، فلم تنل بعد الاهتمام الواجب بالقدر اللازم كمحو أمية المرأة وتعليمها والمشكلات المتجددة للمرأة العاملة والجمعيات والمنظمات النسائية والمشاركة السياسية للمرأة ومعوقات مشاركتها فى الانتاج .

٢ - إن هذه المجلات مازالت لا تعطى الاهتمام الواجب لبعض الفئات مثل المرأة الريفية ، والمرأة فى العشوائيات بخصوصية مشاكلها وواقعها والفتاة المراهقة ، والمرأة بعد سن الانجاب.

والواقع أن المجلات النسائية المالية عليها عبء كبير ونحن نستقبل قرنا جديداً ونودع قرنا شهد تصاعداً وهبوطا فى حركة تغيير واقع المرأة المصرية .. ونخشى أن نقول أن كثيراً مما كان مطروحا على اجندة المجلات النسائية التى صدرت فى أوائل القرن تعود لتطرح نفسها مرة أخرى على اجندة المجلات النسائية التى تصدر ونحن نستعد لاستقبال الألفية الثالثة.

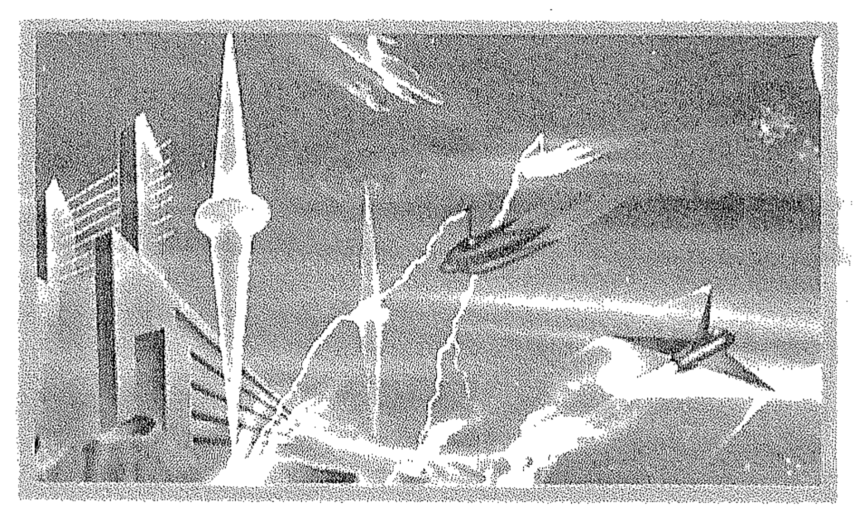
صحيح أن الصورة مختلفة كثيراً والمرأة المصرية تغيرت - بما لايمكن أن يكون محلا للمقارنة مع ما كانت عليه جداتنا فى أوائل القرن ، ولكن فى الوقت نفسه التحديات التى تواجه مجتمعنا والمرأة المصرية الآن أكبر بكثير من التحديات التى واجهته فى أوائل القرن ، ومهمة هذه المجلات بالتأكيد عسيرة ولكنها ليست أيضاً مستحيلة.

العالم بعد مائتى عام

بقلم

د. صلاح عبداللطيف

هذا كتاب أصدره معهد هدسون الأمريكى، ويتناول الرؤية الأمريكية لهذا المستقبل، كما يهدف إلى التأثير على دول العالم الثالث لكى تسير على خطى الولايات المتحدة فى القرن المقبل.



لم تبدأ اهتمامات واستعدادات الباحثين بالألفية الثالثة فى يوم وليلة أو فى عام أو عامين وانما اهتمت مراكز البحث فى العالم بهذه المناسبة منذ الربع الأخير من القرن العشرين . ومن هذه المراكز معهد «هدسون» الأمريكى للأبحاث على يد «هرمان كان» و«انطونى فينر» وغيرهما من مديرى شركة «راندكور يوريشن» الأمريكية . وخلال الحرب العالمية الثانية انتجت هذه الشركة جهازا خاصا للبحث العلمى يهدف إلى تكامل العوامل الممكنة للقرار الاستراتيجى حتى يتيسر بذلك الكشف عن مختلف الاختيارات المتاحة أمام صانع القرار . وقامت هذه الشركة بأبحاث فى تحديد الاختيارات النووية للولايات المتحدة وفى التنافس السلمى النووى بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى السابق.

وفى عام ١٩٧٦ أصدر المركز دراسة علمية بعنوان : «العالم بعد مائتى عام» تناولت الثورة العلمية والتكنولوجية خلال القرنين القادمين وترجمها للغة العربية الباحث «شوقى جلال» .

وإذا كان الكتاب كما يقول المترجم يعبر عن رؤية أمريكية خالصة أو رؤية قطاع أمريكى له وضع إقتصادى متميز وأبعاد سياسية واجتماعية وفكرية متسقة معه إلا أنه يحمل رؤية مستقبلية فى مجال العلم والتكنولوچيا من شأنها أن تترك آثارها على التطورات المتدافعة التى يحتاج العالم والتقدم العلمى والتكنولوچى الذى لا يمكن اغفاله بل يقتضى منا أن نبذل كل جهد للحاق به خاصة أن علماءنا فى الخارج أثبتوا قدرتهم على مواكبة هذه الثورة وحمل رايتها أمام العالم د. أحمد زويل الذى تحتفل به مصر الآن بمناسبة حصوله على جائزة نوبل لعام ١٩٩٩ فى الكيمياء .. كذلك لم يغفل البحث دول العالم الثالث ودورها فى التنمية والتقدم .

مجتمع مابعد الصناعة

يعتبر الكتاب أن مطلع النصف الثانى من القرن العشرين أو مع نهاية الحرب العالمية الثانية بداية حقبة تاريخية جديدة فى تطور الحضارة البشرية، واختار لها الكتاب اسم «مجتمع مابعد الصناعة» أو «مجتمع الصناعة العملاقة» .. وهى تعبر عن تحول جذرى فى قوى الانتاج على أساس تحول العلم إلى عامل رئيسى فى

السلوك الاجتماعى وتحول شامل لجموع قوى الانتاج .. ومن أهم خصائص هذه المرحلة التلاحم بين العلم وبين الصناعة ، وبات التقدم العلمى والتكنولوچى فى سرعته المؤهلة قانونا موضوعيا يحكم حركة المجتمعات فى نموها وتطورها وعلاقاتها الدولية .

ويرى الباحث «شوقى جلال» أن من أخطر نتائج هذه الثورة أنها خلقت هوة تكنولوچية وإدارية تفصل الدول المتقدمة بعضها عن بعض حتى بعدت الثقة بين بعض دول غرب أوربا مثل فرنسا وبريطانيا وبين الولايات المتحدة، وباتت هذه الهوة تشكل تهديدا خطيرا لرواد عصر الثورة الصناعية الأولي فى أوربا ، ويضرب مثالا على ذلك ما حذر منه رئيس وزراء بريطانيا الأسبق «هارولد ويلسون» من استعباد صناعي جديد تكون فيه أوربا تابعة للولايات المتحدة فى كل ما يختص بالتكنولوچيا المتقدمة .. ولعل هذا ما حدا بالسيد «روبرت ماكنمارا» وزير الدفاع الأمريكى الأسبق إلى القول «إذا لم تقم أمم العالم الغنية بمجهود مكثف ومنسق يهدف سد الهوة التى تتسع بين نصفى الكوكب فلن يتمكن أحد من أن يضمن أمن بلده أمام الكوارث التى لا سبيل إلى تلافيها وأمام موجات العنف التى ستودى بدفاعنا» .

وهكذا جاءت الخمسينات والستينيات من هذا القرن الذى يستعد الآن للرحيل تحمل تباشير الأمل فى حياة رغدة وانتصار مؤزر على الطبيعة وفهم كامل لقوانينها فى ضوء الثورة العلمية والتكنولوچية بينما حملت السبعينات من هذا القرن نذر التشاؤم وازدادت حالة الخوف والقلق على المستقبل خاصة أن السبعينات كشفت عن أزمات عدة فى الاقتصاد والطاقة والسكان مع تباطؤ فى النمو الاقتصادى وأزمات اجتماعية ومعنوية ممثلة فى حركات تمرد الشباب الذى أصبح يفتقر إلى رؤية فلسفية لمستقبله .

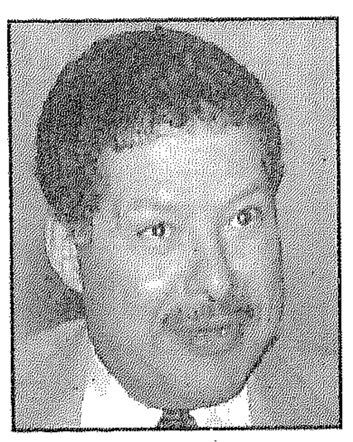
ثورة علمية وتكنولوچية

وازاء هذه المخاطر بدأت موجة جديدة من الاهتمام باستشراف المستقبل والتركيز على الثورة العلمية والتكنولوچية لمواجهة هذه المخاطر ، وأصبح العمل يتركز على الحاسبات الالكترونية والمناهج

الرياضية الاقتصادية والارتقاء بمعدل التنمية لتتواكب مع الظروف السكانية والتركيز كذلك على أهمية المعلومات والوسائل العلمية والتكنولوچية لمعالجتها. وتشكل لأول مرة «نادى روما» كمنظمة إعلامية هدفها توفير مهم للعناصر المتباينة والمتكاملة من اقتصاد وسياسة وطبيعة واجتماع . وقدم «نادى روما» «مشروع مستقبل الإنسان» الذى يعالج المشكلات السكانية ، وتدهور البيئة مع التقدم التكنولوچي والأزمات الاقتصادية ونقص الموارد واغتراب الشباب ورفض القيم التقليدية .

ويتميز الكتاب الحالى عن غيره من حيث البعد الزمنى لاستشراف المستقبل حيث يمد الرؤية المستقبلية إلى مائتى عام قادمة ويعالج قضية النمو السكانى والتنمية والطاقة والمواد الخام والطعام والبيئة . ويذهب الكتاب أو معهد هدسون الأمريكى إلى أن هناك حلولا لكل هذه المشكلات بعكس الدراسات الأخرى التى تبدى كثيرا من التشاؤم وتحذر من كوارث تهدد البشرية .

ولا يخفى الكتاب نظرته الاستعمارية حيث يكرر فى مواضع عديدة خوفه من تكاتف دول العالم الثالث الغنية بمصادر الثروة الطبيعية من طاقة ومواد خام وتفرض أسعارا مرتفعة .


د. أحمد زويل

رؤية أمريكية نحو العالم الثالث

ويعرض الكتاب سيناريو للعالم على مدى المائتى عام القادمة مؤكدا أن الثورة العلمية والتكنولوچية والتى تملك أسبابها الدول الغنية وعلى رأسها الولايات المتحدة قادرة على حل المشكلات التى تواجه العالم .

ويطرح الكتاب نظرة متفائلة تؤكد أن النمو سيستمر لأجيال عديدة وأن المشكلات المثارة ستجد حلا بفضل اتباع سياسة حكيمة مع التقدم العلمى والتكنولوچي فهناك وفرة فى المواد الخام

للأجيال الحالية والمقبلة على السواء ، والعلم والتكنولوچيا كفيلان بتوفير البدائل وتوفير الطعام الطبيعي والصناعى لكل فم.

ويشير الكتاب بأن أمام دول العالم الثالث فرصة للتنمية ويحذر من أسلوب الدول المتقدمة الذى قد يعوق التنمية ويعكس حركة التقدم ، ولعل هذا التحذير يكشف الصراع الخفى بين الولايات المتحدة والدول الأوربية فى التوجه نحو المستقبل ومحاولة الاحتماء بدول العالم الثالث .

ويرى الكتاب أن أمام الدول النامية سبلا للتقدم ويرفض أن يحاكوا النموذج الأوربى وعليهم أن يبحثوا عن وسائل أخرى وأن العبرة ليست بحيازة التكنولوچيا بل القدرة على تشغيلها وتطويرها وملاءمتها للواقع الجديد .

ويثير الكتاب موضوعا قد يغرى دول العالم الثالث ، فهو يدعو الى الاستعانة بالقوى العاملة من دول العالم الثالث للعمل فى المهن الدنيا التى يرفضها ابناء العالم المتقدم ويقول بالنص «سوف يكون من الأفضل تنظيم حركة متسقة لهجرة العمالة المؤقتة فضلا عن ربطها بنوع من التعليم والتدريب ويتم عن هذا الطريق تصدير العمال من العالم الثالث إلى البلدان المتقدمة حيث يقيمون لفترات ثم يعودون بعدها إلى وطنهم وقد تزودوا بالمهارة ورأس المال» .. وفى الوقت نفسه ينظر الكتاب إلى العالم الثالث نظرة التاجر حين يتعامل مع سلعة لازمة له وتفى ببعض حاجته ويقول عن الشرق الأوسط على سبيل المثال: «هناك حوالى تريليون برميل من البترول الخام تحت رمال ومياه الشرق الأوسط وهو ما يساوى ١٢ تريليون دولار أو ما يعادل ضعف اجمالى الثروة الحقيقية للولايات المتحدة ، ويضع فى ثناياه عينيه على هذه الثروة .. وهو أيضا يشكل وصاية على دول العالم الثالث ولا يترك أن ترسم استراتيچيتها التنموية وتعد ظروفها وطموحاتها ويقول «ليس من مصلحة الولايات المتحدة أن تصدر ٩٠ بالمائة من انتاج صناعتها من الصلب والسيارات دون أن تضمن التحكم فيها لعشرات السنين فى المستقبل» .

ويرفض الكتاب مبدأ التكامل بين دول العالم لرفع عجلة التنمية وتوفير الطعام

وذلك كما يقول «حتى لا تكون الولايات المتحدة رهينة وحتى إذا ما سقطت الهند لا تسقط معها الولايات المتحدة» .

ويرى أن مشكلة نقل التكنولوچيا إلى العالم الثالث لن تحل المشكلة لأن التكنولوچيا هى ثمرة عملية تطورية تاريخية لحضارة مجتمع بذاته وتحمل قيمه .. وبالتالى فإن عملية نقل التكنولوچيا أصبحت تشكل تهديدا خطيرا لدول العالم الثالث ويتمثل هذا التهديد فيما اصطلح على تسميته بالشركات المتعددة الجنسية العملاقة ، خاصة أن الجانب الأكبر من البحوث العلمية والصناعية فى العالم يجرى الآن داخل هذه الشركات ، ومالم تبحث دول العالم الثالث عن آلية موحدة فى مجال البحث العلمى والتكنولوچيا فإنها ستظل معتمدة على هذه الشركات العملاقة .

مشكلات اجتماعية وثقافية ونفسية

ويركز الكتاب فى فصوله السبعة على أن مشكلات المستقبل ستنصب على مشكلات اجتماعية وثقافية ونفسية .

ويبقى السؤال أين نحن من المستقبل؟.. يرى الكتاب أن الهوة الفاصلة بين العالم المتقدم وبين العالم المتخلف ستظل قرونا حيث ترهق المجتمع مظاهر التفاوت بين الثراء الفاحش والاشباع والتخمة فى العالم المتقدم وبين الفقر المدقع والجوع والحاجة فى العام المتخلف .. وفى مجال آخر يرى الكتاب أن دول الخليج أو الدول البترولية ستتدرج ضمن عالم بالغ التقدم يضم أمريكا واليابان .. وفى مجال ثالث يقسم الكتاب العالم إلى أربع فئات اقتصادية بناء على حالتها الراهنة من التقدم والدخل ، وتخرج الدول العربية من الفئتين الأولى والثانية وتدخل الدول البترولية ضمن الفئة الثالثة التى يزيد دخل الفرد فيها على ٤٠٠ دولار فى السنة وتدخل الدول العربية غير البترولية ضمن الفئة الرابعة التى يقل فيها الدخل السنوى للفرد عن ٤٠٠ دولار .

ويضع الكتاب تصورا لمنظور العالم خلال مائتى عام للتوقعات المستقبلية للبشرية ويعود إلى المائتى عام السابقتين حيث كان عدد سكان العالم عام ١٧٧٦

نحو ٧٥٠ مليون نسمة ويمتلك ١٥٠ بليون دولار ومتوسط دخل الفرد ٢٠٠ دولار سنويا . وفى عام ١٩٧٦ بلغ عدد سكان العالم ٤٫١ بليون نسمة ويمتلك ٥٫٥ تريليون دولار ومتوسط دخل الفرد ١٣٠٠ دولار وفى عام ٢١٧٦ يتوقع الكتاب أن يصل عدد سكان العالم إلى ١٥ بليون نسمة ويمتلك ٣٠٠ تريليون دولار وسيصل متوسط دخل الفرد ٢٠ ألف دولار سنويا.

ويعهد الباحثون الأمريكيون فى دراستهم هذه على التجربة الأمريكية خلال المائتى عام السابقة من حياة أمريكا حيث عكست هذه السنوات صورة عصر التصنيع ودفعته إلى الامام وشهد عام ١٧٧٦ وهو عام استقلال أمريكا صدور كتاب آدم سميث «ثروة الأمم» ويعتبر علامة مميزة لمطلع الثورة الصناعية وهى الثورة التى اثارت الحافز نحو النمو الاقتصادى .

وفى جزء من الكتاب يضع الباحثون منظورين عن المستقبل كمنظورين متفائلين وإن كانا واقعيين ، ويقضى أحد المنظورين والذى اختير له اسم «المرتكز على الأرض» بأن الغالبية الساحقة من البشر سيواصلون مدى المائة عام القادمة سكنى الأرض وأن النشاط الخارج عن حدود الأرض سيقتصر على عمليات الاكتشاف مع مستويات متواضعة من استغلال الفضاء .. ومع أهمية نشاط الإنسان فى الفضاء إلا أنه - كما يقول الكتاب - لن يؤثر تأثيرا واضحا ومهما على معدلات نمو السكان من البشر كما أنه لن يحدث تحولا جذريا فى معدل نموه اجمالى الناتج العالمى .

أما المنظور الثانى ويسمى «الممتد إلى الفضاء» فيتلخص فى أن الإنسان مع مطلع القرن الحادى والعشرين سيبذل جهودا فعالة فى مجال الفضاء الخارجى فى محاولة انتاج المواد الخام والطاقة والسلع المعمرة ، ويميل الكتاب إلى استخدام المنظور الأول ومحاولة الاستفادة بما هو متاح لنا على الأرض وهذا يتطلب جهدا إنسانيا فائقا لتحقيق تنمية ضخمة وتقدم تكنولوچى هائل من شأنه أن يسهم فى تحقيق تقدم ناجح لعالم الأرض والفضاء معا .



أسماء
ضربت عليها أستار النسيان

بقلم : وديع فلسطين

●● الشهرة حظوظ ، سواء في حياة الأديب أو بعد وفاته ، فما أكثر الذين اشتهروا في حياتهم ثم انسحبت عنهم الشهرة بعد وفاتهم، وقد تنعكس الآية فَتُواتي الشهرة أديبا لا في حياته بل بعد وفاته . وأجتهد في هذه الكليمات في إلقاء بعض الضوء علي أدباء ومفكرين لمعوا في عصرهم ثم مضوا في طريق النسيان بعد وفاتهم.

الشيبوبان خليل وصديق

كان يقيم في الاسكندرية أديبان شقيقان هما خليل شيبوب وصدّيق شيبوب، وهما أصلا من مدينة اللاذقية السورية التي نزحا منها إلى الثغر السكندرى. أكبرهما خليل شيبوب. المولود في عام ١٨٩٢ وأصغرهما صديق شيبوب المولود بعده بعام واحد فى سنة ١٨٩٣. وكان خليل يحمل إجازة الحقوق مما أهله لإصدار معجم قضائى كبير باللغتين الفرنسية والعربية، كما ترجم كتاباً عن أعمال البورصة. وكان أيضاً شاعراً، صدر له ديوان «الفجر الأول» بمقدمة للشاعر خليل مطران، وأصدر بعد ذلك مجموعة شعرية ، وتوفى عام ١٩٥١. أما صدّيق فقد عمل نحو أربعين عاماً فى جريدة «البصير» اليومية التى أسسها فى الاسكندرية رشيد شمّيل عام ١٨٩٧ وواصل إصدارها بعد وفاته ابناه شارل وموريس شميل . وكان صديق شيبوب محرر الجريدة الأدبى، ونشر فيها مئات من الفصول الأدبية عن الكتب الجديدة وقضايا الأدب والشخصيات الأدبية ، كما أصدر مجموعة من الكتب عن «جوته» و«القومية العربية» و«شخصيات عربية» و«معارك الاسكندرية» وتوفى عام ١٩٦٥.

وكان هذان الأديبان يقيمان مع شقيقاتهما فى بيت احتلت المكتبة غرفة كبيرة فيه ناءت بمحتوياتها من الكتب والمجلات والصحف والقصاصات والرسائل التى كانا يعتبرانها من ضنائنهما وعندما توفى صديق شيبوب، توجه صديقه الأديب نقولا يوسف - وهو دمياطى أصلا ولكنه أقام فى الاسكندرية وكانت مجالسه فى «كازينات» الثغر ملتقى للأدباء ولا سيما فى فصل الصيف عندما تزدحم المدينة بالمصطافين - إلى بيت الشيبوبين حيث التقى بشقيقاتهما وقال لهن إنه تحدث مع المسئولين فى فرع المجلس الأعلى للآداب فى الاسكندرية بشأن ضرورة اقتناء كل مخلفات الشيبوبين باعتبارها كنوزا أدبية يتعين عدم التفريط فيها، وإنه لقى استجابة طيبة من هؤلاء المسئولين ، ونصح الشقيقات بالمحافظة على هذا التراث . ريثما يصل مندوبو المجلس لتسلمه . وبعد شهور، عاد نقولا يوسف إلى بيت الشيبوبين ليتأكد بنفسه من أن مندوبى المجلس قد قاموا فعلاً باقتناء هذه الآثار الأدبية ، ولكن الشقيقات أنبأنه بأن أحداً لم يطرق عليهن باب المنزل. وكرّر نقولا يوسف زيارته قائلاً إنه استوثق من مندوبى المجلس بنفسه بأنهم سيسارعون إلى اقتناء هذه الآثار نظراً لأهميتها الأدبية، ففوجىء بأن الشقيقات قد سئمن الانتظار ، فقمن بالتملص من كل هذه الأكداس بإعطائها إلى أول بائع «روبابيكيا» قائلات إن غرفة المكتبة أصبحت عشا للحشرات والهوام، فضلا عن الأتربة المتراكمة، فكان التخلص من

محتوياتها مطلباً ملحاً ، ولا سيما لأن الأسرة كانت فى حاجة ماسة إلى غرفة جديدة تضاف إلى غرف المنزل .

صاحب «الإنذار»

«الإنذار» جريدة أسبوعية إقليمية صدرت فى مدينة المنيا بانتظام منذ ٨ يونيو ١٩٣٠ وإلى عام ١٩٥٦ بعد وفاة صاحبها صادق سلامة ، وكان صادق سلامة يعمل مراسلاً فى المنيا لجريدة «الأهرام»، وامتلك هناك مطبعة خاصة لطبع جريدته التى اختار لها اسم «الإنذار» كاحتجاج صامت على إنذار ظالم وجه إليه، أو كتفاخر بأن هذا الإنذار لم ينل من سمعته أو شرفه . وهو قد وصف حكاية الإنذار بقوله «جاء الإنذار إثر عنف وشدّة احتملتهما راضياً وفى نفسى ثورة، واتخذت من محاولة إنذارى «إنذاراً» أعتز به وأزهى، وجاهدت لأجعل من هذه المحاولة الطائشة المتعنتة اسما لصحيفتى ليكون الإنذار مع الزمن شهادة فخر لى وشهادة ظلم واضطهاد لغيرى» .

وكان صادق سلامة يصدر فى العيد السنوى لجريدته عدداً ممتازاً سنوياً يقع فى ٣٢ صفحة من قطع الصحف اليومية ويشترك فى تحريره كثيرون من الكتاب فى العاصمة وكان سلامة موسى يخص «الإنذار» بخاطرة أسبوعية جمعها بعد ذلك فى كتاب بعنوان «طريق المجد للشباب» جعل إهداءه إلى صادق سلامة .

وكان صادق سلامة ذا شخصية محبية من الصحفيين، ولهذا كانوا ينتخبونه دائما وبأغلبية كبيرة عضواً فى مجلس إدارة نقابة الصحفيين دورة بعد دورة . وكان قبل موعد الانتخابات يحل بالقاهرة – وله فيها بيت يقع فى شارع فهمي بباب اللوق – ويقيم فى كل يوم مأدبة غداء عامرة يدعو إليها مجموعة مختلفة من الصحفيين، ربما من قبيل «الرشوة الانتخابية» ! وقد شهدت واحدة من هذه المآدب من جملة المدعوين إليها الشاعر الفكه محمد مصطفى حمام الذى ارتجل قصيدة مناسبة للمقام أذكر منها قوله :

والتهمنا الحمام لحماً وعظماً
وهدمنا جبال كشك صعيدي
وافترسنا الخروف فهو شهيد
لهف قلبي علي الخروف الشهيد!

كان صادق سلامة على بسطة فى الجسم، ولهذا كان ينتقل فى القاهرة بعربة حنطور . ولأن بيته كان يقع فى الطابق الثالث، أو الرابع من العمارة مما يستحيل عليه صعود الدرج فى حالة تعطل المصعد، فكان يأمر سائق الحنطور – فى هذه الحالة – بأن يتوجه به إلى أى فندق ليقضى فيه ليلة أو اثنتين ريثما ينصلح حال المصعد .

ولأن صادق سلامة كان عزبا وليس له وريث يتابع إصدار «الإنذار» بعد وفاته فقد أصدر محررو الجريدة عدداً واحداً بعد رحيله تضمن مراثى الأدباء ، ثم

توقفت هذه الجريدة الإقليمية بعدما انتظمت فى الصدور نحو ٢٥ عاماً.

أمين المكتبة الخاصة لجلالة الملك

كان هذا هو اللقب الرسمى لجاك تاجر – وهو من الشوام المصريين – وقد أسندت إليه مهمة تنظيم مكتبة قصر عابدين ، وكان من التقاليد المرعية فى ذلك الوقت أن يبادر كل مؤلف إلى تجليد نسخة من أى كتاب يصدره تجليداً فاخراً ويهديها إلى «مولانا الفاروق» فيتلقى من ديوان كبير الأمناء رسالة شكر على هديته.

وكان جاك تاجر لا مجرّد «مخزنجى» أو أمين مكتبة محترف ، وإنما كان صاحب دراسات تنم على استعداد طيب ، ومن ذلك مثلاً أنه أصدر كتابا عنوانه «حركة الترجمة خلال القرن التاسع عشر» ظفر بجائزة مجمع فؤاد الأول للغة العربية فى عام ١٩٤٥.

ولكن كتابه الموسوم «مسلمون وأقباط» عرضه لكثير من المتاعب التى بدأت بمصادرة الكتاب، ثم انتهت بفصله من وظيفته فى قصر عابدين ، واختتمت بمصرعه تحت عجلات مترو مصر الجديدة. وقد قيل وقتها إنه كان يعبر شريط المترو وهو مازال مذهولاً من فصله من وظيفته ، فلم يتنبه للخطر القادم .

صبحى وحيدة

لا نعرف للدكتور صبحى وحيدة إلاّ كتاباً واحداً مهماً عنوانه «فى أصول المسألة المصرية» ، وهو كتاب كثر ربوع الباحثين إليه بسبب رصانته الأكاديمية.

وكان الدكتور وحيدة يعمل فى اتحاد الصناعات ومقره عمارة إيموبيليا . ويبدو أنه اصطدم مع واحد من السعاة العاملين فى الاتحاد، فتربص له عند مدخل العمارة وانهال عليه طعناً بخنجر فأرداه قتيلاً . وهكذا انتهت حياة باحث كان يمكن أن يُثرى المكتبة العربية بمؤلفاته ، لولا رحيله المبكر على هذا النحو المفجع .

الخطاط سيد إبراهيم

لم أعرف من الخطاطين المشهورين إلاّ اثنين ، هما نجيب هواوينى وسيد إبراهيم. كان نجيب هواوينى يستمسك دائماً بارتداء سترة سوداء مع ياقة منشاة وربطة عنق سوداء ويعتمد طربوشاً طويلاً لعله يطيل قامته القصيرة ، وكان فى مجالسه يلتزم الصمت التام، فلا يتكلم إلاّ همسا، وكان يعلق فى مكتبه صورة كبيرة له تمثله وقد افترشت الأوسمة والنياشين الكثيرة صدره .

أما سيد إبراهيم، وكان بدوره قصير القامة ، فكان على النقيض من نجيب هواوينى، متحدثاً لبقاً يحفظ كل شعر أبى العلاء المعرى مثل صديقه الحميم كامل كيلانى – وكان هذا قصير القامة أيضا .

فإذا ضمهما مجلس - وكثيراً ما كان ذلك يحدث بسبب العلاقة الشخصية والعائلية الوثيقة بين سيد إبراهيم وكامل كيلانى ، أخذا يتباريان فى ترديد شعر أبى العلاء، وكأن بينهما مسابقة ترصد لها جوائز .

وعندما أنشأ الدكتور أحمد زكى أبو شادى جماعة أبولو اختير سيد إبراهيم عضواً فى مجلس إدارتها .

وكان مكتب سيد إبراهيم يقع فى عمارة تيرنج العتيقة بميدان العتبة ، وهو يقتصر على غرفة متواضعة ضيقة نصل إليها عن طريق سلم متداع ، وليس فى هذه الغرفة العتيقة أى مظهر من مظاهر المكاتب الحديثة . زرته مرة فألفيته عاكفاً على إعداد لوحات كبيرة لآيات قرآنية طلبتها منه الحكومة السعودية لاستخدامها فى حفر هذه الآيات على المسجد الحرام فى مشروعات توسعته . ولعل سيد إبراهيم هو الخطاط الوحيد الذى ألّف كتباً فى تاريخ الخط، وصنع كراسات لتحسين الخطوط، إذ كان يدرس علم الخط فى كلية دار العلوم . وظل يمارس هذا العمل إلى أن أصيب برعشة فى يمناه ، فاستحال عليه أن يؤدى عمله بالدقة المطلوبة ، وقرر بالتالى اعتزال هذا العمل . وكان يعتمد فى خطوطه على أقلام البسط التى كان يقوم بنفسه بعملية «قط» القلم وتشذيبه حتى يكون طيعاً فى يده . وعندما اختفت أقلام البسط من السوق باعتبارها ترفاً يُستغنى عنه، كان سيد إبراهيم يكلف أصدقاءه فى الخارج بأن يحصلوا على حاجته منها من إندونيسيا التى اشتهرت أقلامها بالجودة .

ومما قاله لى سيد إبراهيم إن اللوحة المثبتة على ضريح عبدالناصر، وهى لفظ الجلالة مكتوباً طولياً ومحاطاً بزخارف هى من إعداده، وإن تكن كتبت أصلاً لضريح الأمير محمد على ولى عهد فاروق الذى توفى فى لندن وبقى ضريحه خالياً . وبسبب الوفاة المفاجئة لعبد الناصر، نقلت هذه اللوحة إلى ضريحه .

وعاش سيد إبراهيم نحو ٩٠ عاما.

شاعرا أهمله النقاد

فؤاد بليبل شاعر شاب توفى عن ٢٩ عاماً ولم يخلف إلاّ ديوانا واحداً عنوانه «أغاريد ربيع» طبعته أسرته بعد وفاته فى ٢٢ مارس ١٩٤١، وهو لبنانى الأصل من بلدة بكفيا ومن مواليد شهر نوفمبر ١٩١١ .

وعندما التحقت بجريدة الأهرام فى يوليو ١٩٤٢ قيل لى إن فؤاد بليبل كان يعمل فى الجريدة عملاً إدارياً ، وحاول الانتقال إلى قسم التحرير فلم يفلح ، وذات يوم طاف علينا صديق لأسرة هذا الشاعر الشاب ومعه نسخ من ديوانه يعرض بيعها على زملائه فى «الأهرام» فبادرت باقتناء نسخة من الديوان ، فى حين أعرض معظم موظفى الحسابات والإدارة عن شرائه لعدم اهتمامهم

بالأدب عموماً وبالشعر خصوصاً ، والذى حفزنى على اقتناء هذا الديوان هو متابعتى لما كان ينشره هذا الشاعر فى مجلة وزارة الشئون الاجتماعية وفى مجلة الرسالة وفى «الأهرام» ، وكنت أجد فى شعره «طبعة» جديدة من الشاعر اللبنانى الثائر إلياس أبى شبكة .

ومازلت - بعد سنوات طويلة - أذكر قصيدته الصارخة التى نشرها أولاً فى مجلة وزارة الشئون الاجتماعية، وكان عنوانها «ابنة العار» ومطلعها :

يا ابنة العار والخذا والرذيلة
أنا لولاك ما عرفت الفضيلة

ولم أنس أبداً قصيدته المعنونة «ثائرة» التى قال فيها :

أسألت من نبذوك نبذ المنكر
كم بينهم من فاجر متستر؟
الخيرون وهم أشر بنى الوري
الأبرياء وليس فيهم من بري
الصائمون المفطرون على الدما
الظامئون إلى النجيع الأحمر
الخائنون بكل عهد مبرم
العابثون بكل ذات تخفر
المصلحون وليس فيهم مصلح
الطاهرون وذيهم لم يفجر ؟

وختم قصيدته مناشداً وزارة الشئون الاجتماعية أن ترعى هذه الفئة من البشر قائلا:

أوزارة الإصلاح تلك ضحية
إن تشمليها بالعناية تؤجرى
لي فيك آمال تداعب خاطري
ورجاء مرتقب لها مستبشر
ولرب عاهرة إذا ما أصلحت
كانت أعف من العفاف الأطهر
لا تتركيها للصروف وشأنها
فلأنت أنت رجاؤها ، فتدبري

وهذه نماذج من شعر فؤاد بليبل ترفع من منزلته بين الشعراء المعاصرين، ولا غرو أن يقول الشاعر خليل مطران فى تقديم هذا الديوان : «ولست بمبالغ فى قولى إن أغاريد هذا البلبل فى ربيعه الذى لم يطل مع الأسف ، سيدوم ترديدها على الأحقاب، وسيكون لها فى النفوس أثر بالغ من الحب والإكبار والاعجاب».

وهى نبوءة لم تتحقق لأن النقاد جميعا ولا أكاد أستثنى أحداً منهم - قد تجاهلوا فؤاد بليبل ولم يذكروه حتى من قبيل الإشارة أو الاحصاء .

وكان فؤاد بليبل صديقاً للشاعر محمود غنيم الذى كتب بدوره مقدمة لديوان «أغاريد ربيع» قال فيها : «كان شاعراً ، وكانت له فى شعره فلسفة تكاد تنحصر فى كلمة واحدة هى : الثورة . وكان يذكى ثورته شعوره الصادق واحساسه العميق ويمدها شبابه بوقود . كان ثائراً على الأوضاع والتقاليد ، ثائراً على أهل الصلف والعجرفة من الأغنياء ، ثائراً على دهره الطاغى وعلى المجتمع الذى احترف الخداع ودرج على قلب الأوضاع».

كما أن الأديب القاضى صلاح الدين ذهنى رثى فؤاد بليبل بقوله : «كان شاعراً

بحياته قبل أن يكون شاعراً بقصائده ، فلو أنه لم يكتب قصيدة في حياته لظل شاعراً.. كانت حياته قصة شاعر هبط إلى الأرض، حتى إذا جاءه الوحى غنى، وحتى إذا ما ارتفعت ألحانه وأنصت الكون وهدأت الكائنات لتسمع، شارف اللحن نهايته ، وإذا به قصيدة واحدة ، قصة شاعر، زهرة من السماء تفتحت على نسمات الصباح ، وذوت عند الغروب، ما أقصر يومها ، وما أجلّه ، وما أعظمه».

وقد توسعت شيئا ما فى الاستشهاد بشعر فؤاد بليبل وأقوال معاصريه عساى أنبه إلى الجناية الأسيفة التى ارتكبها النقاد بإغفالهم هذا الشاعر .

ولكن أخانا الأديب البصير الكبير الدكتور محمد رجب البيومى، كان له السبق فى توجيه واحد من طلاب الدراسات العليا لإعداد رسالته الجامعية عن فؤاد بليبل وشعره وليت هذه الرسالة ترى النور منشورة على الملأ .

أما ديوان «أغاريد ربيع» فقد صار عسير المنال ، وإن كان الناشرون اللبنانيون «الشطار» قد أعادوا طباعته تقديراً لهذا الشاعر الذى قال فيه أحمد حسن الزيات صاحب مجلة «الرسالة» : «لا تزال أندية الأدب ومجالس الشعر تردد عبارات الأسف على فقد الشاعر الشاب فؤاد بليبل ، وتجدد فى كل مناسبة أساها على فجيعة الشعر فيه. فقد كان المتصلون به والقارئون له يعتقدون أنه سيكون له فى الشعر الوجدانى أثر مذكور بفضل ما وهبه الله من صدق الشعور وصفاء النفس وعذوبة الروح واستكمال الأداة . والحق أن الحياة القصيرة المضطربة التى عاشها فؤاد كانت أشبه بأغرودة البلبل الجريح أدركه الإعياء قبل أن يسكن إلى عشه» .

الشاعرة لميعة

كنا فى مجلس أدب تتصدره الشاعرة العراقية لميعة عباس عمارة . وكان الجالسون يتحدون قدرتها على ارتجال الشعر، ورغبت فى المشاركة فى هذا المجال، زعمت أن فتاة أهدتنى ربطة عنق فقلت لها : هل أدلك على طريقة ألطف وأجمل ولا تكلفك شيئا لتطويق عنقى ؟

فالتقطت الشاعرة لميعة هذه القصة وارتجلت البيتين التاليين :

أهديته ربطة ، فارتد يسألنى
الطوق تعنين؟ أم تعنين تطويقى؟
يداك أجمل تعبيراً وأبلغه
لم العناء إذن في زحمة السوق؟

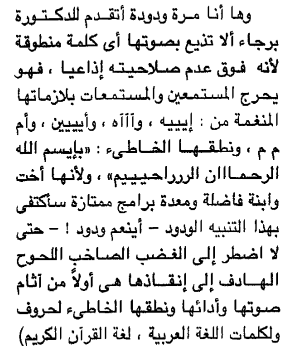
وعندما نقلت هذه الحكاية إلى الأديبة الكبيرة سلمى الحفار الكزبرى ، أهدتنى ربطتى عنق قائلة : خذهما نكاية فى لميعة!

موائد الرحمن

ومن يعلق الجرس فى عنق رئيسة إذاعة القرآن الكريم ؟

بقلم : صافى ناز كاظم

● ... وها نحن قد وصلنا بحول الله وقوته إلى ليال نترقب فيها ليلة القدر، ليلة ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٩ من رمضان ١٤٢٠ ، نكثف الدعاء بأن يرفع الله عن أمتنا غضبه ومقته وسخطه، ولا يؤاخذنا بما فعل السفهاء منا ، ولا بما نسينا أو أخطأنا ولا يحمل علينا إصراً، ولا يحملنا مالا طاقة لنا به، وينصرنا على القوم الكافرين . وقد أدرنا ظهرنا «لزياط» الإذاعة المسموعة والمرئية، فلم ننصت إلا لما تيسر من فقرات إذاعة القرآن الكريم -(التى أرجو من رئيستها الدكتورة هاجر سعد الدين أن تكتفى بإعداد برامجها هى الشخصية، وتوكل إلى مذيع آخر تقديمها، ذلك لأن صوتها وأداءها غير صالحين للإذاعة بتاتا، وقد كررت هذا الطلب على الكثيرين ممن لهم صلة مباشرة وغير مباشرة بإذاعة القرآن الكريم،بل وقلته صراحةللدكتورة بوجهها منذ أكثر من عام ، ولكن يبدو أن ليس هناك من بمقدوره تعليق الجرس بعنق رئيسة الإذاعة التى هى نفسها رئيسة شبكة إذاعة القرآن الكريم .



وها أنا مرة ودودة أتقدم للدكتورة برجاء ألا تذيع بصوتها أى كلمة منطوقة لأنه فوق عدم صلاحيته إذاعيا ، فهو يحرج المستمعين والمستمعات بلازماتها المنغمة من : إيييه ، وآآآه ، وأيييين ، وأم م م ، ونطقها الخاطىء : «بإيسم الله الرحماان الرررحيييم» ، ولأنها أخت وابنة فاضلة ومعدة برامج ممتازة سأكتفى بهذا التنبيه الودود - أينعم ودود ! - حتى لا اضطر إلى الغضب الصاخب اللحوح الهادف إلى إنقاذها هى أولاً من آثام صوتها وأدائها ونطقها الخاطىء لحروف ولكلمات اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم)

وأعود إلى سياق كلامى ، بعد هذه الزفرة الحارة ، لأقول أننا لن ننسى الإشارة إلى الحملة المستمرة ضد «موائد الرحمن» ، فمازالت تلك الحملة تزعق بنفيرها لتندد وتشجب تقليداً جميلاً أحياه الناس منذ مطلع الثمانينات وانتشر ليغطى معظم شوارع وطرقات القاهرة بموائد «سبيل» لكل عابر صادفته لحظة الإفطار ليأكل ويشرب ويقر عينا ضيفا على «موائد الرحمن» ، هذه الموائد التى تبدأ بتمرات وماء وتتصاعد إلى ماهو أكثر دسماً وثراء . قد تعرف صاحبها وقد لا تعرف سوى أنها «موائد الرحمن» ، سبحانه وتعالى ، صاحب المائدة التى أنزلها على سيدنا عيسى صلى الله عليه وسلم وحوارييه ، فهى حقاً كذلك ممدودة على كل حال تتسع للقاصد عمداً وللعابر عفواً ، وللثرى وللفقير ، يجلس إليها الجميع فى مساواة وعزة وتراحم ومشاركة على لقمة «العيش والملح» ،التى هى عند المسلمين عهد الأمان والصدق والسلامة . مفتوحة للأهل والغرباء ، لا يسأل فيها سائل عمن تكون أو إلى أى دين تنتمى . هذا التكافل الشعبى الأهلى - (من دون تمويل أجنبى !) - التلقائى لم يعجب بعض المنافقين والمنافقات من الذين اتخذوا إسلامهم ساتراً ليضربوا من



حمدي الكنيسي   د . هاجر سعد الدين



ورائه كل جميل فى ديننا الوضىء . قالوا وقلن – فيما قالوا – ما مفاده : أن موائد الرحمن هذه صورة مهينة للشعب الفقير تشبه ما كان الملك السابق فاروق يقيمه فى حدائق قصره من ولائم رمضانية لإطعام الفقراء ، ولا نعرف أى إهانة فى أن يطعم الملك أو الحاكم أبناء شعبه فى حدائقه فى رمضان أو غير رمضان ، وهو بمثابة الوالد لأنه ولى الأمر ، والطعام من فضلة خير الشعب قبل كل ملك وحاكم – (وأرى أن التذكير للأجيال التى لم تعاصر الملك فاروق ، بأنه كان يطعم الشعب فى حدائقه ، دعاية طيبة للملك السابق الراحل ولعلها تكون فى ميزان حسناته لتحميه من بعض شروره وإفساده !) – ثم قالوا وقلن – فيما يعيدوا ويزيدوا فيه – إن هذه موائد للشهرة والدعاية وقد دخلت فيها الراقصات – (وماله ؟) – وأن الإنفاق والتصدق والعطاء يجب أن يظل سراً ، وأشاروا إلى اليد اليسرى التى يجب ألا تعرف ما أعطته اليد اليمنى .. الخ .

وهؤلاء يبدون – بكلامهم هذا – أنهم قد هجروا قرآنهم منذ أمد بعيد – والعياذ بالله – فلم يتذكروا منه إلا قيمة : «الإنفاق فى السر» فتصوروا أنه لايجوز غيره واشتد عزفهم على هذا الوتر ، ولو أنهم استذكروا آيات القرآن الحكيم الخاصة بالإنفاق لوجدوا التصويب القاطع لأحكامهم المختلة ، ففى سورة البقرة ، آية ٢٧٤ تقول : «الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون» .

وتأتى آية ٣١ فى سورة إبراهيم لتؤكد شكل الإنفاق: «قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال» ،وتكرر آية ٢٢ من سورة الرعد وآية ٢٩ من فاطر مبدأ السر والعلن ، بينما تقول آية ٧٥ من سورة النحل : «ضرب الله مثلاً عبداً مملوكا لايقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسنا فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون ، الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون» . فالقرآن الكريم يأمرنا بالإنفاق لوجه الله : سراً وعلنا بل وجهراً ، من دون رياء ومن دون مّن أو أذى ، فمن أين استمد هؤلاء من أهل الشح والنفاق فتواهم بتحريم «موائد الرحمن» ، التى يتسابق لإقامتها المتسابقون لتزغرد بها طرقات القاهرة ، ومدن مصر الأخرى ، فى الشوارع والساحات على طول شهر رمضان الكريم، بحجة أنها أسلوب مظهرى للدعاية والإعلان . دعاية لمن وإعلان عن ماذا ؟ ، دعاية للتراحم وإعلان عن التكافل والتعاون؟، خير وما شاء الله ، وياليت كل الدعايات هكذا وكل الإعلانات . والطريف – (أو لعله غير ذلك) – أنه بينما تنزل المطارق ضاربة مبادرة شعبية بديعة مثل «موائد الرحمن» يتم الإعلان والاحتفال بالأيادى البيضاء الرحيمة لأفاعى الروتارى والإنرويل والليونز، وأهدافها المشبوهة، بسبب ما تدعيه من مشروعات خيرية ما أنزل الله بها من سلطان . إن المعادين لموائد

الرحمن هم من تنطبق عليهم الآية رقم ٧ من سورة المنافقون : «هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لايفقهون» . صدق الله العظيم .

★ ★ ★

ولا بد أن ترتفع بين كل آونة وأخرى صيحة تندد بـ«الضوضاء » التى يثيرها ارتفاع الآذان خمس مرات من مكبرات الصوت ، والصيحة لابد أن تصاحبها مصطلحات من مثل «التلوث السمعى » مع بعض القصص المأساوية عن المرضى الذين لا يستطيعون النوم ، والطلبة والتلاميذ المحتاجين لقسط من الهدوء والراحة لاستذكار دروسهم ، ولاشك أن بعض مكبرات الصوت تكون مزعجة حين ترتفع إلى درجة يتعذر معها سماع كلمات الآذان ، وحين يكون صوت المؤذن سيئا وغير مؤهل لرفع الدعوة للصلاة

-(فى هذا الشأن نهيب بالمسئولين عن تخصيص المؤذنين والأئمة للمساجد أن يتحروا الدقة فى الاختيار والاختبار ، وقد سمعت شكوى من الأستاذة سلوى بكر القاطنة جوار مسجد الصديق فى حى مساكن الشيراتون ، وملخص الشكوى صوت المؤذن المنفر وغير اللائق أبداً بجمال وبهاء البناء ، ونحن لا نريد أن يكون الآذان ، خاصة فى الفجر ، مصدراً للذعر والخوف والاستياء لأنه من الضرورى الشرعى أن يكون سكبا للرحمة وعطاء للحنان واستجاشة للتواصل بالصلاة جلبا للأمن والسلام) - والمطلوب ضبط وإصلاح مكبرات الصوت لتحقيق الإستماع المريح . أما كون اعتبار الآذان «ضوضاء » و«تلوثا سمعيا » فما الذى يمكننا قوله أمام هذه الوقاحة ، نحن أبناء المدينة التى اشتهرت منذ زمن بكونها مدينة المآذن المؤلفة آلافا ؟ إن الاحتجاج بالمرضى يتناقض مع الإطمئنان الذى يستشعره المريض حينما يرتفع الآذان بالتكبير وذكر الله : ألا بذكر الله تطمئن القلوب . أما الإزعاج الذى يشكو منه من يريد النوم ، فالصلاة خير من النوم . لقد عشت فى مدينة إسلامية لا يرتفع فيها صوت المؤذن وكنت أتعجب كيف يتنبه المصلون لوقت الصلاة ؟ . إننى لا أتمنى أن نرى اليوم الذى تتم فيه المطالبة ببناء مساجد من دون مآذن توفيرا لراحة المنافقين والسياح ، فالواجب هو عدم رفع الآذان بأصوات قبيحة ، وعدم إذاعة تلاوة القرآن الكريم عبر مكبرات الصوت احتراما لآيات الله حتى لا تصل إلى الأسماع داخل الحمامات والمراحيض . والذى نفهمه هو أن التقدير فى الإذاعة وعدم الإذاعة يجب أن ينطلق من قاعدة الحلال والحرام الشرعية ، واللائق وغير اللائق بسور وآيات الكتاب العزيز، لا من قاعدة الذين كلما استمعوا لذكر الله صارت صدورهم ضيقة حرجاً كأنما يصعدون فى السماء .

ومع إطلالة العيد ، عيد الفطر المبارك أستعين ببعض تسبيحات الشكر لله سبحانه تعالى ، مختارة من كتاب الإمام الحجة الحافظ أبى بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشى بن أبى الدنيا المتوفى عام ٢٨٢هـ ، أى منذ ١١٣٨ سنة:

●...سمع نبى الله صلى الله عليه وسلم من يقول :«الحمد لله بالإسلام »، فقال : «إنك لتحمد الله على نعمة عظيمة».

●●●

● ... كان الحسن البصرى يقول إذا ابتدأ حديثه : «الحمد لله»، اللهم ربنا لك الحمد كما خلقتنا ورزقتنا وهديتنا وعلمتنا وأنقذتنا وفرجت عنا ، لك الحمد بالإسلام والقرآن ، ولك الحمد بالأهل والمال ، والمعافاة ، كبت عدونا ، وبسطت رزقنا ، وأظهرت أمتنا (اللهم نسألك ذلك) - وجمعت فرقتنا - (اللهم نسألك ذلك) - وأحسنت معافاتنا ، ومن كل ما سألنك ربنا أعطيتنا ، فلك الحمد على ذلك حمداً كثيرا ...

●●●

● ... إنما سمى نوح عبداً شكوراً لأنه لم يلبس جديداً ولم يأكل طعاما إلا حمد الله تعالى ...

●●●

● ..عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : اللهم إنى أعوذ بك من زوال نعمتك ، وفجأة نقمتك، وتحول عافيتك ، وجميع سخطك .

●●●

● يروى عن علىّ أنه قال لرجل من همدان : «إن النعمة موصولة بالشكر ، والشكر معلق بالمزيد ، وهما مقرونان فى قرن ، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد» .

●●●

● ... كان يقال : «الشكر ترك المعاصى».

●●●

● ... كل نعمة لا تقربنا من الله فهى بلية.

●●●

● ... إذا رأيت الله عز وجل سابغاً نعمة عليك وأنت تعصيه فاحذره !

●●●

● قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا رأيت الله عز وجل يعطى العباد ما يشاءون على معصيتهم إياه فذلك استدراج منه لهم» .

●●●

● ما قلب عمر بن عبدالعزيز بصره فى نعمة أنعم الله بها عليه إلا قال : «اللهم إنى أعوذ بك أن أبدل نعمة كفرا أو أن أكفرها بعد معرفتها أو أنساها فلا أثنى بها.» .

●●●

● عن أبى عمران الجونى عن أبى الجلد قال : قرأت فى مسألة موسى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : «يارب كيف أشكرك وأصغر نعمة وضعتها عندى من نعمك لايجازى بها عملى كله . قال فأتاه الوحى أن يا موسى : الآن شكرتنى.

●●●

● ... ما من عبد يشرب من الماء القراح فيدخل بغير أذى ، ويخرج بغير أذى إلا وجب عليه الشكر .

●●●

● الحمد لله الذى لايكل من توكل عليه إلى غيره ، الحمد لله الذى يجزى بالصبر نجاة والذى هو يقيننا حين تنقطع عنا الحيل . الحمد لله .


كتاب
الهلال
يقدم
مصر الحاضر والمستقبل
بقلم :
د. مصطفى سويف
يصدر
٥ يناير ٢٠٠٠


روايات الهلال
تقدم
طيور العنبر
بقلم :
إبراهيم عبد المجيد
تصدر
١٥ يناير ٢٠٠٠

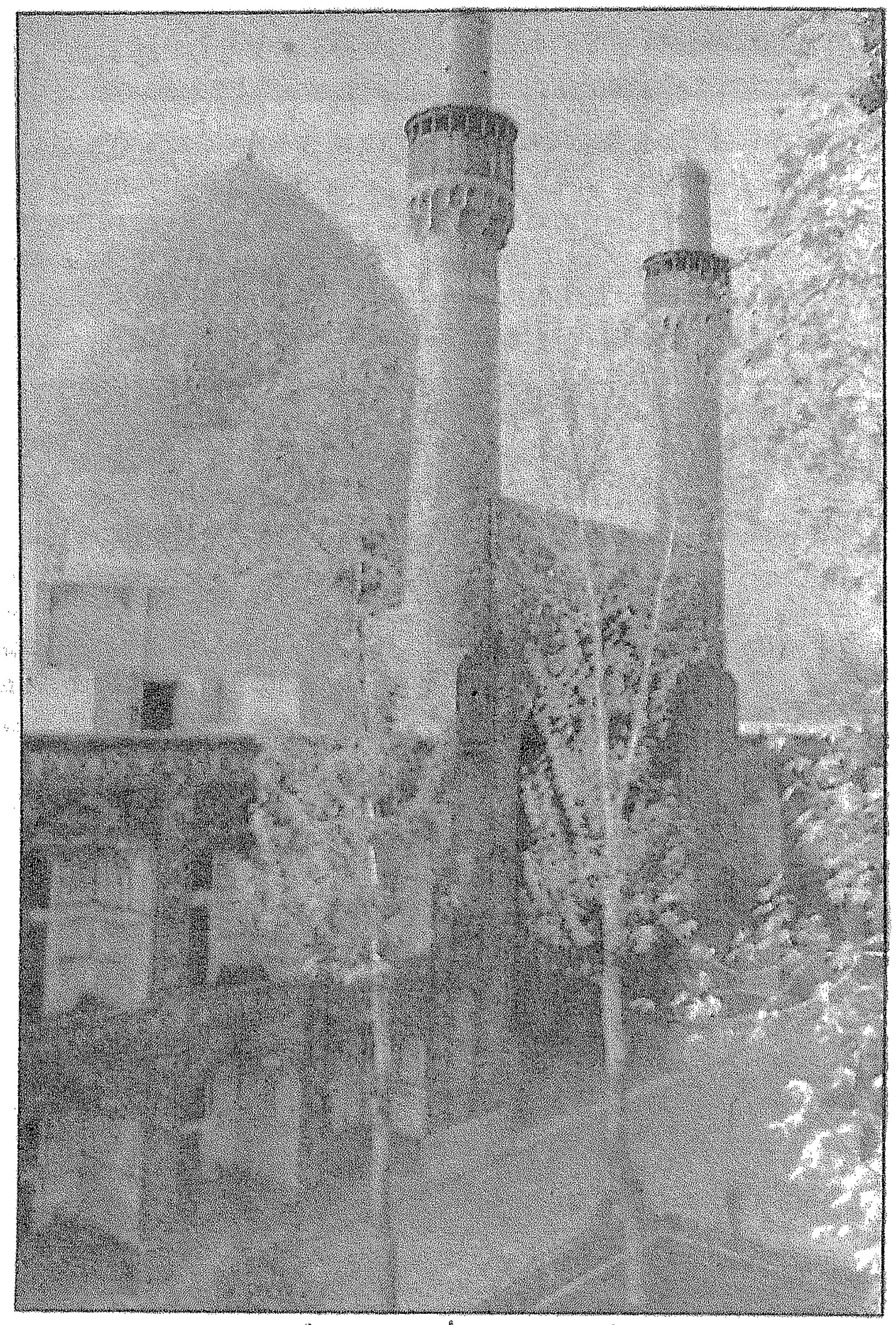


بقلم : مصطفى نبيل

ربما تأخرت هذه الرحلة نحو عشرين عاما ..
فمازلنا فى جولتنا بين المدن الإيرانية ؛ فى زيارتى الأولى - أحمل الكثير من الأسئلة - ولقد قرأت كل ما استطعت ، وبقى الأهم وهو الاتصال المباشر والجهد الميدانى ..
رجعت من زيارة المدن الإيرانية ببعض الاجابات ، وبقى الكثير من الأسئلة وجاءت الزيارة قبل انتخابات حاسمة لمجلس الشورى تجرى الشهر المقبل ، وبعدها انتخابات الرئاسة سنة ٢٠٠١ ، وبذلك تجدد إيران نفسها .

ترتبط أصفهان لدى بكتاب الأغانى لصاحبه «أبو الفرج الأصفهانى» (٨٩٠ - ٩٦٧) ، الذى ولد فى أصفهان ، وحمل سحرها ، ونشر أهم كتب الأدب والتاريخ والفن ، وكما جاء فى الأثر ، فهو الكتاب الذى قال عنه أحد الوزراء ، كنت أحمل فى أسفارى ثلاثين حملا من كتب الأدب ، فلما جاءنى كتاب «الأغانى» استغنيت به عنها .

احتفيت لذلك بزيارة أصفهان ، حيث وصلنا إليها بالطائرة ، من مطار مهابار فى طهران ، واستغرقت الرحلة أقل من ساعة ، لم نجد أحدا فى انتظارنا ، رغم أن وزارة الخارجية الإيرانية هى التى



مدرسة شاهارباخ فى أصفهان.. القبة والمنارة

نظمت هذه الزيارة ، انتظرنا فى المطار أكثر من ساعة ، أصبحت مشكلتنا هى كيفية التقليل من الحرج الذى يشعر به مرافقنا عبدالستار أوده .

وبعد طول انتظار وصلنا إلى فندق شاه عباس ، وهو ليس فندقا بل متحفا ، كل جزء فيه تحفة معمارية وأثرية ، لقد كان مدرسة أيام شاه السلطان حسين ثم تحول إلى فندق .

استغرقت زيارتنا لأصفهان ٤٨ ساعة حافلة بالفن والتاريخ والتجربة الحية ، فأنت وسط المشهد الإيرانى بكل سحره وغموضه ، نحن فى الطريق من المطار إلى البلدة ، لا يوجد حول أصفهان أية جبال عالية مثل طهران ، وعندما تقترب منها عبر أراضى جرداء ترى المدينة أمامك وسط واحة صنعها النهر الوحيد فى الهضبة الإيرانية ، وكأنك ترى أحد مدن ألف ليلة وليلة ، تعطى أصفهان الانطباع الأول بالعافية والازدهار ، وأنها أكثر مدن الشرق ثراء وجمالا ، وهى عاصمة الصفويين الغنية بالآثار الإسلامية ، تقع وسط إيران ، والجو عند زيارتها كان خريفها يبعث على النشاط .

إنها ثالث مدينة فى إيران من ناحية العمران ، ولها شهرة واسعة فى الصناعات اليدوية ، وأجمل آثارها هى التى أقامها الشاه عباس الكبير فى أواسط القرن السادس عشر الميلادى .

ويؤكد كل ما فى المدينة صدق المثل الفارسى «أصفهان نصف جيهان» أى نصف العالم ، وهى تجذب السياح وطالبى المعرفة ، زارها قديما من الرحالة ابن بطوطة المغربى وماركو بولو الإيطالى . وهى أهم مدن طريق الحرير ..

وجاءت زيارة ابن بطوطة لها قبل حكم الصفويين ، وأشار إلى ذكاء أبناء أصفهان وحسن استعدادهم للأعمال الفنية والأعمال اليدوية ، وأشاد بكرم أهلها وحسن ضيافتهم ، وذكر أنهم عرفوا باللماحية وحضور البديهة ..

وسرنا على خطى ابن بطوطة وتجولنا فى المدينة وشاهدنا مركز المدينة حيث القصور الملكية للأسرة الصفوية ومسجد الشاه عباس والميدان المستطيل الذى أمامه والمصطف حوله المحلات (البازارات) ، فيجمع الميدان الدين والسلطة والمال ، وترى المنظر الخلاب للمآذن والقباب الممتدة إلى عنان السماء ، وروعة ألوانها المذهبة والمزخرفة والتى يغلب عليها لون الفيروز ، يحتويك مسجد الشاه عباس باتساعه ، والسكون من حوله ، وأول ما تراه تلك البوابة الضخمة التى تقوم على جانبيها مئذنتان وفى وسطهما طاووس بألوانه الزاهية ، وترى دائما المزيج بين حضارة الفرس وحيوية الإسلام ، تدخل إلى الصحن الواسع بما فيه من حوض مياه تقوم على جانبيه أقوات ذات عقود ، وترى نقوشها لا مثيل لها فى فن الزخرفة الإسلامية ، وقد صمم هذه التحفة المعمارية بهاء الدين العاملى (سنة ١٦٣٨م) وهو ذلك العربى القادم من جبل عامل فى جنوب لبنان ، ولا أدرى

كيف تغير اسمه إلى مسجد الإمام الخميني ؟!.

ويطل المسجد على ميدان «نقش چيهان» ، وفى الميدان قصر الشاه عباس بأعمدته الخشبية المجلوبة من لبنان والمكونة من شجر الأرز ، ويشدك جمال العمارة الإسلامية ودقتها ، وصبر ودأب أولئك الذين بذلوا الوقت من أجل إقامة هذه الأعمال الفنية ، وانتهوا إلى هذا المشهد الرفيع الذى تراه فيما يحيط بك .

انتقلنا إلى مواقع أثرية أخرى ؛ تلك المنارات المتحركة المعروفة باسم منارة جنبان ، ويؤكد مرافقنا أن الذى صممها هو ذاته بهاء الدين العاملي الذى صمم مسجد الشاه عباس ، وهو صاحب كتاب المخلاة والكشكول ، وهى مرقد العارف بالله أبو عبدالله ، وتتميز المنارة بأنه يمكن تحريكها على أساس من نظريات علمية دقيقة .

وقد لفت انتباهى تلك الجسور المقامة على نهر رابنده رود الذى يشق المدينة، والذى أقيم على غرار أقواس بازار ساحة الشاه عباس ، ويظل جسر خاجا عنوان جمال العمارة الإيرانية التى شهدت أزهى عصورها خلال الدولة الصفوية ، وهو يشبه فى جماله أحد الجسور المقامة على أحد الأنهار فى مدينة فلورنسا الإيطالية .

الصفويون

من هم هؤلاء الصفويون الذين أقاموا أجمل المبانى ، والتى كانت أصفهان عاصمة إمبراطوريتهم ؟!.

يمثل الحكم الصفوى (١٥٠١ - ١٧٢٢م) نقطة تحول فى تاريخ إيران ، فقد حققت خلالها الأمة ذاتها ، وأكدت دورها ، وهى أول دولة فارسية منذ دخول العرب إيران ، وهى الدولة التى رسمت حدود إيران الحالية .

ومن المفارقات اللافتة للنظر أن الذين نشروا التشيع فى إيران من العرب القادمين من جبل عامل فى لبنان ، والكرك فى الأردن فى عهد الصفويين ، ومن المفارقات أيضا أن الشاه إسماعيل الصفوى ينتمى إلى قبيلة تركمانية ، أى أن الصراع التاريخى الذى نشب فى الشرق بين الدولة الصفوية والدولة العثمانية ، والذى جرت معظم ملاحمه على أرض العراق ، كانت بين فريقين من الحكام الأتراك ، وقد انتشر المذهب الشيعى لمنع المد العثمانى ومن أجل الحفاظ على الهوية الخاصة لفارس .

وساد المذهب الشيعى الإثنى عشرى فارس بعد سنة ١٥٠٢م ، وزعمت الأسرة الصفوية إنحدارها من الإمام السابع موسى الكاظم ، ومثل الحاكم الإمام الغائب .

واعتبر المفكر الإيرانى د. على شريعتى ، الذى كان لأفكاره تأثيرها الواسع على رجال الثورة الإسلامية ، أن التشيع الصفوى «تشيع المصلحة» ، فأبطل كل مسئولية على الإنسان بدعوى غيبة الإمام ، وأصبحت الغيبة هى المشجب الذى يعلق عليه الجميع قعودهم عن

العمل، وأصبح الكل في حالة انتظار دائم ، وأخذ المفكر الإيراني يميز بين التشيع الصفوى وبين التشيع العلوى الأصيل .

هذا ويعود اسم الدولة الصفوية إلى الشيخ صفي الدين الذى كان الشاه إسماعيل سادس خلفائه ، وأخذت النزعة الإيرانية تقوى في ظل الفكر الشيعى ، وسقطت هذه الدولة أمام هجوم الأفغان سنة ١٧٢٢م .

السلام الفارسى !

ونستمر نقلب صفحات التاريخ ، ونجد هيرودوت الذى سبق وأرخ لمصر القديمة يؤرخ لفارس ويتحدث عن شخصيتها التاريخية فيذكر .. «إن الفرس يرون أنفسهم خير الناس جميعا ، ويعتقدون أن غيرهم من الأمم تدنوا عن الكمال بقدر ما يقرب موقعهم الجغرافى من بلاد فارس، وأن شر الناس أبعدهم عنها ..»

وسبق وأقامت فارس «السلام الفارسى» وأكبر إمبراطورية عرفها العالم القديم سنة ٥٣٨ ق.م ، وضمت هذه الامبراطورية كل العالم المعروف وقتها ، ويرى المؤرخون أن قورش هو أكبر أبطال العالم قبل الإسكندر الأكبر ، وهو الذى أسس أسرة الأباطرة العظام ، وهى أوسع إمبراطورية سبقت الامبراطورية الرومانية، وخلف «قورش» «قمبيز» الذى أغوته ثروة مصر ، فزحف عليها ووصلت إمبراطوريته إلى نهر النيل .

يقول أكتازيوس «..إن ما يحتفظ به أباطرة إيران فى خزائنهم باعتباره أغلى من الجواهر ، سبع زجاجات تحتوى إحداها على مياه النيل والدانوب ودجلة والفرات وسيحون وجيحون ونهر السند ، دليلا على سعة إمبراطوريتهم المترامية الأطراف» .

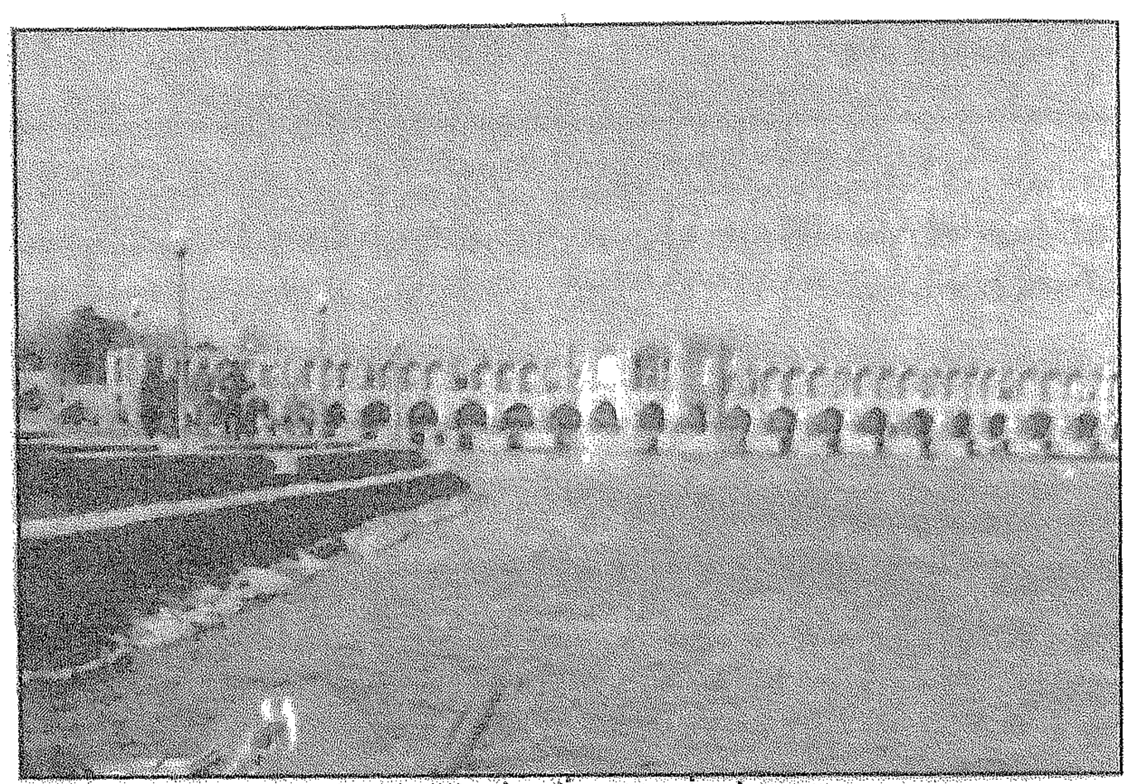
ويروى التاريخ كيف استولى «قمبيز» على منف ، وأخذ يسخر من دين المصريين ، وطعن بخنجره العجل أبيس ، وعبث برفاة الموتى المحنطة فى القبور ، وبعدها أصابته نوبات صرع تشنجية ، وأعدم أخته وزوجته ، وقتل ابنه بسهم من قوسه، وحكم بدفن إثنى عشر من أعيان الفرس أحياء ، انتقاما من آلهة المصريين القدماء. كما ابتلعت رمال الصحراء الجيش الذى أرسله للاستيلاء على واحة آمون (سيوة) ، ولم يعثر لهذا الجيش على أثر حتى اليوم .

وتظهر وجوه الفرس على بعض الآثار الباقية ، ذوو ملامح متناسقة أعطتهم الجبال شدة وصلابة ، وتظهر على وجوههم سمات النبل .

زرادشت

وكانت إمبراطورية قورش الدولة الإخمينية تدين بديانة زرادشت ، وهو داعية ومصلح إنعزل عن العالم فى سن العشرين ، وقضى عشر سنوات وهو يتأمل ، وعاد مبشرا بديانة جديدة ، يرى البعض أنها ديانة معدلة عن المجوسية والتى كانت القبائل الإيرانية تعتنقها ، وتسعى الزرادشتية أن يكون لها شكل متماسك ، ومن معتقداتها الإيمان بالبعث والإيمان بالمخلص الذى سيأتى ويخلص البشرية ، وتؤمن بوجود كتاب محفوظ فى السماء تسجل فيه أعمال البشر .

أما زرادشت فكان رجلا حكيما آثر



جسر خاجو فى أصفهان وأقيم فى القرن السابع عشر

إحدى حدائق أصفهان الجديدة تجمع كل الطيور وتقضى الأسرة فيها يوما جميلا

أن يعيش حياة الزهد فى البرية ، وأن يكون طعامه من ثمار الأرض ، وظل حتى النهاية متمسكا بإيمانه ، أن رب النور هو الإله الأعظم ، وليس فى العالم سوى إله واحد ، أما الشمس فهى نار السماوات الخالدة ، تعبد كما عبدها إخناتون فرعون مصر .

ولا يوجد اليوم أثر للديانة الزرادشتية سوى بين بعض العشائر الفارسية فى ضواحى بزد فى كرمان ، وهى تحافظ على كتبها المقدسة ، وتقدس النار والتراب، والأرض والماء ، ولا يدفنون موتاهم فى الثرى ، إنما يعرضونها فى «أبراج الصمت» للطيور الجارحة ، وحتى لا تدنس العناصر المقدسة فى التربة ، وهم قوم ذوو أخلاق سامية وآداب رفيعة ، ولهم ممثل فى مجلس الشورى الإيرانى ، بعد أن اعتبرت إيران أتباع زرادشت من أهل الكتاب ، وعاملوهم كأنهم من الصابئة، وقد خرج من أتباع زرادشت شخصيات كثيرة اعتنقت الإسلام ، مثل «ابن المقفع» ، كما أن زرادشت هو أول من أطلق على سكان الهضبة جنوب القوقاز اسم الإيرانية ومعناها النجباء ..

النار المقدسة

وشاهدت فى تليفزيون إيران ، الذى يشرف عليه على لاراجانى الذى يعد من المتشددين ، أحد المنشدين الدينيين ينشد بعض الإنشاد الدينى ، ويقف بين شعلتين من النار ، هذا فى الوقت الذى يمنع التليفزيون الغناء الفردى للنساء ، ومعروف أن النار لها مغزى خاص فى الديانات الآسيوية القديمة ، ومازالوا فى إيران يحتفلون بعيد النيروز أو الربيع أول كل سنة شمسية .

والإيرانى متدين ولكنه يعتز بتاريخه وقوميته ، ويتناغم فى شخصيته التاريخية الدين والقومية ، وبقي الكثير من العادات قائمة ، مع توازن بين القديم والجديد .

عالم الإسلام

وقد لعبت إيران دورا بارزا وحيويا منذ أن أصبحت جزءا من عالم الإسلام ، وشكل الفرس بعد مائة عام من الفتح الإسلامى قوة عسكرية ، وأسهموا فى نقل الخلافة من البيت الأموى إلى البيت العباسى ، وغدت مدن إيران الكبرى منارات للعلم ، وعرفت مدارس أصفهان ونيسابور وهرات وبلخ ومرو وبخارى وسمرقند عندما كانت حدود إيران ما بين نهر الفرات وحتى نهر جيحون وسط آسيا .

ومنذ عهد قريب كانت خراسان (أى أرض الشمس المشرقة) تضم أفغانستان وتركمانستان التى تحتوى العديد من المدن التى تمثل مراكز الحضارة الإسلامية .

لذلك لم يكن غريبا أن يزاول المسلمون الصينيون شعائرهم الدينية باللغة الفارسية .

ويعتبر العصر العباسى الأول (١٣٢هـ - ٢١٨هـ) عصر التعاون الكامل بين العرب والفرس ، ولعبت بعض العائلات الإيرانية أدوارا هامة فى حياة الدولة العباسية ، مثل البرامكة وبنى سهل وبنى

طاهر ، وكانت خراسان سبب انتصار المأمون على أخيه الأمين ، وقبلها خرج منهم أبو مسلم الخراسانى .

وكانت مساهمة الفرس فى الثقافة العربية ملحوظة ، فدواوين الخراج كانت تكتب بالفارسية ، ولم يتم تعريبها إلا فى زمن عبدالملك بن مروان ، وتأثير الفن الفارسى واضحا على فنون العمارة والموسيقى والغناء فى الشرق .

وترى فى أى مجال من مجالات العطاء الحضارى وجودا فارسيا .

ويذكر آية الله مرتضى المطهرى فى كتابه «الإسلام وإيران» .. «أن أصحاب كتب الصحاح فى الحديث الستة من إيران، واثنان من أئمة أهل السنة من خراسان هما أبو حنيفة النعمان وأحمد ابن حنبل ..»

وتبقى من صفات الإيرانيين التدين والتعلق بآل البيت . ويلعب المذهب الشيعى دورا حيويا ، فالعديد من المدارس والمستشفيات والكثير من الأعمال الخيرية أنفق عليها من «الخمس» الذى يدفع للملالى.

الشاعر الفردوسى

ونعود إلى جولتنا فى أصفهان ..

وقفت طويلا أمام اسماء الشوارع وأخذت أبحث عن دلالتها ، ولاحظت إطلاق اسم الشاعر الفردوسى صاحب الشاهنامة على أهم شوارع أصفهان ، وما أجمل البلد التى تخلد اسماء شعرائها بإطلاق اسمائهم على شوارعها .

وللفردوسى (٣٢٩ - ٤١١هـ) مكانة كبيرة فى إيران ، يكاد يكون له شارع وتمثال فى كل مدينة إيرانية ، وله متحف خاص فى طوس ، وتنبع مكانته ليس فقط من شاعريته وما تحويه من ذكاء العقل ورقة الذوق ودقة التعبير ، ولكن من أن الشاهنامة تتغنى بأمجاد التاريخ الإيرانى ، وهى كتاب فى الشعر وفى التاريخ معا ، قدم خلالها الشاعر ملحمة لا نظير لها ، وتناول أيضا قصص الحب الخالدة «يوسف وزليخا» ، و«ليلى والمجنون» ويرون أنه ليس فى لغتهم أفصح منه ، ونرى فيه الفرس يعتزون بتاريخهم السابق على الإسلام ، وهو مسجل تاريخهم ، وأناشيد مجدهم وديوان لغتهم ، يذكر فيها الفردوسى أن إبراهيم عليه السلام هو زرادشت ، وأن كتابه المقدس أبستاف هى صحف إبراهيم ..!.

وترجمت الشاهنامة إلى اللغة العربية، قام بترجمتها البندارى الأصفهانى ، واستمرت الشاهنامة موحية للفنانين ورسامى المنمنمات ، وتحولت فيها التفاصيل الدقيقة إلى لوحات غنية بالتفاصيل والألوان ، ونجح الرسامون فى إضفاء الطابع التاريخى على لوحاتهم، وقد شهدت الفنون الفارسية اهتماما كبيرا بفنون خدمة الكتاب ، وجعله تحفة فنية ، وكثيرا ما تكون الزخرفة الهامشية للمخطوط أكثر تشويقا من المركز ، وقد تفهم المنمنمات بعد ساعات طويلة من الدرس والتأمل .

وحقق الدكتور عبدالوهاب عزام هذا العمل الضخم ، وقدمه لقراء العربية .

وعبر شوارع وميادين أصفهان تظهر المدينة تحيزاتها ، وتجد اسماء الجهاد والشهداء والقدس وفلسطين ، وشوارع أخرى باسم ابن سينا وآية الله طالقانى وآية الله كاشانى وآية الله بهشتى وآية الله مطهرى .

ووصلنا إلى أحد بساتين أصفهان ، وهى حديقة واسعة تضم كل أنواع الطيور، وتعيش لحظات بين المياه والزهور والطيور ، وتعرف عندها لماذا كانت إيران أرض الشعراء ومنبع رسامى المنمنمات الدقيقة وأصحاب النغم المميز .

وبأصفهان حى عتيق اسمه «جلنا» يقطنه الأرمن وبه ١٥ ألف أرمنى ، وتجولنا فى كنيسة الأرمن وهى تحفة فنية مقامة منذ القرن السابع عشر الميلادى ، وهى أول كنيسة تبنى فى إيران ، وإلى جانبها متحف يضم كل ما له علاقة بحياة الأرمن ، أول مطبعة وأول كتاب أرمنى طبع فى إيران ، ولوحات رسمها الأرمن . وأزياء الأرمن على مر العصور ، وصناعة الفضة والذهب والألماس ، ويربط بين حى الأرمن والمدينة جسر من تلك المنشآت الأثرية الجميلة ، ويعيش الأرمن حياتهم كجزء من نسيج المجتمع الإيرانى ، ولهم ممثل فى مجلس الشورى الإيرانى .

آية الله منتظرى

لعبت أصفهان دورا بارزا فى أيام الثورة ، فبالاضافة لما تتمتع به من جمال ، جوامع وقصور وبساتين ، فهى معقل لحياة سياسية نشطة ، تجمع فيها اليمين واليسار ، المتشددين والمعتدلين ، ولعل ذلك بسبب وجود بضعة آلاف من العسكريين الأمريكيين الذين كانوا يتولون تدريب قوات سلاح الجو الايرانى أيام الشاه ..

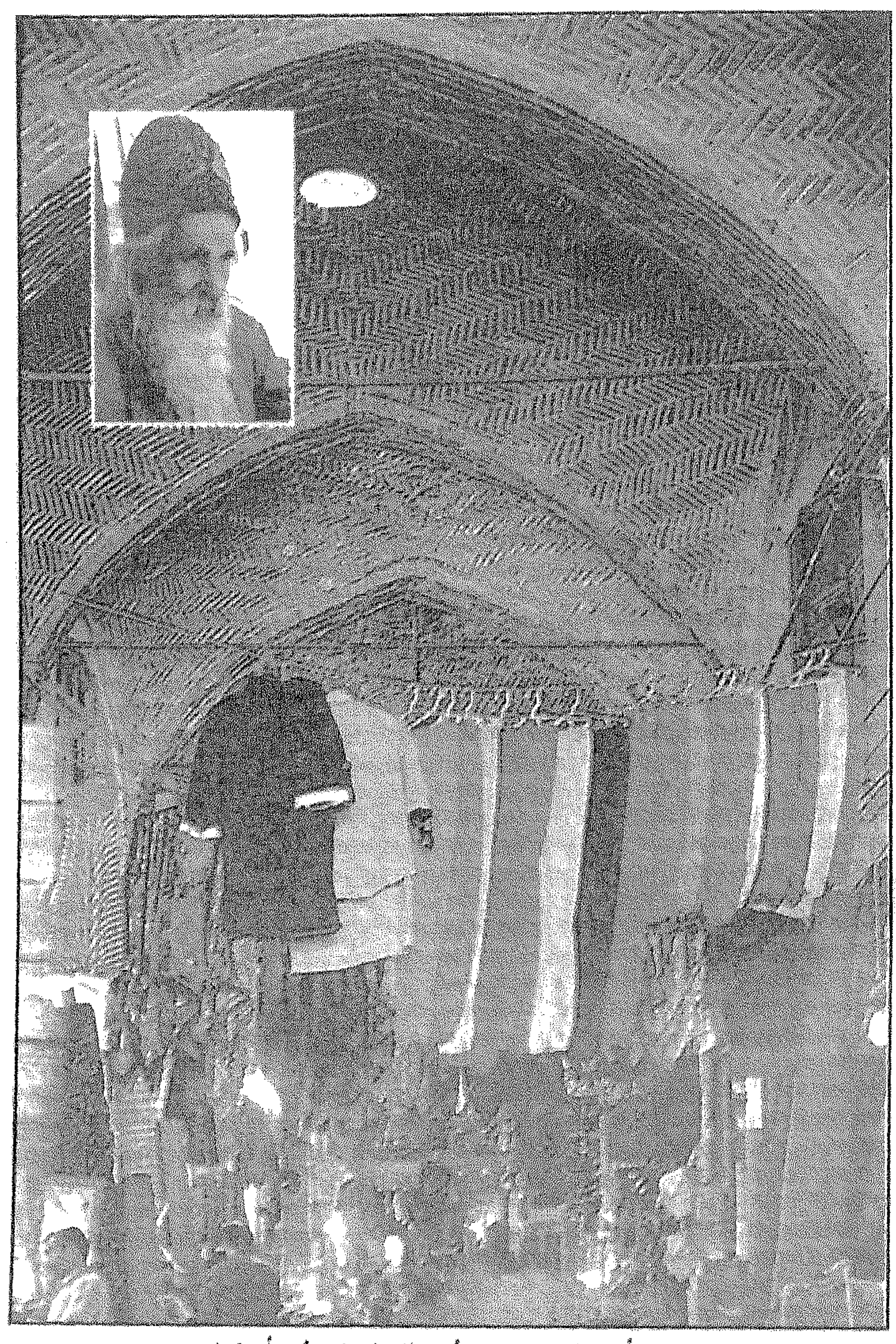
ونقطة أخرى ، أن أغلب أهلها المرجع لهم هو آية الله منتظرى ، وهو يعارض وهو على رأس هرم من الاتباع الذين يمتدون حتى إلى خارج إيران ، ويتلقى «الخمس» من مال كل شيعى حتى وهو تحت الإقامة الجبرية ، وينشر آراءه فى الصحف ، وأدت المظاهرات المؤيدة له فى أصفهان إلى فقدان وزير الداخلية عبدالله نورى منصبه عندما سحب مجلس الشورى الثقة منه ، والمحكوم عليه بالسجن من محكمة مختصة بمحاكمة العلماء ، رغم أنه أحد رجال الدين و«حجة الإسلام» ، وله تاريخ مجيد وحصل على أعلى الأصوات فى الانتخابات المحلية ، وهو ضحية الصراع الذى يدور اليوم بين المعتدلين والمتشددين.

الشخصية الايرانية

وأخذ المراقبون يتساءلون عن نتائج هذا الصراع ، وسر ما جرى ويجرى فى إيران ؟ . يتلمسون الأسباب والدوافع التى جعلت الإيرانيين يتصدون للقهر ويعرضون أنفسهم للموت ويحاصرون المطارات والمعسكرات أثناء الثورة ، وبرز سؤال .. هل هناك ثمة علاقة بين ما جرى ووجود شخصية إيرانية ذات سمات خاصة ؟

وظهر الكثير من الدراسات والتحليلات التى تتناول هذه المسألة ..

وهناك رأى شائع أن الموقع - أى الجغرافيا - هى التى صنعت ملامح الشخصية الإيرانية ، ويرجع البعض الآخر طبيعة هذه الشخصية إلى التاريخ الفارسى الذى صان هوية الفرس وحضارتهم ، وظهرت خلال هذا التاريخ



بازار أصفهان، ووجه لأحد الدراويش فى أصفهان

وكأن روحهم لا تقهر . ويرى البعض الآخر أن الدين لعب دورا حيويا في حياة إيران، وترك الكثير من الديانات بصمتها على الشخصية الايرانية .

وترى هذه الدراسات أن فهم أبعاد الثورة التي قادها رجل معمم هو آية الله روح الله الخميني ، وحقق بكلماته التي أطلقها وهو في باريس بعيدا عن وطنه ، وتنقل كلماته عن طريق الكاسيت ، وفعل ما لم تستطع عمله أحزاب كثيرة ثورية !، وهو ما يستحق التأمل حتى بعد عشرين سنة من قيامها .

ويتصف الإيرانيون بسياسة الرفق والمداراة ، والباطن عندهم ليس مثل الظاهر ، ويأخذون بـ «التقية» المستمدة من المذهب الشيعي ، الذي تعرض أتباعه للكثير من صور القهر والاضطهاد ، ويسعى الإيراني إلى حماية نفسه ، ولا يفصح إلا عن القليل ، ولا يكشف المرء عن معتقداته الحقيقية أمام الغير ، ويكشفون أفكارهم لدى نخبة روحية خاصة ، وأحد نصائح الشاعر الكبير سعدي تدعو إلى عدم ركوب المخاطر إذا أمكن مواجهتها عن طريق الأصفر الرنان ، وإيران بوتقة قادرة على أن تطبع سكانها بطابع خاص، ويتحلى الفرس بالكرم وحفظ الود وعدم نسيان الأذية ، ويراعون آداب المجالس ، وهم مولعون بالفنون ، العزف والغناء والنقر على الدفوف والطبول وظهور أعذب الألحان ، ويحفظ معظمهم الشعر والحكم ، ويكاد لا يخلو متحف في العالم من اللوحات للمنمنمات الفارسية .

وهم ميالون إلى الترحال ، ويوجد إيرانيون في كثير من أنحاء العالم ، والإيراني ذكي وله بصيرة صادقة ، وهو ميال بطبعه إلى الدعابة ، وفي حديثه الكثير من النوادر والأمثال . وهناك مثل إيراني يقول .. «إذا عشت فترة في إيران فلن تعود كما كنت عليه من قبل» ، فتأثيرها طاغ على زائرها . ويقال ... «من النادر أن تتفق شخصيتان ايرانيتان على شئ واحد في إيران» .. ويقول الجاحظ مداعبا .. «كل الديوك تطعم إناثها إلا الديك الفارسي.!»

طريق الحرير ..

تقع إيران في قلب آسيا وهي المدخل لبعض دولها ، وهي بلاد شاسعة ومتنوعة ، فيها الجبال العالية والوديان والغابات والأنهار والصحراء ، وألقت الجغرافيا بظلها على شخصيتها ، عندما حالت الجبال من انتقال اللغة العربية إليها في الوقت الذي دخلها الإسلام ، وشكلت الجبال الحد الفاصل بين العرب والفرس ، بين شعوب سامية وأخرى آرية ، ولم يحل الجبل دون انتقال الدين ، وعجزت اللغة العربية عن تسلقه وعبوره .

ولعل التنوع اللغوي والعرقي أحد العوامل المؤثرة في الشخصية الإيرانية فاللغة الفارسية هي السائدة يتحدث بها ما يزيد عن نصف السكان ، ولكن تقف إلى جوارها لغة البوشتو الأفغانية ، واللغة العربية في خوزستان والكردية في كردستان .

وتسعى الإدارة الحالية إلى مواجهة

هذا التقسيم العرقى عن طريق نوع من اقتسام السيطرة بين مختلف الجماعات العرقية التى يوحدها الدين ، فسيطر الفرس على الحكومة ، والأذر على الاقتصاد ، ومنحت بعض المناصب الهامة فى الجيش والحرس الثورى لممثلين لكل من العرب والترك . ويتعامل الدستور الحالى مع مواطنين متساويين فى الحقوق ولا يتعامل مع أقليات قومية أو دينية .

ولعل طريق الحرير وما يشهده من تغيير هو أصدق تعبير عن أثر الجانب الجغرافى .

الزمان : ١٣ مايو سنة ١٩٩٦ ، والمكان : خيمة كبيرة وسط صحراء إيران، تتوالي وفود ٤٠ دولة ، بينهم رؤساء دول آسيا الوسطى ، وأيضا رؤساء كل من تركيا وباكستان وأفغانستان وأرمينيا وجورجيا .

وخلال هذا الاجتماع تم الإعلان عن إحياء طريق الحرير القديم ، وإقامة شبكة سكك حديد آسيا ، ويصل خط السكة الحديدية بين بكين شرقا والبحر المتوسط غربا ، وبين بكين واسطنبول . ووصف لى بينح ممثل الصين هذا الخط أنه يرمز إلى التطلع إلى القرن الحادى والعشرين .

وتستعيد إيران بهذا المشروع مكانتها كمفترق طرق بين آسيا وأوروبا والشرق الأوسط ، ويغيب دور إيران القديم كسد أمام الشيوعية ، الذى كان بسببه يدعمها الغرب ، وتحولت إلى ممر ومعبر لجمهوريات آسيا الوسطى ويصل بمنتجاتها إلى المياه الدافئة . ويقوم من جديد[٨] الطريق الذى رسمه التجار منذ ما يزيد عن ألفى عام ، وهو ذات الطريق الذى قطعه الفاتحون ، مثل الاسكندر الأكبر والرومان والجيوش العربية وجحافل كل من جنكيز خان وهولاكو وتيمور لنك ، واقتفى أثره الرحالة ابن بطوطة وماركو بولو .

ويتحول الطريق من مجرد ممر للدواب والجمال ذات السنامين والخيل والحمير والبغال ، إلى القاطرات وطريق للسيارات والشاحنات ، وفى الماضى كان الحرير هو أهم المنتجات التى تنقل على الطريق ، واليوم النفط هو أهم المنتجات التى تسلكه، وعن هذا الطريق جاء من الصين أكثر المنتجات أهمية من الناحية الثقافية ، جاء منه الورق الذى أحدث ثورة فى التواصل الحضارى فى العالم .

ويشكل هذا الطريق رابطة العقد بين الشرق والغرب ، وهو درب الحج إلى مكة المكرمة ، واسترد قيمته بعد أن استرد النقل البرى مكانته وأصبح أفضل وأرخص وسيلة للنقل .

ويتأكد باحياء الطريق دور إيران كبداية آسيا ، فهى ذات علاقات دينية ولغوية وعرقية مع جمهوريات آسيا ، وخاصة جمهورية أذربيجان المقسمة مع إيران ، وطاچاكستان ، التى ينتشر فيها مع أذربيجان المذهب الشيعى ، كما أن عدد المسلمين فى الجمهوريات التى كانت تابعة للسوفييت يبلغ اليوم نحو ٧٠ مليون نسمة .

ولم تكن إيران منكفئة يوما على ذاتها

داخل الهضبة الإيرانية ، وإنما كان تأثيرها يمتد إلى ما حولها .

ويرتبط بالجانب الجغرافي ما يجرى على الحدود الإيرانية الأفغانية ، ولم تفتح الحدود بين البلدين إلا مؤخرا ، وهى حدود ساخنة سواء نتيجة ما يجرى فى أفغانستان ، أو لأن هذه الحدود هى أحد طرق تهريب المخدرات من داخل أفغانستان ، وتسعى العصابات الدولية إلى عبور الحدود الإيرانية الأفغانية ، وتنقل منها إلى دبى ، ومن دبى إلى أسواق العالم ، ومنطقة الحدود يسكنها «السنة» وتمتد عشائرها إلى كل من أفغانستان وباكستان ، مما جعل ضبط الحدود مسألة بالغة الصعوبة ، وترتبط مصالح البعض باستمرار الحرب الأهلية والصراع المسلح ، ومناخ الحرب الأهلية هو المناخ المناسب لزراعة المخدرات وتهريبها ، وفى العام الماضى انتجت أفغانستان نحو ٤٠٪ من أفيون العالم ، وفى هذا العام انتجت ٧٥٪ من إنتاج العالم ، وتستمر المعركة بين المهربين وحرس الحدود الايرانى ، وسقط فى هذا الصراع من رجال حرس الحدود ما بين ٢٠٠ و ٣٠٠ حارس إيرانى ، وخلال زيارتنا لإيران أخذت إحدى العصابات الدولية بعض السياح الأجانب كرهائن ، وطالبت بالافراج عن عدد من زعماء عصابات المهربين ، واستجابت الحكومة الإيرانية لمطالبهم ، ولم تكن هذه هى المرة الأولى .!.

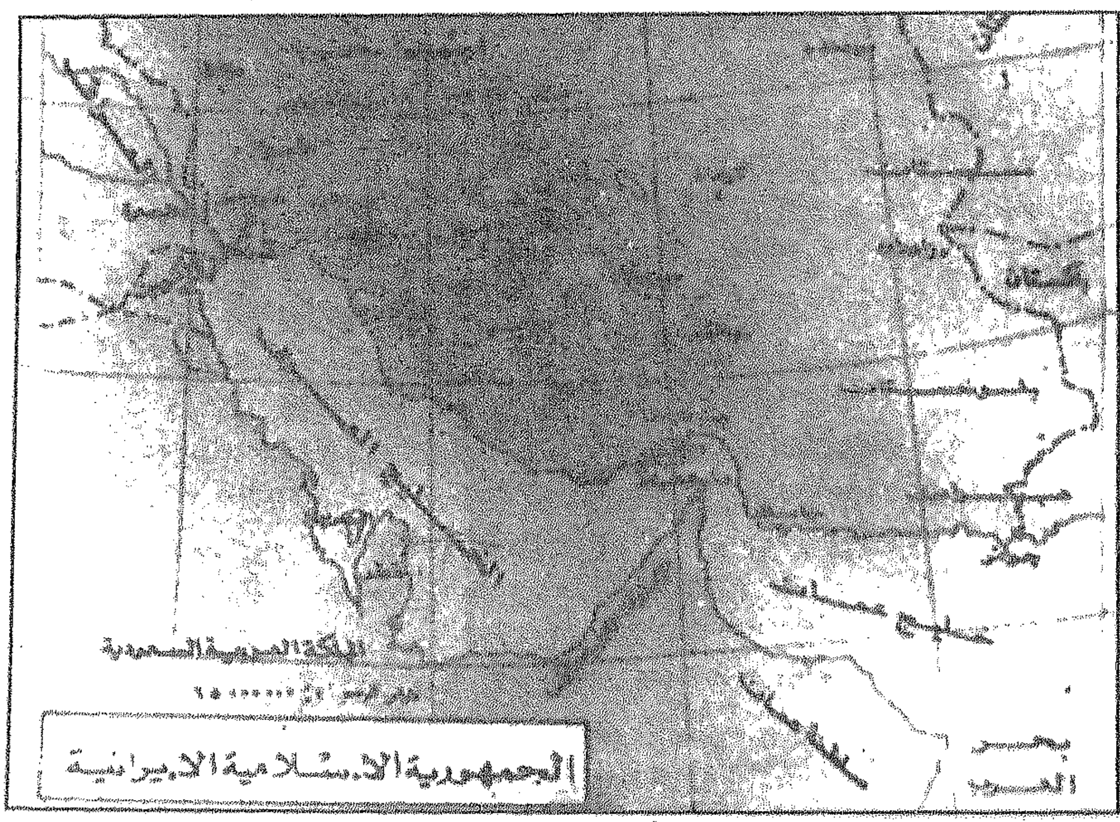
أعمدة الشرق

إذا كانت مصر هى مدخل أفريقيا والعالم العربى ، وتركيا مدخل أوروبا ، فإيران هى مدخل آسيا ، وآسيا هى مركز ثقل الإسلام وبيته الحقيقى - كما يقول د. جمال حمدان - وهى تضم وحدها أربعة أخماس مسلمى العالم ، وهى قلعة وكعبة وقلب ، وان كان عدد المسلمين فيها لا يزيد عن ٢٠٪ من سكان القارة ، نجد فى هضبة إيران كتلة إسلامية موزعة بين إيران وأفغانستان ، وتنفرد إيران بأنها كتلة الشيعة الأولى فى العالم ، فهى موطن الإثنى عشرية التى يمتد نفوذها غربا إلى جنوب العراق ، وبدرجة أقل شرقا فى أفغانستان وبعض باكستان ، ويوجد على التخوم المشتركة بين تركيا وإيران الإسلام فى أرمينيا والقوقاز وأذربيجان ، ثم يصل إلى سفوح الجبال الشمالية حتى سواحل بحر قزوين الغربية .

وأصبح فى حكم الحقائق الجغرافية والسياسية المقررة ، أن الشرق الأوسط له ركائز ثلاث ، تمثل أعمدة الشرق ، وهذه الركائز الثلاث هى مصر وتركيا وإيران ، وهى دول متشابهة من حيث الأهمية الاستراتيجية والوزن التاريخى والسكانى فتعداد كل منها يتجاوز ٦٠ مليون نسمة ، ولكل منها موقع استراتيجى حاكم في الإقليم الذى تنتمى إليه، وهناك جهود دولية دائمة لكى تتقطع أوصال هذا المثلث!.

ومن المفارقات فى هذا المجال .. أنه يوم كانت إيران جسرا وأداة للغرب فى الشرق الأوسط ، ومصدر النفط الرئيسى لإسرائيل وعضوا فعالا فى الأحداث العسكرية الغربية ، وشرطى الخليج الذى يقوم بالدفاع عن المصالح الغربية ، وعندما نجحت إسرائيل فى كسب إيران ، لكى

بعض الشعارات الدينية فالتدين ظاهرة عريقة فى ايران



خريطة ايران وما يحيط بها

تحاصر العالم العربى بمثلث يضم الحبشة وإيران وتركيا ، فتحت أمامها كل الأبواب فى العالم العربى ! .

وعندما أعلنت تأييدها لتحرير القدس، ودعمها لحق الشعب الفلسطينى فى استرداد حقوقه المشروعة ، نشبت الحرب العراقية الإيرانية ، وتدهورت العلاقات العربية الإيرانية ، وأغلقت أمامها بعض أبواب العالم العربى .

رغم أن العمالة الإيرانية فى الخليج تصل إلى نصف مليون إيرانى ، كما أن نسبة الشيعة فى دول الخليج تصل إلى ٢٥٪ من السكان . وتمثل إيران حجر الأساس فى محيط الشيعة الإثنى عشرية، الذى يبلغ عددهن نحو مائة مليون نسمة . فالشيعة ٧٥٪ من سكان البحرين ، وبين ٣٠و٤٠٪ من سكان الكويت ، و٣٠٪ من سكان الإمارات ، ونسبة مرتفعة من سكان المنطقة الشرقية فى السعودية .

وهناك عامل له تأثيره الواسع على ما يجرى فى إيران ، وهو وجود عدد كبير من الإيرانيين فى الخارج ، والذى يصل عددهم إلى مليون إيرانى يعيشون فى أمريكا وكندا وبعض الدول الأوروبية .

تركيا وإيران

ومن المفارقات .. ذلك الصراع المستمر بين تركيا وإيران ، قديما كان بين الصفويين الشيعة والعثمانيين السنة ، وحديثا كأن الدولتين تسيران فى اتجاهين متعاكسين، ترى تركيا ضرورة فصل الدين عن الدولة ، وتأخذ إيران بفكرة «ولاية الفقيه» الذى يضمن تطبيق الشرع.

وبينهما .. أعجب رضا بهلوى الأب بمصطفى كمال أتاتورك ، وسعى لتقليده والسير على خطاه، ومنع الحجاب وألغى العمامة ، وعمل على تغيير الحروف العربية بالحروف اللاتينية ولكنه لم يفلح .

ولهذا الصراع انعكاسات على جمهوريات آسيا الوسطى التى يتقاسمها الفرس والترك ، والسنة والشيعة ، بعضها يؤمن بالنموذج التركى والبعض الآخر يسعى لتطبيق النموذج الإيرانى ..

مصر وإيران

وهناك تشابه كبير بين مصر وإيران ، سواء من حيث الثقل السياسى لكل منهما، أو تأثيره فى الإقليم الذى ينتمى إليه ولا حاجة هنا إلى القول أن مصر ترمز للعرب أيضا ، كما يوجد تأثيرات متبادلة بين البلدين، أثرت ثورة مصدق فى إيران فى منتصف هذا القرن وتأميمه للنفط فى إيران فى مصر وكان لها صدى كبير، وما حدث كان موحيا ومؤثرا على الثورة المصرية التى قامت فى يوليو ١٩٥٢ ، وعادت الثورة المصرية لكى تقدم نموذجا موحيا للشعب الايرانى .

ومن جانب آخر فأكثر ما يلفت إنتباه المصرى عندما يزور إيران ، تلك الحفاوة التى يلقاها ، وكلمة «مصر» تفتح له كل الأبواب ، فلمصر تقدير عميق لدى الشعب الإيرانى ، وتمتد العلاقات المصرية الإيرانية إلى أعماق التاريخ ، وقد ذكر هيرودوت أن قورش ملك ملوك فارس طلب من فرعون مصر أن يبعث إليه بطبيب

ماهر فى علاج العيون . ولبى فرعون وأرسل الطبيب ، وخطب بعدها قمبيز ابن قورش ابنة فرعون مصر .

ويتواصل التفاعل بين مصر وإيران ، وقام عدد من الأساتذة الأكاديميين فى تقديم الثقافة والأدب الفارسى للقارئ العربى ، منهم الأساتذة عبدالوهاب عزام ويحيى الخشاب ومحمد صقر خفاجة ، وتوالت الأجيال حتى الدكتور إبراهيم الدسوقى شتا . وأقيمت أقسام تعلم اللغة الفارسية فى معظم الجامعات المصرية التى أخذت تؤكد على التأثيرات المتبادلة بين الحضارتين والثقافتين .

وإذا كان ٤٠٪ من المفردات الفارسية عربية ، فقد انتقلت إلى اللسان المصرى الكثير من الكلمات الفارسية ، والتى ذكرها د. محمد نور الدين عبدالمنعم فى كتابه «الألفاظ الفارسية فى العامية المصرية» ، ودخلت هذه الألفاظ إلى العديد من مناحى الحياة .. فى الطعام كلمات فارسية مثل بقلاوة وخشاف وبالوظة وزلابيه وباذنجان وبقسماط وكباب وكشك وطرشى .. وغيرها .

وفى الملابس كلمات مثل بفتة وبؤجة وجوخ ودبارة وفوطة وقفطان وكليم وكنار وياقة وكم .. وغيرها .

والأدوات المنزلية .. إبريق وبرواز وجنزير ودبوس ورف وشمعدان وطاسة وسبت وشاكوش وشنطة وكباية وكنكة وكوز وغيرها علاوة على كلمات مثل أوسطى وهندسة وداية ودكان ..

وهذا دليل على التفاعل الثقافى سواء أيام الخلافة الإسلامية وخاصة العباسية ، أو أيام الفاطميين أو المماليك ، ووفد الفرس إلى مصر علماء ومتصوفة من إيران ومنهم الليث بن سعد إمام أهل مصر وأكبر فقهائها ، ولا يمكن هنا إغفال حضور السيد جمال الدين الأفغانى من إيران إلى مصر واللقاء الذى تم بينه وبين الشيخ محمد عبده ، وقادا معا حركة التجديد الإسلامى .

وتأسس فى القاهرة فى الأربعينيات دار التقريب بين المذاهب وتبنى هذه الدعوة علماء الأزهر الشيخ عبدالمجيد سليم والشيخ محمود شلتوت ، ومن علماء إيران الشيخ تقى الدين القمى ، وعند تولى الشيخ شلتوت مشيخة الأزهر سنة ١٩٥٨ جعل المذهب الشيعى الجعفرى أحد المذاهب التى تدرس فى الأزهر ، مثله مثل المذاهب الأربعة .

وبقى أن أقول .. أن أهم ما خرجت به من هذه الرحلة ، أن المشاكل واحدة فى هذا الجزء من العالم الذى يطلق عليه الشرق الأوسط ، ذات المشاكل حتى إذا تغيرت المسميات ، وإن لبست أردية مختلفة واتخذت ألوانا متعددة ، فالتشابه قائم ، والاستفادة من تجارب بعضنا البعض ضرورة ، والتعاون مهم من أجل اللحاق بالعصر ..

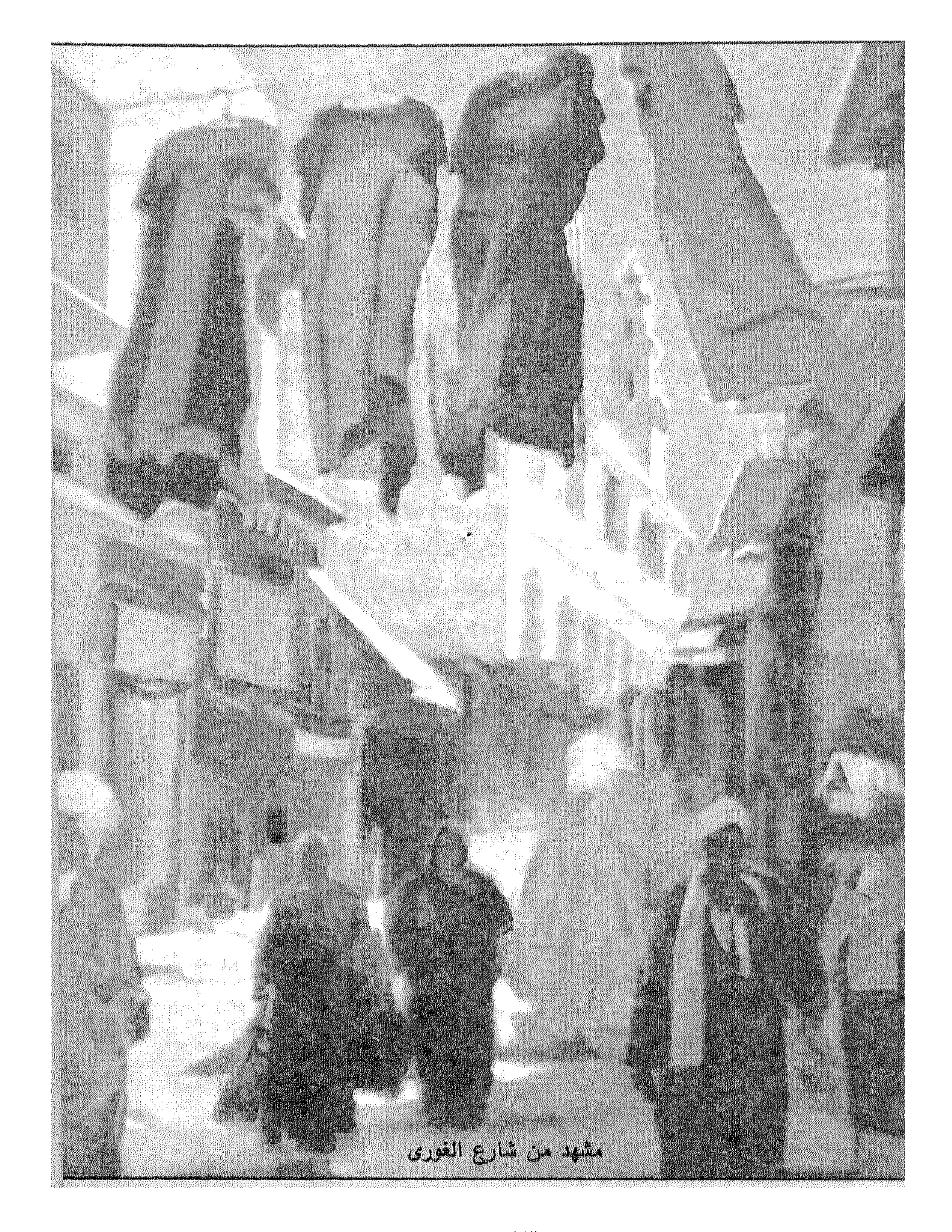
فكثيرا ما تصورت عندما كنت أتجول فى طهران أو أصفهان ، أننى مازلت فى شوارع وأحياء القاهرة . فعبق الشرق واحد .

زهران سلامة

والحنين إلى المنظر الخلوى

بقلم : محمود بقشيش

لحسن حظ الفن أنه ، مهما تراكمت مدارسه وأساليبه عبر تاريخه ، فإنّ الجديد منه لايطمس قديمه كلّ الطمس ، بل على العكس تظلّ إبداعاته العظمى مستمرة العطاء ، متجدّدةً في شرايين التطور . كلّ مدرسة وكلّ أسلوب فى الفن هو حضور تناسل من موجودٍ فنىّ سابق ، ويحكم طبيعة الموجود الفنى الجديد المخالفة - فى بعض جوانبه - مع الجذْر الأسبق - سواء كان جذراً قديماً أو حديثاً - فى هذا الإطارَ الحنينى قدّم الفنان «زهران سلامة» معرضا بقاعة بيكاسو للفنون الجميلة ، تدور كل لوحاته حول موضوع «المنظر الخلوى» الذى تجلّى فى المرحلة التأثيرية التى وُجدت فيما بين (١٨٦٣ - ١٩٠٠) وأحدثت ثورة فنية ماتزال أصداؤها قائمةً .



مشهد من شارع الغورى

وعندما أخرجت «التأثيرية» الفنانين من المراسم المغلقة إلى فضاءات المشاهد الخلوية منحتهم الطريق إلى اكتشافات باهرة فى مجالى اللون والضوء، بعد أن كان المنظر الخلوى فى اللوحة الأوربية، منذ القرون الوسطى مجرد خلفية مُتَخيّلة، أشبه بديكور المسرح. وأفلحت التأثيرية فى إبعاد الفنانين عن استلهام الموضوعات ذات الطابع المسرحى - الحكائى . والتركيز على جماليات البيئة الطبيعية لهذا تُعَدُّ التأثيرية - بحق - فناً للبهجة والتفاؤل .

الترحال

مثلما اختار التأثيريون الأوائل الترحال طريقاً للكشف عن جماليات البيئة، أقام «زهران سلامة» رحلاتٍ متلاحقة داخل مصر وخارجها منذ تخرجه فى كلية الفنون الجميلة (قسم التصوير) سنة ١٩٦٢ بقصدٍ واحد لم يُبذله وهو الإمساك بمواطن الجمال فى الوطن المصرى، تلك المواطن التى أهملتها بلادة الحس. ولأنه يمتلك مهارةً فائقةً فى نقل الواقع فإنه يختار - أحياناً - عناصر قد تبدو لنا هامشيةً، عديمة القيمة، ولكنه يبثّها حياةً جديدةً تثير إليها الانتباه والإعجاب. ورغم ذلك فلابد من الاعتراف بأن البيئات الأوربية قد أتاحت لرساميها التأثيريين من صفاء اللون ما لم تتحه لرسامى البيئة القاهرية التى تُجبر رساميها - ومنهم زهران - على إلتقاط تلك الستارة المغْبّرة، المُسْدلة على وجهها فتُعكّرٍ صفاء اللون وهو شرط اللوحة التى تنتمى إلى هذا الأسلوب، وقد ظنَّ «يوسف كامل» - بحسن نيّة - أنه فنان تأثيرى، على الرغم من تلوث ألوانه بالألوان القاتمة التى ينفر منها التأثيريون، قال عنه نفسه: «لقد ولدتُ وسأموت تأثيرياً». وربما كان الفنان «حسن سليمان» من أوائل الفنانين الذين إلتقطوا تلك الستارة المتْربة التى تلوث وجه القاهرة وسماءها، وانتقلت إلى نسيج لوحاته وأغرقتها باللون الرمادى، غير أنها فى لوحات «حسن سليمان» كانت تمتلك من الجاذبية ما جعلها تُؤثّر فى غيره من الفنانين - ومن بينهم فناننا «زهران سلامة» - وكان عليه، لتنقية ألوانه وتحريرها من أسر الحياد الرمادى أن ينفلت من القاهرة ذاتها، وربما لاحظ «زهران» أن القاهرة لم تكن على هذه الدرجة من التلوث فى زمن الرسامين المستشرقين، وتكشف لوحاتهم عن القاهرة عن صفاءٍ بالغ، لا أثر له الآن،

ونحن نصدق لوحاتهم لأنهم كانوا يتميزون بدقة الوصف، اختار «زهران سلامة» لنفسه قطعة أرض برأس سدر، أقام عليها مرسما ومأوى، وأحاطها بما استنبته من محصولات يقتات بها. ويعيش راهباً، يتأمل ما تمنحه الصحراء والبحر من صفاءٍ وهدوء، لامثيل له في القاهرة. وهو يتحصّن في عزلته بالصدق، مبتعدا عن طوفان البِدَع التي تُروِّج لها وزارة الثقافة الحالية بدعوى العولمة، وهي دعوةٌ في جوهرها إتباعٌ واغتراب وخواء.

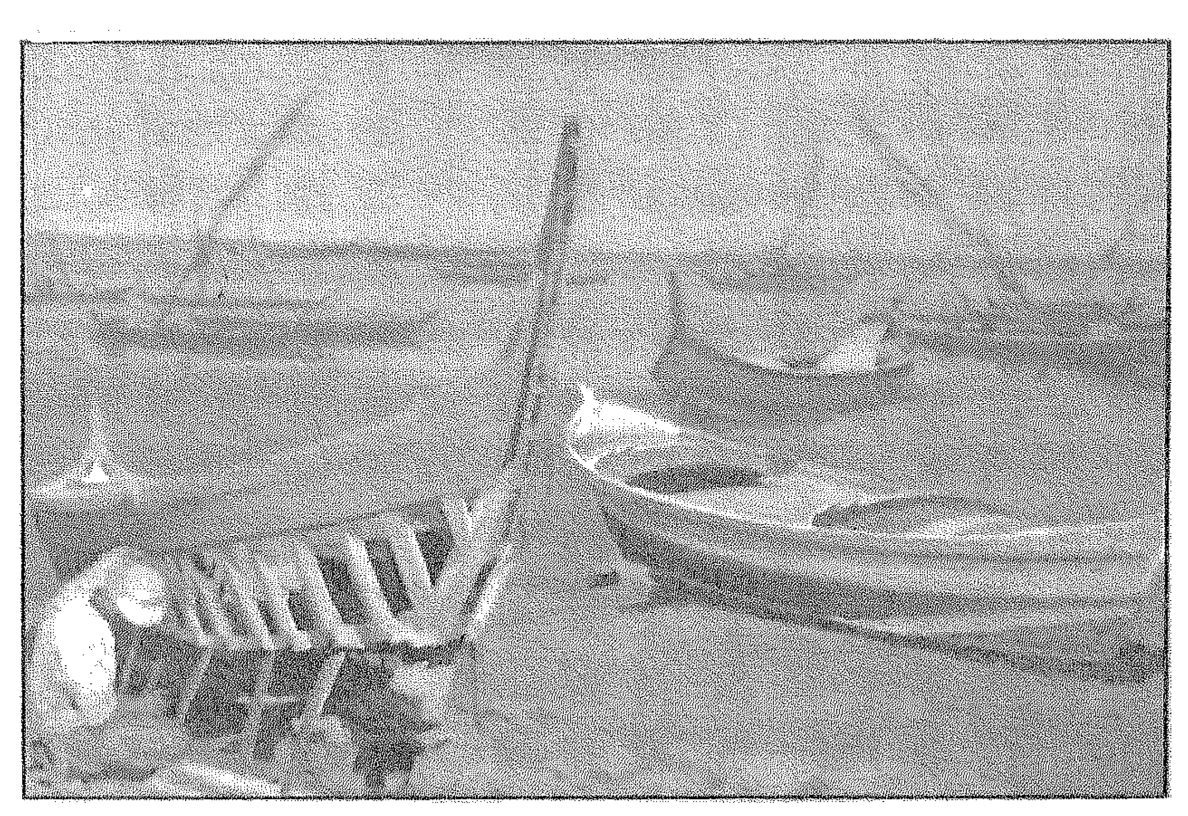
انطباع الوهلة الأولى

عندما احتوتني قاعة العرض أدركت – للوهلة الأولى– أنّ بعثاً جديداً قد حدث وأن سببه هو البيئة الجديدة التي اختارها لنفسه، وجاءت ألوانه هذه المرة صافيةً، ظهرت الألوان الساخنة والباردة صريحةً، بعد أن كانت تتخفى تحت غطاء رماديّ قاهر، مُشْمسةً، تسطع بحضور قويٍ وأسبقية على الحياد الرمادي. وهو لايُفتّت اللمسات مثلما يفعل التأثيريون، بل يترك للعين فرصةً للتمتع بمساحاتٍ لونيةٍ واضحة، كما في لوحته المسماة: «صناعة مراكب الصيد، حيث جاءت الطلاءات اللونية التي تُغطي أجسام المراكب مُبرّرة، ووضعها في مقدمة اللوحة، ونشر الألوان الزرقاء والسماوية خلف المشهد لِتُزيد من قوة الأصفر الأوكر والأحمر والأخضر والأبيض، وتوكد صلابة مشاهد المقدمة.

وفي لوحة أخرى يتغنى بسطح بحيرة صغيرة صافية كمرآة، تنعكس عليها الألوان والظلال، تحيطها من كل جانب مساحات من خُضرةٍ مُشْمسة، ضاربة إلى الصفرة، ولأنه في الأصل ابن ريف فقد قدّم في عددٍ من لوحاته بعض عطاياه، في رسم مشاهد من ريف مصر مما أتاح الفرصة الظهور مساحاتٍ من الخضرة المضيئة.

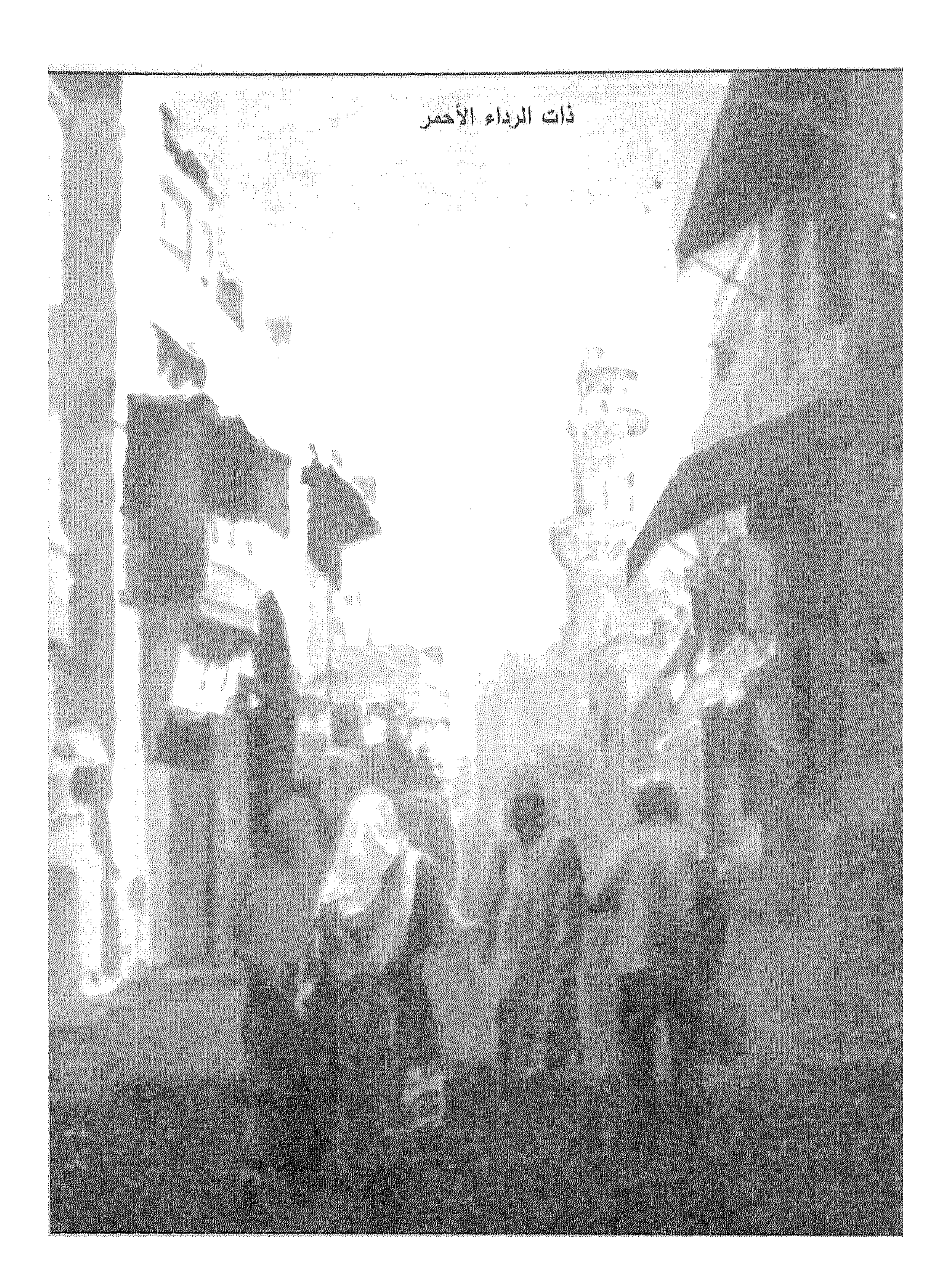
غرائبية الأشياء المعتادة

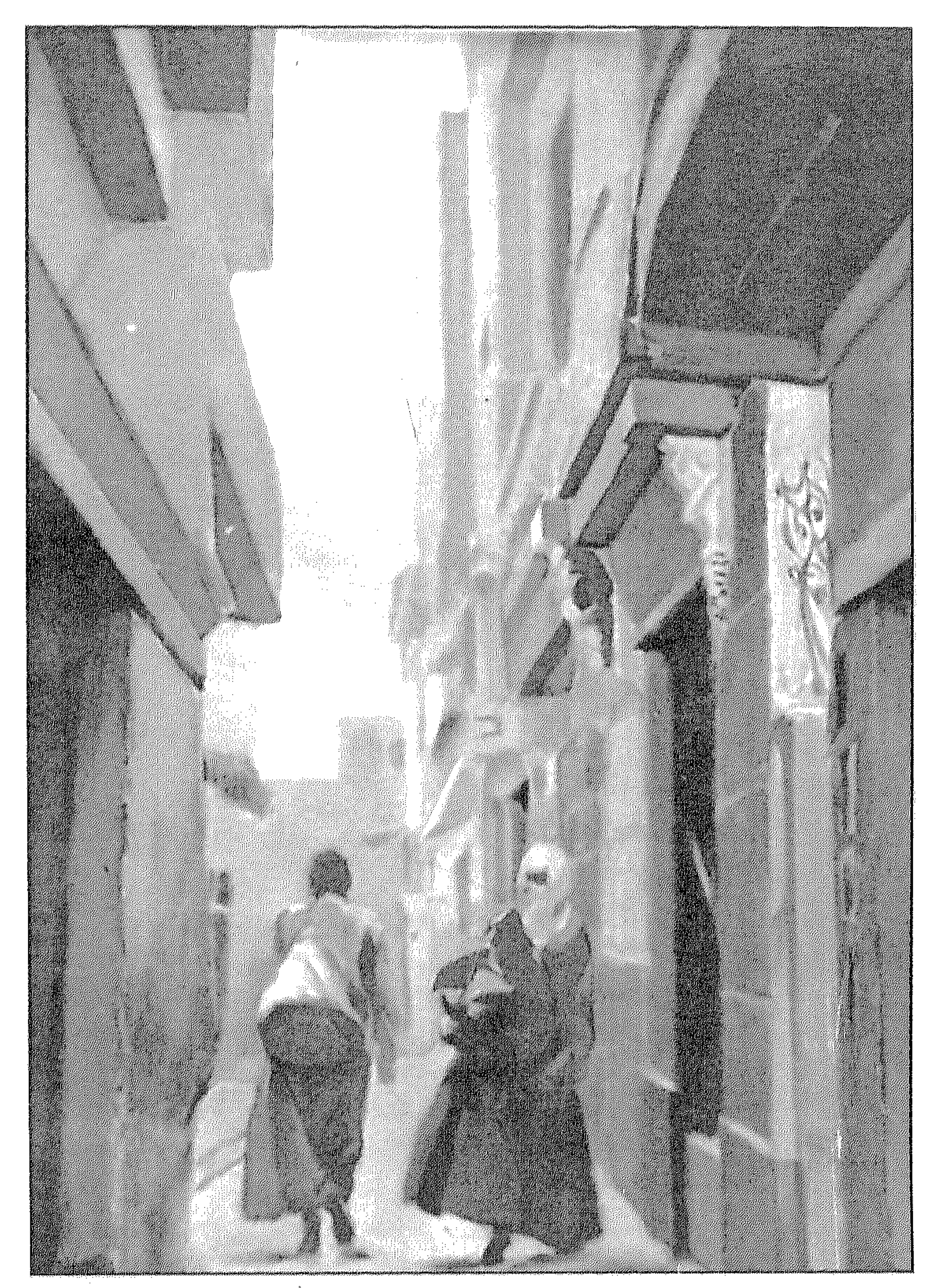
كان «بول جوجان» يعيب على «فان جوخ» في رحلاتهما المشتركة إلى المشاهد الخلوية بأنه بلا خيال، مجرد عين تلتقط ماتراه مباشرة وتنقله إلى سطح اللوحة، وكان «فان جوخ» يرفض هذه الإتهام، غير أنه في إحدى رسائله إلى شقيقه يعترف بأنه ليس أكثر من عين، وربما انتبه «زهران» إلى ذلك وأدرك أنه ليس آلة تلتقط ماتراه العين، من هنا ظهرت بعض محاولاته – خصوصا عندما تمرّد على الغطاء الرمادي بالألوان الصريحة – وتؤكد تلك المحاولات حرصاً طارئاً منه على اكتشاف مافي المألوف من إشارات تثير الدهشة. ومن اللوحات الدالة على ذلك لوحة رسمها تصور جانبا من جوانب



صناعة المراكب

بحيــرة من نور

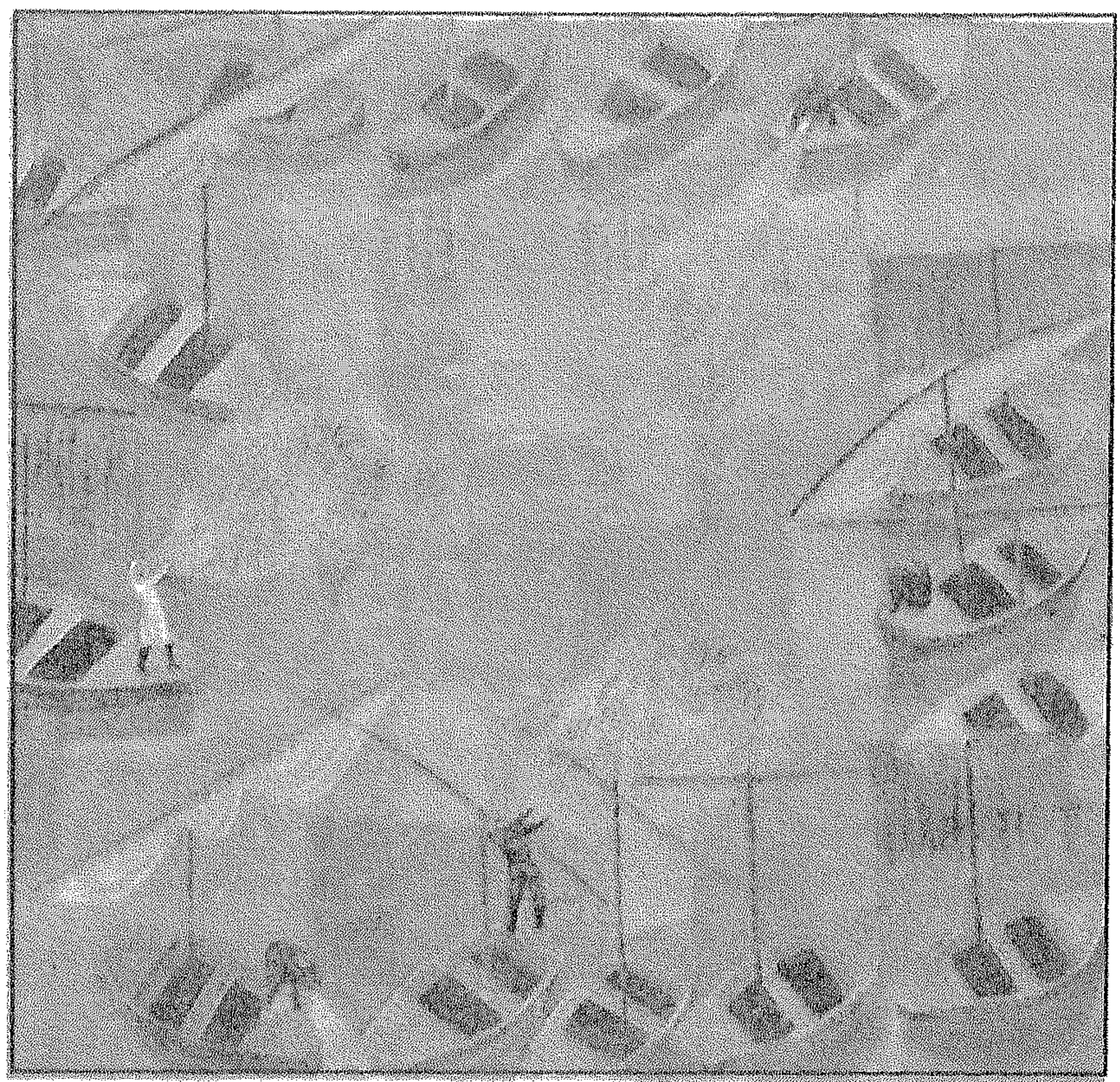

ذات الرداء الأحمر



من أعمال الفنان زهران سلامة

الشارع المتخم بالمتاجر والبشر، والأمر عند هذا الحد مألوف، لا جديد فيه، وأغراه ذلك برسم ثياب مغلقة فى فضاء اللوحة العلوى حيث بَدَت فى تدلِّيها أشبه بكيانات إنسانية مشنوقة، وقد شهد تاريخ المنطقة فى قرون مضت مآسى تذكرها الفنان وأراد لنا أن نتذكرها بالإشارات الرامزة.

على أن تلك الإشارات الطارئة تُعمّق المشهد الاعتيادى، وتدعونا إلى تأمله من جديد، ويدعونا - أحيانا - عامدا متعمداً إلى رسم مشاهد غير معتادة، شكّلتها عوامل الهدم والبناء الإنسانى والطبيعى، فيتوقف بريشته وألوانه أمام أطلال، ويدرسها دراسة وصفية دقيقة، مُركّزاً على الكتل والحجوم، ومقابلات الضوء الساطع والظل الكثيف، فى مثل هذه المشاهد لايضيف إليها ما أضافه فى لوحة شارع الغورى، بل ينقل ماهو غريب فى الواقع المرئى إلى سطح اللوحة بأمانةٍ تقتضى مهارة فائقة، يتمتع بها بالفعل زهران سلامة، وإذا كان الشىء بالشىء يُذكر فقد ذكرتنى لوحة «أطلال» لزهران بلوحة للفنان الألمانى (كاسبر داقيد فردريش - ١٧٧٤ - ١٨٤٠) وهو أهم رسام للمناظر الخلوية فى ألمانيا ولوحة «فردريش» تسمى «بحر من جليد» ويُطلق عليها عنوان آخر هو : «تبدُّد الأمل أو فقدان الأمل» وهى تمثل آثار اصطدام مُروّع لسفينةٍ فى جبل عائم، واللوحة لاتُظهر أىّ أثرٍ للسفينة، بل تُظهر بجلاء كُتل الجليد المهشمة، وقد بدتْ خشنة الملامح، حادة الحواف، والمشهد فى جملته يلقى فى النفس شعورا بالإكتئاب، وهى حالة قد لازمت «فردريش» نفسه طوال حياته، وكانت ريشته التى لا نظير لها فى البراعة، لاتتألق تألقها الرائع إلا مع المشاهد الخلوية الموحشة، مثل مشاهد المقابر والأديرة التائهة فى البرارى وخلف التلال البعيدة، بينما ظهرت أطلال «زهران» تحت شمس مصر الساطعة وكأنها معرض لمنحوتاتٍ صنعتها المصادفات وجاءت بها إلى ريشةٍ حاذقةٍ فالتقطتها ونقلتها إلى سطح اللوحة، غير أن تلك الحيادية لاتظل كما هى فى كل الأحوال، ففى لوحة: «أطلال أسوانية» أو «أحجار أسوانية» - إن شئت - تتسلل إلى المشهد المرسوم روح شعرية مُرهفة ومن زار أسوان يجد أن عوامل التعرية قد نحتت فى أحجار الجبل أشكالا تحسبها - للوهلة الأولى - من إبداع كبار المثّالين! ..

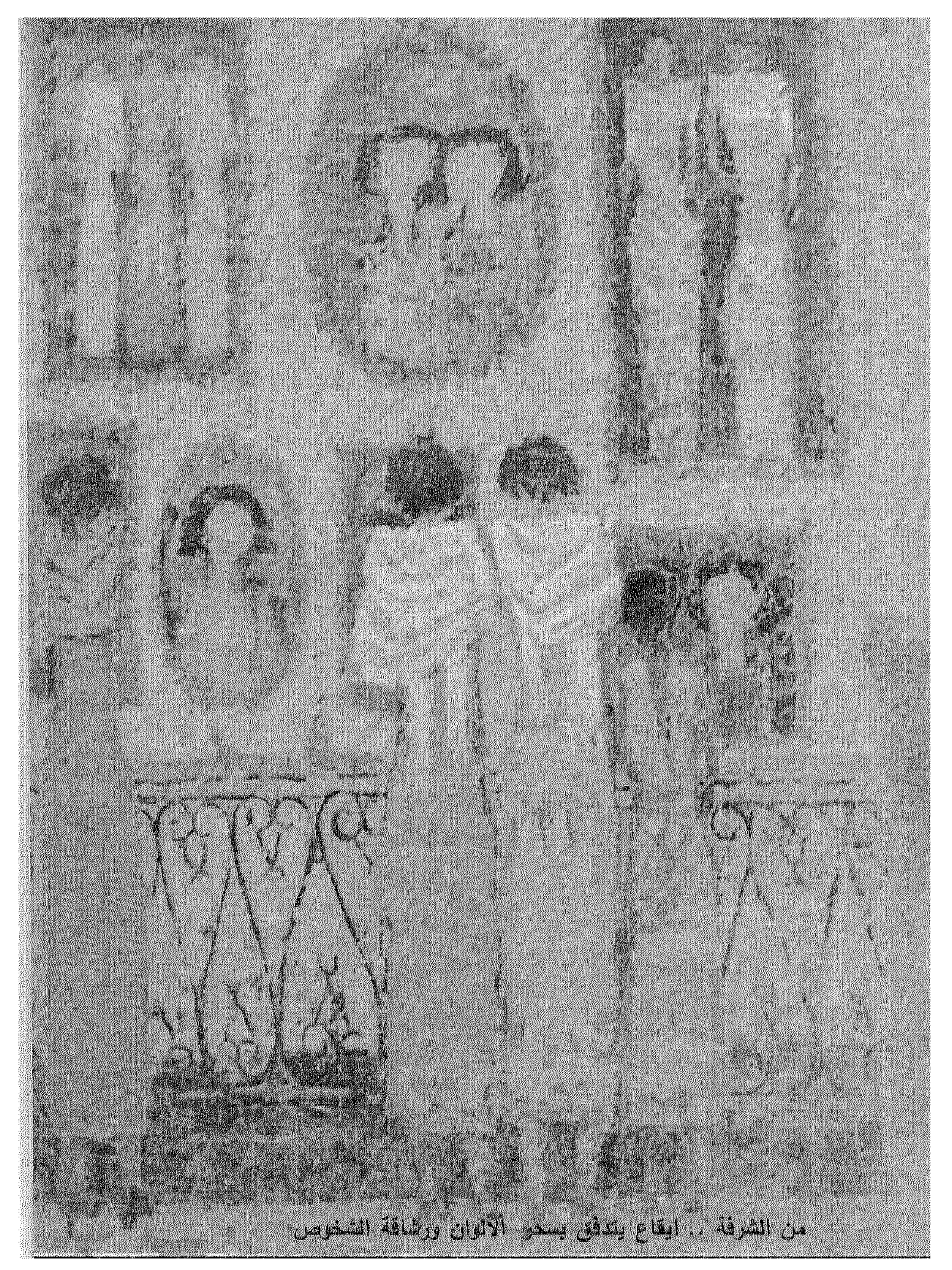


القوارب معزوفات غنائية مع شباك الصيد

فى متحف سيد عبد الرسول

رقصات الخيل والمزمار .. وموال من مصر

بقلم: صلاح بيصار



من الشرفة .. ايقاع يتدفق بسحر الألوان ورشاقة الشخوص

في قاعة أنيقة تطل على حديقة خضراء بضاحية مدينة نصر .. تمتد أعمال الفنان سيد عبدالرسول بمصرية شديدة .. تتألق على الحوائط والزوايا والأركان في تنوع وثراء من التصوير والحفر إلى الخزف والفخار والنحت .

من بين الأعمال كانت تطل الخيول الراقصة .. تهتز طرباً على إيقاع المزمار البلدى والربابة والأرغول في لوحة مواجهة لها ، وفي حضرة صبايا الريف ، واللائي خرجن يتطلعن من فتحات صندوق الدنيا بلوحة مجاورة .

كان هذا المشهد بمثابة همس شاعرى أخاذ وفرح صامت يصدح بغنائيات اللون .. يردد بداخلنا «اتفرج يا سلام»، هذا التعبير الشعبى الذى يتواءم مع عالم الفنان عبدالرسول الذى رحل عن دنيانا منذ أربع سنوات، واحتفت أسرته بفنه فجاءت هذه القاعة بمنزله بمثابة متحف صغير يضم أعماله طوال رحلته الفنية لأكثر من خمسين عاما ، وكانت تلك المناسبة فرصة للدخول إلى عالمه .

أبو زيد وعنتره

ولد سيد عبدالرسول عام ١٩١٧ بحارة الجوانية بالجمالية .. حارة حانية ودودة من حارات قاهرة المعز المسكونة. بسحر الأبهاء والكوى والمنافذ وخلاصة الوجدان الشعبى .. تحتضن فيها البيوت في تواؤم وانسجام محفوفة بالقباب والمآذن والأضواء والظلال .

ومنذ بداية الطفولة تربى على تلك الصور والأخيلة والتى كان يطالعها وهو في طريقه إلى الكتّاب .. صور تشبعت بها روحه الشفيفة .. من مواكب الطرق الصوفية إلى عازفى الربابة والمداحين الجوالين وتصاوير عنترة وأبى زيد الهلالى والظاهر بيبرس وسيف بن ذى يزن .. تتصدر الحوانيت الصغيرة ومتاجر «المنى فاتورة» مع بديع الألحان لخالد الذكر «سيد درويش» والتى توحدت مع ثورة ١٩ وجسدت تلك المشاعر والأحاسيس الوطنية التى حملت رياح التغيير في الأدب والفن والموسيقى .

وكان يطربه هذا المشهد الذى يطالعه في كل عام مع قرب قدوم الحجيج ويقف أمامه طويلا .. حيث تنساب الخطوط في

سذاجة وبلقانية من فرشاة نقاش الجمالية يغمسها فى شتى الألوان على واجهات البيوت يصور مراكب تتهادى على الماء وجمالا تشق الصحراء وقطارا بمدخنة ونخلة وحمامات وورود وأزهار .

وعند قدوم المولد الشريف تطل عروسة المولد على الرفوف الخشبية تضج بالبهجة من تلك الألوان الصارخة .. وكانت تطول قامته يتطلع إليها يود لو تكبر وتكبر حتى تصير فى حجمه حتى يهمس إليها وتتحدث إليه عن هذا السحر الشعبى الذى لا ينتهى .

داخل الكتَّاب وفى كل يوم يغيب عن الشيخ ويغمس قلمه البسط فى دواة الحبر وتسرح يده فوق اللوح الصفيح يصور كل ما تمتلئ به عيناه فى الذهاب والعودة من تلك المباهج التى تجسد عمق الروح المصرية .

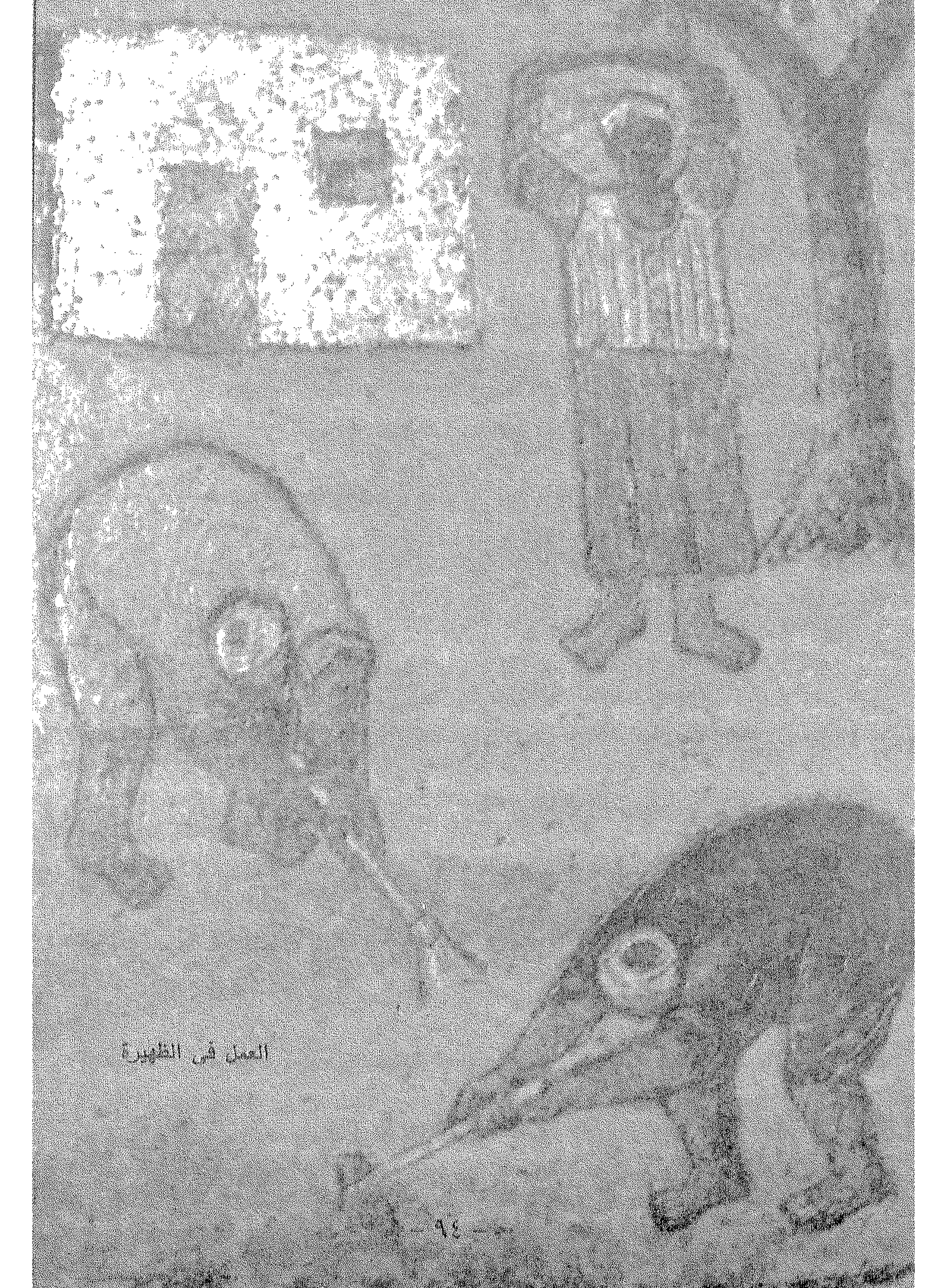
وبعد حصوله على الابتدائية من مدرسة محمد على ولشدة تعلقه بالفن يلتحق بالمدرسة الايطالية للرسم والنحت «ليوناردو دافنشى»، وبعد تخرجه عام ١٩٣٨ تقرر المدرسة ارساله فى بعثة إلى ايطاليا لتفوقه، ولكن موسولينى يدخل الحرب ويعطل الفنان سيد عن الذهاب إلى هناك وتتعطل المدرسة أيضا ويجد نفسه فى الشارع، لكن إصرار الفنان بداخله يواصل الإبداع بلا قيود ولا حدود متمثلا طه حسين الذى سكن حارته «الجوانية» من قبل وكانت «الأيام» دليلا له على الإصرار والتوثب حتى التحق عام ١٩٤٢ بالقسم الحر بكلية الفنون الجميلة، ومع صراعه مع الطين والألوان تتلمذ على يد أستاذه الرائد أحمد صبرى لمدة أربع سنوات .. بعدها يتجه إلى ايطاليا ليحصل على أكثر من دبلوم من أكاديمية روما ويدرس هناك الزخرفة وفن الميدالية والحفر، وهناك يستوعب اتجاهات الفن المعاصر مع تمثله لتراث بلاده الذى ترسب بداخله فتمتزج التقاليد التصويرية الغربية بالروح الشرقية الأصيلة التى تعمقت فور عودته حين سافر إلى طيبة «الأقصر» فى بعثة بالمرسم هناك لمدة ثلاث سنوات .. امتلأ فيها بآيات الإبداع الفرعونى وسحر الطبيعة والنبض الشعبى فى جنوب الوادى كل هذا جعل منه مع الفنان سعد كامل رائدا من رواد المدرسة الشعبية التى بدأها الفنان الكبير راغب عياد .

صبايا صندوق الدنيا

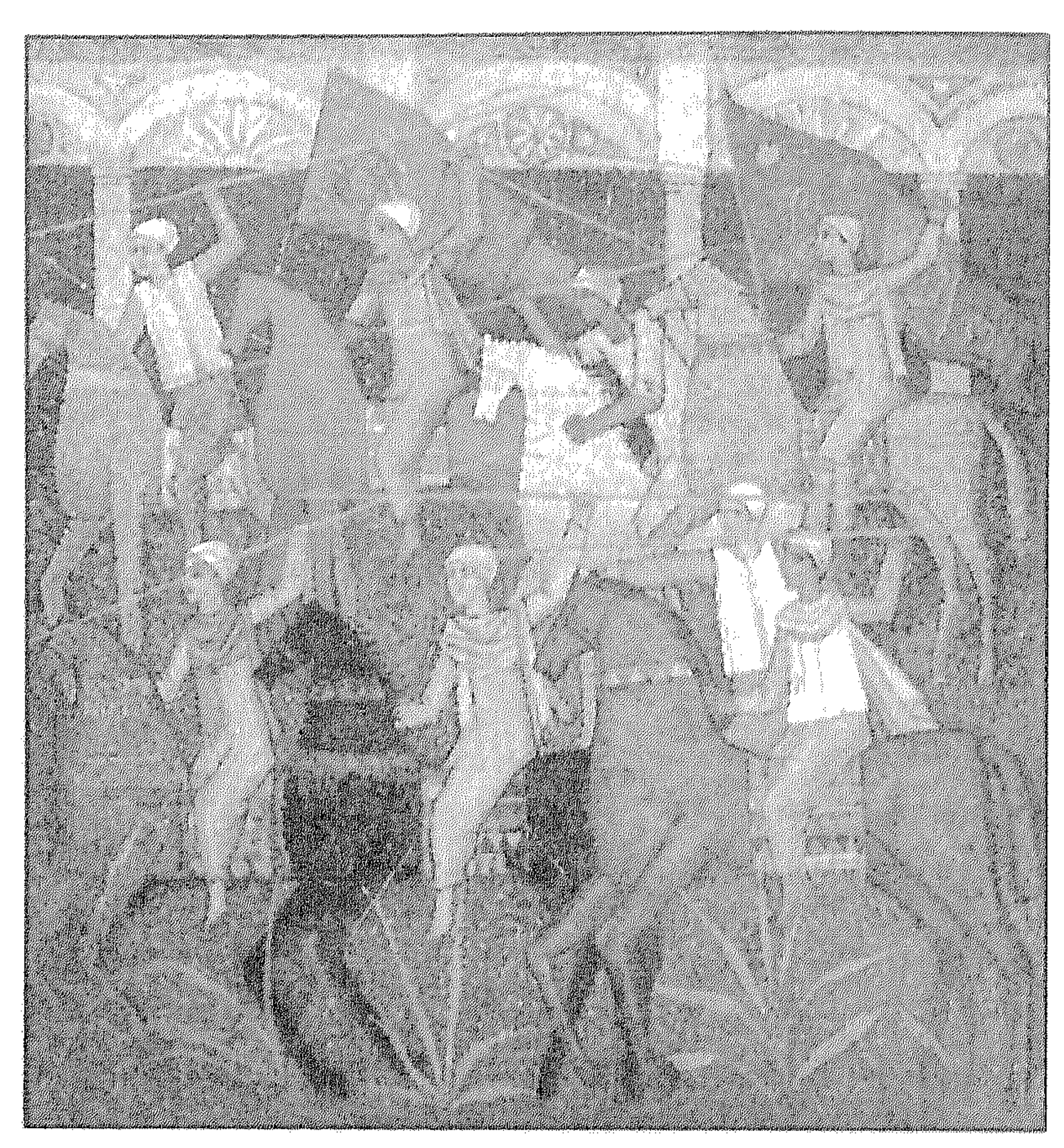
إذا كان الفنان سيد عبدالرسول قد استلهم الفن الشعبى المصرى عموما فى أعماله إلا أنه خرج به إلى إيقاع جديد بما يجعله إيقاعا يمثل إضافة متسعة فى الإبداع التشكيلى المصرى عموما .

لقد استفاد الفنان من كل الصور الشعبية بدءا من الحصير القش الملون والكليم الشعبى والمفارش، والبسط إلى الحكايات والملاحم والأساطير مع عزيزة ويونس وصندوق الدنيا .

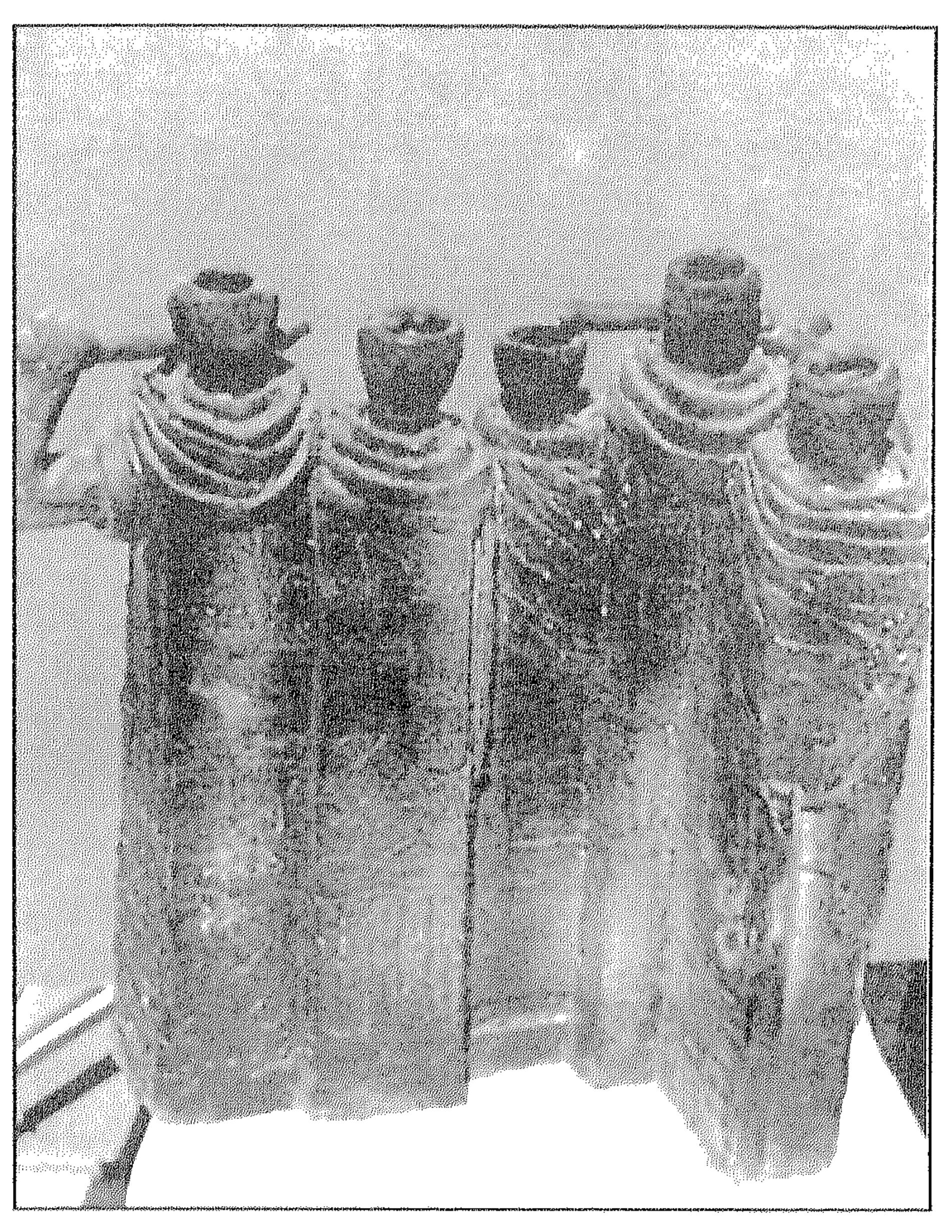
من هنا يمتد عالمه بين الطقوس



العمل في الظهيرة



رقصة الحصان مع البيارق والإعلام



في رشاقة واستطالة تجمع أعماله النحتية
بين مسحة الماضى واللمسات المعاصرة

والأفراح وبين أنشطة الحياة اليومية بمعنى آخر يمتد بين التحطيب ورقصات الخيل وعازفى الربابة والأرغول والدفوف والمنشدين والرقصات الإيقاعية لصبايا الريف مع هذه الثنائية الخالدة للرجل والمرأة التى تصور الحب، كما لو كانا عنتر وعبلة، أو ياسين وبهية وربما حسن ونعيمة .. إلى تلك اللحظات الحياتية التى يقتنصها الفنان من الريف المصرى مثل فتاتين تغزلان القطن كما فى لوحة

«المغزل» وحاملات الجرار والسوق والعمل فى الحقل وتجمع الفتيات والنظر من الشرفة .

وشخوص عبدالرسول تستطيل فى رشاقة وانسيابية فى تلخيص شديد يقترب من التجريد :. وقد تمثل إيقاع الجداريات الفرعونية من حيث النسق التشكيلى، كما استعان بمنطق النظم الهندسى لتلك النقوش الآدمية المرسومة على جدران مقابر الأشراف بمدينة طيبة ولكن بمفهوم معاصر جعلها تتزاوج مع روح العديد من النقوش والزخارف الشعبية .

وألوان الفنان تمثل سطوحا خشنة الملامس .. يغلب عليها اللون البنى بغموضه وامتداده فى الزمن مع الأحمر الوردى والأزرق والأخضر الزيتونى والكريم والبنفسجى وفى الغالب تحدها خطوط سوداء غير منتظمة .

وفى آخر مراحل حياته الفنية .. تطلع إلى الصفاء فى الأرض وفى السماء فجاءت كل أعماله حول حركة الحياة على النيل من القوارب والمراكب الشراعية صورها كلها من علو شاهق بمنظور عين الطائر .. وجاءت الأشرعة البيضاء كأكف تبتهل ضارعة تتعانق مع الأفق غارقة فى زرقة لا تنتهى من مياه صافية .

معزوفات خزفية :

وينقلنا الفنان فى أعماله من التصوير الذى يتميز بالاختزال الشديد إلى التشكيل فى الفراغ من نحت وفخار مع تلك المعزوفات الخزفية الصغيرة والتى استلهم فيها تجارب زوجته أستاذة الخزف وفنانة الحلى د. ليلى السنديونى .

وتطل أعماله المجسمة عموما امتداداً لعالمه التصويرى .. مسكونة بنفس الروح الشعبية .. وكلها أعمال مخروطية شديدة الرصانة .. لقد بهرت الفنان القلة الفخار باستدارتها البديعة : قلة الشرب وإبريق السبوع .. فجاءت الأشكال ترديدا نغميا لها .. مع مسحة من القدم تدخل بنا زمن بعيد .. حيث تغرق السطوح فى اللون المؤكسد من البنى والأزرق إلى الأخضر والزيتى .

وتتألق الأعمال فى تشكيلات متنوعة من حاملات الجرار والرعاة .. والثور والمرأة الجالسة .. وحاملة الإبريق لكن يظل الديك بتعبيراته العديدة والمختلفة فى أكثر من شكل .. من الاتزان والسكون .. إلى الحركة والرشاقة رمزاً لهذا الصياح الذى يبشر بنور الصباح .

من داخل المتحف الصغير .. تحية إلى روح الفنان سيد عبدالرسول بعمق الوجدان الشعبى المصرى وإلى أسرته التى كان لها هذا الفضل .

قصة قصيرة

لكل نور ظله

إدوار الخراط

بريشة : صلاح بيصار



نصبنا الخيمة الكبيرة على عمق نحو خمسين متراً من حافة الطريق، كان منار الرست هاوس يبدو لى بعيداً ولكن أنيس.

وضعت لى طاولة خشب من طوايل الفرانين، فرشت عليها بطانية مزدوجة، مطوية طيتين. ولخالى ناثان مثلها تماماً. وكان فيه ترابيزة مرتجلة معمولة من صندوق شاى مقلوب، ورف واحد خشب ـ نصف طاولة فرن منصوب على رصتين طوب أحمر ـ وعليه تموين الترحيلة الأسبوعى: علب الدخان أبو غزالة، وسجاير الكوتاريللى المعدن فى علبها البيضاء المقواة التى تفتح لأعلى، كصناديق الورق المبطنة، وسجاير الفيل الفرط، بالواحدة، فى صفيحة مدورة، وأكياس الشاى الصغيرة الملصوقة بالكاد، تسرسب من ناحية اللصق حبيبات الشاى مذرورة مفرفطة سوداء

قصة قصيرة

لها رائحة، فى تلك الأيام لم يكن فيها ورق ملوخية مصبوغ ولا فول سودانى مصحون ومحروق. والسكر المكنة جنبه فى علب ورق مستطيلة، مرصوصة فى نصف صفيحة مقطوعة وموضوعة بدورها فى قعر برميل حديدى مضلع مملوء بالماء. احتياطا ودرءاً من النمل الذى كنت أجد طليعته المغامرة، كل صباح، غارقة فى الماء.

فقط. هذا كل شيء.

فى داخل الخيمة برميل حديدى، ملآن بالماء النظيف الرقراق، للشرب، لى ولخالى ناثان فقط، الكوز مربوط بدوبارة متينة فى ثقب بجدار البرميل تحت حافته العلوية، والبرميل مغطى بخشبة مربعة ماؤه بارد سلسال.

أما البراميل الأخرى، خارج الخيمة، فللعمال، أربعة، خمسة براميل.

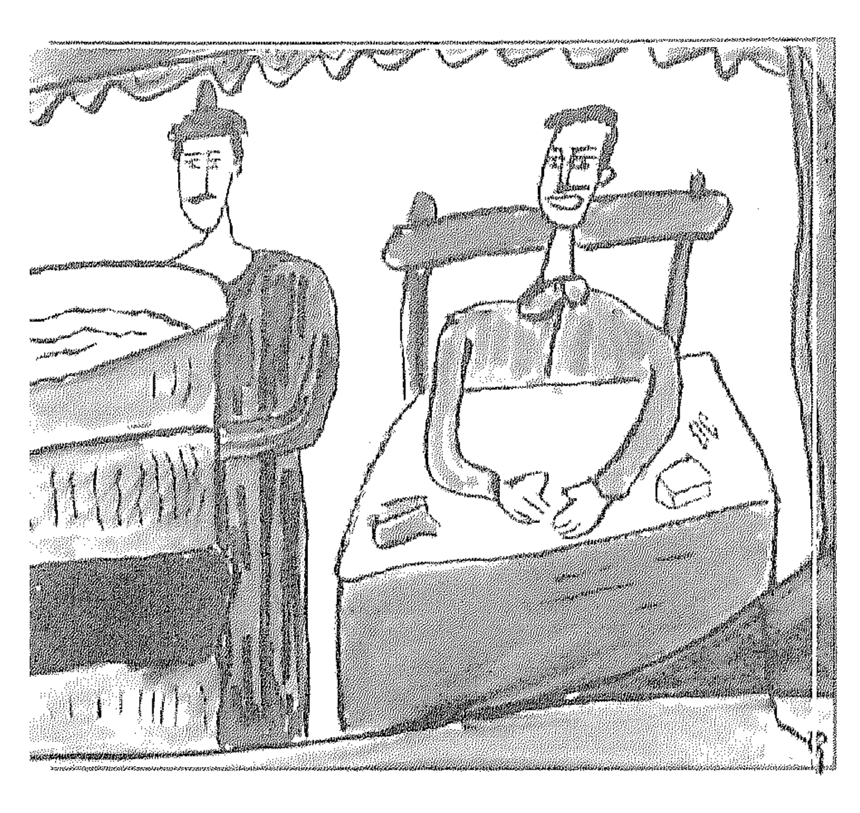
ولكن هناك - دائما - برميل ثالث، من داخل الخيمة، بجانب بابها أى فتحتها القماشية التى ترفع بحبال صغيرة بالنهار ثم ترخى وتثبت بخوابير قوية فى الرمل أثناء الليل، وهو مخصص لماء الغسيل، والحموم..

كانت شغلتى أن أكتب - على ورق مسطر وتحته كربونة أحرص عليها كل الحرص، لم يكن هناك غيرها - يومية كل عامل على حدة، أضربها، الأجرة، فى عدد أيام الشغل، وأجمع المجموع آخر الجمعة ثم أكتب استجرارة الشاى والسكر والدخان على ورقة أخرى، من غير كربونة، ماذا أخذ على الحساب، بكم، وفى الآخر أطرح، وأسلم لكل واحد القرشين المستحقين له، واقفين فى طابور غير منتظم يدخل الخيمة واحد فقط، ولا يدخل التالى إلا بعد خروجه من الفتحة نصف المدلاة، نصف المرفوعة، وخالى ناثان يراجع بعدى، ويسلمنى القروش والملاليم الحمراء اللامعة، كانت اليومية ثلاثة تعريفة، والريِّس خمسة تعريفة بزيِّها، فإذا خسفنا منها استجرارة الشاى والسكر والدخان يطلع للواحد آخر الجمعة حتة أم قرشين وثلاثة أربعة

ملاليم، أو يمكن ثلاثة أربعة صاغ للبخيل الجلدة الذى يشرب دخانه أو شايه بالسحت، ويقبل على نفسه الجرسة والمهزءة.

كلها نعمة من عند ربنا، يبوس الواحد يده عليها، وش وضهر.

أنا بقى كنت أطلع آخر الجمعة بحتة بخمسة، بحالها، حوشت، وفى آخر الصيف اشتريت جمهورية أفلاطون ترجمة الاستاذ حنا خباز بخمسة وعشرين قرشا، والحضارة المصرية لغوستاف لوبون ترجمة الأستاذ صادق رستم بثمانية قروش، وكمان أديت لأمى، ولستى أماليا قرشين كده، كل واحدة اشترت لى حاجات، شبشب، شرابات، علبة



بريانتين، كده يعنى.

فى ليالى الحر كنا ننام بره الخيمة، على طاولة الفرانين، واتغطى بملاية - زى الفل طبعا، ستى أماليا كانت تغير الملايات كل أسبوع - والتف أحيانا بالبطانية على وش الفجر، من لسعة برد خفيف، ومازلت حتى الآن لا أعرف ألذ ولا أحلى من هذه النومة فى جفاف الصحراء، وصمتها الكامل، ونقاء الدنيا، وونس العمال النائمين على مبعدة قليلا ملفلفين فى خرقهم وأحرمتهم وممددين على الرمل مباشرة، أو على طوايل الخشب.

وكنت استغرب قليلا أن ينام اثنان منهم، أحيانا، فى حرام واحد ملفوف بإحكام عليهما.

وكنت استحم كل أسبوع مرة، مرتين،

قصة قصيرة

عندمـــا يأتى اللورى بالتموين، وبراميل الماء الجديدة، ينزلها العمال بحرص والمياه تنتشر وتطسهم وتنسكب منهم قليلا.

أسقط باب الخيمة القماش على الأرض وأثبته بالخوابير من الداخل، ويشيع ضوء خافت محمر قليلا من وهج الشمس على القماش الخارجي ونوع من الحر الحميم المشع.

ومع انصباب الماء الجديد المنعش من الكوز، يزيح رغوات الصابون المدغدغة، كنت استمتع.

كنت أحيانا أقضى ساعات فى تجوال حر فى الصحراء، أقفل الخيمة بعد أن يأخذ كل واحد ما يريده فى يومه، وأهيم وحدى فى الرمل، ومع ذلك لا أجعل قمم أعمدة التلغراف تغيب عن عينى قط، هذه علامات طريقى إلى الأمان، لا أنى أتحقق من أنها هناك، كل لحظة فيما يخيل إلى ، فكم قرأت عن مواجع وفواجع التوهان فى الصحراء، وارتعبت منها، ولكنى لا يمكن أن أقاوم سحر الوحشة والصمت فى عمق الرمال، وقد غابت الخيمة والعمال، ووابور الزلط ورائحة الزفت المصهور وأكوام الأسفلت السوداء ملساء الجسم والزلط ونثارة الحجر الأبيض المدكوك، وقد غرقت فى خيالاتى وتهويماتى، ورجعت إلى صحبة عمر بن أبى ربيعة والمجنون، وجميل بثينة، وامرىء القيس، عشيقاتهم ومحبوباتهم ونسوتهم الأعرابيات مدورات البطن محزومات بعصابات حمراء عريضة على استدارة الأجسام البضة، مخزومات الأنف بحلق ذهبى مشرشر الحواف، موشومات الذقن بخطين متوازيين واللمى الأزرق الداكن على الشفة السفلى المليئة الواعدة بلذة لحيمة ومصفاة معا.

وجدت تلة عالية قليلا، واسعة، يغطيها حصى متعدد الألوان والأشكال والأحجام، ناعم الجسوم: مخروطية ونقية ومموجة محببة ومصقولة مدورة ومستطيلة كثيفة ومشطوفة نحيلة خطوط بيضاء رقيقة كالشعيرات تلتف حول

استدارة رمادية تجنح إلى السواد وحدود قاطعة مرهفة، البنى اللامع يعطى حافتها المنعمة خفوتا يناقض لسعة حدتها الأبيض الساطع ترقطه نقاط رقيقة كأنها تومض تحت الحصاة الشفافة والخطوط الغائرة الصغيرة تشقق الوجوه المنحوتة المتحللة وقلت كان البحر هنا منذ ألف ألف عام مازال البحر هنا وسيظل ألف ألف عام جمعت منه ما استطعت من كنوز ضاعت مع الزمن، ألم تضع كل الكنوز؟ بما فيها كنز الحب؟ ألم تضع؟ الضحكات السريعة الحلوة الخافتة، متتابعة، من فم جميل وأنيق، النظرات الموجزة العذبة، نافذة النصل، متتابعة، من عينين ساجيتين تماما، حرية لا حدود لها داخل الروح، طيور زرقاء الجناحين ترفرف باتساع، هل ضاعت؟

لكل نور ظله. طبعا، أفى هذا كلام؟

نقية، كانت.. نقية هى، مظلمة ومتلوية أيضا، شغوف حينا ونفور عزوف أحيانا، كالطفل فى ائتمانها وفى مكرها المكشوف، ومجربة محنكة الجسد بل جرأتها ومعرفتها مخيفة، جسور مشاكسة، وديعة متقبلة خاضعة خنوع، متقلبة وحولها شكوكى، وفى يدها روحى، ومصيرى، أهذا سرها؟ هل ضاعت؟ أين مضت؟

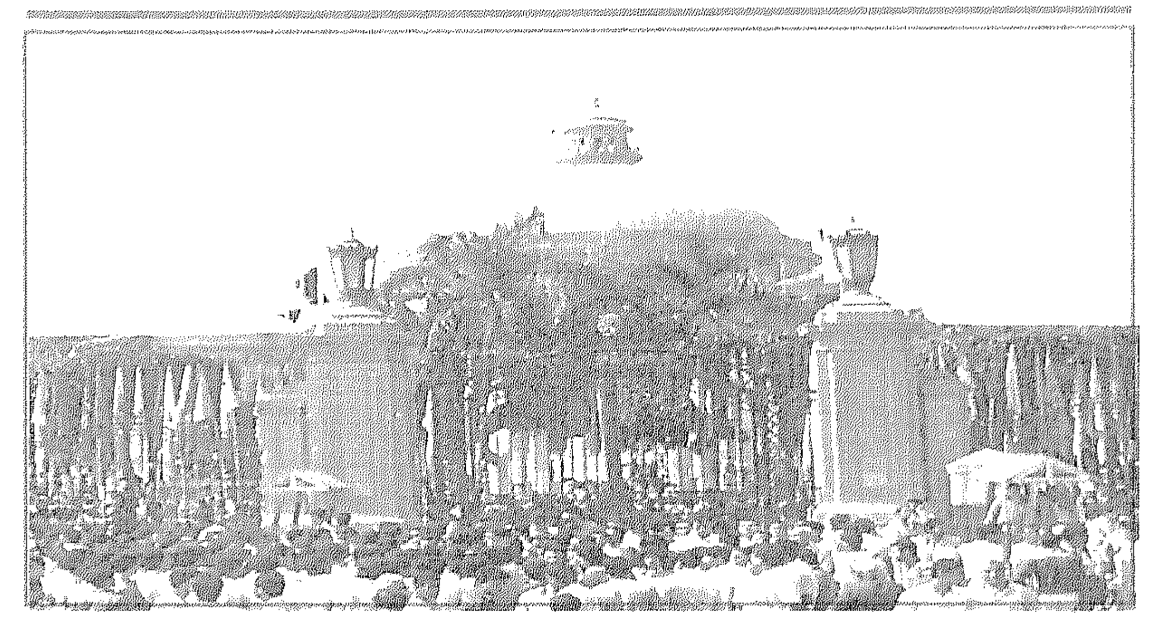
عثرت على موغل منى فى تلة الحصى على رأس غزال، هيكل برىء تماما من كل لحم، من لوثات الحياة، عظم أبيض صاف وصلب، عيناه محجران مجوفان مفتوحان على ظلام الجمجمة الداخلى، ليس فيه إلا الفك العلوى بأسنانه مازالت سليمة، سقط الفك السفلى وانفصل ولم أجده قط، رأس فقط، اين ذهب البدن، وهيكله؟ ظللت أحتفظ بالرأس، أحرزه وأكنزه من بين أرصدة نفسى الشحيحة، حتى اعتقلت فى ١٩٤٨. ولما خرجت لم اكتشف فقدانه إلا بعد سنين طويلة، هل كان فعلا رأس غزال؟ عمى فرح قلبه بين يديه السوداوين طويلتى الأصابع، وقال غزال يا ولدى، غزال صغير، لبانى، يا ولداه!

هل نغلق الجامعة ؟



كلما دخلت من باب الجامعة في الصباح ورأيت طوابير الطلاب المصطفين أمام الأبواب المزدحمة تساءلت عما يأتي بهم، ألا يدركون ما ينتظرهم في الداخل من مدرجات مكتظة وأساتذة لا يقدمون سوي القليل من العلم (مما يناسب الطالب المتوسط) ويقع الكثيرون منهم إما في طائفة من فقد الاهتمام بالتعليم أو من لم يؤمن به أصلا؟ ثم ألا يعلمون بانحدار قيمة أغلب الشهادات الجامعية «الشعبية» «أي تلك التي لا تتضمن مكونا أجنبيا» في سوق التوظيف؟ ثم ماذا سيجدون أيضا في الجامعة: فالأنشطة الفنية والثقافية انحسرت تحت ضغط التيار الديني، والتنظيمات الطلابية بدورها الاجتماعي والسياسي حوصرت حتي تكاد تكون خنقت خوفا من ذات التيار الديني.

بقلم : د. هانى الحسينى*



وأحيانا أحاول تخيل شعورى لو كنت مكانهم الآن : أكنت سأدير ظهرى للجامعة وأبحث عن مقهى من مقاهى الإنترنت لأقضى وقتى متفرجا على قرية المعلومات الكونية ؟ أم كنت سأنفذ من خلال الأبواب محاولا الاستفادة بالنزر اليسير مما يقدم من علم ومصادر تعلم فى «أكبر المؤسسات العلمية بالشرق الأوسط» .

بينما كانت تتقاذفنى هذه المشاعر والأفكار السوداوية ظهر فى «هلال» شهر أكتوبر ١٩٩٩ م مقالان مهمان أحدهما لرشدى سعيد والآخر لمحمد رجب البيومى يتناولان قضية التعليم الجامعى والبحث العلمى، وكأن ذلك الشهر كان شهر الجدل القومى حول البحث العلمى، اذ تلا تركيز رئيس الجمهورية على النهضة العلمية والتكنولوجية فى أحد خطاباته وشهد انشاء وزارة تحمل اسم «المعلومات» وإضافة «التنمية التكنولوجية» الى مسمى وزارة الصناعة . ثم جاء فيه أحد أهم أحداث تاريخنا العلمى بحصول المصرى أحمد زويل على جائزة نوبل فى الكيمياء . وبقدر ما أثار نبأ الجائزة من فرح بقدر ما أثار من القلق والتساؤلات التى تمس دور الجامعات ومراكز البحوث المصرية.

فأحمد زويل مصرى، تلقى جزءا من تعليمه فى جامعة مصرية وبدأ مشواره العلمى من مصر، ولكن هل كان بمقدوره أن يبلغ تلك المكانة وأن ينجز ذلك الإنجاز العلمى الفذ لو لم يهاجر الى الولايات المتحدة الأمريكية ؟ ربما نتفق على أن إجابة هذا السؤال هى على الأغلب بالسلب فيقودنا ذلك للتساؤل عن العوامل

* كلية العلوم - جامعة القاهرة

التى تمنع عالما مصريا نابغا من التفوق مع بقائه فى بلده. ثم قد نعود الى تعليم أحمد زويل فنتساءل : هل مازالت الجامعات المصرية قادرة على تخريج أمثاله ؟

رغم معقولية هذه التساؤلات فلا بد أن نلاحظ بعض المحاذير التى تكتنف هذا المنحى فى التفكير. أول هذه المحاذير صعوبة القياس على حالة عالم فذ، فالشخص المتميز والمتفرد قد لا تنطبق عليه القواعد التى تنطبق على الإنسان العادى. أيضا يمكننا أن ننحى جانبا التساؤل عن جائزة نوبل بأن نلاحظ أن جوائز نوبل فى المجالات العلمية (الفيزياء - الكيمياء - الطب ووظائف الأعضاء - الاقتصاد) لم يحصل عليها أى عالم يعمل خارج الدول المتقدمة صناعيا سوى الهندى «رامان» عام ١٩٣٠ م.

لكننا نبقى واثقين بالشعور العام الذى يحدونا بأن مجتمعنا لا يعطى الفرصة للنابغين وأن نظامنا التعليمى لا يؤهل الفرد النابه للتفوق فى البحث العلمى وأن أداء مؤسسات البحث العلمى عندنا دون المطلوب .

التخلف العلمى والتعليمى

أول ما يجب أن ندركه - فى اعتقادى - هو أنه لا يمكن أن نفصل بين التخلف الاجتماعى العام - والذى يمثله الثالوث الشهير : الفقر والجهل والمرض - لا يمكن أن نفصل بين هذا الثالوث وبين تخلف التعليم والبحث العلمى. فلا يمكن أن يتقدم البحث العلمى تقدما كبيرا فى مجتمع متخلف ولا أن يتقدم المجتمع دون أن يتقدم البحث العلمى ، لابد اذن من المزاوجة بين إصلاح حال البحث العلمى وبين إصلاح حال المجتمع ككل .

لكن لما كان النقاش حول إصلاح المجتمع أعقد بكثير من محاولة تحقيق بعض الإصلاحات المحدودة فى التعليم والبحث العلمى ، فسأقتصر على بعض ما تناوله رشدى سعيد ومحمد رجب البيومى فى مقاليهما، وهو بالتحديد مسئولية الجامعة عن تدهور التعليم والبحث العلمى.

أكاد أتفق مع ما يشير اليه الكاتبان من أمراض اعترت التعليم الجامعى والبحث العلمى، فاقتصاد السوق - كما يشير رشدى سعيد - ينحو إلى تسفيه دور الجامعات كمؤسسات بحثية وتعليمية ، يحدث هذا فى بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وربما فى دول أخرى ، ولعلِّى أستطيع تأكيد هذه المقولة بما سمعته من زميل بالولايات المتحدة الأمريكية حول أن الادارة أصبحت تقيم الأداء التعليمى طبق معايير «اقتصادية» ، ولأن من يقومون على التقييم غير متخصصين (فى العلم) فإنهم يعتمدون على مقاييس كمية للأداء مثل عدد الطلاب الملتحقين والمتخرجين بدلا من المقاييس الكيفية، حتى وصلوا

الى إلغاء مقررات بسبب قلة عدد الملتحقين بها رغم كون هذه المقررات ضرورية لتكوين الطالب الذى سيتجه للبحث العلمى . ويضيف هذا الزميل أن الاتجاه العام أصبح يميل أكثر فأكثر نحو اعطاء أولوية للمقررات «العامة» والسهلة .

من المتوقع إذن أن تؤدى مفاهيم الإدارة الاقتصادية للمؤسسات التعليمية لو طبقت عندنا الى تقليل القيمة المضافة علميا من خلال التعليم الجامعي، يضاف إلى ذلك ما أشار اليه رشدى سعيد من أن الدول المتقدمة صناعيا وبالذات الولايات المتحدة الأمريكية تعمل على زيادة التبعية العلمية وترسيخ اعتماد العالم على قلة من المنتجين للأفكار والمخترعات فى عصر أصبحت فيه الأفكار والمخترعات أهم السلع التجارية .

تندرج الحال إذن ضمن ما يسميه البعض بالمخطط الاستعمارى. وهو فى الحقيقة مخطط لم يضعه أحد لكننا نستطيع رغم ذلك أن نرى معالمه كما لو كانت هناك يد قد رسمته وأياد تشرف على تنفيذه .

كيف نقوم بدورنا المرسوم فى هذا المخطط ؟ أو ربما كان من الأجدر أن نقاومه ؟

هل نغلق الجامعات المصرية أو نحولها لمؤسسات عملها الوحيد هو التدريس دون البحث العلمى ؟ وهل هناك تعليم جامعى يمكن أن يقوم عليه أشخاص منفصلون عن واقع البحث العلمى ؟ وكيف يخرج مثل هذا التعليم أفرادا قادرين على الانخراط فى البحث العلمى وعقولا قادرة على الابتكار ؟

فى تقديرى أن التعليم والبحث العلمى لا ينفصلان ، ومازال الجزء الأكبر من الأبحاث العلمية فى كل أنحاء العالم يتم فى الجامعات . وفرنسا الديجولية ـ التى يضربها رشدى سعيد مثلا ـ لم تقلص دور الجامعات فى البحث العلمى وإنما أضافت له مددا جديدا بإنشاء المركز الوطنى للبحوث العلمية لحضهوإلخ والذى تقع أغلب وحداته فى أقسام جامعية أو ملحقة بها . كما أن انشاء كيانات جديدة للبحوث فى مصر لن يضيف شيئا إذ سيقوم على إنشائها وادارتها نفس من وصفهم رشدى سعيد بأن «مستواهم دون المقبول» .

أتفق أيضا على أن حال التدريس فى جامعاتنا يسوء عاما بعد عام ، فإلى جانب من ذكرهم محمد رجب البيومى ممن لا يرون فى التعليم الجامعى سوى منفذ للربح الخاص ببيع الكتب الفاسدة للطلاب وإعطاء الدروس الخصوصية ، وإلى جانب من نقرأ عنهم فى صفحات الحوادث بالصحف من سارقى الكتب والأبحاث وغيرهم، الى جانب كل هؤلاء ، هناك من يدرسون مقررات عفا عليها الزمن بأسلوب عفا عليه الزمن وهناك من يدرسون بعقلية «على قد فلوسهم» ، فعضو هيئة التدريس بالجامعة يشعر أنه مغبون ، وهو بالتأكيد كذلك : فالمرتبات مجحفة وظروف العمل سيئة ، والطلاب غير مبالين والادارة لا تعيره بالا ـ خصوصا بعد آن أصبح العمداء بالتعيين ، ويجد البعض هذا مبررا لأن يعطوا

التدريس والبحث العلمى اهتماما أقل ، بينما يجده البعض الآخر مبررا لأن يشاركوا فى الفساد . لكن هل يحل التدخل من أعلى مثل هذه المشكلات؟ هل نطلب من الإدارة - كما يقترح محمد رجب البيومى - أن تقوم باختيار الكتاب الجامعى بغض النظر عن رأى أستاذ المادة؟ وهل نكلف جهازا - لم يحدده رشدى سعيد - بالتفتيش على مسار العملية التربوية والحكم على أساتذتها؟ لنكن واقعيين فحال من هم فى أعلى سلم الإدارة الجامعية - والذين يفترض أن يقوموا بالتفتيش والرقابة - ليس بأفضل من حال غيرهم ، قلة منهم مازالت تباشر البحث العلمى الحقيقى والعديد منهم تسللت اليه آفات بيع الكتب والتدريس الشكلى .. الخ ، بل ان شعورهم بالمسئولية أمام الدولة يدفعهم أحيانا للإساءة للتعليم عن طريق المبالغة فى رفع النتائج أو حتى التدخل فى تصحيح المقررات .

المعضلة !

يواجه أغلب أساتذة الجامعات معضلة واقعية : فالتعليم العام يرسل للجامعة أعدادا كبيرة من الطلاب ينخفض مستواهم سنة بعد أخرى ، والمجتمع لا يبث فى هؤلاء الطلاب روح احترام العلم والرغبة فيه بل على العكس يشعرهم بعدم جدوى ما يتعلمونه . لا يستطيع الاستاذ فى مثل هذه الظروف الا أن يدرس القليل الذى يستطيع هؤلاء الطلاب استيعابه فى الفصل الدراسى (الذى لا يتعدى عمليا ١٢ أسبوعا) لكنه يعلم أن ما درسه لا يؤهل الطالب كما يجب ، وبالتأكيد لا يؤهله للبحث العلمى. فلو صادف أن كان بين هؤلاء الطلاب طالب محب للعلم وراغب فيه فهناك احتمال أن يفقد اهتمامه لما يراه من سطحية الموضوع، وحتى لو أفلت الطالب الموهوب من فخ الملل والسطحية فإنه لن يتلقى من الزاد ما يقيته فى سن الشباب والنمو العقلى وتضيع منه سنون لا تعوض. كما أن النظم واللوائح تركز فى معظمها على انقاذ الطالب الراسب قدر الإمكان بينما لا تعير للطالب الموهوب والمتميز التفاتا . يمكننا أن نسمى هذا الوضع «معضلة التعليم الديمقراطى» ، فكلما جهدنا فى زيادة المستفيدين من التعليم الجامعى اضطررنا الى تخفيض مستواه ، وأكاد أجزم بأنى لم أر بين أساتذتى ثم زملائى من استطاع أن يزاوج بين جذب الطالب المتميز وبين تعليم الأعداد الكبيرة من الطلاب بشكل يمكنهم من النجاح دون تدخل ادارى . لكن لا يبدو ذلك مستحيلا لو تحسنت الظروف المادية قليلا واجتهد الأساتذة فى ابتكار وسائل جديدة تزاوج بين تقديم العلم بالعمق المناسب والبساطة التى لا تجحف

بالطالب الذى لم يُعدَّ جيدا فى التعليم العام . الصعوبة تكمن فى أن مثل هذا المنحى ذو الهدف المزدوج يتطلب شروطا عديدة : منها تحرير روح المبادرة عند الأساتذة من القيود اللائحية والإدارية وإطلاق يدهم فى تقييم الطلاب وإنهاء سياسات الرفع والتحسين حتى يعود للطلاب الاقتناع بأن السبيل الوحيد للنجاح هو بذل المجهود فى فهم المقررات.

فى مرحلة الدراسات العليا لا تتغير الصورة أمام الطالب الا قليلا، فالباحث الشاب لا يشارك فى نشاط علمى يذكر، فلا تبادل زيارات ولا أساتذة زائرين وتمتنع الجامعة عن دعم الشباب عند مشاركتهم فى المؤتمرات وحلقات البحث والمدارس العلمية الموسمية وإنما يقتصر دعمها على أعضاء هيئة التدريس الحاصلين على الدكتوراه . لو أضفنا الى كل ذلك خواء المكتبات وتخلف المعامل وانغلاق الأفق الاجتماعى والأمراض الاجتماعية المختلفة من الشللية واستعباد الباحث الشاب .. الخ ، لرأينا لماذا لا يرى الشاب النابغ طريقا سوى الهجرة الدائمة أو المؤقتة، ولفهمنا لماذا تنتج جامعاتنا فى الغالب باحثين وبحوثا «دون المستوى» .

الشباب والديمقراطية

فقدت جامعاتنا نتيجة النظم العقيمة والنظرة الفوقية جيلين من الباحثين المتميزين ، وقد حان الوقت لإعطاء الفرصة للشباب ، يجب أن يوظف جزء لا يستهان به من موارد البحث العلمى لتمويل مشاريع الشباب من المدرسين المساعدين والمعيدين، يجب أن تمول الجامعة برامج طموحة لاستقدام أساتذة زائرين لمدد متوسطة الطول لتتيح للشباب فرص التعلم من منتجى العلم ، يجب أن تمنح الجامعة الشباب فرصا أكبر للمشاركة فى المؤتمرات العلمية فى الخارج ليتعرضوا لاحتكاك علمى حقيقى كما يجب أن يزيد عدد البعثات فى كل مجالات العلوم والتكنولوجيا لننشىء جيلا جديدا من الباحثين على مستوى مناسب . لا أدعى أن كل شباب الباحثين متميزون ولا أن كلهم سيفيد من الفرص إن توافرت لكننا يجب أن نوفر عشر فرص لنأمل فى نجاح باحث واحد .

يقابل توفير الفرص تحمل المسئولية، لذلك لا بد أن يشارك الشباب فى تحمل المسئولية من خلال تقنين مشاركتهم فى المجالس الجامعية وتحمل بعض أعباء الإدارة على مستوى أقسامهم وكلياتهم .

أيضا لا بد من تشجيع روح الابتكار والمبادرة فى التدريس لتحسين أداء أعضاء هيئة التدريس ، كما يجب مراجعة اللوائح الداخلية للكليات وتجديدها بشكل دورى ، وفى المقابل لا بد من وضع نظم تمنع الشطط لا بالطرق الادارية والفوقية ولكن عن طريق إشراك أكبر عدد من المتخصصين داخل الأقسام العلمية فى مناقشة محتويات المقررات وطرق تدريسها.

الشباب .. المشاركة.. والمبادرة لا تكتمل إلا فى إطار ديمقراطى يعيد للجميع الثقة بالنفس والأمل فى المستقبل.

محنة الكتاب الجامعى فى مصر

بقلم د. سعيد اسماعيل على

أعتذر مقدما لقارئنا العزيز عما سوف يلمسه فى المقال الحالى من ميل لأن تكون «ذات» الكاتب موضوعا للحديث فى عدد غير قليل من الجوانب، مؤكدا له أن حديث «الذات» هنا ليس هدفا فى ذاته وإنما هو وسيلة للكشف عن بعض جوانب «الواقع» بالنسبة للكتاب الجامعى فى مصر فى العقود الأربعة الأخيرة، وفضلا عن ذلك فمن الممكن اعتبار هذا الحديث صورة من صور «الشهادة» التاريخية، وهو نهج معترف به عند ثقاة المؤرخين . لكن لماذا الكتاب الجامعى بصفة خاصة؟

من الأقوال الشائعة بين العاملين فى التعليم الجامعى أن الجامعة أستاذ وكتاب، لكن الأمر البارز عند الجمهور العام أن الجامعة أستاذ، ومن هنا تأتى أهمية أن نولى الركن الثانى أولوية فى الحديث، على اعتبار أن الأمر الذى يقل الوعى به عن الآخر هو الأجدر بالحديث، دون أن يعنى هذا أولوية فى الأهمية .

وفضلا عن هذا فإن الكتاب الجامعى يشكل «صداعا» مستمرا للمسئولين عن التعليم الجامعى، ولم تفلح حتى الآن الخطوات والحلول التى اتخذت، لأن المسألة دخلت فى نطاق البناء القيمى الأخلاقى، الأمر الذى لا سبيل فيه إلى إجراء فورى أو قانون حاسم من أجل مواجهة عاجلة للموقف.

عندما التحقنا بآداب القاهرة، قسم الفلسفة في عام ١٩٥٥، ماذا كان انطباعنا عن الكتاب الجامعي؟

كان هناك عدد قليل من الأساتذة الذين يدرسون لنا لهم كتاب مباشر في المقرر الذي يدرسونة لنا، وعلى سبيل المثال كان لكل من الدكاترة: توفيق الطويل كتابه «أسس الفلسفة» ، وليوسف مراد «مبادىء علم النفس»، ولزكي نجيب محمود «المنطق الوضعي»، ولعثمان أمين «ديكارت» . ولمصطفى الخشاب «علم الاجتماع ومدارسه»،و لأحمد فؤاد الأهواني «فجر الفلسفة اليونانية، قبل سقراط» طوال سنوات دراستنا الأربع على ما أذكر.

وكان هناك غيرهم يدرسون لنا دون ان تكون لهم كتب مباشرة.

والملاحظة الجديرة بالاعتبار هنا أن هذه الكتب لم تكن «مقررة» بالمعنى المتداول في أيامنا الحالية، فقد كان الأستاذ في بدء تدريسه يعلمنا بجملة الموضوعات التي سوف ندرسها في العلم الذي يقوم بتدريسه . ثم يخبرنا بقائمة من «المراجع» ، فإذا كان له كتاب فيه، جاء ذكره ضمن هذه القائمة من المراجع، وكنا بغير فرض ودون إملاء، ونبادر نحن باختيارنا الى اقتناء كتاب الأستاذ. لكننا في الوقت نفسه كنا نأخذ قائمة المراجع هذه مأخذا جديا، فيسعى القادر ماليا على اقتنائها جميعا أو بعضها.

وكان غير القادرين أمثالي «وكان هؤلاء هم الكثرة الغالبة» يقضون ساعات وساعات في مكتبة الجامعة للاطلاع على هذه المراجع، أو استعارة بعضها. ولأن عدد الكتب المصرح باستعارتها محدود، كنا نستخرج بطاقة استعارة من دار الكتب، وربما كذلك من هذا الفرع او ذاك من فروعها حتى يمكن ان نحصل على أكبر عدد ممكن من المراجع التي نقرؤها إضافة إلى هذه التي ألفها أساتذتنا. وكنا في إجاباتنا على اسئلة الامتحان نستعين بما تسعفنا به الذاكرة مما قرأناه في كتب أخرى غير كتاب الأستاذ الذي يدرس لنا دونما خوف من أن ينالنا غضبه، بل بالعكس، كان من يفعل ذلك يحصل غالبا على أعلى التقديرات، وإن كان من الضروري أن أعترف بأن الأمر لم يكن يخل من بعض غير ذلك!!

كذلك فقد كان ملاحظا - وإن كنت لم أشعر بهذا إلا بعد التخرج بعدة سنوات - أن كل كتاب من هذه الكتب كان يعد «عمدة» في فرعه، لا يستطيع قارىء أو باحث يريد التخصص في هذا الفرع أو ذاك دون أن يقرأ هذا الكتاب أو ذاك مما ذكرت، فما من دارس باحث لعلم النفس في مصر منذ عشرات السنين إلا ولابد

وأن يكون قد قرأ لتوفيق الطويل أسس الفلسفة . وهكذا.

ولم يكن الكتاب يُعد للطالب بصفة خاصة كي يتعلم منه وإنما هو يكتب لجمهور طلاب المعرفة، ومن هؤلاء ، الطلاب بطبيعة الحال. فيجيء الكتاب موفيا باحتياجات الفرع المتخصص من المعرفة، ولا يجيء موفيا باحتياجات الطالب وحده، والفرق كبير بين الأمرين. فاحتياجات الطالب حاليا ، مع الاسف الشديد هي أن يجتاز ما يوضع له من امتحانات بأى سبيل حتى يحصل على شهادة، وأما احتياجات العلم فهى فتح مجالات مغلقة فى المعرفة الإنسانية وتقرير منهج وقواعد وإرساء أسس ومبادىء، هى بدورها لابد ان تشكل قطاعا كبيرا من احتياجات الطالب اذا كان قد جاء ليتعلم حقا، وفى الوقت نفسه فإن من يكون نهجه «التعلم» العلمى المنهجى المنضبط، فلابد وأن يجتاز الامتحانات التى توضع، وأن يحصل على الشهادة!!

وتدور الأيام.. وأتحول من طالب إلى عضو هيئة تدريس، لكن فى كلية التربية، عام ١٩٦٩، وكان لابد أن يكون لى «جدول» بجملة محاضرات أدرسها للطلاب.

مذكرة توزع على الطلاب !

كان طلاب الكلية فى ذلك الوقت يقتصرون على خريجي الكليات الجامعية ممن يريدون أن يعدوا للالتحاق بمهنة التدريس. حيث كانت وحدها السبيل المضمون «للتوظف»، وكان عددهم لا يتجاوز مائتين الا ببضع عشرات على وجه التقريب، يكونون مجموعتين . وكان هناك زميل أقدم، متخصص فى قطاع من نفس المجال الذى تخصصت أنا فيه. فتصورت، منطقيا أننى سأدرس لمجموعة وهو لمجموعة . فإذا بى أجده أخذ الاثنتين معا، فكان من الطبيعى أن أحتج على هذا، فإذا بمن يهمس فى أذنى أن عدد طلاب المجموعة الواحدة قليل، بينما إذا ضمت معها الأخرى يكون العدد مغريا بطبع «مذكرة» توزع على الطلاب يأتى منها مكسب لا بأس به.. هذا على الرغم من أننا كنا مازلنا نعيش على حدود زمن العلم الجميل ونتنسم بعض هوائه.

ثم تحدث تعديلات، فتذوب كلية «المعلمين» فى كلية التربية وتستقبل هذه طلاب الثانوية العامة بالألوف، وتتعدد الشعب والمجموعات . ودائما يجيء الإعداد للعام الدراسى حاملا العديد من نذر العراك والصراع . فكل يتطلع الى المجموعات ذات العدد الوفير، ويصبح الاتفاق على جدول المحاضرات أكثر عسرا من مفاوضات مشكلات الشرق الأوسط، لكن ما كان يخفف من حدة الصراع أن عدد المتخصصين فى بعض الفروع كان قليلا، فضلا عن أن «سطوة» الأستاذ الكبير، رئيس القسم عادة، وهيبته ، كانت قائمة وتظلل الجميع فلا يكون جدل ونقاش حول كتابه الذى يفرضه مقررا فى العلم الذى تخصص فيه.

لم يكن هذا مقصورا على كليات التربية. فكثيرا ما كنا نسمع من زملائنا وأبنائنا عما هو أدهى وأمر فى كليات أخرى، خاصة ما يطلق عليه الكليات

النظرية، وليس بعيدا عن ذاكرتي ما أتاحته لى ظروف فى أواسط الثمانينات لأطلع على محضر أحد أقسام هذه الكليات جاء به أحد أعضائه ليرنى كيف أن عضوا آخر، أستاذ كبير، كان قد تقلد من قبل موقع وزارة مهمة، رفض ما حاوله الأعضاء لإقناعة بأن يدرس للدراسات العليا باعتبار أقدميته، فرفض وأصر، مثل غيره، على التدريس للسنة الأولى حيث «الزبائن» ألوف مؤلفة!!

وتمر السنون.. فأجد نفسى فى أواخر عام ١٩٧٩ رئيسا للقسم ويتم تشاور بينى وبين عدد من الزملاء حول فكرة جديدة ينطبق عليها القول الشهير «حل مرض لكافة الأطراف» . والأطراف هنا: الأساتذة ، والطلاب ، والعلم ، كانت الفكرة هى أن يجىء التأليف جماعيا عن طريق القسم . فلا يكون هناك صراع حول المجموعات مما كان يترتب عليه سوء علاقات وشللية، وبالتالى لا يكتوى الطالب بالاختلاف فى الكتب بين المجموعات وعراك الأساتذة، على أن يجىء الكتاب نتيجة عمل وتفكير مشتركين، ووافيا بالجوانب الأساسية للعلم المتخصص، بحيث ينظر اليه باعتباره «مرجعا جامعيا» لا يستطيع أى دارس لهذا العلم المتخصص إلا أن يقرأه بحكم ما يجب أن يكون عليه من تعمق وإحاطة وشمول وتحليل.

لم تجىء التجربة الأولى وافية تماما بما كنت أتصور وأتمنى، لكننى لم أشعر بقلق فى بداية الأمر، فقد تصورت أن التجربة الأولى غالبا ما تجىء غير مكتملة، ويمكن استكمالها وتحسينها فى المرة الثانية ، وتزداد تحسنا وعمقا فى المرة الثالثة وهكذا.

لكن يبدو أن كل ما يتمناه المرء لا يدركه حقا.. ولا أريد هنا أن أغرق القارىء فى تفاصيل وجزئيات لا أول لها ولا آخر، وما يهمنى الإشارة إليه أن التجربة التالية جاءت أقل من الأولى، ثم إذا بى أجد أن الانزلاق إلى ما هو أدنى بدأ يظهر وكأنه «قدر» لا سبيل إلى دفعه، فأضطر آسفا إلى الازورار بعيدا عدة سنوات عن هذا الخضم.

انتشرت الفكرة فى كليات أخرى للتربية كثيرة، لا أزعم بطبيعة الحال، أن هذا كان تقليدا لنا، إذ يبدو أن الجمهرة الكبرى كانت قد وصلت إلى نفس النتيجة التى وصلنا إليها من حيث ضرورة التأليف الجماعى ، لكن هذا الحل الذى آملنا أن يكون مطورا للكتاب، إذا به يسهم فى القضاء على الكتاب بحكم ما أصابه بعد ذلك من سلبيات خطيرة.. كان البعض ممن يريد المساهمة فى التأليف، يمد يده فى أحد أدراج مكتبه ليخرج أحد بحوثه للترقية ليضمها فصلا فى كتاب، وأحيانا ما تكون العلاقة ضعيفة بين موضوع البحث والكتاب! ودون إعادة تكييف للبحث، حيث يناسب. لغة وطريقة، ما يقدم للطلاب، وهكذا يمكن أن تجد أحد فصول الكتاب يضم عناوين مثل: تحديد المشكلة.. أهداف البحث.. تساؤلات البحث.. مصطلحات البحث، منهج البحث.. وهكذا مما تكون عليه عادة البحوث التى تقدم للترقية. ولا يكون هناك

أثر ليد «محرر» عام يعيد صياغة الكتاب فتجيء صياغته متسمة بالاتساق، وتجيء موضوعاته متسمة بالتكامل، وفكرة التأليف الجماعي تجيء شكلية لتقتصر على عملية جمع آلي بين عدد من الكتاب . بينما التأليف الجماعي يقتضي أن تمر الموضوعات على الجميع ليبدوا رأيهم ويتم حوار ونقاش وتعديل وإعادة كتابة أو صياغة.

★★★

كنت في زيارة يوما لأحد الأقارب. وسألت ابنهم الذي كان في كلية تجارة عن أحواله. وطلبت أن أرى كتابا من الكتب «المقررة» عليهم فقال بأن ليس لديه هذا الكتاب، وكان موعد الامتحان قد قرب، فلما عبرت عن دهشتي أجاب بأن الكتاب «ضخم» ، وترجم هذه الضخامة بأن عدد صفحات الكتاب تصل إلى ما يزيد على الأربعمائه صفحة ومن المستحيل عليه أن يقرأ كل هذا ، وإنما يعتمد على ملخص من بضع عشرات قليلة من الصفحات تركز على النقاط التي عادة يأتي فيها الامتحان، وأنه ليس الوحيد الذي يفعل ذلك، وإنما الأغلبية الكبرى من زملائه ، وإن كان كثيرون يشترون الكتاب دون أن يقرءوه!!

أفزعني الأمر بطبيعة الحال، وفي التو واللحظة قفزت إلى ذاكرتي ذكريات تعاملنا «زمان» مع الكتاب بالصورة التي ذكرت، حيث لم يكن معظم الأساتذة «يقررون» «كتابا» وإنما كانوا يقررون «منهجا» ويتركون لنا حرية البحث عن «مراجع» نقرأ فيها مفردات هذا المنهج، والحق أقول : لم يكن هذا الأمر شائعا في كل الكليات . فقد كنت أرى أخي في كلية الحقوق يذاكر في كتب مقررة، وكان لي صديق بكلية أصول الدين يفعل نفس الشيء. هكذا كان حظي الحسن في آداب القاهرة في الخمسينيات.

إن فكرة كتاب مقرر في الجامعة فكرة شيطانية تودي بأهم مقوم من مقومات التعليم الجامعي، فهذا التعليم مفروض فيه أن يدرب الطالب على حرية التفكير، وتعدد زوايا الرؤية، وأمور مثل هذا يقتلها أن يكون هناك كتاب مقرر، إذ إن معنى هذا «تنميط» عقول الطلاب، وتسييرهم على طريق ذي اتجاه واحد . صحيح أن مثل هذا الأمر لا تبدو خطورته في الكليات العملية، حيث لا اختلاف على وجه التقريب بين المؤلفين، لأن الموضوعات ليست جدلية، لكنه أمر على جانب كبير في الدراسات الإنسانية والاجتماعية، وهي التي تقوم عليها الدراسة في كليات الحقوق والآداب والتجارة ودار العلوم والاقتصاد والعلوم السياسية والكليات الأزهرية التقليدية.

أعداد بالآلاف

لكن يبدو أن حديثنا هذا أصبح من قبيل طلب المتسحيل، فأعداد الطلاب الآن بالآلاف، فإذا لم يكن هناك كتاب مقرر، فإن مكتبة الكلية لن تحتوي بأي حال من الأحوال على عدد من النسخ من بعض الكتب تكفي هذه الألوف المؤلفة، وحتى لو وجدت نسخ فلن توجد أماكن تستوعب هذه الجحافل التتارية من الطلاب. وتنظيم الجداول كثيرا ما لا يضع في الاعتبار أن

تكون هناك أوقات بين المحاضرات تتيح للطلاب القراءة فى المكتبة، بل ولو حدث فراغ ساعة أو ساعتين بين محاضرات . يظهر الطلاب ضجرهم شاكين بأن هناك وقت فراغ «ضائع» عليهم، فيضطرون إلى قضائه فى «الكافتيريات أو التسكع فى الطرقات، ولا يفكر أحد فى أن يذهب إلى المكتبة لأنهم لم يتعودوا هذا منذ سنوات تعليمهم الأولى: فضلا عن أن نظام الامتحانات قد شكل بحيث لا يتطلب منهم إلا معرفة ما فى «المذكرة»!! وأسعار الكتب على درجة من الارتفاع بحيث تعجز كثيرا من الطلاب عن أن يحصلوا على الكتاب المقرر، فكيف نطلب منهم أن يشتروا مراجع؟! والأدهى والأمر أن هناك من أعضاء هيئة التدريس من يريدون من الطالب فى أجابته أن تكون «حذو النعل بالنعل» ، أى أن تكون مطابقة لما فى كتابه هو، ولو حدث فى نوادر الزمان أن قرأ طالب آراء أخرى من مصدر أو مصادر أخرى وذكرها ، يكون مصير الطالب سيئا بكل أسف وبكل أسى!

فى وسط هذه الظروف المعقدة، لا سبيل لنا إلا أن نقول : اللهم إنا لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه! وترجمة هذا بالنسبة لموضوعنا أن نرفع من مستوى الجودة و الإحاطة والشمول بالنسبة للكتاب، ويكون تأليفا جماعيا حقيقيا حتى تبرز فيه مناهج مختلفة وزوايا رؤية متعددة. لكن حتى هذا الحل، يتحول فى المجتمع المريض المتخلف إلى سوأة تحتاج إلى المداراة!!

فالضغوط المادية المعروفة جعلت كثيرين يبحثون عن دخول أعلى وأسرع.. وظهر الكتاب منفذا لهذا، كان الكتاب ينشر من خلال دار للنشر يحصل المؤلف منها على نسبة من الأرباح، ووجد معظم المؤلفين أنهم لو قاموا بأنفسهم بطباعة الكتاب وتوزيعه على الطلاب لارتفعت مكاسبهم ووفروا ما كان يحصل عليه الناشر. لكن ما حدث من «توابع» سلبية لهذا ، أن كثيرين بدءوا يشعرون أن «زبائن» الكتاب هم الطلاب فقط، ومن ثم بدأ مستواه العلمى يقل شيئا فشيئا، عكس الكتاب الذى كان ينشر فى دار نشر حيث التوزيع متعدد الجهات ومتعدد الزبائن وعلنى ومكشوف مما يدفع المؤلف إلى مزيد من الحرص والدقة، أما وهو يكتب داخل الكلية، فلا أحد يعرف ما يكتب ، فضلا عن أن يقرأه، ومن هنا بدأت مظاهر سوء كثيرة.

كنت فى زيارة لإحدى كليات التربية، وطلبت أن أرى نسخا من الكتب المقررة فى بعض المواد، فإذا بالجميع يتهربون بادعاءات مختلفة، وصارحنى أحدهم همسا فى أذنى أنهم لا يجرءون على أن يحققوا مطلبى وإلا «انكشفوا» ، فكل «المذكرات» منقولة !!.

وكشف زميل لنا أن مذكرة تقرر فى مادة فى كلية أخرى ، فدفعه الفضول أن يتصفحها فإذا بها منقولة بالكامل من كتاب له . كان الناقل هنا «مدرسا» فى مبتدأ حياته ، ثم إذا بنفس الزميل يكتشف «فصلا» كاملا منقولا فى مذكرة فى كلية أخرى ، وكان الناقل هنا أستاذا «قديما» أقدم من الزميل نفسه !!

وإذا كانت الأجهزة التكنولوجية تيسر العمل وتدفعه إلى الأمام ، إلا أن وظيفتها قد تتحول إلى معين على السرقة فى المجتمعات الفقيرة ، فبجوار كل كلية وجامعة عشرات من مكاتب التصوير التى تصور فيها المذكرات والكتب ، وبالتالى يمكن للطالب أن يحصل على الصورة بتكلفة تقل كثيرا عن الأصل ، وإذا بالأساتذة يجدون أنفسهم يسرق منهم جهدهم ، ومن هنا ما كان من البعض إلا أن بحث عن أساليب مضادة ، سارت بالمسألة فى طريق مشين حقا ، كأن يطبع الأستاذ كتابه أومذكرته على ورق ملون حتى يصعب تصويرها ، أو يوقع على النسخ الأصيلة ويتوعد من تضبط معه نسخة غير موقع عليها بالويل والثبور وعظائم الأمور ، ومنهم من يوزع المذكرة أو الكتاب على الطلاب جبرا من خلال كشوف أسماء ويوقع كل طالب أمام اسمه أنه اشترى الكتاب .. إلى غير هذا وذاك من أساليب مرذولة ومهينة حقا!

ولا شك أن عمل الفريق فى المجال العلمى يثريه ويدفع به إلى الأمام ، لكن على أساس أن يعد المنهج بصورة متسقة متكاملة ، كل موضوع له موضعه بحيث إذا تقدم أو تأخر اهتزت الصورة الكلية ، فتتبع الموضوعات فى سلاسة ووضوح ، فضلا عما أشرنا مما يجب أن يكون بالنسبة لهذا النهج .

أما الأسعار ، فحدث عنها ولا حرج . وكان من المفروض ، ما دام «الوسيط» قد اختفى ، أى الناشر الخارجى ، ومستوى الطباعة غالبا ما يكون رديئا ، أو متواضعا ، أن يهبط السعر ، لكن هذا لم يحدث ، فأسعار المذكرات أصبحت تفوق أسعار الكتب المنشورة خارج الجامعة ، وكأن المؤلفين قد اطمأنوا إلى أن الطالب مجبر على الشراء ، وتسارع المكاسب وتزايدها أغرى البعض ، فأصبح الشعار هو : هل من مزيد ؟ كأنها نار كلما أطعمتها زادت اشتعالا !

★★★

وكان لطغيان «المذكرات» أثره على حركة النشر لدى الناشرين . كان كثير منهم يعتمد على توزيع الكتاب الجامعى فى الحصول على أرباح مرضية ، كانت تعينه على نشر كتب أخرى ، مما يقال عنه «ثقافية» ، أى غير مقررة على طلاب الجامعات ، توزيعها ليس مضمونا دائما ، على أساس ، «تحميل» هذه على تلك ، فلما انحسرت الكتب الجامعية ، كان من الطبيعى أن تنحسر بالتالى حركة نشر الكتب غير الجامعية ، إلا بالنسبة للكتاب المعروفين ، أو الموضوعات المشهورة بجذبها للقراء ، وبدأت تظهر لدى الناشرين بدعة جديدة ، وهى أن يتحمل المؤلف تكلفة النشر . وشكل هذا عقبة كبيرة أمام كثير من المؤلفين وخاصة الجدد ، وكاتب هذه السطور ، على الرغم من عمله بالجامعة أكثر من سبع وثلاثين عاما ، منذ عدة سنوات ، وهو يطبع كتبه على حسابه الخاص ، لأنها ليست كتبا «مقررة» وتوزيعها غير مضمون للناشر ، لأنها تتناول موضوعات غير جماهيرية ، وجافة ، وأكاديمية !

وكان لطغيان المذكرات كذلك أثره فى

جمود حركة التأليف الجامعى التى كانت تشعلها المنافسة بين الأساتذة ، مما كان له دوره فى التقدم الفكرى ، ومعذرة للقارىء أن تكون أمثلتى من المجال الذى أخبره ، ففى عالم التربية ، ورغم أن طلاب كليات التربية الآن يتجاوزون المائة ألف ، لكنك لاتجد كتبا ذات بال فى العلوم التربوية بل الكتب الموجودة تعد على أصابع اليد ، فالجميع قد ارتاح إلى حكاية المذكرات التى تدر دخلا بالألوف دون جهد يذكر ، وعزز من هذا أن اللجان العلمية للترقية ، تستبعد الكتاب «المقرر» من جملة الإنتاج الذى يمكن أن يرقى به عضو هيئة التدريس ، بحجة أنه لاياتى فيه بجديد ، ومعلوماته تتسم بالعمومية والبساطة .

وكان من المألوف أن يستعين بعض أعضاء هيئة التدريس بكتب جامعية ألفها أساتذتهم ، أو غيرهم من فحول الأساتذة، لكن ما أصبح شائعا الآن أن عضو هيئة التدريس ما إن يحصل على الدكتوراه حتى يؤلف على الفور كتابا ، ولا يفكر أبدا فى الاستعانة بكتاب أستاذ كبير فى التخصص ، إلى أن يشتد عوده وينضج علميا وشخصيا ، ولم هذا ؟ إن لسان حالهم يقول : «هم رجال ونحن رجال » ، ولو صدقوا القول لأبرزوا الحقيقة وهى أن الكتاب الجامعى تحول إلى أن يكون مجرد سلعة تجارية ، لاعلمية ، تجلب الرزق الوفير ، وكبار الأساتذة كفاهم ما أخذوا ، أيريدون أن يأخذوا زمنهم وزمن غيرهم ؟!

ومن أكثر الإجراءات مدعاة للسخرية ، وذلك الإجراء الذى اتخذ من سنوات من قبل السلطات الجامعية بتحديد كم من الصفحات لكل مقرر وفقا للمدة الزمنية التى يحتلها على خريطة الجدول ، وبالتالى «تسعير» كل ملزمة ، وهو أمر مضحك حقا ، ولم ينفذ أبدا ، رغم النشرات السنوية المتكررة التى توزع على الكليات بالتعليمات الخاصة بهذه المسألة . ووجه السخرية فى هذا أن المسألة تختلف باختلاف طبيعة المقرر نفسه لا بساعاته ، فقد يتطلب المقرر أن تنفق ساعة كاملة فى حديث لايستغرق أكثر من صفحة ، وقد يسمح المقرر بالعكس من ذلك ، أن تستغرق الساعة كما كبيرا من الصفحات.

وعلى سبيل المثال ، هناك من مقررات أقسام الفلسفة ، مقرر بعنوان «علم الكلام» الخاص بمناقشة القضايا الدينية بالأدلة العقلية والبراهين المنطقية ، وهناك المقرر بعلم المنطق ، وكلاهما تستغرق الصفحة أو الصفحتان ، ربما ساعة كاملة، ولا يكون الأمر هكذا فى موضوعات اجتماعية خاصة بالأسرة ، مثلا !!

إن القضية خطيرة ومعقدة ، ولا أستطيع أن أزعم أنه يمكننى فى هذا الحيز أن أقدم حلولا لكل هذه الجوانب ، وإنما هى تتطلب تضافر الجهود ، وتكامل العقول لتفكر فى سوءاتها وأسبابها وما يمكن عمله للتغلب عليها بحيث لاتنشأ سوءات أخرى بديلة ، أقول هذا لاهربا من تقديم الحل ، وإنما اعترافا بأن أحدا بمفرده لايستطيع أن يصل فيها إلى حل .

طوفان الدكتوراه الى أين ؟ ! !

المعضلة والعلاج

نكأ الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى ـ نسأ الله فى أجله ـ جرحا ناغرا، وذكرنى طعنا كنت أتناساه، ومن جرائه حرصت منذ حصولى على درجة الدكتوراه ألا أقرن اسمى بلقب هو فى ذاته جليل، حيث يعنى فى الإسبانية أن صاحبه صار له مذهب أو طريقة، وقلت ضمن ما قلت فى مستهل أحد كتبى: «لا يذكر المترجم اسمه مقرونا باللقب العلمى الذى حازه، لأنه يرى أن شيوع هذا اللقب فى الآونة الأخيرة أنقص من قدره، وإن لم ينقص من قدر الملقبين به، وخاصة من جيل أساتذتنا الذين حازوا اللقب فى زمان كان يعرف قيمة الأشياء، والتى انماعت فى زماننا «ألقاب مملكة فى غير موضعها»، الى أن أقول : والأساتذة الأسبان لا يعرفون هذا اللقب مكتفين بذكر «السيد» قبل الاسم، وهى سنة حسنة لعل بيننا من يعتنقها، فنعرف الحق بالرجال، لا بألقاب الرجال، ونشر الكتاب سبع طبعات مصدرا بهذه الكلمة التى لم تجد صدى إلا يسيرا !! .

بقلم : د. عبد اللطيف عبدالحليم

بين زمن الطلاب وزمـن الدكاتـرة

ولعلِّى - وقد بدأ الأستاذ مقاله بطرفة عن شيخ معهد الزقازيق الذى مدحه شاعر من الطلاب فى عهد قرزمته، وفى قصيدة بيت مكسور - أطرفه بما حدث لدكتور يدرس مادة النحو فى إحدى الكليات العريقة، ودخل مكتب وكيل الكلية وكنت حاضرا ليوقع الوكيل على شهادة حسن سير وسلوك، أولها : «نشهد نحن الموقعان....»، فما كان من الوكيل إلا أن طلب من الدكتور أن يقرأ الشهادة ظانا أنه خطأ كتابى يستدركه صاحبنا، وكانت الطامة أن قرأ الدكتور الكلام كما ورد مكتوبا، فأسقط في يد الوكيل، وأبلس، ماذا يصنع، وفى النهاية أفهمه الخطأ طالبا تصحيحه، وخرج الدكتور «والباب يصفع قفاه» كما قال الرافعى فى حديث عن العقاد، وشتان بين الموقفين، لكن القافية تحكم، وتحدث الوكيل حين سألته عن حيرته، فقال : كنت سأوقع على هذا الخطأ لكى ترد الجهة التى يريد الدكتور التعاقد معها معارا هذا الطلب، لكنه خشى - أى الوكيل - أن تظن تلك الجهة بالدكتور وبالوكيل الظنون، وأن الكلية العريقة غير أمينة، وهكذا كان، وسافر صاحبنا، ليعود أستاذا مساعدا يشرف ويشارك فى مناقشة الرسائل.

فانظر الفرق بين زمنين !! زمن الطلاب وزمن الدكاترة !!

خلا هذا اللقب من مضمونه، ليس فى كليات معينة، بل عمت البلوى، فتجد الدكتور الطبيب، والدكتور المهندس على تلك الحال - إلا من رحم ربك ، وجأرت حناجر الأساتذة الكبار بالشكوى، ولا من مجيب، كما جأرت أيضا بتقديم المقترحات الإصلاحية، وعقدت الندوات والمؤتمرات، لتوضع التوصيات فى الأدراج، ولو كففنا عن عقد المؤتمرات وطلب الحلول بضع سنوات ، وبحثنا عن التوصيات القديمة لكان فيها علاج ناجح، لكن هكذا يراد، ونعوذ بالله من الخذلان، كما كان يدعو شيخنا ابن حزم.

قضية الدراسات الانسانية

بيد أن الطامة الكبرى تتمثل فى تخصصات معينة هي جوهر هذه الأمة، لأنها تمثل صميمها، ولا ينهض بها غير أبنائها البررة، وهى الدراسات الإنسانية وخاصة اللغة وما يتعلق بفروعها، حيث لا يمكننا استيراد متخصصين ومبدعين فيها بخلاف التخصصات العلمية، لأن العلم لا وطن له .

وفشت البلوى مع افتتاح الجامعا الاقليمية حيث تقوم على نمط من الدكاتر من «تحت السلاح» كما يقولون، وفى ذرعهم القيام بتدريس كل الفروع بلا مثنوية، واشتط ببعضهم الغلو فى انشاء الدراسات العليا، ينهض بها المدرسون الذين كانوا حتى الأمس فقط يدرسون فى

المدارس الاعدادية، وزهد أساتذة الجامعات الكبرى فى الانتداب اليها، حيث ينظر إليهم على أنهم يأخذون لقمة العيش من تلك الأفواه الاقليمية، ولأن الوقت غير متاح لهم أو لأكثرهم، ولضآلة العائد المادى، وصار فى ذرع الدكتور هنالك أن يدرس مادة كالأدب المقارن وهو لا يعرف كتابة اسمه باللغة الأجنبية.

وقد بُليت أقسام العربية بضعفة الطلبة من الحاصلين على ٥٤٪ فى بعض السنوات، وتخرج بعضهم معيدا، وصار أستاذاً الآن، ولم يدخل تخصصه راضيا، بل قذف به مجموعه، واذا تقدم طلاب فائقون فإنما يذهبون الى كليات التربية وهى مفتقرة بحسب منهجها الى الكم والكيف المعرفى فى مواد التخصص، حيث ينازعها المواد التربوية وطرق التدريس وعلم النفس، وكلها علوم مفيدة لمن يملك مادة تخصصه أولا كالعربية أو اللغات الأخرى، وبقية التخصصات، وإلا فما جدوى أن يعرف الطالب طرق التدريس والتربية، ولا يعرف جيدا قواعد العربية وأدبها ونقدها ؟ .

وهكذا الأمر فى كل التخصصات، ومن هؤلاء يكون المعيدون الذين لا يقيمون لغتهم ، وهم الأساتذة فيما بعد، نعتقد أن هؤلاء الطلاب الفائقين كان يمكن تعليمهم جيدا فى التخصص فى غير كليات التربية.

فشل نظام الفصلين

يضاف الى ضعف تكوين الطالب الذى سوف يكون معيدا ، ثم دكتورا فيما بعد، نظام الفصلين الدراسيين الذى إذا صح فى بعض المواد فلا صحة له فى علوم العربية والدراسات الإسلامية ، لأن الزمن فيها جزء من العملية التعليمية ، وإلا فماذا يصنع الطالب فى مناهج الأدب والنقد، بقضاياها وعصورها المختلفة ، وإن وقتا ينفقه الطالب فى تذوق النصوص وهى عسيرة ، وبعض عصورها يبلغ ثمانية قرون لا يمكن أن يضيع سدى فى خلال عام دراسى كامل ، لا بضعة أشهر هى زمن الفصل الدراسى، حيث يظل يديرها فى نفسه ، ويجيلها فى خاطره ثمانية أشهر فيحسن فهمها وتذوقها، ويتمكن من خلالها من فهم كتاب الله وهو ذروة البلاغة والبيان .

ونعتقد أن نظام الفصلين لا يحقق له هذه الغاية المرجوة، كما نعتقد أو نظن على الأقل أنه نظام لا يؤمن به غير واضعيه والقائمين على تنفيذه من أهل الإدارة ، وربما يكون بعضهم أول ذاميه فى خلوته ، حين يئوب إلى فطرته ، ربما يحقق متابعة للطالب ، لكننا نلاحقه بامتحانات متكررة فى وسط العام الجامعى وفى آخره ، وربما تتكرر هذه الامتحانات مرتين كل فصل للمتخلفين، والأصليين، ثم دور سبتمبر ، مع ما يتبع ذلك من استعدادات للامتحانات والتصحيح، ولهاث لا ينتهى ، على حساب العملية التعليمية ، وهى الأصل الأول الذى لا أصل يسبقه فى كل الأمم الناهضة ، أو هكذا ينبغى على الأقل .

وإن طالبا يتخرج فى ظل هذا النظام

التعليمى ، مع الملخصات والدروس الخصوصية ، كيف يكون لنا منه باحث جيد فى المستقبل حين يعين معيدا ثم دكتوراً ؟

ولا يعنى ذلك أن نظام العام الدراسى الكامل لا مثالب فيه ، لكنها فى تصورنا أقل، ومعالجتها لا تكون بنظام الفصلين بل بصيغة تجمع بين المتابعة الفصلية والتحصيل الكامل خلال عام دراسى كامل.

فوضى الدكتوراه

ومن الهزل الذى لم نلتفت اليه أن هناك جامعات أجنبية لن أسميها الآن، تمنح درجة تسمى «أعلى مؤهل» فى مدارس الفنون ، ويترجم المكتب الثقافى هذه الكلمة بلقب «دكتوراه» ، فى حين أنها توازى الليسانس أو دبلوم الدراسات العليا، وبعض هؤلاء الطالبين لها كانوا قد حصلوا على الماجستير فى مصر وهى درجة أعلى من تلك الدرجة «الخواجاتى»، وفى اعتقادنا أن الفن لا يحتاج إلى مثل هذه الدرجات فحسب الفنان فنه ، وهو أعلى من أى لقب ، لكن الرغبة فى الألقاب ، والدرجة المالية - وهى حق وظيفى - وراء هذا السعى المشكور، وبعض هذه الجامعات تمنح درجة الدكتوراه وتسمى «دكتوراه الجامعة» تمييزاً لها عن «دكتوراه الدولة» التى تمنح لأبناء البلد المانح نفسه ، وتميز الجامعات الدرجة الأولى بخاتم يقول : «لا يصرح لحاملها العمل فى الجامعات....» وتمنح للعرب ولابناء أمريكا اللاتينية ، فى كثير من البلدان ، وبعضها تسمى «دكتوراه الدرجة الثالثة» وآخرون يترخصون فى كتابة الرسالة بلغة غير لغة البلد المانح ومنها العربية ، مادام الفساد بعيدا، ويرحل عن بلادهم الى بلادنا أو أشباهها.

وثمة دكتوراه أخرى هى «الفخرية»، ويتمسك بعضهم بها، ولا تخول له التلقيب بها، لكنه الداء المطمئن، والذى لا يجد له شكيما ضابطا.

هؤلاء الدكاترة ومن على شاكلتهم يترقون الآن فى ظل نظام غير دقيق، وحسبك أن تعلم أن البحوث المقدمة فى حدود خمسة ، كل واحد منها فى حدود عشرين أو ثلاثين صفحة ، ومعروف معقولية هذا فى البحوث العلمية التى ربما لا تزيد على صفحات قصار جدا، تحمل كشفا أو نظرية جديدة تغير مسار العلم ربما . لكن فى الدراسات اللغوية أو النقدية ، ماذا يكتشف الباحث فى بحث عن مقدمة القصيدة عند البارودى مثلا فى حدود تلك الصفحات ، بعد تمهيد عن حياة الشاعر وملابسات الإبداع ، وكلها كلام «بالت عليه الثعالب» ، إلا كلام من رحم ربك وهم أقل من القليل ، ثم يتقدم ببحوث مثلها الى الأستاذية ، ويرقى به ما يسمى بالبحث المرجعى فى مقا تستغرق وقتا لا يسمح باكتشاف الباحث ، ويكتفى بالدرجة دون تقرير علمى كما كان المنهج السابق ، ربما تكون فيه بعض ثلوم، لكن إلغاءه ووضع منهج مخالف له ، سيجعل من الأساتذة جيلا مقطوع الأنفاس ليس له كتاب ، يبين فيه منهجه ،

ودرسه ، ودعك من المباحث المسروقة وليس الأساتذة الفاحصون محيطين بكل شئ علما ، فضلا عن خصاصة المكافآت الممنوحة للفاحص ولعضوية اللجنة ، واللجنة بالمناسبة تضم فى عضويتها أناسا لا يعرفهم حتى أهل الاختصاص ، لأن العدالة رأت مقياس الأقدمية كافيا ، وأهملت العلم والفضل بجانب المقياس المتبع ، وهو كسيح بكل المعايير ، صحيح أن فى بعض اللجان أسماء لامعة علما وفضلا ، لكنها قليلة جدا ، ولا ذكر هنا للمجاملات الشخصية والنحل المذهبية التى تقدم وتؤخر كثيراً فى الضوابط والأحكام .

بعض هؤلاء الدكاترة تأخذهم العز بالإثم ويرون أن المكان لا بد أن يخلو لهم بتنحى الأساتذة الكبار ، ليحلوا محلهم ، وليتهم يملأون المكان كما ملأه الأساتذة ، حيث الهزال والطوى ينشران سجفهما عليهم ، ولا شئ غير الادعاء ، سطوا على جهود الأساتذة ، وتعجلا دون ركيزة راسخة من العلم .

وبعض هذه اللجان العلمية تشكل من أساتذة القسم نفسه كما يحدث فى الأزهر عند ترقية الأساتذة المساعدين ، ولست أدرى هل لا تزال هذه السنة متبعة أم لا ؟، وهنا تفرخ المجاملة الإفراخ الطبيعى ، ليت الأستاذ الدكتور البيومى أشار إلى هذه القضية ، وإلى ما يحدث فى الأزهر خاصة ، وأمانة الأستاذ ليست محل حجاج .

أذكر أن طالبا تقدم برسالة فى قسم النحو - مجاراة أذكرها لمدرس النحو الذى ذكره الدكتور البيومى - والطالب جدلا ، يذكر المصطلحات دون فهم ، ويريد أن يكون مجددا فما كان من شيخ جليل عضو فى المناقشة إلا أن قال له : لا أفهم ما تعنى ، وطلب من طالب الدكتوراه أن يشرح المراد ، فقال كلاما لا يحسن السكوت عليه - رعاية لمقام سادتنا النحاة نذكر بعض كلامهم - وهنا قال الشيخ لتلميذه المشاكس : أعرب البيت المذكور شاهدا فى رسالتك . وإذا بالطالب قد أجْبَلَ وأَفْصَى ، ولم يحر جوابا !!

تلك طائفة علا صوتها ، واشتد لجبها ، ووجدت من يصغو إليها - أى يميل - فعاثت فسادا فى علم هو قوام العربية ، وقوام أى لغة أخرى ، وما كان أساتذة الإسبانية يترخصون معنا حتى فى نطق بعض الكلمات والأحرف العسيرة بالنسبة للأجانب بله النحو ، وما أشق أزمنة أفعاله!!

محنة التعليم

سيدى الأستاذ الجليل : نحن فى محنة ، ورحم الله أياما كان شيوخنا فى الأزهر فى القسم الابتدائى والثانوى أعلاما فى المعرفة ربما أفضل من بعض دكاترة هذا الزمن الوبىّ ، فى النحو والفقه والتفسير والحديث والعروض والبلاغة ، ولست من الناعين اللائذين بالماضى ، بل إننى لمست هذا حتى مع طبقة المستشرقين الذين تلمذنا لهم ، وخلف من بعدهم خلف ضيع علما وفضلا، وإن كانوا أفضل من الخلف عندنا ، ولست - والله - أدخل الحزن

على قلب الأستاذ ، فما إلى هذا وكدى .

كيف يكون الإصلاح ؟

وإذا كان الشيخ قدم مقترحات للإصلاح ، فلن تكون فى يد من كانوا سبب الإفلات والضياع ، ترخصا واستنامة ، إنما المسألة تقتضى بعثا ونخوة قبل البرامج الدراسية ، وإحساسا فرديا يتنامى فيشكل اتجاها إصلاحيا ، ولن تكون البرامج التربوية سوى معين، إذ لا بد من امتلاك الأداة والمحصول أولا لأشكله حسبما أشاء ، ولأضرب مثلا يسيرا بمدرس النحو الذى لا يعرف غير قشوره ، وهو ممتلئ العقل ببرامج التربية وطرق تدريسه ، فماذا يصنع أو يفيد ؟.

إن الألقاب الجامعية حصلها غير أهلها ، والسمكة تفسد من رأسها ، والمتخرجون نتاج طبيعى لهذا الرأس ، وقد سرى كثير من هذا الفساد فى السلم الوظيفى بالجامعات ، حين أبحنا للمدرس والأستاذ المساعد اللذين لم يرقيا إلى درجة أستاذ وأدركتهما سن المعاش أن يظلا مدرسا متفرغا وأستاذاً مساعداً متفرغا أسوة «بالأساتذة الأساتذة » ، وكأننا نسوى بين العجز والقدرة والكسالى والمجتهدين ، وكله عند الجامعة صابون ، كان المفروض أن يحال هؤلاء للمعاش ، حين رضوا بالدون ، لا أن يحرزوا «المكافأة » ، ولماذا يعنون أنفسهم بالبحث وسهر الليالى ما دامت الوظيفة مضمونة ، والجائزة مدخرة لهم ؟ فى حين نكيل بمكيال آخر عند تأخر المعيد أو المدرس المساعد عن إحراز اللقب، ونحولهما إلى عمل إدارى . كفى أيها السادة تدليلا للعجز وارتكاس القدرة ، هلاّ حولنا هؤلاء قبل المعاش إلى أعمال إدارية فإذا بلغوا السن القانونية خرجوا وشيعوا دون بكاء إلا من ثبت عجزه جسديا عجزا كليا ، وأخشى من اللجان الطبية آنذاك ، ومن التقارير المزيفة.

وثمة نمط آخر من هذا العجز يتعلق بالأساتذة أنفسهم حين يركنون إلى عدم البحث والكتابة ، وكأنما الأستاذية آخر المطاف ، وحين يبحثون عن مناصب كما يبحث «عبده مشتاق » ومن على شاكلته وفقدنا الأسوة فى الأساتذة الكبار : على الجارم ، وعلى الجندى ، ومحيى الدين عبد الحميد ، وأحمد أمين ، وأمين الخولى ، كل هؤلاء غير دكاترة !!، وشوقى ضيف ، وأحمد هيكل ، والطاهر مكى ، ورجب البيومى وإخوان هذا الطراز .

ثم تأتى الإعارات ، وأصحابها فى البداية طلاب رزق ومعذورون ، لكنها تتحول عند طائفة إلى احتراف ، وتحت مسميات كثيرة مثل مرافقة الزوجة – وكان الناس يخجلون منها بداية – ويستقيلون حين انقضاء «الْعدَّة» ، وحين تكون المسألة بهذه الصورة لا تَنتظره بحثا ولا علما ، مع وجود الكتب المقررة سلفا ، وحين يعود البعض ينسى ما بحثه قديما ، خاصة حين يكون مدرسا لا يزال ، وتطفح المرارة النفسية عاجزا حتى عن القراءة ، لأنها عادة وضرورة حياة لمن تمرس بها وعاناها.

هذا هو الحال ، ولا أمل إلا ببعث جديد ، وإلا إذا تحولت السنن ، وتبدل الخلق جملة كما يقول ابن خلدون ، وهو أمر غير عزيز إذا صحت العزائم وصدقت النوايا ، وللأستاذ الجليل تحية الأمل ، لا تحية القانط المستخذى ، وشكر الغيور لا شكر المداهن .

جامعاتنا فى القــرن الحادى والعشرين

بقلم : د. الطاهر أحمد مكى*

لم يكن سلطان العلم على العقل يوما، ودوره فى تحديث الحيـاة، وتطوير البشرية، كمـا هو فى عصرنا، وفى تطوره وتفجره يسبق الخيال، ويحقق واقعا أبعد من الأحلام، ومع الجديد المتجدد، يطوى الزمن، ويتجاوز الصعاب، وتتأكد قيمته عند المؤمنين به، فيزدادون به ايمانا، ويصاب المتخلفون امام منجزاته بالدوار والذهول، والغيبوبة والانبهار، ويعزون كل مايرون الى قوى غيبية لا نملكها ولا نراها، ولا سلطان لها عليها

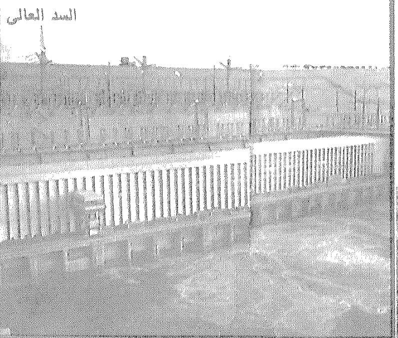
*عضو مجمع اللغة العربية

هذا العلم النافع الذى نأمله، ونسعى اليه ونتمناه، يبدأ فى الجامعة، لأن ماقبلها لون من مكافحة الأمية التى تعين على مشكلات الحياة البسيطة، وتجدى مع بسائط الأمور العاجلة، فحسب .

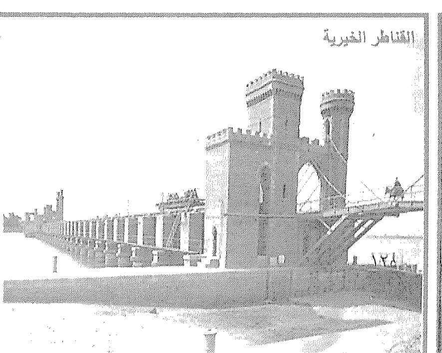
وفيما يجرى الآن مع علمائنا دليل ناطق لا يحتاج الى برهان : إن المصريين اللذين سعدت بهما جائزة نوبل العالمية فى الأدب والعلم، من خريجى جامعتى القاهرة والاسكندرية، وليس ذلك مجرد مصادفة، وانما اشارة دالة على ما يمكن ان تصنعه الجامعات ذات التقاليد العريقة لشعوبها.

ومع كل ما حققه علماؤنا الجامعيون، وهم كثر، بعضهم معروف، وآخرون ليسوا أقل قيمة أو مقاما يؤثرون أن يكونوا اصحاب واجب يؤدونه، دون أن يشغلوا غيرهم بها، ودون أن ينشغل بهم الآخرون غفلة أو حسدا، أو غيرهما من شرور الانسانية التى تلاحق النابهين، مع كل ذلك نسأل أنفسنا · هل نحن راضون عن جامعاتنا، واقعها ونشاطها وعلمائها وطلابها؟ وما الذى نؤمله فيها ونترجاه ونتوقعه، ونرجو أن تحققه لنا فى الأعوام المائة القادمة!

إن الشعوب ذات الحضارة العريقة لا ترضى عن حاضرها، ولا تتواضع فى طموحاتها، وانما تطلب المزيد دائما، وما أحسست بأننا شعب متحضر حى إلا فى اللحظات التى أرى فيها الناس ساخطين على ماهم فيه، وينتابنى شعور بالخوف والضيق حين أرى جموع الشباب قطيعا راضيا عن نفسه وحياته، أو أسمع أهل الفكر والرأى يرددون يائسين تلك المقولة



السد العالى



القناطر الخيرية

التى تنسب الى الامام الغزالى، وقد انتزعوها من مناسبتها التى قيلت فيها : «ليس فى الإمكان أبدع مما كان».لا، هناك دائما البديع الرائع، والجديد المبتكر فى الحياة، والذى ننتظره دائما من جامعاتنا.. ولكى تؤدى الجامعات هذا الدور الذى ننتظره منها، فإنى أحلم لها، أو بالنيابة عنها، لأننى أحد ابنائها والعاملين فيها .

أول الأحلام

أول هذه الأحلام وأحقها بالتأييد أن تكون لكل محافظة جامعة مستقلة، ذات شخصية متميزة، مستكملة الأبنية والأجهزة والاساتذة والمعامل، ويتكفل ابناء المحافظة نفسها بدعمها ماليا، كل بقدر ما يستطيع، وأن يكون هناك تنافس قوى شريف بين الجامعات المختلفة، وأن تتعمق الصلة بين الجامعة والذين فيها، علماء وطلابا، فكرة ومعنى، فيزهون بها، ويغارون على سمعتها، ويرون تقدمها فخرا هم صانعوه، وهى حقيقة لن تتأكد الا اذا استردت كلمة «استاذ» معناها الجليل العريق، فكانوا من أوائل خريجيها، وابتعثوا الى الجامعات التى تسبقنا، ليتزودوا بالمعرفة، وينصهروا فى أوساط جامعية أفضل، فاذا عادوا بنوا مجتمعا فاضلا كالذى تكونوا فيه خارج الوطن، فى الجامعات الأرقى .

وهذا النابه العائد يتطلب رعاية من نوع خاص ليعطى ما عنده، حتى لا ينتهى به حصار الفاشلين الى الكفر بكل ما تعلم واكتسب وآمن، وأول الطريق الى هذه الرعاية، لأنها تتصل بما شاهد ولمس أن تسود فى الجامعة الديمقراطية، ديمقراطية فى العلاقة مع زملائه، وبينه وبين الادارة، وفى تعامله مع طلابه، وبين الطلاب، بعضهم ببعض، ومع الادارة .

حرم الجامعة

وذلك يعنى ببساطة ان نفك الاشتباك القائم الآن بين الأمن وادارات الجامعة، وأن تنتهى حدود الأمن خارج أسوار الجامعة، وأن تعود الى ساحتها الحماية والاعتبار، واسمها الذين كانوا يطلقون عليه فى الأيام الخوالى المجيدة «حرم الجامعة» ، لأن اصحابه كانوا آمنين فيه، ومحرم على غيرهم اقتحامه، وأن يتاح للطلاب ان يعبروا عن آرائهم فى حرية، وأن ينتخبوا اتحادهم بعيدا عن الضغط والتزييف والتزوير. ان الخوف من الديمقراطية ، والتخويف بها، سمة العجزة، والضعفاء فى الحوار، والمتخلفون فى الذكاء وحدهم هم الذين يخشونها، وقد أثبتت التجربة عند غيرنا، وأراها صالحة لنا ، أن علاج عيوب الديمقراطية ومتاعبها يكون بالمزيد منها .

بالانتخاب

أحلم بجامعة رئيسها وعمداؤها يجيئون بالانتخاب العام من هيئات التدريس فيها، وأرى اساتذة يهربون من هذه المناصب الادارية، لأن لهم من شواغلهم العلمية الجليلة ما يشغل وقتهم كله، ويضنون به ان ينفقوه في أعمال ادارية تافهة، أما الطريقة التي تتم بها التعيينات الآن فترضي الأمن، ولكنها في أغلب الأحوال لا تقع على الصالح الذى يفكر ويبدع، وعند الضرورة يقول : لا، بصوت مرتفع، وإنما تأتي بنمط مطيع، آخر ما يفكر فيه رقي الوطن، وسمعة الجامعة، وكرامة بنيها .

وتجربة الجامعات الخاصة عندنا ليست مشجعة، وقد بدأت هزيلة، واذا قسنا حالها بحال المدارس الخاصة عندنا، الحضانة والابتدائية والاعدادية والثانوية، «فابشر بطول سلامة يامربع»، ان هذه المدارس تضم في جملتها الفاشلين في الدراسة، ومتوسطى الذكاء، والمتخلفين عقليا، وليس حال الجامعات الخاصة بأفضل من حالها، وهى نوافذ خلفية، يردها ابناء القادرين على الدفع، لكى يحملوا ألقابا جامعية، وربما ايضا ليجدوا بعد التخرج وظائف ذات راتب افضل، لمكانتهم الاجتماعية وليس لمواهبهم العقلية، او كفاءتهم العلمية، وبالتالى لا أظنها سوف تقدم لنا عالم القرن الحادى والعشرين، واحسب انها فى الطريق الى زوال .

التقدير الواجب

أداء الواجب في الجامعة، وهو صعب وخطير، لابد أن يقابله التقدير المناسب معنويا وماديا، فلا معنى ـ وليس ممكنا ايضا ـ ان تطالب الاستاذ الجامعى بأن يكون ملاكا، راهبا فى صومعة، ثم لا تيسر له مطالبه التى تعينه على الحياة المريحة، وعلى أن يكون الاستاذ الذى تريد، وان تؤمنه ضد جوائح الزمن فى صحته وعائلته ، فلا يشغل نفسه بغير معمله ومكتبته وطلابه، وحين تحقق له الدولة هذا القدر من الضمان، فقد أبرأت ذمتها، فلا ترحم مقصرا، ولا تتهاون مع مستهتر ولا تتستر على مخطىء ولا تبطىء فى تنفيذ القانون القائم، وسن القانون اللازم، اذا لم يكن هناك، وفى هذه الحالة البتر أولى، وعلى نفسها جنت براقش .

اذا استقرت هذه القواعد فلن تجد المدرس الجامعى الذى يزيف عقد عمل لزوجته الأمية، أو التى تفك الخط بالكاد، ويدعى كذبا أنها تعمل فى هذا البلد العربى او ذاك، ثم يطلب السفر معها مرافقا، والواقع انها لا تعمل، وأنها لم تبرح القاهرة، وانما الذى يعمل فعلا

متسترا وراء عقدها المزيف زوجها، وتوافق الجامعة على سفره، حتى اذا أكمل السنوات العشر مغتربا، وهي الحد الأقصى المسموح به، وفصلته اذا لم يعد، لجأ الى مجلس الدولة، يحتمي بثغرة في قانون حماية الأسرة ، وتحكم له المحكمة، وتنقذ الجامعة وهي تعلم أن العقد باطل، ومابني على باطل فهو باطل، وبدل أن تبلغ النيابة متهمة اياه بالتزوير تصمت، وتصمت الكلية، ويصبح مثل هذا التزوير عرفا مقبولا، يعرفه الجميع ويسكتون عنه.

وأعجب من جامعاتنا الجامعات النفطية نفسها، فهي تعلم أكيدا أن جانبا كبيرا من الاساتذة الذين يعلمون أبناءهم، مزورن وكذابون ، تعلم هذا لأنها شاركت في الزيف والكذب وصدقت عليه، ومع ذلك تطمئن اليهم اساتذة، لأن مايعنيها المظهر وحده، أما الجوهر فآخر ما تفكر فيه، وربما كان من المفيد لحكامها ألا يتعلم الطلاب شيئا، وألا يأخذوا من العلم غير قشوره، وليس بغريب ان هذه الجامعات، على كثرتها، وانقضاء الكثير من السنوات على انشائها، وانفاق الطائل من الأموال على تجهيزها ، لم تقدم لوطنها، أو أمتها، شيئا نافعا تزهو به، أو عالما مرموقا يرفع رأسها بين الرءوس .

جامعة القرن الحادي والعشرين التي نحلم بها معلومات الاستاذ فيها متجددة، وهو موصول بالجامعات الأرقى دواما، يتردد عليها زائرا من حين لآخر، يرى أحدث ما وصلت اليه ويفيد منه، وأن تعينه الجامعة في سعيه هذا، وأتمنى أن تكون عادة تشجيع الكسالى على البقاء حيث هم قد انتهت الى غير رجعة، ذلك أن جانبا لا بأس به من أعضاء هيئة التدريس يشغل نفسه بغير العلم والبحث، ولا يجرؤ على التقدم للترقية، ويمضي عمره مدرسا دون أن يسأله أحد، مع أن الجامعات المتقدمة، (وبعض الجامعات النفطية تقلدها شكلا) تطلب من المدرس بعد سبع سنوات من تعيينه لماذا انت واقف في مكانك «محلك سر»، مع ان الجامعات المتقدمة، (وبعض الجامعات النفطية الجادة تقلدها في هذا الأمر) تطلب من المدرس بعد سبع سنوات من تعيينه ان يتقدم للترقية الى وظيفة استاذ مساعد، او يجد له مكانا آخر غير الجامعة!

أما عندنا فنحن نكافئه على كسله، وانشغاله بغير العلم، وتفرغه لغير مهمته، نحيله عند التقاعد، وهو المدرس، استاذا متفرغا!

العلم، أريد أن أقـول الجـامـعـة، هى الأمل وهى مـلاذنا فـى القرن الذى نبدؤه، علينا أن نحرص عليها، وأن نمكنها من أداء رسالتها، وأن نحميها من نفسها ومن الآخرين، وان نتذكر ان العلم درجات، كل سلمة تسلمك الى التى تليها، وانك لا تستطيع ان تصعده، دفعة واحدة، اول صعابها الآن تفتيت الذرة، وهو حلم داعبنا طوال نصف القرن الماضى، ولما ننجزه، والعالم المصرى الذى أدرك أسرارها، وهو من جامعة الاسكندرية، لم نستطع حمايته، فاغتالته الصهيونية فى باريس، وأتصور أن عالما مصريا آخر، فى بطن الغيب، لن يبعد به الزمن أكثر من عقدين من الزمان، سوف يدخل بنا عالم الذرة، ومعه، وبعده سوف تتوالى فتوحاتنا فنصعد بقية السلم : الليزر، والهندسة الوراثية، وألوان أخرى من العلم فى ظهر الغيب، ولقد سبقنا فى هذا المجال من هم دوننا حضارة وتقدما وثراء، وأحسب ان تخلفنا فى هذا كان نتيجة طبيعية للتيارات السياسية والاجتماعية الضاغطة التى شهدتها اعوامنا الأخيرة من القرن العشرين، ولقد بدأنا نحس بهذا التخلف، والاحساس بالألم بداية التفكير فى علاجه. ولن تنهض بنا القناعة باستتباب الأمن، لأنها خادعة، فالحركة حياة، والجمود موت.

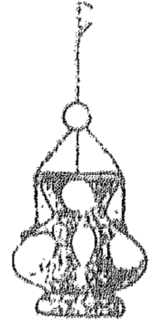
والخير والشر متلازمان مذ كانت الخليقة، وتقدم المعرفة وسيطرة الآلة يأتيان معهما بشرور لا حصر لها، واذا كان الخير متشابه الأوجه، فالشر مختلف، ولن يعيننا غيرنا عليه، وانما ذلك موكول الى علمائنا، وفى مجال التسابق بين الجامعات، سوف تقوم كل جامعة باجتثاث المفاسد المعنوية والمادية من الدائرة التى تحيط بها، وهذه رسالتها العاجلة.

النهر الذي أحلم به

ورغم كل المعوقات فان العبقرية المصرية اذا اتيحت لها الفرصة قادرة على أن تصنع الكثير، واذا اخذنا لذلك مثلا قدرتها على التحكم فى مياه النيل وجدنا انها فى القرن التاسع عشر بنت القناطر الخيرية، وفى القرن العشرين بنت السد العالى، وفى القرن الحادى والعشرين تعيش على أمل شق نهر جديد يخترق الصحراء الغربية يحيى مواتها، ويخضر صحراءها، ويصنع فيها مجتمعا آخر فنيا، بريئا من أمراض المجتمع العتيق، وقد أرهقته متاعب الشيخوخة وأمراضها .

تلك أحلامنا، وهى عريضة واسعة، نربطها بجامعة المستقبل، وأعيذ وطنى، أن تكون على نحو مانراه فى جامعاتنا الآن .

إبراهيم الخليل



أبو الأنبياء

بقلم:د. أحمد عبدالحميد يوسف

سيقوم بابا الڤاتيكان فى رحلة هى الأولى من نوعها يبدأها بزيارة مدينة أور فى العراق، ومنها يسير على خطى رحلة سيدنا ابراهيم عليه السلام، وهذا المقال يتناول رحلة سيدنا ابراهيم .

بسم الله الرحمن الرحيم

«رب هب لى من الصالحين» (الصافات ١٠١)

«سلام على إبراهيم، كذلك نجزى المحسنين» (الصافات ١٠٩)

«وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين» (الصافات ١١٢)

ذلكم أبو الأنبياء، قدر الله نشأته فى مدينة أور الكلديين على الضفة الغربية من نهر الفرات جنوبى العراق، حيث عاش آباؤه بدوا يجوبون أرضا تقيم فيها قبائل قوية من الكنعانيين والأموريين والحيثيين، كانت من قبل مواطىء لجيوش البابليين والعيلاميين. كما كانت معبراً ما بين غربى آسيا ومصر، يسكنون الخيام ويرعون الماشية والأغنام ويجتهدون ما استطاعوا فى النأى بأنفسهم عما كان يندلع بين مدائن تلك البقاع، من صراع وأطماع، منعزلين فى التلال والسهول، ومع ذلك فربما حملهم ما قد يتعرضون له من غارات هؤلاء أو هؤلاء على حمل السلاح، وقد يحملونه فيما بينهم إذا ما شجر بين بطونهم من خلاف، ولكنهم كانوا على كل حال

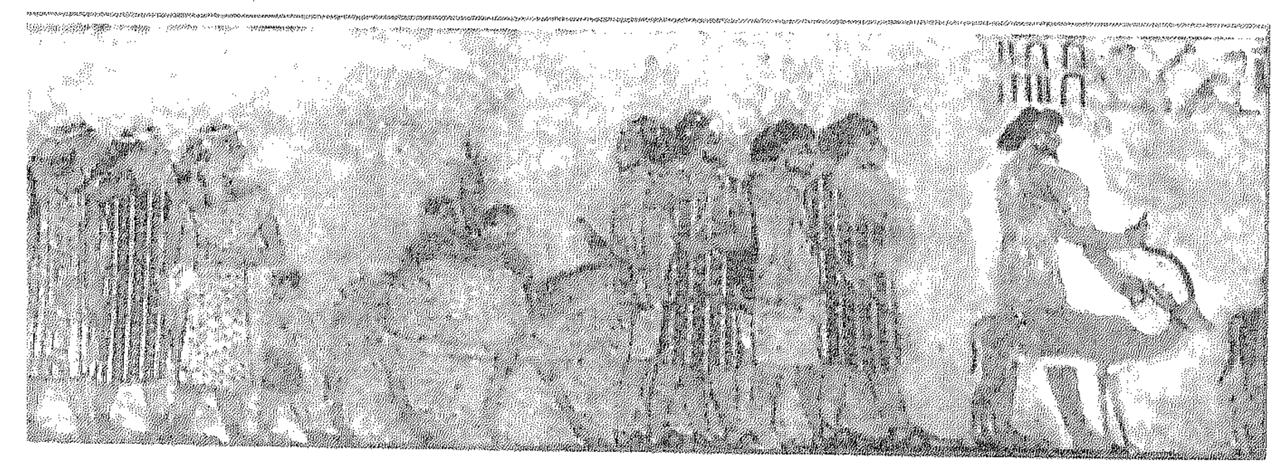
أعزة بجنسهم وصفاء عرقهم فهم ينفرون من الاختلاط بمن حولهم من قبائل ولا يتزوجون منهم مستمسكين بموروث آبائهم وبسيط عقائدهم وكهان أسرهم وخصائص مجتمعهم، وإن لم يختلف ذلك كله فى كثير عمن حولهم من الساميين، ولا ارتفعوا عما كان فى عصرهم من ألوان العبادات ومذاهب الدين.

وفى مدينة أور ولد لتارح أبناؤه «ارام وناحور وهاران، وولد لهاران لوط، ثم مات قبل أبيه تارح.. واتخذ إبرام ساراى زوجة كما اتخذ ناحور ملكه بنت هاران.. وكانت ساراى عاقراً ليس لها ولد.. (تكوين ١١ : ٢٧)..

وقد شب إبرام الذى سمى من بعد ابراهيم فى أور، فلم يركن الى ما يعبد أهلها. نظر وتأمل فيما قدسوا وصوروا فى فنونهم من نجم وقمر وشمس، فما رضى عنها، ولا اطمأن إليها ولا راق فى عينه ما افتتنوا من تصاوير وشكلوا من تماثيل، نبعت عن ثقافتهم وشملتها حضارتهم، فعمد إلى تقبيحها وصد قومه عنها، وذلك فيما عبّر عنه القرآن فى سورة الأنعام أبلغ تعبير وأحسن تصوير.

«وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكونن من الموقنين، فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون.إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من

قافلة ابيتشاى



المشركين وحاجه قومه».. وكان أبوه منهم.. وفشا الجدل حتى بلغ الملك: «ألم تر إلى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن أتاه الله الملك، إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت ، قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر، والله لا يهدى القوم الظالمين» (البقرة ٢٥٨).

وقد بلغ الجدل والعناد بين ابراهيم وقومه أقصاه..

«إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون. قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين. قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين. قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين. بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين. وتا الله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين، فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون. قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين. قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم. فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فأسألوهم إن كانوا ينطقون..» (الأنبياء ٥٢ ـ ٦٣).

لم يفكر ابراهيم ما فعل بتماثيلهم متحديا، وما كانوا هم ليتراجعوا، بل عمدوا إلى عقابه والانتقام منه أبشع انتقام وأقساه.

«قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين».. (الأنبياء ٦٨)

ولذلك فلم يكن إلى البقاء فى هذه البلاد وهؤلاء القوم من سبيل، فكان حسم الأمر والعزم على الرحيل.

«ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين» (الأنبياء ٧١).

وجاء خبر ذلك فى سفر التكوين..

«وقال الرب لإبرام اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك فأجعلك أمة عظيمة وأباركك واعظم اسمك وتكون بركة»..

وأخذ تارح ابرام ابنه ولوطا بن هاران ابن ابنه وساراى كنته امرأة ابرام ابنه فخرجوا معا من أور الكلدانيين ليذهبوا الى أرض كنعان فأتوا حاران وأقاموا هناك (تكوين ١١ : ٣١).

ثم واصلوا من بعد، «فذهب إبرام

كما قال له الرب وذهب معه لوط.. فأخذ ابرام ساراى امرأته ولوطا ابن اخيه وكل مقتنياتهما التى اقتنيا والنفوس التى امتلكا فى حاران وخرجوا ليذهبوا الى ارض كنعان فأتوا أرض كنعان، واجتاز ابرام فى الأرض الى مكان شكيم إلى بلوطة مودة ، وكان الكنعانيون حينئذ فى الأرض ، وظهر الرب لابرام وقال لنسلك أعطى هذه الأرض، فبنى هناك مذبحا للرب الذى ظهر له، ثم نقل من هناك الى الجبل شرقى بيت إيل ونصب خيمته ثم ارتحل إبرام ارتحالا متواليا نحو الجنوب».. (١٢ : ١ ـ ٩).

وكانت فلسطين الشرقية قد تعرضت لغزو تحالف ملوك العصر أيام ابراهيم، حيث يمتد الطريق الذى سلكت جيوش الغزو من منطقة دمشق جنوبا على امتداد الحافة الشرقية من جلعاد وموآب، وقد تبين من ابحاث العلماء خط مدن مهمة على امتداد هذا الطريق قبل عام ٢٠٠٠ ق.م.. وذلك على مدى قرن أو قرنين منذ ذاك، وإن لم يكن كذلك فيما بعد، أو يفهم من الاصحاحين الثامن عشر والتاسع عشر، وازدهار مدن السهل في ذلك الزمان.. وقد بينت ابحاث العلماء ان هذه المناطق كانت يومئذ ـ أى فى القرن العشرين من قبل مولد المسيح ـ كثيفة السكان وإن هوى تعدادهم فيما بعد قرونا، وقد توفرت من التاريخ شواهد تؤيد ذلك التقدير.

إبراهيم يتوجه إلي مصر

ثم كان أن أقبل ابراهيم من حيث يقيم فى فلسطين على مصر يطلب فيها الشبع والرى من بلاد ضربها القحط والجفاف وقد تحدثت التوراة فى ذلك قالت:

«وحدث جوع فى الأرض فانحدر ابرام إلى مصر ليتغرب هناك لأن الجوع فى الأرض كان شديداً» (تكوين ١٢ : ١٠»..

وغير بعيد ان يكون بعض ما نزل بفلسطين يومئذ إنما كان من آثار ما أصاب سدوم وعمورة، حيث عاش لوط، من تخريب.

وكان مجيء ابراهيم مصر على الأرجح والمشهور ايام الأسرة الثانية عشرة من ملوك الدولة الوسطى فى عهد امنمحات الأول أو سنوسرت الاول على الأرجح، حيث أقبل على طريق ممهد من علائق قديمة بآسيا منذ أقدم العصور، إذ كانت قوافل التجارة ترد على مصر وتصدر عنها بما تحمل

من عروض تحتاج اليها مصر أو تطلبها سوريا وفلسطين، ولقد كانت حاجة مصر إلى الجيد من الأخشاب خاصة دافعا لأهلها على تلمسه.. من مظانه فى فينيقيا (لبنان) منذ طلائع تاريخهم، حتى لقد تسمت بعض انواع سفنهم بحكم انتظام الرحلات الى فينيقيا باسم ميناء جبيل هناك وكان يكتب كبن فى المصرية فسميت كبخبة أى الجبيلة، ولذلك فقد حرص المصريون على تأمين مصادر يطلبون من المواد والطرق اليها، وسلكوا لذلك طريق الحرب والسلام على سواء.. وكان من وراء تخوم مصر مفاوز مرهقة وأقاليم مملكة قد علموا من أمر سكانها ما صوروه فى آثارهم احسن تصوير.. فعلى الطريق بين هرم اوتيس عاهل الاسرة الخامسة وبين معبده فى سقارة ، صورة لطائفة من هؤلاء البدو نزلت بهم مجاعة أذابت الشحم وأكلت اللحم ودقت العظم، وقد كانوا بحكم ما تنزل بهم من نوازل القحط يندفعون ما سنحت فرصة إلى الروابى الخضر فيما وراء الآفاق من بواديهم يتلمسون الرزق محاسنين أو مخاشنين، فمنهم من كان يتسلل فيدخل فى طاعة المصريين طاعما فى خدمتهم من عمل يده، ومنهم من إذا اشتدت به الفاقة لم يبال إذا انقض فى قومه على التخوم أن تأخذه نصال النابلة من حرس الحدود فى صياصيهم. وقد كان تجاوز الأضداد على التخوم من الجفاف والرى ومن الفقر المدقع واليسر الممتع خطراً مقيما على حدود مصر فرض على ملوكها التحفز الدائم لحمايتها من غارات المغيرين وعدوان المعتدين. وكانت طوائف منهم تتعرض لما ترسل مصر الى طور سيناء من بعثات المتقدمين. بل لقد أوشكت غارات البدو وحملات تأديبهم ان تكون من الأعمال الدورية على مر العصور منذ مطلع التاريخ المصرى . وقد تختلف الحملات من السرايا الصغيرة التى تخرج لإقرار الامن والردع والارهاب إلى الكتائب الكبيرة التى تشتبك فى المعارك وتقاتل فى الحروب، حيث توغل فى تقدمها إلى ما يلى سيناء من غربى آسيا، ثم لم تلبث السياسة المصرية كما قدمنا أن حرصت على بسط نفوذها على تلك البقاع وضمها تحت سلطان مصر.

وكان ملوك الأسرة الثانية عشرة

التى عاصرها ابراهيم عليه السلام من احرص الفراعين وأنشطهم فى حماية الحدود وحراسة التخوم ، فكان لهم فى الجنوب ما بين سمنه عند الشلال الثانى وبين القنتين عند أسوان ثلاث عشرة قلعة يبدو من أسمائها ما أريد لها من وظيفة الأمن والدفاع مثل «رادة القبائل» و «مخضعة الصحارى»، وكان سنوسرت الثالث من أنشط هؤلاء الفراعين فيما أرسى لتلك الحماية وما بذل لها من جهود الحرب والانشاء، إذ ينطق عن سياسته فى ذلك ما أقام عند سمنة من قلعة، وشاهد يبين حدود مصر الجنوبية، وما وصى به أخلافه من بنيه بالحفاظ عليها وحمايتها، ومع ذلك فما كان لتلك الحدود ان تكون مانعا ولا حائلا فى سبيل التجارة وسفارات السلام، إذ كان الملك مع حرصه على تأكيد سيادة مصر على أراضيها وضمان سلامتها حريصا على رفاهية شعبه وتنشيط تجارته وتوفير احتياجاته ، فأصدر مرسوما أعلنه على بعض شواهد الحدود تلك يبين فيه مع الحدود نظام المرور ويعين أسواق التجارة فيه.

وكذلك حظيت مصر على جبهتها الشرقية بما عرف منذ الدولة الوسطى بحائط الحاكم حيث قامت القلاع والحصون ومواقع الحراسة التى يقوم عليها الجنود المنوبون الذين لا يمكنون لدخيل من تجاوزها أو عبورها إلا أن يؤذن له ويمنح جوازاً بذلك ، وذلك فى أقدم ما عرف من جوازات السفر فى التاريخ . وفى قصة سنوهة التى انحدرت الينا من ذلك العصر، أنه خرج من مصر هاربا من فتنة ظن أنها واقعة بها لا محالة وأنه إن أقام غير ناج منها، فولى وجهه فى طريقه إلى سوريا شطر الشرق عند البحيرات المرة، فلما انتهى عندها هناك إلى حائط الحاكم كان عليه أن ينحنى بين الشجيرات من حول القلاع ان تناله عيون الرقباء من صياصيهم ، كذلك روى أنه لما عفى الملك عنه وآن له أن يرجع إلى الوطن، أقبل على مصر شيخا طاعنا فى السن حيث أقام عند تخومها الشرقية على طريق «حور» منتظراً ولم يدخل وهو من هو من الأسرة المالكة حتى أرسل قائد الحدود إلى الملك بمقدمه وعاد الرسول بالإذن للأمير العائد بالدخول.

● النفوذ السياسى

ومهما يكن من شيء، فلقد كشفت الأحافير على كل حال فى مصر والشام، وتحدثت الأخبار يومئذ كذلك،

بما يشهد لمصر بما كان لها فى تلك الربوع من النفوذ السياسى والمنزل التجارى جميعا، فقد عثر من عهد الأسرة الثانية عشرة تحت معبد لها فى «الطود» بصعيد مصر ـ فضلا عن تمائم من لازورد وأختام اسطوانية بابلية ـ على ودائع من حلى الذهب والفضة وسبائك منهما فى أربعة من صناديق البرونز، عليها اسم أمنمحات الثانى، وكلها بحكم طرزها الأيجية والبابلية إنما تنطق عما كان لمصر من علائق قد تكون امتداداً لنفوذها على تلك البقاع، كذلك عثر على طائفة من آثار تحمل أسماء ملوك الدولة الوسطى وأفراد أسرهم فى جبيل وبيروت وأوجاريت (رأس شمرا الآن) على الساحل الفينيقى، وفى قطنه شمال سوريا كما عثر فى مجدو الفلسطينية على قاعدة لتمثال جحوتى حيث بن كاى وسات خبركا حاكم اقليم الأرقبة والكاهن الأكبر لمعبودها جحوتى (تحوت) فى الاشمونين، ولاشك ان تمثالا لمثل ذلك الرجل فى سوريا وفلسطين ـ وهذه منزلته ـ إنما يدل على علائق متينة بين مصر وآسيا، وغير بعيد ان يكون وأقران له قائمين بأعمال دبلوماسية هناك، أو مندوبين فى مواقع لمصر مصالح تجارية كبرى.. وفضلا عن ذلك فلدينا من أخبار ذلك العصر ـ عصر الدولة الوسطى ـ شواهد تحدث عن موظف مصرى كان مقيما فى مجدو، وكان يجلب العجول منها ويصدرها إلى مصر.

ولم تكن الوفود من مصر وإليها لتنقطع عنها طوال تاريخ بحثها القديم، حتى عمت أخبارها وتفشت لغتها ـ وهى لغة الحضارة والمدنية على كل حال ـ فى أنحاء البلاد من غرب آسيا . وفى قصة سنوهة وما كان من فراره أنه لجأ إلى بعض بلاد سوريا حيث كتب إليه أميرها بدعوة إلى الإقامة عنده حيث الأمن والدعة وحيث يسمع لسان مصر وقد وجد هناك جالية مصرية أحسنت استقباله والإشادة به.

ومن المحقق أن مصر كانت تصدر مع ما كانت تصدر من عروض التجارة الى تلك الربوع، ما اهتدت إليه من العلم والفكر والأخلاق، وأنها مهدت هناك بتعاليمها لتعاليم من ظهر من الأنبياء والمرسلين ، وأقامت أساسا من الفكر والضمير الحى الذى أرهص لما بشروا به وهيأ لاستقبال ما نزل عليهم من العقائد والرسالات.

وكانت الأسرة الثانية العشرة يومئذ قد بلغت من القوة واليقظة ومن الثقة والنظام أن سمحت لمن شاء

ممن جاورها من الشعوب أن يقبل عليها موغلا الى حيث يستطيع من أقاليم الصعيد، وكان منظر القوافل مما راق لشريف من بنى حسن وراق لفنانه الذى أعد له قبره فصور قافلة منها قبه - إذ تشهد فى قبر خنوم حيث منظراً لقافلة أو قبيلة من سبعة وثلاثين نفساً من رجل وامرأة وغلام، أقبلوا بقيادة زعيمهم أو شيخهم إبشا (أو أبيشاى كما ذكر فى التوراة) يبيعون الكحل ويحملون القسى والسهام ويروجون لذلك بما يعزفون من نغم على الطنبور، وذلك بما عليهم من مآزر مبرقشة ولحى كثيفة تملأ العوارض، وشعر على الرؤوس طويل.

ولم يكن أبيشاى رأس تلك القبيلة السامية أو حاكم البلد الأجنبى كما وصفه النص المصرى ليدخل مصر فيجوس خلال الديار ويوغل فى الصعيد بغير إذن الملك ولا إذن السلطات المصرية كما يقال، فلم يكن لغريب أن يدخل إلا أن يقف عند ثارو حيث القنطرة الآن فلا يواصل المسير حتى تعرف هويته وتتكشف نيته ويتضح مبتغاه كما روينا فى قصة سنوهة..

هبوط إبراهيم إلى مصر

وفى هذه البرهة من حول القرن العشرين من قبل مولد المسيح على عهد هذه الأسرة أقبل ابراهيم أبو الأنبياء عليهم السلام ، وأكبر الظن أنه إنما هبط مصر مع إحدى تلك القوافل التى كانت بائعة لها وبائعة منها كما رأينا فى قافلة أبيشاى، ومن المحقق أنه إنما أقبل على مصر وقد تسامع الناس فى بلاده بما كان فى مصر يومئذ من الرخاء ورغد العيش ولين المقام، فإن الأحوال المواتية التى كانت خليقة ان تجذبه إليها وتغريه بالاقبال عليها والإقامة فيها، إنما تهيأت واستقرت على عهد ملوك هذه الأسرة الثانية عشرة، ولم تتهيأ قبلها ولا استمرت طويلا بعدها.. وظاهر من رواية التوراة والمشنا وهى من المراجع الإسرائيلية الناهدة بعد التوراة وما أيدهما من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن أبى هريرة أن إبراهيم إنما دخل مصر جهرة وبصورة رسمية ولم يدخلها تسللا، وأنه لم يدخل فى عهد من عهود الفوضى والاضطراب والحروب الداخلية التى سبقت الأسرة الثانية عشرة أو لحقت بها أيام الهكسوس، بل أقبل - وهو يعلم - على دولة مستقرة منظمة سوف يسأل فيها عن هويته وهوية من معه من رجال ونساء، فكان منه ما كان من حديثه إلى امرأته سارة فيما اتصلت روايته فى الاصحاح الثانى عشر من سفر التكوين : «وحدث لما قرب أن يدخل

مصر قال لساراى امرأته : إنى علمت أنك امرأة حسنة المنظر فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلوننى ويستبقونك. قولى إنك أختى ليكون لى خير بسببك وتحيا نفسى من أجلك (١٠-١٣) .

ويستخلص كذلك من أحاديث المشنا أن التخوم المصرية قد كان عليها من عمال المكوس من يسأل ويستقصى السفر فيما يحملون فى أمتعتهم من عروض إذ روت أن إبراهيم خاف على فرعون وقومه الفتنة من جمال سارة فحملها فى تابوت وهم يعبرون تخوم الديار.. وسأله عمال المكوس عما فى التابوت فأنبأهم أنه شعير، قالوا بل نأخذ المكوس على قمح، قال خذوا ما تشاءون، فعادوا يطلبون الضريبة على بهار فأجابهم إلى ما طلبوه، فارتابوا فيما يخفيه وأمروه أن يؤدى الضريبة على وسق التابوت ذهبا فقبل وأعطاهم سؤلهم، فحيرهم قبوله كل ما يسومونه أن يبذله وخامرهم شك عظيم، ففتحوا التابوت عنوة فإذا بالنور يفيض من وجه سارة حتى يعم الديار ويعشى عين فرعون.

على أن إبراهيم لم تكن به من حاجة إلى الخوف على حياته من أهل مصر ولا من ملكها على امرأته ان تغصب منه ويقتل من اجلها، ولعله إنما صدر عن استشعار مما عهد من غصب النساء والاحتيال على اقتناصهن من أزواجهن فى بلاده التى اقبل منها بل من بوائق اسوأ سوءا واعظم نكرا بلا بعضها فى سدوم ابن أخيه لوط..

على أن ملك مصر - على كل حال - ما إن عرف مكان سارة من ابراهيم حتى تذمم - بحكم ما كان يسود مجتمعه من مكارم الأخلاق - مما اوشك ان يقع فيه من اتخاذ زوج غيره زوجا له، واستنكر ما ألقى إليه أو نقل عنه من خبر مكذوب وما كان من زعمه أنها أخته.. فتقول التوراة:

«فحدث لما دخل ابرام الى المصريين رأوا المرأة حسنة جداً، ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون، فأخذت المرأة إلى بيت فرعون، فصنع إلى ابراهيم خبرا بسببها وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال (تكوين ١٢ : ١٤ - ١٧).

ونريد قبل المضى فى هذا الحديث أن نستطرد قليلا فيما ذكرت التوراة من جمال نالها ابراهيم فى مصر مصحجين. ذلك ان كاتب التوراة - فى

معرض التعبير عما لقى ابراهيم من كرم فرعون - إنما كان يعدد على اسلوبه وبيئته ما عسى ان يتلقى - فى مفهومه - من ملك مصر، فذكر الغنم والبقر والحمير والعبيد والإماء والاتن، ثم اضاف إليها الجمال وإن ظلت الإبل غريبة لا يعرفها المصريون يومئذ على التحقيق . بل لقد كانت غريبة على من أقبل على مصر يومئذ من قبائل البدو الساميين.. فلقد اقبلت قبيلة ابيشاى أو قافلته تسوق الحمر لا الجمال، كما لم ترد فيما نقش على صخور سيناء على امتداد عصور مصر الفرعونية صور الجمال، وذلك فضلا عما قطع به سفر الخروج من عودة موسى وأسرته من مدين الى مصر على الحمير:

«فأخذ موسى امرأته وبنيه واركبهم الحمير ورجع الى ارض مصر (خروج ٤:٢٠).

ونعود إلى رواية التوراة التى تتصل فتقول:

«فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراى امرأة ابرام، فدعا فرعون ابرام وقال ما هذا الذى صنعت بى؟ لماذا لم تخبرنى انها امرأتك ، لماذا قلت هى أختى حتى اخذتها لتكون زوجتى، والآن هو ذا امرأتك ، خذها واذهب. فوصى عليه فرعون رجالا فشيعوه وامرأته وكل ما كان له».

وترك إبراهيم عاصمة مصر فى ذلك الزمان ايتشت تاوى حيث مدينة اللشت اليوم إلى فلسطين ».

نفي الكذب عن إبراهيم

وقد وافق حديث الرسول عن ابى هريرة رضى الله عنه خبر الخليل فى التوراة ، قال عليه الصلاة والسلام:

«لم يكذب إبراهيم النبى عليه السلام قط، الا ثلاث كذبات، اثنتين فى ذات الله فى قوله إنى سقيم، وقوله بل فعله كبيرهم هذا، وواحدة فى شأن سارة، فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس فقال لها: إن هذا الجبار ان يعلم أنك امرأتى يغلبنى عليك، فإذا سألك فأجيبيه أنك أختى، فإنك أختى فى الإسلام فإنى لا أعلم فى الأرض مسلما غيرى وغيرك، فلما دخل أرضه رآها بعض اهل الجبار فأتاه فقال له : لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغى لها أن تكون إلا لك. فأرسل إليها فأتى بها ، فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة، فلما دخلت عليه لم يتمالك ان بسط يده إليها فقبضت يده قبضة شديدة، فقال ادعى الله أن يطلق يدى ولا أضرك ففعلت ، فعاد فقبضت أشد من القبضة الأولى ، فقال لها مثل ذلك ففعلت ، فعاد فقبضت أشد من

القبضتين الأوليين ، فقال ادعى الله أن يطلق يدى فلك عهد الله ألا أضرك، ففعلت واطلقت يده، ودعا الذى جاء بها فقال له: (إنك إنما أتيتنى بشيطان ولم تأتنى بإنسان فأخرجها من أرضى وأعطها هاجر.. فأقبلت تمشى، فلما رآها ابراهيم عليه السلام .. قال مهيم قالت خيرا كف الله يد الفاجر وأخدم خادما، قال ابو هريرة فتلك أمكم يا بنى ماء السماء».

لم يكذب ابراهيم النبى عليه السلام الا ثلاث كذبات . ومع ذلك فقد حرص مفسرو الإسلام على نفى الكذب عن أنبياء الله وتنزيههم عن الوقوع فيه. وقالوا إن الكذب حرام إلا إذا عرض، ومن أمثلة العرب قولهم إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب . ولذلك فقد ذكر المفسرون ان الذى قاله ابراهيم فيما ورد بسورة الصافات «إنى سقيم» إنه معراض من الكلام أى سأسقم أو أنه من الموت فى عنقه سقيم أو أراد إنى سقيم النفس لكفركم .

وأما الثانية وقعت فيما كان منه بأصنامهم «فجعلهم جذاذاً الا كبيراً لهم» (٥٨)..

«قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم.. قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون» (٦٢ - ٦٣)..

وقد ذكر النسفى فى تفسيره أن ذلك إنما كان «تبكيتا لهم وإلزاما للحجة عليهم».. وقال ابو السعود.. «وإنما قصد بمقالته تلك تبكيتهم بما يعبدون من صنم لا يسمع ولا يقول..

وأما البيضاوى فقال: «الاستهزاء والتبكيت على أسلوب تعريضى كما لو قال لك من لا يحسن الخط فيما كتبته بخط رشيق.. أأنت كتبت هذا فقلت بل كتبته أنت».

وبعد، فما بال ابراهيم فى الثالثة يزعم للمصريين أن سارة اخته، وما بال المفسرون عن هذه يسكتون؟ أتراه هذه المرة قد اضطر فلا محيص إلى التعريض؟!!

لعل دراسة الحضارة المصرية ولغتها ان تقدم الينا سبيلا إلى إعفائه مما قيل أنه وقع فيه، وأن نسهم مع المفسرين فيما أرادوا لإبراهيم من تنزيه عن كذب قيل إنه اضطر إليه فمال عنه إلى التعريض.

فغير بعيد ان كان ابراهيم عليه السلام يعرف اللغة المصرية ويعبر بلسانها.. بل لا نكاد نشك أنه كان يعرف منها بحكم انتشارها فى بلاده

طائفة من عبارات وألفاظ تعينه على شئونه فى مصر. لذلك فلم يكذب ابراهيم، ولم يخرج على مألوف المصريين فيما كانوا به يتحدثون ، فلقد كانوا يطلقون على الزوجة فى لغتهم - فضلا عن لفظ المرأة «حمة» و «سه حمه»، أو هيمه وسهيمه فيما بعد - لفظ الاخت «سونة» .

وكان ذلك نوعا من التعبير عن المحبة والاعزاز، ولعل ابراهيم حين أقبل على مصر، فلقى الناس من آل فرعون وملئه قد آثر التورية والتعريض فوصف زوجه سارة على مألوفهم بأنها «سونة» بمعنى الزوجة ومعنى الاخت جميعا، حيث وقع فى روع المصريين بلكنته الأجنبية وما عسى ان رأوا من ظاهر معاملته لسارة أنه إنما قصد إلى المعنى الأصيل للفظ الاخت لا إلى المعنى المجازى له، ولعله قال لسارة فيما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتى يغلبنى عليك، فإن سألك فأجيبى أنك لى : «سونة» أو «سونتى»»..

ولاشك أن ابراهيم ، شأن من قدر الله لانبيائه من هبوط مصر، قد أفاد مما رأى وسمع وخرج بهاجر فكانت أما لإسماعيل وصار المصريون أخوال العرب وتبعة سيد الانبياء والمرسلين، بل خرج بعادات مصرية شاعت من بعد فى ذريته من بنى اسماعيل واسحق.

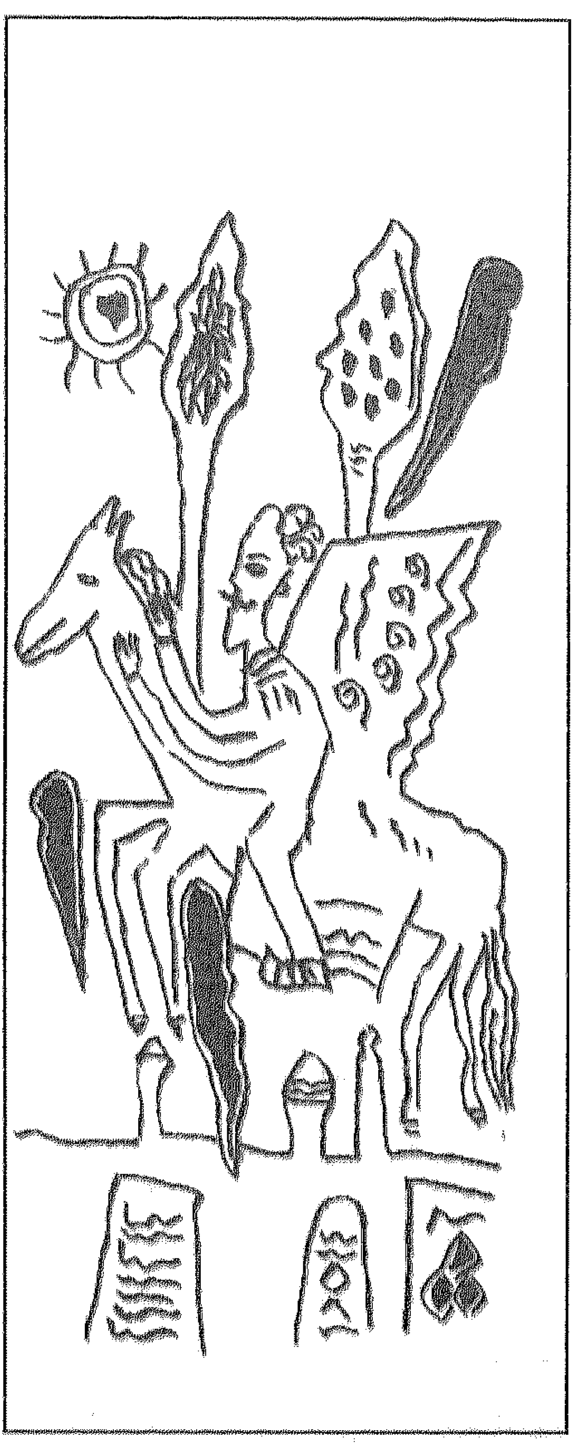
تلكم عادة الختان: «وكان ابراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن فى لحم غرلته ، وكان اسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن فى لحم غرلته، فى ذلك اليوم ختن ابراهيم وإسماعيل ابنه (تكوين ١٧: ٢٤ - ٢٦). ومن بعد ابراهيم كان بنو اسرائيل فى مصر يختتنون اجمعين «لأن جميع الشعب الذين خرجوا كانوا مختونين (يشوع ٥: ٤).

ومن طريف ما ورد فى خبر الختان فى التوراة انه كان يجرى بسكين من صوان، وكان المصريون قد بدءوا صنع أسلحتهم وسكاكينهم من صوان وكانوا يسمونه دس، ثم لم يلبث السكين نفسه ولو كان من المعدن ان سمى دس وإن كان كتاب التوراة قد ظلوا يترجمون عن المصرية ما يدل عليه اللفظ من معنى أصيل.

وذلك فضلاً عن عادات وشعائر كثيرة.. أورثها من بعد بنى إسرائيل.

وعاد ابراهيم من حيث أتى إلى فلسطين ، ثم نزل بأرض الحجاز بزوجه هاجر المصرية أم اسماعيل : «وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل» (البقرة ١٢٧).....

الزمن احتال على
فرافقت الأشباح
وجبت دهاليز الريح العاصفة
وصادقت وحوش الغاب
أرفض أن ألبس أقنعة المهزومين
وأن أتحدث لغة المقهورين
وأخطو.. أخطو..
لا تجـذبنى الأرض ولا يغـرقنى
الموج..
أجـد براقى منتظرا خـارج أسـوار
الزمن
فأصعده.. يصعد بى..
نتجادل حول مشاهد عالمنا
فأراه التزم الصمت..
أثرثر مأخوذا بالدهشة
أعلـن أنـى درويش فـى مـلـكوت
البوح
عل براقى ينصت لى..
فيمد إلى أذنى حبل اللغة الغائبة
ويحشرنى تحت لواء الحكمة
يمنحنى عود بخور
جمارة نخل
نطفة ميلاد للغد.
لكن الزمن احتال على
فسلب ضياء العينين

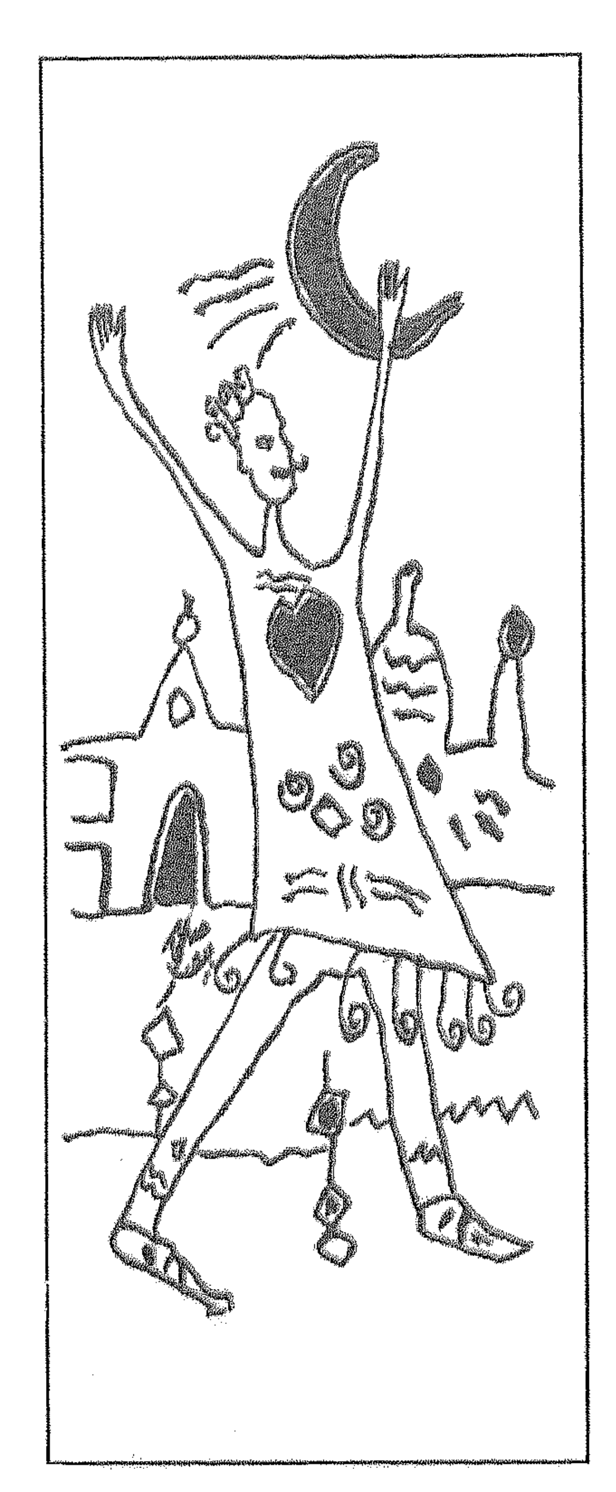


الميـــلاد

وسرق المدخر بداخل صدرى
وانفلت يباهى بالفوز على

....

الآن أسائل قدرى
أن يمنحنى ميلادا آخر
لا يثقله الزمن
ولا يشقيه الحزن
ولا تنفيه الريح العاتية
ولا تتلقفه ألواح الموت..
الآن أسائل قدرى
وأنا لا ينقـصنى شىء يجـعلنى
ميلادا آخر
فأنا خاصمت الزمن طويلا
أعطيت له ظهرى
ورحلت بعيدا فى ملكوت ينأى عن
أرضى
فلعلى أجد الشوق الناضر
أمنحه زمنى من صدرى
أمنحه عمرا محتدما
لا يقهره الصمت
ولا تكسره الريح
ولا تنفيه اللغة الغائبة
ويكتب لى ميلادا آخر..
يكتب لى ميلادا آخر!



الآخر

شعر

أحمد سويلم

من أهم إصدارات دار الهلال فى معرض الكتاب عام ٢٠٠٠







عبدالناصر وسنة ٢٠٠٠

أصدرت مجلة «الهلال» فى الخمسين سنة الأخيرة عددين يحملان التنبؤ بالمستقبل عام ٢٠٠٠ هما عدد يناير ١٩٥٠ وعدد يناير ١٩٥٩ ، وقد كتب حول آفاق المستقبل خيرة من ألمع كتابنا ومفكرينا رؤيتهم بعد خمسين سنة ..

انتقينا بعض كتاباتهم ونشرناها كما هى لنتعرف كيف تخيلوا عالم سنة ٢٠٠٠ الذى بدأ اليوم .. فهل صدقوا فى رؤاهم وأحلامهم ؟! .

ويأتى عدد من كتابنا المعاصرين يعلقون على تلك المقالات ويتمنون أيضا ويحلمون بالغد .

شادية

غلاف سنة ١٩٥٠

مصر فى سنة ٢٠٥٠

لى حفيد يبلغ من العمر خمسة أعوام . سألت نفسى عما يمكن أن تكون عليه حال مصر عندما يبلغ هذا الحفيد، بإذن الله ، عامه الخامس والخمسين، أى فى سنة ٢٠٥٠ ؟

أعرف جيدا أن أغلب محاولات التكهن بالمستقبل تبوء بالفشل. وذلك لأسباب كثيرة من أهمها ان أغلب من يحاولون ذلك يعتمدون على طريقة «الإسقاط» ، أى مدّ الاتجاهات السائدة فى الحاضر والماضى القريب إلى المستقبل ، فتخيب توقعاتهم لأن الحياة لا تكف عن مفاجئتنا بانقطاع فى اتجاه كنا نظن أنه سيستمر ، وبانحناء حاد فى طريق كنا نظنه مستقيما . يكفى أن نتذكر مثلا ما كان يمكن أن نتوقعه ، ونحن فى سنة ١٩٥٠ ، لو حاولنا التكهن بما يمكن أن تكون عليه مصر فى سنة ٢٠٠٠ .

بقلم : د . جلال أمين

ربما تجرأ بعضنا ، فى سنة ١٩٥٠، وتوقع قيام ثورة فى مصر . ولكن من الذى كان يتجرأ فيقول لنا متى تقوم هذه الثورة ؟ وما نوعها ؟ ومن الذى سيقوم بها؟ من الذى كان يستطيع فى ١٩٥٠ أن يقول أن ثورة ستقوم بعد أعوام قليلة جدا، وسيقوم بها الجيش، وأنها ستفعل ما فعلته ، وستنجز كل هذه الانجازات وتهزم كل هذه الهزائم، وأنه خلال الخمسين عاما التالية ، أى بين سنتى ١٩٥٠ و ٢٠٠٠ سوف تنتكس هذه الثورة وتتحول الى ضدها ؟ ناهيك بالطبع عن أن يتنبأ أحد فى سنة ١٩٥٠ بأن مصر قبل انتهاء القرن، سوف ينتشر فيها شىء فظيع اسمه «المحمول» ، يحمله الشبان والشابات فى كل مكان ؟

ومن الذى كان يمكنه أن يتنبأ فى سنة ١٩٥٠، بأن احتفالنا بشهر رمضان سوف يقترب شيئا فشيئا من احتفالات الأوروبيين والأمريكيين بعيد الكريسماس، وأن فوازير رمضان سوف تصبح من الطقوس الأساسية للاحتفال بهذا الشهر والتى سيصعب تصور الصيام بدونها ؟

رغم كل هذه المخاطر والصعوبات قررت أن أقدم على المحاولة ، أيا كان حظها من التوفيق، ولو فقط من باب التمرين العقلى الذى لا يخلو فى ذاته من فائدة.

★★★

من أول ما يمكن أن يتطرق إليه الذهن حجم السكان المتوقع فى سنة ٢٠٥٠ . وفى هذا الصدد نجد تقديرات لا تتعدى فى العادة سنة ٢٠٢٠، وتتراوح بين ٨٠ مليونا و ١٠٠ مليون لتلك السنة . وليس من المستبعد أن يضاف عشرون أو ثلاثون مليون أخرى فى الثلاثين سنة تالية ليصبح حجم السكان فى مصر فى سنة ٢٠٥٠ يقرب من ضعف حجمه الآن . ولاشك أن رقم ١٢٠ أو ١٣٠ مليونا من شأنه أن يثير الرعب فينا عندما نسمعه الآن، إذ أننا نتصور هذا العدد الكبير من السكان وهم يمشون فى نفس الشوارع ويقطنون نفس المدن ، ويأكلون من نفس المساحة المزروعة التى لا تتجاوز سبعة ملايين فدان. ولكن الحكمة تقتضى بالطبع أن نتوقع مدنا أكثر وأكبر، ومساحة مزروعة ليست فقط أكبر بل وهذا هو الأهم - أعلى إنتاجية بكثير من المساحة الحالية . فالأرجح اننا فى سنة ٢٠٥٠ لن نقلق كثيرا ، كما نقلق الآن، على اعتداء المدن والمبانى السكنية على الأراضى الزراعية، إذ أننا على الأرجح سوف

نستطيع بتطبيق التكنولوجيا المتقدمة ، أن نستخرج من الفدان الواحد عدة أضعاف ما نستخرج منه الآن . لن يخيفنا إذن حينئذ ما يخيفنا الآن من رؤية القاهرة وقد امتدت جنوبا حتى لاصقت بنى سويف، وشمالا حتى أصبحت «بنها» ضاحية من ضواحى القاهرة، ومن ثم نجد حلوان وقد تحولت من ضاحية من ضواحى القاهرة، كما هى الآن، الى جزء من «وسط البلد»، وكذلك شبرا الخيمة .. ألخ .

★★★

بل إنى لا أعتقد أننا فى سنة ٢٠٥٠ سنكون مهمومين ، مثلما نحن الآن ، بمسألة متوسط الدخل ومعدل التنمية . ولدى أكثر من سبب لهذا الاعتقاد . أهم هذه الأسباب أن متوسط الدخل فى مصر فى سنة ٢٠٥٠ سيكون على الأرجح أعلى بكثير مما هو الآن. لقد حاولت أن أصل الى تقدير تقريبى لحجم الزيادة فى متوسط الدخل في مصر خلال الخمسين عاما الماضية (١٩٥٠ - ٢٠٠٠) فوصلت الى أن متوسط الدخل اليوم هو (على الأرجح) أكثر من ثلاثة أمثال ما كان عليه فى سنة ١٩٥٠ ، وأقصد بالطبع متوسط الدخل الحقيقى، أى ما يحصل عليه الفرد فى المتوسط من سلع وخدمات عينية بعد استبعاد التغير فى مستوى الأسعار . (وقد بنيت هذا التقدير على أساس تقدير الزيادة في متوسط الدخل بين ١٩٥٠ و١٩٦٥ بنحو ٥٠٪ على الأقل ، وعلى أساس ركود شبه تام فى هذا المتوسط بين ١٩٦٥ و ١٩٧٥ ، ثم زيادة بنسبة ١٠٠٪ فى السنوات العشر ١٩٧٥ - ١٩٨٥ ، ثم زيادة طفيفة قد لا تزيد على ٢٠٪ فى الخمسة عشر عاما الأخيرة) .

هذه الزيادة فى متوسط الدخل حدثت مع أن سكان مصر قد زادوا فى هذا الفترة (١٩٥٠ - ٢٠٠٠) بنحو ثلاثة أمثال (من نحو ٢١ مليونا الى ٦٥ مليونا) . فإذا كنا قد استطعنا فى ظروف صعبة للغاية أن نزيد متوسط الدخل الى ثلاثة أمثاله وفى ظل زيادة في السكان لا تقل عن هذا القدر ، فما بالك بما يمكن لنا تحقيقه في الخمسين عاما التالية ، مع اتصال أكبر بالتكنولوجيا الحديثة (التى ستصبح بالطبع أكثر فأكثر كفاءة) ومع ميل شبه مؤكد لمعدل الزيادة فى السكان الى الانخفاض ، وهو ما بدأت بشائره تظهر بالفعل خلال السنوات العشر الأخيرة ؟ .

لا أظن أيضا أن المشكلة سوف تكون

زيادة تلوث البيئة . فالأرجح أننا فى سنة ٢٠٥٠ سوف نكون قد عالجنا هذه المشكلة منذ زمن طويل ، مع انخفاض معدل نمو السكان ، وانتشارهم انتشارا واسعا فى مختلف مناطق مصر، بما فى ذلك المناطق التى تعتبر الآن صحراوية ، ومع زيادة قدرتنا على تطبيق الأساليب المعروفة، وتلك التى ستصبح معروفة فى المستقبل لمكافحة التلوث أو لتجنب حدوثه أصلا .

★★★

بل إنى لا أظن أننا سوف نكون فى سنة ٢٠٥٠ مهمومين بمشكلة توزيع الدخل، أى مشكلة اتساع الفجوة بين الأغنياء والفقراء. من الممكن جدا أن تستمر الفجوة فى الاتساع، فالظاهر أن من الصعب على الإنسان أن يعيش دون أن يحاول أن يتميز عن غيره . ولكن من الممكن أن تزيد الفجوة اتساعا دون أن تكون سببا مهما للقلق . فالفجوة بين الدخول فى الدول الصناعية الثرية، تزداد اتساعا منذ ربع قرن على الأقل، دون أن تعتبر الناس هناك أن هذه من أهم مشاكلهم . فالأمر يتوقف الى حد كبير على المستوى المطلق لدخول الشرائح الاجتماعية الأقل دخلا ، والشعور بالغيظ والمرارة عندما أرى شخصا يأكل اللحم وأنا لا أستطيع شراءه ، لابد أن يكون أقوى بكثير من شعورى عندما أرى شخصا يركب سيارة لها نوافذ تفتح أتوماتيكية بينما ليس لسيارتى مثل هذه النوافذ . ولكن هناك اعتبارا آخر فى تحديد الأهمية التى نعلقها على مشكلة توزيع الدخل .

إن مشكلة توزيع «الدخل القومى» بين مجموعة من الأفراد يفترض النظر الى هؤلاء الأفراد كأجزاء من أمة واحدة . ولا معنى لإثارة مشكلة «التوزيع» بغير مثل هذه النظرة. إن النظر الى مشكلة الفقر على أنها مشكلة «توزيع» لم ينشأ إلا بعد نشوء الدولة القومية ، والتعود على النظر الى مجموعة من الأفراد على أنهم ينتمون الى كيان واحد هو الدولة أو الأمة . قبل ذلك .

كان من الممكن بالطبع المقارنة بين حال الغنى وحال الفقير ، ولكن المشكلة لم تكن تعتبر مشكلة «توزيع» بل شيئا آخر .

ما الذى يمكن إذن أن نتوقع حدوثه لمشكلة التوزيع إذا تعودنا ، مع مرور الزمن ، على معنى آخر للانتماء ؟ للعالم ككل مثلا بدلا من الانتماء الى أمة معينة ؟ إننا نلاحظ أنه قد بدأت تتردد بالفعل المقارنة بين فقراء قارة وأغنياء قارة أخرى

كــأن العــالم الآن ، وليس الدولة ، هو الوحدة التى ينتمى الجميع إليها . هل معنى هذا أنه مع مرور الوقت سوف تقل أهمية المقارنة بين الفقراء والأغنياء فى الدولة الواحدة ، كما هى الحال الآن ، فيما يتعلق بمقارنة فقراء شارع من شوارع حى شبرا مثلا وأغنياء شارع آخر؟ .

★★★

«نقول إن الاكتظاظ بالسكان لن يكون مشكلة فى سنة ٢٠٥٠، ولا مشكلة انخفاض متوسط الدخل أو معدلات التنمية، ولا مشكلة التلوث ولا مشكلة توزيع الدخل ؟ فما الذى سيصبح أهم شاغل لنا فى سنة ٢٠٥٠» ؟ .

كان الاقتصادى الانجليزى الشهير جون مينارد كينز يعتقد أن مشكلة أحفادنا أو أحفاد أحفادنا لن تكون مشكلة قلة الانتاج بل طول وقت الفراغ. ذلك أن الانسان عاش الجزء الأكبر من تاريخه وهو يحاول حل مشكلة الندرة ، ر م ينجح فى أن يكون له وقت فراغ إلا حديثا جدا ، ومن ثم فهو لم يكتشف بعد طريقة مرضية لملء هذا الفراغ. إن مما يؤيد توقع كينز ماتراه الآن من أن كل ما ابتدعناه فى الخمسين سنة الأخيرة من وسائل ملء الفراغ ظهر أنه غير مرض وغير كاف : لا التليفزيون الملون ، ولا الفيديو ، ولا السياحة ، ولا مختلف أنواع الألعاب الرياضية والمباريات ، ولا ابتداع أعياد جديدة ، ولا إطالة فترات الأعياد القديمة ، ولا التفنن فى وسائل ترغيب الناس فى الاستهلاك ، ولا إطالة مدة التعليم وحشو المقررات الدراسية بالكثير مما لا نفع فيه إلا ضمان استمرار جلوس أكبر نسبة من الشباب على مقاعد الدراسة لأطول مدة ممكنة .. إلخ .

كل هذا لم ينجح فيما يبدو فى التخفيف من الشعور بالوحدة أو بالملل، بعد انقضاء يوم العمل القصير ، خاصة وأن العمل نفسه قد أصبح فى كثير من الأحيان قليل المشقة بالغ السهولة ، حتى ليكاد يكون جزء كبير من وقت العمل أقرب الى أن يكون من «أوقات الفراغ» .

قد تصبح مشكلتنا الأساسية فى سنة ٢٠٥٠ ، كما كان يتوقع كينز : كيف نقضى أوقات الفراغ على نحو يذهب بالسأم والوحشة من نفوسنا . ولكن قد تصبح مشكلتنا الأساسية شيئا آخر ، هو ما أشار إليه الكاتب البريطانى ألدوس هكسلى فى كتابه الشهير (Brave New World) (هذا العالم الجديد

المدهش !) حيث وصف عالما مشكلته الأساسية استخدام العلم فى قهر البشر وسحق آدميتهم ومحو تميزهم . أو قد تصبح مشكلتنا فى سنة ٢٠٥٠ ، تلك التى وصفها جورج أورويل فى ١٩٤٨ وسماها (١٩٨٤) وهى مشكلة استخدام التكنولوجيا المتقدمة وعلى الأخص وسائل الاعلام، فى التحكم فى أفكار الناس ورغباتهم ، لصالح فئة قليلة تستأثر بالحكم . وهو نفس الذى مازال يحذرنا منه الكاتب الأمريكى المرموق ناعوم تشومسكى فى كتاب بعد آخر .

أو ربما أصبحت مشكلتنا الأساسية هى محاولة الفرار من أسر المجتمع الاستهلاكى، واستعباده لنا عن طريق خلق رغبات جديدة باستمرار ، لا تعكس حاجات حقيقية للانسان ، على النحو الذى حذرنا منه عدد كبير من المفكرين الكبار فى الشرق والغرب .

كل هذه التصورات لما يمكن أن تكون عليه مشكلتنا الأساسية وهاجسنا الأول فى سنة ٢٠٥٠ مقنعة للغاية وقابلة للتحقق.

وهى تهدد المصريين كما تهدد غيرهم من شعوب العالم ، وتمثل خطرا على حفيدى مثلما تمثل خطرا على أحفاد غيرى فى مصر وخارجها ، مما يتسق مع عصر العولة القدم، حيث تتوحد مشاكل العالم كما يتوحد اقتصاده وأفكاره . ولكن من الممكن أيضا أن يكون كل هؤلاء المتنبئون لم ينجوا بدورهم من نفس الخطر الذى يهدد كل من يحاول التنبؤ فى أى عصر ، وهو خطر إسقاط مشاكل الحاضر والماضى القريب على المستقبل . فهذه المشكلات كلها (مشكلة ملء أوقات الفراغ، ومشكلة استخدام العلم فى قهر الإرادة الانسانية ، ومشكلة استخدام التكنولوجيا فى غسيل مخ الناس، ومشكلة استعباد الناس بنشر النهم الاستهلاكى).

هذه المشكلات كلها كانت قد بدأت بالفعل وقت تنبؤ وقد هؤلاء الكتاب بنموها واستفحالها . ومن ثم فقد يكون العيب الحقيقى فى هذه المحاولات كلها التنبؤ بالمستقبل، ليس إفراطها فى التشاؤم والخيال، بل على العكس، تواضع القدرة على التخيل بحيث تنحصر فى المبالغة فى رسم أبعاد ما بدأ يحدث بالفعل .

وقد أثبت التاريخ الانسانى، المرة تلو المرة، ليس فقط قدرة الإنسان الفائقة على حل ما يصادفه من مشاكل بل وأيضا قدرته الغريبة على خلق مشاكل جديدة مما لم يكن من الممكن تصوره قبل خمسين عاما .

هذه أول رسالة من رسائل فى التربية وفن الحياة يوجهها الدكتور أحمد أمين بك على صفحات الهلال إلى أبناء الجيل القادم فى شخص ولده . وهى دروس من الماضى وإرشاد وتوجيه الى مستقبل أفضل



بقلم الدكتور أحمد أمين بك

أى بنى :

انى لأعلم أنك قد خلقت لزمن غير زمنى ، وربيت تربية غير تربيتى ، ونشأت فى بيئة غير بيئتى — لقد كنت فى زمن عبد التقاليد والأوضاع ، وأنت فى زمن يكسر التقاليد والأوضاع ، وكنت فى زمن شعاره الطاعة ، الطاعة لأبى ولأولياء أمرى ، وأنت فى زمن شعاره التمرد ، التمرد على سلطة الآباء وعلى المعلمين وعلى أولى الأمر — وتعلمت أول أمرى فى كتاب حقير ، نجلس فيه على الحصير ، ويعلمنا مدرس جبار ، يضرب على الهفوة وعدم الهفوة ، ويعاقب على الخطأ والصواب ، ويرن يده بالعصا فيناكما تمرنون أيديكم على الألعاب الرياضية ، وأنت تعلمت فى روضة الأطفال حيث تشرف عليك آنسة رقيقة مهذبة وتقدم لك تعليم القراءة والكتابة فى اطار من الصور والرسوم والأغانى وما الى ذلك — وكنت أعيش فى كتابى على الفول النابت والفول المدمس وأنت تعيش فى روضتك على اللبن والشاى والبسكويت وما الى ذلك أيضا — ثم لما صبوت تعلمت فى المدارس الفرنسية حيث تنقل اليك فى تعاليمها كل أساليب المدنية الغربية — وتربيت أنا فى وسط كله دين — دين فى الكتب

ودين في الحياة الاجتماعية ودين في أوساطي كلها ، وتربيت أنت في مدارس أو جامعات لا يذكر فيها الدين الا بمناسبات، وكان يذكر الدين في وسطنا دائما ليحترم ، وكثيرا ما يذكر الدين في وسطك ليهاجم · ونشأت في وسط لا تذكر فيه السياسة الا لماما ، ونشأت في وسط كله سياسة واضراب وأكثر من الاضراب · ونشأت في وسط لا يعرف المرأة الا محجبة ، ولا يعرف فتاة الا أن تكون قريبة ، ونشأت أنت في وسط تجالسك الفتاة في جامعتك وتشاهدها في أوساطك وقد أخذت من الحرية مثل ما أخذت — ولو عددت لك الفروق بيني وبينك، في زمني وزمنك، وتعليمي وتعليمك ، وبيئتي وبيئتك ، لطال الأمر

ولكن رغم كل هذا فالفروق مهما كانت فروق جزئية، ولا يزال بيني وبينك وجوه شبه أعمق من هذه المظاهر، فالتغيرات بين الناس مهما اختلفت الأزمنة والأمكنة تغيرات سطحية وأمور عرضية ، أما الانسان في جوهره والجمعيات البشرية في نزعاتها الأصيلة فترجع الى أصول واحدة، ومن أجل هذا كانت تجارب السلف تفيد الخلف · فلأقص عليك شيئا من تجاربي التي أعتقد أنها تفيدك ، مهما اختلفت بيئاتنا ومدارسنا وثقافتنا

▭

أهم ما جربت في حياتي أني رأيت قول الحق والتزامه وتحرى العدل وعمله يكسب الانسان من المزايا ما لا يقدر — لقد احتملت في سبيل ذلك بعض الآلام ، وأغضبت بعض الانام ، وضاعت على من أجله بعض المصالح، ولكني رغم ذلك كله قد استفدت منه أكثر مما خسرت ، لقد استفدت منه راحة الضمير واستفدت منه ثقة الناس بما أقول وما أعمل واستفدت منه حسن ظنهم بما يصدر عني ولو لم يفهموا سببه، ومع هذا فقد استفدت منه أيضا ماديا أكثر مما استفاد غيري ممن لم يلتزموا الحق ولم يراعوا الصدق والعدل — لقد وجدت في أوساط كثيرة وعاشرت زملاء كانوا يرضون رؤساءهم أكثر مما يرضون ضمائرهم ، ويقولون ما يعجب الناس لا ما يعتقدون أنه الصدق، ويرتكبون الظلم طلبا للجاه أو العلو في المنصب ، ومع هذا فقد ربحوا قليلا وخسروا كثيرا · لقد خسروا الفضيلة وخسروا الضمير وفازوا بقليل من الحظ العاجل تبعه كثير من الفشل الآجل، فلو حسبت بالدقة ما كسبت وما خسرت وما كسب هؤلاء وما خسروا لوجدتني أسعد حالا وأوفر حظا · فاذا أردت أن تنتفع بتجربتي فالتزم الحق والصدق والعدل في جميع أعمالك مهما تكن النتيجة

نعم رأيت من زملائي من تمسكوا بهذه الفضيلة فخسروا كثيرا وفشلوا فشلا ذريعا ، ولكن لم يكن عيبهم أنهم التزموا الحق

والصدق والعدل ولكن عيبهم أنهم التزموا هذه الصفات فى سماجة، فقالوا الحق فى غير أدب، والتزموا الصدق فى غير لباقة ، وتحروا العدل فى غير لياقة ، فلم يكن الذنب ذنب الحق ولكن الذنب ذنب السماجة . فتعلم من هذا أن تقول الحق فى أدب وتتحرى العدل والصدق فى لباقة ولياقة . فمن غضب بعد ذلك كان الذنب ذنبه ولا ذنب عليك . ولا تتعجلن النتيجة فقد تمس من الحق نارا ، ويهب عليك من العدل لفحة جحيم، ولكن ذلك أشبه ما يكون بالامتحان ، ان صبرت له انقلبت النار جنة واللفحة الحارة نسيما عليلا

▭

ومن أهم تجاربى أيضا انى رأيت كثيرا من الناس يخطئون فيظنون أن المال هو كل شىء فى الحياة . يبيعون أنفسهم للمال ويحاولون أن يتزوجوا للمال ويضيعون اعمارهم للمال ويفرطون فى الفضيلة للمال . وقد أقنعتنى التجارب أن المال وسيلة من وسائل السعادة حقا . بشرط أن يطلب باعتدال وينفق فى اعتدال ، وبشرط ألا يكون ما تحصله كثيرا جدا، فتنقلب عبدا له ، وبشرط أن يبقى المال وسيلة أبدا ولا ينقلب غاية أبدا . فان أكثر الناس وقعوا فى متاعب شتى من هذه الأخطاء

فمنهم من بدأ حياته يطلب المال على أنه وسيلة ثم استمر فى طلبه بعد أن استوفى حاجته منه فانقلب غاية . ومنهم من صرف حياته وتفكيره فى المال وفى الاستزادة منه حتى فقد سعادته بل وفقد نفسه ، وقد دلتنى التجارب على أن أسعد الناس من وضع المال فى موضعه اللائق به فلم يرفضه رفضا باتا ولم يذل له ذلا تاما ، ونظر الى المال على انه وسيلة من وسائل السعادة لا كل السعادة ، ولم يطلبه الا مع الشرف والعزة والاباء، فان تعارض معها ضحى المال للفضيلة والغنى للضمير

▭

ودلتنى التجارب على أن عنصر الدين فى الحياة من أهم أسباب السعادة ، ولكن أصدقك أنه لم يعجبنى موقف زماننا من الدين ولا موقف زمانك، فقد كان الدين فى زماننا متزمتا لا سماحة فيه متشددا لا لين فيه ، مغلقا لا عقل فيه ، والدين فى زمانكم متضائل لا حياة فيه منسى لا ذكر له موضوع على الرف لا يؤبه به والحياة السعيدة كما دلتنى التجربة حياة ترتكز على الاعتقاد بالله يركن اليه ويعتمد عليه وتستمد منه المعونة ويطلب اليه التوفيق فى الحياة ويملأ حبا القلب رحمة وعطفا وحبا لخير الانسانية ــ يعجبنى من الدين أن يكون سمحا لا غلظة فيه وألا يكون ضيق الأفق فيناهض العلم بل يؤمن صاحبه أن له مجاله وللعلم

مجاله وأن الدين الصحيح لا يناقض العلم الصحيح وأن لا بد منهما جميعا للانسانية فالعلم لحياة العقل والدين لحياة القلب

□

هذه ، يا بنى ، بعض تجاربى فى الحياة وما أكثرها ! ولكنى أخشى أن أطيل عليك فتمل وأحب أن اقدمها اليك جرعة فجرعة لتستسيغها وتتذوقها وتأخذ نفسك بتشربها رشفة فرشفة .

اذكر لى رأيك فيها وموقعها عندك ومبلغ استعدادك لقبولها ، وفى ضوء ما أسمع منك ستتوالى عليك كتبى اليك ، تقدم اليك تجاربى كأسا فكأسا

والسلام عليك ممن يحب لك الخير ويود ان تكون خيرا منه ويتمنى أن يحيا فيك خيرا مما حيى فى نفسه والسلام

أحمد أمين

كلمات سنة ١٩٥٠

● علينا أن نوجه التعليم وجهة عملية تطبيقية لإعداد جيل صالح للعمل فى البنوك والشركات والمؤسسات الاقتصادية المختلفة ، بدلا من التعليم النظرى الذى مازلنا نأخذ به حتى الآن.

أسماء فهمى

● أرى ضرورة العناية أولا وقبل كل شيء بالتربية الخلقية ، وتعويد الشباب حب النظام ، والاهتمام بمشاكل المجتمع ، ومعاملة غيرهم بالتى هى أحسن ، وإجادة التعبير عن آرائهم بعبارات سليمة مهذبة .

كريمة السعيد

● يرى الذين يؤمنون بأثر المناخ فى الانتاج الفكرى والبدنى أن العالم سيشهد عصرا ذهبيا سنة ٢٠٠٠ ميلادية يبرز فيه الاخصائيون فى ميادين الفن والعلم والصناعة .

مجلة «باجنت» الامريكية

● أتمنى أن أعيش حتى أرى الرئيس جمال عبد الناصر فى سن الثانية والثمانين ، وليس ذلك بالكثير عليه ، فهو عمر الشباب الذى سيكون فى ذلك الحين ، وسيشهد جمال عبد الناصر تمثاله الضخم الذى يقام فى وسط القاهرة .

طاهر الطناحى

● إن سنة ٢٠٠٠ تحمل فى طياتها للأدب العربى خيرا كثيرا أنها ستجعل منه «أدبا عالميا» يضارع أكمل الآداب العالمية .

العقاد

رسالة إلى ولدى

بقلم : حسين أحمد أمين

نشر جدك لأبيك منذ نصف قرن، فى مجلة «الهلال» مقالا بعنوان «رسالة إلى ولدى»، بثنى وإخوتى فيها نصائحه المستقاه من تجاربه فى الحياة .. واليوم تطلب منى نفس المجلة أن أكتب رسالة مماثلة إليك، بنفس العنوان، وربما طلبت منك بعد نصف قرن آخر أن تكتب رسالة ثالثة إلى ولدك، فيكون لاختلاف المضمون أو اتفاقه طرافته ودلالته .

فإن كان الشباب عادة ما يأبى الإفادة من تجارب من سبقوه، ويصر على حقه فى أن يجرب بنفسه وإن أخطأ وانحرف عن جادة الطريق، فسيظل من واجب الشيوخ أن يعرضوا ثمار خبراتهم، شاء الشباب أن يمد إليها يده أم لم يشأ وسيظل صحيحا القول بأن من شأن بيان تلك الخبرات أن يوفر على الشباب المطلع عليها الكثير من الوقت والجهد، وقدرا كبيرا من الشقاء والحيرة، وأن يجنبهم ما خبره الشيوخ من أمثالى من التورط فى الزلل، ومن انزلاق أحلامنا إلى الإحباط وخيبة الأمل، خاصة بعد أن تعددت الآراء وتضاربت، فكأنما كل شئ قد بات

مشكوكا فيه، كل يدافع فى حرقة عن رأيه، فكأنما كل شئ قد غدا موثوقا به .

ولا أعنى بذلك إنكار حق الشباب فى التماس طرق جديدة، ورفض بعض ممارسات لآبائهم لا هى أرضتهم، ولا أوصلتهم إلى الغاية المنشودة. وأضرب مثالا على ذلك اختلاف مفهوم جيلى وجيل أبى وجدى عن الثقافة. فهو مفهوم آخذ فى الانحسار، واقترانه أساسا بثقافة الكتاب هو الآن فى طريقه إلى اندثار، إذ تحل محل القراءة تدريجيا وسائل أخرى لتحصيل المعرفه.. وقد أدركت فى وضوح، ومنذ زمن طويل، الفارق بين طبيعة ثقافتى وثقافتك ، (وأنت الذى لا تميل كثيرا إلى القراءة، ولا فائض من وقتك يسمح لك بها) وبدأت أتعلم ضرورة ألا أتسرع بالإدانة أو بالازدراء، وضرورة أن أقر لكل جيل بحقه فى اختيار طريقه إلى الثقافة ووسائلها، خاصة إذ أراك مثقفا، ولكن على نحو لا أعرفه، وبمعنى غير الذى عهدته ونشأت عليه .

مفهوم السعادة

ومع ذلك فإنى أكاد أن أكون واثقا من أنك ستلمس قسطا كبيرا من الاتفاق فى الرأى بينك وبين أبيك وجدك حول مفهوم السعادة والطريق إليها.. لقد استهل تولستوى روايته «أنا كارنينا» بقولته الشهيرة: «كل العائلات السعيدة يشبه بعضها بعضا أما العائلات الشقية فلدى كل منها أسبابها الخاصة التى نجم شقاؤها عنها» .. وفى اعتقادى أن هذا القول ينطبق على الأفراد انطباقه على العائلات . فكافة من عرفتهم أو قرأت أو سمعت عنهم من الأفراد السعداء يكادون أن يكونوا متشابهين فى أسباب سعادتهم، مشتركين فى سمات واحدة أو متقاربة. وهو اشتراك ينفى عن السعادة صفة النسبية، ويجعل من المشروع محاولة معرفة السبل المحددة التى يمكن للفرد أن ينتهجها فتؤدى به إلى السعادة، والقول بوجود سعادة إيجابية رغم غلبة الشقاء على أغلب الناس، ورغم حديث بعض الأديان، والكثير من الفلاسفة، وغالبية البشر، عن أن الحياة شر محض، أقصى ما يمكن للإنسان أن يبلغها فيها هو تجنب الألم قدر الإمكان غير أنه لا مفر من أن أتدارك هنا فأوضح أن ثمة شروطا للسعادة لاتخضع لإرادة الفرد كالصحة، والثروة، وبهاء الطلعة، وطيب المحتد، والمزاج الشخصى، والذكاء والمواهب، والظروف الاقتصادية والإجتماعية

والسياسية التى يعيش فيها. فهى إلى حد كبير من هبات القدر، وقد لاتكون للفرد حيلة حيالها فجمال المرأة مثلا - بل ووسامة الرجل - هما خطاب توصية مفتوح قد ييسر لهما ما يجده غيرها عسيرا. وثمة من الشروط، كالظروف الاقتصادية والسياسية فى موطن الشخص ما قد يسهم فى زيادة فرص سعادته وتحقيق ذاته واشباع احتياجاته المادية والروحية وتنمية مواهبه، أو فى الانتقاص منها .. بل إن من هذه الشروط ما قد يؤدى الافتقار إليه إلى إقامة عقبة كأداء فى سبيل نيل السعادة. فالصحة مثلا التى تشكل الخلفية الضرورية لبناء حياة سعيدة، قد يؤدى الافتقار إليها إلى فقدان القدرة على الاستمتاع بكل شئ آخر، كالثروة والشهرة والمركز الرفيع والمكانة الاجتماعية .. كذلك فإن المزاج الذى لايكاد أن يكون للإنسان دخل فيه، من شأنه متى كان سوداويا أن يصبغ كل ما فى الحياة، حتى أبهى مظاهرها، بلونه وطابعه، بحيث تنطبق هنا قولة المتنبى :

ومن يك ذا فم مر مريضٍ

يجد مرا به الماءَ الزّلالا

بل قد لاتكون الثروة على الإطلاق شرطا أساسيا أو ثانويا للسعادة، بدليل شيوع التعاسة ومشاعر القلق والملل بين الأغنياء. (وهو ما حدا بتولستوى إلى القول فى روايته «الحرب والسلام» بأن منشأ كل ضروب التعاسة ليس هو الفقر والحرمان، وإنما هو زيادة المال عن الحاجة) .. غير أنه من المؤكد، وإن لم يكن للثراء دخل أو تأثير فى السعادة، أن توفر المال قد يجنب المرء الكثير من ضروب الشقاء، وأن الفقر المدقع سبيل أكيد إلى خلق المتاعب والهموم والمشكلات .

كل هذا صحيح، وقد لايكون للمرء حيلة فيه. غير أن الأمر الواضح هو شيوع السخط وعدم الرضا حتى لدى موفورى الصحة وموفورى الثراء، وهو مايستغربه سقيمو الصحة والفقراء بالأخص، فيغدو تعجبهم مصداقا لقولة برناردشو «إن من تؤلمه ضروسه يظن كافة من لا تؤلمهم ضروسهم سعداء !» . وفى رأينا أن سبب فساد هذا الرأى هو أن توفر الصحة وتوفر المال ليسا من مقومات السعادة فى حد ذاتهيما، وإنما هما من شروطها أو بتعبير آخر: أنهما لايحققان السعادة، غير أن السعادة، لاتتحقق مع الافتقار اليهما. فإن كان من الصعب أن يستشعر من تؤلمه

ضروسه بالسعادة وقت الألم، فلا مفر من الإقرار بأن ثمة ملايين التعساء فى عالمنا هذا ممن لاتؤلمهم ضروسهم !.

شروط من البساطة

فإن افترضنا تمتع المرء بالصحة الطيبة، وبقدر معقول من الاكتفاء المادى، وجدنا سائر الشروط التى لاغنى عنها لسعادة معظم البشر شروطا لايصعب توفرها: مثل الصداقة والحب، والحياة العائلية الهانئة، والنجاح فى العمل، والسمعة الطيبة، واحترام الآخرين. وهى شروط من البساطة بحيث يمكن للمرء أن يحققها لنفسه ببعض الجهد والحكمة وضبط السلوك، وبحيث يحق لنا أن نقول إن الإنسان الذى يتمتع بها ولايشعر بالسعادة رغم ذلك يعانى من خلل نفسى معين ويذهب الكاتب البريطانى ر.هـ تونى R.H. Tawney إلى أنه «لو كان أمام المرء عمل هام، يقبل بهمة على أدائه، ولديه من وقت الفراغ والدخل المادى ما ييسر له أداءه على وجه طيب، فإنه يمتلك من اسباب السعادة كل ما بوسع بنى آدم أن يمتلكوه منها» .

ذلك أنه على فرض أن الظروف الخارجية التى تواجه الفرد ليست بالظروف واضحة السوء، فإن بوسعه أن ينال السعادة متى اتجهت عواطفه واهتماماته إلى خارج نفسه لا إلى داخلها، ولم ينحصر تفكيره فى ذاته فكما أنه من الصعب أن نتخيل إنسانا سعيدا داخل السجن، فإنه يصعب عليه أن يجد السعادة فى شر صنوف السجن طرا، ألا وهو سجن العواطف والشهوات التى تجعله حبيس ذاته. ومن أكثر هذه العواطف والمشاعر شيوعا نجد الخوف، والحسد، والإحساس بالذنب، والتحسر على النفس، والغرور فمع كل هذه المشاعر تتركز رغائبنا على أنفسنا، فلا تدع مجالا لاهتمام حقيقى بالعالم الخارجى، اللهم إلا ما يتعلق بالقلق من أن يحبط العالم الخارجى تطلعاتنا .

فعندى إذن أن الإنسان السعيد هو الإنسان الموضوعى ذو الاهتمامات العديدة المتنوعة الخارجة عن نطاق ذاته. ومادام المرء مشغولا بالتفكير فى أسباب تعاسته فسيظل دوما محصورا فى ذاته، وسجين نفسه، فيدور بالتالى فى حلقة مفرغة. وقد لاحظ الحكماء أن سر التعاسة يكمن فى وقت الفراغ الذى يتاح للمرء فيه أن يتساءل عما إذا كان شقيا أو سعيدا، وذهبوا إلى أن علاجه هو فى العمل، بل

هو فى الكد فى العمل حتى يصيب المرء التعب الذى هو من أشراط السعادة. فالإجازة الصيفية لمن لايرهق نفسه في الشتاء لاجدوى من ورائها، بل هى عبء حقيقى. كما أن الإجازة الدائمة التى يعيش فيها بعض الاثرياء هى أفضل تعريف للجحيم .

فإن شاء المرء الخروج من سجن ذاته فلابد له من التركيز على اهتمامات حقيقية له نابعة من طبيعته، فيشعر معها بأنه جزء من خضم الحياة وتيارها، لا وحدة منفصلة صلبة ككرة البلياردو التى لاتربطها بالكرات الأخرى غير علاقة التصادم.. مثل هذا الإنسان يشعر بأنه مواطن فى الكون، يتابع المشاهد التى تدور حوله باهتمام، ويستمتع بتأمله إياها، لاتؤرقه فكرة الموت، إذ هو يشعر أنه مامن شئ يفصله حقيقة عمن سيخلفه في الأرض .. وهذا الاتحاد الغريزى العميق مع تيار الحياة هو عندى أعظم سعادة يمكن للإنسان أن ينالها .

وعندى - مع كل هذا - أن العنصر الاساسى فى سعادة الفرد هو طبيعة تكوينه: مزاجه وشخصيته اللذان هما المنبع الدائم لإرضاءة أو سخطه، واللذان يشكلان الحصيلة النهائية لانطباعاته ورغباته وأفكاره، بينما لانجد للأحداث الخارجة عنه إلا تاثيرا غير مباشر، لايصل إليه إلا عبر هذا المزاج وهذه الشخصية. وهذا هو السبب فى أن الأحداث الخارجية الواحدة، والظروف نفسها، يختلف تأثيرها باختلاف كل فرد عن غيره. وقد يبدو العالم نفسه مختلفا فى أعين الأفراد المختلفين فهو فى نظر هذا صحراء جرداء مسطحة تبعث على الملل والضيق، وفى نظر ذاك جنة مورقة شائقة مفعمة بالمغزى والمعاني.. وكثيرا ما يسمع البعض منا أو يقرأ عن التجارب المتنوعة الشائقة التى مر بها غيره أثناء حياته، فيغبطه أو يحسده، ويتمنى أن تكون هذه الخبرات قد مرت به هو، وكان الأولى به أن يغبط هذا الغير على ما يتمتع به من مزاج متألق، واهتمامات ذهنيه قوية، صبغت تلك الخبرات بصبغتها، فبدت عند وصفه إياها رائعة طريفة، غنية بالمعانى.

فكل حدث يقع، وكل مؤثر خارجى، يتطلب تفاعل عنصرين: شخص وموضوع، هما رغم اختلافهما متحدان اتحاد الأكسچين والهيدروچين فى الماء. فإن كان الموضوع واحدا واختلف تقييم الأشخاص

له، وإحساسهم به، بدا هذا الموضوع الواحد وكأنما هو موضوعات مختلفة شتى فالشخص ذو المزاج الحزين المكتئب يرى المآسي والمتاعب فى أمور يرى فيها صاحب المزاج المعتدل صراعا شائقا ممتعا جديرا بالدراسة، ولا يرى ثالث فيها أى مغزى أو معنى .. وكثيرا ما كان أبو حنيفة يقول لتلاميذه : «لو رأى السلاطين ما نحن فيه من لذة العلم، لقاتلونا عليه بالسيوف !» غير أن الغالب أن هؤلاء السلاطين لو حصلوا بأسيافهم على كل مافى هذه الدنيا من مجلدات للعلوم، لحالت ضحالة قرائحهم دون أن يجدوا فى قراءتها من اللذة ما كان يجده أبوحنيفة وتلاميذه فى كتبهم ومحاوراتهم .. كذلك فإن الغنى الغبى محدود الذكاء والمخيلة لن يجد فى قصوره وضياعه من المتعة ما توفر لسرفانتيس مثلا وهو يؤلف رائعته «دون كيخوته» بين جدران السجن الضيق الذى ألقى فيه .

شخصية الفرد

وتظل حياة كل فرد منا وشخصيته تحملان نفس الطابع من البداية إلى النهاية مهما اختلفت عليه الظروف الخارجية. فما هذه الظروف الخارجية إلا كالتنويعات على اللحن الأساسى فى المعزوفة الموسيقية. وشخصية الفرد هى التى تحدد سلفا مدى قدرته على الاحساس بالسعادة، خاصة قواه الذهنية التى تتحكم إلى الأبد فى قابليته للاستمتاع بأسمى دروب اللذة طرا . فإن كانت هذه القوى محدودة فلن يجدى كثيرا أى جهد يبذله، ولا ما يمكن الناس حوله أو لثرائه وجاهه أن يوفروه له من متع، هى فى أغلبها متع حسية، أو صحبة أمثاله من محدودى الأفق.. وفى المثل الشعبى «الحمار مهما سافر موش حايراجع حصان !». ذلك أن أرقى صفوف المتع، وأكثرها تنوعا وأبقاها على الزمن، هى المتع العقلية، مهما ظن الشباب، عكس ذلك، وهى متع تتوقف درجتها على قدر ما يتمتع به المرء من ملكات ذهنية تصحبه أينما حل، وفى الوطن والغربة بين الناس وفى خلوته، لايمكن لأحد أن يضفيها عليه، أو أن يسلبه إياها .

نعم نحن فى حاجة إلى المال من أجل إشباع بعض الاحتياجات الضرورية والطبيعية غير أنى أريدك أن تدرس حالة ذلك الصنف من الناس الذين نالوا الثراء فى ظل سياسة الانفتاح فى مصر .. معظم هؤلاء هم بطبيعتهم وبحكم نشأتهم وتكوينهم لايعرفون من المتع غير المتع

الحسية، ويظنون أنفسهم قادرين على تحقيق السعادة لأنفسهم ولعائلاتهم عن طريق المزيد فالمزيد من هذه المتع التى يخالونها ستعوضهم عن غيرها . ستجد أن الهم الأكبر لدى هؤلاء هو فى استهلاك الفاخر من الطعام والشراب، وفى النشاط الجنسى، واقتناء الأثاث وأحدث طراز من السيارات، وشراء الكماليات من السلع. غير أنهم إذ يغرقون أنفسهم فى هذه الملذات الحسية، سرعان ما يدركون أنها لاتدوم لأكثر من أيام معدودات، أو ساعات معدودات، وأنها علاوة على ذلك، باهظة الكلفة، لم تكفهم شر الملل، بل وأن الثروة قد قللت سعادتهم بالنظر إلى ما يقتضيه الحفاظ عليها من قلق يصعب تجنبه.

إن ألد أعداء السعادة فى هذه الحياة الدنيا هما الألم والملل، بحيث يمكن وصفهما بأنهما قطبا الحياة، متى ابتعدنا عن أيهما اقتربنا من الآخر. فإن كانت الحاجة تسبب للفقراء الألم، فإن المرء لايتجاوزها حتى يبدأ شعوره بالملل وأكثر الناس عرضه للملل هم أفراد الطبقات العليا الذين تقلقهم فكرة كيفية قضاء وقت فراغهم .. لذلك فإن نادرا ما يطيق الغنى البقاء فى داره غير أنه ما يخرج منها فى طلب التسلية وفرارا من الملل حتى يدرك أنه فى الخارج ليس بأسعد حالا.. لذا تراه يبادر بالتوجه إلى ضيعته فى الريف، أو إلى فيلته فى الغردقة أو الساحل الشمالى، يقود سيارته إليها فى أقصى سرعة وكأنما يتوجه إليها لإخماد حريق فيها. حتى إذا ما بلغها، وقضى بها بضع ساعات، عاد إليه الإحساس بالملل فيغادرها عائدا أدراجه، ويقود سيارته فى أقصى سرعة إلى داره بالقاهرة وكأنما يريد إخماد حريق فيها .

الوهم !

فالشخص العادى إذن إنما ينشد السعادة فى أمور خارجة عنه، كالثروة والمنصب والشهرة والنفوذ وغير ذلك. وهو حين يفقد ما ناله منها، أو ينالها فلا يجد فيها السعادة التى ظنها قائمة بها، يتحطم أساس سعادته. وبعبارة أخرى، فإن مركز الثقل عنده هو خارج نفسه، ويتغير بصفة مستمرة مع كل رغبة يشعر بها، أو نزوة تعن له.. فهو اليوم مشغول بفيلته فى «مارينا» وغدا بشراء طراز جديد من السيارات، وبعده بإقامة حفل عشاء راقص لأصدقائه، وبعده على مائدة القمار يضاعف رهانه، وبعده بالاستعداد للسفر إلى الخارج.. وإذ تتبدد أوهامه تدريجيا إذ لايجد سعادة فى هذا الأمر أو ذاك، يجد المتعة فى إيهام الغير ممن هم ليسوا فى ثرائه بأنه يجد سعادة بالغة فى كل هذه

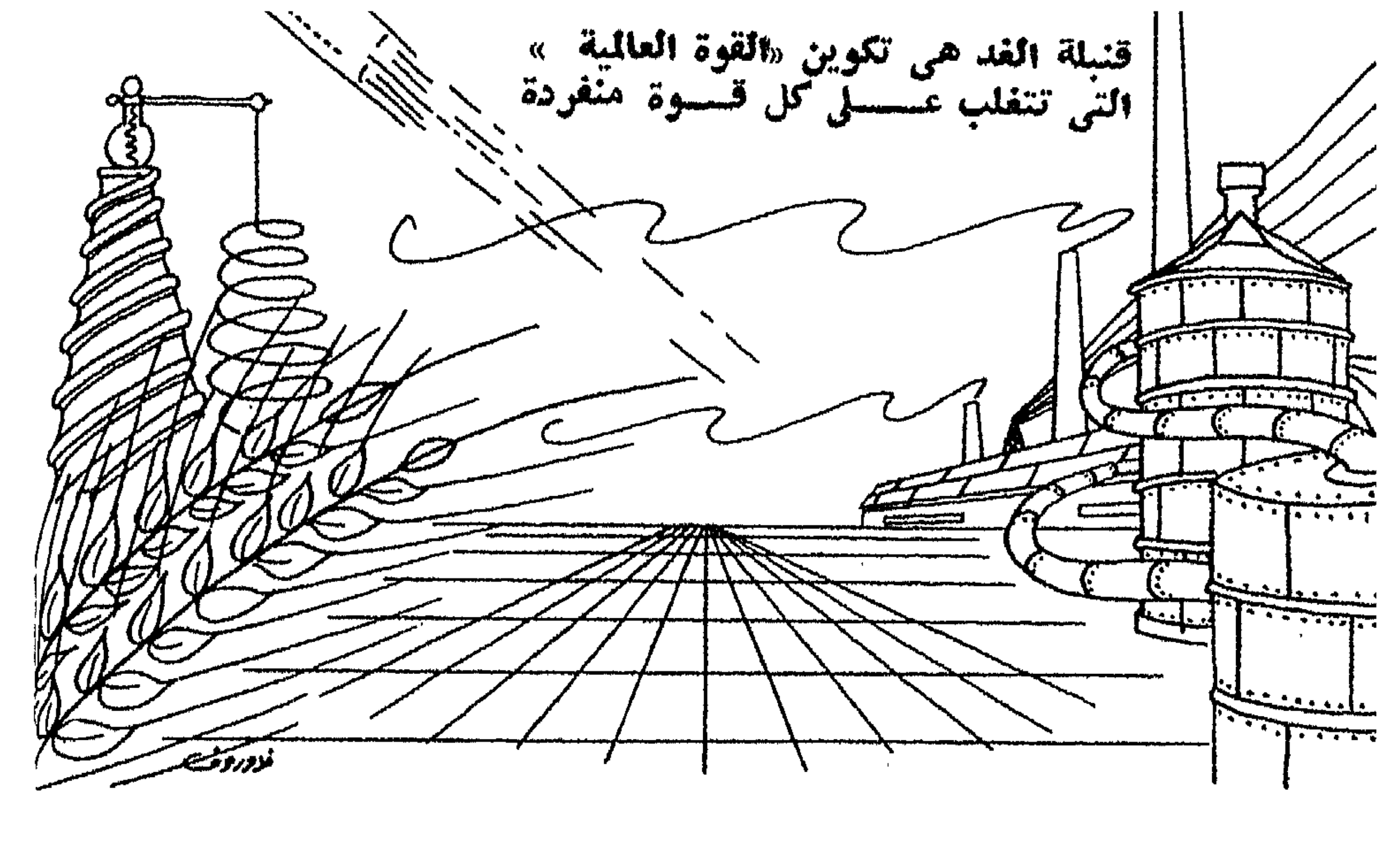
الأمـور: فى غناه أو رتبـتـه، أو نفـوذه أو سلطانه، أو ضـيـعـتـه أو فـيلتـه، أو فى أسفاره أو علاقاته الاجتماعية أو الجنسية فـيـهـمـه أن يظهـر كل ذلك لأعين الناس، وينتهى به الحال إلى الرضا بحسد الناس له، وتوهمهم أنه لابد إنسان سعيد .

وهو أحـيانا، وقد أدرك كذب الشـهوة والثروة، يلتمس التسلية فى نشاط ذهنى، كالموسيقى أو القراءة. غير أن هذا النوع من النشـاط مع أمـثـاله من مـحـدودى القدرات العقلية سيظل دائما ميلا سطحيا غير طبـيـعى، لايمكن مقارنتـه بالنشـاط الفنى أو العلمى الخـلاق، فـيـعـاوده الإحسـاس بالملل، مالم يكن الكتـاب الذى يقـراءة رواية بوليـسـيـة، أو من صنف «اعترافات اعتماد خورشيد»، ومالم تكن الموسـيقى التى يسـمـعـهـا من ذلك النوع الشـائع اليوم فى مصـر، مما لايسـتـهدف تحـريك الوجـدان والمشـاعـر، وإنما تحـريك الأرداف وهزّ الأكتاف، وهو نوع إنما شاع لتلبية احتياجات أفراد الطبقة الجديدة فى مجـتمعنا، ممن حـصلوا الثروة فـعـرضـوا أنفسـهم للملل، وظنوا أن ترقـيص الردف قد يصرفه عنهم .

خـلاصـة القـول هـى أن ثراء الروح والعـقل هو الثـراء الحـقـيقى الوحيد، وأن صـاحب القدرات العقلية، والملكات الفنية، والثروة الروحية الداخلية، هو أسعد الناس جـمـيعـا. فـهـو لا يطلب من دنيـاه خـارجـه سـوى أن تتـيح له من وقت الفـراغ والهدوء والاكتفاء المادى مـا يسـمح له بتنمية ذاته، واسـتـخـدام ملكاته .. وبعـبارة أخـرى، هو لايريد منهـا غـيـر أن تأذن له بأن يكون نفسـه، طيلة حـيـاته، فى كل يوم وفى كل سـاعـة «أمـا مـاعـدا ذلك فـقليل الأهـمـيـة، لايجـدر به أن يلتـفت إليـه وقـد حكى عن سقراط أنه حـين توجـه يومـا إلى السوق، وتأمل مـئـات السلـع المعروضـة فيـه، هتف بأصحابه قائلا :

– ألا ما أكثر الأشياء التى لا أريدها!

فكمـا أن الدولة قـد توصف بالـغنى إن هـى اسـتـغنت بمصـادر ثروتهـا عن كـافـة الواردات من الخـارج أو عن معظمـهـا، فقد تعـرف الإنسـان السـعـيد بأنه الشـخـص الذى يمتلك من عناصر الثراء الداخلى مـا لايحـتـاج مـعـه إلا إلى القليل من العـالم خـارجـه.. فـإن ارتبط عنده المزاج المرح بالجسم السليم، والعـقلية القـوية النشطة النفـاذة التى ترى الأمـور على حـقـيقـتـهـا، والرغبات المعتدلة القليلة، والضمير الهادئ المستريح، أمكن الإشارة إلى كل هذا على أنها الهبات التى لايمكن لأية مزايا أخرى أن تعوضها، أو تعادلها فى القيمة .



قنبلة الغد

بقلم الأستاذ عباس محمود العقاد

تشتهر العصور باختراع شامل أو بحركة انسانية كبيرة يشترك فيها أكثر من أمة واحدة

فيقال مثلا عصر المطبعة وعصر البخار وعصر الكهرباء وعصر الطيران ، ويقال أيضا عصر الاصلاح وعصر النهضة وعصر الثورة الفرنسية وعصر الاستعمار

وقد تكون هناك علاقة بين المخترعات الصناعية والحركات الانسانية، فتكون احداهما نتيجة الاخرى ، أو تكون هذه وتلك نتيجة عامل واحد يسيطر على العقول كما يسيطر على شعور الجماعات

ولكننا لا نعنى بالبحث عن هذه العلاقة الآن ، وانما نعنى بالاسم الذى يمكن أن يطلق على العصر الحاضر من جانب المخترعات ومن جانب الحركات الانسانية

فما اسم هذا العصر اذا أردنا أن نطلق عليه اسما مشتقا من أهم

مخترعاته وأهم أطواره الانسانية من قبيل ما أشرنا اليه ؟

نعتقد اننا لا نخطىء تسميته اذا سميناه من جهة بعصر الطاقة الذرية وسميناه من الجهة الاخرى بعصر الهيئات العالمية

والعصر الذي يليه ماذا يسميه أبناؤه على هذا النمط من الاسماء؟

بماذا نتنبأ له نحن ؟ والى أى حد تصدق النبوءة عنه قبل مقدمه بخمسين سنة فى زمن تكفى فيه السنة الواحدة للتغيير والتبديل فى الوقائع ، فضلا عن النبوءات ؟

نعتقد أننا فى أمان هنا من خطأ النبوءة ، وان الامر لايحتاج منا الى علم بالغيب ونظر الى ما وراء حجاب الاطوار والاحقاب

فاستخدام الطاقة الذرية لايزال فى باب المقدمات ، وتنظيم الهيئات العالمية لا يزال فى باب التجارب

فمن التقدير المأمون أن بقية القرن العشرين وأوائل القرن الحادى والعشرين ستنقضى فى اتمام تلك المقدمات واستيفاء تلك التجارب . لان الطاقة الذرية والهيئات العالمية كليهما أخطر واعظم من أن تستنفدهما الجهود البشرية فى جيل واحد ، وليس بالكثير عليهما جهود جيلين متعاقبين

▭

لا تزال الطاقة الذرية فى انتظار التعميم والترويض ، اذ كل ما ظهر منها حتى الساعة أن دولة واحدة قد استخدمتها فى معركة حربية ، فهل هذا كل ما ينتظر من غرائب الطاقة الذرية؟ وهل ينتهى عصر التجديد فى استخدام هذه الطاقة بانتهاء العصر الحاضر ؟

اننا ــ بغير حاجة الى النبوءة أو الى التعب فى التقدير والتخمين ــ نستطيع أن نجيب بالنفى القاطع ونحن على أتم اليقين من صدق ما نقول

لا يزال هنالك مجال للتعميم

ولا يزال هنالك مجال للترويض

فأما التعميم فمنه شيوع العلم بأسرار الطاقة الذرية بين أمم الحضارة فى المغرب والمشرق ، فلا يبتدىء القرن الحادى والعشرون حتى تصبح القذيفة الذرية سرا مذاعا بين الأمم التى اشتغلت بالعلوم الحديثة وعرفت تسخير الآلات والمخترعات

ولا نحسب أن التعميم فى شؤون الطاقة الذرية سينحصر فى شيوع العلم بأسرار قذائفها بين أمم كثيرة

ففى الوسع أن يعم فلق الذرة حتى يشمل ذرات العناصر جميعا ولا ينحصر فى العنصر الواحد الذى يخرج الطاقة الذرية اليوم، وهو عنصر الاورانيوم

أو فى الوسع على الأقل أن تنشق الذرة وأن تستخدم طاقتها فى عشرين أو ثلاثين عنصرا من العناصر الشائعة على الكرة

الارضية ، فلا ينفرد بجميع مزاياها من ينفردون بهذا المعدن أو ذاك من أشباه الاورانيوم فى تركيب نواته وكهاربه، بل تنشق كل ذرة متماسكة فى العناصر المختارة ، لانها لا تتماسك الا بقوة يستفاد منها فى حالة الانشقاق

أما الترويض ـ ترويض هذه الطاقة المخربة ـ فله طريقتان لا تزالان مجهولتين، وليس بالكثير أن تنقضى فى علاجهما بقية القرن العشرين وأوائل القرن الحادى والعشرين

من ترويض الطاقة المخربة أن تستخدم فى التعمير والاصلاح ولا تظل مقصورة على تخريب الحصون وابادة الاعداء

وهى اذا استخدمت فى التعمير والاصلاح أمكن ان توفر الجهود الكثيرة التى تضيع فى استخراج الوقود والتنازع على الزيوت المعدنية وتمهيد الطرق بين الجبال أو تمهيد الارض الصالحة للزرع والسكن بين الثلوج

واذا تم هذا فهو قنبلة الغد وبعد الغد الى زمن بعيد ،ولكنها قنبلة ترد الطمانينة الى النفوس، ولا تخيف

ومن ترويض الطاقة المخربة أن نقاوم تخريبها بقوة من نوعها ومن مادتها

والمسألة كما نعلم الآن مسألة انطلاق الاشعة وانبعاث القوة المدمرة من هذا الانطلاق

فهل يستحيل على العقل البشرى أن يسيطر على حركة الاشعاع كما يسيطر الا ن على حركة الكهرباء ؟

هل يستحيل توجيه الشعاع أو تفريغ حيز من الجو يلغى الفعل الاشعاعى بفعل معاكس أو مقاوم؟

ان الفطنة الى نظريات الانطلاق أو التموج اللذين يحدثان فى حركة الاشعاع قد تفتح الباب لتحويل الامواج عن مجراها أو اجتذابها الى باطن الارض وأجواز الفضاء

وهنا نحن نظن ونخمن ، ولكننا نضرب فى مجاهل المعقولات ولا نخبط فى تيه الأوهام والمستحيلات

▭

ان القرن الحادى والعشرين سيأتى اذن ولما يفرغ العالم من محاولاته فى الطاقة الذرية

وستمضى بقية القرن العشرين وتهل على العالم مطالع القرن الذى يليه والطاقة الذرية هى مارد الزمن الذى يعالج البشر ترويضه ويحسبون أنهم قد ملأوا وقتهم عملا وابتكارا اذا استطاعوا بعد ذلك أن يروضوه

ويستوى فى ذلك ترويضه باستخدامه فى أعمال التعمير أو ترويضه بترياق من نوعه يقاوم الاشعاع بالاشعاع

▭

ويحسب البشر ايضا انهم

ملأوا وقتهم عملا وابتكارا اذا ابتدأ القرن العشرون وهم ناجحون فى تجارب الهيئات العالمية

فان الهيئات العالمية اليوم توجد لانها ضرورية ولا توجد لأنها مفلحة فى أغراضها وغاياتها

وستظل ضرورية بعد اليوم ، وستزداد الضرورة التى تدعو اليها سنة بعد سنة وحقبة بعد حقبة

وهذه الضرورة التى توجبها هى باب الرجاء فى دوامها وفي اصلاح أخطائها

وقنبلة الغد فى هذه الحركة الانسانية هى تكوين « القوة العالمية » التى تتغلب على كل قوة منفردة

فاذا وجدت «قوة العالم» فكل قوة مغلوبة أمامها ، وكل دولة تحاول الطغيان بأسلحتها أو بأموالها تنعزل وتنهزم

واليوم تتألف الهيئات العالمية من دول كبيرة ودول صغيرة ، يدعوها الى التعاون انها لاتستطيع أن تنفرد

ولكنْ هذا لا يكفى لتحقيق الغرض من الهيئة العالمية لهيئة الأمم المتحدة وما اليها

بل ينبغى أن يكون في الارض « عالم » تجمعه بنية واحدة ، وتدخل فيه الدول الكبيرة والصغيرة كما تدخل الاعضاء فى الجسد الواحد

ينبغي أن تكون في الارض وحدة عالمية يشد بعضها بعضا ويتالم بعضها لألم بعض

أما اليوم فالهيئة العالمية مجموعة من أجزاء متفرقات ، لم يبلغ بها تمام التكوين أن ترتبط فيما بينها ارتباط البنية الحية ، فيؤذيها ألم الاصبع أذية يخافها الرأس والقلب والذراع، ويخشى العضو الكبير على العضو الصغير ، ولا يحسب انه يسخره ويؤلمه ويؤذيه وهو فى أمان من عاقبة أذاه

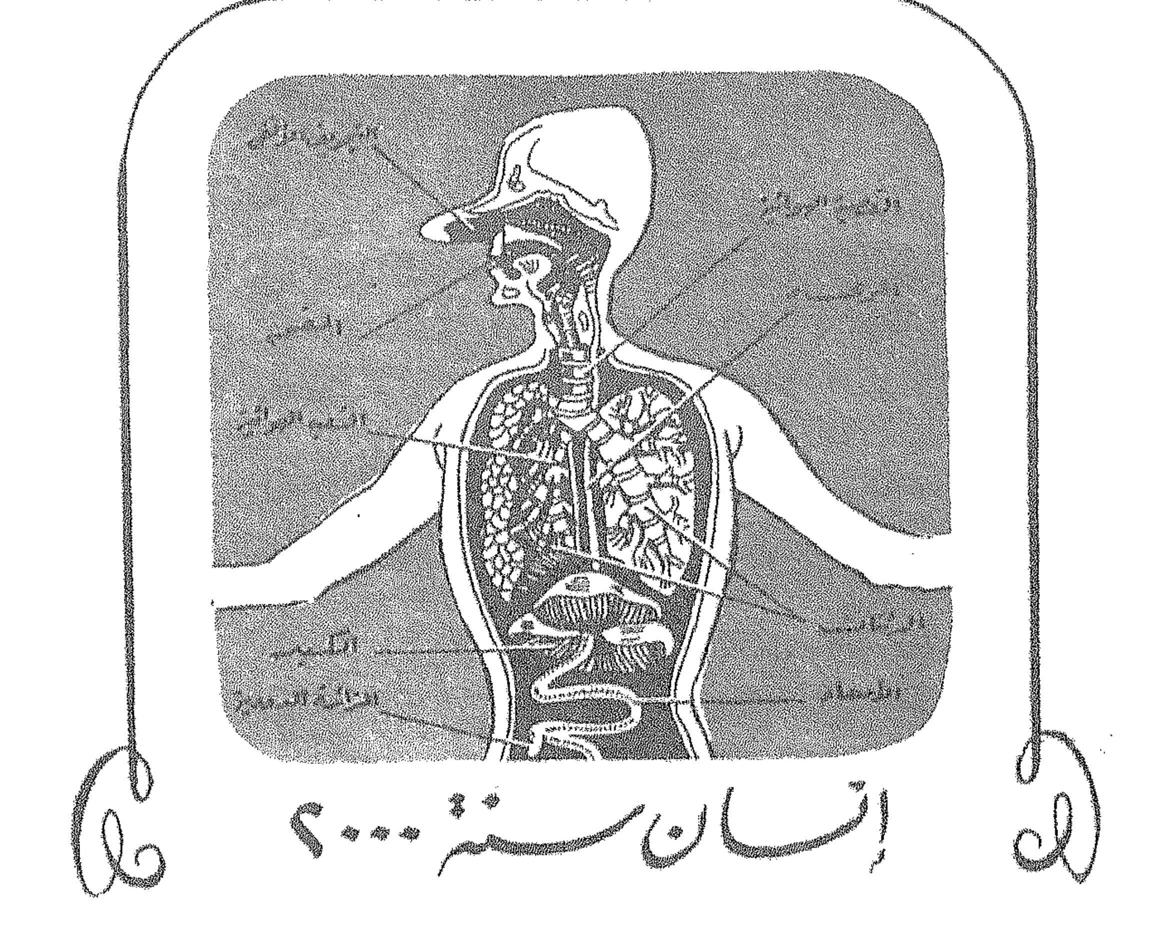
□

خمسون سنة ليست بالكثير على هذه الوثبة فى أطوار الجماعة الانسانية، ولا على تلك الوثبة فى علاج الطاقة الذرية

ولعل الدهر _ تنبلة تفوق هذه القنبلة المدخرة فى عالم الغيب . فانها القنبلة التى تراض بها قوة المادة وقوة الروح

عباس محمود العقاد

• • •



إنسان سنة ٢٠٠٠؟

بقلم الدكتور لويس دوس

مدرس التناسليات بكلية طب العباسية

قبل عشر سنوات كان الجراح اذا وخزته ابرة أثناء جراحة ملوثة يجريها أيقن بميتة التسمم الدموى بعد بضعة أيام . والذى يزور مستشفى قصرالعينى يرى على جدران احدى ردهاته عشرات اللوحات تحمل أسماء جراحين نوابغ ماتوا فى مقتبل العمر تلك الميتة التى كانت ذعر الجراحين. اما اليوم ــ بعد أن اكتشفت مختلف العقاقير القتالة للجراثيم داخل الجسم ــ فقد باتت هذه الميتة فى خبر كان

وعلى هذا المثل المصغر قس عشرات الامثلة مكبرات. فالحمرة التى أماتت سعد زغلول ما كانت لتميته لو امتد به الاجل عشر سنوات . وحمى النفاس التى تخطفت أرواح ملايين الوالدات على مر القرون ، قد فل اليوم منجلها فى قبضة عزرائيل . والاوبئة الفتاكة التى اجتاح كثير منها بلادنا فى السنوات الاخيرة وانجابت بسلام ــ قد كان احدها فى العصور الخالية قمينا ان يخلى من اهلها المدائن والاقطار

ليس من الخيال ، اذن ، أن نتكهن بأننا فى فسحة متوسط العمر — اذا ما استقامت امور العالم على جادة السلام — سوف نحدث ابناءنا يوما حديث الماضي قائلين : كانت فى ايامنا الغابرة أوبئة حصادة للأرواح ، ابتلينا واسلافنا بها شرا مما ابتلي آل فرعون بالضربات العشر ، ثم شاءت رحمة الله ان يرفعها عنا ابد الآبدين

ففى ميدان واحد — هو حرب الجراثيم — انتصر الطب ، أو كاد ، فى اعوام لا تتجاوز العشرين على مجموعة من الاوبئة المكتسحة ، والامراض المعدية القتالة

ترى ، اذا واصل الطب تقدمه على هذا المنوال ، أيأتى زمن تنتفى فيه الامراض ؟ واذن فبم يكون الموت ؟ وحتام تطول الاعمار ؟ وبأية حال تكون الحياة ؟ وعلى اى نظام يجرى التناسل ؟ وفى اية صورة تتشكل الاجسام ؟

هنا وقفة يستباح فيها التخيل على أوسع مداه . فما تخيل الاولون شيئا لم تلد الايام اعجب منه . وهل اعجب مما يصابحنا به عصرنا ويماسينا من خوارق الاعاجيب ؟ فلنتخيل ، اذن ، ما نشاء . ولنقتبس ما طاب لنا من اخيلة المتخيلين

افلن تكون امراض ؟ ارجح الظن ان ستكون . فما الصحة الا حالة من التوازن بين حيوية الجسم وعوادى البيئة . وكل اخلال بهذا التوازن — كأن تضعف الحيوية او تقوى العوادى — مورث للمرض . وعوادى البيئة لا تقتصر على الجراثيم ، بل هى تشمل نظام المعيشة كله . من مأكل ومشرب ، وملبس ومسكن ، ومشغل وملعب ، ومغدى ومراح ، وامن وخوف . وهذه كلها تضطرب تجاوبا مع كل اضطراب فى سياسة العالم واقتصاده وحضارته . وستضطرب هذه الاسباب ما اضطربت الحياة . ولن تقف عجلة الزمن ، ولن يكف الفلك المحرك عن الدوران ، وطاقات الاجسام محدودة ، وسباقها للزمن موقوت ، فلن ينقطع تساقطها فى حلبة السباق

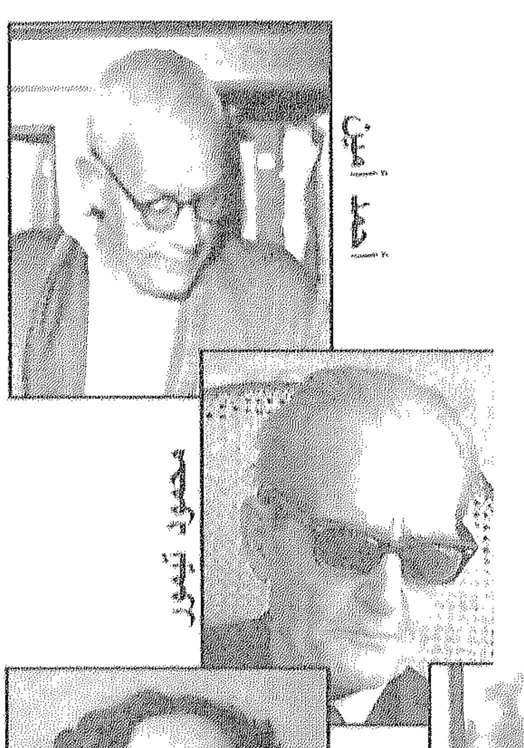
ومن اصول علم التطور : ان الوظيفة تخلق العضو ، وان الاعضاء تكبر بالاستعمال ، وتضمر بالاهمال ، وتتشكل على الوجه الملائم للبيئة . فلنسرح طرف الخيال عبر الاجيال لنتمثل شكل الانسان كيف تغيره — بعد دهور — حضارة الآلات . اغلب الظن ان سيكون الانسان مغزلى الشكل ، تضمر بطنه بضمور احشائها لقلة استعمالها ، وأطرافه السفلى والعليا لقلة حركتها ، ويكبر تجويفه الصدرى على حساب بطنه لازدياد حاجة المخ الى الدم النقى ، وتبقى راسه على حالها ، وانما تتضاعف تلافيف مخه بتضاعف عمله ، وتتضخم انفه لتملأ بالهواء صدره وسيصبح تام الصلع . وعلى هذه الصورة سوف يطغى العقل على الجسم ويشاكل الانسان الآلة التى استعبدته

دكتور لويس دوس

توقعات بيولوچى

بقلم :

د . أحمد مستجير



عباس العقاد

أسماء فهمى

❞ التنبؤ بالمستقبل أمر صعب ، وهو الأصعب إذا كنا نتحدث فى مجال العلم ، إذ يكون من المستحيل أن نتنبأ بظهور «فتح» جديد فى العلم غير مسبوق ، وكل ما نستطيعه هو أن نتوقع - بالاستطراد العلمى - ما سيحدث بناءً على ما توفر لدينا من معلومات . فالفتح العلمى فى واقع الأمر يعنى فكرة جديدة غير مسبوقة لم تخطر على بال أحد قبل صاحبها .

لكن المنجزات العلمية المتعاظمة فى عصرنا هذا تحرك العقول كثيرا ، لتقدح زناد أفكار جديدة ، لنا إذن أن نتوقع ظهور فتوحات علمية جديدة أصيلة أكثر ، سيظل علمها عند ربى ، حتى تتكشف . ❝

في عام ١٩٥٠ قامت «الهلال» مجلتنا الغراء، باستطلاع آراء بعض المفكرين فيما يتوقعون أن تكون عليه مصر والعالم عام ٢٠٠٠ ـ كتب الأديب محمود تيمور مقالا انتهى ببيت زهير :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله
ولكنني عن علم ما في غد عم

وربما كان البيت هو أفضل ما يقال اليوم أيضا .

وتحدث الدكتور لويس دوس، مدرس التناسليات بكلية طب العباسية، عن انتصار الطب في أعوام لا تتجاوز العشرين على مجموعة من الأوبئة المكتسحة والأمراض المعدية القتالة، ثم تساءل : أفلن تكون هناك أمراض ؟ ورد بالاجابة المتوقعة قائلا إن أرجح الظن أن ستكون . ثم أنهى مقاله بأنه يتوقع أن يتحور تركيب جسم الانسان بحيث يطغى عقل الانسان على جسمه، ويشاكل الانسان الآلة التي استعبدته.

ثمة سؤال طرحته أسماء فهمي في ندوة الهلال يقول : أليس من العجيب أن يكون ٩٩٪ من الكتب التي تصدر في مصر من النوع الأدبي النظري؟ مرت خمسون عاماً ولايزال سؤالها يستحق أن يطرح جديا، فالرقم لم يتغير على ما أرى، رغم أن العلم قد أصبح هو أكبر القوى التي تحرك عالمنا اليوم.

ومن عجب أن نرى أحمد أمين في مقالة يؤكد «أن الدين الصحيح لا يناقض العلم الصحيح، وأن لا بد منهما جميعا للإنسانية، فالعلم لحياة العقل، والدين لحياة القلب» . يا رباه ! أبعد كل هذه السنين لا يزال علينا أن نردد نفس هذه الجملة الحكيمة؟ ويعود الآن إلى ذاكرتي قول عبد المنعم عواد يوسف : ربما كان علينا أن نغني ألف مرة - قبل أن نسمع مرة .

أما أستاذنا عباس محمود العقاد في مقاله «قنبلة الغد» فقد تساءل عن الاسم الذي يمكن أن يطلق على عصره، ثم أسماه «عصر الطاقة الذرية» وتنبأ بأن القرن الحادي والعشرين سيأتي ولما يفزع العالم من محاولاته في الطاقة الذرية، كما تنبأ بقنبلة الغد، وهي قيام هيئة أسماها «القوة العالمية» تتغلب على كل قوة منفردة، فكل قوة مغلوبة أمامها، ليصبح في الأرض «عالم» تدخل فيه الدول الكبيرة والصغيرة كما تدخل الأعضاء في الجسد الواحد .. وها قد حلت «العولمة»، وظهرت «القوة العالمية» إنما في صورة دولة واحدة كبيرة، أو إن أردنا، في صورة منظمة واحدة اسمها «منظمة التجارة العالمية» .

***

كان النصف الأول من قرننا العشرين هو حقا عصر الطاقة الذرية، كما أسماه العقاد، ففيه على الأقل ألقيت قنبلتا هيروشيما ونجازاكي في أكبر مجزرة في تاريخ البشرية. أما في النصف الثاني فسنجد التسارع المذهل في تغير وتفرغ العلم والتكنولوجيا والمعارف العلمية، يمضي بمعدل يلهث أمامه خيال البشر، لم يعد من الممكن أبداً أن يعتبر استمراراً لعصر الطاقة الذرية فنطلق الاسم على القرن بأكمله، بل سيصعب حتى أن نميزه باسم واحد.. فلقد نطلق عليه عصر المعلومات والانترنت، ولقد يميزه البيولوجيون أمثالي الى عصور لا إلى عصر واحد. فالخمسينات والستينات هي عصر البيولوجيا الجزيئية، أما السبعينات والثمانينات فهي عصر الهندسة الوراثية (إن تكن هذه تطبيقا من تطبيقات البيولوجيا الجزيئية)، لتكون التسعينات أو السنين الأخيرة منها إن شئت الدقة، هي عصر الاستنساخ . سيصعب إذن أن نتوقع ما سيحدث في النصف الأول من القرن الواحد والعشرين،

فقد يكون كل عقد فيه عصراً، ولقد تتعدد الأسماء لكل عقد.

فعلى ربيع عام ٢٠٠٠ سنكون وقد عرفنا كل حرف فى ٩٠٪ من النص الوراثى للانسان، ليكتمل النص على عام ٢٠٠٣ (قبل موعده المحدد بسنتين). سيكون العقد الأول من القرن الجديد هو عصر الجينوم البشرى، ستبدأ فيه المهمة الصعبة الهائلة لتحديد الجينات البشرية المائة ألف، ومعرفة تركيبها ووظائفها وتفاعلاتها مع بعضها بعضا، والتناظرات مع جينيومات الكائنات الأخرى، ستتغير حتى طبيعة البحوث فى كل مجالات البيولوجيا دون استثناء ، سيبدأ عهد جديد تماما للبيولوجيا والطب. وستضطر كل كليات الطب فى بلادنا إلى إنشاء أقسام مستقلة للوراثة البشرية ، فسيصبح نصف الطب على الأقل وراثة. ستزدهر البحوث لمحاولة كشف الأساس الوراثى للشخصية والطباع والسلوك البشرى، لتدخل علوم النفس تحت عباءة علوم الوراثة. وسيبزغ علم جديد خطير فى الحقل الجديد الوعر لكيمياء المخ وكيفية عمله، لنعرف كيف يتخلق العقل عن المخ..

ستبدأ الأبحاث الجادة لتصميم عقاقير تلائم كل فرد على حدة بناء على تركيبه الوراثى، ففيما عدا الأسبرين الذى يفيد كل من يحتاجه ويتعاطاه، فإن معظم الأدوية لا تعمل كما يجب إلا فى ٣٠ ـ ٤٠٪ ممن يعالجون بها ـ لكنا بالاختبار الوراثى للشخص ومعرفة جيناته يمكن ان نحدد له أفضل عقار وأفضل جرعة تلائمه شخصياً.. ستتقدم البحوث كثيرا فى مجال استنساخ وتنمية أعضاء بديلة يستعاض بها عن الأعضاء التالفة من جسم الإنسان ـ أعضاء كالكبد والكلية والثدى والمثانة والأمعاء، بل والقلب أيضا، ولقد نجح مثل هذا العمل بالفعل بالنسبة لجلد الإنسان ، ووافقت عليه مصلحة الغذاء والدواء الأمريكية، وسيكون المرشح التالى مباشرة هو الغضاريف والعظام.

ثمة هدف بعيد المدى يسعى إليه العلماء، هو زراعة رأس إنسان فى جسد آخر، أو إن شئت، زراعة جسم إنسان فى رأس آخر.. التكنولوجيا اللازمة موجودة ، وتحتاج الى تطوير نتوقع ان يتم على نهاية العقد القادم. (يا ترى من ستكتشف الفرد الجديد؟). ستكشف التجارب فى مجال علم الشيخوخة بهدف إطالة عمر الإنسان، فقد أمكن بالفعل انتخاب سلالة من ذبابة الفاكهة (الدروسوفيلا) تعيش لأضعاب العمر الطبيعى للحشرة.

لنا أن نتوقع أن يتم خلال العقد القادم الاعلان عن استنساخ أول طفل بشرى، ولنا أن نتوقع كذلك الهزة العنيفة التى ستصيب البشر فى كل أنحاء العالم، ومثلما كان الاستنساخ بمثابة تكاثر خضرى للإنسان، تكاثر يحاكى تكاثر النبات بالعقلة مثلا، فإنا نتوقع أن تتزايد البحوث فى عملية التطعيم فى الحيوان، تطعيم يشبه تطعيم التفاح على السفرجل مثلا، لانتاج حيوانات جديدة تماماً تحمل أعضاءً من أنواع مختلفة، بتصميم يلبى حاجات اقتصادية معينة يطلبها الإنسان.

ستتكشف أكثر وأكثر وحدة الحياة، وسيركز العلماء على استغلال هذه الحقيقة فى خدمة البشر.

■

بعد أربعين عامًا

جامعة الدول العربية

ستصبح غير ذات موضوع

بقلم السفير عبد المنعم مصطفى

الامين العام المساعد لجامعة الدول العربية

اذا كنت لا أقر لنفسي بموهبة التنبؤ بالمستقبل والرجم بالغيب ، الا انني ألاحظ أن استقراء تاريخ تطور المجتمعات البشرية يدل على أن حياة الامم وأحوالها لاتسير على وتيرة واحدة ، بل انها تتغير وتتطور باستمرار : فتارة تتقدم وتزدهر ، وأخرى تتاخر وتنحط • وهناك طائفة من علماء الاجتماع والتاريخ تستنبط من تطور الجماعات الانسانية قوانين وسننا ترقى بها الى مرتبة القوانين البيولوجية وتخضع لحتميتها تطور تلك الجماعات

ومهما يكن من أمر ، فانني أعتقد انه سيطرأ على جامعة الدول العربية ، في الاربعين سنة القادمة ، تطور جذري شامل وأن هذا التطور سيكون متمشيا مع دواعي الوعي العربي العام ، ومتجاوبا مع رغبات الشعوب العربية في الوحدة الشاملة •

وسيكون هذا التطور مستمدا من منطق التاريخ ، ومن سير الاحداث في العالم العربي منذ قيام الجامعة في الاطار الكوني العام

حاجة الشعوب للجامعة

ذلك بأننا نعلم أن الجامعة لم تنشأ بحكم ميثاقها ، ولكن ميثاق انشائها جاء اقرارا رسميا بحاجة أحست بها الشعوب العربية • فالجامعة وجدت في ضمير كل عربي قبل مولدها الرسمي بسنوات ، وقد أنشئت استجابة للرأى العربي العام • وتثبيتا للعلاقات الوثيقة والروابط العديدة التي تربط بين الدول العربية ، وحرصا على دعم هذه الروابط وتوطيدها ، وتوجيها لجهودها الى ما فيه خير البلاد العربية قاطبة ، وصلاح أحوالها ، وتأمين مستقبلها وتحقيق آمالها وأمانيها ، على نحو ماجاء في ديباجة بروتوكول الاسكندرية

المؤرخ ٧ اكتوبر ١٩٤٤. وفي ديباجة ميثاق جامعة الدول العربيه المؤرخ ٢٢ مارس ١٩٤٥

تلك هي الدوافـــع التي أدت الى انشاء جامعة الدول العربية • وتلك هي الاهداف التي استهدفتها الدول العربية من انشائها

ولعلنا لا نجافي الحقيقة التاريخية في شيء حين نذكر أنه لم يسبق في الازمان الحديثة أن ســجلت قبل ميثاق الجامعة وثيقة رسـمية تنتظم الدول العـــربية مجتمعة وتنظـم علاقاتها وأسباب تعاونها وتضامنها وتحـدد أهدافها • ان الرأى العربى العـام عامل موجـه للحـكومات ، يلقى اليه بال ، ويعمل له حساب

وهذه في الحق ظاهرة جـديرة بالملاحظة عند اسـتعراض مراحل تطور جامعة الدول العربية ومايتنظر أن تئول اليه في عام ٢٠٠٠ ، فمما لاشك فيه أن اقرار الحكومات العربية في ميثاق الجامعة بأن الرأى العربى العام كان من أهم العوامل التى أدت الى انشاء الجامعة ، وبأن الغرض من انشاء هذه المؤسـسة انما هو تثبيت العلاقات الوثيقة والروابط العديدة التى تربط بين الدول العربية ودعم هذه الروابط وتوطيدها ، انما هو بمثابة العهد المقطوع من الحـكومات العربية لشـعوبها بأن تسـير بوحى من أمانيها وتعمل على ادراك أهدافها وتأمين مسـتقبلها • فاسـتمرار الحـكومات العربية في التجاوب مع رغبات شـعوبها هو من الناحيـة



الدســتورية أساس شرعية هـذه الحكومات وشرط يقترن به وجودها • وهذا يقينا من دعائم الديموقراطيـة الصحيحة

وللمتتبع لسـيرة جامعـة الدول العربية منذ انشائها حتى الآن يلاحظ أن مولدها كان بمثابة نقطة الانطلاق للرأى العربى العام ، ومركز التجمع لأماني الشعوب العربية • فأصبحت الجامعة معقد آمالها ، وأخذت تتابع أوجه نشاطها في شتى صوره

عوامل دافعة

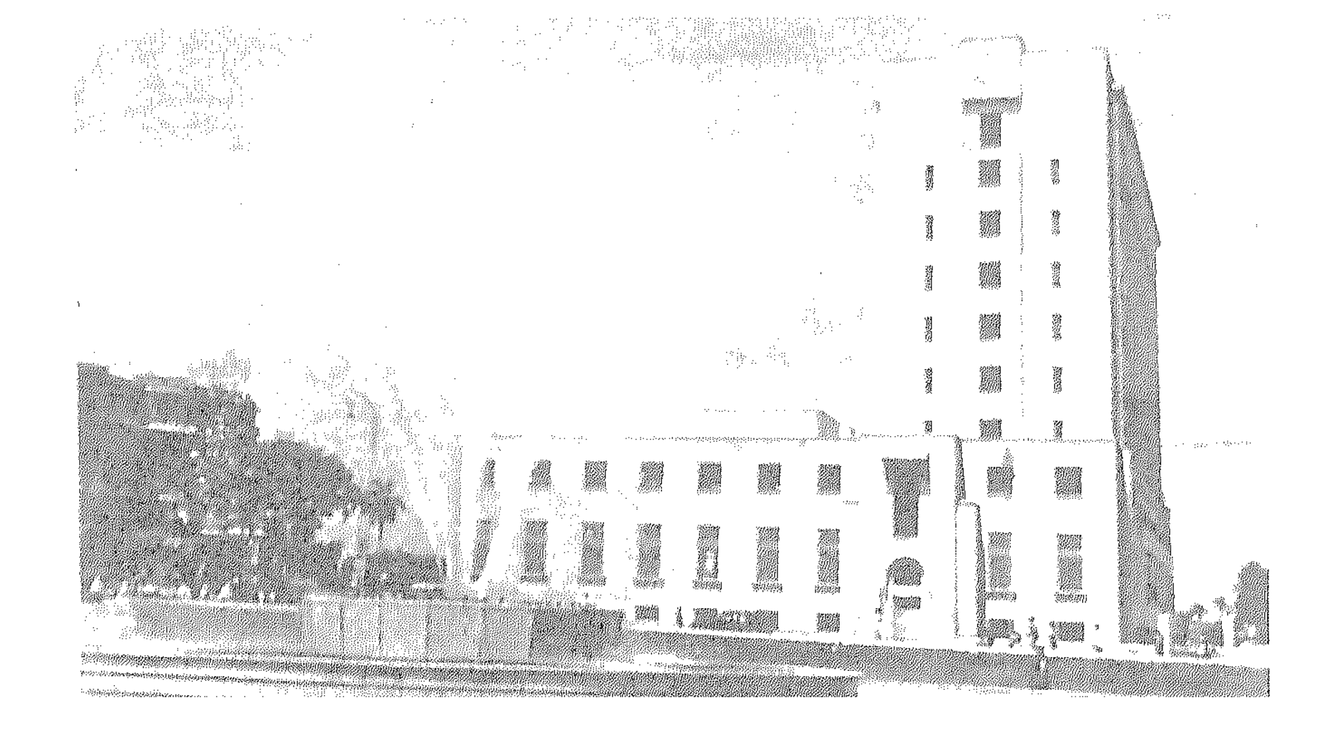
ولقد سادت الجامعـة في مراحل حياتها حتى الآن عوامل دافعة وأخرى معوقة • ويلاحظ أن العوامل الدافعة

كانت تنطلق من الشعوب دواما . أما العوامل المعوقة فلم يكن للشعوب بها من شأن . وانما كانت ترجع أغلب الامر الى الواقع الذى اقتضته ظروف سياسية فرضت على العرب فرضا . بل ان الشعوب العربية ، فى حرصها على السير سيرا حثيثا نحو اهدافها القومية وتعويض مافاتها ، كانت تتعجل خطى الجامعة وتدفعها الى الامام ، وتلومها على سيرها الوئيد ، وعلى تعثرها فى السير أحيانا ، لأسباب لا ترجع اليها

لكن الجامعة ادركت منذ انشائها ان تحقيق رسالتها لم تعد تصلح له الوسائل الاتكالية ، والطرق الارتجالية التى كانت تتسم بها الحركات الوطنية فى أجزاء العالم العربى المشتتة . ولم تعد هذه الوسائل تتمشى مع مقتضيات التنظيم الحديث فى شتى الميادين السياسية والدفاعية والاقتصادية والاجتماعية . وانما يتعين وضع معايير قواعدية وأسس منطقية معقولة تتمشى مع مقومات الكيان العربى من وحدة اللغة والتقاليد والحضارة واتصال الاقليم ومن الآلام والامال والمصالح المشتركة ، وعلى الجملة أدركت الجامعة منذ انشائها أنه لا بد من احكام فى التنظيم ، وتوضيح للمعالم ، وتحديد للاهداف والوسائل

وكان طبيعيا غداة انشاء الجامعة ان يتركز اهتمامها فى القضايا السياسية للوطن العربى ، وان يكون تحرير البلاد العربية من النفوذ الاجنبى ، فى المقام الاول من نشاطها ، وهى اذ فعلت ذلك ، انما كانت متجاوبة مع الرأى العربى العام ، وصادرة عن ايمان عميق بأن التسلط الاجنبى الذى فرض على البلاد العربية هو سبب تجزئتها وتفرقتها وتأخرها فى كافة الميادين . ولن يكتب للوطن العربى أن يجمع شمله ويحقق وحدته وبعث نهضته قبل التخلص من التسلط الاجنبى . ذلك بأن الحكم الاجنبى والاهداف القومية العربية ضدان لا يلتقيان . ومن دعائم الاستعمار الابقاء على الوضع الراهن والجمود وتقويض القوى الدافعة وتدمير العناصر الصاعدة وتأييد العوامل المعوقة والقوى الرجعية والاخذ بناصرها

ولعله لا يكون من نافلة القول فى هذا السياق أن نذكر أنه قد قيل ان فكرة الجامعة العربية برزت الى الوجود بوحى من بريطانيا . ظنا منها انها قادرة على أن تحقق بواسطتها سياستها فى الشرق العربى وأن تدرك هذا الهدف بأيسر مما لو كانت تعالج قضاياها مع الدول العربية منفردة . لكن الجامعة ، حينما شبت عن الطوق ، اخذت تستجيب فى مساعيها لدواعى المصالح العربية وحدها وخرجت بدلك من الولاية التى كانت بريطانيا ترجو أن تخضعها لها . ولئن كان هناك ما يؤخذ على الجامعة فليوضع الى جانبه ما قامت



البناء الشامخ الجديد الذى سيكون مقرا للجامعة العربية فى القاهرة

به فى الفترة القصيرة التى انقضت منذ انشائها وليؤخذ بنظر الاعتبار القوى التى تألبت عليها والتيارات الظاهرة والخفية التى كانت تضيق بها

مناصرة الجامعة لقضايا الحرية

ومهما يكن من أمر فقد ناصرت الجامعة قضايا الحرية والاستقلال فى الوطن العربى ، بل فى بلاد الارض طرا • وساعدت على تنسيق الجهاد العربى وتقويته بشتى الوسائل المعنوية والمادية والتمست لهذه الغاية كل وسيلة • فكتب الله التوفيق لكثير من أجزاء الوطن العربى المكافحة لاستكمال أسباب سيادتها واستقلالها ، أن تحقق أهدافها • كما قيض لبلاد عربية أخرى ، كانت ترزح تحت نير الحكم الاجنبى ، أن تتخلص من غاصبى حريتها وأن تصبح دولا مستقلة ذات سيادة • ولا تزال الجامعة ماضية فى تأييدها لكفاح الشعوب العربية الاخرى المناضلة لنيل حقوقها الطبيعية المشروعة فى الحرية والحياة الحرة الكريمة

ولكن الامانة التاريخية تقتضينا أن نلاحظ أن سيرة الجامعة فى هذا المجال لم تكن كلها نجاحا وتوفيقا • وانما اعترضها بعض الاخفاق • أريد أن أشير بذلك الى قضية فلسطين ، ذلك الجزء العزيز من الوطن العربى • على أن الانصاف يقتضينا كذلك الاعتراف بأن عوامل تضافرت على سلخ جزء كبير من فلسطين من الوطن العربى ومن هذه العوامل مايرجع الى ضروب من الاخطاء وفنون من التقاعس وخطل الرأى وقع فيهما

العرب . ومنها وأهمها ما يعزى الى قوى استعمارية باغية وصهيونية معتدية آثمة

معاهدة الدفاع المشترك

ولقد كان حريا بالجامعة أن تعنى بتأمين سلامة الدول العربية ضد أى عدوان آخر ، فى عالم مضطرب ملىء بشتى الاحتمالات . فعقدت فى عام ١٩٥٠ معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادى رغبة فى تقوية الروابط وتوثيق التعاون بين دول الجامعة حرصا على استقلالها ومحافظة على تراثها المشترك واستجابة لرغبة الشعوب العربية فى ضم الصفوف لتحقيق الدفاع المشترك عن كيانها وصيانة الامن والسلام وتوفير أسباب الرفاهية والعمران فى بلادها

وجدير بالذكر فى هذه المناسبة أن هذه المعاهدة قد سجلت أنها انما عقدت استجابة لرغبة الشعوب العربية . وهذه هى المرة الثانية التى تثبت فيها معاهدة بين الدول العربية انها عقدت استجابة لرغبة الشعوب العربية . وكانت المرة الاولى فى مناسبة انشاء الجامعة . ثم عملت الجامعة على تنسيق وتنظيم الروابط الثقافية والاقتصادية والقانونية والاجتماعية بين البلاد العربية بصفة عامة ـ لا بين الدول الاعضاء فحسب ـ ولهذه الغاية عقدت العديد من المؤتمرات والمعاهدات لتنظيم هذه الشئون وردها الى معايير وقواعد منطقية معقولة

ولقد هدفت الجامعة من هذه التنظيمات الى ازالة الحواجز المصطنعة التى فرضتها تجزئة العالم العربى بحكم التدخل الاجنبى ، ففكرت فى الامر بعين المصلحة ، والمصلحة مرادفة للعقل . فاذا كانت الجامعة قد انشئت بوحى العاطفة . فانها أنشئت كذلك بوحى المصلحة المشتركة . ولسنا نعرف أن الحواجز القائمة بين أجزاء الوطن العربى تخدم مصلحة عربية حقيقية وعلينا أن نمد البصر الى المستقبل البعيد ونديره فيما حولنا من تكتلات وما يحيط بنا من مطامع ونعد للامر عدته ونرسم للمستقبل سياسته

الى الوحدة الشاملة

وقد انصرف تفكير الجامعة الى الاستكثار من الاصدقاء فى آسيا وافريقا فوضعت أسس المجموعة الآسيوية الافريقية فى الامم المتحدة تنسيقا لجهودها وتقريبا لمواقفها من القضايا العامة وفى مقدمتها قضايا السلم والامن الدوليين وقضايا الحرية وحق تقرير المصير والتقدم الاقتصادى والاجتماعى ، وعملت على توثيق تعاونها مع الامم المتحدة ، ووكالاتها المتخصصة خدمة للامن والسلام والرخاء العام ايمانا بأن الاجتماع قوة ووقاية اذا أحكم تنظيمه ووضحت معالمه وحددت أهدافه ووسائله وخلصت النية فى تنفيذه

وعلى الجملة كانت سياسة الجامعة منذ انشائها ـ ولا تزال ـ سائرة نحو وضع الاسس لوحدة الوطن العربى

الشاملة على مراحل، واستهدافا لحشد الجهود وتقوية الصفوف واحسان التنظيم ووضع سياسة بعيدة المدى ترمى الى تقوية الدول العربية سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وعسكريا، اذ لا وسيلة لدولة مفردة فى بلوغ ما تنشده من أمن وسلام ورخاء اذا كانت الدول الاخرى مفككة ضعيفة غير متناسقة معها فى سياستها وأهدافها • فالمصلحة ليست مصلحة دولة معينة من الدول العربية • ولكنها مصلحة الدول العربية مجتمعة

واذا كنا قد حرصنا على استعراض أعمال الجامعة فى الفترة التى انقضت على انشائها ، فانما أردنا بذلك أن نقدم بين يدى القارئ معالم السياسة التى انتهجتها ادراكا لأهدافها ونحن نعتقد أن استمرار الجامعة فى هذه السياسة باطراد سيفضى الى التجاوب الحقيقى مع رغبات الشعوب العربية. ونرى أنه سيطرأ على الجامعة العربية فى الاربعين سنة القادمة تطورات جذرية تتم على مراحل ثلاث

المرحلة الاولى
تعديل نظام الجامعة

المعلوم أن الجامعة العربية فى وضعها الحاضر هى جامعة حكومات احتفظ كل عضو من أعضائها بسيادته. فقرارات الجامعة فى المسائل الكبرى لا تلزم الا من يقبلها • وليست الشعوب ممثلة فى الجامعة • وأثر الرأى العربى العام فى أعمال الجامعة يلمس عن طريق الحكومات الاعضاء ، وأعتقد أن نظام الجامعة سيطرأ عليه فى هذه المرحلة تعديلان جوهريان: الاول الاخذ بقاعدة أغلبية الآراء فى اتخاذ القرارات الاساسية بحيث يلتزم جميع الاعضاء بالقرارات التى تصدر بأغلبية الآراء • ومن شأن هذا التعديل التقدم خطوة الى الامام بحيث تكون الغلبة لأكثرية الاصوات • فقاعدة الاجماع المتبعة فى الوقت الحاضر فى الجامعة مستمدة من احتفاظ كل عضو بسيادته وهى قاعدة أثبتت التجارب عدم ملاءمتها لنظام التكتل والاندماج الذى نشهده فى الحياة الدولية فى العصر الحديث • وقد ثبت انها كانت الصخرة التى ارتطم بها التعاون الدولى حتى الآن فى المنظمات العالمية ، واذا كان لهذه القاعدة من مبرر فى المنظمات التى تضم أعضاء تفرق بينهم المصالح المتعارضة والاتجاهات المتضاربة المتغايرة ، فأحرى بالدول العربية التى تجمعها وحدة المصلحة والهدف والاخطار المشتركة ، أن تنبذ هذه القاعدة التى تعوق سيرها وتبعدها عن أهدافها

اما التعديل الاخر الذى أرى أنه سيطرأ على نظام الجامعة فى هذه الفترة • فهو انه سيضاف الى أجهزتها جهاز شعبى يمثل الراى العربى العام ويكون هذا الجهاز بمثابة انعكاس للاتجاهات والتيارات الشعبية فى البلاد العربية ويتمثل فى

جمعية استشارية تنتظم ممثلين لبرلمانات الدول العربية ونقابات المهن الحرة وما الى ذلك · وتكون مهمة هذه الجمعية اصدار التوصيات الى مجلس الجامعة وممارسة نوع من الرقابة المعنوية على أعماله تحفزه وتدفعه الى الامام

واتكهن بانه لن تنقضى عشر سنوات حتى يكون هذا التعديل قد تقرر ، كما أتكهن بأن عدد أعضاء الجامعة سيزداد بانضمام كثير من البلاد العربية المكافحة لنيل حريتها واستقلالها

المرحلة الثانية
تطور الجامعة الى سلطة مستقلة

أعتقد أن نظام الجامعة سيطرأ عليه تطور جذرى فى هذه المرحلة ، وهو أنها ستصبح منظمة لها سلطة ذاتية ، وحق اصدار قرارات نافذة من تلقاء نفسها وبمجرد اتخاذها وسيكون الوعى العربى العام قد نما فى هذه الفترة وأحس بزيادة أسباب التعاون والتضامن بين البلاد العربية وبضرورة مواجهتها بالاداة الصالحة التى لا تعترضها اعتبارات المحافظة على سيادة الاعضاء فى هذه الشئون، فتتنزل الدول الاعضاء للجامعة عن اختصاصها فى معالجة انواع معينة من المصالح العربية المشتركة على أساس موحد على نحو ما نشهده الآن فى أوروبا الغربية كمنظمة الفولاذ والفحم المعروفة بمشروع شومان أو السوق الاوروبية المشتركة أو الأوراتوم · وأتنبأ بأن هذه المرحلة ستتم فى مدى عشرين عاما أو ثلاثين من الآن

المرحلة الثالثة
مرحلة تقلص الجامعة وشيخوختها

ستصل الجامعة فى نهاية المرحلة الثانية الى أوج قوتها فيما أعتقد وستكون قد استكملت أسباب نموها وادركت غاياتها وسيكون الوعى العربى قد استقام عوده وأصبح لا يرضى بغير الوحدة الكاملة ـ بين جميع أجزاء الوطن العربى ـ بديلاء وعندئذ تكون مقومات الدولة العربية الواحدة قد تحققت وسيطلق على هذه الدولة اسم الولايات العربية المتحدة وسيمتد اقليمها من المحيط الاطلسى حتى الخليج العربى وتضم مايقرب من المائتى مليون مواطن وستكون دولة قوية عزيزة الجانب مسموعة الكلمة فى الميدان الدولى، تكفل لسكانها الامن والرفاهية والعدل · وتحكم وفق الاسس الديموقراطية الحقة · وعندئذ تصبح جامعة الدول العربية غير ذات موضوع ، لأنها تكون قد أدت رسالتها ـ ولأنه لن تكون هناك دول عربية ـ وستكون سيرة الجامعة مصداقا لقانون النشوء والارتقاء · ومن الاعتراف بالجميل أن يقام لها نصب تذكارى فى كل حاضرة من حواضر هذه الدولة المترامية الاطراف يروى ماضيها ويحكى قصة حياتها فى سجل الخلود



عام للاتحاد العربى

بقلم : عبدالرحمن شاكر

لا تصدق من يقولون إنه مع وصول هذا العدد الجديد من «الهلال» إليك فى أول يناير من عام ٢٠٠٠ أننا قد بدأنا مايسمى بالألفية الثالثة من التقويم الميلادى، فنحن قد بدأنا فى الواقع العام الأخير من القرن العشرين أو الألفية الثانية! أمامنا إذن عام كامل حتى تبدأ الألفية الثالثة، وعلى كل فليس هذا هو موضوعنا ، وإنما الموضوع هو أنه قد آن الأوان لطرح موضوع الاتحاد العربى من جديد ،لذلك نقترح أن يكون العام الجديد الذى بدأ عاما لتدارس الموضوع بما يستحق من جدية، ونتمنى أن يشهد العام خطوات فعلية فى هذا الاتجاه .

لقد استمعت من أيام فى ديسمبر المنصرم حديثا للدكتور عصمت عبدالمجيد، الأمين العام لجامعة الدول العربية مع إحدى القنوات الفضائية العربية ، وتضمن حديثه تقويما شاملا للأوضاع العربية وقضية الاتحاد العربى أو العمل العربى المشترك على أقل تقدير . ورفض الدكتور عصمت فى بداية حديثه منهج الحسرة والتباكى على الأوضاع العربية فى مجملها ، وكأننا أمة قد قضى عليها بالضياع ! .

وأشار إلى أن الجامعة العربية ، التى أنشئت منذ أكثر من خمسين عاما ، وبالتحديد فى عام ١٩٤٥ وقبل شهور من تأسيس هيئة الأمم المتحدة ، قد تكونت من سبع دول عربية فحسب ، هى التى

كانت مستقلة فى ذلك الحين أو تعتبر كذلك، وهى التى وضعت ميثاقها ، الذى لايزال معمولا به حتى الآن ، بعد أن أصبح عدد الدول العربية التى استقلت وانضمت إلى تلك الجامعة اثنتين وعشرين دولة ، وأنه قد آن الأوان لتعديل ميثاق الجامعة ، ليتناسب مع حجم الدول التى تضمها ، ومع الأوضاع العربية والدولية عموما .

من أهم البنود التى قرر الأمين العام لجامعة الدول العربية أنه يحتاج إلى تعديل فى ميثاق الجامعة ، هو البند الذى ينص على أن قرارات الجامعة ينبغى أن تصدر بالإجماع ،بمعنى أن الميثاق الحالى يعطى حق الڤيتو لكل الدول أعضاء الجامعة ! ويكفى أن تعترض دولة واحدة على أى قرار لكى ينتقض هذا القرار ، ويكون بمثابة توصية لا تلزم أيا من الدول ، مما يشل فاعلية الجامعة ويصمها بالعجز عن التصدى لما تواجهه الأمة العربية فى مجموعها من مشكلات ، ويقترح الدكتور عبدالمجيد – مؤقتاً على ما يبدو – أن يكون صدور قرارات الجامعة بالأغلبية ، ولو بأغلبية الثلثين !

ويعود الدكتور عبدالمجيد فى حديثه الهام ، إلى ذكر أن الجامعة الحالية هى مجرد جامعة للدول ، بمعنى أن الشعوب المكونة للأمة العربية لاتزال بعيدة عنها ، أو عن أسلوب عملها ، ويرجو للوطن العربى أن تتوطد فيه الديمقراطية ، لكى تصبح للشعوب مشاركة فعلية فى صنع قراراتها المصيرية ! .

وأشار أمين عام الجامعة فى مواضع أخرى من حديثه إلى نواحى قصور أخرى فى تنظيم الجامعة وأساليب عملها ، من ذلك مثلا أن انعقاد مؤتمرات للقمة العربية، التى تضم رؤساءها وملوكها ليس جزءا من نظام الجامعة ولا ينص عليه ميثاقها ! وأن منظمات إقليمية أخرى نشأت بعد الجامعة قد حرصت على أن يكون مثل هذا المؤتمر جزءا لايتجزأ من نظام عملها ينص عليه ميثاقها ، من ذلك منظمة الوحدة الافريقية ، ومنظمة المؤتمر الإسلامى ، حيث تنص مواثيقها على ضرورة انعقاد مؤتمرات دورية لقمة الدول المنضمة إليها ! وأن مؤتمرات القمة العربية التى انعقدت حتى الآن ، سواء كانت جزئية أو شاملة لم ينعقد أى منها إلا بمبادرة خاصة من أحد الرؤساء أو بعضهم ، والتقت إرادة الآخرين ، بعضهم أو كلهم معها . وذكر أنه من أهم مؤتمرات القمة العربية التى انعقدت ، هو المؤتمر الذى دعا إليه الرئيس المصرى محمد حسنى مبارك ، منذ عدة سنوات ، ودعا فيه إلى إنشاء السوق العربية المشتركة ، التى أصبحت ضرورة ماسة فى عهد التكتلات الاقتصادية الكبرى فى العالم ، وأبدى الأمين العام أسفه لأن هذه السوق لم تنشأ حتى الآن ، رغم أنها أصبحت حاجة ملحة فى ظل الظروف الدولية الحالية .

ومما أبدى له الأمين العام أسفه

أيضا ، أن أجهزة أخرى مقترحة للعمل العربى لم تنشأ حتى الآن منها محكمة العدل العربية ، التى تختص بالفصل فى المنازعات التى قد تثور بين دولة عربية وأخرى، بدلا من اللجوء إلى الأجهزة الدولية .

وقد كنت أتمنى أن يتطرق حديث الأمين العام لجامعة الدول العربية إلى ذكر جهاز آخر مقترح إنشاؤه للعمل العربى المشترك ، وهو البرلمان العربى ، الذى يضمن من ناحية المشاركة الديموقراطية للشعوب العربية فى تقرير مصيرها من ناحية - وهو ما تمناه الأمين العام فى حديثه كما تقدم القول - ومن ناحية أخرى من الممكن أن يحل قضية التصويت فى قرارات الجامعة وضرورة صدورها بالأغلبية بدلا من الاجماع ! ولكن يبدو أن وقت الأمين العام فى حديثه المذكور ، لم يتسع لذكر هذا الموضوع الهام ، أو أنه لم يكن على «أجندة» المذيع الذى أدار معه الحوار !

وعلى كل ، فلقد طرحت تصورات عدة عن البرلمان العربى المقترح ، منها مثلا أن يختار أعضاؤه من بين أعضاء المجالس النيابية القائمة حاليا ، فى الدول العربية ، رغم التفاوت فى المستوى التمثيلى لهذه المجالس لجماهير شعوبها ، وحدود سلطاتها ، التى تتفاوت بدورها ما بين كونها أجهزة تشريعية ورقابية فعالة ، أو للمشورة واستطلاع الآراء فحسب ! .

وفى ظنى أن أفضل تصور للبرلمان العربى ، هو ما تم اقتراحه فى أحد المؤتمرات التى عقدت فى القاهرة للاحتفال بذكرى الوحدة المصرية السورية، وكان ذلك فى مارس من عام ١٩٩٨ ، وهو أن يتم اختيار البرلمان العربى بالانتخاب المباشر من جماهير الأمة العربية ، بواقع نائب عن كل نصف مليون عربى ، على ألا يقل عدد النواب الممثلين لأى من الأقطار العربية عن ثلاثة ، ضمانا للتمثيل المعقول للدول العربية ذات الكثافة السكانية المحدودة .

ولعل آخر وظيفة يمكن أن تقوم بها جامعة الدول العربية فى ظل أوضاعها وميثاقها الحاليين هو الإشراف على إجراء الانتخابات فى كافة الأقطار العربية لاختيار أعضاء البرلمان العربى المقترح ، الذى لو تشكل فإن من طبيعة الأمور أن يصبح هو السلطة العليا فى كافة أرجاء الأمة العربية فيما يختص بأوضاعها الشاملة ، بما فى ذلك إقامة سوقها المشتركة ، بكل التفاصيل التى تنطوى عليها ، بما فيها انتقال العمالة ورءوس الأموال ، وهى ما كان بعضها موضحا لمشاكل فادحة أو فاضحة إن صح التعبير!

كل عام - ونحن فى انتظار عيدين أحدهما عيد الفطر المبارك ، وعيد الميلاد المجيد للأخوة الأقباط - بل كل قرن وكل ألفية .. والعرب والعروبة بخير ! .

السينما بعد خمسين عاماً

بقلم الأستاذ أنور احمد

خمسون عاما ٠٠ !

انه لعمر طويل فى حساب السينما ٠ فاذا عرفنا أن عمرها فى مصر لا يجاوز ثلاثة وعشرين عاما ، أدركت أنها بعد خمسين عاما أخرى تكون قد سلخت أكثر من ضعف عمرها الحالى

ترى كيف يكون حالها فى ذلك الوقت وقد نيفت على السبعين ؟ هل نستطيع أن نخترق حجب المستقبل لنستكشف من ورائها صورة لما ستكون عليه ؟

ان السينما قد خضعت خلال عمرها الماضى القصير لتطور سريع حتى وصلت الى ما هى عليه الآن ٠ والسينما مزيج من الصناعة والفن ٠ وقد كان تطور صناعتها سريعا شاملا يشبه الانقلاب ٠ فسمعنا الأفلام الناطقة ، ورأينا تجارب الأفلام المجسمة التى تحاول أن تتغلب على طبيعة الصورة العادية، فتجسم المرئيات. كما رأينا الأفلام الطبيعية الملونة ٠ وشمل التطور كذلك موضوعاتها وأهدافها ووسائلها الفنية

ولما كان المستقبل امتدادا للماضى والحاضر ، فلا شك أن هذا التطور سيستمر ويتصل ، وان كنا نعتقد أنه لن يكون بنسبة ما حدث فى الماضى، بعد أن تكونت للسينما مقوماتها ، ووصلت الى ماوصلت اليه من الاتقان والقدرة على التعبير عن الحياة ٠ ولا شك أن السينما المصرية ستتأثر بكل تطور وتغيير فى صناعة السينما العالمية ، وستأخذ عنها ما تصل اليه من مخترعات، وتقبس ماتحققه من تحسين فى الوسائل الآلية والفنية

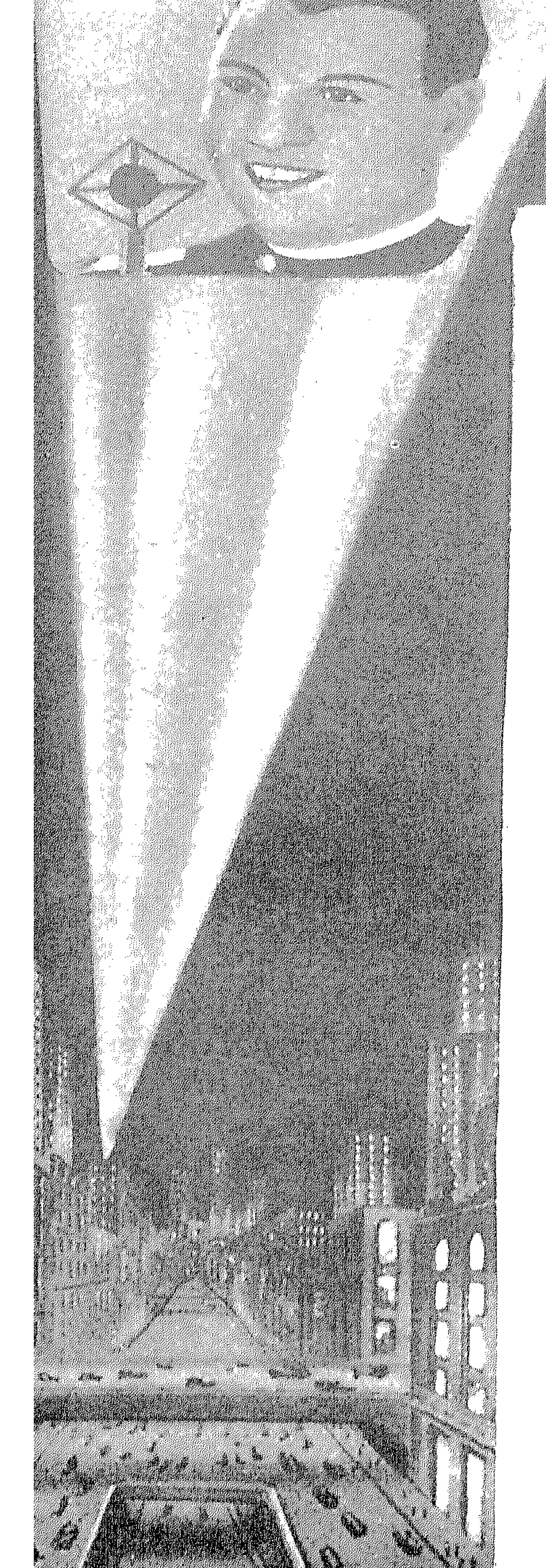
□

انى لأغمض عينى ، وأقفز بخاطرى خمسين عاما الى الأمام ، ثم أفتحهما على عالم السينما فى مصر فأرى عجبا من العجب !

ما هذه المنشآت الكثيرة المتشابهة التى تتناثر على جانبى الطريق المؤدى الى الاهرام ؟ انها استديوهات السينما قد تجمعت فى هذه الناحية ، تحيط بها المنازل الأنيقة التى أنشأها الكواكب والنجوم ليقيموا بها بعيدا عن زحمة المدينة وضجيجها

هذه هى مدينة السينما ٠ هذه هى هوليوود الجديدة ، هوليوود الشرق !

تعال نتسلل الى أحد هذه



الاستديوهات لنرى ماذا يصنعون . انهم يخرجون فيلما تاريخيا ملونا وقعت حوادثه فى عهد محمد على الكبير . وهم لايقتصرون كما ترى على اخراجه ناطقا بالعربية ، بل يعدون منه نسخة بالانجليزية للتوزيع العالمى، فلا يكاد المخرج ينتهي من تسجيل المشهد باللغة العربية حتى يسجله مرة أخرى بالانجليزية بوساطة الممثلين والممثلات أنفسهم . ولا عجب ، فأن هؤلاء الفنانين المصريين مثقفون ثقافة عالية ، ويجيدون التحدث بالفرنسية والانجليزية فى طلاقة تامة !

وهل ترى هذه الفتاة التى تقوم بالدور الأول فى الفيلم ؟ أتعرف من هى ؟ انها ابنة وزير سابق ، وقد عملت ممثلة بموافقة أبيها الباشا .. !

وهل تعرف هذا الفتى الذى يمثل أمامها ؟ انه عضو فى البرلمان !

ان الافكار قد تغيرت وتطورت

←

سوف يستغنى عن دور السينما وشاشاتها ، بسحابة بيضاء تنفثها بعض الطائرات فى الفضاء ، ثم تلقى عليها مشاهد الفلم بوساطة أجهزة خاصة تثبت فوق أسطح العمائر

سنة ۲۰۰۰

وحسبك الآن ما شاهدت فى الأستديو وتعال معى نهبط الى القاهرة

▭

انظر ٠٠ ! ما أعظم ما تغير كل شيء فى العاصمة ! ولكننا نريد أن نقصر جولتنا على دور السينما، فلنبدأ بهذه الدار التى تتلألأ على واجهتها الأنوار الكهربائية معلنة عن فيلم مصرى جديد ٠ ان هذه الدار الفخمة، ذات المقاعد الوثيرة، والهواء المكيف ، نموذج لكل الدور الأخرى ، فقد اختفت دور الدرجة الثانية والثالثة ، لأن جمهورها قد اختفى وانقرض

والآن هيا ندخل الدار

لعلك تلاحظ أن الجمهور يدخل بنظام وهدوء ، وقد اختفت الأزياء الغريبة المتنافرة التى كنت تراها عند عرض فيلم مصرى ٠ الكل هنا يرتدى الملابس الافرنجية ، ويجلس فى هدوء لاتعكره «قزقزة اللب» ، ولا تقطعه الصيحات المنكرة والضحكات المجلجلة .

لقد أطفئت الأنوار وبدأ العرض ٠٠

هذا فيلم قصير ملون من أفلام الرسوم المتحركة، يقدم شخصيات مصرية وشرقية ومبتكرات محلية، وقد صنعته أيد مصرية !

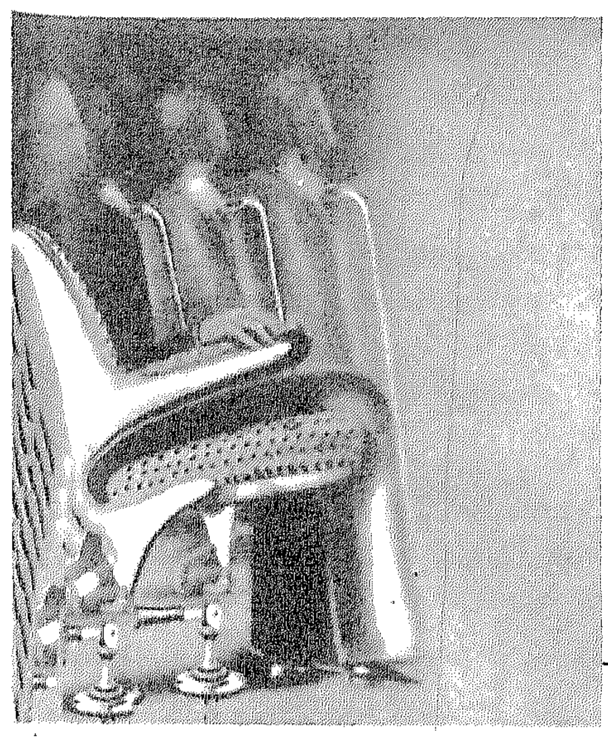
وهذه جريدة سينمائية مصرية تقدم لنا أهم الأحداث التى وقعت فى جميع أنحاء العالم خلال الأسبوع٠ ان مندوبيها المصورين يوافوننا بالأخبار المصورة عند وقوعها !

وهذا هو الفيلم الكبير فى نسخته العربية ٠ انه كما ترى فيلم فرعونى يجلو لنا صفحات من تاريخ مصر القديم ، ولكننا لن نشهده حتى النهاية لأننا نريد أن نتم جولتنا فى الدور الأخرى

▭

هل كان حلما ما رأينا ؟

كلا بلا مراء ٠ فلا شك أننا كنا نرى بعين الخيال صورا لما ستكون عليه السينما فى مصر بعد خمسين عاما ٠ سيكون عندنا ستديوهات قد استكملت كل الوسائل الفنية المستحدثة ٠ وستختفى الى الأبد الأفلام التافهة التى لاحظ لها من الفن الرفيع ، وسيكون الانتاج



مقاعد للسينما تهتز بالجالسين عليها عند هبوب عاصفة أو حدوث زلزال فى سياق الفيلم

السينمائى نظيفا يستهدف الفن وحده . ففى ذلك الوقت سيكون ظل الأمية قد انحسر عن هذه البلاد ، وانتشر التعليم وارتفع مستوى الثقافة ، ووجد جيل جديد مثقف ، يفهم الآثار الفنية ويتذوقها ويميز بينها . وهكذا يتكون ذوق فنى عام رشيد .
ومتى تكون هذا الذوق الفنى العام فقد حلت كل المشاكل التى نشكو منها الآن ، لأن هذا الجمهور المثقف الذواق لن يقبل الا على العمل الفنى الرفيع . وبذلك تصدق الفكرة القائلة بأن المتفرج هو الذى يخلق الممثل ويوجه العمل الفنى

ومن المحقق أنه لن يكون لصناعة السينما فى أى بلد أمل فى مستقبل زاهر اذا بقيت أفلامها محصورة داخل حدودها ، لأنها لا تستطيع بهذا العرض المحلى أن تغطى نفقات الأفلام الكبيرة ، أو تحقق الربح المنشود . ولهذا أعتقد أن أفلامنا سنة ٢٠٠٠ ستكون قد شقت طريقها الى التوزيع العالمى فى أوربا وأمريكا ، وسنرى الأفلام المصرية وقد صنعت منها نسخ بالانجليزية والفرنسية فى الوقت الذى تصنع فيه النسخة العربية ، وبوساطة الفنانين المصريين الذين سيراعى فى اختيارهم اجادتهم التحدث بهذه اللغات الحية

وما دامت أفلامنا قد عرفت طريقها الى دور العرض فى أوربا وأمريكا . فلا شك أن هوليوود التى ستبقى دائما عاصمة السينما فى العالم ، ستحاول اجتذاب بعضهم للعمل فى أفلامها ، كعادتها فى اجتذاب النابغين من جميع الأجناس ، وهكذا سنرى فى هوليوود ، وفى الأفلام الأمريكية ، ممثلين وممثلات مصريين ، يحتلون نفس المكانة التى تحتلها الآن « أنجريد برجمان » السويدية ، و « شارل بوايبه » الفرنسى

وليس فى هذا القول اغراق فى الخيال ، فان فى مصر نبوغا لو كشف عنه الحجاب ، لأتى بالعجب العجاب . ولكنه نبوغ ما يزال يحجبه العرف وتصرفه التقاليد عن الاشتغال بالتمثيل . ولكن العالم يجرى مسرعا نحو التحرر من هذه الأوهام ، وها نحن أولاء نرى ابنة المستر تشرشل تحترف التمثيل ، وابنة المستر ترومان رئيس الولايات المتحدة الأمريكية تشتغل مغنية تطرب الجمهور فى المسارح والأندية الليلية . وسنرى فى أفلامنا سنة ٢٠٠٠ من الفنانين أولاد الزعماء والوزراء من يفخر به أبوه ، ويتحدث العالم بنبوغه فى دنيا الفنون

اما موضوعات الأفلام وقصصها فانها ستتحرر من كل القيود التى تغلها فى هذه الأيام
سنرى أفلاما عن الثورة العرابية ، وعن الثورة الكبرى سنة ١٩١٩ ، وسنشاهد على الستار الفضى سيرة مصطفى كامل

وسعد زغلول وغيرهما من عظماء تاريخنـــا فى مصر والشرق .
وسيتاح لنا أن نخـــرج أفلاما تجرى حوادثها فى الغـــابات والأحراش التى تغطى القسم الجنوبى من الدولة المصرية ، لأن السودان سيكون جزءا من دولة وادى النيل

هذه هى الخطـــوط الرئيسية للسينما فى مصر بعد خمسين عاما ، أما الصورة الكاملة لهـــا فلن يتاح لنا أن نراها ، وانمـــا يراها أولادنا وأحفادنا ومن قدر لهم أن يعيشوا فى سنة ٢٠٠٠

أنور أحمد

كلمات سنة ١٩٥٠

● سأكتب قصة سنة ٢٠٠٠ ستستمد حوادثها من صميم التقدم الذى تصل إليه البشرية فى تلك السنة ، فاذا لم تقع حرب فى خلال الأربعين سنة القادمة ، وأمكن للقوى المتصارعة فى العالم أن تسخر العلم فى خدمة البشرية بدلا من دمارها ..

توفيق الحكيم

● أرجو بعد أربعين سنة من التقدم العلمى والأدبى ، أن يكون شباب سنة ٢٠٠٠ فى غنى عن نصائح الشيوخ !

عباس العقاد

● يغلب على ظنى أن القصة التى أكتبها فى سنة ٢٠٠٠ تقع حوادثها فى القمر أو فى المريخ ، ولا أدرى الآن أى موضوع أختاره لها ، ولعله يكون حبا متأججا بين أحد سكان الأرض وإحدى ساكنات القمر أو المريخ .

فكرى أباظه

● سيقتحم التليفزيون البيوت فى جميع أقطار الشرق العربى ، وسيشتد الصراع بينه وبين السينما ، وهى الأم التى أنجبته ومن يدرى فقد يأتى اختراع جديد يجسم التعبير الانسانى على وجه آخر .

زكى طليمات

● يناير ١٩٥٠ ●

استكشاف مستقبل السينما

مغامرة محفوفة بالأخطار

بقلم : مصطفى درويش

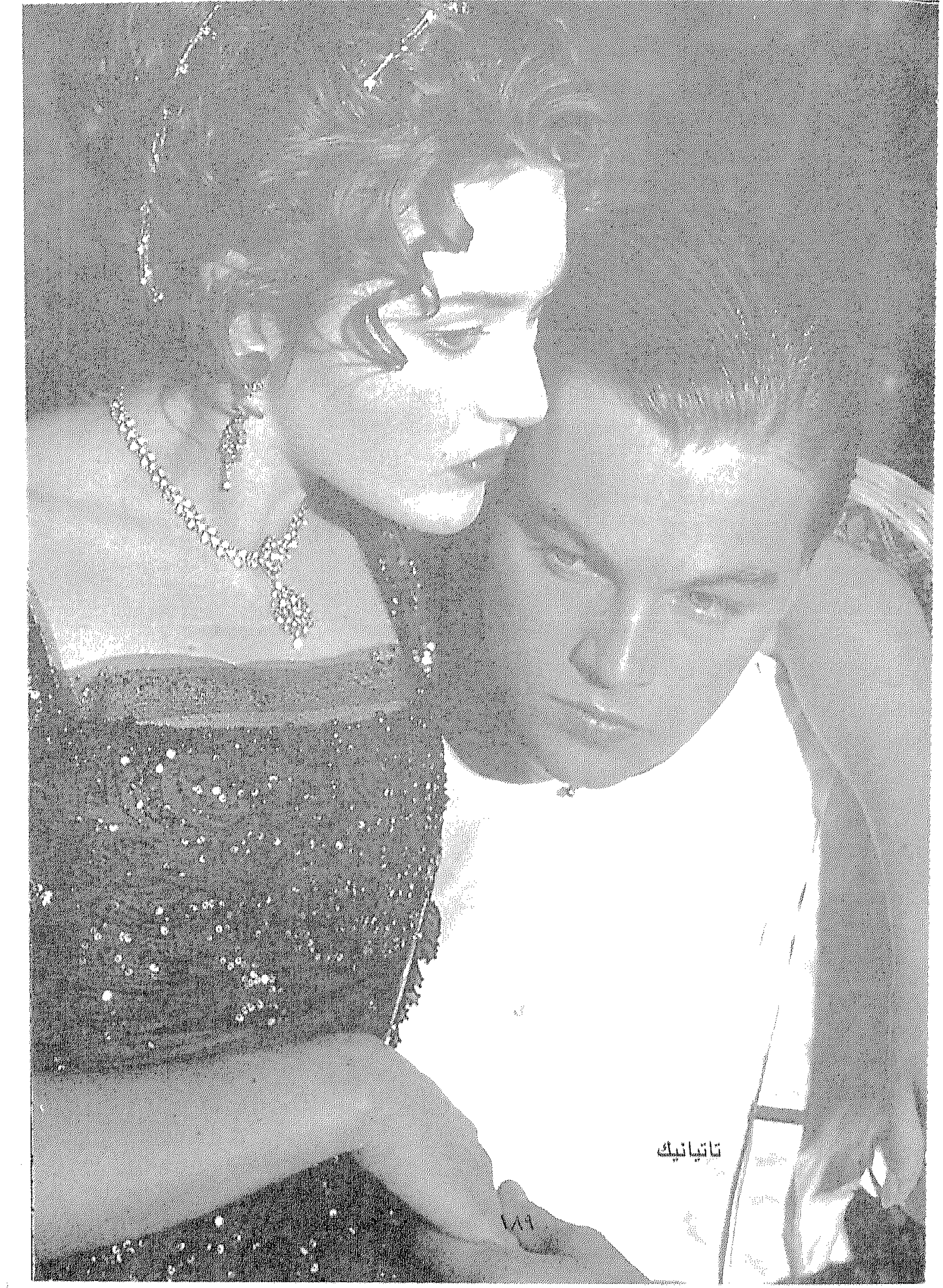


تحية كاريوكا فى شباب امرأة

تحركت الصورة ، لأول مرة ، على شاشة بيضاء ، وأمام حشد من الناس فى باريس ، والإنسانية على وشك أن تطوى صفحة القرن التاسع عشر، وتتطلع إلى القرن الأخير من الألفية الثانية ، ألا وهو القرن العشرون ، الذى ودعناه قبل ساعات .

وتحركها هذا حدث فى أثناء عام ١٩٨٥ ، وبالتحديد يوم العشرين من شهره الأخير.

والفضل فى حدوثه إنما يرجع إلى اختراع لأخوين من مدينة ليون ، هما أوجست ولوى لوميير.



تاتيانيك

ولست هنا بصدد الكلام عن «عمال يغادرون مصنع لوميير»، فيلمهما الذى جرى عرضه أمام ذلك الحشد، المكون من مائتى مشاهد لا أكثر ، ولا أقل .

فالكلام عنه يعدّ مضيعة للوقت ، فأحد لا ينازع فى أنه أول فيلم أبدعه خيال الإنسان ، وأحد لا ينكر أنه فيلم تسجيلى قصير، لا تزيد مدة عرضه على بضع ثوان.

ما أردت قوله بإشارتى إليه اشارة عابرة ، هو أنه لو بعد خمسة أعوام من عرضه الأول ، وبمناسبة حلول القرن العشرين ، طلب إلى أى واحد من ذلك الحشد المشاهد له ، ان يسيح سياحة قصيرة أو طويلة فى القرن الجديد ، ليستكشف مستقبل الصورة المتحركة، أو السينما توجراف كما كانت تسمى فى ذلك الزمان، بعد مائة عام أو خمسين عاما، بل قل حتى بعد عشرين عاما ، لو طلب إليه ذلك ، لما كان فى وسعه أن يشطح بخياله ، بحيث يتصور أفلاما روائية يطول عرضها ، بدلا من ثوان معدودات، إلى ثلاث ساعات ، وربما أكثر، مثل «مولد أمة» للمخرج الأمريكى «دافيد جريفيث» و«نابوليون» للمخرج الفرنسى «ابيل جانس» و«تايتانيك» للمخرج الكندى «جيمس كاميرون» .

ويتصور أفلاما تتكلم بكل لسان ، وأفلاما أخرى زاهية بالألوان .

مارد العلم

ويتصور نتائج اختراع الأخوين لوميير، وقد أخذت فى التسلسل ، حتى وصلت إلى ما السينما فيه اليوم من أفلام، بعضها يتسلل عبر الفضاء إلى الشاشات الصغيرة فى بيوتنا ، وحتى غرف نومنا .

وبعضها الآخر يجرى عرضه على شاشات ضخمة فى دور سينما ، مجهزة بأحدث ابتكارات العلم الحديث.

هذا إلى أفلام تجرى تعبئتها على اسطوانات بحجم الكف ، ثم استرجاعها فى لمح البصر، على شاشة صغيرة أو كبيرة ، دون عناء.

وليس من شك فى أن مشاهدى العرض الأول ، بل ومشاهدو العروض التالية طوال الأعوام الخمسة الأخيرة والأولى من القرنين التاسع عشر والعشرين ، لهم العذر كل العذر إذا لم يكن فى وسعهم استكشاف مصير السينما ، حتى في مستقبل قريب . فالسينما فى ذلك الزمان الموغل فى القدم كانت فنا وليدا، لايزال فى دور التكوين . والأهم أن ميلادها جاء مواكبا لقرن ملمحه الواحد المميز له عن كل ما سبقه من قرون ، هو اصراره على غزو الطبيعة.

وهو ضرب من الغزو اختلف به عن شهوات الغزو التى شهدها تاريخ الإنسان.

ويكفى أن أذكر هنا رحلات الغزو الكونى للفضاء، ووسائل المواصلات والاتصال ، وأجهزة الحاسبات الاليكترونية حيث يمكن تعبئتها بملايين الملايين من المعلومات ، ثم استرجاع ما هو مطلوب منها فى عشر معشار الثانية ، أو أقل كثيرا .

وليس أدل على صعوبة استكشاف مصير السينما ، حتى فى منتصف القرن العشرين ، أى بعد إذ تبين أنها لغة العصر ، وفن يعمل لتأثيره على عقول الناس ألف حساب ، ليس أدل على ذلك من مقال للأديب «أنور أحمد» جرى نشره فى عدد يناير لعام ١٩٥٠ من مجلة الهلال.

القفز إلى المجهول

ففى هذا المقال حاول مجتهدا أن يخترق حجب المستقبل ليستكشف من ورائها صورة لما ستكون عليه السينما ، خاصة المصرية ، بعد خمسين عاما .

فكان أن قفز بخاطره إلى أمام ، نصف قرن من عمر الزمان ، أى إلى يومنا هذا .

فماذا قال من خلال ما حققه من استكشاف؟

قال من بين ما يقال إنه يعتقد أن أفلامنا سنة ٢٠٠٠ ستكون قد شقت طريقها إلى التوزيع العالمى فى أوروبا وأمريكا .

واننا سنرى الأفلام المصرية ، وقد صنعت منها نسخ بالانجليزية والفرنسية ، فى الوقت الذى تصنع فيه النسخة العربية، وبوساطة فنانين مصريين.

ومادامت أفلامنا قد عرفت طريقها إلى دور العرض فى أوروبا وأمريكا ، فلا شك أن هوليوود التى ستبقى دائما عاصمة السينما فى العالم، ستحاول اجتذاب بعضهم للعمل فى أفلامها ، كعادتها فى اجتذاب النابغين من جميع الأجناس .

وهكذا، سنرى فى هوليوود ، وفى الأفلام الأمريكية ممثلين وممثلات مصريين يحتلون نفس المكانة التى يحتلها الفرنسى «شارل بواييه» والسويدية «انجريد برجمان». وليس فى هذا القول اغراق فى الخيال، فان فى مصر نبوغا لو كشف عنه الحجاب، لأتى بالعجب العجاب.

أما موضوعات الأفلام وقصصها فإنها ستتحرر من كل القيود التى تغلها فى هذه الأيام .

سنرى أفلاما عن الثورة العرابية ، وعن الثورة الكبرى سنة ١٩١٩. وسنشاهد على الستار الفضى سيرة «مصطفى كامل» و«سعد زغلول»، وغيرهما من عظماء تاريخنا . وسيتاح لنا أن نخرج أفلاما تجرى حوادثها فى الغابات والأحراش التى تغطى القسم الجنوبى من الدولة المصرية ، لأن السودان سيكون جزءا من دولة وادى النيل.

القاعدة والاستثناء

والأمر الأكيد أنه باستثناء «عمر الشريف» الذى أصبح نجما عالميا ، شأنه فى ذلك شأن فئة قليلة من الممثلين غير الأمريكيين .

وباستثناء خروج فيلم عن «مصطفى كامل» ، تقمص فيه شخصية الزعيم المصرى صاحب المقال ، خروجه إلى النور، عقب ثورة الضباط الأحرار.

وباستثناء صمود هوليوود لعاديات الزمان ، باستمرارها عاصمة للسينما العالمية ، مهيمنة على مصيرها حتى هذه الساعة . فنبوءات صاحب المقال لم يتحقق منها شىء.

فأفلامنا لم تشق طريقها إلى دور العرض فى أوروبا وأمريكا . وممثلة مصرية واحدة لم يكتب لها الصعود إلى مصاف النجوم فى سماء هوليوود . ولعل فشل النجمة الراحلة «تحية كاريوكا» فى هذا المجال، رغم مواهبها ومحاولاتها ، لعله خير مثال . وعظماء تاريخنا الطويل لم يرد معظمهم على بال سينمائيينا . وما فشل محاولة المخرج الراحل «شادى عبدالسلام» ترجمة سيناريو «اخناتون» الفرعون الملعون إلى لغة السينما، ببعيد عن الأذهان.

وفيلم مصرى واحد لم يصور فى أحراش وغابات السودان ، اللهم إذا استثنينا «ينابيع الشمس»، ذلك الفيلم التسجيلى الطويل ، الذى أبدعه المخرج النيوزيلندى «جون فينى» ، المقيم فى ربوع مصر، منذ أربعين عاما إلا قليلا ، وصور فيه النيل بدءا من منابعه فى جبال القمر ، حتى مصبه فى البحر .

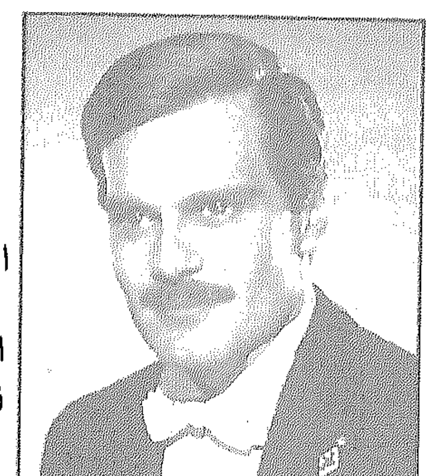
لكل سؤال جواب

والسؤال لماذا خابت توقعات صاحب المقال؟.

وهذا السؤال أجد له الجواب فى ثلاثة أسباب .

أولها التأميمات الكبرى فى أثناء عقد الستينات، تلك التأميمات التى جعلت من القطاع العام وصيا على صناعة السينما المصرية، يكاد يفعل بها ما يهوى ويشاء على نحو أضر بها ضررا جسيما .

وثانيها انحسار عدد دور السينما ، تحت تأثير كل من التأميمات والتليفزيون الذى ولد عملاقا، يبث ارساله مجانا،



عمر الشريف فى الدكتور زيفاجو

منافسا بهذه الطريقة غير المشروعة وغير المتكافئة، عرض الأفلام فى دور السينما.

وثالثها استمرار الرقابة ، بموانعها الثلاثة : السياسة ، الدين ، الجنس، راسخة رسوخ الجبال.

وختاما ، فإذا كان قد تعذر على صاحب المقال استكشاف صورة ما ستكون عليه السينما ، عندنا بعد خمسين عاما، كما سلف البيان.

وإذا كان قد جاء على لسان الساحر «بيل جيتس» ، وهو من هو فى دنيا البرمجيات «أننا لا نستطيع أن نتحدث عن نمط الحياة الفعلية عبر الانترنت، قبل مضى عامين . فكيف لى أن أقدم على مغامرة السياحة فى مستقبل مجهول ، سعيا إلى معرفة ما ستكون عليه السينما ، لا بعد عامين ، وإنما بعد خمسين عاما، وربما بعد مائة عام ؟

ولماذا المغامرة ، وليس ما يكرهنى ، أو من يكرهنى ؟!!

الطريق إلى المستقبل

للرئيس جمال عبد الناصر

« ان نجاح هذا الجيل قد فتح الطريق الى المستقبل، وحتى نفتح الطريق الى المستقبل لا بد أن نكون من انفسنا الجسر الذى يربط بين الماضى البغيض وبين المستقبل المشرق .. »

ان هـذا الجيل ـ جيلنا الحاضر ـ تحمـل عبء القيام بثورتين فى وقت واحد : ثورة سياسية ، وثورة اجتماعية . ولقـد حاول آباؤنا أن يقوموا بالدور الذى قمنا به الآن ، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينتصروا فى المعارك التى حاربوا فيها . وهذا لا يمنع انهم حاربوا فى جميع المعارك من أجل تحقيق الثورة السياسية والثورة الاجتماعية

حاربوا على مر السنين ، وفى عشرات السنين فى كل مكان . ولكن لم يتح لهم النصر ، بل مهدوا لنا طريق النصر لننتصر حاربوا فى هـذه المعارك ، لم يضنوا فيها بالشهداء ، وتحملوا فيها الآلام !

ولقد أخذنا منهم العلم .. علم الكفاح من أجل تحقيق الثورة السياسية، والثورة الاجتماعية ، وكافحنا فى الطريق الذى كافحوا فيه ولم يستطيعوا أن ينتصروا. ولكننا بعون الله استطعنا أن ننتصر ، وأن نرى معالم المجتمع الجديد ، وأن نرى معالم نجاح الثورة السياسية والثورة الاجتماعية

استطعنا أن ننتصر ، وأن نرى معالم المجتمع الجديد ، ومعالم المستقبل الجديد . وهذا العبء عبء كبير . عبء شاق

ان نجاح هذا الجيل قد فتح الطريق الى المستقبل. وحتى نفتح الطريق الى المستقبل لابد أن نكون من أنفسنا الجسر الذى يربط بين الماضى البغيض وبين المستقبل المشرق ، الذى نتصور فيه المجتمع العربى الذى نتمناه ، والذى نعمل من أجله .. المجتمع الذى تتخلص فيه أوطاننا العربية من الاستبداد السياسى ، ومن الظلم الاجتماعى .. المجتمع العربى الذى يتخلص من السيطرة المستبدة التى أتت الينا من الخارج ، والسيطرة المستغلة التى تكونت فى بلادنا من الداخل

استطعنا أن ننتصر بعون الله وأن نرى الفرصة تمكننا من وضع دعائم هذا المجتمع . ولهذا قبلنا حينما رفعنا هذا العلم ـ علم الجهاد ، علم الكفاح ـ أن نكون جسرا بين عالمين : العالم الذى كان يتفشى فيه الاقطاع والاستبداد والاستغلال والفساد السياسى ، وبين العالم الجديد الذى يتمثل فيه هدفنا الاكبر ، وهو اقامة مجتمع ترفرف عليه الرفاهية . وقبلنا أن نكون القنطرة التى تعبر عليها الاجيال القادمة فى أوطاننا .. تعبر عليها فى زحفها الى عالم أفضل من العالم الذى وجدناه . ونحن نعمل ونكافح ونسعى حتى نحقق للاجيال التى تأتى بعدنا عالما أفضل بدل العالم الذى نشأنا فيه ، والذى قاسينا منه ، والذى شكونا مر الشكوى من مآسيه

وفى نظرة سطحية سريعة قد يظهر أن جيلنا محمل بأعباء أكثر مما يطيق ، ولكن اذا نظرنا نظرة عميقة ، رأينا وشعرنا بأننا فعلا على موعد مع القدر . فتاريخ هذا الجيل يقاس بما يستطيع أن يسجل فى حياته من جهود وأعمال ، وستتطلع الاجيال القادمة الى ما نعمله اليوم بفخر ، وسترى أن جيلنا كان نقطة التحول الكبرى فى تاريخنا العربى

ولا أقول ذلك لاستثير العزة ، أو لاستثير فى هذا الجيل الشعور بالفخر ، ولكنى أقوله ، لانى مازلت أطلب عملا أكثر ، وجهدا أكثر

وتصحيحا أكثر وعزيمـــة أكثر ... وبذلك نســتطيع أن نبنى المجتمع الجديد ، المجتمع الاشتراكى الديمقراطى

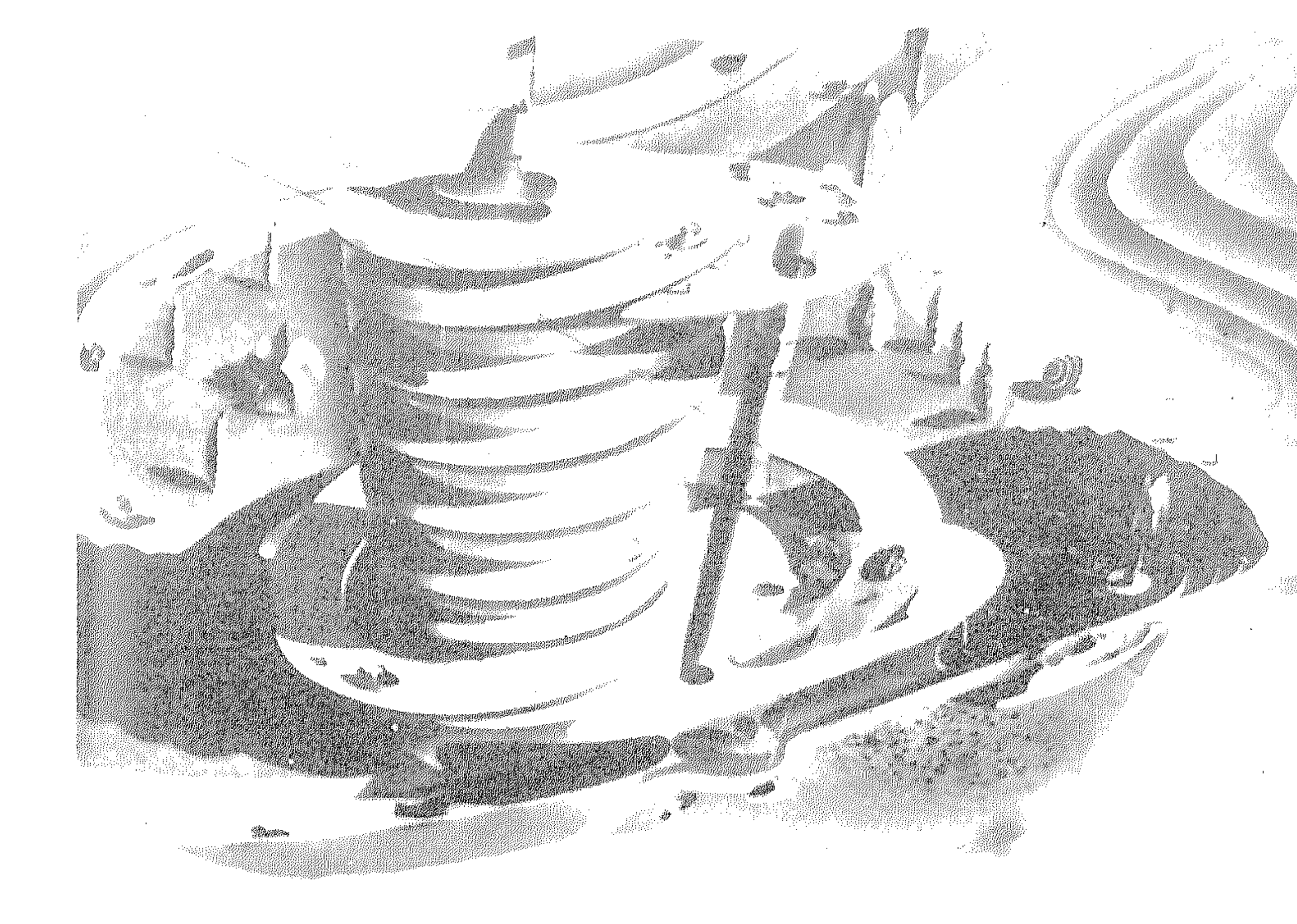
وليس بناء هذا المجتمع بالمهمة السهلة ، ولكنه مهمة صعبة . لاننا لانبنى المجتمع الجديد فقط ، وانما نحن نضع تصميم هذا المجتمع لانفسنا ، قبل أن نبنيه ، فان ظروفنا تختلف عن ظروف غيرنا . ولا ينبغى لنا أن ننقل تجربة مجتمع آخر، لان كل مجتمع يضع النظام الذى يلائمه . ولكن ذلك لا يمنع أن ندرس تجارب الآخرين حتى نستطيع أن نستفيد منها. !

ولهذا نحن حينما نقول اننا نبنى هـــذا المجتمع الجديد ، فلا نعنى أننا نبنى فقط ، وانما نصـــمم . وهـــذا التصـــميم يتطور ويتشكل مع تطور المجتمع ومع حاجات المجتمع ، ومع طبيعـة المجتمع ... هـــذا التصميم تصميم مستمر ، والعمل فيه مستمر !.

□

ولقد استطعنا فى هذه الفترة القصيرة أن نحقق فى البناء خطوات طيبة ، ولكننى أقول ان الطريق أمامنا لا ينتهى ، لان حاجات المجتمع ليست لها نهاية . ولاننا اذا حققنا بعض المطلوب فان أمامنا باستمرار مطالب جديدة

فى هذه السنوات الاخيرة رغم المعارك السياسية والمعارك الاجتماعية ، والمعارك الفكرية استطعنا فى ناحية البناء أو بالاحرى فى ناحيـــه زيادة الانتاج أن نحقق نتائج نستطيع أن نشعر انها نتيجة عمل كل فرد منا .. استطعنا أن نحقق نتائج مثالية ، أو نتائج طيبة فى ميدان الصناعه ، والتنميه الصناعية والتنمية الاقتصاديه وفى ميدان الزراعة ، وفى جميع الميادين التى تتمثل فيها حاجات المجتمع .. وهذا معناه أننا نعمل ، وأننا قدرنا الى حد كبير أن نحدد الطريق الى مجتمع ترفرف عليه الرفاهية ، والى مستقبل أفضل



قاهرة سنة ٢٠٠٠

بقلم الدكتور سيد كريم

الأستاذ بكلية الهندسة بجامعة فؤاد الأول

المدينة مرآة تنعكس عليها صورة الشعب الذى يعيش فيها، وتتكون تلك الصورة من مجموعة من الخطوط المتوازية التي لا ينحرف واحد منها عن بقية المتوازيات ، وتعبر مجتمعة عن ثقافة الشعب ومدنيته

فالقاهرة سنة ٢٠٠٠ هى انعكاس عوامل التطور مجتمعة على وجه المرآة، ونصف قرن وان كان يعد لا شيء فى تطور المدن وتخطيطها في الماضى ، الا انه قد أصبح مرحلة ليست بالقصيرة فى تاريخ التطور العلمي والآلى الحديث ، مرحلة كافية لتخطيط عاصمة بأكملها بجميع مرافقها وفق برنامج ثابت تسير بقوة دفعه مئات السنين

ان التطور العلمي والنهضة الصناعية .. قد جعلت من الخيال حقيقة سهلة التحقيق ، فما كان يتنبأ به كتاب الماضى ليتحقق بعد

عدة أجيال ، أصبح يتحقق فى أقل من ربع قرن · فالعربة التى اكتشفت كوسيلة للنقل من آلاف السنين بقيت كما هى لم تتغير ولم تتحسن تحسنا ملحوظا ولم يتغير فيها سوى طرازها أو شكلها وزخرفها ، ولكنها عندما واجهت العصر الآلى انتقلت خلال نصف قرن من عربة تجرها الجياد الى العربة البخارية ، الى السيارة الآلية التى تدار بالبنزين والقوى الكهربائية ، الى الطيارة ذات المحركات ، الى الطائرات النفاثة، الى الصواريخ · أى أن سرعتها انتقلت خلال أربعة آلاف سنة من عشرة كيلومترات فى الساعة الى ثلاثين،وفى خمسين سنة من ثلاثين الى ما يقرب من الألف،فأصبحت تقطع فى العام الواحد من التقدم ما قطعته فى الماضى فى قرن كامل

وما يقال عن وسائل النقل ، يقال عن بقية النواحى الأخرى التى تسير معها جنبا الى جنب··

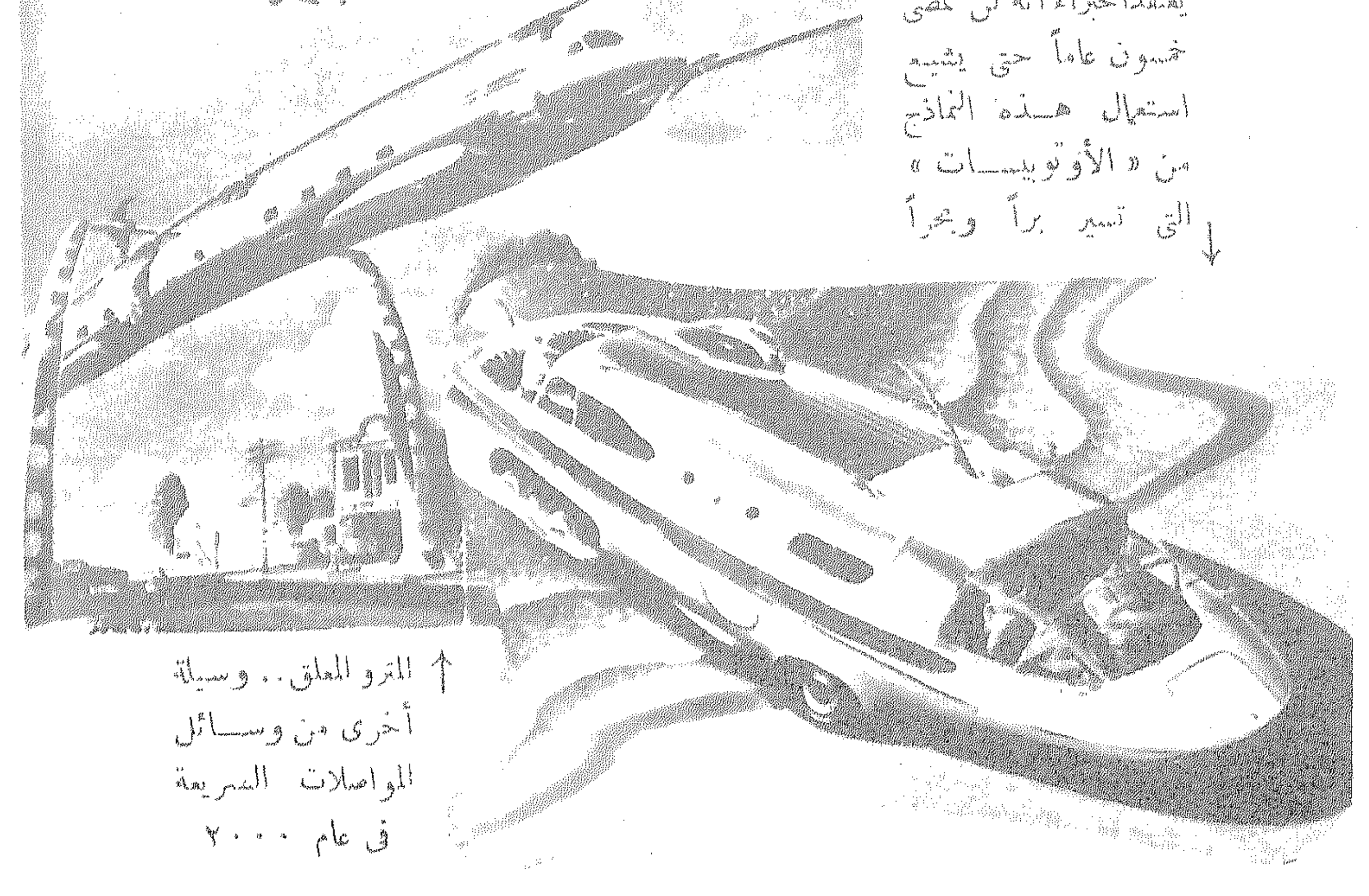
▭

واذا ألقينا نظرة على حدود القاهرة الحالية وحدودها منذ نصف قرن نجد أنها قد زادت ما لا يقل عن أربعة أمثالها · ووسائل النقل بأنواعها قد زادت خلال عشر سنوات فقط أضعاف عددها ·· ان علاقة التطور الاجتماعى نفسه بالتطور العمرانى ظاهرة حدا فى التحول نحو العمارات السكنية الكبيرة والأنواع المختلفة من المرافق العامة ودور اللهو وغير ذلك مما نشأ مع التحول الاجتماعى ، كما أن علاقة طراز المجتمع فى جميع متوازياته وتناقضها كما هو الحال فى الأزياء والموسيقى والعادات والمواصلات انعكست صورتها واضحة جلية على طراز العمارة بالمدينة نفسها

قاهرة المستقبل

فالقاهرة سنة ٢٠٠٠ صورة مجسمة لطابع المدنية ومدى تأثر ثقافة الأمة بالنهضة العالمية والتطور الاقتصادى والصناعى والآلى الحديث ـ هى صورة حية لحياة الشعب ومكانته من قافلة التطور الحديث· ولهذا ستختلف اختلافا تاما عن قاهرة اليوم ،بل ستختفى كثير من معالم قاهرة اليوم لتساهم فى تخطيط قاهرة الغد ، ولا تقف عقبة فى سبيل ظهورها الى حيز الوجود

حدود القاهرة : ستزحف حدود القاهرة الشمالية لتعمير ترعة الاسماعيلية ، وتمتد الى المناطق الزراعية التى على جانبى طريق قليوب الذى سيتحول بدوره الى شارع كبير تحت الأرض « اوتوستراد » يصل القاهرة بالاسكندرية ، وتمتد مخترقة عدة ضواح صغيرة حتى يكون مدخل القاهرة الفعلى عند مدينة قليوب· وسيتفرع منه شارعان كبيران عند ميدان مدخل المدينة ليسير أحدهما محاذيا للنيل على شكل كورنيش، يبدأ بالقرب من قليوب ويمتد محاذيا لشاطىء النيل مخترقا القاهرة كلها حتى حدها الجنوبى



يقدر الخبراء انه لن تمضى خمسون عاماً حتى يشيع استعمال هذه النماذج من « الأوتوبيسات » التى تسير براً وبحراً ↓

↑ المترو المعلق .. وسيلة أخرى من وسائل المواصلات السريعة فى عام ٢٠٠٠

عند المعادى ، التى ستصبح بدورها جزءا من القاهرة · ويمتد الشارع الآخر متجها الى الشرق، فيخترق القاهرة متجها الى القلعة وجبل المقطم و « الاوتوستراد » الصحراوى الموصل الى الجانب الشرقى من حى المقطم وحى المعادى ويمتد الى حلوان ومنها الى الطريق الرئيسى الموصل للوجه القبلى

كما سيمتد الحد الشرقى لتندمج ضاحية هليوبوليس فى القاهرة نفسها ، ويمتد الحد الشرقى ليعبر النيل ويصل الى ما بعد اهرام الجيزة التى ستدخل ضمن حدود القاهرة نفسها · وسيكون للقاهرة « كورنيش » كبير يمتد من مدخلها شمال منطقة امبابة الحالية ويسير بمحاذاة النيل - حتى يصل الى نهاية امتداد المدينة على الشاطىء الغربى للنيل فى مواجهة المعادى ، حيث يتقابل الكورنيش فى ميدانين يربطهما كوبرى كبير يعبر النيل

وتبعا لتلك الحدود الجديدة ستظهر مجموعة كبيرة من الأحياء الجديدة التى سترسم شكل القاهرة وتخطيطها ـ بعضها سيحل محل أحياء قديمة معروفة ستزال ضمن برنامج التطهير الذى سيبدأ فى الربع الأول من القرن الحالى لتقوم أحياء أخرى مكانها بوساطة عملية من عمليات التجميل الواسع المدى

الأحياء الجديدة

١ ـ حى المقطم : سيكون من الأحياء ذات الطابع الخاص الذى تنحدر طرقاته من أعلى الجبل الى شاطىء النيل وسيغطى جزء منه

بالحدائق الكبيرة ويعلوه فندق وكازينو يعد الأول من نوعه فى الشرق له مطار خاص ، ويصله بمنطقة الاهرام قطار يمر فى سماء القاهرة ويحوى الحى مجموعة من العمارات الحدائقية لكل منها مجموعة من الفيلات المجتمعة فى مبنى واحد لكل منها حديقتها المعلقة ، ولكل عمارة سوق صغيرة لتموينها بما تحتاج اليه من الضروريات وستنقل المياه من النيل بوساطة مضخات الى بحيرة كبيرة فى أعلا الجبل لتنحدر ثانيا بوساطة مجموعة من الشلالات خلال الحدائق لريها مع الاستفادة من القوى المستغلة منها لادارة قاطرات الانتقال التى تمر خلال أنفاق تحت المبانى لتنقل السكان من عمارة الى أخرى ومن أسفل الوادى الى أعلاه

٣ ـ **حى زينهم** : سيتشابه فى شكله مع حى المقطم الا انه أقل منه انخفاضا وسيكون له طابع خاص من حيث تخطيطه وسيحوى الجزء الأكبر من الملاعب الرياضية واستاد القاهرة الرياضى للأحياء الوطنية الجديدة حتى يتحول جزء منه الى مدينة رياضية صغيرة يقضى فيها كثير من السكان اجازاتهم

٣ ـ **حى الاهرام** : سيكون مرتفعا ومواجها لحى المقطم على الشاطىء الغربى وتربطهما شبكة من المواصلات الخاصة كالقاطرات المعلقة والانتقال بوساطة السيارات الصاروخية فى بضع ثوان . ولا تقل مساحة الحى عن حى المقطم وسيحوى مجموعه من الحدائق الكبيرة والميادين تتوسطها الاهرام نفسها وتحيط بها العمارات العالية التى سيعلو بعضها عن الاهرام نفسها ، وستنحدر العمارات على شكل مدرج يكسو انحدار الجبل نفسه حتى تنتهى عند الوادى الأخضر . وسيكون فى نهاية الحى الغربى ميدان كبير تتقابل عنده مجموعة خطوط كبيرة لا يقل عرض أحدها عن الخمسين مترا يكون فى مقابلها أحد مداخل القاهرة الجميلة ويحوى ميدان التقابل الكبير احدى محطات القاهرة الرئيسية التى تتقابل عندها خطوط الاتصال الخارجى سواء من الاسكندرية أو السلوم أو الفيوم والوجه القبلى لينتقل المسافرون منها الى داخل القاهرة وأحيائها تحت سطح الأرض أو بوساطة طائرات الهليكوبتر النفاثة التى تنقل المسافرين الى أسطح العمارات أو محطات الأحياء المعلقة فوق أسطح بعض العمارات الكبيرة

٤ ـ **حى الجامعة** : ويقع خلف مبانى جامعة فؤاد الأول الحالية ويمتد غربا ليقابل حى الاهرام بالقرب من موضع مينا هاوس الحالى ، وسيكون على شكل مدينة مستقلة بمبانيها ودورها العلمية وملاعبها ومساكن الطلبة والطالبات والمدرسين وتتوسط المدينة دار «الجامعة العالمية» التى يتلقى فيها الطلبة العلم وسماع محاضرات جميع الأساتذة العالميين

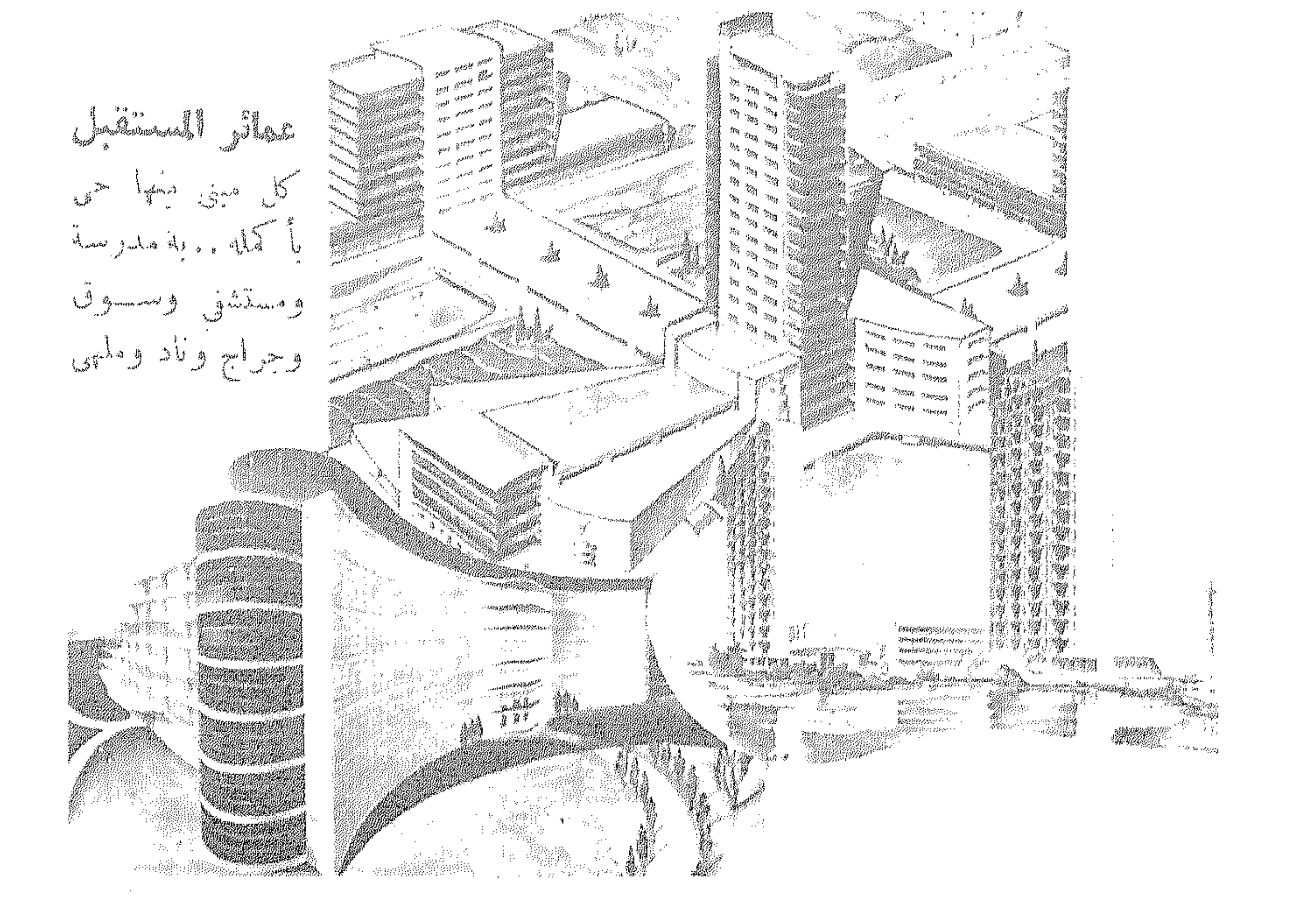
من جميع أنحاء العالم بوساطة مسرح كبير للتليفزيون بكل قاعة من قاعات المحاضرات ، فيرى الطلبة الأساتذة أو علماء كل فرع من الفروع ، ويستمعون الى محاضراتهم وشرحهم كأن الأستاذ يحاضرهم شخصيا .. وبطبيعة الحال ستختفي طرق التدريس والمحاضرات الحالية وسيكون لمباني تلك الجامعة الجديدة طابع علمي وآلي جديد ، ويعد ما تبقى من مباني الجامعة الحالية من الوحدات الأثرية - وسيعلو الجامعة برج مكتبتها التي تحوي ملايين المؤلفات والأفلام السينمائية أو الشرائط المختلفة الأشكال ، والتي ستكون ضمن مؤلفات المكتبة (المؤلفات الناطقة والمتحركة)

٥ - حي بولاق : سيكون من أكبر أحياء القاهرة التجاريه ويشمل تخطيطه امتداد الكورنيش الكبير الموازي للشاطئ الشرقي ، ويمتد من منطقة ثكنات قصر النيل الحالية الى بولاق ، وينتهي عند ترعة الاسماعيلية أو بالقرب من مدخل القاهرة وستظهر به مجموعة من ناطحات السحاب المطلة على كورنيش النيل ، وستخترقه عدة شوارع تجارية كبيرة تمتد لتمر فوق الكورنيش الغربي وسينشأ ذلك الحي بأكمله وفق برنامج انشائي من برامج التعمير والتطهير وذلك بازالة أحياء بولاق والترجمان والسبتية الى ترعة الاسماعيلية واعادة تخطيطها تخطيطا شاملا بما في ذلك الشوارع المختلفة المناسيب والطرقات والميادين الظاهرة والمختفية تحت الأرض وشبكة المواصلات بمختلف وسائلها

٦ - حي القبة البحري: سيكون من أكبر أحياء المباني ذات الحدائق ويغطي المثلث الواقع بين حي شبرا وحي سراي القبة والمطرية ممتدا الى ترعة الاسماعيلية ، وسيكون به أحد مداخل القاهره الرئيسية من الاوتوستراد التي تصل القاهرة بالاسماعيلية وبور سعيد وسيشق المنطقة بوليفار كبير يخترقها متصلا بميدان المحطة الحالي،وسيكون في مقدمة ما يلفت النظر في القاهرة تلك الغابة التي تحيط بها كالاطار من جميع نواحيها ، فتنقي الرياح التي تهب عليها في فصول السنة المختلفة مما تحمله من الأتربة والرمال الصحراوية كما ستمتد الى مسافات بعيدة من الناحية الغربية خلف الاهرام حيث سيحول جزء كبير منها الى حدائق لتزويد القاهرة بالفاكهة ، وستروى بمشروع كبير من الآبار الارتوازية وستحوي مجموعة من البحيرات الصناعية وحمامات السباحة والمتنزهات العامة

وسائل النقل

تلعب وسائل النقل وطرق المواصلات الدور الحيوي الأول في تكوين الشكل الظاهري للمدينة. فهي بمثابة الشرايين والأوردة للحركة والحياة. فاذا ألقينا نظرة



عمائر المستقبل
كل مبنى منها حي بأكمله .. به مدرسة ومستشفى وسوق وجراج وناد وملهى

سريعة على تقدم وسائل النقل وتطورها أو انقلابها في القرن الأخير أمكننا تكوين فكرة عما ستصل اليه القاهرة بعد نصف قرن وأثرها فى تخطيط المدينة نفسها . ويمكن تقسيمها الى أربع مجموعات أساسية تسيطر كل منها على جزء من هيكل المدينة وهى :

١ ــ الحركة الأرضية : ستدب الحياة تحت أرض القاهرة فتمتد أسفلها شبكة كبيرة من خطوط المواصلات تتألف من أنابيب خرسانية تمر بها قاطرات سريعة تنتقل بقوة الامتصاص بحيث تنزلق في ثوان من أحد أطراف المدينة الى الطرف الآخر ، وستمتاز تلك الطريقة عن المترو المعروف فى العواصم الأوربية الكبيرة حاليا بسرعتها الخيالية التى تسبق سرعة الصوت كما انه ليس لها صوت وستتقابل القاطرات فى محطات وميادين كبيرة تحت ميادين المدينة الحالية ، وسيضم كل ميدان منها سوقا كبيرة للمشتريات ويحيط بمعظمها جراجات كبيرة تنخفض بمنسوب دورين أو أكثر تحت الأرض لأنواع السيارات التى تسير فوق سطح الأرض

٢ ــ الحركة السطحية: ستحوى وسائل النقل الخاصة فقط ، وهى نماذج جديدة من السيارات التى تدار بالقوى الذرية أو اللاسلكية بغير وقود حيث تختفى قوى الاحتراق المعروفة من بنزين

وميازوت وغيرها من ادارة وسائل النقل الحديثة لارتفاع أصوات محركاتها وأثرها في تلويث الهواء، وستكون تلك الحركة السطحية من شبكتين من الطرقات ذات الاتجاه الواحد تمر كل منها فوق الأخرى عند تقابلها ، وسيكون للعمارات السكنية طابقان أرضيان احدهما على شكل شوارع معلقة بمنسوب الدور الأول ،وثانيهما شوارع عادية بالدور الأرضي

٣ ـ الحركة الهوائية : ستكون اهم ما يميز مدن سنة ٢٠٠٠ بصفة عامة من مدن العصور الماضية • فبوساطتها ستدب الحركة والحياة في سماء المدينة بحيث ينقسم جوها العلوي الى ممرات محدودة ذات حركة ثابتة للمرور كالطرقات تماما،وستختلف عن الشوارع المعروفة واتجاهاتها بأن تحديدها سيكون بوساطة خرائط واجهزة داخل الطائرات والسيارات الطائرة بأنواعها

وستكون مراكز انتقالها وهبوطها فوق أسطح العمارات الكبيرة أو في مطارات معلقة بين العمارات أو فوق أسطح الميادين المسقوفة والساحات المعلقة فوق الحدائق العامة

ويمكن تقسيم وسائلها في سماء القاهرة الى الأنواع الآتية:

ا ـ السيارات الطائرة التي ستكون جراجاتها فوق أسطح العمارات والفيلات لتنقل الركاب الى ميادين القاهرة الداخلية وتنقل منها خلال الطرقات السطحية والمعلقة في المناطق التي يحتاج الراكب الى العمل بها ثم تعود طائرة الى أماكنها

ب ـ المواصلات الطائرة، وهي أنواع من الاتوبيسات الطائرة التي تنقل السكان بين أحياء المدينة وهي تتألف من قاطرات تجرها طائرة للنقل بين أطراف المدينة الخارجية

جـ ـ الانتقال الصاروخي ، بوساطة العربات الصاروخية التي تقذف براكبيها من الأحياء المرتفعة الى أطراف المدينة كالانتقال من حي المقطم الى حي الاهرام في ثوان ، أو من مصر الجديدة الى حي المعادي • وستكون من الوسائل العادية للتسلية والنزهة خصوصا للانتقال من أحياء المساكن الى الغابة الخارجيه ثم العودة ثانيا في عدة ثوان

د ـ القاطرات المعلقة ، ونستعمل وسيلة من وسائل النقل والنزهة في نفس الوقت للانتقال بين قمة جبل المقطم وحي الاهرام معلقة في سماء القاهرة فوق النيل.

٤ ـ الحركة المائية : ستدب الحياة بدورها أيضا فوق سطح النيل الذي سينشأ عليه ميناء بحري كبير للاتصال بجميع عواصم المديريات ومدن القطر التي يقع معظمها على شاطئ النيل بوساطة شبكة كبيرة من الطائرات المائية ، والقاطرات التي تسير على سطح الماء بقوى الدفع

الهوائى والقوى النفاثة،وتجر كل قاطرة عددا كبيرا من العـربات العائمة تترك واحدة بركابها فى كل ميناء من موانىء الطريق ·
وستكون فى نفس الوقت محطة بحرية رئيسية للقاطرات الطائرة التى تأتى يوميا من جميع أنحاء القطر

وستنظم حركة المرور فوق سطح الماء بين كل من شبكة الحركة الطائرة والقاطرات العائمة والأنواع المختلفة من السيارات العائمة السريعة الحركة التى ستنتقل بين شاطىء النيل على طول المدينة

ميادين القاهرة الجديدة

سيكون فى مقدمة ميادين القاهرة الرئيسية التى تلفت نظر الزائر «ميدان قلب القاهرة» حيث تصب فيه جميع الشوارع والبوليفارات الرئيسية ، ويقوم مكان ميدان الأوبرا الحالى ويمتد ليحتل حديقة الأزبكية وميدان محمد على الكبير ، وسيتكون من طابقين الأسفل منهما تلتقى عنده خطوط القاطرات الأرضية وبعض الشوارع السفلية الموصلة الى الميادين الرئيسية بالأحياء المختلفة وسيحوى أسفل الميدان ميدانا تجاريا كبيرا به مجموعة من المحلات التجارية والمسارح والمطاعم ، والميدان العلوى تلتقى عنده الشوارع الرئيسية التى ستخترق القاهرة· وسيعلو الجزء المتوسط من الميدان ميدان آخر معلق لهبوط الطائرات الداخلية والسيارات الطائرة ومحطة المواصلات الداخلية الطائرة· وستتصل تلك الميادين الثلاث ببعضها بمجموعة من الشوارع الحلزونية والمنحدرات والسلالم المتحركة والمتصاعدة المختلفة الأنواع · وسيلي ذلك الميدان فى الأهمية ميدان آخر مماثل يمتد من ميدان الاسماعيلية الى شارع الملكة نازلى كما سيقطعه بوليفار كبير يمتد من سراى عابدين بعرض لا يقل عن مائة متر ،ويمتد عابرا النيل والجزيرة الى أن يقابل شارع الخديو اسماعيل الجديد بالدقى ويمتد الى أن يصل الى حى الاهرام الجديد مارا بحى الجامعة وسيكون من أهم شوارع القاهرة التجارية وتقع على جانبه مجموعة من ناطحات السحاب

وسيكون من بين الميادين الكبيرة التى سيكون لها طابع خاص ميدان واسع يمتد من كورنيش قصر العينى عند عقود سواقى القلعة التى ستظهر بدورها فى وسط حديقة الحيوان ·وسيكون عرضه ما لا يقل عن ثمانين مترا ليعبر النيل الصغير وجزيرة منيل الروضة والنيل الكبير حتى يصل الى الجامعة وسيعبر النيل الكبير بوساطة كوبريين بينهما مجموعة من الحدائق المعلقة والكازينوهات

اما جزيرة منيل الروضة والتى تعد من أجمل جزر العالم فسينالها جزء كبير من مشرط التطهير حيث تزال جميع مبانيها وخرائبها الجديدة ليعاد تخطيطها ، بحيث

تصبح من أجمل أحياء القاهرة الجديدة

المباني الجديدة

أما أشهر مباني القاهرة سنة ۲۰۰۰ والتي ستلعب دورا هاما في برنامج التخطيط وطابع المدينة وعماراتها فهي :

١ ـ دار البلدية الجديدة: وتقوم على الكورنيش الكبير في منطقة ثكنات قصر النيل الحالية

٢ ـ دار الادارة الوزارية: وهي ناطحة سحاب واحدة كبيرة على الجانب الغربي من النيل أمام البلدية تتألف من خلية ادارية كبيرة تجمع جميع الوزارات ومجلس الوزراء والمصالح الادارية المختلفة ٠ وستختفي من قاهرة الغد مباني الوزارات الأثرية العتيقة الموزعة في كثير من الأحياء

٣ ـ المسارح الكبيرة : ستحوي القاهرة عدة مسارح مختلفة منها دار الأوبرا الكبيرة وموقعها في حديقة الأندلس ٠ وهي عمارة كبيرة بها مسرح يسع ما لا يقل عن خمسة آلاف شخص ٠ وبها مسرح للعرض المجسم لرؤية ما يعرض على المسارح العالميه الأخرى بغير حاجة الى استدعاء الفرق الى مصر ٠ ثم مسرح صيفي كبير لمدرج مكشوف يقوم بين الحدائق على منحدر جبل المقطم ويشرف على النيل ٠ كذلك مجموعة كبيرة من المسارح الشعبية في كل حي من الأحياء على اختلاف انواعها

٤ ـ دار الجامعة العالمية : بمدرجاتها وبرج مكتبتها الذي يرتفع عاليا في سماء القاهرة وقد سبق شرحها

٥ ـ أسواق القاهرة : وستختلف عن أسواق العصر الحديث بأن كلا منها سيكون عمارة عالية متعددة الطبقات لتوزيع السلع أو الخضروات والفاكهة واللحوم على المساكن أو المطاعم مباشرة ٠ وسيكون التوزيع لأية سلعة بطريقة محفوظة ومعقمة ولا يحتاج السكان للانتقال الى الاسواق لاختيار حاجتهم

٦ ـ محطة الانتقال الفلكي : (الميناء الجوي الفلكي) : ستنشأ على شكل ضاحية كبيرة ملحقة بالقاهرة تتوسطها محطة صاروخية عالمية كبيرة للانتقال الى الكواكب المختلفة حيث سينقل مركز تلك المحطة العالمية الى القاهرة لمركزها المتوسط بين جميع الدول وملاءمة جوها على مدار السنة ٠ وفيها ستلتقي جميع المواصلات العالمية كمحطة أولى للانتقال منها الى الكواكب

٧ ـ مسرح التلفزيون ومحطة اذاعة : سيكون على شكل برج كبير يتوسط القاهرة ويرتكز بقواعده على شاطىء النيل على شكل قنطرة ويعلوه مسرح كبير للعرض والاذاعة يسع ما لا يقل عن ٤٠٠٠ متفرج ويرتفع بابراجه ومبانيه المعلقة في سماء القاهرة مرتفعا عن جميع ناطحات

سحابها وستنشأ فى طرفه العلوى محطة المرور الجوى

٨ ـ **متحف الحضارة** : سيكون من أفخم مبانى القاهرة يتألف من عمارة بأكملها داخلها شارع كبير منحدر، ينتقل خلالها الزائر من طابق الى طابق على شكل معرض كامل يبدأ بتاريخ الحضارة المصرية من قبل التاريخ الى سنة ٢٠٠٠ ، وستجمع به جميع الآثار المصرية الموزعة على المتاحف المختلفة ومخازنها

اضاءة القاهرة

ستختفى من شوارع القاهرة تلك المجموعات المتراصة من أنواع المصابيح التى ترجع الى كل عصر وعهد ، ستختفى جميعها حتى الكهربائية منها باختفاء الكهرباء نفسها لتحل محلها طريقة جديدة لاضاءة المدينة بأكملها من مصدر واحد، مركز فى سمائها ينشأ من تقابل أشعة شبكة كاملة من الكشافات العاكسة التى تتقابل أضواؤها فتكون ذلك المصدر المضىء فتضاء القاهرة كلها اضاءة كاملة ومنتظمة التوزيع كضوء النهار ، فلا نحتاج وسائل النقل وغيرها الى استعمال مصابيح أو أضواء اضافية ، وستظهر المدينة من الجو كأنها قاعة واحدة مضاءة باضاءة غير مباشرة ، كما سيلفت النظر الطرقات الخارجية المضيئة والتى تكون مداخل القاهرة هى والمطارات أو المحطات التى تحيط بها وللأنواع المختلفة من وسائل النقل الطائرة والصاروخية وغيرها . وستضاء أرضها كما تضاء شوارع المداخل بوساطة الأراضى المضيئة التى ستستعمل فى اضاءتها الألوان المضيئة من عناصر مواد الفلورسنت والفسفورية والاشعاعات المختلفة ..وسوف لا يكون هنالك اختلاف بين الليل والنهار فى سماء القاهرة وطرقاتها ، فستوزع الاضاءة بحيث تبدأ مع ضعف الاضاءة الطبيعية عند غروب الشمس لتعوض فروق الضوء الطبيعية ، وتزداد تدريجا مع دخول الليل وتختفى بنفس الطريقة عند ظهور الفجر

سيد كريم

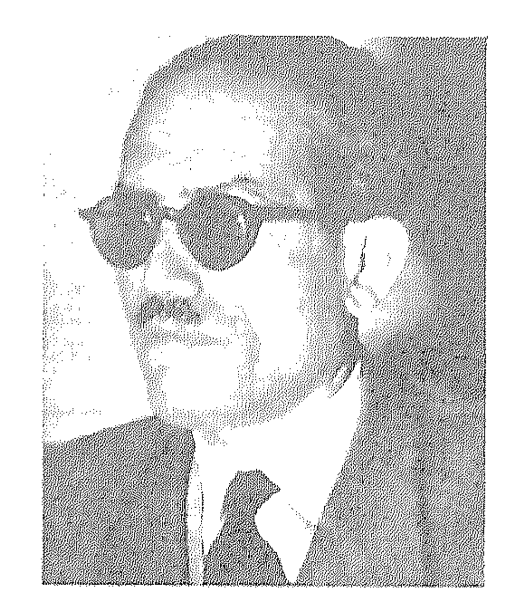


نهضتنا العربية

يواجهها التخطيط العلمى لخمسين سنة

للدكتور عبد الحليم منتصر

عميد كلية العلوم بجامعة عين شمس



أخذت نهضة شاملة تجتاح الوطن العربى ، من مشرقه الى مغربه، من ثنيات الخليج العربى شرقا الى شواطىء المحيط غربا ، ومن شواطىء البحر الابيض شمالا ، الى منابع النيل فى أواسط افريقيا جنوبا ،هذا الوطن العربى ، سكانه من الناطقين بالضاد ، ومن أحفاد يعرب، ينفضون عن أنفسهم ثوب الخنوع الذى تسربلوا فيه زمنا طويلا ، وينهضون ليعلنوا عن حيوية كامنة بقيت مستقرة خلال القرون، الى أن تهيأت لها ظروف النهضة ، فنشطت كأنما فكت بعد أسار وأفاقت من خمار . هذه الوثبة المباركة تحتاج الى تنظيم وتنسيق وتخطيط حتى لا تعود تكبو من عثار، وحتى لا تعود تهفو الى سبات، وحتى يستقيم ركضها على الطريق فلا تنحرف ولا تحيد، وانما تنتظم فى الركب مع الأمم التى سبقتنا حينا، وانا بها للاحقون ، ولها لسابقون

هذا الوطن العربى يضم نحو خمس عشرة دولة، بعضها خلص من الاستعمار منذ حين قريب ، وبعضها يكافح فى سبيل الخلاص ، ولكن آثارا من أوضار الماضى لا تزال عالقة بهم ، تشدهم الى الماضى القريب شدا ، انهم جميعا فى حاجة الى قوة دافعة تربطهم الى ماضيهم المشرق البعيد ، حين رفت على جوانب النيل وبردى والفرات حضارات تتيه على حضارات المحدثين ، حين دانت لنا دول تستعلى علينا الآن ، وكانت لنا قبل من التابعين . هذه الدول تحتاج الى قوة تدفعها الى كل جديد لامع وضاء ،

يستنبط الطاقات . يستغل القوى ، ويدين الطبيعة ، ويغزو الفضاء ، ويطلق الاقمار والصواريخ ، ويشطر النواة ، ويفتت الذرة . واننا لنعلم أن هذه القوة الدافعة ، انما هي قوة العلم ، ولا شيء غير العلم

هذا الوطن العربى يضم رقعة من أخصب بقاع الارض طرا ولعلها أغناها كذلك . فهذه أرض النيل فى مصر ، وغابات السودان وسهوله ، وأرض الرافدين فى العراق وسوريا ، هذه الارض الطيبة ما زال أغلبها بكرا ينبغى أن يزرع ، وهى تحتاج الى يد العلم لتقيم السدود والقناطر وتبنى الخزانات ، وتشق الترع والمصارف وتنظم الرى والصرف ، لتوفير مياه الرى لملايين من الافدنة التى لم تزرع بعد . وتحتاج يد العلم ، لتغل هذه الارض أوفر غلة . فلا يعوق الانتاج قلة فى الماء أو سوء فى الصرف ، أو عدم صلاحية بذور ، أو عدم كفاية سماد ، لابد للآفات من علاج نطب به ، ولا بد للامراض من دواء يعد لها ، وكل ذلك يحتاج الى نطس الاخصائيين فى اصلاح الاراضى ، وتنظيم السدود ، واقامة الخزانات وعلاج الامراض ومقاومة الآفات ، وانتقاء البذور والاسمدة

هذا الوطن العربى ، يضم بطاحا من الصحارى والسهول والجبال والاودية ، تحتاج جميعا الى دراسة وحصر وتقصى ، حتى نعلم ما تخفى من بترول وحديد ومنجنيز وفوسفات وذهب وفضة ، وما قد يكون تحت رمالها من مياه جوفية ، يمكن أن تستغل فى رى وزراعة ، هذه الثروات الدفينة فى ثرى الصحراء ورمالها ، وفى سفوح الجبال ونجادها ، تحتاج الى اخصائيين يجوبون تلك الفيافى بحثا عن منابع الثروة ، التى يسيل لها لعاب الغرب ، والتى لو أحسن استغلالها لأمدتنا بطاقات لا تنفد ، تزيد فى رخائنا ، وترفع مستوانا ، وترهب أعداءنا ، وانما يحتاج كل ذلك الى علم أصيل بطرائق البحث والاستنباط والاستغلال ، يحتاج الى بحث علمى منظم يقوم به اخصائيون دربوا على البحث ، وكلفوا به عن طواعية ورغبة ، يريدون به وجه الحق ووجه الوطن ، يضعون مصلحة الوطن العربى نصب أعينهم ، ويعلمون أن خلاصه ورقيه

هذه النهضة يجب أن يكون سياجها التخطيط العلمى لا لخمس سنوات أو عشر ، بل لخمسين سنة ، لنحقق ما يلزم لهذه الملايين من الطعام لتاكل ومن الماء لتشرب ، ومن الارض لتزرع ، ومن المدن والقرى لتسكن ، ومن المصانع لتصنع ، ومن السلاح لتقوى ، ومن المدارس لتتعلم ومن الجامعات لتخرج الاخصائيين ...

ورفاهيته انما هى أمانة فى أعناقهم، انما هى بيعة لا ينبغى أن يتحللوا منها أبدا ، انما هى ضريبة العلم للوطن ، ينبغى أن يؤديها العلماء خالصة لوجه الله والوطن ، لا يريدون بها عرضا من أعراض الدنيا ، من مال أو ثروة او جاه ، انما يكفى ان يضع العالم لبنة فى صرح الوطن العربى ، ليسمو شأنه ويعلو بناؤه

والوطن العربى ، يضم نحو مائة مليون من الانفس تتكاثر يوما بعد يوم وسنة بعد أخرى ، ويقدر العارفون ان هذا العدد سيتضاعف بعد حين، وقد يصبح سكانه مائتى مليون نسمة فى سنة ٢٠٠٠ ان لم يكن قبل ذلك ٠ هذه الملايين من أبناء الوطن العربى ، ماذا تأكل وكيف تأكل، كيف تعيش وأين تعيش، ماذا تصنع وكيف تصنع ، أين تسكن وكيف تسكن ، أين تتعلم وكيف تتعلم ، وكيف تنتقل ، وكيف تلبس وماذا تلبس ، كيف تحمى نفسها من اعدائها الذين يتربصون بها الدوائر، وكيف تسلح نفسها ضد الجهل والمرض وضد الفاقة والفقر ٠ أما أن الزيادة فى السكان تطرد يوما بعد آخر ، فهذه حقيقة لا شبهة فيها ، ونحن نرحب بهذه الزيادة ، فالوطن العربى فى حاجة الى مزيد من عقول أبنائه وسواعدهم ، يستنبطون ثرواته ، ويصنعونها، والوطن العربى لم يضق بعد بأبنائه ، فقد بسط الله لهم فى الرزق ولكنهم لم يحسنوا استغلاله واستنباطه ، ولو فعلوا لأغناهم من فقر ، ولعاشوا فى رفاهة يحسدهم عليها أهل الغرب الذين استعلوا بالعلم الذى نقلوه عنا فى سالف الايام وركضوا به ونحن فى غفلة من أمرنا

هذه النهضة يجب أن يكون سياجها التخطيط العلمى ، لا لخمس سنوات أو عشر ، بل لخمسين سنة ، لنحقق ما يلزم لهذه الملايين من الطعام لتأكل ، ومن الماء لتشرب ، ومن الارض لتزرع ، ومن المدن والقرى لتسكن ، ومن المصانع لتصنع ، ومن السلاح لتقوى ، ومن الطاقة لتدير الآلات والمصانع، ومن الكهرباء لتضىء ، ومن المدارس لتتعلم فى مختلف مراحل التعليم، ومن الجامعات لتخرج الاخصائيين من مهندسين وزراعيين وصيادلة واطباء وباحثين علميين من كيميائيين وطبيعيين ورياضيين ونباتيين وحيوانيين ، ومن دارسين للاحصاء والاقتصاد ومن مدرسين لمختلف المراحل

الهدف من التخطيط العلمى هو تعبئة الامكانيات والجهود وتوجيهها نحو غايات المجتمع وحاجاته وتطوره الاقتصادى ، ولرسم هذه الخطة يلزم

بطبيعة الحال تجميع البيانات عن العناصر الرئيسية ، ولا بد من أن تتضافر جهود العلماء والاخصائيين فى رسم الخطة

ينبغى أن نتعرف على المستوى العلمى للمشروعات العلمية والاقتصادية ، كمشروع السد العالى، ومنخفض القطارة ، ووادى الريان ، وغيرها من مشروعات مشابهة فى الوطن العربى ، ما هى البحوث الجارية بشأنها ، وما هى الاحصاءات اللازمة لها ، وما هى الامكانيات المعملية والبشرية التى تحتاجها ، وما هى الامكانيات العملية التى ينبغى أن تؤسس بها المعامل ودور البحث من كيماويات وأجهزة وأدوات ، ما هى النواحى التى تحتاج الى تدعيم ، كم من العلماء والباحثين والمساعدين تحتاجها هذه المشروعات ، أى أنواع التدريب والتأهيل تلزم لاعداد هؤلاء ، وهل يلزم ارسال البعوث الى الخارج ، أم تنشأ معاهد خاصة للتدريب والتأهيل، أم تتولى الجامعات بصورتها الراهنة هذا الاعداد

ان كل لون من ألوان المعرفة يحتاج الى دراسات استقصائية شاملة . فالعلوم الرياضية والطبيعية تحتاج الى دراسة وسائل التدريب والتأهيل فى تلك العلوم من فلك ورياضة وطبيعة أرضية وأرصاد جوية وإحصاء وتعداد ، والضوء والطيف والصوتيات والطبيعة الاشعاعية وبالمثل فى العلوم البيولوجية والزراعية ، لا بد من دراسة وسائل التأهيل وهل هى وافية بالغرض أم تحتاج الى تعديل، ينبغى دراسة المحاصيل من حقلية وبستانية وخضر وفاكهة ، والبان وأراض وصناعات زراعية وثروة مائية وأمراض نبات وآفات، وكذلك فى العلوم الطبية ، ما الذى يلزم من تعديل فى برامج التدريس ، وفى موضوعات الادوية والعقاقير والطب الوقائى وطب الصناعات والطب العلاجى وطب الاسنان وطب العيون والصحة العامة وبالمثل فى العلوم الهندسية من مدنية وانشائية ومعمارية وميكانيكية وكهربائية وحديد وصلب وسكك حديد وبترول، وفى الصناعات والتعدين ، فى الاسمدة والمفرقعات ، والاصباغ ، والورق ، والحرير الصناعى، وخامات الحديد والكبريت والزجاج والاسمدة والمبيدات والمطاط والتقطير والدباغة

لا بد من وضع خطة شاملة لحقبة طويلة ، تنفذ بالتدريج ، وتكون الخطة مرنة بحيث تقبل التعديل للاستفادة من التجربة ، ولا بد من تضافر جهود أولى الرأى والعزم حتى يتحقق الامل المنشود من حياة حرة كريمة لابناء الوطن العربى فى كافة ارجائه

سيكون الأزهر كعبة علماء الغرب

بقلم الشيخ منصور رجب

الاستاذ فى كلية اصول الدين

سيدرس الازهر سنة ٢٠٠٠ علومه بفكرة العصر لا بفكرة من سبقوه بجهودهم مشكورين . وسيحج اليه بعد جيلين من يريد التخصص فى علومه ، وستظهر المراة على مسرح التعليم فى الازهر ، وسيكون منهن واعظات مرشدات

لعلى اكون اقوى من الذرة ، وأسرع من الصاروخ ، حين امزق الزمن واخترق الحجب لارى الازهر فى سنة « ٢٠٠٠ »

ومن يدرى ؟ .. لعل « التطور » يهشم « الزمن » كما فتت الذرة ويطوى الوقت كما طوى المسافة ، يومئذ يصف مثلى لا بالحدس والتخمين بل بالعلم واليقين

وهل سيبلغ التطور المدى الذى يرفع عنا حجاب الزمن ؟ ... اما الغيب المطلق فذلك لربى وربك ، سبحانه ، له وحده ، لا يعلمه الا هو ، فهو وحده علام الغيوب ... واما لمثل هذه « الجزئيات » فمن يدرى ؟ لعل التطور يرفع عنى وعنك الحجاب ، ويزيل عن عينى وعينك الغشاوة .

ويومئذ نسأل الله السلامة من تقدم العلم فى يد الانسان فالعالم حتى الآن فى دور الطفولة وسيلعب بالنار حتى تحرقه ، وستحرقه وتحرقه قبل ان يبلغ رشده . وسيبلغ رشده يوم يستعمل عقله فلا يستعمل ما وصل اليه العلم الا فى الخير وفى الخير وحده لا يعمل الا للسلام وللسلام وحده

نحن فى « دهشة » مما وصل اليه العلم فلا تكذب مالا تصدقه لجواز ان يكون ، ونحن فى « خوف » مما وصل اليه العلم مادام فى ايدى الحمقى ومن يلعبون بالنار

فليس لى فى هذا الموضوع ـ الازهر فى سنة ٢٠٠٠ ـ ليس لى ان انظر اليه من ثقب « الامانى » فاننى اكن للأزهر كل خير ، وارجو له كل اكبار . انما ساقدم له بمقدمات من واقع الامر انتزع منها نتيجة اقدرها للأزهر فى سنة ٢٠٠٠

التطور امر واقع . والتطور لا غالب له . والتطور يسير سيره

شئنا أم لم نشأ ، اردنا ام لم نرد ، رضينا أم ام نرض . والتطور شرطه دائما أبدا أن يكون الى الامام والا كان تأخرا لا تطورا . واذا تأخر التطور فى سيره خطوة عوضها باثنتين ، بل قد يسرع احيانا بما يشبه الطفرة . والازهر كبقية كائنات العالم خاضع لقانون التطور لم يجمد فى تاريخه الطويل الذى جاوز الإلف سنة عدا ... لم يجمد على حال واحدة بل انتقل واستحال من حال الى حال

يقولون: التغيير ان لحق « الجوهر » كان فسادا . وان لحق « الكم » كان زيادة أو نقصانا وأن لحق « الكيف » كان استحالة . فلننظر أولا الى الازهر وكيف تطور من هذه النواحى الثلاث :

الازهر من ناحية « الجوهر » لم يتغير ، لم يتغير أصلا ولم يفسد أطلاقا فى هذا التاريخ الطويل العريض ، فلم نسمع أن الازهر انحرف فى تاريخه عن « التوحيد » ولم نسمع ان الازهر انحرف فى تاريخه فاختصر الصلوات الخمس او زاد عليها ، ولم نسمع ان الازهر فى تاريخه غير مكان الحج أو زمانه . وهكذا فى كل ما يمس جوهر الدين والشريعة

اما من ناحية « الكم » فنرى أن الازهر ابتدأ حياته بخمسة وثلاثين طالبا . والآن فيه ـ حسب احصائية ١٩٥٧ ـ ٣٦٠٠٠ طالب من ممالك الارض ودول العالم .. من ·

الصين . الفيلبين . الصومال . سيام .. الملايو .. مدغشقر .. اندونيسيا .. الهند .. باكستان .. الكاب .. جزر ملديف .. سيلان . التركستان .. السودان .. نيجيريا كينيا .. غانا .. ليبيا .. تونس . الجزائر .. مراكش .. يوغسلافيا . البانيا .. تركيا المانيا .. القوقاز .. طشقند . سنغافورة برما .. أوغندا الحبشة .. أرتريا .. بحيرة تشاد .. داغستان افغانستان .. ايران .. الى آخر من يؤمه من القارات

والازهر ابتدأ حياته العلمية بمدرس واحد فقط هو « على بن النعمان القاضي » وفيه الآن أكثر من « ١٥٠٠ مدرس » وابتدأ حياته يدرس الفقه ـ فقه الشيعة او كما يقولون فقه آل البيت ـ والآن يدرس علوم الدين والدنيا معا

اما من ناحية « الكيف » فسأصف العصر ، أو بعض العصر ، الذى عشت فيه بنفسي ورأيته بعيني .

ساصفه واسجله وصف انسان صادق

كان الازهر يضيق صدره بالفلسفة ، وفى سنة ١٩٤٦ اتسع صدره لاستاذ من اساتذة المادة يحاضر فى « الاله عند ارسطو » وهو كما كان يرى لم يخلق شيئا ولم يعلم شيئا أصلا الا ذاته والعالم منجذب اليه انجذاب « الابرة » للمغناطيس

فما معنى هذا ؟ ... معناه ان الازهر انتقل من حال الى حال كبقية كائنات العالم . ولكنه لم يفسد طبعا . ويسع صدره الآن « الفلسفة » بأوسع معانيها . فهو يناقش افكار « ارسطو » و « أفلاطون » و «ابيقور» و«كانت» و «فولتير» و «روسو» و «سبنسر» و « بنتام » الى آخر ما يدرس لرجال الفكر

كان الازهر يلقن طلابه ان علماء الدنيا لا يحترمون . فقد حضرت بنفسى مرة درسا على استاذ ــ توفى رحمه الله وكان عضوا فى جماعة كبار العلماء ــ وكان يشرح حديثا نبويا شريفا فى باب عنوانه : « احترام العلماء » فاخذ يخرج الالف واللام فى كلمة « العلماء »

وانتهى بالشيخ المطاف الى ان الالف واللام «هنا» للعهدوالمعهودرهم « علماء الدين » فسالته ـ ويذكر ذلك جيدا بعض اخوانى ــ سالته : يا مولانا . ما رايك فى القانونى الضليع ... والمهندس الكبير ... فقال : عالم ولكنه لا يحترم .. ولما عارضته بمن افادوا الانسانية مثل « اديسون » و « غليليو » ثارت ثائرته على ! وكانت حكاية ، رحمة الله عليه) هذا الفكر اختفى الآن من الازهر

كان الازهر يرى ان الالعاب الرياضية حدث لا يرتكبه طالب علم ، حتى اننى وبعض اخوانى شرعنا فى ناد نزاول فيه بعض العاب الرياضة فاستدعانا شيخ القسم يومئذ ــ عليه رحمة الله ــ واخذعلينا تعهدا بالاقلاع عن هذه الفكرة والا نزل بنا ما لا تحمد عقباه . والالعاب الرياضية الآن فى الازهر حصة رسمية يشرف عليها شيخ الازهر

واخيرا كان الازهر يضرب بينه وبين اللغات الاجنبية حجابا. والآن مزق هذا الحجاب ، ودرست اللغات فى بعض الكليات . ففى كلية اصول الدين تدرس « الانجليزية » و « الفرنسية » و « الايرانية » من سنوات ودخلت اللغات المعاهد هذا العام الدراسى ــ ١٩٥٨ ــ ١٩٥٩ ــ دخلت حصة رسمية فيها غياب وحضور ونجاح ورسوب . ودخول اللغات الاجنبية الازهر ستجعله على اتصال دائم بالفكر العالمى وبتطوراته . وبهذه المناسبة اقول : فى كتابى الازهر بين الماضى والحاضر اقترحت ان ندرس للطلاب اللغات الاجنبية



سيحافظ الازهر على جوهره كما حافظ عليه فى تاريخه الطويل

ابتداء من السنة الاولى الثانوية ... كان هذا فى سنة ١٩٤٦ ، وقد اخذ به الآن سنة ١٩٥٨

▱

نعود الى الموضوع من ناحية اخرى

احصائية حصر الكفايات التى أجرتها الحكومة من سنتين تقريبا تقول : « ان البلاد استوفت حاجتها من خريجى الكليات النظرية منذ عامين بينما هى فى حاجة الى « ١٠٠٠٠ » على الاقل من الكليات العملية فى خلال ثلاث سنوات » واذا اخذنا فى اعتبارنا بجوار هذا حركة « التصنيع » القائمة على اشدها الآن فى البلاد وما سيترتب على انشاء السد العالى من نمو فى هذه الحركة واخذنا فى اعتبارنا أيضا ان « المعدة » هى التى تحكم العالم فى هذا العصر « المادى » اذا نظرنا الى هذا ، فاننا نستطيع أن نقول ان الازهر فى سنة ٢٠٠٠ – ان سلمت الدنيا من ايدى الحمقى بالقنبلة الذرية – سوف لايكون فيه هذا العدد الضخم ٣٦٠٠٠ طالب . أو بعبارة اخرى سيعنى الازهر أكثر مايعنى بمسألة « الكيف » لا بمسألة « الكم » كما يندفع الآن

سيحافظ الازهر على جوهره كما

حافظ عليه فى تاريخه الطويل بل اقوى فالاستعمار قد انهار، الاستعمار الذى كان يعتبر الاسلام اخطر عليه من الشيوعيه ... سيقوى الازهر بالقومية العربيـة . فالوحـدة والاتحاد ، والتضامن قوة ... وما الوحدة والاتحـاد والتضـامن الا بالايمان بالله وبالقيم الاخلاقيـة العليا . وهل فى جوهر الدين اكثر من هـذا ؟ وهـل رساله الازهر الا رسالة دينية خلقية اولا وقبـل كل شىء ؟

سيدرس الازهر علومه بفكرة العصر لا بفكرة من سبقونا بجهودهم مشكورين ، وسيعدل الازهر رايه فى كثير من المشاكل الاجتماعيـة على ضوء المصلحة ، فيعنى برايه هو فى عصره هو اكثر مما يعنى براى السلف الصالح رضوان الله عليهم اجمعين

سيعنى الازهر بدراسة جغرافيه وتاريخ البلاد العربيـة ، كظاهرة ضرورية لقيام القومية العربيـة . وارجو ان يصبح الازهر بعد جيلين تقريبا كعبة يحج اليهـا من يريد التخصص فى علومه من رجال الغرب وبخاصة فى تاريخ الاسلام

ستظهر المراة على مسرح التعليم فى الازهر وسيكون منهن واعظـات مرشدات للاسر فى البيوت وفى غير البيوت

ستختفى ابواب من كتب الفقه او من المقررات فى تدريس الفقـه مثل باب « الاستنجاء » « التيمم » « الرق » فسيرى العقل امتهانا له ان يعلم كيف ينظف نفسه . وكيف يحد وجهه طولا وعرضا ، ومتى يعفر وجهه بالتراب

ستختفى « العمامه » وسيحل محلها « الروب » الجامعى فى المناسبات سختفى كما اختفى الطربوش المغربى و « اللفه الكبيرة » و « الفرجية » ذات الاكمام الواسعة ، الطويلة الفضفاضه وكما اختفى « المزكوب الاحمر » والشال الكشمير والذقن الطويلة . وقد لا تكون العمامة الا لطائفه خاصة من كبـار العلمـاء المتخصصين فى علوم الدين

سيغزو « الموسيقى » الازهر كما غزته « كرة القدم » و « المـدفع الرشاش » وسوف لا يرى شيخ الازهـر حـرجا من ان يعـزف « سمفونية بتهوفن » فقد سبق لاستاذهم الاكبر ان اطلق البندقية فى رحاب الكلية . وايهما اشـد اثرا فى تهـذيب النفس وترقيـق العاطفـة ؟ ... لا ادرى الا ان احـداهما سلام والاخرى حرب ، واحداهما تصعد بك الى السمـاء والاخرى تهبط بك الى الارض

سيكون للازهر مجمع علمى او هيئة علمية ، تضم جميع المـذاهب الاسلامية فى العالم الاسـلامى ، وسيخطو اوسع خطوة فى التقريب بين المذاهب ، وستفتح كليـات اخرى فى الازهر بجوار كلياته هذه

واذا كان لى ان آخذ من هـذه الكلمة منفسا فانى لارجو من ولاة الامور ان يضاعفوا عنايتهم بالازهر

● يناير ١٩٥٩ ●

قصة اكتشاف فى سنة ٢٠٠٠

السنبلة الذرية

بقلم الاستاذ محمد فريد أبو حديد

يناير سنة ٢٠٠٠ ـ لم يعد سر السنبلة الذرية مجهولا لأحد منذ الامس ، لا فى هذا العالم العربى وحده بل فى العالم كله فقد طير البرق أنباءها الى كل ركن فى الارض وجلس مئات الملايين من البشر ، ان لم نقل آلاف الملايين ، حول أجهزة الاذاعة ليستمعوا الى الحديث الذى يبشر بالرخاء الشامل ، والسلام الكامل ، فقد زال شبح المجاعة من العالم !

منذ الامس عرف العالم كله ، ان عصر القنبلة الذرية قد انتهى الى غير رجعة ، وأن عصر السنبلة الذرية قد بدأ للعالم تاريخا جديدا ، يزول فيه وباء الجوع والخوف ، وتنقشع فيه مخاوف الدمار ٠ ولكن القصة الطريفة التى تنطوى وراء هذا الحادث العظيم لم تنشر بعد ، وهى قصة تكشف لنا جانبا من المغامرات الانسانية التى يقوم بها العلماء فى صمت وتواضع ، مع أنها أكثر امتاعا من مغامرات جوابى المحيطات المجهولة

□

وقد بدأت القصة منذ خمس سنوات ٠٠٠

كان الدكتور ميهوب يمر فى حقل التجارب الملحق بكلية الزراعة بجامعة طرابلس الغرب ، فى يوم من أيام الخريف ، أو على وجه التحقيق فى اليوم الخامس عشر من شهر ديسمبر سنة ١٩٩٥ ٠ ووقعت عينه فجأة على بقعة صفراء على حافة الحقل ، خيل اليه أنها لم تنل حظها من الرى ، أو أن العمال أهملوا تعهدها

كانت فى وسط الحقل الاخضر اليانع أشبه بالرقعة القبيحة فى ثوب من الدمقس ٠ فوقف ينظر نحوها فى اشفاق كأنه يرى طفلا هزيلا أهملت أمه تغذيته ٠ ومال على أحد الاعواد فى رفق كأنه يربت عليه ، فاذا هو يرى منظرا لم تقع عينه على مثله من قبل ٠٠٠ كان ذلك العود ناضجا تعلوه سنبلة سمينة صفراء كالذهب وهالته المفاجأة ، فأسرع يقتطف سنبلة بعد أخرى ، فكانت

كلها ناضجة وافية بديعة ! وكانت أنفاسه تتلاحق وهو يفركها بين يديه، ويرى الحبوب تخرج منها كأنها حبات تناثرت من عقد لؤلؤ ، ذات لون صاف يشع ببريق مبهج · وداخله الشك فى أن عينيه تسخران منه أو أنه يرى منظرا فى حلم ، وجعل يحدث نفسه بصوت عال ليتحقق من أنه فى يقظة · فمتى نضجت ؟ أى سر ينطوى وراء هذه السنابل الذهبية وحبوبها اللؤلؤية ؟

□

اخذ يجمع السنابل واحدة بعد واحدة ويضعها بعناية فى جانب الحقل ، ثم حملها معه الى معمله ، وجعلها شغله الشاغل فى الاشهر التالية · حلل مادتها ، واستخرج منها كل مايمكن استخراجه · وصنع الخبز ، وصنوف الفطائر ، فكان كل ذلك آية فى الغنى والغزارة، فلو أمكن تنمية هذه الحبوب اللؤلؤية لكفلت للعالم محصولا من القمح العجيب فى شهرين · ثلاثة محصولات بدلا من محصول واحد كل عام ! وهكذا يزول شبح المجاعة من العالم !

□

وانتظر الدكتور ميهوب حتى حل موسم الزراعة فى الخريف التالى فزرع تلك الحبوب فى أخصب قطعة من حقل التجارب ، وتعهد نباتها كما تتعهد الام الرءوم طفلها الوحيد،



كل يوم يتأمل الاعواد ليرى كم ورقة جديدة ظهرت فى كل عود منها ، وماذا بلغت من الزيادة فى الطول والنضارة · ومر شهر ، ثم آخر وثالث ، حتى أتى موسم الحصاد وانهارت آماله شيئا بعد شىء ، حتى جمع المحصول ···وكان قمحا عاديا مما عرفه الناس منذ آلاف السنين

ولسنا نجد فى وصف شعور الدكتور ميهوب أبلغ من قوله اذ قال :

«شعرت كأننى أحد الباحثين القدماء فى الكيمياء لاستخراج الذهب من المعادن الخسيسة . فوجدت بعد طول الكد والامل أن المعدن الذى حصلت عليه انما نحاس»

وحملته الخيبة والحيرة على أن يفسر

وجود تلك السنابل الدرية الساخرة بأنها كانت فلتة من فلتات الطبيعة التي ما زالت تهزأ من جهل البشر

ولكنه سرعان ما عاد الى عقيدته العلمية فى أن الطبيعة لا تعرف السخرية • واستمر يجرب ويبحث بوسائل شتى ، وفى ظروف مختلفة، وكان فى كل مرة يتجرع مرارة الخيبة بعد الانتظار والامل

□

ثم كانت المفاجأة مرة أخرى بعد ثلاث سنوات ، فى خريف سنة ١٩٩٨ ، عندما كان الدكتور ميهوب يتجول في الحقل عينه • كان الوقت مساء ، وكانت أشعة من النور تنبعث من بعيد من معمل البحوث الطبيعية فى المبنى القديم الذى ورثته ليبيا، بعد نزوح الامريكان من مطار الملاحة بقرب مدينة طرابلس الغرب • وكان القمر يسطع • بانواره على الحقل الصغير، فيخلع عليه جوا من الغموض الذى يحيط بمسارح الارواح • وظهرت له فى حافة الحقل تلك الاعواد الصفراء التى تشبه الذهب فى وسط البساط السندسى ، وكانت السنابل الناضجة تميل من ثقلها وتهتز فى بطء تحت نسيم البحر الفاتر

وملك الدكتور ميهوب أنفاسه المترددة ، وأسرع فى ابتهاج ليقتطف سنبلة • وسأل نفسه أتكون تلك مداعبة ثقيلة أخرى من الاوهام ؟ أم هو حلم مكرر يعاوده بين حين وآخر؟ حلم تصوره له الاماني التى تملأ ذهنه ؟ وأخذ يجمع السنابل ويفركها فى غبطة ، ويتأمل حباتها اللؤلؤية • ثم تلفت حوله لعله يرى أحدا يشاركه فى موقفه حتى يتحقق انه فى يقظة • ولمعت له عند ذلك فى جانب الحقل قناة حديثة عهد بالماء ، وهى تتعرج وراء الحقل متجهة نحو معمل الطبيعة، فاندفع يسير نحوها وليس فى ذهنه غاية محددة، وسار بحذائها لا يلتفت الى شيء مما حوله • واعترضه سور من الاسلاك الشائكة ، ولكنه اقتحمه، واستمر فى سيره غير مبال بالنظر الى سترته التى تمزقت • وانتهى به السير الى جانب المعمل ، حيث كانت انبوبة صغيرة تصب خيطا ضئيلا من الماء • وفكر فى نفسه : أيكون لهذا الخيط الصغير من الماء علاقة بالسنابل الذهبية ؟ ولم لا ؟

□

واقترب ميهوب من نافذة المعمل وهو يعيد فى سره سؤاله الحائر : « أيكون لهذه القناة الصغيرة علاقة بالسر المجهول » ؟

وفى هذه اللحظة سمع صوت زميله الدكتور عزمى يصيح به من داخل المعمل: « ماذا جاء بك الى هنا؟ الم تر هذه اللافتة؟» فنظر ميهوب الى لافتة كبيرة تواجهه ، وكانت مكتوبة بخط كبير ، ومن فوقها مصباح قوى لاضاءتها ، وقرأ :

« خطر •• لا تقترب من النافذة ، فدار ميهوب الى الناحية الاخرى ،



وملك الدكتور ميهوب أنفاسه المترددة ، وأسرع فى ابتهاج ليقتطف سنبلة

ودخل الى زميله قائلا فى لهفـــة : « ما هذا ؟ »

وأشار الى الجهاز الذى أمامه ،والى حوض الماء الذى تخرج منه الانبوبة الصغيرة

فقال عزمى هادئا : «جهـــاز عبدون ، أعرفته ؟ »

فتبسم ميهوب وقال : « أشـــعة الموت ، أليس كذلك ؟ »

فقـــال عـــزمى : « بل أشـــعة اللغز ، لاندرى بعد ماهى • ولهذا نحترس • فقد تكون أشعة الموت حقا » ،

وتحرك لينحنى على الجهـــاز الذى أمامه

فجـذبه الدكتور ميهوب من يده قائلا : « أرجو أن تشـــاركنى فى لغز آخر • أحب أن تقول لى :

« هل أنا فى يقظة أم فى حلم ؟ »

ولم ينتظر منه جوابا ، بل سار به متجها نحو حقل التجربة • وسارا يتبعان تعاريج القناة ، ومرا من سور الاسلاك الشائكة خـلال باب فتحه الدكتور عزمى • ولما وصلا الى البقعة الصفراء ، وقف ميهوب قائلا : «قل

لى بالحق ماذا ترى ؟

فضحك عزمى وقال : « أهى السنبلة الدرية أيضا ؟ أهى الشبح الساخر مرة أخرى ؟ »

فقال ميهوب : « اذن فلست فى حلم »

وساد الصمت قليلا ثم مضى ميهوب قائلا : « ألا ترى أن هناك علاقة بين هذه السنابل وبين الماء الذى تصبه من معملك ؟ »

فقال عزمى بعد صمت قصير : « بدأت تعدينى يا صديقى ، سأعيد تجاربى واحدة بعد واحدة ، حتى أعرف أيها كان ينطوى على المعجزة. أظن أن سرا هائلا يطل علينا »

□

ومنذ تلك الليلة صار اهتمام الدكتور عزمى بالسنابل الدرية أشد من اهتمام ميهوب نفسه ، حتى أصبح غرامه بحقل التجارب موضع تندر الزملاء جميعا . فالسنبلة الدرية تحول عالم الطبيعة الى عالم زراعة . وما كاديبدأ موسم الزراعة من العام ذى التسعات الثلاث (١٩٩٩) حتى عكف الدكتور عزمى على اجراء تجاربه فى لهفة

وشعر الدكتور ميهوب بأن المسئولية خفت قليلا عن عاتقه بمشاركة زميله فيها ، فقام فى رحلة الى أطراف ليبيا ليتعهد المشروعات العلمية المختلفة التى يشرف عليها من قبل اللجنة العربية للبحوث العلمية، وهى المعروفة باسم (ل٠ع٠ل٠ع) فقضى أسبوعا فى أرجاء « فزان الفيحاء » حيث كان معهد الدراسات الصحراوية يحول محيط الرمال الى فردوس من الجنان . ثم سافر الى اقليم الجبل الاخضر ، ليقضى أياما عند ساحل طبرق الزاهرة، أكبر قاعدة للاسطول العربى التجارى فى أواسط البحر الابيض المتوسط ، والمنتزه الباهر للرياضة البحرية التى كان الدكتور ميهوب مشغوفا بها

وكانت سماء الخريف فى ذلك الوقت صافية لا تكاد تسبح فيها سحابة ، مع أن شهر ديسمبر كان يقترب من كهولته

وكانت أشعة الشمس تنعكس على صفحة البحر الساكنة التى تشبه المرآة البللورية

كانت زرقة البحر مثل لون اللازورد عندما يقع عليه نور الفجر ... زرقة لا نجد لها وصفا فى الالفاظ المعروفة ، ولا يدرك حقيقتها الا من وقعت عينه على السواحل الساحرة الممتدة من مرسى مطروح الى طبرق . كان كل شىء على ذلك الساحل يوحى بالسلام والبهجة ، والنسيم الرفيق «يوشوش» فى هدوء خلال أوراق الاشجار الباسمة المحيطة بالطريق الاعظم ـ ذلك الطريق الذى يصل الموصل العراقية بالرباط

المغربية . غير أن صورة السنبلة الدرية كانت برغم هذا كله تعاود الدكتور ميهوب في الصباح والمساء، بل كانت تعاوده في أحلامه فيرى كأنه يسير في حقل التجارب بالملاحة، فتلوح له بقعة صفراء ذهبية في حافة البساط الاخضر الزبرجدى ، وفى لحظة تختفى من تحت عينيه

▭

وكان فى يوم من الايام يجول بين بساتين الجبل الاخضر وحقوله التى تمتد الى مدى البصر . وسارت به العربة نحو درنة الباسمة وكانت أشجار الفواكه والزيتون تجرى عن يمينه وشماله فى صفوف طويلة طويلة ، يبدو كل صف منها فى لحظة ثم ينطوى ليبدو بعده صف آخر مثله . وكانت المراعى المزدهرة تنداح تحت عينيه كلما اعتلت سيارته ربوة من الربى المتتالية ، وقد تخللتها (الدارات) البيضاء ، وانتشرت بينها قطعان الغنم الشهباء . ولكن نسيم الخريف ، وبهجة المنظر البديع ، وصفاء السماء ، لم تذهب من قلبه شعور القلق والتساؤل . ولما بلغ فى مسيره مدينة درنة العروس، وجد فى انتظاره رسالة من زميله عزمى يدعوه الى العودة . أيدعوه لشىء آخر غير بشرى نجاح تجاربه ؟

وقد وصف الدكتور ميهوب شعوره عند ذلك فقال : « شعرت بموجة كهربائية تنطلق من أعماقى وتزدحم فى حلقى » وبادر الى المطار لعله يجد مكانا فى الطائرة الصغيرة النفاثة التى لا تتسع لأكثر من مائة راكب . وكان من حسن حظه أن وجد فيها مكانا ، وكانت الساعة السادسة مساء

ولما وصل الى مطار الملاحة، كانت الساعة قد جاوزت السابعة ، فأسرع الى معمل صديقه الدكتور عزمى ، متعمدا ان يمر فى طريقه بحقل التجربة المرقوبة . وكان يحس بأن شيئا ينتظره

وهنا نقف قليلا لنتخير الالفاظ التى يمكن أن نصف بها شعور الدكتور ميهوب عندما وقعت عينه على المنظر الذى كان يلهج بانتظاره، ولست اجد خيرا من وصفه لنفسه اذ قال : « ان السعادة انفجرت فى قلبى» وأسرع فى لهفة الى المعمل ليرى صديقه ، وكان عند ذلك يستعد لمغادرة معمله . فلما رأى زميله مقبلا عرف من ملامح وجهه ، ومن سرعة خطواته ، ماذا يريد . ففتح له ذراعيه وتلقى قبلته الحارة على عاتقه

وقال عزمى فى هدوء : « الآن يمكنك ان تستقبل العام الجديد مطمئنا، فاجاب ميهوب فى صوت متهدج : « بل يمكنك أنت أن تستقبل هذا العام الجديد »

● يناير ١٩٥٩ ●

في سنة ٢٠٠٠؟

سيتحقق الحلم الذهبي
فنسمع عبده الحامولي وسلامة حجازي

بقلم الدكتور محمود أحمد الحفني

بعد اربعين سنة ستكبر وتعظم الموسيقى في تعدد آلاتها وتنوع اجهزتها ... وسيؤدى المغنى مع فرقته باقة من الألحان ، تجمع بين ما هو غربي وما هو شرقي. وقد يتحقق الحلم الذهبي باستعادة اصوات المطربين والمطربات السابقين .. !

ان الحوادث المعاصرة تجرى بسرعة تخالف معتاد سيرها : فهى سرعة الضوء وسرعة الصوت وسرعة ماهو اشد منهما ، من القوى المعروفة والمجهولة . لقد كانت الحوادث فيما مضى تسير بخطى الابل فى مسالك ليلها ونهارها . وكان يسيرا على المرء ان يستنبط اللاحق من السابق، والا يشق عليه ادراك ما يكون فى نهاية المرحلة بالنسبة لما تبينه فى بدايتها

كانت العصور القديمة ، والقرون الوسطى حتى أوائل العصر الحديث، تواصل رحلتها الزمنية متشابهة الصور متقاربة التفكير والمناهج . وكان التطور قائما وموجودا بالفعل، الا انه كان يتنقل بتلك الخطى الوئيدة وتلك السرعة المحدودة التى تسير بها قافلة الزمن فى تلك العصور ، الى ان فوجئنا فى عصر العلم والاختراع بتطورات بدلت من طبائع الامور ، وقلبت الاوضاع راسا على عقب . فلم يعد شيء مما نعيش به فى حاضرنا يشبه ماكان يراه اجدادنا فى ماضيهم ، اللهم الا فى القليل النادر وفى أصول الاشياء وعناصر الموجودات

كان يعتقد فى أواخر القرن الماضى ان العلوم والمخترعات قد بلغت القمة التى لا صعود بعدها ولا ارتفاع . وسجلت بعض المجامع العلمية فى ذلك الوقت ان الانسان لن يرى من العلم مزيدا ، ولن يبلغ غاية أخرى من المعرفة وراء الغاية التى انتهى اليها . فاذا بالقرن العشرين يفاجيء تلك المجامع نفسها بعصر الطيران وتسجيل الصوت واشرطة الخيالة . ولم ينقض النصف الاول من هذا القرن حتى كانت القدرة البشرية قد

وصلت الى تفتيت الذرة ، ثم الى محاولة الصعود الى طبقات الجو واختراق حجب الاثير ومزاحمة الكواكب فى مداراتها . ونحن فى كل يوم نفاجأ بالجديد أثر الجديد مما يثير دهشة العقل وحيرته أمام سرعة التطور والاكتشاف فى قوى الطبيعة

فى زحام هذه الموجات من زحف المدنية الجارف ، نمد ابصارنا عبر السنين ، لنستمع الى حفل موسيقى شائق فى القاهرة، قلب العروبة ومشرق وحدتها ونهضتها ، يقام عام الفين ميلادية . وسيروعنا ويبهجنا أن أحدا لن يكبد نفسه عناء الانتقال الى شهود هذا العرض التمثيلى الغنائى . ولن تتجشم الاسرة صغارها وكبارها مشقة المسير الى أمكنة العرض المسرحى أو السينمائى والعودة منها فى منتصف الليل . ولكن هذه المعارض الفنية ستنتقل بمناظرها واضوائها ، وبموسيقاها وغنائها ، وبسحرها وروعة ابداعها الى كل مواطن حيث يكون : فى المدينة العامرة ، او القرية الصانعة الزارعة ، او الصحراء المنتجة ، بمنزله حيث يقيم ، وفى سفره حيث ينجه ، فى عربات القطار او السيارة او الطائرة

أو الباخرة ، وقد توفرت له فيها جميعا أجهزة الراديو والتليفزيون فى أحدث ما انتهى اليه التجديد ووصل اليه الابتكار ، وأصبحت اشكالها متفاوتة متنوعة قد يبلغ حجمها ساعة الجيب ، وهى تؤدى لصاحبها رسالتها الفنية كاملة . تجمع له بين ما يستمتع برؤيته من المشاهد والحوادث وما يطرب له من الالحان والانغام الشائقة !

أما المكان الذى تقدم منه كل هذه العروض فلم يعد مسرحا عاديا من النوع الذى نألفه اليوم، والذى يتسع للالوف من المشاهدين الذين يطالبون الفنانين بأن يستنفدوا الطاقة فى اجهاد الحناجر ورفع الاصوات . لم يعد هذا المسرح مكانا معدا لاستقبال الجماهير ، بل اصبح مجرد ستوديو رحيب قد استوفى جميع الاجهزة الخاصة بتسجيل الاصوات والمناظر . ذلك لان الالوف والملايين المتدفقة من الاموال تدفق الماء فوق رءوس أولئك الفنانين قد جعلتهم رهينة التسجيل والتسجيل وحده ، لانه يعد لهم المبالغ الضخمة فى مقابل جهد هين ، يتكرر فيه الاجر الباهظ والثمن الغالى ولايتكرر فيه العمل . فأصبحت أصواتهم كأصوات أرباب الاقطاع واصحاب الالتزام فى القرن الماضى ، لا تكاد





سيتحقق الحلم الذهبي باستعادة اصوات السابقين واذ ذاك يستمع الناس من جديد الى عبده

تسمع منها الا النبرات الخافتة والهمسات الناعمة والحروف التي تنقلب الى انات والكلمات التي تتحول الى تأوهات . وليطل الله في عمر الميكروفون ، الذي يخلق من الحبة قبة ، ويجعل من خفوت الانفاس جلجلة وضجيجا . ورحم الله أولئك الفنانين القدامى الذين فاتهم عصر التسجيل والترف ، والذين كان يعنيهم أن تكون ثروتهم في حناجرهم لافي جيوبهم ، فكانت لهم ، والحق يقال ، أصوات قوية ، يموج بها الليل ، ويدوى بها السحر ، وتنطلق بها اشعة الفجر الاولى ، فتوقظ النائمين او تسعد الساهرين

على انه حين نحتفل بعد اربعين عاما بمثل هذا العرض الشائق ؛ سيفوز الادب السامى الرفيع بترديده ، حيث يجد من الموسيقى بعثا وحياة لم نعهدهما من قبل . وسيجد الشعر الوصفي التعبيري مكانه في الغناء القويم ؛ الخالى من الاعادة والتكرار . حيث يرتفع مستوى الثقافة الفنية . وحيث تدفع السرعة بعواملها ركب الموسيقى الى الاقتصاد في الزمن . كما ان مقطوعات غنائية كثيرة ستتحرر من قيود العروض والقافية . ولكانى بالحرية والانطلاق من القيود قد امتدا الى كل شيء ، حتى الى تفاعيل الشعر ؛ فانتقلت به الى الشعر المنثور او النثر المنظوم

وسيسير العالم قدما في مدنيته الى المظهر الاخاذ . ان الفرقة





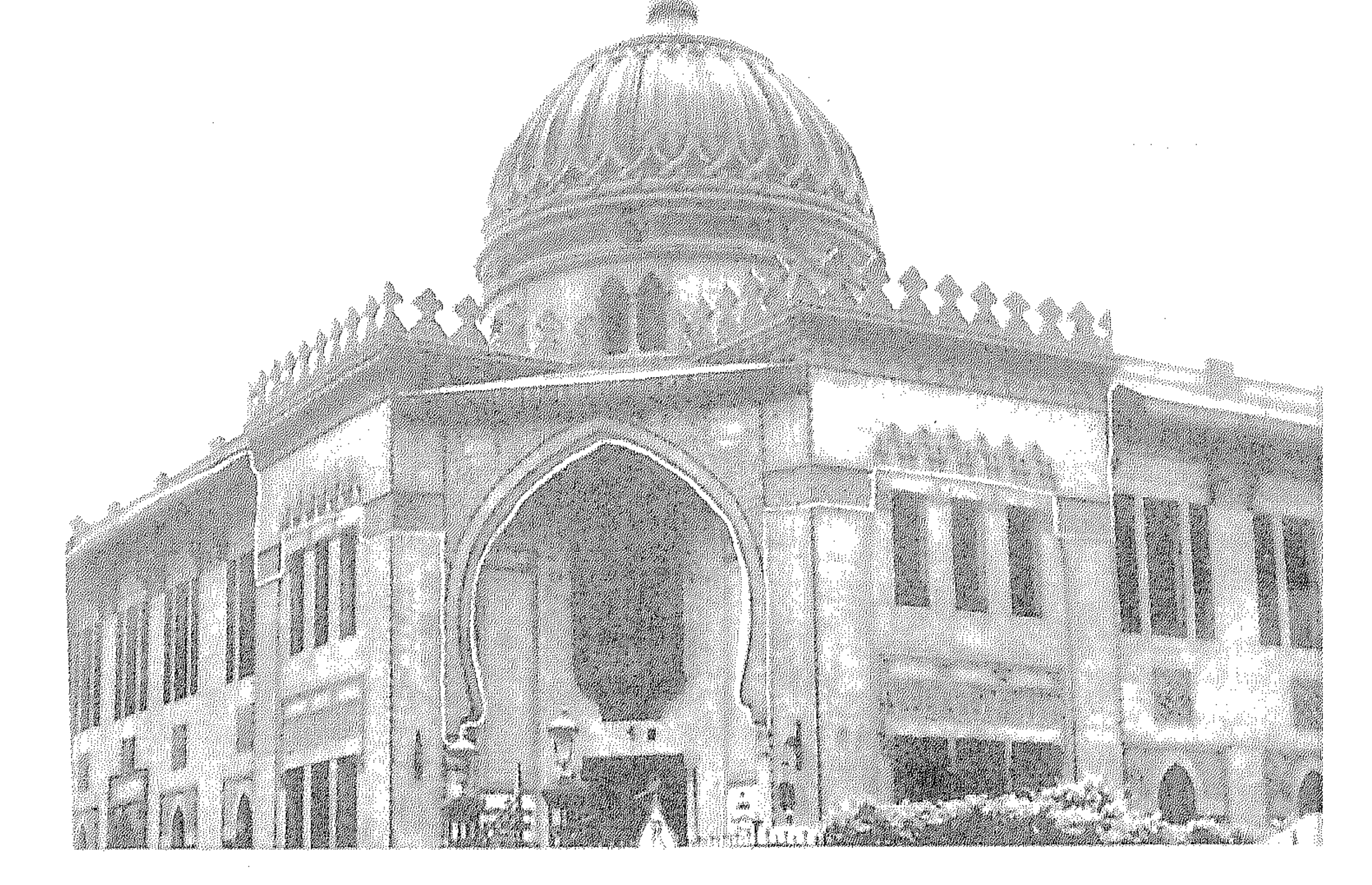
الحامولى والمظ والى اصوات الشيخ سلامة حجازى والموسيقار سيد درويش ..

الموسيقية التى تصاحب الفنان لن تكون محدودة العدد بهذا الجهاز التقليدى المتعارف عليه بالتخت . ولكنها ستعظم وتكبر فى تعدد آلاتها ، وتنوع أجهزتها ، ووفرة ثرائها من آلات النفخ الخشبية والنحاسية ، والوترية المختلفة ، والايقاعية المتنوعة ، الصنجية منها وغير الصنجية . وسيؤدى المغنى مع فرقته باقة من الالحان تجمع بين ماهو غربى بحت ، وماهو عربى او شرقى متطور ، وماهو مزاج من تلك الالوان كلها مؤتلفة . مما يدل على ان الطبيعة قد اجرت سنتها على الفنون ، وبخاصة الموسيقى ؛ وهى مرآة الشعب ، واداة تعبيره عن عواطفه وامانيه . وهكذا يمضى الزمن ، وتمضى القافلة مع سرعتها الدائبة ، غير مبالية بغطيط النائمين، وركود المتخلفين ، وقد كان عليهم ان يجدهم الزمان فى مضيه والا تفقدهم القافلة فى سرعتها

اما آلات « التخت » من عود وقانون وناى ودف ، فستنصرف عن هذه الزحمة ، وتعيش مع الاغانى الشعبية متجاوبة معها ، مقيمة فى احيائها ، جوابة مع الهواة لقضاء السهرات العائلية ، ومجالس الطرب المنزلية

▭

وما يدرينا فلعل الحلم الذهبى يتحقق ، ذلك الحلم الذى كان ومابزال يساور جمهرة من العلماء . فى استعادة أصوات السابقين باغنياتهم وموسيقاهم التى لا تزال مودعة طى



معهد الموسيقى الشرقية الحالى فى القاهرة

الاثير ، عبر الاجيال المتعاقبة ، والمدنيات المتوالية . والعصور التى اختلفت عليها الاذواق والفنون

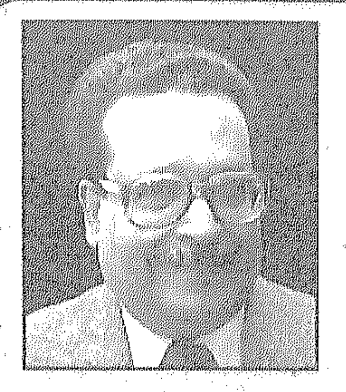
واذ ذاك يستمع الناس من جديد الى معبد ، والغريض ، وحبابة ، وسلامة ، من نجوم العصر الاموى ، وابراهيم الموصلى وابنه اسحق ، وعلية ، ودنانير ، فى العصر العباسى ، وزرياب ، وولادة ، فى الاندلس ، حتى نصل الى عبده الحامولى ، والمز ، ومحمد عثمان ، فى اغنيات لم تدون ، واصوات لم تسجل ، وموسيقى تزيد الثروة ازدهارا ، والطاقة الفنية خلقا وابتكارا

اما الفن العربى التقليدى ، فسيجد خلوده وثباته على الزمن فى حناجر المرتلين لكتاب الله ، وفى افواه المنشدين لقصص المولد النبوى ، بعد ان تعاد صياغتها ، ويمتد اليها جمال اللحن المناسب ، الذى يجمع بين الطرافة والوقار

وسيشهد هذا البعث الكبير ويتمتع بأصدائه من سيمتد بهم العمر الى مطلع القرن الجديد ، حين نستقبل اصداء الاغانى السحرية ، والالحان الحلوة القوية ، من سكان الكواكب ، وقد استطاع الانسان الصعود اليها ، واستطاع اهلها الوصول الينا ، والاتصال والتجاوب معنا

واذ ذاك يصبح كل شىء فى خدمة السلام ، واسعاد الانسانية

الكلمة الأخيرة





الإنترنت : رسالة لم تصل

بقلم : جميل عطية ابراهيم

من يود الحصول على صندوق بريد خاص فى دولة نامية فى هذا الزمن تصادفه عقبات لا حصر لها، منها لماذا؟ كما أنه قد يخضع لترتيبات تتعلق بأحواله الضريبية، وصلاته الخارجية، فالبريد كله معلومات وليس عبارات عاطفية فقط، والعين الساهرة لها الجنة. والحكومات لا تنعس أو تنام أو هكذا يفترض فيها .

افرحى يا أمى !!

أصبحت امتلك ثلاثة عناوين خاصة على شبكة الانترنت قبل العبور الى القرن الجديد، بدلا من المشاكل التى يسببها صندوق البريد الخاص. تصلنى رسائل من كل من هب ودب فى أرجاء المعمورة، وأبعث برسائلى فى اقل من ثانية بدلا من الحاجة الى صندوق بريد او انتظار ساعى بريد .

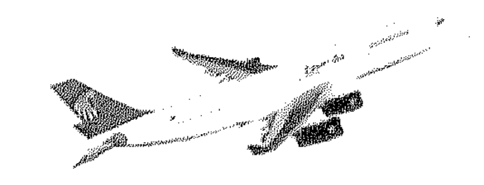
البريد الاليكترونى على الانترنت هو البنورة المسحورة التى حدثتنا عنها شهرزاد فاتنة الزمان، وعيبه الوحيد أنه لا يتحدث العربية حتى الآن، والسؤال من فتح القمقم، شهرزاد فاتنة الزمان أم شهريار المجنون؟ نحن أهل وأحبة شهرزاد فى الشرق أم هم فى الغرب؟ القصد، البريد الاليكترونى ينقل العربية مكتوبة بالحروف اللاتينية ولا يفهمها. وفى الشهر الفائت أرسلت رسالة بالبريد الاليكترونى باللغة الانجليزية الى ابنة صديق عزيز حصلت على شهادة الدكتوراه من جامعة أمريكية تقع على الحدود بين كندا والولايات المتحدة. كتبت الرسالة باللغة الانجليزية وفقا للأصول، ووضعت لها عنوانا بالعربية : ألف مبروك .

وهل توجد تهنئة أجمل من قول ألف مبروك؟ ..كلا.

بعد يومين بالتمام والكمال وصلتنى رسالة من مدير الجامعة يخطرنى فيها بأن رسالتى ألف مبروك لم تسلم الى صاحبتها بسبب عدم الاستدلال على عنوانها وكذلك رسالة أخرى من المسئول عن شئون البريد الاليكترونى بالجامعة يخطرنى بنفس المعنى.

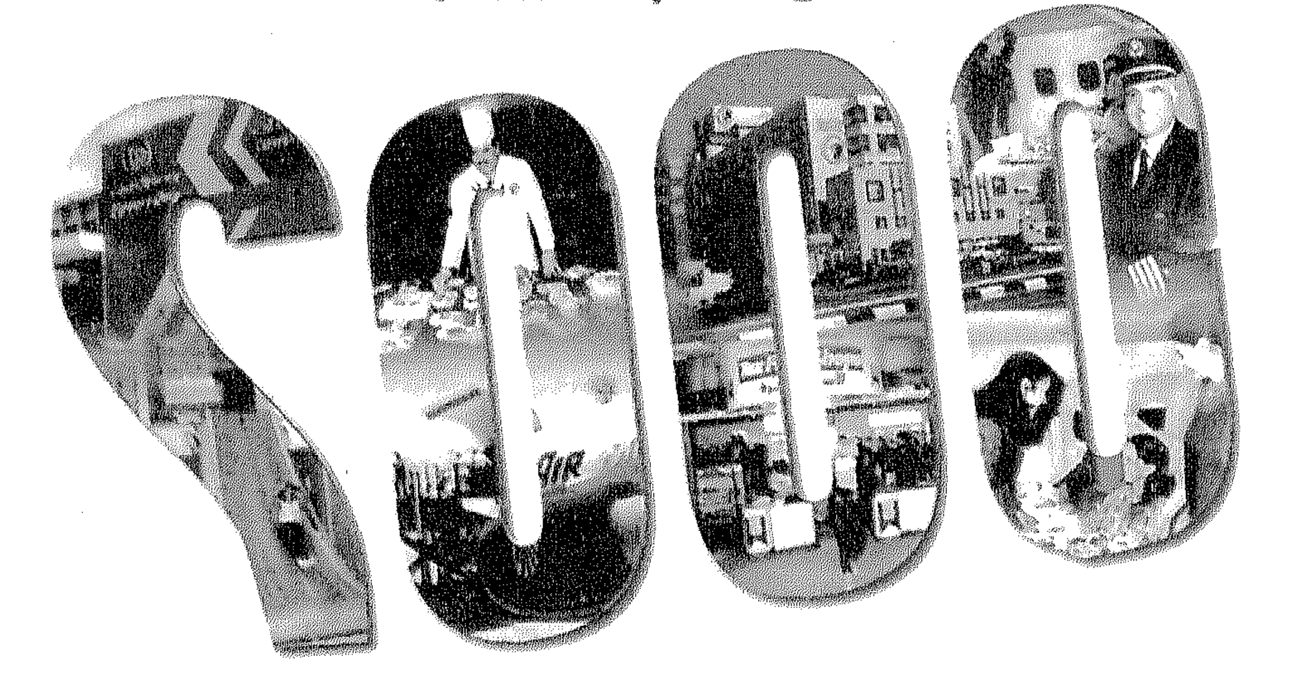
طبعا أعرف أن هذه الخطابات وصلتنى بطريقة آلية، بفعل الكمبيوتر المتقدم، فلا مدير الجامعة ولا مدير البريد الاليكترونى شغلا برسالتى، بل هى مسائل برامج فى برامج . برامج تتابع برامج وترد على برامج أخرى، ولكننى ومع كل هذه المعرفة - وهذا هو بيت القصيد - فرحت فرحة طفولية لأن مدير الجامعة أرسل لى كلمتين بالعربية : ألف مبروك. فقد أجبرته على الحديث بالعربية وهو لا يفهمها. بعدها قلت لنفسى ربما اعتبرها شفرة سرية، ولهذا لم تسلم الرسالة الى صاحبتها، وحكاية عدم الاستدلال على العنوان ليست صحيحة، فأنا على الرغم من إقامتى فى الخارج لمدة ثلاثة عقود تقريبا، لا يزال الشك يساورنى عند التعامل مع المسئولين فى الشرق او على الحدود الكندية، لا تهم الفواصل الجغرافية ولا اختلاف المناخ، المسئولون فى العالم لهم سمات خاصة نابعة من مسئولياتهم الجسيمة .

مصر للطيران
EGYPTAIR



معا نستقبل الالفيه الثالثه بأحدث ما أبدعته التكنولوجيا

فى عالم الطيران



اسطول حديث	شبكة خطوط ممتدة	مكاتب مبيعات منتشره
شحن جوى متطور	خدمة عملاء متميزة	احدث قاعدة هندسيه
خدمات جويه	خدمات ارضيه	حاسب آلى
مراكز تدريب	مستشفى متخصص	قطاع سياحه

أسواق حرة بمطارات مصر الدولية

مصر للطيران

تعبر بكم الى مشارف القرن الـ21

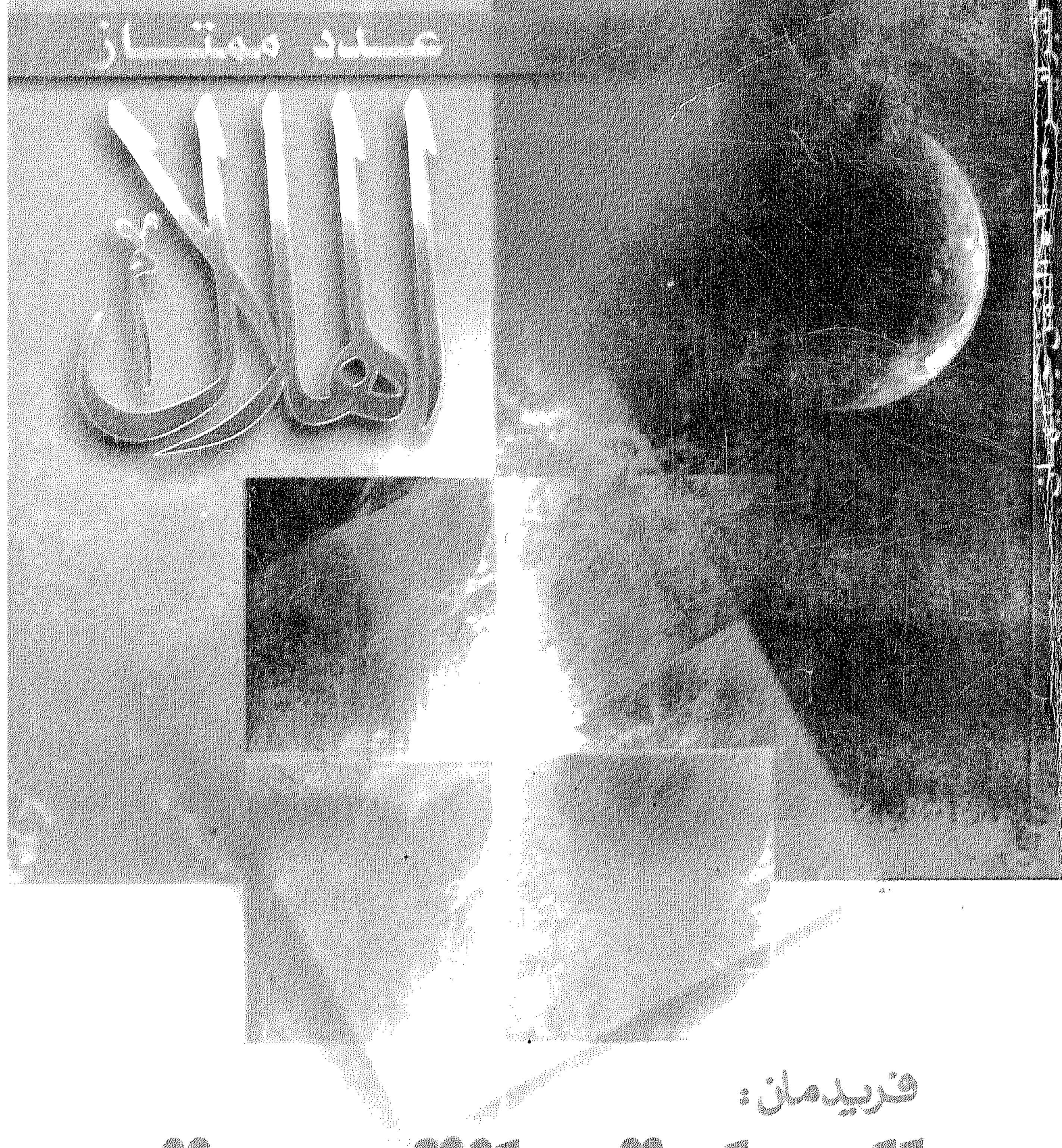


النفحة الجميلة العذبة في ربوع الوطن العربي من شرقه إلى مغربه

روايات مصرية للجيب

لفتح آفاق الثقافة والمعرفة في عقول الأولاد والبنات

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع



فريدمان:

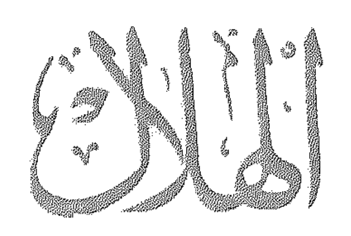
العولمة ديانة جديدة

المرأة بين محمد عبده وقاسم أمين



تمثال بلزاك- للفنان رودان أوجست

متحف محمود خليل- القاهرة



مجلة ثقافية تصدرها دار الهلال

أسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢

العام الثامن بعد المائة

ــبر ير ٢٠٠٠ ۞ سنو ب ١٤٢٠ هـ

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

الإدارة القاهرة – ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب ٦١ – العتبة – الرقم البريدى : ١١٥١١ – تلغرافيا – المصور – القاهرة ج م ع مجلة الهلال ت ٣٦٢٥٤٨١ – تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى : darhilal@idsc . gov . eg

مصطفى نبيل رئيس التحرير

حلمى التونى المستشار الفني

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المدير الفني

الاشتراكات سوريا ٦٠ ليرة – لبنان ٣٠٠٠ ليرة – الأردن ١٢٠٠ فلس – الكويت ٧٥٠ فلسا، السعودية ١٠ ريالات – تونس ١,٧٥٠ دينار – المغرب ١٥ درهماً – البحرين ١ دينار – قطر ١٠ ريالات – دبى/ أبو ظبى ١٠ دراهم – سلطنة عمان ١ ريال – الجمهورية اليمنية ١٠٠ ريال – غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار – إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة – المملكة المتحدة ٢,٥ جك

ثمن النسخة قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ١٨ جنيها داخل ج م. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية – البلاد العربية ٢٠ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول – ص ب رقم ٢١٨٣٣ – الصفاة – الكويت – ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

هذا العدد



الغلاف للفنان : محمد أبو طالب

عرس الثقافة العربية

عزيزى القارىء

بدأت فعاليات معرض القاهرة الدولى للكتاب منذ أيام قليلة، ويعد المعرض احتفالاً للثقافة العربية، يتم فيه اللقاء السنوى بين الرئيس مبارك والكتاب والمثقفين، ويدور خلاله حوار حول مشاكل الثقافة ومستقبلها ، ودور مصر الثقافى فى العالم العربى ..

هو مهرجان حقيقى للكتاب فى إطار علاج مصاعبه القائمة، وهى قلة القراءة للأجيال الجديدة فى ظل المستحدثات العلمية : الكمبيوتر والإنترنت وانتشار النوادى التى يقبل عليها الشباب. وجاءت مكتبة الأسرة خطوة حقيقية نحو علاج قلة القراءة لهذا الجيل.

وتجىء أهمية معرض الكتاب فى الندوات التى يشترك فيها صفوة من المثقفين والكتاب وعدد من المسئولين، وتقديمه للكتب الجديدة فى كل مجالات المعرفة، فضلا عن إعطائه الجوائز لأهم رواية وأهم كتاب وأهم غلاف، وأكثر الكتب توزيعا، وهى إضافة هامة فى هذا المجال، وحافزا لكل المبدعين فى تخصصاتهم المختلفة.

ونعتز بأنه لم تمر دورة للمعرض، لم تحصل فيها دار الهلال على أكثر من جائزة فى الكتب والروايات، وحصلت أكثر من مرة على جائزة أهم دار نشر.

ونحن نعتز بحصول زميلنا الروائى الكبير يوسف القعيد على جائزة أهم رواية فى معرض هذا العام عن روايته «٢٤ ساعة فقط» وكذلك الروائى الكبير علاء الديب عن روايته «عيون البنفسج» .

وداعا عبدالحميد الكاتب

عزيزى القارىء

فقدت مصر فى الشهر الماضى أحد الكتاب الكبار الشرفاء عبدالحميد عبدالغنى والذى سمى نفسه عبدالحميد الكاتب.. الصحفى والكاتب والذى عمل فى الأمم المتحدة منذ إنشائها ولمدة ٣٣ سنة عمل مع سكرتير الأمم المتحدة فالدهايم ويوثانت وفى العديد

من اللجان، وكان أول متحدث رسمى مصرى خلال مفاوضات البلاد بعد الثورة، ويعد أكبر وأهم موظف عربى فى الأمم المتحدة منذ عام ١٩٦١ وحتى عام ١٩٧٤ .

عين نائبا لرئيس مجلس إدارة أخبار اليوم ورئيسا لتحرير الأخبار كما رشح وزيرا للدولة للشئون الخارجية بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، ووزيرا للاعلام بعد ذلك .

لعب عبدالحميد الكاتب دورا مهما ، ووضع لبنة فى صرح مجلة الهلال ولمدة ثمانى سنوات وقبيل عمله فى الأمم المتحدة..

فقد عمل بالهلال وهى تحتفل عام ١٩٤٢ ببلوغها سن الخمسين ومعه زميلاه طاهر الطناحى وإبراهيم المصرى، حيث قاموا بالاتصال بعدد كبير من الكتاب العرب ورؤساء الدول العربية، وليصدر الهلال فى صورة كتاب عن تاريخ مصر والعرب بفضل هؤلاء الأعلام الذين شاركوا فى كتابة موضوعاته الشاملة.

ويشير الكاتب فى مقال شيق كتبه للهلال فى يونيو ١٩٩٢ وهى تستعد للاحتفال بالعيد المئوى إلى الحفاوة التى قوبل بها من رئيس التحرير وهو مازال طالبا بالجامعة، ونشر له مقالين عن تشيكوف والشاعر الهندى طاغور، وصرف عن كل مقال جنيهين فرح بهما فرحا شديدا !.

وفي هذه المناسبة يذكر أن طه حسين كان يحصل على مكافأة قدرها خمسة جنيهات وتعتبر أعلى مكافأة لكاتب فى «الهلال» فى ذلك الوقت.

قدم الكثير للهلال خاصة فى مجال الترجمة التى برع فيها، وقد تصفح واحدا من الأعداد القديمة للهلال فوجد أن الصفحات التى كتبها فى هذا العدد تصل إلى ٨٠ صفحة من المجلة التى تضم ١٢٨ صفحة، وكانت هذه الصفحات الكثيرة تضم مقالا وقعه باسمه وآخر بالحروف الأولى من اسمه ومقالات عديدة مترجمة وأبوابا كان يحررها .

وكانت سنواته فى دار الهلال فرصة لصداقة مع فكرى أباظة انطلق بعدها إلى رحاب العالمية فى الأمم المتحدة ثم عاد ليواصل العمل فى الزميلة أخبار اليوم.

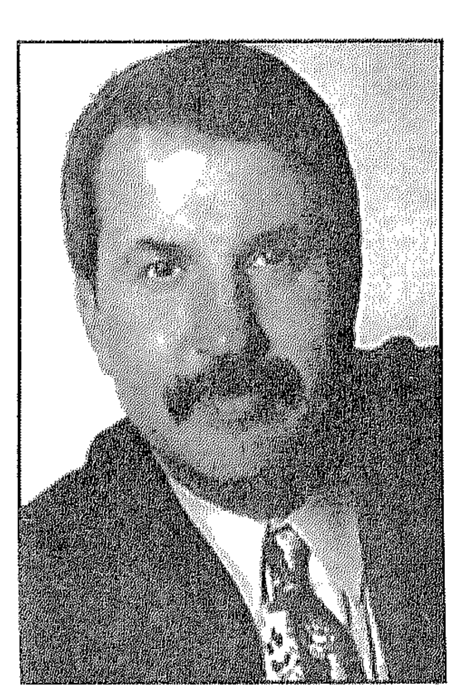
رحم الله عبدالحميد الكاتب الذى أعطى الكثير لوطنه وللصحافة المصرية وعاش راهبا فى محراب العمل الوطنى والصحافة التى عشقها وأحبها .

المحـــــــرر

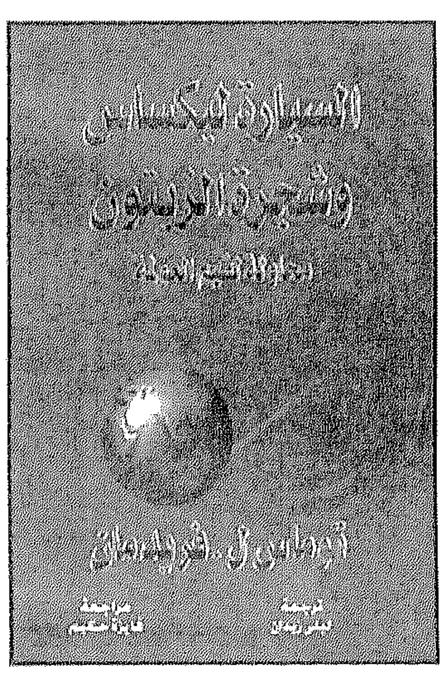
السيارة ليكساس تقتلع شجرة الزيتون

«مانيفستو جديد للداروينية الأمريكية»

بقلم : د. صلاح قنصوه



توماس فريد مان



غلاف الكتاب

❞

ينبغى لى أن أعترف بأن نوعاً من الارتياح قد غمرنى بعد الفراغ من الاطلاع على كتاب «توماس فريدمان» : «السيارة ليكساس وشجرة الزيتون، محاولة لفهم العولمة» . فلم أكن أحسب أن مؤلفاً لكتاب تربو صفحاته على خمسمائة وثمانين، وتخصص فى إلقاء المحاضرات وعقد الندوات عن العولمة التى اشتهر بين معارفه وقرائه بأنه عاشقها ، لم أكن أحسب أنه مثل الكثير عندنا، يتناول القضايا والمفاهيم الحاسمة بالحفنة أو الكبشة غير مفرق أو مميز بين دقائقها وعناصرها . ويبدو أن هذه الطريقة المشتركة فى التناول بين الكثير منا وبينه ، هى السمة العولمية الوحيدة التى تتحدى رافضى العولمة المتشبثين بالخصوصية والهوية ، فكلنا شرقاً وغرباً سواء ! .

فالمفترض أن تكون كلمة «عولمة» مصطلحاً، أى ما تصالحنا واتفقنا على دلالته . غير أنها للأسف ماتزال لفظا أو اسما يستخدمه عابر السبيل كما يحلو له. ولا يختلف فى ذلك كاتب المقال أو مؤلف الكتاب، أو الصحفى ، أو رجل الشارع، أو المثقف العادى ، أو حتى مؤلفو الدراما والمسلسلات التليفزيونية . ويحملونها الدلالة التى لا تكلفهم مشقة البحث والتمييز، وهى أيسر الاستعمالات حيث تصبح وصفا أكثر مسايرة للموضة «للأمركة» ، أو اسما حركيا جديدا للنظام العالمى ، أو عنوانا حديثا لليبرالية المتطرفة أو المتوحشة. وكأنها اسم تدليل للعالمية أو التدويل .

والكتاب الذى نعرض له ليس فى الحقيقة كتاباً عن العولة ، بل هو عما أسماه «جورج بوش» النظام العالمى الجديد ، وسنكتشف معا، بعد عرض أفكاره الرئيسية ، الفارق الهائل بينهما.

وللمؤلف «توم فريدمان» عذره فى هذا لأن مرصده الذى اختاره لتحليل «حكاياته» وتفسيرها، وكذلك موقفه الشخصي مما يدور من أحداث فى العالم اليوم، يدفعانه إلى هذا الخلط. وقد أفلح فى صنع خلطة تثير الاعجاب، وتبعث على المتعة بما يرويه من حكايات شائقة ، ومقابلات صحفية تشبع شهية القارىء النهم للاستطلاع . بل إنه أحياناً كثيرة يبتكر حوارات خيالية بديلة بين أبطاله الرؤساء والمسئولين فى كافة أنحاء العالم، ويرى أنها تكشف عن النوايا الحقيقية بأكثر مما يُعلن فى البيانات الرسمية. فهو صحفى يحرر عموداً فى «النيويورك تايمز» منذ عام ١٩٩٤ للشئون الخارجية.

وكان مراسلاً أجنبيا فى بيروت والقدس لعشر سنوات حتى ١٩٨٨ ومراسلا دبلوماسيا ، ومندوبا فى البيت الأبيض . كما عمل من قبل محرراً فى القسم الاقتصادى والبزنس فى الصحيفة نفسها ، ومندوبا فى وزارتى الخزانة والتجارة . كما حصل على درجتى البكالوريوس والماجستير فى الدراسات العربية والشرق أوسطية.

ولا يعتمد الكتاب على مصادر ، أو مراجع ، أو بحوث متأنية عميقة بقدر ما يعتمد على ربط معلوماته وتفاصيله بتشبيهات ونوادر وتعليقات يبتدرها أو يلتقطها ، وهو الأغلب والأعم ، من على ألسنة من يقابلهم ، أو من كم وفير من الحوارات التى يقتبسها من بعض الروايات أو المسرحيات الشهيرة . فهو تلميذ نجيب فى مدرسة الصحافة التى يعنيها الخبر الطريف مثل نبأ الرجل الذى عضّ كلباً . والكتاب غزير المادة فى مثل هذه الأخبار! بل إن ما يضفى على أسلوبه الجاذبية والطرافة هو بعض أوجه الشبه بمقالات أحد كتابنا الفكهين ، وخاصة عندما يذكر دائماً «خالته بيق مثلما يحتفى هذا الكاتب الكبير» بخالته «بهانة».

والمؤلف يهودى يشيد بالفضل الذى يدين به لمعلم الدين الحاخام «تزفى ماركس» الذى ألهمه بأول مسيرة الكتاب، وخاتمة طوافه معاً، فى قصتى هابيل وقابيل أولاً، ثم برج بابل أخيراً بوصفهما تفسيراً عميقا ، وموجزًا لتاريخ العالم ومستقبله .

وتقوم معظم أدلته على ما يسميه «بنظام العولمة» من واقع خبرته الشخصية فى استثماراته الصغيرة التى لم يكن يجريها لولا استخدامه للانترنت فى متابعة أسعار الاسهم . فالانترنت لديه هو المحرك التوربينى الذى يقود العولمة إلى الأمام .« فبالانترنت نضمن أن تكون طريقتنا فى الاتصال ، وطريقتنا فى استثمار أموالنا، وطريقتنا فى النظر إلى العالم ، خاضعة للعولمة على الدوام.» (ص ١٩٩) فالعولمة عن طريق الانترنت هى معرفة هوية المنافسين ، وهوية الزبائن ، كما يقول .

١ - ماكدونالدز تمنع الحروب!

وربما بدا حديثى متحاملا ، وهذا حق، ولكننى أشهد بأننى أقبلت على الكتاب بنية طيبة يحدوها شغف بطلب المزيد من المعرفة، إلا أن شعوراً آخر بدأ فى التسلل إلى نفسى بعد طول رفقتى أو عشرتى بالكتاب.

وسأقدم عيّنة ممثلة لأكثر مما جاء فيه. وهى عن «نظرية» كما يسميها، واتته كما يقول «كأن الأمر أشبه بضربة صاعقة من السماء ، انطلقت من مكان ما بين ماكدونالدز فى ميدان «تيانامين فى بكين، وماكدونالدز فى ميدان التحرير بالقاهرة ، وماكدونالدز بالقرب من ميدان صهيون فى القدس، وتلك هى الفكرة أو النظرية :

«لم يحدث أن خاضت دولتان بهما مطاعم ماكدونالدز حربا فيما بينهما منذ أن افتتح ماكدونالدز فى كل منهما . اننى لا أمزح، إنه شىء غريب فعلاً . انظر إلى الشرق الأوسط : فى إسرائيل الآن محلات ماكدونالدز كوشير ، وفى السعودية محلات ماكدونالدز التى تغلق خمس مرات فى اليوم للصلاة ، ومصر بها محلات ماكدونالدز كما أصبحت لبنان والأردن من الدول التى توجد بها محلات ماكدونالدز. لم تحدث فى أى من هذه الدول حرب منذ دخول «الأقواس الذهبية» (علامة ماكدونالدز) إليها (يبدو

أنه نسي جنوب لبنان، أو أنه يعتبره جزءًا من إسرائيل) . أين يوجد اليوم التهديد الكبير بالحرب في الشرق الأوسط؟ إسرائيل وسوريا ، إسرائيل وإيران، إسرائيل والعراق ماهي الدول الثلاث التي لايوجد بها ماكدونالدز؟ سوريا وإيران والعراق . ماذا عن الهند وباكستان؟ .. يوجد في الهند أول مطاعم لماكدونالدز بدون لحوم ، أما باكستان فهي منطقة خالية حتى الآن من الماكدونالدز ، وهو أمر خطير». (ص ٣١٤).

وككل باحث أمين ملتزم ذهب «فريدمان» إلى مقر الشركة في ولاية الينوي وعرض نظريته عليهم وأثبت جميع خبراء ماكدونالدز الدوليين أنهم لم يعثروا على استثناء واحد لهذه النظرية .

وتنص نظريته على أنه «إذا وصلت دولة ما إلى مستوي التنمية الاقتصادية الذي يؤدي إلي وجود طبقة وسطي تكفي لنجاح شبكة من محال ماكدونالدز بها فإنها تصبح إحدي دول ماكدونالدز. فالشعوب في دول ماكدونالدز لم تعد تحب خوض الحروب، بل تفضل الانتظار في طوابير البيرجر»! (٣١٥).

والغريب الذي يثير الدهشة أو الانزعاج في طريقة عرضه واستنتاجاته أن يحاول تأمين أو تأييد «نظريته» بتنبؤات ثبت اخفاقها في التاريخ كتنبؤ مونتسكيو في القرن الثامن عشر، وتنبؤ پول آنجل البريطاني عام ١٩١٠ عن توقف الحروب .

فقد كتب الفيلسوف الفرنسي مونتسكيو أن التجارة الدولية أنشأت جمهورية كبرى دولية، توحد بين جميع التجار والأمم التي تتبادل التجارة عبر الحدود، وهو ما يؤدى دون شك إلى عالم ينعم بالسلام.

ويقول «فريدمان» أن مونتسكيو يدافع نظرية «البيج ماك» الخاصة به في قوله : من حسن حظ الإنسانية أنها في وضع يجعلها رغم ما تمليه عليها عاطفتها بأن تكون شريرة ، فإن مصلحتها تملي عليها، مع ذلك، أن تكون رحيمة وفاضلة».

ويذكر «فريدمان» بجرأة خارقة أن پول آنجل قد توصل إلى النظرية الصحيحة نفسها في قوله بأن القوى الصناعية الغربية الكبرى، أمريكا وبريطانيا وألمانيا وفرنسا ، قد فقدت شهيتها في اشعال الحروب. وأنه في ظل وجود كل تلك التجارة الحرة والاتصالات التجارية التي تربط بين القوى الأوربية الكبرى في ذلك الوقت ، يكون خوضها الحرب ضرباً من الجنون. ولا أدري كيف يستقيم ذلك التنبؤ مع نشوب حربين عالميتين بين تلك القوي الكبري . ورغم ذلك يصر «فريدمان» على القول بأن «مونتسكيو» و«آنجل» كانا على صواب بالفعل ، ويؤكد إصراره، بعد أن يسقط وقائع التاريخ الفعلي ، بأن ذلك التكامل الاقتصادي يجعل الحرب أكثر تكلفة على المنتصر والمغلوب على السواء ، وأن الدولة التي تختار أن تتجاهل هذه الحقيقة مقضي عليها دون شك . ولكن هل يجسر التاريخ على أن يقف عقبة أمام نظرية ماكدونالدز!! .

بيد أن «فريدمان» يباغتنا بتناقض صارخ بعد ٢٥٠ صفحة من الكتاب، بقوله إن مطاعم ماكدونالدز لن تنجح بدون «ماكدونيل دوجلاس» مصمم طائرة السلاح الجوى الأمريكي ف - ١٥! فالعولمة، أو الأمركة في تصوره ، هي السلام، وهي الحرب معاً ، وليحفظ الله أمريكا! وهي عبارة يرددها في كتابه بعد كل حكاية رومانسية عن تعايش الأجناس والشركات في الولايات المتحدة .

٢ - السيارة والشجرة

ولنعد ثانية إلى السيارة ليكساس (أو

لكزَسى) وشجرة الزيتون اللتين أراد بهما أن تكونا عنونا مثيرا لكتابه الصحفى .

يملك المؤلف سيارة ليكساس، وقد قفزت الفكرة إلى رأسه عند جولته فى مصنعها خارج مدينة تويوتا التى تنتمى إليها السيارة ولكنها سيارة بأهظة الترف. فالمصنع ينتج يوميا ٣٠٠ سيارة ، ويقوم بصنعها ٦٦ عاملاً فقط، و ٣١٠ إنسان آلي (روبوت). وتقتصر مهمة العمال على مراقبة الجودة، بينما ينجز الإنسان الآلى سائر العمل . بل إن سيارات النقل بالمصنع آلية دون سائقين . وقد شاهد صاحبنا ذلك منبهراً. وما لبث أن استقل القطار «الطلقة» للعودة إلى طوكيو بسرعة تقرب من ٣٠٠ كيلو متر فى الساعة . وأثناء وجوده بالقطار جذبت اهتمامه قصة إخبارية فى الصحيفة تتعلق بالتقرير اليومى لوزارة الخارجية الأمريكية ، وتضمن تفسيراً مثيراً للجدل حول قرار الأمم المتحدة لعام ١٩٩٨ لحق اللاجئين الفلسطينيين فى العودة إلى إسرائيل (لم يقل وطنهم أو أرضهم التى نزحوا منها). وهنا أحس «فريدمان» بالمفارقة الهائلة : «فاليابانيون يصنعون (فى الأصل «يبنون» ولعل لها دلالة مقصودة) أعظم سيارة رفاهية فى العالم بالإنسان الآلى، (لو كان الحديث فى التليفزيون وعندنا لاختفى الصوت من الشفاه المتحركة خشية أن يكون الكلام إعلاناً للسيارة المفضلة لدى مؤلفنا!)، بينما مازال الناس الذين عشت بينهم لسنوات عدة فى بيروت والقدس يقتتلون حول ملكية شجرة الزيتون هذه أو تلك . وتبين لى حينئذ أن السيارة ليكساس وشجرة الزيتون رمزان جيدان لحقبة ما بعد الحرب الباردة . فنصف العالم خرج من الحرب الباردة عازماً فيما يبدو على بناء سيارة ليكساس أفضل، وكرس نفسه لتحديث اقتصادياته، وتبسيطها، وخصخصتها ليتسنى له الازدهار فى نظام العولمة، على حين مايزال النصف الآخر من العالم ، بل نصف بلد واحد أحياناً . أو نصف شخص واحد أحياناً أخرى، مايزال قعيد الصراع على من يملك شجرة الزيتون هذه أو تلك» (ص ٥٨ - ٦٠).

ويذكر مؤلفنا أن الصراع بين قابيل وهابيل فى سفر التكوين ، بعد أن شرحه له الحاخام «ماركس»، هو الذى تجسد فى نظام العولمة الدولى السائد اليوم . (وكأننا كنا فى حاجة إلى انتظار تلك القرون الطويلة لنفهم قصة قابيل وهابيل فى هذه الحقبة الراهنة) وتلك هى دراما السيارة ليكساس وشجرة الزيتون : «فى نظام الحرب الباردة ، كان التهديد الأكثر احتمالاً الذى تتعرض له شجرة زيتونك يأتى من شجرة زيتون أخرى. ويأتى التهديد من خشية أن يخرج عليك جارك ، ثم يقتلع فى عنف شجرة زيتونك ، ويغرس شجرته مكانها . ولم يقض على هذا التهديد اليوم، ولكنه ، فى الوقت الراهن تناقص فى كثير من مناطق العالم. أما التهديد الأكبر الذى تتعرض له شجرة زيتونك اليوم فقد يأتى على الأرجح من السيارة ليكساس ، أى من قوى مجهولة للسوق والتكنولوجيات تتخطى حدود الدول ، وتعمد إلى التجانس وتوحيد القياس ، وهى التى صنعت النظام الاقتصادى العالمى اليوم. وثمة أشياء فى هذا النظام من شأنها أن تكسب السيارة ليكساس قوة فائقة تتمكن بمقتضاها من اجتياح كل شجرة زيتون تقع فى طريقها وسحقها» (ص ٦٤).

وهنا يدفعنا الفضول لنسأل : ولكن ،

ما مصير هذا الصراع فى رأى المؤلف ؟ وأين يقف منه؟ .

يجيب المؤلف فى حماس متدفق عند قرب نهاية الكتاب «إن ايجاد توازن بين سيارة ليكساس وشجرة الزيتون هو ما يجب أن يسعى إليه كل مجتمع فى كل يوم. وذلك هو ما يميز أمريكا فى أفضل صورها. فأمريكا تأخذ احتياجات الأسواق والأفراد والمجتمعات جميعاً مأخذ الجد تماماً. ولهذا فليست أمريكا مجرد بلد، إنها قيمة روحية ، ونموذج للمسئولية . إنها أمة لا تخاف من الوصول إلى القمر، ولكنها مع ذلك تظل تحب أن تعود إلى المنزل لكى يجتمع شمل الأسرة. إنها الأمة التى اخترعت الفضاء المعلوماتى Cyberspace ، وحفلات الشواء الباربكيو، فى الفناء الخلفى، وأيضا الانترنت ، وشبكة الأمان الاجتماعى، وهيئة الأوراق المالية والبورصة، واتحاد الحريات المدنية الأمريكية ! . إن هذه المتناقضات هى ما تحتفظ به أمريكا فى قلبها ، ويجب التوقف عن اتخاذ قرار تصالح إحداها على الأخرى». «إن المجتمع العالمى المزدهر هو المجتمع الذى يستطيع أن يحدث التوازن بين السيارة ليكساس وشجرة الزيتون على الدوام . ولا يوجد نموذج لذلك على الأرض اليوم أفضل من أمريكا . ولهذا السبب فإننى أؤمن بشدة بأنه يجب أن تكون أمريكا ، فى أفضل حالاتها ، اليوم وغداً، وفى كل وقت، حتى يكون فى مقدور العولمة أن تستمر. إنها يمكن أن تكون ، وينبغى أيضا أن تكون منارة للعالم أجمع ، فلنعمل على ألا نبدد هذا الإرث» . وكانت هذه هى آخر سطور الكتاب.

٣ - «قميص الأكتاف» والقطيع الالكترونى

إن شجرة الزيتون التى تعنى مؤلفنا هى أشجار زيتون الولايات المتحدة . أما الأمم أو الدول الأخرى، فعليها أن تنصرف عن شجرة الزيتون لتنضم إلى ما يسميه «بالقطيع الإلكترونى» الذى لا يسمح بعضويته إلا لمن يرتدى السترة الضيقة الذهبية أو قميص الأكتاف الذهبى golden atraitgackek وهى السوق الحرة لأنها البديل الأيديولوجي الوحيد. فليس هناك سوى طريق واحد، وسرعات مختلفة . والاعتراف بقواعد السوق الحرة والإلتزام بها هو ذلك القميص أو السترة التى تعرف بها حقبة العولمة سياسيا واقتصاديا . وليس لدى العولمة إلا قميص القيد الذهبى.

ولقد بدأت «مارجريت تاتشر» فى إنجلترا تفصيل وحياكة ذلك القميص وروجت له منذ عام ١٩٧٩ . وسرعان ما أيده «ريجان» فى أمريكا فى الثمانينات حيث أتاح لهذا القيد ولقواعد استخدامه حجماً حقيقياً حاسماً . وأصبح كما يقول صاحبنا، موضة عالمية بنهاية الحرب الباردة. ولقد حدثت «الثورتان» التاتشرية والريجانية. لاقتناع الأغلبية الشعبية فى البلدين بفساد الأساليب القديمة التى تتولى فيها الحكومات توجيه الاقتصاد . ومن هنا عمد كل منهما إلى اقتطاع أجزاء ضخمة من سلطة اتخاذ القرار الاقتصادى من الدولة ، ومن المدافعين عن سياسة «المجتمع العظيم» ، ومن الاقتصاديات الكينزية ، وتسليمها إلى السوق الحرة. وعندما ترتدى بلادك ، هكذا يقول فريدمان، ذلك القميص الذهبى، فسرعان ما تتقلص الاختيارات السياسية أمامها إلى الاختيار ما بين «البيبسى ، أو «الكوكا»، أى الفروق

الضيئلة فى المذاق، أو الفروق القليلة فى السياسات ، أو التعديلات الطفيفة فى تصميم القميص لمراعاة التقاليد المحلية .

وفى عالم أصبح فيه رأس المال متجولاً على مستوى العالم لا تستطيع أن تقرر معدلات ضريبية تختلف كثيراً عن المعدلات السائدة فى الدول الأخرى. وعندما تكون العمالة متنقلة لن تستطيع أيضا أن تنحرف عن الخط الذى تسير عليه أجور الآخرين . لقد حد ذلك من القدرة على المناورة.

ويروى لنا «فريدمان» حكاية على لسان وزير مالية الهند عام ١٩٩١ : «لى صديق من دولة مجاورة أصبح أيضا وزيراً لماليتها . اتصلت به يوم توليه منصبه لأهنئه ، رد قائلاً : لا تهنئنى، فإننى مجرد نصف وزير ، والنصف الآخر موجود فى واشنطن». ص ١٥٥) (والحكاية غنية عن التعليق).

وبهذا القميص يمكن الحصول على عضوية القطيع الالكترونى الذى يتكون من كل المتعاملين فى تجارة الأسهم والسندات والعملة الجالسين أمام شاشات الكومبيوتر فى أنحاء العالم، ينتقلون بأموالهم هنا وهناك بمجرد الضغط على الفأرة (أو الماوس) ، من الصناديق المشتركة إلى صناديق المعاشات. إلى صناديق الأسواق الناهضة (مثل جنوب شرق آسيا) أو الذين يجرون معاملاتهم التجارية عبر الانترنت من بدرومات منازلهم . كما يتكون ذلك القطيع من الشركات متعددة الجنسيات الكبرى التى تنشر مصانعها الآن فى أنحاء العالم، وتنقلها على نحو متواصل إلى الدول المنتجة الاكثر كفاءة والاقل تكلفة . ولقد ازداد حجم هذا القطيع وبدأ يحل محل الحكومات بوصفه المصدر الأول لرأس المال اللازم لنمو الدول والشركات على السواء . وأصبح على أية دولة تسعى إلى تحقيق الازدهار فى نظام العولمة أن ترتدى قميص القيد الذهبى ، وتلتحم مع القطيع الالكترونى. وتحصل الدول التى ترتدى ذلك القميص طوال الوقت دون أن تخلعه لحظة واحدة ، تحصل على مكافأتها من هذا القطيع بتوفير رأس المال اللازم لنموها . أما الدول التى لا تتحلى به ، فإن القطيع يعاقبها باجتنابها، أو سحب أمواله منها.. ويرى فريدمان أن الانضمام إلى الاقتصاد العالمى والالتحام بالقطيع الالكترونى يعادل تماما طرح الدولة للاكتتاب العام . فهو يماثل تحويلها إلى شركة عامة ، مع اختلاف واحد هو أن حملة الأسهم لم يعودوا مواطنى هذه الدولة وحدهم ، بل يضاف إليهم أعضاء القطيع الالكترونى ، أينما وجدوا ولن يدلوا بأصواتهم مرة واحدة كل أربع سنوات أو أكثر بل يدلون بأصواتهم كل ساعة، وكل يوم من خلال الانترنت ، مهما يكن المكان الذى يقيمون به .

ويعترف المؤلف بأن ثمة من قابلهم يعترض على هذا القميص وذلك القطيع قائلاً له : «لا تحاول اقناعنا بإنه يتوجب علينا أن نرتدى قميص القيد، وأن نندمج فى أسواق عالمية . فلدينا ثقافتنا وقيمنا الخاصة بنا، وسوف نقوم بذلك بطريقتنا الخاصة وبالسرعة التى نريدها . ونظريتك فيها حتمية أكثر مما يجب. لماذا لا نجتمع معاً ونتفق على نموذج مختلف أقل تقييدا لحرية الحركة».

ويعلن فريدمان جوابه على هذا التساؤل قائلا: أنا لا أقول أنه يتحتم عليك ارتداء ذلك القميص. وإذا كانت ثقافتك وتقاليدك الاجتماعية تتعارض مع القيم

الكامنة فى ذلك القميص، فإننى أشعر بالتعاطف مع ذلك. ولكن ما أقوله هو: لقد كان نظام السوق العالمية والعالم السريع والقميص الذهبى نتيجة لقوى تاريخية كبرى استطاعت بالفعل تغيير طريقة اتصالنا ، وطريقة استثمارنا لأموالنا، وطريقة رؤيتنا للعالم بصورة جذرية . فإذا كنت تريد مقاومة هذه التغييرات، فهذا شأنك أنت ولابد أن يكون شأنك . ولكنك إذا اعتقدت أن بوسعك مقاومة تلك التحولات دون أن تدفع ثمنا غاليا ، أو دون بناء سور يواصل ارتفاعه باستمرار ، فإنك بذلك تغالط نفسك».

٤ - العولمة ، وإسرائيل ، والحمير

يرى «فريدمان» أن العولمة هى النظام الذى حل محل الحرب الباردة. فهى إذن نظام دولى مثل كل النظم السابقة . ولكن له سماته الفريدة ، أولها كما يقول التكامل الصارم فى الأسواق، وفى الدول ، وفى التكنولوجيات ، على الوجه الذى يمكن فيه للأفراد فى الشركات والدول من الانتقال والتجول على امتداد العالم لبلوغ مسافات أبعد، وأسرع ، وأرخص من كل وقت مضى . وفكرتها الدافعة هى الرأسمالية التى تحكمها قوة السوق الحرة القائمة على انفتاح اقتصاد كل دولة على الخارج، وإلغاء القوانين المنظمة له، وخصخصته ، ومثلها الأعلى هو ما حققته الثورتان التاتشرية والريجانية فى بريطانيا وأمريكا.

كما أن لها تكنولوجياتها الخاصة ورمزها شبكة الانترنت التى توحد بين الجميع.

وإذا كانت الوثيقة التى تحدد نظام الحرب الباردة هى المعاهدة ، فإن الصفقة هى وثيقة نظام العولمة . ولن يكون سؤالنا الرئيسى متعلقاً بالأسواق التى ينبغى أن نصدّر إليها بعد أن نفرغ من تحديد السلع التى ننتجها ، بل علينا أن ندرس «الإطار العالمى» الذى نعمل من خلاله أولاً ليكون سؤالنا ، بعدئذ، هو ماذا علينا أن ننتج .

وقد يتساءل القارىء عن هذا الإطار العالمى ، ولكن سرعان ما تصدمه الإجابة بأنه الولايات المتحدة الأمريكية، لأنها القوة المسيطرة الوحيدة ، وكل الأمم الأخرى، كما يقرر «فريدمان» تابعة لها بدرجة أو بأخرى. وهى اللاعب الرئيسى فى المحافظة على رقعة شطرنج العولمة. (ص ٣٧) . وكما تتطلب العولمة القادرة على الاستمرار هيكلاً أو بنية مستقرة للقوة ، فلا توجد دولة أكثر أهمية لذلك من الولايات المتحدة . فكل عمليات التكامل التجارى والمالى المتواصلة ، والثروة المتولدة عن ذلك ، والانترنت وغيره من التكنولوجيات التى تصممها وتصنعها أمريكا ويحدث كل ذلك فى عالم تعمل على استقراره قوة غير مؤذية، عاصمتها واشنطن (!).

وإذا كان السبب فى عدم اندلاع حرب بين دولتين تنعمان بمطاعم ماكدونالدز، راجعاً إلى التكامل الاقتصادى . فإنه يعود أيضا إلى وجود القوة الأمريكية ، واستعداد أمريكا لاستخدامها ضد أولئك الذين قد يهددون نظام العولمة . «فلن تنجح اليد الخفية للسوق ، دون وجود القبضة الخفية» (أعتقد أنها لم تعد خافية).

ويقول «فريدمان» بصراحة فظة : «تسمى القبضة الخفية التى تحفظ للعالم الأمن الذى يتيح لتكنولوجيات وادى السليكون (الأمريكية) الازدهار، تسمى جيش الولايات المتحدة وسلاحها الجوى ، وبحريتها ، ومشاة أسطولها ويمول هذه

القوات المقاتلة ومؤسساتها دافع الضرائب الأمريكي . ولو كانت القوة التي تعزز أفكارنا وتكنولوجيتنا أقل شدة، لما استحوذت على السيطرة العالمية التي نملكها اليوم».

غير أن مؤلفنا ما يلبث أن يشعر بالاشفاق على أمريكا لتكبدها عبء العمل على استمرار العولمة أكثر من غيرها من الدول ، لأن ركاباً كثيرين يستقلون قطار العولمة مجاناً، مثل الفرنسيين ، فهم يركبون فوق أكتافنا في الوقت نفسه الذي يوجهون لنا الانتقادات طوال الطريق . إلا أن كاتبنا سرعان ما يهدأ غضبه من الفرنسيين وغيرهم ممن يستغلون طيبة أمريكا وكرمها، فيقول لا بأس ، فهذا جزء من المهمة أو الرسالة الأمريكية، لأنها لا ينبغي لها أن تتدخل في كل مكان طوال الوقت. فهناك مناطق مهمة وأخرى غير مهمة على أمريكا أن تعرف كيف تحشد الآخرين للعمل في الأماكن التي لانستطيع أو لايجب أن نذهب إليها بمفردنا (لاحظ النصاحة) ولهذا ، فإن السبب الحقيقي خلف حاجتنا إلى دعم الأمم المتحدة وصندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، وبنوك التنمية المختلفة في العالم هو أن تتمكن أمريكا من دفع مصالحها إلى الأمام دون أن تضع الأرواح والأموال الأمريكية في أخطار تحدق بها على الدوام (ص ٥٧٧) (صراحة نحسده عليها ، كما نحمدها له حتى نكون على بينة من أمرنا).

وحتى لا يدفعنا الأمل الكاذب في أن نفيء إلى ظل شجرة الزيتون فيما قد يتبقى لأهمية الهواية والانتماءات الثقافية يعاجلنا «فريدمان» بالضربة القاضية قائلاً بأن الثقافة الغالبة الخاصة بنظام العولمة ، على نقيض نظام الحرب الباردة، لابد أن تفضي إلى التجانس الذي يعني «انتشار الأمركة بدءاً من البيج ماك والأيماك ، وانتهاء بميكي ماوس على امتداد العالم بأسره» (ص ٣١).

ولعل سؤالا مشروعاً يلح علينا ، وهو : كيف يرى مؤلفنا الليبرالي الذي عاش بيننا أكثر من عشر سنوات ، وتخصص في دراسة شئون الشرق الأوسط ، وألهمه الصراع العربي - الإسرائيلي بشجرة الزيتون التي تحتل عنوان الكتاب ، كيف يرى موقف إسرائيل ؟؟

لم يبخل علينا «فريدمان» بالإجابة التي جاءت شديدة الاتساق مع مفهومه لما يسميه نظام العولمة . فقد سأل محافظ البنك المركزي الإسرائيلي في خريف ١٩٩٧، وكانت عملية السلام في حالة ركود ، «كيف يتأتى أن تكون عملية السلام في هبوط والاستثمار الأجنبي في صعود؟؟» وجاءت الإجابة من خلال الحوار بحيث توصل «فريدمان» إلى أن إسرائيل تتحول الآن سريعا عن سياستها الاقتصادية القديمة التي كانت تقوم على تصدير البرتقال والماس والمنسوجات، إلى اقتصاد التكنولوجيا المتقدمة التي جعلت من إسرائيل أقل ضعفا أمام الضغوط السياسية العربية ، والمقاطعات والتذبذبات صعوداً وهبوطاً في عملية السلام. ولذلك طورت ، واخترعت ، وأنتجت الكثير من أدوات التشفير المتصلة بالانترنت والخاصة بتأمين المعلومات في معهد تكنيون ومعامل الجيش الإسرائيلي. ولا يمكن بطبيعة الحال الحصول على تلك المنتجات من أية دولة أخرى . ونتيجة لذلك تأتي الدول إلى إسرائيل لتخطب ودها مهما يكن من أمر عملية السلام. وكذلك فإن اليابان نفسها تتلهف على إنتاج شركات

البرمجيات الإسرائيلية .

ويردد فريدمان بإعجاب ما قاله أحد الاقتصاديين الإسرائيليين : إذا كان عندك التكنولوجيا التى يريدها الناس ، فليس هناك من يعبأ بما إذا كنت تضطهد الفلسطينيين أم لا ». ! (ص ٣٢٩)

فاستثمار التكنولوجيا المتقدمة فى إسرائيل استثمار فى البشر ، وقوة العقل (ما شاء الله!)، وليس استثمارا فى المصانع الذى يمكن لأعدائها تدميرها بسهولة. كذلك لا تصدر إسرائيل التكنولوجيا المتقدمة إلى جيرانها التى تعانى التوتر فى علاقاتها بهم، بل إلى الأسواق البعيدة فى آسيا وأوروبا وأمريكا فهى من ثم قوية إزاء التقلبات السياسية فى المنطقة.

ويبشرنا المؤلف الغيور على إسرائيل بأنها ستغدو أقوى فأقوى، لأنها باقتصادها الذى اختار الازدهار وأصبح قادراً على تجميع المعرفة ورأس المال والموارد من أنحاء العالم، لن تكون مقيدة أو مهددة بحجمها إذا ما قورنت بالبلاد العربية التي لا تملك ما تقدمه للعالم سوى اليد العاملة الرخيصة ، أو البترول ، وهو مما يجعلها رهينة قوة العمل وأسعار البترول .

ويواصل المؤلف تحيزه وثناءه على إسرائيل قائلاً : لقد كان هناك على مر التاريخ قوتان نهريتان فى الشرق الأوسط ، مصر على ضفاف النيل، والعراق على ضفاف دجلة والفرات . ولكن سيشهد القرن الواحد والعشرين قوة نهرية ثالثة هى إسرائيل على ضفاف نهر الأردن ، لأنها ستكون قاطرة التكنولوجيا المقدمة التى ستجذب معها الأردن والفلسطينيين (لم يقل فلسطين) ... ويكاد المؤلف يصفق اعجاباً وهو يهتف : «إنها مجرد بداية» (ص ٣٣١).

وعلى أية حال، فالمشاركة فى الاقتصاد العالمى اليوم ، كما يقول ، أشبه بقيادة سيارات السباق التى تزداد سرعتها يوما بعد يوم . وسوف نجد دائما بعض المتسابقين وقد اصطدموا بالجدار وتحطمت سياراتهم ، ولا سيما إذا كانوا ممن يركبون الحمير حتى وقت قريب (ولا أدرى إن كان فريدمان يقصد مواطنينا بوصفهم قادة الحمير ، أم الحمير نفسها!).

٥ - النظام العالمى والعولمة

ينبىء الكتاب بجلاء عن نوعية الجمهور الموجه لهم لقراءته ، فهم الأمريكيون دون ريب ، لأنه يتحدث طوال الكتاب بصيغة المتكلم الجمع، نحن ، أى الأمريكيين . أما المخاطب الأمريكي الذي يعنيه فهو المستثمر . فالكتاب كله يمكن أن يتخذ عنوانا أكثر اشارة إلى محتواه ، إذا كان : «دليل المستثمر الذكي للربح الوفير». وذلك باستخدام التكنولوجيا المتقدمة وخاصة الانترنت، حيث يعلن أن رقائق الكومبيوتر هى الفارس الوحيد فى الاقتصاد العالمى ، والسياسة العالمية على السواء .

وليس من قبيل المصادفة أن يستخدم مصطلحاً من أسواق المال لوصف منهجه فى الكتاب كله ، وهوArbitrage ، أى استخلاص الربح من فوارق الأسعار فى نفس الوقت ولكن فى أماكن متعددة . أو الحصول على الربح من فروق أسعار الصرف فى البورصة ، وهو ما يترجم عادة فى كتب المالية والاقتصاد بعبارة : موازنة أسعار الصرف . وقد اختارت الترجمة البارعة مصلح «المراجحة». فكما يوضحه هو : «البيع والشراء فى آن واحد

للأوراق المالية نفسها، أو السلع، أو لصرف العملات الأجنبية في أسواق مختلفة للافادة من فروق الأسعار، واختلاف المعلومات. ولكي تكون ناجحا أو ماهراً في ذلك، فوسيلتك أن تكون لديك شبكة متسعة من المعلومات، وكذلك من الذين يكشفون عن المعلومات، ثم تعرف كيف تركب وتؤلف بينها، مما يجلب لك الربح». (ص ٤٢)

وأكبر الظن أن ما نجح المؤلف في تركيبه هو ما يسميه في نهاية الكتاب مذهب أو نزعة الدولية الأمريكية Inter-na-tionalism (ص ٥٧٨) الذي يرادف النظام العالمي، وهو ما أسماه طوال الكتاب بنظام العولمة، ويرى أن على الإدارة الأمريكية، أيا كان الحزب القائم في السلطة أن تبدأ في محاولة جمع أنصار العولمة الجدد معاً بدءاً من واضعي البرمجيات إلى العناصر النشطة كحقوق الإنسان، ومن مزارعي ولاية أيوا إلى الناشطين من أنصار البيئة، ومن المصدرين للسلع الصناعية، إلى عمال خطوط تجميع التكنولوجيا المتقدمة، وذلك لتشكيل ائتلاف جديد للقرن الواحد والعشرين يؤازر مواصلة «النزعة الدولية الأمريكية». ولن يتيسر ذلك إلا إذا امتنعت أمريكا عن الانصراف عن رسالتها بوصفها الدولة الوحيدة المسيطرة، النافعة، والمحققة للاستقرار. فإذا أسرفت أمريكا في الاعراض عن هذه المهمة، فسيتهدد استقرار النظام بأسره. ولن يستطيع نظام العولمة الصمود دون سياسة خارجية أمريكية فعالة وسخية. (ص ٥٧٩).

ويؤكد «فريدمان» أن العولمة في تصوره لا مكان فيها لطريق ثالث، أو دولة رفاهية مثلما كانت الدول الاسكندنافية، أو لحماية الضعفاء، أو الأمان الاجتماعي، فالقطيع الإلكتروني يركض غير عابيء بمداهمة كل ذلك في طريقه.

ما الجديد إذن في هذا الكتاب؟ أو ماذا يبقى منه إذا ما وضعنا حكاياته وأخباره جانباً! ستبقى فكرته الأساسية البسيطة جداً والقديمة جداً، وهي النزعة الرأسمالية الليبرالية ذات الصبغة الداروينية الفاضحة. فالبقاء للفائز الذي يستولي علي كل شيء» كما يقول. وبدلاً من المفهوم التقليدي «للإنسان الاقتصادي» حل مفهوم «المستثمر» حيث يعلن دوماً أن نظام العولمة لا يعنيه توزيع الدخل بل توليده فقط. ويضاف إلى هذه النزعة القديمة، تفاؤله الصاخب بسيادتها بعد أن خلت الساحة لأمريكا من أعدائها الأيديولوجيين.

ولأن العولمة مصطلح جديد رشيق، فقد ألصقها بالفكرة القديمة، وقد اطمأن لنهاية الحرب الباردة. فالعولمة عنده ليست نسقاً جديداً للعلاقات بين البشر، أو نموذجاً مختلفاً عما سبقه من نظم عالمية، بل هي مجرد وسيلة تكنولوجية، وهي مجموع الأدوات اللاسلكية، لا يختلف عن سائر الوسائل السابقة إلا في الدرجة.

وهو لا يميز بين العالمية والعولمة، كما يتجلى ذلك في حديثه عن النزعة الدولية الأمريكية، أو التدويل، ولذلك أحكم الوثاق بين العولمة وأمريكا دون أدنى جهد في البحث والدراسة. ولهذا يسميها دائماً نظاماً جرياً على ما ألفناه من تعاقب النظم العالمية التي تسيطر فيها دولة على دول أخرى. ومن ثم يتوزع

العالم إلى مركز وأطراف، وينقسم إلى هيمنة وتبعية. فالاقتصاد العالمى أو الدولى هو بين دول قومية . وكل ما أسهب فى بيانه فى كتابه هى معالم نظام اقتصادى بين دول قومية inter- national وهو النظام الذى مايزال غالبا مسيطراً . وتكون فيه الدول مجموعة من اللاعبين المتنافسين المتصارعين والمتحالفين .

أما العولمة globalization فلها شأن آخر. وينبغي ألا نخلط بينها وبين العالمية أو النظام العالمي الجديد الذي تعلقت جدّته بانفراد أمريكا بالهيمنة .

كما لا ينبغي أيضاً ألا ننحرف إلي الاعتقاد المتحمس بأن ما يوجد الآن هو العولمة، وقد استقرت معالمها ، واكتملت عناصرها.

فالعولمة هى الوضع الذى تهيمن فيه القوانين الاقتصادية على السلطة السياسية دون أن تضمن سريانها دولة ما. ويختلف هذا تماماً عن «الأمركة» لأن أمريكا نفسها فى طريقها، ليس فى القريب العاجل ، إلى الزوال مع ذبول كل سلطات الدولة على امتداد العالم كله .

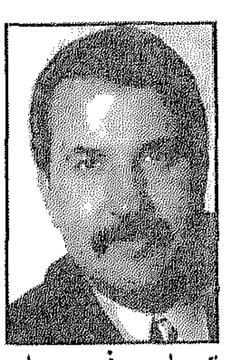
وترجع العولمة ، إن حدثت ، إلي سيطرة الشركات «المتعدية» الجنسيات أو القوميات Trans-National وليس الشركات «المتعددة» الجنسيات Multi nationl لأن الأخيرة لها مقارها ومراكزها فى دولها ، ومازالت ترتبط بقوانينها ومصالحها.

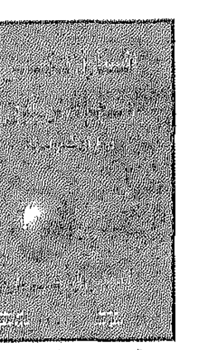
ولكن ، إذا ما تكاثرت ، وتعملقت الشركات «المتعدية» الجنسيات، فإنها تؤدى إلى اختراق العولمي لما هو قومي مما يسلم إلى تحولات فادحة فى دور الشركات القومية أو متعددة القوميات ، فضلاً عن مؤسسات الدولة الراهنة. وسيؤثر هذا بدوره على سائر المجالات .

ولئن لم تستكمل العولمة الاقتصادية مؤسساتها بعد، فإن الأدوات العولمية التكنولوجية تواصل نفوذها وتأثيرها فى الجوانب الثقافية رغم ما يبرز فى مواجهتها من نتوءات المقاومة التى تتمثل فى جيوب النزاعات العرقية والدينية.

ومتى استطاع الاقتصاد العولمي، بالمعنى الذى أسلفناه ، استكمال انتشاره وتغلغه بالشركات «المتعدية» القوميات ، فإن الأدوات العولمية ، المتاحة اليوم، تكون قد مهدت السبيل لحقبة العولمة الحقيقية على كافة المستويات.

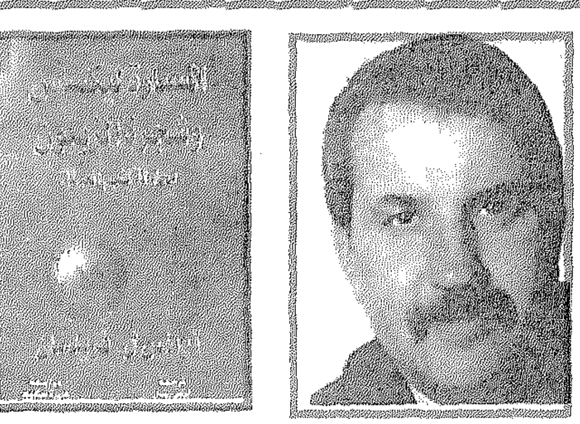
ولست على يقين من تحقيق ذلك فى المدى القريب ، غير أننى على ثقة أن كتاب فريدمان سيصبح كالنكتة القديمة، ويطرح من أرفف المكتبات ، ليثوى على أرصفة سور الأزبكية.


توماس فريد مان


غلاف الكتاب

تسويق و«تزويق» العولمة

مراجعة نقدية لكتاب «توماس فريدمان» : السيارة ليكساس وشجرة الزيتون



بقلم :

د. محمود عبدالفضيل

ساد خلال السنوات الأخيرة خطاب تبشيرى يروج للعولمة ومزاياها وقدرتها على تعميم الرخاء والمساواة بين البشر والاستفادة من أحدث إنجازات العلم والتكنولوجيا، من خلال ضغط المسافات و«تقريب البعيد»، بحيث تضيق الفروق بين الشمال والجنوب وبين الفقراء والأغنياء، فى اطار مايسمى بـ «القرية الكونية». ورغم أن هناك إنجازات لا يمكن إنكارها فى مجالات ثورة الاتصالات والمعلومات، مثل الإنترنت والحاسب الآلى وثورة الإليكترونيات الدقيقة، فإن هذا التقدم فى جبهة التكنولوجيا والمعلوماتية لا يوازيه أية تقدم فى المجال الاقتصادى والاجتماعى والثقافى، ولذا نجد أن «خطاب العولمة» السائد يحاول أن يركز على الجوانب المشرقة والمضيئة على صعيد الإنجازات التكنولوجية، ويحاول تجاهل أو طمس الفروق والتناقضات فى مجال التطورات الاقتصادية والاجتماعية فى ظل العولمة.

ويعتبر كتاب «السيارة ليكساس وشجرة الزيتون» : محاولة لفهم العولمة، للكاتب الصحفى الامريكى «توماس فريدمان» ، الصادر فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٩٩، نموذجا فريدا لهذا النهج ؛ إذ يسعى الكتاب إلى تسويق وترويج العولمة، باعتبارها طوق النجاة وطريق المستقبل لكل بلدان العالم على اختلاف مستويات تطورها ونموها. والكتاب حافل بالقصص والحواديت التى

تمتلىء بالتمجيد لآليات العولمة، وتحوى فى ثناياها التهديد والوعيد لكل من يقاوم أو يخرج عن دائرة العولمة .

وسوف نقتصر هنا على الإشارة لبعض أهم القضايا والأطروحات التى يحويها الكتاب .

معادلة «السيارة ليكساس» مقابل «شجرة الزيتون» :

في تقدير «فريدمان» أن «السيارة ليكساس» و«شجرة الزيتون» رمزان جيدان لتناقضات العالم المعاصر. «فالسيارة ليكساس» - السيارة اليابانية الفاخرة - هى رمز السرعة والتقدم والرفاهية، وسعى الانسان نحو التقدم والازدهار والتحديث، فى ظل العولمة. بينما «شجرة الزيتون» ترمز إلى الجذور والأصالة والانتماء والتمسك بالأرض والعادات والتقاليد، فهى تمثل دفء العائلة وبهجة التفرد والاعتزاز بالنفس والأمان .

والسؤال المركزى يكمن فى كيف يمكن تحقيق التوافق بين : الإحساس بالوطن والانتماء، من ناحية، وبين السعى نحو الرقي والتقدم والازدهار والتحديث فى ظل العولمة، من ناحية أخرى، وبهذا الصدد، يحاول «فريدمان» إقامة تناقض مصطنع بين السعى للرقى والتقدم والازدهار، من ناحية، وتذويب «الهوية والانتماء» فى اطار مدارات العولمة، من ناحية أخرى، فالانخراط فى مسارات العولمة والسوق العالمية، بأى ثمن، هو الطريق الوحيد للتقدم والازدهار. بينما الاحتفاظ بالهوية، والاحتفاظ ببعض «الأسوار الحمائية»، هو طريق التخلف والاندثار .

ولا يرى الكاتب أن إقامة «التوازن الصحى» بين الاثنين قضية ممكنة.. بل ضرورية . ولكننا اذا نظرنا إلى حالة كل من «الصين» و«ماليزيا» و«الهند» ، نجد أن «حل المعادلة» كان على النحو التالى : «أن أتشبث بهوية شجرة الزيتون الفريدة البلادى، وإن أدى ذلك الى «انخفاض كفاءتى الاقتصادية قليلا» ! إذ ليس هناك حتمية أن معادلة : «قوى السوق «قوى رأس المال» + «التكنولوجيا الحديثة» (قوى العولمة)، سوف تجتاح فى طريقها كل «شجرة زيتون» وتسحقها، على نحو ما يوحى كتاب «فريدمان» ، ليبث الرعب فى القلوب» .

عصا العولمة التأديبية :

لم يعد «صندوق النقد الدولى» ذلك الجهاز الذى يتحكم فى مقادير بلدان

العالم الثالث فى ظل العولمة . إذ إن هناك قائد جديد للأوركسترا فى أسواق المال الدولية يقوم بحبس تدفقات الاستثمارات والأموال عن البلدان التى «تسير على العجين وتلخبطه»! وأن هيئة الأركان الناشئة، التى تدير أسواق المال العالمية هى: وكالات التقييم والتصنيف الدولية (credit - rating agen-cies)، التى تصنف الاقتصادات النامية وتعطيها درجات مثل «التلاميذ» A, B, C† وبشرطة وبشرطتين. وبالتالى فهى «تخفض» من تشاء و«ترفع» من تشاء من اقتصادات بلدان العالم النامى، حسب درجة الانصياع لقواعد وآليات العولمة .

ولقد بدأنا نسمع فى التسعينات عن تلك المؤسسات والوكالات الجديدة التى نصبتها دوائر رأس المال العالمى، كشرطى المرور، الذى يضىء «الضوء الأحمر» و«الضوء الأخضر»، وقلما «الضوء البرتقالى»، أمام تحركات الأموال وتدفقات الاستثمارات «عبر بلدان العالم»، وأصبح اليوم هناك دور كبير ومغالى فيه لتلك «المؤسسات التقييمية» ، وعلى رأسها :

- ستاندرد آند بورز
- موديز
- آبيكا

ويسوق «فريدمان» مثالا مهما وناصعا، يوضح أهمية الدور الخطير الذى تلعبه تلك «المؤسسات التقييمية» فى ظل نظام العولمة. فعندما أجرت الهند، تجربتها النووية أخيرا بتفجير قنبلتين، يقرر «فريدمان» من خلال ثنائية «السيارة ليكساس وشجرة الزيتون» : «أنه على الرغم من أن دوافع شجرة الزيتون الهندية تفوقت فيما يبدو على حاجاتها للسيارة ليكساس فإنه عندما يحدث ذلك فى ظل نظام العولمة فى يومنا هذا، يكون له دائما ثمن غير ظاهر على المدى البعيد».

ثم إذا به يميط اللثام عن ذلك «الثمن غير الظاهر» الذى دفعته الهند. ففى أعقاب إجراء التجارب النووية الهندية، قررت «وكالة موديز» خفض تصنيف الاقتصاد الهندى من «مرتبة الاستثمار» التى تعنى أنه اقتصاد آمن للمستثمرين العالميين، الى «مرتبة المضاربة»، التى تعنى أن هناك مخاطر تحيط بالاستثمار فى الهند. كما غيرت وكالة «ستاندراد آند

بورز» للتصنيف الاقتصادى تقريرها عن «الاقتصاد الهندى» من «مستقر» الى «سلبى». وذلك من شأنه أن يؤدى الى أن تدفع أى شركة هندية تحاول اقتراض اموال من الأسواق الدولية «أسعار فائدة» أعلى، وبالتالى ترتفع تكلفة الاقتراض من أسواق المال العالمية بالنسبة للاقتصاد الهندى.

وهكذا فإن «نظام العولمة» الذى يتم التبشير له، له جهاز شرطة خاص به يرصد تحركات الذين لا ينصاعون انصياعا كاملا «لقوانين العولمة» ، ويبادر بالقيام بعمليات التأديب الاقتصادية اللازمة. ويقطع عنهم «النور والمياه» ليعوق مسيرة التنمية «بالشروط الوطنية». وهل هناك تخويف وترهيب اكثر من ذلك!

وهكذا أصبحت «وكالات التقييم» الدولية (rating agencies)، تحل محل «وكالات المخابرات» (intelligence agencies)† فى تأديب الحكومات فى بلدان العالم الثالث، وإسقاطها عند اللزوم .

القطيع الإليكترونى و«مراعى العولمة» :

تتمثل الرسالة الأساسية لكتاب «فريدمان» فى المقولة التالية : «إن العولمة ليست اختيارا.إنها حقيقة اليوم. لا يوجد سوى سوق عالمية واحدة الآن، والطريقة الوحيدة التى تستطيع أن تنمو بها بالسرعة التى يريدها شعبك هى بالانفتاح على أسواق الأسهم والسندات العالمية، وبالسعى إلى الشركات متعددة الجنسية لكى تستثمر فى بلادك» (ص ١٦١ من الطبعة العربية) . وتلك مقولة نسمعها تردد كثيرا فى بلادنا خلال السنوات الأخيرة .

ولكن تلك السوق العالمية هى فى تقديره، «قطيع إليكترونى» من المستثمرين متعددى الجنسية ومجهولى الهوية فى الأسهم والسندات والعملة، متصلين ببعضهم البعض بالشاشات والشبكات، وان مراعى القطيع الآن باتساع ١٨٠ دولة. (ص ١٦٢ من الطبعة العربية). ولذا فإن المطلوب هو مزيد من فتح الأبواب والأسواق والحدود أمام «القطيع الإليكترونى» لكى يمرح بلا ضوابط أو قيود .

ويحاول «فريدمان» أن يوهمنا أن مايسميه «القطيع الإليكترونى» مجهول الهوية، والجنسية! وكأن هذا «القطيع»

ليس له رأس مدبر وموجه. وفي مكان آخر من الكتاب، يناقض نفسه بنفسه عندما يتوجه «فريدمان» بالحديث الى «مهاتير محمد» رئيس وزراء ماليزيا ، المتمرد على قواعد العولمة ، ويهدده بالقول : « لا تطلب الرحمة من القطيع . ولا تندد بالقطيع وتقول إنها «مؤامرة يهودية » ولكن عليك فقط أن تنهض وتزيح الأتربة عن ملابسك ، وترتدى قميص القيد الذهبى أضيق قليلا وتعود مرة أخرى الى أحضان القطيع »

«إن نظم الحكم الديمقراطية تصوت على سياسات الحكومة مرة كل عام أو أربعة أعوام . (ص ١٦٢ من الطبعة العربية).

ورغم إصرار «فريدمان » على أن «الدول لا تستطيع أن تحقق الازدهار فى عالم اليوم ما لم تلتحم بالقطيع الإليكترونى » ، فإنه يعود ليؤكد أن تلك البلدان : «لن يكتب لها البقاء ما لم تتعلم كيف تحصل على أفضل ما يمكن من هذا القطيع بدون أن تنسحق تحت أقدامه أو تصدمها اندفاعته العارمة المحتومة .. إذ إن هذا «القطيع الإليكترونى» يشبه تماما سلكا كهربائيا يمر به تيار ذو فولت مرتفع يصل إلى داخل بيتك فى الأوقات العادية يمكن أن يدفئك . ويضيئ لك المنزل ، ويوفر لك الكثير من احتياجاتك من الطاقة. ولكن إذا لم يكن لديك منظم التيار الكهربائى السليم والأدوات الواقية من الاندفاع العارم ، ثم حدث اندفاع عارم أو هبوط مفاجئ ، فقد يصعقك ، أو يقليك حتى تصبح هشا ويتركك جثة هامدة» (ص ١٦٤ من الطبعة العربية) .

وتلك بالتحديد هى القضية التى تصدى لها «مهاتير محمد » فى ماليزيا ، أى البحث عن «منظم » يحد من اندفاعات وغارات ذلك «القطيع الإليكترونى » ، الذى تحركه هيئة أركان فى نيويورك ، ولندن ، وزيورخ ، وباريس فلماذا كل هذه الغضبة على «مهاتير محمد » الذى حاول حماية اقتصاده من غارات «القطيع الإليكترونى» الهائج !

ويرى «فريدمان » أن «القطيع الإليكترونى» يتكون من مجموعتين رئيسيتين :

(أ) مجموعة منها أطلق عليها اسم «الماشية قصيرة القرون » ، وتضم هذه المجموعة كل من يشارك فى عمليات بيع

وشراء الأسهم والسندات والعملات فى أنحاء العالم ، وهم يستطيعون دائما الكر والفر بأموالهم هنا وهناك فى المدى القصير جدا . وهم تحديدا : المتعاملون فى العملة ، والصناديق المشتركة وصناديق المعاشات الرئيسية ، وصناديق «التحوط» ، وشركات التأمين ، وغرف التجارة المصرفية والمستثمرون الأفراد . ولا بأس بهذا التوصيف ، ولكن «فريدمان» لا يحدثنا عن من ذا الذى يقود ذلك «القطيع الإليكترونى » قصير القرون؟!

(ب) أما المجموعة الأخرى ، فيطلق عليها «فريدمان» اسم «الماشية طويلة القرون » ، وتتمثل فى « الشركات الدولية الكبرى » متعدية الجنسية – مثل شركات جنرال إليكتريك ، أو جنرال موتورز ، أو آى بى إم ، أو إنتل ، أو سيمنز – التى تتزايد مساهمتها فى الاستثمارات الأجنبية المباشرة ، أو بناء المصانع حول العالم ، أو إبرام صفقات أو تحالفات إنتاجية طويلة المدى مع مصانع حول العالم لصنع منتجاتها أو تجميعها . وهى شركات عليها تقديم التزامات طويلة المدى عندما تستثمر فى دولة ما ، ولكنها مع ذلك أصبحت اليوم تتحرك دخولا وخروجا مثل القطيع بسرعة تثير الدهشة » (ص ١٦٥ من الطبعة العربية)

والحقيقة أن تلك السرعة تثير «الخوف» ، من إعادة توطين أنشطة الشركات الدولية بين الدول ، حسب المصالح العليا لتلك الشركات ، بغض النظر عن انتظام واستقرار عمليات التنمية فى البلدان المستقبلة والمضيفة لتلك الاستثمارات .

«الديمقراطيات الثلاث» في ظل العولمة :

يتحدث «فريدمان» فى كتابه عن «الديمقراطيات الثلاث » : (ص ١٢٠ من الترجمة العربية)

- ديمقراطية التكنولوجيا (أجهزة كمبيوتر منزلية للجميع)
- ديمقراطية التمويل (بطاقات الائتمان للجميع)
- ديمقراطية المعلومات (الإنترنت للجميع) .

بيد أن تصوير الأمور على هذا النحو المثالى (أو «الطوباوى») هو نوع من التدليس على القراء ، خصوصا فى بلدان العالم الثالث . لأن المؤلف يحاول أن

يوحى للقــراء أن مــعظم المواطنين فى بلدان العـالم الثـالث ، يتـمـتـعـون بـنفس التسهيلات التى يتمتع بها المواطنون فى الولايات المتـحـدة الأمـريكيـة ، وبلدان العالم الأول عموما .

ولحسن الحظ ، فإن التـقـرير الدولى للتنميـة البـشرية لعـام ١٩٩٩ ، الصـادر عن برنـامـج الأمم المتـــحـــدة للإنمـاء (UNDP) قـد سلط الضـوء على بـعض التنـاقـضـات والمفـاوضـات الاقتصادية والاجتماعية الصارخة فى ظل العولمة ، كما تبدو فى العام الختامى للقرن العشرين . ولعل أهم المفارقات فى مـجـال احـتكار منجـزات التكنولوجـيـا والثقافة :

– تمتلك الدول الصناعية نحو ٩٧ ٪ من براءات الاختراع فى العالم اليوم .

– تحتكر الأفلام الأمريكية ٧٠ ٪ من جملة السوق الأوربية ، ٨٣ ٪ من جـملة السوق الأمريكية اللاتينية .

– يكاد يكون اسـتـخـدام شـبـكة الإنتـرنت مـقـصـورا على الأشـخـاص البـيض، وعلى المتـعلمين بشكل جيـد ، فضـلا عن أن أكثر من ٨٠ ٪ من جميع المواقع الموجـودة على الشـبكة مكتـوبة «باللغــة الإنجليـزية» ، على الرغم من أن عدد الناطقين بها يشكل واحد مقابل كل عشرة على مستوى العالم أجمع .

– يبلغ عدد أجهزة الكمبيوتر الموجودة حـاليـا لدى الولايات المتـحدة وحدهـا مـا يفوق مجموع أجهزة الكمبيوتر لدى بقية دول العالم بأكمله .

– يقل عدد مستخدمى شبكة الإنترنت فى منطقة جنوب آسيا ، التى يعيش بها نحـو ٢٣ ٪ من سكان العـالـم ، عن ١ ٪ من إجـمـالى مـسـتـخـدمى الشـبكة على مـسـتـوى العـالم كله . وفى دولة مـثـل بنجلاديش ، قد تصل تكلفة شـراء جهاز كمبيـوتر شخصى واحد إلى مـا يوازى دخل المواطن خلال ثمانية أعوام كاملة ، فى حين يسـتـطيع المواطن الأمـريكى شراءه من دخله فى شهر واحد .

«ثـوار العـولمـة» و«الديمقراطيـة الجـديدة» !

يشير «فـريدمان » الى قضيـة مـهمة وخطيرة، إذ يشير إلى إن الانضمام إلى الاقـتـصـاد العـالمى والالتـحـام بالقطيع الإليكتـرونى يعـادل تمامـا طرح دولتك للاكتتـاب العـام . إنه شئ يعادل تحويل بلدك إلى شركة عامة ، مع اختلاف واحد

هو أن حملة الأسهم لم يعودوا مواطنى بلدك وحدهم . إنهم أعضاء القطيع الإليكترونى، أينما وجدوا. وكما ذكرت سابقا ، إنهم لن يدلوا بأصواتهم مرة واحدة كل أربع سنوات ، إنهم يدلون بأصواتهم كل ساعة ، وكل يوم من خلال صناديقهم المشتركة ، وصناديق المعاشات، وسماسرتهم ، وأكثر فأكثر ، وذلك عبر الإنترنت وهم قابعون فى بدرومات منازلهم (ص ٢٣١ - ٢٣٢ من الترجمة العربية) ووفقا لهذه الرؤية ، أصبح ذلك «القطيع الإليكترونى» يتحكم فى مصائر الشعوب والحكومات .

ويراهن «فريدمان» على الجيل الجديد من «الطبقة الوسطى » ، ممن يسميهم «ثوار العولمة » ؛ إذ لاحظ فريدمان أن ما يجمع هؤلاء الشباب الذين تتراوح أعمارهم ما بين عشرين وثلاثين عاما فى صفة مشتركة هو رغبتهم فى أن يصبحوا أثرياء ، وأنهم يريدون الديمقراطية ، ولكنهم لا يريدون الخروج الى الشوارع والقتال من أجلها.

ويرى أن خير مثال لذلك هو ذلك الجيل من الإندونيسيين الذين اعتقدوا، أنه فى ظل حكم سوهارتو ، لن تحدث قط ثورة ديمقراطية من أعلى ، ولكنهم فى نفس الوقت يشعرون بالذعر من الثورة الديمقراطية القادمة من أسفل ، لأنه إذا ثار فقراء المدن ، فإن ذلك سوف يعرض أحلامهم وأوهامهم عن الثراء للخطر ولذلك كانت استراتيجيتهم تقوم على الثورة من خارج الحدود ، أو العولمة. وكانوا يأملون أنه بربط إندونيسيا.بالمؤسسات والأسواق العالمية - سواء كانت منظمة التجارة العالمية ، أو بيتزاهت ، أو منتدى التعاون الاقتصادى بين دول آسيا والمحيط الهادى (آبيك) ، أو اتحاد دول جنوب شرقى آسيا (آسيان) ، أو شركة ميريل لينتش ، أو منظمات حقوق الإنسان «غير الحكومية» N C O's - سوف يتسنى لهم استيراد المعايير والنظم القائمة على القواعد التى يعلمون تماما أن النظام من أعلى لن يبادر بتطبيقها ، ولا يمكن أيضا أن تنبثق من أسفل .

وهكذا كانت استراتيجية «ثوار العولمة» فى إندونيسيا باختصار هى عزل نظام سوهارتو عن طريق "عولمة المجتمع الإندونيسى" . (ص ٢٣٣ - ٢٣٤ من الترجمة العربية) .

فهل أدركنا طبيعة «ثوار العولمة » ، على الطريقة الأمريكية وأعتقد أنه لو تلفتنا حولنا هنا فى مصر ، سوف نتعرف على الكثير من «ثوار العولمة » ومعاقل هؤلاء الثوار .

مناقشة هادفة ..

تحرير المرأة بين محمد عبده وقاسم أمين

بقلم : د. محمد رجب البيومى

منذ أمد غير بعيد، تحدثت إحدى الصحف اليومية عن ندوة أدبية فى منزل الأستاذ أحمد حسن الباقورى، فذكرت أن صاحب الندوة قد قرر فى حديث شامل أن الأستاذ الإمام محمد عبده هو الذى كتب «تحرير المرأة» وعزاه إلى قاسم أمين، وكنت أعرف أن الأستاذ الباقورى مريض يعانى آلام الشلل فى هذه الحقبة فاستبعدت اولا أن يصدر هذا القول من فاضل مثله، ثم عزفت ثانيا عن الرد عليه، ما دام لم يكتب مقالا بتوقيعه ، وما دام الحديث المشار اليه قد تردد فى مجلس، وقد تزيد الراوى فيتحدث عما لم يكن كأنه قد كان، وهو داء قديم صرخ منه الشريف الرضى حين قال:

وهم نقلوا عنى الذى لم أفه به
وما آفة الاخبار إلا رواتها

هذه واحدة، أما الثانية فقد خرجت إحدى الصحف (الشعب) الصادرة بتاريخ ١٩٨٤/٥/٢٩ بمقال تحت عنوان «قاسم أمين دافع عن حجاب المرأة ثم تراجع عنه بعد تدخل الأميرة نازلى!» قالت فيه ما نصه:

«وقد كان هذا الكتاب ـ تحرير المرأة ـ نوعا من الاعتذار للأميرة نازلى فاضل التى اغضبها كتابه الأول، فقيل إن الشيخ محمد عبده ومحمد المويلحى وسعد زغلول اتفقوا على ان يقدم قاسم الاعتذار للأميرة نازلى، وقبلت الأميرة الاعتذار، وظل قاسم أمين يتردد على صالونها، وكانت النتيجة أن دفع قاسم أمين الثمن غاليا، فأخذ يتجنى على الحقائق ويحاول أن يلوى عنقها حتى خرج كتابه «تحرير المرأة» الذى أقام الدنيا ولم يقعدها . حتى ترضى عنه سيدته ومولاته الأميرة نازلى وتقبله فى


محمد عبده


قاسم أمين

صالونها».

قرأت هذا الكلام المتهافت!! فعجبت أن يكون من هم محمد عبده وسعد زغلول ومحمد المويلحى أن يلتمسوا رضا الأميرة!! وأن يكون قاسم مستعدا لمخالفة رأيه كى يحوز رضاها! عجبت كيف يصدر هذا الكلام عن كاتب يعرف من هو محمد عبده ومن هو سعد زغلول، ومن هو محمد المويلحى؟ ثلاثة أعلام كبار أولهم زعيم النهضة الفكرية فى عصره، وثانيهم بطل الرأى الصريح الذى صار فيما بعد زعيم الشرق لا مصر وحدها، ومحمد المويلحى أكبر كاتب فى عصره. وقد كان كل رئيس يقرأ «مصباح الشرق» متلهفا، ومحاذرا أن يمسه قلم المويلحى فيعصف بمكانته ! هؤلاء جميعا يتآمرون «فى لهفة» على قاسم كى ينحنى اجلالا لنازلى فاضل؟! ومن قاسم البطل الذى تحدى أكبر رأس فى الدولة كما سيجىء!. ان تهافت هذا المنطق جعلنى لا أحفل بالرد عليه،! اذ لا يقوله كاتب مسئول.

وهذه ثانية . أما الثالثة، فقد قرأت فى جريدة «صوت الأزهر» وهى جريدة ممتازة أرجو لها الازدهار، قرأت بعددها الصادر فى ١٩٩٩/١٢/١٠ مقالا تحت عنوان «تصويب أخطاء حول قاسم أمين وكتابه تحرير المرأة» ذهب فيه كاتبه الفاضل إلى أن التطور الفكرى لقاسم أمين يرجع إلى اتصال قاسم أمين بمحمد عبده، والذى أدى الى اشتراك محمد عبده فى هذا الكتاب بكتابة المقالات الخاصة بالنواحى الفقهية والشرعية، والذى جعل قاسم أمين بعد ان كان محافظا على الأوضاع. والتقاليد القائمة، يتبنى فكر مدرسة الأفغانى ومحمد عبده، ويدور المقال كله على أن محمد عبده قد كتب مقالات فى كتاب تحرير المرأة، ومن مراجع الكاتب التى اعتمد عليها ما كتبته الدكتورة درية شفيق بنت أحمد شفيق باشا! فى كتابها «تطور النهضة النسائية فى مصر» حيث نصت صراحة على أن الذى شارك قاسم أمين فى هذا العمل هو محمد عبده!. أما أن درية شفيق هى بنت أحمد شفيق باشا المؤرخ المعروف فهذا من استنتاج الكاتب ليعطى مثلا واضحا لسائر ما اهتدى اليه من الاستنتاجات التى لا تقف على قدم

وساق!.

وندع الآن أمر الاميرة «نازلى فاضل» فسنتحدث عنه بعد حين لنتساءل من هو محمد عبده الذى يجبن عن نشر آرائه الشرعية فيتستر بقاسم أمين لنشرها فى كتابه تحت مسئوليته متخلصا من تبعتها وسوء تأثيرها:؟ ومن هو قاسم أمين الذى يقبل أن يضع اسمه تحت مقالات كتبها سواه؟ هما إنسانان خاملان، يخشى احدهما كلام العامة، ويحتاج الآخر الى من يهديه طريق الصواب خفية ليكون صاحب رأى مسموع؟ أهما هذان الخاملان الصغيران فنصدق كل ما يقال عنهما؟ أم هما محمد عبده وقاسم أمين ؟ وناهيك بهما!.

شجاعة خارقة

أما محمد عبده فلم تكن تنقصه شجاعة الرأى، حتى يقال أنه تستر بكاتب آخر، فقد عرفت عنه شجاعة خارقة وهو فى سن الشباب الباكر، اذ عين رئيسا لتحرير الوقائع المصرية، وكانت حينئذ تكتفى بنشر الأخبار الحكومية والمراسيم الادارية، وما يدور حول هذا النطاق، وفى المناسبات تنشر القصائد المادحة للحاكم، ولكن الشاب الناهض قبل ان يقرأ الصحف الاجنبية فطن بذكائه إلى أن الصحافة ذات رسالة توجيهية، فاختار لمعاونته طائفة من تلاميذ جمال الدين الأفغانى ليكتبوا ما يرون من وجوه الإصلاح فى ضوء ما سمعوه من أستاذهم الكبير، ومنهم سعد زغلول وابراهيم الهلباوى وابراهيم اللقانى، وأعد لائحة اقرها رياض باشا تعطيه الحق فى انتقاد ما يراه مخالفا من أعمال النظارات «الوزارات» ،وهذا الحق جعل محمد عبده مشرفا ولأول مرة فى تاريخ الصحافة المصرية على «النظار» أنفسهم حين يصدرون القرارات فى غير الصالح العام، وقد كان على ابراهيم باشا ناظر المعارف اذ ذاك يظن الوقائع جريدة اخبار حكومية فحسب، ففزع حين رأى الشيخ محمد عبده الشاب الازهرى الناهض ينتقده فيما أصدر من قرارات لا تتفق والعدالة، فثار كالعاصفة واتجه متعاليا الى رئيس النظار رياض باشا يخبره بغضبه الشديد على هذا الشيخ الذى يقف فى وجه قراراته. فصب عليه رياض دلوا من الماء حين اخبره ان مهمة الصحافة هى مراقبة أمور الدولة وعلى الناظر أن يراجع ما توجهه الوقائع من نقد، فإذا كان صوابا فلابد أن يلتزم به، ويعمل على تغيير الوضع، واذا كان خطأ بادر بالرد السريع لينشر فى الجريدة فى أول عدد يصدر ، وكان الرد غريبا على الباشا الذين ظن انه لا ينتقد فى شيء مهما فعل، فكيف يتطاول شيخ معمم هذا التطاول، ولم يكتف الشيخ بجريدة الوقائع حيث سمح له رياض باشا ان يراقب ما ينشر فى غيرها من الصحف الأخرى. فعرف ان جريدة تستند الى مسئول كبير ينفق على اعدادها، لتكون

لسانا ينطق بمحامده، أخذت تهمل اللغة الصحيحة فى التعبير وتتورط فى نشر دعابات ماجنة هى الى مجالس البطالة أقرب. فأصدر أمره «وقد صار رئيسا لقلم المطبوعات» بتعطيل الجريدة شهرا، على ان تستأنف الصدور بعد اختيار الأكفاء من المحررين، وممن ينأون عن الاسفاف، وكان القائم على الجريدة يظن انه فى حماية من ينفق عليها، فكتب مقالا ساخرا بالشيخ، واحترز ان ينشره قبل أن يقرأه سيده، فذهب اليه ليأخذ موافقته على النشر متحديا قرار التعطيل، وهنا قال له صاحبه: إن ناظر المعارف قد اجتمع بثلاثة من زملائه كى يقنعوا رياض باشا بنقل الشيخ محمد عبده الى مكان آخر، فرفض ، وقال انه رجل المواقف ! ولن استطيع معه شيئا، فتخاذل المحرر، وتعطلت الجريدة أمدها المعلوم ، وبدأت فسارت على النهج.

دور شجاع

وحين قامت الثورة العرابية كان محمد عبده مستقل الرأى فى بدئها، ينصح خصومها بالرفق، واجابة المطالب المشروعة وينصح الزعيم أحمد عرابى بالتؤدة، ومراعاة ظروف البلاد الخاضعة لسلطان انجلترا وجبروتها، فلما تأزم الأمر انضم إلى الثورة مع أنها لم تأخذ بآرائه وكان هو الذى كتب عريضة عزل الخديو، ليوقعها كبار العلماء واعيان البلاد، وجاهر باعلان خيانة الخديو حين استعان بالاجنبى على بنى وطنه!!. وهذه شجاعات متعددة النواحى، وتفصيلها يحتاج الى كتاب حافل، ثم انتهت المأساة فحكم على الشيخ بالمنفى ليستأنف جهادا آخر! وكان أكثر الذين ابتلوا بالنفى قد اخذوا يهادنون الانجليز والخديو كى يسمح لهم بالعفو، والرجوع الى البلاد، ولكن محمد عبده تسأله صحيفة انجليزية – وهو فى منفاه - عن توفيق. فيعلن انه خائن ، وأنه قد باع البلاد للانجليز . يعلن ذلك وهو يعلم تمام العلم أن ذلك يعوق خلاصه من منفاه! ولكن الرجولة ذات ثمن فادح لا يقدر عليه غير العظماء!.

وحين عاد الى مصر حاول ان يكون صديقا للخديو عباس، وعرض عليه أن يتعاونا معا فى إصلاح الأزهر وهو خارج عن نطاق الاحتلال، واطمأن الشيخ لمحاولته، ولكنه وجد الخديو يريد ان يستولى على أوقاف الأزهر بمبادلة مرفوضة، فوقف فى طريقه . وبدأت الغيوم تلبد بتوالى رغبات القصر غير المشروعة حتى كان الخصام الصريح، والعداء السافر فليت شعرى أهذا البطل الصريح فى كل هذه المواقف الخطيرة فى حاجة إلى أن يصدر رأيه الشرعى من خلف ستار!.

أترك هذه المواقف السياسية إلى المواقف الشرعية ذات التأثير النفاذ، لأعلن أن الشيخ جاهر صراحة فى مقالاته وفتواه بمثل ما جاهر به قاسم قبل أن

يصدر كتابه، وبعد أن صدر وقامت عليه القيامة الهائجة، حيث أن الإمام تحدث صراحة عن تعدد الزوجات بأكثر مما تحدث به قاسم أمين، فقد كتب فى جريدة الوقائع المصرية قبل أن يصدر تحرير المرأة بخمسة عشر عاما يقول إن الشريعة المحمدية اباحت للرجل الاقتران بأربع من النسوة، إذا علم من نفسه القدرة على العدل بينهن ، وإلا فلا يجوز الاقتران بغير واحدة، فكيف يسوغ لنا الجمع بين نسوة لا يحملن على جمعهن الا قضاء شهوة فانية، واستحصال لذة وقتية غير مبالين بما ينشأ عن ذلك من المفاسد ومخالفة الشرع الشريف. ثم قص الامام بعض ما يحصل فى الأسر من المفاسد الموبقة نتيجة لتعدد الزوجات لينتهى الى قوله «فهذه معاملة غالب الناس عندنا من أغنياء وفقراء فى حالة تعدد الزوجات، كأنهم لم يفهموا حكمة الله فى مشروعية الزواج، بل اتخذوا التعدد طريقا لصرف الشهوة، واستحصال اللذة لا غير وغفلوا عن المقصد الحقيقى منه وهذا ما لا تجيزه الشريعة، ولا يقبله العقل، فاللازم عليهم حينئذ اما الاقتصار على واحدة اذا لم يقدروا على العدل كما هو مشاهد، واما ان يتبصروا قبل طلب التعدد فيما يجب عليهم من شرط العدل».

هذا القول المدون فى الوقائع ، وقد نقله الاستاذ محمد رشيد رضا فى الجزء الثانى من تاريخ الامام ص ١٢٧ وما بعدها، قد أكده الامام فى أخريات حياته بدروس التفسير بالازهر، وقال صراحة فى تفسير المنار حـ ٤ ص ٣٤٩ «إن من تأمل ما يترتب على التعدد من المفاسد جزم بأنه لايمكن لأحد أن يربى أمة فشا فيها تعدد الزوجات وسبب ذلك بين عند العقل وعند التجربة ، فإن مفسدة التعدد تنتقل من الأفراد الى البيوت ومن البيوت الى الأمة بأسرها وقد بسط مايراه من تحريم التعدد بسطا شافيا، حين ربطه بالعدل، مع ان العدل ممتنع، لقول الله «ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم» ولست هنا انحاز انحيازا تاما لرأى الامام فلغيره من الادلة ما يعارض به عن اقتناع، ولكنى اقول: ان الامام لن يكون جبانا يتستر بغيره فينسب اليه ما يريد ان يقول، ولو وقع هذا من إنسان متحفظ يخشى العواقب، فمن المحال ان يقع ذلك من بطل شجاع!!.

واذا كانت شجاعة الامام تأبى عليه ذلك، فإن كرامة شجاع جرىء مثل قاسم أمين تأبى عليه أن يضع اسمه تحت مقال لم يقله ، وقاسم كما نعلم أجرأ كتاب عصره على الاطلاق، وأكرمهم على نفسه الأبية ذات الشمم المرتفع! وقد كان زملاؤه المستشارون من الاجانب يهابون معارضته ويحسبون كل حساب لعقله الحر، وكبريائه المتأبية، إذ كان من العزة النفسية بالمحل الارفع ، فيا الله أيكون مع هذا كله مستجيبا لاشارة تصدر من الاميرة نازلى

فاضل ومستجيبا لمحمد عبده وسعد والمويلحى فيمشى وراءهم الى مجلس الاميرة، وكأنه تابع صغير!.

مثل هؤلاء الذين يتوهمون ذلك فى حاجة الى ان يسمعوا ما قرره الاستاذ ابراهيم الهلباوى متحدثا عن كبرياء قاسم فى مناسبة جهيرة كانت ذات دوى رنان!.

قال الاستاذ ابراهيم الهلباوى بمجلة الهلال «نوفمبر سنة ١٩٢٣» فى حديث له عن قاسم أمين، بعد ان ذكر عداوة القصر لقاسم حيث اقفل بابه فى وجهه، فلا يحضر لمقابلة الخديو مع المستشارين زملائه كالمعتاد، جزاء وانتقاما منه لتأليفه كتاب «تحرير المرأة» قال الهلباوى:

«أذكر انا كنا ـ والمتحدث الهلباوى ـ ذات ليلة فى حفلة زواج عطية هانم الفلكى بالدكتور صالح صبحى وكانت الحفلة تجمع صفوة رجال مصر، وفى صدرهم قاسم، فإذا بأكبر امراء البيت الحاكم وأخو الخديو الشقيق «الأمير محمد على» يدخل فى تلك الحفلة، ويقف له كل من بالسرادق اجلالا واكبارا، الا رجلا واحدا كان موضع انظار الجميع، حيث لم يقف لذلك الامير الذى وقف له الجميع، كان هذا الرجل قاسم أمين».

لقد دفعت كرامة قاسم أمين على نفسه إلى أن يقابل الجحود بمثله، فاذا كان القصر قد منع ان يزوره مع الزملاء . فقد رد للقصر الجزاء مضاعفا، حين نظر الامير مدهوشا الى من يجلس فى الصدر وكأنه لا يحس بوجوده ! ولو كان يعلم أنه سيتلقى هذا الجزاء لامتنع عن الحفل، ولكن هذا ما كان.. بعد هذا يقال انه سعى للأميرة باشارة منها وأنه نزل على رغبة محمد عبده والمويلحى وسعد!!.

أما اختلاف وجهة النظر بين ما كتبه قاسم فى الرد على الدوق داركور وبين ما قرره فى كتاب تحرير المرأة من بعض الاحكام الشرعية فلا يقوله الا من ابتعد عن التأليف العلمى، ومعالجة القضايا الفكرية كل الابتعاد، لا يقوله الا ساذج سطحى لا يدرى ان المفكر قد يرى حكما فى مسألة فيسطره ثم يعن له رأى اخر فيميل اليه لوضوح أدلة لم تكن لديه من قبل! إن تلاميذ القسم الابتدائى بالأزهر يعرفون ان الامام الشافعى حين حضر الى مصر رجع عن كثير من أقواله التى قالها بالحجاز والعراق، اذ بدا له من اوجه النظر ما جعل مؤرخيه يتحدثون عن المذهبين. القديم قبل مصر، والحديث بعد الحضور اليها ! لقد صار هذا الاختلاف بابا من أبواب التقدير للشافعى رجع عن رأى بدا له فيه اتجاه اخر، فأفتى بما قام عليه الدليل، فهل نبحث هنا عن سيدة مصرية أوحت للشافعى بإشارة منها ان يترك بعض ما ذهب اليه من قبل، لان الاختلاف فى نظر هؤلاء مستحيل!.

هجوم ظاهر

لقد قرأ قاسم كتاب الدوق داركور فرأى صفحات من التجنى على المصريين

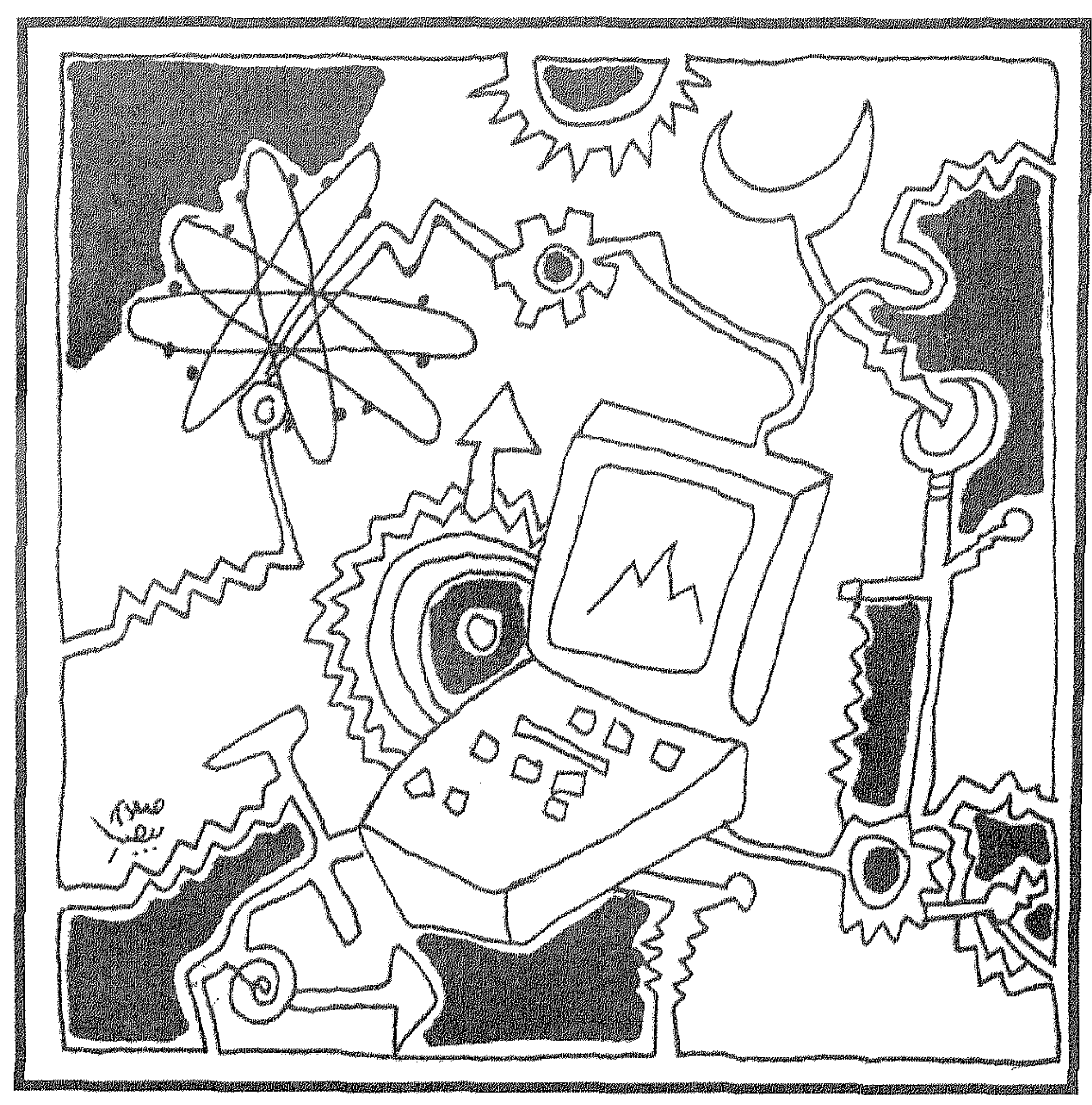
فهم فى انحطاط دائم لان دين الاسلام هو سبب هذا الانحطاط حيث لا يحض على البحث، اذ يعتقد المسلمون ان القرآن قد حوى كل شيء فلماذا نبحث، لذلك احرق عمر مكتبة الاسكندرية، والمرأة سجينة لان الاسلام افقدها حريتها، ولولا الذين دخلوا فى الاسلام من غير العرب ما عرف العرب التمدن لانهم بدو صحراويون.. هجوم ظالم كتبه اجنبى لا ليصف واقعا شهده ، بل ليدفع فرنسا الى المشاركة فى نهب هؤلاء الكسالى، كما ينهبهم الانجليز هذه هى الروح التى املت على الدوق بحثه الظالم واكاد اقول بحثه السفيه، لولا ان اخلاق الاسلام التى يجهلها هذا الظالم تحتم علينا ان نجادل بالتى هى احسن، وقد قرأ قاسم ما كتبه هذا المفترى فاندفع الى الرد على ما قاله بلغته الفرنسية ، ليثبت لقومه ان الدوق خاطيء مخطيء معا! وقد كان، ومما دفع به ان افرد للمرأة فى مرآة الاسلام صورة زاهية استمدها من القرآن والشريعة لا كما هى الآن فى تأخر وانكماش لا ذنب فيهما للاسلام.

لم ينته قاسم عند هذا الحد، ولكنه أمعن فى البحث فرأى ان المرأة سجينة على غير ما يدعو الاسلام، وان من واجبه ان يحررها مما يكبلها من الاغلال، فكتب الكتاب «تحرير المرأة» ليرجع بها الى حياة هى الاصيلة العريقة فى تاريخ الدعوة الاسلامية حين كانت المرأة ذات حرية نيرة فى عصر النبوة وما تلاه من عصور ساد فيها منطق الاسلام، ومضى يتحدث عن الحجاب، كما هو فى صميم التشريع لا كما يفرض على المرأة الآن. واستعان بآراء الفقهاء، فوجد ما يهديه وافاض فى حكمة تعدد الزوجات عند اللزوم مؤكدا ان تعدد الزوجات فى الاسلام خير من اتخاذ الخليلات فى اوربا، هذا الذى ينتج عنه اطفال بلا آباء، ويترك زوجات بلا ازواج، ويطبع جانبا من المجتمع بطابع الجريمة، ثم نادى بتعليم المرأة وتثقيفها، وهذا كله على هدى من قراءته المتأنية البصيرة، فلو وجد اختلاف ما بين ما كتبه فى الرد على الدوق داركور وما كتبه فى تحرير المرأة فهو ثمرة البحث المتواصل، والنظرات المتتابعة، وقانونى كبير مثل قاسم لابد ان يفهم من النصوص بتتابع النظر ما كان غائبا عند النظرة المتعجلة وقد قام العقلاء بتأييده .ونشرت مجلة «المنار» وهى اعلى المجلات الاسلامية حينئذ صوتا، وأوسعها انتشارا ما يبارك منحاه فأين من هذا ما اندفع فيه مهاجموه.

بقيت فرية تأثير الاميرة نازلى فاضل على محمد عبده وسعد زغلول، والزعم انهما صحبا .قاسم امين الى ندوتها فأظهر الامتثال! بقيت هذه الفرية لنذكر الحقيقة التى غابت عن الاذهان . فان الاميرة من بيت محمد على، وكان جدها مرشحا لولاية مصر باعتباره اكبر اعضاء

الاسـرة العلوية سنا، لولا ان الخـديو اسماعيل سعى لدى السلطان كى يجعل ولاية العـهـد فى بنيـه ، وبذل من المال ماسـاعده على ذلك، فـامتدت الجفـوة بين ذوى القـربى، وشـبت الامـيـرة وهى تعلم مكانها من الحكم المغتصب، وكان الخديو عباس يقاسمها العداء لانه يعرف حقيقة شعورها نحـوه، كما ان اتصالها الوثيق باللورد كرومر قد ساعد على امتداد هذه الجـفـوة بحـيث اصـبح صـالون الامـيـرة مصدر قلق للخديو عباس، وقد عملت على ازكاء غضبه . فأكثرت من صلاتها بكبار الانجليـز فى الخـارج والداخل وكـان اتجاهها سياسيا، اما الامام محمد عبده فقد كان رافضا لمسلكها السياسى حيث يرى ان تتجه الى اصلاح المجتمع لا الى الاحتكاكات السيـاسـيـة عديمة الجدوى، وفى مجلة الصبـاح المصرية الصـادرة فى ١٩٥٠/٧/٢١ ، حـديث عن الامـام مـحـمـد عـبده يعلن فـيـه مـخـالفـتـهـا فى نهـجـهـا السياسى وقد قال فيما قال نقلا عن مجلة «الصـبـاح» وهذه الأمـيـرة قـادرة على تأسيس عمل يفيد تهذيب البنات ، فان من حولها من الفتيات الغنيات ينفقن نفقات كثيرة اسرافا وتبذيراً . ولو انها حملتهن وامـثـالهن من النسـاء على انشـاء مـدرسـة لتربية البنات وتعليمهن واسـتـحضـرت لهن معلمات من اسـتـانبـول وسـوريا، لكان ذلك خـيـر عـمل تعـمله. ولطالما ذكرتـهـا بهـذا المعنى، وخطأتها فى الاشتغال بالسياسة، وكـان يسـوؤهـا هذا منى، لان النسـاء ولاسـيـمـا الامـيرات يحـببن الطاعـة وعدم المعارضة لهن فى آرائهن ، وأنا لا أجاريها فى احـاديثـهـا السـيـاسـيـة فـتـغـضب، واذا حضـر مجلسـها غيرى وتكلمت مـعه، كأنها لا ترضى أن اكون ساكتا، فتحملنى على المشـاركـة، وانا لا احب ان اجـاريـهـا فى شىء أعتقد خطأها فيه. وقد قلت لها يوما! ان سكت لا ارضيك وان تكلمت لا ارضيك فكيف العمل؟.

ماذا نأخـذ من قول الامام، نأخـذ منه ان الاميرة ذات مـيـول سيـاسـيـة ترجع الى مكانـهـا من الاسـرة الحـاكـمـة والى حق جدها المغتصب ، ولم يكن من همها صلاح المرأة وتربيتها وهى لم تسمع الى نصيحة الامام حين وجهها هذه الوجهة الاجتماعية افـتكون مـثل هـذه الامـيـرة حـريصـة على تحرير المرأة، ودافعة قاسم امين الى كتابة مؤلفه ، وليس فى بالها شىء ما عن مصر والمصـريات!! واذا كـان من الخطأ ان نتـحدث بما نسـمع دون تمـحيص فـان من اكبر الخطأ ان نكتب وننشر ما نسمع دون تمحيص لان دائرة القراء تتسع الى حيث تنتـشـر الأراجـيـف وتسـود الاوهـام ولهـذا كتبت هذه الخطرات.□



فى عام .. فى قرن .. فى ألفية

الأنجلو سكسون يعتبرون أنفسهم إسرائيل الحقيقية!

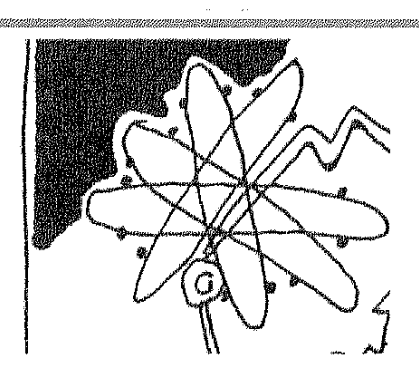
تزييف التاريخ فى كتب ومذكرات من التراث !

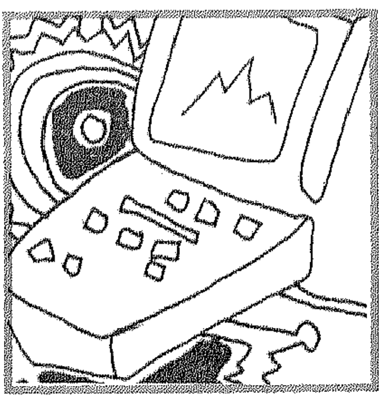
سيكون للكمبيوتر شخصية خاصة يحب ويكره !

بقلم : جـمـيل مطر

منذ أخذ الغرب ، ومن بعده كافة الحضارات بالتقويم الجريجوري لم يحدث سوى مرة واحدة أن جاءت بداية عام جديد بداية لقرن جديد وبداية لألفية جديدة . بمعنى آخر ، يحتفل العالم وللمرة الثانية فى التاريخ المعروف بمطلع عام، هو العام ٢٠٠٠ ، وبمطلع قرن هو القرن الحادى والعشرون وبمطلع ألفية جديدة هى الألفية الثالثة ، وهى مناسبة تستدعى التأمل . وكلما تأملت كلما ازددت اقتناعا أن العام الجديد عام مختلف في أشياء كثيرة عن أى عام آخر فى ألف عام ، بل ولعله الأشد اختلافا على مدى ألفى عام .

اعتدنا أن يأتى اليوم الأول من كل عام فنتذكر بالحديث أو بالكتابة ما حدث خلال العام الفائت ، ونتسلى تفاؤلا أو تشاؤما بما نتوقع أو ننتظر حدوثه فى العام التالى . ورغم هذه المهمة المتواضعة لكل أول يوم فى العام فقد كان له دائما مذاق خاص وكان موضوعا يستعد له الناس على أمل أن يكون بداية عام أفضل من العام الذى سبقه . كان يوماً له أهمية، فقد كان بذاته ولذاته يتسحق الانتظار والاحتفال . هذه المرة يختلف الوضع اختلافا كليا . فاليوم الأول من عام ٢٠٠٠ سيكون فى نفس الوقت اليوم الأول من القرن الحادى والعشرين واليوم الأول فى الألفية الثالثة ، فعلى أى واحدة من هذه المناسبات سيركز الناس اهتمامهم بهذا اليوم ؟ تكاد الاجابة على هذا السؤال تقفز من بين شفتى أى إنسان . سيقول نهتم به لأنه اليوم الأول فيها جميعا . ولكنى ، بعد قراءة ما كتب حتى الآن ، وما تحدث عنه المتحدثون فى قنوات التلفزيون المحلية والفضائية ، أكاد أؤكد أنها اجابة غير صحيحة أو على الأقل غير دقيقة ، بل وأكاد أشعر بتعاطف مع أول يناير / كانون الثانى كأول يوم فى العام





فى عام
فى قرن
فى ألفية

الجديد . فبالكاد يذكره قلة من الناس ، أكثر الناس يتحدثون عنه كيوم أول فى قرن ، أو كيوم أول فى ألفية .

ولكن هذا اليوم مظلوم لأسباب أخرى؛ إذ يأتى هذا اليوم فى وسط ثورة علمية وتكنولوجية لم يشهد العالم لها مثيلاً . وليس المهم الآن تفاصيل هذه الثورة انجازات واخفاقات ، الأهم هو موقعها منا وموقعنا منها وموقعنا جميعا فى التاريخ . يقال إنه فى أيام مماثلة فى القرن التاسع عشر ، وكان الناس يظنون أن العالم قفز فجأة نحو أقصى آفاق التقدم الممكن نظرياً وعملياً ، حدثت مناقشات مطولة فى معظم مراكز الثقافة والعلم فى أوروبا وأمريكا حول موقع البشرية فى ذلك الحين فى التاريخ . إذ لاحظ المفكرون أن التاريخ انزوى ، أو قل أخلى مكانه لاهتمامات أخرى شغلت الناس والعلماء والحكام ورجال الدين . البعض قال وقتها إن التقدم لم يترك لأحد وقتاً ليفكر فى مغزى مايحدث بالنسبة للتاريخ ، كان الميل واضحاً فى ذلك الحين تجاه انكار التاريخ وتجاهله ، إذ كانت الانتصارات فى مجال التكنولوجيا خلال الثورة الصناعية حافزاً للكثيرين لأن يتصوروا أن التاريخ وصل إلى نهايته ، أو على الأقل اقترب إلى نهاية قد يفقد معها معناه وأهميته .

ولاحظوا تطوراً آخر له مغزاه، لاحظوا أن عامة الناس انتابها خوف رهيب من المستقبل ، ومن تجاهل المفكرين والسياسيين للماضي والتاريخ . فجأة اكتشف الانسان أنه منزوع الجذور تاريخياً ، ومعصوبة عيناه فلا يرى ما هو قادم .. ولا يستطيع حتى تخيله ، فالتقدم كان متسارعاً إلى حد أن المستقبل صار حاضراً فى حين ، ومستحيلاً على التخيل فى حين آخر .

ولا يخفى على أحد أننا نعيش أياماً، إن اختلفت عن تلك الأيام الأخيرة فى القرن التاسع عشر ، فلأن وتيرة التقدم أسرع ، ولأن حجم التحولات فاق كل خيال وتجاوز قدرة الانسان العادى على

متابعتها . مرة أخرى يكتب مفكرون عظام عن نهاية التاريخ ، ومرة أخرى يعتقد الناس ، ولكن بحماسة أكثر ، أن هذه النهاية قد تحققت بالفعل والناس يعيشون بقايا التاريخ . مئات بل ملايين من البشر يتوقعون أن تقوم القيامة فى أى ليلة وبينما هم نيام ، ومنهم من استعجل قيامها فاستعد للانتحار . وعلى كل حال كانت نهاية التقويم ، سواء كان شهراً أو عاماً أو قرناً ، مناسبة تعتبرها الشعوب نهاية عصر ، أو نهاية حضارة .

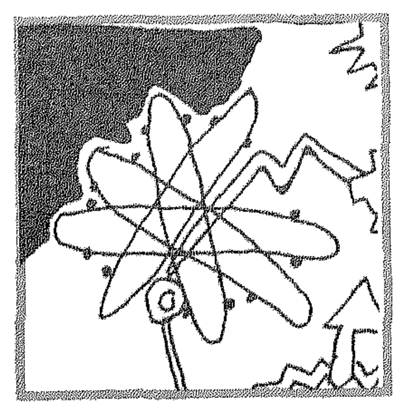
نقطة النهاية

كان الاقتناع ، ومازال إلى حد كبير أن القيامة دليل أو علامة وصول التقدم إلى نقطة النهاية . وفى مثل هذه الأيام من القرون الأخيرة الماضية ساد تصور بين الشعوب الانجلو سكسونية وبخاصة البريطانيون ، بأن القيامة مرتبطة بانتقام الله من اليهود أنِ أقاموا دولة لهم . ويعود أصل هذه الفكرة إلى مذاهب مسيحية تعتقد أن الانجلو سكسونيين هم إسرائيل الحقيقية ، أما اليهود فدجالون ونصابون . الكاتبان لوبكين وكاثر فى كتابهما الصادر منذ أيام وعنوانه «الثورة المسيحية : السياسة الدينية الراديكالية حتى نهاية الألفية الثانية» تتبعا هذا الاقتناع بحثاً عن أصوله ، وتبين أن أشد المتصلبين من الأنجلو سكسونيين الذين يعتبرون أنهم «إسرائيل» الحقيقية يقدمون الدليل من التاريخ العبرانى ذاته . فكلمة بريطانى يقابلها فى اللغة العبرية كلمة بنفس النطق BRIT - ISH وتعنى «رجل العهد» ، وكلمة سكسون هى فى الأصل أبناء النبى اسحق - ISAAC SONS (اساك - سون) .

وقد سبق أفلاطون كل هؤلاء الذين يربطون بين القيامة ونهاية التقويم ، أو نهاية مرحلة . ويبدو أننا نشهد هذه الأيام صحوة فى هذا النوع من التفكير . ففى الولايات المتحدة تذهب مذاهب بين التيارات المحافظة إلى أن القيامة اقتربت بدليل أن الناس صارت متساوية أمام القانون ، فلا أسياد وعبيد . ولا نبلاء وخدم ، يكررون أقوال أفلاطون عن خطر المساواة وتهديدها للاستقرار .

آخرون يتصرفون بشكل مختلف تماماً . هؤلاء باتوا يشعرون أن الثورة التكنولوجية والعلمية سلبتهم عقولهم ، أو مسحت التاريخ فى هذه العقول فصاروا كالإنسان الآلى يتحرك حسب ارشادات وأخلاقيات معبأة فى برنامج استوعبه من خلال سنوات تعليم وتعبئة وتلفزيون وتسيير عن بعد . بعض هؤلاء يتمرد ، ان استطاع . فنرى جماعات ، بل أغلبيات فى أمم متقدمة ومتخلفة على حد سواء ، صارت تستدعى التاريخ بالخنوع أو باللين

فى عام
فى قرن
فى ألفية



، وأحيانا باستخدام العنف والقوة، وان عجزت .. اصطنعت لنفسها أو زيفت تاريخا . أليس هذا باستخدام صفوف متراصة من كتب ومذكرات ومقالات من «التراث» بعضه حقيقى وأصيل ، وبعضه وربما أكثره تاريخ صنع فى أيام ، وأحيانا فى ساعات .

وأستطيع أن أفهم ما يحدث ، وأن أفهم فى نفس الوقت انحسار قيمة هذا اليوم الأول من عام جديد . كيف يمكن أن نطلب من الانسان أن يخطط لنفسه ولأولاده ، كما كان يخطط انسان القرون الماضية . كان هذا اليوم الأول من العام المناسبة التى يستغلها معظم الناس ليقوموا بهذا التخطيط ، أو على الأقل يصنعون فى هذا اليوم الاطار العام لخطة قد يحتاج تنفيذها لعام أو أكثر . وبعد هذا اليوم يبدأ الانسان فى تنفيذ خطته التى وضعها أول العام ، ينفذها فى تدرج، وبهدوء ، وفى ضوء احتمالات ممكنة ومتوقعة . كيف يخطط هو وغيره وبين أيدينا كتاب ألفه أحد عباقرة العلم واسمه راى كيرزوايل ؟ يقول فيه إنه بعد ثلاثين عاماً سيكون صعبا للغاية التمييز بين سلوكيات أجهزة الكومبيوتر وسلوكيات الانسان البالغ الذكاء . سيكون لكل جهاز كومبيوتر شخصيته المتميزة ، سيشعر بالعاطفة فيحب ويكره . سيقدر الجمال والأناقة . سيسعد ويشقى .. سيشعر بالوحدة إذا ترك وحيداً لفترة طويلة . يتخيل الدكتور كيرزوايل ، وكان كل ظنى أنه كان يتخيل عندما بدأت قراءة كتابه ، أنه بعد سنوات قليلة ، سيتمكن العلم والتكنولوجيا من «نسخ» محتويات مخ الانسان وحفظها فى قرص مرن (ديسك) فإن غاب هذا الانسان فى سفر أو ألم به مرض أو انتهى عمره بقى «مخه» يعمل ويخترع ، أى يؤدى مهامه كاملة . التعليق المناسب على هذه «التخيلات» أنها ابداع فى أدب الخيال العلمى ، مثل جول فيرن وهـ . ج ويلز عندما تخيلا - فى ابداع فريد - الانسان وقد وصل إلى كواكب

أخرى ، أو غاص فى أعماق الأرض ، أو استطاع أن يصغر نفسه الى حجم الجرثومة ليدخل فى عروق انسان فى قارب لا تراه العين المجردة فيجول فى جسد انسان . كلاهما ، فيرن وويلز توقفا عند حدود الأدب . أما رجلنا – الدكتور كيرزوايل مؤلف كتاب «عصر الآلات الروحية» .. فلم يتوقف يوماً – ومنذ أن تخرج من جامعة ما سوشيتس – عند حدود الأدب . هو صاحب فكرة اختراع الآلة التى تقرأ بصوت عال الكتب والصحف والوثائق لغير القادرين على القراءة لسبب أو لآخر . وهو صانع الكومبيوتر الذى يقلد تماما الأصوات الصادرة عن جميع الآلات الموسيقية، وكان آخر اختراع له جهاز تستخدمه الآن البنوك والشرطة والشركات والهواتف المحمولة يتعرف على الشخص من صوته. كل هذه الاختراعات وغيرها بدأها ابداعا أدبياً تماماً مثل آخر ابداعاته ، أو أحلامه .. «تخليد» مخ الإنسان ، إن صح هذا التعبير أو جاز لنا استخدامه .

الحياة أفضل الآن !

تحدثنا عن جانب واحد من جوانب الثورة التكنولوجية ، وهو الجانب الذى سيطيح بمخ الانسان بعد أن يخلده ، أو يحيل ابن آدم الى انسان آلى . ولكن الجوانب الأخرى كثيرة ، وأغلبها سيطيح بأشياء وعادات كنا نعمل ونكد عبر آلاف السنين لنطورها حتى نصبح بشراً أفضل. ولكن ، وبدون الخوض فى صدام التشاؤم والتفاؤل ، يبدو فى حكم المؤكد تاريخياً ، أن ما حدث عبر مئات وآلاف السنين هو أن حياة الانسان صارت أحسن ، بينما ظل الانسان نفسه ، على حاله . أحواله تقدمت ولكنه لم يتقدم . أليس هذا هو الدرس المتكرر الذى ما فتىء التاريخ يعيده علينا ويلح لنستوعبه فلا نخلط بين التقدم التكنولوجى وتقدم الانسان .

وقد يكون العام الجديد ، الذى سيكون مطلع قرن بل وألفية جديدة ، فرصة للاجابة عن السؤال المرتبط بكل ثورة تكنولوجية منذ أن صنع الانسان أول أداة حادة تساعده فى كافة احتياجاته ، حتى يوم نعيشه استطاع فيه أن «يصنع» كائنا حياً فى هيئة جرثومة .. ، وأن يعلن «سراً» أنه ممتنع قصداً وبإرادته عن تخليق كائن حى أكبر من الجرثومة . قادر وممتنع . وقد يقرر هؤلاء العلماء ذات يوم من أيام القرن أو الألفية التى نحتفل ببدايتها ، قد يقررون التوقف عن الامتناع وممارسة قدرتهم على صنع ما لم يكن يوماً وظيفة من وظائف البشر ، عندئذ هل سيكون الانسان فى حال أحسن ؟ أم سيكون انساناً أفضل ؟ أم سيكون قد حقق النبؤة ووصل إلى خط النهاية ؟ .

مصر وأنا وبزوغ الوعى

بقلم : د. مصطفى سويف

مشى ومشيتُ من أَسدين راما
مراماً كان إذ طلباه وعرا
(بِشر بن أبى عوانه)

قُدِّر لى أنٍ أبدأ مسيرة حياتى مستظلاً بظل الحركة الوطنية وهى تستنبت بإلحاح معالم مصر المعاصرة على الصعيدين الخارجى (باستكمال استقلال كيانها وإرادتها عن المحتل)، والداخلى (بدعم عناصر الإرادة السياسية/ الحضارية). ولم تكد نسائم التنبُّه تملأ رئتىَّ حتى ازدحمت الساحة من حولى بالأحداث والأحاديث الحزينة؛ أصيبت الأسرة فى واحد من أعزّ أبنائها الواعدين، وأصيبت مصر فى حظّها من وحدة الصفّ الذى كانت تواجه به عوادى الحاضر وتحديات المستقبل.

وفى أوائل الثلاثينيات كنتُ أتلمَّس طريقى صعودا على درجات التعليم الابتدائى.

وكانت مصر تتلمَّس طريقها إلى جمع الشَّمل استعداداً لجولة ثانية فى محاولات استقلالها الوطنى، وتزامنت هذه المحاولات مع تلبُّد الآفاقٍ بنذر الحرب العالمية الثانية. وتمخض التزامن عن معاهدة عقدت (بين مصر وانجلترا) سنة ١٩٣٦، أُطلق عليها حينئذ لقب معاهدة الشرف والاستقلال.

مصر في أواخر الثلاثينيات

ولم يكد المداد الذى كُتبت به المعاهدة يجف حتى عادت ريح التشرذم السياسى تنفث سمومها فى أجواء الساسة الأفاضل، وكأن الجميع ضاقوا بالانضباط أو التوافق الذى كانوا قد دُفعوا إليه دفعا حتى يتم إبرام المعاهدة، أما وقد فرغوا من المهمة فقد عادوا سيرتهم الأولى من التفرق والتناحر، أما كيف حدث ذلك فقد تداعت الأحداث على النحو التالى: فى ديسمبر سنة ١٩٣٧ وجَّه القصر الملكى خطاب إقالة إلى رئيس الحكومة مصطفى النحاس يُعتبر من أوقح ما عُرف من وثائق فى أدبيات السياسة الداخلية الرسمية، وأتبعه بإصدار مرسوم بتشكيل حكومة أقلية يرأسها خصم لدود لمصطفى النحاس منذ أواخر العشرينيات هو محمد محمود (رئيس حزب الأحرار الدستوريين). وعلى الفور انطلقت معركة من السباب والاتهامات المتبادلة بين أحزاب الأقلية وحزب الوفد. هذا بينما انصرفت جهود انجلترا ودول العالم الكبرى إلى إعداد العدة بجدية بالغة تحسبًا لمستقبل قريب ينذر بحرب عالمية عاتية.

في تعليمي الثانوي

كان أول عهدى بالتعليم الثانوى سنة ١٩٣٦ - ١٩٣٧ - فى مدرسة الحلمية الثانوية، بحى السيوفية (بالقرب من القلعة). قضيت السنة الأولى فيها وكأننى مازلت صبيا فى التعليم الابتدائى، لا أتنبه لشىء مما حولى سوى الدرس والعطلات الرسمية، وفيما بينهما أستذكر الدروس. ولكن فى السنة الثانية بدأت أشهد فى نفسى إشراق وعى لم أعهده من قبل؛ كان وعيا لايقتصر على الرصد والتسجيل لما يحيط بى، بل يمتد إلى إبداء قدر من الفاعلية باستكشاف إيجابى لهذا المحيط وإعادة صياغته ليشملنى وإياه فى منظومة جديدة. بدأت تتكشف لى المدرسة عن عالم متعدد الجوانب، فيها المكتبة، وجمعيات النشاط الرسمى، بالإضافة إلى قاعات الدرس، وفناءين للعب الحر، وقاعة لتناول الطعام. وإذ أسترجع الآن ذكرياتى عن هذه الجوانب أجد أن كلا منها كان له فى نفسى مذاق خاص من الإمتاع. وأذكر أننى قضيت أياما وأسابيع استكشف فروق الإمتاع هذه بين بعضها البعض؛ بدأت أتردد على المكتبة، وعرفتُ أن بها نظاما للإعارة الخارجية، وتجولتُ فى رحابها أتصفح بعض الكتب المصفوفة على الرفوف لأختار من بينها ما أريد، وراق لى أن أستعير دائرة المعارف للمعلّم بطرس البستانى. وفى المنزل سعيتُ بداخلها أتنقل بين موادها بلا هدف إلا أن أتعرَّف سعة عالمها؛ واستهوتنى المادة الغزيرة التى وردت عن ابن سينا، وبهرنى شمول المعرفة عند هذا الرجل فقد كان

طبيبا وشاعرا وفيلسوفا، واستمرت جولاتي داخل المكتبة يوما بعد يوم، وامتدت لتشمل غيرها من أركان المدرسة. واهتديتُ يوما إلى حجرة الأشغال اليدوية، ولا أزال أذكر شعورا سارًّا أشاعته في نفسي تلك الحجرة، بدءاً من شكل المواد الخام التي تملأ كل ركن فيها، وانتهاء بالجو العام الذي يغلّف كل محتوياتها، كانت هناك قطع الخشب الجوز الأسمر، وألواح الأبلكاش البيضاء، وصحائف الورق المقوَّى، وعلب الطلاء، وقطع الجلد ذات اللونين البنّي الغامق والبنّي الفاتح، وقطع النحاس الأصفر. وكانت هناك مناضد العمل، وأدوات التعامل مع النحاس والجلد، وأنواع منوَّعة من الفرشاة للطلاء، ووسائل للقص واللصق، وأدوات للنجارة.

وشدَّتني الحجرة إلى زيارتها يوميا أثناء ما كان يُسمَّى بالفُسحة الكبيرة أو فُسحة الغداء، وشدَّت زياراتي المتكررة هذه اهتمام المدرّب المشرف على الحجرة فبدأ يشجعني على القيام ببعض الأداء العملي، وتلقيت التشجيع باعتباره إذناً لي أن أتدرب بقدر ما تشتهي نفسي. وتوزَّعت تحركاتي بعد ذلك بين المكتبة وقاعة الأشغال اليدوية ولا شيء سواهما، وظل هذان القطبان يقتسمان القدر الأكبر من اهتماماتي وهواياتي قسمة عادلة فيما بينهما حتى نهاية المرحلة الثانوية من تعليمي، ولا أزال أشهد آثار كل منهما في نفسي حتى الآونة الراهنة من عمري. وكان هذا كله يجري في نفسي مجرى الضمير، استولى عليَّ، وظل قليله معلَناً وكثيره دفيناً.

وفي تلك الأيام تنبهتُ إلى غناء محمد عبد الوهاب، ولأمر ما تعهدتُ هذا التنبه بمبادرات تلقائية من جانبي، وكنت قد سمعتُ هذا الغناء من قبل ضمن معطيات البيئة العائلية من حولي (على الجراموفون)، أما في أواخر الثلاثينيات فقد وجدتُني أبذل جُهداً في الإنصات إليه ومتابعة ألحانه، وكنت أعيد الاستماع إليها من حين لآخر، وأتحدث عنها مع محبيه من أصدقاء الدراسة، وربما حفظتُ بعض هذه الألحان. وكنت أستمع إلى غيره من المغنين ولكنيّ كنت أتجاوزهم واحدا بعد الآخر لأسباب ذوقية مختلفة، ومع ذلك فقد كانت معظم أحكامي حدسية أكثر منها تحليلية، ومن خلال هذه الأحكام الحدسية نفسها وجدتني أصبح مع الأيام انتقائيا بالنسبة لغناء عبد الوهاب نفسه، فأطرب لأغانيه التي شدا بها في وقت مبكر نسبيا (أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات)، لا فرق في ذلك بين استمتاعي بالموّال، والمنولوج، والطقطوقة، والدور والقصيدة. وربما كان غناء الرجل هو المعلّم الأول من معالم الطريق التي وصلت بي في نهاية المطاف إلى التمكُّن

من تلقىّ الفنون والآداب الرفيعة جميعا، وهو الطريق نفسه الذى التقيتُ عليه فيما بعد بطه حسين، وأنا فى أواخر تعليمى الثانوى، فأرسى عليه المعلَم الثانى، وكان ذلك أول ما كان بكتابه «الأيام».

وفى تلك الفترة أيضا، فترة استكشاف القدرات والهوايات فى نفسى، واستكشاف عالم الفنون (متمثلا فى الغناء) من حولى، اكتشفتُ عالم المشاركة فى السياسة، فشدّنى إليه كذلك، كان الشدُّ هيّناً، وكان المضمون الذى يشتبك معه هذا الشد هيناً أيضا: شاركتُ فى المظاهرات والهتافات، ووجدتُنى أهتف لحزب الوفد وزعيمه، ولم يصل إلى عقلى شىء عن السياسة حينئذ غير المظاهرات والهتافات، ولا أظن أن بقية الفتيان المشاركين أدركوا من أمور السياسة ما يزيد على ذلك بكثير أو قليل. وأقرأ الآن فى ذاكرتى عن تلك الأيام أننى كنتُ نافراً من سيرة أحزاب الأقلية. وزعمائها أكثر مما كنت مقبلا على حزب الوفد وقيادته، أما عن أسباب ذلك فلا أجد على صفحة الذاكرة ما يعيننى على التفسير. وإلى جانب اهتمامى المحدود بالسياسة الداخلية بدأت أعرف (عن طريق السماع) أشتاتا من المعلومات عن السياسة الخارجية، عن هتلر (زعيم ألمانيا حينئذ)، وموسولينى (زعيم إيطاليا)، وعن تحرشات من جانبهما بالإنجليز وما يهم الإنجليز، وكان يغلب على هذه الأشتات توجُّه يفضى إلى تعظيم صورة هتلر وكأنه مبعوث الأقدار لينتقم للمصريين من الإنجليز، ويعيد الحق المغتصب إلى أصحابه.

الحرب العالمية

وفى سبتمبر سنة ١٩٣٩ أُعلنت الحرب العالمية الثانية. وتختلط فى ذاكرتى عن هذه الحرب عناصر لا حصر لأنواعها، كنت فى بداية السنة الرابعة، وكنا نتلقى تدريبا عسكريا يشرف عليه ضابط فى الجيش الإنجليزى اسمه مستر وست، وكان هو نفسه مدرّس اللغة الإنجليزية لنا، وكان جنود الإمبراطورية يملأون شوارع القاهرة وحاراتها من حولنا، عرفنا بينهم الإنجليز والاستراليين والنيوزيلانديين والهنود، وكانت السيارات الحربية الإنجليزية بأحجامها المختلفة تملأ الطرقات أيضا، وكان الناس يتحدثون عن شىء اسمه «الأُرنس»، وهو الكيان الإدارى الإنجليزى المسئول عن توفير الخدمات اللازمة لإعاشة جنود الإمبراطورية أثناء وجودهم فى مصر. وكان يستوعب آلافا من العاملين المصريين للقيام على هذه الخدمات لقاء أجور مجزية نسبيا.

وكانت أخبار الحرب تذاع فى الراديو، فنسمع عن انتصارات هتلر أكثر مما نسمع عن انتصارات الإنجليز، فوقر فى النفوس أن هتلر منتصر فى هذه الحرب لا

محالة. وفي مايو سنة ١٩٤٠ جاءت الأخبار باجتياح الجيوش الألمانية هولندا وبلچيكا ولوكسمبورج، وكان الاجتياح خاطفا، وأُعلن في الوقت نفسه أن تشرشل أصبح رئيسا لوزراء إنجلترا. وفي يونيه أعلنت إيطاليا الحرب على فرنسا، ودخلت الجيوش الألمانية باريس في ١٤ يونيه. وفي شهر يوليه أغارت الطائرات الإيطالية على بعض المواقع في مصر، وبدأنا نعرف إظلام الشوارع في القاهرة، ونعيق صفارات الإنذار، والنزول من بيوتنا إلى المخابىء، وسماع أصوات المدافع والقنابل. وفي سبتمبر من السنة ذاتها بدأت الجيوش الإيطالية تهاجم الجيوش البريطانية في الصحراء الغربية، ومن ثم بدأنا نشعر بأن الحرب تقترب من حدودنا، وبدأنا نسمع عن معارك في طبرق، وسيدى براني، وبنى غازى بين الجيوش البريطانية وجيوش المحور (ألمانيا + إيطاليا)، وظهر اسم رومل كقائد ألماني يشبه أن يكون أسطوريا في قدراته. وفي أبريل سنة ١٩٤١ حاصر الألمان الجيوش البريطانية في طبرق، وتقدم الجيش الألماني نحو مصر.

في ذلك الوقت كان الشارع المصرى يطفح بالغضب والشعور بالمهانة من جراء ما حاق به من أزمات تموينية وصلت إلى حد المساس برغيف الخبز، فقد ساءت صناعته بشكل ملحوظ، وكان يشحُّ في الأسواق أحيانا، هذا بالإضافة إلى مشهد الجنود الأجانب في الطرقات وما تتناقله الألسنة من أنباء عن مصادمات كانت تقع بينهم وبين المواطنين المصريين من حين لآخر، وفي هذا الجو المتفجر اندلعت في الشوارع مظاهرات تهتف أن «تقدَّم يا رومل». وقيل في ذلك الوقت إن بعض رجال الحاشية الملكية كانوا على اتصال بعملاء للمحور في مصر، وقيل إن الملك نفسه لم يكن يخفي ميوله الإيجابية نحو قوى المحور عموما والإيطاليين بوجه خاص.

وشعر الإنجليز بالخطر الداهم مما قد ينجم من آثار سيئة على مجهودهم الحربى نتيجة لنشاطات هذه العناصر جميعا، وربما قرأوا في هذه النشاطات ملامح أعمال واتصالات يقوم بها طابور خامس (من الجواسيس والمتعاونين معهم) يعد العدة لتمهيد الطريق أمام زحف قوات المحور على مصر ثم للعمل على تطويع البلد لأحكام سلطاته عندما يحين الحين. زد على ذلك ما كان يروَّج له أحيانا في ذلك الزمان من أفكار حول الشكل الأمثل للحكم، وأن ما تحتاج إليه مصر فعلا لينصلح حالها هو حكم المستبد العادل؛ فقد كانت بعض الدوائر السياسية تروّج لهذه الأفكار بين فئات من المتعلمين وأنصاف المتعلّمين، وكان من أيسر الأمور على أذهان هؤلاء وهؤلاء أن يمتدوا بمفهوم المستبد العادل ليشمل فيمن يشمل هتلر وأمثاله. أمام هذه الاعتبارات جميعا تحرك

الإنجليز فقدّموا إنذاراً إلى الملك بضرورة دعوة حزب الأغلبية (وهو الوفد) ليتولى رئاسة الحكومة فيتحقق الاستقرار في الجبهة الداخلية وبذلك يمكنهم التفرغ لشئون الجبهة الخارجية (جبهة الحرب) وهم آمنون على ظهورهم. وانتهت المواجهة بين الإنجليز والسراى بإذعان الملك وحاشيته، وسُمى هذا الحدث بحادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢. واستغلّته أحزاب الأقلية والحاشية بمهارة فائقة لتلويث سمعة حزب الوفد ورئيسه.

وكنت فى ذلك الوقت قد أتممت رحلتى التعليمية فى المرحلة الثانوية. وكما اتسعت آفاق الرؤية (السياسية/ العالمية) أمام مصر نمت آفاق الخبرة من حولى، ونمت قدراتى على التعامل مع هذه الآفاق، كانت السنتان الأخيرتان من المرحلة الثانوية حاسمتين فيما تخلّلهما من نضج أو إنضاج لقوى النفسية عامة والعقلية خاصة؛ تفتحت فيهما شهيتى للقراءة بصورة لم أعهدها فى نفسى من قبل، وساندت ذلك التفتح قدرة متينة على الاستيعاب، وبالإضافة إلى ذلك اشتد عود النظرة النقدية عندى نحو كل ما يقع لى من خبرات ومعلومات مهما تكن مصادرها ومجالاتها، ولازمت ذلك زيادة ملحوظة فى شجاعة الرفض إذا ما اقتنعت بوجاهة الرفض، ورسخت من وراء هذا كله خصلة الإصرار أو المثابرة، وأدركتُ فى الوقت المناسب أن هذه الخصلة، وكنت أسمّيها أحيانا طول النَّفَس، هى التاج الذى يعلو هامة قدراتى جميعا ولايراه إلا قصار النَّفَس أو المتعجلون.

داخل الجامعة

والتحقتُ بالجامعة فى سبتمبر سنة ١٩٤١. وسلكت طريقى فيها كما أردتُ لنفسى، أن أعكُف على دراسة الفلسفة. وفى الجامعة اشتد الوعى فى نفسى إلى درجة التوهج. فخبرته بشقيه: المعرفة والتقويم، عرفتُ الطريق إلى الفكر الماركسى، وقادنى هذا الطريق فى خطواتى المبكرة إلى دخول المعتقل لمجرد الوقوع فى أخطاء تافهة، وخرجتُ من المعتقل بعد ثمانية أشهر أصلب عوداً وأنفذ بصيرةً إلى الحقائق الكامنة وراء ظاهرة الأشخاص والأفعال والشعارات. وفى الجامعة عشتُ صداقات ثمينة، كما عشت الحب، وتلقيت الموسيقى الكلاسيكية واهتديتُ إلى استيعابها، وكتبتُ القصة القصيرة، وشارفتُ على كتابة الرواية، ونظمتُ الشعر العمودى. وبوجه عام وجدتُنى منتجا فى الفكر لا مستوعبا فحسب. وانتهى بى المطاف إلى التخرج فى مايو سنة ١٩٤٥، وكنتُ على يقين من أننى سوف أواصل مسيرة الإنتاج الفكرى الجاد مهما كلفنى ذلك، لكن يقينى من التوجُّه لم يقترن به أى وضوح لمضمون هذا التوجه سوى أنه سوف يكون جاداًّ، بل أشد ما يكون جدّية.

وكانت حياة مصر تتغير من حولنا، وكان السياق العالمى يتغير من حول مصر. ويبدا لى أن إيقاع التغير فى الحالين يمضى بسرعة أكبر بكثير مما كان الحال عليه من قبل.

شهدت مصر اعتقال عدد من رجال القصر، والسياسيين المعروفين بتعاطفهم مع المحور.

وكانت عمليات تشبه أن تكون اختمارا اجتماعيا بخمائر الفكر قد بدأت تجرى فى نفوس أعداد من المواطنين، وكانت هذه العمليات مدفوعةً أساساً أو مستثارة بمشهد ضياع الحق والوطن بين الساسة المخضرمين، وعبث أفراد الحاشية الملكية الفاسدين، وخبث رموز الاحتلال البريطانيين. كانت عمليات وإرهاصات تنطوى على رفض للكل، كل الطاقم السياسى التقليدى. كان هناك شعور مبهم بأن هذا الطاقم قد استنفد أغراضه وبدأ يتجاوز عمره الافتراضى.

وأسفر الاختمار عن البروز التدريجى لقطبين ينبئان عن توجهين جديدين يبحثان عن دور لهما على الساحة السياسية: قطب يمثله الإخوان المسلمون (وحولهم جماعات دينية أخرى صغيرة)، والآخر تمثله جماعات ماركسية توالى ظهورها واحدة بعد الأخرى («الفن والحرية» ثم «الخبز والحرية») ثم ما لبث الاختمار أن تمخض عن جماعتين لهما قدر ملحوظ من الاستقرار والفاعلية، هما «دار نشر الثقافة الحديثة»، و«دار الأبحاث العلمية». وزرتُ وأنا بعد تلميذ فى المدرسة الثانوية مقر الإخوان المسلمين بدعوة من أحد التلاميذ الزملاء، ورأيت شيخهم حسن البنا واستمعت إليه وهو يلقى خطابا عاما يروى فيه عن رحلة دعوة قام بها فى قرى الصعيد وقد عاد منها لتوّه، ولم يستهونى الحديث ولا استهوانى الجو العام الذى أحاط به، وانصرفتُ إلى غير رجعة. ثم زرتُ وأنا طالب فى الجامعة دار نشر الثقافة الحديثة، ودار الأبحاث العلمية، واستمعت إلى بعض محاضراتهم وحواراتهم. وأعترف بأن هذه المحاضرات والحوارات راقت لى إلى حد ما، لكن الجو العام الذى أحاط بها والممارسات التى صحبتها أثارت عندى عددا من التحفظات، ومن ثم حملتنى على أن أحتفظ بمسافة بينى وبين هذه الجماعات تُبقى علىّ هويتى المستقلة الناقدة.

ومن خارج مصر جاءت الأنباء تتحدث عن أن الجيوش الألمانية هاجمت الاتحاد السوفييتى فى ٢٢ يونيه سنة ١٩٤١. وما لبث الألمان أن وصلوا إلى ميناء أودسة على البحر الأسود، وكان ذلك فى منتصف أكتوبر. ولكن بعد عشرة أيام فقط بدأت تظهر نُذُر خافتة تنذر باقتراب تراجعهم، كان ذلك عندما توقف اندفاعهم أمام موسكو. وفى ٧ ديسمبر سنة ١٩٤١ باغت الطيران اليابانى الأسطول الأمريكى فدمّر عددا من سفنه وطائراته الحربية فى هجوم على قاعدة بيرل هاربر بجزر

الهاواى فى المحيط الهادى، فأعلنت أمريكا الحرب على اليابان، وتبعتها بإعلان مماثل للحرب على اليابان إنجلترا وهولندا. وبعد أربعة أيام أعلنت ألمانيا وإيطاليا الحرب على أمريكا. وفى مايو سنة ١٩٤٢ اشتد الهجوم الألمانى على القوقاز طلبا لبتروله. وفى يوليه بدأت أحداث موقعة العلمين تتوالى على بُعد ٨٨ كيلو مترا غرب الإسكندرية، وقيل حينئذ إن موسولينى (الزعيم الإيطالى)، أخذ يتأهب لدخول الإسكندرية دخولا لا يقل أُبَّهة عن دخول قياصرة روما فى الزمان الغابر. ولكن لم يكد ينتهى شهر يوليه حتى دُمرت جيوش المحور فى هذا القطاع من الجبهة بصورة لا رجعة فيها. وفى أواخر أغسطس بدأت جحافل الألمان تدق أبواب ستالنجراد. وضرب القائد السوفييتى الجنرال چوكوف حصاراً محكما حول تلك الجحافل. وفى آخر يناير سنة ١٩٤٣ قرر القائد الألمانى الأعلى فى تلك الجبهة المارشال فون پاولوس الاستسلام بعد أن فقد معظم قواته. وهكذا انتهت فى الشمال الأفريقى وفى الشمال الأوروبى أسطورة الجيش الألمانى الذى لايُهزم.

وفى هذه الأثناء بدأت تتسرب، رغم التكتم الشديد، أنباء عن نشاطات محمومة تجرى فى أمريكا وتنصبُّ على التقدم فى بحوث انشطار الذرة. وبرز فى هذا السياق اسم انريكو فيرمى (فى ديسمبر سنة١٩٤٢) من شيكاغو، وكان واحدا من عدد من العلماء انهمكوا فى السير قُدما بهذه البحوث الواعدة بإنهاء الحرب فى أجل قريب، مع إرهاص بما سيكون عليه العالم بعد أكبر حرب وأقبح الحروب فى التاريخ.

وبعد.

تابعتُ فى هذا المقال ما كان من أحداث رئيسية فى تاريخى الشخصى خلال الفترة الممتدة من منتصف الثلاثينيات إلى حوالى منتصف الأربعينيات، وما تداعى إذ ذاك من وقائع سياسية واجتماعية مهمة فى مصر، وفى العالم من حولنا. فى هذه الفترة انتقلتُ من التعليم الابتدائى إلى التعليم الثانوى، ومع هذا الانتقال بدأت استكشف نفسى والعالم من حولى. وتوالت أحداث السياسة المصرية الداخلية فكان الغالب عليها التمزق والصراع بين رجال السياسة. وفى الوقت نفسه تتابعت الأحداث الخارجية بالاستعداد لحرب وشيكة، ثم باندلاع هذه الحرب. ومع بداية الأربعينيات التحقتُ بالجامعة، وفيها تحقق للوعى عندى نموّ متسارع كنت ألحظه وأرعاه وأستمتع به، وكان فى ذلك مواكبا لشروق وعى اجتماعى وسياسى جديد فى مصر. وربما جاء الوعيان كلاهما (الفردى والجمعى) بمثابة قَبَسٍ من وَهَجٍ عالمى لم يلبث أن احتوى العالم فى حرب ضروس وضعت نهاية لحقبة من تاريخه، وبدأت حقبة جديدة فى مسيرة الجميع: الأفراد، والأوطان، والعالم الذى يجمع الكل. ❑



بقلم: وديع فلسطين

أسوق هذا الحديث بلا عنوان، وأدع للقاريء أن يختار له العنوان الذي يراه مناسباً له. فحلقات هذا الحديث قد لا ينتظمها عنوان جامع، عدا أنها جميعا من بنات الذاكرة، أسجلها قبل أن تخونني بنات الذاكرة وأولادها أيضاً !



● مخطوطات العلامة تيمور باشا في زكائب

كان العلامة أحمد تيمور باشا من فحول اللغة، وكانت لديه خزانة كتب عامرة أُهديت إلى دار الكتب الوطنية، فأفردت لها جناحاً خاصاً يحمل اسمه كما كانت له عناية كبيرة بالمخطوطات، فاجتهد في حياته في نشر عدد منها، ولم يسعفه الأجل لكي يحقّق مزيداً منها. وكان برغم «حنبليته» في اللغة يرى ولديه محمد ومحمود تيمور يكتبان باللهجة العامية (قبل أن يتحول محمود تيمور إلى الفصحى ويتبنى أنصع الأساليب العربية)، ولكنه تسامح معهما، ولعل هذا هو سبب اهتمامه بإخراج معجم كبير عن الأمثال العامية وكتابٍ آخر عن الكتابات العامية.

ولا أعرف على وجه التحديد كيف آلت جميع مخطوطات العلامة أحمد تيمور باشا إلى أحمد ربيع المصري، وهو رجل نصف مثقف أو ربعه، ولكنّه كان واسع النشاط، يقوم بمفرده بدور موسسة للنشر تخصصت في مؤلفات تيمور باشا. فأقام لجنة أطلق عليه اسم «لجنة نشر المؤلفات

التيمورية» رأسها خليل ثابت باشا محرر جريدة «المقطم» ومن بعده الشاعر أحمد رامى، وكان ربيع المصرى لولب هذه اللجنة سواء اجتمعت أو لم تجتمع . وكان المصرى يحتفظ بمخطوطات تيمور باشا فى زكائب (جوالات) فى بيته، وكلما همّ بإخراج مخطوطة، دفع بها إلى واحد من المحققين الذين يعول عليهم، ومنهم محمد شوقى أمين شقيق محمود أمين العالم، والشاعر الزجال عبدالسلام شهاب وغيرهما، ويقوم بعد تحقيق المخطوطة بطباعتها طباعة جيدة مشكولة، فتهيأ له بسبب نشاطه الواسع أن يصور نحو ٢٠ من مخطوطات تيمور باشا، منها معجم الأمثال العامية الذى سبقت الإشارة إليه، و«ضبط الأعلام» و«لعب العرب» و«الكنايات العامية» و«رسالة فى تاريخ الأسرة التيمورية» و«البرقيات للرسالة والمقالة» و«أوهام شعراء العرب فى المعاني» و«رسالة لغوية فى الرتب والألقاب لرجال الجيش والهيئات العلمية والقلمية» و«الآثار النبوية» و«معجم التذكرة التيمورية» و«أسرار العربية» و«السماع والقياس» كما طبع ديوان عائشة التيمورية وعنوانه «حلية الطراز».

ولم يكن ربيع المصرى يعتمد فى توزيع هذه الكتب والمعاجم على أى مكتبة، وإنما كان يخزنها فى بيته ويطوف بها على الهيئات والأفراد لترويجها، وكنت سألت المرحوم محمود تيمور بك عن صلته بلجنة نشر مؤلفات والده، فقال إن صلته تقتصر على الحصول على بضع نسخ من كل كتاب صادر، وإن اللجنة تدور فى فلك ربيع المصري، فهو محركها والعارف بمصروفاتها وإيراداتها .

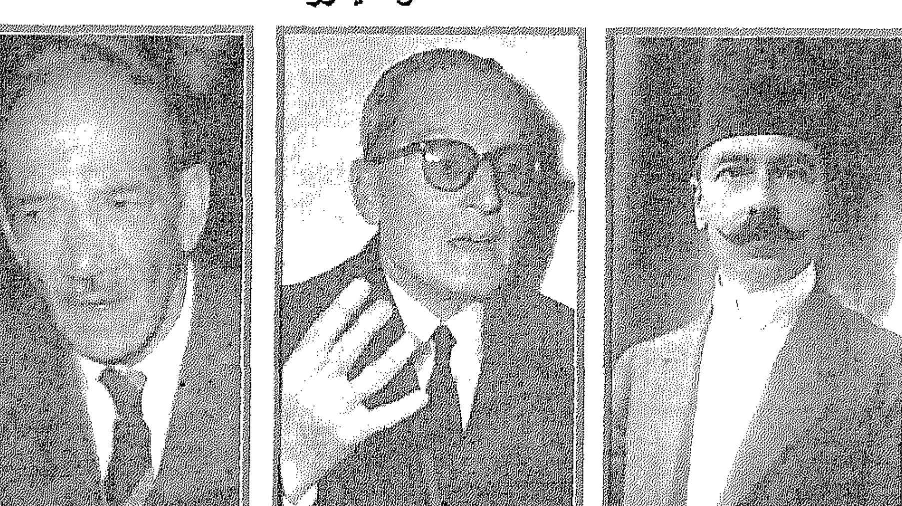
وعندما زرت ربيع المصرى فى بيته لأعزيه فى فقد ابنه الوحيد الشاب الذي توفى غرقاً فى حمام المنزل، أرانى عدداً من الزكائب قائلاً إن كل تراث تيمور باشا مودع فيها ، كما أرانى أكداساً من مطبوعات اللجنة التيمورية متراكمة فى أنحاء المنزل.

ومع مقدم العمر بربيع المصرى ومرضه بالداء الذى يعرف بداء أيوب، ومع فقد زوجته، لزم داره وتوقف نشاطه إلى أن فارق الدنيا دون أن ينعاه ناع .

والله وحده يعرف مصير هذه الزكائب بكل ما تحتوى عليه من نفائس المخطوطات، وربما آلت إلى «بيت المال» الذى يرث من لا وارث له.

● أسطورة يونس بحرى

كنت وأنا طالب جامعى من قراء مجلة «اللطائف المصورة» التى كان يصدرها اسكندر مكاريوس وكانت واسعة الانتشار


أحمد تيمور باشا — محمود تيمور — أحمد رامى

بسبب الصور والمواد المشوقة التى كانت تنشرها. وكنت ألاحظ أن للمجلة مراسلاً عراقياً فى سومطرة اسمه يونس بحرى يوافيها ببعض الأخبار من الشرق الأقصى. وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٣٩م بين دول المحور بزعامة أدولف هتلر من ناحية، ودول الحلفاء بزعامة تشمبرلين ثم تشرشل من ناحية أخرى ، صار الناس يتابعون الإذاعات الأجنبية ليقفوا على حقيقة الموقف الذى كانت البلاغات الرسمية تلوّنه مُمالأةً للطرف الذى تنطق باسمه وكان راديو برلين مصدراً مهماً للأخبار التى كان يذيعها باللغة الانكليزية من يدعى «اللورد هاوهاو» وباللغة العربية يونس بحرى الذى اتفّق أن كان يزور ألمانيا عندما اندلعت نيران الحرب، فاختير مذيعاً فى الإذاعة الألمانية. وكان يونس بحرى يبدأ نشرة الأخبار بقوله: «هنا برلين، حي العرب»، ثم يذيع نشرة الأخبار بلهجة خطابية وصوت مجلجل، مشيداً بانتصارات ألمانيا الهتلرية، ساخراً من دول المحور وزعمائها، مؤكداً أن النصر هو نصيب هتلر وجنوده المظفرين. وكان يحرضّ العرب على الثورة على دول الحلفاء التى تستعمرهم (انجلترا وفرنسا وأيضاً إيطاليا) فكان الناس فى كل العالم العربى يحرصون على الإصغاء إلى إذاعات يونس بحرى على الرغم من عمليات التشويش المسلّطة عليها. وعندما أصدر العقّاد كتابه «هتلر فى الميزان» وأدان فيه نظامه النازيّ وجميع الأنظمة الدكتاتورية، شنّ عليه يونس بحرى حملةً شرسه وتوّعده بالمشنقة، ولهذا سارع العقاد إلى السفر جواً إلى السودان بمجرد أن وصل القائد الألمانى روميل إلى العلمين مهدّداً بالزحف على الاسكندرية والقاهرة. ولم يسلم من لسان يونس بحرى اللاذع زعيم أو كاتب اتّخذ موقف الانحياز ضد هتلر ومحوره. وإذا كان المذيع الألمانى باللغة الانجليزية قد تنكر تحت اسم اللورد هاوهاو، فإن البحرى كان يعلن اسمه صراحة، ويضيف إليه عبارة «عبو» - ولا أعرف معناها.

وانتهت الحرب بفوز الحلفاء، فنزح يونس بحرى إلى باريس حيث أصدر جريدة عرربية أسبوعية عنوانها «العرب» يحرّرها من الألف إلى الياء بأسلوبه الساخر وقلمه اللاذع الذى يتناول به الزعماء الذين لا يرضى عن تصرفاتهم. وهو الذى أطلق على عبدالرحمن عزام باشا أول أمين للجامعة العربية اسم «أبو الكلام» بسبب خطبه وتصريحاته العنترية. وكان يوافينى بجريدته على غير معرفة سابقة، كما كان يجاملنى فى كتاباته فى حين كان يقسو فى الحملة على المسؤولين حتى قلت له فى رسالة : إنك تحرجنى بكلامك الطيّب، واستشهدت بقول الشاعر المهجرى إلياس فرحات:

وإذا الكريم مدحته بقصيدة
قرأ اللئيم الذمّ فى أبياتها

لم ألتق بيونس بحرى إلاّ مرّةً واحدة زار فيها القاهرة فاحتفى به المجاهد الفلسطينى محمد على الطاهر (أبو الحسن) والطبيب الدكتور الطيّب ناصر الذى درس فى ألمانيا أثناء الحرب وانضمّ هناك إلى العرب المجاهدين ومنهم سماحة الحاج محمد أمين الحسينى مفتى القدس الأكبر والدكتور مصطفى الوكيل عضو حزب مصر الفتاة. وكان حُكمى عليه عن قُرب أنه «مهرّج» أو «شرلطان» - كما

يقول إخواننا الشوام. فهو منفلت اللسان، بوهيميّ المسلك، إذا ضحك أسمع الحى كله، وإذا نُصبت مائدة الطعام فتك بكل ما عليها. أما سخرياته فلم ينج منها زعيم أو كبير، فلا يدرى سامعه هل هو هازل أو جادّ، لأنه يخلط بين الأمرين. ويبدو أن السلطات الفرنسية لم تطق بقاءه فى باريس، فأمرته بمغادرتها وإغلاق مجلّته المثيرة للمشكلات، فتنقّل فى أنحاء العالم العربى وعاش فترةً فى الخليج حيث عُيِّن محرراً لجريدة «أبو ظبى نيوز» باللغة الإنجليزية ومديراً لشعبة الترجمة فى وزارة الإعلام والصحافة، ثم عاد إلى بغداد حيث توفى عام ١٩٧٩م عن نحو تسعين عاماً.

ولكى تكتمل صورة يونس بحرى أنقل ما رواه عنه صديقه الروائى السورى الدكتور عبدالسلام العجيلى - وهو فى اعتقادى أحقّ الناس بجائزة الرواية العربية - في كتاب له عنوانه «حفنة من الذكريات» إذ كان العجيلى هو وأستاذ الفلسفة الدكتور عبدالرحمن بدوى من أقرب المخالطين ليونس بحرى فى باريس.

يقول العجيلي: «يونس هذا واحد من الشخصيات المُغرقة فى الطرافة أو العجيبة الأطوار... لم يكن يونس بحرى آنذاك مجرد مذيع يقرأ النشرة التى تُقدَّم إليه قراءة باهتة، بل كان خطيباً مصقعاً وداعيةً مثيراً ومعلقاً ساخراً. كان يصف انجلترا التى كانت الغواصات الألمانية تصطاد سفنها فى جوانب المحيطات بأنها بريطانيا سيدة قعر البحار. ولازلنا نذكر استدراكه حين أخطأ، عن عفوية أو متعمداً، فلفظ اسم تشمبرلين مكان تشرشل، إذْ أسرع فقال : معذرةً ، إن البقر تشابه علينا! وكانت إحدى نكاته البليغة الشديدة الإيلام حين أعلن بأن وزارة الحرب الألمانية زادت ميزانية دفاعها ثمانية ماركات، لماذا؟ لأن الإمارة العربية الفلانية انضمّت أخيراً إلى الحلفاء وأعلنت الحرب على الرايخ الألماني».

واستشهد العجيليّ بمقال للكاتب السودانى محمد خير البدوى - ولعلّه قريب للأديب السودانى الدكتور أحمد محمد البدوى الذى وصفنى فى «هلال» أكتوبر الماضى بأننى «شيخ العقّاديين» وهو شرف لا أدّعيه وتهمة لا أدفعها - حيث قال :

«بقيت فى حياة البحرى أمنية واحدة لو رُدَّ إلى الحياة لدفع راضياً قانعاً نصف عمره من أجل تحقيقها. أمنيته أن يقف وراء ميكروفون إذاعة القدس المحرّرة منادياً : حى العرب، إيذانا بمولد الدولة العربية فى فلسطين، ثم يتفرّغ بعد ذلك إلى البحث عن زوجاته الثمانين وأبنائه وبناته المنتشرين فى مشارق الأرض ومغاربها، ولا سبيل لإحصائهم ، ولكن عددهم يتجاوز المائة قطعاً . ومات يونس بحرى الأسطورة ولمّا تتحرر الأرض السليبة. لقد أمضى حياة مُثيرةً حافلة تفوق فيها زواجاً وتجوالاً على الرحالة العربى ابن بطوطة، إذْ هيأت له وسائل النقل المعاصرة الطواف على أركان المعمورة، وخلّف وراءه فى كل بلد زاره زوجات ورهطاً من البنين والبنات... ومن أشهر أبنائه الأدميرال رعد يونس بحرى قائد الأسطول الفليبينى والدكتور سعدى المحامى فى باريس».

وأثبت العجيلى مذكرةً وجهها واحد من أبناء يونس بحرى إلى الحاكم العسكرى العام فى بغداد يحتجّ فيها باسم المقاومة الشعبية على إطلاق سراح

والده ؛ فهو مزواج ومغامر وعربيد ويستحق السجن إلى الأبد أو الموت !

● تلفيقات محمد مصطفى حمام

أشرت في حديثي عن صادق سلامة صاحب جريدة «الإنذار» المنشور في عدد يناير الماضي من «الهلال» إلى الشاعر محمد مصطفى حمام الذي أوتي مواهب متعددة ، ولكنه آثر حياة الفوضى والبوهيمية والصعلكة . كان شاعراً موهوبا، وكان راوية لا يُشقّ له غُبار ، وكان محدّثاً لا يُملّ حديثه ، وكان صاحب نكتة وفكاهة ، كما كان لديه استعداد فطري للتلفيق، تساعده على ذلك قدرته الفذّة على المحاكاة والتقليد. وهناك واقعتان صارختان على تلفيقات حمام أسوق خبرهما في هذه الفذلكة.

قرأ حمام في إحدى الصحف نداءً موجهاً من الشاعر على الجارم بك إلى القرّاء قال فيه إنه اعتزم نشر ديوانه، ولكن شعره متناثر في الصحف ولم يحتفظ بنسخ منه، وناشد القراء أن يساعدوه في الاهتداء إلى قصائده التائهة حتى لا يخلو منها الديوان.

وعلى الفور نظم حمام أبياتاً حاكى فيها أسلوب الشاعر الجارم، ثم بعث بها إليه مع رسالة أوضح فيها أنه وقع على هذه الأبيات في عدد قديم من جريدة «الأهرام» وأنه يبادر بإرسالها إلى الشاعر حتى تندرج في ديوانه. والغريب أن الجارم بك اعتقد فعلاً أنه صاحب هذه القصيدة، وقام بضمّها إلى ديوانه المنشور! وقد سمعت هذه القصة من حمام ولا أجزم بصدقها !

أما الواقعة الثانية من تلفيقات حمام فترجع إلى عام ١٩٣٢م عندما أنشأ الشاعر الدكتور أحمد زكي أبو شادي جماعة أپولو واختار أمير الشعراء أحمد شوقي رئيساً لها وأصدر مجلة «أپوللو» لتكون المتنفس الشعري لأعضاء الجماعة، فصدر العدد الأول منها مزداناً بتحية من شوقي جاء فيها :

أپوللو! مرحباً بك يا أپوللو
فإنك من عكاظ الشعر ظِلُّ
عكاظ وأنت للبلغاء سوق
عليَ جنباتها رحلوا وحَلّوا
وينبوع من الإنشاء صافٍ
صدى المتأدّبين به يبَلُّ
ومضمار يسوق إلي القوافي
سوابقها إذا الشعراء فلّوا
يقول الشعر قائلهم رصيناً
ويحسن حين يكثر أو يُقلّ
ولولا المحسنون بكل أرض
لما ساد الشعوب ولا استقلّوا
عسى تأتيننا بمعلقات
نروح علي القديم بها نَدِلُّ
لعل مواهباً خفيت وضاعت
تذاع علي يديك وتستغل
صحائفك المدبّجة الحواشي
ربي الورد المفتّح أو أجلّ
رياحين الرياض يملّ منها
وريحانَ القرائح لا يُملّ
يمهّد عبقرى الشعر فيها
لكل ذخيرة فيها محلّ
وليس الحق بالمنقوص فيها
ولا الأعراض فيها تستحلّ
وليست بالمجال لنقد باغٍ
وراءٍ يراعه حسد وغلٌّ

نُشرت هذه القصيدة في شهر سبتمبر ١٩٣٢م وفي الشهر التالي توفي أمير الشعراء أحمد شوقي بعدما رأس

ول اجتماع لمجلس إدارة أبوللو. فى كرمة بن هانىء . واختير خليل مطران خلفاً له ى رياسة الجماعة.

وبعيد وفاة شوقى طلع محمد مصطفى حمام على المجتمع الأدبى بقصيدة من تلفيقاته زعم فيها أن أمير الشعراء شوقى استدعاه وأعرب له عن ندمه على توجيه هذه التحية العصماء إلى جماعة أبوللو، وأنه أملى عليه قصيدة يكفر بها عن سيئاته، وسمح له بإذاعتها. أما هذه القصيدة الملفقة والتى لم تنشر فى «الشوقيات» ولا فى «الشوقيات المجهولة» التى أصدرها الدكتور محمد صبرى السوربونى فهذا هو نصها الذى يتصادم تماماً مع قصيدة شوقى بيتاً بيتاً .

أبوللو! ضلّة لك يا أبوللو
فإنك من بقايا اللؤم ظلّ
أبوللو أنت للسفهاء سوق
على جنباتها رحلوا وحلّوا
وينبوع من الإسفاف صرف
صدى المتشاعرين به يبلّ
ومضمار يسوق إلى القوافى
مصارعها إذا الشعراء قلّوا
يميت الشعر قائلهم جنيناً
ويقبح حين يكبر أو يقلّ
ولولا المفسدون بكل أرض
لساد بها الشعوب أو استقلّوا
صحائفك المدبجة الحواشى
شعارير القريض بها تحلّ
وأدواء الجسوم لها شفاء
وأدواء المسائل لا تُبَلّ
يمهد مصرع للشعر فيها
لكل نقيصة فيها محلّ
وليس الحق بالمنصور فيها
وأعراض النوابغ تستحل

وأوسعت المجال لنقد باغ وراء يراعه حسد وغلّ

وعندما قرأ أبو شادى هذه القصيدة فى مجلة «الصباح»، قدم بلاغاً إلى النيابة يتهم فيه محمد مصطفى حمام بالتزوير والقذف فى حقه.

واستدعى حمام إلى النيابة لسؤاله عن هذه الاتهامات ، فقال إن القصيدة أملاها عليه شوقى ولا تزوير هناك، أما عبارات السبّ فيحاسب عليها صاحب القصيدة وهو المرحوم شوقي!

وحار وكيل النيابة إزاء هذه القضية الأدبية ، فتخلص منها بإصداره قراراً بحفظها.

كان الدكتور أبو شادى يسعى إلى النهوض بالشعر والشعراء من خلال جماعة أبوللو ومجلتها وهو ما كان يستنزف رصيده المالى، ولكنه أدرك بعد تلفيقات حمام وبعد مضايقات أخرى سواء من الحاقدين أو من زملائه فى كلية الطب - إذ كان متخصصاً فى التحليلات - أن الحياة لم تعد تطاق ، فقرّر بمجرد انتهاء الحرب العالمية الثانية أن يهاجر مع أسرته إلى الولايات المتحدة لينضمّ هناك إلى أدباء المهجر. ولكنّه فوجىء بالشاعر إيليا أبى ماضى يستقبله فى جريدة «السمير» التى كان يصدرها بمقال عنوانه:

ليس منّا!

ولكن هذه الصدمة لم تمنع أبا شادى من إنشاء رابطة جديدة فى نيويورك أطلق عليها اسم «رابطة مينيرڤا» ضمت عدداً من أدباء المهجر وشعرائه وبقى يواصل نشاطه الأدبى ورسالته الشعرية على مدى تسع سنين إلى أن توفى فجأة فى عام ١٩٥٥م.



أم كلثوم .. فى الحقيقة والمسلسل التليفزيونى

بقلم : د . جلال أمين

99

لا أظن أن مسلسلاً تليفزيونيا مصريا حظى بدرجة من الإعجاب والثناء ، منذ ظهر التليفزيون فى مصر ، مثل ما حظى به مسلسل أم كلثوم الذى عرض خلال شهر رمضان الماضى واستمر لعدة أيام بعده . فحتى قبل أن تنتهى حلقات المسلسل لم يكن يمر يوم إلا ويشيد المقال بعد الآخر ، أحيانا فى نفس اليوم ، وفى نفس الصحيفة أو المجلة ، بعظمة المسلسل وروعته ، واستخدمت كلمات فى الثناء على الكاتب والمخرجة من مستوى «المجد» بل «والخلود» ، أى أن المسلسل جلب المجد للكاتب والمخرجة ، بل وربما جعلهما «خالدين» ، بالإضافة إلى كلمات المديح الشديد والاعجاب المتناهى لكل ممثل وكل ممثلة ربما بدون استثناء ، واشترك فى هذا النوع من الثناء ، ليس فقط المعلقون المتخصصون فى النقد الإذاعى والتليفزيونى بل امتد ليشمل بعضا من كبار المثقفين .

أصبح الأمر إذن فى مستوى الظاهرة، ولا أقصد بالظاهرة المسلسل نفسه ، بل ظاهرة الإعجاب به إلى هذا الحد . فالمسلسل نفسه ، وإن كان فى رأيى على مستوى عالٍ من الجودة ، تشوبه هنات ونقائص كثيرة ، بعضها مهم ولا يجوز أن يفوت على مثل هذا العدد من الناس ، ولا يتصور ألا تلاحظه هذه الصفوة من المثقفين .

وما دام الأمر كذلك فإن هذا الإعجاب المنقطع النظير يستحق التأمل والتفكير ، إذ قد يكشفان عن أشياء مهمة عن الطريقة التى يفكر بها المصريون فى هذه الأيام . لنترك إذن المسلسل جانبا ، ولو إلى حين ، ولنركز على ظاهرة الإعجاب به.

لا جدال فى أن جزءا كبيرا من شغف الناس بالمسلسل يعود إلى نوع الشخصيات التى يتناولها ومكانتها عند المصريين فأم كلثوم شخصية أسطورية فى مدى ما حققته من إجماع المصريين على حبها ، أو يقارب هذا الإجماع . وهى كانت ملء السمع والبصر فى حياتها . وظلت طوال ربع القرن الذى انقضى على وفاتها حاضراً ، حضورا قوياً فى آذان

الناس وذاكرتهم وقلوبهم . ولكن حياة أم كلثوم ضمت أيضا عظماء كثيرين يجمع المصريون أيضا على احترامهم ومحبتهم ، وكثير منهم يستحقون وصف «العباقرة» دون كثير من التردد ، من القصبجي وزكريا أحمد والسنباطي ومحمد عبدالوهاب وبليغ حمدى فى الموسيقى ، إلى بيرم التونسى فى الشعر (وقد يضيف كثيرون أيضا أحمد رامى) ، إلى طلعت حرب فى الاقتصاد ، إلى جمال عبدالناصر فى السياسة .. الخ واتصلت أم كلثوم اتصالا مباشرا بشخصها وأغانيها ، بأحداث ونقاط تحول مهمة جدا فى التاريخ المصرى ، من بزوغ السينما المصرية ، إلى افتتاح الإذاعة المصرية إلى قيام ثورة ١٩٥٢ إلى تأميم قناة السويس فى ٥٦ إلى حروب ٥٦ و٦٧ و١٩٧٣ ... الخ ، ومن ثم فمن السهل جداً أن يروى التاريخ المصرى خلال الجزء الأكبر من القرن العشرين ، من خلال رواية الخطوات المتتالية التى خطتها أم كلثوم فى حياتها الشخصية والفنية . هل يستغرب بعد هذا أن يشغف المصريون بمتابعة المسلسل يوما بعد يوم حتى يظفروا بلقاء جديد مع هؤلاء العظماء ، والتعرف على جوانب من حياتهم وشخصياتهم مما قد لا يكون لهم به علم سابق ؟ .

استعادة شباب مصر

ولكن المسلسل أيضا فرصة لمجرد الاستماع من جديد إلى ألحان جميلة حفرت حفرا فى أعصاب المصريين وذاكرتهم ، واتصل كثير منها بذكريات شخصية لكثير من المشاهدين ممن عاصروا أم كلثوم وحضروا بعض حفلاتها أو سهروا معها فى أول خميس من كل شهر ، سنة بعد أخرى من أحلى سنوات العمر .

رؤية هذا المسلسل إذن نوع من استعادة الشباب ، شباب مصر وشباب المشاهد شخصيا .

وكثير من شخصيات المسلسل أشتهر بالذكاء والظرف وسرعة البديهة ، فإذا لم يكن للمشاهد ولع خاص بأغانى أم كلثوم، فسوف يستمتع على الأقل بتعليق ذكى وطريف من رامى ، أو مقطع مدهش من أزجال بيرم ، أو تعبير بالغ الظرف من زكريا أحمد .. الخ نستنتج من ذلك أن المسلسل مولود وفى فمه ملعقة (بل ملاعق) من ذهب . نعم المهمة صعبة ، والخوض فى التاريخ مجهد وشاق ، لتشعبه وكثرة تفاصيله المهمة ، وتعدد النظريات والأقاويل التى قيلت فى هذه الحادثة أو تلك ، ولابد من اتخاذ عشرات القرارات التى ليس من السهل أبدا اتخاذها ، فى أى الأشياء تذكر وأيها يسكت عنها ، أى الشائعات تصدق وأيها تكذب .. الخ كل هذا صحيح، ولكن المادة المتاحة للكاتب ثرية للغاية ، والكنز مملوء

باللآلىء التى لا تحتاج إلا لمد اليدين للاغتراف منها .

شىء جدير بالتهنئة

فماذا صنع الكاتب محفوظ عبدالرحمن والمخرجة إنعام محمد على والممثلة الأساسية صابرين والمسئول الأول عن الموسيقى والغناء عمار الشريعى ، وبقية الممثلين والفنانين ؟ صنعوا شيئا جيداً جداً وجديراً بكل تقدير وتهنئة ، واستمتعنا جميعا به . ولكن لايجب أن نذهب إلى أبعد من هذا وإلا نكون قد أخطأنا فى حق أنفسنا وحق هؤلاء الفنانين أنفسهم خطأ جسيما . إذ لا جدوى من المبالغة فى الثناء ، وهناك نفع عظيم من النقد إذا كان حقيقيا .

هناك أولا الضعف الشديد فى عنصر «الدراما» ، وهو ضعف لم يشر إليه ، فى حدود علمى ، من بين كل من كتب عن المسلسل إلا الدكتور عبدالقادر القط فى مقاله بالأهرام (٢٠٠٠/١/١٧) . وأقصد بذلك الافتقار إلى قصة تقوم على صراع من أى نوع ، وتأخذ بالمشاهد من أول المسلسل إلى آخره ، وتشوقه إلى معرفة مايمكن أن يحدث فى منظور هذا الصراع، ويا حبذا لو أثارت أيضا فكره وشحذت ذهنه فى محاولة للإجابة على سؤال أو أسئلة صعبة ليس لها جواب جاهز . المسلسل كما رأيناه ، هو بالفعل ، تسجيلى فى الأساس ، يقول لنا ما حدث



دون الغوص فيما يمكن أن يكون وراء الأحداث من تصارع بين أكثر من موقف وأكثر من عاطفة . الشخصيات جاهزة وتامة الصنع من البداية لا تعانى من أى قلق داخلى ، بل وحتى التصارع فيما بينها ، إن وجد ، كما فى حالة الخلاف بين أم كلثوم وزكريا أحمد ، يكتفى فيه بما يمكن معرفته من قراءة ما كانت تنشره الصحف من أخبار ، لا تبذل أية محاولة (ولو بالتخمين) عن الدوافع الحقيقية للخلاف (أو على أى حال لايقال لنا شىء عن هذه الدوافع الحقيقية) ، ويقنع الكاتب (على أمل أن يقنع المشاهد أيضا) بإنهاء الخلاف الطويل والعميق ، بكلمة صغيرة تقال فى المحكمة تنطوى على مدح من زكريا أحمد لأم كلثوم ، ومدح من أم كلثوم لزكريا أحمد ، وينتهى الأمر وكأنه لم يكن، فلا يسع المرء حينئذ إلا أن يقول لنفسه : «ياليت الحياة فعلا بهذه البساطة، وياليت تغيير عواطف الناس ومشاعرهم هو فعلا بهذه السهولة!» .

أم كلثوم شخصية مبهرة

الأمر الأخطر من هذا ، والذى لم

يشر إليه ، ولو بطريقة عارضة إلا معلق واحد أو اثنين بطريقة تصوير شخصية أم كلثوم . لا يجادل أحد فى أن أم كلثوم كانت شخصية قوية ومبهرة بكل معانى الكلمة ، بل يكاد يكون من المستحيل أن يتصور أن تحقق كل ما حققته من نجاح ومجد لو لم تتمتع بمثل هذه الصفات .

ولكن من المؤكد أيضا أن أم كلثوم لم تكن من الآلهة ، بمعنى استعصائها على أى صورة من صور الضعف الإنسانى ، بل يكاد المرء أن يقول أيضا إن كل هذا النجاح وكل هذا المجد ما كان من الممكن أن يتحققا لو خلت أم كلثوم من بعض أوجه الضعف الخطيرة .

نعم كان فنها هو أهم شىء لديها ، تهون فى نظرها التضحية بأى شىء من أجله ، كما يقول المسلسل مراراً وتكراراً ، ولكن هذا الموقف المتطرف نفسه لايتصور وجوده إلا مع وجود أوجه ضعف جسيمة ، سواء فى موقف المرء تجاه الناس ، وشعوره نحوهم ، أو فى رأى المرء فى نفسه ، أو فى حرصه المبالغ فيه على هذا النوع أو ذاك من متاع الدنيا .. الخ .

إن من الصعب جداً الاعتقاد بأن هناك رجلا عظيما أو امرأة عظيمة ، لم يعانيا من عيب نفسى جسيم ، بل من الممكن جدا أن يكون الأمران ، التفوق والتألق من ناحية والعيب النفسى الجسيم من ناحية أخرى ، وجهين للعملة نفسها ، لايمكن أن يوجد الأول دون الثانى . وسير العظماء ، من نابليون إلى تشرشل إلى شارلى شابلن ، وغيرهم كثيرون ، تؤكد هذا الاعتقاد .

إذا كان الأمر كذلك ، والأرجح أنه كذلك ، فما النفع من التظاهر بعكسه ؟ إنى أتفق تماما مع الرأى الذى يرفض تصغير الكبراء ، ويرفض التركيز على أوجه الضعف الكامنة فى الشخصيات العظيمة على حساب إبراز أوجه عظمتهم التى هى أثمن ما فيهم ، إذ لا نفع يرجى من إظهار الناس كلهم وكأنهم سواء ، فهم ليسوا كذلك ، ومن الظلم والحمق معاً أن نحطم المثل العليا باسم الواقعية أو الموضوعية .. الخ أتفق تماما مع هذا ، ولكن من الخطأ والظلم أيضا محاولة إبراز العظماء وكأنهم آلهة ، وتكريس الاعتقاد لدى الناس بأن هؤلاء العظماء صنف متميز تماما عن بقية البشر ، وجودهم معجزة وظهور أمثالهم مستحيل ، إن هذه الطريقة فى الكلام عن العظماء ، فضلا عن مخالفتها للواقع من شأنها إضعاف الهمم بدلا من حفزها ، وقتل الثقة بالنفس بدلا من تقويتها ودعمها . فبدلا من أن نقدم للشباب قدوة على أمل أن يحتذوها نقدم لهم آلهة ليس أمامهم إلا أن يعبدوها . أضف إلى هذا ما يتضمنه

هذا الموقف من ظلم لعدد كبير من الناس بعضهم من العظماء أيضاً ، من الذين أحاطوا بهذه الشخصية التى تحاط بكل هذا التقديس وتعاملوا معها . فمن أجل إضفاء كل مظاهر المجد على هذه الشخصية ، يسلب كل من أحاط بها وتعامل معها من مجده ، وكأن لا أحد منهم يساوى شيئاً لولاها ، أو كأنه لا هم له فى الحياة ولا وظيفة إلا خدمتها ، ولا شاغل له إلا حبه لها ، ولا مطمح له إلا رضاها عنه (وهو موقف شائع لدينا للأسف فى حياتنا الاجتماعية والسياسية ، فهكذا نعامل الموظف الصغير إذا قابلناه فى حضرة الموظف الكبير ، والسياسى الصغير إذا كنا فى حضرة السياسى الكبير ، وهكذا نعامل الفنان الناشىء مهما كان موهوبا ، إذا كنا فى حضرة الفنان الشهير .. الخ) وهكذا فعل للأسف مسلسل أم كلثوم برجال عباقرة من أمثال محمد القصبجي وزكريا أحمد ، وغيرهما كثيرون . فإذا عاملت أم كلثوم أحدهم بقسوة زائدة ، تغاضى المسلسل عن ذلك فلم يبرزه أو حتى يذكره ، فإذا ذكره فعل ذلك بالتلميح من بعيد ، وأسرع فى تقديم مبرر وعذر لها ، وهو دائما مبرر واحد «الفن قبل كل شىء» ، ويترك القصبجى المسكين أو زكريا أحمد المسكين وكأن لم يكن لأحد منهما حياة بدون أم كلثوم ، بل



وكأن أم كلثوم كان من الممكن أن تصل إلى ما وصلت إليه من مجد لولاهما .

★ ★ ★

إنى أسرع فأعترف بأنى أدرك ما أحاط بكاتب المسلسل الفذ ومخرجته القديرة من صعاب من كل نوع ، هناك الحذر الواجب من قضايا قد ترفع أمام المحاكم إذا غامر كاتب المسلسل أو مخرجته بالاشارة إلى عيب هنا أو هناك ، وربما كان الأهم من ذلك الحذر من جرح شعور ملايين من الناس الذين تعلقت أفئدتهم بأم كلثوم ، ولا يقبلون بسهولة الكلام عن بعض عيوبها . نعم المصاعب كثيرة ، ومكامن الزلل متعددة ، ولكن أليس هذا هو بالضبط التحدى الحقيقى الذى يواجه الكاتب القدير والمخرجة القديرة عندما يقرران التصدى لهذه المهمة الخطيرة : مهمة إخراج مسلسل عن أم كلثوم ؟ أولا يكمن هنا بالضبط المعيار الصحيح للحكم بمدى نجاح الكاتب والمخرج فيما تصديا له ؟ .



ذكريات لا تنسى

بقلم : حسن سليمان

وأنا طفل صغير كانت تمر عربة محملة بتماثيل جصية ملونة، يقف البائع مستندا على إحدى يدى العربة، وإحدى قدميه على يد العربة الأخرى مسندا الطبلة على فخذه ينقر ملحنا جملة «عزيزة بإزازه وشكوكو بإزازه» . ومضى الوقت وحينما كبرت فوجئت بأن الدكتور لويس عوض أعتقل لأنه قال فى حديث إذاعى إن كان يوجد بطل شعبى فهو شكوكو لأن الشعب صنع له تمثالا من تلقاء نفسه، وعجبت للسبب الذى اعتقل من أجله، فلا تعارض بين وجود بطل شعبى ووجود زعيم دولة ورئيس جمهورية. أشعر الآن أن ذلك كان شطوطا من الدكتور لويس عوض فشكوكو لا يمكن أن يكون بطلا شعبيا، فالبطل الشعبى هو الذى يعيش فى وجدان الشعب وفى تاريخه النضالى. البطل الشعبى غالبا هو الذى يتحدى السلطة المهيمنة ويصر على تحديها، مخاطرا بحياته، وغالبا ما يقبل على الموت كسبارتاكوس أو زاباتا، أو ينتصر كغاريبالدى فى إيطاليا بعد سنين من النضال دون يأس ويصنع له الإيطاليون تماثيل من تلقاء أنفسهم، أو يظل فى تحديه مهما عذب كأبطال الميثولوجيا الإغريقية. من الممكن حتى أن يكون لصا مثل أدهم الشرقاوى أو «الخط» .

لا أذكر كم كان عمرى، لكنى أذكر أنه كان صيفا، حينما ذهبت أنا وأبى وخالى لزيارة الشاعر على محمود طه، فى ذلك الوقت كان عبد الوهاب يغنى «الجندول» . كانت نقطة تحول فى تلحين عبد الوهاب الموسيقى للكلمات. أتذكر أن منزل الشاعر حينذاك كان فوق الأمريكين أو فى المنزل المواجه للأمريكين من ناحية الممر الضيق. طرقنا الباب، فتح لنا على محمود طه بنفسه باب الشقة . كان قصيرا يميل إلى السمنة، لكن ما أذكره عنه الآن هو شاربه الذى فى حجم ورقة البوستة، وأنه كان يرتدى شورتا، فى ذلك الوقت كان المصريون لا يرتدون شورتا، بل الانجليز واليهود وأما نحن من الصبية المصريين كنا فى سن الثالثة عشرة نترك الشورت ويشترى لنا أهلنا السروال الطويل. أما على محمود فأظنه كان متحررا سابقا عصره، إذ كان يتوهم أنه أعظم راقص. وضع أسطوانة أغنية الجندول وأخذ يدفع بيديه فى الهواء واثبا ومتثنيا مع الموسيقى ومع كلماته فى حركات تشبه رقص الشباب المتحرر الآن. وإذا بالنقاش يتطور إلى أنه سعيد جدا بأن الجندول قد حققت نجاحا وانتشرت وأصبحت تسيطر على الناس، وأنه بتكرار الناس لها ستتحول إلى فن شعبى، وهذا بدوره سيحدث تغييرا فى الفن الشعبى، عارضه أبى، أما خالى، وكان عالم آثار، فلم ينبس بكلمة متجنبا النقاش . حينما انصرفنا قال خالى لوالدى: لماذا الجدل؟ إن الفن الشعبى الآن أصبح علما واسعا، تدخل فيه علوم اللغات والآثار واللهجات والتاريخ السياسى والإجتماعى، حتى أصبح له كرسى فى كل جامعات العالم، ثم قررا أن نذهب إلى محل أظن أن اسمه «سولت» وكان على ناصية شارع فؤاد وحديقة الأزبكية. وعند وصولنا بدأت فرقة موسيقية تعزف بالكمانجات ألحانا سألت خالى عنها، قال لى من المؤكد أنها رقصة شعبية مجرية، وأن العازفين مجريون قلت له كيف عرفت أجابنى: من طريقة إمساكهم بالآلة الوترية وتحريك القوس عليها، إذ أن المجريين فقط هم والغجر يشتركون فى هذه «المسكة» وطريقة تحريك القوس. ثم تطرق الحديث على أن الغجر قاموا بدور خطير فى الموسيقى الشعبية فى بلدان أوروبا الجنوبية والشرقية حتى فرنسا. وكيف أنهم نقلوا ألحان بيئة إلى بيئة أخرى بالطريقة الخاصة بهم وهكذا كانت الموسيقى الشعبية الراقصة تتنقل وتتغير من بلد إلى بلد لكن أصولها واحدة.

***

فى ميدان سيدنا الحسين بعد أن نترك شارع الأزهر وقبل أن نصل إلى خان الخليلى كان يمتد زقاق ضيق يسمى الصناديقية. وكفنانين شبان لنا مراسم بدرب اللبانة بالقلعة نؤمّ هذا الزقاق لنشترى منه ما يلزم من أشياء تزين بها

مراسمنا وفق ميزانيتنا. إذ كان هذا الزقاق متخصصا في جهاز العروسة. وكان أهم شئ بالنسبة للفلاحين هو الصندوق والمرآة تتفاوت أسعارها حسب جودتهما وزخرفتهما. وأغلاهما كانت الصناديق المحلاة بالصدف والأبنوس موضوع فى اشتقاقات هندسية. كذلك المرآة كانت لها أطر مزينة بنفس الكيفية. أرخصها كانت الصناديق المزينة بصفائح من النحاس والمسامير ذات الرءوس العالية. هناك أيضا المزخرفة بالألوان المبهجة أو المرصعة فى أجزاء منها بقطع من الزجاج وشظايا المرايا، وهو ما كنا نعتبره فنا شعبيا أصيلا ونصر على شرائه. كذلك الدواليب كانت ملونة ومرسوما عليها آنية تحمل الزهور وزخارف تقليدا من بقايا الفن التركى. كنا نطلق على هذه الأشياء الفنون الشعبية، وكنا نضعها فى مراسمنا، هى ومنتجات «عوف» من النسيج اليدوى ذى الألوان الزاهية.

***

وأول لقائى الحقيقى بالفن الشعبى كان فى غروب ذات شتاء، وكنت فى السنة الثالثة فى كلية الفنون الجميلة، وجدت نفسى واقفا بعد أن عبرت شارع الوايلى بجوار مستشفى دار الشفاء وضريح النقراشى باشا، وإذا بأصوات تصل إلى وتتعالى وزحام شديد وكم هائل من الفلاحين - نسوة ورجالا - يسعون إلى ذلك الزحام. هذه كانت بداية علاقتى بمولد المحمدى وبالفن الشعبى. عبرت شارع رمسيس، فى ذلك الحين كان يسمى بالملكة نازلى. ذهبت إلى الزحام وفوجئت بنقر على دف كبير وغناء غريب الشأن. انحشرت بين الزحام، فإذا بى أمام رجل قذر جدا كأنه لم يستحم منذ سنين، عارى الجسد إلا من جوال من الخيش ثقبه ثلاثة ثقوب، لرأسه ولذراعيه، وجدته يثب فى الهواء ويقف على أطراف أصابع قدميه الطويلتين، وشعره الأشعث الطويل يتطاير على كتفيه، وأصابعه النحيلة تنقر على الدف فى ايقاع منضبط مع حركة جسمه وتمايله، وكان قادرا على أن يجعل من أى كلام إيقاعا موزونا بادغامه بعض الأحرف أو مدها. كل ما أذكره أنه كان يقول كلمات غامضة مثل «عصفورى الأخضر طار.. طار» يبدأ خافتا ثم يعلو ويعلو، ثم يثب ويثب ويثب إلى أعلى وينزل ثانية وقد ثنى ركبتيه ووقف على أطراف أصابعه «سابنى وتركنى ليه» ويردد «ليه.. ليه» وجاءتنى فى قميص على اللحم ويردد «على اللحم.. على اللحم «يهمس لنفسه مع تحريك الطار ليشخلل الدوائر النحاسية. شدنى هذا الرجل إلى عالم غريب، ورغم أنى لم أفهم معني واحدا من المقاطع والكلمات سألت واحدا بجانبى عن من هذا، أجابنى أنه مجذوب جاءته حالة الوجد.

فوجئت بعد ذلك برسومات مرسومة

على مربعات بداخلها مرآة موضوعة على حامل، عليها رسوم ملونة وكتابات. الرسوم عبارة عن أسود تحمل سيفا ونساء تلعب أمام بعضها بالسيوف وأنواع من رسوم عصافير وحوريات بحر وأشياء غيرها لا أذكرها الآن. وبجانبه يجلس رجل أمامه وعاء به مادة قاتمة ، وإذا بفلاح يأتى يشمر عن ساعده ويطلب منه أن يكتب عليه اسم حبيبته، ويرسم تحتها حورية بحر، فإذا بالرجل يغمس إبرة فى هذا السائل ومباشرة يغز الرجل فى ساعده ثقوبا بجانب بعضها، وبعدها أتت امرأة، وأظنها غجرية أو من النساء الفقيرات سيئى السمعة، يطلق عليهن «الفواحش»، وتطلب منه شيئا، وتختار أسدا يحمل سيفا، وإذا بها تفتح الأزرار حتى تكشف عن بداية صدرها، وتطلب منه أن يكتب اسم رجل أظنه حبيبها وتاريخا تحته قائلة إنهم أخذوه ظلما فى قضية حشيش، وفوق اسمه ذلك السبع الذى يحمل سيفا، كل هذا كان بالنسبة لى كأننى أفتح عينى على عالم غريب . زادت دهشتى حين فوجئت بشئ لم أكن أتوقعه أن لبدة الفلاح العالية جدا، التى انقرضت الآن كانت تكوى كالطربوش ولكن بطريقة عجيبة، تغسل جيدا، ثم يشدها الرجل الذى غسلها على القالب، ثم يظل يمر عليها بفرشاة ممتلئة بالصابون جيئة وذهابا مرات كثيرة ويتركها تجف وبجواره قوالب أخرى لطواقي لم تجف بعد وإذا بها ذات حوائط صلبة ترتفع على رأس الصعيدى لتفصل بين رأسه وسعير الشمس. تلاشت هذه «اللبد» الجوخ الآن التى كانت مشهورة فى صعيد مصر أكثر من الوجه البحرى، «والبلغ »أيضا كانت تباع فى ذلك السوق، وكانت توضع فى قوالب خشبية . أما المحافظ الجلدية التى تنثنى مرة واثنان وثلاثة يستعملها الباعة الجوالون والمعلمون كان يأتى بها إلى ذلك المولد لتزين بمسامير معدنية بيضاء توضع كدعامة حتى لا ينقطع الخيط التى حيكت به ولتزينها فى مثلثات.

واهتمامى الحقيقى بالفنون الشعبية أتى حين وجدت حلقة كبيرة جدا تحيطها دكك خشبية يجلس عليها رجال من الصعيد، ملابسهم من الصوف الانجليزى الغالى، ومظهرهم يدل على أنهم ذووا نبالة وأصالة . وفى جزء ما تجلس فرقة موسيقية من المزمار البلدى عددهم ستة، وواحد أو اثنان من النقرزان وهى الطبلة التى توضع على الحجر، ويمسك الطبال فى كلتا يديه بعصا صغيرة من الخيرزان.

بصعوبة استطعت أن أدلف بين الواقفين ثم تجاسرت وجلست على طرف الدكة. جاءت جلستى بجوار شيخ هرم أنيق الملبس، سألته عما يحدث، قال لى ألم تر من قبل لعب العصا؟ قلت أتقصد ما يطلقون عليه «التحطيب» هز رأسه موافقا، سألته ما كل هذا الجمع الغفير

من أشخاص لا يبدو عليهم أنهم ليسوا ككل من فى المولد. قال لى أنها الليلة الأخيرة لتصفية بطل اللعبة فى الصعيد، وأنها ستكون «واعرة» ستكون بين بطل سوهاج وبطل قنا. بطل سوهاج صغير فى السن، إلا أنه من أسرة كلهم من ممارسى اللعبة، فأبوه كان بطلا وكذلك جده أما الآخر بطل قنا فرغم كبر سنه لم ينتزع أحد منه البطولة على مدار أربعين سنة لأن لديه خبرة كبيرة تضاهى خبرة الصغير الذى أنشأه جده وأبوه. قلت أيضايقك أن أسألك؟ قال لى سأجنبك السؤال وسأحاول أن أشرح لك كل شئ خطوة فخطوة. بدأت الموسيقى بطيئة بها لوعة ما كأنها تريد أن تستجمع مجد ماض سحيق اندثر. هامسا قال الشيخ أن الموسيقى الآن تمهيد لنزول البطلين ، ثم علت الموسيقى وكانت سريعة نوعا ما، فهتف أنها تعلن عن نزول البطلين وإذا من كلا الجانبين ينزل رجلان ضامرا الجسم تعجبت، هل لهذا الجسم الضامر أن يلعب بهذه العصا الطويلة ، أخذا يلفان حول نفسيهما يجران خلفهما العصا. همس الشيخ أنهم يستعرضان أنفسهما للجمهور ليتعرف على كل منهما. رويدا رويدا تصاعدت الموسيقى ثانية بنغم آخر. فى كل مرة كان نوعا من المزمار يقود، ففى هذه المرة كان المزمار الصغير هو الذى يقود ، وأخذ البطلان دون أن يقتربا من بعضهما يستعرضان مهارتهما فى مسك العصا والتلويح بها والحجل على رجل واحدة فى رشاقة غريبة الشأن لا يمكن أن أتصورها من تلك الأجسام الضامرة ذات الملابس غالية الثمن. وفجأة إذا بالمزمار الكبير يصرخ، يتبعه المقاسين من المزمارين الآخرين والنقرزان قال العجوز الهرم أن الموسيقى تعلن عن بدء التحام البطلين ليكتشف كل منهما الآخر. تلتحم العصا مرتفعة أعلى رءوسهم وتلتف الأجسام حول بعضها بمنتهى المرونة والسهولة. رويدا رويدا تصخب الموسيقى كلها مع بعضها لتعلن بدء النزال قال العجوز الذى بجانبى إن كليهما سيخشى الآخر وكلاهما سيكتشف نقطة الضعف فيه. وهنا تتحول الموسيقى إلى شئ آخر لتكون هى التابعة لنزال البطلين. لم أفهم شيئا ولكن الحاضرين كانوا يصرخون «الله.. الله» أو يهمس الهرم الذى بجانبى «ليه كده» كان متتبعا جدا للمباراة والتحام العصا أو وصول العصا لجسم الآخر والموسيقى هى التابعة لحركاتهما ولصوت ارتطام العصاتين لبعضهما . طالت المدة وأنا فاغر فاهى على شىء رائع لتطويع العصا فى حركات وعدم اهتزاز العصا وسيطرة الرجل الهرم عليها . كنت أريد ألا ينتهى هذا الاستعراض لكنه طال ثم انتهى . هلل الحاضرون وصخبت الموسيقى فرحة وقال العجوز: إن الشيخ بطل قنا قد طال خصمه كما هى عادته تحت إبطه . قلت له

لكنه لم يقع . قال لى إنه محظور عليهم الإيذاء أو الضرب. فقط يكاد أن يلمسه، جذبتني هذه اللعبة وتتبعتها كل خميس وكنت أحيانا أسافر الي قنا وسوهاج قالوا لى وقتها أن سلطان باشا كان يرعى هذه اللعبة، كان ينفق عليها، وأنه لا يوجد الآن من يرعى هذه اللعبة . بالتدريج أخذت هذه اللعبة تندثر . وآخر سنة ذهبت لأرى المباراة كانت تؤدى على ظهور الخيل، وأحيانا يقف الفارس على الركاب. ولقد سألت عن تلك الآلات الموسيقية الخشبية التى يستثيرنى صوتها وأحن إليها ، وقيل لى أنها ثلاثة مقاسات : المقاس الكبير يسمى «الأبق» والمتوسط يسمى «الشلبية» والصغير يسمى «السبس» . ويجلس دائما عازفان بجوار بعضهما الأستاذ وتلميذه ، التلميذ وظيفته أن يأخذ من الأستاذ ويريحه بعض الوقت. والعازف المتمرس يستطيع أن يجمع أنفاسه لمدة طويلة فى انتفاخ أسفل فكه ورقبته . أحيانا ما يكفى هذا النفس لاستمراره لمدة طويلة دون أن يرفع المزمار من على فمه . لماذا اندثرت هذه اللعبة واندثر أبطالها، أظنها لعبة تمتد إلى الفراعنة، ولم تندثر مصارعة الثيران من أسبانيا، رغم أنى أفضل التحطيب بكثير.

***

كان بالمولد نصبات كشبه الخيام تسمى غرزة، أشهرها كانت الخيمة التى تغنى بها بدرية السيد. هى سيدة محترمة قوية الشكيمة ، مهابة الشخصية تعتنى بملابسها الغالية السوداء دائما. وكانت لا تسمح باسفاف أو تهريج . على الكل أن يصمت تماما عندما تبدأ الغناء ولا تتوقف أبدا كعادة المغنيين فى الموالد حين يتوقف المغنى عن الغناء مع دخول كل وافد جديد تعزف الموسيقى سلام مربع فلابد من النقطة . فالدخول مجانا وثمن المشروب ملاليم غير مجزية . عكسها كانت خيمة خضرة خضر . كان لخضرة سن ذهبية فى جانب من فمها وتلف منديلا أحمر حول رقبتها . كانت مشهورة بـ «لا لا لا اللا .. آه .. اللا» يجلس وراءها زوجها وهو طبال . أما باقى الفرقة بجانبه، وهو يضع وردا أو ريحانا فى فوهة الطبلة. ويأخذ النقطة ليدسها داخل الطبلة، ولم أر فى حياتى «قفا» أطول من قفاه . كثيرا ما تصيح خضرة مع كل داخل «دقى يا مزيكا» ثم ترتجل كلمات لتحية الداخل من جمل محفوظة . وحينما كانت تتعرف على زبون من الزبائن الدائمة عندها الذين تعرف اسماءهم مثل الزبون السودانى الذى يرتدى طاقية صغيرة خضراء وملابس بيضاء وتحتها سروال . فتبادره بتلك التحية . «عم بشير وصحبته .. ده زى الورد وصحبته» . أثارنى من تلك المغنيات اعتناءهن بأقدامهن وخصوصا الكعب، يلبسن شبشبا ذا كعب، وعلى جانبه وردة حمراء ويقال إن معظمهن من قرية

فى سوهاج ، يقال عنها إن المرأة فيها تملأ البلاص فى دقيقة واحدة ، وتحك كعبها بحجر فى نصف ساعة .

تعرفت على خضرة وزوجها الطبال وسجلت منهم بعض أغانى الصعيد وذهبت معهم إلى منزلهم وكان وراء المحمدى ولا أدرى هل كان فى عزبة حشيش أم عزبة القصيرين أم عزبة الصفيح ، نسيت . وهكذا قررت أن يكون مشروع تخرجى من كلية الفنون الجميلة عن مولد المحمدى ونساء المحمدى ، تغيرت المنطقة الآن وأزيل كل شىء وبقى الضريح والجامع ، أما المساحة التى كان يقام عليها المولد فقد بنيت بالكامل كملحق لكلية طب عين شمس لتفى بتزايد أعداد الطلبة .

***

لا أذكر من بالضبط الذى عرفنى على زكريا الحجاوى ، أخذته إلى مولد عرب المحمدى وأخبرته أن خضرة تقف أمامى لتغنى وأرسمها ، كانت صورة وجه خضرة وهى تغنى ومنديل أحمر حول رقبتها وقد ظهر لمعان السن الذهبية فى فمها المفتوح معلقة أعلى مكتب سلامة موسى فى حجرة مكتبه . واكتفى سلامة موسى بأن يعلق فى بقية الحجرة صورتين أحداهما لوجه تولستوى والأخرى له واقفا خلف المحراث.

عرفت زكريا الحجاوى بخضرة فترددنا كثيرا على المولد، اختلفت معه كثيرا ، واستمر هو فى علاقته بها هى والطبال ، ألقى زكريا بقنبلة إذ قال إنه سيتزوج خضرة، وأن خضرة هى ميلاد الفن الشعبى الحقيقى فى مصر، حذرته قائلا إنهم كالغجر وأن زوجها الطبال سيبقى زوجها الحقيقى . لم يصدقنى وقال إنها تحبه . مضى الوقت وإذا بتحذيرى يصبح حقيقة .

***

عندما أصبح يحيى حقى مسئولا عن إدارة الفنون ذهبت معه ذات يوم إلى البروفة «الچنرال» بالأوبرا التى ستغنى بها خضرة وباقى من جمعهم زكريا الحجاوى ، ولن أسهب فى التفاصيل فكل ذلك فى كتاب «تعال معى إلى الكونسير» ليحيى حقى . كان يقف بجانبنا سكرتير يحيى حقى أو المدير المالى الأستاذ أنور فتح الله وكان فى ذلك الوقت يعد روايات نجيب محفوظ وغيره من الكتاب للإذاعة والمسرح ، قال يحيى حقى لزكريا: إنه لم يجد ما كان يتوقعه ، وأنه لم يفهم خضرة على الاطلاق ، أجاب زكريا بجمل غامضة إن فى صوت خضرة التقاء الطينة السوداء بصحراء مصر القاحلة ، وأنها انسياب مياه النيل وهى تشق طريقها . قال يحيى حقى بطريقته الذكية اللبقة إنه لم يجدها كما يصفها زكريا ، وأن الجميع ينقصهم الحيوية والدفء لأننا انتزعناهم من بيئتهم الحقيقية . فقال زكريا بغموض: أبدا ، إن المسألة أنه

ينقصهم شيء فاستفسر يحيى حقى عما ينقصهم فأخذ زكريا يشرح أنه ينقصهم شيء يساعدهم على التجلى والوصول إلى حالة الوجد . وهنا فهم يحيى حقى وسأله عمّا يريدونه . فقال زكريا : لا أدرى ولكنى قلت الحقيقة . وهنا نظر يحيى إلى أنور فتح الله وطلب منه أن يتصرف ، فالوضع سيكون خيبة كبيرة للجميع . وقال له : اصرف الفلوس وقل : الشيء ولزوم الشيء ولزوم لزوم الشيء . فرح الأستاذ أنور بهذا الحل لأنه كما أعلم سيصيبه شيء من لزوم الشيء .

أخذنى يحيى حقى من يدى قائلا : كما كان يقول لى دائما ، نحن الاثنان قصار «كالخيل السيسى» هلم بنا .

خرجنا من باب الممثلين الخلفى بالأوبرا . قال يحيى : زوجتى تزور أولادها بفرنسا ، دعنا نتعشى خارج البيت اليوم ، عددت له الأماكن التى يمكن أن نأكل بها ، ومنها أن نذهب إلى قهوة ماتاتيا ونطلب من القهوجى أن يحضر لنا كبابا ويجعل الكبابجى يكبكب الكباب . تساءل يحيى حقى عن معنى ذلك ، فشرحت له أن ذلك يعنى أن يخرج الكبابجى الكباب من النار فيضعه توا داخل الرغيف فتنزل عصارة اللحم على الخبز ، ثم يضع الرغيف على النار ليأتى لنا ساخنا ، أجاب يحيى حقى باسما وقد أمسك بيدى : دعنا نتكبكب . ثم ونحن نأكل اللحم بالخبز قال لى يحيى حقى : والله ياحسن لم أعد أفهم مرة يقولون لنا يجب أن تذهب المدينة بفنونها الى القرية ، وأخرى يقولون يجب أن تأتى القرية بفنونها إلى المدينة . قلت له إنه عندما كنت أزور سلامة موسى فى بورسعيد ونحن ننظر إلى أضواء المراكب الصفراء وهى تعبر قناة السويس وتطرق الحديث الى الفن الشعبى قال سلامة موسى: يجب على المثقف أن يكون حذرا جدا في اقترابه من الفلاح أو من الطبقة العاملة ، وأن يدعهم يختارون هم أبطالهم ونجومهم ، وحذرنى من التدخل نهائيا أو التقليد ، وقال إن الفن الشعبى كسمك النيل لايمكن أن يعيش في المياه المالحة والبحر الهائج .

***

آخر مرة جلست فيها مع زكريا الحجاوى كانت فى مرسمى ، وكان معنا كذلك عباس الأسوانى ومجموعة من الأصدقاء منهم حسن التلمسانى ، كنا نجلس على وسائد حول منضدة منخفضة، كنا مجموعة من الأسماء اللامعة مات كثير منهم ومازال بعضهم حيا . جلس زكريا بجوار عباس الأسوانى ، وكان الأخير بدينا جدا، كان منحشرا فى ركن الحجرة، تعلوه مكتبة معلقة، وكرشه يسبقه أمامه على المنضدة المنخفضة ، وحينما يتحدث عباس الأسوانى ، خصوصا ومعه زكريا الحجاوى ، فلا يمكن أن يكون هناك مجال لأحد آخر ليتكلم ، كانا يتحدثان عن الفن الشعبى ، حولهما باقى

الأصدقاء ، وأمامهما بالضبط يجلس حسن التلمساني يلف سجائر الحشيش ويحتسى الخمر صامتا ، حسن دمث الخلق وديع ، لكنه حين يفقد أعصابه ينقلب الى رجل شرس من سلالة هانيبال، ودون مقدمات وجدنا حسن يخرج من جيبه مطواته التى من مخلفات أحد الكوماندوز الانجليز ، يفتحها ويمدها إلى كرش عباس الأسوانى قائلا : ساعتين وأنا أتحرق الى كلمة انطق بها ، وأنتما لم تتركا فرصة لأى أحد ليتكلم ، «والله افتح كرشك انت وهو» فوجئنا بهذا التصرف غير المتوقع ، فعلى بعد أقل من نصف سنتيمتر كان سن مطواة حسن التلمساني يداعب «كرش» عباس الأسوانى . وصاح التلمسانى : ما الذى تعرفانه عن الفن الشعبى انت وهو . هل تستطيعان قراءة نوتة موسيقية ؟ هل تستطيعان التفريق بين اللهجات المختلفة ؟ أين مثلا تتحول السين إلى شين أو العكس أو الجيم إلى زين، يجب أن تصمتا إلى آخر الجلسة . وبسرعة حللت الموقف بأن غيرت الموضوع ، فوجهت الحديث الى زكريا الحجاوى فادعيت كاذبا أن الروس قد سجلوا جميع الموسيقى الشعبية المصرية، وصنعوا ألحانا على نسقها؟.

وأسمعته ألحان قانون مع ناى .. فقال . الله .. الله .. وأخذ يضرب يدا بيد على الإيقاع ، وقال إنه مدخل رائع لخضرة ، تستطيع أن تندفع بعده مباشرة صائحة: لالالالاللا . رفعت الاسطوانة من على البيك أب . ووضعت غيرها وكانت لآلات شعبية مجرية . قال زكريا أنه سمع هذا اللحن من قبل ، وأخذ يحاول تذكر متى وأين سمعه ، ثم قال أنه ألف عليه أغنية لخضرة ، اخذت أغير الاسطوانات وفى كل مرة يبدى زكريا اعجابه باللحن وبالمعجزة التى صنعها الروس من الفن الشعبى المصرى . وفى النهاية ألقيت اليهم بالاسطوانات قائلا: إن هذه موسيقى شعبية أرمنية والثانية مجرية والثالثة رومانية والأخيرة كانت يوجسلافية ولا شىء من هذا يرتبط بمصر إلا بتأثير موسيقى الأتراك الذين حكموا كل هذه المناطق ، ضج الحاضرون بالضحك ، أما زكريا فاندفع كعادته مبررا خطأه بكلام يعجز أى إنسان عن فهمه .

***

مرت الأيام دون أن أرى زكريا أو أعلم عنه شيئا ، وكان قد انحسرت عنه الأضواء كنت ذاهبا إلى الاسكندرية ووصلت المحطة قبل قيام الديزل بنصف ساعة وفجأة وجدت زكريا أمامى بشعره الأشعث ووجهه مرهق وملابسه متسخة ، بجانبه سارت خضرة تحمل سبتا كبيرا ، وبجانبهما الطبال يحمل طبلته ولفائف ، استوقفنى وتصافحنا ، سألته : أين كنت؟ قال . كان المجد ينتظرنى . وقد حدث، فقد أتى سكان قرية من الصعيد طالبين

أن أنقذهم فأنا المخلص الوحيد لهم ، والمسألة أن لديهم فرحاً وفى الليلة نفسها يوجد لدى العائلة المنافسة لهم أيضا فرح ، العائلة الأخرى أحضرت أحد المداحين المشهورين جدا فى الصعيد ، وأمام نصرة الفلاحين، وهذا فى صلب عملى، فأنا لا أتأخر، فاخذت خضرة والطبال وذهبنا ، كانت قريحتى صدئة جدا . حاولت ، وكررت المحاولة ، لكن الكلمات خذلتنى، وأخيرا أخذت استنجد بخضرة قائلا : ياللا ياخضرة .. ساعدينى .. قولى شيئا ، وأخذت أدق بالايقاع على يدى . وفجأة انطلقت خضرة بصوت لم أسمعه من قبل. خضرة تجلت . فإذا بالكلمات تندفع مني كالهدير ، لتلحنها وتغنيها خضرة على التو. هللت «الله أكبر» سيكون النصر حليفنا ، وانطلقت تغنى ، ولعلعت خضرة بصوت جلى كالسكر النبات . فإذ بالمدعوين فى حفل الأسرة المنافسة يتسللون لنا واحدا تلو الآخر ، وانهال علينا النقوط ، وخضرة لا تنقطع عن تحية الرامين بالنقطة ، وفى الصباح حملنا بما لذ وطاب من الفطير المشلتت وعسل النحل والجبنة القديمة وسمن بلدى، حتى العدس أعطوه لنا ، عدس كالكهرمان. وودعتنا القرية بأكملها الى المحطة. صافحته ومضيت وأنا اضرب كفا بكف .

***

تذكرت قصة أخرى مرت بى مع الأستاذ مفيد الشوباشى ، كنا نحترمه جدا ونحترم نضاله ومواقفه ، ولكنه كان يصر ونحن جالسين فى مقهى استامبيلوس ناصية عبد الخالق ثروت مع سليمان باشا ، أن يصعد فوق كرسى يلقى علينا أشعاره ، يظن نفسه أنه الشاعر اسينين أو مايكوفسكى ، وفى مرة صعد على الكرسى وكنت أجلس بجواره وكذلك أنور فتح الله الذى كان هائل الجرم طويلا عريضا أصلع الرأس . إذا بمفيد الشوباشى ينطلق : أنزلونى من عليائى ، أنزلونى من عليائى ، كان مفيد الشوباشى قصيرا فلما قام أنور فتح الله واقفا بجواره فإذا بمفيد وهو واقف على الكرسى يصل تقريبا الى صدر أنور فتح الله ، وإذا بأنور فتح الله منتشيا يقول للأستاذ مفيد الشوباشى : سأنزلك من عليائك يا أستاذ مفيد ، وإذا به يحمله من على الكرسى وينزله برفق على الأرض ، كأنه يحمل وعاء اثريا ثمينا .

***

مضت سنوات طويلة على تلك الأحداث ، لكن لاتزال موسيقى التحطيب، وأغنية بدرية السيد «غنيت على شواشى الدرة الأمرية» وتنطقها بلغة الصعيد «الجمرية» تحمل الىّ الشجن ، وتحملنى فى حزن عميق الى ذكرى أحقاب سحيقة مضت على ذلك الشعب ، أليس الشجن من أهم مميزات الفن ودليلاً على صدقه ؟. ■

تهل علينا الألفية الثالثة ببريق أخاذ مع انطلاق الصواريخ النارية ومظاهر البهجة والسرور في شتي بقاع الأرض بالرغم من الآلام التي تئن بها البشرية في أكثر من موقع من جسمها الضخم . إنه الأمل في الغد الجديد ، وفي أن يكون المستقبل أفضل من الماضي والحاضر . ويتساءل المرء إلى كم يمتد بي العمر في ذلك القرن الوافد ؟ هذا من علم الغيب الذي اختص به الخالق سبحانه وتعالي جل وعلي وحده . «وماتدري نفس ماذا تكسب غدا وماتدري نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير» صدق الله العظيم «لقمان : ٣٤» .

هل طال عُمر الإنسان فى مصر ؟

بقلم : د. محمد بهائى السكرى

ولكن هناك من الأمو مايدعو الى التفاؤل فالإحصائيات تشير الى أن متوسط عمر الإنسان بوجه عام، وفى مصر على وجه الخصوص، فى ازدياد مستمر .

ما السبب فى ذلك ؟

إن الأمر يرجع الى عوامل متعددة .. ولكن قبل أن نستطرد فى شرحها نتساءل، ماالذى يحدد عمر الإنسان بوجه عام؟

العمر محدد

ونعود فنقول إن العمر محدد بقدر مكتوب ضمنه الله سبحانه فى الچينات الوراثية التى ينشأ منها الإنسان ، والعوامل البيئية التى يتعرض لها طوال الحياة .

فخلايا الجسم لها قدرة محددة على التكاثر والانقسام وهذه القدرة تتفاوت من كائن حى لآخر ومن إنسان لإنسان .

وقــدر تلك الخــلايا أن تبلغ ذروة من العنفوان ثم تبدأ فى الاضمحلال .

ولا تتــشــابه الجـينات الوراثيــة التى تحمل صفات الجسم المختلفة فى شخص مع أى إنسان آخر مثلما لاتتشابه بصمات الأصابع . وهذه الجينات تحدد نقاط القوة والضعف فى البدن وترسم الخطة والمنهج العام لتكيف الجسم مع البيئة وقدرة المرء على مجابهة ضغوط الحياة .

والبيئة بوجه عام تمثل تحديا مستمرا لجسم الإنسان بظروفها المتغيرة ومكوناتها المختلفة ، فهناك دائما تغير فى الوسط الخارجى مثل تغيرات الحرارة والضغط والتعرض لمختلف المؤثرات وللجراثيم الضارة .

ولكن بالرغم من ذلك يظل الوسط الداخلى فى جسم الإنسان فى حالة ثبات وتؤدى الأنسجة والخلايا والاعضاء وظائفها بكفاءة وبذلك يظل الإنسان فى حالة من الصحة . أما إذا حدث خلل داخلى كبير فى الثبات والاتزان ينشأ المرض وقد يؤدى الى الوفاة .

وكلما كانت البيئة الخارجية مواتية قل تعرض المرء للضغوط .

وفى حالة حدوث الخلل كلما كان العلاج سريعا وحاسما قلت فرصة الاضرار بالجسم ونقص العمر .

ونعود لأسباب زيادة متوسط عمر الفرد فى مصر .

إن ذلك يرجع ببساطة شديدة الى التقدم الطبى المذهل فى القرن الماضى والى أن مصر تدريجيا بدأت تخرج من مصاف الدول النامية الى عتبات الدول المتقدمة . كما أن اسلوب الحياة ومستوى المعيشة فيها قد طفر طفرة كبيرة .

ومع التقدم الطبى فى شتى البقاع تحسنت وسائل التشخيص والعلاج .

وعندما نستعرض اسباب الأمراض نجد منها الوراثة والعدوى واصابات الحوادث والأورام وسوء التغذية .

وهناك الكثير من العيوب الخلقية كان علاجها مستعصيا وأصبح الآن من الممكن معالجتها بنجاح .

والأمراض المعدية بمسبباتها المختلفة من جراثيم وفيروسات وطفيليات أصبح الآن علاجها سهلا ميسورا فى أغلب الأحيان كما تطورت وسائل الوقاية منها باستخدام الأمصال واللقاحات وازداد الوعى بها مع اهتمام وسائل الاعلام المرئية والمسموعة والمقروءة بالتوعية المستمرة .

وأمراض سوء التغذية أصبحت أقل وطأة مع ارتفاع مستوى المعيشة وانتشار الوعى الصحى .

انتشار الوعى الصحى

وفى مصر ازداد عدد الأطباء وانتشرت المراكز الصحية فى كل مكان ، وبلغت بعض المستشفيات فى المدن مستوى عاليا من التقنية يضارع مايوجد فى الدول المتقدمة .

هل طال عمر الإنسان في مصر ؟

ومع انتشار الوعي الصحي أصبح المرء عادة يلجأ الى الطبيب كلما اصابه المرض ولا يتجه الى مدعى الطب والوسائل البدائية فى العلاج .

ومع انتشار مظلة التأمين أصبحت قطاعات أكبر تحظى برعاية صحية معقولة بأجر زهيد .

ومما لاشك فيه أن الثالوث الرهيب الذى كان يتهدد مصر فى القرن الماضى، خاصة فى أوائله، وأضلاعه الفقر والجهل والمرض قد بدأ فى الانحسار .

فقد زاد الدخل القومى مع الاتجاه للتصنيع واكتشاف منابع جديدة للبترول وتحسين طرق الزراعة وسياسة الانفتاح وحسن إدارة قناة السويس .

وارتفع متوسط دخل الفرد بالرغم من الزيادة الرهيبة فى عدد السكان الذين تضاعف عددهم فى القرن الماضى من ٢٠ مليونا الى ستين مليونا .

وأصبح هناك اهتمام كبير بالتعليم وتراجعت الأمية وزاد نشر الثقافة عن طريق الإذاعة والتليفزيون والصحف والمجلات .

وأصبحت الكهرباء والمياه النقية تصلان الى معظم القرى وهذان عاملان أساسيان فى رفع مستوى الحياة والحفاظ على الصحة وتيسير استخدام الأجهزة الحديثة فى الحياة اليومية وفى الخدمات الصحية والعلاجية .

وأدى جعل سنوات التعليم الأولى الزامية لجميع الأفراد من النشء الى تيسير تقديم حد أدنى من المعلومات العلمية والصحية والثقافية التى تعين المرء على التصرف السليم فى مجابهة الأمراض والأزمات .

زيادة التوعية

كما أدى انتشار التليفزيون والاقبال الجماهيرى الشديد عليه الى جعله أداة ممتازة للتوعية فى شتى المجالات والى خلق نوع من الفكر الموحد بين طبقات الشعب المختلفة على تباين ألوانها ومشاربها ، واستخدم التليفزيون بكفاءة فى حملات صحية مختلفة مثل حملات التطعيم ضد شلل الأطفال والتيتانوس ومعالجة الاسهال والجفاف والاهتمام بالرضاعة الطبيعية وصحة الأطفال بوجه عام ، كما اسهم فى الوقاية من مرض البلهارسيا ومعالجته وهو من أكثر الأوبئة

انتشارا بين الفلاحين والعمال الزراعيين ، كما حذر من أوبئة عالمية قد تتهدد مصر مثل مرض الايدز .

وأدى تشجيع القراءة ونشر المكتبات الى ارتفاع مستوى الثقافة والوعى ، وأصبح الناس فى مصر يتهافتون علي معرض الكتاب الدولى بالملايين مثل تهافتهم على الغذاء والكساء .

التقدم العلمى

وأدى تقدم صناعة الدواء فى مصر الى تقديم كم هائل من أحدث المستحضرات الطبية الفعالة بأسعار أقل من الاسعار العالمية فى الدول الأخرى .

كما اسهم انتشار معامل التحاليل والعيادات والمستشفيات التى تملك وسائل متقدمة للتشخيص مثل الموجات فوق الصوتية والأشعة المقطعية والرنين المغناطيسى فى تيسير سبل التشخيص الدقيق وعلاج المريض على أساس سليم.

ولا ننسى أن العلم أصبح يقدم للإنسان حلولا لمشاكل كانت تستعصى على العلاج وأمراض كانت تعد ميئوساً منها . واستخدمت وسائل جديدة مثل المناظير وقساطر القلب وأشعة الليزر فى التشخيص والعلاج .

كما أصبح التدخل الجراحى والتخدير أكثر أمنا حتى أمكن إجراء عمليات جراحية لمرضى متقدمين فى السن فى السبعين أو الثمانين من العمر .

وأصبحت مراكز العناية المركزة وعلاج الحالات الحرجة منتشرة فى كل المستشفيات في مختلف أنحاء مصر.

ولكن بالرغم من هذه الصورة المشرقة فهناك بعض المحاذير. فقد انتشر التدخين بصورة رهيبة فى قطاعات كثيرة من الشباب بالرغم من انحساره فى الدول المتقدمة . ومما لاشك فيه أن التدخين يشكل خطورة حقيقية على صحة المرء على المدى الطويل .

كما تزايدت نسبة الاصابة بضغط الدم المرتفع وتصلب الشرايين مع التعرض لضغوط الحياة وزيادة الزحام والافراط فى تناول الطعام . كما تزايدت نسبة الاصابة بمرض السكر لأسباب مشابهة. كما أن زيادة التعرض للملوثات الصناعية والمبيدات الحشرية والدخان قد أسهمت فى زيادة نسبة الإصابة بالأورام .

فلابد من الحذر حتي لانفقد بسمة التفاؤل التى أطلت علينا فى القرن الجديد تبشر بعمر مديد .

١١ فبراير ذكرى ميلاد الراحل الكبير أحمد بهاء الدين الذى ولد فى عام ١٩٢٧ ، وهذه بعض جوانب من حياته الحافلة



أحمد بهاء الدين
العاشق للحقيقة

بقلم : مصطفي نبيل

●● جذبني كما جذب جيلى قراءة أحمد بهاء الدين ،لأن كتاباته كانت تمثل فكراً جديداً، ونغمة جديدة وروحا جديدة، وأفكارا طازجة ، يدافع خلالها عن قضايا بلده بلا تزمت ، كتابات رائعة .. هادفة .. شيقة، تتناول قضايا الناس، وفى الوقت نفسه لا تتملقهم ، وتنم كتاباته عن تكوين ثقافى عميق.

وأصبحت كتاباته بحق التعبير الصادق عن الوطنية المصرية. فى مرحلة اشتد فيها الجدل، وتضاربت فيها المدارس الفكرية ، وسط خليط مضطرب من التيارات والأفكار، كما أن في كتاباته عشقا كبيراً للحقيقة ، ذلك النوع من العشق اليقظ، ينتقد ويرفض ويقترح ويكشف ويقدم الحلول.

لذا كان أحد الأسماء اللامعة ، وهو أصغر رئيس تحرير عرفته الصحافة.

وإذا كتب بهاء فلابد أن أقرأ .

وتمنيت خلال خطواتي الأولى العمل معه، وكان أيامها رئيساً لتحرير صحيفة «الشعب» التى كان يرأس مجلس إدارتها السيد صلاح سالم ، وكان لاتصالى بالأستاذ بهاء والتعرف عليه حكاية:

ذهبت إليه فى صيف ١٩٥٩ أحمل رسالة من رئيس مجلس الإدارة، يقدمنى إليه، وكنت لا أزال طالبا فى الجامعة، وتسلمت سكرتيرته زينب صادق رسالة صلاح سالم، وأعطتنى أكثر من موعد لم يتحقق، حتى كدت أتخلى عن المحاولة، وفى أحد المواعيد التقيت مصادفة بالأستاذ زكريا الحجاوى الذى كانت تربطنى به علاقة وثيقة ، وعندما علم بمحاولاتى المتكررة للقاء بهاء، دهشت من سؤاله .. هل معك نقود؟ أجبت .. كم ؟ ولماذا ؟ رد قائلا : حق التاكسى.

وأخذنا التاكسى على الفور إلى مكتب بهاء فى شارع القصر العينى، ورحبت زينب صادق بالأستاذ زكريا ، وأفسحت له الطريق للقاء بهاء ، ودخلت فى أثره، وقدمنى إليه، وحاول الأستاذ بهاء أن يثنينى عن العمل بالصحافة وهمومها، ولم يكن لدى أدنى استعداد للاستجابة ، ثم طلب أن أقدم أعمالى إليه مباشرة، فالصحيفة غارقة فى الخلافات والصراعات.

ولم أعرف حتى اليوم هل عرف الأستاذ بهاء أنى صاحب خطاب صلاح سالم . أم لا ؟

ومنذ هذا اللقاء وحتى اليوم لم تنقطع العلاقة بين الأستاذ وتلميذه ، وتفرقت بنا الطرق حتى عملت معه فى «المصور» فى إبريل سنة ١٩٦٤، وكان خلال هذه الفترة نعم الأستاذ والأب والأخ والصديق.

وخلال هذه العلاقة الشخصية العميقة التى لازمته فيها ، وخاصة عندما عملت معه فى مجلة العربى بالكويت، جرت بيننا الكثير من الحوارات حول الكثير من القضايا، وسمعت منه الكثير من الأفكار، التى تمنيت أن يسجلها للأجيال المقبلة، فقد كان بحرا متدفقاً، لا تقتصر اهتماماته على جانب واحد، بل يثير اهتماماته مجالات مختلفة اجتماعية وعلمية .

وكان أحد مشاريعه الذى تمنى أن ينجزه، إعادة كتابة التاريخ المصرى الحديث، وتمنى أن تتيح له ظروف عمله انجاز هذا المشروع، فكانت له رؤية خاصة مميزة لتاريخ مصر الحديث، وله لمسة فنية وإنسانية فى النظر للأحداث التاريخية ، وكانت أداته فى فهم ما حوله البعد الإنسانى، ويمزج ما هو سياسى بالاجتماعى، وحتى فى يومياته فى الأهرام، رصد دقيق للتغيير الاجتماعى الذى تشهده البلاد، وتحذير دائم من المخاطر التى يراها، مثل العشوائيات وتدهور أوضاع القاهرة، كل ذلك بروح يقظة ورهافة فكرية، وشجاعة النقد بلا تجريح، ووصف الواقع دون السقوط فى القوالب الفكرية المحفوظة، وتعدت نظرته سعة إطلاعه وتعدد قراءاته إلى تلك الشعلة من القلق الخلاق، الذى يجعله يغوص فى

أحمد بهاء الدين

الأعماق البعيدة ويحلق فى الفضاء الفسيح حيث «يحلق بقدر ما يحدق».

ولم يكن التاريخ عنده مجرد تعاقب أحداث بلا مغزى ولا معنى ، بل يرى فى تاريخ مصر دراما هائلة متعددة الفصول متكاملة المغزى ، يقود كل فصل من الأحداث إلى الفصل التالى، ويختار بهاء بشفافية الفنان وعمق الكاتب وحرارته بعض أبطال الدراما ونماذجها ، وقدمها فى كتاب «أيام لها تاريخ» و«فاروق ملكا» و«مبادئ وأشخاص»، وتوقف عند بعض اللحظات التاريخية الحاسمة وأخذ يقدم كل جوانبها وهى تتناول التاريخ الحى وتؤكد تفكيره المبكر فى هذا المشروع الضخم، وكتب هذه الكتب قبل الانغماس فى مسئولياته الكبيرة عندما أصبح رئيساً لتحرير صباح الخير فى يناير ١٩٥٦.

ومن أجمل كتبه فى هذا الاتجاه «أيام لها تاريخ» ، وهى أكثر الكتب تعبيراً عنه، يقدم التاريخ الحى من خلال مجموعة الشخصيات والأحداث الدرامية ، ويمزج خلاله التحليل الاجتماعى بالتاريخ السياسى.

ويعتبر سيرة حياة عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية ، هى الحياة الحقيقية ، حياة ابن البلد الأصيل بفطرته وذكائه ودأبه الذى لم يتخل عن الثورة لحظة واحدة.

وكتب «فاروق ملكا» بعد الثورة بشهر واحد ، وعقب خلع الملك ، ولم يتوقف مثل غيره عند قصص الفضائح والمسائل الشخصية ، بل قدم أبعاد أزمة النظام السياسى السابق على الثورة.

ومما له دلالة واضحة أن أول مقال كتبه كان عن الثائر جمال الدين الأفغانى، وأحد الجوانب المجهولة عن بهاء، أنه كتب القصة والشعر فى بداية حياته. مما يعطى مشروعه سماته الخاصة .

وكثيراً ما ردد القول .. «إن تاريخ ثورة ١٩١٩ لم يكتب بعد، ولم يحاول أحد المؤرخين أن ينقب وراء سر هؤلاء الفلاحين الذين حاربوا فى دير مواس ، وحاولوا الاستيلاء على السفينة المسلحة فى ديروط..» ، وقال .. «تمنيت أن يظهر بيننا «عبد الرحمن الجبرتى» جديد، لكى يؤلف جزءًا جديداً من كتابه «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» الذى ألف جزءه الأول قبل زهاء قرنين من الزمان» .

ولعل ما حال دون إنجاز مشروعه مشغولياته الكثيرة ، علاوة على مسئوليات المناصب التى تولاها، وضياع الكثير من الوقت والجهد دفاعاً عن «قيثارته».

إرهاب الرأى العام

يتصور الكثيرون أن الضغوط والإرهاب يأتى عادة من السلطة ، ولكن كثيراً ما ردد بهاء فكرة كانت تلح عليه **وهى أن الضغوط لا تأتى من السلطة وحدها، بل كثيراً ما يحول الرأى العام بين الكاتب والتعبير**

عما يؤمن به ، وكثيراً ما يرفض الرأى العام الأفكار الجديدة وما يأتى به العصر من جديد ! .

فقد كان بهاء من أكثر الكتاب إيمانا بالحرية ، وقضى عمره يدعو إليها ويدافع عنها ، ولديه حساسية خاصة من كل ما يمس حرية الكاتب ، ويرى أن المثقف فى العالم العربى الذى يؤثر على الرأى العام فى بلاده يواجه عدداً هائلا من الضغوط التى لا حصر لها.

ولا يفوته أن يلاحظ شيوع الاستبداد السياسى والإرهاب الفكرى، وانتشار الأمية انتشاراً مخيفاً ، مما يجعل دور الكاتب مقتصراً على التأثير على عدد قليل من الناس ، وتأتى غوغائية بعض الزعامات التى تستخدم تأثيرها فى إسكات الصوت المختلف ، وإرهاب صاحب الرأى، بضغط الأغلبية المنساقة وطغيان وسائل الإعلام التى تسعى إلى تلبية مطالب نسبة كبيرة من غير المتعلمين، كل ذلك غطى تماماً على صوت العقل فى قضايا مهمة ، وهى المحنة الحقيقية التى يعانى منها أصحاب القلم .

ونجد تطبيق ذلك عندما سافر إلى الاتحاد السوفييتى فى رحلة لمدة شهر، عاد وسجل رحلته فى كتاب «شهر فى روسيا» ، وتناول فيه الكثير من النقاط السلبية فى التجربة السوفييتية . وانتقد الذين يقدسون كل ما يجرى فى الاتحاد السوفييتى، واعتبر الهجوم الذى تعرض له نوعاً من الإرهاب يسعى أصحابه إلى اسكات صوت العقل.

وعندما عرض فيلم «ستالين» ولقى حفاوة بالغة من بعض الأوساط ، انتقد بهاء ما جاء فى الفيلم وما اعتبره «عبادة الفرد»، وتعرض بعدها لحملة قاسية من بعض الكتاب، وله مقال مشهور بعنوان «دراويش الماركسية» يعترض على الأفكار المعلبة التى لا ترى الواقع إلا من خلال النظارة الأيديولوجية، أى التى تتعامل مع النصوص ولا ترى الواقع ولم تستوعب المنهج.

المؤسسة

وكان لديه فكرة كثيراً ما رددها أمامى، وهى تقوم على أساس أن كل شخصية فذة ساهمت بالاضافة فى أحد المجالات، تصبح الأولوية عندها كيف تتفرغ لعملها، وكيف يصل عملها إلى المتلقى، ويضرب المثل بكبار الكتاب والفنانين ، **فكل فنان موهوب يسعى على الدوام لوصول إنتاجه إلى المتلقى، ولا يسمح بأى عائق يحول دون ذلك، ويقيم من نفسه مؤسسة تصبح مهمتها تحقيق الرواج والانتشار . ويراعى بالتالى المؤسسة الأشمل المهيمنة على المجتمع. والتى لا تعنى السلطة الحاكمة وحدها بل تتسع وتشمل السلطة المالية والأحزاب والنقابات والهياكل التنظيمية الأخرى التى**

أحمد بهاء الدين

تدافع عن قيم وتقاليد المجتمع.

وهو يعتبر بذلك كل من أم كلثوم وعبدالوهاب وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ نماذج حية على فكرته، فكل منهم مؤسسة تعمل على الحفاظ على قيثارته وقدرته على استمرار إنتاجه الفنى، وتجنب الاصطدام بالأوضاع والسياسات القائمة.

وهى فكرة أدهشتنى حقا - فى البداية - فكيف يبدع المرء في ظل القيود والضغوط؟! وكيف للفنان أن يعبر عن حلمه وهو خلف القضبان؟! وكيف تتعايش العقلانية مع الخرافة؟.. وكيف يمكن التوفيق بين القيود والانطلاق إلى آفاق رحبة ؟

وتبينت أن هذه هى المعادلة الصعبة التى يجب أن يحققها الكاتب أو الفنان.. فهناك ثلاثة أنواع من المثقفين :

● المثقف الذى يعجز عن التوائم والتوافق مع ما حوله، فينصرف عن الإنتاج ويسقط فى العزلة والانكفاء على الذات ، وينتهى بأحد الصور التى من بينها الانتحار.

● المثقف الذى يستخدّم مهاراته فى خدمة الأوضاع القائمة على أى نحو كانت، ويلهث وراء المكاسب الشخصية، وربما ينتهى به الحال، وقد خسر نفسه مهما حقق من المكاسب، وتردد اسمه فى كل المحافل.

● والنموذج الثالث، وهو المثقف الذى يصر فى عناد أن يقوم بدوره مهما كانت العقبات ، ويقبل الحلول الوسط من أجل أن يتمكن من تقديم خبرته، ويسعى للتوافق مع الأوضاع القائمة ، على أمل أن يساهم ذلك فى خلق تيار فى الرأى العام يدفع نحو العدل والمساواة .

المثقف والسلطة

ومن أقوال أحمد بهاء الدين التى كثيراً ما كان يرددها.. **أنه يذهب فى كتاباته إلى آخر حدود الأسلاك الشائكة ، ويتجنب الاصطدام بالألغام ، ويصل إلى النقطة التى يقول فيها القانون .. «قف عندك» .. ويضيف لست من الصحفيين الذين عرفوا السجون والمعتقلات!.**

ورغم رقته الظاهرة ، ورغم ما تميزت به كتاباته من نغمة هادئة وعقلانية، وامتلاكه لقلم طيع، يعبر به عن الأفكار الصعبة والمواقف الدقيقة بعبارات لائقة، فهو يختار عباراته بدقة، عبارات توقظ ولا تجرح ، وتحرك العقل والوجدان ، ولا تتخلى مطلقا عن أدب الحوار، حتى وهو في ذروة معاركه الفكرية ، ولا يتورط فى أى قوالب جاهزة أو إلتزام حزبى ضيق، إلا أنه يحمل قلبا شجاعاً، وصلابة أبناء الصعيد، لا يحيد عن رأيه ، ويتحمل فى سبيل ذلك كل النتائج ، ولم يكن يسعى إلى الصدام أو البطولات الفارغة، وعندما يضيق هامش الحرية ، لا يتملق السلطة وربما يتناول موضوعاً آخر، أو يلجأ إلى

الصمت الذى يكون أحيانا أكثر تعبيراً من الكلام، ولكنه لا يقول أبداً ما يخالف وجهة نظره .

لذا لم يكن غريبا تعرضه للنقل والفصل وحتى السجن ، الذى دخله فى كل من الرباط والخرطوم، كما قدم إلى نيابة أمن الدولة وهو فى مقتبل حياته ، ومنع من الكتابة أكثر من مرة !

وقبل ثورة يوليو ولما يكد يصل عمره العشرين ، تم تقديمه إلى نيابة أمن الدولة بتهمة كتابة مقال يدعو فيه إلى قلب نظام الحكم، نشره فى مجلة «اللواء الجديد» الصحيفة التى كان يصدرها الراحل فتحى رضوان ، ومن يومها ظل يدعو فى كتاباته الأولى للنهضة والعدل والمساواة فى ظل الحكم الوطنى . ويرفض الأحلاف ويدعو إلى سياسة عدم الانحياز، ويطالب فى كتاباته فى مجلة «فصول» بتحديد الملكية الزراعية ، وتأميم البنوك الكبرى وخاصة البنك المركزى، وفرض ضرائب تصاعدية وإلغاء الضرائب غير المباشرة ، ودعا إلى تأميم تجارة القطن ثروة مصر الرئيسية ، وهاجم غلو البيروقراطية ، ونادى بمحو الأمية وضرورة الإلتفات إلى القرية المصرية، وهذه هى بعض عناوين مقالاته : هذه الضرائب التى ندفعها، دعاة النفوذ الأمريكى فى مصر، تأميم القطن، النظم الرجعية فى الشرق ، إقرار الميزانية.

ولعل الكتاب الذى أصدره فى مايو سنة ١٩٥١ يحدد نقطة البداية ، وهو كتاب «الاستعمار الجديد والنقطة الرابعة» وطبعه على نفقته الخاصة، ويقدم ملامح لتفكير جيل جديد، وهو عبارة عن نقد وتحليل سياسى لمشروع النقطة الرابعة، ومن يقرأ الكتاب يشعر وكأن الزمن قد توقف، وأن الدنيا لم تتحرك ، فمازال الكثير من قضايا الكتاب حية، يقول .. «لا يعدو برنامج النقطة الرابعة أن يكون خطة شاملة لتصدير فائض رءوس الأموال الأمريكية إلى الخارج.. ووضع أمريكا فى مركز الممول وصاحب العمل، والشعوب المختلفة فى وضع العمال، وليس للعامل أكثر من أجره مهما اختلف هذا الأجر... فإذا افترضنا أن مؤسسة أمريكية فى مصر تنتج ما قيمته ١٠٠ وحدة ، فإن ٣٠ على الأكثر من هذه المائة سيدفع أجوراً للعمال فى مصر والنفقات الأخرى، و٧٠ الباقية تخرج من مصر إلى جيوب أصحاب الأسهم فى أمريكا. ويضيف بهاء «إن فى مصر رءوس أموال ، ولم تستنفد مصر بعد شتى طرق توجيه رءوس الأموال المحلية للإنتاج ، حتى تذهب لتشجيع رءوس الأموال الأجنبية على الاستثمار فى مصر.. وأن الحكومة إذا أرادت تستطيع أن تحقق الكثير فى ظل النظام الرأسمالى، فنحن نعرف أن الأغنياء مازالوا يحبسون أموالهم فى الاستغلال الزراعى ، وأن إقبالهم على الصناعة أضعف ما يكون»، ويضيف



ساخرا .. «وهذه الحكومة المصرية التى تريد أن تستقدم مختلف أنواع البعوث الفنية تبحث عن احتمالات الاستثمار، وأحسن امكانياته وتهيئة الجو لرءوس الأموال المحلية .. لماذا لا تتبنى المشروعات المنتجة فتقترض من السوق المحلى للقيام بها، أو تشارك فيها شركات محلية أو تنفرد بها بوسائلها وأهمها الضرائب..» .. «فهل يستعصى على الدولة أن تنهض بمشروع السنوات الخمس وتنظيم الجهود لدفع الإنتاج، فهذه هى الطريقة التى تبقى زمام الأمر فى أيدينا، وتجعل طريق التطور والرقى مفتوحاً .. فهل يرى المسئولون الذين يدعون للاستعمار الأمريكى هذا الرأى ؟ أم أنهم يفضلون تسليم البلد لرأس المال الأمريكى!» (انتهى) .

وهذه الكتابات إيذانا بظهور جيل جديد وفكر جديد ، بعثت فيه روح جديدة، وقدم رؤية جديدة لمصر والعالم، وكما ذكرت سابقاً يحمل قيما ومفاهيم حديثة، ويتصدى لأفكار قديمة بالية ، وجاء ظهوره فى مرحلة تاريخية خاصة، مع الحصول على الاستقلال الوطنى ، وفى عصر تزدهر خلاله الأفكار ، وفى أيام حبلى بالتغيير .

وتتوالى الأحداث وتقوم الثورة ، وتعلن الجمهورية ، وتشهد مصر حرب السويس والعدوان الثلاثى على مصر، وشق هذا الجيل طريقه فى الحياة السياسية المصرية أيام عبد الناصر، وأخذ يزيح صفوة سياسية ليحل محلها أخرى، بعد أن استنفد الجيل السابق جهده وطاقته .

واستمر بهاء فى الكتابة أربعة عقود، فى عصر إثر آخر، وإذا كان بهاء قد أيد ثورة يوليو عند قيامها، إلا أنه تحفظ على الكثير من اجراءاتها، وعندما صرح بعض رجالها فى روزاليوسف أن هتلر مثلهم الأعلى، وكان أنور السادات من بين هؤلاء، كتب بهاء مقالا يكشف خلاله خطر النازية، ومغزى البعد عن الديمقراطية والمشاركة الشعبية، ووصف الاستبداد بصوره المختلفة على أنه أعنف وأسوأ نظم الحكم وأكثرها قسوة.

ويذكر بهاء .. «كنت شديد الحماس للثورة ، فمهما كان الأمر ، فإن أسوار القصر العالية التى أقامها الإنجليز تتهدم والذين يهدمونها مهما كان لونهم فقد حققوا عملاً عجزت الحركة الوطنية المصرية بكل أحزابها عن تحقيقه فيما يقرب من ثلاثين سنة أى منذ ثورة ١٩١٩».

وبدأت الأحلام التى حبست طويلا تتفجر، وظهرت روح جديدة ومفردات جديدة وأعمال كثيرة مثل «رباعيات» صلاح چاهين ، وشعر صلاح عبدالصبور وأحمد عبدالمعطى حجازى، ومسرح كل من ألفريد فرج ونعمان عاشور ، وأغانى عبدالحليم حافظ وموسيقى كمال الطويل وتماثيل آدم حنين وقصص يوسف

إدريس، وسينما توفيق صالح ، وكتب د. جمال حمدان علاوة على نخبة من الكتاب أبرزهم محمد حسنين هيكل وكامل زهيرى ومحمد عودة.

وإذا كان مختار وطه حسين والعقاد وطلعت حرب وسيد درويش والحكيم وأم كلثوم نتاج ثورة ١٩١٩، فقد كان ظهور هذه النخبة نتاج ثورة ١٩٥٢، وما فجرته من طاقات.. ومن سمات هذا الجيل رؤية نقدية للواقع وللتيارات الفكرية والفنية فى مصر والعالم ، وقدرة عالية على التقييم والتبشير والتحريض على التقدم والتحديث.

دموع بهاء!

وقد شاهدت دموع بهاء وفجيعته فى هزيمة يونيو ١٩٦٧، ورأيت كيف اعتصرته الهزيمة ، وبعدها نشبت أزمة بين بهاء عندما كان نقيبا للصحفيين والحكومة، فعندما أخذت ترتفع كلمات النقد فى الصحافة، وفرضت الرقابة على الصحف، قام مجلس النقابة بالاحتجاج على الحكومة مرتين، مرة بإصدار بيان احتجاج على فرض الرقابة على الصحف، بعد أن خاضت مصر حرب السويس ١٩٥٦ دون رقابة على الصحف، ومرة أخرى عندما رفع النقيب مذكرة إلى الرئيس عبدالناصر يحتج خلالها المجلس على انفراد صحيفة الأهرام التى يرأس تحريرها محمد حسنين هيكل وانفرادها بنوع من الأخبار يتعلق بالمصالح القومية العليا، وجاء فى المذكرة... «إن رئيس الدولة إذ يخص بهذه الأخبار جريدة دون أخرى، فكأنما يميز بين المواطنين الذين يقرءون هذه الجريدة أو غيرها..».

وعندما وقف مجلس نقابة الصحفيين مع الطلبة فى احتجاجهم على أحكام الطيران، وعرضت المسألة على عبدالناصر من أجل إتخاذ إجراء من بهاء ، قال : «اتركوه .. هو مخه كده»!

وأيام أنور السادات تم فصله وتم وقفه عن الكتابة مرتين، وقرأ بهاء قرار نقله من رئاسة مجلس إدارة دار الهلال إلى روز اليوسف فى الصحف، ورفض بهاء تنفيذ القرار وعمل كاتبا فى الأهرام ، وكتب إلى الرئيس السادات رسالة يقول فيها : «لقد اخترعت الثورة صحفيين وكتابا ودكاترة فى كل مجال ، ولكننى لست أحد اختراعات الثورة، وقد كنت رئيساً لتحرير أكبر جريدة فى مصر، وهى أخبار اليوم، وأتقاضى أقصى حد للمرتب قبل تأميم الصحف بسنتين..»، ويشرح بهاء حقيقة موقفه فى كتاب حواراتى مع السادات بقوله .. «بدا لى أنه إتخذ القرار من منطلق العقاب ، والاستجابة للوشايات ودون أن يحاول مرة واحدة أن يسألنى مباشرة».

وخلال ما سمى أيامها «مذبحة الصحفيين» والتى بدأت ٤ فبراير سنة ١٩٧٣ منع من الكتابة ونقل إلى مصلحة الاستعلامات ما يزيد عن ١٢٠ كاتبا وصحفيا ، كان من أعضاء مجلس النقابة كل من يوسف إدريس ومكرم محمد أحمد ومحمود المراغى وكمال سعد وأمينة شفيق

أحمد بهاء الدين

ومصطفى نبيل.

وكتب بهاء مقالاً هادئاً فى الأهرام ، وفيه معنى الاحتجاج على هذه المذبحة والعمل على فتح باب تضميد الجراح ، بعنوان «بدلاً من العنف المتبادل» ، وبدأت الأزمة من مجلس نقابة الصحفيين الذى كنت عضوا فيه، والذى طالب برفع الرقابة على الصحف، وأيد حق الطلبة فى التعبير عن احتجاجهم بعد نهاية سنة الحسم بلا حسم، وضرورة معالجة احتجاج الطلاب بالوسائل السياسية وليس بالوسائل البوليسية، فى ظروف الاحتلال الإسرائيلى القاسية، وفى الوقت نفسه أصدر الكتاب والأدباء بيانا وقعه معظم الكتاب وكتبه توفيق الحكيم ووقعه كل من نجيب محفوظ ولويس عوض ولطفى الخولى ومحمود العالم وغيرهم.

وكان أحمد بهاء الدين من الذين تم إبعادهم عن العمل الصحفى ونقله إلى مصلحة الاستعلامات، واعتباره محرضا على بيان مجلس النقابة وبيان الكتاب!

وهذه الوقائع فصل من التاريخ الحى لم يسجل كاملاً بعد.

الكاهن والفرعون

وأسدلت حرب أكتوبر الستار على هذه الصفحة، وعاد بهاء رئيساً لتحرير الأهرام، ويدور الزمن وتعود الأزمة من جديد بين الكاهن والفرعون، فهل يتخلى الكاتب عن دوره فى الدفاع عن رأيه ..؟ ويشرح بهاء موقفه فى هذه الفترة قائلا .. «إن الأوضاع التى كشف عنها الانفتاح ، كانت هى بداية الشرخ الحقيقى بين السادات وبينى ، وكتبت محاولاً مقاومة تيار الانفتاح السداح مداح تحت عناوين التنمية والبناء والاعتماد على النفس وعدم تكرار مأساة التبعية الاقتصادية والارتهان للأجنبى.. وبدأت أفكر فى ترك منصب رئيس التحرير، وأن أعود مسئولاً فقط عما أكتبه».

ويلاحظ أن القضايا موضع الخلاف فى السبعينات هى ذاتها القضايا التى عالجها فى الخمسينات! وإذا قبل يرفض جسمه أن يطاوعه ، وقبل بلوغ بهاء سن الأربعين وقع صريع المرض.. يروى قائلا: .. «فى أوائل سنة ١٩٧٥، استيقظت غير قادر على النهوض ، ولم أتمكن من أن استجمع أطرافى وأنهض من الفراش»، وارتبطت صحته على الدوام بالأحوال العامة ، تتحسن مع أيام الزهو والانتصار، وتسوء من التدهور والأزمات، وأصيب بهاء بجلطة فى أحد شرايين المخ، يحكى، «قلب كيانى قبل المرض خبر يتحدث عن ضبط مؤامرة واسعة واتصالات بجهات أجنبية ، وأسماء عدد من المثقفين والصحفيين ، منهم معارف وأصدقاء، أعرف جيداً بطلان تلك الاتهامات» وهى ما أطلقت عليه الصحافة مؤامرة التفاحة والعمالة لبلغاريا!، ويعلق مؤكداً.. «إننى لا أتعب من العمل الصحفى بل أشعر فى نهاية أى يوم مهما طال عن العمل الصحفى المحض بنشوة وراحة نفسية ، وأظن أن هذا هو الحال مع من يزاول عملاً يحبه، ولعل إكسير الحياة وأحسن علاج للصحة هو

آن يشعر المرء أنه يحقق ذاته فى عمل خلاق ، ولكن الإرهاق يأتى من التوتر والقلق والضيق ، وعدم اليقين وخطورة المزالق مما يحيط بالعمل، وليس العمل نفسه»، وكثيراً ما ردد قول عبد الرحمن الخميسى. «إننى أضيع جهدى أدافع عن قيثارتى، ولا أعزف ألحانى» ويقول .. «حكاية أن الكاتب إذا عارض سياسة حكومته فهو يعارض وطنه ، حكاية انكشفت وصارت سخيفة ، فالحكومة لا يحق لها أن تعتبر نفسها هى الوطن، وما تأخذه من سياسات صحيحة أو خاطئة هى الوطنية ، وبالتالى فإن وطنية الكاتب تملى عليه أن يؤيد الحكومة على طول الخط، وينافقها بلا تردد»!

وينتهى عمل بهاء كرئيس لتحرير الأهرام.

ويدور الزمن وتمضى الأيام ، ويعود بهاء ويكتب مقالا أسبوعيا فى الأهرام تحت عنوان «حديث الأحد»، وتنشب الخلافات مرة أخرى عندما يعترض على إلغاء وزارة الثقافة وضمها إلى وزارة الإعلام ، واتهم الحكومة بأنها ضد الثقافة والمثقفين الحقيقيين ، واستعرض مظاهر التفسخ والانحلال والتسيب فى المجتمع ، ومقدمات العواقب الاقتصادية الوخيمة لسياسة الانفتاح! .

وبدأ الرئيس السادات يغضب من جديد ، وخاصة بعد أن وقعت القارعة وعقدت إتفاقية كامب دافيد، ولم يقبل من أحد الكتاب سوى التأييد المطلق لهذه الاتفاقية ، وكتب بهاء مقالاً تحليليا ونقديا للاتفاقيات ، فلم ينشر، وتم منعه من الكتابة من جديد.

وبذلك يكون السادات خلال ثمانى سنوات من حكمه قد قربه وصادقه مراراً، ونقله كعقاب مرة، وفصله من العمل الصحفى مرة أخرى، وأوقفه عن الكتابة مرتين ! .

ومرة أخرى يتعرض لظلم فادح، عندما تناول فى يومياته فى الأهرام ، مسألة طرد راشد الغنوشى وأخذه من فندق هيلتون رمسيس إلى المطار، وتساءل: إذا كان هناك شخص غير مرغوب فى دخوله ، أو خطر على الأمن، فلماذا حصل على تأشيرة دخول، وإذا تبين الخطأ الذى وقع ألا يعالج الآن بصورة تراعى قواعد الضيافة .

وبعدها تعرض لحملة صحفية ضارية، وهجوم عار من اللياقة ، ووجد نفسه مستباحاً، ووصلت الحملة إلى أن تناولت اسم والده عبدالعال شحاته ، وظنى أن هذه الحملة قد أثرت فيه تأثيراً كبيراً.

أستاذ بهاء

مازالت كتاباتك تتحدث عنك ، ومازالت سيرتك العطرة على كل لسان، ومازال تأثيرك كبيراً فى وجدان قرائك وأحبائك.. ومازال شعورنا عميقا بفقدك ، لا ككاتب فحسب ولكن نفتقد أيضا رقتك وإنسانيتك، ووقوفك الدائم إلى جانب المظلوم، ونفتقد الجو التى كنت تشيعه ، الزاخر بالذوق والجمال. ■

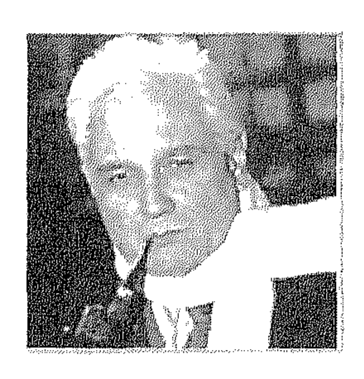
أصداء المعركة حول البنيوية

بقلم : د. مجدى يوسف

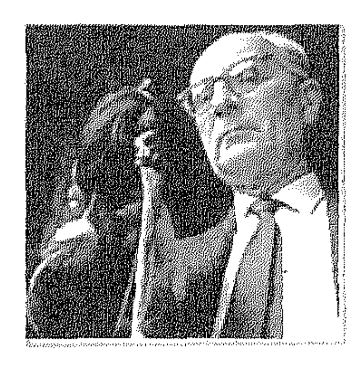
حمل الصديق الشاعر مهدي بندق في أخبار الكتاب علي .. «سعي البنيوية (...) للكشف عن القوانين الحاكمة للعلاقات في أنظمة اللغة والانثروبولوجيا ، والاقتصاد والادب ... وغيرها شريطة استبعاد الفاعل أيا كانت هويته» . (ص ١٩)

ويحتج الأستاذ مهدى على هذا المسعى البنيوى التثبيتي مفضلا عليه تفكيكا للبنية يفصح عن تحولاتها التاريخية حتى لو ادعى خطابها المباشر عكس ذلك. وهكذا قد يستنتج قارىء مقال الأستاذ مهدى أن الأمر يتعلق بالدفاع عن التفكيك مقابل محاولات التعرف على البنية ، وهو الأمر الذى بحاجة إلى شىء من إعادة النظر لاسيما وأن أصداء المعركة التى دارت حول البنيوية أخيراً لدينا مازالت قائمة !.

دريدا



ليفي شتراوس



فلابد أن نميز أولا بين «البنية» و«البنيوية» إذ أن الأولى موجودة فى مختلف ظواهر الطبيعة الأولية أو الثقافية (الانسانية) سواء تعرفنا عليها أو لم نتعرف ، كل ما هنالك أن وسائل وأدوات التعرف عليها هى التى تختلف حسب موضوع الدرس ، فحين يستعير «جريماس» – مثلا – مصطلحات العلوم الطبيعية الدقيقة لتوصيف عملية التعرف على علاقات «النص» الداخلية ، فهو بذلك يحاول أن «يثبِّت» ما ليس الثبات من طبيعة (موضوع الوعى) حتى يتمكن من تشريح العلاقات «الحاكمة» لبنية عملية التعرف على الموضوع من خلال التقاط «صورة» له ، أو عددا من «الصور» ، ثم المضى قدما فى اكتشاف علاقات هذه الصورة / النص المفارقة بطبيعة الحال للموضوع الذى تصوره . وهنا يكمن جدل العلاقة بين «البنية» و «العملية» . فالأولى كامنة فى الثانية ، لأنها فى تحول مستمر، أما النظريات «البنيوية» فتحاول تثبيت نص للبنية ، قد يكون أدبا وقد يكون عمارة أو طقسا اجتماعيا ، حتى تتمكن من الناحية الإجرائية من التعرف على علاقاته الداخلية التى تدعى أنها «بنيته».. ولعل الأسس الفلسفية التى شيد عليها «جريماس» نظريته الساعية لاستكشاف دلالة البنية خاصة فى النصوص الأدبية – بالمعنى الواسع للكلمة – يوضح لنا منهجه. فهو ينهض على المنطلق الفلسفى الظاهراتى (الفينومينولوجي) «لإدموند هوسرل» ، وعلى قواعد المنهج فى علم الاجتماع «لإميل دوركايم» . وكلاهما «هوسرل» و«دوركايم» على اختلافهما الإجرائى يشتركان فى أمر أساسى ، وهو الصدور عن «الوعى» الكامن بالموضوع الخارجى ، وليس عن الموضوع ذاته . أى بعبارة أكثر تجريدا عن الذات وليس عن الموضوع، لذلك فالأدوات الإجرائية التى يصدر عنها «دوركايم» – مثلا – فى التعرف على «الوقائع الاجتماعية» تقوم على رصد استقبالها فى وعى المنخرطين فى العلاقات الاجتماعية – وذلك مثلاً – باستبيان آرائهم حولها . وعند «جريماس» نجد أن الأدوات التحليلية التى استعار بعضها من العلوم الطبيعية سعيا لدقة توصيف العلاقات الداخلية الحاكمة للنص (الذات) وليس الموضوع الخارجى لذلك النص ، نجد أن لذلك «مبرراته» الإجرائية التى تكمن فى ضرورة تثبيت عملية التحول المستمر للموضوع فى جدلية مُحاولة الذات للتعرف على «بنيته» فالنص تثبيت إجرائى تعسفى لما لا يحتمل ذلك ، ولكن كيف يمكن التعرف على علاقاته «الداخلية» دون أن يثبت ؟ ! وهو فى ذلك يشبه محاولة إلتقاط صورة فوتوغرافية لحدث

تاريخى فى عملية صيرورة مستمرة، إذ يصعب التعرف على الحدث إن لم «يسجل» فى تلك الصورة . وموضوع التشريح البنيوى إذن هو «الصورة» الملتقطة للحدث، وليس الحدث نفسه لذلك، وباعتراف «جريماس» نفسه فى لقاء معه فى السبعينات فنظريته «البنيوية» ليست «علما» ، وإن استعانت بأدوات العلوم الطبيعية لتحليل «النص» . أما بنيوية «ليڤى شتراوس» فتقوم أساسا على تحليل العمليات الثقافية فى طقوس الشعوب التى تُدعَى «بدائية» من خلال إدراك الشىء **كعلاقة** بينه وبين ما هو ليس ذلك الشىء . وبغض النظر عن النتائج التى توصل إليها كل من «جريماس» فى اللغة «وليڤى شتراوس» فى الأنثربولوجيا ، فلاشك أن الجهود البحثية التى قام بها كل منهما قد أسفرت عن «تراث» لا يجوز الإخلاص فى اتباعه من جانب أى باحث ، وإلا صار مطبقا ميكانيكيا لنظريتهما كما لا يجوز فى نفس الوقت تجاهل هذا التراث البحثى ورفضه تماما اعتمادا على ثغراته وتناقضاته الداخلية . إنما يجدر بالباحث النابه ، إدراكا منه للحدود الايديولوجية والإجرائية لذلك التراث «البنيوى» ، أن يستعين على نحو نقدى ببعض عناصره وأدواته المفاهيمية دون التقيد على أى نحو بما حاول تكريسه أصحاب النظريات البنيوية من طقوس بحثية ، وذلك سعيا منه – أى الباحث – لتحويل هذه الأدوات الإجرائية – بعيدا عن أسسها الفلسفية التى قامت عليها – لتوصيف أدق لظواهر جديدة يبحث عن علاقات بنيتها لا أن يفرض عليها أية نظرية «بنيوية» مسبقة وقد فعلت شخصيا ذلك مع بعض أدوات «جريماس» التحليلية . كأداة رصد علاقة التماثل بين العلاقات الداخلية للنص «الايزومورفى» – وهو مفهوم مستعار فى الأصل عن العلوم الطبيعية – لأجعلها ، أى هذه «الأداة» المفاهيمية ، تصير عندى بعد تحويلها وسيلة للتحديد الدقيق لعلاقة تماثل متوتر بين العلاقات الداخلية فى النص (الذات) والعلاقات الاجتماعية (الموضوع)، التى تتفاعل معها العلاقات داخل النص من خلال تفاعلها والوعى السائد بالعلاقات الموضوعية خارجه . وسوف أعود لتوضيح ذلك فى مناسبة أخرى . ما أردت أن أقوله هنا على أية حال هو أنى استعنت «بجريماس» وتجاوزته منهجيا فى آن . ولكنى ما كنت قادرا على تجاوزه لو أنى قصرت عن التعرف النقدى على أسسه الفلسفية التى انطلق منها . وإذا كان بعض الكتاب يفصح عن توجهه المعرفى «الفلسفى» ،

فالبعض الآخر لا يفصح . وهنا يتعين على الباحث أن يستكشف بنفسه من خلال العمل المطروح، سواء أكان نظريا، أو ابداعا تخيلياً، المنطلق المعرفى الكامن فيه.

وما كان «ديريدا» - الذى سيزور القاهرة فى شهر فبراير الحالى بدعوة من المجلس الأعلى للثقافة - قادرا على تجاوز النظريات البنيوية لولا أنه استخلص أولا منطلقاتها المعرفية «الفلسفية» ليختلف معها من منظور التحول والنفى فى مقابل التثبيت الاجرائى الذى كرسته البنيوية .

أما علاقة النظريات البنيوية أو التفكيكية بثقافاتنا العربية المعاصرة ، فقد صارت فى معظمها صادرة عن الإطار النظرى والأدوات الإجرائية لتلك النظريات لا عن الثقافات الاجتماعية فى نسبية خصوصياتها التى أقصى ما يمكن الاستفادة به من هذه النظريات هو طمس معالم بنيتها الموضوعية بدلا من تجلية التعرف عليها ، فتراث البشرية كله بين أيدينا ، ولكن الافادة الحقة منه تستوجب منا - فى رأيى - ألا نصدر إلا عن موضوع الدرس ، وهو **المختلف** الموضوعى فى ثقافاتنا الاجتماعية دائمة التحول إلى الأفضل أو الأسوأ حتى نتمكن من تطويره وتجاوزه من داخله إلى كيف وآفاق مختلفة. وعندما أتحدث عن «ثقافاتنا ، الاجتماعية العربية فإنى أعنى بذلك التعدد كظاهرة موضوعية قائمة ليس فقط بين مختلف الأمصار العربية ، وإنما بالمثل داخل القطر العربى الواحد ، بل بين قرى ونجوع المحافظة «الجهوية» واحدة مهما كان لها من شكل إدارى ، «موحد» فحين يهتم باحث من كفر الدوار مثلا بأعمال فيلسوف اجتماعى ألمانى ك «يورجن هابرماس» ، فالسؤال الذى يجب طرحه أولا : ما هى الأسئلة التى تطرحها العلاقات الاجتماعية الموضوعية والثقافات السائدة والمسودة ، سواء أكانت هذه الأخيرة مناهضة للأولى على نحو تلاقى أو غير تلاقى ، أو مذعنة لها - فى مجتمع الباحث - وماذا يمكن أن يقدمه خطاب «هابرماس» لتجاوز هذه التناقضات الداخلية فى ثقافة المجتمع الذى يمثله الباحث ؟ . فالاسهام الجاد هنا يكون فى تحرير الذات الاجتماعية بالصدور أولا عن الأسئلة التى تطرحها ، ثم مقارنتها فى مستوى تالٍ بتساؤلات الآخرين فى الشمال أو الجنوب .. .

فأهلا بـ «هابرماس» وأهلا بـ «ديريدا» وغيرهما من المنظرين البارزين فى الساحة «العالمية» ، ولكننا لن نفيد شيئا يذكر من أى منهم جميعا إن لم نصدر أولا عن رصد البنية المعرقلة لتطورنا ، وذلك بالتجريد العينى عنها قبل اللجوء الى مقارنتها بسواها فى عمليات تجريد التجريد (التنظير) .

ضعف نفوذ القوى الكبرى عندما تتصادم الحضارات

ترجمة : ربيع شتا

هذا المقال بالغ الأهمية ، كتبه صمويل هنتنجتون صاحب فكرة صدام الحضارات ، يتناول فيه الحرب فى الشيشان وموقف الدول الكبرى من هذه الحرب .
ويستعرض ميادين الصدام الذى يمثل الإسلام أحد أطرافه .

الحرب فى شيشانيا واحدة من تلك النزاعات العديدة التى تقع بطول حدود الكتلة الإسلامية الكبرى ، الممتدة من مراكش إلى إندونيسيا .

فثمة عنف وقع بين المسلمين وغير المسلمين فى البوسنة ، وكوسوفو، وناجورنو كاراباخ ، وشيشانيا ، وطاچيكستان ، وأفغانستان ، وكشمير ، والهند ، والفيليبين ، وإندونيسيا ، وتيمور الشرقية ، والشرق الأوسط ، والقرن الإفريقى ، والسودان، ونيجيريا .

وعلى الأقل ، فثمة سببان لهذه النزاعات .

أولهما : افتقاد العالم الإسلامي لدولة مسيطرة أو دولتين ، تؤهلهما قوتهما للقيام بواجب الحفاظ على النظام داخل الجماعة الإسلامية ، ومحاصرة أو القيام بدور الوسيط فيما ينشأ من نزاعات بين المسلمين والآخرين .

وثانيهما : ازدياد عدد الرجال. المتراوحة أعمارهم بين ستة عشرعاما وثلاثين عاما ، فى العديد من البلاد الإسلامية ، ومثل هذا الازدياد

يغــــذى صـــفــــوف المنـــــاضلين والمحاربين .

ولأكـثـر من قـرنين تصـادم الروس والمسلمون في شمال القوقاز .

وبعد الثورة الروسية أعلنت شعوب شمـال القوقـاز الاسـتقلال ، وأقـامت اتحـادا ، سرعان ما قضى عليه البلاشفة في مستهل عقد العشرينات .

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية ، هبت تلك الشعوب تقاوم الحكم السوفييتي ، الأمر الذى حدا بستالين إلى تهجير جميع الشيشان تقريبا إلى قازاخستان ، حيث أجـبـروا على البـقـاء فى المنفى ، حـتى منتصف عقد الخمسينات .

وكـمـا كـان مـتـوقـعـا ، مـا إن انـهـار الاتحاد السوفييتي حتى ثار الشيشان مرة أخرى .

وعندما نجحوا فى إلحاق هزيمة نكراء بالجيوش الروسية عام ١٩٩٦م ، والفوز باستقلال فعلى .

لم يقابل هذا الفوز بالارتياح من قبل القوميين الروس ، وكما تنبأ الكثيرون ، قـامـوا بشن الحملة العسكرية الحـاليـة ، بهدف إخضـاع هؤلاء المسلمين الجبليين ، الأشداء .

وفى ضوء هذا التاريخ ، ما هى تبعات حرب الشيشان بالنسبة لكل من روسيا والولايات المتحدة ؟

في العالم المعاصر ، الشعوب فى كل مكان تقريبا ، آخذة فى اعتناق هويتها الثقافية والحضارية .

وآية ذلك ، ما يواجه الدول القائمة على حضارات متعددة من تحديات ، آخذة فى الازدياد على مرّ الأيام .

وخير شاهد على ذلك ، ما يحدث فى صربيا الآن .

وانفـــراط عــقـــد كل من الاتحـــاد السوفييتي ويوجوسلافيا والحبشة .

علاوة علي الأهمية التى اكتسبتها أخيرا الجماعات الثقافية المتجاوزة للقومية ، وهى ما يمكن تسميتها بالشتات.

فذلك الشتات يزوّد جماعاته القديمة ، المنحدر منها ، والمناضلة من أجل الحرية ، يزودها بالمال والأسلحة والمحاربين والقادة.

ويبدو الأمر أكثر وضوحا ، عندما تفصح دول وجماعات عن دعمها

لأشبـاهها ، على نحو ما حدث ، بشكل درامي، فى حالة تمزق يوغوسلافيا

فأوروبا الغربية دعمت الكروات .

وروسيا واليونان أيدتا الصرب .

والعربية السعودية وإيران وتركيا وماليزيا أمدت مسلمى البوسنة بالمساعدات .

وفى منتصف التسعينات استفاد الشيشان من تأييد شيشان الشتات ، وبخاصة تأييد مواطنيهم فى كل من تركيا والأردن .

وكذلك استفادوا من تأييد تم ، دون

ضجة ، من قبل بعض الحكومات المسلمة .

أعباء روسيا

لقد مضى عهد الإمبراطوريات ، متعددة الحضارات ، ولن يكون فى وسع روسيا الإبقاء على شيشانيا ، داخل نطاق سيادتها ، إلا بتحمل أعباء ، لا قبل لها بتحملها .

وخيرا يفعل حاكم روسيا القادم ، فيما لو وضع نُصب عينيه واقعية مصطفى كمال أتاتورك ، فى شأن فقدان الإمبراطورية التركية ، وجعل منها مثلا يحتذى ؛ وذلك بتبنى سياسة روسيا المنحصرة فى الروس دون أية شعوب أخرى ، بدلا من مواصلة العيش فى حلم عفا عليه الزمان ، قوامه الإبقاء على إمبراطورية متعددة الأعراق والحضارات .

وواضح أن الولايات المتحدة لها اهتمامات إنسانية ، متصلة بآثار الحرب على الشيشان .

ولكن ليس لها أية مصالح يعتد بها فى شيشانيا .

فى حين أن لها مثل تلك المصالح فى روسيا .

ومن ثم ، فليس فى وسعها معاقبة روسيا ، دون تحمل أعباء باهظة التكاليف.»

ما نشاهده الآن فى روسيا ، هو الجانب المتردى من الديموقراطية عن طريق الانتخاب ، متمثلا فى تنافس المرشحين ، أيهم يزايد أكثر بإثارة الحَميّة الوطنية .

فحتى عندما اتضح أن روسيا قد منيت بالهزيمة في الحرب عام ١٩٩٦ م، استلزم نزع فتيل تلك الحرب قيام شخصية لها مكانة « الكسندر ليبيد » بالتفاوض ، وإقناع الحكومة الروسية والشعب بفائدة الاتفاق على الانسحاب من شيشانيا .

وثمة أمر آخر مثير للسخرية ، ومدمر للمصداقية الأمريكية فى آن معا ، ألا وهو تحذير الرئيس بيل كلينتون بأن روسيا ستدفع ثمنا باهظا ؛ فيما لو واصلت هجومها الوحشى على المدنيين الشيشان.

فذلك التحذير مثل آخر على الضجة المنمقة التى تثيرها هذه الإدارة على نحو يحول دون أخذ الحكومات الأخرى ما تقوله مأخذ الجدّ .

فهذا النزاع له من العمر مائتا عام ، ولا يعدو أن يكون جبهة من بين جبهات كثيرة فى الصراعات القائمة بين الشعوب المسلمة ، وغير المسلمة .

وعلى المدى الطويل ، ليس فى وسع روسيا كسب هذه الحرب .

ولا فى وسع الولايات المتحدة أن تلعب دورا ذا تأثير فى المحصلة النهائية للحرب.

أقوال معاصرة

«أطفالنا جاهزون للقرن الواحد والعشرين ، وهم مسلحون بالقوة والعلم ، وحلمنا الخالد أن تظل أمريكا شبابا إلى الأبد !!» .

الرئيس الأمريكى بيل كلينتون

«زيادة القدرة على الإنتاج ، وقطع التبعية للخارج ، هما من القيم الدينية ، وليس اطلاق شعارات الموت لهذا البلد أو ذاك» .

عبدالله نورى
وزير الداخلية السابق فى إيران
والمسجون حاليا تنفيذا لحكم

«علينا أن نتحمل رؤية الخطوات السخيفة المتوالية التى يسمونها عملية السلام» .

المفكر إدوار سعيد

«النهضة الحقيقية تحمل فى ثناياها التنوع» .

الشاعر محمد إبراهيم أبوسنة

«التطلعات المادية لشباب اليوم تجرفهم إلى هاوية المحرقة العاطفية» .

المفكر الانجليزى أوليڤر جيمس

«الرقابة داخلنا !!» .

الممثلة الإيرانية هدية طهرانى

«من لايجيد ممارسة العمل الصحفي النبيل، عليه مغادرة الساحة للعمل فى المقاولات» .

السياسى الجزائرى رضا مالك
رئيس حزب التحالف الجمهورى

«إذا كان لابد من وداع القرن الماضى ، فسأودعه على طريقة لاعبى كرة القدم ، بركلة !!» .

الأديبة غادة السمان

«ما تبثه المحطات الأرضية والفضائية العربية لايبشر بأى خير» .

الملحن والمغنى مارسيل خليفة


بيل كلينتون


ادوار سعيد


محمد ابراهيم ابو سنة

إنهم يبحثون عن عباقرة القرن المقبل . !!

بقلم : محمود قاسم

هل صحيح ان عباقرة القرن الجديد هم من المولودين فى القرن الماضى

هذا ما تخيلته مجلة «لوبوان» فى آخر أعدادها فى الألفية القديمة ، التى جاءت على غلافها كلمات بدون أى صور هى «١٠٠ فرنسى سيصنعون عام ٢٠٠٠» .

والمجلة بذلك تكون قد انفردت دون غيرها من وسائل الاعلام ، بالحديث عن المستقبل، بينما راحت الصحف ، ومحطات التليفزيون تفتح ملف القرن الماضى ، بل ان مجلة الاكسبريس قد قدمت ملف البشرية جمعاء منذ العام صفر ميلاديا ، وحتى الآن..

وقد قامت فكرة المجلة على أساس أن الذين سيلمعون فى الألفية الجديدة، أو فلنقل القرن الجديد ، هم من أبناء القرن العشرين ، الذين بدأت مواهبهم تتكشف مع السنوات الأخيرة من العقد الماضى ، وهم بالضرورة شباب صغير السن ، لم يكمل أغلبهم الثلاثين ، لمعوا فى مجالاتهم المتعددة سواء فى البحث العلمى أو فى القنوات المختلفة ، أو الآداب ، أو حتى فى المجال السياسى، والكومبيوتر وأيضاً فى الأزياء وكرة القدم.

ولاشك أن الحديث عن المستقبل أمر صعب ، ولكن الاختيارات لا تأتى عشوائية، فمن خلال اسماء الشباب اللامعين يمكن تحديد مسار الغد، ومن هنا تأتى أهمية المستقبليات، والتعرف على

صورة القادم .

وتجىء أهمية هذا الأمر ان المجلة قد فتحت ملفات مشابهة فى السنوات الخمس والعشرين الماضية ، استطاعت من خلال توقعاتها ، (وليس تنبوءاتها الفلكية) أن ترصد خطوط المستقبل ، وأن تلمع بالفعل اسماء تم اختيارها فى اعداد صدرت أعوام ١٩٧٤، و١٩٨٩، ففى هذا العام الأخير، مثلاً وتحت عنوان «مائة فرنسى سيلمعون فى عام ٢٠٠٠»اختارت شبابا لمع من بينهم الممثلة جولييت بينوش (ثانى ممثلة فرنسية تفوز بالأوسكار فى القرن العشرين)، وأيضاً الكاتب ايمانويل كاريير الذى فاز بجائزة فيمينا عام ١٩٩٥ عن رواية «المنافس» بالاضافة إلى اسماء برزت فى مجال السياسة حيث تولى ستة منهم مناصب الوزراء فى حكومات متعددة.

اذن ، فالاختيارات التى تقدمها «لوبوان» فى اعدادها المتناثرة ، تمسها أرض الواقع بنسبة لاتقل عن ١٥٪ . ولاشك أنها كلها اختيارات فرنسية ، باعتبار ان على كل وطن أن يقوم باختيار اسماء من سوف يلمعون فى المستقبل من ابنائه .

ولاشك أن هذه الاختيارات قائمة على أساس ملموس، رغم أن المجلة قد نشرت هذه الأسماء تحت مسئولية محررة واحدة هى كاترين بيجار دون الاشارة إلى اسماء مشاركين آخرين ، رغم ان هذا النوع من



مارى داريوسك — صهيب بن شيخ

العمل يجب أن يكون جماعياً فى المقام الأول.

مصطلحات جديدة

وسوف نذكر فى البداية أبرز الأسماء المختارة فى مجالات متعددة، قبل الوقوف عند الادباء ورجال الفن، فراقصة الباليه الشقراء اليانورا ابانياتو (٢١ سنة) قد لمعت فى الفترة الأخيرة فى عروض الباليه بأوبرا باريس ، وحصلت على جوائز عالمية فى شهور عديدة ، أما رينو كابسونا (٢٤ سنة) فقد لمع كعازف كمان – وقيل أنه يعزف مثلما كان يفعل موزار ، وفى مجال الطب لمع بول هنرى كوتو ، الذى قدم علاجات ناجحة فى سرطان الثدى ، ودرس عوامل الوراثة فى هذا المرض ويسعى لايجاد سبل جديدة فى العلاج . أما الباحث ستانسلاس ديهان (٣٣ سنة) فقد حصل عن أبحاثه العلمية على مليون دولار لما حققه فى كشف أسرار جديدة من أسرار المخ . كما نجح مع فريق من الباحثين فى معرفة الاسباب التى تجعل ٥٪ من الاطفال يعانون من التخلف

العقلى.

ولعل نيكولا جوم هو واحد من رجال القرن الجديد، حيث برع فى صناعة ألعاب الفيديو على نفس النمط الأمريكى . وقد قام بتأسيس مجموعة عمل تتكون من أكثر من مائتى شاب لم يتجاوزوا الربع قرن ، يقومون الآن بعمل برامج ألعاب فيديو غير قائمة على العنف الذى تتسم به مثيلتها فى الولايات المتحدة .

ومع القرن الحادى والعشرين ستظهر مصطلحات جديدة ، يحملها الأشخاص ، مثل «صانع البلاستيك» مثل فابريس هيبير الذى يؤسس البنايات البلاستيكية، ويصمم الأعمال الفنية بمواد جديدة متطورة نعرف مثيلتها الآن بأنها بلاستيكية. وفى مجال الأزياء ستترك ايزابيل مارانت بصماتها مثل كوكو شانيل ، حيث تقدم مجموعة من التصميمات الحديثة ، وباعت فى سنة واحدة مايزيد على الخمسين مليون جنيه مصرى، وصدرت نسبة ٧٠٪ منها إلى خارج بلادها . كما أقامت مدرسة للتصميمات لها افرع فى طوكيو وبرلين، ونيويورك.

وما أكثر النماذج الانسانية الناجحة التى ستلمع ، على الأقل فى العشرين سنة الأولى من هذا القرن ، لكن ماذا عن الادباء ، ورجال السينما ؟

يبلغ كريستوف باتاى الآن الثامنة والعشرين ، لكنه ادهش القراء الفرنسيين عام ١٩٩٣ بروايته «انام» وهو كتاب قال عنه النقاد الكبار أنه «ناعم، رخو، وقلق» ، وفى عام ١٩٩٩ نشر روايته الرابعة «يحيا الجحيم» الذى وصل إلى تصفيات جائزة جونكور الأخيرة، لكنه لم يحصل عليها بل نالها كاتب تعدى الخمسين هو چان اشنوز، وهو يكتب بلغة جديدة وتبدو اللغة ذات ايقاع مختلف تماماً عن لغة معاصريه.

أما مارى داريوسك (٢٦ سنة) فهى كاتبة من طراز فرانز كافكا ، وقد باعت من روايتها «الأحقبة» ٣٦٠ ألف نسخة ، وترجمت لأكثر من ثلاثين لغة ، وفى عام ١٩٩٨ نشرت روايتها الثانية «مولد أشباح» ، وفى عام ١٩٩٩ قدمت «دوار البحر» ، ويقال ان الكاتبة قد اعادت أخبار الأدب إلى الصفحات الأولى من الجرائد ، ونشرات الأخبار.

٣٪ فقط أدباء

والمتابع للصفحات الأدبية فى الصحافة الفرنسية خلال العام الفائت ، سوف يلاحظ احتفالية خاصة بالكاتبة آميلى نوتومب (٣٢ سنة) ، ولذا فان اختيارها ضمن أهم ١٠٠ شخصية للقرن

الجديد ، لم يكن مفاجئا خاصة بعد حصولها على جائزة الرواية التى تمنحها الاكاديمية الفرنسية لعام ١٩٩٩، وبيع من روايتها «وحشة وارتعاد» ٣٠٠ ألف نسخة ويقال ان الكاتبة تؤلف بنفس الطريقة التى يتنفس بها الآخرون . وقد نشرت روايتها الأولى «النضج المخيف» عام ١٩٩٢ ، وهى ابنة لسفير بلچيكا فى فرنسا ، وينتظر أن تكون من أعمدة الأدب الجديد فى السنوات القادمة فعلاً .

والغريب أنه من بين مائة شخصية ستلمع بشدة مع القرن الجديد ، فان الادباء الواعدين مثلوا نسبة ٣٪ لا أكثر ، وهما امرأتان ورجل ، وكذلك الحال فى مجال الاخراج السينمائى ، حيث تم اختيار ثلاثة فقط منهما امرأتان ، هما ماريون فرنو (٣٣ سنة) التى اخرجت فيلمها «لا أحد يحبنى» عام ١٩٩٤ و«الحب.. الخ» ١٩٩٦. و«لاشىء يمكن ممارسته» ١٩٩٩ . أما جولى بروشن (٢٩ سنة) فهى مسرحية سارت فى ركب والدها واخرجت عملا متميزا هو «ديكامرون النساء» الذى ترى فيه كتاب بوكاشيو، المعروف بشكل عصرى.

أما المخرج الوحيد المختار ، فلاشك أنه سيخرج من الحلبة ، حيث أنه الأكبر سنا (٣٩ عاما) ، أنه آرنو دبلشين، وهو لم يقدم سوى عمل واحد باسم «الدهليز» حول سقوط حائط برلين .

أما الشخصية العربية الوحيدة التى



منتصر القفاش — كريستوف باتاى

تم اختيارها ، فهى مفتى مارسيليا صحيب بن شيخ (٣٨ سنة) وتقول المجلة أنه يتولى أمور أكثر من أربعة ملايين مسلم يقيمون فى فرنسا ، وهو شخصية مرموقة محببة ، من بين اهتماماتها تقديم صورة المسلم إلى ابناء الوديان الأخرى فى أحسن حال . وقد نشر منذ عامين كتابا يحمل عنوان «ماريان والنبى» وماريان هو الاسم الذى يرمز إلى فرنسا.

الآن ، ترى ، هل يمكن اختيار مائة شخصية مصرية ، أو عربية شابة ، من نفس الاعمار ، ستلمع لدرجة التوهج فى السنوات التالية .

ليس الأمر سهلا كما نتصور ، فدائماً ما تكون النظرة إلى من هم دون الخامسة والثلاثين باعتبارهم تلاميذ أو فى دور التكوين وذلك باعتبار أن الامل قد يخيب كثيراً فيما تم عقد الكثير من الرجاء حوله كما أنه ليس لدينا مقياس محدد يمكن على أساسه التنبؤ بما سوف يحققه شخص فى المستقبل القريب ، أو البعيد ، مثل أرقام التوزيع ، أو حصوله على جائزة

مرموقة.

فجائزة الدولة التشجيعية لم تمنح قط لمثل هذه الاعمار في مصر ، والذين حصلوا عليها وهم صغار نسبيا لم يلمعوا كما هو مأمول فيما بعد ، كذلك فان جوائز الدولة التشجيعية في العلوم التي تمنح من أكاديمية البحث العلمي لم تمنح قط لشباب دون الثلاثين .

عباقرة .. و ضباب

ولأنه ليست لدينا بيانات حقيقية عن النابغين الصغار في مجالات متعددة، خاصة الآداب والعلوم - ولأن الكتابات النقدية هي حالة من المصادفة في مصر ، فانه من الصعب أن نقوم بما قامت به مجلة «لوبوان» في مجالات متعددة.

لذا فاننا ، من باب الاجتهاد الشخصي، نختار بعض الاسماء التي برزت بالفعل في الآونة الأخيرة، ويمكنها لو سارت بنفس المعدل ، دون عوائق


آميلي نوثومب


ميرال الطحاوى

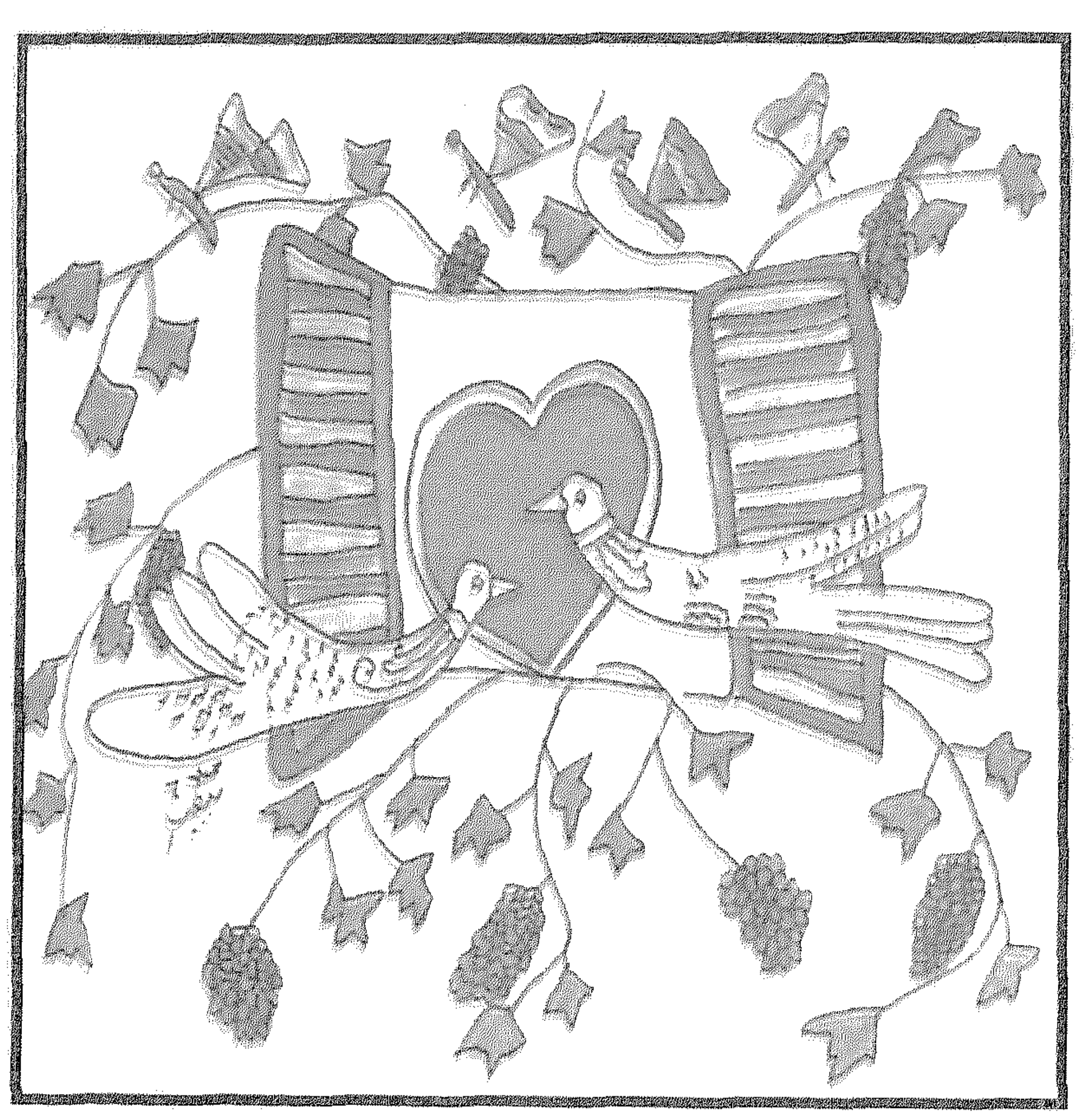
حقيقية، ان تكون عنوانا للإبداع الفني والعلمي والأدبي في المستقبل ، من هذه الأسماء في الإبداع القصصي. مثلا ميرال الطحاوي التي لاقت روايتها الأولى «الخباء» احتفاء من المؤسسات النقابية داخل مصر وخارجها ، وتمت ترجمتها إلى أكثر من لغة ، في مقدمتها اللغة الانجليزية ، وقد اثبتت بروايتها الثانية «الباذنجانه الزرقاء» أنها بالفعل موهوبة، وليست كاتبة العمل الواحد ، كما ان هناك أيضاً نورا أمين وروايتها «قميص وردي فارغ» ، ويبدو ذلك من العطاء السابق لكل من منتصر القفاش، وجرجس شكري، وايمان مرسال ، وفارس خضر ، والحسين عبد البصير وغيرهم .

وإذا كانت أعمال هذه الاسماء موجودة لدى القراء ، فان الأمر يختلف في مجال العلوم ، حيث تقبع الانجازات في الاقبية ، وتستغرق وقتا طويلا حتى يتم خروجها إلى النور ، قد يكون صاحبها قد تجاوز سن الشباب وقد تكون هناك مؤسسات لتشجيع المواهب ، لكن الأمر يحتاج إلى عالم كبير يكتب عن أهم الاكتشافات ويفتح أمامها الأبواب. ☐

ذكريات

شعر:

محمد عبدالسلام منصور (اليمن)

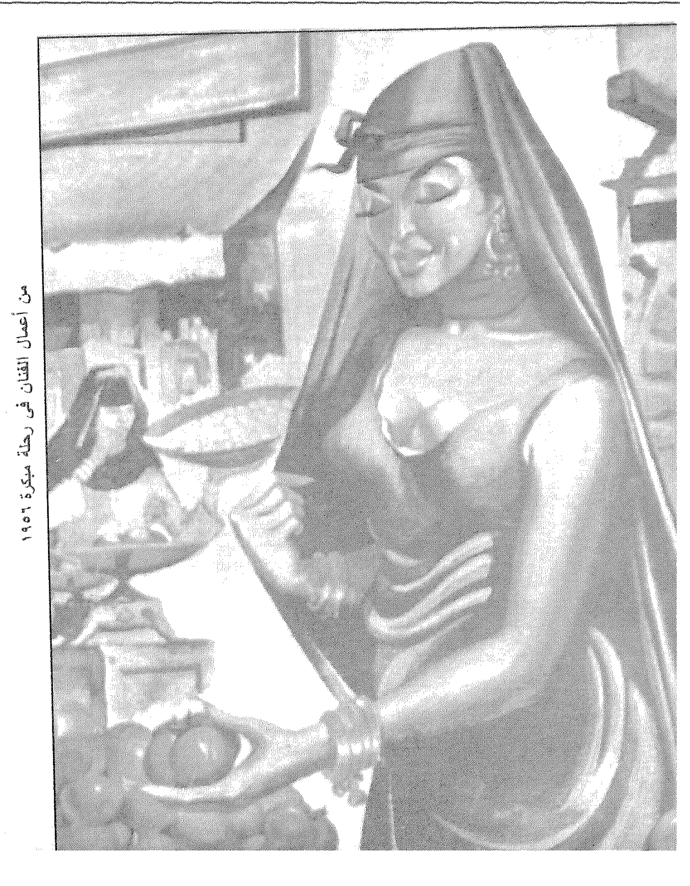


مرة راودتنى اليمامة
عن حزنها
ودنت فتدلى الهوى
وانشبكنا
على نغمات الهديل
هطلنا شجى
من دموع الشبابيك
حتى تعرى المدى
وارتحلنا إلى خاطر الأرض
ذكرى حبيبين
ألحبيب، المتيم فى وطن
ما أتى
والحبيب المعلق فى زمن
قد مضى
وكلانا شتيتان .
يجمعنا..
أننا مرة قد هطلنا هنا
دمعة تحت حزن الشبابيك
غنى لها قمر
وابتدأنا الهوى
فى طريق الفراشات
والنهر، والأغنيات
***
مرة حدثتنى الفراشات
عن حبها
فاضاء الحصى من يد الطفل
فى القدس
يرمى الشياطين
شعشع روحى على كفه حجرا
والفراشات تحمله
فى جناح من اللون
غيما من الزهر، والنار
يرمى الشياطين
جئنا :
أنا والفراشات. والضوء
مثل الحجارة
نطبع فى كفه قبلة..
ونصلى
***
مرة أوقفتنى الطفولة
فى بابها
أجلستنى، وأغلقت الباب
أدنيتها
وفتحنا الشبابيك للطير
غنى المدى
فى عيون العناقيد
فانحدرت دمعة
من ظلال الدوالى
على أغنيات الحليب
شربنا الصباح
مع العشب
فوق الندى
دمعة
تخرج الطير تغريدة
من ضياء القناديل
فانسكبت جمرة الشمس
فوق الربى ذهبا
ومشينا إلى ظلّ صفصافة
خبأتنا من الدهر
عمرين أو تسعة
كلما لامستها الرياح
أفقنا بعمر الطفولة
نأتى
وأحلامنا فى بهاء البنفسج
ضاحكة للبساتين
دافئة
فاغتسلنا بأحلامنا
تحت سحر الينابيع
غنت لنا نجمة الصبح
ملء المدى

ذكريات

حين جئنا إلى النبع
نغسل أرواحنا
وشوشتنى الطفولة
ألا أفارقها لحظة
واتفقنا
فكانت هى الروح منى
وكنت الحجر
***
مرة فاجأتنى القصيدة
خاطفة
تتنهد عن جسد
مرمرى الأنوثة
أوقفنى نغم
يترقرق من فمها صادحا
فانخطفت إلى زرقة البحر فى مقلتيها
فشردنى عالم غامض السحر
إن الطلاسم مغرية
وسقت طائف الرقص فى جسدى
أى سحر تغنى
فصلت له فرحة العندليب
وألقت إليه الحمامة بالشجو
وانهمرت فى البكاء؟
القصيدة غامضة :
شجر للأغانى، وسجادة النحيب
جرت نغما مبهما كالجنون
تسبح فى ملكوت الأناشيد
باذخة الضوء
مفعمة الأشقرار
اشتهاء يرواغ خلف المرايا
يخبئه الشعر
تفضحه زرقة البحر
من نظرة لمعت للطيور
وقد ألقت السمع مفتونة
زرقة البحر فاتنة
والصبابة فى مهجتى
طفلة النار
تشعلنى كل ثانية عاشقا
ثم تدخلنى وطن العاشقين
القصيدة من برجها
تتدفق أغنية
شررا يتطاير من جسد الأرجوان
المرايا مراوغة
والجنون المغامر فى جسدى
عاشق جبلى الهوى
راحل فى الجنون
***
مرة طارحتنى القصيدة
أشواقها
وأساها دما
غازلتى وغازلتها
ففرشت لها من دمى طرحة
ثم جاءت على جسد مبهم الضوء
تبحث عن جاهلى
تأبط شرا
فألقت شجاها على شجنى
وانسكبنا على نغم كالحريق
التقينا على دمعة
والتقاء الغريبين
فى دمعة
هو أشهى من الحب والأغنيات
سأنظمها، فأنا جبلى الهوى
أتأبط عشقا
وأرسمها فى بريق الجبال
معلقة تتدلى على ناطحات السحاب

كنعان يودعنا... لكن النور لا ينطفئ



من أعمال الفنان فى رحلة مبكرة ١٩٥٦

بقلم : صافي ناز كاظم

الأحد ١٣ من هذا الشهر، فبراير، يكون قد مر على ميلاد الفنان منير كنعان ٨١ عاما الذى غاب عن دنيانا منذ ٤٧ يوما. من صباى المبكر وكنعان هو فنانى المفضل بين آخرين كبار كنت أعجب بهم كذلك مثل الفنان «حسن» بجريدة المصرى، قبل إغلاقها فى مطلع الخمسينيات، والحسين فوزى بلوحاته لرواية نجيب محفوظ «بين القصرين» المسلسلة بمجلة الرسالة الجديدة سنة ١٩٥٤.



فى منزلهما.. كنعان ورفيقة دربه سناء البيسى



صعدت سلالم أخبار اليوم عام ١٩٥٥، لأبدأ خطواتي في مشوار الصحافة، كانت معي صديقة الطفولة سناء البيسي، التي برزت بيننا رسامة متوقدة الموهبة في سني المدرسة الابتدائية والثانوية، قالت سناء: «هيا نذهب إلى مكتب بيكار». قلت: «نذهب أولا إلى مكتب كنعان». في الدور الأول - جارا للفنان صاروخان - وجدناه منهمكا في تعليق لوحة من لوحاته على جدار الممر أمام مكتبه ليعطيها المسافة الكافية الصالحة للنظر إليها، رغم أعوامنا الثمانية عشرة كانت لدينا الثقة والمبادرة لمخاطبة الفنان الكبير المشهور البالغ من العمر ٣٦ سنة. توطدت معرفتنا به فورا، كأنه كان ينتظرنا، وكأن أعيننا كانت قد تفتحت على صداقته منذ ولادتنا. قلت: «يا كنعان أنا أحبك ولكن سناء تريد الذهاب لمكتب بيكار». لكزتني سناء وهي تقول في استنكار: «من قال لك هذا؟». ضحكت ودخلت سناء مكتب كنعان منذ ذلك الحين، تلميذة وملهمة، ولم تفارقه أبدا حتى ذلك اليوم الذي شاء الله أن يجعله يوم الفراق حين استقر الأستاذ والمربي والمؤدب والصديق والحبيب، في مثواه الأخير بعد صلاة عصر الأربعاء ٢١ رمضان ١٤٢٠ الموافق ١٩٩٩/١٢/٢٩، طيبا راضيا مرضيا بإذن الله.

أحب سناء وأحبته وتزوجا ١١ أكتوبر١٩٦٢، وأنجبا وحيدهما هشام ٩ يوليو ١٩٦٤.

★★★

مثل عطاء «المؤدب» و«المربي» و«الموجّه» الأمين في أروقة المدارس الثقافية والفنية العريقة في تاريخ حضارتنا الأصيلة، كان عطاؤه لمجموعتنا الشابة في أخبار اليوم: سناء البيسي وسناء فتح الله وأنا. إنه في أذني دائما: أستاذي والأنا العليا في الفن. أعطاني الرصيد من التدريب على كيفية النظر إلى اللوحة مع صبر مبذول في مناقشات سخية أذكت عندي حاسة النقد ودفعتني إلى دراسة المسرح. ما من متحف دخلته، أو صالة عرض ارتدتها - في الدنيا الواسعة - أو صفحات كتاب فن قلبته إلا وكان صوت كنعان في أذني دوما: «شايفة» الصيحة الكنعانية الكافية لكي أعتدل في استعداد «الشوف» للفن وفق أصول الرؤية الجادة والتناول السليم للعمل.

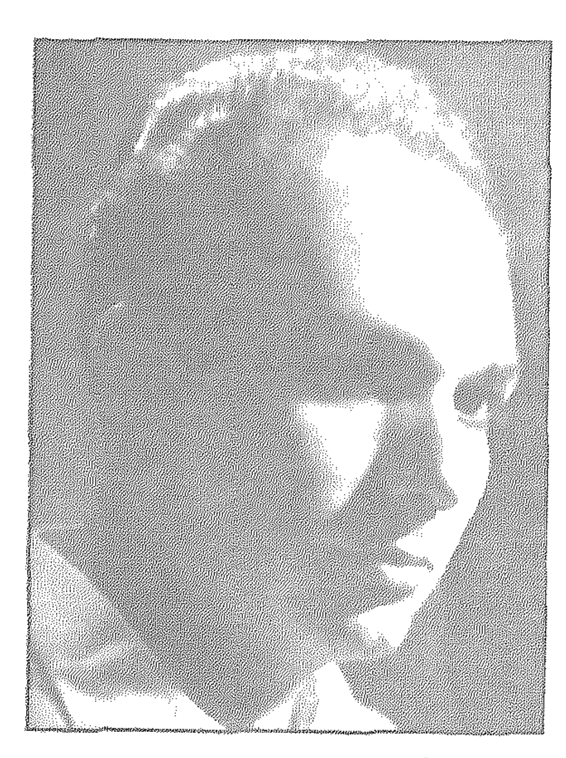
★★★

اتسقت روحا وقلبا وعقلا مع البحر الزاخر المليئ بإنتاجات كنعان الثرية الصادقة الخصبة التجريد والكولاج بأطواره وتنوع خاماته وأساليبه، ولمسات تشخيص نادرة باقية من مرحلته الاولى. تكاملت في تذوقي معه فلم أعد أستطيع أن أتذوق فنا خارج إطار أسلوبه، ليس هذا فحسب بل إنني لم أعد أستطيع أن أرى شيئا بكينونته البديهية: جالسة في

سيارة منتظرة أمام بيت قديم له باب من الحديد الصدئ، مهمل. يعبره الناس بلا اكتراث لكنه يستحوذ عليّ. متأملة غارقة في الصدأ ودرجات ألوانه: اخضرار واحمرار ورمادية وألوان أخرى لا أعرف كيف أحددها «هذه الألوان لا يمكن أن تتولد بهذا الجمال إلا من خلال عملية الصدأ». هل هذه جملتي؟، أم هي جملة مختزنة في دماغي من محاضرات كنعان؟.

***

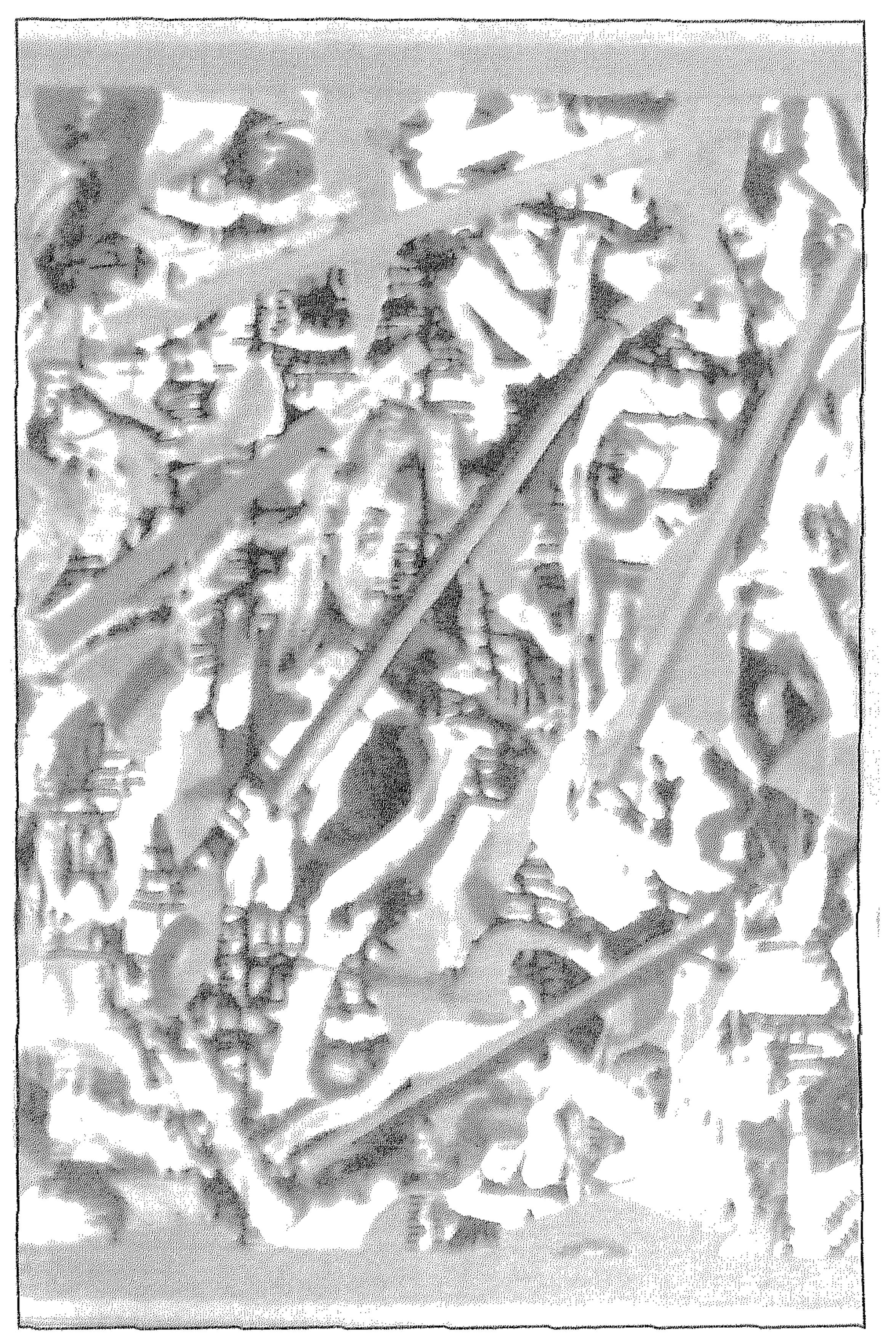
ولد منير كنعان في ١٣ فبراير ١٩١٩ - كان سعيدا برقم يوم مولده ١٣ - وبدأ عمله في الفن قبل أن يتجاوز العشرين. عرفته مجلات دار الهلال منذ عام ١٩٤٥ رساما بارعا يتقن لوحات «البورتريه» وتسجيل مشاهد الناس في المحاكم والأسواق وسائر التجمعات البشرية. لا ينمنم ولا يزوق، بل يبدو كأنه يخبط بالفرشاة خبطات حرة قوية وحاسمة تتبين منها الوجه المشع وخصلات شعر كألسنة اللهب وومضات عيون لا تنطفئ شعلتها وأصابع يد تبدو وحدها كأنها كائن حي قائم بذاته. حضور آسر لخطوطه في التشخيص، لكن هذا الفن - الذي يسميه «الفن للصحافة» - كان على كنعان أن يهرب منه حتى لا يقع في فخه فتتبدد طاقته الإبداعية الكامنة في آماد التشخيص التي مهما اتسعت تظل محدودة وسطحية.



الفنان .. في الثلاثينيات

كان يرى التشخيص بترا للحقيقة وتحديدا وقحا للجوهر، وكان بحثه في التجريد محاولة للتخلص من الثرثرة حول الفكرة، ومغامرة لتصوير حقائق الحس والعقل بإسقاط الظاهر المادي المخادع والمعوق لرؤية تلك الحقائق واستشعارها، وكان هذا يعني وصوله إلى جوهر العقل الإسلامي - المدرب على التجريد - وتعامله مع الكون وأشيائه المرئية واللا مرئية، فالعقل الإسلامي - من ورائه توجيهات العقيدة - يسقط التجسيد أو التشخيص كوسيلة للمعرفة، ولذلك فالنفور من النحت في الإسلام لم يكن موقفا ضد الوثنية فقط بل موقفا ضد ظاهر الأشياء، لأن ظاهر الشئ ليس حقيقته. العقل الإسلامي يتربى على الإيمان بالله إله

من مجموعة الكولاج عام ١٩٨٩ للفنان كنعان





من أعمال ١٩٤٥ للفنان كنعان



الفنان فى معرضه الأخير

واحد «ليس كمثله شئ»، وهكذا يتعلم المسلم كيف يؤمن بالله حقيقة لا تتشخص ولا تتجسد، لكنه يدركها تماما يقينا لا يتزعزع).

★★★

مع العمل المرهق والتجارب المستمرة المضنية والعناد - الذى هو أهم دعائم شخصية كنعان - التقى مع التجريد فى أول لوحة تجريدية ينتهى منها عام ١٩٤٦ قرر بعدها أن يغلق تدريجيا مرحلته مع التشخيص وفن البورتريه الذى برع فيه. ويشارك بتجاربه الجديدة فى معرض الربيع بقاعة الفن بالقاهرة أعوام ٤٧، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣، ومع جماعة «الفن والحرية» عام ١٩٥٦، ثم جماعة «نحو المجهول» عام ١٩٥٩، وبعدها تبدأ معارض الشخصية مع أعوام ٦٠، ٦١، ٦٦، ٧١، ٧٧، ٧٩، ٨٢، ٨٤، ٨٦، ٨٩، ١٩٩١، ١٩٩٢، ١٩٩٤. ويثار الجدل الساخن حوله ويتركه غير مرضى عنه من قبيلتين تحزبتا ضده لأنه لم ينتم لأى منهما.

● قبيلة الأكاديميين الذين شمخوا بأنوفهم لا يريدون أن يتركوا خط دفاعهم الأول والأخير، وهو التشخيص - (وإن حاولوا التجريد اصطناعا ومجاراة فى خطوات مترددة تخشى الإبحار نحو القارات المجهولة، ليس قبل أن تسجل لها الخرائط وتتحدد لها المقاييس والمعايير.) - لم يرض الأكاديميون عن كنعان أبدا لأنه لم يتعلم الفن فى جامعة أو أكاديمية، بل نبش صخر المعرفة بأظافره وحده، ولذلك أخرجوه من دائرة إعلامهم وتقييماتهم النقدية، بل إنهم حين فاز كنعان لمصر عام ١٩٨٤ بالمركز الأول فى الحشد الدولى للفن التشكيلى على مستوى فنانى الوطن العربى - (١٢ دولة عربية مشاركة بمجموع ١٢٨ فنانا من كبار فنانى حركة التشكيليين العرب) - وكان هناك ١٦ حكما من العرب وثلاثة حكام من إيطاليا والنرويج، خرجوا بحملة من «الإدانة» و«الشجب» ومعها «بيان» بكلام ضخم يرفض «فوز» منير كنعان بواحدة من أعماله التجريدية!. واستخدمت فى الحملة كلمات مثل «المضمون الاجتماعى» و«النقاد المستوردون» - فى إشارة إلى وجود نقاد دوليين فى التحكيم بنسبة ٣ إلى ١٦ من العرب - ونددوا بـ «التجريد» العبثى و«اللامبالاة» لصالح «الواقعية الجادة» - (هذه الكلمة المبتذلة التى لم تقدم لحركة الفن التشكيلى إلا الجمود والخطابة والشعارات الطنانة المستهلكة وكانت جواز مرور لأقل الفنانين موهبة وعطاء). - وتضمنت الحملة فقرة مثل: «وقد أعطيت الجائزة الأولى تصوير لأكثر اللوحات تجريدا.. مجرد تشكيلات من أوراق الصحف العربية والأجنبية الملصقة من فوقها مساحات أخرى سوداء أو ملونة لا معنى لها»، ثم أوردوا فقرة من خطاب لرئيس الجمهورية خارج سياقها للإرهاب

وممارسة الابتزاز على الفن والفنانين وبدت الفقرة وكأنها تطالب السلطة باستصدار قانون استثنائى لاعتقال الفنان المتلبس بالتجريد، كأن استعداء السلطة هو مهمة من مهمات الناقد الفنى. ووقتها لم أستغرب الموقف المتعسف من «التجريد» – (الذى أعتقد اعتقادا كاملا بأنه الفن الإسلامى) – وقابلت كنعان وهو منهمك فى العمل والعاصفة لا تعنيه، وفى ابتسامة وادعة أخذ يهدئ من غضبى: «..يا صافى هذا الكلام مرض قديم يتجدد فى فورات موسمية مثل الحمى..»، وكان عجبى أن يصل الهوس فى التعصب حد إنكار أسلوب فنى معروف وشائع اسمه «الكولاج» والإشارة إليه أنه: «.. مجرد تشكيلات من أوراق الصحف العربية والأجنبية الملصقة..» كأنه إجراء خرج عن شروط الفن وقوانين الإبداع ناهيك عن المروق من مظلة الوطن والوصول إلى حد الخيانة القومية.. إذ وصل اتهام لوحة كنعان الفائزة لاسم مصر بأنها: «اتجاه عدائى صريح ضد الاتجاهات القومية والموضوعية»، كما ورد فى البيان المذكور.

● أما القبيلة الثانية التى أنكرت كنعان دائما فهى: قبيلة الأيديولوجيين الذين شمخوا بأنوفهم هم الآخرين تكبرا وأخفوا موهبتهم الضئيلة خلف رطانة خطابية ومحفوظات مستهلكة. انضمت القبيلتان وأنشدوا جميعا مارش الاتهام «العسكرى» بعبثية كنعان وعدميته ولا مضمونه.

★★★

فاز كنعان حقا بجائزة الدولة التقديرية عام ١٩٩٧، وكان فنه موضوعا لرسالة ماجستير فى السربون نالتها عام ٨٥ – ٨٦ الناقدة الفرنسيه كريستين شامبى روسيون، ولرسالة دكتوراه بعنوان «تيمة الرسوم التحضيرية فى التصوير المصرى المعاصر»، قدمها ونالها الدكتور رضا عبد السلام عام ١٩٨٧، لكنه ظل دائما وحيدا لم يؤنسه سوى قلبه الملئ بالرؤى وصدره الجياش بالسعى نحو المجهول والمستتر لاستطلاعه، خارج أطر المادة وحدود الشكل، وتشبث بإيمانه. فتفتحت أمامه آفاق ارتفع معها فى رحلة الاستكشاف للقيم الجمالية الخبيئة من خلال التتابع المستمر لعمليتى الهدم والبناء.

★★★

علمنى كنعان ألا أجد القبح إلا فى النمطية والمزيفات التشخيصية التى ينفر منها العقل الواعى بقصور المادة وسجن الأشكال، وتملها النفس التى تريد أن تسبر الغور بعيدا عن كذبات السطح.

★★★

فى زيارتى الأخيرة له، بجناحه بمستشفى عين شمس التخصصى، نظر إلى سناء البيسى رفيقة الدرب الحبيبة وقال: «.. ينطفئ النور يا سناء». ولاحقناه سناء وأنا فى صوت واحد: «النور لا ينطفئ أبدا يا كنعان!»، فبلع دموعه وسكن.

رحمه الله وأجزاه عنى الخير الوفير.

■

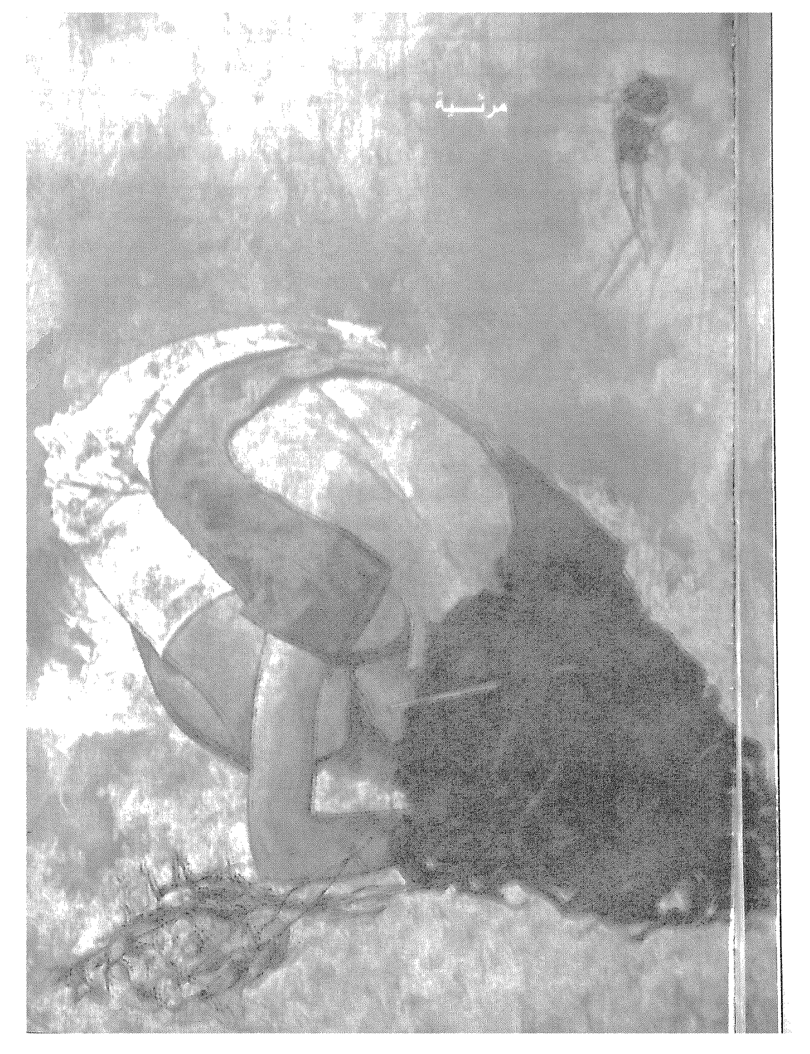


إبراهيم الدسوقى «فنان من جيل التسعينيات»

بقلم : محمود بقشيش

بدعوى الحداثة دأب صناع القرار الثقافى على تشجيع ما يسمى بـ «التجهيزات الفراغية» وهى نوع فنى يجمع بين أنواع مختلفة من الفنون المرئية، فهو يجمع بين الشكل المعمارى النحتى المجسم والشكل التصويرى المسطح، ولا بأس من إضافة أشكال مضيئة ومسموعة، متحركة وساكنة. وقد شارك بعض الشباب بعروض حية إضافة الى كل ما سبق. وكانت الغاية من ذلك هى إزاحة الدور التاريخى والجمالى للوحة الحامل وهى الشكل الذى يناسب من يتقن الرسم والتلوين وهو أمر يمكن الاستغناء عنه مع «التجهيزات الفراغية».

وقد أحدثت ولائم الجوائز التى كرست لهذا النوع الفنى الفرقة بين المبدعين من جيل التسعينيات، فمنهم من أغوته الولائم بالاستجابة المائلة للقيادة الرسمية وانتحلوا ما تجود به الدوريات الفنية الغربية من بدع وغرائب. ولسنا بالطبع، ضد الحداثة أو المغامرات الفنية ولكننا ضد الانتحال والنقل الأعمى. وكان على



دعاة الوزارة أن يتأملوا تجربة المدرسة المكسيكية، عندما تمردت على «لوحة الحامل» واختارت البديل «المناسب» وكان هذا البديل هو الجداريات الفريسيكية الفذة التى خلدت أسماء مبدعيها وعلى رأسهم ثلاثة هم: «دييجو ريفيرا Diego Rivera «١٨٨٦ - ١٩٥٧» و«أوروزكو» Jose Clemente orozco «١٨٨٣ - ١٩٤٩» والفارو سيكيروس David Alfaro siqueras «١٨٩٦ - ١٩٧٤». وكان بمقدور الوزارة أن تتخم الفنانين المصرسيين بالعمل لو أخرجت «قانون الـ ٢٪» من الأدراج وهو قانون يبيح للفنانين تجميل ٢٪ من المبانى الحكومية، عندئذ كان سيتألق فى ساحة الابداع الفنى - غير المعزول عن جماهير الشعب - مبدعون اكثر موهبة من المنتحلين الصغار. وإذا كان هناك شباب - بحسن نية أو بسوئها - قد استجابوا للممالأة، فإن البعض الآخر من الذين يثقون فى مواهبهم وقدراتهم فى مجال الرسم والتلوين ولديهم ما يعبرون عنه قد رفضوا ذلك التوجه الانتحالى الذى لن يفضى فى نهاية الامر إلا إلى الخواء. لهذا اخترت من بينهم واحدا أعده من اكثر افراد جيله موهبة، ومن أكثرهم ثقافة ووعيا بما يحدث فى الواقع الثقافى المصرى والعالمى الآن.

الفنان إبراهيم الدسوقي

يعمل - حاليا - مدرسا مساعدا بكلية الفنون الجميلة بالقاهرة «قسم التصوير».. وهو الابن الوحيد لفنانين كبيرين معروفين: الأب هو الرسام والقاص والمترجم الأثرى «الدسوقى فهمى» وتعد ترجمته لكافكا من أفضل الترجمات العربية. ونشر فى أواسط الستينيات سلسلة من الترجمات لكتابات الفنان العبقرى «أوجين ديلاكروا» وهو من أوائل الكتاب الذين لفتوا الأنظار الى إنجازات المدرسة التعبيرية الألمانية فى الفن، أما الأم فهى الرسامة المعروفة «عطيات» وكانت رسومها تنشر بصورة منتظمة بجرائد مؤسسة الجمهورية حيث كانت تعمل ، وكلا الأبوين ينتميان إلى الأسلوب التعبيرى.

مشروع التخرج

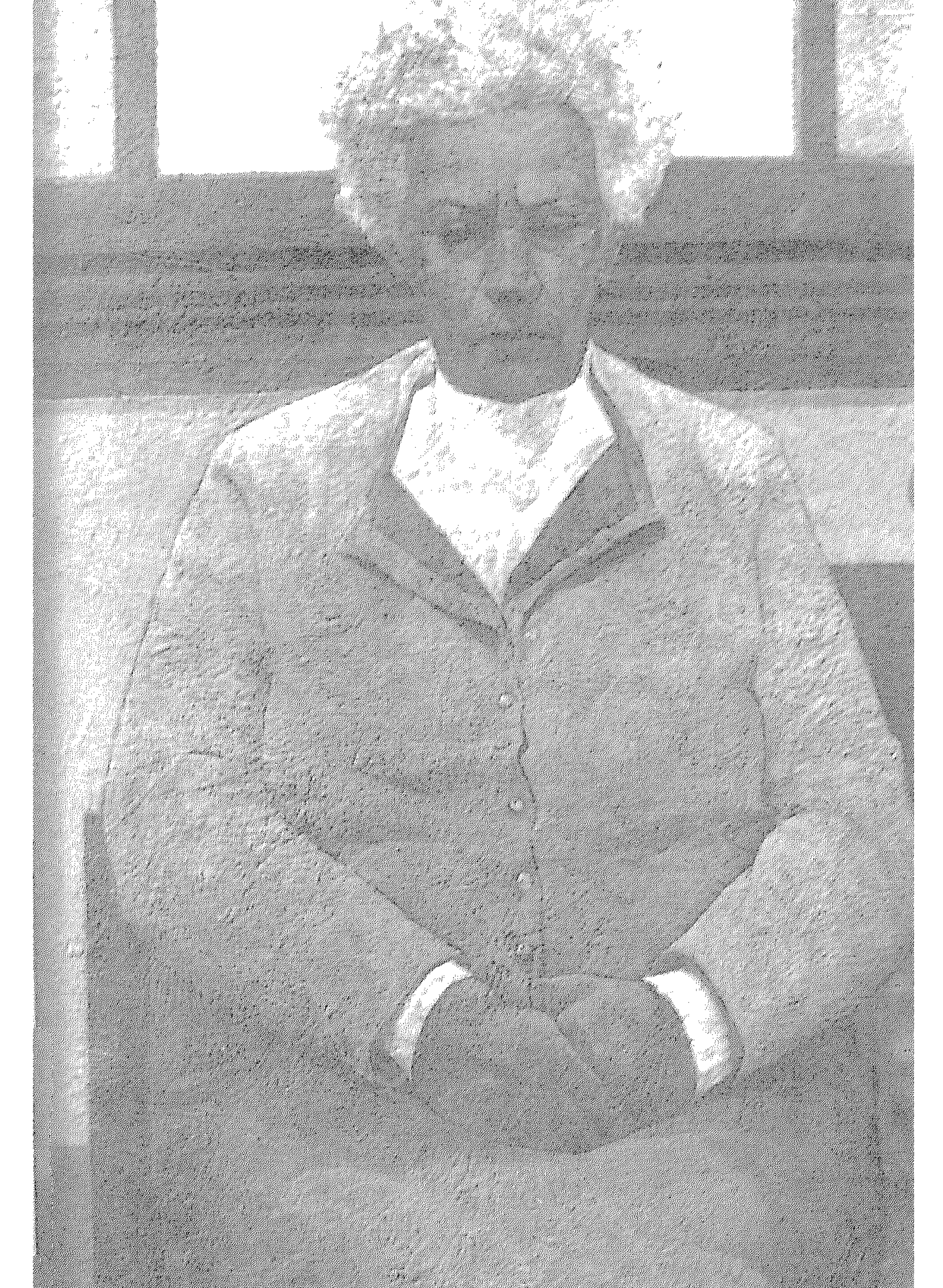
إننى أعد مشروع تخرج فناننا «إبراهيم الدسوقى» الركيزة المحورية لمراحله الفنية اللاحقة، فمشروع التخرج هو الكشاف الحقيقي عن موهبة الخريج وعن جدارته بلقب فنان من عدمه، وما أكثر الخريجين الذين درسوا بالفنون الجميلة وما أقل عدد الفنانين الذين تألقوا من بين خريجيها!.

تكشف لوحته بمساحتها الضخمة «٥١٠ × ١٧٧ سم» وبموضوعها الجرىء

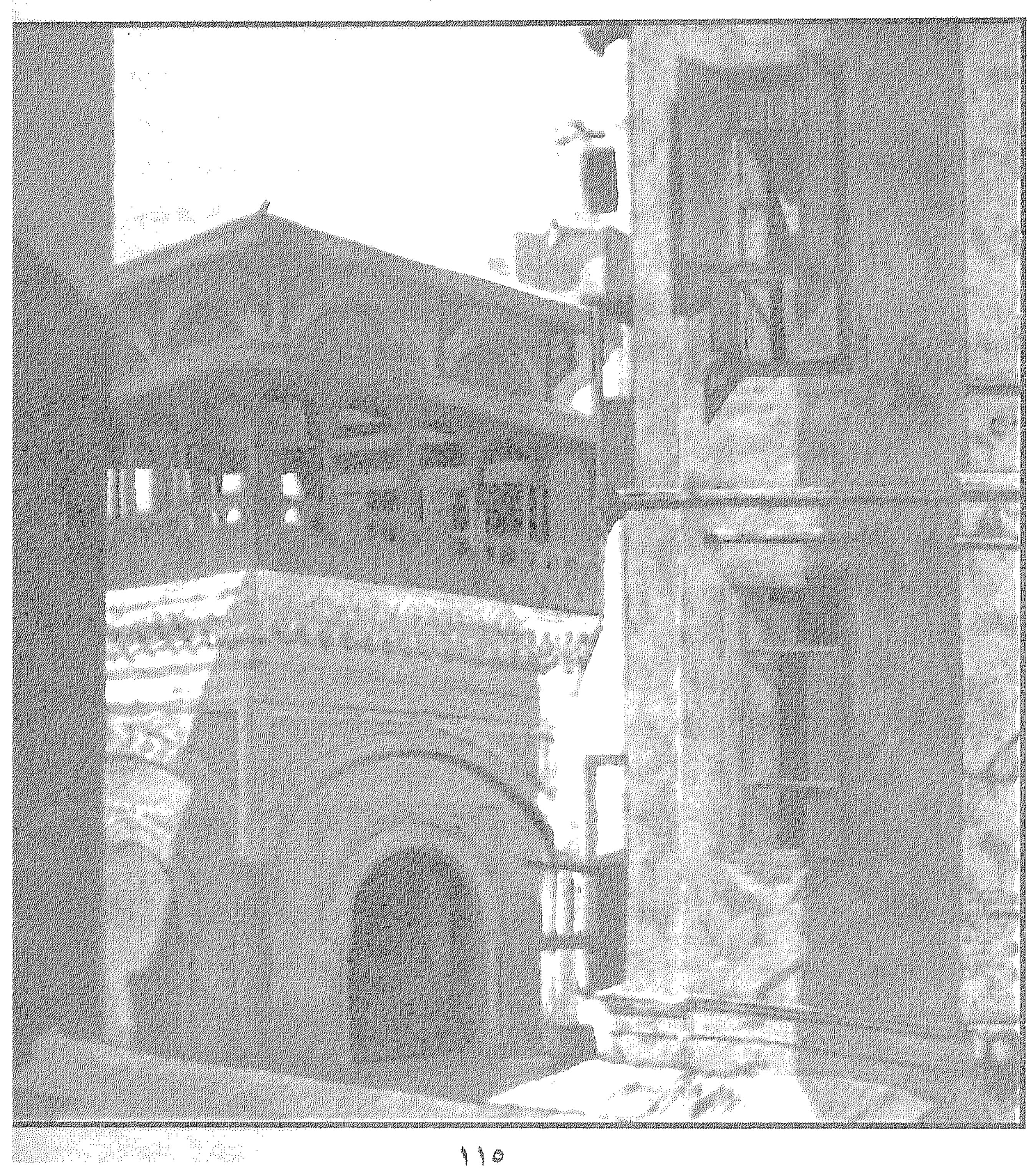
«عن عمال التراحيل»، بمضمونها المكرس للتعبير عن حالة الاغتراب الإنساني الذى يعانيه ريفيون نزحوا إلى المدينة سعيا وراء الرزق، وبمستوى الأداء الفنى، عن جسارة وتمكن من أدواته الفنية، لم تتح لمعظم سابقيه.تضم اللوحة سبعة وعشرين شخصا، يجمعهم رصيف واحد، تحيطهم من كل جانب أسوار عالية وبقايا إعلانات، وتلفهم حالات من الترقب الحزين والضياع. واستطاع - بمهارة استحق عنها أن يصبح أول دفعته - أن يتابع كل حالة من حالات هذا الزحام البشرى. وقام هو نفسه باستئجارهم واحدا واحدا ليرسمهم. واختار لهم أوضاعا جامدة حتى يكونوا أقرب إلى مشاهد «الطبيعة الصامتة» أو الساكنة ولكنه سكون «مشحون» بالتوتر وانتظار لمجهول ملغز. وعلى الرغم من أن المشهد، المأخوذ عن الواقع، أشبه بالحيز المسرحى : ثلاثى الأبعاد، فلم يوحد مصدرا ثابتا للنور والظل، بل جعل لكل حالة ضوءها وظلها الخاص تأكيدا للإنقطاع بين الأفراد، وأغرق كل شخص فى قوقعة همومه الذاتية. جمع «إبراهيم الدسوقى» فى مشهد حكائى/ مسرحى بين ما يدل على الواقع وما يدل على غرابته فى آن واحد. ولم يترك آى تفصيلة من التفصيلات للمصادفة بل لضرورتها الفنية والتعبيرية،اختار لهم الملصقات الإعلانية لتكون خلفية رامزة إلى وضعهم السلعوى وجعلنا نتساءل : أى سلعة تلك التى لا تمتلك غير فئوس وسواعد، وأى دور حزين يمكن أن تقوم به بعد أن أنتزعت من بيئتها الريفية إلى طوفان القاهرة!.

الواقعية السحرية

لست على يقين إن كان «إبراهيم الدسوقى» قد تعرف فى ذلك الوقت على مذهب «الواقعية السحرية» وتأثر به، لأن فى لوحته شيئا مشابها. ففى لوحة «إبراهيم الدسوقى» مثلما فى مذهب «الواقعية السحرية» حرص على الإمساك بالواقع المباشر وهو فى حالة تلبس بكل إيحاءات الغرابة الكامنة داخله، لهذا فهو مذهب وسط بين الواقعية والسيريالية، ظهر فى أواسط الثلاثينيات وقد استلهم من التصوير الميتافيزيقى للمصور الإيطالى «جيورجيو دى كريكو» Giorgio De chirico ولأن هذا المذهب لا يستطيع ممارسته إلا من امتلك مهارة غير اعتيادية فى نقل الواقع فلم تظهر خلاله إلا أسماء قليلة أبرزها بيير روى pierre Roy و«بالتس» Balthus و«ألبرت كارل ويلينك Willink و«جرانت وود grant Wood وقد روج نقاد الأدب - بعد ذلك - هذا المصطلح، خصوصا، بعد فوز «ماركيث» بجائزة نوبل للآدب سنة ١٩٨٢ وذيوع رائعته «مائة عام من العزلة» فى



السبيل ١٩٩٩ للفنان ابراهيم الدسوقى



كثير من لغات العالم، منها اللغة العربية.

الوجوه الشخصية

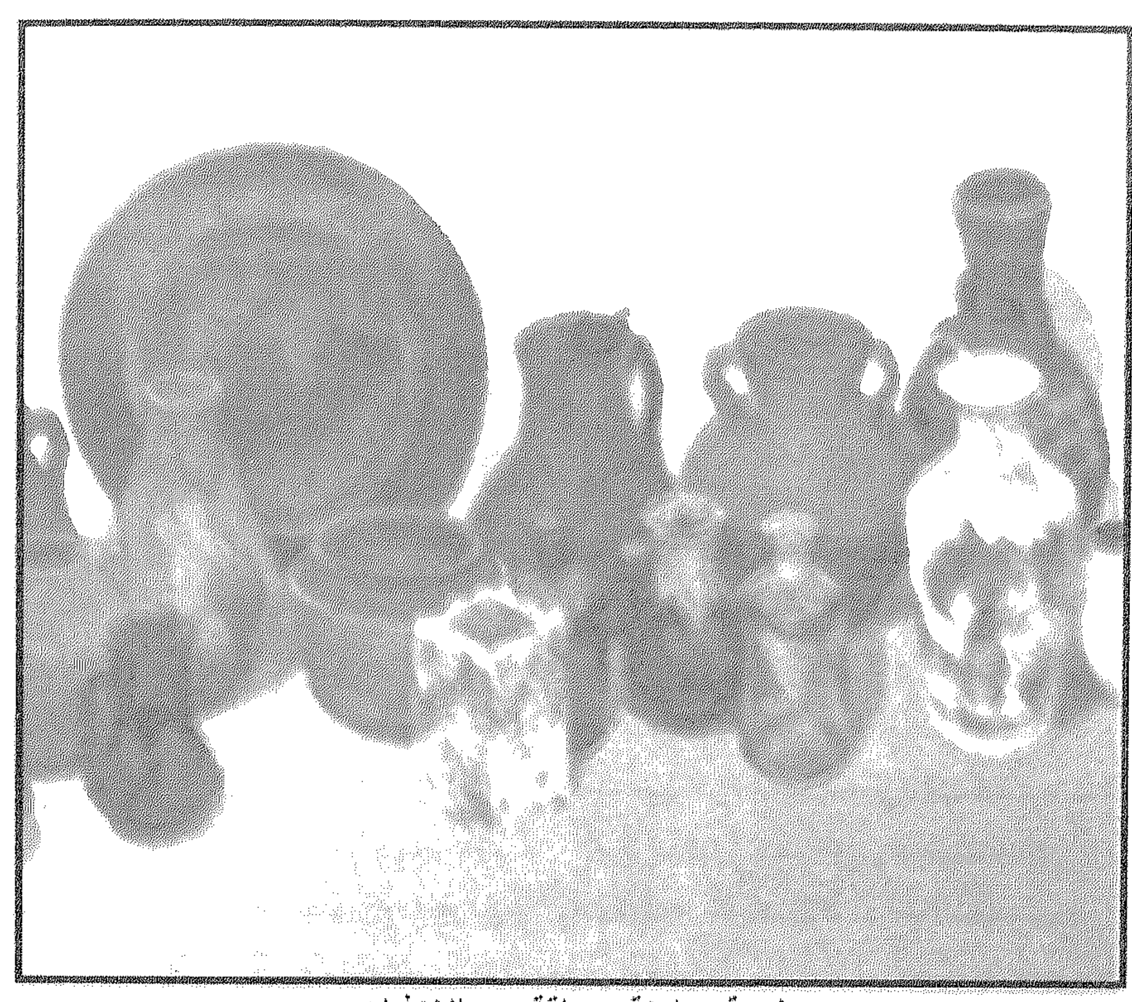
إن فن «البورتريه» فن بالغ الصعوبة لأنه يحتاج بجانب المهارة غير الاعتيادية فى الرسم إلى نوع من الفراسة لسبر أغوار الشخصية التى وافقت على أن تكون نموذجا للرسم وموضوعا للتأمل، لهذا لم تلمع - فى مصر - فى هذا المجال إلا أسماء قد لا تزيد على أصابع اليدين. يزيد من صعوبة لوحة البورتريه ذلك الحاجز النفسى الذى تخلقه آلية العلاقة بين الفنان والمقتنى الذى هو نفسه النموذج المراد رسمه من الظاهر والباطن ولابد من إرضائه، لهذا اختار معظم رسامى البورتريه طريقا آمنا إلى جيب وقلب المقتنى: وليس هناك طريق أكثر أمانا من الانحياز إلى «التجميل» على حساب «الحقيقة» التى قد تكون مرة أحيانا. ولحسن حظ الفنان «إبراهيم الدسوقى» أنه لم يضطر إلى أن يغير جلده، لأن الوجهين المفضلين لديه والذى تألق فى رسمهما لا يتقاضى عن لوحاته لهما شيئا من المال بل فنجانا من القهوة أو دعاء من القلب بأن يوفقه الله فى حياته!.

الوجه الأول لأمه الفنانة الكبيرة «عطيات» والوجه الثانى لزوجته الفنانة الشابه «هند»، لهذا آتيح له من حرية التعبير ما لم يتح لغيره من رسامى الوجوه الشخصية، معتمدا على سماحة الأم والزوجة ولم يضطر إلى المجاملات الاجتماعية بل كان حريصا على إظهار الحقيقة التى يعرفها. وعلى الرغم من أن لكل شخصية خصائصها فقد سادت كل لوحاته مسحة من الحزن، شفافة أحيانا، عميقة أحيانا أخرى، تنصرف العيون جميعها عن مواجهة المشاهد وتغوض فى قوقعة الذات، تجتر آلامها. ولست أدرى إن كانت حالة الاغتراب فى وجوه أحبائه امتدادا لنفس الحالة فى وجوه عمال التراحيل أم العكس، ومع ذلك فإننا نلمح لمحات شعرية بدت فى تألق شعر الأم بعد أن اشتعل شيباً زاده ألقا لون بشرة لوحتها شمس الجنوب، واتسمت الألوان بالوقار، وإن تسلل إلى وجه الزوجة شبح إبتسامة وتشعع ضوء تولد من نسيج صنعته طبقات من عجائن اللون الأبيض غطت صدرها، وانعكست أصداؤه على فواتح الوجه، وبدا سواد الشعر أكثر دكنة.

الزحام والتفرد

تركت لوحة المشروع آثارها على مراحله وموضوعاته اللاحقة. وأبرز تلك الآثار هى الاحتفال بتفرد العناصر الإنسانية والشيئية وعزلتها فى قلب زحام

العناصر المماثلة والمخالفة على السواء. وهى يعلى من شأن الأفراد حتى لا تذوب فى الجماعة، فى لوحته «زهور فى المرسم» يغرق مسطح اللوحة المهندسة بطوفان من اللمسات المجردة والموحية فى ذات الوقت بزحام دوامى من زهور يفترض أنها مطبوعة على ثوب «الموديل» المعلق على مقعد، وينتقل الطوفان الزهرى إلى مسطح الخلفية الجدرانية والأرض. وتنبعث من هذا الزحام المربك باقة تتفرد بوضوح معالمها، ومعالم قنيتها الخزفية. إن تكاثر العنصر الإنسانى والشيئى فى لوحاته لا يبتلع الأفراد ، بل على العكس يعطيه مبررا للانتفاء، وهو يحيط أجسامها بفضاء صاف يؤكد به حضورها الفردى المستقل كما فى لوحته «تأملات عبر الشرفة» وهى تمثل أربع فتيات يقفن صفا واحدا يتأملن مشهدا فضائيا يتسم بصفاء لونى لم نعد نراه فى سماء القاهرة وتظهر الفتيات من الخلف إلا واحدة تواجهنا مواجهة مباشرة وتبدو من ملامحها شديدة المصرية أنها قد جىء بها بعد إعادة الصياغة ـ من المتحف المصرى، بل إن التكوين ذاته يذكر بتكوين الجدارية المصرية الشهيرة المسماة بـ «أوز ميدوم» حيث تبدو إحدى الأوزات وقد خالفت خط سير بقية زميلاتها . ومثلما فعل الرسام المصرى القديم من أجل كسر ملل التماثل والرتابة فعل الفنان «إبراهيم الدسوقى» وأكد بهذا الاختلاف الانتباه إلى المشهد الذى يتأملونه وإلى شخوصهن ذاتها بأنوثتها المتعففة. لقد تناول موضوع التأمل عبر الشرفات عديد من كبار فنانى العالم، منهم على سبيل المثال لا الحصر الفنان النرويجى التعبيرى الفذ «إدوار مونش»» «١٨٦٣ ـ ١٩٤٤» له لوحة شهيرة بعنوان «فتيات على الكوبرى» رسمها سنة ١٩٠٥ وهى تمثل أربع فتيات يقفن صفا واحدا بجانب سور الكوبرى ، غير أنه يختلف اختلافا جليا مع فناننا الشاب، إذ أذاب «مونش» الحدود بين الشخصيات الأربع فيما إحتفل «إبراهيم الدسوقى» باستقلال كل شخصية وبالتفاصيل، خصوصا الزخارف المرسومة على ثوب واحدة منهن وقد أداها باقتدار. إن العلاقات الجمالية بين المسطحات الصريحة والمسطحات المشغولة فى اللوحة تذكرنا بالفنان النمساوى التعبيرى «جوستاف كليمت» «١٨٦٢ ـ ١٩١٨» وقد إحتلت المرأة فى لوحاته الركيزة المحورية وربما يكون الفنان «إبراهيم الدسوقى» قد تأثر بالحلول الجمالية التى أنجزها الفنان العالمى فى لوحته التى رسمها للسيدة «فريتزا» سنة ١٩٠٦ وهى علامة من العلامات البارزة فى فن البورتريه، غير أن «إبراهيم الدسوقى» كان شديد الحرص



طبيعة صامتة - باقة من الخزفيات

على خلق توازن بين المتعارضات : بين ما هو تزيينى وما هو تعبيرى، بين المصارحة والتلميح، وقد حاول فى إحدى لوحاته أن يتجاوز حدود التلميح الى درجة محسوبة من الصراحة ورسم شيئا من العرى لم يتجاوز منطقة الساقين فانزعجت هيئة التدريس وهم اساتذة للفن ونصحوه بألا يعرض لوحته ، غير أنه عرضها فى سياق معرض جماعى ضم نخبة من موهوبى جيل التسعينيات ولم يحدث شىء لأنه لم يكن يوجد باللوحة ما يثير القلق!.

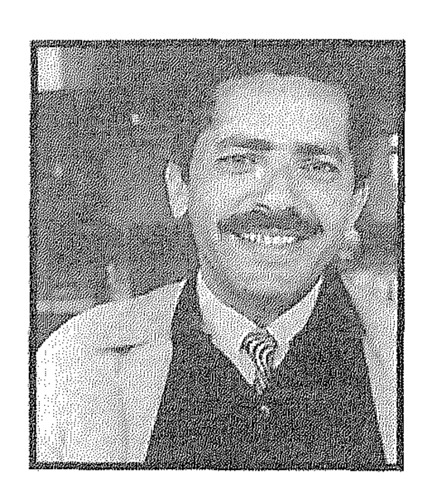
التأمل في الحجارة

إذا كان قدر الفنان فى مصر القناعة بالتلميح المراوغ والتكتم على الفوران الداخلى فإن الطريق الوحيد الآمن أمامه هو نوع من التأمل الصوفى. وقد وجد «إبراهيم الدسوقى» بغيته فى أحجار أهرامات الجيزة ، غير أنه لم يرسم الأهرامات ، فما أكثر الرسامين



ترقب .. تأملات عبر الشرفة

السياحيين الذين رسموا الأهرامات الثلاثة، والجمال تدور من حولها. لم يرسم شيئا من هذا بل رسم الأحجار المتراصة وقد ترك عليها الزمن آثاره، التقط بمهارة فائقة إيقاعات النور الذى تشعه شمس مصر الساطعة وإيقاعات الظلال الكثيفة، رسم كل كتلة حجر لا باعتبارها وحدة معمارية بل باعتبارها كيانا مستقلا، جاء من زمن سحيق ليلتقى فى لحظة أو لحظات مع ضوء يتغير بمرور الدقائق والساعات إلى أن يذوب فى عتمة الليل. كان يزور تلك الأحجار يوميا، يرسم لها رسوما تحضيرية بألوان الطباشير الملون، وينفذها فى مرسمه بالألوان الزيتية. وأدرك بزياراته المتلاحقة للأحجار أنه يمارس ما يشبه طقسا من الطقوس الدينية، وربما أدرك أيضا أن تلك الأحجار على الرغم من تفرد كل حجر عن الآخر فإنها جميعا تشكل بنيانا صلبا، متحدا ومتحديا!.



عندما يتكلم الجماد

آدم حنين

أمسك بالأسطورة

نجوى صالح

حينما نجد السهل الممتنع ، فهو آدم حنين النحات والرسام .. وقد ذكر النقاد أن من أبرز مميزات فن آدم حنين : التعبير من داخل العمل الفنى لا من شكله الخارجى ، والبساطة غير الساذجة ، والارتكاز على التراث النحتى المصرى العريق والعريض الذى هضمه الفنان واستوعبه ، ثم تمسكه فى أعماله الفنية التى تعبر عن الإنسان والإنسانية. فالموضوع فى أعمال آدم حنين ليس موضوعا دارجا أو جزئيا ، وإنما هو الموضوع الشامل الذى نحسه قبل أن نراه .

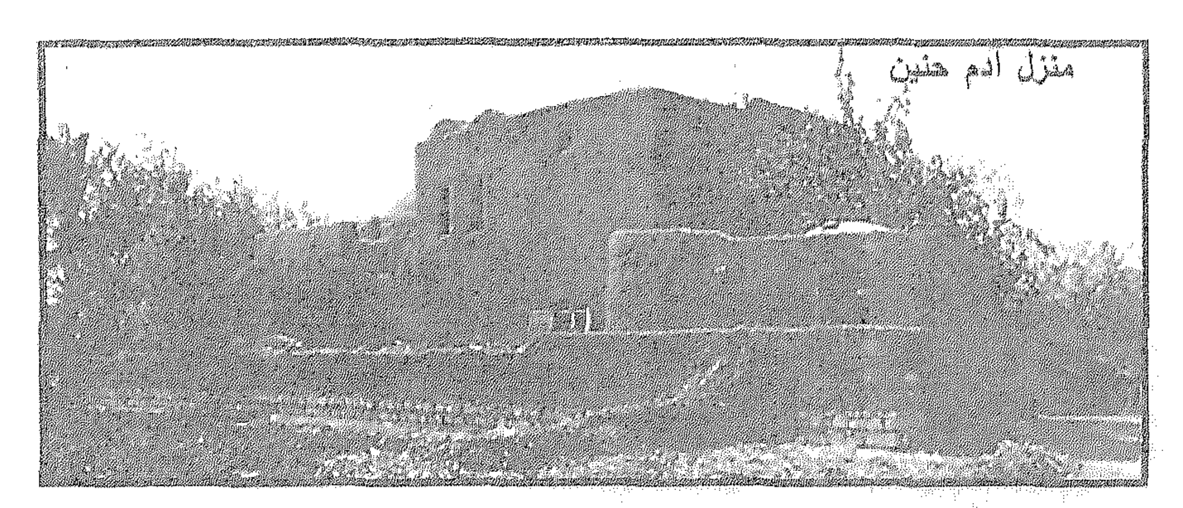
والفنان آدم حنين .. لا يتكلم إلا قليلا .. فى جلستنا بحديقة منزله «بالحرانية» قرب أهرامات الجيزة ، ومعنا زوجته «عفاف» والخضرة تحيطنا من كل جانب : الأشجار والنخيل ، ودرجات اللون الطينى الراسخ ظاهرة فى الجزوع ، والمبنى ، والأرض حتى التماثيل .

وهو فى جلسته التأملية ينظر إلى السماء ، وفى أحيان كثيرة لا يرد ، واكتشفت المهمة الصعبة التى تنتظرنى، فهل غيرت غربة آدم حنين نفسيته وفنه ، خاصة آننى لم آره منذ حوالى ثلاثين عاما.

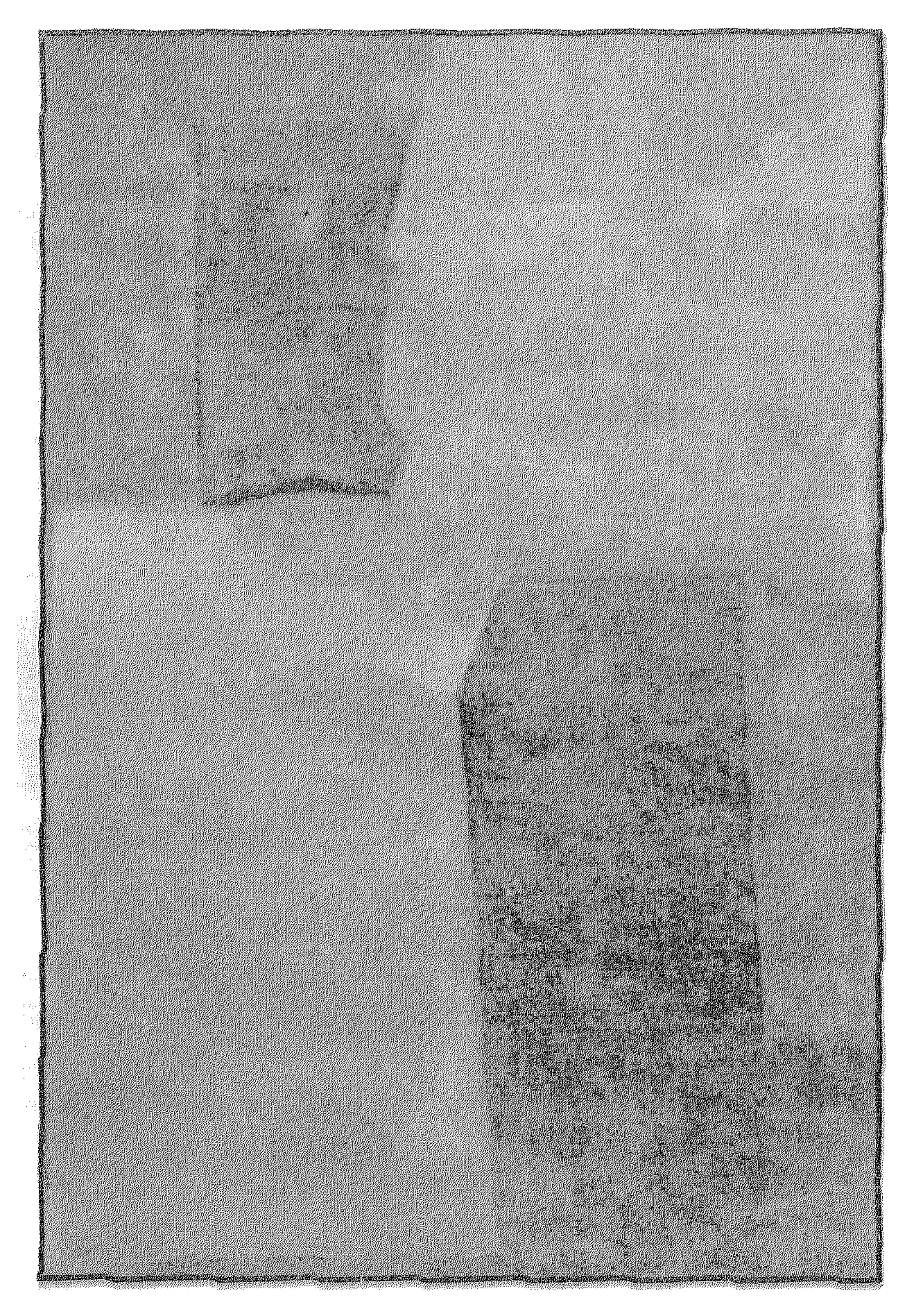
نظرت حولى لأستشف بعضا من بصماته الفنية ، فوجدت بيته الفريد الذى صممه الفنان رمسيس ويصا فى الستينات وكان مزيجا من الطين والرمل ، أما طراز البناء فكان خليطا من الفن الفرعونى والفن النوبى فى مقرنصات تتبدى على سطح البيت مع قباب تظهر فى خجل مقصود ، بين خطوط المبنى المستقيمة وفتحاته الضيقة ، يذكرك بالماضى السحيق كان فى صمته وهو لا يرد على ملاحظاتى متأملا أكثر منه مندمجاً مع ما حوله ، بالرغم مما يظهر على وجهه من ود وتحفز !

الحيوية الساكنة

ويذكر أحد النقاد الذين تصدوا


منزل ادم حنين

تمثال رأس عفاف - زوجة الفنان



يوم هادئ فى الظهيرة – على ورق بردى

لتطور فن النحت الحديث والمعاصر فى مصر إن هناك ثلاث علامات رئيسية ظهرت فى فن النحت المصرى المعاصر هى :

أولها فن محمود مختار : الذى استطاع أن يبتكر الصيغة الملائمة لتزاوج القيم الفنية الاغريقية بالقيم الفنية الفرعونية، ثم سخر هذا الابتكار للتعبير عن المرحلة التى عاشها : «مرحلة النهضة والبحث عن الشخصية المصرية» .

والعلامة الثانية هى فن جمال السجينى الذى استطاع أن يخلص فن النحت من الخضوع للقيم المدرسية الصارمة ويخرج به إلى رحاب الشكل التعبيرى مستخدماً الرمزية ثم البنائية فى التعبير الموضوعى عن الأحداث طوال فترة الغليان الثورى فى مصر التى أعقبت الحرب العالمية الثانية وما بعدها .

أما العلامة الثالثة فهى أعمال الفنان آدم حنين : الذى انتقل بفن النحت من التعبير «الميلودرامى» ومن بقايا «الأكاديمية» الى «الحيوية الساكنة» و«الديناميكية الداخلية» ، فهو قد أرسى بفنه قواعد شكلية متينة كونت ما يشبه مدرسة معاصرة فى فن النحت فى مصر يهدف أصحابها الى تقديم أرقى شكل نحتى متضمنا أعمق الانفعالات والأحاسيس والأفكار بدون ضوضاء ، وهكذا أضاف هذا الفنان فى رأى النقاد مفردات جديدة متداولة وحية إلى لغة النحت .

هو لاهث فنيا .. ولكنه أمسك بالسراب .. أمسك بالأسطورة .. وقدم لنا مفرداتها قطعة وراء قطعة ، فى فن يجمع بين الفرعون والفلاح البسيط .. بين ملوكية الحس وتواضعه ، حيث يشعر أن جده هو «اخناتون» !

اللحظة البكر

أعطانى آدم حنين كتابا أنيقا يحتوى على صور لأعماله الفنية فى فن الرسم والنحت ، أنجزته إحدى المؤسسات السويسرية التى ترعى الفنانين وتقدمهم فى المستوى الذى يليق بهم ، حيث تناول أعماله فى هذا الكتاب التذكارى عدد من نقاد الفن فى أوربا .

وقد عرض الكتاب لمحات من طفولة الفنان وشبابه ، ومراحله الفنية المختلفة من البدايات إلى مرحلة النضج الفنى .

والكتاب اسمه «حنين» ، ومن بين حكاياته .. ذكريات طفولته .. حين كان

آدم طفلا فى الثامنة من عمره حين صحبت «مدرسة التاريخ» تلاميذ المدرسة ومنهم أدم إلى «الانتكخانة» ليروا «المساخيط» !

ويذكر آدم الصدمة والدهشة التى أحس بها أمام روعة الفن وشموخه فيقول: «تركت المدرسة والتلاميذ وهمت على وجهى من صالة إلى أخرى ، لحظة تأمل حقيقية ، كأن كل ما رأيت غاص بداخلى، وأحسست بشىء قد تغير فى نفسى» .. كانت مثل إرهاصات قرأتها فى الانجيل .

ثم يضيف آدم :

«وسردت علينا المدرسة أجزاء من تاريخ الفراعنة وكنت وحيدا صغيرا بين تماثيل الفراعنة الضخمة ، وشعرت بنوع من الطمأنينة المباغتة ، بشعورى أن هذا الفرعون هو «جدى» !

فى الغربة

تخرج آدم فى كلية الفنون الجميلة قسم نحت بامتياز ، واختير ضمن هيئة التدريس ، ولكنه مكث فى العمل لمدة ٢٥ يوما فقط ، ثم اتجه للعمل بالصحافة ، فعمل بمجلة «صباح الخير» مع فتحى غانم لكنه ترك هذا العمل أيضا بعد أربعة أشهر فقط !

وفضل أن يرى الدنيا على مهل ، فرشح فى كلية الفنون لبعثة إلى ألمانيا لمدة سنة ، وهناك قرر أن يعيش من فنه ، وأن يغترف الثقافة الغربية .

يتذكر آدم بعض ذكرياته عن غربته فيقول :

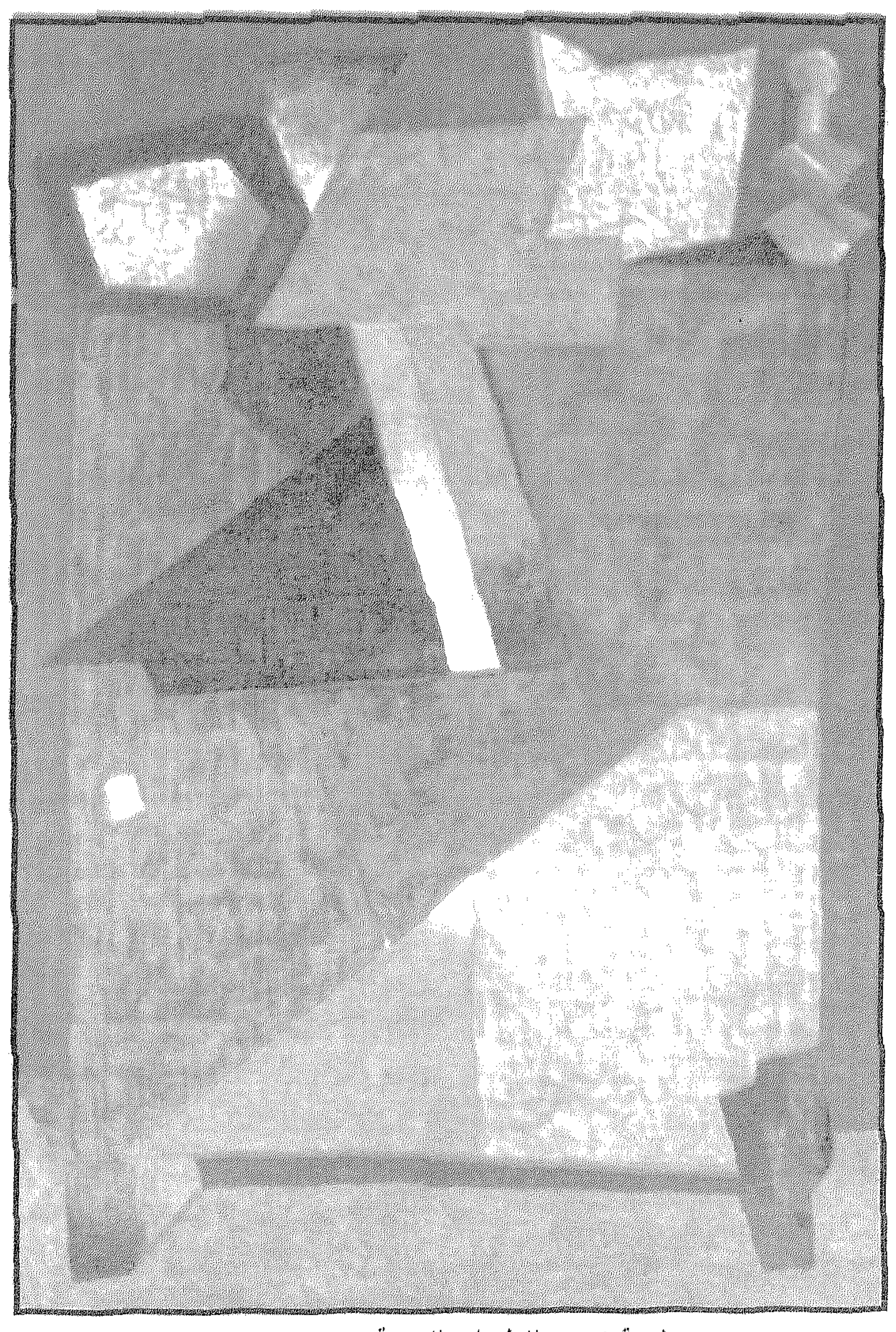
«أقمت معرضا لأعمالى النحتية وكان معظمها من الفخار وبعت قليلا ، وحضر المعرض الرسام المعاصر كاندسكى وزوجته الرسامة، التى نظرت الى أعمالى وقالت لى بالحرف «ماذا تفعل هنا ؟ أفضل أن تعود إلى بلدك لأن أعمالك الفنية ذات اتجاه خاص ، ولن تستطيع أن تتعلم الكثير عندنا» .

ويضيف آدم :

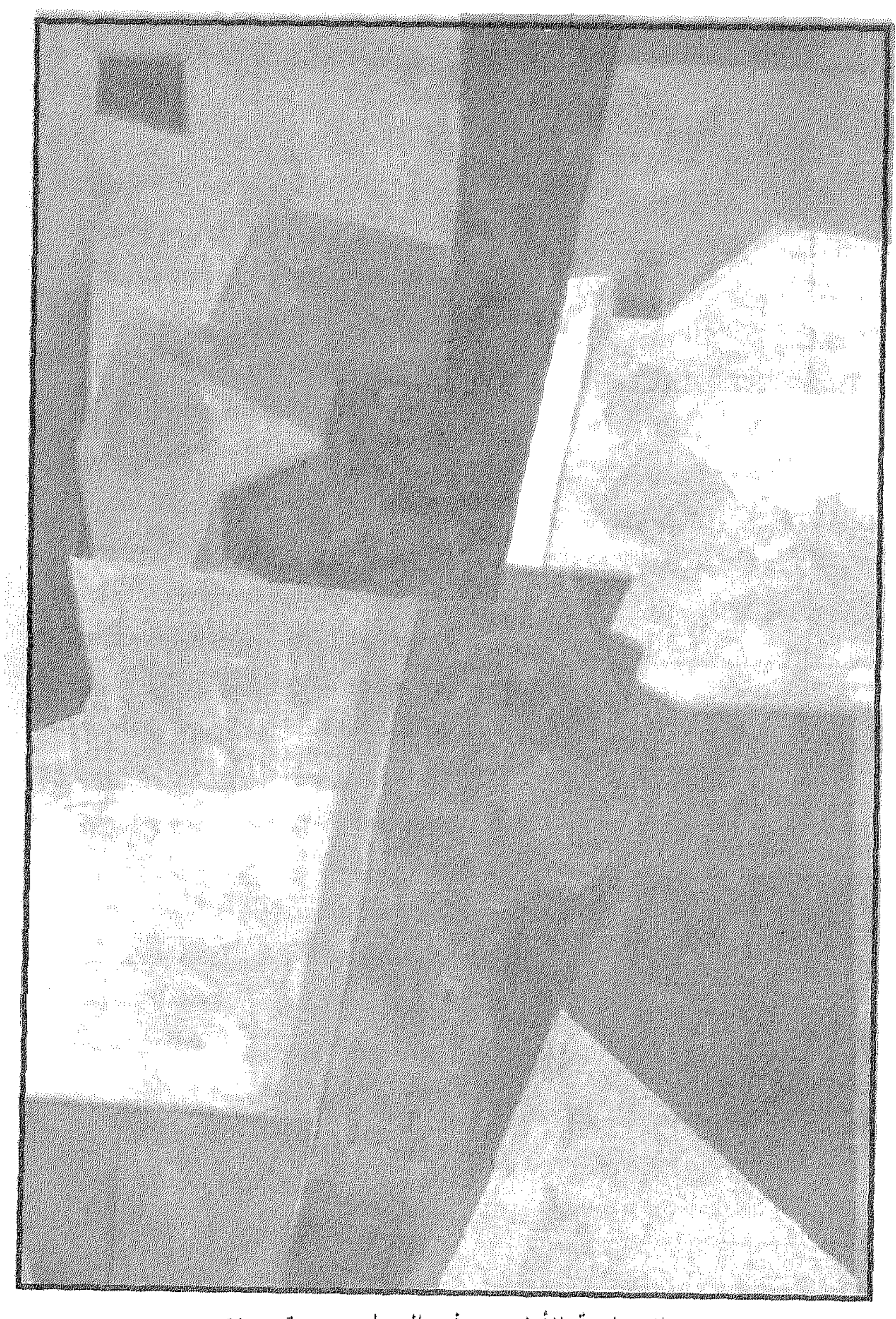
«ولاحظت أيضا تشابه الأعمال الفنية ، وقد أقيم قبل عودتى معرض لحضارة الأسك المكسيكية دفعنى للمقارنة بين القديم والحديث ، والنتيجة أننى فقدت الثقة فى الجديد ، فشعرت بالاحباط وعدت إلى مصر عام ١٩٥٩ وعشت فترة من اليأس الكامل ! الى أن لاحت بادرة أمل ، إذ حصلت على منحة تفرغ أثناء تولى د. ثروت عكاشة وزارة الثقافة ، وذهبت إلى النوبة وكانت هذه الفترة نقطة تحول فى حياتى ، كانت فترة إعادة البناء على أسس الأصالة والتراث الفنى الطويل لمصر .

وتتدخل زوجته عفاف لتتذكر بعض الذكريات فتقول :

«أقام آدم قبل سفره إلى النوبة



لوحة تدوين المذكرات اليومية - ورق بردى



الإرهاصة الأولى .. فى الصباح - ورق بردى

معرضا للرسم فى المركز الثقافى الألمانى، وكنت طالبة فى كلية الآداب قسم الاجتماع ، وذهبت الى المعرض وبهرت بأعماله ، واقتنيت إحدى لوحاته وربت على كتفه وعبرت له عن اعجابى الشديد بأعماله» .

وبعد عودتى من بعثة فى انجلترا للدراسات العليا انضممت الى بعثة أمريكية مختصة بتسجيل كل ما يختص بأهالى النوبة اجتماعيا ، قبل تهجيرهم .. وهناك قابلت «صمويل هنرى حنين» وهذا هو اسمه الحقيقى وفوجئت به يقول لى «اسمى آدم حنين من الآن فصاعدا» ، ويعلق آدم حنين على ذلك «غيرت اسمى لأننى وجدت نفسى فى النوبة وأعطيت نفسى ميلادا جديدا» . وقد عرفت فى الصعيد الفن الفرعونى الحقيقى ، وفى نفس الوقت تعرفت على الحياة الشعبية الأصيلة . وكانت «عفاف» هى جمهورى فى ذلك الوقت ، فطلبت منها الزواج ، وكنت فى ذلك الوقت قد تركت النوبة وذهبت الى أسوان ، وتزوجت عفاف ، وأسكنتها فى بيت صغير جدا فى جزيرة «الفنتين» وحولنا الماء من كل جانب بلا ماء أو كهرباء ، فعشنا عيشة فطرية جميلة رغم عدم توافر الأدوات العصرية ، وفوجئنا ذات يوم بسيدة ضخمة تقف أمامى واتضح أنها «البيجوم أغا خان» التى حضرت إلينا بعد أن سمعت أنه يوجد هنا فنان وزوجته فى هذا الكوخ ، وكانت تحب النحت ، وبعدها أصبحنا أصدقاء ، ورأينا أعمالها النحتية الأكاديمية .

وتضيف عفاف زوجته :

«مكثنا لمدة سنتين على هذه الحالة، نعيش عيشة فطرية لا نعتمد فيها إلا على وابور الجاز ، واللمبة ، والأكلات المبتكرة التى استخدم فيها الأعشاب والتوابل» .

التصوير على ورق البردى

وقد استرعت أنظار النقاد اعمال الفنان آدم حنين بالتصوير على ورق البردى ، فى محاولة جادة للبحث عن تصوير مصرى معاصر حيث اعتمد الفنان على خامات قدمتها الطبيعة فاستعمل نبات البردى المصرى بعد مرحلة الفريسك والحبر الشينى وألوان الشمع والنحت، وكلها محاولات للبحث عن وسيلة جديدة معبرة أكثر منها تجارب مجردة فى الخامات والشكل .

إن لجوء آدم حنين إلى الصعيد، كان بحثا عن بقايا «أشياء» حقيقية فى حياتنا المبانى، والناس والعادات، التى

مازالت باقية منذ الحياة الفرعونية القديمة. لقد وصل آدم جنين إلى معادلة بين الفن الفرعوني والمفردات الشعبية وكان الاتزان الذى بواسطته احتفظ بأصالته.

وسافر إلى باريس عام ١٩٧١ وهو دائم الاحتفاظ بهذا الاتزان الذي مكنه من أن تصبح مفرداته تجمع بين الأصالة والمعاصرة بكل دقة هذه الكلمة، وحيويتها التى تنعكس على فنه .. وبهرت باريس بفن «آدم حنين».

إن الكتلة فى خطوطها البسيطة والصريحة، تحوى الكثير من الأشعاع الداخلى المعقد، والمحمل بالوشائج التى تربط الفنان بعمله الفنى، وفى باريس دخلت أعماله النحتية دائرة الضوء. ثم حين بدأ يرسم على أوراق البردى، اعتبر النقاد أن آدم حنين من الفنانين التجريديين القلائل الذين تفوق عليهم بنحته، باستخدام الباليتة الفرعونية الأصيلة .. وكيف ننسى لوحة «آدم» «ضوء القمر فى الشباك».

وفى النحت مفرداته الأسطورية السمكة، الفلاح، الدائرة، ثم تمثاله «الأجنحة» من النحاس، وهى الجائزة التى تسلم فى مهرجان السينما مقابلة لتمثال الأوسكار الأمريكى .

لقد اقتنى المتحف البريطانى إحدى قطعه الثمينة، وكتب اسمه فى «انسكلوبيديا الفن» إن مجمل فن آدم من وحى آساطير بعيدة وقفت بجانبه على أرض الواقع وأصبحت فنا خالصا.

إن بذرة التجرد عند آدم خليط من الفن الفرعونى. والقبطى والإسلامى، فهو محاط بالتراث من كل جانب .

فى السومبوزيوم

وفى عام ١٩٧٧ دعى الفنان آدم حنين إلى «سومبوزيوم» فى يوغوسلافيا رخام .. وحين عدت إلى باريس أخبرت الفنان فاروق حسنى وكان مديرا للمركز الثقافى المصرى فى باريس عن هذه الفكرة الرائعة ، وحين عدت إلى مصر كلفنى الوزير الفنان بإدارة السومبوزيوم .

وأصبحت أسعد أوقاتى التى أقضيها فى المحجر بأسوان من فبراير إلى مارس، أخرج فيها كل ما فى أعماقى من أفكار ومشاعر محبوسة وأنجز أعمالا كثيرة ، وأشعر براحة نفسية فى أسوان حيث أشعر أنها مدينة تساعدنى على التأمل ، فالتأمل يؤدى إلى الممكن وغير الممكن ، ولا يمكن الوصول إلى الايمان العميق بلا تأمل ، والتاريخ يربط الفن بالدين ، وإذا تخلى الفنان عن الدين بالمعنى المطلق لا يمكن أن يفرز فنا .

الفنان

قصة بقلم :

أحمد عبد الله متولى

بريشة :

صلاح بيصار



أراد أن يفر من كل شىء. اعتكف فى غرفته البسيطة الأثاث. تنتصب أمامه اللوحات.. أنابيب الألوان الفرش وزيت الرسم والأقلام والأوراق. على المنضدة تكومت بعض أوراق الرسم (الكانسون) وفرش مجمعة فى إناء خزفي. ودورق به ماء ملوث بالأوراق المختلطة. وترتمى على عينيه لوحات التوال المشددة وصناديق خشبية بها قطع صغيرة من الزجاج الملون.

فى الجو لسعة برد. أضواء القاهرة متناثرة بين بقع منظمة، يحلو له أحيانا أن يقف فوق أعلى مكان ومعه عدسة مكبرة ليراقب عاصمة المتناقضات.

ويشاهد ما يخدش الحياء إذا نظر إلى الجو!، الأقزام فى الشوارع، يراقب عالما من النمل. ولا يعرف نظام النمل وقوته وجبروته .

يجلس إلى لوحة، يرسم بفرشاته، الفرشة تحاور الألوان، لمسات تأثيرية يسمع نقرات على الباب الموارب، يرى شابة

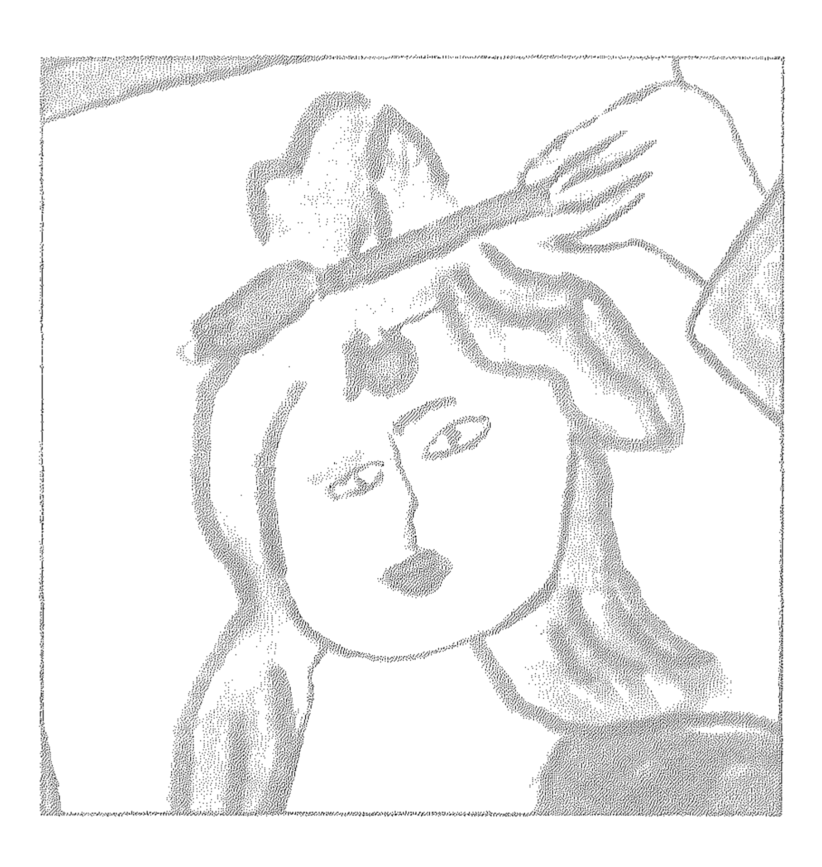
حسناء، طويلة فى غير إسراف، ترتدى ملابس البيت. حافية.. بيضاء.. ينسدل شعرها على المنكبين.. حرا طليقا.

يسمعها تقول بصوت موسيقى دافىء: مساء الخير .

- مساء الجمال.. تفضلى .

- أنا جارتك.. آسفة قطعت وحدتك.. ولكننى مضطرة.

وجدها مضطربة، مرعوبة سألها أى خدمة.. لماذا أنت خائفة هكذا.. تفضلى.. اكتشف فجأة هيئته المزرية ولحيته الكثيفة.. رائحة السجائر التى عبأت المكان رغم النافذة المفتوحة.. والباب الموارب!.. كل شىء حوله مبعثر. المجلات المتنوعة.. والكتب التى تتناثر وزجاجات النبيذ الفارغة. لا شىء ينطق بالانسجام سوى الموسيقى الخافتة. يسمعها تقول: كم أنا خجولة. نحن فى منتصف الليل ولا أستطيع النوم فى غرفتى فأر، وربما أكثر من فأر.



يضحك من قلبه. إنها تخاف من فأر! يحمر وجهها غضبا أو خجلا، لا يدرى، جميلة الهيئة. شعرها المنسدل على منكبيها فى حرية. ينظر إلى عينين لوزتين.

- أرجوك.. لا تسخر منى، لا أستطيع أن أنام مع الفأر فى غرفة واحدة! لا أعرف من أين جاء، وكيف يصعد إلى أعلى كل هذه المسافة، هل تساعدنى فى اخراجه من غرفتى؟ .

يقول متصنعا الجدية

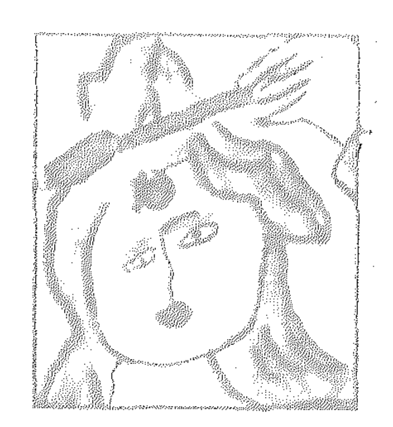
- حتى لا يغضبها - بكل سرور .. الجار للجار!.

مشت أمامه.. يلاحظ مشيتها الأنثوية الرقيقة. يشم الهواء النقى.. ينتعش.

تدخل الغرفة، خائفة، تشير إلى ركن كان هناك.. ربما تحت السرير.

- بسيطة.. نقفل الباب جيدا والنافذة.

- أنا خائفة.. مرعوبة.
- منى.. قالت : لا .. من الفأر.
يحرك بعض الحقائب من مكانها. لم ير شيئا، يرفع بعض الأشياء الصغيرة، ملابس، علب كرتون.. يلمح الفأر يجرى إلى الزاوية! .
- هل لديك مكنسة؟.
تعطيه المكنسة.. يحاصر الفأر بين المكنسة من ناحية وبقطعة قماش فى يده من ناحية أخرى. تحرك الفأر بسرعة. كاد يفلت، عاجله بضربة فوق رأسه، تكوم الفأر.
الشابة الصغيرة تدفق وجهها بكفيها حتى لا ترى منظر الفأر، ينظر إليها فى حيرة، يراها حزينة لموت الفأر! .
- آسف، لم يكن أمامى غير قتله، أو تركه ليفزعك.
فتحت الباب وأحضرت له جاروفا وقالت: لو سمحت.. خلصنى منه .
- حتى وهو ميت.. تخافين منه.
- وهو ميت.. أخافه أكثر.
كوم الفأر فوق الجاروف، وقذف به من النافذة إلى الشارع! .
غمز لها بعينه: خلاص.. دفناه.. فليرحمه الله! .
ألف شكر على انقاذى.
ابتسم للمهذبة. بدا يلاحظ جسمها من تحت القميص البيتى الشفيف. لاحظت نظراته هذا الجسم الجميل لا ينبغى أن يموت، لابد أن يرسم ويخلد!، هل توافق! قال.. ما رأيك، تشربين الشاى معى، لقد تعرفنا بسبب الفأر المسكين وله الشكر. ابتسمت، نور يسطع، ملامح أنثوية رائعة. أما الجسم، يا الله لابد أن ترسم. يقول لها: لا تخافى، لست فأرا، وكما رأيت أنا فنان مسالم يبحث عن الجمال والإنسجام الهارمونى.
- المفروض أن تشرب الشاى عندى.
- أنا صاحب الدعوة أولا. ثم إننا فى بيت واحد..
- اسبقنى.. سوف أغير ثيابى.
- سوف أترك الباب مفتوحا من أجلك.
- أنت لاتخشى الفئران أو اللصوص!.. فنان! .
عاد إلى مرسمه، فوضاه. طرقت الباب بلمسات رقيقة، يراها ترتدى فستانا من الفانيلا يظهر تضاريس جسمها العبقرى. تحمل صينية فضية فوقها براد الشاى وعلبة السكر وأكواب من الفخار. تضع الصينية فوق طاولة خشبية مسدسة الشكل. تعطيه كوب الشاى مع ابتسامة تنبض على شفتيها كحيوان جميل. لاحظ الأصابع الدقيقة والأظافر اللامعة. خلعت الشبشب من قدميها بدت أكثر بساطة وإنسانية. جلست



أمامه، بدت ركبتاها المتكورتان المكتنزتان.

- لاحظهما وهى تساعد فى مطاردة الفأر - كما لاحظ سمانتى رجليها الممتلئتين فى نسب جميلة، متناغمة مع باطنى قدميها المكشوفتين.

يقوم فى خفة ويحضر من الثلاجة كل ما عنده من فاكهة، عنبا وبلحا وبرتقالا وموزا، فى صينية واسعة، فى أكوام متناسقة.

- تفضلى يا أجمل خائفة رأيتها فى حياتى.

قالت بصوت هادئ، رخيم: أنت تحب الفاكهة.

تتجول بعينين لوزتين فى أنحاء الغرفة، ترى الأشياء لأول مرة. تتطلع إلى الأشياء بحب. يقول يدافع عن عالمه: لا تؤاخذيني، هكذا حالى. عزابا فوضويا، أشارت إلى اللوحات: لكن ألوانك وخطوطك تتعايش فى ألفة ونظام.

- سبحان الله. انها الفوضى المنظمة.

- يعجبنى هذا.. الفوضى المنظمة.

- تفضلى الفاكهة. أنا لا أجيد الطهو، أتناول طعامى فى أى مطعم، لكننى أصبحت خبيرا فى المطاعم الجيدة! لكننى فى البيت لا أتعاطى غير القهوة والشاى والمرطبات، وإذا جعت، الفاكهة الحلوة الناضجة .

قالت: ما أشهى الفاكهة الناضجة فى مواسمها.

يتأمل الحاجبين البديعين والأهداب الطويلة، يناولها سيجارة، يشعلها. راحت تدخن وتحتسى الشاى الساخن فى تلذذ، وصوت الموسيقى ينساب فى المكان والأسماع. تحدق فى إحدى اللوحات. يسألها: هل يعجبك الرسم؟

- جدا.

- أود أن أرسمك. هل توافقين؟

- لم لا .. الفن هو الأبقى.

سحبت نفسها من الدخينة. مازالت تتأمل الألوان.. سألته فجأة: هل أنت وحيد؟ .

- أنا وحيد تماما. وهذا المكان هو منفاى الاختيارى.

تقضم بلحة مسكرة. ترفع - برفق - بعض الصحف والأوراق من فوق الكنبة. تجلس براحتها.. تمدد ساقيها.. تقول فى عذوبة أسحرته.

- ألا تجلس إلى جانبى.. ذلك أفضل.

يمد يده إلى وجهها.. يالك من مليحة. تقبله فى الشفتين بترو.

تبتعد عنه قليلا.. تحدق فىّ عينه. أنفاسها دافئة. كان مبهورا بجمالها وصراحتها.

تقول: كم أنا سعيدة بمعرفتك! .

- لا أجد الكلمات لأصف سعادتي. أنا الآن في السماء السابعة.

وقفت تتأهب للانصراف. يقول مندهشا: تذهبين الآن.. هكذا.. لا أصدق.

- أتركك في السماء السابعة.

- هل أراك غدا.. أم نسيت موضوع الرسم.

- لم أنس.. سنلتقي بعد يومين. وقبلته قبلة خاطفة.

تركت المكان إلى الساحة المكشوفة، تحمل الصينية، وتتجه إلى غرفتها. الهواء منعش.. يداعب شعرها الهواء يتبعها ببصره وهي تقفل الباب ملوحة. احتوته سعادة طاغية. مازال عطرها معه. الروعة، الشباب، الجمال، الجرأة. يضع فصاً من البرتقال في فمه.. يستحلبه. كأنما يستطعم حلاوة البرتقال لأول مرة، يستقبل النسمات المنعشة الآتية من النافذة البحرية. يراقب نجمة خضراء.. في متناول الرؤية، تؤنسه باشعاعها الغريب.

أصبح المكان بدونها خاويا. المساء يحبس أنفاسه في انتظار خطواتها ينظر إلى المطر المنهمر، أسلاك الفضة على الزجاج، يستحضر الأفراح واللهفة. والهمس المضيء، القلب يدق كالطبل، ينتشي مع ألحان باطنية.

تحضر أمامه، يرسمها. تطلب أن ترتب الغرفة. يقول: لا تتعبي نفسك هذه الأشياء اللعينة تعود إلى الفوضى من تلقاء نفسها.

حين راح يتكلم معها حول الفن التشكيلي، أذهلته. إنها تعرف أعمال سيف وانلي، وراغب عياد، فؤاد كامل، صلاح طاهر، حامد ندا، أحمد صبري، الجزار، النجدي، إنها تعرف وتتذوق المدارس الفنية، تحب الانطباعيين والتأثيريين، وتعشق الفنون الإسلامية، وآثار مصر القديمة، تنبهر بجامع السلطان حسن تقول له في الشارع: أنا جوعانة.. لا تكن بخيلاً.

لندخل هذا المحل.. إنه متميز في الكباب والكفتة.

- سنأكل كشري. تعالي.

في المطعم، تقول له أريد غداً أن تتذوق طعام يدي، أنا طاهية بارعة. واصنع حلويات، لن تنسى طبق أم علي. كما أنني عازفة عود، وأغني، ستأكل وتحلي، وتسمع موسيقى وغناء، هارون الرشيد في زمانه!

- يخرج لها سيجارة من العلبة، يحدق في وجهها الجميل. يسأل نفسه (من هذه الحسناء؟ إنني لا أعرف عنها أي شيء، ماذا تريد مني؟..) لابد أن ينفض هذه الأسئلة اللعينة. إنها لم تطالبه بشيء، تعطي بسخاء نادر. تنظر في

عينيه، تبتسم. تقول: انت تفكر فيّ .. أليس كذلك؟.

- هذا صحيح.. لا أكف عن التفكير فيك.

- وتسأل نفسك من أكون.. ماذا أريد.

- يا إلهى .. هل أنت جنية! .

- أنت تخاف منى! .

- مستحيل.. أخاف من هذا البهاء..! .

- لماذا تفكر نفسك بأشياء لا قيمة لها؟ .

- أنت ذكية جدا.. تخترقيننى.

- أهذا يغضبك؟ .

- يجعلنى كالفأر فى المصيدة.

- المسألة ببساطة.. إننى أحببتك.. هكذا دفعة واحدة.

- يا إلهى.. سأجن من السعادة.

- إننى أحببتك.. وإلا ماذا تظن بى.. أنت أول رجل أفتح له قلبى (أول حب).. ولقد لمست ذلك بنفسك.

- هذا حقيقى .

- تبتعد عنه فى دلال: هل ترتاب فى كلامى؟.

- يحتضنها.. يعتذر عن سخافة الكلمات والظنون.

تجلس أمامه تحت الأضواء الكاشفة. يرسمها فى جدية.. يحاول أن يسبر أغوارها، يبحث عن شىء وراء البسمة الساحرة.. تأخذ استراحة، تتدثر ببطانية، تشعل سيجارة. يقدم لها القهوة. يدخنان معا، يثرثران حول قضايا العالم. يذهل انشغال رأسها الجميل بنهاية الكون، تنظر إلى السماء تقول بصوت شجى: هل يصدق أحد.. أن بلايين السنين قد مرت على كوكبنا. ذات يوم بعد خمسة بلايين سنة، تفنى الشمس الرائعة، ويفنى عالمنا. هيه.. لا أدرى هل الناس على صواب.. أنهم لا يفكرون إلا فى يومهم!.

- هل تفكرين بجدية فى مسألة موت كوكب!.

- بالتأكيد. ويقلقنى لا مبالاة البشر. الحياة جميلة وتستحق الحفاظ عليها. ولكن كلما فتحت الراديو.. وجدت القتل والثورات والحروب الأهلية والتجارب لأسلحة الدمار الشامل! أحس بغباء البشر!.

يضحكها قائلا: وانت جبانة.. تخافين الفأر.

تضحك ..وتهمس: لكننى قوية بالحب.

أراد أن يعرف شيئا عنها، أين ولدت، متى، تقول ساخرة، ربما لم أولد بعد.

- ولادة سريالية إذن.

- كل الولادات سريالية، روح تخرج من روح، وجسد يخرج من جسد.

يتجولان فى معارض الفنون. فى المساء يذهبان إلى السينما، يستدرجها.

- التليفزيون مثل السينما.. نجلس فى البيت الليلة.

- التليفزيون مثل التليفزيون! السينما شيء آخر، سحر آخر، كيف تشاهد المجاميع الضخمة فى علبة صغيرة؟. لقد رأيت فيلم كليوباترا فى السينما، وشاهدته فى التليفزيون، قررت أشاهد الأفلام فى مكانها الطبيعى.

هيا بنا لا تتكوم مثل الزواحف. أنت تغيظنى بكسلك! .

يقف أمام اللوحة، يتذكرها، يتذكر كل شىء. كيف ومضت فجأة وتلاشت. رحلت إلى الأبد.

أشياء كثيرة تذكره بها - عبر البورتريه - ظن أنه يمتلكها يقف أمام (البورتريه) خطوات وألوان.. لمسات سريعة مصبرة.

ينظر صوب الباب الموارب لعله يرى الشابة الحسناء، حافية.. أقدامها ناعمة.. مضيئة.. نزلت توا من السماء! .

يحدق فى الوجه.. الابتسامة الساحرة. يسمعها تنطق (ربما لم أولد بعد) متى جاءت لترحل؟.

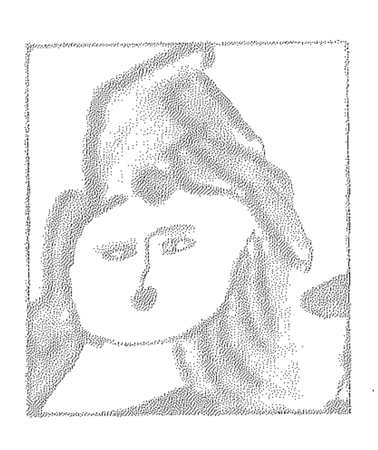
العيون تسيل عذوبة. يسمعها (تريد الحب الأزلى.. حبا حقيقيا.. حبا لم تعرفه مدن الريح والملح).

يدفن وجهه.. هل كان وهما؟. هل كان حلما؟. تطل من اللوحة. إنها الحقيقة المؤكدة. يتذكر كيف وقفت على أطراف أصابعها وطرقت عنقه ولثمت شفتيه.

يسمعها تداعب «لاتتجمد هكذا يا وغد الأوغاد.. احضنى حضن رجل عاشق».

ينظر إلى اللوحة. تنظر إليه. تنبض على شفتيها ابتسامة غريبة. نظراتها المحيرة.

يقول لها والدموع فى العينين: لماذا رحلت فجأة؟.



تقول: من قال أننى رحلت.. لقد استوطنت قلبك.

يتجه إلى الغرفة - غرفتها التى دخلها معها أول مرة يستمتعان بحكاية الفأر - يطرق الباب فى رجاء. تخرج له فتاة غريبة القناع، غريبة الصوت.. حادة النبرات.

- ماذا تريد. طلباتك؟ لماذا تحملق هكذا..

- أنت لست هى.

- «نعم!. مخمور حضرتك». تقفل الباب فى وجهه.. وتلعن الدنيا.

ينزل إلى الشارع ، لايعرف أين يبحث عنها.. المطر ينهمر فوق رأسه مدرارا □



الإبداع والمكان

المكان في الكتابة الروائية

بقلم : جميل عطية إبراهيم
بريشة الفنان : جودة خليفة

«المكان والكتابة الروائية» موضوع يطول شرحه ، وله تداعيات ومداخل متباينة ، فحول معايشة المكان وأثره فى الكتابة ، واسترجاع المكان بعد فترة زمنية طالت أم قصرت عند الكتابة، وتخيل الأمكنة غير الموجودة والكتابة عنها، يطول الحديث .

وهذه ليست مقالة نقدية أو دراسة أكاديمية ، لكنها شهادة تمس صلب العملية الإبداعية عندى ، شهادة من واقع الكاتب والكتابة ، شهادة انطباعية على حد قول أستاذنا يحيى حقى، ربما تكون لها فائدة عند قارىء أو دارس أكاديمى فيما بعد ، وتفصلنى خمسون عاماً على الأقل ، عما أود تسجيله هنا عن بعض المواقع التى عشقتها وكتبت عنها ، ولعل هذه الفترة الزمنية الطويلة تغفر لى الكتابة من بحر الذاكرة الخوانة، ففى أقل من سن العاشرة لا توجد مذكرات مكتوبة ، كما أننى أكذبك القول أيضاً ، إذا زعمت أننى وقد تجاوزت سن الستين من العمر أحتفظ بمذكرات مكتوبة على ورق أو مسموعة على أشرطة أو مصورة على أفلام.

فمن هذه الناحية - ناحية التدوين - عدتى فقيرة ، وفى معظم الأحوال أسافر ولا أحمل كاميرا على كتفى أو أوراقا فى حقيبتى ، وكل مايخصنى من ذكريات عن الأمكنة والناس ، أحتفظ به داخل رأسى ولا أقول فى قلبى . ولنقل إذن هذه صفحات بعضها من زمن بعيد مضى ، وبعضها من زمن قريب حاضر ، فالطفل والصبى والشاب الذى كنته ذهب إلى غير رجعة ، ابتلعته أيامه ولفظته شخصا آخر، ربما أفضل مما كان عليه وربما أيضاً أسوأ حالا ، هذا كله جائز ، ولكنه ليس موضوعنا ، وحتى تصدقنى لنقرأ هذه السطور.

وقد يتصور قارئ - ومعه كل الحق - أننى سوف أكتب عن أماكن محببة دفعتنى إلى كتابة ما ، فهذا هو المفترض أو المعقول ، لكننى سوف أحيله هنا إلى أمكنة عشقتها، ورجعت إليها عند الكتابة ، وأخرى لا أحبها ، ووجدت فيها ساعة الكتابة ، وهى الأمكنة التى أطلق عليها : الجغرافيا الطاردة ، والأمر ليس فيه لبس أو تدليس ، بل هى ظروف الحياة الجبارة.

التفرقة بين المكان والجغرافيا

من الأقوال الشائعة وإلى حد الابتذال، القول بأنه لا تاريخ دون جغرافيا، ولا زمان دون مكان ، وهذه أقوال كبيرة تحيل لنظريات علمية معقدة ليست مجالنا هنا، لكن فى الأدب وفنون السرد عامة ، لاسرد دون عناية بالمكان ، كما أنه لا سرد دون عناية بحدث ما أو عدة أحداث متتالية أو متقاطعة ، وهذا هو الدرس الأول الذى يقترب من القاص - عن وعى أو بغير وعى - فى بداية عمله كقاص .

رؤية المكان وتأمله ، والبحث عن العلاقات الخفية بين الأشياء من مهام القاص النابه ، ثم تأتى القدرات الخاصة التى تميز بين كاتب وكاتب ، فهناك من يمسك بشعلة الفن الكاشفة فيلقى بضوء على ما لاتراه عين عادية ، فتبدو الأشياء البسيطة كأنها كنوز تفيض بدلالات موحية.

والمكان فى القص الروائى المصرى خاصة محل دراسات أصبحت شائعة ، وله أمثلة معروفة ، فلا يمكن تناول أعمال أستاذنا نجيب محفوظ دون إشارة إلى منطقة القاهرة الإسلامية ، وأعمال إبراهيم أصلان تحيل إلى منطقة الكيت كات وإمبابة ، ورواية صفية والدير لبهاء طاهر تحيل إلى مدينة الأقصر ، وأعمال محمد البساطى تحيل إلى بحيرة المنزلة ، والأمثلة كثيرة ، فهناك أعمال عبد الحكيم قاسم ويحيى الطاهر عبد الله وغيرها من أعمال متميزة فى أدبنا المعاصر ، وهذا

ما أطلق عليه الجغرافيا فى القص ، لكن مايشغل الكاتب أكثر تعقيداً من مسألة الجغرافيا هذه في عموميتها ، فهو يستحلب المكان قطرة قطرة، ليضعه أمامنا كبطل مشارك فى الأحداث .

لا يكفى أن تدور أحداث رواية فى منطقة الصعيد أو وجه بحرى لنتحدث عن المكان فى تلك الرواية، فالجغرافيا الواسعة لا ترضي كاتبا أو قارئا ، المهم هو التفاصيل الصغيرة وعلاقة تلك التفاصيل بعضها ببعض.

ومن أجمل الأقوال فى صدد الحديث عن الجغرافيا فى الأدب، قول محمد حسين هيكل صاحب رواية زينب ، فى مقدمة إحدى طبعات الرواية إنه كان عند كتابة فصول تلك الرواية فى سويسرا أو فرنسا يشد الستائر على نوافذ الغرفة حتى لا يرى ما حوله من جمال خلاب، وليكتب عن الريف المصرى وبؤسه ، فهنا يهرب الكاتب من جغرافيا ليكتب عن جغرافيا أخرى يعيشها داخله.

وكان من حسن حظى أننى التفت إلى قول كاتبنا الكبير محمد حسين هيكل بعد إقامتى بعام أو عامين فى سويسرا ، فأدركت أبعاد المشكلة التى تنتظرنى كروائى .

وربما يزعم قارىء أن تلك الأقوال مبالغات وفرط حساسية ، فالريف عماده بقر وجاموس ، وطبيعة خلابة ، وهذه واحدة فى مصر وسويسرا ، وهذا قول صحيح وخادع إلى حد الكذب ، فالريف حقيقة عماده بقر وطبيعة خلابة ، ولكن البقر غير البقر، بالمناسبة وسط أوربا لا يعرف الجاموس فى مجمله ، وخذ عندك ، البقر فى سويسرا ، تعلق فى رقابه نواقيس، تصدر مجموعات متباينة من النغمات المتتالية فى الصعود ، فإذا تحرك أصدر سيمفونية متكاملة النغمات ، تعلن عن اقترابه أو ابتعاده ، وهذه الأجراس تختلف عن الناقوس الذى يعلق فى رقبة البقرة الدائرة فى ساقية.

هذه واحدة ، أما الفروق الأخرى فهى كثيرة ، ولا داعى للحديث عن الريف السويسرى ، وإلا أثرنا مواجع كثيرة.

المهم . تعمد الدكتور هيكل نسيان ما يحيط به ، ليسترجع مابداخله، ليكتب . وهذا مافعلته أنا أيضاً ، ولكن بدرجات متفاوتة وبطرق مختلفة ، وربما نجحت



وربما كان الفشل نصيبي ، وهذا هو مفهوم الجغرافيا الواسع في هذا المقال ، ولكن الأمر أكثر تعقيداً من مفهوم الجغرافيا الواسع ، فهناك تفاصيل المكان، وهذا نسيج غني يضم الإضاءة ودرجاتها والظلال وحدتها ، والأصوات وتنوعها ، ودرجات حرارة الجو ، وقدر صفو السماء ، وحدة صدى الصوت ، وسيولة الطرق ، وزحام الناس، وكل واحدة من هذه التيمات في حاجة إلى تفصيل . وهناك دراسة عن معرفة الزهور التي يعرفها الكاتب ، وحصيلته منها، إذا تحدث عن مائدة أو حفل عشاء، وهل يعرف أنواعها والفروق بينها أم يكتفي في أعماله الأدبية بالورد البلدي . هذا عن الزهور فما بالنا بالأشجار ، أليست هذه كلها من ملامح المكان؟

يوسف إدريس إذا أشار إلى اسم شجرة أو نبات ، أعقبه بوصف أصيل نابع عن معايشة ومعرفة ، وهذا أمر غالبا مايغيب عن ابن المدينة نجيب محفوظ ، ربما أطلت في شرح هذه النقطة ، وهي ليست في حاجة إلى شرح ، لكنني خشيت من سخرية ساخر ، يقول أو يتساءل ، هل إذا أراد روائي الكتابة عن سجن أو معتقل عليه سرعة دخول السجن أو المعتقل ، والرد هنا قياسا على المبالغة ، ربما.

وقبل ترك مشاكل الدكتور هيكل مع الكتابة في سويسرا وفرنسا ، نذكر القارئ بأن الريف السويسري لايعرف الحمير جملة وتفصيلا ، فهل كان سهلا على الدكتور هيكل وهو يخط صفحات روايته غياب الحمير ، كلا ، إنني أزعم أنه إذا كانت أجهزة التسجيل قد عرفت في زمنه لأسرع بطلب تسجيلات من العزبة عليها أصوات : يا ولد ياحميدة يا ابن ... وتسجيلات أخرى عليها أصوات بقر وجاموس ونهيق حمير ، ليستمع إليها وهو يكتب في غرفة معتمة مغلقة الستائر.

لماذا الإطالة في هذه النقطة ، لأنها تتعلق بتفاصيل المكان ومثيرات الإبداع عند الكاتب ، وهذه تختلف من كاتب إلى آخر . فالعناية بالمكان هنا ليست لدقة الوصف أو النقل فقط ، كما يظن النقاد الأفاضل، فتفاصيل المكان تثير الحواس الخمس ، وهذا مدخل المثير الفني عند الكاتب.

وللتغلب على مشكلة الجغرافيا الطاردة التي واجهت الدكتور هيكل ، إليك مافعلته أنا بعد عدة عقود من ظهور رواية زينب ، كنت استمع ليل نهار إلى تسجيلات ساخرة للشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم عند الكتابة، كمثير إبداعي للبحث عن الأمكنة الغائبة واسترجاعها، في محاولة يائسة ، للاقتراب منها وتلمس تضاريسها، ولا أقول الإمساك بها، فهذا

ترف بعيد المنال.

ولأن الفنون جنون ، أو مبالغات فى الحس والشعور ، أقول صادقا إن غياب الحمير والجاموس قد يعطل كاتبا فى الغربة عن الكتابة عن الريف المصرى ، ومن لا يصدق عليه مراجعة تلك الفصول الفاتنة التى كتبها يحيى حقى عن الحمير فى روايته «خليها ع الله» أو عبد القادر المازنى فى روايته الفذة «إبراهيم الكاتب» عن الريف.

إذن المكان له دور فعال أبعد من الوصف عند الكاتب فهو مثير فنى ، فقدانه يثير اضطرابا لدى الكاتب مهما كانت اهتماماته ولنا من خبرة الدكتور هيكل عبرة حسنة. ويوجز الكاتب الكبير بهاء طاهر القضية فى قوله الذى لا يمل من تكراره عن خبرة وطول معاناة ، إن الكتابة فى الغربة محنة.

بين القاهرة وسويسرا .

ومن أبلغ الذكريات عن أماكن الطفولة المتبقية فى الذاكرة ، وسجلتها فى رواية «البحر ليس بملآن» التى كتبت ما بين القاهرة وسويسرا، مشهد تنافس الصغار على صيد الزنابير من فوق الروث والبراز فى الطرقات ، كانت هذه لعبة مفضلة للصيد إلى جانب لعبة كرة الشراب ، على الرغم من قسوتها وبشاعتها . الصيد أى صيد فيه متعة غريزية ، وتأمل معى الموقف



بتفاصيله ، فى أيدينا مذبات ، كنا نصنعها من قطع القماش والسلك والعصى، كأدوات صيد فعالة ، عدتنا وسلاحنا فى مواجهة الزنابير ، وما أدراك لسعة الزنبور ، والأمر يتطلب اقترابا من ... تأمل الموقف لايقل بشاعة عن ممارسته، لكنه اللعب ومتعة الصيد ، لعبة فرضتها جغرافية المكان الفقير على أطفال فقراء ، فى سنوات أشد فقرا ، هى سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية، وهنا يطل التاريخ برأسه ليلحق بالجغرافيا.

هذا مشهد كتبته فى سويسرا، وأعدت كتابته مرة أخرى فى القاهرة قبل النشر ، بعد زيارة إلى منطقة مصر القديمة ، لتأمل جغرافيا المكان ، وربما حفاظا على ود انقطع بسبب الترحال ، ووجدت المنطقة غير المنطقة . وما كتبته ونشرته من ذاكرتى أنا .

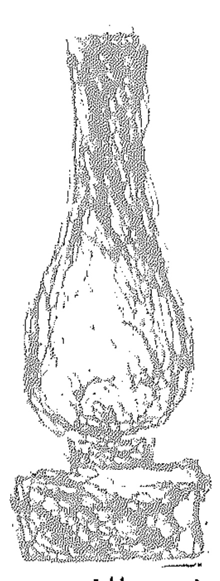
وتتضمن رواية والبحر ليس بملآن عدة

مشاهد لتناول غداء أو عشاء بالزى الرسمى فى مطاعم فاخرة منعمة فوق جبال الألب فى سنوات الثمانينات ، لكن المشاهد القادمة من ذاكرة السنين كانت أصدق ما فى تلك الرواية صغيرة الحجم المحببة إلى قلبى، فالمتخيل كان أصدق من المعاش المعاصر للكتابة.

وبعد هذه المقدمات التى طالت - نحن لم ندخل فى الموضوع بعد - وبعيداً عن أقوال الكتاب والمعارف الحقيقيين ، أود سماع «عجيب كفافى» بطل رواية «أوراق سكندرية» فأبطال الروايات لا يكذبون ، وإن كانت حياتهم كلها كذبة حقيقية ، ويزعم عجيب كفافى أنه مولع بالتاريخ ولا تشده الجغرافيا ، فإذا جلس إلى مكان لا يغادره، لا يدفعه فضول لمد البصر حوله ، ولا تساوره رغبة فى معرفة ما يحيط به على مبعدة أمتار - كما يزعم أيضاً أن هذه طبيعته ، التاريخ ولعه والجغرافيا لا تهمه ، ولكن الحقيقة أنه لا تاريخ دون جغرافيا ، فهل كان عجيب كفافى صادقاً فى قوله ؟ وإلى أى مدى كان صادقا، هذه هى المسألة ؟

الجغرافيا والتاريخ

من ناحيتى أرى أنه يجب أخذ كلمات عجيب كفافى فى رواية «أوراق سكندرية» فى حذر شديد، فالرجل مهنته الترجمة وليس كتابة الروايات والقصص ، لكنه من



ناحية أخرى شديد الشبه بحياة صاحبنا، فالرجل تربى فى مصر القديمة وسافر فى شبابه إلى سويسرا وعمل فى جنيف ، وهكذا بدأت حياة صاحبنا ، ولد فى الجيزة وأمضى طفولته المبكرة وصباه وشبابه المبكر فى مصر القديمة على مقربة من بيت عجيب كفافى أمام جامع عمرو ابن العاص . وإذا كانت مزاعم عجيب كفافى صحيحة ، ولاشك أنها صحيحة فهى تخصه هو، ولا يأخذها صاحبنا شيكا على بياض ، فقد تعب وشقى بسبب الجغرافى والتاريخى ، فالجغرافيا لاتشده حقيقة ، لكنها تفرض نفسها عليه وتقبض روحه ، بسبب ثقل وطأتها ، فغمض عينيه لايلغيها كلية ، الجبال الشاهقة قائمة حتى إذا حولنا البصر عنها ، والثلوج تسقط إذا أغمضنا أعيننا أو فتحناها على آخرها، صوت ارتطامها يعلن عنها، وخطورتها عند السير تظل قائمة، صاحبنا

يسقط على الثلوج كل عدة أمتار ، هذا عن سويسرا ، أما عن مصر القديمة فحدث ولا حرج، فأكوام القمامة ممتدة على جانبي خط قطارات سكة حديد حلوان ، أو مترو حلوان حالياً، تغير القطار وتطور ، وبقيت على حالها ، وشاهدتها في الشهر الماضي في زيارة لي إلى المنطقة، الذي تغير فقط، الميدان المقابل للجامع تم تنظيفه ، وتنظيمه إلى حد يروق الإعجاب ، بعد أن كان منذ عدة سنوات مثالا للفوضى ، أما الشوارع الجانبية فهي لاتزال على حالها .

والسطور السابقة هي محصلة الجغرافيا القائمة بعد زيارة حقيقية، والجغرافيا المتخيلة من زمن الطفولة ، سقتها إليك كما رأيتها وتذكرتها ، أما إذا أردت تضمينها في عمل فني، فالأمر يختلف.

على كل حال قبل الفراغ من موضوع الجغرافيا الواسعة ، أود الإشارة إلى أنني لم أقدر على تذوق أعمال الن روب جرييه التشيئية حتى وقفت على جبال الألب، ففي سنوات الستينات ، قرأت ترجمات جيدة للصديق ادوار الخراط ، والدكتورة نادية كامل لقصص الن روب جرييه، ورأيت دوما حاجزاً يفصلني عنها ووجدتها كئيبة وتصيبني بالضيق، ففي تلك القصص الأشياء لها ثقل مع غياب البشر كلية أو جزئيا، والطبيعة والأشياء بدل الإنسان، وعلى جبال الألب وقفت وحيداً في فراغ ، ولا أحد، الطبيعة لها ثقل ، هي كل شيء فهمت معنى التشيئية، ومعنى سير مجموعة طيور على شاطيء البحر لتترك آثار أقدامها، وهذا كل شيء في القصة، وتقبلت مالم أكن أتقبله في السابق، ففي القاهرة لا تقدر عين على رؤية الرصيف بسبب كثرة الأقدام، فما بالنا بغياب البشر . الطبيعة في القاهرة غير موجودة ، والإنسان هو الذي يملأ الحيز الأكبر ، وليس الطبيعة . فهل يعقل أن يضع كاتب الطبيعة بدلا من الإنسان؟

هذه خواطر شغلتني بخصوص الجغرافيا المحببة والأخرى الطاردة لسنوات طوال، ولكن القضية أكثر تعقيداً من هذا التبسيط المخل ، فالمكان وليس الجغرافيا في عموميتها هو عماد القص.

تفاصيل المكان عند إدوار الخراط وإبراهيم أصلان

كاتبان من جيل الستينات يلعب المكان عندهما دورا بارزا في القص، ادوار الخراط وإبراهيم أصلان على اختلاف منهجهما ورؤيتهما للعمل الفني ، وهذا لا يعني أن بقية الكتاب لايهتمون بتقديم المكان ، فهناك جمال الغيطاني وتقديمه

اماكن تخيل إلى عهود إسلامية فى تراثنا تتوافق مع لغة القص عنده، وفى شطح المدينة قدم جمال الغيطانى مدينة خيالية، وهناك صنع الله إبراهيم الذى يهتم بتقديم أماكن مرعبة تدور فيها أحداث روايته اللجنة. ودراسة المكان عند الكتاب ممتعة، نظراً لتميز الكتاب ، واختلاف رؤيتهم ، لكننى أود التوقف عند إدوار الخراط لأن المكان عنده هو جسم وروح العمل الفنى، أنظر إلى مدخل روايته رامة والتنين، فى فصلها الأول ميخائيل والبجعة، حيث يقول ...

«عندما دخل الميدان الضيق الذى تتلاقى عنده ، فى وسط العجوزة ، عدة شوارع جانبية ، مازالت مهجورة ، وأنيقة، ومظللة بأشجار الجميز والتوت والكافور، كانت السيارة فى الصباح المبكر قد اخترقت حافة الشمس التى بدأت، منذ دقائق قليلة، تشتعل باخضرار فى وسط فروع الشجر المورقة ، يقظة بفرح ، كالأطفال ، حول الميدان الصغير الخالى، زقزقة العصافير - خفية تتطاير مندفعة ولا تلحظ بين الشجر وشرفات البيوت النائمة - تعطى الميدان نبرة ريفية ، أو كأننا فى ركن من ضاحية بعيدة،. كأنما شارع النيل ، على بعد خطوات، وجسوره الضيقة المزدحمة، وتسابق السيارات والتروللى باس والأتوبيسات ، كلها، فى عالم آخر».

هذا وصف فى دقته وتفاصيله يقترب من التشيئية، لكنه عامر بفيض المشاعر الإنسانية، وإسقاط صفات الفرح والبهجة على النباتات وأشعة الشمس وغيرها وهذا بالضبط عكس ما يسعى إليه التشيئيون. ووسط كل هذه التفاصيل المكانية الدقيقة يخبرنا الكاتب من طرف خفى أن سيارة قد قدمت فى الصباح المبكر ، يقول ذلك ولايزيد.

وأقول الحق إن هذه النوعية من الكتابة مبهرة ، وفاتنة من ناحية الصنعة ، لكننى لا أحبها، وأجدها ثقيلة على قلبى ، فإذا انتقلنا إلى القص عند إبراهيم أصلان، ولنأخذ مثالا من قصة فى جوار رجل ضرير نجده يقول ..

«لم يحدث شىء . حدثت بعض *الأشياء القليلة جداً* . بعد تفكير طويل آثرت أن انتهى إلى الاعتقاد بأنها قد لا تكون ملائمة بالقدر الكافى . مرة أخرى فكرت فى الأيام التى ذهبت سدى . فكرت كم هى كثيرة تلك المرات التى انتويت فيها



أن أضع حدا لهذا الأمر . ارتديت ثيابى وخرجت إلى الطريق. رأيت الناس ثم عدت إلى البيت . كان الوقت مساء جلست مع أمى وأبى واخوتى وتكلمنا طويلا أكثر من مرة . حضر بعض الأصدقاء لزيارتى وشربنا الشاى ودخنا اللفائف واشتركنا فى نقاش حقيقى حول الاحتلال وبعض المسائل المختلفة الأخرى ، وعندما انصرفوا تراجعت إلى مكانى وأفرغت القوقعة التى أستخدمها كمطفأة لسجائرى . نظفتها حتى صارت بيضاء تماماً.»

هذان نوعان من القص كلاهما يعتنى بالمكان والأشياء ، أحدهما يدفع إلى التأمل، ويخفى جبل الثلج أكثر مما يكشف عنه ، وذلك كله فى رتابة تصل إلى حد الغلظة - فى رأيى - وإن كانت رتابة مبهرة - ترجمات إدوار الخراط تجد معجبين كثيرين فى الغرب - وعناية بالمكان فى قص إبراهيم أصلان أجدها ساحرة . بقيت إضافة، وهى القص عند خيرى شلبى، رجل يهتم برصد الأشياء من طبيعة المكان إلى روحه ، فى سلاسة وتدفق، يجعلان أدبه مليئاً بحيوية وجاذبية قل وجود مثلها.

وأنا أرى أنه بين قص إدوار الخراط وإبراهيم أصلان تعددت مناهج القص فى الأدب المصرى الحديث من حيث الاحتفاء بالمكان والأشياء ، وجيل التسعينات أكثر الأجيال احتفاء بهذا النوع من القص مقارنة بجيل الستينات ، بعد فقدان وغياب اليقين فى المشروع القومى ، خاصة عند مى التلمسانى ومنتصر القفاش ومن سار على دربهما ، وهنا عباءة ادوار الخراط تتسع لعديد من الكتاب فى هذا المجال . ويكفى قراءة فقرة لمى التلمسانى، تصف فيها امرأة تطل من شرفة ، وتستند بكوعها على حافة نافذة ، وترقب امرأة جالسة فى الطريق ، لنعرف عنايتها برصد المكان فى أدق تفاصيله.

وخلاصة القول أن المكان له مكانة خاصة فى فنون السرد عند الكتاب جميعاً، وأنا أفضله مجدولا مع الحياة الداخلية للشخصية ، وأقول أيضاً إن عنايتى بالمكان مرجعها ليس الوصف ، ولكن كمثير فنى، فأعود دوما إلى الأمكنة القديمة ، فشاغلى الأول والأخير فى العمل الروائى من حيث الصنعة ليس المكان ولكن المعمار الروائى ، مع قناعة ثابتة بأن الأدب معياره الأول والأخير الإنسان وليس الطبيعة أو الأشياء. ■

أزمة سينما أم أزمة حرية ؟!

السينما العربية وسراب العالمية

معاملة الفنان معاملة المجرم الخارج على القانون !

بقلم : مصطفى درويش

السينما المصرية ، ومعها السينما العربية من الخليج إلى المحيط ، لها منزلة كبيرة فى عالم الأطياف .

ومع ذلك ، فموسوعة الفيلم لصاحبها «أفراهيم كاتز» ، وهى موسوعة تسع كل شىء عن فن السينما فى مشارق الأرض ومغاربها ، أو من المفروض أن تكون كذلك ، إذا ما رجعنا إليها بحثا عن السينما العربية ، تحت عبارة «الفيلم العربى» لكان رجوعنا عبثا ، لأننا سنجد صاحب الموسوعة ، وقد اكتفى تحتها بكتابة كلمتين فقط لا غير «انظر مصر» .

فإذا ما قلبنا صفحات الموسوعة سعيا نحو مصر ، لاكتشفنا أن نصيب سينما القاهرة من صفحات الموسوعة الضخمة التى يصل عددها إلى ١٢٦٦ عمودا هو عمود واحد لايزيد ، وأن الوطن العربى بجميع أقطاره الأخرى ليس للسينما التى من إنتاجه نصيب فى هذا العمود اليتيم .



الليلة الأخيرة إخراج كمال الشيخ

وهذا النقص أو الخطأ بمعنى أصح ، عملت على تصحيحه إلى حد ما موسوعة السينما التى أصدرتها دار نشر «أوربس» فى منتصف الثمانينات ، والمكونة من ستة مجلدات ، أولها عن السينما ، وقت أن كانت أفلامها خرساء ، لم تتعلم بعد الكلام ، وآخرها عن أفلام الثمانينات .

أما كيف أجرت التصحيح ، فذلك بأن أفردت عمودا واحدا للسينما العربية ، داخل مجلدها الرابع عن أفلام الستينات (ص١٥٤) وفى هذا الحيز الضيق لم يرد ذكر إلا للسينما فى كل من مصر والجزائر وفلسطين .

والحديث عن السينما الفلسطينية جاء عاما ، دون ذكر لاسم أى فيلم تسجيليا كان أو روائيا .

فى حين انحصر الحديث عن السينما المصرية فى أربعة أفلام ، الناصر صلاح الدين ليوسف شاهين (٦٣) والمستحيل (٦٥) والبوسطجى (٦٨) وكلاهما لحسين كمال ، وليلة حساب السنين - المومياء لشادى عبدالسلام (١٩٧٠) .

كما أنحصر الحديث عن السينما الجزائرية فى فيلم واحد ، ألا وهو «معركة الجزائر» (١٩٦٦) لصاحبه المخرج الإيطالى «چيل بونتكورفو» .

القاعدة والاستثناء

وفيما عدا «معركة الجزائر» لم تنشر الموسوعة من صور تلك الأفلام سوى صورة واحدة مأخوذة من «المومياء» .

أقول فيما عداه لأن الموسوعة أختصته أسوة بالأفلام العلامات ، بصفحتين كاملتين أشتملتا على إحدى عشرة صورة من الفيلم ، وملصقه ، فضلا عن عناوينه ومقال يعرض لموضوعه ومحاسنه بالتفصيل .



الحرام إخراج هنرى بركات

واستثناء «معركة الجزائر» على هذا النحو مرده إنه عبارة عن لوحة درامية كاملة ورائعة لبطولة كفاح شعب بأكمله، كما وصفه بحق الأديب «يحيى حقى» صاحب القنديل.

وهكذا، فتلك الموسوعة هى الأخرى لم تخصص، رغم حركة التصحيح، للسينما العربية، سوى عمودين ومقال وحيد عن فيلم جزائرى، وإن كان من الأفلام التى يؤرخ بها، إلا أن مخرجه ليس عربيا.

هذا إلى إنه، فيما عدا السينما الفلسطينية، فالعمودان جاءا خاليين من أى ذكر للسينما فى المشرق العربى، والسودان والصومال ومثل هذا الإغفال قد لا يعاب على الموسوعة، وذلك لأن بعض أجزاء الوطن العربى كأرض الجزيرة «المملكة العربية السعودية، مجدبة من الإبداع السينمائى تماما، أو تكاد، غير إنه اجداب من نوع لا يشكل أزمة للفن السابع، داخل الوطن الكبير.

فليس مطلوبا أن يكون لكل جزء من وطن تمتد خريطته من المحيط الهندى إلى المحيط الأطلسى سينما خاصة به وذلك لأن الصورة المتحركة هى أكثر الكائنات قدرة على السفر والرحيل، وليس بوسع السينما العربية أن تنعزل بين جدران أقليمية ضيقة الأفق.

المطلوب أن تصب جميع الروافد السينمائية العربية، فى تيار سينمائى واحد جارف، تيار يعكس أزمات المواطن العربى الخاصة، أزماته الواقعية، ما اتصل منها بصراعه ضد الاستعمار قديمه وجديده، وبكفاحه اليومى من أجل حياة تليق به كإنسان.

النهر والروافد

وعلى كل، فالثابت، ورغم العقبات،

أن ثمة سينما عربية تفجرت أصالة وحيوية خاصة فى النصف الثانى من القرن العشرين ، بعض أفلامها آت من مغرب الوطن العربى لاسيما تونس والجزائر ، عقب انتزاعهما الاستقلال من براثن الاستعمار الفرنسى ، والبعض الآخر آت من مشرقه ، لاسيما ذلك الجزء منه المطل على البحر الأبيض المتوسط ، وهى مع سينما القاهرة ، كونت تيار السينما العربية ، بجميع أبعاده وتناقضاته .

وتيار سينما القاهرة أو هوليوود العرب كما يحلو للبعض أن يسميها ، وإن كان له الغلبة ، إلا أن ذلك لا يعنى إغفال ذكر التيارات أو الروافد العربية الأخرى ، حتى ولو كان كم إنتاجها من الأفلام أقل من القليل .

ومن ثم الانتهاء إلى حصر السينما العربية فى التيار الأقوى ، وبالتنكر لأي تيار آخر .

ففضلا عن أن هذه النظرة تخالف ما حدث فى ساحة السينما العربية ، على امتداد القرن العشرين ، فإنها لاترى من واقع تلك السينما إلا ظاهره ، دون الغوص فى أعماقه بحثا عن التأثير الجدلى المتبادل بين التيارات المتصارعة داخله .

فواقع تلك الساحة إنما يكشف عن إنه فى الوقت الذي لم تستطع السينما فى «هوليوود العرب» الفوز لأي فيلم من إنتاجها على مدى سبعين عاما من القرن العشرين بالجائزة الكبرى لمهرجانى «ڤينسيا» «وكان» رغم اشتراكها فى مسابقة المهرجان الأخير أكثر من مرة ، بأفلام أذكر من بينها على سبيل التمثيل ، «دنيا» للمخرج محمد كريم (١٩٤٦) البيت الكبير للمخرج أحمد كامل مرسى (١٩٤٩) ، ابن النيل للمخرج يوسف شاهين (١٩٥٢) ، ليلة غرام للمخرج أحمد بدرخان (١٩٥٢) صراع فى الوادى ليوسف شاهين (١٩٥٤) ، حياة أو موت للمخرج كمال الشيخ (١٩٥٥) ، شباب امرأة للمخرج صلاح أبوسيف (١٩٥٦) الحرام للمخرج بركات (١٩٦٥) ، وأخيرا المصير لشاهين (١٩٩٧) .

في هذا الوقت ، استطاعت سينما الجزائر أن تحصل للسينما العربية على جائزة مهرجان ڤينسيا الكبرى (الأسد الذهبى) التى توج بها فيلم «معركة الجزائر» (١٩٦٦) ، وأن تفوز بالجائزة الكبرى لمهرجان كان (السعفة الذهبية) التى توج بها فيلم «أحداث سنوات الجمر» لصاحبه المخرج «الأخضر حامينا» (١٩٧٥) .

وفى الوقت الذى لم تستطع هوليوود العرب أن تنتج أى فيلم له قيمة فنية أو سياسية عن الصراع العربى - الإسرائيلى ، ومحنة الشعب العربى على أرض فلسطين .

(يكفى أن نتذكر هنا الرصاصة لاتزال فى جيبى للمخرج «حسام الدين مصطفى» وثلاثية نادية الجندى عن ذلك الصراع) .

فى هذا الوقت استطاع مخرجون ثلاثة هم «توفيق صالح» و«برهان علوية» و«ميشال خليفة» أن يجسدوا هذا الصراع بأبعاده السياسية والإنسانية فى «المخدوعون» (سورى) ، «كفر قاسم» (لبنانى) و«صور من مذكرات خصبة» (فلسطينى) .

وأيا ما كان الأمر ، فللاقتراب من فهم الواقع المعاصر للسينما العربية ، والتوصل بالذات إلى بعض الفهم لعمق وأسباب الأزمة التى تأخذ بخناقها ، طوال الربع الأخير من القرن العشرين ، يتعين العودة إلى الماضى إلى حين ، بالقاء نظرة طائرة على مسار السينما الأقدم والأقوى.

القيادة والريادة

كما كان لمصر فضل قيادة الوطن العربى إلى العصر الحديث إبان القرن التاسع عشر ، فقد كان لها فضل الريادة فى حقل السينما .

ولا غرابة فى هذا ، فوضعها الجغرافى المركزى الذى يجعلها بمثابة القلب من الوطن العربى ، فضلا عن التقدم النسبى لاقتصادها ، ومتعة مدنها الكبرى المشعة ثقافة وبهجة ، هذا إلى تعرضها لتأثير الأفكار الحرة السائدة فى أوروبا ، كل ذلك أهلها لأن تكون قاعدة وطليعة للوطن العربى ، تتقدم علي باقى أجزائه ، بأكثر من عقد ، وبالتالى جعل نتاجها الأدبى والثقافى أكثر تفوقا على إنجازات سائر العرب فى أكثر من مجال .

والسؤال هل هذه السينما التى كتب لها أن تكون رائدة كانت على مستوى المسئولية عربيا ، طوال سنوات القرن العشرين .

بداية ، يؤرخ للإنتاج السينمائى الروائى الطويل فى مصر بالخامس من مايو لعام ١٩٢٧ ، وهو اليوم الذى جرى فيه عرض فيلم «قبلة فى الصحراء» ، بمدينة الإسكندرية .

قبل ذلك - وخلال عام ١٩٢٦ - شاء القدر أن يصل إلى تلك المدينة شابان فلسطينيان - إبراهيم وبدر لاما - كانا فى طريقهما من شيلى إلى بر الشام ، ومعهما معدات للتصوير السينمائى بغرض إنشاء صناعة للسينما على أرض الآباء .

غير إنهما - وبعد أن لمسا النشاط الفنى الذى كانت تزخر به الإسكندرية وقتذاك - استقر رأيهما على البقاء فيها ، حيث ساهما فى تأسيس «شركة مينا فيلم» ، وكان أول إنتاجها «قبلة فى الصحراء» الذى يعتبر ، بحق ، أول فيلم عربى روائى طويل وتجارى في آن معا .

بعد ذلك بخمسة شهور ، وبالتحديد فى ١٦ من نوفمبر لنفس العام جرى فى القاهرة - ولأول مرة - عرض فيلم «ليلى» إخراج إستفان روستى وإنتاج وتمثيل «عزيزة أمير» ، وهو فى رأى نفر من مؤرخى السينما الفيلم الذى بدأ به إنتاج الأفلام الروائية الطويلة فى مصر ، وذلك باعتبار أن منتجته ونجمته تحمل الجنسية المصرية .

وكلا الفيلمين جاء موضوعه متأثرا بالسينما الأمريكية إلى حد كبير ، بل أن أولهما يكاد يكون صورة طبق الأصل من فيلم «ابن الشيخ» الذى مثله «رودلف ڤالنتينو» ، وتشبه به «بدر لاما» .

وسواء أكان أى من هما هو الأول أم الثانى فى تاريخ السينما العربية ، فمن المؤكد أن الإنتاج السينمائى بدأ فى مصر والوطن العربى ، ما عدا المملكة العربية السعودية وإمامة اليمن ، ترفرف على جميع ربوعه من الخليج إلى المحيط إعلام الاستعمار الانجليزى والفرنسى والايطالى والأسبانى ، والحكم فى مصر


الوحش إخراج صلاح ابوسيف

يتقاسمه الانجليز والسراى وأحزاب الأقلية وشراذم من المغامرين والأفاكين الأجانب.

اسفاف واستسهال

وفى هذا الجو المريض ، حيث يشيع الذل والخوف ، بدت السينما فى مصر ، بل فى كل الوطن العربى ، كما لو كانت لا تعزف إلا لحنا واحدا ، مداره البعد عن الواقع والأسفاف ، مع الاقتباس من كل ما هو تافه فى السينما الغربية ، بخاصة سينما مصنع الأحلام فى هوليوود .

ولسوء حظ السينما المصرية ، ومعها السينما العربية ، أن الفترة الصامتة من حياة السينما فى الوطن العربى لم تكن طويلة .

فبعد فيلم «قبلة فى الصحراء» بخمسة أعوام أو يزيد وبالتحديد يوم ١٤ من مارس لعام ١٩٣٣ ، أى فى عهد إسماعيل صدقى باشا - وهو من أشد العهود سوادا فى تاريخ مصر الحديث ، جرى عرض أول فيلم عربى ناطق «أولاد الذوات» للمخرج «محمد كريم» .

وفى هذا اليوم التاريخى أكتشف جمهور الحفلة إنه كان ضحية غش كبير ، إذ تبين له أثناء مشاهدة «أولاد الذوات» إنه نصفان الأول ناطق عربى اللسان ، والثانى أخرس عاجز عن الكلام . وأن هذا الأستهتار مرده رغبة منتجى الفيلم الحد من تكاليف جعله ناطقا بالكامل ، وهى تكاليف باهظة لا قبل لهم بتحمل أعبائها .

وهكذا ، ولدت السينما المتكلمة مصابة بداء الاستهتال والتسطيح والجرى وراء الكسب السريع ، ذلك الداء الذى يرجع إلى الخطيئة الأولى ، ألا وهى ميلاد السينما العربية أصلا فى مصر ، والوطن العربى يئن تحت كعوب جنود الاحتلال .

ولعل هذا الداء هو الذى أدى إلى


هروب صغيرة إخراج مارون بغدادي

الانحدار بأفلام تلك السينما إلى درجة أن جيدها أصبح جد ضئيل ، بالمقارنة مع رديئها بكمه الكبير .

ولا عجب ، فى ضوء ما تقدم ، إذا ما انصرفت السينما ، لا فى مصر وحدها ، بل فى أقطار عربية كسوريا ولبنان ، عن تناول أى موضوع جاد ، يؤدى إلى صحوة وطنية أو نهضة فكرية .

بل العجب أن يكون الأمر على خلاف ذلك ، فى ظل احتلال أجنبى ، من بين أهدافه الرئيسية حجب المعرفة عن الأمة العربية بمزيد من التشدد فى ال رقابة على حرية الفكر ، وبالذات حرية التعبير بلغة السينما .

غول الرقابة

فمع إندلاع نيران الحرب العالمية الأولى ، فرضت بريطانيا حمايتها على مصر حيث أخضعت سلطات الاحتلال البريطانية أشرطة السينما لرقابة صارمة حددت أحكامها لائحة جديدة للمطبوعات والأفلام . وفى مواجهة تصاعد الحركة الوطنية المعادية للاحتلال ، أثر إنتهاء الحرب العالمية الثانية بإندحار الفاشية ، وقبل نشوب الحرب العربية - الإسرائيلية الأولى ببضعة شهور ، لجأت الدوائر الحاكمة فى الوطن العربى إلى سلاح الحد من حرية التعبير ، لا سيما فى مجال السينما .

وإذ تعتبر مصر بحق مرآة الوطن العربى ، فإن التعليمات التى أصدرتها إدارة الدعاية والارشاد الاجتماعى بوزارة الشئون الاجتماعية فى فبراير من عام ١٩٤٧ بغرض تقنين ما جرى عليه العمل رقابيا فى مصر ، فيما يتعلق بالسينما ، بدءا من إعلان الحماية ، كان لابد أن

يكون لهـا ، أى تلك التـعليـمـات ، إنعكاساتها على السينما فى جميع أجزاء الوطن العربى ، بلا استثناء .

ويكفى لبيان تأثير تلك التعليمات بالسلب على السينما عندنا ، وكيف أدت إلى إغلاق أبوابها دون الأفق العصرى الفسيح ، أن أذكر إنها انطوت على أربعة وستين محظورا ، بعضها خاص بالناحية الاجتماعية والأخلاقية ، وبعضها الآخر خاص بناحية الأمن والنظام العام .

وبقيت تلك التعليمات راسخة رسوخ الجبال تفسر على هديها أحكام القانون ٤٣٠ لعام ١٩٥٥ لتنظيم الرقابة على الأشرطة السينمائية ومصنفات فنية أخرى والمعمول بها بدءا من الثالث من سبتمبر لعام ١٩٥٥ ، أقول بقيت دون أى تعديل زهاء سبعة وثلاثين عاما ، وذلك إلى أن تنبه أولو الأمر فى مجالى الثقافة والاعلام إلى أن أحكامه لا تنصرف إلى اشرطة واسطوانات الفيديو، إذ كانت لا تزال فى رحم الغيب، وذلك قبل أربعة وأربعين عاما، فكان أن سارعوا إلى اصدار قانون تحت رقم ٣٨ لعام ١٩٩٢، عمل به اعتبارا من الرابع من يونية من ذلك العام، وجاء متضمنا تعديلات تسد ذلك النقص فى أحكام الرقابة على الاطياف.

احياء القديم

وقبل صدور القانون الأخير بحوالى ١٦ عاما قام وزيرا الإعلام والثقافة فى ٢٨ من ابريل لعام ١٩٧٦ باصدار قرار تحت رقم ٢٢٠ لعام ١٩٧٦ بشأن القواعد الاساسية للرقابة على المصنفات.

وأهم ما لوحظ على قراره هذا، هو اقتصاره على دمج المحظورات الوارد ذكرها فى تعليمات الوزارة، بحيث تقلص بعددها إلى عشرين محظورا، دون الاتاحة بصراحة لاى ممنوع سابق أن يكون مشروعاً وذلك فيما عدا ممنوع «اظهار المناظر الخاصة بتعاطى المخدرات».

فقبله كان اظهار تلك المناظر أمرا ممنوعاً منعاً باتاً.

أما بعده فقد أصبح اظهارها أمرا مشروعا، لا قيد عليه، ولا شرط سوى ألا يوحى ظهورها على الشاشة بأن تعاطيها شيء مألوف .

والاغرب عدم اكتفاء صاحب القرار بالابقاء على المحظورات، بل قيامه باضافة محذور جديد – هو تحريم ظهور العشرة المبشرين بالجنة فى الأفلام، وامتداد التحريم إلى أصواتهم!!

ولو أمعنا النظر فى هذه التشريعات لاتضح لنا أن جميع الأفلام المصورة بقصد الاستغلال التجارى، إنما تخضع لرقابتين، رقابة أولية سابقة على التصوير، ورقابة نهائية لاحقة له.

وأنه بدون الترخيص بالفيلم قبل تصويره، ثم الترخيص به بعد الانتهاء من إخراجه، بدون ذلك يتعذر، بل قل يستحيل عرضه عرضاً عاماً.

كما يتضح أن الادارة هى الجهة صاحبة الولاية فى ممارسة الرقابة، ولها – وهى تمارس ولايتها هذه، مطلق التقدير فى أن تمنح الرخيص بالعرض متى تشاء، وفى أن ترفض منحه متى تشاء، وفى أن تسحبه متى تشاء.

وسلطتها التقديرية، فى هذا الخصوص لا حد لها، سوى أن يكون قرارها متسما باحترام النظام العام

ومراعاة حسن الآداب، وحماية مصالح الدولة العليا.

فإذا تجرأ شخص على مخالفة أحكام القانون. بأن صور فيلما، أو أخرجه ثم عرضه قبل الترخيص له بذلك، فانه يدخل بحكم تصرفه هذا فى عداد اعداء المجتمع، ومن ثم يحق عليه العقاب بالحبس أو بالغرامة أو بالاثنين معا، فضلا عن مصادرة الادوات التى استعملت فى الجريمة.

وعلاوة على كل ذلك، فالمكان الذى جرى فيها العرض، المخالف للقانون، يعاقب هو الآخر بالغلق.

شك وارتياب

ويخلص مما تقدم أن تلك التشريعات لا تتعامل مع السينما بوصفها فنا، لمبدعيه حرية التعبير به، أو هو يعاملها بوصفها كذلك، ولكن فى كثير من التحفظ والاحتراس، بل قل الخشية والأرتياب.

والحق، أنه قد يكون أمرا غريبا ان يطلب من فنان أن يحصل على ترخيص بأن يمسك القلم كى يكتب قصة تجول فى خاطره، أو بان يمسك الفرشاة كى يرسم لوحة كامنة فى خياله، ومع ذلك، فهذا الامر الغريب، هو الذى كان، ولا يزال، يلتمس من الفنان إذا كان من صانعى الأفلام، فهو لا يستطيع أن يمسك بالكاميرا، كى يكتب بها ما يحلو له من أطياف، إلا بعد الترخيص له بذلك.

فإذا ما تحدى القانون، وأمسك بها دون ترخيص. عاملته الدولة معاملة المجرم الخارج على القانون.

ولقد يخيل إلى كثير من الناس أن السينما العربية، وبخاصة المصرية قد اجدبت تماما بسبب الرقابة وتشديدها على مر الإعوام، وبسبب الداء الذى صاحب مولدها، ألا وهو داء الاستسهال ولكن نظرة متأنية، على انتاجها، تكفى لاقناعنا بإنها استطاعت مقاومة عناصر الجدب، والعقم والفناء، وذلك بفضل نخبة من صانعى الأفلام أذكر من بينهم على سبيل المثال «هنرى بركات»، «وتوفيق صالح وشادى عبدالسلام ، مارون بغدادى، ميشال خليفة فريد بوغدير مفيدة تلاتلى وناصر خمير.

فلولا هذه النخبة لما كان فى وسع السينما العربية أن تشارك فى الانتاج السينمائى العالمى بنصيب غير قليل.

ولا يغيّر من انجازاتها أن بعضا مما شاركت به كان متأثرا بالسينما الأجنبية إلى حد كبير، وبعضها الآخر كان مجرد محاكاة لها وتقليد.

فبقدرة مذهلة على تمثل الافكار، وبث روح عربية، فيها صار لكثير من افلامها المقتبسة، خاصة ما كان منها من صنع مخرجين موهوبين، مذاق عربى، يميزها عن الأفلام التى جرى الاقتباس منها.

شجرة لا تنمو

على أن هذه النخبة فشلت فى اقتحام العالمية وذلك لعدة اسباب لعل اهمها أن حظ معظم أفلامها من الطرافة والابتكار ضئيل جدا، يوشك ألا يكون شيئاً . وضآلة الحظ على هذا النحو مرده كثرة المعوقات التى تحول دون النهوض بالسينما العربية، خاصة المصرية إلى المستوى العالمى المأمول.



صراع الأبطال لتوفيق صالح

وخير مثل على ما لهذه المعوقات من تأثير كبير، ما حدث لصاحب فيلم كان إخراجه له ينبئ بما كان فن السينما عندنا مشرفا عليه من تطور خطير.

هذا الفيلم وصاحبه هما «ليلة حساب السنين» أو المومياء وشادى عبدالسلام.

ولا اعتقد أن فيلما عربياً اشاد به النقاد فى الشرق والغرب، في شبه اجماع مثلما اشادوا بالمومياء وفضلاً عن ذلك، فهو الفيلم العربى الوحيد الذى يعرضه بانتظام متحف المترو بوليتان فى نيويورك، وهو الفيلم الذى افتتحت به عروض نادى سينما طوكيو، مصحوبة بكتيب فخم، يجمع بين دفتيه سيناريو الفيلم بالكامل، مترجما إلى اللغة اليابانية وهو الفيلم الذى قال عنه المفكر العربى «ادوارد سعيد» من بين ما قال أنه رائعة سينمائية نادرة، زاخرة بالرموز والدلالات، بالأسئلة التى تطرحها حول مشاكل مصر المعاصرة.. حول ماضيها الفرعونى والهوة السحيقة بينه وبين ثقافتها الإسلامية المعاصرة، حول اطلالها على أوروبا وهويتها العربية ومعاناة التوفيق والاختيار.

ومع ذلك فصاحب هذا الفيلم حيل بينه وبين إخراج فيلمه الروائى الطويل الثانى «اخناتون».

وظل يشقى بعذاب حرمانه من إخراجه زهاء عشرين عاما إلى أن جاءه الموت، قبل ثلاثة عشر عاما، من شدة الاحباط.

وهكذا وئد تيار سينمائى، كان من الممكن الوصول بفضله إلى العالمية المشتهاة.

وهكذا استمر نصيب السينما العربية فى الموسوعات العالمية محدودا بعمود يزيد أحيانا إلى عمودين بالكاد.!!

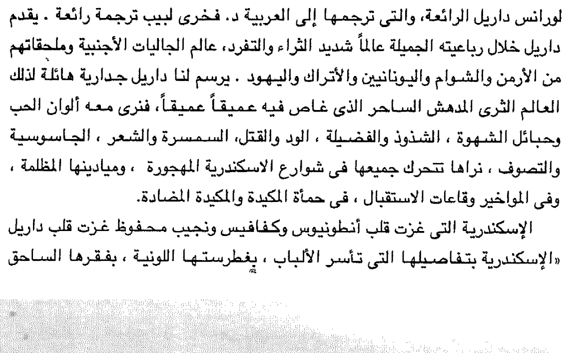
رباعيات الاسكندرية - لورنس داريل

«بورسواردن» ... الشعر والقتل ولعنة الحب المحرم

«إذا كانت الأمور ، دوماً ، كما تبدو في الظاهر، فما أفقر خيال الإنسان» .

الرباعيات - بورسواردن

بقلم : د. فهمى عبدالسلام



(١)

إسكندرية الأربعينيات ، هذه المدينة العبقرية هى مسرح الأحداث فى رباعيات لورانس داريل الرائعة، والتى ترجمها إلى العربية د. فخرى لبيب ترجمة رائعة . يقدم داريل خلال رباعيته الجميلة عالماً شديد الثراء والتفرد، عالم الجاليات الأجنبية وملحقاتهم من الأرمن والشوام واليونانيين والأتراك واليهود . يرسم لنا داريل جدارية هائلة لذلك العالم الثرى المدهش الساحر الذى غاص فيه عميقاً عميقاً، فنرى معه ألوان الحب وحبائل الشهوة ، الشذوذ والفضيلة ، الود والقتل، السمسرة والشعر ، الجاسوسية والتصوف ، نراها تتحرك جميعها فى شوارع الاسكندرية المهجورة ، وميادينها المظلمة ، وفى المواخير وقاعات الاستقبال ، فى حمأة المكيدة والمكيدة المضادة.

الإسكندرية التى غزت قلب أنطونيوس وكفافيس ونجيب محفوظ غزت قلب داريل «الإسكندرية بتفاصيلها التى تأسر الألباب ، بغطرستها اللونية ، بفقرها الساحق





وجمالها الأخاذ ، الحوانيت الصغيرة تحميها من الشمس قطع من تندات مهلهلة، أكشاك الفاكهة بهياكلها الخشبية المتألقة، لون البرتقال الذهبى الدافىء يرقد على شرائح تتألق بالأحمر الأرجوانى والقرمزى ، الحجر الأزرق ضد العين الشريرة ، قعقعة الترام ، نداءات الباعة الجائلين الأشبه بالنواح وهدير أجهزة الراديو فى المقاهى ولعنات عرب الشوارع» . ويصف نسيم (أحد أبطال العمل) المدينة البغى الخلابة قائلاً :

«إنها مدينة تفعل بالحب ما تفعله معصرة النبيذ ، والخارج منها إما أن يكون رجلاً مريضاً أو يعانى الوحدة أو نبياً .. إننى أعنى بما أقول كل الذين جرحوا بعمق فى قدرتهم الجنسية».

على أرض الإسكندرية تلتحم وتتشابك وتتصارع مصائر الأبطال بل وتتقاطع فى الجدارية الهائلة ، التى يرسمها داريل فى لغة شعرية جميلة، ولننظر كيف يرسم داريل أذان الفجر السكندرى بلغة ترقى إلى الشعر المصفى:

«أستعيد فى ذاكرتى لحظة لا بد أن تلوثها الكلمات ، وأنا راقد إلى جوار إمرأة نائمة فى حجرة رخيصة بالقرب من الجامع ، والصمت يبتلع المدينة فى ذلك الفجر الربيعى ، التقطت أذناى صوت المؤذن الأعمى العذب ، وهو يرتل – صوت معلق كالشعرة فى الطبقات العليا لجو الإسكندرية وقد رطبها النخيل ، يرتل كلمات الأذان وبعض الآيات القصيرة ، يتحدث خلالها عن كمال الإله الدائم، الواحد ، الذى لا يعصيه أحد، كماله العظيم الذى لا ينوب عنه أحد، يشق الدعاء العظيم من الكلمات الوضاءة، طريقه إلى وجدانى الناعس ، كحية ، لفة بعد لفة، وصوت المؤذن العجوز يهبط من نغمة إلى نغمة ، حتى يبدو الصباح كثيفاً بقدرته على لأم الجراح ، وإيماءات منحة كونية غير مستحقة وغير منتظرة تغمر تلك الحجرة الرثة ، حيث رقدت ميليسا تتنفس فى هدوء كطيور النورس وهى تهمهم فوق لألاء المحيط بلغة لن تعرفها أبداً».

الرواية عن تجربة ذاتية لحياة داريل فى الاسكندرية فى الأربعينيات . وبطل العمل هو «دارلى» (تدليل داريل) المدرس الفقير المحاصر بالفقر والمسكن الرث والهواجس السوداء تنتابه عن قدراته كروائى وفشله الذريع فى تدبير أمور حياته الصغيرة والذى يعيش فى فوضى كاملة، لقد ظهرت ميليسا فى حياة دارلى ، وكانت قد وصلت إلى الحضيض هى الأخرى ، لقد هربت من اليونان فراراً من زيجة ظالمة ، وعبرت البحر الأبيض تلبية لنداء المصير ، حيث عملت فى البداية كموديل للرسامين ، وعاشت لفترة كمحظية لتاجر الفراء «كوهين» ،اليهودى العجوز البخيل صاحب الوجه المجدور البليد ،

والذى لا يتورع عن الغش فى المعطف الذى يهديه إليها ، وعندما تطلب منه ميليسا أن يتزوجها ، يتهرب ويماطل ويهرب منها ، وأخيراً تعمل ميليسا كبغى بائسة وراقصة مبتذلة فى كباريه رخيص . ظهرت ميليسا مصادفة فى حياة دارلى ، «كى تنفس فى خياشيمه بعض أنفاس الحياة» ، أحبته ميليسا لأنها على حد تعبيرها «لأول مرة فى حياتها تجلس مع رجل وهى لا تخشى أن تكون حمقاء أو طائشة». وأحاطت ميليسا المصدورة المفزعة حياة دارلى بحنان المرأة الشرقية الغامر . واعتبر دارلى أنه أصبح رجلاً سعيداً بظهور ميليسا فى حياته ، وقد عمق الفقر الرباط بين المدرس الفقير والبغى الضائعة . لكن هذه السعادة لم يكتب لها أن تستمر طويلاً ، كان القدر يخبىء لهما ظهور چوستين فى حياتهما .

الأمير الحزين

چوستين ربة الجمال ونجمة المجتمع السكندرى المتألقة ، أشهر نساء المدينة بجمالها وبفضائحها وبزوجها ، إنه نسيم حصنانى أشهر رجال الاسكندرية وأغناهم، رجل المال والبنوك الوسيم الشاب ، الذى يدير أعماله بدقة فائقة وهو شارد البال وقد اكتست ملامحه الوسيمة بعلامات الحزن العميق ، إنه الأمير الحزين خريج أكسفورد والابن الأكبر لآل حصنانى أشهر العائلات القبطية بالمدينة . كان دارلى يلقى محاضرة عن كفافيس (شاعر المدينة الشيخ كما يطلق عليه) فى أتيليه الإسكندرية ، لقاء قروش كى يدبر ثمن معطف لميليسا ، عقب المحاضرة قابلته چوستين ، وبعد عدة لقاءات ، كان دارلى قد سقط فى حب مشبوب لهذه اليهودية الساحرة . ولم يكن دارلى (العشيق) أو نسيم (الزوج) هما أول أو آخر طابور ضحايا چوستين ، فچوستين (كما تقول عنها كليا) «هى النسخة الضحلة التى أنتجها القرن العشرون لحظيات الماضى العظيم مثل مدام «دوبومبادور» و«لايس» «إنها بغى أصيلة ، والبغى الأصيلة هى حبيبة الرجل الحقيقية» ، ولم تكن چوستين فى نظر دارلى سوى «واحدة من سلالة الملكات الرهيبات اللاتى تركن رائحة حبهن المحرم النفاذة كالأمونيا كى تحوم فوق الإسكندرية».

أما نسيم فيقول عنها «إنها عظيمة بشكل من الأشكال وهناك أنواع من العظمة تدمر الحياة العادية إن لم تمارس فى الفن أو فى الدين ، لقد أسئ إلى موهبتها عندما وجهت ناحية الحب . وأعترف أنها كانت سيئة فى العديد من الأمور ، ولكنها أمور صغيرة ، وليس بوسعى أن أقول إنها لم تؤذ أحداً ، لكن هؤلاء الذين آذتهم أكثر من غيرهم قد صيرتهم أكثر نضجاً ، إنها تخلع عن الناس نفوسهم البالية ، ولا بد أن ذلك كان يؤلمهم».

كان يعقوب أرناؤوطى أحد الذين خلعت عنهم چوستين نفوسهم البالية ، إنه زوجها الأول ، وكتب عنها رواية بعنوان «عادات»، روى خلالها كيف التقى فى الإسكندرية بيهودية شابة، وكيف أحبها وتزوجها ، وكيف سافرا إلى أوروبا وعودتهما ثم طلاقهما. فحينما التقت چوستين بأرناؤوطى كانت فقيرة ووضيعة المنبت وكانت تخجل أن يرى مسكنها فى حى العطارين القذر المزدحم . وأدعت أنها يونانية الأصل ، ولم تخبره بأصلها الحقيقى كيهودية ، لكن أرناؤوطى اليهودى الألبانى الأصل، الذى يحمل الجنسية الفرنسية، شم رائحة چوستين اليهودية، فلا يشم رائحة اليهودى إلا يهودى مثله ، وسجل أرناؤوطى فى «عادات» أنه لم يكن كلانا يملك الشجاعة الكافية للاعتراف بأصله كيهودى!!

حدثته چوستين الجميلة ، السمراء حيث يختلط السمار العاجى مع البياض ، والشعر الأسود ، وقد سلطت عليه عينيها العصبيتين اللتين تتأوهان وتنطقان بالفضول الجنسى ، حدثته حديثاً رائعاً عن حياتها المتخمة بالنوائب ، وعن طفولتها وهى تنمو مع اللطمات من أبيها الذى يرتدى طاقية الفرو يغطى بها خصلات شعره المدهونة بالزيت. وعن حياتها التى شبهتها بأنها جرح لا يندمل .

يتذكر أرناؤوطى تلك الليلة الصيفية الرائعة فى ضوء القمر وهما فى الشرفة المبللة المطلة على البحر ، وچوستين تضغط براحتها الدافئة على فمه وتمنحه كنوز جسدها وسجاياه ، وهى تقول بصوتها المبحوح العميق «أسرع ، فطسنى، دعنا ننتهى من قمة الرغبة إلى قمة اللذة »ويكمل أرناؤوطى ذكرياته «يبدو أنها نالتنى فى خيالها ، إلا أن الكلمات قيلت بدرجة كبيرة من الإعياء والمذلة ، فمن كان بوسعه أن يمتنع عن حبها».

بعد الزواج يدرك أرناؤوطى أنه وقع فى جب بلا قرار ، فالمعبودة السمراء الساحرة، أظهرت أنها شديدة الجهل بأمور الوفاء الصغيرة المعروفة والتى تشكل أسس الحياة العاطفية بين الرجال والنساء . وأرناؤوطى الذى تجاوز الأربعين يصاب بالدوار من سرعتها الفائقة فى الانتقال من جو إلى جو ومن موعد إلى موعد ومن رجل إلى رجل . فالمعبودة الساحرة تخونه باستمرار ، ويصاب بالدهشة والأسى عندما يعلم أنها تخونه فى أوقات كان يعتقد أرناؤوطى خلالها ، أنه أقرب ما يكون إليها . فتقول له مدافعة عن نفسها .

«انت نفسك حدثتنى عن تقبلى اللذة فى مأساوية ، إنها مهدرة عندى تماماً، وأعلم أننى أبدو للجميع كائناً بلا قلب ، لكنهم عليهم أن يقروا بأن ما أفتقده فى القلب أعوضه

في الروح ، ففى الروح يكمن البلاء».

على الرغم من قدرة أرناؤوطى الهائلة على التسامح مع المعبودة الساحرة ، المتخمة بالنوائب ، التى تجد خلاص روحها في اللذة كبديل مأساوى لفقدان السعادة، إلا أنه يشعر بالاشمئزاز منها ومن ضعفه المشين حيال فضائحها ونزواتها وخياناتها ، فيسخر منها ويهينها فيقول لها «إننى أعرف ما تعانين منه بالضبط، أتوقع رغبتك فى استثارتى حتى أضربك ، كي أعطى خطاياك نوعا من الغفران ففى كل مرة تخونيننى فيها يأكلك الذنب، لكننى أرفض أن أكون قواداً لملذاتك» ، ويقول لها مرة أخرى الحقيقة بلا مواربة «أيتها اليهودية المختلة المهووسة المزعجة» فتبكى بذلك النشيج الكثيف الفظيع الذى مجرد تذكرته يجدد آلام أرناؤوطى.

يصاب أرناؤوطى بالرعب ، حينما يدرك أنه غير قادر على ابتعاد چوستين عنه، فقد قام برحلة قصيرة بعيداً لكنه وجد الحياة بعيداً عن المعبودة الساحرة مليئة بضجر قاتل لا يمكن احتماله، وكأنه جاء إلى الإسكندرية خالى الفؤاد، ليتحول إلى قواد لملذات تلك اليهودية المهووسة الساحرة ، فكل قرارته بالهجران والفرار بجلده ، كانت تنهار مع قبلة أو ابتسامة من چوستين ، وتبدو له «كل قبلة من قبلاتها بمثابة ضربة تقرب الإنسان من قبره».

تعترف چوستين لـ أرناؤوطى ، فى لحظة من لحظات الصفو، بأنها تعرضت وهى طفلة لحادثة اغتصاب من أجنبى سكندرى يضع عصابة سوداء على عينه. والعاشق هو ذلك المتآمر الأبدى ضد نفسه ، يتآمر أرناؤوطى ضد نفسه حينما يخيل له حبه المجنون، بأنه توصل أخيراً إلى سر تقلب قلب المعبودة الساحرة ، فعبادة اللذة عندها ، وهوسها الجنسى، واللذة المهدرة سببها أنها تحاول أن تستعيد تلك التجربة مرة أخرى، وهذا الهوس هو البديل الذهنى لحادث الاغتصاب، فلو حل عقدتها ، لخطا مكان ذلك الشبح ، وسيحتل مكانه، وسينال قبلاتها كما لم ينلها أحد من قبل ، وسينالها كما لم ينلها إنسان».

ويحمل أرناؤوطى مرض چوستين على كاهله ، ويرحل به إلى بادن وزيورخ وباريس ، يقدم مريضته إلى أشهر علماء الطب النفسى، وعلى رأسهم فرويد «بجلالة قدره» . ويعجز فرويد، لكن «مانياتى» لا ييأس من تلك المريضة المصابة بالهوس الجنسى السحاقى، فيجلس أرناؤوطى يستمع إلى صوت مانيانى العارى القاسى الرفيع، وهو يعيد المرة بعد الأخرى: أخبرينى باسمه .. يجب أن تخبرينى باسمه، فترد چوستين فى

إعياء «لا أستطيع أن أتذكر .. لا أستطيع أن أتذكر.

وينتهى الجزء الأول «چوستين» بنهايات خارقة حزينة ، أهمها فرار چوستين ذات صباح هرباً من هوسها ومن إحساسها بالذنب حيال زوجها وعشاقها الذين سببت لهم كل هذه الآلام. إلى أين!؟ إلى فلسطين!!، حيث التحقت بواحد من الكيبوتزات اليهودية، إنه فرار أشبه بالانتحار، فالعمل اليدوى الشاق قد يحرر هذه النفس القلقة ، لكن السؤال : هل الكيبوتزات الصهيونية وحدها هى التى توفر عملاً يدوياً شاقاً؟. وتموت ميليسا بأمراضها التى تفاقمت وهى ترى دارلى غارقا فى حب چوستين . وتحدث جريمة قتل غامضة فى إحدى رحلات صيد البط وكان ضحيتها هذه المرة كابوديستريا أو دى كابوا الذى اشتهر بقدرته الجنسية الضخمة كثروته، إنه أحد مهاويس الجنس، وهو صاحب العصابة السوداء الذى اغتصب چوستين والذى وصلت قضيته إلى فرويد نفسه ، فقد وجدت جثته فى قاع الملاحات الضحلة بكينج مريوط - جريمة أخرى على رصيف الميناء ، كانت ضحيتها امرأة عجوزا هشم أحدهم جمجمتها الهشة .

إنه سكوبى ضابط الشرطة الانجليزى الذى تجاوز الثمانين عاماً ، صديق دارلى والذى يقول عن نفسه «القرصان العجوز» ، لم يكن القرصان العجوز سوى شاذ جنسياً، ومصاباً «بجنون القمر»، فحينما يكتمل القمر لا يستطيع سكوبى مقاومة الإغراء ، أن يرتدى ثياب عاهرة وأن يتجول على رصيف الميناء ، وذات ليلة ينهار سكوبى ويتوسل فى مذلة إلى دارلى ، ويكشف عن سره ، ويطلب منه أن يأخذ ثياب العاهرة ، كى ينقذ القرصان العجوز من جنونه بضوء القمر، ويأخذ دارلى الثياب، لكن جنون القمر كان أقوى من قدرات سكوبى، فهشم أحدهم رأسه على رصيف الميناء .

جريمة انتحار عارض أخرى تهز المدينة، لقد استيقظت المدينة ذات صباح على انتحار الروائى الكبير «بورسواردن» بالسيانيد، وهو فى ذروة النجاح والتألق الأدبى، انتحار غامض بلا سبب ظاهر لكاتب لامع، والمفاجأة أنه ترك وصية يوصى خلالها بمبلغ مالى محترم إلى دارلى ، هذا المبلغ يتيح لدارلى الفرار من كل هذا الجنون الذى مارسته الإسكندرية على ضحاياها ، فيفر إلى جزيرة نائية فى قبرص كى يضمد جراح القلب هناك وينسى المدينة التى أطبقت عليه وعلى أصدقائه برهبتها.

(٢)

مفتاح الرواية الجميلة يقبع فى بورسواردن وحياته وانتحاره الفاجع . إنه يعمل فى مكتب المخابرات الإنجليزية بمصر (كى يطفو على سطح الحياة)، ومشغول طيلة الوقت

بتقديم صور كاريكاتورية عن نفسه وعن عدميته بسلسلة من السخريات السوداء ، فثلاثيته الأخيرة التى حققت نجاحاً هائلاً صدرت بذلكَ العنوان العدمى الخالص« الله يحب الدعابة»، وتصدير الرواية كان بذلك المثل العربي الجديربكل عدمي «الدنيا مثل الخيارة، ساعة في يدك وساعة في شرجك». في بقية أجزاء الرباعية ، نكتشف أن خلف كل تلك السخريات السوداء ، وخلف كل وقاحة بورسواردن وخلف كل هذه الموهبة الأدبية الرفيعة المتوحشة ، كان بورسواردن مديناً بكل ذلك ، إلى تجربة حب أليمة نخرت روح بورسواردن وتركت قلبه محض ندوب . كان بورسواردن على علاقة حب آثمة مع شقيقته العمياء الوحيدة ليزا!!.

ويقدم داريل درساً في تناول «الجنس» كمادة للأدب ، حيث يسمو بعلاقة منحرفة شاذة إلى ذرى رفيعة من ذرى الفن الجميل . لقد ولد بورسواردن وشقيقته العمياء ليزا لأبوين ماتا مبكراً، وتركا لدى عمة عجوز صماء مشغولة طيلة الوقت بتدبير احتياجاتهم الأساسية، فى كوخ موحش كئيب بغابة من غابات انجلترا ، تاركة لهما أن يتعلما ما يستطيعان تعليمه لنفسيهما، وما أقسى اليتم والوحشة على القلوب الغضة البريئة. والتصق الطفلان اليتيمان المفزعان التصاقاً حميماً ، ولم يكن لديهما سوى كتاب لـ بلوتارك عن العالم القديم ، حفظاه عن ظهر قلب ، ورأت ليزا العمياء الدنيا بعينى بورسواردن الشاعر – الطفل، وغدت العمياء ملكة حياته الأسطورية الغريبة ، وأعاشها فى قصور فسيحة (اخترعها) من التنهدات، فى مصر وفى بيرو وأحياناً فى بيزنطة ، أحال بورسواردن كوخهما البائس إلى قصر بأرضيات فاخرة من فسيفساء تتألق بالحيات والصقور والأقزام. كان بورسواردن شاعرها وأميرها وعيناها اللتان تبصر بهما فى ظلامها الأبدى ، وكانت ليزا ملهمته وملكته الأسطورية التى اخترعتها حدتهما وشاعريته . وأنجبا طفله، وكان بورسواردن أول من أدرك أن لعنية رهيبة قد حاقت بهما ، وبدأت الحياة الشعرية القديمة تفقد سحرها ، وتدخل العالم أكثر وأكثر فى أمورهما وفى عالمهما المتوحد وفى قصورهما وممالكهما . وأدرك بورسواردن استحالة أن يقيم أى منهما علاقة سوية خارج حبهما الملعون . فقرر بورسواردن الهرب، وإلى أقصى الأرض، إلى مصر ، فالملك الإله فى مصر الفرعونية لا يتناسل فى رحم إمرأة غريبة . هذا الحب المحرم الملعون شحذ موهبة بورسواردن الرائعة ، فاحتل بها مكانة عالية فى ذرى الأدب الرفيع، لكن هل تكفى الإنجازات الأدبية الكبيرة لمداواة جراح بورسواردن الغائرة ، لم يكن هناك سبيل لإنهاء هذه الجراح سوى القبر ، فالقبر وحده

هو القادر على إنهاء هذه الآلام، فانتحر بورسواردن عقب تلقيه رسالة من ليزا.

وعبر الرباعيات الطويلة ، نكتشف مع دارلى أن ظاهر الأشياء لا يعبر أبداً عن باطنها، إذ نكتشف أن خلف القصص الرومانسية لحب دارلى الملتاع ، ومطاردة چوستين لـ بورسواردن ، وغيرة الأمير نسيم على معبودته السمراء التى تبحث فى الجنس عن خلاص الروح ، لم تكن سوى واجهة رومانسية رائعة ، تخفى خلفها مؤامرة سياسية عملية بشعة ولا مجال فيها لأدنى عاطفة . ولم يكن رأس المؤامرة سوى الأمير الحزين نسيم، الذى لم يتردد فى قتل شقيقه الأوحد «ناروز» عندما بات وجوده خطراً على «الخطة» . نكتشف فى بقية أجزاء الرواية أن نسيماً كان قد كرس حياته وثروته وعلاقاته وزوجته لرسالة سياسية ، فهو يعيش دور من نذرته الأقدار كى يعيد بعث الأمة القبطية (!!)، ومؤامرته كان هدفها الوحيد هو أن يحتل أقباط مصر (على يديه) مكانهم اللائق تحت شمسها، لقد أعده والده «ملتاؤوس» لهذه الرسالة منذ أن كان طفلاً . وكانت حسابات نسيم كالآتى ، أن الأسد البريطانى تخلعت أسنانه ، وأن أيام الانجليز فى مصر باتت معدودة، وأن القوة الوحيدة التى تمتلك القوة والحيوية الكافية لكى تلعب دوراً أساسياً فى المنطقة هم يهود فلسطين(!!) عندما تقوم دولتهم المنتظرة، فلو ساعدهم نسيم بتهريب السلاح إلى العصابات الصهيونية الآن، سيعتبرونه رجلهم فى مصر، وسيردون له الجميل مستقبلاً، ولن يطلب منهم سوى أن يتبوأ الشعب القبطى مكانته . ويسافر نسيم إليهم سراً ، لكن الوكالة اليهودية ترتاب فى هذا القبطى الذى يعرض خدماته، فى الوقت الذى يرفض فيه اليهود المصريون التورط فى أعمال تفقدهم ثقة المصريين . ونسيم الذى أعده والده لحمل رسالة رفع الظلم عن الشعب القبطى، شأن أصحاب الرسالات الكبرى ، لا يتوقف عند أول عقبة ، فيقرر الزواج من يهودية، حتى يحظى بثقة الوكالة، ولم يكن أمام نسيم امرأة قادرة على أن تلعب هذا الدور باقتدار أكثر كفاءة من تلك الساحرة المختلة الشبقة چوستين، سيوظف نسيم قدرات چوستين من جمال وذكاء وسحر ولماحية وقدرة لا تبارى فى انتزاع امتثال الرجال، فى شىء أثمن من الحب وأغلى وأرفع مكانة، فى المؤامرة السياسية وفى صناعة المستقبل السياسى لهذه المنطقة الحساسة من العالم ، وتحرير أمته.

حينما أطلعها على سره الدفين ، اندهشت چوستين وهى ترى هذا الفاتر الرخو يتهيج ويشتعل وهو يجعلها تنطق بالكلمة السحرية :

– سنرسل الأسلحة ... إلى ...

ترد عليه چوستين بصوت كالفحيح :

- إلى فلسطين ...

انتعشت اليهودية الساحرة في دورها الجديد وتألقت كمتآمرة . ولما كان دارلى وبورسواردن يعملان فى مكتب المخابرات البريطانية ، كان هم نسيم الأكبر أن يبعد أنظار المخابرات الإنجليزية عن الخطة، التى لم تكن تتفق مع مخططاتهم . لهذا السبب وحده أطلق نسيم الساحرة اليهودية كى توقع فى حبائلها بورسواردن ودارلى . لم يأخذ دارلى فى يدها غلوة ، أما بورسواردن فكانت محنته الأليمة تقف كسياج بينه وبين أن يتم اختراقه حتى لو كانت تلك المرأة هى چوستين . لقد أمدته تلك المحنة ببصيرة ضارية متوحشة ، جعلته لا يرى فى الساحرة اليهودية إلا امرأة متسلطة مستبدة مزعجة تفرض نفسها على الآخرين باعتبارها مشكلة . ولم يتورع بورسواردن عن طردها من غرفته وقد أمسك برقبتها وهو يقودها إلى باب الغرفة ، قائلاً لها: «هل تتفضلين وتتعطفين وتتكرمين بأن تبلغى سن النضج» . «تريدين اقتحام حياتى!؟لماذا ؟ أنت يا عزيزتى باب دوار للجنس علينا جميعاً أن نمر به!؟.

ويقول لها عندما يرى إلحاحها عليه يزداد، ومطارداتها له أصبحت سخيفة لا تطاق:

«أنت تريدين أن تقتحمى حياتى ، لكن الفنان الذى تمتطيه امرأة كالسرج ، يشبه الكلب الإسبانيولى وفى أذنه «قرادة»، إنها تسبب له أكلانا، تسحب دمه، وهو لا يستطيع الوصول إليها» . وبينما رأى دارلى أن علاقته بچوستين «أصداء لعلاقتها بأرناؤوطى»، لم ير بورسواردن فى أرناؤوطى سوى «سجان مولع بالتحليل النفسى» . وأما عن حادثة الاغتصاب التى عجز أمامها فرويد ومانيانى فقد انغرست كلمات بورسواردن فى نفسها كالشوكة :

«من الواضح أنك استمتعت بما حدث ، بل ربما أنت التى أغريته بذلك ، كفاك هذا الصراخ وأسقطى هذا الإثم الذى ابتدعتيه وأكدى لنفسك أن الأمر كان ممتعاً وكان بلا معنى أيضاً»

وفى موضع آخر يقول لها :

«هل تفرضين علينا نفسك كمشكلة ؟ أؤكد لك أن شأنك شأن اليهود تحبين العقاب وتحبين أن تأتى ثانية لتناليه وكل أفعالك وثيقة الصلة بالسلب والنهب ، وهى صفات ملاصقة لكل يهودى».

.... لم تنفذ چوستين إلى نفس بورسواردن ، أهانها وعاملها باعتبارها

امرأة مستبدة اعتادت إخضاع الرجال ، لكنه لم يفطن إلى المؤامرة، بل وخاض صراعاً كبيراً فى الإدارة التى يعمل بها ، ضد اتجاه كان يجمع الأدلة ضد نسيم والثعلبة اليهودية، وانتصر بورسواردن فى هذا الصراع ، وكان قد وصل إليه خطاب من ليزا، وكان بورسواردن قد تنبأ أن يظهر فى حياة ليزا رجل، وبظهوره ستتحرر ليزا من قبضة بورسواردن عليها ، وأطلق عليه بورسواردن «الغريب الأسمر» ، وبعد طول تردد أرسلت له ليزا بالخبر الذى كان ينتظره فى توقع كئيب، وبعث لها معبراً عن سعادته، لأنها «لم تعد مقيدة فى أصفاد شقيقها المعذب»، لكن لأنه يعلم استحالة فرارها من تلك الأغلال التى قيدها بها طيلة تلك السنوات طالما ظل حياً موجوداً فى مكان ما من العالم ، فيجب أن يزيح نفسه من على المسرح حقاً ، وكان قرار الانتحار ...

.... تصادف هذا مع قضاء بورسواردن ليلة عبثية ، دخل خلالها مباراة للظفر بقضاء ليلة (بأجر) مع ميليسا ضحية دارلى وجوستين، فى هذه الليلة عرف بورسواردن من ميليسا أن جوستين ونسيم يرسلان السلاح إلى اليهود فى فلسطين، وأن كوهين عشيقها السابق هو الذى أخبرها، فقرر بورسواردن أن يقتل نفسه بالسيانيد ، كى يزيح نفسه من على المسرح بأسرع ما يمكن ، وأن يكشف المؤامرة، وأن يبعث برسالة من العالم الآخر إلى نسيم، يسخر منه ، وفوجىء نسيم فى الصباح المبكر ، بصوت بورسواردن عبر التليفون يضحك تلك الضحكة التهكمية المكتومة ، وهو يقول لنسيم إنه سيترك له رسالة عاجلة فى غرفته بفندق جبل النسر ، يهرع نسيم إلى الغرفة كالمجنون، ليجد جثة بورسواردن مسجاة والربتات ، وعلى مرآة الحمام كتب بورسواردن بفرشاة الحلاقة : «كل شىء تم اكتشافه ، مخازن السلاح، وكوهين، وفلسطين» بورسواردن.

(٣)

عاد دارلى إلى الإسكندرية والحرب العالمية مندلعة ، ليجد ليزا تبحث عنه ، كى تأخذ رأيه بشأن الخطابات الخاصة التى كان بورسواردن يبعث بها إليها ، كى يساعدها فى اتخاذ قرار، هل من اللائق نشرها أم لا ، يأخذ داريل الرسائل ويبدأ القراءة وهو يشعر بإثم وبشاعة استكشاف أعمق أسرار حياة إنسان آخر . فوجد الرسائل تحليلا وحشيا للذات وقد صيغ فى كلمات لا تضطرب ولا تتلعثم، فالحقيقة والوهم كانا يمتزجان فى رؤية ناصعة تعمى الأبصار ، أسى هائل وجمال مطلق قد صيغا فى كلمات ، ورؤى تعلق فوق عقل الكاتب مثل نجم الموت الأسود ، وكان دارلى ينتفض وهو يقرأ تلك

الروائع التى تفوق كل روائع هذه النفس المتألمة ، فهذه الخطابات ليست أدباً، إنها الحياة بذاتها ، وما تحويه سطورها من آلام ، إنما هى آلام الحياة نفسها بما فيها من رعب وإذعان وخضوع . ويحقق دارلى رغبة بورسواردن بحرق تلك الدرة الأدبية .

....

كانت چوستين قد عادت ، وانكشفت المؤامرة ، وتم تجريد نسيم من أمواله ، وحددت السلطات إقامة چوستين فى المنزل الريفى بكرم «ابو جريج» ، وكان لا بد أن يلتقى داريل بها بعد أن انقشعت أوهام حب چوستين المزيفة . فوجد نفسه كأنه يرى امرأة أخرى، وكان من العسير أن تنبعث صورة تلك العشيقة الساحرة ، التى كانت كل كلمة أو إيماءة منها كافية لأن تبطىء الدم فى العروق ، فقبلتها على جبينه جاءت باردة كالنعى ، وجمالها القديم الذى لازالت تحتفظ به ، رآه جمالاً هامداً «لمومياء طليت بطريقة خرقاء حتى تعطى وهماً بالحياة».أفلت دارلى منها فلم يرسوى امرأة فظة سوقية شرسة تتوق إلى أن تنشب مخالبها فى لحم نسيم ، الذى تقول عنه لدارلى «إنه رفيق مؤامرة مثالى ، لكن كزميل سجن فى الهزيمة فهو شخص لا يطاق».

آخر مشهد بين دارلى وچوستين، عندما استيقظ ليجدها تقف إلى جوار فراشه عارية ، وقد ضمت يديها فى توسل أشبه بامرأة متسولة فى الشارع ، وتطلب منه فى مذلة «بعض الملاطفات والربتات ، بعض التحبب، ذلك كل ما ترجوه»، أما دارلى فكان يبحث عن سر ذلك التقزز الهائل الذى يجيش فى أعماقه ويمحو كل مشاعر أخرى، فيكتب:

«هذه صورة حبى التى كانت ، ذات يوم ، رائعة ، ترقد الآن فى خواء على ذراعى، بلا طول وبلا حول ، كمريض فوق منضدة العمليات يتنفس بالكاد ، كان من العبث أن أكرر اسمها، الذى كان يحمل ذات يوم قدراً كبيراً من السحر ، لقد غدت أخيراً مجرد امرأة ترقد هناك ، ملطخة مهلهلة ، مثل طائر ميت فى مزراب ، وقد تغضنت يداها كالمخالب ، كان الأمر وكأن باباً حديدياً هائلاً قد أوصد فى قلبى، وإلى الأبد».

ويتساءل دارلى :من كان الآثم فى كل هذا ؟، الآثم هو الحب الذى يبتكر صوراً كى يتغذى عليها ، فالحب مجموعة من الأوهام المنتقاة التى يخدع بها العاشق نفسه، ولم يكن دارلى سوى عاشق ، والعاشق مثل الشاعر ، يتآمر ضد ذاته بصورة أبدية.



ثنائية الجد والحفيد والحكاية الخرافية

فى (خالى جاءه المخاض)

بقلم : عبدالرحمن أبوعوف

فى البداية قد يبدو للقارىء العادى والمحافظ عنوان الرواية القصيرة المكثفة المتقنة البناء (خالى جاءه المخاض) منافيا وصادما للذوق العام ومناقضا للحياء والأخلاق بل يكاد يكون مستحيلا وساخرا ومثيرا للدهشة ، غير أننا وعبر الانغماس الموحى والتغلغل فى بنية النص المتخذ أسلوب وشكل الحدوتة والحكاية المثقلة بكل فنون وتراث الروى والحكى الشعبى العريق المنساب فى ببساطة وسلاسة عذبة ، والهادر بالسخرية والتهكم والثورية والاستعارة المجازية ، عبر كل ذلك يتكشف لدينا بالقراءة المتأنية العالم السحرى المخاتل والخفى والسرى والخاص لبيئة وحياة وجو وتخيل ومثل وتقاليد وأعراف وموروثات وأساطير قرية نوبية عريقة ، فى زمن تاريخى وسيسيولوچى يقع قبل بناء السد العالى وقبل غرق وذوبان النوبة المصرية القديمة ومعها غرقت وتلاشت فى مياه النيل الهادرة . حضارة نوعية عريقة لها خصوصياتها لمكون أساسى ورئيسى من مكونات الشخصية المصرية الفرعونية والقبطية والإسلامية وتراكمها الحضارى .

ولســــوف نلمح أن هذا الموضـــــوع المأســاوى الإشكالى هو هـم وحـزن وأسى وغـضب كـتـاب وفنانى النوبة من الأبناء والأحـفــاد الذين هاجــروا أو ولدوا فى الشـمـال، والذين ظلوا منتمين ومـخلصين لتراث عشيرتهم وأهلهم وهويتهم وجذورهم وأعراقهم ، ومنهم الروائى المبدع «حجاج أدول» كاتب ومنشىء هذه الرواية الجديدة الفاتنة وهو مولود فى الإسكندرية .

غـيـر أن بعـضـهـم يتطرف فى هذا الحس والخطأ الشوفينى المتعصب أحادى النظرة النوبى ، ويقيم تناقضا مصطنعا بينه وبين المصريين أهل الشـمـال مـثل «إدريس على» الكاتب النوبى المصـــرى الموهوب ، بل إننا نجد عند - حجاج أدول - نفسـه فى هذا النص الروائى الأخـيـر عبارات وتعبيرات وألفاظ متعالية وساخرة عن أهل الشـمـال ، ترد على لسان الراوية الجد كقوله فى الهوامش (الجريتية) هم غير النوبيين ، كذلك فى كتاباته المباشرة ومـواقفه عن مشـاكل ومـعاناة أهل النوبة المهجرين والمتشردين .

«إن سـبب كل ذلك فى اعـتـقـادى ديكتـاتورية عبدالناصر» إلخ غـيـر أن هذا موضوع إجرائى يحتاج لحديث آخر .

ولنعــود إلى تفكيك وتحليل النص الروائى الفاتن والمتخيل والمنتج للأسطورة والخرافة الشعبية وهو الحدث الذى فجر الدلالة المتوارية فى هذه الرواية .

والحدث هنا لا معقول يقع فى منطقة بين الوهمى والمتخيل والحقيقى والعينى ، الحدث هنا هو مناداة الطفلة النوبية لأمها .. فى صباح يوم من الصيف الحار حيث سطوة وسطوع حـرارة وضـوء الشـمس وشلالات عرقها المكروبة ساقطة على أهل القـرية «يويو خـالى .. إنجـيله حـامل» فـغـضـبت أمـهـا «سـفـورة» وابتسم فى سـخـرية أبوها - «ذراج» المسـتـرخى المستلقى النائم تحت السقيفة .

عبـر هذا الحدث ومـا ترتب عليـه من فضائح وأقاويل وتفاعلات بين أهل القرية يقـدم الكاتب ويعـمق إطلالة شـاملة على حياة وسعى وسلوكيات العشيرة، ومـعنى حياتهم ومـأساة معيشـتـهم فى قـرية من قـرى النوبة بـعـد التـعلية الثـانيـة لخزان أسـوان ونزوحـهم إلى هضـاب الجـبل ولم يبق لديهم إلا مـسـاحـات زراعيـة ضـئيلة متبقية من غول الغرق .

إن تصـاعـد الأحـداث وتتـابعـهـا وتشـابكهـا وتقـديم دورة حـيـاة البسطاء والمغمورين والأعيان والعمدة وناس القرية الشـغـالين بقـيـادة الخـوجـة «كلودا» مـعلم المدرسة وحكيم القرية والذى عبر تعليقاته فى نهاية الرواية سيلخص مـشكلة وأزمـة أهل النوبة ، وسـيـشـيـر إلى الحل الذى ينقذهم من رتابة وزيف حـياتهم الضـائعة بين الثــرثرة والأكل والجنس وإدمـــان البانجو المعتبر وقنانى العرقى الذى يتاجر فيها «أنجيله» المخنث مشاركة مع العمدة الصغير .

كل ذلك الزخم المكثف من الحياة يقدم فى يوم واحد ونهار واحد يبدأ من الصباح

المبكر وينتهى فى ظلام الليل .. هى دورة الحياة الأبدية التى تسحق حيويتهم وتغتال أحلامهم وآمالهم وتحتوى حياتهم الرتيبة الضجرة الخاوية من العمل والجهد والسعى بعد أن حصلوا على نقود قليلة كتعويض عن أراضيهم الغارقة فأنفقوها على المظاهر وزخرف الحياة كاقتناء الحمير الملونة والغرق فى غيبوبة الخدر والجنس والنوم والثرثرة .

ولقد جاءت إشاعة حمل (إنجيله المخنث) وصراعه مع زوجته المسترجلة «نخلة» التى تساومه على كتم والتستر على الفضيحة لو اقتسمت معه أرباح تجارة البانجو والعرقى ، جاءت هذه الحادثة المتخيلة مبررا وسببا روائيا لكشف القناع عن عمق أعماق حياة أهل القرية وعلاقاتهم مع بعض ومع السلطة الفاسدة المتراخية المنهكة الكاذبة مجسدة فى شخصية العمدة الصغير .

ولكن كيف قدمت الرؤى والمضامين فى هذه الرواية ، أقصد نهج البناء الأسلوبى التعبيرى وتقنيات الشكل السردى وآليات السرد الحكائى ورسم الشخصيات والنماذج الإنسانية لأهل القرية .. وأخيرا اللغة والاستعارة والمزج بين العربية وبعض ألفاظ نوبية ؟ للإجابة على هذه التساؤلات نناقش مستويات البناء الفنى فى العناصر التالية :

١ - الحكاية الخرافية .

٢ - ثنائية الجد والحفيد .

٣ - مستوى ودلالة الجنس والشبق .

٤ - الزمنية الروائية .

الحكاية الخرافية : إن الحدث الرئيسى هنا وهو حمل (إنجيله) يقع فى منطقة الخرافة والدليل على ذلك النهاية المفتوحة للرواية وهى التصوير الساخر للمخاض عند (إنجيله) بين يدى دهبية البدينة وحزبية العجوز .. فطبعا هو لم ولن يلد .إننا أمام (راوية) أو جد هو خلاصة مصفاة لنموذج روح الأسلاف وهو له هالته وقدسيته ومرجعيته فى المجتمع العشائرى والقبلى ، والجد ينقل أخبار وحكاية وأحداث حدثت فى يوم واحد عاشها وهو صبى يقترب من المراهقة كاد يحصل على الابتدائية ينقلها إلى الحفيد الذى ولد فى الإسكندرية وعمل بها وعاش نصف حياته بها فى الشمال ثم طرد إلى الجنوب مرة أخرى .

يقول الجد ساخرا أثناء سرد الحكاية الخرافية موجها الحديث إلى الحفيد .

«لماذا لا تستمع لحكاياتى باحترام ياولد ؟ تنام على ظهرك وتضع ساقا على ساق أيضا ! عديم الحياء مثل من تسللت نطفتك من ظهره .. لاكين .. لماذا أغضب أنا من وقاحتك أنت ؟ فما أنت إلا حفيد غشيم تربى نصف تربية فى مدن بحرى ونصف تربية عندنا ، فتأدب من نصف التربية التى لم يترباه عندنا ، أى ! وبعد أن قلت لك رأيى صراحة فى تربيتك التى هى ليست تربية ولم أحاول أن ألعن أباك

الذى لا أحبه ولا يحبنى ، بعد كل هذا نعود للحكاية» .

إننا أمام مونولوج طويل منساب هادر أو مونودراما بطلها هو الجد .. ولم تستمع أبدا لصوت (الحفيد) الذى يتلقى ونتلقى معه الحدوتة وأحداثها .. و(الحفيد) هنا هو ليس حفيداً محدداً له اسم بل هو نموذج (الحفيد المطلق) في الغربة ، غير أنه هو قناع المؤلف نفسه ، ونحن نعرف ونشعر بحالته واستجاباته لما يحكيه (الجد) عبر عبارات الجد نفسه .

تبدأ الرواية أو المنولوج أو المونودراما بهذه المقدمة البسيطة العذبة الحكائية السحرية الساخرة إلماحة الاهية .

يقول (الجد) :

أنا سوف أحكى لك وأشرح كيف أن الحكاية الخرافية القديمة بعثت حقيقة على أيامنا النيلة هذه وبحذافيرها وكأن أسلافنا الخبثاء تنبئوا بأن سلالتهم النوبية ستنتكس نكسة ونكسات وستكون سلالة مخجلة يتفرج عليها ناس (الجريتيه) أى (غير النوبيين) الذى يسوى منهم والذى لا يسوى وأنه سوف يحصل لها ما يحصل الآن ، شفت؟!

ولأن الحكاية طويلة طويلة ، وأنا ليس عندى وقت طويل لك رغم أننى لكبر سنى ، عاطل من العمل ، وأنت مثلك مثلى عاطل من العمل أيها الحفيد المطرود من مدن الشمال ، فعدت لتغرقنا بتساؤلاتك فى الجنوب ، سوف أبدأ الحكاية من منتصفها اسمع ياولد .

إن القطبين الأساسيين فى بنية النص الروائى هنا هما (الجد) و(الحفيد) وهى سمة المجتمع العشائرى والقبلى الذى أدركها بتلقائية ووعى (حجاج أدول)، وهو ككاتب نوبى معاصر فى زمننا الآن يحمل تراث النوبة وقيمها وأخبارها وحياتها التى غرقت فى نهر النيل عبر حكايا الأسلاف ، إنه الماضى والحاضر إذا يلتقيان .. إن روح الأسلاف هنا تذكرنا بعالم الكاتب الجزائرى الكبير (كاتب ياسين) فى رائعته رواية (نجمة) ومسرحيته (الأسلاف يتميزون غضبا) ، كذلك بثلاثية (بندر شاه وضو البيت ومريود) للروائى السودانى الموهوب (الطيب صالح) وأيضا ببعض قصص - يحيى الطاهر عبدالله ، وعبدالوهاب الأسوانى . هنا (الجد) و(الحفيد) فى علاقة عضوية تجسد سريان الحياة وهى ظاهرة غالبة في إبداع كتاب الجنوب فى كل مكان من العالم .

نجدها عند الكاتب الأمريكى (وليم فوكنر) فى معظم أعماله خاصة (سارتودس) ونحن نعرف أن كلية أعمال فوكنر .. تحكى عن الجنوب الأمريكى وأصداء الحرب الأهلية حرب العبيد بين الشمال والجنوب التى قادها - لنكولن .

● الجد إذن عند كتاب الجنوب هو الذى يحمل تراث العشيرة وقيمها وأعرافها وعقائدها وأساطيرها يوصلها لأحفاده ليسلكوا ويتموا مسيرة الحياة .. هو لقاء الحكمة والخبرة والاتزان مع

تلقائية وعنف شباب الأحفاد حلم المستقبل.

● غير أن (حجاج أدول) يقدم فى روايته مقابلا آخر يكشف عن قيم الحياة فى النوبة فى تجلٍ آخر لعلاقة الجد بأحفاده نجدها مجسدة بطريقة ساخرة وصاخبة ومثيرة فى شخصية الجد (تومبيله) العجوز المخرف المضحك الشهوانى الذى يغوى الصبايا ويتلصص على صدورهن ومؤخراتهن وهو ينافس حفيده على حب ورغبة الزواج من (سادة بنت ظريفة) وتجلجل دائما صيحته الشهيرة فى دروب القرية (أنا حنيل سادة بنت ظريفة) .

مستوى ودلالة الجنس و(الإيروس) والشبق

يحتل الجنس وحضور (الإيروس) وتجليات الشبق وغرائز الشهوة البهيمية محورا رئيسيا فى هذه الرواية غير أنه جنس موظف دراميا وفعل روائى وليس جنس إثارة ودغدغة للعواطف والشهوات.. هو قناع لحياة خاوية رتيبة لاهية فى قرية نوبية مهددة بالغرق والزوال، إنه بديل الموت ، فالبطل الرئيسى فى الرواية - الحكاية - الحدوتة الخرافية أنموذج للرجل المخنث .. الذى يعانى أدران الشذوذ (إنجيله سمين وطول عمره طرى يحاكى النساء من صغره مخنث يرتدى دائما(دباس) أى لباس محبك فى لحمه ، دباس قصير الأكمام من قماش خفيف الملمس مثل دباسات نسوان وبنات اليوم ، وتكة هذا (الدباس) .. (الياس) حبل مطاط غريب يقال عنه استك .. إنجيله الطرى الناعم السمين المترهل أدخل هذه البدعة الضلالة فى القرية فقلدته الستات ، والبنات الصغيرات وحجتهن البائخة أنه أسهل فى الخلع ، أى خلع يخلعون ولم ولأى أمر يكون الخلع له هذا الاستعجال ؟ هذه هى المسألة بناتهن مطاطة مراوغة مثل استكهن» .

● إننا نجد فى هذه الرواية بعض الإسراف فى إيراد الصور والمشاهد والمواقف الجنسية التى ربما تخدش الحياء وتثير الاشمئزاز بجانب عبارات وغمزات فاضحة ماجنة وقحة .

نشير لبعض هذه الصور والمواقف الجنسية والتى تقدم تهكما ونقداً لنفاق رجل الدين مجسدة فى (الشيخ الرملى) .

سافر (الشيخ الرملى) إلى الشرق وعاد وعلى وجهه لحية شعساء تتدلى حتى منتصف صدره ، لحية غبية ، وفى جيبه دراهم كثيرة احتل الجامع وجذب حوله بعض المراهقين الذين حتى لم يفكوا الخط، أعلن أن الرقص والغناء حرام فى حرام، وأن أمهاتنا وبناتنا زوانى لأنهن لا يغطين وجوههن وكفوفهن وكل شىء عنده أصلا حرام حتى الحلال ورغم ذلك تزوج (الشيخ الرملى) زوجة ثانية ثم ثلثهن بفتاة صغيرة.

ويقول الجد (إن الذى غلب الشيخ الرملى ذا الوجه الكشر الغاضب دوما ، صبى صغير ، كان الشيخ الرملى يريد أن

يتزوج أخته الصبية الجميلة ورفضته هى وأمها وأبوها فاتهمها أنها خارجة عن الدين ، لأنها تحب الرقص والغناء وتعشق الملابس الجميلة ، اقترب منها الشيخ الرملى يوما ، كان يتلصص عليها وهى منحنية تفرش حبات البلح على حصيرة أمام جدار بيتها ، عيناه ترصدان صدرها وعجزها ، صراحة ، كان الشيخ يجمع حسنتين ، الفجر والغباء ، يلعن النساء ولا يعترف لا بعقولهن ولا بنفوسهن ولا بحقوقهن فى المشاركة والحياة ولكنه لا يسيل لعابه على شىء بعد الدراهم إلا على أجسادهن ، الصبى الصغير شقيق الفتاة كان قادما شاهد الرملى يتلصص على أخته ، ورأى أخته عندما اعتدلت وصدمه أن الشيخ الرملى صفع شقيقته ، الموضوع كبر فناس القرية يعرفون دناءة هذا الشيخ الغبى ، وفى حلبة عامة والشيخ يرغى ويزبد فى الكلام ويراوغ حين ضبطه أحد مستشهدا بأحاديث موضوعة مكذوبة فتصدى له هذا الصبى وقال له جملة عربية بحراوية بليغة هى سباب مقذع تتكون من كلمتين أولاهما تبدأ بحرف الكاف وثانيتهما تنتهى بنفس الحرف» .

وعندما حاول (تومبيلة) الانتحار بإلقاء نفسه فى النهر وقامت (دهبية) كالتمساح السمين وحاولت إنقاذه كان يتحسس جسدها المبلول ويلصق خده بثدييها الشبعانين وهو يشخر ارهاقا ، و(دهبية) تتعمد تقليد (إنجيله) فترفع ذيل فستانها بحجة عصره لكن غرضها أن تخبل (تومبيله) .

مستوى الزمنية الروائية

● تدور وتتجسد وتصور أحداث هذه الرواية - الحكاية - الخرافة الحدوتة الشعبية فى يوم واحد فجرها حادث خرافى متخيل فاضح هو إشاعة حمل (إنجيله المخنث)، تدور هذه الأحداث المتتابعة والمتشابكة المليئة بالصخب والعنف والسخرية والتورية والاستعارة لتكشف عن سرية الحياة الخاصة للقرية ، تدور فى يوم واحد ونهار واحد هو تلخيص لدورة الحياة الأبدية لسعى النوبيين المهددة أرضهم بالغرق لذلك كانت عملية السرد الروائى الحكائى مكثفة مقتصدة اللغة مزدحمة ومتوترة الانتقالات بين المشاهد .. الوصف



مـختزل وتشكيلي والحوار قليل ، كل هذا الإتقان والإحكام البنائى الجمالى حـققـه (حـجـاج أدول) فكشـف وهتك النقـاب عن الموروث والقـيم والعـيب وتفـاهة حـيـاة الكسـالى فى حين مـجـد مـجـتـمع القلة الشـغـالة بقـيادة الخـوجـة (كلودا) الذين يزرعون الأرض القليلة ويبنون البئر .

● ولما تصـاعـدت فـضـيـحـة حـمل (إنجـيله) ووصلت أخـبـارها إلى القـرى الأخرى قرر العمدة الصغير وأعيان القرية عقد اجتماع كبير لمناقشة مشاكل القرية، وذلك ليـغطى على الفضـيـحـة لذلك أرسل مراسيل إلى كل عمد وكبار رجال القرى كلها قال لهم يجب أن نتباحث ونبحث حلا لمشكلة غرق الأرض وبخس التعـويضـات وضياع الهيبة وتجسد الخيبة ، ثم إن هذه البحوث تبعد عن أذهان الشعراء فضيحة حبل الرجل فلا يشعرون بها ويلهون بما نقول ولا نفعل.

فـأتى العمد كلهم لأن الحكاية ستكون كما يعلمون وكل ناس القرى يعلمون ونسة كلام فى كلام ، هذا بالإضافة إلى الطعام والذى منه .

● ونصل رغم قناع الجنس وحـادثة حمل (إنجـيله) الفاضـحـة والمتخـيلة إلى الدلالة البعيدة والقص والبعد الاجتماعى الذى قدمه المؤلف بمراوغة وبغير مباشرة إلى هذا المشـهـد الذى يبلور قـيـمـة هذه الرواية عن سر أسرار أزمة القرية النوبية فى هذا الحوار الموجز والدال بين (الخوجة كلودا) وبين العـمـدة الصـغـيـر صـاحب الكرش عندما اقـتـحم (كلودا) المضـيـفة وأثناء إنغـمـاس الضيوف فى تناول أنواع الأكل بشراهة وتدن حسى .

● يدعو العمدة الخوجة للمشاركة فى الطعـام فـيـرفض كلودا فى كـبـرياء وإشـمـئزاز قـائلا : (يوم الدين سيسـألكم الديان عن حياتكم فيما أفنيتموها وعن مالكم فيما صرفتموه بماذا ستجيبون) ؟.

سكون

– إح ح ح ح سيسـألنا طبـعا بعد تناول الغذاء ها ها .

– احـتـــرس يازراج البطنة أجب ياعمدة.

– يامعلمنا قلنا لك ألف مرة ، مابقى من أرضنا مازال يعطى بعض الخير من ظاهرها وباطنهـا ، ومـابقى من نقـود التعـويض وإن كان هزيلا مـازالت بقيته الباقية فى جيوبنا والمثل يقول : إصرف ما فى الجيب يأتيك مافى الغيب .

هذا المثل الذى اتخـذتموه شـعـارا سيهلكنا ، لماذا لا تتذكرون : «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون» – صدق الله العظيم .

– إح . ح . ح . ح – إننا نعمل فعلا ياكلوديا ، مثلا حضورنا من مساحاتنا الشاسـعـة شرقا وغربا وجنوبا وشـمـالا لنتداول وتدور مناقشـاتنا العميقة اليوم لإتخاذ قرار فى مصائبنا أليست عملا ؟

قلت لك إخرس يازراج البلاهة .. أجب

ياعمدة لماذا هذه الحالة التى صرنا فيها، لما انكسرت نفوسكم وصرتم كالريش تتلاعب بكم تيارات الهواء حتى وإن كانت نسمات خفيفة ، لماذا انكسر فيكم الأمل فتوقفتم عن العمل ؟

وقف العمدة غاضبا واثقا من نفسه - يلوح بيديه ويخاطب (كلود) ندا لند .

أنت تعلم بحالنا وتراوغنا .. أنت منا وتعلم ما بنا وتجادلنا كيف تجرؤ وتتهمنا بالكسل ؟ نحن قوم غرقت أراضينا فغرق الأمل منا ، اتركنا (ياكلودا) نعيش أيامنا الباقية حسبما نريد ودعنا ننسطل فلا نحس بسكين الذبح وهى تذبحنا .. اتركنا اعمل معروف .

جلس العمدة يمسح دموعنا .. والخوجة (كلودا) وقف حائرا من رد لم يتوقعه ودموع حقيقية انسالت فأربكته ..

قال :

ياعمدة لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الكافرون ، لا تيأسوا الغرق الحقيقى هو غرق إرادة الحياة ياناس .

واستمر الجدال وقتا غالبا عليهم . فالخوجة مرهق الجسد يحتاج إلى راحة وهو شيخ كبير ، والعمدة وسائر الأعيان يتحرقون شوقا للعودة لمداولات مجلسهم الموقر وتدخين لفافات المزاج .

ويحكى الراوية - الجد - بسخرية مريرة دالة على نهاية الإجتماع قبل صلاة العشاء والقرار الذى وصل إليه المجتمعون فى المضيفة .

يقول الجد :

أتتذكر المضيفة التى حوت وقتها ناس القرى الاقشطانوش بالعربية (كل من لا قيمة له) من عمد وأعيان عظام ، لقد مرت عليهم ساعة زمن قل ساعتين لا يهم ، فهل نحن نعرف قيمة الوقت ؟.

أكلوا فاكتظت بطونهم ودخنوا فتعمرت أدمغتهم بالحذر أو تخربت الله أعلم ، فثقلت العيون مرة أخرى خاصة أنهم لم يناموا نومة القيلولة فى نهارهم هذا المطين، المشاورات والإقتراحات الحرة التى كانت سريعة ، أخذت تتباطأ رويدا مع ثقل العقول وتبلد الشعور لكن لأهمية الموضوع ولإصرارهم على إتخاذ قرار حاسم باتر صبروا على المداولات حتى نجحوا واتخذوه فعلا فتكلم العمدة فى فخر .

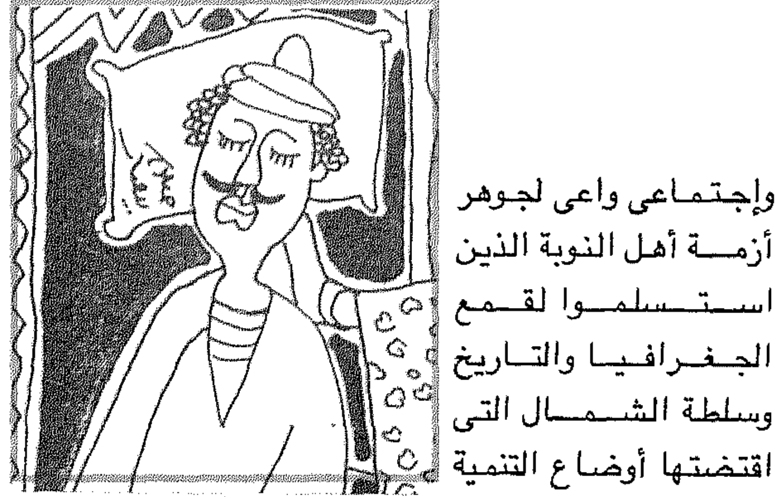
لقد بينا للدنيا أننا أمام المشكلات المعضلة والتحديات لا نسكت ولا نستكين، خلع نظارته إشارة لإنتهاء المداولات وأشار بها للخوجة القصير المكير ليعلن القرار فوقف كديك منفوش .

تحت رعاية عمدتنا الحكيم وبناء على توجيهاته الرشيدة استطعنا أن نتخذ قرارا هو أننا إزاء هذه الأحداث المباغتة والقضايا المهينة .. يجب أن نتخذ قراااارا .

وهكذا انتهت إحدى مجالس كبارنا .. إهى هىء .

وهذا الموقف الدال لا يحتاج لتعليق ويكشف به (حجاج أدول) عن فهم سياسى

وإجتماعى واعى لجوهر أزمة أهل النوبة الذين استسلموا لقمع الجغرافيا والتاريخ وسلطة الشمال التى اقتضتها أوضاع التنمية الإقتصادية أن تسيطر على مجرى النيل وتنشىء السدود والخزانات فغرقت بذلك قرى النوبة وتشرد أهلها أو نقلوا إلى قرى كومومبو التى تشبه الزنازين وذابت حياتهم القديمة وموروثاتهم وآثارهم وتكسرت أحلامهم .



ونصل لذروة الأحدادث الساخرة اللاهية عندما يهبط ظلام الليل وكأن الستار يهبط على مسرحية .. كوميدية سوداء مليئة بالصخب والعنف والهرج والضحك والدموع والأسى فقد جاء المخاض (لأنجيله) طبعا مخاض متخيل فالرواية لن تنتهى نهاية مغلقة فلن يلد طبعا (إنجيله) .

يقول الراوية الجد للحفيد خاتما الحكاية الساخرة (ولولة إنجيله تتزايد حرقة ، يسير فى حجرته بين (دهبية) و(حزبية) مستندا على كتفيهما حرا من (دباسه) أى (لياسه) جيئةً وذهابا يسير مثلما تفعل كل سيدة على وشك الوضع .. توقف مبحلقا أمامه إلى لا شىء ترك كتفيهما وأمسك بطنه.

أخذتاه .

النسوان اللائى لا يشغلهن شىء إلا الضحك بدون سبب إلتفغن حول أنفسهن بعيدا عن (إنجيله) وغرفة الوضع يضحكن ويتغامزن ويحللن الوضع.

البنت الشقية فى غفلة منهن مستغلة الظلام .. تسللت واقتربت والتصقت بهن .. سمعت تعليق (حزبية) التى لا تعرف الخجل ولا تستحى .. خرجت مسرعة تعدو حافية تقهقه وسط البيوت والليل حالك ووصلت إلى دارها تلهث وتنهج فاستقبلتها أمها قائلة .

تفشخين ضبك كالحمار الذى يوشك على النهيق أخبارك يابنت أبيك.

خالى جاءه المخاض .

هربت البنت قبل أن ينالها أى مقذوف .. اختفت فى ظلام القرية ، لم تستطع أمها أن تلحق بها فلم تملك إلا السباب .

يابنت المسطول الأكول .

عادت إلى حجرتها تمسح دموعها (زراج) بعد أن تأكد أن (سفورة) دخلت حجرتها وارتمت على سريرها التفت إلى صديقه الزير الكبير فصار مضجعا على جانبه الأيسر .

- أح . ح . ح . ح . زهقت منها ومن القـقـر أووووف دفع يمينه من كـتـفـه لأن يسـراه تحـتـه .. أطلق ثلاثة أصـابع مشروعات .. أما السبابة والإبهام فهما على هيئة أفقية مهددا ناسه .. ليشرح القضية لصديقه الزير الحيادى البارد الكبير والمحتفظ بطاقيته الخشبية في وقار

والله العظيم ياشيخ .

لم يستكمل تهديده فقد كبس عليه الخدر فهبط يمينه ليرتخى على كتفه اليمنى حيث أنه مستلقى على جانبه الأيسر ونام .

هـذه النهاية المفتوحة العذبة الساخرة البسيطة ببساطة الحدوتة الشعبية التى تنتهى بالنوم تطرح فى دلالتها البعيدة الأسئلة عن مأساة أهل النوبة المصريين، لخصها (حجاج أدول) ببصيرة واعية في كلمات العمدة الحزينة فى حواره مع الخوجة (المعلم) (كلودا) .. (نحن قوم غرقت أراضينا فغرق الأمل منا اتركنا ياكلودا نعيش أيامنا الباقية حسبما نريد دعنا ننسطل فلا نحس بسكين الذبح وهى تذبحنا اتركنا اعمل معروف) .

فيجيء الرد الحاسم المستنير المشير لطريق الخلاص والمستقبل على لسان الخوجة (كلودا) .

ياعمدة .. لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الكافرون لا تيأسوا، الغرق الحقيقى ليس غرق الأرض ياهووى .. الغرق الحقيقى هو غرق إرادة الحياة ياناس .

وبهذه الكلمات الحاسمة المضيئة لدلالة النص الروائى يطرح (حجاج أدول) الحفيد .. الحامل لتراث النوبة العريق وسر تكوينها الحضارى المتراكم .. الفرعونى والقبطى والإسلامى والمنتمى بحميمية لأهله وعشيرته .. بطرح دليل وطريق الأمل .. في تراچيديا قهر واستلاب قوى الطبيعة والضرورة وهيمنة نهر النيل ومشروعات الشمال للتنمية لحياة النوبة فخلاصها فى إرادة وفرح وبهجة الحياة .

وبهذا نكتشف فى بساطة ويسر الجوهر الحقيقى العميق لهذه الرواية الفاتنة المحكمة البناء خلف قناع البجورى الجنسى، الأمثولة والخرافة والأسطورة المعاصرة وتصبح واقعة وحدث حمل (إنجيله) المخنث المتخيلة اللاهية الساخرة ستارا يخفى أعماق مأساة ومصير أهل النوبة الفقراء المهمشين البسطاء الطيبين ملح الأرض .



كتاب
الهلال
يقدم

الغرب
في كتابات
المفكرين المصريين

بقلم:
د. السيد أمين شلبي

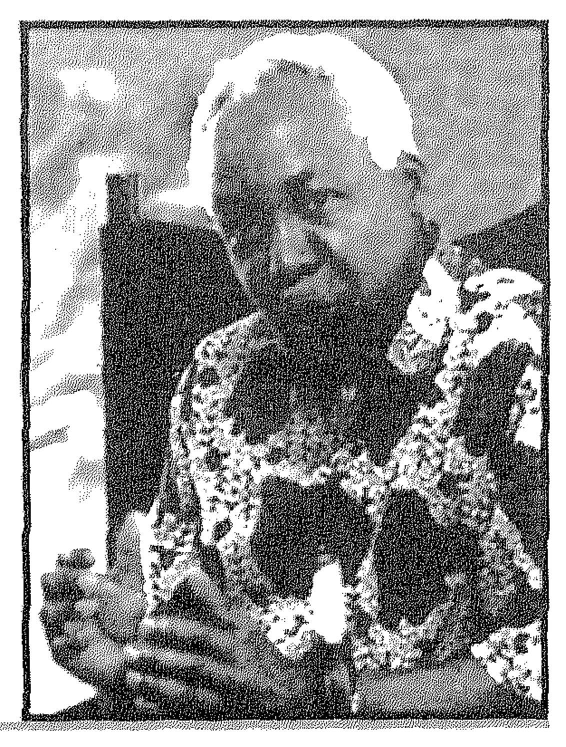
يصدر
٥ فبراير ٢٠٠٠

روايات الهلال
تقدم

حمرية

بقلم
د. أمين العيوطي

تصدر
١٥ فبراير ٢٠٠٠



نيريرى

ملك الحكمة

بقلم :
عايدة العزب موسى

●● توفى فى مستشفى سان توماس بلندن فى ١٤ اكتوبر ١٩٩٩، الرئيس التانزانى السابق «جوليوس نيريرى» عن عمر يناهز ٧٧ عاما. ونشر خبر وفاته فى أسطر قليلة لا تتناسب مع دور هذا الزعيم الافريقى العظيم الذى يعد بحق من أبرز زعماء الاستقلال الوطنى والتنمية الشعبية فى افريقيا. وسوف يذكر فى تاريخ افريقيا الحديث بانه أبو الأمة التانزانية، كان بطلا ورجل دولة وصانع سلام ومثقفا وعملاقا بكل المقاييس ●●

أطلق عليه شعبه «الفيلسوف ملك الحكمة»، وأحبه الناس خارج بلده بمثل ما أحبوه فى داخلها، فهو شخصية كاريزمية اهتمت بالجانب الأخلاقى فى التصرفات والسياسات بشكل متفرد، وقاد على مدى ٢٤ عاما أكبر دولة فى شرق افريقيا وتنحى عن السلطة طواعية وبإرادته عام ١٩٨٥. ورغم اعتزاله الحكم ظل يسيطر على العقل الجماعى للتانزانيين ولأهالى شرق افريقيا مدة ١٥ سنة اخرى تلت ابتعاده حتى رحيله. وعلى مدى حياته كلها كان رجلا بسيطا وكان واحدا من الرؤساء الافريقيين القلائل الذين تركوا السلطة بإرادتهم،

رغم انه عرف ان من سيخلفونه ليس لدى أى منهم كفاءته القيادية ولا شخصيته الكاريزمية، استقال وذهب الى مزرعته المتواضعة فى بوتاياما واستمتع بالزراعة وبأن يلعب دورا فى الحياة الريفية، وبقى تحت الطلب باعتباره رجل دولة عالميا ووسيطا فى المشاكل الافريقية والدولية .

والسؤال الذى يحتاج الى اجابة كيف استمر نيريرى يحوز هذه المنزلة المبجلة طوال سنوات حكمه ومابتلاها. الاجابة ببساطة انه على خلاف الحكام الافارقة التقليديين لم ينهب ثروة بلاده، وعاش حياة تتصف بالتقشف ولم يغير منزله البسيط فى دار السلام طوال سنوات رئاسته التى استمرت ٢٤ عاما. وثانيا انجز الوحدة الوطنية لتانزانيا، فرغم وجود ما يبلغ ١٢٠ شعبا مختلفا استطاع نيريرى ان يربط بينهم وجعلهم شعبا متلاحما يشكل واحدا من اقوى الأمم فى القارة، واليوم فان شعب تانزانيا يتكلم لغة واحدة هى (السواحيلى) وتندر فيه التوترات القبلية والعشائرية التى تعم شعوب القارة من مشرقها لمغربها، وذلك بفضل روح «الأندوجو» أى روح الأخوة التى أشاعها نيريرى، وهذا ما بوأه مكانة أبى الأمة وظلت المحافظة على الوحدة والاستقرار هى مهمته الأولى. وثالثا أقام وحدة بين بلده تنجانيقا وجزيرة زنجبار ودمجهما فى بلد واحد يحمل اسم جمهورية تانزانيا، وتكاد تكون هذه هى الوحدة الوحيدة التى تمت فى افريقيا واتسمت بالاستمرارية. ورابعا استطاع ان يسيس جيش تانزانيا وحمى بلده من الانقلابات العسكرية. وخامسا قام بدور الوسيط فى الكثير من المنازعات فى منطقة البحيرات الكبرى بوسط افريقيا .

ونيريرى من قبيلة زاناكى، وهى من أصغر قبائل شمال تنجانيقا، وكان والده زعيما لهذه القبيلة الصغيرة الفقيرة، وظل نيريرى يرعى غنم ابيه حتى سن الثانية عشرة عندما قرر والده ان يعلم ابنه. وفى المدرسة الابتدائية ابدى ذكاء وفطنة لفتت انتباه اساتذته وحثوه على مواصلة الدراسة الثانوية فى مدرسة سان فرانسيس فى دار السلام، ثم التحق بجامعة ماكريرى حيث حاز على دبلوم التدريس، ثم سافر الى بريطانيا ليصبح الطالب الافريقى الأول من شرق افريقيا الذى درس فى جامعة ادنبرج.

فى بريطانيا اثارت دراسته والاقامة فيها فترة من الوقت اهتمامه بالاشتراكية الفابية الانجليزية (اشتراكية حزب العمال البريطانى) وشغلت المحور الاساسى فى تفكيره، وتأثر بأفكار الزعيم الهندى المهاتما غاندى وخاصة تعاليمه فى التصدى للاستعمار بالمقاومة السلبية واللاعنف. وهكذا امتزجت الفابية والغاندية برؤى واحلام الشاب الافريقى لتشكل معا الموقف الفكرى لنيريرى ولتكون دليله النظرى لتحقيق أحلام

الفردوس الافريقي فى تانزانيا. وقد تبلور هذا الموقف الفكرى فيما عرف بنظرية «الأوجاما» وهى الاشتراكية على الطريقية الافريقية المرتكزة على القرى الجماعية والاعتماد على الذات فى التنمية.

تاريخه السياسي

فى بداية الخمسينات أسس مجموعة من الضباط الاستعماريين جمعية فى تنجانيقا سميت «جمعية تنجانيقا الافريقية» لكى تكون منتدى للحوار للافريقيين، واهتم نيريرى بهذا الأمر وانضم اليها وشكل فرعا لها وصار رئيسه، وقد نظر نيريرى لهذه الجمعية باعتبارها خطوة فى طريق تكوين حزب حقيقى.

وفى اليوم السابع من الشهر السابع (٧ يوليو) عام ١٩٥٤ اسس نيريرى حزب الاتحاد الوطنى الافريقى لتنجانيقا (حزب التانو) وصار أول رئيس له. وفى عام ١٩٥٩ ثار الشعب التنجانيقى كغيره من دول القارة مطالبا بالاستقلال ولكن الحكومة الاستعمارية ذلك الوقت كانت تشعر بان الافريقيين غير مؤهلين لهذا المطلب فوضعت نظاما معقدا للاستفتاء على الاستقلال بغية حماية الأقليات، فخصصت عشرة مقاعد لكل من الافريقيين والأوربيين والأسيويين وكل صاحب صوت أيا كان لونه عليه أن يصوت لشخص واحد من هذه الجماعات العرقية، ورغم وجود المرشحين الآسيويين والأوربيين فان الكل أيد حزب تانو.

لم يعارض نيريرى السلطات الاستعمارية فى طريقة هذا الانتخاب الذى يؤكد على الاقليات ولكنه أصر أن تكون الانتخابات القادمة بالاقتراع العام وبغير تمييز عرقى او قبلى أو عقيدى.

وفى العام التالى فى اغسطس ١٩٦٠ جرت الانتخابات بطريقة مباشرة حيث حصل حزب التانو على ٥٨ مقعدا من مجموع ٧١ مقعدا. وفى اكتوبر من العام نفسه اعطيت البلاد حكما ذاتيا واصبح نيريرى زعيم حزب التانو اول رئيس وزراء فى البلاد.

فى ذلك الوقت كان نيريرى المثالى الحالم مهتما بان تشارك تنجانيقا استقلالها مع جيرانها فى كينيا واوغندا، لذلك أخر بإرادته إعلان استقلال بلاده ليحصل الآخرون على الاستقلال معا. واحتفلت دول شرق افريقيا بالاستقلال الذى اعلن فى ٩ ديسمبر ١٩٦١ واصبح نيريرى رئيسا للبلاد. وفى ٢٦ ابريل ١٩٦٤ نجح نيريرى فى دمج تنجانيقا مع جزيرة زنجبار فى بلد واحد وتمت الوحدة على اساس أن يكون لزنجبار حكم ذاتى ويكون لها رئيس مستقل فضلا عن رئيس الاتحاد. وفى عام ١٩٧٧ صدر دستور الوحدة الذى لا يزال ساريا.

فلسفة نيريري

يمكن أن نلخص حكم نيريرى فى ثلاثة عناصر اساسية هى الأوجاما

ونظام الحزب الواحد وتسييس الجيش وتنوعه ودمجه فى المجتمع .

كانت الاشتراكية بالنسبة لنيريرى تعنى تنمية الثروة واصلاح التعليم ورفع مستوى المعيشة للجماهير، وكان هذا يعنى أن الاهتمام يجب أن يتوجه الى الاكثر فقرا وهم فى المناطق الريفية وليسوا في المدن. وقد رأى انه لا يستطيع ان يستأصل الفقر فى بلده المتخلف الواسع الأرجاء بواسطة الوسائل الرأسمالية التقليدية، وهو لم يكن مستعدا لأن يضع تانزانيا تحت نير السيطرة الاقتصادية للاتحاد السوفييتى، ومن ثم نظر فى طريق ثالث وظن ان تانزانيا تستطيع ان تسير فى طريق خاص بها باستخدام التعاون والاكتفاء الذاتى مما يتركز على المزارع الريفى، فابتدع مفهوما جديدا هو الأوجاما أى الأسرية، وفيها يمكن للفلاحين ان ينتجوا زراعاتهم ويقوموا بالتعليم الابتدائى والخدمات الطبية بالتعاون والاعتماد على النفس. وكانت هذه فكرة ثورية غير مسبوقة فى افريقيا المعاصرة .

الاوجاما

شرح نيريرى معنى الاوجاما بانها تعنى باللغة السواحيلية «الاسرية» اى علاقات الاسرة ذات الجذور العميقة فى التقاليد الافريقية. وبناء الأمة يعنى بناء الجماعة بواسطة الروح الأسرية التقليدية. ومفهوم «الأسرية» يتضمن ثلاث خصائص أساسية، المساواة والتعاون والعمل، فالأوجاما لا تعترف بالطبقات سواء كان التقسيم الطبقى معتمدا على ملكية وسائل الانتاج او على العلاقات العنصرية ولكنها تؤكد معنى المساواة الانسانية وهى تتطور من خلال جماعية الانتاج وتمجيد العمل وتدين الكسل. ومفهوم الأسرية يضع الفرد فى بؤرة اهتمامه وهو لا ينظر للفرد منعزلا عن غيره بل كعضو فى الجماعة فيهتم كل برفاهية الآخرين. والفرق بين الأوجاما والاشتراكية الأوربية ان الاخيرة هى وليدة الثورة الزراعية والثورة الصناعية وان الاوجاما تعارض الرأسمالية التى تنشد بناء المجتمع على اساس من استغلال الانسان للانسان، وهى تعارض الاشتراكية بمفهومها السائد الذى ينشد بناء المجتمع على اساس فلسفى يرى حتمية الصراع بين الانسان والانسان. اما الاوجاما فهى «موقف فكرى» موقف يعترف بالمساواة الانسانية ويتجنب المشاعر الطبقية والاستغلال ويركز على العمل الاخلاقى، فهى تعلن الحرب على غريزتين انسانيتين غريزة تجميع الثروة والسيطرة على الآخرين من خلالها وغريزة الخمول والتطفل على جهد الآخرين.

وتمنع تقاليد الاوجاما على القادة تكوين الثروات وامتلاك الأسهم فى الشركات الخاصة وامتلاك المنازل بقصد تأجيرها، وتمنع بوجه عام ان يتقاضى اى

فرد فى مركز قيادى اى دخل خلاف مرتبه. وقد اظهر العمل فى حزب تانو وقيادات الحكومة ان الأغلبية الغالبة قد التزمت بهذه المبادىء فمن بين ٢٠٣ أعضاء فى البرلمان لم يفشل الا اثنان فقط فى مراعاة هذه الضوابط .

وقد تم تأميم المؤسسات الصناعية والتجارية عام ١٩٦٧ كتطبيق لمبدأ الملكية الجماعية والعامة لمصادر الثروة الوطنية وكوسيلة لنزع أية جذور لتطور الطبقة الرأسمالية فى تانزانيا (وقد بدت بعد التأميم بعض ظواهر القصور فى تسيير هذه المشروعات فى الانتاج).

اما قرى الاوجاما فهى الوحدات الجديدة التى يجب آن يتحول اليها الريف اذ تأتى الاسر من عزلتها لتحيا جنبا الى جنب فتعمل معا وتتقاسم ثمار عملها ويقدم الحزب والحكومة الخدمات المختلفة كإنشاء المدارس والمستشفيات وشق الطرق وتقديم الجرارات والمخصبات الزراعية وكل الخدمات الاخرى .

ولكن الاوجاما والتعاونيات الزراعية لم تنجح، فالزراعة فى تانزانيا كغيرها من الدول الافريقية بدائية ومتخلفة وادخال الوسائل الحديثة والزراعة على المجال الواسع والعمل الجماعى لم يألفه الفلاحون، فالفلاحون يريدون ان يعملوا لانفسهم ولأسرهم وليس للجماعات الاكثر بعدا نسبيا ولذلك لم يتعاونوا ولم ينتجوا انتاجا متناميا .

وعندما وجد نيريرى انه لا يستطيع ان يقنع الناس بالانتاج الجماعى لجأ الى سياسة استخدام القوة ففرض النظام الجماعى وحاول ان ينتزع مليونى مزارع بالقوة ويدفعهم للقرى الجماعية حيث افترض انهم يمكنهم ان يقوموا بخدمات مركزية بالمساعدة والنصيحة ودفع الناس للعمل فى مزارع الدولة وتأميم انتاج المزارعين.

ولكن كل ذلك فشل فقد كانت الدوافع مفقودة، وكانت البنية التحتية من طرق وجسور ومصادر طاقة مفقودة، وكان التدريب ناقصا وصارت تانزانيا اكثر فقرا بعد تجربة الجماعيات عما كانت قبل ذلك (وان نجحت فى نشر التعليم الابتدائى والرعاية الصحية) .

يضاف الى ذلك ان الاقتصاد التانزانى حورب بتخفيض سعر البن المحصول الرئيسى للبلاد وعزوف الدول الغربية المستوردة له عن شرائه، وفرض صندوق النقد الدولى تخفيض العملة التانزانية فانهار الاقتصاد الوطنى وفشلت سياسة الاوجاما والسياسات الاشتراكية التى آمن بها نيريرى. وقد اعترف نيريرى بفشله فى تجربته الكبرى قبل ان يترك السلطة عام ١٩٨٥ بمدة طويلة، كما فشل كل المثاليين امثاله الذين حاولوا شق طريق ثالث للتطور الاقتصادى، ولم يكن امام الحكومات

المتعاقبة بديل الا ان تبتلع الدواء الذى وضعه صندوق النقد الدولى . وكان تعليق نيريرى «ان صندوق النقد الدولى قد صار بديلا عن الاستعمار الامبريالى، انه الآن يعتبر أداة لامبراطورية اقتصادية تسيطر على اقتصاديات هذه الدول وسيظهر لدول العالم الثالث يوما انهم ليسوا احرارا وعليهم البحث عن وسائل اخرى لكفاحهم» وقد صدقت نبوءته.

نظام الحزب الواحد

ان النظام السياسى يعتبر نظاما جيدا اذا نجح فى ان يقدم اقصى قدر من الاستقرار والوحدة والسلام والأمن فضلا عن تقديمه درجة مقبولة من مستوى المعيشة المادى للغالبية العظمى من السكان، وفى الوقت نفسه يحافظ على العدالة والحرية والحق فى ابداء الرأى فى القرارات التى تؤثر فى حياة المواطنين، وان احسن شكل للديمقراطية هو الشكل الذى يمكنه انجاز هذه الاهداف سواء كان حزبا واحدا او احزابا متعددة.

وقد اختار نيريرى نظام الحزب الواحد وكان هذا هو النظام السائد فى جميع الدول حديثة الاستقلال فى الستينات، وفى تصوره ان تانزانيا لا تحتاج بشكل مباشر الى نظام تعدد الاحزاب بقدر ما تحتاج الى تنشيط واسع للتكوين الديمقراطى فى اطار الحزب الواحد مع تبنى سياسات اقتصادية مرنة تتضمن التشجيع المنضبط للمبادرات الخاصة سواء فى المجال المحلى أو المجال الدولى. وهنا يقول نيريرى «أنا لست ضد نظام تعدد الاحزاب ولكن القول بانه اكثر النظم صلاحية لتانزانيا هو قول فيه تبسيط شديد لمسألة بالغة التعقيد، وهو قول ساذج ومضلل، ان نظام تعدد الاحزاب اثبت نجاحه فى البلاد التى تعتمد على قاعدة اقتصادية ثابتة وقوية، حيث يكون الباعث للعمل السياسى لدى معظم الناس هو تحقيق الذات، اما من حيث يكون الفقر هو القوة الاساسية التى تدفع للاهتمام بالسياسة فسيكون من الصعب احتمال المعارضة لأن الهجوم هنا لا يكون على آراء الانسان ولكن على حياته نفسها، وتانزانيا لم تبلغ بعد التنمية الاقتصادية التى تجعل الناس ينجذبون للسياسة بمثل الأهداف الأوربية.

وبالنسبة لتانزانيا فان المحافظة على الوحدة والاستقرار هى المهمة الأولى لأى سياسة أو قرار يهدد الوحدة يتعين الابتعاد عنه ونظام تعدد الاحزاب يحمل بذور تحطيم وحدة الوطن.

ولكن رياح التغيير نحو الديمقراطية اجتاحت افريقيا فى التسعينات وربطت المعونات الخارجية بالتعددية الحزبية، وهذا ما أجبر تانزانيا كغيرها من الدول الافريقية ان تطرح سياسة الحزب الواحد، وفى فبراير ١٩٩٠ ـ بعد ان ترك نيريرى الحكم بخمس سنوات دعا نيريرى بصفته رئيس حزب شاما شاما بندوزى

(الحزب الوحيد الحاكم) دعا اهالى تانزانيا للمشاركة فى الجدل المفتوح حول موضوع تعدد الاحزاب. ووافقت الحكومة على تعديل بعض مواد دستور جمهورية تانزانيا ليسمح بالتعددية وفتح الباب للتنوع الحزبى، ولكن المشكل ان غالبية التانزانيين وبخاصة الذين تضمهم شريحة العمر بين ٣٠ ـ ٤٠ سنة لم يعرفوا قط اى نظام سياسى آخر غير الحزب الواحد، ومن هنا فان وجدت احزاب سياسية فى تانزانيا فهى لا تستطيع بعد ان تتداول السلطة مع الحزب الحاكم.

تسييس الجيش وتنويعه

بعد ان تولى نيريرى السلطة بقليل واجه انتقادات تتعلق بقيادته، وفى ديسمبر ٦٣ استقلت زنجبار وهى جزيرة تقع على ساحل تنجانيقا بعد شهر واحد فان حكومتها الافرو عربية ذات الخبرة اطيح بها وظهرت هستيريا الانقلابات تنتشر على طول شرق افريقيا . وفى تنجانيقا تمردت كتيبة تنجانيقا الى حد هدد حكم نيريرى، وقد اضطر نيريرى للاختفاء مدة وكان من الواضح انه مشلول عن اتخاذ اى قرار، ولم يرغب ان يستدعى القوى الاستعمارية القديمة لتحميه خاصة ان الجنود المتمردين طلبوا شحنات اسلحة من نظام الجزائر الوليد .

ولكن نيريرى سرعان ما ظهر وفصل الكتيبة الاولى من كتائب المتمردين فى تنجانيقا وشكل قوة دفاع شعبية جديدة احلها محلها، ثم اتت العملية السياسية بعدها التى تحول بها الموقف لصالحه. فقد ساعد الساسة فى زنجبار على استعادة السلطة ثم ربط زنجبار بتنجانيقا مكونا جمهورية تانزانيا المتحدة تحت رئاسته .

بعدما حدثت هذه التمردات فى الجيش التى شملت دول شرق افريقيا كلها فى الستينات اضطر القادة الى اعادة التفكير فى نمط الجيوش الذى تريده وكيف يمكن منع احداث اضطرابات تشمل الأمة. وتوصل نيريرى الى نظرية تسييس الجيش وتنويعه ودمجه فى المجتمع، فإلى جانب الفروع التقليدية للقوات المسلحة : البرية والجوية والبحرية فقد أوجد فروعا جديدة مثل الميليشيات الشعبية والخدمة الوطنية، وهذه الفروع تعطى تدريبا فى القدرة على الهجوم والقتال مما يعنى ان استخدام القوة لم يعد مقصورا على الجنود المحترفين، وبذلك أصبح من الصعب على فريق واحد من القوات المسلحة أن يقوم بانقلاب ناجح كما أن اجماع الفروع كلها وانتظامها من أجل هذا العمل أمر صعب جدا.

ثم أقدم على خطوة أخرى وهى عملية تسييس الجيش واندماجه وصار لممثلى الجيش مقاعد فى كل مؤسسة حكومية وأعطوا وظائف مدنية، وبعض المدنيين أرسلوا للحصول على تدريب عسكرى عال وعادوا إلى وظائفهم مع صفوف ضباط الجيش، وبذلك صارت الحكومة مدنية وعسكرية فى نفس الوقت. وحتى الآن فإن الجنود جميعا هم أعضاء فى حزب شاما شاما بندوزى، ورغم أن نيريرى اقترح - مع النظام الديمقراطى الجديد - أن يسمح للجنود بالاختيار أن يبقوا فى الحزب أو ينضموا إلى جماعات المعارضة أو ينصرفوا بعيدا عن الانتماءات الحزبية، فهو يرجح أن يظل رجال العسكرية مرتبطين بالحياة السياسية فى البلاد، فهذه الطريقة حسب قوله هى التى استطاعت بها تانزانيا أن تتفادى الانقلابات منذ استقلالها عام ١٩٦١.

الإبقاء على الوحدة

تبقى أخيرا العقبة الكبرى التى قد تواجه تانزانيا بعد غياب نيريرى وهى الابقاء على الوحدة مع زنجبار وتفادى النزاعات الانفصالية التى بدأت تطفو على السطح. ولاشك أن وحدة تنجانيقا مع زنجبار تعد أنجح وحدة شهدتها القارة الأفريقية فى العصر الحديث. ولكن داخل جزيرة زنجبار يوجد من يعتقد أن الظروف قد نضجت لكى ينفصلوا عن تنجانيقا وينشئوا حكومتهم الخاصة. وكذلك داخل البلد الأم تنجانيقا ففى عام ١٩٩٥ فإن خمسين من أعضاء البرلمان عرفوا باسم «نادى الخمسين» قرروا أن يخوضوا معركة ضد الوحدة فى البرلمان وكان هدفهم هو أن يجعلوا موضوع الوحدة مجالا للاستفتاء الوطنى، وعندما زجرهم نيريرى ألغوا الحملة.

ومع غياب نيريرى فسيكون الوضع مختلفا، وإن أول الأحداث التى ستظهر فى انتخابات عام ألفين التى ستأتى سريعا هو موضوع الوحدة.

لقد ظل نيريرى مسئولا عن أسطورة الوحدة والاستقرار فى البلاد حتى بعد أن ترك الحكم، بقى كما كان يقوم بدور المراقب وظل قوة خلف المسرح السياسى، ومن النادر ما كان يصدر أى قرار أو أى تعيينات فى القمة من غير أن يكون لنيريرى قول فيها.

ومن الناحية الدولية بقى دوره كما كان وهو فى السلطة، وحتى فى النهاية عندما مات فى مستشفى بلندن بسرطان الدم فى ١٤ أكتوبر ٩٩ كان مطلوبا فى أفريقيا وفى العالم باعتباره وسيطا ومفوضا. ويعتقد المحللون انه يصعب ايجاد بديل عن نيريرى فى عملية السلام التى تقوم بها الأمم المتحدة فى بورندى وانها اصيبت بنكسة خطيرة لغيابه .

سيبقى نيريرى مذكوا باعتباره بطلا افريقيا وباعتباره الأب المحبوب لوطنه .

التكوين

خففت جانباً من أحلامي
عن طريق مواصلة البحث العلمي



ولدت سنة ١٩١١ فى القاهرة ، حيث جاءت والدتى إلى بلدها لكى أولد فيها، أما والدى وأسرته فمن الإسكندرية، التى عشت فيها طفولتى، حيث عشقت البحر فيما بعد، وتفوقت فى السباحة وحققت فيها العديد من البطولات.

لم يكن فى الإسكندرية فى ذلك الوقت سوى مدرسة ابتدائية حكومية واحدة، هى مدرسة رأس التين، وقد التحقت بها فى بداية مشوارى التعليمى ، ورفض والدى أن ألتحق بمدرسة «فيكتوريا كوليدج» القريبة جدا من منزلنا، حيث رفض إلحاقى بمدرسة أجنبية على الرغم من وجود أعداد كبيرة من الأجانب بالإسكندرية، حتى أن شارع سعد زغلول كان يسكنه كله جاليات أجنبية كثيرة ، حتى البائعون فى المحال والمتاجر كانوا كلهم من الأجانب.

التحقت بعد ذلك بمدرسة العباسية الثانوية بالاسكندرية، وطوال هذه المرحلة، ألقيت اهتمامى على الرياضة، وعلمنى أبى السباحة وركوب الدراجات والصيد ، حيث كان صياداً ماهراً، وكانت الطيور المهاجرة والبط تجىء إلى الإسكندرية فى فصل الشتاء .

ولما انتهيت من دراستى الثانوية ، كان لابد أن أكمل دراستى العليا بعيدا عن الإسكندرية التى لم يكن بها جامعات فى ذلك الوقت، واضطررت للانتقال إلى القاهرة ، لأعيش مع عائلة والدتى فى حى الروضة فى عام ١٩٢٩، والتحقت بمدرسة المهندسخانة وتخرجت فيها فى



هواية السباحة منذ الصغر
وكذلك ركوب الدراجات





عام ١٩٣٣ بتفوق، حيث كانت الدراسة بها ٤ سنوات فى ذلك الوقت وكان أول الدفعة ميشيل قسطندى، كما كان سيد كريم طالبا بالكلية نفسها، وكنت أسبقه بسنة دراسية وكان طالبا مجتهدا ثم أصبح من المهندسين الممتازين، وهو رجل أجله وأحترمه .

وسوف يدهش الكثيرون حينما يعلمون أن عدد المتخرجين من مدرسة المهندسين عام ١٩٣٣ كان : سبعة فى قسم الميكانيكا وسبعة عشر فى قسم الكهرباء و ٢٥ فى الهندسة المعمارية، وما يقرب من ٧٠ مهندسا فى مختلف شعب القسم المدنى، أى حوالى ١٢٠ مهندسا فى كل القطر المصرى، والشىء الغريب أن عدد خريجى عام ١٩٣٤ ، كان أقل من العام السابق!

كان الحلم الذى أطمح فى تحقيقه هو أن أعين بعد تخرجى فى وظيفة معيد بمدرسة الهندسة الملكية، حيث إن ذلك يفتح لى الطريق بعد ذلك للدراسة فى الخارج ، والحصول على درجات علمية أكبر ، وكنت أطمع كثيرا فى الحصول على درجة الدكتوراه، ولكن لم يشفع لى حصولى على المرتبة الثالثة على الدفعة بامتياز، فقد عين فى الوظائف الخالية ثلاثة من زملائى ولم أكن من بينهم..

وكانت الأزمة الاقتصادية فى ذلك الوقت أزمة طاحنة حتى أن ابن محمد محمود باشا رئيس الوزراء لم يعين !

وسافرت إلى فرنسا على نفقتى الخاصة لاستكمال دراستي العليا، وتخصصت فى فرع من فروع الهندسة النادرة جدا والتى لم يكن يهتم بها أحد فى مصر وهى كهربة الخطوط الحديدية فى مترو الأنفاق، وكنت أول مهندس مصرى يحصل على مثل هذا التخصص، ويشاء القدر أننى كلفت فى مشروع التخرج من مدرسة الكهرباء العليا بباريس بدراسة كهربة خط سكة حديدية، كانت مواصفاته صورة طبق الأصل من مواصفات خط حلوان، والذى كانت وزارة المواصلات المصرية مهتمة بكهربته فى ذلك الحين.

... عدت إلى مصر بعد الحصول على الدبلوم ، وكانت الأزمة الاقتصادية العالمية مازالت قائمة، والتى تسببت فى الشلل الاقتصادى فى العالم كله بما فى ذلك مصر .

هنا تذكرت صديقى مصطفى مقبل ابن محمد باشا مقبل محافظ الاسكندرية، والتقيت به وطلبت منه أن يرجو والده فى مساعدتى للحصول على وظيفة أعمل بها.



حسن رجب وزوجته



نياشين كثيرة حصل عليها فى رحلة حياته

وفعلا حدد لى موعدا مع حسين سعيد المسئول عن إدارة النقل المشترك بالاسكندرية، والذى رآنى أدخل مع محمد باشا مقبل ولم يهتم بى فى بداية اللقاء ، بل كان اهتمامه منصبا على الباشا لكنه قبيل انصرافنا من مكتبه سألنى بقوله : ما هو الفرع الذى تخصصت فيه أثناء بعثتك فى فرنسا ؟..

قلت : كهربة مترو الأنفاق، وبدأ ينظر إلى بنوع من الاندهاش!.. فى هذه الأثناء كان حسين سعيد مهتما بكهربة خط حلوان وشاءت الظروف أن يكون المشروع الذى حصلت به على الدبلوم ينطبق تماما على مشروع كهربة خط حلوان ، سواء فى المسافة التى تصل إلى ٢٥ كيلو مترا، أو المسافة بين المحطات.

وسألنى الرجل على الفور ، متى تحضر لى هذا المشروع؟

قلت له : الآن وفوراً يمكننى الذهاب إلى منزلى وإحضاره وفضل أن أحضره فى اليوم التالى، وبعد أن رآه قال لى سوف تتسلم عملك الآن ، وهنا آمنت بأن الحظ حينما يبتسم لك فإن له دورا كبيرا فى تغيير حياتك ، وأنا فعلا فى رحلة

حياتى كنت محظوظا، ولكن أبذل الجهد والعرق وأعمل بلا كلل وبدأب شديد.

ولأننى من الاسكندرية وكنت صديقا لمصطفى مقبل ابن محافظ الاسكندرية، وتشاء الظروف أن مصطفى مقبل خطب ابنة عبد الجليل سعد كبير مهندسى البلدية، وتعرفت على شقيقتها زينب والتى تزوجتها فيما بعد، وأنجبت ابننا الوحيد عبدالسلام ، وهو طبيب تخصص فى فرع نادر من فروع الطب وعاش طويلا فى الخارج وعاد إلى مصر ليتولى الإشراف على القرية الفرعونية ومعهد البردى بعد أن تقدمت بى السن!

● بداية العمل الحقيقى ●

عينت مهندسا للصيانة فى محطة ترام الرمل بالإسكندرية وطوال حياتى كنت أعشق العمل وأتفانى فيه ، وأحبنى حسين سعيد لحماسى الشديد ووثق بى على الرغم من صغر سنى وقلة تجربتى فى ذلك الوقت.

وتشاء الظروف أن أسجل رسالتى للدكتوراه فى نبات البردى وتلك قصة أعود إليها خلال رحلة التكوين.

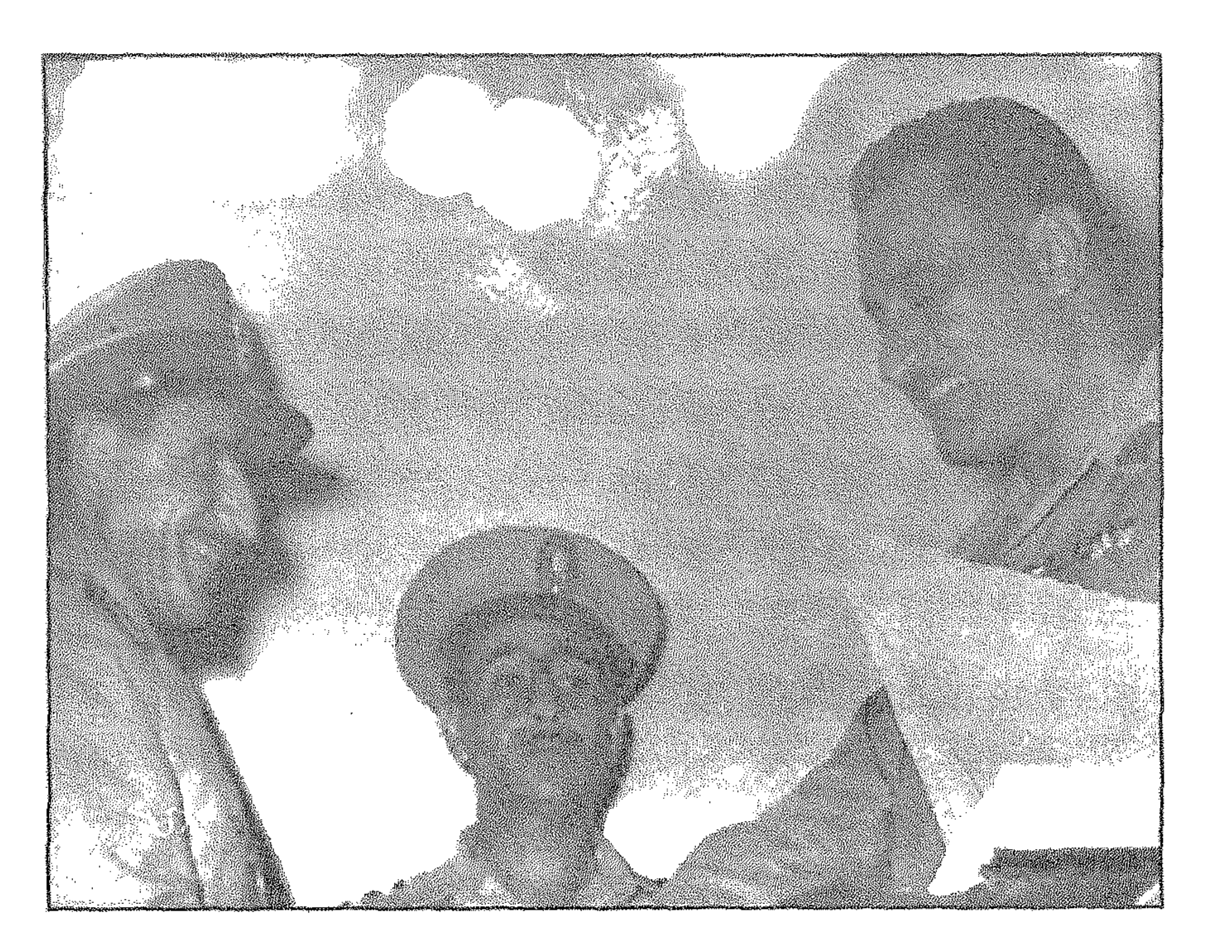
كان كل اهتمامى بالأمور الهندسية، ولم أهتم كثيرا بالناحية الثقافية.

ففيما يختص بهندسة الكهرباء، كنت دائم البحث عن كل جديد فى هذا الميدان، وخلال عملى كمسئول عن صيانة خط ترام الرمل بالاسكندرية، اكتشفت شيئا جديدا لم يتحدث عنه أحد من المهندسين فى هذا المجال فى مصر، وهو أن خط ترام الاسكندرية يقترب فى بعض الأنحاء من البحر، والبحر أحيانا يبتعد عنه، ووجدت أن المناطق التى يقترب فيها من البحر، وعودة الكهرباء، ترجع عن طريق القضبان فى جميع أنحاء العالم، لكن فى المناطق القريبة من البحر، لا يرجع التيار الكهربائى عن طريق القضبان، ولكن عن طريق الأرض المالحة القريبة من البحر والرطوبة.

فى طريق عودة الكهرباء هذه، اكتشفت أن كل المواد المعدنية المدفونة فى الأرض، تتأثر من هذا التيار مثل الكابلات الموجودة فى باطن الأرض حيث يؤثر عليها التيار الكهربائى حين عودته ويتلفها.

وقمت بعمل بحث كبير عن هذه الظاهرة المهمة، وفكرت فى أن يكون هذا الموضوع هو رسالتى للدكتوراه ، واكتشفت أن هذا يحتاج إلى استعدادات وترتيبات ودراسات شاقة وتوقفت.

وفى سنة ١٩٣٩ ظهرت فى الأفق بوادر الحرب العالمية الثانية وبدأت انجلترا تنظر إلى مصر بعين الاعتبار حيث إنها نقطة اتصال مباشر بين



عبدالناصر يصافح حسن رجب

الشرق والغرب، وأن هناك احتمال حدوث حرب، وفكر الإنجليز فى كيفية الاستفادة من مصر القاعدة العسكرية، لكن حسن باشا صبرى رئيس الوزراء فى ذلك الوقت كان يرى أن اتجاه الرأى العام ألا تدخل مصر هذه الحرب على الرغم من أننا سوف ندافع اسميا عن مصر، ووافق الانجليز على ألا يضغطوا على مصر فى الجانب العسكرى، لكن تساعد بالتمويل والمواصلات والأيدى العاملة والمطارات والسكك الحديدية.

وجاءت البعثة العسكرية البريطانية إلى مصر فى محاولة للاهتمام بالجيش المصرى، ولم يكن هناك مهندسون فى الجيش ، وطلبت البعثة مهندسين من خريجى كلية الهندسة.

لم يتقبل الضباط العسكريون الموجودون فى الجيش ذلك الأمر، وحدث نوع من القلاقل، ووصل ذلك إلى السراى وإلى الحكومة.

وتقرر أن يجىء الضباط المختارون من خريجى كلية الهندسة فى الترتيب بعد ضباط الجيش المتخرجين فى السنة نفسها، وأحدث ذلك خلافا شديداً، وبدأ

الضباط المهندسون لا يهتمون بعملهم فى الجيش بعد أن رأوا هذه التفرقة من حيث التخرج والأقدمية .

وصلت هذه المسألة إلى البعثة العسكرية البريطانية ، فطلبوا مقابلة وزير الحربية ، وانتهى الأمر بتعيين مهندسين جدد، وبما أن سلاح الصيانة هو الذى طلب تعيين مهندسين ، فقد سمح بأن يتم تعيينهم من أقسام الصيانة فى الحكومة، من أقسام : الكهرباء والميكانيكا والرى وأرسل وزير الحربية منشورا لكل المصالح الحكومية يطلب أسماء المهندسين الجدد المتخرجين فى كلية الهندسة، ورشحتنى إدارة النقل المشترك للعمل بسلاح الصيانة «واسمه المركبات الآن» بالجيش، وبدأ الإنجليز كما أشرت يهتمون بتسليح الجيش المصرى وتدريبه وتنظيمه على أمل أن يحارب ضمن صفوف الجيش الإنجليزى ، ولما وجد الإنجليز عدم الرغبة من الحكومة ومن الضباط المصريين، جمدوا الوضع على ما هو عليه.

● فى الجيش●

حينما التحقت بسلاح الصيانة فى الجيش ، كانت من أبرز المشكلات التى تواجه الجيش المصرى أن عجلات المركبات كانت تغوص فى الرمال، مما يعوق حركتها تماما، ولم تكن العجلات مجهزة لمقاومة ذلك .

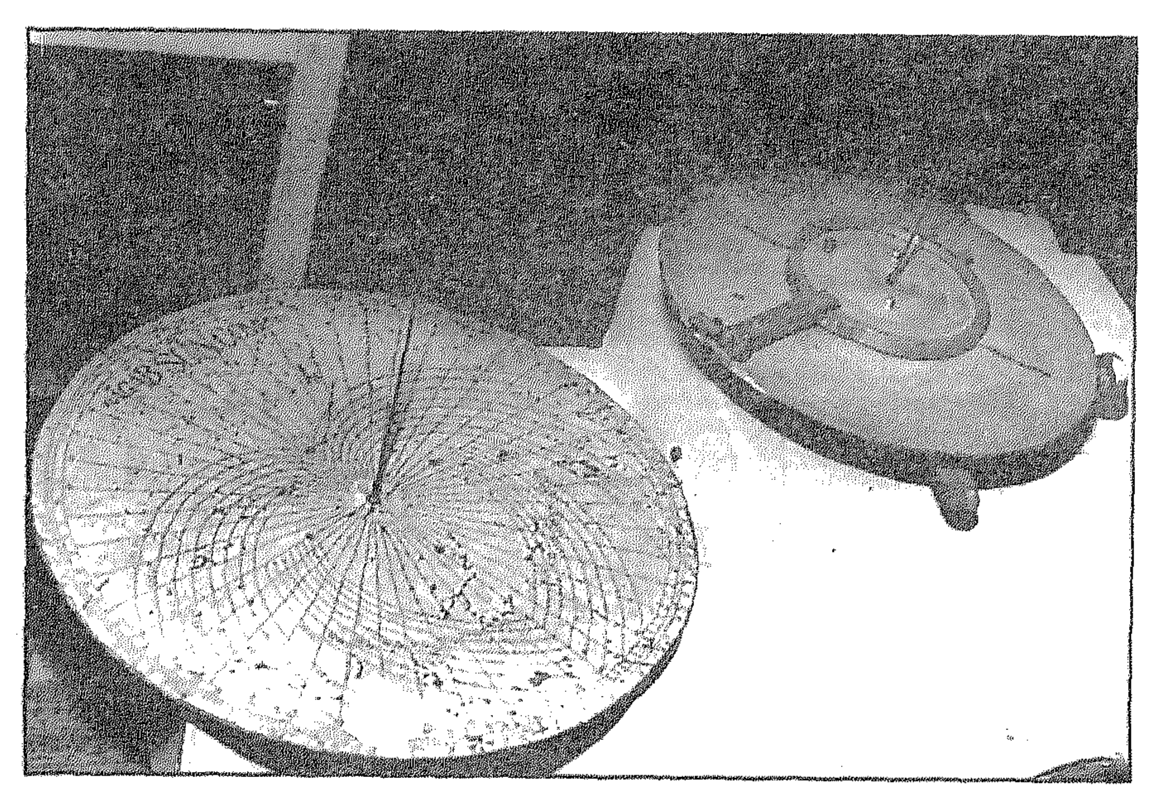
وفعلا ابتكرت فكرة جديدة حلت الكثير من هذه المشكلة، كما قدمت بعض الأفكار المهمة لتطوير معدات الجيش فى الفترة من ١٩٣٩ إلى ١٩٥٢.

ومن ضمن هذه الأفكار : ابتكار البوصلة الشمسية والتى أطلق عليها «بوصلة رجب الشمسية» وفكرة عمل البوصلة أنها تعتمد على أشعة الشمس ومواقعها، بحيث تكون أكثر دقة وانضباطا، وتوصلت إلى تصنيعها سنة ١٩٤٢.

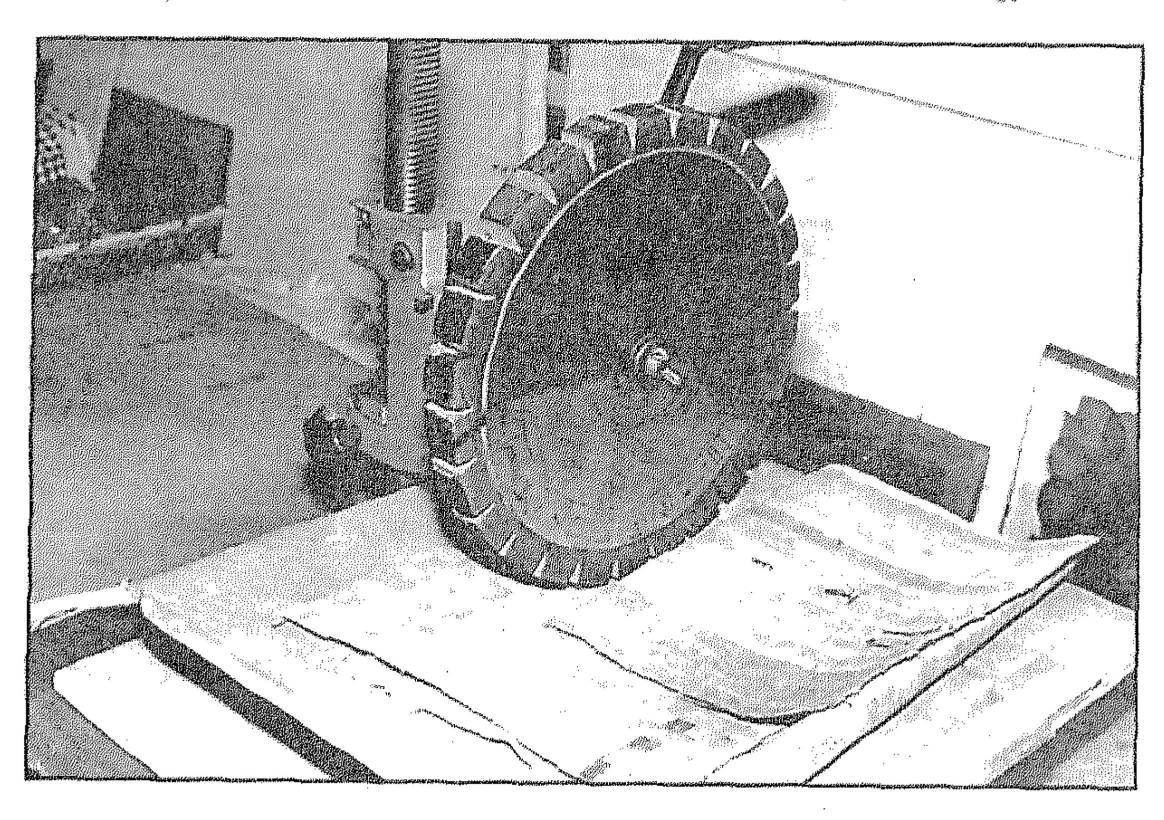
وقصة البوصلة أن المسئولين فى الجيش المصرى والجيش الإنجليزى، اكتشفوا أن البوصلة التى يستخدمونها ليست دقيقة، وتتأثر بالحديد الموجود فى الدبابات والعربات المصفحة وغيرها.. وكل ذلك يؤثر على عمل البوصلة.

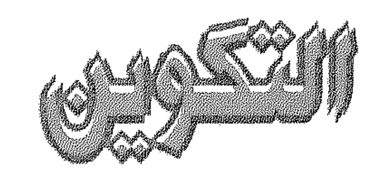
وقد حققت هذه البوصلة نجاحا كبيرا، فهى لا تهتز أثناء سير المركبات والدبابات ، وقد استخدم الجيش الأمريكى هذه البوصلة كما استخدمها أيضا الجيش المصرى والجيش الانجليزى.

فى سنة ١٩٥٢ جاءت الثورة وكنت فى ذلك الوقت برتبة بكباشى «عقيد» ، وكانت علاقتى طيبة باللواء محمد نجيب



البوصلة الشمسية التى اخترعها د. حسن رجب وآلة طباعة ورق البردى





وجمال عبدالناصر ، وتم اختيارى لكى أكون مديرا عاما للمصانع الحربية، وأنشأت ١٤ مصنعا للأسلحة والذخائر .

● فى السلك الدبلوماسى ●

كنت أتنقل من عمل إلى آخر بحب وعشق شديدين خاصة وأن علاقتى بالعلم لم تنقطع أبداً، وبدأ اهتمام آخر لى فى حياتى العملية ، ودخولى إلى السلك الدبلوماسى، ارتبط بالمصلحة العليا لمصر.

فقد عينت ملحقا عسكريا بسفارتنا بأمريكا ، ولم تكن هناك مهام محددة أوكلت إلى فى هذا المنصب الجديد، ولكن اهتمامى كرجل عسكرى ومتابع للاختراعات الحديثة ، تركز على اكتشاف القنبلة الذرية والطائرة النفاثة ، وكنت أرسل كل ما يقع تحت يدى من معلومات عن أسرار هذه الاكتشافات إلى مصر، سواء عن التسلح الذرى والنووى والحرب الباردة - فى ذلك الحين - بين أمريكا وروسيا ، وقوة أمريكا التى بدأت تظهر على الساحة.

وفى عام ١٩٥٥ عقد مؤتمر باندونج.، وكان نواة لمؤتمر عدم الانحياز وحضره الرئيس الصينى شواين لاى.. وعينت سفيرا لمصر فى الصين بتكليف من الرئيس عبدالناصر، لأنه كان يعلم تمام العلم أن تأميم قناة السويس معناها الحرب، وبالتالى لابد من وجود حشد من الدول تساندنا وتقف إلى جوارنا، كما أن الصين ، كانت تود أن تصبح عضوا فى عصبة الأمم المتحدة، وأن تعترف بها دول العالم ، بدلا من تايوان الجزيرة الصغيرة.

كان لابد للسفير المعين فى الصين أن يلم بالأغراض التى ذهب من أجلها وفى مقدمتها الحصول على أسلحة وذخائر، وإعانة ومتطوعين إذا قامت الحرب، وهذا حدث بالفعل، فحينما بدأ العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ عرضت الصين ارسال عدد كبير من المتطوعين لمساندة الجيش المصرى، كما أعطتنا الصين ٢٠ مليون فرنك سويسرى إعانة لا ترد ، لكنها لم تستطع أن تزودنا فى ذلك الوقت بالأسلحة، حيث لم تكن تنتج أى نوع من السلاح، وكانت الأسلحة ترد إليها من روسيا ، بذلت جهدا كبيرا فى أثناء وجودى بالصين ،.وكانوا يعلمون ذلك، وبقيت فى الصين لمدة ثلاث سنوات، ثم عدت منها فى عام ١٩٧٩، لأعين سفيرا فى إيطاليا لمدة سنتين وفى يوغوسلافيا أيام حكم الرئيس تيتو لمدة سنتين ، وليصل عدد سنوات عملى فى السلك الدبلوماسى إلى سبع سنوات .

● أنا وعبد الناصر ●

طوال هذه الفتـــرة كنت من أبرز المقربين إلى الرئيس جمال عبدالناصر، وكانوا كلما سألوه عن شيء، أو فكروا في شيء يقول لهم اذهبوا إلى حسن رجب، وهذا أثار غيرة الدبلوماسيين وغير الدبلوماسيين ، وكنت كلما أتيت من الصين في أي مهمة من المهام يستدعيني إلى مكتبه فور وصولي إلى القاهرة.. كان رجلا نظيفا، ودقيقا في عمله ، وكان الشعب يؤمن به إيمانا مطلقا، وكان العالم كله يجله ويحترمه ، لكنه كان ينصاع في بعض الأحيان لآراء المجموعة المحيطة به، خاصة المقربين إليه، خاصة تلك المجموعة التي كلفت بعمل صاروخي الظافر والقاهر بمساعدة الخبراء الألمان، الذين كان لديهم أسرار عمل مثل هذه الصواريخ!

لكن الرئيس غضب مني حينما طلب مني العودة إلى وزارة الحربية وأن أشارك في عمل صناعة قوية للصواريخ.

لكنني تحفظت قائلا : الصواريخ هذه ليست جديدة علي، فقد عملت أيام تولي مصطفى نصرت للحربية في هذا المجال وثبت لنا من خلال التعامل مع الخبراء الألمان ، أنه لا توجد غير دولتين في العالم، تعرفان السر الخاص بهذه الصواريخ وهما الولايات المتحدة وروسيا، وإذا أردنا أن ندخل في هذا المجال، فتلك مغامرة كبرى، وينبغي أن نعمل لها كل حساب .

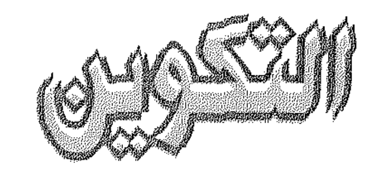
وشعر بأنني أحاول الهروب من هذه المهمة التي يكلفني بها، أحسست في هذه المرة الأخيرة بأنه تأثر من موقفي ، وشعرت أيضا بأن أوراقي كلها قد احترقت وانتهت صلتي به في عام ١٩٦٤، وانصرفت عني كل الأجهزة في الدولة ، لا لشيء إلا لأنني ذكرت الحقيقة ، وهي عدم قدرتنا على عمل أجهزة التوجيه الخاصة بصاروخي القاهر والظافر، وأنهما كانا خدعة كبرى.

وبذل محمود فوزي وزير الخارجية ، والذي كنت أعمل معه ملحقا عسكريا في السفارة المصرية بواشنطن، وكان هو يعمل وزيرا مفوضا، جهدا كبيرا بعد صدور قرار بتركي العمل في الخارجية، ولأنقل إلى مؤسسة الثروة المائية وأصبح رئيسا للملاحات والمصايد والأسماك، وأسطول أعالي البحار لصيد الأسماك وكان مشروعا فاشلا! وظللت في هذا المكان حتى عام ١٩٦٦.

وقبيل وفاة عبدالناصر بأسبوع أبلغني الكاتب المعروف إحسان عبدالقدوس بأن عبدالناصر قرر إصدار مرسوم بتعييني وزيرا للسياحة بعد أن تأكد له مدى اخلاصي وأنني ظلمت!

● نبات البردى وعشقى لأجدادى ●

حصلت على الدكتوراه من جامعة جرونوبل عام ١٩٧٩، وكان موضوعها نبات البردي، وبينت في هذه الرسالة كيف استمر نبات البردي في مصر حتى منتصف القرن العاشر الميلادي، ولم تكم أهمية البردي وهونبات مصري قديم،



تقتصر على أنه مادة لإنتاج أجود نوع من الورق عرفته البشرية، حتى الآن بل تقول الكتابات القديمة ، إن بعض أجزاء النبات كانت تصلح لإعداد طعام شهى يؤكل مسلوقا أو مشويا، وكان يحتوى على نسبة عالية من السكريات والنشويات.

واستخدم البردى فى صناعة الورق، وكان المحصول الرئيسى الثانى فى مصر القديمة بعد الكتان، وكان يصدر إلى الخارج، وقد فكرت فى تصنيع ورق البردى بصورة علمية ، ولكن قابلتنى مشكلتان : أن نبات البردى انقرض تماما من مصر، وعدم توافر معلومات مؤكدة عن طريقة صناعته .

وذهبت إلى منابع النيل فى منطقة المستنقعات بحثا عن النبات، ولكن فشلت الرحلة الأولى، لعدم معرفتى بموسم النبات أو حتى مكانه ، واضطررت للقيام بأكثر من رحلة على مدى سنتين ، حتى نجحت فى الحصول على جذور صحيحة للنبات، وبدأت فى استزراعها فى مصر، ثم قمت ببحوث على النبات، استغرقت ثلاث سنوات أخرى، حاولت خلالها الحصول على ورق البردى وكان دافعى لكل ذلك ما رأيته فى الصين من اهتمامها بصناعة الورق والتى تعد إحدى ركائز اقتصادها القومى الذى يرجع تاريخه إلى ٢٠٠٠ سنة سبقت .

وكان الفراعنة هم أول من صنع الورق منذ خمسة آلاف سنة ولا تعرف عنه شيئا لأنهم جعلوه سرا مقدسا.

ذهبت إلى السودان والحبشة والكونغو حيث يزرع البردى هناك وفعلا أحضرت نبات البردى من الحبشة وزرعته على النيل وصادفنى الفشل كثيرا واستمر هذا الجهد لمدة ١٠ سنوات إلى أن حصلت على البردى المصنع وثبت بالفعل أنه أقرب ما يكون إلى البردية الفرعونية القديمة، وقمت بإنشاء معهد بحوث البردى عام ١٩٦٨ ، وتلا ذلك حصولى على الدكتوراه.. وبعد اكتشافى هذا بدأت جامعات فى أوربا وآسيا تقبل على إنشاء أقسام لورق البردى، وفى هذا شهرة واسعة لمصر، ويفد الكثيرون لزيارة متحف البرديات كأحد المعالم السياحية لمصر.

كما أنشأت القرية الفرعونية على ضفاف النيل ، وكل من يدخلها يعيش بحق حضارة عمرها خمسة آلاف سنة، حيث جسدت فى هذا المكان، كيف كان الفراعنة يعيشون ، ووضعت التماثيل لبعض الآلهة، وصورة طبق الأصل لمقبرة توت عنخ آمون وكل ما أتمناه أن يستمر هذا المشروع الحيوى، شاهدا حيا على حضارة المصريين القدماء.

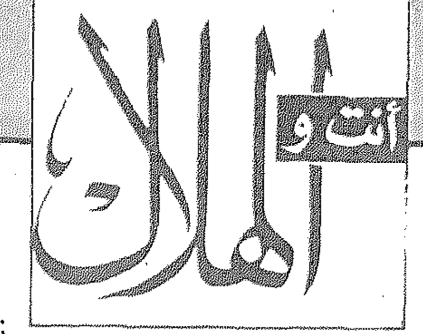


شهادات تقديرية من مصر ومن عدد من الدول حصل عليها حسن رجب

كانت هوايتى للتاريخ الفرعونى وتاريخ مصر القديمة منذ الصغر سببا حقيقيا فى قراءاتى المستمرة عن أجدادى الفراعنة، ولذا فقد تعلمت الفرعونية، واخترعت أول آلة كاتبة بالهيروغليفية فى العالم.

وخلال هذه التجربة المثيرة فى حياتى العملية الطويلة توصلت إلى أن أى باحث إذا لم يكن مثابرا انقطع أمله فى أن يكمل ما بدأه وبالتالى لابد من مواصلة الدراسة والإطلاع المستمر وخلال سفرياتى كنت أزور كل المتاحف المهمة، خاصة ما يهتم بتاريخ الفراعنة، كما أن رحلة البحث لدى مازالت مستمرة وغرفة نومى، عبارة عن مكتبة من ثلاث مكتبات أمتلكها، بها كل ما كتب عن الهيروغليفية وكل ما يهتم باللغات المصرية القديمة كما أن لدى أعظم ورشة منزلية فى العالم تضم ألفى قطعة أعرف مكان واسم كل واحدة منها مكنتنى من عمل اختراعاتى «البوصلة الشمسية» وآلة طباعة ورق البردى ، والجهاز الذى يساعد على ترميم البردى .

وأجد سعادة بالغة وأنا أستعرض هذا المشوار، أو التكوين الذى حقق لى رئاستى الفخرية لحزب الخضر مدى الحياة، وحصولى على جائزة أكاديمية الفنون المصرية عام ١٩٨١، وعدد من الأوسمة منها: وسام النيل ورتبة البكوية من الدرجة الأولى ، ووسام الجمهورية من الدرجة الأولى عام ١٩٥٣ ووسام الجمهورية من الدرجة الأولى للمرة الثانية عام ١٩٧٩ والجائزة الأولى لأكاديمية الفنون عام ١٩٨١.



إشراقة الهلال فى عام ٢٠٠٠م

مع إشـراقـة الألفـيـة الثـالثـة .. فى يناير ٢٠٠٠م تصفحت مجلة الهلال التى عشت أنهل من نبعها الصافى الفياض، علما يُنير لى الطريق، من خلال صفوة الفكر وأعلامه فى كل المجالات .

وجدت تبويبا شائقا بدأ بكلمة المحرر التى تفيض بالتفاؤل وتبرز أهمية الدور التنويرى للهلال، وسعدت كثيرا وأنا أقرأ مقال د. أحمد أبوزيد ثم الكلمات المليئة بالرقة والعذوبة للدكتور مصطفى سويف ، ثم هذا المقال الذى يتسم بالصراحة والشجاعة للدكتور رشدى سعيد والذى يختص الهلال بكتاباته التى نتعرف منها على كثير من قضايانا الحيوية، خاصة وأن له دوره البارز فى الحياة المصرية.

ولقد أحسن «الهلال» بفتح قضية السرقات الجامعية، وهى قضية تحتاج إلى الشجاعة فى الحسم، وحتى لا تضيع هيبة الأستاذ الجامعى فى مصر والذى كان عملة نادرة حينما يسافر إلى الجامعات العربية !

وكانت المفاجأة السارة، تلك التى قدمها الهلال من خلال المقالات التى أعاد نشرها لكبار المفكرين، وكيف كانت أحلامهم لعام ٢٠٠٠م وكتبوا ذلك عامى ١٩٥٠م ، ١٩٥٩م.

الاختيار يدل على جهد ودأب من المسئول عن التحرير وهذا المزج الذى شهدناه بين أساتذة اليوم وأعلام الأمس جعلنا نستمتع حقا بوجبة دسمة ونحن نقرأ موضوع الأستاذ أحمد أمين والدكتور جلال أمين والاستاذ حسين أحمد أمين ولا نصدق أن ذلك حدث بالمصادفة، ولكنه تخطيط ذكى لمعالجة هذا الجزء الذى أمتعنا بحق.

وعدد يناير سنة ٢٠٠٠م من الهلال لم يكن مفاجأة لنا لأن الهلال مدرسة صحفية تستحق منا كل الاحترام والتقدير ويكفى أنها وصلت إلى ١٠٧ سنوات لم تتوقف وهى تؤدى دورها التنويرى المهم.. فشكرا ونرجو مزيدا من التقدم لمجلتكم الغراء .

عصام السعيد الطنطاوى

الكويت .. حولى

توافــق

ما ضرّ أن تبنى قصورا من غسق
متسللا
بين انحناآت المسالك والبشر
وتحاور الطير المعاند والسماء
وجدائل الليل المضمخ بالزهور
تلقى ستورا فوق نافذة القمر
وتطرز القصص الذى
انهمرت به سحب الشتاء العابرة
فوق الوسائد والمقاعد والصور
قبل النسىء وقبل طوفان الزمن
ومن الممالك قد جلبت السندباد
ومطهمات تستمد من الشفق
لون تقادم فى الدهور
لون تقاطر فى شقوق الأرض فى صخر الألم

د. حسن عبدالحكيم
كلية بنات عين شمس

سرقة الرسائل العلمية إلى متى ؟!

تحت عنوان «وطوفان الألقاب العلمية إلى أين» كتب د. إبراهيم عوضين مقالا فى عدد نوفمبر ٩٩ من مجلة الهلال، حيث تحدث فيه عن تنكّب طرق البحث العلمى الجاد والاعتماد على السرقة طريقا سهلا وقصيرا للحصول عل الدكتوراه.

وتراودنى فى ذلك بعض الذكريات ففى عام ٦٤ كنت عضوا فنيا فى قسم الترشيح بالادارة العامة للبعثات، حيث كان الحصول على درجة الدكتوراه يتم أغلبه عن طريق البعثات الخارجية التى تمولها الدولة، ولم يكن للجامعات ولا لمراكز البحوث دور فى عملية الترشيح، وإنما كان عليها فقط أن ترسل بيانات مرشحيها إلى الادارة العامة للبعثات التى تقوم هى بدور الترشيح النهائى لكل تخصص من التخصصات.

وتعرض هذه الترشيحات على اللجنة التنفيذية للبعثات لاختيار أفضل المرشحين ولا مجال للمجاملة هنا أو الشك .

وبعد أن توقفت البعثات الحكومية وباتت إدارة البعثات تعتمد تماما على المنح

الدراسية التى تقدمها الدول الأجنبية، تقلص دورها وانحصر عملها تقريبا فى الاشراف المالى والعلمى على المبعوثين بالخارج، وأضحت الجهات الموفدة بما فيها الجامعات مسئولة عن ترشحياتها كل فى موقعه.

والسؤال الآن : لماذا لا يعود الأمر إلى سابق عهده وتتولى الادارة العامة للبعثات مسئوليتها كاملة بعد أن ترسل إليها الجامعات ومراكز البحوث وغيرها ترشيحاتها الأولية؟، وبعد أن تكون هى الجهة الوحيدة التى لها حق تلقى المنح الدراسية الواردة من الخارج؟.. بذلك يختفى جانب كبير من المجاملات والتجاوزات التى تحدث عنها المقال المذكور

عادل شافعى الخطيب
عضو اتحاد الكتاب

●● **الهلال** : هذه المشكلة طرحتها الهلال، وتفرد صفحاتها لكل من يرى حلا للقضاء على السرقات التى تحدث سنويا.. ولا يتم الاعلان عنها لأسباب كثيرة.. وتسجيل الرسائل يتم الآن من خلال الجامعات نفسها وبإشراف من أساتذة على أعلى مستوى علمى كما نظن وبالتالى لابد من دور فعال للمشرف على الرسالة فهو الآخر ينبغى أن يكون على دراية كاملة بجهد الباحث، ومعرفة إذا كان جادا من عدمه.

« الشيشان »

من أرضنا من لفحة النيران   أشكو إليكم صرخةَ الغلمان
هى صرخةٌ دوّت بأرض بلادنا   خرجت من الأفواه للثقلان
خرجت تُدوّى فى ربوع ديارنا   ولها الرضيع وقد بكىِ بحنان
من أرض شيشانِ الحبيبة صارخٌ   يشكو إليكم فرقةَ الإنسان
قد أحرق الجندى وطناً خالداً   فى حُقبةِ التاريخ والأزمان
يا أيها الشيشان أنتم فديةٌ   قد قدموها الروسُ كالقربان
يا مسلمى الشيشان صبراً إننا   فى قلبنا نور من الايمان
يا مسلمى الشيشان لستم وحدكم   الحزن يأتى بعده اشجان
يا ايها الشيشان إن جدودكم   كرهوا الهوان فما بقوا لهوان
يا ايها الشيشان أنتم إخوة   بل إن دقع الظلم للشجعان

أحمد نادى بهلول
المندرة بحرى - ديروط - أسيوط

من دفتر الرومانسية

فـي الـروض المحـكـيُّ ظـلالٌ قـد راحت عـينى تسـتـتـرُ
فـرأيت مـلاكـا يخـتـالُ كـأنى فى حلمٍ منبـهـرِ
تجـرى كـغـزال للمـاء تسـابق أطيـاراً تفـتـخـرِ
عـينيـهـا انسـابت بطيـوفٍ تتـدفق سـحـراً تزدهرِ
فـالعـينُ تجلت للـنورِ انبـثـقت بحـيـاءٍ ينفـجـرِ
مـازال فـؤادى يحـرُسـهـاَ والشـدو لهـيبٌ يسـتـعـرِ
تمضى فـتـعـود صـبـاباتى فى رُحب النجـوى تنكسـرِ
فـأقـوم أغنّى بنشـيـدى هـل كـيـان لشـوقٍ يندثرُ ؟
آه .. يا لـيـلى منِ وجـدى قـيسٌ بحنين ينتـحـرِ
لوّ أنّ الشـمسَ تقـايضنى فـسـأغـدو ألقـاً ينتـشـرِ
بل أرسم نجـمـا بسـمـائى يمتـد ضـيـاءً ياقـمـرِ

عبدالناصر أحمد الجوهرى
المنصورة

نرفض السينما الإباحية !

إندهشت من مقال الاستاذ «مصطفى درويش» المنشور فى الهلال عدد ديسمبر ١٩٩٩م والذى تناول فيه بالحديث المخرج العالمى «ستانلى كوبريك» وتحسر على أن فيلمه الأخير «العيون المغلقة الواسعة» لن يمكن عرضه فى مصر لأن «الرقابة راسخة كالجبال» على حد قوله ولن توافق على عرضه، إلا أنه طالب فى نهاية المقال بعرض استثنائى للفيلم فى إحدى دور العرض الصغيرة وللكبار فقط، حتى لا تفوتنا فرصة مشاهدة هذا الفيلم العظيم.. وهذا الفيلم بالذات لا يمكن عرضه فى مصر، لأنه يتنافى مع تقاليدنا بل لا يمكن عرضه فى أى بلد تحترم ذاتها فهذا الفيلم - بالذات - لقى استهجاناً شديداً عند عرضه فى أمريكا لأنه يتضمن مشاهد جنسية مبالغاً فيها بين البطل والبطلة ومشاهد شاذة وهو ما دفع الرقابة الامريكية - فى سابقة هى الأولى من نوعها - إلى أن تحذف منه ٥٦ ثانية من المشاهد العنيفة جنسياً .

فهل نقبل سيلاً من الأفلام الفاضحة - مصرية وأجنبية - قد يطالب أصحابها بعروض خاصة مماثلة، مما ينشأ عن ذلك وجود سينما إباحية . ؟!

محمود هشام عبية
المنصورة - كلية التربية

أنت نغمة قلبى

نبضاً أحسُ ورعشةً فى القلب عادتْ من جديدْ
أضحى يصفقُ للحياة مردداً أحلى نشيد
ويقولُ . مَن يحيا بلا حُبٍّ فجلمودٌ أكيدْ
العمرُ من غير الأحبة ليس فيه ما يفيد
يا من شببتِ به حريق الشوق هل لي مِن مزيدْ ؟!
هاكِ ادخليهِ فإنَّهُ فيك بلا ريبٍ سعيدْ
ولتستقرى فيهِ ما يبقَى مِن العُمرِ المديدْ

درهم جبارى
سان فرانسيسكو

السفر فى الشعر العربى

السفر احد أسباب المعاش التى بها قوامه ونظامه لأن الله تعالى لم يجمع منافع الدنيا فى أرض واحدة بل فرقها وأحوج بعضها إلى بعض فالمسافر يرى من عجائب الأمصار وبدائع الأقطار ومحاسن الآثار ما يزيده علما وهناك من يؤيد السفر والارتحال وهناك من لا يؤيد.. نصح احد الحكماء رجلا اراد سفرا فقال له : انك تدخل بلدا لا تعرفه ولا يعرفك أهله عليك بالأدب الجميل فإنه يكسب المحبة فالزم الحياء والأنفة .. يقول الشاعر أبو الفتح البستى :

لئن تنقلت من دار إلى دار ... وصرت بعد اليوم رهن اسفارى
فالحر حر عزيز النفس حيث حل ... والشمس فى كل برج ذات انوار

وقال آخر :

سافر تجد عوضا عمن تفارقه ... وانْصَب فإن لذيذ العيش فى النَّصَب
ما فى المقام لذى لب وذى ادب ... معزة فاترك الأوطان واغترب
إنى رأيت وقوف الماء يفسده ... ان سال طاب وإن لم يسل لم يطب

وعلى الجانب الآخر لا يؤيد البعض السفر والاغتراب بل يدعو إلى البقاء فى الوطن بين الاهل والاخوان فيقول احدهم: الغريب كالفرس الذى فارق وطنه وأهله فهو زاوٍ لا يزهر وذابل لا يثمر يقول الشاعر :

يا نفس ويحك فى التغرب ذلة ... فتجرعى كأس المذلة والهوان
اذا نزلت بدار قوم دارهم ... فلهم عليك تعزز الأوطان

محمد أمين عيسوى
الاسماعيلية

الغلاء !

بئس الغـــلاء ومـــا عليـــه ومـــا له ... أكل الفــقـيــر - على يديه - عـــيــالـه
أو بات مـــأكــولاً لهم، فــجــمــيــعــهم ... شــتى ورحـــمــهــمــو أضـــاع عــقـــالـه
وســـعى فـــمـــا بلغ الطريق هدى ولا ... بلغـــتـــه آمـــال تنيـــر ضـــلالـه
والأغنيـــاء قـــصـــورهم مـــرصـــودة الـ ... آفـــاق ، أين رمى الغـــريب رحـــالـه
فكأنه فى البـــحـــر - بين ســـفـــائن الـ ... دنيـــا - يعـــوم ولا ينال ســـؤالـه
فـــإذا طغى الموج .. اســـتكأن لليله ... والموت عـــانقـــه ليـــرحم حـــالـه !

عبدالرحيم الماسخ
سوهاج

جزيرة الكرة الأرضية !

الكرة الأرضية فى حقيقة الأمر جزيرة تسبح فى الفضاء الكونى الفسيح. قد يظنها البعض جزيرة كبيرة، لكنها فى الواقع جزيرة صغيرة فى فراغ كبير لا محدود، ملىء بالجزر الأخرى، والتى هى «الكواكب والنجوم والشهب وسائر الأجرام السماوية».

المعروف أن الجزيرة قد تكون قطعة أرض صغيرة من بضعة أمتار تحيطها المياه من كل جانب. وقد تكون كبيرة كقارة استراليا، أو كالقارة القطبية الجنوبية «أنتركتيكا»، فهى جزر أيضا تحيطها المياه. وهذه الإحاطة بالمياه، تعزلها عما يجاورها سطحيا وأفقيا . وهكذا يتحدد موقعها من خلال مستوى ذى بعدين اثنين.

لكن الكرة الأرضية فى الواقع جزيرة من نوع آخر فهى تسبح فى فراغ كبير يحيطها إحاطة تامة، وتتحدد فى موقع ذى أبعاد ثلاثة. فالفراغ الكونى يغلفها ويعزلها عن كل ما يجاورها من الكواكب والأجرام الأخرى ، مع إمكانية الانتقال منها واليها بسفن الفضاء المتوافرة الآن .

بيئيا هذه حقيقة موجودة من قديم الأزل، ومع ذلك فما زالت حتى الآن بعيدة عن مفهوم الإنسان المعاصر.

فإن المفهوم السائد حاليا للأرض وهو «القرية الصغيرة»، يعتبر مفهوماً بيئياً قديماً استعملته البشرية لانغلاقها خلال العصور السابقة داخل بيئة الأرض فقط وحيث إن البشرية مقدمة على بيئة جديدة «بيئة العوالم الأخرى والفضاء الكونى المحيط»، وإن البشرية تعيش الآن عصر ارتياد الفضاء، فقد تحقق للإنسان مفهوم بيئى جديد وهو أن الأرض :

«جزيرة صغيرة فى الكون الفسيح»

المهندس رستم غالب

ردود الأصدقاء

●● الصديق: صلاح جميل سعد - غزة الزيتون

وصلت رسالتك باسم «عاشق مصر» ونحييك على كل ما جاء فى رسالتك وسوف نلبى طلبك فى إرسال بعض أعداد من الهلال إليك ، مع شكرنا على اهتمامك:

●● الصديق سعيد عبدالقوى محمد - بنى سويف ..

قصيدتك «أنت والهلال» فكرتها جيدة وننشر بعض أبيات منها تقول :

أنا والهلال ألفان   عشق الجمال إلفان

نغزو الحياة سويا   بالفكر والايمان

دار الهلال سلاما   من كل قلب دان

....

يا كعبة الصحف فى الشرق مهد البيان

أنا والهلال على   درب القرون يأتلقان

●● الصديق : عاصم فريد البرقوقى - الاسكندرية

نحن معك فى أن الابتسامة قد عزت فى هذه الأيام ولا بد من أمل يجدد حياة الإنسان، وبهجة تعيد إليه السعادة ويا ليت نرى هذا العيد.. عيد الابتسامة ، لكنك لم تبين كيفية الاحتفال بهذا العيد الذى اقترحته !

●● الصديق : طه هنداوى - منشأة عباس - كفر الشيخ

وصلت قصيدتك «برايل» ونرجو منك مواصلة قراءة الشعر واستمرارك فى المحاولة حتى يصل انتاجك إلى المستوى الذى نتمناه لك سواء فى الوزن أو استقامة الفكرة.

●● الصديق : معتز عادل محمد على مطر - السعودية :

وصلت إسهاماتك الشعرية، وتلك الرسوم التى أبدعتها ريشتك.

ويا صديقى أنت صاحب بالين ولا بد من التركيز على واحدة تستطيع أن تتقنها وتبرع فيها ..

⊛⊛ الصديق عصام الدين محمد أحمد :

نشكرك على رسالتك ، ولا أدرى سببا لهذا الهجوم فى بداية الرسالة ، ولا ندرى لماذا.. صحيح أننا نشرنا لك قصة فى أكتوبر عام ١٩٩٨م ونعتقد أنها كانت جيدة وكنوع من التشجيع، لكن إنتاجك الذى أرسلته لنا لا يرقى إلى مستوى قصتك السابقة .

ففي قصة «صداع» أعطيك بعض النماذج التى كتبتها فى الحوار : (وضعت ذيلى فى أسنانى) ، (تشعلقت فى باب الأتوبيس) ، (يمتد على مدد الشوف) ، (أقعد على لفة أقفاص)، (الطبيب يقص البواصير الملتهبة) ، (يقطع السكون زمجرة موتوسيكل) ، (لولا وجودك ما غيرت الحشيش المضروب بحشيش كويس)، (تبوسنى ناديه .. تمنحنى تذكرة بيور .. تدغدغ أعصابى قائلة : اتلحلح يا واد كده !!

– ما هذا يا سيد عصام ؟! لا تعليق على كل ما جاء فى رسالتك وكل ما تكتبه !!

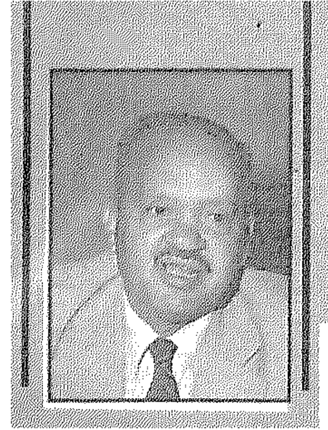
⊛⊛ الصديق ممدوح فراج النابى – قفط – قنا

ذكرت أسماء تعتز بها مجلة الهلال فى مقدمتها الراحل الكبير شكرى عياد وأدباء يشاركون بمقالاتهم وإبداعاتهم مث د. أحمد أبوزيد ود. جلال أمين ود. الطاهر مكى ود. محمد رجب البيومى ، فنشكر لك هذه التحية للهلال ، ونتمنى نشر قصتك فى القريب العاجل.

الكلمة الأخيرة

جامعة جديدة

بقلم:
د. عبد العظيم أنيس



عقب اللقاء الذى جرى بين الرئيس مبارك والدكتور زويل أعلنت الصحف عن النية لإنشاء جامعة جديدة للعلوم والتكنولوجيا، وفهم من حديث الصحف مع الدكتور زويل أنه سوف يشرف على عملية إنشائها ، وقيل فى صحيفة «الأهرام» أنه سوف يستعين فى هذا العمل بالفاكسات والأقمار الصناعية حيث أنه يعمل فى كاليفورنيا معظم العام ، كما قيل انه سوف يشكل مجلس إدارة لهذه الجامعة من اثنى عشر عضوا من العرب والأجانب من رجال الأعمال . ثم سارع رئيس الوزراء الدكتور عاطف عبيد بوضع حجر الأساس لهذه الجامعة فى مدينة ٦ أكتوبر بحضور الدكتور زويل ووزير البحث العلمي الدكتور مفيد شهاب .

أما طلاب هذه الجامعة فسوف يكونون من متفوقي الثانوية العامة ومن المعيدين الذين يدرسون للدراسة العليا في الجامعات الأخرى . وعلى أنه لايوجد تقدير معلن عن تكلفة إنشاء هذه الجامعة إلا أن أحاديث الدكتور زويل في الفضائيات العربية تحدثت عن مليار دولار ، ربما كدفعة أولى . والحقيقة أن تكلفة إنشاء جامعة جديدة للعلوم والتكنولوجيا هى أكثر من هذا بكثير كما توضح تجارب الآخرين ، هذا إذا أردنا أن نوفر لها أحدث المعامل والأجهزة، ومن المشكوك فيه تماما أن تغطى تبرعات رجال الأعمال المصريين أو العرب جزءا مهما من هذه التكلفة .

هذا فضلا عن أن إنشاء مثل هذه الجامعة قد يعني تهميش جامعات مصرية عريقة مليئة بالكفاءات التي لم نستفد منها استفادة كاملة أعنى جامعات القاهرة وعين شمس والاسكندرية وأسيوط . وإذا كان المتفوقون فى الثانوية العامة سوف يذهبون إلى الجامعة الجديدة فمعنى هذا أن الجامعات الأخرى سوف تستقبل غير المتفوقين .

إننا نتحمس كثيرا لمشروعات جديدة تبدو براقة فهو الأمل والمنقذ من حالة الركود والضعف التي تعيشها بلادنا ، دون أن نبحث جديا وبنفس طويل متطلبات هذه المشروعات وتكلفتها الحقيقية والنتائج طويلة الأجل المترتبة على تنفيذها . فإذا بدأ التنفيذ وظهرت العقبات التى لم تكن فى الحسبان فتر اهتمامنا وبدأنا نعترف بالأخطاء .

ولن أتحدث هنا عن توشكي وإنما أشير إلى مشروع آخر كلف الدولة كثيرا وكان مقصودا أن يكون قلعة للعلوم والتكنولوجيا تتخصص فى علوم الوراثة والذرة والحاسبات .. الخ ، أعنى مدينة مبارك العلمية فى برج العرب .

فنحن نسمع عن هذه المدينة الآن ؟ وكم كلفتنا من الأموال دون طائل حقيقى ؟

فالمشكلة أننا نستسهل إقامة مشروعات جديدة بدلا من التركيز على الاستفادة مما لدينا جديا من إمكانات . ولو أننا أنشأنا كلية للدراسات العليا فى جامعة القاهرة مثلا ووفرنا لها من التبرعات والأموال مايضمن لها المباني والمعامل المطلوبة واخترنا لها أفضل أساتذة الجامعات المصرية بشرط الانقطاع للعمل فى داخلها ، ووفرنا لها مجلس إدارة له سلطات مطلقة من العلماء والمسئولين ورجال الصناعة والزراعة فى مصر لاستطعنا أن نحقق نتائج أفضل من مشروعات جديدة نتحمس لها سنة ثم يفتر حماسنا لها بعد سنوات .

إننى أناشد المسئولين التفكير فى مشروع هذه الجامعة قبل أن يفوت الأوان !



تواكب العولمة و تطورات القرن الحادي و العشرين

بأحدث جيل من الطائرات






أحدث وسائل الراحة و الرفاهية

أجهزة ملاحية ذات تقنية عالية لمنع التصادم

امكانية الاتصال بأي مكان في العالم من داخل الطائرة

تليفون شخصي و شاشة فيديو بالدرجة الأولى و درجة رجال الأعمال

مصر للطيران

تعبر بكم الى مشارف القرن الـ21






روايات مصرية للجيب

روايات مصرية للجيب

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥١ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس ٢٨٢٧٠٠٢

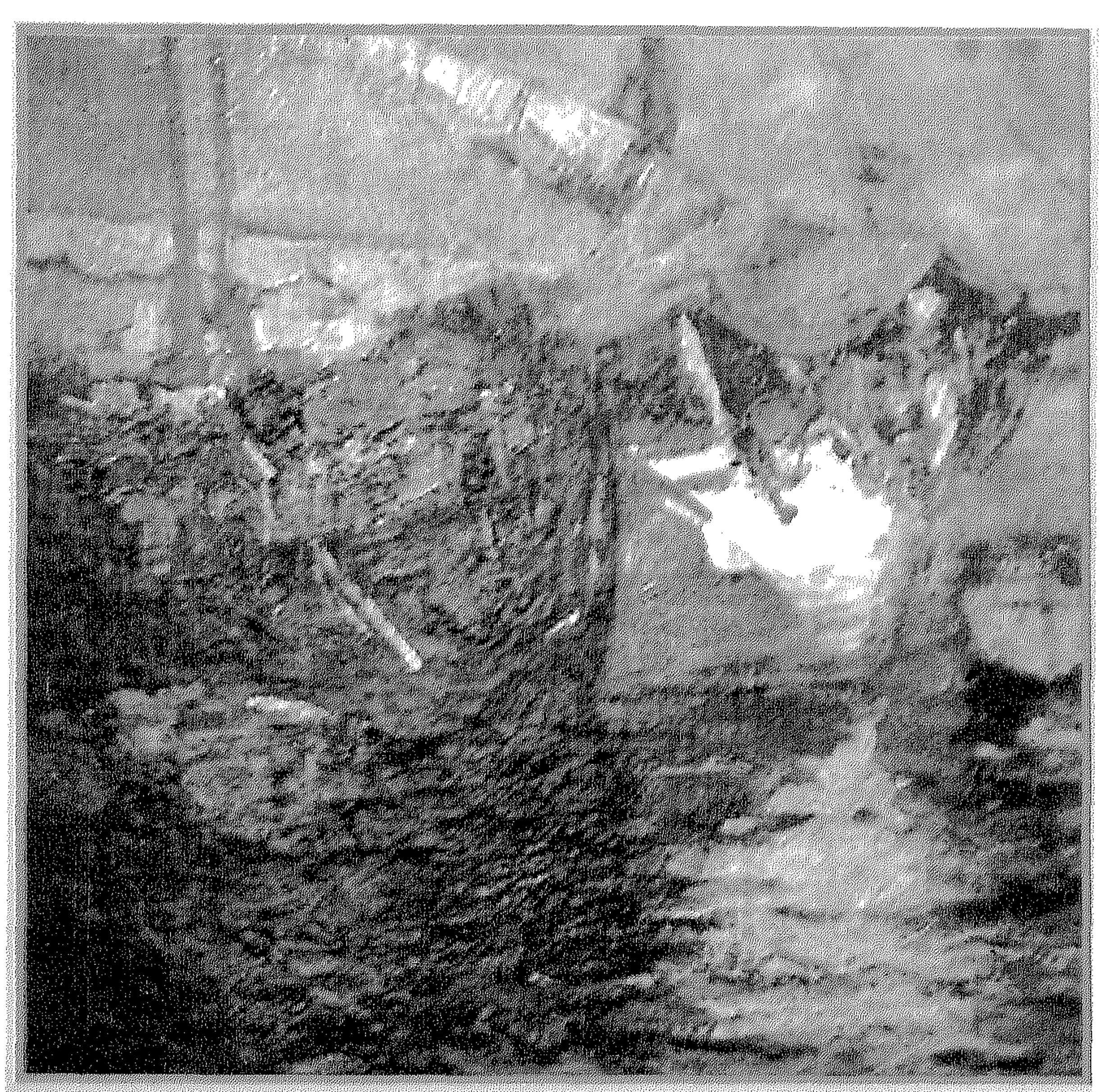
الهلال

نحو تفسير قرآن جديد

بين ماركس وتشارلز داروين

إمبراطورية الذهب

الأسرار.. والأساطير



منظر بحرى

للفنان الايطالى..

دالبونو أدواردو

متحف محمود خليل

القاهرة

اهداءات ٢٠٠٢

أسرة المرحوم/شارل كرتيه

الاسكندرية



مجلة ثقافية تصدرها دار الهلال

أسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢

العام الثامن بعد المائة

مارس ٢٠٠٠ ● ذو القعدة ١٤٢٠ هـ

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

الإدارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب : ٦١ - العتبة - الرقم البريدى : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م ع. مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ - تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى : darhilal@idsc . gov . eg

مصطفى نبيل رئيس التحرير

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المدير الفني

الاشتراكات سوريا ٦٠ ليرة - لبنان ٣٠٠٠ ليرة - الأردن ١٢٠٠ فلس - الكويت ٧٥٠ فلسا، السعودية ١٠ ريالات - تونس ١,٧٥٠ دينار - المغرب ١٥ درهماً - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبو ظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - الجمهورية اليمنية ١٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار - إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة - المملكة المتحدة ٢,٥ جك

ثمن النسخة قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ١٨ جنيها داخل ج ع م. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٠ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت - ت/ 13079٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

هـذا
العـدد



الغلاف للفنان :
محمد أبو طالب

[redacted] فكر وثقافة

[redacted] أدب أمريكا اللاتينية جزء خاص

قصة وشعر

دائرة حوار

فنون

التكوين

الأبواب الثابتة

أحمد زويل والجامعة الجديدة

عزيزى القارىء

كانت ندوة الدكتور أحمد زويل من أهم الندوات التى عقدت بمعرض الكتاب هذا العام ، حيث تناول قضايا تمس حياتنا وهى مدخل للمستقبل ، خاصة أن مشاكلنا اليوم مرتبطة بقدرتنا على أن يصبح العلم جزءا من حياتنا، فلدينا عدد كبير جدا من العلماء، ولكن المشكلة أنهم ليسوا جزءا من خطة لها هدف محدد ؛ يشكلون فى مجموعهم فريق عمل متكاملا لتحقيق هذه الأهداف ، وليس لديهم التمويل الكافى للقيام بأبحاثهم ودراساتهم.

وجاء ابن مصر أحمد زويل الذى تعلم فى مدارسها وجامعاتها بالمجان ، لكى يقدم خبرته فى وضع العلم على خريطة مستقبل مصر ..

احتشد فى القاعة وخارجها عدد كبير ، وساد فى البداية بعض الهرج ورفض العالم الكبير الحديث حتى يصمت الجميع الذين كان حماسهم شديدا للتعرف على الجامعة الجديدة وأهدافها .

كان كعادته دقيقا حيث أشار إلى أن الفراعنة كانوا أول من عرف الزمن، واستطاعوا إجراء أول تجربة علمية منذ ٤٢٤٠ سنة قبل الميلاد، أى منذ حوالى ستة آلاف سنة وتمكنوا وقتها من الوصول إلى عدد أيام السنة ٣٦٥ يوما !

وقال زويل إن النهضة التكنولوجية لايمكن أن تظهر بدون العلم ، فالحضارة العربية هى التى ساعدت أوروبا فى الخروج من الظلام الذى كانت تعيش فيه بفضل العلماء العرب من أمثال ابن سينا فى الطب وجابر بن حيان فى الكيمياء وابن رشد والحسن بن الهيثم وابن خلدون فى العلوم الإنسانية ، ولهذا فإن المصريين أصحاب الحضارة الفرعونية العريقة قادرون على اللحاق بركب التقدم العلمى ، وشباب مصر قادر على بذل العطاء ، إذا ما توافرت البيئة المناسبة لذلك.

وبالفعل فإن لدينا علماء وباحثين على أعلى المستويات ينتشرون فى أرجاء العالم ، لكنها – أى مصر – تفتقر إلى القاعدة العلمية، مثلها فى ذلك مثل كل دول المنطقة العربية .. وقد حان الوقت لتحقيق نهضة علمية تكنولوجية ، من خلال توسيع القاعدة العلمية

والتكنولوجية ، وضرورة تحقيق طفرة علمية.

وفى كل لقاء للعام الكبير الذى فكر فى إنشاء جامعة جديدة ، يؤكد استحالة الوصول إلى أبحاث علمية متميزة فى مصر ، باستخدام النظم الحالية التى توزع ميزانية البحث العلمى على ١٢ جامعة ، وكل جامعة بها نحو ٣٠ كلية ، وفى كل كلية ١٢ قسما مما يعنى فى النهاية أن نصيب كل قسم من هذه الميزانية لن يتعدى مئات من الجنيهات فى السنة .

إن الجامعة التكنولوجية الحديثة ليست أرضا ومبانى واحتفالات بافتتاحها ، ولكنها طرق حديثة فى إعداد هيئة التدريس واختيار المناهج ومن بينها الهندسة الوراثية والمعلومات والاتصالات والإلكترونيات وغيرها ، وإنه لايجوز الاستعانة بأساتذة الجامعة الحاليين فقط، بل ينبغى إرسال البعثات إلى الخارج ، وهذا تقليد كان موجودا فى مصر منذ أيام محمد على واسماعيل ، وأمامنا تجربة قيمة قام بها الدكتور سليمان حزين حينما بدأ يعد لإنشاء جامعة أسيوط .

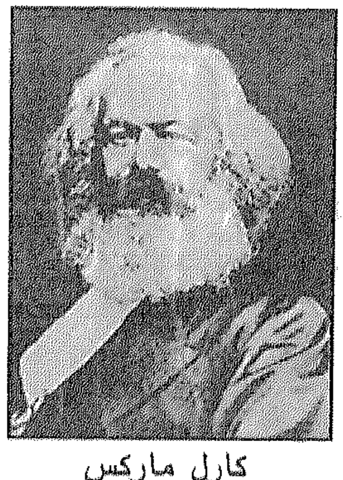
ود. أحمد زويل الذى ينادى بالعمل الجماعى عليه أن يقيم الجامعة الجديدة بفريق من الأساتذة والعلماء وعليه أن يعرف أن بعض الأصوات التى خرجت تعارض بعض أفكاره واتجاهاته لإنشاء هذه الجامعة فهذا جزء من الحيوية الموجودة فى مصر .. فقد أشار فى لقائه بالمعرض إلى حزب أعداء النجاح - كما سماه - والذى يتكون غالبا من مجموعة الفاشلين الذين لايقومون بأية أعمال حقيقية ، ولذلك فإنهم يجدون وقتا لتسفيه أعمال وجهود الآخرين ، ولابد من الابتعاد عن هذا الحزب ، فهناك فرق كبير بين الغيرة المهنية والرغبة فى تحطيم المنافسين وتشويههم بالزور والبهتان من ناحية أخرى !..

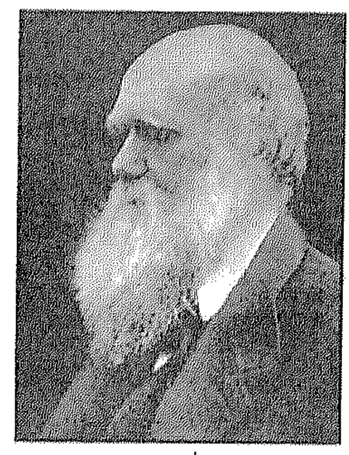
إن الحديث عن الجامعة الجديدة وما يمكن أن تقدمه لمصر الحديثة ، سوف يظل مثار جدل ، ولابد أن يتحقق الهدف الذى ننشده جميعا، خاصة أن الفجوة الموجودة بيننا وبين العالم المتقدم واسعة ، وتحتاج إلى جهد كبير لسد هذه الفجوة. لكننا نتساءل هل يمكن إدارة الجامعة عن طريق الأقمار الصناعية والاتصال بالفاكسات؟!

لن نحقق ما ننشده إلا بتضافر جهود العلماء المخلصين إلى جانب د. زويل ، طالما أن الدولة تتيح إقامة هذا الصرح الأكاديمى الذي يمكن أن ينقلنا نقلة حضارية وعلمية كبرى .. ولايمكن أن تصفق يد واحدة، ويقف الجميع ما بين متفرج ومترقب.!

المحـــــــرر

بين تشارلز داروين


كارل ماركس


داروين

وكارل ماركس

بقلم: د. عبد العظيم أنيس

ثمة شبه إجماع بين كتاب الغرب على أن كارل ماركس وتشارلز داروين هما أجرأ مفكرى القرن التاسع عشر وأشدهم تأثيرا فى الفكر الغربى. ولقد قال إنجلز فى رثاء ماركس عند دفنه فى مقابر هاى جيت فى شمال لندن: « مثلما اكتشف داروين قانون التطور فى الطبيعة البشرية اكتشف ماركس قانون التطور فى التاريخ البشرى». والثابت أن أحد الذين حضروا مراسم دفن ماركس عام ١٨٨٣ هو البروفسير إدوين لانكاستر الذى كان صديقا حميما لداروين وماركس فى الوقت نفسه.

ولقد عاش داروين فى مقاطعة كنت (جنوب لندن) على بعد عشرين ميلا فقط من المنزل الذى عاش فيه ماركس وعائلته فى لندن، ولذا كان من الطبيعى أن نتساءل عما إذا كانت ثمة صلة بين العملاقين فى ذلك الزمان.

إن من المعروف تاريخيا أن للاثنين معارف مشتركين، وأن كارل ماركس أهدى داروين على البعد الجزء الأول من كتاب « رأس المال» فى أكتوبر سنة ١٨٧٣ وأنه تلقى رسالة شكر من داروين على هذا الاهداء هذا نصها:

داون ، بكنهام ، كنت
سيدي العزيز

أشكرك للشرف الذى منحتنى إياه بإرسال كتابك العظيم عن رأس المال. ولقد تمنيت من كل قلبى لو كنت جديرا بهذا الشرف بفهم أكبر لموضوع الاقتصاد السياسى الهام والعميق، وعلى الرغم من اختلاف موضوعات بحوثنا فإننى أعتقد أننا نعمل سويا على مدّ آفاق المعرفة وأن هذا سوف يضيف فى المدى الطويل إلى سعادة البشرية

وأظل : سيدي العزيز المخلص
تشارلز داروين

ولقد فرح ماركس فرحا عظيما بخطاب داروين وكان يقرأه لأهله وأصدقائه وزائريه، فقد كان من أشد المتحمسين لكتاب «أصل الأنواع» لداروين عند صدوره، وكتب إلى إنجلز عام ١٨٦٠ قائلاً: «على الرغم من أن الكتاب مفصل بأسلوب إنجليزى جاف فإنه يمثل الأساس فى التاريخ الطبيعى لأفكارنا».

ثم ازداد حماسه بعد ذلك فكتب إلى لاسال بعد شهر قائلا: «إن كتاب داروين هام جدا وهو يفيدنى كأساس فى العلم الطبيعى للصراع الطبقى اجتماعياً» ، لكنه تراجع عن هذا الكلام مستبعدا الصراع «من أجل الحياة» من التاريخ الاجتماعى عندما أدرك أن هذا سوف يؤدى إلى نظرية مالتس عن فيض السكان كالقوة المحركة للاقتصاد السياسى.

● هل التقى داروين وماركس وجها لوجه ؟

لا يوجد أى دليل تاريخى على حدوث هذا اللقاء، بل إن من المرجح أن داروين لم يقرأ كتاب «رأس المال» قراءة جدية. فالكتاب كان باللغة الألمانية، ولم تكن الطبعة الإنجليزية قد صدرت بعد، فالمعروف أن هذه الطبعة لم تظهر إلا بعد وفاة ماركس. وكان من عادة داروين أن يضع خطوطا بالقلم الرصاص على الأجزاء التى تلفت انتباهه لأى كتاب يقرأه. لكن كتاب «رأس المال» (وعليه إهداء ماركس) موجود حتى اليوم فى مكتبة داروين بمنزله بمقاطعة كنت وليست على أى جزء منه أى إشارة بالقلم الرصاص تشير إلى قراءة داروين له. ولذا فالأرجح أن داروين تصفح الكتاب بسرعة وكتب خطاب الشكر إلى كارل ماركس وانتهى الأمر عند هذا الحد.

وكان من الممكن أن تنتهى قصة علاقة داروين بماركس عند ذلك لولا اكتشاف بعض الباحثين السوفييت ضمن أوراق ماركس وأرشيفه رسالة أخرى كتبها داروين بعد ذلك وافترض بالطبع أنها مرسلة لماركس ما دامت وجدت ضمن أوراقه وأرشيفه.

وهذه الرسالة نشرت لأول مرة فى موسكو عام ١٩٣١ فى مجلة «تحت علم الماركسية».

وإليك نصها:

داون، بكنهام، كنت

سيدى العزيز

أشكرك كثيرا لخطابك الرقيق وللملحقات، إن نشر ملاحظاتك عن كتاباتى فى أى صورة لا يتطلب موافقتى، وسوف يكون سخيفا من جانبى أن أوافق على ماهو ليس فى حاجة إلى موافقتى.

وإننى أفضل ألا يكون الجزء المنشور مهدى لى (رغم شكرى لك على هذا الشرف) إذ أن هذا الإهداء قد يعنى موافقتى على المنشور مع أننى لا أعرف شيئا عنه.

أيضا رغم أننى من المؤيدين الأشداء للفكر الحر فى كل موضوع إلا أنه يبدو لى (وقد أكون مخطئا) أن الحجج المباشرة ضد المسيحية ليس لها من تأثير على الجمهور وأن الفكر الحر يخدمه التنوير التدريجى لعقول الناس، وهو ما يترتب على تقدم العلم.

لذا كان همى دائما تجنب الكتابة عن الدين والتركيز على العلم. وربما كان دافعى إلى هذا ما يسببه الهجوم على الدين من آلام لأفراد عائلتى.

إننى آسف لرفض طلبك، لكنى رجل عجوز وليس لدى قوة كبيرة فمراجعة صفحات الملحق المرسل ترهقنى كثيرا.

وأظل سيدى العزيز المخلص،

تشارلز داروين.

وقد أثار هذا الخطاب حيرة كثير من الكتاب الذين كتبوا عن ماركس بعد ذلك فكتب الكاتب الكبير أشعيا برلين فى كتابه المنشور عام ١٩٣٩ عن كارل ماركس مدعيا أن ماركس أراد أن يهدى الطبعة الألمانية من كتاب «رأس المال» إلى داروين وأن الأخير اعتذر عن ذلك بهذا الخطاب المنشور. لكن برلين تورط فى هذا الخطأ ناسيا أولا أن كتاب رأس المال (الجزء الأول) ليس به تعرض للدين ولذا فليس من المفهوم أن يثير داروين هذا الموضوع فى خطابه. والأكثر من هذا وأشد حسما أن كتاب «رأس المال» فى طبعته الالمانية ظهر عام ١٨٦٧ أى قبل أن يعرض ماركس على داروين هذا الشرف (الاهداء)

بثلاثة عشر عاما .

وبعد الحرب العالمية الثانية تورط كتاب آخرون فى تفسيرات غير مقنعة لهذا الخطاب. مثلا قال دافيد مالكيلان فى كتابه عن ماركس عام ١٩٧٣ «إن ماركس أراد قطعا أن يهدى الجزء الثانى من رأس المال لداروين، وأن هذا الأخير اعتذر عن ذلك» ونسى مالكيلان أن الجزء الثانى من رأس المال قام إنجلز بجمعه من مسودات ماركس بعد وفاته، وقد أشار إنجلز فى مقدمة الجزء الثانى إلى وصية ماركس بإهداء هذا الجزء إلى زوجته هيلين.

●●●

لقد ظل هذا الخطاب لغزا محيرا حتى استطاعت طالبة أمريكية بجامعة كاليفورنيا (مارجريت فاى) أن تجد تفسيرا مقنعا له، فقد عثرت مصادفة فى مكتبة قسم البيولوجيا بالجامعة، على كتاب صغير عنوانه «داروين للطلاب» وهو عرض لنظرية التطور منشور عام ١٨٨١ ومؤلفه هو ادوارد إيفلنج، وهو الشاب الذى كان صديقا لإبنة ماركس (إيلونور)، ثم عاشقا لها بعد ذلك.

وبدأت مارجريت فاى تتساءل: ماذا لو كان خطاب داروين ليس موجها لماركس وإنما إلى إدوارد إيفلنج، وقامت ببحث أوسع للموضوع فاتضح أن هذا الجزء «داروين للطلاب» هو الجزء الثانى من سلسلة صدرت آنذاك بعنوان «المكتبة الدولية للعلم والفكر الحر». وهذا يفسر إشارة داروين فى خطابه إلى المطبوعة التى لا يعرف عنها شيئا أو تردده فى أن يرتبط اسمه بدراسات تحتوى على حجج ضد المسيحية.

ثم تأكد صحة تخمين مارجريت فاى عندما اكتشف ضمن أوراق داروين فى جلسة كمبردج خطاب من إدوارد إيفلنج (بتاريخ ٢ أكتوبر سنة ١٨٨٠) إلى داروين (وبه نسخة من كتاب «داروين للطلاب» يرجوه فيه أن يوافق على الكتاب وعلى أن يوجه الإهداء له.

يبقى سؤال أخير: كيف وصل خطاب داروين الموجه لإيفلنج إلى أرشيف ماركس؟

إن الإجابة على هذا كانت أمرا بسيطا. ففى عام ١٨٩٥ عند وفاة إنجلز بدأت ابنة ماركس إيلونور وصديقها إيفلنج فى تنظيم كل أوراق ماركس وخطاباته ومسوداته، وهو الأمر الذى كان يقوم به إنجلز قبل وفاته.

وبعد عامين كتب إيفلنج مقالا يقارن فيه بين بطليه - داروين وماركس - وقد أشار فى هذا المقال إلى خطابه لداروين عندما أراد أن يحصل على موافقته على كتاب (داروين للطلاب) وعلى توجيه الاهداء له فى ذلك الكتاب.

وقد ضم إيفلنج كل هذه الأوراق فى دوسيه واحد تركه ضمن أرشيف ماركس وهكذا تم حل اللغز نهائيا. [.]

أسـواق الـكـلام

بقلم :إبراهيم فتحى

تستطيع الكلمات المتناقضة أن تغادر مكانها فى القاموس لتتعانق ، فالكلمات أكثر حرية فى الحركة من الأشياء. وقد يكون هذا العناق بريئا كاشفا كما فى السوق الأدبية أو مضللا خادعاً فى السوق السياسية . إن عبارة مثل المومس الفاضلة (أو الجديرة بالاحترام) أو اللص الشريف فى مسرحية أو رواية لا نفهم منها أن كل المومسات فاضلات أو أن كل اللصوص شرفاء . وقد يعنى الجمع بين كلمتين متنافرتين متضاربتين فى كل منهما كشف أوضاع واقعية تسودها الدعارة واللصوصية القانونيتين عند من يعتبرهم العرف فضلاء أشرافا . فالمومس فى مسرحية سارتر أوفر فضيلة من السناتور المحترم الذى يمارس الدعارة السياسية العنصرية باسم الوطنية . واللص فى بعض قصص روبن هود أو أرسين لوبين أو أدهم الشرقاوى يسلب الذين تقوم ملكيتهم على السرقة والاستغلال بعض ما لهم ليعطيه لضحاياهم فى شرف فهو لا يأخذ شيئا لنفسه فى حالات تواطؤ حراس الأمن والأوضاع الجائرة مع اللصوص الكبار .

ولا تكون الصيغة التعبيرية القائمة على اقتران ضدين مقبولة فى السوق الأدبية بالتحليل اللغوى بل بالرجوع إلى وضع واقعى أو متخيل . فالتناقض بين الألفاظ المقترنة يصبح تناقضا ظاهريا فى وضع دعارة ولصوصية مقننتين . وتغدو تلك الصيغة التعبيرية القائمة على المفارقة كاشفة للأكذوبة الشائعة منطوية على حقيقة محتجبة فى سياقات محددة . ولا يجد المستهلكون فى السوق الأدبية غضاضة فى عبارات من قبيل «الكراهية العاشقة» فى بداية روميو وجوليت ، و«اللذة المؤلمة» فى القرية المهجورة لجولدسميث ، و«الخفة الثقيلة» للوجود لميلان كونديرا . فهى تصور التناقض فى المواقف والمشاعر الإنسانية ؛ وعند الفحص الدقيق للتضاد الظاهر بين اللفظين ، يشعر المتلقى بوقع خاص نتيجة لارتياد موقف كلى يدمج داخله جوانب متباينة . فالتناقض ماثل فى الأشياء والوقائع والمشاعر لا فى التركيب اللفظى وحده .

ولكن الأمر مختلف فى سوق الكلام السياسى والايديولوچى . فحينما تسمى إسرائيل وأجهزة الإعلام الأمريكية الترسانة النووية الإسرائيلية «بالقنبلة النظيفة» ، وتكديس الأسلحة «بالسلاح من أجل السلام» ، والعدوان على لبنان «بالسلام فى الجليل» تصبح الوحدة بين الألفاظ المتضادة وحدة قمعية ، فالتركيب يضلل المتلقى ويحاول أن يفرض معنى كاذبا ، وأن يمحو أى تعبير عن الرفض أو الاحتجاج أو المقاومة . وهنا يكون لطف التعبير لغة مغسولة تطمس بشاعة الواقع، ويكون المعجم الدقيق ومصالحة الألفاظ والوقائع المتنافرة طريقة فى الكلام دخلت صالونات التجميل لتبرير ما هو غير مقبول لدى المستهلكين من الأنصار .

وقد لاحظ الكثيرون أن اقتران اسم معين بصفة شارحة متناقضة (القنبلة النظيفة) مع الاسم على نحو دائم فى تركيب مختصر يكتسب ألفة ، يلغى التوتر بين اللفظين المتعارضين ويغلق دائرة التناقض، ويتحول فى القاموس الاسرائيلى ، الانسحاب الى إعادة الانتشار.

التلاعب بالعقول

ويعد ذلك فى الفهم السليم انتهاكا للمنطق أما فى السوق اللغوية السياسية فقد أصبح التناقض مبدأ لمنطق التلاعب بالعقول عن طريق دمج الألفاظ المتعارضة معا فى صيغة لا تنقسم ولا تتغير ، «الاعتماد المتبادل» صيغة جديدة بديلة للاستقلال فى عالم اليوم ، كما كانت «قوات الاحتلال البريطانية الحليفة» صيغة شائعة بعد معاهدة ١٩٣٦ فى مصر . وأمثال هذه الصيغ لا تحيا ولا تتحرك فى تمايز ألفاظها بل تحيا وتتحرك ككل فى إيجاز والتحام . فالمفردات التى تنتمى إلى دوائر متنافية يتم دمجها عنوة معا فى تركيب مغسول متبلور يعمل على تحقيق تأثير مغنطيسى يلغى التفكير ، وعلى انسجام للتناقضات ومصالحة ما لا يقبل المصالحة . فغابة السوق الاقتصادية العالمية التى يفترس فيها الأقوياء الضعفاء، والتى تتحكم فى وسائل

اتصالها وإعلامها احتكارات ضئيلة العدد تسمى «القرية الكونية» .

إن هذه الصيغ لا تساعد على التعبير عن مفاهيم محددة الدلالة ، فهى تفرض صوراً تثير انفعالات مبهمة وتعوق كما يقول هربرت ماركيوز التفكير بواسطة المفاهيم أى تعوق التفكير . إنها لغة مغلقة لا تفسر ولا تبرهن بل تنقل تحيزات وانطباعات وأوامر ، ويتم تداولها فى تكرار وحشو حاملة أحكاما مسبقة متعسفة وإدانة لكل اختلاف معها أى لغة تلاعب وسيطرة شبيهة بلغة الإعلانات التجارية فى وسائل الإعلام .

تزييف واقع المسميات

وعملية طبخ هذه الصيغ التنويمية تعتمد فى جانب منها على إطلاق الأسماء التى تزيف واقع المسميات . فالمناضلون من أجل تحرير بلادهم من الاحتلال الأجنبى يسمون إرهابيين على حين أن الاستسلام للتوسع والتعنت الاسرائيلى يسمى قبول الآخر ، ومحو الذاكرة القومية وادعاء أن حروب الاستقلال الوطنى كانت عدوانا من جانبنا على اسرائيل الوديعة المستعدة دائما لتقديم التنازلات يسمى «ثقافة السلام» . فهذه الأشكال اللغوية المختزلة لا تبحث عن الصدق ، بل تفرض كذبها بوصفه بديهيا . لقد كان الانجليز وصنائعهم يسمون جماهير الثوار فى ١٩١٩ «مخربين ودهماء» ويسمون المتهادنين من كبار ملاك الأرض «أصحاب المصالح الحقيقية». وبطبيعة الحال فإن هذه الصيغ لا تعدم الزبائن الذين يشترونها ، ولا الذين يروجونها إما لأنها تتفق مع مصالحهم أو لأنها تضللهم . ومن الناحية الأخرى هناك صيغ معاكسة يستخدمها أعداء القهر والاستغلال والاستعمار تبحث عن حقيقة الأوضاع لتوجيه السلوك وإيقاظ الوعى بعيدا عن التعمية والتضليل . إن صيغة «الهدم من أجل البناء» القائمة على المفارقة والتضاد بين كلمتى هدم وبناء حينما تقال فى وضع تسيطر عليه قوى الرجعية والتخلف والفساد ليست صيغة تنويمية ، فهى تعنى هدم أبنية متداعية محددة ليقام على أنقاضها بناء جديد .

أى أن أمامنا أسواقا لغوية متعددة مختلفة لا سوقا موحدة . فالكلام يعتمد فى جانب مهم منه على شروط انتاجه وشروط استقباله . وقد يعمل موقف التواصل اللغوى بوصفه سوقا . فالمتكلم يحمل توقعا بأرباح أو بخسائر تنتظره فعلاقة التواصل ليست علاقة بسيطة بل يجرى فيها تقدير قيمة الكلام ، ومدى إمكان الموافقة عليه واعتبار المتكلم جديرا بالقبول والسامعين جديرين بالتلقى .

وهناك صيغ لفظية آلية تتكيف مع السوق أو الموقف أو المجال ولا تكون فى أحوال كثيرة إلا أصوات استحسان موجهة إلى مستهلكين مستعدين للشراء . وتلك الصيغ توضع فى واجهة عرض لتجميل البضاعة ، تحت أضواء اصطناعية ملونة توزع الظلال بحيث تخفى الحقائق ، فهى تعبيرات أنيقة بارعة لا تتحمل اختبار الصدق وقد تكون توابل وليست غذاء حقيقيا . وتعتمد على البراعة والخفة مع الايجاز للمراوغة أحيانا

والخداع فى أحيان أخرى وقد تلجأ إلى شقشقة اللسان لا إلى نبض القلب وإعمال الفكر . وقد يلجأ بعض المثقفين من أنصار الموضة فى السوق الأدبية إلى تكرار صيغ مغطاة بالطلاء الجميل دون تحديد الدلالة ، مثل الحساسية الجديدة وما بعد الحداثة وفقدان اليقين والاستيقاظ من كابوس التاريخ وانتهاك المحرمات وتدمير اللغة . وقد لا تكون تلك الصيغ فى أفواه غير الموهوبين إلا إطارا متحذلقا لتفاهات سقيمة ، وتضخما فى عملة الكلام، أى علوا فى الصخب وانخفاضا فى القيمة .

قوالب مستهلكة !

فبعض أصحاب ورواد البوتيكات اللغوية يبيعون ويشترون كلمات أكثر مما هو ضرورى ليقولوا أشياء أكثر مما يعرفون أو يفهمون ، ويواصلون حمل أثقال من الكلمات أو الصيغ التى تبدو لهم جديدة ويواصلون تكرارها حتى تصبح قوالب مستهلكة كعجوز متصابية، وتتكرر كلمات وصيغ مثل «القطيعة مع التقاليد» والوعى الضدى لدى بعض الشعراء . وقد تكون القطيعة والضدية هنا عمى عن كل ما فى الإبداع التاريخى من كنوز ومن بذور يتعين رعايتها وتنميتها وتطويرها ، وليست البداية من الصفر إلا خرافة . لذلك يعمد هؤلاء إلى التسلل داخل تقاليد يختارونها تعسفا من الشعر الأوروبى ولا يستطيعون أن يكونوا من سكانها الأصليين ، ولا من هاضمى رؤاها ، فيقفون عند الاقتباس والانتحال والترقيع وكأنهم الغربان المدهونة باللون الأبيض .

ومن ناحية أخرى نجد على الجهة المواجهة لصيغ الجديد من أجل الجديد فى السوق اللغوية أنصار اجترار القديم فى الظروف المتغيرة . الذين يعتبرون الأشكال القديمة والصيغ القديمة مقدسة ، فهى وسادات ناعمة مريحة تستقر عليها الرءوس ، ومن المستطاع رؤية بهائها وجلالها عند إغماض العينين .

والصيغة المفضلة فى هذه السوق اللغوية هى صيغة ضمير المتكلم الجمع · قيمنا تراثنا هويتنا خصوصيتنا حينما يساء فهمها بوضع محتواها خارج التاريخ وحركة الزمان والتطور . وتقديس الماضى هنا هو علامة الجودة والشعار هو ما أبقى الأول للآخر شيئا .

وليست مشكلة البائعين والمشترين فى هذه السوق اللغوية هى عدم المعرفة أو الجهل بل معرفة أشياء كثيرة ليست حقيقية حينما تتراكب معا في كل متكامل.

وقد ينتمى بعضهم إلى فصيلة القشريات التي تتمسك بالقشور السطحية وتغفل عن الجوهر وهم يطلقون صيغة «حكم الطاغوت» على عدم قابلية القضاة للعزل ، واستقلال القضاء ، وتعدد مستويات التقاضى ، وممارسة حق الدفاع وتخصص المحاكم لأن العصور الماضية لم تعرف ذلك وهم لا يتحسرون صراحة على أيام القاضى بمدينة قم الذى قال له الأمير أيها القاضى بقم ، قد عزلناك فقم ، فعزلته السجعة .

وفى هذه السوق اللغوية تعتبر الممارسات الماضية فى السياسة والاقتصاد والفكر نابعة عن الفطرة والطبيعة البشرية التى لا تتغير ، والتى امتلكناها نحن وحدنا فى أفضل صورة فى الأيام الخوالى التى امتدت قرونا . أما ما استحدث وما أضافه الآخرون فهو زيغ وانحراف ولابد أن ينبثق فى ذلك السياق تعبير «الأغلبية الصامتة» . فالناس فى جملتهم دون أن يفتحوا أفواههم يناصرون القوالب الموروثة من اللباس والسلوك والتعبير فهى خصوصيتهم وفطرتهم ، وهم يرفضون تطوير «خصوصيتهم» ويتمسكون «بثوابت» لا حيدة عنها قد ترجع إلى مرحلة تاريخية انقضت أو عادات جماعات معينة مثل الموقف من ثياب المرأة ورفض مشاركتها الرجال فى العمل والحياة العامة ، وبعض القشريين يرفض الخروج على الشكل المقدس للقصيدة العربية والسرد القصصى التراثى .

★★★

ونلتقى فى تلك السوق اللغوية بقوالب مسكوكة مثل «المد الإلحادى فى الستينات» لوصف استراتيجيات سياسية معينة أو «التنوير العلمانى المستغرب» لوصف الدعوة إلى إعمال العقل فى شئون الحياة والفكر ، أو الدعوة لأن يكون الدين لله والوطن للجميع ، ولأن ينتخب الحاكم من عامة الشعب أو يحكم بواسطة مؤسسات تقوم على فصل السلطات .

ويرفض القشريون المشترك الإنسانى، ويعتبرون الإضافات العالمية فى العلوم الإنسانية «أفكارا مستوردة» على حين أنهم كانوا يؤيدون المستغلين (بالكسر) فى شركات توظيف الأموال لأنهم كانوا يؤسسون «اقتصادا اسلاميا» يرتعد «الغرب الصليبى» من نجاحه ، على الرغم من أن هذا الاقتصاد «غير الربوى» المزعوم كان شديد التداخل مع البورصات والبنوك وشركات إعادة التأمين الرأسمالية العالمية التى لا تستغنى عن التعامل بالربا .

وترفض تلك السوق التى تدعى الأصولية أى إظهار للفردية أو الاستقلال الفكرى وتطالب المواطن افتراض الخطأ فى نفسه والصواب فى شيوخه ، وتتحدث عن قالب جاهز بألفاظ شديدة العموم للمجتمع الفاضل الذى لا يحوى شيئا غير مقبول ، فما هو غير مقبول يأتى من الغرب ومن «العلمانيين» والخارجين على قيمنا المقدسة فقد أصبحت العلمانية تعنى الكفر ولا تعنى فصل الحكم عن سيطرة المؤسسة الدينية أو الكهنة . وتدعى القوالب اللغوية المتداولة تقديم كل الإجابات مسبقا وتجاهل الأسئلة الجديدة. ومن الممكن أن يتستر الجمود والآلية والشمولية وراء هذا القناع اللغوى «الروحى» .

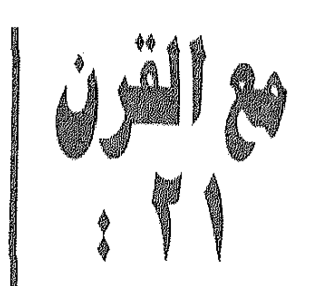
فمن الواضح إذن وجود أسواق كلام متعددة متنافسة قد تكون متصارعة فى صخب . ومن الواضح أيضا وجود تفاوت ضخم فى علاقات القوى بينها .

فالاتجاهات السياسية والايديولوچية لا تتحدد ملامحها فى المحل الأول داخل الأسواق اللغوية بواسطة مبادىء نظرية عقلانية بل بشعارات فضفاضة ترتكز على صور لفظية ورمزية واستعارية . وتريد كل لغة أن تصبح سائدة أو أن تكتسب مجال نفوذ وجدارة بالقبول . وتلك الجدارة بالقبول لا تقف عند مطابقة الكلمات للقواعد الباطنة فى اللغة أو لقواعد المنطق المقرة بل تعتمد على الصراع الاجتماعى والفكرى وعلاقات القوى بين الاتجاهات المتباينة .

إن هناك رؤوس أموال لغوية متميزة ، فالمنتجات اللغوية لا تتساوى فى رواجها أو كسادها . فالنموذج اللغوى الذى كان سائدا فى الستينات تعرض لهجمات حادة أدت إلى إنكسار ملموس ، وكان هذا النموذج يرفض «التعددية» صراحة فالحزب الرأسمالى اليمينى سيكون عميلا للغرب ، والحزب اليسارى سيكون عميلا لموسكو ، لذلك فإن الفكر الليبرالى والفكر الماركسى ليس من حقهما الكلام ، فهما مستوردان وطريقان للعمالة وتنطبق عليهما مقولة «لا حرية لأعداء الحرية» . فالحرية كل الحرية(!) للشعب العامل تحت سيطرة التنظيم الواحد ، تنظيم تحالف قوى الشعب العامل. وفى الواقع كانت السوق اللغوية الرسمية لا تعكس ما يحدث فالهوة بين الشعار والفعل كانت ضخمة ، وكانت صيغة «الديمقراطية الاجتماعية»تعنى الانتقاص من «الديمقراطية السياسية» . وكرد فعل على الشمولية نشأت وسط المثقفين والنقابيين سوق لغوية تطالب بحق تكوين الأحزاب واستقلال النقابات عن التنظيم السياسى ، وحرية التعبير . وواجه نظام الحكم تلك السوق بوصمها بالعمالة للغرب أو الشرق.

وفى السبعينات جاء «الانفتاح» ومعه سوقه اللغوية «ضد اشتراكية الفقر» مع «توسيع قاعدة الملكية» ، «فتح أبواب الاستثمار» «ضرب الحقد» «إلغاء الصراع الطبقى» وقد تحالفت السوق اللغوية للإنفتاح فى البداية مع السوق اللغوية للأصولية ، «الاشتراكية إلحاد» ، «الناصرية شيوعية» . وجاءت مع الانفتاح منتجات لغوية حديثة ضد «الواقعية» فى الفن وضد «الحكايات التحريرية الكبرى» فى السياسة مستلهمة من بعض التطورات الفكرية فى الغرب ، حداثية وما بعد حداثية .

والآن لدينا تعددية تقوم علي حزب مهيمن ، دون إمكان منظور لتداول السلطة ، مع حجب قوي سياسية موجودة في الساحة عن الشرعية . وينعكس ذلك علي أسواق الكلام . فلدينا برج بابل من اللغات ، واختلاط فى المفاهيم ورواج للسوق التراثية وحنين إلي السوق الوطنية القومية وتطلعات حداثية وعولمية .



قيم ومبادىء سقطت رغم قدسيتها .. ومصالح ارتفعت وسادت رغم قبحها !

بقلم :د. سامى منصور

حاولت المشاركة بالمشاهدة فى احتفالات المحتفلين بالألفية الثالثة عالميا والسابعة مصريا ، ولكننى عجزت عن ذلك ليس فقط لسذاجة الاحتفال بهذا الحدث بأضواء الليزر أو بالألعاب النارية، ولا أيضا لفقدان الحس الوطنى والانتماء لتلك الضجة، ولكن لحزن مقرون بالغضب بل والرفض على ما سقط بنا على الطريق رغم قدسيته وبلا مبالاة لقيمته وحيويته.. وقد ارتبط ذلك الرفض والغضب بادراك لثقل عبء ما حملناه معنا لقرن جديد.

وجلست إلى أوراقى بعيدا عن الضجيج فى محاولة جادة لحصر الخسائر فإذا بالماضى يبدو مشرقا! والحاضر يبدو مؤسفا ! والمستقبل عليه علامة استفهام؟.

وقد حاولت حصر المفردات التى سقطت منا فوجدت أن ذلك يحتاج إلى ملفات ومجلدات مع أن كل مفردة منها تعبر عن قيمة ومبدأ ، ووجدت أن الممكن هو أمثلة على تلك المفردات التى سقطت من لغتنا حتى اصبحت أمام الأجيال الجديدة كلمات بلا معنى، مثل الوطنية والاستشهاد والشهيد والبطل والزعيم والانتماء . ولعل محنة الحياة

فى هذه الأيام أن تتحول هذه الكلمات إلى صفقات لاعبى الكرة، فإن حقق هدفا فى فريق آخر فهو انتماء، وإن كسب مباراة فهى انجاز أمة حتى نغنى لها كما يفعل التليفزيون «المصريون أهم»..!

والخطير أن سقوط هذه المفردات يعنى أن سياسات قد سقطت من مخططاتنا، وأن مواقف قد استبعدت، وهى التى خلقت الى الوجود عبر قرون من الزمن هذه المفـــردات وتلك السياسات بدماء شهداء ونضال أجيال وتضحيات بالنفس والمال. فلم تعد لنا مقدسات نجمع على تقديسها ولا قيم نجمع على الهدى بها ولذلك فسوف يخرج من يقول أننى بصفتى مؤرخا فان الظروف قد اختلفت، ويرتفع صوت آخر بصفتى حكيما فان الزمن قد تغير وللاسف فان الظروف لم تتغير ولا الزمن قد تبدل، فمازالت المشكلات هى المشكلات والقضايا هى القضايا كل ما حدث هو تغيير الاسماء فالاستعمار هو الاستعمار مهما اختفى وراء أقنعة خادعة، والتخلف هو تخلف مهما اختلفت المسميات التى يبرع فى نحتها جيل من الكتاب يجرى وراء المصلحة..! .

سقوط المبادىء !

والامر لا يقف عند المفردات وما تعبر عنه من سياسات ، بل إن هناك قيماً ومبادىء دستورية وقانونية وسياسية قد سقطت دون حتى دمعة حزن تسقط عليها ، وفى مقدمتها السيادة الوطنية والاستقلال، فقد اصبحت تلك السيادة مسألة اختيارية ومرهونة بإرادة الكبار وسياساتهم وقسمت دول وفتتت أراضيها أمام أعين الجميع وتجد التأييد من البعض ، والصمت من البعض وكانت النتيجة هى غياب مفهوم السيادة الوطنية والتى كانت إحدى مقدسات القرون الماضية من الزمن والاجيال السابقة من المناضلين.

فوفد الخارجية الامريكية مثلا يزور شمال العراق عن طريق تركيا دون المرور ببغداد. وهو ليس خطأ تقع فيه بعثة أو أفراد ، ولكنه وفد الخارجية الامريكية التى تعرف جيدا السياسات، وبالتالى فهى تريد ترسيخ مفهوم أن العراق انقسم الى اكثر من دولة ، وبالصمت عن التقسيم تصبح سيادة العراق وهما . وهو ما حدث من قبل مع يوغلاسلافيا ، ومع أن المسلمين فيها كانوا خاضعين للاضطهاد إلا أن

ذلك لايعني تأييد تفتيت الدول بالتدخل الخارجي المسلح أو غير المسلح مثلما حدث مع اندونيسيا. وكون أن الاسلام دين هؤلاء لا يعطي شرعية لذلك الحماس. واذا كانت اليوم القوة مع المسلمين في يوغوسلافيا فهي غدا مع المسيحيين في اندونيسيا أو في غيرها!!.

وقيام دول على اساس الدين أو العرق لا يخدم أحدا في العالم بقدر ما يخدم الدولة اليهودية والتي كانت تنفرد بدعوى الدين والعرق اساسا للدولة في النصف الثاني من القرن الماضي.

وقد سقطت ايضا عبر السيادة الوطنية فكرة وفلسفة الامم المتحدة، والتي قامت على مجموعة من الاسس وتحولت الامم المتحدة الى جهاز من أجهزة الخارجية الامريكية فقراراتها لم تعد تعبر عن قانون دولي ولكن عن قانون امريكي، وقد وصلت السخرية من وجودها الى حد أن رئاسة الولايات المتحدة لدورة مجلس الامن قد استغلت لدعوة سناتور امريكي ليحاضر في مجلس الامن - نعم مجلس الامن الدولي وليس الامريكي - حول مفهومه لدور الامم المتحدة. واذا كانت خطيئة الامم المتحدة في الماضي هي قرار تقسيم فلسطين وهو ما لا تملكه، وعدم خضوع اسرائيل لقراراتها دون عقاب، فان الخطايا قد تجاوزت كل منطق واصبحت القرارات تتوالى بفرض حصار على السودان لدعمه الارهاب وفق المنطق الامريكي، بل وتدمير مصنع دواء امريكي بدعوى مساهمة عدو للسياسة الامريكية، وفرض حصار على ليبيا لعدم تسليم مواطنيها للمحاكمة في دولة اخرى بدعوى الاشتراك في اسقاط طائرة مدنية امريكية مع أن امريكا هي التي تسقط الطائرات المدنية، وطائرة ايران شاهد على ذلك واسقاط اسرائيل لطائرة مصرية في الستينات مثل آخر، وفرض حصار على افغانستان لعدم تسليمها مواطن سعودي يحارب امريكا.. أي أن محور كل قرارات الامم المتحدة هو السياسة الامريكية! ولم يبق للامم المتحدة غير تكليف الممثلين والفنانين بالقيام بالمهام الانسانية.

شاهد على الحقيقة

وأظن أنه لم يعد هناك شك في أن الحصار على العراق ليس المقصود به صدام حسين أو رجال حكمه، ولكنه شعب العراق والبنية الاساسية للوطن.

واستقالات ممثلى الامم المتحدة الواحد بعد الاخر شاهد من أهلها ! على الحقيقة التى نغمض عيوننا عنها ارضاء لواشنطن ، ويكفى ان عددا من اعضاء الكونجرس الامريكى يمارسون الضغط على حد تعبير وكالات الانباء العالمية على حكومة كلينتون لرفع الحصار عن العراق الذى تفرضه الامم المتحدة .. عفوا الولايات المتحدة.

وسقطت أيضا فلسفة الفتحية وسياسات التخطيط تحت دعوى العولمة وفق التعبير المنحوت من المتعلمين بديلا لكلمة «الامركة» وليس بديلا للعالمية، فالأولى توحيد والاخرى تعددية مثل تعبير «الفرنسة» فى القرن الماضى، واصبح نهب ثروات الشعوب يحمل شعار الخصخصة التى يروج لها البنك الدولى بفلسفة امريكية بحتة لمفهوم الرأسمالية.

هذه بعض المفردات وعدد من المبادىء والسياسات التى سقطت من المسيرة للألفية الثالثة. وكما قلت فى البداية فان كلا منها يمكن الحديث عنه فى مجلدات وكتب. واذا كانت تلك المفردات والقيم المقدسة قد سقطت، فماذا نحمل معنا على أكتافنا بديلا ومنهاجا؟.

لقد اصبح المال هو القيمة ، والقوة هى القانون ، والعولمة هى الطريق، واصبح النضال المسلح ارهاباً والمناضل ارهابياً بل والعمالة التى كانت عقوبتها فى الماضى هى الادانة التى تصل للاعدام هى راية الفخار ومصدراً للدعم، فلم يعد عيبا ان تذهب المعارضة العراقية الى واشنطن لتسليحها ودعمها، ولم يعد عيبا ان تذهب المعارضة السودانية الى واشنطن او غيرها طلبا للدعم والمساعدة.

صحيح أن البعض فى الماضى كان يذهب الى واشنطن طلبا للعون ولكن كان ذلك سرا ، فإذا خرج الى العلن سقط الحزب أو الشخص وهرب إلى الظلام، ولكننا اليوم نجد أن علانية العمالة أصبحت مجدا وحقا، وأظن أن مراجعة خطب زعماء الكيان الصهيونى عن قيادات عربية تعاونت معهم على مدى الأربعين عاما الماضية ضد ارادة الامة العربية، وكانت سرا ومحل انكار اصحابها فاصبحت مصدر التقرير والفخر هذه الايام بدعوى الرؤية الصائبة وسابق الزمن وما الى ذلك من نحت المتعلمين من تعبيرات لخداع الشعوب عن الحقيقة.

اننا دخلنا الالفية الثالثة غير مسلحين بقيم، ونتبع مصالح ولذلك فصدام المصالح أمر حتمى ، ولذلك فان السلام فى ظل هيمنة المصالح هو امر بعيد المنال وحكم الشركات متعددة القومية ـ العالمية ـ هو أبشع من حكم دول الاستعمار فى القرن الماضى.

نحو تفسير قرآنى متفق عليه

بقلم : د. محمد رجب البيومى

تزاحمت كتب التفسير القرآنى فى هذا العصر تزاحما شديدا ، ففى كل قطر عربى نجد من علمائه من يعكف على تأليف التفسير، باذلا قصارى ما فى وسعه ، وقد عددت أكثر من عشرين مؤلفا توالت مطردة ، وكأنها فى سباق رصدت له الجوائز المغرية ، وأكثر ما قرأت متشابه متقارب ، لأن الطريق مطروق ، وكتب التفسير فى مكتبة التراث على مدى أكثر من ثلاثة عشر قرنا بعد ازدهار حركة التدوين ذائعة متداولة ، فمهمة المفسر النمطى يسيرة هينة ، إنه يقرأ كتابا أو كتابين ثم ينسخ ما قرأ ، آنا ينسخ دون تصرف ، وآنا يحدث تبديلا فى الألفاظ التى تنتهى إلى مؤدى واحد ، ثم يتكون الكتاب فى أجزاء عدة ، ويدفع به إلى القراء ! هذا هو المؤلف النمطى لا المتميز ، وهو الشائع الوفير !.

وأنا لا أنكر شوق المسلم وانجذابه إلى كتاب ربه . فهذا الشوق الصادق هو الدافع الملح للتأليف لاسيما أن الذي يعيش أعواما فى جو القرآن يستشعر سموا فى نفسه ، ويحس بقوة دائبة الهتاف بسمعه ، تدعوه إلى أن يواصل السبح ، وهو سعيد بهذه القوة الدائبة الملحة ، وأنا أعرف أناسا يحفظون القرآن عن ظهر قلب دون أن يدركوا معانيه ، وقد ألزموا أنفسهم بقراءة عشرة أجزاء في اليوم الواحد ، وهم يتخلصون من أعبائهم اليومية قدرا من الزمن كى يرضوا أشواقهم الدافعة إلى التلاوة ، فإذا لم يتيسر لهم قراءة (المعلوم المتعارف) كان ذلك مصدر ضيق لا يتنفس عنهم إلا بالتعويض السريع ، فكذلك من دفعته همته إلى كتابة التفسير ، يجد من القوة الدافعة أضعاف ما يجد المقتصر على التلاوة ، ولكن هذا النشاط المتعجل فى حاجة إلى معاودة النظر ، كى لا يضيع الجهد دون عناء .

لقد كان من المعقول - قبل ظهور المطبعة - أن يكثر المفسرون فى العالم الإسلامى ، لأن العالم فى العراق مثلا يفسر لبنى وطنه ، وهم يتداولون التفسير نسخا باليد ، وقلما ينزح إلى بلد آخر إلا إذا كان المفسر حجة قد جاز صيته العلمى حدود وطنه الضيق إلى وطن الإسلام الفسيح ، وقد تكوّن مما كتب هؤلاء تراث ضخم ، ولكنه فى أكثره متماثل ، أما عصر المطبعة فقد سمح بتداول الكتب - تفسيرا وغير تفسير - على نحو سريع ، ولذلك انحدرت سيول المؤلفات من كل صوب ، وأكثرها محدود الطاقة ، وقل أن يضيف الجديد ! وفى القراء من ينشط لشراء كتب التفسير مهما تعدد مؤلفوها - وإن لم يقرأ منها جزءا واحدا ، ظانا أنه يكسب بذلك مثوبة ترفع درجاته عند ربه ، ومثل هذا القارئ فى حاجة إلى أن نعطف عليه فلا نثقل جيبه بكتب تختلف فى الاسماء وتتفق فى الموضوع ، بل نيسر له ما يجذبه إلى القراءة من ناحية ، وإلى ما لا يجد نظائره لديه من ناحيةٍ ثانية ، وكان القدماء يقولون (العلم أمانة) ومن أمانة العلم أن نقدم العارف المفيد .

نحن نعرف أن كتاب الله هو كتاب الزمن جميعه ، بمعنى أن كل عصر تجد فيه من العلوم والمعارف ، وتنشأ به من الأحداث والملابسات ، ما نفزع فى علاجه إلى كتاب الله ، وإذن فلابد لكل عصر من مفسر قد استوفى شرائط العالم المنقب الجاد ، ليجد فى كتاب الله ما يرشد إلى الهدى ، ثم ليكون ما جدّ من المعارف أداة لفهم جديد ينبثق عن مكنون مستتر فى كتاب الله ، وقد كان إمام العصر

الشيخ محمد عبده أحد الذين سنوا الطريق لاتجاه جديد فى تطبيق النص القرآنى على كثير من معاضل العصر ، والشيخ - رضى الله عنه - لم يفسر القرآن جميعه . ولكنه فيما نشر من تفسيره قد ضرب المثل للاجتهاد الواعى ، وخلف بعده من نبغاء تلاميذه من حاول السير على منهجه ، ففهمت بعض النصوص فهما فسيحا ، لم يأت عن تكلف فى التأويل ، أو تعسف فى النظر ، وفى هذا المجال صدق قول الله «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد» . وهنا تكون مهمة المفسر المأمول أن يختار من الآيات الكريمة ما يعالج به مشكلات عصره ، بعد أن يدرس هذه المشكلات ، ويقرأ ما كتبه عنها ذوو الدربة الواعية من ذوى الاختصاص ، وبخاصة فى الأحوال الاجتماعية التى كادت أن تنقلب ظهرا على عقب بما جد من محاكاة الذائع فى الدول المتقدمة ، وليس كل ذائع هناك مكروها منبوذا ، فمنه ما يعطى الثراء الحقيقى ، ومنه ما ينخر فى كيان المجتمع فيرديه ، وهنا يكون المفسر الجدير بهذا الوصف صمام أمن ، وأداة إنقاذ ، ليس المطلوب منه حينئذ أن يوالى تفسير كتاب الله وفق ترتيبه فى المصحف ولكن المطلوب منه أن يتخذ منه دواء لما يرى من أسقام .

التفسير الموضوعى

لقد ذاع منذ حين ما سمى بالتفسير الموضوعى ، ومعناه الحقيقى استيفاء موضوع خاص من موضوعات القرآن الكريم ، يجمع كل ما ورد فيه من الآيات بحيث تشكل موضوعا واحداً حين ترتب ترتيبا دقيقا ، فيرى القارئ ما قد تناثر من الآيات فى سور شتى قد التأم فى عقد تام، وقد أحاط الباحث خبرا بأسباب النزول فى كل نص ، وقرأ خلاصة دقيقة لأقوال الثقات من المفسرين وما استندوا إليه من العلل والأحاديث ، فيكون من ذلك عناصر متماسكة تظهر البيان القرآنى فى منطقه الصريح ، على أن يرعى كل عالم ناحية اختصاصه ، فالفقيه مثلا يقف عند آيات الأحكام ، فيبوبها فصولا فصولا، والمؤرخ يقف عند آيات الأنبياء وأحداث الغابرين ممن تحدث عنهم القرآن حديث العظة البالغة ، وأذكر أنى قرأت فى هذا المجال كتابا ممتازا تحت عنوان (الرسول فى القرآن) كان فى رأيى أصدق كتاب سطر عن محمد - صلى الله عليه وسلم - لأنه اعتمد على أصح مرجع لا يعلوه سواه، وأستاذ الأخلاق يختار

آيات السلوك الإنساني ليجعل منها فصولا تهدى الناس في طريق الحياة، وكدت أتحدث عن الآيات الكونية، وما يتصل بها من التفسير العلمي، وهو ميدان اقتحمه بعض الفضلاء فاهتدى إلى خير كثير، ولكن في أمان من مخاطره، لأن للتفسير العلمي شروطا يجب أن يقف عندها المفسر، وأهمها ألا يطبق غير الثابت الحقيقي من النظريات التي محصت تمام التمحيص، كما يجب أن يكون المنطوق صريحا دون اعتساف في التأويل فلا نجر الآية جرا إلى معنى لا تسفر عنه بلسان مبين، وقد رأيت بعض من اتجهوا إلى التفسير الموضوعي يتجاوزون مجالهم المحدود في نطاق النص القرآني، فيضيفون أقوال المفسرين وقد تكون بعيدة، مع آراء العلماء، وهي ليست في صميم النص، وأذكر أني قلت بصدد ذلك في كتابي «التفسير القرآني».

«لقد ظهرت مؤلفات تخص مسائل معينة مثل (المرأة في الإسلام) و(الإنسان في الإسلام) و(المجتمع في القرآن) لا يقتصر أصحابها على ما جاء في كتاب الله وما يؤيده ويوضحه من حديث الرسول بل يمتد إلى شجون مختلفة من القول تأتي الآيات خلالها وكأنها سيقت لتأييد وجهة ما، لا أنها هي المسيطرة على السياق ثم بعد ذلك يكتب في عنوان الدراسة وعلى الغلاف الخارجي عبارة (من التفسير الموضوعي) وهي بعيدة عن التفسير الحقيقي للنص، وإذا جاز لنا أن نعتبر هذا المنحى من التفسير الموضوعي، فكل كتاب ديني يعتبر إذن تفسيرا موضوعيا لأنه يتضمن بعض آيات الكتاب!».

ولعل من الحق أن أشير إلى أن الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت رحمه الله، كان أظهر من وفق في التفسير الموضوعي توفيقا يجب أن يكون موضع الاحتذاء. إذ كان في كل ما عالجه من شئون الحياة في ضوء الكتاب العزيز ملتزما بالنص القرآني لا يخلطه بغيره، مع براعة محكمة في الربط بين الآيات، واستشفاف دقيق لمدلولاتها، وقد جاءت بحوثه موجزة، ولكنها مستوفاة، لأنه لم يعمد إلى الوعظ المتدفق، أو الاستشهاد بنصوص السابقين، إذ سار وفق منحاه، فليت الذين يكتبون المجلد الحافل في موضوع قرآني ينسبونه إلى هذا الاتجاه، يعرفون أنهم قد خلطوا كلام الله بسواه، فخرجوا عن محيط التفسير.

التفسير المناسب

وقد يفهم مما ذكرت أني لا أرحب بتفسير جديد على الطريقة التقليدية، فلست أعارض هذا الاتجاه إذا نهض

به إمام يملك عدته التى اشترطها العلماء فى المفسر ، ولكنى أرى أن هذا العهد الحافل بتياراته المختلفة لم يعد يسمح لعالم ما أن ينهض وحده بتفسير يقضى حاجة المعاصرين على تباين اتجاهاتهم ، فلابد من لجنة علمية تؤلف من ذوى الاختصاصات المختلفة لتقوم بوضع تفسير يناسب التطلعات الواعية ، كما لابد أن تقرأ مجتمعة ما يكتبه كل عضو لتقره أو تضيف إليه ، وإذا كنا فى مجال الفتوى الفقهية نسمع أصواتا مخلصة تنادى بألا تنحصر الفتوى فى فقيه بالغ ما بلغ إذ جدت من القضايا ما تستلزم عقولا متعاونة تفتى فى مثل مسائل الاستنساخ ونقل الأعضاء من الميت إلى الحى وغيرهما ، إذا كنا نسمع ذلك فى الفتوى الشرعية فإن تفسير القرآن الكريم وهو الأصل الأول لكل فتوى دينية يجب أن تكون له هذه اللجنة ، وأذكر أن بعض التفاسير قد خرجت عن لجان خاصة بمجمع البحوث الإسلامية ، وبالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، فسدت حاجة القارئ العجلان ولكننا نرجو أن نمتد إلى القارئ المطمئن ذى النظر المعاود فنشبع رغبته بتفسير واع دقيق ، وذلك ممكن جدا ، فلدينا من يجيدون .

وهناك مجالات شتى كنت أتمنى أن تطرق فى ميدان التفسير ، فيتجه إليها بعض من يشتغلون بالتفسير العام إذا أرادوا النفع الحقيقى بالعمل الجاد، لا بالتراخى الكسول ، فقد ظهرت فى هذا القرن آراء جديدة لبعض الفضلاء لم تعهد من قبل ، فلم لا ينهض مفسر طلعة فيخط كتابا تحت عنوان (الجديد فى التفسير) يجمع فيه هذه الآراء فيعرضها فى حيدة تامة ، ويصدر حكمه وفق ما يفتح الله به عليه دون تهجم أو تزيد ، فالمجتهد مأجور وإن أخطأ ، ولا أكتم القارئ أنى أشهد بعض البوارق المضيئة فى تفسير بعض الآيات الكريمة لنفر من العلماء يرسلونها فى بعض المجلات دون أن تجمع فى نطاق خاص ، وهى فى جدتها القشيبة جديرة بالفحص والتمحيص ، ومن ذلك ما قرأته بمجلة «الرسالة» للأستاذ الدكتور عبدالوهاب عزام خاصا بتفسير قول الله عز وجل (ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء، وهو العزيز الرحيم وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون» .

فهناك شبه إجماع من المفسرين على أن الروم قد هزمت على يد الفرس، وأن العرب استاءوا لهزيمة الروم لأن تجار مكة من المشركين كانوا على صلة بالغساسنة حلفاء الروم ، وقد رأوا أن يجعلوا هزيمة الروم بابا لمهاجمة المسلمين لأن الروم أهل كتاب وقد هزموا ، والفرس وثنيون وقد انتصروا ، فنزلت هذه الآيات تعد بنصر الروم . هذا هو المجمع عليه لدى المفسرين، ولكن الدكتور عبدالوهاب عزام رأى غير ذلك ، وخلاصة ما اتجه إليه ، أن هزيمة الروم التى اهتم بها مشركو مكة كانت سنة ٦١٥م وقد وقعت غزوة بدر فى السنة الثانية للهجرة سنة ٦٢٤م أى بعد بضع سنين، ففرح المسلمين يومئذ لا يكون لنصر الروم ، وإنما لنصر المسلمين الموعود به ، وقد تحقق يوم بدر وهو نصر الله الذى تحدثت عنه الآية .

أما الدليل المرجح لذلك ، فهو أن الروم كانوا حينئذ أرباب طغيان وجبروت ، وعسف بالأمم والشعوب وتسخير الرعايا فى الأهوال والمشاق عن غطرسة متكبرة ، ونصر هؤلاء لا يمكن أن يكون نصر الله الذى وعد به المسلمين وعدا لا يخلفه ، إنما الوعد الربانى فهو للفئة المجاهدة فى سبيل الله، ويؤكد ذلك أن الرسول قد اضطر فى حياته إلى محاربة الروم حين أرسل الجيوش إلى مؤتة فى وقت كان فيه هرقل حاكم الدنيا المنتصر على فارس، فقول الله «وعد الله لا يخلف الله وعده» إنما يعنى الوعد المبشر بنصر المسلمين» .

هذا رأى جديد سبق به عالم أديب لم يعرف عنه اشتغال بالتفسير ، ولكنه أقنع به نفرا من الباحثين لوجاهة دليله! فإذا عكف باحث على تصيد أمثال هذه الآراء ، فإنه بمؤلفه المنتظر يضيف الجديد حقا ، وهو بذلك يفيد قارئه إفادة لا يجدها منه إذا نقل النصوص من كتاب إلى كتاب !! فى تفسير غير جديد .. وليس معنى هذا أن كل رأى جديد فى التفسير صحيح يجب الاحتفال به ، ولكن معناه أن بين هذه الآراء ما هو جدير بالذيوع بعد أن يثبت للنقاش .

وبقراءة ما بأيدينا من كتب التفسير، نرى التزام الكثرة بما هو مقرر دون محاولة للاعتراض عليه ، ومع هذه الكثرة قلة تحاول الاستعلاء دون رصيد مؤهل من الموهبة الواعية والإطلاع المستنير ، إذ دأب قوم على توهين ما يعتبر من قبيل المسلمات وكأن تخطئة السابقين هدف مقصود لذاته مع الميل المفاجئ إلى رأى لم تتهيأ أسبابه المقنعة ، وقد تعجب حين

تجد السخرية من إمام شهير لمجرد شبهات طافت بالكاتب نفسه ، وقد نسى هذا الساخر أنه يعتمد اعتمادا كبيرا على ما سجله المنقود فى أكثر ما نسخه من آراء . وهذا ما يفرض عليه التأدب الحذر أمام قمة عالية ، هو لا يزال يقف فى السفح أمامها رافعا رأسه على استحياء ، لو عرف موضعه الصحيح، ! وكتاب الله عز وجل ليس قصيدة شعرية نجتهد فى فهمها كما نشاء ، فنتوهمه رمزا فى عبارة صحيحة ، أو كناية في حقيقة سافرة ، فالخطأ حينئذ مأمون العاقبة ، إذ لا ضرر ينشأ عنه ، ولكن الخطر يكمن فى فهم النص القرآنى على غير وجهه ، ومحاولة إيهام القارئ بصحة هذا الشطط ، لأن المتكلم هو الله ، والحكم حكمه فيما قال، فالخشية الحذرة هنا واجبة لا محالة ، وقد عد الباحثون صفة الإخلاص الدقيق من أول صفات المفسر ، فبهذا الإخلاص ينتهى العاجز عن مزاولة ما لا يحسن ، ويقدر غير العاجز لكل خطوة يخطوها أين يكون موقعها العاصم من الزلل ، ونعرف فى تاريخ أهل العلم من امتنع عن تفسير كتاب الله مع أهليته الكافية مخافة الخطأ غير المقصود ، بل كان الكبار من الصحابة ومن تبعهم بإحسان يحيلون الاجابة على نظرائهم تحرجا من الخطأ ، وعمر بن الخطاب على جلالة خطره ، وقوة فراسته ، أحال سائله مرات إلى على بن أبى طالب ، وطلب أن يرجع بالاجابة إليه ليعلم ما قال ، ومن هؤلاء الكبار من رويت عنه هذه القالة المشتهرة (أى أرض تقلنى وأى سماء تظلنى إذا قلت فى كتاب الله ما لا ينطبق)! فليحذر المتسرعون فهم يقفون على جُرُفٍ مهيل .

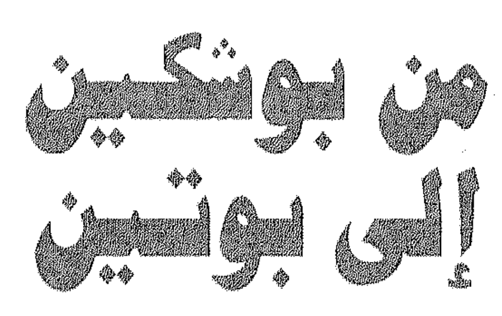
★ ★ ★

وليس التفسير وقفا على الكتب الخاصة به وحدها ، بل يتعدى ذلك إلى كل استشهاد قام به كاتب أو خطيب فى مناسبة ما ، حين يجئ بالنص القرآنى وكأنه ذو دلالة على ما يقول ، وقد رأيت فى هذه الناحية ما يبعث العجب حقا ، إذ يتمحل بعض الكاتبين من المرتزقة الذين يأكلون على كل مائدة ، كى يأتى بنص يسعفه فى تأييد من يحطب فى حبلهم من ولاة الأمر ، أو يظن أنه يسعفه ، لأن القارئ أزكى منه إذ يهديه الله إلى احتقار ما بين يديه من ضلال ، فإذا أراد القارئ مثلا على ذلك ، فإنى سأسعفه بمثال شاذ

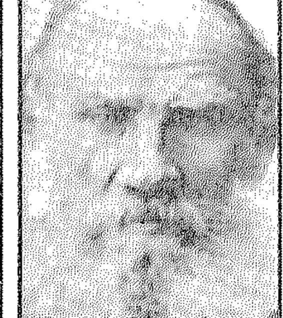
قبيح يدل على سفه الكاتب وعبث الناشر معا !! ففى فترة الحكم الشمولى ذى الحزب الواحد قامت قيامة الهتافين طعنا فى الحزبية والمتحزبين ، واهتبل أحدهم الفرصة فنشر فى مجلة حكومية مقالا تحت عنوان «الأحزاب فى القرآن» ملأه بأيات لا صلة بينها وبين الحزبية السياسية بحال ، فقد استشهد بقول الله عز وجل (فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم) الزخرف : ٦٥ ، وقوله تعالى (وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب) ص ١٣، وقوله (جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب) : ص ١١، وقوله (ولما رأى المؤمنون الأحزاب، قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما) : الأحزاب ٢٢ ، وأطال التعقيب على النص الأخير باعتبار أن لفظ الأحزاب قد ذكر مقابلا للفظ المؤمنين فهم الكفار !! وأنا أعتقد اعتقادا جازما أن الكاتب يكذب ويعلم أنه يكذب ، إذ المراد بكل ما ذكر ، هم الأعداء الذين يناوئون دعوات الأنبياء ، وليسوا هم رجال الأحزاب السياسية ذات البرامج المحددة المشتهرة ، والساعية لتوليه الحكم بناء على الأصول الذائعة ! فالحزب هنا ذو مدلول سياسى لا يلتقى مع النص القرآنى فى حرف واحد ، أما الحزب فى القرآن فموقعه يدل عليه السياق ، ومعناه الفريق ، وهو تارة حزب الحق كما قال الله عز وجل «ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون» : المائدة ٥٦ ، وتارة حزب الباطل كما قال الله عز وجل (استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) : المجادلة ١٩، ولا أدرى هل نسى الكاتب حزب الله فى القرآن ، أو أنه من الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ! .

إن الفكر الإسلامى بحمد الله يسير بخطوات فسيحة نحو التقدم، وما رجوته فى مجال التفسير القرآنى سهل التحقيق فلدينا الدارسون الفاقهون مع إخلاص يدفع إلى الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد ☐

النبيل والوضيع فى حروب القوقاز :



من بوشكين إلى بوتين

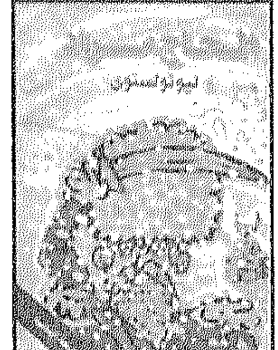


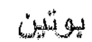
تولستوى



بوشكين





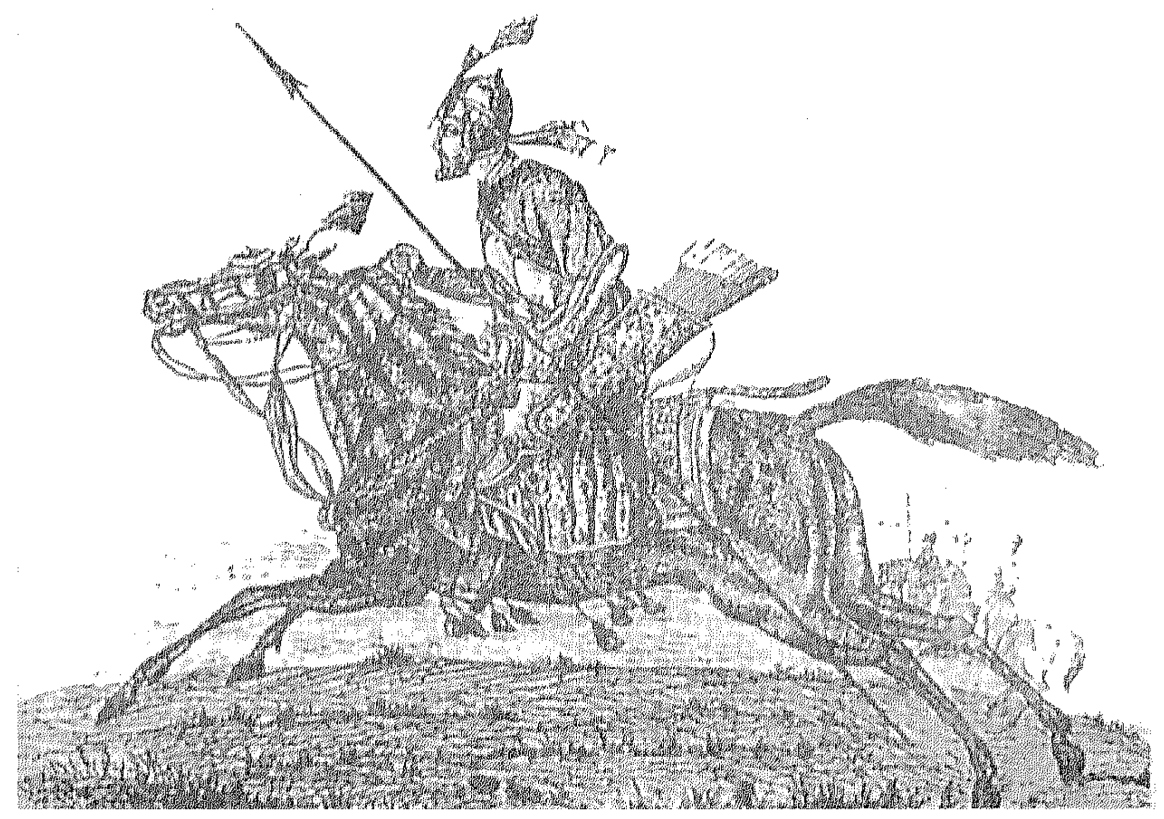


بوتين

بقلم:

محمد يوسف عدس

مستشار سابق بمنظمة اليونسكو – لندن



●● الاحتكاك بالثقافة الأوربية فى مستهل القرن التاسع عشر ولّد عند النخبة الروسية المثقفة الرغبة فى البحث عن الصورة الذاتية أو الهوية القومية لروسيا.

ولأن إدراك الذات لا يتم فى فراغ وإنما فى مواجهة الآخر الذى يشكّل للذات تحدياً وإطارا، فقد وجدت النخبة نفسها أمام مجهولين لا مجهول واحد، أولهما: الريف الروسى باعتباره مستودع القيم والفضائل القومية التى لم تفسدها العوامل الخارجية، وثانيهما: الشعوب الآسيوية التى تريض على حدود روسيا الجنوبية والتى وجدوا دولتهم فى تصادم مستمر معها عبر أربعة قرون مضت ●●

تعيش هذه الشعوب فى شمال القوقاز، وهى منطقة جبلية شديدة الوعورة تمتد على حدود روسيا الجنوبية حوالى ١٤٤٠ كيلو مترا من البحر الأسود إلى بحر قزوين، وتشكل عائقا طبيعيا أمام الزحف الإمبريالى لروسيا نحو آسيا.

كانت النخبة الروسية - بطبيعة الحال - أكثر ألفة بمواطنيهم فى الريف، ومع ذلك نجد «ألكسندر جريبودوف» يجسم فكرة النخبة المغتربة عن الريف الروسى فى ذلك الوقت (سنة ١٨٢٦م) بقوله: «إنه موطن قبيلة أخرى .. قبيلة برية غريبة غير مفهومة فى نظر طبقة مجروحة من أنصاف الأوربيين». ويحدد جريبودوف هذا الجرح بأنه الاغتراب بعينه حيث يقول: «بشىء من السحر الأسود الذى يعصب أعيننا عن رؤية الحقيقة تحولنا إلى غرباء بين شعبنا، ولكى نُبطل مفعول هذا السحر الضار علينا أن نعرف الكثير عن الريف الروسى الذى نجهل حقيقته».



تزامن هذا مع محاولات أدبية جريئة لاستكشاف الصورة الحقيقية للآسيويين من سكان المناطق الجبلية فى القوقاز (الشيشان وداغستان وشركاسيا وإنجووشيا...) ، وكانت محاولة التعرف على حياة هذه الشعوب حافزاً على إنتاج أدبى هو الأكثر ثراء فى تاريخ الأدب الروسى الكلاسيكى كله، ابتداء من رائعة بوشكين «سجين القوقاز» التى نشرت سنة ١٨٢٢م.

هذا الانغماس الفكرى الرومانسى فى حياة الآسيويين كان من أهم العوامل فى تطور القومية الروسية والوعى الإمبريالى فى روسيا.

ولكننا إذا أنصتنا إلى جميع الأصوات الروسية فى عصر بوشكين،، فإننا بالضرورة سنسمع صوتا آخر يتردد بإصرار، وهو يمثل رأيا مخالفا عن القوقازيين أو «الجبليين» كما كانوا يعرفون فى روسيا فى ذلك الوقت، وهو صوت يستخدم نفس المفردات «البدائى» و«الجبلى» لوصف هؤلاء الغرباء، ولكن تتشعب الأحكام القيمية بعد ذلك عن هؤلاء الغرباء الرابضين على الحدود.

فرجال السلطة القيصرية والقادة العسكريون كانوا يتحدثون عن القوقازيين باعتبارهم حيوانات متوحشة وضعاء ، وأعداء لا يكفّون عن الجهاد (الحرب المقدسة) ضد روسيا المتحضرة حامية حمى المسيحية.

لكن هذه الصورة البشعة ووجهت بعناد أشد وإصرار أكبر بصورة مضادة أبدعها «ألكسندر بوشكين» أمير شعراء روسيا للقوقازيين النبلاء فى رواية له بعنوان «سجين القوقاز»، شاعت هذه الصورة وثبتت فى الوجدان الروسى خلال القرن التاسع عشر كله، لدرجة أن صورة القوقازى المتوحش الوضيع التى فرضتها السلطة الإمبريالية كانت تخوض معركة خاسرة فى محاولتها تبديد الصورة الرومانسية الإيجابية لبطولة القبائل القوقازية فى عقول القراء الروس.

ولذلك يمكن القول بأن تعايش الصورتين المتعارضتين للقوقازى البدائى فى الميثولوچيا الروسية كان من شأنه أن يخلق توترا ثقافيا ذا قطبين، ينجذب أحدهما نحو صورة القوقازى النبيل التى تبناها الأدب الرومانسى، ويتجه الآخر نحو صورة القوقازى الوضيع التى روّج لها مركز الأيديولوجية الإمبريالية فى السلطة الروسية.

هذه الحقيقة لا تلقى اليوم اهتماما يذكر من الباحثين المحدثين فى تاريخ الأدب الروسى، فهم يرون أن النبالة البدائية لم تكن أكثر من رؤية مبهجة أو مسلّية لإخفاء وحشية الحروب الإمبريالية فى القوقاز.

خلفية تاريخية للصراع

هناك بعض حقائق تاريخية لابد من استيعابها عن هذه المنطقة تتصل بالفترة التى سبقت توسع الروس فى الجنوب ليصلوا بحدودهم إلى القوقاز الشمالى،

ومن ثم بداية الصدام التاريخى الذى استغرق عدة قرون، نلخص أهم هذه الحقائق فى النقاط التالية ·

● كان المسلمون هم الذين يحكمون هذه المنطقة بما فى ذلك روسيا أو ما عُرف باسم روسيا فيما بعد .

● لم يكن اسم روسيا متداولا معروفا عندما زحف المدّ الإسلامى إلى أوربا عبر مرتفعات القوقاز، وإنما وجدت إمارة روسية صغيرة لا تزيد مساحتها على ٢٥٠ كيلو مترا مربعا هى إمارة «موسكوفيا»، وقد ظلت هذه الإمارة تحت سيطرة حكام الأسرة المالكة المعروفة باسم القبيلة الذهبية، وهى أسرة ذات أصول مغولية حكمت إمبراطورية إسلامية فسيحة الأرجاء امتدت من حدود الصين إلى شبه جزيرة القرم.

● فى الوقت الذى بدأت الصراعات الداخلية بين خانات القبيلة الذهبية تضعف سيطرتهم وتوهن قواهم، كانت موسكوفيا تتقوى وترقب الموقف حتى تحين الفرصة السانحة للانقضاض.

● فى عهد القيصر إيفان الرهيب استولى الروس فى منطقة الفولجا الوسطى على قازان سنة ١٥٥٢م، ثم على استراخان سنة ١٥٥٦م، ولكن تسمرت أقدام روسيا بعد ذلك أمام جبال القوقاز ثلاثة قرون.

● فى سنة ١٦٠٤ م قام القيصر «بوريس جودونوف» بهجوم كبير على داغستان فى محاولة لاحتلالها، ولكن انتهت حملته بكارثة كبرى، فقد دمر الداغستانيون الجيش الموسكوفى وحطموا القلاع الروسية على أنهار سولاك وسونجا وتريك، وأجبروا فلول القوات الروسية على الانسحاب إلى استراخان.

● شهدت المنطقة صراعات محلية بين القيادات القوقازية أثارت شهوة روسيا للغزو من جديد خصوصا بعد نجاحها فى القضاء على إمارة القرم سنة ١٧٨٣م.

● من سنة ١٧٨٣ وشعوب القوقاز فى حرب متصلة مع روسيا إلى اليوم، ارتكبت فيها الجيوش الروسية أبشع الجرائم ضد السكان الآمنين.

تفسر لنا هذه الحقائق كثيرا من جوانب الموقفين المتعارضين بالنسبة للقوقاز: موقف العداء التقليدى للسلطة الروسية الإمبريالية، وموقف التعاطف التقليدى للمثقفين الروس الذى عبّرت عنه الحركة الرومانسية فى الأدب الروسى أصدق تعبير.

صحيح أن أحدا من هؤلاء الأدباء والكتاب لم يرفع صوته احتجاجا على الغزوات الوحشية ضد القوقاز، وما كان يستطيع ذلك وهو يعلم مدى بطش السلطات القيصرية، ولكن الإصرار على تصوير القوقازيين بصورة النبل والبطولة – فى حد ذاته – يؤكد الانفصال والاحتجاج الصامت على الصورة الوحشية التى تروجها السلطات الإمبريالية الغاشمة، كما يؤكد الرفض الجوانى لعبودية النظام الحاكم وظلم الإقطاع للشعب الروسى نفسه.

سجين القوقاز

يتخذ بوشكين وسطه الدرامى فى قصة «سجين القوقاز» بين قبائل الشركس، ويقدمهم باعتبارهم شعبا حرا مستعدا للقتال حتى الموت فى سبيل حريته، ولذلك فإن قُراء بوشكين الأوائل أظهروا رفضا قاطعا للتوحد مع المصالح الإمبريالية للقيصر وانحازوا إلى الرؤية الشعرية للحرية والبطولة فى جبال القوقاز، ومن ثم يمكن القول بأن هذه العقلية الرومانسية قد استطاعت تجسيد الميل الروسى العام إلى الانعتاق من سلطان دولة مستبدة معادية لروح المجتمع، والتوحد مع القوقازيين الأحرار.

تصف قصة بوشكين رحلة مغامر روسى هارب من الحياة الحضرية بكآبتها وعبوسها إلى حياة بدائية متحررة مع القوقازيين، وصفاً بديعا ملك على القراء أفئدتهم بقوة آسرة، إنها قصة حافلة بأحداث المغامرة والتمرد البطولى الذى يكتنف الحياة فى القوقاز، ومن ثم أسبغت على القوقازيين هالة فائقة من البطولات الخالدة، ورسّخت فى يقين الروسى المثقف أن الجبل هو مهد الحرية، ولذلك أصبحت رواية «سجين القوقاز» تحتل ركنا مهما فى مكتبة أى قارىء روسى.

يختلف بوشكين اختلافا جوهريا مع الفكر الروسى الرسمى عن القوقازيين، فهو يصف لنا الحياة اليومية للشركس فنراها حياة عمل ونشاط ينخرط فيها الرجال والنساء جميعا، فقد لاحظ الأسير الروسى من أول يوم له فى الجبل أن الرجال والنساء قد تركوه وحده وذهبوا إلى العمل فى الحقل، وعندما يؤكد بوشكين على اهتمام القوقازيين بالزراعة، فإنه يقربهم إلى العقلية الروسية، وهذه صورة تتعارض كلية مع الصورة الرسمية كما عبر عنها جوكوفسكى فى خطابه إلى فيسكوف الذى يصور القوقازى متنقلا بين حالتين من السلوك المتكرر من الإغارة والنهب على جيرانه ثم الاسترخاء والكسل الكئيب.

يتحدث بوشكين كثيرا عن فضائل الجبليين وسجاياهم الحميدة فى إكرام الضيوف إذا حلوا بهم، أو كانوا مجرد عابرى سبيل، فإنهم يرحبون بهم ويقدمون لهم الطعام والشراب والمأوى بسخاء واحتفال.

وفى موضع آخر من الرواية نجد أسيرا روسيا يحاول أن يحتفظ فى ذاكرته المرهفة بالأغانى البطولية التى كان يسمعها من الشركس.

ويمضى بوشكين فى تصوير حياة القوقازيين فيتعرض لتفاصيل كثيرة عن ممارساتهم الدينية وهم يصلّون فى سكينة ووقار، وعن طريقتهم فى تنشئة الأطفال، وحياتهم الاجتماعية وأناشيدهم التى تمجد الحرية والبطولة.

وفى قلب هذا كله تدور أحداث قصة رومانسية لفتاة قوقازية تنجذب روحها إلى الروسى الأسير حتى قبل أن يتبادلا كلمة واحدة، فقد تطوعت بتطبيبه ومعالجة جروحه وأفصحت له عن حبها، فلما رأت

فى عينى بطلها نظرة شهوانية أطلقته من الأسر ليعود إلى وطنه وأغرقت نفسها فى مياه النهر.

بعد أن انتهى بوشكين من روايته الرومانسية هذه التى تمجد الهرب إلى مجتمع النبالة البدائية، أضاف إليها بعد شهرين أبياتا من الشعر تمجد انتصار الجيش الروسى الساحق على قبائل الجبل، ويبدو من هذا السلوك المتناقض مع لب الرواية أنه كان محاولة لإنقاذها من المصادرة والاحتياط لنفسه من غضب السلطة الروسية.

ومهما يكن قصد المؤلف فإن القراء الروس نظروا إلى الأمر وكأنهم أمام نصين منفصلين لارابط بينهما، فركزوا اهتمامهم على أغنية النبيل البدائى، التى أغرقت فى تيارها الجارف هذه الأبيات الإضافية من شعر بوشكين، فتوحدوا مع قصة القوقازى الحر، وأهملوا الإضافة الدخيلة، وكذلك فعل النقاد: سكتوا ولم يعلقوا بشىء، ولكن لم يكن سكوتهم يتضمن الموافقة، وإنما تداولوا بالرفض هذه الإضافة فيما بينهم من حوار، ومن ذلك ما جاء فى خطاب «بيتر ڤيازمسكى» إلى صديقه «ألكسندر تورجنيف» معبرا عن استيائه الشديد من بوشكين لأنه بتمجيده لآلهة الحرب الإمبريالية قد أصاب المشاعر الرومانسية فى الصميم، ثم تساءل مستنكرا: «أى عظمة وأى فخار فى سحق قبائل القوقاز؟. إنها وحشية تجعل الدماء باردة فى عروقك وتوقف شعر رأسك.. لو أننا حقا حملنا التنوير للقبائل لكان هذا شيئا يستحق أن نغنى له ونفخر به.. إن الشعر لا ينبغى أن يكون طريقا معبداً تعبر عليه المجازر الوحشية».

مهد الحرية

كانت رواية «سجين القوقاز» - رغم كل شىء - تقطّر فى نفوس الروس رحيقا يغذى الجوع الروحى للحرية التى ارتبطت بقبائل القوقاز الجبليين، وهكذا استقرت صورة الجبليين كرجال أحرار مستعدين دائما للقتال والاستشهاد فى سبيل حريتهم.

وفى كتابات الرومانسيين الذين جاءوا بعد بوشكين فى العقد الرابع تأكدت صورة القوقاز كملجأ من قمع الدولة الروسية واستبدادها، ومن أبرز هؤلاء الشاعر ليرمنتوف فى ديوانه «وداعا لروسيا التى لم تطهر» (سنة ١٨٤١م)، كتبه قبل أن ترسله القوات الروسية إلى الجبهة الشيشانية فى الحرب القوقازية، حاول ليرمنتوف فى هذا الديوان أن يتخيل فردوسا أو ملجأ آمنا على قمة الجبل بعيدا عن سطوة الدولة البوليسية وعبيدها الذين كبلتهم الأغلال فلا يستطيعون الفرار صعودا إلى الجبل.

وتتردد نفس المشاعر والرؤى عند «بستوجيف مارلينسكى» فى مؤلفه : «مقالات عن القوقاز» الذى اكتسب شهرته من الدفاع عن الداغستانيين الثوار . يذكر مارلينسكى أن أحد مواطنيه يؤكد له أن أول إمام قوقازى مسلم قاد الداغستانيين والشيشانيين فى ثورتهم ضد الإمبريالية الروسية كان حفيد هارب روسى اعتصم بالجبل، وقد ظلت أفكار مارلينسكى تؤثر فى قرائه حتى بعد وفاته،

حيث افتعل شاب من قرائه إصابة لنفسه فى إحدى الحملات الروسية ضد القوقاز، وتخلف وراء الجيش المنسحب لكي يلتقطه الشيشانيون ويصعدوا به إلى الجبل أملا فى أن يصنع معهم حياة بطولية.

وفى أواخر مراحل الغزو الروسى للقوقاز، كان المدنيون الروس يتحدثون عن جنود يهجرون وحداتهم فى الجيش الروسى بالآلاف ليلتحقوا بصفوف الثوار الجبليين، وأنهم قد اعتنقوا الإسلام وتزوجوا من نساء القبائل وأنجبوا آلاف الأطفال .

وتكشف الوثائق الروسية عن هذه الحقيقة، فقد هرب بالفعل كثير من الروس والبولنديين والأكرانيين من الجيش الروسى ليقاتلوا مع قوات الإمام شامل فى الشيشان (١٨٢٤ - ١٨٥٩م)، هجروا الحضارة المسيحية واعتنقوا الإسلام وأنشأوا أسرا فى القوقاز الشمالى.

ولكى يشوّه الجنرالات الروس - كعادتهم - الصورة الحقيقية أضافوا فى دعايتهم فرية تذهب إلى أن «شامل» كان يعد الهاربين من الجيش الروسى بالحرية وامتلاك أراض فى القوقاز.

وإلى جانب الهروب من الجيش شهدت روسيا هروبا إلى الجبال بدافع الحب، كانت الهاربة هى «آنا أوليخانوفا» عشقت فروسية الإمام شامل وشجاعته سماعا، فلما وقعت فى أسر جنوده فى إحدى المعارك بداغستان، وجاء إخوتها يفتدونها بالمال رفضت العودة معهم، وفضلت البقاء مع بطلها الذى تزوجها فأسلمت وغيرت اسمها إلى «شُوانيت» وعاشت مع زوجها انتصاراته ومحنه إلى آخر العمر.

أصبحت سيرة شوانيت مهوى أفئدة الروس حيث صادفت اهتماما واسعا وذيوعا كبيرا، وذلك بفضل كتابات امرأتين چورچيتين كانتا أسيرتين فى منزل الإمام شامل لعدة شهور خلال سنتى ٥٤ - ١٨٥٥م، وقد نشرتا مذكراتهما حافلة بمقتبسات من كلام شوانيت.. وهكذا تعززت جاذبية الكتابات الرومانسية عن القوقاز والفرار إلى الحرية والنقاء بعيدا عن سطوة الحياة تحت النظام القمعى للقياصرة.

التحق ليرمونتوف بالأكاديمية العسكرية فى بطرسبورج بين سنتى (١٨٣٢و١٨٣٤) فلاحظ أن زملاءه من طلاب الاكاديمية كانوا يتحرقون شوقا إلى جبال القوقاز وإلى حياة القوقازيين بعد أن قرأوا «سجين القوقاز» لبوشكين، كان الطلبة يخفون الرواية بين طيات كتبهم الدراسية ليتمكنوا من قراءتها فى أوقات الراحة بين المحاضرات.

ولكن هناك جانبا مثيرا للعجب من تجليات الرومانسية فى سلوك البشر، يطلعنا عليه «أرنولد ريسرمان» فى كتاباته عن الحرب القوقازية، يقول: إن كتابات بستوچيف مارلينسكى الرائعة عن فرسان القبائل البواسل قد أشعلت خيال الشباب الروسى البسطاء وحفزتهم على الالتحاق بالخدمة العسكرية على أمل الذهاب إلى

جبهة القتال فى القوقاز. هذا السلوك المتناقض بين الاشتعال الرومانسى هياما بالحياة الجبلية، وبين الالتحاق بقوات غازية للجبل مثار تعجب واستغراب: أن يقودهم عشقهم لهذا النوع من الحياة الطليقة المتحررة النقية إلى الجبهة لقتال معشوقهم وتدميره، تماما كما فعل «ليف» أخ الشاعر بوشكين.

ولكن يبقى الدافع الأصلى هو الأكثر واقعية والأبلغ عمقا فى النفوس من الوسيلة المناقضة التى اتخذت بدون ترو، والآثار المدمرة التى ترتبت عليها ولم تكن فى الحسبان. يصور هذا الموقف الأديب الروسى تولستوى بقوله: «كان الروس يتسارعون للحاق بالجيش الذاهب إلى القوقاز لأنهم كانوا يبحثون عن الأرض الموعودة يلتمسون فيها الشفاء لأرواحهم العليلة».

أما الشباب الذين ذهبوا إلى جبهة القتال فقد صدمتهم الحياة العسكرية الكئيبة المنفّرة، واكتشفوا أن الحرب كانت وحشية بعيدة عن الإنسانية والعدل، وفى هذا يقول «نيقولاى لورير» عندما كتب مذكراته فى الحرب وهو فى منفاه: بأنه لم يستسغ أبدا فكرة أن المذابح العسكرية التى ارتكبها الجيش ضد القوقازيين كانت هى الطريقة الصحيحة لتقديم التنوير الأوربى إلى هؤلاء الناس.

كان الإمام شامل شخصية أسطورية شامخة جمعت بين جوانحها شجاعة الفارس الثائر وأخلاق المتصوف الزاهد والبطل الذى لا يهاب الموت دفاعا عن الحرية، فلما أعلن الجيش الروسى هزيمة القوقاز ووقوع قائده الإمام شامل فى الأسر أصيب الروس بصدمة عاطفية كبرى، وشعروا بفاجعة روحية وانعطاف غامر نحو الأسير القوقازى الذى كان رمزا للحرية بلا حدود.

تابع الروس أخبار البطل الاسير فى بطرسبورج بلهف شديد فلما علموا بعزم الحكومة على إخراجه من السجن وترحيله مع زوجته إلى المنفى فى بلدة «كالوجا»، تجمع الناس أمام أبواب السجن ليلقوا عليه نظرة وداع أخيرة، فلما رأوه خارجا مكبلا بالأغلال تحت حراسة القوات الروسية بكوا وأخذوا يهتفون له : «وداعا ياشامل.. ابق معنا ياشامل .. قولوا له إننا نحبك حبا شديدا .. قولوا له إننا ندعو لك بإقامة طيبة ياشامل..».

استغرق الروس فى حلم الحرية الآسر الذى سقط رمزه الأكبر الإمام شامل الذى صمد للقوات الإمبريالية خمسة وثلاثين عاما، لم يكن لديهم مساحة أخرى للتفكير فى سؤال بالغ الأهمية: ماذا حقق الغزو الروسى للقوقاز من الوعود الفضفاضة بالتحضر والتقدم؟، شخص واحد هو الذى سأل هذا السؤال وأجاب عليه متحسّرا. «لم يحقق الغزو للقوقاز التعيس سوى تصدير الفودكا والقمار والأمراض الجنسية» (الكاتب الروسى روسكو سلوفو ١٨٦٠).

كانت الحكومة الروسية قادرة على قتل الإمام شامل كما فعلت مع آلاف القوقازيين قبله، ولكنها أمام العواطف الجياشة التى أحاطه بها المواطنون الروس، أبقت على حياته لتروّج لنفسها

صورة الدولة التى تدع الجبليّ الصالح يتألق، لا كرمز للثورة والحرية هذه المرّة، ولكن كرمز لقوة روسيا القيصرية وتسامحها.

شرعت روسيا فى الوقت نفسه تبث الصورة السلبية للقوقازى فى الثقافة الروسية من خلال برامج التعليم، تلك الصورة الكريهة للهمجى الوضيع المناهض للحضارة المسيحية . من أبرز الأمثلة على ذلك كتاب «رستوسلاف ڤاديڤ» بعنوان: ستون عاما من الحرب فى القوقاز، نشر سنة ١٨٦٠م، تنعكس فيه الصورة الإمبريالية عن هذا القوقازى المعتدى آكل لحوم البشر الذى كان على روسيا اقتلاعه من جذوره. ويردد الكولونيل «ديمترى رومانوڤسكى» نفس النغمة الإمبريالية فى سلسلة محاضرات عامة كان يلقيها بقاعة «باساج» فى سان بطرسبورج خلال الفترة نفسها، تحت عنوان: «انتصار روسيا المسيحية على المسلمين الأشرار» !

مع نهاية القرن التاسع عشر بقيت صورة القوقاز بين الوضاعة والنبالة فى تصارع للاستحواذ على الدراما الروسية، يمثل الوضاعة الكاتب الروسى «نيمروڤيتش دانشينكو» فى روايته «القلعة المنسية» (١٨٩٧م)، يتناول فيها شخصية الإمام شامل بسخرية واستهزاء، تعبيرا مباشرا عن نظرة السلطة الروسية التى بدأت ترويجها منذ سنة ١٨٥٩م، وهى وطنية عمياء انزلق إليها دانشينكو، فانحاز بموقفه هذا للافتراء الرسمى الذى يطمس الحقائق التاريخية عن لب الصراع فى القوقاز وجوهره.

تولستوى:

ويمثل صورة النبالة الأديب الروسى تولستوى فى روايته «الحاج مراد» (ألّفها فيما بين أعوام ١٨٩٦ - ١٩٠٤م) وهى تفنّد ملحمة الانتصار فى حرب القوقاز، مع رجعة مذهلة أخّاذة إلى الخيط الرومانسى الذى بدأه بوشكين، ذلك الخيط الذى يوثق العُرى بين الجبليين البسطاء الأحرار وبين الشعب الروسى المتطلع إلى الحرية والانعتاق.

يهاجم تولستوى فى روايته «الحاج مراد» خرافة الانتصار القومى ويصفه بأنه عدوان إمبريالى دبرته بليل النخبة الروسية الحاكمة المستعلية على الشعب وقاده القيصر نقولا الأول.

هذا اللون النقدى من الأدب المضاد للنزعة الإمبريالية يدمغ الحرب القوقازية بالوحشية، ويصف الباعث إليها بأنه شهوة إلى سفك الدماء مستترة بدعاية تبريرية تروج لخرافة الحرب الدفاعية ضد الأسيويين البرابرة أعداء الحضارة.

وهكذا استمر الصراع بين النزعتين أكثر من نصف قرن ابتداء من ألكسندر بوشكين وانتهاء بتولوستوى، مرورا برواد النزعة الرومانسية أمثال بستوجيڤ وليرمنتوڤ اللذين عاصرا حرب القوقاز وانفعلا بأحداثها .

لم يحسم النصر الإمبريالي الساحق في القوقاز ملحمة الشعوب الثائرة فيه على السيطرة الأجنبية، فتلك ملحمة لا ينضب معينها ولا تتوقف عجائبها، وكأنما أراد القدر للشيشانيين عبر تاريخهم الطويل إما أن يعيشوا مسلمين أحرارا، أو يقاتلوا ويستشهدوا دون ذلك. فقد كانت الشيشان أقوى حصن للحرية والثورة في عهد الإمام شامل وبعد الإمام شامل، حمل مريدوه وتلاميذه نهجه الذي يجمع بين مهارة الفرسان وزهد المتصوفة، واستمر هذا النهج حيا متدفقا في ضمائر الشيشانيين خلال العهد القيصري والعهد السوفييتي دون انقطاع.

ويعترف المراقبون السوفييت بأن جمهورية «الشيشان - إنجوشيا» هي أقوى معقل للإسلام في الاتحاد السوفييتي كله، وتكشف دراسات علماء الاجتماع السوفييت أن سكان هذه الجمهورية هم أكثر الناس تدينا وأشدهم تعلقا بالإسلام، رغم كل محاولات السلطات السوفييتية وضراوتها لاقتلاع الإسلام وتدمير كل أثر له: حيث أغلقت جميع المساجد ومدارس تعليم القرآن وحولتها إلى مدارس لتعليم الإلحاد ومحاربة الله الذي يعبده المسلمون، وأحرقت المصاحف وحرمت - بالقوانين - حملها أو تداولها، كما جعلت كل شعائر الإسلام من صلاة وصيام وحج وجمع زكاة جرائم يعاقب القانون على ممارستها، ومضى الروس السوفييت في حماس أيديولوجي عجيب يدمرون المؤسسات الإسلامية ويحاربون عقائد المسلمين حتى سنة ١٩٤٣، ولكن ظلت الشيشان رغم كل ذلك في تمرد وثورة بدأت بما يعرف باسم الثورة الداغستانية الكبرى ضد النظام الشيوعي سنة ١٩٢٠، وبقيت جمراتها متقدة تحت التراب بعد المذابح التي ارتكبها الشيوعيون البلاشفة ورغم القمع والعذاب في السجون، حتى يئس الدكتاتور ستالين ولم يبق في جعبته من علاج للشيشانيين الثائرين سوى الاستئصال الكامل.

ستالين

وهكذا عادت صورة القوقازي الوضيع تطفو على سطح السياسة السوفييتية تجاه الشيشان، حيث اخترع ستالين تهمة زعم فيها أن الشيشانيين خانوا الاتحاد السوفييتي وانحازوا إلى العدو النازي عندما زحف الجيش الألماني داخل روسيا متجها إلى مصادر البترول الغني في الشيشان أثناء الحرب العالمية الثانية.

وفي ٢٣ فبراير سنة ١٩٤٤م اقتحمت القوات السوفييتية الأراضي الشيشانية، وأمرت جميع السكان بالاستعداد للرحيل على الفور. كان الروس قد أعدوا لهم شاحنات النقل المخصصة لقطعان الماشية، فحشرت فيها ثمانمائة ألف شيشاني، اتجه بعضها إلى صحراء كازاخستان وأكثرها إلى أصقاع سيبيريا.

استمرت الرحلة أياما عديدة والبشر يعيشون بدون ماء ولا طعام ولا وسائل للنظافة، كتل من اللحم البشري متراصة بدون غطاء في جو ثلجي عاصف، من يصرخ مستغيثا أو يتذمر محتجا كان

حراس القافلة من رجال الـ «كي جي بي» يطلقون عليه النار فورا ثم يلقون بجثته في عرض الطريق.

الشيوخ والأطفال والمرضى الذين لم يحتملوا عذاب الرحلة إلى الجحيم قضوا نحبهم قبل أن يصلوا إليه، فالقيت جثثهم طعاما للجوارح على رمال الصحراء وفوق جليد سيبيريا. ونتيجة لسياسة ستالين وإجراءاته القمعية وعمليات الـ «كي جي بي» في التصفية الجسدية المنظمة، تم الإجهاز على ٦٠٪ من الشيشانيين المهجّرين. ولم يكتف ستالين بهذا وإنما قام بتقسيم أراضي جمهورية الشيشان ووزعها على الجمهوريات المجاورة ليخفي كل أثر لهذا الشعب المتمرد.

ولكن بعد موت الطاغية تمت تبرئة الشيشانيين رسميا من تهمة الخيانة المفتراة، وسُمح لمن بقي منهم على قيد الحياة بالعودة إلى وطنهم. إنه من فضول القول أن الشيشانيين الذين نشهد مأساتهم اليوم هم أبناء وأحفاد الشيشانيين الناجين من مذبحة ستالين، وبينهم قلة من الشيوخ رأيناهم يتحدثون على شاشات التلفاز، عاشوا الكارثة أطفالا ولكن انطبعت في أعماق ذاكرتهم التفاصيل المروعة لرحلة الجحيم.

يلتسين والحملة العسكرية الأولى والثانية

لم تكد تمضي على هذه الكارثة خمسون عاما حتى جاء الرئيس الروسي يلتسين يعيد إلى الأذهان صورة السلطة الروسية التقليدية عن القوقازي الوضيع المتمرد على القانون والنظام، ويشن حملة عسكرية على الشعب الشيشاني أطلقها في ١١ ديسمبر ١٩٩٤م بحجة الحفاظ على الدستور والدفاع عن السيادة الروسية التي انتهكها الرئيس الشيشاني جوهر دوداييف بإعلانه الاستقلال سنة ١٩٩١م، ولكن تنتهي الحملة بهزيمة مهينة للجيش الروسي سنة ١٩٩٦ .

ولذلك يعود يلتسين مرة أخرى بعد ثلاث سنوات ينتقم من هزيمته في الحملة السابقة، ويعلن رئيس وزرائه «فلاديمير بوتين» تبريرا لهذه الحملة: أن الجيش الروسي ذاهب للقضاء على الإرهابيين وقطاع الطرق واستئصال الأصوليين الإسلاميين، وإعادة الأمن والنظام إلى الشيشان.

فهل يصدق عاقل حقا أن تجرد دولة عظمى جيشا من أقوى جيوش العالم قوامه مائة ألف جندي.. ينضم إليه خمسون ألفا آخرون من قوات وزارة الداخلية، كل هؤلاء يحشدون ليحاربوا قطاع طرق وعصابات إرهاب، تقول إحصاءات روسيا الرسمية أن عددهم لا يزيد على ثلاثة آلاف !؟

في الحملة السابقة (٩٤ - ١٩٩٦م) دمرت روسيا البنية الأساسية في الشيشان ثم تعهدت بموجب اتفاقية سلام توصّل إليها الجنرال «الكسندر ليبيد» ووقعها مع الشيشانيين - أن تدفع تعويضات عن خسائر الحرب وتعيد إعمار ما خربته بتكاليف قدّرت بحوالي ٣٤ مليار

دولار أمريكي، ولكن روسيا لم تف بالتزاماتها وتعهداتها ولم تساعد الحكومة الشيشانية في السيطرة على الأوضاع المتردية، بل عملت - بدلا من ذلك - على إشاعة مزيد من الفوضى والتخريب أولا بالاستمرار في إجراءات الحصار الاقتصادي على الشيشان الذي فرضته فور إعلان الرئيس الشيشاني جوهر دوداييف استقلال بلاده كما أشرنا، وعدم دفع أى تعويضات مالية عن خسائر الحرب، وثانيا بالعمل السرى داخل الشيشان، حيث زرع جهاز المخابرات السرية سبعمائة عميل له من القوقازيين العاطلين ومن رجال العصابات والجريمة المنظمة الروسيين، لتنفيذ عمليات خطف وقتل داخل الأراضي الشيشانية، خطط لها خبراء جهاز المخابرات الروسية وألصقها بالشيشانيين في وسائل الإعلام.

وفي الحملة الإعلامية الشرسة ضد الشعب الشيشاني تصدر وزارة الداخلية كتابا بعنوان : النظام الإجرامي: الشيشان من ١٩٩١ إلى ١٩٩٥م. يصف الشيشانيين بأنهم عبيد القرن العشرين وأنهم متوحشون، صاديون متعصبون، بل ينسب إليهم المسئولية عن إدمان الشباب الروسى للفودكا. كتابا حافل بالافتراءات والسباب المقذعة والصور المنفرة، والقصص المختلقة ولكن الذى يتمعن في شهادة أصحاب هذه القصص يجد خلطا مثيرا للضحك لأنهم لا يفرقون بين القوقاز وبين اسيا الوسطى.

المهم أن رسالة الكتاب الإعلامية تتلخص في آخر عبارة وردت به تقول: «لقد نفد صبر الشعب الروسي.. فمن لهؤلاء المجرمين لكى يوقفهم عند حدودهم؟»

وفي سياق اتهام شعب بأسره بالإجرام يأتى ميخائيل بارسكوف ليقول (في أخبار موسكو يوم ٢٠ نابر ١٩٩٦م): «الشيشاني قادر فقط على القتل، فإذا لم يستطع ذلك فإنه يسطو، فإذا لم يستطع السطو يسرق، وليس هناك نوع آخر من الشيشانيين خلاف ذلك».

علماء روس يتصدون لحملة التزييف الإعلامي:

استفزت هذه الصورة الزائفة عن الشيشانيين عقولا روسية نظيفة مثل «ڤاليري تشكوڤ» مدير معهد الدراسات الإثنية والسكانية بالأكاديمية الروسية للعلوم، الذى وصف هذه الاتهامات بأنها مجرد دعاية روسية لا أساس لها من الصحة، وأن هذه الدعاية وحدها هى التى خلقت صورة مافيا شيشانية غير موجودة، وأن هذه الصورة الزائفة هى التى تسببت في تراجع التعاطف الروسي والعالمي عن الشيشانيين في كارثتهم الإنسانية، ولولا ذلك لكانت المساندة العالمية للشيشانيين أقوى وأبرز. ويهاجم «ڤاليرى تشكوڤ» نظرية «مادلين كارتيل» عن مناطق الإجرام التى تريد السلطات الروسية فرضها على عقول الجماهير، ويصفها بأنها خرافة ليس بها مسحة من العلم، فمستوى الجرائم عند الشيشانيين ليس

أعلى من مستوى الجرائم بين الروس والجورجيين.

جرائم الحملة الثانية :

ولكن تمضي حملة الافتراءات الروسية دون توقف، لتصب في هدفها النهائي : شن حملة عسكرية جديدة على الشيشان للقضاء على شعبها المتمرد، أو دفنه تحت الأنقاض لمدة خمسين عاما أخرى تستريح فيها روسيا، ولكي يجد بوتين سببا مباشرا لإطلاق شرارة الحرب افتعل رجال مخابراته حوادث تفجير العمارات السكنية بموسكو وغيرها من المدن الروسية، تلك الحوادث التي أودت بحياة ثلاثمائة مدني، ونسبتها أجهزة الإعلام إلى الإرهابيين الإسلاميين، دون أن تقدم دليلا ولا متهما ولا شاهدا واحدا ولم ترفع أمام القضاء قضية للتحقيق.

وفي موجة الذعر والغضب التي تفجرت عند الجماهير الروسية زحف الجيش الروسي داخل الأراضي الشيشانية بزعم القضاء على الإرهابيين وقطاع الطرق، فإذا بنا أمام سيناريو لحرب شاملة، لا على الإرهاب - ولكن على الشعب الشيشاني الأعزل، نشاهد فيه مسلسل القصف العشوائي والقتل والتهجير القصري وتدمير المنازل السكنية، وسمعنا عن جرائم وحشية ومقابر جماعية على غرار ما حدث في البوسنة وكوسوفا، لم نعرف حتى الآن سوى أطراف منها لأن التعتيم الإعلامي على أشده، فالقوات الروسية لا تسمح حتى للصحفيين الروس بالاقتراب من الأحداث في الشيشان أو مجرد التحدث للاجئين الشيشانيين.

وفوق هذا بدأ الجيش الروسي يستخدم أسلحة غير تقليدية ومحرمة دوليا، ففي ٣٠ ديسمبر ١٩٩٩م أسقطت الطائرات الحربية على جروزني قنبلة انشطارية ضخمة زنتها خمسمائة كيلو جرام ، وفي اليوم التالي أسقطت قنابل نابالم حارقة، وقبل ذلك بأسبوعين أسقطت قنبلة غاز سام شاهدها الناس وهي تسقط من طائرة روسية، ولكن زعمت القوات الروسية أنها من فعل الشيشانيين أنفسهم بدعوى جذب انتباه العالم الخارجي واستعطافه.

بوتين وصفقته المهينة :

ويفاجأ العالم في آخر يوم من شهر ديسمبر الماضي باستقالة الرئيس يلتسين وتسليم السلطة إلى خليفته بوتين، ويتضح من التحليلات السياسية أن هناك ثمة صفقة متفق عليها بين الرجلين، حرص فيها يلتسين على أن ينعم في تقاعده بحياة هادئة بعيدا عن الفضائح المالية التي حاصرته هو وأسرته، ولذلك استصدر قرارا رئاسيا يمنحه هو وأسرته حصانة تحميهم من أية محاولة لتقديمهم إلى المحاكمة بتهمة الفساد، وتمنع تفتيش بيوتهم ومكاتبهم وسياراتهم أو التجسس على هواتفهم .

أما جائزة بوتين فقد حصل على جز
منها مقدما: كان عقيدا مغمورا ف
المخابرات الروسية فجعله يلتسين رئ
وزراء روسيا، وتنازل عن الرئاسـ
وهاهو يصعد فوق موجة الانتـ
العسكرية فى الشيشان ليصبح ـ
مرشح لرئاسة الكريملين، عليه فقط أن يمضى فى الحرب الشيشانية محافظا على مستوى الانتصارات التى تحققت فى الشهور الأولى، على الأقل حتى يوم ٢٦ مارس القادم موعد الانتخابات الرئاسية.

وهكذا يدخل العالم فى عام جديد وقرن جديد وألفية جديدة ، وأشياء كثيرة تتغير فى هذا العالم إلا شيء واحد هو العقلية الإمبريالية لروسيا، تظل كما هى لم تتغير منذ القيصر إيفان الرهيب إلى القيصر بوتين، سطوة القوة العسكرية وشبق السيطرة والرغبة العارمة فى قهر القوقاز وقمع الإسلام، الذى أقض مضاجع القياصرة وديناصورات الاتحاد السوفييتى، فهل ينجح قزم الـ «كى جى بى» فيما أخفق فيه أسلافه الكبار؟ لا أظن .. وحتى لو استولى الجيش الروسى على العاصمة جروزنى فلن تتوقف المقاومة الشيشانية. لم تفلح القوة فى إخضاع الشعب الشيشانى على مدى العصور الماضية كلها وما أظنها ستفلح الآن أبدا، وسوف نرى ..

القوقازى النبيل يبعث من جديد!

وأنا فى غمرة كتابة هذا المقال ـاهدت لقطتين على شاشة التلفاز بريطانى تلخصان كل شيء فى لمحات خاطفة: اللقطة الأولى لمجاهد شيشانى مع مجموعة صغيرة من زملائه فى فترة راحة، سأله الصحفي: هل تخاف وأنت تواجه القوات الروسية ؟ فأجاب الشاب وهو يبتسم قال: «عندنا مثل شيشانى قديم يقول من يأتِ إلينا حاملاً سيفه نقتله به»، وفى اللقطة الثانية جندى روسى يرقد جريحا على فراشه فى المستشفى، سأله الصحفى: ماذا رأيت فى المقاتلين الشيشانيين عندما اشتبكت معهم؟ فأجاب: «إنهم يبدون مهارة فائقة فى القتال ولا يملك أحد إلا أن يحترمهم أو يحسدهم». وهكذا تنبعث صورة القوقازى النبيل حية متوهجة مرة أخرى فى عقل جندى روسى جريح.



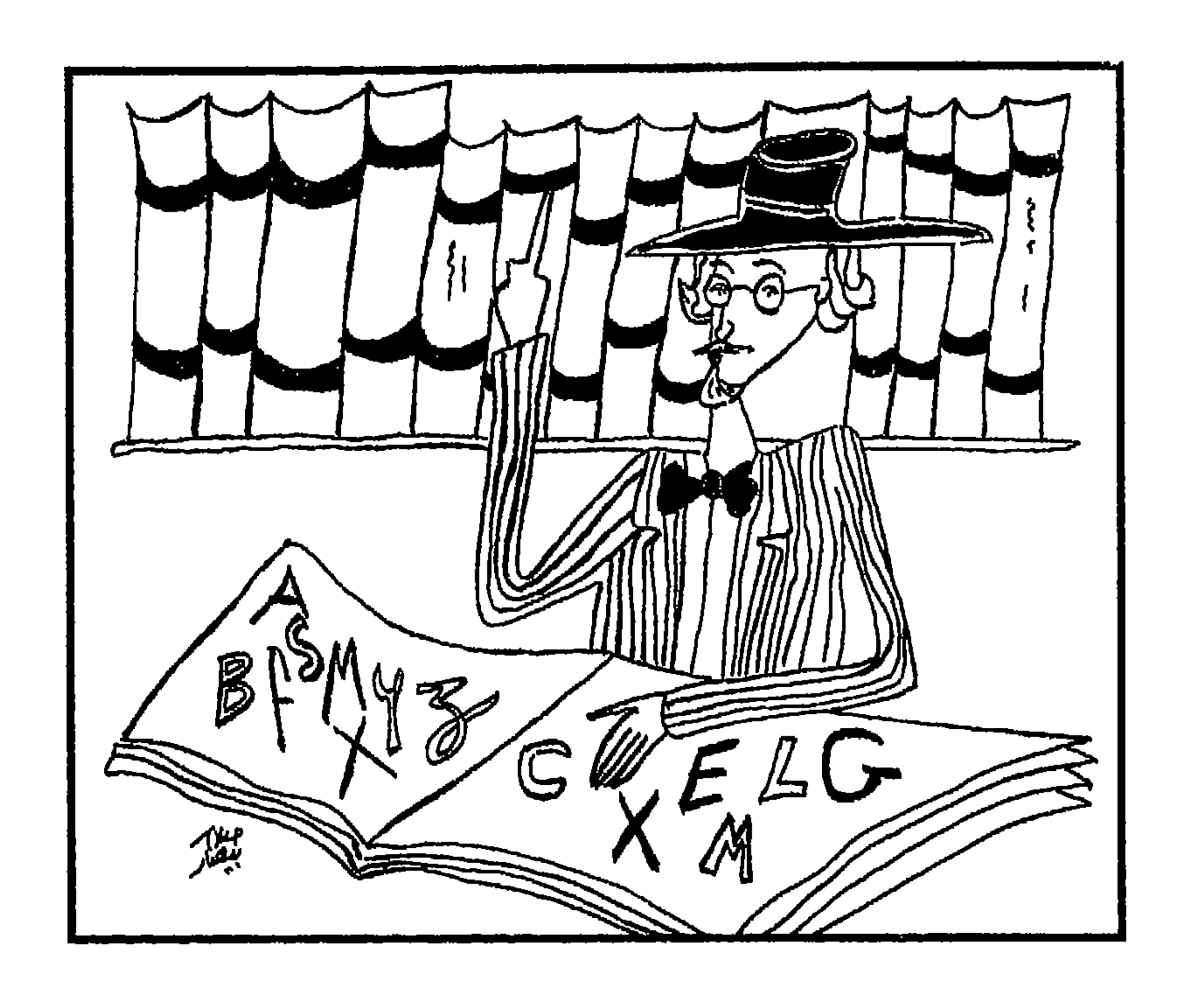
فرديناند دوسوسير

• عالم اللغة الذى لايعرفه أحد !

• كتاباته فى العشرينات هى مابعد الحداثة اليوم !!

بقلم : د . أحمد أبو زيد

لعبت اللغة دورا أساسيا فى فكر وكتابات المفكرين البنائيين وما بعد البنائيين، لدرجة، أن أحد كبار الكتاب المهتمين بتاريخ الفكر الحديث والمعاصر يقول أن لدى كل هؤلاء المفكرين والمبدعين البنائيين نوعا من (الهوس) باللغة وقدرتها الفائقة علي العطاء، خاصة وأنها تؤلف نظاما اجتماعيا لايتوقف وجوده على وجود الأفراد، بل إن الفرد هو الذى يدخل إلى هذا النظام منذ الولادة ويظل مرتبطا به طيلة حياته، ومن هنا كانت اللغة توصف فى الدراسات الاجتماعية والانثربولوجية البنائية بأنها (لاشخصية). بل إن



كلود ليفي ستروس عميد الانثربولوجيين البنائيين فى فرنسا ومؤسس الأنثربولوجيا البنائية يذهب إلى حد القول إن اللغويات تحتل مكانا متميزا بين العلوم الاجتماعية، فهى ليست مجرد علم اجتماعى كغيرها من العلوم الاجتماعية لأنها هى العلم الاجتماعى الذى أمكنه أن يحقق أكبر قدر من التقدم بحيث يستطيع أن يدعى لنفسه - ويحق - صفة العلم على أساس أنها استطاعت أن تصوغ لنفسها منهجا تجريبيا ساعدها على فهم طبيعة المادة التى تخضع لتحليلاتها.

ولقد كانت نقطة الإنطلاق في هذا الاتجاه هو تأثر المفكرين البنائيين الفرنسيين باللغويات البنائية عند عالم اللغة السويسرى فرديناند دوسوسير وبكتابه الفريد الذى يحمل عنوانا غير مشوّق ولايكشف عن محتواه تماما وهو «دروس فى اللغويات العامة» :. والغريب أن دوسوسير لم يكتب ولم يؤلف بنفسه هذا الكتاب الذى يرتبط اسمه به، وإنما قام بتجميع مادته بعد وفاة دوسوسير نفسه بعض زملائه من المذكرات التى قام بتدوينها تلاميذه أثناء المحاضرات التى ألقاها عليهم فى جامعة جنيف خلال الأعوام الدراسية ١٩٠٧ ثم ١٩٠٨ - ١٩٠٩ ثم عام ١٩١٠ - ١٩١١، وقام هؤلاء الزملاء الأساتذة بمراجعة مذكرات التلاميذ والتوفيق بينها وصياغة الكتاب فى الصورة التى هو عليها الآن لأن دوسوسير نفسه لم يكن يكتب محاضراته كما أنه يدخل عليها كثيرا من التعديلات عاما بعد عام والأغرب من ذلك . والأغرب من ذلك هو أن دوسوسير لم يدخل إلى مجال اللغويات العامة وبالتالى وضع أسس اللغويات اللبنانية إلا بطريق الصدفة البحتة، ذلك أن تخصصه الأساسى كان اللغات الإندو أوربية ثم تصادف أن تقاعد أستاذ اللغويات العامة بجامعة جنيف فى منتصف عام ١٩٠٦ فأسندت الجامعة الى دوسوسير استكمال المقرر ثم تدريسه بعد ذلك لعامين دراسيين آخرين قبل أن يحل محله استاذ آخر أكثر تخصصا فى الموضوع، ومع ذلك فإن كتاب «دروس فى اللغويات العامة» يتعدى ذلك المجال المحدد الضيق بحيث يمكن اعتباره كتابا فى مناهج العلم الاجتماعى، وفيه يخرج دوسوسير على الاتجاه الذى كان سائدا فى القرن التاسع عشر والذى كان يميل إلى التفسير التاريخى والبحث عن الأصول الأولى للأشياء دون الاهتمام بالبحث عن معنى هذه الأشياء داخل النسق الذى تنتمى إليه؛ والمقصود بكلمة (الأشياء) هنا النظم الاجتماعية والثقافية، واللغة فى آخر الأمر أحد تلك الأنساق الأساسية فى

المجتمع .

★★★

وينتمى فرديناان دوسوسير إلى تلك الطائفة من العلماء والمفكرين والمبدعين الذين جاوزتهم الشهرة أثناء حياتهم، وعاشوا مغمورين أو شبه مغمورين، ولم يعرف العالم مكانتهم وإسهامهم فى العلم أو الفكر أو الفن إلا بعد موتهم بأعوام طويلة، ومع أن كتابه نشر بالفرنسية عام ١٩١٦ أى بعد وفاة دوسوسير بثلاثة أعوام فإنه لم يخرج إلى الأضواء إلا فى الستينات مع ازدهار الاتجاهات البنائية وبخاصة فى الأنثربولوجيا على أيدى ليفى ستروس وأتباعه .

وحياة دوسوسير حياة نمطية رتيبة تخلو من الأحداث والمفاجآت كما هو الشأن بالنسبة لحياة الكثيرين من العلماء الأكاديميين الذين يقفون جهودهم على مجال تخصصهم الدقيق ولايشاركون فى الحياة العامة إلا بقدر محدود وضئيل، وقد كانت ولادته فى جنيف عام ١٨٥٧ فى عائلة بروتستنتية اشتهر كثير من، أعضائها بالاشتغال بالعلم، وقد أبدى دوسوسير منذ طفولته براعة فى اللغات وميلا واضحا لدراستها ولكن العائلة كانت تريد له التخصص فى الفيزياء استمرارا للتقليد السائد بين أفرادها، وقد درس هو نفسه ذلك التخصص لمدة عام بجامعة جنيف دون أن يحرز فيه أى تفوق ملموس، وأفلح فى أن يقنع العائلة بأن تسمح له بمواصلة دراسة الفرع الذى يميل إليه وهو اللغات الإندو أوربية، والتحق فعلا بجامعتى ليبتسيج وبرلين لذلك الغرض، وكتب رسالته للدكتوراه فى موضوع شديد التخصص هو «الحروف المتحركة فى اللغات الإندو أوربية» ونشرت هذه الدراسة بالفعل وكان لايتعدى الحادية والعشرين من عمره فى ذلك الحين، ويبدو أن الكتاب وجد كثيرا من التقدير والإعجاب فى الأوساط الأكاديمية المتخصصة، وهناك من اعتبره أفضل وأروع ماكتب فى ذلك الموضوع على الإطلاق خاصة، وأن التحليل النظرى المنطقى الذى اتبعه دوسوسير أثبتت صحته الدراسات والبحوث الأركيولوجية التى أجريت على اللغات الأندو أوربية بعد ذلك بخمسين سنة،

ومن الطريف أنه حين عاد إلى جنيف بعد ذلك تصادف أن تقابل وأحد كبار الأساتذة المتخصصين فى علوم اللغة، وحين عرف الاستاذ اسم الشاب الذى أمامه سأله عما إذا كان يمت بصلة قرابة إلى عالم اللغويات الكبير دوسوسير، وعلى أى حال فإن دوسوسير تولى منصب التدريس فى المدرسة التطبيقية للدراسات العليا فى باريس فى الفترة من ١٨٨١ إلى ١٨٩١ وذلك قبل عودته النهائية إلى جنيف للتدريس بجامعتها، وقد ظل هناك حتى وفاته عام ١٩١٣ وهو فى السادسة والخمسين من العمر .

ولم يكن دوسوسير أثناء حياته غزير الانتاج فقد كان يكرس معظم وقته للبحث والتدريس دون أن يهتم بنشر نتائج أبحاثه أو نصوص محاضراته، ولم يتعد مانشره بعض المقالات والعروض القصيرة وكلها تدور حول قواعد اللغات الاندو اوربية دون أن يعرض لارائه عن الأسس النظرية للغويات، وهو الموضوع الذى كان مصدر شهرته فيما بعد والذى ترك آثاره العميقة فى الفكر البنائى فى فرنسا وفى الاتجاهات مابعد البنائية بل وما بعد الحداثة .. كما أن هذه الآراء تعتبر نقطة انطلاق وتحول من الاتجاهات والتفسيرات التاريخية والتطويرية التى كانت تسود فى القرن التاسع عشر فى دراسة الظواهر الثقافية بوجه عام إلى الاتجاه الذى ساد فى القرن العشرين، والذى يركز على التفسير الاجتماعى بدلا من التفسير التاريخى ويحاول ربط الظواهر الثقافية والاجتماعية بعضها ببعض لاظهار ما بينها من تفاعل وذلك تمشيا مع المبدأ الذى وضعه إميل دورقايم حول «تفسير ماهو اجتماعى بما هو اجتماعى». فلم يكن دوسوسير يرى أن المشكلة الاساسية التى ينبغى الاهتمام بها فى دراسة اللغة هى معرفة تاريخها وإنما المهم هو بالاحرى اعتبار اللغة وسيلة وأداة للاتصال والتواصل مما يقتضى تحديد العناصر المختلفة التى تدخل فى تكوينها والعلاقات المتبادلة الثابتة بين هذه

العناصر دون أدنى اعتبار لتاريخها أو التطورات التى طرأت عليها، فالمهم إذن فى نظره هو دراسة بناء اللغة وليس تاريخها، وهذه هى الفكرة التى انتقلت إلى الفكر البنائى فى فرنسا ووجدت أفضل تطبيق لها فى مجال الأنثربولوجيا على أيدى ليفى ستروس. وهناك من مؤرخى الفكر الاجتماعى المعاصر من يرد نجاح ليفى ستروس وبالتالى نجاح كل المفكرين البنائيين ومابعد البنائيين الى استخدام منهج اللغويات البنائية أو المنهج البنائى فى اللغويات فى كتاباتهم المختلفة، لأن اللغويات التي وضع أساسها فردينان دوسوسير فى كتاب (دروس فى اللغويات العامة) للبنائية أن تبرز كمنهج يمكن استخدامه وتطبيقه فى كل العلوم الانسانية بل وفى النقد الأدبى أيضا .

★★★

ترجع مكانة دوسوسير فى علم اللغويات الى معالجته للغة كموضوع مستقل ومتمايز ويمكن اخضاعه للبحث العلمى، مما كان يقتضى فصل دراسة اللغة عن الاعتبارات السيكولوجية والفسيولوجية بل والاجتماعية والاتجاه بدلا من ذلك الى تفسير حقائق اللغة بالرجوع الى العوامل والمحددات اللغوية فقط. وقد اعتبر دوسوسير اللغويات (علما) للعلامات أو على الأصح جزءا مكونا من هذا العلم. وهذا موقف يختلف تماما عن الاتجاهات التى كانت سائدة فى القرن التاسع عشر والتى توصف فى العادة بأنها اتجاهات (ذرية) لأنها كانت تأخذ اللغة على أنها (مجموع الوحدات المستخدمة فى الكلام وتتتبع تطور العناصر المستقلة التى تتألف منها تلك اللغة) ولم تكن هذه الاتجاهات تعترف بحقيقة اللغة كنسق من العلامات، كما لم تكن تهتم بالتساند القائم بين الاجزاء والعناصر المؤلفة للغة أو علاقة اللغة ذاتها بأنساق العلامات الأخرى مثل نسق الشعائر الدينية باعتبار هذا النسق هو نوع من اللغة لأنها تقوم بنقل وتوصيل معانى معينة ومحددة تحديدا شديدا وواضحا لأعضاء المجتمع الذى يمارس هذه الشعائر الدينية ويفهم مفرداتها ومعانى هذه المفردات. وهذا لا يمنع من الاعتراف بأن اللغة تتفوق على كل تلك الأنساق فى توصيل المعانى ولذا فانها

تعتبر النموذج المثالى لعلم العلامات .

ودراسة اللغة باعتبارها (علما) للعلامات كان يفرض على دوسوسير أن يركز على دراسة هذه اللغة فى وضعها (الحالى) أو (الآنى). وهذا الوضع (الآنى) أو حسب التعبير الشائع فى الدراسات البنائية (المنظور الآنى) هو المنظور البنائى الذى يهتم فى المحل الأول بدراسة العلاقات بين أنساق اللغة فى فترة زمنية معينة بالذات، ولذا فهو يعرف باسم (المنظور التزامنى) الذى يختلف عن (المنظور التعاقبى) أو التاريخى الذى يعطى الأولوية لدراسة العلاقات التاريخية بين الحقائق اللغوية. ولم يكن دوسوسير يقلل أو يهون فى ذلك من أهمية اللغويات التاريخية ولكنه كان يرى ضرورة الفصل بين الناحيتين، وذلك حتى (لا تُفسد) وجهة النظر التاريخية الوصف الآنى للغة أو تسيىء إليه. فاللغة نسق من العناصر المتساندة والمترابطة ترابطا وظيفيا ولن نستطيع ادراك أهمية هذه العناصر وقيمتها الا عن طريق تحديد موقعها من النسق وليس عن طريق معرفة تاريخها. لأن لكل لغة (وجودا) أو (كيانا) حقيقيا ومستقلا عن تاريخها، والناس فى أى مجتمع يتكلمون لغة ذلك المجتمع فى صورتها الحالية والقائمة الآن بالعقل دون أن يعرفوا بل ودون أن يهتموا بمعرفة تاريخ تلك اللغة التى يتكلمونها ويتبادلون أفكارهم عن طريقها باعتبارها أداة الاتصال والتواصل المثالية .

وفى هذا الصدد يميز دوسوسير بين (اللغة) و(الكلام) على أساس التمييز بين اللغة كنسق وبين المظاهر التى تتخذها اللغة فى الحياة اليومية فى شكل حديث أو كتابة، أى أن التمييز هو فصل بين (النسق) الذى يكمن وراء الفعل وبين (الفعل) ذاته. فاللغة ـ وقد يستخدم دوسوسير كلمة (اللسان) بدلا منها ـ تمثل ماهو جوهرى وأساسى ، بينما الكلام يمثل ماهو كمالى وعرضى، واللغويات تهتم بالشق الأول الذى يأخذ اللغة كمجموعة من القواعد والمعايير الثابتة التى تكمن فى العقل وتبقى ثابتة راسخة رغم كل ماقد يطرأ على (الكلام) من

اختلافات وتنوعات . والمسألة هنا أشبه بما يحدث فى لعبة الشطرنج التى يمكن التمييز فيها بين قواعد اللعبة وقوانينها وبين المباريات الفردية التى يشارك فيها أطراف المباراة. فقواعد وقوانين الشطرنج ثابتة ومعروفة وتؤلف نسقا مجردا يعلو فوق كل المباريات ويتجاوزها، وتتحكم فى الوقت ذاته فى طريقة تحريك قطع الشطرنج اثناء اللعب بنفس الطريقة التى تعلو فيها طبيعة اللغة على كل مظاهر الكلام ولكنها تحدد فى الوقت نفسه طبيعة هذا الكلام، كما أن الكلام يدل من الناحية الأخرى، على قوانين وقواعد اللغة ذاتها .

وقد أدى ذلك كله إلى أن يميز دوسوسير فى دراسته للغويات بين ما يسميه (مادة) اللغة و(شكل) اللغة واعتبار اللغة شكلا اكثر منها مادة. فاللغة نوع من التفكير المنظم الذى يرتبط بالأصوات، مما يعني ان هناك عنصرين أساسيين ومتكاملين يدخلان فى عمل اللغة ويساعدانها على أداء وظيفتها فى الحياة. وهذان العنصران هما الأفكار أو العنصر العقلى أو التصورى، والأصوات أو العنصر الصوتى. ولابد للتفكير من أن يرتبط بالأصوات التى تعبر عنه والتى تتمثل فى الكلمات والألفاظ التى تكشف عن ذلك التفكير والتى بدونها يكون التفكير مجرد كتلة هلامية أو حسب تعبير دوسوسير كتلة سديمية غير متميزة وغير متفاضلة ولا شكل لها، أى أن العنصر الصوتى هو الذى يعطى العنصر العقلى أو التصورى كيانه ووجوده الحقيقى فى المجتمع، كما أن الأصوات أو العنصر الصوتى لا تؤلف بذاتها أو فى ذاتها وبدون الأفكار كيانات واضحة ومحددة. وهذا معناه أنه لا يمكن تصور اللغة او الحقيقة اللغوية الا من خلال ارتباط الفكرة والصورة معا، كما أن دور اللغة هو ايجاد علاقة أو رابطة بين التفكير والصوت. ولكى يقرب دوسوسير المسألة الى الاذهان فانه يرى امكان تشبيه اللغة بصفحة من الورق بحيث يمثل التفكير وجه الصفحة ويمثل الصوت ظهرها، وكما أنه يستحيل فصل أو قطع وجه الورقة دون أن نقطع ظهرها فى الوقت نفسه فانه يصعب بالمثل فى اللغة فصل التفكير عن الصوت فى عالم الواقع وان كان يمكن الفصل أو التمييز بينهما على المستوى التجريدى

البحث .

وتزخر صفحات كتاب دوسوسير عن (دروس فى اللغويات العامة) بالتفاصيل المعقدة العميقة عن طبيعة اللغة او اللسان وطبيعة الكلام والعلاقة بينهما، وعن التفرقة أو التعارض بين مايسميه (الدال) و(المدلول) فالدّال هو العنصر الصوتى او الصوت وقد يطلق عليه أحيانا اسم العلامة الدالة، بينما يطلق على العنصر العقلى او التصورى اسم المدلول أو العلامة المقصودة أو المعنى المقصود الذى هو فكرة عن شئ ما، أى مايتوارد إلى الذهن حين يرد ذكر علامة أو إشارة من العلامات الدالة أو الأصوات التى لها معنى ، وكيف أنه لا يمكن أن يكون هناك شئ مدلول عليه بدون وجود علامة أو إشارة دالة تدل عليه .

وأنا أدرك تماما ما فى بعض هذه الآراء والأفكار من صعوبة وتعقيد ، كما أدرك أيضا أن ما ورد فى الصفحات السابقة من الكتاب لا يوفى الكتاب ولا صاحبه حقهما كما أنه لا يحيط بكل المسائل والقضايا التى يعرضان لها ، ولكنها أمور وقضايا لا تهم فى الأغلب سوى المتخصصين تخصصا دقيقا .

والذى يهمنا هنا هو أن الأفكار التى عرضها دوسوسير فى ذلك الكتاب (الذى لم يقم هو نفسه بكتابته فى صورته الأخيرة ، وجدت طريقها إلى ما يعرف الآن باسم البنائية فى فرنسا وأمريكا ، بل إنها كانت مسئولة إلى حد كبير عن ظهور الاتجاهات، البنائية المعاصرة التى يمكن أن تندرج تحت عباءتها ما بعد البنائية وما بعد الحداثة .

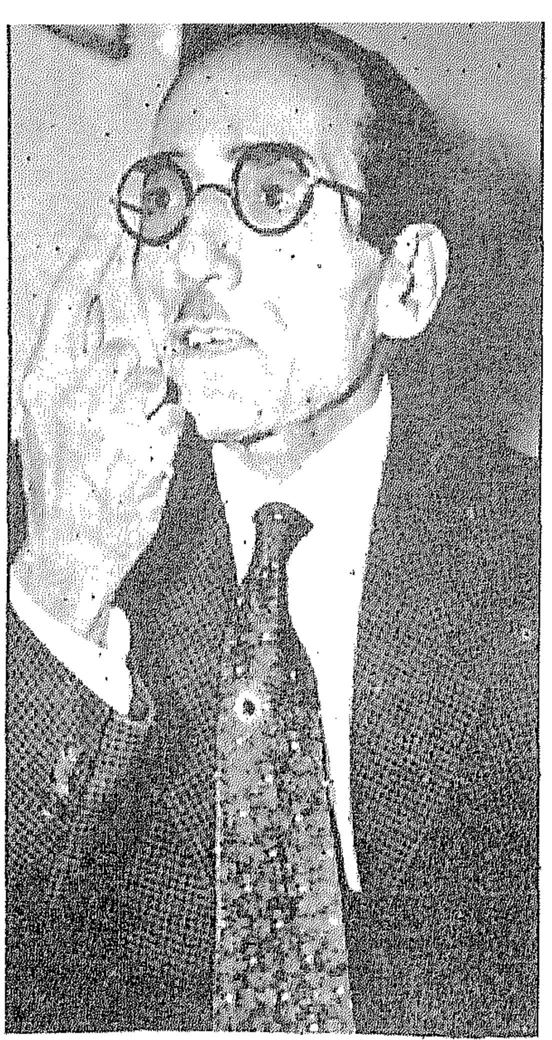
وقد أدى ظهور ما يسميه بعض الكتاب (النموذج السوسيرى) فى اللغة إلى محاولة تطبيق ذلك النموذج فى العلوم الاجتماعية . ويقضى ذلك النموذج بدراسة السلوك الانسانى كنسق من المعانى بدلا من النموذج القديم الذى كان سائدا فى القرن التاسع عشر. والذى كان يهتم بتتبع تاريخ ذلك السلوك وعناصره وجزئياته كما يمارسها الأفراد فى حياتهم اليومية . ويرتكز النموذج السوسيرى على فكرة (لا شخصانية) اللغة وانها تعلو على

الأفراد وتتعداهم ، وقد انتقلت هذه الفكرة إلى كل المفكرين البنائيين وان كانت تتخذ أشكالا وصورا تختلف من مفكر لآخر، ولكنها تتفق كلها فى موقفها العدائى من الفلسفات الفردية . ولعل أهم ما يميز هذا النموذج هو النظرة الكلية الشاملة التى تعطى (الكل) أولوية منطقية على الأجزاء أو العناصر التى تدخل فى تكوين ذلك الكل ، وإن كان هذا لايعنى أن البنائية تغفل تماما تلك الأجزاء أو العناصر وإنما ترى على العكس من ذلك أن فهم هذه الأجزاء فهماً دقيقاً لن يتيسر إلا إذا نظرنا إليها فى علاقاتها بعضها ببعض من ناحية وفى علاقتها بالكل الذى يتألف منها من الناحية الاخرى فالمهم هو دراسة شبكة العلاقات التى تقوم بين هذه الأجزاء أو العناصر وتربطها بعضها ببعض على اعتبار آن ذلك هو الذى يكشف عن المعنى الحقيقى لتلك الاجزاء كما أنه يساعد على الغوص تحت المظاهر أو الظواهر السطحية الملموسة، والتى تعتبر من وجهة النظر البنائية مجرد شواهد على وجود (بناء تحتى) أو بناء عميق يكمن تحت هذه المظاهر السطحية مثلما تدل قمة جبل الجليد الطافية فوق سطح الماء على وجود ذلك الجليد الضخم ذاته تحت السطح. فالبناء لا يبدو ظاهرا للعيان أو الحواس وإنما يمكن الاستدلال عليه من خلال العمليات الذهنية وحدها. وهذه كلها أفكار تنتشر بصور مختلفة فى الأعمال البنائية وما بعد البنائية كما تأثرت بها كتابات واتجاهات ما بعد الحداثة مما يجعل فردينان دوسوسير أحد المعالم الرئيسية التى أثرت وتؤثر فى الفكر الإنسانى المعاصر رغم أنه عاش فى شبه عزلة، ولم يكن يحس بوجوده سوى تلك المجموعة المحدودة، من الأكاديميين الذين كانوا يهتمون على أيامه باللغات الإندو أوربية فى المحل الاول، ثم تلاميذه وزملاؤه الذين أدركوا أهمية المحاضرات التى كان يلقيها فى جامعة جنيف فى مقرر دراسى اسمه (اللغويات العامة). وليس من شك في أن تأثير أفكار دوسوسير فى عدد من المفكرين المحدثين والمعاصرين تحتاج إلى مزيد من التفصيل لإلقاء أضواء كافية على مدى اسهامه فى تشكيل الفكر المعاصر ، وهو ما يتطلب العودة إلى الموضوع فى مقالات تالية .



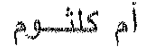
بقلم: د. جلال أمين

الدكتورة رتيبة الحفنى فنانة كبيرة وشخصية مرموقة في الحياة العامة المصرية. فهى فضلا عن تألقها كمغنية أوبرا، كاتبة ومؤرخة للموسيقى، وكانت مديرة ناجحة لدار الأوبرا، وتنتمى إلى أسرة تتمتع بمكانة رفيعة في ميادين الموسيقى والعلم والطب. ومع ذلك فحتي الدكتورة رتيبة الحفنى لم ترد أن تقول كلمة نقد واحدة لأم كلثوم ففى مقال طويل لها عن محمد القصبجى نشر فى مجلة «وجهات نظر» (عدد فبراير ٢٠٠٠) ويتناول معظمه، بالطبع، العلاقة بين القصبجى وأم كلثوم، تظهر أم كلثوم بريئة تماما وكأنها لم ترتكب أي خطأ أو ظلم تجاه هذا الملحن العبقرى، وصاحب الفضل الكبير علي أم كلثوم، إن لم يكن الفضل الأكبر.



محمد القصبجى





أم كلثوم

ليس فى الأمر بالطبع أى نفاق فأم كلثوم رحلت منذ زمن ولم تعد تصيب أحدا بسوء أو تجلب له نفعاً ولكنه مجرد الخوف - الخوف من المساس، ولو مساً طفيفا بهذه الشخصية العظيمة التى أجمع الناس على تقديرها وشغفوا بفنها وهو خوف لم يصب الدكتورة رتيبة الحفنى وحدها بل أصابنا جميعا. لقد تعرضت فى مقال سابق لى فى «الهلال» (عدد فبراير ٢٠٠٠) إلى إحجام المسلسل التليفزيونى الشهير عن أم كلثوم (لمحفوظ عبد الرحمن وإنعام محمد على) عن التعرض لأى شئ سلبى فى حياة أو شخصية أم كلثوم، وقد حاز هذا المسلسل قدرا هائلا من التعليق والثناء من جانب عدد كبير من الكتاب، لم يشر منهم إلا عدد قليل جدا ولو من طرف بعيد، إلى هذا النقص وهو الأحجام عن التعرض لأى نقيصة قد تكون قد شابت السيدة أم كلثوم، وقد أثرت فى ذلك المقال إلى مغبة هذا الاحجام وضرره، ولكنى أريد الآن أن ألفت النظر إلى ما يمثله هذا الاحجام من ظاهرة عامة، هى فى الواقع أعم بكثير مما نتصور .

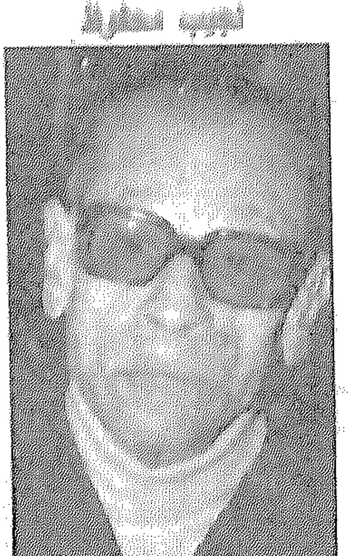
فالظاهر أن هذا الخوف من نقد أم كلثوم، سواء فى حياتها أو بعد موتها، هو

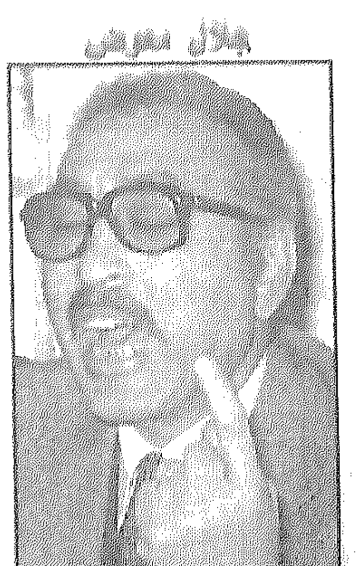
نفسه الخوف الذى يسيطر على حياتنا الفنية والادبية كلها من نقد أى فنان أو كاتب شهير، وهو نفسه الخوف الذى يسيطر على حياتنا السياسية. فأثناء وحياة أم كلثوم، وقد كنت، ولا أزال مفتونا بفنها أشد الافتتان، لا أذكر أنى قرأت مقالا واحدا ينتقد أغنية من أغانيها .

وعندما يتعلق الأمر بشخصية عظيمة عن أم كلثوم، فكل ما يصدر عنها سواء. فالاغانى كلها، ليست فقط عظيمة ورائعة، بل ولا يجوز تفضيل واحدة على الأخرى، وكأننا بصدد الحديث عن أعمال إلهية، قد يؤدى هذا التفضيل والترتيب إلى الايحاء بأى نقص عن الكمال . وهو موقف، إذا تعلق بفنان من البشر، لا بد أن يصيب النفس بالملل الشديد، ويصيب الحياة الفنية بالعقم والرتابة، مثلما كان يصيبنا، بلا شك، من سماع كلمات الثناء التى كان يسردها المرحوم المذيع جلال معوض، وهو يقدم أغنية ستشدو بها أم كلثوم انتهت لتوّها من الشدو بها، وهو المذيع الذى كان بالطبع أثيرا لديها .

ولكن أم كلثوم لم تكن فى ذلك استثناء فقد عاملنا محمد عبد الوهاب (ولا زلنا نعامله) بنفس الطريقة، وكذلك عبد الحليم حافظ. رغم أن ما يمكن قوله فى نقد هذا وذاك كثير، أو على الأقل فى نقد هذه الأغنية أو تلك . أو فلننظر إلى حالة النقد الأدبى عندنا الآن نجيب محفوظ (خاصة بعد حصوله على جائزة نوبل) لا يجوز أى ذكر نقد له، ولو فى أشياء ولا علاقة لها بالادب ، فكل أعماله عظيمة، بل ولا يجوز ترتيب أعماله بعضها فوق بعض. وفى الاخراج السينمانى لدينا يوسف شاهين، وفى التمثيل لدينا فاتن حمامة. وفى العلم، لدينا الآن أحمد زويل. وفى كل مجال لابد أن يكون لنا زعيم واحد، لا يجوز المساس به من قريب أو بعيد، وفيما عدا هذا الزعيم لا مانع من النقد. اللهم إلا إذا شمل الزعيم هذا الشخص برعايته وعطفه فلا يجوز نقد هذا الشخص أيضا طالما استمرت هذه الرعاية، وهذا العطف فإذا زال العطف زالت على الفور الحصانة، كما يزال كشك الحراسة من أمام بيوت الوزراء بمجرد خروجهم من الوزارة .

* * *


نجيب محفوظ

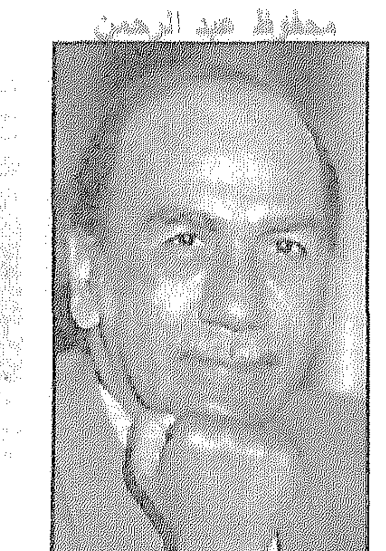

جلال معوض

الظاهرة «فرعونية» بلا شك وهى بقدر ما تدعو للأسف لما فيها من تأليه من لا يجوز تأليهه، تدعو للأسف أيضا لما تنطوى عليه من ظلم لكل من كان تحت فرعون. ففى أثناء حياة أم كلثوم مثلا أدت هالة التقديس التى أحيطت بها إلى أن خبا ضوء فنانين آخرين وفنانات أخريات كانوا بكل تأكيد سوف يحصلون على حضور أقوى بكثير مما حظوا به لولا هذه المغالاة فى تقديس أم كلثوم، بل وفي بعض الأحيان لولا بعض التدخل من جانب أم كلثوم نفسها لدى المسيطرين على وسائل الاعلام . كذلك فيما يتعلق بملحنيها هم أنفسهم، لقد أصاب السنباطى وزكريا أحمد والقصبجى بالطبع بعض الرذاذ من المجد الذى انهمر على أم كلثوم، ولكن هل كان هذا هو كل ما يستحقونه فى الحقيقة ؟ ليس من الضرورى أن نذهب إلى المدى الذى تعبر عنه هذه العبارة الماكرة التى صدرت عن محمد عبد الوهاب فى وصفه لأم كلثوم «أعظم فاترينة فى حياتنا الموسيقية» ، وكان يقصد بالطبع أن أصحاب المواهب (فى التلحين والعزف) لا يمكن أن يتحقق لهم من التألق واللمعان ولفت الأنظار، ما يمكن أن يحققوه لو عرضت مواهبهم من خلال غناء أم كلثوم. والعبارة قد تؤخذ بمعنى أن فن الغناء ليس إلا فاترينة نعرض من خلاله الموهبة الأخرى الأهم والأعظم وهى موهبة التلحين. ليس من الضرورى أن نذهب الى هذا الحد من أجل الاعتراف بالدور الاساسى الذى لعبه هؤلاء الملحنون الثلاثة الكبار : القصبجى وزكريا والسنباطى، فيما حققته أم كلثوم من مجد.

والحقيقة أنى لا أستطيع أن أعفى أم كلثوم من قدر كبير من المسئولية عن أن هؤلاء لم يحصلوا على كل ما يستحقون. لا أقصد بالضبط، المكاسب المالية، فهذا الأمر معروف وليس على أى حال بأكثر الأشياء أهمية.

إنى كنت أسمع وأقرأ ما يكتب عن أم كلثوم من ثناء فى تقديم أغانيها أو رواية أخبارها فلا أكاد أصادف جملة واحدة عن روعة اللحن وعظمة الملحن . هل كان هذا الأمر يمكن أن يمر على ام كلثوم دون

محفوظ عبد الرحمن



إنعام محمد علي



أن تلاحظه؟ أم كان يحدث برضاها وموافقتها؟ .

إن الدكتورة رتيبة الحفنى أحجمت عن ذكر ما أصاب القصبجي من ظلم من جانب أم كلثوم ، ولكن هناك إشارة فى كتاب المؤرخ اللبنانى المرموق الدكتور فيكتور سحاب (السبعة الكبار فى الموسيقى العربية المعاصرة، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٧، ص٨١) الى غضب «الست» على القصبجي عندما صرح مرة فى بيروت بأنها لو أتاحت له الفرصة «لأثبت أن ألحانه أفضل من ألحان السنباطى» ، ويضيف فيكتور سحاب قوله :ولا شك أن القصبجى كان يفوق السنباطى فى القدرة على التفكير الموسيقى، وعلى صياغة لوازم قوية متماسكة ، وعلى تطوير اللحن وعلى التجديد فى الموسيقى ، وإن كان بعض النقاد يرون أن جملة السنباطى اللحنية أجمل فى الغالب» ..

وهنا يثور اللغز الكبير المحير. لماذا توقفت أم كلثوم عن الغناء للقصبجى (باستثناء ألحان ثلاثة قصيرة فى فيلم فاطمة ، سنة ١٩٤٨، يا صباح الخير ونورك يا ست الكل، وياللى انحرمت الحنان) بعد أن لحن لها ذلك اللحن الرائع، رق الحبيب سنة ١٩٤٤ إن كل من كتب فى هذا الموضوع، ممن قرأت لهم، يوحى بأن القصبجى كان على الأرجح قد نضبت موهبته ، وحتى فيكتور سحاب يتساءل :

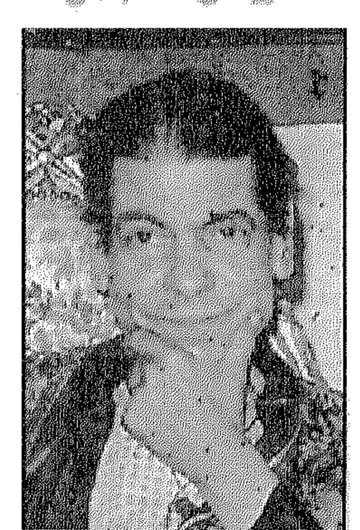
«أهو النضوب فى الهامه أدى إلى عزوف أم كلثوم أم أن عزوفها أدى إلى نضوبه حقا؟» ولكن هناك احتمالا آخر، أريد أن أطرحه على من يهمهم الأمر فلعله يكون أقرب الى الحقيقة من نضوب موهبة القصبجى بعد ١٩٤٤ ، ويتعلق بنفس هذه الظاهرة «الفرعونية» التى أتكلم عنها .

فمن المؤكد من ناحية أن أم كلثوم كانت تعلق أهمية غير عادية على مجدها الشخصى حتى ولو تضمن هذا بعض الافتئات على حقوق الآخرين. ومن المؤكد من ناحية أخرى أنها كانت تعرف جيدا القيمة الحقيقية لموهبة القصبجى وألحانه بل وربما كانت تحمل لموهبته، فى قرارة نفسها ، تقديرا يفوق ما قد تحمله للآخرين. لقد نسب اليها قولها قبيل وفاتها

د. رتيبة الحفنى



رياض السنباطى



أن القصبجي «موسيقى عالم سبق عصره» (فيكتور سحاب، ص ٧٩)، ولكن هذه الحقيقة وحدها وهى سبقه لعصره قد تكفى لتفسير عزوفها عن الغناء له بعد ١٩٤٨. فأم كلثوم للسبب الذى ذكرته حالا، ولحاستها العملية المدهشة (وهى حاسة كان يتمتع بها محمد عبد الوهاب بدرجة مدهشة أيضا) ، كان يهمها نوع استقبال الجماهير لأغانيها أكثر مما إذا كانت الموسيقى «قد سبقت عصرها أو لم تسبقه» ومن الممكن جداً بل والراجح أن جمهور أم كلثوم خاصة فى العقود الأخيرة من حياتها ، كان اقرب الى الافتتان بألحان اسهل وأكثر إثارة منه إلى الافتتان بألحان أصعب. وإن كانت أقدر على البقاء وأشد قوه وأكثر تجديدا وابتكارا كألحان القصبجي فضلا عن أن كثيرا من ألحان القصبجي تحتل فيه الجمل واللوازم الموسيقية التى تربط بين عبارات الأغنية التى ينطق بها المغنى، أهمية لا تقل عن أهمية هذه العبارات المغناة ، وهذا بدرجة قد تزيد عما نجده فى ألحان الملحنين الآخرين الذين لحنوا لأم كلثوم .

قد يؤيد هذا التفسير مسلك أم كلثوم فى مجال آخر غير التلحين، وهو مستوى الكلمات التى تغنيها إن أم كلثوم التى غنت تلك القصائد الرائعة لأحمد شوقى، وأدتها أداء يدل على فهم وتذوق ثم رباعيات الخيام ، وكلمات بيرم التونسى الشديدة البلاغة والظرف، وأبيات رامى النفاذة كيف تجد من السهل عليها أن تغنى كلاما من نوع حب إيه اللي إنت جاى تقول عليه؟ «أو قولها العيب فيكو يا فى حبايبكو». ومن هذا كثير مما غنته فى السنوات العشر الأخيرة .تفسير ذلك فى رأيى أن جمهور أم كلثوم كان فى الستينات والسبعينات غيره فى الثلاثينات والأربعينات . وكذلك كان مشترو الاسطوانات وأشرطة التسجيل جمهورا مختلفا تماما. كانت الأذواق قد هبطت ، والذى كان مطلوبا فى الاربعينات «وعلى الأقل من وجهة نظر المجد الشخصى» لم يعد مطلوبا فى الستينات والسبعينات . وقد فهمت أم كلثوم هذا للاسف فهما جيدا وتصرفت على أساسه وقد يكون هذا هو السبب الحقيقى فى محنة القصبجي معها..

محمد عبدالوهاب



احمد شوقى



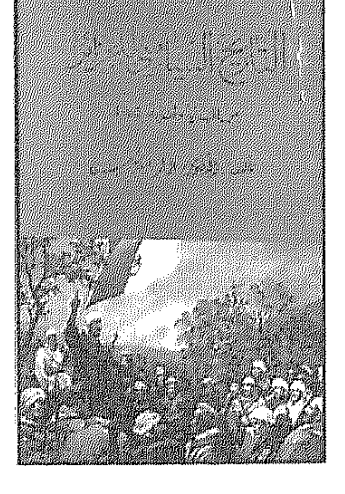


حان الوقت .. لكى تسترد الجزائر عافيتها!

بقلم : مصطفي نبيل

مر عقد من الزمان، والجزائر تعيش محنة سوداء بعد أن أنهكها العنف الأسود والصراع المسلح، وحان الوقت لكى تسترد الجزائر عافيتها، مع الجهود المخلصة التى يبذلها الرئيس الجزائرى عبدالعزيز بوتفليقة، وإعلانه قانون الوئام الوطنى، ومناداته بالمصالحة الوطنية، وإصداره لقانون العفو العام لكل من لم يلوث يده بالدماء.

وفتح صفحة جديدة، لكى يسود فيها الحوار، ويستبعد سياسة الإقصاء والاستئصال، وإذا كانت هذه السياسة تلقى من البعض المعارضة، فهى تحتاج من كل مخلص إلى الدعم والتأييد حتى تصل الجزائر إلى بر الأمان، وقد جاء مقتل عبد القادر حشانى كجرس إنذار يؤكد أن أعداء المصالحة مازالوا يحاولون وقف عجلة التاريخ ..



وأقدم هنا ما جاء فى عدد من الكتب المهمة التى صدرت أخيرا والتى تلقى الضوء على بعض ما يجرى فى الجزائر، وتجيب على عدد من الأسئلة التى تبحث عن إجابات ..

أحد فوائد المعرض الدولى للكتاب، توفير الكتب المنشورة فى العواصم العربية المختلفة، فلا توجد هذه الكتب فى أى من المكتبات، ولا تعثر عليها حتى فى دار الكتب المصرية، فإذا كان عسيرا وجود مراكز للدراسات والأبحاث العربية تضم تلك الكتب المنشورة فى البلدان العربية، والتى تغذى الأبحاث والدراسات العربية ، فعلى الأقل يجب توفير هذه الكتب لمن يحتاجها .

وإذا كان المعرض قد عجر خلال السنوات الماضية عن العمل على غرار معارض الكتب فى كل الدنيا ، بتقديم معلومات وافية حول أكثر الكتب مبيعا ، وأكثر مايجذب القراء، وماهى فروع المعرفة التي يقبل عليها القراء، فعليه على الأقل أن يقدم الكتاب العربى الذى يصدر خارج القاهرة .

وإطلالة سريعة عن بعض الكتب التى صدرت عن الجزائر تكشف أهمية توافر هذه الكتب للباحثين.

●

ومن هذه الكتب المهمة كتاب «**التاريخ السياسي للجزائر حتي عام ١٩٦٢**» ، تأليف الدكتور عماد بوجوش، جمع الكتاب ماكان متفرقا من تاريخ الجزائر، وكشف ماكان غامضا ، وأبرز ماحاول البعض تغييبه، وتناول تاريخ الجزائر كوحدة واحدة، بدأ بالمرحلة السابقة على الإسلام وانتهى بالتاريخ المعاصر الذى انتهى باستقلال الجزائر فى يوليو سنة ١٩٦٢ ، وفيه يكشف أسرار الثورة الجزائرية»وماكان يدور فى الأحراش وعلى قمم الجبال وداخل الغرف المغلقة ..

وككل الثورات عرفت الثورة الجزائرية الصراعات التى حالت دون تركيز

السلطة فى أيدى قيادة تحظى بالإجماع وتقود جرب الاستقلال، فشهدت الثورة صراعات بين العسكريين والسياسيين وبين الداخل والخارج، وبين الحكومة المؤقتة وقيادة جيش التحرير وأخيرا بين منطقة القبائل وغيرها ..

كما دفع حياته ثمنا لهذه الصراعات أمثال كريم بلقاسم وعبان رمضان ومحمد خيضر وحتى محمد بوضياف وقاصدى مرباح .. والقائمة طويلة ..

وتبدأ قصة الثورة بما يشبه الدراما الإغريقية، والتى تمثلت فى شخصيتين تاريخيتين هما مصالى الحاج وعباس فرحات، فمصالى الحاج هو الأب الحقيقى للثورة وتنظيمه هو العمود الفقرى لجبهة التحرير، والذى انفصل عن الحزب الشيوعى الفرنسى، وأقام حزبه، وصرح .. «إننا تركنا شيوعية الموت، وتمسكنا بالوطنية وهى رمز الحياة ، ونادى بتوحيد العالم العربى والإسلامى» وتولى قيادة حزب «نجم شمال أفريقيا» سنة ١٩٢٧، وأعلن أهداف الحزب «السعى إلى استعادة الأراضى المغتصبة، وحصول الجزائر على إستقلالها، وإنشاء جيش وطنى، وانتخاب برلمان جزائرى».

وأصبح مصالى الحاج سنة ١٩٣٥ أقوى زغيم يقود شعبه نحو الاستقلال، وأصبح حزبه سنة ١٩٣٧ يحمل اسم «حزب الشعب الجزائرى»، وقضى معظم سنوات عمره فى المنافى والسجون

والشخصية التاريخية الثانية التى لعبت أهم الأدوار، سواء فى المطالبة باندماج الجزائر مع فرنسا، أو المشاركة فى حرب التحرير هو عباس فرحات، الذى كان سياسيا تقليديا يكره العنف ويؤمن بسياسة المراحل، وأكد أنه لايوجد مايمنع الجزائرى أن يكون فرنسيا، «ولايطالب حزب البيان الذى يرأسه بالمساواة مع الأوربيين ولايطالب بالاستقلال، ولايدافع عن الهوية العربية الإسلامية»..

ومن أقواله سنة ١٩٣٠ «لو عرفت القومية الجزائرية لكنت من القوميين، ولما خجلت من ذلك».. ولن أموت من أجل وطن جزائرى، لأن ذلك الوطن ليس له وجود، وبعد رفض فرنسا لفرحات عباس عمل على التقرب من مصالى الحاج والشيخ بشير الإبراهيمى زعيم جمعية العلماء، وقال لمصالى الحاج.. «لقد كنت

ضدك.أدافع بحرارة عن الإندماج، وأثبتت الأحداث أنك على صواب وأنا على خطأ، واليوم أعترف لك أنى سأتبع خطاك».

وتحول عباس فرحات من الاعتدال إلى التشدد، وانتقل مصالى الحاج من التشدد إلى الاعتدال.

وفى حكاية كل منهما شبه برواية بجماليون لأناتول فرانس .. والتى تحكى قصة الراهب والغانية، أحدهما على القمة والآخر عند السفح، يتبادلان الأدوار ويصبح من فى القمة عند السفح، ومن عند السفح يصل إلى القمة!..

واستطاع عباس فرحات أن يوحد صفوف الأحزاب الجزائرية ..

وكان مصالى الحاج يعمل على إشعال الثورة المسلحة لتحرير الجزائر، وكان بن بيللا وجماعته أسرع من مصالى الحاج وأنصاره، فحددها مصالى الحاج فى يونيو ١٩٥٥ بينما قررت جماعة بن بيللا بدء الثورة فى الفاتح من نوفمبر ١٩٥٤.

وبقى مصالى الحاج فى سجون فرنسا حتى يونيو ١٩٥٩، وعاش فى فرنسا يعادى الثورة التى خرجت عن طاعته حتى وافته المنية فى يونيو ٧٤ ، ونقل جثمانه إلى مدينة تلمسان.

كما قرر الحزب الشيوعى الجزائرى إنشاء منظمة عسكرية خاصة أطلقوا عليها «المحاربون للتحرير» بعد قيام الثورة! .

جمعية العلماء

أما جمعية العلماء فكانت طرفا رئيسيا فى المعادلة السياسية، وجزءا من النواة الأولى للثورة، والتى تأسست فى ٥ مايو ١٩٣١، وهى حركة سياسية ذات رسالة ثقافية تهدف إلى حماية التراث الوطنى وبعث الروح الوطنية، وكانت حربا على التخلف وما أطلق عليه أيامها «الإسلام الفرنسى»! وشعارها «العربية لغتنا والإسلام ديننا والجزائر وطننا»، وتعتبر الزوايا الصوفية «علة العلل ومنبع الشرور»!.

وقاد الجماعة على التوالى عبدالحميد بن باديس (١٨٨٩ - ١٩٤٠)، بعده

الشيخ بشير الإبراهيمى وتلاه الشيخ مبارك الميلى، ومثلهما فى قيادة جبهة التحرير توفيق المدنى.

وبعد قيام الثورة، غاب جانب من قيادتها فى عملية القرصنة الفرنسية فى ٢٢ أكتوبر ١٩٥٦، كما عانت الثورة من استشهاد قادتها الأوائل مراد ديدوش فى يناير ١٩٥٥ ومصطفى بلعيد مارس ١٩٥٦ والعربى بن مهيدى الذى أعدمه الفرنسيون فى مارس ١٩٥٧، ولم يبق من القادة الستة الأوائل على أرض الجزائر سوى كريم بلقاسم ..

عبان رمضان

واستطاع عبان رمضان الذى بقى فى الداخل من توسيع الجبهة ودعمها بقادة حزب البيان، عباس فرحات وأحمد فرنسيس، وكان مؤتمر الصمام الذى عقد بوادى الصمام فى منطقة القبائل فى أغسطس ١٩٥٦، مجالا لظهور الكثير من التناقضات في صفوف الثورة واستولى على القيادة الثلاثى عبان رمضان (قبائلي) وكريم بلقاسم (قبائلى) وأو عمران ، وشاع أن قيادة الجبهة فى الخارج ليست على المستوى وأنها عبارة عن أفراد لايوجد بينهم انسجام أو إتفاق، فتقرر إرسال الدكتور الأمين دباغين إلى القاهرة بوصفه رئيسا للوفد الخارجى للجبهة، وكان معني ذلك القضاء على زعامة بن بيللا وصحبه.،وأعطى عبان رمضان الأولوية للداخل عن الخارج، كما توارت فى المؤتمر كلمتا العروبة والإسلام، وإتهام مصر والدول العربية بالتقصير فى تأييد الثورة!، وعارض المؤتمر كل من أحمد بن بيللا وبوضياف وخيضر، وتشكلت قيادة جديدة من كل من كريم بلقاسم ويوسف بن خده مع عبان رمضان، وقد تبين أن القرصنة الجوية التى قامت بها فرنسا أدت إلى تجنب الانقسام العلني للثورة .

وسرعان مابرزت القيادة العسكرية لكريم بلقاسم الذى تمكن من أخذ السلطة من يد عبان رمضان وعزله، ثم التخلص منه فى ظروف غامضة يوم ٢٧ ديسمبر ١٩٥٧..

وهذا ماجاء فى كتاب التاريخ السياسى للجزائر أما مايرويه فتحى الديب عن

ذات الواقعة فى كتابه عبدالناصر وثورة الجزائر .. فيقول .. «وصلنا خبر مقتل عبان رمضان وهو فى طريقه الى تونس وعلمنا من بعض الأخوة أن كريم بلقاسم كان وراء تصفية عبان رمضان باعتباره انحرف عن خط الثورة، وحاول تقوية نفوذ السياسيين على حساب العسكريين» .

دماء فى القاهرة

ويكشف كتاب التاريخ السياسى للجزائر حكاية اغتيال عميرة علاوة فى يوم ١٠ فبراير سنة ١٩٥٩، الذى قيل أنه انتحر بمبنى الحكومة المؤقتة ، جاردن سيتى بالقاهرة، والحقيقة أن عميرة كان يعمل فى مكتب جبهة التحرير بمدريد، وكان فى طريقه إلى المغرب بناء على تعليمات قائده عبدالحفيظ بوصوف، غير أنه لم يمتثل للتعليمات، فقام مسعود بو قادوم باستجوابه، وتأكد أنه لم يرتكب أية مخالفة فتقرر نقله إلى القاهرة، وقام الدكتور الأمين دباغين بتعيينه مندوبا للجزائر فى بيروت .

ولكن قدم تقريرا لفرحات عباس بأن عميره يهاجم وزراء الحكومة المؤقتة، ويتهم فرحات عباس شخصيا بالانحراف عن مبادىء الثورة، فقام عبدالحفيظ بوصوف بتصفيته، مما أدى إلى استقالة الأمين دباغين..

ولم تؤد هذه الحادثة إلى القضاء على عميرة وحده بل قضت أيضا على الحكومة المؤقتة، ويورد الكتاب ماقاله هوارى بومدين قائد جيش التحرير الجزائرى بأن هذه الحكومة لم تقم بواجباتها تجاه غرب البلاد، ولم تمدها بالأسلحة والمؤونة، وتساءل فى سخرية .. كيف نربح الحرب..؟ هل بالأقوال الجوفاء والتصريحات الفارغة؟!.

ونكتفى بهذا القدر وهو قليل من كثير عن خفايا الثورة ومعاناتها ..

وتبقى مجموعة ملاحظات حول تاريخ وأحداث الثورة .

● تنامى دور الجيش وقيامه بالدور الرئيسى خلال حرب التحرير وفى حكم البلاد قبل وبعد تولى أحمد بن بيللا أول رئيس للجمهورية .

● وجود ظاهرة الذين يحكمون ولايملكون، وفى المقابل الذين يمسكون بخيوط السلطة ومقدرات الأمور ولايحكمون، وكما جاء على لسان أحد السياسيين «إن إشكالية السلطة ليست وليدة اليوم، ولكن تعود إلى سنة ١٩٥٨، عندما تم تعيين عباس فرحات على رأس الحكومة المؤقتة دون سلطة فعلية، وهى القضية نفسها المطروحة اليوم والتى تكررت مع بوضياف والذين اغتالوه».

● تناقص دور الجزائر العاصمة التى كانت تحت قبضة جيش الاحتلال الفرنسى، واستمرار المقاومة فى الجبال.

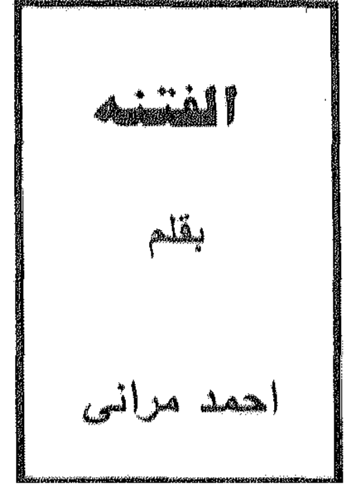
● استمرار الصراع حول الهوية واللغة العربية بين ذوى الأصول العربية والمنحدرين من أصل بربرى..

● رفض الزعامة الفردية من مصالى الحاج مرورا بعباس فرحات وحتى أحمد بن بيللا، وقام بالعمل أطراف متعددة يحرص كل منها على عدم إنفراد غيرها بالعمل .

●

الفتنة

ومن الكتب التى صدرت وتلقى الضوء على العقد الأخير من حياة الجزائر.



كتاب «**الفتنة**» والذى يقدم خلاله أحمد مرانى (من مواليد ١٩٤٨)، والذى كان عضوا مؤسسا فى جبهة الإنقاذ والوزير السابق للشئون الدينية وعضو مجلس الأمة الجزائرى والقادم من منطقة تيزى وزو، والذى يقدم شهادته التاريخية ويكشف خفايا جبهة الانقاذ، ويأمل أن يساهم فى إنهاء الفتنة، والمساهمة فى القضاء على العنف الأسود.

ويرى أن تدهور الأوضاع الاقتصادية وغياب العدالة

الاجتماعية أحد أهم أسباب اشتعال العنف، ويرصد أسباب الانزلاق الى العنف الدموى الذى عاشته الجزائر، ويؤكد أن هذه الشهادة ليست كاملة، فلم يحن الوقت بعد للبوح بكل شيء.

كما يؤكد .. «أن أطرافاً فى النظام كانت تشجع هذا التيار السياسى لاستثماره فى توجيه الرأى العام، وخلق التوتر الأيديولجى مع جماعات اليسار، عندما تحولت الجزائر عن الاشتراكية إلى اقتصاديات السوق، وأحد نتائج التغييرات الاجتماعية الحادة التى شهدتها البلاد، بعد أن قام الشاذلى بن جديد بتفكيك البنيان الذى أقامه بومدين، وقام مالك بن نبى المفكر الإسلامى المعروف بعقد ندوات فى بيته، وكان أكثر المترددين عليه من الطلبة الذين يدرسون فى الجامعة . وأخذ هذا التيار فى التنامى والذى يطلق عليه «الماسونية الإسلامية»، والذى يعتمد التهيئة والاختراق ثم التفجير حتى يتحقق لقيادته السيطرة..

ويأخذ على عباس مدنى قائد جبهة الانقاذ زعامته الفردية وعدم إيمانه بالديمقراطية داخل حزبه ويقول .. «إن مدنى حاول أكثر من مرة صرف نظر مجلس الشورى عن فكرة الدعوة لمؤتمر يعتمد الشورى حتى ينفرد بالقيادة وحده»!.

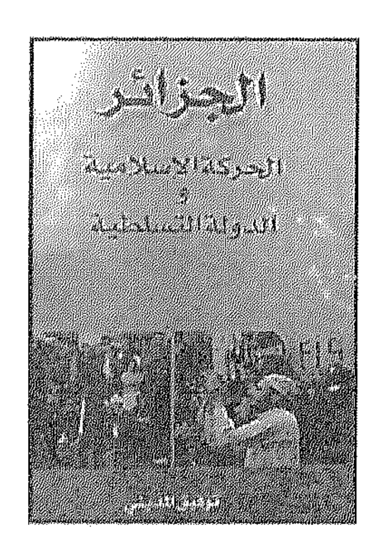
ويروى تفاصيل لقاء تم بين على بن الحاج الرجل الثانى فى الجبهة وخالد نزار أحد رجال الجيش الأقوياء خلال حرب الخليج، طالب خلاله أن تقيم المؤسسة العسكرية ثكنات لتدريب أعضاء الجبهة للقتال إلى جانب العراق..

ويتحدث عن أحد الشخصيات الأجنبية الغامضة ويدعى روجيه ديدى الذى كان ينسق مع الجبهة، ويلتقى مع على بن الحاج، والذى ألقى القبض عليه وهو يقوم بتهريب الأسلحة إلى الجزائر، وأحد الذين ساهموا فى تحضير «الطبخة» الدموية التى أصبحت على مدار السنين وجبة الجزائريين!!.

ويتضمن الكتاب الكثير من التفاصيل والخلافات عن قيام جبهة الانقاذ .

●

أما كتاب «**الجزائر الحركة الإسلامية والدولة التسلطية**» لمؤلفه توفيق



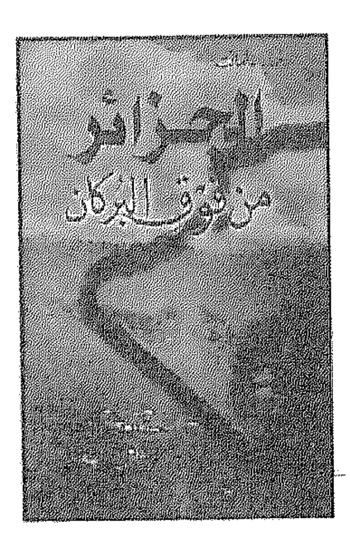
المدينى، فيرى أن الأخذ بقرارات روما التى أجمع عليها قادة الجزائر يمكن أن تقدم الحل أو تكون المدخل المناسب لحل الأزمة، ويقول بعد استعراضه للتطورات السياسية فى الجزائر .. «أنه فى ظل ما أسفرت عنه التجربة الجزائرية من تفاقم الصراع الدموى، والفتك الإعتباطى والجماعى، تصبح عودة السيادة للشعب، وإعادة إنتاج السياسة من فئاته وطبقاته ضرورية .. ومن المؤكد أن هناك تفاعلات وتأثيرات متبادلة بين الأزمة السياسية والأزمة الاقتصادية والعنف المسلح .. ويطالب بالأخذ بمشروع السلام الذى هو بمثابة عقد وطنى فى روما هو المدخل لايجاد حل للأزمة الجزائرية .. وترجيح الحوار على الصراع .. «ويضيف «أنه حتى ترقى جبهة الإنقاذ إلى حل المسألة الديمقراطية عليها أن تنظر لنفسها على أنها جزء من الكل، والكل هو الحركة السياسية الجامعة والتى تشمل الأحزاب جميعا، فكل الأحزاب لها حقوق متساوية فى العمل والتعبير ..» ويضيف :

«فالمسألة الديمقراطية تجسد المجتمع المدنى، وتعبر عن سيادة الشعب، وتمهد الطريق إلى بناء الديمقراطية، وتؤمن هذا الانتقال، والتداول السلمى للسلطة، وتصون حرية الفرد والأقليات والأحزاب، وتجعل الاستبداد مستحيلا..» .

●

فوق البركان

ومن الكتب المثيرة والتى نشرت فى الجزائر كتاب «**الجزائر من فوق البركان**» حقائق وأوهام، كتبه محمد تاملت أحد الصحفيين الشبان، ويلقى فيه الضوء على أبعاد الأزمة التى تعيشها الجزائر، والجماعات الإرهابية التى أعلنت العصيان فى الجبال، ويركز حديثه عن السنوات العشر الأخيرة، والصراع الذى يدور حول الديمقراطية من جانب وظاهرة العنف الأسود من الجانب الآخر، وهو الصراع الذى أدى إلى غياب دور الجزائر الإقليمى، وخسارتها لمائتى ألف قتيل



واختفاء عشرة آلاف جزائرى، وهو الصراع الذى راح ضحيته كتاب ومفكرون وسياسيون وصحفيون وفنانون، والكتاب عبارة عن تحقيق صحفى استعان بشهادات ٤١ شخصية جزائرية شاركت فى الأحداث، منهم طالب الإبراهيمى والعربى بالخير وعبدالقادر حشانى (الذى لقى مصرعه أخيرا) ومولود حمروش (رئيس الوزراء خلال بداية الصراع) ورضا مالك ومحفوظ نحناح وغيرهم. والكتاب مهمة شاقة، كأن كاتبه يمشى فى حقول الألغام، فى ظل أزمة متفجرة وفى ظل تقاطع طلقات الرصاص، فعندما يتفجر الصراع المسلح - عادة - تتوارى الكلمة وتختفى الموضوعية وتبعد العقلانية ..

لذلك فقد اختار تقديم الأحداث من خلال شهادات من عاشوها، ولم يتدخل بالتعليق إلا قليلا، فجاء الكتاب بانوراما الأحداث وضع الوقائع جنبا إلى جانب .

فإذا كان كتاب الدكتور عماد بوجوش يقدم الخلفية التاريخية للوقائع والأحداث المعاصرة، فيقدم محمد تاملت الأحداث المعاصرة، فبوابة الحل لأية قضية هى إدراك حقيقتها والتعرف على أبعادها.

ويدور الكتاب حول أسئلة ثلاث، بسبب انفجار العنف الأسود ومسئولية الأطراف المختلفة عن ذلك، وماهو دور جبهة الإنقاذ فى ذلك ، والثالث مدى سيطرة الجيش على الحياة السياسية.

وعند تقليب صفحات الكتاب تتكشف حقائق مذهلة، فما يمكن إخفاؤه اليوم سيعرف غدا ..

يقف الكاتب عند نقطة البداية فى أكتوبر ١٩٨٨ عند تفجر مظاهرات الخبر التى دمرت وأحرقت كل المبانى التى ترمز إلى السلطة والتى انتهت بتدخل الجيش، وسقوط الكثير من الضحايا، والتى اشتعلت بسبب الضائقة الإقتصادية الحادة، التى صاحبها تغيير نمط الاقتصاد الذى كان يغلب عليه المركزية

والتخطيط، وتم تغيير الميثاق الوطنى، والذى عبر عنه فى خطاب الرئيس الشاذلى بن جديد قبل الأحداث وفى ٢ أكتوبر بقوله .. «إن شلل الاقتصاد الذى طبعه السيطرة البيروقراطية وانخفاض سعر البترول يؤكد ضرورة تغيير النظام الاقتصادى»، ويعلق طالب الإبراهيمى وزير الخارجية الأسبق بقوله .. «كانت الأحداث نتيجة طبيعية للتخلى عن أحد المبادىء الرئيسية للثورة وهو مبدأ العدالة الاجتماعية الذى ميز فترة بومدين، وأعطى الشاذلى هامشا أكبر للحريات الفردية والجماعية..».

ورفضت جبهة التحرير السير فى هذا الطريق، ولم ينقذها ذلك من السقوط لدى الشارع الجزائرى، وتم تعيين عبدالحميد مهدى خلفا لمحمد شريف مساعديه، كما ضم إلى اللجنة المركزية كلا من عبدالسلام بلعيد وعبدالعزيز بوتفليقة والصالح يحياوى وأحمد بن شريف وبشير بومعزة.

ولم تسد هذه الإجراءات الفراغ السياسى القائم، فقام النظام بتشجيع تيارين من التيارات الفاعلة فى الشارع الجزائرى، وهما التيار البربرى والتيار الإسلامى، ويستعين الكاتب برواية د. سعيد سعدى رئيس حزب التجمع من أجل الثقافة والديمقراطية، وهو التنظيم البربرى المناهض لحزب حسين آية أحمد (أحد القادة التاريخيين)، «اتصل به وزير التعليم العالى بوبكر بلقايد وحدد له موعداً مع العربى بلخير رئيس ديوان رئاسة الجمهورية، وتم الاتفاق فى هذا الاجتماع على الطلب بعدم السماح لوصول الإضطرابات الى منطقة القبائل مقابل العمل على تغيير دستور ١٩٧٦، حتى يسمح للحركة البربرية التى يقود د.سعدى بالنشاط علنا»، وشاع القول أن هذا الحزب، انشىء فى مكتب بلخير وفى سيارة بلقايد.

ومن ناحية أخرى تم الإتصال برموز التيار الإسلامى الذى منهم الشيخ أحمد سحنون أحد قادة جمعية العلماء خلال الثورة، ويروى الجنرال لكحل عياط اتصال وزير الشئون الدينية بوعلام باقى كبداية لاتصالات واسعة مع التيار الإسلامى، وأصدر الشيخ سحنون بيانا يدعو إلى الكف عن تحطيم ممتلكات الشعب والعودة

إلى الهدوء لكى لايكونوا من الذين «يخربون بيوتهم بأيديهم» كما جاء فى القرآن.

ويشهد مولود حمروش (رئيس الوزراء السابق) أنه يعتقد أن السلطة اضطرت لاعتماد الجبهة الإسلامية للإنقاذ بعد تسرعها فى قبول حزب د.سعيد سعدى، وحصل الحزبان رسميا على الاعتماد فى اليوم نفسه، ولم يكن وزير الداخلية سوى بلقايد الذى سبق وجمع العربى بلخير مع سعيد سعدى خلال أحداث أكتوبر، وعندما كان ملف اعتماد الأحزاب يتم الموافقة عليه من لجنة يرأسها ممثل المخابرات السياسية الجنرال محمد بتشين، (الذى كان سببا فى الاستقالة المبكرة للرئيس أمين زروال).

وكان الدستور لايسمح بقيام حزب على أساس عرقى أو دينى .. وهو ماتم التخلى عنه ..

بداية العنف

ويقول عن بداية العنف من جانب جبهة الانقاذ .. «أن ممارسة العنف وربطه بجهة الانقاذ كان نتيجة للخطاب العنيف الذى شاع بين قادتها .. ولم يكن للجبهة فى أغلب الأوقات علاقة مباشرة بأحداث العنف، ولكن تقصيرها فى فرض الالتزام على أعضائها جعلها من أول ضحاياه، كما أن بعض الصحف من خصوم الجبهة كانت تبالغ فى الحديث عنه وإبرازه، وأحيانا عن طريق اختلاق وقائع لم تحدث، مع وجود جماعة هجرة وتكفير وجماعات الأفغان الذين لايؤمنون بالعمل السياسى ولا حتى بشىء اسمه جبهة الانقاذ.

وانزعجت المؤسسة العسكرية من أعضاء الجبهة الذين أعلنوا الاضراب احتجاجا على قانون الانتخابات الجديد، والذين يحتلون الشوارع بلا انقطاع، وساءها تكوين شرطة بلدية كانت مهامها غير محددة، وتخضع لأوامر الحزب أكثر مما تخضع لضوابط القانون أو أوامر الدولة بعد نجاحها فى انتخابات البلدية .

وقد هدد الجنرال مصطفى شلوفى أمين عام وزارة الدفاع أعضاء الجبهة، ونشر بيان فى مجلة الجيش فى عددها ٣٠٩، الصادر فى مارس ١٩٩٠ يهاجم ممارسات الجبهة، مما دفع قائدها عباس مدنى بلقاء الرئيس، ويبدى تخوفه من

هذه الحملة، وطمأنه الرئيس ووعده بتهدئة الوضع، ولم يهدأ الوضع وازداد توترا خاصة وأن الجيش كان يقدم التقارير محذرا رئيس الجمهورية من خطر الحزب الجديد ومطالبا بالتدخل ..

الصدام

ورغم ماكان يردده عباس مدني من «أنه لايوجد مبرر لكسر باب مفتوح» إلا أن غرور القوة والعجلة وعدم الصبر ساهمت فى انفجار العنف، فقد أخذ مؤيدو الجبهة ينزلون إلى الشارع ويحتلون الميادين ويستولون على المساجد فى اضراب طويل احتجاجا على قانون الانتخابات الجديد، وهو الإضراب الذى أعلنه عباس مدني، وبدأ الصدام بين السلطة والجبهة وسقط ١٧ قتيلا و ٢١٩ جريحا كما أعلنت الحكومة، وأعتقل ٢٧٠٠ من أعضاء الجهة وحجزوا لمدة شهر ونصف، واعتقال قادة الجبهة وشيوخها وتقديمهم إلى المحاكمة العسكرية فى البليدة، وحكم على عباس مدنى وعلى بلحاج بالسجن ١٢ سنة ولقمازى بـ ٦ سنوات، ولجدى وبوخمحم وعرو شيفارة بأربع سنوات.

وتمت الانتخابات النيابية وقادة الجبهة فى السجن، وقاد الجبهة عبدالقادر حشانى، وأحرزت الجبهة النصر فى الانتخابات النيابية التي جرت فى ٢٦ ديسمبر ١٩٩١. وحصلت الجبهة على ١٨٨ مقعدا وجبهة التحرير على ١٥ مقعدا فى الجولة الأولى .

واستعجلت الحكومة تدخل الجيش، وتم إلغاء نتائج أول انتخابات تشريعية تعددية فى الجزائر وانسحب الرئيس الجزائرى الشاذلى بن جديد من الحياة السياسية، بعد أن استدعى وزير داخليته وقال له:

«لا أريد أن أكون السبب فى إراقة الدماء، أو فى إنقسام الجيش»!

ويضيف الكتاب .. «الواقع أن استقالة أو إقالة الرئيس وقعت فى بداية العام، وليس فى الوقت الذى أعلنت فيه، والدليل أن أول اتصال تم مع محمد بوضياف

بدأت قبل ستة أيام من إعلان الاستقالة، وتم الاتفاق مع الشاذلى بعدم التعرض له أو مضايقته فى المستقبل.

«وانتقل العنف من الشارع إلى خنادق الجماعات، ومن باحات المساجد إلى أعالى الجبال المحيطة بالمدن الكبرى وبالجزائر العاصمة».

ومازال هناك العديد من التساؤلات حول هذه الفترة وماجرى فيها، ولكن يلاحظ أن الكاتب تجاهل الدور الأجنبى فى الصراع، ولم يذكر مايكفى عن الفساد ودوره فى الأزمة، الذى قال عنه أحد رؤساء الوزارة السابقين وهو عبدالحميد الابراهيمى أن الفساد يساوى عجز الميزانية الذى يبلغ قيمته ٢٦ مليار، وهو قيمة ماتم سرقته خلال رئاسته للحكومة..

كما أن الكاتب أخطأ عندما ذكر .. «أن الفوز الساحق للجبهة يخيف من تكرار تجربة إيران، التى حرر فيها الشعب الإيرانى الإمام الخمينى من سجنه وتسليمه السلطة، وأن يفعل البرلمان الجديد مع الشيوخ المعتقلين..» فقد كان الخمينى فى فرنسا عندما قامت الثورة، وعاد إلى طهران وهى فى قمتها .

وبعد ..

آن لليل الجزائر الطويل أن ينجلى، وأن يوضع حد لمشكلتين عانت منهما الجزائر، إحداهما الصراع بين العسكريين والمدنيين، والثانية الصراع الذى يتناول الهوية الذى نشب منذ الاستقلال بين اللغتين العربية والفرنسية، والتى ظلت الإدارة العليا تقاوم التعريب حتى لاتفقد مراكزها.

ويتركز الرهان على سى عبدالقادر وهو الاسم الحركى للسيد عبدالعزيز بوتفليقة، الذى يتمتع بتجربة سياسية طويلة وحنكة وحصافة، وتأييد قطاعات واسعة من المجتمع المدنى ..

وعندها يسترد الموقف العربى الجزائر، القوة التى لايستهان بها، ويعود للموقف العربى الكثير من قدرته ❑

على هامش
مذكرات سعد زغلول

سعد زغلول

بقلم: د. عاصم الدسوقى



تمتاز مذكرات سعد زغلول التى ينشرها فى أجزاء متتالية مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر بالهيئة العامة للكتاب، ومن تحقيق الدكتور عبد العظيم رمضان بدرجة من الشفافية يندر وجودها فى كثير من المذكرات التى يكتبها السياسيون عادة بعد خروجهم من ساحة العمل السياسى . وتعتبر هذه المذكرات مصدرا لا غنى عنه للباحثين فى تارخ مصر عن الفترة من أكتوبر ١٨٩٧ (تاريخ بداية تدوين سعد زغلول لمذكراته) وحتى ديسمبر ١٩٢٦ (تاريخ توقفه عن التدوين قبل وفاته فى ١٩٢٧) .

لم يخلق الله جماعة بها عوامل الفرقة أكثر من الوفد !!

والوفد فى المنفى

والجزء التاسع من هذه المذكرات الذى صدر أخيراً يتناول فترة دقيقة من تاريخ مصر، وهى الفترة التى تشكل فيها الوفد، واعتقل زعيمه سعد زغلول مع صحبه وإبعادهم إلى مالطة ، ثم الإفراج عنهم وسفرهم إلى باريس لمواصلة السعى لاستقلال مصر حتى بداية التفاوض مع الحكومة البريطانية ، أى فى خلال المدة من ٧ ديسمبر ١٩١٨ وحتى ١٤ فبراير ١٩٢٠ . وقد كتبها بشكل متصل فيما عدا الفترة من ٥ أكتوبر ١٩١٩ إلى ١٧ ديسمبر ١٩١٩ لمرضه ومشاغله وكسله كما يقول ، أو خشية أن يطلع عليها أحد كما يقول أيضاً ، وان كنت أعتقد أن توقفه جاء بسبب حالة اليأس التى كانت تعتريه كلما دب الخلاف بين وجهات نظر أعضاء الوفد . كما انقطع عن الكتابة قبيل اعتقاله ثم نفيه ، ولم يستأنف تسجيل يومياته إلا يوم ٢٦ مارس بعد سبعة عشر يوما من النفى قضاها فى تجميع شتات نفسه وترتيب إعاشته الجديدة حيث بدأ التسجيل يوم ٦ مارس.

وفى هذا الجزء يصف سعد زغلول وصفا دقيقا الأيام الأخيرة التى سبقت اعتقاله ومعه اسماعيل صدقى وحمد الباسل ومحمد محمود، والرحلة من محطة مصر إلى بورسعيد إلى الباخرة كاليدونيا التى أقلتهم إلى مالطة والحياة هناك ، ومجمل علاقاته مع أعضاء الوفد وانطباعاته عنهم ، ولحظات القوة ولحظات اليأس ، وتأملاته وحيدا فى مجريات الحوادث ، وتوقعاته التى خاب معظمها وكان قد أقامها على أسس أخلاقية فى عالم برجماتى لاتعرف فيه المصالح إلا سلاح القوة المادية ، وكيف بلغ منه اليأس مبلغا حتى لقد قال فى لحظة يأس أن مأمورية الوفد انتهت «وعلينا أن نستقبل كل قضاء على أنفسنا بغاية الرضى ،

وسواء أتيحت لنا العودة إلى وطننا العزيز أو لم تتح فقد أعززناه وأعزنا».

كشف المسكوت عنه!

وقيمة هذا الجزء من المذكرات أنه يكشف المسكوت عنه فى ادبيات الوفد وثورة مارس ١٩١٩ ، ويتيح الفرصة للدخول فى أعماق سعد زغلول بكل انفعالاته الوقتية وبكل علاقاته ومواقفه الصريحة وغير الصريحة ، مما يفتح الباب للتخلى عن بعض التعميمات التى لازمت الخطاب الرسمى عن ثورة ١٩١٩ والوفد.

فى المنفى أصبح سعد زغلول أكثر حرصا على اتباع الطرق السلمية والمشروعة لتحقيق استقلال مصر ، التزاما فيما يبدو بصيغة التوكيل ، واتفاقا مع طبيعته المهادنة غير العنيفة . ففى مالطة نراه يتجنب الاختلاط بأسرى الحرب مع الألمان والنمساويين والأتراك خصوم انجلترا ، ولا يفكر فى تقوية موقف الوفد «بالتحالف» مع أعداء انجلترا عملا بالحكمة القائلة «عدو عدوى صديقى». وعندما علم وهو فى محبسه بقلعة بوليفياريستا بأن مصريين فى الحجر الصحى بمالطة ومعهم بعض الألمان والنمساويين قادمون للتظاهر أمام مقر إقامته تأييدا للوفد فى مطالبه ، رفض مقابلتهم قائلاً : «إن ذلك ربما كان فيه ضرر بقضية مصر»!! وقد اتخذ الموقف نفسه مع ابن عم ملك رومانيا الذى كان أسيراً هو الآخر فى قلعة فيروالا بمالطة، إذ أرسل لسعد زغلول خطابا رقيق الحاشية فرد عليه سعد زغلول من باب المجاملة فقط ودون الدخول فى أية موضوعات ، وعقب على ذلك بقوله «ولكننا لا نريد أن تتصل المعرفة بنا». وأكثر من هذا نجد أنه يعرب عن مخاوفه لمجرد أن هذا الأمير خطب فى الرومانيين الأسرى معه وذكر اسم سعد زغلول ورفاقه فى خطابه ، وقال معقبا «فوددت ان لم يكن فعل ذلك». وتكرر الموقف مع أحد الألمان المقيمين فى مصر الذى أرسل لسعد زغلول خطابا يتعاطف معه ، وكان تعليق سعد زغلول «نريد أن نقف عند حد اللياقة لهذه المناسبة ولا نسترسل فيها». وأذكر من هذا كله أنه كان يتشكك فى كل من يحاول الاقتراب منه والتقرب إليه حتى ولو كان مصريا خشية ان يكون جاسوسا للسلطات البريطانية ، وحتى لا تسيىء هذه السلطات فهمه ويظل عند حسن ظنها به.

عدالة القضية

ورغم اعتقال سعد زغلول وصحبه ونفيهم إلى مالطة دون رحمة ودون تقدير لمكانتهم الاجتماعية والسياسية ، فإن الزعيم لم يفكر فى تغيير وسائله فى

النضال ، وظل ثابتا على مبادىء توكيل الأمة له، واعتبار الاستقلال قضية يمكن كسبها بالمرافعة أمام المحافل الدولية ، تماماً كما كان يفعل مصطفى كامل، والمسألة فى نظره لا تتطلب سوى محام قدير يستطيع اقناع القضاء الدولى بعدالة قضيته ، وارسال المذكرات هنا وهناك . ففى باريس يسعى الوفد للعثور على شخصية قانونية أجنبية عارفة بالقانون الدولى وعلاقاته ليكتب مذكرة لصالح القضية المصرية . وانتهى البحث باختيار جوزيف فولك الأمريكى من ولاية ميسور مستشارا قضائيا للوفد المصرى!! والحقيقة أن هذه الرؤية القانونية للقضية الوطنية كانت تسيطر على كل من مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول قبل نفيه ، اذ نرى سعد زغلول يسعى للحصول على تأييد المجتمع الدولى لقضية بلاده ، ففى ٣٠ يناير ١٩١٩ يرسل مذكرة بموضوع الاستقلال لكل قناصل دول الولايات المتحدة وبلچيكا وأسبانيا وفرنسا وروسيا واليونان وايطاليا وهولندا وإيران . وهذا الاسلوب يتفق تماماً مع صيغة التوكيل المسالمة.

ومن فرط ايمان سعد زغلول بالطرق السلمية المشروعة والتزامه بها ، وهى طرق قانونية فى التحليل الأخير لايعرف العنف لها سبيلا ، نراه لايرحب بحوادث العنف التى وقعت فى مصر من حيث الهجوم على رموز السلطات البريطانية ، وعلى كل ما هو حكومى، وغير ذلك من وقائع حدثت بتأثير عبد الرحمن فهمى رئيس الجهاز السرى فى الثورة وسكرتير اللجنة المركزية للوفد بالقاهرة . ويتأكد من المذكرات ان عبد الرحمن فهمى كان يتصرف فى تحريك الجماهير دون الرجوع إلى سعد زغلول . وبمعنى آخر أن عبد الرحمن فهمى أدرك أنه لا ثورة دون عنف يقوى من شأن قادتها أمام خصومها ، على حين آمن سعد زغلول بالطريق القانونى وكأنه يترافع لتبرئة ساحة مظلوم من جلاديه . ولكن .. هل يمكن أن يتجاوز الانسان طبيعته التى فطر عليها بسهولة مهما فرضت عليه الحوادث أن يتصرف ضدها؟!..

محبة الاستقلال

لقد كتب سعد زغلول فى مذكراته يعلق على ما ترامى إلى سمعه من حوادث العنف «إن هذه السياسة أمقتها ولا ادعو إلا إلى الشيء المشروع فقط، وكل ما أطلب ان يتحد الناس على محبة الاستقلال ويظهروا هذه المحبة عند كل فرصة بطريقة سلمية»، ثم يحذر قائلاً «واعلم أن طريقة الإرهاب إذا نفعت مرة فإنها تضر مرات ، وإذا كانت اليوم لك فانها تنقلب عليك غدا ، لذلك يجب التحذير

منها والبعد عنها».

لم يكن سعد زغلول يتوقع بعد اعتقاله أن تخرج الجماهير للاعراب عن مشاعر الغضب تجاه الانجليز، وأن يأخذ هذا الغضب صورة الاضراب والعنف، إذ كان يرى فيما يبدو من ظاهر تعليقه على الحوادث أن مثل هذا السلوك من شأنه التأثير سلبيا على مسيرة الوفد، والاساءة لسمعته لدى المحافل الدولية، ولدى السلطات البريطانية على وجه الخصوص.. وهل هناك محام نقل قضية موكله إلى الشارع !! لقد ظل سعد زغلول يعتقد جازما ان الطريق للاستقلال يمر من خلال كتابة المذكرات، وعبر التنقل من غرفة إلى أخرى، ومن هيئة إلى غيرها دون أن تسهم الجماهير بنصيب فى تحقيق مصيرها. وكان سعد فى هذا شأن النخبة المصرية آنذاك التى لم تكن تؤمن بقدرة الجماهير على العمل السياسى .. وهل يمكن أن ننسى فى هذا الخصوص قولة عبد العزيز فهمى عضو الوفد للطلاب الذين تجمهروا أمام بيت الأمة فى اليوم التالى لاعتقال سعد «عودوا إلى مدارسكم ودعونا نعمل فى هدوء..».

ورغم هذا الموقف المتحفظ لسعد زغلول تجاه المظاهرات خشية نتائجها السلبية على سياسة الانجليز، فإنه لم يستطع أن ينكر ارتياحه لها، فيقول عن المظاهرات انها «ملأت قلوبنا سرورا وابتهاجاً حتى كادت تحبب السجن إلينا، وهانت نفوسنا علينا نفدى بها هذه البلاد». ولم يأسف إلاّ على الأرواح التى أزهقت والدماء التى أريقت. ولما جاءته أنباء جمهورية زفتى عقب فى دهشة .. «هل تبدلت الأمة المصرية فى هذه البرهة الوجيزة التى مضت من وقت سفرنا من البلاد». وسعد زغلول فى هذا الموقف لم يختلف عن محمد فريد الذى أدهشته أنباء مظاهرات مارس ١٩١٩ وقال فى مذكراته «من الأمور التى كانت غير منتظرة ماحصل بمصر فى شهرى مارس وابريل وهو قيام ثورة عامة اشتركت فيها الأمة بجميع طبقاتها..».

ولاشك فى ان هذا الموقف المفاجىء من الجماهير المصرية الذى لم يكن يدور بخلد النخبة القائدة كان له تأثيره على شخصية سعد زغلول، فنراه يبدأ فى تقبل اسلوب العنف ويعتمد على استمراره فى مرحلة تالية. وتتغير لهجته فى المذكرات فيما يتعلق بهذه النقطة حيث ينتهى إلى أنه لا مجد دون ضحايا فيقول «ولكن أى مجد قام بغير هذه الضحايا، وأى أمة بلغت مناها بغير أن يخاطر ابناؤها باعز ما لديهم». كما ينتهى إلى أن الذين يتعرضون للأمور العامة «ليس

لهم أن يتذكروا فى أمورهم الخاصة وإلا كانوا مخادعين لأنفسهم ولأجل بلادهم».

حمق الساسة الانجليز

ولكنه وفى بعض اللحظات عندما كان يختلى بنفسه وهو رهين الاعتقال نراه يأسى مرة أخرى على جريان الأمور فى غير المجرى الذى أراده لها ، ويعرب عن إيمانه بأن السبب فى اندلاع العنف يعود إلى حمق الساسة الانجليز الذين منعوه من السفر إلى باريس حيث مؤتمر الصلح، فيقول ان ماحدث فى مصر بعد نفيه «لايرجع إلى مهارتنا ولكنه يرجع فى الحقيقة إلى سوء السياسة الانجليزية فى مصر ، إذ أنها لو تركتنا نسافر لما حصل شيء مما حصل .. ولكن الله أضلهم فأحبط أعمالهم وعكس القضية عليهم وعرف العالم كله بسوء السياسة الانجليزية».

وتدريجيا بدأ سعد زغلول يدرك أن المسألة المصرية ضحية تشابك المصالح الدولية وهى نتيجة كان يرفض تصديقها والعمل على أساسها ، وان الوفد لايملك من أوراق هذه اللعبة سوى مبادىء الاخلاق . وامام فيض المعلومات التى كانت تتسرب من مؤتمر الصلح فى فرساى (باريس) ، انتهى فى يوم ٨ ابريل ١٩١٩ إلى أن المؤتمر لن يعلن استقلال مصر ، لأن انجلترا لايمكن أن تسلم بخسارتها ، فضلا عن ان الدول الأخرى الأعضاء فى المؤتمر لها مستعمرات تريد الحفاظ عليها هى الأخرى ، وبالتالى لايمكن أن تقف ضد انجلترا من أجل مصر . كما لاحظ أيضاً «ضعف صوت ويلسون (الرئيس الأمريكى) الذى كان يعتمد على أقواله ويعده «نبى زمانه» ، بل لقد اتهمه قومه الأمريكيون بأنه يمالىء الانجليز ويحابيهم».

انتصار الحق

ولما تقرر السماح للوفد بالسفر من مالطة إلى باريس والسماح لمن يرغب من المصريين بمصر بالخروج من البلاد اعتقد سعد زغلول (فى ١١ ابريل) ان هذا يعد «أول انتصار للحق على القوة وأول ثمرة من ثمرات اتحاد الأمة على إباء الضيم». ويسترسل فى أحلام الذهاب إلى باريس لعرض قضية بلاده امام المحفل الدولى، وسرعان مايتراجع عن أفكاره السابقة المتشائمة بخصوص تأثير تشابك المصالح الدولية على مصير مستقبل مصر، ويرفض ما قال به فيظى حسن وهو من أصول تركية، من ان الافراج يعنى ان الانجليز «لابد وأن يكونوا انتهوا من أمر مصر» ، أى الاعتراف بالحماية على مصر. ولم يستطع سعد زغلول المغرق فى مثاليته وفى الايمان بمبادىء الاخلاق فى السياسة أن يربط بين خبر مغادرة ويلسون لباريس

عائداً لبلاده وتحليل فيظى التركى ، ومضمون برقيات وكالات الأنباء التى أعلنت أن عودة ويلسون إلى أمريكا جاءت بسبب اصراره على تنفيذ جميع مبادئه وإلا انسحب من المؤتمر .. رفض سعد زغلول كل هذا وقال إن عودة ويلسون لابد وأن تكون بسبب «مسائل فى بلاده تستدعى عودته». ولم يسمح لنفسه بأن يتقصى كنه هذه المسائل ، وما إذا كانت تستدعى عودة ويلسون إلى بلاده أم لاتستدعى .. كل ذلك حتى لايسمح لأى احتمال آخر بأن يخترق تصوره الثابت الذى أقامه فى هذا الموضوع ، ولم يجد سوى التعلل «بأن الله هو المدبر لشئونها وليس فوق تدبيره تدبير وما لمن عوده الله الخير بالاتكال عليه ، ان يعمل فكره إلا فى اجتناب الفواحش ما ظهر منها وما بطن».

ولقد ظل سعد زغلول يأبى بينه وبين نفسه أن يصدق ان المجتمع الدولى قد تخلى عن التمسك بالأخلاق فى الأمور السياسية ، وظل يمنى نفسه بانتصار الأخلاق على السياسة والحق على القوة . ولكن وفى ديسمبر ١٩١٩ وبعد تسعة أشهر من انعقاد مؤتمر الصلح دون صدور مايثلج صدر سعد زغلول ، لم يكن أمامه سوى تصديق التحول فى الموقف الدولى ، وأن الحماية البريطانية على مصر قائمة ذلك «ان جميع الدول حتى أمريكا نفضت يدها من هذا القطر».

وفى هذه اللحظة يدرك سعد زغلول خطورة الاعتماد على المبادىء المثالية وحدها فى تحقيق أمنيات الشعوب ، وان الحق المجرد من القوة لا يغنى صاحبه شيئاً ، ولا يجد من سبيل للمقاومة والمواجهة سوى الاستمرار فى مقاومة الشعب المصرى حتى ولو فى صور سلبية «كإغلاق الحوانيت والاعتصاب عن العمل والتوقف عن دفع الضرائب».

وفى محاولته لتفسير أسباب العجز عن مواجهة الانجليز ، والعجز عن استمالة حكومات الدول لصف القضية المصرية ، لم يجد سوى الانقسام بين صفوف الوفد ، وانعدام الثقة فيما بينهم ، واختلاف وجهات نظر كل عضو عن الآخر ، وافتقار الجميع لأصول الحوار فى الاجتماعات «وللذوق السياسى» . بل لقد انتهى سعد إلى القول «ان الله لم يخلق هيئة اشتملت على عوامل التفريق أكثر من هيئة الوفد ، ولا مجموعا أفراده شتى أكثر من مجموعة الوفد».

المرارة من الشقاق !

ومنذ فترة مبكرة (٢ ابريل ١٩١٩) أدرك سعد زغلول وهو فى المنفى اتجاه السياسة الانجليزية لاختراق صفوف الحركة الوطنية، واضعاف مقاومة الوفد وذلك باستقطاب عناصر موالية . ولا يبعد ان هذا الشقاق الذى عانى منه سعد

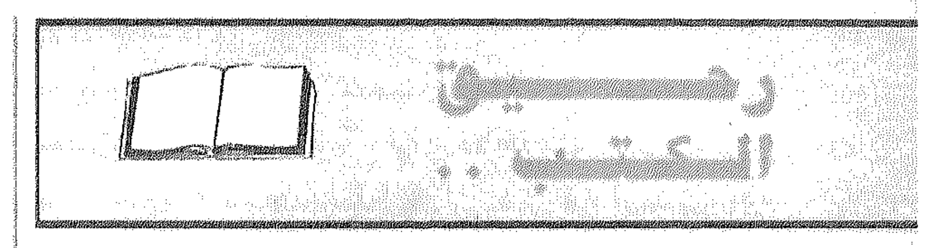
زغلول كان أحد هذه البوادر بحثا عن العناصر المنشودة . وقد تأكد لسعد زغلول ان انجلترا قد وقع اختيارها على حسين رشدى وعدلى يكن للقيام بهذا الدور كما فهم من سياق مقال نشر بصحيفة التايمز بقلم أحد المحللين الانجليز.

وعندما قررت بريطانيا التفاوض مباشرة مع حكومة دستورية وليس مع وفد شعبى، أدرك سعد زغلول حقيقة موقف السياسة البريطانية من الثورات الشعبية ، واسقط فى يده ولم يجد مفرا من قبول ما قررته الحكومة البريطانية . ولكن وحرصا منه على الا يعزل الوفد من المفاوضات فى قضية كان هو بطلها ومفجرها ، أبرق إلى عدلى يكن بتشكيل هيئة للمفاوضة تشتمل على اعضاء من الوفد بجانب الاعضاء الحكوميين . على أن سعد زغلول أبدى تخوفه من إقدام بريطانيا على المفاوضة ، ورأى ان المفاوضات من شأنها أن تخرج الحكومة البريطانية من المأزق، و «تتمكن بذلك من شطر الأمة» ، وأما استمرار المقاطعة فانه يضطر الانجليز إلى التسليم باستقلال مصر .

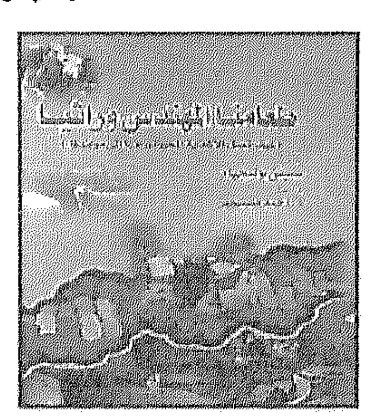
وتحفل المذكرات عن هذه الفترة بالمرارة من الشقاق بين صفوف الوفد، والحساسية المفرطة بين أعضائه بحيث لم يعد يحتمل أحد كلمة عارضة من أحد . ويبدو واضحا من ثنايا السطور ومن ردود أفعال سعد زغلول ان هناك من كان ينكر عليه الزعامة، وينبهه إلى أن الزعامة لاتعنى الانفراد بالأمر ، وانما تعنى الانصياع لرأى الأغلبية . ومن ذلك ان سعد زغلول كان يفكر فى السفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، إلا أن لطفى السيد ومحمد محمود لم يستحسنا سفره، وقال لطفى السيد «إنه ليس لك أن تخالف رأى الجماعة وان المركز الذى وصلت إليه كان نتيجة التفافنا حولك وعملنا معك فلا ينبغى أن تتصرف بغير رضانا .. والنبى نفسه لم يسعه أن يخالف أصحابه».

ولقد شعر سعد زغلول ان الجميع واقفون ضده بدرجة أو بأخرى ، فنراه ينتقد بشدة تصرفات كل من عبد اللطيف المكباتى وعبد العزيز فهمى ولطفى السيد وحمد الباسل واسماعيل صدقى ومحمد محمود الذى كان أصرح الجميع فى الخلاف مع سعد والاستهانة به، ولقد أبدى سعد زغلول استياءه من محمد محمود من أول يوم وصلوا فيه المعتقل فى مالطة حين كان محمد محمود يتكلم مباشرة مع الضابط الانجليزى فى أمور تخصهم دون الرجوع الي أحد ، حتي لا يبدو مترجما ويبدو زعيما للجماعة امام الضابط ..

وهكذا تنطوى صفحة من جهاد الوفد فى المنفى بين مالطة وباريس ونتطلع إلى الأجزاء التالية من المذكرات حتى تكتمل أمامنا صورة الوفد حتى وفاة زعيمه سعد زغلول.



طعامنا المهندس وراثيا
تأليف : ستيفر نوتنجهام
ترجمة
د. أحمد مستجير



الطعام لكل فم

تعيش الانسانية فى عصرنا هذا أكثر من ثورة، اذكر من بينها ثورتين أثرتا على عالمنا وحياتنا، على نحو يبيح لنا أن نقول أنهما بمثابة بعدين جديدين يضافا إلى غيرهما من الأبعاد التى تميز عصرنا.

وهاتان الثورتان هما:
ثورة الوسائط المعلوماتية (الانفوميديا) وثورة الهندسة الوراثية.

وإذا كانت الثورة الأولى قد أوتينا بعض العلم بها بفضل بضعة كتب، معظمها مترجم إلى لغة الضاد فالثورة الثانية، على النقيض من ذلك، نكاد نجهل ماهيتها جهلا تاما.

ومن هنا، أهمية كتاب «طعامنا المهندس وراثيا - كيف تصل الأغذية المحّورة وراثيا إلى موائدنا»، ذلك الكتاب الذى قام بترجمته العالم الجليل الدكتور أحمد مستجير، عن مؤلف بالانجليزية، نشره صاحبه ستيفن نوتنجهام، تحت اسم «قم بأكل مورثاتك».

فسدّ بذلك نقصا فى المعلومات بالنسبة إلى ثورة كبرى لم يتنبه إليها أحد تقريبا، بما تستحق من عناية اهتمام فالآن، فى وسعنا، من خلال قراءته أن نفهم ماهى الهندسة الوراثية، وماهى استخداماتها فى الانتاج الزراعى، وما قد يسببه ذلك من رخاء وشقاء فى آن معا.

وأن نعرف القضايا الأخلاقية التى قد تثيرها الأغذية المحوّرة وراثيا.

ومن بينها على سبيل التمثيل، قضية نقل المورثات (الچينات) من حيوانات تحرم بعض الأديان أكل لحومها (مثل الخنزير) إلى حيوانات أكلها حلال.

والكتاب، فضلا عن ذلك، يسلط الضوء على قضايا أخرى، مثل تلك التى أثارها، ولايزال يثيرها، تسجيل براءات حقوق ملكية الفتوحات البحثية فى مجال الهندسة الوراثية، بين الشركات المتعددة الجنسية، ذات النفوذ والصولجان.

ولا غرابة فى أن يثير تسجيل تلك البراءات لدد الخصومة بين ذلك النوع المهيمن من الشركات.

إذا كان حجم السوق المحتمل للمنتجات المرتبطة بالبيو تكنولوجيا داخل الاتحاد الاوروبى، قد جرى تقديره عام ألفين بمائتين وسبعة وثمانين بليون دولار.

وكان قطاع الزراعة والغذاء يشكل نصيبه من

هذا النمو حوالى سبعين فى المائة.

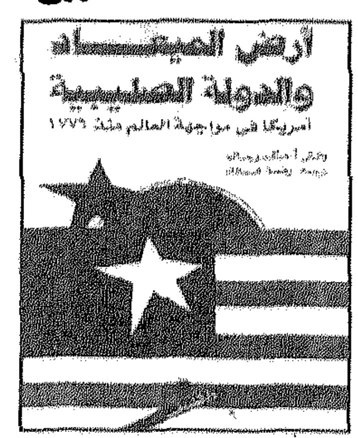
وكانت مبيعات الكثير من تلك الشركات يعادل الدخل القومى الكلى للدول النامية التى تمارس نشاطها أو ستمارسه فيها، بحكم هيمنتها التى تزداد على مر الأعوام.

وختاما، فالذى يستشف من الكتاب أنه، ورغم كل المخاطر، فالأغذية المحورة وراثيا ستوفر الطعام لكل فم فى مستقبل قريب.

مصطفى درويش

أرض الميعاد والدولة الصليبية، أمريكا في مواجهة العالم منذ ١٧٧٦.

تأليف: والتر أ. مكدوجال . ترجمة: رضا هلال، ٢٠٠٠، دار الشروق،



قد يجد القارىء العربى عنوان هذا الكتاب مغرراً له بالشراء بفهم خاطىء قد يتبادر إلى الذهن عن مدلول «أرض الميعاد» و«الدولة الصليبية»، فلا «أرض الميعاد» المعنية فى هذا العنوان هى الدعوى الصهيونية التى أدت إلى اغتصاب فلسطين، ولا «الدولة الصليبية»، فيه، مقصود بها «الإدانة» للدور الصليبى «بوقعه السيىء» الذى تقوم به أمريكا مجدداً فى العالم. يقول المترجم الأستاذ رضا هلال فى سطوره الأولى من مقدمته تفسيراً لعنوان الكتاب: «عندما وصل المهاجرون الأوائل من إنجلترا إلى العالم الجديد، اعتبروا أمريكا هى «أورشليم الجديدة أو كنعان الجديدة، وشبهوا أنفسهم بالعبرانيين القدماء حين فروا من ظلم فرعون (الملك الإنجليزى جيمس الأول) وهربوا من أرض مصر (إنجلترا)، بحثا عن أرض الميعاد (الجديدة)... وعندما وصلت المجموعة الثانية من المستوطنين إلى شاطىء نيو إنجلند على ظهر السفينة (ماى فلاور) عام ١٦٢٠، وقعوا فيما بينهم (عهد ماى فلاور) الذى حددوا فيه طريقة الحياة التى يرغبونها وأسس المجتمع المثالى فى.. إسرائيل الجديدة (أمريكا)... » ويستمر المترجم فى توضيح هذا العنوان المخاتل للقارىء العربى فيقول: «وكما هو واضح من عنوان الكتاب... يلجأ المؤلف إلى الإستعارة الدينية، فتعبير أرض الميعاد مستعار من العهد القديم اليهودى، وتعبير الدولة الصليبية قصد به الإشارة إلى العهد الجديد وإلى الصليب كرمز للتبشير والتضحية من أجل خلاص البشرية. ومن ثم ... فتعكس تصور الأمريكيين عن أنفسهم وسلوك أمريكا فى الشئون العالمية خلال القرن العشرين، من منطلق أن أمريكا لها رسالة لخلاص البشرية، رسالة لنشر الحرية والتقدم..»



وحيث أن المؤلف ماكدوجال أستاذ التاريخ والعلاقات الدولية وزميل فى معهد بحوث السياسة الخارجية، فقد تمعن وتأمل من خلال محاضراته لطلابه بجامعة بنسلفانيا فى كثير من الأساطير التى رآها تحجب المعانى الحقيقية للمبادىء الأمريكية الأساسية التى يحب - كما قال فى مقدمته أن يسبق مصطلحاتها بلفظه «ما يسمى» - كنوع من الحذر العلمى - فعناوينه لفصول كتابه - المشتمل على جزءين - كالتالى. الجزء الأول: عهدنا القديم، ١ - الحرية (أو المسماه) الاستثنائية، ٢ - الأحادية (أو المسماه) الانعزالية.

٣- - النظام الأمريكى (أو ما يسمى) مبدأ مونرو، ٤ - التوسعية (أو المسماه) المصير المبين.

- الجزء الثانى: عهدنا الجديد، ٥ - الإمبرالية التقدمية، ٦ - مبدأ ويلسون (المسمى) العالمية الليبرالية، ٧ - الاحتواء، ٨ - نحسين العالم، الخاتمة - البهجة الحاضرة.

ويقول المؤلف أنه كان يظن أن تجميع محاضراته التى ألقاها على طلابه كان ممكنا لإبراز وجهة نظره وتحليلاته فى أحداث القرن ١٩ والقرن ٢٠ ولكنه أنقذ نفسه بوضع تلك المحاضرات على الرف لينساها ويبدأ مشروعه البحثى التاريخى ليبين - بعد التمعن والتركيز - المفارقة الهائلة بين السياسة الخارجية الأمريكية فى القرن ١٩ والتى كانت على أساس - (ما أسماه) - العهد القديم وأرض الميعاد، والسياسة الأمريكية الخارجية فى القرن العشرين والتى قامت على - (ما أسماه) - العهد الجديد والدولة الصليبية (بالمعنى الإيجابى للكلمة من منظور أصحابها). ولأن المؤلف - كما نؤيد المترجم فى ذلك - له أسلوب شيق أدبى يتميز بخفة الظل والاعتماد على التهكم لتمرير الكثير من الصراحة التى قد تثير حساسية بعض قرائه الأمريكيين، فإننا كقراء عرب قد نحتار أحيانا فى مزج الجد بالمزاح، أيهما الجد وأيهما المزاح وهل هو شخصيا داخل أم خارج مناطق سخريته وتهكمه فى مقولات مثل: «الواجب الرسولى الآن أكثر صعوبة، ببساطة: أى تقاليد أمريكية يجب علينا أن نعيد تأكيدها...» ومثل «... الريبة فى الثورات بالرغم من تراثنا الثورى..» ومثل كلامه وهو يخاطب قارئه الأمريكى: «دائما هذه اللعنة التى تزدرى بها أعينكم كل من يهدد أو يقاوم، أو حتى لا يلهج بالامتنان لنا، هى سمة أخرى لها مكانة، عند تقدير الإتجاهات التى شكلت علاقاتنا الخارجية.

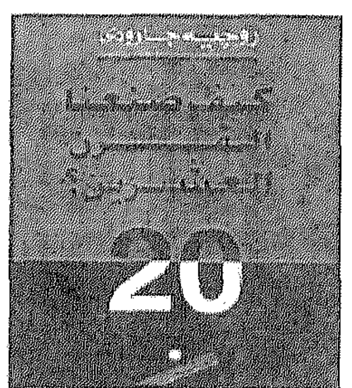
والازدراء الجميل الذى يرى به الأمريكيون الأجانب - كل ذلك يتضافر لإقناعى بتأليف قائمة جديدة للتقاليد الدبلوماسية الأمريكية تتأسس وفق المعيار التالى: إن أى مبدأ أو إستراتيجية، ليتأهل كتقليد أصيل، يجب أن يحوز دعم الحزبين وأن يعمر بأبعد من المدى الذى ولد فيه، ويدخل المعجم

الدائم لخطابنا القـومى، ويكون له صداه عند عامة الأمريكيين حتى فى الفترات التى لم يلهم فيها السياسة».

إن قراءة هذا الكتاب شيقة لمن يحب أن يستمع إلى المشاحنات الودية بين أعضاء أسرة قررت إعادة تنسيق بيتها ليتواءم مع دخلها الجديد ومركزها الجديد فى مهمة رئاسية، وهى كذلك مهمة لمن يريد أن يتأكد لماذا كان عليه أن يكره هذه الأسرة منذ زمن بعيد..

صافي ناز كاظم

كيف صنعنا القرن العشرين ؟
تأليف: روجيه جارودى



«بدأت أستشف أخيراً أسباب اضمحلال الغرب، وإمكانات وجود أساليب حياة مختلفة تقدمها الدول غير الغربية، التى لم تتوقف عن التطور العرقى الأصلى منذ خمسة قرون».

العبارة كتبها روجيه جارودى فى كتابه الأخير «كيف صنعنا القرن العشرين؟» والذى صدرت ترجمته العربية قبل أيام..

يذهب جارودى أن المستقبل بدأ من آسيا فى يوم ٧ مايو ١٩٩٦، وتحديدا من بكين، حيث اجتمعت ٣٤ دولة من أجل الاشتراك فى إعادة «طريق الحرير»، طريق القرن الحادى والعشرين والذى ربط طوال ١٤ قرنا الشرق بالغرب، وبإفريقيا، ليس فقط من خلال التبادل التجارى ولكن أيضا بالإثراء المتبادل للثقافات والعلوم والروحانيات. وسوف يتيح هذا الطريق وحدة الجزيرة الكبرى الآسيوية الأوروبية مع الوسائل العلمية والتكنيكية بالاضافة إلى شبكة كبيرة من الطرق والقنوات التى تسمح بالرى لتحويل صحارى وسط آسيا إلى مواطن للحياة وبناء مولدات كهرباء وخطوط أنابيب غاز وبترول واتصالات وبناء المدن على مدى ٢٠٠ كيلو متر إنه ليس حلما ولا هو مشروع خيالى لأن التطبيق بدأ بالفعل.

باختصار يحقق هذا الطريق ربط أوروبا بآسيا، وأفريقيا أيضا، باعتبار أن أفريقيا وآسيا ملتحمتان بشكل طبيعى، ولم يفصلهما سوى قناة السويس فى القرن التاسع عشر.

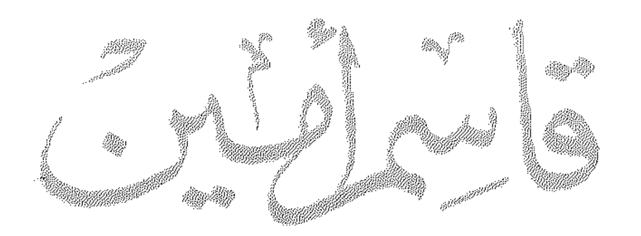
هذا الطريق بوتقة لبناء «وحدة إنسانية» تواجه «عولمة السوق» التى تعبر عن الطموحات الامبريالية للهيمنة على العالم.

روح جديدة تماما تبدأ من طريق الحرير، ودورة حضارية جديدة تنهى كل محاولة لهيمنة شعب مختار على الشعوب الأخرى، أو شعب متحضر على الهمجيين والبدائيين وبعد حضارات الدلتا من النيل إلى النهر الأصفر، وحضارة البحر المتوسط ثم حضارة الأطلنطى، فإننا اليوم بصدد جغرافية سياسية ليس للهيمنة ولكن للتحرر من خلال تفتح الأزهار فى الكون كله حتى صحاريه، فى عالم صار كيانا واحدا بدون ادعاءات لرأى فرد بالهيمنة عليه أو استغلاله.

حلمى النمنم

المرأة بين محمد عبده وقاسم أمين

قراءة في الأعمال الكاملة لـ :

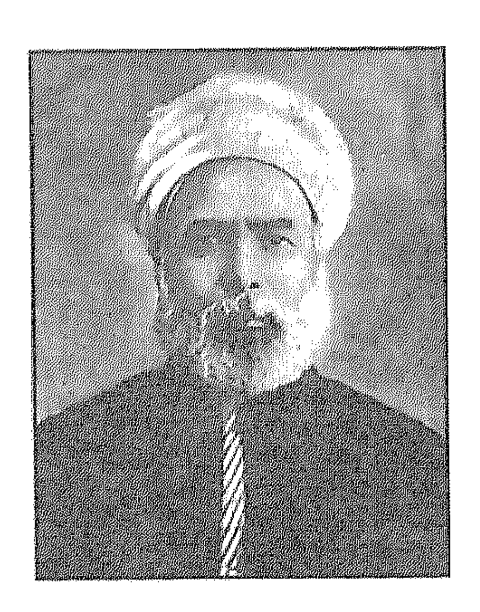


بقلم :صافى ناز كاظم

فى عام ١٩٨٠ كانت هناك حملة مكثفة للهجوم على ظاهرة عودة المرأة المصرية المسلمة الى الالتزام بالزى الشرعى الذى حددته العقيدة الاسلامية لها - وهو فى حده الأدنى الزى الذى لايظهر منه سوى الوجه والكفين. كانت الحملة شديدة وجارحة ومليئة بالمغالطات أو عدم الفهم بسبب أقلام لأقوام لم يراجعوا كتابهم «القرآن الكريم» منذ وقت طويل، فطال عليهم الأمد وأصبحوا مسلمين بشكل غائم، فاستقطبتهم أفكار غير إسلامية تطرفوا فى الانجذاب اليها فتبلبل وجدانهم الإسلامى وأصيبوا بالتطرف خارج الإسلام والعياذ بالله. فى ذلك الوقت كنت ممنوعة من النشر، لكننى لم أكف عن الكتابة، فبدأت فى كتابة ردود على تلك الحملة - التى رأيتها جائرة - تحت عنوان «فى مسألة السفور والحجاب».



قاسم أمين





محمد عبده

وكنت أفهم أن مصطلح «سفور» و«حجاب» لا يعنيان المعنى الذى تداول فى تلك الحملة، فمعنى «سفور» هو كشف الوجه فقط ومعنى «حجاب» هو الإسدال الكامل لبدن المرأة - أى ستر الوجه ضمنا - وكانت حملة «السفور» فى مطلع القرن العشرين لا تعنى «ضرب» الالتزام بالزى الشرعى الإسلامى، بقدر ما كانت تعنى «تصويب» صورة هذا الالتزام المطلوب شرعا. ولذلك فكل أدبيات معركة «السفور» و«الحجاب» كانت لا تمس الأمر القرآنى بالزام المسلمة باظهار الوجه والكفين فقط مع ستر سائر بدنها. لكن كلمة «السفور» تبدلت بغياب الوعى لتعنى الأحقية فى ارتداء العارى حتى لباس البحر المسمى بالبكينى. وأصبحت كلمة «محجبة» تطلق على كل من ارتدت غطاء الشعر ولو مع «الجينز» اللاصق. واخترعوا كلمة «منقبة» لتعنى التى تحجب وجهها. على أرضية هذا اللبس، المقصود وغير المقصود، دارت أدبيات الهجمة الشرسة على الزى الشرعى للمرأة المسلمة، وزعق كل زاعق بكلمتى «سفور» و«حجاب» بعيدا عن الدلالة الحقيقية لهاتين الكلمتين. حاولت فى ردودى ١٩٨٠ أن أنبه إلى ذلك الإلتباس، كما حاولت أن أدون مراقبتى لما دار فى إيران عام ١٩٢٥ عندما أجبر مؤسس الأسرة البهلوية الصول رضا خان - والد شاه ايران السابق محمد رضا بهلوى - كل امرأة إيرانية على نزع زيها الإسلامى بالقهر والغصب، وكذلك فعل مصطفى كمال أتاتورك فى تركيا عام ١٩٢٥ - نفسها - عندما أجبر تركيا بأكملها أن تهجر قوانين الإسلام مظهريا

وفعليا.

وانغمست فى قراءة «الأعمال الكاملة» لقاسم أمين فى نسختها الصادرة سنة ١٩٧٦ تحقيق د. محمد عمارة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر - (تمت سرقة هذه النسخة من مكتبتى وعليها تعليقاتى فى الهوامش مع نسخة الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى، تحقيق د. عمارة كذلك، وقد استطعت شراء بديل للأعمال الكاملة لقاسم أمين طبعة دار الشروق، أما أعمال الأفغانى فمازلت أبحث عنها) - حصيلة هذه الردود تجمعت لدى، بعد أن تمكنت من نشر بعضها بمجلة «المختار الاسلامى» نهاية ١٩٨٠ ، ورأيت أنه من المصلحة نشرها ككراسة صغيرة لم تتعد ٤٨ صفحة . لم يلب ناشر طلبى فى نشرها بلا مقابل، حتى قادتنى أقدامى لمكتبة الحاج حسن وهبة بشارع الجمهورية بعابدين. كان الحاج وهبة طيبا فى لقائى من دون سابق معرفة. رغب فى إمهاله يوما لقراءة الكراسة ثم سألنى بعدها : ماهى طلباتك؟. قلت : لاشىء سوى أن تتكفل بطبعها ونشرها وتوزيعها على نفقة المكتبة. وتم ذلك. كانت الكراسة تتضمن فصلا عن «قاسم أمين» يحتوى رأيى فى كتابته وأسلوبه واكتشافى أنه لم يكن مشغولا أبدا بتحرير المرأة ولكن قضيته الأساسية كانت الدعوة الى : «محاكاة أوربا». صدرت الكراسة فى طبعتها الأولى عن مكتبة وهبة مطلع عام ١٩٨١ - فى عصر الرئيس الراحل أنور السادات - ثم توالت طبعاتها حتى ١٩٩٥. كان الحاج وهبة كريما معى فلم يتقاض منى مليما واحدا عن أى عدد من النسخ التى قمت بسحبها من مكتبته - (كانت الكراسة تباع فى طبعتها الأولى بثلاثين قرشا فقط لا غير) - وكنت أعطيها مجانا للأصدقاء والأعداء والقراء والكتاب. ويبدو أن بحثى فى كتابة قاسم أمين قد أعجب البعض فصار ينقله نقلا منسوبا لنفسه من دون أى اشارة الى كراستى كمصدر منقول عنه. وكانت هذه التصرفات تدهشنى خاصة عندما تصدر عن مؤيدين لوجهة نظرى، أى من الغيورين على مبادىء الإسلام وقوانينه وقيمه .

* * *

بمراجعتى الآن لكراستى «فى مسألة السفور والحجاب» بدت لى اللغة منطلقة كالرصاص، وكانت هذه اللغة بصياغاتها واختياراتى لالفاظها العنيفة تعبر عن مدى الغيظ الذى كان يسيطر علىّ من تلك الحملة التى كانت تحط من قدر الالتزام والملتزمات بالزى الشرعى، وكنت أهتدى بقول الرسول عليه الصلاة والسلام لمن

أبدى القوة والشموخ فى مواجهة الأعداء : «هذه مشية يحبها الله ورسوله».

كنت أرد العدوان الظالم : أخمش من يخمش وأجرح من يجرح وأصد اللكمات والركلات بمثلها . بعد عشرين سنة من المعركة ـ التى لم تنته ـ لم يتغير موقفى ولا رأيى وإن أحببت أن تهدأ لهجتى و«تتكلف» لغتى الرفض «الوقور» لقاسم أمين – (١٨٦٣ – ١٩٠٨) – بصفته ممن أسهموا بجدارة فى إلتواء النهضة المصرية – منذ نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين – عن أتبعاثها العربى الإسلامى «الإبداعى» لتكون نهضة ثقافية إجتماعية «محاكية» مستهلكة لإنتاج مصانع الفكر الغربى ونافذة عرض دعائى له : يدعو بحماس – مترقرقا بالدموع – لتقليد رجال الغرب ونسائه ونظام معيشته فيقول فى كتابه «المرأة الجديدة » الذى ألفه فى أغسطس ١٩٠٠ : «نحن لا نستغرب أن المدنية الإسلامية أخطأت فى فهم المرأة وتقدير شأنها ، فليس خطؤها فى ذلك أكبر من خطئها فى كثير من الأمور الأخرى .....» حتى يصل بقوله إلى : « ... والذى أراه أن تمسكنا بالماضى إلى هذا الحد من الأهواء التى يجب أن ننهض جميعا لمحاربتها ، لأنه ميل إلى التدنى والتقهقر ... هذا هو الداء الذى يلزم أن نبادر إلى علاجه ، وليس من دواء إلا أننا نربى أولادنا على أن يعرفوا شئون المدنية الغربية ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها ....»

– (يعنى لا بأس بماضى الغرب الذى يجب أن نعرف أصوله أما أصولنا العربية الإسلامية فهى من الأهواء التى يجب محاربتها ... الخ) – ويكون حلمه : « ... إذا أتى هذا الحين ، ونرجو أن لا يكون بعيدا ، انجلت الحقيقة أمام عيوننا ساطعة سطوع الشمس ، وعرفنا قيمة التمدن الغربى ...» – أنظر ، قاسم أمين، الأعمال الكاملة ، تحقيق د. محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر سنه ١٩٧٦ ، ج ٢ ص ٢٠٩ .

***

كانت ملك حفنى ناصف (١٨٨٦ – ١٩١٨) من المعاصرات لقاسم أمين والرافضات لفكره الذى تشير إليه بقولها «الدعوة القاسمية »، لأن ملك حفنى ناصف كانت من رائدات تحرير المرأة المصرية من أرضيتها العقائدية الإسلامية وثقافتها العربية ، ولعلها كانت من الأوائل الذين روعهم المزج الماكر الذى ربط تحرير المرأة المصرية المسلمة بضرورة تخليها عن أصول عقيدتها وتراثها .

***

الأعمال الكاملة لقاسم أمين – فى النسخة التى أشرت إليها من قبل – تحتوى على جزءين ، يضم الجزء الأول منها : كتاب «كلمات» ، مقالات «أسباب ونتائج » ، مقالات «أخلاق ومواعظ » ، كتاب «المصريون» مترجما رد على «دوق

داركور » ، كتبه قاسم أمين عام ١٨٩٤ بالفرنسية ، خطاب «إنشاء الجامعة »، خطاب «الإمام محمد عبده أخلاقه وفضائله وإمامته » . ويضم الجزء الثانى كتابيه : «تحرير المرأة – صدر ١٨٩٩ –، و«المرأة الجديدة » – صدر ١٩٠٠ .

قراءة الأعمال الكاملة لقاسم أمين – فى وجبة واحدة – لا تترك المجال للتردد فى الحسم بأن كل ما كان يعنى قاسم أمين ليس سوى «التغريب » : الدعوة السافرة لإتباع الغرب فى كل أحواله بعيداً عن الإسلام ومدنيته ، فيقول فى كتابه «المصريون» وهو بصدد «الدفاع» عن مصر ما يلى نصه : « .... ولهذا كان أمامها – (أى مصر) – طريقان: العودة إلى تقاليد الإسلام أو محاكاة أوروبا، وقد اختارت الطريق الثانى ... إنها قد خطت اليوم بعيدا فى هذا الطريق حتى ليصعب عليها الارتداد عنه. إن مصر تتحول إلى بلد أوروبى بطريقة تثير الدهشة وقد أخذت إدارتها وأبنيتها وآثارها وشوارعها وعاداتها ولغتها وأدبها وذوقها وغذاؤها وثيابها تتسم كلها بطابع أوروبى ... لقد اعتاد المصريون قضاء الصيف فى أوروبا كما اعتاد الأوروبيون قضاء الشتاء فى مصر ، فلعل أوروبا تقدر لمصر مسيرتها ولعلها ترد لها يوما بعض هذا الود الكبير الذى تكنه لها مصر ..» – المصدر المذكور سابقا ج ١ ص ٢٦٣ – هل أنا بحاجة إلى تعليق للإشارة إلى الموقع الدونى الذى وضع قاسم أمين فيه نفسه كمفكر مصرى، يدعى فيه «الدفاع» عن مصر والمصريين؟، هل كانت هذه الصيغة النفسية لقاسم أمين صيغة دفاعية أم اعتذارية عن اننا كنا فى يوم «غير أوربيين»، لنا شخصيتنا المختلفة فى الادارة والأبنية والآثار والشوارع والعادات واللغة والأدب والذوق والغذاء والثياب.. إلى آخره الى آخره.. . ثم هل كان قاسم أمين صادقا فى كلامه مع الدوق المتعجرف؟، هل كانت «مصر» .. كلها ـ لا أحياء من عاصمتها ـ متسمة فى ذلك العهد ـ أو حتى الآن ـ بالطابع الأوربى؟، ومن كان هؤلاء المصريون الذين اعتادوا عام ١٨٩٤ ـ أو حتى الآن ـ قضاء الصيف فى أوروبا؟. وأى ود كبير هذا الذى كانت تكنه مصر لأوروبا بعد الاحتلال البريطانى باثنى عشر عاما؟. ومع ذلك فلا يجب أن نعتبر كتاب «المصريون» شاهدا على أفكار قاسم أمين أو مرشدا لتحديد مبادئه ومعتقداته وموقفه لانه، على الرغم من ولائه الواضح فيه لأوروبا واعجابه التام بها بصفتها المثل الأعلى للمدنية التى يتمناها لمصر، وانحناء قامته البين أمام الدوق المتعجرف، يظل الكتاب «محاولة» من

قاسم أمين للدفاع عن صورة مصر والمصريين و«شرح» الحكمة الايجابية فى قوانين الشرع الاسلامى، وان بدا هذا «الشرح» مستخذيا تبريريا ملتمسا السماح من الدوق مناشدا إياه أن يعتبر «الإسلام» فى مرتبة «المجوسية» ، فيقول : «إن الإسلام دين خلقى، لايقل عن المجوسية ولا عن المسيحية، وان روح القرآن لا تختلف عن الروح الإنجيلية..» المصدر السابق، ج ١ ص ٢١٧ .

لقد كتب قاسم أمين «المصريون» بدافع انفعال وقتى : رد فعل لصفعة ساخنة أحسها «إهانة ذاتية» لشخصه لكونه - ولا مفر - مسلما مصريا تحاصره وتلتصق به الاتهامات التى كالها «دوق داركور» للمصريين والمسلمين كافة، وكان عليه أن يدفع عن نفسه هذه الاتهامات التى تشينه أمام أصدقائه «الأورباويين» ، الذين يحب أن يظهر أمامهم وجيها يليق بمقامهم، فكان رد فعله الأول أن ينكر هذه الاتهامات وينفيها من أساسها. أما رد فعله الثانى، الذى أتى بعد ذلك تباعا فى كتاباته التالية من ١٨٩٥ حتى تاريخ مماته ٢٢ ابريل ١٩٠٨، فكان محاولته الخروج والتنصل من «الصورة» التى لا تعجب «الأورباويين» وذلك بانتهاج استعلاء يجعله ينفصل عن تلك «الصورة» بإعلان اعتراضه عليها وتبرؤه منها مما يحقق له «ذاتيا» احتراما واعجابا أوروبيا غربيا يستثنى به كصفوة «تنويرية» لاينطبق عليها ما أسخط الدوق وأمثاله على مصر العربية المسلمة - (وقد تم له ذلك على أكمل وجه والحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه!) .

نصب قاسم أمين نفسه «مصلحا» و«موجها» و«مربيا» و«ناقدا» لمصر الإسلامية : يتبنى افتراءات الدوق ويتطوع على أساسها - نيابة عن الدوق وعن أوربا - العمل على إدانة الصورة الإسلامية التى لا ترضيهم والدعوة علانية بالتوجه الكلى نحو «محاكاة» الغرب، والايحاء بأن كل مصائبنا ناتجة من «أهوائنا» المتمسكة بالمدنية الإسلامية!. يقول قاسم أمين فى كتابه «المرأة الجديدة» : « فالتركى ، مثلا، نظيف صادق شجاع والمصرى على ضد ذلك، الا أنك تراهما رغما عن هذا الاختلاف متفقين فى الجهل والكسل والانحطاط ، إذ لابد أن يكون بينهما أمر جامع وعلة مشتركة هى السبب الذى أوقعهما معا فى حالة واحدة. ولما لم يكن هناك أمر يشمل المسلمين جميعا إلا الدين ذهب جمهور الأورباويين، وتبعهم قسم عظيم من نخبة المسلمين، إلى أن الدين هو السبب الوحيد فى انحطاط المسلمين وتأخرهم عن غيرهم..» - المصدر السابق، ج ٢ ، ص ٧٢ - هل قال شيمون بيريز

أخيرا شيئا أسوأ من ذلك، مما دفع وزيرنا عمرو موسى إلى إعلان احتجاجه قائلا : «هذا كلام غير مسموح به»؟.

* * *

فى سبيل الدعوة الى التوجه الكلى لـ «محاكاة أوروبا»، قال قاسم أمين فى مشاكل اللغة العربية : «لا أدرى ماهى غاية الكتاب الذين اذا أرادوا التعبير عن اختراع جديد يجهدون أنفسهم فى البحث عن كلمة عربية تقابل الكلمة الأجنبية المصطلح عليها ، كاستعمالهم مثلا كلمة السيارة بدلا من كلمة الأوتوموبيل.. إن كان المقصد تقريب المعنى إلى الذهن فالكلمة الأجنبية التى اعتادها الناس تقوم بالوظيفة المطلوبة منها على أوجه أتم من الكلمة العربية، وإن كان مقصدهم إثبات أن اللغة العربية لا تحتاج الى اللغات الأخرى فقد كلفوا أنفسهم أمرا مستحيلا..» المصدر السابق، ج ١ ، ص ١٥٧ .

ومع هذا المقتطف الشاهد على رغبته فى الجمود على كلمة فرنسية أو أجنبية مع وجود كلمة عربية مرادفة وأسهل للناس ـ بدليل انقراض كلمة أوتوموبيل فى بلادنا وسيادة «سيارة» و«عربية» نجد حضرته متأففا نافدا صبره يكتب شاكيا : «يظهر أن باب الاجتهاد أغلق فى اللغة كما أقفل باب التشريع، فقد صار من المقرر بيننا أن اللغة العربية وسعت وتسع كل شىء..» ج١ ص ١٥٨ ـ أما اجتهاده فيكون بتطعيم اللغة العربية الفصحى بـ «... طرق التعبير الجميلة التى نسمعها أحيانا فى لغة العامة» ـ ج ١ ، ص ١٥٨ ـ وحين يكتشف أن الناس يلحنون فى العربية، يجد هذا : «برهانا كافيا على وجوب اصلاح اللغة العربية..» ج ١ ، ص ١٥٨ وكيف يكون ذلك برأيه؟: «أن تبقى أواخر الكلمات ساكنة لا تتحرك بأى عامل من العوامل» ـ ج ١ ، ص ١٥٨ ـ ما رأى د. محمد رجب البيومى فى هذه الفتوى من «قاسم البطل» على حد تعبيره فى مقاله بالهلال فبراير الماضى ص ٢٩؟.

* * *

كتب قاسم أمين كتابيه الشهيرين «تحرير المرأة» عام ١٨٩٩ ، ثم «المرأة الجديدة» عام ١٩٠٠، وبهما من اللغة الركيكة والحشو الممل مايضيق الصدر عن عظمة الاوروبيين والأمريكان وعن أسباب تقدم الأنجلو ساكسون، كيف أن .. نشاطهم وجراءتهم وإقدامهم وتبصرهم وفطنتهم وجميع الصفات التى تعترف كل الأمم بامتيازهم فيها عن سواهم هى نتيجة لعب الكرة والسباحة وركوب الخيل ـ ج ٢ ، ص ٧٨ ـ وحين يعدد أخطاء المرأة المصرية، التى لا يجيد حصرها

يتناقض ، فيأخذ عليها تارة كونها لا تجيد سوى التزين لزوجها ومسامرته فيقول : «ولما لم يبق للعقل ولا للأعمال النافعة قيمة لديها وانما بضاعتها أن تسلى الرجل وتمتعه.. وجهت جميع قواها الى التفنن فى طرق استمالته إليها والاستيلاء على أهوائه وخواطر نفسه..» - ج ٢ ، ص ٢٣ - ثم يناقض قوله هذا بعد ست صفحات ويتهم المرأة المصرية بأنها جاهلة حتى بأمر زينتها ومسامرة زوجها فنراه متفلسفا . «... ذلك أن المرأة الجاهلة تجهل حركات النفس الباطنة، وتغيب عنها معرفة أسباب الميل والنفور فاذًا أرادت أن تستميل الرجل جاءت فى الغالب بعكس ذلك..» - ج ٢ ، ص ٢٩ - وحين يلاحظ د. محمد عمارة، جامع الأعمال الكاملة لقاسم أمين ومحققها، أن الأجزاء الإسلامية الطيبة فى الكتابين غريبة على كاتب يقول : «فى البلاد الحرة قد يجاهر الإنسان بأن لا وطن له ويكفر بالله ورسله ويطعن على شرائع قومه وآدابهم وعاداتهم.. يقول ويكتب ما شاء ولا يفكر أحد.. أن ينقص شيئا من احترامه بشخصه متى كان قوله صادرا عن نية حسنة واعتقاد صحيح . كم من الزمن يمر على مصر قبل أن تبلغ هذه الدرجة من الحرية.» ج ١ ، ص ١٦٥ - يقول د. عمارة بقرائن بحثه العلمى و«اجتهاده» : «... ففى تحرير المرأة وبالذات فى الفصول التى تتناول وجهة نظر الشريعة والدين فى هذه القضية، نلتقى بمجموعة من الآراء الفقهية والمناقشات لا يستطيع أن يبحثها ولا أن يستخلصها كاتب مثل قاسم أمين.. وأهم من ذلك نجد أحكاما كلية تدل على أن صاحبها ومصدرها قد استقصى بحث هذا الأمر فى جميع مصادره الرئيسية فى الفكر الإسلامى، على اختلاف مذاهبه وتياراته الفكرية، وهو الأمر الذى لا نعتقد أنه قد توافر نى ذلك العصر سوى لقلة قليلة فى مقدمتهم جميعا الاستاذ الامام محمد عبده...» - المصدر السابق، المقدمة ، دراسة فى فكر قاسم أمين، ص ١٤٤ - هذا «اجتهاد» العلامة د. محمد عمارة ، ألا يكون من حقه هذا «الاجتهاد» ويكون من حق «قاسم البطل» الدعوة الى «الاجتهاد» بالعبث فى اللغة العربية والدعوة إلى «حق» المجاهرة بالكفر؟ . ياسبحان الله!.

أينعم : أنا واحـــدة من المؤيدين لاستنتاج د. عمارة بأن الأجزاء الفقهية العلمية فى كتابى قاسم أمين «تحرير المرأة» و «المرأة الجديدة» ليست من كتابته لأنها خارج قدراته العقلية المتسمة بالتناقض والتشويش والتسطيح والانحناء الذليل للمدنية الغربية، واذا لم تكن هذه الأجزاء من كتابة الأستاذ الامام محمد عبده - الذى يكون قد تصدق بها على «قاسم البطل» - فهى من كتابة عالم آخر والله أعلم .

عن ثقافتنا العربية وعن البنيوية والتفكيكية و... إلخ

بقلـم: مهدي بندق

على صفحات مجلة الهلال قرأت فى العدد الماضى مقالة بديعة للأستاذ الدكتور مجدى يوسف يؤسس فيها لشرط واجب الإتباع - من وجهة نظره - ساعة أن يلتفت المثقف العربى إلى النظريات والمناهج البحثية الغربية ، ذلك هو شرط البدء بالعينى الملموس فى أسئلتنا نحن وليس «باستيراد» الأطر والأدوات الإجرائية من الغير . فالانطلاق من واقعنا الثقافى المحدد كفيل بتوليد وسائطه ومناهجه وأدواته الخاصة به وحده.

ولكى يؤكد الأستاذ مجدى فكرته - تلك التى سنعارضها بعد قليل - اختار شخصى الضعيف ليمثل به ، لا بطريقة الحجاج الثقفى - بل بأسلوب اللورد المهذب يلتقط بشوكته زيتونة فاتحة للشهية - قبل التهام العشاء.

وصلت الرسالة إذن ، وفحواها سؤال مترفع: وأنى لأمثالكم من كتّاب العرب إدراك الفرق بين البنية والبنيوية ناهيكم عن التفكيك (عنوان مقالتى بمجلة أخبار الكتاب) حيث دعوت أنا إلى ممارسة هذا التفكيك بشكل منهجى نقدا ونقضا للسالب من عناصر ثقافتنا العربية .

وهذا هو الدرس الذى أراد دكتورنا مجدى أن يلقنه للمثقفين العرب الذين سمحوا لأنفسهم بالخوض فى معارك فكرية لاتخصهم ولا تعود على شعوبهم إلا بالحيرة والاضطراب والغمض!

فعل هذا بمهارة ولباقة هما صفتان لصيقتان بقلمه العف النظيف ، مستبعدا ألفاظ التجريح والتجهيل والهزء بمن لم يؤد واجبه المنزلى! وإنما انطلق الرجل مباشرة إلى هدفه ذى الشعبتين : نقده هو لمركزية اللوجوس الغربى ، وتحذيره لنا من إغراء النظريات المستوردة والمناهج سابقة التجهيز.

حسناً .. لتكن إذن معركة راقية جديرة بوقار مجلة الهلال . جديرة بغزارة علم مجدى يوسف، وجديرة أيضاً بكل صاحب قلم يفكر فى إثراء هذا الحوار بمداخلة منه أو أكثر

★★★

فإذا كنا قد أصبنا قولاً حين رصدنا هدف الدكتور فإن لنا الحق فى مناقشة شعبته الثانية على الأقل ، باعتبار أن الأولى (نقده هو للثقافة الأوربية) تخصه هو، وتخص أصدقاءه الفلاسفة أمثال جادامر وهابرماس ودريدا وادوار سعيد وإيهاب حسن ، رغم كون الأخيرين لم يقطعا كل صلة بين الفكر الغربى المتحرر المنطلق وبين خطابنا العربى المتأزم المعاصر . بادراك منهما أن خروج الفكر العربى من أزمته الحالية رهين الحوار مع الآخر المختلف ، الحوار الذى يلغى من قاموسه كلمات التعالى وغمغمات الدونية على حد سواء . ويكفينا فى هذا الصدد أن نستعير كلمات كلود ليفى شتراوس فى كتابه «العرق والتاريخ»: إن البربرى هو قبل كل شيء، الإنسان الذى يعتقد بوجود البربرية.

الشعبة الثانية من هدف الأستاذ إذن هى ما تهم القارىء العربى بالدرجة الأولى. وللتذكرة فإننا نعيد صياغتها - كما فهمناها من مقالة الأستاذ - على النحو التالى:

● ليس أمام المثقف العربى من سبيل لانتاج المعرفة إلا إذا انتهج منهاج الاستقراء INDUCTION وصولاً إلى التعميم فالتجريد ، ولأن الواقع هو تغير دائم فلا مندوحة من العود للاستقراء من جديد .. وهكذا إلى ما لا نهاية فيما يشبه الدور والتسلسل المنطقى .

● ولما كان مستحيلاً نزع الأدوات الإجرائية والآليات المنهجية عن المضامين الثقافية التى أنتجتها فلا أمل لنا فى استعارة هذه الأدوات والإجراءات لاستخدامها فى تحليل أبنيتنا الفكرية المختلفة مضموناً وواقعاً تاريخياً.

هنا لابد أن نختلف مع الأستاذ خلافاً شديداً وعميقاً لأسباب منهجية وتاريخية وعملية لاتخطئها العين الفاحصة .

● فأما الأسباب المنهجية فتدور حول وحدة العقل البشرى ووحدة الحضارة الإنسانية، تلك التى ساهم فى انجازها الفراعنة والبابليون والإغريق والفينيق والفرس والهنود والعرب وأوربا والصين. ومن ثم يسقط قول كبلينج Kipling : الشرق شرق والغرب غرب ولا لقاء بينهما!

نحن لا ننازع فى أن العرب المسلمين أسسوا علم أصول الفقه بإبداع منهم لآليات الاستقراء وباعتمادهم على المنهج التجريبى ، بيد أن الحضارة الإسلامية ليست علم أصول الفقه فحسب بل هى كذلك علم الكلام الذى أفاد من القياس الأرسطى حيث قام المعتزلة بتعديله -

تحت التأثير الأيديولوچى - إلى قياس الغائب على الشاهد ، وهى كذلك - الحضارة الإسلامية أعنى - الفلسفة التى بلغت غايتها عند ابن رشد ، وهى ثالثاً علم الاجتماع التاريخى الذى أسسه ابن خلدون ، وهى رابعاً الاكتشافات العلمية عند الحسن بن الهيثم وابن النفيس والخوارزمى وجابر بن حيان . فضلا عن الوصول بعلم اللغة إلى ذروتها عند عبد القاهر الجرجانى وسيبويه وابن مضاء القرطبى ، وما كان لهذا كله أن يتم لو اقتصر الأمر على منهج الاستقراء وحده ، فضلاً عن كون منهاج الاستقراء ذاته قد أمسى بعد انتقادات كارل بوبر منهاجاً غير علمى حيث يقوم على السببية وهى مبدأ عقلى سابق على التجربة.

● وأما الأسباب التاريخية فأهمها الوعى بأن ما يكتشفه إنسان واحد فى أى مكان فى العالم لايلبث غير قليل حتى يصبح ملكاً للإنسانية جمعاء، ولولا ذلك لظل يسوع يهودياً محدود الأثر ، وظل جاليليو مجرد أستاذ للرياضيات (وظلت الأرض ساكنة لا تدور فى نظر الناس) وبقى اسحق نيوتن جالساً تحت شجرته يأكل تفاحته ويحلم وحده بقانون الجاذبية. حمداً لله أن البشر - رغم حماقتهم فى مواضع لا تحصى - قد أدركوا منذ البداية أن حضارتهم إنتاج للتاريخ ، تاريخ الفرد الواحد وتاريخ أمته وتاريخ الأمم جميعاً.

● تأتى بعد ذلك الأسباب العملية التى تعارض العزلة وتتأبى على توهم القائلين بالتفرد الثقافى فمن نافلة القول المحاجاة فيما أحدثته ثورة الاتصالات من مثاقفة Acculturation لجميع الأمم ، تحمل على يديها الإنجازات العلمية والتكنولوچية والمرسلات والمستقبلات الأدبية والفنية ربما بأسرع من الجنىّ الذى حمل عرش بلقيس إلى سليمان الحكيم ، ولو كان الأمر بخلاف ذلك لهلك عرفات فى الصحراء حين سقطت طائرته ، فماذا عن اقتناء الطائرة والسيارة والقطار ؟! لولا المثاقفة لظل العرب يركبون الجمال والحمير ، ولولاها لبقى الأفارقة يفرون أمام الرجل الأبيض خشية أن يقتنصهم عبيداً ، هم الذين أصبحوا الآن ينافسونه فى ميادين السياسة والرياضة وربما ينافسونه غداً فى ميدانه الأثير : الاقتصاد.

ولأن الثقافة أسلوب عيش فدعنا لانضيع الوقت فى احصاء مظاهر التشابه فى أساليب عيش البشر بقرننا الحادى والعشرين بدءاً من تعميم الكهرباء على كل مكان - تقريباً - تنير ليل كوكبنا الأرضى ، إلى انجازات التكنولوچيا المعاصرة التى تتيح لسكان قرية نائية فى صعيد مصر أن يتصلوا بأقاربهم فى أمريكا واستراليا ، إلى المليارات التى تشاهد محاكمة رئيس أكبر دولة فى العليا عبر القنوات الفضائية بلحظة واحدة، وصولا إلى الديمقراطية التى يعترف بها الجميع - صدقاً أو تمويهاً - نظاماً للحكم لا مهرب من قبوله.

● « أبواب الرحمة لعناصر الجماعات المسلحة لن تغلق» .

الرئيس الجزائرى عبد العزيز بو تفليقة

● «أتصور أن الكتابة هى محاولة لممارسة الحرية فى مجتمعات تفتقد الحرية» .

الأديب إبراهيم عبد المجيد

● «الموسيقى هى حبى الضائع» .

المخرج السينمائى الايطالى مايكيل انجلو انطونيونى

● «من أوهام جيلنا وأخطائه اسطورة القطاع العام» .

المفكر السورى چورچ طرابيشى

● «التسوية المطروحة على العرب تنحصر فى الاختيار بين بيبسى كولا وكوكا كولا !!» .

المفكر اللبنانى جوزف سماحة

● «العبقري هو الفريد من نوعه بشكل لا يمكن فهمه أو تفسيره ، وفي الوقت نفسه لا يعي أنه عبقري» .

المخرج والممثل الامريكى وودى آلن

● «المبدع الحقيقي مغيب ، والجيل الجديد يعيش في الفراغ» .

المسرحى التونسى حمادى المزى

● «لقد فتش الغرب بعد انهيار الاتحاد السوفيتي عن عدو جديد، فكان الإسلام» .

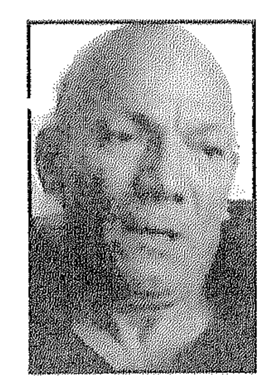
المستشرقة الألمانية آن مارى شيمل

● «إننا في بداية عصر جديد، وكل ما هنالك أن البداية مختلطة بالنهاية ، كما هي حالها علي الدوام» .

الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى

● «إن بمصر الممثل المتوسط ، والجيد ، والجيد جدا ، والممتاز ، والرائع ، ولكن لا يوجد الممثل الفنان» .

الممثل محمد توفيق



الشاعر
أحمد عبدالمعطى حجازى



محمد توفيق

أقوال معاصرة



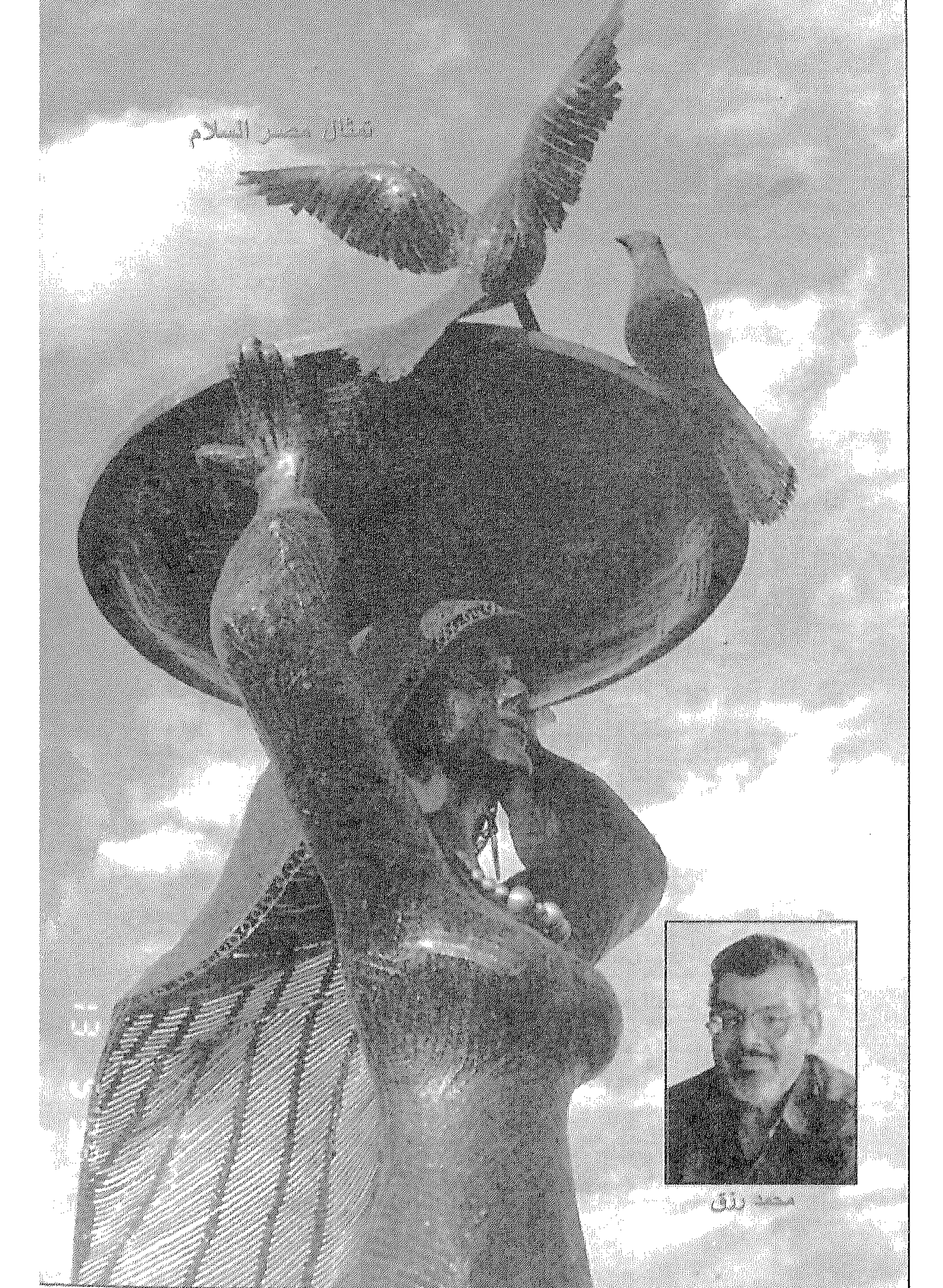
إبراهيم عبدالمجيد

المثال محمد رزق

بين الحديد والنحاس

بقلم : محمود بقشيش

إنّ حلم أى رسّام أو مثّال مصرى هو أن يحيا من عائد فنّه حياة كريمة ولايتعرض لما تعرض له بعض كبار المبدعين العالميين أمثال «ڤان جوخ» و«دوميه» و «موديلیانی» من شظف العيش. وإلى الآن لم يحقق هذا الحلم فى مصر إلا قِلّةٌ نادرةٌ، نجحت فى تقديم أعمالٍ رفيعة فى مستواها الفنى، مستَجيبة لحاجة رجال المال الى إحاطة أنفسهم بما يمتع النفس وحاجة المؤسسات الاستثمارية الى المظهر الجميل وحاجة المحافظات الى نصب تذكارية تتباهى بها. من بين هؤلاء المبدعين الذين قدموا الى حياتنا الاجتماعية فنا يجمع بين «النافع» و«الجميل» المثّال «محمد رزق» الذى استعانت به مؤسسات عديدة لتجميل واجهاتها وأبهائها. وقد زين مدخل جريدة الاهرام ومدخل فندق هيلتون النيل وفندق مريديان وسياج بالجيزة وفندق ماريوت شرم الشيخ وأكاديمية مبارك للأمن والبنك الأهلِى المصرى ومركز القاهرة للأشعة. وأنجز لمصانع الدخيلة للحديد مُجسّما حديديا ارتفاعه خمسة عشر مترا .



محمد بلق

بدأ «محمد رزق» حياته الإبداعية محاولاً فى كتابة الشعر والقصة والعزف على الناى، كان ذلك فى قريته «سيف الدين» بمحافظة دمياط. يتحدث عنها حديث العاشق قائلا : «إن اللون الأخضر وسلاسة العلاقات البشرية كانت تملأ حياتى بأحلام مستقبل وردى، وكانت «القاهرة» بالنسبة لى محور تلك الأحلام، كانت تعنى : الالتحاق بالجامعة. النجومية الأدبية. وفى القاهرة تبخرت الأحلام، لم ألتحق بالجامعة بل التحقت بمصنع الحديد والصلب سنة ١٩٥٧ وتعطلت محاولاتى الأدبية وارتبكت خططى حتى سنة ١٩٦٢ .

كانت صدمة القاهرة كبيرة، ووجد نفسه محاصرا بكل ماهو مناقض لمرحلة القرية، فالقاهرة مدينة عدوانية بزحامها وفوضاها المرورية ونفاياتها المكدسة فى أحيائها الراقية والشعبية على السواء، غير أن القول الحكيم: «داوها بالتى كانت هى الداء» كان نافعا له فتخفف من النفور الى نوع من التعايش، كان من نتائجه أن استخرج من الظروف المغايرة ممكنات جديدة للابتكار. واستبدل اللون الأحمر (لون النار) باللون الأخضر واستبدل «دينامية» التحولات فى الصناعة بالاستسلام السكونى للحياة فى القرية. وشغف بشرائح النحاس وأغرته طراوتها بالاقتران بها ففعل، ومن يومها وحتى كتابة هذه السطور ظل وفيا لها .

طريق للصعود

كان عام ١٩٦٢ عاما محوريا بالنسبة له، ففيه قرر الالتحاق بكلية الفنون الجميلة (القسم الحر) وهناك التقى برائد المطروقات النحاسية المثال «جمال السجينى»، ويتحدث رزق عن ذلك الموضوع بقوله : «توجهت الى السجينى كى أتعلم منه تقنية النحاس، غير أنه نصحنى بأن أتعلم هذا وحدى وكان رأيه أن الفن لا يُلقن. وتركت الكلية ولم أكن قد أمضيت بها أكثر من ثلاثة أشهر وتوجهت إلى شارع «خان الخليلى» لمتابعة الصناع المهرة والتعلم منهم. وأستطيع التوكيد بأن هذا الشارع كان أستاذى الحقيقى. والعجيب أنه حصل فى نفس العام على جائزة الدولة التشجيعية فى النحت.

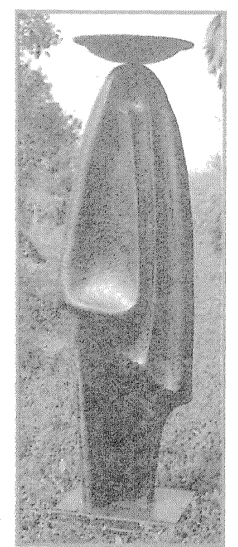
وكان هذا الاعتراف الرسمى بموهبته حافزا قويا لمواصلته الانتاج الفنى والتفرغ له - فيما بعد - تفرغا كليا .

أصداء

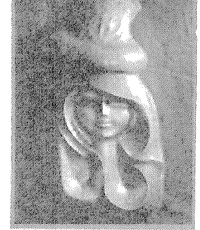
أقام «محمد رزق» ستة عشر معرضا، قوبلت جميعها باستحسان النقاد. واحتفى به نقاد الأدب ونقاد الفن على السواء. كتب عنه الفنان الكبير «حسين بيكار» فى بابه الأسبوعى بجريدة الأخبار، يقول : «إن ارتباط الفنان «محمد رزق» ببيئته وأبناء بلده ارتباط جذرى ينعكس فى رشاقة الخطوط التى تتماوج وتتلوى فى سيولة الموال ورقة الناى، وتبرز آثار المطرقة على السطح كأنها ايقاع نقرات الدفوف والطبول تزف المشخصات الراقصة فوق السطح اللامع». ومهما كانت الآراء التى أبداها نقاده ودرجة اختلافهم فى التلقى والتفسير فقد اتفق الجميع على أهمية هذا الفنان الذى لم يتلق - ربما لحسن الحظ - أى تعليم أكاديمى ولم ينل درجة الدكتوراه التى يتسابق على نيلها أنصاف الموهوبين بالكليات الفنية. ولم يتسلح الا بموهبته وإصراره فقدم اضافة فى مجال المطروقات والمجسمات النحتية وأضيف اسمه الى قائمة كبار موهوبى جيل الستينيات الذين لم يحصلوا على شهادات عالية ولم يتوظف بعضهم فى وظائف حكومية أمثال : عبدالرحمن الأبنودى، سيد حجاب، أمل دنقل، ابراهيم فتحى، عبدالرحيم منصور، يحيى الطاهر عبدالله ، جمال الغيطانى، ابراهيم أصلان، خيرى شلبى ومحمد يوسف القعيد .

عن فنه

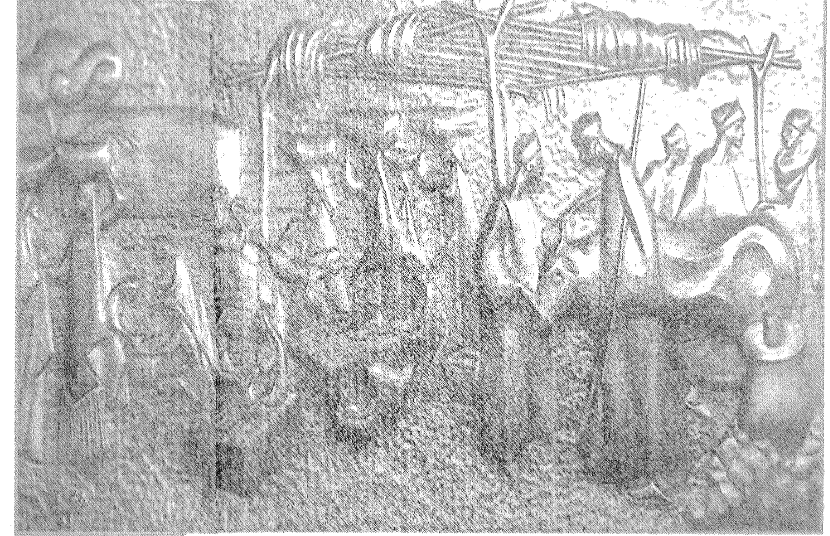
يختلف «محمد رزق» عن كثيرين من الفنانين المصريين فى رفضه الالتزام بقالب جامد، يقبل الاجترار، لهذا تزخر لوحاته بالتداخلات الأسلوبية. لا تحدد مراحله ملامح حاسمة مثلما هو الحال مع مراحل «بيكاسو» ، بل تتعايش الأساليب فى إطار زمانى أو مكانى واحد: ففى معرض واحد نلتقى بأعمال تعبيرية حرِّيفة "Fauvisme" الى جوار مستنسخة اسلامية بالغة الدقة، أنجزها للدراسة البحتة إلى جانب أشكال تجنح الى التجريدية الهندسية وأخرى تستلهم التكعيبية التحليلية.



قروية



الجرة



سوق القرية - ١٩٨٩



فلاح



الحصان العربى

وعلى الرغم من ذلك التنوع فهي (أي الأعمال) تعبر عن جذر واحد هو الوطن المصرى بحالاته المختلفة. ويمثل الانسان محورا دالا على تلك التحولات. والإنسان هنا ليس إنسانا مطلقا، بل هو - تحديدا - الفلاح المصرى والفلاحة المصرية. ويتجلى هذا الوجه فى صور مختلفة تختلف باختلاف حالات الوطن، لهذا يظهر ثائرا أحيانا، سعيدا أحيانا أخرى، صامدا فى حالة ثالثة. وتمثل الجياد موضوعه المحورى الثانى، تظهر جامحة ومنكسرة ومختالة.. وهكذا تتحول من صورة لأخرى انعكاسا للمد والجزر فى ساحة الواقع السياسى المصرى .

١٩٦٧

أقام سنة ١٩٦٩ معرضا بقاعة «جوته» وكان المعرض صدى لمعاناة ١٩٦٧ ومن أبرز أعماله مجسمات ثلاث، تحمل العناوين الآتية : «الصمود» و«الغضب»(١) و«الغضب» «٢». لوحة الصمود تلخص الشعب المصرى فى وجه ريفى - صرحى، مفعم بالغضب، متحفز للمنازلة. ويرتكز الوجه على رقبة عملاقة، غنية بالتضاريس. وتقوم الطرقات المتنوعة باثراء السطح. وتحفل اللوحة بتفاصيل دقيقة ومفاجآت غير متوقعة فى بناء الوجه بشكل خاص، فهو لم يقم بتحليل شكل بنائى - واقعى يلتزم النسب التشريحية للإنسان بل أنشأ وجها ينتمى الى «العمارة» وقد أعانه الأسلوب التكعيبى فى الأبنية التحريفية الحادة. ويتجلى ذلك على وجه الخصوص فى التحليل المثير للمنطقة أسفل الفم والذقن والحفر على الجبهة. وتمتد كتلة من الأنف الى الصدغ لتشترك بدورها فى معمعة كتلة المستويات الخطية المتداخلة. وتتسع اللوحة لكثير من الايحاءات القصصية. وربما أدرك الفنان ذات الطابع الروائى لعمله فقدم نقدا ذاتيا تمثل فى عمل آخر يحمل نفس الاسم ويختلف معه فى التاريخ والأسلوب : نفذ العمل الجديد سنة ١٩٨٥ وهو مسبوكة نحاسية على عكس العمل الأول الذى نفذ بطريقة الطرق على المعدن النحاسى. يرتبط العمل الأول بايحاءات رمزية، تمثل الشعب المصرى فى هيئة

المزارع الشجاع. السمح، يحاكم حالة «الهزيمة» ويدعونا (نحن المشاهدين) الى التحدى، بينما يتحول الوجه الثانى ليعبر عن انسان عصر العنف. تنتمى المجسمة الأولى الى «النحت البارز» والثانية مسبوكة تنتمى الى «النحت المدارى» أو «الفراغى» وهى تستعير من العمارة هندسيتها الصارمة وملامسها المجردة، غير أنه ـ كعادته فى المفاجآت ـ يزلزل هذا الكيان المعمارى بزلزال يفصل المقطع الأعلى من الفم عن المقطع الأسفل ويمزق جزءا من الوجه بحدة. ويعترف محمد رزق بقوله : «كنت أريد لهذا التمزق أن يمتد، غير أن مساعدى صاح : قلبى لا يطاوعنى .. لا أستطيع مواصلة التشويه أكثر من ذلك.

الكمنجات أحيانا !

منذ خمسة عشر عاما نشرت دراسة عن الفنان محمد رزق فى مجلة ابداع وكانت تحمل عنوان «رزق عاشق المطروقات النحاسية». وفى معرضه السادس عشر الذى أقامه منذ عامين تقريبا بقاعة دار الأوبرا وخارجها، حاول أن يكمل عنوان مقالتى فوضع لمعرضه عنوانا هو : «وعاشق الحديد أيضا!.. ولم يعلق على عنوانى السابق اطلاقا، بل أراد لرده أن يكون عمليا فقدم ما يثبت به جدارته بعشق الحديد وما تزال تماثيله قائمة حتى الآن فى منطقة الأوبرا الجميلة، وقد بدا على الشخصيات التى عانت من آلام الحرب تحولات الى الاشراق وكأنما ترحب ـ بدورها ـ بما يسمى بعملية السلام فى الشرق الأوسط، ظهرت الخيول فى منطقة الأوبرا وقد تخلت عن توترها السابق وبدت هادئة ، مختالة بجمالها، مزينة بزخارف من نحاس، يتلألا تحت وهج الشمس وازداد جمال الوجه الأنثوى تألقا. وانتقلت الأنوثة الى شكل الكمان وتوحدت به فى تمثال جميل ، نسيج جسده من مسامير حديدية مدببة، فى صعودها الى الذروة أو هبوطها الى القاعدة تشكل تموجات متصلة وبالقرب منها يظهر عازف الرباب منشغلا بآلته الشعبية. ولقد سبق لمحمد رزق أن نفذ بالنحاس المطروق هذا الموضوع. وعندما نقله الى خامة الحديد كبّره الى الحد الذى لامس به الشجرة القريبة. ارتفاع

الكمـــان
الأنـــثى
١٩٩٧



صدر - نحاس مطروق



فتاة - نحاس مطروق

مطروقة (صمود) للفنان محمد رزق



التمثال ثلاثة آمتار وخمسة عشر سنتيمترا .

واقعية مغايرة

ذكر المفكر الفرنسي الكبير «جارودى» فى كتابه الجميل «واقعية بلا ضفاف» أن الأسلوب «التكعيبى» كان أكثر دقة وأمانة فى نقل الواقع من الأسلوب «الأكاديمى» الذى يكتفى بنقل الزاوية الوحيدة المرئية، مغفلا الزاوية غير المرئية، فى الوقت الذى اهتمت التكعيبية باظهار ما هو مرئى وما هو مخفى من زوايا الموجودات الواقعية، جنبا الى جنب على مسطح اللوحة. وحاول «محمد رزق» أن يطبق هذا فى موضوع «العارى» وقدم سلسلة من التماثيل المسبوكة بخامة النحاس فى سياق معرض «الأوبرا». جمعت عارياته بين منظورين متخالفين فى ذات الوقت. الزاوية الواحدة تفاجيء العين بكتل أسطوانية بارزة وأخرى غائرة. ويشكل هذا التعارض ايحاءات أوسع مما نصفه بالشكل المحدب والشكل المقعر إلى الإيحاء بالحضور والغياب فى الكتلة الرئيسية التى تنتظم تلك الثنائية. ويبدو لى أن تلك المحاولات لم تزل فى طور التجريب وقدم فى معرضه عينات منها لنتأكد أن بمقدوره أن يواصلها ويطورها . وقد سبقه الى تلك التجربة المثال «جمال السجينى» فى تمثاله البديع عن الفنان «سيد درويش».

من أصداء تمثال نهضة مصر

من آثار العمل الفنى العظيم أن يكون محركًا لنوازع الخلق لدى متلقيه من المبدعين المعاصرين واللاحقين والأمثلة الدالة على ذلك لا حصر لها وتحتاج الى دراسة مطولة ليس هذا مجالها. واذا كنا قد ذكرنا «أصداء تمثال مختار» عنوانا لتلك الفقرة فلأنه جذر قريب، قد تناسل بدوره من جذور عميقة، تشعبت شرقا وغربا وتألقت فى الجمالية المصرية القديمة واختار منها «مختار» تمثال «ابو الهول» ليرمز به إلى حضارة تشع نورها فى ثقافات العالم. واللافت للنظر أن كل الابداعات العظيمة قد اتخذت من المرأة رمزا لخصوبة الوطن، صارت عند مختار «فلاحة» وعند المثال «محمد رزق»-

صاحب آخر التماثيل الميدانية « بنت البلد ».

واذا كان «مختار» قد اختار خامة الجرانيت التاريخية لتكون جسدا لفكرته عن النهضة فقد اتخذ «محمد رزق» خامة الصناعات الثقيلة : «الحديد» لتكون جسدا يعبر به عن موضوع تمثاله وهو : «مصر السلام». لم يحظ تمثال «رزق» بالظروف التاريخية والرومانسية التى أحاطت تمثال «مختار»، وقد ثبتت تلك الظروف فى الذاكرة القومية الطابع الاستثنائى لظهور تمثال نهضة مصر ودور الشعب المصرى، بكل طبقاته وشرائحه فى جعل التمثال حقيقة واقعة. أما بالنسبة لتمثال «محمد رزق» فقد نفّذه الفنان بتكليف من محافظ جنوب سيناء اللواء «مصطفى عفيفى» ، والتمثال موجود حاليا أمام مبنى الحكم المحلى بمدينة «شرم الشيخ» وتم تركيبه فى شهر ابريل سنة ١٩٩٨، ارتفاعه فوق القاعدة (٣٨٠ سم) . واذا كان العمل الفنى (وهو هنا التمثال) يمثل لقاء بين الفنان والنموذج والخامة فلابد من تمدد العمل الفنى الى تلك المنابع الثلاثة والاتصاف بمميزاتها : «طراوة الجسد الأنثوى» للنموذج الحى وصلابة خامة الحديد ورؤية الفنان. وقد كشفت المرأة التى جسدها لبنت البلد عن شخصية الفنان نفسه، ففى الوقت الذى انصرف «مختار» عن الايحاءات الحسّية للمرأة حرص «رزق» على إبرازها، مثلما فعل «ديلاكروا» فى رائعته «الحرية تقود الشعب» عندما عرى ثدييها الممتلئين اشارة للخصوبة (والمرأة هنا هى فرنسا) وقبل كل هؤلاء فعلها مبدع تمثال «نصر ساموتراس» قبل مولد السيد المسيح بثلاثة قرون. وعلى الرغم من صلابة خامة الحديد فقد نجح «رزق» فى ابراز الايحاء بطراوة الثديين وجمال استدارتهما. وقد استغل الفنان امكانات الشرائح الحديدية الصغيرة فى خلق ملمس يشبه النسيج المخملى، تستقر فوقه كرات العقد الذى تتقلده المرأة. ولم يصرفنا اقتراب الفنان من النسب والتفاصيل الواقعية للمرأة وطيور الحمام عن الرموز التى كان حريصا على الاشارة اليها. وقد قام الفضاء المحيط بالتمثال بدور لافت فى الايحاء برمز «السماوات المفتوحة» والاتصال بثقافات العالم مع التمسك بالجذور القومية فى ذات الوقت .

امبراطورية الذهب
الاسرار والاباطرة

بقلم : حازم الخولى

ترى ايهما اجمل : المرأة ام الذهب الذى تضعه على صدرها ؟

ظل «الذهب» الغطاء الذى «يستر» الدول، والأفراد، عندما يصابون بضائقة مالية باعتباره استثمارا مضمونا، ينظرون إليه كحصن أمان فى أيام المحن والكوارث وذخيرة وسلاح يحمى الفرد والدول من الأزمات الحادة!

ولذلك ظل الذهب على عرش العملات على مر العصور، وصاحب الهيبة، تزداد قيمته عاما بعد عام، بل إن قوة الدول الاقتصادية كانت تقاس بحجم أرصدتها واحتياطيها من سبائك الذهب فى بنوكها المركزية.

ولكن فى السنوات الأخيرة بدأ عرش الذهب يهتز ويفقد بريقه بعد أن تعرض لهزات عنيفة والقرن العشرون يودع آخر أيامه، ففقد قيمته فى الأسواق وتراجع ولم يعد حصن الأمان لأولئك الذين يلجأون إليه خلال الأزمات والكوارث السياسية والمالية والعسكرية أيضا!

وقد تناولت صحيفة «الهيرالد تربيون» الأمريكية محنة الذهب وضياع هيبته فى الأسواق العالمية فذكرت أن اهتزاز عرش الذهب وفقده لبريقه بالنسبة لأولئك الذين يبحثون عن استثمار آمن أو ادخار لا تتآكل قيمته قد شكك فى قيمة هذا الحصن الحصين، فبدأ الكثيرون يبحثون عن بديل آمن، أو ادخار لا تتآكل قيمته، بل يزداد وزنا وقيمة.

ولقد ظل الذهب على مر العصور المعدن الذى يلهث الأفراد والمؤسسات بل الملوك والدول إلى اقتنائه لأنه نصير ودرع للوقاية من الأيام السوداء التى قد تواجه فردا أو شركة أو دولة.

وكانت البنوك السويسرية قد ملأت خزائنها الضخمة بكميات كبيرة من الذهب كغطاء لا مثيل له فى العالم ووصفت تلك البنوك بأنها «امبراطوريات الذهب»، وربما كان ذلك سر ثقة المودعين سواء كانوا حكومات أو مليونيرات فى تلك البنوك وليس كما يشاع أن الثقة فى البنوك السويسرية فى سريتها فقط، حتى هذه البنوك التى احتكرت الذهب واعتبرته ذخيرة قوية تسلح بها نفسها ضد الأخطار والتقلبات الاقتصادية المالية، صارت حريصة

وحذرة الآن فى النظر إلى مخزونها من الذهب على أنه أقوى استثمار ثابت لها أو ذلك السلاح القوى الذى يتم توظيفه للوقاية من الأخطار، صارت بنوك سويسرا وربما بدافع الحرص على مكانتها وسمعتها تنظر إلى الذهب على أنه استثمار خائن يجب الحذر منه هكذا صار الكل خائفا من أن يظل الذهب حصن الأمان، بل صاروا ينظرون إليه على أنه أسوأ استثمار فى نهاية القرن العشرين!!

هل معنى ذلك أن الذهب قد فقد عرشه، وفقد بريقه الجذاب المغرى؟

الإجابة نجدها فى تقلبات أسعاره وانخفاضها الكبير فى السنوات الأخيرة من القرن العشرين وهو يودع آخر أيامه!

الفراعنة والذهب

ولكن ماهى قصة الذهب؟

ظل الذهب على مر السنين ذلك المعدن النفيس الذى خلب الألباب ومات أو قتل من أجله الآلاف بل الملايين من البشر!

ويروى التاريخ أنه بينما كانت شعوب العالم تعيش فى «العصر الحجرى» أخرج المصرى القديم كنوز الذهب من بين طبقات تلك الأحجار فكان أول من عرف الذهب وأول من استخرجه وصنعه وصنع به حضارته الخالدة.

وللذهب وجهان: وجه الخير ووجه الشر:

وجه الخير الذى تزدهر به الشعوب وتبلغ أوج حضارتها، ووجه الشر الذى يجذب الغزاة والطامعين فيرتدون بحضارتها إلى عصور الاضمحلال. فبالذهب سادت حضارات.. وبالذهب بادت حضارات أيضا.

ويرى د. سيد كريم أن قدماء المصريين فى العصر الفرعونى كانت لهم أساليب علمية لاكتشاف مناجم الذهب وطرق استخراجه وتصنيعه حيث يقوم العلماء والباحثون بذلك حسب نظريات وتجارب علمية متطورة والتى اشتهر بها كهنة المعابد فى مختلف «علوم المعرفة المقدسة» التى ارتبط تفسيرها بكثير من الأساطير السحرية والرموز السرية والطلاسم الغامضة التى يحاول العلماء المعاصرون فى كثير من المعاهد العلمية الحديثة تفسيرها من منطلق تعريف كلمة سحر عند الفراعنة على صور التكنولوجيا الحديثة على أنها معادلات ونظرية علمية مؤكدة وقابلة للحل والتفسير لقد وصف الفراعنة الذهب فى متون سحر العقيدة «بأنه من لحم جسد الإله الذى لا يبلى ولايفنى ولاينطفىء

نوره» وهى الخصائص الفعلية لعنصر الذهب الذى لايصدأ ولا يتحلل ويحتفظ بلمعانه وقد اتخذ لونه من النور فلا يدخل ضمن ألوان الطيف المعروفة بل تتكون من إدماجها مجتمعة كما وصفته برديات المقدسات السحرية بأنه «أشعة نور» الإله رع المتجمدة التى أرسلها عند شروقه عندما يطل على أرض الشروق فتحتويها وتحفظها فى باطنها فى خزائن من البللور».

وقد ثبت تفسير تلك البردية علميا بوجود مناجم الذهب جميعها فى الصحراء الشرقية من وادى النيل سواء فى مصر أو بلاد النوبة كما وجدت عروقه دائما بين طبقات حجر الكوارتز الشفاف الذى يوصف بالحجر البللورى.

لقد ترك خبراؤهم بعض الخرائط الجيولوچية والجغرافية التى تحدد مواقع بعض المناجم وتخطيط مناطقها والتى ظهر منها ومن دراسة المناطق التى تحيط بها أنهم كانوا يحددون موضع المناجم وأماكن وجود عروق الذهب بالضبط وكانوا يعتمدون - كما يذكر أحد علماء الآثار الألمان - على البندول والذبذبات التى يطلقها كل معدن لاكتشاف أماكن وجوده كما هو الحال فى اكتشافهم لمواقع المياه الجوفية وآبارها بواسطة «الشوكة» وهى من التجارب التى لا يزال يمارسها بنجاح بعض رجال قبائل البدو فى الشرق وفى جنوب أمريكا.

وكانت مناجم الذهب وخاصة فى الدولة الحديثة تدل على قوة الملوك فكانت تنسب إليهم كمناجم رمسيس الثانى ومناجم امنحتب الأول ويصفها بعضهم بأنها هبة الإله لابنه الملك.

هذا وقد بدأ الإنسان التعامل مع الذهب ما بين ٧٠٠٠ سنة إلى ٣٠٠٠ قبل الميلاد فى مصر وشرق البحر الأبيض المتوسط حيث وجدت مصوغات ذهبية فى مقابر الملك توت عنخ آمون وفى مقبرة الملك (آور) وفى العاصمة السومرية الشهيرة وجدت أنفس الآثار والحلى، ومنها حلى الملكة (شعباد). وتضم قلائد وأقراطا وأساور وخواتم من الذهب مرصعة بالعقيق وغيره. وقد عثر على دبابيس وأشكال لرءوس ثيران زينت بها القيثارات، وكلها من الذهب أو الذهب الأزورد. وكان السومريون فى ذلك الحين مضرب الأمثال فى مهارتهم والمصريون القدماء فى صناعة الذهب.

ماهو الذهب؟

والذهب هو ذلك المعدن الأصفر البراق الذى يرمز إليه الكيميائيون بالحرفين (a.u)كما أن رمز الفضة هو (a.g) والذهب لا يتغير لونه بالانصهار

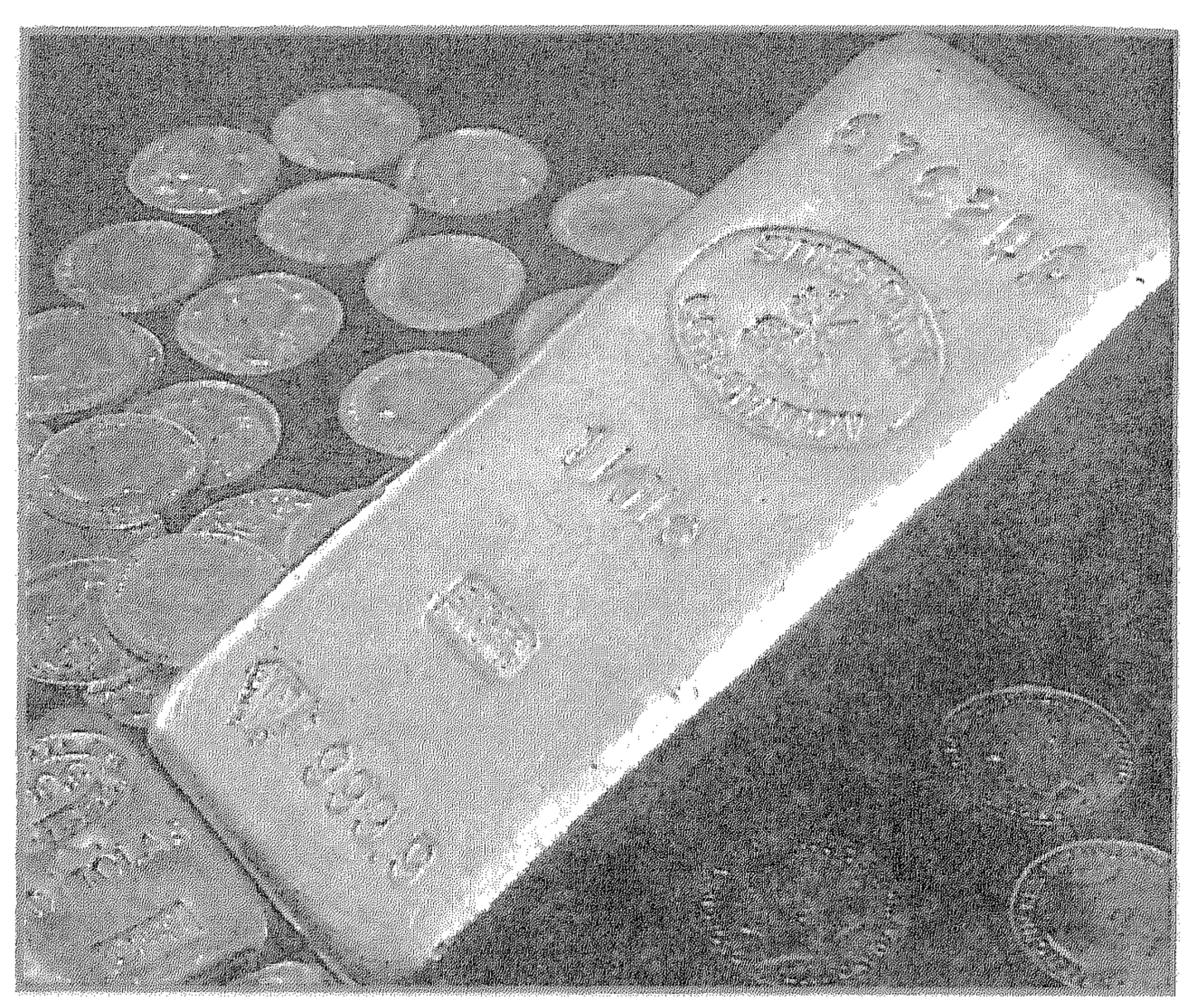


إنه يخلب الألباب .. ومات من أجله ملايين من البشر

كما لا يتأثر بالعوامل الجوية أو المواد الكيماوية، وهذا يهبه الخلود. وهو أكثر ليونة من أى معدن اخر ويمكن طرقه إلى صفائح شفافة تبلغ ألفا من البوصة الواحدة. وأوقية واحدة من الذهب يمكن سحبها على شكل سلك طوله ٥٠ ميلا دون أن تقطع.

ويختلط الذهب كما قلنا سابقا بمعادن أخرى تزيد صلابته. فاذا أضيفت إليه الفضة تزيده اصفرارا وإذا أضيف إليه النحاس يجعله يميل إلى الاحمرار. وهكذا يمكن اعطاؤه ألوانا خضراء وحمراء وبنفسجية وبرتقالية اللون.

وهو معدن ثقيل ثمين فقدم مكعبة منه تزن نصف طن وتقدر بملايين الدولارات. وللذهب استعمالات عديدة فهو ليس أساس النظام النقدى فحسب ولكنه يستعمل بكثرة فى حياتنا، فمن استعماله فى صنع سن القلم إلى



سبيكة من الذهب

استخدامه في الأجهزة الإليكترونية الدقيقة، ونظرا لما يتميز به هذا المعدن من طواعية وقدرة على توصيل الكهرباء ومقاومته للصدأ فانه يستخدم بشكل أساسي في صنع الآلات الحاسبة الصغيرة وأجهزة التليفزيون والحاسبات الاليكترونية (الكمبيوتر) علاوة على استعماله في طب الأسنان.

ويوجد في أماكن عديدة مختلطا بغيره من المعادن، مثل النحاس والفحم ولكنه بصورة اقتصادية يوجد على شكلين، إما في عروق ذهبية تكون في العادة موجودة في كسور قديمة بالصخور يبلغ عمرها ما يزيد على ١٠ ملايين سنة أو في شكل رواسب طينية محملة بالذهب، كانت محبوسة في بعض كتل صخرية تعرضت للمياه وفتتتها وسار الذهب مع تيار المياه وتجمع في بعض جيوب على ضفاف الأنهار على هيئة كتل أو كرات ذهبية صغيرة. ولكن

إذا حدث وغيرت تيارات المياه مجراها فإن الذهب يختلط بالحصى فى قاع النهر فى أنظار الباحثين عنه.

وفى الماضى كان استخلاصه يتم بواسطة مناخل مصنوعة من وبر الغنم ويقومون بحرق الوبر فيظهر الذهب لامعا تحت رماد الصوف.

هؤلاء والذهب

ولقد ارتبطت بعض الأسماء تاريخيا بالذهب فالملك (چيمس) أحد ملوك ليديا القديمة هو أول من سك النقود الذهبية عام ٦٥٠ ق.م وكان على أحد وجهيها أسد يمثل شعار الملك. وعندما اكتشف (كولومبس) أمريكا أرسل إلى بلدته إسبانيا قليلا من حبات الذهب ليطلعهم عليه. وعندما وضع (هرناتر وكورتيس) الإسبانى قدمه فى المكسيك ملأ الهنود خوذته بغبار الذهب. ولما دخل (فرانسيسكو بيزارو) مع أصحابه (بيرو) اعتبروها بلد العجائب حيث وجدوا الأثاث وكل الأشياء البسيطة مصنوعة من الذهب. وفى يناير ١٨٤٨م كشف (جيمس مارشال) الذهب فى أنهار كاليفورنيا. وفى العام الذى تلاه تجمع ٨٠ ألف رجل هاجروا نحو الغرب للبحث عن المعدن الثمين. وفى عام ١٨٨٠م عثر فى أستراليا على أكبر قطعة ذهبية وكانت تزن ١٦٠ رطلا.

ويحدثنا التاريخ عن مقبرة الملكة (بورباى) بالعراق القديم التى عثر فيها فى الألف الثالث قبل الميلاد على رداء من الذهب المنقوش يغطى الجزء الأعلى من جسم الملكة. ويعتبر كشف مقبرة فرعون مصر (توت عنخ آمون) الذى ينتمى إلى الأسرة الثامنة عشرة انفتاحا على عصر الذهب والمصوغات. وعندما فتح عالم الآثار (هوارد كارتر) أبواب مقبرة هذا الملك فى وادى الملوك بالأقصر كانت مكدسة بالذهب ووجد بها لوحة صغيرة بها تهديد بالموت لمن يمس ذهب الملك المصرى. وعرفت لعنة الذهب هذه (بلعنة الفراعنة) ومعروف أن قدماء المصريين قدسوا الذهب معتقدين أنه هبة إله الشمس (رع).

ويعتبر الملك المصرى (كروبوس) أول من خلص الذهب من الشوائب بحيث لا يبقى مختلطا بسبائكه سوى الفضة وقد قام بتأسيس أول دار حكومية لسك النقود من عام ٥٦٠ - ٥٤٦ قبل الميلاد.

وفى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر شهدت عمليات سك النقود قفزة هائلة وذلك باختراع مطابع النقود التى أخذت فى التطور حتى بلغت حدا كبيرا من الدقة فى عصرنا الحاضر.

ومعروف أن الأجيال الماضية من العلماء كانت تحلم بصنع الذهب من

المعادن الأخرى الرخيصة. وقد بذلوا جهودا كثيرة فى معاملهم المظلمة لإيجاد حجر (الفلاسفة) الذى يحول المعادن إلى ذهب.

واليوم بعد وجود (السيكلوترون) وهو جهاز تحطيم الذرة يمكن أن يتحقق هذا الحلم بواسطة الانشطار النووى. ولكن هذه العملية باهظة التكاليف، فضلا عن أن الحصول على كمية قليلة جدا من الذهب يكلف أضعاف استخراجه من الأرض.

استخدامات عديدة للذهب

وعلى الرغم من اتساع نطاق استخدامات الذهب فإن المجوهرات لاتزال - وهذا أمر طبيعى - تستأثر بحصة الأسد والتى بلغت نسبة ٨٢ر٠٧ فى المائة من إجمالى الكميات المصنعة فى عام ١٩٨٩م ولكن الواضح أن اتجاهات التسعينات وعام ٢٠٠٠ تشير إلى تحقيق المزيد من التطور فى استخدامات الذهب فى مجالات أخرى غير المجوهرات ولا سيما فى مجال الصناعة.

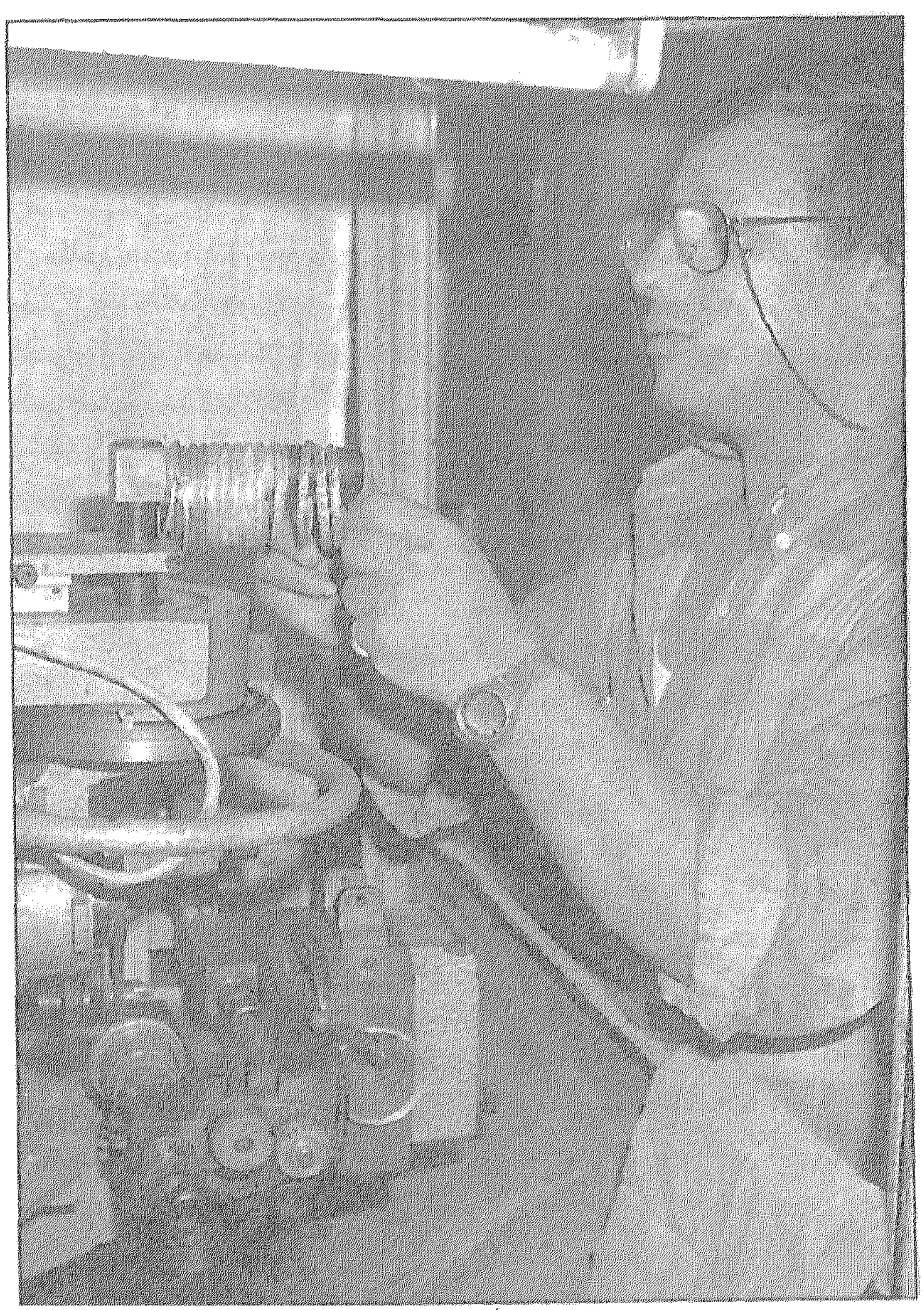
وقد احتلت الالكترونيات المرتبة الثانية فى الاستخدام (٦ر٢٦) فى المائة تليها النقود (٧٥ر٥ فى المائة) ثم طب الأسنان (٨٢ر٣) فى المائة.

ويبرز استعمال الذهب للأغراض الأخرى... غير المجوهرات فى الدول المتقدمة.

ففى عام ١٩٨٩ م مثلا بلغت استخدامات الدول المتقدمة ٣ر١٣٠ طن فى مجال الالكترونيات بينما استخدمت الدول النامية ٨ر١٧ طن فقط. واستخدمت الدول المتقدمة ٦ر٤٦ طن فى مجال طب الأسنان بينما استخدمت الدول النامية ٥ر٢ طن فقط ويعزى ذلك إلى الفارق الكبير بين المجموعتين على صعيد النمو والتقدم الصناعيين. لكن الواضح أن الدول النامية استخدمت فى عام ١٩٨٩م الذهب كميداليات (٨ر١٠) أكثر مما استخدمته الدول المتقدمة (٤ر٨) طن.

***

وبالرغم من أن أطراف مثلث القوة فى العصر الحديث هى النفط - الذهب - الدولار) ، واحتلال الدولار عرش الاقتصاد العالمى، إلا أن الذهب سيظل سلعة سياسية واقتصادية مؤثرة ستظل تستخدم بدقة بالغة فى مجال توازن السيولة المتاحة للتعامل الدولى العام، وسيظل رغم كل شىء سلعة أساسية لها أهميتها وقوتها رغم اهتزاز عرشه وبريقه الذى ظل متربعا عليه على مر التاريخ.



الصناع يتغيرون .. لكن أسرار الصناعة لا تزال غامضة



البريق .. والجوهر .. أكسبا الذهب قيمته على مر العصور

الذهـــب

تـاج المرأة عبر التاريخ

● ارتبـــاط المرأة بـالـذهـب ارتبـاط حـب ومـبـاهـاة !
● لماذا كـانت مقولة «المرأة تختبر بالذهب» ؟
● هل فـقـد الذهب عـرشـه ؟

●● كانت المرأة عبر التاريخ تحب الذهب لتتزين به وتباهى به الأخريات، لأنه يبرز جمالها، وفى الوقت نفسه يميز كل واحدة عن الأخرى من حيث المكانة والجاه .

وبسبب ارتباط المرأة بالذهب وشغفها به، أرجع بعض المفكرين سر ضعف المرأة بالنسبة للذهب إلى هذا الارتباط حتى قيل «المرأة تختبر بالذهب» .

فما هى قصة الذهب مع المرأة ورجال المال والملوك والبشر؟ ●●

المرأة والذهب

هناك ارتباط وثيق بين المرأة والذهب .. فالمرأة منذ القديم تتحلى بالذهب، ومن يتأمل مجوهرات المرأة الفرعونية ومجوهرات حريم السلاطين الأتراك يجد عجبا، وقد اشتهر القفطان التركى الذى كان يتميز بالأناقة لأن خطوطه فيها فخامة وتميز وله وجهان ومشغول بخيوط الذهب .

ولايزال «الذهب» في البلاد الشرقية بنداً أساسياً فى مهر العروس الذى لابد أن يشتمل على «الشبكة»، حيث أنها تتكون فى دول الخليج من طاقم مكون من قلادة وأسورة وقرط وخاتم متناسقة مع بعضها فى التصميم. وتختلف قيمة وحجم هذه الشبكة حسب القدرة المالية للزوج.

وفى السابق كانت العروس تحاط بهالة من البريق الذى يولده الذهب الذى ترتديه من رأسها حتى أخمص قدميها ، بالاضافة إلى ثيابها ووشاحها المحلاة بالخيوط والقطع الذهبية، كما كانت المرأة فى الخليج خاصة فى دولة البحرين تتزين بلف خصرها بالحزام الذهبى «والمفيم» وهو عبارة عن نوع من القماش المثبتة عليه قطع الذهب المختلفة الأشكال، وكذلك كانت «العبايات» أو «الدفة» تحلى «بالعلمية» وهى عبارة عن حلية ذهبية توضع فى منتصف العباءة وتأخذ شكل الكمثرى تتدلى منها خيوط ذهبية تسمى «الكركوشد» ،ومن بين حلى الثياب أيضا «الزرار» وهو عبارة عن أزرار ذهبية تختلف أشكالها واحجامها للنساء من الرجال والأطفال وبحسب المناسبات.

وفى سوريا يشتهر الصاغة السوريون بجودة وتنوع أشكال الحلى التى يصنعونها ويبرز بينهم صاغة دمشق وحلب، وفى أغلب المدن السورية هناك أسواق خاصة بالصاغة، ففى دمشق مازال سوق الصاغة القديم يعمل به الصاغة ومحلاتهم موجودة بجانب سوق الحميدية وسوق البزورية.

وما يصنعه الصاغة حاليا فى سوريا من حلى ذهبية هو اعتداء لتراثهم وللأشكال التى عرفها الأجداد مع تطوير فى هذه الأشكال بما يتناسب وتطور العصر، ومعظم الأشكال الحالية للحلى هى للعنق والجيد والصدر والقلائد وحلى اليدين والرأس والزنانير والأذن، وهناك أحزمة مصنوعة بطريقة الخياطة تستعمل فيها «أسلاك ذهبية تحاك أو تبرم بشكل نسيج الكتان وتبدو رائعة فى صياغتها، ولكن هذه المصوغات أصبحت تراثا من الماضى، أما حاليا فالنساء يرغبن فى اقتناء الأطواق المزخرفة الملونة والأساور المتعددة وأحيانا أسورة عريضة واحدة ، فالمصوغات أصبحت مثل الملابس حسب الموضة.

الذهب الهندى

وتشتهر المجوهرات الهندية برخص أسعارها رغم جودتها ، وقد ارتبطت الحلى الهندية بعادات وتقاليد وتراث الهند الثقافى والجمالى.

هناك مثلا قطعة حلى مميزة عبارة عن أسورة ذهبية حول الرسغ ، وتمتد لتغطى ظهر اليد، وتتصل بخواتم حول الأصابع، وهذه القطعة استخدمها المسلمون فى الهند لتغطية اليد، كذلك عادة يستخدمون الحلى فوق الرأس من الذهب أو الفضة حسب درجة الثراء، وهناك أشكال تراثية من الحلى لم تعد منتشرة مثل الحلى حول الخصر، ولكن الغالب حاليا هو ارتداء الحلق فى الأذنين، وسلسلة حول العنق وسوار حول الرسغ، وسلسلة أو «خلخال» حول القدم كحد أدنى ، وعدم ارتداء المرأة الحلى معناه أنها فى حداد ، فالهنديات لا يهتممن بالمكياج بقدر اهتمامهن بالذهب!.

وتشتهر المجوهرات الهندية بأشكالها الجميلة المتنوعة، فالمشغولات الذهبية الهندية، مطعمة بالفصوص من الأحجار الكريمة، والنصف الكريمة من الياقوت والزمرد و الزفير.

قصــة قصيــرة



بقلم: شذا برغوث - سوريا - دير الزور

بريشة الفنان: صلاح بيصار

فضول شديد دفعني في ذلك اليوم لدخول مسكن الخادمات . أردت مشاهدتها أثناء استراحة الظهيرة ، هل تستريح مضطجعة مثلنا؟!

أم تستريح واقفة؟

أم ترفع رجلا وتبقى الأخرى على الأرض كبعض الطيور .

تلك المرأة الفلبينية التي تعمل في فيللا صديقتي التي تسكن في بلد عربي شقيق ، والتي دعتني لزيارتها حين طفح مكيال الشوق لديها ورنت أجراس الحنين لصديقة العمر التي باعدتها الأيام عنها .

«بسم الله ماشاء الله» اللهم لا حسد ، هذا ما رددته في سرى عند دخولي فيللا صديقتي الفخمة .

لقد بهرني جمال الفيللا ومساحتها الواسعة ، كما بهرتني أشياء أخرى وأنا أقضي أروع اجازة مع أعز صديقة .

فالحديقة المنسقة والطوابق الثلاثة التي خصص أحدها لألعاب الأطفال وأجهزة الكمبيوتر وأجهزة الرياضة وغرفة الخياطة .

وخصص الآخر للجلوس والضيافة والمطبخ، والآخر من أجل النوم بالإضافة الى سكن خاص بالخدم/ والسواق/ كما يسمونه والجنايني .

طلباتي تجاب قبل أن أتكلم .

كنت كمن يزور متحفا ، فأي أثاث وأي شيء آخر كان غريبا بالنسبة لي فقد استمتعت بمشاهدة تلك الأشياء وخصوصا/ مزينات/ الأواني المنزلية المستوردة من بقاع الأرض والتحف الرائعة التي يسيل لها لعاب أية امرأة لا تمتلكها.

كانت التحف موجودة حتى داخل الحمامات الأربعة والتي لم أشاهد مثلها حتى في أرقى الفنادق.

كان بإمكانك أن تقضي عطلة نهاية الأسبوع في الحمام دون ملل ، فالزهور والمرايا وأدوات الزينة وأنواع العطور والمسجل والمجلات ، والسجادات الملونة .

كل ذلك بنظام بديع ونظافة تامة وجو معطر .

كثر ترداد‌ي لجملة/ اللهم لا حسد/ وأتمتم متابعة بسري ولا مانع من أن تخصنا ولو بجزء بسيط .

كل شيء في مكانه المخصص وأنيتا في كل مكان رائحة غادية تلبي الطلبات أو تقوم بأشياء تعرف مسبقا أنها من ضمن مهامها .

فهي رئيسة الخادمات، تتلقى الأوامر شخصيا أو بواسطة جهاز الهاتف فتقوم بالبعض وتوزع الباقي على مساعدتها .

.. قامة قصيرة وقدمان صغيران وثوب نظيف ، تتحرك بسرعة قياسية فيتحرك شعرها الأملس الفاحم على عكس حركة قدميها .

ابتسامتها المرسومة لايتغير نمطها أبدا تكرر

نفس الكلمات على الدوام: يس مدام، شو كمان، حادر حادر .

«ربوت» بشرى كما فى بعض أفلام الخيال العلمى لاسيما وأن عينيها الصغيرتين تبدوان كأن لا حركة فيهما وأنفها الأفطس يمنحها جمودا أكثر وأكثر .

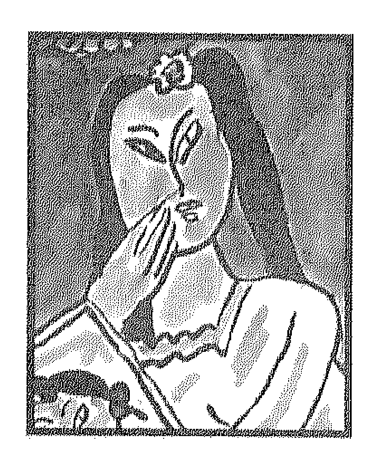
نقرت على باب الغرفة الأولى ودخلت ، كان فيها اثنتان من الخادمات كانت الأولى واقفة ، وتبعتها الأخرى وقد بدا على ملامحها استغراب شديد إذ لم يسبق أن زارهن أحد من قبل .

قالت الأولى :/ يس مدام - فى شى/.

- ابتسمت لها بمودة وأجبت . أبدا لا شىء . إنها زيارة فقط .

ابتسمت بتحسب - تراجعت للخلف - أشارت بيدها - فتحت فاها ، همت أن تقول تفضلى - بدت على حيرة شديدة.

هل يصح أن أتفضل فى غرفتها ؟! ثم قررت السكوت ، استأذنت



مبتسمة وهى مازالت مشدوهة .

نقرت على باب الغرفة الأخرى متمنية أن تكون غرفة أنيتا .

حين لم يجبنى أحد ، فتحت الباب

كانت متكومة على الأرض وقد غطت وجهها بكفيها وانسدل الشعر الأسود الناعم الى الأمام مغطيا الوجه والكفين معا نبهتها الى وجودى فرفعت رأسها بتثاقل وقد احمرت عيناها وبين أصابعها صورة فوتوغرافية صغيرة .

مسحت عينيها ورددت بآلية :/ يس مدام - فى شى/ .

لم أستطع الابتسام، اقتربت منها ورددت نفس كلماتها لتفهمنى/ خير أنيتا فى شى/ .

ولشد ما أزعجنى فى تلك اللحظة الضعف الذى أعانيه فى اللغة الإنجليزية إذ كان بودى لو عرفت مشكلة أنيتا وحاولت التخفيف عنها.

مددت يدى الى الصورة فناولتنى إياها كانت لطفلة فى الثانية عشرة شديدة الشبه بها إلا أن طفولتها منحتها حيوية أكثر .

- هى ابنتك أليس كذلك ؟

- هزت رأسها دون كلام .

قدرت أن يكون شوقها لابنتها هو مادفعها للبكاء .

ربت على كتفها بكل الكلام الذى لم أستطع توصيله اليها وخرجت .

- أين كنت ؟ استقبلتنى صديقتى وقد كانت تبحث عنى .

- كنت فى زيارة أنيتا.

- لماذا لم تستخدمى الهاتف وهى تحضر إليك؟

- أجبتها بسؤال:

- ما قصتها مع

ابنتها ؟ لم أفهم شيئا ؟!
بدت متأثرة ولم تجب.

- إذن هناك حكاية؟.

- بعدين - بعدين غيرى الموضوع .

- أرجوك أريد أن أعرف .

فحكت لي قصة أنيتا بتأثر شديد قالت:

عندما استخدمنا أنيتا عن طريق مكتب التشغيل ، كانت مستوفية لكل الشروط فلا هى حامل ولا مرضعة ، فقط لديها ولدان ذكران قد جاوزا سن الفطام .

وكانت ربة بيت ممتازة تتقن كل مايمكن أن يطلب منها ، كذلك هى خبيرة بشئون الأطفال .. فكان حظنا معها رائعا وقد أثبتت جدارة بعد التجربة فكافأتها بشهر اجازة اضافى ، فكانت تذهب الى بلدها كل ستة أشهر بدلا من الذهاب كل سنتين حسب النظام .

تذهب الى بلدها فترجع أكثر قوة ونشاطا.

وقد مضى على عملها عندنا اثنا عشر عاما وكل شيء على مايرام الى أن وصلتها يوما رسالة على غير موعدها .

فتحتها باضطراب وكأن شيئا فى داخلها قد أنبأها بمضمون الرسالة.

قرأت على عجل - امتقع لونها - رمت بالورقة .

وقد جحظت عيناها.. راحت تولول وتلطم وجهها وتدور حول نفسها كحيوان جريح ونحن من حولها مشدوهين .

ركضت إليها أمسكت بها ماذا هناك؟ أخبريني،

ابنتي .. ابنتي مدام لقد غرقت فى النهر .

- ظننت أنها جنت إذ ليس لديها ابنة .. عرفت ما جال بخاطرى .

تكومت على الأرض



تصرخ «خلاص .. خلاص .. بقى بس ولدان» لقد كذبت عليك مدام فقد كان عمر ابنتي شهرين عندما أتيت لأعمل عندكم ولم أعلمكم لحاجتى الماسة الى العمل «سامحينى مدام» .

منحناها شهرا اجازة وهذا ما استطعنا تقديمه لها كعزاء .

دوار وغثيان . خوف ورعب ، وجوه بشعة مرعبة ذات أنياب وأكف كبيرة بأظافر حديدية - تقلصت على نفسى كطفل تاه عن أمه . لفت الأشياء والأفكار فى رأسى بسرعة عجيبة - تفرقت - تزاحمت - اختلطت الفيللا - بيتى - الخدم - السيارات - زوجى - أطفالى - صديقتى - أنيتا - أنا - الطفلة تراخيت على المقعد - امتلكت زمام نفسى - رتبت الصور أعدت/ تنسيقها - أعجبتنى صورى القديمة.

نهضت أعد حقائبى وألف سؤال على شفتى صديقتى .... من غير جواب.

سينما عقلية

لا تقول شيئا !!

بقلم : مصطفى درويش

ما إن اقترب شهر الصيام من الختام، حتى سارع أصحاب الأفلام إلى حجز دور السينما الممتنعة عن عرض أى فيلم جديد، انتظارا منها للإعلان رسميا عن رؤية هلال العيد السعيد .

وبطبيعة الحال، كان لأصحاب الأفلام المصرية الأفضلية، بحكم القانون، فى حجز هذه الدور بدءا من وقفة العيد.

ولأمر ما، اقتصر احتكار جميع دور السينما، بطول وعرض البلاد، علي أربعة أفلام، لاتزيد .

وهذه الأفلام المحظوظة هى «النمس» المخرج على عبد الخالق صاحب «أغنية على الممر» فى سالف الزمان، و«بونو بونو» لنفس المخرج، «وهاللو أمريكا» لمخرج «عادل إمام» المفضل «نادر جلال»، ثم «جنة الشياطين»، لصاحبه «أسامة فوزى» المخرج الشاب.

ولعلى لست بعيدا عن الصواب إذا قلت إن فيلم المخرج الشاب كان أقل الأفلام الأربعة حظا من ناحية الإيرادات . ولا غرابة فى أن يكون حظه عاثرا .

فبطله «محمود حميده» لانراه، طوال الفيلم، إلا جثة هامدة ولانه ميت، لم ينطق لسانه بكلمة واحدة، وإن كان شاء، مستغلا أنه منتج الفيلم، أن يخرجه من فمه، مرة يتيمة، ولثوان،


محمود حميده فى جنة الشياطين

ربما على سبيل الدعابة، أو ربما من باب السخرية والاستخفاف بعقول المشاهدين الذين عبثت بهم الأقدار، ولمدة تسعين دقيقة من عمر الزمان.

● سر الحظ العاثر

وحسب تجربتى مع الأطياف المتحركة فى الظلام على الشاشات البيضاء، لم أصادف بطل الفيلم، أو غيره، جثة هامدة، إلا لمدة قصيرة، لاتزيد على بضع لحظات.

ويحضرنى هنا طيف «چوچيليس» الذى لعب دوره «ويليم هولدن» فى «شارع الغروب» حيث نراه فى بداية الفيلم، جثة طافية فى مسبح، ونسمع صوته يحكى لنا، نحن المتفرجين، كيف آل به الحال جثة فى المسبح، برصاصات انطلقت من غدّارة «نورماديزموند» نجمة السينما الصامتة المجنونة بحبه، فأردته قتيلا.

(عن أدائها لدور تلك النجمة التى تعيش أسيرة شهرة ومجد ماض زال مع مجىء السينما المتكلمة، جرى ترشيح «جلوريا سوانسون» لأوسكار أفضل ممثلة رئيسية «١٩٥٠»).

وعلى كل، فمع حكى الجثة الذى لايدوم سوى ثوان. يعود «جو» القتيل

حيًا ، فنراه يتحرك وسط أحداث قصة حب مستحيل، تروّعنا بنهايتها الفاجعة، جثة كاتب السيناريو «جو» طافية فى مسبح النجمة المجنونة «نورما» .

كل ذلك أقوله بشيء من التطويل، لأدلل به على أن بقاء البطل جثة بلا حراك، طوال عرض الفيلم، أمر غير مسبوق، ولامقبول من جمهورنا، أو أى جمهور آخر .

ومن هنا حظ «جنة العفاريت» العاثر مع الإيرادات، فرغم خروجه من مضمار التنافس فى مهرجان دمشق السينمائى الأخير (١٩٩٩) متوجا بجائزته الكبرى .

ورغم الإشادة به من قبل حشد كبير من النقاد. فإن الجمهور أحجم عن مشاهدته، ولا أدل على ذلك من أن إيراداته فى إحدى دور السينما الجديدة لم تتعدّ أربعة وعشرين جنيها.

وفيما عداه، أى «جنة الشياطين»، فأفلام العيد الأخرى من ذلك النوع السائد فى هذه الأيام، أى نوع الملهاة الذى لايقصد من إنتاجه سوى دغدغة الحواس.

ففيلم «أسامة فوزى» عمل سينمائى حاول أن يكون جادا، أى استثناء من أفلام العيد، ولكن خانه التوفيق.

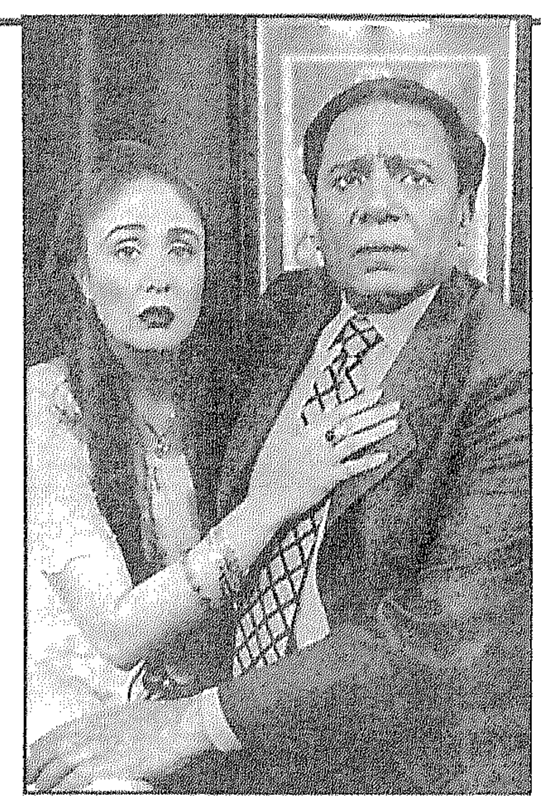
فهو، كما تقول عناوينه، مأخوذ بتصرف كبير من رواية للأديب البرازيلى ذائع الصيت «جورج أمادو» اسمها فى الأصل «الرجل الذى مات مرتين».

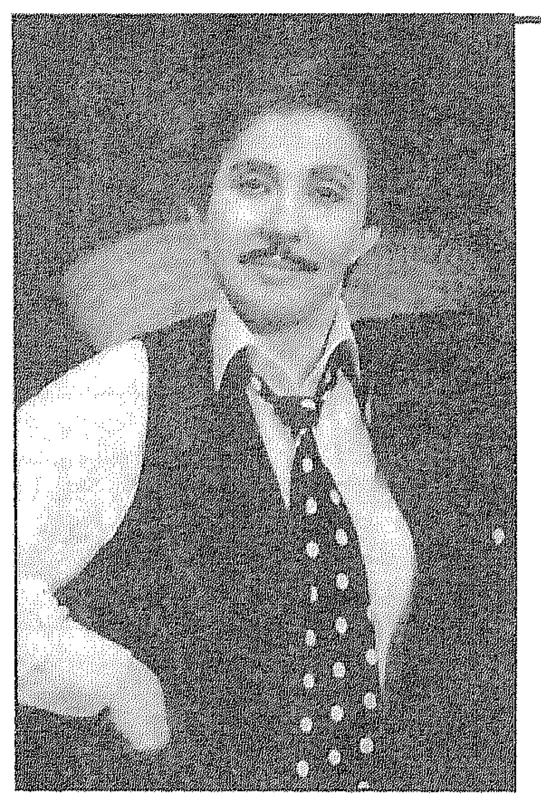
التشويه لماذا؟

والحق أنه فيلم غريب، خارج عن المألوف فى كل شىء، يكاد يكون وحيد نوعه.

ومن بين غرائبه الكثيرة، فضلا عن بطله الميت بلا انقطاع، قول كاتب السيناريو «مصطفى ذكري» إنه كان لابد من خيانة رواية «أمادو»، واستعماله كلمة تشويهها فى العناوين.

وافتخاره بإدخال تفاصيل بديلة لبعض تفاصيل الرواية، أبرزها «سنّتا


بخيت وعديلة فى أمريكا


نادية الجندى فى بونو بونو

طبل».

ويقصد «ذكرى» «بسنّتى طبل» السنتين الصناعيتين فى فم الميت اللتين قام أحد شياطين الفيلم الثلاثة بخلعهما، أو بمعنى أصح سرقتهما، بوهم أنهما من الذهب الخالص.

فتفصيلة السنتين هذه ليس لها أى وجود فى رواية أديب البرازيل الكبير .

وعندى أنها إضافة عبثية، لاتعنى شيئا .

ومن بين ماحكى عنها، فى باب الإشادة، أن بطل الفيلم «حميده»، ضحى من أجل تحقيقها بسنتين طبيعيتين وياليته ماضحى، واحتفظ بهما سنتين عزيزتين، من بقايا الزمن الجميل.

ولو استثنينا «حميده» و «لبلبة» والمصور «طارق التلمسانى» فجميع من شاركوا فى صنع الفيلم بدور كبير من الشباب .

«فسرى النجار» و «عمر واكد» و«صلاح فهمى» و«كارولين خليل» من جيل جديد، ذى طابع خاص فى الأداء.

ومؤلف الفيلم «خالد مرعى»، هو الآخر شاب وكذلك الأمر بالنسبة لكاتب السيناريو والمخرج، فكلاهما فى مقتبل العمر، وكلاهما ليس فى رصيده قبل «جنة الشياطين»، سوى فيلم واحد «عفاريت الأسفلت» .

والبادى من ذلك الرصيد المتواضع أن كليهما مولع برصد حياة الهامشيين.

وهذا لايعيبهما فى شىء، فالهامشيون ناس من الناس والعرض لحياتهم فى لغة السينما من طبائع الأمور، كما هو الحال فى لغة الأدب، وذلك بحكم وجودهم فى المجتمع، وبحكم أن عددهم فى ازدياد، ومشاكلهم فى ظل رأسمالية منتصرة ومتوحشة معا، تزداد تأزما وتعقدا على مرّ الأعوام .

ولسوء الحظ لم يعرض السيناريو لحياتهم من هذه الزاوية، وإنما عرض لها على النقيض من ذلك تماما .

غموض ووضوح

فحياة الشياطين الثلاثة، وبانعتى الهوى، وهم جميعا هامشيون، تمر أمام أعيننا على نحو بدت معه وكأنها حياة مثلى، علينا أن نسعى إليها، نعيشها، فيما لو كنا نريد حقا التحرر من أغلال مجتمع عفن، متزمت، حبيس تقاليد بالية، ورهن عادات عفا عليها الزمان.

ومما يؤخذ على السيناريو أنه دار، مع الأسف، حول معان و دون أن يقدمها لنا بجلاء ومنطق واضح، يترتب لاحقه على سابقه .

فالشياطين الثلاثة يفاجأون بأن الميت المتشرد منتم إلى أسرة عريقة، فيحملون جثته إلى حيث كان يقيم، وذلك قبل فراره من أسر الأسرة، إلى حيث التشرد والتحرر، تحت اسم مستعار «طبل» استبدله باسمه الوقور «منبر رسمى» المدون فى شهادة الميلاد.

وابنته التى لاتقيم وزنا إلا للمظاهر وكلام الناس، ها هى ذى، بعد استلام الجثة، تعدّ العدّة لجنازة تليق بمقام الأسرة، وجلال الموت .

وفجأة ، ودون أى تمهيد، إذا بالشياطين الثلاثة يعودون إلى بيت الميت، حيث يقومون باختطاف جثته، دون أن تحرك الابنة ساكنا .

أما لماذا حدثت العودة والاختطاف ورضوخ الابنة، فذلك ماسكت عن بيان حكمته السيناريو.

وهكذا، غادرنا دار السينما، ونحن نضرب أخماسا فى أسداس، لانعرف سبب تصرف الشياطين والابنة على النحو سالف البيان .

هذا الغموض الذى شاب «جنة الشياطين»، وهو عيب، ولاشك ، جسيم، جاء فيلم «البرتقالة الآلية» غير مشوب به، متحرراً منه تماما.

والسؤال ما الصلة بين فيلم من إبداع المخرج الراحل «ستانلى كوبريك» وبين «جنة الشياطين»؟

الصلة تنحصر فى أن كلا الفيلمين قد جرى عرضه فى وقت متقارب الأول بُعيد العيد (١٧ يناير) والثانى مع أيام العيد، وفى اعتقادى أن عدد من شاهد برتقالة «كوبريك» الآلية فى العرضين اللذين جرى إقامتهما فى الملتقى الثقافى السينمائى بالمجلس الأعلى للثقافة يفوق عدد مشاهدى «جنة الشياطين».

كما أن كلا الفيلمين يعرض لحياة المهمشين، وكلاهما مستوحى من رواية لأديب عالمى، «البرتقالة الآلية» من عمل أدبى للروائى الإنجليزى «انطونى بيرجيس»، و «جنة الشياطين» من عمل أدبى للروائى «أمادو» .

«فكوبريك» أقام رائعته حول فكرة رئيسية، جوهرها حرية الاختيار .

إبداع وإقناع

والسؤال الذى طرحه هو «هل حرية الاختيار حق لكل إنسان؟».

وعلى السؤال أجاب «كوبريك» بنعم واضحة، غير قابلة لأى تأويل، حتى بالنسبة لشخصية هامشية، كريهة، مقززة، مثل «أليكس»، بطل الفيلم الذى قام الممثل الإنجليزى «مالكولم ماكدويل» بأداء دوره خير قيام .

«فأليكس» يعبّر فى الفيلم عن السلوك المعادى للمجتمع فى أبشع

صــور ذلك السلوك الذى يجنح إليــه بعض المهمشين فى أكثر من حين.

ومع ذلك ، تبنى «كــوبريك» طوال فيلمـه الرأى القـائل بأن حق المرء فى الاختـيـار، حـتى لو كـان منطويا على معاداة المهمش للمـجتمع، يفضل فى الأهمية حق المجتمع فى حماية نفسه.

«فـاليكس» وإن كـان فـتى منبـوذا، إلا أن جـمـهور المشـاهـدين يميل، تحت تأثير أسلوب كوبريك، إلى التـعـاطف معه، رغم شخصيته غير السوية.

فبفضل توظيف الإضاءة والإظلام، نجح «كــوبريك» فى إظـهــار «أليكس» بمظهـر الفـتى البـرىء، المجنى عليـه، بواسطة نظام حكم ، قاسٍ، لايرحم.

وأجـهزة تعمل على التحول به إلى إنسان أليف، سهل الانقياد، عاجز عن الاختيار.

باخــتــصــار إنســان كفّ عن أن يكون إنســــانا وليس من شك أن «البـرتقـالة الآليــة»، بفـضل الجـلاء والمنطق الواضح القــائم عليــهـمــا السيناريو، يعد، وبحق خير مثال على أسلوب صاحبه فى الإبدا ع والإقنا ع.

وهذا مـا يفـتقده «جنة الشيـاطين»، وكان سببا فى عدم التواصل بينه وبين جمهور المشاهدين.

والآن إلى أفــلام الملهـاة لأقـول إنه ليس غـريبـا أن يكون «النمس» بطولة «مـحمـود عبدالعزيز» و «هاللو أمـريكا» بطولة السـفـيـر «عـادل إمـام» من ذلك النوع من الأفلام.

فكلا النجـمين، خاصـة السفـير من ملوك الضـحك، مافى ذلك شك.

الغـريب حـقـا أن يكون «بونو بونو» بطولة «نـادية الجندى» من ذلك النوع، وأن تدخل بطلتـه فى منافسـة مع من؟ نجم فى حجم السفير عادل إمام.

الشوق والحنين

ولو استرجعنا على شاشة ذاكرتنا أفـلام نـجـمـة الجـمـاهـيـر، لما بدا الأمـر غريبا.

فقبل ستة عشر عاما، لعبت الدور النسائى الرئيسى أمام السيد السفير فى «خمسة باب»، ذلك الفيلم الكوميدى الذى صـدر قـرار من الرقـابة بسـحب

الترخيص بعرضه، بمقولة إنه يسيء إلى سمعة البلاد.

وتنفيذا لذلك القرار الجائر استمر «خمسة باب» ممنوعا من العرض العام زهاء عشرة أعوام .

ولولا حكم صادر من المحكمة الإدارية العليا بمجلس الدولة لصالح فيلم آخر جرى سحب قرار الترخيص له بالعرض العام مع «خمسة باب»، ألا وهو «درب الهوى»، ولولا ذلك، لما استرد فيلم «نادية – إمام » حقه في العرض العام، حتى يومنا هذا .

إذن فنجمة الجماهير ليست غريبة على عالم الملهاة، وذلك بحكم ذلك الماضي البعيد .

ولقد شاءت أن ترتد إلى ذلك الماضي في «بونو بونو»، ربما انطلاقا من الشوق والحنين.

وفي فيلمها الأخير لانراها، بدءا من لقطات قيامها بتغيير ملابسها وزينتها في دورة مياه أحد الفنادق الكبرى، إلا وهي متنكرة في صورة رجل ذي شنب، مرتد ثياب الرجال .



محمود عبد العزيز في فيلم النمس

وتظل على هذا الحال زمنا طويلا.

اختيار صعب

أما لماذا تنكرت على هذا النحو، فذلك لأن الفيلم بدأ بها هاربة من معزل للمجانين.

وفي محاولة منها لتضليل مطارديها، اختارت التخلي عن أنوثتها إلى حين .

وهو اختيار صعب، لأن محاكاة المرأة للجنس الخشن بالتنكر على نحو تبدو معه وكأنها رجل، أكثر صعوبة من محاكاة الرجل للجنس اللطيف.

ومن هنا، كثرة الأفلام حيث يحاكي الرجال النساء، وندرة الأفلام حيث تجرى المحاكاة على النقيض من ذلك.

ولعل «البعض يحبونها ساخنة» رائعة المخرج «بيلي ويلدر» واحد من

أشـهـر أفـلام النوع الأول، وأكـثـرها نجاحا وصمودا لعاديات الزمان .

ففيه نرى «جاك ليمون» و «تونى كورتيس» متنكرين، متـزينين مـثل النسـاء، مـتسللين إلى عـربة نوم فى قطار، منحـشـرين وسط فـرقـة من العازفات، بينهن «مارلين مونرو» نجمة الإغراء .

وبفـضل هذا التنكر والاختـفـاء تكتب لهما النجاة من مطاردة عصابة من غلاة الأشرار .

أمـا أشـهـر أفـلام النـوع الثـانى، فلعله «فيكتور .. فيكتوريا» لصاحبه المخـرج «بليك أدواردز»، زوج نجـمـة «صـوت الموسـيـقى» «جـولى اندروز» التى تلعب فى فـيلم زوجـهـا دورين، فـهى تارة «فـيكتـور» وتارة أخـرى «فيكتوريا».

والفيلم يبدأ بها مغنية، تبحث عن عـمل فى مـلاهى الليل. وبعـد عناء، عثرت على عمل، ولكن بشرط ارتضته اضطرارا . أن تزعم أنهـا رجل، وذلك الرجل فى وسـعـه الظهـور فى الملهى بمظهـر امرأة، تغنى مثلما تغنى النساء!!

«ويونو بونو» والحـالة هذه، فـيلم قـوامه المفارقـات الناجـمة عن تخـفى بطلته فى صورة رجل، مثلها فى ذلك مثل بطلة «فيكتور... فيكتوريا»، ولكن مع فارق أراه كبيرا .

«فنادية» الرجل سرعان ماينكشف أمرها، ولما يصل الفيلم إلى منتصفه، فتعود نجمة حركة حسناء، مطاردة من الأشـرار، ومنتـصـرة عليـهم فى نـهـاية المطاف، ولصالح الوطن العزيز، بطبيعة الحال.

أما كيف طوردت، وكيف انتصرت، فذلك أمر يطول فيه الحديث.

كـمـا أن الخـوض فى تفـاصـيل المطاردات والانتـصـارات ليس فـيـه مايفيد .

فـالسـيناريو ملىء بالثـغـرات، وصاحبه لايكل ولا يملّ من الانتقال بنا من شىء سـخـيف إلى شىء أكـثـر سخفا .

وياحـبذا ، لو حـاول «أحـمـد البـيه»

صاحب السيناريو، أن يتعلّم من سيناريوهات أفلام مثل «البعض يحبونها ساخنة» و«فيكتور.. فيكتوريا».

خطر التكرار

ومن الحق على أن أتوجه بنفس النصيحة إلى «عصام الشماع» و «لينين الرملي» كاتبي سيناريو «النمس» و«هاللو أمريكا» فكلاهما يتهدده خطر التكرار، وهو خطر لو يعلمان عظيم ومن بين أسبابه الاستعجال والاستسهال.

وكلا العيبين نراه واضحا فى فيلم السفير إمام الأخير فلم تكد تمض سوى بضعة أسابيع على إعلان ماحققه «همام فى أمستردام» من إيرادات فاقت كل التوقعات، حتى كان سيادة السفير مستقلا الطائرة، مع طاقم سينمائى كبير .

ولم تكن الطائرة متجهة إلى أوروبا، وإنما إلى العالم الجديد، وبالتحديد إلى نيويورك، تلك المدينة التى كان لها اسم آخر «نيوأمستردام»، وذلك قبل انهزام جيش ملاكها الهولنديين أمام الجيش البرَيطانى فى النصف الثانى من القرن السابع عشر (١٦٦٤) .

أما لماذا سافر سيادة السفير إلى نيويورك، نيوأمستردام سابقا، فذلك لتصوير «هاللو أمريكا» فيلمه الجديد وهو فى مفهوم صانعيه تكملة لفيلمين سابقين، اقتسم بطولتهما «بخيت - إمام» و«عديلة - شيرين» .

وفيما عدا اللقطات الأولى، فجميع مغامرات «الثنائى بخيت - عديلة»، لاتدور إلا فى نيويورك - سابقا نيورأمستردام.

وكما تقول العناوين، فقصة وسيناريو وحوار الفيلم من تأليف «لينين».

عطر الماضى

والفيلم خاصة حواره، ينطوى على بقايا من عطر الإبداع الذي عهدناه فى أعمال سابقة للينين.

وباستثناء ذلك، فالفيلم خال من أى تسلسل منطقى، زاخر بصنوف من المبالغة والافتعال .

فضلا عن الاستسهال المتولد عن

الاستعجال، لا لسبب سوى لزوم عرض الفيلم فى العيد .

هذا، وليس أدل على المبالغة والافتعال من مشهد انسكاب «المش» على أرض الطائرة، لحظة هبوطها فى مطار نيويورك، فإذا ببخيت وعديلة متهمان بالإرهاب، على أساس أنهما كانا على وشك التسلل داخل الولايات المتحدة، ومعهما مادة سامة، كافية لإبادة الملايين .

وإذا برجال مكتب المباحث الاتحادية يجرون التحقيق معهما، بوصفهما من غلاة الإرهابيين، المهددين، بواسطة أسلحة الدمار الشامل لأمن وسلامة سكان أرض الأحلام .

أين عقله ؟

والمشاهد التي من هذا النوع كثيرة إلى درجة الإملال.

فعلى سبيل المثال هل يعقل، حتى لو كان الفيلم هزليا، وبحكم ذلك يغلب عليه التهويل بطبيعة الحال، هل يعقل أن تصدم «بخيب» سيارة فلا يصاب.

ومع ذلك، يرفع دعوى على سائقة تلك السيارة.. مطالبا فيها بتعويض لايقل عن خمسة عشر مليون دولار.

فإذا ما اكتشف أن السائقة المتهمة ابنة مرشح الحزب الديمقراطى فى انتخابات الرئاسة الأمريكية، سارع برفع التعويض إلى ثلاثين، فأربعين، فخمسين، حتى وصل به إلى مائة مليون دولار، بفضل مزايدة استغل فيها الصراع بين مرشحى الحزبين الديمقراطى والجمهورى، المتنافسين على كرسى رئاسة أغنى وأقوى دولة فى عالمنا .

كل ذلك، ومرشح الحزب الديمقراطى للرئاسة، والد السائقة الحسناء، شبه مستسلم لابتزاز، أو بمعنى أصح ، فهلوة «بخيت».

أين كان العقل عند كتابة كل هذا الهراء؟

كان، ولاشك ، يغط فى نوم عميق، يبقى لى أن أقول إن الفيلم يشهد أن نابغة الكوميديا المصرية، الزعيم والسفير عادل إمام، قد بدأ يتقهقر، وعلامة التقهقر، أنه يكرر نفسه، والأدهى والأمر أنه يقلّد الغير!!

أمريكا اللاتينية .. فى مصر

■ جاءت امريكا اللاتينية مرتين فى الشهر الماضى عبر الادب.

المرة الأولى، حين زار مصر الكاتب البيروفى الشهير ماريو بارجاس يوساء المرشح لجائزة نوبل، فالتقى بقرائه فى المجلس الاعلى للثقافة، والمركز الثقافى الاسبانى بكل من القاهرة والاسكندرية كما حرص على اللقاء بنجيب محفوظ.

أما المرة الثانية فقد تمثلت فى المؤتمر الادبى، الذى يعقد هذه الايام بكلية الالسن جامعة عين شمس حول ادب امريكا اللاتينية فى مصر.

لقد صار هذا الادب بؤرة للاهتمام العالمى ابان الثمانينيات والتسعينيات خاصة بعد فوز جارثيا ماركيث بجائزة نوبل فى الادب عام ١٩٨٢، وشهدت مصر والعالم العربى حالة من شبق الترجمة للتعرف على هذا الادب وآفاقه. وتنافست دور النشر فى تقديم هذه الاعمال.

وقد كان لماركيث الصدارة فى الاقبال على ترجمة رواياته، يليه يوسا وارنستو ساباتو وجورجى آمادو وكارلوس فوينتس واليزابيل الليندى وبورخيس وآخرين.

وكانت الهلال من أولى المجلات العربية التى فتحت صفحاتها لتقديم هؤلاء الكتاب والتعريف بهم فكان اول مقال عن يوسا باللغة العربية منشورا فى عدد شهر اكتوبر ١٩٨٢ من الهلال. ثم تتابعت مقالات عن ايزابيل الليندى وأمادو وفوينتس وآخرين ونشرت لاول مرة فى روايات الهلال اعمال مثل «بحرميت» لآمادو.

وفى مصر ترجم يوسا من خلال روايته «من قتل موليرو» التى اثارت جدلا من ترجمة الدكتور حامد أبو أحمد. وفى سوريا ترجمت روايات اخرى منها «كارثة فى الكاتدرائية».. «حرب نهاية العالم ».. «المدينة والكلاب» بالأضافة إلى ترجمة أخرى لـ «من قتل موليرو»..

لقد كشف يوسا فى حديثه فى ندوة المجلس الاعلى للثقافة انها المرة الثانية التى يزور فيها مصر، حيث كانت المرة الاولى قبل عشرين عاما «رأيت طبيعة ساحرة» لكننى هذه المرة الأولى فى تبادل الحوار مع الادباء فى مصر».

وفى حديثه كشف يوسا عن سر عشقه لاستلهام التاريخ فليس هذا الاستلهام هو مجرد تسجيل للماضى بقدر ما هو إلقاء الضوء على وقائع الحاضر. فالديكتاتورية لاتزال تحكم بقاع عديدة من العالم، لذا شغف الكتاب فى القارة اللاتينية بمواجهة الديكتاتور بالكلمة مثلما حدث فى روايته «حرب نهاية العالم» التى تدور حول حرب اهلية حدثت فى نهاية القرن ١٩ بالبرازيل. فالديكتاتور فى هذه الاعمال رمز لكل الحكام المستبدين فى التاريخ.

أدب
أمريكا اللاتينية

قرن من الإبداع المتواصل

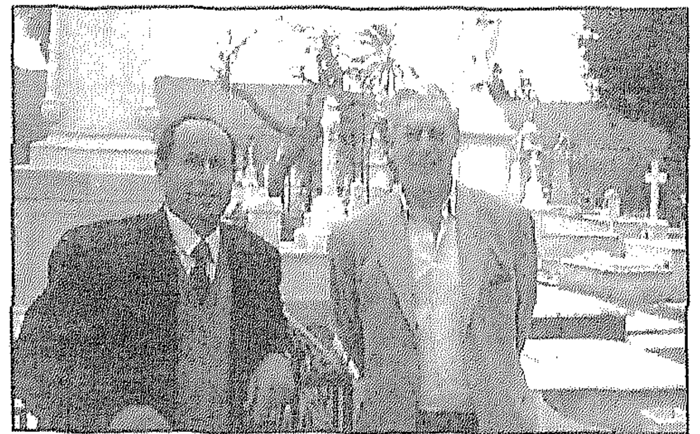
بقلم : د . حامد أبو أحمد

قدم الأدب فى أمريكا اللاتينية للعالم خلال القرن العشرين مجموعة من المفاجآت فى كل الأجناس الأدبية . ففى مجال الشعر كان رائد حركة الحداثة فى الشعر المكتوب باللغة الاسبانية فى نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين شاعر من نيكاراجوا هو روبن داريو ، الذى جاء ديوانه «أزرق» عام ١٨٨٨ بمثابة فتح جديد، وقد نوه به حينئذ أديب من أكبر أدباء اسبانيا فى ذلك الوقت وهو خوان باليرا . ثم أكد روبن داريو بعد ذلك ريادته لشعر الحداثة بصدور ديوان «نثريات دنيوية» عام ١٨٩٦ .

وقد قال الناقد الكبير دامسو ألونصو (من جيل ١٩٢٧) : « إن كتاب «نثريات دنيوية» للشاعر روبن داريو قد نقل إلى اسبانيا روح قرن كامل من الشعر الفرنسى . وأعتقد أنه منذ يوم غرناطة الشهير (يقصد الحديث الذى دار بين خوان بوسكان والقنصل الإيطالى ناباخيرو فى القرن السادس عشر). لم توجد لحظة أخرى أكثر تفاؤلا وأكثر امتلاء بأنوار الفجر العذراء من هذه اللحظة » (١). وهذه الكلمة لدامسو ألونصو أحد الشعراء والنقاد البارزين فى إسبانيا خلال القرن العشرين تعكس مدى الأهمية وعمق التأثير الذى ارتبط باسم شاعر نيكاراجوا روبن داريو .

لقد قارن ألونصو بين لحظتين وقرنين مهمين فى تاريخ الثقافة الاسبانية هما لحظة اللقاء بين خوان بوسكان ونابا خيرو ولحظة ظهور ديوان «نثريات دنيوية » واللحظة الأولى أسفرت عن عملية تجديد رائعة للشعر الاسبانى خلال ماسمى بعصر النهضة أو


بوسا عندما رشح نفسه رئيسا للجمهورية


ماريو بارجس يوسا فى مقابر الشاطبى مع الدكتور حامد أبو أحمد

العصر الذهبى الأول للأدب الاسبانى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، واللحظة الثانية تمثل هى الأخرى بداية لما سمى بالعصر الذهبى الثانى للأدب الاسبانى خلال القرن العشرين.

ومثلما نقل القنصل الإيطالى إلى أسبانيا روح عصر كامل من الشعر النهضوى الإيطالى عند بترارك وغيره نقل روبن داريو إلى الشعر الاسبانى فى نهاية القرن الماضى روح قرن كامل من الشعر الفرنسى تمثل فى الحركتين البارزتين البرناسية ثم الرمزية . وهكذا لم تكن هناك فى تاريخ اسبانيا الثقافى لحظتان أكثر امتلاء بأنوار الفجر العذراء من هاتين اللحظتين ، لأن كلا منهما أدت إلى تفجر ينابيع الإبداع . ويرصد ناقد اسبانى آخر هو أنطونيو بلانش ملامح التجديد التى استحدثها روبن داريو قائلا: «فى مناخ مفعم بالصرامة الأكاديمية ، والانغماس فى التقليدية ، واستخدام العروض السهل ذى القوافى الصعبة المفرغة جاء روبن داريو فذكر الاسبان بقيمة الكلمات وبالحرية العروضية فى كتابة القصائد . وكان لاكتشاف هذه المجالات والإمكانيات أثر كبير فى تنشيط الذوق ودفعه نحو التعبير الفردى ، الذى لم يكن مع ذلك خاليا من الأخطار ، لكنه حوّل الشعر إلى شىء يزيد عن كونه اتحادا شعوريا داخل قوالب مصنوعة سلفا » (٢) .

● أدوار كبيرة للشعراء ●

ولم يكن روبن داريو هو الشاعر الأمريكى اللاتينى الوحيد الذى مارس تأثيرا قويا على الشعر الاسبانى فى القرن العشرين ، بل ظهر شعراء كبار آخرون من هذه القارة لعبوا أدوارا كبيرة فى الحركات الطليعية التى ظهرت خلال العقد الثانى من القرن المذكور كالماورائية والمستقبلية والدادائية والابتداعية مثل بيثينتى أو يدوبرو ، وقيصر بابيخو وسواهما . وسوف يأتى بعد ذلك فى الثلاثينات بابلو نيرودا الشاعر الشيلى

ليمارس تأثيرا قويا على شعراء تيار الالتزام فى اسبانيا مثل ميجيل إرنانديث وشعراء ما بعد الحرب الأهلية الإسبانية وخاصة ما سمى بجيل الخمسينات . وتتواصل المسيرة الظافرة فتحصل شاعرة شيلى جابرييلا ميسترال على جائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٤٥ . ويلعب شاعر المكسيك أوكتابيو باث دورا راسخا فى الحركة السيريالية ، ويقدم الشاعر والكاتب الأرجنتينى خورخى لويس بورخيس إبداعات قوية لفتت إليه الأنظار فى كل أنحاء العالم . وتأتى الأجيال الجديدة فتتفاعل بقوة مع ما يحدث فى العالم ، وتتنوع الحركات الشعرية تنوعا هائلا ، وتقام مؤتمرات للشعر فى كل مكان من أمريكا اللاتينية دعى إليها عدد من شعرائنا المعاصرين أذكر منهم الآن محمد إبراهيم أبو سنة وبدر توفيق ، وحسن طلب .

وأذكر أن حسن طلب الذى ذهب إلى مؤتمر فى كولومبيا العام الماضى (١٩٩٩) عاد يحدث بما رآه من كثرة عدد الشعراء ، واهتمامهم بإبداعات الأمم الأخرى ومن بينها الشعوب العربية . وقد أخبرنى حسن طلب أنه تعرف على عدد كبير منهم . وقد كان لنا حظ التعرف على شاعر من المكسيك حضر إلى القاهرة فى أوائل شهر ديسمبر الماضى ١٩٩٩ ، واشترك معنا فى المؤتمر الذى أقمناه بكلية اللغات والترجمة تحت عنوان «الإسلام والثقافة الاسبانية» هو الشاعر كارلوس مونتيمايور . وهذا الشاعر من مواليد شمال المكسيك عام ١٩٤٧ ، وهو شاعر وروائى وكاتب قصة قصيرة ، ومن أعماله «مفاتيح أورخيل» وهى أول مجموعة قصصية صدرت له . وخلال التسعينات نشر له «تاريخ شعب مولاس» (١٩٩٤) ، «أغانى المايا التراثية» (١٩٩٤).

وقد حصلت روايته «حرب فى الفردوس» على جائزة الرواية عام ١٩٩١.

ولم يكن الشعر هو المجال الوحيد الذى حصل فيه كتاب أمريكا اللاتينية على مكانة متميزة ، بل شهدت الأجناس الأدبية الأخرى نهضة قوية ، وخاصة الرواية التى برز فبها كتاب من جيل الريادة مثل ميجيل آنخل أستورياس كاتب جواتيمالا والحاصل على جائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٦٧ . وله عملان شهيران هما «السيد الرئيس» (١٩٤٦) و «رجال من الذرة» (١٩٤٩) والرواية الأخيرة يظهر فيها بوضوح الاتجاه المعروف باسم «الواقعية السحرية» . هناك أيضا أليخو كاربنتير من كوبا ، وله مجموعة قصصية فى غاية الاهمية هى «الخطوات المفقودة» (١٩٥٣) ورواية مدهشة هى «مملكة هذا العالم» (١٩٤٩) . ويرى الكاتب البيروانى الشهير ماريو بارجس يوسا أن أليخو كاربنتير من أهم من كتبوا فى اتجاه الواقعية السحرية (٣). وإذا كانت قارة أمريكا اللاتينية تضم عددا كبيرا من الدول والشعوب فان نهضة الادب فيها كان لابد أن تاتى شديدة التنوع والثراء ، ومن ثم فإن الاسماء كثيرة ويصعب جدا حصرها ، لكننا فى هذه العجالة نقتصر على بعض الأسماء وبعض التوجهات ، تاركين التفصيلات لفرص قادمة تتاح فيها مساحات أوسع .

ومما هو معلوم أن الرواية فى أمريكا اللاتينية مع الأجيال التالية لذلك الجيل الرائد خطت خطوات واسعة وحظيت بشهرة عالمية لا مثيل لها ، ولعل من الأوفق أن نتوقف ، بإيجاز شديد ، عند أربع حركات تجديدية أو اتجاهات بارزة هى :

١ - الواقعية الاجتماعية التى تأثرت إلى حد ما بكتاب من أمثال إميل زولا ، وبلزاك، وكلارين ، وجالدوس ، ومن أبرز ممثليها البيروانى خوسيه ماريا أرجيداس (١٩١١ - ١٩٦٩) ، والمكسيكى كارلوس فوينتيس (١٩٢٨-) ، والبيروانى أيضا ماريو بارجس يوسا (١٩٣٦-) .

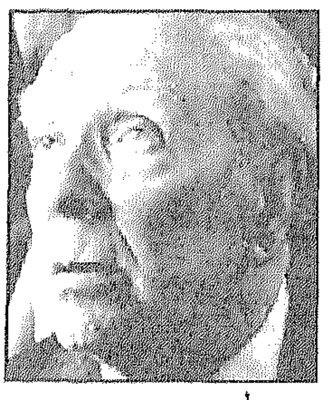
٢ - الواقعية النفسية وهى التى تستخدم تقنيات مرتبطة بالحلم ، وتعبر عن اللا شعور ، وتيار الوعى ، والخيال الجامح ، واستبطان الذات . ومن أبرز ممثلى هذا التيار أدولفو بيو كاساريس ، وخوسيه روبن دوميرو ، وبدرو برادو ، وإدوارد باريوس .

٣ - الواقعية السحرية ويمثلها جابرييل جارثيا ماركيز (١٩٢٨-) ، وخوان رولف ، وخوليو كورتاثار .

٤ - الواقعية البنائية ، ولها تجليات كثيرة فى الأدب الروائى فى أمريكا اللاتينية لدرجة أن النقاد رصدوا فيها ما يقرب من عشرة اتجاهات منها التعبير عن القبح ، والتعامل مع اللغة وكأننا فى معمل ، ومحاولة فهم الواقع المتعالى ، والقصة الجديدة أو اللا قصة ، والتعبير عن اللامنطق ، والتجريد الظاهرى للواقع.. الخ . وكل هذه الاتجاهات أثرت وتثرى حاليا أدب أمريكا اللاتينية لأن هناك الآن عددا كبيرا من الأجيال تتلاقى إبداعاتها منهم من هو مولود فى العقد الثالث من القرن العشرين ومازال يكتب ويؤثر بقوة وفعالية مثل جارثيا ماركيز وبارجس يوسا. وقد ذكر لى الأخير أنه على وشك الانتهاء من رواية جديدة سيكون عنوانها «حفلة التيس» بها شخصية عربية اسمها «سعد الله» وكان ذلك ردا على سؤال لى يقول : لماذا لا توجد شخصيات عربية فى رواياتك على نحو ما نجد عند كتاب آخرين من أمريكا اللاتينية؟ .


أوكتابيو باث

ومن أحدث الروائيين المكسيكى خوان توبار المولود عام ١٩٤١ ، ومن أهم أعماله «أسرار المملكة» (١٩٦٦) ، و«الفتاة فى الشرفة» (١٩٧٠) ، و«الجحيم الرهيب» (١٩٧٥) عن الحياة لم تعد تحتمل فى المدينة ، وخاصة مدينة مكسيكو سيتى التى تعد من أكبر المدن وأكثرها تلوثا وأكثرها امتلاء بالسكان . هناك أيضا المكسيكى خوسيه أغسطين (١٩٤٤)


لويس بورجيس

وكانت أولى رواياته هى رواية «المقبرة» (١٩٦٤) وبطلها شاب فى مقتبل العمر ومن أشهر ما كتب رواية «الوقت يتأخر» (١٩٧٣) التى تفحص ما يمكن أن نسميه تدمير الذات عن طريق إدمان المخدرات . هناك كذلك كارلوس مونتيمايور (١٩٤٧) الذى تحدثت عنه فيما سبق . وإذا تركنا المكسيك وانتقلنا إلى بلاد أخرى نجد النيكاراجوى سيرخيورا ميرث (١٩٤٢) وقد عرف بانتمائه للجبهة الساندينية التى قضت على الحكم الدكتاتورى لعائلة سوموسا . ومن أبرز أعماله «زمن السطوع» (١٩٧٠) و «هل خفت من الدم» (١٩٧٧) . وفى كوبا ظهر من الجيل الجديد إدوارد هيراس (١٩٤١) صاحب أعمال «الحرب كان لها ستة أسماء» (١٩٦٨) و«الخطوات على العشب» (١٩٧٠) . هناك أيضا رينالدو أريناس (١٩٤٣) الذى نفى عام ١٩٨٠ والذى مزج بين الواقع والخيال فى عمله «العالم المبهر» (١٩٦٩) . وهو فى هذه الرواية يدين الحرية المقيدة فى كوبا فى عهد فيديل كاسترو الذى امتد منذ الستينيات إلى الآن . وفى روايته «البحر مرة أخرى» الصادرة عام ١٩٨٢ نجد رجلا وامرأة من كوبا يعودان إلى الجزيرة ويمكثان بها ستة أيام ويعانيان مما طرأ عليها من تغيرات .

أما فى روايته «النجم الأكثر تألقا» (١٩٨٤) فإنه يقدم حياة شخص شاذ فى أحد معسكرات الاعتقال . ولاشك أن الأجيال الشابة فى كوبا لديها إبداعات مهمة ولافتة للنظر وكثير منها يرصد التغيرات التى حدثت فى المجتمع فى عهد فيديل كاسترو ، وبعضها يشايع النظام أو يقف ضده ، لكنها جميعا فى النهاية تدخل ضمن الإبداعات الجديدة لأجيال تحاول مواصلة الطريق بنفس القوة التى وجدت لدى الأجيال السابقة التى حازت شهرة عالمية .

وفى سانتو دمينجو تبرز أسماء بدرو بيرخيس وروايته «لن تجد إلا الرماد» (١٩٨٠) وهاف سيرل (١٩٤٧) وروايته «الدكتاتور» (١٩٧٨) . وفى جواتيمالا نجد دانتى ليانو (١٩٤٨) وفيكتور مونيوث (١٩٥٠) ، وماكس آراوخو (١٩٥٠) وأدولفو مينديث (١٩٥٦) . وبالطبع كل هذه أسماء شابة مازالت تكتب وتحاول أن تحفر لنفسها مكانة قوية فى إبدا ع الأدب.

ولاشك أن القصة القصيرة تحظى هى الأخرى بمسيرة قوية ومتأصلة وكل هذا يحتاج منا إلى مواصلة التعرف على ما يحدث فى هذه القارة المدهشة .

(١) دامسو ألونصو ، شعراء اسبان معاصرون ، طبعة جريدوس ، مدريد ١٩٧٨ ، ص ٥١ .

(٢) أنطونيو بلانش ، الشعر الصافى الاسبانى ، طبعة جريدوس ، مدريد ، ١٩٧٦ ، ص ١٠٢ .

(٣) هذا الكلام قاله لى ماريو بارجس أثناء رحلة صحبته فيها إلى مدينة الاسكندرية يومى الثلاثاء والأربعاء ١ ، ٢ فبراير ٢٠٠٠ .

أدب
أمريكا اللاتينية

«خوان رولفو» والسهل الصامت الحزين!

بقلم :د.على عبدالرءوف البمبى

أمريكا اللاتينية مارد جبار ظل حبيس القمقم آلاف السنين إلي أن اكتشفه التاريخ مصادفة ونزع عنه الغطاء.. لم يكن يدور بخلد «كولمبس» («أو «كولون») وهو يبحر بسفنه من مرفأ إشبيلية عام ١٤٩٢م باتجاه الغرب، قاصدا جزر الهند الشرقية، أن القدر يزفه إلي عالم بكر يتألق جمالا وسحرا.. انعقدت ألسن البحارة والعلماء المرافقون للمكتشف العظيم عندما وجدوا ما لم تره عين، ولم يخطر علي قلب بشر ماثلا أمامهم: طبيعة تضطرب جوانبها بشتي ألوان العجائب والغرائب من ينابيع وأنهار وأشجار ونباتات وزهور وطيور وحيوانات وأسماك.. إلخ. لم يعثروا لمعظم هذه الغرائب علي مسميات في اللغة الإسبانية وهدتهم قريحتهم لاختراع أو استنباط أسماء لها من الأساطير وقصص الفروسية الجامحة الخيال.

إنه عالم فائق الوصف، يكتنفه الغموض ويحتاج تفسيره لشطحات الخيال. عالم يختلط فيه الواقع بالأسطورة، ويمتزج فيه الحاضر بالماضى السحيق وتسكنه - بعد الاكتشاف - أخلاط بشرية من كل حدب وصوب. ومع هذا - أو لأجله - فهو عالم يموج بالاضطرابات والعنف، وتعشش فيه المتناقضات بالرغم من تخلصه من التبعية للفاتحين وامتلاكه لزمام نفسه.

والمكسيك التى ينتسب إليها كاتبنا «خوان رولفو» «Juan Rulfo» هى جزء من هذا العالم المدهش، وتاريخها الحديث حافل بالثورات والانقلابات وحركات التمرد والعصيان التى يحتاج بيانها إلى عشرات الصفحات، ولذا فإننا سنقتصر على الإشارة إلى تلك الحقبة التاريخية التى تشكل فيها وجدان «رولفو» وكان لها الأثر فى تحديد هويته ورؤيته للعالم المحيط به كمبدع وقاص.

عندما ولد «رولفو» كان قد مر على ثورة ١٩١٠ ثمان سنوات، وعندما صدرت مجموعته القصصية «السهل يحترق» «١٩٥٣» كانت آثار هذه الثورة قد أصبحت واضحة للعيان: فقد ازدادت الكثافة السكانية وتضاعف الناتج القومى عشرات المرات، وحدث نمو كبير فى معدلات التصنيع وأنشئت الجامعات وتعددت الصحف ووسائل الإعلام الأخرى، وعبدت الطرق وشقت الترع والقنوات وأقيمت المشروعات الزراعية الكبرى وهجر الفلاحون قراهم وانتقلوا إلى المدن للعمل فى مصانع السيارات والبيبسى كولا والعيش فى أحياء عشوائية بداخل أكواخ.. إلخ. لكن هذا النمو الاقتصادى لم يعد بالنفع على القاعدة الشعبية العريضة بل استأثرت به الشركات الاحتكارية متعددة الجنسيات، وكبار المستثمرين وعدد من الانتهازيين «القطط السمان» الذين لا تخلو منهم مجتمعات العالم الثالث.

وبالطبع فقد جندت الدولة - بحزبها الأوحد - من يتغنون بتحقيق الثورة لأهدافها. وبالرغم من الدعاية الرسمية والبطش بأصحاب الرأى المخالف فقد وجد من يعلنون زيف هذه الادعاءات أو يتهمون الثورة بخيانة مبادئها.

الكتاب الإقليميون

وعلى صعيد الأدب اهتم أصحاب الفريق الثانى «المعارض» بتسليط الضوء على المشاكل الجمة التى يعانى منها الفرد العادى وعلى الظروف الصعبة التى

تمسك بخناقه من زمن بعيد ، ولم تخفف الشعارات الثورية منها بل زادتها بلة عندما ملكت الأراضى الشاسعة الخصبة للشركات الكبرى لكى تصدر منتجاتها إلى الخارج وأجبرت الفلاحين على الهجرة إلى المدينة للقيام بأهون الأعمال أو محاولة تجاوز الحدود إلى الولايات المتحدة الأمريكية فرارا من قسوة الجوع.. إلخ. ويطلق على أصحاب هذا الاتجاه بالكتاب «الإقليميين» أو «المحليين»، وهم يعتبرون إحدى حلقات السلسلة الطويلة التى تضم كثيراً من كتاب القصة فى أمريكا اللاتينية ابتداء من العقد الثالث للقرن العشرين. فهؤلاء الكتاب قد نصبوا أنفسهم وسطاء بين الفرد الأعزل وبين الطبيعة القاسية المكفهرة، وحملوا على عواتقهم مهمة تخضير القفار المترامية الأطراف، سبر أغوار بقايا الثقافات القبلية، تسجيل النوائب والكوارث، رصد الصراعات الاجتماعية فى الإقطاعيات الزراعية والمناجم والمجتمعات العمرانية الجديدة.. إلخ.

ورائد هذا الاتجاه هو البوليفى «ألثيدس أرجيداس» الذى أدان «عام ١٩١٩» استغلال البقية الباقية من الهنود الحمر. ثم تبعه بعد ذلك كثيرون مثل المكسيكى «أجوستين يانيث»، والبيروانى «خوسيه ماريا أرجيداس»، لكن أبرزهم جميعا هو الكاتب الجواتيمالى «ميجيل آنخل أستورياس».

وخصائص هذا الاتجاه الأدبى - بالرغم من حنكة أصحابه المتأخرين وبراعتهم- تتمثل فى : التصوير الفوتوغرافى للواقع دون تجسيد وإبراز ملامحه، اللجوء إلى التعميم، التزام الحرفية والعناية بالصياغة الأسلوبية، اختيار النماذج المثيرة والغريبة التى يطغى إبهارها على ما يمكن أن تتركه من أثر فى الذاكرة، الإغراق فى اللهجات المحلية التى تحصر الشخصيات فى نطاقها الإقليمى وتحد من انتشارها خارج حدودها الجغرافية.

عالمية القصة

وعندما وصلت فترة الخمسينيات - أو «الفترة المدهشة»، كما يطلق عليها النقاد- نشطت القصة فى أمريكا اللاتينية من عقالها المحلى وانطلقت صوب العالمية إلى أن بلغت ذروة النضج والإتقان - أو «الانفجار» - خلال الستينيات.

وفى المكسيك كان صاحب الدعوة إلى التحرر من الإقليمية هو الكاتب «أوكتابيو پاث»، حينما نادى عام ١٩٥٠ بضرورة أن يتحدث المواطن المكسيكى

فى أدبه، كما يحدث فى الغرب، وإتاحة الفرصة للتأمل الثاقب لأغوار الذات بحيث يمكن عرض الأشياء كما هى، مع تفادى - بقدر المستطاع - الروابط المحددة المحسوسة التى تصلها «بالتاريخ» . و«خوان رولفو» يعتبر مزيجا من الاتجاهين السابقين أو - بمعنى أصح - كاتب «إقليمى» متفرد، ينوء بتبعة المحلية لكنه لا يغل أنماطه بقيود تعوقها عن الانتشار . لكن، من هو «خوان رولفو» هذا؟ ولماذا كل هذا الحزن الذى يعشش فى كتاباته، وما سر استخدامه لهذا الأسلوب الشديد الصرامة المترع بالألم والوحدة والعنف؟ .

سنحاول فيما يلى الإجابة على هذه التساؤلات من خلال التعرف على رؤيته الخاصة للعالم كما تتجلى فى مجموعته القصصية الرائعة «السهل يحترق».

وبادئ ذى بدء نقول أنه مما لاشك فيه أن لحظات التوهج فى مسيرة المبدعين الكبار قليلة. فمهما كثرت أعمال هؤلاء وتعددت نجد أن روائعهم لاتزيد عن عملين أو ثلاثة أو ما لا يتعدى أصابع اليد الواحدة بأى حال. و«خوان رولفو» واحد من هؤلاء الذين حفروا أسماءهم بحروف من نور ونار فى سجل الإبداع الروائى بالرغم من أن مجمل حصيلته الإبداعية قد لا يتجاوز الأعمال الثلاثة : «السهل يحترق» «EL llano en llamas»، «پدرو پارامو» «Pedro Paramo»، «لاكورديبيرا» أو («سلسلة الجبال»). «La Cordillera».

طفولة قاسية

ولد «خوان رولفو» عام ١٩١٨ فى «أپولكو» (سايولا) التابعة لولاية «خاليسكو» المكسيكية. وهى منطقة قاسية، جافة وشبه خربة. نزح معظم سكانها فرارا من الثورات والحرائق والتصحر. ومن بقى منهم هناك يعيش فى ظروف مناخية وإنسانية غاية فى السوء، يعانون قسوة الطبيعة وظلم الفقر وإهمال السلطات المركزية. ومع ذلك فهم قابعون هناك، هامدون مثل ما يحيط بهم من أشياء مذعنون لقدرهم فى انتظار الموت - حسبما تشير إحدى قصص مجموعة «السهل يحترق».. لم يستقر «رولفو» فى «أپولكو» كثيراً لأنه انتقل مع أسرته، بعد بضع سنوات من ولادته، إلى «سان جبرييل»، وهناك أدركته ثورة «لوس كيريستيروس» «Los Cristeros» التى اندلعت عام ١٩٢٦ واستمرت ثلاث

سنوات كاملة، وفيها فقد أباه وجميع أعمامه. يتحدث «رولفو» عن الأثر العميق الذى تركته هذه الثورة فى حياته قائلا: «كانت طفولتى بالغة القسوة والصعوبة. تبعثرت أشلاء عائلتى بكاملها فى مكان تم تدميره وسحق كل ما فيه «...» لا أجد إلى الآن تفسيرا منطقيا لما حدث «...» لا يمكن إلقاء التبعة برمتها على الثورة. إنه شئ يضرب بجذوره فى أغوار الماضى، شئ قدرى، غير منطقى. لا أستطيع العثور حتى اليوم على سند واحد يبرر قتل أسرتى بهذا الشكل أو لارتكاب سلسلة الفظائع والاغتيالات دون سبب». وبعد الثورة بست سنوات ماتت أمه وتركته وحيداً فأخذته دار لرعاية الأيتام ليبقى فيها أربع سنوات: من العاشرة حتى الرابعة عشرة.

تركت هذه السنوات نُدْبة لا تنمحى داخل كيان الصبى، عندما يتذكرها «رولفو» يقول بصوت مجلل بالأسى: «ما تعلمته كان الاكتئاب، كانت فترة من الفترات التى عانيت فيها من وحدة قاسية وأصابتنى بحالة من الاكتئاب لم أشف منها حتى يومنا هذا».

وتذكرنا هذه العبارة بأخرى وردت على لسان إحدى شخصيات قصة «قل لهم يتركونى أعيش» (وهى تنتمى لمجموعة «السهل يحترق»)، تقول: «من العسير أن تنمو وأنت تدرك أن الشئ الذى يمكن أن تتشبث به جذورك قد مات».

المهم أن «رولفو» استطاع – فى ظل هذه الظروف الصعبة – إنهاء تعليمه الأساسى ودراسة المحاسبة وإمساك الدفاتر. وبعدها ذهب إلى العاصمة «مكسيكو» ليدرس القانون لكنه لم يكمل دراسته بسبب توقف الدراسة بالجامعة لمدة ثلاث سنوات. اضطر «رولفو» للعمل مبكراً فى الوظائف الحكومية، وتقلب بين العديد منها حيث اشتغل فى مجال الإعلام «التليفزيون» ومصلحة الرى وهيئة الهجرة وتوفيق أوضاع الجماعات المنعزلة من الهنود الحمر، كما عمل «سيناريست» فى فترة من حياته. ومن الوظائف التى أحبها عمله فى المشروع الحكومى لرى إقليم «بيراكروث» ذلك لأنها انتشلته من العاصمة وأعادته إلى أحضان الريف.

وفى خلال كل هذا لم تنقطع صلة «رولفو» بالقراءة التى أحبها منذ صغره، وقد أتاحت له وحدته فرصة الاطلاع على آداب متعددة منها الأدب الروسى

والأمـريكي والأوروبي، ولكن الأدب الذى استـهـواه وملك عليـه نفسـه هو الأدب النورماندى.

الإقامة في دار الأيتام

من هذه الإطلالة السريعة تتضح الأبعاد المأساوية للحياة التى كان على «رولفو» أن يعيشها: فقد ولد فى أقسى الولايات المكسيكية مناخا وأفقرها تربة حيث اعتاد سكانها - طبقا لتصريح له - على العمل عشرة أضعاف سكان الولايات الأخرى ليحصلوا فى النهاية على نفس الناتج. وعلاوة على قسوة الطبيعة فقد عانت ولايته وتلظت بنيران الثورات والاضطرابات المتكررة التى أكلت الأخضر واليابس وأتت على جميع أفراد أسرته واضطرته للإقامة فى دار للأيتام. ولم يسر عنه بعد ذلك مغادرة هذه الدار والانتقال إلى العاصمة التى كانت تنتظره بفاصل من المشاكل «أهمها الوحدة والعَوَز» أضاف إلى حمله الثقيل وَزْنا آخر من الحزن والكآبة، ولذلك فهو دائماً صامت، حزين، صارم، مكتئب وخجول، ولم تشفه الشهرة بعد ذلك من هذه الأوجاع بل إنها اصطدمت مع ما يعتمل بداخله من يأس وصرامة، وكانت السبب المباشر فى إقلاله من الكتابة بالرغم من موهبته المتوقدة.

نشر «رولفو» أول قصة قصيرة له عام ١٩٤٢ فى إحدى مجلات «وادى الحجارة» (عاصمة ولاية «خاليسكو»). وشهدت السنوات التالية قصصا أخرى له، لكن شهرته ومكانته الأدبية الرفيعة يدين بهما لمجموعته القصصية التى صدرت عام ١٩٥٣ تحت عنوان «السهل يحترق»، ولروايته المنشورة عام ١٩٥٥ بعنوان «بدرو بارامو»، وقد توالت طبعاتهما بعد ذلك داخل المكسيك وخارجها. ثم أطبقت فترة صمت طويلة تزيد عن الأحد عشر عاما قبل أن يعود لاستكمال خيوط مشروعه الأخير، الذى اختار له عنوان «لاكورديرا» «أو «سلسلة الجبال».

ألم الرجل المعاصر

وبرغم هذه النُّدرة فإن مجموعته القصصية وروايته اللتين ظهرتا فى الخمسينيات تعكسان بوضوح رؤيته الخاصة للعالم وللواقع المكسيكى فى فترة

زمنية وتاريخية واضحة المعالم. تتجلى هذه الرؤية فى الحزن واليأس اللذين ملكا عليه نفسه من جراء نشأته على أرض عاقر عبوس أراد أن يتشبث بها فخانته فى وقت كان ينهار فيه كل ما بداخله. أرض تضطرب جنباتها بالألم والعنف المتراكم عبر القرون، وجاءت الثورات وحركات التمرد والعصيان لتطلقه من عقاله. يقول « رولفو» واصفا طبائع سكان قرى منطقته (مثل «سان جبرييل»، «ثابوتيتلان»، «سايولا»، «تونايا»، «سان بدرو»، «تاليا».. إلخ):

« ... إذا تحدثت معهم يخيل إليك أنهم لا يجرءون على قتل ذبابة، أناس فى غاية الهدوء، فلاحون من هذا النوع الذى يحتوى على قدر من المكر والاحتيال والتأهب، لكنهم فى ذات الوقت سليمو النوايا، ومع هذا فخلف ذلك الرجل يمكن أن تتوارى مجموعة من الجرائم. عندئذ يختلط عليك الأمر ولا تدرى مع من تتعامل: مع قاتل محترف أو مع فلاح بسيط...».

إن «رولفو» يحمل على كاهله كرب وألم الرجل المعاصر الذى ابتلته الظروف بالعيش فى الفترة الشائهة التى أعقبت الثورة وتنبأ بها «سوليس» المارق بطل قصة «الناس اللى تحت» لمواطنه «مانويل أثويلا».

إنه مثل رجل منهار من الداخل يتأمل الأراضى الجافة. الذرة التى لا تكبر، الغبار، الرياح التى لا معنى لها، قوافل الحجاج إلى «تاليا»، الجرائم الغريزية العمياء، العنف الميكانيكى الأحمر، المأساة والفاقة الخرساوين، الاستسلام لتصاريف القدر العاتى.. إنه يرى هذه الأشياء مثل كوابيس لا يمكن أن تداويها برامج الإصلاح الاجتماعى ولا الوصفات الثورية.. لا يوجد أمامه، بالتالى، شئ خارجى يمكنه الاتكاء عليه، ولذلك نجد أن شخصياته - سواء من الرجال أو النساء - مجبرة على العيش بدواخلها والإذعان للقدر فى انتظار الموت الذى تعتبره أملها الوحيد.

ففى مقابل البعد الخارجى الذى تعتمد عليه واقعية كتاب الثورة المكسيكية التى تستغرق فى الجانب التهذيبى، وواقعية كتاب الثلاثينيات والأربعينيات التى تهتم بالواقع التاريخى وتضع الهدف السياسى - الاجتماعى نصب عينيها، نجد أن الكرب والحزن القدريين يصبغان نثر «رولفو» بصبغة قاتمة ويتغلغلان فى لغته وجميع تيماته.

وتتجلى رؤية «رولفو» الشخصية للعالم فى كيفية معالجته للزمن المتعلق بشخصياته. فبينما كان النثر الروائى الجيد قبله («مانويل أثويلا» و«مارتين لويس جوثمان»، على سبيل المثال») يعالج الواقع بالطريقة الديناميكية السيارة، نجد أن «رولفو» يعيش زمنا داخليا ذاتيا يفرض إيقاعه على كل واقع منفصل عنه. ولهذا السبب نلاحظ أن السكون والإيجاز الرتيب المشبعين بالتوتر والمأساة يسيطران على قصص مجموعة «السهل يحترق» والتى تبدو وكأن الزمن فيها قد توقف وتجمد سريانه. وينسحب هذا القول على جميع القصص سواء الوصفية منها (مثل «لوبينا») أو الحوارية (مثل «قل لهم يتركونى أعيش») أو التى تتناول حدثا خارجيا (مثل «تاليا»).

وقد استطاع «رولفو»، بيده الخبيرة الماهرة، إيقاف الزمن ومحو الروابط الخارجية للشخصيات ليصيغ لنا هذا العيش الباطنى ويجعلنا نحس بالمأساة الوشيكة التى لا مناص منها.

ولشرح وبيان هذا التكنيك (توقف الزمن وتجمد سريانه) سنضرب بعض الأمثلة الموجزة ونبدأها بقصة «لوبينا»:

يقودنا «رولفو» من بداية القصة إلى زمن غير حقيقى «وهمى»، إلى زمن متوقف داخل شخص ما. فالعبارة الأولى من القصة تخلو تماما من أية إشارة يمكن أن تساهم فى تأطير المكان وتحديده.

«من بين تلال الجنوب العالية، فإن أكمة «لوبينا» هى الأشد ارتفاعا والأكثر تحجرا». ثم يتابع الوصف المثقل باللون الرمادى بهدف إبراز الجوانب السلبية للعالم الخارجى: «إنها موبوءة بتلك الحجارة الرمادية التى يصنع منها الكلس وإن كان فى «لوبينا» لايصنع منها كلس ولا يستفاد منها بشئ».

وتطالعنا الفقرة التالية بعلامات تشير إلى محذوف: «...والأرض شديدة الارتفاع»، وما حسبناه وصفا للمؤلف يخيل إلينا الآن وكأنه تأمل لشخص ما. وبالفعل عندما نصل إلى نهاية الفقرة نعرف أننا دخلنا - دون أن ندرى كيف - فى وصف منطوق ومستمر ينبعث عن أحد الأشخاص: «أحيانا يزدهر نبات «الشيكالوته» بشقائقه البيضاء، مختبئا بين الأحجار حيث يوجد قليل من الظل.

لكن الشيكالوته سرعان ما يذبل. وعندئذ يسمع الواحد خدشات الريح بأفرعه الشوكية..». لا نحس هنا بأن أحدا يكتب بل يتكلم. والإبهام الذى يشع من «أحد» يساعد على حجب هوية المتكلم . وهكذا نكتشف أن ما بدا وكأنه وصف خارجى ، من عمل الراوى ، ماهو إلا طرف لمحادثة نابعة من داخل الحكاية نفسها .

ويزداد حجم الدهشة عندما نصل إلى الفقرة الثالثة والتى نستدل من العلامة التى تبدأ بها (الشرطة) على أن الكلام الذى سنسمعه ما هو إلا جزء من حوار : «سترى عما قريب هذه الريح التى تهب على «لوبينا» . إنها قاتمة» .

وفى نهاية الفقرة الثالثة يطالعنا شخص آخر – نظن أنه المؤلف – ليقول : «بقى ذلك الرجل الذى كان يتحدث صامتا برهة ، محملقا فى الفضاء» .

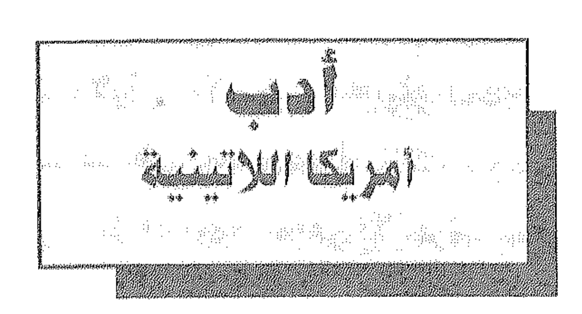
من يتحدث ؟ ومع من ؟ وأين ؟ وبهذا الشكل ينقلب الحوار إلى نوع من «الديالوج» الداخلى «لذلك الرجل» الذى لا نعرفه ؛ إلى ديالوج عار تماما من ملابسات الزمان والمكان.

وهذه إحدى خواص «رولفو» الأسلوبية وسمة من سمات رؤيته للعالم: إذ أنه لا يكلف نفسه مطلقا عناء تسمية شخصياته أو إزالة ما يكتنفها من غموض وإبهام .

ومن جهة أخرى ، فقد ساهم هذا الإبهام الذى يغلف المكان – بالإضافة إلى اللون الرمادى والإلحاح على الجوانب السلبية فى الوصف وتحول الكاتب بخفة من دور الراوى إلى تقمص دور إحدى الشخصيات – فى إضعاف الروابط بين الواقع وبين من يلاحظه (وهذا ما يسمى بالواقعية السحرية) .

وكلما تقدمت القصة زاد الإحساس بالجمود والتوقف الزمنى ، فـ«لوبينا» من الخارج لا يحدث فيها شىء (تمطر قليلا .. نعم ، تمطر قليلا) ؛ لا يتحدث فيها أحد تقريبا ولا يعمل ؛ حتى الريح بالرغم من جؤارها فهى ساكنة و«مكومة» هناك . كل شىء متوقف فى «لوبينا» : «إنه مكان يعشش فيه الحزن» ، لا يوجد هناك سوى العجائز جالسين على عتبات دورهم «معلقين أبصارهم بشروق الشمس وغروبها .. إنها العادة . يطلقون عليها هناك «القانون» .

والقانون والعادة من الأمور الثابتة التى لا تتغير.



جابرييل جارثيا ماركيث بين الخبر الصحفى والابداع الروائى

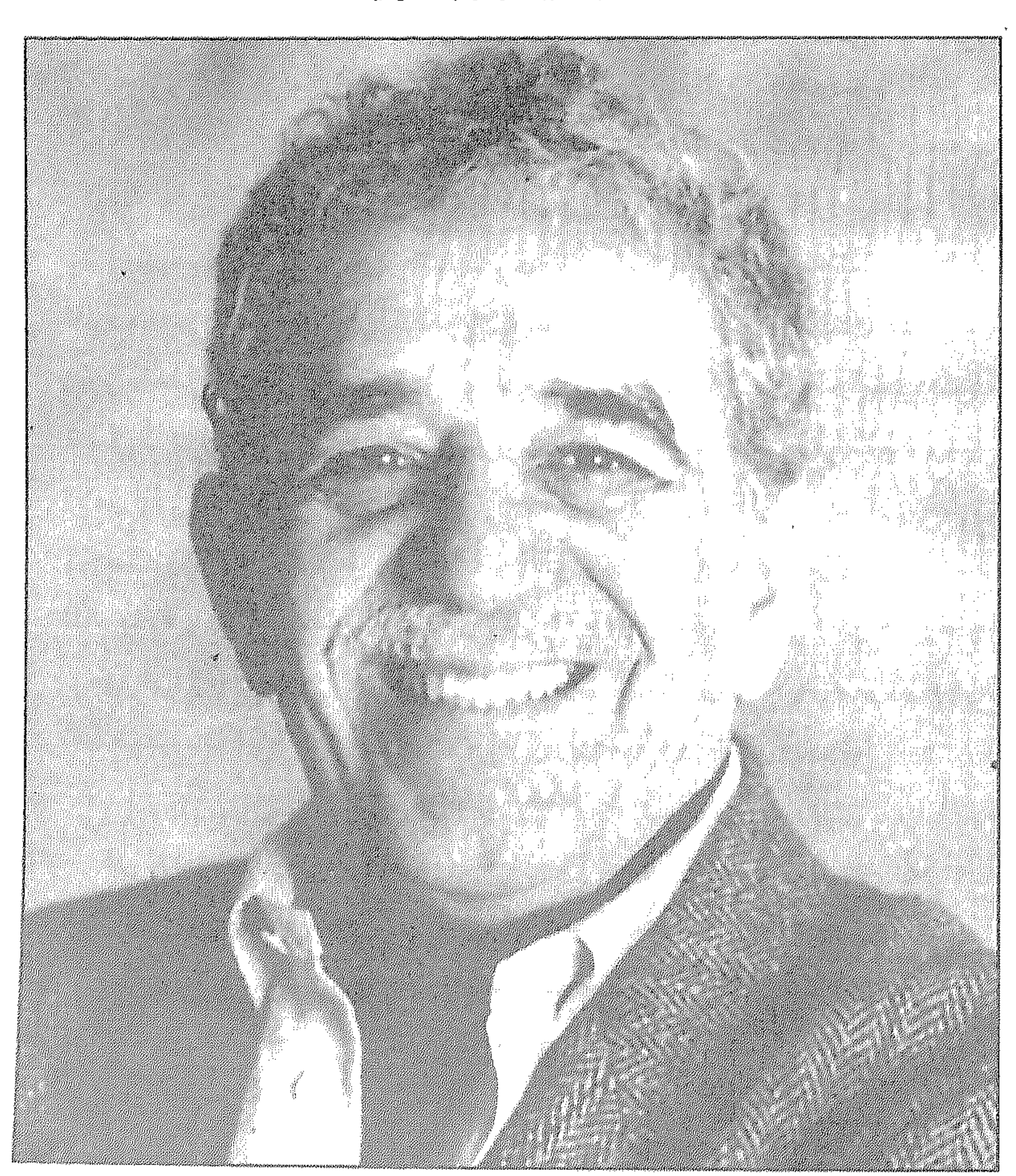
بقلم : د. عبدالفتاح عوض(★)

ليس من المبالغ فيه القول بأن «مائة عام من العزلة» قد وصلت شهرتها وشعبيتها فى العالم الناطق بالاسبانية مثل شهرة «دون كيخوته». كانت روايته تتويجا لمرحلة طويلة من التعليم المتأني مثلما ابتدع مدينة «ماكوندو» الخيالية مسرح رواية مائة عام من العزلة. وفى روايته «ما يتساقط من الأوراق» (١٩٥٥) و«الكولونيل لايجد من يكاتبه» (١٩٦٢) و«ساعة نحس» (١٩٦٣)، وفى حكاياته «جنازة الأم الكبيرة» يكون البطل هو المدينة البعيدة المعزولة، المقسمة الى تناقضات داخلية والى مستويات من الكراهية، تلك الأرض المشتركة لكل الأجناس. ومنذ ظهور روايته الأولي «ما يتساقط من الأوراق» استطاع جارثيا ماركيث (أراكاتا ١٩٢٨) أن يثبت وجوده فى تخيله لشخصية المرتاب دائما فى مواجهة المجتمع الذى كان يحيط به .

(★) قسم اللغة الاسبانية - كلية الآداب - القاهرة

فى هذه الرواية تعتبر شخصية الطبيب الذى تبين إشكالية دفنه إطار الرواية، شخصية مبهمة غامضة. إنها شخصية الغريب الذى يصل الى المدينة الصغيرة ليمارس مهنة الطب ويتأكد من أن المترددين على عيادته بدأوا فى الابتعاد عنه، وأن الشركة المهتمة بزراعات أشجار الموز تصل الى هذه المدينة بأطبائها العديدين، الأمر الذى يؤدى بالطبيب الى أن يحبس نفسه فى عزلة اختيارية، وعندما تغادر الشركة المدينة وتنشب الحرب الأهلية يرفض العناية بالجرحى، ولهذا السبب يتم ارساله الى مدينة «كوفنترى»، ويظل هذا الحقد

جابرييل جارثيا ماركيث

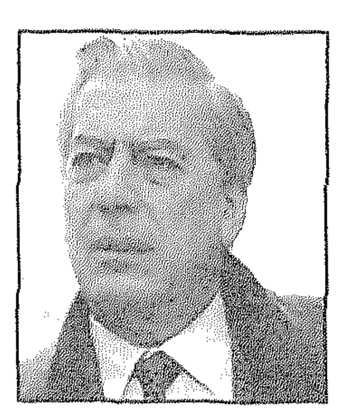


بداخله زمنا طويلا حتى يتم نسيان الأسباب التى دفعته الى ذلك ويصل الى ماهو أبعد من الموت .

وهنا يظهر الانشغال الرئيسى لجارثيا ماركيث وهو إشكالية الحقيقة الفردية داخل المجتمع غير العادل. وهذا هو الموضوع الذى يتردد من جديد فى روايته «قيلولة الثلاثاء» (١٩٤٨) وتقوم على حادثة كان يتذكرها المؤلف فى طفولته: يصل إلى المدينة لص أثناء ساعة القيلولة ويقتل ابن امرأة بالرصاص وتقوم الأم بوضع إكليل من الزهور على قبر ابنها، بينما أهل المدينة يتجمعون على الأبواب وفى نوافذ البيوت وعلى وجوههم الغضب الجامح. وتظهر المرأة بالثبات فى كبريائها وجلدها. وفى روايته «الكولونيل لا يجد من يكاتبه» نجد أنفسنا أمام واحد من النماذج الأصلية فى الرواية التى تختفى فيها البلاغة والفصاحة، فنحن أمام العزلة العارية للبطل. هذا البطل المحنك فى الحرب الأهلية الذى ظل خمسة عشر عاما منتظرا الحصول على المعاش. وعندما كان يصل البريد كل أسبوع لا تتحقق آماله. ولده الوحيد، أجوستين، قتل بالرصاص بسبب توزيعه منشورات دعائية غير مشروعة، ويظل الكولونيل بدون مصادر مالية سوى ديكة المصارعة التى لا يتمكن من اطعامها بسبب ضيق ذات اليد. بالإضافة الى ذلك يسيطر على المدينة أعداؤها السياسيون، الأمر الذى لا يسمح له باختيار آخر، فليس هناك من مخرج سوى أن يسجن كرامته وعزة نفسه وجلده وكبريائه الذى يتشبث به بعناد مؤثر. ويتجسد الكبرياء فى ديكة المصارعة التى يراها رمزا للقوى المقهورة فى المدينة ويرفض بيعها فى النهاية. وفى نهاية الرواية يفقد كل الآمال ويموت جوعا ولكن بعزة نفسه وكبريائه الذى لا يمس «شعر بنقائه وبوضوحه وأنه لا يقهر».

عمل أسطورى

فى لقاء مع ماريو بارجاس يوسا (١٩٣٦)، روائى بيرو الذى يعد الآن من كبار الروائيين العالميين، قال إن رواية «مائة عام من العزلة» هى «أماديس أمريكا» ومن ثم فهى تتويج كل أعمال جارثيا ماركيث الأولية، إنها عمل



ماريو بارجاس يوسا



كارلوس فوينتس

أسطورى يعالج دائما تداخل الأسطورة والهجرة وبناء المدينة. ايزابيل وخوسيه أركاديو بوينديا أبناء عمومة يخشيان أن يكون ثمرة زواجهما وحوشا. يهجران المدينة التى لا يمكن الوصول اليها، وعلى الرغم من أنه فى السنوات الأولى من وجودها تعيش «ماكوندو» فى براءتها الأولى وجهلها بالتاريخ. تقوم براءتها وجهلها ليس على الطيبة الطبيعية وإنما على الخطيئة الأصلية : «فى ذلك الحين كانت ماكوندو قرية تضم عشرين بيتا من الطين وأعواد البوص على شاطىء نهر مياهه بللورية تناسب بسرعة من لحدها ذى الحجارة الجميلة البيضاء والضخمة مثل بيض ما قبل التاريخ». وخلال فترة من الزمان كانت وسيلة اتصال ماكوندو الوحيدة مع العالم الخارجى تتم من خلال زيارات الغجر مع شيخ القبيلة ميليكياديس الذى يثير فى الناس الدهشة نحو عجائب الأسنان الصناعية والثلج والمغنطيس، كما يوقظ فى خوسيه أركاديو رغبة تملك المعرفة العلمية للعالم الخارجى. تولد سلالة بوينديا ولديها الرغبة الداخلية الجامحة فى صنع الأشياء وكسر حدودها فى حين أن النساء تمتصها عمليات الولادة والموت والبيوت والأكفان. ولكن عزلة ماكوندو لا تستمر كثيرا، فإن علاقاتها مع العالم الخارجى ستكون دائما قائمة على الخطأ فى تسلسل التاريخ، وأن التقدم والتطور قادمان: يظهر «المصلح» وعلى المدينة أن تشارك فى حرب أهلية ويتم بناء خط سكك حديدية وهناك تتم إقامة شركة تهتم بأشجار الموز يديرها أجانب، يموت ألف من المضربين فى إحدى المذابح، وتقوم عاصفة لتدمر المزروعات وتنسحب الشركة وتترك ماكوندو فى عزلتها .

أبعاد مأساوية

وفى صورة مصغرة يكون هذا هو انعكاس عزلة أمريكا اللاتينية عن حلقة

التقدم والاستعمار الجديد. ولكن ماكوندو تمثل أيضا المأساة في مستوى اجتماعي أكثر عمقا. ففي نهاية الرواية يبدأ آخر أعضاء عائلة بويندبا في فك رموز المخطوط الذي تركه ميلكيادس ويكتشف أنه يقرأ تاريخ العائلة، وأن هذا التاريخ سيستغرق فقط مدة القراءة : «كل ماهو مكتوب فيه لا يمكن إعادته من بدايته والى الأبد، لأن السلالات المحكوم عليها بمائة عام من العزلة لم يكن لديها اختيار ثان على ظهر هذه البسيطة.. وحدث القراءة في حد ذاته هو حدث الوحدة والموت الذي لا يمكن ان يتكرر. والنهاية تواجه القارىء بشدة ليس مع الكوميديا ـ لأن الرواية تبدو كوميدية من الوجهة السطحية ـ وإنما مع المأساة. الحياة لا يمكن أن تتكرر، والحيوات لا تقبل النعاس. الموتى هم موتى. وفهم هذا سيلزم القارئ بأن يتراجع وأن يعيد التفكير في كل شيء وأمام هذه الفكاهة المدهشة لتلك الشخصيات الغريبة تبين لنا فجأة أن وراءها أبعادا مأساوية. إنهم «وحيدون في أحلامهم».

وهذه الأحلام هي سحب كبيرة من الدخان بينهم وبين النسيان مثل سمكة الذهب التي تصنعها عائلة بويندبا في ورشتها. إن الرعب الحقيقي للحياة هو أنها لا يمكن أن تتكرر وأن الطريقة الوحيدة لتحمل هذا الرعب هو اللجوء الى الفكاهة. ولهذا فان الموت يظهر دائما بطريقة ساخرة، أمطار الزهور التي تسقط على خوسيه أركاديو عندما يموت، وصعود ريميديوس الجميلة الى السماء معلقة في ملاءة بيضاء، وتقع مذبحة أثناء الحفلة التنكرية توقظ الموتى : بييروتس وكولومبيناس والامبراطورات الصينيات. وتتحول الرواية بهذا الشكل الى محاولة سحرية في مواجهة الموت. ومن خلال التناقض الظاهري فإن الشخصيات تعيش بطريقة وحشية ويرجع ذلك الى النزعة الفردية المبالغ فيها التي تعزلهم، مثل أعمال القديسين التي تميزهم عن الشائع من الهالكين. ريميديوس الجميلة ينقصها الاحساس بالذنب إذ تتنزه وهي عارية الجسد دون الخوف من عذاب الاعتداء الجنسي. فرناندا هي صفوة النقاء والطهارة

الكاثوليكية : «كان معها مفكرة جميلة بها مفاتيح ذهبية صغيرة، أشر عليها أبوها الروحى بحبر بنفسجى اللون تواريخ صوم المسيحيين عن أكل اللحوم وباستثناء الأسبوع المقدس وأيام الآحاد والأعياد المتوقعة وأيام الجمع الأولى وأيام الخلوات والأضاحى وموانع الدورة الشهرية، اقتصرت مفكرتها السنوية على اثنين وأربعين يوما مبعثرة فى خيوط متشابكة بنفسجية اللون «أما عشيقة زوجها بتراكوتيس فهى امرأة وجيهة» اتسم حبها بخاصية السخط على الطبيعة، التى تتسبب فى أن الأبقار تتناسل بسرعة مثل الأرانب. والرجال أيضا غريبو الأطوار بدرجة مبالغ فيها ، فرجال خوسيه أركاديو حالمون ورجال أورليانو هم رجال نشطون، ولكن غزارة الحياة أنها مملوءة بدرجات مأساوية حيث أن علية القوم غريبو الأطوار محكوم عليهم أيضا بالنسيان .

ومن الجوانب المهمة فى رواية «مائة عام من العزلة» أن الرواية تكسر قالب الواقعية وتعود الى مصادر الخيال فى الأسطورة والرواية الخيالية، وأسلوب الرواية ذو لهجة تقليدية يقص حكاية شعبية : «بعد سنوات وفى مواجهة فرقة الرمى بالرصاص، كان على الكولونيل أوليانو بويندِيا أن يتذكر ذلك المساء البعيد الذى حمله فيه والده ليتعرف على الجليد». انه زمن الماضى الأسطورى حيث ضمير الاشارة «ذلك» يشير الى أن الذى يحكى التاريخ هو وحده فقط الذى يستطيع أن يكشف سحره .

رواية نموذجية

ولو استطردنا الحديث عن هذه الرواية التى حصل صاحبها على نوبل عام ١٩٨٢ لما اتسعت هذه الوريقات، بل علينا الاشارة الى عدد من التعليقات الصادرة عن نقاد وأدباء. يقول الناقد والكاتب الإسبانى أندريس أموروس تحت عنوان «صحبة مع مائة عام من العزلة» : «منذ أكثر من عشر سنوات كتبت أن الاقبال الجماعى من القراء قد أجاز عملا أدبيا ذا قيمة كبيرة. مائة عام من العزلة رواية نموذجية لا تدع للناقد مجالا لانتقادها فنيا. ونفس الشىء مع كل روايات جارثيا ماركيث التى تحوز دائما اعجاب القارىء

لفائدتها الأدبية» .ويقول الناقد الاسباني ريكاردو جوييون: «إن هذا العمل الأدبي هو لقصاص أصيل وكاتب لا يستطيع اخفاء المتعة التى يشعر بها عندما يقص الاحداث ومدى قدرته الفائقة على سردها إذ يملك القارىء (مثل السامع لحكايات الأطفال) بطبيعته التى تضفى جوا منعشا وخيالا خصبا».
وفى دراسة للباحثة كارمن أرناو «إنه عالم مستقل، يختلف عن العالم الحقيقى، رؤية عامة للحضارة. كل شىء ورد فى رواية مائة عام من العزلة. كل شىء يساهم فى خلق هذا العالم الأسطورى، هذا العالم الذى يفسر نفسه بنفسه. وبعيدا عن هذا العالم لا يوجد شىء، لأن كل شىء يوجد فى هذا العالم المتمثل فى عالم الخيال». ويقول الكاتب الارجنتينى خوليو كورتاثار: « رواية مائة عام من العزلة تقدم تجربة جديدة: كيف يكون الخيال فى قدرته الخلاقة طريقا فى مسار الرواية (امريكا الجنوبية من خلال الشرح المطول للظروف أو للحدث. ان جارثيا ماركيث يقوم بابداع روايته من من منطقة مميزة مثل ماكوندو لنصل بأقدام ثابتة لى جواناهانى» .

وتقوم روايته «وقائع موت معلن» (١٩٨١) على حدث تاريخى وحقيقى: حدث عنيف وقع فى كولومبيا منذ سنوات. يقول ماركيث : «كان لدى احساس بأن أطلق على هذه الرواية عرس الدم مثل مسرحية جارثيا لوركا». أسفرت احتفالات الزفاف عن حادث اغتيال وكان الشعب هو كورال هذه المأساة، الرواية تفتح العلاقة الأبدية بين الصحافة والأدب. يلتقط الكاتب خبرا صحفيا. الخبر حقيقى. يحول الكاتب هذا الخبر الى رواية، إذ يقوم باعادة بناء ظروف وملابسات الجريمة من خلال اعترافات جميع الأشخاص الذى شهدوا الحادث، وبذلك تكون بمثابة تحقيق روائى . ولقد شرح ماركيث هذا الموقف بوضوح عندما قال فى أحد حواراته : «الشىء المؤسف هو أن بيانا كاذبا فى الصحافة يلغى كل البيانات الحقيقية الأخرى. وعلى العكس من ذلك ففى

الخيال بيان حقيقى واحد يمكن استغلاله استغلالا جيدا يضفى حقائق على الشخصيات التى يتم ابتداعها. إلا قاعدة تظلم الصحافة والخيال : ففى الصحافة يجب الالتزام بالحقيقة، على الرغم من أن أحدا لم يبتدعها، على العكس ففى الأدب يمكن ابتداع كل شىء مادام المؤلف قادرا على جعل الاعتقاد كما لو كان شيئا مؤكدا » .

وهذا يحدث هنا، فإن القارىء الذى يعتقد أن جارثيا ماركيث قد اقتصر على كتابة تحقيق فقد أخطأ تماما. وبالنسبة لى كقارىء لا يهمنى على الاطلاق أن تكون الأحداث ببساطة ويتملكنى بتصديقها. فالكاتب يتجاوز الحقيقة الفنية الشمولية الى حدود الحقيقة التاريخية. يستغنى القصاص عن المصيدة الكلاسيكية تماما : إنه يعرف ماذا سيحدث فى النهاية. هنا فى رواية «وقائع موت معلن» تحدثنا السطور الأولى عن اليوم الذى سيذهبون فيه لقتل سنتياجو نصار، وفى آخر لحظة ينهار سنتياجو فى مطبخ منزله. خلال هذا اليوم الكامل توجد تفاصيل متعددة وظروف وأحداث وأشخاص، يوم يمثل قمة الموجة التى ولدت قبل ذلك والتى ستمتد بعد أن تنفجر فى زبد الماء الذى يغطى رمال الشاطئ. البساطة الظاهرية للرواية خادعة. ودون أن يتسرع القارىء فانه يحذره وربما يعطى جارثيا ماركيث شكلا فنيا لروايته، مستخدما - ببراعته وخبرته المعهودة مصادر فنية متعددة : يخرج فى الوقت المناسب، يبرز لحظة ، يسرع فى الحدث أو يطيل فى بطئه، يعارض وجهات النظر المختلفة حول ذات الحدث.. كثير من الأساليب الفنية تقارب أساليب السينما وقد يكون من الصعب عدم استخدام المصطلحات السينمائية.. الفلاش باك، عين الكاميرا وتبادل المناظر.. وخاصة المونتاج.. بمعرفتنا لنهاية الرواية فإن الشىء المهم هو المونتاج. مثل اينشتين واورسون ويلز يجعلنا جارثيا ماركيث فى حالة من عدم الاستقرار، بفضل المونتاج، فضلا عن الجملة الجميلة التى

يتمكن من استخدامها. ومن ثم فان المصادر الفنية تستخدم فقط إذا كانت لها فاعلية فى سير الرواية ولا تعرض بطريقة ملفتة للنظر ولكنها تتوارى بطريقة رشيقة.

هذا هو الخبر لموت معلن. الكل يعرف أن سنتياجو نصار سيلقى حتفه، ولكن لا أحد يحول دون ذلك، بما فى ذلك القتلة أنفسهم يتمنون لو أن أحد تقدم لمنعهم عن ارتكاب الجريمة، الأحداث - وليس الكاتب - هى التى تحدثنا عن المصير الانسانى الذى يلعب بالرجال الضعفاء المنسيين والجبناء. انها ليست مأساة فردية ولكنها مأساة جماعية يعيشها كل سكان القرية فترة طويلة، إن ما يقدمه لنا المعلق الاخبارى بعد سنوات هو التأريخ الذى تم استخلاصه «على مراحل من ذاكرة الآخرين»، لم يظهر القدر المأساوى الآن فى اليونان، ولكن فى إحدى قرى امريكا اللاتينية - الميراث الاسبانى - التى تتسم بالعنف والرجولة. مرة أخرى يحقق جارثيا ماركيث انتقال الخبر الموثق الى الخيال، من الحدث الاجتماعى الى الحدث الأسطورى. وتحتوى المأساة الجماعية على عمق حيوى يشدنا اليه، «عمق الشخصيات التى تواصل الرقص حتى تدركنا الحياة» . «تلك الشخصيات التى تعلم أنه «لا يوجد مكان فى الحياة أكثر حزنا من السرير الخاوى» الشخصيات التى تبكى على حبها الضائع. انه القدر المأساوى الذى يحرك هذه الشخصيات كأنها الدمى.

قصص حب الكبار

وفى أحدث اصدارات جارثيا ماركيث «فى اغسطس نرى بعضنا» (مارس ١٩٩٩) وهى القصة الأولى من رواية قصيرة بمائة وخمسين صفحة تنضم اليها أربع قصص قصيرة أخرى. صرحت مؤخرا روسامورا، الوكيلة الأدبية الاسبانية لجارثيا ماركيث : «إن القصص الخمس، ربما بدت قصصا مغلقة كل منها على نفسها بصورة كاملة، يشكلن شخصية محورية واحدة : آنا ماجدلينا باخ، عند نهايات العقد الثالث من عمرها، تسافر كل عام فى

السادس عشر من شهر اغسطس، الى القرية الصغيرة حيث دفنت أمها، فى مقبرة الفقراء، لكى تحدثها عن أمورها وتحمل لها باقة ورد من زهور «ذيل الحصان» . وفى القصة تعيش ماجدلينا فى الرحلة الأولى مغامرة عاطفية لم تتوقعها لكنها ستغير حياتها. وبعد رجوعها لبيتها، ستعى ماجدلينا أنها كانت شخصية تختلف عن الشخصية التى تصورتها عن نفسها حتى وقوعها فى المغامرة العاطفية تلك، وانها امرأة ستعيش طوال العام بذهول دائم ، مقتنعة بأنها عندما تعود فى شهر اغسطس لزيارة قبر أمها، سيحدث لها شىء ما، وفى القصص التالية ستشهد حياة ماجدلينا مغامرات جديدة، حتى تقع حقيقة بحب رجل آخر ». وكما يقول جارثيا ماركيث «المرأة تسبب الأزمات». والموضوع المسيطر على هذا الكتاب هو معالجة قصص حب لكبار السن .

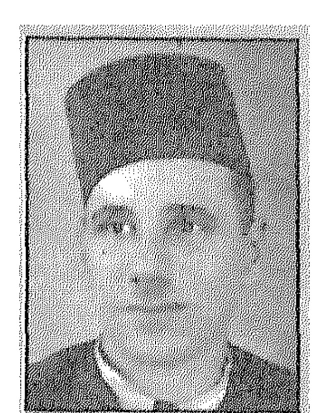
وأخيرا يتذكر الكثير من محبى الكاتب، وخصوصا أولئك الذى يقرأونه ويتابعونه بالاسبانية التى يكتب بها، أن الكاتب، عندما احتفل بعيد ميلاده السبعين ـ منذ ثلاث سنوات تقريبا ـ صرح بأنه يشعر بأنه فى الخمسين من العمر. وأن هذه المرحلة العمرية بدت له الأكثر «واقعية سحرية» من كل السنين، بما احتوته من تواريخ واحتفالات، رفعت قامة هذا الكاريبى القصير، ووضعته مثلما يقول مواطنوه «فى عين الاعصار» . سبعون سنة من العمر، ثلاثون سنة على نشر «مائة عام من العزلة»، الرواية التى أحدثت ثورة فى الرواية المكتوبة باللغة الاسبانية، والتى أثرت على الرواية المكتوبة باللغة العربية (سلبا وايجابا)، والتى وجدت لها معجبين توهم الكثير منهم، أنه بمجرد أن يقول انه استغرق فى كتابته للرواية سنوات عديدة، سيصبح كاتبا «واقعيا سحريا»، خمسون عاما على نشر أول مجموعة قصصية له «عينا كلب أزرق»، خمسة عشر عاما على الحصول على جائزة نوبل فى الأدب .

محطـــــات

فى سكة الحيــاة

بقلم: وديع فلسطين

فى حياة المرء، ولا سيما المشتغل بالحياة العامة ، محطات تستحق التوقف عندها واستعادة ذكرياتها، والإيماء إليها لأن الأجيال الطالعة تكاد تجهلها، ولأن المخضرمين من أمثالنا قد انقرضوا أو كادوا. وفى هذه السطور وقفات عند هذه المحطات قبل أن ينطلق قطار العمر إلى نهايته.


محمود أبو الوفا


بشارة الخورى


حافظ أبراهيم


محمود حسن اسماعيل

شخصيات لا تتكرر

عرفت فى سكة الحياة شخصيات لا تتكرر، اتخذت لنفسها منهاجاً تسير عليه، دون أن تحفل بالصعاب التى تجابهها، أو حتىّ بالسخريات التى تتعرّض لها.

ومن هذه الشخصيات الدكتور أحمد غلوش الذى تخصص فى اللغة الانجليزية فى جامعة لندن وتخرج منها عام ١٩١٣ ووقف حياته قبل ذلك وبعده على رسالتين، هما التعريف بالدين الاسلامى باعتباره دين تسامح للأجانب، فوضع كتاباً كبيراً باللغة الانجليزية عنوانه «دين الإسلام» أهدانى طبعته الخامسة الصادرة فى عام ١٩٥٨، وهناك طبعة منه نشرت فى نيويورك عام ١٩٥٢. أما الرسالة الثانية فهى مكافحة المسكرات، ولهذا أنشأ جمعية اتخذ لها مقراً متواضعاً زرته فيه يقع فى شارع محمد على بالعتبة. وإذا كانت بعض الكتائب الحزبية حاربت المسكرات بالاعتداء على محال بيع الخمور وتحطيمها - كما كانت ميليشيا أحمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة تعمل - فإن الدكتور غلوش اتخذ سبيل الدعوة بالإقناع، ووضع كتاباً باللغة العربية عن مضار المسكرات عالج فيه موضوعه من الناحية العلمية فى المقام الأول. وقد توافقت جهوده فى منع المسكرات مع امتناع بعض الصحف عن نشر إعلانات عن الخمور أو الترويج لها بأى سبيل، وعندما عملت فى جريدة «المقطم» قال لى مؤسسها الدكتور فارس نمر باشا إن الجريدة قاطعت إعلانات الخمور منذ إنشائها، ورفضت الإغراءات المالية تمسكاً منها بهذا المبدأ الصارم.

ويبدو أن جمعية منع المسكرات كانت نشاطاً فردياً للدكتور غلوش لأن نشاطها توقف بعد وفاته عن ثمانين عاماً تقريبا.

ومن الشخصيات التى لا تتكرر الدكتور إندراوس شخاشيرى، وهو طبيب بشرى كانت عيادته بميدان فم الخليج مقصد الفقراء من المرضى يعالجهم بقروش قليلة، وهى عيادة ورثها من بعده نجله الطبيب ضياء شخاشيرى وأغلقت بوفاته. وكان الدكتور شخاشيرى ناشطاً فى تأليف الكتب، ولا سيما ما يعالج منها مشكلات الزواج، وقد أحصيتُ له فى مجلة «المقتطف» وحدها ٥٤ مقالاً طبياً بدأ ينشرها منذ عام ١٩٠١ وحتى عام ١٩٤٥. وكما أن الدكتور غلوش أنشأ جمعية لمكافحة المسكرات، فقد أنشأ الدكتور شخاشيرى جمعية لمنع التدخين عاونه فيها الوزير الأسبق ابراهيم الدسوقى أباظة باشا والد الأديب ثروت أباظة. ولئن توقف نشاط هذه الجمعية بوفاة قطبيْها شخاشيرى وأباظة، فمازالت لافتة «ممنوع التدخين» معلّقة فى منزل أسرة شخاشيرى، ولو لمحاربة التدخين فى نطاق المنزل وحده.

ومن الشخصيات الفريدة التى عرفتها عيسى سلامة، وهو ورّاق أو كتبى سورى تخصص فى اقتناء الكتب النادرة، وكان فى سبيل ذلك يطوف بأوروبا وأمريكا بحثاً عن ضالته. وقد قام عيسى سلامة برحلات متعددة إلى أمريكا الجنوبية، واتصل هناك بعائلات أدباء المهجر وشعرائه الذين يجهلون العربية جهلاً تاما، واقتنى منهم كل مخلّفات الأدباء الراحلين من كتب ومخطوطات وصحف ومجلات ودواوين شعر، وشحن على نفقته الخاصة أطنانا من هذه المخلفات إلى مكتبة الاسد فى دمشق، وهى دار الكتب الوطنية فى الشام، واستطاع بذلك إنقاذ كل هذا التراث الذى كان مصيره المحتوم الإهمال. وقامت مكتبة الاسد بفرز كل هذه المطبوعات وتهيئتها لتكون فى خدمة الباحثين فى الأدب المهجرى. وعندما زرت دمشق فى عام ١٩٩٥ التقيت بعيسى سلامة، وكان مريضاً يعتمد على عكازة فى سيره، وكان أعزب يقيم فى غرفة بأحد الفنادق ضمّت أكداساً من الكتب النادرة، ولا أدرى ما هو مصيرها بعد أن لقى وجه ربه مؤخرا.

ومن الشخصيات التى عرفتها نصرى خطار، وهو من العرب الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة واستقروا فيها. وعندما زرت نيويورك عام ١٩٥٥ قابلت نصرى خطار الذى أطلعنى على نماذج ابتدعها لحروف اللغة العربية تسهيلا لعمال الجمع فى المطابع. فقبل اللينوتيب والمونوتيب والكمبيوتر، كانت المطابع تعتمد على جمع الحروف يدوياً، وكان صندوق الحروف العربية يضم نحو ٣٠٠ شكل لأن الحرف الواحد يتغيرّ شكله ورسمه إذا جاء فى أول الكلمة أو وسطها أو آخرها أو إذا استقلّ بذاته. وحلا لهذه المشكلة، واختصارا لوقت عامل الطباعة ولعملية تنفيذ المطبوعات قام نصرى خطار بتصميم حروف عربية على نمط الحروف اللاتينية، بحيث يبقى كل حرف مستقلا فلا يُشبك بالحرف المجاور له، ولكل الحروف ارتفاع متساو كالحروف الافرنجية تماما. وأمكنه بهذا تخفيض عدد الاشكال فى صندوق الحروف إلى ٣٠ شكلا بعدد الحروف العربية بدلا من ٣٠٠ شكل.

وقد أخبرنى نصرى خطار وقتها بأنه بعث بمشروعه إلى مجمع اللغة العربية فى القاهرة، وكان هناك مشروع آخر مقدم من جلال قاروط، مدير مطابع دار المعارف فى ذلك الوقت. ولكن المجمع ارتأى المحافظة على الرسم الحالى للحروف العربية ولو بقيت مشكلة صندوق الحروف على حالها. ومع تطور فنون الطباعة، زالت الحاجة إلى إجراء أى تغيير فى حروف المطبعة.

الإذاعة المصرية

عندما آلت محطة الإذاعة من شركة ماركونى إلى الحكومة المصرية، أصبح متعيّنا

إلحاقها بإحدى وزارات الدولة. وتقرر وقتها أن وزارة الشئون الاجتماعية هى أنسب الوزارات للإشراف على الإذاعة، وبناءً عليه صدر مرسوم ملكى فى ١٨ مايو ١٩٤٧ بإنشاء إدارة الإذاعة اللاسلكية المصرية كإدارة مستقلة تابعة لوزارة الشئون الاجتماعية.

وعندما اختير وزير جديد للوزارة، أشار عليه معاونوه أن يذيع حديثاً باعتبار هذا من اختصاصات منصبه. فطلب من مساعديه إعداد حديث لكى يقرأه على الهواء مباشرة، إذ لم تكن التسجيلات معروفة فى ذلك الوقت، بما يسمح بتسجيل الحديث ومراجعته «ومنتجته» وإذاعته بعد تحديد موعده. فقام مساعدو الوزير بإعداد الحديث المطلوب، وفيه استشهاد بقول الشاعر:

أوّاه لو علم الشباب   وآه لو قدر المشيب

وبدأ الوزير يتلو الحديث حتى وصل إلى هذا البيت فقرأه على النحو التالى :

واحد وخمسون وواحد من عشرة لو علم الشباب وواحد وخمسون لو قدر المشيب!

وكانت وزارة الشئون الاجتماعية وقتها تصدر مجلة شهرية تحمل اسم الوزارة ويرأس تحريرها الأديب حسن الشريف ويساعده فى عمله بسبب إصابته بالفالج الشاعر محمود حسن اسماعيل. وعندما زرت الشاعر فى مكتبه بالوزارة قدّم إلى نسخة من ديوانه الجديد «الملك» وهو ديوان كتم الشاعر أخباره بعد قيام الثورة خشية أن يُضار فى رزقه بسببه. وقدمنى محمود حسن إسماعيل إلى حسن الشريف – وكنتُ من المعجبين بأسلوبه البليغ الذى تجلى فى مقالاته ومترجماته المنشورة فى مجلة «الهلال»، وأعجبنى منه أنه، برغم علة الفالج التى عطلت ساقه ويمناه، كان حريصاً على الانتظام فى مكتبه يومياً وفى الإشراف بنفسه على مادة المجلة. ودعانى للكتابة فيها فلبيت دعوته ونشر لى فيها مقالين. وكان من كتاب المجلة الدوبين سيد قطب وسلامة موسى. ولماّ اغلقت المجلة نقل الشاعر محمود حسن إسماعيل من الوزارة إلى محطة الإذاعة التابعة لها، وبقى فيها إلى أن تقاعد . أما حسن الشريف فلم يعد أحد يذكره اليوم مع أنه جدير بإلقاء الأضواء عليه.

شاعر يرثى نفسه ويدعو لوالديه بجهنم

كنت أسمع باسم الشاعر البائس محمود أبى الوفا دون أن أعرفه. وفى يوم من أيام عام ١٩٥٠ وجدت على مكتبى فى الجريدة التى كنت أعمل بها نسخة من ديوان «أنفاس محترقة» مهداة من مؤلّفه الشاعر محمود أبى الوفا إلى «الأستاذ أديب فلسطين»! فعذرت الشاعر لأنه أخطأ فى اسمى، لما كنت أعرفه من رقة حاله ومن صعوبة متابعته لما يجرى فى الحياة الفكرية. وقرأت الديوان، فبهرتنى شاعريته المعطاء التى تمثل «سماحة

القريحة» كما جاء في تقديم فؤاد صروف للديوان الذى قال فيه إن «ألفاظه كأنها فى معانيها ومبانيها وجَرْسِهَا وموقعها آيات التنزيل». وبادرت بكتابة مقال عن الديوان أعربت فيه عن إعجابى الشديد به، نشرته فى عدد فبراير ١٩٥٠ من مجلة «المقتطف». وبمجرّد صدور المجلة فوجئت بالشاعر يزورنى فى مكتبى - وكان بابه مفتوحاً دائماً وليس عليه حراس أمن أو موظفو استعلامات أو سكرتيرات ممّا هو معهود اليوم فى مكاتب الصحفيين - ولولا معرفتى بأنه مبتور الساقِ ويمشى على عكازين، لاختلف أمر هذا الزائر علىّ لأننى لم أره من قبل ولا رأيت له صورة تذكرنى بملامحه. ومنذ تلك الزيارة المفاجئة التى قصد منها شكرى على اهتمامى بديوانه (وطبعاً صوّبت له اسمى) ربطت بيننا صداقة وثيقة بل حميمة امتدت إلى نهاية عمره فى ٢٧ يناير ١٩٧٩ (وهو قد تمّ تسنينه بأنه من مواليد عام ١٩٠١). وكنت أتردّد عليه فى داره العتيقة الواقعة فى أضيق حارة وأقذرها من حوارى ميدان باب الخلق، وفى عمارة تهالكت درجاتها وتنقطع الأنفاس حتى بلوغ طابقها الثالث الذى كان يقيم فيه.

وفى إحدى زياراتى لأبى الوفا قلت له: أفهم أن ترثى نفسك فى قصيدة، ولكن الذى لا أفهمه هو أن تدعو لأبيك وأمك بجهنم الحمراء، وعهدى بك إنساناً عطوفاً محبّاً لاتضمر شرّاً لأحد. فكيف طاوعك ضميرك على أن تقول فى سياق هذه المرثية الذاتية:

فى ذمـــة الله نفس ذات آمـــال	وفى سبيل العلا هذا الدم الغالى
بذلتـه، لم أذق فى العمر واحدةً	من الهناء ولا من راحـــة البـــال
كأننى فكرة فى غير بيئتها بدت	فلم تلق فــيــهـــا أى إقـــبـــال
أو أننى جئت هذا الكون عن غلط	فضاق بى رحبه المأهول والخالى
أبى، وفى النار مثوى كل والدة	ووالد أنجـبـا للبـؤس أمــثـــالى
ما كان ضرّكَ لو من غير صاحبة	قضيت عمرك شأن الزاهد السالى ؟

فانطرق أبو الوفا هنيهة، ثم قال: ها أنت ترانى موجوداً فى الدنيا - ولا أقول إننى أعيش فيها، لأن حياتى تحط عليها همومُ المرض وقلّة الرزق والكساح. صحيح أن كبار الأدباء اهتموا بشعرى مثل طه حسين ومحمد حسين هيكل ومصطفى صادق الرافعى ومحمد مندور وسيد قطب وفؤاد صروف وأحمد زكى أبى شادى وأحمد الشايب ومحمد عبد الغنى حسن وغيرهم، ولكننّى برغم هذه الشهادات التى تكتب لى الخلود لا أطمئن إلى قوت يومى، حتى وإنْ كان من الفول المدمس وحده. فمن هو المسئول عن بؤسى إلاّ

مَنْ أنجبانى إلى هذه الدنيا وتركانى أصارع تيّارات الأرزاق العاتية التى لست كفؤاً لها. وما نظمتُ هذه القصيدة كراهةً فى الأبوين، وإنما نظمتها كصرخةٍ مدوية فى وجه الظلم ولو كان مصدره أقرب الناس إلىّ. ثم ذكرنى أبو الوفا بأبيات أُخرى له وجهها إلى الشاعر حافظ إبراهيم عندما ترجم رواية «البؤساء» لڤيكتور هوجو صوّر فيها ما أسماه «بمعرض النكبات» حيث قال:

يا صاحب البؤساء جاءك شاعر يشكو من الزمن اللئيم العاتي
لم يَكْفِه أنّي علي عكـــازة أمشِي فَحطّ الصخر في طرقاتي
ثم انثَنَى يزجي عليّ مصائباً سحُباً كقطعان الدُّجـي جهمات
فغدوت في الدنيا ولا أدري أمن أحيائها أنا أم من الأموات

وكان أبو الوفا يقول:

أحبّ أضحــك للدنيــا فيمنعني أن عاقبتنى على بعض ابتساماتى

فلمّا ابتسمت له الدنيا واستجاب له الرئيس أنور السادات فأمر بمنحه بيتاً ملائماً، اختاروا له شقةً فى عمارة تحت الإنشاء فى منطقة غير مأهولة من مدينة نصر ليس لشوارعها أسماء ولا لبيوتها أرقام، وكنت أخوض فى كثبان رملية كثيفة للوصول إليها بعد جهدٍ جهيد فى الاهتداء إلى موقعها فى هذا التيه. ولم أدر هل أهنئه على هذا البيت الجديد أو أرثى لحاله، حيث قال لى: كان الناس يزوروننى عندما كنت فى حوارى باب الخلق، أما الآن فأنا شبه منفىّ إذ لا يزورنى أحد، فأعانى من الوحدة القاتلة. ولم يطل مقام أبى الوفا فى هذا البيت لأنه توفى بعيد انتقاله إليه.

شوارب الشاعر القروي

الشاعر القروى هو رشيد سليم الخورى الذى عاش فى أمريكا الجنوبية مهاجراً نصف قرن واختار لنفسه هذه الكنية عندما عيّره بها حاقد، فاعتبر صفة «القروى» مفخرة له يُباهى بها، لأنها لا تعيبه. أما أخوه قيصر سليم الخورى، وهو بدوره شاعر، فقد اختار لنفسه كنية «الشاعر المدنى».

وديوان الشاعر القروى، الذى طبع عدة مرات فى سان باولو (وكان يعربّها إلى «صنبول») وفى القاهرة وفى بغداد وفى دمشق وفى بيروت، هو أضخم ديوان مهجرى، وربما نافسه فى ضخامته ديوان الشاعر زكى قنصل بأجزائه الثلاثة التى طُبعت فى جدّه على نفقة الأديب الأريحى عبد المقصود خوجه.

وكان القروى يعتز فى شبابه بشاربه الذى يقف عليه الصقر والذى كان يميزه على أقرانه من أهل البرازيل الذين حرموا الصقور من مواطىء أقدام على شواربهم، إمّا

لأنهم حليقو الشارب، وإما لاكتفائهم بشارب رمزى متواضع الحجم. وإذا كان لكل آجل كتاب، فلشوارب القروى نهاية وصفها الشاعر فى قصيدة طريفة ينعى فيها «الشاربين المزعجين» بعدما أعمل فيهما مشارطه فى مجزرة لم يُسفك فيها دم، حيث قال:

قالوا: حلقت الشاربيْن وياضياع الشاربينِ
فأجبتهم: بل بئس ذانِ ولا رأت عيناي ذيْنِ
الشاغلين المزعِجِين الطالعين النازلين
ويلي إذا ما أرْهفا ذنبهْما كالعقربين
إن ينزلا لِجماً فمي أو يصعدا التطما بعينى
وإذا هما بسط الخوان تراهما بَسَطَا اليدينِ
فإذا أردت الأكل يقتسمان بينهما وبيني
وإذا أردت الشرب يمتصّان كالإسفنجْتين
فكأنني بهما وقد وقفا بباب المنخِريْنِ
عبدان من أشقي العبيد تقاضيا ملكاً بديْنِ

وقد زار الشاعر القروى مصر فى عهد الوحدة السورية المصرية ضيفاً على الحكومة وأقيمت له احتفالات هنا وهناك استأثرت بكل وقته. ولماّ كنت صديقه الوحيد فى مصر الذى يعرفه منذ ما كان فى مهجره، فقد كان يفتقدنى فى جميع هذه المناسبات لأننى لست ممن يدعون إليها. ولهذا توافقتُ معه على أن أزوره فى فندق (الكونتيننتال) فى الساعة السابعة من صباح كل يوم قبل أن يوافيه المندوب المرافق ليتوّجه معه إلى لقاءاته الرسمية أو سياحاته فى أنحاء القاهرة. فكنت أصادفه فى مطعم الفندق يتناول فطوره المؤلّف من بيضتين مقليتيْن فى الماء، لا فى الزبد ولا فى السمن ولا حتى فى الزيت، وأمامه قرطاس كبير يحتوى على كيلو من البصل اشتراه خصيصا ليكون جزءا من طعامه اليومى. ولماّ أوضحت له أن للبصل رائحة نفاذة، وأنه ذاهب إلى مقابلات رسمية لا تخلو من عناق وقبلات. قال:

إن القروى لا يتغيرّ ولا يتكيّف تبعا للمواقف. ومن تزعجه رائحة البصل زهدت فى لقائه!

وفى أثناء زيارته لمصر، قررّ وزير المعارف كمال الدين حسين طبع ديوان القروى بمقدمة كتبها الوزير (والأرجح أن كاتبها هو محمد سعيد العريان الذى كان وقتها يهيمن على وزارة المعارف ومكتب الوزير)، وتمّ طبع الديوان فعلاً. ولكن على ورق شديد الرداءة وقبيل صدوره خرج الوزير من الوزارة مغضوباً عليه، فاحتُبس الديوان فى مخازن

الوزارة إلى هذا اليوم بسبب مقدمته المنحوسة! وكان القروى قد كلّفنى بعد سفره إلى لبنان أن أوافيه ببضع نسخ من هذه الطبعة المصرية، فأعيانى الحصول عليها من هذه المخازن الدهرية.

وعاش القروى ما يقرب من قرن كامل، إذ ولد فى ٥ أبريل ١٨٨٧ وتوفى فى ٢٧ آغسطس ١٩٨٤ عن ٩٧ عاماً.

الشاعر فؤاد بليبل

ذكرت فى مقالى المندرج فى عدد يناير الماضى أن النقاد جميعاً - ولا أكاد أستثنى أحدا منهم - قد تجاهلوا الشاعر فؤاد بليبل ولم يذكروه حتى من قبيل الإشارة أو الإحصاء. وقد تنبهت بعد كتابة هذا المقال إلى إن هناك استثناء واحداً من النقاد اهتم بشعر فؤاد بليبل واحتفى بشاعريته، إذْ إن الأديبة الدكتورة نعمات أحمد فؤاد خصّته بفصل كامل من كتابها «خصائص الشعر الحديث» الصادر فى طبعته الأولى عام ١٩٧١ وفى طبعته الثانية عام ١٩٨٥، ومن حقها علىّ أن أسجّل لها هذا الفضل مُلقياً اللوم فى هـذا السهو على الذاكرة الخئون، لأننى قرأت كتابها يوم صدوره، بل جعلته من مراجعى عندما أصدرت كتاب «مختارات من الشعر المعاصر وكلام فى الشعر» الذى نشره مركز الأهرام للترجمة والنشر. وللدكتورة نعمات سبقٌ يسجل لها فى الإشادة بروّاد الحياة المعاصرة، الذين خصت كلاً منهم بكتاب برأسه، ومنهم أحمد حسن الزيات وعباس محمود العقاد وأحمد رامى وإبراهيم عبد القادر المازنى وأم كلثوم وابراهيم ناجى وأبو القاسم الشابى والأخطل الصغير بشارة الخورى، بالإضافة إلى لقاءاتها مع أعلام العصر الذين سجلتهم فى كتابها «قمم أدبية».

مجلة الطالبة

وفى نفس العدد من مجلة «الهلال» دراسة مستوعبة للدكتورة ليلى عبد المجيد عن المجلات النسائية فى مصر فى قرن كامل، وهى دراسة «لايخرّ منها الماء» كما يقولون، على الرغم من أنها تنوولت فى مقال واحد. واستكمالاً لما توخته الباحثة الفاضلة من حصر جميع المجلات النسائية، أشير إلى مجلة كانت تصدر فى الأربعينات عنوانها «الحسان» وقد كنتُ مسئولا عن توزيعها مع نحو أربعين جريدة ومجلة عندما كنت أعمل فى قسم التوزيع بجريدة «الاهرام» بين عامى ١٩٤٢ و١٩٤٥.

أما مجلة «الطالبة» فقد اقتصرت الباحثة على تسجيل تاريخ صدورها وهو عام ١٩٣٨، ولم تورد أى بيانات تفصيلية عنها، مع أن هذه المجلة صدرت بانتظام شهرى

على مدى ٣١ عاماً من أول أعدادها المؤرخ في فبراير ١٩٣٨ إلى آخر أعدادها بتاريخ يونيو/يوليو ١٩٦٨. ومن الإنصاف أن أعرف بهذه المجلة وبمؤسستها السيدة منرفا عبيد - شفاها الله وعافاها - وهي من أسرة عبيد في قنا التي تولى الوزارة في الماضي والحاضر عددٌ من أفرادها واتخذت المجلة في عددها الأول شعاراً لها قول الشاعر حافظ إبراهيم:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

ولأن المجلة كانت تتوجه في المقام الأول إلى الطالبات في المدارس الابتدائية والثانوية، وكانت توزع في جميع البلدان العربية، فقد حرصت محررتها منرفا عبيد على الالتزام في جميع موضوعاتها بمكارم الأخلاق وبصورة صارمة، وكأنها تدير مدرسة لتربية الفتيات تنهض بثقافتهن من ناحية وبخلقهن السليم من ناحية أخرى. وقد اتسعت صفحات المجلة من تاريخها الطويل لأقلام كتاب وشعراء منهم الأديبة مي زيادة والشاعر إبراهيم ناجي والأديبة السورية وداد سكاكيني والمربي الدكتور أمير بقطر والدكتور محمد مظهر سعيد عميد التربية وعلم النفس وزوجته نظلي الحكيم والدكتور منصور فهمي باشا والسيدة نفيسة الغمراوي والآنسة الزهرة، وهو الاسم المستعار لأوليفيا عويضة وغيرهم.

وكانت المجلة تنظم في كل سنة مسابقتين إحداهما أدبية والأخرى فنية لتشجيع الطالبات على الارتقاء بأسلوبهن الأدبي ومواهبهن الفنية، ولأن التوزيع الخارجي للمجلة في البلدان العربية كان عنصراً جوهرياً في مواجهة تكاليف إصدارها، فقد تعرضت المجلة لنكسة شديدة عندما ساءت العلاقات بين مصر وكل البلدان العربية، وترتب على هذا إغلاق الأبواب في وجه جميع الصحف والمجلات المصرية في هذه البلدان، فعزّ على محررة المجلة أن تواصل أداء رسالتها، واضطرت آسفة إلى إغلاقها في سنتها الحادية والثلاثين.

ورغبة من منرفا عبيد في جعل المجلة متاحة ولو للمشتغلين بالصحافة، فقد قامت بتجليد مجموعة كاملة منها وأهدتها إلى مكتبة نقابة الصحفيين التي هي عضو فيها لكي يرجع إليها من يشاء.



وجهاً لوجه

شعر:
يسرى خميس

لا تقترب
أكثر مما ينبغى
فربما يصعقك التيار
أو ربما يفجؤك الغدر الذى ..
مالك والبئر ، وتفاحة
عندك ما يكفى من الفاكهة
فلتترك البئر على حاله
فطالما فى يدك الحبل الذى ..
فلتلق بالدلو ، ولا تقترب
ولتشرب الشئ الذى يأتيك
فأنت فى جوف صحارى جائعة
وحدك
والضبعان ، وجها لوجه !



لغز المكان فى الإبداع

الدجاجة والبيضة

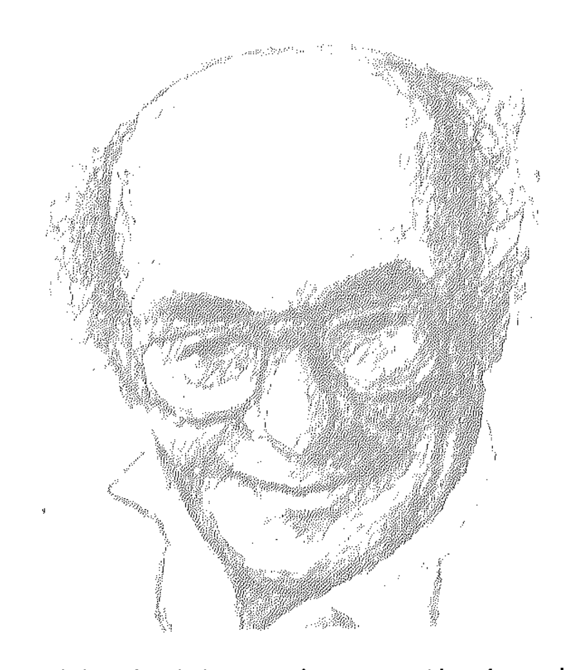
بقلم: خيرى شلبى ● بريشة الفنان: جودة خليفة

قد لا يعرف الكثيرون أنني اشتريت سيارتي الفولكس واجن الشهيرة - موديل ١٩٦٠ - منذ ما يقرب من خمسة وعشرين عاما ، لا لكي أحل بها أزمة المواصلات وما يلاقيه الإنسان فيها من بهدلة ومرمطة يفتكان بإنسانية الإنسان ؛ بل لأستخدمها في البحث عن مكان بعيد يصلح منتجعا للكتابة . ذلك أن الكتابة في البيت أصبحت مستحيلة وسط عدة ألوف من الكتب تناوشني باستمرار وتستدرجني للغوص فيها حتي ليضيع الليل كله في استكشاف الكتب وتحضيرها والاستسلام لبعضها ؛ ووسط جهاز تليفزيون، وراديو ، وفيديو ، وتسجيل ، وأربعة أولاد تضاربت أهواؤهم وأذواقهم فلا ينتهي لهم تناحر وعراك ، وزوجة مسكينة لاتني تصرخ فيهم أن يكفوا ، وزوار من البلد ؛ في حين أن الشقة كلها لا تكاد تتسع للكتب وحدها فما بالك بالبشر ؟!.

كنت ولوعا بالكتابة فى المقاهى أيام كنت مقيما بالإسكندرية وخاصة المقاهى الشعبية وانتقلت معى هذه العادة إلى القاهرة لكننى ما لبثت حتى ضقت ذرعا بالزحام وبالضجيج والسوقية البشعة . ثم إننى قد شبعت إلى حد التخمة من الغوص فى أحشاء المدن والناس الشقيانين ؛ لا غرو فقد كنت بائعا سريحا لأشياء كثيرة لفترات طويلة أجوب البلاد من أقصاها إلى أقصاها أقتحم العزب والكفور والنجوع إذا تبين لى أن وراءها نفعاً ولو بنسبة واحد فى المائة ، لا يخيفنى ليل بهيم ولا يقعدنى مطر ولا يعوقنى طول المسافات .

صديق المقاهى

أمضيت سنوات طويلة صادقت فيها مقاهى وسط المدينة حتى صرت من خبرائها ، قهوة كازينو أوبرا ، قهوة متاتيا والمختلط ، بوفيه محطة باب الحديد ، قهوة البسفور ، قهوة ركس وقهوة الريحانى بشارع عماد الدين ، قهوة أم كلثوم وقهوة الخرس فى التوفيقية ، قهوة الشيوعيين - هكذا يسمونها - فى كوعة من شارع سليمان ، قهوة الأمريكين ، قهوة على بابا، قهوة إيزافيتش ، قهوة سوق الحميدية ومن خلفها مباشرة قهوة الندوة الثقافية ، وعلى مقربة منها قهوة الحرية ، ناهيك عن قهوة ريش وقهوة ريتس بشارع سليمان، وفى هذه الأخيرة أمضيت سنين عددا أحاكى أستاذى الراحل محمد مفيد الشوباشى الذى كان يحتل إحدى المناضد ويستغرق فى الكتابة - بالكربون - لساعات طويلة جدا، ومن حين لآخر يريح



ظهره لدقائق ينفقها فى تبادل الدعابات مع الفنان زكى رستم .

مقاهى وسط المدينة - وهذه المقهى بالذات لرصيفها العريض المزدان بعلية القوم - كانت تفتننى . فأنا كقروى كنت أمارس الشعور بالبهجة إذ أرانى قد صرت فى قلب المدينة العاصمة ، ها أنذا فى قلبها حقا ، أرى الحياة كاملة أتلذذ بصخبها وضجيجها أستمد منه الحضور . إلا أننى فى أواخر الستينات كفرت بالمدينة برمتها ، صرت أمقتها ، صرت كلما توجهت إلى مكان يلتقينى فيه وجوه أكرهها وأتحاشاها صونا لدماغى وأعصابى ؛ ففى تلك الآونة - خاصة بعد رحيل الزعيم الخالد - أصيبت الأوساط الثقافية والأدبية والسياسية بطاعون جديد هو الفتك بالذات ، والفتك بالآخر بالمرة . كل واحد يلتقيك - ولو بشكل عابر - لابد أن يجرك - بشكل أو بآخر - إلى النميمة، إلى الطعن فى شخص ما . وكل غائب عن جلسة يتم نهش لحمه وعرضه بقسوة

رهيبة ، ولربما كان المنهوش مشاركا لهم منذ برهة فى نهش غائب قبله ، شوهت كل الوجوه ، أسقطت كل المثل ؛ لم يعد فى الأفق كله نقطة ضوء واحدة غير مشوية أو مطعونة فى صلبها بخنجر من ظلام .

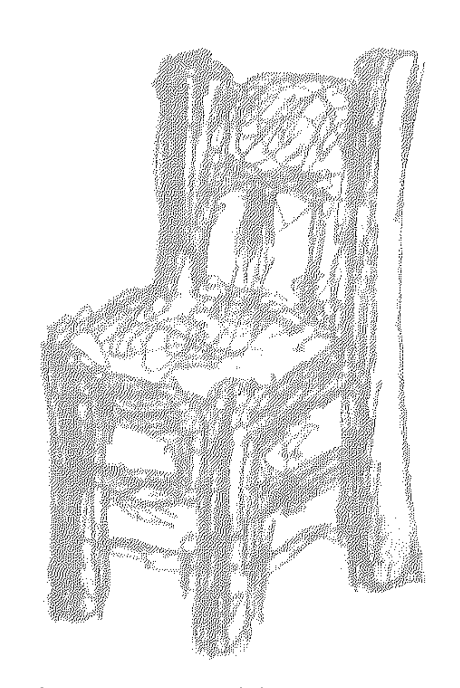
وكان لابد من الرحيل عن وسط المدينة ، على الأقل لاسترداد العقل والذاكرة . وكانت الرغبة فى الرحيل آنئذ مصحوبة برائحة شىء يتخمر فى صدرى ؛ لا لم يكن قصصا أو روايات مما كنت أحلم بالتفرغ لكتابتها ، إنما كان مشروع أسلوب جديد من المقاومة الأدبية لهذا الطاعون الوبائى الفتاك ، فكثيرا ما أضبط نفسى فى لحظة غضب أكلم نفسى هاتفا بحرارة : هل فلان الفلانى حقا صفته ونعته ؟ هل يمكن أن أكون مخدوعا فى قيمة علان العلانى ؟! إلى أن تخمر المشروع بعد سنوات عديدة وبعد أن تمرست بالرواية والقصة والمقالة على نار هادئة بأعصاب رائقة فى منتجعى الأثير : حى قايتباى الجامع بين الموت والحياة فى جوار حميم ؛ حيث رحت أمعن النظر فى طيور الحديقة المصرية كلها وأختبر عمق ما تركه كل طير منها فى وجدانى وذاكرتى وعقلى ومتاعى ، فأكتشف أن قبيلة الأحباب لا حصر لأعضائها ، وإذا بى أؤرخ لسيرة الأحباب الأعيان فيما أسميته بالبورتريه على صفحات الصحف والمجلات ، وهو نوع من التكريس للنموذج، رصد لجمالياته من الداخل والخارج ، استشراف لدوره وإحياء له .

سيارتى الفولكس واجن حملتنى إلى أطراف بعيدة لكننى لم أجد فى رحابها أى قبول من جانبى ، الشعور بالاغتراب يلاحقنى ؛ فى اليوم الواحد أتنقل بين عدة أماكن ؛ ما أكثر ما خدعت فى أمكنة ظاهرها جميل آمن وباطنها حاشد بالمزعجات ؛ ما أكاد أفرد أوراقى حتى أعود فألمها ثم أبادر بالرحيل متكلفا ما لا أطيق من ثمن مشروبات وبقشيشات اعتدت أن ألوح بها مقدما فى انتظار خدمة متميزة . آنئذ أدركت حيرة الدجاجة التى كانت تستلفت نظرى منذ الصغر وهى تلف وتدور وتستغيث فى صخب مقلق؛ وتقول أمى إن «الفرخة عليها البيضة» ، أى أنها تريد أن تضع بيضة ؛ فلماذا لا تضعها وتخلص ؟ تقول إنها تبحث عن مكان آمن وأليف لتضع فيه بيضتها وهى مطمئنة على وليدها ؛ ومن اعتادت أمهاتنا مساعدة الدجاجة بحيلة خادعة لكنها - شأن كل سلوك شعبى قائم على التجربة العملية - تربوية ناجعة؛ إذ تضع الأم بيضة فى عش صناعى وتسميها : الراقوية ، أى التى ترقب البيض وتستعجل قدومه ؛ وحين تدخل الدجاجة هذا العش الموضوع فى سكتها وتجد فيه بيضة يدخل الإطمئنان قلبها متصورة أنها قد باضت هاهنا من قبل ومن ثم يكون هذا المكان هو عشها الآمن ، فترقد فيه يوما بعد يوم ، كل يوم بيضة .. الخ .

وفيما أنا حائر كهذه الدجاجة بالضبط، تاركا سيارتى تمضى بشكل عشوائى محض لعلها تكتشف مكانا يصلح عشا آمنا أضع فيه بيضى ؛ حدث أن كنت أحود من نفق الأزهر - الدراسة

- لاعتدل على طريق صلاح سالم ، فانشغل بصرى بالامتداد العمودى للنفق ولم أكن دخلته من قبل ، فشدنى بغرابته ، وفى اللحظة التى اقتنعت فيها بدخوله كنت قد حودت بالفعل وصرت فى صلاح سالم: المهم أن عجلة القيادة ارتبكت فى يدى وتراقصت السيارة ودهمنى الرعب فى المرآة العاكسة بقدوم سيارة هوجاء من تحت النفق معدولة على ظهرى مباشرة ، فانحرفت انحرافة حادة إلى اليمين لأتفاداها ، فإذا بى قد صعدت على الرصيف ولبست فى سور ضريح أحمد حسنين باشا. نزلت أعاين حجم الخسارة فهالنى، إنعجن الرفرف تماما وانكسر الإكصدام والفانوس وبقرت بطن الباب الأيمن وقفت حزينا يائسا أفكر فى حل فعجل السيارة لم يعد لديه مساحة يتحرك فيها. على يمينى مقابر المجاورين الموحشة، وعلى يسارى حى الحسين والدراسة فبدأ عقلى يتجه يسارا للبحث عن ورشة. لكن طفلا صغيرا نبت فجأة فى أسفل ضريح أحمد حسنين باشا وقال لى: فيه سمكرى هناك اهه. صعدت فوق سور الرصيف ونظرت حيث أشار لى، ففوجئت بورشة سمكرة كبيرة لا يفصلنى عنها إلا ضريح أحمد حسنين، وقد عجبت كيف أمكن دخول كل هذه السيارات إلى هذه البقعة من المقابر؟ لكننى أحطت فمى بكفى كالنفير وهتفت صائحا : يا اسطى حسن . فاشرأبت رأس ناظرة فى اتجاهى، أشرت له أن يأتى ، فظهر شاب فى حوالى منتصف الثلاثينات من عمره ، اخترق ممرا ثم قفز صاعدا إلى السور صائحا وهو يرى منظر السيارة ، أووه ! ولا يهمك ! كله يرجع زى ما كان ان شاء الله ! اتفضل ! » . وسحبنى فقفزنا هابطين وهو يوصينى بأن أنساها وأنه سيبعث الصنايعية لسحبها .

كان شابا ذكيا جدا ، شهما ، جميل الشخصية ، رأى شعار الصحافة على زجاج سيارتى ، فقدم لى نفسه : إنه الأسطى حسن وردة ، كان صاحب ورشة فى جبل الدراسة أزالته الحكومة للاستيلاء على المكان ، أبوه كان «تربياً» معلما يعرفه كبار القوم ، ويملك هذا الحوش الكبير الذى دُفن فيه منذ بضع سنوات، فلما تأزمت الأمور بحسن لم يجد مفرا من اقتسام الحوش جاعلا النصف ورشة والنصف مدفنا ، ولأنه أسطى بمعنى الكلمة فإن الزبائن تبحث عنه حتى تهتدى إليه : الدليل على ذلك كثرة السيارات التى أراها قيد التصليح: وإن من زبائنه ممثلين ومخرجين ورؤساء مجالس إدارة يطلبونه بالهاتف ليذهب إليهم يتسلم السيارة ويردها صاغا سليما. ثم أدخلنى فى حارة لطيفة تقع بين حوشهم وحوش أثرى بنى بالحجر الجيرى المقتطع من المقطم . الحارة طولها عرض الحوشين ، يسدها رصيف صلاح سالم المرتفع عن أرضها بما يوازى جدار بيت من ثلاثة طوابق . فى ركن منه أقيمت عشة من الخشب والصفيح تقدم الشاى والقهوة من أى نوع وعندما يتأكدون أنهم عرفوا شخصا جديرا بالحب والاحترام فضلوه على أنفسهم بكل معنى الكلمة فى زحمة الإحتفال بى كنت ألاحظ خلال الاستغراق



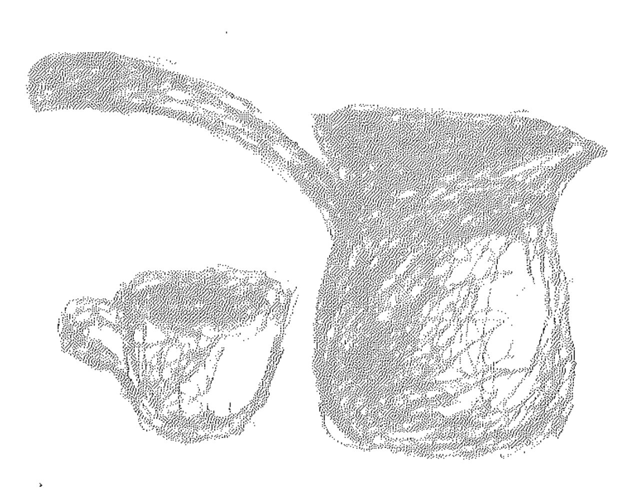
التام فيام بعض الناس للتهامس والتشاور بعيداً، فتختفى وجوه ثم تعود للظهور بعد وقت يقصر أو يطول. فلما انتزعنا آذان الفجر من خلوتنا وقمنا فوجئت بسيارتى واقفة فى نهر الطريق معدولة على السكة، حيث عادت كما كانت، وأخبرنى حسن ببساطة فائقة أنه اشترى الفانوس من الدراسة، وغير ميزان العجل المكسور بواحد قديم من عنده، وكذلك استبدل الإكصدام بواحد قديم من عنده أيضاً، وقال إننى يجب أن أمر عليه غداً فى نفس الميعاد حيث سيكون فى انتظارى عامل الدوكو ليشتغل فيها وأنا موجود، ثم إنه رفض أن يحاسبنى إلا فيما بعد.

فى اليوم التالى آتيت إليه داخلا بالسيارة حتى باب الورشة، ملهوفا على قعدة الأمس لأجدها مهيأة فى انتظارى، وإذا بعم على صاحب العشة قد سرح فى أنحاء الورشة فاكتشفت هذه الشلتة فسرقها ليضعها تحتى إذ إننى – كما قال – مسكين أجلس بالساعات الطويلة منكفئا على نون والقلم وما يسطرون. ثم أصبحت أفاجأ دائماً بأن سيارتى يتم سمكرتها للمرة الألف ربما فيما أنا معتكف داخل العشة أواصل الكتابة فى ملحمة الشطار، بات من المألوف أن يرى الصنايعى عوجة فى الإكصدام أو لوحة فى الرفرف، بدون استئذان يسحب شاكوشه وسندته ليصلحه. أصبحت واحدا من الأسرة، بل أصبحت أحيانا أسبقهم إلى الورشة قبل طلوع الشمس لأجلس فوق حجرة من حجارة الرصيف المجوفة واقفة، لأرى الإلهام يتدفق أمام عينى صوراً حية تطلب التدوين الفورى. وآه ثم آه على جمال مثل هذه الأصبحة يوم العيد أو يوم الخميس أو أيام المناسبات الدينية، حيث تمتلئ ممرات المقابر بألوان زاهية لملابس أطفال كالزهور، وتنتشر الورود والأعواد الخضراء فوق شواهد المقابر، ويمتلئ الفضاء بصوت الشخاشيخ ومقرئى القرآن والباعة السريحة، ويتدفق الود والمجاملات بين الناس.

شيئاً فشيئا بدأ حسن وردة يسحبنى إلى داخل حى قايتباى ليوقعنى فى أسره إلى الأبد ، كل بقعة فيه تنادينى لكى أجلس ، طراز المبانى ، البيوت الحجرية لا تزيد عن أربعة طوابق ، المبانى التاريخية الأثرية لا حصر لها وبكثافة ، من مساجد وأضرحة للسلاطين ومدارس وأسبلة وخنقاوات وتكايا ، الدكاكين القديمة ذات الأبواب الخشبية بدرفتين تعلقان بقفل

وبرفيل ، حيث يجلس الترزية والحرايرية والسراجون والمقصبون أمام محلاتهم يعملون ، المقاهى ذات أشكال عجيبة وحميمة ، منها الغائص تحت الأرض والقائم فوق تلة جبلية والمندس داخل بناء أثرى ، حمامات بمواقد هائلة تلفظ أكواما من الرماد المشتعل تندس فيه القدرات الفخارية الملآنة بالفول المدمس . نسوان وصبايا يجلسن أمام بيوتهن أو يحملن باستلات الماء ذاهبات إلى حنفية الصدقة أو قادمات منها ، جمال فذ ، مبذول ، مرمى على الأرصفة ، أحفاد الجوارى الفارسيات والحبشيات والشركسيات والروميات والتركيات يلتقينك سافرات بسيطات بريئات نقيات مسترجلات أحيانا.

وإلى أن صرت من سكان الحى المقيمين لم أكد بعد قد عرفت سر هذه الحميمية التى ذوبتنى فى هذا المكان حتى تمنيت ألا أخرج منه إلى الأبد . ما سر هذه الألفة؟ هل هى تفاصيل المكان ؟ محتواه الإنسانى ؟ غرابته ؟ فرادته ؟ نقاء جوه كمنطقة مرتفعة فوق القاهرة بما قيمته ناطحتى سحاب فوق بعضهما ؟ ما سر هذه الجسارة التى أهلتنى للسير ليلا فى جنح الظلام بين صفوف من المقابر الموحشة كقطيع من الافيال السوداء باركة على الأرض تحوى الخطر والمجهول؟ كيف أتيح لى أحيانا كثيرة أن أسهر فى قلب الحوش وحدى ، أن أجعل من شاهد المقبرة منضدة رخامية أفرد فوقها كتبى وأوراقى وأمكث وقتا طويلا أستقطب هسيس أوراق الشجر وأكاد أسمع حوارا



بينها وبين الأجداث الراقدة تحت هذه الشواهد منذ عشرات المئات من السنين !! كيف انتخبت لنفسى أصدقاء من الموتى أصبحت أضرب لهم المواعيد لنلتقى، معظمهم شخصيات تاريخية يوجد بينى وبينها قضايا ومسائل كثيرة مشتركة يجب أن نتحاور بشأنها كالجبرتى وأحمد حسنين وعدد من مشايخ الأزهر ورؤوس العائلات السياسية الكبيرة !! كيف أتيح لى أن استمد الإلهام من الموت لتصعد الحياة ومن الموتى ليتعظ الأحياء ؟! .

كل هذا - وإن راودنى الكثير من الإجابات عليه - أتركه للباحثين فى علم نفس الإبداع والمبدعين وهو مجال بكر لا يزال . وسواء حصلوا على إجابات شافية أو تخبطوا فى ذلك السبيل فإن العلاقة بين المبدع والمكان ستظل لغزا سحريا مثيرا إلى ما لا نهاية ، وسيظل غموضه نبعا ثريا للإبداع هيهات أن ينضب له معين.

كتاب
الهلال
يقدم

القاهرة
تبوح بأسرارها

بقلم الكاتب المغربي
عبد الكريم غلاب

يصدر

٥ مارس ٢٠٠٠

روايات الهلال
تقدم

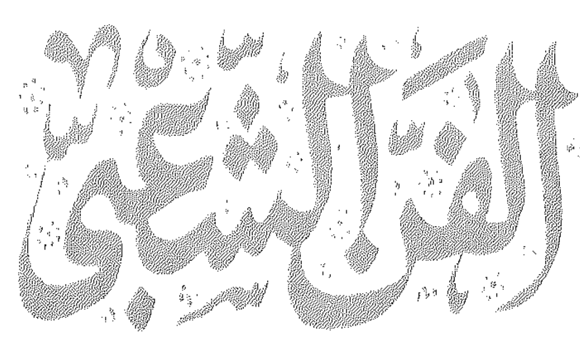
القلق
السرّى
(من عذابات شهرزاد)

بقلم
فوزية رشيد

تصدر

١٥ مارس ٢٠٠٠

ذكريات لا تنسى :

- كيف أصبحت الموالد بلا معنى ؟!
- كيف كتب صلاح جاهين الليلة الكبيرة ؟!
- كيف عاش يحيى حقى مولد السيدة زينب ؟!
- خلى السيف «يجول»

بقلم : حسن سليمان

ثار راجح داود ثورة عارمة وهو يخبرنى بالتليفون أن إحدى القنوات الفضائية التى تبث برامجها للعالم طلبت منه موسيقى تعبر عن وحدة القوى الوطنية لفيلم ، فاعتذر ووضع السماعة ، قلت له : ألا زالوا يكررون أخطاءهم ؟.

فمنذ زمن طويل عانى جيلى من شيء يسمى «الهز الثورى» . قال : ما هو الهز الثورى ؟ قلت له : إننا إلى الآن لا ندرى ماهو الهز الثورى ، وبالتأكيد أن الذى ركب الكلمتين معاً رجل عبقرى ، ورجوعاً إلى سنوات طويلة مضت أذكر أننى قابلت ذات ظهيرة يوسف الحطاب حاملاً كعادته حقيبة منتفخة بالنصوص ، وفى يده الأخرى ملفات لم تسعها حقيبته ، إذ كان يصر على مراجعة النصوص كلمة كلمة ، وأحيانا ماكان يعيد صياغة بعضها ، كنت أحبه .

سألته : هل لديك بضع دقائق لتشرب معى فنجان قهوة ، أجاب بالايجاب ، أخذ يدى ومضينا ، وعلى المنضدة الرخامية فى «مقهى البن البرازيلى» . قال لى : هل تعرف ماذا حدث اليوم ؟ كان أنور فتح الله قد قدم لى سباعية إذاعية عن «الهز الثورى» وجدته قد أتلف مسرحية «بريخت» «الأم شجاعة» ، وجعلها بائعة طعمية ترفض البيع لليهود ، وتصبر على عدم البيع حتى ولو أدى ذلك إلى الموت جوعاً هى وأولادها . وحينما حضر إلىّ اليوم أنور فتح الله ليسألنى عن سباعيته وما تم بشأنها . قلت له ثائراً : ما هذا يا أستاذ أنور . لقد طلبت منك سباعية عنّ الهز الثورى . قال لى : كلها ممتلئة بالثورة . قلت له : لو وافقنا على هذا جدلا ، فأين الهز ؟ فوجئت به يخلع سترته

أبو العيال دائماً محتاج ونحن على أبواب المدارس والعيد .

«يوسف الحطاب»

ويصرخ إن كان على الهز ، أهتز أنا لكم ، واقبل أنت السباعية ثم بدأ يرقص ويهز كرشه وأردافه قائلا : «دقوا على واحدة ونص» ويكرر كلمات زكريا الحجاوى لخضرة :

فاروق راح فين عوير العين
جمال الزين عطى له قلمين

ضحك كل من بالحجرة ، وضحكت أنا كذلك ، لم يسعنى سوى إلا أن أقول له : دعها ياأنور . ثم أردف يوسف الحطاب بعد فترة وجيزة «أبوالعيال دائماً محتاج ونحن على أبواب المدارس والعيد» . فابتسمت قائلاً : هذه ليست أول مرة تصوغ فيها الأعمال يا يوسف ، كلنا فى محنة . إن مسألة تسييس الفن ستتلف كل فنوننا خصوصاً الفن الشعبى منها ، فباسميها سيمتهن كل شيء وقبل أن أكمل كلامى لاحقنى : على فكرة هل لدينا رقص شعبى، ماهذه البدعة التى اخترعها الروس لنا . إن الرقص الشعبى للشباب

والفتيات امتد من أوربا حتى توقف عند لبنان، لكننى لا أعلم لم يأتون بفتيات بدينات ليس لهن رشاقة فى الخطوة أو التحرك مع الموسيقى، وشبان مخنثين يظلون يهتزون ويميلون ويثبون ويتقدمون ويتأخرون على أنغام أغان لا تمت إلى الرقص بصلة ، وليس بها إيقاعات راقصة . وحين قابلت أنور فتح الله كان سعيداً قال لقد صنع يوسف الحطاب من الفسيخ شربات !.

فابتسمت قائلاً : هل نجحت فى الهز الثورى يا أنور !!.

قابلنى غالب هلسه الكاتب القصصى قال لى : هيا بنا ، هناك مكان لك فى العربة سنذهب إلى السويس ، فزكريا الحجاوى سيقوم بتوعية الشعب حتى يكونوا على مستوى قيادتهم ، قلت له : دعنى ، قال : لابد أن تأتى ، أنت محتاج إلى تغيير وشدنى ، حينما وصلنا بدأ زكريا الحجاوى مخاطباً الناس قبل أن تغنى خضرة : (هل تعرفون الحكاية ياجدعان) إن عبدالناصر بالضبط كرجل فتوة بطل واثق من نفسه ، والأعداء بالضبط مثل (عيال هلافيت) جاءوا. فعبد الناصر جلس صامتاً مكانه . أخذوا يشاكسونه ويقبلون تركهم فهو لا يهتم بأمور العيال ، وأخيراً صاح فيهم (إبعد ياجدع إنت وهو إنتو مش قدى) . لكنهم إستمروا وتقدموا حتى وصلوا السويس . فقام عبدالناصر من مكانه ونزل فيهم ضرباً (فين يوجعك وفين يحرقك حتى جعلهم سطيحة بجانب القناة) لا هم قادرون على التقدم أكثر ولا هم قادرون حتى على التراجع . كان معظم الحاضرين من الأطفال ، قال لهم زكريا : (فاهمين بقه الحكاية ياجدعان) كان ينتظر الفيلم الذى بعد فقرة زكريا وخضرة ولا يعنيهم ما قاله زكريا على الاطلاق ، أما نحن فكدنا نستلقى على ظهورنا من الضحك ، وأخذنا العربة راجعين فى الطريق نغنى (فات الكثير يابلدنا مابقاش غير القليل) . فجأة إنتابتنى نوبة من الضحك الهستيرى وصحت فى نشوة ممزوجة بالمرارة . (كيف لا يبقى سوى القليل فى تاريخ أمة)؟ فدائماً يمتد الأفق رغبة فى حياة أرغد وأسعد . تذكرت كلمات (تشرشل) التى كانت مقررة علينا فى المدرسة حينما تولى رئاسة الوزارة فى أحلك فترة مرت

تميز سكان منطقة السيدة زينب بتذوقهم للإنشاد الدينى وقراءة القرآن

بها بريطانيا . إذ قال لهم: «لم يعد لدى شيء أعطيه لكم سوى العرق والدموع والكد والدماء» . كان من الصراحة والشجاعة أكثر إذ قال لهم فى البرلمان الإنجليزى مرة ثانية إن فيلم الحذاء الأحمر أتى لنا من العملة الصعبة ما عجز القليل من صادراتنا أن تحققه . لم يكن بفيلم الحذاء الأحمر شيء عن نضال إنجلترا وكفاحها بل كان فقط عن قصة حب راقصة باليه تمزقها الحيرة بين حبيبها والرقص . كان تشرشل من الصراحة والشجاعة أن يدرك أن الكذب على الشعب لن يستمر كثيراً ، وأنه من الأفضل الاعتماد على شجاعة وإصرار شعب أفضل من الاعتماد على مهرجين ومنافقين .

أذكر حينما كان سكان مصر الجديدة يسمعون طلقات المدافع والصواريخ بل ويلمحون النيران فى السويس ، أن الإذاعة لدينا كان تذيع فى هذا الوقت بالضبط (خلى السيف «يجول») !!

الليلة الكبيرة
«لمولد السيدة زينب»

يختلف مولد السيدة زينب عن مولد سيدنا الحسين فى أشياء كثيرة حتى فى نوعية ما يقدم فيه ، وأهم خصائصه هى أنه أمام الباب الرئيسى للسيدة كانت توجد خيام أو غرز للمداحين أو «الصييتة» كما كان يطلق عليهم . كانوا يتبارون فى تقديم قصائدهم فى مدح الرسول والعشق الإلهى . يستثيرنى أن الإيقاع الموسيقى كان يأتى فقط من عصا نحاسية مفرغة ينقرون عليها بحبات مسبحاتهم من الكهرمان . وهذا التقليد يرجع إلى أن شيخهم «ندا» الذى كان جد الرسام حامد ندا كان مقرىء ومؤذن السيدة زينب، وأظن أنه كان يبدأ آذان الفجر بنفسه والمؤذنون فى الجوامع الأخرى يتبعونه . كان يبدأ بمقام موسيقى من المقامات فيبدأ الشيخ وأول مئذنة قريبة تسمعه تأخذ منه لتقسم على نهجه ثم يتناوله الأقرب فالأقرب، وهكذا يقسمون وينتقلون من مقام إلى آخر وفى اليوم التالى يكون هذا الأمر حديث المدينة كلها وقد سمعتهم وأنا طفل يقولون ويتناقشون ويختلفون حول الشيخ ندا . هل بدأ بحجاز كار أو سيكا أو نهاوند وأن ما انتهى إليه جامع الرفاعى كان الصبا .

وكان سكان منطقة السيدة زينب يتميزون بتذوقهم للإنشاد الدينى وقرءاة القرآن وربط كل ذلك بالموسيقى الشرقية ، ومعظم المقرئين كانوا من أبناء السيدة زينب ، وحينما أراد الشيخ عبدالباسط عبدالصمد أن يحظى بشهرة كان جواز مروره أن يختص بيوم الثلاثاء من كل أسبوع بقراءة القرآن عصر ذلك اليوم حتى المغرب فى السيدة زينب . وكان

المترددون على هذا المسجد من أهم الزواقة وفى استطاعتهم أن يجيزوا المقرىء أو لا يجيزوه . ذهب الشيخ ندا وحل محله ابنه والد الفنان حامد ندا . لكنه ليس في المستوى الروحي لوالده .

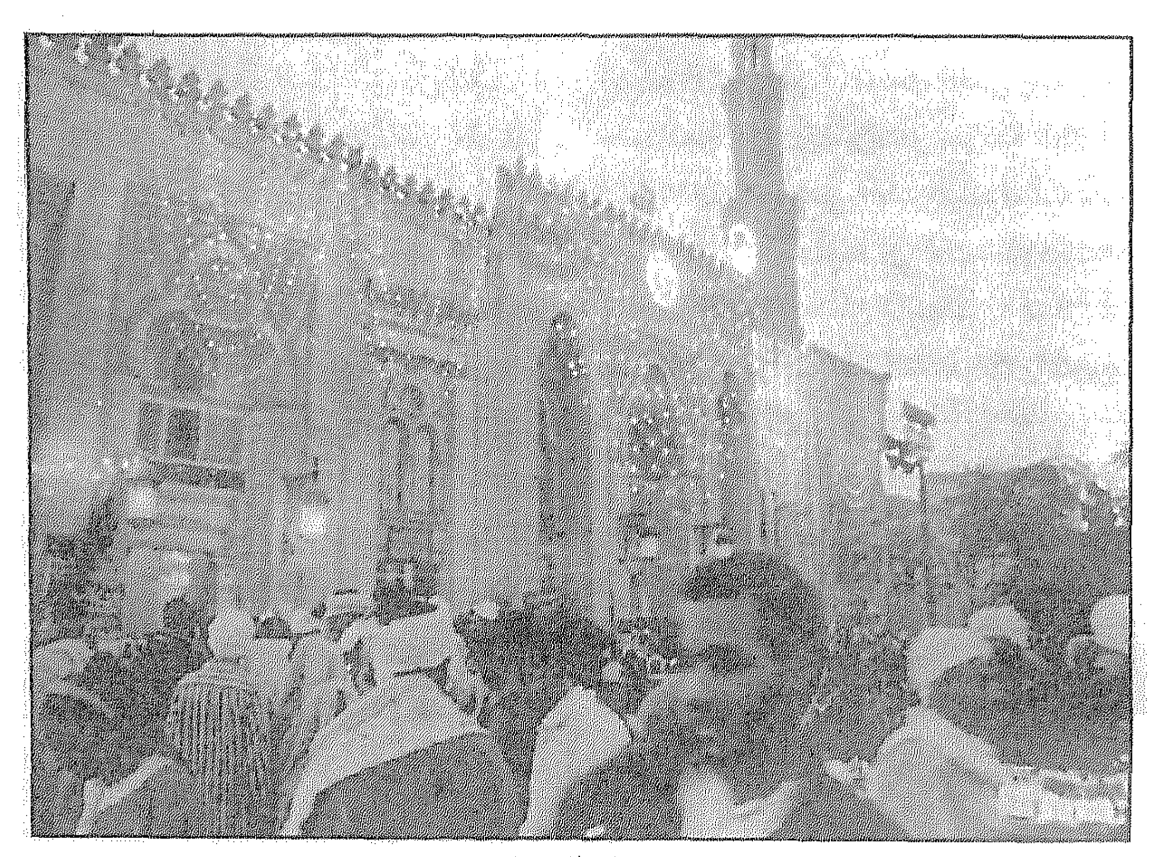
●●●

ذات مرة - أظنني - قابلت هناك عبدالهادى الجزار وكان يسبقني فى كلية الفنون الجميلة بعام واحد . هذه الحادثة التى مررت بها لا يمكن نسيانها وهى الأولى والأخيرة من نوعها في حياتي . قال لى عبدالهادي : إن أردت أن ترسم فاتبعني إلى قهوة «المجاذيب» بشارع السد فانحرفنا عن المنشدين لندخل هذا الشارع وعلى الناصية الأخرى من الشارع كانت توجد مكان محل «عرفة» بائع الكنافة الجديد قهوة تسمى «قهوة الزجاج» لأن كل جدرانها زجاجية ، وهى كانت مشهورة بالمعممين من طلاب جامعة الازهر ودار العلوم ، لكن طلاب دار العلوم كانوا يرتدون «البدلة الإفرنجي» وكانوا كثبرا ما ينسون أنهم قد تركوا الجبة والقفطان والعمامة لكنهم - دون سبب غير الاعتياد -- يحركون ايديهم اليسرى خلف أقفيتهم دافعين الطرابيش إلى الاعلى أماما كلابسي العمامة ليتمكن من هرش رأسه . أو نجدهم يرفعون سواعدهم إلى أعلى محركين أيديهم فى الهواء بعصبية كأنهم يريدون أن تسقط أكمام الجبب والقفاطين خوفاً من أن تتسخ أو تسقط أطرافها فيما يشربون .

فجاة وأنا سائر مع الجزار فى قهوة المجاذيب بزغ أحد المجاذيب فى جبة مرقعة وطاقية عليها كتابات إسلامية وصاح فيهم : مصيركم النار ياقوم لوط .

وفى مقهى المجاذيب طلب لى الجزار شاياً وقال للنادل : أحضر له «شاياً مَمّوناً» وكانت رائحة العنبر تفوح منه مغطية على رائحة أخرى لم أتبينها ، وفى المذاق أدركت الاختلاف أكثر لكننى لم أعلم حقيقة المواد الأخرى الداخلة . عينا الجزار ظلتا تحلق فى إمراة مجذوبة . ذات حلاوة وأنوثة على رأسها طرحها وفى يدها مسبحه . وعلى حرف الطرحة كتابات. لاحظت المرأة أن عينى الجزار لا تفارقها . مدت إحدى ساقيها وأنزلتها من على الدكة ثم دست قدمها فى الكاتنلا السوداء . كما لاحظت بشكل مبالغ أن عينى الجزار انزلقتا على ساقها من أسفل حتى منتصف جسمها فشدت جلبابها الأسود وصاحت فى وجهه «كله بإذنها» وهى التى تامر .. والله لو أمرت لسعيت إليك حافية القدمين !! قال الجزار . «شى لله ياأم العواجز كلنا خدامين الست .. وستامر إن شاء الله» !!

أما أنا فانشغلت فى رسم الرجل



مولد السيدة

الذى أمامى وهو ينفخ فى مزماره الخشبى وفجأة كلما نفخ فيه شعرت أن المزمار يطول أطول فاطول مع النفخ المستمر ، وإذا بى أدفع فوهة المزمار إلى حد ملامسة الذى أرسم عليه فتعجبت وتساءلت داخليا· أهو المخدر أم ماذا ؟! وحين داومنى الشعور بافتقاد النظر الصحيح وتقدير الأماكن وتداخل الألوان أدركت أن هذا هو ما يسمي «الحشيش». وحين خرجنا من المقهى كان ينطلق من مذياع قريب صوت أم كلثوم وهى تغنى : وسنة الله .. وكلما كررت لفظ الجلالة وقع نظرى على مئذنة الجامع أحسستها تطاول السحاب وتخترقه، وفى هذه الحالة فاجانى الجزار قائلاً · هل تريد موديلاً ؟ قلت الأمر يتوقف على شكلها . قادنى إلى زقاق جانبى . نزلنا درجات متآكلة هابطين إلى البدروم . كان الجو مظلماً إلا من ضوء ضعيف وفيه مرقت قطة سوداء أفزعتنى . وإذ برجل يمرق فجأة مرتدياً جبة وقفطاناً وعمامة خضراء . وكما ظهر اختفى . دخلنا إلى الصالة فاكتشفنا أن الضوء الخافت ينبعث من حجرة بها لمبة جاز . صفق زميلى وقال : دستور ياجماعة . ردت عليه إمرأة لم نرها بعد : ادخل ياسى عبدالهادى . الجماعة منتظرينك من مدة وحين دخلنا رأيت إمرأتين إحداهن فى العقد الثالث

والأخرى فى العقد السادس من العمر ، ويجلس على الكنبة رجل صامت أفزعنى إذ أن إبهام وسبابة يده اليمنى كانت قابضتين على شىء ما بينهما ، وعلى ظهر كفه كان وشم السبع ، وعلى جانبى صدغيه عصفورتان، وبيده اليسرى عود نعناع . كان يضع ساقاً على ساق وظهرا قدميه منتفخان بشكل لافت وسع البلغة التى بجانبه . لم يحرك ساكنا ولم يرد تحية كأن لا وجود لأحد على الأطلاق . صامت صمتاً مطبقاً. وإذا بالعجوز تكلمنا : انظر ياسى عبدالهادى وأشارت لمن يجاورها : جمال لم يكن على البال .نطق الصامت على حين غرة : حى حى ففزعت وعاد إلى صمته المطبق بشكل آلى فخرجت . جرى الجزار خلفى . قلت له : ليس هذا عالمى . إن ذلك سيجرك إلى صور أدبية وكان عمرى حين ذاك يبلغ العشرين تقريباً - ولا أدعى أن وعيى حينئذ كان مكتملاً فنياً - لكننى فيما أعتقد كانت لدى فطرة فنية رائقة ولم أكن مضطراً لافتعال الموضوعية الأدبية أو الأسطورية . سندى الوحيد فى الفن . كان شوقى عارماً نحو إبداع لوحة تقوم على بنية تشكيلية متكاملة ومتناغمة يكون أو لا يكون العامل الأدبى ضمن مكوناتها.

والآن وبعد مرور ما يقرب من نصف قرن وأنا أراجع حرية الفنان مختلفاً أو متفقاً مع وجهة نظرى أرانى لم أجاوز هذا الاعتقاد لكننى فقط قد تأكدت أن تعميق القيم التشكيلية للعمل الفنى يعطى له خلوداً مؤكداً ، وبنظرة موضوعية نجد أن الفنان الذى يتبنى الخرافة والشعوذة وصولاً إلى المحلية أو الخصوصية المصرية دون يقين ثابت من الممكن آن يصل به الأمر إلى فن الشعارات والتجريد والشكل دون مضمون .

ولذلك عاشت أعمال الجزار الأولى رغم فقدانها كثيراً من القيم التشكيلية بسبب الصدق فقط فى التعبير عن البيئة . ولوحة السد العالى تكشف عن تهافت تلك الرؤية الفارغة وحتى نهاية حياته وأعماله اللاحقة. ولا يبعد الأمر كثيراً بالنسبة للفنان حامد ندا الذى انحرف نحو مداعبة الجسد النسائى بشكل بدائى محاكاة لرسوم الكهوف ماقبل التاريخ ، وترك جذوره التى أملت عليه التعبير عن بيئته الأسطورية فى السيدة زينب فى شارع السد .

وبعد أن تركت الجزار لعالمه رجعت إلى ميدان السيدة زينب وإذ ينطلق من خيمة صوت فيه شجن ولوعة شدنى إليها كانت إمرأة تغنى بحرارة وصدق غريبين «يابهية خبرينى ع اللى جتل ياسين» . كان وراها كورس واضعاً الدفوف الكبيرة على أفخاذهم وكان الكورس مكوناً من رجل وامرأتين - يكررون خلفها نفس المقطع بصوت حزين بإيقاع جنائزى .. يابهية وخبرينى اللى جتل ياسين .. جتلوه السودانية يابوى .. من فوق ضهر

الهجين.

هذا اللحن أثر فىّ جداً حتى لازلت أذكره كأننى سمعته أمس لكننى فوجئت فيما بعد ، بعد إرتباط زكريا الحجاوى بخضرة خضر ، سمعتها بعد ذلك فى الاذاعة تغنى نفس الأغنية مع تغيير : جتلوه السودانية إلى جتلوه الحجازية .. لا معنى له أما السودانية فالمقصود بهم خفر الحدود المصرية وكانوا سودانيين فى ذلك العهد طبقاً لإتفاقية بين مصر والسودان أن تمد مصر برجال قبيلة معينة معروف عنها الشجاعة والشهامة ولا يخون أفرادها أبداً .. لكن وفق منطق الحجاوى كيف يكون بطل شعبى مهرباً للمخدرات مثلاً ؟ إذ لابد له من أن تقص حوله قصة تصلح للسينما والدعاية السياسية . والآن تغير كل شىء فقد قام من أوعز للسلطات أنه لابد أن تكون الموالد للتوعية السياسية والثقافية ولابد أن تطهر من الدنس وأن يهدف ما يغنى إلى التوعية السياسية . فأصبحت الموالد باردة بلا طعم ولا معنى

تولد عندى عداء للطبقة القادرة والطبقة التى تستغل حاجة البسطاء .

«يحيى حقى»

وقضى على المعنى الجميل والحقيقى للتراث الشعبى .

أصبحت باردة ثقيلة الظل . وإنعكس ذلك على الصورة فكان إظهار أشكال ورموز من التراث الشعبى والبنية الشعبية على حساب صلابة الفورم والبناء التشكيلى .

لا أذكر من الذى دفع صلاح چاهين الطالب فى السنة الأولى فنون والذى ترك كلية الحقوق رغم إرادة والده ليلتحق بها إلى الذهاب معى إلى مولد السيدة زينب لكن أعتقد أنه الفنان هبة عناية الله ، وأعتقد أنهما الاثنان ذهبا معى . كان إنبهار صلاح چاهين بكل ما يراه كبيراً وولدت فكرة أوبريت الليلة الكبيرة هناك .فى المولد . كان صلاح يدون أحياناً جملاً يرى فيها أنها تصلح لشعره مثل المرأة التى سرقت طرحتها فقالت لزوجها فى عتاب «طار فى الهوا شاشى وأنت ما تدراشى» فهتف صلاح چاهين منتشياً إنها شعر عذب ، وجملة أخرى «ياللى بينا على شارع الترومای» لم أكن فى ذلك الوقت أدرك أن صلاح چاهين أخذ الأمر بجدية . لكنى فوجئت بعد تركه الكلية ، وهو فى السنة الأولى وإحترافه الكاريكاتير والشعر العامى بأن الليلة الكبيرة ظهرت للنور ونجحت لتضافر جهود كل من عمل فيها من تصميم العرائس لناجى شاكر والديكور لمصطفى كامل والموسيقى لسيد مكاوى والاخراج

الحقيقى للمدربة الرومانية المتخصصة والتى أحضرتها مصر لتدريب المصريين . نالت الليلة الكبيرة جوائز عدة خارج مصر ولا يوجد مسرحية أخرى للعرائس قد جاوزتها لأنهم كانوا يعملون فيها كلهم بروح جماعية، ورغبة فى أن يضعوا عملاً مصرياً جديداً. لكن لصلاح جاهين العذر بأنها أتت بهذا الشكل لصغر سنه حين ذاك ، إذ كانت مجموعة من الفقرات المستقلة لا يربطها أى خيط درامى إلا حدوثها فى قلب المولد، وكتبت بطريقة واقعية تبهر الطبقة المتوسطة التى لا تذهب إلى الموالد . لكنها طبعاً تفتقد عبق الأسطورة وعمق الحدث والحوار وارتباطهما بالجذور العميقة للتراث الشعبى ، فرؤية صلاح جاهين طبعاً ليس فيها عمق يحيى حقى ولا سريالية الجزار ولا نستطيع مقارنتها مثلاً بالسيناريو الذى وضعه «ألبير كامى» لفيلم «أورفيوس» الذى يعبر عن إحتفال بمولد قديس فى الكنيسة . لا أذكر عدد المرار التى قرأته فيها والتى شدتنى إليها .

مولد السيدة زينب

يحيى حقى

يحيى حقى لا أتذكر أننى كنت معه فى مولد السيدة زينب بالليل أبداً ولكن كان يجمعنا شارع السد دائماً أثناء المولد قبل الظهيرة مباشرة . شارع السد جزء من حياة يحيى حقى أو هو كل حياته فقد ولد فى حارة الميضة خلف جامع الحرم الزينبى .. وحارة الميضة هدم بها المنزل الذى ولد فيه يحيى حقى وعاش طفولته وصباه . ولا أذكر أنه انتقل لمسكن آخر حتى نهاية دراسته الثانوية . وكان كثيراً ما يأخذنى إلى «السرجة» التى كان يشترى منها الطحينة والعسل . وذات مرة قال لى : حسن إن ميولى إشتراكية صرفه هل تعلم لماذا ؟ تعال معى . أظن أنه بعد حارة الميضة مباشرة يقع شارع يضم سوقاً للبقالين والجزارين والحانوتية يصل إلى شارع آخر يوازى شارع السد وعلى ناصيته قسم بوليس السيدة .. لا أذكر إسمه الآن . هذا الشارع مزدحم جداً . أمسك بيدى وقال : لم نكن أغنياء وليس فى مقدورنا تخزين السمن وكنت أحسد جيراننا حين أراهم يشترون طشوت الزبدة ثم نشم رائحتها وهى تسيح وتصبح سمنا وتنطلق منها رائحة طيبة . أتذكر أن والدتى كانت ترسلنى خصوصاً فى رمضان مع طبق إلى ذلك الشارع وسنذهب الان لنعاين محل السمن والزبد الذى كنت أبتاعهما منه . كانت ترسلنى ومعى خمسة تعريفة وطبق صاج عميق لأشترى فيه سمنا . كان صاحبه رجلاً متجهما ولم يكن ودوداً معى وكنت أعجب للحسة السمن التى يضعها فى قاع الطبق وفى موسم الزبدة سألته عن سعر قنطار الزبد وبحسبة بسيطة استطاع عقلى الصغير أن يدرك كم كان الرجل يستغلنا وعلمت حينئذ أن من معه نقوداً يستطيع

العيش بأرخص مما نعيش ومن يومها تولد عندى عداء ضد الطبقة القادرة والطبقة التى تستغل حاجة البسطاء .

خرجنا من الشارع المزدحم إلى المولد بضجيجه إلى شارع السد ووجدنا حصراً ملفوفة ومستندة فى حارة الميضة على جدار المسجد . نظر يحيى إلى هذه الحُصر وقال لى : هل تعلم أننى فزعت ذات مرة وأنا راجع إلى منزلى حين وقع نظرى على إسطوانة كبيرة ملقاة من الحصير تتحرك وحدها ولم أجد تفسيراً لصغر سنى وقتها وعندما كبرت أدركت أنه من الممكن أن يحدث فسق حتى بجوار المسجد .

شارع السد فى مولد السيدة زينب كانت تفترش نسوة الرصيف الآخر بعيداً عن رصيف المسجد يبعن فى وقت واحد أكواما من اللبان وبجانبها التكك الصوفية الخاصة لسراويل الفلاحين ، وبجانب التكك كانت توجد الضفائر المستعارة للفلاحات لتطويل شعورهن . وبجانب كل ذلك شخاشيخ من قش القمح ملونة بصبغات مختلفة وبداخلها بعض الزلط والصفيح لتحدث أصواتاً تستثير الطفل . قال يحيى: ألا ترى ياحسن أن هذه المجموعة يربطها الجنس . قلت له : كيف ياأستاذ يحيى . قال هو : اللبان لجعل فم الفلاحة طيب الرائحة والتكة لسروال رجلها والضفائر لتجميل المرأة والنتيجة طفل يلعب بالشخشيخة !!.

قلت له : أذكر أغنية شعبية من سيوه قال . ماهى ؟ قلت مردداً : يابخت من رافق الزين عن الفرش شحتر عبوسه !! والمعلوم أن «العبوس» هذه هى من مثل هذه الضفائر لكنها هنا تختلف حيث تصدر إيقاعات عالية الجرس لثقل الفضة المحملة بها . توقف يحيى حقى وأمسك بساعدى وقال : يالها من بلاغة ياحسن إنظر إلى كلمة «شحترا» أنا واثق أنها ليست فى أى قاموس لكن جرسها يوحى أنها نحتت لتكون كلمة عربية صرفة ولتناسب المعنى الذى من أجله نحتت ، ولا يمكن لكلمة أخرى أن تحل محلها بذات البلاغة ، وعلى سبيل المثال تعال ننظر فى شبيهتها كلمة «بعثر» ألست معى أن «شحتر» أكثر بلاغة وسحراً ومرادفة للمعنى الخفى سالف الذكر ؟ ثم لماذا لا يهتم المجمع اللغوى باضافة كلمات مشابهة وأكثر مناسبة .. وأن المجمع يجتمع جلسة وراء جلسة لكى يصل أخيراً إلى لفظ «مسرة» بدلاً من تليفون وهى كلمة شائعة ولا تختص بمعنى واحد محدد فهناك شارع مسرة وعائلة مسرة القبطية وهناك مسرة بمعنى الفرج .. ثم إن جرس الكلمة م ، س ، ر ، ة ، لا يمكن أن يعطيك مدلولاً لآلة إتصال . وأى كاتب يستخدم لفظ مسرة لابد أن يكون هناك خلل فى تفكيره. إن الافضل أن ننظر فى الاشتقاقات الممكنة بكلمة شحتر حيث يخرج منها يشحتر .. وشحترة ..

ومتشحتر ، وكلها إضافات تغنى لغتنا الحية .

إن المتنبى نحت كلمات جديدة وسبقه فى ذلك الصعاليك العرب الجاهليين وشكسبير الانجليز نحت أيضاً كلمات جديدة دخلت فى قاموس الانجليز .. وفى باريس حين كنت هناك كانت الاكاديمية الفرنسية تناقش إدخال كلمات للشاعر العامى الشعبى عندهم «ڤيون» . ثم نظر إلىّ : هل تعرف الشاعر «ڤيون» ياحسن ؟ قلت : أجل وأظن أن ڤيكتور هوجو كان يقصد بالشاعر الذى يعيش وسط الشحاذين والفقراء والغجر شبيهاً بڤيون فى روايته البؤساء ، سألنى هل قرأته ؟ قلت : لا لأنه كان صعب علىّ جداً لأنه يستخدم كلمات من لهجة «الجلواز» قال : وكيف عرفت ؟ قلت : كنت أستأجر مدرساً يقرأه لى حتى أحس بموسيقى الشعر – التى كانت تنطلق كطلقات الرصاص السريعة – ثم يشرحه لى . قال : ما الذى أعجبك ؟ قلت : وجدت فيه العنف والقوة التى أفتقدها فى شعرائنا العاميين ، وبفضول يحيى حقى تساءل : من هو هذا الرجل الذى كان يقرأ لك ڤيون ؟ قلت : كان اسمه «ماروتى» وهو من كان يقرأ ويترجم لأحمد الصاوى محمد فقد كان معه فى باريس ويعلم أنه لم يحصل على أى شهادة ولم يحسن التكلم بالفرنسية .

قبض يحيى على ساعدى بقوة وظهر على وجهه الحزن وقال : هل تدرك أن ما قلته صدق ؟!.

●●●

كان أهم شىء يستثير يحيى حقى فى المولد تلك الخيمة الكبيرة التى يقف أمامها على منصة إمرأة فى لباس البحر مهما كان البرد قارساً وقد لطخت وجهها بالاصباغ ، وتعزف موسيقى أشبه بموسيقى «حسب الله» بجانبها طبلة كبيرة وآلتا نفخ نحاسية ضخمة ورجل يحمل لمبه فلورسنت قائلاً : بص شوف .. تحطه هنا يولع وهنا يولع وكلما تنقل بين أعضائها كانت اللمبة تتوهج . قائلاً : مفيش غش مفيش خداع .. تعال تأكد بنفسك ثم يبدأ بررر بررر نفسك يافلاح بقرشين صاغ !! بررر نفسك ياغشيم بقرشين صاغ !! يابخيل بقرشين صاغ – ياجاهل – قال يحيى : ألا تعلم أن كل سبة من هذا الرجل للفلاح تمثل سوطاً على ظهرى ؟ إنظر إلى هؤلاء البسطاء يخرجون محافظهم ولا ينتبهون إلى سباب هذا الرجل .. إنه شىء عجيب . إنها سيكولوچية معقدة ياحسن .. إننى لا أفهمها فبالتأكيد إن زوجاتهم أجمل بكثير من هذه المرأة المبتذلة . وكلما تركنا المكان يعاود الرجوع ليرى ثانية تدفق الفلاحين رغم سباب الرجل لهم .

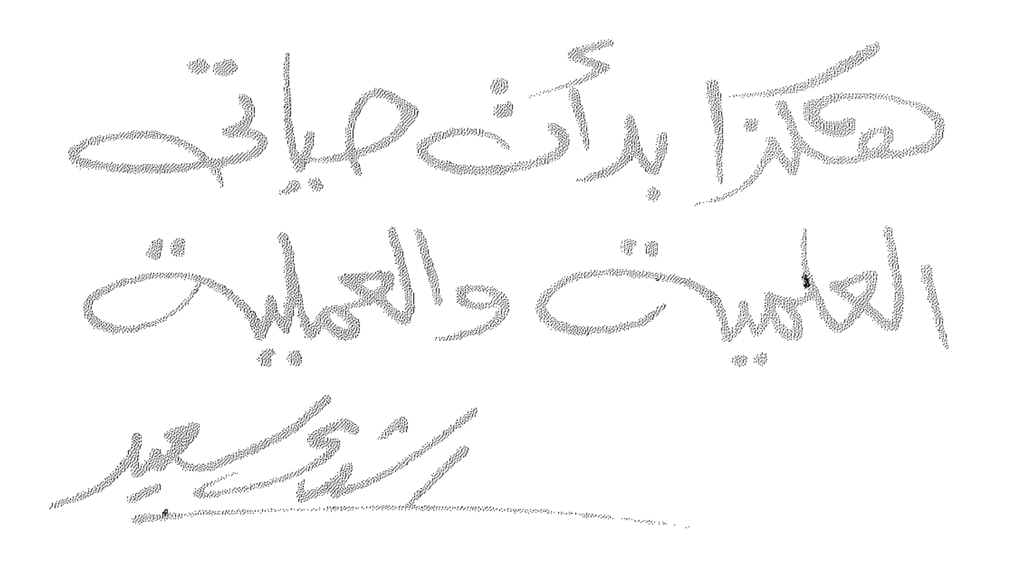
قال : لى هل تعلم أن قصة قنديل أم هاشم كان بها كثير من الصدق والواقعية؟ لكن من الصعب علينا أن نلغى عامل الايحاء عند الرجل البسيط ، إنه

يجب أن يؤمن بشيء يربطه بأجداده .. إنه يؤمن أن أرواح أجداده تعيش معه وهى التى تحميه .. إنه لازال كما هو منذ آلاف السنين يقدم قرباناً لأجداده حتى ترضى عنه .

وعلى الفن أن يحترم المعتقد ويحترم التراث ويحترم الأسطورة . والصدق والبساطة هما يربطان الفنان والمتلقى بكل ما سبق وهذا فى النهاية هو هدف الفن الشعبى . قبض على ساعدى مرة أخرى قال : هل هذا فقط فى إمكانه أن يصنع فناً أو أدباً ؟ هل تعلم أننى أحيانا ما أعيد كتابة صفحة واحدة أكثر من ١٢ مرة ؟ وأننى كثيراً ما ترددت فى إختيار كلمة ما عشرات المرات ؟! لم أعد أدرى شيئا إننى أحسد من يملكون السهولة ولكننى أتعب كثيراً جداً وفى الختام أجد أن ما كتبته يبدو وكأنه مكتوب من أول مرة ومن يتلقونه يطلقون عليه السهل الممتنع . ونظر بحزن قائلاً : ليت الفن يأتى دون صياغة متينة قوية لكن ذلك محال فأحياناً ما أشعر بنفسى كأننى أنحت الكلمات من حجر صلب ضنين أصلب من الماس . آخر مرة وصلت فيها يحيى حقى بعد تسكعنا فى السيدة ووصلت منزله أعطانى عصاه وهو يقول : «إنك ستحتاجها يوماً ما لكننى أتمنى لك ألا تعيش عمرى» .

سيبقى السؤال حائراً هل الكلمة هى وكلمات أخرى بمدلولهم القاموسى قادرة على التعبير عن نبض الحياة ودفنها متجاوزة هذا المدلول القاموسى ؟ إن الصعوبة التى كان يقاسيها يحيى وربطته بى ، هى كيف يجعل من الكلمات ما تستطيعه الألوان والظلال والأنوار والخطوط والكتل والمساحات والابعاد ؟ والوصول إلى هذا المستوى هو جواب السؤال وهو التجاوز المرتجى من الفن . توعكت وإتكأت على عصا يحيى حقى وذهبت إلى الدكتور سمير صادق وبعد الكشف وارتداء ملابسى بحثت عن العصا قائلاً له : إنها عزيزة علىّ . قال الدكتور وهو يعلم أمرها : إنها أصبحت من التراث وابحث عمن ستعطيها له من الآن . قلت : هل تظن أننى سأجد من يستحقها؟ ألقى بالروشتة على المكتب منفعلاً وصائحاً : أشك أشك أشك .

كم تعلمت من يحيى حقى ومن ولى الدين سامح ومن ببى مارتان ومن خالى الدكتور أحمد فخرى ومن شفيق غربال ومن الدكتور صبرى السربونى، ولكنى فى الوقت نفسه كنت أدين لهم بالولاء الكامل والطاعة عن رضا وإقتناع . ذلك الولاء الذى افتقدته ممن حاولت أن أساعدهم من الجيل الجديد . وفاء لهذا الدين . لكنهم للأسف الشديد - نسوا مقولة لدى المتصوفة الأسيويين «أن الأستاذ وحده الذى بيده يستطيع أن يضىء شمعة المريد» . وهذا لا يكون بغير الايمان المطلق بالأستاذ .



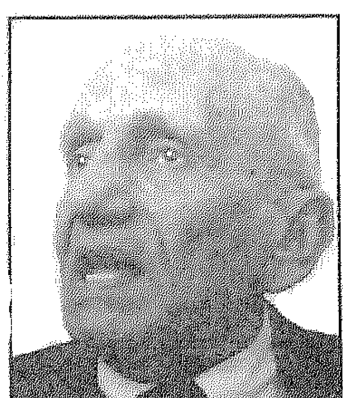
هذا الجزء من كتاب د. رشدى سعيد «رحلة عمر» الذى سيصدر قريبا من دار الهلال، وهى رحلة غنية مليئة بالتجارب والخبرة العلمية الطويلة.

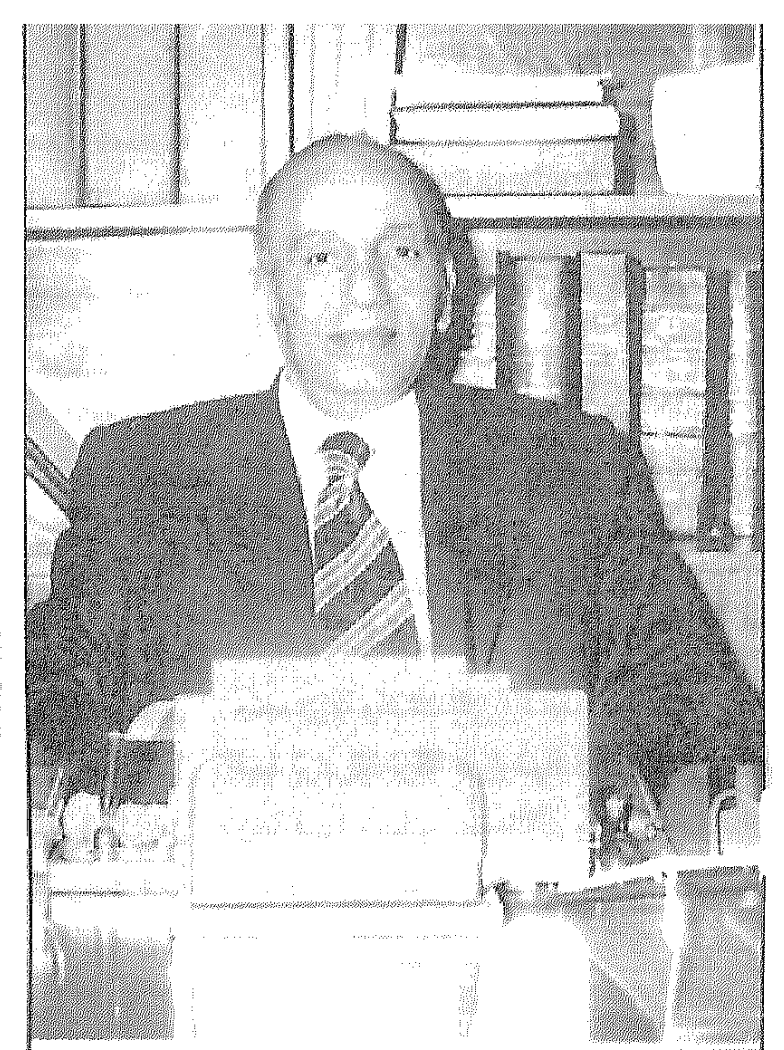
ود. رشدى سعيد صاحب كتاب «جيولوجية مصر» وهو الكتاب الوحيد الذى يتناول أعماق طبقات الأرض فى مصر، فضلا عن أنه يعد من أوائل الحائزين على درجة الدكتوراه من جامعة هارفارد، وله خبرة طويلة فى العمل السياسى، عندما كان عضوا بمجلس الأمة لثلاث دورات متتالية، ورئيسا للجنة الأمن والعلاقات الخارجية بالمجلس.

كان رئيسا لمؤسسة التعدين والجيولوجيا، وأنجزت المؤسسة فى عهده خريطة جيولوجية لمصر.

وبعد هذه الخبرة الطويلة يعيش حاليا فى أمريكا بعد اتهامه فى قضية سياسية فى أوائل الثمانينات.

كل هذه الأحداث يرويها د. رشدى سعيد بخبرته الطويلة ومعرفته الواسعة بأسلوب شيق وجميل فى كتابه «رحلة عمر».





د. رشدى سعيد
فى مكتبه



د. رشدى سعيد عند اول انفاق منجم ابو طرطور عام ١٩٧١

عندما بدأت حياتى العملية فى سنة ١٩٤١ كان قد مر على مصر مائة عام بالتمام على معاهدة بلطة ليمان التى اجهضت فيها محاولتها دخول العصر قضتها راسخة تحت أغلال الديون فالاستعمار - وفيها تم هدم الصناعة التى كان قد بدىء فى انشائها فى أوائل القرن التاسع عشر، وتم اقناع المصريين بأن بلادهم زراعية فى الأساس وليس لأهلها أن يدخلوا ميدان الصناعة بأى شكل من الأشكال - وحتى العام الذى تخرجت فيه لم يكن ينظر إلى كلية العلوم إلا أنها كلية لاعداد مدرسى العلوم للمدارس الثانوية أو تشغيل بعض الأجهزة الحكومية المحدودة العدد والحجم، والتى انشئت فى أوائل القرن العشرين لرقابة الأسواق كمصلحة الكيمياء أو التمغة والموازين.

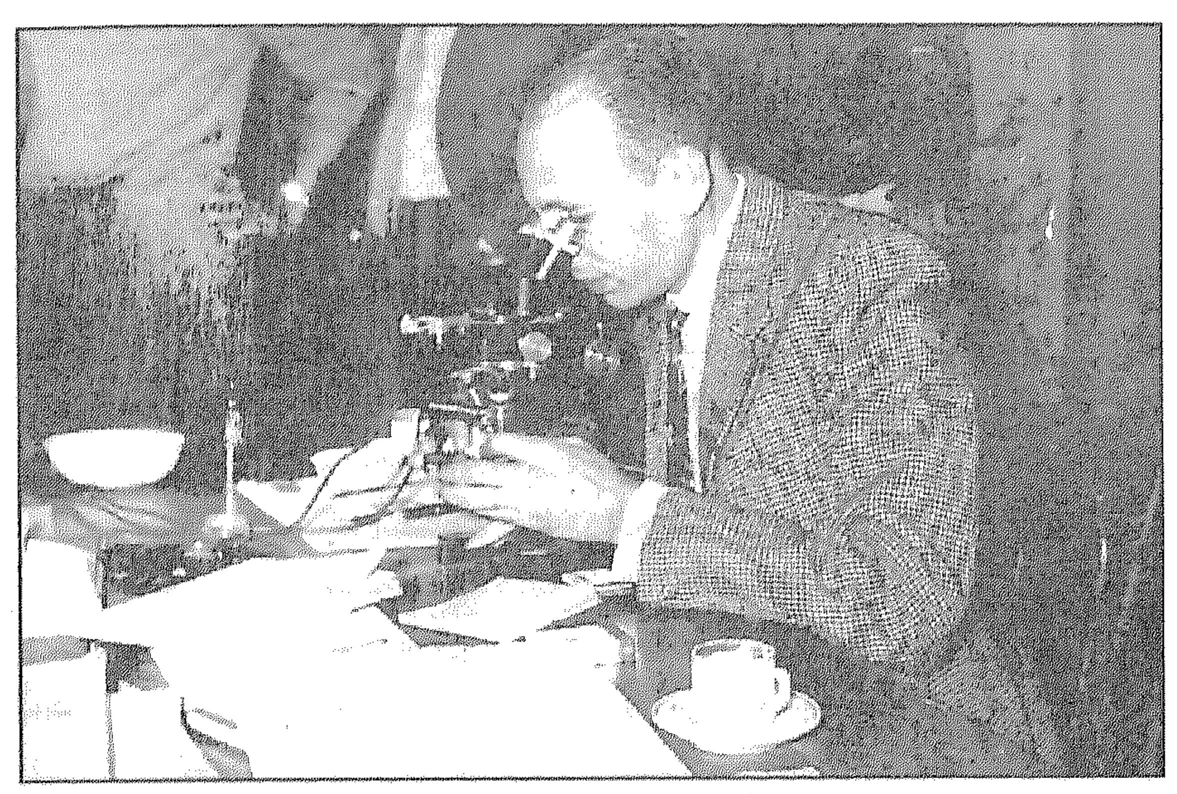
كانت درجتى بمرتبة الشرف الأولى تؤهلنى لأن أكون معيدا بالكلية إلا أن الانكماش المالى الذى واكب الحرب العالمية الثانية لم يتح للكلية أن تقوم بتعيينى بها، كما لم تكن أحوال السوق المعتمدة أساسا على الزراعة التقليدية مناسبة لايجاد وظيفتين اثنتين لخريجى قسم الجيولوجيا الوحيد بمصر فى سنة ١٩٤١ - فقد كانت عمليات التعدين والبترول استخراجية وبغرض التصدير فى الأساس كما كانت كلها بأيد أجنبية. على أن هذا العام شهد دخول إيطاليا الحرب مما أدى إلى حراسة ممتلكاتها والتى كان من بينها شركة القصير لاستخراج الفوسفات، التى كانت تستخرج حجر الفوسفات من جبال الصحراء الشرقية المطلة على مدينة القصير الواقعة على ساحل البحر الأحمر وتصدره، وكذلك إلى التحفظ على رعاياها مما ترك الشركة دون قيادة فقد كانت كل وظائفها وحتى مستوى رؤساء العمال بأيدى الإيطاليين. وقد اتصل حارس الشركة زكى الأبراشى، الذى كان يعمل ناظرا للخاصة الملكية، بعميد كلية العلوم على مصطفى مشرفة فرشحنى وزميلى مصطفى عزت لملء هذا الفراغ، وهكذا أوجدت الظروف لى وظيفة ولو كانت على غير ما تمنيت، كان قلبى كله مع اتمام دراستى العالية والقيام بالبحث العلمى الذى شغفت به، ولذلك فقد قمت بتسجيل نفسى كطالب بحث بالكلية واحتفظت بعلاقة وثيقة بأساتذتى وعلى الأخص استاذى الجليل نصرى شكرى الذى كان قد عاد لتوه من بعثة بالخارج مليئا بالحماس ومحبا للعلم والبحث - وقبل أن انتهى من رسالة الماجستير التى كنت أعد لها تم تعيينى معيدا بكلية العلوم فى مارس سنة ١٩٤٣ - ومن هذا اليوم

بدأت رحلة حياتى الحقيقية التى كنت آتمناها.

على أن العام ونصف العام الذى قضيته بشركة القصير للفوسفات كانت من أخصب سنى العمر ففيها تفتحت عيناى على حقائق الحياة العملية وتطبيقات العلم وكذلك على حقيقة مأساة المصرى وغربته فى بلده، فقد كان عصب العمل بشركة فوسفات القصير هم عمال التراحيل الذين كانوا يساقون من بلادهم بالصعيد للعمل تحت السطح فى مناجم ذات أعماق سحيقة وفى ظروف شاقة وقاسية - وكانت ساعات العمل ثمانى لم تكن تحسب فيها ما يأخذه النزول والصعود الى ومن تحت السطح من وقت «وكان يزيد عن الساعة فى الكثير من المناجم» وكان الأجر اليومى للعامل قرشين ونصف القرش تدفع عن أيام العمل فقط. ولم يكن للعامل تأمين من أى نوع فضلا عن حق الشركة فى فصله فى أى وقت تشاء دون تعويض أو مكافأة عن نهاية الخدمة أو المعاش - كان كل ما توفره الشركة للعامل عنابر مؤقتة للسكن ونصف صفيحة من الماء العذب فى اليوم وكانتين متواضع تباع فيه اساسيات الحياة من دقيق وسكر وشاى وأنواع المعسل وبعض المعلبات رخيصة الثمن. ولم يكن يسمح للعامل بأن يصحب معه امرأته أو عائلته التى كان يتركها فى الريف يعود ما بين العام والعام، وعند نهاية خدمته الشاقة التى كانت تجهز عليه ولما يتجاوز الخامسة والثلاثين من العمر على الأكثر.

كانت شركة القصير للفوسفات تستخرج الخام بطرق نصف ميكانيكية فبعد تفجير حوائط المنجم يتم جمع الخام المفتت فى زنابيل تعبأ فى عربات حديدية تجر فوق قضبان إلى خارج المنجم بأوناش - وكان متوسط ما يجمعه العامل حوالى مائة إلى مائة وعشرة أطنان فى العام كان ثمنها فى ذلك الأوان حوالى مائتى جنيه، كان نصيب العامل منها أقل من ثمانية جنيهات أجر فى العام - كانت شركة تدر ذهبا يذهب كله إلى خارج مصر التى لم يكن من نصيبها أكثر من ضرائب رمزية ومكافآت عضو أو اثنين من كبار رجالات مصر الذين كانوا يجلسون بمجلس الادارة لتسهيل مهام الشركة مع الحكومة.

هكذا كان حال مصر عندما بدأت حياتى العملية: شعبا مقهورا محصورا فى واديه الضيق لا يستطيع الخروج منه بدون تصريح - أراضيه الزراعية ملك لعائلات محدودة تأخذ خيرها لتنفقه فى سفه مظهرى، وشركاته الصناعية القليلة



د. رشدى سعيد فى معمل كلية العلوم بالقاهرة عام ١٩٥١

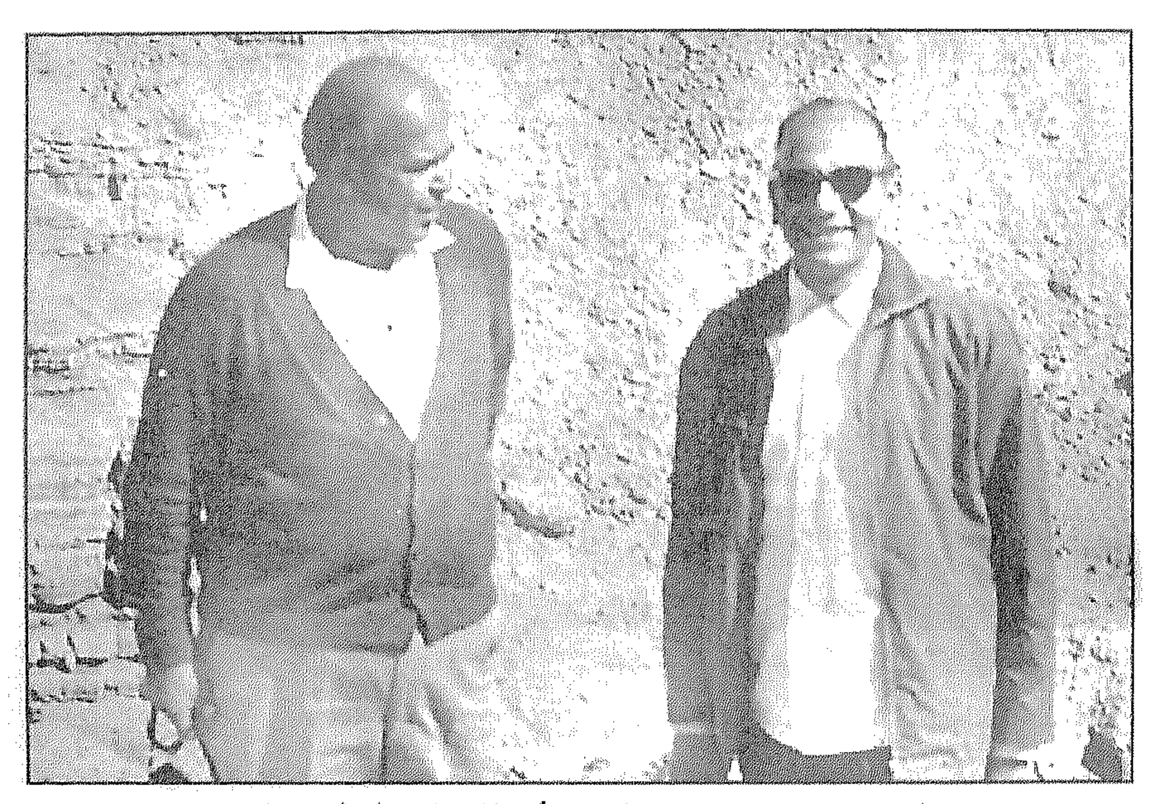
وأمواله فى أيد أجنبية تنزح أرباحها إلى خارج الحدود - كان التوسع الاقتصادى ضئيلا ولم تكن الوظائف متاحة إلا لمن لهم «الواسطة» التى كانت تنتهى فى آخر المطاف الى دار «المندوب السامى» البريطانى الذى كان يقبع فى سفارته على شاطىء النيل بقصر الدوبارة يحرك كل خيوط السياسة فى مصر.

الجامعة

سنوات البعثة

كان تعيينى بكلية العلوم فى وقت بدأ فيه الضغط الشعبى لزيادة فرص التعليم فى مصر، وقد كان حتى دخولى الجامعة محدودا لدرجة كبيرة فلم يزد عدد من قبلوا بكلية العلوم الوحيدة فى مصر فى عام ١٩٣٧ عن سبعين طالبا على أن هذا بدأ فى التغير اعتبارا من عام ١٩٣٨ حين زيدت الأعداد المقبولة فى الجامعة وحين بدئ التفكير فى انشاء جامعة الاسكندرية التى افتتحت كلية العلوم فيها فى سنة ١٩٤٢.

رشحت فى أعقاب تعيينى بكلية العلوم لبعثة لاتمام دراستى بالخارج على أن يتم إيفادها حين تضع الحرب أوزارها


د. رشدى سعيد ـ عند بدء مشروع فوسفات ابو طرطور عام ١٩٦٩

وبالفعل تم ايفادها الى سويسرا فى شهر يونية سنة ١٩٤٥ بعد ستة أسابيع من انتهاء الحرب فى أوروبا ـ ووصلت مرسيليا على ظهر باخرة متهالكة أقلعت من بورسعيد كانت تقل جنودا فرنسيين وسنغاليين وهم فى طريقهم من الشرق الأقصى إلى فرنسا. وكانت أوروبا عندما وصلت اليها فى حالة يرثى لها من الفاقة وسوء النظام وروح اليأس والثورة وعدم الرضا ووجدنا عمال الميناء فى مرسيليا مضربين عن العمل فحملنا أمتعتنا الكبيرة الحجم فوق اكتافنا من الباخرة حتى مكان سيارات الأجرة التى فاوض أحد سائقيها أحد شباب اليهود المصريين الذى رافقنا فى الرحلة، وكان فى طريقه للهجرة إلى فرنسا بلغته الفرنسية الطليقة لتحملنا الى محطة السكة الحديدة لركوب القطار إلى جنيف. ولم نستطع أن نتناول فى محطة القطار أو فى أى مكان آخر فى فرنسا الطعام فقد كان تناوله يحتاج إلى بطاقات تموينية لم تكن فى حوزتنا ولم يعطها لنا أحد ـ ووجدنا سويسرا أحسن حالا من حيث أننا أعطينا البطاقات التموينية فور دخولنا إليها ـ وبدأت فى تلقى دروس

تعليم اللغة الالمانية مع مجموعة الزملاء التى رافقتنى فى البعثة، التحقت بعدها بالجامعة التى وجدت انها لم تكن تتطلب من المتقدم إلى الدراسة العليا فيه أكثر من كتابة رسالة عن موضوع توافق عليه الجامعة - ولم أجد بجامعة زيوريخ استاذا يمكن أن يعيننى فى دراستى لعلم جيولوجيا البترول الذى أردت أن أدرسه فقد كان هذا الفرع من العلم جديدا على أوروبا التى لم يدخل استخدام البترول فيها إلا بعد سنوات طويلة من انتهاء الحرب العالمية الثانية، ولذا فقد فكرت فى نقل بعثتى إلى الولايات المتحدة التى سبقت العالم فى هذا العلم بسبب استخدامها للبترول كمصدر أساسى للطاقة منذ بداية القرن العشرين مما تسبب فى تقدمها الصناعى الكبير، وبسبب اهتمامها للبحث عن مصادره خارج حدودها وبالذات فى شبه الجزيرة العربية والتى بدأت تبدو أهميتها كمخزن للبترول فى ذلك الوقت. وتقدمت بطلب الى كلية العلوم لنقل بعثتى الى جامعة هارفارد بالولايات المتحدة والتى أبدت استعدادها لقبولى إلا أن الموافقة على هذا النقل أخذت من الوقت أكثر من العامين كدت أوشك فى خلالها على الانتهاء من كتابة رسالتى التى كنت قد بدأتها بجامعة زيوريخ فى علم الحفريات الفقارية - وقررت عندما وصلتنى الموافقة على إلقاء هذه الرسالة جانبا والتوجه إلى الولايات المتحدة للبدء فى دراسة العلم الذى أردت أن أعرفه - ووصلت ميناء نيويورك فى فبراير سنة ١٩٤٨ بعد وقفة فى لندن ركبت منها البحر على ظهر الباخرة «كوين مارى» الضخمة، والتى كان معظم ركابها من اليهود الذين أرادوا أن يتركوا أوروبا بعد تجربتهم المريرة فيها وأن يبدأوا حياتهم الجديدة فى الولايات المتحدة - ووجدت الجامعة بالولايات المتحدة مختلفة تماما عنها فى أوروبا فلم يكن أمر الحصول على الدكتوراه فيها يتعلق بكتابة رسالة فى موضوع بعينه بل كان يتطلب دراسة عدد كبير من المناهج التى لابد من اجتيازها بمستوى عال من الدرجات، ثم اجتياز امتحان يقف فيه الطالب أمام مجموعة الاساتذة لكى يخبروا قدر معرفته بالعلم وابعاده وليقرروا إن كان قد أصبح مستعدا لكتابة رسالة علمية وسعدت بالجو الجديد من العمل وبالمتابعة المستمرة من الاساتذة الذين أعطونا أكبر الاهتمام، وكانوا دائما على أتم الاستعداد لمساعدتنا فى أى أمر نطلبه - وزاد من جو الجدية فى الدراسة نوعية الطلاب الذين زاملونى والذين كانوا جميعا من مسرحى الحرب

العالمية الثانية والذين عركتهم الحياة وزادتهم خبرة ومعرفة فشكلوا مجموعة فذة من الطلاب لمعوا فى سماء العلم فيما تلا ذلك من أيام، وارتبطت اسماؤهم بمعظم الاكتشافات الكبرى فى علوم الارض والفضاء التى حدثت فى النصف الثانى من القرن العشرين.

مستقبل الأيام

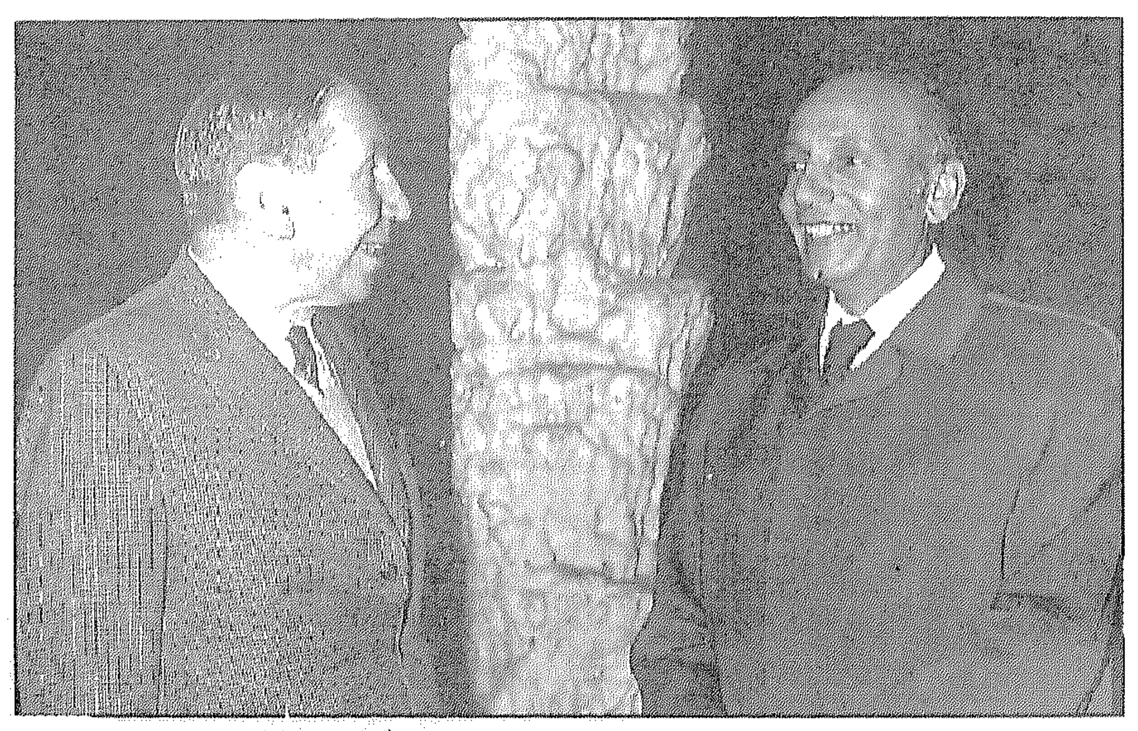
ولعل من أهم ما تعلمته فى جامعة هارفارد هو تأصيل فهمى لمنهج العلم والذى كنت قد بدأت أن أعرف مبادئه فى دراستى بكلية العلوم بالقاهرة ثم عند درساتى لدرجة الماجستير التى حصلت عليها فيها فى سنة ١٩٤٤ تحت اشراف الدكتور نصرى شكرى والتى اكسبتنى القدرة على تحليل البيانات وتقليب الاحتمالات. على ان اكبر الفائدة جاءتنى من استاذى بجامعة هارفارد هنرى ستتسون الذى اعاد معى قراءة رسالة الدكتوراه التى أعددتها وعلمنى طريق الكتابة العلمية وان افرق بين الملاحظة والتفسير وان أزن كل كلمة اكتبها ولا أزيد واحدة دون أن يكون لها لزوم وان التزم فى تنظيم كتاباتى بالفاصلة والنقط والفقرات.. وكانت هذه الامور جديدة على واحد يكتب بالعربية التى تعلم أن يجيء فيها اللفظ قبل المعنى وأن تنساب دون فصلات أو فقرات.

وقد كان لمعرفتى بطريق ومنطق الكتابة باللغة الانجليزية أثر كبير عليّ فى مستقبل الايام فقد ارشدنى الى طريقة أفضل للكتابة باللغة العربية والتى لم تؤهلنى مدرستى لهاأصبحت بعدها الكتابة بها أكثر انضباطا ودقة تنقل المعنى دون أى التباس. وللحق فقد كان ولايزال تعليم اللغة العربية بالمدارس المصرية متخلفا يلقن الطالب فيها قواعد النحو دون أن يتاح له فهم المنطق الذى يحكمها، ويعلم الكتابة على انها مجرد رص للالفاظ والمترادفات والجمل المحفوظة دون فصلات، ودون ان يكون للمعنى فيها دور ويجبر الطالب على الحفظ عن ظهر قلب مختارات من الأدب القديم لا توجد لمعانيها أية علاقة مع حياته أو اهتماماته، ومثل هذه المختارات كان ينبغى ان تكون من صميم اهتمامات اساتذة تاريخ اللغة لا الطالب الصغير - وعرفت الفائدة الكبيرة لتعرفى على قواعد ومنطق الكتابة باللغة الانجليزية عندما اضطررت إلى كتابة كتاب علمى باللغة العربية لم أجد طريقا آخر للكتابة غير استخدام هذه القواعد، ففى صيف سنة ١٩٥٥ صدر قرار من مجلس الجامعة تحت إلحاح السيد كمال الدين حسين وزير التعليم فى ذلك الوقت بتعريب التدريس بكلية العلوم - وكنت وحتى ذلك الوقت أقوم بالتدريس بالجامعة باللغة الانجليزية فلما صدر القرار حملت مذكراتى وقاموس شرف، القاموس العلمى الوحيد الذى كنت أعرفه والذى كان يوزع

علينا فى السنة الأخيرة لدراستنا بكلية العلوم، وقضيت اجازة الصيف بمنزلى على شاطىء البحر برأس البر التى تقع على مصب فرع دمياط عند التقائه بالبحر الابيض المتوسط لاكتب محاضراتى باللغة العربية ولأعد نفسى لهذه التجربة الجديدة وجاء كتابى العربى مطبقا أسلوب العلم: جمله قصيرة استخدمت فى آخرها النقط وفصلتها فى فقرات، كان الاسلوب جديدا كما كانت ترجمات المصطلحات العلمية اجتهادية.

وبعد سنوات من ذلك العمل الوحيد فى ميدان هذا العلم باللغة العربية والذى لم يقدر له الاستمرار بعد ان تراجعت الجامعة عن قرارها بالتدريس باللغة العربية اتيحت لى الفرصة ان اجلس مع بعض أساطين العلم فى مصر لترجمة قاموس علمى أصدرته دائرة المعارف البريطانية بالانجليزية، واسندت ترجمته الى العربية الى الجامعة الامريكية بالقاهرة والتى رأت أن تشكل لجنة من كبار العلماء للقيام بهذه الترجمة واسندت لى ترجمة مصطلحات علم الجيولوجيا وكان من اعضاء اللجنة كبار الاساتذة: رياض تركى «الكيميائى» - محمود حافظ «الحشرات» - محمد عبد الفتاح القصاص «النبات» محمد النادى «الفيزيقى» واحمد عمار «الطب». كنا نجتمع فى الساعة السابعة والنصف من صباح كل ثلاثاء ولساعتين بمكتبة المجمع العلمى المصرى الذى كنا أعضاء فيه بميدان التحرير بالقاهرة ليقرأ كل واحد منا ترجمة مصطلحاته كما كتبها لتصقلها معه اللجنة مجتمعة فى محاولة لتوحيد ترجمة الكلمات - وكان نجم هذه اللجنة هو المرحوم الدكتور أحمد عمار طبيب أمراض النساء المشهور عميد كلية الطب آنذاك. وكان الدكتور عمار عزبا لطيف المعشر أنيق الملبس عاشقا للشعر العربى وحافظا لبحوره ومحبا للغة العربية - وقد فتح الحديث معه والاستماع اليه آفاقى على ثراء هذه اللغة وامكاناتها الكبيرة للتطويع للاستخدام الحديث ولنحت مصطلحات العلم - وفى رأيى أن القاموس الذى انتهينا من ترجمته فى سنة ١٩٧٧ كان ولايزال من أفضل القواميس الانجليزية العربية.

وحدث أيام دراستى بجامعة هارفارد أحد أضخم واسعد الاحداث التى غيرت حياتى وجعلتها اكثر اشراقا فقد تقابلت خلالها بوداد الفتاة المصرية التى حملتها الاقدار لتجيىء لعام واحد استقطعته من بعثتها بجامعة برن مور بالولايات المتحدة حيث كانت تعد رسالة الدكتوراه ولتستمع لمحاضرات أحد أشهر أساتذة الفلسفة بجامعة هارفارد. وكان التحاقها فى ذلك العام بكلية رادكليف التى كانت معدة لاستقبال الاناث من الراغبات فى الدراسة فى جامعة هارفارد التى كانت مقصورة



د. رشدى سعيد مدير المساحة

فى ذلك التاريخ على الطلبة من الذكور فقط. واعجبت بهذه الفتاة المصرية فى بلاد الغربة وبادلتنى الاعجاب والحب وتعاهدنا على الزواج بعد عودتنا الى مصر، وقد تم ذلك بالفعل فى سنة ١٩٥٣ - وقد درجت وداد أن تعيد معى قراءة كتاباتى وان تنتقدها وتصححها وان ترشدنى بطريقتها الرقيقة والمقنعة الى منهج العلم وأصول المنطق وهى العلوم التى كانت تدرسها بالجامعة الامريكية بالقاهرة بعد عودتها بعد حصولها على درجة الدكتوراه فى سنة ١٩٥١.

وقضيت بعد حصولى على درجة الدكتوراه فى سنة ١٩٥٠ سنة فى التدريس بالجامعة بالولايات المتحدة كانت من أخصب سني حياتى العلمية ففيها قمت بعدد كبير من الابحاث التى نشرتها فى آمهات المجلات العلمية العالمية وذاع اسمى وعرفنى المشتغلون بفرع العلم الذى تخصصت فيه وأخذت أتبادل الابحاث معهم وبانتظام مما جعل من مكتبتى والتى لم أبخل على الانفاق عليها واحدة من المكتبات النادرة فى فرع العلم الذى تخصصت فيه، والتى كانت الأساس الذى ساهم فى بناء وحدة البحث العلمى التى بنيتها فى كلية العلوم جامعة القاهرة عند عودتى من البعثة.

أنت والهلال

«التكوين والمكان فى الرواية»

لا يمر وقت طويل إلا ونطالع فى «الهلال» بابا جديدا يطل علينا من خلاله أديب قاص ، أو شاعر ، أو كاتب مبدع فى مجالات الكتابة بأنواعها المختلفة .

فمنذ أكثر من عشر سنوات نقرأ «التكوين» لأساطين الفكر المصرى ، ونتعلم من رحلة هؤلاء الكتاب الذين يكتبون بكل الصدق كيف قرأوا ، وممن تعلموا ، وكيف يبدأون فى ممارسة كتابة إبداعاتهم ، مما يعطينا نوعا من التعلم من هؤلاء .. وقرأنا التكوين لأكثر من مائة شخصية لا أستطيع أن أحصر أسماءها فى رسالة كهذه ومن بينهم على سبيل المثال الدكاترة . شكرى عياد ، عبد العظيم أنيس ، حامد عمار ، حسن حنفى ، يوسف خليف ، سهير القلماوى ، عبد القادر القط ، الطاهر مكى ، مصطفى سويف ، فضلا عن أسماء كثيرة من بينها الأساتذة : طارق البشرى ، محمود أمين العالم ، فاروق خورشيد ، فتحى غانم ، الفريد فرج ، والفنانون . حسين بيكار ، صلاح طاهر ، صلاح أبو سيف ، توفيق صالح ، فضلا عن الروائيين من أمثال فتحى غانم ، نوال السعداوى ، أسامة أنور عكاشة .

على مدار هذه الرحلة استمتعنا بتكوين هؤلاء وغيرهم مما لا أجد متسعا لحصره وكتابته ، ومازال «الهلال» يقدم لنا فى كل مطلع شهر نجما من نجوم الفكر المصرى .

وبدأنا نقرأ الباب الجديد «الإبداع والمكان» وقد لفت نظرى هذه المقدمة الصافية للكاتب الروائى جميل عطيه ابراهيم وهو يشير إلى أنه لا يقدم مقالة نقدية أو دراسة أكاديمية ، لكنها شهادة تمس صلب العملية الإبداعية عندى ، شهادة من واقع الكاتب والكتابة ، شهادة انطباعية على حد قول أستاذنا يحيى حقى ، ربما تكون لها فائدة عند قارىء أو دارس أكاديمى فيما بعد» وهكذا نلمح كيف يهتم الهلال بتقديم تجارب الروائيين وارتباط ما يكتبونه بالمكان ، والذى جسده الفنان جودة خليفة بريشته فى الصفحات الأولى للمقال ..

وفى رأيى أن هذا هو الدور الذى دأبت «الهلال» مجلتى المحبوبة على أدائه كأفضل خدمة صحفية لأدباء بدأوا حياتهم وهم يتعلمون من جيل الكبار من الأدباء والمبدعين .

وأنا هنا أنوه إلى الجهد الكبير الذى يقدم من أجل القارىء ، وننتظر المزيد على درب ثقافة تصل إلى القلب من أوسع أبوابه .

محمد عثمان جوده
القاهرة - مدينة نصر

●● الهلال :

شكرا للقارىء العزيز . فنحن لا ندخر وسعا من أجل تقديم أفضل عمل أدبي وإبداعي لقراء الهلال، فعلى مدى مائة وثمانية أعوام تحرص على تقديم كل جديد يفيد الاديب والدارس ، وكل ما يشغلنا هو المتابعة المستمرة للحركة الادبية على كل مستوياتها العالمية ، من خلال كبار كتابنا ومفكرينا الذين نعتز بدورهم المهم فى تقديم مقالاتهم وإبداعاتهم على صفحات الهلال .

صبرا أخا الإسلام

أخا الإسلام فى الشيشان إنا — غدونا أمة موتى الإرادة
كثيرٌ نحن لكنا عجزنا — بأن نلقى بكثرتنا القيادة
فكم من مسلم لاقى اضطهاداً — ولم نقدر على منع اضطهاده
وكم هتكوا لنا الأعداء عرضاً — ولم نثأر ، فصار الهتك عادة
وكم فتكوا بنا ذبحا وأسرا — ونحن كبا بفارسنا جواده !!
وعاثوا فى الديار بنا فساداً — وقد عنّا العدو على فساده
ترانا نحو حضن الغرب نهفو — لنحظى فى قليل من وداده

★★★

أخا الإسلام فى الشيشان عذراً — فإنا قد أصبنا بالبلاده
اضعنا القدس قبلا من يدينا — وضاعت أندلسنا والريادة
فلا تعجب إذا أبصرت فينا — جبانا هارباً ضاعت بلاده
لنا علماء لكن فى انشغال — بأشياء وليس بها إفادة
فصبرا يا أخا الإسلام صبرا — فنصر الله خص به عباده

درهم جبارى
سان فرانسيسكو

التأثير والتأثر فى الكتابات الأدبية

كثيراً ما يتأثر الأديب أو الكاتب بكتابات غيره ممن سبقه من الكتاب ، ونلمح هذا التأثر من :

١ - مجرد الكتابة فى موضوعات سبق إليها كاتب أو أكثر من الكتاب السابقين ، مع تطويع الشكل الأدبى العام للقصة أو الرواية لأسلوب العصر لغة وتصويراً ومجتمعاً .

٢ - النهج الدقيق للخط العام للمدرسة الفكرية أو التعبيرية التى اصطبغت بمنهجها كتابات الكاتب السابق (المؤثر) .

وتتضح جوانب التأثير والتأثر من خلال دراسة مدى التطابق فى منهج التعبير بين العمل اللاحق وبين جملة ما كتبه الكتاب السابقون من رواية أو قصة أو مسرحية ، وهو أمر يضم الكثير من الجوانب المجهولة التى لم تطالها كتابات النقاد والباحثين حتى الآن إلا لماماً ، وهذا يتطلب من الدارس أو الباحث أو الناقد الإلمام التام بالتراث الفكرى أو الأدبى أو الإنسانى لكبار الكتاب الراحلين ، وأن يكون على دراية كافية بكل ما انتجته عقولهم ، وأن يكون قبل كل هذا قارئاً نهماً مشغوفاً بالإطلاع واسع الثقافة جم المعرفة، فضلاً عما يجب أن يكون قد حصله واختزنه من مناهج النقد ومدارسه المختلفة .

وهنا أشير إلى أن أستاذنا الكبير نجيب محفوظ قد تأثر بعدد من أدباء الغرب من بينهم : تولستوى ودستويفسكى وتشيكوف ثم توماس مان وكافكا ، ولعل تأثره بكافكا ينعكس على مجموعته القصصية «حكاية بلا بداية ولا نهاية» ، كما كان لسلامة موسى أثر قوى فى تفكيره فقد وجهه إلى القراءة العلمية (كتاب الهلال - عشرة أدباء يتحدثون - يوليو ١٩٦٥) . وأرى أن هذا النوع من القراءة، انعكس على أسلوبه من حيث سلاسة التعبير ودقة التصوير بلفظ سهل خال من التعقيد ، يصل إلى عمق الفكرة بأيسر طريق .

يحيى محمود حسين
القاهرة - مصر الجديدة

بقايا من مجد كان

للعرب روائع أمجاد
وحكايا مما قد كان
وقوافل تمتد يقينا
وتسير بفيض الإيمان
وظباء تلهو بالوادى
ونياق ترعى بأمان

وضياع تحضن (غرناطه)
وفوارس تحمى الأوطان
للعرب روائع أمجاد
وحكايا مما قد كان
اليوم رهان الاصفاد
للعرب ضياء الأزمان
بالبصرة عاشت أنهار
تمتد لتروى الشريان
ورجال كانوا للموت
هدير يخشاه الطغيان
للعرب روائع أمجاد
وشموس بين الأكوان
اليوم رماد ممتد
وبقايا من مجد كان

عبد الناصر أحمد الجوهرى
المنصورة

من التراث

قال الشاعر :

مررت على المروءة وهى تبكى   فقلت على ما تنتحب الفتاه
فقالت كيف لا أبكى وأهلى   جميعا دون خلق الله قد ماتوا

قيل للسعادة : أين تسكنين قالت : فى قلوب الراضين. قيل لها : وكيف تعيشين قالت: من قوة إيمانهم. قيل لها : وبماذا تتنصحين قالت : أن تعلم النفس أنه لن يصيبها إلا ما كتبه الله لها .قيل لها : وكيف لا تدومين .قالت : عندما تشعر النفس بالطمع بعد الغنى وبالشك بعد اليقين .

قال حكيم : ما أضيع المعروف عند ثلاثة ·اللئيم والفاحش والأحمق، فاللئيم بمنزلة الأرض السبخة، والفاحش يظن أن معروف الناس له مخافة فحشه، وأما الأحمق فهو لا يعرف قدر ما أسداه الناس إليه .

قال رجل لمعاذ بن جبل : علمنى يا معاذ. قال : وهل تطيعنى قال الرجل : نعم. قال معاذ : صم وافطر وصل ونم واكتسب ولا تأثم ولا تموتن إلا وأنت مسلم ، وإياك ودعوة المظلوم

فى منثور الحكمة : من أظهر عيب نفسه فقد ذكاها ، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : رحم الله أمرءا أهدى إلينا مساوينا .

بعض الناس يحسن ظاهرهم ويخبث باطنهم وهم الذين شبههم ذو الرمه.. بالماء الذى قال فيه:

ألم تر أن الماء يخبث طعمه   وإن كان لونه أبيض صافيا

محمد أمين عيسوى

الاسماعيلية

تحية للشاعر العوضى الوكيل فى ذكراه

ولد الشاعر عوض الوكيل فى قرية دماص بالدقهلية فى ١٩١٥/٤/١١. تزوج الشاعر فى عام ١٩٤١ .

تخرج فى كلية دار العلوم ١٩٣٧ وتقلب فى وظائف التدريس والإدارة حتى صار فى آخر عهده وكيلا لوزارة الثقافة ١٩٧٥ م كما كان من الاعضاء النابهين فى لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للفنون والآداب منذ عام ١٩٥٢ إلى ١٩٧٨. وقد فاز بجائزة الشعر فى مجمع اللغة العربية ١٩٤٤. وحصل على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى فى عهد الرئيس عبد الناصر، وتوشح بوشاح الرواد الأوائل فى عيد العلم ١٩٧٩ . ونال جائزة الدولة التشجيعية ومنح الوسام الثقافى من رئيس تونس، وقد نهل من ينابيع العقاد رحمه الله حتى صار من كبار تلاميذه .

وللشاعر تراث فنى كبير يظهر فى دواوين شعره ودراساته الأدبية والنقدية. فقد اورثنا فى شعره ديوان «أنفاس فى الظلام» فى فبراير ١٩٣٥ بالاشتراك مع الشاعرين الحملاوى ومخيمر، وديوان «تحية الحياة» ١٩٣٦، وديوان «أغانى الربيع» ١٩٣٩ «أصداء بعيدة» ١٩٤٥ ، وديوان «شفق» ١٩٥٩، وديوان «رسوم وشخصيات» ١٩٦٠، وديوان «فراشات ونور» ١٩٦٤ ، وديوان «اشعار إلى الله» ١٩٧٢ وديوان «عالمى الصغير» ١٩٨٥، وديوان «محاكمات فى التاريخ» ١٩٨٦ .

ومن بين كتبه كتاب «قيم ومعايير» ١٩٤٥، «العقاد والتجديد فى الشعر» وكتاب «الشعر بين الجمود والتطور» و«قضية السفود بين العقاد وخصومه» .

رحم الله الشاعر الكبير العوضى الوكيل شاعرا أصيلا وكاتبا مجيدا .

رجب عبد الحكيم الخولى
القاهرة - حلوان - المعصرة

مطـــر

فوق أوراق الشجر
مطرى
امتد مسافات
وانتحر
مطرى بللته
يد الربيع
فوق كل طرقات الندى يضيع
ترمى به
وشوشات السفر
وتطوح به
أكف القدر
حين يطول به المسير
فلا يسأل
غير الدمع من سبيل

سوسه - تونس

أنشودة العربـــان

إنـــى أرى أهـــلـــى مـــن الـعـــــــــــــربـــان
قـــــد مــــــزقـــــوا وتـنـاثـر الـبـنـيـــــــان

قـــد مـــزقـــوا من غـــاصب مـــســـتـــعـــمـــر
لـم يـرحـم الأطـفــــــــال مـن نـيـــــــــران

لـم يرحـم الـشـــــــيـخ الـكـبـــــيـــــر ولا الـذى
فـــــقـــــد الـذارع ومـــــا لـه عـــــيـنـان

هـــب إلـــى دار أمـــين دكـــــــــهـــــــا
فـــاليـــوم أمـــســى فـــعـله شـــيطـان

مـــــــا لـى أرى أهـلـى مـن الـعـــــربـان
فـى نـومـــــــهـم وســـــبـــــاتـهـم لـلآن

مـــــا فـكـروا أبـدا وقـــــالـوا مـــــا الـذى
جــــعـل الـعـــــروبـة فـى ديـار هـوان

إن الـذى جـــــعـل الـعـــــروبـة هـكـذا
هـــو بـعـــــــدنـا عـن ربـنـا الـديـان

أحمد نادى بهلول
أسيوط - ديروط

التفاوت فى الدخل !

تؤدى منظمة تضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية دوراً مهما فى إصدار العديد من المطبوعات المهمة ، ومن بينها نشرة التضامن والتى تصدر شهريا ، كما أصدرت ١٧٥ كتابا وكتيبا ، ومن بين أهم إصداراتها مجلة التنمية والتقدم الإجتماعى - الاقتصادى، وما أود الإشارة إليه أن العدد الأخير من هذه المجلة تناول عددا من الموضوعات منها دراسة سوسيولوچية عن البطالة وانخفاض الأجور والتفاوت فى الدخل - مثلث الفقر فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا والتى تؤكد على أن الفقر فى هذه المنطقة قد بلغ درجة الأزمة ، وهو نتيجة ومحصلة العلاقات الاجتماعية الاقتصادية غير المتكافئة للإنتاج والتوزيع ، وتراكم الثروة فى جانب واحد لا يعنى سوى تراكم البؤس والفقر فى الجانب الآخر ، والثروة الضخمة للطبقات المسيطرة فى الوقت الراهن ! .

محمد صلاح ياسين

كفر الشيخ - بيلا

• ردود الأصدقاء •

●● الصديقة / إيمان ابراهيم - كلية الهندسة - جامعة حلوان

وصلتنا محاولتك الأولى لكتابة الشعر وهى بعنوان «أحبكم أحبانى الصغار» ، وتحتاج الكتابة الشعرية إلى مقومات كثيرة من أهمها الموهبة ، ثم قراءة الشعر والتعرف على كيفية كتابته ودراسة بحور الشعر. محاولتك هذه نذكر منها :

«فى مثل يوم ميلادك محبوبتى
أشعلتى نار الفتنة فى مهجتى
فى مثل يوم ميلادك صغيرتى
أضاءتى أول شمعة فى قبلتى !»

هناك أخطاء فى اللغة ، وكلمات ترص إلى جوار كلمات !

لابد من قراءة الشعر والتانى حتى تتمكنى من أدواته لكى تحققى ما تتمنينه وهو أن تكونى شاعرة !.

●● الصديق : عبد العزيز محمد الشراكى - المنصورة مدينة «الفردوس»

وصلت مساهمتك الشعرية والتى سميتها «أعشاب شعرية» وأود أن أسألك ما معنى «أعشاب شعرية» أين شعرك الجميل يا عبد العزيز ؟!.

وأنشر لك «تدقيق» والتى جاءت فى أعشابك !

كنت أدقق بالعينين الفاحصتين

فأسقط فى كل الحفر

والآن أسير سليما

من بعد ذهاب البصر !

●● الصديق . عاصم فريد البرقوقى - الاسكندرية جليم

نشكرك على تحيتك للهلال والتى أشرت فيها لما تضمنه هلال يناير ٢٠٠٠ وقولك. «إن عدد يناير الممتاز يؤكد أن هلالنا الحبيبة هى عروس القرن الحادى والعشرين» كما نحييك على ما تتخيله فى المستقبل .وأن تشترى الهلال من فوق سطح القمر ، وإشارة إلى ما ننتظره جميعا من مستقبل مشرق للبشرية جمعاء !.

●● الصديق : أحمد أحمد صادق - المرج - القاهرة

وصلتنا رسالتك ورأيك المختصر جدا حول القصة المنشورة فى عدد اكتوبر ١٩٩٩ (بيت العنكبوت) ونرجو أن تحدد تماما ما تقصده فى هذه الرسالة من ملاحظات !.

●● الصديق : د . احمد عبد الحافظ عبد الباقى - مينا القمح - شرقية

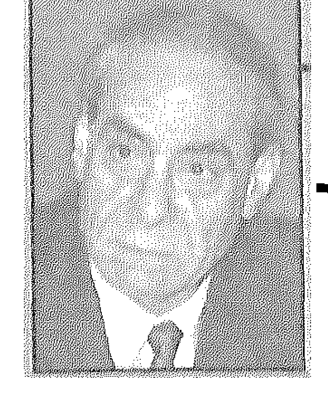
تصلنا رسائلك بانتظام - ونود أن تحدد الموضوع الذى يمكن نشره فى باب أنت والهلال

●● الصديق : د . أحمد عبده محمد - بكالوريوس صيدلة

شكرا على تهنئتك ، ونؤكد أن الهلال تعتز بكتابها الذين يقدمون من إبداعهم للقراء الأعزاء، ونرحب بكل جديد يقدمه الدكتور حلمى القاعود ، وهو ليس غريبا على الهلال ، فقد كتب مقالات نقدية بها فى السبعينيات ، ويسعدنا أن نحظى بمقالاته لنشرها فى الهلال .

●● الصديق : عبد الحميد الصراف - كاددف - عاصمة ويلز

وصلتنا رسالتك والتى تشير فيها إلى تسلمك «هلال» نوفمبر ١٩٩٩ حسب طلبكم ، ونشكرك على تحيتك الرقيقة للهلال .



الكلمة الأخيرة

مصر فى قلب العالم

د. عبدالمنعم تليمة

عملية برشلونة التى بدأت منذ خمس سنوات هى صيغة للعمل المشترك والتعاون الدائم بين مجموعتين بشريتين عظميين، المجموعة الأوروبية «١٥ دولة»، ومجموعة دول البحر الأبيض المتوسط غير الأوروبية ابتداء من المغرب وانتهاء بتركيا «١٢ دولة» وضعت صيغة العمل والتعاون فى ثلاثة حقول عريضة: أولها السياسة والأمن، وثانيها الاقتصاد وثالثها الثقافة، وترك لأهل الاختصاص فى كل حقل وضع القواعد والمواثيق لحقلهم. عمل المثقفون، ممثلو هاتين المجموعتين على أن تكون الثقافة هى القاعدة المكينة لكل عمل وتعاون وعلى أن يمتد النظر إلى المشترك الثقافى الإنسانى توكيداً للمحاورة العظمى بين كل الثقافات والحضارات فى العالم.

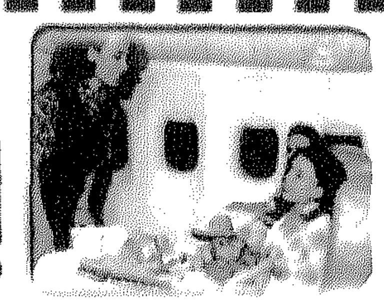
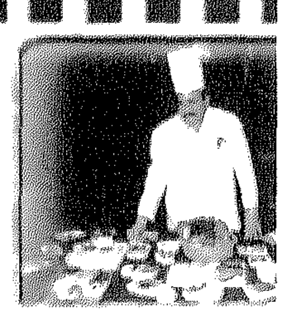
وفى اجتماع مهم لمثقفي الطرفين قال مثقف أوروبى: القول فى الثقافة للمثقفين المصريين، وعلينا أن نعطيهم آذاننا برهافة، فمصر مبدعة أول وأخلد ثقافة عرفتها البشرية. وإن كان للثقافة أعمدتها الأربعة، الدين والفن والفلسفة والعلم، فإن الأعمدة الثلاثة الأولى مصرية خالصة، وجاء العلم بآخرة، فى زماننا هذا ليكون قائداً مهيمناً، ويستطيع المصريون أن يحصلوا هذا العلم وأن يمارسوا تطبيقاته «التكنولوجيا» فى سنوات معدودات، وتظل لهم الريادة الثقافية إلى آخر الزمان، إن كان للزمان آخر.

وقال مثقف مصرى: سعى المثقفون المصريون المحدثون إلى المشاركة فى النشاط العلمى والتكنولوجى العالمى، لكن عثرات جمة عطلتهم وخسرت مصر الحديثة والمعاصرة الكثير فى هذا الميدان الأساسى، بيد أن الجيل المصرى الراهن يعى هذه الحقيقة ويجد ليضع نفسه على خريطة العالم. وثمة أمر ثان عظيم لا يتم للبشرية مستقبل قويم بدونه، وهو أن طائفة طليعية من المثقفين المصريين المعاصرين تؤمن إيماناً عميقاً بأن الصعود التكنولوجى الحالى لابد له من صعود ايديولوجى - روحى فكرى جمالى - مواز، حتى تتحقق نواميس الحياة الإنسانية وحتى يعتدل الميزان، وهنا دور الثقافة المصرية المستقبلى.



تواكب العولمه و تطورات القرن الحادي و العشرين
باحدث جيل من الطائرات

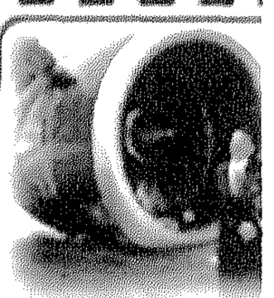


* أحدث وسائل الراحه و الرفاهيه
* أجهزة ملاحيه ذات تقنيه عاليه لمنع التصادم
* امكانيه الاتصال بأي مكان في العالم من داخل الطائرة
* تليفون شخصي و شاشه فيديو بالدرجه الأولى و درجة رجال الأعمال

مصر للطيران





النغمة الجميلة العذبة في ربوع الوطن العربي من مشرقه إلى مغربه
روايات مصرية للجيب
تفتح آفاق الثقافة والمعرفة في عقول الأولاد والبنات
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

الهلال

هموم الأقباط

الفريق فوزى والعسكرية المصرية

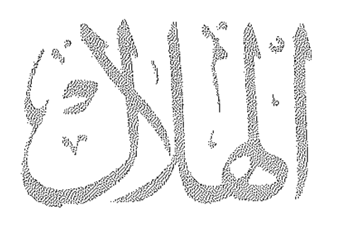
ماذا حدث لأزياء المصريين؟!

أبريل ٢٠٠٠ ● الثمن جنيهان





غب في خدمة مصرفية متميزة في كل المجالات
لشامل
لات المحلية والأجنبية.
ى مختلف أوجه النشاط الإقتصادية .
جارة الخارجية (تصدير - استيراد - خطابات الضمان) .
يط سوق المال (شراء - بيع الأوراق المالية) .
إصدار بطاقات الدفع الدولية والمحلية فيزا وماستر كارد وبطاقات الدفع الإلكترونية المتنوعة .
* ترويج وتسويق وبيع حصص الأسهم لشركات قطاع الأعمال العام وتمشيا مع سياسة الدولة في توسيع قاعدة الملكية .
* الريادة في إدخال نظام العمل المصرفي الإسلامي طبقاً لأحكام الشريعة الإسلامية (٣٠ فرعا في خدمة عملائه) .
* تقديم الخدمات غير التقليدية (سداد اشتراكات التليفون نيابة عنك وما ترغب من خدمات أخرى مثل البيع والشراء لحسابك .. وما تريد) .
* استحداث خدمات متطورة للعملاء (الفون بنك Phone Bank والهوم بنك Home Bank) .
هكذا يكون البنك
إهـــداء 2006
ورثة الكيميائي/ محمد فاروق الفران
الإسكندرية



مجلة ثقافية تصدرها دار الهلال

أسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢

العام الثامن بعد المائة

ابريل ٢٠٠٠ ● ذو الحجة ١٤٢٠ هـ

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

الإدارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب : ٦١١ - العتبة - الرقم البريدى : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت ٣٦٢٥٤٨١ - تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى : darhilal@idsc . gov . eg

مصطفى نبيل رئيس التحرير

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المدير الفني

ثمن النسخة سوريا ٦٠ ليرة - لبنان ٣٠٠٠ ليرة - الأردن ١٢٠٠ فلس - الكويت ٧٥٠ فلساء السعودية ١٠ ريالات - تونس ١,٧٥٠ دينار - المغرب ١٥ درهماً - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبو ظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - الجمهورية اليمنية ١٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار - إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة - المملكة المتحدة ٢.٥ جك

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ١٨ جنيها داخل ج م. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٠ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً

●وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت - ت/ ٤٧٤١١٦٤13079

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

هذا العدد



الغلاف تصميم الفنان: محمد أبو طالب
لوحة للفنان : حسن سليمان

فكر وثقافة

دائرة حوار

فنون

قصة وشعر

التكوين

الأبواب الثابتة

حكمة الهلال

عزيزى القاريء :

عن نشأة ومكانة الكاتب المصرى فى التاريخ الفرعونى يقول سليم حسن: «الرجل الذى يستطيع الإبانة عمّا فى ضميره بأسلوب جميل.هو ذلك الشريف المهذب الذى تنفتح أمامه الأبواب المغلقة والآفاق الواسعة».

ويضيف : «فلا مراء فى أن المصريين أول الكتاب فى ‎العالم... ويذكر «إن من يمعن النظر إلى كتب الحكمة المصرية ، يرى أن غرض الكاتب المصرى يسمو فوق طلب الوظيفة أو الثروة .

فهل يغزو الآفاق المغلقة أمام قومه ويبصرهم بنواحى الحياة ، ويرشدهم الى الطريقة السديدة فى الحوار والمناظرة ؟..

و لقد كان الكاتب يضمن لاسمه الخلود، إذا سمت تعاليمه، وعلت حكمته حتى تصير إرثا لذوى العقول الناضجة يتوارثونها ويتناقلونها. وكان يرى صروح الحياة جميعها عرضا زائلا، وعارضة مستردة بجوار أدبه الخالد الحى الذى يقرع الزمن فى البقاء ويسمو على البروج النحاسية فى القوة ..

وكان للمصريين القدماء أدب رفيع وآثار أدبية خلفوها مسطورة على أوراق البردى، منها مايقوله بتاح حتب : «لا تغتر بما حصلت عليه من العلم فتستكبر ، ولا تتجبر، واجعل الأمر شورى، شاور الرجل المتعلم كالمتعلم ، وإذا وجدت حكيما فاصغ إليه وإذا كنت فى صحبة جماعة، وكنت عليهم رئيسا ، فعاملهم معاملة حسنة، فالعدل عظيم، قد يحصل المرء على شىء من الثروة عن طريق الشر، ولكن تبقى قوة الحق ثابتة ، وحدود الحق واجبة» .

وتحافظ الهلال على تلك التقاليد وتسير على ذات الدرب. وتبقى الهلال خزانة المعارف والفنون والآداب، وتظل صديقة للقارىء تعاشره شهرا، قبل أن تنضم الى مكتبته لتعيش وسط ذخائر كتبه، وهى حريصة دائما على تقديم النظرة العربية

المعاصرة الى الحياة.

وتسعى الهلال نحو هدف بعيد أن يكون كل عدد من أعدادها جزءاً من كل هو « كل ذاكرة العالم» .

هذه الذاكرة التى تعيش لحظة حاضرة تستند الى ماض حى وتتطلع إلى الغد..

وليست مقالات الهلال مجرد موضوعات وأسماء أصحاب أقلام بل هى سياحة ممتعة فى ثقافة امتدت عشرات العقود والسنين ، ويعرف من يقلب صفحاتها أن الدكتور طه حسين أخذ يكتب حلقات كتابه الشهير «الأيام» فى مجلة الهلال من أول يناير ١٩٢٧ حتى يوليو من نفس العام، وكانت الهلال أول دورية تنشر أولى قصص د. محمد حسين هيكل وهى قصة «حكم الهوى» التى نشرت فى فبراير ١٩٢٦ ، ونشرت أيضا اول قصص محمود تيمور «صابحة» فى مارس ١٩٢٨، كما نشر محمود طاهر لاشين أولى قصصه فى هلال يناير ١٩٣٣. وفاز بجائزة الهلال للقصة القصيرة الروائى محمد عبد الحليم عبدالله فى أغسطس ١٩٤٨ . وكانت قيمتها خمسين جنيها .

وبدأت صلة توفيق الحكيم بالهلال فى الثلاثينات ، وكانت قصة «الحلم والحقيقة» أول قصة تنشرها الهلال فى أغسطس ١٩٣٤، كما نشرت الهلال بعض فصول كتب الحكيم قبل صدورها ، ومن أبرزها «يوميات نائب فى الأرياف» و«عصفور من الشرق» و «مدرسة المغفلين» .

والقائمة طويلة لا يتسع المقام لذكر تفاصيلها ..

لذلك نسعى لاصدار كشاف الهلال على اسطوانة الليزر ، حتى نقدم خدمة ثقافية بالغة الأهمية للباحثين والدارسين ومن يتوقون إلى الحفاظ على الذاكرة الثقافية .

المحـــــرر



فى زيارة للجبهة قبيل حرب اكتوبر

الفريق أول محمد فوزى

بقلم : د. رءوف عباس

●● ودعت مصر الفريق أول محمد فوزي الذي لقي ربه بعد حياة حافلة بالخدمة الوطنية تضعه في مقدمة بناة الجيش المصري الحديث، ليس فقط من خلال تربيته لأفواج من الضباط الذي تعلموا علي يديه أستاذاً ومديراً للكلية الحربية لما يربو علي الخمسة عشر عاما، ولكن لفضله ودوره في جمع ما بقي من حطام القوات المسلحة بعد كارثة يونيو ١٩٦٧ الذي أعاد منه بناء الجيش المصري في زمن قياسي لم يتجاوز السنوات الثلاث حتي أصبح مهيأ لخوض معركة التحرير، وهي السنوات التي شهدت بحق حربا متصلة مع العدو زودت القوات المسلحة بالخبرات التي مكنتها ـ فيما بعد ـ من كسر أسطورة التفوق الإسرائيلي وتحقيق التوازن العسكري مع العدو عدة وأداء حتي استطاعت مصر ان تحقق ما تم انجازه في حرب أكتوبر ١٩٧٣. فكانت عملية إعادة بناء القوات المسلحة وابقاء جذوة المعركة متقدة في نفس الوقت انجازا تاريخيا علي درجة عالية من القيمة حققته همة الفريق أول محمد فوزى ●●



ويشارك فى مناورة لسلاح المظلات

والعسكرية المصرية

وإذا كان محمد فوزى لم يستطع استيعاب سياسة أنور السادات التى اتجهت إلى تجميد قرار المعركة تمهيداً للتحول من استراتيجية المواجهة إلى استراتيجية المصالحة، فإن ذلك يرجع إلى اقتناعه تماما بأن «ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة»، ويقينه من خطورة التوجه الجديد على بنية القوات المسلحة والخطط التى بذل فى وضعها الدماء والعرق، ففضل فوزى ان يستقيل حتى يبرىء ذمته من مغبة مسايرة التحول الذى لا يرى فيه مصلحة بلاده . وقد كلفه ذلك الموقف حريته الشخصية لما يزيد على العامين قضاهما فى السجن تنفيذاً لحكم بالسجن خمسة عشر عاما، اصدره مجلس عسكرى عقد خصيصا لمحاكمته بتهمة «العصيان والتمرد» تماما كما حوكم أحمد عرابى قبله بتسعين عاما، وعندما خرج من السجن بعد صدور عفو السادات عنه، لم ينقطع انشغاله بالهم الوطنى ولم ينس مسئوليته أمام أمته واجيال المستقبل من القادة العسكريين، فقدم خلاصة تجاربه فى مذكرات نشرت فى أربعة كتب ستظل مرجعا تاريخيا مهما لكل من يتصدى لكتابة تاريخ مصر المعاصر وتاريخ القوات المسلحة المصرية.

ولد محمد فوزى فى ٥ مارس ١٩١٥، وكان والده البكباشى أمين أفندى فوزى ضابطا بالجيش المصرى توفى قبل التحاق ابنه بالكلية الحربية عام ١٩٣٤، ولذلك ورد بملف محمد فوزى الطالب بالحربية اسم عبدالوهاب افندى زهدى سكرتير مدرسة الاورمان الابتدائية والمقيم بالعباسية كولى أمر

الطالب، ولعله كان خاله، ولا يعنينا من هذا إلا ما له من دلالة على الانتماء الاجتماعى لمحمد فوزى فهو من اسرة تنتمى إلى الطبقة المتوسطة الصغيرة التى اشتعلت من بين صفوفها جذوة العمل الوطنى على مر تاريخ مصر الحديث والمعاصر، وقدمت لمصر معظم رواده ونجوم العمل الوطنى والفكر والثقافة.

حصل محمد فوزى على الابتدائية عام ١٩٢٩ وعلى الكفاءة عام ١٩٣٢، وعلى شهادة البكالوريا (القسم الادبى) عام ١٩٣٤ والتحق فى اكتوبر من نفس العام بالكلية الحربية وتخرج فى يونيو عام ١٩٣٦ ليعين ملازم اول بيادة (مشاه)، وخدم خلال الحرب العالمية الثانية فى الدفاع المضاد للطائرات عن القواعد البحرية والجوية فى الاسكندرية وبورسعيد وقناة السويس عامى ١٩٤١ - ١٩٤٢، كما خدم فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨، ولفت الأنظار إليه عندما طور استخدام المدفعية المضادة للطائرات فى تدمير أهداف أرضية حيث دمر برج المياه الاسرائيلى فى دير سنيد، وهو أمر غير مسبوق فى استخدامات المدفعية المضادة للطائرات. وكان لقاء محمد فوزى مع جمال عبدالناصر فى عام ١٩٤٨ على أرض فلسطين حيث ربطتهما صداقة حميمة الى جانب رفقة السلاح، فلا غرابة أن نجد محمد فوزى من اوائل من انضموا الى تنظيم «الضباط الأحرار» فى خلية كان يتولى مسئوليتها زكريا محيى الدين ، وظل بعد قيام الثورة فى موقعه كضابط بالقوات المسلحة، فلم يشغل باله بالعمل السياسى أو التطلع للمناصب على نحو ما فعل بعض زملائه من «الضباط الاحرار»، وأدى واجبه فى الدفاع عن البلاد خلال العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦.

وكان محمد فوزى قد حصل على شهادة أركان الحرب عام ١٩٥٢ وعين كبيراً للمعلمين بالكلية الحربية عام ١٩٥٣، ثم أصبح مديراً للكلية الحربية

عام ١٩٥٨، عرف بين الطلاب بالحزم والافراط فى الانضباط حتى قيل أنهم أطلقوا عليه «الرجل الصخرى»، ولكنهم كانوا يحبونه ويرون فيه القدوة والمثل الذى يحتذى، (وهى الصفات التى جعلت جمال عبدالناصر يختاره لحمل عبء إعادة بناء القوات المسلحة بعد كارثة ١٩٦٧).. ولم يترك إدارة الكلية الحربية إلا ليعين رئيسا لهيئة أركان حرب القوات المسلحة عام ١٩٦٤، وليصبح - فى نفس الوقت - أمينا عسكريا مساعداً بالجامعة العربية حتى عينه جمال عبدالناصر فى ١١ يونيو ١٩٦٧ قائدا عاما للقوات المسلحة ثم وزيراً للحربية فى ١٩٦٨/١/٢٠.

إعادة تنظيم القوات المسلحة

توثقت صلة محمد فوزى بالرئيس جمال عبدالناصر بعد ان اصبح رئيسا للأركان العامة، وبلغت ذروتها عام ١٩٦٦، وكان هذا المنصب العسكرى الرفيع قد أتاح لمحمد فوزى الوقوف على أحوال وقدرات الجيش المصرى - عندئذ - وأعد خطة شاملة لإعادة تنظيم القوات المسلحة على أسس علمية.. فقد راعه تدهور مستوى القوات المسلحة، والقصور الواضح فى تجهيز مسرح العمليات للمواجهة مع العدو، وخروج أعداد ضخمة من القادة والضباط من الخدمة لاسباب سياسية خلال حقبة زمنية قصيرة مما كان له آثاره السلبية فى الخبرة العسكرية والتقاليد العسكرية المتوارثة، ففيما بين ١٩٥٢ - ١٩٦٧، كان عدد القادة والضباط الذين طردوا من الخدمة يفوق كثيرا عدد زملائهم المحالين إلى التقاعد بحكم السن أو الوفاة أو الاستشهاد مما نتج عنه عدم وجود تدرج هرمى مقرون بزمن معقول للاحتفاظ بالخبرة العسكرية، كذلك لعب الصراع الخفى بين الرئيس جمال عبدالناصر والمشير عبدالحكيم عامر، وانفراد الأخير بالسلطة الفعلية على القوات المسلحة، دورا بارزاً فى التأثير السلبى على صنع القرار العسكرى الاستراتيجى للدولة، ناهيك عن فقدان القوات المسلحة المساندة المعنوية من الشعب بسبب الممارسات التى اتسمت باستعراض القوة واستغلال النفوذ، والخلط بين السلطات، وعدم الانضباط والتعالى والمبالغة الإعلامية فى قدرات القوات المسلحة (مقولة أكبر قوة ضاربة فى الشرق الاوسط). كل ذلك جعل محمد

فوزى يستشعر الخطر، ويفكر فى تقديم «وصفة» لعلاج أمراض القوات المسلحة ولما كان ولاؤه للقائد الأعلى صديقه القديم جمال عبدالناصر، فقد تحايل لتجاوز التسلسل القيادى الذى يلزمه بالاتصال بالمشير عامر أولا وقدم خطته لتطوير القوات المسلحة الى الرئيس جمال عبدالناصر مباشرة عام ١٩٦٦.

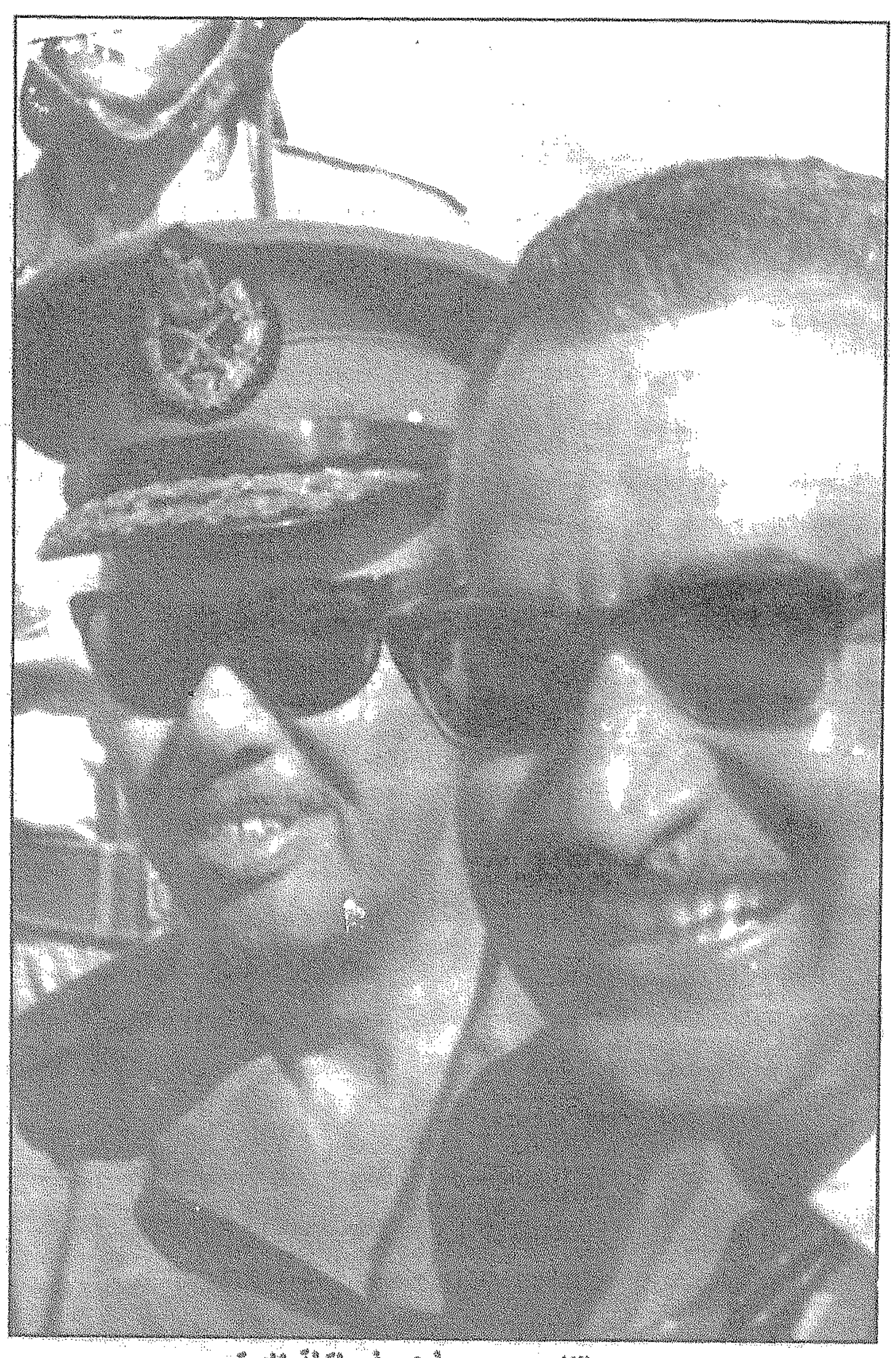
كان الزمان صيف ١٩٦٦، والمكان الاسكندرية، وقد استحسن عبدالناصر الخطة التى اقترحها محمد فوزى ، ولكنه نصح بتأجيل مناقشتها حتى يتم الفراغ من المأزق الذى كانت تواجهه القوات المسلحة فى اليمن. وفى التاسعة إلا الربع من صباح ٥ يونيو ١٩٦٧، اتصل محمد فوزى تليفونيا بالرئيس عبدالناصر ليبلغه ان الكارثة قد وقعت.. وهكذا لم تتح لمحمد فوزى فرصة تنفيذ فكرته لاعادة تنظيم القوات المسلحة إلا بعد كارثة ١٩٦٧ عندما عين فى ١١ يونيو ١٩٦٧ قائداً عاما للقوات المسلحة، ولم يعد الأمر أمر اعادة تنظيم، ولكنه اصبح اعادة بناء لحطام القوات المسلحة فى اصعب الظروف واكثرها حرجا. وقد كشفت المحنة عن معدن الرجل.. وسجلت اسمه فى مقدمة اسماء بناة الجيش المصرى الحديث.

الصمود والمواجهة والتحدى

قسم محمد فوزى فترة السنوات الثلاث التى شهدت إعادة بناء القوات المسلحة إلى ثلاث مراحل هى: الصمود، والمواجهة، والتحدى والردع.

امتدت المرحلة الأولى من يوليو ١٩٦٧ حتى مارس ١٩٦٨، وشهدت ضغوطاً سياسية للتوصل إلى حل منفرد مع اسرائيل بطريق التفاوض المباشر وعلا مد الحرب النفسية لخفض معنويات القوات المسلحة والشعب المصرى . وجاء صمود القوات المسلحة المصرية من خلال ثلاث معارك صغيرة ناجحة ليعيد الثقة فى نفس المقاتل المصرى.. وكان إنشاء أول نسق دفاعى غرب القناة وتماسك الجبهة الداخلية وراء قيادة عبدالناصر وتأييد الدول العربية الذى تحقق فى مؤتمر القمة بالخرطوم، واستمرار تدفق الأسلحة والمعدات من الاتحاد السوفييتى والدول الاشتراكية الأخرى سنداً قويا للقوات المسلحة المصرية فى مرحلة الصمود.

وشهدت الفترة من مارس ١٩٦٨ حتى بداية عام ١٩٦٩ مرحلة المواجهة التى



عبدالناصر ومحمد فوزي في لقطة نادرة

اتسمت بسرعة دوران عجلة تدريب وإعداد القوات المسلحة واستكمال بناء التشكيلات الجديدة المقاتلة، ودفعها إلى منطقة التجميع الرئيسى غرب القناة، وإنشاء قيادتى الجيشين الثانى والثالث الميدانيين وتحمل مسئولياتهما فى المنطقة الدفاعية، وبدء الانتقال إلى مرحلة الدفاع الايجابى والعمل ضد العدو شرق قناة السويس ليلا ونهاراً بعمليات برية، وهجمات جوية اتخذت طابع الاستنزاف لقوات العدو ومعداته ومنشآته الميدانية، فكانت مواجهة العدو وقتاله بروح الثأر أحسن فرصة لرفع كفاءة ومقدرة القوات المسلحة على القتال والحصول على معلومات ميدانية قيمة عن العدو كانت ذات فائدة كبيرة فى المرحلة التالية، واتسع نطاق المواجهة جنوبا ليشمل خليج السويس ، مما زاد من أعباء العدو، واضطره إلى مواصلة تعبئة قواته حتى بدأ يشعر بالاستنزاف الحقيقى لقواته وموارده.

أما المرحلة الثالثة فامتدت من ابريل ١٩٦٩ حتى يوليو ١٩٧٠، واتسمت بتحدى العدو والقيام بمبادرات حربية من قواتنا ضد العدو فى العمق التعبوى داخل سيناء بريا وجويا وبحريا، فوصلت إلى العريش شمالاً وإيلات جنوبا مما أجبر العدو على نشر قواته وزيادة عددها فى مناطق بعيدة، واضطر إلى إشراك قواته الجوية فى العمليات فى عمق مصر وعلى خطوط المواجهة . ولكن ردع قواتنا وخاصة الدفاع الجوى وبدء انشاء حائط الصواريخ سام الشهير غرب القناة، ووجود الطيارين السوفييت وعناصر الدفاع الجوى من الصواريخ فى عمق مصر منع العدو من استخدام قواته الجوية ضد العمق المصرى. وانتهت المرحلة بتحقيق خسائر فى القوات الجوية للعدو التى تعرضت لصواريخ سام، فتحول العدو فى سيناء إلى الدفاع التقليدى وكان لهذه المرحلة مردودها السياسى ، فبدأت الولايات المتحدة الامريكية تتجه نحو طرح الحلول السلمية للتسوية الشاملة، فقدمت مشروع روجرز لوقف اطلاق النار المؤقت.

وعندما ناقش الرئيس جمال عبدالناصر مبادرة روجرز مع محمد فوزى رأى قبول وقف اطلاق النار لمدة تسعين يومياً حتى يتم خلالها استكمال بناء المواقع الاحتياطية لصواريخ الدفاع

الجوى وزحزحة حائط الصواريخ كله إلى الشاطىء الغربى لقناة السويس، وعندما تحدد وقف اطلاق النار في الواحدة من صباح ١٩٧٠/٨/٨ استطاع محمد فوزى تحريك أربع عشرة كتيبة صواريخ بعد غروب يوم ١٩٧٠/٨/٧ لتصل الى شاطىء القناة قبل الواحدة من صباح ١٩٧٠/٨/٨ وبوقف اطلاق النار كانت القوات المسلحة قد وصلت الى قدرة وامكانيات عسكرية ومعنوية عالية بفضل المعارك المستمرة والصدام والمواجهة مع العدو التى استمرت طوال ثلاث سنوات، وبالتدريب الشاق المتواصل فى نفس الوقت، كما تم اختبار جميع التشكيلات الميدانية فى جميع أفرع القوات المسلحة على واجبات عمليات تحرير الأرض فى اطار من التنسيق والتعاون .

الخطة ٢٠٠ وتحرير الارض

فقد تم اعداد خطة تحرير الأرض (الخطة ٢٠٠) فى خط مواز لعملية بناء القوات المسلحة وتنمية قدراتها القتالية، وكان يتم تطويرها كل ستة شهور . ويروى محمد فوزى أن الرئيس جمال عبد الناصر دعا إلى اجتماع مصغر فى آخر أغسطس حضره ممثلان عن مجلس الدفاع الوطنى هما وزير الخارجية ووزير الحربية، لعرض الموقف السياسى والعسكرى بعد وقف اطلاق النار المؤقت، وبعد مناقشة الموقف أقر وزير الخارجية أن الموقف السياسى الخارجى لن يكون أفضل من الموقف الحالى. وأبدى محمد فوزى استعداد القوات المسلحة لبدء معركة التحرير فور انتهاء فترة وقف اطلاق النار . وأنهى الرئيس الاجتماع بعد أن حدد لفوزى استعداده للتصديق على خطط العملية الحربية المرحلية والشاملة لتحرير الأرض فى مرسى مطروح فى الأسبوع الأول من سبتمبر ١٩٧٠.

وسافر محمد فوزى مع الرئيس بالقطار إلى مرسى مطروح ومعه ١٤ خريطة تشمل قرارات (الخطة ٢٠٠) الشاملة، والخطة (جرانيت) المرحلية، وكذلك خطة القوات المسلحة السورية لتحرير الجولان موقعا عليها من وزير الدفاع السورى، أما الخطط المصرية فلم يكن ينقصها سوى توقيع الرئيس باعتباره القائد الأعلى للقوات المسلحة. ويذكر فوزى أن الرئيس شغل بزيارة مفاجئة قام بها القذافى ثم وقعت حوادث الأردن (ايلول الأسود) فلم يتمكن من الانفراد بالرئيس عبد الناصر لتوقيع الخطط ولكنه أبلغه شفويا بالتركيز على تنفيذ الخطة (جرانيت) المرحلية بعد انقضاء الفترة

الأولى لوقف اطلاق النار فى ٧/ ١١ / ١٩٧٠. ولكن وفاة عبد الناصر فى ٢٨ سبتمبر حالت دون استمرار التخطيط الزمنى المقرر لبدء معركة التحرير.

ويؤكد محمد فوزى أن قياس قدرات قواتنا على قوات العدو فى أواخر ١٩٧٠ وأوئل ١٩٧١ كانت لصالح قواتنا عددا وتسليحا وكفاءة، وأن توقيت تنفيذ الخطط الموضوعة للتحرير والتى تم التدريب عليها عمليا كان توقيتا مخططا تخطيطا سليما. وقد أحست اسرائيل بذلك الاختلال فى ميزان القوى، فعززت قواتها عام ١٩٧٢ و ١٩٧٣ بتسليح أمريكى إضافى وخاصة فى قواتها الجوية والمدرعة بما يوازى ثلث قوتها العسكرية عام ١٩٧١، وبذلك بدأ ميزان القوى يتحول لصالح اسرائيل ابتداء من عام ١٩٧٣، مما يؤكد - مرة أخرى - أن توقيت معركة التحرير فى أواخر ١٩٧٠ أو أوائل ١٩٧١ كان توقيتا سليما.

***

كانت وفاة عبدالناصر، وتصفية المقاومة الفلسطينية فى الأردن فى سبتمبر ١٩٧٠ لها تأثيرها على الموقف الاستراتيجى العربى عامة، ولكنها لم تؤثر على التفوق العسكرى العربى على إسرائيل، وبدأ السادات يرسل إشارات تلمح إلى استبعاد معركة تحرير الأرض بالقوة، عندما أعلن عن مبادرته من أجل حل جزئى فى ٤ فبراير ١٩٧١، موضحا أمله فى انهاء الصراع العربى الاسرائيلى عن طريق الحل السلمى، مما أدى إلى وقوع خلافات فى الرأى بينه وبين المجموعة القيادية التى ورثها عن عبدالناصر، وكان من الطبيعى أن ينعكس ذلك على موقف فوزى من الرئيس الجديد الذى رأى يماطل ويسوف فى تنفيذ خطة التحرير.

جندي لا تشغله السياسة

لقد كان محمد فوزى جنديا لاتشغله السياسة إلاّ من زاوية تأثيرها على الموقف العسكرى، ولم يسبق له أن حرك ميدان السياسة بعدما قامت الثورة، فقد ظل منكبا على أداء واجباته كضابط ومعلم ومدير للكلية الحربية، واكتفى بدور المراقب للصراع السياسى وصراع السلطة بين عبدالناصر وعامر دون أن يورط نفسه فيه، حتى اذا وجد نفسه فى السلطة قائدا عاما ووزيرا للحربية لم تشغله السياسة طوال عمله تحت قيادة عبدالناصر إلا من زاوية هدفه وواجبه وهو بناء القوات المسلحة وتحرير التراب الوطنى، وكاد يصل إلى تحقيق الهدف

بالتحرك نحو معركة التحرير التى حدد عبدالناصر موعدها (شفويا) قبل أسبوعين من وفاته . أما السادات فله باع طويل فى السياسة وألاعيبها جعله يبقى فى دائرة السلطة طافيا على السطح، وجاء موت عبدالناصر المفاجئ ليضعه فى موقع القائد الأعلى للقوات المسلحة فكان طبيعيا أن يتخلص ممن عملوا مع عبدالناصر حتى يضمن عدم التعرض لتوجهاته السياسية الجديدة، وبعبارة أخرى كان الصدام الذى وقع بين السادات ومجموعة القادة الذين ورثهم عن عبدالناصر صداما متوقعا، فلم يكونوا رجاله، كما أنه كان يريد أن يتبع أسلوبا مختلفا فى العمل لن يستطيع اتباعه إلا إذا تخلص منهم، فكان الموقف من معركة التحرير فخا استطاع اصطيادهم به.

ونصب السادات الفخ عندما ارسل إشارات سياسة المصالحة التى أزعجت من عبئوا تحت قيادة جمال عبدالناصر للثأر من هزيمة يونيو ١٩٦٧، وشاركوا فى تحمل مشقة إعادة بناء القوات المسلحة وعلى رأسهم محمد فوزى الذى ألح على السادات أن يصدق على خطة معركة التحرير، فراح يماطل ويسوف، ثم حدد موعدا ولكنه رفض توقيع الوثائق الخاصة به، فلم يطق محمد فوزى صبرا وهو يرى أن مرور الوقت لن يكون فى صالح المعركة اذا انقضى الظرف التاريخى المناسب. ولما كان قائدا عسكريا ملتزما استقال من منصبه وقبع فى داره، وتبعته المجموعة التى ضمت رجال عبدالناصر فكان ما كان من تعرضهم للتصفية فيما سمى بثورة التصحيح التى جعلت من ١٥ مايو ١٩٧١ بداية لشرعية جديدة استند اليها السادات، وجعلها قاعدة توجهه السياسى الجديد.

* * *

وعندما أضطر السادات إلى تنفيذ خطة التحرير، لم يكن هناك مفر من الاقتصار على الجانب المرحلى مع تحجيمه ليصبح أداة لتحريك الحل السياسى، وهو ما تحقق فى حرب أكتوبر ١٩٧٣، ولكنه لم يستطع أن ينكر فضل محمد فوزى فأشاد به فى أكثر من مناسبة وما تحقق على يديه من إعادة بناء القوات المسلحة وإعدادها لواجب التحرير. وكان حرص الرئيس محمد حسنى مبارك على الاشتراك فى تشييع جنازة فوزى تقديرا لدوره التاريخى فى خدمة وطنه وأمته.

هموم الأقباط..

الغرب والمسألة الدينية!

بقلم: أمين يسري

فى القرية الصغيرة التى أنتمى إليها والتى تقع على مشارف محافظة الشرقية يوجد جامع وإلى جانبه كنيسة. يعود تاريخ إنشاء هذا الكنيسة، إلى مايزيد عن مائة عام، وقد عشت طفولتى وجزءا من صدر الشباب فى هذه القرية دون أن أشعر يوما بالتفرقة بين المسلمين والأقباط إلى فترة السبعينيات.

أما فى بيتنا فى القاهرة - فى حى الظاهر - فأذكر أننا كنا نمثل الأقلية المسلمة فى هذا الحى وفى هذا البناء الذي كنا نسكنه تحديدا.. كانت أسرتى هى الأسرة المسلمة الوحيدة فى العمارة. فكانت ابنة اسكندر فرح رائد المسرح تقيم فى الطابق الثانى مع أعمامها بينما كان «الخواجة يوسف» اليهودى مع ابنته الجميلة التى فتنت بها فترة سن المراهقة راشيل يقيم فى الطابق الرابع، أما الدور الأول فاحدى شققه كانت تسكنها امرأة عجوز يهودية بمفردها وجعلت من مسكنها معبدا يهوديا صغيرا تقام فيه الصلوات وربما الاجتماعات بكثرة إبان حرب فلسطين الأولى فى عام ١٩٤٨.. وفى مواجهتها كانت تقيم أسرة قبطية.

ومن ثم فقد عشت بين الأقباط واليهود ونشأت فترة التكوين دون أن أشعر بفارق الديانة بينى وبين أقرانى وأصدقاء العمر من الجيران سواء فى القرية أو المدينة.

هموم مستجدة

من هنا كان اهتمامى كبيراً بالكتاب الذى دفع لى به الأخ والصديق رئيس التحرير - الحماية والعقاب للأستاذ سمير مرقس - لأعد له عرضا. ومن هنا أيضا كان شغفى بقراءة الكتاب قراءة متأنية لأتعرف أكثر على هموم الأخوة الأقباط وعرضه لمحاولات تدويل هذه الهموم وتوقيع العقاب على مصر من خلال قانون أمريكى إذا رأى الرئيس الأمريكى ذلك!!، وهى هموم مستجدة على الشارع المصرى بطول البلاد وعرضها لم تظهر إلا فترة السبعينيات ومابعدها، وبسبب التجاهل وعدم التصدى بحزم للأساس والسبب



الحقيقى لقيام ظاهرة مايسمى «بالفتنة الطائفية» فقد تصاعدت حتى استفحلت ليلة انتهاء السنة الأخيرة من الألفية الثانية.

لهذا كله كان شغفى بالكتاب ولهذا أيضا جاء احتجاجى خافتا لرئيس التحرير لقصر المساحة الزمنية التى منحنى إياها للإنتهاء من إعداد عرض له. والواقع أننى وجدت نفسى أمام كتابين وليس كتابا واحدا ضمهما وجمع بينهما المؤلف وأدخلهما داخل غلاف واحد، وكلاهما يستحق الاقتناء والقراءة بعناية.

الكتاب الأول ـ وهو الذى شغل الفصلين الأول والثانى ـ هو عن «الغرب والمسألة الدينية فى الشرق الأوسط».

والكتاب الثانى ـ الذى هو القسم الثالث والأخير ـ هو «دراسة خاصة عن الأقباط : التاريخ، المواطنة، الهموم، والمستقبل».

وعلى حد قول المؤلف ـ الأستاذ سمير مرقس ـ وهو الباحث والوطنى الغيور المعنى بقضايا المواطنة والشأن القبطى والحوار الإسلامى ـ المسيحى، فإن دافعه للجمع بين الموضوعين أنه يرى، أنه على مدى السنوات الماضية ظلت قضية التكامل الوطنى بين المسلمين والأقباط واحدة من الإشكاليات البارزة، فكان عليه مهمة أولى لدراسة «الداخل» المصرى بتفاعلاته وتطوراته التى جدت على بنية المجتمع، ومهمة ثانية لدراسة «الخارج» باستراتيجيته وسياسته التى تحتل فيها قضية المسألة الدينية مساحة لا يستهان بها، باعتبارها آلية يمكن توظيفها لتحقيق مصالحه. و«الخارج» هنا هو فى التاريخ الحديث الدول الكبرى بما فيها روسيا القيصرية، وفى وقتنا الراهن، الولايات المتحدة الأمريكية تحديدا.

حديث عن المواطنة

هذا هو التبرير الذى يقدمه المؤلف للجمع بين الموضوعين فى كتاب واحد. وهو تبرير مقنع على أية حال. ولكن شعورا انتابنى بعد قراءة الكتاب أن المؤلف استهدف أصلا وضع كتاب عن هموم الأقباط لكنه تحرج لأنه واحد منهم، وخشى ـ وهو الوطنى الغيور ـ من تخصيص كتاب عن هذا الهم يكتبه قبطى قد يُظهر الكتاب للقارىء وكأن الأقباط عنصر مستقل له قضية مستقلة عن قضايا مصر والمصريين مسلمين ومسيحيين وعلى غير ما يعتقد وعلى غير مايريده بمثل ما أثبت هو ذاته فى الكتاب عند الحديث عن المواطنة، فحتى ـ إذا

صدق ظني ـ وبعض الظن إثم ـ فإن هذا الأسلوب في عرض الهم القبطي جاء موفقا، وهو تصرف لبق «دبلوماسي» يحمد له، ولكني آخذ عليه ـ كما على غيره ـ وسيأتي الحديث عن هذا لاحقا ـ هذا الافراط في الحساسية المغالي فيها بالانتماء للديانة القبطية الذي يقترن ويتزامن مع الشعور بالاضطهاد، هذا مع ضرورة توضيح أن التدين العميق ـ للمسلم والمسيحي ـ متى خلا من التعصب الذي يؤذي الآخرين أمر مطلوب، ولاتثريب على فاعله بل له ثوابه في الدنيا والآخرة. فهذه الحساسية تتزايد كلما كانت مصر كلها في أزمة ـ ومن تداعيات هذا الأزمة ظهور المشكلة الطائفية، وتختفي هذه الحساسية ـ أو بالأحرى تتوارى ـ عندما تهدأ الأزمة، فالذي لابد أن يدركه ويعقله كل الأخوة الأقباط أن الهم القبطي هو هم مصري يخص كل المصريين ـ مسلمين وأقباطاً ـ ومن حق كل مواطن مسلما كان أو مسيحيا التحدث بشأنه والحديث عنه علنا باعتباره شأنا مصريا عاما، فغني عن الذكر أن الذي تناول الشأن القبطي بتعمق من المفكرين والكتاب المسلمين هم أكثر من الأقباط عددا،، وما كتاب المستشار طارق البشري «المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية» وكتاب السفير الدكتور مصطفى الفقي عن ذات الموضوع إلا نموذجا لذلك، بل إن الندوة التي دعت إليها «جمعية النداء الجديد» عن هموم الأقباط والبيان الصادر عن «المائة» في أعقاب هذه الندوة ـ وغالبية الموقعين عليه من المسلمين ـ لدليل قاطع على أن القضية مصرية وليست دينية، وأنها لاتخص «طائفة» إنما تتصل بالوطن كله وبكل من يتشرفون بالإنتماء إليه حكاما ومحكومين تقع مسئوليته عليهم جميعا بلا تفرقة بين ديانة ولا بين موقع في السلطة ولا بين موقع على خريطة الوطن شماله أو جنوبه.

ومع ذلك فنحن ازاء دراسة جادة هي نتاج عقل وفكر استقامت عقيدة صاحبه فتولدت عنها الاستقامة السياسية في الحكم وفي الموقف. وهذا مانجده في كل أقسام الكتاب وبين طيات حروفه، فعندما نطالع في الكتاب الأول أو بالأحرى القسم الأول والثاني من الكتاب عنايته بتتبع موقف الغرب من المسألة الدينية في الشرق الأوسط، نجد أنفسنا أمام دراسة تستحق اهتمام كل مصري بل كل عربي بل كل من ابتليت بلاده ـ في مشارق الأرض ومغاربها ـ في فترة من تاريخها بالاستعمار انجليزيا كان أو فرنسيا أو بلجيكيا... وهذا ما تنبه له المستشار طارق البشري في المقدمة التي وضعها للكتاب.. : «فما من بلد تركه الاستعمار إلا وخلف فيه مشكلة حدود تهدأ وتثور وتخبو وتشتد والاستعمار المنسحب يؤيد الضارب والمضروب لأن مايهمه هو استمرار الشقاق والقلاقل»

ثم بدأ المؤلف يتابع مسيرة التدخل الغربي السافر في تسيير شئون منطقتنا

منذ حكم الدولة العثمانية، وفى سياق المشهد التاريخى الذى عرضه المؤلف بإيجاز غير مخل، كان الظرف مواتيا مع نهاية القرن الثامن عشر، أن يجدد الغرب هجومه على منطقتنا فى إطار مخطط محكم بالدمج العنيف والقسرى فى المنظومة الأوربية الفتية آنذاك من خلال علاقة تقوم بين طرفين أولهما مهيمن وثانيهما ملحق، وقد احتاج تحقيق ذلك إلى التغلغل فى عمق المنطقة بل والاستقرار فيها على أساس تجزئتها، انطلاقا من الخبرة التاريخية التى تقول إن الوحدة تعنى عدم القدرة على النفاذ، وقد أدت هذه السياسة إلى شق المجتمع المصرى أفقيا وإحداث مايمكن تسميته بالانفصام الحضارى بين نموذجين فى التطور والتنمية .

فإذا ماتحققت التجزئة الأفقية جاءت بعدها التجزئة الرأسية أو شق الجماعة الوطنية على أساس دينى (مسلمون وأقباط)، والطائفية هى فى رأى المؤلف ورأى الدكتور جمال حمدان أداة سياسية كان الاستعمار هو الذى غذاها إن لم يكن خلقها ليدعم بها وجوده.

شق الجماعة الوطنية

وقد تعددت وتنوعت محاولات الغرب فى شق الجماعة الوطنية وتجزئتها إلى مسلمين وأقباط، وقد حصر المؤلف هذه المحاولات فى مراحل خمس لكل مرحلة استراتيجية خاصة بها (١) مرحلة الامتيازات الأجنبية واستراتيجية الرعاية المذهبية (٢) مرحلة الإرساليات التبشيرية واستراتيجية الاقتناص والتفكيك التى مثلت خلالها الكنيسة القبطية الوطنية العائق الأكبر أمام هذه الإرساليات حتى بات مهما للغرب حتى يتحقق لهذه الإرساليات دورها من تفكيك الكنيسة القبطية وتحويل أبنائها بالتوازى مع ضرب العلاقة بين المسلمين والأقباط من خلال اثارة الجدال الدينى بينهما. (٣) مرحلة الاحتلال البريطانى واستراتيجية حماية الأقليات وتدويل مصر وسياسة فرق تسد، وينقل المؤلف عن المستشار البشرى ذكره أنه «إذا كانت مصر لاتعرف فروقا قومية ولا لغوية بين أهلها فلم يكن أمام بريطانيا إلا الفروق الدينية تحاول الارتكاز عليها»، ويضيف إلى ذلك أنه على هذا الأساس عمل الاحتلال البريطانى على تكريس ذلك من خلال العديد من الممارسات: تارة بتحفيز الأقباط ضد المسلمين، وتارة بتأليب المسلمين ضد الأقباط، ودوما كانت قضية حماية الأقليات واحدة من القضايا التى عنى الاحتلال على استغلالها خلال سنوات وجوده فى مصر. ومن هنا جاء بند «حماية الأقليات» واحدة من أبرز التحفظات الأربعة التى تضمنها تصريح ٢٨ فبراير فى العام ١٩٢٢، ومن هنا جاء التشدد البريطانى فى استخدام هذا البند من قبل انجلترا لضمان بقاء استمرارها والحفاظ على مصالحها الاقتصادية والسياسية فى مصر (٤) ثم جاءت مرحلة

غرس الكيان الصهيونى واستراتيجية التفتيت والغزو من الداخل. وأضيف من عندى أن مرحلة التسوية مع الكيان الصهيونى تستلزم حتما تفتيت أى تضامن عربى وأيضا تفتيت كل قطر عربى من داخله حتى لاتوجد الجماعة المتماسكة التى يمكن أن تشكل قوة مؤثرة على الحاكم عند اتخاذ القرار. (٥) وأخيرا، وليس آخرا، مرحلة الهيمنة الأمريكية واستراتيجية التوسع والتدخل فى شئون الدول تحت مظلة حقوق الإنسان/ الأقليات. وهنا يلحظ المؤلف أن قضية الدفاع عن اضطهاد المسيحيين فى العالم التى ظهرت في آسيا وأوربا الشرقية والعالم الإسلامى والشرق الأوسط بدأت تأخذ طريقها إلى الصعود بداية من عام ١٩٩٥، وتدرج الاهتمام بهذه القضية من كتابة المقالات وتنظيم اللقاءات الدينية والسياسية وتشكيل اللجان وإصدار الكتب التى تتناول قضية اضطهاد المسيحيين فى العالم، كذلك عقد جلسات استماع فى مجلسى التشريع الأمريكيين النواب والشيوخ، وأخيرا اقتراح قانون باسم التحرر من الاضطهاد الدينى يتضمن فرض عقوبات على الحكومات ورقابتها إذا لم تجر إصلاحات من شأنها تحسين أوضاع المضطهدين، ويتتبع المؤلف أسباب الاهتمام المفاجىء بهذا الموضوع وملابساته ودوافعه ومدى مصداقيته والمحرك الرئيسى له

والمؤلف يوضح تاريخ صدور القانون الأمريكى بشأن حماية الحريات الدينية وكيف أن الحملة بدأت بمقال كتبه يهودى ثم الاستجابة الانجيلية للحملة اليهودية ومن ثم لقاء الأصوليات اليهودية والبروتستانتينية وعن التراث المشترك لليهودية والبروتستانتية وأخيرا ثمار الحملة بصدور هذا القانون.

هموم الأقباط

وبذلك يختتم المؤلف القسمين الأول والثانى من كتابه ليكون القسم الثالث عن القضية الأهم وهى هموم الأقباط وهى لب القصيد من الكتاب كله بأقسامه الثلاث.

فإذا انتقلنا إلى هذا القسم من الكتاب وقد امتلأنا حماسا ورغبة فى المعرفة لهم قبطى هو هم لكل المصريين لوجدنا أن المؤلف يحصر الهم كله فى مسألتين:

الأولى : هى الهموم الدينية المؤسسية مثل بناء الكنائس والأوقاف ويرى المؤلف ـ أو بالأحرى كما قال ـ يتصور أنه يتم فى الإطار المؤسسي والقانونى وتحديدا بين الكنيسة والدولة وأنه قد قطع شوطا فى طريق حل مشكلة الأوقاف من جهة وكذلك قضية بناء الكنائس من جهة أخرى.

أما المسألة الثانية: فهى الاستمرار المتصاعد للممارسات الموجهة ضد الأقباط فكريا وماديا، كما من حيث مرات حدوثها، وكيفا من حيث نوعية وأسلوب تنفيذها على مدى مايقرب من ربع قرن الآن ـــ من الخانكة ١٩٧٢ إلى الكشح١٩٩٩ .

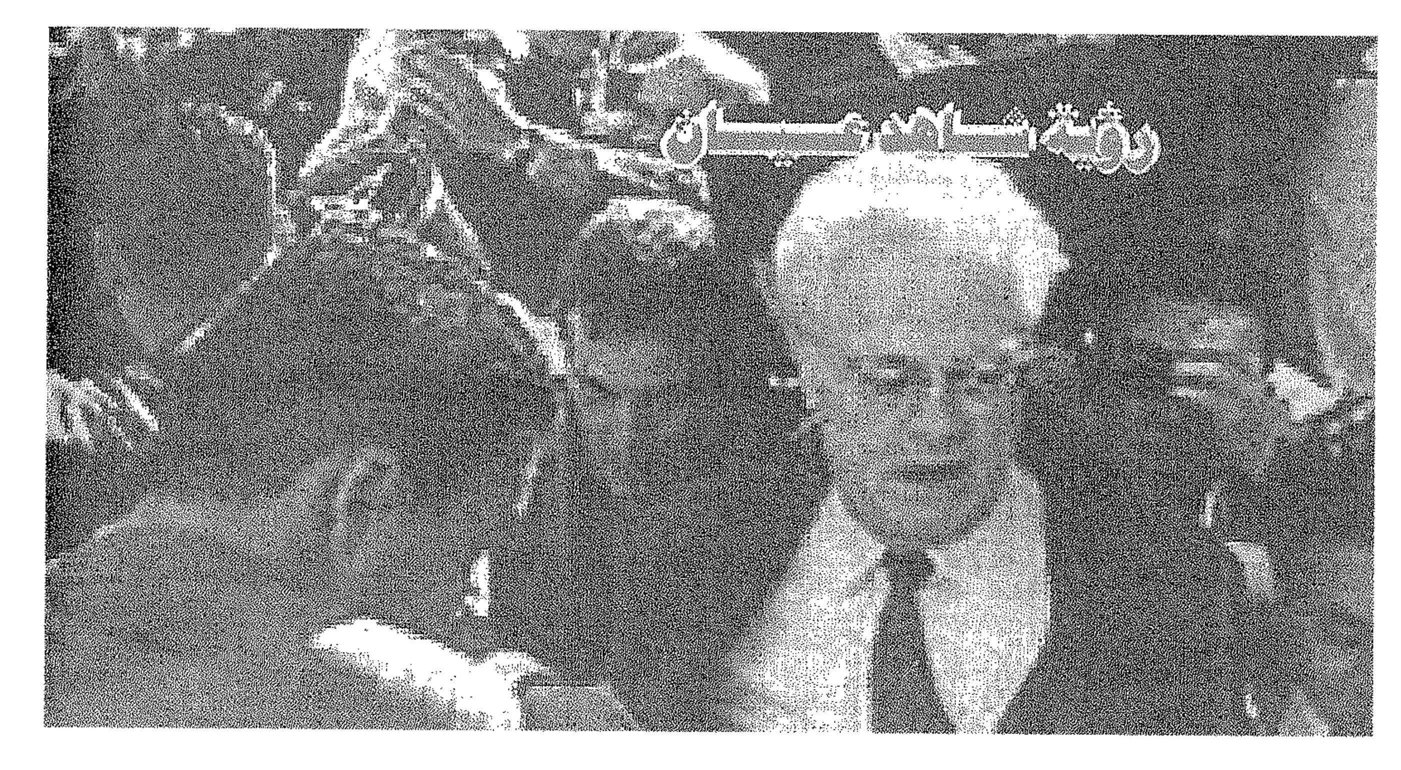
والكاتب يقصد بالطائفية النصوصية والفكرية التعامل مع النصوص وتفسيرها بما يدعم المناخ الطائفى كما يظهر ذلك من القراءة لأدبيات الحركة الإسلامية المعاصرة التى تجعل الاختلاف فى الدنيا مسألة يترتب عليها تفاوتا فى الحقوق والواجبات فى الدنيا وفى الآخرة!.

أما الطائفية العملية فيقصد بها المؤلف عمليات العنف الطائفى التى تمثل فى رأيه النتيجة المنطقية للطائفية النصوصية والفكرية وهى قد وقعت بالفعل.

وفي رأيى أن المشكلة الطائفية أو بالأحرى الهم القبطى إنما هو نتاج مسألتين أساسيتين: الأولى سياسية تخص المصريين جميعا مسلمين وأقباطا وهى مشكلة احتكار السلطة من قبل الفئة الحاكمة من زمان جمال عبدالناصر، فانعدام فرصة مشاركة المواطنين فى إدارة شئون وطنهم والذى يأتى متزامنا مع المشكلة الاقتصادية والاجتماعية لابد أن يولد أزمات يعانى منها الوطن كله والمواطنين جميعا بصرف النظر عن ديانتهم.

أما المسألة الأخرى للهم القبطى فهى في رأيى نتاج إفراط فى الإحساس بالانتماء إلى أقلية، ولم يستطع تجنبه دبلوماسى كبير وشهير تبوأ مكاناً مرموقا دوليا رغم أنه ما تولى هذا المنصب إلا لأنه قبطى مسيحى وهذا الإفراط فى الإحساس بالانتماء إلى أقلية إنما يحجب المسألة الأم والأهم والأكبر وهى أن الأزمة فى حقيقتها سياسية بالدرجة الأولى فى أصولها وجذورها ومنشأها واستمرارها وهى تطال الجميع مسلمين وأقباطاً.

ولايعنى هذا طبعا أنه لاتوجد مسائل تخص الأقباط تحتاج الى علاج حاسم وسريع إنما يعنى أن النظر لهذه المسائل - حتى هذه - لايجب أن يكون طائفيا أبدا وأن العلاج لايجب أن يتوقف عند حل وحسم هذه المسائل الطائفية، بل لابد من أن يتعاون المسلمون والأقباط فى مواجهة السبب الأصلى والأساسى فى نشأة أزمة الطائفية وغيرها من أزمات هى فى رأيى كبيرة وتأثيرها الضار يطال الجميع وهى قضية الديمقراطية وإتاحة الفرصة للمواطن للمشاركة فى حكم وطنه، وعندها يصبح المواطنون جميعا سواء بدلا من تميزهم وتصنيفهم بين مواطن معارض ومواطن مؤيد، ومواطن غنى ومواطن فقير، ومواطن يعيش فى كنف السلطة ومواطن يعيش خارج المدنية «بروليتاريا» ومواطن مسلم ومواطن قبطى ويصبح الجميع سواء فى الحقوق والواجبات، وعندما توضع القواعد لهذه المشاركة وتتحقق فعليا وعندما يصبح المواطنون جميعا - مسلمين وأقباطاً - مواطنين حقا وليس بالاسم ولفظا فسوف تتلاشى كل هموم الوطن وليس هموم الأقباط وحدهم.



جامعة بيرزيت

بقلم :فيصل حورانى *

●●بير زيت اسم له شهرة. فالقرية التى تحمل هذا الاسم واحدة من أجمل قرى الضفة الفلسطينية المحتلة وأكثرها أصالة. والجامعة التى تحمل الاسم ذاته هى أقدم جامعات الضفة، ولعلها أكثرها عراقة أيضاً.

وقد اقترن اسم جامعة بير زيت بمسيرة مواطنى الأرض المحتلة وهم يواجهون الاحتلال الاسرائيلى فى العقود الثلاثة الأخيرة. ووفرت الجامعة لمقاومى الاحتلال سلاحى العلم والثقافة، وأسهمت فى أشكال المواجهة الأخرى، ورفدت المجتمع الفلسطينى بأفواج متعاقبة من خيرة كوادره وقادة مؤسساته الخاصة والعامة ●●

---

* كاتب فلسطينى



المخاطر والتحديات

ولو تتبع المرء نشأة هذه الجامعة وتطورها، فسيضع يده بسهولة على محطات متتالية جسدت محطات تطور الحركة الوطنية الفلسطينية منذ تأسيس منظمة التحرير ، وعكست أمجد ما فيها وأكثره أصالة وأشده فاعلية.

والدور الذى لعبته بير زيت لا يمكن استيفاء الحديث عنه، لا فى مقال واحد ولا فى مقالات عدّة. وفى هذا الدور صفحات مازال من غير الممكن كشفها وإذاعة أسرارها. وقد ينقضى وقت طويل قبل أن يصير هذا ممكنا، وللإنسان أن يتصور حجم الجهود التى بذلت كى تتحول مدرسة ثانوية خاصة فى قرية إلى كلية متوسطة يدرس الطالب فيها سنتين، ثم كى تصير الكلية المتوسطة كلية عامة، ثم كى تفرّخ الكلية الواحدة كليات يدرس الطلاب فيها العلوم الطبيعية والإنسانية والآداب واللغات، وتتوفر فيها فرص الدراسات العليا.

ولئن كان صحيحاً أن فى العالم جامعات تطورت فى النحو ذاته، فمن الصحيح أيضاً أن جامعة بير زيت شقّت طريقها بثبات فى ظل احتلال قاس وبغيض هو الاحتلال الاسرائيلى الذى يغتصب الأرض كما يغتصب حقوق سكانها ، ويحاول أن ينفى الإنسان د[illegible] بمحاولته حجب العلم والثقافة الجديدين عن ضحاياه وتدمير الموروث منهما.

المخاطر

أما صورة جامعة بير زيت الآن فهى التى يتركز عليها هذا الحديث: صورة المنجزات المتحققة والمخاطر التى تهدد هذه المنجزات. وما حفزنى على الحديث هو الحدث الذى اقترن بزيارة رئيس وزراء فرنسا للجامعة واندياحاته فى دنيا العرب.

هنا، ينبغي الإقرار بأنى لا أتوخى تقديم دراسة محايدة، موجزة أو مفصلة، بل تقديم شهادة لا أنكر أنى أدلى بها من موقع المفتون بما عانيته وسبرت أغواره بنفسي، بعد أن بقيت لمدة طويلة مطلاً من الخارج على مجرى تطور الجامعة، من خلال عضويتي في المجلس الفلسطيني الأعلى للتربية والثقافة والعلوم الذى أنشيء في الخارج. وللقارىء أن يعلم أنى أتعمد زيارة هذه الجامعة كلما تيسر ذلك منذ رجعت إلى الوطن أواخر العام ١٩٩٥. ولهذا فإني كثيراً ما أزور هذا الصرح حريصاً على إشادة أوسع العلاقات مع طلابه وأساتذته. وأنا أزور هذه الجامعة خصوصاً كلما أثقلت عليَّ ظلمات الواقع المحيط، أجيء إلى باحة ضوء لأغتسل بنورها، وأستروح شذىً عطراً يصمد بثبات وسط ما يزكم الأنوف، أتمعن في الحاضر واستشرف مستقبلاً تكتنفه الهواجس، واستقصي كفاح الطلاب والأساتذة والإدارة لإطفاء هذه الهواجس، وأحيي شعلة الأمل، وأعزز الثقة بأن الشعب الفلسطيني مازال بخير بالرغم من تعاقب الكوارث.

لا أحب جوسبان!

وفى زيارتى الأخيرة للجامعة، وجدتنى بالمصادفة وسط اللجة التى شهدت احتجاجات الطلاب على التصريحات التى أدلى بها رئيس وزراء فرنسا فمسّ مشاعر العرب. أعترف بأنى لا أحب ليونيل جوسبان، وغنى عن البيان أن تصريحاته الممالئة لإسرائيل قد استفزتنى كما استفزت غيرى، فقد عشت فى بلاد الغرب قرابة عقدين حتى الآن، وعرفت أن ممالئى اسرائيل فيها كثيرون. لكن عدد - الذين ينكرون حتى من بين هؤلاء أن جنوب لبنان أرض محتلة ويتنكرون لحق اللبنانين فى مقاومة الاحتلال - قليل. وإذا كان جوسبان قد أهان المناضلين من أجل الحرية، فقد تنكر أيضا لسياسة فرنسا المعلنة. وبز، وهو الموصوف باليسارى، يمينيى بلاده أنفسهم فى التودد للأوساط الصهيونية. لقد حك جوسبان أنوف الشعب الرازح تحت أبغض احتلال، حكها بفظاظة لا نظير لها فى سلوك أى سياسى فرنسى معتبر، فبلغ احساسى بالاستفزاز الذروة وتمنيت أن يتلقى المستفز الرد الذى يستحقه.

وعندما حضرت إلى الجامعة فى الصباح لإلقاء محاضرات فى بعض صفوفها، أبهجنى مشهد طلابها الذين احتشدوا فى باحتها الرئيسية، وقد تهيأوا للاحتجاج على تصريحات الرجل القادم لإلقاء محاضرة فى كلية الحقوق فى جامعتهم. وكان هذا مشهدا ذكرنى بأيام الفتوة والشباب، أيام الخمسينات الأخيرة والستينات الأولى حين كان الجمهور العربى، وأخصه الطلاب، يبادر إلى رفع الصوت ضد أى استفزاز، يستوى فى هذا ان تكون سلطات بلده ثائرة أو خائرة.

فى الصباح الذى أتحدث عنه، احتشد طلاب جامعة بير زيت فى تظاهرة انتظمت بأحلى ما يكون عليه النظام، جمعتهم الغيرة على مصالح وطنهم والرغبة فى الانتصار للمناضلين اللبنانيين من أجل الحرية. وقد نسق الطلاب نشاطات احتجاجهم مع إدارة الجامعة، ناقشوا مع مسئولى الجامعة ما يجوز عمله وما لا يجوز، واستمعوا إلى عميد شئون الطلاب، والتزموا بما اتفقوا عليه كى يجئ الاحتجاج سلميا كأرقى ما يكون عليه سلوك طلاب جامعة عريقة.

هنا، ينبغى للقارئ أن يعلم أن جامعة بير زيت أرست تقاليد راسخة، تقاليد حضارية ترسم مساهمة طلابها واساتذتها فى العمل العام. وقد انطلقت هذه صالتقاليد من إيمان الجميع بالتعددية الفكرية والسياسية وحق التعبير عن المواقف بحرية. وفى الجامعة

مجلس طلبة ينتخبه طلابها دوريا، ويجرى انتخابه بكامل الحرية، فيتمتع كل تيار فكرى أو سياسى بحق ممارسة الدعاية لبرنامجه واجتذاب الأنصار دون تدخل من أحد. ولهذا ، فإن مجلس طلبة الجامعة يجسد ميزان القوى وعلاقاتها بأمانة. وتصدر قرارات المجلس بالأغلبية حين يتعذر الإجماع. وتلتزم الأقلية قرار الأغلبية. وتجرى النشاطات المشتركة بسلاسة ميزت هذه الجامعة وعززت دورها وشهرتها حتى أصبحت صرحا من صروح الديمقراطية. وفى الجامعة إذاعة داخلية يشرف عليها مجلس الطلبة وتتوافر فيها الفرص للحوارات متعددة الأغراض. ولكل طرف ممثل فى مجلس الطلبة الحق فى بث ما شاء من أفكار ودعوات ودعايات. ولكل طرف حصة من وقت الإذاعة تعادل حصته فى مجلس الطلبة.

أجواء مشحونة بالتوتر

وصل موكب رئيس الوزراء الزائر متأخرا أكثر من ساعة عن موعد وصوله المقرر، وأخرته حاجة المضيفين إلى التيقن من تمام الاستعدادات . وكان الموكب قد اجتاز قبل وصوله نوعين من نقاط المراقبة على الطريق المفضى من مدينة رام الله المجاورة إلى المدينة الجامعية. فقد أقامت الشرطة الفلسطينية نقاط مراقبتها فى حدود رام الله ، أى فى المنطقة (أ) التى لا يحق لها الوجود فى غيرها، وأقام الجيش الاسرائيلى نقاطه فى المنطقة (ب) التى يتمتع فيها بالسيطرة الأمنية وحده، وهى المنطقة الممتدة بين مشارف رام الله والجامعة. والجدير بالذكر أن بير زيت وجامعتها واقعتان كلتاهما فى المنطقة (ب) حيث لا سلطة أمنية للفلسطينيين، وأن إدارة الجامعة دأبت على منع أفراد الأمن الإسرائيلى من دخول الجامعة، وأن طلاب الجامعة دأبوا على مناوأة قوات الأمن الاسرائيلية بالحجارة كلما جرؤت على الاقتراب من حرم جامعتهم. وقد ألف الإسرائيليون أن يقيموا مراكز مراقبتهم بعيدا عن مرمى حجارة الطلاب الساخطين. وهذا ما فعلوه يوم زيارة الفرنسى للجامعة .

وصل موكب الزائر، إذاً ، فى أجواء مشحونة بالتوتر، التوتر الذى أهاجته تصريحات جوسبان الاستفزازية ، والتوتر الذى أججته استفزازات نقاط المراقبة واضطرار الطلاب إلى اجتيازها والولوج إلى الجامعة عبر البنادق المشرعة والعيون المستريبة . وبالرغم من هذا التوتر ، استقبل حشد الطلاب زائر الجامعة المبغوض بأهدأ ما يسمح به المقام: يفط من شتى الحجوم كتبت عليها الشعارات التى تعبر عن مواقف المحتجين، وهتافات منتظمة تعكس السخط الذى يتفاعل فى النفوس. وقد أبقى حشد الطلاب ممرا سالكا عبره الزائر ومرافقوه الرسميون ومستقبلوه وحراسه، دون أن يتعرض أى طالب لأى من هؤلاء بأى أذى أو يعرقل حركة الجماعة الكبيرة التى يتصدرها الزائر .

لقد شهدت دخول الجماعة بأم عينى ، واشتد افتتانى بسلوك الطلاب، بضبطهم لمشاعرهم المستثارة، بإيقاع الاحتجاج الذى يجانس بين قوة التعبير وتحضره، بانتظام صفوف الحشد دون تزاحم أو تدافع، بالاحترام الذى أظهره الطلاب للطالبات المشتركات فى الحشد.

عناد غريب!

وبعد هذا الاستقبال ، وصل جوسبان إلى القاعة التى جاء ليلقى فيها محاضرته الموعودة. وكان أساتذة الجامعة والمدعوون من خارجها فى الانتظار . وأمكن لعدد من الطلاب الوقوع على مكان يستمع فيه إلى الزائر، فيما بقى معظم المحتجين فى الباحة.

وقد تولى نفر من أبرز المختصين الفلسطينيين بالشئون التى تطرقت لها تصريحات جوسبان مناقشته . وتناوب عدد من الأساتذة تفنيد ما انطوت عليه التصريحات وحاجوا الضيف بكفاءة عالية. ولو تمتع جوسبان فى هذا الموقف بالحصافة التى يفترض أن يتمتع بها رئيس وزراء فرنسا، لاغتنم الفرصة فتراجع عن مغالطاته التى استُنكرت فى فرنسا ذاتها بمقدار ما استُنكرت فى دنيا العرب. ولو تيسر للمستفز حصافة أكثر لقدم اعتذارا عن تصريحاته المنكرة والمستنكرة. إلا أن الرجل تشبث بممالأته لاسرائيل ، وتحدث بصلف بغيض ولم يراعِ مشاعر مضيفيه ولم يلن أمام حججهم الدامغة.

المحاضرة والمناقشات شهدها الطلاب المحتشدون فى الباحة عبر شاشة نقلت لهم وقائعها، فشهدوا الصراع بين موقف المدافعين عن حق المحتلة أرضهم فى مقاومة الجيش الاسرائيلى، وبين صلف الفرنسى الزائر الذى أصر على احتساب المناضلين اللبنانيين من أجل الحرية في عداد الإرهابيين . فكان من الطبيعى ، إذاً، أن تفور المشاعر ازاء هذا الصلف زيادة على ما هى فائرة. ويبدو أن مرافقى رئيس الوزراء الفلسطينيين قد هجسوا بما يمكن ان ينجم من فورة المشاعر فنصحوا ضيفهم بالخروج من باب غير الذى دخل منه ليجنبوه مواجهة الحشد الذى اشتد سخطه . لكن جوسبان أبى الاستجابة للنصيحة وأصر على أن يغادر من حيث دخل، أى وسط الحشد.

هل ظن رئيس وزراء فرنسا أن إمعانه فى الصلف والمغالطات سوف يمر دون أن يتلقى ما يستحقه؟ هل استهان الرجل بمشاعر الساخطين ما داموا من ناس العالم الثالث، كما يفعل أى عنصرى متكبر؟ أم أن ممالئ اسرائيل هذا قرر مواصلة التحدى وفى ظنه أنه سيتقاضى ثمنا أعلى فى الأوساط الاسرائيلية والصهيونية؟ أسئلة ترد كلها فى البال. والحقيقة أن جوسبان أقبل ثانية على الحشد كأن شيئا لم يكن. والحقيقة أيضا أن أغلبية الطلاب الغالبة تلقت جوسبان فى إطلالته الثانية بما تلقته به فى الأولى: اليفط، والهتافات وتعبيراتها الفصيحة . غير أن واحدا من المحتشدين، واحدا لم تكشف التحقيقات من هو، ألقى ناحية جوسبان حفنة حصى، فلم يلبث أن اهتاج آخرون فرموا ناحية الزائر ما فى متناولهم، ولم يكن فى المتناول إلا الحجارة. وبالرغم من أن أجهزة الإعلام لم تبث من مشاهد الاحتجاج التى دامت بضع ساعات إلا مشهد رمى الحجارة هذا الذى استغرق بضع دقائق ، فقد بقى واضحا حتى فى هذا المشهد أن عدد الذين رموا حجارة يشكل أقلية قليلة من المحتشدين. وهى أقلية لم يلغِ سلوكها الخارج على المتفق عليه حقيقة الاحتجاج الراقى الذى مارسته الأغلبية الساحقة.

لقد مثل المحتشدون قطاعات الطلاب كلها والأطراف السياسية كلها: «فتح» والأحزاب المتحالفة معها في السلطة وأحزاب المعارضة والمستقلين . ولم يغب عن الساحة إلا الطلاب المنتمون لـ «حماس» . ذلك أن ممثلى «حماس» فى مجلس الطلبة قرروا مقاطعة الحشد لأسباب تخص حركتهم على ما يبدو. والحقيقة الأخرى أن ممثلى القطاعات كافة لم يجيزوا استخدام الحجارة ، وقد رأيتهم بنفسى وهم يجهدون أنفسهم لثنى القلة القليلة عن استخدامها ، ويحاولون حماية الزائر من أذاها، حتى وهم يعتقدون أنه يستحق أشد عقاب. وأظن أن الزائر الذى كان فى متناول المحتشدين ما كان لينجو بجلده لو لم تحتفظ الأغلبية بالسيطرة على المشاعر المهتاجة وتوفر للزائر فرصة النجاة.

بعدها، تعجل بعض الناطقين باسم السلطة الفلسطينية الإدلاء بتصريحات غاضبة على الطلاب . وأطلق هذا البعض التهديدات والاتهامات حتى قبل أن ينتظم التحقيق، وفى هذا السياق ، تعرض قرابة مائة وثلاثين طالبا للاعتقال ، وجرت بعض الاعتقالات بفظاظة . وتعرضت بعض مباني الجامعة فى الليل لتفتيش متعجل لم تعلن أى جهة أنها هى التى قامت به . لكن معظم المعتقلين أفرج عنهم فى الأيام الثلاثة الأولى ، ولم يبق منهم إلا بضعة وثلاثون طالبا . ولو افترضنا أن هؤلاء كلهم رموا حجارة حقا ، ففى هذا وحده ما يظهر ضآلة نسبة الطلاب الذين خالفوا الإجماع ولجأوا إلى هذا اللون من العنف.

وضع جديد

باعتقال طلاب والتهديد بتحويلهم إلى محكمة الأمن القومى وفصلهم من الجامعة، نشأ وضع جديد، والواقع أن التهديدات والتدابير الفظة مسّت مشاعر الجميع : إدارة الجامعة واساتذتها وطلابها وجمهور المواطنين. وازاء هذا الوضع، أظهرت تقاليد جامعة بير زيت العريقة متانتها . فمع تخطيء لجوء بعض الطلاب الى العنف ، اتحد الطلاب والاساتذة والإدارة فى الدفاع عن استقلال الجامعة وحرية ناسها فى التعبير، كما اتحدوا فى حمايتها ضد التدخل الخارجي فى شئونها، وحظيت الجامعة بمساندة الجمهور ، وانتظمت النشاطات : المظاهرات والاعتصامات داخل الجامعة وأعمال المساندة من خارجها . وتحددت المطالب : معالجة ما جرى داخل الجامعة من قبل هيئاتها وحدها ووفق أنظمتها وحدها ، والافراج عن المعتقلين، وسحب التهديد بإحالتهم الى محكمة أمن الدولة .

وقد علقت الدراسة فى الجامعة إلى أن تتم الاستجابة للمطالب ، علّقها قراران متجانسان صدرا عن مجلس أمناء الجامعة ومجلس طلبتها .

وفى المحصلة ، تحققت هذه المطالب بعد أن زار رئيس السلطة الفلسطينية الجامعة، وحاور العاملين فيها والأساتذة والطلاب . وبهذا ، اجتازت جامعة بير زيت مرة أخرى عنق زجاجة أدخلها فيه حادث طارىء .

وما كان لردود الفعل المستهينة بأنظمة الجامعة والقانون العام أن تبرز بالحجم الذى برزت به، لولا وجود نوايا مسبقة يتطلع مضمروها إلى تطويع الجامعة العريقة وادخالها فى السياق الذى يقضى على تميزها واستقلالها . ولئن كسبت الجامعة جولة وكسب كل ديمقراطى الجولة ذاتها ، فمن المؤكد عليه أن هذه الجولة لن تكون الأخيرة فى النزاع بين الديمقراطيين وخصومهم . ومما لاشك فيه أن الاخطار التى تهددت الجامعة منذ نشأتها وتفاقمت مع وجود الاحتلال الاسرائيلى لم تخلِ الساحة . والقوى التى يسوؤها وجود بؤر الضوء لم تلق أسلحتها ولن يرضيها أن تتأسس صروح يزدهر فيها العلم والثقافة الراقية بحرية وفى معزل عن سطوتها.

ومازال على الديمقراطيين فى أى مكان ، أيا كانت مشاربهم واجتهاداتهم ، أن يفعلوا الكثير لدعم الجامعة ، لصيانة بؤرة الضوء وتمكينها من بث ألقها دون توقف. ومن شأن القارئ أن يعلم أن الجامعة تعانى شح الموارد المالية والضغوط متعددة المصادر. وقد أثبتت الجولة الأخيرة أن مساندة الجمهور الفلسطيني والعربى عموما هى الوعاء الذى يصون هذه الجامعة ويساعدها فى متابعة دورها العلمى والثقافى والوطنى .

ومما لاشك فيه أن المساندة اللازمة لجامعة بير زيت ينبغى أن ترتقى إلى مستوى المخاطر والتحديات التي تواجهها، وما أشدّ هذه المخاطر والتحديات ! ●



للدكتور عبد الرحمن بدوى

بقلم : حسين أحمد أمين





«ما أعظمه من فيلسوف!» هكذا صاح كانديد فى رواية فولتير بعد زيارته مع أستاذه دكتور بانجلوس لأحد مشاهير المفكرين «ما من شيء يعجبه. ما من شخص عنده هو خليق بالاحترام».

فيجيبه دكتور بانجلوس بقوله:

«لا يا صديقى.. أقوى المعدات ما تهضم كل ما دخل إليها من طعام، لا ما تلفظ كل لقمة تصلها».

وهى إجابة ظلت تدوّى فى خاطرى طوال قراءتى لهذا الكتاب الجديد للدكتور عبدالرحمن بدوى.

فإن كان الدكتور طه حسين قد وصف المؤلف عام ١٩٤٤ بأنه أول فيلسوف مصرى، فإن خلاصة الانطباع الذى خرجت به بعد الفراغ من قراءة هذه السيرة الذاتية هى: «إن كانت ثمرة تكريس الحياة الطويلة لدراسة الفلسفة، والتعبد فى محرابها، والعزوف عن الزواج وعن معاشرة الناس وتعهد الصداقات من أجل التفرغ الكامل لها، هى الوصول إلى مثل هذه الحالة الكئيبة البائسة التى تبدو عليها شخصية الدكتور بدوى فى كتابه. فبعدا للفلسفة أى بعد ، ولعنة الله على من أولاها اهتماما، أو نظر بعد اليوم فى كتاب فيها!».

لا أنكر ، ولا يستطيع مثقف من أبناء جيلى أن ينكر، فضل بدوى على تكويننا الذهنى فى صبانا. فالكثير من الكتب التى ألفها أو ترجمها ، والتى جاوز عددها الآن المائة والعشرين ، قد دخل نسيج هذا التكوين، ألممنا منها لأول مرة بفلسفات نيتشه وشوبنهاور وشيلينج وكانت وشبنجلر وأرسطو وأفلاطون، ودفعتنا دفعا إلى التزيد من الإطلاع على هذه الفلسفات، وكانت قراءتنا الأولى لأسفار تشيلد هارولد لبايرون، و«الأنساب المختارة» لجوته، و«أندين» لفوكيه، ومسرحيات لوركا، هى فى ترجمة عبدالرحمن بدوى العربية لها.. كذلك فإنه ما من أحد منا بوسعه أن ينكر أن الرجل خدم الثقافة العربية كما لم يخدمها غير القليلين من أئمة التنوير فى وطننا، وأنه - بأحد معانى الثقافة والعلم - أوسع معاصريه ثقافة وعلما، وأكثرهم إحاطة باللغات الأجنبية، وأعظمهم إلماما بالتراث الغربى والتراث العربى على سواء، يسبح فى كليهما كالسمكة داخل الماء، ويتحدث ويكتب عن أيهما حديث العالم النحرير وكتابته.

كتاب مثير للجدل

ثم ها نحن نفرغ من قراءة سيرته الذاتية فنتساءل: ما محصلة أو جدوى كل ما أفاده من ذاك العلم الواسع العريض؟



هل جعله رجلا أفضل أو أسعد ؟ هل زاد من إنسانيته ورهافة حسه ومشاعره ؟ هل عززت الفلسفة من وقاره وثباته أمام تقلبات الدهر؟ هل جعلته أكثر تقبلا للحياة وتفهما لنقائص البشر حوله؟.. إنه كتاب لا يمكن للقارىء أن يخرج من قراءته وقد شعر بأنه بات بفضله إنساناً أفضل، على نحو ما نشعر به بعد قراءة «اعتراف» تولستوى أو «مذكرات ثورى» لبيوتر كروبوتكين، أو «عالم داخل عالم» لستيبان سبندر.. أو كيف يمكن ان يتسنى له ذلك بعد أن أمضى الساعات الطوال يسبح فى لجة الحقد والضغينة، والكراهية والمرارة والشكوى، والتحقير والتخوين والازدراء، والتسفيه وتلطيخ السمعة، مما تطفح به كل فقرة تقريبا من فقرات الكتاب؟.. قد نحاول التماس العذر له وإرجاع هذا وغيره من نقائص الكتاب إلى تقدم الرجل فى السن فهو وقت نشر هذا الكتاب قد بلغ الثالثة والثمانين «مد الله فى حياته ونفعنا به» . غير أن الواضح المؤكد من الشواهد الداخلية بالكتاب أنه كتب على فترات متقطعة، وأن جانبا كبيرا من المجلد الأول ألفه منذ نحو عشرين عاما حين كان فى نحو الثالثة والستين، وأن معظم المجلد الثانى كتب فى عام ١٩٨٨، أى حين كان المؤلف فى الحادية والسبعين.

فالإيغال فى الشيخوخة إذن ليس السبب فيما يعتور هذه السيرة الذاتية من مثالب، أو فيما يسود الكتاب كله من خلل رهيب فى بنائه الفنى. إذ ما يكاد القارىء ينغمس فى متابعة الأحداث، حتى يعترض طريقه حشد من الاستطرادات الطويلة المملة التى لا طائل من ورائها ، ولا هى تزيد من فهمه لعقلية هذا الرجل فهو إن وصل إلى ميونيخ ليقيم بها شهرا وبعض شهر أسهب فى الحديث عن الأهمية السياسية والعلمية والفنية للمدينة. وإن هو زار بيروجيا حدثنا عن موقعها الجغرافى، وتاريخها السياسى، وأهم معالمها ، وزودنا بقائمة بعناوين المحاضرات العامة التى حضرها. وبصفحتين عن موسم الموسيقى المقدسة فيها. ثم ها هو يزور مدينة البندقية ليوم واحد فحسب عام ١٩٣٧ . ثم ليومين اثنين عام ١٩٤٦ فيرى ضرورة لأن يذكر لنا أهم مبانيها وكنائسها، ومن اشتهر من أدبائها ومفكريها وعلمائها وفنانيها، وطوائف رهبانها وأشهر مكتباتها، وأبرز ما تحتويه متاحفها من لوحات فنية.. فإن سافر بعد ذلك إلى برن، تحدث عن الشخصيات المصرية والعربية

التى أقامت فى جنيف فى الفترة ما بين الحربين العالميتين، ثم ها هو الحديث عن الحياة السياسية فى سويسرا يستغرق خمسا وعشرين صفحة، وعن تاريخ كنيسة نوتردام فى باريس نحو خمس صفحات، وعن العطلات التى قضاها فى هولندا سبعا وثلاثين صفحة . وعن الأحوال السياسية فى ليبيا ومختلف القبائل واللهجات والطرق الصوفية فيها اثنتين وستين صفحة، وعن التاريخ السياسى لإيران بدءا بمولد مؤسس الأسرة الصفوية عام ١٤٨٧ وحتى اليوم مائة صفحة بالتمام والكمال «اى والله!»، وعن الفارق بين نظام الحكم الرئاسى ونظام الحكم البرلمانى إحدى عشرة صفحة، وعن محتويات متحف الأورانجرى بباريس أربع صفحات، وعن تاريخ أسبانيا ومشاهير كتابها ثمانى عشرة صفحة .. ليس هذا فحسب، وإنما هو يرى داعيا لأن يتحفنا بقوائم مفصلة عن التقارير التى كتبها أثناء عمله مستشارا ثقافيا فى برن. والمحاضرات التى ألقاها . والمؤتمرات التى حضرها، والمعارض الفنية التى زارها، وهو يورد قائمة بأسماء أربعة وستين شخصا تولوا منصب «مرجع التقليد» فى إيران، ونموذجا مسهبا لفصول من تمثيليات التعزية هناك، ويخصص اثنتى عشرة صفحة للحديث عن المتصوف الإيرانى روزبهان البقلى الشيرازى «١١٢٨ ـ ١٢٠٩ م»، ملخصا لكتبه، ومعددا لاثنين وثلاثين فصلا يحتويها كتابه «عبهر العاشقين».

الحقد والحقود

غير أنى أكتفى بهذا القدر الضئيل من بين مئات الاستطرادات التى حشا بها كتابه حتى يبلغ به حجما يضمن له عائدا ماليا ضخما، لأنتقل إلى نقطة أخرى سوداء فى الكتاب «وإن لم تكن أكثر النقاط سوادا.»، وأعنى بها تناوله لأهل زمانه «وغير زمانه أيضا» بالأوصاف والنعوت، مع ملاحظة أن أكثر الكلمات ترددا فى الكتاب هما كلمتا «الحقد» و«الحقود» ، وهو ما قد يرى فيه علماء النفس ضربا من ضروب الإسقاط.

فالإسكندر الأكبر «جبار طاغية مخّرب، مذل للعروش والدول » والشيخ محمد عبده «مصلح دينى مزعوم، متواطىء مع الاستعمار البريطانى» وشيوخ الأزهر عامة «هم بطبعهم طماعون حاقدون يأكل الحسد قلوبهم، وفى سبيل نيل أى منصب ذى شأن لا يتورعون عن استخدام أخس الوسائل، من وقيعة ودسّ ووشاية واختراع الاكاذيب» وسعد زغلول «تاريخه تاريخ شائن ينضح بالخيانة والوصولية وممالأة الانجليز المحتلين» ومصطفى فهمى باشا «عميل للإنجليز موغل فى الخيانة» ـ ومصطفى النحاس «ابله معتوه ، يرتكب المحسوبيات

الصارخة والمظالم البشعة» ـ وجمال عبدالناصر «كان لا يقدم الا على ما يكفل له الشهرة والدوى حتى لو جرّ على مصر الخراب » وثورة يوليو «اكبر كارثة عانتها مصر منذ الفتح العثمانى عام ١٥١٧» والدكتور محمود فوزى «رجل معتوه جهول لا يدرى فى السياسة شيئا عيى غبى، لا يستطيع ان ينطق بحجة، فضلا عن صوته الذى كان يموء به مواء القط المخنوق» ومحمد حسين هيكل باشا «رجل ضعيف الشوكة، مفكك الشخصية والإرادة» ـ والسعديون «وصوليون لا يستندون إلى أية مبادىء وطنية، بل يجمعهم الطمع فى الحكم، وما يجره عليهم من منافع» والشيوعيون المصريون «استولوا عام ١٩٦٤ على كل أدوات الاعلام، وراحوا يتوزعون فيما بينهم رئاسة تحرير الصحف ، والهيئة العامة للكتاب، وإدارة المسارح وقطاع السينما والاذاعة، بل وزعوا مكافآت للتأليف والترجمة على أنفسهم عن كتب لم يشرعوا فيها ولن يشرعوا أبدا» واحمد حسين «طائش أحمق، عنيد مستبد الرأى، ضيق التفكير، مندفع انفعالى، جرّ على حزب مصر الفتاة الدمار».

فماذا عن الكتّاب وأساتذة الجامعات؟

طه حسين «كان يبلغ رجال البوليس عن زعماء الطلبة المعارضين للحكومة فى كلية الآداب، مستعينا فى ذلك ببعض الجواسيس المتزلفين إليه من الطلاب» ـ وعباس العقاد «سليط اللسان، كان طول حياته مأجورا لحزب من الأحزاب، للوفد حتى عام ١٩٣٥، ولخصوم الوفد حتى ١٩٣٨، وللسعديين حتى ١٩٥٠، ومأجوراً لبريطانيا طوال مدة الحرب على الاقل» وأحمد أمين «حقود صفيق ضيق الأفق، تأكل الغيرة قلبه من كل متفوق، لم يصل إلى منصبه بالعلم، بل بالصلات مع من فى الحكم» ـ حسن ابراهيم حسن «وصل إلى العمادة بفضل علاقاته الحزبية الدنيئة»ـ عبد الوهاب عزام «دجال دينى وسياسى أبعد ما يكون عن البحث العلمي» ـ احمد بهاء الدين. «شيوعى قح يتلون بألوان مختلفة بحسب الظروف» عبدالرحمن الشرقاوى «متعدد الأطوار يدور من اليمين إلى اليسار. ويجمع بين عمامة الإسلام وكاسكيت الشيوعيين» أحمد صدقى الدجانى «مأجور متزلف، مرتزق وصولى» محمد الطالبى «الكاتب التونسى أحمق جاهل» فؤاد البستانى «هذا الأفعوان الهرم الخبيث» ـ قسطنطين زريق ـ «هذا المسيحى المتجر بالعروبة والمكّن للمسيحية فى الجامعة الأمريكية ببيروت» نجيب محفوظ «يلهث وراء الشيوعيين ويدعو الناس الى قراءة ماركسية لقصصه ، زاعما أنها قصص رمزية تقوم على الصراع الطبقى» توفيق

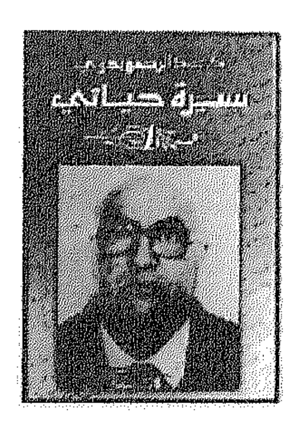
الحكيم «أرسلته اخبار اليوم عام ١٩٤٩ على نفقتها الكاملة إلى باريس ليوافيها بمقالات عنها. فبعث بمقالات هزيلة سمجة تدل على جهله التام بباريس، وأنا أعجب لهذا الرجل ذى التصرفات الصبيانية»» - على إبراهيم باشا (عميد كلية الطب) «وقح جبان، انتهازى لا مبدأ له ، يأكل على كل الموائد - كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول «عش للأفاعى. وموئل للمنافقين. ومرتع خصب للجهال والدساسين»، زكى نجيب محمود «لم يدرس الفلسفة دراسة منتظمة فى معهد علمى، ولم يكن له من الانتاج إلاّ مقالات مستواها لا يزيد على مستوى طالب فى المرحلة الاعدادية» - عبدالعزيز السيد «وزير التعليم العالى» «جاهل مهرج لا مؤهل له عند صاحب السلطان إلا سرد النكت والفكاهات»، إسماعيل غانم « عميل جهاز المخابرات . يتولى كتابة التقارير السياسية ضد أعضاء هيئة التدريس بالجامعة، فعين وزيرا للثقافة ثم مديرا لجامعة عين شمس مكافأة له على هذه الأعمال الخسيسة الدنيئة».

ثم البابا يوحنا بولس الثانى. «هذا البابا الرحالة، السندباد الجوى! الذى جعل الموضوع الرئيسى فى نشاطه البابوى ومواعظه الرعوية هو مسألة وسائل منع الحمل!».

ملاحظات غريبة!

وأتجاوز بعد ذلك عما قاله عن العشرات من الأسماء الأخرى، مثل : برنارد لويس، وسير هاملتون جيب، وفرانتس روزنتال، ولوى جارديه، وجان بول سارتر. ويوجين يونسكو. وناتالى ساروت، وريمون آرون. ورياض الصلح، ومراد غالب،وعبدالسلام فهمى جمعة. وأحمد فؤاد الأهوانى. ورجال الدين الإسلامى والمسيحى، والملاحق العسكريين المصريين ومديرى مكاتب البعثات المصرية فى الخارج، لأورد الآن ملاحظة تسرى على مواقفه من الكافة: هى أن الشريرين الحقودين ، الكذابين الدساسين، الأفاقين المأجورين. الدجالين الوصوليين المعتوهين، والجهلاء الأغبياء الأدعياء، السفهاء العملاء، هم عنده كل من وقف فى طريق ترقية له، أو لم يجدد له إعارة فى الخارج، أو لم يعجبه كتاب ألفه. أو عاب على ترجمة له. أو لم يحتف به الاحتفاء الواجب، وأن الأفاضل الجديرين بالود والاحترام فى كل هذه الحياة الدنيا وعددهم لا يتجاوز عدد أصابع اليدين. هم:

١ - الشيخ مصطفى عبدالرازق الذى شمل بدوى برعايته منذ التحاقه بالجامعة، والذى لجأ إليه بدوى وهو طالب بالسنة الأول فى كلية الآداب يطلب منه تأييد طلبه مجانية التعليم بدعوى تفوقه، فساعده على



تحقيق بغيته ، رغم معارضة العميد الشرير منصور فهمي. بحجة أن والد بدوى من الأثرياء.

٢ ـ الدكتور طه حسين «رغم ما سبق أن أوردناه من وصف بدوى له» لأنه أرسله وهو طالب فى رحلة صيفية إلى ألمانيا وإيطاليا، ولأنه أيّد تسجيله لرسالة الماجستير فى وجه معارضة العميد الحقود أحمد أمين.

٣ ـ أحمد نجيب هاشم وزير التربية والتعليم، «وهو رجل يتحلّى بالنزاهة ونبالة الأخلاق وحسن التقدير» ، الذى وافق على ترقية بدوى الى درجة أستاذ ذى كرسى.

٤ ـ السفير محمد التابعى سفير مصر فى إيطاليا «الذى أفاض علىّ أثناء إقامتى فى روما من كرمه وسماحة خلقه وحرارة استقباله ما ضاعف من سعادتى».

٥ ـ محمد حسن الزيات وزير الخارجية الذى توسّط لدى السادات عام ١٩٧٣ من أجل العمل على إطلاقه سراحه من معتقله فى ليبيا.

٦ ـ أحمد حسن الفقى «ذلك السفير المصرى الممتاز فى الهند الذى سعى سعيا مشكورا لدى وزارة الثقافة الهندية حتى ترسلنى على نفقتها فى جولة من المحاضرات فى أربع جامعات هندية كبيرة، والذى تعرفت بفضل كرمه ـ وهو امر نادر جدا بين السفراء المصريين ـ إلى نائب رئيس جمهورية الهند فى حفلة عشاء أقامها السفير فى السفارة».. قارن بين هذا التصرف للسفير الفقى وبين تصرف الأساتذة الإنجليز اللصوص بجامعة كمبريدج التى شارك بدوى فى إحدى ندواتها، «إذ أجبرونى على دفع أجر الإقامة لستة أيام، مع أنى لم أقم إلاّ خمسة!».

وتتراوح مراكز المغضوب عليهم والضالين عند عبدالرحمن بدوى ما بين جمال عبدالناصر «الذى استولى الإصلاح الزراعى فى عهده على ٢٥ فدانا من أملاكى، ولم أحصل على مليم واحد تعويضا عما استولى عليه، والذى قرر فرض الحراسة على أسرتنا فكانت إحدى ضحايا اللجنة العليا لتصفية الإقطاع» وبين موظف لبنانى فى مطار بيروت . اكتشف أنه ليس بجواز سفر عبدالرحمن بدوى تأشيرة دخول. «فراح يهرف بما لا يعرف. وكان غبياً غليظا جبانا معا. ذا خيال مريض. وحقد دنىء» فأبى أن يسمح له بدخول لبنان.

الفيلسوف الأوحد

غير أن الذى يعجب المرء إزاءه حقا هو ضعف المنطق عند هذا «الفيلسوف المصرى الأوحد» الذى حصل على مجانية التعليم بكلية الآداب بدعوى تفوّقه فى «المنطق» . تأمل قوله عن المصريين إبان الحرب العالمية الثانية: «وكان المصريون جميعا - باستثناء الخونة من أذناب الانجليز وعملاء الشيوعية - يتمنون انتصار ألمانيا. لأن هذا الانتصار هو الذى سيحلّ مشاكل كل البلاد العربية » أى منطق هذا؟ المصريون جميعا؟ باستثناء الخونة؟ انتصار المانيا كان سيحل مشاكل كل البلاد العربية؟.. أو انظر إلى حديثه عن عزيز المصرى: «كنت وأصحابى - رغم ذلك - معجبين به، لأنه القائد المصرى الوحيد الذى خاض معارك حربية، بينما لا يوجد فى الجيش المصرى كله ضابط - بأىّ رتبة كان – قد خاض غمار اى حرب».. الوحيد؟ فى الجيش المصرى كله؟! أو اقرأ عن سبب معارضته لإجراء حوار بين الإسلام والمسيحية «فكل حوار من هذا القبيل هو نوع من حوار الصم لأنه لا يمكن التغلب على الخلافات الجوهرية التى تفرق بين هذين الدينين فإن كان المقصود هو عدم العدوان بين الواحد على الآخر، فهذا امر تكفله القوانين الوضعية التى تحمى حق كل طائفة فى ممارسة عباداتها ولا تسمح لطائفة أو فرد بالعدوان على طائفة أخرى تخالفها فى الدين..» لا يا شيخ؟! كما فى أحداث الكشح مثلا؟.

حال السفراء في الخارج!

أو اقرأ حديثه عن الدبلوماسيين المصريين وتلك هى حال كل أو جل - رجال السلك السياسى المصرى فى الخارج منذ سنة ١٩٢٤ «أى إنشاء وزارة الخارجية المصرية» حتى هذا اليوم الذى اكتب فيه.. انهم لا يهمهم من امر مصر وكرامة مصر أى شىء. بل كل همهم محصور فى البقاء فى اماكنهم ان كانت فى عواصم دول متحضرة، أو السعى للانتقال منها إلى عواصم دول كبرى.. ولذلك لا يهمهم من الصحف المصرية إلاّ ان يقرأوا منها شيئا عن «الحركة »، اى حركة الترقيات والتنقلات وما عدا هذا مما يرد فى الصحف فلا يعنيهم فى شىء. ولا يثير فى نفوسهم اى انفعال .. هذه هى حال جميع السفراء ورجال السلك السياسى المصرى فى الخارج: لا يهمهم من مصر غير الحركة ، ولتذهب مصر كلها إلى الشيطان فهذا لا يحرك فى بدنهم شعرة هذه حالهم دائما، ولا سبيل مطلقا لتخليصهم منها. ذلك أن الجهل والتفاهة والتملق هى المؤهلات الأساسية عندهم جميعا. وبفضلها وحدها يترقون فى سلم المناصب الدبلوماسية ، وينعمون بالعمل فى عواصم البلاد الكبيرة المتمدنة.. وإذا ظهر بينهم

واحد أوتى شيئا من العلم او الاهتمام بوطنه ، فالباقون جميعا اعداؤه.. وأهم ما يتباهى به الواحد منهم هو ملابسه.. وكيف يراعى البروتوكول فى الوقوف والجلوس والسلام ، وترتيب الجلوس على موائد الطعام، إلى آخر هذه التفاهات، لأن المثل الأعلى عند الواحد منهم ان يكون رئيس جارسونات «ميتر دوتيل» إما عن جهلهم بشئون البلد الذى يوجدون فيه. وبشئون السياسة العالمية. بل وبشئون مصر كلها. فحدّث ولا حرج. جهل مطبق مركب، لا حياء فيه ولا خجل منه، ولو أردت ذكر ما عرفته من شواهد على هذا الجهل الفاحش، لاحتجت الى مجلد كامل. يندى له جبين مصر . التى هى الضحية الدائمة للعبث فى اختيار ممثليها فى الخارج».

أفى مثل هذه الأمثلة منطق، والمنطق علم يحذر دارسيه من مغبة التسّرع فى التعميم. ومن الانزلاق إلى مهاوى الاحكام المطلقة؟.

الزهو بالنفس

بوسعى ان أتعاطف مع الدكتور بدوى، وهو كبير مثقفى مصر. إذ اتخيله يحادث ملحقا. أو حتى سفيرا فى حفل عشاء بإحدى السفارات المصرية فى الخارج غير أنه من الصعب على أى إنسان أن يتعاطف مع كل هذا الغرور والزهو بالنفس «واذكر هنا على وجه التخصيص كتابى «أرسطو عند العرب» الذى قامت على أساسه مئات من البحوث بالعديد من اللهجات . ثم «منطق ارسطو». وهو يشمل ترجمة كاملة لكل مؤلفات أرسطو المنطقية اذ كم تهيب العديد من المستشرقين الاوروبيين من تحقيقه منذ أكثر من مائة وخمسين عاما أو يزيد ، وكل ما استطاعوه هو تحقيق عشر وريقات منه فحسب، وامام هذه العمل العملاق الجبار جن جنون العاجزين الحاقدين من هؤلاء المستشرقين الأدنياء. وتلاميذهم الأغبياء، فحاولوا نقده. وهيهات هيهات أن يؤثر طنين هؤلاء الذباب فى جبل شامخ». «وهكذا أنجزت هذا العمل الجبار «كتاب الخطابة» متحديا كل الباحثين ، القدماء والمعاصرين وهو ما أثار حقد العاجزين الحاسدين الأدعياء الذين راحوا يخبطون فيه على عادتهم ، دون علم ولا دراية. ولم يصححوا موضعا واحدا من النص الذى حققته. وبهذا العمل العظيم الذى لا أجد له مثيلا فى تاريخ تحقيق المخطوطات فى العالم كله. وبأية لغة، أكون قد أديت مهمة عظيمة الفائدة».. «وربما كان لفصاحة عبارتى العربية دور بارز فى هذا الاهتمام الشديد بمحاضرتى العامة فى طهران».. وقد أصدرت تقريرى عن التربية والتعليم فى مصر فى كتاب باللغتين الفرنسية والانجليزية، وهو أمر لم يحدث لا من قبلى ولا من بعدى.»

غير أننا نترك كل هذا إلى الحديث عن مدى إعجاب عبد الرحمن بدوى بهتلر والنازية ، وبما فعلته النازية باليهود .. فأدولف هتلر هو عند فيلسوفنا أحد العشرة المبشرة بالجنة ممن سبق أن أوردنا أسماء ستة منهم . يقول فى كتابه : «أما حملات النازية على اليهود فكانت جزءا من حملاتها على من كانوا خصومها فى الفترة السابقة على توليها الحكم ، فكانت إذن عملا سياسيا محضا لا تفرّق فيه بين يهودى وغير يهودى ، ولا شك فى أن اليهود فى ألمانيا (قبل عام ١٩٣٣) كانت لهم قوة ضخمة فى الحياة السياسية والاقتصادية والفنية الألمانية. فبأى حق ، وفى أى شرع ، يجوز أن يتحكم نصف مليون يهودى فى أكثر من ستين مليونا من الألمان ؟ إن أبسط قواعد العدالة والواجب كانت تقضى على كل ألمانى حرّ الضمير أن يتخلص من سلطان هذا النصف مليون. وهذا ما فعلته النازية تدريجيا وبالطرق القانونية السليمة . فلماذا يقيم اليهود الدنيا ويقعدونها متهمين النازيين بالفظائع والمنكرات والجرائم ضد الجنس البشرى ؟ إن المرء يعجب كل العجب من وقاحة هذا الافتراء ، ومن غفلة من يصدقونهم . ولكنها الوقاحة فى الكذب ، والسيطرة على وسائل الإعلام هما السبب الأول فى هذا الأمر العجيب . أما ما حدث لليهود فى ألمانيا وفى المناطق التى استولت عليها إبان الحرب ، فأمر تحكمه ضرورات الحرب . وفى اعتقادنا أن الأخبار الخاصة بهذا الموضوع كلها مشوشة مبالغ فيها كل المبالغة ، و٩٩٪ منها ملفق مخترع» .

ثم يقول :ـ

«وقد قررت إبان إقامتى فى ميونيخ – عاصمة الحركة النازية – عام ١٩٣٧ أن أدرس هذه الحركة دراسة عميقة ، وبدأت بكتاب «كفاحى» لهتلر ، وتلوته بكتاب «أسطورة القرن العشرين» لألفرد روزنبرج ، وغيره من الكتب العديدة التى اعتمدت عليها فى سلسلة المقالات التى كتبتها فى جريدة «مصر الفتاة» فى صيف ١٩٣٨ وما تلاه . وعلى الرغم من أن إقامتى فى ميونيخ استغرقت شهرا وأحد عشر يوما فقط ، فقد تبلورت أثناءها أفكارى السياسية ، ومنها إيمانى بأن النموذج الذى ينبغى لمصر استلهامه هو ما تحاول النازية تحقيقه لوطنها ألمانيا . ولما كانت ألمانيا لم تستعمر مصر ولا أى بلد عربى أو إسلامى ، وكان الإعجاب بألمانيا أصيلا فى الشعب المصرى ، بل وسائر الشعوب العربية والإسلامية ، فلم يكن ثمّ أىّ تحّرج فى استلهام نموذج ألمانيا» .

وقد رأى بدوى فى فبراير ١٩٣٨ أن يتصل بزعماء جماعة «مصر الفتاة» ، أقرب الجماعات والأحزاب المصرية شبها



بالحركات الفاشية ، وأن يتعاون معها ، وأن يكتب فى جريدتها معرّفا قراءها بأيديولوچية الفاشستية والنازية «فكتبت عدة مقالات عن النازية ، مبادؤها ، والفلسفة السياسية التى تقوم عليها ، وتنظيماتها الحزبية، وترجمت وشرحت برنامج الحزب النازى ، مستعينا بكتابى هتلر وروزنبرج ، وبرسائل صغيرة كانت من مطبوعات حزب النازى حملتها معى من ميونيخ . وكانت كل هذه المقالات بتوقيعى وباسمى بالكامل » .

دفاع عن جريمة اغتيال !

من هذا المنطلق النازى إذن يدافع بدوى عن جريمة اغتيال العيسوى لرئيس الوزراء أحمد ماهر فى أول فبراير ١٩٤٥ عقيب إعلان ماهر فى مجلس النواب قرار إعلان مصر الحرب على ألمانيا وإيطاليا واليابان ، على ضوء قرار الحلفاء بعدم السماح بالانضمام إلى هيئة الأمم المتحدة إلا للدول التى أعلنت الحرب على دول المحور قبل انتهاء الحرب . يقول بدوى :

«لقد كان عملا مشينا خسيسا عاريا من كل شهامة وكرامة ، أن تعلن مصر الحرب على ألمانيا فى فبراير ١٩٤٥ ، فى الوقت الذى أطبقت فيه جيوش الحلفاء على ألمانيا وتيقن أمر هزيمتها بعد بضعة أسابيع .. ثم ماذا كان سيحدث لو لم تُضم مصر إلى هيئة الأمم المتحدة ؟ .. لقد اعترف العيسوى منذ اللحظة الأولى بكل شجاعة ورباطة جأش أنه هو القاتل ، وأنه هو وحده المسئول ، وأنه قام بهذا العمل دفاعا عن شرف مصر ، وبدافع من الوطنية الخالصة ، لأنه شعر أن إعلان مصر الحرب على ألمانيا هو عمل دنئ ، يلوث كرامة مصر ويجعلها مجرد ألعوبة فى يد بريطانيا فماذا جنت ألمانيا ضد مصر حتى تعلن مصر عليها الحرب ! إن الجانى على مصر هو بريطانيا التى تحتل مصر منذ ثلاثة وستين عاما وتسومها الذل والهوان . فبأى حق إذن تعلن مصر الحرب على عدو عدّوها ؟.

كذلك يدافع بدوى عن جريمة اغتيال حسين توفيق فى ديسمبر من نفس العام لوزير المالية الوفدى أمين عثمان ، «الرمز المتجسد للخيانة العظمى ، الذى كان من المتوقع أن يلقى جزاءه عن هذه الخيانة على يد أحد الشباب الوطنيين» فإن نحن غضضنا الطرف عن هذه المباركة النظرية من جانب بدوى لجرائم الاغتيال السياسى، فإنه لمن المذهل المدهش حقا أن

نرى فيلسوفنا لا يتحرّج من أن يلعب دور القباضيات والبلطجية وعصابات النازيين والفاشيين إزاء مفكر مرموق مثله ، هو عباس محمود العقاد . إسمعه يقول :

«كتب العقاد مقالات ضد الإخوان المسلمين ، لكن هؤلاء سكتوا ولم يحرّكوا ساكنا . ثم انكفأ بعد ذلك يهاجم مصر الفتاة ، فلما كتب أول مقال تشاورنا في مصر الفتاة بماذا نرد . فرأى محمد صبيح أن يكون ذلك بالرد القاسي في مجلتنا ، وكتب فعلا مقالا بعنوان «العقاد جهول يريد أن يعلم الناس ما لا يعلم» فكتب العقاد مقالا آخر أشد وأعنف . وكان من رأيي أنا أن العقاد يرحب بالمقالات ، فلا علاج له عن هذا الطريق ، بل لابد من استخدام العنف معه لأنه لا يردعه غير العنف . وأخذ برأيي اثنان من أعضاء الحزب ، أحدهما هو الذى كان قد أرهب قاضي الإحالة . فتربصا للعقاد وهو عائد إلى بيته رقم ١٣ شارع سليم في مصر الجديدة ، وانهالا عليه بالضرب والصفع والركل ، وأفهماه أن هذا تأديب مبدئي بسبب مقاليه ضد مصر الفتاة ، فإن عاد ، عادا إليه بما هو أشد نكالا . وأحدثت هذه العلقة أثرها الحاسم . فخرس العقاد خرسا تاما ، ولم يغد إلى الكتابة ضد مصر الفتاة .

★ ★ ★

تلك إذن مجرد لمحات من الحياة الكئيبة المثمرة لهذا الفيلسوف التعس. حياة قضى ساعاتها بأسرها في القراءة والكتابة ، دون أن يسمح إلا لماما للصداقة أو الحب أو الزواج بأن تقتطع من هذه الساعات . (سأله الضابط الليبي وهو معتقل في سجن الكويفية شمال بنغازى : «لماذا لم تتزوج ؟» فأجاب بقوله : «لأني آثرت التفرغ للعلم وحده ، ولم أرد أن يشغلني عن العلم والبحث العلمي شيء ، وأنت تعلم مشاغل الأسرة والأولاد » .

وكم كنت أود - لولا ضيق المساحة المحددة لمقالي - أن أتناول بالتحليل موقفه من المرأة فهو يحرص كل الحرص على أن يورد هنا وهناك في هذا الكتاب أسطرا عن فتيات أوروبيات التقى بهن أثناء إقامته في ميونيخ (٤١ يوما) ، وبيروچيا (٤٣ يوما) ، وهولندا (٤٢ يوما) ، دون إشارة واحدة في الكتاب كله إلى صلة بامرأة مصرية واحدة . وهو يتحدث في تلك الأسطر عن جلوسه مع فتاة ألمانية في السادسة عشرة تحت ظلال الزيزفون في الحديقة الانجليزية بمدينة ميونيخ «نتساقى أحاديث الغرام وملاطفات الهوى ، حتى انتصف الليل ، لكني لم أرها بعد ذلك أبدا» . وعن فتيات ألمانيات ونمساويات في بيروچيا بإيطاليا ، «كنت أوثر واحدة منهن بالنزهة الخلوية في الروابي المحيطة بالمدينة ، فنقضي المساء حتى ساعة متأخرة من الليل ، والعفاف

أقوى رقيب علينا ، فلا نتبادل أكثر من لمسات الأيدى أو المخاصرة فى المشى ، وحرّمنا على أنفسنا ما يتجاوز ذلك . حتى القبل الخفيفة» ثم يستقر قلبه - ولمدة أربعة عشر يوما - على فتاة نمساوية ، كان يقابلها كل مساء عقب انتهاء المحاضرات العامة فيتجاذبا أطراف الحديث حتى منتصف الليل ، وسافرا معا إلى فلورنسا حيث أمضيا بها نهارا كاملا قضياه فى زيارة المتاحف . ثم كان أن اضطر إلى العودة إلى مصر ، فتبادلا فى ليلة الوداع الأقسام على الوفاء فى الحب وهما جالسان على الصخر خارج بيروچيا وكان القمر وقتها ساطعا ، «فاستحلفناه أن يكون شاهدا على هذه الأيمان» . وثمة فتاة هولندية رائعة الجمال» تبادلنا أحاديث الغرام البرىء ، لكن علاقتنا لم تستمر إلا أسبوعا واحدا ، لأنها كانت مضطرة إلى السفر» . أما الهولندية الثانية «فقد عرفتها ١٩٥٠ فى متحف اللوفر بباريس وأنا واقف أتأمل لوحة الموناليزا ، وقد زادنى بها إعجابا ثقافتها الأدبية والفنية الواسعة ، فخرجت أتجول معها فى حديقة اللوكسمبورج ، ثم التقينا فى المساء فى مقهى غنائى تونسى ، وقد أحضرت هى معها أخاها الأصغر ثم ودعتها إذ كان عليها أن تستقل القطار فى اليوم التالى عائدة إلى أمستردام» .

إنه لا يتحدث أبدا عن علاقة جنسية كاملة .. ولعل إقدامه على الحديث عن تلك العلاقات السطحية غير الكاملة هو من قبيل التفاخر بأن له صولة حتى فى هذا المجال غير الإبداعى . غير أنه لا يذكر فى هذا المجال إنجازات له «لم تحدث لغيره من قبل أو من بعد ! ». والغريب حقا أنه يرى مناسبا أن ينهى هذا الكتاب الضخم بأسره (٧٦٥ صفحة من القطع الكبير جلها مخصص لاستعراض إنجازاته العقلية) . بالحديث عما انتابه أثناء زيارته لإيران عام ١٩٧٣ (وهو فى السادسة والخمسين من العمر) من حسرة على صعوبة التعرف إلى فتيات أو سيدات فى إيران «لحرصهن كل الحرص على عفافهن» ، ثم يورد أبياتا من قصيدة هزيلة سقيمة كتبها فى هذا الموضوع الهام ، مطلعها :

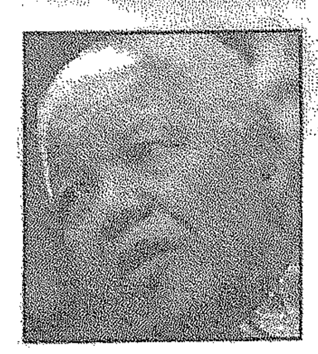
شكوت إليك يا خيّام من حالى بطهران

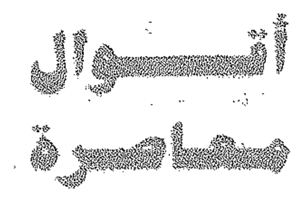
فلا «شيرين» تبسم لى ، ولا «زهرا» تمنانى

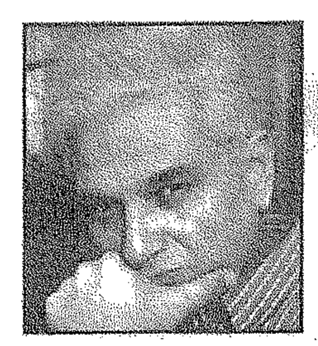
☆ ☆ ☆

أثمة قراءة هى أدعى إلى إحساس المرء بالحسرة والألم وخيبة الأمل من قراءة هذا الكتاب لفيلسوف مصر الوحيد ؟.


نجيب محفوظ


نلسن مانديلا




جاك دريدا

● «السجن علمني التواضع والتأمل والغفران»

نلسن مانديلا
الرئيس السابق لجمهورية جنوب افريقيا

● «الأمريكيون يرون أبعد الآن لأن قامتهم أطول!!»

مادلين اولبرايت
وزيرة خارجية الولايات المتحدة

● «لا شئ فى الوجود يستطيع أن يعيد عشرة الماضى الجميل»

نجيب محفوظ
الأديب العالمى

● «الصراع فى روسيا يجرى وفق قاعدة إما أن تبيد أو تباد»

بوريس بيريزوفسكي
رجل الأعمال الروسي من أصل يهودي

● «النخبة الفاعلة فى ظل العولمة تنحصر فى ثلة من الوصوليين والذيول والمهربين وسماسرة البنوك والشركات الأجنبية»

د. محمد بن عبدالحي
الأستاذ بجامعة نواكشوط عاصمة موريتانيا

● «كل ما كتبته مجرد مقدمة نص لا اجرؤ على كتابته»

الفيلسوف الفرنسي جاك دريدا

● «الفجوة بين أهل الكومبيوتر والمحرومين ستكون فى البلدان الفقيرة جدا أصعب من أن تردم»

مايكيل ديرتوزوس
مدير مختبر كومبيوتارات ام. آي. تي

● «من البداية، وأنا شاب، اتخذت من المأثور اللاتينى «اسرع بتمهل» شعارا شخصيا»

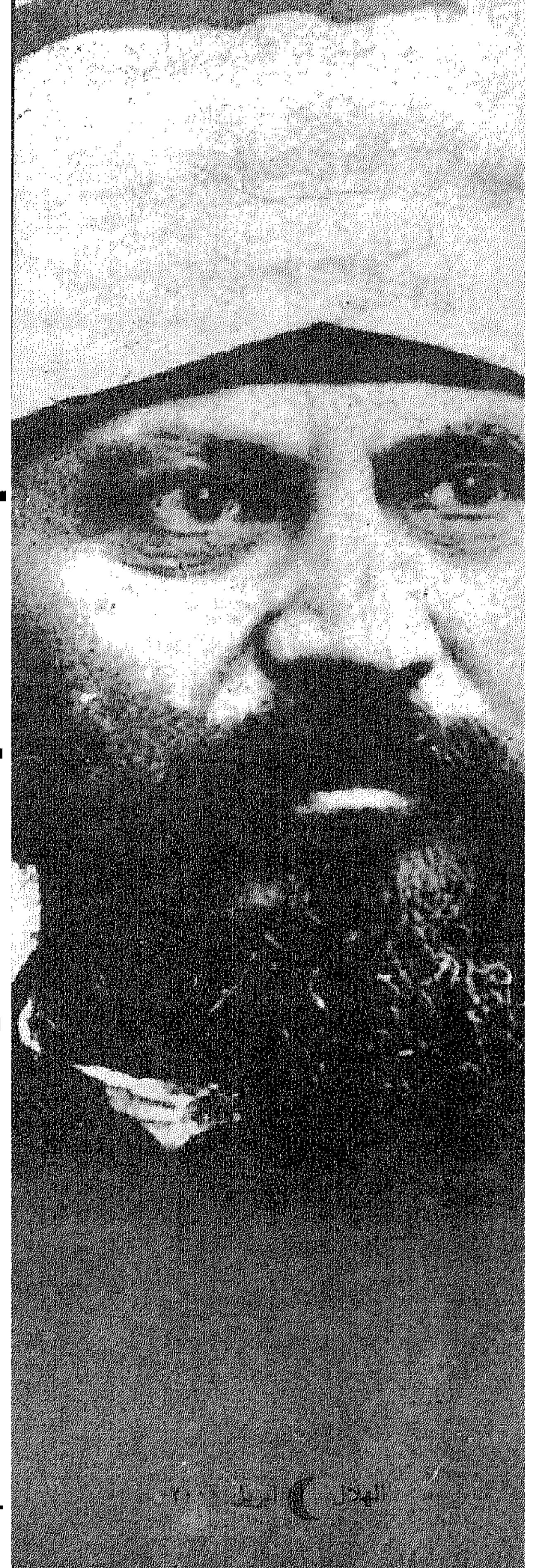
الأديب الايطالي ايتالو كالڤينو

● «الشهرة عفريت لا تستطيع السيطرة عليه، وعندما تحاول محاربته يزداد لهيبه تألقا»

النجم ليوناردو دي كابريو

● «الدراما المصرية مارد، قد يكون نائما لأسباب إدارية أو بيروقراطية، وصحوته مفيدة لنا»

المخرج السوري نجدت انزور

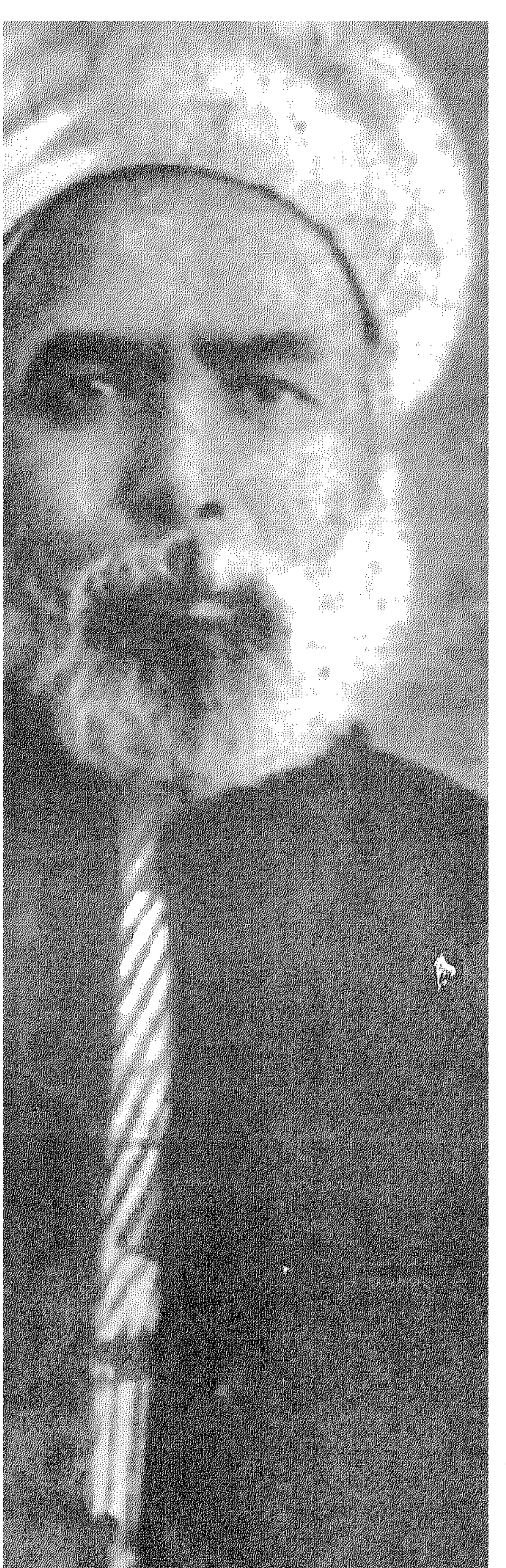


بين
جمال الدين الافغانى
ومحمد عبده

الشرق
والمستبد
العادل

بقلم :

د. محمد رجب البيومى



●● نسب إلى السيد جمال الدين الأفغانى أنه قال: «إنما ينهض بالشرق مستبد عادل» وقد اشتهرت هذه العبارة عنه حتى أصبحت من قبيل المسلمات، وأذكر أن الكاتب الكبير الدكتور محمد البهى وزير الأوقاف الأسبق كتب مقالا لمجلة الرسالة بالعدد الصادر فى ٢٤/٤/١٩٣٩م حاول فيه أن يؤوّل العبارة على وجه متفق مع أقوال السيد المشتهرة فى محاربة الاستبداد، ولكنى قرأت منذ خمسين عاما كتابا للعلامة الشهير الشيخ عبدالقادر المغربى نائب رئيس المجمع العلمى بدمشق عن جمال الدين أصدرته سلسلة اقرأ المعروفة، ذكر فيه حديثا للأفغانى عن الحكومة الاستبدادية رماها فيه بكل موبقة ، فجعلت أسأل اذا كان الرجل الكبير يذم الاستبداد فى شتى صوره هذه المذمة فكيف تصدر هذه العبارة عنه؛ ولماذا لا نبحث عن مصدرها قبل أن نسلّم بصحة نسبتها إليه ؟ ●●

وعن طريق المصادفة البحتة وقع فى يدى عدد أكتوبر سنة ١٩٦٥ من مجلة العربى فوجدت سؤالا عن مدى صحة هذه العبارة ، أجاب عنه مسئول المجلة بقوله

(إن عبارة المستبد العادل) ما تزال تنسب إليه، تلوكها الألسن، وتجرى بها الأقلام دون أن يُحاول الذين يرددونها أن يحققوها، أو يتحققوا من صحتها، مع أن الاستبداد لا يتفق مع العدل، والسيد لم يكن داعيا ثوريا فحسب، بل كان أول داعية للحرية في الشرق الإسلامي وأول شهيد من شهدائها ، وليس معقولاً أن يدعو للحرية، ويستشهد في سبيلها، ثم ينادي في الوقت نفسه بحكومة استبدادية، على أنك لو رجعت إلي تاريخ السيد جمال الدين، أو قرأت خاطراته التى سجلها محمد المخزومى باشا أحد تلاميذه لوجدت ما يريح بالك، يقول المخزومى باشا إنه سأل السيد عن صحة ما ينسب إليه من عبارة «المستبد العادل» فصححها له، وأن حقيقتها هى أنه - لا تحيا مصر ولا الشرق إلا إذا أتاح الله لكل دولة من دوله رجلاً قوياً عادلاً، فان خير صفات الحاكم القوة والعدل، وأن المطلوب هو القوىّ لا المستبد لأن الاستبداد يتنافى مع العدالة والحرية».

وإذن فقد أشاع المرجفون هذه العبارة عن السيد، ، دون أن يقولها، وحين سئل عن رأيه أبدى ما يدل عن تبرّئه منها! ومع تعدد طبعات كتاب المخزومى فقد راجت العبارة، لأن الذين وصفوا جمال الدين بالإلحاد والزندقة، وسخروا الأقلام المأجورة لمحاربته عزّ عليهم أن تبطل هذه النسبة، فأرجفوا بها وموضع المفارقة فى ذلك أن هؤلاء المأجورين هم الذين يروجون لحكومات الاستبداد ، ويسبحون بحمدها، ويأخذون مناصبهم المرموقة، وأموالهم الطائلة عن هذا الطريق؟ ولكنهم لا يستحيون أن يصموا الشيخ بما لم يقل، لأن ذمه الشنيع يقع موقع الرضى من سادتهم الكبار! وهم غير محاسبين على تناقضهم السافر، إذ المهم لديهم أن يكتبوا ما يقع موقع القبول!

• كيف ينهض الشرق ؟

لم يثبت إذن أن جمال الدين قد قال هذه العبارة (إنما ينهض بالشرق مستبد عادل) ولكننا لم نبعد عنه كثيرا، حين نعلن أن تلميذه وصفيه الأستاذ الإمام محمد عبده قد قالها فعلاً، وتحدث عن فحواها فى مقالٍ نشر بين آثاره الرائعة، ونقلت عنه مجلة الهلال الصادرة فى أول نوفمبر سنة ١٩٣٣ ص ٧٢ قوله تحت عنوان (كيف ينهض الشرق):

« إنما ينهض بالشرق مستبد عادل ، مستبد يكره المتناكرين على التعارف، ويلجىء الأهل إلى التراحم ويقهر الجيران على التناصف، يحمل الناس على رأيه فى منافعهم بالرهبة إن لم يحملوا أنفسهم على ما فيه سعادتهم بالرغبة، عادل لا يخطو خطوة إلا ونظرته الأولى إلى شعبه

الذى يحكمه، فإن عرض حظ لنفسه، فليقع دائما تحت النظرة الثانية ، فهو لهم أكثر مما هو لنفسه، يكفى لإبلاغهم غاية لا يسقطون بعدها خمس عشرة سنة، وهى سن مولود يبلغ الحلم، يولد فيها الفكر الصالح، وينمو تحت رعاية الولى الصالح، ويشتد حتى يصرع من يصرعه، خمس عشرة سنة تثنى فيها أعناق الكبار إلى ما هو خير لهم ولأعقابهم ، ويعالج ما اعتل من طباعهم بأنجع أنواع العلاج، ومنها البتر والكى إذا اقتضت الحال، وينشىء فيها نفوس الصغار على ما وجّه العزيمة نحوه ، ويسترد نياتهم بالتثقيف.. خمس عشرة سنة تحشد له جمهوراً عظيما من أعوان الإصلاح، من صالحين كانوا ينتظرونه، وناشئين شبوا وهم ينظرونه، وآخرين ترهبوه فاتبعوه ، وغيرهم رغبوا فى فضله فجاروه، هل يعدم الشرق مستبدا عادلا فى قومه، يتمكن به العدل أن يصنع فى خمس عشرة سنة ما لا يصنع العقل وحده فى خمسة عشر قرنا»!

هذا ما قاله الإمام بنصه، ولابد من مناقشة أمور تتعلق بهذا الرأى، فنعرف فى أى مناسبة قال الإمام ما قال ؟ وما معنى الاستبداد فى رأيه؟ أهو المعنى السياسى الشائع أم المعنى اللغوى المعترف به؟ ولماذا جعل للحاكم مدة لا يتجاوزها حتى إذا انقضت أنهى دوره، وأسلم الأمر إلى سواه، هذه أسئلة ثلاثة توضّح اتجاه الإمام كما يستشف من سيرة حياته، وواقع ما قرر من سمات الحاكم المستبد العادل، ونترك بعدها ما يلهج به المتشنجون من انفعالات لا تقف عند حد ، لأنهم يتحدثون فيما لا يدركون !

أما الظروف الأليمة التى دفعته إلى هذا الرأى، فيمكن أن نلم بها حين نعرف مبدأ اشتغاله بالكتابة السياسية، وعقبى ما انتهى إليه من السجن بمصر ثم النفى عنها إلى بيروت ، فحين عين الإمام محررا للوقائع المصرية جعل من همه نقد ما يراه من أخطاء النظار (الوزراء) بصراحة واضحة لا تعرف التلويح الرامز، حتى ضاق به ناظر المعارف، وكان ذا صلة ماسة بالخديوى. فشكا إلى رياض باشا طالبا تنحية محمد عبده عن موقعه، ولكن الحق قد ظهر فيما كتبته الوقائع، فترتب على ذلك أن ينشأ مجلس أعلى للمعارف يكون صاحب الرأى فى شئون التعليم والموظفين . ويكون محمد عبده عضوا فيه، وبذلك أصبح الناظر مقيدا برأى المجلس، ثم اتسع الشيخ فى نقد الكبار من رجال الإدارة فى شتى الأقاليم، وكتب ما ينطق بأنهم أجراء للدولة يلتزمون بمصالح الشعب، وإذا حادوا عن ذلك فقد فقدوا مبرر بقائهم ، لأن الشعب صاحب الكلمة، وتلك نغمة لم تسمع بالجريدة قبل الإمام

وقد أشرت من قبل إلى هذا فى مقالى بالهلال (فبراير ٢٠٠٠) . لقد اعتقد الشيخ أنه بما غرس من بذور الحرية قد ساعد على تكوين رأى عام مستنير، وحين قامت الثورة العرابية تأكد لديه هذا الاعتقاد، فكتب ما يؤكد حق الشعب فى ولاية شئونه، ورد على من يقولون إنه أمى جاهل لا يملك حق الرأى بأنهم مخطئون ، وأن الصفوة من العلماء والمفكرين يملكون من البصيرة والنفاذ ما يجعلهم يتحملون المسئولية فى كفاءة واقتدار، وبهذا التصور دعا إلى المجلس النيابى، وضرب المثل بما يعلمُ فى أوربا عن مجالس النواب والشيوخ، ثم حلت الكارثة فأخفقت الثورة العرابية وسيق الإمام إلى السجن المنفرد وحيداً دون أنيس، ونظر فإذا المترزقة من أحذية السلطة تنهشه نهشاً ظالما دون مبرر ، وفيهم من كان الشيخ واسطة ارتقائه، وباعث شهرته، وقد انتظر من قرّائه الذين رباهم فى الوقائع المصرية أن يجهروا بالحق، ومنهم من يملك الرأى والقلم، فوجدهم إلباً عليه، لقد كانت المرارة ذات طعم حادّ فى حلقه ، فعرف أن الشعب لا يملك لأمره دفعاً ، وزاد الأمر سوءا حين كتبت تقريرات عنه تصمه بالخيانة والغدر يشترك فى تدبيجها من غمره الشيخ بفضله ، إنه ليفصح عن ذلك بقوله.

«هذا اللئيم الذى كنت أظن أنه يألم لألمى، ويأخذه الأسف لحالى ويبذلُ وسعه إن أمكنه فى المدافعة عنى فقد قدّمت له نفعاً ، ورفعت له ذكرا ، وجعلت له منزلة فى قلوب الحاكمين.. لم أنقض له عهدا ، ولم أبخسّ له ودا ، فما باله أصبح من الناكثين» (كتاب الهلال «مذكرات محمد عبده ص ٢١٠») .

أشياء كثيرة أفسدت رأى الشيخ فى العامة والخاصة معا، وقد عبّر عن شجونه فى خطابه البليغ الذى أرسله من السجن إلى أحد أصدقائه(المصدر السابق ص ٢٠٨) مبتدئا بقول الشاعر

تقلدتنى الليالى وهى مدبرة
كأننى صارم فى كف منهزم

وهو قطعة فريدة من مختار الرسائل فى البيان العربى، فقد قارن الشيخ بين أمسه حين كانِ صاحب قلم يردع النظار والمديرين، وبين يومه حين صار مكبلا بالقيود فى ظلمة السجن. قد ضاع جاهه، وفقد سلطانه، وقد أتى بتمثيل بيانى لا أجد أروع منه فى بابه، ومن حق القارىء أن يتحف به، ليرى نعمة الله فى إبداع الصورة، وسحر التشخيص.

«لقد صار سقوط الجاه عنى كمرض يصيب (الإنسان) الجميل الفاتن، فيخف الجسم، ويغير اللون، ويقعد عن الحركة، ويثقل على الأهل والعشيرة فى التمريض،

وقد كان ربّا لهم ، وهم له ساجدون، يذهب عنه الضياء، وينكسف من وجهه البهاء، وتنكره عند الرؤية أعين العشاق، فينحرف عنه السالكون إليه، وقد كانوا من قبل على آثار غباره يتدافعون! ويقاس على مرض الجميل، مرض صاحب الجاه».

اليقظة الفكرية

هذه أيام السجن بالقاهرة، أما أيام المنفى ببيروت، فقد أرته من ألوان العقوق ما لا قبل له باحتماله، إذ تعاوى الوصوليون بتهجينه وثلبه فى صحف الاستعمار بمصر، وتأتى الصحف إليه فلا يجد بها غير ما يمض النفس ويفدح القلب، وكان الذين يراسلونه من أمثال سعد زغلول وحفنى ناصف وعبدالكريم سليمان يحاولون أن يهّونوا عليه بانتقاص هؤلاء الأذناب، وهنا شغل الإمام نفسه بإلقاء دروس فى مسجد السلطانية ببيروت فوجد من المستمعين استجابة فاقت كل تصور، فمال إلى اتجاه آخر غير اتجاهه السياسى فى طريقة اليقظة الفكرية. وهو أن يعمل على تنشئة جيل جديد من نابتة الأمة يفهم حقوق الوطن، وأصول الكرامة النفيسة، فيشب مطالبا بالحرية عن طريق التثقيف المتصل، وتأصلت هذه الفكرة لديه، فتحدث بها إلى أستاذه جمال الدين الأفغانى فلم تلق ارتياحا لديه، لأن جمال كان لا يُطيق الانتظار، فكل خالجة من خوالجه تهتف به: العمل، العمل، فكيف ننتظر حتى ينشأ جيل جديد ! وقد أزعجه تكرار هذا الاتجاه من تلميذه . فصاح به: أنت مخذل، ولكن التلميذ قد علم عن أحوال مصر والشام ما لا يعلم أستاذه فأصرّ على موقفه، وكتب كثيرا من المقالات فى تصوير آماله المرتقبة، ومن بينها مقال «المستبد العادل» ! . وهنا تأتى الإجابة عن معنى كلمة الاستبداد فى تفكير الشيخ، إن الإمام عريق فى فهم الأصول اللغوية فى العربية. وقد فسّر طرفاً من كتاب الله، وشرح نهج البلاغة للإمام على ومقامات بديع الزمان الهمذانى ، فأوقعه ذلك على دقائق لم تجل فى خاطر أستاذه الأفغانى، وكتب اللغة تقول جميعها: استبد بالشيء أى انفرد به ، فلم يكن معنى الاستبداد فى ذهنه هو التغطرس والتجبر، كما فهم ذلك عبدالرحمن الكواكبى حين سمى كتابه طبائع الاستبداد، بل كان معناه الانفراد بالأمر، وهذا الانفراد إنما يمدح أو يذم وفق اتجاه صاحبه، فإذا اتجه المنفرد إلى العدالة والإنصاف وحب الشعب، فذلك ما يدعو إليه الشيخ. وإذا اتجه إلى نحو ما فهمه الكواكبى فهذا ما يحاربه . ويقيم الدنيا ويقعدها فى منازلته، لذلك كان من شروط (المستبد) لديه أن يلجيء الأهل إلى التراحم، ويحمل الناس على سعادتهم بالرغبة، وأن يكون عادلاً لا يخطو خطوة إلاّ ونظرته الأولى إلي شعبه الذى يحكمه، وإذا تعارض نفعه مع نفع الشعب، كان الشعب هو المقدم، ولم يجعل حكم هذا المنفرد ممتدا إلي أكثر من خمس عشرة سنة! وهى المدة التى ينشأ فيها جيل يعرف حقوقه وواجباته، ويعلم أن الحاكم

خادمه الذى يرعى مصلحته فى ظل القانون! إن الإمام منطقى مع نفسه تماما! حين صمم على تنشئة جيل جديد، وعلى أن يكون الأمد المتاح لهذه التنشئة فى ظلّ حاكم يثنى أعناق الكبار إلى ما فيه خيرهم، ويعالج ما اعتلّ من طبائعهم بأنجع أنواع العلاج، ومنها البتر والكى إذا لزم الحال، وإن خمس عشرة سنة تستطيع أن تحشد له جمهوراً عظيما من أعوان الاصلاح كانوا ينتظرونه وآخرين من الناشئين عرفوا حقوقهم وواجباتهم فتدافعوا إلى اعتناق مذهبه!! فليت شعرى بعد ذلك كله أيكون المستبد فى رأى الإمام هو الدكتاتور الطاغية أم هو الراعى الشفيق! .

الديمقراطية المزعومة

وقد يظن ظان أن الإمام قد تجاهل ما تسير عليه أوربا وأمريكا من الرجوع إلى رأى الأكثرية الممثلة فى البرلمان المنتخب انتخابا صحيحا، يعبّر عن رأى الأمة ، والحق أن جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده معاً قد عرفا هذا النظام ورأيا فيه من المآخذ ما دفعهما إلى اجتنابه، لأن الديمقراطية المزعومة فى المجالس النيابية ذات منحى دكتاتورى واضح حيث أن قرار الأغلبية يكون فى يد أفرادٍ معدودين بين زعماء الحزب المتغلّب، يصدرون رأيهم كما يشاءون، وعلى الأعضاء المنتسبين إليهم الموافقة التامة، فالكلمة فى المجلس ليست للأكثرية، ولكن لقلة ترسم الخطة للأكثرية لتسير وراءها، وكثيراً ما تقوم هذه الأقلية بمجافاة مَن تحدثه نفسه بالمعارضة، وقد يؤدى ذلك إلى فصله! وهذا كله فى الغرب المتحضر الذى تأتى نتيجة الانتخاب عنده صحيحة لا تلتبس بالتزييف ، أما المجالس النيابية فى الشرق، فهى فى أكثرها مجالس صورية تزيف فيها إرادة الشعوب تزييفاً صارخا يقبله الحاكمون وكأنه شىء طبيعى لا خطأ فيه، وهنا يكون أعضاء المجلس أدوات محركة فى أيدى الأقلية المسيطرة، لأنهم يعلمون أنهم لم يأتوا عن انتخاب صحيح، بل عن تزييف فاضح لا يرى فيه أصحابُه شيئا يُعاب، وقد رأينا فى هذه المجالس ما لا يكاد يصدقه عاقل! وحسُبك أن تعلم أنّ مأساة يونيو سنة ١٩٦٧ الفادحة التى كانت بمثابة زلزال مروع هدم الأمة هدما، أحدث الدّمار فى النفوس، والخيبة فى الآمال ، هذه المأساة الطاحنة ما كادت تعرض على مجلس الأمة حتى وُجد من النواب من يرقص ويطبل ، وكأنه فى مقهى غجرىّ! فقلْ لى بربك: أهذا مجلس !! وإذن فالذين ينفعلُون حين يرون الإمام يتحدث عن الفرد العادل الملتزم بالنهج الصحيح، عليهم أن ينظروا إلى تاريخ المجالس النيابية، ليعلموا أن هذا النظام المتزيى بزىّ الديمقراطية ، ليس فوق النقد النزيه.

وتسألنى لماذا أعطَى الإمام مهلة للحاكم المنشود لا تتجاوز خمسة عشر

عاما؟ فأجيب بأن الإمام يعرف أن الحاكم في الإسلام مُقّيدٌ بشريعة الإسلام. وأنها في صميمها شريعةُ العدل والإخاء والمساواة بل شريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صراحة دون جمجمة هذه الشريعةُ ذات الأحكام الصارمة في سياسة الحكم ونزاهة الحاكم كانتْ كالمجهولة في عصره. والأغلبية الساحقة من دارسي الفقه الإسلامي يتعمقون في مسائل العبادات من طهارة وصلاة وصيام وزكاة وحج ، فإذا جاوزوا العبادات إلى شيء من المعاملات فحسبهم شذور عن البيع والرهن والربا والشفعة والإجارة ! أما سياسة الحكم فلا شأن لهم بها على الإطلاق. والاستاذ في دروس التفسير كان يصلّ ضليلاً مرتفعاً حين يتحدث عن آيات القرآن الخاصة بأولي الأمر، فيجزم أنهم أهل الحل والعقد من رجال التشريع، ولا يترك مناسبة تحين حتى يستطرد إلى أحكام السياسة الشرعية، وهو أول من درس في هذا العصر آراء الماوردي وابن تيمية والشاطبي وغيرهم ممن أفاضوا في سياسة الحكم بالإسلام، فإذا اشتهرت هذه السياسة في مدى خمسة عشر عاما فإنها تصبح قانوناً ثابتاً لا خلاف عليه إذا أنه مؤسس على هدى من كتاب الله وسنة رسوله ومواقف البررة من الخلفاء والمصلحين.

وقد يتساءل متسائل أيمكن أن يتحقق المستبد العادل واقعاً كما تصوره الإمام محمد عبده أم أنه مثل أعلى يتراءى من بعد ولا يمكن اللحاق به؟ .

والإجابة على هذا التساؤل سهلة . فلدينا المثل الواقعي في سيرة عمر بن الخطاب، كان متفردا قويا، ولكن في ظلال ما يعلم من كتاب الله وسنة رسوله ، فهو يلتزم التزاماً صارما بكل ما يعلم من أحكام الدين ، وما لا يعلم مما جد من أمور الناس في عصر الفتح الإسلامي الشاسع، لا يدع فيه مجالاً للتردد، بل يجمع حوله صحابة رسول الله ليشاورهم فيما استجد مستريحا إلى ما قام عليه البرهان الهادي إلى سواء السبيل، وكان عماله على البلاد المختلفة لا يرهبون شيئا غير لقائه في موسم الحج، إذ يُدعو الوالي، ويسألُ عن مواطنيه من الحجاج ليخبروه عن أمره، وكم اقتص لمظلوم فأرجع له اعتباره، وجازى المعتدي بما استحق ! وكلنا نعلم جوابه لعمرو بن العاص حين قال له : أرأيت ياأمير المؤمنين إن أدّب أحد الولاة بعض رعيته أإنك لتقتص منه؟ فقال عمر: والذي نفسي بيده لاقتص منه، ومِا لي لا أفعل؟ وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتصّ من نفسه؟!

أليسَ عمر مثلاً واقعيا! ولم يكن صورة خيالية تراء ت في مخيّلة فنان ؟!

خواطر مع مؤتمر

الجيولوجيين العرب

بقلم: د. رشدى سعيد

(١)

أقيم بالقاهرة فى شهر فبراير سنة ٢٠٠٠ المؤتمر الدولى الخامس لجيولوجية العالم العربى الذى نظمته كلية العلوم بجامعة القاهرة وحضره عدد كبير من المشاركين أربى على الألف.. كان منهم حوالى المائتين من جيولوجيى العالم العربى وغير العربى.. وكان الافتتاح والجلسة الأولى التى حضرتها فرصة طيبة للقاء زملائى القدامى وأبنائى من العاملين فى المهنة الجيولوجية والذين فرقت الأيام والسنون بينى وبينهم، وللتأمل فيما حدث فى مهنة الجيولوجيا من تطور منذ أن بدأت العمل بها منذ نيف وستين سنة مضت.

كان أول خاطر خطر لى هو هذا العدد الهائل من العاملين فى هذه المهنة - وكنت عندما بدأت العمل فيها واحدا من أقل من عشرة من الوطنيين العاملين بها على طول الوطن العربى، الذى لم يكن يعرف شيئا عن هذه المهنة التى كانت حكراً على الأجانب، كما لم يكن فى أى ركن منها جامعة تدرس هذه المادة غير الجامعة المصرية القديمة والتى لم يكن قد مر عليها عند دخولى فيها أكثر من اثنتى عشرة سنة - واليوم وبعد ستين سنة من هذا التاريخ فقد أصبح فى العالم العربى ما لا يقل عن مائة جامعة انتشرت على طوله وفى كل مدنه الكبرى بل وفى بعض بلدانه وقراه، وأصبح عدد العاملين فى المهنة مقدرا بالآلاف، يعمل الجزء الأكبر منهم فى الجامعات ومراكز البحوث والجزء الأقل فى أعمال تطبيقية سواء فى

مجال استخراج البترول أو المعادن - وكما أظهر المؤتمر فإن هذه الجامعات تخرج فيضا هائلا من الأبحاث العلمية الخاصة بجيولوجية العالم العربى، التى يقوم بها العاملون فيها والذين يشكلون قوة لا تقل فى حجمها عن أى تكتل علمى فى أى مكان آخر على ظهر الأرض.

على أن الشىء الذى يلفت النظر هو أن هذه القوة الهائلة ذات القدرة الفائقة على انتاج هذا الكم الكبير من الانتاج العلمى ليس لها أثر يذكر عندما يأتى الأمر إلى ترجمة هذه الأبحاث إلى شىء ملموس، يمكن أن يعود على شعوب العالم العربى بفائدة عملية - فلازالت الموارد المعدنية التى يمتلىء بها العالم العربى والتى تشمل فيما تشمل بالاضافة إلى مختلف المعادن البترول والمياه الأرضية مهدرة، والجزء الأكبر من المستغل منها فى أيدى الأجانب وموجه لخدمتهم وللاستخدام خارج الوطن. فحقول البترول والغاز تدار وتملك فى معظمها بالأجانب ويصدر معظم المستخرج منها للاستخدام فى الدول الصناعية. ومناجم خامتى الفوسفات والحديد فى المغرب وموريتانيا والتى تشكل أكبر مناجم العالم العربى من حيث الحجم يديرها بل ويملك الجزء الأكبر منها الأجانب، كما يصدر الجزء الأكبر من خاماتها إلى خارج الوطن العربى، أما الجزء الصغير من الموارد المعدنية الذى يستخدم محليا فإنه يدار بطرق عتيقة لا تأخذ فى الاعتبار الحفاظ عليه أو تنميته تنمية مستدامة أو حامية للبيئة كما هو الحال فى خامات المحاجر، والقليل من المواد الترابية التى تستخرج هنا وهناك ولا تضيف شيئا يذكر الى جملة الناتج القومى الاجمالى للوطن العربى.

وهذه الصورة المليئة بالتناقض تثير فى النفس الأسى لعجز النخب العربية الحاكمة عن الاستفادة من هذه القوة الضاربة التى هى تحت أيديهم، والتى كان من الممكن أن تكون رأس الحربة للاستفادة من موارد بلادهم الطبيعية وإدارتها لصالحهم وبأنفسهم، ونقل أوطانهم إلى المكان الذى ينبغى أن يكونوا فيه، بدلا من أن يكونوا فى ذيل قوائم بلاد العالم من حيث معدلات التنمية أو مستوى دخل أبنائها وبناتها.

ويبدو لى من واقع هذه الصورة أن إنشاء الجامعات فى البلاد العربية لم يأت بالأثر الذى كان جيلى يرتقبه، فقد جاء انشاؤها بغرض استكمال صورة الدولة الحديثة واستجابة لضغط شعبى متزايد، ولم يدر ببال النخب الحاكمة التى انشأتها أن لها فائدة تزيد على ذلك.

كان هذا هو الخاطر الأول الذى دار بخلدى وأنا أجلس فوق منصة أولى جلسات المؤتمر واتطلع إلى هذا العدد

الغفير من المشتغلين بالعلم والممتلئين بالحيوية والرغبة فى التعلم، وأقارنه بالاستخدام المتدنى وغير الرشيد للموارد الطبيعية للبلاد العربية - وتخيلت لو أن هذا الجمع كان تحت قيادة ذات رؤية لكان حال العالم العربى على غير ما أراه.

(٢)

أما الخاطر الثانى فقد جاءنى عندما كنت أحاول أن أعبر شارع ثروت الذى يفصل بين حرم الجامعة حيث حدثت وقائع حفل الافتتاح فى صالة الاجتماعات الكبرى وقاعات اجتماع المؤتمر فى المبنى المقابل بالمدينة الجامعية.. فقد تطلب هذا الانتقال بين المبنيين إلى عبور هذا الشارع الذى لا ينقطع فيه مرور السيارات مما شكل بالنسبة لى مغامرة كبيرة، احتاجت منى إلى الاستعانة بأحد ابنائنا ممن اعتادوا على اقتحام مغامرة الدخول فى تحد مع السائقين حتى يجبروا على الوقوف أو التهدئة حتى يتم عبور الشارع.. وقد تملكنى الأسى من أن أحدا من مسئولى جامعة القاهرة لم يفكر فى سلامة الطلاب والأساتذة الذاهبين والآتين إلى ومن المبنيين بتكليف أحد الحرس لتنظيم المرور وإيقافه بين الحين والحين حتى تكون هناك فرصة للعبور الآمن عبر هذا الشارع الشديد الازدحام وهو أضعف الايمان.. أما اشده والواجب أن ينفذ فهو ربط المبنيين بنفق تحت الأرض.

(٣)

الخاطر الثالث جاءنى وأنا استمع إلى المحاضرة الاستهلالية التى دعى الى القائها الأستاذ الدكتور محمد يوسف حسن عضو مجمع اللغة العربية والذى يتقارب سنه مع سنى والذى جاء بعصاه يقوده أحد الطلاب ليلقى محاضرة فى هذه الجلسة الأولى التى دعيت فى آخر لحظة لرئاستها وتقديم محاضرها. وجاءت المفاجأة الكبيرة عندما قرأت عنوان المحاضرة التى كان الدكتور يوسف حسن سيلقيها فإذ بها عن موضوع اكتتابات اخوان الصفا فى علم الجيولوجيا وهو الموضوع نفسه الذى كتبت عنه مقالا ظهر منذ خمسين سنة بالتمام فى المجلة الأمريكية للعلوم - وقد نوه الدكتور يوسف بهذا المقال القديم وأسهب فى الحديث عنه فأعطى بذلك مثالا طيبا لشبابنا الذى ينقل الكثيرون منهم أعمال غيرهم دون الإشارة اليها، ولا شك فى أن الدكتور يوسف ينتمى فى ذلك إلى الجيل الذى تربى على احترام العلم ومعرفة أصوله.

وقد أعادت محاضرة الدكتور يوسف ذكريات وحنين إلى ماض بعيد كنت أحاول فيه أن أعرف شيئا عن حضارات العالم وتطورها.. وكنت عندما كتبت ذلك المقال أحضر محاضرات الأستاذ كيرك

بريان عالم الجيومورفولوجيا المشهور عن نشأة الظواهر الجغرافية وتطورها بجامعة هارفارد عندما كنت طالبا بها - ووجدت النظريات والأفكار التى كان يثيرها هذا الأستاذ الكبير لا تختلف كثيرا عن الأفكار التى جاءت فى رسائل اخوان الصفا التى كتبت فى القرن العاشر الميلادى إبان النهضة الكبرى التى شهدها العرب بعد أن أخذوا عن الفلسفة اليونانية وانطلقوا بها إلى أبعاد جديدة فى ذلك الزمن البعيد.. ولما أخبرت الأستاذ بريان بما وجدته فى هذه الرسائل أبدى اهتماما كبيرا وطلب منى أن أترجم له قطعة منها وفعلت ذلك، وعلقت عليها وأعطيتها له فأصلح منها قليلا وصمم على نشرها فى أحد أهم المجلات العلمية الأمريكية.. وقد أصبحت هذه الورقة العلمية من المراجع الأساسية فى ميدان تاريخ العلوم.

الشيء الذى تركه كشف هذا القرب الشديد بين ما كان يلقيه علينا الأستاذ كيرك بريان بجامعة هارفارد فى القرن العشرين وبين ما كتبه اخوان الصفا فى بغداد فى القرن العاشر هو أن كليهما لابد وأن يكونا أبناء حضارة واحدة شارك العرب فى بنائها، والتقطها الغربيون منهم ونموا بها فى الوقت الذى تخلفنا نحن عن ركبها.. وزادت تلك الملاحظة من يقينى من وحدة الحضارة ومن أن ما نسميه خطأ بالحضارة الغربية هى فى حقيقتها حضارة جامعة شارك الكل فى بنائها وهى نتاج تراكم كل الحضارات السابقة.

بل ولعلى أذهب إلى أكثر من ذلك لأقول أن الأوروبيين هم فى الحقيقه سدنة هذه الحضارة والوارثين الحقيقيين لها وأنه ليس لأحد ممن يتكلمون اليوم عن الحضارة الإسلامية المعاصرة الحق فى الحديث أو الالتصاق بها فليس لهؤلاء المتكلمين أية علاقة بها، فقد قام أجدادهم بمطاردة هذه الحضارة «لتهافتها» على فلسفات اليونان وقتلوا بأبشع الطرق حاملى لوائها، وفضلوا العيش فى مجتمعات اعتمدت على النقل وأوقفت الاجتهاد وإعمال العقل فعقمت حياتهم وتوقف الإبداع فيهم حتى أصبحوا اليوم يعيشون على ما تجود بهم الحضارة الحديثة من عدد أو أفكار.

كانت المحاضرة فرصة لأن اختمها بتذكير شباب الحاضرين بماضيهم المجيد ولحثهم لكى يحذو حذو الأجداد، وأن يحكموا العقل وينطلقوا فى إعماله دون قيود أو حدود حتى يستطيعوا أن يبدعوا وأن يشاركوا فى تقديم الحضارة وبنائها بدلا من أن يكونوا متلقين لمنتجاتها.



أزياء المصريين : كيف تطورت فى نصف قرن ؟

بقلم : د. جلال أمين

كانت الملابس فى طفولتى ، أى منذ أكثر قليلا من نصف قرن ، وسيلة سهلة للغاية لتصنيف المصريين إلى طبقات : دنيا ووسطى وعليا، فبمجرد النظر إلى شخص ما كان من السهل عليك أن تحدد الطبقة التى ينتمى إليها . ثم رأيت الأمر يتغير مع مرور الزمن . لا زالت بالطبع حالة الفقر المدقع واضحة كالشمس ، وكذلك الغنى الفاحش ، ولكن فيما بين هاتين الحالتين المتطرفتين ، أصبح تصنيف الشخص طبقيا بالنظر إلى نوع ثيابه ، أصعب بكثير مما كان عليه الأمر فى طفولتى .

الطبقة الدنيا :

منذ نصف قرن كان من أسهل الأمور الجزم بأن شخصا ما ينتمى إلى الطبقة الدنيا وذلك بشيئين رئيسيين يتعلقان بما يرتديه أو لا يرتديه من ملابس، أولهما الجلباب . ذلك أن أفراد هذه الطبقة كانوا ، بدون استثناء تقريبا ، يرتدون الجلباب ، وكان هذا ينطبق على الرجال والنساء على السواء ، على الأطفال والشباب والكهول ، وفى المدينة كما فى الريف . قد يختلف نوع القماش فى حالة المرأة عنه فى حالة الرجل ، وقد يختلف اللون ، ولكن الجلباب كان هو «الرداء الرسمى» لهذه الطبقة كان من المستحيل تقريبا أن تجد من بين أفرادها رجلا يلبس البنطلون أو القميص ، ناهيك عن أن تجد امرأة ترتديهما ، كالذى أصبح شائعا اليوم . كان ارتداء الرجل للبنطلون فى ذلك الوقت يجعله «أفنديا» على الفور ، أى يدخله فى عداد طبقة أخرى ، أما ارتداء المرأة للبنطلون فى ذلك الوقت ، فكان من الصعب تصوره أصلا ، وقد يؤدى إلى وصف المرأة بأوصاف لا يليق ذكرها .

أما المميز الثانى للطبقة الدنيا منذ خمسين عاما فيتعلق بارتداء الحذاء ، ولا أقصد بذلك نوع الحذاء بل عدم استخدامه أصلا ذلك أن «الحفاء» «أى السير عارى القدمين» كان سمة طاغية من سمات هذه الطبقة ، مما جعل مشروع «القضاء على الحفاء» أحد المشروعات الاصلاحية (بل الثورية !) الكبرى فى الأربعينات ، الأمر الذى يدل بذاته على المدى الذى بلغه العجز عن إشباع بعض الحاجات الأساسية فى مصر فى منتصف القرن العشرين .

كان الجلباب وشيوع الحفاء أمرين يشترك فيهما رجال ونساء الطبقة الدنيا فى مصر فى ذلك الوقت ، ولكن نساء هذه الطبقة كانت تتميز عن نساء الطبقتين الأخريين بشئ ثالث هو تغطية الرأس بشئ كاد يندثر إندثارا تاما وهو ما كان يسمى «بالمنديل أبو أويه» . فبقدر ما كان الخروج إلى الشارع بدون أى غطاء للرأس شائعا بين نساء الطبقة الوسطى ومقبولا تماما ، فى منتصف القرن ، كان هذا يعتبر غير لائق بتاتا بين نساء الطبقة الدنيا ، إذ كان يجب تغطية الشعر بهذا «المنديل أبو أوية» وإلا ظن بالمرأة الظنون كانت الفتاة ، أو المرأة التى تشتغل بالخدمة المنزلية ، إذا ظهرت دون أن تغطى شعرها بهذا المنديل ، ينظر إليها وكأنها قد ذهبت فى سوء السلوك إلى أبعد مدى ، بينما كانت سيدتها تخرج دون غطاء للرأس دون أن يسئ أحد بها الظن .

كل هذا أصبح الآن من ذكريات الماضى، بل لم يعد الآن حتى جزءا من ذاكرة معظم المصريين . لقد أصبح الحفاء ظاهرة نادرة للغاية فى المدن ، إذ أصبح أفقر الفقراء قادرا على العثور على حذاء أو نعل من أى نوع ، ولو كان مصنوعا من البلاستيك وانخفضت نسبة مرتدى الجلباب بشدة ، حتى بين أفراد الطبقة الدنيا ، واستبدل به البنطلون والقميص ، فلم يعد ارتداؤهما كافيا لتصنيف الناس فى طبقة دون أخرى ، وكاد يختفى أيضا «المنديل أبو أوية» وحل محله ما يسمى «بالحجاب» ، ولكن الحجاب انتشر أيضا بين نساء الطبقة الوسطى ، بمختلف شرائحها ، فلم يعد غطاء الرأس بدوره كافيا للتمييز بين الطبقات .

الطبقة الوسطى

أما الطبقة الوسطى فإنى أعرف عنها أكثر مما أعرف عن غيرها ، لانتماء أسرتى إليها ، وتحكى لى أمى كيف أنها انزعجت انزعاجا شديدا عندما رأت والدى قادما لخطبتها ، وكانت مختفية وراء الشيش ترقب قدومه لكى ترى لأول مرة ما شكل هذا الرجل الذى سوف يكون على الأرجح زوج المستقبل ؟ انزعجت بشدة إذ رأته يرتدى الجبة والقفطان، وكانت تتمنى رجلا يرتدى الزى الأوروبى . «الچاكتة» والبنطلون ، فقد كانت ترى فى الزى الأوروبى دليلا على «العصرية» ومن ثم معاملة أفضل للمرأة ، وربما أيضا دليلا على خفة الروح والميل إلى المرح ، أيا كان الأمر ، فقد تزوجته على أى حال ، ولا أذكر أنها علقت بعد ذلك أى أهمية على نوع الزى الذى كان يرتديه أبى ، ولا أنها ربطت بين صرامته وقلة ميله للضحك وبين ما يرتديه من ثياب ، إذ لابد أنها صادفت فى حياتها بعد ذلك ما بيّن لها أنه لا علاقة البتة بين الأمرين ، بل لقد خلع أبى بعد ذلك الجبة والقفطان وارتدى الزى الأوروبى بعد تردد طويل ، دون أن يترتب على ذلك زيادة مرحه أو زيادة مقدار الحرية التى سمح بها لوالدتى أو اخوتى .

كان زى الرجال ، من المنتمين للطبقة الوسطى ، ينقسم إلى نوعين أساسيين ! الزى الدينى والزى المدنى أو الافرنجى ، وكان الأول أكثر انتشارا بكثير فى منتصف القرن منه الآن ، إذ ظل التعليم الأزهرى هو الشائع حتى الثلاثينات ، وظلت نسبة المتعلمين فى المدارس الثانوية غير الأزهرية ضئيلة





حتى ذلك الوقت ، واستمر كثيرون ممن تعلموا تعليما أزهريا فى ارتداء زيهم الأزهرى حتى بعد حصولهم على قدر لا يستهان به من الثقافة العصرية ، وحتى لو لم يكن لعملهم أى صلة بالدين . وقد ظل أبى يرتدى الجبة والقفطان لعدة سنوات حتى بعد تحوله من القضاء الشرعى إلى تدريس الأدب العربى بالجامعة المصرية ، حتى غلبه تيار «العصرية» ، وأقنعه بعض زملائه الذين تعلموا فى أوروبا بأن الأدب العربى ، الذى كان يدرسه ، شئ والجبة والقفطان شئ آخر ، ولكنه ظل فترة طويلة يشعر بالاغتراب والاضطراب والخجل وهو يسير بالزى الأوروبى بين زملائه وتلاميذه .

★★★

عندما استرجع فى ذهنى صورة أبى وأنا طفل ، لا أجد فى ثيابه ما يختلف عن ثياب أى رجل آخر فى مثل طبقته ومهنته فى وقتنا الحالى ، باستثناء ثلاثة أو أربعة أمور :

أولها : أنه كان يرتدى الطربوش الأحمر ، وظل على ذلك حتى وفاته فى ١٩٥٤ . وسرعان ما اختفى الطربوش تماما من حياتنا بعد ذلك ، كأثر من آثار ثورة ١٩٥٢ ، وتخلصها من آثار الحكم التركى ، كالطربوش وألقاب

الباشوية والباكوية وأسماء الرتب العسكرية . قد يستغرب بعض القراء أن جيلى ظل مضطرا إلى إرتداء طربوش أحمر ، للذهاب إلى المدرسة حتى بلغنا مرحلة الشهادة الابتدائية ، فى سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة ، وكان البنطلون القصير شائعا أيضا حتى فى تلك السن ، ومن ثم فلابد أن منظرى بالبنطلون القصير والچاكتة والكرافتة مع ارتداء طربوش أحمر وذى زر أسود فوق هذا كله ، كان سيبدو مضحكا للغاية لو رآنى أحد اليوم ، ولكن كان هذا حينئذ يبدو طبيعيا تماما .

كان أبى أيضا كثيرا ما يمسك بعصا جميلة يستند عليها أحيانا ، ولا يحتاج إليها فى معظم الأحيان ، ولكنها كانت من سمات اكتمال الرجولة فى هذا العصر ، بينما لم تعد الآن تستخدم إلا عند وجود حاجة حقيقية إليها ، كثيرا ما كنا نرى أيضا فى يد أبى «منشاة» ، وهى عصا قصيرة متصلة بكمية من الشعر الغزير المصنوع من ذيل الحصان ، تستخدم فى طرد الذباب، وكثيرا ما كانت يد المنشاة ذات جمال ، ومصنوعة من الخشب الفاخر أو الأبنوس ، كان انتشار المنشاة فى منتصف القرن واختفاؤها الآن علامة على عدة أشياء من بينها أن مستوى النظافة العامة كان أقل منه الآن ، ولكن ربما كان الأهم من ذلك ما ابتدعه التقدم التكنولوچى من أدوات تغنى عن المنشاة ، كالثلاجة وأجهزة التكييف والحواجز المصنوعة من السلك المانع لدخول الذباب والناموس من النوافذ والأبواب ، بل وربما أيضا زيادة الحركة بوجه عام وندرة جلوس الرجال ساعات طويلة على المقاهى دون عمل إلاّ تبادل الحديث وطرد الذباب .

لم يعرف أبى أيضا ساعة اليد، فهذه أيضا كانت بدعة عرفتها أنا وأخوتى ولم يعرفها أبى ، إذ كانت الساعة نفسها شيئا ثمينا للغاية وأقل شيوعا بكثير منها الآن (إذ ما الحاجة إلى معرفة الوقت بالضبط إلا لمعرفة ما إذا كان قد حل وقت الصلاة ؟ وحتى هذه المهمة كان يقوم بها المؤذن خير قيام) كانت الساعة فى نظر جيل أبى وأمى أقرب إلى المجوهرات يعتبر ضياعها خسارة فادحة يصعب تعويضها . كان لدى أبى ساعة ولكنها كانت ساعة «بكاتينة» أى سلسلة ذهبية ثبت أحد طرفيها فى الصديرى بينما توضع الساعة فى أحد جيوبه .

فيما عدا هذه الفروق البسيطة كانت ملابس أبى لا تختلف عما يرتديه رجال الطبقة الوسطى الآن ، وذلك بعكس ملابس النساء التى طرأ عليها تطور ملحوظ خلال الخمسين عاما الأخيرة ، بل هو تطور «ثورى» بمعنى الكلمة ، بعكس ما

حققته المرأة المصرية من تطور سريع خلال هذه الفترة ، من حيث خروجها من المنزل للعمل ، واشتراكها فى الحياة العامة .

★★★

مما أذكره مما يتعلق بملابس النساء فى طفولتى ذلك الالتزام الغريب من جانب أمى ، باللون الأسود ، فلا أذكر أنى رأيتها قط خارج المنزل ، وهى ترتدى شيئا غير فستان أسود وطرحة سوداء ، وهكذا كانت تفعل بقية النساء من جيلها ، ومن نفس طبقتها ، حتى قبل أن يفارقن سن الشباب . كان غير ذلك يعتبر من قبيل التبرج غير المقبول اجتماعيا ، بل إنه حتى فيما يتعلق بالبنات اللاتى لم يتزوجن بعد ، كانت الألوان المتاحة لهن محدودة العدد ، وبعيدة كل البعد عن الألوان الزاهية والصاخبة الشائعة اليوم .

هكذا كانت ملابس الخمس أو العشر طالبات فى دفعتى بكلية الحقوق بجامعة القاهرة فى أوائل الخمسينات ، ليس فى ألوانها أو تصميمها شئ يلفت النظر ، وهن يسرن فى غاية الخجل بين نحو ألف من الطلاب الذكور وقد التصقت كل منها بالأخريات خوفا من أن تلتهمن عيون الطلبة الذكور ، لم يكن بين ملابسهن البنطلون أو الحجاب ، ولكنى عندما أنظر الآن إلى أى صورة من صور الطلبة والطالبات فى ذلك العصر ، ألاحظ بدهشة بالغة كيف كانت هذه الملابس ، غير مناسبة ، فى معظم الأحيان ، لحجم الفتاة التى ترتديها فما تراه من ملابس يبدو دائما أوسع كثيرا من اللازم أو أضيق مما يجب ، مع الافتقار بالطبع إلى أى أناقة . ربما كان تفسير ذلك أن الطبقة الوسطى فى مصر ، فى ذلك الوقت ، كانت أكثر اطمئنانا منها الآن ، إلى أن ما ترتديه من ملابس كاف لتمييزها عن الطبقات الدنيا ، ولو كانت ما ترتديه أقل أناقة بكثير مما تريديه الآن ، ذلك أن الطبقات الدنيا ، كما سبق أن أشرت ، كانت ترتدى أنواعا مختلفة تماما من الثياب ، وكافية بمجرد النظر إليها ، لتمييز هذه الطبقة عن غيرها ، ولكن ربما كانت قلة حظ بنات الطبقة الوسطى من الأناقة ، فى ذلك الوقت ، بالمقارنة بها الآن ترجع أيضا إلى اعتماد هذه الطبقة إلى درجة أكبر بكثير من اعتمادها الآن ، على ما تقوم به الأمهات فى منازلهن من تفصيل الثياب لبنات الأسرة ، كانت ماكينة الخياطة «سينجر» ، قطعة ثابتة من أثاث هذه الطبقة ، و جزءا أساسيا من «جهاز» العروس ، التى لابد أن تدخل بها بيت الزوجية .

وكان جهل الزوجة بمبادئ الخياطة يعتبر شيئا مشينا يضعف من فرصتها فى الزواج . كانت هذه الماكينة الصغيرة تدار باليد ، وهذا هو ما كانت أمى تستخدمه باستمرار ، وكان ذلك يتطلب درجة لا يستهان بها من مهارة ، إذ تحرك أمى عجلة الماكينة بإحدى اليدين وتحرك قطعة القماش فى الاتجاه المطلوب تحت الأبرة المتحركة ، باليد الأخرى . ثم تطورت الماكينة قليلا فأصبح من الممكن ادارتها بتحريك إحدى القدمين ، وهذه هى الماكينة الفاخرة التى دخلت بها أختى بيت الزوجية ، وإن لم تستخدمها بكثرة مثلما كانت أمى تستخدم ماكينتها الصغيرة .

الملابس الجاهزة :

ذلك أن تطوراً مهما بدأ يظهر فى الحياة الاقتصادية فى مصر ، وهو كثرة المعروض من الملابس الجاهزة ، الأمر الذى كان يتطلب لظهوره اتساع حجم الطبقة المتوسطة ، القادرة على شراء هذه الملابس، بدرجة كافية تسمح بانتاجها بحجم كبير يخفض من نفقتها .

وقد ترتب على هذه الظاهرة أيضا ، أى زيادة المعروض من الملابس الجاهزة ، أن أخذت فى التوارى عادة أخرى كانت أكثر انتشارا بكثير منذ خمسين عاما وهى اشتغال النساء من الطبقة الوسطى بأعمال «التريكو» ، حيث يقمن بنسج الملابس الصوفية لأفراد الأسرة قبل أن يشيع توافر هذه الملابس فى الأسواق .

ومع انتشار الملابس الجاهزة ، للإناث والذكور ، بدأت ماكينة الخياطة تختفى من المنازل ، وكذلك بدأت تختفى وظيفة «الخياطة» التى كانت إحدى الشخصيات المهمة فى حياة الطبقة المتوسطة المصرية ، كما توارت بشدة وظيفة «الترزى» الذى يقوم بتفصيل الملابس للرجال لنفس السبب . ومع توارى وظيفة «الخياطة» ، وندرة زياراتها لأسر الطبقة الوسطى المصرية ، كان على بنات هذه الطبقة ، اللاتى بلغن سن الزواج ، أن يبحثن عن طرق أخرى للعثور على العريس المناسب ، والذى كانت أخباره تصل إليهن بانتظام عن طريق هذه «الخياطة» .

★★★

ليس من الغريب أن انتشار ظاهرة الملابس الجاهزة فى مصر قد تأخر كثيرا عن انتشارها فى البلاد الأوروبية ، فالأمر يتوقف فى الأساس على حجم الطبقة المتوسطة ، وهذه الطبقة لم تأخذ فى النمو فى مصر بسرعة كبيرة إلا منذ الخمسينات من القرن العشرين ، كان من الطبيعى أيضا أن تبدأ ظاهرة الملابس الجاهزة فى الانتشار أولا فى السلع الأكثر أهمية ، كالأحذية مثلا والجوارب ، ثم





فى القمصان والبلوفرات ، قبل أن تشمل أيضا الچاكيات والبدل الجاهزة التى لم تبدأ فى الانتشار فى مصر إلا فى أواخر السبعينات .

كان أبى إذا أراد أن يشترى لنا بعض الملابس اصطحبنا إلى أحد المحلات فى شارع فؤاد (٢٦ يوليو الآن) أو ميدان العتبة الخضراء ، حيث كان المحل فى العادة ذا اسم أجنبى أفيرينو أو شيكوريل أو شملا أو صيدناوى .. الخ .

واستمرت تجارة الملابس حكرًا للأجانب من الأوربيين ، وكان كثير منهم من اليهود ، أو من «الشوام» ، أى اللبنانين والسوريين والفلسطينيين ، بما فى ذلك المحل الضخم ذو الاسم المصرى «عمر أفندى» ، حتى نهاية الخمسينات ، حين بدأ التمصير على يد ثورة ١٩٥٢ . كانت هناك بعض الاستثناءات البسيطة : محلات ملابس صغيرة ، مملوكة لمصريين ، أهمها محلات «شركة بيع المصنوعات المصرية» ، التى كانت تبيع فى الأساس منتجات الشركات التى أسسها بنك مصر ، كانت هذه المحلات كالجزر الصغيرة فى بحر واسع يسيطر عليه الأجانب ، ولكن حتى المحلات الأجنبية كانت تبيع فى

الأساس ملابس مصنوعة فى مصر ، إذ كانت الطبقة المتوسطة المصرية غير قادرة ، فى ذلك الوقت ، على شراء غيرها ، وكانت الطبقة العليا من صغر الحجم بحيث لم يكن من الممكن أن تعتمد هذه المحلات عليها وحدها . وقد استمر الأمر على هذه الحال حتى نهاية الخمسينات .

★★★

من الممكن أن أصور للقارئ بعض ما حدث من تطور فى ملابس الطبقتين الدنيا والمتوسطة ، خلال نصف القرن الماضى ، من وصف بعض ما رأيته من تطور على ركاب قطار حلوان ، الذى أصبح الآن مترو الانفاق الأنيق ، منذ بدء ركوبى له فى أوائل الستينات كانت التذكرة من المعادى إلى باب اللوق فى أوائل الستينات بثلاثة قروش ، ويمكنك شراؤها من شباك التذاكر قبل ركوب القطار أو الانتظار حتى يأتيك المحصل فى القطار فتدفع وقتها غرامة تصل بسعر التذكرة إلى خمسة قروش ، ولكن حيث أن المحصل كان نادرا جدا ظهوره ، فإن ركوب القطار كان فى الواقع مجانا ، بالنسبة لمعظم الركاب ، إذ لم يكن أحد يسألهم عن التذكرة لا عند الركوب ولا فى القطار ولا عند النزول كان معظم الركاب وقتئذ من مرتديى الجلباب ، وكانت نسبة النساء منخفضة للغاية والحجاب بينهم شبه منعدم، كما كان القطار مليئا بالصبية الحفاة الذين يمرون بين الركاب صائحين ومعلنين عما يحاولون بيعه لهم ، أقراص النعناع ، أو أمشاط الشعر ، أو أحجبة صغيرة للوقاية من الحسد . انظر إلى ركاب هذا القطار الآن فلن تجد رجلا يرتدى الجلباب إلا نادرا مع أن الكثيرين من الركاب من الحرفيين الذين كان الجلباب هو كل ما يعرفونه من ثياب ، وليس هناك رجل أو طفل حافى القدمين ، وارتفعت بشدة نسبة النساء الذاهبات إلى العمل والعائدات منه ، حتى تكاد نسبتهن فى الصباح الباكر تفوق نسبة الرجال ، وتفوق نسبة المحجبات منهن النصف ولكنى لاحظت فى السنوات الأخيرة أن الحجاب قد أصبح أكثر تنوعا ، وأن عناية أكبر تبذل الآن فى اختيار لونه وطريقة تثبيته على الرأس ، وأن كثيرات من مرتديات الحجاب يسمحن الآن بظهور جزء ولو صغير من الشعر المطلوب إخفاؤه ، وأن العناية التى كانت تبذل فى تصفيف الشعر أصبحت تبذل فى اختيار أصباغ الوجه ، بل إن ارتداء الحجاب لم يعد ، فيما يظهر ، يعتبر متعارضا مع مراعاة اعتبارات الجمال فى ارتداء بقية الملابس ، كالحزام الذى يحيط بالوسط ، ولا يتعارض مع ارتداء «جونلة» ضيقة بعض الشئ أو حتى مع ارتداء بنطلون ، وهو

ما كان لا يتصور أن ترتديه النساء منذ ثلاثين عاما .

يحدث لى أحيانا ، إذا ركبت هذا القطار فى طريقى إلى عملى ، أن أقوم من مقعدى لأعرضه على سيدة واقفة ، فإذا بها ترفض منزعجة أشد الانزعاج ، وكأن قبولها لهذا العرض من قبيل المستحيل . قد يكون هذا الرفض راجعا للفرق بين عمرها وعمرى ، ولكنى ألاحظه أيضا عندما لا يكون فارق السن كبيرا . وإذا بى أتأمل السيدة الرافضة فأجد أن من الممكن جدا أن يكون لرفضها أسباب «طبقية» بمعنى أنها لازالت تشعر بأننى «أحق» منها بالجلوس ، وأن الملابس التى ترتديها أصبحت تخفى تماما ما حققته من صعود اجتماعى من طبقة إلى أخرى .

الطبقة الراقية

كان شراء الملابس المستوردة يكاد يكون مقصورا على الطبقة العليا ، وهى التى كانت كثيرا ما يشار إليها بالطبقة الراقية ، هكذا كانت تسمى فى المجلات والصحف فى تلك الأبواب التى تحمل عنوان «أخبار المجتمع» ، وكأن المجتمع المصرى وقتها لم يكن يشمل إلاّ هؤلاء الجالسين فى أعلى السلم الاجتماعى ، وكل من عدا ذلك لا يستحق أن تروى عنه أى أخبار .

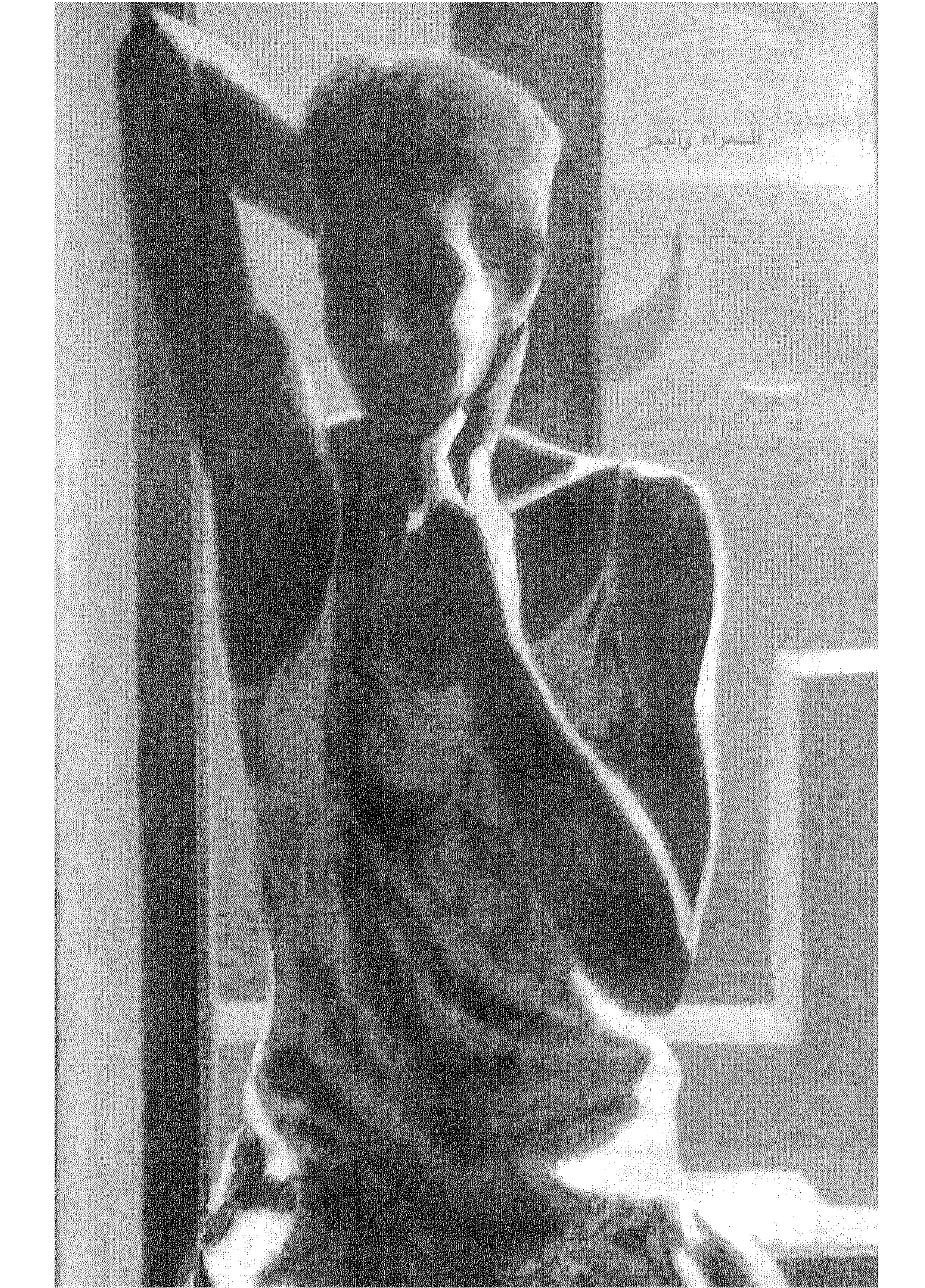
كانت ملابس هذه الطبقة كما كنا نراها فى هذه المجلات وبعض الأفلام ، تتسم بعدة أمور ، منها التسامح الشديد فى إظهار أجزاء عارية من الجسم ، كالصدر والذراعين ، مما لا يمكن أن يخطر على بال أفراد الطبقتين الأخريين أن يفعلوا مثله أو ترك الشعر مرسلا ، مما لا يخطر ببال أفراد الطبقة الدنيا ، ومنها أيضا الاعتماد اعتمادا كليا على استيراد الملابس من الخارج ، مما لا طاقة للطبقات الدنيا أو الوسطى بمثله ، بالإضافة إلى المجوهرات المتلألئة على الجسم والخاطفة للأبصار .

كان الفارق بين منظر هذه الطبقة وأفراد بقية الطبقات شاسعا ، ويفوق بدرجة كبيرة أى فارق بين ملابس طبقات الدخل المختلفة فى مصر الآن ، فلم يكن من المتصور مثلا أن ترى مليونيرا مصريا فى الخمسينات (الذى كان وجوده هو نفسه نادرا) ، يرتدى بلوجينز من أى نوع ، كما قد ترى الآن ، أو شيئا شبيها به ، كما لم يكن من المتصور أن ترى زوجة لمليونير مصرى ، منذ خمسين عاما ، تغطى شعرها بحجاب ، كما يمكن أن ترى اليوم. من المؤكد أن الفوارق بين الدخول والثروات اليوم هى أكبر بكثير مما كانت منذ خمسين عاما ، ولكن من المؤكد أيضا أن هذه الفوارق الشاسعة بين الدخول والثروات لم تعد تظهر سافرة أمام الجميع فى نوع ما يرتديه الناس من ملابس .

بحر حسن سليمان

بقلم : محمود بقشيش

افتُتح بقاعة الهناجر للفنون الجميلة - فى المدة من ١٦ فبراير إلى ١٥ مارس ٢٠٠٠ - معرض للفنان المعروف «حسن سليمان». يضم المعرض حصيلة إنتاج ثلاثة عقود حول موضوع رئيسى هو «البحر» وموضوع محورى / مساعد هو «البورتريه». وفى النشرة المصاحبة للمعرض كتب الفنان خطابا شخصيا إلى «أفروديت» إلهة الحب والجمال والإخصاب. وهى - كما تذكر الأسطورة - إبنة كبير الآلهة «زيوس». وهى تحمل أسماء عديدة، أشهرها اسم «فينوس». وقد جسدها الفنان الإيطالى الفذ «بوتشيللى» (١٤٤٥ - ١٥١٠) فى رائعته المسماة: «مولد ڤينوس»، كما استلهمها الفنان الفرنسى «فرانسوا بوشيه» (١٧٠٣ - ١٧٧٠) فى رائعته المعروفة باسم «مجد ڤينوس».


المرأة والبحر

وإذا كان هذان الفنانان العظيمان قد استلهماها عبر قرون مختلفة فقد تأبت على فناننا المصرى ولم تظهر بصورتها المادية. وأراد لنا «حسن سليمان» باختفائها من لوحاته أن نتنسم عطرها، مثلما فعل الفنان نفسه، واتخذ من بحر الاسكندرية وشاطئها مسرحا للوحاته. وهو مسرح يحرك الشعر والمشاعر، ويثير الفضول إلى ما هو كائن فى الخفاء، ويغرى الفنان بأن يكون شاعرا رومانسياً.

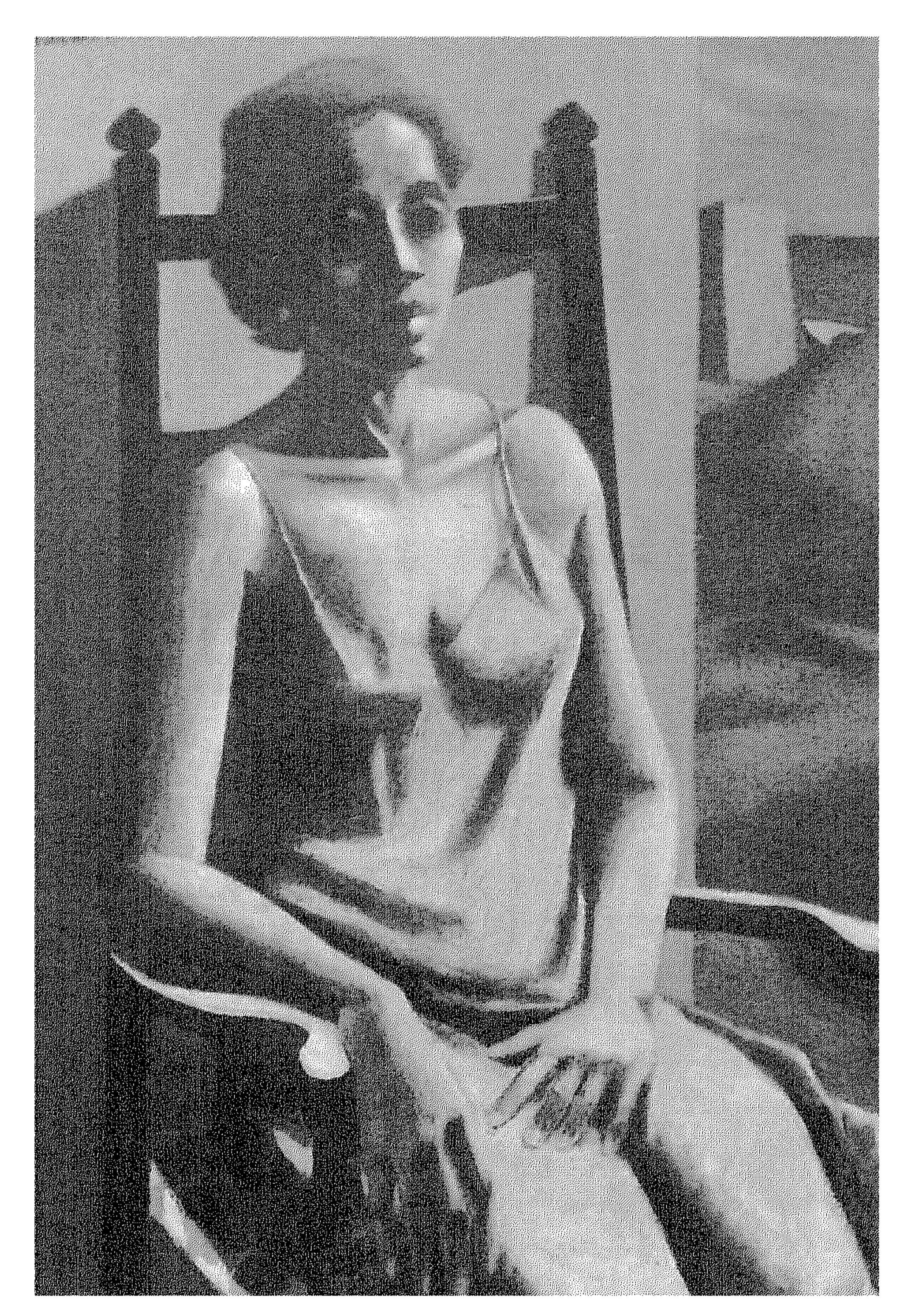
موجودات الطبيعة والواقع

فى الدنيا بحور وجبال وصحراوات وغير ذلك من موجودات الطبيعة، تظل على ما هى عليه إلى أن تدخل بوابة الفن السحرية، عندئذ تكتسب ميلادا جديدا، مغايرا للأصل وإن تشابه معه فى بعض ملامحه الخارجية. قد تتساقط بعض حقائق المنبع الأصلى، فيما يبقى ارتباطها بالفنان متجددا، قد تغيب عن ذاكرة بعض مؤرخى الفن ونقاده تلك الخرافات الشعبية التى ارتبطت بجبل «سانت ڤيكتوار» غير أنهم لا ينسون الدور التاريخى للوحة «سيزان» التى استلهم بها هذا الجبل. والآن عندما يذكر إسم اللوحة يذكر إسم الفنان قبل الجبل. وعندما تدخل مشاهد الطبيعة والحياة المعيشة عبر البوابات السحرية يصبح الفن هو الأعلى قدرا وقيمة: ويمكننا أن نسأل: هل اكتسبت السيدة «موناليزا» أهميتها التاريخية لكونها جميلة الملامح، أم لأنها تزوجت السيد «فرنشيسكو دل جوكو ندو» أم لشئ أعظم من ذلك، هو أنها صارت لوحة بريشة عبقرى عصر النهضة الإيطالية «دافنشى» (١٤٥٢ - ١٥١٩)؟.. وهل كان من الممكن أن يكتسب دير فى غابة موحشة أى أهمية قبل أن يصبح لوحة رائعة، رسمتها ريشة لا نظير لدقة صاحبها بين فنانى القرن التاسع عشر، تلك الدقة والبراعة المدعومة بفيض إيمانى عميق لمبدعها الفنان الألمانى «فريدريش» (١٧٧٤ - ١٨٤٠)؟.. وقد تزداد المسافة بين الواقع واللوحة للدرجة التى يبدو فيها الانقلاب شديدا، مثلما حدث مع لوحة «بيكاسو» الشهيرة «فتيات أفينيون»، فما أبعد المسافة بين فتيات الهوى اللاتى يعملن فى شارع أفينيون للدعارة بمدينة برشلونة ولوحة بيكاسو التى أعلن بها مولد التكعيبية سنة ١٩٠٧ وفجرت اللوحة ثورة لا تزال آثارها قائمة حتى الآن.

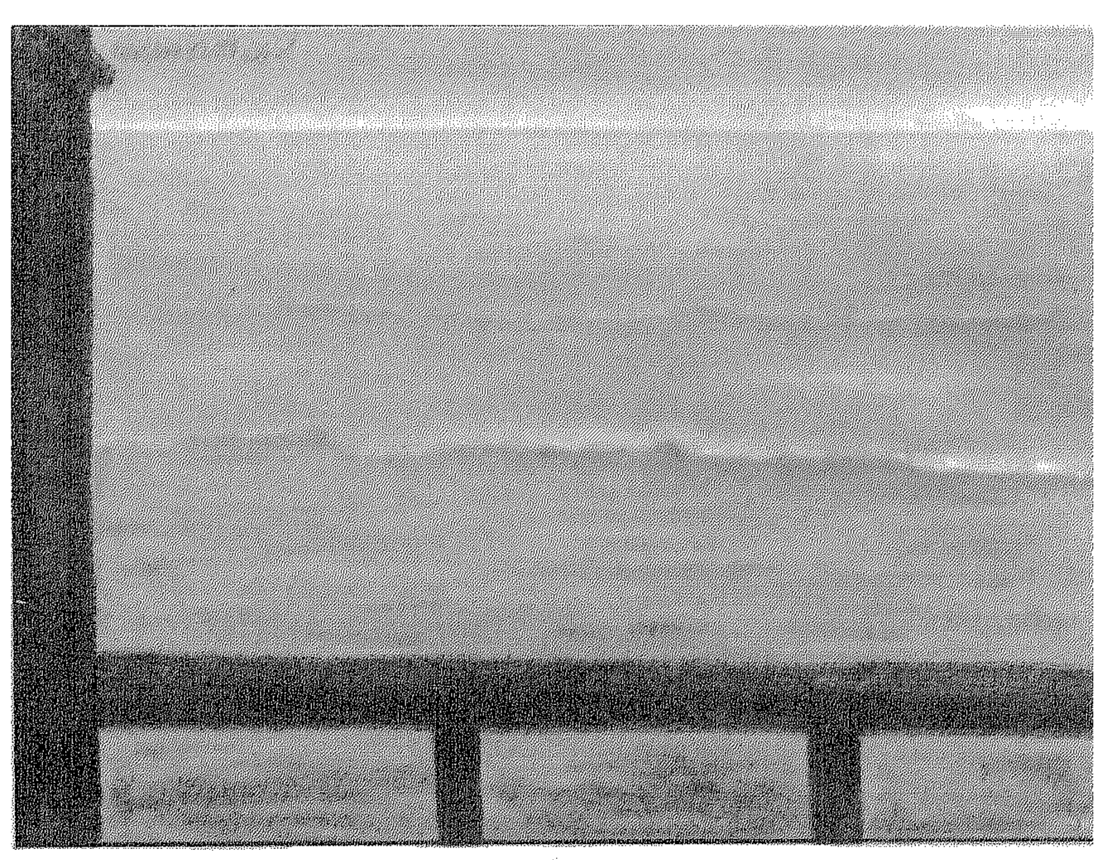
تجليات البحر

عندما دخل البحر عبر بوابة الفن السحرية تجلى فى حالات متباينة، اختلفت باختلاف الفنانين أنفسهم، واختلاف مذاهبهم الفنية، وارتبطت ملامح كل بحر بالمبدع الذى استلهمه، فهو عاصف، عنيف عند «تيرنر» مأساوى عند «جيريكو» -

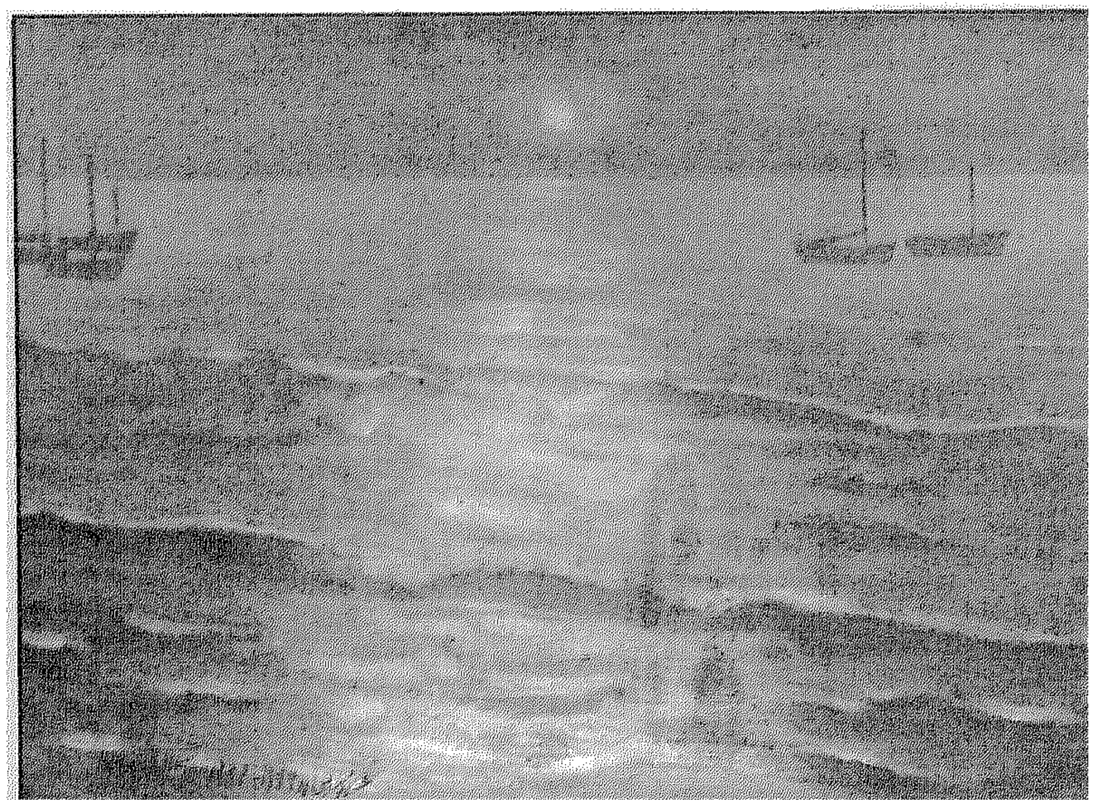
خصوصا مع رائعته المسماة «طواف الميدوزا» – وقد شاهدت تلك اللوحة فى متحف اللوفر وشعرت وأنا أتأملها بأنى أتعرض لنفس الهول الذى يتعرض له هؤلاء المساكين، تتقاذفهم أمواج عاتية، لا سبيل إلى مقاومتها. زاد من جسامة شعورى بالألم ضخامة مساحة اللوحة: (٤٩١×٧١٦سم) وأذكر يومها – رغم إعجابى بعبقرية الفنان الذى اختطفه الموت فى عز الشباب – أنى لعنت كل بحار العالم عندما تكون غاضبة!.. وهناك بحر ديلاكروا الرهيب وقد استلهمه من جحيم «دانتى». وهناك بحر «فريدريش» – أعظم رسامى المناظر الخلوية فى القرن التاسع عشر – تتراوح بحاره التى رسمها بين الوحشة والتصوف والعنف. ومن يستطيع من نقاد الفن أن ينتزع من ذاكرته بحر «ماجريت» المفزع – خصوصا رائعته المسماة «صخرة دبيبرينيه» وقد ظل انتحار أمه من فوق أحد الكبارى يلاحقه كلما رسم سطحا مائيا. ويحتاج تفصيل كل ما ذكرت إلى كتاب، ما يعنينا الآن هو بحر «حسن سليمان» وهو إبن القاهرة – بكل ما تعنيه الكلمة من معنى – وعندما اختار موضوع البحر وشرع فى تنفيذه منذ ثلاثين عاما كان أمامه تحد كبير هو أن البحر بالنسبة لمحمود سعيد وسيف وانلى يمثل موضوعا رئيسيا فى لوحاتهما. وكان على «حسن سليمان» أن يقدم شيئا مغايرا لما قدمه الفنانان الكبيران. ولأنه معتد بنفسه، واثق من موهبته، طفل مشاكس – على حد تعبير صافى ناز – فإنه أعد نفسه للمنازلة، وأدرك أنه لكى يحدث هذا فإن عليه أن يكون صادقا مع نفسه وأن يكون البحر بفضائه الفسيح امتدادا لموضوعاته البيتية، الحميمة التى استغرقته سنوات طويلة، وكانت سببا فى شهرته – أعنى – القوارير والأوانى والفواكه التى لا يرسمها إلا بعد أن تكون قد تيبست. كان يزهد فيها عندما تكون نضرة، متألقة باللون، على النقيض مما كان يفعله «سيزان» مع تفاحاته المزدهرة. كان ولا يزال – فيما أظن – يفضل أن يتأمل بصمة الإهمال فى جسد الثمرة ولا تنشط شهيته لرسمها إلا بعد أن تكون قد ذبلت. وفى ظنى أن «حسن سليمان» يرى أن البهاء الذى يغرى التأثيريين بالرسم وقتى وزائل أما ما يتركه الزمن من الآثار فى المادة فإنه باق بها لأن فى الآثار زمانين: زمن فى الماضى وقد انتهى أمره، وزمن فى الحاضر يعلن عن نفسه عبر تحولات الشكل. ولا شك فى أن تلك التحولات تحرك نوازع التأمل لدى المصورين الشعراء أمثال «حسن سليمان» وعلى النقيض من هشاشة أشكال الرسامين التأثيريين كان يحرص «حسن سليمان» على تأكيد كتلة الشكل ، تأكيد للدرجة التى يبدو فيها أشبه بقطعة نحت،



ذات الرداء الأخضر



من لوحات البحر.. للفنان : حسن سليمان



مما أعطى أشكاله تماسكها وصلابتها، لهذا بدت قواريره وأوانيه أشبه بصخور نفض عنها كل الألوان التى يتعلق بها التأثيريون عادة وتمسك بالجوهر. والجوهر هنا هو الكتلة، كان من الطبيعى أن يذهب إلى بحر الإسكندرية مفعما بعطر الزمن القديم ووقار الألوان الرمادية.

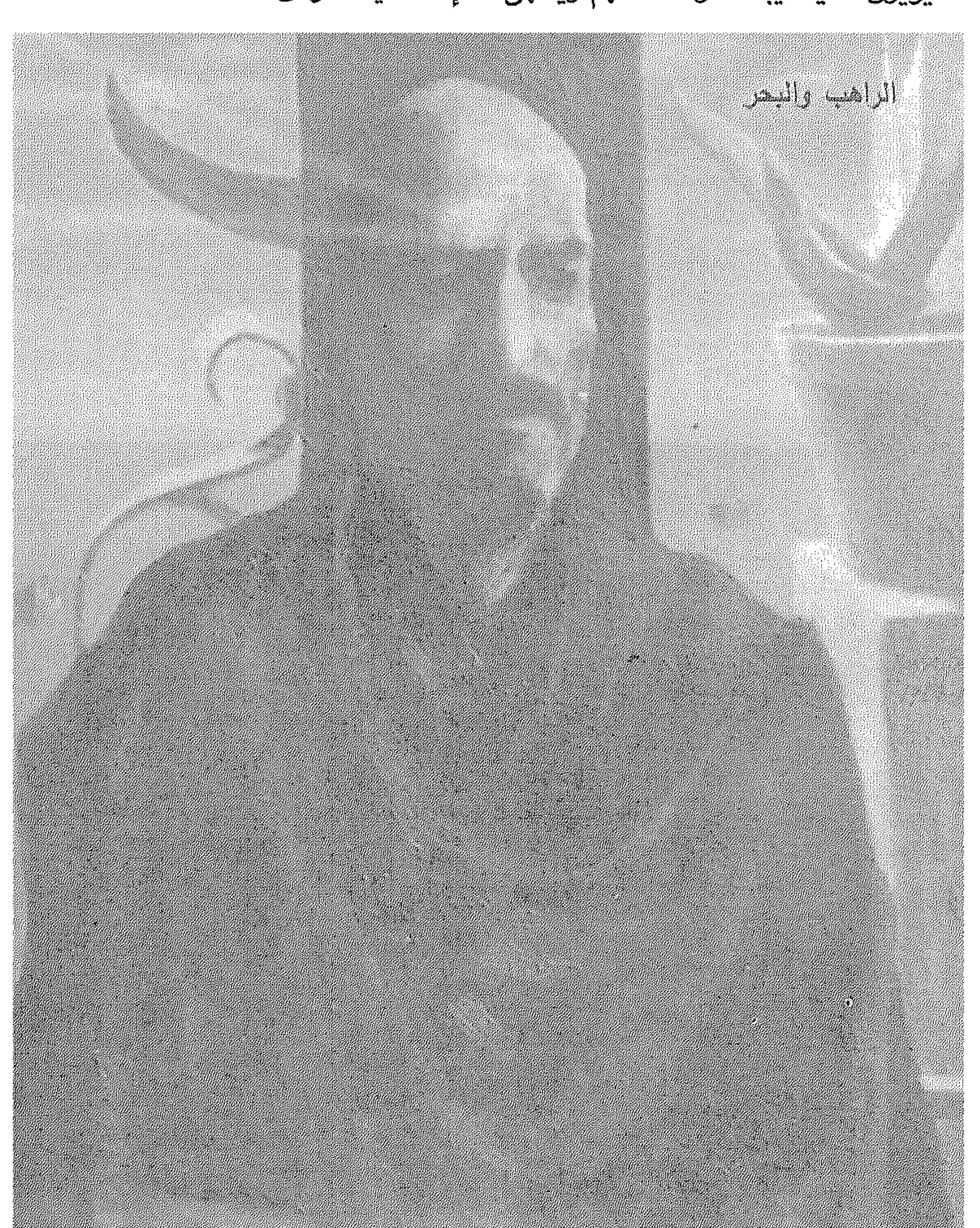
المراكب

لم يذهب فنان مصرى إلى البحر دون أن يرسم مراكب الصيادين الصغيرة على شاطئه. وكان من الطبيعى أن يفعل «حسن سليمان» ذلك. وبالنسبة له لم يرسمها باعتبارها من لزوميات البحر وحسب، بل لأنها أقرب الأشكال المعمارية إلى موضوعه الحميم وهو «الطبيعة الصامتة»، ومثلما كان يفعل مع عناصر الطبيعة الصامتة فعل مع هياكل المراكب الخشبية، بأن أسبغ عليها حسا فظهرت وكأنما هى كيانات حية، تناسلت من الخيال، وهو ما لم يفعله غيره من الفنانين المصريين الذين رسموا شاطئ البحر. وكان أحسنهم حالا من توقف خياله عند حدود الوصف المحايد. إن «حسن سليمان» يتمتع بمقدرة لافتة فى جعل الشكل المألوف يبدو وكأنك تراه للمرة الأولى، ويغويك بالدخول عبر دروب تبدو - للوهلة الأولى - وكأنك عبرتها من قبل وإذا به يقودك إلى متاهة فى نهاية المطاف: فى إحدى لوحات المعرض (وهو لا يسمى لوحاته) تظهر شخوص يدل تماسكها على أنها أسرة واحدة تتجه نحو البحر. ويظهر في ركن من الأركان شكل كرة. المشهد يبدو بسيطا، غير أنك عندما تتجاوز اعتيادية الوهلة الأولى تكتشف مالم تكن تتوقعه وهو أن الأسرة فى طريقها إلى متاهة لا تعلم من أمرها شيئا، تؤكده تلك المساحة الظلية العريضة التى تبتلع معظم مسطح اللوحة. وهو ظل بلا مصدر اعتاده الرسامون الميتافيزيقيون لإثارة الشعور بالرهبة وبالفضول فى آن واحد..

الوجوه

عندما ظهرت الوجوه تراجع البحر إلى خلفية اللوحة، أما الوجوه التى رسمها فهى وجوه تليق بالبحر، استبطانية، متأملة، يشوبها شئ من الحزن، تبدو متعففة إذا قيست بنساء محمود سعيد اللائى يكشفن بوضوح عن رغبات الجسد. فى لوحة بعنوان: «ذات القميص الأخضر» (والعنوان وصفى من عندى) لا أستبعد أن يكون «حسن سليمان» قد رسمها خصيصا لمواجهة لوحة «سعيد» المسماة «ذات الرداء الأزرق» وهى تناقض الحالة التعبيرية التى ظهرت بها لوحة «سعيد» فهى عند حسن سليمان مغتربة حزينة فيما ظهرت لوحة محمود سعيد مفعمة بالأنوثة والاعتداد بالنفس وحب الحياة.. ولتأكيد الجو الميتافيزيقى للبحر، فى إحدى لوحات «الوجوه الشخصية» اختار الفنان

وجيه وهبه ليكون (موديل) وألبسه ملابس الرهبان القاتمة، وسيد «حسن سليمان» حالة تعبيرية ثابتة فى كل الوجوه بغير استثناء هى حالة الانطواء والحزن. ومن ثوابتـه أيضـا والتى تناسلت من مـرحلة القوارير والأوانى وظلت تلازمـه، مشيرة إلى الزمن، هى طريقته فى معالجة عجائن الألوان الزيتية، فهو يرفض العجالات الاستعراضية التى يحتفل بها الفنانون التأثيريون، حيث يبدأ الواحد منهم وينتهى من رسم لوحته فى موقع الرسم، فى حين تظل طبقة العجائن اللونية عند «حسن سليمان» زمنا قد يطول لسنوات قبل أن تستقبل طبقة جديدة. ومع الزمن يمنح تيبسها الإحساس بآثار الزمن وإيحاءاته الشعرية. إن تلك الطبقات المتراكمة أو المتراكبة تتسق مع الدعوة التى تلح عليها لوحات «حسن سليمان» وهى الدعوة إلى إعلاء قيمة الزمن.


الراهب والبحر

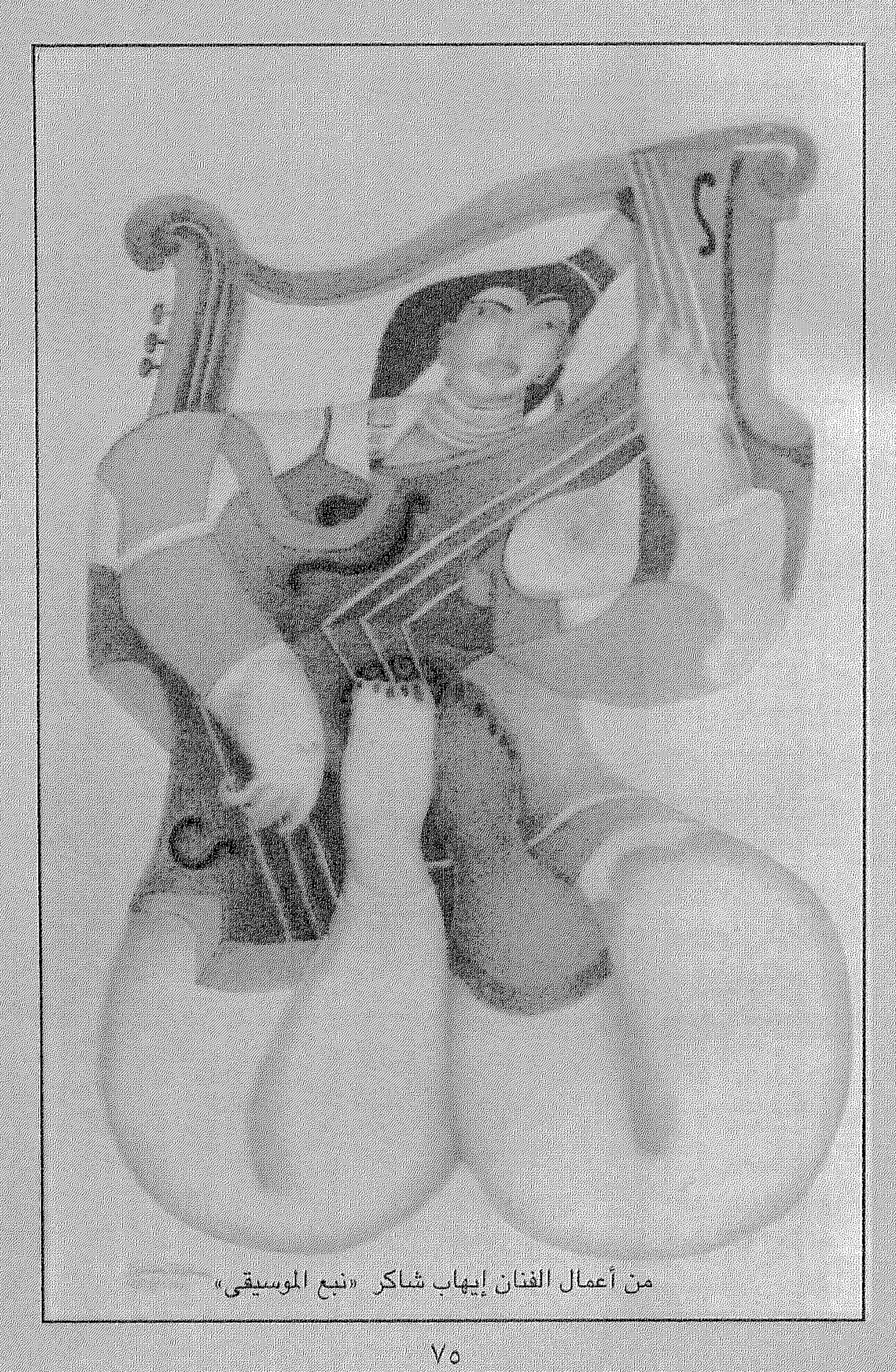
قيثارة إيهاب شاكر

بين اللعب .. والتجريب .. والتفجير !

بقلم :عزالدين نجيب

يحار المرء وهو يتأمل لوحات الفنان إيهاب شاكر الجديدة (بمعرضه بخان المغربى) : هل تتطلع إلى ذرى حسية مجنونة، سكرى بخمر الأنثى ، أم إلى ذرى موسيقية نشوى بدغدغة الطرب ، أم إلي ذرى صوفية عطشى لمنابع عشق مستحيل إلا في الجنة ؟.. أم هى جماع كل تلك التطلعات ؟..

لقد عودنا إيهاب - من خلال تجاربه المتوالية - على الإبحار عكس التيار ، وعلى المفارقة مع السائد من أساليب الفن، بل مع نفسه فى كثير من الاحيان .. فهو حداثى النزعة حتى النخاع ، لكنه يسبح عكس تيار الحداثة المغتربة والمتأمركة فى حركتنا الفنية المعاصرة ، مبتدعا حداثته الخاصة ، النابتة من أرض وطنه ، والمضمخة ببخور إبداعها الشعبى وروحها الفطرية وحضاراتها المتصلة . وهو حميم الارتباط بالواقع ، لكنه دائب التجاوز له والتحليق فى سمائه ، صانعا كوكبه الخاص المستعصى على التنميط والتقليد، وهو شديد الإلتصاق بالحسى


من أعمال الفنان إيهاب شاكر «نبع الموسيقى»

والعينى والعضوى فى الحياة والإنسان ، لكنه مسكون بالحلم والخيال الجامح ، محلق فوق المحسوس والمتجسد ، إلى حد ملامسة التجريد معنى ومبنى . وهو بسيط الموضوع والأسلوب ، أحيانا إلى حد السذاجة والفطرة ، بما يخاطب مختلف مستويات التذوق والتلقى ، لكنه مركب التكوين إلى حد التعقيد أحيانا أخرى ، وهو مرهف الخطوط والألوان حتى الشفافية والتماهى مع فضاءات بغير حدود ، لكنه كثيف الظلال محدد الأشكال فى الفراغ إلى حد مقاربة الكتل النحتية .. وأخيرا فهو شغوف بالتفاعل والتأثير فى جمهوره حتى الكاريكاتير والرسوم التوضيحية أحيانا ، لكنه حريص على بقاء مسافة غامضة ملتبسة بينه وبين مشاهده، تسمح بالتأويل على مختلف الأوجه ، وقد لايعنيه أن تحمل لوحته أنه رسالة غير رسالتها الجمالية فى أغلب الأحيان .

● التجريب

فى معرضه السابق خلال العام الماضى (بنفس القاعة) ، كان إيهاب يزداد اقترابا من المزاوجة بين كثير من هذه النقائض ، من خلال عنصر العازف الشعبى ، وأتاح له ذلك ممارسة التجريب بحرية على أوسع نطاق ، لكن ظل هاجس التجريب هو المسيطر ، وبقيت المسافة بادية - عند تلقى أثر لوحاته - بين الحس والإدراك ، بين الشكل والمعنى ، ومن ثم ظلت التجربة محصورة فى إطار تجريبى ، كمن يؤلف لحنا للحجرة ، كنوع من الرياضة التقنية للسيطرة على أدواته البنائية ، يطرب له شخصيا دون أن يشغل نفسه بأن يطرب أحداً غيره ، وفى هذا السياق فقد أنجز تجارب شديدة الأهمية على وسيط آخر هو شفافات الرسوم المتحركة فى السينما ، التى كانت حقل تجاربه على جماليات العزف بالأشكال والألوان ، وعلى التوافق الحركى والقياس الزمنى لإيقاع الصورة واللحن ، ما أهله للحصول على جائزة كبرى للإبداع فى هذا المجال بفرنسا منذ سنوات بعيدة .

لقد كان أثر هذه التجربة جليا فى لوحات معرضيه الأخيرين .. إن بوسعنا أن نحلل لوحته بمقاييس هندسية من خلال أشكال خط مستقيم والمنحى والمستدير وأسس التقابل والتعامد والتوازى والتقاطع والتداخل والتباعد ، عبر الخطوط الأفقية والرأسية ، والزوايا الحادة والقائمة والمنفرجة ، والتوازن السيمترى والترديد الزخرفى للوحدات ، بما يشبه الذبذبات الصوتية .

فماذا يميز - إذن - معرضه الجديد عما سبقه ؟

لقد إندمج الحس التجريبى الهندسى السابق فى حالة شعورية جياشة ، ما ولّد لدينا شعورا بنبض قوى متفجر ، وذلك

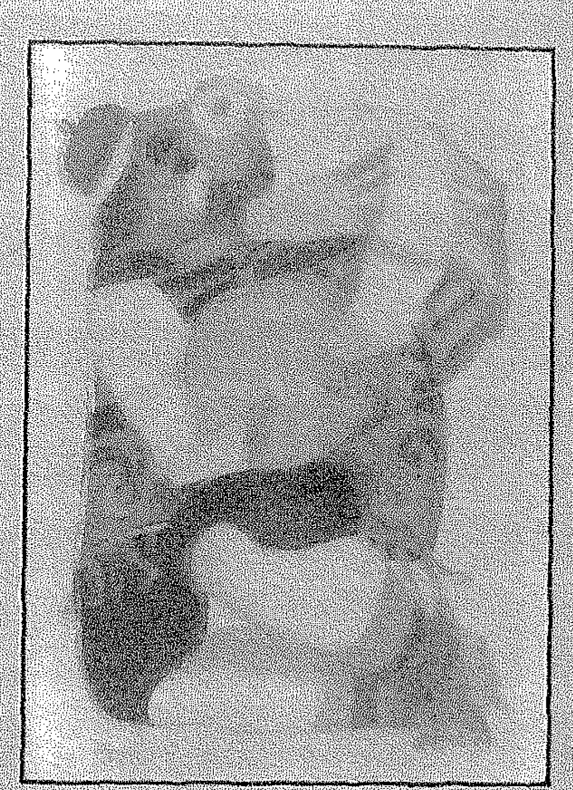
من خلال بطل أساسى هو جسم المرأة ، الذى لم يعد مجرد جسم يحتضن آلة موسيقية مثل القيثارة أو الكمان ، بل هو كيان «تموسق» متوحدا مع اللحن الموسيقى والآلة التى يخرج منها. إن الجسم ذاته يتشكل تشكلاً موسيقيا ، ليس فقط من خلال تداخل أوتار الآلة الموسيقية ونقوشها وهيكلها داخل جسم المرأة وكأنهما نسيج واحد ، بل أيضا من خلال ذبذبات وترية لحركة الجسم ، إذ تتكرر خطوطه فى أقواس متواترة متوازية ، أو ينتفخ وينقبض مع طبقات صوت آلات النفخ ، أو يهتز راقصا رقصة مذابة فى أنغام السيكا والنهاوند ، أو يتمطى ويتلوى ويلتف حول نفسه كالبريمة ، أو ينفتل كالحبل ، أو يتكور كالبالون حتى يطير ، أو ينضغط كقطعة من الاسفنج فى قبضة اليد .

إن قانون التشريح الفيزيائى يتخلى عن شريعته لقانون الطاقة الديناميكية المنفلتة من عقالها ، معلنة العصيان ضد قانون الطبيعة ، لتفجر كل أسوار كبح العواطف والانفعالات ، محكمة فى الوقت ذاته قانونها الرياضى الخاص ، ليحمى هذا الانفلات العاطفى من العشوائية والاستهلاك المجانى ، ويقوده نحو حالة من الوجد الصوفى ، حيث تذوب الرغبات والحواس ، وتتماهى فى كنه الوجود .

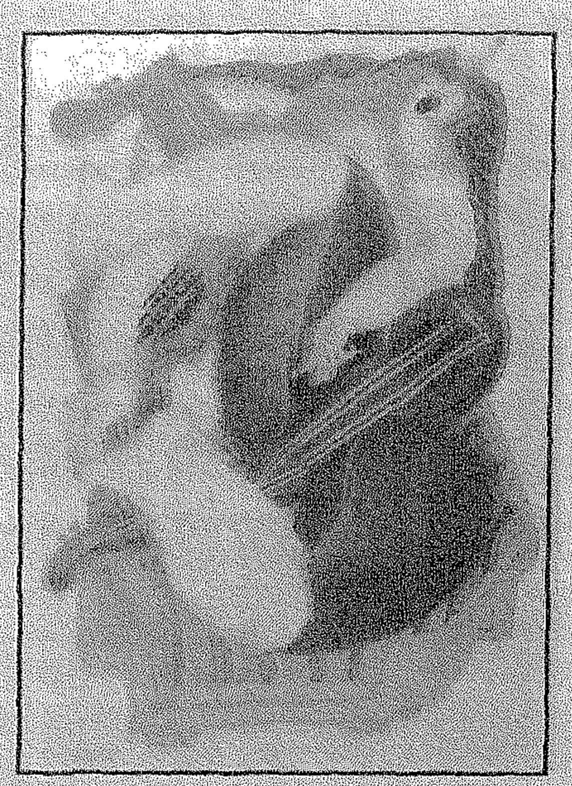
لايهم أن نسأل من أين ينبت الذراع وكيف ينثنى الجذع أو الركبتان ، وكيف تنتهى أصابع القدمين مثل زعانف السمكة، وإلى أى إتجاه يلتوى الخصر فوق انتفاخ العجزين وإستدارة الفخذين ، ولا يهم أن نسأل أين تضع العازفة قيثارتها وكيف تعزف عليها وكيف تتداخل الأوتار مع تلافيف جسمها وما إذا كانت تمسكها بيديها ، أو بقدميها إنها تولد من داخلها وتظل ترتبط بها بحبل سرى ، بل حتى لايهم أن نسأل عما إذا كانت تلك القيثارة جمادا أم عضوا فيزيائيا ينمو ملتحما بجسدها ... لأن كل تلك أسباب مادية ومبررات منطقية ، تتضاءل أمام «الحالة الكلية» من الذوبان المحموم لحواس الجسد الأنثوى فى أنغام الموسيقى ، تلك الحالة التى تمثل غاية ذاتها ، ولا تضع فى حسبانها من يراها ومن يتأثر بها ، تماما كما يذوب عازف الجيتار داخل معزوفته ، وينسى تماما أين يعزف ولمن ولماذا يعزف ، فهو منفصل منسجم مكتفٍ محلق طائر في سماوات بغير حدود .

● الوجدان الشعبى

وقد يتجاوز الفنان حالة الذوبان فى الموسيقى ، إلى حالة أخرى من تحول الأجسام البشرية إلى أشكال أسطورية ، كالحيوان أو الطائر أو السمكة ، فتحيلنا إلى صعيد من التداعيات التى تعشش فى الوجدان الشعبى والحكائى المتوارث ، عن

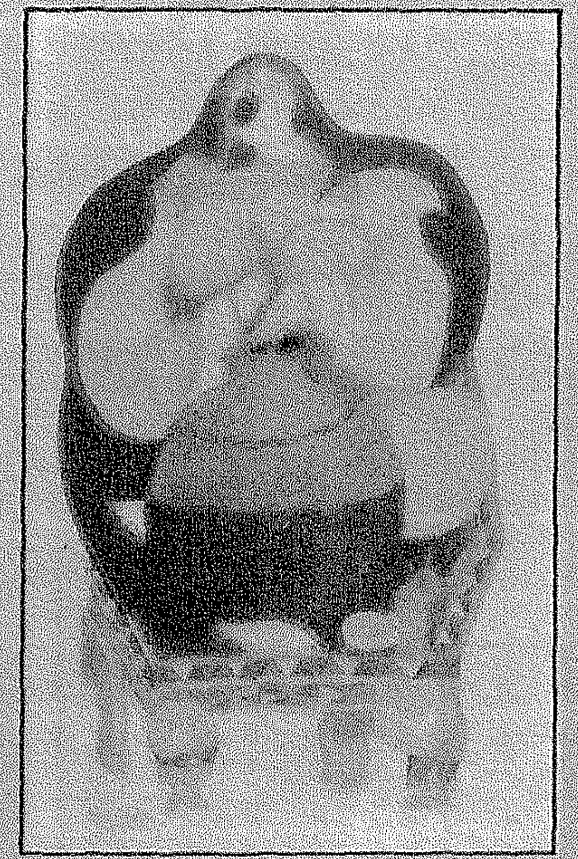


الطائر والفارس والطبلة
فرسة جامحة



ولوحتان ضمهما المعرض الأخير للفنان
ايهاب شاكر





حواديت النداهة والجنية والشاطر حسن وعروس البحر ، لكنها في المردود الجمالي والتعبيرى الأخير : حالة أخرى من إنعدام الوزن ، والخلاص من قانون الجاذبية الأرضية ، يتم فيها تحرير الإنسان من أية كوابح أو «تابوهات» وضعية ، ليمتلك كامل إرادته الحرة فى التعبير عن نوازعه الطبيعية ..

أنظر إلى تلك المرأة باللون الرمادى المزرق ، وهى تتأود وتتثنى مثل حرف S مقلوب : أليست أقرب إلى فرسة جامحة تستنشق . بخياشيمها كل أوكسجين الكون ؟.. وأنظر إلى ذاك الطائر إذ يجثم بجناحيه على صدر الفارس وهو ينقر على الطبلة فيما يدغدغ وجهه بمنقاره .. أليست حالة من الوجد المشبوب تقمصت إطارا سرياليا محفوفا بالأسطورة ؟!

ولعل هذا الإطار السريالى الأسطورى كان عاملا مساعدا للفنان فى تخطى المقاييس والأعراف الطبيعية والمنطقية والأخلاقية ، وفى ممارسة العملية الإبداعية من منظور الطفل الذى يلعب مع نفسه دون حساب لشيء ، فيكفيه أن يستمتع بلعبته ، واللعب يغرى بمزيد من اللعب ، ويعدى الآخرين ليشاركوا فيه ... وهكذا يجد المشاهد نفسه شريكا فى اللعبة بغير استئذان ، أو مثيرا للأسئلة التى تولد بدورها أسئلة أخرى ، ولن تجد إجابات لها إلا من داخله هو .

وقد اختار الفنان أبسط الأدوات لممارسة لعبته الإبداعية : ورقة بيضاء ، وقلما خشبيا صغيرا جاف الألوان محدود القدرة ، لكنه ممدود الخط منساب بغير توقف كخيوط دودة القز ، قادر على خلق قدرات تقنية تتجاوز طاقة الخامة ، منقاد «بريموت كونترول» يبدأ من عقل الفنان فى موجات كهرومغناطيسية ، تلهب فى طريقها إلى يده مخزون المشاعر بداخله ، فتفيض على الورق منسابة دافئة ، أو ملتاثة صاخبة ، أو محمومة مهتاجة ، أو راقصة مغناجة .

وإذا كانت الحصيلة النهائية لهذه الرؤية الإبداعية المدهشة هى تحقيق أقصى قدر من الحرية للإنسان ، من خلال عزف الفنان على آلته الموسيقية الخاصة ، سواء كانت قيثارة أو عودا أو جسد امرأة، فلعل من حق الناس عليه أن يوسع مساحة ملعبه ومفرداته الموسيقية ، لتشمل المزيد من التنوع كما الحياة ذاتها ، فهذا كفيل بتحقيق المزيد من المتعة لهم ، ومن فرص النجاة لإيهاب شاكر نفسه من الوقوع أسيرا لأنماط محدودة صنعها بنفسه ، فصارت قيدا على خياله !.

القوقاز.. الحرب والشعر من بوشكين إلى حمزاتوف

بقلم : أحمد الخميسى

«النبيل والوضيع فى حروب القوقاز من بوشكين إلى بوتين» عنوان مقال الأستاذ محمد يوسف عدس المنشور في عدد الهلال السابق. و«بوشكين» هو عاصفة التجديد والبناء التى فتحت للأدب الروسى الحديث كل الدروب الفنية للمرة الأولى، أما «بوتين» فهو رئيس الوزراء الذى يحكم الآن. وعلى نفس نهج عنوان المقال الذى جمع بضربة سريعة بين أول شاعر روسى عظيم وآخر حكومة هزيلة، مضى الكاتب فأجرى قضايا الأدب فى عروق السياسة، وشئون السياسة فى شرايين الأدب، بحيث أصبح الفصل بينهما - للمناقشة - أمرا يحتاج إلى مشرط دقيق.

وبداية فإن المقال يجتهد لمناقشة الصراع الروسى - الشيشانى من منظور جديد: ثقافى سياسى، وهذا خلاف للتناول الشائع بطابعه السياسى الأحادى الذى يتعرض لقشور المسألة دون الخوض فى أبعادها الأخرى. إلا أن هناك بعض النقاط التى تستوجب استكمال هذا الحوار الهام.

وعلى الصعيد الأدبى يعتبر الأستاذ عدس على حد قوله إن محاولة التعرف الروسية على حياة شعوب القوقاز كانت حافزا على: «إنتاج أدبى هو الأكثر ثراء فى تاريخ الأدب الروسى الكلاسيكى كله». وهو حكم يجافى الحقيقة بالكامل ، لأن تاريخ الأدب الروسى الكلاسيكى أكبر بكثير من مجرد أربعة أو خمسة أعمال تعرض فيها الأدباء الروس للقوقاز. وإذا كان بوشكين أمير الشعر الروسى قد كتب «أسير القوقاز» فإن أعماله الكثيرة اللاحقة هى التى بلورت أهميته الأدبية والفكرية، أما «ليرمنتوف» فلم يكتب عن القوقاز سوى قصائد معدودة. أما ليف تولستوى فإن عظمته كروائى عالمى تعود إلى «الحرب والسلام» و «آنا كارنينا» وليس بفضل روايته «الحاج مراد» . ولا يستطيع أحد أن يدعى أن الأعمال الأدبية القليلة كما والبسيطة كيفا والتى استشهد بها الأستاذ عدس هى: «الأكثر ثراء فى

تاريخ الأدب الروسى الكلاسيكى كله»! .

من ناحية أخرى يشير الكاتب إلى قصة (وفى موضع آخر رواية) «سجين القوقاز» التى كتبها بوشكين ، والاسم الصحيح لهذا العمل ليس «سجين القوقاز» بل «أسير القوقاز» وشتان بين المعنيين، الأكثر من ذلك أن العمل المشار إليه ليس قصة أو رواية كما يقول الأستاذ عدس بل قصيدة شعرية طويلة! .

الأكثر أهمية من مجرد الخلط بين ما هو قصة (أو رواية) وما هو قصيدة شعرية طويلة، ذلك التفسير الخاطئ لموقف بوشكين من القوقاز وفقا لقصيدته الشهيرة. وقد أعتبر الأستاذ عدس أن بوشكين يقدم قبائل الشركس القوقازية باعتبارها: «شعبا حرا، مستعدا للقتال حتى الموت فى سبيل حريته» .

إن تاريخ الشعر والشاعر الذى مات مبكرا فى مبارزة دفاعا عن شرفه لا يوحى بأنه أضاف الأبيات التى يشير إليها الأستاذ عدس احتياطا لغضب السلطات الروسية! أما التفسير الحقيقى لتلك الأبيات فهو أنها - لا تتناقض مع موقف بوشكين المفترض - بل إنها تتويج لهذا الموقف الذى تشبعت به القصيدة بكاملها: أى موقفه القومى كروسى يستشعر أن عظمة بلاده فى توسيع رقعة أراضيها وإخضاع المناطق الملاصقة لها!.

يقول بوشكين فى نهاية قصيدته:

«فلتنحنى الرؤوس البيضاء

ولتستسلم أيها القوقاز:

إن يرميلوف فى الطريق إليك»

ويرميلوف هذا هو قائد الحملة العسكرية على شعوب القوقاز عام ١٨١٧ وهو صاحب العبارة الإجرامية الشهيرة : «أريد لاسمى أن يلقى بالرعب فى نفوس القوقاز وأن تكون كلمتى قانونا يخضعون له كالموت الذى لا مفر منه»!

وبعد ذلك يمضى بوشكين فى قصيدته ليقول بصراحة أشد:

«ما من شئ لا يخضع للسيف الروسى:

أبناء القوقاز المتكبرون

يا من قاتلتم وقتلتم بوحشية

سيأتيكم الروسى من دون خوف

حيثما اتخذتم اختبأتم فى أوكاركم».

وقد وصف بوشكين حياة القبائل الشركسية القوقازية وصفا موضوعيا معربا عن اعجابه بالطبيعة الجبلية ونهر «تيريك» الذى وصفه قائلا : «أصطخب النهر وزمجر كوحش صغير يلمح الطعام من داخل القفص»، ولكن ذلك كله كان مبطنا فى نسيجه العام بالدعوة إلى روح المغامرة والقوة والغزو. وفى رسالة له يقول بوشكين بصدد هذا العمل: «أردت أن أصور شيخوخة الروح السابقة على أوانها والتى غدت سمة مميزة لشباب القرن التاسع عشر».

بهذا المعنى الذى تشى به مجمل قصيدة «أسير القوقاز» فإن الأبيات

الأخيرة منها لا تتناقض مع مجمل العمل بل على العكس تتسق معه. ومع أن «العظمة القومية» كانت تسكن روح الشاعر إلا أنه هو الذى أطلق فى نفس الوقت أقوى عاصفة فكرية وفنية فى مواجهة طغيان القياصرة! . كان بوشكين يحلم بروسيا المتحررة من الحكم المطلق، ومن عبودية الفلاحين الأقنان.. لكنه كان يحلم بروسيا قومية كبرى ودولة عظيمة! .

وفيما بعد رد الشاعر الداغستانى العالمى رسول حمزاتوف على قصيدة بوشكين تلك القديمة قائلا:

«لقد جئتنا يا روسيا ذات يوم،
لكن .. ليس بالزهور،
حين داهمت حدود جبالنا
فصارت صخور الجبال كالدروع
مازالت تعشش فيها الطلقات
إلى الآن»

وقد كان ليرمنتوف الشاعر اللاحق على بوشكين أكثر إنصافا للقوقاز وهو الذى قضى فترة فى القوقاز بصفته ضابطا فى الجيش الروسى سنوات نضال الإمام شامل، ولمس ليرمنتوف قسوة الحرب ضد شعوب القوقاز وخفق قلبه بتعاطف واضح معهم، ولهذا كتب فى إحدى رسائله الأخيرة يقول لجدته: «شاهدت معركة قاتل فيها القوقازيون جنودنا لمدة ساعتين ، وقد غطاهم العرق فى صمت وقسوة كالوحوش صدرا بصدر حتى طفت الجثث فوق سطح نهر تيريك» .

وفى قصيدة له بعنوان «الهارب» يستنكر ليرمنتوف سلوك أحد السكان الذى أبلغ عن مقاتل جبلى شجاع كان على حد قول الشاعر: «يدافع عن الحرية والشرف» وفى قصيدة أخرى له بعنوان «عطايا تيريك» يصف فارسا جبليا قتله الجنود الروس فيقول : «كان صدره مغطى بصدارة حديدية، وأحاطت مرفقيه حاميتان من الفولاذ نقشت عليهما بالذهب آيات من القرآن الكريم. كان راقدا مقطبا بين حاجبيه، بينما سال على طرفى شاربه خيط من دمائه الساخنه النبيلة، أما عيناه فكانت مفتوحتين ممتلئتين بالعداء القديم.. لكن الحرب لم تنته، لأن الشيشانى يترقب معارك الليل بين الجبال فيستل خنجره ليبتر به رأس أعداءه»! .

هكذا يعتبر ليرمنتوف أن الجبلى كان يدافع عن الحرية والشرف ويصف الفارس المقتول كأنه حى يسير إلى المعركة! ويقف ليف تولستوى نفس الموقف حين يصف فى روايته بطله «حاجى مراد» أحد المريدين من أتباع الإمام شامل الذى واصل القتال بعد هزيمة الإمام فيقول: «كان ذلك صوت خانفى وهو يقص حكاية حمزات الفارس الجسور الذى انتزع مع رفاقه قطيعا من الخيول البيضاء من أيدى الروس، فلحقه الأمير الروسى وطوقه بقوات ضخمة، وحينئذ ذبح حمزات الخيول كلها وظل مع رفاقه طالما كان خنجره معه يقاتل الروس حتى آخر رصاصة وآخر قطرة دم فى

عروقه. وعندما أوشك حمزات على الموت رأى طيرا يعبر السماء فهتف نحوه: أيها الطير المهاجر.. طر صوب بيوتنا وانقل لأمهاتنا وأخواتنا والفتيات الحسناوات أننا جميعا متنا فى سبيل الجهاد. ومازالت إحدى القرى فى الشيشان تحمل إلى الآن اسم «تولستوى - يورت» أى قرية تولستوى اعترافا بفضل ذلك الأديب الكبير.

وثمة أخطاء أخرى عابرة تضمنها مقال الأستاذ عدس كالقول بأن زوجة الإمام شامل «آنا أوليخانوفا» روسية أسلمت، مع أنها أرمينية. وفى موضع آخر يقول الكاتب أن: «الجنرالات الروس لكى يشوهوا كعادتهم الصورة الحقيقية أضافوا فى دعايتهم فرية تذهب إلى أن الإمام شامل كان يعد الهاربين من الجيش الروسى بالحرية وامتلاك الأرض فى القوقاز. ولا أدرى لماذا يعتبر الكاتب أن تلك فرية؟ مع أن دعوة الإمام شامل لحرية الشعوب وتمليكها الأرض كانت أحد أسباب شعبيته الهائلة حتى داخل روسيا نفسها؟ .

لقد أطلق الإمام شامل الصيحة التى أرعدت فى سماء القوقاز وأججت الحرب على القياصرة نحو ثلاثين عاما حين خاطب الجبليين قائلا: «قدسوا الحرية يا أهل الجبال! قدسوها ودافعوا عنها كأنها أمهاتكم، ولا يغرنكم ذهب ولا ثروة !» كان ذلك عام ١٨٣٤ ما أن أصبح شامل إماما دينيا للقوقاز وهو فى السادسة والثلاثين .

وفى حربه على روسيا القيصرية عقد الإمام شامل صلات مع محمد على باعث نهضة مصر وتبادل معه الرسائل وحاول الاثنان معا أن ينسقا خطواتهما ضد الإمبراطورية العثمانية، وقد نقل ضابط فى الجيش المصرى - شيشانى الأصل - هو يوسويوف سافاروف سرا خطابا من محمد على إلى الإمام شامل فى القوقاز، ثم لم يفارق الإمام بعد ذلك وأصبح من المقربين إليه، وهو نفس الضابط الذى وضع فيما بعد «نظام» (دستور) أول دولة أقامها الإمام شامل موحدا بداخلها شعوب القوقاز. وعلى حد قول المؤرخ أركادى جولدشتاين فى كتابه «قلاع فى الجبال» فإن الإمام أصبح : «أسطورة تغنى بها ليس فقط الداغستانيون فى ملامحهم، بل الشعب الروسى نفسه الذى أبدع مختلف الأغنيات الروسية الرومانسية عن شامل ولعل الشعب الروسى قد وجد فى شخص الإمام شامل امتدادا لثواره الذين قادوا الانتفاضات الفلاحية العارمة بدءا من بولوتنيكوف عام ١٦٠٦، ثم الفلاح الأسطورة ستيبان رازين، ثم ايمليات بوجاتشوف الذى قاد انتفاضة فلاحية روسية على امتداد عامين لأن الشعب على حد قوله: «فقير فى كل مكان، ويتعرض لكثير من الإهانات والضرائب» فنظم جيشا من عشرات الألوف ووعد كل من ينضم إليه ب: الأرض

والعشب والرصاص والخبز وقد استقبل الشعب الروسى حركة الإمام شامل على هذا النحو، فانضم إليه الكثيرون، بأمل الفوز بالحرية والكرامة.

ويصف أ. رونوفسكى الضابط الروسى المكلف بمرافقة الإمام شامل فى منفاه بمدينة كالوجا الروسية المشهد التالى من حياة الإمام فى المنفى قائلا:

«تصادف أن كان بين جنود حامية كالوجا بعض الجنود الذين وقعوا أسرى فيما مضى لدى قوات الإمام، وما أن علموا بمقدمه إلى كالوجا حتى هرعوا إلىّ يرجوننى بالحاح أن أسمح لهم بلقاء الإمام.. وكان أحدهم جنديا بفرقة المدفعية ٢١ وقع فى الأسر لدى قوات شامل مع آخرين فى قرية «كورخول». وما أن دخل ذلك الجندى إلى البيت ووقع بصره على الإمام حتى اندفع نحوه يقبل يده. ولم أكن الوحيد الذى أحس بالدهشة لذلك، فقد حطت الدهشة أيضا على الإمام الذى اعتاد على مظاهر الاحترام تلك من المسلمين فقط. وحين شرع الجنود ينصرفون توقفت عند مدخل البيت أسأل ذلك الجندى:

- لم فعلت ذلك؟ ربما كانوا يرغمونك على هذا وأنت أسير بين الجبال.. لكن ما الذى يجبرك هنا على هذا السلوك؟ .

أجابنى الجندى:

- الحق أقول لسعادتكم إنهم لم يجبرونا على ذلك بين الجبال. بل ولم يكن أحد من الأسرى يتعرض لأقل إهانة هناك حيثما يمر الإمام. وكان الإمام إذا بلغته أهون شكوى من أسير يضعه تحت رعايته فورا، ويعاقب من أهانه. وقد قبلت يده هنا لا لشئ، لكن من صميم قلبى لأنه إنسان جدير بذلك! .

لقد تمكن الإمام من مكافحة طغيان القياصرة نحو ثلاثين عاما لأنه وعد الجميع بالحرية. لكن التفوق العسكرى لقوات القيصر بقيادة الجنرال ميلوتون وضع النقاط الأخيرة فى مصير الامام الثائر صباح ٢٥ أغسطس ١٨٥٩. وتصف «تشيتشاجوفا» فى كتابها «شامل فى روسيا والقوقاز تلك اللحظات الأخيرة قائلة:

كان المساء قد حل ناشرا فوق الجبال ثوبا من العتمة عندما خرج الإمام شامل بهدوء من جوميب التى تقع فى أعالى الجبال، خرج وهو شيخ فى الثالثة والستين يحيط به من تبقى من مريديه المخلصين شاهرين سيوفهم فى الظلمة والريح. ومضى الإمام حتى بلغ معسكر القوات الروسية فاصطفت له جنود المعسكر كلها بأمر البارون فرانجيل القائد العام للحملة لتؤدى له تحية الشرف إجلالا واحتراما للرجل الذى أنهك بكفاحه القياصرة، ثم اصطحبه الجنود إلى خيمة كبيرة حيث قدموا له الشاى فى أقداح من الفضة، وبعد ساعات ودع الإمام أرضه وأهله ورفاقه منطلقا على حصانه فى

حراسة كبيرة قاصدا بطرسبورج حيث كان القيصر الكسندر الثانى فى انتظاره لكى يتعرف إلى ذلك المقاتل الأسطورة، ومن هناك اتجه الإمام إلى منفاه فى كالوجا.

ويصف أ. رونوفسكى وصول الإمام شامل إلى فندق «زنا مينسكايا» ببطرسبورج عام ١٨٥٦ قائلا:

عندما دقت الساعة الرابعة بالضبط ارتفعت أصوات المحتشدين فى الساحة وحول الفندق تهتف: إنه قادم من بعيد. وبعد بضع دقائق لاح الإمام وهو يتكئ على ذراع أحد مرافقيه وأحاط الجمع الغفير بالرجل حتى أنه ارتقى سلم الفندق بصعوبة بالغة بسبب الزحام. وبالرغم من التعب الذى كان باديا على وجهه بسبب رحلته بالمركب لأول مرة فى حياته إلا أن شعورا بالارتياح كان يرف فى ملامحه لاهتمام الناس به، لكنه لم يكن ذلك الشعور بالرضى عن النفس أو الزهو الذى يحسه الإنسان العادى عندما يحيطه الآخرون باهتمامهم. كلا. فالشعور الذى شاع فى وجه شامل لم يستطع أن يطغى على قسمات الإنسان المتأمل شديد الكبرياء الذى اجتمع له العقل إلى العظمة . تحرك الإمام ببطء شديد مما سمح لى أن أراقب بانتباه التعبيرات المختلفة لوجوه المحتشدين . ولم أجد فى أية نظرة أو وجه ظلا من العداء أو اللوم . على العكس كانت كل عيون المواطنين الروس المتطلعة إلى الامام مليئة بالاحترام العميق والتعاطف مع الرجل الذى يمر أمامهم » .

إن وعود الإمام بالأرض والحرية - وهو ما يعتبره الأستاذ عدس - فرية روسية كان السر وراء شعبيته المذهلة فى القوقاز وفى روسيا نفسها . ولهذا كتب فريدريك انجلس فى مقالته «فرص الحرب» يقول : «إننا لم نشهد مع تعاقب عدة أجيال حروبا حقيقية فى وسط أوروبا تشارك فيها الشعوب بنفسها ، لكننا شهدنا هذه الحروب فى القوقاز والجزائر حيث استمر الكفاح دون انقطاع عشرين عاما » . ولم تكن مصادفة أيضا أن يتبادل الأمير عبد القادر الجزائرى والإمام شامل الرسائل ، ولم تكن مصادفة أن كارل ماركس اعتبر أن الإمام شامل «ديمقراطى مهول» كما أنه هاجم بشدة تأييد البرلمان الإنجليزى للاحتلال الروسى للقوقاز فى مقال له عام ١٨٥٣ بعنوان «لورد بالمرستون» .

إن ما اعتبره الأستاذ محمد يوسف عدس «فرية» كان سر تلك القوة الرهيبة للإمام شامل ، وسر الأسطورة التى ترنمت بها جموع الفقراء من الفلاحين فى روسيا والقوقاز وأكرانيا ، وسر التأثير الهائل للإمام فى الجماهير الشعبية ، ولهذا تدفق المقاتلون صوبه من كل البلاد.

وبالرغم من كل تلك الملاحظات فإن القضية الهامة التى يثيرها مقال الهلال العدد الماضى هى صورة القوقازى بين



أجهزة الإعلام الواقعة فى قبضة الدولة وبين الضمير الشعبى . وقد حرصت الدولة على تشويه تلك الصورة وتقديم القوقازى باعتباره كائنا متوحشا ، على حين سعى الضمير الروسى الشعبى دائما ليستبين صورة الإنسان وراء الأكاذيب . وتثير تلك القضية مسألة أخرى أشد أهمية فى تاريخ الفكر الروسى بل وتكون القومية الروسية . فمازالت روسيا هى الدولة الأكبر فى أوروبا من حيث عدد المسلمين فيها ، كما أن روسيا تاريخيا هى أكبر دولة أوروبية - أسيوية فى نفس الوقت ، وتكوينها الثقافى والحضارى - خلافا لفرنسا وألمانيا وغيرهما - ثمرة مزيج خاص من التفاعل الأوروبى - الشرقى ، والمسيحى - الإسلامى ، ولهذا يلح على القوميين الروس هاجس الهوية الروسية باعتبارها فى المحصلة النهائية بلورة للنزعة «الأورو - أسيوية» تحديدا والتى قد لا تجد روسيا صورة لنفسها خارجها . ويقوم التفاعل الذى تفرضه الحدود المشتركة بين روسيا ودول آسيا الوسطى بدور هام فى تشكيل تلك الهوية الروسية الأوروبية - الشرقية . وهو تفاعل قديم بدأ منذ أن هبطت أولى السفن العربية إلى دير بند بداغستان عام ٦٤٢م، ثم سيطروا عليها نهائيا عهد مسلم بن عبد الملك أوائل القرن الثامن ميلادى . وظل القوقاز من القرن الثامن ميلادى حتى القرن الثامن عشر يحيا بالكامل تحت تأثير اللغة والثقافة العربية ، وباللغة العربية صدرت أولى الصحف والمجلات والكتب فى تاريخ القوقاز بداغستان ، وباعتراف المراجع السوفيتية ظلت الثقافة العربية محتفظة بثقلها حتى ما بعد ظهور الاتحاد السوفيتى . وحتى منتصف القرن الـ ١٩ كانت رسائل الإمام شامل وأنصاره كلها تكتب بالعربية ، وكانت مكتبة الإمام كلها من الكتب العربية ومنها «منهاج الطالبين» وكتاب النموذج للزمخشرى و«ألفية ابن مالك» وغيرها . وعندما أراد محمد طاهر الكراخى مساعد الإمام شامل أن يؤرخ لحركة الإمام وكفاحه أصدر كتابا عام ١٨٧٥ باللغة العربية بعنوان «بارقة السيوف الداغستانية فى الغزوات الشاميلية»! وفى النصف الثانى من القرن السابع دخل الإسلام إلى آسيا الوسطى ، وأخيرا بدأ الإسلام فى القرن العاشر ميلادى رحلته إلى روسيا نفسها مع رحلة ابن فضلان وتبشيره بالإسلام على ضفاف الفولجا . إن وجود نحو خمسة عشر مليون مسلم داخل روسيا ونحو خمسين مليونا آخرين يحيطون بها فى دول آسيا الوسطى قد أخصب عملية التفاعل الثقافى والحضارى داخل الثقافة الروسية بحيث أصبح الكثيرون من المفكرين الروس يتحدثون اليوم عن هوية روسية ذات وجه خاص : «أورو - آسيوية» .

من الجدير بالذكر أيضا أن الأستاذ

محمد يوسف عدس يخلط بين الآسيويين وسكان شمال القوقاز حين يتحدث عن «الشعوب الآسيوية التى تربض على حدود روسيا الجنوبية» ، على حين أن شعوب شمال القوقاز تنتمى لغويا وعرقيا لمجموعات مختلفة عن تلك التى ينتمى إليها سكان آسيا الوسطى . أما الشيشان تحديدا فقد ورد أول ذكر لهم فى القرن السابع الميلادى ، كما جاء ذكرهم فى كتاب «المسالك والممالك» عند الأصطخرى أبو اسحاق أشهر علماء الجغرافيا ، وعند المقدسى فى كتابه «أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم» فى القرن العاشر الميلادى . ويعتقد البعض أنهم يعودون بأصولهم إلى قبائل هاجرت من آسيا الوسطى ، ويرى آخرون أنهم أصلا من العرب الوافدين خاصة أن ثمة أسطورة شعبية شيشانية قديمة بهذا الصدد ورد فيها اسم حلب المدينة السورية ، وتشير صحيفة «نداء الأجداد» التى تصدر فى جروزنى إلى ذلك بل وتحدد اسم المهاجر العربى الذى ينحدر منه الشيشانيون وهو «على عرب» . ويجزم المؤرخ الروسى «ن . س . سيمونوف» فى كتاب له صدر عام ١٨٩٥ بأنه طالع بنفسه مخطوطا قديما بالعربية يشير إلى أن الشيشان يعودون بأصولهم إلى موجة من الهجرة العربية استقرت بشمال القوقاز . ويرجح آخرون أن أصلهم شركسى ، أما أستاذ التاريخ «ياوز أحمدوف» فيقول إنهم عرق مستقل عرف بالشجاعة والفروسية ومنهم كانت فئة المماليك المصرية التى حكمت مصر حتى أبادها محمد على فى مذبحة القلعة . وأيا كان فإنهم ليسوا «الآسيويين» .

يبقى بعد ذلك كله التفسير السياسى للحرب الشيشانية الحالية ، والحرب التى سبقتها ما بين عامى ١٩٩٤ - ١٩٩٦ ، وهى مسألة غاية فى التعقيد إلا أنه من الصعوبة بمكان تخيل وقوع أية حروب صغيرة الآن بعيدا عن المخططات الدولية للقوى العظمى ، ورغباتها ، وصراعاتها . ذلك أن الحرب الأخيرة تطرح العديد من الأسئلة عن طبيعة القوى المحركة لها ، وأهدافها ، بل ووسائلها ، وطابع «الحرية» التى يمكن أن يتمتع بها بلد صغير لا يتجاوز تعداد سكانه المليون ونصف المليون بالقرب من بلدان ما وراء القوقاز : أرمينيا وأذربيجان وجورجيا التى يمسك بمقاليد الحكم فيها ممثلون لحلف شمال الأطلسى وأنقره ، وربما لا يخلو من مغزى حديث الشاعر العالمى رسول حمزاتوف حين قال فى حوار أجريته معه :

«لقد انتهت الإشتراكية والديكتاتورية برحيل بريجنيف وتشيرننكو ، لكن السوق والديمقراطية مع جورباتشوف ويلتسين لم تجىء بالخير».

من : صلاح الراكبي

كتاب أثار ضجة بين العلماء.. لم ينشر بعد

ما الذى يحرك «المغتصب» ؟

العنف.. أم الجنس ؟!

الكتب دائما تثير الضجة والجدل عندما تنشر.. لكن هذا الكتاب أثارها وهو لم ينشر بعد!.. ربما شاء مؤلفاه وهما د. راندي ثورنيل الأستاذ المساعد بجامعة نيومكسيكو ود. كريج بالمر أستاذ الأنثروبولوجي بجامعة كلورادو أن يثيرا الضجة مبكرا، وأن يلقيا حجرا في بحيرة العلماء والدارسين، فقد نشرا مقالا ضم مقتطفات من كتابهما المشترك «التاريخ الطبيعي للاغتصاب.. الأسس البيولوجية للإكراه الجنسي».. والكتاب تضعه مؤسسة M. I. T للنشر في خطتها التي تبدأ من أبريل ٢٠٠٠

المقال يقول: لقد دأب العلماء على اعتبار الاغتصاب عملية عنف وقوة، وليس عملية دافع جنسى، أجيال وأجيال من الدارسين والمدافعين تعصبا عن حقوق المرأة ظلوا على هذا الرأى.

أما ما يقوله الكتاب الذى كتبه عالمان من علماء التطور والارتقاء الذي يستند إلي نظرية داروين المعروفة، والتى تلاحظ أن صراع الحيوانات مع ظروف الحياة ومع بعضهم البعض، تشكل مع الوقت أداء متطورا لأعضائها، وبقاء للأقوى فى عملية الصراع الدائم.. داروين لم يطبق نظريته على الإنسان، فيما يتصل بتطور الأعضاء أو بقاء الأقوى فى صراع الحياة، لكنه طبقها فى مجال السلوك الغريزى.. وارتقائه انطلاقا من الحياة الغريزية الفطرية التي كان عليها الإنسان الأول.

المقال يقول: إن الاغتصاب فى جوهره هو عمل جنسي تماما.. إنما الممارسة تختلف أشكالها، والتطبيق يختلف بأفضلياته.. وإذا كانت محاولات التوجيه والنصيحة والتأديب توقف أو تخفف من اللجوء إلى الاغتصاب، فإن نظرية التطور يجب أن توضع فى الحسبان، فمثلا لو أننا وجهنا النساء إلى أن طريقة ارتداء الملابس المثيرة تعرضهن للخطر، وإذا نصحنا الشباب قبل إعطائهم رخص قيادة السيارات بأنه مهما كانت ملابس من يراهن أو يتعامل معهن من النساء مثيرة، فليس معنى هذا أنهن ينادين طلبا له، وأن طريقة الحديث لاتدل على الرغبة.. فالعملية كلها رغبة جنسية لا مجال فيها للعنف أو القوة، وهي رغبة تعود إلى «فطرية» الإنسان الأول الذى

لاقيود عنده على الجنس، سواء كان له الحق في أدائه أو كان رضا الطرف الآخر متحققا.

الانتصار في الحروب

العلماء السابقون على هذا الكتاب الجديد متأثرون بارتباط الجنس بسلوكيات الجيوش فى الحروب التاريخية، والتى كان «السبى» فيها سلوكا عاديا، دليلا على القهر والانتصار.. سواء انتهى السبى بالزواج، كما فعل خالد بن الوليد فى التاريخ الإسلامى أم كان نوعا من النصر الطبيعى كما حدث كثيرا، وكما تشير لوحة بيكاسو الشهيرة بعنوان «اغتصاب امرأة من «سابين» وسابين جماعة كانت تسكن مناطق ساحلية جبلية فى وسط ايطاليا، تعرضت لهجمات شرسة من الرومان فى القرن الثالث قبل الميلاد.. هزم فيها قوم «سابين» وكانت عملية اغتصاب جماعية لها حكاياتها فى التاريخ؟!.

كلام غير مسئول

تعليقا على الكتاب، يقول د. جيرى كوين أستاذ الأحياء بجامعة شيكاغو، والذى قرأ المقال ومقتطفات الكتاب فى مجلة «العلوم».. قال لصحيفة النيويورك تايمز: «إن هذا طفح سيء، وهو أسوأ ماظهر حول النشوء والارتقاء.. وهو كلام غير مسئول.. ومتحيز، والعلم فى هذا الكتاب لامكان له»!!.

دكتورة مارى كس أستاذة الصحة العامة بجامعة أريزونا قالت: إن الاغتصاب هو نوع من التفوق الجنسى، هكذا يعتقد الرجال، مع أن هذا ليس صحيحا بالطبع.

وتميل د. مارى إلى أن الاغتصاب هو عمل غير طبيعي، وهو حالة مرضية غير طبيعية، وأنك لو جمعت عددا من الشبان لتنصحهم حول الاغتصاب، فسوف يشعرون أنك تقول كلاما غير طبيعى، ويشعرون بالفزع، وكذلك لو أنك نصحت عددا من النساء بعدم ارتداء الملابس المثيرة فسوف يضحكن منك!.. فهن بالقطع تراعين ماهو مقبول أو غير مقبول، فى إطار الجمال والسعادة.

بحثا عن السلام

روناالد سيمون أستاذ الأنثربويولوجى (Anthropology) بجامعة كاليفورنيا، والذى يدرس النشاط الجنسي للإنسان القائم على نظرية التطور لداروين يقول: إنه من الطبيعى أن يعترض العلماء ويرتابوا فى توجهات الكتاب، فهذا الحقل من النشاط الجنسى لدى الإنسان لايزال مثيرا للجدل والنقد.. ونظرية داروين قائمة على الملاحظة وهى تتحدث عن النشوء، والارتقاء كنجاح وتطور، فالحيوانات تعيش فى عالم كله صراع وقتال، وتعيش على واقع هو أنها تأكل بعضها بعضا.. لكن الإنسان يتطور دائما بحثا عن مجتمعات أفضل.. وسلام أكثر.. وتعاون أكبر.

العالمان ـ مؤلفا الكتاب يردان: لقد لوحظ أن الاغتصاب يتم فى عمر تكون فيه المرأة فى مرحلة الإنجاب.. وهن يكن فى هذا العمر أكثر إغراء.. ليس لجمالهن أو إثارتهن، ولكن لأعمارهن.. كما أن الاغتصاب موجود أيضا بين الحيوانات بشكل طبيعى كالعقرب الطيار والحشرات.. كما أنه موجود لدى الأسماك، والطيور، والقرود، وإنسان الغاب.

كما اعترض عدد من الناقدين ـ فى موضوع النيويورك تايمز، بأن ضرب الأمثلة بالحيوانات أمر غير مقبول، فنحن لانستطيع أن نسأل السمكة الأنثى لإثبات حالتها من القبول أو الرفض؟!.

الهنود الحمر لايزالون يحافظون على تراثهم

فى الولايات المتحدة، دولة المهاجرين، يحافظ كل إنسان على أصوله العرقية، وعلى علاقاته مع بلده الأصلى.. يتزوج منها ويحفظ تاريخها وأغانيها، وتزدحم جدران بيته بصورها ولوحاتها.. أطباق الطعام.. والملابس.. والذوق العام فى جنبات البيت واللغة الأم بالطبع هى لغة الزوجين والأبناء.. فما بالك بالهنود الحمر.. أصحاب البلد نفسها قبل أن يأتي المهاجرون، الذين بدءوا غزوها منذ ٤٠٠ سنة!.

القوانين فى الولايات المتحدة تحترم احتفاظ كل مواطن بأصوله.. تعطى الزوجة والأبناء وأقارب الدرجة الأولى حق الإقامة والجنسية بمجرد حصولك على الجنسية واستدعائك لهم.. والمجتمع بشكل عام يحترم عاداتك وتقاليدك.. ويعتبرون هذا التنوع قوة لوحدة الأمة، وثراء لثقافتها وفنونها.

لقد عانى الهنود الحمر فى الولايات المتحدة حتى نصف قرن فقط، من هؤلاء الغزاة، وظلوا رافضين ومرفوضين ومزجورين.. وكانوا فى مرتبة أقل من الزنوج الذين اشتراهم الغزاة لخدمتهم!.. لكن نصف القرن الأخير بالذات، شهد انفتاحا إنسانيا وقانونيا عادلا للهنود الحمر، وكانوا ولايزالون فى بعض مناطقهم أحرارا فيما يريدون.. يملكون الأرض التى يقيمون عليها ويحتفظون بحق المطالبة بأراضيهم التاريخية، وتحكمهم القوانين الفيدرالية التى تميزهم بالدعم والقروض، بعيدا عن قوانين الولايات المختلفة.

فى شهر يناير الماضى تقدمت قبيلة زيا بيبلوا وعدد أفرادها ٨٥٠ نسمة فقط، إلى المحكمة، بشكوى يطالبون فيها ولاية نيومكسيكو، التى يقيمون فيها، بمبلغ ٧٤ مليون دولار، لأن الولاية تستخدم شعارهم، وهو وجه الشمس، تخرج منه خطوط فى الاتجاهات الأربع.. وقد تحدد المبلغ على أساس مليون لكل سنة، تعويضا عن استخدامه حتى الآن لمدة ٧٤ سنة؟!.

من جانب آخر تقدمت القبيلة بشكوى أخرى ضد عشرات المؤسسات والشركات التى تستخدم الشعار نفسه، قدمتها إلى وكالة البراءات والشعارات بالولاية.. فالجميع يجدون فى هذا الشعار انتماء مجانيا للمنطقة.. الهيئة سألتهم: ولماذا تشكون اليوم.. وهذه الشركات والمؤسسات تستخدم هذا الشعار بأشكال مختلفة منذ سنوات، وأصبح ذلك من حقهم، لأنهم سجلوه لشركاتهم، بينما شعار القبيلة غير مسجل؟!.. برتا برايس محامية القبيلة قالت: إن القبيلة لم تتقدم منذ سنوات بشكاويها لأنها كانت تابعة مباشرة للقوانين الفيدرالية وليس لقوانين الولاية، وكانت أوضاعهم خاصة ولا ينتمون إلى الجنسية الأمريكية، ثم إنه من المفهوم والبديهى أن هناك شعارات معنوية وتاريخية لايجوز لأحد أن يستغلها تاريخيا، كصورة مريم العذراء!، وهذه الشعارات المعنوية لن تكتسب اعترافا قانونيا تحتاجه، أقوى من معناه التاريخى.. من المؤسسات التى تستخدم الشعار شركة سياحية تستخدم موتوسيكلات هارلى، وفندق بالمنطقة.. المحامية برايس وبيترنو حاكم

القبيلة طلبا تدخل جيف بنجمان السيناتور الديموقراطى عن الولاية الذى قال: نحن نعمل على حماية الشعارات والأفضل تسجيل شعار القبيلة ليكون الوضع قانونيا.. وكالة البراءات والشعارات قالت: إنها طلبت من ٥٠٠ قبيلة هندية إرسال معلوماتها وشعاراتها لتسجيلها وكان ذلك عام ١٩٩٤ فلم تتلق سوى ١٠ ردود فقط!.. فكيف تريد القبائل أن تحمى شعاراتها ثم لا تستجيب؟!.

الشعار موجود تاريخيا على مناطق القبيلة، وعلى «جرة» قديمة فى المتحف.

إعادة الأرض

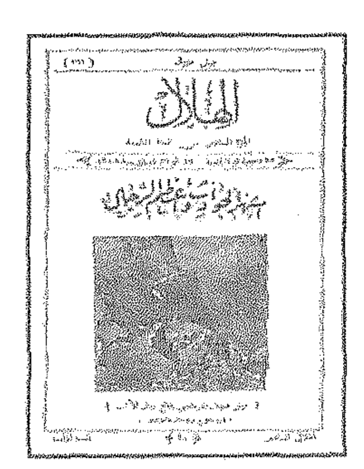
منذ أيام قررت الحكومة الفيدرالية الأمريكية إعادة ٨٤ ألف ايكر (Acre) من الأراضى (الإيكر الواحد يساوى ٤ آلاف متر مربع) إلي الهنود الحمر، يملكونها تاريخيا، وكانت الحكومة قد استولت عليها فى عام ١٩١٦ لحماية منطقة مجاورة كان يتم فيها استخراج الفحم الحجرى، وهذه أكبر صفقة إعادة أراضى إليهم تقوم بها الحكومة منذ مائة سنة.. بيل رتشاردسون وزير الطاقة الأمريكي أعلن ذلك أخيرا، والذى يرى أنها مبادرة طيبة للرئيس كلينتون فى آخر عام لرئاسته وإضافة إلى رصيد الحزب الديموقراطي ومرشحه الحالى آل جور!.

الوزير أعلن عودة الأراضى فى مركز القبيلة فى فورت استونرن بولاية يوتا.. وقال: إن القبيلة ستستفيد من استثمارات البترول والغاز الطبيعى الذى يتم استخراجه من هذه الأرض، لكن سيتم فى عقد تسليم الأرض للقبيلة الاتفاق على أن تدفع القبيلة ٨,٥٪ من أرباح البترول والغاز مساهمة فى مشروع تطهير البيئة فى منطقة مجاورة معرضة لنفايات من الإشعاع الذرى بجوار شواطىء نهر كلورادو الذى يمد كاليفورنيا بمياه الشرب.. مشروع التطهير لايزال فى الكونجرس ومن المتوقع أن يتكلف ٣٠٠ مليون دولار.

رجال القبيلة لايزالون مترددين فى تفهم ماتريده الحكومة فى عقدها لإعادة الأرض، مؤكدين أن المنطقة فقيرة وبحاجة إلي كل ما يتاح لها من أرباح البترول، حيث تقول الإحصاءات: إن البطالة فى المنطقة تصل إلى نسبة ٢٩٪ وأن متوسط الدخل السنوى للفرد ٤٥٢٠ دولارا وأن هذه النفايات متراكمة منذ سنوات!.

أقل الأقليات

الهنود الحمر يبلغ تعدادهم الكلي في الولايات المتحدة ٢ مليون و٤٠٠ ألف نسمة، أى أقل من ١٪ من التعداد الكلى للدولة، والذي يبلغ حسب تقديرات نوفمبر ١٩٩٩ (٢٧٣ مليونا و٨٦٦ ألف نسمة).. البيض منهم ٢٢٥,٣٥٥ مليون نسمة، والسود ٣٥,٠٧٨ مليون نسمة، والذين من أصل آسيوى ١١,٠٢٢ مليون نسمة، والذين من أصل أمريكا اللاتينية ٣١,٧٦٧ مليون نسمة، والأخيرون أكبر الأقليات فى الولايات المتحدة، ويمثلون قوة انتخابية يحسب حسابها ويتوقع أن يصبحوا ربع السكان عام ٢٠٥٠م، وبذلك يعتبر الهنود الحمر أضعف الأقليات وأكثرهم رغبة فى الانفراد بمناطقهم وعدم الاندماج الكامل فى المجتمع.

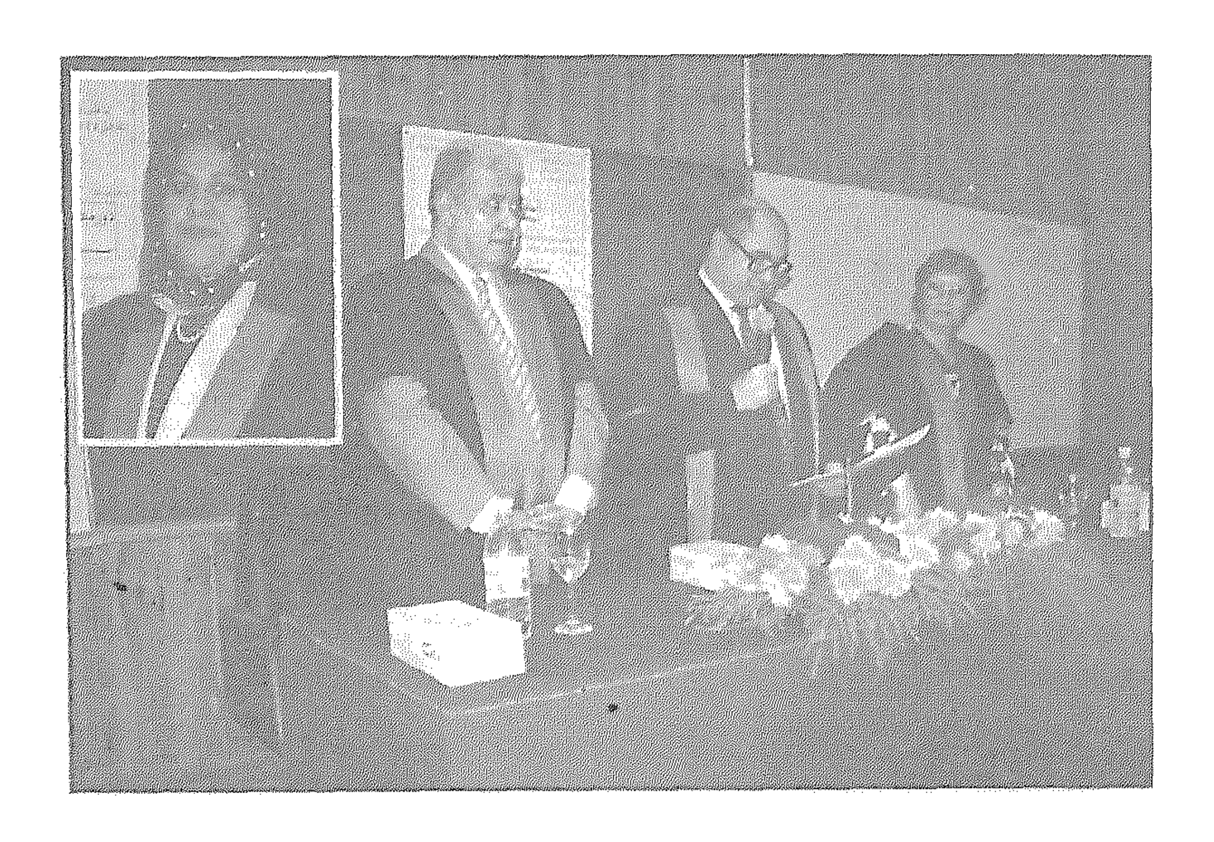



ما الذى يستفيده القارىء من مجلة الهلال ؟!

بقلم : مصطفي نبيل

هذه رسالة أكاديمية ذات هدف نبيل، وطموح كبير، فهى تسعى إلى الإمساك بتأثير الكلمة المكتوبة على القارىء، ومدى مساهمتها فى تكوين معارفه وثقافته، والخطوة التى تتلوها بالضرورة هى تأثير الكلمة المكتوبة على سلوك القارىء وأفعاله، وتدور رسالة الدكتوراه على تأثير ما تتناوله مجلة «الهلال» قدمتها مدرسة بكلية الإعلام سناء جلال عبدالرحمن، وعنوان رسالتها .. «دور مجلة الهلال فى تشكيل الأنماط الثقافية فى المجتمع المصرى..».

وناقش الرسالة كل من د. فاروق أبوزيد عميد كلية الإعلام، و د. ليلى عبدالمجيد وكيلة كلية الإعلام، والكاتب رجاء النقاش رئيس تحرير الهلال الأسبق.



بداية .. لا يفوتني ذكر ملاحظة مؤسفة، حول ما يجرى فى الجامعة ، وهل معقول أن لا يحضر رسالة دكتوراه، على هذه الدرجة من الأهمية، وفى صلب اهتمامات ومقررات كلية الإعلام، وصاحبة الرسالة مدرسة بالكلية ويشرف عليها عميد الكلية مع وكيلة الكلية ، ورغم كل ذلك لا يحضر المناقشة سوى عدد جد قليل ، لا يتجاوز عشرة أشخاص، ولا تثير الرسالة فضول الطلاب الذين يتسكعون حول المدرج !.

مما يؤكد ظاهرة انصراف الطلاب عن المعارف الداخلة فى صلب دراستهم، وخاصة تلك التى لا تدخل مباشرة فى المقرر الذى سيؤدون فيه الامتحان، وهو عكس ما كان يجرى فى الماضى. عندما كان الطلاب يتسابقون لحضور مناقشات رسائل الدكتوراه، التى يزدحم على حضورها الطلاب والباحثون وحتى المواطنون العاديون .

وهى ظاهرة تحتاج إلى الدرس والبحث والتأمل لاكتشاف موضع الخلل فى حياتنا الفكرية والثقافية.

ونعود إلى عرض الرسالة ومناقشتها.

تأتى أهمية هذه الرسالة فى إطار أهمية ربط الجامعة بالمجتمع، ووصل الدراسات الأكاديمية بالواقع، فهذه الرسالة تعد نموذجاً لإمكانية الاستفادة من البحوث الأكاديمية.

فعندما يستغرقك العمل، تعيش تفاصيله الدقيقة اليومية، ثم يظهر عمل أكاديمى يتناول بعض جوانب هذا العمل

ومعالجة تفاصيله ورصد آلياته، والبحث عن تأثيره على القارىء وذكر سلبيات هذا العمل وايجابياته فمن المؤكد أنك ستحتفى به وتجد فيه إثراء لهذا العمل .

فأى عمل يحتاج - بين وقت وآخر - إلى وقفة تأمل وإعادة نظر، وخاصة العمل فى الصحافة والثقافة ووسائل الاتصال، ومع تلك التغيرات السريعة المتلاحقة التى تجرى حولنا ، إنه أشبه ما يكون مثل الذى يجدف ضد التيار، لا يملك أن يتوقف عن التطوير والتجديد، وإذا توقف فلا مفر من أن يجرفه التيار ويأخذه إلى الوراء .

هذا رغم ما يشوب هذا النوع من الدراسات الأكاديمية من قصور فى الكثير من الأحيان، ومن أوجه هذا القصور اعتمادها على الإستبيانات والمقابلات والاستمارات، التى لا يكاد أحد يأخذها بالجدية المطلوبة، مما يلقى ظلال الشك على بعض نتائجها.

ومن أوجه القصور الأخرى لهذا النوع من العمل العلمى، أن هذه الرسالة استخلصت كل نتائجها من ستين عدداً من الهلال بين سنتى ١٩٩٠ و١٩٩٥، وتتوالى أعدادها منذ عدده الأول فى سبتمبر سنة ١٨٩٢.

ويلاحظ أنه رغم قلة الأعداد محل البحث، فلم تشر الرسالة إلى مقال مميز واحد، أو ما يمكن اعتباره نموذجاً لما يجب أن تكون عليه المقالات فى المجلة الثقافية، أو لم تميز الرسالة بين مقال جذاب وشيق ، وآخر مفيد ، أو تحدد متى نجحت الهلال فى اقتحام مجالات جديدة وغير تقليدية، أو متى تناولت عملاً ثقافيا وصحفيا لفت انتباه الباحثة، سواء لقيمته أو حتى لعدم مناسبته لطبيعة المجلة الثقافية، أو تقدم الباحثة غلافاً مميزا أدى إلى الانتشار وزيادة توزيع الهلال.

فكثيراً ما يكون المنهج الأكاديمى مثل الحذاء القديم للمرأة الصينية، يحول دون إنطلاقها ونمو قدمها، وكذلك المنهج الصارم يحول دون التقاط العديد من الملاحظات والوصول إلى كثير من النتائج!

وعلى أية حال .. عندما تشير الرسالة إلى الفئة العمرية الغالبة لقراء الهلال والتى تحددها بين ٣٦ و ٤٥ عاماً والتى تصل نسبتها إلى ٣ر٣٨٪، فهى تلقى على الهلال مسئولية كبيرة، فى ضرورة العمل على جذب الفئات العمرية الأكثر شباباً إلى متابعة مجلة الهلال وقراءتها، رغم انصراف الأجيال الجديدة إلى الوسائط الحديثة. إلا أنه لا ينبغى أن يمثل ذلك عقبة وإنما تحد يجب الاستجابة له والتغلب عليه ، وتقول الرسالة.. «لا تقبل الفئات العمرية الأقل على قراءة هذا النوع من المجلات لعدم اكتمال تعليمها من ناحية ، ولسيطرة وسائل الإعلام الأخرى على اهتماماتها من ناحية أخرى..».

وعندما تشير الرسالة إلى أن ٨٢٪ من قراء الهلال من الذكور، رغم ما تبذله الهلال عندما تفتح صفحاتها إلى أكثر الأقلام النسائية تأثيراً، وتقف المجلة بوضوح إلى جانب حقوق المرأة، فيمثل

ذلك تحديا آخر ينبغى مواجهته، فالعمل على جذب المرأة والشباب إلى قراءة الهلال، هو فى حقيقته رهان على المستقبل، وهو المعيار الحقيقى لقيام المجلة الثقافية برسالتها.

بدأت الرسالة باستعراض موضوع البحث ومنهجه، ولماذا اختيرت «الهلال»، مع استعراض جانب من تاريخها خلال المائة وثمانية أعوام الفائتة.........

وتهدف الرسالة إلى بحث دور المجلة الثقافية فى تشكيل أنماط وأساليب الحياة فى المجتمع، بعد أن أصبحت الكلمة مصدراً أساسيا فى تكوين المعارف والصور الذهنية ومصدراً للقيم والأنماط السلوكية، كما تهدف الرسالة إلى التعرف ووصف تقديم الأثر المعرفى لمضمون مجلة الهلال على قرائها.

وتجعل شطآن البحث يدور حول ما تنقله المجلة من ثقافات أجنبية.

وتتناول الرسالة ، كيف كان صدور مجلة «الهلال» إيذانا بمرحلة ثقافية جديدة، واتجاها جديداً فى الصحافة العربية فى نهاية القرن التاسع عشر، وقدمت الهلال صيغة جديدة تميزها، فالأدب ليس هو التراث فقط، وما يستخرج منه، وليس العلم هو العلوم الدينية وحدها، فكانت تقدم أدوات العصر الحديث من العلوم والمخترعات، وتلبى الحاجة إلى المعارف الحديثة، يمتزج على صفحاتها العلم والتاريخ، ويمتزج أيضا العلم بالفلسفة وتقرأ على صفحاتها العلم

رسالة دكتوراه

والفن جنبا إلى جنب.

وجاءت المجلة الجديدة لتعطى الثقافة آفاقا جديدة، بمعناها الواسع كجماع للفكر والفن ، واتسع فيها الأدب وشمل كل الفنون : التصوير والتشكيل والمسرح والسينما والتليفزيون، وأخيراً الانترنت والكتابة على اسطوانة الليزر، واهتمت بكل جديد يتطلع إليه القارىء، وأصبحت ملتقى الفكر العربى، تبحث وتقدم المواهب الجديدة، وتسعى دائما لاستشراف المستقبل.

وكثيراً ما زاحمت الصحف اليومية المجلات الثقافية ، وتوسعت الصحف فى نشر صفحات الثقافة، الأدب والنقد والفلسفة.

واستمرت «الهلال» ذات صيغة غلابة وشخصية مميزة، سيطرت على كل من تولى تحريرها، وجذبت هذه الصيغة إليها ألمع الكتاب، فهى تقوم على تبسيط مادتها والسعى إلى جذب القارىء لها. فتقدم مادتها شيقة جذابة حتى تحقق رسالتها.

وسر استمرار وتألق مجلة الهلال، أنها تواكب العصر، دأبت على تقديم الاتجاهات الفكرية المعاصرة، ومازالت تسير على ذات النهج.

ولدت متواضعة وكبرت مع الزمن ، كان عدد صفحاتها ٤٠ صفحة، وكبرت مع الأيام ، فصدرت الهلال شهرية لمدة عام، وفى العالم التالى تحولت إلى مجلة

نصف شهرية، واستمرت نصف شهرية لمدة أربع سنوات، عادت بعدها إلى الصدور الشهرى، وفى سنتها الثالثة عشرة عادت تصدر شهرية لمدة عشرة أشهر فى العام، وفى الشهرين الباقيين تقدم كتابا هدية للمشتركين، كما شهدت المجلة تحولات فى دورية الصدور، تأثرا - كما تقول الرسالة - بالظروف السياسية والصحفية ، فأثناء الحرب العالمية الثانية صدرت مرة كل شهرين لندرة الورق المستورد، وفى مطلع عام ١٩٤٧ عادت الهلال إلى الصدور شهرياً، ويعطى البحث للدكتور أحمد زكى دوراً رئيسيا فى تطوير مجلة الهلال والارتفاع بمستواها، والذى تولى رئاسة تحريرها عام ١٩٤٧، وجعل سنتها اثنى عشر شهراً.

وكما نافست الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية المجلات الثقافية، كانت تصدر فى الفترة محل الدراسة الكثير من المجلات الثقافية ، مثل القاهرة التى صدرت فى فبراير ٨٥ ثم توقفت ، وإبداع، وأدب ونقد.

وتغير الكثير من حول مجلة الهلال وبقى نهجها ثابتاً، تغير القطع، من القطع المتوسط إلى القطع الكبير إلى القطع الصغير، حتى يمكن حملها فى الجيب لكى تقرأ فى الحافلة أو الطائرة، وبقى منهجها والدفاع عن رسالتها.

وذكرت الرسالة أن عدداً من القراء يصحبون الهلال إلى دور العبادة لقراءتها بين الصلوات وهرباً من ضوضاء المنازل!.

وتستعرض الرسالة بعض الأحداث التى مرت بها مجلة الهلال، مثل تولى على أمين رئاسة تحريرها فى يناير ١٩٦٢، وذكر فى افتتاحية الهلال، ستتحول إلى مجلة.. «تنبض سطورها بالحركة والحياة، وتبدو كل صفحة من صفحاتها مثل كأس الشمبانيا التى ترقص كل نقطة فيها»، وصدر العدد الجديد يكتب فيه كل من هيكل وبهاء وأمينة السعيد وكامل الشناوى وإحسان عبدالقدوس وأنيس منصور ومصطفى أمين وناصر النشاشيبى والرسامون رخا وصلاح جاهين وصاروخان بالاضافة إلى كتابها طه حسين وفكرى أباظة وسهير القلماوى وعبد الحليم عبدالله.

وصاحب ذلك العدد حملة إعلانية ضخمة، وقفز التوزيع إلى ثلاثة أضعاف ما كان عليه.

وتقول الرسالة .. «رغم النجاح الذى حققه على أمين من الناحية الصحفية، وزيادة التوزيع، فقد تراجع تأثيره» وأقول .. بل انخفض توزيع المجلة انخفاضاً كبيراً ، ونقص توزيع العدد التالى بعد التجديد عما كان عليه قبله ، فقد تجاسر رئيس التحرير وأخرج المجلة عن صيغتها وطبيعتها الثقافية..

وتخلص الرسالة فى هذه النقطة. إلى .. «أن تحرير الهلال تأثر بعدة عوامل ، طبيعة الأحداث التى مرت بها ، وطبيعة المنافسة التى تواجهها ، بالاضافة إلى شخصية واهتمامات رئيس التحرير».

* * *

وتتناول الرسالة دوافع القراء

للحصول على مجلة الهلال، ومدى الإشباع الذى تحققه قراءتها، وترى كاتبة الرسالة أن مستوى مادتها وانخفاض سعرها ومتابعة القراء لكتاب بعينهم وتنوعها وعدم اقتصار المجلة على نوع واحد من الموضوعات ، وعدم وجود مجلة منافسة على المستوى نفسه، وقبل ذلك وبعده الرغبة لدى القارئ فى التثقيف.

وكذلك التعرف على تجارب وأفكار ورؤى فكرية وأدبية وفنية وتاريخية، لا يعثر عليها القارئ فى مصادر أخرى، وأيضا المساهمة فى تنمية القدرات الإبداعية لمن لديهم رغبة فى الإبداع الأدبى، واشباع الرغبة فى قراءة الأدب وتحقيق مكانة فى محيط المرء من خلال استخدام ما جاء فى «الهلال» من معارف، ويتمكن المعلم – مثلا – فى تقديم معارف خارج المقرر لتلاميذه.

وتحت عنوان .. «قراءة المجلات الثقافية» كشفت الدراسة أن ٧١٪ من القراء يقرأون الهلال بانتظام ، و٢٩٪ من القراء يقرأونها أحيانا، وتأتى بعدها مجلة «العربى» من حيث درجة القراءة ، فيقرؤها ٧ر١٩٪ من حجم العينة بصفة منتظمة أما مجلة الفيصل فتصل نسبة قراءتها الاجمالية إلى ٨ر٩٪، وكذلك مجلة إبداع التى يقرؤها نحو ٦ر٣٪ ، ويصل قراء مجلة «أدب ونقد» إلى ١ر١٠٪.

وتذكر الرسالة.. أن نحو ٣ر٦٢٪ من القراء يعودون إلى أعداد الهلال القديمة بحثا عن مقال أو معلومة سابقة.

ومن الملاحظات المفيدة التى قدمتها الباحثة :

● أشارت الباحثة أن الهلال تقيم

رسالة دكتوراه

توازنا دقيقا بين الداخل والخارج، وبين العرب والعالم، فى إطار سعيها إلى تحليل القضايا والظواهر والأحداث والأفكار والمذاهب ، وتشكيل قاعدة معرفية حولها لدى القارئ. وتأخذ على المجلة عدم الاهتمام بالمقال النقدى فى مجال النقد الإذاعى والتليفزيونى.

● تقول الباحثة عن الأجزاء الخاصة فى الهلال .. «إن إصدار الأجزاء الخاصة تتيح للمجلة إشباع حاجات القراء المتنوعة، على عكس العدد الخاص، الذى قد يرضى قطاعاً من القراء دون آخر، فالجزء الخاص لا يطغى على أبواب المجلة، ويسمح بالتنوع فى المضامين..».

وتضيف .. «ساهمت المعالجة الموضوعية والتحريرية للأجزاء الخاصة فى دعم دور المجلة فى تشكيل معارف القراء حول موضوعات متنوعة ، وبذلك حققت الأهداف التالية :

● إمداد القارئ بمعلومات منوعة حول موضوعات جديدة أو غير مطروقة ويغلب عليها طابع التخصص.

● إطلاع القارئ على فكر المدارس والمذاهب الفكرية والأدبية حول موضوع واحد، مما يمكنه من المقارنة بين المدارس والمذاهب.

● تكوين قاعدة معلومات ثابتة يمكن للقارئ الاحتفاظ بها والرجوع إليها فى موضوع محدد.

● تشكيل وتنمية معارف القارئ

رسالة دكتوراه

حول الثقافات الأخرى.

من الواضح أن إزدهار الحياة الثقافية يرتبط بازدهار الحياة الأكاديمية، وكل منهما يساهم فى نمو الآخر ويمده بالحياة والعنفوان، وها هى تتوالى رسائل الماجستير والدكتوراه التى ترى فى مجلة الهلال موضوعاً للبحث والدراسة ، وهذه عناوين بعض هذه الرسائل :

> محمود عبد الرحيم الصاوي : مجلة الهلال وموقفها من الثقافة الإسلامية فى الفترة من ١٨٩٢ – ١٩١٤.

كلية أصول الدين – جامعة الأزهر ١٩٩١.

> وائل ماهر قنديل : معالجة الصحافة المصرية لأفكار الحقبة من سنة ١٨٧٦ حتى سنة ١٩٠٠ وقضاياها بالتطبيق على الهلال والمقتطف .

كلية الإعلام – جامعة القاهرة ١٩٩٤.

> عبد الصبور فاضل : تحرير المجلة الدينية والعامة ، دراسة مقارنة لمجلات الأزهر والهلال.

كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر ١٩٨٨.

> عبد الجواد سعيد محمد ربيع: النظم الإدارية فى المؤسسات الصحفية ، دراسة مقارنة بين مؤسستى دار الهلال وروزاليوسف فى الفترة ما بين ١٩٨٠ و١٩٨٦.

كلية الإعلام . جامعة القاهرة ١٩٨٩.

> رشدي أنور البدري : فن التحرير الصحفى فى المجلة الثقافية دراسة تطبيقية على مجلات : الهلال ، العربى ، الدوحة، الفيصل فى الفترة ما بين ١٩٧٦ وحتى ١٩٨٦.

كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر.

مما يؤكد الحاجة الملحة لكشاف الهلال طوال عهده ، والذى سيقدم خدمة واسعة للحياة الثقافية طوال القرن الماضى، وقد توقف كشاف الهلال عند سنة ١٩٣٧ والذى كان يتولى مشروعه المرحوم د. أحمد الصاوى، وتعجز الامكانيات المتاحة عن القيام بهذه النقلة الضرورية ووضع «الهلال» على سى. دى مع كشاف لكل موضوعاته وكتابه.

وهو الدور الحيوى الذى يجب أن يقوم به المجلس الأعلى للصحافة، أو صندوق التنمية الثقافية ، والذى ينتهى بأن يصبح لمجلة الهلال موقعا على الانترنت .

وأخيراً..

لا يفوتنى أن أنوه بهذه الرسالة الممتازة، والطريق الجديد الذى شقته ، والذى سيكون له أبلغ الأثر على الدراسات فى المستقبل، والذى يمثل بداية مهمة لها ما بعدها، ويحقق هذا النوع من الدراسات أحد أهداف وأحلام الكتّاب ، ألا وهو امكانية قياس تأثير «كلمته» ، وأن تصل هذه الدراسات إلى معيار موضوعى يمكن قياسه، يراقب النبتة وهى تنمو وحتى تزدهر ويحين جنى ثمارها .

صراع اللغات

في القرن الحادي والعشرين

● بين هيمنة اللغة الانجليزية واللغة الصينية !

بقلم : مجدى شرشر ★

حين طوى القرن العشرون آخر صفحاته كانت خريطة اللغة - كلغة أولى أو ثانية - تتوزعها اثنتان من اللغات العالمية بوصفهما أكثر لغات العالم تحدثا، وتجرى على لسان نحو مليار نسمة أو أكثر قليلا كل منهما . فعلى مدار الساعة تتبادل اللغتان المواقع ، وعندما تغرب الشمس عن غرب المحيط الهادى ويخلد الصينيون إلى النوم، تسود الانجليزية باعتبارها أكثر اللغات تحدثا ودراسة .

لكن يجب التنويه إلى أن الاصطلاح اللغوى (الصينية) ربما ينطوى على قدر من الالتباس . فما يسمى بلهجات أوسع نطاقا للغة صينية بما فى الماندرين أو لغة البوتونخوا (لغة أهل الشمال الأصلية) و(مين) و(هاكا) و(ايوى) . لغة (الكانتونيز) نسبة إلى بلدة كانتون، هى فى واقع الأمر لغات منفصلة رغم ما بينها من ارتباط، وهى غير مقروءة إلا فى شكلها المكتوب ، ولذا فإن الماندرين أو البوتونخوا (أى اللغة المألوفة والشائعة والمفهومة) هى اللغة الرسمية للصين أى لغة الحديث والدراسة. .وبهذا فاسم (اللغة

★ كاتب بوكالة أنباء الشرق الأوسط

صراع اللغات

الصينية) اصطلاحا يسرى عليها مقابل (اللغة الصينية الأشمل) لمجموعة اللغات وثيقة الارتباط بالصين .

اللغات الأكثر تحدثا

ويأتى بعد هذا من اللغات الأكثر تحدثا فى العالم لغتان يتحدث بكل منهما أكثر من خمسمائة مليون نسمة ، أولهما (الهندى - أوردية) وإذا أضيف إليها عدد متحدثى لغات قريبة منها أو مرتبطة بها مثل لغة (البنجاب) (ولغات الدرا ويدانية) التى تنتمى إلى العائلة (الهندى - أوردية) والسائدة فى جنوب الهند مثل اللغة التاميلية والتيلوجو والكاندا ومالاعيلام والبلوخستان . وثانيهما الأسبانية والبرتغالية .

أما الفئة الثالثة لأكثر اللغات تحدثا فى العالم ، ويتحدث بها أكثر من مائتى مليون نسمة، فهى الروسية والبنجالية والعربية ، والروسية مرتبطة بشكل صغر أم كبر بمجموعة اللغات السلافية مثل البيلاروسية والأوكرانية والعرب كرواتية .

ويلى ذلك اللغات التى يتحدثها مائة مليون نسمة أو أكثر فى العالم وهما اللغتان اليابانية والملايو ، الاندونيسية.

فى آسيا والهادى ثم الألمانية فى أوربا والفرنسية فى مختلف أنحاء العالم . ولعل الفرنسية هى الأكثر أهمية لأنها مع اللغة الانجليزية الأكثر وجودا وتمثيلا فى قارات العالم وهى اللغة الرسمية لأكبر عدد من الدول أكثر من أى لغة أخرى .

ولها مكانتها الدولية كثانى لغة عالمية بعد الانجليزية ، رغم قلة عدد متحدثيها كلغة أصلية وتركزهم فى أوربا الغربية وأقليم كيبك بكندا (وعددهم ٦٠ مليون نسمة) .

وفى آخر القائمة تأتى (١٢) لغة كبيرة تنتمى لأكثر من ثمانين فئة لغوية صغيرة ويتحدث بها ما يقدر بأكثر من عشرة ملايين نسمة كلغة أولى أو ثانية.

اللغة العالمية الأولى

وعلى هذه الخلفية يدور جدل هادىء حول ما إذا كانت اللغة الانجليزية هى اللغة العالمية الأولى بحق. ويعتقد الكثيرون أن الانجليزية بلغت بالفعل مكانتها المتوقعة منذ أمد بعيد . ويثير احتلالها لهذه المرتبة العالمية الكثير من التساؤلات غير المسبوقة وغير المتوقعة أيضا .

ولكى تكون اللغة لغة عالمية بالفعل يجب أن توجد فى كل بلد فى العالم. والانجليزية تتمتع بهذا الوجود بالفعل

. فهى اللغة الأولى فى العالم، يتحدث بها نحو (٣٧٥) مليون نسمة كلغة أصلية فى الولايات المتحدة وبريطانيا وكندا وأستراليا وأيرلندا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا. وحصلت على مكانة استثنائية خاصة كلغة ثانية يتحدث بها (٣٧٥) مليون نسمة فى أكثر من (٧٠) بلدا مثل غانا ونيجيريا والهند وسنغافورة وغيرهم. وفى باقى الدول نجد أنها لغة يدرسها الأطفال . والمعتقد أن نحو (١,٥) مليار نسمة أى نحو ربع سكان العالم يستخدمون الانجليزية فى اتصالهم.

ومع هذا ، هل يمكن أن تكون الانجليزية لغة عالمية حقيقية مع أن ربع سكان العالم يتحدثون بها ! أي بمعدل فرد من كل أربعة أفراد ؟ والحقيقة فإن الإجابة على هذا التساؤل تنبع من الدور الحيوى للغة ، فاللغة أو الإطار اللغوى يقدم إطارا عالميا لتنظيم المجتمع الإنسانى ، ويشكل أداة لتراكم نتاج التواصل والإبداع الإنسانى . فاللغة الحية على هذا هى أداة فكرية وثقافية خلاقة لمستخدميها . ولذا وفى ضوء الدور الحيوى الذى تضطلع به الانجليزية فى عالم اليوم، يمكن القول بالفعل إنها كانت اللغة العالمية الأولى فى القرن العشرين . وستكون الأولى فى الحادى والعشرين . فالانجليزية الآن هى اللغة السائدة والمسيطرة فى السياسة الدولية والبنوك والصحافة ووكالات الأنباء والإعلان والإذاعة والتسجيلات والسينما والعلوم والسياسة والتكنولوجيا وإدارة المعرفة والاتصالات . ولم تستطع لغة أخرى أن تحقق مثل هذا الانتشار الواسع، ومن غير المنتظر أن تحققه فى المستقبل القريب .

أهمية اللغة الانجليزية

ولا ترجع المكانة العالمية للغة الانجليزية إلى عدد المتحدثين بها كلغة أولى ، فثمة لغات أخرى تحظى بوجود عالمى مهم كالصينية(الماندرين أو البوتونخوا) والأسبانية، حيث عدد المتحدثين بها كلغة أولى يفوق عدد المتحدثين بالانجليزية كلغة أصلية. كما أن عدد متحدثى الأسبانية يتزايد بسرعة بالغة خاصة فى الأمريكتين. لكن أهمية اللغة الانجليزية تعود إلى أن ثلاثة أضعاف متحدثى اللغة الانجليزية كلغة أولى يتحدثون بها كلغة ثانية، مع التأكيد على تزايد انتشار اللغة بين هذه الشريحة تأسيسا على تزايد معدل الزيادة السكانية فى تلك البلدان مثل الهند ونيجيريا ، مقارنة بمعدل الزيادة السكانية فى دول

كالولايات المتحدة والمملكة المتحدة.

ونتيجة لهذا لم تعد الانجليزية ملكا لأحد بعينه أو حكرا عليه وحده . وربما تكون الانجليزية قد نشأت فى بريطانيا وتدين بوجودها ومكانتها العالمية الحالية للولايات المتحدة ، لكن عدد سكانهما معا لايتجاوز (٣٠٠) مليون نسمة أى ثلث عدد متحدثى الانجليزية. ومع انتشار اللغة لايكون لها مركز نفوذ أو تأثير واحد . وهكذا فإن الانجليزية تصطبغ بتغيرات تأتى من طريقة استخدامها فى بلاد مثل جنوب أفريقيا والهند والصين وسنغافورة، وهى تغيرات لايستطيع أحد مهما كان حتى ولا أكاديمية انجليزية دولية التأثير فيها. والنتيجة الفورية لمثل هذا التغير هى بالقطع بزوغ تنويعات جديدة للغة الانجليزية يتحدثها عامة سكان مختلف أنحاء العالم ، وبدأ العالم بالفعل يشهد (لغات انجليزية جديدة) - إن جاز التعبير - مثل (الانجليزية السنغافورية) فى سنغافورة (والانجليزية الإسبانية) أى مزيج من الإسبانية والانجليزية بات يسمع ويتردد الآن فى الولايات المتحدة. وهذا الشكل اللغوى الجديد موجود ببساطة ، لأن الناس يريدونه ، فهم يريدون أشكالا محددة للغة تعبر عن هويتهم المحلية أو العرقية . وفى غمرة هذا التعبير يبتكر المتحدثون مفردات وقواعد نحوية ونطقا جديدا بشكل يختلف عن اللغة الانجليزية المألوفة السائدة، وسوف تتزايد وتتعمق تلك الاختلافات بمضى الوقت ، ومن يدرى فربما نكون بصدد تفكك اللغة الانجليزية لتصير (عائلة اللغات الانجليزية) بنفس طريقة انقسام اللغة اللاتينية لعائلة اللغات الرومانسية قبل ألف عام مضت .

المزج اللغوى

وهناك الكثير من الدوافع القوية التى تدفع نحو هذا المزج اللغوى ، وأقواها هو أن اللغة الانجليزية المألوفة السائدة، تشكل واقعا دوليا مؤكدا فى عالم الطباعة، كما أنها أداة الاتصال المتاحة على المستويين الوطنى والعالمى لسكان العالم ، فأى فرد يتمتع بمستوى تعليمى مقبول يكون قادرا على قراءتها ، بل إن الجميع يتعرضون لضغوط لتعلمها . وهناك دعاوى للتخلى عن اللهجات المحلية كتلك التى أطلقها جوه تشوك رئيس وزراء سنغافورة مطالبا مواطنيه

بالتخلى عن (الانجليزية السنغافورية) والتحول إلى الانجليزية المألوفة السائدة حتى يتسنى للعالم الخارجى أن يفهمهم، لكن من غير المتوقع نجاح تلك الفلسفة الإحلالية، فحاجة الناس للتعبير عن هويتهم اللغوية بطريقة قاطعة هى حاجة عميقة الجذور . ولعل خير الأمثلة على ذلك هو سكان ويلز وليفربول الذين لم يتخلوا عن لهجتهم المحلية عند تعلم اللغة الانجليزية المألوفة ، فكثيرون يتحدثون باللهجتين إحداهما للداخل والثانية للخارج ، وتظهر التجربة البريطانية عقم وعدم جدوى تعليق الآمال فى أن يتعلم الأطفال اللغة الانجليزية على حساب لهجتهم المحلية.

والتوجه السائد فى بريطانيا الآن هو التمسك والاعتزاز بكلا اللهجتين ، والمتوقع أن تكون ثنائية اللهجة هى التيار السائد خارج بريطانيا .

وتساهم التكنولوجيات الحديثة فى تعظيم مكانة اللغة الانجليزية ، فتلفزيونات الأقمار الصناعية التى تستخدم اللغة الانجليزية المألوفة باتت تصل الآن إلى مناطق لم تكن تصلها من قبل ، وكانت محرومة منها فى السابق كما أنها هى اللغة المسيطرة على الانترنت بنسبة (٨٠ فى المائة) رغم التوقعات بتراجع هذه النسبة مع دخول لغات أخرى على الشبكة.

وبقدر ما يشكل انتشار الانجليزية فى العالم من مميزات بقدر ما ينطوى على مثالب لأبنائها الأصليين ، الذين سيجدون أنفسهم مقيدين بعالم أحادى اللغة، حين يسافرون إلى الخارج لايستطيعون التواصل أو التحدث أو التفكير بلغة ثانية، ولذا فإنهم بحاجة لعدم السقوط فى فخ أحادية اللغة .

وإذا كانت الانجليزية تشكل الآن التيار الكاسح فى العالم، إلا أنه لا شىء مضمونا على اطلاقه فى عالم اللغويات والإنسانيات . فمع بداية الألفية المنصرمة لم يكن أحد يدرى أن متحدثى اللاتينية سيصبح عددهم محدودا فى نهايتها . فهيمنة لغة ما مرتبطة بتحول التوازن الاقتصادى والسياسى للغة أخرى بما يجذبها من الهامشى إلى المركز . وهذا يلقى بمسئولية كبيرة على المناطق التى تنتشر فيها اللغة العالمية المسيطرة لبذل جهود خارقة للحفاظ على لغاتها ولهجاتها المحلية ، وإلا فسوف تتعرض لأخطار محدقة ربما تندثر معها فى نهاية المطاف .


محمد فتحى
محمد محمود شعبان
حافظ عبدالوهاب
أنور المشرى
عبدالوهاب يوسف

طاهر أبوزيد

بقلم: صافى ناز كاظم

مع «أسبوعياته» و«جبهة حماة العربية»، عاد النجم الإذاعى العريق طاهر أبوزيد ليتألق من جديد، فى البرنامج العام للإذاعة المصرية، بعد غيبة سنوات طويلة، كانت نتيجة تنحيته قسرا عن الميكروفون منذ مطلع السبعينات. خلال تلك السنوات، التى قاربت العشرين، لم يتوقف طاهر أبوزيد عن إبداعاته الإذاعية التى كانت غذاء محبوبا لمحطات عربية أخرى، إذ لم يفلح القهر الغادر إلا فى حرمان المستمع المصرى من الصوت الصبوح البشوش المتفائل الذى لم ينقطع صداه فى آذاننا، رغم الانقطاع، يعلن عن برامجه التى منها «جرب حظك من ١٩٥٣ ـ ١٩٦٨»، «رأى الشعب من ٦١ ـ ٦٧»، «فن الشعب من ٥٦ ـ ٦٧»، «مع مجلس الأمة من ٦٢ ـ ٦٧». منع طاهر أبوزيد من الإذاعة وهو يشغل مسئولية رئاسة إذاعة الشرق الأوسط. حين استضافنى لأقدم برنامجى «كنت فى أمريكا» عام ١٩٦٧، وبرنامجى «مونولوج» عام ١٩٧٠، قلت له وقتها أنه حقق لى حلما عزيزا، داعبنى منذ الطفولة، وتوارى خلف الكتابة فى الصحف، وهو أن أكون مذيعة، ضحك وقال أنه لم يحلم يوما بأن يكون مذيعا بل حلمه الدائم كان المحاماة.



طاهر أبوزيد فى شبابه





طاهر أبوزيد سنة ٢٠٠٠

كان الحلم منطقيا مع بداياته حين اضطرته الظروف ليأخذ وظيفة «محضر» بعد حصوله على شهادة إتمام الدراسة الثانوية. أفاده عمله هذا فى سبر غور مشكلات الشعب الحقيقية، الشعب ساكن القرى والنجوع والدروب المنسية. يذكر مرة كان عليه أن يذهب مع مندوب شركة سنجر لماكينات الخياطة لينفذ حكما باسترداد ماكينة اشترتها أرملة فقيرة بالتقسيط ولم تستطع أن تفى بالتزامها، وعند التنفيذ فوجىء المحضر الشاب الذى لم يتجاوز العشرين، والذى كان عضوا بحزب مصر الفتاة فى بلدته طلخا، بالسيدة تولول هى وبناتها نادبات ماكينة الخياطة عند وداعها، كأنهن يشيعن عزيزا لايعوض ونزل بهن المصاب نزول الصاعقة، لعله كان عام ١٩٤٢ وحين يقال فقر فهو مدقع، لم يستطع المحضر الشاب تحمل المشهد، وبدا لنفسه كأنه الجلاد الذى ينفذ حكما بالإعدام على أبرياء، سأل مندوب سنجر: كم هو المبلغ المتأخر؟، وكان خمسة جنيهات، وكان المبلغ قدر المرتب الشهرى للمحضر الشاب وقد استلمه للتو، قال لمندوب سنجر، خذ هذا مرتبى كله وأعد لهن الماكينة، ويبدو أن مندوب سنجر كان ينتظر مثل هذه المبادرة، فتقاسم المبلغ مع طاهر أبوزيد، وانقلب المأتم فرحا

أطلقت فيه الزغاريد. هذه الروح المصرية السمحة التى تجود بما فى طاقتها للإنقاذ ظلت السمة الرئيسية لطاهر أبوزيد وتتبدى بوضوح فى بشاشة صوته وعباراته وطلاقة وجهه.

★★★

لم يرض الشاب طاهر أبوزيد أن يكتفى بدور «المحضر المنقذ»، فقرر أن يكون محاميا عن المظلومين لعله يمنع مثل تلك الأحكام الجائرة فى بلد يطحن البؤس ناسه، «أيام يقال عنها الزمن الجميل!»، ذهب يستأذن فى الإلتحاق بكلية حقوق جامعة الاسكندرية، فقال له رئيس المحكمة المسئول، السنهورى باشا وكيل وزارة العدل أصدر قرارا بمنع الجمع بين الوظيفة والدراسة، وبتهكم قال للشاب الطموح: هات موافقة من السنهورى باشا!، ظن الرجل أنه يضع المستحيل عقبة أمامه، لكن طاهر أبوزيد ركب القطار إلي القاهرة، إلى وزارة العدل، إلى مكتب السنهورى باشا وألح على السكرتير فى ضرورة مقابلة الباشا لعرض مظلمته . أثناء انتظاره دخل المحامى الشهير والقطب السياسى فتحى رضوان، فتقدم منه طاهر أبوزيد وطلب مساعدته فى مقابلة السنهورى، تمت المقابلة وقال السنهورى: وماله المحضر؟، بكره تترقى، قال طاهر أبوزيد: سعادتك كنت كاتب فى مصلحة التلغراف ولم تكتف بذلك، فضحك السنهورى وفتحى رضوان معا، ووقع السنهورى بالموافقة على الطلب وهو يقول: صدقت!. هل كانت هذه روحا قتالية، أم ثقة فى الخير وتفاؤلا، أم حسن ظن، لم يخب، فى القانونى العظيم عبدالرزاق السنهورى؟، أعتقد أن «كل ذلك»، هى الإجابة الصحيحة.

★★★

جمع طاهر أبوزيد بين دراسة الحقوق ووظيفته الشاقة ـ (كان هذا الجمع هو النموذج السائد لكل طالب للعلا فى حقبة الأربعينيات الصعبة، التى توهج فيها الوعى الوطنى الطامح إلى الترقى والتقدم لشغل المواقع التى تحقق للوطن ولفقرائه الحلم بكريم العيش) ـ وظل بعد التخرج ١٩٤٨، محاميا تحت التمرين لمدة قصيرة، إلى أن ساقه القدر لموافقة صديقه صبحى باسيلى، وكان يعمل مساعدا فنيا للإذاعة بالاسكندرية، وهو الآن محام كبير بالإسكندرية، ليجرب حظه فى اختبار للمذيعين. هكذا بلا حلم مسبق وبلا تخطيط وجد طاهر أبوزيد نفسه ناجحا صالحا، بشهادة الخبراء المتشددين فى الانتقاء، للعمل مذيعا

وتم تعيينه ١٤ مايو ١٩٥٠ . كان هو واحدا ممن يمكن أن نسميهم الرعيل الإذاعى الثانى بعد الرواد أمثال محمد فتحى، محمد محمود شعبان، حافظ عبدالوهاب، عبدالوهاب يوسف، أنور المشرى، صفية المهندس وتماضر توفيق، وكان الأقرب إلى قلبه الراحل العظيم والفنان الفذ عبدالوهاب يوسف، الذى دخل الإذاعة عام ١٩٤١ وتوفى فجأة فى ٢٩ نوفمبر ١٩٥١، قدم خلالها - ١٠ سنوات فقط - تحفه الإذاعية الخالدة، إعدادا وإخراجا وتمثيلا، منها «السيرة العطرة»، و«قطر الندى» و«خوفو»، و«على بابا والأربعين حرامى»، و«فى جزر هاواى»، و«السوق»، و«غروب»... إلخ، مع مشاركة بالتمثيل فى برامج من إخراج زملائه مثل البدوى فى «عوف الأصيل» إخراج أنور المشرى وحمدان فى «راوية» إخراج حافظ عبدالوهاب.

- (أنا لست مؤرخة إذاعية، كل معلوماتى هذه، هى معلومات وانحياز مستمعة ذواقة التصقت أذنها بالمذياع منذ طفولتها وصارت الإذاعة منذ ١٩٤٤ حتى ١٩٥٤ مصدرا رئيسيا من مصادر تشكيلها الثقافى والفنى والوجدانى، مدينة فى ذلك بالفضل بالذات لعبدالوهاب يوسف ومحمد محمود شعبان رحمهما الله آمين، وحين أقول ثقافة لا أقصد التعليم والتربية فى المدرسة، بل أعنى عملية التغذية اللذيذة، بالمعرفة التى نجحت فيها الإذاعة المصرية فى بداياتها رغم بساطة أدواتها، إلا أن روادها حققوا بالفعل المخلص المتفانى المثل القائل «الشاطرة تغزل برجل حمار!»).

★★★

تأثر طاهر أبوزيد بالتنافس وبالجو الفنى الإبداعى وأخرج برنامجا غنائيا بعنوان «المنتصرون» قال عنه بابا شارو محمد محمود شعبان: «أول مرة منذ سنوات أري نواة لمخرج حقيقى»، ولم يكن بابا شارو من الذين يجاملون فى الفن، مازلت أذكر برنامجه الشهير «جرب حظك»، الذى بدأه ١٩٥٣ وأنا مازلت تلميذة فى المرحلة الثانوية، وكيف كان الجميع يتوق ليكون واحدا من فرسانه، أى شخصياته، التى يستضيفها ويحاورها ويناغشها متبسطا وضاحكا وتلقائيا ليخرج من ملامح الشخصية، الطريف والشيق والإنسانى، وتراوحت شخصيات برنامجه من المجهول تماما وغير ذوى الحيثية من بسطاء الشعب، إلى النجوم الزاهرة فى أجواء الفن والصحافة والأدب، مرورا بتقديم الهواة، من يملك

منهم موهبة حقيقية ومن يسيطر عليه الوهم بالموهبة.. ثم.... اختفى اسم طاهر أبوزيد بمدلوله الأصلى الحقيقى، وصعد الاسم وحده يحمله نجما تألق فى ملاعب الكرة، كان أبوه أبوزيد قد أسماه حين مولده «طاهر» إعجابا وتيمنا باسم النجم الإذاعى المتألق، وهكذا شاء الله ألا يختفى اسم «طاهر أبوزيد» أبدا!.

★★★

فى آخر حلقة سمعتها من برنامجه الإذاعى «أسبوعيات طاهر أبوزيد» الذى يبثه البرنامج العام كل يوم جمعة قبل منتصف الليل، قدم فقرة جميلة من سجل تسجيلاته القديمة، وكانت لقاء مع ليلى مراد التى أكدت أنها تعلمت «عفق» النغم من الفقها ـ وتقصد قراء القرآن الكريم والمبتهلين بالإنشاد الدينى.. وأعجبنى تعبيرها «عفق» نطقت القاف همزة ـ الذى يعنى الصحيح والأصولى فى الإمساك بالآلة الموسيقية ومن ثم التوصل إلى السيطرة واتقان العزف أو الغناء، ولقد ظللت أياما أحاول «عفق» قلمى ليمكننى من «عفق» لب موضوعى الذى يهوم حول رأسى ولا أتمكن من الإمساك بتلابيبه ليجلس مرتاحا على الورق، ألاحظ حالا أن «عفق» يمكن أن تكون مرادفة للإمساك بالتلابيب، هذا التعبير العربى البليغ الذى لم يستطع أحد، من الذين حاولوا، أن يترجمه إلى الانجليزية والفرنسية، الإمساك بالتلابيب، حركة تجعلنا نسيطر بها على الممسوك «عفق لها فى قاموس المنجد سبع معان منها جمع الشىء أو لاذ به ومنها عفق الأسد فريسته!»، لب موضوعى الذى حاولت «عفقه» هو:

● أولا: الشهادة، ضمنا، للإذاعة المصرية فى المرحلة مابين ١٩٤٤ حتى ١٩٥٤ بأنها كانت ضمن مكوناتى الثقافية، ولهذه الشهادة حيثيات يجب أن أعبر عنها بدقة ورقة تقارب جاذبية الفن، فهى حيثيات مع تداعيات تروح وتجىء وتعلو وتخفت وبها «عُرَب» مثل «عُرَب» مغنى المواويل وزركشة ياليل وياعين، والميجانا والعتابا، والتقاسيم الشرقية على الآلات الوترية.

● ثانيا: أن أشهد، ضمنا، بأن الإذاعة فى تلك الفترة كانت فنا قبل أن


صفية المهندس   تماضر توفيق





تكون إعلاما، ولذلك ازدانت بالفنون الإذاعية وبالإذاعيين الفنانين أو بفنانى الفن الإذاعى، (كنا ندرس بقسم صحافة آداب القاهرة مادة اسمها الفن الإذاعى!)، ولذلك كانت الركيزة فى الاختيار والاختبار لمن يتقدم للعمل بالإذاعة هو المعيار الجمالى: جمال الصوت، سلامته وصحة مخارج الحروف، حسن اللفظ، جودة الإلقاء، متانة الأداء، أما معيار تحديد جمال الصوت فكان الحضور المتميز الجاذب للأذن والشخصية الظريفة للصوت، كان الفرز دقيقا وأمينا، ينتقى الموهبة ويبحث عنها ويتنبه إليها فيستدعيها حتى وإن لم يكن صاحب الموهبة مدركا لصلاحيته، هكذا استدعى طه حسين تلميذه المعيد الشاب، بقسم اليونانيات، محمد محمود شعبان ورشحه ليقابل المسئول الكبير ليعمل بالإذاعة عام ١٩٣٩ ويترك دراسته الأكاديمية ومساره للتدريس بالجامعة، وهكذا تم استدعاء الشابة صفية المهندس التى لفتت الأنظار بجمال صوتها وأدائها وهى تمثل لشكسبير فى حفل التخرج لقسم اللغة الانجليزية عام ١٩٤٥، فكانت أول صوت نسائى يعتمد كمذيعة معينة تقول: «هنا القاهرة»، وهكذا اختار الصديق صبحى باسيلى صديقه المحامى طاهر أبوزيد ودفعه دفعا إلى لجنة اختبار المذيعين، فيغريه نجاحه بترك حلم المحاماة الذى داعبه طويلا من أجل استقطاب الإذاعة الطارىء له، تنوعت الأصوات فكان هناك الصوت الموسيقى الذى استحق به محمد فتحى لقب كروان الإذاعة، وكان هناك الصوت القطيفى الودود الذى استطاع محمد محمود شعبان به أن يكون «بابا شارو» ويسجل اعجازا غير مسبوق أو ملحوق فى الحديث إلي الأطفال، وكان هناك الصوت الرومانسى الشاعرى لعبدالوهاب يوسف القادر على اللهجات العربية المختلفة، والصوت المفرد الوقور المليىء بالحيوية والاستقامة معا لصفية المهندس، والصوت المضياف البشوش المتفائل لطاهر أبوزيد، ذلك كله وغيره قبل أن يستفحل الصوت القنبلة، والصوت الناعى، والمقرّع، والمتعالى، وماضغ اللبان، مع الكابى والباهت والممل.

● ثالثا: أن أحقق الباعث الأصلى لكتابة هذا المقال ألا وهو الاحتفال بمناسبة بلوغ طاهر أبوزيد الثامنة والسبعين يوم ٥ هذا الشهر ابريل ـ إن شاء الله ـ فكل سنة وهو طيب، وله أدعو بدوام الصحة والبركة وحيوية العطاء.

من معين الذكريات

بقلم: وديع فلسطين

أجتهد فى هذه الكلمات فى استحضار بعض الذكريات حول الحياة الفكرية التى أتيح لى أن أكون شاهداً على أطراف من أحداثها ، ولا تخلو تلك الذكريات من طرائف لم تعرف سبيلها إلى الذيوع ولا تناولتها الأركان الأدبية فى الصحف السيارة .

التقيت بالشاعر أحمد رامى للمرة الأولى فى أوائل الخمسينات فى حفل كبير كانت السفارة الإيرانية تقيمه فى مقرها بمناسبة العيد الوطنى لإيران . وكان هذا اللقاء السريع بداية صداقة طويلة امتدت إلى أن غادر الدنيا فى ٤ يونيو ١٩٨١ «وهو من مواليد ١٩ أغسطس ١٨٩٢)، وكان أحمد رامى ينادينى دائماً بالعبارة الرقيقة «ياحبّوب» ، ولا أدرى هل كان يخصنى بها أو كان يطلقها على جميع أصدقائه.

وذات مرة قال لى أحمد رامى إنه منذ ماترجم رباعيات عمر الخيام بعد عودته من باريس حيث درس اللغة الفارسية، وهو يتوق إلى زيارة ضريحه المتفرد بجماله المقام فى نيسابور فى إيران. وكان رامى يعرف أن بينى وبين السفير الإيرانى بهرام بهرامى صداقة، فسألنى هل يمكننى مفاتحة السفير فى هذه الرغبة، فوعدته بأن أجتهد فى ذلك . وعندما سنحت لى فرصة مواتية نقلت هذه الرغبة إلى السفير الذى بادر بنقلها إلى حكومته



الشاعر أحمد رامى

التى رحبت باستضافة أحمد رامى وزوجته.

وكانت فرحة رامي كبيرة، فاستخرج جواز سفر له ولزوجته وأخذ يتهيأ للسفر . ولكن توعكاً طرأ على صحته فطلب إرجاء موعد الرحلة على أمل أن تتحسن صحته فتحتمل عناء السفر والانتقال . ولكن الضعف كان قد دب فى جسمه، واضطر آسفاً إلى وأد هذه الرغبة التى رافقته سنوات طويلة.

الشاعر الماحى فى قفص الاتهام

كان من عادة الشاعر محمد مصطفى الماحى أن يقيم فى بيته بحدائق القبة ، وكان يقع فى شارع البحترى ، فالتقى الشاعر القديم بالشاعر المعاصر فى مكان جغرافى واحد ،... أقول كان يقيم فى بيته ندوات أدبية حول أقداح الشاى وملحقاته ، وكان يختلق المناسبات لجمع أصدقائه ، ولاسيما الشعراء منهم. وكان الماحى منذ ما التقيت به للمرة الأولى فى ندوة الأديب الدكتور كامل السوافيرى (ولم يكن قد تدكتر بعد) فى الأربعينات يجاملنى بدعوتى إلى ندوته ، فكنت أنعم فيها بجو ودى تدور فيه أحاديث الأدب مختلطة بمرويات الشعر وبالفكاهة أيضاً .

وذات يوم هاتفنى الماحى داعياً إياى لحضور ندوته قائلاً إنه سيؤخر ميعاد انعقادها إلى الساعة الثامنة مساء لظروف خاصة . وفى الموعد المحدد ، توجهت إلى بيته فألفيته جالساً فى الحديقة الخلفية مع جاره الشاعر أحمد رامى الذى كان يقيم فى شارع موازٍ اسمه منية الإصبع ، وبعد قليل بدأ ضيوفه يصلون تباعاً ، وكلهم من الشعراء : محمود غنيم والعوضى الوكيل وحسن كامل الصيرفى وأحمد مخيمر ومختار الوكيل وعبد السلام شهاب . وكنت الوحيد بينهم الخارج عن الهيئة ، لأننى لست من الذين يتبعهم الغاوون!.

وبعدما اكتمل الحضور ، دعانا الماحى إلى داخل المنزل ، فألفينا موائد منصوبة تراصت عليها ألوان من البط الدمياطى الشهير، فمنه المحمّر والمقلى والمسلوق والمشوى والمحشى ، هذا إلى جانب «التحابيش» الأخرى . فقلت للماحى إننا لبينا دعوته إلى ندوة أدبية بريئة ، فإذا نحن أمام مأدبة عامرة بصنوف من الطعام تصعب علينا مقاومتها ، فكيف نعتذر عن كل هذه المشهيات؟ وانهمك المدعوون فى تناول الطعام ، وكنت ألاحظ أن الماحى ومحمود غنيم يتبادلان نظرات لاتخلو من مغزى ، ولكننى لم أعلق أهمية عليها على اعتبار أنها إمارات على فرط الود بين الشاعرين .

ولما فرغنا من الطعام ، دعانا الماحى إلى الصالون حيث افتتحه بقوله إنه تعرض لحملة جائرة من صديقه غنيم الذى يرميه بالبخل والتقتير ، وهو ما اشتهر به أهل دمياط وهى المدينة التى ينتمى إليها الماحى والتى يكثر من التردد

عليها ويقيم أشهر الصيف الأربعة في عشة يمتلكها في رأس البر، وهو المصيف التقليدي لدمياط . وقال إن غنيم نظم مطولات شعرية في هجائه وفي إلصاق تهمة التقتير عليه ، ولهذا دعانا لكي نكون شهوداً عدولاً في هذه القضية ننتصف له من خصمه اللدود. ثم أفسح المجال للشاعر محمود غنيم الذي شرع يسمعنا هجائياته الشعرية في قصيدة تلو أخرى حيث تتصاعد لهجتها الحادة من قصيدة إلى غيرها، حتى بلغ الذروة في هجومه عندما قال إن الاسكندر الأكبر بكل جحافله لايستطيع أن يخلِّص الماحي من رذيلة الحرص ، وإن نابليون بكل أساطيله يعجز عن إصلاح حال ابن دمياط الوارث لخصائصها العالمية في الشح!.

ولما فرغ غنيم من مرافعاته الشعرية ، رد عليه الماحي دافعاً عنه هذا الاتهام ، قائلاً إن بيته مفتوح على مصاريعه لكل الأدباء ، ولكنه غنيم «عينه فارغة» ولا يخلو من طمع وجشع . وظل الماحي يفنِّد التهم واحدة واحدة في قصيدة تلو قصيدة.

ثم فتح الباب أمام الشعراء الحاضرين ، فتسابقوا في الدفاع عن الماحي شعراً قائلين إن البط الدمياطي الذي التهموه الليلة هو خير رد على تخرصات غنيم وافتراءاته.

وكان مسك الختام أرجوزة زجلية فكهة ألقاها عبدالسلام شهاب واختار لها قافية الطاء، فكان يختم أبياته بعبارات «بنت الشاطي» و«الدمياطي» و«طاطي طاطي» وهلم جرا.

ولكن غنيم طلب الكلمة مرة أخرى ، وقال إنه مازال مصراً على اتهام الماحي بالبخل ، وآية ذلك أنه لايقيم أمثال هذه المأدبة إلا مرة في كل قرن كامل ! أليس هذا أبلغ دليل على أنه دمياطي لاغشَّ فيه؟.

كانت سهرة جميلة قنعت فيها بدور «الشيخ الكبسي» ، وهو الممثل اليمني الذي أوفده الإمام يحيى لحضور أول اجتماع لتقرير إنشاء جامعة الدول العربية، ونبه عليه إمامه بالاستماع دون أن يفوه بحرف ، لأن الإمام كان يتشكك من هذه الجامعة . ومن ناحيتي ، لم أكن أملك أداة الشعر لأجري مع الشعراء في هذه الحلبة ، ولهذا بعثت إلى الماحي برسالة قلت فيها مامعناه إن براءته من اتهامات غنيم ناصعة ، وإن البط - وإن كان صامتاً لا «يصوصو» - شاهد على سخائه وكرمه.

وجمع الماحي كل هذه المساجلات الطريفة على أمل أن ينشرها في كتاب ، ولكن الوفاة المفاجئة لزوجته والانهيار التام الذي أصابه بعد وفاتها وعجل بمنيته في ٧ نوفمبر ١٩٧٦ (وهو من مواليد ٢٤ سبتمبر ١٨٩٥) حالا دون صدور هذا الكتاب الذي يذكرنا موضوعه الطريف بكتاب «مقطَّفة النجوم» . ولهذا الكتاب الصادر في سان باولو بالبرازيل

فى عام ١٩٧٠ قصة تستحق أن تروى هنا.

مقطفة النجوم

عاد الشاعر المهجرى شفيق معلوف وزوجته روز من زيارة لبنان والتعريج على مدينتهما زحلة ، فجاء لزيارتهما قريبهما الشاعر نقولا المعلوف صاحب ديوان «حور وخمور» لتهنئتهما بسلامة العودة . وأهدت السيدة روز - واسمها يعنى الوردة - قنينة من الشراب إلى ضيفهما نقولا المعلوف الذى توهم أنها تحتوى على العرق اللبنانى الذى يعتقه أهل زحلة، فلما فضّها تبين أنها تحتوى على شراب الورد، وهو ليس بضالته المنشودة!.

وعندما أراد شكر الوردة روز، نظم قصيدة عنوانها «مقطفة النجوم» إذ أن زوجها شفيق معلوف صاحب ديوان «عبقر» خاطبها بقوله :

بالتى تقطف النجوم يداها
ثم ترمى بهن تحت وسادى
بفتاة كأن أجنحة الشحرور
كحلّن عينها بالسواد
نقلى يايد النسيم على أهدابها
السود ريشة العواد
إن أهدابها بقيّات أوتارى
شُدّت إلى بقايا فؤادى

أما نقولا فقال فى قصيدته :

مقطفة النجوم لك المعالى
وماء الورد ياورد الجوالى
هديتك النفيسة فرحتنى
ولكن لم يطل فرحى الخيالى
فضضت ختامها فإذا الغوالى
بها لا خمر، وارفة الظلال

ولم تكد قصيدة نقولا المعلوف تنشر فى البرازيل حتى عارضها أكثر من ثمانين من شعراء المهجر الجنوبى والشمالى ، وقام الأديب السورى الدكتور عبد اللطيف اليونس بجمع كل هذه المعارضات ونشرها مع دراسة مسهبة فى كتاب طريف بهذا العنوان.

جماعة علم النفس التكاملى

من أبرز أساتذة علم النفس فى مصر الدكتور يوسف مراد الذى تخرج على يديه عشرات من المتخصصين فى هذا الميدان ، واصطفى منهم مجموعة أطلق عليها اسم «جماعة علم النفس التكاملى» كان يجتمع بأعضائها فى بيته فى روض الفرج قبل أن ينتقل إلى حى الدقى . ومن أبرز أعضاء هذه الجماعة الدكتور صبرى جرجس والدكتور مصطفى زيوار والدكتور اسحق رمزى والدكتور أبو مدين الشافعى رحمهم الله والدكتوران مصطفى سويف ومصطفى صفوان المقيم فى باريس أطال الله بقاءهما.

وتأصيلاً لعلم النفس فى المجتمع أصدر الدكتور يوسف مراد «مجلة علم النفس» فى عام ١٩٤٥ وكانت تصدر ثلاث مرات فى السنة ، وكان ينفق عليها من

حر ماله ، واضطر بعد ثماني سنين من إصدارها إلى إغلاقها لأنها - باعترافه - لم تكن توزع إلا ٨٠ نسخة مع أن قيمة اشتراكها السنوى خمسون قرشاً .

ومن الأعمال الباقية للدكتور يوسف مراد - الذى قل أن يذكر أو تعترف له بريادته - إعداده مسرداً وافياً لجميع مصطلحات علم النفس باللغتين العربية والانجليزية ، وتنبيهه على جميع طلابه وأعضاء جماعته بألا يستخدموا إلا هذه المصطلحات التى استقرت بفضله وشاعت بعد ذلك ، ولاسيما لأن جميع مطبوعات الجماعة كانت تشتمل على ذيل يورد جميع هذه المصطلحات بلغتيها .

وقد تعرض اثنان من أعضاء جماعة علم النفس التكاملى لاعتداءات على حياتهما من مرضى كانا يعالجانهم . أما أولهما ، فهو أبو مدين الشافعى ، وهو شاب من الجزائر لعله من أوائل المشتغلين بالطب النفسى من أبناء بلاده وله كتاب كبير عنوانه «الانتباه الارادى» . كان الشافعى يعالج مريضة فى عيادته فى شارع قصر العينى - إذ كان قد استقر فى القاهرة - فتوهمت أسرتها أن كثرة ترددها على العيادة دليل على أن وراء الأكمة ما وراءها، فهاجمته فى عيادته وأردته قتيلاً.

أما الثانى فهو الدكتور اسحق رمزى الذى كان يعالج طالباً من أزمة نفسية ، وفى نوبة من نوبات المرض أطلق الطالب الرصاص على طبيبه فنجا بأعجوبة، لأن الطلقات مست القلب دون أن تعطله . وبمجرد شفائه من هذا الحادث ، أغلق عيادته وانسحب من جامعته وهاجر إلى الولايات المتحدة حيث صار من كبار الأطباء النفسيين فيها ، ولم يعد إلى مصر أبداً إلى وفاته فى عام ١٩٩٢ عن نحو ثمانين عاماً.

وقد أصدر أعضاء جماعة علم النفس التكاملى مجموعة نفيسة من الكتب ما كان منها مؤلفاً أو مترجماً بما فى ذلك ترجمات موثقة لمؤلفات فرويد .

نزار قبانى يرافق جثمانا

كانت بداية الحياة الدبلوماسية للشاعر نزار قبانى فى القاهرة ، إذ أوفدته حكومته للعمل كدبلوماسى مبتدىء فى المفوضية السورية - ولم يكن التمثيل قد رفع إلى مستوى سفارة بعد . وكان نزار مشغولاً وقتها بطبع ديوانه الثانى فى القاهرة وعنوانه «طفولة نهد» ، فى حين أن ديوانه الأول الذى طبع فى دمشق بعنوان «قالت لى السمراء» أهاج أعضاء البرلمان السورى عليه بسبب جرأته غير المعهودة فى اقتحام عالم حواء ، فرئى إبعاده فى القاهرة لإسكات الضجة التى أثارها ديوانه فى الشام .

وحدث فى تلك الفترة أن توفى الوزير المفوض السورى فى القاهرة ، وهو من

أسرة أرسلان، فتقرر شحن جثمانه إلى دمشق ليدفن هناك، وكلف نزار قبانى بأن يرافق الجثمان كبادرة بروتوكولية طيبة . وكانت هذه تجربة غريبة للدبلوماسى المبتدىء ، والغريب أنه لم يشر إليها فى الذكريات التى نشرها عن عمله فى القاهرة فى ذلك الوقت.

ولم يتم رفع التمثيل الدبلوماسى بين مصر وسورية إلى مرتبة سفارة إلا فى عهد الأمير مصطفى الشهابى الذى كان وزيراً مفوضاً، وقدم أوراق اعتماده بهذه الصفة إلى الملك فاروق فى الإسكندرية - وخصنى وقتها بأول حديث أفضى به إلى الصحافة المصرية - ثم أصبح سفيراً وعاصر قيام الثورة المصرية وتعامل معها . ولكن كانت الصفة المجمعية للأمير الشهابى بوصفه نائب رئيس مجمع دمشق ثم رئيسه ، أبرز من الصفة الدبلوماسية وقبلها الوزارية لأنه شغل عدة وزارات فى سورية.

العرب يغزون نيوزيلندا

أهدانى الأديب العراقى ناجى جواد كتابه الجديد «بغداد : سيرة ومدينة» وهو كتاب يتحدث فيه عن حياته فى عاصمة الرشيد وذكرياته عن الأدب والأدباء ورجال السياسة الذين عاشرهم وعرفهم عن قرب، على الرغم من انه كان وكيلاً لساعات «أوليما» السويسرية، وكان يقوم بنفسه بإصلاح الساعات فى محله الواقع فى شارع الرشيد فى بغداد .

ولكن صناعة الساعات لم تحل بين ناجى جواد وبين العمل الأدبى، فأصدر طائفة من الكتب السياحية عن البلدان التى زارها مثل الأندلس والمغرب العربى والهند ونيوزيلندا. ونيوزيلندا هى آخر محطة اختارها ناجى جواد للإقامة فيها حيث الطبيعة البكر بغاباتها وبحيراتها وحيواناتها وجوها الخالى من التلوث . وقد أخبرنى ناجى جواد أن مدينة أوكلاند التى يقيم فيها تضم نحو ٣٠٠ عائلة مصرية مهاجرة إلى هناك ، وأن مايقرب من عشرة آلاف أسرة عربية ، أغلبها من العراق، تقيم فى هذه المدينة . وخدمة لهذه الجالية العربية الكبيرة أقيمت هناك محطة إذاعة عربية باعتبارها مشروعا يكمل الرسالة التى تقوم بها جريدة «المصرى» التى تصدر فى سدنى عاصمة استراليا وتوزع فى نيوزيلندا.

وبفضل الهجرات الواسعة من العالم العربى فى السنوات الأخيرة إلى أنحاء شتى من العالم ، بما فى ذلك نيوزيلندا وأستراليا ، صح أن يقال إن الشمس لاتغيب عن دنيا العرب ، وكانت الشمس فى الماضى لاتغيب عن الامبراطورية البريطانية قبل زوالها!.

الضحية الحديثة

شعر:
د. عبده بدوي

١

كانت أصواتاً خاشعة ... تجتاحُ وجوداً مأهولا
قد غطت أشجاراً ملأى ... والزهر يعانق أيلولا
وتضيئ بأثمار دارت ... وتشع الإشعاعات الأولى !
.. ما زالت تجأر فى قربى ... وتطالبُ أن تعطى سولا
وتدور بمحراب رحب ... فتمس هناك التنزيلا
قد لفّت آفاقاً عليا ... ومضت تبكى جيلاً جيلا
ذكرت أياماً يانعة ... ومآذن قد فاقت طولا
والخيل تغادرُ إفريقيا ... وتهُزّ السيف المسلولا
والقمر يُضيئ على كفٍ ... والشمس تشد المنديلا
قد كانت أياماً خضراً ... والعمر جميلاً مسئولا !

٢

كل الأصوات مضت تعطى ... نوراً . تكبيراً . تهليلا
إلا صوتاً قال بحزن ... ضّيعتم هذا القنديلا
ما كان فداءً فى الماضى ... قد بدّلناهُ .تبديلا
فلنذكر أن ضحيتنا ... كانت سراً «إسْماعيلا»

٣

وتظل الأصواتُ الخجلى ... ترتيلاً، يتبع ترتيلا
ويظل الدمع على حزن ... من «هاجر» بحراً موصولا
«وأبو لهب» سيرى أبداً ... ويضيف فصولا وفصولا
من صيِّرنا خزفاً ملقى ... ووجوداً أضحى مشلولا !
.. من ردّ فوارس قد كانت ... تتأمل حلماً مأهولا
وأدار «لعُقبة»(١) رايتهُ ... والحزم وما يعنيه عويلا !!
«ولطارق» قد هامش أضحى حبساً ... ووراء المنتصرين عليلا..(٢)

---

(١) عقبة بن نافع
(٢) طارق بن زياد

ذكريات لا تنسى :

الفن الشعبى

● لوحة رقصة «الدلوكة» على جدران أحد المقابر فى الأقصر مازالت ترقص حتى اليوم.

● ضحى د. شيفرز بعمره من أجل الحفاظ على التراث الشعبى الموسيقى ..

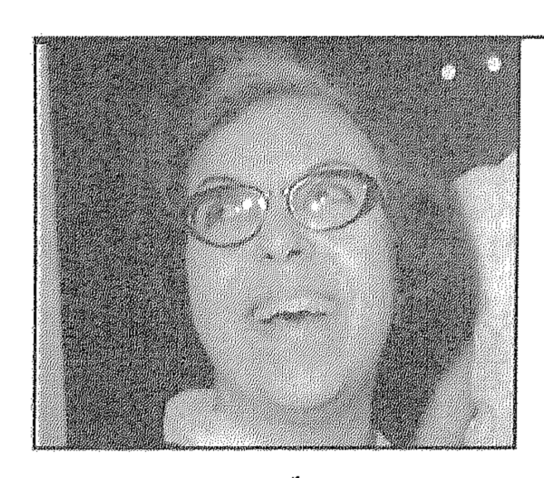
● أين الفدائى «المجنون» الذى يجمع تراثنا الموسيقى ؟!

بقلم: حسن سليمان

●● إن ما حدث كأنه حدث أمس . أظن ذلك كان فى سنة ١٩٣٩ . لازلت أذكر أن المذيع بالتأكيد هو محمد فتحى بيه . صعقنا وشدنا بلغته العربية الرصينة ووصفه الرائع . اجتمعت الأسرة كلها حول «الراديو» لأنه قال : أنهم سيخرجون آلات موسيقية من المتحف المصري القديم وخصوصا آلات نفخ ، فهناك ألمانى قد أثبت أنها صالحة لتؤدى الغرض . يريد أن يجربها ليتأكد من نظرياته عن جذور وامتداد الفن الشعبى المصرى عبر الأجيال ●●

حينما جاء خالى من الخارج أخبرنا أن التجربة قد نجحت جدا ، واستطاع الألمانى إثبات أن هناك علاقة تربط بين ثقوب آلة النفخ مع مسافات وسمك أوتار الهارب. أتى ببعض النغمات - التى مازالت تعمل فى التراتيل القبطية والنغمات التى لازالت ببعض مناطق الصعيد فى موسيقاه الشعبية - المشتركة بينهما . نسيت اسم الرجل الذى نطق به خالى فى ذلك الوقت فهمنا كان منصباً على التجربة فى حد ذاتها ، وسرد محمد فتحى الرائع لتاريخ مصر وعظمتها كما عودنا دائما بصوته العذب ، وعربيته الممتعة .

مضى الزمن ، وقبل أن أسافر مرسم الأقصر سألت خالى عن ماذا ينصحنى أن أفعله فى مرسم الأقصر . قال لى : لا تضيع وقتك فى زيارة عابرة للمقابر فعددهم أكبر مما تتوقع ولن تستطيع أن تلم بكل شئ لا فى خلال سنتين أو حتى عشرة . لكن أنصحك بمقبرة مجهولة إلى الآن بمنطقة الخوخة رقم ٣٨ - حسب الترقيم حين ذاك . قال لى : هى لأميرة ماتت قبل أن تتم المقبرة رسمها ، وأظن أن الفنان كان فى حالة وجد وحب حين رسمها ، وإن وجدت لديك وقتاً فلا تضيعه إلا مع نائحات راموزا وعلاقة أيديهن المرتفعة مع انحناءات شعورهن المتكررة .



د.سمحة الخولى

لم أضيع وقتاً فى الأقصر ، وبما أن الخفراء يدركون علاقتى بخالى فقد فتحوا لى المقبرة المغلقة . كان الرسم فى المقبرة محصورا على جدار يسار المدخل . الرسم يعبر عن خادمات تقدمن عقود اللوتس للزائرت ، وهناك راقصتان انثنى جسدهما عكس بعضهما وجلست العازفات تنفخن فى الناى . صعقت أمام رشاقة الخطوط وجمال الألوان والوجد الذى يحمله العمل الفنى لى . ضيعت معظم الوقت فى نقل هذه المقبرة بالألوان ، وحينما أتى طه حسين بالفنان «أندريه لوت» ليدرس لنا فى مرسم الأقصر أخذته إلى هذه المقبرة .

صعق «أندريه لوت» بجمال هذا الحائط المهجور وعذوبة الفتيات المرسومة وأخذ يصورها ، وطبعها فى كتابه عن الفن المصرى القديم حينما رجع إلى فرنسا ، ثم تبعه الكثير ممن نشروا عن الفن المصرى القديم .

لا أعلم الآن ماذا أصبح رقمها أو ماذا حدث لها . حينما رجعت إلى

القاهرة، واطلعت خالي على الرسوم التي رسمتها اشتراها كلها . لم أكن أتوقع أنه سيعجب بها إلى هذه الدرجة . سألته : إن الراقصتين اللتين تقفان عكس بعضهما في حركات راقصة - هل يتذكر أن أي أثر من تلك الحركات الثنائية بين الراقصتين امتد إلى الآن ؟ قال لي : أنا أذكر أنه مازالت تلك الحركات الثنائية إلى الآن في شمال السودان تسمى برقصة (الدلوكة) ، ولابد أن هناك مكاناً ما في القاهرة مازالوا يرقصون فيه هذا الرقصة . بسهولة وأنا في مولد عرب المحمدى سألت عن تلك الرقصة، فدلوني عن مكان في «عزبة أبو حشيش» لازالت تمارس فيه هذه الرقصة، وأخذني صديق خضرة خضر «عم بشير» إلى هناك . وجدت حجرة متسعة غطى سقفها بجذوع النخل وسعفه . طليت الحجرة بالأزرق .. تنفذ الشمس من خلال ثقوب السقف كأنها دنانير ذهبية منثورة على الجالسين وعلى الجدران الزرقاء . الجالسون كلهم سودانيون يستندون إلى الحوائط الزرقاء بملابسهم البيضاء على «الحصر» التي تفترش الأرضية كلها ، وأمام كل واحد منهم «قرعة البوظة» وطبق صاج صغير فيه «الشطيطة» وهي كبدة الجمل مقطعة قطعا رفيعة صغيرة تغرقها الشطة والليمون - يأكلونها نيئة - فجأة دخلت فتاتان ترتديان في وسطيهما تنورة كلها أحبال وبها حوافر معيز جافة - أما أعلى أجسامهما إما أن تكون صدرية خضراء شفافة ملتصقة أو عارية الصدر ، بدأتا الرقص على إيقاعات دقات بدائية ساذجة من الطبلة ذات الجانبين ودف كبير، يحرك العازف الطبلة يميناً ويسارا بسرعة . أما الشئ الملفت للنظر كثيرا فقد كان آلة موسيقية غريبة لا أتذكرها جيدا ، لكني أذكر أنها عبارة عن طبق صاج قشر بعض سطحه وشدت عليه أسلاك مختلفة وله يد قصيرة والعازف يشد الأسلاك . حينما بدأت الراقصتان ترقصان عكس بعضهما بالضبط . فوجئت بأنه لولا حوافر المعيز الكثيرة التي تحدث أصواتاً غريبة متحركة يمينا ويسارا واصلة إلى أسفل ركبتيهما - لولا هذا لكأنني أمام الرسم الذي في المقبرة تماما مع انثناءات أيديهما . دائما يتحركان ولكن عكس بعضهما .

★★★

بالشقة التي بجانب مرسمي كانت تسكن راقصة سويسرية ترقص في «صحاري سيتي» تسمى «ليزا ماي» . مدربها على الرقص كان يسمى الشيخ سيد ، كان يرتدي جلباباً أصبح فيما بعد الجلباب الشائع الذي تلبسه الطبقة العليا في العجمي وهو مفتوح الجانبين وبه

تطريز . سألته أننى قرأت فى كتاب عن خطابات «فلوبيــــر» للكاتب «چى دى موبسان» وهو فى زيارته لمصر . فى أحد الخطابات ذكر «فلوبير» أنه طلب منهم أن يرى رقصا شرقيا ، فأجابوه أن الخديوى نفى كل «العوالم» والراقصات إلى المنيا . لكن بقيت مقهى فى بولاق لازال يمارس فيها الرقص الشرقى من فتية مخنثة . حينما أخبرت الشيخ سيد بهذا قال لى : «ياه دا كان زمان وخلص» الحكومة أغلقت هذا المقهى مع إنتهاء الدعارة لكنهم مازالوا يمارسون هذا الرقص فى شقة ببولاق ، وكان فى بالى إلى أى مدى احتفظ الرقص الشرقى وعلاقته بالرقص المصرى القديم قبل أن تأتى عليه المؤثرات التركية ، وفى حديثى معه صرح بأنه منذ سنين طويلة يسيطر على تدريب الراقصات المشهورات الشواذ من الرجال . سألته : هل تستطيع أن تدبر لى زيارة لهم . قال : أظن أنه من الصعب لكنى سأحاول وسأخبرك. بعد أيام أخبرنى أنهم وافقوا وعلىّ أن أذهب خلف الفسخانى الذى كتب على لافتته «الهلوتى المشهور بـ ...» يمنعنى الحياء أن أقول الكلمة وتحتها مكتوب دون إحراج . قال لى : قف على الربوة التى خلف الحانوت بجوار ضريح سيدنا أبو العلا ، وانتظر من سيأتى لك . لم تطل وقفتى طويلا إذ بزغ أحدهم واضعا طرف جلبابه فى فمه ليصبح الجلباب ملتصقا على فخذيه . بادرنى بلهجة أنثوية : «أنا اسمى حودة .. إنت بقى الأفندى الذى سيشرفنا» ؟ قلت له : أجل . قال : اتبعنى لكن اعمل حسابك النقطة فى كل مرة لن تقل عن عشرة جنيهات . سبقنى وهو يقول: «وسع يا ولا» ، وجلبابه لازال فى يده أو فمه ، كل ما أذكره أننا دخلنا شارع الواجهة المتسع الذى يواجه ضريح أبو العلا ، وفى الناحية اليمنى المواجهة لوكالة البلح دخلنا إلى زقاق ضيق ثم انعطفنا لزقاق أضيق حتى كدت أن أخشى أنى لا أستطيع الخروج من هذه الأزقة الملتوية وشعرت بخوف ، صعدنا درجات سلم متآكل وكانت تترامى إلى مسامعى موسيقى «أكورديون» وطبلة . فجأة وجدت راقصتين يرقصان بالضبط عكس بعضهما ، يملكان نفس انثناء الراقصتين المرسومتين فى المقبرة - وحركة ساقيهما حتى تعطى فرصة لتحريك أردافهما . من وقت لآخر يقول أحدهما : (هلا هلا يا أخا) .

سألت ما معنى كلمة (أُخا) فقالوا لى: : بأنها بلغة العوالم أختى . توقف الراقصان ومروا علىّ كى أدفع النقطة فدفعت عشرة جنيهات . فجأة قال أحد الراقصين : «يا لا يالا يا معلمتى دى الأفندى يرى الرقص على أصوله !!» ، فوقف رجل فى منتصف العمر يميل إلى البدانة قليلا وأحد الراقصين اندفع إليه ليحزم شالا أسفل بطنه . إذ بهذا الرجل

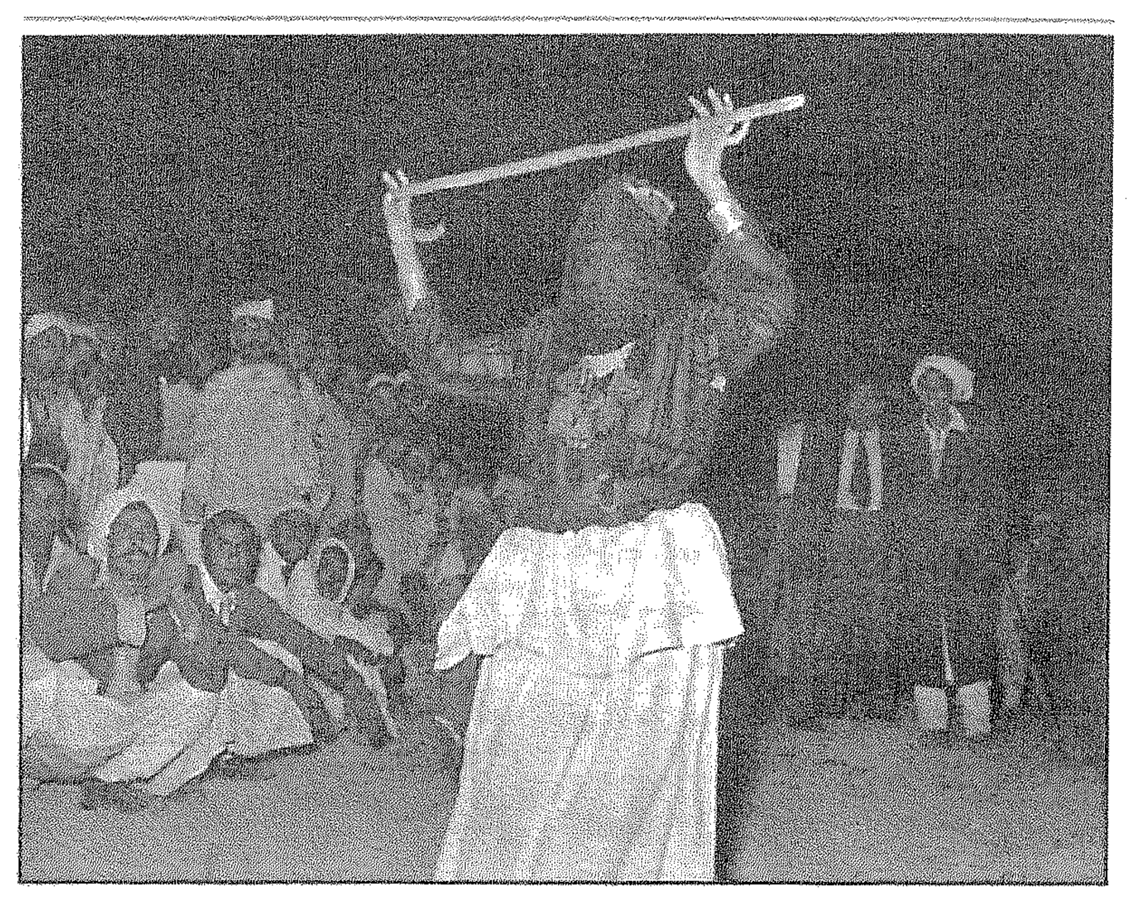
يدهشنى بمرونة جسمه التى لا تتناسب مع سنه وثنى جسده وهو يميل إلى الخلف حتى يمس الأرض بكفيه ثم ينتصب سريعا كالصور التى على المقابر الفرعونية.

مع صوت الطبلة المتلاحق الذى يصمت فجأة ليبدأ من جديد - رأيت ما أريد أن أراه - لكنى لم أشعر بارتياح ربما لنظرة الطبقة المتوسطة التى أنا منها للشذوذ فى ذلك الوقت .

ما أن وصلت إلى شارع الواجهة ورأيت الأضواء تزين حانوت الفسخانى مع جامع وضريح أبو العلا تنفست الصعداء وقلت لنفسى : لازالت جذور من أيام الفراعنة باقية تصورتها كما هى ، لكن حينما سألت علماء الآثار قالوا : لا أحد يستطيع التكهن بنوعى الرقص اللذين كان أحدهما يمارس فى المنازل لتسلية الضيوف أو رقص فتيات المعابد والفرق بينهما ، ولا يمكن بأى حال من الأحوال ثبات أشياء بذاتها عبر آلاف السنين مع مؤثرات أخرى دخلت إلى مصر من شعوب أخرى .

***

كبرت ومن مناقشات خالى بمنزله واستراحة الهرم علمت أن الرجل الذى اتهمه البعض بأنه معتوه لأنه أصر على أن يخرج الآلات الموسيقية من المتحف ويجربها هو الدكتور «شيڤرز» ، وأنه أضاع عمره كله - رغم دراسته العميقة للموسيقى - فى تتبع الموسيقى الشعبية المصرية والآلات من أقصى الصعيد حتى أعلى شمال الدلتا ومن سيناء حتى الصحراء الغربية ، لا أدرى من أين كان يأتى بالمعونة والمساعدة . هل هى من معهد الموسيقى الشرقية .. أم من القصر الملكى .. أم الحكومة الألمانية ؟ لكنه كان دائم البحث والسؤال والسفر والترحال والتدوين بالألفاظ العربية وبجانبها اللغة الألمانية والنوتة الموسيقية . خالى دائما يستقبله ويحضر له كتباً من مكتبته . لا يضيع وقته أبدا لابد أن يسأل فى شئ مهم . أصبح اسم «د. شيڤرز» بالنسبة لى أسطورة . كلما قلت لخالى شيئاً فى الموسيقى الشعبية أو جذور تراثنا الموسيقى أو ذكرت له مكاناً إلا وقال لى : سبقك إلى معرفة هذا ودراسته بعمق «د. شيڤرز» . حينما قررت الذهاب إلى سيوة سنة ١٩٥١ قال لى خالى : إن أردت أن تنصت للموسيقى الحقيقية للصحراء الغربية فلابد أن تذهب إلى «الزيتونة» . سبقك إليها «د. شيڤرز» لكنك لن تستطيع الذهاب إليها بمفردك ، فلابد أن أكتب إلى المأمور خطاباً ليرسلوا معك خفيرين لأنها منطقة خلف ملاحات ينضون فيها المتمردين والسكارى ، وهم فى سيوة



لوحة رقص شعبى

يشربون شراب «اللبجى» وهو عبارة عن عصارة النخل . يقلمون النخلة من سعفها، ثم يشقون شقا يربطون أسفله وعاء فخاريا له فوهة ، أنا واثق أنك ستحتفظ به لجماله كفن شعبى يتعدى كل العصور والأماكن. «اللبجى» إن شربته فى الصباح فائدته عظيمة وطعمه ورائحته لن تنسى، إنه يشبه عصير القصب لكنه دون سكر وبه مزازة وبه رائحة «الجمار» وأكثر كثافة لكن احذر أن تشربه خميرا أو ثانى يوم فهو خمر شديدة إلى أقصى درجة .

فى سيوة بالتأكيد قررت أن أذهب إلى «الزيتونة» وهى عبارة عن غابة من أشجار الزيتون والنخيل على ضفاف ملاحات . قال لى المأمور : إن أردت أن تنصت إلى موسيقاهم وأغانيهم فلابد أن تقضى الليل معهم . فلا يبدأون فى الغناء إلا ليلا يسهرونه معربدين يشربون «اللبجى» الخمير . ليلتى هناك ليلة لا تنسى ، ولا يمكن لأحد أن يتصور وهج النيران المشتعلة والمشاعل منعكسة على صفحة الملاحة الساكنة ، لم أكن أتوقعهم وقد صورهم خالى لى شرسين أو متهورين ، رأيتهم بالعكس وديعى الخلق دمثى الأخلاق . الموسيقى لديهم تنحصر تقريبا فى آلتين «الناى» ونوع من «الطنبور»

أوتاره مشدودة على أربع خشبات . كانت ليلة غريبة . أصواتهم متنوعة وكل فرد يأخذ النغمة من الآخر منوعا إياها بصوت يختلف من حيث الارتفاع والانخفاض أو الصوت الرفيع والأجش . إنه شئ لا يوصف الفجر هناك . الملاحة الرمادية اللامعة ، الصمت ، و(وشوشة النخيل) ترد عليها شجيرات الزيتون الرمادية ، وبقايا النيران المنطفئة وسط رجال ثملين وقد التفُّوا فى أحرمتهم الصوفية البيضاء. حين رجعت إلى القاهرة قصصت على خالى شاكرا هذه الزيارة . رد على : سبقك فى الإعجاب «د. شيڤرز» ، ولكنه سجل كل هذا . أصبح «د. شيڤرز» عقدتى كلما ذهبت إلى مكان أو أعجبنى نغم شارد فالاجابة . سبقك «د. شيڤرز» .

***

التحقت بـ «البريتش كانصل» مع بداية دراستى بكلية الفنون لأحصل على «المتروكليشن» ، وحينما وصلت إلى السنة الرابعة كان علىّ أن أختار مع الأدب الانجليزى إما الموسيقى أو العمارة أو الرسم ، ففضلت الموسيقى . مدّرسة الموسيقى كانت سيدة بها مسحة من جمال ليست فى سن صغيرة ولكنها دائما كانت لا تفيق من الخمر . لا أستطيع القول أنى كنت طالب مجد أو دائم الحضور ، أضف إلى هذا أنها كانت تتكلم سريعا جدا وهى سكرانه مضغمة الكلمات ببعضها ، لم أحضر لها من الدروس إلا لماما ، واعتمدت على مذكراتها . كان البرنامج ينحصر فى موسيقى «الباروك» إلى «ديبوسى» و«رابيل» ، ولم يكن أحد يتوقع منا أن الامتحان سيكون فى «ديبوسى» ، وبما أنى لم أكن مذاكرا فقد اعتمدت على ذاكرتى وأخذت أحوم حول الموسيقار ذاكرا أثر الحرب السبعينية على فرنسا و«جمباتا» والفنانين التأثيريين و«رودان» والشاعر «ملارميه» ، واختتمت كلامى بأن أهم شئ فى موسيقى «ديبوسى» هى «الارابيسك» ، وأهم عزف لها هو عزف «د. هيك مان» ذهبت فى موعد أخذ الدرجات ، فصرفت لكل التلاميذ الورق إلا أنا ، فعلمت أنى راسب. نادتنى فذهبت إليها قالت لى : من أنت وماذا تعمل ؟ قلت لها : إنى انتهيت توا من دراستى فى كلية الفنون الجميلة. استطردت : لذلك فأنت تعرف كثيرا عن الرسامين التأثيريين ، لكن هناك شيئاً أهم وهو ربطهم بالحرب السبعينية ، و«جمباتا» وما يحيرنى أكثر هو من قال لك عن أحسن من عزف «ديبوسى» هو «د. هيك مان» ، فكل الأسطوانات التى تستعيرونها من «البريتش كانصل» هى إنتاج شركة (صوت صيدو has master voise) .

أجبت بشبه ابتسامة : لقد اشتريت الاسطوانات من شركة «دكا» الاسطوانات الكبيرة والصغيرة ، فقد أعجبت جدا بعزف «د. هيك مان» . قالت حقيقة هو

أعظم من عـزف «ديبـوسى» ، وأخـذ الدكتوراة وكرس حياته فيه ، وأحسن من عزف «الأرابيسك» ، ولدهشتى فوجئت أنى أخذت أفضل درجة .

***

مضت الأيام وقابلت ولى الدين سامح، وكان قد دعانى للعشاء ، أخبرنى أنه لابد أن نذهب أولا لنودع السيدة «د. شيڤرز» قبل سفرها من مصر نهائيا . قلت له : إننى أذكرها لكنى غير واثق أنها لازالت تذكرنى كطالب عندها فى «البـريتش كانصل» استقبلتنا سكرانة كعادتها وللمفاجأة نظرت إلى ولى الدين سامح وقالت : هل تعرفه لقد كتب بحثا هائلا عن «ديبـوسى» وعـزف «هيك مـان» له منذ سنوات . علمت فى الجلسة أنها زوجة «د. شيڤرز» الذى حيرنى لتكريسه زهرة عمره لدراسة الموسيقى الشعبية وجذورها لشعب غريب عنه ، وهى ستلحق به فى برلين .

انصرفنا وعلى مائدة العشاء «بمحل الجمال) حيث كنا نجلس دائما أخبرنى ولى الدين سامح بالقصة وهو يعصر الليمون الكثير فى المياه قبل أن يشربها – ذكر أنه – ذات أمسية كان على «د. شيڤرز» أن يترك مصر نهائيا ربما كان ذلك سنة ١٩٥٦ . ثم استطرد– طلبنى «د. شيڤرز» بالتليفون وطلب منى الحضور للأهمية القصوى . قال : إن عليه الآن الرحيل من مصر ولا يدرى لمن سيترك أبحاثه كلها وهل سيحافظ عليها أم لا ؟ ، وهل ستترجم أم لا ؟ ، وخصوصا أنها ليست بالعربية . لم تدم المناقشة طويلا وقرر من فى الجلسة بالإجماع حفظا لها أن يأخذها كلها معه فى الخارج من شرائط مسجلة ونوت موسيقية ونصوص بالعربية وتحتها ترجمتها . سيحافظ عليها أكثر وربما فى مصر سيكون مصيرها العدم . فى وقت من الفوضى لا ندرى متى سينتهى . مضت السنوات وعلمت أن الموسيقار كمال عبدالرحيم ترجم كتيبا صغيراً كتبته زوجة «د. شيڤرز» ، وأكد لى الموسيقار راجح داود أن الدكتورة سمحة الخولى رأت التسجيلات والأبحاث محافظاً عليها كلها فى برلين ، وهناك من قال أنها فى تل أبيب .

أظن أننى لا أستطيع أن أختتم كلامى سوى بكلمة كفى .. كفى !!

وتتجمع الدموع فى عينى . لماذا ضحى «د. شيڤرز» بأجمل سنوات حياته من أجل المحافظة على تراثنا الشعبى للموسيقى ؟ .

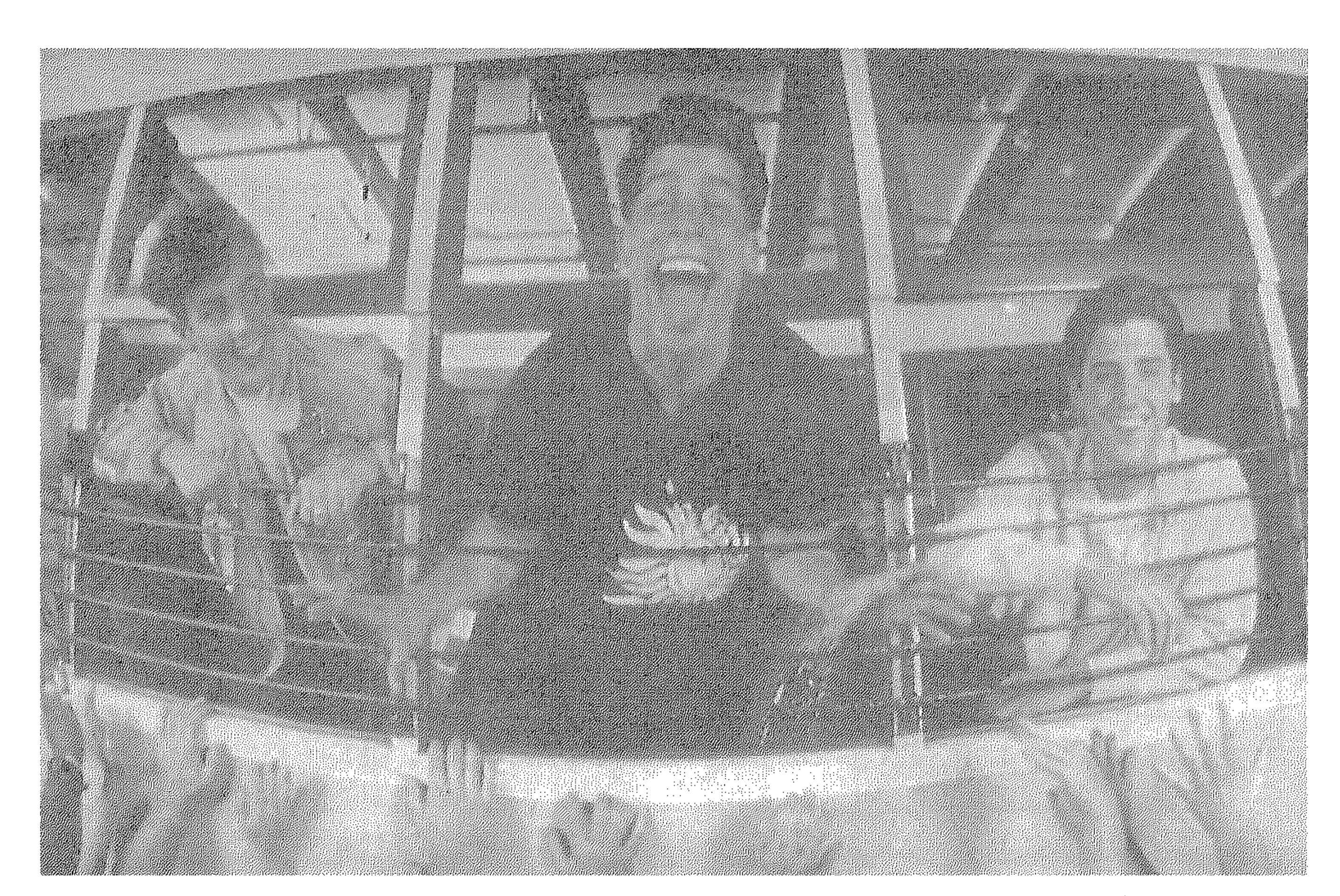
ولماذا لم يوجد إلى الآن لدينا ذلك الفدائى الذى يشعر أنه لابد له أن يذهب إلى برلين ليترجم لنا ما ضحى «د. شيڤرز» بعمره كى يحققه ، خصوصا وأن معظم بعثات «الكونسرفتوار» إلى النمسا وألمانيا .. الحقيقة إننا أصبحنا عقلاء نجرى وراء مصالحنا الذاتية وليس فينا الفدائى المجنون .. وللأسف الشديد البشرية والحضارة سطرها مجموعة من الفدائيين والمجانين منذ عهد اليونان ●●



قضايا بيئية

كيف نواجه الموسيقى المدمرة والتلوث السمعى؟

بقلم: د. نبيلة ميخائيل



إذا كانت الموسيقي مصدرا للمتعة الجمالية وعاملاً مهدئاً للأعصاب المرهقة، فإن العلم الحديث يقول إنها لم تعد مجرد مصدر للمتعة الجمالية بل أصبحت تلعب دورا مهما في أجهزة المرء الحيوية حتي تجعله قادرا علي مقاومة الأمراض نفسها أو العلاج منها. ومن المفارقات المؤسفة في عالم الموسيقي أن يبرز إلي جانب الموسيقي الجميلة بكل تأثيراتها الجمالية علي وحدات الإنسان فإن هناك أيضاً ما يطلق عليه حالياً اسم «الموسيقي المدمرة»، فما حقيقة مثل هذا اللون من الموسيقى وما تأثيره على كيان الإنسان وأعصابه؟.

– بداية أريد أن أوضح الصورة بمثال مبسط إذا وضعنا مثلا «آلتى كمان» على بعد مترين إلى أربعة أمتار بينهما.. وإذا عزفنا الوتر «رى» مثلا للكمان الأولى، فإن الوتر «رى» من الكمان الثانية سيتحرك وحده محدثاً صوتاً متجاوباً مع درجة «رى» للكمان الأولى دون باقى الأوتار.

معنى ذلك أن النغمتين متوافقتان، فتجاوبتا معا.. كذلك بالنسبة لأية نغمات تصدر من أى مصدر.. فإذا توافقت مع روح الإنسان وأحاسيسه فإن هذه الأصوات تحدث تجاوبا معه، وبالتالى

يتأثر بها تأثراً إيجابيا مفيداً.. أما إذا تأخرت معه فإن ذلك يحدث عنده رد فعل سلبياً سيئاً يمكن بتكراره إصابة الإنسان بأشد الأضرار نفسياً وجسدياً، فتصبح الموسيقى بذلك أداة تدمير بدلاً من أن تكون أداة متعة وراحة.

وحينما أتحدث عن الموسيقى المدمرة والتي أعنى بها الموسيقى الصاخبة، فإني أضم إليها في نفس الوقت الأصوات المزعجة المثيرة للأعصاب مثل أصوات الكلاكسات أو ضجيج وسائل المواصلات أو مكبرات الصوت المنتشرة في كل مكان، في ساعات الليل والنهار. بلا رادع أو رقيب.

مرض العصر

إن كل هذا الصخب المثير والمدمر للأعصاب يشكل مرضا عصريا يهدد البشرية بأخطر الأمراض، بل ويمتد أثرها إلى الجنين في بطن أمه، حيث يبدأ في المعاناة من آثارها الضارة حتى قبل ولادته، بل إن هذه الآثار السلبية قد تحدث له بعض التشوهات الخلقية. وتسبب الموسيقى الصاخبة أضراراً عصبية ونفسية مدمرة ليس لسامعيها فقط بل لعازفيها أيضاً.

وقد اهتم العلماء والباحثون في العالم بالآثار السلبية الهائلة للصخب والضجيج، حيث أعلن العالم الأمريكي «تيودور فيدلاند» أن ارتفاع الصوت المتزايد في الحياة الحديثة بدون تحكم مناسب، يعتبر أحد أسباب الاضطراب العصبي في مجتمعنا المعاصر.

كما أشارت بعض الأبحاث الألمانية أن أعدادا كبيرة من البشر سيصابون بالصمم خلال السنوات العشر المقبلة بسبب الضوضاء الناتجة عن وسائل المدنية الحديث، وبسبب تلك الموسيقى الصاخبة التي وصل سماعها عند البعض إلى حد الإدمان.

كما أشارت عشرات الأبحاث إلى أن الأصوات الصاخبة تتسبب في إصابة الإنسان بعدد كبير من الأمراض من بينها، ضعف السمع وأحيانا الصمم، وارتفاع ضغط الدم، والأرق، وتوتر الأعصاب، واضطراب ضربات القلب، وغير ذلك من الآثار السلبية المدمرة من بينها بعض الأمراض النفسية والعقلية التي تدفع البعض إلى ارتكاب الجرائم البشعة.

وفي هذا المجال تذكر د.«باربارا جوهان» الأستاذة بجامعة واشنطن «أن سماع صوت عال يحرك رد فعل عصبيا يكون مماثلا للصدمة العنيفة، حيث يؤثر على نسبة «الأدرينالين» في الدم ويسرع ضربات القلب، فتتوتر الأعصاب، وتتسع حدقة العين، وتتعرض المعدة لتشنجات حادة.

كما أشار العالم الأمريكي «جيمس فلوجراس» المتخصص في مجال السمع والكلام إلى أن موسيقى الروك اندرول بايقاعاتها السريعة وبضوضائها المزعجة تخلق أمة من المرهقين الذين يتسمون بثقل السمع قبل بلوغ سن الثلاثين.

وقد اعترف عشرة فتيان في سن الرابعة عشرة أنهم يشكون من حدوث طنين في آذانهم، والبعض الآخر شكا من

انسداد فيها مع حالة إحياء تام، حتى بلغ نسبة فقد السمع لأحدهم خمس وثلاثين درجة بعد سماع بعض الموسيقى الصاخبة لمدة ساعة.

وهذا ليس مستغربا فقد سجلت أجهزة قياس الضوضاء داخل الحفل الموسيقى الصاخب ارتفاع المؤشر إلى ١٢٠ديسبل، وهى الدرجة التى يعتبرها العلماء خطرة على مختلف أعضاء الجسم ولا يقتصر الخطر والضرر على الإنسان وحده بل يشمل الحيوان والنبات، إذ ان التلوث الصوتى يقلل من إدرار الأبقار للألبان، كما يقلل من الإنتاج الحيواني ويضعف نمو النبات.

المواجهة

فإذا كانت هذه هى اضرار الضجيج والصخب والتلوث السمعى الرهيب الذى زادت معدلاته بدرجة كبيرة، فكيف يمكننا مواجهة هذا الخطر؟.

فى مواجهة ذلك التيار الكاسح من الضوضاء والتلوث السمعى تبارت بعض الأقلام، والبرامج الإذاعية والتليفزيونية تدعو للحد من ذلك الخطر، لكن تلك الحملة لم تستمر بل توقفت فجأة مثلما ثارت فجأة دون أن تحقق أهدافها، بل زاد معدل الضوضاء الصادرة من وسائل الإزعاج المختلفة مثل مكبرات الصوت وأجهزة التسجيل والموسيقى الإلكترونية الصادرة من أجهزة تضخيم الأصوات والتى تنتشر بشكل واضح ومزعج بين بعض شبابنا.

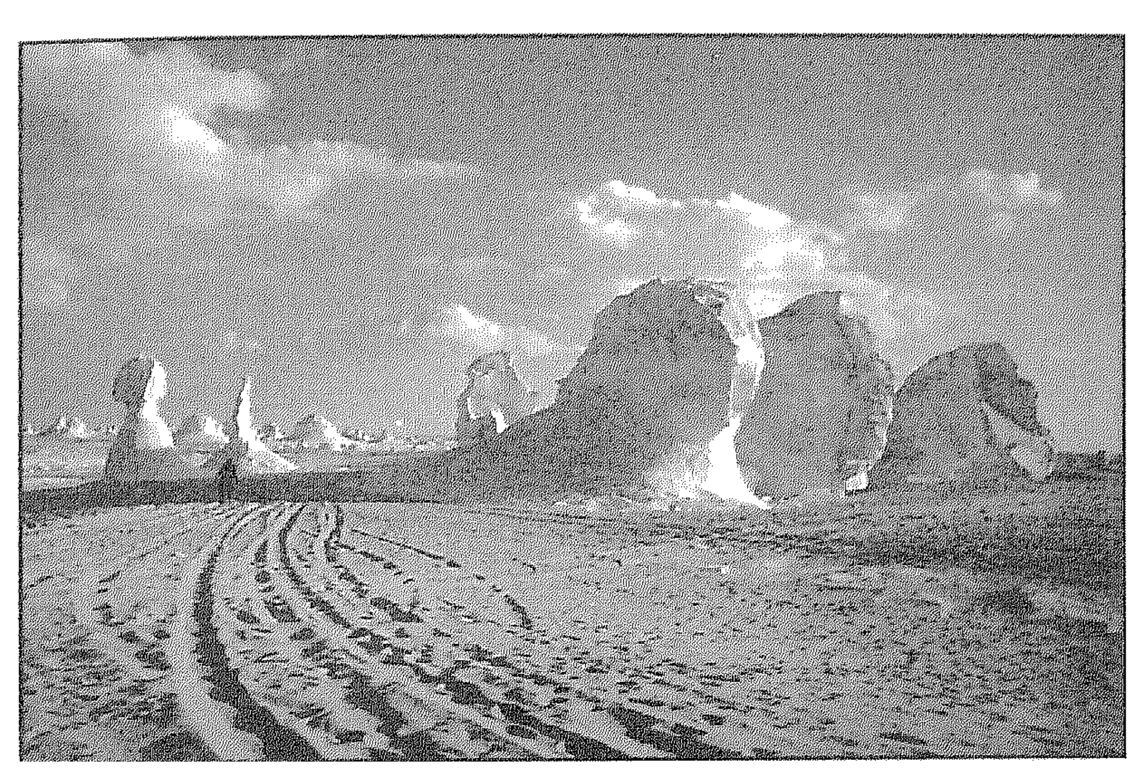
ولكى تحقق معركة محاربة الضوضاء أهدافها ضد هذا الخطر المستفحل، ينبغى علينا مواجهة هذه الظاهرة بالأسلوب العلمى، فمن الضرورى أن تكون هناك تعبئة إعلانية بالصوت والصورة والكلمة فى مختلف وسائل الإعلام توضح خطورة هذه الظاهرة، بجانب إنزال عقوبة صارمة بكل من يتسبب فى هذا الوباء المستشرى.

وعلينا أن نبدأ بالمدارس، فالحملة ضد الضوضاء يجب أن تمتد إلى مناهج التعليم فى مختلف المستويات بحيث تدخل ضمن مقررات العلوم وكتب القراءة وموضوعات التعبير، بهدف توعية الإنسان المصرى منذ طفولته بأخطار تلوث البيئة بشكل عام والتلوث الصوتى بشكل خاص.

بحيث تتطور أشكال تدريس هذه المادة مع تطور مراحل التعليم لتصل فى النهاية إلى الإنسان المصرى المدرك بعمق لأخطار الضوضاء، مثلما نهتم مثلا بالتوعية الصحية من أخطار ميكروب الكوليرا أو شلل الأطفال.

★ ★ ★

وأخيراً، فليس ما يدعو للدهشة عندما نطالب بوضع لافتات مكتوب عليها مثلا «احذر الضوضاء والتلوث السمعى فهى تفتك بالأذن والأعصاب والدورة الدموية والمعدة والقلب بعنف لا يقل خطورة عن أشرس الميكروبات» أو لافتات أخرى مكتوب عليه «احذر الانتحار بالأصوات» أو «إحذر سموم الضوضاء». وبالفعل لقد آن الأوان لمواجهة هذا الخطر القاتل المتمثل فى التلوث الصوتى، قبل أن يستفحل ولا نستطيع إيقافه.



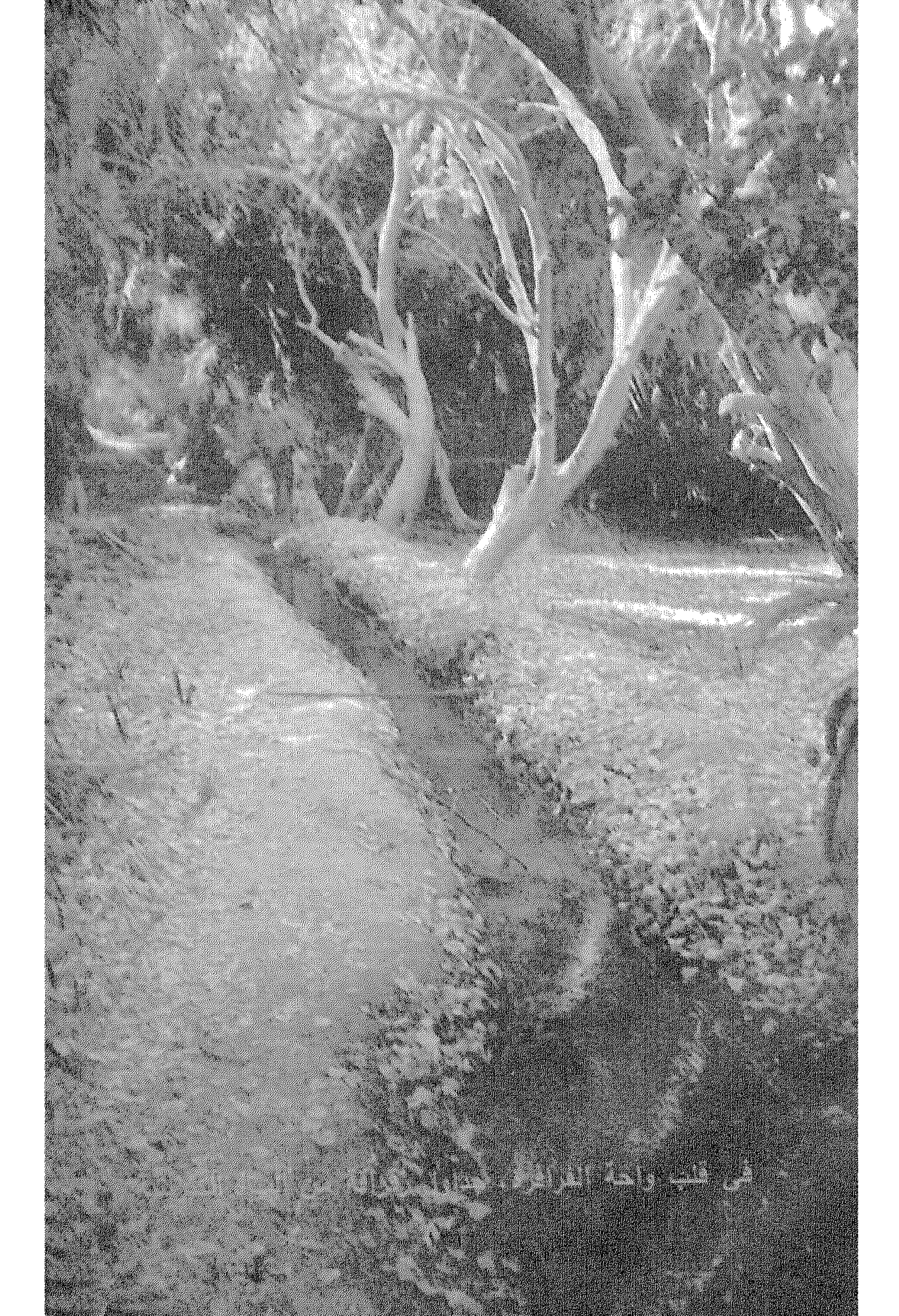
الصحراء البيضاء، تكونت على مدى ملايين السنين من مادة الطباشير ، أو كربونات الكالسيوم

الواحات البحرية .. والفرافرة
الربيع الأخضر فى جوف الصحراء

• نجوي صالح •

●● ثنائى الواحات البحرية والفرافرة .. منخفضات فى الصحراء تتباهى متفردة ، باللون الأخضر، وسط بحر من الرمال الصفراء ..

غابة من النخيل المتلاصق .. وأشجار الزيتون ، والفواكه .. تنساب من بينها جداول المياه الرقراقة.. منبثقة من العيون الكبريتية التى تمتلىء بها الواحات.. تحفر مجرى من اللون الأحمر ناتجا عن ترسب خام الكبريت الذى تراه العين يتألق فى قاع القناة تجرى بين الحقول أو الحدائق ، إذ أنها مساحات من الأراضى صغيرة ومتلاصقة - يمتلكها أهالى الواحة الجميلة - تفصلها أسوار ، هى خليط من الطين وزعف النخيل تتشكل منها حديقة شاسعة غناء ●●



في قلب واحة الفرافرة

وتقع هذه الحدائق على امتداد البصر، وعلى درجات متفاوتة من المرتفعات والمنخفضات، مما يضيف درجات جديدة في التضاريس الطبيعية بجانب السيمفونية اللونية التى يؤكدها فصل الشتاء حين يكسو الأرض بردائه الأصفر من الأوراق الذابلة، حيث تنضج الموالح على أشجارها بألوانها الأخضر والبرتقالى.

كلما تقدمنا فى جوف الصحراء وتركنا الواحات وراءنا، قلّ اللون الأخضر الرائع واختفى تماما، وبدأت الصحراء بمرتفعاتها وتضاريسها المتميزة التى تختلف تماما عن تضاريس الصحراء الغربية التى تميل الى الاستواء والنعومة.

إن صحراء الواحات بموقعها الفريد بصحراء مصر الغربية، من الصحارى شديدة التعقيد والتميز، فهى فى الشكل العام غير متشابهة لا تشعر الزائر لها بالملل، لاختلاف تضاريسها وجغرافياتها وتباين ألوانها، من الأبيض الشاهق الى الأسود الداكن، ومن الأحمر القاتم الى البنفسجى الزاهى، وقد يحوى الجبل الواحد جميع ألوان الغسق!

بجانب الألوان تختلف التضاريس ، حيث أن الأوتاد مختلفة الأنماط، من المصطبية الى الشكل الهرمى، وكأن هذه الصحراء كانت الهادى الأول للأنماط الأثرية التى تركها الفراعنة الأجداد الى أشكال من الجبال الشاهقة الملتصقة، شديدة الوعورة !

وتجد نفسك منساقا الى التوغل فى هذه الصحراء التى كلما توغلت فيها، صباحا أو مساء، تأخذك فى عالم ساحر مع تغير الضوء عبر ساعات الليل والنهار، هناك فى الليل ترى السماء والنجوم صافية واضحة هى مصدر الضوء فى الصحراء، ودليل العرب الرحل، الذين مازالوا ينتقلون وراء العشب فى هذا الفضاء الذى «يملكهم» اذ لايقبلون بديلا لهذه الحياة.. يشربون لبن الماعز مع رغيف العيش السن.

وتعتبر الواحات من مراكز الجذب القوية بالنسبة لدارسى الجيولوجيا - علم طبقات الأرض، وعلماء الجغرافيا، وعلم الأجناس والتاريخ، فهى تعد متحفا حيا لأحقاب متتالية من كل تلك العلوم وكتابا مفتوحا عمق صفحاته

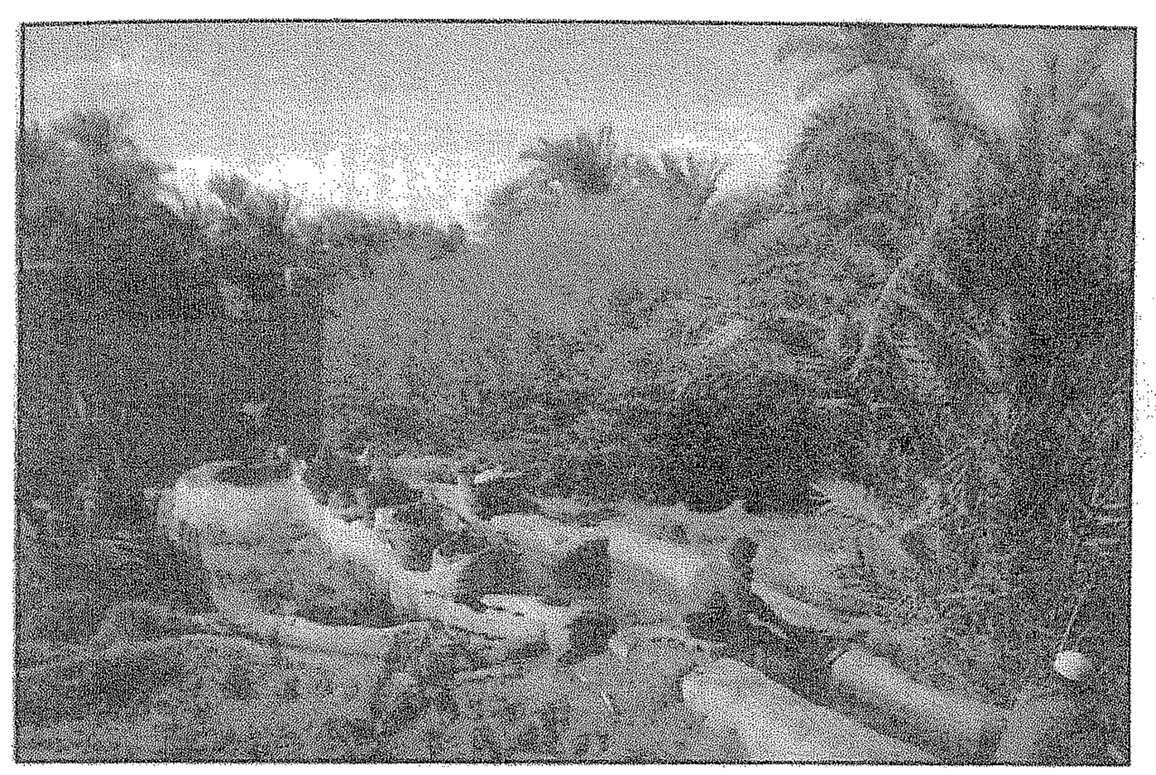
يصل إلى ٥٢ مليون سنة .

لغة الأحجار

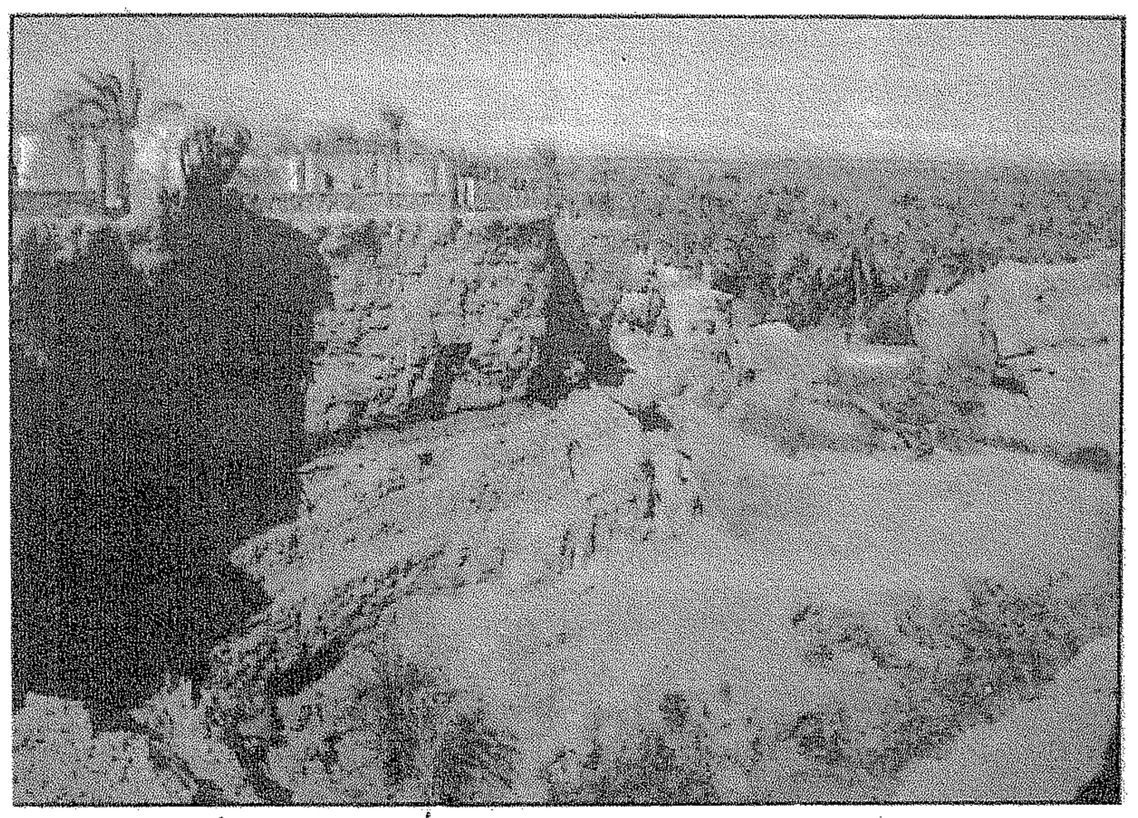
إن الجبال والصحارى فى الواحات لها اسماء، قد تتشابه او تتنافر مع المسميات المصرية العلمية.. هناك جبل الكريستال حيث يذكر الدكتور رشدى سعيد الرئيس السابق لهيئة المساحة الجيولوجية والتعدين المصرية والاستاذ الزائر فى عدة جامعات أمريكية : إن هذا الجبل ينتمى الى العصر الكريتاسي وهو يتألف من عدة طبقات أسفل بعضها البعض، وقد يزداد عمرها قدما عن الكريتاسى، كلما زاد سمكها، ويصل مجموع سمكها الى أبعاد عظيمة قد تصل الى عمق يزيد على ١٨٠٠ متر تحت سطح الواحة».. ويستطرد: «إن طبقات الحجر الرملى هذه تظهر مكشوفة فى بعض المقاطع، وتكشف عن طبقات من الحجر الجيرى المتبلور. فتتألق فى ضوء الشمس مثل قطع من الكريستال، ثم هناك الصحراء البيضاء!» .

ويستطرد الدكتور رشدى سعيد قائلا: «مصر كانت عبارة عن بحر منذ ٨٠ مليون سنة والى ٤٠ مليون سنة والبحر يتغير، ويختلف من مكان الى آخر يعمق أحيانا، وتظهر طبقاته الرملية فى أحيان أخرى، وتحدث تعرية لهذه الطبقات وتظهر الصخور.. والصحراء البيضاء ماهى الا بحر عميق تعرت صخوره مع مرور الزمن، وهى من مادة الطباشير (كربونات الكالسيوم) وقد وجد فى حفريات هذه الصخور قنافذ بحرية، وأصداف وحيوانات بحرية ميكروسكوبية».

ويستطرد «وفى دائرة القصر احدى قرى الواحات البحرية توجد الصحراء السوداء ، كما يطلق عليها العامة، تبرز أربع كتل يعلو مستواها عن الأرض بنحو ١٣٠ مترا، وهى من الشمال جبل ميسرة ثم جبل منديشة فجبل الهفوف، وكلاهما قاتم اللون ويعلق الدكتور رشدى سعيد : «إن هذه الجبال يغطيها غطاء من الدولوريت وتعد اندساسات بركانية حدثت فى عصر الأوليجوسين وقد إنبثقت كقبو أو كقبة جوفية صخرية وهى ممتلئة بقطع صغيرة قاتمة اللون من حفريات الكالسيوم كاربونيت تبدل الى أوكسيد حديد وهو بقايا حيوانات قديمة وأصداف ليمونيت .



أحد عيون «الواحات البحرية»، ضمن ١٢٥ عينا كبريتية



منظر لمجرى عين «البشمو» ويعد من أكبر عيون الواحة



جزء من الصحراء البيضاء، حولتها عوامل التعرية الى شكل نبات الفطر

فلسفة المكان

لا ينفصل الاقليم. وتكوينه الجيولوجي عن الانسان، وهو ما يؤكده الدكتور جمال حمدان فى كتابه «شخصية مصر».

«إذ أن الشخصية الاقليمية تبدأ حيث تنتهى دراسة الجغرافيا» وأعلى مراحل الفكر الجغرافى، بعد دراسة جسم الاقليم بالتشريح والتحليل، يبقى الهدف هو الشخصية الاقليمية فهى فلسفة المكان» إن الحياة فى الواحات سواء فى الواحات البحرية أو واحة الفرافرة تقوم بشكل أساسى حول العيون الكبريتية التى تملأ الواحات - ٢٠ بئرا فى الفرافرة - أما فى البحرية فتعد عين «البشمو» من أكبر عيون الواحة، اسمها رومانى الأصل، ومعناها «الماء الجميل» ، وهى مشقوقة بين الصخور، لها منبعان واحد ساخن والآخر بارد! تختلط مياههما فى قناة طويلة الى الحقول والحدائق.. يتحلق الشباب حول العين للاستحمام نهارا أو ليلا فى الشتاء - ٥ فوق الصفر - ويعتقد أهل الواحة أن مياه العيون منبع للصحة - تشفى الروماتيزم - وتجلب السكينة النفسية قبل النوم ، ثم

هى فرصة للقاء والتسامر والتسلية والمتعة، وقضاء الوقت بين الرجال.

إذ أن المجتمع الواحاتى هو مجتمع للرجال فقط.. فلا ترى أثرا فى شوارع القرية للمرأة الواحاتية الا اذا كانت منقبة الوجه، اذ أن بعضهن يعملن فى بعض الأعمال الادارية او مدرسات فى المدارس الحكومية، ومعظمهن حاصلات على التوجيهية، ويفضلن العمل، ولكن المرأة العاملة تعود الى البيت وتجلس امام «الفرن» فى يوم الخبيز . ولا تغادر البيت الا للعمل وللواجبات الأسرية المهمة، والزوج لا يصحب زوجته الى نزهة خلوية الا اذا كان يملك منزلا آخراً فى الخلاء تقضى فيه العائلة النهار حتى مغيب الشمس .

ولكن الرجل الواحاتى يفضل أن يجتمع مع أصدقائه من الرجال الذين يحرصون على الخروج الى الصحراء فى السيارات الجيب الامريكية القديمة على الاقل مرتين فى الاسبوع، فهم يقدسون هدوء الصحراء وجوها النقى، يتحلقون حول «ركية النار» تصاحبهم الطبلة والربابة والناى.. وهى الآلات الموسيقية الاساسية بالنسبة للواحاتى، يغنى أحدهم المواويل الشعبية الشجية التى يرددها صدى الليل الساكن فى الصحراء :

دة اللى فتح جلبك .. فتح على جلبى

بس انت صفى الجلب وروح .

أو :

ياعاشق الفن قوم واسهر واسمع منادى بصوت هادى بيقول :

ياليل ياعين .

وأحلى النغم بالليل.. أمانة لتوصى علينا الليل

احنا غلابة سهارة.. بعد الهم نتلم ونغنى ياعين ياليل

وفين عيون الغزال .. اللى راح منى وزال .

وينسجم الجالسون ، وتشتد الموسيقى وتعلو دقة الطبلة، ويقوم أحدهم، ويرتدى جلابية نسائية، وطرحة يغطى بها وجهه ورأسه تماما، ويبدأ فى تقليد رقص النساء وهى رقصات ذات خطوة متكررة، مع تحريك المؤخرة يمينا ويسارا، وفى بعض الأحيان يتكىء على عصا حتى تنضبط الحركة، ويأتى الرجال امامه برقصات تتسم بالشجاعة والفروسية.. لاغراء المرأة المتخيلة فى ذهن كل منهم - والتى يذهب لخطبتها فى صحبة أربعين رجلا من عشيرته - ويستمر

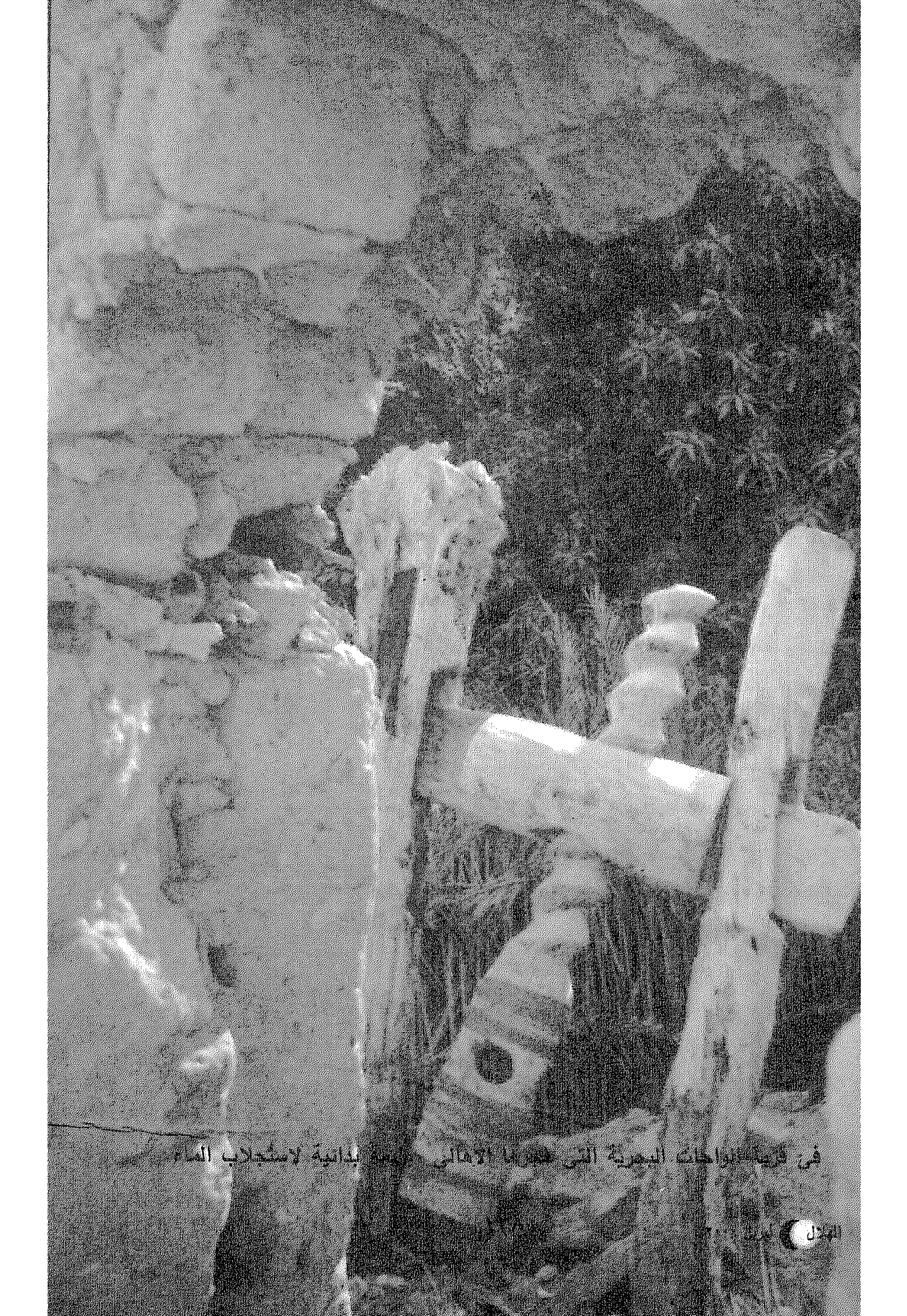
السهر ، ودق الطبول مع شواء الفراخ، وعمل الأرز الأبيض ، على «ركية النار» وينشغل أحدهم في عمل السلطة الخضراء، والدجاج طعامهم الاساسى فى الواحة، اذ قد يأكلون اللحم مرة واحدة فى الأسبوع، ولا يوجد محل للجزارة فى البحرية أو الفرافرة! .

وعند انبلاج الفجر يبدأ الواحاتى فى لملمة أشيائه ايذانا بالرحيل الى داره وذلك من شدة حرارة الجو فى الليالى الصيفية .

البحث عن الصخور النادرة

والواحات البحرية تقع على بعد ١٨٠ كم من المنيا، وعن القاهرة ثلاثمائة كم، وتبعد عن منخفض الفيوم ١٦٠ كم، فهى اذن اقرب الواحات الجنوبية الى الوادى وصغرى واحات الصحراء الشرقية «الواح الصغير» بالرغم انها عدة واحات متجاورة ، أما واحة الفرافرة فهى تبعد عن البحرية ١٦٠ كم وهو منخفض فى مجمله اكبر حجما من الواحات البحرية ، وقد اكتشف بها اكبر خزان مياه جوفية، وأكبر رقعة صالحة للزراعة. وبالرغم من عدم بعد الواحات عن العاصمة، ولكنها كانت تعتبر المنفى بالنسبة لموظفى الحكومة خاصة واحة الفرافرة، وذلك لنقص الخدمات.. اذ منذ سنوات قريبة بدأ بعض السياح الأجانب خاصة «الألمان» القدوم الى تلك المنطقة، وقد استوطنها البعض، وأول فندق سياحى فى الواحات البحرية يملكه رجل ألمانى الجنسية، وتليه عدة فنادق لا تزيد على أصابع اليد الواحدة يملكها ويديرها من أهالى الواحة، وهذه الفنادق الأخيرة من النظافة وحسن الادارة التى تفوق الفندق الذى يديره الألمانى الجنسية وبدأ السياح يتوافدون بشكل مستمر على الواحة خاصة فى فصل الشتاء، ويأتى بعض المصريين الذين يهوون الصحراء من الدارسين والهواة، وكثرت الحركة السياحية فى المنطقة مما أسفر عن وظائف جديدة لأهل الواحة، بدلا من الزراعة، وفتح المتاجر الصغيرة، أو العمل بالمؤسسات الحكومية.

بدأ قطاع ليس بالقليل من أهل الواحة شراء سيارات الجيب - بعضها منذ الحرب العالمية الثانية - وهى سيارات متينة وقوية تتحمل طبيعة الصحراء، وسعة العربة ستة أشخاص، وقيادة السيارات فى الصحراء تحتاج لحنكة خاصة وقيادة سريعة وحكيمة فى آن واحد، وهذا السائق يعتبر دليلا فى نفس الوقت،



في [illegible] الواحات البحرية التي هجرها الأهالي [illegible] بدائية لاستجلاب الماء

فهو يعلم دروب الصحراء بدقة، ويتفق معه السائح على رحلة داخل الصحراء متوغلا لمسافة خمسمائة كيلومتر وقد تستغرق عشرة أو خمسة عشر يوما، يخزن هذا السائق خلالها كل ما يلزم السائح من طعام وشراب ويوفر له طريقة مريحة للنوم، ويعلم من السائح هدف الرحلة، هل هى بغرض صيد الثعالب ـ أم لأخذ عينات من الجبال المختلفة، حتى يتجه للمنطقة التى تتيح للسائح ممارسة هوايته.. ومعظم زوار هذه المنطقة يهوون جمع الأحجار النادرة، وهى هواية لا يعلمها الكثيرون، ولكنها معروفة بين الأجانب وبعض المصريين. فقد يعثر الزائر على قطعة من الحجر أو الزلط الضارب فى القدم قد تفوق قيمتها تمثال من صنع فنان عالمى، ويوجد فى الخارج من يقدرها كقطعة متحفية، وهذه الأحجار لها متاحف «جيولوجية» لعرض طبقات الأرض من الأحجار والصخور النادرة . ولكن مما يؤسف له أن الأجانب منذ عدة سنوات قاموا بنوع من المسح للبحث عن الحفريات القديمة، من الفيلة والحيتان والأسماك، والأصداف، والمخلوقات البحرية النادرة التى تخلفت عن البحر القديم، ودفنت منذ ملايين السنين، وذات ندرة فائقة وتباع فى متاحف العالم بالملايين .

أما بالنسبة للسياح راغبى الآثار الفرعونية، فقد بنى فيها أمنحتب ٥٢٠ق م من الأسرة «٢٦»، عدد ١٧٠ معبدا صغيرا ويسمى باللغة الفرعونية «منديشة»، متفرقة فى ثمان قرى فى الواحات، أهمها معبد ماتسيس الذى كان يرأسه الكاهن زدخنسو، أما أشهر المعابد الفرعونية فهو معبد التكهنات فى سيوة والذى توج فيه الاسكندر الأكبر كاهنا لآمون ـ فقد تنبأ هذا الكاهن ، بغرق القائد قمبيز الذى كان يقود جيشا جرارا قادما من جهة ليبيا. فى بحر الرمال الأعظم بجانب الواحات البحرية، وقد دفن الجيش بأكمله تحت الرمال المتحركة، وهذه القصة من القصص التى يرددها دائما أهل الواحة للسائحين.

أما المطلب الأول والأخير لأهل الواحات فهو أن تقوم الحكومة، أو جهة أهلية بفتح مدرسة لتعليم اللغات الأجنبية لأهل الواحة، ان الواحاتى على يقين أن تلك المنطقة ستصبح منطقة جذب سياحى مهم، لذا يشرع الأهالى فى بناء عدة فنادق جديدة، وهو يفضل العمل فى بلده، ولا يتحمل النزوح والعمل خارج موطنه الأصلى.

فكيف يترك أهل الواحة الجنة!.

نيلنا الخالد

شعر : جليلة رضا

يا نيل مـــا أبهى رؤاك بناظرى
يا سائرا فوق الزمان السائر

بك هينم الماضى البعيد بخاطرى
ومضى يشد غدى ويربط حاضرى

تمضى الدهور وأنت مخلد
ترنو إلى الدنيا بنظرة ساخر

بالله هل أحسست راحة كائن
لمستك مثلى فى حنان زاخر

خذنى بعيدا إن أطول رحلة
هى أجمل الرحلات عند مسامر

قلبى على كفيك يسبح فى المنى
روحى تهيم على جناحى طائر

يا نيل هل بين الأحبة عائق
لم ترعه . هل من شريد ساهر

وهل استطاعت أن تكاتمك الصدى
خلجات شاعر وأنة شاعر

إنى لأعجب كيف يحيا فى الورى
قوم بدونك قرب نهر آخر

كيف السبيل الى ارتواء نفوسهم
بالطهر من نبع شفيق طاهر

هل ذلك القمر المتيم فى العلا
يهفو لثغر غير ثغرك عاطر

أيميل فى أحضان غيرك راقصا
أم هل يجاملهم بنظرة عابر

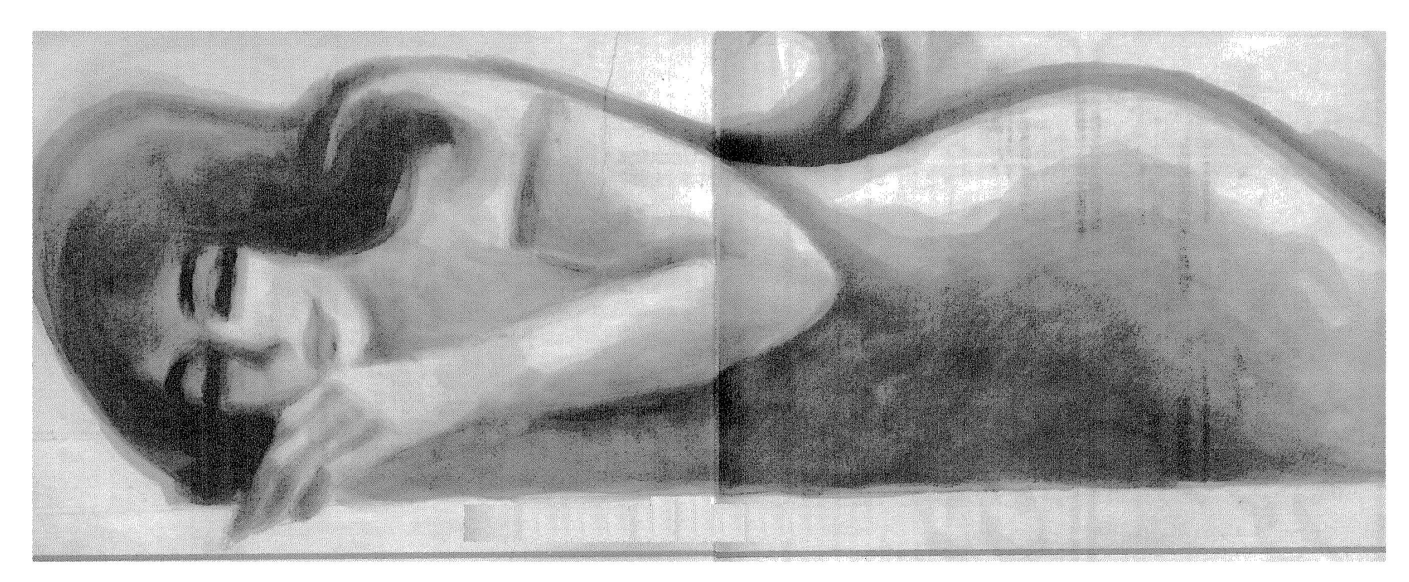
يا دفقة الأشواق يا عطر المنى
وضياء روحى فى ظلام أعاصرى

كتاب
الهلال
يقدم
الإعجاز العلمى فى القرآن
بقلم :
د. حسين نصار

يصدر
٥ ابريل - ٢٠٠٠

روايات الهلال
تقدم
فئران بلا جحور
تأليف :
أحمد ابراهيم الفقيه

تصدر
١٥ ابريل - ٢٠٠٠



قصة قصيرة



بقلم : عبد الرشيد الصادق محمودى

السيارات تزمجر فى اختناقات المرور بعد انتهاء اليوم الأخير من أسبوع العمل . وقد شاعت فى الجو حمى ليلة السبت. الكل يتزاحم ليعبر الحزام الذى يدور حول باريس ويفصلها فصلا حاسما عن عالم الضواحى . البعض يريد أن يعود الى بيته استعدادا للعشاء ، والبعض الآخر يريد أن يغادر المدينة لقضاء عطلة نهاية الأسبوع فى الريف، وهناك من يستعد للسهر . مثل تلك الفتاة الخمرية اللون التى انحسر فستانها عن ساقيها فى سيارتها المكشوفة وأخذت تترنح على وقع الموسيقى الراقصة .لعلها تتهيأ لليلة من ليالى الحب . أما أنا فكنت أبحث فى لهفة عن مكان أوقف فيه سيارتى بالقرب من

مطعم تركى أعرفه لكى أشترى ثلاثة أرغفة من الخبز . فلن يكتمل عشاء الجمعة وإفطار السبت بدون الخبز التركى الجميل .

قال الخباز :

- للأسف ليس لدينا خبز جاهز . هل تستطيعين الانتظار قليلا؟

ولما رآنى أنظر فى الساعة قال:

- ربع ساعة فقط وتأخذين الخبز عند خروجه من الفرن .

قلت :

- ليس أزكى من رائحة الخبز عند خروجه من الفرن : نتنسم فيها رائحة أمهاتنا .

قال :

- صدقت والله . ولابد أنك عربية. من أى البلاد أنت ؟

فلما أخبرته أننى مصرية تهللت أساريره :

- إذن تفضلى .

وأعد لجلوسى مقعدا بالقرب من إحدى الموائد. فلما جلست قال:

- المصريون أهلنا نحن العراقيين . ولابد أن تشرفينا بشرب قهوتنا . دقيقة واحدة حتى أعدها.

وحاولت أن أعترض ولكنه لم يمهلنى ، فقد انصرف فورا لإعداد القهوة . وانتهزت فرصة غيابه لكى أنظر فى المرآة ورأيت - ربما للمرة الألف - البياض الذى بدأ يتسلل الى شعرى. لقد جاء مبكرا . والمصيبة أن هذه الخصل الكثة السوداء هى أجمل ما لدى . كان من عادة حامد أن يقول : «يا بنت يا أم الضفاير» وكنت أتيه زهوا بكنزى .

وعاد الخباز بالقهوة التى تفوح منها رائحة الحبهان . وقال :

- لن يطول انتظارك. العجين جاهز .

وبدأ بالفعل يعد الكريات البيضاء للخبز. يذر عليها الدقيق ثم يسطحها ويسويها فى شكل بيضاوى ثم يدهنها بقليل من الزبادى. وفى المرحلة الأخيرة يضغط على الرغيف العجين بأنامله ليزخرفه مربعات مربعات . وكنت أراقب كفيه الكبيرتين وأصابعه الطويلة وهى تتحرك بسرعة خاطفة كأنه موسيقى حاذق يعزف على الآلة التى يتقنها . وذكرنى بزبيدة وهى تعد أقراص العجين للخبز : تبسطها على شكل دائرة ثم تقذف بالاسطوانة المستديرة فى الهواء وتتلقاها بالمطرحة عدة مرات حتى تكتمل استدارتها ثم تقذف بها فى الفرن . وسألت الخباز :

- ولكن أين تعلمت صناعة هذا الخبز ؟

فأجاب :

- فى القطاع التركى من قبرص . كان ذلك بعد انتهاء حرب الخليج. اشتغلت صبيا فى مطعم وهناك بدأت أتعلم ولكننى لم أتقن الصنعة إلا فى لندن ، فى حى كله

أتراك.

قلت :

- وماذا كنت تفعل في العراق قبل الهجرة ؟

قال :

- كنت أعمل محاسبا. لقد اضطررت الى امتهان هذه الحرفة ، ولكنني لا أبالغ إذا قلت إنني الآن أفضل الخبز على المحاسبة. انظري

ورأيت الأرغفة البيضاوية وهي تخرج من الفرن متوردة الوجه يضوع شذاها. وهكذا كان بيت زبيدة يوم الخبيز : تفوح منه الرائحة الزكية حتى تبلغ سابع جار . وبعد الخبز يأتي دور فطائر القمح اللدنة أو فطائر الأذرة المدهونة بالقشدة. وربما تلا هذا وذاك صينية سمك. وفي الليل قبل النوم توضع في الجمر قدرة الفول المدمس (أو «الدميسة» كما نقول في أبو كبير) لتنضج على مهل طيلة الليل. وهكذا يأتي الخير مع الخبز.

وردني الى الحاضر صوت الخباز :

- لا شك أنك تعرفين الدكتور زكي مبارك ؟

فأجفلت قائلة :

- زكي مبارك ؟ لا أعرفه. من هو ؟

فقال :

- زكي مبارك هو الذي علمني حب مصر . إنه كاتب مصري عاش في العراق في الثلاثينات وألف كتابا عنوانه ليلى المريضة في العراق .

قلت وأنا خجلانة من نفسي :

- يؤسفني أنني لا أعرفه .

وضحكت في حرج :

- الواقع أن القراءة ليست من هواياتي. ولا أخفي عليك أنني جئت من بلد ليس فيه مكتبات ولا كتب ، إلا الكتب المدرسية بطبيعة الحال .

قال:

- وما اسم ذلك البلد؟

فلما قلت : «أبو كبير» ضحك قائلا :

- لا أعرفها ، ولكني أعرف سنتريس- عن طريق الدكتور زكي مبارك . كان يعشق بغداد وسنتريس وعلمني أن أحب مصر .

وقلت له وأنا أتوجه إلى باب الخروج :

- سأبحث عن الكتاب وسأقرؤه .

قال:

- تستطيعين أن تستعيريه مني في المرة القادمة .

قلت:

- وقد حملته طيلة تلك الرحلة : من بغداد الى باريس عبر قبرص ولندن ؟

فقال:

- بل من البصرة، حيث عثرت عليه بالمصادفة، الى باريس عبر تركيا فقبرص فروما ففرانكفورت فلندن .

قلت:

- إنها رحلة طويلة ومن العجيب انه نجا .

فقال:

- إنه الشيء الوحيد

الذى نجا .. فيما عداى .

وكنت عندئذ أخطو نحو الشارع ، ولكننى توقفت وسألته :

- ماذا تعنى ؟

فأجاب بعد فترة من الصمت :

- لقد قتلت زوجتى بين من قتل فى مخبأ العامرية ، وفقدت ولدى عند عبور نهر الذاب الصغير هربا الى تركيا. كنت أحمله على كتفى اليمنى وأحمل حقيبة بداخلها الكتاب على كتفي اليسري. إلا أن التيار جرف الصبى وترك لى الحقيبة .

قلت وصوتى يكاد يختنق :

- ألم تحاول أن تنقذه ؟

فأجاب :

- كان التيار جارفا ، وقد حاولت رغم جهلى بالسباحة أن ألحق به حتى وجدت أننى يمكن أن أغرق معه .

وبعد فترة من الصمت قال :

- وهكذا ترين : لقد فررت من الجيش وأفلت من الموت عدة مرات. فهل كان ينبغى أن أموت مع الصبى ؟

ولم يكن لدى ما أقوله. ولكنني سألته عن اسمه فلما أخبرني أنه يدعى نزار أخبرته أن اسمي عائشة. وتوجهت نحو الباب لأخرج ولكنني توقفت فجأة وقلت له :

- تقول إن زكى مبارك علمك حب مصر . ألم يعلمك حب العراق ؟ لماذا فررت من الخدمة العسكرية ؟

فبهت وتركته واقفا كالتمثال وهرولت نحو السيارة ، كأنما كنت أريد أن أنجو بجلدى .

وعندما بلغت حينا وجدت الشارع الرئيسى غاصا بالناس ، فقد كانت السوق التى تقام كل صيف لترويج التجارة المحلية مازالت قائمة. وكان الرصيف المحاذى للمبنى الذى نقيم فيه قد احتله باعة الأشياء المستعملة من كتب واسطوانات وأدوات منزلية وأثاث وتحف. وغير بعيد من البيت كانت هناك فرق موسيقية وحواة وراقصون على الحبل. وانصرفت عن المهرجان الى الحديقة العامة كي أستعيد بنتى من السيدة الفرنسية التي ترعاها أثناء وجودى فى العمل. ودخلت الحديقة فوجدت فرانسواز منهمكة فى الثرثرة مع بعض أصدقائها من نساء الحى. فلما سألتها : «أين سامية»؟ نهضت عن الكنبة الخشبية وقالت :

- كانت هنا منذ دقائق. لابد أنها تلعب مع غيرها من الأطفال فى حفرة الرمل .

لكننا لم نجد الطفلة فى حفرة الرمل. ولم نجد لدى الأطفال اللاعبين فى الرمل ولا عند أمهاتهم إجابة شافية عن مكان سامية فى الحديقة . ودرنا بحثا عن الطفلة

بين الشجيرات المتشابكة الأغصان ولكننا لم نعثر لها على أثر . أتكون قد تركت الحديقة وضلت طريقها في السوق الحاشدة ؟ وأصابتني الفكرة بالدوار. فلما انتهينا الى بوابة الحديقة توقفنا مترددتين لا ندرى ماذا نفعل. كان فرانك وشلته من مدمني المخدرات مجتمعين كعادتهم خلف كشك الجرائد. وكان يتوسطهم ممسكا بالجيتار كأنما كان يتأهب للعزف ، والى جانبه جلست صديقته. كانوا يقيمون في بيت تابع للبلدية لإيواء أمثالهم، ولكنهم يخرجون للتسول في أيام انعقاد السوق وغير ذلك من المناسبات لكي يتسولوا. وتقدمت منهم في وجل لأنني كنت قد كتبت الى المحافظ أشكوهم وأطلب اليه أن يحرم عليهم دخول الحديقة لقذارتهم وباعتبارهم خطرا على الأطفال. وسألتهم عما إذا كان أحد منهم قد رأى سامية في طريقها الى الخارج ، فنظروا باستغراب بعضهم الى البعض وزموا شفاههم وهزوا رءوسهم علامة النفي. وقالت صديقة فرانك التي كانت لا تخلو من جمال رغم قذارتها وتورم وجهها شيئا ما :

– البنت السمراء الواسعة العينين؟

لم أرها اليوم .

أما فرانك فقد أشاح بوجهه الى الناحية الأخرى، كان يعلم أنه ينفرني . فقد كان عاري الذراعين صيف شتاء بحيث ترى آثار إبر الحقن على ساعديه. وكان صفيقا يخرج أيام الأحد الى السوق مع صديقته وكلبه وقد حمل هذا الأخير في عنقه لافتة كتب عليها أقل مبلغ يمكن لصاحبه أن يقبله : «تكفي قطعة من ذات العشرة فرانكات . ونيابة عن نفسي وعن صاحبي أشكركم على سخائكم». واستدرت نحو فرانسواز لأوبخها على إهمالها بينما بدأ فرانك يغني واستأنفت الزجاجة دورتها بين الصحاب .

وخرجنا الى الشارع نخوض الزحام بحثا عن سامية حتى بلغنا أطراف السوق دون أن نهتدى الى مكانها. ثم عدنا أدراجنا الى الحديقة والأفكار السوداء تجتاحني فقد طافت بذهني صورة ابن نزار وهو يستغيث بأبيه حتى فرق التيار الجارف بينهما. وتذكرت قصة طفل من أبناء الحي اختطفه رجل معتوه في الحديقة العامة وألقى به من شرفة في الطابق الرابع بعد أن اعتدى عليه جنسيا. وثارت في نفسي شكوك في فرانك وأصدقائه. وانتابني الهلع عندما عدنا الى الحديقة فلاحظت فورا إنهم اختفوا كأنما انشقت الأرض وابتلعتهم. وداهمني شعور بالندم

لأننى أمضيت وقتا طويلا مع نزار. لولا أننى تلكأت لديه لما حدث ما حدث. لولا أننى ... وخيل الى أننى ما أطلت البقاء معه إلا لأننى اشتهيته. عندئذ جن جنونى فصرت ألطم وجهى وأولول . واستغثت بعمتى : «يا زبيدة ! يا زبيدة !» والتفت النساء من حولى ورأيت الشجر يدور وأحسست أننى أهوى ثم لم أعد أدرى ماذا حدث .

فلما أفقت من الغيبوبة وجدتنى مستلقية على الأرض وقد انحنى نحوى رجل وامرأة كانا يقدمان لى الاسعافات الأولية. وسمعت من يتحدث عن نقلى الى أقرب مستشفى فصحت أننى لن أبرح مكانى حتى تعود الي ابنتى ورأى البعض أن من الضرورى تبليغ البوليس بالحادثة. ولكننى لم أكن أستطيع الوقوف على قدمى وكانت فرانسواز وامرأة أخرى تحاولان مساعدتى على الوقوف عندما لمحت من بعيد فرانك يدخل الحديقة وقد أمسك بيده اليمنى سامية. كانت منهمكة فى حديث طويل معه . ثم توقفت عندما رأتنى وابتسمت واندفعت نحوى فى الوقت الذى اندفعت فيه نحوها أعدو. قال فرانك :

– وجدتها جالسة مع طفل على عتبة أحد البيوت

ورفعتها الى صدرى وانخرطت فى بكاء طويل. ثم تلفت لأشكر فرانك ، ولكنه كان قد اختفى مثلما ظهر. وكنت منهكة أجرجر قدمى فى الطريق الى البيت وأشعر بالضياع .

وبعد العشاء جلست سامية على ركبتى فى مواجهة التليفزيون ، فقلت لها :

– ستنامين الليلة فى حضن ماما. ما رأيك ؟

فقالت:

– بل سأنام فى سريرى .

فلما سألتها عن سبب رفضها قالت:

– لأننى عندما أطلب إليك أن أنام معك ترفضين .

قلت :

– ولكننى الليلة محتاجة الى أن تكونى فى حضنى

فقالت وكأنها تلقننى درسا :

– وأنا أيضا أحتاج أحيانا الى أن أنام معك.

ولم أجد على ذلك جوابا. وبعد فترة من الصمت قالت بلهجة من تذكر شيئا :

– أين ذهب بابا؟

– لقد مات .

– وماذا حدث عندما مات ؟

– انتقل الى السماء فى جوار الله

– وهل يسكن الله السماء ؟

وسكت لحظة ثم قلت:

– الله فى كل مكان ولكنه يأخذ الذين يحبهم الى السماء. وقد كان

يحب بابا .

فتشير الى السماء عبر زجاج الشرفة :

– أهو هناك إذن ؟

فلما أجبت بالإيجاب قالت :

– فهل نستطيع أن نراه على سحابة ونحن فى الطائرة ؟

قلت :

– لا يمكننا أن نراه ولكن لعله يرانا

فتنهدت فى أسى :

– كم أتمنى أن أراه!

وكان ذلك آخر ما قالت قبل أن تسند رأسها الى صدرى وتستسلم للنعاس . وعدت بانتباهى الى التليفزيون لأشاهد فيلما كان قد بدأ لتوه . ولكن أحداث الفيلم سرعان ما انتهت الى مشاهد جنسية. وعندما وجدتني أتابع ما يجرى باهتمام بالغ أطفأت التليفزيون وأسندت رأسى الى رأس الصغيرة. كنت أحتمى بها

ورأيتنى قبالة المقهى العتيق على ناصية «الشارع الكبير » فى أبو كبير. وسرت فى اتجاه السكة الحديد حتى إذا بلغت مكتب التلغراف بدأت أجوس بين الشجر باحثة عن بيت الخواجة ملتياديس ففى الزمن القديم – فيما تروى زبيدة – كان للخواجة خمارة أقامت فوقها أسرته. وبحثت عن شجرة بعينها كانت تقف فى مواجهة نافذة ماريكا بنت الخواجة الحسناء التى كان جمالها يخلب عقول زوار الخمارة من أبناء الأغنياء. وفى الليالى المظلمة كان يأتى الى المكان عاشق جسور. كان يأتى ممتطيا مهرته. فإذا بلغ الشجرة وقف على ظهر مطيته وتسلق الأغصان الى أن يصل إلى نافذة ماريكا. كيف كانت تلقى حبيبها ؟ هل كانت تنتظره واقفة أم مستلقية فى فراشها ؟

ولم يكن ذلك الفتى الجسور إلا عمى زكى أكبر إخوته. فإذا سار الإنسان فى «الشارع الكبير» المتقاطع مع الطريق الزراعى انتهى بعد بضعة كيلو مترات الى منعطف يتجه يسارا الى قرية الشرفا حيث يجد وسط الحقول بيتنا عندما كان أبى حيا. كان من عادته أن يقف فى أوائل المساء أمام البيت ينتظر زواره فى شوق ، فلم يكن هناك ما هو أحب الى قلبه من إكرام الضيف حتى ولو كان عابر سبيل. ولم يكن له من متعة سوى القيام على خدمة مدعويه بنفسه، فهو الذى يعتنى بمطاياهم عندما يترجلون عنها وهو الذى يدور على الكوانين ليشرف على الطهى وهو الذى يحمل الابريق ليصب الماء على ايدى الآكلين بعد انتهاء الوليمة، وقد انفق كل ما يملك فى كرم الضيافة . تروى زبيدة انه فى أواخر ايامه كان يقف ساعة الاصيل على قارعة

الطريق يستحلف كل عابر ان يشاركه طعامه. ولم يكن يلبى الدعوة الا الغريب الذى يجهل ان الرجل قد صار معدما. ولكن البيت مازال قائما ومازال يسمى «بيت هاشم» رغم ان هاشم رحل عنه وعن الدنيا منذ زمن طويل.

وفي وقت من الاوقات كانت ابو كبير هى العالم كله. قذرة دائما وموحلة اذا امطرت السماء وعلى ألفة شديدة بفضلات الانسان والحيوان وبالفئران. ولكنها كانت بداية الحضر «او البندر» بالنسبة لاهل القرى المجاورة، وكان لها رغم كل شىء وجه ناعم جميل. كان السير فى الطريق الزراعى هو النزهة التى ما بعدها نزهة، وكانت النزهة فى أسعد الحالات تمتد من محلج القطن فى طرف الى وابور الثلج فى الطرف الآخر. وكم سار هناك عشاق مولهون.

وكان ذلك هو الطريق الذى يسلكه زكى الى حبيبته اليونانية. وفيما وراء وابور الثلج تنبسط حدائق الليمون ذى الزهر الابيض والأريج العطر الذى يحمله النسيم.

وقد استوقفنى حامد ذات يوم على حافة سوق الاربعاء فنهرته:

- لماذا اراك تتبعنى اينما ذهبت ؟ الا تستحى مما قد يقوله الناس؟

فقال:

ليقولوا اذن إننى أحبك، فهذا صحيح.

ومادت الأرض بى. قلت.

- أنت تعرف الطريق الى بيت عمتى. ولكن لا تنس أن تأتى بأبيك معك.

ولكن حامد لم يأت الى بيت زبيدة ليطلب يدى الا بعد ان التقيت به - ليلا - بين شجر الليمون. وكان يحدث احيانا بعد الزواج ان استيقظ فأجده الى جانبى يحملق فى. فاذا سألته :«لماذا تحدق فى؟» قال: «تلك القبلة الاولى بين اشجار الليمون! لا استطيع حتى اليوم ان اصدق. كانت معجزة». وكثيرا ما كان يسىء فهمى. كنت اطلب اليه احيانا ان يضع يده على ظهرى ولكنه كان ينقل يده الى موضع اخر حتى أمسك بها وأعيدها الى الموضع الذى أريد: «لست اريد منك الليلة سوى هذا. ملمس كفك يخفف من أوجاع ظهرى فيتنهد: «آه يا بنت يا ام الضفاير. رأسك ناشفة».

والشارع الكبير يوصف بالكبر رغم ان عرضه لا يتجاوز ستة امتار، فهو اكبر شارع فى شبكة من الحوارى فى البلدة الموحلة، وقد ذهلنا لضيق الشارع عندما عدنا ذات يوم بعد فترة طويلة من الاقامة فى باريس. فقال حامد وهو يضحك:

ها هو شانزليزيه ابو كبير.

ولكننى لا أطأ أرض الشارع حتى يرفرف قلبى فى صدرى . فهو فى موضع منه يؤدى الى سوق الاربعاء، وفى موضع آخر يؤدى الى بيت هاشم بالشرفا. ويستطيع السائر ان ينحرف يمينا فى موضع ثالث ليجد بيت زبيدة فى صف من البيوت التى تطل على المقابر. ولكن ليس فى المكان ما يثير الشعور بالوحشة او الاكتئاب. فكأن الميتين لم يموتوا. وكأنهم مازالوا معنا. وزبيدة تعتقد على اى حالة انهم مازالوا معنا. وهناك امام البيت يقيم زكى ويقيم هاشم ويقيم حامد وتقيم امى. وهى تجلس احيانا على عتبة بيتها تبكيهم وتترحم عليهم رغم أنهم مازالوا «بيننا». وهى فى الأعياد تخبز من اجلهم فطائر «الرحمة» التى توزعها على الفقراء بعد ان تعطى لكل من قارئى القرآن نصيبه منها.

ولاتزال الايات ترتل من الضحى حتى غروب الشمس. وعندئذ – فيما تقول زبيدة ـ تنزل الملائكة لتؤنس الأخيار من سكان القبور وتمسح دموع المحزونين من أهلهم. وزبيدة بمثابة الجميزة العتيقة التى تنشر أغصانها على رقعة فسيحة من الارض وتظل كل من أوى اليها. وهى رائحة الخبز عند خروجه من الفرن وعبير المسك الذى يضوع من ثوبها الاسود الفضفاض والذى مازلت اذكره منذ استنشقته وانا طفلة.

وقد كنا فى ابو كبير عندما مات حامد. كان المرض قد امتد الى كبده بعد ان قضى على الطحال والمرارة. وذات ليلة اشتد به الألم. ثم أفاق برهة ليقول:

– لقد شاء ان أموت قطعة قطعة. فماذا جنيت؟ ولماذا لا تتوسلين اليه كى يرفع غضبه عنى؟

وقد كنت من الجزع وشرود الذهن بحيث سألته من يعنى. ثم اغمض عينيه وتفجر الدم منه.

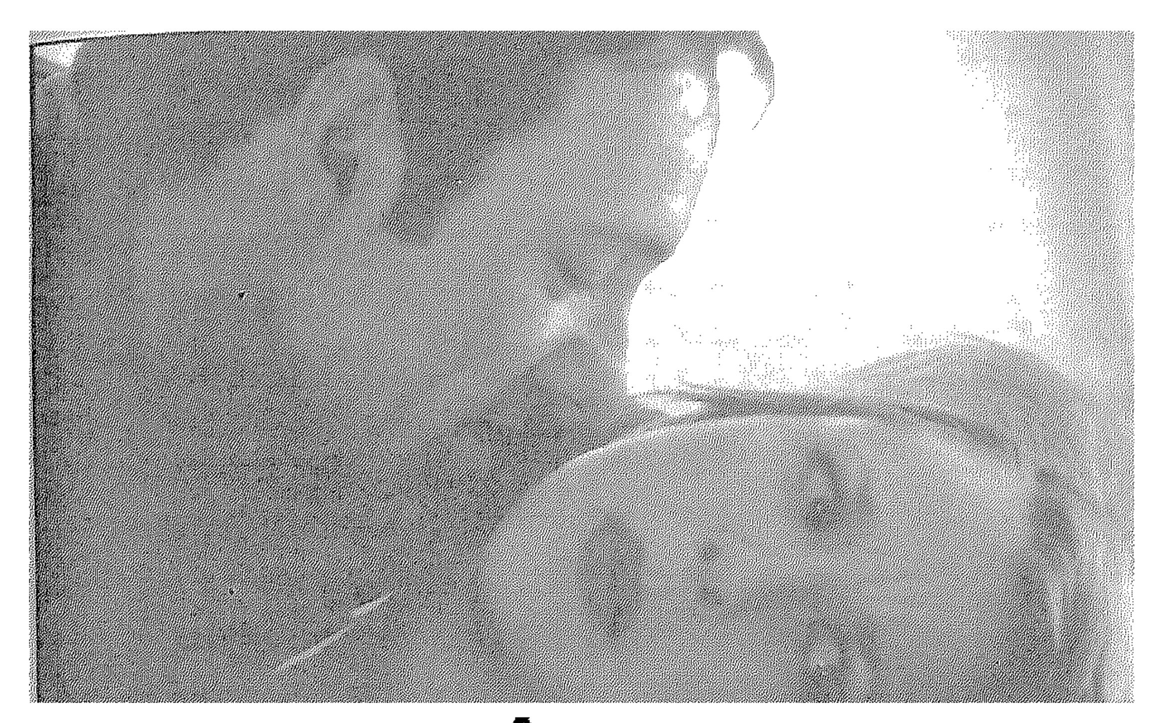
ونهضت عن مقعدى امام التليفزيون لاحمل سامية الى الفراش، ففتحت عينيها:

– ماما يا حبيبتى .. سأنام معك.

وهمست فى اذنها :

– إننا لا نستطيع الاقامة هنا فى غياب بابا. سنعود الى ابو كبير وسنعيش مع زبيدة.

ولكننى ما كدت اغمض عينى حتى اصابتنى رجفة، فقد تذكرت ما قرأت منذ فترة فى الأهرام عن الطفلة التى اختطفها رجل وظل يعتدى عليها شهرا او يزيد ثم حملها الى المستشفى وهى بين الحياة والموت. كان عمرها ثلاث سنوات. وطار النوم من عينى، فالأطفال يغتصبون.. حتى فى مصر.



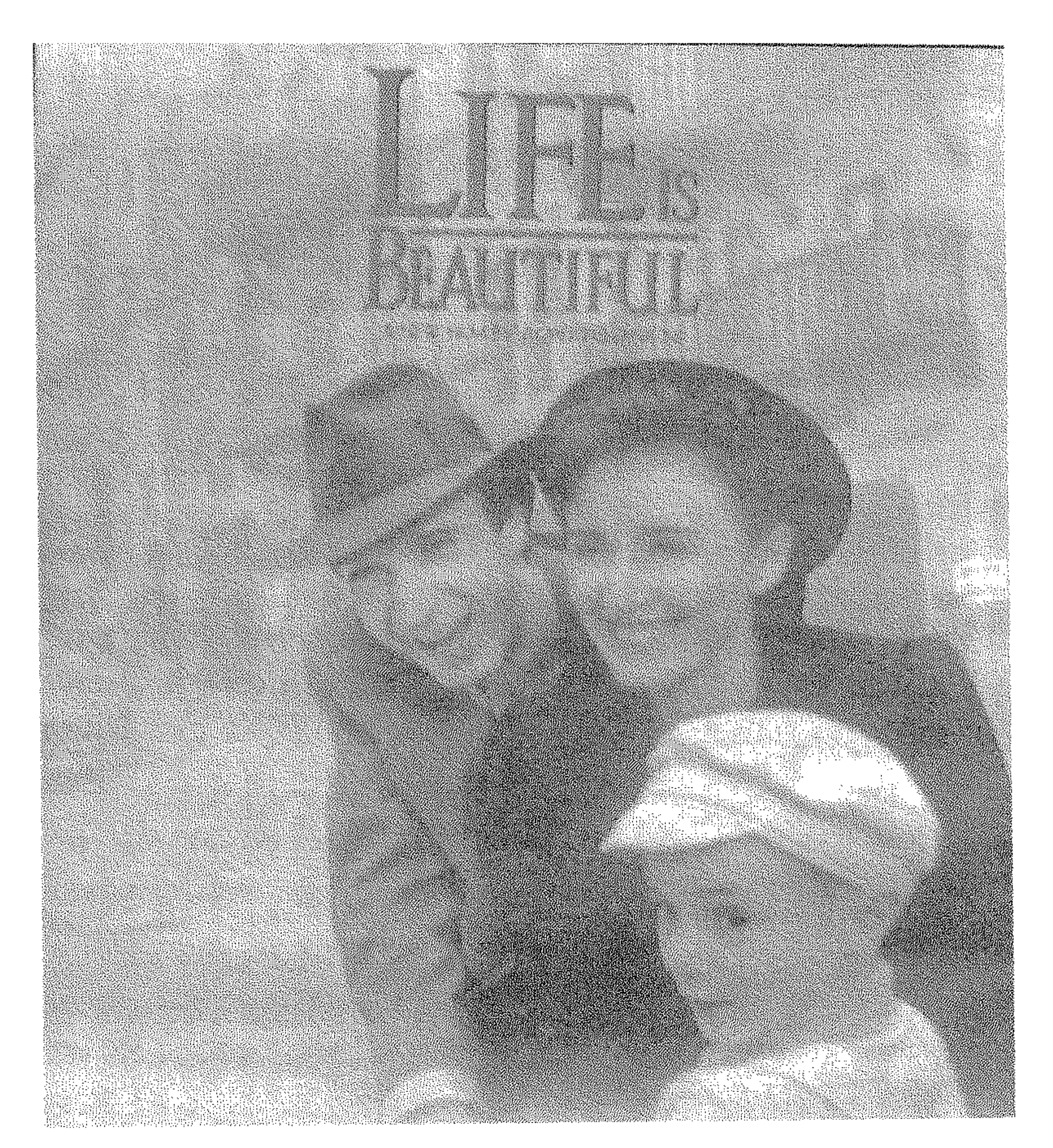
كيفين سبيس وانيت بيننج فى الجمال الأمريكى

الجمال الأمريكى وأسرار أوسكار

بقلم : مصطفى درويش

تلمس فى الأفلام الأمريكية التى جرى ترشيحها للأوسكار فى مطلع العام، أن أغلبها كان متمحورا حول أزمة الذكورة فى المجتمع الأمريكى، بكل ما ينطوى عليه معنى كلمة الذكورة من تباديل وتنويعات.

ويعد الجمال الأمريكى أكثر الأفلام المرشحة تعبيراً عن هذه الأزمة وهو واحد من أفلام خمسة جرى ترشيحها لاوسكار



أفضل فيلم، هى «شروط عصارة التفاح» للمخرج السويدى «لاس هولستروم»، «الحاسة السادسة» للمخرج المنحدر من أصل هندى «نايت شيامالان»، «الميل الأخضر» للمخرج «فرانك درابونت» و«المطّلع» للمخرج «مايكيل مان»..

وحتى الآن لم يعرض في ديار مصر من تلك الأفلام سوى «الجمال الأمريكى» و«الحاسة السادسة»

وقد انفرد الفيلم الاول دون الأفلام الأربعة الأخرى بترشيحه لثماني جوائز اوسكار، كلها من ذلك النوع المرموق الذى تصبو إليه النفوس.

فعلاوة على أوسكار أفضل فيلم، أتيحت له فرصة المشاركة فى مضمار التنافس على أوسكار أفضل إخراج «سام منديز»، وممثل رئيسى «كيفين سبيس» وممثلة رئيسية «أنيت بيننج» وتصوير «كونراد هول» وتوليف «طارق انور» وسيناريو مبتكر «آلن بول» وموسيقى مؤلفة خصيصا للسينما «توماس نيومان».

الجمال في البساطة

وأغلب الظن أنه لو كان للملصقات حق فى الترشيحات للاوسكار، لكان ملصق «الجمال الأمريكى» على رأس المرشحين وهذا الملصق لفت نظرى، وأنا داخل مجمع سينمائى فى سان فرانسيسكو، تلك المدينة الرائعة الجمال.

أما لماذا لفت نظرى، فذلك لأنه عبارة عن صورة مكبرة لبعض من جسد امرأة عار، وأصابع يد ممسكة بغصن وردة حمراء، كل ذلك دون أى خدش للحياء وفى أعلاه قول «لستيفن سبيلبرج»، صاحب الفك المفترس وانقاذ النفر رايان، يشيد بالفيلم وبسام مندز مخرجه الشاب.

ونفس الاشادة صاحبت عرضه فى نيويورك، تلك المدينة الصاخبة، التى تعتبر حالياً فى نظر الكثير عاصمة العالم ماليا وثقافيا.

فلا أحد من نقاد صحافتها إلا وتحمس له حماسا شديداً، قل أن يكون له مثيل.

ولسوء الحظ لم تتح لى فرصة مشاهدته فى نيويورك، لا لسبب سوى ضيق الوقت، ذلك أن إقامتى فيها كانت محدودة بأربعة أيام لا تزيد.

ولكن الحرمان لم يدم طويلاً. فسرعان ما جاءت إلى القاهرة نسخة من «الجمال الأمريكى»، الفيلم الذى فتنت بملصقه الجميل، بفضل بساطته الأخاذة وكما هو معروف فالجمال فى البساطة، وهى ليست بالأمر اليسير.

وعلى كل، فقد تزامن عرضه فى عاصمتنا، دون غيرها من مدن مصر المحروسة، مع فوزه بأكثر من كرة ذهبية، وبترشيحه للعديد من جوائز أوسكار.

إدمان الرقابة

ولأمر ما، لعله إدمان اجراء عمليات جراحية للأفلام تدخل مقص الرقيب، فحذف لقطة، رغم قصر عرضه على الكبار ثم عاد فحذف لقطة أخرى، بناء على طلب متفرج راشد، راعه أن تقع عينا صغيريه اللذين كانا فى رفقة أمهما، أثناء العرض، على اللقطة محل الاتهام . وهكذا، فقد حرمنا من مشاهدة اللقطة، بسبب خلل نجم عنه تسلل صغيران إلى

عرض مشاهده محظوره رقابيا على الصغار . وعلى كل، فبعد مشاهدة «الجمال الأمريكى» والاستمتاع به فى دار سينما مزدحمة، رغم ارتفاع سعر التذكرة إلى عشرين جنيها.

أشهد أنه واحد من أجمل واجرأ وأغرب الأفلام التى تجيئنا من هوليوود بانتظام، على مر عشرات الأعوام.

ولأول وهلة تبدو قصة الفيلم فيما لو حكيت، عادية، كثيراً ما تناولتها السينما الأمريكية فى العديد من الأفلام.

تراث مصنع الأحلام

فمن كان منا على علم، ولو قليل، بتلك السينما، فلن يفوته عند مشاهدة الجمال الأمريكى، تأثر الفيلم برائعتى «بيلى ويلدر» و«الفريد هتشكوك» شارع الغروب والنافذة الخلفية، وكذلك تأثره بأفلام أخرى، عرضت بصدق لطريقة الحياة الأمريكية وإنعكاساتها على الأسرة فى بعض الأحيان.

فالجمال الأمريكى، مثله فى ذلك مثل «شارع الغروب» يبدأ بصوت بطله «ليستر برنهام» - كيفين سبيس - يتحدث إلينا من عالم الأموات قائلا بصوت ساخر «فى أقل من سنة سأكون ميتا، وطبعا أنا لا أعرف ذلك بعد».

أما لماذا، وكيف مات، فذلك ما يحكيه صوت الميت «ليستر» من حين لآخر.

الأسرة السعيدة

وهو، كما يبين من الحكى، رب أسرة فى خريف العمر «٤٢ عاماً» له زوجة حسناء «كارولين» - انيت بيننج - وابنة وحيدة فى عمر الزهور «جين» تورا بيرسون.

وبدءا من فاتحة الفيلم نعرف أن أسرة «ليستر» قد توافرت لها جميع أسباب السعادة والهناء . البيت الكائن فى حى هادئ، راق، كل سكانه من وجهاء البيض. والمؤثث بأغلى الرياش والأجهزة، وما إلى ذلك من نفيس الأشياء.

العربات آخر صيحة من ماركة المرسيدس فما فوق.

ومع ذلك فهذه الأسرة مفككة، ينخر السوس فى عظامها حتى النخاع فالابنة لا تحمل لوالديها سوى المقت الشديد والزوجة امرأة قهارة، قاسية، زائفة الطباع ، والزوج رجل مسحوق، بدون شخصية، أو إرادة، عاجز عن اتخاذ أى خطوة إلى الأمام أو الوراء.

التمرد

غير أن حاله هذا سرعان ما تغير لحظة أن وقعت عيناه على صديقة ابنته «انجيلا - مينا سوفارى - وهى تؤدى رقصة مع «جين» وفتيات اخريات فى أثناء استراحة إحدى مباريات كرة السلة . فمنذ هذه اللحظة الفاصلة أخذ «ليستر» فى التمرد على حياته الرتيبة.

فلم يطل به الوقت، حتى طرح وظيفته المجزية طرح النفاية. وأخذ يعيد بناء عضلاته الضامرة فى محاولة منه لاسترجاع الشباب.

ويبدو تأثر الجمال الأمريكية «بالنافذة الخلفية» واضحا فى الشاب «ريكى فيتس» – وس بنتلى – ابن الجيران «ابوه جنرال متقاعد من مشاة البحرية، ذو ميول فاشية».

فذلك الشاب يتعاطى ويتاجر فى المخدرات وفوق هذا يهوى التصوير بكاميرا فيديو . ولا يكل ولا يمل تصوير «جين»، وهى فى حجرة نومها دون أن تدرى إلى أن يلتقيا ويتحابا . ولن أحكى كيف التقى «ليستر» بذلك الشاب الذى امده بالمخدرات. ولا كيف شك الجنرال المتقاعد بأن ثمة علاقة آثمة بين ابنه والجار ، ولا كيف انحدر الطموح بالزوجة «كارولين» إلى حضيض خيانة الرباط المقدس.

مواهب جديدة

لن أحكى شيئاً من تفاصيل ذلك، مكتفيا بأن أقول بأنه رغم عمق ما يطرحه الفيلم من موضوعات، فعرضه مر مرور النسيم، فلم نحس نحن المتفرجين، بأى ملل .

والفضل فى ذلك إنما يرجع بداية إلى سيناريو «آلن بول» الملئ بالمفاجآت، المشع حواره بشاعرية فياضة. ونهاية إلى إخراج «سام مندز».

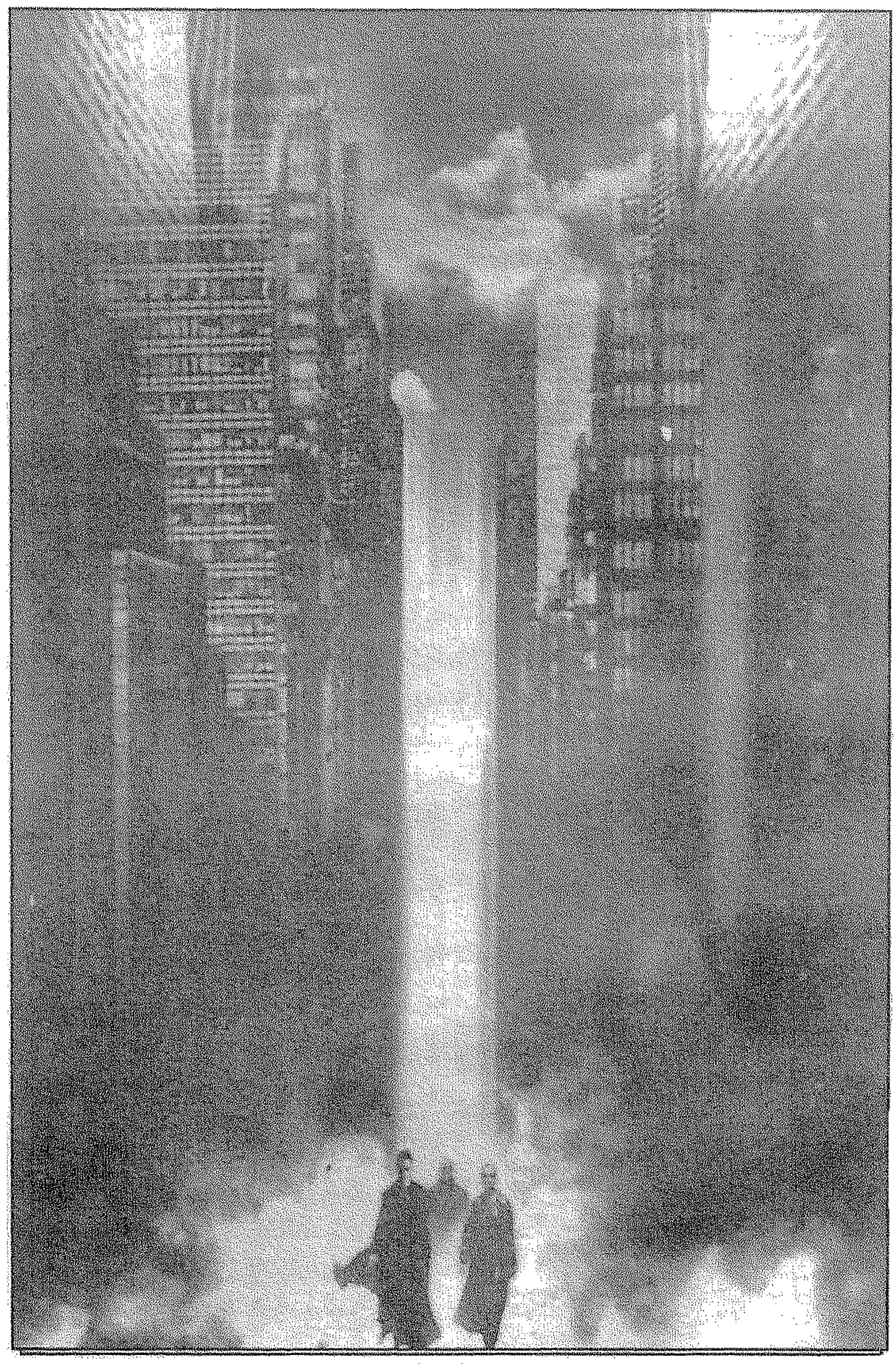
وهنا لا يفوتنى أن أقول أن كليهما «بول» و«مندز»، لم يسبق له إبداع شئ للسينما، قبل كتابة الأول لسيناريو «الجمال الأمريكى» وإخراج الثانى له وإن دل هذا فإنما يدل على أن كليهما موهوب، ويرجى منه خير كثير.

والغريب أن ترشيح الجمال الأمريكى والأفلام الأربعة الأخرى لم يكن محل رضاء الجميع، دون أى استثناء فلقد عاب نفر من النقاد الأمريكيين، وبالذات «ريتشارد كورليس» ناقد مجلة «تايم» الأمريكية، على أكاديمية هوليوود، واسمها رسميا «أكاديمية فنون الصور المتحركة والعلوم»، جنوحها إلى ترشيح الأفلام الخمسة، رغم أن ثمة أعمالا سينمائية أخرى أعلى منها منزلة، وأرفع شأنا.

تعصب وتعال

وذهب ناقد «تايم» إلى أبعد من ذلك، عندما قال أن ايا من تلك الأفلام لا يرقى إلى مستوى «شكسبير عاشقا» و«إنقاذ النفر رايان» الفيلمين اللذين حصدا جوائز أوسكار، قبل عام وأن أعضاء الأكاديمية كانوا أكثر تعصبا لكل ما هو أمريكى من أى عام مضى، الأمر الذى انعكس على ترشيحاتهم للأفلام.

فأحداث الأفلام الخمسة لا تدور إلا على أرض الولايات المتحدة، ولا تعرض إلا لطريقة الحياة الأمريكية، وكأن العالم ليس له وجود خارج بلاد العم سام.



ومن بين انتقاداته لأعضاء الأكاديمية وصفه لهم بالتعالى على أنواع معينة من الأعمال السينمائية مثل أفلام الرسوم المتحركة والملهاة والحركة.

فأفلام الرسوم المتحركة لا يجرى ترشيحها إلا نادراً، لأوسكار أفضل فيلم طويل.

وحظها من الجوائز غالباً ما ينحصر فى أوسكار أفضل أغنية، مثلما حدث قبل عام مع فيلم «أمير مصر».

وأفلام الملهاة، هى الأخرى، ليست اسعد حظا، ولا أدل على ذلك من جنوحهم إلى استبعاد النجم الكوميدى «جيم كارى» من الترشيح لاوسكار أفضل ممثل رئيسى عامين متتالين، وذلك رغم سابقة فوزه بالكرة الذهبية مرتين عن أدائه لدورين يغلب عليهما الجد، لا الهزل الهازل.

المرة الأولى عن «استعراض ترومان» «١٩٩٩»، والثانية عن «رجل على سطح القمر» «٢٠٠٠» لصاحبه ميلوش فورمان، ذلك المخرج الذى فاز بالاوسكار مرتين هو وفيلماه «طار فوق عش المجانين» و«أماديوس» المستوحى من مسرحية بنفس الاسم، تدور حول سيرة الموسيقار «موزار».

المحرقة والاوسكار

ومن باب السخرية بأعضاء الأكاديمية قال ناقد «تايم» أن حظ «جيم كارى» عاثر، وآية ذلك إنه لم يشأ له أن يمثل فى فيلم يعرض فى بعض لقطاته لمحرقة اليهود بأيدى سفاحى ألمانيا الهتلرية فى أثناء الحرب العالمية الثانية، مثلما شاء للممثل الكوميدى «روبرتو بينينى» قبل عام.

فلو لم يكن حظه عاثرا، لأتاح له فرصة مماثلة لتلك الفرصة التى اتاحها «لبينينى»، عندما هيأ له ظروفا مواتية أهلته لإخراج فيلمه «الحياة جميلة» المتعاطف مع ضحايا تلك المحرقة، واهلته كذلك لاداء دور «جيدو»الضحية الرئيسية فى أحداث ذلك الفيلم.

وكل ذلك لعب دوراً كبيراً فى ترشيحه لا لاوسكار أفضل فيلم أجنبى فحسب، بل ترشيحه رغم أنه فيلم إيطالى ومتكلم بالايطالية، ضمن الأفلام الخمسة الأمريكية أو المتكلمة بالانجليزية المرشحة لاوسكار، مما كان سببا فى فوزه باوسكارى أفضل ممثل رئيسى «بينينى»، وموسيقى تصويرية، علاوة على فوزه باوسكار أفضل فيلم أجنبى.

وفى رأى ناقد «تايم» أن أفلام الحركة ليس لها هى الأخرى أن تطمع إلا فى الترشيح لجوائز أوسكار الثانوية مثل تلك المخصصة للصوت ولتوليف المؤثرات الصوتية والمؤثرات البصرية.

خطأ جسيم

وضرب مثلا على ذلك بفيلم «الماتريكس» - بالعربية المتمرد - لصاحبيه المخرجين دانى ولارى تشوفسكى . ففيما عدا ترشيحه لجائزة أوسكار الخاصة بالتوليف، لم يجر ترشيحه إلا لجوائز ثلاث أخرى، هى بالتحديد الجوائز الثانوية سالفة البيان.

وحرمان «الماتريكس - المتمرد» من

الترشيح للجوائز الكبرى لا سيما جائزتى أوسكار أفضل فيلم ومخرج لما يدخل فى باب العجب العجاب.. لماذا؟.

لأنه من أفلام الحركة القليلة التى يتطلب خطابها من المتفرج إعمال الكثير من التفكير.

وعلاوة على عمق الخطاب، فالفيلم زاخر بمزايا أخرى سلبت لب النقاد اينما شاهدوه فكان إجماعهم على الاشادة به .ولا غرابة فى هذا الاجماع، فالفيلم بصريا آية من آيات الجمال.

يخطف الابصار بتكوينات لقطاته وتشكيلاتها، التى تمر سريعة كالحلم فى ثوان.

وكم كان صاحبا الفيلم «دانى» و«لارى» موفقين فى اختيار الممثلين خاصة «كيبانو ريفز» نجم فيلم «بأقصى سرعة» و«لورنس فيشبيرن» نجم فيلم «عطيل» عن مسرحية شكسبير . والحق إنه فيلم ظاهرة يستحق الوقوف عنده كثيراً.

سينما الألفية الجديدة

فأمامه تتضاءل معظم الأفلام التى شاهدناها خلال العام الأخير من القرن العشرين، برغم دوران اسماء بعضها على الالسنة والاقلام.

ويفضله نستطيع أن نقول فى ثقة أن سينما جديدة رائعة قد ولدت مبشرة بسينما القرن الواحد والعشرين.

وأعود إلى ناقد «تايم» لأقول أنه لم يكتف بلوم أعضاء الأكاديمية على ما اقترفوه من خطأ جسيم فى حق «الماتريكس - المتمرد»، بعدم ترشيحه لجائزتى أوسكار أفضل مخرج وفيلم. بل تجاوزه إلى وضع قائمتين، تنبأ فى كليهما باسماء الفائزين بجوائز أوسكار الرئيسية الأولى بأسماء من سيفوزون، وكان من بينهم «الجمال الأمريكى» ومخرجه «سام مندز».

والثانية باسماء من يتعين فوزهم، وكان من بينهم «الماتريكس - التمرد»، وذلك رغم أنه غير مرشح لاوسكار أفضل فيلم!!.

كل شئ عن أمى

ولا يفوتنى هنا، أن أذكر أن الفيلم الوحيد الذى فاز فى كلتا القائمتين باوسكار أفضل فيلم أجنبى هو «كل شئ عن أمى» لصاحبه المخرج الأسبانى «بيدرو المودوفار» وأن «الماتريكس - المتمرد» قد حالت رقابتنا بينه وبين العرض العام . والأمل فى أن نشاهده مرتهن بقرار يبيح عرضه، تصدره لجنة التظلمات المنظور أمامها تظلم أصحابه من تعسف الرقابة، باصرارها على منعه، رغم انتهاء رأى اللجنة العليا للرقابة إلى إنه غير مشوب بأى عيب يتهدد النظام العام وكم أتمنى ألا يقسو أعضاء تلك اللجنة على «الماتريكس - المتمرد» كما قسا أعضاء الأكاديمية فى بلاد العم سام!!.





المكان فى الرواية

مطارح العشق من الإسكندرية إلى أخميم..

بقلم : إدوار الخراط

بريشة الفنان : جودة خليفة

انتهيت ، منذ قليل، من كتابة رواية «صخور السماء» .

«صخور السماء» تدور فى أخميم ، بلد أبى ، التى لم أولد فيها ، ولكننى فى السابعة من عمرى ، عرفت فيها طقس المعمودية فى كنيسة دير الملاك ميخائيل العريق.

فإذا كانت الاسكندرية مسقط رأسى ومطرح معاشقى الأولى ، فيها عرفت مباهج الصبا والطفولة، وأحزانهما الغريبة، ونشوات الشباب ، وفيها أيضا نهلت من ينابيع العلم الأولى وترشفت قطرات من غدق المعرفة ومضض الاسئلة التى لا إجابة عنها، فقد كانت أخميم - التى أتصور - أن «صخور السماء» ترنيمة عشق لها تدور أحداثها وشطحات تأملاتها وتباريح وقائعها فى الأربعينيات وحتى التسعينيات ، كما لعلها تقع فى «اللازمن» الذى ما أنى أراوده ، فهى بلد أبى وأسلافى الصعايدة العظام الذين ماكتبت «صخور السماء» إلا على سبيل تكريمهم وإسداء الولاء لهم، والتمرد عليهم فى آن معا ، ذلك شوق لايريم من بين أشواق لاعجة أخرى تلهم هذه الرواية.

ها أنذا في أخميم

البلد العريق الذى ينتمى إلى عمقى وأصلى وأهلى ، مسقط رأس أبى ، «قُلته الخراط» ، الحكاء العظيم ، المكافح العظيم. وهى منبتى وإليها أنيب ، بلد الشموخ والسموق ورفعة الجبل وخصب الوادى ورحابة النيل الإله حابى العظيم .

مدينة عسلها مشهور بصفاء اللون وصدق الحلاوة . مشهورة بناسها الطيبين، بالمصرية القديمة خنْت مين إله الخصوبة، پانوبوليس الاغريقية ، شمّين كمّين القبطية، مدينة پان الذى هو أصلا أمون خالق الموجودات ومجددها باستمرار ، مدينة البرابى الفاخرة الباقية بمصر من أيام جاهلية الزمن وعصور قدامى المصريين، بها من التصاوير الجميلة والمنحوتات والتماثيل والمدوّنات بالقلم الهيروغليفى، قلم «الكتابة المقدسة» مالا يحصيه حصر ولا يحيط به علم .

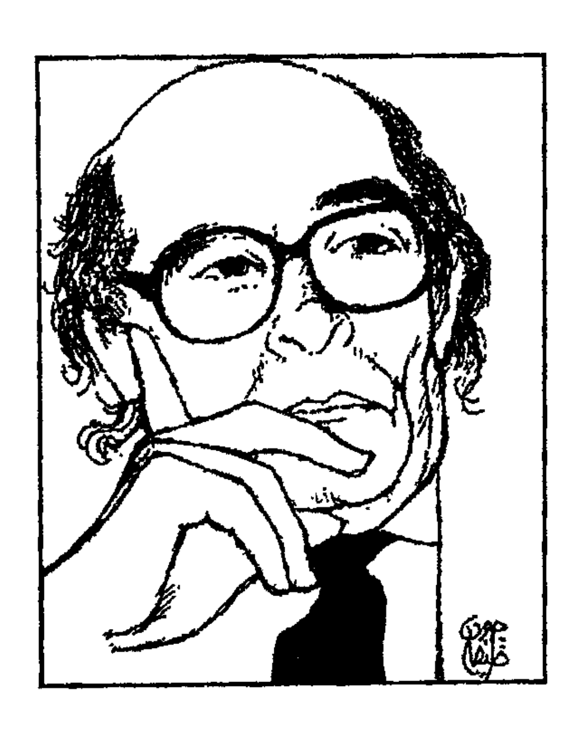
مدينة مين التى يستبيحها ويتجلى لها ويطوف بمغانيها ليلا وأهلها نائمون أو يترصدون حفيف أقدامه، وفى الصبح يعثرون على أحد نعليه مخصوفا على طريقة القدماء طوله قدمان أو ذراعان ، يقيمون له المولد العظيم الذى يلعب فيه اللاعبون بالعصا والأقواس ويراهن فيه الناس على الفائزين ، لأنه هو الذى قتل الجرجون الحيوان القاتل المخوف ، بأنفاسه النتنة ، صاحب العينين اللذين يغطيهما شعره اللبد الغزير يرفعه عنهما ويصوبهما إلى كل حى فيستحيل حجرا أو صخرا من الصخور .

أخميم مدينة أبى وأسلاف أبى فلتس يوسف عبد الملك صموئيل منقريوس

هرمينا الخراط، أصحاب الصنايع والمتاجر والمزارع ، المشهورة ، عاصمة الإقليم التاسع فى مصر الخالدة أبدا ، مدينة العظيم أخميم بن مصراييم ، خصّه أبوه بقسم مصر الجنوبية ، مدينة سقوط طفولتى من على سلم يعقوب وصعود دماء صباى بين ذراعى البطة الصغيرة التى اسمها مارينا والتى هى إرهاص باكر بعشيقتى وكل معاشقى ، مدينة معموديتى تنصيرى بملكوت النور البهى، «مبنية بأحجار مرمرية - مثل اسكندريتى - طول كل حجر منها خمسة أذرع فى سمك ذراعين، وهى سبعة دهاليز سقوفها حجارة طول الحجر منها ثمانية عشر ذراعا فى عرض خمسة أذرع مدهونة باللازورد وغيره من الأصباغ التى يحسبها الناظر كأنما فرغ الدهان منها الآن لفرط جدتها، وكل دهليز منها على اسم كوكب من الكواكب السبعة السّيارة، جدران هذه الدهاليز منقوشة بصور مختلفة الهيئات والمقادير، فيها رموز علوم القبط من الكيميا والسيميا والطلسمات والطب والهندسة والتنجيم» .

أى صدقت يامقريزى ياصاحب النظرة الصادقة التى رأت ماهو دفين الآن.

مدينة ميريت ابنة الملك ومغنية الإله آتوم ولابسة تاج الإله مين، مضيئة قصرها عازفة الهارب صانعة صديرية



الإلهة حتحور ، ميريت أجمل امرأة فى العالم ، مازال الروج على شفتيها المفترتين عن ابتسامة مكنونة ورهيفة .

***

أراك يا أخميم ، حتى القرن الخامس الميلادى ، مازالت الصروح سامقة مرفوعة البنيان للآلهة القدامى، أوزير وزيوس ، ايزيس وأفروديت معا، بينما الفلاحون المطحونون تحت سطوة الإغريق قد انضووا تحت لواء المخلص الفادى أفواجا بعد أفواج ، الإغريق أصحاب السلطة والجاه والثروة يفرضون طغيان الثروة وينعمون ببذخ الحياة ، معابدهم قائمة بآلهتها الرخامية البيضاء على أرضك الأفريقية السوداء ، يا أخميم كيمى ، والمذابح تسيل عليها دماء الضحايا الحيوانية الغضة لتروى هذه الأرض التى

لم تشبع قط من الدماء حتى الآن ، المتع الأبيقورية الفاضحة جنبا إلى جنب مع نسك الرهبان بقيادة شنودة المولود فى قرية من تخومك ، جمحات الجسد المتمرغ فى شهوات حسية صارخة حينا ومملة أحيانا جنبا إلى جنب مع قمع الجسد وعنف اقتلاع الأوثان، تداعى اللغة اليونانية التى أرهقتها العصور والأمجاد القديمة جنبا إلى جنب مع عنفوان القبطية اليانعة التى تستجيش فى نفوس المظلومين أشواقا لا تغلب ، تفلسفات الآريوسيين والنسطوريين وتحليلاتهم العقيدية التى تشطر شعرة الإيمان إلى ألف تفريعة جنبا الى جنب مع صرامة الأرثوذكسية الباحثة عن نقائها، المتشبثة حتى الموت بمصريتها ، سرف الفجور الديونيزى والعربدة الحسية والعقلية جنبا إلى جنب مع طهارة كُرْه العالم ونفى غواياته ، معابد الآلهة القدامى بأروقتها التى ترتكز أكتافها على تيه لا ينتهى من الأعمدة اللازوردية الشامخة المكللة بتيجانها زاهية الألوان ، وهياكلها المسدل عليها ستائر مطرزة بالذهب جنبا إلى جنب مع الصوامع الضيقة فى البرارى الموحشة وقلالى الرهبان المتوحدين مع إيمانهم وجهادهم فى رمال الصحراء النقية الخاوية المجردة عن كل شىء فى عرائها المطلق .

أخميم المدينة التى سالت فيها دماء ثمانمائة وأربعة عشر شهيدا دفاعا عن عقيدتهم الأرثوذكسية ، قتلهم أريانوس فى ثلاثة أيام ، حتى اغرقت الدماء درب الظلنى الذى يأتيه المؤمنون من الشرق والغرب حفاة الأقدام خاشعين يركعون على أرضه ، ويقبلون ترابه تمجيدا وعرفانا بالجميل ، لأن مذابح الشهداء لاتنتهى .

مدينة الأنوال التى تنسج خيوطها الحريرية من صميم الروح .

مدينة تى أم الفرعون العظيم الشاعر العظيم اخناتون ، بنت يويا ذى المقام المرموق .

أخميم التى من أحجارها بنيت مزارات أبيدوس وكعبة مكة المكرمة .

مدينة كنيسة المخلص من العذاب وكنيسة أبى سيفين ومارميخائيل ، بلدة القديسين باخوم ، وضالوشاه، يسقوروس، واسكلابيوس ، أوليجيوس، وأرسانيوس ، والأنبا شنودة ، والأنبا بسادة ، مدينة الشيخ كمال الدين بن عبد الظاهر صاحب مسجده ، ومدينة العارف بالله ذى النون المصرى بن ابراهيم الذى تقلد علم الباطن وأشرف على كثير من علوم الفلسفة وكان كثير الملازمة للبرابى بيوت الحكمة القديمة، فيها التصاوير العجيبة والمثالات الغريبة التى تزيد المؤمن إيمانا والكافر طغيانا وقد فتح عليه علم مافيها المكتوب بالخط المطلسم القديم وله كرامات، فقد

كان من الملامتية وحوّل الحصى الى حجر كريم، رضوان الله عليهم أجمعين .

مدينة أعجب الهياكل

أخميم مدينة أعجب الهياكل المتحدث بغرائبها فى الدنيا ، وهو هيكل عظيم فى شرق المدينة وتحت سورها ، وحتى إذا كان مطمورا فإنه يبقى ماثلا : «طوله مائتان وعشرون ذراعا، وسعته مائة وسبعون ذراعا، وهو قائم على أربعين سارية سوى الحيطان ، دائرة كل سارية خمسون شبرا، وبين كل ساريتين ثلاثون شبرا، ورؤوسها فى نهاية العظم كلها منقوشة من أسفلها إلى أعلاها ، وبين رأس كل سارية والأخرى لوح عظيم من الحجر المنحوت ، منها ما ذرعه ستة وخمسون شبرا طولا فى عرض عشرة أشبار ، وارتفاع ثمانية أشبار، وسطحها من ألواح الحجارة ، كأنها فرش واحد فيه التصاوير البديعة والأصبغة الغريبة كهيئة الطيور والآدميين وغير ذلك فى داخلها وخارجها ، وعرض حائط البربى ثمانية عشر شبرا فى حجارة مرصوصة ، كذا قاسها ابن جبير فى سنة ٥٧٨ هـ الذى قال أيضا إن سقف هذا الهيكل كله من أنواع الحجارة المنتظمة يخيل للناظر أنها سقف من الخشب المنقوش ، والتصاوير على أنواع فى كل بلاطة من بلاطاته ، فمنها ما قد جللته طيور بصور رائقة باسطة أجنحتها توهم الناظر إليها أنها تهم بالطيران ، ومنها ما قد جللته تصاوير آدمية رائقة المنظر رائعة الشكل، قد أعدت لكل صورة منها هيئة هى عليها. كإمساك تمثال بيدها أو سلام أو طائر أو كأس، أو إشارة شخص إلى آخر بيده، أو غير ذلك مما يطول الوصف له ولا تأتى العبارة لاستيفائه.

وداخل هذا الهيكل العظيم وخارجه وأعلاه وأسفله تصاوير، كلها مختلفات الأشكال والصفة، منها تصاوير هائلة المنظر خارجة عن صور الآدميين، يستشعر الناظر إليها رعباً ويمتلئ منها عبرة وتعجباً، وما فيها مغرزاشفى، ولا إبرة إلا وفيه صورة أو نقش أو خط بالمسند لا يفهم، قد عم هذا الهيكل العظيم الشأن كله هذا النقش البديع، ويتأتى فى صمم الحجارة من ذلك ما لا يتأتى فى الرخو من الخشب، فيحسب الناظر استعظاماً له أن عمر الزمان لو شغل بترقيشه وترصيعه وتزيينه لضاق عنه، فسبحان الموجد للعجائب لا إله سواه.

وعلى أعلى هذا الهيكل، سطح مفروش بالحجارة العظيمة يحار الوهم فيها ويضل العقل فى الفكرة فى تطليعها ووضعها، وداخل هذا الهيكل من المجالس والزوايا والمداخل والمخارج والمصاعد والمعارج والمسارب والموالج ما تضل فيه الجماعات من الناس، ولا يهتدى بعضهم لبعض إلا بالنداء العالي. عرض حائطه ثمانية عشر

شبراً من حجارة مرصوصة، وبالجملة فشأن هذا الهيكل عظيم، ومرآه أحد عجائب الدنيا التى لا يبلغها الوصف ولا ينتهى إليها الحد.

أخميم مدينة الاثنى عشر ألف عريف من السحرة، وبها شجرة البنج والاهليلج الكابلى والأصفر وشجر المسيح الذى ليس فى بلد، ويعمل بها طرز الصوف الشفاف والمطارف المطرز والمعلم الأبيض والحرير الموصوف، وكان من عوائد أهلها النصارى فى أحد الشعانين وقت إشهار الصلوات الموسمية أنهم يخرجون من الكنيستين مع القسيسين والقمامصة فى هيئة محفل، حاملين المباخر والعطر الزكى والصلبان وكتب الأناجيل والشموع العظيمة موقدة، ويقفون أمام باب القاضى برهة من الزمن يتلون صحفاً من الانجيل، ويغنون ببعض شطرات منظومة تتضمن مدحه، ثم يقفون على باب كل واحد من أمراء الإسلام وأعيانهم ويفعلون كما فعلوا أمام بيت القاضى.

أخميم التى فى غربيها جبل من أصغى إليه بأذنه سمع خرير الماء ولغطا شبيها بكلام الآدميين لا يدرى ما هو.

هاأنذا فى أخميم.

***

الإسكندرية.. علاقة خاصة

أما علاقتى بالاسكندرية فهى علاقة خاصة، فقد كانت الاسكندرية عندى - ومازالت - موقعا حلميا، على كل واقعيتها.

هى ليست موقعاً جغرافياً جميلاً فقط، وليست - فقط - ساحة لالتقاء واصطدام الناس الذين يعملون ويكدحون ويحبون ويموتون على أرض الحياة اليومية، وليست - فقط- مستودع ترسيب ثقافات وحضارات تاريخية، عريقة وراهنة، هى ذلك كله. وهى كذلك حالة من حالات الروح ومغامرة سعى لاستيعاب حقيقة داخلية، وهى مواجهة ميتافيزيقية أيضاً لغموض المطلق والموت الممتد على صفحة بحر ساجية أو جياشة، نحو أفق ملتبس، بلا حد.

***

ولعلنى لا أعرف كاتبا آخر فى العربية تولّه بعشق هذا الموقع - الحلم - الواقع، كما فعلت.

لكأنها امرأة فردانية ومتكثرة بلا نهاية.

ومهما كان من حفاوة كاتب مثل نجيب محفوظ بأزقة وحوارى الجمالية، أو كاتب مثل عبدالرحمن الشرقاوي، وغيره من كتاب الريف، بقراهم، فقد كانت المدينة - والأرض - عندهم، فى نهاية الأمر ديكورا خلفياً، وفى أحسن الأحوال موضوعاً أو ساحة للفعل الروائى.

الاسكندرية عندى هى نفسها الفعل الروائى، بمعنى ما، هى قوة فاعلة، وليست

مادة للعمل ولا مكانا له، ولا يعنى ذلك - بداهة - أننى «أريد أن أحتكر الكتابة عنها» ذلك قول لا يستقيم بأى منطق.

والمأمول أن تفضى كتاباتى عن «اسكندريتى» فى تجميعها الخاص إلى تكوين صورة جديدة ومتباينة الظلال والدلالات لاسكندريتى ، مدينتى التى أعرفها وأصونها فى عمق قلبى، وأعشقها حتى حد التوله ، والتى ترابها زعفران، حلم وتراث عريق وساحة للحب ، والكد ، ومساءلة للمجهول ، فى وقت معا. وليس ضمير التخصيص فى «اسكندريتى» ضمير امتلاك أو احتكار بل هو ضمير حب أو عشق .

أما لورنس داريل فلم يعرف الاسكندرية، فى تقديرى مع أنه كتب مئات الصفحات من رباعيته الشهيرة ، فالاسكندرية عنده أساسا هى وهم غرائبى، كأنما كتب لكى يرضى نزعة لاتنتزع عند الكاتب وعند قرائه الغربيين ، سواء فى اختلاق وابتعاث خرافة راسخة الجذور عن «الشرق» الذى يموج ويصطخب بشخوص عجيبة،غير مفهومة تتقلب بين العنف تارة وبين الخنوع والذلة تارة ، ولا تكاد تنتمى إلى البشر أيا كانت جنسياتهم وبيئاتهم وثقافاتهم، وتحتشد هذه الخرافة الغرائبية بأجواء خارقة، يجهد الكاتب فى أن يضفى عليها جاذبية غير المألوف ، إلى درجة منفرة بل ومقززة أحيانا ، فهى جاذبية الخيال المغرق، والجمال المصنوع ، والقبح النادر أيضا .

الاسكندرية عند داريل هى أسطورته الشخصية أولا وأخيرا ، أسطورة تكونت من مشاهد خارجية التقطتها عين أجنبية، ومشاهد داخلية تخلقت فى نفس منفصلة محجوزة عن قلب البلد وروحها، بانحيازات رازحة وراسخة، وما أفدح خطأ من تصوروه عاشقا للاسكندرية بينما هو فى حقيقة الأمر لايعرفها، بل يزدريها ويحتقر أهلها .

لم يعرف داريل من الاسكندرية إلا قشرتها السطحية : بيوت ومكاتب الدبلوماسيين، الفئة الفوقية التى تطفو على عباب مدينة تمور بالحياة، كالزبد أو الرغوة، الشوارع والبيوت التى كانت محرمة على أهل البلد، «المتمصرين» الذين لم يعرفوا من مصر إلا كيف يستغلونها، ثم من يدور فى فلك هؤلاء الخدم والبغايا الذين لا يراهم داريل إلا من الخارج ، دون مبالاة، وبشيء قليل من النفور، ولذلك فإن «فنيته» التى تبدو لأول وهلة باهرة، ليست إلا زيفا صراحا .

المدينة العربية

أما الاسكندرية الحقيقية، التى يسميها باستعلاء متوقع ومنتظر : «المدينة العربية» أو بعبارة أدق بالعامية المصرية «الحتة البلدى» فهى عنده مشاهد شرقية تلوح باذخة الزينة وغريبة الوقع ، لا صلة

لها بالواقع ولا بصدق الفن غير المصطنع.

من الأمثلة الصارخة على ذلك ، و أقع عليها عفو الخاطر ، فالرباعية حاشدة بأمثال ذلك المشهد الذى نرى فيه «الدرويش» يرقص في مولد ست دميانة القبطية، وقد تحول الى شمعدان آدمى، مغطى بالشموع الموقدة ، وقطرات الشمع الذائب الساخن تتساقط على جسمه، ويأتى صبى ليدفع «خنجرا هائلا» فى كل من خديه وعلى طرفى الخنجر اللذين يبرزان من جانبى وجهه يضع الصبى شمعدانا آخر، على الجانبين وفيه الشموع المشتعلة، «ماونت أوليف ص ١٢١» وغيرها كثير .

عرّشت أشواق عشقى فى مدينتى العظمى الاسكندرية، الثغر المحروس، الميناء الذهبيه،رؤيا ذى القرنين وصنيعة سوستراتوس المهندس العظيم ، ولؤلؤة قلبطرة الغانية الأبدية، المدينة الساطعة المرخمة لاتحتاج بالليل الى نور لفرط بياض رخامها ، أكاديمية أرشميدس وأراتوسنيس الفيلسوف والشعراء أبولونيوس وقاليماخوس ، وكافاتيس المأساوى الجميل، مثوى الميوزات جميعا، عاصمة القداسة والفجور معا، أرض القديس مرقس والقديس أنانيوس وأصحاب الكنيسة البوقالية أوريجانوس والأسقف ديونيزيوس والأنبا أثناسيوس الرسولى الواقف وحده مع الحق ضد كل العالم، مدينة البطاركة أعمدة الأورثوذوكسية القويم، أكليل السبعين ألف شهيد الذين سوف يبعثون إلى جانب المسيح، وجوههم بيضاء كاللبن والصاروفيم ، يغنون فى مكرمتهم ويسبحون، رأس فاروس يلقى نوره من إليوسيس الحضرة الى قانوب «أبو قير» من الجومنازيوم ومعبد باسيدون إلى الامبريون والستاديون من الهيپودروموس الى معبد السيرابيوم من تل راتوتيس كوم الشقافة إلى السلسلة رأس لوقياس، من تل بانيون كوم الدكة وكامب شيزار الى بتراى حجر النواتية، المرسى العظيم الشأن لا يضارعه إلا مرسى قاليقوط فى بلاد الهند، تنبثق من قلبها المسلة الجسيمة التى ليس تحت قرار الأرض مثلها بنيانا ولا أوثق عقدا، أفرغ الرصاص فى أوصالها فهى مؤصرة لاينفك التئامها ، وعمود السوارى المنحوت من رخام جبل ابريم الأحمر تاجه منقوش محزم بأحكم صنعة وأتقن وضع ليس له قرين، مدينة المراتع والمحارس والمدارس والمسارح والجنان ، ذات العماد ذات الأربعة آلاف حمام، الأربعة آلاف ملهى كلها قمينة بالملوك ، الأربعة آلاف بقال لايبيعون إلا البقل الأخضر، دعك من الآلاف الأخر ، عروس البحر الدفّاق من القلزم الى بحر الزقاق، جامعة المزارات من سيدى المرسى أبى العباس وسيدى أبى الدردار الى سيدى الشاطبى وسيدى جابر وسيدى كريم رضوان الله عليهم أجمعين ، ذات الشوارع الفساح، وعقائد البنيان الصحاح ،جليلة المقدار رائعة المغنى شامخة الكبرياء، اسكندرية يا اسكندرية

شمس طفولتي الشموس وعطش صباي ومعاشق الشباب .

اسكندريتي هي الست وهيبة وحسنية وتلميذات مدرسة نبوية موسى وحسين أفندي مراقب «الكوبرى» بين غيط العنب وراغب باشا وفتاة باب الكراستة التي أنقذتني من الشرطة السرية، والمعلم عوض صاحب سيرجة الزيت، اسكندرية رفلة أفندي وأخوالي ناتان ويونان وسوريال ، اسكندرية شارع ١٢ ووابور الدقيق واصطبل عربات الحنطور جنب ترعة المحمودية، اسكندرية أصدقائي من جابر إلى المردني ، والبنات اللاتي أحببتهن مصريات، شاميات، ويونانيات كلهن من بنات اسكندرية حقا، ولسن أجنبيات أو غريبات أو غرائبيات، اسكندرية الريس نونو وبيوت الفراهدة وعمال المخازن من عم علي والاسطى مرسي النجار الى «أبو شنب» العجوز و«حميدو شورتي» اسكندرية سيدي المرسي أبو العباس والكنيسة المرقسية، لها أبعادها الأسطورية حقا ولكن لها صخرها الواقعي وتراب أرضها في آن معا، إن شطح الخيال والفانتازيا في اسكندريتي يغوص في داخل الواقع وينبع منه - الواقع الخارجي والداخلي معا - ويتفاعل هذا الواقع بكل مافيه من قسوة وجمال مع الأسطورة والفانتازيا تفاعلا متبادلا، أو هكذا أرجو ، ومع ما أسعى اليه من دقة التفاصيل الخارجية فإن اسكندريتي هي نبض متصل متراوح ومتلاحق، حشد من الاحساسات والتأملات في حركة دائمة، هذا ما أرمي اليه، وهي واقع جوهري - أو عدة تجليات لهذا الواقع يوضع موضع تساؤل بلا نهاية وبلا خاتمة .

الإسكندرية معشوقتي

العطف والحزن الرباني الشفيق الذي يملأ على شوارع طفولتي وهواجسها وآمالها في غيط العنب، أين هي الآن مني؟ وهل استطيع أبدا أن ابتعث من جديد هذه الجنات الواعدة البعيدة مفتوحة الأبواب عن كرماتها وموصدة في وجهي إلى أبد الأبدين ؟ وهذه الأشجار المثقلة برمان اللبن العسل والمر ، والخمر الصهباء التي يشعشعها لي أبي بماء حنوٍّه ومحبته ويسقيني، وأنا طفل غرير؟ فوانيس الغاز المضلعة الزجاج متقدة أشعلها لنا عفريت الليل بعصاه الطويلة التي يطقطق شررها، ثم مضى في مملكة ليله التي لانعرف لها حدودا، من أين جاء؟ والى أين يمضي ويترك لنا حبات النور، فاكهته المهتزة الغضة على شوارعنا الناعمة الغامضة التراب، أين هي ؟ والبيت الخفيض جنب بيتنا، من دورين فقط، مقفل دائما وغريب ولكننا نعرف أنه معمور ، نحس الحركة الحية فيه ولانرى سكانه أبدا، نوافذه لاتنفتح ولايبوح بأسراره قط. دائما مكنون على بحيراته الشاسعة الخفية الساكنة الماء، وعلى أهل مملكته البنات الطيور اللاتي يأتين مرة واحدة كل عام، ويخلعن ريشهن فإذا هن الحور الخود لامثيل لجمالهن في الأرضين، أين ذهبت البنات؟

قوة حضور الذِّكر تنقض القلب.

الشاعرة

ملك عبدالعزيز

بين الرومانسية والواقعية

بقلم : محمد إبراهيم أبو سنة

" خسر الشعر العربى الحديث صوتا بارزا من أصوات الشعر النسائى فى مصر هو صوت الشاعرة ملك عبدالعزيز، والتى وافاها الأجل إثر حادث مأساوى عبثي فى مساء السبت السابع والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٩٩٩ "



الشاعرة ملك عبد العزيز داخل مكتبتها

الشاعرة ملك عبد العزيز ...

ولدت الشاعرة المبدعة الرائدة ملك عبدالعزيز فى الرابع من شهر أكتوبر عام ١٩٢١ فى مدينة طنطا ، التحقت بعد إتمام المرحلة الثانوية بكلية الآداب قسم اللغة العربية حيث التقت بأستاذها الناقد الكبير الدكتور محمد مندور وتزوجا فى الثامن والعشرين من شهر مارس عام ١٩٤١، وهى لا تزال طالبة بالسنة الثالثة بكلية الآداب جامعة أحمد فؤاد الأول القاهرة حاليا . تفتحت بواكيرها الشعرية الأولى وهى فى المرحلة الثانوية فى الثلاثينيات من القرن العشرين بينما كانت مدرسة أبوللو والديوان ومدرسة شعراء المهجر تملأ الأفق الثقافى بالرومانسية وبما تحمله من مثاليات ووعى جديد .

وكان أول ديوان قرأته الشاعرة هو ديوان حافظ إبراهيم ثم قرأت وتأثرت بشعر العقاد وإبراهيم ناجى وحسن كامل الصيرفى وميخائيل نعيمه . تقول .. «على أننى قد أحببت بعد ذلك شعر المهجر بصورة عامة لصدقه وإنسانيته ولقربه فى موضوعاته وطرائق تعبيره من نفوسنا المعاصرة فى ذلك الوقت ونجاحه فى الترجمة عنها ترجمة صادقة ».. وقد طبعت هذه المرحلة من المؤثرات الشعرية عالمها بالصفاء اللغوى والمثالية والصدق والتعلق بالعواطف النبيلة والحماس لقضايا الإنسان ، ورغم أن الهمس كان صفة مميزة لنبرتها الشعرية فإن نفسها الشعرى كان قويا عميق التأثير .

إن ديوانها الأول «أغانى الصبا » والذى صدر فى عام ١٩٦١ قد ضم إبداعها فى المرحلة الأولى فى الفترة من عام ١٩٣٩ وحتى عام ١٩٤١ . ويبدو أن الشاعرة قد انشغلت بواجباتها الأسرية ووقوفها إلى جانب زوجها المناضل وتحمل تبعات مواقفه الثورية إلى درجة صرفتها عن الإبداع الشعرى لبعض الوقت . ومع تفجر حركة الشعر الحديث وتحولات الساحة الثقافية وبروز أصوات شعرية جديدة عادت ملك عبدالعزيز لتواصل رسالتها الشعرية من أجل الحق والعدل والحرية . لقد جاء ديوانها الأول متأثرا بالإشعاع القوى للمدرسة الرومانسية أو الاتجاه الوجدانى كما يسميه استاذنا الدكتور عبدالقادر القط . فهى تصادق النجوم وتهتف بالحياة وتناجى القمر وتتحدث عن زهرة البسلة وتنتشى بالفرح والنشوة تقول فى قصيدة نشوة:

تعالى نشوة الدنيا
وهاتى الشعر من سحرك
تعالى نشوة الدنيا
وروِّى النفس من نهرك
وشعى النور من عينيك
والاسعاد من ثغرك
وهاتى اللحن خفاقا

كـــدفع الموج فى بحـــرك
تعـــالى نشـــوة الدنيـــا
وهاتى الشعـر من سحـرك

وتتحدى صعاب الحياة وتضع نفسها فوق كل الأحوال حين تقول فى قصيدتها تحدى.

فلتعصف الريح فلتقصف صواعقها
فلتقذف الأرض بالأثقال والشرر
فليهدر البحر فلتهدر غوائله
أنا الضعيفة فوق البحر والقدر
فلتزفد النار فلتصرخ مراجلها
فلتحرق الكون من ماء ومن حجر
فليـــزبد الناس فليـــرغـــوا و يضطربوا..
أنا الضعيفة فوق النار والبشر
لا تقصف الريح عودي إنه مـرن
أقوي علي هجمات الدهر والغير
لا يغرق البحر نفسي إن في مني..
تسمو بها لمقام الأنجم الزهر
لا تحرق النار روحي إنني شرر .
.. وكيف تحرق نار شعلة الشرر؟.
ولا يروعني هذر الالي جهلوا ...
يفني الحباب وشيكا دون ما أثر

لقد عبر ديوانها الأول عن روح قوية متوثبة ولكن القلق والحيرة والتطلع المرهف تحيط بهذه الروح فلا تجد العزاء إلا فى الشعر . لقد واكبت الشاعرة ثورة الشعر الحديث فى مصر والعالم العربى بعد الحرب العالمية الثانية، واندفعت لتكون واحدة من أبرز شاعرات هذه المدرسة التى ازدهرت فى الخمسينيات والستينيات، ومازالت براكينها تدفع بموجات جديدة من الإبداع الشعرى فوق رقعة متسعة من التنوعات الشعرية والتيارات الهادرة والهامسة والتحولات. وأصبح اسم ملك عبدالعزيز مرتبطا بهذا الجيل الذى عرف بجيل الستينيات فى الشعر العربى الحديث ذلك أن ينبوعها الشعرى قد عاد للتدفق منذ مطلع الستينيات ليمثل موجة من موجات هذا النهر وتعاقب صدور دواوينها فصدر لها بعد أغانى الصبا ديوان «قال المساء» وتضمن شعرها فى الفترة من عام ١٩٥٩ وحتى عام ١٩٦٣، ثم ديوان «بحر الصمت» ويتضمن القصائد التى كتبتها من عام ١٩٦٤ وحتى عام ١٩٦٦ وبعض القصائد التى لم يتسع لها الديوان السابق قال المساء، ثم جاء ديوان «أن المس قلب الأشياء» ثم ديوان «أغنيات لليل» وأخيرا ديوانها الذى صدر قبل رحيلها بشهور وهو ديوان «شمس الخريف» ١٩٩٩ – لقد انخرطت الشاعرة ملك عبدالعزيز فى ممارسة التجارب الشعرية التى ملأت الأفق الستينى، وتبنت شعر التفعيلة بعد أن كانت قد راوحت فى المرحلة الأولى بين الشعر العمودى والشعر المقطعى وبعض الخروج على إيقاع «الخليل» التقليدى . ورغم أن الشاعرة

ظلت تبتهل إلى الطبيعة وتناجي البحر والمطر والنجوم إلا أنها التفتت إلى القضايا الوطنية والقومية وظهرت لذعة ندم وأسى تلون نبرتها الهامسة تقول فى قصيدتها قال المساء:

قال المساء : ما الذي صنعت فى نهارك الطويل
أسندت رأسك الثقيل للجدار
وغيمت فى عينك الوسنى مشاعل النهار
واحتضنت كفاك طفلك العليل
الحزن .. القى رأسه بصدرك الهزيل
أرضعته .
أرضعته دماك وهو لم يزل عليل
وكيف يربو وهو نبتة الظلال

- لقد حاولت الشاعرة أن تذوب فى عناصر الجمال الطبيعى والإنسانى توقا إلى الفرح والنشوة والحرية .. نلمح عنصر التحول فى شعرها عبر مراحل تجربتها المختلفة والشوق إلى أن تصبح كائنا آخر يتعالى على ما فى الواقع من قبح ودمامة وقيود . إنها تهفو إلى الجوهر الباقى من خلال محاولة الاقتراب من قلب الأشياء تقول:

- أن المس قلب الأشياء
أتغلغل فى لب الشجر الممتد الأفياء
أتمدد فى الخضرة
اتوهج فى الثمر العذب الإرواء
وأغوص بعمق البحر واشتف الانحاء
أتحلل فى اللؤلؤ فى أعشاب البحر الخضراء
أتحلل فى حضن النهر ..
قطيرات من ري وخصوبة
وأذوب عطاء وعذوبة
أن أسري في الزهر عطورا فواحه
في الأفق رياحا
فى قلب الطير لحونا وغناء
فى زبد البحر ضياء
لونا فى الشفق الذائب فى الآفاق
ألقا فى النور السابح فى الأحداق
نغما فى الموج رعودا فى الاعصار
ظلا فى الغيم رذاذا فى الأمطار
وهجا فى الصبح ندى فى قلب الأسحار

إن توق التحول إلى كائن يذوب فى الكائنات الأخرى يظل معبرا عن طبيعة هذه الشاعرة وعن روحها التى ترغب فى العطاء والتوحد بكل ما هو حقيقى وباق وصادق وجميل، بل إن هذه الرؤية رؤيا التحول شوقا إلى السمو وبحثا عن الحرية تتجلى فى ديوانها الأخير «شمس الخريف» حيث تهفو الشاعرة إلى الرحيل إلى عالم أصفى يمنحها كل ما افتقدته فى هذا العالم

الأرضى تقول فى قصيدة .. «الريح تعود» :

- حين رفضت حياتي الفانية
الإنسية
فى هذى الأرض الهمجية قلت
أتناسخ فى شجرة
تمد الجذر إلى الأعماق
ترشف ترشف ماء
يتسلل من قلب النيل المعطاء
يغذوها . نسغا نسغا
جذرا جذرا
تورق تضطرب نماء
يتألق زهر أحمر جمرا فى
أحضان الأغصان
يتوهج . يتكور ثمرا
يبدو يختبئ خلال الأوراق
يحلو تقطفه أيدى العشاق

ولكن الشاعرة تتململ من اختيارها فتقول:

لكنى فكرت وقلت
هل أبقى فى قيد الجذر
المغروس ببطن الأرض
مهما أشتد ومهما امتد
فليس يطير
فهو الوتد المقهور

ثم تحاول الشاعرة التناسخ فى الطير لكنها عادل وفكرت :

هل آمن أن يفلتنى الصياد
أو يطلقنى الشبك المشتد
الحرية لا تحلو للكلاب الصيد

ولا تجد الشاعرة خيرا من الريح لتتناسخ فيها بما تحمله من دلالات الحرية المطلقة والبعد عن قيود المادة، وكأنها فى الحقيقة قد اختارت عالم الروح الأسمى والأبقى .

فلأتناسخ فى الريح
تنطلق بلا حد أو قيد
تعبث برؤوس الأشجار
فى الصحو وفى الاعصار
تحدو السحب إلى الأمطار
لا يحبسها سهل أو حزن
تتغنى تهمس أو تعصف
وتنوح إذا اظمأها الوجد

- سوف تفتقد الحركة الشعرية والحياة الثقافية صوت الشاعرة ملك عبدالعزيز الهامس العميق المتميز بالأصالة والمتشح بالتسامح والكبرياء وسيظل العزاء فى هذا الشعر الجميل الذى جسد موهبتها وشخصيتها وتجربتها الكبيرة في الحياة والأدب على السواء، ويبقى عطر حضورها نفاذا يوقد فى الذكرى الحية كل المعانى الجميلة التى نذرت حياتها وشعرها لها، وهى الحب والحق والعدل والحرية. رحم الله ملك عبدالعزيز وأسكنها فسيح جناته.

رحيق الكتب ..

٥ سنوات في بيت من زجاج

تأليف :

د. بطرس غالى

« ٥ سنوات فى بيت من زجاج» هو آخر ما أفرزته قريحة الدكتور بطرس غالى، وهو كتاب يروى تجربته كأمين عام للأمم المتحدة، ومنذ السطور الأولى يصرح بوضوح أن «إعجابه بالولايات المتحدة الأمريكية لم ينقص مطلقاً»، رغم أنها استخدمت «الفيتو» لمنع إعادة إنتخابه كأمين عام.

وعندما يكتب الدكتور، فلابد أن ننتبه بشدة، فهو ليس شخصا عادياً، فمن ناحية لابد أن كتاباته ستتوخى الجدية العلمية بوصفه أستاذاً جامعياً لسنوات عديدة، ولاشك أن ذلك سيجعله يعرف ما يقول، ويقول ما يعرف، ومن ناحية أخرى فقد مارس الكتابة فى الصحف والمجلات وأشرف على إصدار واحدة من أهم الدوريات السياسية المصرية وهى مجلة السياسة الدولية، ثم أنه احتل موقعاً وزارياً مهماً فى فترة من أخطر فترات مصر فى العصر الحديث، وهو منصب وزير الدولة للشئون الخارجية، وذلك يعنى باختصار أننا أمام كتاب لا نملك ترف إهماله أو المرور عليه مرور الكرام.

لقد صور لنا الكتاب صراع بطرس غالى مع الإدارة الأمريكية تصويراً دramياً، بدت فيه العلاقة بينهما وكأنها «حب من طرف واحد»، فلم يفتأ الدكتور أن يذكر فى كل فصل بمدى ولائه وموالاته للغرب وخاصة الولايات المتحدة، فى الوقت الذى يصف فيه الاسلوب المهين والمزرى الذى كان يعامله به ممثلو هذه الدولة العظيمة وخاصة الشمطاء الحسناء مادلين أولبريت، كى يقنعها بجدوى بقائه فى منصبه كأمين عام للأمم المتحدة.

فى لقاء مع وارين كريستوفر (وزير الخارجية الأمريكى)، طلب الدكتور

منه أن يفسر له معارضة أمريكا لإستمراره كأمين عام، وذلك حتى «يفهم الأخطاء التى ارتكبها»، وقال للوزير: «أنت محام مرموق، فلماذا لا تتولى الدفاع عني لدى الرئيس كلينتون؟»، فأجابه «كريس»: «أنا محامى الرئيس ولست محاميك!».

ولم ييأس الدكتور، فقد أشار إلى الأمريكيين الكثيرين الذين عينهم فى وظائف فى الأمم المتحدة بناء على طلب واشنطن، وبالرغم من معارضة الدول الأخرى، أى أنه ساعد فى حل مشكلة البطالة فى أمريكا رغم أن تلك الدولة العظيمة لا تدفع ديونها للمنظمة الدولية، وفى الواقع هذا منطق لا غبار عليه، فمن قدم «السبت» لابد أن يكافأ يوم «الأحد»، والمشكلة أن الفلسفة الأمريكية لاتقبل بهذا المنطق، فليس فى قاموسها دفع ثمن بضائع تم تسليمها بالفعل!!.

وفى موقع آخر من الكتاب، يتجلى عشق الدكتور لأمريكا فى أروع صوره، حيث يصرح بأنه كان رئيساً لجمعية الصداقة المصرية/ السوفيتية، «وهو منصب سعيت إليه بالتحديد لأنى من أنصار أمريكا، ولم أكن أريد أن يذهب المنصب إلى شخص ربما يقوض السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط»..

ورغم هذا الغزل الصريح، إلا أن السيدة أولبريت لم تبادله نفس الشعور. كان الدكتور يعلم أن «جون بولتون» مساعد وزير الخارجية الأمريكى لشئون المنظمات الدولية على خلاف مع الأمين العام خافيير بيريز دى كويلار لشعوره بأنه لم يكن يراعى المصالح الأمريكية بالقدر اللازم، لذلك حرص الدكتور فى لقاء مع بولتون أن يؤكد له أنه: «يولى اعتباراً جاداً للسياسة الأمريكية».

يقول الدكتور – وقد فاض به – بعد فشل محاولاته المتكررة لإستمالة الإدارة الأمريكية أنه «استغرق الأمر بعض الوقت قبل أن يدرك تمام الإدراك أن الولايات المتحدة الأمريكية لا تؤمن كثيراً بالدبلوماسية، فالقوة تكفى. أن الضعفاء وحدهم يعتمدون على الدبلوماسية»، ومن عجب أن يدرك الدكتور هذه الحقيقة فى شيخوخته، رغم أنه كان فى مجال السياسة والقانون الدولى كأستاذ وصحفى ووزير، ولكن لا بأس، فلقد اكتشف «نيوتن» قوانين الجاذبية عندما رقد تحت شجرة تفاح وسقطت عليه تفاحة، وكان من الممكن أن تظل تلك القوانين وغيرها مجهولة لو كان حجر هو الذى سقط على

رحيق الكتب ..

رأس نيوتن وهشمه تهشيماً ولكن الله سلم، كما أن نيوتن لابد وأنه شاهد آلاف الأشياء تسقط دون أن تثير دهشته العلمية، وكان قدره مع سقوط تفاحة كي يخرج على البشرية باكتشافه العظيم، وبنفس القياس يمكن أن نعتبر أن الأمر تطلب من الدكتور/ بطرس سبعين عاما ونيفا، وأن يصطدم هو شخصياً مع الإدارة الأمريكية كي يدرك ما يدركه أي طالب في العلوم السياسية.

إلا أن هذا الاكتشاف الخطير لم يغير من مشاعر الدكتور حيال أمريكا، وهذه من مسائل القلوب والمكاشفات الروحانية، وقد تجد لها مكاناً في كتب علم النفس.

ويقول - نقلا عن السيدة أولبرايت - أنها قالت عنه: «أنه أضحوكة، وهدف للنكات»، وأنه «كرر مرة أخرى طلبه بإتاحة الفرصة للتحدث مع وزير الخارجية بصفة شخصية، غير أن كريستوفر رفض» و«قد حزت في نفسه الطريقة التي تكلم بها معه».

وفي موضع آخر يؤكد الدكتور «أن فرنسا وليست مصر هي التي تتخذ زمام المبادرة في الدفاع عني، وذلك بسبب خشية مصر من أن يكون لأية محاولة مباشرة منها تأثير معاكس على العلاقات الأمريكية مع مصر، التي تحصل على ثلاثة مليارات دولار أمريكي كمعونة أمريكية سنويا».

وفي عشاء خاص مع مادلين أولبرايت، قال لها: «انني أشاطر أمريكا في المثل والمبادىء التي تساندها، ولقد دفعت ثمنا سياسيا لذلك في الماضي، فبعد أن جرى تأميم قناة السويس بواسطة ناصر، وصفت بأنني مناصر لأمريكا، ولم يسمح لي بالسفر إلى الخارج».. إلا أن ذلك أيضا لم يستدر عطف السيدة العجوز التي سألته فجأة: «لماذا لا تتخلى عن هذا المنصب بكرامة؟؟»، فيتذكر سيادته أن مصر - التي تخشى تأييده بسبب المعونة الأمريكية - هي التي تريد بقاءه، فيقول: «كيف أستطيع أن أفعل شيئاً يتعارض مع ما يريده بلدي مصر، الذي يؤيد إعادة إنتخابي؟».. وذلك -

لعمرى - موقف وطنى فريد سيتأمله التاريخ طويلاً..

ويواصل الدكتور محاولاته المستميتة فى إقناع الإدارة الأمريكية بجدوى استمراره فى منصبه، حيث يحاول فى لقاء آخر مع السيدة أولبرايت أن يحذرها من «معاداة السامية» فى العالم العربى، ويحضر لها «مقالة فظيعة منشورة فى صحيفة الأهرام» تؤكد أن هناك إتجاها لمعاداة السامية، وهكذا لم يجد الدكتور ما يقدمه من حجج لإقناع هذه السيدة سوى أن يخوفها بمعاداة السامية فى العالم العربى، ولاأدرى متى كان العرب معادين للسامية، ومتى برأوا من هذا المرض حتى يعودوا مرة أخرى إلى تلك المعاداة؟؟.. ومن المؤكد أن الدكتور بقامته العلمية الرفيعة يعرف أكثر!!.

قد لانتفق مع تهور البعض الذين هاجموا هذا الكتاب وأشاروا إلى بطرس غالى الجد ودوره فى معاهدة ١٨٩٩ التى كانت السكين الذى قطع السودان من خريطة مصر، وكذلك دوره فى مأساة دنشواى، فحتى لو صحت إتهاماتهم، فليس من العدل أن يحاكم الأبناء على أخطاء الأجداد، كما أن هناك من تعرض لدور الحفيد فى العلاقات مع إسرائيل خاصة بعد زيارة السادات للقدس، تلك الزيارة وما تبعها من استقالة ثلاثة وزراء لخارجية مصر على التوالى، بينما ربض الدكتور فى موقعه حتى تبوأ أعلى منصب دولى، وأظن أن ذلك خروج على الموضوع، لأن الكتاب يتحدث عن دوره فى الأمم المتحدة، والأمانة العلمية تقتضى الإقتصار على قراءة ما جاء فيه.

ومع ذلك، لا أظن أن أحداً قد تعاطف مع الدكتور وهو يصور طلبه للحفاظ على منصبه رغم المعاملة الكريهة التى كانت تعامله بها الإدارة الأمريكية، وأياً كانت مبرراته الشخصية، خاصة حين تأتى هذه التصرفات من شخصية لها وزن وحجم وعمر الدكتور، فهو كما قال لأحد مساعديه - بحق - «حياته وراءه وليست أمامه»، كما أنه شبع مناصب رفيعة فى مصر.

وقبل أن أختتم هذه المقالة، أجد من واجبى أن أشير إلى خطأ فادح ما كان ينبغى أن يقع فيه الكاتب أو مؤسسة الأهرام القومية، ففى الصفحة رقم ٦٩، نشرت خريطة بها خطأ جسيم فى رسم حدود مصر الجنوبية، ولابد من تصحيح هذا الخطأ مع التنويه به فى طبعات الكتاب القادمة.

معصوم مرزوق

رحيق الكتب ..

أعاتب فيك عمرى

فاروق جويدة - دار غريب للطباعة



ديوان «أعاتب فيك عمرى» لفاروق جويدة يضيف الابتكار المبدع إلى الرصيد الذهبى للذاكرة الشعرية العربية . وقد يقول بعض الناس: إن قصائده التى تغلب عليها النزعة الرومانسية هى بألفاظ الشاعر: شىء معاد أو حلم معاد أو موت معاد . ولكن فاروق جويدة الذى مازال يعرف أن هذا الثوب قديم، يعرف جيدا أنه يشبه النيل القديم والوطن القديم والجرح المقيم . فهو لايطارد الجديد من أجل الجديد ، ولا يلهث وراء أحدث الأزياء ولا يعزل الشعر بعيداً عن الحياة والناس، فلا يعود الناس يقرأونه. ويقول فاروق جويدة عن نفسه إنه صرخة من زمان عريق . فهو ينشد بملء فمه وبأعلى صوته فى انطلاق وحرية، وكأنه ممثل لأمجد أيام الماضى القومى يطل من عليائها إلى تدهور الحاضر والزمن اللقيط وسطوة الجلاد والمزاد الذى يدق أعناق الشعوب. والشاعر يعلن مع حبيبته العصيان فى وجه الدمامة والسوقية والجدب والهوان . إن عناكب الكهان تنفث سمها، والأرض يحاصرها الجراد، وهناك الذين خرجوا يبيعون المصانع والمزارع والمساجد والكنائس والعباد، بعد أن انتهى زمن البراءة والترفع والعناد. فالشاعر ليس ذاتا متشظية بلا مركز أو تكامل تطفو فوق مياه الهامش الضحلة وتحيا أتفه التفاصيل كما نلتقى بها فى الكثير من الكتابات اليوم، بل هو نسر جامح محلق لا يستنيم إلى سلام الحمائم الداجنة، وهو جذوة حريق متقدة بعد أن خبا الحريق.

ولنقل إن رومانسية الشاعر فى ديوان «أعاتب فيك عمرى» لا تجتر القوالب الرسمية للرومانسية، فهى رومانسية شديدة التفرد والخصوصية ، لا تلوذ بالذات المنكفئة على نفسها ولا تهرب إلى عاطفية صارخة متورمة أو إلى خيالات غامضة بلا شكل . ونجد أن بستان ورد هذه الرومانسية الخاصة يحوى قنبلة فى موضع منه، كما تتفتح ذاتيتها الفاعلة على قضايا المصير الإنسانى فى الوطن العربى ، فهى

رومانسية تضرب جذورها فى خصوبة الأرض وأشواكها ، إنها ترفض النضال بالحناجر الصاخبة التى تبتلع الهواء ، والسنين الطويلة المنقضية بين أوسلو والولائم وموائد المفاوضات، وسكرة الدجالين فى حانة التطبيع، والعجز المهين للخروج من التاريخ وهرولة القطيع إلى حمى الأعداء.

ويثبت هذا الديوان أن النموذج الرومانسي لم ينكسر، فهو نموذج شديد المرونة قابل للتطور يحتفى بفاعلية الفرد الجسور وبعمق العاطفة وبالخيال الخلاق وبتلقائية الفكر والفعل والتعبير وبالحرية الإبداعية للوجدان والروح.

فالشاعر وهو يرد الاعتبار لرومانسية جديدة يقترف وهو المقتول بداء العشق جرم الإصرار على العشق، وينضم إلى العارفين الواصلين أصحاب الرؤى وهم نخبة نادرة ، فيكتشف السر المحجوب ويبوح به، سر الإيمان بالإنسان الذى يبلغ حد العشق وما يستتبعه من حلم بتناثر رماد الطغاة فى الفضاء، وباقتسام الأطفال قرص الشمس، وبثورة الوطن فى شمم وإباء، ولكن هذا السر الذائع يملأ الخانعين رعبا، ويجعل الشاعر مطرودا على الأبواب متهما من جانب الركب الذى ضل الطريق منكسرا بالذنب العظيم. ويشبه الشاعر نجما لا يخضع للمدار ويبدو فى تمرده كأنما ضل المسار وضاع، ولكنه سيكون أغنية على كل الشفاه لإيمانه بالإنسان وحب الإنسان. ومن الواضح أن لشاعر الحب صوته الفريد. فلن نجد فى الديوان ما ألفنا الالتقاء به فى قصائد الحب التقليدية من عبادة حسية لتفاصيل الجمال الجسدى الأنثوى، ومن اجترار لمسكوكات نعيم الوصل وآلام الهجر، ومن انحصار فى امرأة محدودة بعينيها وشفتيها. ولكننا سنلتقى بالحب بوصفه عاطفة صوفية عاتية نبيلة، ونزعة وجدانية محلقة وإن لم تكن منزوفة الدم . وتنبع قصائد الحب باتجاهها الانفعالى الروحانى الحار من القلب الإنسانى وتعود لتؤثر فى قلوب المتلقين وتضعها فى أسر الافتتان. وتلك القصائد لا تستند إلى مواقف قصصية بين الشاعر والحبيبة أو إلى حوار بينهما، بل تبنى على بوح ومناجاة، ونفثات عاطفية عميقة. وتتنوع الانفعالات وتتصاعد فى ذروة تتلوها ذروة ، وتبقى العلاقة بالحبيبة علاقة ذوبان وانصهار والتحام وتوحد.

فالشاعر كان قبل

رحيق الكتب ..

مجيء الحبيبة أو رجوعها من مجال الحلم إلى مجال التحقق رمادا منطفئا صامتا، والحبيبة الآن هى التى توقد فيه النيران ليصير بركانا متأججا. وعندما يتعانق شوقه وشوقها تنطمس حدود وجوده، وتتساقط أحلامه الزائفة قبل انصهارهما معا ليعودا طفلين ناضرى الامكانات والأمنيات.

وعلى خلاف الرومانسية التقليدية لا تكون قصائد الحب انغلاقا داخل علاقة الشاعر بالمرأة ففى الديوان تتحول المرأة إلى مبدأ كونى شامل يضم الحياة والجمال والحلم والمصير، ويصوغ الشاعر تلك المرأة أو المادة الوجدانية فى تشكيل متخيل. ففيها جنوح الموج حين يعانق الشطآن، وفى صوتها وتر إذا انطلقت بلابله يصير الكون أغنية، وهى تنساب كالأنهار فى صحراء العمر. لقد ظل يحلم بها من ألف عام. فالتراث الشعرى المتواتر منذ ألف عام يصنعها من أجمل وعود التحقق والسعادة، ويحلم بها الشاعر حلما يمتد إلى أحقاب سحيقة القدم. إنه يرسم لها صورة يرى فى وجهها كل الفصول. ففى هذا الوجه تتجلى الدراما الطبيعية لتعاقب الفصول وما تكشف عنه من اسقاطات تتسم بالمعانى الإنسانية المسبغة على كل فصل من الفصول. وبالاضافة إلى ذلك ترمز تلك الحبيبة للحقيقة متعددة الأوجه التى تعانق الشاعر كلما عصفت به وبنا الظلمات، كما يرى فيها نفسه: حنين الطير، إصرار الخيول ووداعة قطته البيضاء، وعلى شطآنها يلقى الرحال لذلك يمتزج بها، ويبنى لها عشا على العينين (مثلما فعل بول إلوار حينما يقول عن حبيبته إنها تقف على أهدابه)، ويسكنها ضلوع القلب وهو بالمثل يريد أن ينام على جفونها لكى يرى كل منهما العالم من خلال الآخر. فحدودهما متداخلة . وهما معا يواجهان فحيح الجلاد ووقع أقدام الطغاة.

والغنائية هنا ليست مقصورة على التعبير عن مشاعر متكلم مفرد على نحو ذاتى مغلق، فهى غنائية ذات مدى واسع وتنوع غزير؛ لأن التجربة فيها لا تقف عند تفاصيل جزئية لحياة شخصية، بل تتسع لأشواق وأحلام رمزية معممة. وتقوم هذه الغنائية بتطويع المفردات والتراكيب لتتلاءم مع طزاجة الانفعالات وشدتها ولكى تحقق اللغة فى الشعر عبقريتها الأصيلة، فهو شعر نقى مصفى من الشوائب وهناك القيم الموسيقية الماثلة فى تناغم المعانى وظلالها وتدرجاتها مع الأصوات التى تنقلها عناقيد الكلمات.

إبراهيم فتحى

العلمانية

بقلم: د. محمد عمارة

مصطلح «العلمانية»، هو الترجمة التي شاعت، بمصر والمشرق العربى، للكلمة الانجليزية SECULARISM بمعني الدنيوى، والواقعي، والعالمى .. ذلك لأن العلمانية هى نزعة فلسفية وفكرية وسياسية واجتماعية ترى العالم مكتفيا بذاته، تدبره الأسباب الذاتية المودعة فيه.. فالعالم والواقع والدنيا هى مرجعية التدبير للاجتماع الإنسانى والدولة والحياة، ومن ثم فإن الاجتماع والحياة والدولة ليست فى حاجة إلى مدبر من خارج هذا العالم ومن وراء هذه الطبيعة .. والإنسان مكتف بذاته، يدبر شئونه ويبدع قيمه ونظمه بواسطة العقل والتجربة، وليس فى حاجة إلى شريعة سماوية تحكم هذا التدبير.

رفاعة الطهطاوى



محمد على



عبدالرازق السنهورى



العلمانية

فالعلمانية - لذلك - تضبط بفتح العين، لأنها نسبة إلى العالم، أى الدنيا والواقع الدنيوى، فهى مصدر غير قياسى، إذ القياس فيها هو «العالمانية» - نسبة إلى العالم - وهناك فى المغرب العربى من يترجمها «بالدنيوية».

ولقد نشأت العلمانية - بأوربا - فى سياق النهضة الحديثة، وكانت من أبرز معالم فلسفة التنوير الوضعى الغربى، التى جابه بها فلاسفة عصر الأنوار - فى القرنين السابع عشر والثامن عشر - سلطة الكنيسة الكاثوليكية، بعد أن تجاوزت هذه الكنيسة الحدود التى رسمتها لها النصرانية، وهى خلاص الروح، ومملكة السماء، وترك ما لقيصر لقيصر، والاقتصار على ما لله .. لقد تجاوزت الكنيسة حدود رسالتها واختصاصاتها، فبعد عصور من سيادة نظرية «السيفين» Theory Of The Two Swords أى السيف الروحى - أو السلطة الدينية للكنيسة - والسيف الزمنى - أى السلطة المدنية للدولة - جمعت الكنيسة السلطتين معا، فضمت ما لقيصر إلى ما للكنيسة واللاهوت، فى ظل نظرية «السيف الواحد» Theory of one Sword.

وتحت حكم «الباباوات - الأباطرة»، أضفت الكنيسة قداسة الدين وثباته على المتغيرات الدنيوية والاجتماعية - أفكارا وعلوما ونظما - فرفضت وحرمت وجرمت كل مالا وجود له فى الأناجيل ، وبذلك دخلت أوربا عصورها المظلمة، الأمر الذى استنفر رد الفعل العلمانى ، الذى حرر الدنيا وثبتهامن كل علاقة لها بالدين. ففى مواجهة الكهنوت الكنسى الذى قدس الدنيا وجعل اللاهوت النصرانى - وهو خال من الفلسفات المنظمة للدولة والاجتماع - المرجع الوحيد للسياسة والعلم والدولة والاجتماع - فى مواجهة هذا الفعل ، جاء رد الفعل العلمانى لينزع كل قداسة عن كل شئون الدنيا ، وليحرر العالم من سلطان الدين ، وليعزل السماء عن الأرض، جاعلا العالم مكتفيا بذاته، والانسان مكتفيا بذاته، والاجتماع والدولة والنظم والفلسفات محكومة بالعقل والتجربة، دونما تدخل من الدين.

ولقد ساعدت الملابسات التى نشأت فيها العلمانية، وكذلك المواريث الدينية والفلسفية الغربية على هزيمة الكنيسة وتراجع اللاهوت النصرانى أمام النزعة العلمانية .

فلقد كان التخلف الأوربي شاهدا على فشل الحكم الكنسى الكهنوتى ... وكان موقف النصرانية ، الذى يدع ما لقيصر لقيصر ، ويقف بالكنيسة ولاهوتها عند خلاص الروح ومملكة السماء، سلاحا بيد العلمانية ضد اغتصاب الكنيسة للسلطة الزمنية .. وكانت الفلسفة اليونانية - وخاصة عند أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ق.م) - والتى رأت الذات الإلهية مجرد خالق ومحرك أول للكون، ترك تدبيره ورعايته للأسباب المادية المودعة فيه - أى أن العالم مكتف بتدبير ذاته ، لايحتاج إلى مدبر مفارق له - كانت هذه الملابسات الواقعية والمواريث الدينية والفلسفية - فى أوربا - عونا لانتصار العلمانية على الكنيسة وسلطانها ..

ولقد تميز، فى إطار فلاسفة العلمانية الأوربية تياران:

تيار مادى ملحد ، طمح إلى تحرير الحياة - كل الحياة - من الإيمان الدينى .. وكانت الماركسية أبرز إفرازات هذا التيار .. أما التيار الثانى، فهو مؤمن بوجود خالق للكون والإنسان ، لكنه يقف بنطاق عمل هذا الخالق عند مجرد الخلق، فيحرر الدولة والسياسة والاجتماع من سلطان الدين، مع بقاء الايمان الدينى علاقة خاصة وفردية بين الإنسان وبين الله .. ومن فلاسفة هذا التيار هوبز (Hobbes) ، (١٥٨٨ - ١٦٧٩م) ولوك Loke (١٦٣٢ - ١٧١٦م) وليبينز Leibniz (١٦٤٦ - ١٧١٦م) وروسو Rousseau (١٧١٢-١٧٧٨م) وليسينج Lessing (١٧٢٩ - ١٨٧١م) .

* * *

ولقد ظلت العلمانية خصوصية غربية حتى القرن التاسع عشر، عندما جاءت إلى بلادنا الاسلامية فى ركاب النفوذ الأجنبى والاستعمار الغربى الحديث .. وإذا كانت مصر - بحكم الموقع والسبق فى التطور، والاستقلال النسبى عن السلطان العثمانى منذ ولاية محمد على باشا (١١٨٤ - ١٢٦٥ هـ ١٧٧٠ - ١٨٤٩م) عليها سنة ١٨٠٥م - قد مثلت طليعة الأقاليم الشرقية فى التأثر بالفكر الأوربى - ومنه العلمانية - فلقد كان وفود العلمانية إليها نموذجا لتسللها من أوربا إلى بلاد الشرق الإسلامى فى ركاب النفوذ الأجنبى والاستعمار الحديث .

فبعد تحطيم النظام الحمائى - للصناعة والتجارة - الذى أقامه محمد على باشا فى مصر زاد نفوذ التجار الأجانب، ونشأت على عهد الخديو سعيد فى سنة ١٢٧٢ هـ - ١٨٥٥ م - أول محكمة تجارية مختلطة بين المصريين والأجانب «مجلس تجار» تسلل إليها القانون الوضعى الفرنسى.

ومع تزايد أعداد الجاليات الأجنبية ونفوذها - وخاصة بعد عقد اتفاقية حفر قناة السويس - نشأت «المحاكم القنصلية» لتقضى فى المنازعات الناشئة

العلمانية

بين المصريين وبين الأجانب، وقضاتها أجانب ، ولغتها أجنبية ، وقانونها، وضعي علماني .

ولما زادت فوضى «القضاء القنصلي» الذى توزعته سبع عشرة محكمة قنصلية - نظمت هذه الفوضى سنة ١٨٧٥م بإنشاء «المحاكم المختلطة» - وقضاتها أجانب، ولغتها فرنسية ، وشريعتها هى قانون نابليون..

وبعد أن كان هذا الاختراق - فى المحاكم القنصلية .. ثم المختلطة - مقصورا على المنازعات التى يكون أحد طرفيها أجنبى حدث تعميم لبلوى هذا الاختراق العلمانى فى كل «القضاء الأهلى» - أى فيما عدا المحاكم الشرعية، التى انحصر اختصاصها فى شئون الأسرة والأحوال الشخصية - وكان ذلك عقب استعمار الانجليز لمصر ، فيما سمى «بالإصلاح القضائي» سنة ١٨٨٣م.

ولقد استعان الغرب الاستعمارى بنفر من أبناء الأقلية المارونية ، الذين تربوا فى مدارس الإرساليات بلبنان، فى الدعوة إلى نموذجه الحضارى العلمانى .. فكان فرح أنطون (١٢٩١ - ١٣٤٠ هـ ١٨٧٤ - ١٩٢٢م) أول دعاة العلمانية فى بلادنا ..

ثم تخلق للعلمانية تيار فكرى بلغ ذروته فى كتاب الشيخ على عبد الرازق (١٣٠٥ - ١٣٨٦ هـ - ١٨٨٧ - ١٩٦٦م) عن «الإسلام وأصول الحكم» الذى صدر سنة ١٩٢٥م مصورا الإسلام - كالنصرانية - دينا لا دولة ، ورسالة لا حكما ، يدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله..

وفى مواجهة هذا التسلل العلمانى إلى بلادنا ، كانت مقاومة تيار الإحياء والتجديد الدينى لعلمنة القانون والنهضة .. فلقد رأى هذا التيار الإحيائى التجديدى فى العلمانية عدوانا على شمولية المنهاج الإسلامى لأنه دين ودولة، وجامع بين ما لقيصر وما لله .. ولأن نطاق عمل الذات الالهية - فى التصور الإسلامى - لا يقف عند مجرد الخلق، وإنما هو - سبحانه وتعالى - خالق ومدبر للعالم والاجتماع بواسطة الشرائع والرسالات (ألا له الخلق والأمر) الأعراف:٥٤ .

«قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين، لا شريك له» - الأنعام ١٦٢ - ١٦٣.

فكان رفاعة رافع الطهطاوى (١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ، ١٨٠١م، ١٨٧٣م) أول من

انتقد تسلل القانون التجارى لنابليون إلى المجالس التجارية فى الموانى التجارية، ودعا إلى تقنين فقه المعاملات الإسلامى «الوافى بتنظيم المنافع العمومية ، لأن بحر الشريعة الغراء لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها».

ونهض القانونى البارز محمد قدرى باشا (١٢٣٧ - ١٣٠٦ هـ، ١٨٢١ - ١٨٨٨م) وهو من تلامذة الطهطاوى بتقنين فقه معاملات المذهب الحنفى ، ليقدم البديل الاسلامى فى القانون، كجزء من الرفض والمقاومة للقانون الوضعى العلمانى.

ولقد عبر الإمام محمد عبده (١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ، ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) بلسان مدرسة الإحياء والتجديد الإسلامى - عن ضرورة إسلامية النهضة ، لأن الإسلام - على عكس النصرانية منهاج شامل «فهو كمال للشخص ، وألفة فى البيت ونظام للملك ، ولأن سبيل الدين لمريد الإصلاح فى المسلمين سبيل لا مندوحة عنها»..

ومنذ ذلك التاريخ ، ظل التدافع سجالا - فى واقعنا الفكرى والقانونى والسياسى- بين دعاة العلمنة لمشروعنا النهضوى وبين دعاة إسلامية هذا المشروع.

وعندما أعادت مصر صياغة قانونها المدنى، الذى وضعه الدكتور عبد الرازق السنهورى باشا (١٣١٣ - ١٣٩١ هـ، و١٨٩٥ - ١٩٧١م) والذى طبق عقب إلغاء الامتيازات الأجنبية سنة ١٩٤٨م، زادت فى هذا القانون مرجعية الشريعة الإسلامية عنها فى سابقه الذى وضع سنة ١٨٨٣م ..ولما وضعت مصر دستورها الجديد سنة ١٩٧١م نصت مادته الثانية على أن مبادىء الشريعة الإسلامية مصدر رئيسى للقوانين. وفى التعديد الذى تم الاستفتاء عليه لهذه المادة سنة ١٩٨٠م غدت الشريعة هى المصدر الرئيسى للقوانين، فانفتح بذلك الباب الدستورى أمام المشرع المصرى لأسلمة القانون، ولإجلاء العلمانية عن المواقع التى احتلتها فى بلادنا تحت نفوذ وحراب الاستعمار .

مراجع :

١ - (الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى) تحقيق ودراسة د. محمد عمارة طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.

٢ - (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) وتحقيق دراسة د. محمد عمارة طبعة دار الشروق القاهرة ١٩٩٣م.

٣ - (تقويم النيل) لأمين سامى باشا طبعة القاهرة ١٩٣٦م.

٤ - (عصر اسماعيل) لعبد الرحمن الرافعى طبعة القاهرة ١٩٤٨م .

٥ - (العلمانية بين الغرب والإسلام) للدكتور محمد عمارة طبعة دار الوفاء القاهرة ١٩٩٦م.

عالم الجوائز الأدبية
بين الإجحاف والإنصاف

بقلم: د . صالح جواد الكاظم

● ماهى جدوى الفوز في مسابقة أدبية ؟
ومـــا هـــو دور المحكميـــن ؟

يزداد عدد المسابقات الأدبية فى الولايات المتحدة الأمريكية ازديادا كبيرا كل عام ..

وتمتلىء الصحف والمجلات الأدبية كل فترة بإعلانات عن مسابقات تجريها مؤسسات وأفراد وفق شروط وبمكافآت مختلفة .

وبالرغم من الزيادة الكبيرة فى عدد المسابقات الأدبية بالولايات المتحدة وبخاصة فى السنوات الأخيرة ، لم تتحسن إمكانات الفوز ونشر المخطوطات الفائزة فيها . وبتعبير الشاعرة «مولى بيكوك» مازال هذا الفوز «ضربة مفاجئة» وهذا مصطلح مأخوذ أصلا من معجم للقمار يستخدمه المحكمون فى المسابقات .

وقد كتب الشاعر والناقد اللاذع «جيمز وولتر»، دراسة فى هذا الشأن بمجلة «شعراء وكتاب» الصادرة فى يوليو ١٩٩٩، وبعد مقابلات موسعة مع شعراء وكتاب ومحكمين من مختلف المستويات انتهى فيها إلى أن نشر الأدب الجاد لاسيما فى الولايات المتحدة الامريكية - لا سيما الشعر - مقيد بالمسابقات الأدبية..

ولا ينكر أن بضعة أشخاص فازت كتبهم بغير نفقات كبيرة ناجمة عن جهود التنافس . ومثال ذلك أن الشاعرة (ربيكا

رينولدز) التى فاز كتابها بجائزة مؤسسة (ثمار المطابع الجديدة) عام ١٩٩٧ ، لم تدخل إلا مسابقتين أو ثلاثا قبل أن تفوز بهذه الجائزة . ومن ثم فاز كتابها هذا بجائزة (نورما فاربر) عام ١٩٩٨ ، وهى الجائزة التى تمنحها (جمعية الشعر الأمريكية) لأفضل كتاب أول . ومع هذا، صرحت بأنها تمقت نظام المسابقات .

وكانت (سوزان ويلير)، التى فاز كتابها الأول فى مسابقة أجرتها دار نشر جامعة (جورجيا) عام ١٩٩٣ ، أدخلت مخطوطة كتابها فى (٨٨) مسابقة ، رشحتها أربع أو خمس منها لدور نهائى . وقد قالت : «لم أكن أحسب عدد المرات عندما أقدم مخطوطتى لأننى رأيت هذا مجرد غباوة» ثم أتيحت للشاعرة فرصة أكثر مؤاتاة لنشر كتابها الثانى، (أدخنة) عام ١٩٩٨، الذى فاز بجائزة (فور واى) قبل عامين .

ويرغم الآن على التنافس ضمن «ثقافة التنافس» حتى شعراء لهم مكانتهم السامقة . ومثال هؤلاء الشاعرة (نانسى شوبرينجر)، التى فاز كتاباها الشعريان المنشوران وهما : (فتاة فوق رواق أبيض)و (وطويل كما هو النهر) . { من منشورات جامعة نيويورك} ، فى مسابقتين عام ١٩٨٧ وعام ١٩٩٨ . وهى قلقة من أن العديد من دور النشر المعتمدة على الأموال التى تجمعها من أجور المشاركة فى مسابقاتها تتخلى عن تلك الممارسة المتميزة بعراقتها فى إقامة علاقات طويلة بالشعراء الذين تنشر آثارهم ، وفى تشجيعهم . وقالت :

«إنك تود أن تظن أنه سيوجد محرر أو دار نشر يهتمان بك فى الوقت الذى تنشر فيه كتابك الرابع ، ولكن من سلبيات المسابقات أن دور النشر لا تبقى الآن مع أديب » ..

أجور المحكمين

وصف بعض المشاركين فى المسابقات استخدام أجور المسابقة الواحدة بأنه مفرط أو غير ضرورى . وكانت أجور المشاركة فى المسابقة على الكتب تزداد ببطء فى السنوات القلائل الماضية ، ويبلغ معدلها الآن عشرين دولارا . وتستخدم دور النشر الصغيرة التى ترعى مسابقات القسم الأعظم من الموارد التى تجمعها من أجور المشاركات لتمويل نشر الكتب الفائزة . وإذا وجد أى فائض أعيد إلى دار النشر . ويستفاد مما ذكره (ريك كامبيل) ، الذى أدار جائزة دار نشر (انثينجا) منذ أن أصبح محررا لدار نشر (فلوريدا) الصغيرة للشعر عام ١٩٩٢ ، أن أجور المشاركات عادت بما يقرب من أحد عشر الف دولار ، وقد أنفق ما يقرب من سبعة آلاف دولار على إنتاج كتاب الفائز ، واستخدم الباقى ليدفع إلى الفائز بالجائزة، وليساعد على الإنفاق على بقية كتب الشعر التى تنشرها (انثينجا). ويتسلم (كامبيل) نفسه مرتبا سنويا كبيرا هو ألفا دولار مقابل كل ما يقوم به من أعمال بصفته محررا لهذه الدار .

وقد طالب بعض النقاد بإعادة أجور المشاركة عندما لا تمنح الجائزة لأية مخطوطة ، أى عندما لا يوجد أى فائز . ورأى آخرون أنه ليس من الإنصاف أن ترجع هذه الأجور ، جزئيا على الأقل ، حيثما كان من شأن ذلك المساعدة على استخدام الأجور للمساعدة على تمويل نشر الكتب الفائزة . أما الادعاء باحتمال أن يكون هذا غير ملائم للمنظمة الراعية فهو يبدو تذرعا واهيا للإبقاء على هذه

الأمـــوال أو حـــجـــزهـا لدى المنظمـــة بـلا مسوغ. منطقى أو مشروع .

ومن البـــداهـة ألا تكون لجـــمـــيـع المشاركين فى المسابقات مواهب متساوية أو مستويات ثقافية متقاربة . ولذلك ليس مـســتـغـربا أن تجيء المخطوطات التى يقدمها المشاركون متفاوتة ، مضمونا وأسلوبا وتأثيـرا . وليس بدعـا فى هذا (الماراثون الشـعـرى) ، أن تكون أعـداد كبيرة من النتاجات فى بعض المنافسات هابطة إلى حـد قـال مـعـه مدير إحدى المسـابقـات إن ربع المخطوطات المقـدمـة يتألف من «بطاقات تهنئة شعرية ، بعضها مطبـوع بحروف مضحكة أو مصحوب بصور رسمها أطفال المؤلف » . وقال مدير مسـابقـة أخرى إن من الجلى أن نصف أصحـاب المخطوطات لن يجعلوها مؤهلة للجولة الثـانيـة من التدقـيق ، واعـتـرف أحدهما بأن كل مسابقة تحتاج إلى هؤلاء المتشـاعرين من أجل الدعم المالى الذى توفره أجور مشاركاتهم .

أى شعر يكتب له الفوز ؟

من المخـاوف الكبـرى التى تتـملك المشاركين فى المسابقات الشعرية هو أن هذه عـبـارة عن تركـيـبـة . وليس من الضـرورى أن يختـار المحكمون أعـمال طلابهم ، بل يمكن القول بصورة عامة بأنه لا يفوز بالجوائز إلا نوع معين من الشعر. وقد كان هناك شبه اجماع فى الرأى بين المحكمين الذين قـابلهم (جيـمس وولتـر) مفاده أن الشعر الذى يفوز فى المسـابقات بالولايات المتـحدة اليوم متنوع من حيث الأسلوب والموضـوع تنوعـا لا يصـدق . ولكن الشـاعرة والمحكمة (بريندا هيلمان) وجـهت شـيـئـا من الاعـتـراض على هذا الإجمـاع، معربة عن قلقها من أن سلسلة واسعة من الشعر غير التقليدى لا يمثلها اختيار المحكمين الذى هو اختيار محافظ فى أغلب الأحيان .

وفى هذا المضمار ، يلقى سؤال هو : هل يجنح المحكمون إلى اختيـار العمل الشعرى الذى يشبـه أو يجانس عملهم أنفسـهم ؟ إن ثمـة إجمـاعـا على رفض الفكرة القـائلة بأن ذوق المحكمـين شىء يمكن التنبوء به استنادا إلى تكويناتهم أو مواقفهم أو أساليبهم .

وهنا أصرت (بريندا هيلمان) على أن المحكمين على مختلف مشاربهم قادرون على اتخاذ قرارات «مـحـايدة». ثم أكدت «إننى أملك حسـا جمـاليـا خـاصـا بى ولكننى أرنو إلى أن أقدر على رؤية العمل الشعرى من خـلال العديد من التـقـاليد الجمالية القائمة» ..

ويثـير الانتبـاه أن منافسـات الكتـاب الأول ، التـى أعلنت نتـائـجـهـا فـى مـجلة «شـعـراء وكـتـاب» خـلال العـام الفـائت ، جاءت بعدد من الأديبات أكبر بكثير من عدد الأدباء . وقد لاحظ (ريك كامبيل) أن دار(انشـينجـا) لم تتـسلم فـحـسب مـخطوطات من النساء أكثر مما تسلمت من الرجـال ، بل وجـدت أن عـمل النسـاء كان ، بصورة عامة ، يفضل عمل الرجال. ولم تفسر حتى الآن هذه الظاهرة الجديدة ، التى عـدتهـا (بريندا هيلمـان) تحـولا لمصلحة النسـاء .

المحكمون ومسار التحكيم

يؤكـد (جـيـمس وولتـر) أن مـعظم المسـابقـات التى حـقق فـيـهـا بذلت مسـتطاعـهـا لتـضـمن هدفين همـا عدالة الحكم، ثم اختلاف نوع الشعر الفائز من عام إلى آخر . ولم يبين معنى العدالة هنا أو مـعـاييرها ، وإن كـان هذا صـعـبـا بل

مستحيلا أحيانا . ولكن يبدو أن معيارا جزئيا طبق على معنى العدالة فى هذا الصدد . فقد قيل إن بقاء نفس المحكم فى عمله ثلاث سنوات متواليات لا ينصف المشاركين الذين يكررون تقديم مخطوطات بذاتها . وكانت دار (انثينجا) فعلت هذا في وقت مبكر من التسعينيات لكنها تخلت عنه فيما بعد .

وعن عمل المحكم نفسه ، للمرء أن يتساءل عما إذا كان للمحكم أن يمتنع عن تسمية أى فائز بالجائزة بعد كل مراحل التحكيم السابقة ، وبالرغم من مشاركة العشرات أو المئات فى المسابقة، ويقتضى المنطق أن تكون للمحكم سلطة تقديرية واسعة تشمل حتى الامتناع عن هذه التسمية إذا وجد من الأسباب الموضوعية ما يدفعه إلى هذا .

لكن يبدو أن الامتناع عن تسمية فائز لا يمر بمثل هذه السهولة والمنطق هنا ، بل يثير اعتراضا واضطرابا ملموسين ، وها أن (روك كامبيل) ، يقول إن كارثة حقيقية يمكن أن تحل بدار ترعى النشر عندما يمتنع محكم فيها عن تسمية فائز ما . واستشهد بما وقع لدار (انثينجا) فى أوائل التسعينيات ، حيث امتنع (دينيس ليفرتوف) عن تسمية فائز فى منافسة معينة أجرتها الدار . ووصف الامتناع بأنه كان «ضربة موجهة إلى سمعة الدار» مضيفا أن «المشاركات انخفضت ، وتلقينا شكاوى عنيفة إلى حد ما» . وفى واقعة مماثلة ، اتهمت الدار والمحكم معا بالعجرفة .

وفى عالمنا العربى ، حجبت مؤخرا جائزة ، وكان هذا الحجب موضوع ترحيب عام .

وبالرغم مما لقيه امتناع المحكمين من امتعاض واستنكار هنا ، وجدت أصوات تثنى على هؤلاء ، وتعد ما قاموا به محاولة للإبقاء على معايير الشعر الجمالية ، فى عالم مترهل جماليا . ولا ارتياب فى أن الدافع وراء الشكوى من هذا الامتناع مادى فى المقام الأول، لأن موقف المحكمين هذا يفضى إلى خفض المشاركات التى تؤلف الموارد الأساسية للمنظمات الراعية، ويحرم أعدادا من المشاركين فرصة الحصول على جوائز كانت موضع آمالهم ، سواء عن طريق المصادفة أو ضربة الحظ أو «اليانصيب الشعرى» إن صح التعبير .

بين التنافس والإنصاف

تصدر دور النشر تعليمات بشأن الجوائز التى تمنحها للفائزين فى المسابقات الأدبية التى تجريها . وتحرم المخطوطات التى تخرق هذه التعليمات من حق المشاركة فى المسابقة، ومن هذه التعليمات ما يتعلق بإخفاء أسماء المشاركين فى المسابقة . والمفترض أن الغاية من هذا الإخفاء هى حماية حق كل مشارك فى أن يعامل بإنصاف ، أى دون تأثر بأى اعتبار غير موضوعى . ولكن المفترض، مبدئيا ، أن يكون المحكّمون على حد من النزاهة والحيدة والإنصاف بحيث لا تكون بهم حاجة إلى إخفاء أسماء المشاركين ، شأنهم فى ذلك شأن قضاة المحاكم القانونية .

وفى التطبيق العملى ، تختلف المواقف من مسألة إخفاء الأسماء . فقد قال (ريك كامبيل) إن المخطوطات التى تخرق تعليمات جائزة (انثينجا) لا تؤهل للمشاركة فى المباراة ، وأشارت (رودس) من دار (فور واى) إلى أنها لم تتحمس قط لحرمان مخطوطة من حق المشاركة .

وقالت «إننا نعد تعليماتنا مجرد إرشادات للعمل، وما يعتبر قاعدة ملزمة مسألة تتعلق بحكم عقلي عام» . ولكنها أكدت أنها لا تؤهل مخطوطة للفوز إذا عرف اسم كاتبها.

ولكن ماذا يفعل المحكّمون إذا تعرفوا على اسم المشارك بطريقة ما ، وماذا عليهم أن يفعلوا ؟ لقد قيل إن مثل هذا النوع من المواقف حالة نادرة ، ولاسيما عندما يحكم على المخطوطات غفلا ، ولكنها حالة يمكن أن تقع . والحقيقة أن مديرى المسابقات لم يطلبوا من المحكمين أن يحرموا أية مخطوطة من المسابقة إذا حدث مثل هذا الوضع . ويمكننا الاستنتاج مما صرح به بعض المحكمين بأن مواقف هؤلاء كانت تتسم بالمرونة والتيسير بصورة عامة ، إذ لم يتخذوا من هذه الحالة ذريعة لحجب حق المشاركة بالمسابقة عن الذين انكشفت هوياتهم لهم..

وهكذا قالت (بريندا هيلمان) : «أستطيع أن أقول لك إن من بين الكتب الستة التى اخترتها فى المسابقات، لم أكن أعرف من مؤلفيها إلا مؤلفة واحدة كنت قد رأيت مخطوطتها من قبل . ومازلت أعتقد بأننى فعلت الشيء الصحيح بالتأكيد» ..

واعترفت (مولى بيكوك) بأنها اختارت عملا كانت تعرفه من قبل . وقالت : «إنك تختار أحيانا عملا تعرفه، وتصيبك معاناة أو شعور بالألم شديد، ثم تكون فرحا جدا لأن مدققين وجدوا قبلك» .

وخليق بنا أن نستذكر ما قاله (جيمس وولتر) فى الأثر الفعلى لإخفاء الأسماء، وهو «إنه ليس واضحا ما إذا كان فرض غفلية مطلقة على المخطوطات يضمن عملا - لا قولا فحسب - أن يكون الحكم فى المنافسة منصفاً» ..

ويبدو أن جو الشك هذا أضعف الثقة بفاعلية الغفلية ، فلم يرها البعض ضمانة بذاتها للحيدة فى المسابقات . ولذا لم تجد (أكاديمية الشعراء الأمريكيين) حرجا فى أن تزود المدقق الخارجي والمحكم النهائى بقائمة كاملة لأسماء الشعراء المتقدمين إلى المسابقة وعناوينهم، ولا غرابة أن تعلن (جمعية كاليفورنيا الشعرية) طلبا لقصائد، واشترطت أن تضم هذه اسم المشارك وعنوانه على جميع صفحات المخطوطة التى يقدمها .

الفائزون وعوائد بيع الكتب

إن عدد نسخ الطبعة الأولى من الكتاب الفائز منخفض إلى حد ما ، إذ يتراوح بين خمسمائة نسخة وألف وخمسمائة نسخة ، أما المعدل فيبلغ الف نسخة ويزداد هذا العدد عندما يوزع الذين يرعون المنافسة نسخا على غير الفائزين وعلى أعضاء الدار . وتنشر بعض الدور الراعية الكتاب الفائز بغلاف ورقي، وبغلاف سميك وإن كانت الطبعة بهذا الغلاف محدودة جدا . ويتسلم الشاعر الفائز عشر نسخ مجانا من كتابه. وله أن يشترى أى عدد من النسخ بتخفيض لسعر الكتاب قدره أربعون بالمائة .

ويرسل رعاة بعض المنافسات على الكتاب الأول ، من أمثال جائزة (ماى سوينسن) وجائزة (ت . س . اليوت)، نسخا من الكتب الفائزة إلى كل شخص شارك فى مسابقة ذلك العام. وترسل نسخة مجلدة من الكتاب الفائز بجائزة (والت ويتمان) ، إلى كل عضو من

(أكاديمية الشعراء الأمريكيين)، ولكن ليس إلى المتنافسين غير الأعضاء . وقد قيل إن إعطاء غير الفائزين نسخا من الكتاب الفائز ربما يحقق بعض ألمهم . لدفعهم أجر المشاركة دون مقابل ..

حصيلة الفوز ..

لامرية فى أن الفوز بمسابقة - وطبع كتاب - يمكن أن يكونا نعمة على حياة الشاعر المهنية . وقالت (جاكو بيك)، الفائزة بجائزة (جونيبير)، «إن هذا يحدث فرقا كبيرا من الناحية النفسية، فأنا أشعر بأنى أكثر ثقة بنفسى لأن لى كتابا. وهذا خلق جمهورا لعملى ، ومن الأكيد أننى منحت العديد من القراءات الإضافية، والآن تقع أشياء لم تقع من قبل .. وها أنذا أحصل على طلبات لعملى من محررين» ..

إن تجارب الفائزين وأوجه إفادتهم من الفوز، تتفاوت إلى حد كبير .. وهكذا تعتنى بعض المنظمات الراعية اعتناء فائقا جدا بالفائزين فى مسابقاتها فتقيم احتفالات للجوائز ، وتقدم إلى المؤلفين نسخا من مراجعات كتبهم ، وتدخل الكتب الفائزة فى مسابقات الكتب المنشورة فى السنة الماضية ، وتهيىء قراءات من هذه الكتب، وتساعد فى حالات نادرة على تسديد بعض نفقات السفر للقيام بأنشطة ترويحية للكتب الفائزة . وهذا ما تفعله (فور واى) .

إلا أن منظمات راعية أخرى تقتصر إفادتها على دفع جائزة نقدية ، وقد توزع نسخا للمراجعة . ومثلما توجد فروق بين مبالغ النقود التى تحملها مختلف الجوائز، ثمة فروق بين السرعات التى تصل بها صكوك المبالغ، إذ هى بين شهر وستة أشهر بعد الإعلان عن الفوز . كذلك تتفاوت المدد بين إعلان أسماء الفائزين ونشر كتبهم .

هذا وقد رأت (ميشيل وولف) ، - الفائزة بجائزة أنثينجا عام ١٩٩٧ عن كتابها (محادثات خلال النوم) ، - كتابها هذا مطبوعا بعد خمسة أشهر فقط من علمها بالفوز بالمسابقة . ولكن هذه سرعة استثنائية . والأغلب أن ينتظر الفائزون سنة أو ثمانية عشر شهرا أو فترة أطول قبل أن يروا كتبهم مطبوعة .

وتتراوح المبالغ النقدية لجوائز الكتاب الأول بين خمسمائة دولار وخمسة آلاف دولار . ولكن معظمها يتراوح بين ألف دولار وألفى دولار . (وجدير بالذكر أن جائزة الشعراء الشباب التى تمنحها جامعة (ييل) وهى واحدة من أعلى الجوائز مكانة ، لا تقدم أى مبلغ نقدى) .. وبين المنافسات التى تقدم مكافآت نقدية إلى المحكمين ، تتراوح معظم المبالغ التكريمية بين مائة وخمسين دولارا، وألف وخمسمائة دولار . وفى القليل من الحالات يصل المبلغ التكريمى إلى حد أقصاه ألفان وخمسمائة دولار . ويتسلم مدققو الجولة الثانية مبلغا أقل من هذا . أما مدققو الجولة الأولى فيتسلمون مبلغا زهيدا هو دولاران للمخطوطة الواحدة ، إذا ما دفع اليهم شيء ما .

ويمكن الاستنتاج من هذه الأرقام التقديرية أن ما من أحد من المديرين أو المحكمين أو المدققين أو الفائزين لا يحصل على جوائز ضخمة تحقق له ثروة كبيرة . وثمة شعور بمحنة الشعراء بل تعاطف عميق وإياهم .●

أدركت أن حرب المال لا تقل حدة وقسوة عن حرب الجيوش

أحمد أبو زيد

أن يولد طفل في مـــصــــر وفي الإسكندرية بالذات في أوائل العشرينات، وترى الثلاثينات من القرن الماضي (القرن العشرين) نشأته الأولى وصباه بل وشبابه المبكر معناه أن ينشأ هذا الطفل في جو مليء بالحركة والأحداث السريعة المتلاحقة على المستويين السياسي والوطني وأن يرى منذ الصغر، حتى وإن لم يكن يدرك الأبعاد الاجتماعية لما يراه، كيف تتداخل وتتفاعل هذه الأحداث مع حركة السكان أنفسهم الذين كانوا يؤلفون وحدة عضوية متكاملة ومتماسكة رغم ما بينهم من فوارق عرقية ولغوية ودينية .

وذلك إذا استثنينا بعض عناصر الأرستقراطية التركية والدبلوماسية الأجنبية و (الشوام) الذين رأوا أن يربطوا أنفسهم وحياتهم ومستقبلهم بتلك الفئات الغريبة والمنعزلة عن بقية فئات الشعب بما في ذلك أعداد هائلة من الأجانب الذين ارتبطوا عاطفيا وليس فقط اقتصاديا بالمدينة وأهلها الأصليين وكانوا يعتبرون أنفسهم (أولاد بلد) إلى حد كبير حتى وإن حاولوا التظاهر بغير ذلك . وكان خليقا بهذا التداخل والتفاعل بين السكان الأصليين من مسلمين وأقباط ويهود مع تلك الجاليات الأجنبية التي عاشت عشرات السنين في الاسكندرية أن يدفعا مثل هذا الطفل إلي أن يدرك حين تتقدم به السن وتتفتح مداركه معنى التسامح القائم على الاحترام المتبادل رغم الاختلافات بين الناس ، بل وأن يعتقد أن


د. أحمد أبو زيد

هذا التسامح هو الشكل الطبيعي للعلاقات إلى أن تتدخل المصالح الاقتصادية أو الانتماءات الحزبية أو الاتجاهات السياسية فتفسد الأمور وتؤدى إلى الشقاق والعداء .

الصبا والحركة الوطنية

كانت هذه الفترة التي شهدت مولدى أنا شخصيا ونشأتي ومرحلة الصبا زاخرة وغنية بأحداثها السياسية وبالحركة الوطنية التي تفجرت في مصر كلها بعد الحرب العالمية الأولى وثورة ١٩١٩ والمطالبة بالحياة النيابية السليمة الصحيحة وصدور دستور ١٩٢٣ وسيطرة حزب الوفد على مشاعر الأمة والجماهير العريضة وتزايد العداء نحو الانجليز . ومع أننى لم أكن بطبيعة الحال أدرك معنى أى شيء من ذلك إلا أننى أذكر جيدا أن عائلتى سيطر عليها ذات يوم وبدون سبب واضح لى على الأقل حزن عميق عرفت بعد ذلك أنه بسبب موت زعيم الأمة سعد زغلول الذى كان اسمه يتردد على كل لسان حتى على ألسنة الأطفال الصغار ويبلغ من تعلق الناس به أنهم كانوا يطلقون اسمه الكامل (سعد زغلول) على مواليدهم الجدد. وقد كانت عائلتى وفدية صميمة مثل الغالبية العظمى من العائلات في ذلك الحين لأن الوفد كان هو الذى يحمل آمال الأمة بالاستقلال ومستقبل باهر .

وقد ظلت العائلة متمسكة بوفديتها حتى بعد سلسلة الانشقاقات التى تعرض لها ذلك الحزب لأن الوفد كان يقف موقف المناوأة الصريحة من الانجليز وبالتالى من نفوذ الأجانب فى مصر مما كان يتفق مع أهواء العائلة ويوافق مصالحها الخاصة . فقد كان الوالد من رجال الأعمال المشتغلين فى حقل استيراد الفحم الذى كانت تعتمد عليه السكك الحديدية فى تسيير قاطراتها وكان يدخل بحكم العمل أو (التخصص) فى صراعات ونزاعات طويلة ومريرة مع عدد من رجال الأعمال الأجانب الذين يعملون فى ذلك المجال وهى صراعات ومنازعات كانت تقود بالضرورة إلى المحاكم المختلطة حيث لم يكن المصرى يجد العدالة الموضوعية.

ولكننى أذكر أن والدى كان قد أقسم على أن يحارب أحد كبار المستوردين من

اليهود البلجيكيين حتى تفلس شركته ويغلق مكتبه وأن يطارده حتى يترك مصر إن أمكن ، وقد استمر عرض النزاع سنوات طويلة على المحاكم المختلطة ثم تدخل القضاء المصرى بعد معاهدة ١٩٣٦ وإلغاء الامتيازات الأجنبية . وعلى أى حال فإن قيام الحرب العالمية الثانية أعفى والدى من ذلك القسم إذ آثرت عائلة ذلك اليهودى أن تهرب من مصر إلى جنوب أفريقيا حين اقتربت الحرب من أبواب مصر الغربية نتيجة لتقدم قوات روميل وانتصاراته فى أول الأمر .

ولقد شاهدت بذلك مدى عمق العداوة وضراوة الصراع الذى قد ينشب بين رجال الأعمال حين تتصادم المصالح وأدركت أن حرب المال لا تقل حدة وقسوة عن حرب الجيوش المتقاتلة ، إذ رغم اختلاف الوسائل والأساليب وأدوات القتال فإن الهدف النهائى هو (القتل) سواء أكان ذلك قتلا جسمانيا فيزيقيا أو معنويا أو اقتصاديا وأن الحرب أيا كان نوعها ومبرراتها لن تنتهى إلا بقتل أحد الطرفين أو هروبه أو استسلامه والهروب والاستسلام نوعان من الموت على أى حال، وقد ترسب ذلك فى ضميرى وأعتقد أنه كان أحد الأسباب التى صرفتنى عما كان الوالد يريده لى من أن أتولى أعماله الضخمة من بعده .

نشأتي في المدينة العريقة

كانت نشأتى فى أحد أحياء الاسكندرية القديمة العريقة القريبة من الميناء بحكم عمل الوالد وهو حى القبارى الذى كان يقوم فى ذلك الحين قرب نهاية الطرف الغربى للمدينة حيث كانت تبدأ الصحراء بعده بكيلومترات قليلة ، وذلك قبل أن تمتد المدينة وتتسع وتتشعب وتتحول مناطق واسعة ومترامية من تلك الصحراء إلى مناطق سكنية مأهولة وكثيفة الزحام بشكل يثير الأسى والفزع . وكانت المنطقة التى تقيم فيها العائلة داخل ذلك الحى لها طابع خاص فقدته بمرور الزمن وزيادة السكان وهجرة أهلها الأصليين . فقد كانت منطقة شبه مغلقة لا تضم سوى اثنين وثلاثين بيتا كبيرا ذات ارتفاع واحد (ثلاثة طوابق) ويملك كل بيت منها عائلة واحدة كبيرة ينتمى أعضاؤها إلى ثلاثة أجيال فى الأغلب ولكن كل أسرة من أسرات هذه العائلة كانت تنفرد فى الأغلب بمسكنها الخاص وحياتها الخاصة المستقلة أيضا .

وكانت البيوت موزعة فى مربعات يضم كل مربع منها أربعة بيوت وتمتد المربعات على جانبى شارع فسيح بحيث تقوم أربعة مربعات تضم ستة عشر بيتا على كل جانب من جانبى ذلك الشارع الممتد من الشمال إلى الجنوب كما كانت تفصل المربعات بعضها عن بعض شوارع عرضية تمتد من الشرق إلى الغرب،

وكانت المنطقة معروفة باسم (التيرو) نظرا لقربها من ميدان رماية وصيد الحمام الذى كان يمارسه بعض أمراء وأرستقراطيي ذلك العصر، فقد كان يقوم فى ميدان الصيد بقايا قصر قديم متهدم يقال إن الذى بناه هو والى مصر سعيد باشا وكان يفصل هذه المنطقة عن بقية الحى ثلاثة شوارع رئيسية واسعة وفسيحة حتى تتحمل حركة النقل والمواصلات ثم تأتى بعدها إما مساكن بقية سكان الحى وإما بعض المخازن الضخمة وإما الحقول الممتدة تجاه الجنوب والتى كانت تزود الحى كله وبعض الأحياء الأخرى باحتياجاتها من الخضراوات والفاكهة (الموالح والموز) .

كانت هذه منطقة سكنية بكل معانى الكلمة وهو ما نفتقده الآن فى كل المدن المصرية . فلم يكن بها سوى محلين اثنين للبقالة لسد احتياجات السكان الضرورية، أما بقية أنواع النشاط التجارى والصناعى والخدمات وحتى المقاهى فكانت كلها على الجانب البعيد من الشوارع الرئيسية الثلاثة التى تحيط بهذه المنطقة على أساس أن الطرف الرابع للمنطقة كانت تحده الحقول والمزارع . وكانت بعض البيوت تعرض وحدات قليلة منها (شقق) للإيجار لأن البيت أكبر من أن يشغله أفراد العائلة ، وبذلك أقامت فى المنطقة ثلاث أو أربع عائلات قبطية وعائلة واحدة يهودية كانت تقيم فى بيت فى الطرف الجنوبى الملاصق للمزارع ، وعائلتان يونانيتان كان رجالهما يعملون فى بعض الشركات وبخاصة شركة النور وشركة المياه وبعض شركات الاستيراد أو تصدير القطن . وهذا التنوع هو الذى أعطانى منذ الصغر الإحساس بوحدة (السكان) وتآلفهم رغم اختلاف الدين والعرق واللغة، فكان أطفال العائلات جميعا يلعبون معا وكانت السيدات يتزاورن بينما كان الرجال يمضون جزءا من أمسياتهم فى المقاهى وبخاصة مقهى كان يملكه أحد اليونانيين من خارج المنطقة ولكنه يسكن فى منطقة أخرى فى نفس الحى . ولم تكن تعبيرات مثل (الوحدة الوطنية) التى تتردد على كل لسان هذه الأيام معروفة حينذاك وان كانت مطبقة تطبيقا عمليا بطريقة تلقائية سليمة .

أسرتي ذات تركيب غريب

كانت الأسرة التى أنتمى إليها داخل العائلة الكبيرة أسرة ذات تركيب غريب يبدو متنافرا لأول وهلة وإن كان هناك فى واقع الأمر تكامل قوى وفريد . وقد بدا هذا التنافر الظاهرى فى اختلاف الاتجاهات والاهتمامات بل وفى الأصول العرقية الأولى ، فقد كانت الأسرة تنتمى من ناحية الأب إلى أصول مغربية وصعيدية، والروايات كثيرة ومتضاربة حول الأجداد أو الأسلاف الأوائل الذين قدموا من المغرب وأقاموا لبعض الوقت

فى تونس وليبيا حتى وصلوا إلى الإسكندرية وأقاموا فيها واشتغلوا بالتجارة وانتقل بعضهم إلى الصعيد وإلى الفيوم . أما على جانب الأم فإن الأسرة كانت تنتمى إلى أصول تركية تدور حولها هى الأخرى بعض القصص والأساطير التى لا أعرف مدى نصيبها من الصدق والتى يبدو أن بعضها تم صنعه من وحى الخيال لإشباع الكبرياء وتوكيد الذات ، ولكن المؤكد أن بعض الأجداد من ناحية الأم ومنهم جدى المباشر كانوا من رجال الدين بل إن جدى والد أمي كان شيخا أزهريا (مستنيرا) على ما سنرى . وهكذا اجتمعت في الأسرة المباشرة أو العائلة الصغيرة النواة - حسب التعبير الأنثربولوجي - الثقافة الدينية مع الخبرة الاقتصادية أو المالية العملية المستمدة من التعامل مع السوق على نطاق واسع . ولست أعرف تماما كيف (اجتمع الشامى مع المغربى) كما يقول المثل السكندرى ، والشامى هنا هو العرق التركى، وإن كان هناك ما يدل على أن علاقات المصاهرة قديمة وأن الوالد يمت بصلة قرابة ما إلى الوالدة من ناحية الأجداد . والمهم هو أن الجو الذى نشأت فيه كان يجمع بين الثقافة الدينية الروحية بكل أعماقها والميول والتعاملات الاقتصادية المادية العملية دون أن يكون هناك تناقض واضح ودون أن يؤدى ذلك إلى أى نوع من التشتت أو التمزق العائلى ومع ذلك فإن تأثير الثقافة الشرقية التركية والإسلامية كان قويا وظاهرا بوضوح في كثير من نواحي الحياة اليومية العادية ابتداء من تأثيث المنزل بالأرائك والسجاد والمرايا المذهبة الضخمة إلى (التصاوير) على الجدران والتى كانت تمثل أهم وأشهر مساجد اسطنبول وملامحها الفيزيقية إلى الشمعدانات والثريات و (الفازات) المصنوعة مما كان يطلق عليه اسم (الزجاج التركي) إلى لوحات الآيات القرآنية بخطوطها الجميلة وذلك إلى جانب مكتبة دينية وتراثية إسلامية كبيرة انتقلت من الجد إلى الأم ثم كانت من نصيبى بعد ذلك . وكان الجد للأم كما ذكرت شيخا أزهريا مستنيرا عرفت فى مكتبته كتب التاريخ والفقه والأدب إلى جانب كتاب الحيوان للجاحظ والحيوان للدميرى بالإضافة إلى المجموعة الكاملة للأغانى ثم كتاب ألف ليلة وليلة (الطبعة الكاملة الأصلية) إلى جانب غزليات ابن أبى ربيعة وخمريات ومجونيات أبى نواس وذلك فضلا عن عدد كبير جدا من الكتب المترجمة فى مختلف فنون المعرفة . ويضاف إلى هذه الثروة الذهنية والعقلية الهائلة ثروة فنية لا تقل روعة وتتمثل فى عدد كبير من الأسطوانات الغنائية والموسيقية وبعضها - وهو ما قد يبدو غريبا - كان فى الموسيقى الكلاسيكية

الغربية وبالذات العزف على البيانو ، وقد كان الجد نفسه كما أخبرتنى الوالدة يعزف على العود وعلى الكمان .

الجمع بين الشرق والغرب

ولكن وسط هذا الجو المشبع بروح الشرق والإسلام كانت الحياة الغربية تجد لها مكانا فسيحا وإن لم يكن له فى نفسى أنا على الأقل نفس الدرجة من التأثير . فقد كان البيت يستقبل أعدادا كبيرة من الشوام و (الخواجات) من رجال الأعمال وبخاصة فى الليل حين تتردد اللغات الأجنبية ، وبخاصة الإيطالية واليونانية إلى جانب (الرطانة) بالعربية المصرية ، وقد عرفت معاملات هؤلاء (الخواجات) وكان هناك بعض التفكير فى إرسالى إلى إحدى المدارس الفرنسية أو إلى معهد دون بوسكو الإيطالى حتى يمكن إعدادى منذ الصغر للدخول إلى جو المعاملات التجارية والمالية ، ولكن كان القرار النهائى - الصائب من وجهة نظرى - هو إرسالى إلى إحدى المدارس المصرية (الحكومية) حيث كانت المدارس الحكومية فى ذلك الوقت تتمتع بالمكانة المحترمة والسمعة الطيبة وتتفوق فى ذلك على التعليم الخاص . وليس من شك فى أن الوالدة لعبت دورا كبيرا فى الوصول إلى هذا القرار المناسب خاصة أننى فى المرحلة المبكرة كنت أتلقى تعليمى فى إحدى المدارس الأولية التى تعنى باللغة العربية وتحفيظ جانب كبير من القرآن الكريم إلى جانب الحساب . كما لعب دورا مهما فى ذلك القرار بعض المحامين المصريين من أصدقاء الوالد وقد تولى بعضهم الوزارة فيما بعد مثل أحمد مرسى بدر (باشا) وعبد الفتاح الطويل (باشا) .

وكان يسيطر على جو البيت والأسرة شيء من الالتزام الأقرب إلى الصرامة وذلك بفضل شخصية الأم الجميلة المهيبة التى تجمع بين الطيبة والحزم ، وشخصية الأب رجل الأعمال الملتزم إلى أبعد حدود الالتزام ، وليس من شك فى أن تأثير الوالدة كان أقوى وأعمق فى نفسى ، لأنها كانت تعنى بكل صغيرة وكبيرة تتعلق بحياتى وحياة إخوتى ، وعلى أى حال فقد كنت ثانى إخوة وأخوات ستة ولذا حظيت بجانب كبير جدا من عنايتها قبل أن يأتى الأربعة التالون لى . وأذكر أنها كانت تهتم اهتماما كبيرا للغاية باختيار ملابسى ، ولست أذكر على سبيل المثال أننى لبست طوال حياتى وحتى الآن قميصا ملونا فقد كانت تحرص على أن يكون قميصى دائما ومنذ الصغر من اللون الأبيض وأن تكون البدلة دائما من اللون الرمادى بدرجاته المختلفة ثم بعد ذلك من اللون الكحلى الذى يبرز (بياض) ونظافة القميص ولم ألبس اللون البنى بدرجاته المختلفة إلا فى المدرسة الثانوية حين أتيحت لى بعض

الحرية وحتى أجارى زملائى من الشباب ، بل إنها كانت تحرص على أن تضع فى جيب سترتى العلوى منديلا أبيض اللون تظهر أطرافه من الجيب ولا تزال هذه عادتى حتى الآن وإن كانت أطراف المنديل أصبحت الآن أكثر بروزا إلى جانب تعدد الألوان ، ولم تسمح لى بأن أرتدى البنطلون الطويل إلا بعد أن بلغت الرابعة عشرة وأنا فى المدرسة الثانوية ، فالصورة المثالية للتلميذ فى نظرها هى أن يكون أنيقا ونظيفا وأن يكون بنطلونه قصيرا (فوق الركبة) وهكذا ، ومع التزامى حتى الآن بما تعودت عليه منذ الصغر فيما يتعلق بالألوان فإننى لم أستطع تطبيقها على أولادى ربما لأن أم أولادى ليست تركية وإن لم تقل عن أمى فى اهتمامها بملابس الأولاد وملابسها هى أيضا بدون شك .

الشارع وتأثيره في حياتي

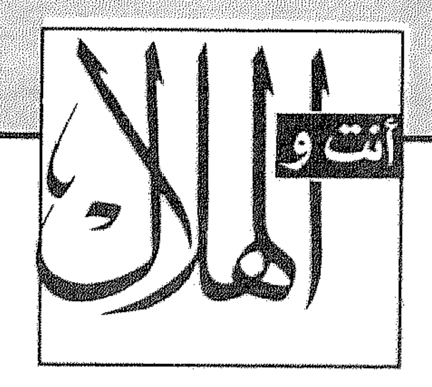
كان للشارع دخل كبير فى تربيتى وتنشئتى ولكن بطريقته الخاصة . فقد كان أطفال هذه المنطقة السكنية المحدودة يتجمعون معا للعب فى الشوارع النظيفة المرصوفة رصفا جيدا والتى لا تكاد تدخلها أى وسيلة للانتقال إلا فى النادر جدا وبذلك كانت العائلات تأمن على أولادها ، ولم يكن اللعب يخرج عن إحدى إثنتين : إما لعب الكرة وإما لعب (البلى) الملون . ولست أذكر أن لعب الكرة اجتذبنى إليه أبدا ، وحتى الآن لا أكاد أتابع المباريات حتى الدولية منها ربما نظرا للصخب الشديد الذى يلازمها وما قد ينشأ عنها أحيانا من عنف وكنت دائما أعتبرها لعبة (غوغائية) . ومع ذلك فإن لعب الكرة فى الشارع فى المنطقة التى كنا نعيش فيها لم يكن يثير كثيرا من الضجة أو الضوضاء وربما لأن اللاعبين فى العادة كانوا هم جمهور المشاهدين . أما لعب البلى فقد استهوانى تماما وكنت أنفق على شرائه معظم نقودى القليلة ، ولم يكن يصاحب اللعب أية ضوضاء ، فهى لعبة تحتاج إلى الهدوء والتركيز بل وفيها درجة لا بأس بها من (الذوق) الرفيع فى التعامل .. وكنت أمضى ساعات طويلة فى البيت وأنا أحصى ما عندى من بلى وأقوم بترتيبه وتصنيفه حسب الحجم واللون وتناسق الألوان بل وأصنع منه أحيانا لوحات جميلة ، وقد ساعدنى ذلك على نمو الرغبة فى الانفراد بالذات بعيدا عن الآخرين دون أن أشعر بالضجر أو السأم ، وكان ذلك مفيدا لى فيما بعد إذ أستطيع أن أنقطع عن الآخرين وأنفرد بنفسى مع الكتب ومع الموسيقى لأوقات طويلة جدا . فقد استبدلت بالبلى القراءة وسماع الموسيقى.

ومن بين أطفال المنطقة استطاعت مجموعة صغيرة أن تميز نفسها منذ الصغر بحب القراءة ، وكانت البداية مجلة

أسبوعية للأطفال اسمها (مجلة الأولاد) تصدر كل خميس وثمنها خمسة مليمات ، وكنا نتناولها معاً . ثم ارتقت أذواقنا ومداركنا بعض الشيء وعرفنا على الجانب الآخر من الشوارع الرئيسية ثلاث أو أربع (مكتبات) لبيع الجرائد والمجلات و (تأجير) الكتب نظير قرش واحد للكتاب الواحد لمدة أسبوع كامل ، وكان من السهل أن يستعير كل فتى منا أحد الكتب ثم نتداول فيما بيننا تلك الكتب كلها وبذلك يقرأ كل منا أربعة أو خمسة كتب على الأقل كل أسبوع نظير قرش واحد ، وتطورت قراءاتنا إلى كتب المنفلوطي الذي لعب دورا كبيرا في تنشئة أجيال كاملة على حب القراءة والأدب ويحتاج دوره إلى التسجيل والتقويم بما يستحق من عناية ، ثم جاءت الروايات العالمية المترجمة وبخاصة سلسلة (مسامرات شهرزاد) و (روايات الجيب) وهكذا . وحين دخلت إلى مدرسة رأس التين الابتدائية كانت لدى حصيلة هائلة – بالنسبة لسنّي – من القراءة في الأدب العربي والآداب الأجنبية المترجمة ، وقد لازمتني عادة الاستعارة بهذه الطريقة لعدة سنوات .

وفي الشارع أيضا عرفت فن التمثيل المسرحي ، وكانت للاسكندرية فرق مسرحية خاصة بها مثل فرقة المسيري وفرقة خميس سكر وفرقة مصطفى حمام وكانت تعرض من حين لآخر مسرحياتها في الحي في أرض فضاء واسعة على الجانب الآخر من أحد الشوارع الرئيسية المحيطة بالمنطقة التي أسكنها ، وكانت تقدم عروضا خاصة للأطفال في الصباح إلى جانب عروض الأراجوز وغيرها ، وقد ظهر من بيننا أطفال وفتيان لا يزيد عمر أكبرهم على عشر سنوات أرادوا محاكاة هذه الفرق ، وتكونت من بيننا فرقة تمثيل كنت أحد أفرادها ، وظهر أيضا من بيننا من تصور في نفسه القدرة على التأليف أو الإخراج ، وكنا نقدم عروضنا فوق سطح أحد المنازل مستخدمين حبال الغسيل وملاءات السرير لتكون بمثابة ستار المسرح ، وبعض المناضد لتكون بمثابة خشبة المسرح ، وكانت الأمهات يباركن ذلك بل وأحيانا يحضرن العرض ، وقد نمت عندي رغبة التمثيل وأشبعتها إلى حد كبير في فرق التمثيل في المدرسة الابتدائية والثانوية وحتى الجامعة .

وإذا كانت أسرتي اتخذت قرار إرسالي إلى مدرسة رأس التين وإذا كنت وجدت في مكتبة جدي كتب التراث والقراءات الجادة فإن الشارع هو الذي هيأني بطريق مباشر لتنمية قدراتي على التركيز والانفراد بالذات وتنويع القراءات وإشباع هوايتي للتمثيل وللفن وكلها ظهرت بوضوح بعد التحاقي بالمدرسة الابتدائية التي تمثل مرحلة مهمة في حياتي .



مسلسل أم كلثوم بين الايجاب والسلب

أعجبني مقال د. جلال أمين المنشور بعدد فبراير ٢٠٠٠ من مجلة الهلال «أم كلثوم في الحقيقة والمسلسل التليفزيوني» لما يحويه من نقد صادق

١ - فبالنسبة لنجاح المسلسل رغم الضعف الشديد في عنصر الدراما .. فهذا يثبت أن هناك عنصرا أكثر أهمية، وهو عنصر الصدق، فالعمل الفني ينجح في الغالب إذا كان يغلفه الصدق من الداخل، ولا ينجح أو لا يستمر إذا اعتمد فقط على عنصر الدراما والأحداث المفتعلة، أما إذا اعتمد على العنصرين فقد اكتمل العمل وهو ما لا يحدث إلا نادرا .

٢ - وبالنسبة للتركيز على الجانب الايجابي في شخصية أم كلثوم دون إبراز الجانب السلبي منها.. فهو أيضا سمة من سمات أفلامنا العربية.

٣ - برغم إتقان دوري كل من القصبجي والسنباطي في المسلسل.. فإنه لم يقدم لنا الحقيقة كاملة .. فالقصبجي لم يكن متجهما طوال الوقت، فهو فنان حقيقي والفنان لا يمكن أن يكون هكذا دائما، كذلك السنباطي فهو لم يكن سلسا لهذا الحد الذي ظهر به في المسلسل، فقد كان كما يقال «منطويا» ولقد ابتعد هو الآخر عن أم كلثوم حينا من الوقت ليثبت أن ألحانه هي الأقوى.

عادل شافعي الخطيب
عضو اتحاد الكتاب

توافـــق

ما ضرّ أن تبني قصورا من غسق
متسللا
بين انحناءات المسالك والبشر
وتحاور الطير المعاند والسماء
وجدائل الليل المضمّخ بالزهور
تلقي ستورا فوق نافذة القمر
وتطرّز القصص الذي انهمرت به
سُحُب الشتاء العابرة

فوق الوسائد والمقاعد والصور
قبل النسيء وقبل طوفان الحجر
ومن الممالك قد جلبت السندباد
ومطهّمات تستمد من الشفق
لون تقادم فى الدهور
لون تقاطر فى شقوق الأرض
فى صخر الألم

***

ما ضرّ لو أكرمت من سقطت خطاه من الزمن
واستدبرته موائد الأفلاك فى سوق المحن
حلس تمزّق أو كفن
وشَرابه صبر أسن
ونزاعه بين المجرّة والحُفرَ
ينهى التضاد توافقا
بين الرفاة الغابتات زهور صبّار بدم
قتل العدم

د. حسنة عبدالحكيم عبد الله
كلية بنات عين شمس

تعقيب حول مقال للدكتور رجب البيومى

قرأت فى مقال الدكتور محمد رجب البيومى المنشور بمجلتكم الموقرة عدد فبراير ٢٠٠٠ مقالا بعنوان «مناقشة هادفة.. تحرير المرأة بين محمد عبده وقاسم أمين» وقد لفت نظرى ما كتبه الدكتور البيومى فى صفحة ٢٩.

ويدور المقال كله على أن محمد عبده قد كتب مقالات فى كتاب تحرير المرأة، ومن مراجع الكاتب التى اعتمد عليها ما كتبته الدكتورة درية شفيق بنت أحمد شفيق باشا فى كتابها «تطور النهضة النسائية فى مصر .. إلخ».

وأشير إلى أن والد السيدة درية شفيق كان يعمل مهندسا فى طنطا، وهو من أسرة متوسطة الحال ، ونقل بعدها إلى المنصورة ومنها إلى الاسكندرية ، وليس أحمد شفيق باشا ولا يمت له بأية صلة قرابة..

محمد إبراهيم عامر
طنطا

بابا الفاتيكان ولماذا لم يزر العراق؟

كتبتم فى عدد يناير ٢٠٠٠ من الهلال فى موضوع «إبراهيم الخليل أبو الأنبياء» بأن بابا الفاتيكان سيقوم برحلة هى الأولى من نوعها، يبدأها بزيارة أور فى العراق، ومنها يسير فى رحلة على خطى سيدنا إبراهيم عليه السلام، ذلكم أبو الأنبياء قدر الله نشأته فى مدينة أور على الضفة الغربية من نهر الفرات جنوبى العراق..

كان من المقرر أن يسير البابا فى رحلته على خطى سيدنا إبراهيم، ولكنه أتى لزيارة مصر، ثم ذهب إلى عمان ومنها إلى فلسطين، فلماذا لم يبدأ زيارته من العراق التى ولد بها سيدنا إبراهيم؟

خالد يحيي نويشي
المهندسين - الجيزة

الهلال:

لقد كنا أول من كتب عن رحلة البابا هذه، لكن الضغوط الأمريكية وللأسف الشديد - نجحت فى منع البابا من زيارة العراق.

المـوانىء

فِى انْحدار الموجِ للمَوْج وفقدان الشواطىء
يُصبح الريح المناوئ
فرصة الإفلات بالحلم من الأرض الموات
فالدلالات التى قد جاوزت حد التجلد
تشرع الكفين ميقاتا يوافيه، حنو العمر يبقيه
شموسا فى مدارات من الضوء المفاجىء
وخفوت الذكريات
والصبابات التى قد أورقت دون ارتعاشات التهجد
فى ضجيج الأمسيات
لم تعد تشفى غليلا
فالصبابات انشطار
ينحنى فى دفئه نصف إلى نصف مناوىء
يرتجى منه القبولا
أى حلم يمتطى الضوء الجميلا
ترتوى منه الشطوط المقفرات

ترتضي فيه انفلاتات الموانىء
رجفة الوجد انتشاء بالشخوص المبحرات
تلتقى حينا وتبعد
دونما الافصاح عن شىء محدد

مدحت قاسم
القاهرة

نشر الثقافة

احتلت مجلة الهلال حينما أصدرها جرجى زيدان عام ١٨٩٢ مكان الريادة والصدارة في الوطن العربى كمجلة أدبية علمية جامعة أخذت على عاتقها نشر الثقافة الحديثة من أدب وعلم لتقدم للناطقين بالضاد خدمة ثقافية رفيعة.

ثم صارت دار الهلال أكبر دار نشر فى العالم العربى حينما توسعت فى نشاطها عندما تولى زمام إدارتها ابناه أميل وشكرى زيدان - بعد وفاته عام ١٩١٤ - خاصة بعد أن عززت إصداراتها من مجلات يجىء فى مقدمتها : المصور، والكواكب والاثنين والدنيا، والفكاهة، وإن كانت الأخيرتان قد توقفتا عن الصدور منذ وقت طويل .

وقد تنوعت توجهات هذه المجلات لكى تغطى مجالات ومناحى شتى من مجالات ومناحى الحياة، وأثرى نشاط «الهلال» أن تولى إدارتها بعض كبار المفكرين فى مصر والعالم العربى من بعد جرجى زيدان وولديه ، وعلى رأسهم العالم الدكتور أحمد زكى وسلامة موسى

وقد كان لإصدار دار الهلال «كتاب الهلال»، وسلسلة «روايات الهلال» أفضل الأثر :

كل هذا كوّن وجدان الطبقة المثقفة فى مصر والعالم العربى منذ مطلع القرن العشرين، كما اجتذب إلى القراءة الكثير من المتعلمين ووسع دائرتهم.

ومازالت دار الهلال تقوم بواجبها جاهدة لنشر الوعى الثقافى وتشجيع القراءة مع ما استجد من نشاط مزدهر فى وقتنا الراهن لنشر الثقافة الرفيعة متمثلاً فى «مهرجان الثقافة للجميع»، رغم ما حدث من انحسار وقتى فى أعداد القراء واتجاههم إلى أنماط التسلية الرخيصة من ڤيديو وكاسيت.

ويا حبذا لو تتبنى «دار الهلال» إعادة نشر روائع الأعمال الأدبية التى سبق أن نشرتها فى سلسلة «روايات الهلال» لكبار الأدباء المصريين والعالميين ومن أبرزها عيون الأدب الروسى والفرنسى - بقدر ما يمكن - ليتمشى هذا جنباً إلى جنب مع نشر الأعمال الأدبية للناشئين المحدثين .

يحيى محمود حسين
جامعة حلوان

نحو تفسير قرآني معقول

فى مقاله (نحو تفسير قرآنى متفق عليه) والمنشور فى الهلال عدد مارس الماضى تحدث الدكتور محمد رجب البيومى حديثاً شاملاً وبين ضرورة وأهمية وجود تفسير جديد على الطريقة التقليدية من خلال لجنة علمية، تتولى ذلك لصعوبة وجود عالم واحد يمتلك الأدوات والشروط الواجبة فى المفسر كما أنه أشار إلى إتجاه حديث عن التفسير الموضوعى.. وأشار أيضاً إلى وجوب (أن يكون المنطوق صريحاً دون اعتساف فى التأويل فلا نجر الآية جراً إلى معنى لا تسفر عنه بلسان مبين...) وهذا الكلام واضح وجيد وجدير بالأخذ به فى كثير من الآراء التى فسر بها بعض المفسرين مثل ما حدث فى تفسير الآية الكريمة (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ... الآية) فقد فسروا أو زعموا أن الأسرى فى هذه الآية هم أسرى معركة بدر وأن القرآن نزل موافقا لرأى عمر بن الخطاب فى قتلهم ومعاتباً النبى صلى الله عليه وسلم لموافقته رأى أبى بكر فى أخذ الفداء منهم وأنهما أى النبى وأبو بكر جلسا يبكيان ويقولان لو نزل من السماء عقاب لما نجا منه غير ابن الخطاب، ولذلك يجب أن يضاف إلى ما يقول به الدكتور البيومى هدف آخر هو تنقية هذه التفاسير أيضاً مما شابها من أمور يرفضها العقل لأن هذا التفسير للآية لا يمكن أن يصح للأسباب الآتية :

أولاً : أنه من الثابت تاريخياً ودينياً أن المسلمين خرجوا من المدينة بقيادة النبى صلى الله عليه وسلم ونيتهم الوحيدة هى أسر أبى سفيان والعير التى تحمل عروض التجارة بدليل قوله تعالى : (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ... الآية)، فلما نزل جبريل وأخبر النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أن ذات الشوكة أو النفير فى طريقها إليهم قام صلى الله عليه وآله وسلم بتحويل اتجاه الركب من طريق البحر الأحمر إلى ماء بدر فاعترض بعض المسلمين ومنهم عمر قائلين (نحن لم نلبس عدة الحرب) وبناء عليه فالعتاب الذى فى الآية (ما كان لنبى أن يكون له أسرى...) موجه إلى جميع الذين قالوا (لم نلبس عدة الحرب) ولم يكن النبى من بينهم والأسرى المشار إليهم هم أبو سفيان والعير وليسوا أسرى المعركة التى تمت بين المسلمين وبين النفير أو ذات الشوكة.

ثانياً: أن المواجهة بين المسلمين وبين ذات الشوكة أو النفير تمت بوحى من الله عز وجل لاستئصال شوكة المشركين لأن المسلمين لو أسروا أبا سفيان والعير التى معه لاستطاع المشركون أن يخلصوهم من أيدى المسلمين بل ويكثروا القتل فى المسلمين لضعف موقفهم وحرصهم على الغنائم وكانوا سيولون الأدبار ويصبح موقف المشركين هو الأقوى.

ثالثاً : صرف التفسير بأن المقصود من الأسرى فى الآية الكريمة بأنهم أسرى المعركة لا يتناسب مع منطوق القرآن الكريم الذى صرح بأنه لا يصح أن يكون لنبى أسرى حتى يثخن فى الأرض، والنبى صلى الله عليه وسلم أثخن فى الأرض فعلا وقتل أكثر من سبعين من صناديد الشرك ويستحيل أن يكون المقصود فى الآية بالاثخان فى الأرض هو قتل الأسرى بعد المعركة والروايات التى وردت فى أسباب نزول الآية (ما كان لنبى أن يكون له أسرى...) كلها روايات واهنة يعتريها الشك فى صحتها ودونت فى عصر قلق أمسكت فيه الدولة بأرزاق الناس فكتبوا على هواها وأما الاشادة بالإمام محمد عبده فى مقال الدكتور البيومى فهى إشادة فى محلها.

نبيل عبد الرحمن دريك
موجه عام التربية الاجتماعية سابقا

ترانيم الخشوع

النور يسبح فى فضاء الله يطـ
ـلق فى البراح سنا شروق يهتف
ران الخشوع على الورى إذ راح ينـ
ـشد هائما حول المدار وينعف
أنداء ربى فى المدى فيضا تلا
لأ سمتها فوق الروابى ترشف
حتى الظلال تعانقت حول الشذى
تغشى الوجود بحسنها وترفرف
من كل صوب تأتنا أطياف فجـ
ـر فى النهى والشرك أضحى ينزف
يا أيها الإشراق مرحى فالقنا
ديل انزوت – من فيض نورك – ترجف
هذى السباع على التلال تضرعت
والليل أمسى ، بين هدء يزحف ؟!
والطير راح مغرداً بين الحقو
ل يرتل الألحان ، يشدو، يعزف
والشمس ألقت الأنام بشائراً
تنساب عرسا – فى المعالى – تعطف
سبحان مولج سر ماء فى الثرى
يحنو على الجدباء مزنا يجرف
ما لى سواك مناجياً عند الحتو
ف فأنت وحدك – بالدياجى – تعصف

عبد الناصر أحمد الجوهرى
نادى أدب المنصورة

لقاء

نشـرت الورد من حـولك
وكـنـت لـنـا ريـاحـين

فـهب العطرُ من أجلك
أريج العطر من حـبك

وحـبك دائم يسـرى
كـمثل الدم فى الشريان

وفى أحـشـائى يجـرى
والأنهـار يا عـمرى

رسـمـتك وردة للروح
وأهتف حين القـاكى

تنفس من شـذى العطر
أحـبك أنت يا عـمرى

أعـيش الليل فى سُـهـد
واهتف حين إصـبـاحى

أفـكـر فـى ثـنـايـاك
وأرقص حين لُقـيـاكى

فـهـذا الضـوء من ثغـرك
وقلبى دائمـا يبكى

وهذا الليل من شـعـرك
يخـاف علىّ من سـحـرك

أنا المجنون فـانعـينى
ألا تبكى حـبـيـبـاً ضَل
وداعـا حـتى ألقـاكى

أنا المفـقـود فـابكينى
فى أسـرى المحـبين
تـودعك شـرايينى

أحمد نادى عبدالرحمن بهلول
أسيوط - ديروط
المندرة بحرى

●● ردود سريعة للأصدقاء ..

●● د. أحمد عبدالحافظ عبدالباقى : منيا القمح - شرقية : شكرا لك على اقتراحاتك .. لكن نود منك أن تكتب لنا عن فكرة واحدة من هذه الأفكار التى تقدمها لنا شهريا .

●● عصام الدين محمد أحمد - بولاق الدكرور - القاهرة : قصتك «غيوم» على عكس ما نشرناه لك من قبل ، فهى مليئة بالألفاظ العامية، والفكرة غير واضحة ، نتمنى لك حظا أوفر فى المرات القادمة.

●● شاكر صبرى محمد السيد - دمياط - كفر سعد - كفر سليمان .. وصلتنا مجموعة من أشعارك أذكر لك منها بعض الأبيات فى قصيدتك «أنا بشر» تقول :

أنا بشر على دنياك لا أسطع ‌ ‌ ‌ أنا الحيران فى عينيك مستودع

ولكنى ندرت لنفسى الأهـواك　　كي أضـــــــنى وكى أركـــــع

....

أنا للحب موكول　　ومتروك لحرمانى

هل هذا شعر يا صديقى.. نرجو الاهتمام بالشعر مثل اهتمامك فى دراستك الخاصة بالوراثة !.

●● علاء العوانى - طنطا - سيجر

شعرك يحتاج إلى جهد كبير ، تتعرف فيه على قواعد هذا الفن وأصوله الصحيحة فلا يمكن أن نعتبر هذا الكلام شعرا :

كنت والآلام على الطـــــــاولة

والطبيب «يتسائل» عن كبير العائلة

تلاشـــــــــــــــــت الآلام

والجســـــد توســـط القافـــلة

ما هذا أيها الصديق ؟!..

●● رمضان إبراهيم بشير إبراهيم - قنا - أبو دياب شرق .

«ستظل لى وأظل لك» تحتاج إلى دراسة طويلة وقراءات دءوبة فى مجال الشعر، ليتحقق لك ما تصبو إليه.

●● صلاح جميل سعد - غزة - الزيتون : نشكرك على رسالتك الرقيقة التى تتناول فيها كتاب الهلال بالتقدير والإعزاز ، ونرجو أن يتواصل الحوار بيننا ويصلنا منك مادة يمكن نشرها فى الهلال .. ويخصك رئيس التحرير بالشكر على التحية الخاصة به كما أن الناقد مصطفى درويش يفكر جديا فى نشر مقالاته الجادة بالهلال فى كتاب عما قريب بإذن الله .

●● سليمان سحاب المحمودى - ليبيا - طرابلس : قصتك «حالة قلق» ، تحتاج منك إلى قراءة متأنية ، لضبط الأخطاء النحوية بها، وكذلك تسلسل الأحداث وخاتمة القصة .. ونشكر لك هذا الاهتمام الخاص بالهلال ، وفى انتظار إنتاجك الأدبى .

●● عاصم فريد برقوقى : الاسكندرية - جليم - صديقنا الدائم والذى نتمنى أن نحقق له فكرته التى طرحناها من قبل فى هذا الباب.. فكرة عيد «الضحك» وعلى الرغم من أنها فكرة «ضاحكة» إلا أننا نتمنى فعلا أن تتحقق، وبخصوص قصتك التى تتحدث عنها فنرجو أن ترسل لنا واحدة أخرى تصلح للنشر .

الكلمة الأخيرة

علم اسمه الميمياء

بقلم : د. أحمد مستجير

فى كتابه الخطير «الجين الأنانى » الذى ظهرت أولى طبعاته عام ١٩٧٦ ، جادل ريتشارد دوكينز بأن الكثير من قضايا علم الوراثة والتطور يمكن أن يفسر إذا نحن عالجناه من وجهة نظر الجين . (والجين هو وحدة الوراثة ، وهو مصنوع من مادة اسمها الدنا) . فالكائن الحى ليس إلا وسيلة الدنا لصناعة دنا جديد . اقترح دوكينز فى نهاية كتابه هذا أن هناك وحدات للثقافة تسمي الميمات ، تسلك سلوك الجينات ، فهى الأخرى «أنانية» ، تنتشر وتتكاثر لمصلحتها هى ، وبقوانينها الخاصة ، بغض النظر عما قد تقدمه من فوائد لحامليها، أى أن طالب العلم فى هذا المفهوم هو «وسيلة المكتبة لصناعة مكتبة أخرى » ، كما قال دانييل دينيت ، أهم الفلاسفة الذين أخذوا فكرة الميم مأخذ الجد . الميم إذن هو النظير الثقافى للجين ، هو الذى يلعب دور الجين فى نقل الكلمات والأفكار والعقائد والفنون واللغات والسلوك .هو حزمة من المعلومات يمكن أن تنتقل من إنسان إلى آخر. وهو ليس وحدة مادية فيزيقية كالجين ، فليس له ما للجين من مخطط يحدد طريقة التناسخ والتكاثر ، إنما هو خصيصة تميز العقل البشرى - فأنت لن تجد الميمات إذا قمت بتشريح المخ البشرى ، تماما مثلما لن تجد الروح إذا أنت شرّحت الجسد البشرى .

ولأن الميمات كالجينات أنانية لا تهتم إلا بتخليد نفسها ، فقد وجهت الانتخاب الطبيعى - من خلال الجينات - إلى تأكيد حجم كبير للمخ ، وتطوير اللغة والدين والانتخاب الجنسي والإيثار والتمدن ، فهى تتباين ، وهى تنتشر بقدر نجاحها فى التكاثر فى بيئتها ، أى بمعدل القدر الذى به تحاكى. فإذا تعلم الطفل بملاحظته أمه كيف يقشر ثمرة الموز ، قلنا إن الميم قد تكاثر . أما العملية التى تجعل التطور الميميائى ممكنا فهى القدرة على المحاكاة فالميم هو وحدة المحاكاة.

يتميز الانسان من بين كل الحيوانات بقدرته الفائقة على ألتقليد والمحاكاة ، فهو يستطيع ببساطة أن ينقل عن زملائه الأفكار والعادات والمهارات والسلوكيات والابتكارات ، والأغانى والقصص والنكات . وكل هذه ميمات ، تكاثر نفسها ، وتتنافس فيما بينها لتدخل أكبر عدد من الأدمغة . ومن هذا التنافس تشكلت عقولنا وخصائصنا مثلما شكل الانتخاب الطبيعى أجسادنا فلماذا تشيع مثلاً ظاهرة الإيثار بيننا ؟ شاعت لأن من يحاكى سلوك الناس الطيبين أكثر ممن يحاكى سلوك الأشرار ، ومن ثم كان لميم الإيثار فرصة أكبر للتكاثر .

إننا إذن صنيعة الميمات ، نحن مجرد ماكينات ميمية ، كما تقول سوزان بلاكمور فى كتابها «ماكينة الميم » الصادر عام ١٩٩٩ . الميمات - لا نحن - هى القوة المحركة فى عالمنا كما تؤكد بلاكمور الميمات - لا الجينات - هى التى تحتاج إلى المخاخ الكبيرة من أجل تكرير نفسها وانتشارها . الميمات - لا نحن - هى من ألف الكتب وماكينات النسخ والتليفونات والفاكسات ، من أجل أن تنتشر . الميمات - لا نحن - هى القوة المحركة التى أنتجت الإنترنت والتى ستحدد أثره على العالم - وعلينا. حاولت بلاكمور بكتابها أن تضع الميمياء ، نظرية الميمات ، على قدم المساواة مع النظرية الوراثية . فهل ستنجح ؟ .


مصر للطيران
بأحدث ما أبدعته التكنولوجيا تواكب الألفيه الثالثه
فى مجال الأنشطة و الخدمات الجديدة للحجز المركزى
* تطبيق نظام صحارى الخاص بحجز الفنادق و السيارات
كخدمه جديدة لعملاء مصر الطيران وبأسعار خاصه
لجميع المستويات فى عدد كبير من الفنادق تصل
الى ٥٠ ألف فندق فى مختلف أنحاء العالم .
* ميكنه حجز البضائع لخدمة المصدرين بجميع
مكاتب مصر للطيران على مستوى العالم .
* نظام تقسيم الدرجه السياحيه الى عدة درجات وفقا
لكل سعر .
* اعداد نظام لاختيار الركاب للمقاعد عند شراء و حجز
التذاكر وفقا لرغباتهم .
مصر للطيران
تواكب الجديد دائما لخدمتكم





النغمة الجميلة العذبة فى ربوع الوطن العربى من مشرقه إلى مغربه

روايات مصرية للجيب

تفتح آفاق الثقافة والمعرفة فى عقول الأولاد والبنات

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥١ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

الهلال

مايو ٢٠٠٠ • الثمن جنيهان

من أعلام القرن العشرين

العالم الجيولوجي د. رشدي سعيد (ملف خاص)

باقتنائك

شهادات ادخار بنك مصر الدولارية

والتى تبدأ من ٥٠٠ دولار أمريكى

قد تكون سعيد الحظ وتفوز بجائزة السحب وقيمتها

٦٠٠٠٠ دولار أمريكى

مرتان فى العام (سحبى فبراير ـ أغسطس)

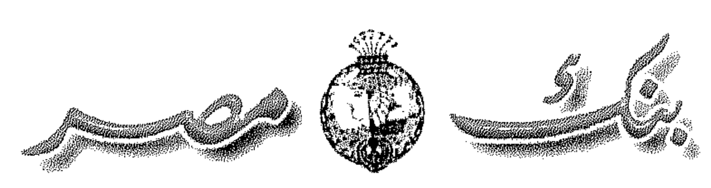
و

١٠٠٠٠ دولار أمريكى

باقى الشهور من كل عام

بالإضافة إلى المزايا التالية :

- العائد المجز الذى يحدده البنك طبقاً للأسعار العالمية
- إمكانية شراء الشهادات من أى فرع لبنك مصر دون أى عمولات أو مصروفات
- إمكانية الاقتراض بضمانها بشروط ميسرة
- إمكانية استرداد قيمتها فى أى وقت دون أى خصم



هكذا يكون البنك



مجلة ثقافية تصدرها دار الهلال

أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

العام الثامن بعد المائة

مايو ٢٠٠٠م ● محرم ١٤٢١ هـ

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

الإدارة القاهرة – ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت . ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب ٦ – العتبة – الرقم البريدي . ١١٥١١ – تلغرافيا – المصور – القاهرة ج م ع مجلة الهلال ت ٠٨١ ... تلكس : 92703 Hilal un فاكس ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني : darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل رئيس التحرير

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المدير الفني

ثمن النسخة سوريا ٦٠ ليرة – لبنان ٣٠٠٠ ليرة – الأردن ١٢٠٠ فلس – الكويت ٧٥٠ فلسا، السعودية ١٠ ريالات – تونس ١.٧٥٠ دينار – المغرب ١٥ درهماً – البحرين ١ دينار – قطر ١٠ ريالات – دبي/ أبو ظبي ١٠ دراهم – سلطنة عمان ١ ريال – الجمهورية اليمنية ١٠٠ ريال – غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار – إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة – المملكة المتحدة ٢.٥ جنيه

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٢٤ جنيها داخل ج.م.ع. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية – البلاد العربية ٢٠ دولارا، أمريكا وأوروبا وافريقيا ٣٠ دولاراً، باقى دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيوني زغلول – ص ب رقم ٢١٨٤٣ – الصفاة – الكويت – ت/ 2741164 13079

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

هذا العدد



الغلاف تصميم الفنان: محمد أبو طالب

الأبواب الثابتة

فكر وثقافة

دائرة حوار

رشدي سعيد - جزء خاص

فنون

قصة وشعر

التكوين

في هذا العدد

نقدم فى هذا العدد ملفا خاصا يتناول مسيرة الدكتور رشدى سعيد العلمية والعملية، ومشوار حياته بمناسبة بلوغه سن الثمانين - أطال الله عمره.

وسوف تعود «الهلال» إلى تقليدها القديم فى عمل ملفات عن الشخصيات المعاصرة التى أثرت الفكر المصرى وأثرت فيه يكتبها تلاميذ وأصدقاء وعارفو فضل هذه الشخصيات فسبق وقدمت أعداداً خاصة لكل من توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويوسف إدريس ويحيى حقى وإحسان عبدالقدوس.. وغيرهم..

كما نقدم شخصية الدكتور ثروت عكاشة والذى احتفلت به الأوساط الأدبية أخيراً وصدر كتاب تذكارى عنه نقدمه فى العدد القادم بقلم الدكتور أحمد أبوزيد. ويعرض الدكتور عاصم الدسوقى لكتاب أحمد طعيمة «شاهد حق» والذى يكشف أسرارا مهمة للصراع على السلطة بين محمد نجيب وجمال عبدالناصر، وعدد من الشخصيات التى لعبت دورا مؤثراً فى حياة مصر بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢.

ويلقى د.عبداللطيف عبدالحليم الضوء على مجلة «الكاتب المصرى» التى كان يرأس تحريرها الدكتور طه حسين، مع تحليل لما تضمنته من مقالات، ولماذا لم ينشر عدد من المبدعين والكتاب فى هذه المجلة التى لم تصدر سوى ثلاث سنوات فقط.

التعريب فى الجزائر

يحذر وينبه الكاتب الجزائرى عثمان سعدى من استمرار خطط فرض اللغة الفرنسية واستبعاد اللغة العربية فى الجزائر ..

وآخر الإجراءات فى هذا الطريق ، قرار الحكومة الفرنسية الصادر فى ٧ يناير الحالى باستبعاد اللغة العربية الفصحى من كل المعاهد الفرنسية، باعتبارها من اللغات غير الحية ، واستبدالها باللهجات المحلية ، اللهجة المغربية والشامية والمصرية والبربرية ، كما تستبدل الحروف العربية بالحروف اللاتينية عند كتابة هذه اللهجات(!) ، ويبدى عثمان سعدى دهشته من عدم ظهور أى رد فعل عربى على هذا القرار ، ولم ترتفع صيحات الاحتجاج على هذا القرار سوى من منظمات فرنسية والتى وصفته «بأنه موقف عنصرى ينطلق من أطروحات الاستعمار الجديد الذى يسعى إلى فرض اللغة الفرنسية».

ونعى خطورة هذا القرار ، إذا علمنا بما تشهده الجزائر من محاولات من أجل استمرار الفرنسة، وإذا علمنا أيضاً أن عدد الجزائريين المقيمين فى فرنسا يبلغ مليونى جزائرى يعلمون أبناءهم فى المعاهد الفرنسية.

ويقول عثمان سعدى .. «توجد فى الجزائر عدة لهجات ، لهجة الشرق الجزائرى، ولهجة شرق الصحراء وجنوب غربها ، ولهجة قسنطينة، ولهجة جيجل، ولهجة وهران ، ولهجة العاصمة الجزائر .. وإذا صنفنا هذه اللهجات من ناحية صفائها وقربها من اللغة العربية ، جاءت لهجة العاصمة فى آخر القائمة .. فتركيز الاستيطان الفرنسى كان على مدينتى الجزائر ووهران ، وغزت الحياة الإجتماعية الفرنسية المدينتين ، وإذا استمعنا إلى حديث أحد قاطنى حى القصبة من غير المتعلمين والذين لايحسنون الفرنسية، وجدنا أنه يستعمل لهجة مفرداتها مزيج من الفرنسية والأسبانية والتركية والعربية!!.

وقضية اللغة واللسان العربى فى الجزائر إحدى القضايا الحساسة التى يدور حولها الصراع، والتى تلقى الضوء على مغزى كثير مما يدور اليوم فى الجزائر ، وهى منذ الاستقلال القضية الثقافية الاولى على اعتبار أن استقلال الجزائر لايكتمل إلا بتحررها الاقتصادى والثقافى ، وشهدت جهود التعريب ردة منذ إلغاء الانتخابات البرلمانية سنة ١٩٩١ ، وانتشرت اللغة الفرنسية فى سنوات قليلة أكثر مما انتشرت أيام الاستعمار.

عزيزى القارىء

وخلال زيارتى الأخيرة للجزائر ، تعطلنا طويلاً فى المطار لكتابة طلب تاشيرة الدخول باللغة العربية ، فاحتار رجال الجوازات فى فك طلاسمها . ومن لايعرف الفرنسية فى الجزائر لايستطيع متابعة التليفزيون الذى يختلط فيه الحديث بالعربية والفرنسية، كما لايستطيع متابعة الكثير من الأفلام الجزائرية . وأعداء التعريب كثيرون فى الجزائر .

ويمكن رصد مايجرى فى الجزائر من خلال تعثر محاولات تطبيق قانون التعريب الذى صدر أيام الرئيس الجزائرى الراحل هوارى بومدين ، وحدد فترة زمنية يتم خلالها تعريب الجزائر تعريباً كاملاً، وأخذت قوانين التعريب تتأرجح بين التجميد والتطبيق ، ولكن لم ينفذ حتى اليوم.

ومازال الكثير من الإدارات تتعامل مع اللغة الفرنسية وحدها ، ويدار النشاط الإقتصادى والمالى بها .

ويستغل دعاة استمرار الحال على ما هو عليه ، وجود بعض اللهجات البربرية فى بعض أنحاء الجزائر ، كما أن التعريب سيهدد أوضاع الناطقين بالفرنسية . وهى قضية تتشابك معها الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والقيم السائدة، والعلاقات الاقليمية والدولية للجزائر.

والتعريب عند أولئك الذين تقتصر معرفتهم على اللغة الفرنسية ، هو مخاطرة بالمستقبل فالعرب بدو متخلفون، واللغة العربية لاتصلح أداة لتعليم العلوم ، ويمكن أن تقتصر على تعليم الدين وبعض العلوم الانسانية . فهى فى أحسن الأحوال لغة الشعر والأحلام ، أما اللغة الفرنسية فهى لغة العلم والحضارة!.

وكان طرح شعار ازدواج التعليم ، أى استمرار التعليم باللغتين العربية والفرنسية، يهدف إلى تعطيل قانون التعريب.

وعندما طرحت هذه القضية على الرئيس الجزائرى الأسبق ، وأبديت ملاحظة تقلص استخدام اللغة العربية .. قال .. «إن ما تلاحظه قائم فى العاصمة وحدها ، أما خارجها فتحتل اللغة العربية مكانتها» ، كما لاحظت غياب الكتاب المنشور فى الدول العربية ، ووفرة الكتب الصادرة فى فرنسا!.

فماذا سيفعل العرب لدعم دعاة الحفاظ على اللغة العربية؟! حيث يخوض الكثيرون منذ الاستقلال معركة قاسية حماية للغة والهوية الجزائرية، ومن هؤلاء السيد عثمان السعدى الذى أخذ يثير هذه القضية فى كل مناسبة، ويكتب فى الصحف ويؤلف الكتب .

وغيره كثيرون..

ألا نقوم على الأقل بتوفير الكتاب العربى لمن يطلبه فى الجزائر ؟!.

المحـــرر

الإزدواج الثقافى في نظامنا التعليمى وتحديات المستقبل

بقلم : د. شبل بدران ★

نشهد فى وداعنا للقرن العشرين سيادة العولمة بتداعياتها المختلفة فى كل المجالات والتى تعنى فى التحليل الأخير تسييد نمط من الفكر والثقافة والسلوك والمفاهيم على الثقافة العالمية، بوصفها ثقافة التحضر والتقدم. ولاشك أن تلك المفاهيم تنتسب بالدرجة الأولى إلى ثقافة وهيمنة المجتمع الصناعى المتقدم فى الغرب وتهميش دور الثقافات الوطنية والقومية، بل وصل الأمر فى أحد التحليلات إلى القول بانتهاء الدور القومى للدولة فى ظل العولمة التى تتطلب من مجتمعاتنا جهداً جباراً لمحاولة الفهم والاستيعاب والتفاعل الإيجابى معها ومحاولة المشاركة فيها، وذلك لأن الموقف الرافض لن يقدم حلولا تساعدنا على تجاوز تلك المعضلة، بل سيقودنا إلى السلبية والانزواء.

★ أستاذ ورئيس قسم أصول التربية - كلية التربية - جامعة الإسكندرية

ونشهد أيضاً فى وداعنا للقرن العشرين تطورات علمية وتكنولوجية مذهلة ومتلاحقة ، تجعلنا نعيش فعلا فى عصر الموجة الثالثة ، والتى تقوم بتسريع الزمن وتجاوز المسافات والحدود بصورة غير مسبوقة ، وسوف يؤدى ذلك إلى تهميش وإلغاء العديد من المهن والوظائف ، وتحل محلها مهن ووظائف القرن الحادى والعشرين .

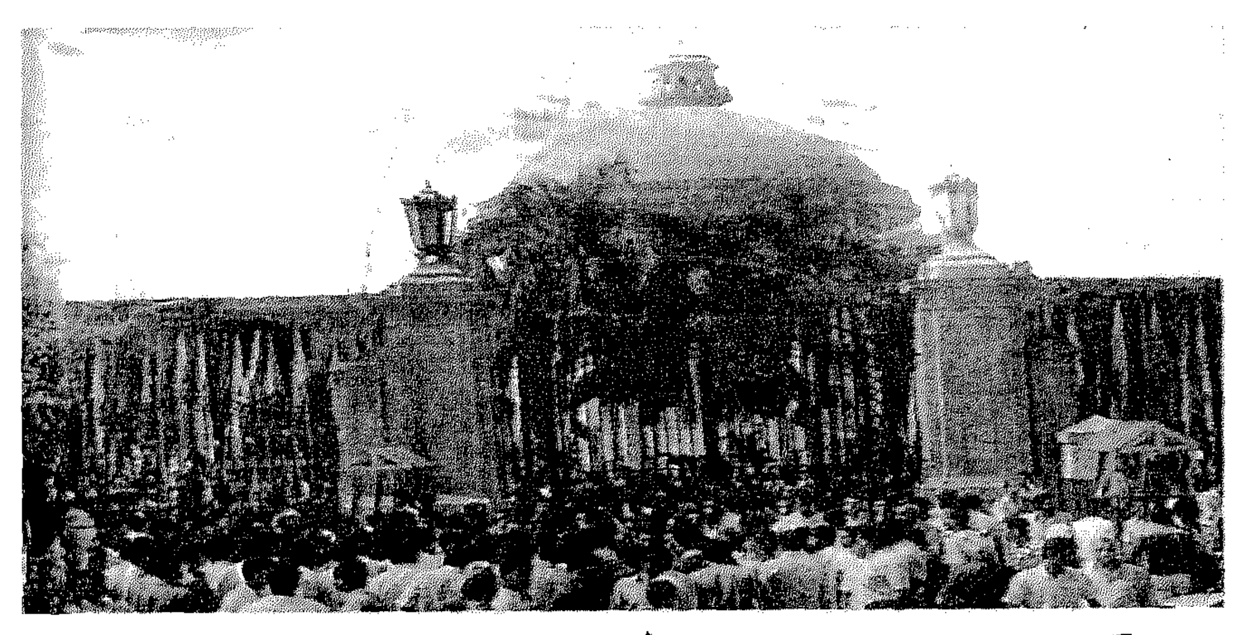
وفى ضوء هذه التغيرات المتلاحقة ، فإن السؤال الذى يطرح نفسه هو : كيف سنربى الجيل الذى سيعيش فى القرن القادم ويتفاعل معه ؟ لاشك أن نظام التعليم فى مجتمعنا منوط به بالدرجة الأولى تكوين الأفراد القادرين على التعامل والتفاعل مع هذا التغير السريع والمتلاحق.

من هنا فإن التعليم أصبح خلال العقود الثلاثة الماضية يتصدر الخطاب السياسى ويحتل مكان الصدارة فى مفرداته . فالولايات المتحدة الأمريكية بدءاً من تقرير «أمة فى خطر» إلى تقرير



«أمريكا ٢٠٠٠» ثم إلى «البيان الأخير» للرئيس بل كلينتون ، كل ذلك يدعم أن التعليم أصبح مفتاحا ورافعة أساسية من روافع التقدم ، وأصبح المدخل الحقيقي لأى تطوير . ولأى استراتيجية للتغيير فى المجتمع ، فلا يمكن أن يتم وضع استراتيجية لتطوير المجتمع دون اعتبار التعليم أحد أهم آلياتها الأساسية ، حيث يقع العبء الأكبر على التعليم فى إكساب الأفراد القدرات والمعارف والعلوم التى ستساعدهم على التعامل مع مستجدات القرن الحادى والعشرين .

وإذا كان العالم شرقه وغربه ، شماله وجنوبه قد أولى التعليم اهتمامه وأفرد له من الميزانية العامة ما يساعده على تحقيق الآمال والأهداف الملقاة على عاتقه. فإن نظامنا التعليمى ومنذ التسعينات يشهد حركة تطوير وتحديث غير مسبوقة، سواء بمحاولات إدخال التكنولوجيا الحديثة فى مناهجه وعلومه ، او بمحاولات تغيير بعض الثوابت القديمة فى العملية التعليمية من الانتقال من التعليم إلى التعلم الذاتى والتعليم مدى الحياة وتلك باستخدام أحدث منجزات العصر التكنولوجية «شبكة الإنترنت» والتى سوف تغير العديد من المفاهيم السائدة ، ولقد تجاوزت ميزانية التعليم لعام ١٩٩٩ أربعة عشر مليار جنيه بعد أن كانت فى مطلع التسعينات لا تتجاوز مليارين من الجنيهات . ولكن على الرغم من كل تلك الجهود الساعية نحو تطور التعليم المصرى، إلا أن التعليم المصرى يعانى من مرض عضال يهدد كيانه وهويته ويفقده أسس مقوماته الوطنية والقومية .. والتى تعد ركيزة أساسية ينهض عليها كل تعليم وطنى يسعى نحو خلق الشخصية الوطنية الديمقراطية ، هذا المرض هو الازدواج التعليمى ، والذى يؤدى إلى تصدع فى بنيان الشخصية المصرية بخلق أنواع وأنماط من التعليم تستجيب للبنية



الاجتماعية والثقافية السائدة والظالمة .

وأن نظامنا التعليمي سيظل عاجزاً عن التفاعل مع منجزات الحضارة الحديثة ومستجدات القرن الحادى والعشرين . مالم يحاول أن يتجاوز تلك المعضلة والأزمة المهددة لكيانه ولكيان خريجيه.

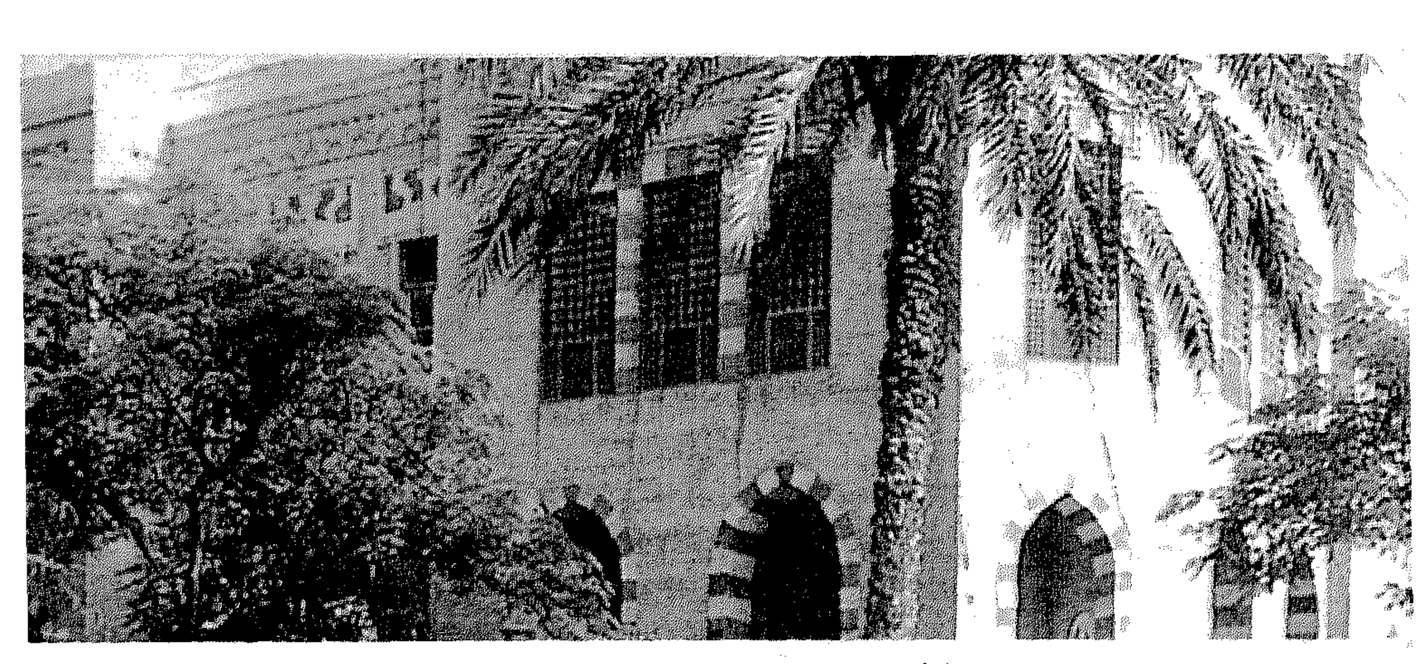
الازدواجية الأولى :

إن نظامنا التعليمي يعاني من ازدواجيات متعددة في أنواعه ومراحله ، وتلك الازدواجيات في نمط التعليم السائد تعوق بشكل رئيسي أي جهد نحو تكوين شخصيات ذات هوية متجانسة، واطار ثقافي واحد وبنية معرفية متجانسة وليست متناقضة.

فمنذ مطلع القرن التاسع عشر وتحديداً منذ أن استقدم محمد على النظام التعليمي الحديث في مصر من أوروبا وعلى وجه الخصوص فرنسا ، ونظامنا التعليمي يعاني من الازدواجية الأولى في مسيرته ، حيث ترك محمد على نظام التعليم التقليدى - الدينى ، الكتاب ، الأزهر - على حاله وأعطاه حرية كاملة ، لأنه تعليم لم يكن يؤدى إلى مهنة أو حرفة أو صناعة ، لذلك استحوذ النظام التعليمي الجديد - الحديث - على اهتمام الدولة والأفراد، لأنه تعليم يقود إلى العمل والتوظيف ، وارتبط بالوضع والمكانة الاجتماعية للأفراد في مرحلة لاحقة .

منذ تلك اللحظة ، والعقلية المصرية تتعرض لنمطين من التعليم والثقافة ، ثقافة دينية تقليدية في مقابل ثقافة علمانية حديثة وافدة ارتبطت ببناء الدولة الحديثة في مصر ، وكان هناك إلى جوار تلك الثنائية الأولى ، نمط ثالث تجسد في مدارس الطوائف غير الإسلامية : مدارس الأقباط ومدارس اليهود وكذا مدارس الجاليات الأجنبية : الأرمن واليونان والإيطاليين .

وتولدت عن ذلك حركة تفاعل ثقافي وتعليمي وقيمي بين الأنماط الثلاثة من



التعليم ، التعليم الحكومى الرسمى المرتبط بالدولة وهيمنتها ومصالحها وتطلعاتها ، والتعليم الدينى الحر الذى لايؤدى إلى عمل أو وظيفة ، فأهمل وأهمل بالضرورة الملتحقين به ، إلى جانب التعليم الدينى للطوائف غير الإسلامية ، وهو تعليم فى جملته لن يخرج عن الإطار السائد فى الكتاب والمسجد . وبقى التعليم الأجنبى الوليد والذى ارتبط بالدرجة الأولى بأبناء الجاليات الأجنبية التى وجدت فى مصر فى القرن التاسع عشر .

ومع تطور الحركة الاجتماعية والسياسية والثقافية فى المجتمع المصرى وتطوره من مجتمع تقليدى إلى مجتمع حديث احتك بالحضارة والثقافة الغربية إبان الحملة الفرنسية وحركة البعوث للخارج ، تطور التعليم بدوره وازداد واتسع نطاقه وأصبح يستوعب العديد من الطلاب فى أنواعه المختلفة ، وارتبط منذ تلك اللحظة بالوضع الاجتماعى والطبقى للطلاب ، ومع نهاية القرن التاسع عشر . وهيمنة القوى الاستعمارية متمثلة فى الاحتلال البريطانى لمصر . أخذت تلك الازدواجية منحى جديدا ومتفاعلا مع حركة الواقع الاجتماعى والثقافى .

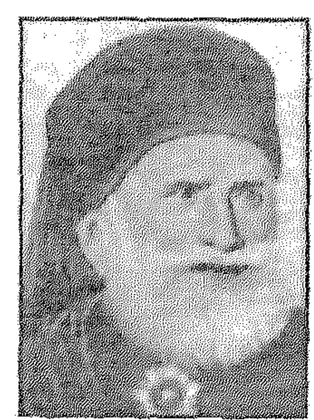
الازدواجية الثانية :

كانت الأعداد الملتحقة بالمدارس الأجنبية ومدارس الطوائف غير الإسلامية محدودة ، وظل الباب مفتوحا على مصراعيه أمام التعليم الرسمى الحكومى ، إلا أن قوى الاستعمار والاحتلال ومستشاريه (دانلوب - كرومر - كتشنر) طوعوا التعليم والثقافة إلى إدارة للسيطرة والهيمنة الغربية على تشكيل العقلية والوعى والوجدان للمواطن المصرى .

كانت سياسة الاحتلال البريطانى التعليمية تهدف إلى نجلزة التعليم والثقافة فى مصر بفتح مدارس إبتدائية تدرس اللغة الانجليزية وتقود إلى مراحل التعليم الأعلى ، ومدارس أولية تشبه الكتاتيب تنتهى بانتهاء المرحلة الأولية من التعليم وتقود إلى العمل فى الوظائف الدنيا بدواوين الحكومة . ومع تزايد عدد المدارس الأجنبية ومدارس الجاليات والمدارس التى تدرس المناهج الغربية ، أصبحت فى مصر ازدواجيات تعليمية جديدة ، المدارس الرسمية الحكومية فى المرحلة الابتدائية وهى نوعان، نوع يؤدى إلى التعليمين الثانوى والعالى ويلتحق به أبناء القادرين والميسورين ، ونوع أدنى يؤدى إلى العمل الحكومى المتواضع فى الوظائف الدنيا، وذلك إلى جانب التعليم فى الكتاتيب والأزهر . وأخذت الازدواجية فى التعليم والثقافة تخلق بنيات ثقافية وتعليمية موازية للبنية الاجتماعية فى الواقع المعاش.

وفى أواسط القرن العشرين ، ومع مشروع طه حسين النهضوى «مستقبل الثقافة فى مصر» تحول التعليم إلى آلية من آليات الحركة الوطنية فى مواجهة القوى الاستعمارية ، وأخذت مشكلات الازدواجية تطرح فى الواقع الثقافى أنماطا من المتعلمين متباينين ثقافيا واجتماعيا ، ووصل ذلك التباين إلى حد

الصدام والصراع الذى تجسد على ساحة العمل السياسى والثقافى خلال الثلاثينات والأربعينات . وكانت محاولات طه حسين هى السعى الحثيث نحو توحيد التعليم الأولى فى المرحلة الابتدائية وإتاحة التعليم لأبناء الفئات الفقيرة والمحرومة منه أصلا بحكم وضعها الطبقى ، وظل شعاره الشهير «التعليم كالماء والهواء» شعاراً دالا ثقافيا واجتماعياً وسياسياً .



محمد علی

طه حسين

وفى خلال حقبة الستينات – المد الثورى – انكمش التعليم الخاص والأجنبى، وظلت الازدواجية منحصرة فى التعليم الحكومى الرسمى والتعليم الأزهرى ، وبعض المدارس الخاصة – المأممة – والمدارس الأجنبية التى فتحت أبوابها لأبناء الشعب المصرى من القادرين والميسورين والمتعاملين بلغات تلك المدارس – الانجليزية والفرنسية – وكان ذلك إلى جانب الفئات المتعلمة بتلك الثقافات مجالا لتذويب الهوية الثقافية واندماج الثقافة الوطنية فى إطار الثقافة الغربية . وعلى الرغم من انكماش عدد وطلاب تلك المدارس ، إلا أن جمهورها كان كبيراً ومنتشراً على ساحة العمل الثقافى والوطنى .

الازدواجية الثالثة :

ولكن سرعان ما تبدلت الأحوال بصورة غير مسبوقة خلال عقد السبعينات وللآن ، حيث يعانى نظامنا التعليمى منذ بدايته إلى نهايته أنماطا من الازدواجية تتمثل فى التعليم الحكومى الرسمى ، والتعليم الخاص ، والتعليم الأجنبى ومدارس اللغات ، وهذا النوع الأخير ظهر خلال فترة الانفتاح الاقتصادى وتم التوسع فيه بشكل كبير ، وكل تلك الصيغ التعليمية تبث فى عقول الناشئة ثقافات مختلفة ومتباينة ، ولم تصبح الهوية الثقافية والنسيج الثقافى للوطن والمواطن هاجسا على صانع القرار والسياسة التعليمية . إن الخطورة ليست فى دخول تلك الأنماط التعليمية إلى نظامنا التعليمى، بقدر ما تكمن الخطورة فى مايسود تلك الأنماط من تفاعل ومناخ مدرسى يكرس ويعزز الثقافات الوافدة باعتبارها الثقافات الأرقى والتى تخاطب العقل والاستنارة فى عقول البشر .

ومع نهاية الألفية الثانية يواجه نظامنا التعليمى انشطاراً على مستوى الازدواجيات الثقافية والتعليمية ، أولى تلك الازدواجيات بين التعليم الرسمى الحكومى والتعليم الأجنبى ، والثانية مع التعليم الخاص ، والثالثة مع تعليم اللغات ، والرابعة مع التعليم الدينى الأزهرى

والخامسة بين الجامعات الحكومية والجامعات الخاصة التي أنشئت عام ١٩٩٦ ، والسادسة مع التعليم العالي والجامعي الأجنبي : الجامعة الأمريكية . والفرنسية المزمع إنشاؤها وكذا الألمانية والبقية تأتي مع الألفية الثالثة .

وهذه الثنائيات التي تكبل النظام التعليمي وتعوق حركته على صهر الإنسان والعقلية المصرية في بوتقة واحدة ، ان أهم مكون في أي نظام تعليمي كفء هو تشكيل المواطنة وتشكيل العقلية في إطار الثقافة الوطنية والقومية التي تحافظ على كيان وبنية المجتمع .

ففي الولايات المتحدة الأمريكية مثلا ، التعليم عام وإلزامي وموحد حتى نهاية المرحلة الثانوية ، من هنا فإن هذا النظام التعليمي يدعم بنية المواطنة والانتماء ، وكذا تشكيل العقلية المتجانسة التي تشكل سندا رئيسيا وجوهريا في مواجهة ظواهر العولمة والهيمنة الثقافية من بلدان المركز وتحديداً الولايات المتحدة الأمريكية ، التي تخوض صراعاً ثقافياً مع أوروبا من أجل فرض السيطرة والنفوذ الثقافي والمعرفي ، وإذا كانت أوروبا وتحديداً فرنسا تحاول الاشتباك والتصدي لأنها تملك عوامله وعناصره ، لكن نحن في دول العالم الثالث ومنها مصر ، لا نملك عوامله ولا عناصره، فستكون العولمة قدراً محتوماً علينا ، إذا لم نستطع من الآن فك تلك الثنائيات والازدواجيات وخلق بنية تعليمية متجانسة، يكون نصب أعينها تشكيل العقل والوجدان في إطار منظومة ثقافية وطنية تستند إلى أسس ديمقراطية تحفز الإنسان على الفعل والحركة والإبداع من أجل تغيير الواقع - إلى واقع أكثر رحابة وإنسانية .

ولاشك في أن تلك الثنائيات تهدد الكيان الثقافي وتبعثره . لأن تلك الأنماط التعليمية تدعم وتكرس ثقافة النخبة في مواجهة الثقافة الوطنية والقومية ، وإذا كان القرن المقبل ستهيمن عليه القوى الصناعية والرأسمالية بمعارفها وعلومها وتقنياتها من خلال الحاجة إلى تدعيم الجسد الثقافي وبلورته وصهره في بوتقة واحدة - الوحدة في إطار التنوع - متماسكة تجعله قادراً على المواجهة والتفاعل مع مستجدات القرن المقبل .

ونحن هنا لا ندعو إلى الانعزال أو التقوقع والانكفاء على الذات بدعوى أن الآخر الثقافي معاد لنا ، لأن الانعزال في حد ذاته يعد وسيلة سلبية للمواجهة ولا يقدم تعزيزات دفاعية بقدر مايقود إلى الركون والسلبية والتخلف . إننا نرى أن التفاعل الثقافي والحضاري مع الآخر أمر تحتمه مستجدات العصر ومقتضيات المنطق والعقلانية . ولكن المواجهة والتفاعل البناء لايمكن أن يستندا إلى هوية ثقافية مشتتة ومبعثرة ولا منتمية . ولا يمكن أن تتم المواجهة بخلق كيانات بشرية لا متجانسة وتفكر بعقليات متباعدة متصادمة ومتصارعة أيضا ، منها : التقليدي والمحافظ والمنفتح والفوضوي ، إننا نعتقد أن نظامنا التعليمي في استقباله للألفية الثالثة ، مطالب بتوحيد التوجه الثقافي والتعليمي للطلاب الملتحقين بهذا النظام ، وذلك لايمكن أن يتم من خلال الأنماط التعليمية السائدة والتي تعتمد بشكل رئيسي على الثنائيات والازدواجيات .

وربما يبدو الأمر غريبا إلى حد ما ، حيث يعتقد البعض أن توحيد المناهج والمقررات الدراسية كفيل بخلق التجانس

والوحدة الثقافية والمعرفية للطلاب . إن الامر أخطر من ذلك بكثير . فلو تصورنا مثلا أن مناهج الدراسة بالجامعة الأمريكية تماثل مناهج الدراسة بجامعة طنطا ، فإن المناخ الجامعي وأنماط التفاعل الاجتماعي والثقافي ، والمعلمين والبيئة المدرسية والجامعية والمستوى الاقتصادى والاجتماعي للطلاب ، هي جد مغايرة . وهي التي تشكل البناء الثقافي والتعليمي للطلاب ، فليس وجود مقرر دراسي أو منهج دراسي واحد يترتب عليه بالضرورة خلق التجانس والحفاظ على ثوابت الهوية في انتمائها . إن العوامل غير المسيطر عليها والتي تخرج عن إمكانية الضبط والتي نسميها نحن في الأدبيات التربوية والعلم التربوى - المناهج الخفية - وأنماط التفاعل الاجتماعي والثقافي هي التي تخلق وتشكل المعتقدات والأفكار والقيم والسلوكيات . وهي التي تحدد بشكل قاطع الإطار المرجعي والثقافي للمتعلمين .

لذلك فإن التباين في الأنماط والصيغ التعليمية بالشكل الذى تحدثنا عنه يؤدى بالضرورة إلى خلق الازدواج الثقافي والثنائيات التعليمية تهدد البنية المعرفية والذهنية والسلوكية للطلاب . والسؤال: كيف سيواجه نظامنا التعليمي ببنيته هذه مستجدات القرن الحادى والعشرين وتحدياته المعرفية والاتصالية ؟! والتي هي في جوهرها تدعو إلى هيمنة ثقافة ونظام الأقوى - بلدان المركز - على ثقافة ونظام الأقل قوة - الأطراف - إن العديد من المؤشرات التي بدأت تظهر على الساحة بعد عام ١٩٨٩ . عام انهيار الاتحاد السوفييتي والمنظومة الاشتراكية تدعم نمط الهيمنة الجديد والصيغة الساعية نحو السيطرة ، تدعم يوميا على صعيد العلاقات والسياسات الدولية والاقتصادية والثقافية والعسكرية ، إن هيمنة النظام الرأسمالي العالمي بقيادة الولايات المتحدة تتسيد الموقف يوما بعد يوم وتلف حولها العديد من الأنصار ولم يبق أمام بلداننا سوى محاولة التكيف والمواءمة وفق مقتضيات الحال .

إن ذلك يظهر من خلال تجليات العولمة في كل أشكالها وجوانبها وتبشر في ذات الوقت بسيادة نمط ثقافي وفكرى وسياسي واقتصادى واحد ، هو الانموذج الرأسمالي الغربي الذى يسعى بكل جهد إلى السيطرة والهيمنة ، وليس في الأفق حتى الآن أى بادرة أمل في الانفلات من ذلك النمط على الصعيدين العالمي والمحلي.

من هنا فإن دعوتنا تنحصر في جعل نظامنا التعليمي قادرا على صياغة وتشكيل العقلية في إطار الوحدة الثقافية التي بدونها لن نستطيع أن نواجه أو نجابه مظاهر العولمة وهيمنة النظام الرأسمالي العالمي ، الذى يبني مشروعه في إطار فرض ثقافة الغرب بما فيها وعليها على الثقافات الوطنية في بلدان العالم الثالث ، إن المعركة القادمة سيكون للتعليم دوره فيها دور حاسم وفاعل .





الصاغ

أحمد عبد الله طعيمة

شاهد على

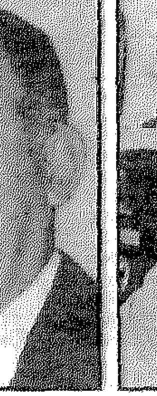
صراع السلطة فى مصر

(١٩٥٢ - ١٩٧٤)

بقلم : د . عاصم الدسوقى








جمال عبد الناصر　محمد نجيب　على صبرى　زكريا محى الدين

تحت عنوان «شاهد حق» ، قدم أحمد عبد الله طعيمة شهادته علي صراع السلطة في مصر بين محمد نجيب وعبد الناصر ، وبين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ، ثم بين أنور السادات ومجموعة علي صبري. وأحمد عبد الله طعيمة ، أو الصاغ طعيمة كما كان يعرف في الوسط السياسي بين العمال والشباب منذ إنشاء هيئة التحرير (١٩٥٣) ، أحد الضباط الأحرار ممن كانوا قريبين من عبد الناصر ، وأسندت إليه مسئوليات سياسية وتنفيذية ، فاشترك مع إبراهيم الطحاوي في تكوين هيئة التحرير لملء الفراغ الذي نجم عن إلغاء الأحزاب السياسية ، ثم عين سكرتيراً عاماً مساعداً للاتحاد القومى ومعه الطحاوى أيضاً (١٩٥٧) ، وتولي وزارة الأوقاف ١٩٥٩ - ١٩٦١ ، ثم ترك البلاد سفيرا لدي الأرجنتين لعام واحد (١٩٦٣ - ١٩٦٤) عاد بعده إلي مصر لممارسة خبراته التنظيمية في الاتحاد الاشتراكي العربي (١٩٦٥) . وقبيل وفاة عبد الناصر ترك التنظيم السياسي بناء علي رغبته إلي رئاسة الجمهورية بدرجة وزير ، ظل كذلك إلي أن قرأ في الصحف نبأ إحالته للمعاش في أواخر ١٩٧٤ .

وطوال فترة وجوده فى دائرة السلطة اشتهر باستقامة الأداء ونقاء الخلق ، فلم تطله الشائعات والأقاويل التى كانت تنسج حول حياة الضباط الأحرار الخاصة والعامة ، ولم يتردد اسمه فى قضايا انحراف بالسلطة أو الصراع عليها ، ولم تنسب إليه تجاوزات أخلاقية هنا وهناك ، ومن هنا تكتسب شهادته قوة فى إقناع القارىء بها .

أما الحق الذى أراد طعيمة أن يقوله للناس ، فإنه يتعلق بما شاهده من صراع على السلطة بين محمد نجيب وعبد الناصر ، ثم النفوذ الذى كان يتمتع به عبد الحكيم عامر مما أطمع مجموعته فى السلطة ، ثم صراع السادات مع مجموعة على صبرى فى مايو ١٩٧١ ، حيث انفرد بعده بالسلطة دون منازع شرعى يستند إلى ثورة يوليو . ومن هنا فإن ما كتبه

يختص بأحد جوانب حياته السياسية وليس كل حياته .

وكان عزيز باشا أباظة قد اقترح عليه فى مطلع عام ١٩٧٠ أن يكتب مذكراته (!!) ، ثم تحولت الفكرة عنده إلى كتابة تحليل تاريخى للثورة ، غير أن عبد الناصر طلب تأجيل إصدار الكتاب إلى ما بعد وفاته . ثم مات عبد الناصر فى العام نفسه ، ولم ينشر طعيمة كتابه عن ثورة يوليو ، بل ولم يكتب مذكراته كما فعل كثيرون غيره . ولكنه وبعد حوالى ثلاثين عاما من طرح الفكرة ينشر شهادة عن جزئيات محددة من تاريخ الثورة .

ومن بين حوادث الفترة من ١٩٥٢ - ١٩٧٤ ، وهى حوادث كثيرة ومتلاحقة ومتنوعة ، اختار أحمد طعيمة المواقف التى أحاطتها الشبهات والجدل أكثر من غيرها . وقد سطرها بقلم يقطر تقديرا ومحبة للزعيم عبد الناصر رغم اختلاف الرأى بينهما ورغم أقاويل بطانة السوء ضده وتأثر عبد الناصر بها ، ويقطر حسرة نحو محمد نجيب لوقوعه أسير أركان النظام القديم وكذا للإخوان المسلمين الذين أعماهم الحقد عن رؤية فضائل الثورة ، ويحمل مرارة لكل من عبد الحكيم عامر والسادات مع اختلاف الأسباب .

تقديرات صحيحة

والآن .. ما هى المواقف التى قال فيها طعيمة «شهادة الحق» ؟ .. فى مقدمة وجيزة فى إحدى عشرة صفحة ، عرض طعيمة عرضا سريعا لنشأته ، وتعلمه ، وانضمامه للإخوان المسلمين بالشعبة العسكرية تحت قيادة الصاغ محمود لبيب (متقاعد) ، وهروبه إلى الضباط الأحرار بمفاتحة من الصاغ وحيد رمضان الذى كان بجماعة الاخوان أيضا ، ذلك أن مهمة الشعبة العسكرية بالإخوان فى تدبير أعمال الاغتيال والقتل «تتنافى مع طبيعته الدينية والوطنية» ، ثم التقائه بجمال عبد الناصر بكازينو أوبرا ، وموقعه من الإعداد للثورة حتى ليلة ٢٣ يوليه ١٩٥٢ . وينتهى من هذه المقدمة إلى القول بأن تحليل عبد الناصر لطبيعة الانجليز المترددة فى التصدى لتحرك الجيش وحساباته فى هذا الخصوص ، كانت صحيحة وصادقة مائة بالمائة .

أما بالنسبة لأزمة مارس ١٩٥٤ التى تذكر أحيانا فى بعض أدبيات التاريخ لثورة يوليو بأنها أزمة الديمقراطية التى أظهرت دكتاتورية جمال عبد الناصر ، فإن طعيمة يقول إن نجاح ثورة يوليو المفاجىء والسريع دون إراقة دماء ، أطمع الكثيرين من ضباط القوات المسلحة حتى من رتبة «الصولات» لتدبير مؤامرات للانقضاض على الثورة فشلت جميعها . ثم يقرر أن أزمة مارس ١٩٥٤ هى إحدى هذه المؤامرات التى رفعت شعار الديمقراطية، فكان الحق الذى يراد به الباطل . وقد بدأت الأزمة من سلاح الفرسان بقيادة خالد محى الدين حتى كادت تنشب حرب أهلية . وللخروج من هذا المأزق عرض جمال عبد الناصر الوزارة على خالد محى الدين الذى كانت علاقته قد توثقت بالرئيس محمد نجيب عندما رافقه فى رحلة إلى النوبة . وقرر مجلس قيادة الثورة حل نفسه وعودة الضباط إلى الثكنات يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٤ . لكن أعداء الثورة كما يقول طعيمة ، لم يكونوا مطمئنين إلى تنفيذ

القرار في موعده فقرروا التعجيل بتنفيذه.

وفي هذه الأزمة قام الشيوعيون والإخوان المسلمون والوفديون باستغلال محمد نجيب للتخلص من الضباط الأحرار. ووقع محمد نجيب في أسر هذه القوى الثلاث ، ولم يكتشف حقيقة مراميها البعيدة للتخلص منه هو نفسه بعد أن يصفو الجو لها . ووقف بجانب محمد نجيب وخالد محي الدين ويوسف صديق الذي استدعى قريبه صاوى أحمد صاوى رئيس اتحاد عمال النقل المشترك ومحمدى عبد القادر سكرتير الاتحاد . وتم الاتفاق في منزل نجبب على أن يقود صاوى عمال النقل في إضراب واعتصام لإجبار الضباط الأحرار على العودة إلى الثكنات دون انتظار ليوم ٢٣ يوليه ١٩٥٤ . غير أن صاوى ومحمدى بعد أن غادرا منزل محمد نجيب توجها مباشرة إلى هيئة التحرير وقابلا أحمد طعيمة وإبراهيم الطحاوى ، وأبلغاهما بمضمون لقائهما مع محمد نجيب ، وكيف أنهما في حيرة من أمرهما لأنهما لا يعرفان نجيب أو عبد الناصر ، وإنما يعرفان طعيمة . وقد قال طعيمة لهما إن جمال عبد الناصر زعيم وطني ولا يعمل إلا لخدمة مصر . وتم الاتفاق على تحويل الإضراب المتفق عليه مع محمد نجيب إلى المطالبة ببقاء مجلس قيادة الثورة وليس عودة الضباط إلى الثكنات . واشترك في الإضراب الذي بدأ يوم ٢٥ مارس عمال النقل المشترك ونقابة سائقي التاكسي وعمال السكك الحديدية وكافة النقابات باستثناء عمال المياه والكهرباء والمخابز ، وبلغت حركة العمال ذروتها يوم ٢٩ مارس . وقد خرج عبد الناصر منتصرا بعد أن كان قد فقد الأمل في وجود حل للخروج من هذه الكارثة حتى لقد اقترح على طعيمة والطحاوى ، وكانا يزورانه ، ترك السلطة ومعاودة النشاط تحت الأرض . غير أن هذه الرواية لا يصدقها من وقر في ذهنه أن حركة مارس المضادة لمحمد نجيب مجرد انقلاب ضد الديمقراطية ، ويرفض أن يصف حركة محمد نجيب بأنها مؤامرة على الثورة ؟!.

مشكلة عمال النقل المشترك

أما لماذا لجأ صاوى ومحمدى إلى أحمد عبد الله طعيمة في هيئة التحرير المشورة ؟ ولماذا كانا يعرفانه هو ولا يعرفان نجيب أو ناصر ؟! . فإن هذا يعود - كما نقرأ في الشهادة - إلى دور طعيمة في هيئة التحرير حيث تولى مسئولية تسوية مشكلات العمال مع أصحاب الأعمال ، وقد كسب طعيمة ثقة الطرفين فيما كان يقترحه لحل المشكلات (لاحظ هنا أن الاقتصاد في مصر آنذاك كان لا يزال في دائرة الاقتصاد الرأسمالي) . وكانت أعقد المشكلات التي تصدى لها ، مشكلة نقابة عمال النقل المشترك برئاسة صاوى وسكرتيرية محمدى عبد القادر ، إذ كانت تضم عمال سبع شركات بما فيها شركات الترام وترام مصر الجديدة . وهكذا كانت جهود طعيمة في تسوية مشكلات العمال مفتاح الموقف في مارس ١٩٥٤ .

ولقد خرج طعيمة من هذه الأزمة بطلا منقذا ، وعرض عليه جمال عبد الناصر أن يكون وزيرا للعمال حتى يتمكن من ربط العمال أكثر وأكثر . لكن طعيمة رفض وقال إنه ربط العمال بالثورة وبجمال عبد

الناصر لكن «بطانة السوء صورت لعبد الناصر أن منصب الوزير لا يكفى طعيمة، وأنه يتطلع إلى رئاسة الجمهورية ، وأنه مثل بيرون الأرجنتين الذى صعد إلى السلطة بعلاقاته بالعمال» .

وبعد أن ينتهى طعيمة من توضيح أزمة مارس ١٩٥٤ ، يتناول الأزمة بين جمال عبد الناصر والإخوان المسلمين التى كانت ذروتها إطلاق الرصاص على جمال عبد الناصر بالمنشية . ويلخص طعيمة العلاقات وأزمتها بقوله : إن الإخوان اعتبروا أنفسهم أصحاب الحق فى الثورة ومن ثم فى السلطة ، وإنهم هم القاعدة الشعبية التى يجب أن تسلم لها الثورة مقاليد الحكم وينتهى دور الضباط الأحرار ويعودوا إلى الثكنات ، ومن هنا نفسهم التقاءهم بمجموعة محمد نجيب فى أزمة مارس . ولنتذكر هنا أن صاحب الشهادة كان عضوا بالإخوان المسلمين فى بدايته ، ولم تنقطع صلته بهم حتى لقد لجأ إليه السادات بعد مايو ١٩٧١ عندما أراد توظيف الجماعة لصالحه .

فلما لم يحدث السيناريو الذى رسمته الجماعة من حيث عودة الضباط إلى الثكنات ، طالبت الجماعة بأن يكون الوزراء منهم ، ووقفوا ضد فكرة إنشاء هيئة التحرير «لأن الثورة ليست فى حاجة إلى جهاز شعبى غير جماعة الإخوان المسلمين» وقد رفض جمال عبد الناصر هذا المبدأ على أساس أن «مصر تشمل المسلمين والأقباط ، فإذا انحصر النشاط السياسى فى جماعة الإخوان المسلمين فكيف يطلب من الأقباط الانضمام إلى الإخوان المسلمين لمباشرة حقوقهم السياسية» . وقد عبر الإخوان عن موقفهم المعارض لهيئة التحرير عندما كانوا يحضرون اجتماعاتها هاتفين : الله أكبر ولله الحمد ، مما جعل الهيئة تبتكر الهتاف المضاد : الله أكبر والعزة لمصر .. الله أكبر والعزة للعرب .

عبد الناصر والإخوان

وقد كشف طعيمة عن الأفكار المتأخرة للجماعة ، من ذلك قول حسن الهضيبى المرشد العام : إن الجماعة تنظر إلى العالم الإسلامى ككل ، ولها أن تحدد أولويات الجهاد ، فقد يكون الجهاد فى الجزائر أهم من الجهاد فى منطقة القناة .. يقول هذا فى الوقت الذى كانت قيادة الثورة تعبىء الجماهير لخوض معارك قتالية فى منطقة القنال لإجبار الإنجليز على الجلاء . بل إن أعضاء من الجماعة تتصل بعناصر فى السفارة البريطانية بهدف تأجيل اتفاق الجلاء حتى يتسلم الإخوان السلطة فى مصر .

غير أن عبد الناصر ظل يأمل فى أن يعود الإخوان إلى «منطق الحق والعقل» . وفى تلك الأثناء قدم بعض أعضاء الجماعة من المتعاونين مع طعيمة والطحاوى كشفا بأسماء ثلاثمائة شخص من أعضاء الجهاز السرى للإخوان يمكن أن يقوم أحدهم باغتيال عبد الناصر . واقترحوا على الزعيم فصلهم من عملهم وبذلك ينشغلون بأنفسهم وبعائلاتهم عن أى نشاط آخر . غير أن عبد الناصر لم يصدر قرار الفصل رغم الإلحاح عليه ، وكان ذلك قبل حادث المنشية . وكانت وجهة نظره أن فصل ثلاثمائة يعنى تعريض ألف وخمسمائة فرد لأخطار ومصائب هم غير مسئولين عنها ، وذلك على أساس أن كل شخص من الثلاثمائة







عبد الحكيم عامر — خالد محيي الدين — السادات — حسن الهضيبي

لديه أسرة من خمسة أفراد في المتوسط . ويختتم طعيمة هذا الجزء من شهادته بقوله «إن الاختلاف بين الثورة والإخوان لم يكن خلافا دينيا أو عقائديا أو وطنيا ولكنه كان صراعا بحتا على السلطة والسلطة وحدها» . ويضيف : «إنه لو تعاون الإخوان مع الثورة لخدمة مصر وليس بغرض السلطة ، خاصة وأن عبد الناصر استثناهم من قانون حل الأحزاب، لتجنبت الثورة كثيرا من الأخطاء التي حسبت عليها» . وهي إشارة من طعيمة إلى تحول عبد الناصر بعد المنشية إلى أسد جريح يصيب كل من يصادفه .

ويتوقف طعيمة عند فترة الانتقال التي حددها مجلس قيادة الثورة بثلاث سنوات للتمكن من الإمساك بزمام الأمور في البلاد بعد حل الأحزاب السياسية . ويقول إن هذه الفترة «أضرت بالثورة من ناحية الديمقراطية ضررا بالغا» ، إذ لم تكن توجد أي جهة رقابية على تصرفات الوزراء، فبدأ الانفراد بالسلطة وانفتح السبيل أمام الدكتاتورية ، بحيث إنه عندما انتهت الفترة الانتقالية، وأعلن دستور ١٩٥٦ وأنشيء مجلس الأمة ، كان الوزراء – عسكريين ومدنيين – يضيقون ذرعا بأي سؤال من أحد النواب بالمجلس.

وقد أعرب طعيمة عن استيائه الشديد من حل هيئة التحرير وإنشاء الاتحاد القومي ، وتساءل .. إذا كانت الهيئة قد نجحت في مهمتها منذ أنشئت فلماذا الإقدام على حلها ؟! . ولم يجد طعيمة من تفسير سوى أن التخلص منه ومن الطحاوي هو القصد خوفا من الزعيم على الزعامة ، وأن وراء الأمر الدس ضدهما لدى عبد الناصر . وقد نسب طعيمة هذا الدس إلى كل من كمال الدين حسين والبغدادي وحسن ابراهيم والسادات الذين فشلوا في أن يحظوا بقبول جماهيري عكسهما . ويذكر طعيمة أنه حدثت أمور بينه وبين السادات شهدها عبد الناصر ولكنه «يعف عن تدوينها لأن السادات بين يدي الرحمن» . وقد نجحت الوقيعة إلى الحد الذي جعل جمال عبد الناصر يقول : «أريد أن أكسر حاجة اسمها الطحاوي وطعيمة» .

من المسئول ؟

ثم تابع طعيمة الظروف المصاحبة لهزيمة يونية ١٩٦٧ لتحديد المسئولية ، فنراه يخص المشير عامر بسبب واحد وهو الحفل الساهر في أنشاص مساء ٤ يونية

حتى الفجر رغم تأكيد عبد الناصر بأن العدوان يقع يوم ٥ يونيـة ، على حين يخص عبد الناصر بعشرة أسباب أبرزها : إغلاق مضايق تيران وخليج العقبة دون الأخذ فى الاعتبار رد فعل إسرائيل ، وطرد قوات الطوارىء الدولية دون اعتبار لرد الفعل الأوربى - الامريكى، وعدم الانتباه لفخ جر مصر للحرب بادعاء وجود حشود إسرائيلية على حدود سوريا دون التأكد من وجودها ، واستعراض القوة الذى استغلته إسرائيل للحصول على مزيد من الدعم العسكرى الأمريكى . وفى هذه النقطة أشار طعيمة إلى حقيقة الصراع الغامض بين عامر وناصر حيث قال له عبد الناصر غداة الهزيمة : إن المشير عامر أضاع البلد ، وإنه كان مغلوبا على أمره من المشير وعصابته . ورغم هذا التحليل السببى للهزيمة ، إلا أن طعيمة ينتهى إلى القول بأن بطانة السوء التى أحاطت بعبد الناصر كان لها أكبر الأثر فيها ، وإن الظلم الذى حاق بمن فرضت عليهم الحراسات من كبار العائلات كان من أهم اسباب الهزيمة ، ويردف قائلا : وما كان الله بغافل عما يفعل الظالمون .. والظلم ظلمات . والحق أن طعيمة لم يختلف كثيرا فى هذا التحليل عما كان سائدا فى أوساط كثيرة فى مصر غداة الهزيمة ، وهو تحليل ساعد كثيرا على سيادة مناخ الغيبيات فى تناول الواقع السياسى ، وما صاحبه من تهيئة الأذهان للرجوع عن كثير من منجزات الثورة بدعوى الإصلاح. وتتضح آفاق هذه الروح الانهزامية فى الاقتراحات التى قدمها طعيمة لعبد الناصر بتاريخ أول سبتمبر ١٩٦٧ للخروج من الهزيمة والنجاة من آثارها ، قدمها فى صيغة خطاب حرص على أن ينشره فى أول الكتاب وليس فى موضعه من الشهادة !! .. وقد تضمنت الاقتراحات فى جانب الإصلاح السياسى ، إعلان الدستور الدائم ، وإقامة حزبين سياسيين. وفى الإصلاح الاقتصادى ، تحرير الاقتصاد من يد الدولة التى أصبحت المتحكم الوحيد فى لقمة العيش ، وتحرير الفلاح من عبوديته للدولة . وفى جانب الإصلاح الاجتماعى ، ضرورة اعتبار الدين الإسلامى مادة أساسية فى جميع مراحل التعليم حتى الجامعة ، لا تضاف درجته إلى المجموع الكلى وإنما يعتبر مادة رسوب أو نجاح ، وعدم ممانعته تدريس الدين المسيحى للمسيحيين بالمثل ، وتطهير أجهزة الدولة فى الإعلام والثقافة والصحافة من الشيوعيين الملحدين خريجى السجون والمعتقلات (!!) ، والاهتمام بالمظاهر الدينية ، والبدء فى نهضة دينية شاملة للدعوة الإسلامية داخليا وخارجيا ، وأن يعود لمصر اسمها بإلغاء اسم الجمهورية العربية المتحدة .

ومن الواضح أن عبد الناصر لم يقتنع بأى اقتراح من تلك الاقتراحات التى كانت فى جملتها ردة عن الثورة وتراجعا عن مبادئها .ومثلما لم يجد طعيمة تفسيرا لهزيمة يونية إلا على مستوى الدين «لأن الله لم يكن معنا بعد أن تركنا طريقه ودينه» ، لم يجد أيضا فى تعيين أنور السادات نائبا لعبد الناصر ثم رئيسا للجمهورية سوى إرادة إلهية ، وتطبيقا للآية الكريمة «قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ..» . وأما نجاح السادات فى السيطرة على الموقف بالتخلص من

مجموعة على صبرى ، فإنه يعود - فى رأى طعيمة - إلى عجز قدرات هذه المجموعة أكثر من تمتع السادات بقدرات خارقة ، بل إن اختيار عبد الناصر لهذه المجموعة لم يخل من مغزى ، فهى جماعة تقاد ولا تقود ، والدليل على ذلك كما رأى طعيمة أنهم قدموا استقالات جماعية من مناصبهم ، وكان يمكنهم عزل أنور السادات بإرسال دبابة وفصيلة جنود إلى منزله وإعلان عزله .

نصر عزيز

ويؤكد طعيمة فى هذا الجزء من الشهادة أن المدبر الحقيقى لحرب ١٩٧٣ هو عبد الناصر وليس أنور السادات ، بل إن تدخل السادات فى العمليات العسكرية كان سببا فى عدم تحقيق القوات المسلحة نصرا عزيزا على إسرائيل ، وحول نصر أكتوبر من نصر بلا حدود إلى نصر محدود . ولكنه لم يقل لنا لماذا كان السادات يتدخل فى العمليات العسكرية !! وقال إنه إذا كانت حرب ١٩٥٦ هزيمة عسكرية ونصرا سياسيا ، وإن حرب ١٩٦٧ هزيمة عسكرية وسياسية ، فإن حرب ١٩٧٣ كانت نصرا عسكريا وهزيمة سياسية وهوان سياسى تمثل فى أن إسرائيل تمكنت من تنحية مصر وأخرجتها من الميدان لتنفرد بالدول العربية ، وفيما صاحب تسوياتها السياسية من انفتاح اقتصادى كان «انفتاح الشر والفساد والرشوة والثراء الحرام واستغلال النفوذ والانصياع لتوجيهات البنك الدولى» ، على حين أن عبد الناصر- كما يقول طعيمة - اعترض على قرار وزارة زكريا محى الدين رفع ثمن كيلو الأرز قرشين وانحاز إلى الفقراء، وعندما أراد زكريا محى الدين إصلاح المسار الاقتصادى بناء على توجيه البنك الدولى بتخفيض قيمة الجنيه المصرى رفض عبد الناصر لأن الفقراء سيدفعون ثمن ذلك ، وأن عبد الناصر عمل قدر الإمكان على تذويب الفوارق بين الطبقات. أما السادات فقد رفع أسعار قائمة كبيرة من السلع الاستهلاكية مما أدى إلى مظاهرات ١٨ - ١٩ يناير ١٩٧٧ وصفها بانتفاضة الحرامية ، وفتح الباب على مصراعيه لكل طامع فى الثراء العاجل دون البحث عن صالح البلاد .

★★★

إن الشهادة التى يقدمها أحمد عبد الله طعيمة عن المناخ السياسى فى مصر ١٩٥٢ - ١٩٧٤ تؤكد خطورة كتابة التاريخ اعتمادا على الذاكرة ، لأن شهادته غفلا من تحديد تاريخ أهم منعطفات الحوادث ، وغفلا من أكثر الأسماء التى ارتبطت ببعض المواقف المهمة . وتؤكد أهمية المقابلة النصية لكل المذكرات التى نشرها بعض الضباط الأحرار أو الذين كانوا قريبين من دائرة السلطة بدرجة أو بأخرى ، وذلك للتثبت من بعض الوقائع الواردة بغية الحقيقة طالما أن الوثائق غائبة أو مغيبة ، وقد لا يكشف عنها وقد لا تكون موجودة أصلا . وعلى هذا سوف تظل الحقيقة المعقولة غائبة ، لأن كل المذكرات التى تنشر بما فيها هذه الشهادة ، لم تتحرر من الظاهرة المرضية التى اتسمت بها كل المذكرات ، ألا وهى إدانة الآخرين ، وإضفاء البطولة على أشخاص أصحابها !! دون الاعتراف ولو بخطأ واحد وقعوا به حتى على سبيل الاستثناء .

«ويأكلون التراث أكلا لمّا»

بقلم : د. محمد رجب البيومي

●● أكتب هذه الآية الكريمة للاستئناس لا للاستشهاد ، لأنها جاءت فى الذكر الحكيم فى مناسبة غير التى أعنيها ولكن الاستئناس بها يرفع من قيمة المقال ، وعهدى أن أكتب ما أكتب فأسير فى ظلمات تتراكم ، فإذا سنح المجال بذكر نص قرآنى شعرت أن برقا ساطعا قد أضاء ، وأن سطورا من النور أخذت تتوهج أمام عينى ، فأستريح.

وكتب التراث عزيزة علينا ، أو على الأقل عزيزة على من فى طبقتى من معلمى اللغة العربية ، فإذا لمحت انحدارا شائنا فى نشرها اليوم ، فأنا ألتاع لشىء عزيز علىّ ، وهل يملك الملتاع إلا أن يصيح ●●

لا يكاد يمر يوم حتى نقرأ فى إعلانات الصحف عن كتب من التراث قام بنشرها قوم من الناس ، ليس لهم فى هذا المجال قدم راسخة ، وتتعاظم الدهشة حين تكون هذه الكتب قد نشرت من قبل بتحقيق أفاضل من الباحثين الأصلاء ، بذلوا نور العين فى قراءة ما تآكل من الحروف فى المخطوطات ، ونور العقل فى توضيح ما أبهم من العبارات ، ومدخر الجيب فى نفقة ما قُدِّم من الأجزاء ، ثم يأتى قارئ أى قارئ فيعمد إلى كتاب محقق مخدوم ، فيعيد نشره مرصعا الصفحة الأولى باسمه الكريم ، وقد ينشر الكتاب الضخم فى أعداد تتوالى على

مدار العام ، وفي كل أسبوع تظهر الأسماء الغاصبة في إعلان عن الكتاب المغصوب ، وكأن ذلك أمر طبيعي لا اعتراض عليه ، وأكثر ما نرى ذلك في الكتب الدينية من تفسير وحديث وقصص أنبياء ، لأن الناشر يعلم تكالب الجمهور المؤمن على اقتناء هذه الآثار ، وأقول على اقتنائها لا قراءتها ، إذ لو كان المشترى من ذوى الأصالة لآثر الكتاب المستقل بمجلداته المحققة من قبل ، ولكنه يشترى حسبة في الأجر وطمعا في المثوبة ، وقد ضحكت حين أخبرني بعض هؤلاء أنه اشترى سلسلة بعض التفاسير ، دون أن يدرى أن التفسير لديه قد اشتراه من سنوات ! ويحار الآن ماذا يصنع بالواقد الجديد ؟.

● أضواء الفجر

تشتد الحملة الظالمة على الكتب التي صدرت في منتصف القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، لأن المطبعة العربية حين أنشئت في مصر منذ عهد محمد على ، ولا أقول منذ الحملة الفرنسية حيث أن دورها حينئذ كان وقفا على صدور المنشورات ، وطبع الأحكام العسكرية لا لتوزع على الناس بل لتلصق على الجدران ، هذه المطبعة العربية أخذت تنشر كتب التراث في نهم زائد ، وقد ألفت جمعية المعارف سنة ١٨٦٨ ، ومهمتها نشر الكتب النافعة برياسة محمد عارف باشا ، وطبعت لأول مرة طائفة من الكتب الجيدة مثل : أسد الغابة لابن الأثير ، وتاج العروس للزبيدى ، وغيرهما ، ثم تعددت المطابع ومن أشهرها مطبعة بولاق، فتوالى نشر مئات الكتب ، منها ما يصدر عن الجمعيات العلمية وقد ذكرها جورجى زيدان بإفاضة ، ومنها ما يقوم به الأفراد ، ومن هنا انهمر سيل دافق من المؤلفات العلمية والأدبية ، وبخاصة ما كان يدرس في الأزهر من الحواشي والشروح والتقارير ! وطبيعي أن يكون النشر كما اتفق ، فالتصحيح محدود الأثر ، والأغلاط لا حدّ لها ، ولكن وراء ذلك كله حركة علمية ساعدت على نشر المعارف ، وآتت أكلها ضعفين ، وأنا أسأل هؤلاء الذين يتجهمون لهذا العهد ، ويعدونه عهد الوراقة نَبْزاً وتهجينا ، أسأل هؤلاء ، ماذا قرأ محمد عبده والمنفلوطي وسيد على المرصفى وعبدالرحمن البرقوقي وأحمد شاكر وحسن السندوبي ومحمد محيى الدين عبدالحميد من علماء الأزهر؟ ، وماذا قرأ محمد المهدى والاسكندرى وحفنى ناصف ومحمد الخضرى وعبدالوهاب النجار وطنطاوى جوهرى وأحمد إبراهيم والجارم من نبهاء دار العلوم؟، وماذا قرأ أحمد أمين وعبدالوهاب خلاف وأمين الخولى وعبدالوهاب عزام ومحمد أبو زهرة وعلى الخفيف من علماء مدرسة القضاء الشرعي؟ أليست هذه الكتب (المنبوذة) هي التي أدت دورها في تكوين هؤلاء قبل أن يبزغ صبح التحقيق ، كان العالم الأزهرى يعين مصححا في المطبعة ، ليخرج الكتاب على قدر ما يستطيع ، دون أن يباهى بذكر اسمه في الصفحة الأولى ، وعلم الله كم تكبد في قراءة كلمة محرّفة ، أو مراجعة نص مبتور ، أو تصحيح بيت شعرى ، حتى تم الكتاب بأجزائه المتعددة ، ولا تعلم

عن هذا المصحح القدائى شيئا غير قوله فى الآخر «يقول مصححه فلان انتهى الكتاب بتوفيق الله فى يوم كذا» وأكثر القراء لا يلمون بهذا السطر الضئيل ولا يعرفون جهد من تكبد وعانى وأرهق ، بل إن من الكتب الآن فى الأصول والمنطق والتوحيد مالاتزال الأوراق الصفراء مستكنها الهادئ فلا يجرأ أحد على نشرها ؟ ومن ذا الذى يتطاول إلى نشر كتب العصام ، والكمال بن الهمام، وعضد الدين الايجى والبيضاوى والتفتازانى فى علوم لم يعد يتقنها الآن أحد ! بعد ذلك كله تجد من يذم عهد الوراقة ، ويسب التجار الذين طبعوا العقد الفريد والكشكول والأغانى وزهر الآداب ، وأسرار البلاغة ودلائل الإعجاز والمستظرف لأول مرة منذ مطلع هذا القرن وما سبقه ! وبهذه المؤلفات وحدها تثقف من ذكرت من قبل من أعلام النهضة فى الأدب الحديث ! أذكر أن العلامة اللغوى الشهير الامام محمد بن محمود الشنقيطى كان يصحح أجزاء المخصص فى حجرة رطبة بمنزله المتواضع فى شارع أم الغلام خلف مسجد الإمام الحسين رضى الله عنه ، وكان البرد يأكل صدره أكلا والحجرة الباردة مبلطة بالحجر الثقيل الذى نعهده فى مساجد العصر المملوكى ونور المصباح الزينى الضئيل يأكل عينه، وقد ألح عليه السعال ذات ليلة فانكفأ على الأرض ، وجاء خادمه الأسود ليرفعه من مهبطه فلما استوى ناهضا ، قال بصوت يقطعه السعال : أنا قتيل المخصص ، أنا قتيل المخصص !! هكذا روى عنه تلميذه العلامة أحمد تيمور ، وكم عانى المصححون من أمثاله فى إخراج هذه الكتب المتواضعة ، وبدل أن نذكر نشاطهم بالتقدير ، يصيح الصائحون تجارة ! وراقة! جهل ! كأننا الآن فى مطلع القرن الحادى والعشرين لا نقوم بالوراقة فيما تنشر من مسلسلات التراث على نحو ما سيجئ!! على أنى أصارح القارئ أن الكتاب الأول الذى يقرؤه الإنسان لأول مرة فى طبيعته المتواضعة ، لا يغنى عنه خلفه الذى ظهر فى طبعه أنيقة ، أذكر أن الأستاذ الجليل على البجاوى رحمه الله ، قد أهدانى مشكورا ، كتاب (الاستيعاب لابن عبدالبر) فى أجزائه الناصعة المحققة ، وكنت قد قرأته فى طبعته المتواضعة ذات الورق الأصفر فعرفت مكان كل صحابى من الكتاب ، فإذا رجعت إلى الاستيعاب آثرت النسخة الصفراء ، لأنى قرأتها فى صباى، وانطبعت فى مخيلتى، وقد أكون غريبا فى هذا المنحى ولكنه على غرابته واقع ملموس ! وماذا تستغرب من ذلك . ولدينا الآن من لا يقرءون كتاب الله ، إلا فى المصحف الذى حفظوا منه الكتاب الشريف لأول مرة ، فهم يعرفون موضع السورة ، بل السطر ، بل الكلمة ، ويباهون بما يعرفون .

● نور الضحى

ثم ظهر عهد التحقيق ، بدأ به المستشرقون ، فكان من همهم جمع الأصول الكثيرة للكتاب الواحد ، ومقارنة

العبارات بعضها ببعض والحرص على إثبات وجوه الخلاف في النسخ ، وأن تكون النسخة القديمة تاريخيا هي الأصل الذي يكتب في الأعلى ، وفي الهوامش يذكر الخلاف . فيقال في نسخة كذا هذا التعبير. وقد تتعدد النسخ ، فتذكر الألفاظ المختلفة دون سأم ، ويعيب هذا المسلك امران . ان عبارة الأصل قد تكون واضحة الخطأ ، ومع ذلك تكون هي المختارة ، وأن بعض ما ينص عليه في الهامش قد يكون مما لا معنى له ، ومع ذلك ينص عليه ، ويعدون ذلك أمانة دقيقة ، والحق أن الأمانة الدقيقة لا تكون في رصد ما وضح بطلانه . وفي التركيز على عبارة النسخة القديمة مهما ظهر عوارها ، والسيئ في ذلك كله ان المستشرق يفهم اللغة العربية من القواميس . وليس لديه الذوق العربي الذي يرجح كلمة على كلمة ، كما أن حصيلته من العلوم المساعدة على التحقيق نحوا واشتقاقا ومجازا وكناية تعتبر مفقودة او كالمفقودة ، لكن الله قد هيأ من أبناء العربية الأصلاء من أخذوا عن المستشرقين أحسن ما لديهم من الاستكثار من النسخ المختلفة ، ومطابقتها ، ومن إتقان ما ابتدعوه من الفهارس المختلفة ، والملحقات الخاصة بالاستدراكات العلمية وغيرها مما لا نفيض في تسجيله ، ومن أجدر هؤلاء الأصلاء بالذكر الأستاذ عبدالسلام محمد هارون . فقد ظهر ظهورا جذابا حين نشر كتاب الحيوان للجاحظ على نحو لم يعهد من قبل في استكمال أدواته ، وذلك لأن هذا المحقق رزق علما وبيانا وتذوقا ، فهو في الناحية العلمية كان بصيرا بأوجه الترجيح ، وفي الناحية البيانية كان ذا قدرة على التمهيد في المقدمة ، ودفع ما يتوهم من الآراء غير الصحيحة ومن الناحية الذوقية تجلت نعمة الله عليه في الإخراج الجيد تبويبا وعَنْوَنَةً ، وترقيما ، ووضعا لفهارس لم تعهد من قبل في اللغة والنحو والتاريخ ، وشدة احتياط في اختيار ما يتناسب من الألفاظ المحددة ، والعبارات القاطعة ، وذلك جهد جاهد لا يبلغه إلا الصفوة من طرازه !! وقد استحق الجائزة الأولى للنشر والتحقيق من مجمع اللغة العربية عن جدارة واستحقاق !! أيدري القارئ ماذا حصل بعد ذلك كله؟ ! جاء وراق في بيروت فكلف من أخرج الحيوان في جزءين فقط ، وقد اغتصب كل ما عاناه الأستاذ في تحقيق النص ليقدمه دون هوامشه وملحقاته !! يقدمه بعناوين الأستاذ وفواصله ، دون أن يشير إليه أدنى إشارة ! وكأنه ينقل عن مخطوطة لم تعرف الضوء من قبل! والأعجب أن تنتشر هذه الطبعة ، ويكتب عليها اسم المحقق الجديد ، دون إشارة ما إلى موضع الاغتصاب والانتهاب ! لقد جاء هذا الدعي إلى حديقة تعب صاحبها في إصلاحها وبذرها ، وسقياها حتى استوت ذات أثمار وأفنان ، فقطف الفاكهة في عدة أقفاص ، ثم حملها إلى السوق وكأنه جناها من مزرعته !! فأي لصوصية تلك!!.

وكتاب الحيوان مثال لعدة أمثلة تتحاشد أمام العين ، فأشيح عنها مغيظا ، وقد عضضت على شفتي !! وإذا كنت قد أحسست بهذا الضيق الكارب ، فأي

معاناة يكابدها من قام بالتحقيق كادحا باذلا نور عينه ، ودم شرايينه ، وشحيح ماله ، كي يحقق كتابا ثبتت لديه جدواه ! ثم يغتصبه من يتمسح بالمعرفة ، وهو منها براء ! .

هذا ، وقد يقوم باحث جامعي بتحقيق رسالة علمية عويصة تدور حول كتاب فلسفي من كتب المذاهب الفكرية المعقدة ، فيصل ليله بنهاره باحثا مجهدا ، وهو يعلم أن رسالته ستناقش في مجتمع فكرى يضم صفوة الأساتذة ، فلا يهدأ له بال ، حتى يصدر رسالته في أربعة مجلدات ضخمة ، تحمل اسم (تخريج كتاب الملل والنحل للشهر ستانى) وتجتمع اللجنة في كلية أصول الدين برياسة الدكتور منصور فهمي باشا ، وعضوية الدكاترة محمد البهي ومحمد غلاب ومحمود حب الله ، ومحمود الخضيرى ، ويقوم نقاش فكرى خصب يقول عنه الأب قنواتي في مجلة الرسالة (١٣/٨/١٩٤٦) :

(ثم وقف الباحث (محمد فتح الله بدران) أمام المجلدات الأربعة يشرح موضوع رسالته ، رابط الجأش ، ويجيب بهدوء عن الأسئلة التي وجهها إليه أعضاء اللجنة ، وهي أسئلة دقيقة تنفذ إلى لب الموضوع ، وتحاول تارة نقد منهج البحث ، وتستفسر طورا عن بعض نتائج الرسالة ، في حوار علمي بديع رزين أعاد إلى ذاكرتي تلك الرسالات التي تناقش في أوربا ، ولكن هنا مع شئ من الظرف المصرى الذي لم يقلل شيئا من جد المناقشة ، بل يكسبها روحا شرقية لم أجدها في الخارج) . ثم قررت اللجنة منح الباحث شهادة العالمية (الدكتوراه) مع لقب أستاذ من درجة ممتاز في التوحيد والفلسفة) . وقد رأى الباحث أن يطبع المجلدات الأربعة كيلا يضيع جهده هباء ، وفعلا قامت مطبعة دار الكتب المصرية وهي من أرقى المطابع بمصر ، بانجاز الرسالة بعد أن با ع الرجل قدرا من عقاره الأرضي ليستوفي النفقات ، وخرجت المجلدات الأربعة كاسية حالية . ثم ماذا ، نفاجأ بعد سنوات بظهور كتاب (الملل والنحل) في جزءين مجردا من هوامشه وشروحه كدأبك فيما صنع بكتاب (الحيوان) ومتسوبا إلى باحث لا يعرف عنه أدنى اشتغال بعلوم الفلسفة والكلام !! وأقول باحث وأنا أضحك متهكما ! لأن المغتصب لا يكون باحثا !.

أنا أعلم أن الضرورة العلمية قد تدعو إلى نشر تحقيق آخر لكتاب حقق من قبل، إذا كان هناك من وجهات النظر ما يسمح بإعادة التحقيق ، والجاحظ لايزال موضوع البحث فقد رأت وزارة المعارف المصرية أن تضع بين أيدى الطلاب في المدارس الثانوية كتاب (البخلاء للجاحظ) وندبت لذلك عالمين كبيرين من رجالها المرموقين ، بهما الأستاذان الجليلان أحمد العوامرى وعلى الجارم ، وناهيك بهما ، فقاما بالعمل الجاد وفي ذهنهما أن التلميذ سيقرأ الكتاب ، فلابد أن يخلو مما تبذل به الجاحظ حين ساق بعض قصص اللهو والعبث ، كما أن التلميذ في حاجة إلى إعراب بعض الكلمات ، وبيان أوجه البيان في ما اشتمل عليه النص من مجاز ،

فقاما بإيضاح ذلك للطالب الناشئ ، وقد رأى الدكتور طه الحاجرى بعد سنوات أن يخرج البخلاء دون حذف ، وأن ينشره نشرا لا يلتفت إلى حاجة الطالب العلمية ، وقد اعترف بما قام به الأستاذان من جهد مشكور ، وقال «إن مدرسيّة هذه الطبعة فرضت على الاستاذين اسقاط بعض النصوص فيها ، وقد قالا فى ذلك «وإذا كان من المزمع أن تتداول هذا الكتاب أيدى شبابنا رأينا من الخير أن نتجاوز ما عسى أن يمس الحياء ، كما عدلنا عما يبلغ صفحة أو ما فوقها مبعثرا هنا وهناك مما شوهه التحريف وتعاصت تجليته ». ولذلك جاء عمل الدكتور الحاجرى مكملا ، وذا جهد تال فى مراجعة المخطوطات ، ومقارنة قراءاتها وقد اعتمد على مخطوطات لم تعرف من قبل ، وهو ذلك كله أمين مأمون، وقد قدم الكتاب ببحث ضاف عن أدب الجاحظ كان نصيبه من الابتكار والاستنباط مما يحمد ويروق ، فهل يجوز أن نقول إن الحاجرى قد اعتدى على غيره ؟ كلا !!.

● مثال معيب

كان الدكتور أحمد عزت راجح يدّرس لنا أصول علم التربية بالمعهد العالى للتربية بالاسكندرية ، وهو أيضا مؤلف كتاب (علم النفس الجنائى) لذلك كان يسبح معنا فى أمور تتعلق بالجريمة والاجرام ، وأذكر مما قاله أن المذنب مهما اجتهد فى إخفاء جريمته ، فلابد أن يلوح أثر منها إذا تم البحث الجنائى على أكمل أموره ، وأخذ يضرب أمثلة لبعض القضايا التى تؤكد وجهته ، وقد تذكرت هذا القول بعد مدى نصف قرن ، إذ كان ذلك في سنة ١٩٥٠ م . حين وقفت أمام سطو شائن لدكتور قال عن نفسه إنه أستاذ التاريخ الإسلامى بالجامعة اللبنانية أو عضو الهيئة الاستشارية للمنشورات التاريخية فى اتحاد المؤرخين العرب !! هذا الدكتور وليعذرنى أخى الشاعر الكبير الأستاذ عبداللطيف عبدالحليم إذا جعلته ممن عناهم فى مقاله الموجع «طوفان الدكتوراه إلى أين ؟ المنشور بعدد يناير ٢٠٠٠ من مجلة الهلال ، هذا الدكتور قد سطا على عمل مكتمل للأستاذ المحقق الدءوب الأديب محمد محمود حمدان فاغتصبه ونسبه إلى نفسه ، وحاول أن يخفى معالم السطو، فأشار إلى مخطوطات ومنشورات مطبوعة زعم أنه رجع إليها ، ولم يشر قط إلى الكتاب المغتصب ، وكأنه كان يحسّ بلذع النار سلفا تلقاء سطوه ، فآثر أن يتجاهل ما غصبه اغتصابا لا شبهة فيه . وقد كتب الأستاذ حمدان بيانا مفصلا يوضح هذا السطو بما لا يقبل الجدل، ولكنى أدع هذا البيان ، لأعود إلى كلمة الدكتور أحمد عزت راجح الخاصة ببقاء أثر شاهد يدل على الجرم مهما حاول صاحبه الحذر ، ذلك أن الباحث نشر نموذجا من المخطوطة التى ادّعى أنها أصل لتحقيقه، ولم يأخذ هذا الأصل من النسخة المشار إليها ، ولكنه أخذه من كتاب المغازى الذى حققه الأستاذ حمدان؟ أما دليل الأخذ فأمر لم يخطر للآخذ على بال . ذلك أنه كان بالصفحة المأخوذة شطب فى الأصل

صححه الأستاذ حمدان بقراءته فى كلمتين خطّهما بقلمه ، وجاء صاحبنا فنقل النموذج ، وبه خط الأستاذ ولفظتاه اللتان اهتدى إليهما !! فإذا كان الباحث لم ير كتاب حمدان ، وإذا كان كل تعليقاته المسروقة من باب توارد الخواطر ؟ فمن أين أتى بهذا النموذج ؟ وهو لا يوجد إلا فى طبعة حمدان التى تجاهلها ما استطاع ! ، والدكتور السارق يقول عن نفسه «انه طالب العلم العبد الفقير الى الله تعالى الطرابلسى مولدا وموطنا ! والعبد الفقير الى الله لا يتسم بالسطو الأثيم ! لاسيما من كتاب يتحدث عن مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم ! أفما كان جلال الموضوع ، وعظمة المتحدث عنه مما يبعث الخشية فى نفس طالب العلم العبد الفقير ! فيا حمرة الخجل لم لا تكسين الوجوه ! ويا عرق الحياء لم لا تتساقط من الجبين ! .

● ظن واهم

يظن بعض الناس أن التحقيق أيسر سبيلا من التأليف ، وقد أجادوا ما يتعلق بالشكل دون الجوهر ، ففهارس الأعلام وفهارس الآيات القرآنية ، وفهارس الأحاديث النبوية ، وفهارس الأماكن ! كل ذلك يأخذ وضعه المطمئن ، وقد يشمل أكثر من خمسين صفحة ! أما النص نفسه فلا قبل للمحقق به ، ولعله ظنّ أنه غير مسئول عنه ، لأنه من كلام المؤلف ، ومن العجيب أن الاستاذ الذى لا مغمز فى علمه ، ولا مطعن فى ثقافته قد يتجاسر على تحقيق كتاب ليس فى مجال تخصصه المعروف، فيكبو كبوات متعددة ، ونحن لا نجد بين الأحياء فى تاريخنا المعاصر اسما ثقافيا لامعا كاسم الدكتور عبد الرحمن بدوى إلا أنه دخل فى غير بابه ، فحقق كتاب « الاشارات الالهية » لأبى حيان التوحيدى تحقيقا كثر فيه الغلط الواضح حتى خصه الاستاذ المحقق السيد صقر ببضع مقالات فى مجلة الثقافة كلها حق صريح ! أما كان الأجدر بفاضل مثله أن يترك أبا حيان لمن ألفوا التراث العربى وعرفوا مطارح التوحيدى ، وأقاصيه النائية ، لقد كان الاستاذان أحمد أمين وأحمد الزين يقضيان أياما طوالا فى فهم عبارات التوحيدى ، وقد قال الاستاذ أحمد أمين فى مقدمة ديوان الزين : «كان رحمه الله – أحمد الزين – يحمل عنى أكبر العبء – فى تصحيح كتاب الامتاع والمؤانسة لأبى حيان – ولست أنسى يوما وقد وقفنا فى عبارة نحو أسبوعين لم نعرف تصحيحها ، وهى عبارة أبى حيان عن ابن مسكويه (كان غبيا بين أنبياء » فوقفنا فيها حتى جاء الزين يوما فرحا وقال إنى وجدت حلها ، وهى أنه (كان عييّا بين أبيناء» فشكرته على اكتشافه ، وهنأته بحسن توفيقه ، ومثل هذا عشرات من الكلمات » .

أحمد أمين وأحمد الزين يقفان أمام عبارة واحدة أسبوعين كاملين ، حتى يهتدى الى تصحيحها أحدهما. فيشكر على اكتشافه ، ويقدم له التهانى ! وفى الوراقين من يحقق الكتاب اليوم فى أسبوع!! وهو معصوب .

● عود على بدء

ولنا أن نتساءل عن هذا الفيض الدافق مما يعلن عنه في الصحف من كتب التراث التي تعددت طبعاتها من قبل، والتي أخذت تظهر بأسماء جديدة لا تعرف لها سابقة في النشر الجاد؟ فهل فتح الباب على مصراعيه لكل هيئة نشر في صحيفة لها قسم خاص بالطبع والتوزيع كي تغفل حقوق القارئ في الانتفاع بالجديد، وحقوق الراحلين من الذين حققوا الكتاب للمرة الأولى، وأصبح لورثتهم الحق فيما يجنى من كسب متواصل، أما يوجد في كل إدارة مفكر أمين يعرف أن ما لم ينشر من المخطوطات أضعاف ما نشر، وأن دار الكتب بالقاهرة وحدها تضم من كتب التفسير والحديث وتاريخ الصحابة ما يضيف الجديد للمكتبة العربية إذا نشر وذاع! ألا يعلم القائمون على نشر أمثال تفسير الألوسي والقرطبي والطبري من المشتهرات في مخطوطات التفسير بالقاهرة نفائس يشتاق إليها الدارسون، وفي إذاعتها ثراء للمكتبة الإسلامية ! ولكن المنطق التجاري يمنع هذا الاتجاه؟ فالمخطوط في حاجة إلى محقق ناضج، وعناء متصل في المراجعة والتوثيق، وذلك يتطلب جهدا ماليا لا يرى أصحاب المنطق التجاري أن يبذلوه، ما دام البديل ناهضا؟ وما دام النشر في عرف هؤلاء هو إعادة طبع ما لا يحتاج إلى تغيير إلا في اسم الدار الطابعة ، ومن يلصق اسمه بالكتاب على أنه محقق! أما الكارثة الكبرى فهي أن تشيع رغبات السذج من القراء بنشر كتب تتعلق بالحساب واليوم الآخر حينا، أو بالمعجزات الأسطورية حينا آخر ، أو بالحديث عن كرامات أناس خلقت لهم المناقب خلقا دون تمحيص! وهنا تساعد في انتشار الغفلة الضالة وتبعد المسافة بين قارئ اليوم وما يتطلبه عصره رجوعا إلى عصور التقهقر الفكري والجمود العقلي، وبعدا عن الإسلام في مفهومه الصحيح، وقد سمعنا كلاما يتعلق بحماية حق المؤلف ومعاقبة من يتجرأ على انتهاك هذا الحق ولكن أين التنفيذ؟.

● من المحقق ؟

أتى على التحقيق في البلاد العربية حين من الدهر كان المحقق فيه نظيرا للمؤلف يؤيده ويعارضه ويكتب في الهوامش ما يعد كتابا آخر، فكان من مفخرة هذا العصر، أن يكون سيد بن على المرصفي قريع المبرّد في كامله، وأن يكون عبد العزيز الميمنى نظير أبي على القالي في أماليه، وأن يكون محمد على النجار قريع ابن جني في هوامشه على الخصائص، وأن يكون عبد السلام هارون نظيرا لعبد القادر البغدادي في تعليقاته على الخزانة، أما ابن سلام الجمحي فقد جلس القرفصاء في السطور الأولى بالصفحات المتخمة بتحقيقات محمود شاكر في طبقات فحول الشعراء وبالها!

فليت شعري أيجود الزمان بأمثال هؤلاء؟

اقرأ على الوشل السلام وقل له
كل المشارب مذ هجرت ذميم!



للتاريخ :

ثروت عكاشة وأنا

بقلم :د. عبدالعظيم أنيس

أسعدنى تماما ما فعلته الدكتورة سعاد الصباح - التى أحمل لها كل تقدير منذ لقائنا فى ندوة للأمم المتحدة منذ سنوات طويلة - من تكريم للدكتور ثروت عكاشة وزير الثقافة الأسبق . ففضل هذا الرجل على الثقافة فى مصر طوال سنوات وزارته لا يمكن إنكاره إلا لجاحد. وأنا شخصيا أحببت هذا الرجل طوال حياتى وطوال الأيام التى عرفته فيها ، وقد عملت تحت رئاسته عاما كاملا (من نوفمبر سنة ١٩٦٧ حتى نوفمبر سنة ١٩٦٨) كنت فيها معارا من الجامعة كرئيس مجلس إدارة شركة الكاتب العربى للطباعة والنشر ، فكان كريما غاية الكرم فى تعامله معى حتى عندما كنا نختلف فى الرأى ، وكان من عادته أن يعقد اجتماعا أسبوعيا فى مكتبه يحضره كل رؤساء المؤسسات والشركات التى تتبع وزارة الثقافة ، من جهابذة المثقفين المصريين : نجيب محفوظ ، عبدالرازق حسن ، محمود أمين العالم ، سهير القلماوي، سعد وهبة ، سعد كامل ، على الراعى .. الخ .

ولقد عرفت ثروت عكاشة قبل الثورة ؛ إذ كنا من شباب حى العباسية ، ومع أنها كانت معرفة عابرة ، إلا أنها تجددت بعد الثورة ، عندما كان هو الملحق العسكرى لمصر فى باريس ، وكان سكرتيره الخاص آنذاك أحمد طرباى - أحد شباب الطليعة الوفدية - الذى توثقت علاقتى به عندما كنا سويا فى معتقل الطور عام ١٩٤٩ .

وعند عودتى من بريطانيا إلى القاهرة فى صيف ١٩٥٤، مررت بباريس وقابلنى أحمد طرباى ودبر لى لقاء ثروت عكاشة فى مكتبه الذى سألنى عن الأحوال فى مصر فتحدثت معه بصراحة ، والغريب أننى عندما قابلته فى باريس فى أواخر سبتمبر سنة ١٩٥٤ لم أكن على علم أن قرارا من مجلس قيادة الثورة بفصل ٤٢ أستاذا من الجامعة كان قد صدر وأننى واحد من المفصولين . ولم أعلم بهذا القرار إلا عند وصولى إلى الإسكندرية .

ولقد انقطعت صلتى بثروت عكاشة حتى وقعت كارثة يونيو سنة ١٩٦٧ ، فقام بدعوة عدد من المثقفين إلى اجتماع فى



مكتبه ، وكنت واحدا منهم وأتذكر من الحاضرين يوسف إدريس وعبدالرحمن الشرقاوى ومحمود العالم وعلى الراعى وآخرين ، وكنا جميعا فى غاية الثورة على حجم الهزيمة وعلى الخديعة التى مررنا بها جميعا عن أحوال الجيش المصرى. وكان ثروت عكاشة صبورا مع صراحتنا التى تحدثنا بها ، وقد خرجنا من هذا الاجتماع باتفاق على عقد اجتماعات أخرى ، لكن هذا لم يحدث .

حتى جاء شهر نوفمبر عام ١٩٦٧ ، وكنت أحاضر كالعادة يوم الخميس فى كلية العلوم بجامعة عين شمس عندما فتح الباب وإذا بأحد سعاة الكلية يقول لى إن مكتب وزير الثقافة على التليفون ، واستأت من دخوله هكذا ، وقلت له أن يبلغهم أننى سوف أتصل بهم عندما تنتهى محاضرتى.

وبالفعل أبلغنى د. ثروت عكاشة عندما اتصلت به ضرورة حضورى فورا إلى مكتبه لأمر مهم ، وعندما قابلته أبلغنى أنه قابل الرئيس عبدالناصر فى اليوم السابق وعرض عليه ترشيحات وزارة الثقافة وأن عبدالناصر اقترح اسمى رئيسا لمجلس إدارة الكاتب العربى للطباعة والنشر بدلا من الأستاذ محمود العالم الذى عين رئيسا لمؤسسة المسرح .

وحاولت أن أعتذر قائلا إننى أفضل عملى بالجامعة على أى عمل آخر، فقال لى: « إنك لا تستطيع أن تعتذر ، فهذا توجيه من الرئيس » . قلت « إذن : ليكن هذا التعيين بمثابة إعارة من الجامعة لمدة عام أجرى فيها عملى الجديد، وبعدها يكون لكل حادث حديث » ،ووافق على ذلك وقد تبين بعد ذلك أنه كان قد حصل على موافقة وزير التعليم العالى دون أن تعلم الكلية أو الجامعة شيئا عن هذه الإعارة .

وقد حاولت إنقاذ هذه الشركة من ظروفها المالية السيئة وأعدنا تنظيم العمل فى مطابعها، واستعنت بعلاقتى القديمة بوزير الخزانة - الدكتور نزيه ضيف - للحصول على قرض للشركة يساعدها على دوام نشاطها فى النشر، وتعاقدت مع وزارة التربية والتعليم فى ليبيا لطبع كتب مدرسية بحوالى ربع مليون جنيه استرلينى فضلا عن نشاط الشركة فى نشر الكتب والموسوعات . وبعد انتهاء العام تمسكت بإنهاء إعارتى وعودتى إلى الجامعة مرة أخرى .

★★★

إن السبب الذى دعانى إلى كتابة هذا المقال الذى أعبر فيه عن سعادتى بتكريم ثروت عكاشة، هو أننى أحسست منذ صدور كتابه «مذكرات ثروت عكاشة» وما كتبته من مقالين آنذاك عن هذه المذكرات فى صحيفة «الأهالى» بأنه - أى ثروت عكاشة - غاضب مما كتبته ، وقد اتصل

آنذاك بالأستاذ خالد محيى الدين فى ثورة عارمة وهدد برفع دعوى ضد جريدة الأهالى وضدى . وحاول خالد محيى الدين كما حاول الأستاذ حسين الشافعى إقناعه بأن ما كتبته لا يحوى أى طعن فيه ، لكنه كان تحت فكرة متسلطة عليه قوامها أن ما دفعنى إلى كتابة ما كتبت هو الصديق محمود العالم - وثيق الصلة بشعراوى جمعة وزير الداخلية الأسبق - الذى يحاول الإساءة إلى اسم ثروت عكاشة .

ونظرا لأهمية الموضوع ولأن الموضوع قد أحاطه سوء الظن من أوله إلى آخره ، ولأننا - ثروت عكاشة وأنا - نقترب من أيام عمرنا الأخيرة ، رأيت أن أكتب للتاريخ هذه الكلمة أشرح كيف وقع سوء الظن هذا الذى لم يكن لمحمود العالم أى دخل فيه .

عندما نشر ثروت عكاشة مذكراته كان من الطبيعى أن يتطلع إلى تعليق من جريدة الأهالى عليها واتصل بخالد محيى الدين - وهو صديق عمره فى سلاح الفرسان - يسأل عن ذلك الذى اتصل بدوره بالأهالى فقال له رئيس التحرير إنه اتفق معى على الكتابة عن هذه المذكرات . ثم قابلنى خالد محيى الدين فى عزاء أحد الأصدقاء وقال لى إن ثروت عكاشة يسأله عن هذا الموضوع فاستمهلته حتى انتهى من محاضراتى فى الجامعة ، ثم أكتب التعليق .

وبالفعل كتبت مقالين عن هذه المذكرات أشدت فيهما بجهوده فى ميدان الثقافة، لكن لفت نظرى فيها أمران : أولهما اختلاط بعض التواريخ على الدكتور عكاشة ، وهذا أمر طبيعى يحدث لنا جميعا ، فحاولت تصحيح بعض هذه التواريخ . أما الأمر الثانى الذى لفت انتباهى - وكنت خالى الذهن تماما عنه - فهو الإشارة فى هذه المذكرات إلى محاولة جر اسم الدكتور عكاشة إلى قضية صلاح نصر والمخابرات وتحقيقاتها التى جرت بعد كارثة يونيو سنة ١٩٦٧ . وقد ورد فى هذه المذكرات أن السادات - بعد أن أصبح رئيسا للجمهورية - طلب من شعراوى جمعة - وكان لايزال وزيرا للداخلية - طلبا يخص الدكتور عكاشة، اعتذر عنه وزير الداخلية .

كان من الطبيعى أن يلفت نظرى هذا الكلام فى المذكرات التى لم يكن بها أى تفصيل فى هذا الموضوع . لكن الذى أثار انتباهى أكثر أننى قرأت حديثا لشعراوى جمعة فى مجلة روز اليوسف - فى الوقت نفسه الذى كنت أكتب فيه مقالاتى - ينفى فيه بعض ما جاء فى مذكرات ثروت عكاشة .

وبالطبع أدهشنى هذا ونوهت به فى جملة عابرة فى مقالى الأول ، وكنت حتى تلك اللحظة خالى الذهن تماما من حقيقة التوتر الذى كان قائما بين ثروت عكاشة وشعراوى جمعة ، ومن قضايا تحقيقات المخابرات بعد عام ١٩٦٧ . ويهمنى أن أوضح أننى لم التق بشعراوى جمعة - وهو وزير للداخلية - أبدا ، وأننى كنت التقى به أحيانا لقاءً عابرا فى شوارع



مصر الجديدة فيعلق على مقالاتى فى صحيفة الأهالى مستحسنا ، وذلك فى مرحلة الثمانينيات .

لم أدخل التنظيم الطليعى!

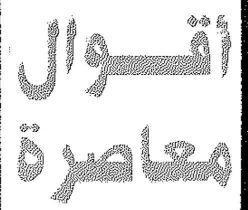
بمعنى آخر لم تتوافر لى علاقة بشعراوى جمعة ولا بأى قطب ناصرى عندما كانوا فى السلطة ، كما أننى لم أدخل فى التنظيم الطليعى . ولذلك فإن ما تصوره الدكتور عكاشة من أن إشارتى المقتضبة إلى بعض ما لفت نظرى فى هذه المذكرات هو من تحريض محمود أمين العالم بإيعاز من شعراوى جمعة رئيسه فى التنظيم الطليعى هو محض خيال يعلم الله أن محمود العالم برئ منه تماما ، وأننى لم أكن على علم بخلفيات هذه الأمور عندما أعددت مقالى للنشر فى «الأهالى» . لكن الأمور تطورت بعد ذلك، فقد اتصل بى شعراوى جمعة تليفونيا بعد ظهور مقالاتى فى الأهالى ورجانى أن أمر عليه فى منزله بشارع نزيه خليفة أمام حديقة الميرلاند فى مصر الجديدة .

وقد مررت عليه الساعة الثانية ظهرا – وكنا فى شهر رمضان فيما أذكر – وشرح لى شعراوى جمعة وجهة نظره فيما قيل من توتر بينه وبين د. ثروت عكاشة .

وخرجت من منزله وقد اكتشفت مدى جهلى بأشياء عديدة تتعلق بالسلطة فى مصر أيام المرحلة الناصرية وما بعدها . ولقد كتبت ما كتبت فى مقالات الأهالى دون أن أعلم أى شئ عن هذه القضايا ، وإنما نوهت بما لاحظته من تباينات بين كلام وزيرين سابقين كانا يعملان فى نظام سياسى واحد ، كما نوهت بما بدا لى غامضا فى المذكرات .

وقد انتهى هذا الموضوع كله عندما قام الأستاذان حسين الشافعى وخالد محيى الدين بإقناع الدكتور عكاشة أن المقالين اللذين نشرتهما الأهالى ليس بهما ما يسئ إليه ، وأننى من باب أولى لم أقصد الإساءة إليه من قريب أو بعيد . ولعله اقتنع بحسن نيتى عندما كتبت ما كتبت وإن كنت أشك فى ذلك .

ويهمنى اليوم – بمناسبة الاحتفال بتكريم د. عكاشة – أن أقول إننى حملت له طوال حياتى كل التقدير فى هذا العمل الفذ الذى قام به كوزير للثقافة ، وإننى أرجو له موفور الصحة والمزيد من النشاط الفكرى الكبير الذى يخلد اسمه ضمن كبار مثقفى مصر والعالم العربى ، كما يهمنى أن أشكر الدكتورة سعاد الصباح على هذه اللفتة الكريمة التى كان من المفروض أن تبدأ فى مصر .




بيل كلينتون


بنازير بوتو


ادوارد سعيد

«الكمبيوتر والإنترنت من أسرع وأفضل الوسائل فى التاريخ لانقاذ البشر من الفقر!!».

الرئيس الامريكى بيل كلينتون

«سحرالكمبيوتر سيوجد مجتمعا بلا روح».

داڤيد هوب استف يورك

«لا يوجد احتمال لبقاء بنية سلك الخدمات الادارية صامدة أمام تغيرات العصر الجديد».

نيوت جنجريتس
الرئيس السابق لمجلس النواب الامريكى

«العالم بحاجة لزعامة الولايات المتحدة، ولا توجد حدود نهائية لبلادنا».

وزيرة الخارجية مادلين اولبرايت

«فى بلدنا حزب واحد هو حزب المال».

النجم الامريكى وارين بتى

«النظام الأمريكى، اذا ما وضعنا المقارنات فى الحساب، سيحصل على الأوسكار، وإن كان ليس جميلا».

الكاتب الاكاديمى الأمريكي بول كروجمان

«الشاعر لا يصل الى الآخر عبر اللغة بحد ذاتها، وانما عبر هواجس مشتركة، وقضايا مشتركة، وأفق مشترك».

الشاعر ادونيس

«فى الفن ليس هناك دولة عظمى، وهيئة اركان الفن ليست فيها اسلحة للدمار الشامل».

المخرج السوري نجدت انزور

«مستشارو النظام العسكرى الحاكم يفتقرون الى الكفاءة، ويعجزون عن رؤية حقائق عالم مستقر، تحلّ فيه الاسواق مكان الصواريخ كمقياس للنفوذ».

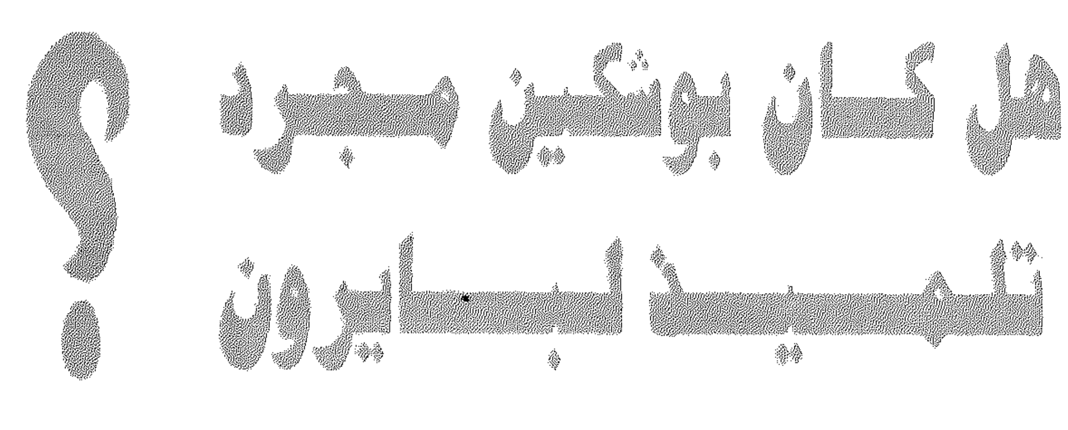
بنازير بوتو
رئيسة وزراء باكستان سابقا

«لا يمكن لأى دولة على الأرض أن تحيا بشكل طبيعى عندما لا تكون دولة مواطنيها، بل دولة شئ غامض وعام».

المفكر د.ادوارد سعيد
فى توصيفه لدولة اسرائيل

«انتمى الى نوعية من الناس باتت قيد الانقراض !!.

المخرج الأمريكى الأشهر مارتين سكورسيزي




بوشكين


بايرون

بقلم : حسين أحمد أمين

رغم ضرورة الاعتراف بتأثير بايرون فى شعر بوشكين، ورغم سموّ منزلة الأول على منزلة الثانى فى ميدان الشعر، فإنه من الإجحاف ببوشكين أن نطلق عليه كما فعل البعض صفة «بايرون الروسى»، كما أن هذا الوصف يتضمّن ثناء على بايرون لايستحقه .. فبوشكيَن قبل كل شىء شاعر قومى، وجزء من كيان الأمة الروسية، قد تمكن من أن يتمثل خصائصها وفضائلها، وأن يعبّر عن استيعابه لها فى أدبه، بينما لم يضف بايرون الكثير مما يساعدنا على فهم طبيعة أمته .

كذلك فإن أثر بايرون فى الشاعر الروسى مقصور على مرحلة معينة من حياة بوشكين، وعلى فن واحد من فنون أدبه، هو الشعر القصصى . فإن نحن قارنا بين أعظم مؤلفات الرجلين : «دون جوان» لبايرون و «يفجينى أونيجين» لبوشكين (وكل منهما رواية فى قالب شعرى) وجدنا بوشكين مدينا للشاعر الإنكليزى بفكرة كتابة قصيدته الكبرى على النحو الذى كتبت عليه «دون جوان»، وبأسلوبها الذى تمتزج فيه جدّية الموضوع بروح الدعابة والمرح والسخرية .. حتى إذا ما وصلنا إلى هذا الحدّ، افترقت الطرق، وإذا بقصيدة بايرون تفيض كالبحر الصاخب اللا نهائى فى قوة وبطش، وإذا بالقصيدة الروسية تتميز بهدوء أوفر، وحبكة أفضل ، وتبدو فى النهاية قصة ذات بداية ووسط ونهاية، فى بناء متماسك متناسق لاتعرفه قصة بايرون، ثم إذا بقصيدة «يفجينى أونيجين» تُثبت فى خاتمة المطاف (رغم غرابة هذا القول) أنها أقوى هجوم ظهر فى ميدان الأدب على الروح البايرونية، وأعنف نقد موجّه إليها .

غير أننا نبدأ بالقول بأنه إذا كان بطرس الأكبر قد أفلح فى أن يجعل من روسيا جزءا من أوروبا وأن يخلق منها دولة أوروبية عظمى، فإن الكسندر بوشكين تمكّن من بعده بنحو قرن من الزمان من أن يحقق شيئا مشابها فى مضمار الأدب الروسى، وقد كان ثمة فى الواقع مايقرِّب بين هاتين العبقريتين، فالاثنان هما حاملا لواء عصر النهضة الذى هبّت نسماته متأخرة على روسيا ، فحاولا، كلٌ فى ميدانه، الإسراع من أجل تعويض روسيا عما فاتها من وقت، وحثّ الخُطا للّحاق بالغرب، فلا عجب إذن أن نرى بوشكين يكنّ الإعجاب والاحترام لشخصيةٍ لم يكنّ لها تولستوى فيما بعد سوى البغض والنفور، لنفس السبب الذى أحبّها بوشكين من أجله .

كان أمام روسيا فى ذلك العهد من تاريخها ثلاثة طرق يتعيّن عليها اتباع واحد منها: إما أن تنهج نهجا روسيّا محضا، رافضةً كل ماهو أجنبى، فتقيم ستارا حديديا بينها وبين الغرب، أو أن تنهل دون تمييز من النّبع الأوروبىّ،

فى ذكرى مائتى عام على مولده :

مقتبسة من النظم والقيم الغربية مايصلح ومالايصلح لها باعتبار الاقتباس من الحضارات الأجنبية «صفقة مُجملة»، أو أن تفتح أبوابها فى حرص وحيطة، فتسمح بقبول مايمكن أن يُغذى الروح الروسية وينمّيها من ثقافة الغرب، وترفض ما يهدّد طابعها الخاص وعبقريتها الفريدة بالاندثار، فيضحى بوسع روسيا عندئذ - وعندئذ فقط - أن تسهم بقسط وافر فى بناء الحضارة وخدمة الإنسانية العالمية .

وكان هذا الطريق الثالث هو الذى اختاره بوشكين ، وهو الطريق الذى انتهجته فيما بعد الموسيقى الروسية التي اتبعت أساليب الغرب فى التعبير فى علاجها لموضوعات وأحاسيس روسية محضة، والواقع أن بوشكين كان أكبر الروس قدرة على الربط بين الإعجاب بالحضارة الأوروبية وبين الثقة فى فضائل ومستقبل بنى وطنه، ولو لم يكن الأمر كذلك لكان من الصعب أن نفهم سرّ ذلك التقديس القومى الذى لايزال الروس يكنّونه لشاعرهم الأكبر حتى يومنا هذا .

المرحلة البايرونية من حياة بوشكين

قبل شهر من بلوغ بوشكين سن الحادية والعشرين قضت حكومة القيصر الإسكندر الأول بنفيه بسبب قصائد له تغنّى فيها بالحرية ودعا إلى إلغاء نظام الرق، بسبب صلاته ببعض الضباط الداعين إلى أن تنتهج الحكومة سياسة تقدمية مستنيرة، وكان هذا النفى له نعمة فى صورة نقمة، فهو ما إن وجد نفسه فى محيط خلت منه ماعهده من صنوف اللهو، حتى كرّس جلّ وقته للقراءة والكتابة والسفر، وفى القوقاز بدأ يقرأ لأول مرة مؤلفات بايرون التى خلّفت أثرا عميقا فى تكوينه الذهنى وفيما ألّفه من أشعار خلال السنوات الثلاث مابين ١٨٢٢ و١٨٢٤، وتبدأ هذه المرحلة البايرونية بقصيدته القصصية «نافورة باختشيساراى» وهى تروى ماحدث فى قصر الخان التترى «غيراى» بالقرم بعدما عاد من غزواته بأسيرة بولندية جميلة تدعى «ماريا» وقع الخان فى غرامها رغم (أو بسبب) صدّها له،

ونفورها منه، ويبلغ حبّه لها مبلغا جعله يهجر زوجته «زاريما» ويتجنب رؤيتها، وتتملك الغيرة قلب الزوجة فتقتل ماريا، وتلقى هى حتفها على يد الخان ساعة علمه بمصرح حبيبته .

ويستمر تأثر بايرون قائما إلى مابعد شروعه فى نظم رائعته «يفجينى أونيجين» عام ١٨٢٣، غير أن السنوات السبع التى استغرقتها كتابة هذه القصيدة الطويلة شهدت ضعفا مطردا فى هذا التأثير، ونموا متزايدا لملكات بوشكين وسمات أدبه الفريدة، بحيث يمكن القول بأن القصيدة نمت وتطوّرت بتطور مؤلفها ونموّه الروحى، فما تمت كتابة الفصول الأولى منها حتى كان قد تخلّص من تأثير بايرون إلى الأبد، بل وأضحى شديد العداء لما تمثله الشخصية البايرونية من معان تجسّدت فى شخصية أونيجين .

يفجينى أونيجين

يبدأ بوشكين قصيدته الكبرى بوصف لطفولة أونْيجين وصباه، وترعرعه فى جوّ المجتمع الراقى ببطرسبورج، وإحاطة عائلته له بعدد من المربيات والمدرسين الخصوصيين وسياج من التقاليد الأرستقراطية والأحاسيس الطبقية، مما يجعله فى النهاية نتاجا صرفا لطبقته .

ورغم أن أونيجين يتقبّل راضيا هذا الوضع، ولا يفكر فى الثورة عليه أو الفكاك منه، فإن لديه من الذكاء مايجعله يدرك أن حياة كهذه لم يتعلم فيها غير رقص المازوركا، والتحدث بالفرنسية، وركوب الخيل، حياةِ فارغة لاقيمة لها، جديرة بالاحتقار، ولاينجم عنها فى النهاية غير ملل قاتل. كانت فى نفسه بذور قوة خاملة، ونشاط معطّل، وذكاء غير مستغَلّ، وكان هذا الخمول والتعطل نتيجة لرضاء المجتمع الذى يتحرك فيه عنه كما هو، والافتقار إلى دافع قوى إلى أن ينفض عن نفسه ذاك العقم الروحى.

وإذ يكاد الملل يفتك به، يهرع إلى ضيعة ريفية له ورثها عن عمّه ، غير أن السأم هنا أيضا لايفارقه، فالآراء التقليدية التى يتفوه بها معارفه من السادة فى الريف تضجره ، ونمط عيشهم البورجوازى يثير اشمئزازه . غير أنه يستثنى شخصا واحدا يختلف عن الآخرين، هو الشاعر لينسكى الذى كان قد عاد لتوّه من ألمانيا حيث درس فى إحدى جامعاتها، وتنمو بين الرجلين

صداقة، لا لاتفاق المشارب والميول أو لتوافق بين الشخصيتين ، وإنما لما ارتآه كل منهما فى الآخر من مناقب تنقصه، وسجايا لايتحلّى بها .

ويعرّف لينسكى صديقه الجديد بمدام لارين الأرملة وابنتيها أولجا وتاتيانا، كانت أولجا، خطيبة لينسكى، فتاة جميلة مرحة، تفيض حيوية ونشاطا. أما تاتيانا أختها الكبيرة فتختلف عنها، فما كانت بالجميلة أو المتوثبة المرحة، وإنما هى صامتة دائما عن حياء، يشوب ملامحها شىء من الحزن وكثير من الجد، غير أنها تخفى وراء القناع والمظهر شخصية قوية، وقدرة لاحدود لها على الحب وإسباغ الحنان والعطف على الآخرين. وهى على استعداد لأن تهب قلبها لامرىء يختلف عمن تعرفهم ويحيط بها من أناس يضجرونها بضيق أفقهم، فما قابلت أونيجين حتى توهّمت أنه رجل فريد فذّ، ذو شخصية غير عادية، فإذا بقلبها الساذج يقع فى حبه .

وتاتيانا هذه هي على طرف نقيض من أونيجين، فهى على سجيتها دائما، غاية فى البساطة والبعد عن التكلف، مخلصة ساذجة فى كل ماتقول وتفعل، وهى روسية صميمة، جمعت زبدة مناقب النساء من بنات جلدتها، وإذ تقع فى غرام أونيجين تحاول أن تستشف منه اهتماما بها، ولكن دون جدوى، فهو لايرى فيها غير فتاة كغيرها من فتيات الأقاليم، ليس بها من الصفات مايبرّر التفاته إليها، وتتألم تاتيانا فى صمت، حتى إذا ما بلغ عذابها حدّا لاتستطيع معه صبرا، تتناول القلم لتسطّر رسالة ساذجة مخلصة إليه تكشف له فيها عن خفايا قلبها وحبّها العميق له، ويقرأ أونيجين الرسالة فلا يعبأ بالرد، غير أنه يقابل تاتيانا بمنزلها بعد فترة، فيعترف لها بأنه غير قادر على الإحساس بالحب، وأن قلبه من النضوب بحيث لايمكنه أن يبادلها عاطفة بعاطفة، وإذ يشرح لها كل ذلك يبدو وكـأنما هو فى قرارة نفسه فخور بهذا النضوب وهذا العجز عن الحب، واصفا لها الزواج فى نهاية حديثه بأنه قيد على حرية الرّجل، يرتعد بدنه لمجرد سماع اسمه.

يترك أونيجين تاتيانا ذليلة محطمة، وتتركه هى ثائرا على الريف وأهله، ناقما على صديقه لينسكى الذى اقتاده إلى تلك العائلة، ويحاول مضايقة صديقه فيغازل خطيبته أولجا خلال حفل راقص مغازلة تُثلج صدر الفتاة، وتحدو بها إلى تجنّب خطيبها الذى يبلغ به البؤس حدّ دعوة أونيجين إلى المبارزة. ويحاول أونيجين تجنّب هذه المبارزة التى لا طائل من ورائها، غير أن خشيته من أن يصفه الناس بالجبن تدفعه إلىَ القبول، وتتم المبارزة التي يلقى لينسكى فيها مصرعه.

يسرع أونيجين بالرحيل عن تلك الضيعة المشئومة، ويشرع فى القيام برحلات عديدة فى أنحاء روسيا محاولا قتل الوقت واستئصال الملل، وأما تاتيانا فتحاول الاستسلام للأمر الواقع وطرد صورة أونيجين من مخيلتها، ثم يصادف أن تقوم بزيارة للمنزل الخالى الذي كان حبيبها يقيم به فى الضيعة، فتتأمل كتبه ومظاهر الحياة التى كان يحياها، فتكتشف الكثير مما كان خافيا عنها من طباعه وسلوكه، فتدرك فى النهاية أنها كانت تعشق خصالا لم تكن فيه، وأن الصورة التى كوّنتها عنه فى ذهنها لاتمتّ إلى الواقع بصلة .

وتمرّ الأعوام، وينتقل مسرح الأحداث إلى بطرسبورج التى عاد إليها أونيجين بعد أسفاره الطويلة، ففى حفل راقص يحضره بالعاصمة يجد نفسه وجها لوجه مع تاتيانا التى نجدها الآن متزوجة من رجل غنى متقدّم فى السن، تنعم بكل مايسبغه عليها مركزها الاجتماعى الجديد من مزايا .. هى الآن امرأة ناضجة ذات جمال ووقار، ترمقها أعين الناس فى إعجاب ومودّة. وعندما يسعى أحد الحاضرين إلى تعريفها بأونيجين، تتحكم على الفور في عواطفها وتصافحه دون أن تُظهر شيئا مما يعتمل فى قلبها .

ثم إذا بالأدوار وقد تغيرت : فأونيجين الآن هو الذى يقع فى غرام تاتيانا، وتاتيانا التى تصدّه، ويسطّر إليها خطابا فلا يتلقّى ردّاً عليه، ويصيبه القنوط فيهرع إلى منزلها ليقابلها، فإذا هى وحدها تقرأ رسالته وهى تبكى وقد غطّى وجهها الدمع، ويمسك أونيجين بيدها مضطربا ويركع أمامها ليصف لها مدى حبه أياها، غير أن المرأة العاقلة تدرك أن كبرياءه الذي

فى ذكرى مائتى عام على مولده :

دفعه فى الماضى إلى رفضها هو نفسه الذي يدفعه الآن إلى خطب ودّها، ورغم أن قلبها لايزال يشعر نحوه ببقية من الودّ القديم، فإنها تخبره فى صراحة وحزم أنها مع حبها له قد وهبت قلبها ونفسها لزوجها وأنها ستظل مخلصة له حتى الموت، وبهذا التصريح منها يفترق الاثنان .

تحرّر بوشكين من الربقة البايرونية

قلنا إن السنوات السبع التى استغرقتها كتابة هذه القصيدة سجّلت فى طياتها التطور الروحى للشاعر فيما بين عامه الرابع والعشرين وعامه الحادى والثلاثين، وانتقاله التدريجى من ذروة المرح والخفّة الغالبين على الفصول الأولى إلى الحزن العميق والاستسلام الواضحين فى الفصول الأخيرة ، والمؤكد أن بوشكين أثناء كتابته للأبيات الأولى من قصيدته (وكما اعترف هو نفسه فى أحد خطاباته) كان ينوى أن يسطر عملا أدبيا ساخرا مرحا على غرار قصيدة بايرون «دون جوان» غير أن السخرية سرعان ما أفسحت الطريق لواقعية صارمة، وتصوير للشخصيات لم يصل الشاعر الإنجليزى فى أىّ من كتاباته إلى مايقربه من الدقة.

كانت الصورة الواقعية الشعرية التى رسمها بوشكين فى قصيدته للمجتمع الروسى خلال فترة بالغة الأهمية من تطوّره، هى التي حدت بالناقد بيلينسكى إلى وصف «يفجينى أونيجين» بأنها «دائرة معارف للحياة الروسية»، فهى بالإضافة إلى كونها أعظم روائع بوشكين، فإنها تعتبر حجر الزاوية فى الأدب الروسى، ومن أشهر معالمه، فهنا نجد نفس أسلوب تناول الموضوع الذى نلمسه فى الشعراء بعده، بل إن أثرها لم يقتصر على ميدان الشعر، ذلك أن هذا الصنف من الواقعية الذى ابتدعه بوشكين فى هذه القصيدة، ومنهاجه فى تصوير شخصياتها، كانا الأساس الذي استند إليه عمالقة القصة والرواية الروسيتين فيما بعد فى تأليفهم لقصصهم ورواياتهم، وهنا نصادف للمرة الأولى تلك الواقعية التى أثرت عن الأدب الروسى وأطالت فى

الإشادة بها كتب النقد وتاريخ الأدب، واقعية شاعرية دون إفلات عنان، جميلة فنية دون مروق عن الحقيقة، نبيلة سامية الهدف دون غضّ الطرف عن العقبات فى الطريق.

وقد عادت واقعية «يفجينى أونيجين» إلى الظهور فى أدب ليرمونتوف، وفى روايات تورجينيف وجونشاروف، وفى «الحرب والسلام» و«أنا كارينينا» لتولستوى، وخيرة ما كتبه تشيخوف من قصص ومسرحيات، بحيث أصبح أونيجين قبل أن ينصرم القرن التاسع عشر ربّا لعائلة كبيرة من الشخصيات الروائية التى تدين له بالوجود، فإذا بهذه الشخصية الذكية دون قوة فى العزم، المثقفة دون مضاء فى الإرادة، الخاملة غير المجدية، تطفو إلى السطح مرارا فى أدب جونشاروف (أوبلوموف)، وتورجينيف (رودين)، وتشيخوف (إيفانوف)، وإذا بالمرأة القوية تاتيانا وقد تعدّدت لها الصور فى روايات تورجينيف دون تغير أساسى فى الملامح، وفى أدب كل من دوستويفسكى وتولستوى وغيرهما بعد إنمائها وتثقيفها.

قد نلمح فى بعض أبيات القصيدة مسحة من الرومانسية غير أن روحها العامة خالية منها، فهنا تعمل قوانين الطبيعة دون تدخل من الشاعر، وهنا تؤدى طبيعة الشخصيات تدريجيا وخطوة خطوة إلى النتائج الحتمية لتطوّرها، وقد تتمثل عظمة بوشكين فى أنه لم يحاول أن يخلق من هذه المرأة القوية (تاتيانا) مثالا سماويا للمرأة الطاهرة التى تردّ من تحبه وتنأى بنفسها عن الرذيلة، فإنسانية تاتيانا عند بوشكين إنما تتمثل فى حزنها الذى لن تقهره، والذى لن يمكنها من أن تعيش بعد ما وقع لها حياة خالية من عذاب الفكر .

وأخيرا ، فإن كانت بساطة الموضوع، وتطور الأحداث تطورا ناجما عن خصائل الشخصيات، والنهاية الأليمة المكتومة، قد أضحت بعد نشر «يفجينى أونيجين» نبعا ينهل منه الأدباء الروس وأدبهم الواقعى، فإن التفهّم العميق (ولكن دون شفقة أو تعاطف) لشخصية البطل البايرونية، والإعجاب والتقدير (ولكن دون جزاء) لشخصية تاتيانا، لم يظهر لهما نظير أبدا فى تاريخ الأدب الروسى .

لماذا المستبد العادل ثانية والآن؟!

بقلم : بلال فضل

كان ينبغى وأنا أقرأ مقالة استاذنا الدكتور محمد رجب البيومى المنشورة فى هلال ابريل ٢٠٠٠ تحت عنوان (الشرق والمستبد العادل) أن أتذكر أن المقالات ـ كالأمور ـ بخواتيمها ونتائجها لا بمقدماتها واستهلالاتها، لكن حبى الشديد لكتابات استاذنا د. البيومى والذى يشاركنى فيه دون شك قراء (الهلال) جميعا ـ جعلنى استبشر خيرا وأتهلل فرحا، لأن ثائرا ومصلحا عظيما مثل السيد جمال الدين الأفغانى رحمه الله وجد بين أحفاده وتلامذته من يهب لتبرئة ساحته من تلك المقولة الشنيعة التى ألصقت به، والتى تزعم أن الشرق لا ينهض به إلاّ مستبد عادل.

(إن عبارة المستبد العادل) ما تزال تنسب إليه، تلوكها الألسن، وتجرى بها الأقلام دون أن يُحاول الذين يرددونها أن يحققوها، أو يتحققوا من صحتها، مع أن الاستبداد لا يتفق مع العدل، والسيد لم يكن داعيا ثوريا فحسب، بل كان أول [illegible] للحرية في الشرق الإسلامي، وأول [illegible] وليس معقولاً أن [illegible] المأجورة لمحاربته عز عليهم أن [illegible] النسبة، فأرجفوا بها وموضع [illegible] ذلك أن هؤلاء المأجورين هم الذين [illegible] لحكومات الاستبداد ، ويسبحون بحمد[illegible] ويأخذون مناصبهم المرموقة، وأموال[illegible] الطائلة عن هذا الطريق؟ ولكن[illegible] يستحيون أن يصموا الشيخ بما [illegible] لأن ذمة الشنيع يقع [illegible] [illegible] رغم عن [illegible]

فها هو الدكتور البيومى يطمئننا – نسبة الى مصادر موثوقة على رأسها محمد المخزومى باشا أحد تلاميذ الأفغانى - أن الأفغانى تبرأ من تلك العبارة عندما سئل عنها، وقال : إنه كان يقصد أن مصر والشرق لا يحيا أى منهما إلا إذا أتاح الله لهما رجلا قويا وعادلا، وأن المطلوب هو القوى لا المستبد لأن الاستبداد يتنافى مع العدالة والحرية.

ولكن .. يافرحة ماتمت، هاهو أستاذنا د. البيومى يكشف لنا أن العبارة التى أسيىء فهمها عن الأفغانى قد ثبتت على تلميذه الإمام محمد عبده الذى قرر فى مقال له أن الشرق لا ينهض به إلا مستبد عادل يتولى مقاليد الأمور فيه «خمس عشرة سنة تثنى فيها أعناق الكبار الى ماهو خير لهم ولأعقابهم» بل إن الإمام محمد عبده يتساءل متحسراً مشتاقا«.. هل يعدم الشرق مستبدا عادلا فى قومه يتمكن به العدل أن يصنع فى خمس عشرة سنة ما لايصنع العقل وحده فى خمسة عشر قرنا». وتوقعت أن ينبرى أستاذنا د. البيومى لتفنيد مقولة الإمام محمد عبده، ولو من باب اعتبارها حكما عاطفيا لمصلح عظيم ضاق صدره بما فى الشرق من تردٍ وضياع وهوان، خاصة أن

ما أنهى به الإمام محمد عبده حديثه لايبدو إلا كتشبيه فرضته ضرورات البلاغة، فلا يعقل أن يعتقد الإمام محمد عبده (وهو من أبرز دعاة العقل والعلم وقد دفع فى سبيل ارسائها أثمانا باهظة) أن ما يصنعه العقل فى ١٥ قرنا لايساوى مايصنعه العدل فى ١٥ سنة، وحديثه هنا بالتأكيد أقرب الى البلاغة الساعية لتقريب المعنى الى ذهن القارئ أكثر من كونها مبدءا ينحاز إليه، خاصة أنه لا تعارض من البدء بين العدل والعقل .

أسئلة ثلاثة لمقصد الإمام

لكن الدكتور البيومى وضع مسبقا حكما على من قد يعترضون على عبارة الإمام محمد عبده فقال: إنه سيجيب على أسئلة ثلاثة توضح ما يقصده الإمام، ثم أضاف «.. ونترك بعدها مايلهج به المتشنجون من انفعالات لا تقف عند حد، لأنهم يتحدثون فيما لا يدركون». وليمنعنا الحب وحسن الظن من أن نسىء فهم استخدام استاذنا لهذه العبارة قبل أن يترك لقارئه حق متابعة أفكاره والحكم عليها ، ولذلك فلتكن الضرورة البلاغية حجتنا هنا أيضا . خاصة والدكتور البيومى يقول لنا : إن هناك «ظروفا أليمة دفعت الإمام محمد عبده الى هذا الرأى» إذن فهو يختلف مع الإمام محمد عبده فى رأيه هذا، أو هذا ما نفهمه عند قراءتنا لهذا الجزء من مقاله، خاصة وهو يصف لنا فى إيجاز بديع كيف تقلبت الظروف والأحداث بالإمام محمد عبده من صاحب كلمة مسموعة فى المجتمع ولدى أولى الأمر الى سجين سياسى ومنفى، وكيف خاب أمله فى تكوين رأى عام متستنير، خاصة وأن أحدا من الشعب (الذى كان الامام يؤكد حقه في ولاية شئونه) لم يستنكر ما تعرض له من سجن ونفى ، وبينما بذل الإمام وسعه فى المدافعة عن هذا الشعب فقد جزاه الشعب «نكوثا» و«جحودا»، ولذا فإن هذا الشعب لم يعد يستحق أن يطالب له الإمام بحقه فى ادارة شئونه، فصار الحل له مستبدا عادلا يحكمه ١٥ سنة ليصلح حاله «ويعالج ما اعتل من طباعه»

موقف عاطفي !

وتوقعت ـ توقع التلميذ الخير من استاذه الذى يبجله ـ أن يعتبر الدكتور البيومى موقف الإمام محمد عبده موقفا عاطفيا خاطئا لأنه نبع من خيبة أمله فى شعب كان ينتظر منه الانصاف ، فلما لم

ينصفه - شأن الشعوب مع مفكريها وحالميها - أخذ يحلم بمستبد عادل يصلح حال هذا الشعب، فى حين أن أستاذه الأفغانى - كما يقرر الدكتور البيومى بنفسه – وبرغم كل ما تعرض له من أذى لم يكل ولم يمل عن العمل والمجاهدة فى سبيل الحرية واعتبر أن اتجاه تلميذه الى العمل على المدى الطويل ليس سوى «خذلان». لكن الدكتور البيومى يحب الإمام محمد عبده حبا جما، (وكلنا والله نشاركه فيه وإن كنت لا أرى عيباً فى ذكر أخطائه كموقفه من اللورد كرومر وتعامله مع الانجليز فى مرحلته الفكرية الثانية) ولذلك فقد راح يبرر للإمام محمد عبده هذا الموقف ويلتمس له الأعذار والتبريرات، بل وينحاز لموقفه على حساب آخرين مثل الأفغانى والكواكبى، وهو يرى أن محمد عبده - مع حفظ الألقاب - كان أقدر على فهم الأصول اللغوية فى العربية والتفسير من الأفغانى الذى لم تجل بخاطره دقائق جالت بخاطر محمد عبده، وهو رأى لا يتسق مع كون عدد كبير من أبرز علماء العربية والتفسير والفقه من المسلمين الذين جاءوا من أصول غير عربية، وهو ما يؤكد أن فهم العربية لم يكن أبدا مرتبطا بالأصل العربى. كما أن الدكتور البيومى يقع فى خطأ عندما يقول أن محمد عبده فهم الاستبداد بأنه (الانفراد بالأمر) طبقا لجميع كتب اللغة، ولم يفهمه كما فهمه الكواكبى فى كتابه (طبائع الاستبداد) على أنه التغطرس والتجبر، والحقيقة أنه لو رجع الى كتاب الكواكبى - صفحة ٣٠ طبعة دار النفائس - لوجد أن التعريف الذى يثبته الكواكبى للاستبداد هو (اقتصار المرء على رأى نفسه فيما تنبغى الاستشارة فيه)، أى أن الكواكبى اتفق مع ما يذهب اليه الدكتور البيومى وينسبه الى الامام محمد عبده من أن الاستبداد هو الانفراد بالأمر، الفرق هنا أن الكواكبى - الذى اكتوى بنار الاستبداد والانفراد - خصص كتابه كاملا لمحاربة اقتصار المرء على رأى نفسه وانفراده بالقرار، فى حين أن الإمام محمد عبده أخذ يضع شروطا انشائية لهذا المستبد أو المنفرد، وهى شروط أشبه بالبيانات الأولى لكل الثورات العربية التى تحمل أجمل الأهداف والأمنيات ، ثم تنقلب بعد سنين الى كوابيس مروعة تتمنى الشعوب أن تنزاح على خير .

الاستشارة تناقض التفرد

والعجيب أن الدكتور البيومى يسارع الى مدح هذه الشروط والاعجاب بها،

قائلا : إن الانفراد بالأمر إنما يمدح أو يذم وفقا لاتجاه صاحبه، وأن الشيخ محمد عبده يمدح المنفرد إذا اتجه الى العدالة والانصاف وحب الشعب، وإذا لم يتعد حكمه أكثر من ١٥ سنة لأن تلك هى المدة التى ينشأ فيها جيل يعرف حقوقه وواجباته. ولأن الإمام محمد عبده لم يشفع هذا الكلام الانشائى الحالم بمثل واحد من التاريخ يحدثنا عن حاكم منفرد بالرأى كان عادلا مع شعبه فقد تطوع الدكتور البيومى ليعطى مثالا على كلام الإمام عبده، وياليته ما تطوع، فهو يختار الفاروق عمر رضى الله عنه كمثال يصفه بأنه كان «متفردا قويا»، ورغم أنه بعد سطور يقرر أن عمر كان يجمع حوله الصحابة ليستشيرهم فيما يستجد، وعلى حد علمى فإن الاستشارة تناقض التفرد وتخاصمه، لكنه رغم ذلك يصف عمر رضى الله عنه بالتفرد، وربما كنت أرحت نفسى والسامعين لو قلت للدكتور البيومى «هات لنا مبشرا بالجنة يمشى الشيطان فى واد غير الذى يمشى فيه ويفرق بين الحق والباطل، ونعدك ونعد إمامنا محمد عبده أننا سنجعله ينفرد وينثنى بحكمنا الى ما شاء الله». لكن حاشا لله أن نسلم بأن عمر بن الخطاب كان «متفردا أبدا، ولن أكرر هنا الوقائع المتداولة عن عدل عمر رضى الله عنه فأستاذنا أعلم بها منى، ولعله سيحتج بأن العدل ليس ضد التفرد، لكنى أؤكد له أن عمر كان أول من أدخل فى التاريخ الاسلامى مبدأ تقسيم السلطات وعدم جمعها فى يد واحدة وعدم الانفراد بها، ولعل استاذنا يقبل من تلميذ له نصيحة بقراءة دراسة تاريخية بديعة لمفكر سورى هو الدكتور أيمن ابراهيم اسمها (الاسلام والسلطان والملك) - دار الحصاد ١٩٩٨ - تناول فيها بالتفصيل اعتمادا على مصادر المؤرخين الثقات دور سيدنا عمر بن الخطاب فى انشاء تنظيم وتأطيـــر لسلطات الدولة وتوزيع هذه السلطات . على الأكفاء من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل إنه حتى عند انشائه لهذه السلطات الجديدة مثل نظام العرافة والديوان.. كما ينبئنا الطبرى والبلاذرى وغيرهما - افسح المجال لمناقشات واسعة ومتشعبة وعنيفة أحيانا اشترك فيها كبار الصحابة، ووصلت أحيانا الى حد الخلافات الجذرية عندما طرحت فكرة ادخال جميع الأعاجم المسلمين فى الديوان. وفى كل هذا وغيره

ما ينفى تماما صفقة التفرد عن عمر بن الخطاب، وما يبطل الاستدلال به على امكانية وجود مستبد عادل أو متفرد عادل. لاحظ أن الدكتور البيومى أورده فى اطار الاجابة على سؤال حول وجود المستبد العادل. وحاشا لعمر بن الخطاب أن يكون مستبدا أو حتى متفردا.

الكتل البرلمانية تعبر عن مصالح الناخبين

ولا يكتفى أستاذنا الدكتور البيومى بتخييب آمالنا فى هذه النقطة فحسب، بل يقول لنا : إن الإمام محمد عبده عندما دعا الى وجود المستبد العادل فئة الـ ١٥ سنة « لم يتجاهل ما تسير عليه أوروبا وأمريكا من الرجوع الى رأى الأكثرية الممثلة فى البرلمان المنتخب انتخابا صحيحا يعبر عن رأى الأمة» بل يقول لنا إن الامام محمد عبده عاصر هذا النظام وأدرك خطأه وضرورة اجتنابه، لماذا؟، يقول الدكتور البيومى لأن «الأغلبية فى هذا النظام تكون فى يد أفراد معدودين يصدرون رأيهم كيفما يشاءون، وعلى الأعضاء المنتسبين اليهم الموافقة التامة». ويبدو أن أستاذنا الدكتور البيومى لم يعد يتابع بدقة تطور النظام النيابى فى الغرب، مع خطأ تعميم كلمة الغرب، إذ أن لكل دولة حالة خاصة وظروفا مختلفة، وإن كان القاسم المشترك الأعظم فى التجارب البرلمانية الغربية هو قيامها على نظام الكتل البرلمانية التى تجمعها أهداف وسياسات مشتركة تعبر عن مصالح الناخبين الذين أدلوا بأصواتهم لهذه الكتلة أو تلك، وبالتالى فإن منح القيادة لشخص ما على كتلة ما ليس سوى اجراء تنظيمى بحت، بدليل أن قائد هذه الكتلة ملزم باستشارة أعضاء كتلته والسماح لمن يختلف مع رأى هذه الكتلة من أفرادها بالتعبير عن رأيه ، واتباع مبدأ الأغلبية فى اتخاذ القرارات، كما أن موقع قائد الكتلة يتغير بانتظام فى بعض التجارب النيابية، أى أن فكرة سيطرة أشخاص ما على النظام البرلمانى ليست دقيقة تماما، والقوة التى يكتسبها شخص مثل نيوت جينجريتش داخل مجلس النواب الأمريكى لا تنبع من كونه ضخم الجثة أو يزغر فى النواب، بل لأنه زعيم منتخب للأغلبية الجمهورية داخل مجلس النواب والتى بوسعها الإطاحة به إذا اختلف مع توجهات الحزب ومصالحه..

تطور النظام البرلماني الغربي

ثم ان الإمام محمد عبده اذا كان له فى زمنه رأى فى النظام البرلمانى الغربى

وقتها، فإن هذا الرأى لا يكون بالضرورة صحيحا الآن، خاصة والنظام البرلمانى الغربى- مع التأكيد على عدم دقة التعميم وادراك الفروق بين تجربة وأخرى - تطور تطورا لا يمكن انكاره حتى وصل الى درجة من القوة ليست هى الأكمل وإن كانت الأجمل فى زمننا هذا، بدليل أن رئيس أكبر دولة فى العالم يقف كالفأر المذعور ليسأل عن أدق تفاصيل حياته الشخصية وما إذا كان قد كذب على الشعب بشأنها، ولم يحدث ذلك من فراغ بل جاء عبر تطور حضارى متصل ومتدرج ومتنام، وانتزعه الشعب انتزاعا دون الركون لنظرية المستبد العادل أو المتفرد العادل. ولعلى لا أتهم هنا بالانبهار بالنموذج الغربى أو الأمريكى فقد ذهب مفكرون اسلاميون عظام مثل الشيخ الغزالي والدكتور يوسف القرضاوى وغيرهما الى التأكيد على أن نموذج الديمقراطية البرلمانية هو أقرب النظم المعاصرة التى يمكن الأخذ بها الى نظام الشورى الذى دعا اليه الاسلام، وحتى لو طرحنا آراء هؤلاء جانبا واقتصرنا على النظام الاسلامى وحده لوجدناه يخاصم التفرد والاستبداد بالرأى ويوجب الشورى ويقصر التفرد بالأمر لله وحده، ويوجب على نبيه مشاورة المؤمنين، وعلى حد تعبير الكواكبى فإن «القرآن الكريم مشحون بتعاليم إماتة الاستبداد وإحياء العدل والتساوى».

والغريب أن الدكتور البيومى فى سعيه لانتقاد النظم البرلمانية يضرب المثل بالمجالس النيابية فى الشرق مستشهدا على وجه التحديد بمجلس النواب فى عهد الثورة والذى رقص بعض نوابه بعد هزيمة ٦٧، ثم يقول «... واذن فالذين ينفعلون حين يرون الإمام يتحدث عن الفرد العادل الملتزم بالنهج الصحيح، عليهم أن ينظروا الى تاريخ المجالس النيابية ليعلموا أن هذا النظام المتزيى بزى الديمقراطية ليس فوق النقد النزيه ورغم أن الدكتور البيومى يعترف قبلا بأن مجالس الشرق النيابية مجالس صورية تزيف فيها إرادة الشعوب لكنه يعود للاستشهاد بها، فأى عجب هذا، كيف تؤخذ على النظام النيابى مآخذ منسوبة الى من لاعلاقة لهم به ناهيك عن أن نظرية المستبد العادل هذه التى دعا اليها الإمام محمد عبده ويؤيده فيها الدكتور البيومى هى التى حاول البعض أن يضفى بها شرعية على حكم عبدالناصر.

ألعن نتيجة للانفراد بالرأى

ولعل من سـخريات القـدر أن عبدالناصر حكم مصر منذ ١٩٥٢ ـ خلف ستار نجيب ثم صراحة وفى السنة الخامسة عشرة لانتهاء فترة المستبد العادل التى حددها الإمام محمد عبده وقعت هزيمة ١٩٦٧ المشئومة المريرة كألعن نتيجة للانفراد بالرأى والاستبداد تحت شعارات لا تختلف كثيرا عن تلك التى دعا اليها الإمام محمد عبده الذى نسى فى غمرة وطنيته وعاطفته أن الانفراد بالرأى لا يستقيم معه سعى ولا تتحقق به غاية، وأن الاستبداد أصل لكل فساد كما قال الكواكبى، وأن إتاحة الفرصة لحاكم أيا كان طيب أصله وصلاح محتده لكى ينفرد بالحكم خمس عشرة سنة سيتيح الفرصة لظهور طبقات من المنتفعين من حوله تنحرف به وبقراراته حتى لو أراد عكس ذلك، ناهيك عن أن أمـتنا فى تاريخها لم تعهد ـ إلا فى حالات نادرة ـ حاكما يسلم الحكم لخليفة يختاره الناس أو حتى يختاره هو، وما تعودنا منهم طيلة تاريخنا ـ منذ أن نشأ الانفراد بالرأى فى عهد معاوية وما تلاه والذى وصفته النبوءة النبوية بـ (الملك العضوض) ـ إلا أن يسلموا الحكم لعزرائيل، وقد زادت فترات حكم أغلبهم على الثلاثين والأربعين عاما فلا تربت أجيال ولا صلحت أحوال. فهل من المعقول وقد استقر الآن فى الوجدان الجمعى للمواطن العربى ـ بعد سنوات وقرون من القهر ـ الايمان بالديمقراطية والحرية والحلم بانتخابات نزيهة ومجالس نيابية قوية وصحف حرة، وصارت الحكومات العربية تعلن ترحيبها بكل هذا حتى وإن لم تطبقه سعيا منها للظهور بمظهر حسن امام المجتمع الدولى، وبدأ كابوس القمع والاستبداد ينزاح ، ولو حتى نزرا يسيرا تحت وطأة الفضائيات والانترنت ووسائل الاتصالات، هل من المعقول أن نأتى لنجدد الدعوة الى المستبد العادل بدلا من أن نواصل سعينا وصبرنا وحلمنا ـ الذى بالتأكيد يشاركنا فيه استاذنا الدكتور البيومى ـ بيوم تنفك فيه المظالم، أبيض على كل مظلوم، أسود على كل مستبد عادل.

ملاحظة :

سلمت جدلا بتعبير المستبد العادل للضرورة البلاغية ولاستخدام أئمتنا له، وإن كنت أراه مرادفا لتعبيرات كثيرة ليست سوى أوهام لا تجلب سوى التعاسة مثل الفجر الكاذب والحمل الكاذب وقصيدة النثر والمسرح التجريبى.

دور بريجيت شيڤر وهانز هيكمان في جمع ودراسة

مأثوراتنا الموسيقية

بقلم : فرج العنترى

إن لذة التمتع بقراءة الموضوع المغناطيسى لفناننا الأديب حسن سليمان فى هلال إبريل الماضى عن صادق انحيازه الممتازة لأصالة الفن الشعبى، وعن ذكرياته معه، وعن الشخصيات الغامضة التى حام قلمه حول تذكره لحقيقة دورها، وعن اطلاقه لندائه الصادح والصارخ فى البحث عن كل فدائى «مجنون» يأتينا جاهزا بسلاحه العلمفنى ليجمع لنا فلكلورياتنا من مظانها.. قد أسعدنى كل السعادة كفاتح شهية على الدخول معه طرفا مشاركا، أولا بتقديم وافر الثناء على فناننا الأديب، وثانيا بالاسهام الودود فى كشف الغوامض الموسيقية التى تكرر ورودها فى مقاله الممتع، وربطها ما أمكن بدوافع وأدوات تحريكها.

- ١ -

وحينما نبدأ بالشخص الألمانى «المبهم» الذى استخرج بعض آلات الموسيقى الفرعونية من المتحف المصرى فى سنة ١٩٣٩، وليجرب عزفها اذاعيا بتعليق من «كروان الاذاعة» وهو محمد فتحى بك حينئذ - ثم نجحت التجربة فى إثبات التأكد من امتداد جذور الفن الشعبى المصرى عبر الأجيال.. الخ، سنجده الموسيقار والعالم الألمانى اليهودى هانز هيكمان (١٩٠٨ - ١٩٦٨) الذى كان قد لجأ إلى الاقامة فى بلادنا تفاديا من الاضطهاد النازى، وتولى رئاسة القسم الموسيقى فى المتحف المصرى بدءا من سنة ١٩٣٤، كما قام بالتدريس فى كل من المعهد العالى لمعلمات الموسيقى، والمعهد العالى للموسيقى المسرحية فى ظل اشراف الدكتور محمود احمد الحفنى، الذى كان زميلا له فى دراستهما الموسيقية للتخصص مع الزميلة الثالثة بريجيت شيفر فى «علم الموسيقى المقارن» بجامعة برلين وهو علم ألمانى صرف، كان قد نشأ فى مطالع القرن العشرين، وحاز اعترافا أكاديميا فى جامعات ألمانيا، وأصبح أداة التخصص فى إجراء الدراسات الميدانية والتحليلية لجميع موسيقات الشعوب البدائية البعيدة عن التحضر الأوروبى بصفة خاصة، كما تشكلت له فى برلين سنة ١٩٣٠ هيئة تنفيذية من كوادر التخطيط والتوجيه والحركة بعنوان : «جمعية البحث فى موسيقات بلاد الشرق» ògeselschaft zur Enfer schung der musik des orientså.

ونعود لنتعرف على مقومات شهرة هانز هيكمان فنجده أنشأ فى القاهرة «جمعية ومعهد الموسيقى الحية» Mus-ica viva. كما تولى تنظيم واقامة العديد من المحاضرات ومن الحفلات الموسيقية لنشر التذوق إلى جانب بحوثه فى غوامض الموسيقى الفرعونية والقبطية، وقيامه بعديد الرحلات خارج القاهرة لعمل الحفريات الأثرية ولجمع آلات الموسيقى القديمة لترميمها واعادة تشغيلها بمنهجه الخاص فى علم الآثار الموسيقية. غير أن الذى يستلفت النظر بالنسبة لموضوعنا هو قيامه بمرافقة الباحثة بريجيت شيفر فى اعقاب انفضاض مؤتمر الموسيقى العربية سنة ١٩٣٢، ومزاملتها فى رحلتها المقررة لدراسة وجمع وتحليل المواد الموسيقية

لواحة سيوه، وقيامه أيضا فى سنة ١٩٥٦ أثناء زحمة الانشغال الوطنى الساخن بمشاكل العدوان الثلاثى - بمرافقة الدوق مكلنبرج فى عملية جمع ودراسة الموسيقى فى منطقة التماس الحدودى مع السودان بدءا من عالى صعيدنا الأعلى فإلى الداخل جنوبا.

وأما عن حكاية ودور الباحثة الألمانية بريجيت شيفر فهى كذلك يهودية من مواليد برلين فى سنة ١٩٠٩، غير أنها كانت قد حضرت إلى مصر لأول مرة فى سنة ١٩٢٣ للاقامة مع ذويها فى مدينة الاسكندرية حيث التحقت بمدارسها وحصلت منها على شهادة البكالوريا الفرنسية، ثم سافرت من جديد إلى ألمانيا لدراسة التخصص فى علم الموسيقى المقارن مع زميليها الحفنى وهيكمان وعلى كبار أساتذته اليهود هورنبوستل، كورت زاكس، روبرت لاخمان، وعادت إلى مصر بعد التخرج لدراسة موسيقى واحة سيوة فى عامى ١٩٣٢، ١٩٣٣ وما بعدهما لنيل درجة الدكتوراة من جامعة مردريسن فلهلم ببرلين. ولنا أن نعرف أنها قد تمتعت هى الأخرى برعاية الدكتور الحفنى فى توليها لعمادة المعهد العالى لمعلمات الموسيقى لمدة عشر سنوات بدءا من عام ١٩٤٣، وعندما تم افتتاح معهد الكونسير فاتوار فى سنة ١٩٥٩ تولت التدريس فيه لفترة، ثم غادرتنا نهائيا إلى لندن حيث وافاها الأجل فى إبريل سنة ١٩٨٥ من بعد ما تركت فى أوراقها نسخة خطية عن رسالتها فى واحة سيوة، هى التى قدمتها الدكتوره سمحة الخولى إلى المجلس الأعلى للثقافة فى ترجمة عربية بقلم زوجها المرحوم الاستاذ جمال عبد الرحيم وبمقدمة منها للطبع والنشر ضمن المشروع القومى للترجمة في عام ١٩٩٦ .

- ٢ -

وإلى هنا لابد أن يثور التساؤل المشروع: لماذا يا ترى حدث ويحدث مثل هذا الاهتمام الأجنبى ببذل الجهد والمال فى دأب العمل على جمع ودراسة مأثوراتنا الشعبية من الداخل وفى مناطق التماس لحدودنا شرقا وغربا وجنوبا؟؟! ويكون من حسن حظنا فعلا أن نعثر فيما يلى على تنويعة من أضواء هذه الاجابات الكاشفة:

* فالاستاذ الاخصائى الكبير احمد رشدى صالح يشير فى كتابه عن الأدب الشعبى» صفحة ٤٣ وما بعدها إلى أن كثيرا من الكتب والدوريات التى حفلت بجهود الغربيين يتضح فيها أن الفلكلور

المصرى واقع فى نطاق دراساتهم لأكثر من قرن ونصف القرن، وأن الدول الكبرى كألمانيا، وفرنسا، وانجلترا، وروسيا القيصرية، قد شجعت على درس تراث الشعوب الشرقية، ولا جدال فى أن أول دافع لهذه الدول فى هذا المجال كان هو السيطرة على مصر والبلاد العربية، وذلك لأن الحركة الاستعمارية التجارية وما تلاها من حركتى الاستعمار الصناعى والامبريالى قامت كلها على نتائج العلوم وبأطماع التفكير التوسعى، ولهذا تبرمجت عندهم دراسة البيئات المختلفة للشعوب.

ويحدثنا الاستاذ الكاتب مرسى سعد الدين عن فرق ما بين الاستشراق القديم والحديث أهرام ١٩٩٩/٨/٢٤ بأن القديم كان يقوم به مفكرو الدول الاستعمارية، وأن كل الكتب التى صدرت عن بلادنا جاءت بأقلامهم، وأما غالبية كتب الاستشراق الجديد ان لم تكن جميعها فهى بقلم كتاب معظمهم من أساتذة الجامعة الامريكية، وهم نوعان نوع المتخصصين الذين يسعون وراء بحوث خاصة فى التاريخ المصرى القديم والآثار الفرعونية، ونوع آخر يقوم به متخصصون أيضا ولكن فى اطار جمع المعلومات وأنه ليس بالضرورة أن يكون المستشرقون من عملاء المخابرات، ولكن الذى لا شك فيه هو أن أبحاثهم المنشورة فى كتب إنما تقدم معلومات مهمة لأجهزة المخابرات فتساعدها على التعامل مع دول المنطقة.

* ويفتح أذهاننا الكاتب الكبير احمد بهاء الدين فى كتابه عن «الاسرائيليات ط٢ دار الهلال» على أن الاستعماريين مجبولون أينما حلوا على خلق مشكلة من مشاكل الاقليات فيخلقونها اذا لم تكن موجودة، أو يعملون على تنميتها ان كان لها وجود، وذلك بقصد استخدامها فى خلق الأزمة التى تصرف جهد الشعب عن مواجهة مشكلته مع الاستعمار، ولكى يوجد فى المجتمع نقطة ضعف داخلية دائما يبنى عليها وجوده واستمرار تدخله.

* ويكشف لنا الاخصائى المعروف الاستاذ شوقى عبد الحكم فى ركنه الخاص بالتراث والمأثور فى جريدة الاهرام عن دوافع وأهداف رحلة الاثنوجرافى المشهور أدوارد وليام لين الانجليزى صاحب كتاب «المصريون المحدثون، شمائلهم وعاداتهم» بأنه كان قد حضر إلى مصر فى سبتمبر سنة ١٨٢٥، ثم عكف على تعلم اللغة العربية ولهجاتها وراح يواصل تغلغله فى داخل الأحياء، الشعبية بطول وعرض مساحة الوطن من

الاسكندرية حتى أسوان لجمع وتدوين ورسم كل ما صادفه من قصص، وأشعار، ومواويل ، ومن شعوذات المشعوذين وأعمال الحواة والندب للموتى، وأنه ظل يقوم بهذا العمل حتى استكفى وكر راجعا بحمولته من المعلومات الإثنية التى قدمها إلى الهيئة الملكية التى تولت رعايته فى مهام رحلته لدراسة دول الشرق القديم، مما أسهم بكفاية فى فتح الطريق أمام الاستعمار الانجليزى لمصر.

وإذن فقد برح الخفاء فى سر الاهتمام الأجنبى الاستعمارى بجمع وتسجيل ودراسة فلكلوريات بلادنا من الداخل وفى مناطق التماس الحدودية فى غربنا وشرقنا وجنوبنا، ويمكننا أن نستعرض فيما يلى ملامح صارخة عن بعض الوقائع .

-٣-

فى المدة من عام ١٨٠٥ إلى ١٨٢٨ كان المدعو ريفو C.J.Rifaud قد شد رحاله من فرنسا إلى مصر فإلى النوبة لكى يستمر عاكفا لمدة ثلاث وعشرين سنة على رصد كافة أوجه الحياة النوبية بالذات، وأمكنه أن يصف ويرسم ويثبت هنالك كل ما كان يستخدم من الحرف ومن أدوات العمل ووسائل المعيشة، وطرق الانتقال على البر وعلى سطح النهر، فضلا عن كل العادات والتقاليد وأشكال الرقص ووظائفه وأسلوب أدائه ثم راح يقدم كل حصيلة هذا الجهد إلى فخامة قيصر الروسيا لتصرف بحسب ما وراه لنا الاستاذ سعد الخادم فى كتابه عن الرقص الشعبى فى مصر بسلسلة المكتبة الثقافية (٣٨٦) سنة ١٩٧٢. وكما عرفنا تاريخيا فان الحملة الفرنسية التى جاء بها نابليون الينا فى مستهل يوليو سنة ١٧٩٨ كانت لانشاء امبراطورية فرنسية أصلا، ولكن ما أن تجفف عرق مشوارها أو كاد حتى ووجهت من جموع شعبنا بمقاومة فعالة ومتواصلة هى التى أرغمتها إرغاما على الانسحاب بعد قضاء ٣٩ شهرا فى عذاب السعير الذى لم يترك لها يوم راحة واحدا بطول الساحة من مصرنا السفلى إلى العليا، فكان أن لملمت بقاياها وانكفأت راجعة إلى أهلها فى فرنسا ورأسها فى الأرض لكن المدعو فيللوتو أو بالكامل جيوم أندريه فيللوتو Guillaum Andreu Villoteau" وهو أصلا موسيقى جوال لا هو فى العير ولا فى النفير، وجاءت به الحملة للقيام بعمليات الرصد لأغانى مصر وموسيقاها ضمن خبراء وصف مصر فما لبث أن تناول الموضوع من قصاراه وراح يفبرك

بالزور وبالبهتان أغانى عن شعبنا تزعم الترحاب بحملة «الجننار راخى العذار» وبأن نساءنا كن يهيئن استقبالات فى فراش مخادعهن لجنود الحملة من مستوى الامتاع الكامل!! ، وكان هذا هو نموذج الجمع الميدانى الذى أورده لنا الجزء الثامن من وصف مصر فى ترجمة زهير الشايب لمكتبة مدبولى سنة ١٩٨٣ وفى مثل هذه العينة البيّنة:

محبوبى لابس برنيطه
ودكته عقده وشنيطه
طلبت وصله قال (أسبيطه) (١)
ما احلي كلامه بالطليان يا سلام
أوحشتنا يا صارى عسكر
نشرب القهوة بسكر
وعسكرك داير يسكر
وفى البلد حبوا النسوان يا سلام
أوحشتنا يا جبننار (٢)
يا حلو ياراخى العذار
من يوم ما جيتنا هل النور
زى القناديل فى البنور يا سلام
ياما أحسنك فرط الرمان (٣)
فى إيديك ماسك فرمان
لما تنادى بالأمان
قلب الرعيه يكون فرحان يا سلام

والآن، فإذا كان من شأن ڤيللوتو الفرنسى أن يروج الأكاذيب للايحاء بأن مصر رحبت بقدوم ووجود الحملة وقائدها وإلى الدرجة التى قدمت نساؤها وفتياتها هدايا لامتاع الجنود، فإن الذى زاد وغطى هو السكوت الأخرس بلا ادنى اعتراض أو حتى الامتعاض بإزاء اتهام نسائنا بالدعارة ورجالنا بالدياثة. وخاصة من فئة الفرانكوفونيين المصريين الذين أوتوا فرصة قراءة وصف مصر فى لغاته الأجنبية قديماوقبل أن يتمكن الشعبيون من قراءته باللغة العربيه فى سنة ١٩٨٣ إنها فعلا فضيحة، وما عاد يمحوها إلا قيام المسئولين فورا بشطب هذه الشناعات رسميا من وصف مصر، وباعلان هذا الاجراء على جميع المحافل الثقافية والتعليمية فى قارات الدنيا، وإلا حقت علينا بالباطل عبارة ذلك المسئول الأمريكى التى اطلقها فى مجال توكيدنا على تحرير أراضينا بأننا مجرد جثث هامدة أو خامدة أو جامدة، نتيجة الاطلاع الأوروبى الواسع على تشنيعات ڤيللوتو علينا فى وصف مصر المنتشر باللغات الاجنبية!!.

وإذا كان الشئ بالشئ يذكر فان النشاط الصهيونى لكوادر علم «الموسيقى المقارن» وبجهود جهازه الحركى فى «جمعية دراسات موسيقات الشرق» كان ولايزال علامة بارزة فى التخطيط والتنفيذ والافادة من فرصة عقد مؤتمر دولى للموسيقى العربية فى القاهرة سنة ١٩٣٢

إبان عهد وزارة اسماعيل صدقى الأولى وما صاحبها من عنف الاضرابات والاضطرابات طوال المدة من ١٩ يوليو سنة ١٩٣٠ حتى ٤ يناير ١٩٣٣. فلقد حضر من ألمانيا للعمل فى رئاسة لجان هذا المؤتمر وعضويته كل من الكوادر: فون هورنبوستل، كورت زاكس، روبرت لاخمان، بول هندميت، هابنتز، ڤولف، واستلفت نظرنا وباصرتنا ما ستره تقرير الصهيونى روبرت لاخمان - باعتباره رئيسا للجنة التسجيل الموسيقى العام للمؤتمر عن موسيقى شبه جزيرة سيناء بالذات، بأنها تختلف اختلافا شديدا عن أغانى بدو الصحراء الغربية وعن أغانى الفيوم وبأن طراز الغناء البدوى الرتيب والذى على وتيرة واحدة يمتد من النيل إلى الغرب على حين تبدو الموسيقى البدوية الأسيوية لشبه جزيرة سيناء من تقاليد مختلفة، وهكذا وبكل بجاحة الصفاقة لم يتردد هذا الكادر الصهيونى فى أن يتقول وهو مطمئن فى بلادنا أمام أسطوات أهلنا الفنانين الذين لم نكن نملك سواهم حينذاك، والذين لايعرفون عن علوم ونظريات وتاريخ وصيغ الموسيقى الا الطقاطيق والدواليب والتحميلات وحركات التغنى الطروب بذل الهوى وأوجاع الغرام ومكايد العزال بالهنك والرنك التتريكيين، اكرر أنه لم يتردد فى أن يدعى بأن موسيقى سيناء المصرية مقطوعة الصلة بمأثورات النغم المصرى انقطاعها عن بقية موسيقات البدو فى البلاد العربية !! وهذا على حين اثبتت الدراسات الميدانية المبرأة من غرض المرض الصهيونى أن أغانى حداء الإبل وسقياها وأغانى تخصيب النخيل، موجودة فى سيناء وجودها فى جميع بوادى العرب ، وأن صيغة الموال السيناوى هى هى سواء فى مصر أو فى البلاد العربية من تفعيلات البحر البسيط وبأسلوب الغناء المرسل، وأن رقصة الدحية ومترادفاتها فى سيناء من الرادى والمربوع لها نظائرها فى رقصة كف العرب بمحافظة الشرقية فى الدلتا، وفى رقصة المربوع بمركز دراو فى محافظة أسوان فضلا عن ثبوت استخدامها فى كل من الأردن والعراق ، وأن صنوف الاراغيل والنايات والرباب ومزامير الخشب ومسميات الطنبوره بالسمسمية فى مدن القتال وعند صيادى السمك فى بحيرة البردويل بسيناء وبالباسنكوب فى مثلث حلايب، إنما تكشف عن وحدة النوع والاتفاق فى وظيفة استخدامه مع اختلاف فى المسميات.. لكن غرض المرض الذى يستنطق كوادرهم بأنهم بناة الاهرام، هو الذى يطلق ألسنتهم بأن موسيقى شبه جزيرة سيناء ليست لغير شعب الله المختار إياه، وبأن سيناء ليست سوى جزء من أرض

اسرائيل إياها!! Erets israel ونحن لا ننسى للحظة أن الكادر روبرت لاخمان قد تمكن بالخبث وبالدهاء من تجميع كل تسجيلات فرق المؤتمر من مصر وسوريا ولبنان والعراق وتونس والجزائر ومراكش فى حصيلة بلغت ألفا وخمسمائة نموذج، وتضمنت موسيقى الشمال الافريقى وموسيقى المذاهب اليهودية القديمة، ولبعض كنائس الشرق ولجميع ما يستخدم من ألوان العزف والغناء فى كل من مصر وسوريا والعراق إذ أخذها وانتقل بها نهائيا إلى القدس فى ١٩٣٥ حيث أنشأ له بها الصهاينة قسما لموسيقى الشرق الأوسط فى الجامعة العبرية وأوكلوا اليه رئاسته ومن ثم هرولت مجلة معهد الموسيقى الشرقية برئاسة تحرير الحفنى لارسال آخر التهانى إلى الجامعة العبرية ولرئاسة قسم الموسيقى الجديد فى شخص روبرت لاخمان عددها الصادر فى يوم السادس عشر من مايو سنة ١٩٣٥!!.

وهكذا كان قد ارتبط علم الموسيقى المقارن مع كوادره وتلامذتهم بالتوضيب التخطيطى بسلب جميع مأثورات الموسيقى العربية وترحيلها إلى «اسرائيل المستقبل» للانتفاع بها على النحو الصهيونى ، وكان دور هانز هيكمان ينصب على دراسة صلة الموسيقى القبطية بالفرعونية وبأن يعاون بريجيت شيفر فى رحلتها إلى واحة سيوة لدراسة منطقة التماس الحدودية الغربية مع ليبيا فى سنة ١٩٣٣ ، وأن يرافق الدوق مكلنبرج فى دراسة منطقة التماس الحدودية مع السودان بدءا من صعيد مصر الأعلى، وأن يقتصر دور بريجيت شيفر على درسها لواحة سيوه وأن يتولى روبرت لاخمان دراسة منطقته شمال سيناء باعتبارها منطقة الحدود الشرقية مع العرب، وأن يسطو على شتى نماذج المأثورات الموسيقية لجميع الشقيقات العربية ومصر ويقدمها لاسرائيل المستقبل!! وعساى بعد أن أكون قد أوضحت الغوامض ، وربطت النتائج بمسبباتها وديناميكيات تحريكها.

---

(١) «أسبيطة» : aspetta لفظ إيطالي يقال فى طلب التريث

(٢) جبننار: النطق الشعبى للفظ «الجنرال»

(٣) «فرط الرمان» : النطق الشعبى لاسم برتولمى الذى عينته الحملة قائدا لما كان يعرف بجيش الشرق ثم عهدت اليه بأمن القاهرة.

زهرة البن

بقلم : صنع الله ابراهيم



من النادر الآن أن يقع المرء على قصة جميلة تدخل القلب دون مساعدة أدوات الحداثة المرعبة والمعقدة! وهذه الرواية الفاتنة (زهرة البن) للكاتب اليمنى «على محمد زيد» مثل على ذلك. فهى قصة بسيطة للغاية رواها الكاتب بعذوبة بالغة ورغبة حارقة فى التواصل فحرك لدى القارىء أمواجا وراء أمواج من الذكريات والتساؤلات والأشواق.

وتكاد العبارة الافتتاحية للرواية أن تلخصها كلها: «من مشنقة إلى مشنقة فرج»، وهو مثل يمنى يعنى: من «سجن إلى سجن» ويصور حياة بطلها التى ترويها الرواية على خلفية من تاريخ اليمن الحديث.

أحمد شاب يمنى بسيط يبدأ مراهقته فى السجن حيث قبض عليه رجال الإمام (آخر ملوك اليمن) بتهمة ملفقة موجهة أساسا لأبيه، لفقها رجال «القلعة» وهو الاسم الذى عرف به المركز الإدارى المحلىء ليغطوا على سرقاتهم. وظل الاثنان فى السجن مقيدين بالحديد إلى أن مات الأب وتمكن المراهق من الهرب إلى عدن التى كانت قبلة الفارين من عسف الإمام والباحثين عن عمل والراغبين فى الهجرة.

فى عدن ينضم إلى جيوش الباحثين عن عمل الراقدين فى الطرقات إلى أن يقوده «الحظ النحس» إلى العمل بائعا للأيس كريم لدى مطلقة متوسطة العمر تعيش مع أمها الأرملة. تبدأ «عيشة» صاحبة العمل فى نسج شباكها حوله. فتأويه فى بيتها وتحقق له حلمه فى امتلاك راديو. ومن خلال هذا الراديو يتعرف على العالم ويسمع صوت الزعيمين الثائرين «الزبيرى ونعمان» يهاجمان الإمام فى «صوت العرب» كما تتوطد العلاقة بينه وبين جمال عبدالناصر وشعارات الحرية والقومية. تحكم «عيشة» الحصار من حوله كى يتزوجها فيجد نفسه على شفا «من سجن إلى سجن فرج». يهرب إلى الشارع وإلى مظاهرة ضد الانجليز تردد شعارات لايفهم معناها فينضم اليها ويتزعمها ويقبض عليه الانجليز ويعذبونه ويسجنونه لكنه يتمكن من الهرب.

يعود إلى قريته ليفتح دكانا متواضعا لزبائن أكثر تواضعا. يقع فى حب «زهرة»، الابنة الوحيدة لمزارع. فتاة رائعة ذات جمال وكبرياء لايريد أبوها التخلى عنها ويبعد عنها الخطاب. عندما يتأكد أنها تبادله المشاعر يتقدم لها لكن والدها يرفضه كالعادة فيتعاهدان بالدم الذى تسيله بغرز ابرة فى باطن اصبعها. ويشعر الأب بخطورة الأمر فيقدم على خطوة غريبة كى يقطع عليهما الطريق. يوافق على تزويجها لأحد رجال القلعة: عجوز مزواج، وتقاوم «زهرة» الزواج بدون جدوى فتنتقل إلى منزل العجوز لكنها لا تسلم نفسها اليه فيضربها ويطردها. ويعيدها

أبوها غصبا إلى زوجها فتقاومه عندما يحاول اغتصابها وينتهى بها الأمر أن تقيم فى منزله فى وضع لا هو بالزوجة ولا بالمطلقة. أما أحمد فتتراكم عليه الضرائب الفادحة التى يفرضها رجال الإمام ويتفننون فى جبايتها لدرجة الاقامة فى منزل الضحية والتعيش على حسابه. النقطة المضيئة الوحيدة فى حياته هى الراديو الذى يسمع من خلاله فى يوم ٢٦ - ٩ - ١٩٦٢ نبأ الثورة. الناس لا تصدق أو تخشى التصديق وعلى كل لم يتغير الكثير فى حياتهم. فباسم الجمهورية يواصل قائد القلعة التحكم فى المنطقة وأهاليها. لكن الظروف أصبحت مهيأة لأن تتطلق زهرة من العجوز وتتزوج أحمد.

تحققت أحلامه أخيرا. لكنه لم يعد ذلك المراهق الساذج الجاهل. لقد تغير كثيرا. إنه «يتابع بكل جوارحه الوضع الجديد. أغرب ما فيه انشغال المذياع كل ليلة بقراءة قائمة طويلة من الترقيات للمؤلفة قلوبهم من العسكر القديم». (يقصد الكاتب الملكيين الذين ألف بينهم الذهب السعودى). وسرعان ما يتطلع للدفاع عن الثورة فى الشمال والاشتراك فى الحرب التى دارت بين الجمهوريين المدعومين من مصر والملكيين المدعومين من السعودية واستمرت ثمانى سنوات حتى سنة ١٩٧٠. ويترك زوجته ويسافر الى صنعاء لينضم إلى حشود فوضوية ويشترك فى معركة تنتهى بالوقوع فى أسر الملكيين. حصار جديد فى يد جنود من العصور الوسطى يعتبرون الجمهورى كافرا معاديا للإسلام ومؤمنا بمشاعية الملكية والزوجة!! مرة أخرى «مشنقة فرج».

وتتكشف المأساة اليمنية: إن شيئا لم يتغير بعد انتهاء النظام الملكى. العسكر على بؤس حالهم أيام الإمام انقلبوا عليه ولما أتت الثورة استولوا على السلطة ومارسوا على الشعب ما هو أفظع.

لكن أجمل صفحات الرواية تتجلى عندما يأتى ذكر المرأة: إنها دائما قوية الشخصية مبادرة متحررة من أغلال الأفكار العتيقة. بدءا من زهرة إلى عيشة صاحبة تجارة الأيس كريم إلى أميرة القلعة التى كانت تكبر أحمد فى السن وتدير مقهاية «تبث دفء المشاعر فى زمهرير القلعة باشراق ضحكاتها المجلجلة فى جرأة لا تحدها قيود الحشمة المتصنعة أو المفروضة فى مكان داعر».

سر عذوبة هذه الرواية هى بساطتها و«براءتها» وما تنبض به صفحاتها من شبق الى الحياة والحب والحرية. وربما أضر بها المؤلف عندما حاول أن يجارى بعض التكنيكات الحديثة فاعتمد تداخل الأزمنة. فى ظنى أنه تصور أن ذلك يمكنه من ابراز عقم التغيير الذى حدث فى اليمن، لكنه من ناحية أخرى أربك القارىء الذى لايعرف تفاصيل التطورات التاريخية. ومن حسن حظى أنى قرأت نسخة قام أحد أصدقاء المؤلف باضافة هوامش بسيطة اليها بالقلم الرصاص اضاءت التطورات وأيقظت الذكريات.

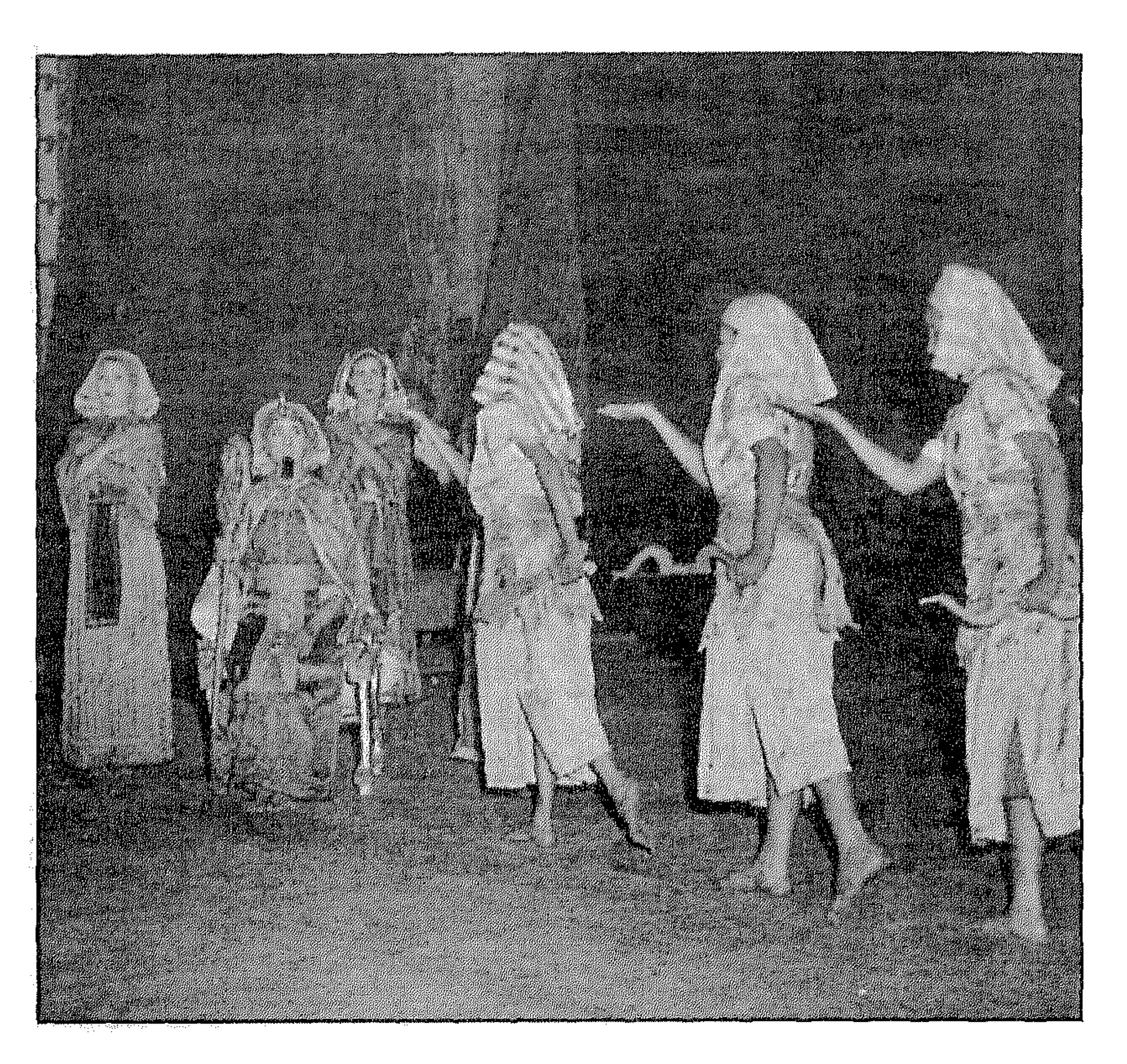
ولعل هذا يطرح من جديد مسئوليات الناشر. التصور السائد حاليا أنه مجرد شخص يوافق على نشر عمل فيعهد به الى المطبعة وانتهينا! لكن الناشر الحقيقى له دور أكبر سواء قام به بنفسه أو بواسطة أحد المحترفين: يراجع النص و يخلصه من الأخطاء اللغوية أو التناقضات العادية التى يقع فيها كل مؤلف (فى هذه الرواية مثلا يدعى زوج زهرة العجوز مرة حسين ومرة أخرى حمود) وربما يقترح اضافة أو حذف فقرة أو فصل أو اعادة بناء أو هوامش تعين على الفهم. وفى حالة هذه الرواية الفاتنة كان يتعين على الناشر أن يميز فقرات الفلاش باك بحرف طباعى مختلف أو أى طريقة أخرى.

المسرح في مصر القديمة

● كلمات قبطية فى اللهجة المصرية.
● مقارنة بين الخطابات إلى الإمام الشافعى وما يبعثه المصريون القدماء إلى موتاهم.

بقلم: د. مجدى يوسف

ذهبت من باب حب الاستطلاع لأشاهد المؤتمر الثامن للجمعية الدولية لعلماء المصريات القديمة الذى عقد فى فندق ميناهاوس تحت سفح الأهرام. ولكن ما أن اطلعت على برنامجه وتصفحت الكتاب الذى احتوى على ملخصات أبحاثه، وهو باللغات الثلاث التالية: الانجليزية، والفرنسية، والألمانية، حتى تبينت أنه كان فى إمكانى أن أسهم فى هذا المؤتمر ببحث قمت به منذ ربع قرن حول المسرح المصرى القديم وعلاقته بتحريرنا نحن المصريين



المحدثين من التصور السائد بأن المسرح ظاهرة إغريقية لم تعرفها مصر القديمة، وهى النظرية التقليدية التى تأسست على كتاب «إتين دريوتون» عن «المسرح المصرى القديم» وتصوره الذى شاركه فيه «سيته» الألمانى بأن مصر القديمة لم تعرف المسرح كما عرفته اليونان العتيقة، وإنما اقتصر على أداء الطقوس الدينية فى داخل المعابد على عكس ما فعل الإغريق من عروض مسرحية فى الخلاء.

أقول إن هذا الاعتقاد الذي ذهب إليه كل من «دريوتون»، الذي كان مديرا للمتحف المصري، و«سيته» عالم المصريات القديمة الألماني المعروف، قد ذهب أدراج الرياح عندما أصدر «فيرمان» الانجليزي كتابه «نصرة حورس» عام ١٩٧٤. فقد أدت قراءة «فيرمان» للنصوص المصرية القديمة علي أكتاف معبد الكرنك إلي ترجمة مختلفة عن تلك التي توصل إليها «دريوتون»، وذلك من خلال ربط هذه النصوص بالرسوم المجاورة لها، وقراءتها كوحدة واحدة، وهو ما لم يفعله «دريوتون» إذ فصل بين النصوص والرسوم. ولقد أدت طريقة «فيرمان» هذه إلي انقلاب في فهم النص المصري القديم، إذ تبين من الترجمة الجديدة أن المصريين القدماء عرفوا المسرح في الخلاء علي ضفاف بحيرة الكرنك حيث كانوا يقدمون عرض «نصرة حورس» لمبايعة الحاكم.

منهج جديد لقراءة النصوص القديمة

إلي هنا كان انجاز «فيرمان» في فتح الباب أمام منهج جديد في قراءة النصوص المصرية القديمة، فما دوري إذن وأنا لست متخصصا في المدسريات القديمة، ولا أستطيع أن أفك شفرة كتابتها، بل قل أني أكاد أن أكون أميا في تلك اللغة؟ لقد استفدت بما توصل إليه نقد «فيرمان» لقراءة معاصريه وأسلافه للمصرية القديمة، وقمت بتوظيفه لنقد ما أسميته «عقدة دريوتون» أو التصور السائد في دراساتنا المسرحية المعاصرة بأن المسرح ظاهرة غربية المصدر إغريقية الأصول، لم يكن لها نظير في مصر القديمة، وهو ما ترتب عليه تبعية ثقافية للمسارح الغربية ولهفة علي «اللحاق بها» وتوطين موداتها، وأكسسواراتها وديكوراتها، بل وتعبيراتها الخاصة بفنون عرضها. والأغرب من ذلك أن محاولات التحرر من هذه التبعية المسرحية التي شاهدناها خلال الستينات علي أيدي علي الراعي ويوسف إدريس كانت تتوقف في تأصيلها التاريخي لظاهرة المسرح في مصر عند بابات ابن دانيال، أي القرن الثالث عشر الميلادي، أما مصر القديمة فلم يجرؤ أي منهما أو غيرهما علي أن يرصد فيها ظاهرة المسرح، إذ كان دريوتون بكتابه الذي نشره بالفرنسية أثناء الأربعينات، ثم ترجمه إلي العربية ثروت عكاشة أثناء الستينات «نشر في ١٩٦٧ لازال مخيما علي الثقافة المصرية قاطعا عليها الطريق في البحث عن سبل للتحرر الثقافي من هيمنة النماذج الغربية بحجة أن أجدادنا القدامي لم يعرفوا هذا الفن، وأنه استحدث مع «النهضة الحديثة» التي أتت في أعقاب الحملة (وصحتها الغزوة) الفرنسية لمصر أذكر علي سبيل المثال: محمد يوسف نجم «المسرحية في الأدب العربي الحديث، بيروت ١٩٥٦» ولويس عوض الذي طلع علينا بنظريته في تفسير افتقار ثقافتنا إلي ظاهرة المسرح بينما ظهرت وترعرعت عند اليونانيين القدماء، بأن حضارتنا زراعية سكونية، بينما ثقافة الإغريق تجارية، ديناميه والمسرح صراع

وجدل لا ينشأ إلا في مثل تلك المجتمعات الغربية، أما حضارتنا الزراعية فلم تكن قادرة سوي علي انتاج السير والاقاصيص، وأننا من خلال اتصالنا بالغرب في العصر الحديث، وتحول حضارتنا من الزراعة نحو التجارة أصبحنا «قادرين» علي أن ننتج ونستقبل هذا الفن الذي استزرعناه في أرضنا الثقافية.

افتقار ثقافتنا إلى المسرح

والطريف أن لويس عوض كان يحاضر طلبة معهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية في نظريته هذه التي تم طبعها ضمن محاضراته في كتاب حرصا منه ومن المعهد علي «تعميم» الفائدة المرجوة منها!!.

استعنت إذن بنقد «فيرمان» لقراءة «دريوتون» لنصوص المسرح المصرى القديم فى نقض تأصيل تبعيتنا المسرحية للنماذج الغربية، ومحاولة محاكاة هذه الأخيرة فى أساليب عرضها وأنماطها باسم التقدم والعصرنة ! ولكنى لم يطف بذهنى أبدا أن أكون باحثا فى المصريات القديمة وأنا أمى فى أبجدية لغتها .. إلى أن حضرت جلسات هذا المؤتمر الذى عقد فى ظلال أهرامات الجيزة. فعلى العكس مما نعرفه عن الدراسات المصرية القديمة من توجه محض فيلولوجي لغوى ، أو حفرى أثرى ، تطغى فيه اشكالية التعرف على الأجزاء على منهجية اكتشاف العلاقات وتفسيرها انطلاقا من معرفتنا المعاصرة ، إذ بهذا المؤتمر يفوق كل التوقعات ، فأنت تجد فيه من يحدثك عن الطب الفرعونى وطرق العلاج الحديث لأمراض القلب «روجوريو دى سوزا من البرتغال» وعن مصر القديمة كيف أنها لازالت حية فى مصر الحديثة من خلال شهورها القمرية، وعاداتها الشعبية التى لازالت قائمة حتى يومنا هذا فى أوساطنا الشعبية والفلاحية، وهو بحث قدمه السيد م.أ. نور الدين - وهو مصرى عربى فيما اعتقد - «يفضل أن يختزل اسميه الأول والثانى إلى حرفيهما الأولين على الطريقة الغربية» !! وتجد آخرين لايفعلون كالسيد نور الدين فيفصحون عن أسمائهم التى تحملها ورقاتهم المتميزة، كتلك التى قدمها أشرف فتحى فى دراسته اللغوية الاجتماعية للكلمات المصرية القديمة فى اللغة العربية، ككلمة «طفل» التى تعنى «يتيما» بالمصرية القديمة، حيث يتابع الباحث العلاقة بين دلالتى اللفظين من منظور اجتماعى يبحث فى تعريف ظاهرة «اليتم» من خلال فقدان أى من الأبوين .

تأصيل للأمثال المصرية الشعبية

وهذا عبد الحميد يوسف يقدم ورقة عنوانها «كلمات قبطية فى اللهجة العامية المصرية» يؤصل فيها للأمثال المصرية الشعبية السائدة حتى يومنا هذا «مصر أم الدنيا واللى ينسى قديمه يتوه» وأسماء لأشخاص مصريين لازلنا نسمعها حتى يومنا هذا مثل باهور، وأبنوب، فضلا عن الأشهر القبطية التى لازال الفلاح المصرى يستخدمها فى حياته اليومية «توت و«هاتور» الخ .

كما تجد بحثا عنوانه «خطابات إلى

الأموات : دراسة مقارنة بين مصر القديمة والحديثة»، قدمه الباحث هشام الليثى مقارنا بين الخطابات التى يوجهها الأحياء فى أيامنا هذه الى الإمام الشافعى فى ضريحه ، وتلك التى كان أجدادنا القدماء يبعثون بها إلى موتاهم، ولكنك تعجب أن هذه الأبحاث جميعها التى قدمها مصريون الى جانب زملائهم الأجانب، لم يلق واحد منها باللغة العربية، وإنما بالانجليزية أو الفرنسية، وفى بعض الأحيان بالألمانية، والحقيقة أنى أشفقت كثيرا على باحثة مصرية تقوم بالتدريس فى إحدى جامعاتنا، ـ ولا داعى لذكر اسمها ـ كانت تقدم بحثا عن نشأة طقس «حتحور» «إلهة الخصوبة» فى الديانة المصرية القديمة بلغة ألمانية مضعضعة ، فعلام كل هذا العناء وكان بمقدورها أن تقدم ورقتها بلغتها العربية، بينما تقرأ ترجمتها باللغات الأجنبية ليستمع إليها ضيوفنا الأجانب، كل بلغته من خلال سماعات خاصة؟! على أية حال، سأتعرض لهذه القضية فى ختام هذا المقال.

دراسة فى الاختلافات الانثروبولوجية

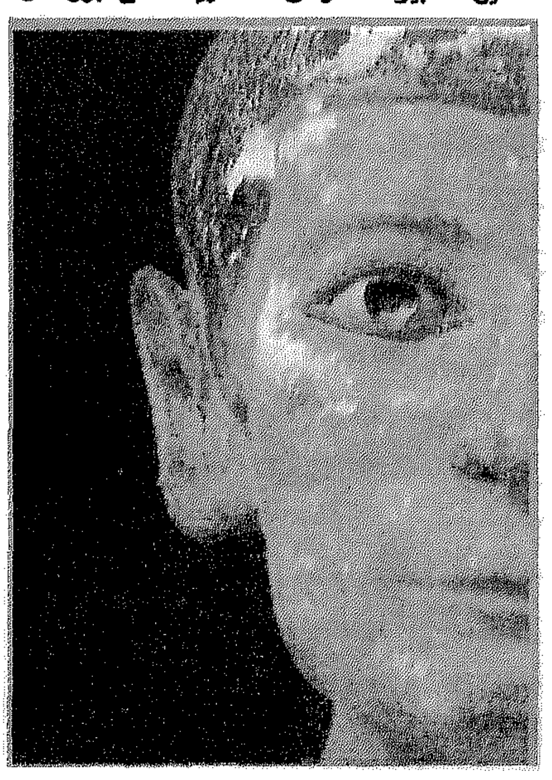
أما البحث الذى شد اهتمامى بقوة، فهو ذلك الذى قدمته الدكتورة عزة محمد سرى الدين، الباحثة فى قسم الوراثة البشرية، فرع الأنثروبولوجيا الفيزيقية بالمجلس القومى للبحوث، وموضوعه «الاختلافات الأنثروبولوجية بين العمال «الذين شيدوا الأهرام» وكبار الموظفين فى المملكة القديمة فى الجيزة» ، وهو تلخيص ومتابعة لبحث مقارن فى الهياكل العظمية لكل من العاملين فى بناء الأهرامات بسواعدهم ، ومن أشرفوا على البناء من «النبلاء»، كانت قد تقدمت به الباحثة لنيل درجة الدكتوراه فى الانثروبولوجيا الطبيعية من معهد الدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة عام ١٩٩٥، تحت إشراف أستاذتها الدكتورة فوزية حلمى حسين ، التى اقترحت عليها موضوع الدرس، وكانت خير موجهة لها فيه، والباحثة بهذه المناسبة ليست متخصصة فى المصريات القديمة بالمعنى اللغوى الفيلولوجى، وإنما هى طبيبة أسنان فى الأصل تخصصت فى البحث الأنثروبولوجى الطبيعى للبقايا البشرية القديمة، ولاسيما العظام والأسنان، تستنطقها ما كان يقوم به الأحياء آنذاك ، وقد دفعنى اهتمامى ببحثها إلى الاتصال بها والاطلاع على رسالة الدكتوراه التى هى أساس هذه الورقة، وكانت قد قدمتها باللغة الانجليزية لجامعة القاهرة . فتأسيت غاية التأسى لأنها لم تكن باللغة العربية، اللغة الأم للباحثة، وليكن لها مخلص أو ملخصات بأكثر من لغة أجنبية، أما أن تكتب بالانجليزية لتخاطب عربا فى عقر دورهم فهو ما لا أفهمه ولا أجد له مبررا، وقد يرى البعض أن فى درس الظاهرة مناط البحث بلغة أجنبية غنية بإنتاج المعارف فى هذا التخصص مافيه تقوية للباحث الذى يتجشم عناء صياغة دراسته بلغة هى ليست لغته الأم مهما تمرس بها ولكنى أرى فى ذلك انتقاصا

من ثقتنا بأنفسنا على إنتاج المعرفة التخصصية الدقيقة، فلا مانع أبدا بل يتعين إجادة الاطلاع باللغات الأجنبية الغنية بالأبحاث المنشورة فى فرع التخصص، أما الإنتاج البحثى فلا يكون أصيلا فى ثقافته إلا فى الوعاء المفاهيمى للغة القومية، وقد أثبتت الباحثة أنها قادرة على الأداء البحثى المتميز ، ومن ثم على إنتاج المعرفة التخصصية، فلم لا تصيغها بلغتها القومية. وتلخصها أو يلخصها من شاء بأى لغة أجنبية، ليس فى هذا المطلب تحزب لدعوة قومية، وإن كان الطب يدرس - مثلا - فى سوريا بالعربية، ولازال يدرس عندنا بالانجليزية، بل أن بعض أطبائنا فى مصر لايؤلفون فى تخصصاتهم سوى بالانجليزية، وأحدهم دون على الغلاف الخلفى لكتاب له صدر بالعربية أنه يزهو بأن كتابه هذا ترجم الى الانجليزية ليدرس على طلبة كليات الطب «ليس فى انجلترا أو أمريكا» وإنما فى الجامعات المصرية !! وهذا طبيب آخر شغل طوال عمره يدرس الطب فى مصر القديمة، وإذ به ينشر خلاصة بحثه وجهده فى كتاب بالانجليزية عن الطب المصرى القديم لتطبعه الهيئة العامة للكتاب التابعة لوزارة الثقافة !!.

إدعاء غير صحيح

فإن يدعى مستشرق متحيز بأن اللغة العربية غير قادرة على استيعاب أو صياغة المفاهيم العلمية الحديثة ، هو ما يجب التصدى لتفنيده بالوثائق والحجج الملموسة ، أما أن ينبأ سلوكنا - نحن أبناء العروبة - عما يدعم مثل هذه الإدعاءات العنصرية بإزائنا، بأن «نتحلى» بالتأليف باللغات الأجنبية ونحن نخاطب أنفسنا فى عقر دارنا فهو مالا أفهمه ولا قدرة لى على استيعابه. ولست أقول ذلك لأنى أخاصم اللغات الأجنبية فلى إنتاج بحثى منشور بست لغات أوربية أكتب وأحاضر فى مستوى النشر العلمى بثلاث منها، وأقرأ وأطلع بثلاث أخر غيرها، إنما حين أكتب بأى منها أوجه رسالتى إلى أصحاب تلك اللغة مناقشا قضاياهم الفكرية والثقافية وصورهم عن أنفسهم وعن سواهم من أصحاب الثقافات المغايرة. أما أن يكتب أحد منها إليهم بالعربية، فذلك لايكون إلا على سبيل تدريب المستعربين منهم على لغتنا القومية، وقد طالعت بنفسي خطابا باللغة العربية كان قد بعث به المستعرب الألمانى الشهير «ارنست فيشر» الذى كان عضوا مراسلا للمجمع اللغوى بالقاهرة، الى تلميذته المستعربة الشهيرة «أنيمارى شيمل» يشكو اليها فيه تخوفه من ضياع جهوده التى بذلها فى وضع معجم اللغة العربية القديمة بسبب ما أحدثته الحرب العالمية الثانية من دمار، وقد ثبت بعد الحرب أن مخاوف الأستاذ «فيشر» لم تكن فى محلها، وأن معجمه كان مصونا، فإن يكتب مستعرب غربى مولع بالعربية الي زميلة له خطابا باللغة العربية لايعنى أن هذه هى القاعدة فى الدراسات المهتمة بالعربية فى ألمانيا، إذ أنها لاتدرس إلا بالألمانية، وقس على ذلك بسائر اللغات الأوربية الأخرى فى أوطانها .

عين الخبير.. معرض المصريات فى بروكسل



عصر بناة الاهرام - معرض المتروبوليتان

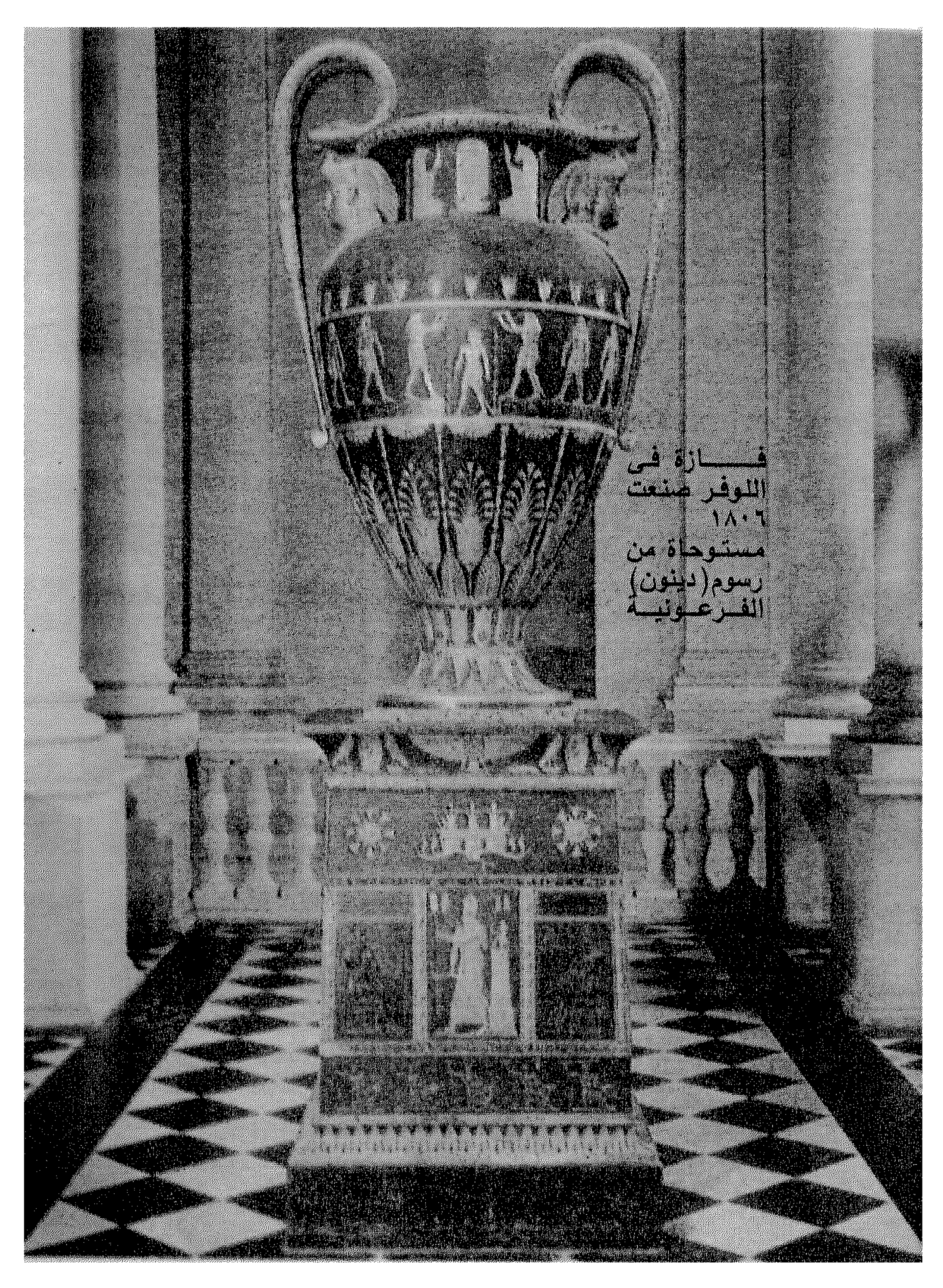


الولع بالمصريات

الشغف بالفنون الفرعونية القديمة ليس مذهبا فنيا يذهب بذهاب زمانه

بقلم: د. محمد المهدي (*)

* أستاذ بكلية التربية ومستشار دار الآثار الاسلامية فى الكويت



فـــازة في
اللوفر صنعت
١٨٠٦
مستوحاة من
رسوم(دينون)
الفـرعـونيـة

«الولع بالمصريات ليس مدرسة غريبة يخلق خلالها السابق الآتى، ويخلق الآتى اللاحق، بل انها تمثل بمصر القديمة فى ابداعات مختلفة، استمرت خمسة قرون ومازالت قائمة، على اعتبار انها لا تمثل مذهبا فنيا يمكن الخروج عليه، ولكنها منبعا خصبا للاستلهام منه فى كل عصر

كانت هدية باريس لسكانها من فرنسيين وغيرهم فى عيد الميلاد، هى فتح أبواب «اللوفر» الجديد للزوار مجانا من الساعة السادسة بعد الظهر الى الساعة العاشرة مساء، تتابعت صور الأخبار تسجل صفوفا متراصة طويلة أمام هرم «اللوفر» الشفاف للوصول الى قاعة الفرعونيات الجديدة. وقد تجاوز الرواد فى اليوم الأول ٣٠،٠٠٠ سجلت التحليلات المتأنية، والتعليقات السريعة، والهمسات الدافئة، أنها عودة الى الهوس بالمصريات .

مكتشف حجر رشيد

الهوس أو الولع بالمصريات . أو ما يمكن أن نسميه بالتمصر "EGYPTOMANIE" مصطلح مستقر فى تاريخ الفن التشكيلى الغربى. يستعاد معه الزمن المفقود بين الحين والآخر .. وفى فرنسا خاصة، فى عام ١٩٧٢ أعيد تشكيل واخراج أوبرا «عايدة» بمناسبة مائة عام على عرضها. وفى عام ١٩٩٠ قام احتفال (اعادة اكتشاف مصر). أعيد فيه الحديث عن (جان فرنسوا شمبليون) قارئ حجر رشيد ، ومكتشف الأبجدية المصرية القديمة، بمناسبة مرور ٢٠٠ عام على ميلاده. وأقام معهد العالم العربى فى باريس معرض (مصر .. مصر) . وجرى عام ١٩٩٨ استعادة ذكرى الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨) ، وأهم حدث ثقافى أنتجته كتاب (وصف مصر) . الموسوعة المعرفية المهمة، وفى فبراير عام ١٩٩٩ جعل (قصر الفنون الجميلة) فى بروكسل عين الكاتب المصرى شعارا لمعرضها حول الاثار الفرعونية تحت عنوان (عين الخبير) ومن سبتمبر إلى أكتوبر عام ١٩٩٩ أقام متحف (المتروبوليتان) للفن معرض (عصر بناة الاهرامات) احتفالا بالدولة القديمة من تاريخ مصر الفرعونية مع حلول الألفية الثالثة. وفى ليلة رأس السنة الجديدة والألفية الجديدة حولت عروض الأهرام فى مصر الشغف بالمصريات الى بريق كونى. وأقيم - أبريل الماضي - فى تورنتو بـ كندا معرض (عصر بناة الاهرامات) ويستمر خلال هذا الشهر ويضم نحو مائتى تحفة جمعت من ثلاثين متحفا .

وفى مجال الإصدارات صدر عن مكتبة الأسرة (الهيئة المصرية العامة للكتاب) كتاب (مصر ولع فرنسى) لمؤلفه (روبير سوليه) جاءت صفحاته انطباعات حميمة لكاتب عاش وعشق مصر ، ولكنها لم تكن دراسة أكاديمية بالمعنى الدقيق لظاهرة (التمصر) فى العالم. لذلك ما يزال كتاب (التمصر فى الفن الغربى) (L'EGYPTOMANIE .DANS L'ART, OCCIDENTAL) لمؤلفه (جان مارسيل هامبير -JEAN MARCEL, HUMBERT) . أهم دراسة موثقة لظاهرة التمصر أو الشغف بالمصريات. يقع الكتاب فى ٣٣٦ صفحة من القطع الكبير والطباعة الفاخرة، ويضم ما يزيد على ٢٠٠ لوحة ملونة تتابع هذه الظاهرة زمانا على مدى خمسة قرون كاملة. من القرن ١٦ م والى الآن. وتتابعها مكانا فى مدن أوربية وأمريكية عديدة. وتتابعها تحفا ساحرة تنداح من أدوات الزينة الى الأزياء، ومن المنحوتات واللوحات الى الديكور الداخلى والاثاث، ومن الواجهات الى العمارة والساحات، ومن فنون الأوبرا والباليه الى السينما والاعلان .

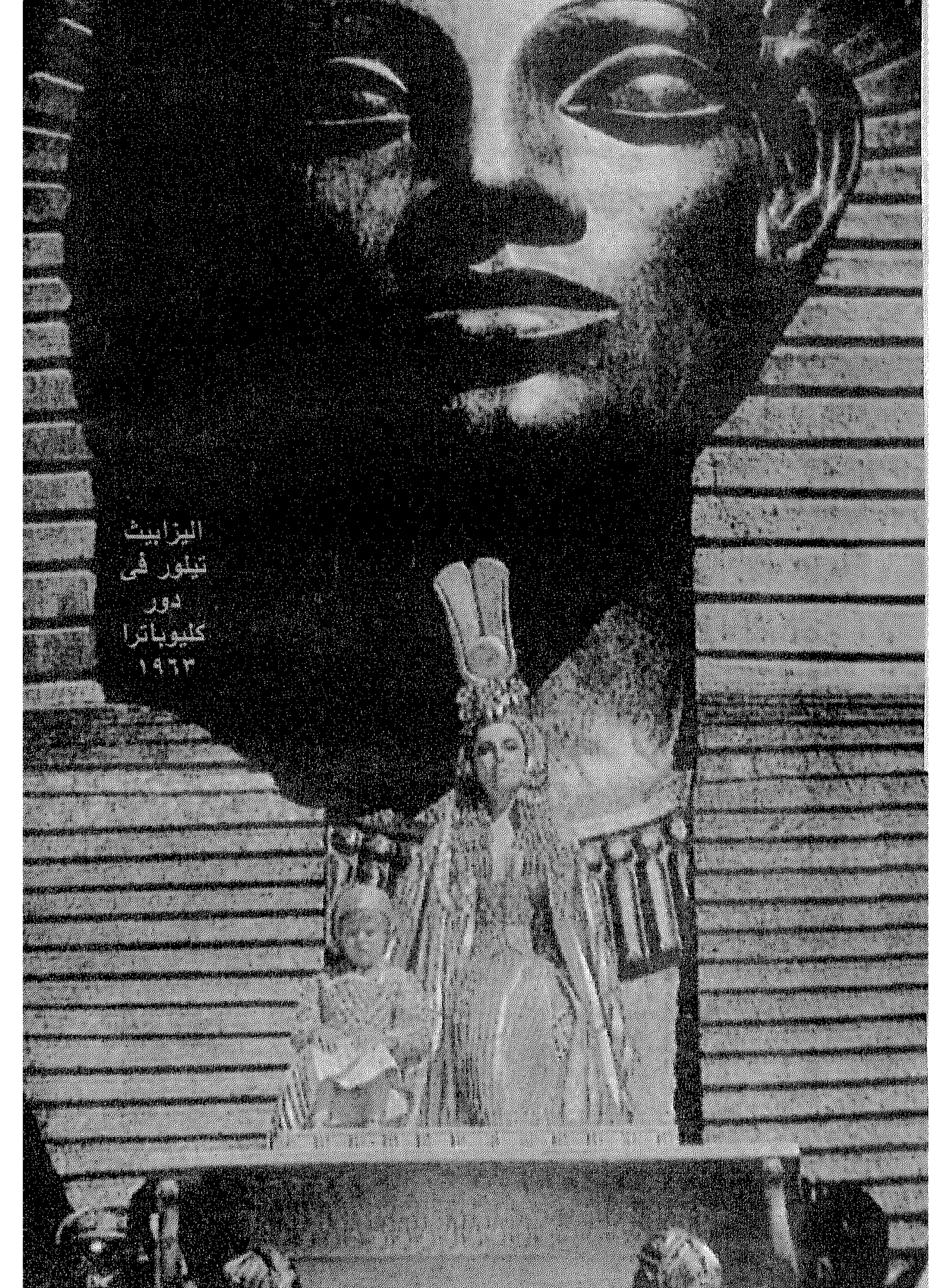
من انطوانيت الى ثوار فرنسا

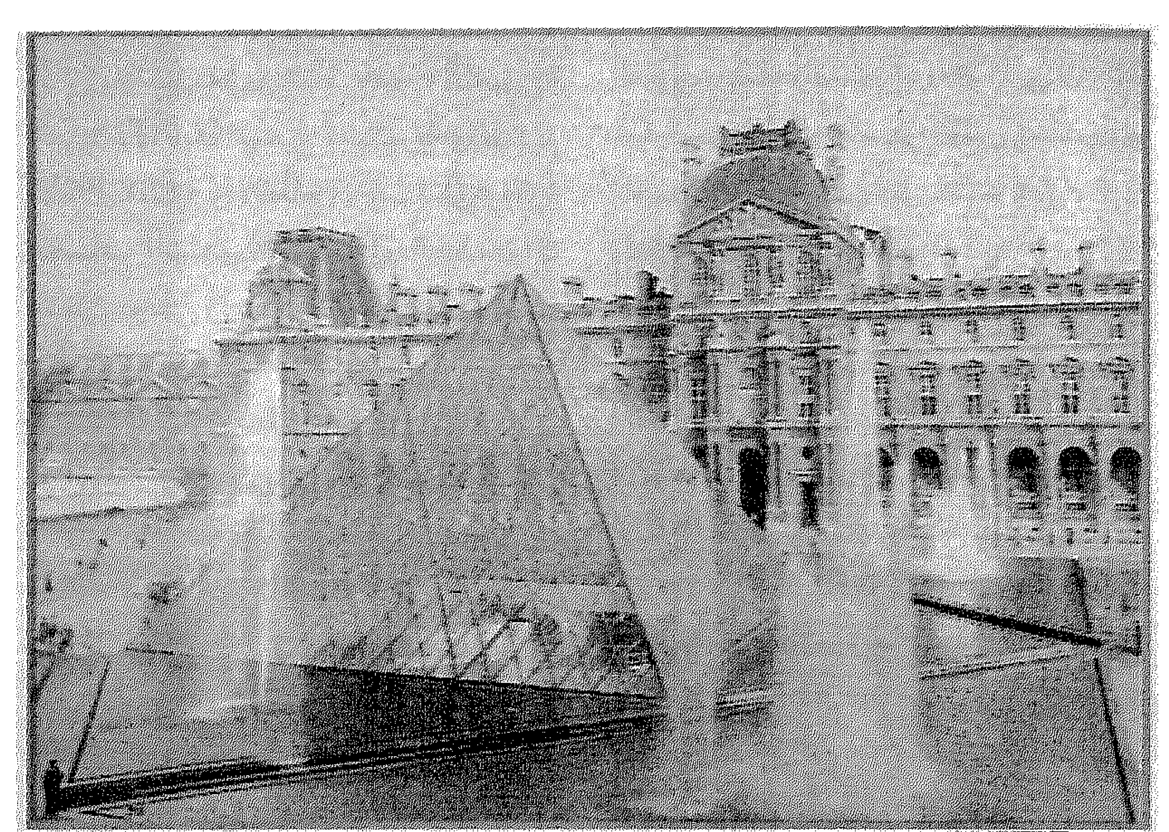
لم يكن (التمصر) أو الشغف بالمصريات موضة عابرة. كان ومازال تيارا عاما للأفكار مدفوعا بقوة كبيرة. اذا توقفنا معه قبيل الثورة الفرنسية التى قامت ١٧٨٩ سنراه منتشرا فى قصور الملكية الفرنسية. نماذج لأبى الهول، ديكورات داخلية تستخدم بشكل واضح عناصر مصرية. أجنحة مختلفة للملكة (مارى انطوانيت) تشكلت بأدوات مصرية.

لقد لعبت هذه الملكة دورا مهما فى نشر النموذج المصرى فى فرنسا خاصة، وفى أوربا بشكل عام. أضافت تماثيل «ابو الهول» لديكور غرفتها فى (فرساى)، وفى صالونها فى (فونتينبلو) . اختارت بنفسها بين الموضوعات الفنية التى تزين عرشها قارة كبيرة من اللازود قوائمها على شكل «ابو الهول» لتوضع فوق مدفئتها فى قصر «فرساى».

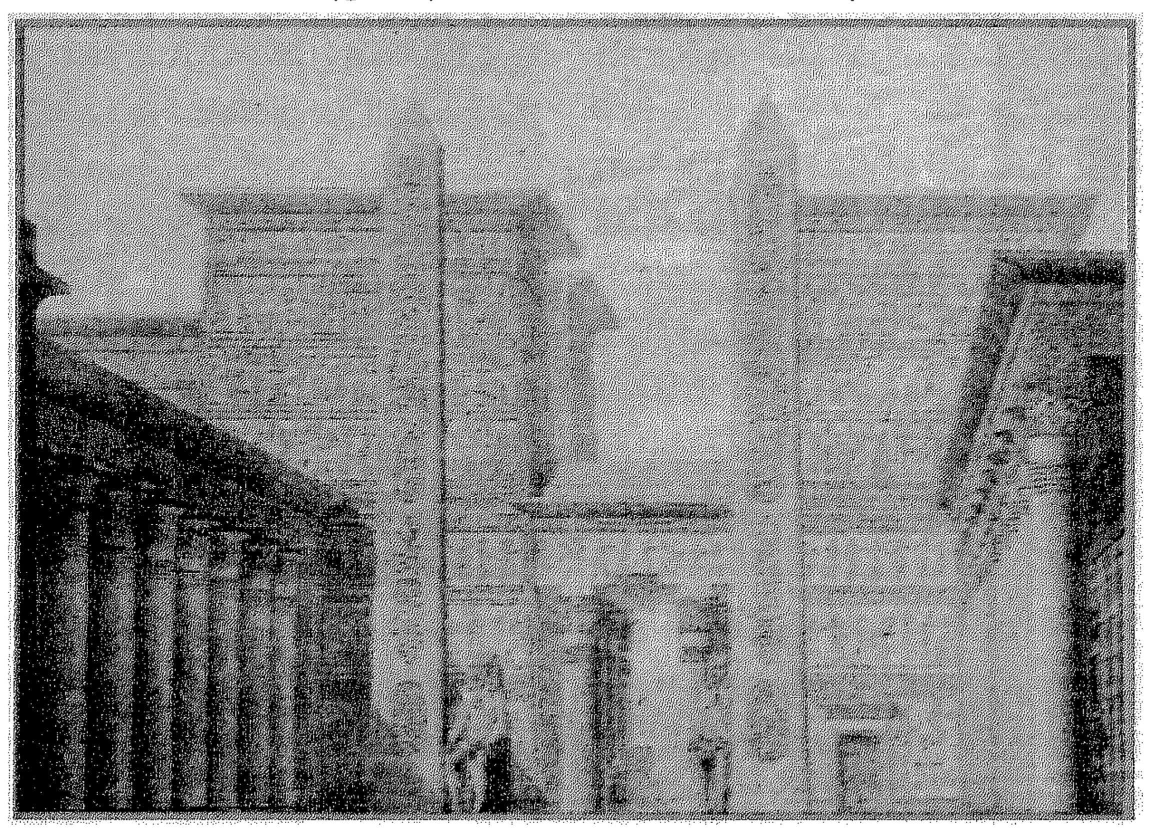
طلبت من الفنان (باتيست سينيه) عمل أثاث بقواعد لها طابع مصرى لقصورتها الخاصة فى قصر (سان كلو) . ونستطيع أن نشهد فى (فرساى) وفى (فونتينبلو) مقاعد تقترب من نفس النهج، ورسم لها الفنان (بوازو) تصميما لعصى مدفأة على شكل فرعونى. وأعجبها فطلبت منه نموذجا آخر لصالة ألعاب الملك فى (سان كلو) .

وحوت صالة البردى، وقاعة السجاد فى الفاتيكان نماذج ايطالية ذات طابع مصرى. ووصلت موجة (التمصر) الى انجلترا وألمانيا فى فترات متأخرة. ثم انتشرت فى أوربا. وعبرت الى الولايات المتحدة الامريكية. وعندما قامت الثورة الفرنسية اتخذت لنفسها نماذج مصرية


اليزابيث
تيلور في
دور
كليوباترا
١٩٦٣



هرم اللوفر الكبير من عمل اليابانى (ليومنج) ١٩٨٩



ديكور (الناى السحرى) لموزار فى عرض قدم عام ١٨٩٣ (ميونيخ)

ولكن بما يتفق والاتجاهات الثورية الجديدة، وبما يوحى بالحرية وتحطيم الأغلال الملكية والاقطاعية. وما يتفق وفكرة انصاف الشعوب، واحترام الحضارات الأخرى وعلى رأسها الحضارة المصرية .

ليس مجرد هوس

ولا يجب أن نطلق مصطلح (التمصر) أو الهوس بالمصريات على كل ما يتعلق بمصر.. لوحة تقدم منظرا من مصر.. نخيل، أو خيمة فى الصحراء، لقد سيطرت هذه النماذج على معظم الاستشراق الفنى وما عرف بالاكزوتيزم -EXOTIS ME† أى البحث عن كل ماهو غريب أو شاذ أو غير مألوف للحضارة الغربية .

وليس (التمصر) أيضا مجرد رحلة الى مصر متشربة بأشياء قديمة، مشحونة أو مستعرضة لقالب من الفضول لكل ماهو مصرى . وليس (التمصر) أيضا هو مجرد استعارة من أدوات مصرية وقد شاع ذلك فى القرن التاسع عشر . أو خلق بعض التصميمات الاستعراضية الشكلية كعمارة محطة محافظة (الجيزة) ، أو مدخل حديقة الحيوان، أو بعض الفيللات التى أقيمت خارج القاهرة .

يقول جان مارسيل هامبير : «التمصر هو وعاء للرموز ، ولا يجب ان نعتقد أن هذه الرموز القديمة يجب أن ترتبط بقدر ما نستطيع بأشكال تعادلها. الأمر يتعلق بالعكس، أنها رموز جديدة تلبست هذه الأشكال على طول الخيط الذى يربط القرون باستحواذ محرك للأذواق والأفكار، مقدرين أن كل عصر كانت له أشكاله المصرية المختارة من قبل فنانيه وعن وعى، ولهدف واضح الخصوصية».

كانت هذه العصور تعيد خلق أسرار بلد أسىء فهمه، وتكريما لحضارة وأيضا لكتابة كانت لفترة تثير الفضول. والحقت هذه الأسرار أحيانا بالماسونية التى أدعت أنها المحرك لحملة نابليون على مصر ، وبالغت فى الادعاء فصورت نابليون نفسه أسطورة من صنعها.

التمصر قام على حقيقة ركائزها ثلاث:

- المنابع المتعلقة بالآثار والفنون المصرية .
- الذوق العام الذى يميل عادة ناحية التجديد.
- الرمزية المتفردة التى حملتها ظاهرة التمصر .

وبصورة موازية كان (التمصر) أيضا تعبيرا عن أسلوب مصرى جديد، بعث للفن المصرى القديم مع اعادة استخدامه فى اطار جديد. أى المداخلة بين طاقات الابداع القديمة مع طاقات الابداع الحديثة، بما يولد تمصرا داخليا عناصره متشابهة وغير متشابهة فى آن، وبأشكال متنوعة، ولعل أبرز التجارب الناجحة فى هذا الاطار ما أبدعه الفنان المصرى الكبير محمود مختار .

ويقول هامبير «إن التمصر أبعد ما

يكون عن مجرد الهوس بالمصريات والمصطلح الانجليزى EGYPTIAN REVIVALفى هذا المجال يبدو هو الاكثر ايحاء ، لأنه لايكفى بالطبع نقل الأشكال المصرية القديمة، بل يجب على الفنان أن يعيد خلق هذه الأشكال فى حساسية نقية رابطا إياها مع عصره حتى تعيد اعطاء مظهر الحياة من خلال أداء وظيفة جديدة رغم انتظامها على النسق المصرى الأصلى» .

والى الآن تقدر عودة (التمصر) الى بداية القرن التاسع عشر ، فقد بدأت فى فرنسا تحت عنوان (عودة مصر RE-TOUR, D'EGYPTE) وهو شعار استخدم دائما لصنع ديكورات على النسق المصرى ، بل والى وقت متأخر عن ذلك، ولا يعرف مؤرخو الفن كيفية تصنيف هذا الشكل الخاص الذى مزج دائما بين عدة أساليب، حيث أرفقوه بمفاهيم متسعة مثل الكلاسيكية الجديدة او الانتقائية، وهنا تشابهت ظاهرة (التمصر) مع أشكال أخرى من حيث المنطلق، كالاستعارة من الاغريق، أو الرومان، أو الأتروسيكين. أو الصين أو اليابان.

رفقة الرومانسية والاستشراق

ظاهرة (التمصر) كانت بالطبع واحدة من المشاركات فى العديد من التيارات الغربية، لكن كانت لها أيضا حقيقتها الخاصة بمستوى كل التيارات مع تقدير خاص لجوهرها الأصيل ، صاحب حضورها على مر العصور .

وقد يثير الدهشة أن هذا المصطلح لم يأخذ حقه فى مجال الاستشهاد به فيما عدا ما يرد فى تاريخ الفن .

لقد ازدحم القرن التاسع عشر بالعديد من المذاهب الفنية التشكيلية ، واتصف منتصفه بانقلاب هام فى الرؤية الجمالية الغربية . لقد خرجت لأول مرة من التصنيف الكلاسيكى الذى يتمثل بالواقع فى صورة مثالية أو واقعية ، ودخلت فى إطار جديد نتيجة تمرد الفنان الغربى على نظرية (التمثل) واكتشافه نظرية الخلق الخاص برؤيته البصرية والبصيرية . جاء ذلك ثمرة للحوار الحضارى والتشكيلى مع الحضارات الأخرى ، وخاصة الشرقية المطلة على الغرب .

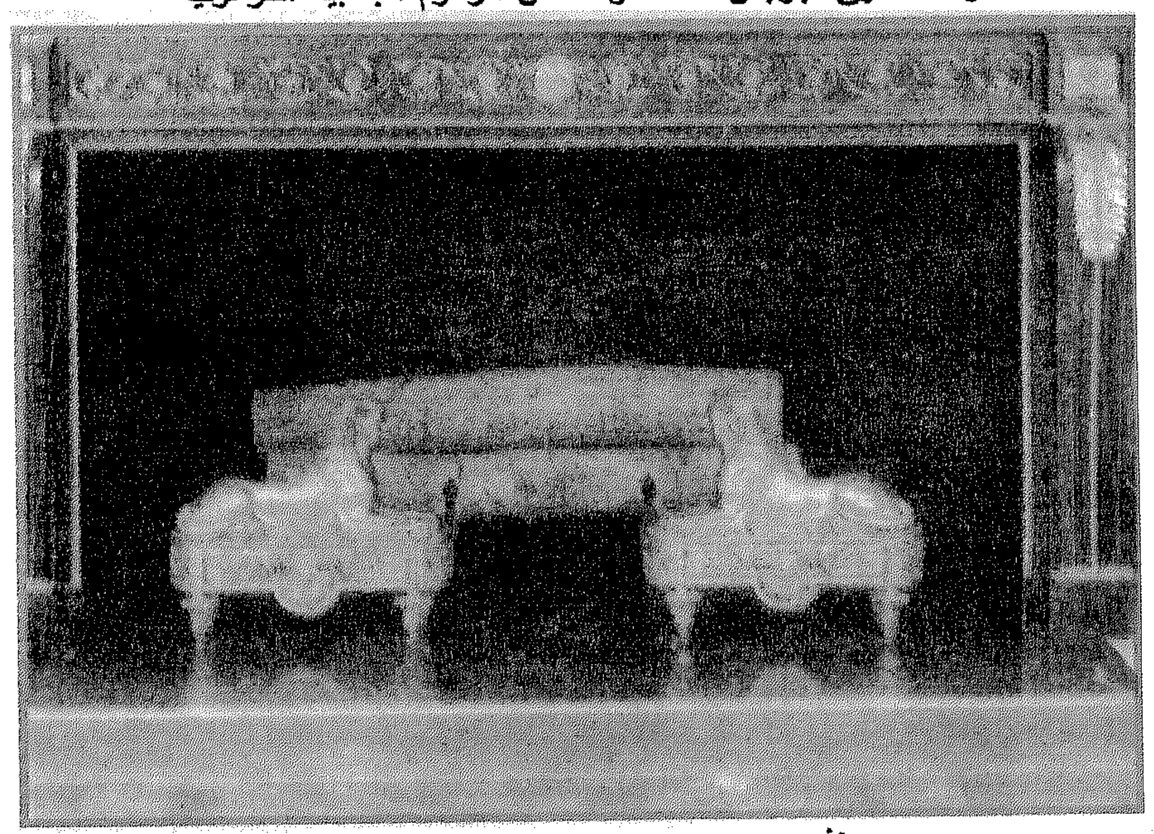
ومن بعد الرومانسية التى ارتبطت شكلا بالشرق، جاءت الواقعية الحادة ، ومنهما خرج الاستشراق الفنى بفرعيه ، أما الاستلهام من الشكل ، وإما النقل المباشر. ولم تتم قراءة بنية الفكر الشرقى بشكل عام تشكيليا إلا فى أواخر القرن الـ ١٩ م.

ونسأل لماذا استمر (التمصر) أو الشغف بالمصريات يؤكد ذاته ، ولم يكن ريحا مذهبية عابرة كالمدارس التشكيلية التى ازدحم بها القرن الـ ١٩ ؟.

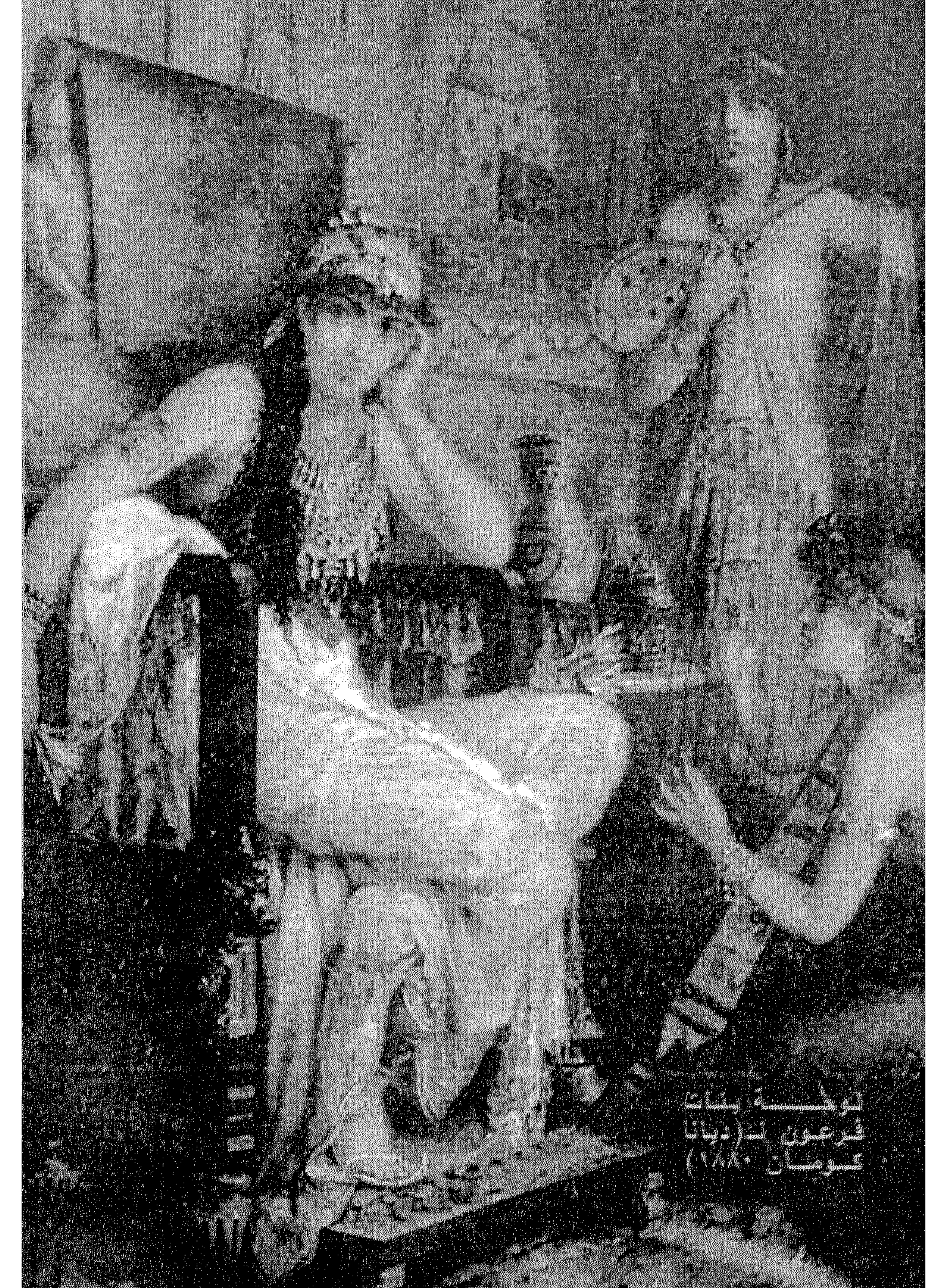
(التمصر) ليس مدرسة غربية بحيث يخلق السابق الآنى . ويخلق الآنى اللاحق. إنه تمثل بمصر القديمة فى إبداعات



لوحة السوق لجوجان .. مستوحاة من الرسوم الجانبية الفرعونية



مدفأة حجرة مارى انطوانيت فى فرساى ١٧٨٦



لوحة بنات فرعون لـ (ديانا كومان ١٨٨٠)

عديدة استمرت خمسة قرون ومازالت قائمة الى الآن . على اعتبار أن هذه الحضارة لا تمثل مذهبا فنيا عرضة للتمرد عليه مع التطور الجديد ، ولكنها منبعا خصبا صالحا للاستلهام منه في كل عصر حسب تطور هذا العصر، أو حسب قالبه الخاص.

تساؤلات

دعوة العودة للمصريات تعيد تساؤلات من بينها .. هل من الممكن إعادة أركان حضارة سابقة ، أم أن الرينسانس RENAISSANCE أى إعادة الميلاد خرافة ؟..

فى عام ١٩٨٣ عند افتتاح متحف الفن الاسلامى فى الكويت (دار الآثار الاسلامية) نقلت لمصممه المعمارى والأثرى الكبير (ميشيل ايكوشار) ان بعض الزوار يعيبون خلو البناء من طابع معمارى اسلامى، فاندهش وقال :

..إن ذلك يعنى أن أهل زماننا قد نضب معينهم ، ولم يبق لهم الا النقل من القديم .

ومعه حق ، فهناك فارق بين استنساخ النسيج، وبين اتصاله بخيوط وألوان زمن جديد.

دعوة الشغف بالمصريات يثير قضية أكثر حدة . هى المقابلة التى نضطر لها دائما بين موقفنا من فنون حضاراتنا القديمة، وموقف - لا أقول الغرب - ولكن الثقافة العالمية منها .

ينقل لنا كتاب (وصف مصر) هذه الصورة .

«فى عام ١٧٩٩م أحضر الفنان (ريجو) عضو المجمع العلمى المصرى أثناء حملة نابليون على مصر الى مرسمه نوبيا ليرسمه بعد مفاوضات عنيفة . حضر للمرسم فى حراسة ١٢ من إخوانه . وكان كلما انتهى الفنان من رسم جزء من الوجه ، كان النوبى يشير إليه ويقول .. طيب .. وعندما شرع فى وضع الألوان ذعر المسكين وهرول الى الشارع صارخا ، لقد نجاه المولى من منزل ينزع الملامح والرؤوس » .

صورة قد ترسم على الوجوه الآن ابتسامة ساخرة عن ذاك الزمان ، ولكنها تستبطن مرارة ما يجرى فى زماننا . فإذا عذرنا عامة الناس لتصوراتهم الساذجة قديما، فكيف نعذر في زماننا طبقة متعلمة، وربما مثقفة تبدأ بالدعوة لتحريم التصوير، وتنتهى بالمطالبة بضرورة دفن المومياوات ، وتدمير متاحفها ، واعتبار عودة (التمصر) كفرا .

ويحدثنا تاريخ الفن أن التصوير ازدهر فى القرن الثامن الميلادى فى العصر الأموى، ولم يجد أهله حرجا من التعامل مع التصوير البيزنطى أو الرومانى، بينما كان (ليو الايزورى) الامبراطور البيزنطى فى زمان تدهور دولته يحرم التصوير، فقد لاذ الشباب ركونا للخرافة بالاديرة هروبا من الدفاع عن دولتهم ، واكتفوا بالايقونات المصورة أملا فى راحة أبدية .

هل رددنا لزمن أسوأ ؟.

لزمن قلعة (الموت) التى اخرجت فرقة الحشاشين كان صاحبها الحسن الصباح يدعي قدرته على ادخال اتباعه الجنة. فبعد أن (يسطلهم) يدخلهم حديقة الغناء، وقبل أن يفيقوا يخرجهم منها فيصيروا ادوات تسعد بالاوامر الانتحارية، والشهادة المدعاة. والجنة الموعودة.

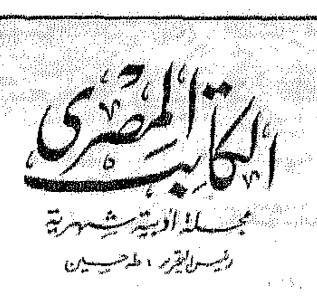
الوادى الجديد

شعر: سليم الرافعى - لبنان

مسّ التراب بنوها فاستوى قمّما ... يشيّد الحلم من قد شيّد الهرما
من التراب المندّى صاغ آنية ... يسقى ملائكة أو يرتجى حرما
هل السكارى على النيل الذى طفحت ... كئوسه.. قدّسوا الّدن الذى اضطرما؟
يا أيها الغد كن ماء وكن حجرا ... يا أيها الشعب كن روحا وكن علما
مسربل أنت بالصحراء مضطلع ... باللا نهائى .. مهما راع وانبهما
ماذا وراء المعالى من مخبّأة ... يا أيها الوعد.. هل مازلت محتشما؟
عزائم ومروءات هياكلها ... تعانق السرمدى المنتشى عظما
واد يحلق بالنهر الذى اكتتبت ... أمواجه فى السماوات العلى كلما
واد.. وواد .. هما نهران فى فلك ... جرى بزوبعة الإلهام مقتحما
لمن صحارى على أكتافها اضطجعت ... وعود مستقبل قد لاح مبتسما؟
مبارك أيها الوعد العظيم اذا ... بلغت واحة حلم طالما ارتسما
إنى أشم نسيم الزهر منتشرا ... تنسّق الزهر فى حقلين وانتظما
إنى أرى فوق ألواح منضدة ... مداخن الغد والانسان قد كرما
هىَ الصحارى هى الآمال راقدة ... مبارك من سقى صحراءنا ديما
غدا يقولون واديها الجديد سقى ... عظام مجد وأحيا تلكم الرمما
حسنيٌها العبقرى اختار منزلة ... فى الخالدين وجارى العصر والأمما
بالواديين نرى الأهرام مطلقة ... من العقال تجوب الصخر والسدما
تشتق من تربة الوادى أخا حدثا ... كم غاص فى الوعى واللاوعى متهما..
يا بانى الشرق. عز الشرق فى مدن ... تبنى .. وعزّ حكيم الرأى إن حكما







فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى
شركة مساهمة مصرية
القاهرة




أحمد لطفى السيد



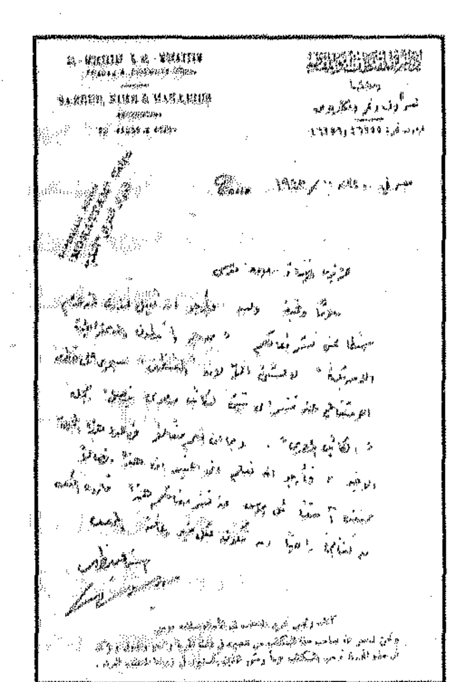

العقاد



المازنى

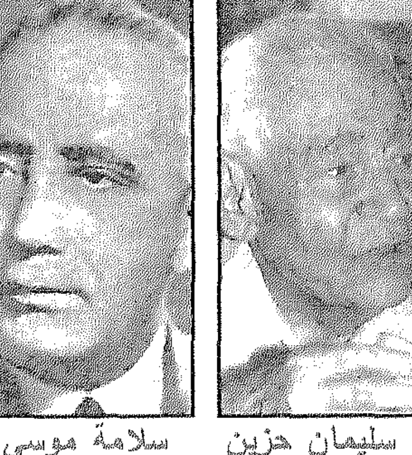


عبد الرحمن صدقى





محمد حسين هيكل باشا

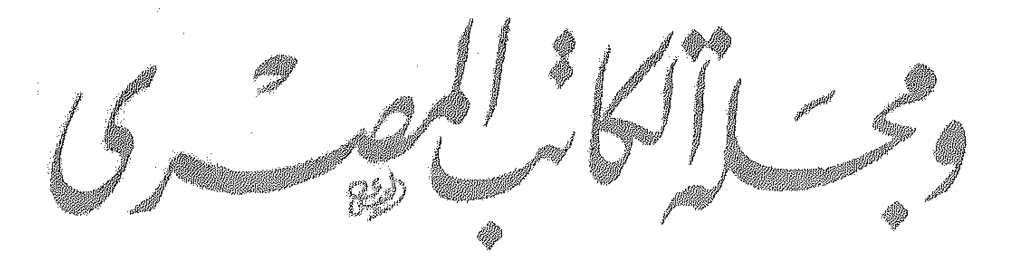


سليمان حزين



سلامة موسى





بقلم : د. عبداللطيف عبدالحليم

سفر نفيس ، في حقبة ناهضة ثقافيا ، رغم سوانح الأفول السياسي التي كانت تلوح في الأفق ، منذرة ومتوعدة ، يناهضها الناس ، متطلعين إلي بشائر التحول ، وصامدين - بفضل النهضة الثقافية - وصمودهم لا يقل روعة عن لحظات زهوهم ، كانت لحظات نهضة صامدة تمثلها أوفي تمثيل كوكبة لامعة ، حماستها حكمة ، وحكمتها حماسة بعد نضج السن واستحصاد الملكات ، تحمل في أصلابها عراقة التراث ونبالته ، وتشرئب إلي المدي اللاحب والأفق الرحب ، وكأنها رأت أن تعوض الإنكسارات السياسية بكثير من الوهج المتزن المضئ ، ثلة كريمة علي اختلاف منازعها ، وثقافاتها ، مرتئية أن الثقافة أصفي نورا ، وأهدي سبيلا ، حين تشتجر نزعات السياسة ، وأهواء الحزبية الضيقة ، تحمل اعتزازا ربما لم يتسن نظيره للأجيال التالية مجمعة علي هدف كريم ، وطريق قاصد ، تمثلت في أحمد لطفي السيد ، والعقاد وطه حسين ، والزيات والمازني ، وشعراء أبوللو ، وهيكل باشا ، وإخوان هذا الطراز .

وكان هؤلاء - على تفاوت - قد قرت لهم فكرة النهضة بعد شرة الشباب وحدته، وإن لم تخل من النضال الذى لم تتخل عنه الأمة آنذاك ، وكان طه حسين - كما كان كثير من رصفائه - يشتعل حماسة وتوقدا ، يناجز ويصارع ، واثقا شديد الثقة ، تتناشه السهام فتزيده جلدا ، يوقف - من قبل - عن التدريس فى الجامعة فلا يهن ولا يستخذى ، وحين تقاعد سنة ١٩٤٤ بسبب مقاله «القلب المغلق» فلا يهادن ؛ لأن طبيعته مجبولة على القلق وإثارته «على قلق كأن الريح تحتى» ، كما يقول صديقه أبو الطيب .

فى تلك الأثناء يصدر مجلة «الكاتب المصرى» بعد انتهاء الحرب ، منذ أكتوبر ١٩٤٥ حتى مايو ١٩٤٨ . ولهذا قصة تروى : (نعتمد فى هذه الرواية على مقدمة د. عبدالعزيز شرف لمجلدات المجلة الصادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب) .

«فى سنة ١٩٤٥ تكونت شركة الكاتب المصرى للطبع والنشر والأدوات الكتابية ، وهى شركة مساهمة مصرية ، كان يمتلكها سبعة أشخاص من آل هرارى الذين كانوا من الأسر اليهودية فى مصر ، ولم يأت اسم أحدهم فى أى تجمع صهيونى طوال وجودهم فى البلاد، وعهدت الشركة إلى الدكتور طه حسين الإشراف على نشاطها الثقافى حين قررت إنشاء دار للنشر ومجلة شهرية باسمها» (مقدمة د. شرف ص ٢٣) .

تاريخ مصر القديم والحديث

وفى مستهل العدد الأول من المجلة «برنامج» يحدد خطتها ، والهدف منها ، وممهور بتوقيع «الكاتب المصرى» أو كما نقول الآن «المحرر» ، وواضح أنه بقلم طه حسين . فيه سماته وأسلوبه يقول فى بعضه : وقد اتخذت هذه الدار من الكاتب المصرى القديم اسما لها وشعارا ، وهذه المجلة تستمد برنامجها وخطتها وسيرتها من تاريخ مصر القديم والحديث ومن المهمة التى نهضت بها مصر منذ شاركت فى الحضارة الإنسانية العامة .

ثم أخذ البرنامج يرسم سبق مصر الثقافى ، وهى من بلاد البحر الأبيض المتوسط ، ذات صلات وشيجة بأمم الحضارة ، ونهضت بمهمة التوسط بين الشرق والغرب فى شئون الثقافة والسياسة والاقتصاد ، ومضى يرصد دورها القديم من أيام اليونان مستأنفة دورها مع دمشق وبغداد وقرطبة ، وتمضى الآن بارزة الدور مع بلاد الشرق كله ومع بلاد الغرب كله .

وملموح فى هذه الكلمات تحديد موقع مصر حيث هى من بلدان البحر المتوسط كما حدده طه حسين فى «مستقبل الثقافة» وإن كان هنا يذكر إسهامها مع دمشق وبغداد وقرطبة المسلمة ، وهو رأى يتسم بكثير من الاتزان، وتأخذ المجلة طابع طه حسين عامة من حيث الالتزام بالشدة

وأخذ النفس بالجد ، مطالبة القراء أن يلتزموا بما التزمت به المجلة ، وتبرز «الديباجة» أيضا موقف المجلة من الحرية التى تنعتها بالواسعة الكاملة السمحة فيما تنشر وفيما تختار من آثار القدماء والمحدثين ومن آثار الشرقيين والغربيين .

وهذا الأخذ بالجد طبع غالب على طه حسين إلا فيما حكاه عن نفسه وهو يكتب كتابه عن «المتنبى» ولعله كان يميل إلى المزاح لا الجد الوعر ، وإن كان المازنى قد شدد النكير عليه فى هذه الرسالة .

وارتأى البرنامج أيضا أن من ثمار الحرية التى تلحد إليها عدم انحيازها لشعب دون شعب وفريق من العرب دون فريق . ولا تقيد نفسها إلا بحقوق مصر والأمم العربية فى الكرامة والعزة والحياة الصالحة .

خطة تنويرية

وقد برت المجلة بعهدها فجاءت أبوابها وفقا لخطتها التنويرية ، تذيع جواهر التراث ، وطمحت ببصرها إلى الثقافة العالمية ، بل إنها قد اتفقت مع طائفة من كبار الأدباء الأوربيين والأمريكيين – كما جاء فى صفحتها الثانية – على أن يوافوها بمقالات وقصص تكتب لها خاصة، بحيث تنشر لأول مرة باللغة العربية قبل نشرها بأية لغة أخرى ، فيكون قراء هذه المجلة أسبق الناس إلى الوقوف على ثمرات عقول هؤلاء الكتاب . ترى كم مجلة صنعت هذا الصنيع أو تصنع هذا الآن ؟

ولعبت المجلة دورا بارزا فى تقديم طائفة من شباب الشعراء والنقاد والمترجمين آنذاك ، غدا أكثرهم فيما بعد من شيوخ الجيل ، وإن كان بعضهم قد غير وجهته التى استهلها ، مثل عبدالقادر القط وسهير القلماوى حيث عرفهما القارئ شاعرين أولا ، وغدوا ناقدين ومؤرخين للأدب ، ولم يقف دور المجلة لدى الشعر والنقد ، بل عالجت موضوعات الساعة كالقنبلة الذرية ، والشهريات الثقافية البارزة وهى باب ثابت من أبواب المجلة ، ولأن الدار التى تصدر عنها دار نشر ، فقد نشرت بعض كتب التراث ، والكتب المترجمة كالبخلاء للجاحظ ، والعقيدة والشريعة لجولد تسهير ، وطعام الآلهة لويلز والمقامر لدستويفسكى والباب الضيق لأندريه جيد وبعض الروايات لسعيد العريان ، وبعض فصول روايات طه حسين، واحتوت المجلة أسماء لامعة أو لمعت فيما بعد مثل على أدهم وعبدالرحمن صدقى ، ومحمد عبدالله عنان وسليمان حزين وبشر فارس ولويس عوض ويحيى حقى ومجمود عزمى ، وإبراهيم نجا وعلى النجدى ناصف وحسين فوزى وسلامة موسى ، ومحمد كامل حسين ، ووداد سكاكينى ويحيى الخشاب وشكرى عياد ، وآخرين كثيرين .

وقد أحسنت هيئة الكتاب المصرية صنعا حين نشرت هذه المجلة وغيرها

مجموعة فى مجلدات ، فقد بعد عهد الناس بها ، وأضحت مثل المخطوطات التى يعسر الوصول إليها ، وإذا تيسر الحصول عليها فإنما تكون فى الأغلب الأعم ناقصة مبتورة أو عبثت بها الأرضة ، أو الرطوبة أو عبثت يد الباحثين غير المسئولين أدبيا وأخلاقيا ، حيث كانت هذه اليد تمتد بالبتر للمقالات أو المواد المطلوبة ، قبل زمن التصوير ، وربما بعده أيضا وقد عاينت رهقا شديدا وأنا أعد بحثى عن المازنى الشاعر ، فكنت أقع على هذه الجرائم فى البلاغ والسياسة الأسبوعية والفجر الجديد وغيرها من الصحف والمجلات ، فإذا جاءت الهيئة لتنتشل البقية الباقية - وهى كثير - فإنما تسدى إلى هذا الجيل والتالى له يدا بيضاء ، حيث قارئ المجلد غير قارئ الدورية ، وهى أيضا تقفنا على التاريخ المنسى لكثير من كتابنا الذين لم يسعفهم الزمن بجمع ما تناثر من تراثهم ، أو أغفلوه عمدا فلم يجمعوه ، وأذكر هنا أن الصديق العالم الجليل الدكتور محمد أبو الأنوار قد جمع طائفة صالحة من مقالات سحب النسيان ذيوله عليها منسوخة بقلمه أو بأقلام النساخ قبل زمن التصوير. وهى كذلك - أى الهيئة - تدلنا قاصدة أو غير قاصدة على طريقة الكتابة آنذاك ، وعلى ذوق الكتاب وذوق الناس أيضا الذين يوجه إليهم ما يكتب ، وعلى الرصانة الجادة التى يتناول بها الكتاب الفكرة والأداء ، وكلها فيما نعتقد فى صالح ذلك الجيل الذى خلف من بعده خلف أضاع تراثا كثيرا ، وافتقد همة تمتع بها سلفه الكريم ، ويكفي أن نعلم أن طائفة من كتابنا آنذاك كانت كتبهم مقالات ذاعت فى المجلات وفى الإذاعة ثم جمعوها حيث كان الجهد المبذول فيها كالجهد المبذول فى الكتب المبسوطة ، بيد أن الأغلبية لم تجمع هذا المنثور أو أغفلته كما قلنا آنفا ، ومن ثم يكون فضل نشر المجلدات كاملة .

قضية تمويل المجلة

لكن لغطا أثير حول هذه المجلة ، وجهات تمويلها وقد رد عليه طه حسين فى أوانه ، وتتعلق القضية بتمويل آل هرارى لها وهم من اليهود المصريين ، وهى شبهة واردة ، حيث توقفت المجلة سنة ١٩٤٨ سنة الهزيمة العربية النكراء فى فلسطين ، وجاء رد طه حسين ساخرا جدا حين ذكر أنه يخدم الصهيونية لأنه أحيا الأدب العربى القديم وأشياء تتصل بعلوم القرآن الكريم ، وأرجع التهمة إلى المنافسة التجارية والضغينة السياسية والحسد البغيض ، وذكر أنه لم يقبل العمل إلا بعد أن استقصى وأحسن الاستقصاء ، وتبين أن الأمر لا يتصل ولا يمكن أن يتصل بالصهيونية من قريب أو بعيد ، وتحدى أن يجد الناس فيها ما يخدم الصهيونية بل سيرون فيها خصومة عنيفة لها ، ودفاعا عن العرب في وطنهم فلسطين .

ويمكن ألا نعير طه حسين تصديقا

لمقولته ، لأنه يدافع عن نفسه ، لولا أننا لم نجد فى المجلة أى دليل لاتهام ، وقد دافع لويس عوض عن مقاصد طه حسين ولكنه تشكك فى نية أصحاب الدار بشكل غير مباشر (راجع ص ٦٢ من مقدمة د. شرف) .

ينبغى - فى رأينا التفرقة بين اليهودية والصهيونية حيث كان اليهود المصريون جزءا من نسيج المجتمع المصرى المتسامح دائما وفقا لطبيعته وتاريخه ، وكانوا يحظون بقدر هائل من الشهرة فى مجالات الاقتصاد والمال ، ومحلاتهم التجارية الكبرى لا تزال شاهد عيان على ذلك ، ولهم بلا ريب أثرهم فى النفاذ إلى الحياة السياسية شأن رجال المال دائما فى كل قطر وقبيل بصرف النظر عن الديانة ، وفى مجال الثقافة كان حاييم ناحوم عضوا بارزا فى أكبر مؤسسة علمية فى مصر (المجمع اللغوى) وحين مات رثاه العقاد العدو الأكبر للصهيونية فى العالم العربى كله ، ولو كانت هناك شبهة لأحجم العقاد حتى عن مجاملة يسيرة .

استشعار الخطر الصهيونى

وليس من الضرورى أن يكون كتاب المجلة - مع افتراض صدق التهمة - عارفين ببواطن الأمور حيث كانوا فى ذروة الوطنية والعروبة ، ولا يمكن أن تحوم حولهم أى ريبة ، وكان المصريون حتى ذلك التاريخ ١٩٤٨ لا يرون حرجا فى التعامل مع اليهود المصريين حيث كانوا أبناء وطن واحد ، وللعقاد رحلة إلى فلسطين فى ١٩٤٥ وكتب عنها مقالات مسهبة جمعت فى كتابه «حياة قلم» الصادر بعد وفاته ، وإن كانت له رسالة عن «رجعة أبى العلاء» صدرت ١٩٣٩ ، ذكر فيها على لسان المعرى رفضه لزيارة أرض أجلى عنها العرب ، ونود أن نصل من ذلك إلى أن الناس - وخاصة كبار الكتاب - كانوا يستشعرون الخطر الصهيونى قبل ١٩٤٨ ، وإن كانوا لسماحتهم يعاملون يهود مصر معاملة المواطنة ، كما نود أن نخلص من ذلك أن طه حسين ، وهو فى ذؤابة المثقفين المصريين كان يستشعر مثل هذا الخطر ، خلافا لما كان يراه عبدالمنعم شميس من أنه كتب منبها أستاذه طه حسين إلى خطر المجلة وارتباطها باليهود ، وأورد الأستاذ سامح كريم فى مقاله بالأهرام فى ١٩٨٨/١٢/٩ دفاعا جيدا وموضوعيا عن طه حسين ، ونذكر هنا أن شميس أراد الدفاع عن أستاذه فاتهمه بالغفلة على حين كان طه واعيا منذ الوهلة الأولى حين نشر فى مجلة الاثنين فى ١٩٤٥/١٠/٨ ، شهر صدور العدد الأول من المجلة دفاعا عن نفسه وعن المجلة ، ومعه كل الحق ، وختم أعدادها بقوله : والآن وقد انتهى عمر هذه المجلة فإن أعدادها بين أيدى القراء فهم لا يرون فيها إلا دفاعا عن مصر والعروبة .

كان طه حسين يدافع عن شبهات ، واتهامات تركن إلى سماع دون تحقق ، وهو ما يرفضه منهج طه حسين ويرفضه كل منهج قويم ، والمحك الذى لا يخطئ فى رأينا دراسة مادة المجلة وكلها تدفع تلك الظنة الباغية ، ولم يكن لليهود ما لهم الآن من شرة وطغيان ولم يكن هناك ما يدفع شاعرا مثل ابن البواب الذى يرى أن الفلك قد تهود فى أيامه : أيام الدولة الفاطمية «تهودوا قد تهود الفلك» ، لأن لمصر عاصما لا يهوى بها ذلك المهوى الوخيم ، وإن كانت الثقة المفرطة سلاحا ذا حدين كما يقولون .

ولعل الحوم حول الشبهات هو الذى أرث هذه التهمة ، لكن طه حسين - وهو غير ظنين عندنا - لا يمكن أن نتنزعه من فطرته التى ذرأه الله عليها ، فهو لا ينكص حين لا يكون هناك مفر من الإقدام، وهو رجل حديد القلب ، جرئ اللسان ، عظيم التحدى فأقدم غير هياب ولا وجل ، ما دامت له رسالة تنويرية يؤمن بها ، ويقود إليها الناس ، وإذا استقام له هذا الهدف فلا تلبث له تجاه الظنون والتهم ، بل يدوسها دوسا وصولا إلى غايته ، ما تخلف وما نكص .

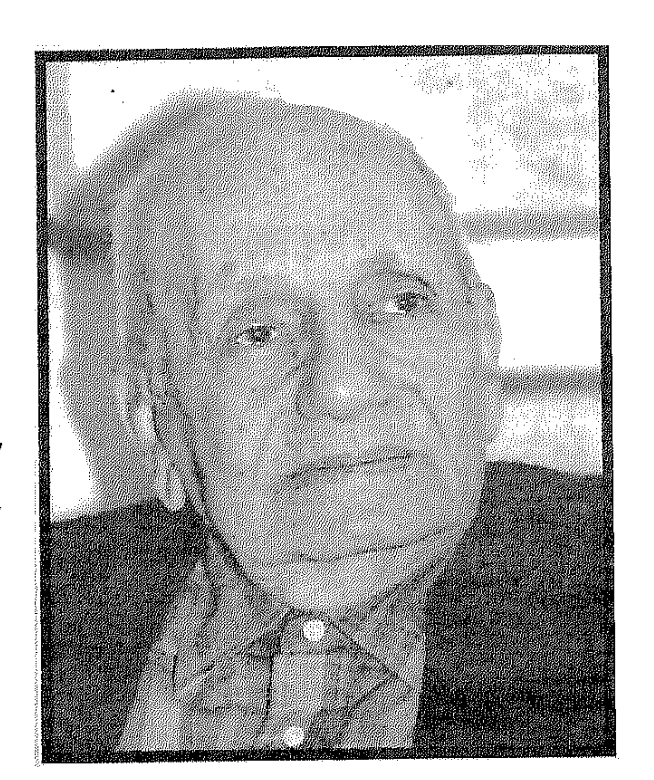
صديقان لدودان

غير أننا نتساءل ؛ لماذا لم يستكتب طه حسين العقاد فى أى عدد من أعداد مجلته، ورسالتهما مجددة ورائدة ، وهو يدرى أن العقاد لن يقبل الكتابة لديه دون دعوة منه حارة وصادقة ، وهما صديقان لدودان - إن صح النعت - ولهما مجاملات شهدها التاريخ الأدبى ، مع أن بعض تلاميذه كانوا يكتبون بها مثل على أدهم وعبدالرحمن صدقى ، ومحمد غلاب - كان الأخير عدوه منذ مجلة النهضة الفكرية ١٩٣١ بعد خروج العقاد من السجن ، ثم فاء إليه ودودا ومعجبا به - ؟

نود أن نستخلص من ذلك بعض الرؤى المحتملة: لعل العقاد لم يشأ أن تثور حوله شبهة ، مع أنه رثى حاييم ناحوم ، أو لعل طه دعاه للكتابة واعتذر العقاد ، أو لعل دعوة لم توجه إليه أصلا ، غير أن العقاد لو قرت لديه عقيدة بأن المجلة متهمة لنصح - على الأقل مريديه ألا يكتبوا درءا لهذه الشبهة أما وأنه لم يصنع ، فإن موقف العقاد من أصدقائه الكاتبين فى المجلة يعد دفاعا عن طه حسين وعن مجلته .

ولعلنا حين نستعرض بعض المجلات المشبوهة فى بعض البلدان ، وموقف بعض الجهات منها مثل مجلة «شعر» و«حوار» . والمجلات الصفراء المعاصرة ، ومساعى الإبراشى باشا فى عالم الأدب لرأينا أننا نطلب من طه حسين أن يكون من الملائكة المقربين ، فى حين أن مناوئيه فى هذا من الشياطين الأرذلين حين يتكففون موائد اليهود الأمريكيين ، أو الأمريكيين الصهيونيين ، ولا الضالين آمين !!.

جـــزء
خـاص



رشدى سعيد

العالم والمفكر

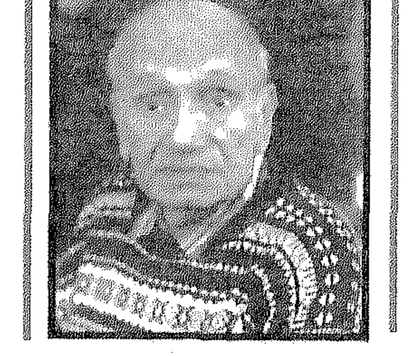
الدكتور رشدى سعيد شاب يبلغ هذا الشهر الثمانين من عمره ، تزخر شخصيته بالحيوية والنشاط واللماحية ، يتابع بدقة متناهية ما يدور على أرض مصر ، يجمع فى كتاباته بين أحلام الشاعر ورقة العالم ، يغوص العالم الجيولوجي فى طبقات الأرض ومكوناتها وطبقات ومكونات المجتمع المصرى ، وهو نموذج فريد للجمع بين الفكر والعمل، مارس العمل السياسى والتنفيذى ، فتولى رئاسة هيئة المساحة الجيولوجية في أدق الظروف ، وأصبح عضوا فى المجلس النيابى ثلاث دورات متتالية وتولى رئاسة لجنة العلاقات الخارجية والأمن القومي ، لم يكتف بدوره كعالم وأبى إلا أن يقوم بدوره كاملا فى الحياة العامة .

يقدم نموذجاً يحتذى للأجيال الشابة، ويضع كل خبرته فى كتبه، «النيل» و«جيولوجية مصر» و«الواقع المصرى بين الوهم والحقيقة» ، فضلا عن تقديم خبرته الجليلة فى كتابه «رحلة عمر» الذى سيصدر عن دار الهلال .

يكتب بلغة عربية جميلة ، لا زيادة فيها ولا نقصان ، وكتابته تعد نموذجاً للمزج بين العلم والأدب .

ولا يمكن لمن يقدم د. رشدى سعيد بقلم أصدقائه وعارفى فضله إلا أن يتذكر قرينته الدكتورة وداد أستاذة الفلسفة التى مازالت تحافظ على لهجتها الصعيدية ، بشخصيتها الجميلة ، والتى كانت خير عون له .

تحية حب وتقدير، أطال الله عمره ، وأمتعنا بكتاباته وخبرته الواسعة .



رشدى سعيد .. جزء خاص

الجيولوجى.. المدرس
العالم.. السياسى

بقلم : د. محمد البهى عيسوى

فى يناير عام ١٩٥٢ كانت مجموعة من شباب قسم الجيولوجيا - كلية علوم جامعة القاهرة تقف أمام المبنى الرئيسى للكلية فى استراحة قصيرة بين المحاضرات - وظهر شاب طويل رفيع القوام يرتدى زيا غير تقليدى بين الجامعيين . كان يلبس رباط عنق يعرف باسم البابيون ويدخن غليونا - وكان تفصيل الجاكت غريبا عن المصريين آنذاك - فكانت بعض جيوبه مغطاه - والجيب فتحته غير أفقية بل مائلة بعض الشىء - وتوقف هذا الغريب بيننا وسكت عنا الكلام - وكان أول ما قاله القادم الغريب «الجو بارد شوية النهاردة» . ولم نعقب بل تساءلنا من هذا؟ وأجابنا بعض الزملاء القدامى هذا هو د. رشدى سعيد وصل حديثا من أمريكا حاصلا على الدكتوراه فى فرع جديد من العلوم الجيولوجية اسمه «الميكروباليننتولوجى» ومن جامعة هارفارد . وسرت بين مجموعة الشباب الواقف رعشة ورهبة من هذا القادم الجديد من أرقى جامعات العالم، وان كنا قد امتلأنا فخرا بأن يكون بالكلية مثل هذا النمط من العلماء.



د. رشدى سعيد فى معمل كلية العلوم جامعة القاهرة عام ١٩٥١

كنت حينذاك بالسنة الأولى بقسم الجيولوجيا - ولم يكن د. سعيد من القائمين على تدريس أحد مواد هذه السنة أو حتى السنة الثانية. وخلال هاتين السنتين اقتربنا من د. سعيد لنشاطه المتعدد الأوجه فى اللجان الرياضية وخاصة فى لعبة كرة السلة حيث سمح له بنيانه الطويل حوالى ١٨٠ سم - أن يجيد هذه اللعبة. ودرجت الكلية آنذاك على قيام يوم رياضى .. كان من أحد أركانه أن يشترك الأساتذة مع الطلبة فى بعض الأنشطة - وأن يكون للأساتذة فريق خاص بهم ينافس فريق الطلبة . وفى إحدى المرات كان رشدى سعيد حكما بين الأساتذة والطلبة فى مباراة كرة السلة. ولاحظ تفوق الطلبة كثيرا وبفارق كبير على فريق الأساتذة - ومال رشدى سعيد ميلا كبيرا لمساندة الأساتذة - وكان مع كل صفارة ظالمة للحكم تتصاعد الاعتراضات والصيحات من جانب الطلبة بالملعب والآخرين الذين يشاهدون المباراة. وكان الحكم رشدى سعيد يمتص الاعتراضات بلباقة شديدة تتعالى بعدها ضحكات الجانبين واستحسانهم . وأسر رشدى سعيد قلوب الطلبة جميعا من خلال احتكاكاته المستمرة وزاد هذا الأسر عندما شكل فى نهاية عام ١٩٥٣ ما يعرف باسم النادى الجيولوجى وانضم إليه أغلب طلبة قسم الجيولوجيا - وكان نشاطه رياضيا فى المقام الأول وثقافيا فى المقام الثانى، وأهم من هذا وذاك كانت اللقاءات

المستمرة بين الأساتذة والطلاب تذيب الحواجز والرهبة بين هؤلاء وهؤلاء - كانت تلك هى الروح الجامعية التى كنا نسمع عنها ونقرأ أخبارها . كان رشدى سعيد ومعه المرحوم د. يوسف شوقى مصطفى خريج هارفارد أيضا - يقودان هذه الحركة الانفتاحية بحب واخلاص أدت إلى تنمية ملكات شباب صغير السن ووضعتهم على أعتاب أول مراحل الرجولة المبكرة .

الاهتمام بالعلم والثقافة

دخل علينا د. رشدى سعيد محاضرات السنة الثالثة مدرسا لعلم الحفريات.وكانت المحاضرات أشبه ما تكون بندوات ثقافية وليست محاضرات متخصصة. كان التخصص العلمي يحتل أقل من نصف المحاضرة قليلا - وكانت الثقافة العامة تأخذ بقية الساعة . وكنا نأمل ألا تنتهى المحاضرة فالحديث أكثر من شيق والروايات مثيرة ومبهرة - منها على سبيل المثال مطب أو حفرة تحت نفق العباسية. وكم عدد السيارات التى تعبر هذا النفق يوميا وكم عدد الأعطال التى تتعرض لها السيارات وما هى تكلفة الاصلاح؟ - ثم كم يتكلف إصلاح الحفرة؟ - وبالمقارنة سنجد أن مصر ستستفيد كثيرا لو تم اصلاح هذه الحفرة. تعلمنا أيضا أن سيناء صحراء صنعها الإنسان فهى ليست صحراء أبداً بالمقاييس العلمية وما يقال عن أنها سهول مكشوفة ما هو إلا فرية تدل على جهل شديد - بل أن الأجزاء الوسطى والجنوبية من سيناء تشكل طبوغرافيا بعضا من أعقد الأماكن الجبلية فى العالم قاطبة. ثم انتقلنا إلى السنة الرابعة والأخيرة حيث درس لنا د. رشدى سعيد مادة الجيومورفولوجيا - وهى مادة كانت تدرس لأول مرة فى كلية العلوم - وظل الحال كما هو عليه : خروج عن المألوف للعلم نصف ساعة وللثقافة العامة نصف ساعة. وأعطته مادة الجيومورفولوجيا بعداً أكبر من علم الحفريات فى سرد ما يعرف وما يقرأ عنه - ثم كانت هذه المادة تحتاج إلى زيارات حقلية - وفيما بين أبو رواش ووادى حوف وطريق القاهرة - السويس حيث تكثر الأنماط الجبلية التى يصفها د. رشدى - دارت حوارات ومناقشات علمية عن أصل هذا الاصطلاح ومعناه . ففى أبو رواش مثلا - علمنا أن ما يطلق عليه اسم النصف

مسرح Amphitheater مشتق من ملاعب الرومان عندما كان الأباطرة يتمتعون بقسوة وبغير ضمير بمشاهدة المسيحيين وهم يصارعون الحيوانات المتوحشة.

وعندما تخرجت عام ١٩٥٥ لم أكن أستطيع أن أقطع الصلة بين هذا الرجل الذى علمنى كثيرا بالجامعة وبينى - فكنت زائرا دائما له فى ٣ شارع المساحة بالدقى ثم فى ٢٢ شارع ٦ المعادى عندما انتقل إلى هناك وساعدتنى ظروف عملى بالمساحة الجيولوجية على استكمال أحاديثنا الجيولوجية ومتابعة مستحدثات هذا العلم.

واستمريت زائرا له حتى اتيحت الفرصة أن يشرف على رسالتى الماجستير والدكتوراه - وتم منحى الدرجتين فى وقت قياسى حوالى خمس سنوات من جامعة القاهرة . وكنت أول طالب دكتوراه مع د. رشدى سعيد.

وفى عام ١٩٦٢ عندما بدأت الحكومة المصرية فى انشاء السد العالى - كانت هناك عمليات انقاذ لآثار النوبة الظاهرة - تلتها أو تمت معها عمليات أخرى للبحث عن حضارات الإنسان فى عصور ما قبل التاريخ . وساهم د. رشدى سعيد بجهد عظيم فى هذه الدراسات وفى تعظيم دور البحث الجيولوجى المصرى مع البعثات الأجنبية التى جاءت لمنطقة النوبة خصيصا للعمل فى هذا المجال. كانت سنة ١٩٦٢ من السنوات القليلة بمصر التى شهدت تطوراً خطيراً فى حياة رشدى سعيد العلمية . فبعد هذا الانخراط الجيولوجى فى علوم حضارات الإنسان فى ما قبل التاريخ - نشر د. رشدى سعيد فى السنة نفسها كتابه الجامع الموثق بالخرائط والتفاصيل الجيولوجية عن مصر . وجاء الكتاب الذى طبعته دار السفير فى هولندا فى ٣٧٧ صفحة باللغة الإنجليزية تحفة فريدة علمية موسوعية وقف على قدم المساواة وان لم يفق بكثير وكثير جداً - أى مرجع علمى آخر عن أقطار العالم الغربية سواء فى أوروبا أو أمريكا. كانت المكتبة المصرية العلمية عطشى لمثل هذا المرجع المفصل، وتلقفه الكثيرون الذين يعملون فى مجالات العلوم الجيولوجية وأصبح فى خلال فترة وجيزة لا تتعدى السنة الواحدة مرجعا أساسيا فى هذه العلوم. ونال د. رشدى سعيد عن هذا الكتاب جائزة الدولة التشجيعية من يد المرحوم الرئيس جمال عبدالناصر ثم وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى. وعندما أهدانى د. رشدى هذا الكتاب وكتب بخط يده إلى الزميل العزيز.... شعرت بفخر ونشوة شديدتين لأننى اقتربت من أحد علماء هذا القرن . ثم عندما قرأت داخل الكتاب أنه أشار لى وذكرنى بالاسم فى بعض المناطق التى عملت بها ، كانت الفرحة أكبر والفخر أعم.

البحث عن حضارات الإنسان

اشتركت مع د. رشدى سعيد فى كل البعثات التى قامت بالبحث والدراسة عن حضارات الإنسان القديم - وكان هذا التحول الخطير عن طريق البحث الجيولوجى التقليدى مقدمة لكتاب د. رشدى سعيد الثانى عن جيولوجية نهر النيل الذى نشرته دار سبرنجر فيرلاج بألمانيا عام ١٩٨١. وبين الكتابين كانت هناك مئات الأبحاث المنشورة فى مختلف فروع العلوم الجيولوجية وفى أكبر الدوريات العلمية العالمية والمحلية.

وفى عام ١٩٦٥ اختير د. رشدى سعيد عضوا فى البرلمان المصرى من ضمن الأفراد العشرة الذين يقوم رئيس الجمهورية باختيارهم. واندمج د. رشدى سعيد فى مهماته الجديدة بالجدية نفسها - حتى فاز بعضوية قيادة الحزب الحاكم بمصر وكان أحد رجالاته الثمانية عشر. وتوج رشدى سعيد كفاحه السياسى بانتخابه رئيسا للجنة العلاقات الخارجية المصرية فيما بين ١٩٧٠ وحتى ١٩٧٦. وأدى به هذا المنصب الجديد إلى زيادة اتصالاته الخارجية واكتسب شهرة واسعة فى المحافل الدولية ومما ساعده على ذلك إجادته التامة للغتين الإنجليزية والفرنسية ومعرفته الواسعة باللغة الألمانية.

وفى أعقاب هزيمة ١٩٦٧ - أعاد الرئيس عبد الناصر تشكيل الحكومة المصرية وعهد إلى د. عزيز صدقى الذى أسس الصناعة المصرية الحديثة وكان أول وزير صناعة مصرى عام ١٩٥٦ - بالعودة إلى وزارة الصناعة بعد أن أبعد عنها حوالى السنتين .

وجمع د. عزيز صدقى حوله نخبة من خيرة رجالات مصر حتى أن صحيفة الأهرام فى أواخر مايو ١٩٦٨ نشرت صباح أحد الأيام على الناس باقصاء ٣٥٠ فردا من كبار رجال الصناعة آنذاك وأتى بمثل هذا العدد ليحلوا محلهم. كانت المساحة الجيولوجية من نصيب د. رشدى سعيد - الذى كان على وشك السفر إلى الولايات المتحدة ليعمل أستاذا زائرا بإحدى جامعاتها . وكان على كاتب هذه السطور أن يعيد التذكرة التى حجزت بالفعل يوم ١٩٦٨/٥/٢٨ إلى شركة T. W. A. . كانت المساحة الجيولوجية فى هذه الفترة - تمر بفترة سكون شامل إذ كان يحكمها رجل عمل

بالمحاجر لمدة ٢٧ سنة وكانت خبرته كلها منصبة على كيفية ابعاد المقاولين غير الشرفاء عن مجالات المحاجر. وإن كانت المساحة الجيولوجية المصرية قد أنشئت فى عام ١٨٩٦ وبدأت عملها بمجموعة من أفضل العلماء الإنجليز أسهمت اسهاما كبيرا فى زيادة معارفنا الجيولوجية والتعدينية بمصر.

وعندما اختير د. عزيز صدقى لتطوير الصناعة اختار أحد أفضل رجالات الجيولوجيا بمصر لرئاسة الهيئة وهو د.رياض عبدالمجيد حجازى الذى ظل فى موقعه لمدة عشر سنوات تقريبا ثم لمدة سنة ونصف رأسها د. أحمد توفيق وهو ما يعتبره الجيولوجيون فترة عدم توافق وانحسار فى النشاط حتى تولى د. رشدى سعيد رئاسة الهيئة. واعتبرت فترة د. سعيد امتدادا لفترة د. حجازى. وخلال هذه الفترة الطويلة التى تقترب من عشرين عاما تم تطوير المساحة الجيولوجية لتساير ركب الحضارة والتقدم فى كافة ارجاء العالم . فادخلت أقسام الحفر الميكانيكى والجيوفيزياء والاستكشاف الجيولوجى والجيوكيميائى - وتم تطوير المعامل الكيميائية والمعدنية وتركيز الخامات واستحدث قسما للتوثيق والنشر والمكتبات . كما تم توسيع المتحف الجيولوجى وأضيفت إليه معامل للحفريات الدقيقة والكبيرة ومعمل لحبوب اللقاح للحفريات الفقارية.. والدراسات المعدنية

كما اهتم بالنشر العلمى وأنشأت حولية المساحة الجيولوجية التى ضمت أحدث الأبحاث التى يقوم بها الباحثون الجيولوجيون والكيميائيون من مصر والخارج. وزيدت أعداد المهندسين والجيولوجيين والجيوفيزيقيين والكيميائيين حتى وصل عددهم إلى أكثر من ٥٠٠ باحث فى أوائل الثمانينات - حصل أكثر من ١٠٪ منهم على شهادات الماجستير والدكتوراه . وأصبحت الهيئة معهدا لتدريب وتوريد الفنيين إلى جهات داخلية كثيرة كالمناجم وشركات البترول والجامعات - وغزا العلماء المصريون بلاداً خارجية فعملوا فى مجالات تعدين المناجم بأفريقيا واستراليا وكندا.. وأصبحت الهيئة معهدا لتوريد أساتذة الجيولوجيا لدول العالم الغربى وافريقيا بل والولايات المتحدة.، وخلال هذه الفترة المزدهرة نشرت المساحة الجيولوجية ثانى خريطة جيولوجية لمصر عام ١٩٧١ بعد خريطة هيوم الأولى عام ١٩٢٨ . وحرر د. رشدى سعيد الكتيب التفسيرى للخريطة فى السنة نفسها .

كوادر من الشباب

ومن خلال التعاون البناء بين العلماء المصريين بالهيئة وزملائهم بالخارج عرفت الجيولوجيا المصرية فرعا جديدا من العلوم الجيولوجية يعرف باسم جيولوجية الحقب الرابع، وهو العلم الذى يدرس تاريخ الأرض والإنسان خلال المليونى

سنة الأخيرة من عمر الأرض. وتوج د. رشدى سعيد هذا النشاط بنشره كتاب عن جيولوجية نهر النيل ١٩٨١.

ومن خلال الاحتكاك المستمر بين العاملين بالهيئة وزملائهم الأجانب تمكن د. رشدى سعيد من تربية كوادر من الشباب المتعلم بأحدث تقنيات العصر - استطاع أن يعبر بهم بعض عثرات النكسة الأليمة عام ١٩٦٧. فقد فقدت مصر خلال هذه الحرب مناجم سيناء ومنها خامات الكاولين التي تعتمد عليه عدة صناعات كثيرة بمصر مثل صناعة القيشاني والبورسلين وتبييض الورق ... إلخ . وفى خلال فترة لا تتجاوز عاما ونصف العام تم تنمية حقل جديد للكاولين في جنوب غرب أسوان، وتم توفير عدة ملايين من الجنيهات - عملة أجنبية - كانت ستنفق فى استيراد كاولين من الخارج . وفى خلال فترة رئاسة د. سعيد للهيئة تخلص من الشركات التعدينية والتى كان أغلبها لا يحقق أى عائد اقتصادى مجز للدولة، وألحقها بالهيئات الأخرى ذات النشاط الماثل وبهدف خلق تكامل صناعى مثلا بين شركات الفوسفات وشركات الأسمدة وشركات مواد البناء ومناجم الجبس ... إلخ .

واهتم د. رشدى سعيد بتنشيط القطاع البحثى لإيمانه بأن صناعة التعدين الجيدة لن تقوم إلا على شركات تمتلك قدرات علمية وخامات بكميات ضخمة تسمح للشركات بالوجود والاستخراج من صحراء مصر ذات ظروف معيشية غير طبيعية . فإذا لم تتوافر الخامات العالية الدرجة وبكميات اقتصادية فلا معنى لوجود الشركة .

من هذا الفهم، انطلق د. رشدى سعيد بهيئته فى برنامج طموح غزا به الصحراوات المصرية . ففى وقت واحد خلال السبعينات كان هناك المشروعات التالية .

- مسح جيولوجى شامل للمنطقة الواقعة بين ادفو وقنا لتقدير احتياطيات الفوسفات بالمنطقة.
- إعادة تقييم خام النفلين سيانيت بجنوب الصحراء الشرقية اللازم لاستخراج الألومنيا .
- البحث الجيولوجى والجيوفيزيقى الدقيق لامتدادات خام حديد الواحات البحرية.
- البحث الجيولوجى والجيوفيزيقى



د. رشدى سعيد مع مجموعة من تلامذته عند مدخل أول أنفاق منجم أبو طرطور عام ١٩٧١

والحفر لتأكيد مزيد من احتياطيات فحم المغارة فى سيناء.

● تقييم الحجر الجيرى على جانبى نهر النيل اللازم لصناعة الألومنيا.

● البحث المعدنى فى بعض مناطق جنوب الصحراء الشرقية داخل الدوائر المعقدة من صخور القاعدة.

● تقييم خامات النيوبيوم والتنتالم فى وسط الصحراء الشرقية.

● تقييم خامات الفوسفات بمنطقة أبوطرطور بالصحراء الغربية.

عندما ترك د. رشدى سعيد المساحة الجيولوجية فى نهاية ١٩٧٧، ترك هيئة غنية بالخبرات والرجال - الذين روضوا الصحراء وطوعوها دون خوف من المجهول أو من صعوبة المعيشة . تركها ومستوى النشر العلمى يعادل بل ويفوق كثيرا من هيئات الجيولوجيا فى أنحاء المعمورة . تركها وهى خلية من العمل والبذل والعطاء لرجال آمنوا وأحبوا بلدهم وضحوا فى سبيل ذلك بكثير من متع المدنية الزائلة . أحبوا الصحراء فأعطتهم الصحراء خيراً كثيرا. تركها واستمرت دفعته وجهده بعد ذلك لمدة أكثر من خمس سنوات إبان رئاسة كل من جلال على مصطفى ومحمود زعطوط . لكن دوام الحال من المحال فقد تعرضت الهيئة لنكسة خطيرة فى أوائل عام ١٩٨٤ وتذكر الجميع عطاء رشدى سعيد المبهر وقيادته المثمرة.

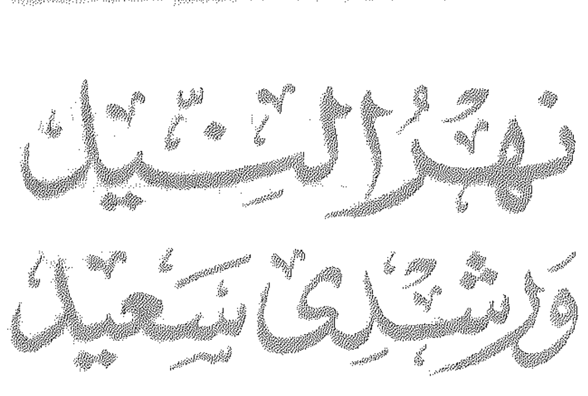
متع الله أستاذنا الفاضل د. رشدى سعيد بالصحة وأبقاه الله لنا رمزا وعلما - رجل أعطى كثيرا وأحبه الناس كثيرا .



وفد مصر بالمؤتمر البرلمانى بطوكيو اكتوبر ١٩٧٤ مع جمال العطيفى

فى موقع شركة مصر للرخام بالمعرض الصناعى ١٩٦٩ مع السيد حسين الشافعى ود. عزيز صدقى والمرحوم خليل قنديل رئيس الشركة

رشدى سعيد . جزء خاص





بقلم : د. محمد عبد الفتاح القصاص

(١)

نشأت دراسات الجيولوجيا ومسوحاتها في مصر علي أيدي عدد من الخبراء الأوربيين سعيا وراء المعارف الجيولوجيا عامة ، وبحثا عن الموارد المعدنية والبترولية والمياه الجوفية . لهذا الغرض انشئت مصلحة المساحة الجيولوجية في أواخر القرن التاسع عشر . ثم كان انشاء كلية العلوم بالجامعة المصرية عام ١٩٢٥ ، واستقدم لها اساتذة من خيرة العلماء الأوربيين لتدريس العلوم ومنها علم الجيولوجيا .

وبدأت أجيال الجيولوجيين المصريين تتخرج فى الجامعة وتذهب للعمل فى شركات البترول والتعدين والمحاجر ، وفى مصلحة المساحة الجيولوجية . أرسلت الجامعة عددا من خريجيها النابهين لاستكمال دراساتهم العليا فى الخارج ، كان من بينهم رشدى سعيد الذى أوفد إلى سويسرا ثم إلى الولايات المتحدة الأمريكية فيما بين ١٩٤٦ إلى ١٩٥٠ ، عاد بعدها للعمل فى قسم الجيولوجيا بجامعة القاهرة وتحلق حوله عدد من طلاب الدراسات العليا ، وعكف هو وتلاميذه على دراسات فى جيولوجية مصر عامة ، وفى مجال الحفريات الدقيقة فى

التكاوين الرسوبية خاصة.

كان علماء الجيولوجيا الأجانب والمصريون - ومنهم الدكتور رشدى سعيد - فى الجامعات وهيئات المساحة الجيولوجية والثروات المعدنية وشركات البترول يتابعون دراساتهم فى جيولوجية العصور القديمة التى تحسب بعشرات الملايين من السنين ، والتى تتمثل فى تكاوين صخور القاعدة (الجرانيت وغيره) وما ترسب فوقها من رسوبيات الأحجار الرملية والكلسية على تباين بنياتها ، وما تحويه من خامات معدنية وحقول البترول وطبقات الفحم وتكاوين المياه الجوفية . تجمع من هذه الجهود الموصولة على مدى النصف الأول من القرن العشرين قدر عظيم من المعارف العلمية، عكف عليها الاستاذ الدكتور رشدى سعيد بالتصفية والتقطير على مدى ربع قرن ، ووضع هذا فى كتابين موسوعيين عن جيولوجية مصر، الأول من تأليفه والثانى من تأليف كوكبة من العلماء بقيادته ومشاركته فى التأليف والتحرير

كانت دراسات العصر الجيولوجى الرابع (المليون سنة الأخيرة من تاريخ الكرة الأرضية) موضع اهتمام علماء الجغرافية ، وتمثل رسالة المغفور له

رشدى سعيد ـ جزء خاص

الأستاذ الدكتور سليمان حزين عن موضع مصر فى التاريخ القديم والتى نشرها المجمع العلمى المصرى عام ١٩٤١ النموذج البارز لأعمال هذه المدرسة ، التى ضمت عددا من فحول أساتذة الجغرافية التاريخية المؤسسين من أمثال الأعلام الدكتور مصطفى عامر والدكتور إبراهيم رزقانه وغيرهم . وبقى علماء الجيولو جيا مشغولين عن هذا المجال ولكن الدكتور رشدى سعيد ، بعد أن أكمل كتابيه عن الجيولوجيا التقليدية توجه باهتمامه إلى دراسات هذا العصر الخاتم الذى ترجع أهميته إلى أنه العصر الذى ظهر فيه الإنسان الحديث وبدأ فى حقبه الحديثة تاريخ البشرية ، أى أن التغيرات التى شهدها العصر الرابع من تغيرات المناخ وتحولات البيئة كانت لها الآثار البارزة على تاريخ الإنسان وعلى جغرافية الجماعات البشرية بين الهجرات والاستقرار حتى وصل إلى مراحل الحضارات .كان مدخل علماء الجغرافية التاريخية لدراسات هذا العصر من باب الإنسان وتطوراته العرقية والحضارية ، وبقى استكمال هذه الدراسات من باب

البيئة الفيزيقية : الرواسب والتكاوين السطحية والتحركات الأرضية من الصدوع وغيرها وعمليات الترسيب والنحر بفعل الرياح والمياه . كان دخول الدكتور رشدى سعيد وشركائه من المصريين ومن أبرزهم الدكتور بهى العيسوى والأجانب وعلى رأسهم العالم الأمريكى فريد ويندورف الذى قاد فريقا دوليا أوربيا أمريكيا مصرياً للبحث - كما كان يفعل الجغرافيون المصريون الرواد - عن حضارات ما قبل التاريخ الفرعونى ، أو ما يشار إليه بعصور الأدوات الحجرية . اتسع مدى تنقيب هذا الفريق الدولى ليشمل - بالأضافة إلى وادى النيل وتخومه - مساحات واسعة من الصحراء الغربية وامتدادها فى السودان . وجدوا حل الإقامة لمجتمعات هذا التاريخ القديم متناثرة على اتساع الصحارى المصرية والسودانية، ودلت على ظروف مناخية أسخى بالمطر ، وظروف بيئية عاونت على نشأة مراعى واسعة وزراعات فى الحطيات. ودل تتابع الحضارات على مراحل الاقتراب من النيل ، وعلى شواهد للتغيرات التى توالت على النهر تجمعت من هذه الدراسات ، ومن غيرها مما نهضت به فرق بحثية أخرى فى صحارى مصر والسودان ، حصيلة ثرية من المعارف العلمية ذات الأوجه والاتجاهات المتعددة والمتشعبة .

كتابان موسوعيان

تناول الدكتور رشدى سعيد هذه المعارف من زوايا علاقاتها مع تاريخ نهر النيل ، وأحاط بدراسات النهر وأرصاده على مدى التاريخ الطويل ، واستقطر منها كتابين موسوعيين عن نهر النيل . الأول نشرته دار سبرنجر للنشر عام ١٩٨١ وتناول على وجه الخصوص نهر النيل فى مصر ، والثانى وضعه باللغة الإنجليزية ونشرته دار برجامون للنشر عام ١٩٩٣ وترجمه إلى اللغة العربية ونشرته دار الهلال فى طبعات متوالية أولها ١٩٩٢ ، وتناول نهر النيل جميعا وحوضه الممتد من خط عرض ٤° جنوب خط الاستواء إلى خط عرض ٣١° شمال خط الاستواء، والذى تشارك فيه عشر دول افريقية فى هضبة البحيرات الكبرى فى أقصى الجنوب ، ومرتفعات شرق أفريقيا (أثيوبيا وارتريا) ثم سهول السودان ومصر. المعارف والبيانات المتصلة بهذا النهر ذى التاريخ الممتد والجغرافيا المعقدة تفوق القدرة على الإحاطة . هنا تبرز قدرة الدكتور رشدى سعيد على استخلاص

المعـــارف الأســـاســيــة والربط بين عناصرها .

(٢)

الكتـاب الأول : التطور الجـيـولوجي لنهر النيل (١٩٨١) يمثل حلقة الوصل بين دراسات جيولوجية مصر ، وهى موضوع الكتابين المرجـعـيـين اللذين نشـرهمـا الدكتور رشدى سعيد عام ١٩٦٢ وعام ١٩٩٠ ، بين دراسات تاريخ نهر النيل . ويستدل على تاريخ نهر النيل من دراسات مـتـبـاينة منهـا (١) دراسة الرواسب السطحية التى حملها النهر من منابعه المتباعدة والمتعاقبة ورسبها على جوانب مـجراه على شكل مـصـاطب ، وبنى بها دلتـاه على شكل رواسب مـتـراكـبـة ردمت الخليج البحرى الذى تحول إلى دلتا . (٢) دراسة التكاوين الجـيولوجـيـة التى شق النهر مجراه فيها أو التى جرى على طول ما انشق أو تيسر فى هذه التكاوين . (٣) دراسة التحولات الجيولوجية والمناخية التى انخفض بها سطح مـيـاه البـحـر المتوسط فانحسرت عن التخوم الشمالية للدلتا ، والتى ارتفع بها سطح مياه البحر فغمرت أجزاء من الدلتا ، وقد تبدل سطح البحر من الارتفاع والانخفاض أكثر من مـرة . (٤) دراســات تتـبـع التــاريخ الجيولوجي للحيز المصرى خاصة ظواهر جريان المياه السطحية فى عصور المطر ، وهو تاريخ مـعـقـد لأنه تغيـر على مـدى الحقب الجيولوجية المتوالية . هذه مسألة قد تضل فيـهـا السبل لتشعب المسالك ، وذلك لأن نـهـر النيل الذى نـعـرفـه كـيـان حديث سبقته كيانات عديدة ذات دروب متباينة ، ولكن السبيل لا تضل بالأستاذ الحجة الــذى لا تغفل بصـــيرته عـــن تبين العناصـــر المتداخلة ، ولقد ضلــت السبل بغيره فى دراســـات لمجـارى المياه القديمة فى الصحراء الغربية .

فى هذا كله اعتمد المؤلف فى تقصية على تحاليل نتائج حفر الآبار العديدة فى الدلتا وفى التخوم البحرية للدلتا ، وفى الوادى بصعيد مصر وفى تخومه الشرقية والغـــربيـــة ، وعلى نتــائج الدراســات الجيوفيزيقية التى تكشف القيعان وما دونها من الطبقات العميقة من التكاوين الجـيـولوجـيـة بالإضافة إلى الدراسات الجيولوجية التقليدية . وقد أضاف للكتاب ملاحق فيها بيانات تفصيلية عن حدود الطبـقـات وتتـابعـهـا الزمـانى ، وثبت به تعريف التكاوين الجيولوجية بأسمـائها

وأعمارها ، وهى بيانات ثرية تعين الباحثين الذين يرغبون فى متابعة هذه الدراسات . وفى هذا تبرز حميدة للأساتذة الكبار الذين يعملون على تعبيد السبيل لمن يتبعهم من الباحثين .

(٣)

الكتاب الثانى نهر النيل الذى نشرت دار الهلال طبعته العربية الأولى عام ١٩٩٢ وأعادت طبعه ، من الكتب الفريدة ، ذلك لأن كتبا عديدة منها كتاب الجغرافى المصرى الرائد الدكتور محمد عوض محمد تناولت نهر النيل ووصف أجزائه من المنابع فى الهضبة الاستوائية وفى المرتفعات الأثيوبية ، ومسارات أحباسه فى سهول السودان وصحارى مصر ، وكتب عديدة تناولت هيدرولوجية نهر النيل وحساب مياهه المتدفقة من المنابع إلى المصبات الدلتاوية. وكتب عديدة على مدى القرون جمعت أرصاد النهر وجريانه فى السنوات السمان وقصوره فى السنوات العجاف. وكتب عديدة تناولت تاريخ استيطان الإنسان لوادى النهر فى تخومه وفى دلتاه ، وتاريخ الحضارات المتوالية التى تتابعت على جنبات النهر ، وكتب عديدة تناولت مشروعات ضبط النهر من عهود العمل على توقى مخاطره ونزوات فيضانه إلى عهود العمل على التحكم فى مجراه وضبط مساره وتخزين مياهه منذ القناطر الخيرية التى بناها محمد على فى منتصف القرن التاسع عشر حتى السد العالى الذى بناه جمال عبد الناصر فى منتصف القرن العشرين. كتب تملأ الخزائن ولكن الأجزاء الثلاثة الأولى لكتاب نهر النيل للاستاذ الدكتور رشدى سعيد جمعت كل هذه المعارف الغزيرة المتعددة والمتشعبة فى ٢٧٢ صفحة ، وضعته فى كلام يجمع بين الإيجاز والوضوح وفى نسيج متكامل جمع بين علوم الجيولوجيا والجغرافيا والتاريخ الجيولوجى وتاريخ المناخ وتاريخ المجتمعات البشرية . وهذا التكامل العلمى الذى لا يقدر عليه إلا أستاذ راسخ القدم ، مهد السبيل - وكانت وعرة - لدراسات وبحوث فى مجالات عديدة تتصل بتاريخ الإنسان وتاريخ الحياة ذاتها من النبات والحيوان فى هذا الوادى الذى يمتد من قلب القارة الأفريقية إلى شواطئ البحر المتوسط ، ومن ثم فهو يمثل دهليزا يربط

بين المناطق الاستوائية والحارة فى أواسط أفريقيا والمناطق المعتدلة فى شمالى القارة .

الجزء الأول من الكتاب يتناول تاريخ النهر كظاهرة جغرافية ، ويدلنا على أن نهر النيل الذى نعرف أكثر الأنهار تعقيدا ، لأنه نهر مركب من عدة أنهار اتصلت وانفصلت على مدى تاريخها الجيولوجى الذى امتد إلى عدة ملايين من السنين ، ومتابعة علاقات هذه الأنهار وتطورها وتطور العلاقات بينها أمر بالغ الصعوبة ، ولكن الأستاذ يعرض متابعة هذه الأحداث على نحو يجعل الفهم والمتابعة أقل عسرا .

اكتشاف منابع النيل

الجزء الثانى من الكتاب يتناول النهر كظاهرة هيدرولوجية : المياه وتدفقها. يمهد المؤلف لهذا الجزء بفصل عن تاريخ اكتشاف منابع النيل ، وهو تاريخ امتد على مدى قرنين من الزمان ، وجمع بين مغامرات المستكشفين الأفراد، وحملات الجماعات العسكرية، وروى فى عشرات المجلدات بسائر اللغات . وقد أحسن المؤلف صنعا أن أوجز هذا كله ويسره لنا. ثم يعرض هيدرولوجية النهر فى أحباسه العليا عند المنابع وفى أحباسه الوسطى عبر السودان حتى يصل إلى أسوان. وفى هذا العرض بين عن تقلبات النهر بين البسط والقبض ، ويذكرنا بكوكبة من مهندسى الرى المصرى ومن شاركوهم من الخبراء الأجانب ، نذكر منهم العالم البريطانى هرست وزميله العالم المصرى يوسف سميكه مؤلفى الكتاب الموسوعى «نهر النيل » وهو مؤلف ليس له نظير فى أحواض أنهار العالم جميعا. والفصل الخامس من هذا الجزء يؤرخ تقلبات النهر على مدى عمره الحديث - أى عشرة آلاف سنة ، وقد أوجز هذا الفصل ما ورد فى عشرات وعشرات من مجلدات ودراسات قديمة ، عكف عليها المؤلف فى صبر وأناة بالمراجعة والتدقيق ، وخرج علينا بموجز يدل على جهد خارق لا يقدر عليه إلا أهل العزم.

الجزء الثالث يتناول تاريخ الإنسان فى وادى النيل ، واستخدامات أرضه ، وهو تاريخ الرى والزراعة ، تاريخ الحضارات الأولى للإنسان، وقد كان لأهل وادى النيل فى مصر قسط عظيم من هذا التاريخ الحافل بالجهد البالغ والمشقة والعبقرية

أيضا. فى هذا الجزء قصة التحول من رى الحياض إلى الرى الدائم ، والتحول من رهبة النهر وتوقى نزواته الى ضبط النهر والتحكم فيه، وهو تحول بلغ مداه ببناء السد العالى. ويتناول المؤلف هذا المشروع العظيم بالتحليل ، وتقييم جدواه وبيان آثاره الجانبية، كل ذلك فى إحاطة علمية موضوعية.

الجزء الرابع والأخير من هذا الكتاب الموسوعى ينظر الى المستقبل، مستقبل النهر وتنمية موارده، ومستقبل العلاقات بين دول حوضه، ومستقبل مصر التى تقع فى أدنى النهر وتعتمد على مياهه اعتمادا بالغ الخطر، ويتناول المؤلف التشريعات والأعراف الدولية التى تنظم علاقات دول أحواض الانهار الدولية والاتفاقيات المتصلة بمياه النيل. وهذه أمور لا تخفى صعوباتها وخطرها ومحاذيرها. ويطرح المؤلف هذا بين يدى مخططى التنمية فى مصر والأمناء على مستقبلها طرحا يفتح العيون على الامكانات الواعدة والمزالق الخطرة، وكأنما يدعو الى اليقظة والى مقابلة احتياجات الغد بنظرة تستشرف المستقبل ولا تقعد حتى تدهم الاحداث، ولتكون سياسة مصر فى هذا المجال الحيوى قائمة على أسس من المعارف العلمية الموثقة.

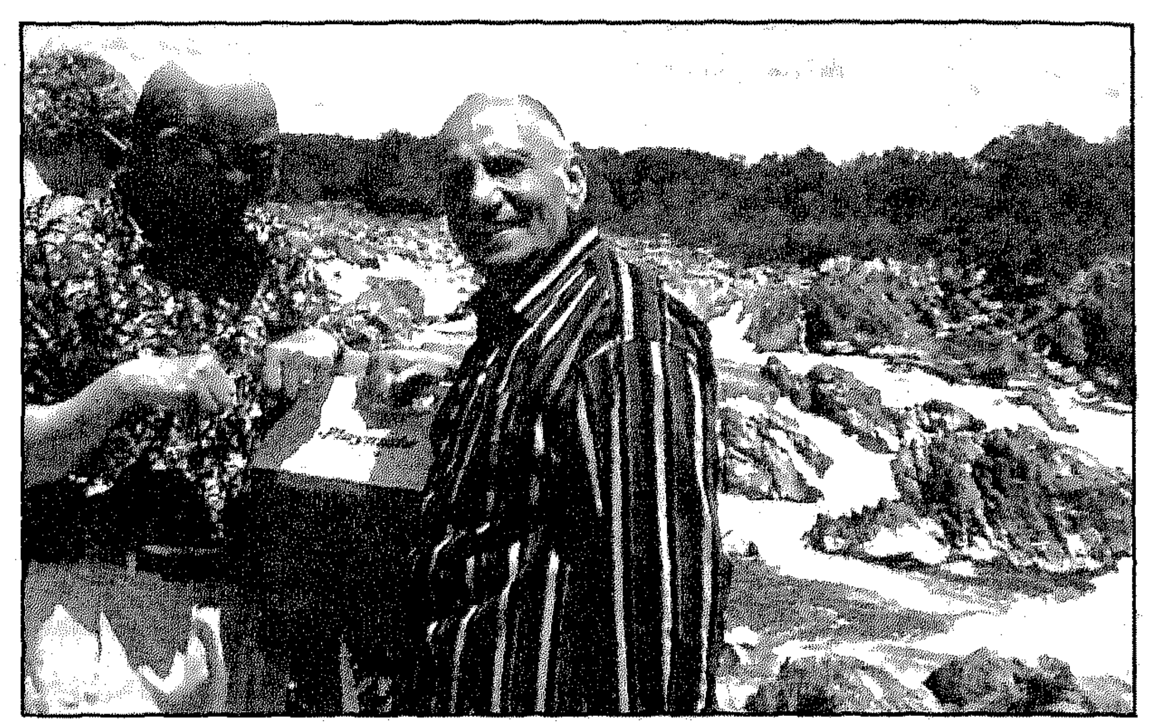
هذا الكتاب الموسوعى منجم من المعارف التى احاطت بالنهر الذى هو شريان الحياة لمصر. يجد فيه الباحثون فى مجالات الجيولوجيا والتاريخ القديم علما نافعا. ويجد فيه مهندسو الرى والمشتغلون بالرى والصرف والزراعة وتنمية موارد الأرض زادا ثريا، ويجد فيه واضعو سياسات التنمية ومخططو مستقبل السياسات المصرية أضواء هادية، ويجد فيه واضعو المناهج التعليمية والكتب المدرسية مرجعا ثريا وخزانة للمعارف النافعة.

والكتاب ـ من بعد ـ نموذج للأدب العلمى. لغة عربية فصيحة وسليمة تدل على قدرة اللغة العربية على استيعاب العلوم فى أعقد صورها. ونص مصفى ـ وهذه هى اللغة العلمية ـ لا زيادة ولا فضول فى الكلام ولا نقص يخل. هذه لغة تحتاج الى تركيز واستيقاظ دائم، فيها حفز للعقل والتنبه. وقد عرض الأستاذ الدكتور رشدى سعيد فى مؤلفه هذا نموذجا يحتذى للأدب العلمى. نفع الله به أمته ، وبارك فى جهده ومد فى عمره بالعمل النافع.

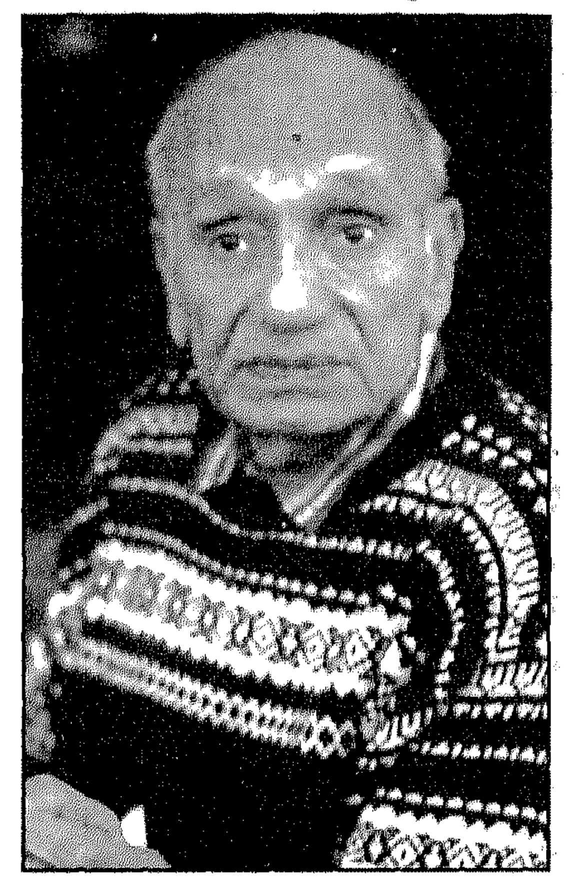
رشدى سعيد الذى أعرفه

بقلم : محمود أحمد

لا يعادل متعة قراءة مذكرات الدكتور رشدى سعيد، والتى ستصدر عن «دار الهلال» ، سوى استعادة الذكريات الحميمة معه. فقد كانت لى معه ذكريات كثيرة، منذ أن تعارفنا فى عام ١٩٦٤ عندما كان هو عضوا فى مجلس الأمة (مجلس الشعب فيما بعد) وكنت وقتها محررا برلمانيا «للأهرام» ، وكان من حظى أن تطورت علاقتنا إلى صداقة متينة على مدى السنين، توثقت بشكل خاص عندما انتقلت إلى الولايات المتحدة حيث عملت لمدة ثمانى سنوات مراسلا صحفيا فى العاصمة الأمريكية واشنطن التى كان هو قد انتقل للعيش فيها قبل سنوات.



صورة تجمع د. رشدى وكاتب السطور، التقطت عند شلالات نهر البوتوماك بالقرب من واشنطن



د. رشدى صورة له بمنزله في واشنطن يشهد مناقشات ممتعة وحوارات مع الأصدقاء



أثناء إحدى زياراته المنتظمة لمصر د. رشدى سعيد مع مصطفى نبيل رئيس تحرير «الهلال

وعلى مدى هذه الفترة الزمنية الممتدة، أتيح لى أن أعرف الكثير عن رشدى سعيد العالم المصرى ذى السمعة العالمية، وصاحب الاهتمامات الواسعة والثقافة العميقة، والذى لا يفتأ يدهش الجميع بهذا الدفق من الأفكار الباهرة والنابضة فى مختلف نواحى الحياة.. وخاصة ما كان منها يتعلق بوطنه الذى أحبه: مصر.

واليوم ونحن نحتفل مع د. رشدى سعيد ببلوغه سن الثمانين من عمره المديد الحافل بالعطاء، يتأكد لنا مرة أخرى دون أن تكون فى ذلك أية مفاجأة أنه لا يزال كما عهدناه: صاحب رؤية ثاقبة وحيوية متدفقة وأفكار لا تزال قادرة على جذب الانتباه وإثارة الاهتمام ، فقبل ثلاثة شهور فقط وخلال زيارته الأخيرة للقاهرة نشر رشدى سعيد العديد من المقابلات وتحدث فى ندوات عقدها له العديد من الجمعيات والمعاهد الأكاديمية والهيئات الثقافية، فضلا عن مقالات نشرت له وأحاديث تليفزيونية أجريت معه.

واعترف أننى لم أستطع، وسط مشاغل الحياة، أن ألاحق نشاط الدكتور رشدى سعيد، خلال زيارته الأخيرة تلك، رغم رغبتى الشديدة فى ذلك ولكننى استمعت إليه فى إحدى هذه الندوات والتى تركزت كلمته فيها عن «مصر ما بعد السلام» وهى كلمة حملت تحذيرات ضمنية، ولكنها واضحة، من التهاون فى

رشدى سعيد.. جزء خاص

تدارك أوجه القصور التى تعانى مصر منها. ولعل أبرز مثل لذلك، هو ما طرحه بالنسبة لمسألة «الطاقة» حيث أوضحت مقارنة سريعة أجراها أن ما يعود على مصر من كل كيلو وات كهرباء تنتجه لا يتجاوز ١,٧ دولار.. فى حين يقدر عائد اسرائيل من كل كيلو وات تنتجه ٥,٢ دولار أى ثلاثة أمثال. وفى محاضرة أخرى، خلال زيارته الأخيرة أيضا، لاحظ أن ما يرد إلى مصر من مياه النيل يبلغ نحو ٥٥ مليار متر مكعب سنويا، وأنه يتم استهلاك أربعين مليارا منها فى أغراض الزراعة (الرى) ونظرا لأن دخل مصر من الزراعة يبلغ فى المتوسط أربعين مليار جنيه فى العام.. فإن ذلك يعنى أن المتر المكعب من المياه الذى يستخدم فى الزراعة لا ينتج أكثر من جنيه واحد، وهو انتاج ضئيل إلى درجة مزعجة.

وقد أردت بهذين المثلين أن أوضح فقط قدرة الدكتور رشدى سعيد على ترتيب الأفكار واستخلاص النتائج، ولا شك أنه استطاع أن ينمى هذه القدرة باستخدام المنهج العلمى الذى اكتسبه من تكوينه ودراساته كعالم جيولوجى لفتت أبحاثه أنظار المحافل العلمية على مستوى العالم.

ويبدو أن نشأة رشدى سعيد الأولى هى التى ساعدته على أن يسير فى هذا الدرب الذى اختاره، وأن يصبح فى النهاية هذا العالم المفكر المثقف الذى لا تزال أفكاره تبهرنا إلى اليوم. فقد كان المجتمع المصرى فى العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، أى أثناء صباه وشبابه الباكر، لازال يمر بمراحل تطوره الأولى.. ولكن الأقدار هيأت له أن ينشأ فى أسرة تختلف عن معظم الأسر المصرية فى ذلك الوقت. فقد كان له أب عصرى قادر على استشراف المستقبل، وبالتالى كان يوجه أبناءه على غير ما كان غيره من الآباء يوجهون أبناءهم إليه، وقد روى لى رشدى سعيد أنه عندما نجح فى اتمام تعليمه الثانوى وحصل على شهادة «البكالوريا» كانت هدية والده إليه هى السماح له بأن يذهب فى رحلة إلى أوروبا.. وقد أعطاه لذلك خمسة جنيهات كاملة، اشترى بأحدها - أى بجنيه - تذكرة باخرة نقلته إلى أوروبا! وكان هذا الأب نفسه وكما جاء فى مذكرات د. رشدى سعيد التى نشرت مؤخرا، قد وافق من قبل على أن تنضم ابنته انعام - شقيقة رشدى الكبرى - إلى بعثة نظمتها الحكومة المصرية وضمت عددا من فتيات المدارس للدراسة فى لندن لعدة سنوات.

البرلماني الموهوب

وأستطيع أن أقرر اليوم، بعد أكثر من ٣٥ سنة عرفت خلالها رشدى سعيد عن قرب، أن شخصيته وملكاته وما يتمتع به من قدرات هى التى جذبتنى إليه وحولت علاقتنا من تعارف عادى إلى صداقة ممتدة. وأسارع هنا إلى القول إن د. رشدى سعيد، رغم علمه الغزير واهتماماته التى لا تنقطع بالعمل العام ليس شخصا جهما مفرطا فى جديته بل إنه يغلب عليه فى الواقع طابع من المرح يعهده فيه أصدقاؤه ، وقد كان له من قوة الإرادة ما جعله يستطيع الاحتفاظ بهذا الطابع المعروف عنه، وذلك على الرغم من التجارب الشخصية والعائلية المؤلمة التى مرت به أخيرا.. وخاصة خلال العامين الأخيرين.

وفى بدايات تعرفنا، أتيحت لى فرصة أن أنضم إلى وفد برلمانى كان د. رشدى سعيد أحد أعضائه لحضور اجتماع المؤتمر البرلمانى الدولى الذى عقد فى طهران عام ١٩٦٦.

كان رئيس الوفد هو الدكتور فؤاد محيى الدين رئيس الوزراء فيما بعد، كما ضم الوفد أيضا الأستاذ محمد عبد السلام الزيات الذى كان يشغل وقتها منصب الأمين العام لمجلس الأمة، والذى كان صديقا شخصيا لى وللدكتور رشدى فى الوقت نفسه. وفى هذه الرحلة إلى طهران، عرفت المزيد من قدرات رشدى سعيد وأنا أراه يتحرك بين لجان المؤتمر

ويجرى اتصالات مع أعضاء الوفد ويعمل فى الكواليس لتمرير صيغة قرار يؤيد وجهة نظر مصر. وفى وقت كانت العلاقات الدبلوماسية مقطوعة بين طهران والقاهرة.

قد أدهشتنى هذه المواهب التى لم أكن أعرفها عن رشدى سعيد صاحب الشهرة فى العالم كباحث جيولوجى، وصاحب الكتاب الكلاسيكى المعروف عن جيولوجية مصر. وفيما بعد، لم أفاجأ عندما سمعت عن المهام البرلمانية العديدة التى اضطلع بها، والتى كان من بينها اختياره عضوا فى لجنة تقصى الحقائق التى رأسها الدكتور جمال العطيفى فى السبعينيات للتحقيق فى أحداث الفتنة الطائفية التى نشبت بسبب أحداث «الزاوية الحمراء». كذلك لم يدهشنى ما رواه هو لى فيما بعد عن أنه كاد يفوز برئاسة الاتحاد البرلمانى الدولى، لولا أن الظروف التى مرت بمصر حينذاك حالت دون ذلك.. إذ وقعت مصر اتفاق «كامب ديفيد» مع إسرائيل، وكانت عزلتها عن العالم العربى ومقاطعة دول أخرى لها مما كان لابد وأن يفقد المرشح المصرى التأييد الذى يحتاجه للفوز بمنصب دولى.

وقد جره الاهتمام بالمشكلات المصرية إلى خضم العمل العام الذى عززته عضويته فى مجلس الشعب وفى رئاسته لإحدى المؤسسات الكبرى، ولكن هذه

رشدى سعيد.. جزء خاص

المشاركة فى العمل العام قادته فيما بعد، لسوء الحظ، إلى الصدام مع القيادة السياسية ممثلة فى الرئيس أنور السادات الذى فصله من رئاسة مؤسسة التعدين أولا، ثم أدرج اسمه بين قوائم الشخصيات التى أمر باعتقالها فى سبتمبر ١٩٨١ قبل اغتياله بأسابيع.

محاورات فى واشنطن

طوال السنوات التى عملت خلالها مراسلا صحفيا فى العاصمة الأمريكية، شكلت علاقتى بالدكتور رشدى سعيد أحد «مرتكزات» نشاطى وحياتى اليومية ، كنا نلتقى كلما سنحت الفرصة فى منزل أى منا أو فى أحد الأماكن العامة، أو كان هو يدعونا للغداء فى نادى «كوزموس» وهو نادى الصفوة من العلماء الأمريكيين والذى هو عضو فيه. ولكن إلى جانب هذه اللقاءات. وربما أهم منها، كانت لنا محادثات تليفونية يومية لا تنقطع حول مختلف الشئون. وخاصة ما يتعلق بمصر التى كنا نتنسم أخبارها ونتابعها باستمرار.

فى تلك السنوات، أستطيع القول إننى عرفت رشدى سعيد حقا وعن قرب كاف، وهو ما حبب إلى هذه الصداقة البديعة وجعلنى حريصا على لقاءاته ومناقشاته

التى لا ينضب خلالها معينه من الأفكار اللامعة والمتدفقة.

كان يتحدث بحماس كبير، عن ضرورة وقف اتساع الهوة بين المصريين وينبه إلى خطورة انزلاق الأمور حيث يزداد أثرياء المصريين ثراء ويزداد فقراؤهم فقرا.

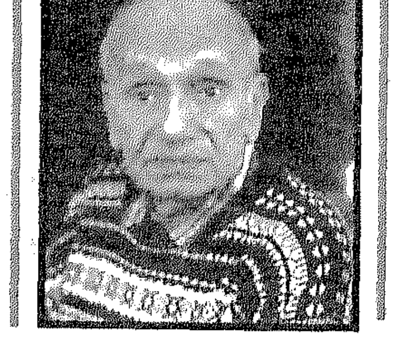
ومن أفكاره - أو تشخيصاته - المشهورة فى ذلك، تقسيمه للمصريين إلى كتلتين وصف إحداهما بأنها «كتلة غاطسة» وتتكون من ٨٦٪ من المصريين لا يحصلون على أكثر من ربع مجمل الدخل القومي. والأخرى «كتلة طافية» تحصل على أكثر من ثلثى الدخل القومى رغم أن نسبتها لا تزيد عن ٨٪ من مجموع المصريين.

وظل د. رشدى سعيد يحرص على استقاء البيانات والمعلومات من أوثق المصادر، مصرية كانت أو أجنبية، بما فى ذلك ما قد يكون لدى الهيئات الدولية كصندوق النقد والبنك الدولى وبرنامج الأمم المتحدة للتنمية، وغيرها وكان يعكف على هذه البيانات التى يدخلها فى جهاز الكمبيوتر الشخصى الخاص به، يرتبها ويقارن بينها ويستخرج منها النتائج.

وفى أحد الأيام اتصل بى تليفونيا ووجدت صوته ينم عن انفعال لم يستطع أن يخفيه.. وقال لى إنه وجد، وهو يجرى عملية حسابية على أساس ما لديه من بيانات، أن أبناء الشريحة العليا من «الكتلة الطافية» من المصريين والذين لا يزيد عددهم عن المليون، قد يدفع أحدهم عشرين جنيها ثمنا «للهطة» من الآيس كريم المستورد!.

وكانت هذه الأفكار تثير بيننا الكثير من المناقشات التى شاركنا فيها أصدقاء آخرون أيضا، وكنت أجد فيما دائما متعة كبيرة. وقد عمد هو فيما بعد إلى جمع هذه الأفكار، أو الكثير منها ليضمنها كتابه المهم الذى جعل عنوانه «الحقيقة والوهم فى الواقع المصرى» وهو كتاب حصل على جائزة معرض الكتاب عام ١٩٩٧. وقد تلطف الدكتور رشدى فجعل فى صدر الكتاب اهداء خصنى به مع الصديق الدكتور فوزى هيكل ووصفنا بأننا الصديقان «اللذان كثيرا ما شاركانى مناقشة موضوعات هذا الكتاب».

وبعد عودتى من واشنطن، ورغم بقائه هو فيها، استمر التواصل بيننا سواء من خلال اللقاءات «الموسمية» فى مصر أو فى أمريكا، ومن خلال الاتصالات التليفونية بين الحين والآخر. وكان يسعدنى دائما أن أستمع إلى الجديد والمتجدد من أفكاره التى لا ينضب معينها والتى تحتفظ دائما بالبريق ذاته الذى اعتدناه منه.. فلا أملك إلا أن أدعو له بالصحة ودوام العطاء.



رشدي سعيد . جزء خاص

تجربة رشدى سعيد السياسية

يا إلهًا من خبرة ويا إلهًا من نصوص

بقلم : نبيل عبد الفتاح

ثمة شخصيات عصية على عملية صياغة وبناء الصور النمطية والتصنيفات السريعة ، أو حتى على التجنيس السياسى والايديولوچى، تلك اللعبة الذهبية البسيطة ذات الطابع الجنائى، التى تميل إلى وضع الشخص - ولا أقول الفرد - فى مكان ما من الذاكرة والسياسة والجماعة ، هى عملية تهدف إلى تحديد موقع الشخص ، وانحيازاته ، وأفكاره حتى يسهل تسكينه واتخاذ موقف ادراكى وعملى ازاءه حبا أو كرهاً أو تحالفاً أو نزاعاً ، هى محاولة - فى أفضل أحوالها - تميل إلى كسر فكرة أن الشخص كائن معقد ومركب وملغز وهو مساحات وشبكات وانتماءات ، وهويات ، إذا شئت الصراحة بلا لبس أو مراوغة هى خفة لاتحتمل إذا أردت استعارة تعبير كونديرا.



رشدى سعيد ضمن قلة من الصفوة الفكرية المصرية المصطفاة تستعصى على التنميط وعلى نزق التصنيف الاتهامى أو القبلى السياسى. ومن ثم تغدو دائماً محاولة اصطياده من أحد المداخل، أو المفاتيح لفهمه وتحليله وتبسيطه وتقديمه سائغا كعنصر فى قبيلة سياسية أو مللية أو سياسية إلى القارىء المثقف أمراً محفوفاً بخطر الخفة ان لم أقل نزق كتابة عابرة حول الشخصية وإنتاجها الفكرى والأكاديميى وخبراتها المهنية ، وتجربتها السياسية الغنية فى العمل البرلمانى ، وفى دهاليز الدولة التعبوية، وسلطانها التسلطى الجبار. تبدو هيبة وصعوبة الكتابة عن أساتذنا الجليل رشدى سعيد، مشوبة بالوجل والتردد ، والخوف ! نعم هو ذلك! ثمة حاجة لتكثيف وبلورة خبرات وتقاليد المدرسة الوطنية للصالح العام كما أسميتها، والتى يعد رشدى سعيد واحداً من رموزها وأعلامها الكبار ، تلك الجماعة النادرة من المثقفين، والباحثين، ورجال السياسة والتكنوقراط – ولم لا ! – التى نذرت نفسها ورعا فى خدمة الصالح الوطنى بلا طلب شخصى لا من السلطات السياسية أو الثقافية أو الأخلاقية ، ولا من المجتمع أيا كانت تركيباته وهياكله ، وتوجهاته . جيل فريد أعطى بلا حدود ، وبعض من موهوبيه الكبار لم يأخذ حقه، بل كان موضوعا لكراهية ونبذ واستبعاد من يحاولون عن ضعف فى الروح وهمة خائبة – وكفاءة دون الحد الأدنى، وموهبة غير متحققة – أن يغتالوا المواهب المصرية النادرة واللامعة كى يعيشوا فى الحياة ضجيجاً ولغوا وفسادا! . ثمة أهمية قصوى وآنية لتبديد الأضاليل، وهتك الأقنعة وزيف قوة الخديعة السائدة الآن، حيث فوضى ولغو وصخب حقول السياسة والأفكار والتأويلات الفقهية واللاهوتية والمال والاعلام والشجارات والتنابذ والهجاءات وكيل المديح بلا ضوابط أو حساب فى سوق المصالح السائد فى مصر المحروسة.

لغة خاصة

رشدى سعيد هو أحد هاتكى سلطة الكذب البارزين فى كتاباته المختلفة ، وتحليلاته التى تتسم بالعمق والذكاء والقدرة الفائقة على الرصد والالتقاط للظواهر، وإعادة بناء مشاهد السياسة والاقتصاد والاجتماع فى بلادنا، وهذا المسعى التحليلى والتركيبى، يكشف عن يقظة العين والأذن وحساسية سياسية من نوع فريد، والغريب منذ أول لقاء معه فى

نهاية عقد السبعينيات المنصرم - مع أستاذنا الجليل أبو سيف يوسف ، ود. رضا محرم في منزل د. مراد وهبة - اكتشفت أنه لا يتحدث لغة ورطانة وطقوس وكلشيهات تلك الأيام . حيث لا تجد منذ ذاك وإلى الآن مجازات لغة ايديولوجية محنطة أو متحفية. نعم تلك اللغة الميتة والجافة والخشبية والمجانية التي تستخدم في وصف وتحليل ظواهر ، ومشكلات وعوالم وحوادث و.. و.. نعم لغة واصطلاحات ومناهج تفكير عن كل شيء، ولتفسير كل ظاهرة، وتقديم حلول مجانية لكل مشكلة .. لغة ناطقة بالفراديس والجنات الأرضية وتحوز الحقائق المطلقة في تصورها . أي لغة لاتصلح لأى شيء .. لغة رشدى سعيد - وخطابه الثاوى داخلها والناطقة والحاملة له - خارج المألوف منذئذ وحتى الآن، أى لغة بعيدة وقصية عن استلابية اللغة - أو اللغات السائدة - والتى تبدو وكأنها فى جوهر العالم الذى تحمله واحدة ، نعم تم إنتاجها لمرة واحدة وتم توزيعها على الجميع بهدف إنتاج كلام واحد ! لنمط واحد ! لغة خاصة تجدها فى كتبه الاكاديمية «نهر النيل»، و«جيولوجية مصر» ، و«الحقيقة والوهم فى الواقع المصرى»، وذكرياته السياسية التى سنعود لها، ناهيك عن اسهاماته العديدة بالأوراق البحثية والمقالات . لغة غريبة ازاء سلطة اللغة والكتابة المسيطرة على حقل إنتاج الأفكار ، أو فلنقل حقل إعادة مايعتقده كثر بأنه بداهات أو أفكار ، تلك التى أفلت وجف رؤاها وتبددت معانيها القديمة وفقدت صلاحيتها الدلالية والوظيفية. لغة رشدى سعيد بها اقتصاد لغوى نادر وانضباط دلالى ، تبدو رياضية وكأنها معادلات معقدة، لكن سرعان ما تفك تعقيداتها ، وتركيبها فى سلاسة وصفاء ونصاعة. عندما تتأمل خطابه السياسى والاجتماعى والاقتصادى ، تكتشف تعدد مستوياته ، وتداخلاته، على الرغم من أن القراءة العجلى قد تحيلك إلى تبسيط أمرها إلى كونها رياضية أحادية البعد. - إذا شئت استعارة ماركوزة - فى حين أن امعان النظر فى لغة خطابه الشفاهى والمكتوب تكشف عن صفاء تحليلى ، ورهافة وعمق وتركيب تردع أية محاولة لصياغة صورة نمطية عن عقل رشدى سعيد المفكر والسياسى وخطابه . منذ نهاية عقد السبعينات من القرن الماضى وحتى الآن ، يدهشك هذا العالم فى اهاب الحكيم الرصين - حيث لايزال عقله اليقظ وحيويته الوثابة ووطنيته الغامرة والخالصة تكشف عن حجم عطاء

مدرسة حب الوطن بتعبير الصديق الراحل الكريم وليم سليمان قلادة أو المدرسة الوطنية للصالح العام، التى يحاول ناهبو المال العام ، وآكلو السحت السياسى و.. و... – من نخبة هرمة محدودة التكوين والمعرفة وضحلة الخيال السياسى، وفقيرة الذمة – أن تطلق هزء الجهال عن هذه المدرسة الوطنية ورموزها تشويها أو لغطاً. من هنا تشكل كتابات رشدى سعيد وحضورها الفعال أهمية خاصة فى دفاعها عن تقاليد حب الوطن ووجهه الانسانى وغناه الثقافى ، ودوره ورسالته بين الأمم . إن قول الحقيقة ومطاردة سلطة الكذب، والتأسيس لحب الوطن المتنوع بخصب تعدديته ووحدته الوطنية الراسخة المتجددة ، هى مهمة أجيال من أبناء المدرسة، وهى أيضاً ... وأيضاً حصاد خبرة الرجل السياسية فى اطار الدولة التعبوية حيث شارك فى اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية ثم فى المؤتمر . ولم يعرف الرجل – الذى حاول بعد عودته من بعثته فى هارفارد أن يؤسس قسما للجيولوجيا فى كلية العلوم كما تعرفه الجامعات العريقة فى الغرب – دهاليز السياسة المصرية إلا فى عام ١٩٦٤ خاصة بعد الانقطاع فى الخبرات والتقاليد والمعارف السياسية منذ ثورة يوليو ١٩٥٢ من النظام النيابى التمثيلى – فى حدوده وشروطه وايجابياته آنذاك – وتجارب التنظيم السياسى الثلاث من هيئة التحرير، والاتحاد القومى ، والاتحاد الاشتراكى العربى. كانت هذه التجربة الثانية فى تطور النظم السياسية والدستورية المصرية الحديثة تدار عبر الآليات التعبوية والأمنية . ومن ثم اثرت على أساليب التجنيد والجذب السياسى، واختيار الكوادر فى العمل السياسى والبرلمانى، سواء من كوادر الضباط الأحرار ، أو من النخبة الجديدة التى بدأت تتشكل من حنايا الفئات الوسطى – الوسطى ، والتكنوقراط تحديداً.

إن نظرة على تجربة رشدى سعيد السياسية – ومذكراته – تكشف وبصراحة نادرة عن الحدود الفعلية للتجربة السياسية ، وامتداداتها المختلفة حتى الآن. ثمة اختيارات للمواقع الحكومية والسياسية والنيابية والبيروقراطية ايا كان مستوياتها كانت محجوزة وخاضعة لسلطات الأمن والرقابة السياسية الخانقة آنذاك . خاصة فى ظل استراتيجية سياسية واضحة لتغيير تركيبة هياكل القوة السياسية والاجتماعية، وشبكاتها المتعددة. من ثم رمت السلطات آنذاك نحو استبعاد الفئات السياسية القديمة ، تلك

التى تمرست على السياسة فى أروقة المدارس الحزبية آنذاك، ومعها تكوين وثقافة وبدايات تأسيس - تقاليد وسنن سياسية - لم تستكمل فى المرحلة شبه الليبرالية ، وكانت للتجربة ايجابياتها المتنوعة والعديدة إلا أنها انطوت وبأمانة على ثغرات، وعوار مما جعل النظام السياسى والاجتماعى باختلالاته يقع سائغاً مع خروج الضباط الأحرار من الثكنات إلى الدولة . إن اختيار رشدى سعيد جاء عن معرفة بعض العناصر المتمرسة بدهاليز السلطة والخبيرة بمشاكلها آنذاك . ادرك بعضهم والرئيس جمال عبدالناصر أن الاختيارات الأمنية ، ونظام الدفعة ، لايمكن أن يكون الاداة الوحيدة فى التجنيد السياسى، ومن هنا كان افتتاح صفحة الرأى بالأهرام ترمى إلى اجتذاب واكتشاف عناصر مختلفة عن المشهد ، وان كانت ليست فى خصومة مع نخبة يوليو ، من ناحية أخرى البحث عن عناصر تحمل الرطانة السياسية للخطاب الرسمى ازاء رطانات احتجزت بعيداً لخصومتها للنظام كالليبراليين والاخوان المسلمين ، أو الماركسيين ، وإن كان بعضها يجد بين الحين ، والآخر مجالا للحضور فى المشهد خارج أطر الحجز والحجب، والسرية لمن اعتبروها ملاذاً للعمل خارج اطر النظام وحدوده ، وقواعد تأييده.

تجربته السياسية

إن ملاحظات وخبرات د. رشدى سعيد حول الأداء البرلمانى الرقابى أو التشريعى لا تزال تصدق على اداءات مجالس عديدة وممتدة . هذه المجالس ترتبط فى الواقع ببنية السلطة ، وعدم توازن العلاقات الواقعية بين السلطات ، ولا شك أن الصيغة البرلماسية - الوسط بين النظام البرلمانى والرئاسى والتى هى أقرب إلى دستور الجمهورية الخامسة الفرنسية ، مع غياب بعض ضوابطه الدستورية - ، تحولت إلى ممارسة دستورية بلا ضوابط إلى الصيغة الرئاسية على النمط الأمريكى بلا توازن أو فصل سلطاتها الشهير ! . هذا أمر يبدو وكأنه بدهى !.

أحد الجوانب المهمة التى تشير لها تجربة الرجل السياسية هو تفسيره لماذا كان أداء البرلمان لدوره غير فعال ألا وهو «أنه يمثل جسما غريبا فى مجتمع لا تحكم أى جزء منه العملية الديمقراطية ... فالمصرى لا يمارس الحوار أو اختيار من يمثله على أى مستوى ومنذ مولده وحتى مماته ....» (ذكريات سياسية - مرجع

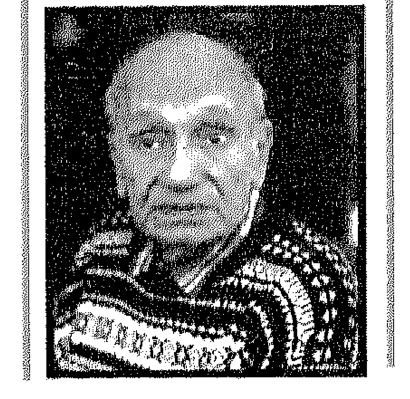
سبق ذكره) .

هذا التحليل مهم لأن المسألة ليست مقصورة على غياب الديمقراطية عن هياكل السلطة والدولة في مستوياتها العليا فقط ، وإنما على جميع الدرجات . لأن أساليب التنشئة الاجتماعية والسياسية سلطوية بامتياز وأبوية غير أن هذه البنيات تتعرض لشروخ عديدة مع العولمة والإنترنت والبث المباشر للصور المرئية والمعلومات والرؤى والأفكار عبر الفضاء والأثير والبريد الالكتروني بكل انعكاسات ذلك على دور سلطات الرقابة كافة ! .

من أهم ما في تجربة رشدى سعيد السياسية اشارته إلى بعض الصور النمطية عن الأقباط وعن المسلمين أيضا ومن كل طرف إزاء الآخر ، وكيف انها خطرة إذا لم تصحح لأنها تؤثر على مسار العلاقات بين أبناء الشعب الواحد والأمة الواحدة والوطن الواحد . اعتقد أن ما جاء في ذكرياته عن لجنة تقصى الحقائق برئاسة د. جمال العطيفي - يرحمه الله - تكشف عن الدور الخطير الذى تلعبه الشائعات على وحدة الوطن وتكامله القومى ، فضلا عن أكاذيب الغلاة وأنها من أسف تصل - عبر آليات الدولة - إلى قمة النظام كما فى أكذوبة واسطورة الدولة القبطية فى الصعيد التى ذكرها الرئيس أنور السادات فى أحد خطبه فى عقد السبعينيات من القرن المنصرم!.

يبقى أن أشير إلى أن خبرة رشدى سعيد السياسية والإنسانية والثقافية هى تعبير عن شخصيته وتخصصه فى الجيولوجيا ، هى طبقات نوعية من الثقافة والخبرة والاحساس والروح ، ولكنها متداخلة ، ومتراكمة وتشى بعمق شخصى، وجيلى ، يبدو خلاله هذا الشاب الثمانيني - أطال الله فى عمره - ديناميكيا وشجاعا فى رصانة ودقة ، وتبدو نصوصه وكأنها خارج ما يسميه رولان بارت فى «لذة النص» نصوص الحاجة الأولية للكتابة تلك التى تحكمها الحاجة ... والحاجة فقط للكتابة !!! . وهى نصوص الطوفان التى تكاد تغرق عقل مصر وتضغط على روحها وأعصابها الحساسة طيلة عقود طويلة ، ومديدة من أسف ! .

نص رشدى سعيد خارج عن هذه الحالة بامتياز لأنه ينطلق عميقا ومركبا ومتعدد المستويات في شجاعة نادرة . يا لها من خبرة ، ويا لها من نصوص تكسر سلطة الغوغائية والضوضاء الطوفانية فى مصر الآن .



رشدي سعيد : جزء خاص

شاب فى التسعين

من لا يعرف رشدى سعيد عن قرب لايعرف أنه شاب يقترب من العقد التاسع بنفس الحيوية والنشاط اللذين عهدتهما منه ، منذ عرفته شابا فى العقد الخامس من عمره لم تتبدل نظرته الثاقبة حين يستطلع أمرا ، ولم تتغير ابتسامته الساحرة التى تأسرك بصفائها وحرارتها ، ولم تختلف قدرته على معالجة الأمور من وجهة نظر جديدة أو على إدهاش سامعيه بما يسوق من أدلة وبراهين من مختلف فروع المعرفة لبعض افتراضاته ونظرياته وتصوراته ، وقد تختلف مع رشدى سعيد ولكنك لن تفلت من الإعجاب ببراعته فى الحوار وإنسانيته فى التعامل مع كل من يقترب منه وخاصة من طلاب المعرفة من الشباب .

ولم يختلف رشدى سعيد عن ذلك منذ عرفته عندما كنت معيدا بكلية العلوم جامعة عين شمس منذ أكثر من ثلاثين عاما ، وكان رشدى سعيد حينذاك فريدا بين أقرانه من علماء الجيولوجيا ، وعلما من أعلام أساتذة الجامعة، وكنت أسمع عنه قبل أن ألقاه، وكان اسمه يتردد فى المحافل الجيولوجية لا لما قام به من أبحاث رائدة ومتميزة فى مجال تخصصه - علم الحفريات الدقيقة - فحسب ولكن لكتابه الفريد عن «جيولوجية مصر» وهو أول عمل مرجعى جامع شامل فى هذا المضمار يصدر بالانجليزية فى إحدى دور النشر العالمية ليعلن ميلاد عالم مصرى على الصعيد العالمى.

وكان اسم رشدى سعيد يتردد مقرونا بهذا العمل بالتقدير والإعجاب وإن شاب ذلك بعض من النقد ولن أنسى ما أثاره المجلد ذو القطع الكبير والورق اللامع فى نفسى من الانبهار بما تضمنه من المعارف الخاصة بمناحى جيولوجيا مصر المتعددة ، وبما قدمه من رؤية جديدة ربط فيها هذه المعارف فى إطار تركيبى مبتكر .

د. فكرى حسن

مصر فى وجدانه

فى عامى ١٩٦٠ - ١٩٦٢ كنت تلميذا للدكتور رشدى سعيد بكلية العلوم جامعة القاهرة ، حيث تخصصت فى مادتى الجيولوجيا والطبيعة ، وكان د. رشدى يدرس لنا مادة الحفريات الدقيقة ، وامتازت محاضرات د. رشدى بالإحاطة والعمق ، وفى الوقت نفسه كان يخفف المادة العلمية بروحه المرحة وبساطته، وكان له الفضل فى شرح أبعاد عبقرية قدماء المصريين فى علوم الجيولوجيا وهندسة المناجم. وضرب أمثلة على ذلك تمثال «أبو الهول» و«مقابر وادى الملوك» بالأقصر ، وكانت مؤلفاته عن «جيولوجية مصر» ثم «جيولوجية وادى النيل» الذى يختص بالرواسب والطبقات الحديثة وتاريخ قدماء المصريين وأسلافهم من المراجع الأساسية المتميزة فى مجالها.

وبعد هجرتى لأمريكا عام ١٩٦٨ داومت على الاتصال به ومتابعة نشاطه العلمى والفكرى.

وقد قرأت كتابه «الحقيقة والوهم فى الواقع المصرى» الذى صدر فى «كتاب الهلال» سنة ١٩٩٦ ، فأعجبت بتحليله الموضوعى ، وحرصه على مستقبل مصر وتقدمها فى شتى المجالات ، بدافع وطنى ، ولم تنسه غربته فى أمريكا شئون مصر وشجونها ومستقبلها فحرص دائما على المتابعة والتواصل والمساهمة بفكره فى كل ما يتصل بمستقبل مصر وتقدمها.

ومن موقعى وعملى بهيئة المساحة الجيولوجية بولاية كاليفورنيا الأمريكية أبعث بكل التقدير والتحية لأستاذنا د. رشدى سعيد.

د. طوسون رشدي طبوزاده
كاليفورنيا - أمريكا

التحق رشدى بعد تخرجه فى التوفيقية الثانوية بكلية العلوم ، وكان من أوائل الملتحقين بقسم الجيولوجيا ، حيث عاصر فى هذا العصر الذهبى لكلية العلوم العديد من الأسماء اللامعة مثل طلبة والقصاص ووليم عوض وعبد المنعم الجبيلى وعلى رأسهم د.مصطفى مشرفة ود. أحمد زكى.

وكانت جمعية الشبان المسيحية تضم فى عضويتها عددا لا بأس به من الشباب المسلم، من أبرزهم د. على فؤاد أحمد، وجمال شوقى، وشقيقه عبد المنعم . وكانت لنا نشاطات ثقافية عديدة فى هذه الفترة، وكان جانب منها يعقد حول منبر سلامة موسى فى جمعية الشبان المسيحية ، الذى كان يحضره العديد من المثقفين منهم نجيب محفوظ والفنان المسرحى عادل خيرى.

وكونا جماعة كنا نجتمع كل أسبوعين نتناول موضوعات علمية وموسيقية وفنية ، وكنا نستضيف أحيانا شخصيات أدبية وفكرية ، ثم بدأت علاقتنا بالفكر الماركسى وكانت بذور هذا الفكر قد زرعت فى ندوات سلامة موسى ، وانضم إلينا رشدى مع مجموعة من اليساريين مثل أنجى أفلاطون ولطيفة الزيات وجمال غالى ود. الجبيلى ، كما اتصل رشدى بجماعة الفجر الجديد (أحمد رشدى صالح) .

ثم سافر رشدى فى بعثته إلى سويسرا ثم أمريكا وتحولت الجماعة تدريجيا إلى نشاط اجتماعى حول رحلات وجلسات سمر ، وبعد أن عاد رشدى من بعثته فى هارفارد بدأ عمله فى كلية العلوم وأتم كتابه عن جيولوجية مصر بالانجليزية ، حيث أصبح هذا الكتاب أهم مرجع عالمى فى موضوعه.

ثم عين رشدى رئيسا لهيئة المساحة الجيولوجية (٦٨ – ٧٨) وقد قفزت هذه الهيئة بإدارته قفزة عظيمة.

د. سمير حنا صادق
أستاذ بطب عين شمس

القلب الكبير

بداية معرفتى بالدكتور رشدى سعيد أثناء دراستى فى كلية العلوم جامعة عين شمس قسم الجيولوجيا عام ١٩٧٠ ، عندما تكرر ذكر اسمه على لسان الأساتذة الذين كانوا يدرسون لنا الجيولوجيا . وعندما وصلت إلى السنة الرابعة فى الكلية وأثناء عمل بحث عن «جيولوجية منطقة أهرام الجيزة» لم أجد مرجعا أفضل من كتابه «جيولوجية مصر» .

وبعد تخرجى عملت فى هيئة المساحة الجيولوجية والمشروعات التعدينية بالقاهرة بوظيفة جيوفيزيقى تحت رئاسة د. رشدى سعيد ، فتحولت الهيئة فى عهده إلى مسرح علمى وأكاديمى وتطبيقى ، حيث شجع البحوث العلمية والجيولوجية ، ولا أنسى مواقفه الإنسانية والعلمية العظيمة معى ، عندما وقف بجانبى ورشحنى للعمل بإحدى شركات البترول الأمريكية . وبالرغم من عدم التحاقى بتلك الشركة لظروف إجراءات الهجرة إلا أننى عملت فيما بعد كجيولوجى فى أكبر الشركات الأمريكية فى مجال البيئة والطاقة حتى وصلت إلى مركز مدير برامج الشرق الأوسط فى هذه الشركة ، والتى تعنى بكيفية البحث عن المناطق الملوثة فى التربة والمياه الجوفية من التلوث الكيميائى وغيرها ، وكنت دائما على اتصال بالدكتور رشدى أستفيد بنصائحه وخبراته الكبيرة كأستاذ قدير وقلب كبير .

جيولوجى يحيى شفيق ملك
كاليفورنيا – أمريكا

مواقف مشهودة !

إن الدكتور رشدى سعيد موسوعة فنية وثقافية وسياسية وعلمية لا يمكن لأى باحث أن يشمل جميع جوانب حياته فى صفحات قليلة ، ولو تركت لنفسى العنان لما أمكننى التوقف عن إحصاء مآثر د. رشدى على قطاع الجيولوجيا والتعدين فى مصر ، وقد بدأت معرفتى بالدكتور رشدى فى عام ١٩٦٨ حيث تبوأ مقاليد الأمور كرئيس لمؤسسة التعدين عقب نكسة ٦٧ واحتلال القوات الإسرائيلية شبه جزيرة سيناء بالكامل ، ونتج عن احتلال سيناء انقطاع إمدادات مصانع الحراريات بالكاولين والطفلات التى يتم إنتاجها من سيناء، وكذلك انقطاع خامات المنجنيز اللازم لصناعة البطاريات وخامات الجبس لمصانع الجبس وخامات رمال الزجاج اللازمة لمصانع الزجاج ، بالإضافة إلى الخامات الأخرى.

وكانت هذه هى أولى التحديات التى واجهته فى بداية عمله كرئيس لمؤسسة التعدين ، لكن هذا العالم الجيولوجى المتمكن استطاع أن يدير دفة البحث ، وأمكن اكتشاف خامات الكاولين بمنطقة كلابشة بأسوان ، وكذلك الطفلات بمنطقة أسوان واكتشاف الجبس فى الساحل الشمالى ، ورمل الزجاج بمنطقة الزعفرانة جنوب السويس ، والمنجنيز بمنطقة علبة على ساحل البحر الأحمر جنوب الصحراء الشرقية ، وبدأ الإعداد الجيد لاستغلال المواقع الجديدة وإنتاج الخامات اللازمة لهذه الصناعات ، وتم كل هذا فى وقت قصير ، ولم تتوقف المصانع عن الإنتاج ، ولم يشعر أى مواطن بأى نقص فى إنتاج هذه المصانع.

مهندس أنور بشاى

كتاب الهلال

يقدم

على منصة القضاء

بقلم المستشار :

محمد سعيد العشماوى

يصدر

٥ مايو ٢٠٠٠

روايات الهلال

تقدم

خزانة الكلام

بقلم :

جميل عطية إبراهيم

تصدر

١٥ مايو ٢٠٠٠

هل تراجعت الثقافة العربية ؟ !

بقلم : سمير غريب (*)

لعل الأمر المدهش والذى يستحق الدراسة أن الثقافة العربية شهدت تراجعا فى العقود الأخيرة من القرن العشرين - ربما منذ الستينيات من ذلك القرن - عما كانت عليه فى بدايات القرن نفسه ونحن تحت حكم المستعمر !! ولقد أخذ هذا النكوص مظاهر عدة منها :

١ - تدهور الإحساس بالتضامن والمشاركة والانتماء إلى عالم واحد ، هذا الإحساس الذى بدأ واستمر على مستوى المواطن مع الدول الكبرى التى حكمت العالم العربى باسم الإسلام ، وأعيد له الاعتبار مع ظهور القومية العربية بالمعنى الحديث . وانتشى مع نجاح بعض الثورات فى بعض البلدان العربية ، لكنه تحطم وأخذ يتلاشى بعد ذلك . لماذا ؟ ربما يكون من بين الأسباب ما يلى :

أ - فشل هذه الثورات نفسها فى تحقيق عدد من أهدافها ، وكان هدف تعزيز القومية أو الوحدة العربية من الأهداف المشتركة لهذه الثورات .

ب - فى المقابل نجاح القوى المناوئة للعرب ، وبخاصة لأنظمتهم الثورية الجديدة فى تحقيق أهدافها .

ج - نجاح الأنظمة العربية غير الديموقراطية فى السيطرة على شعوبها ، بمختلف أشكال السيطرة ، وكان الكتاب والمبدعون العرب - ومازالوا - هدفا أساسيا فى كل عمليات السيطرة .

ونتيجة تدهور الإحساس بالتضامن والانتماء العربى انكفأت الأنظمة العربية

(*) رئيس دار الكتب والوثائق



الجامعة العربية

كل على نفسه ، وتحولت إلى أنظمة عنترية صوتية ، تذكرت حدودها الدولية التى لم تكن مؤثرة حتى القرن التاسع عشر ، وتحول الإخوة لمحاربة بعضهم البعض !! الجزائر والمغرب ، والسعودية واليمن ، مصر والسودان ، العراق والكويت .. وهكذا ..

٢ - تصاعد الاتجاهات الدينية المتطرفة وانتقالها إلى استخدام العنف المسلح ووسائل الإرهاب .

٣ - شراء أو قمع مفكرين وكتاب بأشكال مختلفة . والأخطر محاولات شرائهم أو قمعهم من قبل قوى ومؤسسات غير حكومية تحقيقا لمصالح هذه المؤسسات أو تطبيقا لآرائها أو سياساتها. وإذا كان بين هذه القوى جماعات متطرفة غير معترف بها فذلك مفهوم ومتسق مع أفكارها .أما نذير الشؤم ودليل التراجع الثقافى فهو موقف مؤسسات قضائية ودينية وإعلامية غير حكومية !!

٤ - والمحزن تراجع الفكرة المحورية للثقافة العربية الحديثة ، وهى فكرة القومية العربية ، التى نادى بها العديد من المفكرين والكتاب والسياسيين العرب ومنذ أوائل القرن العشرين وبخاصة ساطع الحصرى (١٨٨٠ - ١٩٦٨) وعبدالرحمن عزام (١٨٩٣ - ١٩٧١) ، وجمال

عبدالناصر (١٩١٨ - ١٩٧٠) وميشيل عفلق (١٩١٠ - ١٩٨٩) . ونجح العرب فى إقامة مؤسسة مركزية تجسد هذه الفكرة ممثلة فى الجامعة العربية . وبينما كان حلم الوحدة العربية يراود كل مواطن عربى فى سنوات المد القومى والثورة فى النصف الثانى من الخمسينيات وبداية الستينيات من القرن الماضى ، من يذكر الوحدة العربية الآن ؟؟ بل من يجرؤ على الحلم بها؟؟ بعد أن ضاع هذا الحلم بين نزعات العظمة الشخصية ، وأصابع مخابرات دول عظمى، وأفكار أيديولوجيات متعارضة، لكنها تتفق على نفى الوحدة العربية من اليسار الماركسى إلى دعاة إسلاميين أمثال محمد قطب ومحمد الغزالى وعبدالعزيز بن باز .

ولن أنسى عندما كنت منذ عامين فى مؤتمر ثقافى عربى وكتبت فى مشروع التوصيات عبارة «الوحدة العربية» فشطبتها سكرتارية المؤتمر !!

٥ - وبشكل عام تراجع مستوى الإبداع والنقد ، وتدنى مستوى الحوار والنقاش بين المبدعين والنقاد والكتاب . وسيطرت على كثير منهم الشللية والمصالح الشخصية وروح العداء والتربص والخصومة . وضعف ما كنا نراه أو نقرؤه من تجديد وثورة على المذاهب الفكرية والأدبية والفنية ، وابتكار أشكال جديدة فى الفن والأدب والكتابة .

٦ - تدهور مستوى التعليم العام والجامعى ، ولا أحد من المسئولين العرب يدرك خطورة هذا التدهور على المجتمعات العربية نفسها وعلى مستقبل شعوبها المظلم بسبب هذا التدهور ، ومن يدرك لايفعل مايجب فعله من إنقاذ لسبب أو لآخر .

● ● ●

لماذا حدثت هذه الانتكاسة أو ذلك التراجع فى وقت كان من المفروض فيه أن يحدث العكس ؟ لقد زال الاستعمار ، وتحررت الشعوب العربية، وازدادت ثروات الدول بظهور النفط وبعض العوامل الأخرى ، وأخذت كل الدول العربية فى تنفيذ مشروعات إنمائية بقدر أو بآخر ، وبشكل أو بآخر ، وتقدم العالم من حول العرب بشكل غير مسبوق فى التاريخ .

أسباب النكوص :

على سبيل المثال :

١ - تولت الحكم فى كثير من الدول العربية أنظمة ديكتاتورية أيا كان توجهها السياسى وشعاراتها .

٢ - لم تغير هذه الأنظمة ولا المؤسسات غير الحكومية ولا المجهودات الفردية تغييرا جذريا من تراث الماضى الثقيل .

٣ - بل إن الاستعمار نفسه لم يرحل تماما ، وإنما غير من شكله وأساليبه :

أ - بتحوله إلى الاقتصاد وتحكمه فى كثير من ثروات العرب برضاهم أو رغما

عنهم .

ب - وبفرض الحماية والتدخل العسكرى، أيضا برضاهم أو رغما عنهم.

ج - وقبل ذلك بزرعه لذراعه فى قلب العرب قبل رحيله ، وهى إسرائيل . هذا الذراع الذى تطلب من العرب لمحاولة مواجهته دون جدوى ، خوض ثلاثة حروب عسكرية فى ربع قرن فقط ، وما تطلبه ذلك من نزيف مالى وبشرى رهيب وشلل فى نواحى مدنية استراتيجية فى كثير من الدول العربية وبخاصة المحيطة بإسرائيل، وهى بالمناسبة الدول التى تخلصت قبل غيرها من الدول العربية من نير الاستعمار التقليدى ، والتى بدأت فيها محاولات التحديث والتنوير الثقافى ..

وبينما كان من المفروض أن يشكل تحدى الاستعمار وإسرائيل دافعا للأنظمة والمجتمعات العربية للتعجيل بالتغيير من أجل التقدم ، وبالتعجيل بالممارسات الديمقراطية الحقيقية ، والاهتمام بالبحث العلمى والتكنولوجيا ، وبتحديث المجتمعات العروبية ومحو أميتها وتغيير أفكارها وممارساتها المتخلفة .. إلا أن ذلك لم يحدث ، أو على الأقل لم يحدث كما هو مفترض ، والدليل : الواقع الذى نعانى منه جميعا ، ما عدا المستفيدين من هذا الواقع، فى العالم العربى ..

٤ - أسلوب تعامل الأنظمة العربية مع المبدعين والكتاب والمتمثل فى هذه المفارقة: أن كثيرا من هذه الأنظمة شجعت النشاط الثقافى فى مظاهر متنوعة مثل النشر والمسرح والسينما والفنون التشكيلية والندوات وبخاصة المهرجانات .. لكن نسبة كبيرة من هذا النشاط الثقافى كان ذرا فى الهواء ، لسبب بسيط هو أنه موجه، فمعظم المؤسسات الثقافية فى العالم العربى تملكها الدولة ، والقائمون عليها موجهون ، والداخلون فيه يشعرون بهذا التوجيه ، ولا يمكن أن تنتظر حصادا حقيقيا فى غير موسمه . ولا إبداعا حقيقيا بغير حرية حقيقية ، وليس تمثيل الحرية التى لاينفع معها التمثيل . كما أن المؤسسات الحكومية فى مجال الثقافة لعبت دورا كبيرا فى إتاحة الفرصة لكثير من المبدعين لتقديم إبداعهم بما لا يتعارض بالطبع مع سياسات هذه الحكومات ، بالإضافة إلى إتاحتها الفرصة للجماهير العربية للاطلاع على إبداعات عربية وأجنبية أخرى من خلال برامج التبادل الثقافى وبحكم الإمكانيات المادية للمؤسسات الثقافية الحكومية ..

٥ - لم تساعد الحكومات ولا الأفراد علي إيجاد بديل قوى من المؤسسات الخاصة والأهلية يحول دون تراجع الثقافة العربية ويعمل على دفعها إلى الأمام ، ودخولها القرن الواحد والعشرين .

٦ - هذا يدعونا لمعرفة مسئولين آخرين عن هذا النكوص الغريب ، وهم للأسف من كان عليهم أن يقاوموا النكوص، ويدفعوا إلى الأمام ، بل ويثوروا على هذا الواقع . ألا إنهم كثير من الكتاب والمبدعين ، كيف؟:

أ - سمحوا لأنفسهم أن يوجهوا في

إبداعهم ، أو يوجهوه هم بما يخدم مصالح شخصية ، وفى كل بلد عربى بلا استثناء هناك كتاب يسودون الصفحات فى مآثر الأنظمة الحاكمة حتى ولو كانت مآثرهم فى الحقيقة مثالب ، بل ، وينظرون مبررين سياسات الأنظمة حتى ولو كانت ضد مبادئ التقدم والتطور الفعلى .. مما لم يضر فقط بمستوى الفكر بل بشرفه نفسه. سمحوا لأنفسهم بذلك طمعاً فى مال أو فى سلطة .. ضعف إنسانى مفهوم ومعروف عبر التاريخ ، لكنه يسىء إلى الواقع العربى وآماله فى المستقبل .

ب - انتشر الكذب والنفاق فى وسائل الإعلام ، بعد التحرر من الاستعمار ، يمارسه مسئولون حكوميون ، كما يمارسه كتاب وأدباء وفنانون ، بل وعدد من أصحاب المؤسسات الإعلامية الخاصة . وهذه طامة كبرى ، إذ تنشر بعض المؤسسات فى أحيان كثيرة ما يتعارض تماما مع ثقافة أصحابها ومعتقداتهم وممارساتهم الفعلية وانتماءاتهم لترويج وسائلهم وتضليل القراء بإيهامهم بأنهم ليبراليون حقيقيون . وبهذا تضيع الفوارق والسمات الحقيقية فى المجتمع المضلل بفتح اللام ، ويظن البسطاء من الناس أن ما يقرأونه يعبر عن حقائق من خلال حرية الرأى والتعبير، فيتكرس التخلف فى المجتمع العربى .

إذن هناك من يعمل على تكريس التخلف علنا ثم يتشدق بلا خجل أمام الناس ، وفى الأسواق بكل القيم التى يدوسها بحذائه .

ج - ومما يسىء إلى مستقبل الثقافة العربية أيضا هروب صفوة أخرى من الكتاب والأدباء بالانكفاء على الذات ، أو الانشغال بالفروع . وكذلك تعالى بعض آخر منهم باستخدام أساليب معقدة وغير مفهومة ، بحيث أصبح تعبير الثقافة عند كثير من الناس يعنى طلاسم عجيبة . وقد ازداد الأمر سوءا مع تراجع الإبداع والتفكير العربى ، واستلاب عدد كبير من الكتاب والمبدعين العرب فى الثقافة الغربية، واعتمادهم عليها - صدقا أو مظهرية - فى إنتاجهم ، وبخاصة فى تيارات الحداثة وما بعد الحداثة .

المتابع الواعى لحركة النشر العربية لكتاب عرب فى السنوات الأخيرة سواء فى الكتب أو الدوريات يلاحظ فى الأغلبية العظمى مما ينشر ظاهرتين :

أ - الاستشهاد بكتب وكتاب أجانب بشكل عام وغربيين بشكل خاص ، وفى أحيان كثيرة بلا داع موضوعى وبشكل مقحم على النص . فقط للاستعراض . ويحدث كثيرا أن يكون الكاتب ناقلا عن ترجمة عربية لأنه يجيد اللغة الأصلية المستشهد بنص منها .

ب - طوفان من الكلمات العجيبة وأساليب الصياغة الغريبة على لغتنا العربية والتى اخترعوها أو قلدوها للتعقيد والاستعراض ! بينما اللغة العربية غنية

بالكلمات والمصطلحات وأساليب الصياغة الواضحة الجميلة التعبير . لكنه مزيج من العجز والانتفاخ . وأنا لا أنكر إطلاقا الحاجة إلى استنباط كلمات ومصطلحات جديدة تواكب الزمن ومتغيراته المحلية والعالمية وتتصل بالثقافات الأخرى ، فاللغة كائن حي تعبر عن أحياء . وإلا ماتت مع الموتى . ولكن هناك فارقا كبيرا بين التقعير والاستجابة لمتطلبات الحياة . ويمكننا أن نعرف الفارق بسهولة إذا وجدنا في لغتنا المعروفة ما يعبر عما نريد أن نعبر به ، وإن لم يكن جاز لنا ابتكار أو نحت الكلمة أو المصطلح الذي يستجيب لشرح المراد . وفي كل الأحوال تتم هذه العملية في ظل ضوابط تحافظ على اللغة العربية ، وبشرط فهم القراء لها ، لأنه ما جدوى أن تكتب ما لا يفهمه القارئ . ومن المفروض أن مجامع اللغة العربية قيمة ساهرة على هذا الموضوع .

على سبيل المثال يكتب أحدهم في مقالة واحدة ما يلي من تعبيرات : «محور الوجود في زمانية الوجود» ، «عملية من التثاقف على هامش عملية التباني بين وعي محلي وسيط» «الحداثة التي تتحدد بذاتية الحداثة الإبداعية» ، «الدخول في زمانية الحداثة وصياغة نهضتهم الثالثة التي تقرن الماضي بالحاضر في لحظة الوجود المضارع» ، «إعادة قراءة وكتابة النهضة ، إعادة تحقيبها..» ، «نهضتنا كانت نهضة مرآوية ، صورية ، ولدت في مساق متعال على التاريخ الحدثي ، فنتج عنها حركة من التثاقف والتناص الماهوي ، لئن أغنى العقل والبيان جزئيا ، فإن عكس في سياقاته الأفهومية والدلالية التكسر المجتمعي والتطور اللامتكافيء والتباني المتخارج في علاقة الذات بالآخر»!!

والله العظيم هذا الكلام السابق قرأته بالنص ولم أضف عليه حرفا في جريدة عربية في أحد أيام شهر سبتمبر ١٩٩٩ ، ولا داعي لذكر اسمها ولا اسم الكاتب .

والمصيبة أن صاحبنا كاتب التعبيرات والصياغة العجيبة السابقة كان يتحدث في مقالته عن نهضة ثالثة للعرب . فكيف يقرأ العرب أصلا مقالته ليستفيدوا منها في نهضتهم ؟

ويذكرني النموذج السابق بمقالة ظريفة ساخرة للكاتب محمود السعدني في مجلة المصور المصرية نشرها من نيف وعشرين عاما تقريبا يتهكم فيها على امتحانات طلاب المدارس في مصر ، فكتب أن سؤالا في اللغة العربية ورد في امتحان للتلاميذ جاء فيه : «اكتب فيما لا يقل عن خمسمائة سطر في الموضوع التالي : «تجعلق الخرطاف في خردابه فتشوشن وتبعرط بعرطة شديدة» !!

لقد أصبحت هناك دوائر مغلقة من المبدعين تضم نقادهم الذين يشيدون بكل غامض مرتبك ويؤولونه كما يشاءون ، أصبحت تلك الأساليب هي الإبداع في نظر شباب مقبل على الإبداع !! الأمر الذي أدى إلى فجوات بين كثير من المبدعين العرب وبين باقي فئات المجتمع . فجوات في العلاقة بينهما وفي التعبير عن المجتمع أيضا . هذه الفجوات لايمكن أن تساعد بلاشك على دخول الثقافة العربية القرن الواحد والعشرين .

لوحات مصطفى عبدالفتاح:

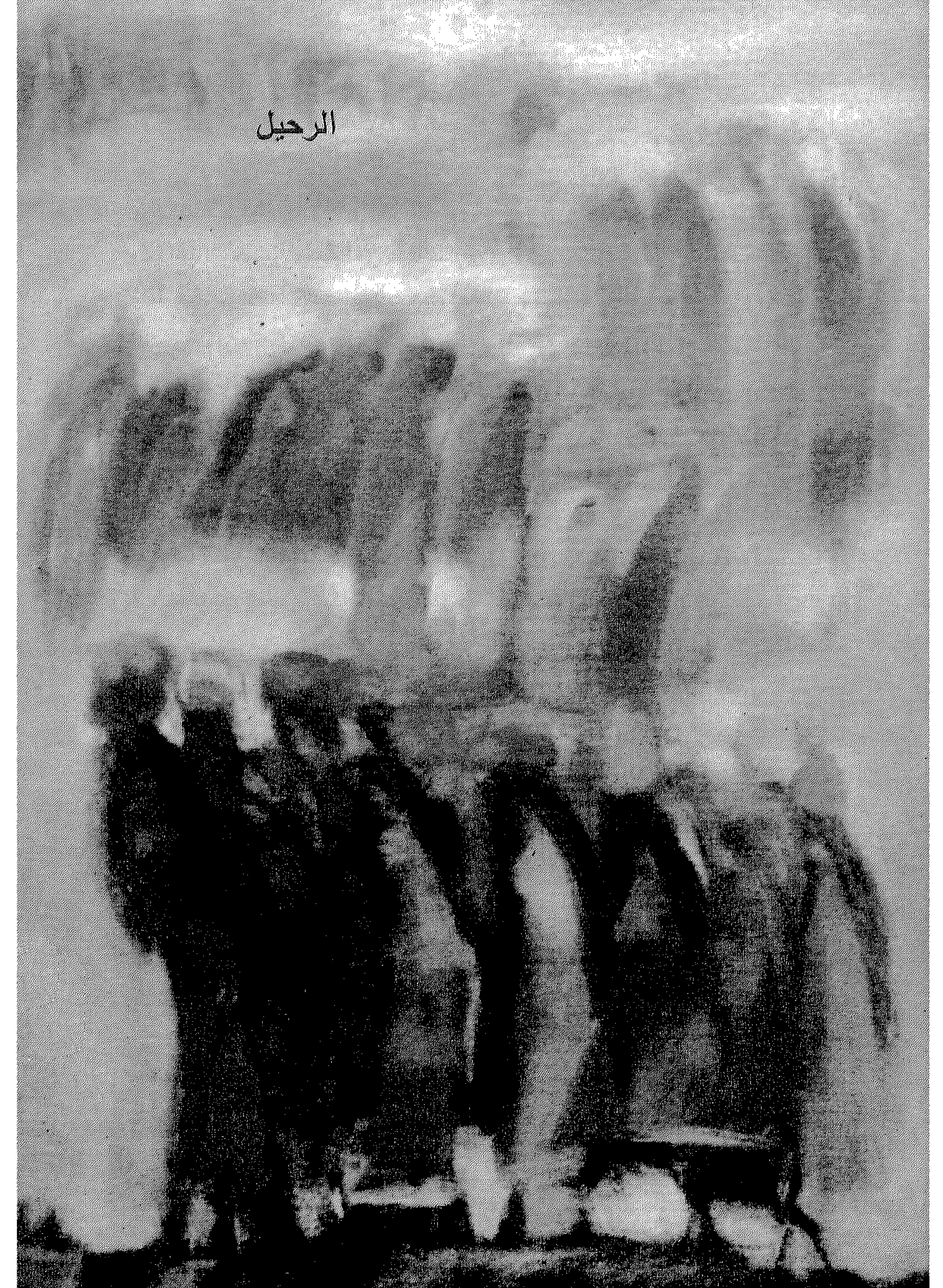
بين الريف المصري وصحراء الجزيرة العربية

بقلم : محمود بقشيش

تمثل المراحل الفنية فى حياة الفنان علامات دالة فى درب طويل، تمتد شرايينه لتصل ما بين حياتين: حياة الفنان الفرد وحياة العصر الذى يعيشه.

ارتبطت لوحات فناننا «مصطفى عبدالفتاح» بمنابع مكانية متعددة، كان أولها قريته التى ولد ونما بها، إلى أن التحق بكلية الفنون التطبيقية، وهى قرية صغيرة من القرى المتناثرة بمحافظة الجيزة. وقد تركت تلك القرية آثارها فى لوحاته وإن اختلفت عنها فى المظهر بحكم طبيعة الاختلاف الحتمى بين قرية الواقع وقرية اللوحة الفنية.

وقد انتقل الفنان عبر رحلته الفنية من مثير جمالى/ مكانى إلى مثير آخر: أماكن داخل مصر، كانت القرية رمزاً لها - أحياناً - وصحراء شبه جزيرة سيناء - أحياناً أخرى - وكان دافعه إلى رسم الصحراء المصرية تلك الرحلات التى كانت تنظمها هيئة قصور الثقافة للفنانين، بقصد اكتشاف جماليات البيئة المصرية - وما أكثرها - وقد تركت تلك الرحلات آثاراً عميقةً فى إبداع بعض الفنانين، الذين انقسموا بتأثير جلال المشاهد البيئية إلى موقفين مختلفين: موقف «الناقل» الأمين وموقف «المستلهم لمعطيات المشهد المرئى، الذى


الرحيل

ترك نفسه تستضئ من قبس جماله. من الأسماء التى لمعت من الفريقين «دون تمييز» زهران سلامة وعزالدين نجيب ورضا عبدالسلام وأبو بكر النواوى وعبدالخالق حسين ومصطفى عبدالفتاح. وقبل هؤلاء جميعاً كانت لوحات «جماعة التجريبيين» تمثل مقدمة ممهدة لهذا الغزو الجمالى. وتجد لوحات «مصطفى عبد الفتاح» مساحة لها متاحة بين ما أسميه «لوحات الوجدان» حيث لا يحفل الفنان بوصف المظهر الخارجى للبيئة بقدر ما يكون ذلك المظهر ذريعة للتعبير عن جوانيات النفس، بهذا تصبح اللوحة - فى جانب من جوانبها - أشبه بالوثيقة النفسية. التى تعبر عن صاحبها بلغة اللون والملمس والتكوين والإيقاع.

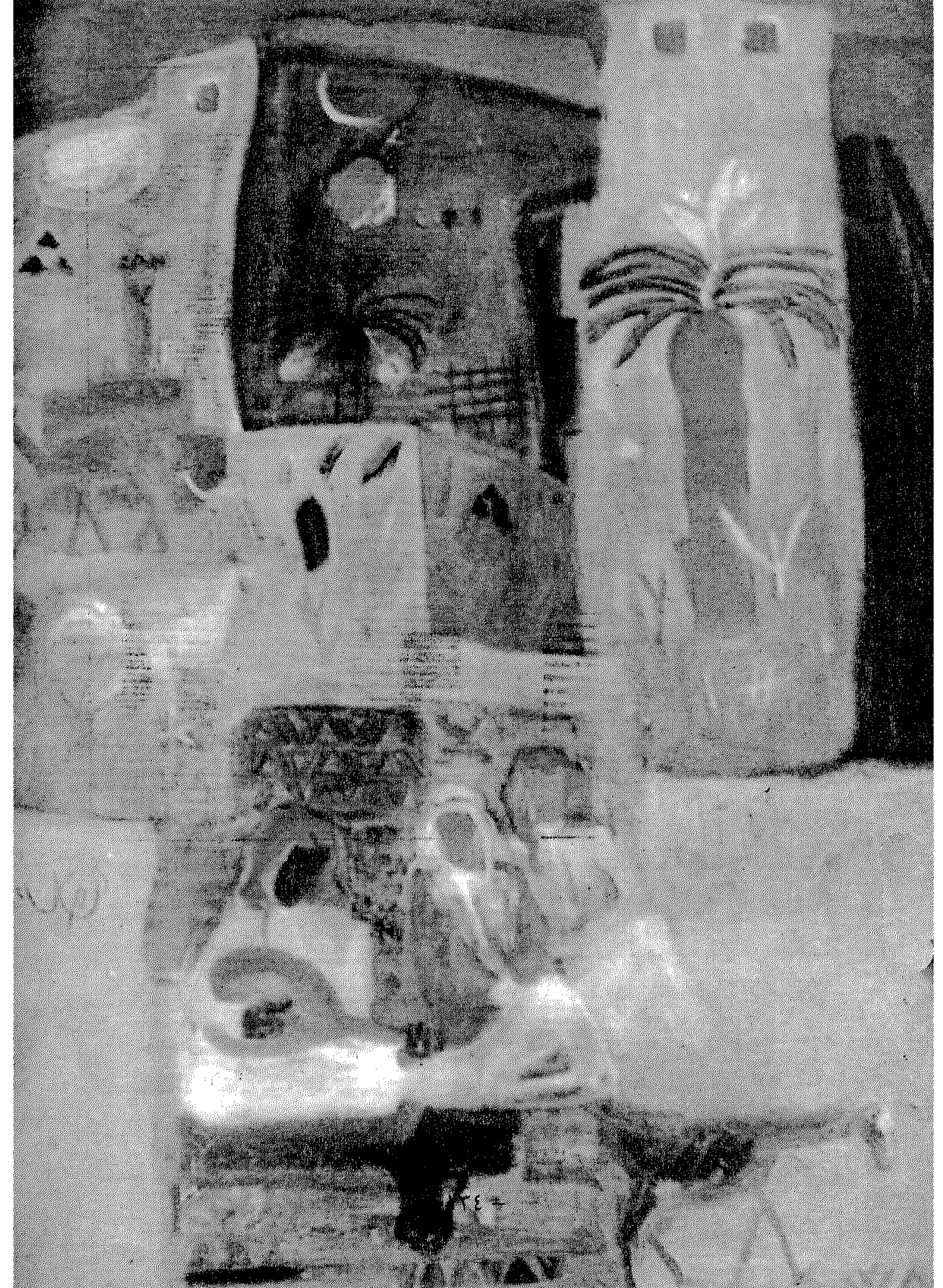
وإذا جاز لنا أن ننظر نظرة خاطفة، إجمالية أو ما يسمى بمنظور الطائر، قبل الدخول فى تفاصيل العوالم التى قدمتها لوحاته المصرية ولوحاته فى شبه الجزيرة العربية فإننا نقول: كانت لوحاته المصرية مفعمة بإيحاءات القلق، واختفى أكثره فى لوحات الجزيرة العربية. وأظهرت تلك اللوحات وئاماً وانسجاماً مع بيئته الجديدة وقد امتدت فترة إقامته فى «القصيم» أربع سنوات، عمل خلالها أستاذاً فى كلية التربية.

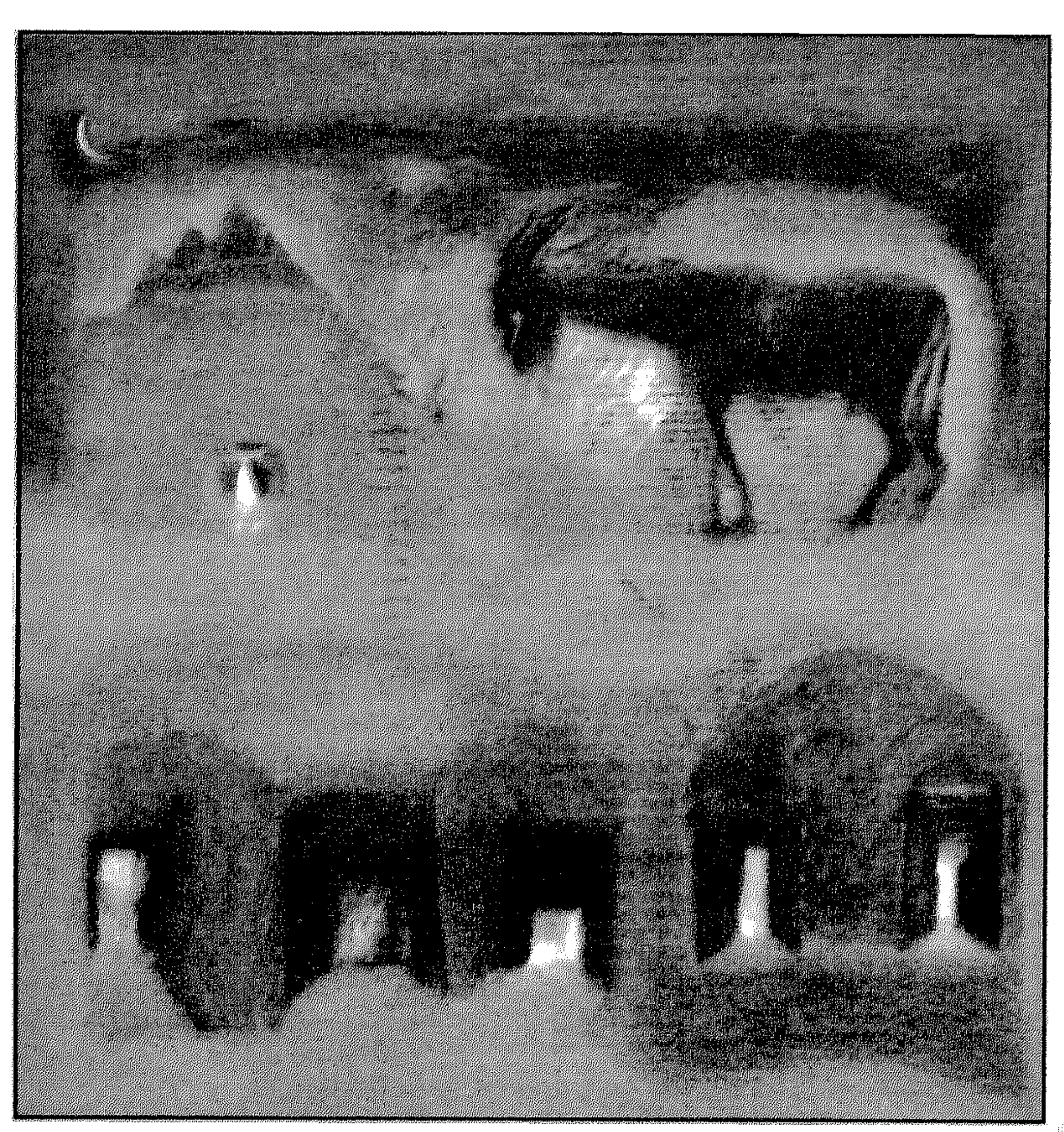
القرية وتداعيات اللون الأزرق

إن لوحات القرية المصرية هى الحلقة الأولى فى سلسلة التتابع. وهى قرية متخيلة وأليفة فى آن واحد، لأنها تستضيف من الواقع الحى بعض رموزه وتحلق بها فى آفاق الحلم. وتظهر صورة الحمار وقد اكتسب سمت المفكر المتأمل الصامت الصابر الحليم«!».. وتسود تلك اللوحات فضاءات ليلية زرقاء، يلوثها اللون الأسود - أحياناً- ويجذبها إلى أشد الدرجات دكنة ويشغفها لون «التركواز» - أحياناً أخرى - ويلطف من جهامتها، غير أنه يفاجئ هذا الاسترسال الأزرق بومضات ضوئية تشع من النوافذ والأبواب أو تتسلل فوق الأسقف الواطئة راسمة حدودها المعمارية. وعلى الرغم من أن ستارة الليل الزرقاء قد غطت الأبعاد الفاصلة والواصلة بين «القريب» و«البعيد» فقد استطاع بلمسات بليغة ومقتضبة أن يوحى بأبعاد المنظور، ويزيد من ألق هذا المشهد الشعرى ظهور الهلال فى كبد الفضاء السماوى، ويبدو فى موضعه أقرب إلى أن يكون شاهداً كونياً. إن

ومضات الضوء التى تخترق العتمة تأتى موحية بالأمل، تؤكدها تلك الحليات المهندسة فوق البوابات. وتبدو قرية «مصطفى عبدالفتاح» أشبه بالأديرة الصحراوية المهجورة فى البرارى. وإذا كان الشئ بالشئ يذكر فإن قرية فناننا «مصطفى» تذكر بمرحلة بيكاسو المسماة بالمرحلة الزرقاء وقد وصفها نقاده بالمرحلة الحزينة، وقد تولدت تلك المرحلة من حادث مأساوى تعرض له صديق بيكاسو الحميم «كاساجيماس» وكان مصوراً وشاعراً أسبانيا موهوباً. وانتحر فى عز شبابه فى مرسم بيكاسو. وأصابته تلك المأساة باكتئاب عميق لم يخرجه منه إلا لوحاته الزرقاء الحزينة. وقد سألت «مصطفى عبدالفتاح» إن كان قد تأثر بمرحلة بيكاسو الزرقاء، فأنكر ذلك وأجاب بأن ليل القرية هو المسئول عن تلك الزرقة. إن الانتقال من الجذر الواقعى إلى تجلياته فى العمل الفنى أمر بالغ التعقيد ويستحيل متابعته متابعة معملية.

وأذكر أن الفضاءات الليلية الزرقاء والومضات الضوئية قد ظهرت فى لوحاتى، وعلى الرغم من أن موضوعها المحورى كان «القرية» فلم تجئ زرقة لوحاتى من القرية المصرية التى كنت أزورها بين حين وحين. ولم تجئ من مرحلة بيكاسو الحزينة بل جاءت من تأملاتى الليلية الطويلة فى فضاء البحر الأبيض المتوسط من شرفة منزلنا بمدينة بورسعيد. وأذكر أننى كنت أشاهد فى طفولتى النّدابات وهن يصبغن وجوههن بالنيلة الزرقاء استعداداً لطقس الندب على الميت. كيف انتقلت مأساة «كاسا جيماس» إلى اللون الأزرق. وما هى الدروب المعقدة التى سلكتها النيلة الزرقاء لتستضيفها لوحاتى بعد عدة عقود. لقد كمنت الزرقة الليلية فى ذاكرة «مصطفى عبدالفتاح» ولم تكشف عن نفسها إلا بعد سنوات من تخرجه فى كلية الفنون التطبيقية وامتلاكه لأدوات التعبير الفنية، قد نستطيع أن نقول: إن فى معالجته للضوء فى لوحات القرية الزرقاء ما يشبه معالجة الفنان الفرنسى الحداثى «سولاج» للضوء، فى لوحاته التى يغلب عليها التجريد، غير أن الناقد فى تحليلاته المقارنة يجب أن يكون محاذراً من السقوط فى عسف الحسم فى أمور تتأبى على اليقين، وكل ما يرجوه الناقد من تحليلاته المقارنة هو تقديم صورة مقاربة للفنان وفنه.





أضواء المدينة

▶ من حياة البدو للفنان مصطفى عبد الفتاح

مرحلة البادية

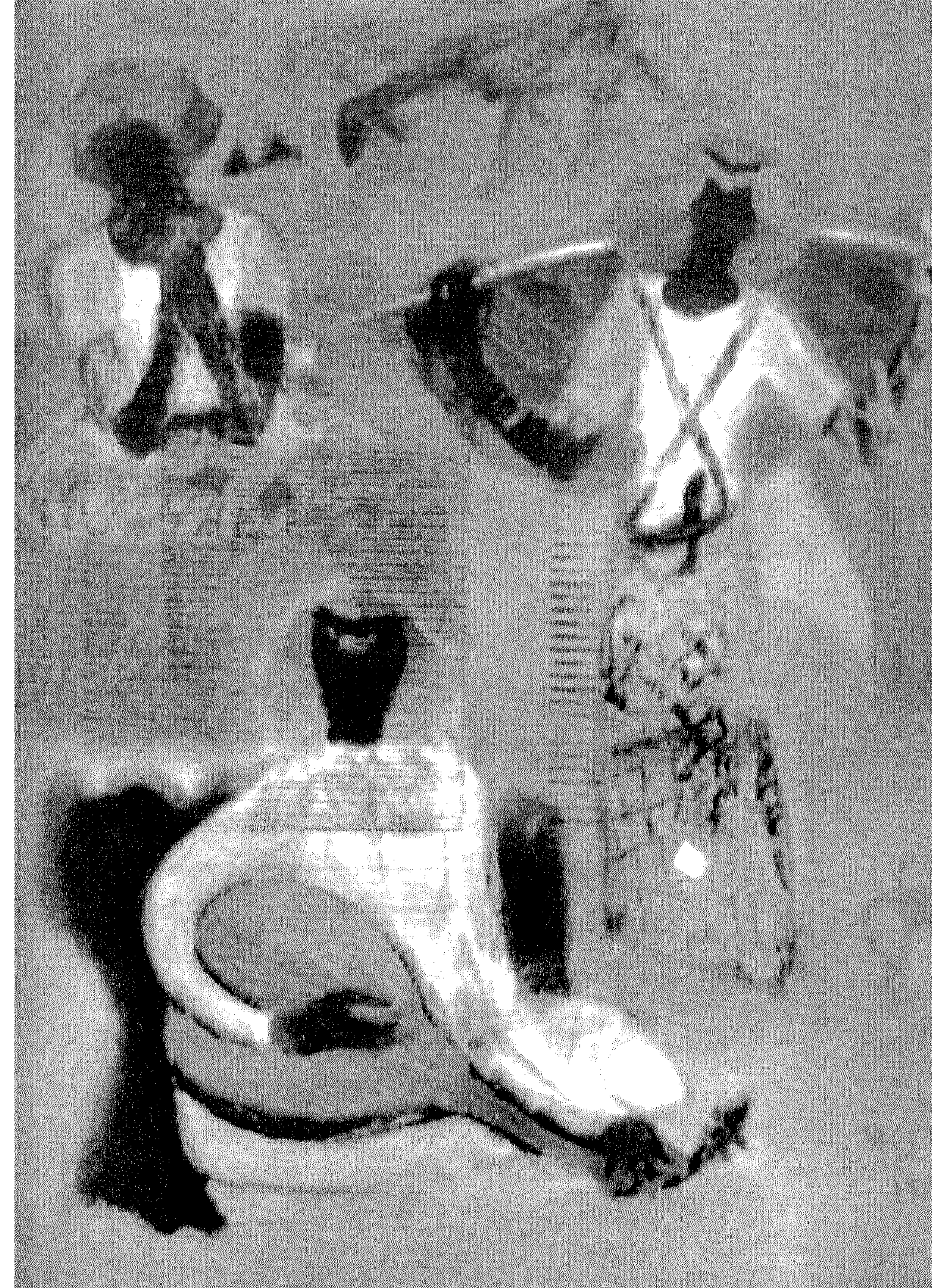
شهدت لوحاته التى أنجزها فى بيئته الجديدة «١٩٨٥ - ١٩٨٩» انفراجاً فى اللون وتغيّراً فى الموضوع والمضمون، اختفت جهامة اللون واحتل مكانها لون «نهارى» مشرق، ظهر الأصفر والأحمر صريحاً، وظهر الأزرق بعد أن تخلى عن جهامته وصار شفافاً، سماوياً وامتزج الأخضر بالأصفر ليزداد بهاءه، وامتزج الأحمر والأصفر ليتناسل منهما البرتقالى لونا للدفء والألفة. وفى هذا البهاء ولدت موضوعات تحتفل بجلسات الطرب والسرور، يسودها الأمان والسكينة، وانعكس كل هنا على الطابع الرتيب، المغلق فى تكوين لوحاته، وقد أتاح هذا الطابع السكونى لكل عناصر اللوحة - سواء ما كان منها إنسانياً أو نباتياً أو شيئياً - أن يظهر بجلاء وذلك على النقيض من ضبابية اللوحات المصرية التى رسمها قبل السفر وبعد العودة وجهامة الأزرق فى قريته وقذائفه الضوئية المتناثرة عليها. فى لوحة بعنوان «إنسان وجامع ونخلة» نرى كل عناصر مشهده الروائى واضحة المعالم: فهناك طيف رجل بدوى يقف شامخا وسط ممتلكاته:

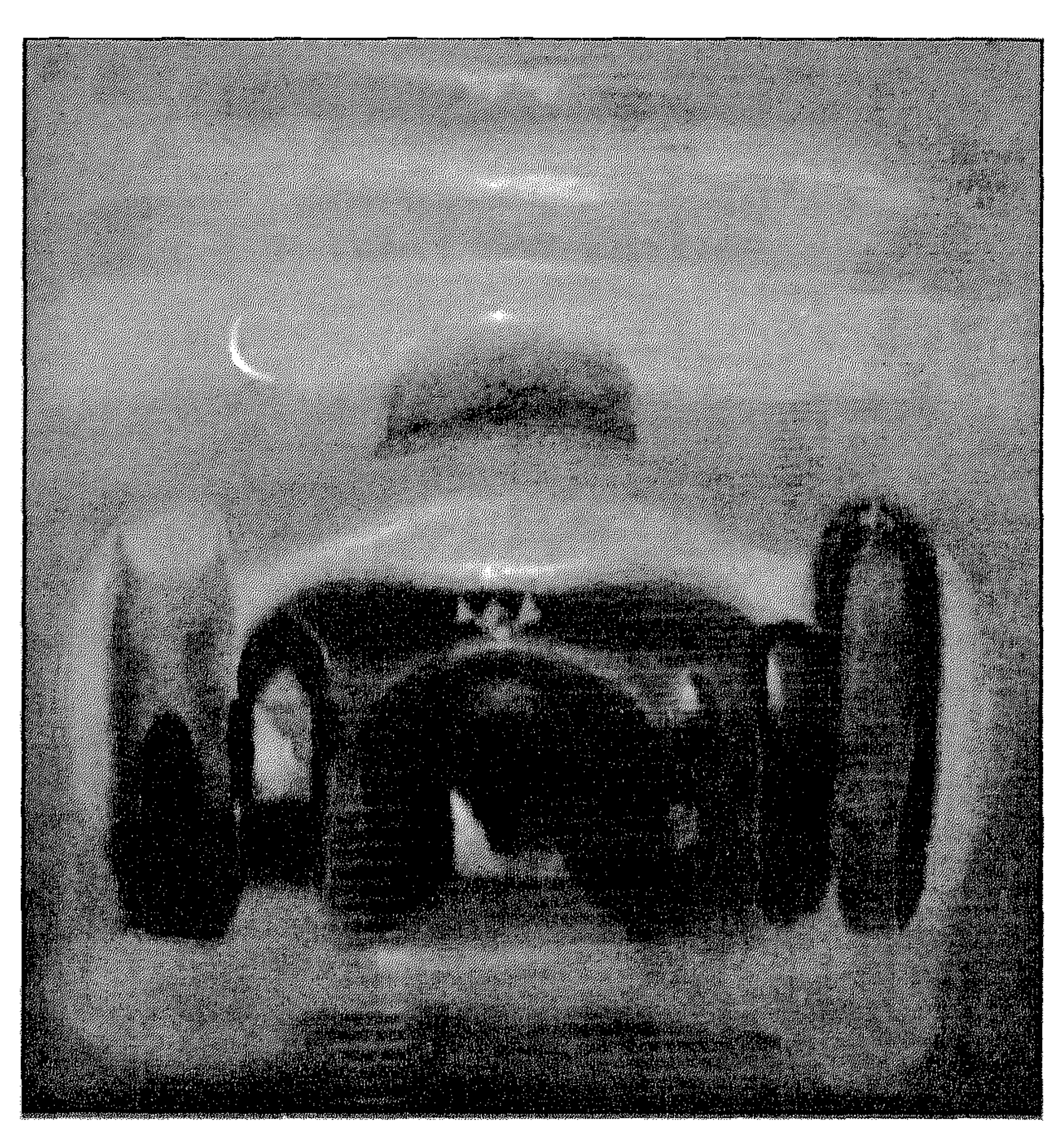
البيت، النخلة.. ومن خلفهما تظهر مئذنة جامع. كل عناصر اللوحة تماثل فى سكونها سكون «الطبيعة الصامتة» وإذا كان «الحمار» عنصراً محورياً فى لوحات القرية المصرية فقد احتلت مكانه فى لوحات الجزيرة العربية «العنزة العجفاء». ويبقى البيت فى البيئتين عنصراً مستمراً وإن اختلفاً فى المظهر الخارجى، فالبيت فى لوحات القرية المصرية اتسم بالتقشف وانغمس انغماساً فى العتمة، فيما ازدانت واجهات بيوت نجد بالزينة والزخارف الفطرية. واتخذ الفنان من تلك الواجهات فرصة لنقل بعض معالم البيئة الطبيعية، مثل النخيل والجمال والأهلة وكأنه يرسم لوحة داخل لوحة على غرار فكرة «المسرح داخل المسرح» ليميز الحقيقى من غير الحقيقى وإن كان الأثر الذى تتركه اللوحة فى الانطباع الأول هو التوحد بين الحقيقى والوهمى.

الرحيل

عاصر الفنان «مصطفى عبدالفتاح» الحملة الدعائية الضخمة التى أشعلها الإعلام المصرى حول مشروع «توشكى»،

تلك الحملة التى كان لها أثرها على بعض الفنانين، كان من بينهم «مصطفى عبدالفتاح» ودفعه حماسه لتأييد فكرة الخروج من الوادى الضيق إلى إقامة معرضين دارا حول موضوع واحد هو «الرحيل إلى توشكى». وإذا كانت الأحداث الكبرى فى مصر والعالم قد ألهمت فنانين من كل المدارس والأساليب الفنية، غير أنه لم يبق من تلك الإبداعات إلا أكثرها عمقاً وموهبة، فالأحداث الكبرى تحتاج إلى مواهب كبيرة للتعبير عنها، لهذا بقيت «جرنيكا بيكاسو» و«الحرية تقود الشعب لديلاكورا» و٢ . ٣ مايو لجويا ومن مصر «نهضة مصر لمحمود مختار» ،و«إنسان السد العالى لعبد الهادى الجزار» و«الخبز الحجرى لتحية حليم» وقد استلهمتها من النوبة. وعلى الرغم من النوايا الطيبة لبعض الفنانين المصريين الأحياء فإن أحداً منهم لم ترتفع موهبته إلى قامة مختار أو الجزار أو تحية حليم. لا يعنى هذا بالطبع المصادرة على أى محاولة أمنية حتى لو لم يكن صاحبها فى عبقرية «مختار». من هنا فإن تجربة الفنان فى هذا الموضوع تستحق التأمل، وأول ما يلفت النظر إلى لوحات «الرحيل إلى توشكى» هو خروجها من الطابع السكونى الرتيب الذى ظهر واضحاً فى لوحات الجزيرة العربية إلى حالة «دينامية» استدعى إليها من الموروث الجمالى المصرى القديم الأساس التكوينى للجداريات المصرية القديمة: وهو اصطفاف «العناصر» المتوالى والمتراتب، وكان أول من استعار ذلك النظام التكوينى هو الفنان الرائد «راغب عياد». وإذا كان «راغب عياد» قد ألغى المنظور عامداً، حرصاً على المواءمة مع الجمالية المصرية القديمة التى كانت لا تعنى بالمنظور الثابت مثلما فعل فنانو عصر النهضة الإيطالية، وحاول «مصطفى عبدالفتاح» إيجاد طريق وسط يجمع بين الأساس التكوينى القديم والإيحاء بمنظور هوائى يقترب من منظور اللوحة التأثيرية، وأغرق فضاء لوحته بضباب لا يكشف – إن كشف – إلا عن حالات زحام وهرولة، لهذا اقتربت لوحاته عن توشكى من مذاق الرسوم التحضيرية والأفكار الأولية الطازجة التى تسبق التنفيذ الدقيق المتأنى.





القرية والهلال

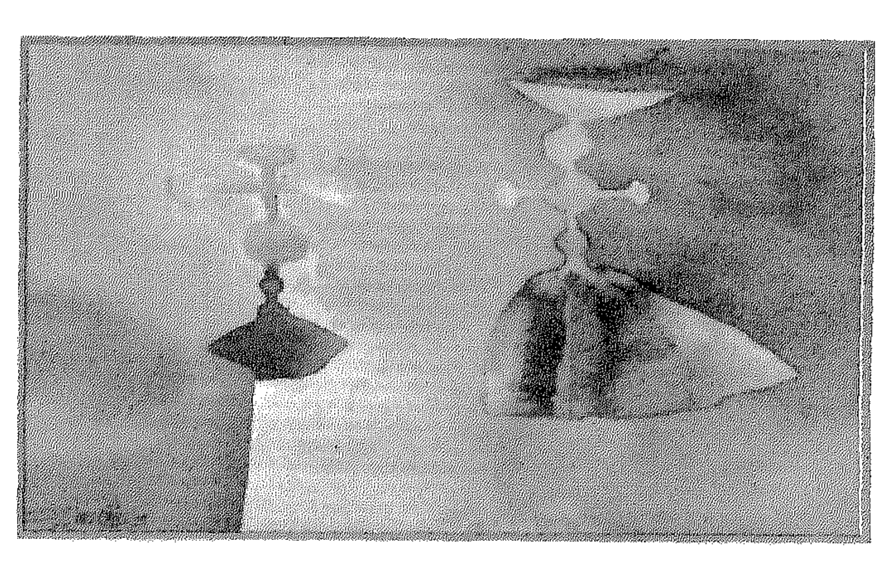
▶ رقصة بدوية للفنان مصطفى عبد الفتاح

تجربة في المصادمة والمصادفة

بعد رحلة خرافية

في لوحات

عدلي رزق الله



بقلم : بدر الديب

فى رحلة طويلة مع عدد لا يكاد ينتهى من اللوحات التى قدمها لى عدلى رزق الله أدركت لأول مرة أن هناك لغة للون والحجم والشكل يعرفها الجسد، جسد المتلقى وجسد الفنان. وهل هناك فارق بين جسد الفنان وجسد اللوحة وهل هناك مسافة بين هذين الجسدين والمتلقى. من الذى يستطيع أن يجيب عن ذلك ؟.

كانت هذه اللوحات تجربة غريبة في صناعة الحجم والشكل وكأنها عملية خلق أولية قبل أن تُسمى الأشياء وقبل أن يجلبها الرب أمام آدم ليسميها.

كل لوحة تبعث في بدن المتلقي رعشة خاصة ليست هي رعشة المعرفة ولكنها رعشة اللقاء وكأنها ممارسة للغرام. وليس هناك أقرب في الوصف لهذه اللوحات من أنها ممارسة جسدية للحجم وللون وكأنهما يصنعان علاقة جسدية.

وقد تميزت هذه اللوحات بمجموعة خاصة من الخصائص فهي في حجمها الصغير تخلق هذه العلاقة الحميمة وكأنها حرارة البدن وهي تصنع في معالجتها اللون. إذا كانت هذه معالجة، مصادفة اللقاء كنفس المصادفة التي يعانيها المرء عندما يلتقي فجأة بمن سيحب أو عندما يشرف فجأة على شروق شمس أو بزوغ قمر أو التماع نجم أو عندما يواجه فجأة بإدراك عمق الحياة و طبيعتها وقربها الشديد من الطبيعة ومن الحب ومن العلاقة الإنسانية.

هناك في اللوحات ألوان تخلق الحزن وتصنع الفرح والبهجة ولكن في كل هذه الحالات يحدث ذلك وكأنه نتيجة صدمة أو على نحو أدق لقاء وصدفة. وما هو الفارق بين الصدفة واللقاء. كل لقاء هو مصادمة ومصادفة وهو في الآن نفسه إدراك وتبصر ووعي بما يحدث في الجسم من رعشة.

وإذا كان الغرام يمارس ولا يمكن وصفه أو تحديده بعد ممارسته فهكذا أيضاً يمكن وصف أو تحديد هذه اللوحات.

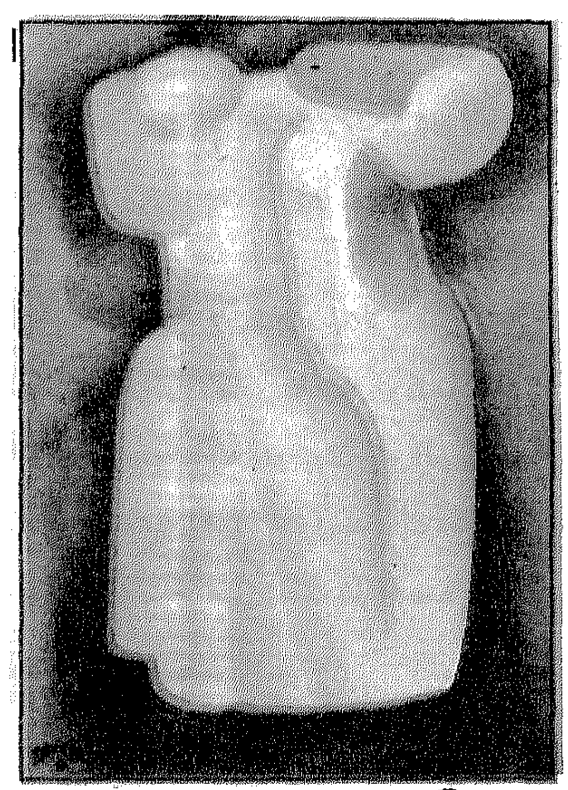
فكل لوحة هي تجربة جزئية لا تتكرر بل ولا يستطيع حتى الفنان نفسه أن يكررها أو أن يشرحها .

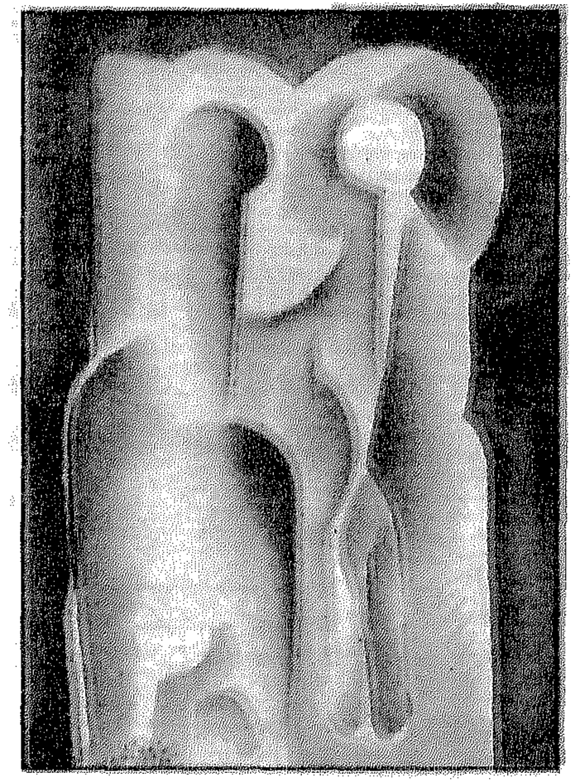
بعد كل لحظة للوحة مثل بعد كل ممارسة للغرام، لا يريد المرء إلا أن يستبقي التجربة ولكنها لا تبقى إلا مستقلة بعيدة عن المرء محفوظة في اللوحة وفي مصادفة صناعتها .

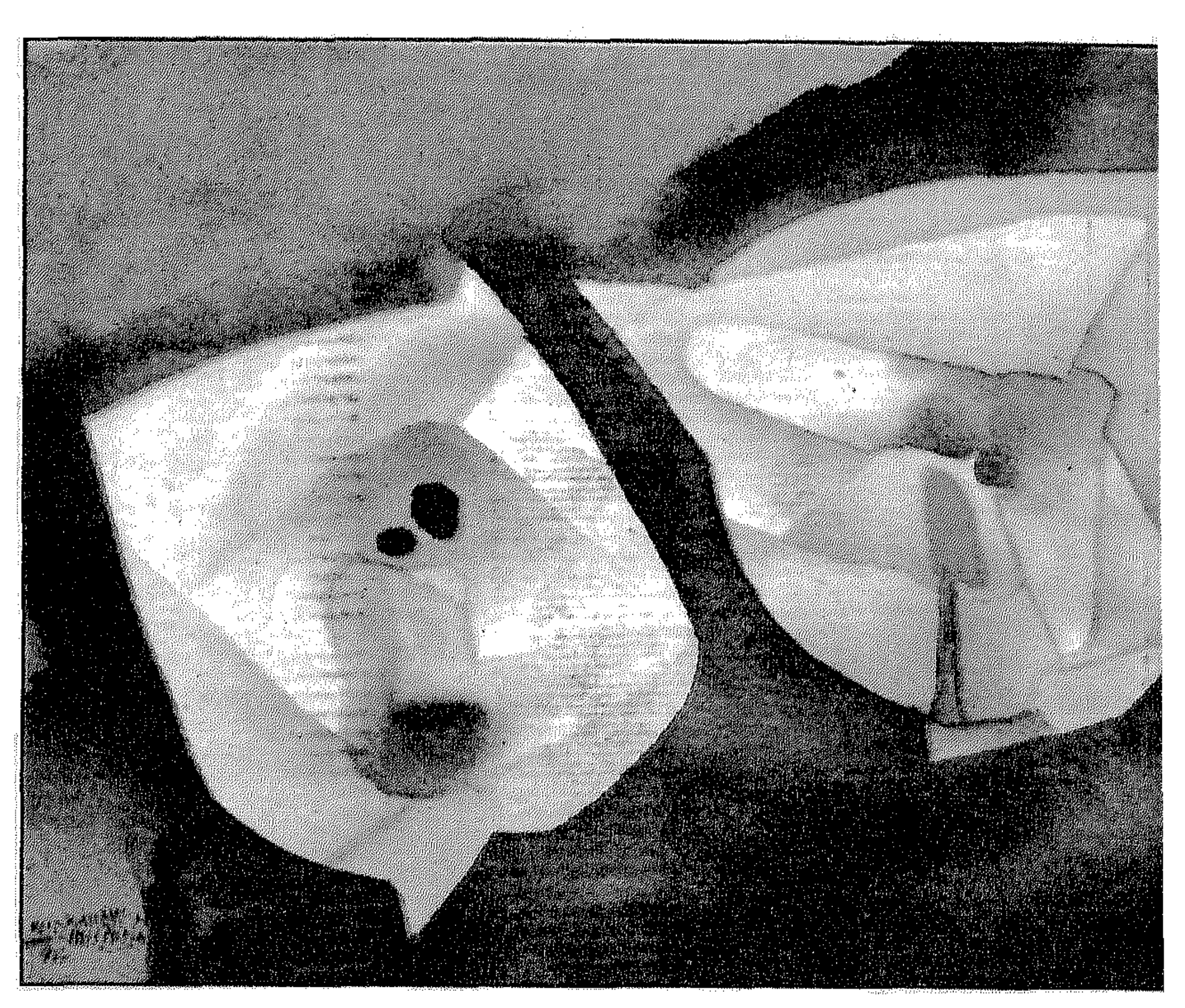
فهل في هذا وصف للوحات . طبعاً لا. إنه محاولة للاستبقاء لما لا يبقى إلا في العمل الجزئي النادر نفسه . وكلما توقف المرء عن محاولة الوصف أو التحديد شعر برعشة اللقاء الأول مع اللوحة وهي نفس الرعشة التي يحسها المحب عندما ينال مايحب ؟

إن كبرياء الفنان في صناعة هذه

مائيات عدلى رزق الله







مائيات عدلى رزق الله

اللوحات لا تعادلها إلا كبرياء الطبيعة نفسها عندما تختفى معانى الغائية والوظيفة فى الوجود . وهل هناك أشمل من الوجود من استيعاب الغائية والوظيفة. ولا يمكن جمع هاتين الخاصتين إلا فى هذا الفن وفى هذه اللوحات الخاصة الصغيرة الحجم والخاصة فى اللون وفى شكل الأشكال المتعددة المختلفة التى تشملها كل لوحة.

و مجموعة المشاعر والانفعالات التى تحفظها كل لوحة فى حجمها الصغير تكاد تكون لا نهائية مثل الانفتاح المخيف للفن الذى يبدع ويواصل فى الإبداع دون أن تنفذ جدته أو حرارته ودون أن يفقد سر الرعشة الوجودية. فهل يتوقف الكلام أم ينهض المرء لممارسة الغرام من جديد مع اللوحات الصغيرة؟!.

قصة قصيرة

بقلم :
رياض بيدس - لبنان
بريشة :
الفنان : جودة خليفه



لا يعرف كيف وصل إلى العرس. مجرد وصل! وصل، وهذا هو؟! هذا حكى لا ينحكي. ما الذى جاء به إلى هنا؟! يبدو ملخوما يكاد لا يتعرف على نفسه. يعمل ذهنه المكدود الذى يكاد لا يهضم ما يحدث أمامه لثوان معدودة، ثم يتذكر أن المنادى كان ينادى بمكبر الصوت داعيا أهل البلد عن بكرة أبيهم لحضور حفل زفاف خليل على عروسه سمية.

من يكون خليل هذا؟! ومن تكون سمية هذه التى لم ير صورة لوجهها من قبل؟! أمر يثير العجب. كيف يجرؤ على القدوم إلى عرس لا

يعرف أحد من أهله أو حتى أيا من مدعويه؟!. هل هو اللامدعو بامتياز؟! يعمل جهده على إخفاء ابتسامة هزء كادت تطفو على وجهه إثر تفكيره بلقبه الجديد «اللامدعو»، الذى يبدو أنه راق له. لقد تجنب دائما حضور الأعراس التى دعى إليها مرات ومرات. وها هو الآن يجد حاله فى العرس دون سابق تخطيط أو إنذار.

شىء يحيره ويكاد يطيّر ضبان عقله! الاستغراب والاستهجان المرتسمان على وجهه بوضوح يغلتّان عليه. يعاود النظر إلى الوجوه: إنها وجوه باسمة مرحبة. لى أنا؟! يكاد يغلق عينيه ويفتحهما على وسعهما مشدوها مذهولا. الموسيقى الخفيفة تنساب. يدفن أفكاره وينصت إلى الموسيقى. دوزنات خفيفة لعازفين هواة كانوا يعزفون بخفة وسرعة من قبيل المرح والاستعداد. إنها مقدمات موسيقية لأغان يحبها.. الحب كله، وزى الهوى، وأنت فين، والحب وين. يجفل ملتشا كمن يصحو من سهو مزمن على صوت قوى.. ثمة من يناديه.. ينظر إلى مصدر الصوت.

إنهما والدا العريس والعروس. أمن المعقول أنهم ينادوننى أنا؟! منذ متى صاروا يحتفون بالحضور إلى هذا الحد؟! ومن مثله يعرف كيف تسير الأمور هنا؟! يتوجهنون قليلا بعد أن يشفطوا النقوط وهذا هو.

وفى البيت، بعد انتهاء السهرة، يفردون مظاريف النقوط. إذا كان النقوط مش قد المقام يشقعون المنقّط الخسيس الواطى ببعض المسبات أو يسلقونه بألسنتهم الحادة كالشفرات، طبعا حسب المبلغ فى المظروف.

الصوت يعلو مرة أخرى يناديه باسمه. الله، ما هذا؟! يكاد ينفجر معتذرا: «ارحمونى يا جماعة الخير، حلّوا عنى . شوفوا حدا غيرى، أنا لست من أصحاب العرس. الحق مش علىّ، الحق على رجلىّ اللتين أوصلتاننى إلى هنا، والله العظيم هذه هى الحقيقة». «إلا أنه أمسك عن التفوه بهذه الكلمات وقال مبغوتا حييا: «مجرد سمعت النداء فى الميكروفون فجئت.. المعذرة» . العريس والعروس والآباء يرددون بصوت واحد أجمع على استنكار ما قاله: «اسمع أسمع، ماذا تهرف؟! أنت من أصحاب العرس.. أهلا وسهلا».

يتفحص المكان حوله، خوفا من أن يكون التأهيل والترحيب الصادر عن أهل العرس إلى شخص غيره، لكنه لا يجد إلا نفسه فى تلك المساحة الصغيرة التى يقف عليها مسمرا، لابد أن الكلام موجه إلى حضرته وليس إلى حضرة أحد غيره.

العريس والعروس يكادان يصيحان فرحا : «لماذا تتأبى منا؟! مالك هيك مش على بعضك؟! لم لا تتقدم منا؟!.. العرس عرسك والفرح فرحك». حتى أنهم يعرفون اسمى أيضا. لكننى لا أعرفهما من قبل

ولا أعرف أحدا من المدعوين أيضا. أمن المعقول أننى لا أعرف أحدا وثمة من يعرفنى. لا بل إنهم ينادوننى باسمى؟! ما الذى يجرى لى هنا؟!

يتوقف عن التفكير. بعد أن يترك العريس والعروس وآباءهما الطاولة التى يقفون إلى جانبها مستقبلين المدعوين للمباركة ويتقدمون منه. يصافحونه بحرارة. مالك تبدو مستغربا؟! منذ دخلت ونحن نقول لك العرس عرسك. يصافحهم واحدا فواحدا مستهجنا مستشعرا فرحا خفيا لم يشعر به من قبل.. البهجة تتسلل إلى نفسه تدريجيا، رغم حذره واحتراسه من أن تكون تلك البهجة ليست إلا خيبة أخرى من تلك الخيبات التى تطارده دائما وتكويه كيّا . خيبات متلاحقة تهد البدن والروح.

يتهاوى احتراسه متهشما ولا يسيطر على نفسه. يردد فرحا منطلقا مستبشرا خيرا على غير عادته: «اعذرونى ، الفرح فرحى.. اعرف هذا!» ويردف معتذرا أنه اعتقد للوهلة الأولى أنه أخطأ فى العرس ووقع على عرس آخر . عرس آخر؟!

متى كان يحضر الأعراس وأفراحها؟! ضحكوا منه مرددين: «أحلى شىء هو أن نشوفك فى عرس. وأى عرس؟! عرسنا ! يا ألف أهلا وسهلا. «نورت العرس» وكاد ينطق لسانه بما يعتمل في قلبه من أن العرس منوّر معه أو بدونه إلا أنه لجأ إلى الصمت. ثم قال مترددا: «لم تصلنى الدعوة.. ربما تصلنى بعد أسبوع على انقضاء العرس. البوسطجى واحد كسلان».

يضحكون منه مرددين بصوت واحد ، كما لو أنهم كانوا يعرفونه منذ أطلق صرخته الأولى فى الحياة: «دائما كان مزحك حلو ومر» . حلو ومر ؟! متى كان يمزح معهم ؟! يتنفس الصعداء بعد أن يتلو الأعذار لهم بوضوح شديد . يحدث نفسه قائلا إن الوجه الذى يعرفك أحسن من الذى تعرفه ، ويهوّن على حاله أنه ما من خطأ فى ذلك . ومع هذا، فإنه يعرف تمام المعرفة أنه لا يعرف احدا .

وكأن ذكرى مؤلمة تعود إلى ذاكرته المشحونة بالانشغالات الطارئة فجأة ،فإن توازنه يختل أكثر مما هو مختل حين يتذكر أنه صافح العريسين بيد خاوية وقلب واجف . كانت جيوبه فارغة .. لو حمل نفسه وكت حاله لما سقط منه قرش واحد ! يحضر بدون دعوة ، والآن يكمّلها بأن لاينقط؟! ليس من المعقول أن يحضر عرسا بدون نقوط. سيشرشحونه ويعزرونه وينشرون عرضه . عزارة وعليها شهود.

والد العريس يقطع حبل أفكاره : «انت من أهل البيت وربعه» يهز اللامدعو رأسه مؤمنا على هذا الكلام باذلا أقصى جهده ليتناسى النقوط متشاغلا بتصفح الوجوه دون أن يفلح فى التعرف على أحد من أهل

البيت أو من الحاضرين . يعود أهل العرس إلى طاولتهم الإيقاع يحمى ليحمى الجو معه . هذا العرس يختلف عن باقى الأعراس . الفرقة الموسيقية لاتترك مجالا لأحد أن يبقى جالسا . المغنى الشاب يقول بصوت حازم : «يا جماعة، السهرة ليست من أجل القعود وشرب الخمر ، وأكل الشواء . إنها من أجل الفرح والرقص» .

الطاولات المليئة بشتى أنواع الأطعمة المختلفة من شواء إلى حمص وكبة وتبولة وفول وترمس ومازات أخرى تفتح الشهية على احتساء العرق وغيره من المشروبات تترك إلى حين.. ينتبه إلى الحلبة، فيراها تغص بالراقصين والراقصات الذين يكادون يرقصون رقصة واحدة تبدو غريبة عليهم وعلى أجسادهم وعلى حركاتهم، فتظهر أجسادهم فى ناحية ورقصهم فى ناحية أخرى، كما لو أن أجسادهم كانت تصر على ملاحقة ومطاردة حركات ليست صادرة عنها بل هى مستحضرة من كون آخر لا يمت إليهم بصلة.

يسارع بإلقاء نظرة إلى المقاعد، فيلفاها مهجورة تماما. كل المدعوين كانوا فى حلبة الرقص. يسقط على اللامدعو مزيدا من الحرج الشديد. إنه لا يجيد هذا الرقص ولا يجد أية رغبة فى نفسه تستحثه على تقليد هذه الحركات الغريبة عليه. ماذا يفعل؟ هل يستوعب ما يحدث له وحوله؟! ينظر ثانية.

الكل يتمايل ويرقص متخلوعا. غريب. كيف اتفقوا وأجمعوا جميعا على الرقص رغم أنهم لا يتفقون ولا يجمعون على شيء واحد؟! ومع أن الراقصين كانوا فى غاية الحماس والانتشاء، فإن الرقصة لم تكن سوى رقصة باردة متشابهة إلى حد عجيب وكئيب. ألا يشعرون بهذا؟! ولم يلفت انتباهه من بين جميع الراقصين سوى ختيار فارع الطول يرتدى قنبازا وحطة وعقالا.

للحظات يظن أنه أبو خالد صديق أبيه الحميم، إلا أن ظنه يتهاوى بعد أن يتفرس فى ملامح وجهه البعيدة ليتضح له أنه لا يعرفه وأنه يشبه أشخاصا كثيرين عرفهم أيام زمان.

فى الماضى كان هناك الكثيرون من أمثال هذا الختيار المتميز بلباسه العربى التقليدى والذى يبدو الآن، مقارنة بكل الحاضرين، كما لو أنه كان قادما من عالم آخر. يتجلى الختيار راقصا رقصته لوحده. الكل يرقص الرقصة الوحيدة الغريبة وهو يرقص رقصته التى تختلف عن رقصتهم محلقا مسلطنا.

كانت أطراف الختيار تتثنى بسهولة ووجهه يرشح عرقا والعصا القديمة المليئة بالمسامير ولصوقات البلاستيك تتحرك فى يده مشيرة إلى أنه يتقن الرقص الذى لم يعد يتقنه أحد سواه. كانت كل حركة من حركات هذا الختيار تدل على أنه سيد من

أسياد الأعراس القدامى، عندما كان العرس عرسا حقيقيا. أهذه أعراس وأفراح؟! ومع هذا، كان الختيار لا يجد غضاضة فى أن يرقص الجميع رقصا يخالف رقصه. بالعكس، كان يوزع عليهم الابتسامات العريضة دلالة على أنه قادر على مشاركتهم الفرح حتى النهاية دون أدنى تذمر أو اعتراض من جانبه. وبقدر ما كان رقصهم النابع عن حماسة كبيرة يبدو فاترا غريبا، فإن رقصه شبه البطىء والمتئد كان يظهره أكثر حيوية وحماسا منهم ومن رقصتهم الواحدة الرتيبة التى تكاد لا تتغير ولا تتبدل ، حتى وإن تغيرت أو تبدلت فعلا.

إلى جانبه كانت تقف امرأة كبيرة فى السن تتوهج حماسا وتضع على رأسها منديلا مطرزا مائلا إلى الأمام من الناحية اليسرى مغطيا طرفا من جبهتها السمراء المليئة بالتجاعيد العميقة.. كانت هذه المرأة تصفق للختيار بحرارة ووجهها يشع حبا وحياة وفرحا. كان الختيار الفخور يبادلها نظرات العشق والهيام .. من المؤكد أنها زوجته، إذ ليس من المعقول أن تبادله كل هذا الحماس وهذه النظرات لو لم تكن زوجته. تغنى له بصوت جميل عال: «يا شب ياعيوق ما أحلى حركاتك.» ثم تطلق زغرودة قوية مجلجلة لايكاد يصدق أحد أنها صدرت عنها. وتشارك الختيار الرقص مبدية قدرة فائقة على معرفة كل حركاته والتجاوب معها بتلقائية وعفوية، مما جعلهما يبدوان وهما على تلك الحال كما لو كانا يسبحان فى بحر صافى المياه خالقين رقصة حب وتآلف وانسجام بسيطة وعصية على أى تقليد. إنهما يعيشان عرسا أبديا يتجلى الآن واضحا. من قدهما ومثلهما؟!

يحوّل اللامدعو نظره عنهما خوفا من أن يحسدهما. يقع بصره على الراقصين الآخرين. لا شىء يعكر صفوهم. مازالوا على رقصتهم . هذا أعجب عرس يراه.. لا، بل يحضره.. إذا لم يكن هو الذى يحضره، فمن هو الذى يحضره إذن؟! يكاد يتحسس نفسه ليتأكد من أنه أحد الحاضرين. لا يملك وقتا لذلك . تسحبه يد بسرعة دون أن تمهله ليفكر أو يتحقق مما يجرى. إنها يد رقيقة لدنة. يجد نفسه فى الحلبة مع الراقصين. يفغر فاه. يذهل من حجم المفاجأة الجميلة.. إنها هى.. هى بعينها. وليس غيرها. يكاد لا يصدق ما يجرى . كيف حدث كل هذا؟! هل أحست به أخيرا؟ هل عرفت بحبه الصامت لها؟ هل أدركت مكنونات قلبه؟ لم يجرؤ ولا مرة أن يفاتحها ولو بكلمة .. لم يجرؤ أن يصبّح عليها بالخير. السلام والصباح لله. هذا ما كان يسمعه دائما من ختيارية البلد. لكن كيف يصبّح عليها خيرا هكذا من الباب للطاقة؟! هذا ليس السبب الحقيقى.

السبب الحقيقى أنه كان يفقد القدرة على النطق عندما كان يراها.

وكـــان كلمـــا ينوى أن يفاتحها أو يصبّح عليها يضطرب ويحمرق ويعلق لسانه وتتعالى دقات قلبه. الآن جاءت من حـالهـا. يتـأملهـا فـرحـا وهو يراقـصـهـا . إنهـا هى بعـينهـا وفـجـأة تأخـذ المنغصات بالظهور. لماذا يخطر على باله الآن شبح الموت الذى كـان يخـيم على أجواء البيت؟! إنه لا يريد أن يعـود بذهنه إلى مـا يخيفـه أو يزعجـه أو يشله. لم لا يرقص الآن وكفى؟! لم لا يترك شعور الموت الذى عذبه جانبا؟ لابد أن أباه بخـيـر. لا ، لن يحـدث شىء. مـا هذه الهواجس المخـيفـة التى تساوره بأن أباه معرض للموت كل لحظة؟! الموت، هذا الغـول المرعب الذى يقض مـضـجـعـة ونهاره وكل حـيـاته. منذ سنين. وهو يعـيش رعـبـا قـاتلا بـأن أباه مـــوشك على الموت فى أية لحظة. قـــد يحـــدث هذا أثناء لحظة فـــرح. مـــا العـــجب فى الأمـر؟! هذا وارد جـدا. إنه دائم الانشغال بهذا.. لا ، لا. مـــا هـذه الأفكار السوداء التى لا تبارحه ؟

هل وجـدت مـسـتـقـرها الآمن عنده؟

سنـاء تهــزه وهو يرقص بحـركـات خرقـاء: «اصح! أين أنت؟!» يفـتح عـينيـه على وسـعـهـمـا مـــذهولا من أن التى تراقـصـه هى سناء التى أحبها من كل قلبه. إنها هنـا، وأنا هـنا. أرقص.. يا الله مـا هذا؟! هل هو حلم أم علم؟! يكاد يمسح عـينيـه ليتـأكد مما يراه. لكن أمورا كثيرة تتغير على نحو فجائى ولا تترك له فـرصــة لأن يفكر أو يتـحسس نفسه متـأكدا من أنه هو نفســه حـقـا وليس أحـدا آخـر. وهل يجرؤ أحد غيره على أن يلعب دوره إلى هذا الحد مـن الإتقـــان؟! يكـاد يضحك من نفسه جراء هذا التفكير العابر. سناء تسـحـبـه من يده. يطلق ضـحكة فـرح مـا كـان يعـرف أنهـا كـامنة فى أعـمـاقـه وأنه قـادر على إطلاق عنانهـا لتسبح فى الفضـاء. ينظر إلى طاولة العـريس والعـروس، فـلا يراهمـا. انهمـا ليسـا فى الحلبة.

سنـاء تشـده من يده قـائلة بفـرح: «تعـال!» يسـأل محـتارا: «أين أهل الفرح» ؟! لا تهتم ، تقول سـنـاء :«هـذا الفـــرح فرحنا» . الفـرح فرحنا؟! تـنـطـبـع امــــارات الاسـتـغـراب على وجـهـه. يتذكر المنادى والأسمـاء التى ناداها ويقـــول بذهول: «اسمنا لم يذكر بالمرة» تقول سناء : «هذا ليس مـهـمـا». ينظر إلى أهل العروسين، فلا يرى أحـدا . لقد اختـفـوا. هل من المعـقـول أنـهم تركـوا العـرس واختـفـوا؟! ينظر إلى حلبة الرقص. مازال المدعـوون يرقـصـون. مـا من هـدنة. المغنى يتـوقف عن الغناء ثانيـة قـائلا بحـزم: «يا جـمـاعـة . القـــواص ممنوع هذا فـرح مش حـرب. ومش كل مـرة بتسلم الجـرة ، «وتـابـع بمـزح ممـزوج بجـدية «أنا مـــا بدى أموت». لا يعيره أحد من الراقصين أدنى اهتمام، وأمعنوا فى الإعراض عن قوله بإيحائهم له أنه حتى لو حـصـل وأن توقف عن الغناء وسكتت الموسيقى تماما فإنهم لن يتوقـفـوا عـن الـرقـص. إلـى هـذا

الحد؟! وأكثر من هذا.. أنهم بغنى عنه وعن غنائه وفرقته إذا زادها.

ورغم إعراضهم عن سماع ما قاله المغنى الذى شعر باستخذاء، فإن أحدا لم يطلق عيارا ناريا واحدا. الرقص كان هو المهيمن والطاغى. يتابع المغنى الغناء بصوته القوى شبه المبحوح. يخرج اللامدعو من ذهوله الذى توشى بفرح نادرا ما اعتراه. آه، أين أنت أيها الفرح؟! يسأل نفسه سعيدا مبسوطا . تتتالى الأمور مرة أخرى على نحو يخلو من أى تسلسل أو تتابع أو ترتيب منطقى. لا يعرف كيف حدث كل هذا مرة واحدة.. فجأة يجد اللامدعو نفسه مرتديا بذلة عرس وسناء تقف إلى جانبه. العرس لنا؟

للحظة ينوى اللامدعو إطلاق صرخة فرح، إلا أنه يتمالك نفسه متذكرا أنه هو وسناء احتلا مكان العريسين السابقين وخاطب نفسه باستياء ، كنت لا مدعوا أو حتى دخيلا فأصبحت عريسا لسناء التى تقف إلى جانبى سعيدة تتسلم النقوط فرحة مبسوطة . يكاد يتملكه غضب شديد يخرجه عن طوره. أنا أعمل سهرة وآخذ نقوطا؟! هذا مستحيل. واحتل عرس الآخرين كمان؟! كيف يحصل كل هذا؟! منذ قليل كنت لا مدعوا مترددا إلى عرس لم أدع عليه ولا أعرف أحدا من أهله ، والآن غدوت عريسا؟! هذا لا يصير.

يفاجأ اللامدعو وهو ينظر إلى الفرقة الموسيقية. صوت المغنى يضعف.. يتضاءل.. يكاد يتلاشى .. يبدو المدعوون متعبين دون أن ترشح جباههم بنقطة عرق واحدة. انهم يرقصون رقصا بطيئا الآن. انهم على وشك الاستعداد لأن يكفوا عن الرقص. هدنة؟! ربما ، أو استراحة قصيرة . بعدها يستجمعون بقايا طاقتهم ويلهبون أرض الحلبة رقصا باعثا على الملل والضجر. يتباهون ويتفاخرون برقصهم. يزدادون فخرا وتيها حين يعترفون أمام الجميع أنهم يستطيعون الرقص لساعات وساعات بدون موسيقى. أجل، بدون موسيقى أو غناء. وهذا ما كانوا يفعلونه الآن.

يبدو رقصهم مضحكا . ينظر اللامدعو إلى فوق. أجل إلى فوق. كيف تغيّر المكان بهذه السرعة؟! منذ قليل كان الفرح على أشده. يغمر الحزن وجهه. أنا الذى عشش الحزن فى حياتى كنتُ فرحا. يتحسس نفسه.. لم أعد عريسا..

يقف مع الواقفين الآخرين الذين أمسكوا عن الرقص متطلعين إلى فوق. كانت أرض الحلبة مستوية، فيما كانت الفرقة الموسيقية تحتل مكانا عاليا شبيها بقمة تلة وكان عازفوها يعزفون بقوة، وكان المغنى المتضائل يغنى بكل قوته دون أن يصل صوته إلى أى مكان . كانت بعض أجساد الراقصين تتحفز للرقص. إلا أن ابتعاد

الفرقة الموسيقية والمغنى حالا دون ذلك. هذا امر لم يحدث من قبل أبدا. من حقهم أن يديروا ظهرهم للمغنى أو ربجه قتلة جامدة إذا تسامج أو لم يعجبهم ، لكن أن تبتعد الفرقة هكذا. فهذا غير مقبول ومرفوض بالمرة.

أحد الأشخاص يصرخ غاضبا: «ليس من المعقول أن تغنى الفرقة ونحن لا نسمع». يرد والد العريس خائفا: «اعذرونا يا جماعة. لم نتوقع أن يحدث مثل هذا الأمر المخيف. ولم نعرف كيف صار . لكن لنصلّ أن ترجع الفرقة إلى مكانها بيننا. تعلو الأصوات غاضبة منددة، فيما يلوح المغنى بيديه مغنيا وطالبا النجدة من الحضور.

يصرخ أحد الأشخاص مشيرا إلى الفرقة والمغنى : هذولا كلاب . ما لازم حدا يساعدهم. تركونا وزنقونا فى عزها وحماها.. الله يلعنهم دنيا وآخرة» واختلطت الأصوات مرددة شتائم مقذعة ونابية، لتخترق الآذان وأجواء المكان. ثمة من يردد بصوت شبه باك متوسلا: «ارحمونا يا جماعة. الغلط ما هو غلطنا ولّ ، احسبوا العرس هو عرس واحد من أولادكم.

ينظر اللامدعو صوب صاحب الصوت ، فيتبيّن له أنه والد العريس . يبدو العريس والعروس مسرسبين من الخوف.. راح العرس والفرح والطبخ والنفخ؟! يحاول الأهل أن يهدئوا المتقاتلين . يتدخل الختيار محاولا أن يفسخ بين المتخاصمين قائلا بصوت جهورى وقور: «يا جماعة الخير . يا أهالينا، يا حبايبنا . عيب هذا اللى عم بيصير. شو رايح يقول عنا المعازيم الأغراب؟! إحنا أهل وفى بيننا عيش وملح وأكثر من هيك كمان» . إلا أن صوته ضاع فى زحمة الصراخ والزعيق، وتقدم منه أحد الشباب الغاضبين وكسر عصاه بتحد. فتفتت العصا إلى شقف صغيرة.

يحدق الختيار الى اشلاء عصاه بعينين حزينتين شبه دامعتين ويوشك ان يهجم على الشاب المتخنصر أمامه بتحد فاتكا به. إلا أن رحمته الكبيرة سيطرت عليه وقويت على غضبه المحتدم العارم وأخذ ينظر إلى بقايا عصاه بحسرة وبقلب كسير، وانسحب من السهرة - الطوشة - لا يلوى على شىء . يتأزم الوضع أكثر وأكثر. تتكون جاهة حالا. تحاول إصلاح ذات البين.

بعد مشاورات قصيرة لا تدوم سوى دقيقة أو دقيقتين تؤثر الجاهة درب السلامة وتسرع إلى الاختباء تحت الطاولات بعد أن تتطاير شظايا القنانى والصحون فوق رؤوسها من كل الجهات. يتقدم المغنى من الناس جاعصا معرما نافشا حاله كديوك المزابل، «انفرجت انحلّت مشكلتنا وخلصنا من العلقة التى علقناها وعدنا إلى مكاننا. « ثم يتابع بصوت كله استغراب واستنكار مما يرى : «يا جماعة هذا فرح» . وما إن فرغ المغنى من قوله هذا حتى سارع

بالانحناء وحتى الزحف تحت الأقدام مداريا شظية قنينة طائشة طارت من جانب أذنه اليمنى وكادت تترك كدمة ابدية في رأسه أو حتى ترديه قتيلا في حال إصابته . يصرخ المغنى خائفا بصوت شبه باك «أي لاعمر ما حدا غنى ولا فرح !» ويرمي الميكروفون في الفضاء ويطير راكضا .

كان كل هذا يجرى أمام عينيّ اللامدعو على نحو سريع مستصعبا استيعابه . الحقيقة أنه لا يريد أن يستوعبه لما في ذلك من خيبة والم ومرارة .. يماطل ويسوّف .. لكن لامناص من ذلك .. يشعر بأسى شديد ، ويأخذ الفرح القليل الذى كان برعما في داخله منذ قليل بالزوال . أين سناء ؟

ينقل بصره حولة فلا يراها هي الأخرى اختفت؟ ! أناس يدبون الصوت . الطوشة تحمى شرطة . مسلحون بهراوات يحضرون . على من سيقبضون ؟! ترتجف قدما اللامدعو تحته أرجو ألا يقبضوا عليّ انا الذى لا أعرف إذا ما كنت قد حضرت العرس مع دعوة أو بدون دعوة وصفن مفكرا قليلا ، هل دعوا أهالى البلد بمكبر صوت ام كان تهيأ لى ذلك ؟! فضيحة إذا جئت حتى بدون دعوة مكبر الصوت أيضا . من أين خطرت له فكرة مكبر الصوت المعلق على سيارة بيجو قديمة يدعو بواسطته مناد كل أهالى البلد لحضور العرس ؟! انتهت هذه العادة .

يبدو الامتعاض واضحا على وجهه ينفض فكرة مكبر الصوت التى يتأكد من أنها لم تكن أبدا جانبا . ينشغل بما يجرى أمامه ، ألا يكفى هذا ؟! هل استكثروا علينا فرحا لم نكد نستشعره ؟! لا، لا، انا لا أحضر الأعراس . لادخل لى في الطوشة . تئز شظية قنينة فوق رأسه يصاب بالذعر . ألا يكفى ما يحدث ؟! هذه كلها ليست أعذارا مقنعة . من حضر السوق باع واشترى . لن يكون مختلفا عن الآخرين الذين يدارون الشظايا . تنقض عليه الشرطة لتقبض عليه وتقوده مع آخرين لا يعرفهم . يوشك أن ينفجر قائلا إن هذا كابوس حقيقى، إلا أن قبضة الشرطى الضخم الجثة كانت له بالمرصاد، فيؤثر صمت السلامة .

ماذا فعلت يا ربى تحت سمائك حتى عاقبتنى كل هذا العقاب؟! هل هذا عدل؟! وقبل أن يخطو مغادرا الحلبة ينظر بعينين حزينتين إلى حيث كانت الفرقة والحلبة ليستعيد ذكرى سناء والفرح، إلا أن الخوف يسيطر على كل حواسه ويشله .

يجيل بصره حوله وفى كل مكان ،فيوقن أنه لا وجود لأية شرطة تقوده هو أو غيره . وكما لو أن كل شئ انقلب، فإن المدعوين لم يكونوا يرقصون ، بل كانوا يقفون واجمين مقطبين، فيما لايأتى والدا العريس والعروس بأية حركة . كان الحزن العميق يشمل الجميع أين الفرح؟! ما الذى حدث ؟! قبل قليل كان الفرح على أشده، وكان فرحه الشخصى الذى لم يذق له طعما من قبل يغمره صحيح ، أخذه وقتا حتى

استوعب ما يحدث له، لكنه أدرك أخيرا أنه من أهل الفرح ، إذن كيف تخربطت الأمور وعادت حياته إلى سابق عهدها وتخلى الفرح عنه ؟! ولا يمكن ...يردد لنفسه . يلقى نظرة على المدعوين،فلا يراهم كمدعوين .

كذلك لم يبد اهل العرس كأهل عرس ، بل بدوا اشبه بأهل حزن . والفرقة الموسيقية لم تكن هناك . لايريد أن يصدق ما تراه عيناه قلبه يدق بسرعة . هذا ليس عرسا ولافرحا . لاحاجة للتفكير كثيرا . كل شئ يبدو أمامه جليا وواضحا. كل ما عليه هو أن يفتح عينيه جيدا ليرى الأمور على ما هى عليه وليس كما رآها أو كما يراها. على الحلبة حيث كانت الفرقة الموسيقية والمغنى كان هناك تابوت . يصاب بذعر حين يتأكد على نحو قاطع أنه تابوت وليس صندوقا عاديا .

أرجو ألا يكون قد حدث ما لم يكن متوقعا. من القاتل ومن المقتول؟! وهل جرى القتل دون أن ينتبه له أحد ؟ هل اطلق احد عيارا ناريا وقتل المغنى وتحول الفرح إلى مأتم؟ هل قتل أحد ما ؟ وهل علق هو ؟! كانت مجموعة من النسوة يتحلقن حول التابوت وهن يندبن دون أن يصدر عن أفواههن أى صوت .

لم تعد الحلبة معلقة فى الاعالى كما كانت ، بل تفرقت وحل محل أعضائها الندابات .. باستطاعة أى من الحضور النظر إلى التابوت ليرى أنه خاو تماما ، أين الميت ؟! يفنجر عينيه مرعويا كاتما دبة صوت عميقة كانت تعيش فيه منذ القدم . يخلد إلى الصمت الحزين عندما يتمخخ أن الكل يرى ما يشاهده هو ولا يفتح أحد منهم فما . من الميت أو من سيموت ؟ لا يبارحه الرعب الشديد. كيف تحول العرس إلى مأتم ؟! من هو الميت ؟ يتصفح الوجوه جميعا .

إنها وجوه جامدة لاتتحرك أية عضلة من عضلاتها إلى درجة الفزع والرعب . الوجوه الوحيدة التى بدت حية قليلا هى وجوه النساء اللواتى كن يندبن بقوة دون أن تقوى أفواههن على إطلاق أى صوت ، يرتجف لم لاتتركنى أيها الخوف ؟! أى بجاه الله واستغفر الله حل عنى ، شوف حدا غيرى .. ينفخ أنفاسه مشجعا نفسه، ثم تسكن ملامح وجهه اثر تفكير سريع ويشعر بالفرج وهو يكتشف أن الخوف هو الدليل الوحيد على أنه حى حقا فى هذه الحالة . ابق أيها الخوف! ابق أين ستذهب ؟! هل ستجد مرتعا أفضل منى؟! ستشعر بغربة ووحشة مع شخص آخر .. أنت توأمى من هذا المراح ما فى رواح .. قد تموت إذا تركتنى أو أموت أنا إذا تخليت عنك ذات يوم أو نجحت فى اقتلاعك من داخلى . أنت خوفى الحبيب الذى لاغنى لى عنه .. يهون عليك أن تتركنى ؟! ابق .. رجاء ابق ولا تخذلنى أو تتركنى حطاما لا شكل له ..

يتوقف اللامدعو عن الهمس السرى لخوفه ويحاول أن يحاكى خوفه بصوت عال جهرا، لكن شفتيه لا تتحركان ولا تنطقان بشئ . هل هو .. هل اصابه شئ ؟!

لايجرؤ حتى على هذا التفكير الموت لا،لا . الفرح فى عزه . التابوت الخاوى يقول إن الفرح انتهى او أنه لم يكن هناك أى فرح على الإطلاق . وهؤلاء الناس حوله ، لم لايتحركون؟! هل هو ميت حى ؟! يكاد يستسلم لضحك غزير . أجل إنه يرغب فى الضحك . الضحك من قراقيح قلبه. ما من شئ غير الضحك يؤكد له أنه حى أجل حى .

يبذل جهدا فى انتزاع ضحكة من أعماقه ، إلا أن الضحكة لاتتشكل أو تتألف جواته. ليس من المعقول الضحك فى مأتم، يخاطب نفسه . لقد ولّى الفرح . ما هذا يا ربى؟! عرس ومأتم ؟! وتساءل بغيظ وقهر : من هو الميت ؟! ينظر إلى الوجوه الجامدة شبه المتيبسة ، فلا يقرأ شيئا فى تعابيرها الميتة . وجوه ساكنة معلقة فى الهواء . ثمة خواء وريح تصفر أصوات النساء النادبات لا ينطلق من أفواههن ويظل عالقا فى حناجرهن . يقترب من التابوت إنه حقا خاو . ثمة لائحة من الأسماء فى داخله . من هم المرشحون؟

يتراجع خائفا . يجمد فى مكانه هل تحركت فى مكانى ؟! يفاجأ ويحاول التحرك ثانية، إلا أن قدميه تتجمدان فى مطرحهما . يحاول أن يصرخ مستغيثا دابا الصوت «يايابا» ، لكنه يصحو من تفكير مضطرب ومشوش وغائم مدركا أن أباه رحل عن هذه الدنيا القاسية منذ زمن بعيد . إنه لوحده عالق هنا ، لم يبق إلا هو .

الصوت يخذله كما خذله مرات كثيرة . لا فائدة . ينوى الفرار، إلا أن أهل العرس أو المأتم يحولون دون ذلك . أنت كنت معنا من البداية ويجب أن تبقى حتى النهاية . ينطق لسانه الثقيل : هل كان هنالك عرس حقا ؟! لا أحد يجيب . لقد أعادوه إلى مكانة ووقفته . لم لاينطقون أو يتحركون الآن ؟! ما الذى جرى الآن ؟! قبل قليل كانوا يتحركون ويهزون ويخلعون . يساوره الشك. ربما لم يتحركوا بالمرة، وأنا الآخر لم أتحرك وإنما تهيأ لى كل ذلك يتفحصهم . مازالوا لايتحركون . هواجس مرعبة تنتابه .

يعتزم العودة من حيث أتى ، الا أن قدميه تلتصقان فى المكان حيث يقف، أو حيث أرغم على البقاء واقفا... ماهذا ؟! كلما حاول الحراك ومبارحة المكان هنالك شئ يجعله مكانك قف . ضيق شديد يحكم القبض علية من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.

يستجمع أشلاء قوته وصوته للصراخ مستنجدا أهل النخوة ، إلا أن صوته يموت ، كما مات كل شئ واختلط عليه منذ قليل . لم يعد قادرا على الصبر. كل شئ يضطرب فيه اضطرابا شديدا . أنفاسه تتسارع كالموج وصدره يعلو ويهبط بسرعة وقلبه يخفق بقوة. العرق البارد يجاهده . السرير يقبض عليه كما لو أنه تابوت محكم الصنع على مقاسه .

(باريس، ٥ نوفمبر ١٩٩٩)

ديروط الشريف

أم القـــرى المصرية

بقلم : محمد مستجاب

يعيدا هناك سوف تجد كوبرى البغيلى الجديد الذى يربط القرية بمنطقة الجبانة



تتراقص مزهوة لتداعب المدن والقصص والحكايات والتاريخ والأساطير.

لها عمدتان : واحد قبطى وواحد مسلم، وشعب واحد.

حرموها من القناطر ومحطة السكك الحديدية لكنها ظلت أكبر من القرى ومن المدن أيضا .

فى أوائل القرن العشرين أنشئت مدرسة للبنات.

تتراقص حولها عدة ترع : الإبراهيمية وبحر يوسف والديروطية والشريفية والجنايبية .. مع عدد من الجداول الهادئة.

ليست موطن رأسى، بل قلبى أيضاً .

بريخ طلبة .. وهو مكمن عم طلبة على ترعة المريوطية



فى عام ١٩٣٨ ولدتنى السيدة والدتى ذكراً أول على طابور من البنات ، لأوقف تيار السخرية العارمة – سرية أو علنية – من أهل والدى الذين كانوا – فى ذلك العصر – يفخرون بأنهم يبدأون عملية الانجاب – دائماً – بالذكور، لكن الأمر دخل – حينذاك – فى منعطف إغريقى لم أدركه إلا بعد أن أصبحت – بسم الله الرحمن الرحيم – كاتباً يشار إليه بالبنان، كان أبى قد تسلل بأمى – أم البنات – ليلاً ليخرج من ذاك البنيان الذى يحكمه جدى بتنظيمه الفائق لأولاده الرجال المتزوجين فى غرف متلاصقة متداخلة، تلتف – هذه الغرف – حول غرفته فى تكوين يفح بأصوات العيال ونار الكانون وتوزيع المسئوليات اليومية مع السخرية المريرة بمن يكون قدرها إنجاب البنات ، لم يخرج أبى وأمى وبناته الأربع من البنيان فقط، بل ومن القرية كلها ، حيث كان – فى سرية شديدة الكتمان – قد ابتاع قيراطا ليقيم فيه بأسرته لتضعنى أمى – أول ذكر لهما – بعد ذلك بشهور قليلة ، كى أنمو فى هذا البيت (الكوخ) وسط حقول وبرارى وعلى حافة برك ومستنقعات ، وتجت ظلال سبع نخلات قريبا من معامل كتاكيت أولاد مغاريوس، وعلى مسافة قريبة كانت ديروط الشريف تنظر إلينا فى ابتسامة شديدة الإمعان وكأنها – وحتما – سوف تستقبلنا عائدين فى استرحام خاشعين إليها طال الزمن أو قصر .

قريتي في خلايا ذاكرتي

ومرت أحقاب منذ تلك الأيام ، سافرت وتغربت – جوعاً وشبعاً ، ضيقاً واختناقاً، بؤساً ومرحاً ، دون أن تغادر قريتى خلايا ذاكرتى المتفاعلة معها، وفى الثلاثين عاماً الأخيرة اخترقت مدناً وقرى وبواخر وطائرات وسيارات ومقطورات ، أديرة الرهبان فى سيناء وجبال البحر الأحمر ووادى النطرون وتلال الصحراء الغربية وأسوان ، هياكل ومعابد فى دندرة والأقصر والواحات ، بل إننى عشت بين ضجيج موتورات وتفجيرات وكراكات مشروع السد العالى – ثم فى بغداد ومشروع قناة كركوك فى العراق ، وتجولت حول مقامات السيد البدوى وسيدى عبدالرحيم القناوى والشيخ الفزغل وعلى أبو الهوا والحسن والحسين والشاذلى وعلى بن أبى طالب، فى مصر أو فى خارجها ، وشاركت فى مؤتمرات وليالى ذات صخب ومتعة فائقة ، وسراديب وأنفاق ودرب الأربعين وسوق جمال واحة باريس ، وآبار تنطلق مياهها تلقائيا وسط الصحارى، لكن قريتى ظلت – أينما وكيفما كنت – مسكوبة فى شرايين القلب والدماغ وقاع العين،



ديروط .. القرية الجميلة

ترعة الديروطية

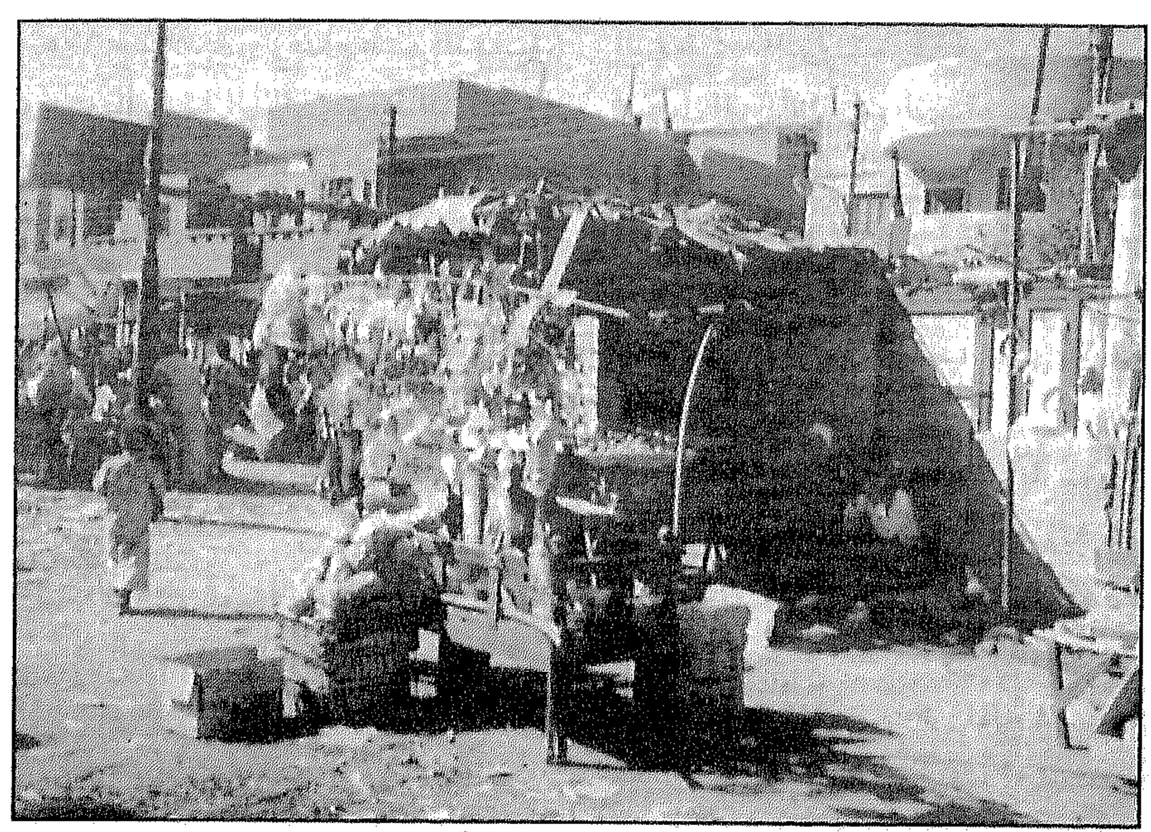
وكـــأننى النبى يوسف الذى تؤرخ به حكاياتنا المصطبية - خارج الكتب - هذا الذى ظل ممتطياً حصانه الجميل بعد أن أفرج عنه عزيز مصر ليطلق سراحه من السـجن كى يحـقق الحلم الأبدى فى المشروع الاقتصادى الشهير المتمثل فى البقرات السبع العجاف التى إلتهمت سبعاً من البقرات السمان ، وسنابل القمح - التى عانت مثلما عانت الأبقار من الجوع فالتهمت سبعا من السنابل الناضجة ، وظل سيدنا يوسف يطوف فى برارى النهر المتاخمة للصحراء العجفاء حتى أرهق فأخذته سنة من النوم - وهو على حصانه ، حينئذ أفلتت عصاه دون أن تسقط على الأرض ، والجواد لايزال يسير فى هدوء المتعب ليلامس سن عصا يوسف (وهى غير عصا موسى - رجاء الانتباه) تراب الأرض لتترك خطّاً متعرجاً، ولم تلبث مياه نهر النيل أن اندفعت فى هذا الخط ليتخلق بحر يوسف فى مجرى العصا ، بادئا من قريتى ومخترقا ما يقرب من مائتى كيلو متر شمالاً، حتى يرتاح منتهاه فى بحيرة قارون بالفيوم، هكذا شاعت حكاية ظهور قريتى فى الوجود .. والخلود أيضا .

ويقول ياقوت الحموى فى (معجم البلدان) أن دَرْوت سرابام (بفتح الدال وسكون الراء) : قرية كثيرة البساتين والنخل، أنشأ فيها الشريف بن ثعلب جامعاً على فم المنهى (وهى المستنقعات التى بدأ منها بحر يوسف). ويجمع الجغرافى المصرى الأصيل محمد رمزى فى (القاموس الجغرافى للبلاد المصرية) الذى بدأت اصداره دار الكتب المصرية عام ١٩٤٥ - معلومات لها جمالها ورونقها حول ديروط الشريف فيقول إنها من القرى القديمة ، ذكرها اميلينو فى جغرافيته (حاولت أن أعرف شيئاً عن اميلينو دون جدوى) فقال عن ديروط الشريف إن اسمها القبطى : تيروت سرابان نسبة إلى القديس سرابامون ، (ولا يزال أثر لدير قديم يطلق عليه أبوسربانة قريبا من قريتى ، وتوجد به كنيسة قديمة ، لكن الدير تحول إلى مدفن ذى أسوار لأقباط ديروط الشريف بعد أن أصبح واقعاً وسط المزارع حيث فقد بذلك معنى الانقطاع المعروف داخل أديرة الصحارى والجبال) ، ويضيف محمد رمزى أن هذه القرية وردت باسم دروط سربان فى كتاب المشترك لياقوت الحموى وأنها تتبع كورة الأشمونين - وهى القطاع الإدارى الضخم قبل تقسيم وادى النيل إلى مديريات ثم إلى محافظات ، ووردت فى قوانين ابن مماتى : دروط سرابام، ثم تنتهى المعلومات العديدة إلى أنها فى عام ١٢٣٠ هجرية ـ حوالى عام

١٧٥٠ ميلادية - رجاء عدم التدقيق) وردت باسمها الحالى ديروط الشريف . ولما أنشئت قناطر ديروط ثم خطوط السكك الحديدية أصبحت المستعمرة العمالية التى جمعت عمال هذه المشروعات قاعدة لمركز ديروط اعتبارا من عام ١٨٩٠ ميلادية ولتصبح ديروط - دون ديروط الشريف - المركز الأساسى الإدارى والتعليمى للمنطقة .

والسبب فى ذلك أن المهيمن على ديروط الشريف أيامها - أمين بك - أو ابنه شلقامى - استخدم نفوذه كى لا يتم تنفيذ القناطر، أو محطة السكك الحديد على واجهة القرية التى يحكمها ، وهو ما أدى إلى انشاء كوبرى المعاهدة - بعد ذلك - عام ١٩٣٦ بعيداً عن القرية، كان يخشى أن تصاب هذه القرية الضخمة بما أصاب كثيراً من المواقع من تواصل مع المدنية والرقى والامتزاج بالثقافات الأخرى ولو كانت محلية، ولذا فقد ظلت ديروط الشريف قرية مع أنها أضخم وأكبر من ديروط - الجديدة - ذات السطوة والسلطة، وحتى الطريق الشهير: طريق الصعيد الذى يخرج من العاصمة الكبرى - أى من الجيزة إلى أسوان - محاذياً لشاطىء ترعة الإبراهيمية : ظل مفصولاً عن ديروط الشريف بمنطقة جبانة دفن الموتى ، والتى فيها كوبرى البغيلى هذا البُغيلى - الذى تخترقه قريتى وتعبره لتصل إلى المدافن، والذى أصبح عنواناً لواحدة من قصصى التى أعتز بها ، والتى ترجمها آلان روسيون الفرنسى الذى عاش فترة فى المركز الثقافى الفرنسى بالقاهرة ، وكتب عنها دراسة مطولة فى المجلة الفصلية الشهيرة : «أدب البحر المتوسط» التى تصدر فى باريس .

ظلت ديروط الشريف - قريتى - تمور وتفور وتنام وتهمس وتضحك وتلعب التحطيب وتقيم الأفراح والمآتم وطقوس الزار والختان - مع رش الملح فى وقت مبكر كيداً للأعداء ومنعاً لحسدهم الشرير، وأنا خارجها أنظر إليها - طفلا- أتسلق نخلة من تلك التى يقع تحت ظلالها قصرنا العظيم ، والذى كان ذا غرفة واحدة مع مجموعة متوالية من المساحات ذات الحوائط ودون سقف بالمرة إن الانصات إلى أصواتها من بين جريد النخيل كان أجمل ما حاق بى من متعة تعويضاً عن زُخمة سيدنا الشيخ محمد عثمان (والزُّخمة - لمن لا يعرف - قطعة من الجلد السميك فى شكل لسان ثابتة فى قطعة خشب تؤدى دورها فى الجلد عقاباً لمن لا يحفظ المطلوب اليومى من واجب الآيات القرآنية المكتوبة بالحبر الزِّفر على اللوح الصّاج)، وتعويضاً أيضاً عن الغضب الدائم الذى كان يعاملنى به



السويقة الآن.. كانت رائعة ذات عصر

خالى أحمد خميس كى أظل جاداً بعيداً عن مساخر المرح ، وبسببه دخنت السجاير في سن العاشرة .

أضخم قري مصر

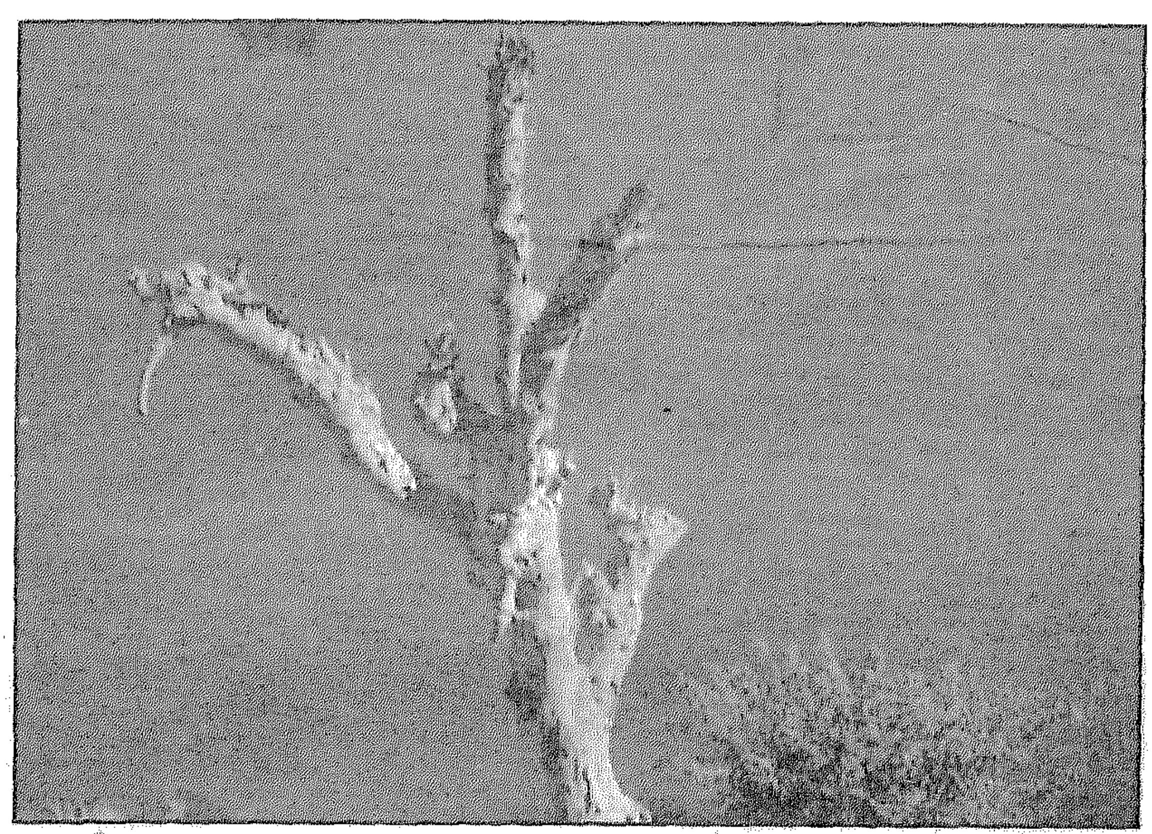
وديروط الشريف - القرية - ليست فقط أكبر وأضخم من قاعدة المركز : ديروط ذات القناطر والمأمور والشرطة والمدارس الأميرية ومحلات القماش والبقالة ، والتى أصبح فيها المحكمة والسينما والكازينو، بل إن تلك القرية كانت من أضخم قرى مصر كلها تعداداً للسكان، حتى أن كثيرين من أهل قريتى فى جنوبها - قبلى البلد - نادراً ما يزورون بحرى البلد - شمالها ، ولا سيما أن بحرى البلد هيمن على مراكز حركة القرية بسبب وجود عمدتين - وهو أمر غريب - ينتميان إلى وسط وبحرى البلد ، عمدة قبطى فى الشمال الشرقى ، وعمدة مسلم فى الشمال الغربى ، وقد يعتقد البعض - استنتاجاً من ذلك - أن الأقباط يتبعون العمدة الذى من ملّتهم ، وفى المقابل يكون العمدة المسلم للمسلمين بالعكس ، فقد كانت الشرائح القبطية والمسلمة متناثرة فى اختلاط عجيب بين العمدتين ، مع عدم خضوع هذا التوزيع والتقسيم لخطوط جغرافية ،



قصور ومساجد وكنائس في [illegible]

والذى لم أستطع استجلاء أسبابه حتى الآن ، فنحن فى الجزء الغربى من قبلى البلد كنا نتبع العمدة القبطى ، مع أن الجغرافيا تفرض بمنطقها أن نكون تابعين للعمدة المسلم الأقرب ، إلاّ أن ذلك لم يكن موضع جدل أبداً ، تماماً كما أن أول خط مياه نقية دخل قريتنا توجه مباشرة إلى بيوت العائلات الحاكمة ، وبعد سنوات طويلة – فى الحلقة الأخيرة من عصر عبدالناصر – بدأت مواسير المياه تتفرع إلى شوارع عديدة تمتد إلى مناطق لا أثر للثراء الضخم فيها .

وهذه القرية الواسعة عرفت المدارس (الالزامية أو الأولية) مبكراً ، بجوار الكنيسة مدرسة النصارى – وهذا اسمها الذى عرفناها به دون أن تكون مركزاً للمسيحيين أو تقوم بالتدريس حسب ما قد يبدو من الاسم ، إنهم فقط – الأقباط– بنوا المدرسة وتركوا أمرها لوزارة المعارف ، تماماً مثلما أقاموا أول مدرسة للبنات فى هذه المنطقة كلها لكى تتجاوز ديروط الشريف كل قرى المنطقة التى لم يكن بها – حتى – مدرسة للصبيان، وإلى شمالها بقليل – وقريباً من السوق – كانت المدرسة الالزامية البحرية، أما قبلى البلد – التى منها أنا – فقد ظل نصف



هذه الشجرة الممزقة تقف أمام نافذة مسكن محمد مستجاب على الابراهيمية

القرية الجنوبى كله بلا مدرسة حتى حدث الجدل الشائك أيام سطوة الاخوان المسلمين أواخر الأربعينيات ، قبل الثورة بقليل ، أى بعد انشاء هذه المدارس بما يقرب من خمسين عاماً ، بسبب ما رآه البعض من إحساس بالأذى نتيجة وجود مدرسة فى ظل أجراس الكنيسة، مع أن مكتب البريد الوحيد ، ومكتب التلغراف ، يقعان فى المربع نفسه دون شكوى - ولا يزالان فى ذات الموقع حتى الآن - ، وقد ترتب عن ذلك استئجار بيت عوف شناوى الواقع فى الجنوب الشرقى من القرية ليصبح مدرسة ابتدائية عام ١٩٥١ - وكانت كلمة (الابتدائية) غير معروفة إلا فى مدرسة البندر هناك فى مدينة ديروط ، وتفخيما لهذه المدرسة - ذات الفناء الذى كان واسعاً أيامها - أطلقوا عليها المدرسة النموذجية ، وكان خالى أحمد خميس أول ناظر لها.. لقد ظللنا نفخر بذلك كثيرا .

ياسمين الفجرية

كنت - ورفاق العمر - نذرع - بالذال- الحقول والبرارى ، ثم نلعب ليلا فى شارع قبلى البلد، نجيد العوم (السباحة ذات النفس الطويل) ، ونقفز من فوق الأشجار إلى الترعة ، نكاد لا

نستحم في البيوت ، نتلمس الوسائل لسرقة المزروعات كي نستطيع المشاركة الموسمية في مراجيح الأعياد وركوب الخيول الخشبية ، ثم لابد لنا أن نذهب إلى السينما – في مدينة ديروط القريبة ، وإلى بيت الغوازي والراقصات، لكن المتاح – أيامها – كان يسمح لنا بالوصول إلى ياسمين الغجرية النشطة المتجولة دائما في شوارع القرية نتبادل التعليقات المرحة – والبذيئة – الضاحكة مع الرجال الجالسين أمام مقهى محمد عوض ومحل أبو حسيبة المكوجي ودكان أحمد سليمان (الذي كان ناظراً لمدرسة ثم عزل في مسألة لا أعرف تفاصيلها)، وكل أنواع الغرز والجلسات ذات السمر والأصوات العالية ، كان ذلك وسط القرية في الشوارع التي تؤدي إلى السويقة – (تصغير سوق) – وكانت ياسمين تتجاوب مع صبيانيتنا النشطة المشتعلة عشقاً بسبب سينما قرشي ومواويل حسن ونعيمة ومشهد رقص الغوازي ، حيث لا نلبث أن نخرج إلى أي ترعة من هذه الجداول التي تلتف حول ديروط الشريف أو تسير متوازية مع طريق الصعيد، عدد كبير من هذه الترع لم تتميز به قرية في كل الوطن: الإبراهيمية الواسعة متوازية مع نهر النيل الذي يقع في آخر شرق الدنيا – والذي لم نشهده أبداً ، إلاّ بعض الكبار الذين يمكنهم الاتجاه شرقاً للعوامر والحوطة وجرف سرحان وشلش وبني يحيي ، الإبراهيمية شرقا وبحر يوسف غرباً، لقد تولدت من بين عيون القناطر القريبة ترع أخرى عتيدة مثل الديروطية والشريفية والبدرمانية (ثم الجنّابية) ، مع امتداد فروع تلامس القرية وقد تخترق جزءاً منها ، وهي الفروع المائية الرفيعة التي تعلمنا فيها العوم في البدايات المبكرة ، تماماً مثلما تفرعت – بعد ذلك – مدارس عديدة – ولا يزال غرب البلد القبلي خالياً منها حتى الآن .

الشيخ الصبي !

ولقد ظللت أتشجع كي اخترق القرية بمفردي وكان أجرأ وأقدم اختراق حين صحبتني السيدة والدتي لتعرضني على الشيخ محمد عبداللطيف كي يشفيني، وكان الشيخ صبياً في مثل سني، بل وكان زميلي في المدرسة الابتدائية، حينما مات والده الشيخ عبداللطيف ذو الشهرة المدوية في إغداق الرحمة والسلوان في قلوب البائسين، وكان واضحاً أنني أعاني من الانيميا الناتجة من سوء التغذية (لم نكن نذوق اللحم إلا كل بضعة شهور - أمي ظلت دهوراً تنكر ذلك)، وهالني أن الشيخ محمد عبد اللطيف - زميل الفصل المدرسي - اصبح يرتدي عمامة ضخمة وعباءة واسعة. ويجلس على أريكة المشيخة صبيا لا تصل قدماه إلى الأرض، وقد مسح على رأسي وهو يتلو آيات كريمة تحميني من لعنة العفاريت ،

وكان (أبو رجل مسلوخة) يطاردنى فى تلك الايام - بالذات فى ليـــالى برودة الشتاء، يداهمنى فى نومى، ويرفع ساقه المسلوخة المجروحة من الركبة حتى القدم، والمربوطة بقطعة بالية من القماش الدموى، وكان واضحا ان الصبى لم يعد صبيا ، وأنه أصبح شيخا قادرا على انقاذى من براثن مشهد سيقان ابو رجل مسلوخة، وقد هدأت أنفاسى بالفعل، وصب الشيخ العظيم نقطا من زيت ذى رائحة بالغة النفاذ فى رقبتى وتحت إبطى، أحسست برغبة عارمة فى البكاء، وبعدها كدت أجلس على الأرض لأنضم إلى مريدى الشيخ ومحبيه، وجهه أصبح يشع نوراً، وابتسامته بالغة العذوبة، وكان واضحا أن أريكة آل عبداللطيف - بما تفوح به من بركة نافذة - تخضع لقانون يخص آل عبداللطيف أدى إلى أن يأتى الدور على زميل الفصل كى يصبح شيخا، لقد مات شيخنا الصبى الجليل بعد ذلك بعام أو عامين، وكنت غير قادر على متابعة ما يجرى فى شأن أريكة هؤلاء المشايخ الكرماء، لكنى عرفت - وبعد أربعين عاما، أن واحداً من هذه العائلة قد استدعوه من العاصمة حيث كان يدرس القانون والإجراءات المدنية والجنائية فى كلية الشرطة، ليحتل موقعه من الأريكة ليحافظ على تقاليد العائلة الموروثة، واعتقد أنه هو القائم بذلك حتى الآن.

عادات شعبية طاغية

الأمر - بعد ذلك - أو خلال مرحلة الصبيانية - لم يعد أمراً يسمح لنا بتلك المتعة القصوى : صلاة الجمعة فى المساجد، والذهاب الى الكنيسة فى أحد السعف وسبت النور ويوم شم النسيم ووراء صناديق بعض أخــــواننا من الأقباط، وزيارة مقابرنا - نحن المسلمين - فى منطقة البغيلى ، والاندساس بين وقت وآخر فى حلقات الأذكار ورفع البيارق احتفالاً بمولد الرسول الكريم أو الموالد الاخرى (التى توقفت كلها أخيراً لأنها خارجة على قواعد الاسلام الحنيف) مثل مولد السيد البدوى والشيخ الفرغل، وما إلى ذلك من مشايخ لهم علامات نتجت عن قدومهم - أحلاما - فى رءوس بعض المحبين ، بل وكنا ايضا نستطيع التسلل الى طبول مجالس الزار التى كانت تقيمها حافظة زوجة خالى غير الشقيق، أو تلك الحلقات التى كان يقيمها فى المنطقة البحرية الغربية أعظم المتخصصين فى حفلات الزار: أولاد علام، ثم لم يكن الأمر - بين هذا وهذا - يخلو من احتفالية ختان ولد لأحد الأقارب (البنات لا احتفال بختانهن).

كما إننا كنا فى غاية السعادة حين نشارك بصبيانيتنا النشطة فى التصفيق الضاج أثناء دخول عريس على عروسته مخترقا موضع العفة فيها بأصبعه ليخرج من الغرفة فيلقي بالمنديل ذي البقع الدموية على رءوس المحتفلين،

ليصحب الجميع العريس الموفق إلى بحر يوسف كى يلقى فى مجراه الهادر بالطوبات السبع.

خلال ذلك وقع المحظور بسرعة غريبة، فقد انتشرت شائعة ملعونة بأن حافظ أفندى - معلمنا الذى كنا نحبه جدا فى مدرسة النصارى - قد اختطف عيلاً من عائلة البطران وألقاه فى بئر طريق السوق، وغاب حافظ أفندى أياما طويلة عرفنا خلالها أنه كان بريئا - مع نقله الى مدرسة أخرى فى منطقة أخرى لا أعرف لها اسما بسبب ضعف معلوماتى الجغرافية ، وبعدها بشهور وجدنا على ابن عمى عبدالنظير - قريبي ومن عائلة أبى - بقايا جسد محترق ذى رقبة ممزقة بالساطور ملقى وسط حقل برسيم يلمع الصقيع على أوراقه، لكننا لم نلبث أن استعدنا سرورنا وابتهاجنا حينما تم زفاف ثريا بنت خالتى - الجميلة والتى كانت فى التاسعة من عمرها - إلى ابن عمتها الشاب الهادىء المبتسم، وبعد ذلك بشهور قليلة كانت ثريا تتعمد أن تأتى من بيت زوجها الى بيت أمها خالتى وهى تسير كالبطة رائقة الجوانح وقد وضح أن بطنها الصغير قد تكور معلنا زهو الحمل المبكر بافتخار ، حتى وصل التكور إلى ساعات الوضع المنتظرة، وقد عشنا أياماً متوالية لعدم قدرة الداية (المولدة) على توليدها، وظلت ثريا نائمة على ظهرها وخبيرة التوليد تحاول تسهيل الوضع بتضمين الرحم كميات من التبن أو النخالة عدة أيام ، كل البلد سمعت عن هذا التعثر المؤلم الذى أدى بالبعض أن طلب عربة الاسعاف التى جاءت من مستشفى بندر ديروط، لتحمل ابنة خالتى - نائمة على ظهرها وقد حاولوا سترها بملاءة دموية ، حيث فى صباح اليوم التالى اخرجوها من غرفة المشرحة جثة ممزقة البطن والرحم - ومعها لفافة تحمل قطعة مدممة لجنينها الفقيد... لقد رأيت ذلك ولم أكن قد تعديت الخامسة عشرة سنة من عمرى.

وهو ما أدى أن تحمل هذه الوقائع كل أفراح ومقابر وأجساد وحلقات التحطيب فى قريتى الجزء الأساسى من عمرى، حيث يصبح مناسبا لمن يريد أن يعرف بطولات هذه البلدة فى ثورة ١٩١٩ - مثلا- أن يطلع على ما كتبه عنها عبدالرحمن الرافعى (حادثة قطار ديرمواس وديروط)، أما غير ذلك، فإنها : ديروط الشريف، الشوارع والحقول والمساجد والكنائس وهمس الليل وجثث الترع وغابات القصب والغوازى والطريقة التى كنا نشترى بها البسبوسة والهريسة - والطعمية والحلاوة الطحينية، فعليه أن يكون رحيما معى وهو يدخل قصصى التى احتوتها شرايينى، ونزفتها على الأوراق التى جعلت لديروط الشريف موقعها فى مركز العالم كله حبا لها: قلبى، أينما كنت وكيفما كنت .

بين وضوح وغموض الأفكار

بقلم: مصطفى درويش

تزاحمت الأفلام مصرية وأمريكية على العروض في دور السينما بدءا من أيام عيد الأضحى ، وحتى كتابة هذه السطور ، وتنوعت وتراكمت على نحو غير مسبوق ، بحيث لم يعد لي بد من الاختيار، فاكتفي بمشاهدة بعضها دون البعض الآخر ، مضحياً على سبيل التمثيل «بزنقة الستات» ، فيلم فيفى عبده الأخير مع مخرجها المفضل في هذه الأيام علاء عبد الكريم . الفائز هو وفيلمه «الجراج» بجائزة المهرجان القومي للسينما المصرية ، قبل بضعة أعوام.

ومكتفيا بمشاهدة فيلمين مصريين ، هما «توابع - كرسي في الكلوب» و«أرض الخوف» .

أما لماذا وقع الاختيار على الفيلم الأول ، رغم أنه أول فيلم روائى طويل يخرجه صاحبه «سامح الباجورى»، فذلك لأن «هانى فوزى» هو كاتب السيناريو.

ومما يعرف عنه أنه مقل، لا يعرض فيما يكتب إلا لما هو جاد ، ويتناوله بقدر كبير من الابتكار وليس أدل على ذلك من سيناريو أرض الاحلام، آخر فيلم للنجمة «فاتن حمامة».

«فهانى» هو صاحب ذلك السيناريو الذى يعتبر، بحق، واحداً من أفضل ما



أحمد زكى وأرض الخوف

جونى ديب بطل دونى براسكو

أبدعته السينما المصرية من سيناريوهات، إبان السنوات العشر الأخيرة من القرن العشرين.

ولأن الفيلم ، وصاحبه داوود عبد السيد مخرج «أرض الخوف»، أحد أفلام عيد الاضحى، لم يحقق ، لسوء الحظ، نجاحاً تجارياً يذكر، فالسيناريوهات التى عانى «هانى» فى تأليفها، بعد فشل «أرض الأحلام» ، لم يكتب لأى منها أن يترجم إلى لغة السينما ، زمنا طويلا ، قارب الأعوام الخمسة.

انهيار الحصار

ولكن، هاهو ذا ، بعد تلك الأعوام العجاف، يفك الحصار، عائدا بسيناريو «توابع - كرسى فى الكلوب»، وموضوعه يدور وجودا وعدما حول ماترتب على الزلزال الذى ضرب بر مصر ، فى أكتوبر، قبل ثمانية أعوام ، من آثار .

فاحداث الفيلم تنحصر زمنيا فى بعض من نهار اليوم الذى ضرب فيه الزلزال القاهرة، وفى ليلته الليلاء، وذلك حتى صياح الديكة فى الصباح.

وهى تبدأ بلقطة من قريب لوجه «شادية» أو «شوشو» - «لوسى» فى الحمام، حيث نراها تمسح البخار عن المرآة، فينكشف لنا شيئاً فشيئاً وجهها،

ونسمعها تغنى طربا.

أما لماذا هى فى الحمام تغنى وتتزين، فذلك لأنه لن تمضى سوى بضع ساعات، وتزف إلى عريس الهنا - يؤدى دوره «صلاح عبدالله» - العائد لتوه من السعودية لبضعة أيام، يدخل فيها علىّ شوشو ابنة الجيران، وفى احضان شقة فى عمارة راقية، اشتراها وجهزها بتحويشة العمر، كى تكون خير ملاذ له، ينتشله من بئر الحرمان.

ما قل ودل

وماهى إلا بضع لقطات بعيد مشهد الحمام، حتى يكون قد جرى تعريفنا بكل من أفراد أسرة العريس المكونة من أم نكدية - تؤدى دورها «عليه الجباس»، واشقاء سمان، جميعاً من فصيل الأفيال، وصديق العريس «مدحت صالح».

وأفراد أسرة العروس المكونة من أب أرمل مقصوص الجناح، وحبيبها السابق «محمد شرف»، فضلا عن صديقة عمرها «انتصار».

وبينما الجميع، فيما عدا أم العريس وحبيب العروس، فى هناءة وسرور، إذا بالزلزال يضرب ضربته، وإذا بالبيت القديم ينهار.

ومع انهياره تزلزلت النفوس، وتعرت، على نحو أدى إلى تمزق العلاقات؛ فإذا بكل واحد فى غير المكان الذى هيأه لنفسه، وإنما فى مكان آخر دبرته له الاقدار.

ونظراً إلى أن الزلزال هو الحدث الذى تمحورت حوله جميع وقائع الفيلم، فقد اهتم «الباجورى» بتنفيذ مشهد وقوعه وكيف ضرب البيت القديم.

ولو قسنا تنفيذه، بكيفية تنفيذ مشهد نفس الزلزال فى فيلم «الضائعة» لصاحبه المخرج «عاطف سالم» لاستبان لنا البون شاسعا، وبدون تردد، لصالح فيلم «الباجورى»، ذلك المخرج الجديد، والذى يرجى منه الكثير.

عودة المعجزات

فكم كان موفقا فى إخراج مشهد انهيار البيت فى اثناء وما بعد الزلزال، مراعيا فى ذلك أدق التفاصيل، بحيث بدا لنا الأمر، وكأننا امام معجزة لم تكن فى الحسبان، بفضلها تجاوزت السينما المصرية أزمة، أو بمعنى أصح، مقولة ضعف الامكانيات.

وليس من شك أن الفضل فى ذلك الاتقان انما يرجع إلى مصمم المناظر «مختار عبد الجواد».

ولان المطرب «مدحت صالح» يلعب دورا أساسياً لايضارعه فيه سوى «صلاح عبدالله» فى واحد من أحسن أدواره، فقد اتخذ الفيلم طابعاً غنائياً، أدخله، بحكم ذلك، فى عداد أفلام الملهاة الموسيقية.

وبطبيعة الحال، فلانه لايعرض إلا لتوابع الزلزال، اعنى آثاره، فملهاته، اكتست، بالضرورة، بطابع الملهاة السوداء.

و«أرض الخوف»، على النقيض من

ذلك تماما فمشاهدتى له سبقتها دعايات وجوائز توج بها فى أكثر من مهرجان ، وكتابات نقاد تراوحت بين تحمس نفر منهم له أشد حماس ، وانكار نفر آخر له أشد انكار.

عبث المهرجانات

ولقد شاء لى قدرى ألا اشاهده إلا متأخراً، وذلك بعد انتهاء أيام مهرجان السينما العربية الأول فى إمارة البحرين ، حيث جرى عرضه ضمن أفلام المسابقة، وحيث خرج من مضمار التنافس على جوائزه، بثلاثة منها، بينها جائزة أفضل سيناريو.

أما لماذا التمهل فى مشاهدته ، وذلك رغم سابقة عرضه ، قبل بضعة شهور فى مهرجان القاهرة السينمائى الدولى، حيث فاز بجائزة أفضل فيلم ؛ فذلك لاننى، ولأول مرة فى عمر ذلك المهرجان المضطرب اشد اضطراب، عزمت ألا اشاهد أياً من أفلامه المدرجة فى برامجه،

جودى فوستر فى أنا وملك سيام



وذلك حتى لا اشقى بفوضى العروض المتجذرة، على نحو لا يرجى معه أى شفاء.

وعلى كل ، فكما شاء لى القدر ألا اشاهد «أرض الخوف»، فى أيام ذلك المهرجان ، ولا حتى فى أيام العيد ، حيث جرى عرضه فى العديد من دور السينما ، مصحوباً بدعاية تصم الآذان.

شاء قدر الفيلم ألا تجىء مشاهدتى له لا قبل ، بل بعد مشاهدتى لفيلم «سليبى هولو» اسم قرية أمريكية فى قصة «ايريڤينج واشنطن» اسطورة سليبى هولو - وهو آخر فيلم ابدعه المخرج الأمريكى «تيم بيرتون» ، وثالث فيلم له يسند بطولته إلى نجمه المفضل «جونى ديب»، ذلك الممثل الذى يعتبر وحيد نوعه بين الممثلين ، وما أكثرهم فى هذه الأيام ، حيث اختلط الحابل بالنابل ، فما عدنا نستطيع التفرقة بين العمالقة والأقزام!!

ولأنه لم تمض بين مشاهدة «سليبى هولو» و«أرض الخوف» سوى بضع ساعات ، كانت المقارنة بينهما حتما ، لا فكاك منه بأى حال من الأحوال.

أرض وسماء

ولم تكن المقارنة لصالح «أرض الخوف».

بل إن الفرق بين الاثنين كان، لدهشتى، بعيداً بعد مابين الأرض والسماء.

فسليبى هولو كان ، والحق يقال ، عملا سينمائياً خالصاً، بعيد الاغوار ، متشعب الجوانب ، متعدد الأبعاد، فى حين أن «أرض الخوف» كان على نقيض ذلك فيلما مشوبا بعيب التبسيط البدائى ، المخل ، على نحو جرده من أى عمق فى التفكير ، أو براعة فى الابتكار.

وبالتالى كان امتحاناً أليما لى ، وأنا أشاهده ، ثم وأنا استرجعه على شاشة ذاكرتى كى اقارن بينه وبين رائعة بيرتون - ديب.

أما لماذا كان الامتحان أليما ، فذلك لأن مشاهدته جاءت مخيبة لما علقته عليه من آمال كبار ولا غرابة فى أن أعلق عليه كل هذه الآمال ، فمخرجه ليس إلا «داوود عبد السيد» ، فضلا عن أنه كاتب السيناريو والحوار.

ومما يعرف عنه أنه ينشد الكمال فيما يصنع من أفلام، ومن هنا قلتها - على نحو غير مألوف بالنسبة للمشاهير من بين مخرجينا .

فرغم تخرجه فى معهد السينما عام ١٩٦٧ ، لم يخرج فيلمه الروائى الطويل الأول «الصعاليك»، إلا بعد تاريخ تخرجه بثمانية عشر عاماً.

وحتى يومنا هذا لم يخرج سوى ستة أفلام ، أى بواقع فيلم كل ثلاثة أعوام.

ومما لوحظ على سيناريوهات تلك الأفلام انها جميعاً من تأليفه وذلك فيما عدا سيناريو «أرض الأحلام» (١٩٩٣).

وأنه باستثناء سيناريو «الكيت كات» (١٩٩١) و«سارق الفرح» (١٩٩٥)، وكلاهما مأخوذ عن قصتين للأديبين

«إبراهيم اصلان» و«خيرى شلبى» فسيناريوهات أفلامه الأخرى مبتكرة، وإن كانت أغلب أفكارها مستوحاة من أعمال سينمائية أمريكية، مثل «مابعد الساعات العادية» لصاحبه المخرج «مارتين سكورسيزى» و«دونى براسكو» لصاحبه «مايك نوييل»، ذلك المخرج البريطانى الذى جاءته الشهرة بفضل تجاح فيلمه «أربعة أفراح وجنازة» نجاحاً فاق كل التوقعات .

أمن البلاد

وقد جاء «أرض الخوف»، فيلمه السادس متأثراً فى خطوطه العامة «بدونى براسكو».

فالضابط «أحمد زكى» الذى يتمحور الفيلم حول شخصيته انطلاقاً من استدعائه أمام مسئول أمنى كبير ، كلفه بمهمة غاية فى السرية، قوامها تقمص شخصية أخرى، تحت اسم حركى «آدم» يجرى زرعها فى أوساط عصابات المخدرات التى استفحل خطرها إلى حد تهديد الأمن القومى للبلاد.

ذلك الضابط لاتختلف - إلا فى بضع تفاصيل قليلة وليدة عملية التمصير، عن شخصية «دونى براسكو» التى تقمصها «جونى ديب» نجم «سليبى هولو».

وكذلك الحال بالنسبة لشخصية كبير تجار الكيف فى حى الباطنية التى تقمصها «حمدى غيث».

فهو فى «أرض الخوف» لطيف المعشر، يحيط نفسه بهيل وهيلمان، ويثق فى «يحيى أبو دبورة» - الاسم الآخر لآدم فى عالم الاجرام ؛ خاصة بعد أن انقذه من موت أكيد.

ورسم شخصيته على هذا النحو لا يختلف ، إلا فى أقل القليل، عن رسم شخصية «لفتى روچييرو» - آل باشينو - أحد زعماء عصابات المافيا ، فى «دونى براسكو».

فإذا ما انتقلنا إلى صراع العصابات الاجرامية وتقاتلها، فى الفيلمين ، إلى حد التصفية الجسدية ، فسنجده غير مختلف فى بر مصر، عنه فى بلاد العم سام.

وعند هذه المحاكاة لقطبى الفيلم الأمريكى «ديب» و«ال باشينو»: ولصراع العصابات، عندها ينتهى التأثير ، ويبدأ التمصير.

ووجه القصور فى التمصير يكمن فى جنوح «داوود عبد السيد» إلى الجمع بين ضدين لا يلتقيان.

أحدهما توابل الفيلم التجارى ، نراها متناثرة فى مشاهده حيث يكون لوجودها داع من سياق السرد ، وحيث لا يكون.

ومن بين هذه التوابل أذكر على سبيل التمثيل وقوع ثلاث نساء ، احداهن راقصة غانية «صفوة» ، وأخرى مهندسة معمارية «فرح» وثالثة فتاة بريئة وجارية، وقوعهن فى اسر فحولة «آدم» أو «يحيى أبو دبورة» أو «دبور» حسب تسمية أحد تجار الكيف له فى مجلس انس وفرفشة.

رموز والغاز

أما الضد الآخر فهو القفز من تفصيلات الحياة الإجرامية، كما هى حادثة بالفعل على أرض الواقع ، سواء أكان أمريكيا أو مصرياً ؛ القفز منها إلى تصورات ورموز مجردة ، ربما تحت تأثير «فرانز كافكا»، لاسيما قصصه الثلاث الكبرى ، وهى القضية ، والقصر ، وأمريكا.

ففى تيهها الغريب ينتقل بنا «كافكا»، من لغز غامض إلى لغز غامض، ومن رمز خفى إلى رمز أشد منه خفاء ، إلى أن ينتهى بنا الأمر ، معلقين دائماً فى عالم، لاهو بالواقعى، ولا هو بالوهمى ، وانما هى شىء بينهما ، يملأ النفس حيرة ، لا سبيل إلى الخلاص منها أبداً.

هذا العالم الكافكاوى بألغازه ورموزه، حاول «داوود عبد السيد» جاهدا ان يجسده فى أرض الخوف، فلم يصادفه التوفيق .

وفى اعتقادى أن فشل محاولته إنما يرجع إلى سيناريو جمع بين اضداد انتهت به إلى شىء لايصلح أن يكون غاية لفيلم مقنع ، لايدفع باسلوب تناوله للموضوع إلى نشاط عقلى عقيم.

عبارة هادية

وهنا تحضرنى ، إذا ما صدقتنى الذاكرة ، عبارة هادية للمخرج «الفريد هتشكوك» تجرى كما يلى.

ثلاثة عناصر أساسية لايكتمل الفيلم إلا بتوافرها هى:



لوسى عروس يوم الزلزال

أولاً : السيناريو ، ثانياً السيناريو، وثالثاً السيناريو.

والاهتمام بالسيناريو الذى نصح به «هتشكوك» فى عبارته الهادية تلك ، بدا واضحا فى الأفلام الأمريكية التى غزت شاشات دور العرض فى القاهرة، فور وداعنا للعيد.

ولضيق المجال ، اكتفى بالحديث عن «آنا والملك» لقيامه على سيناريو قدم مايقصد اليه من معان بجلاء ومنطق واضح ، يترتب لاحقه على سابقه، دون أى لبس أو ابهام.

وبداية ، فموضوع الفيلم ليس جديداً . فهو مأخوذ عن مذكرات بقلم «آنا ليونونيس» وهى أرملة شابة ، بريطانية الجنسية ، حكت فيها قصة سفرها، ومعها صغيرها الوحيد ، إلى مملكة سيام (تايلاند حالياً) ، عام ١٨٦٢ ، حيث تولت أمر تعليم أولاد الملك «مونجكوت» ، وكان عددهم ثمانية وخمسين بالتمام.

ولقد سبق لمذكراتها أن ترجمت إلى

لغة السينما مرتين. الأولى قبل أربعة وأربعين عاماً فى فيلم «أنا وملك سيام»، بطولة «ايرين دن» و«ركس هاريسون» والثانية ، بعد ذلك بعشرة أعوام ، بطولة «ديبورا كير»، و«يول برونر».

ومن الاكيد أن ولع هوليوود بقصة آنا فى بلاط ملك سيام، وبعض وقائعها من بنات خيال صاحبة المذكرات ؛ ولع له مايبرره ، فالقصة ، ممتعة ، فيها من الطرائف والمشوقات الشيء الكثير.

صدام أم تعايش

وفى الترجمة السينمائية الجديدة لها تلعب دور «آنا» النجمة «جودى فوستر» الفائزة بأوسكار أفضل ممثلة رئيسية مرتين.

أما ملك سيام فلم يلعب دوره نجم انجليزى أو أمريكى كما كان الحال فى الفيلمين القديمين ، وإنما لعبه نجم اسيوى من «هونج كونج» هو «شويون فات».

وكم كان «اندى تينانت» مخرج الفيلم موفقا فى اختيارهما ، وكذلك فى اختياره لممثلى الادوار الثانوية ، لاسيما «باى لنج» التى برعت فى اداء دور «تبتم» محظية الملك بالاكراه، والهاربة من حريمه ، من أجل الرجل الذى تعلق به قلبها حباً ولعل مشهد اعدامها من أجمل مشاهد الفيلم ، وأكثرها ايلاماً . واقف عند سيناريو الفيلم المحكم البناء، لاقول أنه شارك فى تأليفه «ستيف ميرسون» مع «بيتر كرايكس».

وهما لم يعرضا فيه للاختلاف بين المجتمعين البريطانى والسيامى كما عرض له الفيلمان القديمان ، أى من منطلق تصادم الحضارات، بمعنى أن الشرق شرق، والغرب غرب، ولن يلتقيا، كما جاء على لسان «روديارد كبلنج» شاعر الامبراطورية البريطانية.

وإنما تعرضا لذلك الاختلاف من منطلق أكثر انسانية وتفاؤلا ، قوامه أنه فى وسع الحضارات أن تتعايش وأن تتفاعل فيما بينها ، على نحو مؤداه إذابة الفروق المترسبة على مر العصور.

فآنا عندما غادرت مملكة سيام، كانت امرأة أخرى غير تلك التى رأيناها فى بداية الفيلم.

فكما أثرت فى «مونجكوت» وأولاده وحريمه، تأثرت هى الأخرى بهم ، وخاصة بانسانيتهم التى لم تلوثها بعد سلوكيات مجتمعها البريطانى، حيث تقاس قيمة الشخص بمقدار نفعه لنفسه. لانفعه للناس.

فلم تعد تلك المرأة الأجنبية المتعالية، لا لسبب سوى أنها قادمة من بلد متقدم صناعياً، وصاحبة رسالة، هى الأخذ بيد همج هامج، استبدت به الخرافات والخزعبلات.

والسيناريو يعرض لكل هذا بسلاسة، غير مشوبة بأى غموض أو تعقيد ، ممهدا بذلك الطريق أمام زحف العولمة لا بقوة السلاح، وإنما الاهم بقوة الأفكار، تحمل رسالتها الأفلام .

الشاعر

محمد ابراهيم أبو سنة

و

«شجر الكلام»

بقلم :

صافى ناز كاظم

« لا تسألينى
أن أقيم فقد تعبت
من المقام
ذبلت غصون
الحلم
فى شجر الكلام
..........»



تماما هذا هو صوت أخي وصديقى العزيز الشاعر محمد إبراهيم أبو سنة : هو دائما فى «شجر الكلام» ، بكل مدلولات «شجر» من «الشجار» ومن «الأشجار» .

بمناسبة صدور ديوانه الحادى عشر «شجر الكلام» ، عن دار الشروق مفتتحا حصاد الشعر لسنة ٢٠٠٠ ، جلست أمامه الثلاثاء ٢٠٠٠/٤/٤ على منضدة شاى فى جروبى طلعت حرب ، تماما كما جلست منذ ٣٤ عاما ، إلا أربعة أشهر ، أغسطس ١٩٦٦ ، فى جروبى عماد الدين. قلت له : « معقول يا أبو سنة أدوخ كل هذا الدوخان حتى أعثر على رقم هاتفك لأصل ما انقطع سنوات طويلة من صداقة بينى وبينك كانت دائما بلا لقاء ؟ . » كان على وشك أن يفتح فمه للكلام بتعبير التوجس الذى يلازمه ، كأنه يتوقع أن يتلقى طعنة مازال يدرس كيف يتلافاها ، ولكنى واصلت كلامى : « كنت سأحضر معى مسجلا مثل شباب الصحافة ، لكنى ظننت أن هذا لا يكون لائقا .. » وقبل أن أكمل « لا يكون لائقا بين الأصدقاء » ، كان قد قال بسرعة : « لماذا ؟ ، أنا متعود على التسجيلات .. » ، لم يلتقط إذن روح المودة التى أتيت بها فتغاضيت مواصلة : « لا أذكر آخر مرة تهاتفنا .. إننى أدعوك صديقى القريب البعيد .. الأفضل أن نعد مرات المقابلة والكلام منذ أول لقاء لى معك عبر قصيدتك : غزاة مدينتنا عام ١٩٦٥..» قاطعنى : « ١٩٦٦» ، واصلت : «مطلع ١٩٦٦» .

★★★

كنت فى نيويورك وكان بالقاهرة ، كان قد أتم التاسعة والعشرين فى ١٥ مارس ، وكنت مازلت فى الثامنة والعشرين - (كلانا من مواليد ١٩٣٧ لكنه يكبرنى بخمسة أشهر كاملة : حلوين !) - كانت القصيدة تكشف واقعنا المغطى عاريا بكل حيثياته المشئومة وبالنهاية تدق جرسا :

« ....

حين فقدنا صدق القلب ،
حين تعلمنا أن نتقن
أدوارا عدة
في فصل واحد ،
حين أقمنا من أنفسنا
آلهة أخري ،
وعبدنا آلهة شوهاء ،
حين أجبنا الغرقي بالضحكات ،
حين جلسنا في أعراس الجن
حين أجاب الواحد منا
مادمت بخير
فليغرق هذا العالم طوفان ،
كنا نحن الأعداء:
كنا نحن غزاة مدينتنا ! »

وحين عدت إلى القاهرة ، فى أغسطس ١٩٦٦ ، لم يكن على لسانى سوى : هل تعرفون أين أجد محمد

الشـــاعر
محمد إبراهيم أبو سنة

إبراهيم أبو سنة ؟ . كنت أود أن أؤكد له أننى سمعت جرسه ، وأننى أشاركه الإحساس بالخطر . لم تكن حيثياته خطابية رنانة ، كانت تساؤلية ، تتجول بعينين أسيفتين تقرأ الدمار فى الماوراء ، وتهمس فى خفوت بنواح تجتهد فى كتمانه:

« وتساءلنا :

أي غزاة جاءوا فى منتصف الليل ،

رجعوا بالأشجار بعيدا عن مجرى النهر ،

هدموا أعمدة الضوء ،

رحلوا بالأزهار إلى مقبرة وحشية ،

وضعوا سيفا بين شفاه

تدنو من عنقود القبلات ،

داسوا بالخيل جبين المعبد ،

طردوا منه الصلوات ،

صرخوا فى وجه الفجر ،

ماتت زهرات الحلم

على شفة الماء ،

ماذا ؟ هل كان الجدول مسموما ،

هل كان القمر صديقا للأشباح ،

من أوقف زحف الوردة

نحو النجم ،

من دس الخنجر بين غشاء القلب ،

من علق أجراس الرعب

فوق صدور الأطفال ؟

..... »

فى حديقة جروبى عدلى جلسنا متقابلين : طويلا نحيلا وسيما باسما مقبلا على الحياة . بمزاح قلت له إنه لا يشبه قصيدته فليست عليه أى مسحة من العناء ، وقبل أن يتكدر أضفت أنه يشبه فى هذا التناقض الشاعر ت . س . إليوت. ولا أذكر من هذه المقابلة سوى أننا كنا لطيفين دمثين متفاهمين مثل صديقين فى الدراسة والقراءة تزاملا ولم يفترقا منذ روضة الأطفال - (لم يدخل روضة أطفال فقد حفظ القرآن الكريم وعمره عشر سنوات فى مدرسة شيوه كار قادن غرب مسجد الحسين ، ولبس العمامة والجبة والقفطان ودخل الأزهر ، الابتدائى والثانوى من معهد القاهرة الدينى ، حتى نال الإجازة العالية من كلية الدراسات العربية ، جامعة الأزهر عام ١٩٦٤ بتقدير جيد جدا مع مرتبة الشرف، خلع العمامة

وهو فى الثامنة عشرة عام ١٩٥٥ وظل دائما مزاوجا بين دراسته فى الأزهر وقراءاته الأخرى فى دار الكتب عن ثقافات العالم) - فى ذلك اللقاء صدقت على كل شئ قاله ووافقنى على كل شئ قلته وتصافحنا فى فرح على وعد بلقاء ثان لم يتم أبدا (إلا بعد ٣٤ سنة!) .

★★★

فى ذلك الزمن كانت الساحة «الشبابية» الأدبية والثقافية مليئة بالمخالب الجارحة وكان الشاعر أمل دنقل أكثر المخالب تجريحا ، ينشط بشهية لإسالة الدماء : ينغرس فى كل اسم ويدميه ، ومسرحه اليومى «مقهى ريش » ، وكان أبو سنة هدفا مغريا له على الدوام : قابيل دنقل وهابيل أبو سنة - (أفكر الآن لتحليل موقف أمل دنقل من محمد إبراهيم أبو سنة ، ويداهمنى احتمال ، لعل أبو سنة لم يتصوره أبدا ، فربما كان أمل دنقل شديد الإعجاب بأبو سنة، يتمنى لو كان هو ، لو كانت له وسامته ، لو كانت له شهادته الأزهرية العليا ، التى لم يحصل أمل عليها ولا على غيرها ، لو كان له نبل أبو سنة وتعففه وترفعه وقدرته على كبح اللفظ الخشن والظن السيىء، ربما؟، ربما!) - كان أمل دنقل دائم الاصطياد لأبو سنة يمكر ويكيد له ويغيظه ويقلل من قدر شاعريته خاصة لدى المعجبين بشعر أبو سنة - (يصغرنا أمل دنقل بثلاث سنوات ، لكنه كان يبدو لى دائما عجوزا ، حتى ما قد كان يند عنه من طفولة فقد كانت مثل طفولة العجائز ، أو صبيانية . يكره الجميع وإذا ما عنّ لك أن تكره أحدا أمامه تجده قد انقلب إلى مغرم صبابة بذلك الذى تكرهه . مناوئ . مسرهق المصاحبة . شديد الوله بالاستفزاز) - عندما عرف أمل دنقل عن إعجابى بقصيدة أبو سنة هاجمنى قبل أن يلقانى - (ليس هناك من لم يصبه منه سهم طائش أو متعمد ، كانت له ملامح أخناتون ودور ست ، إله الشر المزعوم) - ومما شحذ عداوة أمل دنقل تجاهى كان رأيى السلبى فيما كان ينشره وقتها من شعر غزلى حسى سمج بمجلة الكواكب . كرهنى جدا وكرهته أكثر وكان ذلك معلنا على «مقهى ريش» حتى داهمتنا ١٩٦٧/٦/٥ . وفى ردهة مبنى الاتحاد الاشتراكى بميدان التحرير حيث كانت تقام ندوات ، أشبه بسرادقات العزاء ، عن شحذ الروح بعد الهزيمة المختبئة وراء لفظ «النكسة» المخفف ، فوجئت بأمل دنقل يدفع إلى بقصيدته الخارقة : «البكاء بين يدى زرقاء اليمامة» ، قائلا إنها ممنوعة رقابيا من النشر وتحدانى أن أكون موضوعية وأعلن إعجابى ، لو أعجبتنى ، رغم عداوتى لعداوته . طرت بالقصيدة فرحا مماثلا لفرحى بقصيدة «غزاة مدينتنا» لأبو سنة : كانت قصيدة أبو سنة

الشـــاعر
محمد إبراهيم أبو سنة

تعلن عـام ١٩٦٦ رؤية زرقاء اليمامة التى أثبتتـهـا ١٩٦٧/٦/٥ ، ونعاها بعده أمل دنقل فى بكائيته . لم أكتف بالحماس فى الأروقة واجتهدت فى التحايل على الرقابة ونشرت القصيدة كلها تقريبا، عدا بضعة أسطر غير مؤثرة ، تحت عنوان آخر لم ينص الأمر الرقابى على منعه : « تكلّمى لشدّ ما أنا مُهان !» ، ومعها تحليل نقدى مكثف ومختزل وشديد الاختصار حتى أفسح المجال للتألق الذاتى للقصيدة . وحتى تم صدور عدد مجلة المصور وبه القصيدة منشورة ، سمحت لنفسى بفرحة لنجاحى فى التحايل على الرقابة والرقيب من أجل أن تتـواصل آهات الشـعب المصرى الذى لم يكن من المسموح له الإعلان عن حزنه بحجة أنها - الهزيمة - ليست ساعة للحزن بل ساعة للعمل . انشكح أمل دنقل للنشر ووجدها مناسبة ليعلن على «مقهى ريش» ما تصوره انتصاره على أبو سنة ، كأنه لا يجوز أن نبتهج بشاعريتهما معا . والحقيقة أن مصر كانت وقتها - ولا تزال - تعج بالشعراء ، الذين لولا بعضهم ما استطعنا أن تزدرد الطعام ، ولولا البعض الآخر لكانت حياتنا أفضل . كنت أحب مع شعر أبو سنة ، شعر يسرى خميس ، وشعر نجيب سرور بالفصحى والعامية ، وصلاح چاهين ، ومحمد عفيفى مطر ومظفر النواب من العراق ، وممدوح عدوان من دمشق ، لكن «نمط» الثنائيات كان سائدا، بعد الثنائى التاريخى شوقى وحافظ ، وكان الثنائى الأشهر فى جيلى صلاح عبدالصبور فى مقابل عبدالمعطى حجازى، واخترع أمل دنقل الثنائى : أبو سنة أم أمل دنقل؟ . فى كل شعر أمل دنقل لم أستسغ إلا قصيدتيه «البكاء بين يدى زرقاء اليمامة» عام ١٩٦٧ و «لا تصالح ولو قلدوك الذهب» عام ١٩٧٧. ولم يكن صحيحا بالمرة ما أراد أمل دنقل أن يوحى به إلى أبو سنة من أننى خاصمته وعرفت طريق الشعر الحقيقى ممثلا فى أمل دنقل. وبدا أبو سنة مصدقا لصخب أمل دنقل وضجيجه وتشنيعاته ، يقف بعيدا مفضلا البعد عن الشحناء :

« ....

واقف أستعيد ،
بعض ما كنت أعرف نفسي به ،
في الظلام الشديد ،
وسط هذا السراب الذي

كان يبدو مدينة ،
والربيع الذى قد تناثر
فوق الجليد ،
واقف فى انتظار البريد
علّ بحرا يريد مراسلتى
أو غيوما
تحاصرنى من جديد ،
واقف ..
فى دموع النشيد
فى انتظار احتضار الزمان البليد ،
واقف كالجواد ،
وسط دغل القيود،
والصهيل الطويل
يتخطي الحدود»
(من ديوان أبو سنة :
«مرايا النهار البعيد»)

★★★

كان أمل دنقل له عبقرية أخرى ، غير الشعر ، لم يطاوله فيها أحد ، وهى قدراته فى التفنن لصياغة أجواء الشحناء اليومية، متنقلا بها سريعا ، ينقل الحرائق من مكان إلى آخر ، يوزع حطب النميمة والوقود الكافى من الأخبار الصادقة والكاذبة . وكنت أندهش من الدعم المعنوى الذى كان يلقاه من صلاح عبدالصبور وأحمد عبدالمعطى حجازى وآخرين فى مواقع سلطوية فى النشر والثقافة وغيرها، هذا بينما يأخذ الزهد فى الشحناء أبو سنة بعيدا بعيدا حتى لم أعد أراه فى ساعات الهدوء التى كنت أستطيع أن أجلس فيها بمقهى «ريش» . كلما جلست يجئ أمل دنقل يناوش بالذوق وبالعافية وأحيط كل خططه ، وكانت لديه حكايات عن ضرب بالأمس أو قبل دقائق بين فلان وفلان . كانت له طرقه فى أسلوب الحكى لا يمكن لأحد فى مواجهتها أن يهرب من غلبة الضحك عليه. لم يكن أمل خفيف الظل مثل نجيب سرور ، لكنه كان يتقن التصوير الدقيق لأحداث مضحكة . –(قال أبو سنة إنه تجنبَ مقهى ريش بعد ١٩٦٧/٦/٥ حتى قال له نجيب محفوظ وقد صادفه عند مصلحة الاستعلامات : مش بشوفك ليه على ريش .. ده مفيش غير ضرب قزايز بس !) – وهكذا لم أعد ألتق بأبو سنة بالكثافة التى كنت أرى فيها أمل دنقل بوجهى باستمرار ، حتى التقيت، فى غفلة من دنقل ، بالشاعر أحمد فؤاد نجم وقررت أن أفتديه وأسدد له ، بالإنابة عن مصر ، الدين الذى رأيته فى أعناقنا تجاه شجاعته المباشرة التى ألقاها بصريح العبارة فى جملة أشعاره معبرا عن نبض الشارع المصرى ١٩٦٧/٦/٥ وما بعدها وتقاضى الثمن سنوات فى المعتقل متنقلا من سجن لآخر ، ومن تجويع لتجويع أكبر. وطاش صواب أمل دنقل ولم يرتدع حتى قذفته بكوب شاى ساخن فضل بعدها ألا يقترب منى

الشـــاعر
محمد إبراهيم أبو سنة

إلا وأمامى مثلجات.

★★★

بلاد شـــالتنا وبلاد حطتنا ، وأيام داستنا وأخرى غيبتنا ، لكننى كنت أعرف أن أبو سنة لا يزال صديقى ، أقرأ قصيدة له هنا أو هنا . أستمع له قدرا وأنا أحرك مـــؤشـــر المذياع ، ثم ها نحن نجلس متقابلين - بعد ٣٤ سنة - سالمين كأن لم يكن هناك طوفان ، كأننا لم ننج من بحر النار وبحر الشوك وحقول الألغام . قرأ من شـعـره . يحب صـوته . يحب إلقـاءه . يتمسك برأيه . ازداد وزنه . وازداد وزنى ، لكننى أستحثه على الاغتباط : يا أبو سنة أليس هذا مفرحا أننا مازلنا قادرين على السـيـر من دون عكاز ، مـازلنا نتـمـتـع بالسمع والبصر والفؤاد ، ولا تزال أمامنا فرص جيدة مثل «العبوات الاقتصادية» الأرخص تكلفة ! ضحك . قهقه . ياه ! .. لم يكن فى جماعة «الويسكى» ولم يكن فى غـرز «الحـشـيش» ، ولم يكن فى قـائمـة السلطة ولم تجنده تيارات يسار أو يمين. ظل شاعرا . ظل كاتبا . ظل راصدا . ظل مكابدا الوحدة لأن فلسفته في مشوار حياته قالت :

« - ونقول :

بأن الوحدة قاسية ،
لكن الأقسي منها
أن تلقي من لا تألفه ،
وتظل تلازم من لا يعرفك
ولا تعرفه ،
وتعيش تشاطره اللقمة
والصمت المفترس القاتل
والرقدة فوق سرير
تأنفه ،
ترتجل الأحلام نهارا
وتغادر أيامك
تنتظر زمانا
مجهولا تستشرفه ،
وتحن إلى ربتة كف
أو كلمة عطف
أو كأس حنان ترشفه ،
تبقى تتمنى الموت
لينجيك
وأن يأتى فى ميعاد
لا يخلفه ،
تتزلزل أركان الدنيا
والسر المكنون
بأعماقك .. لا تكشفه ،
تمضى وحدك فى أدغالك
تتقلب ما بين الأحجار وأشواكك

حتى ليحاصرك الحنظل تقطفه ،
وتقلب عينيك الواسعتين حسيرا ،
في كون تستعطفه ،
لا أحد يدلك من أين
يجيء الحلم الموعود
وهذا العمر المنثور
على طاولة الوهم
يواجه ريحا تتخطفه ،
تتجمع فى جرحك
كل الأيام الماضية
وتنزف تنزف
لا يلقى جرحك أحداً يسعفه !» .
(من ديوان أبو سنة : ورد الفصول الأخيرة)

★★★

- إلى جانب دواوينه الأحد عشر ، كتب مسرحيتين شعريتين :

«حمزة العرب» و «حصار القلعة» وأحد عشر كتابا آخر ما بين دراسة ونقد ومختارات . قدمت له كتابى «تلابيب الكتابة» وعليه اهدائى : أحيى لقاءنا بعد ٣٤ سنة وأتمنى آخر بعد ٣٠ قادمة إن شاء الله . ضحك . مستحيل ؟ إذن اجعلها ١٥ سنة .. معقولة ؟! إن شاء الله، على ألا تكون حزينا هكذا ، كن حزينا بشكل ضاحك ، مقبلا على الحياة كما كنت عندما التقيت بك عام ١٩٦٦ ، وحتى ولو كان ذلك الإقبال هو على الحياة الأخرى . لم يجد نظارته للقراءة ، قدمت له نظارتى لعلها تفلح ، يا سلام ، تصورى، نفس مقياس النظر : هل هناك نتيجة بعد كل هذا العمر أفضل من ذلك ؟. معك حق . الحمد لله . مد يده للمصافحة وهو ينشد بيت شعر غم من أبيات المتنبى، اعتذرت عن عدم المصافحة لأننى لا أصافح ، وجاء اعتذاري متناغما مع بيت المتنبى .

★★★

كنا قد عبرنا إلى الرصيف أمام «مقهى ريش » فى ثوبه المجْدّد الجديد ، وتركته يبحث عن سيارته وصوبت وجهى إلى الاتجاه المعاكس نحو عبدالخالق ثروت أبحث عن مكتبة لم تغلق أبوابها بعد لأشترى حبرا لجهازى الفاكس . كان المساء ٤/٤ هو ذكرى وفاة والدى منذ ٥٦ سنة . نشطة في السير أدندن من شعر أحمد فتحى أغنية عبدالوهاب «الكرنك» وقد امتلأت بها أذناى :

« .. أين يا أطلاااال جندو الغالبى
أين .. أين آمون وصوت الراااااهيبى..
وصلاة الشمس .. وهمى طار بى
.. تاتا .. تاتاتاتا .. تراتاتا .. تيتاتا..
صور الماضى .. ورائى وأمامى ..
هى وهمى وغنائى .. وهى فى حلمى جناح الطائر ..
تاتا .. تاتاتاتا .. تررم .. تم .. تم ..
ذلك الطائر مخضوب الجناح ..» . تاكسى .. من فضلك العباسية .. عند جامعة عين شمس !

أحاديث

عن الأدب والأدباء

بقلم: وديع فلسطين

أروى فى هذه الأسطر بعض ما عاصرت أو عرفت من شئون الأدب والأدباء، مما لا يخلو من الطريف والغريب والعجيب من أخبارهم، ولكل من الأدباء حظوظه المقسومة من الشهرة أو الخمول.

ملك ومندور

ذكرياتى عن هذا الثنائى الجميل وقبيلتهما - كما كان مندور يصف أسرته الكبيرة - ذكريات كثيرة، غير أننى أقتصر فى هذه العجالة على واقعة طريفة أسوقها متحسراً على وفاة الشاعرة ملك عبدالعزيز تحت أفرع شجرة سقطت فوقها وهى تسير فى الطريق يوم ٢٨ نوفمبر ١٩٩٩.

فى عام ١٩٥٩ دعانى الأديب حليم مترى - وسيرد كلام عنه فى هذا المقال - إلى المشاركة فى ندوة ينظمها بوصفه الرائد الثقافى لموظفى شركة إيسترن للدخان حول موضوع علم النفس والأدب وقال أن المشاركين فى هذه الندوة - أو المناظرة على الأصح - هم الدكتور محمد مندور وزوجته الشاعرة ملك عبدالعزيز وعميد علم النفس والفلسفة الدكتور محمد

مظهر سعيد وزوجته السيدة نظلى الحكيم والناقد مصطفى عبداللطيف السحرتى وكاتب هذه السطور. وفي الموعد المحدد اجتمعنا فى النادى الثقافى لهذه الشركة أعلى العمارة التى يحتل محل الأمريكيين ناصيتها على شارعى فؤاد الأول وعماد الدين، وانقسم المتناظرون إلى فريقين، فريق يرى أن للأدب استقلالية تامة عن علم النفس وعن غيره من العلوم، وفريق يرى أن دراسة الأدب لاتستقيم إلا بتطبيق قواعد علم النفس عليه وعلي الأدباء أنفسهم. وانضم الدكتور مندور إلى فريق، في حين انضمت ملك عبدالعزيز إلى الفريق الآخر. وبعدما فرغ كل من المتناظرين فى سوق حججه، أراد الدكتور مظهر سعيد بخفة دمه وقدرته الفذة على الارتجال والتأثير فى السامعين أن يوقع بين مندور وزوجته، فقال ما معناه إن هذه الليلة لن تمر بسلام فى بيت مندور، فكيف تجرؤ زوجته على معارضته فى قضية حيوية كهذه أمام هذا الملأ الغفير لابد أن معركة حامية الوطيس ستنشأ بين الزوجين لايعرف عقباها إلا الله وحده.

والمفروض فى الحياة الزوجية أن تتفق آراء الزوجين حول جميع القضايا، ولكن ما بال الشاعرة ملك تحدت زوجها وخالفته في جهارة وجرأة تحسدان عليها. وبينما كان مظهر سعيد يوغل فى المشاغبة مع مندور لكي يخرجه من وقاره المعهود، كانت القاعة تضج بالضحك والتصفير. فما كان من مندور إلا أن جذب إليه زوجته وعانقها وقبلها أمام جمهور السامعين، فازداد تصفيقهم وضحكهم، وبهذه المناورة أفحم مندور غريمه مظهر سعيد وخذله خذلاناً مريراً. وقمنا جميعا فى ختام هذه المناظرة الطريفة نتصافح ونتبادل التحيات فى جو ودى جميل.

وقد وصف الدكتور مندور هذه المناظرة فى مقاله الأسبوعى بعنوان «مع الأيام» الذى نشره فى جريدة الجمهورية ٢٥ ديسمبر ١٩٥٩، ولكنه تحرج طبعاً من الإشارة إلى «الحجة الدامغة» التى أفحم بها مناظره الدكتور محمد مظهر سعيد.

الشاعر الجريح

عندما زرت لبنان للمرة الأولى فى عام

ملك عبدالعزيز



د. محمد مندور



١٩٥٥، رغبت في التعرف بأعلامه الكبار الذين عرفت بعضهم بحكم الشهرة، وعرفت البعض الآخر بما جرى بيني وبينهم من مراسلات سابقة. وكان في طليعة الأدباء الذين حرصت على زيارتهم الشاعر بولس سلامة الذي اشتهر بأنه «الشاعر الجريح» لأنه أصيب في عام ١٩٣٦ بعلة في الظهر لم تفلح ٢٣ عملية جراحية في علاجها ولا أفلحت إقامته في المستشفيات لأكثر من سبع سنين وبقائه مسمراً على سرير العذاب ستة آلاف ليلة في إبرائه من هذه المحنة الصحية.

فلما زرته في بيته، اقتادتني زوجته إلى غرفة نومه فألفيته راقداً في فراشه، تتكدس الكتب والمعاجم إلى جواره، وعلى مقربة منه أوراق وأقلام لكي يدون بها مايريد، وبعد الترحيب بي قال إنه يعاني من فالج نصفي يسمره في الفراش فلا يستطيع فيه حراكا، ولكنه يجد ملاذاً في نظم الشعر وتأليف الكتب والمطالعة، وهو في مرضه المقعد قد ألف ثلاثة ملاحم طوال، هي «ملحمة عيد الغدير» في أكثر من ٣٠٠ صفحة من القطع المتوسط و «ملحمة عيدالرياض» في نحو ٦٠٠ صفحة من القطع الكبير و «ملحمة فلسطين وأخواتها» وهي أصغر حجماً، كما أصدر عند بلوغه الستين من العمر «ملحمة عيد الستين» في أكثر من ١٥٠ صفحة من القطع الصغير، وكل أبياتها من نفس البحر والوزن والقافية، هذا عدا عشرات من الكتب الضخام وألفيت نفسي ضئيلاً أمام هذا الهرم الشامخ المسجي أمامي، فاعتصمت بفضيلة الصمت أصغى إليه وهو يتدفق في الحديث عن الشعر والأدب وأخطاء المعاجم والترجمات والفلسفات، وهي ميادين ألم بمحيطاتها في حين تذرعت بجهلي عن التعليق عليها.

وانصرفت من محضره وبي لعثمة في لساني فماذا أقول له وأنا أودعه من عبارات المجاملة أو الإشفاق أو الرثاء لحاله أو الإعجاب المبهر بعلمه وشخصيته ومواهبه وعزيمته الجبارة؟ وكان قصاراي أن دعوت له بتمام الشفاء.

وليس أبلغ من بولس سلامه في تصوير مأساته في كثير من القصائد الطوال، ولعلى أجتزىء هنا بعضاً منها حيث قال:

سالت علي حد المباضع مهجتي
فشفارها مصبوغة بدمائي
وتشابهت مني الجراح فأصبحت
حفراً تضل بها جفون الرائي
أواه! لو كان الرقاد يزورني
لرضيت من دنياي بالإغفاء
لايلتقي جفناي إلا خلسة
فكأن بينهما قديم عداء
أيوب، ما أيوب، ماذا خطبه
هو قطرة وأنا خضم بلاء
وإذا المريض أتيته لتعوده
فلقد أتيت مقابر الأحياء

كان أمرا مقضيا على بولس سلامة أن يستسلم لمقاديره ، فقد عالنه الطب بألا جدوى من أى جراحة جديدة ، فقد صارت حالته ميئوسا منها . ولكن صديقا أشار عليه أن يحج الى مدينة لورد فى فرنسا حيث مزار للعذراء مريم ، إذ قيل إن كثيرين من المرضى الذين استعصت أمراضهم على الشفاء نالوا البرء فى هذا المزار . وفى عام ١٩٥٨ سافر إلى هناك محمولا على محفة فى الطائرة ، فوجد نفسه عند وصوله الى لورد فى عباب زاخر من المرضى الألى تقطعت بهم الأسباب . وقد وصف حاله بقوله : «صليت فى لورد صلاة قصيرة ، قلت : اللهم لتكن مشيئتك» ولأول مرة منذ رقدته الطويلة استطاع أن يقف على قدمين واهنتين ، معتبرا أن معجزة حدثت معه ، وإن كان المسئولون فى المزار يقولون إن المعجزة يشترط فيها أن يكون الشفاء فوريا وتاما . ثم يقول «بيد أنى تحسنت تحسنا واضحا ، واستقويت جسديا وروحيا ، وما هم أن أنهد إلى الحركة مسرعا أو بطيئا ، وإنى لمؤمن أن نعمة الله أدركتنى ، وهذا حسبى».

عاد إلى بيروت ، وصار فى وسعه أن يجلس الى مكتبه ليسجل سيرة حياته فى كتاب ضخم عنوانه «حكاية عمر» وهو جالس الى منضدته وليس وهو مستلق فى سرير كساحه.

وكنت عرفت هذه الأخبار من رسائله ومن مطالعة الصحف اللبنانية دون أن أصدق ماحدث .

وعندما زرت لبنان فى عام ١٩٧٢ قبل الحرب الأهلية ، حرصت على زيارة بولس سلامة ، فاستقبلنى واقفا وفى يمينه عكازة صغيرة ، وكان يحيط خاصرته بحزام جلدى عريض ، وقال : أنظر، لقد صار فى وسعى الآن أن أعانقك واقفا . فقلت له إن هذه الملحمة الحيّة أعظم من جميع ملاحمه المسطورة . وهو قد عاش بعد شفائه ٢١ عاما وتوفى فى ١٤ أكتوبر ١٩٧٩ عن ٧٧ عاما .

طه حسين وسكرتيره

فريد شحاته هو سكرتير طه حسين

د. مظهر سعيد



د. طه حسين



الذى لازمه أطول من أى سكرتير سابق أو لاحق .

كان يخرج مبكرا من بيته فى ميدان باب الحديد ويتوجه الى بيت طه حسين فى الزمالك أولا ثم فى طريق الأهرام ، ويظل فى صحبته ملبيا جميع أوامره ، مرافقا إياه فى جميع مقابلاته ، مدونا ما يمليه عليه وقارئا لما يطلب قراءته . بل كان يرافقه فى رحلاته الخارجية ، وكان طه حسين يتحمل أداء راتبه . أما عندما كان طه حسين يتولى منصبا حكوميا ، بما فى ذلك منصب وزير المعارف، فقد كان فريد شحاته يعين مديرا لمكتبه يتقاضى راتبه من الحكومة. وهكذا انقطع فريد شحاته لطه حسين تماما ، فهو عينه التى بها يبصر ، ويده التى بها يكتب ، ودليله الذى يهتدى به . وكان فى حالات كثيرة يعود إلى بيته فى ساعة متأخرة من الليل إذا كانت ارتباطات طه حسين تستدعى المشاركة فى مناسبات ليلية رسمية . أما المناسبات الاجتماعية فكانت زوجة طه حسين ترافقه فيها .

وقد زرت طه حسين مرة فى بيته فى الزمالك ومرتين فى «رامتان» فى طريق الأهرام، وكان فريد شحاته يستقبلنى ويقودنى إلى غرفة المكتب الى أن يوافى طه حسين . وفى الزيارة الأخيرة اختلى بى فريد شحاته وقال إنه لم يعد يطيق أن يعيش كالظل عند طه حسين ، ولا سيما لأن زوجته الفرنسية تعامله كواحد من الخدم ، بل بدأت تشك فى ذمته لأنه كان مسئولا عن حسابات طه حسين . وقد رأيته بعينى رأسي يستخرج حافظة نقود طه حسين من جيبه وهو جالس بيننا ليستخرج جنيهات طلبتها زوجته .

وبعيد ذلك عرفت أن فريد شحاته ترك خدمة طه حسين . وذات يوم التقيت به فى ميدان باب الحديد ، فأكد لى أنه أضاع شبابه فى العمل لدى طه حسين فلم يتزوج إلا فى سن متأخرة وعندما أنجب طفلين لم يجد لهما مكانا فى المدارس ، فاستنجد بكبار العاملين فى وزارة المعارف الذين كانوا يأتمرون بأمره عندما كان مديرا لمكتب الوزير طه حسين ، فلم يساعده أحد فقرر أن يهاجر الى كندا لأن أسرة زوجته سبقته الى الهجرة وأخبرته أن إلحاق الأطفال بالمدارس لا يمثل مشكلة هناك.

وكانت بعض الصحف قد انتهزت فرصة القطيعة التى حدثتْ بين طه حسين وسكرتيره ، فزعمت أن فريد شحاته سيؤلف كتابا عن أيامه مع طه حسين تسوء عميد الأدب العربى ، بل زعمت أن فريد شحاته يؤكد بأنه هو المؤلف الحقيقى لجميع كتب طه حسين ، وأن عميد الأدب برىء من تأليفها ، وقيل ان كتاب فريد شحاته سيطبع فى بيروت لاستحالة طبعه

فى مصر ، وانه سيوزع منه مئات الآلاف من النسخ . وأيا كان حظ هذه الروايات من الصحة ، فالمؤكد أن الكتاب المذكور لم يصدر أبدا سواء لأن فريد شحاته لم يؤلفه أصلا ، أو لأنه لم يجد له ناشرا هنا أو هناك .

وقد حاولت من فترة قريبة تسقط أخبار فريد شحاته فى كندا ، فرجوت أصدقاء لى فى ولايات مختلفة أن يبحثوا عن اسمه وعنوانه فى دليل التليفون ، فكان ردهم أنهم لم يعثروا على ضالتهم .

روبير سوليه

روبير سوليه هو محرر جريدة ليموند الفرنسية الواسعة الانتشار ، وهو قد أمضى فترة صباه فى مصر ، واستوحاها فى كتابين أصدرهما باللغة الفرنسية ، أولهما رواية تدور حول الطربوش وثانيهما كتاب تُرجم الى العربية مؤخرا بعنوان «مصر ولع فرنسى» .

وعندما اطلع الدكتور أنور لوقا الاستاذ بالجامعات السويسرية والفرنسية على ما نشرته فى شهر يناير الماضى من «الهلال» عن جاك تاجر أمين المكتبة الخاصة لجلالة الملك فاروق، كتب إلىّ يقول إن روبير سوليه هو ابن شقيقة جاك تاجر وإنه التقى به فى باريس فى إحدى المرات أى أنه من الشوام المصريين .

أدباء ولكن مجهولون

عرفت فى مسيرة الحياة عددا من الأدباء الذين كان لهم فى دنيا الأدب إسهام، ولكن أخبارهم تنوسيت مع ترادف الأيام. وهذه لمحات موجزة عن بعضهم:

عوض جندي وكان موظفا حكوميا، ولكن هوايته انصرفت إلى ترجمة الموضوعات العلمية، وسك مصطلحات عربية تقابل المصطلحات الفرنجية. وكان من الدوبين فى كتابة باب الأخبار العلمية فى مجلة «المقتطف»، وذات مرة أطلعنى على قاموس انكليزى/ غربى وقد ملأ حواشيه بالتعليقات والتصحيحات والإضافات من اجتهاده الخاص. وقل اليوم من يذكره فى أى مناسبة.

ومثله فى هذا التخصص **مبارك إبراهيم** الذى كان مفتشا عاما بمصلحة التليفونات، ولكنه كان يهوى الترجمة ونشر عشرات من الفصول فى مجلة «الثقافة» أربى عددها على ٢٠٠ فصل، لأنه كان من المنتسبين إلى لجنة التأليف والترجمة



سلامة موسى — عباس محمود العقاد

والنشر برياسة الدكتور أحمد أمين بك. ولم يصدر له إلا كتاب واحد في سلسلة «إقرأ» عنوانه «نساء شهيدات»، وهو بدوره ساقط قيد في مفكرة الأدب ولا بأس أن أذكر أن مبارك إبراهيم هو والد السفير إسماعيل مبارك.

حليم متري كان أديبا واسع الثقافة يعد نفسه من تلاميذ سلامة موسى، وكانت له كتابات كثيرة في المجلات الأدبية مثل «السياسة الأسبوعية» و«المقتطف» و«الثقافة» وغيرها. ولم يصدر إلا كتابا واحدا عنوانه «من رواد أدبنا المعاصر» وكان يعمل رائدا ثقافيا لموظفي إحدى الشركات الخاصة بصنع السجاير مع أنه لم يكن يدخن.

محيي الدين رضا هو ابن شقيق الشيخ محمد رشيد رضا صاحب مجلة «المنار»، وكان يزاملنا في «المقطم» في قسم التصحيح، ولكنه كان يراسل عددا من الصحف السورية واللبنانية، كما أنه أصدر عدة كتب أهمها «بلاغة العرب في القرن العشرين» وهو أول كتاب يصدر في العالم العربي عن أدباء المهجر، وهو الذي عرف ميخائيل نعيمة عندما كان في الولايات المتحدة بعباس محمود العقاد فكتب له مقدمة كتاب «الغربال».

الشاعر ابن محمود كان يتردد علينا في رابطة الأدباء التي أنشأها الشاعر الدكتور إبراهيم ناجي فكان رئيسها وكنت وكيلها لتوالي انتخابنا منذ إنشائها في عام ١٩٤٥ إلى انفضاضها في عام ١٩٥٢ شاعر يكني نفسه بهذا الاسم، واسمه الكامل محمد محمود وقد صدر له في ذلك الوقت ديوان عنوانه «البعث» كتب مقدمته الأديب أحمد الشايب، وكان قد أصدر قبل ذلك جزءين من «ديوان ابن محمود»، ثم أصدر ديوانين بعنوان «نايات وطبول» و«عصارة الوجدان»، وهناك ديوانان آخران لعلهما مازالا مخطوطين عنوانهما «ديوان الثورة» و«ديوان قبض الريح» ومع ذلك، فقل من يعرف هذا الشاعر، وربما خلط الباحثون بينه وبين الشاعر الفلسطيني عبد الرحيم بن محمود الذي حقق ديوانه الدكتور كامل السوافيري.

حبيب عوض الفيومي: عندما هاجر الدكتور أحمد زكي أبو شادي رائد جماعة أبولو إلى الولايات المتحدة أوصاني في رسائله بالتعرف بالشاعر والمحقق اللغوي حبيب عوض الفيومي، الذي كان من مؤازري مجلة «أبولو» وله فيها قصائد ودراسات مطولة. وقد سألت وقتها الباقين على قيد الحياة من أعضاء جماعة أبولّو عن عنوانه فلم يستطع أحد أن يهديني إليه، ربما لأنه كان يعيش في الفيوم ويتعامل بالبريد مع مجلة أبولو. وهكذا يضيع الأدباء في دنيانا وهم بعد أحياء، فلا يعرف أحد السبيل إلى الوصول إليهم.

حديقة جبران التذكارية

في عام ١٩٨٩ قررت حكومة الولايات المتحدة منح مؤسسة جبران الوطنية قطعة

أرض مساحتها ٨٠٠٠ متر مربع في وسط مدينة واشنطن العاصمة حيث أطلق عليها اسم «حديقة جبران التذكارية»، وتم تدشين هذه الحديقة في العام التالى بحضور وزير الداخلية الأمريكي. يتوسط الحديقة تمثال لجبران، وهناك ثلاثة أشجار أرز نقلت خصيصا من لبنان لزراعتها في الحديقة مع الزهور والمزروعات، وأعدت مقاعد حجرية نقشت عليها عبارات لجبران خليل جبران، وأقيمت بركة جميلة تتوسطها نافورة. وفي عام ١٩٩١ زار الرئيس جورج بوش هذه الحديقة وألقى فيها كلمة أشاد فيها بجبران مع أن جبران لم يتجنس بالجنسية الأمريكية وحافظ على جنسيته اللبنانية.

ومن بضعة أسابيع خلت كان يزور الولايات المتحدة للاشتراك في مهرجان أقامته جامعة ماريلند لتخليد ذكرى جبران اثنان من المعنيين بسيرته، هما الأديبة السورية الكبيرة سلمى الحفار الكزبرى والشاعر اللبنانى هنرى زغيب، وانتهزا الفرصة لتفقد حديقة جبران، فماذا وجدا؟ لقد وصف الشاعر زغيب حال الحديقة بقوله إن الشجر يابس كما لو مرت عليه دهور، وإن المكان شملته حالة من العفونة والرطوبة . أما البركة فقد جف ماؤها . وأما الحصى في قعر البركة فقد عشش فيه العشب الأخضر النتن . وصارت المقاعد الحجرية محطا لبراز الغربان . ولم تعد أقوال جبران المنقوشة على المقاعد واضحة لأن الغبار والوحل حجباها . وظهر الصدأ الأزرق المبقع على زوايا تمثال جبران ... المكان حزين مهجور ، لا زهر، لا شجر مورقا ، لا حياة ترطب المدخل ... وختم الشاعر زغيب كلامه بقوله : هو ذا المكان الذى كان يعج بالآلاف يوم افتتاحه ، بات بؤرة لبراز الغربان ! هى ذى الحديقة التى كانت فخرا للبنان ، باتت بقعة منسية مهجورة على قارعة جادة ماساتشوستس!

ذكّرنى هذا الوصف بالغابات التى زرعناها فى بدايات الثورة ، فهل هناك من يدلنا على مصيرها اليوم ؟


ابراهيم ناجى

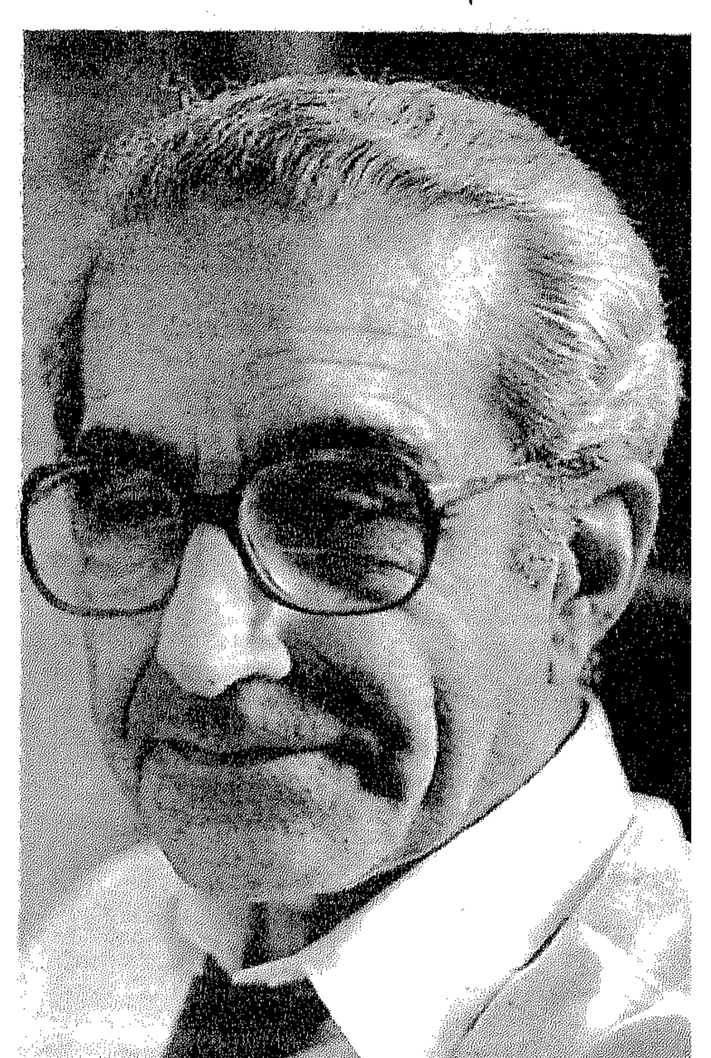

جبران خليل جبران

التكوين

أيام دراستي في الجامعة كنت أقرأ أضعاف ما أسمع من شروح ودروس

مصطفى سويف

بعض الأعوام تبدو منبئة أكثر من بعضها الآخر، ومسرعة الخطو أكثر من بعضها الآخر، ومتخمة بالأحداث أكثر من بعضها الآخر : هكذا كان العامان ١٩٤٣/ ٤٤ و١٩٤٤/ ٤٥، كانا كذلك بالنسبة لى، ولمصر، وللعالم من حولنا .



فى سبتمبر سنة ١٩٤٣ كنت أبدأ دراستى فى السنة الثالثة بقسم الدراسات الفلسفية. وكنت أعرف مقدّما أننى مقبل على تلقى دروس فى الفلسفة الحديثة، وكان هذا التوقع وحده مصدر أفكار ومشاعر تحيط بها هالة موحية، ولم أكن أعرف على وجه اليقين بماذا توحى، ولكن هذا الإيحاء الغامض نفسه كان يحدد لها اتجاها بعينه، مؤداه أن النظريات الفلسفية المرتقبة وما سوف تثيره عندى من مشاعر ستكون فى مجملها أقرب إلى روح الفكر الحديث والوجدانات الحديثة، وذلك فى مقابل

أجواء القِدَم والعتاقة التى كانت تغلب على دروس الفلسفة فى السنتين الأولى والثانية. وكان هذا يكفينى لأبدأ السير بعد ذلك فى الطريق الذى رسمته لنفسى طلبا لكشوف فكرية لا تنقطع، وإمتاع لا ينحسر.

وقبيل بدء العام ١٩٤٣ توالت على مصر أحداث بالغة الدلالة؛ فقد وقع بحزب الوفد (حزب الأغلبية الشعبية، وكان فى كرسى الوزارة حينئذ) أخطر الانشقاقات فى تاريخه، إذ تفجَّر الخلاف بين زعيمه مصطفى النحاس، والرجل الثانى، مكرم عبيد. وقرأنا هذا التفجر حينئذ على أنه يعنى انحياز الزعامة إلى جانب سطوة المال (ممثلة فى فؤاد سراج الدين بوجه خاص) على حساب التاريخ النضالى المرموق لأمثال مكرم عبيد. وفى تلك الفترة المبكرة أيضا حدثت أحداث أخرى مهمة (ولكنها إيجابية فى هذه المرة)، من أهمها صدور قانون الاعتراف بالنقابات، ثم فى سنة ١٩٤٣ صدر مشروع القرض الوطنى لسداد الدين الأجنبى وهو الدين الذى أوقع مصر (على امتداد الربع الأخير من القرن ١٩) فى حبائل التدخل الأجنبى الذى انتهى بالاحتلال الانجليزى المشئوم. ومع أن هذا المشروع آتى أكله وتم سداد الدَّين فعلا فى شهور قليلة، فلا أجد فى ذاكرتى الآن ما يشهد بأن صحافة ذلك العهد احتفلت به بالصورة التى كان يستحقها .

وفى سبتمبر سنة ١٩٤٣ كانت فاتحة الأحداث الكبرى فى الحرب العالمية الثانية: خرجت إيطاليا من الحرب وأبرمت معاهدة سلام مع الحلفاء. وبعد ذلك بشهور قليلة أُعلن عن تعيين الجنرال أيزنهاور (أمريكى الجنسية) قائدا عاما لقوات الحلفاء. وفهمنا فيما بعد أن هذا كان تمهيدا لهبوط قوات الحلفاء على سواحل نورماندى (وهو الحدث الذى عرف حينئذ باسم فتح الجبهة الثانية)، وفعلا فتحت الجبهة الثانية فى منتصف سنة ١٩٤٤. هكذا كنت ، وكانت مصر،



وكان العالم من حولنا فى سنة ١٩٤٣ / ٤٤.

نحن وأساتذتنا والمحاضرات

لا أذكر أننا أسأنا الى أساتذتنا بالتصريح أو بالتلميح، سواء فى حضورهم أو من وراء ظهورهم، عندما كنا بعد في بواكير الشباب نستمع إلى محاضراتهم فى قاعات الدرس، وأنا أدلى بشهادتى هذه لأضيف بها شاهدا أراكمه على شواهد أخرى تشير إلى حجمّ التدنى الذى وصلت اليه أخلاقيات الطلاب الجامعيين لدينا فى الآونة الحاضرة. ولا أزال إلى يومنا هذا أتذكر الأحاديث التى كنا نتبادلها إذ ذاك بشأن محاضرات الأساتذة، أنا والأصدقاء محمود العالِم، ويوسف الشارونى، ومحمد جعفر وأمين عز الدين، وعباس أحمد. ولا أظن أننا كنا فى أحاديثنا تلك نصدر عن انبهار ساذج، ولا عن غفلة تبطنها الجهالة، فما كنا سُذَّجاً ولا كنا غافلين، بل ولا كنا نقصد عن وعى وتدبُّر أن نعقل ألسنتنا عن الإساءة، ولكن هكذا جرت الأمور بتلقائية لا تشوبها صنعة ولا تصنع . ومع ذلك فقد كانت أحاديثنا عن محاضرات الأساتذة زاخرة بالملاحظات النقدية لا لشىء إلا لأننا كنا نقرأ أضعاف ما نسمع من معلومات وشروح، وكنا نقرأ المراجع الأجنبية إضافة الى المؤلفات والمترجمات العربية. وكانت أذهاننا منصرفة إلى العلم، مبتعدة عن لغو الحديث .

كان عثمان أمين يحاضرنا فى الأخلاق عند سپينوزا، وكان على عبدالواحد يقدم لنا أساسيات الفكر الاجتماعى عند أوجست كونت، معرّجا أحيانا على ابن خلدون، وممتدا بعد ذلك الى إميل دوركهايم، وكان مصطفى حلمى يشرح لنا «فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من اتصال»، وكان يوسف مراد يشرح مبادئ علم النفس العام .

ووجدتنى أتقدم من خلال هذه الدروس إلى الجوهر الذى ابتغيته وسعيت إليه منذ اعتزمت الالتحاق بكلية الآداب . وكان الجوهر المنشود أن أتمثل الفلسفة كما يتمثل جسمى الطعام

والشراب . وهاأنذا استوعب وأتمثل ما أستوعب، وأعاين رنين الحداثة فى هذا كله فأزداد اقترابا منه يصل إلى حد التوحد أحيانا، وأشعر بأقدار من الثقة تغمرنى؛ إذ تشير بأن الدرب الذى سلكته واصل بى فى نهاية المطاف إلى بُغيتى . وكنت أتأمل هذه الثقة من حين لآخر فأجدها أمرا جديدا علىَّ، لم أعرفها على امتداد الفرقتين الأولى والثانية، فقد ألهانى حينئذ استكشاف الجديد فى البيئة الجامعية، وما كان يثيره فى نفسى من دهشة ممتعة، فلما آن أوان التقدم للفرقة الثالثة انحسرت أمواج الدهشة والفرحة، وخلَّفت وراءها تربة شديدة الخصوبة لاستنبات النبت الجديد المنتظر، واكتشفت عندئذ أن الثقة المفعمة بالطمأنينة تطرح نفسها كخاصة من أهم خواص هذه التربة. وهكذا تلقيت دروسى فى الفرقة الثالثة بنفس صافية، وقرأت المزيد بنفس راضية، واستذكرتُ واستوعبتُ هذا وذاك بسلاسة لم أعرفها طوال حياة التلمذة من قبل. وانتقلت إلى الفرقة الرابعة وقد رسخ فى أعماقى أن قبسا من السلام الداخلى الذى تحدث عنه الروائيون أخذ يستقر فى نفسى. وبدا لى واضحا منذ ذلك الوقت المبكر أن هذا النوع من السلام سوف يكون حصنى الحصين فى مقبل الأيام .

وفى ذاكرتى الآن أن هذه الأمور جميعا بدأت تباشيرها تتراءى لى فى أواخر تلمذتى فى الفرقة الثانية ، لكن شروطا بعينها لم تتوافر عندئذ، فبقيت التباشير أقرب إلى الكمون منها إلى الإفصاح . كنا نستمع فى الفرقة الثانية إلى دروس عبدالرحمن بدوى فى المنطق، وفى فلسفة العصور الوسطى المسيحية، وكنا نحب شبابه ونلمس اجتهاده المتمثل فى غزارة المادة المحتواة فى دروسه، ولكن لم يرق لنا أسلوبه فى تقديم هذه المادة، فقد كان يقرؤها فى كراسة تلازمه دائما، وقلما كان يتطوع بالشرح، بل كان يظهر الضيق بالشرح إذا طلب إليه، وكنا نتلقى القراءة على أنها إملاء، وكنا نكتب ما يُملى علينا، وكانت الجهامة لا تفارق وجهه. واستمعنا ضمن ما استمعنا كذلك فى الفرقة الثانية إلى دروس عبدالعزيز عزت فى مبادىء علم الاجتماع، وتعاملت معها كمادة للحفظ استعدادا لامتحان آخر العام، لا أكثر ولا أقل. أما دروس محمود الخضيرى فى الفلسفة الإسلامية فقد تلقيتها بمزيج من مشاعر الاستمتاع

التكوين

الهادىء والاحترام الآسر ، كان الرجل يشرح الأفكار اعتمادا على النص الفلسفى مباشرة، وكان النص هو «الإشارات والتنبيهات» لابن سينا، وكان النص صعبا. وكانت البشاشة لا تفارق وجه الأستاذ. ولا أزال بعد مرور أكثر من نصف قرن على الأيام التى تعرضت فيها لهذا النموذج فى التدريس (أعنى الرجوع المباشر للنص) أقتدى به وأنا على بيّنة من هذا الجذر البعيد للاقتداء .

جرى هذا كله ونحن بعد فى الفرقة الثانية، فلم تزد آثاره على أن كانت إرهاصات متفاوتة الوزن بما نحن مقدمون عليه فى المرحلة التالية. فلما كانت الفرقة الثالثة، كنا قد تآزر نضجنا مع حيوية العرض الذى أنعم به علينا الأساتذة الكبار، وتفاعل هذا كله مع رنين الحداثة الذى عايناه فى أفكار سپينوزا وفلاسفة القرن السابع عشر بوجه عام، فكان ما وقع لنا من معايشة حميمة لمضامين الدروس التى ألقيت إلينا. ثم إن ما استقر لنا فى السنة الثالثة زاد استقراراً ونصوعا فى الفرقة الرابعة. سواء فى تعاملنا مع دروس الفلسفة الحديثة حول نقد العقل ونقد الحكم عند إمانويل كنت، أو مع محاضرات التصوف الإسلامى، وما وراء الطبيعة، أو مع دروس علم النفس وعلم الاجتماع. وعندما آذن العام بالانتهاء أقبلنا على الامتحان فى شهر مايو سنة ١٩٤٥، وأديناه كما ينبغى أن يكون الأداء.وأفقت بعد ذلك على سؤال استأثر بمعظم ما كان لدى من رصيد الفكر والوجدان : فماذا أنا فاعل بنفسى الآن؟

وهو السؤال ذاته الذى واجهته مصر، وواجهه العالم كله فى التوقيت نفسه. فقد انتهت الحرب العالمية إذ ذاك فى أوروبا ، وبدا واضحا أنها تقترب من النهاية فى الشرق الأقصى كذلك. ووقفت مصر ودول العالم أجمع تتفكر فى تبعات السلام .

مصر على مشارف السلام

على امتداد النصف الأول من عقد الأربعينيات كان مشهد الساحة السياسية فى مصر يتسم أساسا بصراعات لا تفتأ تزداد عنفا واتساعا، كان هناك الصراع الزاعق بين حكومة

الوفد من ناحية وأحزاب الأقلية ورجال القصر من ناحية أخرى، ثم كان هناك الصراع المكتوم بين حكومة الوفد من ناحية وجماعة الإخوان المسلمين من ناحية أخرى. ثم كان هناك صراع داخل حزب الوفد نفسه انتهى بانشقاق مكرم عبيد ونشره ما أسماه بالكتاب الأسود إشارة إلى ما اعتبره أعمالا سوداء وقعت فى عهد أسود قام بها رجال الوفد، ولا يبرأ من بعضها مصطفى النحاس. وأخيرا وليس آخرا كانت هناك صراعات متعددة تدور بين الجماعات الماركسية، كل جماعة تدين الأخرى بالانحراف الأيديولوجى، وقد تدينها بالخيانة والعمالة. وكنت حريصا على أن أسمع لأعرف وأفهم. وسمعت وفهمت أن هذه الصراعات جميعا كانت تتسم بسمتين رئيسيتين، أولاهما المغالاة فى ردود الأفعال حتي أن «الآخر» تجتمع فيه كل الصفات السيئة، فإذا كل ما يصدر عنه مرفوض سلفا. والسمة الثانية تمركز المعركة حول أشخاص بأعيانهم لا حول مبادىء أو برامج. ونتيجة لاجتماع هاتين السمتين معاً كان معظم ما نسمع عن هذه الصراعات أدخل فى باب التجريح الشخصى والسباب.

وفى أكتوبر سنة ١٩٤٤، وسط هذا الضجيج أقيلت حكومة الوفد مرة أخرى، وجاءت الإقالة فى هذه المرة أيضا مهينة، وتم تشكيل الحكومة الجديدة برئاسة أحمد ماهر رئيس الحزب السعدى. وكان واضحا من توقيت الإقالة أن الحومة البريطانية وقد اطمأنت إلى قرب انتهاء الحرب، وأن النهاية آتية فى صالحها (وفى صالح الحلفاء عموما)، فقد أسقطت من حسابها الاهتمام بما يدور فى الجبهة الداخلية (فى مصر)، بل إن المسألة لم تكن مجرد إسقاط من الحساب فقط، ولكنها كانت تنطوى كذلك على قدر من الاستجابة المحسوبة لبعض النذر التى بدأت تلوح فى آفاق عدد من الدول المغلوبة على أمرها مثل مصر والهند وأندونيسيا والهند الصينية تدل على أن القوى الوطنية فى تلك الدول تنتظر بفارغ الصبر انتهاء الحرب لتطلب إلى جيوش الاحتلال الرحيل عن أراضيها لتستكمل استقلالها وتنهض بتشكيل مستقبلها. فى أجواد التربص والتربص المضاد هذه أوحى الى أعداء حزب الأغلبية بأن ما يدور داخل مصر لم يعد يهم الحكومة



الانجليزية، وسرعان ما انتهز الملك وحاشيته الفرصة وأطاحوا بالوفد، ورحبت أحزاب الأقلية بالإطاحة. وفي تلك الفترة ظهرت على الساحة جريدة «أخبار اليوم»، وبدا اتجاهها واضحا منذ أول يوم لصدورها، فقد كانت أنشط الجرائد وأكفأها في القيام بمهمتين معا : تلطيخ سمعة الوفد، وتجميل صورة الملك. وأحاطت الجريدة هاتين المهمتين بهالة من الضوضاء الإعلامية لم تعرفها مصر من قبل. وغرق المواطنون العاديون في هذه الهالة إلى آذانهم. وشعرنا بأننا أمام طراز جديد من الإعلام. وقبل ذلك بقليل كان الوفد يصدر جريدة حزبية باسم «الوفد المصرى»، كان شغلها الشاغل تجميل صورة الحزب، وقد تولى رئاسة التحرير فيها محمد مندور، وكان قد عاد في أواخر الثلاثينيات من بعثة علمية طويلة الأجل في باريس، وكان لاسمه وزن بيننا في الجامعة. ومع أنني كنت أقرب إلى التعاطف مع الوفد فقد استثار صدور جريدته على هذا النحو (حاملة اسم مندور كرئيس للتحرير) سؤالا ظل يتجدد في نفسي من حين لآخر، مؤداه : أليس هذا إهدارا للعلم الذى تعلّمه مندور في بعثته؟ وللمال العام الذى أنفق على هذه البعثة طوال الثلاثينيات؟ ولحق الجامعة عليه وعلى من بيدهم الأمر يوم تقرر إيفاده في تلك البعثة؟ وأخذت ، ولازالت تتوالى في ذهنى توابع لا حصر لها لهذا السؤال. الشيء المهم أن هذا الضجيج الفارغ الذى امتلأت به الساحة السياسية انتهى بحكومة أحمد ماهر إلى إعلان الحرب على ألمانيا واليابان في فبراير سنة ١٩٤٥، وكان ذلك أسوة بما فعلته عدة دول صغيرة في الفترة نفسها إظهارا لولاء التبعية (بارجواى، وبيرو، وشيلى، وفنزويلا، وأوراجواى، وتركيا). وفجأة وعلى غير توقع، اغتيل أحمد ماهر، اغتاله شاب اسمه محمود العيسوى. وجاء هذا الحادث إيذانا بانتقال العمل السياسى لدينا إلى مستوى جديد من العنف ؛ عنف الأفعال، بعد أن كان يقتصر على عنف الأقوال، ولا أزال أذكر سؤالا محوريا فجره الحادث في ذهنى وقتئذ : ماذا عساه

يحدث فى مصر بعد ذلك؟ وفيما بعد اقترنت بالسؤال عبارة قاتمة : ويل لمصر من بعض أبنائها .

مستقبل العالم

وبقدر ما كانت النزاعات على مسرح السياحة الداخلية تتسم بالتخبط كانت محصلة الصراع على مسرح السياسة العالمية من الربع الثانى من الأربعينيات واضحة المعالم محددة الاتجاه. وبقدر ما كانت النزاعات الداخلية تطفح بالعبث والطفولية وانعدام الشعور بالمسئولية كانت الصراعات على مسرح السياسة العالمية تتميز بدرجة عالية من الجدية، إذ تدار حول التخطيط للمستقبل القريب والبعيد، وتستخدم الفكر، وتفصل البرامج.

فى أواخر بسنة ١٩٤٣ اشتد الجدل داخل دوائر الحلفاء حول ضرورة فتح جبهة ثانية فى غرب أوربا لتخفيف الضغط الواقع من القوات الألمانية على الجبهة الشرقية حيث يكاد الاتحاد السوفييتى يتحمل وحده عبء دحر هذه القوات. وفتحت الجبهة الثانية فى نهاية الأمر، وبدأ إنزال الجنود والعتاد على الشواطىء الغربية لفرنسا حوالى منتصف سنة ١٩٤٤. وفى توقيت مقارب عقد الحلفاء الغربيون مؤتمرا اقتصاديا فى مدينة هامبشاير عرف باسم مؤتمر «بريتون وودز» وذلك لصياغة المبادئ العامة لاقتصاديات العالم فيما بعد الحرب وابتكار الآليات المناسبة، وفى إطار هذا المؤتمر أنشىء صندوق النقد الدولى، والبنك الدولى. هكذا تم التدبير لخطوات الحرب القريبة، والتخطيط لاقتصاديات العالم البعيدة، أما التفكير فيما سيكون عليه العالم سياسيا فقد عقد له مؤتمر يالطة بين كبار الكبار : روزفلت، وستالين، وتشرتشل فى فبراير سنة ١٩٤٥. وتوالت فى الوقت نفسه أحداث اندحار الألمان حدثا بعد الآخر. حتى كان آخرها توقيع المارشالات الألمان وثائق الاستسلام بدون قيد ولا شرط فى مايو سنة ١٩٤٥. وانتهت الحرب فى أوربا . ولا أزال أذكر مشاعرى وأفكارى قبيل بلوغ هذه النهاية، كنت حريصاً على متابعة الأنباء، وكان ما يشغلنى فعلا هو شعور الإجلال والإكبار لجميع الفرقاء المشاركين فيها، لأن كل فريق بدا وقد

التكوين

أدى واجبه إلى آخر قطرة من دمه؛ وأتساءل الآن، ألم أكن انفعل للجانب المأساوى فيها؟ لا أظن أننى شغلت بالتعرض لهذا الجانب، وربما كان السبب أن المأساة كانت فى يقينى أكبر بكثير من أن يتناولها أى انفعال.

ونعود إلى سيرة الحرب، وبلوغ نقطة النهاية فى أوربا. فلم نكن نفرغ من أنباء أحداثها حتى فاجأتنا أنباء أحداث لا تقل أهمية فى تأثيرها فى حركة التاريخ، وإن اختلفت الدلالة هذه المرة، إذ جرت الأمور فى الغرب بصورة شدت انتباهنا لحسابات جديدة، فلم ينفرد ساسة الحرب بالتخطيط لما بعد الحرب كأنما أصبحوا أوصياء على شعوبهم، ولم تترك هذه الشعوب لساساتها أى فرصة لكى يحلموا بهذه الوصاية، ناهيك عن ادعاء الحق فيها، فبعد انتهاء الحرب بشهرين اثنين، أى فى يوليه ١٩٤٥ جرت الانتخابات التشريعية فى انجلترا، وإذا بالشعب الانجليزى يسقط تشرشل وحزب المحافظين، ويولى رئاسة الوزارة كلمنت أتلى وحزب العمال، مع أن تشرشل (على رأس حزب المحافظين) كان البطل الذى أنقذ بريطانيا فى الحرب بفضل صلابته المتبصرة وحنكته السياسية عالية الاقتدار. ولكن هذه الشهادة التى كانت تلقى الإجماع لم تكن لتغرى أحدا أو تبرر له أن يضفى على الرجل أى معنى من معانى التقديس. وقرأنا نحن فى مصر هذه الأخبار، ورأى بعضنا فيها مظهرا من مظاهر نضج الشعوب والساسة معا، ورأى بعضنا الآخر فيها جحودا من الشعب الانجليزى نحو زعيم عظيم، ورد البعض الأول على ذلك بأن مصالح الشعوب لا يجوز التعامل بشأنها كما تعامل الأوسمة والنياشين، تمنح لهذا أو ذاك على سبيل الشهادة بالأمجاد الشخصية!

أقبح من الحرب

وبعد استسلام ألمانيا اتجهت الأنظار إلى الشرق الأقصى، حيث كانت الحرب لا تزال تدور بين الحلفاء واليابان، وفى

ذاكرتى الآن أن المشهد هناك بدا وكأنه فى تصعيد يتسارع يوما بعد يوم؛ ففى مايو ١٩٤٥ أعلن عن تدمير ما يقرب من نصف مدينة طوكيو نتيجة تكثيف الغارات الجوية عليها، وفى يولية انعقد مؤتمر بوتسدام (بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى وانجلترا) وطلب إلى اليابان الاستسلام دون قيد ولا شرط. وفجأة جاءت الأنباء فى أغسطس باسقاط القنبلة الذرية على هيروشيما، وبعد ثلاثة أيام جاءت الأنباء بإسقاط القنبلة الذرية الثانية على نجازاكى. ثم بعد خمسة أيام أُخر أعلن إمبراطور اليابان استسلام بلاده غير المشروط .

وثارت فى جميع أنحاء العالم أسئلة لا حصر لها. كان معظمها يدور حول سؤال رئيسى واحد، هل صحيح ما تناقلته وكالات الأنباء عن القوة التدميرية للقنبلة الذرية؟ وهل كان استخدامها ضروريا لإنهاء الحرب؟ وسرى فى دوائر متعددة الشعور بأن قرار إسقاطها على المدينتين المنكوبتين جاء متسرعا. وثار على الأثر سؤال: ولماذا هذا التسرع؟ قيل إن التسرع كان فى حقيقته إسراعا بتوجيه رسالة ضمنية إلى الاتحاد السوفييتى. وثار سؤال آخر حول توقيت الإسراع نفسه؛ لماذا هذا التوقيت بالذات مع أنه كان من الممكن تقنيا أن يتخذ قرار الإسقاط قبل أغسطس بعدة شهور لحسم الحرب فى أوربا، فلماذا لم يتخذ حينئذ واتخذ فى أغسطس ليتم تنفيذه فى الشرق الأقصى، على اليابان؟ فهل كانت لهذا القرار جذور عنصرية؟ ولم تكن الولايات المتحدة فى ذلك الوقت مبرأة من وصمة الأيديولوجية العنصرية .

وهكذا كانت سنوات الربع الثانى من الأربعينيات، بالنسبة لى، ولمصر، وللعالم. منبئة أكثر من غيرها مما سبقها، ومسرعة وأشد امتلاء. وتخرجت فى الجامعة عند منتصف الأربعينيات، فكان السؤال أمامى: وماذا أنا فاعل بنفسى الآن؟ واغتيل أحمد ماهر رئيس الحكومة فى ذلك التوقيت فكان السؤال المطروح على الجميع: وماذا تخبىء الأيام لمصر بعد اليوم؟ وفتح ساسة أميريكا فى وجه العالم أبواب الجحيم الذرى. وتساءل الجميع، الغالب والمغلوب. إلى أين المصير؟ ▩

أنت والهلال

ظواهر جامعية جديدة !

جاء بمقال الاستاذ مصطفى نبيل رئيس التحرير والذى نشر فى عدد ابريل الماضى، ملاحظاته والتى وصفها بأنها مؤسفة فى الجامعة فيما يختص بعدم حضور الطلاب لمناقشة الرسائل الجامعية سواء الدكتوراه أو الماجستير ، عكس ما كان يجرى فى الماضى .

وإذا كنا بصدد تشخيص موضع الأزمة فى حياتنا الفكرية والثقافية ، فإن الظاهرة موضع الدراسة ، ما هى إلا مؤشر واضح لمشكلة أكبر وأخطرمن ذلك ، وهى تراجع وفشل النظام التعليمى فى مصر عن تحقيق أهدافه !

وأستشهد هنا بما قاله الدكتور فؤاد زكريا فى كتابه «آراء نقدية فى مشكلات الفكر والثقافة : «فى اعتقادى أن أية مناقشة جادة لمشكلات التعليم ، إذا ما سارت إلى مداها الطبيعى ، وامتدت إلى أبعادها المنطقية ، فلابد أن تقضى آخر الأمر إلى مناقشة أسلوب حياتنا فى أعم صورة ، ولابد أن تنتقل من المنظور الضيق للمشكلات التعليمية على وجه التخصيص إلى المنظور الأوسع لمشكلاتنا الاجتماعية فى المرحلة الراهنة من تاريخنا .

محمد صلاح ياسين غازى
جامعة طنطا

●● الهلال :

فى كثير من المقالات والدراسات التى ننشرها ضرورة الاهتمام بمشكلات التعليم وإعطائها الأولوية حتى يمكن أن ننطلق فى تحقيق الكثير من النجاحات فى حياتنا العلمية والعملية .

مسافر بلا أمل

أيا وطنا نفى الأبناء منه ... ويزعم أنه منهم قريب
ألا تشتاق للأحباب يوما ... كما يشتاق تربتك الحبيب
جراحى منك تنزف كل يوم ... فهل يا جارحى أنت الطبيب
أيا وطنى لك العينان شمسا ... فخذها قبل أن يدنو الغروب
ولا تعجب لعشقى يا حبيبى ... فما فى العشق من شىء عجيب
إذا بادلتنى حبا بحب ... ستعذر مهجتى عما تذوب
فإنى ما دفئت بأى حضن ... لغير هواك قلبى لا يطيب

درهم جبارى
سان فرانسسكو

تحيتان .. وعتاب !

شد ما أعجبني مقال الكاتبة / صافي ناز كاظم ، في عدد مارس ٢٠٠٠ م ، عن «قاسم أمين» وأعماله الكاملة ، وما أبدته من آراء حصيفة ، تنم عن قلم نظيف ، وفهم عميق لحقائق الأمور عامة ، والإسلام خاصة .. فإليك تحيتي .

تلك كانت أولى تحيتيّ ، أما ثانيتهما فلمجلتنا العريقة «الهلال» لما تحويه بين دفتيها من درر مختلفة ألوانها وأشكالها .

أما عتابي الوحيد ، امتثالاً لقول الشاعر :

«أقلي اللوم عاذل والعتابا»

فأهمس به في أذن صاحبة التحية الأولى - الكاتبة / صافي ناز كاظم ، لإصرارها على وضع همزة القطع موضع همزة الوصل . والفصل بينهما من القواعد المقررة عند أهل «الذكر» من علماء اللغة .. وليس الفصل بينهما ترفا ، وإنما هو من مظاهر الدقة في استعمال اللغة ، هذه الحقيقة أسوقها على استحياء ،لولا ما أتوسمه في الكاتبة الفاضلة من حب للحق ، وهي التي حملت على «البطل» ! لاجتهاده في جعل اللغة العربية تابعة خاضعة لكل دخيل من لغة «الاسياد» ! ودمت لنا .. يا سيدتي حاملة لراية الحق .

محمد محمود الشناوي

بورسعيد

بين أروقة السراب

يا عـــشـق أوهمــــتـنـي أنَّ الجـــوى قـــدري
مـــا غـــرنـي غـــيـــر طيف حين ســـامـــرنـي
ألـقـــيت في رحـــبـي وجـــدا غـــشـي ولـهـي
نـاديـت أطيـــارك الـثـكـلـي تحـــاصـــرنـي
تـنـســاب في وهـج ، كـــيـــمـــا تـســاومـنـي
فـــالشـــجـــو في زمن يجـــفـــو ، يصـــادرنـي
لـكـنّ لي قـــســـمـــا مـــا كـنـت أغـــفـلـه
فـــالـقـلـب حـــذرنـي ، كي لا تـشـــاطـرنـي

والجـرح علمنى درسـاً بذاكـرتى
لـو كـنـت أنـســـــاه ، أشـــــواق تـبــــادرنــى
فــــالـلـيـل عـــــاهـدنـى ، بـالـدوح ســـــربـلـنـى
حـــــتى وإن صـــــرت أنســـــامـــــاً تـؤازرنـى
فـالشـمس لو بزغت يومـاً بأنسـجتى
فـــــالـظـل لـى لـغـــــة دومـــــاً يـحـــــاورنـى

عبد الناصر الجوهري
عضو نادى الأدب - المنصورة

كيف نعد علماء المستقبل ؟

احـتـفلنا واحـتـفـينا بالدكـتـور زويل لما حـقـقـه بعـد حـصـوله على جائزة نوبل ، وهذا الاكتشاف الكبير المدوى الذى بفضله حصل على الجائزة ، وما سوف يحققه للبشرية من تقدم وازدهار فى ميدان العلوم والطب .

لكن ما أتمناه هو أن يحذو العلماء فى مصر حذوه ، ويحققوا ما حققه .. صحيح أن النبوغ الذى حققه جاء نتيجة لاستكمال دراسته فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وتوفير المناخ المناسب ، وهذا الفريق من الباحثين الذين عملوا معه حتى تحقق اكتشاف (الفيمتو ثانية) .

وبالطبع لابد أن يتوفر المناخ الملائم لعلمائنا المصريين ، حتى يمكن أن نجد عشرات منهم مثل د . أحمد زويل .

وهذا يتطلب تكاتف المؤسسات العلمية وبعض الشركات المهتمة من أجل تيسير البيئة البحثية المناسبة وتقديم التمويل المناسب وتفرغ العلماء فى فرق بحثية متكاملة ، بدلا من الجهود الفردية التى تضيع سدى .

أيضا لابد من تطوير التعليم فى جميع مراحله وبما فى ذلك الجامعة والمراكز العلمية والبحثية ليكون أسلوب الابتكار والبحث والاجتهاد والخروج بنتائج وأفكار متطورة ، بدلا من أسلوب الحفظ والتلقين .

حسن عبد المجيد منتصر
فارسكور - دمياط

●● الهلال :

نحن أشرنا إلى هذا فى افتتاحيات «الهلال» وبعد فوز د. زويل وبينا بصراحة رأى الفائز بنوبل فى توجهاته لإنشاء الجامعة التى وضع حجر أساسها ولتكون معملا حقيقيا لتفريخ العلماء من أبناء مصر ، وليحقق علماؤنا الريادة كما كنا فى الماضى .

أشعار الحب والمحبين

سئل أعرابى عن الحب فقال : ما عساه أن يكون هل هو إلا سحر أو جنون أو زفرة بعد زفرة وحر على الأحشاء ليس له برد . يقول الشاعر محمد بن مبادر :

من فتا اصبح في الحب　　سقاه الحب سما
كلما أخفى جوى الحب　　عليه الدمع نما
ساهر لا يطعم النوم　　إذا الليل أدلهما
أنتم كل همى فإن لم　　تصلونى مت غما

وتتصاعد الشكوى من قلوب المبتلين بالحب حارة كألسنة اللهب يقول الشاعر محمد ابن أمية :

فوالله ما أدرى أمن لوعة الهوى　　صبرت على التقصير أم ليس لى قلب
أتح لنا أمــرا والفـــؤاد يسوده　　أجن فؤادى فى الهوى هل هو الحب

ويشفق ابن أبى حصين على العشاق مما يلاقونه من الهجر والفراق ومن الحرقة والجوى لذا فهو يحسد من لم يحب ويقول :

والعشق يجتذب النفوس إلى الردى　　بالطبع واحسدا أن لا يعشق
ترك الخيـــال فهاج لى بطروقه　　ولها فليـت خيالها لم يطرق

محمد أمين عيسوي
الاسماعيلية

القصبجى عازف العود الشهير

تحدث د . جلال أمين في مقاله «أم كلثوم والقصبجى » فى مارس ٢٠٠٠ عن هالة التقديس التي أحاطت بأم كلثوم وأدت إلى حجب الضوء عن فنانين آخرين كالقصبجى .. وبالرغم من صدق هذه المقولة إلا أن أسبابا أخرى لا يجب إغفالها أدت إلى إهدار حق هؤلاء الفنانين ، منها مسئولية الملحن .

فبالنسبة لمسئولية الملحن فإن محمد القصبجى الذي يعد من أمهر عازفي العود ومعلما لمحمد عبد الوهاب ذاته فى عزف هذه الآلة قد انكفأ على نفسه ولم يحاول إثبات ذاته وقدرته على الخلق والإبداع ، بل لم يسع لأن يحتل العود المكانة اللائقة به فى فرقة أم كلثوم ، حيث تعودنا أن نسمع دائما قانون محمد عبده صالح يطغى على الآلات الأخرى ويقودها ، ولا نكاد نسمع صدى لصوت العود فى أغنية من أغنيات أم كلثوم إلا فيما ندر .

وقد نعذر الرجل لأنه فنان صادق مرهف الحس وتضطرم رأسه بألحان شتى ربما كان يخشى عليها من نفسه ومن الآخرين أيضا ، فازدحام الألحان على الأوتار قد يودى باللحن والأداء معا .

ولو كان القصبجى قد نجح فى إبراز شأن العود وشأنه هو كملحن ملهم فلربما كان قد تغير حاله وحال غيره من الملحنين ، ولما انكمش دور العود في فرقة أم كلثوم وفى غيرها من الفرق ، خاصة إذا قدرنا أن العود يكاد يكون هو الآلة الوحيدة التى كان يعتمد عليها الملحن فى ذلك الوقت الكلثومى الجميل .

عادل شافعى الخطيب
عضو اتحاد الكتاب

كم الوقت ؟

كم الحزن يا سيدى؟
كل نبضة قلب تقاذفها الحسرات
كم العمر يا سيدى؟
ألف صيف ومليون قلب نحرت على مقصل الأضحيات
كم اللون يا سيدى؟
شفقى.. تلبد حمرته بالرماد
كم الوقت يا سيدى؟
قرب مشرق شمس من الغرب.. قرب شتات الشتات
ومازلت تغرس فى دمنا الأمنيات!
وتنساب شعرا وتمضى
كأنك ترغب تخبىء ما اشتقت من دمع عينيك عنا حييا
ونرجوك تبقى قليلا.. قليلا
تشاركنا اللحظات
فيفتر قلبك عن بسمة ورويدا رويدا
تقاسمنا الضحكات
عن الزمن العذب تروى الحكايا
وتروى الظمأ

إيهاب البشبيشى

تعليق حول مقال الدكتور رجب البيومى

علق الأستاذ محمد إبراهيم عامر فى باب «أنت والهلال» بمجلة الهلال عدد إبريل ٢٠٠٠ على مقال الدكتور محمد رجب البيومى «المرأة بين محمد عبده وقاسم أمين» ذاكرا أن الدكتور رجب البيومى هو الذى قال إن والد السيدة درية شفيق هو أحمد شفيق باشا المؤرخ المعروف. ولكن الحقيقة أن من يقرأ مقال الدكتور رجب البيومى يجده يصحح ما قاله عن غيره، وينفى ذلك كلية. كما ذكر المعلق أن مقال الدكتور رجب البيومى يشير

إلى أن الإمام محمد عبده كتب مقالات فى كتاب تحرير المرأة لقاسم أمين. والصحيح أن من يقرأ مقال الدكتور رجب البيومى يجده ينفى عن محمد عبده كتابته لهذه المقالات. لذلك أتوجس خيفة أن يتصور أحد ممن لم يقرأ مقال الدكتور رجب البيومى فى الهلال عدد فبراير ٢٠٠٠ ثبوت هذا الكلام عنه. لاسيما أننا عهدنا دائما فى أى مقال يكتبه الدكتور رجب دقته فى تحرى الحقيقة، وحرصه على أمانة الكلمة، وصدقه فى كل ما يقول ويكتب. ورجائى من الأخ العزيز المعلق أن يعيد قراءة المقال المذكور مرة أخرى حتى يطمئن قلبه، ويستريح فكره على حقيقة ما غاب عنه.

صلاح عبدالرحيم محمد

المنصورة - شارع الجلاء

رحيل قاص فى صمت شديد!

فقدت الحركة الأدبية ناقدا مهما هو عبدالرحمن شلش والذى أدى دورا فى الحياة الأدبية المصرية من خلال جهوده فى نادى القصة وإسهاماته فى مجال القصة القصيرة ومقاله النقدى الأسبوعى فى صحيفة المساء. كتب فى العديد من الصحف العربية، وشارك فى تحرير العديد من المجلات الأدبية. وبعد هذا الجهد الكبير داهمه المرض وانتصر عليه ليرحل عنا فى منتصف ابريل الماضى.

وكان حتى الساعات الأخيرة يمارس نشاطه فى نادى القصة، فى عقد الندوات والاتصال بالأدباء.

وعلى الرغم من انتاجه الغزير فإنه لم ينشر كتبه فى أية مؤسسة خاصة أو حكومية، وكان يحرص على نشر كتب شقيقه الراحل د. على شلش فى هذه الموسسات.

لكن هل يظل الموقف من عبدالرحمن بعد وفاته، فلديه تحت الطبع روايتان وثلاثة كتب نقدية، فياترى أى هذه المؤسسات سوف تسهم فى طبع أعماله؟!

فرج مجاهد عبدالوهاب

شربين - دقهلية

ردود الأصدقاء

●● كثيرا ما تشاجرنا

يحطم أوان الزهر، يحطم المرايا

يحطم الأباريق الكرستالية النادرة الصنع!!

وحينما يهدأ. أميل عليه ، أقبله، ألملم بقايا البلور المكسور.

هكذا كتبت إلينا الصديقة إيمان محمد العطيفى بعضا من إنتاجها ونقول : بالله هل قرأت يا عزيزتى شعرا هكذا..

بقية ما تسمينها قصيدة، هى على شاكلة قصيدة النثر إياها والتى لا نفهم منها شيئا..

الشعر فن جميل، يحتاج إلى الموهبة والدراسة العميقة الصعبة، فإذا توفرت الموهبة، فعليك بالباقى.

●● الصديق قدري صابر توفيق ـ سوهاج

وصلتنا رسالتك، ونؤكد لك بأن «الهلال» حريصة على تقديم كل فنون الكلمة فى النقد والقصة والعلم والأدب، فضلا عن الشعر ويكتب لنا بشكل منتظم الآن الكاتب الكبير الدكتور محمد رجب البيومى والكاتب الكبير الدكتور محمد عمارة فى مجالات الثقافة الإسلامية ، كما أننا نضم صوتنا إلى صوتك فى أن يكتب الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل مقالات للهلال، وكما تعلم فقد تفرغ منذ وقت طويل لكتابة كتبه السياسية والتى نحرص على عرضها على صفحات الهلال.. ونشكرك كثيرا .

●● الصديق عاصم البرقوقي

نرفض تماما مثل تلك الأغانى التى لا معنى لها ، ولكن يا صديقى، الفن الهابط ينتهى بسرعة وينساه الناس!.

●● الصديق سعيد عبدالقوي محمد ـ بني سويف

وصلتنا قصيدتك «من وحى الهجرة المباركة» والتى تقول بعض أبياتها:

يا اكرم الخلق　　من سام ومن حام

أنت الملاذ لنا　　من كل أوهام

ما أجمل الذكرى　　تأتى بأنسام

يا يوم هجرته　　ياخير أيامى

●● الصديق د. وليد ربيع المحجوب ـ كلية الطب ـ أسيوط - ديروط:

«رسالة إلى أب» .. القصيدة التى أرسلتها إلينا فكرتها جميلة ، وفى انتظار قصائد أخرى منك..

ونشكرك على كلماتك الرقيقة عن «الهلال» : «إنها حقا تحفه فريدة فى زمن قلت فيه الاهتمامات الأدبية».

●● الصديق زكريا عبدالرحيم عبدالوهاب ـ أبنوب ـ أسيوط

«قصيدتك: وهج الصبابة فى عيون قصائدى» بها بعض المقاطع تحتاج إلى تعديل فى الوزن، لكننى أنشر مقطعا منها:

«عمرى المنثور فى عينيك
أغرى أمنياتى
أن تسافر للسديم
وأن تجوب العالم المخبوء
بحثا عن زمان حاتمى
يمنح الأشعار روحا
لم تذق طعم التغرب
ترحم الشعراء من عبث المدائن

●● الصديق عبدالرحيم أحمد عبدالخالق ـ شبراخيت

قلت فى رسالتك أنك تجمع بين بعض الفنون مثل النحت والرسم والخط العربى وكتابة الشعر الحر.. وأما عن الشعر، فتحتاج إلى وقت، ولكننا لم نشهد بقية هذه المواهب، ربما تكون فيها أفضل!

●● الصديق د. أحمد عبدالحافظ عبدالباقي ـ منيا القمح ـ شرقية

كلامك حول عيد العمال جيد جدا، ومطلوب فعلا رفع الكفاءة العلمية وتحسين الأداء المهارى والتكنولوجى لدى عمالنا. كما ينبغى فعلا الاهتمام فى مجال السوق بالتخطيط السياسى والاقتصادى وتنويع مصادر الانتاج.

●● الصديق عصام الدين محمد ـ بولاق الدكرور ـ زنين

قصتك «مقام الريح» جيدة، ونعتذر عن النشر لضيق المساحة.. وشكرا لك.



الكلمة الأخيرة

لافضل لأعجمى على عربى

د. جلال أمين

حز فى نفسى أن أسمع أن فرق الموسيقى العربية تعامل من دار الأوبرا المصرية معاملة رديئة، ويميز ضدها لصالح الفرق التى تعزف موسيقى أفرنجية ، وأن عقدة النقص المشهورة قد زحفت إلى دار الأوبرا أيضا . ولم لا ؟ فلم لايكون حظ الموسيقى العربية مثل حظ اللغة العربية والأدب العربى والأخلاق العربية..إلخ.

أنا أعرف أن فى الموسيقى الغث والسمين ، العابر والباقى ، الذى سرعان ما يملّه الناس وما لا يمله الناس مهما مر الزمن. وهناك من الموسيقى ما يثير مشاعر عدوانية أو الشهوة الجنسية ، ومنها ما يثير مشاعر رقيقة للغاية كالتعاطف مع الآخرين وحب الحياة... إلخ . ولكن هذا موجود فى الموسيقى العربية والموسيقى الشرقية على السواء ، العربية وغير العربية. فلماذا هذا التكبر على الموسيقى؟!

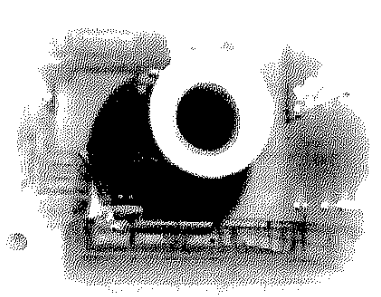
أنا بصراحة أطرب كل الطرب لسماع لحن مثل «غنى لى شوية شوية» لزكريا أحمد ، ولا أمل سماعه مهما مر الزمن، مثلما أطرب لسماع لحن «الدانوب الأزرق» لشتراوس ولا أملّ أيضا سماعه، ويستحيل علىّ أن اعتبر أحدهما «أفضل» أو «أرقى» من الآخر ، كما أتأثر تأثرا شديدا بسماع لحن «رق الحبيب » للقصبجى ، الذى مر عليه أكثر من نصف قرن ، مثلما أتأثر بسماع الحركة الأخيرة ، ذائعة الصيت ، من سيمفونية بيتهوفن التاسعة ، ولايمكن أن أسمح لنفسى بأن أعتبر الأولى «متخلفة» بالمقارنة بالثانية، بل إنى فضلا عن تأثرى بجمال القطعة ، أجد فى نفسى جانبا تخاطبه المقطوعة العربية ولاتخاطبه القطعة الغربية. ولعل السبب أن اللحن العربىّ يتميز فى تكوينه على عناصر دخلت فى جهازى العصبى وتاريخى النفسى والعقلى منذ الطفولة . كلغتى ودينى وعاداتى... إلخ ، مما لا يتوفر فى اللحن الغربى ، مهما كان جماله.

فلماذا يصرّ بعضنا على التنكر لأصله ، وعلى التنازل بطيب خاطر عن شىء من أجمل وأثمن ما لدينا؟.

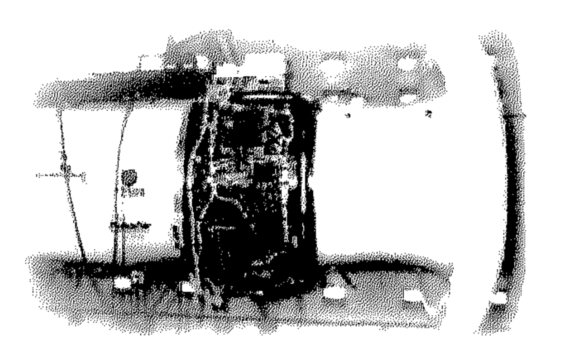
مصر للطيران

بأحدث ما أبدعته التكنولوجيا تواكب الالفيه الثالثه

اكبر مجمع هندسى لصيانه و عمرة الطائرات



- المجمع الهندسى نقله تكنولوجيه حديثه لصيانه و عمرة الطائرات بالكامل.
- القاعدة الهندسيه تضم أحدث جهاز لاختبار المحركات.
- هنجر لصيانه و طلاء الطائرات العملاقه.
- تتسع القاعدة لطائرتين عملاقتين وطائرتين متوسطتين.
- بلغت تكلفه المجمع الهندسى الجديد ٣٥٠ مليون جنيه مصرى.







روايات مصرية للجيب

لفتح آفاق الثقافة والمعرفة فى عقول الأولاد والبنات

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٧٨٣٩٥٥٤ - ٢٨٦١١٩٧
فاكس ٠٢/٢٨٢٧٠٧٢

الهلال

يونيه ٢٠٠٠ • الثمن جنيهان

علاقة الأنبياء بمصر

التراشق بالمذكرات في الجزائر



تكفير وهجرة أمريكي



فروع المعاملات الإسلامية

تحقق رغبة الملايين

وتقدم

شهادات بنك مصر للمعاملات الإسلامية
ذات العائد الشهرى

- الشهادة إسمية ومدتها ٥ سنوات قابلة للتجديد
- فئة الشهادة ١٠٠٠ جنيه مصرى أو دولار أمريكى ومضاعفاتها

يصرف عائد شهرى تحت حساب الربح أو الخسارة يتم تسويته كل ٦ شهور تبعاً لنتائج الأعمال التى تظهرها المراكز المالية لفروع المعاملات الإسلامية

- يمكن استرداد ... أى وقت بعد مضى

ار

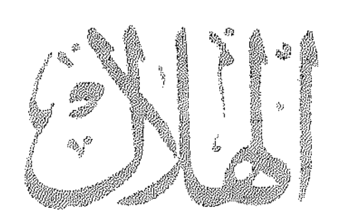
ضمان الشهادة

فروع ... ـعد الاقتصاد الإسلامى فى مصر

اهداءات ٢٠٠١

أ.د أحمد أبو زيد

أنثروبولوجى



مجلة ثقافية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الثامن بعد المائة

يونيه ٢٠٠٠ ● صفر ١٤٢١ هـ

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

الإدارة القاهرة – ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب : ٦١ – العتبة – الرقم البريدى : ١١٥١١ – تلغرافيا – المصور – القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ – تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى : darhilal@idsc . gov . eg

مصطفى نبيل رئيس التحرير

محمد أبو طالب المستشار الفنى

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المدير الفنى

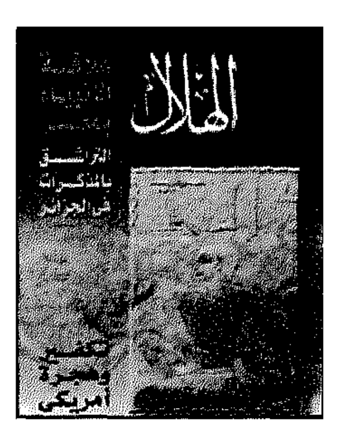
ثمن النسخة سوريا ٦٠ ليرة – لبنان ٣٠٠٠ ليرة – الأردن ١٢٠٠ فلس – الكويت ٧٥٠ فلسا، السعودية ١٠ ريالات – تونس ١.٧٥٠ دينار – المغرب ١٥ درهماً – البحرين ١ دينار – قطر ١٠ ريالات – دبى/ أبو ظبى ١٠ دراهم – سلطنة عمان ١ ريال – الجمهورية اليمنية ١٠٠ ريال – غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار – إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة – المملكة المتحدة ٢,٥ جك

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عدداً) ٢٤ جنيها داخل ج م. ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية – البلاد العربية ٢٠ دولارا، أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً، باقى دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول – ص ب رقم ٢١٨٣٣ – الصفاة – الكويت – ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ونرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

هذا العدد



تصميم الغلاف للفنان محمد أبوطالب

فكر وثقافة

دائرة حوار

فنون

شعر وقصة

التكوين

الأبواب الثابتة

عزيزى القارىء

فى ذكرى ٥ يونيو

☐ فى يونيو .. ومع بداية صيف ساخن ، نعود بذاكرتنا إلى الوراء ثلاثة وثلاثين عاماً ، ونتذكر هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ ، وما أحدثته من أثر فى الوجدان العربى .

ولا يجوز ذكر هزيمة يونيو . دون الوقوف عند انتصار أكتوبر ، الذى كان بمثابة معكوس هزيمة يونيو ، ولا يجوز أن تتحول يونيو إلى حائط مبكى ، فلا وقت للبكاء على الأطلال ، ولا الحزن على اللبن المسكوب ، وإنما الوقت وقت جد وعمل .

ويبق استخلاص عبر يونيو ، فليس صحيحاً ما يتردد ويروج من أن يونيو تعنى هزيمة أفكار ومبادىء ثورة يوليو ، وليس صحيحاً ما تردد أيامها من أن مصر ليست بلداً مقاتلاً ، فتلك محاولات العدو لاستكمال انتصاره العسكرى ، وحتى تصل الهزيمة إلى العقل وإلى أعماق النفوس . وقد أخذ يعمل على التشكيك وهز ثوابت المجتمع المصرى حتى الجغرافية والتاريخية منها ، على أمل تفكيكه وصرفه عن قضايا العدل والحرية ، وبدلاً من القول أن ما جرى فى يونيو كان نتيجة أننا لم نأخذ المنهج الوطنى بالجدية المطلوبة ، ولم نأخذ أنفسنا بالشدة الضرورية ، من أجل جعل الوطن أكثر حداثة وموطنا للحرية والتقدم ، بعد أيام طويلة من السيطرة الاستعمارية .

فيونيو ترمز فى التاريخ إلى انتشار مناخ التخلف والاستسلام الذى يقضى على كل تطور ، ويونيو هى السعى الدائم إلى تدمير خلية من خلايانا الفكرية ، وتفكيك ثقافتنا الوطنية والنيل منها ، فلا يمكن لأحد أن يتخيل أن مجموعة شديدة التعصب تعتنق منطق محاكم التفتيش وتتصور أنها وحدها تملك الحقيقة ، وتجعل من نفسها حكماً على الإنتاج الأدبى والفنى ، وتستبدل الإرهاب الفكرى بالحوار الهادىء . وكأننا نعود سريعاً إلى عصر الدجالين والجهلاء . ونفتش فى تلافيف العقل والضمير .

ويونيو هي أن يتهم بعضنا بعضا بأبشع التهم ، ونتجه إلى الاستقطاب والانقسام وكأننا نتجه مغمضى العينين إلى الهاوية .

وأكتوبر تعنى التصدى الشامل للتخلف ، وحماية أصحاب العقول من فتاوى التكفير ، وظهور تيار عام يبادر ويعمل ويشغله مستقبل وطنه ، ويعمل خلال جدول صارم للأولويات .

وقضية أخرى كثيراً ما تكون محل إلتباس .. فلا يعنى بأية حال توقيع إتفاقيات السلام بين مصر وإسرائيل نهاية الصراع ، وانما معناها تحويل الصراع ليأخذ منحى آخر ، يستبدل الصراع المسلح بصراع حضارى ، ميادينه المثلث الذهبى بأضلاعه الثلاثة التعليم والثقافة والإعلام ، صراع يدور فى كافة مواقع الإنتاج ، تنافس على ما تحقق فى العلوم والاستثمارات والخدمات ، صراع على مستوى المعيشة ، وهو صراع له السبق فيه الأكثر علماً والأكثر حكمة ، ينتصر المجتمع الذى يتمتع الفرد فيه بالعدل والحرية ، والذى لا يحول دون السيادة والجسارة فيه الإرهاب أو القيود أو القمع ، ويكون للمواطن نصيب عادل من الحكم والثروة .

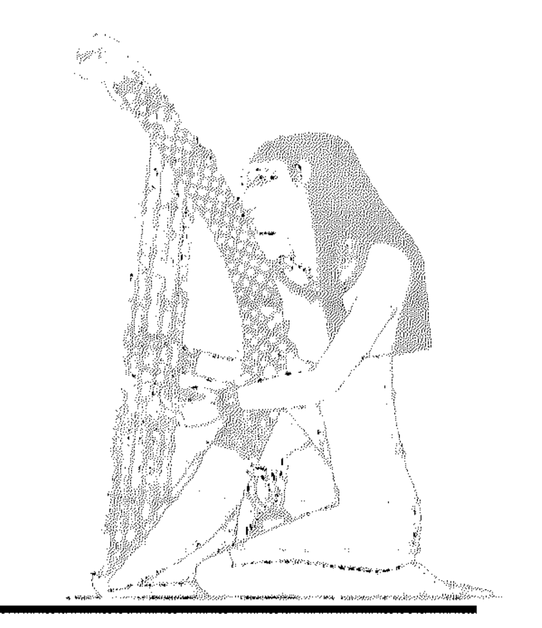
ويتوازن فيه الخاص والعام ، ويستطيع فيه المجتمع المدنى أن يملك آليات التصحيح وخريطة التقدم ، ولا يغرق أبناؤه فى قضايا هامشية لا تقدم ولا تؤخر .

وهاهى الخريطة التى وضعتها إسرائيل عقب يونيو عام ١٩٦٧ ، تحدد أهداف الصهيونية ، وترسم مجالات الصراع ، ورغبتها فى الهيمنة على الشرق الأوسط كله (مقال ص ١١٤) .

وهل لنا أخيراً أن نتساءل : لماذا لم يعد الألمان يتحدثون عن الهزيمة التى لحقت بهن فى الحرب العالمية الثانية ؟. ولماذا لم يتوقف تاريخ اليابان عند اليوم الذى ألقى فيه «ماك آرثر» بالقنابل النووية على بلادهم ؟!.

وكانت الهزيمة فى كليهما أكبر كثيرا من يونيو عام ١٩٦٧ ، فبعد أن وصلتا إلى ماهما عليه من تطور اقتصادى ، ومكانة سياسية .. وحد المجتمع فى كل منهما جهوده ، وتجنب العقل الجمعى الغرق فى مناقشات سفسطائية لا معنى لها ، وقبل وحدة ألمانيا ، لم تسمع من أى مسئول حديثا عن الوحدة الألمانية ، والعمل يجرى على قدم وساق لإقامتها ، ووجهت كل من ألمانيا واليابان جهودهما لامتلاك عناصر القوة الحقيقية فى العالم المعاصر.

أقول ذلك تعليقا على مناورات إسرائيل ، ومحاولاتها الهيمنة على الشرق الأوسط ، وتبين أن السلام عندهم يعنى تنازل العرب عن أرضهم وحقوقهم .



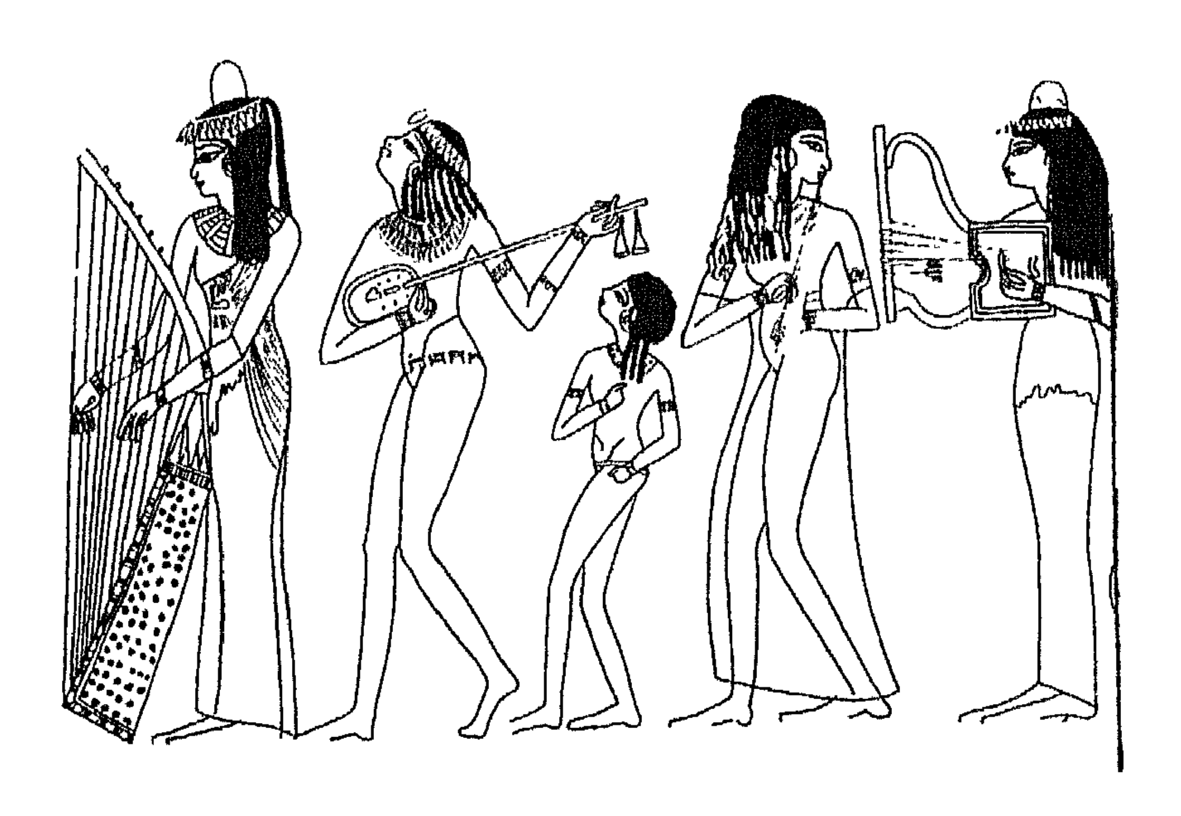
اكتشاف الموسيقى في العصر الفرعوني

قال أفلاطون:
«إن الموسيقى الفرعونية مناسبة لجمهوريتي»

بقلم : د. فتحي صالح•

الموسيقى جزء من المنظومة الاجتماعية المتكاملة التي نشأت وترعرعت فى الحضارة الفرعونية وسبقت غيرها من الحضارات فى تكامل الأوجه المختلفة من الحضارة من علوم وفنون وحياة اجتماعية وأفكار دينية. وفى هذا المقال نوضح كيف أن هذه المنطقة المتكاملة هي انعكاس للتعبير الشائع «مصر أم الدنيا» وكيف تفوقت مصر في المجالات المختلفة وأنه لا عجب أن تتفوق مصر أيضا في مجال الموسيقي والغناء كجزء من هذه المنظومة . وفي النهاية نوضح كيف ان فريق بحث يضم مؤلف هذا المقال أمكنه التوصل إلى نتائج علمية مبهرة تؤكد أن مصر كانت أول من استخدم السلم الموسيقي السباعي المعروف للعالم اليوم في موسيقاه السائدة وهو ما عدل مفاهيم كتب تاريخ الموسيقي التي كانت تنسب ذلك للحضارة اليونانية.

• سفير مصر السابق فى اليونسكو.



فرقة من العازفات مكونة من عازفة هارب وعازفة عود وراقصة وعازفة ناى وعازفة قيثارة من الأسرة الثامنة عشرة

مصر أم الدنيا

فهى البلد والأمة التى نشأت جذورها منذ حوالى ثمانية آلاف سنة قبل الميلاد على شكل أول تجمعات قبلية معروفة فى العالم وبذلك بدأت فيها التجارب الاجتماعية الأولى قبل أى مجتمعات أخرى وفى كتاب صدر فى فرنسا بعنوان «مصر أم الدنيا» يوضح المؤلف كيف أن فى هذا البلد مصر نشأت كل المعارف المختلفة التى يعيش عليها العالم حتى الآن. سواء المعارف الدينية أم العلمية بجوانبها المختلفة من طب وفلك وهندسة وطبيعة وكيمياء إلى درجة أن كل ما حدث بعد ذلك فى الحضارات الأخرى ما كان إلا امتدادا لهذه المعرفة فى مجالاتها المختلفة.

مصر أم المعرفة

وقد تقدمت المعارف فى مصر الفرعونية منذ بداية عصر الأسرات. وليس هناك دليل على مدى رقى هذه المعارف مثل ما يعطيه هرم خوفو والذى تم بناؤه منذ حوالى ٢٧٠٠ سنة قبل الميلاد.. ففى هذا الهرم تتجلى المعرفة الفلكية بالطريقة التى تم بها

توجيه هذا الصرح العظيم بدقة متناهية نحو الاتجاهات الأصلية الأربعة وهو ما يعجز معه العصر الحديث بأجهزته المعقدة. وكذلك فى التوجيه الدقيق للممر الخاص بغرفة الدفن اسفل الهرم نحو النجم القطبى. كما تتجلى فيه أيضا المعرفة بعلم الهندسة لما فيه من قياسات هندسية على درجة عالية من دقة سواء فى هندسة قاعدتها أو نسبة الهرمية التى تحتوى فى طياتها على النسبة الهندسية «ط» والرقم الذهبى «فاى» ويتجلى أيضا باعجاز تمكنهم من علم الميكانيكا والذى استطاعوا بفضله رفع قطع من الحجارة يبلغ متوسط وزنها ثلاثة أطنان إلى ارتفاعات تصل إلى حوالى ١٥٠ مترا من قاعدة الهرم. كما تجلت معرفتهم فى علم الطفو وقواعد ارشميدس فى تمكنهم من تصميم المراكب المناسبة لنقل قطع من الجرانيت يبلغ وزنها عشرات الأطنان من منطقة أسوان إلى الجيزة لاستعمالها فى غرف الدفن وكسوة أجزاء من الهرم وكذلك معرفتهم لأصول علم ميكانيكا التربة الذى يمكنهم من اختيار الموقع المناسب لبناء هرم مكون من حوالى ٣ ملايين قطعة حجرية وزن كل منها ٣ أطنان أى بوزن إجمالى للهرم يقدر بحوالى ٩ ملايين طن. ونحن نعرف انه لبناء عمارة عادية اصغر بكثير من حجم هذا الهرم يتم عمل اختبارات للتربة للتأكد من تحملها لثقل هذه العمارة فما بال ثقل هذا الهرم الذى يزن مئات بل آلاف المرات ثقل العمارات الكبيرة.

وأخيرا فإن بناء الهرم يعتبر مدرسة فى الإدارة فهو مشروع يقوم فيه عشرون ألف عامل بالعمل لمدة عشرين عاما. وناهيك عن متطلبات هذه المؤسسة من إدارة وتنظيم وتوفير احتياجات ومتابعة إنجازات. وهو ما يتم تدريسه الآن كمثال لإدارة المشروعات الكبرى فى العالم.

مصر أم الفنون

كل ما ذكرناه فى الفقرة السابقة يعبر عن أحد أبعاد الحياة فى الحضارة المصرية القديمة وهى جوانب المعرفة العلمية والإنشائية ولكن يجب أن نتذكر أن هذه الجوانب هى جزء من منظومة المجتمع المتكاملة التى كانت كلها على قدر من الكمال والإتقان يدخل فى ذلك الحياة الدينية والاجتماعية وكذلك الحياة الترفيهية والابداعية.

لذا فإننا نرى هذا الإتقان ينعكس أيضا فى التماثيل التى تم نحتها على مر العصور الفرعونية ومنذ بدايتها فى الدولة القديمة. والعالم كله يقف

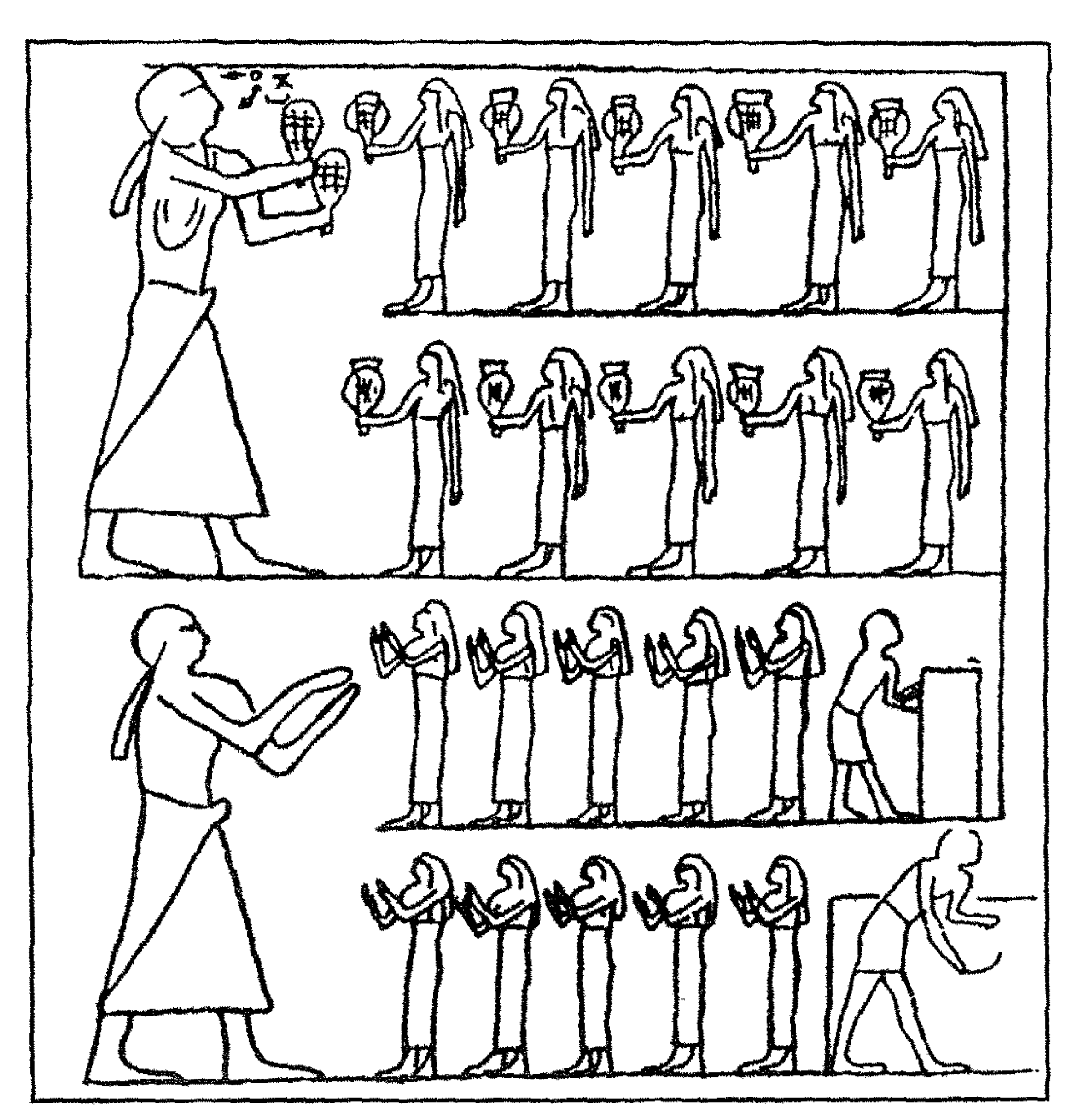


عازف الهارب هيكلو مع المغنية ايتى - منظر من مقبرة بسقارة - الأسرة الخامسة

بإعجاب أمام تمثال الملك خفرع الضخم والمصنوع من الجرانيت الصلب والموجود بالمتحف المصرى وكذلك التماثيل الثلاثية للملك منقرع. وأما النقوش التى على الجدران فهى أيضا بلغت نفس الدرجة من الإتقان والجمال ويحتفظ العديد منها بألوانها الزاهية حتى يومنا هذا.

فن الموسيقى عند قدماء المصريين

وما ينطوى على هذه النواحى الابداعية من فن النحت وفن النقوش الجدرانية ينطبق أيضا على الجوانب الأخرى من الفنون وعلى رأسها



مدرب موسيقى أمام فريق من آلات الايقاع ومدرب آخر أمام فريق من المصفقين

الموسيقى. فانه بالرغم من صعوبة ترك آثار موسيقية كتلك التى تركها الفراعنة فى مجال النحت والنقوش الجدرانية إلا أن سجلاتهم على جدران المعابد من مشاهد للحياة الفنية من موسيقى ورقص وغناء وكذلك النصوص المصاحبة لذلك تنم عن غزارة هذا الفن منذ العصور الأولى للحضارة المصرية. وذلك بالإضافة لما تزخر به المتاحف المختلفة التى بها مقتنيات للآلات الموسيقية الفرعونية وخاصة المتحف المصرى والذى يوضح أن أصول معظم الآلات المعروفة حاليا نشأت جميعها فى مصر القديمة ومنذ البدايات الأولى

سواء كانت آلات إيقاع أو آلات وترية أو آلات نفخ بأشكالها المختلفة. وتنسب المعتقدات الفرعونية آلة الناى إلى الإله أوزوريس ونشأة آلة الهارب إلى الإله حتحور. وقد حظيت الموسيقى والموسيقيون بمكانة خاصة عند المصريين سواء على مستوى المجتمع العادى أو على مستوى البلاط الملكى وكذلك على مستوى الطقوس الدينية والحديثة.

وتدل الكتابات المحفورة على جدران المعابد والمقابر والخاصة بالمناظر الموسيقية على مكانة الموسيقيين فى المجتمع وعند البلاط الملكى. فنجد فى إحدى المقابر بالجيزة أن صاحب المقبرة ويدعى «إيتى» يعمل «ملاحظ المغنين بالبلاط» كما أن مقبرة «خوفو عنخ» من الاسرة الخامسة توضح انه يعمل «ملاحظا لعازفى الناى ومدرب المغنين بالقصر» وفى مقبرة «رووير» من الأسرة السادسة نجد انه يعمل «معلما للمغنين الملكيين» كما نجد نفس المناصب تتكرر لسيدات فهناك «ملاحظة للمغنيات السيدات» ونجد بصفة عامة أن هناك مناصب معينة تكررت فى معظم المقابر ابتداء من «ملاحظ» المغنين أو العازفين إلى «مدرب» إلى «معلم» وأخيرا «مدير فرق المغنين أو العازفين» . وهو ما يوضح انه كان هناك تقدير خاص للموسيقى والغناء فى المجتمع والبلاط المصرى القديم منذ الدولة القديمة وعلى مر العصور المختلفة.

وكذلك تتم هذه المناظر عن العديد من المعلومات عن مجموعات العزف فيما يشبه ما يسمى اليوم بأوركسترا الحجرة. وهى مجموعات عزف تتراوح بين ثلاثة إلى عشرة أشخاص، فهذه مجموعة من ثلاثة عازفين اثنان على الهارب وواحد على الناى. وتلك مجموعة من ثمانية عازفين منهم ثلاثة على الهارب واثنان على الناى واثنان على آلات وترية وواحد على آلة إيقاع... وهكذا . وكثيرا ما نرى فى المناظر العديد من المغنين والعديد من الراقصين المصاحبين لهذا العزف .. ومن العجيب أن نرى المغنين وقد وضعوا يدهم على أذنهم أثناء الغناء على منوال ما يحدث من المغنين والمنشدين الشرقيين إلى يومنا هذا . ونجد فى بعض المناظر بعض العازفين وأمامهم مدرب. فهذه مجموعة من عشرة أفراد من عازفى آلات الإيقاع وأمامهم مدرب لضبط الإيقاع وآخر من المصفقين وأمامهم المدرب وهكذا. وتوضح المناظر أيضا المجالات الاجتماعية والدينية المختلفة التى كانت تستعمل فيها الموسيقى فهذا منظر

لبعض العازفين فى مناسبة دينية أمام تماثيل لبعض الألهة ومنظر آخر لبعض العازفين أمام فرقة من الجنود أثناء تحركهم فى معسكرهم ومجموعة ثالثة لعازفى موسيقى وراقصين اثناء حفلات اجتماعية ودينية. ولم تخل أماكن العمل أيضا من موسيقى مصاحبة سواء لجمع الثمار أو لحرث الأرض وخلافه.. وهذه فرقة موسيقية تعزف فى حضرة البلاط الملكى.. وهكذا . وقد اشتهر بعض الموسيقيين والمغنين حتى أننا نجد أسماءهم مكررة فى معابد متعددة على غرار ما يقابل من شهرة عبد الوهاب وأم كلثوم فى يومنا هذا.

حجر رشيد الموسيقى الفرعونية

على مدى حوالى مائة عام حاول العديد من الباحثين اكتشاف السلم الموسيقى الفرعونى وذلك عن طريق دراسة الآلات الموسيقية وخاصة آلات الناى الموجودة بالمتاحف المختلفة وخاصة المتحف المصرى.

وتنقسم آلات النفخ عامة إلى نوعين نوع يستخدم مبسما للنفخ وهو ما يوازى آلة الكلارنيت والنوع الآخر بدون مبسم مثل الناى المعروف حاليا. ونظرا لضياع المبسم من كل هذه الآلات المحفوظة بالمتاحف فقد اصبح صعبا التكهن بأداء هذه الآلات وتبقى الآلات التى من النوع الثانى والتى لا تستخدم مبسما وهى آلة الناى.. وقد حاول بعض الباحثين الغربيين التعامل معها ولكن دون جدوى نظرا لجهلهم لطريقة التعامل معها..

التجربة الحديثة

لتحقيق تجربة إعادة فحص آلات النفخ الموجودة بالمتحف المصرى وخاصة تلك التى تقع فى فصيلة الناى (أى تلك التى لا تحتاج لمبسم للعزف) فقد تم تكوين فريق عمل مكون من المرحوم محمود عفت عازف الناى المصرى الشهير وكل من كاتب هذا المقال والبروفيسور روبرت كريس من جامعة كاليفورنيا، وقاموا بتصميم أجهزة الكترونية يمكن عن طريقها القياس بدقة لدرجات النغمات الصادرة من الآلات الموسيقية. وقد تم الحصول على تصريح من هيئة الآثار لإجراء هذه التجربة بهدف استكشاف مسائل ثلاث:

أولاها: ما إذا كانت الحضارة الإغريقية هى أول من عرف السلم الموسيقى السباعى الحالى.

وثانيتها : ماهية السلالم الموسيقية المختلفة التى كانت تستعمل فى عصر الفراعنة.



العزف أمام الآلهة .. مشاهد من الأسرة الواحدة والعشرين

وثالثها : العلاقة بين السلم الفرعوني القديم والسلم الموسيقى الحديث .

وقد كان مما أثار هذه التساؤلات الحقيقة التاريخية التى توضح أن العالم الإغريقى فيثاغورث الذى يعتبر «أبو الرياضيات» ويعزى إليه وضع أسس السلم الموسيقى الغربى الحديث، قد عاش فى مصر لمدة ٢١ عاما .

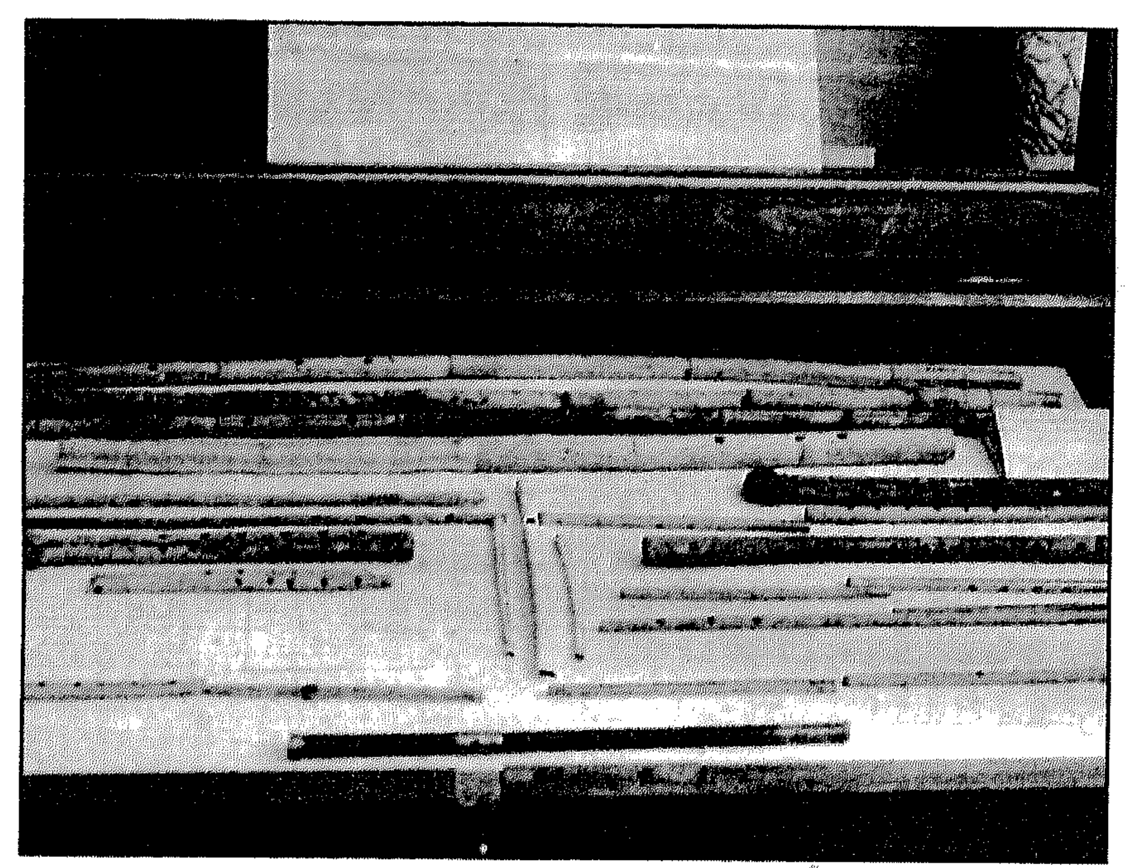
وتعلم الكثير خلال هذه الفترة من المعارف المصرية المختلفة . وان العلماء اليونانيين المعروفين مثل أرسطو



فريق العمل الذى قام بتسجيل أصوات الآلات الموسيقية الفرعونية . الفنان محمود عفت والدكتور فتحى صالح والبروفيسور روبرت كريس والاستاذة سنية عبدالعال وكيل المتحف المصرى

وأفلاطون كتبوا الكثير عن سمو الموسيقى المصرية الفرعونية وعلو قدرها على موسيقى الشعوب الأخرى . فى حين وصفها أفلاطون بأنها الموسيقى المناسبة لجمهوريته. وكذلك فقد وصفها بأنها تسمو بالروح ومليئة بالقيم.

ولذا فقد كان من الطبيعى أن يكون قدماء المصريين على قدر عال من المعرفة الموسيقية وبالتالى فلا يستبعد ان يكونوا قد عرفوا السلم الموسيقى السباعى (دو - رى - مى- فا - صول - لا - سى) قبل غيرهم وكذلك أن يكون فيثاغورث قد تعلم ذلك منهم أثناء إقامته فى مصر مثلما تعلم الكثير من علوم الرياضيات والهندسة والتى عرفت عنه بعد ذلك . ولكن ما هو الدليل على هذه المعرفة الموسيقية. فان الكتابات الفرعونية الموجودة على الجدران أو فى أوراق البردى لم تنقل لنا شيئا عن هذه المعرفة الموسيقية حتى الآن. ولذا فقد كان السبيل الوحيد لذلك هو التعامل



آلات الناى الموجودة بالمتحف المصرى

مع الآلات الموسيقية التى تركها لنا الأجداد ومحاولة إعادة اكتشاف أسس هذه الموسيقى من خلال هذه الآلات، لذا اتجهت المجموعة التى قامت بهذه التجربة إلى فحص الآلات الموسيقية الموجودة بالمتحف المصرى. فوجدت أنها تنقسم إلى ثلاثة أنواع من الآلات. أولها آلات الإيقاع وهى لا تحمل عادة آثارا لاى سلم موسيقى. ثم الآلات الوترية وهى آلات إذا ترهلت أوتارها، إن وجدت، فلا يمكن الاستدلال على طريقة ضبطها الأصلية. وأما النوع الثالث فهو آلات النفخ وهى لها نوعان نوع يستخدم مبسما على غرار آلة الكلارنيت، وقد وجد من هذا النوع عدة عينات بالمتحف ولكن ينقصها جميعها هذا المبسم مما اصبح معه استحالة التعامل معها. والنوع الثانى هو الذى لا يستخدم مبسما لإصدار الصوت مثل آلة الناى الحالية. وقد وجد فريق العمل ستة نايات من هذه النوعية. وعند فحص هذه المجموعة وجد أنها

فى حالة لا تصلح للتعامل معها إلا بعد محاولة ترميمها. لذا لجأ الفريق إلى طريقتين. الأولى محاولة ترميم اثنين منها ، وجدتا فى حالة معقولة. والثانية هى عمل نماذج طبق الأصل لهذه النايات سواء من حيث استعمال نفس نوعيات الغاب أو من حيث الأبعاد المستعملة من أطوال وأقطار هذه النايات ومواقع الثقوب الموجودة بها . ثم تم وضع منهج علمى للتعامل مع هذه الآلات يتمثل فى إعداد أجهزة علمية حديثة لتسجيل الصوت الصادر من هذه الآلات سواء أجهزة تسجيل صوت عادية ذات جودة عالية أو أجهزة تسجيل رقمية (حاسبات) يمكن عن طريقها قياس الذبذبات الصادرة من هذه الآلات بدقة متناهية.

وفى اليوم الموعود اتجه فريق العمل إلى المتحف المصرى ومعه الأجهزة المطلوبة والآلات الموسيقية التى تم تصنيعها وكما قام المتخصصون بالمتحف بترميم النايين اللذين تم الاتفاق على قابليتهما للترميم. وقام الفريق فى هذا اليوم على مرأى ومسمع من كوكبة من الصحفيين والأثريين بالعزف على الآلات الموجودة واحدة تلو الأخرى. فقام الفنان محمود عفت بالعزف على كل آلة ناى مرتين بحيث قام فى المرة الأولى بإصدار النغمات الموسيقية الممكنة من الناى. واحدة تلو الآخرى مع تسجيلها على الأجهزة المختلفة ثم قام بعد ذلك بعزف تقاسيم مناسبة للسلم الخاص بكل ناى. وبالنسبة للنايين اللذين تم ترميمهما فقد تم إصدار النغمات من كل من الناى الذى تم ترميمه والنماذج المصنعة على غراره للتأكد من دقة التصنيع وقد كانت لنتائج هذه التجربة أبعاد كثيرة نذكر منها ما يلى:

أنه قد تم التعرف على ستة نايات. أحدها من الأسرة الثامنة عشرة والثانى من الدولة الوسطى واثنان مجهولا التاريخ ولكنهما وجدا فى منطقة سقارة ويرجح انهما من الدولة القديمة واثنان من العصر اليونانى. وعند العزف على هذه النايات أو النماذج المماثلة لها أعطت النتائج التالية :

- الناى المؤرخ من الأسرة الثامنة عشرة أعطى سلما موسيقيا سباعيا واضحا يضاهى السلم الموسيقى الغربى من مقام «لا - صغير».

- أما الناى المؤرخ من الدولة الوسطى فقد أعطى سلما خماسيا.

- النايان الآخران أعطيا سلما موسيقيا سباعيا ذا طابع شرقى أى

أن الدرجة الثالثة والسابعة تعطيان ثلاثة أرباع نغمة.

ومن اعجب النتائج التى تم الحصول عليها أن النغمات الصادرة من هذه النايات على الرغم من أنها تنتمى لعصور منفصلة تفصلها مئات السنين إلا أن النغمات الصادرة منها متوافقة الواحدة مع المناظرة لها فى النايات الأخرى بدقة تفوق الوصف مما يوحى بأن قدماء المصريين كانت عندهم وسائل لضبط آلاتهم الموسيقية على ذبذبات قياسية. وقد كان لهذه النتائج اثر علمى هائل وهو أنها عدلت من مفاهيم ما جاء فى كتب تاريخ الموسيقى الكلاسيكية التى تنسب السلم السباعى للإغريق فى حين انه اصبح من الواضح بالقياسات أن هذا السلم كان معروفا ومستعملا قبل الإغريق بحوالى ألف سنة على الأقل. هذا وقد تم نشر هذه التجربة فى حينها فى الصحافة والاذاعة والتليفزيون المصرى كما تم النشر العلمى لنتائج هذا العمل فى المؤتمر العالمى للمصريات الذى عقد بمدينة تورينو بإيطاليا عام ١٩٩٢ كما قامت محطة سيانتفك أمريكان الأمريكية بتسجيل برنامج عن هذه التجربة العلمية المهمة أذيعت فى جميع محطات التليفزيون الأمريكية.

وأخيرا يمكن القول بوضوح بان الحضارة المصرية تعتبر بحق أم الحضارات اللاحقة وان المعرفة التى توصلت اليها هذه الحضارة فى شتى مواطن المعرفة تعتبر بحق معرفة متأصلة. وهذا ينطبق على كل جوانب النشاط الإنسانى بما فيه مجال الموسيقى والغناء الذى ازدهر كثيرا فى هذه الفترة حتى أن العلماء والمفكرين الإغريق فيما بعد أشادوا بما لهذه الحضارة من جذور موسيقية متأصلة وأنها على درجة عالية من الرقى. وقد ثبت من الشواهد الموجودة على الجدران فى المعابد والمقابر وكذلك من الآلات الموسيقية التى تم اقتناؤها فى المتاحف المختلفة أن الموسيقى كان لها وجود عظيم على مستوى الحياة الاجتماعية ابتداء من الفرد العادى حتى البلاط الملكى. وأنها كانت لها مدارسها ومدربوها ومعلموها بل ومديروها. كما أثبتت التجربة العلمية التى قام بها فريق من الباحثين منذ عدة سنوات بما لا يدعو للشك بان المصريين عرفوا قبل غيرهم من الشعوب السلم الموسيقى السباعى الذى هو أساس الموسيقى الحديثة والمعاصرة .

إنهيار القيم
فى ظل العولمة

بقلم : حسين أحمد أمين

مما من شأنه أن يسهل علينا الإدلاء بتوقعاتنا لمستقبل الأخلاق فى ظل عولمة القرن الحادى والعشرين ، أن نلقى نظرة على تطور الأخلاقيات الأمريكية خلال القرنين الماضيين.. ذلك أن الانفتاح الحتمى المنتظر لمجتمعات العالم ، بعضها على بعض ، فى ظل شيوع العولمة ، مع ما يصحبه من تطورات هائلة فى مجالى التكنولوجيا والاتصالات ، نجد له مثالا مصغرا فيما حدث بالولايات المتحدة من انصهار جماعات من جنسيات وأعراق مختلفة فى بوتقة واحدة . وقد أدى هذا الانصهار فى النهاية إلى ظهور شعب واحد جديد ، له سماته المتميزة عن العناصر المكونة له ، من سياسية واجتماعية واقتصادية وأخلاقية ، أبرزها تبنى موقف إيجابى وعملى بحت من الحياة ، والإصرار على ضمانات للحرية الشخصية والسياسية وللحقوق المدنية ، وتأكيد ضرورة التسامح الدينى وتعايش الملل والنحل المختلفة فى جو من الوئام ، وشيوع روح قوية من المبادرة الفردية واغتنام الفرص ، والإيمان بقدرة الفرد على الصعود من الحضيض إلى القمة دون أى اعتبار لامتيازات خاصة .

تحول المجتمع الأمريكى خلال القرنين التاسع عشر والعشرين (كما سيتحول مجتمع العولمة فى القرن الحادى والعشرين) إلى مجتمع قوامه التجار وأرباب الأعمال والصناعة والمضاربون ، يميزهم النشاط والطاقة والرغبة الفجة فى إثبات الذات .

الكل فى عجلة من أمرهم ، لا شاغل يشغلهم غير الدولار وسبل تحصيل الثراء الطائل والعاجل ، لا يتمسكون بغير مبدأ المساواة فى الفرص ، وبغير شكل من أشكال الديمقراطية يوافق هواهم ، ويحقق مصالحهم . وقد لاحظ الزائرون الأجانب للولايات المتحدة فى عهد الرئيس أندرو جاكسون فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر، أن الحياة باتت أكثر ديمقراطية ، وأن تعامل الأفراد بعضهم مع البعض أصبح أبعد عن الشكليات والرسميات ، وأن السلوك بوجه عام أضحى أقل تهذيبا وأشبه بسلوك رعاع الناس : يتناولون الطعام فى عجلة وهم وقوف ويسرعون الخطو فى الشوارع وكأنما يهرعون لإطفاء حريق ، ويدسون أنوفهم بوقاحة فى شئون الغرباء ، ويميلون إلى استخدام العنف وإلى البلطجة ، فى خلافاتهم . كذلك أضحت قيمة الفرد فى تلك البيئة الجديدة التى لاتمت لبيئة العالم القديم بتقاليده وعاداته بصلة ، لاتحددها عراقة أسرته ، أو عدد السنوات التى قضاها فى الدراسة وما حصل عليه من شهادات جامعية ، وإنما تحددها قدراته وإمكاناته الذاتية العملية ، لا وقت لديه أصلا لتحصيل ثقافة عريضة ، مع نزوع ملحوظ إلى الجريمة ، إذ بات لا يثنيه عن المضى فى تحقيق أغراضه وازع من الضمير ، ولا تتسم ميوله وطباعه بأى قدر من الذوق الرفيع ، ولا يمكن وصفه إلا بالسوقية والجلافة ، والابتذال والصفاقة ، والجشع المفرط .

إمبريالية اقتصادية

كذلك فقد أضحت السمة الغالبة على الولايات المتحدة بعد عدة سنوات من انتهاء الحرب الأهلية ، هى النمو : نمو فى المساحة وفى تعداد السكان ، وفى الثروة والنضج الاقتصادى ، واتجهت أبصار أرباب الصناعة والتجارة والأعمال فيها من المتطلعين إلى أسواق جديدة ، وأصحاب المصارف من المتعطشين إلى المزيد من الاستثمارات ، صوب استحداث الأساليب الكفيلة بتحقيق إمبريالية اقتصادية .. ومنذ ذلك الحين لمعت اسماء كبار رجال المال والأعمال والتجار ، وذهب بريقها بشهرة الساسة والكتاب والفنانين ، وأضحت للثروات الهيمنة والقدرة على توجيه سياسات الحكومة الفيدرالية وحكومات الولايات ، فتراجع دور تلك الحكومات وتقلصت أهميتها . ثم كان أن فتح الباب

على مصراعيه أمام انتشار الفساد والرشوة والمحسوبية في المجتمع ، وكان أن هيمنت جماعات من المولين الأفاقين على الكونجرس وأعضائه ، وأن بات الوزراء يتقاضون الرشاوى من المقاولين ورجال الأعمال ..

ومع ذلك فقد اقترن الفساد في تلك الفترة بانتعاش كبير في الحياة الاقتصادية ، وبظهور الاختراعات العديدة المهمة كالمراكب البخارية والتلغراف الكهربائي والهاتف والقطارات الكهربائية ، فالسيارات فالطائرات ، والآلات الكاتبة والحاسبة ، والمصباح الكهربائي والسينما والإذاعة . وقد أسهم الكثير من هذه الاختراعات إسهاما عظيما لا في تقصير المسافات وتسهيل الاتصالات فحسب ، وإنما أيضا في تضييق الفجوة بين العادات المعيشية والأخلاقيات لدى مختلف الطبقات . وحيث إن تعميم الفائدة من تلك الاختراعات والأساليب المستحدثة كان يتطلب استثمارات ضخمة لرأس المال ، وقيام مؤسسات كبرى للنهوض بأعبائها ، فقد أدى ذلك إلى الإسراع بنمو الشركات التجارية الضخمة ، ثم باندماج المشاريع الصناعية المستقلة في صورة احتكارات ومؤسسات موحدة ، بغية تخفيض النفقات، واستئصال الإدارات الأقل كفاءة، وتقوية موقف الرأسماليين في تفاوضهم مع العمال ، وزيادة نفوذهم السياسي في الدوائر الحاكمة ، وإحكام قبضتهم على سلطة تحديد الأسعار .

وقد كان من الطبيعي أن تتأثر بهذه التطورات حياة الفرد العادى وأخلاقياته ، خاصة إن كان من سكان المدينة . فكل أو جل ما يأكله ويلبسه ، وما يؤثث به مسكنه، وما يستخدمه من أدوات وآلات ، ويركبه من مواصلات ، هو من إنتاج تلك الشركات أو الاحتكارات .. صحيح أن الطعام والملبس صارا أفضل من ذى قبل، وأن وسائل الاتصالات صارت أكثر كفاءة، غير أن الصناعات والمتاجر الصغيرة إما أفلست ، أو بيعت واندمجت في الصناعات والمؤسسات التجارية الأكبر، فغدا الناس تحت رحمة سياسات المحتكرين التي لا دخل لهم فيها .. تركزت الثروة والقوة في أيدى حفنة من القوم يتحكمون في معيشة الملايين من البشر كما لم يتحكم فيها من قبل أقوى الملوك ، وقفزت إلى السطح فئة جديدة من الرأسماليين العتاة ، هم من القوة بحيث باتوا يملون على الدولة سياساتها الخارجية والداخلية.. نعم تمكن هؤلاء من استئصال قدر عظيم من المنافسة والصراعات ، ومن تحقيق مستوى أعلى من الكفاءة والتحسينات ، ومن النهوض بالأبحاث الجديدة وتشجيع الاختراع ، ومن زيادة الإنتاج وخفض بعض الأسعار. غير أن ذلك كله كان على حساب المجتمع ونمط الحياة . فإن كان أندرو كارنيجي وصف الأوضاع الجديدة بأنها انتصار للديمقراطية ، فقد كان ثمة من اعترفوا بأنه انتصار ولكن ليس للديمقراطية التي باتوا يشكون في إمكان استمرارها .

طوابير الجوعى والمطاعم الفاخرة!

فى المدن بالأخص اجتمع الغنى الفاحش بالفقر المدقع ، والقصور الرخامية بالأحياء العشوائية ، وهنا اصطفت طوابير الجوعى أمام المطاعم الفاخرة، وتكونت حلقات من أناس لا خلاق لهم ولا حياء ، يتعيشون على الجريمة والرذيلة ومختلف ضروب الفساد . وهنا انتعشت الحانات والمواخير يحميها ويشجع على إقامتها أصحاب المصالح والسياسيون ممن يفيدون مالياً منها ، وانتشرت الجريمة التى كانت الشرطة تتغاضى عنها مقابل أجر معلوم ، وتعاظم عدد محترفى الإجرام ممن يسعى إلى الاستعانة بهم كل رجل أعمال يريد قتل غريم ، أوَّ التخلص من منافس . وقد اتسع نطاق الفساد فى كل مكان وموقع ، وزادت جاذبيته ، وأضحت ثماره بلا حدود . فرجال الأعمال وأصحاب البنوك والشركات الصناعية والتجارية الكبرى كانوا على استعداد لدفع أموال طائلة مقابل مايقدم إليهم من أفضال ، أو يحصلون عليه من امتيازات وإعفاءات ، أو توفر لهم من حماية . ولم يكن الثمن دائما فى صورة رشوة صريحة، بل كثيرا ما تخفى وراء قناع المساهمات السخية فى الحملات الانتخابية ، والتعضيد السياسى، أو إشراك كبار رجال الدولة فى الأرباح التجارية ، أو تعيين أقربائهم أو عشيقاتهم فى مراكز ذات رواتب عالية فى هذه المؤسسة أو تلك. وكانت نتيجة كل هذا هو أنه بعد أن كان كبار رجال المال والأعمال والتجار يصرون فى البداية على حرية المشروع الخاص ، والحيلولة دون تدخل الحكومة فى شئونه ، أضحت لهم الآن هيمنة شبه كاملة على الحكومة ، يتدخلون فى شئونها وقتما شاءوا ، وكيفما شاءوا ، بحيث باتت الحكومة مجرد لعبة أو أداة فى أيديهم .

أما عن المجتمع فقد سادت بين أفراده المادية الصارخة ، وأخلاقيات السوق ومثله، لا تستهويهم غير الضخامة وكفاءة الأداء، ، ولا يعترفون بأبطال غير كبار السماسرة والمضاربين ، والتجار والمهندسين ، ورجال الإعلان ونجوم السينما .. باتوا يتحدثون عن «حقبة جديدة» من تاريخهم ، شعارها «دجاجة على كل مائدة ، وسيارتان فى كل جراچ»، وصار أكثر ما يبهجهم أن يروا المدن وقد باتت أكبر ، والمبانى وقد صارت أعلى ، والطرق أطول وأوسع ، والسيارات والقطارات أسرع ، والجامعات أفخم ، والثروات أضخم ، والمؤسسات المالية أقوى وأغنى .. ثم كان أن تملك الفرد منهم الخوف من أن يكون مختلفا عن الآخرين حوله ، سواءً فى تكوينه النفسى والذهنى أو فى الميول والرغبات ، بل وبات الشباب يخفون ميلهم إلى قراءة الشعر – ناهيك عن قرضه – خشية أن يتهمهم أقرانهم بالافتقار إلى الرجولة ، ويستجيبون للدعوة إلى الولاء الكامل للمؤسسات الاقتصادية ، وإلى وصف الرافضين لأخلاقيات التجار ، أو للمثل العليا للسوق ، بالمهيجين .

ولاشك فى أنه مما يسهل سيادة هذه النمطية فى السلوك والأخلاقيات والأفكار، ظهور اختراعات مثل السيارة والسينما والراديو والتليفزيون . فقد أنهت السيارة العزلة ، وزادت من سرعة إيقاع الحياة ، وخلقت مجالات جديدة لقضاء وقت الفراغ، ووفرت للشباب من الجنسين حرية أكبر ، بحيث أصبحت من ضرورات الحياة، بل هى الضرورة الأولى التى لايمكن الأستغناء عنها بأى حال . أما السينما والتليفزيون فمنهما يستقى كل جيل صاعد أفكاره عن الحياة وقيمه ، ويكيف سلوكه على هدى سلوك نجومهما مهما اتسم ذلك السلوك بالإباحية أو العنف ، ومنهما يستوحى المشاهدون أذواقهم فى « الملبس وتصفيف الشعر ، وفى الأثاث والديكور الداخلى . أما عن الراديو فقد قيل إن خروجه من ملكية الدولة إلى ملكية المشروع الخاص ، واعتماده فى التمويل لا على الضرائب وإنما على دخله من الإعلانات عن السلع ، جعل برامجه - كبرامج التليفزيون - تحت رحمة تجار لا شأن لهم بالثقافة ، ولا مطمح لديهم غير الربح .

والواقع أن قدرة أصحاب الثروات على إحكام قبضتهم على الرأى العام وعلى تكييفه، ونجاحهم الباهر فى أن يستأصلوا من كافة وسائل الإعلام أى اتجاه إلى الموضوعية ، وأى ميل إلى المعارضة ، من أكثر مظاهر الحياة المعاصرة إثارة للعجب.. صحيح أن بوسع المواطن الذكى متى توفر لديه الوقت والطاقة ، أن يصل إلى حقيقة الأمور . غير أن الأكثرية لا فائض وقت لديها ولا فائض طاقة يمكنها من تحصيل الأخبار من خارج وسائل الاعلام. وأخبار وسائل الإعلام - شأن الإعلانات التجارية - لا هم لها إلا إبقاء جموع الشعب على وداعتها ، ورضاها وطاعتها ، ونهمها إلى استهلاك السلع أو حيازتها .

★ ★ ★

ما أطلت فى عرض تطورات الأخلاقيات ونمط الحياة الأمريكية إلا لسببين : السبب الأول : هو أن الولايات المتحدة ستظل لأمد طويل أقوى الدول المؤثرة فى سمات مجتمع العولمة فى القرن *الحادى والعشرين* ، وأنها بالضرورة ستكون *راغبة* ، وستمضى *ساعية* ، *إلى* فرض قيمها ، وأخلاقياتها ومفاهيمها عن الحياة على سائر شعوب العالم ، وهى شعوب سيكون معظم أفراد صفوتها وقادتها وأغنيائها على أتم استعداد لأن يتشربوا طوعا تلك القيم والمفاهيم والأخلاقيات من قبيل التشبه بالأقوى ، ومن أجل إحراز شرف اقتفاء أثره .. أما السبب الثانى : فهو أنه يبدو أن عملية انصهار الأجناس والأعراق والثقافات والحضارات المختلفة فى بوتقة واحدة تؤدى دائما إلى نفس النتائج ، أو نتائج متماثلة ، بحيث يمكن *القول* بقدر كبير من الثقة إن كل أو جل ما ذكرناه عن تطور المجتمع الأمريكى إبان القرون الثلاثة الأخيرة سيتكرر حدوثه فى العالم كله فى ظل عولمة القرن الحادى والعشرين .

ثم أمضى فأحاول استكناه المعالم الرئيسية فى هذا «العالم الطريف الجديد»:

أولا : أنه مع التقدم فى طريق العولمة، سيتزايد عجز الحكومات عن اتخاذ زمام المبادرة من أجل إجراء الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية الضرورية فى الدولة ، ومن أجل حماية الأخلاقيات والقيم التقليدية والدفاع عن الثقافة القومية ضد حضارة «التنميط» التى تسعى العولمة إلى فرضها ، وسيقتصر دورها على حراسة المصالح المالية لرجال الأعمال والمال ، وضمان مزاولتهم لنشاطهم فى جو من استتباب الأمن والنظام ، دون مراعاة البعد الاجتماعى والأخلاقى ، أو الاهتمام بسد احتياجات الطبقات الدنيا ، ودون أن ترى ثمة حاجة إلى إشراك الناس فى اتخاذ القرارات ، ورسم السياسات الجديدة ، أو حتى إلى موافقتهم عليها .. عندئذ يتحول المواطنون إلى رعايا من جديد، ويتخلقون بأخلاق العبيد ، لا يد لهم فى إدارة شئون دولتهم ، ولا يعرفون مبدأ المساواة ، ولا ثمة من يذكرهم بمبادئ تناوب السلطة .

والمؤكد أن الإحساس بضياع الحقوق سيقضى بدوره على الالتزام بالمساهمة فى النهوض بالأعباء العامة ، ومراعاة «الصالح المشترك» ، وأداء واجبات المواطنة .

ثانياً : التآكل السريع فى وعى الناس بمفهومى الوطن والمواطنة ، (وهو تآكل ينذر باندثار كامل لهذين المفهومين فى المستقبل المرئى) . فنمو الادعاء بأن ثمة معايير تفوق فى أهميتها وأولويتها معايير الدولة والقومية والمواطنة ، وبأن العولمة تطور لازم هو أشبه ما يكون بالظواهر الطبيعية التى لا سبيل إلى الوقوف فى وجهها ، يؤدى إلى اعتبار المجتمع الإنسانى بحالته الراهنة من التحول السريع كالحشرة فى طور التكوين : قد تتحول الدودة إلى فراشة ، أو قد تموت ، غير أنه لن يمكنها أن تعود دودة من جديد. وقد باتت الآن إدارة العالم كله باعتباره وحدة واحدة أيسر من إدارة دولة كبيرة واحدة منذ قرن مضى ، بل ومن إدارة مدينة واحدة فى حوالى القرن الخامس قبل الميلاد . فالصعوبة إذن ليست صعوبة تنظيمية ، وإنما الصعوبة هى فى تهيئة الشعوب للتخلى عن عادات وتقاليد وقيم وأخلاقيات ومفاهيم راسخة لديها ، وعن تعلقها بالسيادة الوطنية ، والمشاعر القومية .

ثالثا : سيصبح من أبرز خصائص شباب القرن الحادى والعشرين التعجل ونفاد الصبر . لا أحد يطيق الانتظار أو التدرج ، أو يؤمن بضرورة المران وإعداد النفس ، أو يقبل «إضاعة» الوقت فى النمو.. ستصبح كلمة «الغد» وتعبير «فى الوقت المناسب» مرفوضين من الكافة تقريبا ، كما سيتحول «الأمل» فى بلوغ أمر أو نوال شىء فى خاتمة المطاف ، إلى مجرد رغبة جامحة فى بلوغه أو نيله فى التو والساعة.. لن يفكر خريج الجامعة متى حصل على شهادته فى الالتحاق بالعمل الكفيل بتحقيق ذاته ، أو خدمة وطنه وبنى قومه ، أو الذى يتفق مع ميوله

واستعداداته الذهنية ، وإنما سيبحث عن العمل الذى يدر عليه أعلى دخل متاح لأمثاله فى السوق ، كوظيفة فى بنك ، أو فى هيئة أجنبية ، أو شركة من شركات التصدير والاستيراد ، أو خارج وطنه فى دولة منتجة للنفط ، بعد أن بات شعار الشباب هو ليس بينك وبين بلد نسب ، خير البلاد ما حملك ، أو قولة على بن أبى طالب «الغنى فى الغربة وطن ، والفقر فى الوطن غربة» .. فإن هو أقدم على الزواج حرص هو وزوجته على أن تتوافر فى مسكنهما كل الكماليات دفعة واحدة . فالكل يريد الثروة الفورية والرفاهية الكاملة ، قد تمكنت من عقله فكرة أن من لايمتلك الإثنتين منذ البداية فلن يتملكهما أبدا ، ومن قبل فى مستهل حياته العملية مركزا صغيرا فسيظل فيه على الدوام . وهو ماقد يفسر لنا قبول بعض المنحرفين الانخراط - ولو مرة واحدة - فى نشاط غير مشروع ، تمكنه حصيلته منه من وضع أساس للحياة الرغدة التى لايقبل عوضا عنها .. كما يفسر لنا ظاهرة افتقار التجار والوسطاء ومقاولى البناء ، بل والكثيرين من الأطباء والمحامين وغيرهم من المشتغلين بالمهن الحرة ، إلى أدنى مستويات الذمة والأمانة .

سينحصر الشغل الشاغل للجميع فى وسائل الكسب السريع .. الكادحون يلهثون وراء القرش ، ومن توفر له القرش أراده قرشين . وستنمحى الفوارق فى هذا الشأن بين الطبقات ، فالجميع فقراء بالمعنى اللغوى لكلمة الفقر: وهو الحاجة. الجميع مرهق يلهث، ساخط يتأفف .

الكل تجار !

كان ثمة فى مجتمع الماضى تجار . غير أن الناس كانوا وقتها فريقين . تجارا وغير تجار. أما فى ظل العولمة فسيصبح الجميع تجارا : لا فارق بين البائع على قارعة الطريق ، وبين أستاذ الجامعة أو المدرس أو الصحافى أو الدبلوماسى أو الطبيب أو من شئت . فإن نحن نظرنا إلى من اعتزل دنيانا وتدروش ، فإنما ننظر إلى الوجه الآخر من نفس العملة : أناس عجزوا عن المدافعة والمزاحمة فى ظل العولمة ، وكانوا أضعف من أن يطأوا غيرهم تحت أقدامهم ، فاختاروا إدانة المجتمع كله على أساس من الدين ، حتى لايفقدوا احترامهم لأنفسهم .

وكيف يمكن فى مثل هذا المناخ الجديد أن تنتعش حياة ثقافية ، أو يكون هناك فكر أو فن ، اللهم إلا إن كان فكرا تجاريا، وفنا تجاريا؟ فإن كان الأساتذة الجامعيون سيتجهون إلى الاتجار بالعلم ، وملائكة الرحمة بالرحمة ، فما الذى سيحول بين الأديب أو الصحافى أو الفنان وبين أن يبيع قلمه أو فنه لمن بيده سلطة إغداق المال ، خاصة أن هدفه لن يصبح مجرد الحصول على ما يعينه على مواجهة أعباء الحياة ، وإنما هو الاستمتاع ، وإلى أقصى حد متاح ، بأطايب الحياة ومباهجها ، وهو ما لن يكون بالوسع من أجل تحقيق الاعتماد على القلة القليلة والمتضائلة ممن لايزال بمقدورها أن تقدر أدبا ، أو تسيغ فنا ؟

رابعا : سيعم مفهوم زائف خاطئ عن ملذات الحياة ومباهجها وسبل قضاء الأوقات السعيدة . فالناس فى الماضى كانوا يقبلون في أوقات فراغهم على ضروب من اللهو والتسلية تتطلب منهم بذل قدر معين من الجهد الذهنى ، ومن المشاركة الإيجابية . أما الآن فقد قامت مؤسسات وهيئات مهمتها توفير التسلية الجاهزة ، تسلية لا تستدعى من طالب المتعة واللذة أى إسهام شخصى من جانبه، أو أى نوع من أعمال الفكر . كان الناس إن أرادوا الموسيقى عزفوها ، أو الغناء تغنوا به ، أما اليوم ، فما عليهم الا ان يديروا التليفزيون أو المذياع ، أو أن ينتقوا الأسطوانة ويديروا الجراموفون، ثم يجلسون فى مقاعدهم للاستماع ، أو يفتحون أعينهم للمشاهدة ، وقد شردت أذهانهم ، فتشكل الموسيقى أو الأغنية أو الفيلم مجرد خلفية لتفكيرهم فى مشاكلهم.. أما عادة قراءة الكتب فالغالب أنها ستندثر خلال القرن الحادى والعشرين بشيوع الكومبيوتر والإنترنت ، وأن تصبح القراءة مقصورة على الصحف والمجلات ، الصفراء قبل غير الصفراء .. كانت مهمة الصحافة نقل المعلومات والأخبار ، ثم أصبحت أو ستصبح - شأن السينما والتليفزيون - مجرد تسلية تشغل الذهن بفضائح أمثال مونيكا لوينسكى ، وأ.ج. سيمبسون ، دون أن تقتضى أدنى تفكير من قارئها .

الجنس والعنف

هذه المتع وأساليب التسلية الجاهزة هى التى سنصادفها فى كل أرجاء الدنيا، وهى التى تشكل من الخطر على الحضارة الإنسانية ما يفوق خطر تلوث البيئة ، وثقب الأوزون ، والانفجار السكانى . ذلك أن عملنا اليومى ، فى المصنع أو المتجر أوالمكتب أو ماشئت ، نؤديه فى العادة بصورة آلية لاتقتضى مبادرة أو مجهودا عقليا كبيرا ، ولا تتيح لنا فرصة ممارسة مواهبنا وقدراتنا الذاتية . وها نحن نتجه فى أوقات فراغنا أيضا صوب تسليات لا تقل آلية عن آلية عملنا اليومى ، فمتى إذن سيتاح لغالبية الناس أن تستخدم عقولها ، وأن تسلى نفسها بنفسها ؟ الأرجح إزاء هذا أن يعم السأم والملالة ، كما أن الأرجح أن يجد الناس السبيل إلى مقاومة هذا السأم وهذه الملالة باقتضاء المزيد من الجنس ، والتحول إلى المزيد من العنف ، تماما كما اقتضى شعب الإمبراطورية الرومانية فى حقبة أفول مجدها مزيدا من ألعاب السيرك ، ومصارعات الجلادين ، والفتك بالأسود والنمو والدببة أمام ناظرهم ، وهم يقضمون طعامهم ، ويكتمون تثاؤبهم .

خامسا : ذهب الفيلسوف الألمانى هيردر إلى أن الدولة هى لضمان مصالح وسعادة جماعة معينة ، وما من دولة حتى اليوم سمحت عن طيب خاطر بأن تنتقل هذه السعادة إلى غير الجماعة التى تهيمن عليها.. ومصداقا لهذا القول نورد هنا ملاحظة غريبة : هى أنه بالرغم من توسع معظم الدول فى التعليم وفى محو الأمية ، فإن هذا لم يؤد - كما كان البعض فى

الماضى يأمل ويتوهم - إلى رفع مستوى الثقافة .. كان هذا البعض واثقا من أن محو الأمية سيؤدى لا محالة إلى زيادة إقبال الناس على القراءة ، ثم على الاستزادة من الثقافة ، وإلى الطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب ، غير أن هذا الحلم لم يتحقق ، ولن يتحقق فى ظل العولمة ، لمجرد أن القائمين على المجتمع الصناعى التجارى لايرونه فى صالحهم . فالآلات الصناعية الحديثة تجعل من غزارة الإنتاج (Mass production) شرطا رئيسيا لازدهار الصناعة وثراء أربابها .. وغزارة الإنتاج أمر يستحيل دون أن يتحقق توسع المستهلكين في استهلاكهم (Mass Con-sumption) . غير أن المعروف أن انشغال المرء بالفنون والآداب وشئون الفكر يؤدى حتما إلى تقليل استهلاكه من الخدمات والسلع (يحكى عن سقراط أنه أثناء تجواله بالسوق وتأمله للمعروض فيها من البضائع ، هتف يقول : ألا ما أكثر الأشياء التى لا أريدها!)، فالإنسان الذى تتركز اهتماماته على احتياجاته العقلية والروحية سيكون سعيدا إن هو خلا بنفسه فى داره ، يقرأ أو يفكر أو يستمع إلى الموسيقى أو يمارس هواية له .. أما من لاتشغل ذهنه اهتمامات عقلية أو فنية ، فعادة ما يصاب بملل قاتل إن هو لزم داره ، فيلجأ عندئذ من أجل الترفيه عن نفسه إلى شراء سلع يحسب أنها تعوضه عن فقره الروحى ، أو إلى تجول وأسفار وحركة يجد فيها الغناء عن السياحة بفكره، وتحريك وجدانه وعقله .

الإعلاء من شأن الغباء

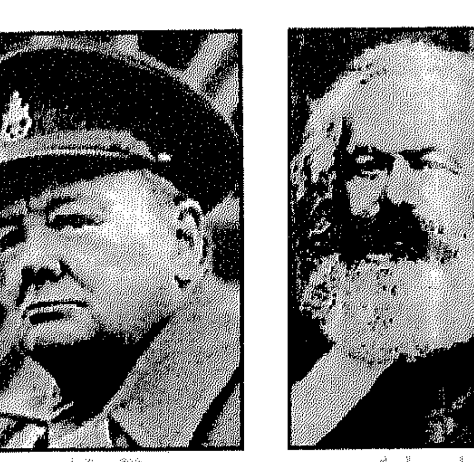
مثل هذا الشخص العادى هو المستهلك الأمثل ، هو الهدف الذى يقصده أرباب الصناعة والتجارة ، وتخاطبه إعلاناتهم ، وهو الخليق بالرعاية والتشجيع. أما من جاوز الإلمام بالقراءة والكتابة إلا الاهتمام بالثقافة والفنون ، فاستغنى بذلك عن السلع الصناعية والخدمات التجارية ، وانهمك فى غرفته الهادئة فى قراءة الكتب أو الاستماع إلى الموسيقى ، فكثيرا ما يصبح هدفا للسخرية أو الازدراء ، حيث إن السعادة والمتعة والأوقات الحلوة باتت فى يومنا هذا تتمثل فى الضجة والصحبة والحركة وتملك السلع ، وفى أن يظل الإنسان فردا عاديا كغيره من الناس .. وإذ يرى أرباب الصناعة والتجارة أن المستهلك هو المواطن الصالح ، وأن الفرد العادى هو الإنسان الأمثل ، فلا مفر من أن يكون شعارهم الإعلاء من شأن الغباء والجهل كذلك فإنه متى لم يعرف المجتمع معيارا للنجاح فى الحياة غير المعيار الاقتصادى ، فلا مناص من أن يكون هدفه الحد من نمو المواهب والقدرات العقلية ، والحيلولة قدر الإمكان دون اقتراب المواطنين من الثقافة الحقة .

سادسا : سبق لفردريك إنجلز (وهو الثورى الشيوعى العتيد وصديق كارل

ماركس) أن عبر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عن استفظاعه لنبأ تفجير قنبلة فى البرلمان البريطاني أصيب من جرائه عاملان أو ثلاثة ، واصفا مثل هذا العدوان الدموى فى غير ميادين القتال بأنه عمل لا أخلاقى .. فما الذى عساه ياترى قد حدث منذ ذلك الحين بحيث بتنا نسمع يوميا أنباء مجازر إرهابية رهيبة تجرى فى هذه البقعة من العالم أو تلك ، دون أن يتحرك منا ساكن أو تزيد نبضات القلب نبضة ، وكأنما الأمر بات أمرا عاديا متوقعا وغير جدير بالاهتمام ؟ أكان بوسعنا البارحة أن نتصور ، مع كل حديثهم المتكرر عن إنجازات المدينة الحديثة، أن يجئ يوم نقرأ فيه أن مائتين وخمسين طفلا يموتون يوميا فى العراق بسبب سوء التغذية وعدم توافر الدواء ، فلا نتحرك أو حتى ننزعج ؟ الظاهر إذن أن العالم فى القرن الحادى والعشرين ، ستصبح قلوب أبنائه فى مثل غلظة أقدام الفلاحين المصريين ، لايؤثر فيها شيء .. مجرد مقارنة البرود وعدم الاكتراث اللذين يتلقى بهما الناس تفاصيل علاقة الرئيس الأمريكى كلينتون بمونيكا لوينسكى ، أو أخبار اتهام ثلاثة من الوزراء فى حكومة تونى بلير بالشذوذ الجنسى ، بالموقف الشعبى الغاضب الثائر من فضيحة الوزير چون بروفيومو مع عارضة الأزياء كريستين كيلر (وهى فضيحة كادت تعصف بحكومة هارولد مكميلان عام ١٩٦٣ ، تبين لنا على الفور ما طرأ من تغير على الحس الخلقى عندنا .. كانت الدنيا تسمع أنباء ما يرتكبه الاتحاد السوڤييتى والنظام النازى فى انزعاج واستنكار .. فما بالها اليوم لا تلتفت إلى ممارسات مماثلة ترتكبها روسيا فى حق شعب الشيشان ولا يتحرك منها ساكن ؟ قد يرد البعض بأن منظمات حقوق الإنسان العالمية تقف بالمرصاد لانتهاكات الأنظمة فى كل مكان لتلك الحقوق.. غير أن الواضح أن هذه المنظمات فى أغلب الأحيان لا تعبر عن غضبها إلا إن حركتها دوافع سياسية محضة من أجل الضغط على أنظمة لاترضى الولايات المتحدة والنظام العالمى الجديد عن بعض سمات سلوكها وسياساتها .

كيف يمكن إزاء كل هذا ، وإزاء مابات السائحون يلمسونه مثلا من تفاقم مشكلة القذارة في شوارع لندن وقطارات الأنفاق فيها ، والاتجار العلني بالمخدرات فى طرقات أمستردام ، وصخب الشباب وعبثهم بالقانون فى الدولة الألمانية التي اشتهرت فى الماضى بالالتزام الصارم بالنظام ، أن يتحدث القوم عن فكرة التقدم المستمر فى أحوال البشر ، أو عن توقعات مبهجة للقرن الحادى والعشرين ، أو عن تأثير المدنية الحديثة فى زيادة رهافة الحس ؟







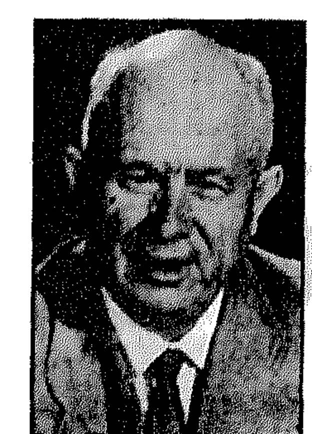
لينين — كارل ماركس — تشرشل



الثورة على الرأسمالية المتوحشة

بقلم : عبدالرحمن شاكر

شهد الاحتفال بعيد العمال فى أول مايو المنصرم من هذا العام، مظاهرات صاخبة، بل دامية أحيانا فى عدد من العواصم والمدن الكبرى فى الدول الغربية الصناعية المتقدمة ، بل إن بعض هذه المظاهرات كان متوقعا من جانب السلطات الحاكمة لوجود سوابق لها قريبة، منها مظاهرات فى مدينة سياتل الأمريكية فى ٣٠ نوفمبر من العام الماضى، وفى واشنطن قبل أسابيع قليلة من أول مايو. وكلها تصب فى بوتقة الثورة على الرأسمالية التى توصف الآن بأنها «متوحشة» !.



خروشوف





ستالين



البابا يوحنا

ولعل هذه الصفة تكون علما على رحلة جديدة من الرأسمالية ، مثلما شهد تاريخها مراحل سابقة، منها الرأسمالية التجارية فى القرون السابقة على الانقلاب الصناعى، ثم الرأسمالية الصناعية، فالرأسمالية المالية فى أوائل القرن العشرين، وصولا إلى الرأسمالية المتوحشة المصاحبة لثورة المعلومات والاتصالات والعولمة، والتى نجحت فى اسقاط النظام الاشتراكى الذى بدأ فى روسيا عام ١٩١٧ وانتهى فى أواخر القرن ذاته، وكان ممن استخدموا هذا المصطلح فى وصف الرأسمالية المعاصرة، بابا الفاتيكان الحالى يوحنا بولس الثانى، الذى كان له دور بارز فى إسقاط النظام الاشتراكى فى بلده بولندا، وسائر أنحاء أوروبا الشرقية، لما لمسه من تفشى مظالم تلك الرأسمالية العائدة إلى تلك البلاد، وفى سواها، وما أشاعته من بؤس وفقر وبطالة وجوع للأغلبية العظمى من سكانها وسكان المعمورة بصفة عامة!.

الميدان الطبيعي

إن الثورة التى عبرت عنها مظاهرات سياتل وواشنطن ونيويورك فى الولايات المتحدة الأمريكية، ولندن وبرلين، وأوسلو عاصمة النرويج فى أوروبا ، إنما تعود بالثورة على الرأسمالية إلى ميدانها «الطبيعى» طبقا للمقولات الماركسية الكلاسيكية، حيث شهد كارل ماركس ثورة ١٨٤٨ فى منتصف القرن التاسع عشر والتى شملت عددا من العواصم الغربية مثل لندن وباريس وبرلين، وأنشأ خلالها هو ورفيق نضاله «فردريك انجلز» «البيان الشيوعى»، وتوقعا فيه أن يؤدى اطراد

التقدم الصناعي، على يد «البرجوازية» فى بلدان الغرب المتقدمة إلى سقوط النظام الرأسمالى ، وقيام النظام الاشتراكى على يد «البروليتاريا» الصناعية التى يزداد عددها وتنظيمها مع استمرار التقدم الصناعى بفضل ما يقدمه العلم من وسائل جديدة أكثر تطورا للانتاج، تؤدى إلى انسحاق المنتجين الصغار فى حلبة المنافسة وسقوطهم إلى مراتب البروليتاريا، أى العمال المأجورين، وانتشار البطالة فى صفوف هؤلاء ، وتزايد عدد الأزمات الدورية فى الانتاج . بفضل ظاهرة «الاستقطاب» التى تتمثل فى تركز الثروة والملكية فى يد قلة من الرأسماليين ، مقابل كثرة من المملقين . وتكدس السلع فى مخازنها لأن العمال الذين أنتجوها لم يعودوا قادرين على شرائها رغم حاجتهم إليها لقلة أجورهم وتفشى البطالة فى صفوفهم.

ولكن الرأسمالية الصناعية فى الغرب استطاعت الافلات من المصير الذى توقعه لها كارل ماركس فى القرن التاسع عشر، حينما تحولت فى أواخره وأوائل القرن العشرين، إلى امبريالية تسعى إلى استعمار البلدان المتخلفة وفتحها بقوة السلاح، لا لكى تستولى على أسواقها وتغمرها بصادراتها الصناعية فحسب، بل لكى تستثمر فيها فوائض رءوس أموالها أيضا. وأتاحت لها هذه السياسة أرباحا مضاعفة، أمكنها منها أن ترفع مستوى معيشة عمالها بحيث لم يعودوا بحاجة إلى الثورة عليها، بل ونشأت إلى جانبهم فئات جديدة من الطبقات المتوسطة تعمل أساسا فى مجال الخدمات، بحيث تخف ظاهرة الاستقطاب ويزداد استقرار المجتمع الرأسمالى . فيما عدا ما يسببه التنافس الرأسمالى على المستعمرات من نشوب حروب عالمية مدمرة، تزداد فيها مكاسب فئات جديدة من الرأسماليين مثل منتجى السلاح، وصانعى المواد الاستهلاكية التى تحتاجها الجيوش بصفة عامة، والمستفيدين من إعادة بناء ما دمرته الحروب، والفائزين بمستعمرات وأسواق جديدة من المنتصرين على عكس ما يلحق بالمنهزمين طبقا لقاعدة «ويل للمغلوب»».!

الجملة الاعتراضية

إذا كان لينين زعيم الثورة البلشفية فى روسيا قد اعتبر أن الامبريالية هى أعلى مراحل الرأسمالية ، والأخيرة من تلك المراحل، والتى سوف تشهد الثورة الاشتراكية عليها. والتى لا يتحتم أن تقع أولا فى البلدان الصناعية المتقدمة كما كان يتوقع كارل ماركس، وإنما حيث تكون تناقضات الامبريالية مجتمعة اكثر تفاقما كما كان عليه الحال فى بلده روسيا، فإن الثورة التى قادها لينين فى بلده باسم

الاشتراكية ، والتى انتقلت بعد الحرب العالمية الثانية إلى بلدان أخرى كانت تماثل روسيا ، بل تزيد عنها فى تخلفها الصناعى، إنما كانت تعبيرا عن حاجة تلك البلدان إلى اللحاق بالتطور الصناعى الذى حققته الرأسمالية فى الغرب. وقد نجحت الثورة الروسية ومثيلاتها فى بلدان أخرى فى إحراز قدر من التقدم فى التصنيع والتنمية الاقتصادية بصفة عامة حيث قامت الدولة باسم «بناء الاشتراكية» بالدور الذى عجزت الرأسمالية المحلية الضعيفة عن القيام به. ولم يكن استبدالا للنظام الرأسمالى فى مجمله بنظام أكثر تطورا كما توقع كارل ماركس على العكس من ذلك، فإن التحدى الذى مثله النظام الاشتراكى فى الاتحاد السوفييتى السابق، وتحوله على حد تعبير أحد قادته. وهو نيكيتاخروشوف الذى خلف ستالين فى منصب سكرتير عام الحزب البلشفى، إلى نظام عالمى لا يمكن قهره.. وذلك فى مرحلة الحرب الباردة التى استعرت بين المعسكرين فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، كان هذا التحدى حافزا لاستخراج أقصى طاقات الرأسمالية الصناعية فى بلدان الغرب المتقدمة وخاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية، حتى أمكنها إنجاز الثورة التكنولوجية وثورة المعلومات . بحيث ألقت بالاتحاد السوفييتى وسائر بلدان المعسكر الاشتراكى، والبلدان النامية التى أخذت بأنظمة شبيهة به إلى هوة التخلف من جديد، وأجبرت تلك البلدان، على التحول بصورة أو أخرى عن نظامها السياسى والاقتصادى . لمحاولة اللحاق من جديد بالثورة التكنولوجية التى تحققت فى الغرب المتقدم، وأكدت احتفاظه بصدارة هذا التقدم!.

والآن حين تعود الثورة على الرأسمالية إلى ميدانها الطبيعى فى الغرب المتقدم . فإن الثورة التى قادها لينين فى روسيا . وما تبعها من بلدان متخلفة، إنما تبدو بمثابة «جملة اعتراضية» فى المسار التاريخى للرأسمالية! انتهت هذه الجملة، وأصابت الرأسمالية التى هضمتها بالتخمة وبالتوحش فى آن معا! حيث بيع القطاع العام الى لصوص حقيقيين فى عصابات المافيا.

آفاق جديدة

إن الرأسمالية التى يثور عليها عمالها الآن فى البلدان الغربية المتقدمة ، ليست هى رأسمالية كارل ماركس فى القرن التاسع عشر، ولا الامبريالية التى ثار عليها لينين فى القرن العشرين، فتصدير رءوس الأموال ، ومعها التكنولوجيا الحديثة إلى البلدان المتخلفة، أو النامية كما تحب أن تسمى نفسها، على يد

الشركات متعددة الجنسية، لا يساعد رأسمالية الغرب على أن ترفع مستوى معيشة عمالها. بل على العكس، فإنها تلقى بأعداد جديدة منهم إلى البطالة لأنها فى المجتمعات النامية تنشىء خطوط انتاج مشابهة لتلك التى كان يعمل عليها مواطنوها فى الدول المتقدمة، مستفيدة من رخص سعر العمل فى البلدان النامية لكى تبيع منتجاتها بأسعار تنافسية ويظهر تناقض جديد، ما بين مصالح العمال فى الدول المتقدمة، ومصالح عمال الدول النامية التى ترحب بالاستثمارات الجديدة، بل تكاد تستجديها!.

وبالطبع لن تكف الرأسمالية فى ظل حرية التجارة وانتقال رءوس الأموال والسلع، عن أن تنشىء خطوط إنتاج فى الدول النامية ولن تكف هذه الأخيرة على الترحيب بها. ويبدو وكأن التناقض القائم ما بين الفريقين من «ضحايا» الرأسمالية لا حل له!.

ويقوم تناقض آخر ما بين الفريقين السابقين معا، وفريق ثالث من دعاة حماية البيئة ، من نوع الذين ركبوا الدراجات فى شوارع لندن خلال مظاهرات مايو المشار إليها فى أول المقال، لكى يعرقلوا بصفوفها المتراصة حركة سير السيارات ، التى هى من انتاج كبرى الشركات العالمية متعددة الجنسية والتى تمثل استهلاكا جنونيا لمواد الانتاج وللطاقة ، وتعمل على تلويث البيئة بنواتج الاحتراق المدمرة لطبقة الأوزون، وتلويثها سمعيا بالضوضاء ، واجتماعيا بالتحاسد بين من يملكون ومن لا يملكون!.

وإذا كان بعض المشاركين فى مظاهرات لندن قد عمدوا الى رسم شعار المنجل والمطرقة «رمز الثورة البلشفية» على تمثال تشرشل، المدافع العتيد عن الرأسمالية ، والعدو الصارم للبلاشفة، الذى كان يطلق على نظامهم المسمى دكتاتورية البروليتاريا اسم «ديكتاتورية اللصوص» لأنهم قد أقدموا على تأميم المصانع التى كانت تملكها الرأسمالية، وتوزيع الأراضى التى كان يملكها الاقطاعيون على الفلاحين. فإن اجراءات من هذا النوع لن يكون فى المقدور تكرارها ، فمن الذى يستطيع تأميم مؤسسة من نوع الشركات العابرة للقارات متعددة الجنسية ولها مقار وفروع وأموال وبنوك فى كل مكان من المعمورة؟!.

لم تعد الحلول التقليدية للاشتراكية مجدية إزاء الطبقة الرأسمالية المتوحشة التى تتكون من الذين يتحكمون فى أقدار البشر بوسائلهم الانتاجية المتطورة، وما وراءها من علم وتكنولوجيا وما تحت أيديها من وسائل دفاعية وهجومية لحماية مواقعها فى كل مكان على ظهر المعمورة .

بل وفى سمائها بما تملكه من أقمار التجسس والاتصالات!.

ولكن كما أن الرأسمالية المتوحشة لها آفاقها الجديدة فى العمل والانتاج والابتكار ، وأيضا فى الاستغلال والفتك والتآمر.. الخ فإن الثورة عليها ولابد وأن يكون لها آفاقها الجديدة أيضا!.

هدف محدد

إن فى مقدور الجماهير المحرومة الساخطة أن تجعل الحياة فى أى بلد من بلدان العالم شبه مستحيلة بالتمرد، والمظاهرات المستمرة والصدام مع أدوات السلطة ، ولكن فى النهاية لابد وان يكون هناك هدف محدد من كل ذلك، يتجاوز حد إظهار السخط فحسب!.

إن الهدف الذى يمكن أن يجتمع عليه الذين يشكون البطالة وانخفاض الأجور من عمال البلدان المتقدمة ، ودعاة حماية البيئة فيها، وأبناء الدول النامية الذين قد يستفيدون جزئيا من تدفق استثمارات جديدة على بلادهم ولكن حرية التجارة التى تتم باسمها هذه العملية قد تؤدى الى دمار هائل لما لديهم من موارد اقتصادية. هذا الهدف لابد وأن يكون نظاما عالميا جديدا يقوم على العدل الاجتماعى. وليس على تسلط دولة واحدة . أو الطبقة الرأسمالية فيها على أقدار العالم!.

النظام العالمى الجديد، العادل، لابد وأن يبدأ من تأكيد سلطة الأمم المتحدة والمنظمات المتخصصة التابعة لها، وتعديل مواثيقها بحيث تكون أكثر ديمقراطية وتعبيرا عن شعوب العالم ومصالحها، وأن تعمل أجهزتها بفضل جميع ما أنجزته الثورة التكنولوجية على وضع تخطيط شامل للموارد والطاقات من كافة أنحاء العالم ، واختيار أفضل عناصر الانتاج وأقلها تدميرا للبيئة وإدارتها طبقا لتقسيم عالمى جديد للعمل، واستبعاد أشدها ضررا وفى مقدمتها أسلحة الدمار الشامل ووسائل إنتاجها، بحيث يكون الهدف من ذلك التخطيط، أن تحقق للجنس البشرى، على المدى الطويل شعار «من كل حسب قدرته، ولكل حسب حاجته!!».

وقد يقول قائل: إن ذلك كان الشعار الذى صاغة كارل ماركس لحقبة الشيوعية التى كان يعتبرها المرحلة التالية لمرحلة تحقيق الاشتراكية ، فإذا كان ذلك صحيحا، فهل كان سقوط الاشتراكية التى بدأها لينين مقدمة ضرورية لتحقيق الأحلام النهائية لأستاذه كارل ماركس؟!.

حركات الشباب
فى التاريخ المصرى الحديث

بقلم: طارق البشرى

بدا لى أن أتابع مايسمى بحركات الشباب فى التاريخ المصرى، ماهى وما وضعها وكيف تكونت وما دلالتها . وهى ظاهرة تكررت على مدى القرن العشرين عددا من المرات يسمح بإجراء مايشبه الاستقراء لاستخلاص مفادها.

ونحن لايكاد يظهر لنا مانسميه حالياً بحركات الشباب على مدى القرن التاسع عشر، ولا فيما سبقه من قرون، قد تكون حدثت ولم يسجل التاريخ هذا الحدوث ويحفظه وينقله لنا عبر السنين. فإن وسائل تسجيل الأحداث لم تكن على مستوى التسجيل التفصيلى الذى يحفظ مثل هذه الأحداث ، ولم تكن الصحافة ووسائل الرصد المؤسسى للأحداث بالشمول والتنظيم الذى بدأ يتشكل فى القرن الأخير.

ومن جهة أخرى فإن حركات الشباب تحتاج لتجمعات شبابية، أى لمجال اتصال كثيف يجمع الشباب فى الفئة العمرية المتقاربة . هذا المجال لانجده إلا فى معاهد التعليم، ولم تكن معاهد التعليم منتشرة ولا كان طلبتها بالكثافة العددية التى بدأت مع القرن التاسع عشر من منتصفه وتبلورت مع بدايات القرن العشرين ومن جهة ثالثة فإن المؤرخين لم يلتفتوا لأحداث الماضي السابق على القرن العشرين بمعيار التقاط الأحداث

التى جرت على ايدى شباب أو تشكل مايمكن أن نسمى بظاهرة شبابية . ولعلهم إن اهتموا فى قراءتهم لأحداث الماضى بالتنقيب وفقا لهذا المعيار ، ان يهتدوا إلى اثبات وجود مثل هذه الظاهرة. لعلهم يصلون إلى أمر كهذا ان رصدوا الأحداث التى كانت تحدث فى الأزهر مثلا ووصفوا مجال حدوثها واثبتوا تميزها . مع ملاحظة ان التعليم الأزهري وغيره كان يتسع لشرائح عمرية تجاوز سن الشباب ، وان الغالب على طلبة العلم قديما انهم لم يكونوا بالضرورة متفرغين لطلب العلم ، وان الكثير منهم كان يجمع بين طلب العلم والاشتغال بالمهن والحرف.

***

فى ظنى ان أول ظهور لهذه الحركات فى القرن العشرين كان فى سنة ١٩٠٦ ، بإضراب طلبة الحقوق وغيرهم ثم تأسيس ماعرف بنادى المدارس العليا.

وفى سنة ١٩١٩ لايظهر لى ان حركة شباب مستقلة أو متميزة ظهرت فى ذلك الوقت، قد تكون أولى شرارات ثورة ١٩١٩ بدأت مع خروج الشباب فى يوم ٩ مارس ١٩١٩ عندما عرفوا بنفى سعد زغلول وأصحابه خارج مصر . ولكن أحداث الثورة استوعبت الشباب كما استوعبت غيرهم من الطبقات الأخرى ومجالات العمل المختلفة ، بما لم يبق حركة للشباب متحيزة بذاتها.

وبين عامى ١٩٢٨ - ١٩٣٠ قامت حركة من الشباب بدت فى الحركة الاسلامية التى ظهرت فى ١٩٢٨ وفى مشروع القرش فى ١٩٣٠.

وفى عام ١٩٣٥ حدثت الانتفاضة التى ادت إلى إسقاط دستور اسماعيل صدقى الذى أصدره سنة ١٩٣٠ وإعادة دستور ١٩٢٣ والتمهيد لعودة حزب الوفد إلى الحكم . ورغم أن هذه الحركة قام بها الطلبة فى الاساس ، فهى لا تعد فى ظنى مما يصدق عليه أنه من حركات الشباب ، لانها كانت جزءا من تحرك سياسى حزبى قاده الوفد .

وفى عام ١٩٤٦ ظهرت حركة من حركات الشباب ، قامت بقدر من التميز عن التشكيلات الحزبية القائمة التى ينبنى بها التكوين السياسى السائد . وظهرت بما عرف باللجنة الوطنية للعمال والطلبة ، واللجنة القومية ، والأولى ضمت الحركات اليسارية سواء الماركسية أو من شباب الوفد اليسارى ، والثانية ضمت حركات الشباب ذوى التوجه الاسلامى ، ومنهم الاخوان ومصر الفتاة وغيرهما من الجمعيات.

وفى الفترة من ١٩٦٨ إلى منتصف السبعينات ظهرت حركة شبابية بموجات متتابعة، فى ١٩٦٨، ١٩٧٢ ومنتصف السبعينات ، بإضرابات ومظاهرات وتشكيلات تنظيمية فى الجامعات .

***

أتصور أن مايمكن أن نسميه حركات الشباب ، إنما يستبعد تحرك الشباب ضمن القوى السياسية والاجتماعية ذات الوجود والنشاط الذى تتشكل به بنية الحياة السياسية والاجتماعية وهياكل النظام السياسى الاجتماعى السائد ، ومن ثم لا يدخل فى حركات الشباب المعنية هنا تحرك الشباب فى ثورة ١٩١٩ لأنهم كانوا مشمولين بحركة أعم ، ولا

تحركاتهم ضمن حزب الوفد مثلا فى سنة ١٩٣٥ ، ولا حركتهم فى مقاومة العدوان الثلاثى فى ١٩٥٦ لانهم كانوا يتحركون ضمن حركة المقاومة التى نظمتها الدولة .

وفى هذا الاطار يمكن القول بأن حركة الشباب تقوم عادة بين الطلبة ، وبخاصة طلبة المعاهد العليا والجامعات ، باعتبار أن التجمعات الجماهيرية الأساسية فى المدن انما تكون من الطلبة فى المعاهد التعليمية ، ومن العمال فى المصانع ، والطلبة دون العمال هم من يختصون بشريحة عمرية شبابية . ولكن ليس من الحتم أن تجرى حركة الشباب من الطلبة فقط، وهى ليست حركة طلابية تتعلق بطلبة العلم وتقتصر على أوضاعهم التعليمية، وان حركة الشبان المسلمين التى ظهرت جمعيتها فى ١٩٢٧ وحركة الاخوان المسلمين التى بدأت بين الشباب فى ١٩٢٨ كلتاهما تكونت خارج اطار الطلبة وان ضمت منهم الكثير ، وصار نموها من بعد عبر الثلاثينات يعتمد أكثر مايعتمد على جيل الطلاب ، كما أن الحركات التى ظهرت بين الطلاب أساساً ضمت إليها نسبة غير قليلة من شباب الخريجين ومن غيرهم من ذات الشريحة العمرية.

ومن جهة ثانية فهى حركة سياسية أو حركة اجتماعية وثقافية ما تلبث أن تتخذ طابعا سياسيا. وهى فى كل الأحوال ليست حركة فئوية تقتصر على مطالب تعليمية للطلبة أو على مطالب اقتصادية لشباب العاملين والحرفيين مثلا . وفى سنة ١٩٣٨ قامت حركات ومظاهرات طلابية اقتصرت مطالباتها على تفتيح مجالات العمالة أمام خريجى الجامعات، وكانت ظهرت وقتها مشكلة البطالة بين المتعلمين . وفى ١٩٢٣ تقريباً ظهرت بين شباب طلبة الأزهر حركة للمطالبة بتوسيع فرص العمالة بينهم . ولم يعتبر أى من ذلك حركة شباب لاقتصارها على هذه المطالب الفئوية .

وحركة الشباب ، حتى ان بدأت باحتجاج على مشاكل فئوية ، فإنها سرعان مايظهر ان مثل تلك المشاكل لم تكن إلا مثيرات للتجمع والتحرك الجماعى، وهى سرعان ماتستقر على موقف المواجهة لأوضاع عامة قائمة ، وتطالب بتعديل جوهرى فى بعض الأسس السياسية الاجتماعية أو الأسس الثقافية السائدة . وهى بموجب هذا الطرح لتعديلات جوهرية تستثير الرأى العام وتستلفت انتباهه لا اليها بوصفها حركة شباب ولكن إلى نفسه وإلى مجتمعه وبلده.

هذه الحركة تكون ذات قدر من التميز أو التمرد على الأوضاع المستقرة وعلى الابنية والمؤسسات الهيكلية الموجودة فى فترة ما . سواء مؤسسات الدولة أو المؤسسات الحزبية والأهلية القائمة . بل انها فى الغالب تتميز بخروجها على تلك المؤسسات الحزبية الأهلية القائمة .

إن الابنية الحزبية القائمة هى أوعية يمثل كل منها تيارا سياسيا اجتماعيا له جذوره فى الأفكار السياسية الاجتماعية والثقافية السائدة : وان حركة الشباب بخروجها عن هذه الأبنية القائمة وبعملها من خارج القنوات الموجودة والمعدة من قبل للحركات الاهلية ، انما تكون فى الغالب وبالضرورة صادرة عن عدد من الأفكار والتصورات والمطالب تجاوز الاطر السائدة . لذلك كان أول مالوحظ مثلا فى حركة الشباب الأوروبى فى ١٩٦٨ انها ظهرت بشعار «المعارضة خارج البرلمان». والبرلمان فى النظم الديمقراطية الحزبية يمثل

همزة الوصل بين مؤسسات الدولة لأنه منها وبين المؤسسات الحزبية الاهلية لأنها تعمل من خلاله . ومعنى المعارضة خارج البرلمان انها معارضة خارج المؤسسات السياسية السائدة عموماً ، سواء ما مثل الدولة أو ما مثل التشكيلات الحزبية السائدة .

وهي بهذا الوضع ، أى بتميزها عن المؤسسات الرئيسية السائدة وعن الأطر الفكرية الثقافية السائدة ، فإنها فى العادة ماتنشىء لها قنوات جديدة للحركة . لذلك فان واحدا من سماتها انها تنبعث عنها قيادات شابة جديدة لم تكن عاملة من قبل، وتطرح بذور نخبة سياسية أو ثقافية جديدة ما تلبث ان تنمو . وهي فى بدايتها عادة ماتظهر نوعا من النشاط المباشر الذى يتسم بغير القليل من العفوية والتلقائية .

فما يمكن ان يسمى بحركة الشباب فى التاريخ المصرى ، هي الحركات السياسية أو الثقافية التى تقوم بين جماهير من الشباب ، وتتصف بالتميز عن هياكل التنظيمات السائدة فى الحياة السياسية والاجتماعية ، أو عن الأطر الفكرية الذائعة بتياراتها المختلفة .

***

مادمنا استبعدنا تحركات الشباب من خلال الأحزاب القائمة فعلاً ، أو تحركاتهم ضمن حركات ثورية عامة مثل ثورة ١٩١٩. فقد بقيت الظاهرة محل الحديث ، وهذه الحركات الشبابية المعنية يمكن باستقرائها على مدى القرن العشرين القول بانها تنجم عن حدوث تغيير أساسى فى الهياكل الاجتماعية أو فى التوازنات السياسية القائمة أو تغيير يكون حدث فى التشكيل الثقافى . وان يكون تغييرا تقوم به الفجوة بين التكوينات السياسية الاجتماعية والثقافية القائمة وبين مجموعة من المتطلبات الجديدة لم تنعكس بعد فى التكوينات القائمة . أى ان الواقع يكون قد اسفر عن متطلبات لاتجد لها تعبيرا كافيا فى التشكيلات والمؤسسات السياسية والاجتماعية السائدة .

ومن ثم لم تعد المؤسسات القائمة قادرة على تمثيل الحركة الاجتماعية والثقافية الموجودة فى الواقع . ولا اقصد بالمؤسسات مؤسسات الدولة فقط ، انما الأمر متعلق بالمؤسسات الاهلية أيضاً وبالأنساق الفكرية والثقافية السائدة .

أو ان تكون الأوضاع السياسية الاجتماعية أو الأوضاع الثقافية قد استوجبت تصنيفا جديدا للقوى السياسية والثقافية ، اذ يكون ضمر بعضها واشتد ساعد البعض الآخر عبر مرحلة تاريخية بحيث ان الاحجام النسبية للتوازنات بين هذه القوى تكون تعدلت تعديلا جوهريا .

أو ان تكون الظروف السياسية الاجتماعية أو الأوضاع الثقافية قد استوجبت ظهور قوة سياسية أو اجتماعية جديدة أو ظهور تيار فكرى ثقافى جديد ، وصار من الحتم ان تتشكل له قوته المؤسسية وان يمثل مكاناً يليق به من المؤسسات الفاعلة أوالتيارات الرائدة .

لقد ظهرت أولى هذه الحركات الشبابية طبقا للعرض السابق وافتتحت فى فبراير ١٩٠٦ بإضراب طلبة مدرسة الحقوق الخديوية ، وانشىء فى السنة ذاتها نادى المدارس العليا . ورغم ان نشاط مصطفى كامل وصحيفة اللواء قد جرى قبل ذلك بسنوات

(أسست صحيفة اللواء فى ١٩٠٠) ، فإن الحزب الوطنى لم ينشأ ويتأسس إلا مواكباً لهذه الحركة الشبابية التى جرت فى ١٩٠٦ . وبه ظهرت على سطح الحياة السياسية الاجتماعية قوة وطنية جديدة منظمة، وشاركت فى صياغة الرأى العام على مدى من السنين ممتد. وقدمت صيغة جديدة للنشاط السياسى اساسها المطالبة بجلاء الاحتلال العسكرى البريطانى اعتمادا على القوة الذاتية للشعب المصرى ، وتكونت هذه القوة السياسية ممن كانوا شباباً وقتها نشأت منهم وتشكلت قيادات تنظيمية وسياسية وثقافية على المدى الممتد من السنين التالية.

وظهرت ثانية هذه الحركات فى عامى ١٩٢٧ و١٩٢٨ بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى فى ١٩١٨، وقيام ثورة ١٩١٩ فى مصر وإلغاء الخلافة الاسلامية فى ١٩٢٤. وكانت الاحداث كلها تكشف عن ان النداءات السياسية والاجتماعية والوطنية قد ابتعدت عن المرجعية الدينية الاسلامية، وسادت النظم الوضعية المنبتة عن الاطار المرجعي الثقافى الاسلامى، وتعينت الأهداف السياسية مفصولة عن هذا الإطار المرجعى. وبدأت حركات التبشير الغربية تعقد المؤتمرات وتمارس النشاط فى مصر والبلاد الاسلامية وبين المسلمين وقامت حركة الشباب هذه لتدافع عن الشمولية الاسلامية باعتبارها اطارا مرجعياً للنظم وللمعاملات وللقيم وقواعد السلوك على سواء . وتشكلت فى اعقابها «الشبان المسلمون» ثم الاخوان المسلمون .

وظهرت أيضاً فى ١٩٣٠ حركة شبابية، كانوا من طلبة الجامعة فى الاساس، عرفت بحركة «مشروع القرش» وتحددت دعواها فى جمع التبرعات من المصريين جميعاً لإقامة الصناعات المصرية، وكان أساس المشروع أنه نوع من الدعوة لمبدأ الاستقلال الاقتصادى ، وان المطلوب رفع السيطرة الأجنبية عن المشروعات الاقتصادية . ومن هذه الحركة الشبابية ظهرت جمعية مصر الفتاه ثم اسميت حزب مصر الفتاه، وكانت تقف متجاوزة الاعتدال الوفدى فى المطالب الوطنية الاجتماعية.

وظهرت فى ١٩٤٦ حركة شباب بلغت ذروتها بتكوين اللجنة الوطنية للعمال والطلبة ، ومنها طفا على سطح الحياة السياسية الاجتماعية فى مصر عدد من التنظيمات الماركسية وتيارات يسارية أو اشتراكية بين شباب حزب الوفد أو غيره، كما تشكلت وقتها اللجنة القومية من تجمع الأحزاب والتيارات ذات التوجه الاسلامى تنادى بأهداف سياسية واجتماعية متوازية ولكنها تتمسك بالمرجعية الاسلامية . وكل من الحركتين كان يظهر استجابة للأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية لما بعد الحرب العالمية الثانية.

وفى ١٩٦٨ - ١٩٧٢ ظهرت حركة شباب طلابية فى اعقاب هزيمة ١٩٦٧ ، وكان مطلب الديمقراطية السياسية من أهم مطالبها بحسبان غياب هذا المطلب على مدى التجربة السياسية للنظام المصرى الوطنى خلال الخمسينات والستينات وكانت الهزيمة قد كشفت عن عوار أساسى فى التكوين التنظيمى للدولة والمجتمع ، مما لم يمكن معه المحافظة على الاستقلال من خلال الاطر التنظيمية التى قامت عبر العقدين السابقين وامتدت هذه الحركة لتطرح مبدأ استرداد الأرض السليبة بالقوة.

وفى منتصف السبعينات ، ظهرت الحركة الاسلامية بوصفها حركة شباب ، سواء

بين طلبة الجامعة أو خارج اسوار الجامعة ، بحسبان ان النداءات الاسلامية السياسية كانت استبعدت من ان تكون ذات اثر أو ذات سهم فى تحديد مشروع النهوض والتنمية المستقلة في بلادنا ، كما كان استبعد التيار الاسلامى من أن يكون ذا سهم فى المشاركة بين القوى السياسية التى اعترف بوجودها وبعملها فى هذه الفترة. وكانت مصر قد مرت بعهد تجربة الليبرالية الغربية بحسبانها مرجعية فكرية للنظم وللمعاملات في فترة ما بين الثورتين ١٩١٩ - ١٩٥٢ ثم مرت بعهد الاشتراكية الثورية فى الخمسينات والستينات، واذ كانت مصر تقدمت تقدما لاشك فيه خلال هذين العهدين ، فان هزيمة ١٩٤٨ فى العهد الأول ، وهزيمة ١٩٦٧ فى العهد الثانى ، كل ذلك كشف عن أن ثمة عوارا هيكليا فى الصيغة الحضارية والتنظيمية لكل من التجربتين . وكانت كلتا التجربتين تصدران عن المرجعية الغربية ، الأمر الذى أوجد احتياجا لربط منجزات العهدين بالمرجعية الاسلامية حضاريا وعقيديا ، ومن ثم انبثق التيار الاسلامى.

ومن هذا الاستعراض يظهر ان كلا من هذه الحركات كانت تحمل فى احشائها جنين تنظيم سياسى أو تيار فكرى سياسى ، وأنه ولد منها . وان أيا من هذه التنظيمات أو التيارات يمكن أن تعود نشأته إلى مرحلة سابقة عن حركة الشباب التى واكبته ولكن تظل هذه الحركة الشبابية فى كل هذه الأمثلة هى الحدث المعاصر لتاريخ الميلاد الشعبى لتنظيم سياسى أو تيار فكرى ثقافى.

***

يظل ثمة سؤال عن سبب كون حركة الشباب بخاصة هى مايعبر عن ظهور تيار جديد . والجواب في ظنى ، أو محاولة الجواب ، هى أن أى حركة يمكن أن تكون تعبيرا عن أمر جديد . والثورات تفيد انها تعبير عن تكوينات جديدة وعلاقات جديدة وتوازنات جديدة فى المجتمعات ، سواء من الناحية السياسية والاجتماعية أو من الناحية الثقافية الحضارية . وحركة الشباب ليست ثورة وليس لها شمول الثورات ولا عمقها ولا انها تتعلق بمرحلة كاملة من مراحل تاريخ مجتمع معين . ان حركة الشباب في ظنى هى ما يرهص «بتعديل» هيكلى أو تغيير فى «الأبنية» المؤسسية السياسية الاجتماعية أو الثقافية دون أن يكون هدفا شاملا ولا بناء كاملا .. ويمكن أن تكون هناك حركات أخرى شعبية تنتمى إلى فئات من الشعب وتفضى إلى ماتفضى اليه حركة الشباب من تكون حزبى أو تبلور لتيار ما . على أنه يمكن أن نلحظ لحركة الشباب خصائص ذاتية تساعدها ، وساعدتها على اداء الدور الذى امكن استقراؤه من وقائعها .

فان مراكز التعليم ومعاهده هى مجالات للتجمع الشعبى لايشاكله فى هذه الصفة إلا المصانع بوصفها تجمعا عماليا. ولكن معاهد التعليم تعتبر تجمعات أكثر رحابة من الناحية الاجتماعية والثقافية، فهى لا تتكون من جماعة ذات وضع اجتماعى طبقى واحد ، ومن ثم تكون التفاعلات السياسية والفكرية فيها أسرع.

ومن ناحية أخرى فان جماهيرها من الشباب الذى لاترهق حيويته وقدرته على تقبل الجديد وملاحظاته خبرات الماضى ومشاكله ، ولا تقيد حركته منجزات الماضى واحساسه بأن حاضره أفضل مما كان عليه حال الجيل السابق عليه . فالشباب ينشأ ويقف حيث

انتهى الآخرون ومن حيث ما صار اليه المجتمع، وهو بهذا اقدر على التقاط المشاكل الجديدة وتبنى الحلول الجديدة ، وهو أكثر قدرة على الفعل المتحرر من الخوف واكثر قدرة على اقتحام التجربة بغير ان يكبله الحذر من الخطأ.

ومن ناحية ثالثة فان جماهيرها هم من الشباب المثقف عادة وممن بدأوا يتدربون على المعالجات الفكرية . والجديد فى بدايته يكون فكرا أو حلولا فكرية لمشاكل فعلية ، فهم اسرع من غيرهم على الانجذاب إلى ما يمكن أن يسمى بالفكر الجديد أو الفكر غير السائد فى صورته المثلى ، وقبل أن يتجسد هذا الفكر وتصوراته الذهنية فى مؤسسات تنظيمية وترتبط به المصالح النسبية ، فحركتهم فى هذا الطور تكون فى مرحلة الدعوة التى لم تتحول بعد إلى مصالح إن صحت هذه التعبيرات العامة .

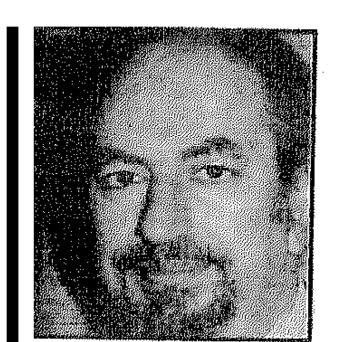
ومن جهة أخيرة ، فانه يصعب على القوى السائدة فى المجتمع وعلى المؤسسات ذات الفاعلية فى هذا المجتمع أن تتصدى لها تصديا سريعا ، وحركة الشباب تتكون من عناصر لاتزال فى دور التشكل، وهى عناصر لم تستوعب بعد لافى مؤسسات الدولة ولا فى التشكيلات الحزبية القائمة وهى تنشط من خارج ذلك كله . ولم تدرك المؤسسات القائمة بعد كيف تتعامل معها استيعابا لها أو مخاصة . ومن حيث هى تيار فكرى لم يتبلور بعد لدى القوى القائمة كيفية المواجهة الفكرية لها استيعابا أو رفضا ، ومن حيث الأشخاص لم يعرفوا بعد ولم يعرف بعد دور قياداتهم الشابة الوليدة ، ولم تفتح لهم ملفات بعد سواء للتعامل الأمنى أو للتعامل السياسى أو الفكرى ، من مؤسسات السياسة والفكر.

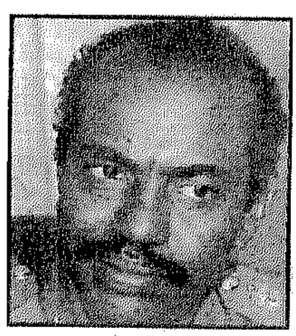
والشباب هم جمهور من شريحة عمرية محددة ، وهى شريحة تتغير كل سنوات جد محدودة ، والطلبة مثلا يتغيرون جلهم إن لم يتغيروا كلهم، كل مدة تتراوح بين السنوات الأربع والسنوات الست ، ومهما كانت القدرة على المتابعة فإنه يصعب جداً ملاحقة تجرى بهذه السرعة فى التشكيل الاجتماعى البشرى الذى تصدر منه حركات الشباب، فلذلك فهى فى ظهورها ذات قدرة عالية على التفلت من حواجز الأوضاع القائمة ، والتسرب من جدران الأوضاع السائدة.

وعلى الجملة، فانها لاتستطيع عادة ان تغير النظم السياسية الاجتماعية القائمة لانها حركة مؤقتة بطبيعتها .. انما تستطيع أن تؤثر فى الأوضاع السائدة تأثيراً فعالاً وان تترك بصمتها على الوجود الاجتماعى الثقافى وان تعدل الأوضاع القائمة فى جانب منها.

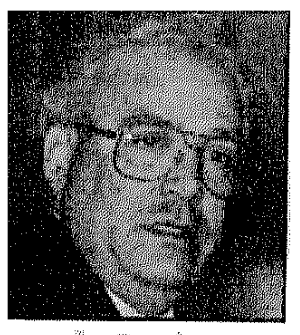
فهى تكشف أولا عن وجود خلل فى الأسس القائمة ، أو فراغات حدثت فى التكوين البنائى القائم . ومنها يظهر تيار جديد إما فى صورة تنظيم سياسى أو فى صيغة تيار فكرى.

وقد تستطيع المؤسسات القائمة أو التيارات السائدة أن تعدل من نفسها وتغير من الأوضاع والتوازنات التى كانت موجودة ، وذلك بما يمكن من استيعاب هذه الحركة . والأمر فى ذلك يرجع إلى مدى المرونة التى يتحلى بها الوضع القائم والتى تمكنه من استيعاب هذه الحركة، لأن الاستيعاب هنا مشروط بقدرة الأوضاع القائمة على أن تعدل من نفسها وتغير بعض جوانبها بما يمكنها من تحقيق هذا الاستيعاب.


د. سعد الدين ابراهيم


عمر البشير

أقوال معاصرة


د. جابر عصفور

● «كان يجب أن يكون اللبنانيون أغرابا مثلى حتى يعرفوا قيمة لبنان، وحتى يمتنعوا عن قتله باقتتالهم» .

المفكر جورج طرابيشى

● «طائفية اللبنانيين كالنباتات السامة، قاتلة مع الجهل، وعلاج مع المعرفة» .

يوسف الحورانى
باحث لبنانى فى التاريخ الحضارى

● «لو» التاريخية تعوق التحليل العقلانى لانطوائها على تمنيات ورغبات وأحكام قيمية .

الكاتب د. سعد الدين ابراهيم

● «ليس هناك بعد اليوم مؤسسية، هناك بندقية» .

الرئيس السودانى عمر البشير

● «أفضل الانتحار على السماح لروحى أن تظل حبيسة فى جسد ميت» .

المخرج السويدى انجمار برجمان

● «الشهادات والوثائق لا تكفى، لأننا نرى الحقيقة بمزاجنا واهوائنا» .

د. ناديا خوست
الاديبة والباحثة السورية

● «خير وسيلة لفتح الأبواب السياسية المغلقة هى اثارة المشاعر الدينية، عند شعب يغلب عليه الايمان» .

د. جابر عصفور

● «الناس بالملوك ، ولا يصلح عرب ملوكها عجم » .

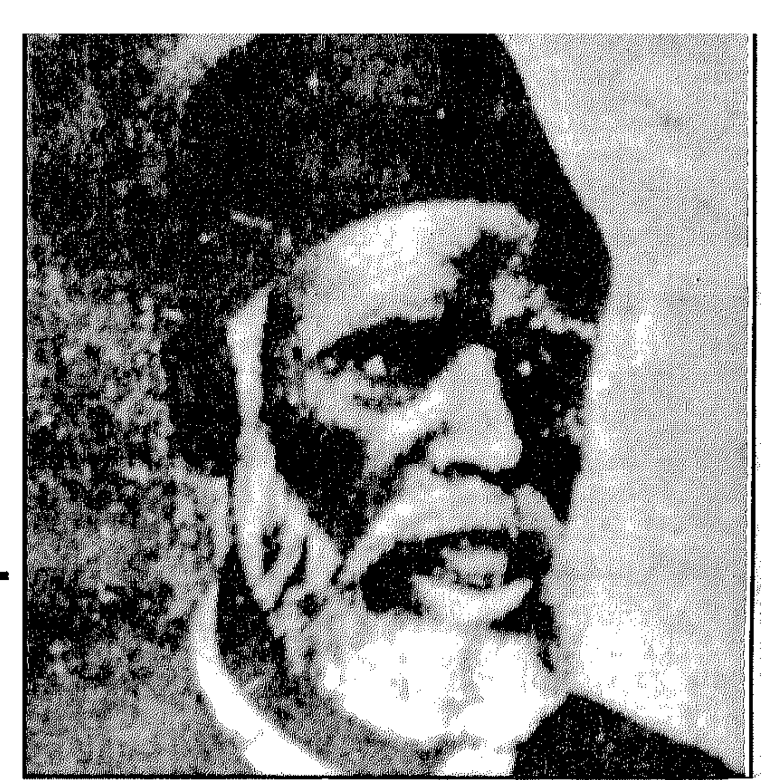
الشاعر ادونيس

● «من الأشياء القليلة التى أستطيع أن أؤديها القيام بغلى الماء» .

النجم الامريكى مايكل دوجلاس
الفائز بأوسكار أفضل ممثل رئيسى

● «تولى منصب المدير الموسيقى لاوركسترا برلين الفلهارمونى مثله مثل تولى منصب البابا، ولكن بدو العزوبية»

سير سايمون راتل لدى انتخابه رئيسا للاوركسترا



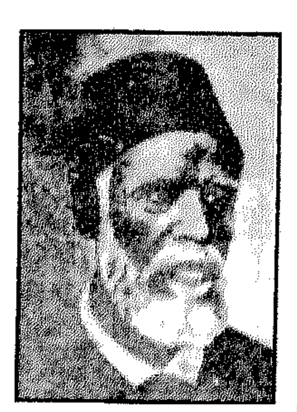
١٨٢٣م

١٨٩٣م

على باشا مبارك
بورتريه لمثقف من القرن ١٩

بقلم : د. عاصم الدسوقى

على مبارك أحد الشخصيات البللورية فى تاريخ مصر الحديثة ، التى لم تتكرر على مدى قرنين من الزمان إلا قليلا بالقياس إلى عدد المثقفين المصريين ، فهو من الشخصيات ذات الجوانب المتعددة ، والاهتمامات المختلفة ، والتخصصات المتنوعة ، وهو موسوعى الثقافة له فى فروع العلم والمعرفة إنجازات ملحوظة وأفكار مأثورة ، انشغل به الدارسون فى التاريخ والجغرافيا والحضارة والأدب والاجتماع والتربية فضلا عن الهندسة والرياضيات ، واختلفوا فيما بينهم حول أعماله وكتاباته ما شاء لهم الاختلاف .



وعلى مدى ثلاثين عاما «١٨٦٣ - ١٨٩٢» من عمره كتب خمسة عشر مؤلفا ، نشرت جميعها عدا أربعة فقط ، وكانت أولى مؤلفاته فى ١٨٦٣ «تقريب الهندسة» لتعليم الضباط وصف الضباط القراءة والكتابة والحساب وقواعد الهندسة ، وآخر مؤلفاته فى عام ١٨٩٢ بعنوان «الميزان فى الأقيسة والأوزان» وهو دراسة مقارنة فى تاريخ الأقيسة والمكاييل والأوزان فى مصر منذ العصر القديم ، وفيه يقول إن الوزن منسوب إلى القدم والمكيال منسوب إلى الذراع وهى أقيسة طولية ، وبين هذين المؤلفين وهما فى العلوم الرياضية بدرجة أو بأخرى نشر سائر مؤلفاته المتنوعة.

على مبارك وبدء الكتابة

ومن الملاحظ أنه بدأ الكتابة وهو في سن الأربعين ، وبعد أربعة عشر عاما من عودته من بعثته الدراسية فى باريس ، وذلك بعد أن تزود بكثير من الخبرات التى ازدادت مع الزمن واتضحت فى أعماله ذات الطابع الفكرى أكثر من أعماله فى الجانب التقنى والعلمى ، وقد تبدو مؤلفاته الخمسة عشر فى خلال الثلاثين عاما قليلة بالقياس إلى الزمن . إلا أنها تصبح كثيرة فعلا إذا أدركنا أنه لم يكن كاتبا محترفا، وأنه كتب أثناء توليه مسئوليات إدارية ووزارية متعددة ، لولا أن الكاتب بداخله كان أقوى من الموظف السياسى والإدارى ، حين تصبح الكتابة متنفسا وحيدا للتعبير عما يجول بصدره شأن كثير من المثقفين .

وإذا عرفنا أنه بدأ حياته العملية فى عام ١٨٥٠ مدرسا بمدرسة طرة الحربية ، وظل يتدرج فى وظائف الحكومة ، ويتنقل بين مناصبها حتى مايو ١٨٩١ «قبل وفاته بعامين» ، وأنه شرع فى الكتابة والتأليف من عام ١٨٦٣ وحتى ١٨٩٢ «قبل وفاته بعام» ، أدركنا أن سنوات الأعباء الحكومية هى نفسها سنوات الإنتاج الفكرى والإبداع.. فمن مدرسة طرة الحربية اشترك فى حرب القرم سنة ١٨٥٤ بين الدولة العثمانية وروسيا ، وتفاوض خلالها مع الروس باسم الأتراك . ثم عين وكيلا لديوان المدارس «وزارة المعارف فيما بعد» عام ١٨٦٧ ، وفى ١٨٦٨ يُعين ناظرا لديوان الأشغال والأوقاف ، ثم يصبح ناظرا لديوان المدارس على فترات متقطعة : من أبريل ١٨٦٨ - سبتمبر ١٨٧٠ ، ومن مايو ١٨٧١ - أغسطس ١٨٧٢ . ومن أغسطس ١٨٧٨ - أبريل ١٨٧٩ ، ثم من يونيو ١٨٨٨ - مايو ١٨٩١ . كما تولى نظارة الأشغال فى ١٨٨٢ ، كما عين مستشارا للأمير حسين كامل لديوان المدارس من



أغسطس ١٨٧٢ - أغسطس ١٨٧٣ حين كان بعيدا عن الإدارة الحكومية ، وعين عضوا بالمجلس الخصوصى «أشبه بمجلس الوزراء» عام ١٨٧٣ .

روضة المدارس مع نظارة ديوان المدارس

وفى فترة توليه نظارة ديوان المدارس أصدر مجلة روضة المدارس ١٨٧٠ التى نشر فيها بعض كتبه المدرسية على حلقات، وأنشأ كذلك دار الكتب المصرية ١٨٧١، وخصص قاعة للمحاضرات العامة للجمهور ١٨٧١ بدرب الجماميز قريبا من دار الكتب ، وأسس دار العلوم فى ١٨٧٢ .

وقد بدأ على مبارك الكتابة بشكل يكاد يكون منتظما منذ أواخر ستينات القرن التاسع عشر ، حيث نشر فى السبعينات أربعة كتب .ففى ١٨٧٠ نشر «حقائق الأخبار فى أوصاف البحار» يتناول فيه عجائب البحار وتركيب مياهها ، وكيفية تكوين الأمواج، وظاهرة المد والجزر، وتأثير ذلك على الشواطىء ، وفى ١٨٧٢ نشر عملين هما : «خواص الأعداد» ويختص بمسائل فى الحساب ، وكتاب «تنوير الأفهام فى تغذى الأجسام» عن التغذية الصحية والدورة الهضمية مستلهما فيه كتابا بالفرنسية . وفى ١٨٧٦ ينشر «تذكرة المهندسين وتبصرة الراغبين» وهو كتاب مدرسى فى الهندسة يتناول الشكل المثلث، والرباعى، وشبه المنحرف ومساحة الدائرة وأجزاءها .

الخطط التوفيقية

وفى الثمانينات ينشر «نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر» ١٨٨١ ، وإن كان قد انتهى من كتابته فى ١٨٧٣ ، ويتناول تاريخ نهر النيل ، وأهمية العناية بالرى لصلة ذلك بالعمران أو بالخراب ، وحلول الشقاء أو السعادة على أهالى مصر تبعا لذلك . وفى ١٨٨٢ ينشر «علم الدين» وهو عمل من أربعة أجزاء . أرسله فى شكل حوار متخيل بين عالم أزهرى ومستشرق انجليزى محب للشرق ، وقد تم جزء من الحوار فى مصر والجزء الآخر فى بلد المستشرق وبلدان أوروبية أخرى مقارنا بين أحوال الشرق وأحوال الغرب . وفى عام ١٨٨٣ نشر الجزء الأول من كتابه «طريق الهجاء والتمرين على القراءة باللغة العربية» وكان قد كلف بكتابته فى عام ١٨٦٦ أثناء نظارته للقناطر الخيرية. والكتاب يتناول بالشرح الحروف الأبجدية بحروف الثلث والفارسى والرقعة مع بعض أمثلة وعظات . ثم ينشر الجزء الثانى من الكتاب فى ١٨٨٦ ، ويشمل موضوعات علمية فى شكل أقاقيص خفيفة تناسب عقل الأطفال مع

معلومات أدبية ، وعلامات ضبط القراءة، فضلا عن بعض النصائح والإرشادات الإسلامية ، وطرف من أخبار السيرة النبوية . وفى ١٨٨٨ - ١٨٨٩ ينشر «الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة» في عشرين جزءا يستكمل بها خطط المقريزى «النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة» وقد خصص الأجزاء الستة الأولى منها لمدينة القاهرة ، وخصص الجزء السابع للإسكندرية ، والأجزاء من الثامن إلى السابع عشر عن أقاليم مصر . والثامن عشر عن مقياس النيل ، والتاسع عشر عن الترع والخلجان ، والجزء العشرون خصصه للنقود المصرية وأشكالها وقيمتها . وقد استغرق إعداد الأجزاء كلها نحو ستة عشر عاما ، إذ بدأ فى كتابتها عام ١٨٧٢ . وفى عام ١٨٩٠ ينشر بمجلة الأزهر مقالة بعنوان: «المزاحمة وتأثيرها فى الارتقاء البشرى» ، أى المنافسة بالتعبير المعاصر ، والمقالة انعكاس لتطور الأوضاع فى مصر بعد دخول رأس المال الأجنبى وتأثير ذلك على طوائف الحرف والتجار المصريين .

وفى التسعينات كانت صحته قد اعتلت . وترك المسئوليات الحكومية «ترك نظارة المعارف فى مايو ١٨٩١» ، وبدأ مرحلة أخرى من الحياة كان نشاطه فيها قليلا . وفى هذه المرحلة الأخيرة يراجع ترجمة كتاب «خلاصة تاريخ العرب» للفرنسى سيديو Sideillot† ويكتب له مقدمة طويلة ، وكان قد كلف محمد أحمد عبدالرازق مدرس اللغة الفرنسية بالمدارس المصرية بترجمته لنزاهة المؤلف واعترافه فى الكتاب بفضائل الإسلام ومآثر العرب ، وقد نشرت الترجمة فى ١٨٩١ . وفى العام التالى ١٨٩٢ وقبل وفاته بعام واحد نشر كتابه «الميزان فى الأقيسة والأوزان» الذى سبقت الإشارة إليه .

وهناك أعمال أخرى لكاتبنا ورد ذكرها عرضا فى «الخطط» لكن أصولها غير موجودة ، من ذلك ، مخطوطة عن «التربية وما يترتب عليها من تقدم الشعوب» ، وكتاب فى العمارة تقرر على المدارس ولم يطبع ، وآخر عن فن الاستحكامات العسكرية وقيادة الجيوش فى الحروب ضاعت أصوله منه .

وهناك مؤلفات أخرى ذكرها آخرون ممن ترجموا لحياة على مبارك لكنها غير موجودة أيضا ومنها : كتاب : «جغرافية مصر» الذى ذكره يوسف إلياس سركيس فى «معجم المطبوعات العربية والمصرية» ، وكتاب «آثار الإسلام فى المدنية والعمران» أورد ذكره محمد بك درى الحكيم فى كتابه «حياة المغفور له على مبارك باشا» .

ومن بين كل هذه الأعمال المتعددة حظيت «الخطط» بشهرة فائقة حيث ارتبط اسم على مبارك بها ، فإذا ما ذكرت «الخطط» ذكر على مبارك والعكس صحيح ، مع

أن «الخطط» لا تعبر تعبيرا حقيقيا عن ثقافة على مبارك وتكوينه الفكرى . أما أعماله التى تعبر عن ذلك فى تقديرى فهى : نخبة الفكر ، وعلم الدين . ومقالة المزاحمة . ومقدمة ترجمة كتاب «خلاصة تاريخ العرب» (راجع مقالتنا «الوعى بالتاريخ : دراسة فى فكر على مبارك» فى كتابنا «أفكار لم تنشر» ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ١٩٩٦) ، ومن بين كل إسهاماته وإنجازاته لايذكر إلا دوره فى ترقية التعليم وضبطه حتى لقد أخذ لقب «أبو التعليم» .

الخطط مصدر لا غنى عنه

ولعل شهرة الخطط جاء ت على أساس أنها مصدر لا غنى عنه لكل من يبحث فى تاريخ مصر الاجتماعى والاقتصادى والأدبى والعمرانى ، ليس فى القرن التاسع عشر فقط، وإنما لفترة سابقة قد تعود إلى القرن الخامس عشر حيث توقف المقريزى فى خططه ، وذلك نظرا لطبيعة التغير البطىء فى الحياة الاجتماعية ، ومما يزيد فى قيمة أجزاء الخطط علميا . التوثيق الذي اتبعه على مبارك فى كتابته . فقد رجع إلى حجج الأوقاف والأملاك وكتابات العرب والإفرنج الذين ساحوا فى ديار مصر، والرسوم التى زودوا بها كتبهم . وما كتبه الموظفون الأوروبيون الذين عملوا فى خدمة أسرة محمد على مثل كلوت بك . كما رجع فى الأحوال الدينية للمسلمين لما رأى علماء الأزهر. وإلى القساوسة بالنسبة لأحوال الأقباط ، وتبدأ خطط على مبارك من حيث تنتهى خطط المقريزى متابعا وصف طبوغرافية المدن والقرى، ومتحدثا عن كل مدينة منذ نشأتها وما تحويه من مبان ومرافق وأماكن عبادات ومدارس . ومترجما لمن نشأ بكل مدينة من شخصيات ذا ع صيتها من العلماء والأمراء ومشاهير الرجال. واستند إلى الجبرتى فى الإحاطة ببعض تاريخ من ترجم لهم . كما استكتب معاصريه عن تاريخ حياتهم . وقد أجمع كل من كتب عن على مبارك على أنه اعتمد فى جانب كبير من جمع مادة الخطط على مرء وسيه من موظفى النظارات التى تولاها : المعارف والأوقاف والأشغال .

علاقة المثقف بالسياسة

على أن متابعة تاريخ على مبارك يثير إشكالية على جانب كبير من الأهمية والخصوصية ألا وهى علاقة المثقف بالسياسة ، وخصال البورجوازية الصغيرة ذات الأصول المتواضعة ، واتخاذ البعض مواقف تبدو منافية للتكوين الفكرى الذى اكتسبوه من مصادر المعرفة المتعددة ، ومن حصيلة مختلف التجارب الغنية ، ومن واقع التناقض مع الغير . والحاصل أنه فى ١٨٧٣ تحول على مبارك لأول مرة عن الكتابة فى الهندسة والرياضيات إلى الكتابة بتكليف فى موضوع فكرى تحليلى



فكتب: «نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر» ، وبعد أن امتدح محمد على باشا لعنايته بالزراعة أعلن أسفه «لعدم استمرار خلفائه على منواله فى الاعتناء بنماء هذا المشروع الجليل» . وحدث أن اطلع إسماعيل صديق المفتش على مخطوطة الكتاب – كما يفهم من سياق حديث على مبارك فى «الخطط» – فوشى به عند الخديو إسماعيل وقال له «إن كتاب نخبة الفكر مشتمل على ذم الحكومة الخديوية وتقبيح سياستها» . وكانت النتيجة فصل على مبارك من المجلس الخصوصى وكان حديث العهد به . ولزم بيته مع استمرار صرف المرتب .

وقد ظل الرجل بعيدا عن الإدارة قرابة الخمس سنوات بعد هذه الواقعة وحتى أغسطس ١٨٧٨ حين عين ناظرا للمعارف ، وظل الكتاب حبيسا قرابة الثماني سنوات إلى أن نشره سنة ١٨٨١ أيام الخديو توفيق .

ومن الواضح أن هذه الحادثة أصابت على مبارك فى مقتل ، وزلزلت أركان تفكيره ، وعلمته الحكمة والحيطة ، ولهذا عندما كتب «علم الدين» سنة «١٨٨٢» نراه يلجأ إلى الرمز . ويصطنع حوارا لنقد الأحوال العامة فى مصر على لسان شخصيات من صنع خياله وهم الشيخ الأزهرى علم الدين وابنه برهان الدين والمستشرق الانجليزى، وأرسل أخطر أفكاره فى هذا العمل على لسان الانجليزى ، وأقلها خطورة على لسان برهان الدين . وأكثرها اعتدالا على لسان علم الدين الذى هو فى تقديرى على مبارك نفسه . وعندما كتب «الخطط» تحاشى ذكر القرى التى نشأ فيها زعماء الثورة العرابية حتى لايضطر إلى ترجمة حياة كل منهم فخرج بذلك عن أسلوبه فى الكتابة عن قرى مصر ومدنها. وعلى هذا لم يرد ذكر لأحمد عرابى والإمام محمد عبده وعبدالله نديم فى «خططه» حتى لايثير خاطر الخديو توفيق .

على مبارك والثورة العرابية

وعندما فرضت عليه الظروف أن يشهد اللحظات الحرجة فى حوادث الثورة العرابية ، وفرض عليه أن يقول رأيا وكان ناظرا للأشغال ، اتخذ جانب الخديو توفيق .. ففى ١٧ يوليه ١٨٨٢ وبعد ضرب الأسطول الإنجليزى للإسكندرية ، أبرق الخديو توفيق ، الذى أصبح فى حماية الإنجليز ، إلى عرابى «ناظر الحربية» يأمره بإنهاء التجهيزات الحربية والحضور إلى قصر رأس التين لتلقى التعليمات الجديدة ، لأن ضرب الإسكندرية جاء كإجراء وقائى من جانب الإنجليز. وفى الحال رد عرابى مفندا مزاعم قائد الأسطول البريطانى ، وطلب من الأمة عقد مجلس من أعيان البلاد



وعلمائها لبحث مشروعية انحياز الخديو لأعداء البلاد وشرعية ذلك دينيا . وبدعوة من وكيل الداخلية حضر على مبارك الاجتماع الذى ضم قرابة أربعمائة شخص .

وفى هذا الاجتماع قام الشيخ محمد عبده بتلاوة البرقيات المتبادلة بين الخديو وعرابى وقال : «إن كل من يتهاون فى تأدية واجباته الوطنية فضلا عن كونه يعاقب بمقتضى القانون العسكرى يصير ملعونا فى الدنيا والآخرة» ، وطالب الشيخ العدوى بعزل الخديو . واضطرب الموقف وحدث هرج ومرج وأهاب وكيل الداخلية الحضور بالتزام الهدوء . وهنا طلب على مبارك الكلمة ونجح فى تهدئة المجتمعين وتحويل موقفهم من العنف إلى اللين .

وفى هذا قال إنه لابد أولا من التحقق مما ورد فى برقية عرابى بشأن ما إذا كان الخديو توفيق محجورا عليه فى الإسكندرية وأنه فى قبضة الانجليز من عدمه ، وفى ضوء نتيجة التحقق يعقد الاجتماع مرة أخرى للنظر فى الأمر وفى «الكيفية». وعلى هذا تقرر إرسال وفد سداسى برئاسة على مبارك للقيام بالمهمة . وقد رفض على مبارك التوقيع على قرار المجتمعين فى هذا الشأن إلا بعد عدة أيام وبناء على نصيحة صديقه على الروبى . وقبل أن يصل الوفد إلى الإسكندرية عرج على كفر الدوار لمقابلة أحمد عرابى لاستيضاح موقفه .

ولما سأله على مبارك عما إذا كانت مهمة الوفد مقتصرة على التحقق فقط من وضع الخديو من حيث الحجر أو عدمه . أجابه عرابى بأن حل المشكلة لا يكون إلا بعزل الخديو . فما كان من على مبارك إلا أن قال لعرابى «إن الخديو يعاملكم بالحسنى وإنه مؤيد بالفرمانات وبالدول وليس لأحد من الأهالى أن يمس مسنده» «أى شرعيته» . وفى الإسكندرية أثار على مبارك الخديو على عرابى ورفاقه ووصفهم «بالعصاة وبالخوارج» ، وظل بالإسكندرية ، بل لقد حث فلاحى الشرقية على عدم مساندة عرابى الذى كان قد انتقل من كفر الدوار إلى التل الكبير لملاقاة الإنجليز إذا ما فكروا فى استخدام قناة السويس للتسلل إلى داخل البلاد .

مزاجه غير ثورى

ولما دخل الإنجليز القاهرة «١٤ سبتمبر ١٨٨٢» وحوكم زعماء الثورة وصدرت بشأنهم مختلف الأحكام ، وحان وقت الكتابة عن هذه الفترة فى «الخطط» ، كتب على مبارك يقول إنه فى عهد توفيق «استقامت البلاد وأهلها ولكن هذا السير لم يوافق أغراض المفسدين فوسوس لهم شيطانهم وكفروا النعمة ورفضوا حقوق ولى

الأمر عليهم وحقوق وطنهم» وأكثر من هذا قال على مبارك إن الخديو توفيق«لم ينحرف عن سيره المعتدل و ثبت عند هذه الشدائد حتى زالت الفتنة المشئومة» .

والحقيقة أن كل من كتب عن على مبارك ينتهى إلى وصفه بأنه معتدل ، ومزاجه غير ثورى ، ويشعر بالولاء للحاكم «ولى الأمر» . وفى مقدمة هؤلاء جورجى زيدان فى كتابه «مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر» ، وأحمد أمين فى كتابه «زعماء الإصلاح فى العصر الحديث» ، وسعيد زايد فى كتابه «على مبارك وأعماله» . ومحمود الشرقاوى فى كتابه «على مبارك : حياته ودعوته وآثاره» .

ويتضح صدق هذا التحليل لشخصية على مبارك عندما نلحظ فى «خططه» أنه لا يهتم إلا بأخبار الشرائح العليا من المجتمع الحاكمة على حساب الفلاحين الذين ينتمى إليهم وهو منهم ، بل إنه لم ير فى انتفاضات الفلاحين التى قامت فى عهد محمد على وأوائل حكم إسماعيل كما أوردها فى «الخطط» ، سوى أنها خروج على طاعة الإمام الذى هو الحاكم . ولم يوجه أى نقد لأسرة محمد على ، بل نراه يصف أفرادها بعبارات الاحترام والتوقير متجاوزا فى ذلك وقائع متفقا عليها . مع أن أسرته على سبيل المثال كانت ضحية لنظام العهد الذى قرره محمد على فى الثلاثينات وكان يقضى بتحميل القرية كلها الضريبة المقررة التى يعجز فلاح أو أكثر عن دفعها . وهى معاناة عاشها على مبارك وكانت وراء سعيه للابتعاد عن حياة الفلاحين بالتوظف فى الحكومة ليكون «فى حالة لا ذل فيها ولا تخشى غوائلها» . فكان التحاقه بالتعليم الجديد وهو فى سن الثانية عشرة «١٨٣٥» ، وتحمل منذ صغره حياة الضبط والربط حيث كانت مدارس محمد على باشا عبارة عن ثكنات عسكرية ، والتلاميذ فيها جنود . ومواعيد الدروس تعلن بالبروجى «النفير» . ولعل سنوات التعليم فى مصر وسنوات البعثة فى المدارس الحربية الفرنسية طبعته بروح الصرامة ، والانضباط التام . والانصياع إلى الأوامر . والمحافظة على النظام ، خاصة وأن سنوات الدراسة هى نفسها سنوات التكوين الأساسية فى تفكير الإنسان وفى نظرته للحياة ، إذ عاد من البعثة وعمره ستة وعشرون عاما .

إن حياة على مبارك وكتاباته ومواقفه تؤكد دور الظروف الموضوعية فى توجيه حياة الفرد وخصوصية الاستجابة : هل تكون بالخضوع للظروف . أو بالتمرد عليها !! ولعل هذا ما يفرق بين إنسان وآخر رغم وحدة الظروف .. بين الانحياز إلى جانب الصفوة الحاكمة ، وتبرير اختياراتها . أو الوقوف إلى جانب عامة الناس وتقديم مصالحها . واختيار الشعار الذى يتحرك تحته ، هكذا ببساطة ودون حاجة إلى استدعاء تعريف جرامشى للمثقف العضوى أو تعريف سارتر للمثقف الملتزم .

في ذكرى المولد النبوي

أمام غار حراء

بقلم :

د. محمد رجب البيومى



بريشة الفنان: جودة خليفة

فى ذكرى المولد النبوى

تعتبر فريضة الحج قراءة ميدانية لسيرة رسول الله ﷺ ، فأكثر الأمكنة فى مكة تذكر قارئى سيرته الشريفة بما كان له من موقف تاريخى مشتهر بها ، وغار حراء ليس من مناسك الحج ، ولكنه يذكر رائيه بأول حلقة من حلقات الإسلام فى تاريخه المديد إذ نزل به الوحى على النبى ، فكان مهبطا لأول اتصال تم بين السماء والأرض فى مكة. وأذكر أنى كنت فى الحافلة راجعا من منى إلى مكة، فوجدت صديقا من الراكبين ، يوقف السائق ويقول: سأنزل لأقف أمام جبل حراء ورأيتنى مدفوعا إلى مصاحبته تلقائيا دون أن يكون فى خطتى الوقوف أمام هذا الأثر الخالد ، وعجبت كيف ينهض الجبل بروقه الممتد إلى أجواز الفضاء ، ثم لا يلفت الزائرين إلى مشاهدته ، والتمتع بذكريات سعيدة تدور حوله !.

سرت وسار صديقى صامتين لا نتحدث ، وكأن إيحاء الذكرى قد ملأ الخاطر بما عقد اللسان عن الحديث ، وقد توقعت أن أرى أفواجا من الحجاج تقف وقفة المتأمل . فوجدت المكان خاليا إلا من مقهى صغير ليس به غير كرسيين ، وقد تراخى صاحبه إذ كان لا يتوقع زائرا فى هذا اليوم الذى اتصلت به حلقات السير الراكض من منى إلى مكة ، فأيقظناه برفق ، ونهض ليعد الشراب ، وليجيب عن أسئلة حاولت أن أستمع إلى جوابها منه ؛ فقلت له ؟ كم من الزمن يكفى للصعود إلى القمة العالية لنرى الغار المبارك ونرجع ؟

فأدهشنى أن قال لى : لا تحاول ، قلت متعجبا ! لماذا ؟

قال الطريق وعر ، وليس به مسلك مستقيم يساعد على الصعود ، وقد جاء هنا منذ أسبوع فريق من الكشافة من إحدى البلاد الإسلامية وكلهم شباب متمتع بالصحة ، وحاولوا الصعود فرجع أكثرهم مبهورا يتصبب عرقه ، رجع من منتصف الطريق ؟ أما الذين ثابروا حتى بلغوا القمة فقليلون ، وما جهدوا أنفسهم إلا استنكافا من أثر الخيبة . وأن يقال

عنهم ، إنهم غير شجعان متمرسين .

قلت : ولكنى أقرأ فى كتب الرحلات عن كثير من الشيوخ والشباب قد صعدوا إلى القمة ، ورأوا الغار فعلا . وفيهم من دخله ، واستمتع بذكريات حلوة عنه .

قال : صحيح ... صحيح ، وهؤلاء محظوظون !.

كان حديث الرجل دافعا بى إلى خواطر عجيبة ، أخذت تنهال على خاطرى، فقد قلت فى حديث صامت بينى وبين نفسى :

يالله ! فريق من الكشافة ! كلهم شباب أشداء ، وقد قدموا إلى الجبل يركبون السيارات المريحة ، فلم يعانوا مشقة الطريق ، ثم ينكص أكثرهم دون القمة ، فلا يبلغونها ويفضلون الرجوع ، ورسول الله ﷺ كان يأتى من منزله فى أقصى مكة سائرا على قدمه ، يحمل زاده الخاص به طيلة شهر رمضان المبارك ، حتى إذا بلغ الغار ، وقد يكون ذلك فى مقدمة الليل ، حمل ما معه من الزاد وأخذ فى الصعود يجتاز العقبات ، وتعترضه الصخور والأحجار ، وتدمى قدمه الاشواك، ثم لا يعبأ بما يصادمه من عوائق ، حتى يبلغ مأمنه ! وقد كرر ذلك مرات عدة ! أليست هذه معجزة !.

والتفت إلىّ صاحبى أسأله الرأى فيما عنّ لى من خاطر ؟ فوجدته أيضا يسبح فى موج صاخب من الأفكار عبر عن بعضه حين قال لى :

دعك يا أخى من مشقة الصعود إلى الجبل فى حندس الليل ، ومما يعترض من الصخور ، ومما يخاف منه من سقوط بعضها تحت قدم الصاعد فتهوى به إلى حيث لا يذوق طعم الحياة ، دعك من ذلك كله يا أخى وانظر معى متسائلا؟.

أكان الجبل مستقرا آمنا ، أهو فندق سياحى يلجأ إليه المتعب فيستريح ؟ أهو روض يزدان بالأزهار والنخيل وتجرى تحته الجداول ، إنه مكان منعزل قد تأوى إليه اللصوص فتعترض القادم ناهبة إياه وقاضية على حياته . وقد يكون به الوحش الكاسر المتربص بكل قادم ليجعله زاده بعد سغب طويل ؟ وقد تكون به الحيات المتوحشة ، والأراقم السامة، تكمن فى كل مكان . بل تختبئ بالغار نفسه . لتجد من القادم مائدة مستطابة ! ماذا تظن بجبل موحش منعزل فى مكان مخوف ، كيف يجرؤ على الصعود إليه إنسان يعلم عن حقيقة أمره هذه الأهوال ؟ أفيفكر عاقل فى اقتحامه ؟ ومتى ؟ فى حندس الليل ، وسكون الظلام ؟ وإذا تم ذلك فعلا ؟ أليست هذه معجزة ؟.

الحق ، أن الخواطر المتشعبة قد ملكت عنان تفكيرى فما استقر على جواب مريح! إلا أن يكون الإلهام الربانى وحده هو الذى قاد نبى الله إلى معتزله الكريم !.

زوجة مفكرة مدبرة

ولنترك رسول الله ﷺ قليلا إلى أهل بيته ، وفيهم زوجته العاقلة المدبرة خديجة بنت خويلد ومن يلوذ بها من الحميمات الأثيرات ! أما كنَّ يعرفن خطر الرحلة ؟ وماذا ينتظر الزوج الكريم عاقبة : لم تكن خديجة بالسيدة الغافلة ، فهى من بيت مرموق ، ولها تجارة تقوم على إدارتها ، وتعلم من أحوال مكة وجبالها ووحوشها وناسها ما لا يجهله الغافل الساذج ، فكيف بزوجة مفكرة مدبرة ، كيف وافقت على هذه الرحلات المتكررة ، وكيف عاونت زوجها على الاعتزال البعيد فى جبل موحش قابض ؟ وهى التى تحبه وتفتديه ؟.

للإجابة عن هذه الأسئلة أقول . إن معاشرة خديجة لزوجها الكريم ، جعلتها تعتقد اعتقادا جازما أنه ليس رجلا ككل الرجال ! لقد شاهدت من أحواله ما أجلسه فى رأيها مجلسا لا يتشابه مع أحد سواه ! ألم تعرف أنه صاحب الرؤيا الصادقة ؟ كان لا يحدثها عن حلم رآه إلا وجدت تحقيقه فى الحياة دون مهل ! تكرر ذلك حتى أصبح شيئا بدهيا لا مجال للشك فيه ، فليست الرؤيا الصادقة فلتة من الفلتات جاءت مرة على سبيل المصادفة ، ولكنها أمر تقرر وعلم ، فهل تشك بعد ذلك فى سلامة اتجاهه مهما بدا للنظر المجرد أنه صعب عسير .

ثم ما رأيها فى سلوكه الشخصى ، هل كان أنانيا كغيره من الأزواج ، وقد جربت قبله اثنين ! لم يكن غير إنسان سامى الخلق ، رحيم القلب ، فسيح الصدر ؟ ألم تقل عنه حين جاءها مرتعشا مما نزل به عند هبوط الوحى عليه أول مرة: والله ، لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَّل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق !!.

لقد ذكرت أمثلة من سلوكه الإنسانى فى الحياة ، لمستها لمس المشاهد المجرب عن قرب ، وأعجبت بها لنزاهة أصيلة فى خلقها ، لم تقل له إنك تكره عبادة الأصنام، وتجتنب الخمر ، وتعزف عن أماكن اللهو ، فكل ذلك خاص به بينه وبين ربه ، ولكنها امتدت بسلوكه إلى أثره فى الناس ، وإلى مقدار ما يهمى على يديه من بر ! فهو يصل الرحم ، ويحمل الكَّل الضعيف ، ويكسب المعدوم ، ويقرى الضيف ، ويعين على النوائب ! أيكون هذا المتسامى فى سلوكه ، المتدفق بالخير عن يمين وشمال ، مَجزيا من ربه بغير الثواب والنعيم ! فإذا جاءه الملك ، فلن يكون ذلك إلا جزاء وفاقا لهذه المآثر وحبا خالصا من

رب أورثه هذه المحاسن ! لقد شاهدت هذه النواحي الممتازة في سلوكه فعلمت أنه فوق الناس جميعا ! وأن الذي يعتزل الناس لابد أن يكون رب الناس قد وفقه إلى هذا الطريق ، وليس لها أن تعترض بعد هذا اليقين !.

حلم أصبح حقيقة

وناحية أخرى بدت من خديجة رضي الله عنها ، تدل على تقديرها الروحي لزوجها ، وأن له بالسماء صلة ليست للناس ، هذه الناحية تتجلى في سعيها إلى ابن عمها الراهب النصراني ورقة بن نوفل لتسأله عن تفسير ما نزل بزوجها في الغار عند مشاهدة الملك ؟ لم تلجأ إلى كاهن من كهنة الجاهلية ؟ لم تلجأ إلى عراف يضرب الرمل ، ويتنبأ كاذبا بالغيب؟ لم تلجأ إلى ساحر ينفث في العقد، ويزمزم بغوامض الكلمات ! إنها في وعيها الحريص ، وفكرها العميق تكفر بهؤلاء جميعا ، ولكنها تعلم أن ابن عمها يقرأ الكتاب . ويلم بأخبار النبيين من قبل، فلابد أن يكون لديه ما يريح في هذه الموجة الغاشية ، وقد زاد قلبها رسوخا في إيمانه حين سمعت ورقة يبشره بالنبوة، ويقرنه بموسى عليه السلام ، كانت رضي الله عنها تتحسس في أعماقها ما يرتفع بزوجها إلى مرتبة النبوة، تحسسا لم يأت من فراغ ، ولكن عن خبرة حية ملموسة ، تتراءى للعين ، وتتجسد باليد حتى لتلمس لمسا ، فجاء ما قاله ورقة مصداقا لظن صار يقينا ، وحلم أصبح حقيقة !.

هذا إذن سر موافقة خديجة على اعتزال زوجها الأيام ذوات العدد في الغار؟ ولم نسمع عنها أنها قلقت عليه في معتزله، أو أنها أرسلت إليه من يدعوه ، وبنتاه وابناه من حولها يسألون عن أبيهم فتزيدهم اطمئنانا ، ومن يزورونها من أقاربها يتساءلون فتبتسم وتعلنهم أنه يتعبد على دين إبراهيم ، وهي واثقة أنه سيعود متى رأى أن يعود ، وأن أمره بيده، وحاشا أن تكون كالزوجات الساذجات ممن يسألن عن غياب الزوج ؟ أين بات ، ومع من ؟ فقد عرفت أنه من ربه في حرز حصين !.

ولنا ونحن أمام الغار أن نمتد بالأسئلة إلى شتى اتجاهاتها الواسعة ، فلا نقف عند سؤال أو سؤالين بل نحاول أن نجيب عما يرد على الذهن فنتساءل : فيم كان يفكر الرسول ﷺ في معتزله الآمن بغار حراء ؟ أكان معتزَلا صامتا ينقطع فيه صاحبه عن التفكير ، وقد بعد عن الناس ، وخلص من دوامة الأحياء ! أم أنه قد تفرغ في هذا المعتزل ليبحث في أمور أخذت عليه مناقد تفكيره ؟ يبحث فيما عليه الناس من أباطيل ، حين عبدوا الحجارة الصماء ؟ وحين شربوا الخمور وارتكبوا الأوزار ؟ وحين شنوا الحروب

للغارة والنهب وسلب الأموال ، وغصب النساء ؟! أليست هذه كلها شرورا يضيق بها صدر الحليم؟.

قد لا يجوز لمثلى أن يتصور أحلام الرسول وخواطره الشريفة فى هذا المعتزل، لأن الذى يصدق فى تصوير هذه الخواطر لابد أن يكون لديه من الإحساس الشريف ما يماثل إحساس الرسول ، وكيف يتأتى ذلك لغير رسول كريم ! إنما أحاول محاولة أن أقرب بعض الشئ من هذه الخواطر فى ضوء ما قرأته من سيرته، وما حفظته من كلماته ، فلا جرم كانت هذه الكلمات الشريفة خلاصة لتفكير سام راوح الرسول وغاداه فى مفتتح حياته النبوية ، إنه اعتزل بالغار فرارا من الناس ليتأمل فى أعلى مكان بمكة ما يصل بينه وبين السماء من وشائج ، فهو يرى انتظام حركة الكون فى النجوم المتلألئة ، والليل المدلهم ، والشمس الساطعة ، كل يجرى إلى أجل مسمى ، ثم ينحدر إلى مجتمعه فلا يشاهد هذا الانتظام الكونى فى أمور الناس ، فهنا الاتزان والضبط والالتزام فى ملكوت السموات يشهده من قمة الجبل ، وهناك الفساد والطيش والبغى فى ملكوت الأرض يعلمه ، فيفر هاربا من مآسيه ، فإذا كانت أمور الكون فى أعلاه تجرى على نسق رتيب لا يتبدل ، وإذا جرت أمور الناس فى أدناه على هذا الخلل والاضطراب ، فلابد من إصلاح لهذا الفساد الشامل ، والبلاء المحيق ، إن غفلة الناس عن اليوم الآخر ، واعتقادهم ألا حياة بعد هذه الحياة هى السبب الأول فى هذا الفساد ! وهذا ما أستنتجه استنتاجا من أول خطبة ألقاها رسول الله ﷺ معلنا رسالته إلى قومه ، فأول خطبة نبوية لابد أن تكون خلاصة لتفكير متصل امتد سنوات وسنوات حتى انتهى إلى نتيجة جازمة لا تقبل الشك ، وكان الرسول منطقيا مع قومه حين جمعهم لإنذارهم فابتدأهم بهذا السؤال :

«أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى ، تريد أن تغير عليكم أكنتم مُصدقى ؟ فقالوا جميعا: نعم، ما جربنا عليك كذبا ؟

بهذا السؤال وبهذا الجواب قد ألزمهم الرسول بما يشق عليهم الانحراف عنه دون جهد جاهد ، حتى إذا اطمأن إلى ثقتهم فيه ، تابع حديثه فقال : إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم انى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة ؟ والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ؛ ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا ، وأنها لجنة أبدا ، أو لنار أبدا» .

إن فساد المجتمع كله يكمن في عدم الإيمان بالبعث ، وإن الرسول ليعلم أن قضية البعث في رأى المشركين تحتاج إلى دليل يقربها للأذهان ، وقد انتهى من تفكيره في الغار إلى صدق هذه القضية التى توجب المساءلة والمؤاخذة ، والثواب والعقاب ، وجاءه الوحى معلنا حقيقة هذه القضية في أول سورة نزلت بعد سورة (اقرأ) التى بشر فيها بالرسالة ، حيث يقول الله تعالى (يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر . وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر ، فإذا نقر في الناقور . فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير» ! أما الدليل المشاهد فقد جاء في قوله ﷺ لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون فإذا أنكر إنسان أنه يستيقظ بعد أن ينام، فلينكر أنه سيبعث بعد أن يموت !.

★★★

هذه خواطر جاشت بخاطرى، وأنا أقف أمام جبل حراء، وتلتها خواطر أخرى تدور مدارها وقد تركتها تتعارف فيما بينها. دون أن أفصح عنها، وحين رجعت إلى مثواى نشطت إلى قراءة ما كتبه الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه (في منزل الوحى) خاصا بوقفته أمام جبل حراء، فرأيت من المعانى السامية ما أعهده لدى كاتب مقتدر تتدافع هواتفه السامية كما يتدافع الموج من أعالى القمم إلى الوهاد السحيقة ، وقد قال متعجبا :

«ما للمسلمين ممن يقصدون مكة للحج أو العمرة لا تميل بهم الأسوة إلى معالجة هذه الرياضة الروحية ولها في تهذيب النفس أكبر الأثر ، وأى تهذيب للنفس كاتصال الإنسان بالكون في مثل هذا المنقطع الرفيع اتصالا يسمو به المرء فوق غايات الحياة ، ويرى أثناءه في شظف العيش والغنى بالنفس ما يزيده إيمانا بالله وحده .. إنما يرغب المسلمون عن مثل هذه الأسوة الحسنة لأنهم انحرفوا عن أمر الروح ، وأذعنوا لسلطان المادة ، فاستولت عليهم الأثرة وما يتبعها من ابتغاء المال والجاه ، والناس إذا هووا إلى هذا المنحدر فاتهم معنى العبادة على وجهها الحق ، فالوحدة للتفكير ابتغاء الحقيقة لا يطيقها إلا ذوو الأرواح القوية يتلمسونها هروبا من ضعف الجماعة وضلالها لأن الحق لا يتمثل في الجماعة الإنسانية قدر ما يتمثل في أطواء النفس وبخيلة القلب لدى من يتلمسون الحقيقة في أعماقهم ويتجهون إلى القوة العليا التى برأتهم ، فإذا اهتدوا إليها اهتدت الإنسانية بهداهم وسعدت برأيهم» .

رباه ، ألا عزلة نافعة مثمرة بايحائها الهادف ، لا عزلة جدباء كالأرض الموات!.

وقد يتقارب الوصفان جدا
وموصوفاهما متباعدان.

أنبياء مصر

بقلم :د. محمد عمارة

كل الناس يرددون: «مصر أم الدنيا» لكن يبدو – من حقائق هذه الدراسة – «أن مصر هى أم الدنيا والدين أيضا».

بآدم ، عليه السلام ، بدأت مسيرة الإنسان على الأرض ، فهو أبو البشرية ، الذى خلقه الله وسواه ونفخ فيه من روحه .. ولطفا من الخالق ، سبحانه وتعالى ، بخلقه ، اقترنت رعايته لهذا الإنسان بلحظات الخلق والاستخلاف والأمر والنهى والتكليف ﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إنى أعلم مالا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين .قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ – البقرة : ٣٠ – ٣٣ .



وبوحى الله لآدم ، عليه السلام ، بدأت النبوة في المسيرة الإنسانية ، مقترنة بلحظة استخلاف الله لهذا الإنسان، وتكليفه إياه .

وإذا كانت الدراسات الآثارية والحضارية تكاد تجمع على أن حضارة مصر هى أقدم وأعرق الحضارات .. فإن أولية مصر في الرسالات السماوية شاهد علي أن حضارتها هذه قد اقترنت بالدين الإلهي والتوحيد الديني ، الأمر الذي جعلها الأم في المدنية الدنيوية وفي التوحيد الديني أيضا .

١ - نبوة ورسالة إدريس عليه السلام :

لقد بدأت النبوة بآدم ثم تلاه «شيث» .. ومنذ حياة آدم ، في فجر الإنسانية ، اصطفت مشيئة الله مصر - كنانة الله في أرضه- لتبدأ على أرضها النبوة والرسالة الدينية .. ففى ربوعها ، وانطلاقا منها كانت بعثة نبى الله إدريس ، الذي مثل في سلسلة النبوة ثالث الأنبياء ، والذي عاش وبعث فى حياة آدم - عليهم جميعا الصلاة والسلام.

وإذا كان آدم قد وقفت علاقته بالشرائع الإلهية عند «النبوة» فقط ، ولم يكن «رسولا» .. وإذا كان هذا هو حال «شيث» أيضا - والذى لم يحفظ لنا التاريخ الوطن الذى عاش فيه - فإن الوضع مع إدريس كان متميزا .. فهو معدود ضمن الأنبياء المرسلين ، ولقد حفظ لنا التاريخ - وخاصة تاريخ الحكمة والحكماء - ذكر مصر ، باعتبارها الوطن الذي بدأت فيه أولي وأقدم رسالات السماء إلى الإنسان ، علي يد إدريس ، عليه السلام .

وعن إدريس تحدث القرآن الكريم فقال (وأذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا . ورفعناه مكانا عليا) - مريم: ٥٦ ، ٥٧ - (وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين . وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين) - الأنبياء : ٨٥ ، ٨٦ .. وفى الصحيحين - من حديث الإسراء - أن رسول الله محمد بن عبدالله، صلى الله عليه وسلم ، مر بإدريس فى السماء الرابعة - فى رحلة المعراج - ضمن من مر بهم من الرسل

والأنبياء .

وعن ترتيب إدريس وسبقه على درب النبوة والرسالة ، ومن ثم سبق مصر على درب الأصطفاء ، هذا ، يتحدث الذين كتبوا قصص الأنبياء .. فيقول الحافظ ابن كثير (٧٠١ - ٧٧٤ هـ ١٣٠٢ - ١٣٧٣م) - فى (البداية والنهاية) .. «إنه كان أول بنى آدم أعطى النبوة بعد جده آدم وبعد شيث ، عليهما السلام» .. كما يقول الشهرستانى (٤٧٩ - ٥٤٨ هـ ١٠٨٦ - ١١٥٣م) : «ولما كبر إدريس آتاه الله النبوة، فنهى المفسدين من بنى آدم عن مخالفتهم شريعة آدم وشيث» .

وعن معاصرته لآدم ، يقول ابن اسحاق (١٥١هـ ٧٦٨م) «إنه أدرك من حياة آدم ثلثمائة سنة وثمان سنين» .

لقد ولد إدريس «بمنف» ، وخرج من مصر ، وجاء الأرض المعمورة يومئذ كلها، ثم عاد إلى مصر ، وفيها بعث ، حتى رفعه الله فيها مكانا عليا ، بعد اثنين وثمانين عاما .. واسمه فى التوراة العبرية «خنوخ»، وفى ترجمتها العربية «أخنوخ» .. أما فى اليونانية فإن اسمه: «أرميس» وعرب اسمه إلى «هرمس» .. ولأبوته ومرجعية رسالته فى الحكمة والتوحيد اشتهر «بهرمس الهرامسة» ، وترجمت له كتب طبقات الحكماء مع كتب قصص الأنبياء..

ومعنى ذلك ، أن مصر قد دخلت فى دين الله ، وعرفت التوحيد ، وحيا إلهيا ، وليس وضعا بشريا وإفرازا إنسانيا ، وتلقت علم النبوة ، واحتضنت الرسالة السماوية منذ فجر الإنسانية ، وفى حياة أبى البشرية آدم ، عليه السلام ..

بل إن ما بقى لنا من قصص نبى الله ورسول مصر إدريس ، عليه السلام ، ليوحى بأن هذا العمق الحضارى والسبق فى التمدن الدنيوى ، اللذين تميزت بهما مصر قبل سائر الحضارات ، إنما كانت لهما عروة وثقى بعلم النبوة الذى جاءها به رسولها إدريس، عليه السلام .. فأمومتها «للدنيا» هى جزء من أمومتها «للدين» .. فمنذ فجر الإنسانية تميزت الرسالة التى شرفت بها مصر بعلوم: الحكمة، والتمدن، والسياسة المدنية، وعلوم الكون، الأرضية منها والسماوية ، إلى جانب علوم الشرع والدين .. حتى ليتحدث الذين أرخوا للحكمة والحكماء - ومنهم القفطى ، جمال الدين أبى الحسن على بن يوسف (٥٦٨ - ٦٤٦ هـ ١١٧٢ - ١٢٤٨م) - صاحب كتاب (تاريخ الحكماء) - وابن جلجل ، داود بن حسان (بعد ٣٧٢ هـ ٩٨٢م) - صاحب كتاب (طبقات الأطباء والحكماء) - يتحدثون عن هذه الأبعاد العلمية والحضارية فى رسالة إدريس فيقولون : «إنه دعا إلى دين الله ، والقول بالتوحيد ، وعبادة الخالق ، وتخليص النفوس من العذاب فى الآخرة بالعمل الصالح فى الدنيا ، وحض على

الزهد فى الدنيا ، والعمل بالعدل ، وأمر الناس بصلوات ذكرها لهم على صفات بينها ، وأمرهم بصيام أيام معروفة من كل شهر ، وحثهم على الجهاد لأعداء دينهم ، وأمرهم بزكاة الأموال معونة للضعفاء بها ، وغلظ عليهم فى الطهارة من الجنابة ، وحرم المسكر من كل شيء من المشروبات ، وجعل لهم أعيادا كثيرة فى أوقات معروفة وقربانات ، منها : دخول الشمس رؤوس البروج ، ومنها رؤية الهلال ، وكلما صارت الكواكب في بيوتها وشرفها وناظرت كواكب أخرى .

ولقد أقام إدريس بمصر - ومن معه - يدعو الخلائق إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وطاعة الله ، عز وجل .ورسم لهم تمدين المدن ، وجمع له طالبو العلم بكل مدينة ، فعرفهم السياسة المدنية ، وقرر لهم قواعدها .. وعلمهم العلوم .. وهو أول من استخرج الحكمة ، وعلم النجوم ، فإن الله، عز وجل ، أفهمه أسرار الفلك ، وتركيبه، ونقط اجتماع الكواكب فيه ، وأفهمه عدد السنين والحساب .

كذلك نجد فيما جاء عن إدريس، عليه السلام، ما يشهد بأن رسالته كانت عالمية لا محلية، انطلقت من مصر لتشمل كل المعمور من الأرض فى ذلك الحين، فهو قد كلم الناس يومئذ بألسنتهم المتعددة .. وعلمهم العلوم.. فبنت كل جماعة مدنا فى أرضها.. وأقام للأمم سننا - طرقا - فى كل إقليم سنة تليق بأهله.. ووعد أهل ملته بأنبياء يأتون من بعده، وعرفهم صفة النبى، فقال: يكون بريئا من المذمات والآفات كلها ، كاملا فى الفضائل الممدوحات ، لايقصر عن مسألة يسأل عنها، وأن يكون مستجاب الدعوة ، وأن يكون مذهبه ودعوته المذهب الذى يصلح به العالم .. وطبقت شريعته المعمور من الأرض ، وكانت قبلته إلى حقيقة الجنوب على خط نصف النهار - أى إلى أول بيت وضع للناس فى الأرض - ..

وإلى إدريس ترجع جميع العلوم التى ظهرت قبل الطوفان .. وهو أول من خط بالقلم ، وعلم أسرار الحروف .. وأول من تكلم فى الجواهر العلوية والحركات النجومية .. وأول من بنى الهياكل ومجد الله فيها ... وأول من نظر في علم الطب ، وألف لأهل زمانه قصائد موزونة فى الأشياء الأرضية والسماوية .. وحتى يخلد هذه العلوم ، ويحفظها من عاديات الدهر وآفات النار والطوفان ، بنى الأهرام والبرابى ، وصور فيها جميع الصناعات والآلات ، ورسم فيها صفات العلوم ، حرصا منه على تخليدها لمن بعده ، خيفة أن يذهب رسمها من العالم...

كل هذا نسبته كتب طبقات الحكماء وقصص الأنبياء إلى إدريس ، عليه السلام .. وذلك قبل كشوف الأهرامات وآثار ومخلفات حضارة المصريين القدماء ..

ففى مصر ، إذا ، بدأت بواكير التوحيد الدينى فى الألوهية ، وحيا سماويا ، منذ عصر آدم عليه السلام - وليس - كما يزعم الوضعيون والماديون من علماء المصريات - إفرازا بشريا ،

واختراعا مصريا قبل الديانات والرسالات !- .. فالإنسانية بدأت بالإيمان الدينى والتوحيد فى الألوهية ، والعمق والسبق المصرى فى هذا التوحيد ، هو جزء من رسالة إدريس ، عليه السلام ..

وكما علم الله آدم الأسماء كلها ، أوحى ، سبحانه وتعالى ، إلى نبى مصر إدريس علوم الحكمة والتمدن والسياسة المدنية وحقائق العلوم الطبيعية ، فعلمها للمصريين ، لتتواصل ومضات التوحيد الدينى مع عبقرية العلوم المدنية على أرض مصر ، جيلا بعد جيل - صعودا تارة وهبوطا تارة أخرى - منذ فجر الإنسانية وإلى أن دخل أهلها - بالفتح الإسلامى لأرضها - فى الشريعة المحمدية الخاتمة أفواجا ، وذلك عندما اكتمل دين الله الواحد بنبوة ورسالة محمد بن عبدالله ، عليه وعلى كل الأنبياء والرسل أفضل الصلاة وأزكى السلام ..

★ ★ ★

وعبر هذا التاريخ المصرى - الذى هو أطول وأعرق ماحفظت ذاكرة الإنسانية من التاريخ - ظلت ومضات التوحيد الدينى فى مصر شاهدة على انتماء المصريين إلى دين الله .. ولقد تمثل ذلك فيمن زارها وعاش فيها وبشر من الأنبياء والمرسلين .. وفيمن ولد فيها ونشأ وبعث منهم ، ممن قص علينا قصصهم فى القرآن الكريم .. وأيضا فى حكمائها ، الذين جددوا الدعوة إلى التوحيد ، ورفعوا راياته فى مواجهة طوارىء الوثنية .. والذين قد يكونون أنبياء ورسلا ممن لم يرد ذكرهم فى القرآن الكريم (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك) - النساء : ١٦٤ - ..

٢ - إبراهيم الخليل

فإلى مصر رحل إبراهيم الخليل ، عليه السلام - وهو أبو الأنبياء - وكان ذلك فى عصر الهكسوس (١٦٧٥ - ١٥٨٠ ق.م) - .. بل إن هناك من يقول إنه نشأ بمصر وبعث فيها ، بدليل أن دعوته إلى التوحيد قد بدأت بالاعتراض على عبادة قومه «لآزر» - الذى هو «أزوريس» - وكان معناه عندهم الإله القوى المعين - (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين) - الأنعام : ٧٤ - .. ولما كان أبو إبراهيم هو «تارح بن ناحور» - وليس «آزر» - فآزر مقول القول، أى : أتتخذ - يا أبى - آزر الصنم إلها معبودا ؟! .. وبدليل احتجاج الخليل إبراهيم بمنطق الفلك والكواكب والنجوم ، والذى لا يستقيم إلا فى مناخ - كمصر - كان له السبق - منذ إدريس - فى ازدهار مثل هذه العلوم (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا

ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) - الأنعام : ٧٥-٧٩. (ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لايهدى القوم الظالمين) - البقرة: ٢٥٨ - ..

ومن بنات مصر - هاجر عليها السلام - أنجب إبراهيم نبى الله ورسوله إسماعيل ، عليه السلام - وهو الذى زوجته أمه هاجر من مصرية أيضا ، فجاء منها نسل العرب العدنانيين ..

وفى إحدى رحلات إبراهيم الخليل ، عليه السلام ، أعاد العمران إلى أول بيت وضع للناس فى الأرض - البيت الحرام ، قبلة إدريس وقومه - الذى سيكون الحرم الآمن والقبلة للأمة الخاتمة - أمة خاتم الأنبياء محمد ، التى ستحيى ملة ومناسك الخليل أبى الأنبياء .. (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) - البقرة: ١٢٧ - ١٢٩ .

٣ - لوط :

وفى مصر ، صحب لوط بن هاران بن تارح ، عليه السلام ، عمه إبراهيم الخليل، عليه السلام ، وآمن برسالته ، واهتدى بهديه .. ومنها خرج - بأمر الله - رسولا إلى أهل «سدوم» - فى دائرة الأردن . (فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم) - العنكبوت : ٢٦ .

٤ - يوسف :

وإلى مصر جاء يوسف بن يعقوب ، عليهما السلام .. بعد أن التقطته قافلة من «المديانيين» ، وباعته إلى قافلة من «الإسماعيليين» ، الذين باعوه إلى قائد شرطة عاصمة الهكسوس «صان» وفيها امتحن .. وسجن .. وأوحى إليه ربه .. وبها بلغ رسالته .. وعمل وساس وأصلح.. وكان ذلك على عهد الأسرة الخامسة عشرة - فى حكم الهكسوس - التى يبدأ حكمها سنة ١٦٧٥ ق.م - وكان دخوله لمصر حوالى سنة ١٦٠٠ ق.م - على عهد الملك «أبابى الأول» - .. (يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون . قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون . ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد

يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون. ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون) - يوسف : ٤٦ - ٤٩ - (وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليهم . وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين) - يوسف : ٥٤ - ٥٦ .

٥ - يعقوب :

وباستدعاء من يوسف ، عليه السلام ، جاء إلى مصر وعاش فيها ، وعبدالله ودعا إليه نبى الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، عليهم السلام .. وعدد من بنيه سنه ١٦٢٧ ق.م.. (فلما دخلوا عل يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين .. ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم) - يوسف : ١٠٠ .

ولقد عاش يعقوب بمصر سبع عشرة سنة .. وفيها توفى ، بعد أن أوصى بنيه - على أرض مصر - بالإيمان بالإسلام (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ، قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون) - البقرة : ١٣٣ .

وفي مصر ، ارتفعت رايات دعوة التوحيد الدينى ، كأثر من آثار النبوات والرسالات السماوية ، فى مناجاة «أمنحتب الثالث» (١٣٩٧ - ١٣٦٠ ق.م) لله الواحد الأحد :

أيها الموجد ، دون أن توجد ،
مصوِّر دون أن تصوَّر ،
هادى الملايين إلي السبل
الخالد فى آثاره التي لا يحيط بها حصر .

وأيضا فى رسالة التوحيد التى دعا إليها «أمنحتب الرابع» - أخناتون - (١٣٧٠ - ١٣٤٩ ق.م) :

أنت إله ، يا أوحد ، ولا شبيه لك
لقد خلقت الأرض حسبما تهوى ،
أنت وحدك ،
خلقتها ولا شريك لك .
أنت خالق الجرثومة في المرأة .
والذي يذرأ من البذرة أناسا .
وجاعل الوليد يعيش فى بطن أمه ،
مهدئا إياه حتى لايبكى ،
ومرضعا إياه حتى فى الرحم .
وأنت معطى النفس حتى تحفظ الحياة على كل إنسان خلقته ،
حينما ينزل من الرحم فى يوم ولادته ،
وأنت تفتح فمه تماما ،
وتمنحه ضروريات الحياة ..

وكذلك ، عند رمسيس الثانى (١٢٩٠ - ١٢٢٣ ق.م) - الذى أخذ العلم والحكمة والأخلاق من تراث نبى الله إدريس ، عليه السلام .

٦ ، ٧ - موسى وهارون :

وفى مصر ، ولد ونشأ وتعلم نبى الله موسى بن عمران بن قاهت بن لاوى بن يعقوب وأخوه هارون ، عليهم السلام .. وفيها أوحى الله إليهم ، وأنزل عليهم التوراة والألواح (حوالى سنة ١٢٠٠ ق.م) باللغة الهيروغليفية - لغة مصر - فجابهت حرية التوحيد عبودية الفرعونية على ضفاف وادى النيل .. ولقد ولد موسى فى زمن الملك رعمسيس الثانى (١٢٩٠ - ١٢٢٣ ق.م) .. وكان خروجه فى زمن الملك منفتاح بن رعمسيس الثانى (١٢٢٣ - ١٢١١ ق.م) .. (إذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى ، إذهبا إلى فرعون إنه طغى . فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) - طه : ٤٢ - ٤٤ .

ثم يتجدد - فى مصر - ويسطع شعاع التوحيد عند رمسيس الثالث - الأكبر - (١١٩٢ - ١١٦٠ ق.م) ، الذى قال - عندما احتدم القتال بينه وبين الوثنيين فى معركة «قادش» - :

رأيت الله فى المعركة .
كان أقرب إلىّ من جنودى
هو الذى نصرنى .

حتى لقد عذت شريعة السماء وعقيدة التوحيد - اللتين عرفتهما مصر منذ فجر الإنسانية - روحا سارية فى الثقافة المصرية ، تغالب «غبش الشرك والوثنية» عبر التاريخ المصرى الطويل ، فتعكسها وتجسدها شهادة المصرى ، يوم الحساب ، بين يدى الواحد الأحد - كما جاء فى «متون الأهرام» .

أنا لم أشرك بالإله
أنا لم أعقّ والدىّ
أنا لم ألوث ماء النيل
أنا لم أصد الماء فى موسم جريانه .
ولم أقم سدا فى مجراه .
أنا لم أنقص القياس .
ولم أطفف الميزان .
أنا لم أطرد الماشية من مراعيها .
أنا لم أتسبب فى بكاء أحد .
أنا لم أحرم إنسانا من حق له .
أنا لم أختطف اللبن من فم الرضيع .
أنا لم أطفىء شعلة في وقت الحاجة إليها .
أنا لم أعترض على إرادة الله ..

حتى ليقول ابن كثير (٧٠١ - ٧٧٤ هـ ١٣٠٢ - ١٣٧٣) - في (البداية والنهاية) - عن مغالبة نقاء التوحيد لغبش الوثنية عند المصريين ، عبر تاريخهم الطويل : «وأهل مصر وإن كانوا يعبدون أصناما ، إلا أنهم يعلمون أن الذى يغفر الذنوب ويؤاخذ بها هو الله وحده لا شريك له في ذلك» - جـ١ ص ٢٠٤ .

٨ - عيسى بن مريم

وإلى مصر ، لجأ عيسى بن مريم ، مع

أمه - سيدة نساء العالمين - طلبا للأمن ، ونجاة من طلب «هيرودس» (٤ ق.م - ٣٩م) - الذى أراد أن يقتله ... وفى مصر، وجدوا الأمن والقرار (وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين) - المؤمنون : ٥٠ .

وعندما جدد المسيح ، عليه السلام ، رسالة التوحيد ، وأعاد الروح إلى الشريعة - بعد أن تحول التوحيد إلى «وثنية - مادية» على يد اليهود - .. احتضنت مصر، على الفور ، دين التوحيد ، الذى بشر به عيسى ، عليه السلام .

فلما انحرفت الدولة البيزنطية - والمجامع التى انعقدت فى المدن البيزنطية .. «مجمع نيقية» سنة ٣٢٥ م و «مجمع القسطنطينية» سنة ٣٨١م - بتوحيد النصرانية ، وأفسدت «الغنوصية الهلينية» هذا التوحيد ، خاضت مصر معركة الدفاع عن التوحيد ، وذلك عندما رفعت «الآريوسية» - نسبة إلى أسقف الإسكندرية «آريوسى» (٢٥٦ - ٣٣٦م) - رفعت لواء التوحيد فى الألوهية ، وتمسكت بأن الله جوهر أزلى أحد ، لم يلد ولم يولد، وكل ما سواه مخلوق ، حتى «الكلمة» فإنها، كغيرها من المخلوقات ، مخلوقة من لا شيء . وأن المسيح لم يكن قبل أن يولد .. وأن الله قد نجاه من الصلب - الذى وقع على الشبيه - .

ولقد حفظت مصر كل هذا الفكر التوحيدى ، حتى بعد أن طغت عقائد قانون الإيمان البيزنطى على أغلب كنائس النصرانية ، فضمت «مخطوطات نجع حمادى» - التى اكتشفت سنة ١٩٤٧م - أقدم الأناجيل التى حفظت نقاء التوحيد النصرانى - «إنجيل توماس» و«إنجيل مريم المجدلية» و«إنجيل فيليب» و«إنجيل بطرس» و «إنجيل المصريين» - وغيرها .. وفيها ثلاثة وخمسون نصا ، تقع فى ١١٥٣ صفحة ، جمعت فى ثلاثة عشر مجلدا - تجسد شهادة التاريخ على ولاء المصريين لعقيدة التوحيد ، كما مثلتها النبوات والرسالات السماوية التى تعاقبت على ضفاف النيل ..

وإذا كانت هذه الأناجيل قد نجت من الدمار الذى أصاب به البيزنطيون تراث التوحيد النصرانى ، عندما أحرقوا مكتبة معبد «سرابيوم» -بالإسكندرية - وغالبية مخطوطات مكتبة الإسكندرية ، وأغلقوا أبوابها ، بعد قتل عميدها .. فإن بقاء هذه الأناجيل - التى سبق تاريخ تدوينها تاريخ تدوين الأناجيل المشهورة - متى ، ومرقص، ولوقا ، ويوحنا - بعشرين عاما - قد فتح الباب لإعادة كتابة هذا التاريخ ، الذى يتميز فيه دور مصر - صاحبة أول كنيسة نصرانية - على درب التوحيد الدينى ، منذ عصر آدم ، ونبى مصر إدريس ، وحتى رسالة المسيح ، عليهم جميعا الصلاة والسلام ..

★ ★ ★

ذلك هو تاريخ مصر مع النبوات والأنبياء والرسل والرسالات ..

بل لعلها ذات دلالة لا يخطئها الفكر أن يختص القرآن الكريم - فى صفات الأنبياء والمرسلين - صفة «الصديق» بالذين بعثوا في مصر أو عاشوا فيها : إدريس .. وإبراهيم .. ويوسف .. ومريم - عليهم السلام - (واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا) - مريم : ٥٦ (واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا) - مريم : ٤١ - (يوسف أيها الصديق) - يوسف : ٤٦ (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة) - المائدة : ٧٥ .

بل إن المرأتان اللتان تحدث القرآن الكريم عن أن الله قد أوحى إليهما - أم موسى .. ومريم - قد عاشتا فى مصر (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) - القصص : ٧ - (وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك على نساء العالمين . يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين) - آل عمران : ٤٢ ، ٤٣ .

ولهذا التاريخ المصرى مع النبوات والرسالات .. ومع عقيدة التوحيد .. والذى هو أقدم وأعرق تاريخ لوطن من أوطان الدنيا مع الرسل والأنبياء .. كان دخول أهل مصر أفواجا فى الإسلام ، عندما أهلت عليهم عقيدة التوحيد الإسلامية ، فى أرقى صورها تنزيها وتجريدا .. فلقد استراحت إليها عقولهم وقلوبهم ، بعد ما عانوه من التعقيدات التى أحدثتها الفلسفة الهليينية بعقائد الدين .. فكان العطاء المصرى ، فى ظلال الإسلام . امتدادا للعطاء التاريخى لمصر تحت رايات النبوات والرسالات .

مراجع :

فى حقائق هذه الدراسة - غير القرآن .. وكتب السنة - ومعاجمهما وفهارسهما - أنظر :

١ - (قصص الأنبياء) لعبدالوهاب النجار - طبعة دار إحياء التراث العربى - بيروت .

٢ - (طبقات الأطباء والحكماء) لابن جلجل - تحقيق : فؤاد سيد - طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥م .

٣ - (الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى) جـ٣ - تحقيق ودراسة : د.محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٧٤.

٤ - (أخناتون) للدكتور عبدالمنعم أبوبكر - طبعة القاهرة سنة ١٩٦١م .

٥ - (دائرة المعارف) لفؤاد أفرام البستانى - المجلد الأول - طبعة بيروت سنة ١٩٥٦م .

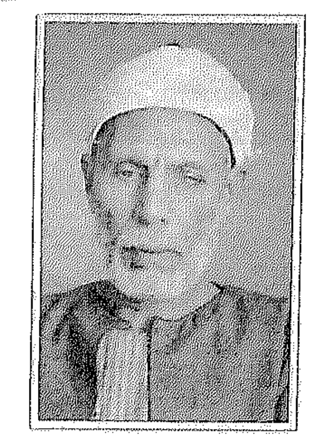
٦ - (الموسوعة الأثرية العالمية) - طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧م .

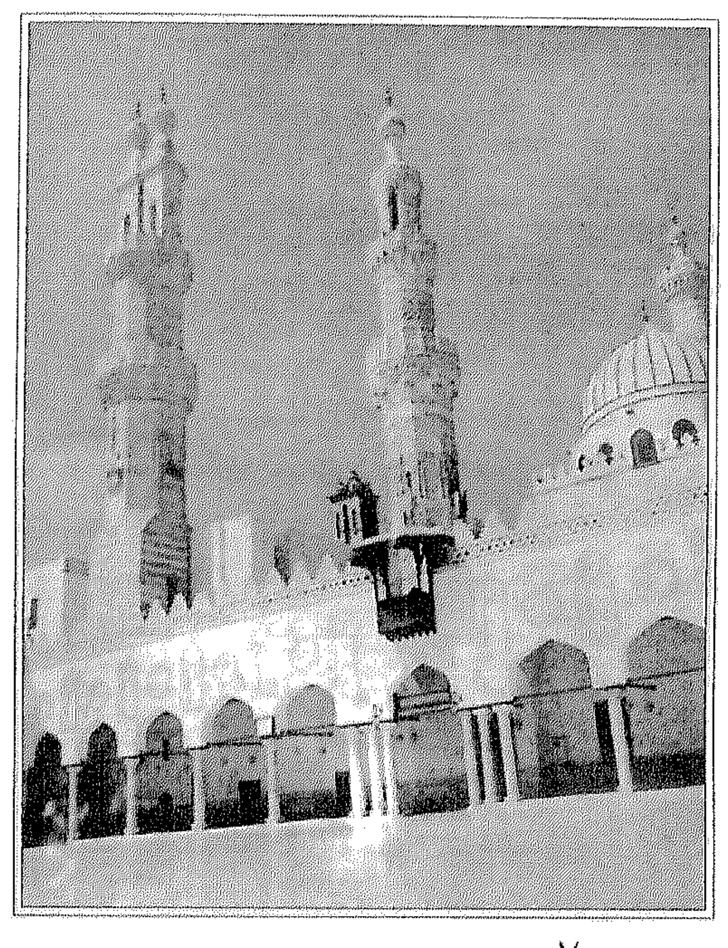
٧ - صحيفة (الأهرام) فى ٣٠ - ١٠ - ١٩٩٦م - مقال للدكتورة نعمات أحمد فؤاد .

٨ - مجلة (الهلال) عدد يونية سنة ١٩٩٥م - مقال للدكتور أحمد عثمان .

● قراءة فى كتاب ..

الشيخ محمود أبو العيون





الجامع الأزهر

جامع وجامعة

بقلم :

صافى ناز كاظم

الشيخ محمود أبو العيون ، الذى كان السكرتير العام للجامع الأزهر والمعاهد الدينية فترة الأربعينات ، رجل فاضل له فى ذاكرتى مكانة خاصة . كنت طفلة مولعة بالقراءة ، وكانت أسرتى تشترى بإنتظام صحيفة دأبت على مداعبة الشيخ أبوالعيون بالكاريكاتير . لا أذكر تماماً طبيعة المداعبة ، هل كان المقصود منها هدم شخصيته أم بناؤها ، فالأهم أن هذه المداعبات استرعت إنتباهى لقراءتها ومتابعتها مما أعطى الشيخ أبوالعيون شهرة عامة تميز بها عن سائر شيوخ عصره، والذى ترسخ فى ذهنى عنه أنه شيخ نحيف جاد يمسك بالعصا لتأديب النساء فى ثياب البحر أو أى ثياب أخرى غير شرعية .

وقد وجدت فى مكتبتى كتابا بقلمه عنوانه «الجامع الأزهر : نبذة فى تاريخه»، مطبعة الأزهر عام ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩م، وهو مهدى بخطه إلى إحدى قريباتى : «إلى بنيتى العزيزة آنسة إحسان السيد مع تحيات الإخلاص ، محمود أبوالعيون، ١٩٤٩/١١/٢٠م» . وكانت فى بداية عملها الصحفى بدار الهلال قبل أن تصبح فى نهاية الأمر أول وكيلة لوزارة العمل للشئون الثقافية ، ولفت إنتباهى أسلوب إهدائه السمح الكريم ، وابتسمت وأنا أستحضر صورته التى رسمها فنان الكاريكاتير ولم تثر غضبه ، ، بل أعرض عنها مسترشدا بحكمة «وأعرض عن الجاهلين» .

أهمية هذا الكتاب - الذى تم وضعه فى يناير ١٩٤٩ - إنه مكتوب بحب واضح للأزهر من شيخ من شيوخه يقول : «.. إننا زاملنا القوانين فى الأزهر من أولها ما عدا قانون ١٨٧٢ ، فنحن نكتب فى تاريخ الأزهر كما شاهدنا فى مدى خمسين سنة ، ونظن أننا نكتب الحقائق التاريخية كما هى ، لأننا عاصرناها وعرفناها فى صورها وملابساتها الصحيحة ، وكنا نتمنى أن يتسع لنا الوقت فنذكرها مفصلة ، ولكنا سنتدارك ذلك فى مناسبة الكتابة عن الأزهر ، وتاريخه فى عيده الألفى ، إن شاء الله تعالى» . فهذا الكتاب إذن مكتوب بيد شاهد عيان ، عاش فى جنبات الأزهر من

١٨٩٩ حتى تاريخ إصدار الكتاب فى ذلك الحين ١٩٤٩م. الذى يثير حزنى فقط هو أن الشيخ أبوالعيون لم يكتب مرة أخرى عن الأزهر وتاريخه فى عيده الألفى الذى كان عام ١٩٧٠ - ١٩٧٢ كما وعد ، إذ أنه قد توفى إلى رحمة الله تعالى فى نوفمبر ١٩٥١ ، إثر حادث أليم عندما أغلق باب مترو مصر الجديدة على طرف جبة ثوبه الأزهرى وهو يهبط منه متوجهاً إلى منزله.

★ ★ ★

كانت مناسبة إصدار هذا الكتاب القيم هى تمثيل الجامع الأزهر ومعاهده التابعة له بأرض المعرض الزراعى الصناعى سنة ١٣٦٨ هـ (١٩٤٩م) ، وعرض بعض مشاهده ومنشآته القديمة والحديثة ، وأدوار حياته الدينية والعلمية والثقافية «من منذ نشأته إلى الآن» على حد تعبير الشيخ أبوالعيون عام ١٩٤٩م . ورأى الأزهر إتماماً للفائدة أن يطلع الناس على شىء من «جلال ذلك المعهد التاريخى القديم» فقام فضيلة الشيخ أبوالعيون بوضع هذا الكتاب الذى يسميه «نبذة مختصرة» ويقع فى ١٥٠ صفحة ، وبه ٢٨ صورة للمواقع والشخصيات ، و٢٨ موضوعاً هى كالآتى : «الجامع الأزهر - تأسيسه والغرض منه ، الأزهر جامعة إسلامية كبرى ، مواد الدراسة بالأزهر قديما ، شيوخ الأزهر ، أشهر رجال الأزهر ، الدراسة فى الأزهر قبل النظام ، قانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠ ، قانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦ ، مراحل التعليم فى القانون الجديد ، المعاهد الدينية التابعة للأزهر الشهادات ، إدارة الأزهر - مجلس الأزهر الأعلى - عدد علماء الأزهر ، بعوث الأزهر ، عناية الأزهر بالمكفوفين ، الوعظ بالأزهر ، مجلة الأزهر ، لجنة الفتوى بالجامع الأزهر ، النشاط الرياضى فى الأزهر ، الوحدة الطبية للجامع الأزهر ، مكتب البحوث والثقافة بالأزهر ، وثائق وإحصاءات - وقفية الحاكم بأمر الله ، ميزانية الجامع الأزهر والمعاهد الدينية، الأزهر فى عهد العاهلين العظيمين ،آمال الأزهر فى المستقبل» .

★ ★ ★

يذكر المغفور له إن شاء الله ، الشيخ محمود أبوالعيون فى موضوع تأسيس الجامع الأزهر إنه «أول جامع أسس بالقاهرة ، أنشأه جوهر الصقلى ، قائد الإمام الخليفة الفاطمى ، المعز لدين الله . وقد شرع فى بنائه يوم السبت لست بقين من شهر جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠م) ، وكمل بناؤه لسبع خلون من شهر رمضان سنة ٣٦١هـ (٩٧٢م)» ونلاحظ فى صياغة الشيخ أبوالعيون إطلاقه لقب «الإمام» على الخليفة الفاطمى فى إحترام لهذه الحقبة من تاريخ مصر ،

لا تجده عند غيره إلا فى النادر . ويواصل سرده ، متبعا سياسة إحترام كل العصور التى مرت على الأزهر خلال ألف عام إلا عشرين ، وتتوالى المعلومات التى قد يحب البعض أن ينعش بها ذاكرته : «وإذا ذكر الأزهر رجع الذهن إلى ألف عام مضت عندما فتحت الدولة الفاطمية مصر ، واتخذت القاهرة عاصمة لها ، ومقراً لسلطانها السياسى ، وأنشأت الجامع الأزهر ليكون رمزاً لسيادتها الروحية ، ومنبراً للدعوة التى حملتها هذه الدولة الجديدة إلى مصر . وكان الأزهر الشريف فى أول نشأته موضوع عناية الخلفاء الفاطميين .. ومن بعدهم من الملوك والأمراء والوزراء وذوى الجاه منها ، يتنافسون فى خدمة هذا الجامع ، يتعهدون أهله ، ويشيدون دور الكتب فى علوم الدين والحكمة والفلسفة ، مما كان له الأثر فى حفز همم الشيوخ والطلبة إلى التفرغ للتعلم والتعليم . وقد استمر الأزهر يتسع نطاقه .. ومما زاد فى إتساعه ما أنشأه الأمير علاء الدين طيبرس نقيب الجيوش ، وهى مدرسته التى عرفت باسمه - الطيبرسية - بجوار الأزهر من الجهة الغربية البحرية التى كمل بناؤها فى سنة ٧٠٩ هـ - (حوالى ١٣٢٠م) - وبعد ذلك بقليل أنشأ الأمير علاء الدين أقبغا عبدالواحد مدرسته المقابلة لها فى الزاوية البحرية الغربية للجامع الأزهر ، وقد تم بناؤها سنة ٧٤٠ هـ - (حوالى ١٣٥٠م) - ولا تزالان قائمتين فى مكانيهما إلى اليوم.

وكذلك أنشأ جوهر القنبقائى مدرسة رواق الجوهرية فى أوائل القرن التاسع الهجرى ، ودفن بها سنة ٧٤٤ هـ (١٣٥٤) - وأنشىء فى عهد الخديو عباس باشا الثانى الرواق العباسى ، واحتفل بافتتاحه فى ٢٤ شوال سنة ١٣١٥ هـ (حوالى ١٨٩٥م) - وهى غاية فى الدقة والفن .وأعظم زيادة دخلت فيه هى بناية الأمير عبدالرحمن كتخداى حسن جاويش القازوغلى سنة ١١٦٧ هـ - (حوالى ١٧٤٨م) - فزادت فى سعة هذا الجامع بمقدار النصف تقريباً ،وهو عمل تاريخى جليل» . وكان بالأزهر وقت صدور الكتاب عام ١٩٤٩ ، خمس منارات يؤذن عليها فى الأوقات الخمسة وفى الأسحار، وتضاء بالكهرباء فى ليالى رمضان والمواسم ، منها ثلاث منارات من داخل باب المزينين مشرفة على صحن الجامع ، واحدة أنشأها السلطان الأشرف قايتباى والأخرى أنشأها السلطان الغورى وهى أعلى مناراته وأعظمها .

ويذكر الشيخ أبوالعيون أن الأمير طيبرس مشيد المدرسة الطيبرسية ، عندما أحضروا له حساب نفقات بناء مدرسته ، استدعى بطست مملوء بالماء وغسل أوراق الحساب بأسرها من غير أن يراجعها وقال : «شىء خرجنا عنه لله لا نحاسب عليه» .

القول بأن الأزهر أقدم جامعة إسلامية استمرت بلا انقطاع فى أداء

رسالتها العلمية ، من الأقوال الناقصة ، فالحقيقة أنه أقدم جامعة فى العالم لاتزال تواصل مسيرتها منذ إنشائها (٩٧٠م حتى الآن ٢٠٠٠) - ٣٥٩ هـ حتى ١٤٢١ هـ . يقول الشيخ أبوالعيون فى هذا : «للأزهر فى سجل التاريخ ماض مشرق الغرة ، وضاح الجبين ، فهو الجامعة الإسلامية الكبرى التى عالجت علوم الدين فيسرت سبلها ، وأكثرت كتبها ، واهتمت بشئون اللغة العربية ، فهذبت طرقها ، وأصلحت شئونها ، وبقيت على مدى الأجيال والقرون قائمة بعملها ، وفية لأمانتها ، فأزهرت فيها العلوم والفنون ، وأمدت العالم الإسلامى فى الشرق والغرب بما هو فى حاجة إليه .. وأول ما دُرِّس فيه الفقه الفاطمى على مذهب الشيعة ، وبقى مذهب الشيعة يدرس فى الأزهر ، ويقضى به فى دور الحكم ، إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية . ولما انتقلت مصر إلى الأيوبيين سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١م) وجلس على عرشها صلاح الدين الأيوبى ، حرص على ما لمصر من المكانة الممتازة فى العلوم الإسلامية ، فأنشأ بها المدارس ، ورتب بها العلماء والطلبة ، وحذا حذوه خلفاؤه من بعده حتى بلغت خمساً وعشرين مدرسة فيها علوم الدين واللغة ، وخاصة فقه المذاهب الأربعة . وفى تلك الفترة التى توزع فيها العلماء على المدارس ، انتقلت حركة التعليم المزدهرة من أبنية الجامع الأزهر إلى تلك المدارس ، وإن لم تنقطع حركة التعليم فيه ، ولكنها كانت ضئيلة بجانب مدارس الأيوبيين ، إلى أن جاء الظاهر بيبرس البندقدارى سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠م) فجدد من شباب الأزهر ، وأعاد إليه حياته وازدهاره بهمة الأمير عزالدين أيدمسر الحِلِّى ، وسار على أثره ملوك وأمراء جاءوا من بعده ونهجوا نهجه. فكانت نهضة مباركة رفعت من شأنه ووسعت من نطاقه ، فاتجهت إليه أنظار العالم الإسلامى ، خصوصا بعد سقوط بغداد وإتلاف كتبها وذخائرها العلمية . وأصبحت مصر المثابة الوحيدة .. يقصدها العلماء والطلاب من جميع الأقطار ، حتى وصف ذلك العهد على لسان المستشرقين بأنه العصر الذهبى ..»

- وهنا نقف لنستوعب وضع مصر الذهبى فى ظل عصر المماليك ، والعصور الوسطى ، تلك العصور التى لا تنفك قبيلة العلمانيين الجاهلة من نعتها بعصور الظلام والتخلف - يقول الشيخ أبوالعيون : «ظل الأزهر حقبة من الزمان قائماً بوظيفته ، من إنماء الحياة العلمية فى مصر والعالم الإسلامى ، بفضل محافظته على تراث الشريعة واللغة العربية، فى العصور الوسطى ...» .

لا يقف الشيخ أبوالعيون كثيراً عند فترة الحكم العثمانى لمصر ويكتفى

بالإشارة إلى الخمول الذى استولى على الأزهر بسبب اضطراب البلاد واضطهاد العلماء والقادة المفكرين . بعدها ينتقل إلى عهد محمد على باشا مؤسس الأسرة العلوية التى انتهت بتنازل الملك فاروق عن العرش عام ١٩٥٢ . ويذكر الشيخ أبوالعيون أن محمد على باشا أعاد الاهتمام بالأزهر واختار من طلبته النواة الأولى لمدرسته الطبية ، ومدرسة الألسن والإدارة التى هى الحقوق . ولما أرسل محمد على البعوث إلى فرنسا كان منها شيوخ أزهريون ، ويقول الشيخ أبوالعيون «ومن بينهم رفاعة بك الطهطاوى ، ذلك العالم الكبير الذى أفاد الأمة المصرية بعد عودته من البعثة ، بالتأليف تارة ، وبالترجمة والتعليم تارة أخرى ، حتى عد بحق شيخ المترجمين وإمام المؤلفين فى عصره . وإبراهيم بك النبراوى أحد نوابغ البعثة الطبية ..» .

ويذكر الشيخ أبوالعيون بلباقة شديدة «عناد» الأزهر وعدم استجابته لكل تدخلات محمد على باشا تحت زعم الإصلاح والتجديد التى كانت بداية المحاولات فى الزج بمصر فى طاحونة محاكاة النموذج الغربى الأوروبى بالحق والباطل، فيقول الشيخ الحصيف ، الذى لم ينس أنه يكتب فى ظل حكم حفيد محمد على مع التزامه بالأمانة التاريخية والولاء لدينه ولأزهره : «ولئن فات الأزهر أن يبادر بالاستجابة لعزيز مصر محمد على باشا فى إدخال الإصلاح والتجديد فيه ، فقد حافظ بسخاء وكرم فى ذلك الزمن على ذخائر الكتب القديمة ، والتراث العلمى النفيس ، وتفرد بالثقافة العامة للبلاد ، ولعب دوراً سياسياً خطيراً فى زمن الحملة الفرنسية .. وبرز فى الأحداث السياسية التى ألمت بالبلاد ، فكان يحسم فيها بحزم ومضاء» .

فالتحجر الذى ينعت به الأزهر وشيوخه ، أحيانا ، كان شكلا من أشكال المقاومة حين لايكون بحوزة المقاوم سوى الامتناع عن المسايرة . تلك الحالة التى يصفها الشاعر محمد عفيفى مطر بقوله : «أقوى خطى الحجر الوقوف !» .



يستعرض الشيخ أبوالعيون المواد الدراسية التى بدأ بها الأزهر عند افتتاحه فيقول : «أول كتاب درس بالجامع الأزهر هو كتاب الاقتصار الذى وضعه أبوحنيفة النعمان بن محمد القيروانى قاضى المعز لدين الله فى فقه آل البيت ، وكان يتولى دراسته بالأزهر ولده أبوالحسن على بن النعمان .. ودرسه بعده بنو النعمان الذين تعاقبوا فى قضاء مصر حتى نهاية القرن الرابع . وكان يدرس بجانب الاقتصار كتب أخرى فى فقه الشيعة للنعمان القيروانى أيضا ، وهى كتاب : دعائم الإسلام ، وكتاب اختلاف الأصول ،

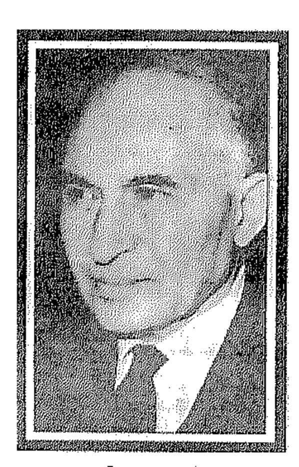
وكتاب الأخبار ، وكتاب اختلاف الفقهاء» . وأحب أن أنوه هنا، حتى نستبعد الخلط، أن القاضى أبو حنيفة النعمان بن محمد القيروانى غير الإمام أبو حنيفة النعمان ابن ثابت ، الذى كان فارسى الأصل ، ويسمى الإمام الأعظم ولد سنة ٨٠ هـ وتوفى سنة ١٥٠ هـ وكان إمام العراقيين وهو مؤسس المذهب الحنفي . ومرجعي في هذا التعريف كتاب الأستاذ مصطفى أحمد الزرقا : «الفقه الإسلامى ومدارسه» من سلسلة كتب قيمة ، دار القلم دمشق والدار الشامية بيروت .

وكان هناك كتاب ألفه الوزير يعقوب بن كِلِّس ويقوم بتدريسه بنفسه للطلاب ويفتى الناس بما فيه وموضوعه الفقه الشيعى على مذهب الإسماعيلية «مما سمعه الوزير ابن كلس من المعز لدين الله ، والعزيز بالله ، ولهذا اشتهر بالرسالة الوزيرية . وكان التدريس بالأزهر يجرى على مذهب الشيعة يومئذ ، وكان فى أول الأمر محظور أن يدرس غير ذلك ، ولهذا قبض على رجل وجد عنده كتاب الموطأ للإمام مالك ، فحبس وجلد فى سنة ٣٨١هـ فى عهد العزيز بالله، وفى أواخر الدولة الفاطمية كادت تكون الدراسة فى الأزهر حرة ، ولكن لم يعرف بالضبط أسماء الكتب التى كانت تدرس فى ذلك العصر» .

وإلى جانب أسرة النعمان تولى التدريس بالأزهر فى العصر الفاطمى آخرون منهم المؤرخ الحسن بن زولاق المتوفى سنة ٣٧٨ هـ والمسبحى المتوفى سنة ٤٢٠ هـ وكان من أعلام التفكير والأدب والفلك والتاريخ ، وأبوعبدالله القضاعى المتوفى سنة ٤٥٤ ، والحوفى النحوى وأبوالعباس أحمد بن هاشم المصرى وابن بابشاذ النحوى .

وعقب انتهاء الدولة الفاطمية وفد إلى مصر أبوالقاسم الرعينى الشاطبى الضرير ، المقرىء الشهير المتوفى سنة ٥٩٠ هـ وهو صاحب «حرز الأمانى» و«وجه التهانى» اللذين لايزالان من أهم متون التجويد وقراءات القرآن الكريم . وفى زمن الظاهر بيبرس البندقدارى المملوكى ، عادت للأزهر حياته العلمية والدينية التى بهتت زمن الايوبيين وأول ما درس به من مذاهب أهل السنة مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه ثم تبعته المذاهب الأخرى. وتسابقت همم العلماء فى تدريس العلوم الدينية وإتقان آلاتها من نحو وصرف وبلاغة، ونبغ بمصر أئمة أعلام كالإمام عزالدين بن عبدالسلام ، والإمام السبكى وأبنائه – (جدى من ناحية والدة أمى للعلم !) – والشهاب القرافى ، وابن هشام ، والسراج البلقينى ، وجلال الدين السيوطى وغيرهم من

المصريين بالإضافة إلى إبراهيم بن عيسى الأندلسى ، وعز الدين عمر القدسى ، والإمام الأصفهانى ، والإمام الزيلعى ، وابن الحاج محمد العبدرى الفاسى ، والغرناطى ، والتبريزى ، والحافظ العراقى ، والحافظ بن حجر العسقلانى ، والحموى والرضى الشاطبى والبغدادى ، وشيخ الإسلام زكريا الأنصارى ، وقاسم بن محمد التونسى ، وغيرهم كما يقول الشيخ أبوالعيون : «من الذين رحلوا من أقاصى الأرض لمصر لتعلم العلم بأزهرها» وكما نرى : هذا كان التنوير الحق بتجمع علماء أمة الإسلام من كل حدب وصوب لخدمة الدين والقرآن واللغة العربية وبناء عقل وهوية الناس التى لم تك سوى هوية الإسلام ولغته العربية الشريفة . ويذكر الشيخ أبوالعيون أن العلوم العقلية من رياضية وغيرها كانت تدرس أيضا وإن كان المشتغلون بها نزراً من الطلبة . ولا ينسى الشيخ محمود أبوالعيون أن يذكر مرحلة الانصراف عن تدريس العلوم العقلية والفلسفية والرياضية والجغرافية فى الأزهر فى ظل الحكم العثمانى الذى بدأ عام ١٥١٧م ، حين بدأ القول بحرمتها ، وظلت مهجورة ينظر إليها بنفور وسخط حتى صدرت فتوى من شيخ الأزهر الشيخ الأنبابى والشيخ محمد محمد البنا مفتى مصر بجواز تعلمها وعدم حرمة تدريسها. لكن هذا لا يعنى إنه لم يكن هناك من يدرس هذه العلوم حتى فى الفترة المتجمدة فالشيخ أبوالعيون يذكر : «الشيخ أحمد عبدالمنعم الدمنهورى شيخ الأزهر المتوفى سنة ١١٩٢هـ فقد جاء فى سند إجازته ما ملخصه : إنه تلقى فى الأزهر العلوم الآتية وله تآليف فى كثير منها وهى : الحساب ، والميقات ، والجبر ، والمنحرفات ، وأسباب الأمراض وعلاماتها، وعلم الاسطرلاب والزيج ، والهندسة ، والهيئة وعلم المواليد الثلاثة وهى الحيوان والنبات والمعادن ، وعلم استنباط المياه ، وعلاج البواسير ، وعلم التشريح ، وعلاج لسع العقرب ، وتاريخ العرب والعجم .. ويحسن أن نثبت هنا وثيقة رسمية لمشيخة الأزهر وضعتها بناء على طلب الحكومة لتبعث بها إلى لجنة معرض باريس ، وذلك فى عهد الخديو إسماعيل سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٤م) ، وقد جاء فى الوثيقة أن المواد التى كانت تدرس بالأزهر فى ذلك العهد هى : الفقه ، الأصول ، التفسير ، الحديث ، التوحيد ، النحو ، الصرف ، المعانى والبيان والبديع ، متن اللغة ، العروض والقافية ، الحكمة الفلسفية ، التصوف ، والمنطق ، الحساب الجبر والمقابلة ، الفلك والهيئة» .


د. محمود فوزى
وزير الخارجية


جمال عبد الناصر


نيتشه الفيلسوف
الألمانى

دائرة حوار

د. عبد الرحمن بدوى

وسيرته الذاتية

بقلم :السفير شكري فؤاد

كنا فى مطلع العام الدراسى ١٩٤٩ - ١٩٥٠ بالسنة الثانية بقسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة الآن) عدد المقيدين بالسنة الثانية لا يتجاوز الثلاثين طالبة وطالبا ومتوسط من يحضر منهم المحاضرات حوالى الخمسة والعشرين، لذلك كانت محاضراتنا دائما فى احدى القاعات الصغيرة بالكلية، وهى أشبه بالغرفة منها بقاعة المحاضرات.

انتهت المحاضرة الأولى وكنا بانتظار بدء المحاضرة التالية التى كانت كما جاء بالجدول «منطق» للدكتور عبدالرحمن بدوى. تجمع كل ثلاثة أو أربعة من الطلبة فى مجموعات صغيرة يتبادلون بين المحاضرتين أطراف أحاديث سريعة وضحكات مكتومة، ولم تمض دقائق حتى دخل القاعة رجل فى أوائل الاربعينات من عمره فأغلق الباب خلفه وتقدم بهدوء ليقف صامتا خلف منصة صغيرة وضعت أمام السبورة، وهمس أحد الزملاء الذين كانوا يعيدون السنة الدراسية «الدكتور بدوى»، وكان أغلبنا لا يعرفه، فسارع كل منا يتخذ مكانه وساد القاعة سكون تام.

ألقى الدكتور بدوى علينا تحية مقتضبة وقال إنه سيدرس لنا هذا العام علم المنطق واستدار الى السبورة يكتب المراجع التى يمكن أن نستعين بها. الى جانب المراجع الانجليزية والفرنسية أضاف بعض المراجع العربية التراثية مثل شرح القطبى على الشمسية ومنطق الشرقيين لابن سينا وشرح الملوى على السلم للأخضرى، فكان أول أستاذ يلفت نظرنا الى التراث الفلسفى العربى ، ولم يكن للدكتور بدوى كتاب فى المنطق يفرضه علينا لذلك كان حضور محاضراته أمراً لا غنى عنه .

طوال عام دراسى كامل درسنا عليه المنطق، مدنا الدكتور بدوى بعلمه الواسع وببلاغة أسلوبه وفصاحته البعيدة عن التكلف وكان كثيرا ما يأتى الى المحاضرة ومعه كتاب بالألمانية أو الفرنسية أو اليونانية ليقرأ لنا منه بعض النصوص بالعربية مباشرة مما كان يثير اعجابنا الشديد ولعله كان يقصد ذلك .

صرامة شديدة !

واذ استحضر الآن ذكرياتى عن هذه السنة التى تتلمذنا فيها على الدكتور بدوى وانطباعاتى عنه ، تأتى الى ذهنى عدة ملاحظات منها اننى لم أره يضحك أو يبتسم طوال العام، فقد كان على وجهه دائما تعبير خفيف من الاشمئزاز أو «القرف» لم يفارقه حتى صار شيئا ثابتا من ملامحه ، ولكن ذلك لم ينعكس على تعامله مع طلبته فلم نشعر يوما بأنه يتعالى علينا بعلمه الغزير أو يحاول أن يشعرنا بضآلة شأننا بجانبه، ولا أذكر أنه وجه كلمة قاسية الى أحد أو أن صوته ارتفع فى غضب اثناء محاضرة من محاضراته، لذلك كان محل تقديرنا واحترامنا واعجابنا، وبالرغم من ذلك لم ينجح أحد منا فى اقامة علاقة شخصية أو انسانية معه فلم يتبادل مع طالب حديثا خارج موضوع الدرس، ولم يشارك معنا كغيره من الأساتذة فى رحلة من الرحلات القصيرة التى كنا نقوم بها الى أماكن مثل القناطر الخيرية أو حلوان ، ولم يسأل يوما عن طالب انقطع عن المحاضرات لفترة أو طالبة حضرت وهى تلبس ملابس الحداد، مع أن عددنا لم يكن كبيرا، ولكننا غفرنا له كل هذا بسبب اعجابنا الشديد بعلمه وبأسلوب تدريسه.

ومنها اننا وان كنا قد افتقدنا فيه التواصل الانسانى معنا فإننا لم نفتقد فيه روح الأستاذية الحانية التى تتعهدنا بالتعليم والتثقيف، كان يطلب من كل منا أن يعد بحثا فى موضوع من موضوعات المنطق وعندما يعيد الينا أوراقنا التى قدمناها له نشعر بمقدار الجهد الذى بذله فى قراءتها يصحح أخطاءها، ويضيف تعليقاته على الموضوع ثم يستطرد الى ضرورة الاعتناء باللغة العربية والاهتمام بها ويتبع ذلك بأسماء بعض الكتب التى ينصحنا بقراءتها والرجوع اليها، ولم تكن

تأخذه العزة بعلمه الغزير فيسخر منا أو من جهلنا بل كانت تقديراته ودرجاته لنا تتناسب مع حصيلتنا الفقيرة من العلم، ولم يكن كثير من الأساتذة يفعلون مثله .

ومنها أننى لم أشاهده يتبادل حديثا مع أحد من زملائه أساتذة قسم الفلسفة وكان يشيع بيننا أنه على خلاف دائم معهم جميعا أو مع أكثرهم .

وأخيرا كان يستلفت نظرنا انه أنيق بدون تكلف أو بهرجة حسن الهندام دائما ولكنه لم يغير أبدا ألوان ملابسه فهى دائما عبارة عن «جاكت» كحلى داكن و«بنطلون رمادى»، ولم يغير طوال العام هذين اللونين حتى لتظن انه لا يمتلك الا بدلة واحدة لولا ما يبدو عليه من أناقة، وقد اختلفنا فى تفسير هذه الظاهرة ثم قبلنا ما ذكره البعض من أنه كان يحب امرأة تفضل هذين اللونين ثم فرق بينهما الموت أو ظروف الحياة فظل على وفائه لها

وانقضى العام الدراسى وانتقل الدكتور عبدالرحمن بدوى الى جامعة ابراهيم (جامعة عين شمس الآن) فانقطعت صلتنا به ولم نعد نسمع عنه الا أخبارا متناثرة فعلمنا أنه عين مستشارا ثقافيا فى سويسرا وأنه ذهب للتدريس فى الكويت وفى ليبيا، حتى كانت «هجرته» - كما يسميها - الى باريس فى فبراير ١٩٦٧ ليحاضر فى جامعة السربون واستقر هناك الى الآن. خلال كل هذه السنوات لم يتوقف عن الانتاج الفلسفى والأدبى ومع ذلك كان من النادر أن تقرأ عنه خبرا فى جريدة أو مجلة حتى ظن البعض أنه رحل عن دنيانا، وفجأة ومع بداية عام ٢٠٠٠ أصبح الدكتور عبدالرحمن بدوى ملء السمع والبصر ولم تعد تفتح صحيفة عربية من المحيط الى الخليج ومن لندن الى باريس دون أن تجد فيها مقالا أو تعليقا على كتابه الأخير «سيرة حياتى» الذى تناول فيه بأسلوب صريح حاد كثيرا ممن عرفهم أو زاملهم فى المجال الاكاديمى والحياة السياسية .

أضعف ما كتب !

هذا أستاذ مرموق ومفكر مبدع له مشروع فكرى ذو اتجاهات ثلاثة: الأول عبر فيه عن مذهبه فى الفلسفة والثانى عرض فيه الفكر الأوربى والأخير أسهم به فى دراسات الفلسفة الاسلامية (سيرة حياتى جـ ١ ص١٥٠)، بدأ الكتابة عام ١٩٣٩ عندما نشر أول كتبه عن الفيلسوف الألمانى نيتشه وله من العمر اثنان وعشرون عاما، واستمر فى الكتابة أكثر من ستين عاما أصدر خلالها ما يزيد على المائة والعشرين كتابا فى الفلسفة الاسلامية والفلسفة الغربية والأدب والشعر وتحقيق المخطوطات العربية واليونانية والترجمة والدراسات الاسلامية التى دافع فيها عن الاسلام باللغتين العربية والفرنسية وأصدر سلسلة خلاصة الفكر الأوربى وسلسلة الروائع المائة، ومن

الغريب أن كل هذا الجهد مر فى حياتنا الثقافية دون أن يشعر به أحد تقريبا وقلما تناوله كاتب بالدراسة أو التعليق إلا في سطور قليلة في أحد أركان الصفحات الثقافية بالصحف والمجلات وعلى فترات متباعدة حتى كاد يصبح المؤلف ومؤلفاته نسيا منسياً الى أن أصدر كتابه الأخير، وهو بلاشك أضعف ما كتب، فكان كمن ألقى بحجر فى ماء آسن، وهب الجميع يعلقون على الكتاب وعلى الأسلوب الفظ الذى استخدمه عند الحديث عن عدد من زملائه ومن السياسيين وكاد كل ما كتبه عبدالرحمن بدوى يضيع هباء ولايبقى منه إلا أنه أصدر كتابا هاجم فيه «رموز مصر» واستخدم فى التعبير عن رأيه فيهم أقسى الألفاظ وأقبح الصفات .

والدهشة والاستنكار اللذان تلقى بهما القراء والنقاد مهاجمته لبعض الشخصيات العامة بأسمائهم وبلغة حادة وصراحة بالغة لا تخلو من التجريح لهما فى تقديرى وجهان : الأول أننا لم نألف فى كتب السيرة الذاتية التى تخرجها لنا المطابع فى مصر أن يذكر الأشخاص بأسمائهم أو أن تستخدم فى تقييمهم من الصفات ما قد يسيىء اليهم بشكل مباشر وانما يلجأ الكاتب عادة الى التجهيل فيتحدث عن زميل ارتكب فى حقه كذا وكذا من الأفعال الشائنة أو عن صديق تخلى عنه فى شدته أو خان الصداقة فانحاز الى خصومه طمعا فى منفعة أو منصب، حتى أن الاستاذ أحمد أمين فى كتابه «حياتى»، وهو من أفضل ما قرأت من كتب السيرة الذاتية وأشدها صراحة، عندما تناول خلافه مع الدكتور طه حسين وكان خلافا أكاديميا فى جملته يعرفه كل من له صلة بكلية الآداب لم يذكره بالاسم واكتفى بالاشارة اليه دون افصاح رغم الأسلوب العف الذى تميزت به كتابات أحمد أمين وهو فى ذلك يلتزم بما اتخذه شعارا لكتابه المذكور وهو أنه لم يكتب الا الحقيقة ولكنها ليست كل الحقيقة.

كما أن ركود الحياة السياسية منذ يوليو ١٩٥٢ وانتهاء الصراعات الحزبية والمساجلات السياسية جعل القراء ينسون أن أسلوب الدكتور بدوى فى حديثه عن السياسيين الذين عاصرهم وتجريحه لهم ونعتهم بألفاظ قاسية كان أمرا مألوفا فى الصحف الحزبية قبل عام ١٩٥٢ تطالعنا بمثله كل صباح .

الوجه الثانى هو أن كثيرا مما ذكره الدكتور بدوى عن بعض زملائه من الأساتذة وغيرهم كان معلوما لدى الطلبة يرددونه فيما يدور بينهم من أحاديث فهذا أستاذ ضعيف فى مادته فقير فى حصيلته العلمية، وثان لا يعنيه الا بيع كتابه وثالث يتملق العميد ليرفعه الى درجة الأستاذية أو ليعينه رئيسا للقسم ورابع يتودد الى الجميلات من الطالبات ويتحرش بهن (أدانت محكمة القضاء الادارى والمحكمة الادارية العليا أحد الأساتذة بهذه التهمة

وتضمن حكمها وقائع محددة مع طالبات بعينهن) ولم يكن الأمر فيما بين الأساتذة يختلف كثيرا فكنا نسمع عما بينهم من خلافات واتهامات متبادلة ويكفي أن يعرف القارئ انه عندما بدأت لجان التطهير في الجامعة عملها بعد ثورة ١٩٥٢ تلقت اللجنة شكاوى مختلفة ضد أحد الأساتذة المعروفين في كلية الآداب من خمسة عشر أستاذا من زملائه. فالدكتور بدوى لم يزد على أن سجل في كتابه ما كان كثير منه معروفا تتناقله الألسنة ولا يجرؤ أحد على كتابته. وإذا أخذنا مثلا رأيه القاسى في الدكتور محمود فوزى الذى ظل وزيرا للخارجية لما يزيد عن ثمانية عشر عاما، والذى يعده كثير من الدبلوماسيين عميد الدبلوماسية المصرية وله تلاميذ من أبرز الدبلوماسيين المصريين، وأكثرهم كفاءة يكنون له كل تقدير واحترام ويدينون له بالفضل ويعتبرونه مدرسة في الدبلوماسية، ومع ذلك فإن هناك عددا آخر من الدبلوماسيين لايشاركون تلاميذه وجهة نظرهم فيه، ويرون أنه عندما كان وزيرا للخارجية ترك إدارة الوزارة ومصيرها فى يد أشخاص وجهات من خارجها ورأى زملاءه وأصدقاءه يفصلون من الوزارة بغير الطريق التأديبى ويحالون الى معاش مبكر لشبهات لم تتأكد ، فلم يحرك ساكنا ولم يرفع أصبعا اعتراضا على هذه الممارسات، كما يرون أنه لم يتخذ يوما موقفا حاسما من قضية خلافية كما فعل الوزيران اسماعيل فهمي ومحمد ابراهيم كامل مثلا، ولم يكن له توجه أو رؤية سياسية خاصة به مثل الدكتور بطرس غالى فى توجهه الإفريقى أو الوزير عمرو موسى فى اتجاهه الى آفاق جديدة فى علاقات مصر الخارجية تتجاوز الدوائر الثلاث التقليدية التى تبنتها ثورة ١٩٥٢ لفترة طويلة، صحيح أن السياسة الخارجية تتولاها بشكل عام مؤسسة الرئاسة الا أن ذلك لم يمنع بعض الوزراء من أن يتركوا بصمات عليها .

نرجسية واضحة!

يبقى بعد ذلك تساؤل عما دفع الدكتور بدوى الى الكتابة عن الآخرين بهذا الأسلوب الهجومي الحاد، وأظن اننا قد نجد تفسيرا لهذا فى اعتزازه الشديد بعلمه وبنفسه ومبالغته فى تقديره لشخصه، مما يشيع فى كل صفحات كتابه، بدرجة تستفز من حوله وجعل هذا منه انسانا وحيدا يكاد أن يكون بدون صديق وقد رأى فى عزلته من هم فى نظره أقل منه علما يشقون طريقهم الى المناصب والى صفحات الجرائد والمجلات بينما حالت نرجسيته بينه وبين اقامة علاقات انسانية مع زملائه من الأساتذة والنقاد والمفكرين فلجأ الى التعالى عليهم والازدراء بهم ثم صب جام غضبه عليهم في كتابه الأخير. وتحضرنى هنا شخصية الدكتور جمال حمدان - مع ما بينهما من

اختلاف - ولعل هجرة الدكتور بدوى الى باريس منذ عام ١٩٦٧ قد أنقذته من مصير مثل مصير الدكتور حمدان .

وأخيرا فان هذا الأسلوب غير المألوف فى الكتابة عن الآخرين قد صدم النقاد فلم يتعرض أغلبهم إلا الى هذا الجانب من الكتاب مع أن الكتاب فيه كثير من المآخذ والمثالب غير ذلك ومنها : أولا : أن كراهية الدكتور بدوى للشيوعيين ولنظام حكم عبدالناصر قد أوقعه فى تناقضات كثيرة فى أحكامه منها مثلا أنه يقول أن الفترة من ١٩٦٠ الى ١٩٦٦ كانت من أخصب فترات انتاجه (ج ١ ص ٣٥٢) ثم يسرد هذا الانتاج فاذا به تسعة كتب من تأليفه وأحد عشر كتابا مترجما وسبعة كتب حققها من العربية واليونانية، وقد نشرت جميعها تقريبا فى القاهرة ومنها مقالات ظهرت فى مجلات حكومية مثل «المجلة» ثم يضيف أن بعض هذه الكتب قصد منها مقاومة المد اليسارى الذى فرضه عبدالناصر ومن ورائه الاتحاد السوفييتى وأتباعه فى مصر، وأنه استخدم فى هذا أسلوب الخطاب غير المباشر، لأن الرقابة كانت بالمرصاد ، والنفوذ الشيوعى فى ادارة الدولة كان كفيلا بالقضاء على كل صاحب قلم يجرؤ على الهجوم المباشر على الماركسية والاشتراكية العلمية، ويذكر أمثلة على خطابه غير المباشر فيقول إن كتابه عن المثالية الألمانية هو مقاومة للمادية الجدلية بأقصى سلاح لمقاومتها ، ودراساته فى الفلسفة الوجودية وعرضه للمذاهب الوجودية استهدفت تأكيد معنيين هما الحرية والفردية وهما المعنيان اللذان تحاربهما الايديولوجية الماركسية اشد المحاربة، وأن مقالاته عن الفلسفة والسلام أراد منها تفنيد دعوى الشيوعيين فى السلام، فهل كان ذلك كله يخفى على الشيوعيين الذين ذكر انهم سيطروا على أجهزة الدولة؟ وهل فاتت كل هذه الأفكار التى يعرفها أى دارس للفلسفة على الرقابة التى كانت تقف بالمرصاد لكل كاتب كما يقول؟ وكيف تكون أخصب سنوات انتاجه هى سنوات القهر وقمع الفكر الحر؟. بل إنه يتحدث عن المعركة التى قامت عام ١٩٦٥ حول الشعر الحر فى الظاهر وكانت فى حقيقتها معركة بين أهل اليمين وأهل اليسار أو بين أنصار الفكر الليبرالى (وهو منهم) من جانب وأنصار الشيوعيين من جانب آخر، وإن اليمين كان له منبران هما مجلة «الثقافة» ومجلة «الرسالة» فى ذلك الوقت فأين اذن سيطرة الشيوعيين واستيلائهم على جميع أدوات الأعلام اذا كانت هناك معارك تحتدم بين الطرفين ولكل طرف منابره .

ثانيا : للدكتور بدوى رأى فى الفلاح المصرى لا يخفيه فى كتابه فهو مزاج من

طيب النفس والخبث وهو أمكر من أى مالك، ويتحدى المؤلف أى انسان يدله على مالك لم يغلبه الفلاح الذى يعمل فى أرضه! فالفلاح ان كان يعمل فى الأرض بطريق المزارعة يصطنع كل أنواع الحيل لاقتناص (سرقة) جزء من المحصول . وان كان يعمل بطريقة الايجار يماطل فى دفع الايجار وحين تتفق معه على تربية ماشية بالمشاركة يحتال عليك كى لا تنال منها شيئا (ج ١ ص ٢٣ وص ٢٤) .

هذا رأى أحد كبار الملاك فى الفلاحين وهو أمر قد يكون مفهوما خصوصا وأنه عانى كثيرا من خبث من تعاقد معهم على تربية ماشية على حد قوله كما أن الاصلاح الزراعى استولى على ٢٥ فدانا من أراضيه، ولكن ذلك لا يبرر ان ينظر الى قضية كمشيش ومقتل مناضل سياسى على يد أسرة من كبار الملاك على انه حادث تافه يحدث مثله فى أرياف مصر كل يوم دون أن يلتفت اليه أحد» . قد يعترض على بعض ممارسات أجهزة الأمن وتجاوزاتها أثناء التحقيق ولكن أن يختزل القضية كلها فى انها حادث تافه يحدث كل يوم فهو أمر لا يمكن قبوله .

وأخيرا فإن التبسيط والتعميم أمر لا يتوقعه القارىء من أستاذ فى المنطق والفلسفة ويقود صاحبه الى الشطط فى أحكامه والوقوع فيما يقع فيه عامة الناس من أخطاء ومن ذلك نظرته الى الدبلوماسية المصرية والى سفاراتنا فى الخارج وأسلوب عملها وهى نظرة فيها كثير جدا من الاتهامات الظالمة والتجنى على الحقيقة، ومع أن هذه النظرة الخاطئة يشاركه فيها عدد من رءساء المكاتب الفنية فى الخارج الذين يلحقون بالسفارات لمدة خدمة واحدة لا تتكرر خلال حياتهم الوظيفية فيقضون ثلاث أو أربع سنوات يتمتعون فيها بما يتمتع به الدبلوماسيون من امتيازات ومرتبات مرتفعة وحياة يرونها رغدة، وعندما تنتهى مدة خدمتهم ويعودون الى وزاراتهم فى مصر تمتلئ نفوسهم بالحسد لهؤلاء الدبلوماسيين الذين يقضون اكثر من نصف حياتهم الوظيفية فى الخارج، والغيرة من استمرار تمتعهم بما استمتعوا هم به لفترات قصيرة فيستقر فى نفوسهم أنهم أكثر كفاءة من اولئك الدبلوماسيين وأحق منهم بكل هذه الامتيازات، فينهالون عليهم تجريحا، وهى نظرة سطحية يجانبها الصواب كنا لا نظن أن الدكتور بدوى يقع فيها ولسنا على كل حال فى مجال الدفاع عن وزارة الخارجية وبعثاتنا فى الخارج .

غفر الله للدكتور عبدالرحمن بدوى وغفر لنا.

حكايات من الجزائر

التراشق بالمذكرات

بقلم : مصطفى نبيل

على كافى : « عند الاستقلال بعث ديجول بالضباط العاملين فى الجيش الفرنسى » .

خالد نزار : « لم يكن بامكانى تولى زمام البلاد بعد اغتيال بوضياف عندما اغتاله عسكرى ! » .



على كافى



بعد تطبيق قانون الوئام الوطنى فى الجزائر ، بدأت الفتنة تنقشع ، وترك ما يزيد عن ٢٢٠٠ مسلح أسلحتهم ، وأعلنوا نبذ العنف والجنوح إلى السلم والحوار ، وارتفعت قيمة الكلمة لتعلو على الرصاصة.

وظهر عدد كبير من الكتابات التى تتناول العقد الأخير، وفيها تراجع الجزائر نفسها ، ويقدم كل طرف دفاعه ، ويخلى مسئوليته من العنف والدماء الزكية التى أريقت ، ويطالب الجميع بجزائر تخلو من الاقصاء والنفى .

وتطرح الأزمة الكثير من الأسئلة والقليل من الإجابات ، ويبقى السؤال الملح عن طريقة الخروج من الأزمة ، فلقد آن الأوان لكى تسترد الجزائر عافيتها.

وتوالت المذكرات ، ونشر على كافى الرئيس الجزائرى الأسبق رؤيته ، ونشر خالد نزار وزير الدفاع السابق ورجل الجزائر القوى خلال العقد الأخير مذكراته .

وبدأت ظاهرة التراشق بالمذكرات ، مما يلقى الضوء على جوانب مهمة من التجربة الجزائرية.

سجل على كافى مذكراته ، ورغم أنها تتناول الفترة ما بين ١٩٤٦ و١٩٦٢، فانه يكشف الكثير من الأسرار ، وبقايا المعارك التى وقعت خلال حرب الاستقلال، ويقدم الرئيس الجزائرى السابق خبرته وتجربته التى استمرت نصف قرن بين عامى ١٩٤٦ و ١٩٩٦، فى ثلاثة أجزاء صدر الجزء الأول منها والذى يتوقف عند حصول الجزائر على استقلالها .

وعندما قابلته خلال زيارتى الأخيرة للجزائر ، فى بيته الذى يقع وسط غابة برية فى ربوة على مشارف الجزائر وتطل على البحر ، فى مجتمع أمنى تحت حراسة مشددة ، وهو مكان مغلق ومحاط بأسوار، ويضم هذا المنتجع عددا من

خالد نزار



المسئولين الحاليين والسابقين وعددا من السياسيين والصحفيين المهددين من قوى الإرهاب والظلام.

قال لى : إنه انتهى من الجزء الثانى من مذكراته والتى ستصدر قريبا، وتتناول الأحداث بعد الاستقلال، وسيتلوها الجزء الثالث الذى تولى فيه المسئولية ورئاسة المجلس.

وسى على كافى أحد الوجوه العربية المشرفة للثورة الجزائرية ، والمعروف جيداً فى القاهرة ، فقد كان أول مبعوث للثورة الجزائرية بعد انتصارها ، وكثيراً ما كنا نلتقى به ، عندما كانت الثورة الجزائرية رمزا لكل ما هو نبيل فى الحياة العربية ، وكان قبلها قائداً عسكريا للولاية الثانية «ولاية قسنطينة» ، وهى إحدى الولايات الست التى قسمت إليها الجزائر خلال حرب التحرير.

وبدأ كافى نشاطه السياسى داخل حزب الشعب الجزائرى ، الذى يمثل المدرسة الوطنية الرئيسية ، وعمل كمعلم للغة العربية بإحدى المدارس فى مدينة سكيكدة ، ودخل سجن سكيكدة، ثم التحق بجيش التحرير فى بداية عام ١٩٥٥، وعين فى خريف ١٩٥٦ قائدا عسكريا لقسنطينة، وشارك فى أهم العمليات العسكرية والسياسية خلال الثورة ، وانتهى به الحال بعد الاستقلال للعمل مبعوثا فى القاهرة فى سبتمبر ١٩٦١ ، ثم فى بيروت ١٩٦٣ وفى دمشق ١٩٦٦ وفى طرابلس ١٩٧٠ وفى تونس ١٩٧٥ واختير سنة ١٩٩٠ رئيساً لمنظمة المجاهدين ، ثم عضوا فى المجلس الأعلى للدولة عام ١٩٩٢ ، عقب إلغاء نتائج المسار الانتخابى .

ثم رئيساً لهذا المجلس فى ٢ يوليو ١٩٩٢ بعد اغتيال بوضياف ، وسلم السلطة لخلفه الأمين زروال سنة ١٩٩٤.

●

وحكمة الأيام التى يقدمها كافى فى مذكراته ، أنه إذا كانت الثورة قد نجحت فى تحقيق الاستقلال ، فإنها فشلت فى إقامة الديمقراطية ، ولم تنجح فى إقامة حزبها السياسى ، وإذا كانت نجحت عند اشتعال الثورة إلى وجود صيغة تجمع الشعب من حزب الشعب إلى جماعة العلماء، إلا إنه سرعان ما تفتتت النواة حتى حصلت على الاستقلال ، وأخذت تتنازع الجزائر تيارات وقوى متعددة .

وجاءت قوة جيش التحرير على حساب حزب جبهة التحرير ، الذى عاش خمس سنوات طويلة من الهزات المتعاقبة، يقول .. «فى النهاية فى مقابل جيش التحرير الوطنى الذى دخل التاريخ بكل شجاعة وبطولة .. فهل تكون بقايا الفلول الأخرى للثورة مجرد تسابق للاستيلاء على السلطة ؟.. فالقائم لايوحد إلا برغبة وإرادة الذين يمثلون واقع السلطة من خلال الزى العسكرى!

بومدين

ويروى بتفاصيل دقيقة الكثير من أحداث الثورة ، ونستطيع من خلال ما يرويه تحديد مواقفه التاريخية والسياسية، ومن الصعب تصور قدرته على التخلص من تحيزاته القديمة ، فمثلا يحكى عن الرئيس هوارى بومدين ، أنه

تقدم إلى معهد الكتانية فى تونس للدراسة فى منتصف عام ١٩٤٨، عندما كان على كافى نشيطا فى العمل السياسى إلى جانب الدراسة، يصفه يرتدى «برنوساً» ولباسه رثاً ، وعندما وجد صعوبة فى الالتحاق بالمعهد تدخلنا لتسجيله ، وعندما سعيت إلى اقناعه بالانضمام إلى حركتنا التى كانت جزءاً من حزب الشعب – قال ، «والدى أرسلنى للدراسة ، وليس لممارسة العمل السياسى» ، وكان اسمه أيامها محمد بو خروبه .

ثم يعود فيحكى عنه فى ربيع ١٩٥٨ عندما تشكلت قيادتان للعمليات العسكرية، قيادة غربية وقاعدتها الناظور بالمغرب تتبعها الولايات الرابعة والخامسة والسادسة ويسيرها العقيدان هوارى بومدين وقايد أحمد المدعو سليمان .. أما قيادة العمليات الشرقية وقاعدتها فى تونس، وكلفت بالولاية الأولى والثانية والثالثة ، والقيادة محمدى السعيد وعمارة بوقلاز ومصطفى بن عودة والعمورى محمد وعواشريه محمد .

ويعلق على تاريخ بومدين فى الثورة قائلا .. «لم يناضل بومدين فى أى حركة سياسية ، وكان مجهولاً عند انطلاقة الثورة ، ووصل المغرب سنة ١٩٥٦ ، حاملاً برسالة توصية من أحمد بن بيللا ، ثم جاء صعوده السريع والمبهم (ص ٢٥٩)، أما قايد أحمد ، فكان عضوا فى إدارة حزب الاتحاد الديمقراطى للبيان الجزائرى ونائب شيخ بلدية فى تيارت ، اتجاهاته وميوله البرجوازية معروفة .

ويكمل قصة بومدين قائلا .. «ظهر بومدين قائداً لا منازع له للعناصر الجديدة، فهو مخالف ومغاير للجميع ، ويعمل كل ما يستطيع لتأكيد هذا الاختلاف ، وأحاط نفسه بهالة من الغموض والتقشف والنزاهة الثورية ، وعرف كيف يستخدم ذكاءه ، كرجل جديد من ثالمة لا يغامر أبداً ، ولا يعرض نفسه لأى خطر ، فالسلطة دائما تكون لأولئك الذين يصلون «أحياء سالمين» إلى نهاية المطاف (ص ٢٦٥).

وكشفت هيئة الأركان التى يرأسها عن طموحاتها الواضحة، ولأنها تمسك بزمام القوة العسكرية أرادت أن تظهر كقوة سياسية مستقلة ، وظهر بومدين قائداً لا منازع له، بعيداً عن خلافات الحاضر ، أى انتزع جيش الخارج السلطة من السياسيين ومن جيش الداخل.

عبان رمضان

ويقدم أبعاداً جديدة لظهور واختفاء شخصية جزائرية مهمة هى عبان رمضان– وأدى ما كتبه إلى إقامة أسرة عبان رمضان قضية ضد كاتب المذكرات– الذى استطاع فى فترة من تاريخ الثورة أن يمسك بخيوط العمل فى الداخل ، وأن ينتصر للداخل فى مواجهة الخارج، وللسياسى فى مواجهة العسكرى، ودعى إلى أهم مؤتمر فى تاريخ الثورة الجزائرية وهو مؤتمر الصومام .. ويقدم كافى رؤية مغايرة ويقول : «هدف المؤتمر الأول والأخير القضاء على الثوريين الحقيقيين ، وفى طليعتهم رجال جيش التحرير الوطنى، صانع أول نوفمبر، والعمل على



على كافى وبن خدة وأحمد القبائلى فى الوسط

تكريس فكرة التفاوض ، فعبان رمضان هو الذى اقترح عباس فرحات «رئيس الحكومة المؤقتة» المرفوض نضاليا وثوريا، عضواً أساسياً فى مجلس الثورة، ويضيف .. «كان كل نشاط تيار عبان رمضان تحت غطاء «الوحدة الوطنية» ، سعيا لاستقطاب ساسة محترفين من مختلف التيارات، وبالتالى العمل على العودة بالثورة إلى الكفاح السياسى ومواصلة طريق التفاوض» (ص ١٠٣).

وأثبت التاريخ - يقول كافى - أن قرار «أولوية السياسى على العسكرى» أدت إلى شرخ كبير وأليم فى صفوف الثورة .. وأكدت الخلافات بين الداخل والخارج، وازداد التسابق على السلطة وتبلورت الأطماع وعادت الانقسامات ومخلفات وأجواء ما قبل قيام الثورة ، وظهرت مراكز سلطة أدت إلى تناقضات واصطدامات فى صفوفها كادت تمزق قوات الثورة، لولا يقظة وإيمان وتضحية أبطال جيش التحرير فى الولايات بالداخل».

فلم يكن لـ «عبان رمضان» توجهاً يساريا - مازال الحديث لكافى - ، وليست له توجهات فكرية خاصة ، وإنما هاجسه الأساسى هو بسط سلطانه على الثورة واضعاف سيطرة الخارج عليها ، ونزع السلطة من القيادات العسكرية ووضعها فى أيدى القيادات السياسية باعتباره سياسيا.

وبعد عام من انعقاد مؤتمر الصومام، سمعنا كلاماً مختلفا من قادة الثورة ، وأكد عميروش وكريم بلقاسم وبن طوبال وجود علاقات بين عبان وفرنسا ، واتهموه بفتح قنوات مع العدو دون علمهم .. وأشيع أيامها أن الثورة حكمت عليه



من اليسار إلى اليمين . لطفي، بومدين ، علي كافي ومصطفى بن عودة

بالاعدام .

ويروى على كافى تفاصيل إجتماع لجنة التنسيق في القاهرة الذى عقد فى ٢٠ أوت (أغسطس) ٥٧ واستمر مدة ٩٤ يوما، وخلال هذا الاجتماع ندد الأخضر ابن طوبال بالخلافات الحادة ومحاولات استقطاب داخل القيادة والثورة، وندد بموقف وتصرفات عبان رمضان، وأعلن .. «أن له طموحات واتصالات مشبوهة مع الطرف الفرنسى دون علمنا» .

ويضيف كافي « .. دعاني عبان رمضان وحدى وأطنب فى التنديد بالجماعة الأخرى وأخطائها وانحرافاتها وخاصة كريك بلقاسم محاولا كسب الولاية الثانية إلى صفه، والهدف الصراع على السلطة.

واتهم عميروش «قائد الولاية الثالثة» عبان في محضر أورده كافي في الوثائق الملحقة بالمذكرات ، جاء في النص الرسمي لعبان رمضان بعد أن لقي حتفه، أنه سقط في ميدان الشرف وهو على رأس جيش متوجها إلى الشمال القسنطيني، ودخل في اشتباك مع العدو.. والواقع أنه لم تقع هذه الاشتباكات، وتم إبلاغ ولايتي ، أن عبان قتل لأنه يعمل لنفسه!.. ، وأشيع أن عبان «على مشارف الخيانة»، وينفى قادة الثورة صدور حكم عليه بالاعدام ، وكل ما أكدوه ، وجود اتصالات بين عبان والعدو ، وعندما حامت حوله الشكوك ، تم استدراجه إلى المغرب بحجة مقابلة الملك محمد الخامس، وهناك تمت محاكمته ونفذ فيه الحكم (ص ١٢٣).

وكشفت قضية عبان رمضان حدة التناقضات في صفوف الثورة ، وتآمر «الخارج» وحدة صراع السلطة .

القتل للمثقفين !

ومن المؤكد أن أكبر ما أصاب الثورة

عمليات التصفية فى صفوفها التى كثيراً ما تكون عشوائية، ويروى كافى أحد جوانب التصفيات الدامية ، فقد شهدت ولاية بجاية «القبائل الصغرى» تصفيات ومذابح أدت إلى فقدان الثقة بين الشعب والثورة.

ولا تبعد كثيراً الفتنة التى تشهدها الجزائر خلال العقد الأخير عن ما جرى خلال الثورة، يقول كافى .. «سارع عميروش قائد الولاية الثالثة ، دون تحرٍ ولا تعمق ولا تدبر ، إقامة محاكماتٍ صورية والتعجيل بالإعدامات، فكانت النتيجة إعدام حوالى ألف وثمانمائة من الضحايا أغلبهم من المثقفين !

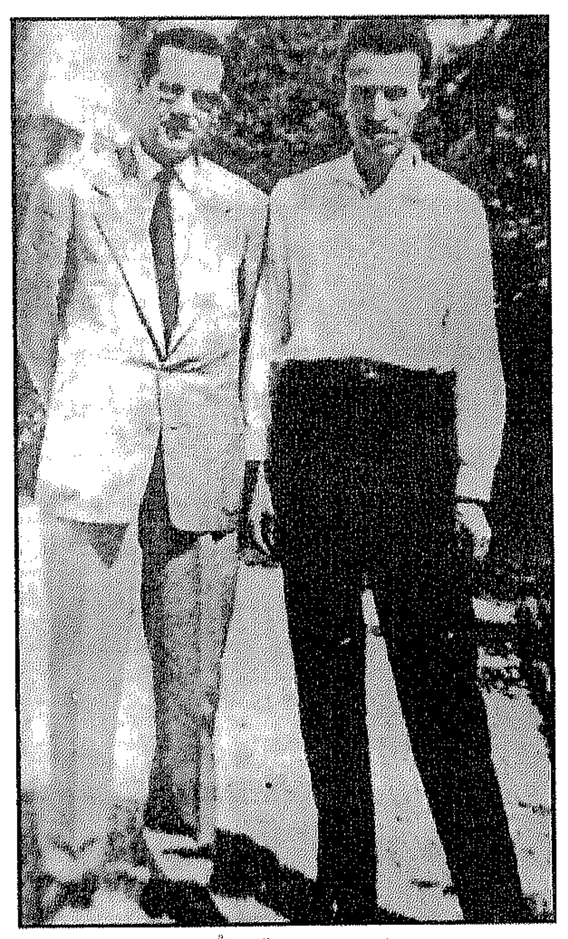
وامتدت العدوى إلى الولاية الرابعة فى مذبحة أخرى ذهب ضحيتها خمسمائة شخص ، ويعلق كافى قائلا: «إن كتابة تاريخ نزيه تفرض أن نسجل أن من أخطاء عميروش ، التسرع فى الحكم والتنفيذ ، ذلك أن الخيانة التى أحكم خطتها العدو وأشار إليها لم تكن تتهم واحداً أو عشرة بل شملت «كل المثقفين» وأتت على طلبة الجامعات وحتى الثانويات (ص ١٢٥).

ويقدم هذه الوقائع كإحدى المؤامرات التى حيكت ضد الثورة من الداخل والخارج .

ومن حقنا أن نتساءل .. أليس ذلك هو جذور العنف الذى تشهده الجزائر اليوم..؟!

ويمضى على كافى قائلا .. «انتشرت فكرة المؤامرة كالنار فى الهشيم ، وانتقلت عدواها من الولاية الثالثة إلى الولاية الرابعة، وأصابت الفتنة معظم الولايات عن طريق رسالة وصلت من الولاية الثالثة إلى الولايات الأخرى، تتهم - مع غرابة ذلك - الذين خرجوا من الجامعات والثانويات والمعاهد والمدارس والأطباء وغيرهم بالخيانة !.

وشملت الاتهامات جميع المناضلين ، والرقم المتداول فى الولاية الثالثة يزيد على رقم ٢٠٠٠ ، وبدأت عمليات التصفية.. وكنت على اقتناع بأنها مؤامرة حيكت فى المكتب الخامس الفرنسى والذى قام بديلاً عن المكتب الثانى!.



بومدين وبوصوف فى تونس

وهناك ثمة علاقة بين تصفية عدد كبير من المثقفين وبين تصفية عبان رمضان.

يقول عميروش - قائد الولاية الثالثة - منذ ٢٠ أوت «أغسطس» ١٩٥٦ ، ظهرت لنا هيئة عبان مشبوهة، من خلال الدور الانشقاقي الذي يقوم به بين مسئولي الولاية الثالثة، وكانت أغلبية أعضاء المؤامرة الذين اعتقلوا أصدقاء عبان مثل بن مرزوق ومحمد المدعو عبدالله الذي التحق بالعاصمة بعد مؤتمر أوت «أغسطس» وهو «مقدم» في صفوف العدو الذي التحق به في جوات «يوليو» ١٩٥٨.

هكذا تكلم خالد نزار

سارع خالد نزار بتقديم شهادته، وادعى أنه قادر على الكلام أكثر من غيره من العسكريين وهو متقاعد، وبعد أن استكمل التغييرات في الجيش، فهو أحد الجنرالات الذي أمسك خيوط السلطة طوال العقد الفائت ، فضلا عن أنه هو الذي ألغى نتائج المرحلة الأولى من الانتخابات النيابية عندما كان وزيراً للدفاع .

وهذه الشهادة لا تخاطب الماضي وإنما تخاطب الحاضر والمستقبل ، وتحتوي المذكرات على بعض الطلاسم التي تحتاج لمن يكشفها، وألقت الضوء على الكثير من الأحداث السياسية، وكشفت بعض أبعادها التاريخية، وأن الكثير من هذه الأحداث من بقايا معارك التحرير والتي لم تصل إلى نهايتها بعد، بقايا الصراع القديم بين جيش الخارج وجيش الداخل، بين الضباط المحترفين الذين كانوا ضمن جيش فرنسا، وأولئك أصحاب الأصول الريفية الذين خاضوا حرب التحرير في الداخل.

وهي أيضا بقايا معارك التعريب في مواجهة الفرانكفونية التي تجد في الأمزيغية سنداً، وهي أخيراً صراع الأفكار المختلفة المطروحة للخروج من الأزمة ومدى استعداد الأطراف المختلفة لقبول الحرية وتحمل مسئولية الديمقراطية.

وخالد نزار اسم لمع في سماء الجزائر خلال السنوات العشر الماضية، وهو ضابط محترف فر من الجيش الفرنسي والتحق بجيش التحرير، ووالده كان جنديا في القوات الفرنسية خلال الحرب العالمية الثانية، عين وزيراً للدفاع عندما أحدث الرئيس الشاذلي بن جديد تغييرات جوهرية في النظام السياسي في اتجاه المزيد من الليبرالية، وأخرج ضباط جيش التحرير من اللجنة المركزية لحزب جبهة التحرير، وتخلى عن وزارة الدفاع لخالد نزار، وعمل على أن تنتقل الجزائر لكي تكون جزءاً من السوق العالمي، وانتقل من الحزب الواحد إلى التعدد الحزبي، وأعطى حرية إصدار الصحف، وهي التغيرات التي وقعت بين أكتوبر ١٩٨٨ وحتى إلغاء المسار الانتخابي سنة ١٩٩١ واستقالة الرئيس الجزائري ، والذي قيل إنه إنقلاب عسكري بقيادة خالد نزار، ويروي خالد نزار هذه الأحداث وما تبعها خلال التسعينات كصاحب القرار والممسك بكل خيوط السلطة.

وهي ظاهرة نادرة أن يفصح مسئول عن المسكوت عنه، ويقدم شهادته عن أحداث جارية لم تصل لنهايتها بعد، ولعل



من اليمين : عبدالعزيز بوتفليقة،
على كافى، بومدين، نصار الحاج، الحاج باريفو

ذلك سببه أن الأدوار المهمة والحاسمة التى قام بها خالد نزار كانت تجرى من وراء ستار، وإن لم يكشفها يمكن أن ينسبها غيره لنفسه، ونصب من نفسه قاضياً يصدر أحكاماً نهائية على كل ما جرى من أحداث، ويعترف فى مذكراته بعمليات التعذيب داخل السجون باعتبارها «قذارة يجب السعى لمحوها»، وحتى يغسل يديه من تبعاتها.

ولد خالد نزار فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٣٧، ببلدة سريانة التى تبعد ٢٦ كيلو متراً عن مدينة باتنة التى أطلق عليها اسم العالم الفرنسى باستير الذى مازال تمثاله قائماً بها، والتحق بالجيش الفرنسى عندما كان عمره ١٨ سنة، أى بعد إعلان قيام الثورة، وعين فى مارس ١٩٥٧ فى المجموعة الثالثة للقناصة المتمركزة فى «لوندو» بألمانيا، وهرب منها بعد ثمانية شهور فى أواخر سنة ١٩٥٧ والتحق بجيش التحرير فى تونس.

وعقب الاستقلال لعب دوراً قيادياً فى الجيش، وأخذ دورات عسكرية فى كل من الاتحاد السوفييتى وفرنسا، وأصبح قائداً للقوات البرية على الحدود المغربية الجزائرية.

انقلاب ١٩٦٥

ويروى خالد نزار فى مذكراته .. «أنه كان على علم بما يسميه «التصحيح الثورى» الذى وقع فى ١٩ جوان «يونيه» سنة ١٩٦٥، أى الانقلاب العسكرى ضد الرئيس بن بيللا، يقول.. «علمت بأمر هذا التصحيح قبل شهر من وقوعه»، ولا يفوته



خالد نزار مع زملائه فى حفل التخرج
من مدرسة سان ميكسان ، وهو الثانى على اليسار

أن يلمح عن محاولة مصرية للتدخل لصالح بن بيللا فيقول .. «هناك أسئلة ليس لها إجابات ، مثل أنى أوقفت رئيس الأمن المصرى (!) أمام فندق سفير بالجزائر غداة يوم ١٩ جوان «يونيه» ، وفى اليوم التالى اقتربت غواصات مصرية من مياهنا الإقليمية، وكانت تكرر نداءات طلب التزود بالوقود.. واتفقنا على منعها من الدخول إلى الميناء».

وقد عاش فترة على الجبهة المصرية مع قوات جزائرية خلال حرب الاستنزاف وحرب أكتوبر، وسجل انطباعاته على أهمية حرب الاستنزاف واعتبارها المقدمة الطبيعية لحرب أكتوبر يقول .. «إننى مقتنع أنه بفضل هذه الدروس تم العبور الناجح لقناة السويس» ويضيف .. «استنتجت خلال تلك الفترة أن المصريين فقراء بحاجة إلى المال «عصب الحرب»، الذى يسمح لهذا البلد بتنظيم الجبهة الخلفية وتأمين الحد الأدنى من احتياجاتهم .. فقد كان المال غير كاف لخوض حرب والانتصار فيها!» ص ٩٥ ، ويقول .. «كانت نظرة السادات صائبة عندما اختار طريق السلم لشعبه، وفى الوقت الذى كنا نحارب فيه على الجبهة المصرية، لم تكن لى أية عداوة إزاء الجندى الإسرائيلى!، ويستطرد .. «كشف العبور قدرة المصريين على تنفيذ كل ما خطط له مسبقا، وضعف القيادة فى تسيير عمليات مفاجئة ، وبرهن الجيش الإسرائيلى قدرة قيادات أركانه على المناورة» ويقرر.. «لقد انتصر

الإسرائيليون فى الحرب (!) ، لأنه يتوفر لديهم هيئة أركان قادرة على القيادة حسب المتغيرات ، وبسبب التفوق التكنولوجى كما كان حجم وطبيعة قواتهم أقوى من المصريين.. علاوة على أن الأمريكيين يشكلون لهم قاعدة إسناد حقيقية».

هذا هو ملخص تجربته على الجبهة المصرية.

البارونات والكفاءات!

يأخذ خالد نزار وهو العسكرى المحترف على الرئيس الراحل بومدين، ارتكابه لأكبر خطأ استراتيجى أوصلنا إلى حكم الشاذلى بن جديد نتيجة الفراغ السياسى الذى تركه، ولم يكن اختيار الشاذلى كخليفة لبومدين هو الأفضل ، فيستطيع الشاذلى فى أحسن الأحوال العمل فى الجيش وليس كرئيس للجمهورية، وتم اختياره على قاعدة كثيراً ما تسود وهى اختيار الأقل مهارة ، أما الخطأ الاستراتيجى الثانى فى اعتقاده أنه لم يعد هيكلة الجيش، أى لم يبعد غير المحترفين من جيش التحرير أو على حد قوله .. «إبعاد البارونات لصالح الكفاءات».

ويتناول فى مواضع مختلفة «صراع الملوك الصغار» ويعنى صراع الجنرالات ويحكى قصة الصراع الذى دار بينه وبين الجنرال زروال والذى أدى إلى استقالة زروال من الجيش، فطالما ساد منطق القوة بديلاً عن الشرعية، ودار الخلاف حول رؤية كل منهما لإعادة هيكلة الجيش،.. فكانت مركزية القيادة تجرد «الملوك الصغار» من نفوذهم، وهو هنا يتحدث عن الجميع باستهانة واستعلاء . يقول .. «إن جيش التحرير لم يخرج قيصرا» ص ١٦٣، ويعود فيقول فى موضع آخر إن الشاذلى بن جديد ليس أكثر من قيصر، ويعترض على الثلاثية التى كانت تحكم من خلف الستار أيام حكم الشاذلى، وهم حمروش/ محمدي/ حيدوسى.

ويقول .. «كان لقاصدى مرباح (رجل الأمن القوى الذى لقى مصرعه) دوراً حاسماً فى اختيار الشاذلى، وأحب أن أؤكد أن معظم الجيش كان ضد هذا التعيين» ويضيف .. «كان على قاصدى مرباح قبل أن يتخذ قراره أن يجتمع بالإطارات العسكرية» وينسى المجتمع المدنى ومؤسساته بالكامل.

ويتهم الشاذلى بن جديد بالتواطؤ مع ملك المغرب، فطالما بقى رئيساً، وبعد أن أصبح صديقاً لملك المغرب، وأصبحت الزيارات بين عائلتيهما أمراً مألوفاً، «فهمت أنه تم الانتهاء من مسألة الصحراء المغربية»!.

وقف المسار الانتخابى

ويعلن أنه أوقف المسار الانتخابى، وهو غير نادم على ذلك .. «تحملت مسئولياتى بعد استقالة الشاذلى تجنبا للفوضى..» .. «اتفقنا فى الجيش على أنه لم يعد بإمكاننا إلزام الجيش بحكومة فشلت فشلا ذريعاً ».. ونرى «أن مسعى محمد غزالى – رئيس الحكومة – فاشل» رغم أن خالد نزار كان وزيراً للدفاع فى وزارته!، ولم ينتظر فلم تحصل جبهة

الإنقاذ سوى على ٢٦٪ من الأصوات وثلث المقاعد، ويعطى الدستور الحق فى حل المجلس، وكأن خالد نزار قرر أنه بيده لا بيد سواه فرض النظام الشمولى، وخطى الخطوة الأولى، يقول .. «فيما يخص التشكيلات الديمقراطية، فإنها بعيدة عن أن تمثل حاجزاً ذا مصداقية فى مواجهة الخطر الشمولى..» .

ويروى نزار «أعلن الشاذلى فى مؤتمر صحفى يوم الثلاثاء ٢٤ ديسمبر ١٩٩١ ، أنه مستعد للتعايش مع جبهة الإنقاذ ، وأثارت نتائج الانتخابات موجة من الارتباك والاحباط وقلق البلدان المغربية والأوربية وخاصة فرنسا» ص ٢٠٧ ويضيف .. «يرفض الجيش نتيجة الانتخابات،.. وأقر احتمال اللجوء إلى اجراءات قصوى لحماية الجمهورية ، وحدد اجراءات عملية ، سياسية وعسكرية وجاءت استقالة الرئيس الشاذلى، فمكنتنا من تجنب اللجوء إلى هذه الاجراءات القصوى» ولم يفصح عن طبيعة هذه الاجراءات!، ثم يقول .. «كانت الرسالة الشهيرة التى قرأها الشاذلى فى التليفزيون من إعداد الجنرال التواتى وعلى هارون» ويضيف .. «كنا نبحث عن الاجماع ، وأدهشنا وزير العدل بتردده، وعندما لم نصل إلى نتيجة، قام العربى بالخبر (جنرال، كان مديراً لمكتب الرئيس ثم وزيراً للداخلية) وضرب بقبضة يده على الطاولة وقال حازما.. «سأصدر أمراً للولاة (المحافظين) لوقف المسار الانتخابى» !!

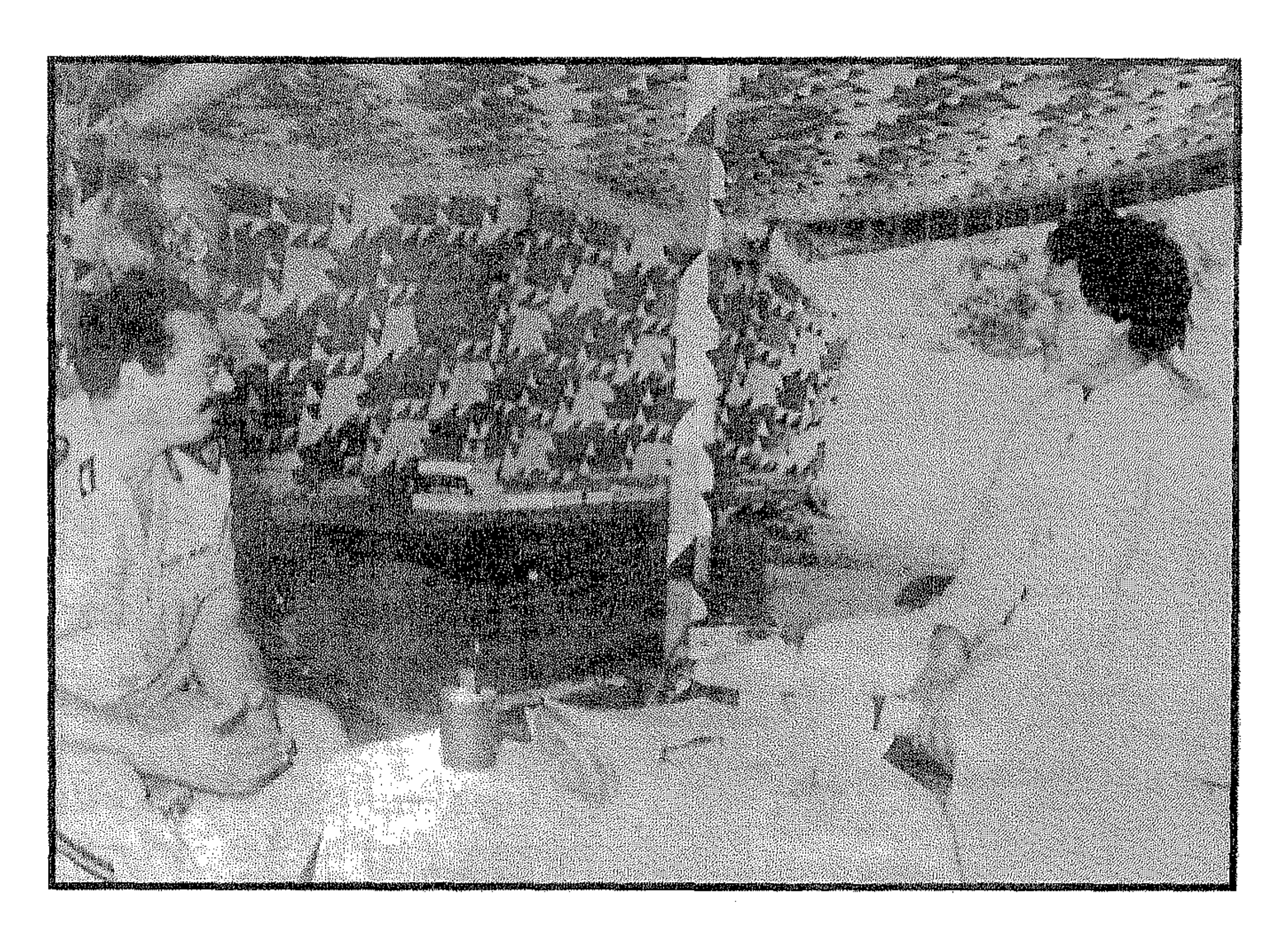
وقررنا عدم التوجه إلى المرحلة الثانية من الانتخابات ، على أمل أن يعى الرئيس خطورة الوضع ويقدم استقالته، فلم يكن أمام الجيش أى اختيار آخر..» وتمت أربعة لقاءات بين وزير الدفاع والرئيس ، وخلال اللقاء الثالث قال الرئيس : إنه لا يرى حلا سوى تسليم الأمر للجيش مع ضرورة تفادى أية شوشرة.. عندها فهمت أنه ينوى الاستقالة ، فطلبت من الرئيس توفير مهلة قبل الإعلان (!)، وتم الاتفاق على موعد الإعلان عن الاستقالة،.. إن الاستقالة مكنت من تجنب طريق المغامرة (ولم يفصح عن المغامرة التى كان ينوى القيام بها).

ويسأل حسين آية أحمد عن رأيه ، وكان رأيه أن استمرار الديمقراطية مهم، وأن الرئيس يملك صلاحيات حل المجلس.

أما بن بيللا فيقول .. «لقد اخترتم رجلاً تاريخيا، يقصد بوضياف، ولكن حاولوا تنظيم انتخابات فى ظرف ستة أشهر».

صانع الرؤساء

ويقدم خالد نزار نفسه بوصفه صانع الرؤساء ، فهو الذى اختار بوضياف رئيسا، وهو الذى شكل المجلس الأعلى للدولة ، وهو الذى جعل من على كافى رئيساً لمعرفته باللغة العربية، ويقول كلمات لا تنقصها الصراحة .. «لم يكن بإمكانى تولى زمام البلاد بعد اغتيال بوضياف لأنه اغتيل من طرف عسكرى عندما كنت وزيراً للدفاع»، ويؤكد فى كل سطر من سطور مذكراته أنه يمسك بخيوط الأحداث، ويسلم على كافى المشعل لرئيس جديد هو الأمين زروال ، ولا يخفى أنه اختار زروال وزيراً للدفاع ثم رئيساً، ..



خالد نزار فى لقاء مع العقيد معمر القذافى

«ثم وقع اختيارى على الجنرال المستقيل اليمين زروال» ويضيف .. «واختيار زروال راجع إلى الفراغ الذى حدث بعد ذهاب المجلس الأعلى للدولة».

ويعبر عن دهشته البالغة أنه ما أن يصل أى من هؤلاء إلى السلطة حتى يعمل على جعل المؤسسة العسكرية بعيدة عن أى تأثير سياسى! .

المغرب والارهاب

وجاء فى المذكرات اتهام صريح للمغرب ، بأنها تدعم الإرهابيين كرد فعل لتأييد الجزائر للجمهورية الصحراوية، يقول .. «من حق الجزائريين أن يعرفوا أنه سنة ١٩٩٢ ، تمكن الأمن الجزائرى من تحديد دقيق لمكان وجود قائد الجماعة الإسلامية «الجيا» المدعو عبد الحق العيادة، بأحد فنادق مدينة وجدة، ومن تحديد وجود مسدسات «عوزى» وبنادق «كلاشينكوف» وذخيرة ومتفجرات وشبكة كاملة تضم مغاربة وجزائريين .

وسافرت إلى المغرب والتقيت بالملك مدة ساعتين ، ولم يدهشنى عندما أثار قضية الصحراء المغربية موضحاً أن الأمن بالنسبة له كل متكامل، وأن الأمرين مرتبطان بشكل وثيق .مشكلة الصحراء المغربية والعنف والإرهاب فى الجزائر .

ولم يتم بعد اللقاء بثلاثة شهور تسليم



بوضياف وخالد نزار خلال زيارة لوزارة الدفاع الوطنى

سوى عيادة وحده ، أما بقية الشبكة فلم يتم تسليمها إطلاقا، ولم تأت أية معلومات خلال الشهور الثلاثة وهى الفترة التى تساقط فيها رجال الثقافة والعلم والصحفيين والعسكريين والمواطنين البسطاء ، وكان بإمكاننا أن نعرف من هذا الإرهابى معلومات من شأنها التقليل من الخسائر» ص ٦٩، ويقول .. «لا يوجد من بإمكانه الزعم أنه ينحدر من أصول عربية، وتبنى المجتمع بربريته أيام الشاذلى، ويجب العودة إلى التاريخ للتأكد من أن جذورنا بربرية، ووجدت العناصر الفرنكفونية الدعم والمساندة من الظهير البربرى! .

التراشق بالتاريخ

ومن خلال قراءة مذكرات كل من على كافى وخالد نزار، لا يفوتنا ملاحظة الفارق فى التناول بينهما ، وإن كان كل منهما يتناول مرحلة تاريخية تختلف عن الأخرى، فهما عقليتان مختلفتان ومنطقيان ورؤيتان متباينتان، كثيراً ما يتعارضان مما يفجر الخلاف والتراشق بينهما ، فعلى كافى من مجاهدى الداخل، أما خالد نزار فهو من الضباط الذين عاشوا على الحدود فى تونس، يعمل فى رفع كفاءة المقاتلين، يمثل أحدهما جيش الداخل ويمثل الآخر جيش الخارج. وانتقل على كافى من قائد الولاية الثانية فى الداخل إلى مناصب سياسية فى الخارج ، وأخيرا يرى على كافى أن الجيش أخفق فى القضاء على الإرهاب، بينما يرى خالد نزار أن مواجهة الإرهاب مهمة الجميع .

وهذه بعض الوقائع التى تكشف التفاوت فى نظرة كل منهما :

يشكو على كافى من صعوبة ونقص السلاح فى الداخل، ويقول خالد نزار على جيش الداخل أن يتسلح بما يغنمه من سلاح العدو ويضيف .. «إنى أعتبر التصريحات القائلة أننا لم نمون بالأسلحة

بسبب جيش الحدود، غير صحيحة ، لقد نقلنا السلاح إلى الداخل وتوليت شخصيا تمرير الكثير عبر مناطق غير ملائمة .. والادعاء بأننا مكثنا على الحدود مكتوفى الأيدى هو تخريف، وإهانة لذاكرة الشهداء».

ويضيف .. «لم يظهر إلى الوجود جيش الحدود سوى بعد قدوم بومدين فى نهاية ١٩٥٩، وفشلت المجموعات المشكلة من حوالى مائة رجل التابعين للولايتين الثانية والثالثة لأنها لم تكن جاهزة تجهيزاً جيداً ، وكان البعض يسعى للاعتماد على هذه القوات لفرض آرائه.. وقد تم إنشاء جيش الحدود سنة ١٩٦٢».. وجيش الحدود تسمية أراد بها الجيش الفرنسى زرع التفرقة بين الداخل والخارج ، ووقع للأسف بعض المسئولين فى هذه المكيدة».

أشبال فرنسا .. يقول على كافى فى مذكراته» .. سعت فرنسا إلى إقامة قوة ثالثة لعزل الثورة ، وفى بداية الثورة سنة ١٩٥٥ ، تم تصفية جمعية الأخوة العربية الإسلامية .. واستمرت محاولة خلق هذه القوة الثالثة من العملاء والسياسيين المحترفين، وعندما قام ديجول بالدعوة إلى الإصلاحات فى محاولة فصل الشعب عن الثورة وفشل ، أقنع الواقع فى الداخل ديجول بضرورة حق تقرير المصير ، هذا بعد فشل التلويح بالمشاريع الاقتصادية والاجتماعية والإدارية ، وفشل سياسة التهدئة والأخوة وسلام الشجعان الذى كان يهدف إلى تصديع الداخل وفصل الداخل عن الخارج، واظهار قيادة الخارج بلا سلطان على الداخل. فاستقر رأى ديجول على التخلص من «الجزائر فرنسية» وقبول فكرة الجزائر جزائرية وخاصة بعد مظاهرات ديسمبر ١٩٦٠.

ويكمل على كافى فى حديث خاص ، يقول .. «إن ديجول كان أخطر على الثورة من سواه، وعندما أدرك ضرورة حصول الجزائر على الاستقلال، سعى إلى خلق حصان طروادة فى الجزائر المستقلة، فبعث بالضباط الجزائريين فى الجيش الفرنسي وخاصة المقيمين فى ألمانيا للالتحاق بالثورة!».

ويمضى على كافى متحدثا عن أشبال فرنسا ، ويقول «من المعروف أنه بين عامى ١٩٥٨ و١٩٥٩ وفد إلى الثورة حوالى أربعين ضابطا جزائريا من العاملين فى القوات الفرنسية الموجودة فى كل من ألمانيا وفرنسا، وهم الذين فضلهم كريم بلقاسم على ضباط جيش التحرير، وعين أحدهم مديراً لمكتبه، وهم الذين يسعون إلى إقامة جيش تقليدى ، واستخدم بعضهم للسيطرة على الحكم .

ولدى خالد نزار رأى مخالف تماماً .. ويقول .. «نتج عن فرار الجنود الجزائريين من الجيش الفرنسى إرسال أغلب الوحدات إلى جزيرة كورسيكا فى فرنسا، وإلى ألمانيا، مما صعب محاولات الالتحاق بصفوف جيش التحرير الوطنى، وفى بداية الثورة كانت الأسلحة الموجهة للعسكريين الجزائريين مربوطة بسلاسل لغياب الثقة فيهم.

وأتحدث هنا عن الفارين من الجيش الفرنسى الذين التحقوا بالثورة، ليس لكونى واحدا منهم، ولكن احتراماً لذاكرة أولئك الذين سقطوا شهداء وأبرز مثال مدرسة القليعة «مدرسة عسكرية فرنسية»

التي زودت الجزائر بالكثير من الإطارات من بينها أربعة وزراء ، عبد المجيد علاهم، سليم سعدى، وعبد النور بقه وأنا، وقدمت ثلاثة قادة لهيئة أركان الجيش الوطني الشعبي (ص ٢٥٣).

ويضيف .. «يجدر آن أفند تسميات تقسيمية ضارة مثل تسمية «ضباط فرنسا» أي الاسم الذي يطلق على الضباط الجزائريين الذين فروا من الجيش الفرنسي والتحقوا بجيش وجبهة التحرير.. ، وقد عاصرت خلال سنوات الحرب عدداً من جنودنا الذين فروا من الجيش الفرنسي، وليس هناك ما يثير الخجل عن الحديث عن هذا الصنف من المجاهدين، بينما كان آخرون يضحون ببلادهم مقابل تأمين مستقبلهم الشخصي، وقد وصل الأمر بهؤلاء إلى قتال إخوانهم .. ومن بين الفارين من الجيش الفرنسي تولى العديد منهم مناصب كبيرة سواء قيادة ولاية أو منطقة أو مجموعة .. كما يوجد بين آباء الثورة العديد من العسكريين القدماء الذين شاركوا في الحرب العالمية الثانية (ص ٢٥١) .

ويكفى العودة إلى مذكرات الجنرال جوهر لمعرفة العدد المرتفع من الفارين الجزائريين، رغم أن جوهر لا يذكر سوى الفارين من الداخل، ولا توجد وحدة قتالية فى حرب التحرير لا تضم بين صفوفها مجاهدين أعطوا أسماءهم لمعارك أو مدن فيتنامية !.

ويعلق خالد نزار على ما جرى من تصفيات فى الولاية الثالثة بقوله.. «الجميع يعلم أن المخابرات الفرنسية نجحت فى اختراق صفوف الولاية الثالثة بعد ضعف جبهة التحرير عقب معركة الجزائر، فقد استغل الجنرالان ماسو وبيجار كل الوسائل وخاصة التعذيب للوصول إلى هدفيهما ، فجعلت فرقة المظليين مدينة الجزائر قلعة ، وترك اعتقال سى ياسف سعدى واستشهاد على لابوانت ورفاقه وحسيبة بن بو على، المجال مفتوحاً أمام مناورات الاستعمار.

بعدها أرسلت قائمة بأكفأ إطارات جيش التحرير اتهموا باطلا بالخيانة، وأعقب ذلك حملة تصفية واسعة فى الولايتين الثالثة والرابعة ، وهكذا تمت عملية «لابلويت» لمنع الولاية الثالثة من مواصلة المعركة فى العاصمة .

وأخيرا ..

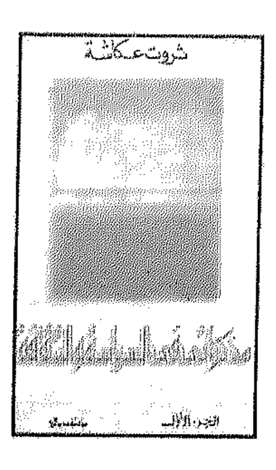
هل مازال قول الرحالة ابن زاكور فى آخر القرن السابع عشر ساريا .. «لما من على المولى الكريم، بدخول مدينة الجزائر، ذات الجمال الباهر، وحلول مغانيها النواصر. التى غص ببهجتها كل عدو كافر، لذلك يتربصون بها الدوائر، فى الموارد والمصادر، ويرسلون عليها صواعق لم تعهد فى الزمان الغابر أبرأني من غليلي ووجدى، ما عانيته من روائها وبحرها اللازوردى ..»

ومازالوا يتربصون بها الدوائر، ويرسلون عليها صواعق . ❑



بين السياسة والثقافة

بقلم : د. أحمد أبو زيد



❞

●● عنوان هذا المقال مستمد من كتاب الدكتور ثروت عكاشة وزير الثقافة الأسبق بعنوان « مذكرات فى السياسة والثقافة » ، لأن الكتاب بعنوانه ومحتواه يعطى صورة واضحة ومتكاملة عن حياة وجهود وانجازات ذلك الوزير الإنسان المثقف، الذى وجد طريقه إلى عالم الثقافة الرفيعة العميقة من خلال الجيش والدور الذى لعبه فى ثورة يوليو ١٩٥٢ باعتباره أحد الضباط الأحرار ، ثم اشتغاله بالسياسة كوزير للثقافة مرتين وانخراطه فى سلك الديبلوماسية كسفير لمصر فى الخارج واتصاله بالمنظمات الثقافية الدولية من خلال تمثيله لمصر فى اليونسكو وعلاقاته القوية بالسنيور فيرونيزي المدير العام لليونسكو ورينيه ماهية نائب المدير ثم بعد ذلك المدير العام لهذه المنظمة الثقافية الرفيعة الشأن، وصداقته لأندريه مالرو وزير الثقافة الفرنسى وغيرهم من الشخصيات الثقافية المرموقة الذين كانوا يدركون عمق توجهاته الثقافية وأهمية المشروعات الثقافية الضخمة التى كان يهفو إلى تنفيذها فى مصر فلم يبخلوا عليه بالمشورة والمعاونة والتعاون ●●

والمقال نفسه مستوحى من الاحتفالية الثقافية الراقية التى اقامتها دار سعاد الصباح للنشر بمناسبة صدور كتاب احتفالى - ولا أقول «كتاب تذكارى» عن ثروت عكاشة بعنوان «وردة فى عروة الفارس النبيل» وقد شارك فى كتابة فصول هذا الكتاب ما يزيد على الخمسين كاتبا ما بين أستاذ جامعي ومفكر وأديب وفنان يدركون جميعا فضل ثروت عكاشة فى الثقافة المصرية والعربية، كما يشعرون جميعا نحوه بكثير من الامتنان على ما قدم للثقافة بوجه عام وما أتاحه لهم شخصيا من فرص الاسهام بجهودهم فى ذلك النشاط الثقافى فى تخصصاتهم ومجالاتهم المختلفة والمتنوعة . وكانت هذه الاحتفالية فرصة للتعبير عما يحمله جميع الذين حضروا الاحتفال والذين زاد عددهم على خمسمائة من رجال الثقافة من تقدير واحترام لذلك الرجل الذى أفلح فى أن يحفر اسمه عن جدارة واقتدار فى سجل الثقافة العربية العريقة الرفيعة إلى جانب الأفذاذ الذين أقاموا صرح هذه الثقافة على أسس قوية وراسخة ، وأن يضمن بذلك بقاء إنجازاته الباهرة حية فى الأذهان على مر العصور .

ثروت عكاشة مكانة رفيعة

ولكن إذا كان ثروت عكاشة احتل مكانة رفيعة فى هذا السجل بما أنجزه سواء وهو يشغل كرسى الوزارة (وزارة الثقافة) بكل ما يتيحه هذا الكرسى لشاغله من قدرة على اتخاذ القرار وتنفيذ ذلك القرار ، أو وهو خارج السلطة والوزارة بإبداعاته وكتاباته ومؤلفاته العديدة الراقية، فإن مؤسسة دار سعاد الصباح للنشر - وهى مؤسسة كويتية - تستحق هى أيضا الكثير من الحمد والثناء لأنها فكرت ونفذت مشروع تمجيد هذا الرجل من خلال ذلك الكتاب الاحتفالى أو التذكارى كما تسميه المؤسسة ذاتها . وليس من شك فى أن تلك المؤسسة تضرب بهذا السلوك الراقى مثلا رائعا لما يجب أن يكون عليه تكريم (الأحياء) من كبار المثقفين الذين يسدون خدمات جليلة ومتميزة للثقافة العربية ، حتى يشهد هؤلاء المثقفون الكبار بأنفسهم - لا فى أثناء حياتهم - تقدير الآخرين لجهودهم الهائلة الجبارة ، وهذا فى رأيى واعتقادى هو خير ما يمكن اهداؤه لهؤلاء الأفذاذ جزاء ما بذلوه من جهد مشكور .

ولقد وقع علىّ أنا نفسى شرف الحديث باسم الاساتذة الذين شاركوا بإسهاماتهم فى الكتاب ، ولست أنكر - كما قلت ذلك صراحة أثناء إلقاء الكلمة - أنه داخلنى كثير من الفخر والاعتزاز مع بعض الغرور ، إذ ليس بالشئ القليل أن يقف المرء أمام كل ذلك الجمع المتميز من خاصة المثقفين الذين حضروا الحفل لكى يتكلم باسم فريق من كبار المثقفين الذين يشعرون بالامتنان لثروت عكاشة، وأن يعبر عن الشكر للمؤسسة التى أتاحت الفرصة للتعبير من خلال اسهاماتنا عن صدق مشاعرنا نحو ثروت عكاشة وعن إعجابنا واكبارنا لما أنجزه من اسهامات ضخمة فى النشاط الثقافى العربى، ولأن نشارك من الناحية الأخرى فى هذه الاحتفالية الثقافية التى وصفتها بأنها

احتفالية راقية مهيبة .

وليس من شك فى أن الدكتور ثروت عكاشة اتاح الفرصة للكثيرين من المثقفين فى مصر للمشاركة بشكل أو بآخر فى النشاط الثقافى الزاخر الذى ملأ به جو مصر أثناء توليه الوزارة ، وهو بذلك يعطى مثلا رائعا لأسلوب التعامل بطريقة راقية مهذبة ومفيدة فى وقت واحد مع هؤلاء المثقفين من مختلف التخصصات ، بحيث تفيد الثقافة والمجتمع من إمكانات وقدرات هؤلاء المثقفين ، كما يفيد المثقفون أنفسهم من الفرص المتاحة لهم لابداء آرائهم وأفكارهم والمشاركة بجهودهم فى تنفيذ السياسة الثقافية للدولة والإسهام فى إثراء الحياة الثقافية .

ولقد عرفت الدكتور ثروت عكاشة وزير الثقافة عام ١٩٦٩ من خلال صديقنا المشترك المرحوم الدكتور مجدى وهبه أحد كبار المثقفين فى مصر والذى فقدناه وهو فى قمة عطائه - وأثناء اللقاء القصير الذى كنت أحسبه لقاء للتحية فحسب عهد إلىّ ترجمة كتاب الغصن الذهبى لسير جيمس فريزر ، وهو من أهم الأعمال الكلاسيكية التى ساعدت فى توجيه البحوث فى مجالات الانثربولوچيا والميثولوچيا ودراسة الأديان بل وتاريخ الفن . والكتاب نفسه موسوعة ضخمة تضم طائفة كبيرة جدا من المعلومات المتعلقة بثقافات وحضارات العالم القديم من خلال الأساطير التى هى فى آخر الفكر سجل عميق لفكر الشعوب التى أنتجت هذه الأساطير وأبدعتها فى صور رمزية تكمن وراءها أفكار ومعتقدات وآمال هذه الشعوب ونظرتها إلى العالم ، واهتمام ثروت عكاشة بذلك الكتاب الضخم وترجمته يعكسان اتساع أفقه الذى شمل مجال الأساطير فى العالم القديم ، وهو اهتمام ترجم عن نفسه بشكل عملى فى قيامه هو نفسه بترجمة كتاب أوفيد عن «مسخ الكائنات» واخراجه فى صورة فنية رائعة قال فى مقدمتها : « وحسبى فيما سأقدم من أعمال أوفيد أنى سأتيح لعينى القارئ أن تقعا على قصص يسحر الوجدان ولفكره أن يشرد فى عالم أسطورى . ولست أحسب فى ذهب الأرض كله ما يعدل نشوة الفكر حين يصيبه الدوار ويترنح محلقا فى عالم الخيال الخصيب» ، ثم يزين هذه التحفة الرائعة بمجموعة كبيرة من الصور المحفورة التى قام بها الفنان ب ، پيكار بمعاونة فنانين آخرين تحت اشرافه، وذلك فى طبعة قديمة للكتاب صدرت عام ١٧٣٢ بامستردام باللغتين اللاتينية والانجليزية وبتعليق باللغة الفرنسية . وهذا كله يدل على مدى احتفاء ثروت عكاشة بالثقافة الرفيعة واهتمامه بتقديم روائعها إلى المثقفين فى العالم العربى كجزء من الرسالة التى يحملها للارتقاء بالثقافة العربية وخلق قنوات اتصال بينها وبين ثقافات العالم .

مشروع ترجمة الغصن الذهبى

أثناء ذلك اللقاء القصير ذاته عهد إلىّ برئاسة تحرير مجلة «تراث الإنسانية» التى كانت تقدم للقارئ العربى خلاصة روائع الفكر الإنسانى على مر العصور ومن مختلف الثقافات ، وهذا أيضا

مشهد وصول ماريادى ميدتش إلى ميناء مرسيليا - روبنز (متحف اللوفر)





لوحة من الفسيفساء فوق عمود فى قبة الصخرة ببيت المقدس

يكشف ليس فقط عن اهتمامه بنشر الثقافة الرفيعة والتعريف بمجالاتها المختلفة كتمهيد لاغراء المثقف العربى على معرفة هذه الروائع بطريق مباشر من خلال الاطلاع على تلك الأعمال ذاتها فى صورتها الأصلية ، وإنما يكشف عن تنوع ثقافته هو نفسه ورغبته فى ارتياد مختلف الميادين بحيث تصبح جزءا من كيانه الثقافى الخاص ، ومما يؤسف له أنه حين ترك ثروت عكاشة الوزارة توقف مشروع ترجمة الغصن الذهبى بعد أن صدر منه الجزء الأول ، كما توقفت «تراث الإنسانية» مثلما توقفت كل المجلات الثقافية التى كانت تصدرها وزارة الثقافة على عهده .

وحتى حين ترك الوزارة أبى إلا أن يواصل تزويدى ببعض نتاج فكره وذلك أثناء اشرافى على مجلة «عالم الفكر» التى تصدرها دولة الكويت ، فأسهم بعدد من الدراسات الرائدة فى تاريخ الفن اعتبارا من الحديث عن رينيه ويج إلى الكتابة عن بوتتشيللى وميكلا نجلو والتصوير الاسلامى وريتشارد فاجنر وليوناردو دافنشى والعمارة الإسلامية وغيرها. وكلها تعتبر مراجع فى الموضوعات التى تدور حولها .

وقد أكون بدأت بذكر ما يتصل بى أنا شخصيا من انجازات الدكتور ثروت عكاشة كبداية فقط أو كمدخل إلى ذكر بعض أعماله الكبرى الأخرى التى أضافت قدرا كبيرا من الثراء إلى الثقافة العربية ، وهى أعمال تتراوح بين ترجمته لعدد كبير من ابداعات جبران خليل جبران مثل «النبى» و «حديقة النبى» و «عيسى ابن الانسان» و «رمل وزبد» و «أرباب الأرض» إلى ترجمته الرائعة لكتاب برناردشو عن ريتشارد فاجنر، والتى صدرت تحت عنوان «مولع بفاجنر» وترجمة كتاب هنرى لنك عن «الطريق إلى السعادة» وكتاب بيير دانيو الطريف عن «مذكرات الرائد طومسون» وهكذا ، ولكن العمل الذى سوف يخلد اسم ثروت عكاشة فى سجل التراث الثقافى العربى هو بغير شك كتابه الموسوعى الضخم عن «تاريخ الفن : العين تسمع والأذن ترى» فهو موسوعة جبارة تحيط بتاريخ أقدم الحضارات الراقية حتى العصر الحديث بما فى ذلك بغير شك الفن الإسلامى كما يتمثل - على سبيل المثال - فى «فن الواسطى من خلال مقامات الحريرى» وفى «التصوير الإسلامى الدينى والعربى» وكذلك فى «القيم الجمالية فى العمارة الإسلامية » وفى «التصوير الفارسى والتركى» .

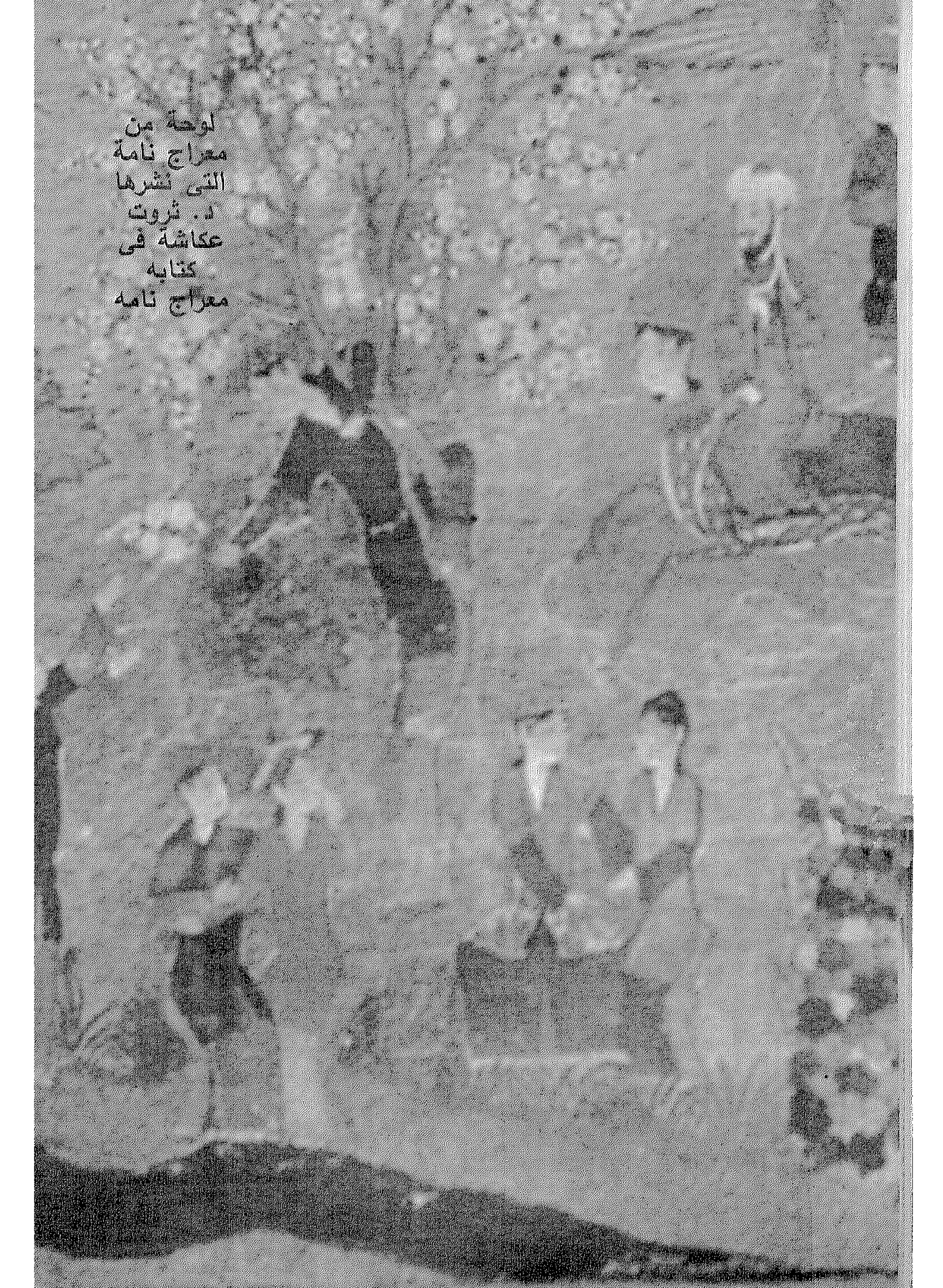
ومضات فى
حياة ثروت عكاشة

وقد يكون من الصعب الاحاطة بتاريخ حياة ثروت عكاشة الزاخرة بالأحداث والمفعمة بالنشاط الثقافى والغنية بالاتصالات المتنوعة سواء وهو يعمل فى الجيش أو فى السلك الديبلوماسى أو فى المجال الدولى ، ولكن هناك مع ذلك بعض الأمور التى لا يمكن اغفالها والتى تعتبر معالم فى تاريخ حياته الثقافية واسهاماته فى خدمة الثقافة كما تكشف فى الوقت ذاته عن ارتباطه القوى بمصر وانتمائه للوطن انتماء شديدا كان يملك عليه فكره ووجدانه طيلة الوقت ويقود خطواته ويوجه قراراته فى مجال الثقافة ، وهو المجال الذى يهمنى هنا فى المحل الأول .

الأمر الأول . هو علاقته برينيه ويج التي كانت البداية الحقيقية لدخوله إلى عالم الفن الرحب الفسيح ، فقد كانت زياراته أثناء إقامته بباريس إلى متحف اللوفر ويصاحبه فيها رينيه ويج هي المفتاح الذى فتح أمامه أسرار الفن ، إذ كان رينيه ويج يشرح له في كل زيارة اللوحات التي يضمها جناح واحد فقط من أجنحة المتحف مما كان له أثره في ذلك التعلق الشديد الذى يصل إلى حد العشق العميق القائم على الفهم والوعي بروعة فنون العالم والفلسفات التي تكمن وراءه ، وهو ما ظهر بشكل واضح في موسوعة «العين تسمع والأذن ترى» .

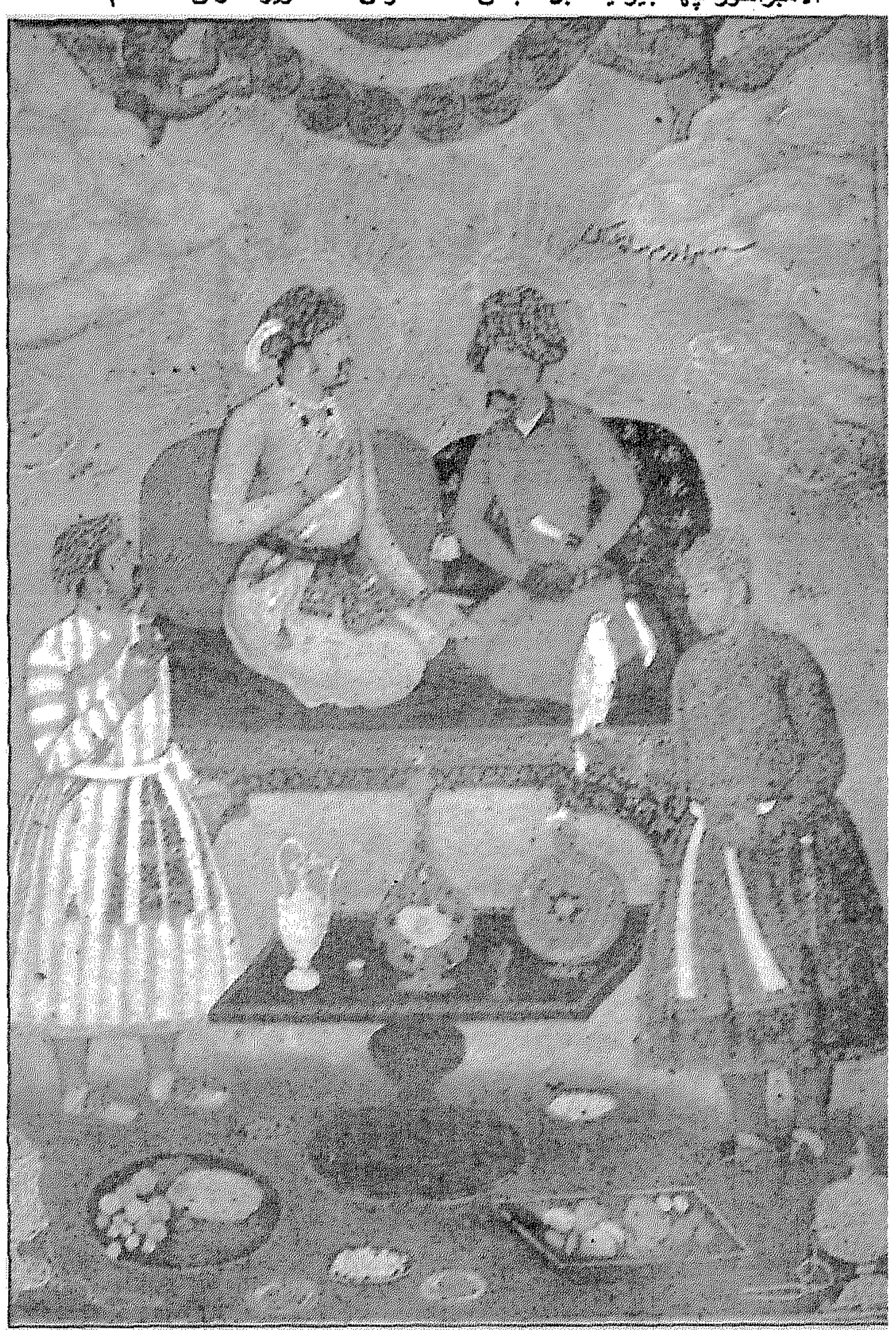
الأمر الثاني : هو صداقته مع أندريه مالرو وزير ثقافة فرنسا وهي صداقة من نوع خاص أدت إلى أن يقدم مالرو من المساعدات لوزارة الثقافة المصرية ما جعل ثروت عكاشة يقول لي أثناء إحدى مقابلاتي معه «إن مالرو كان يعمل معه كما لو كان هو وزيرا للثقافة في مصر» وذلك في ضوء حجم تلك المساعدات وتلبيته لرغبات ثروت عكاشة ، وهي مواقف لا يمكن أن تصدر إلا من إنسان مثقف وكاتب ملتزم له حجمه ووزنه في عالم الأدب والثقافة إلى جانب كونه وزيرا للشئون الثقافية في بلد مثل فرنسا ، وكانت أحاديثهما مصدر وحي لتنفيذ مشروع الصوت والضوء فضلا عن التسهيلات التي قدمها لتنفيذ مشروع ثروت عكاشة عن فن التابيسيري الذى أطلق عليه اسم «فن النسجيات» ، وكتاب ثروت عكاشة «مذكراتي في السياسة والثقافة» يضم كثيرا من التفاصيل الشائقة عن هذا المشروع والخطوات التي اتخذت لاخراجه إلى حيز الوجود بل والدوافع الوطنية وراءه .

أما الأمر الثالث : الذى أود الاشارة إليه فهو علاقته الطيبة برينيه ماهيه حين كان نائبا لمدير عام اليونسكو ثم بعد ذلك مديرا عاما لتلك المؤسسة الثقافية وقدرته الفائقة على الاقناع، التي سهلت إلى حد كبير جدا تنفيذ المشروع الدولي الضخم الذى يعتبر قمة نجاح ثروت عكاشة في عمله كوزير للثقافة كما يعتبر في الوقت نفسه هدية مصر إلى العالم وإلى الثقافة العالمية وإلى الحضارة الإنسانية، وأعني به مشروع انقاذ آثار النوبة الذى تم بمعاونة دولية نتيجة للأسلوب الراقي الذى قدم به ثروت عكاشة المشروع للرأى العام الدولي المثقف ، ولست هنا بصدد الحديث عن تفاصيل هذا المشروع أو الجهود التي بذلت لاخراجه إلى حيز التنفيذ لأن القصة مسجلة في كتاب «مذكرات في السياسة والثقافة» وإنما أريد فقط أن أشير إلى موقفين متعارضين من دولتين من دول الغرب إزاء مشروعات مصر الثقافية ، وهو تعارض له مغزاه ويستحق التأمل والتفكير العميق ، فبينما نجد أن فرنسا بخاصة أيام أندريه مالرو تسارع في المشاركة في تنفيذ تلك المشروعات إيمانا منها بأهمية الثقافة في حياة الشعوب. وفي حياة المجتمع الانساني نجد أن الولايات المتحدة الأمريكية حين ترى آثار النوبة معرضة للغرق أيام بناء السد العالي تعرض (شراء) بعض المعابد بالمال بدلا من أن تسهم بهذا المال في انقاذ تلك المعابد التي تعتبر في آخر الأمر تراثا



لوحة من
معراج نامة
التى نشرها
د. ثروت
عكاشة فى
كتابه
معراج نامه

الامبراطور چهانجير يستقبل عباس شاه الفرس - تصوير مغولى ١٦١٥م



د. ثروت عكاشة مع الرئيس جمال عبد الناصر عام ١٩٥٣



د. ثروت عكاشة مع د. طه حسين عام ١٩٥٨ فى المؤتمر العام للثقافة



ثقافيا ملكا للإنسانية جمعاء .

وقد اضطر ثروت عكاشة إلى أن يقول للسفير الأمريكى بأسلوب ساخر إنه لم يكن يعرف أن آثار مصر وتاريخها معروضة للبيع .

★★★

– وبعد

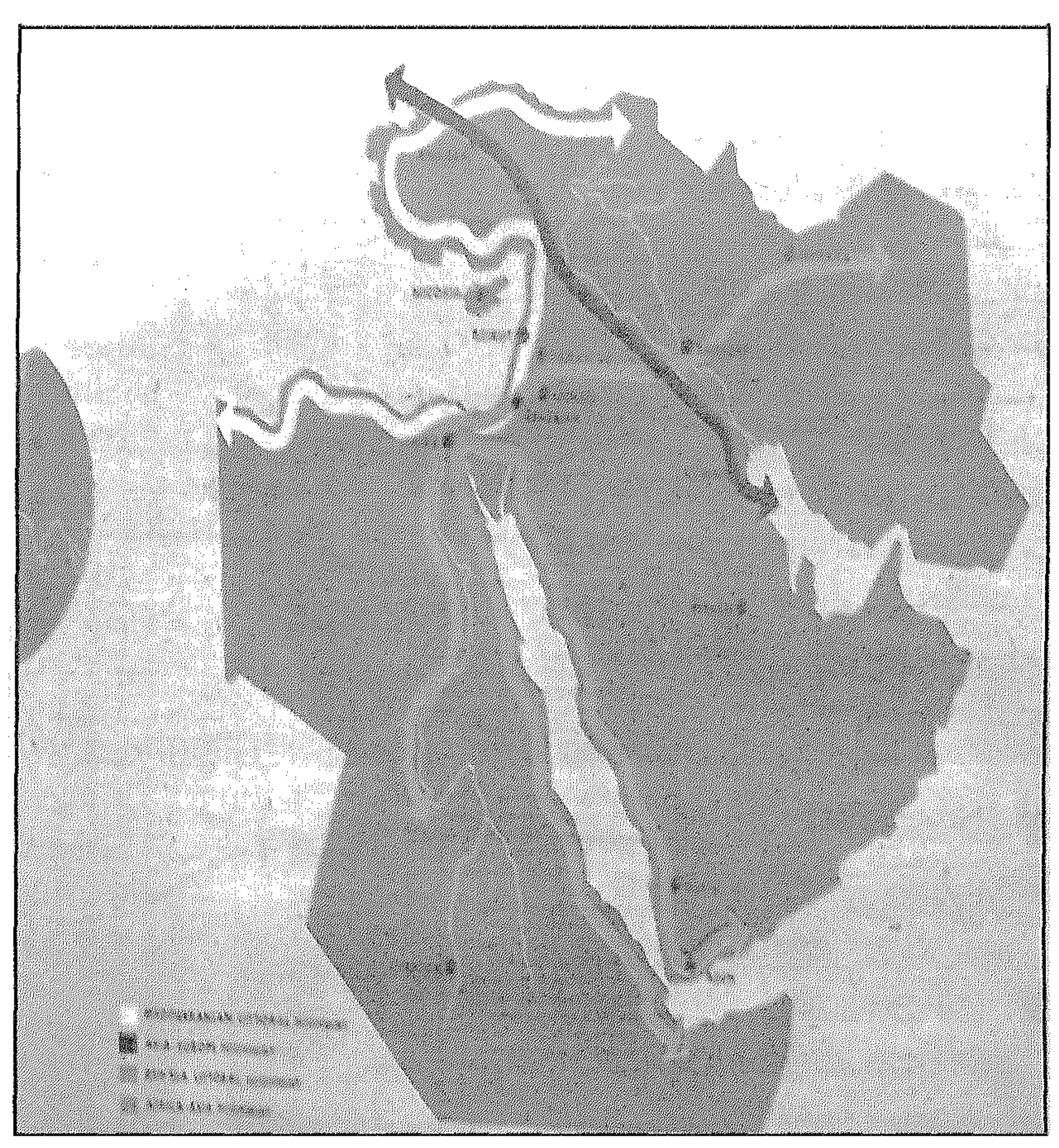
فلقد أتاح لى ثروت عكاشة وبعيدا عن كل الألقاب ، فرصة رائعة لأن أعرفه عن قرب أثناء اعدادى للدراسة التى تقدمت بها فى الكتاب التذكارى أو الاحتفالى وعقد عدد من اللقاءات معه ، ولم يكن الهدف من هذه اللقاءات الحصول على المعلومات الخاصة بحياته ونشاطه ، فهذه أمور متوفرة فى «المذكرات» وإنما كان الهدف أن أعرف «الانسان الذى يقف الانسان وراء هذه الأعمال الضخمة المتنوعة.

ولقد لمست فيه أثناء هذه اللقاءات الرقة والتواضع الممزوجين بالكبرياء والاعتداد بالنفس واحترام الذات فى غير غرور ، مع الالتزام الشديد فى السلوك والعمل والتفكير ، مع حب مصر بغير حدود ، وقد امتزجت كل هذه العناصر فى وحدة متكاملة ومتجانسة رغم تنوعها ، واستطاع تطويع هذا كله لخدمة الثقافة والعمل الوطنى بحيث كانت مصر دائما فى ذهنه وفى خاطره ونصب عينيه وملء عقله ووجدانه ، وأدركت مدى عمق إيمانه بمصر وحضارتها ، وهو إيمان يقف بغير شك وراء نشاطه الكثير المتنوع الفريد .. كان حب مصر مثلا وراء حرصه الشديد على الاحتفال بألفية القاهرة عام ١٩٦٩ أى بعد عامين اثنين من هزيمة ١٩٦٧ المريرة ، لكى يبرهن على أن مصر قد تهزم فى حرب ولكنها لا تنكسر أبدا كشعب ومجتمع ووطن وتاريخ وحضارة .

وعرفت أثناء هذه اللقاءات كيف أن احترامه لنفسه كان حجر الأساس الذى قام عليه احترام الآخرين له وتعاونهم معه من منطلق الثقة فى تكامل شخصيته ، ويستوى فى ذلك التعاون مع أندريه مالرو وزير ثقافة فرنسا فى وقت لم تكن العلاقات السياسية بين مصر وفرنسا فى أبهى صورها ، أو تعاونه مع اليونسكو فى مشروع انقاذ آثار النوبة ، وكلها دروس خليقة بأن تعرفها الأجيال الجديدة التى تفتقد مثل هذه القدوة .

وفى عصر تغلب عليه السرعة وتعطى أهمية وأولوية للكم على الكيف كنوع من الدعاية المظهرية الخداعة . كان ثروت عكاشة يقف دائما إلى جانب الإبداع الثقافى الرفيع ، وأعماله ذاتها وتكليفاته للآخرين تكشف عن هذه النظرة الراقية المتسامية إلى الثقافة فى كل أشكالها ومجالاتها .

تحية إلى ثروت عكاشة ، وشكرا له على كل ما قدم وما سيقدم فى مستقبل أيامه للثقافة الرفيعة ، وعسى أن تكون فى حياته وثقافته وإبداعاته وإيمانه بمصر الثقافة والحضارة وبرسالة الثقافة فى المحافظة على (انسانية) الإنسان عظة وعبرة للمثقفين .



سنة ٢٠٠٠ سوف تتخطى الاتصالات والمواصلات كافة الحدود فى الشرق الأوسط، وستقوم حركة مواصلات واسعة بالطيران، وبناء الطرق السريعة وتحقق ان الطريق الذى يقطع المسافة بين تركيا والمغرب ويتم إنشاؤه بجهود دولية

خريطة الشرق الأوسط كما رسمتها إسرائيل بعد يونيو ١٩٦٧

بقلم: الدكتور محمود عبد الفضيل (★)

تأرجح مفهوم «النظام الإقليمى» طوال التاريخ المعاصر منذ بداية القرن العشرين بين تصورين:

١ - تصور عربى يؤكد على «نظام إقليمى عربى» يربط هذا النظام بعملية النهوض القومى، وبأن تحقيق «الوحدة القومية» للأمة العربية هو عملية مكملة لعملية الاستقلال القطرى.

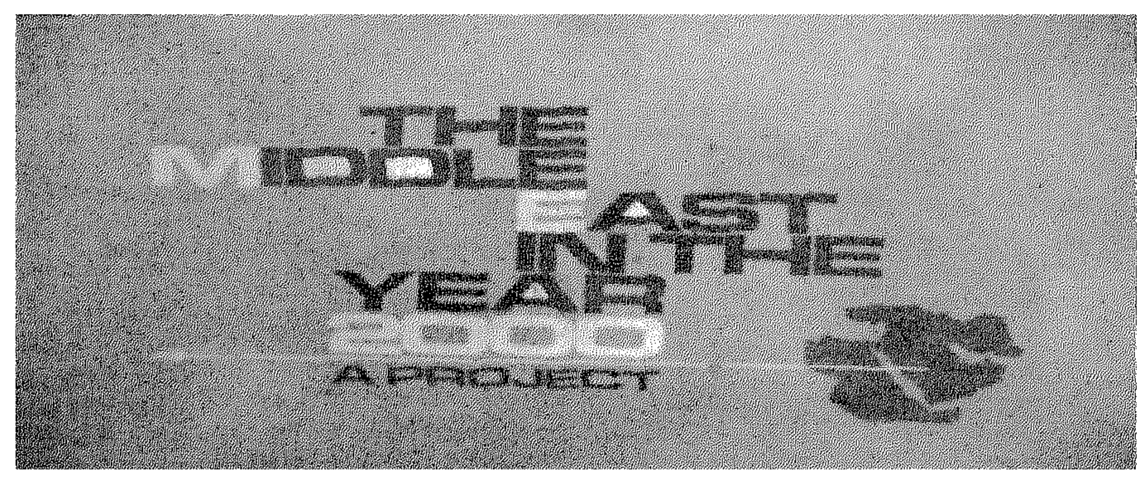
٢ - تصور نظام إقليمى يرتكز إلى مفهوم «الشرق أوسطية» وهو ليس مجرد مفهوم «جغرافى»، بل «سياسى»، أراد الاستعمار من خلاله ربط المنطقة المسماة «شرق أوسطية» بقيادة الغرب أثناء الحرب الباردة، لمواجهة الاتحاد السوفييتى.

وبمزيد من التأمل نجد أن «التاريخ المعاصر للمنطقة ما هو فى النهاية سوى تاريخ الصراع بين هذين المشروعين».

ولقد شهدنا خلال الآونة الأخيرة، إحياء متزايدا لمفهوم «الشرق أوسطية» فى العديد من الكتابات السياسية والاقتصادية حول المنطقة العربية؛ إذ يشير الكاتب الراحل «لطفى الخولى» إلى أن العروبة أو القومية العربية تسجن نفسها وتقيدها سياسيا واقتصاديا وأمنيا، إذا لم تنفتح بأسلوب واع محسوب الخطى مع كل ما فى إقليمها الشرق أوسطى من حضارات وثقافات وهويات وأسواق وتتبادل معها المصالح والمنافع.

ويخطئ من يعتقد أن النظام «الشرق أوسطى»، الذى تم طرحه فى التسعينيات، لكى يكون نافذ المفعول بعد «مرحلة بعد التسوية»، هو من بنات أفكار «**شمعون بيريز**» على نحو ما جاء فى كتاب «**الشرق الأوسط الجديد**» إذ إن مثل هذا التصور لمستقبل المنطقة يمثل جزءا لا

(★) أستاذ الاقتصاد بجامعة القاهرة



ما وراء الزمن .. مشروع الشرق الأوسط سنة ٢٠٠٠؟، كتاب صدر بعد يونيو ١٩٦٧

يتجزأ من التصور الاستراتيجى الصهيونى، إذ تعود بدايات تلك الرؤية إلى «هرتزل» - مؤسس الدولة العبرية - الذى تحدث عن ضرورة إنشاء «كومنولث» يضم إسرائيل وبقية بلدان المنطقة العربية.

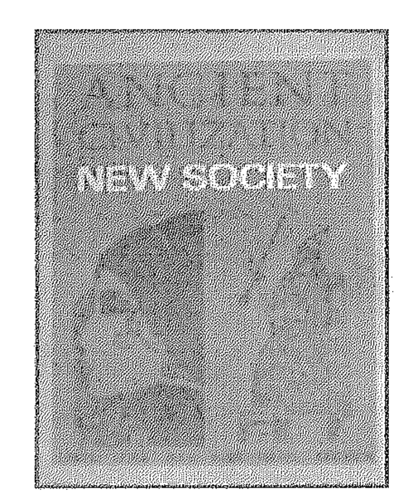
وفى الوقت الذى رأى البعض فى هذا التصور نوعا من «اليوتوبيا» آنذاك، نجد أن الأمر قد انقلب إلى مشروع حقيقى، وضعت مخططاته التطبيقية الأولى غداة حرب ١٩٦٧، إذ صدرت وثيقة إسرائيلية عام ١٩٦٨ تحمل عنوان «**الشرق الأوسط في عام ٢٠٠٠**» وهو بمثابة «**وثيقة مشروع**» حافلة بالتفاصيل حول الرؤية الإسرائيلية لمستقبل المنطقة عام ٢٠٠٠.

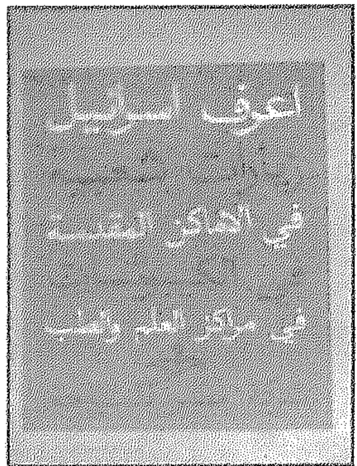
مشروع عملى

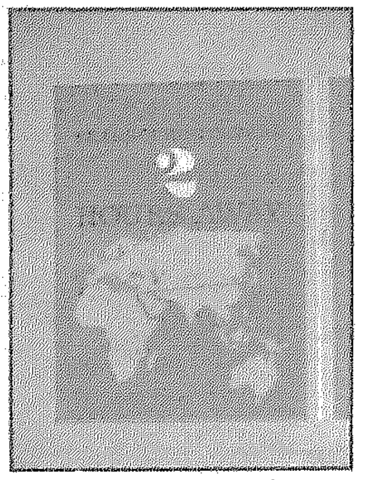
والعجيب فى الأمر أنك إذا قرأت هذه الوثيقة الصادرة عام ١٩٦٨، عن ما سمى «جمعية السعى من أجل السلام»، ومقرها «تل أبيب»، فكأنك تقرأ من كتاب مفتوح لا لبس ولا غموض فيه. وقد جاء في التقديم لهذه الوثيقة، أن الهدف من وثيقة المشروع (وهو المشروع «الشرق أوسطى» الراهن بحذافيره) ما يلى: هو طرح تصور جرئ لمستقبل المنطقة، بعد تجاوز النزاعات خلال فترة السبعينات.

وتقوم فروض المشروع الذى تحتويه «الوثيقة» على أنه عام ٢٠٠٠، سوف يكون قد تم الوصول إلى تسوية للصراع العربى - الإسرائيلى، بما فى ذلك احتمال قيام «دولة فلسطينية» وتؤكد «وثيقة المشروع» على أن هذا المشروع ليس مجرد «يوتوبيا» وإنما مشروع عملى قابل للتشغيل فى المستقبل.

وعندما تنتقل الوثيقة للحديث عن الجوانب التطبيقية لتغيير خريطة ومعالم المنطقة، يتم التركيز على المحاور التالية:







السياحة سنة ٢٠٠٠ كما تصورتها إسرائيل، وتوقع بأن شركة مصر للسياحة ستدعو لزيارة إسرائيل

١ - محور النقل والاتصالات، حيث تركز وثيقة المشروع على شبكة الطرق السريعة والساحلية الجديدة التي تربط بين بلدان «المنطقة الشرق أوسطية»، على نحو ما شاهدناه من مخططات طرحت فى «لجنة التنمية والتعاون الإقليمي فى إطار المفاوضات متعددة الأطراف».(★)

٢ - السوق الشرق أوسطية: حيث تؤكد الوثيقة على ضرورة قيام سوق شرق أوسطية على غرار السوق الأوروبية المشتركة.

٣ - التعاون الاقتصادي الإقليمي: وتطرح الوثيقة قيام مجموعة من المؤسسات الإقليمية الشرق أوسطية، وعلى رأسها: هيئة تنمية السياحة

(★) تغطي «المحادثات متعددة الأطراف» عددا من المجالات الحيوية: المياه، البيئة، التنمية، والتعاون الإقليمي، الأمن، والحد من التسلح. وفي إطار هذه المحادثات يتم وضع تصورات للنظم الوظيفية (Sub-Systems) الجديدة التي سوف يتشكل منها «نظام شرق أوسطي» جديد علي حساب النظام العربي. وتعتبر «لجنة التنمية والتعاون الاقتصادي» من أهم اللجان التخطيطية للنظام الشرق أوسطي الجديد في إطار المحادثات متعددة الأطراف، إذ يتم من خلال هذه اللجنة وضع مشاريع مستقبلية للربط بين بلدان المنظومة «الشرق أوسطية» الجديدة في مجالات: شبكات الطرق والمواصلات، شبكات الكهرباء، التبادل التجاري، المشروعات السياحية المشتركة، المشروعات الإنمائية، والعلوم والثقافة. ويتم استبعاد إيران في الوقت الحالي من هذه المخططات التوجيهية «بينما يتم التركيز علي الدور القيادي والمهيمن» لإسرائيل في كل هذه المخططات والترتيبات.

الإقليمية، هيئة المياه والرى، هيئة تنمية الصحراء، هيئة الشرق الأوسط لشئون النفط، هيئة التنمية الصناعية، هيئة الأتمـمــــــة (Automation). ويطرح واضعو الوثيقة تصورا للتقسيم المستقبلى لفروع النشاط الاقتصادى فيما بين بلدان المنطقة، على النحو التالى:

أ - تتخصص **مصر** فى الصناعات الهندسية وصناعة السيارات والحديد والصلب.

ب - تتخصص **إسرائيل** فى صناعة الإلكترونيات والكمبيوتر والصناعات الدوائية.

ج - تتـــخـــصص **ســـوريا** فى الصناعات الغذائية وصناعة النسيج.

د - تتخصص **العراق** وبلدان الخليج فى الصناعات البتروكيماوية.

هـ - تتخصص **لبنان** فى الأنشطة المصرفية والتجارة وخدمات الإعلام.

ولعلنا نسمع عن أصداء تلك **الهندسة الجديدة** فى الكتابات والأحاديث المتداولة هذ الأيام، حيث تستحوذ إسرائيل على فـروع النشـاط الحديثـة «ذات القيمـة المضافة العالية» مثل صناعة الإلكترونيات والحاسوب والأدوية، بينما تترك للبلدان العربية الأخرى فروع النشاط «ذات القيمة المضافة المنخفضة» مثل الصناعات الهندسية والتجميعية فى حالة **مصر**، وصناعة الغزل والنسيج والصناعات الغذائية كما فى حالة **سوريا**.

وحول **السياحة**، التى تعتبر آداة أساسية **للتطبيع** فى مرحلة «ما بعد التسوية»، تعطى المخططات دورا مهما للسياحة وانتقال الأفراد بين إسرائيل والبلدان العربية. ويصل الخيال إلى مداه، إذ تحتوى الوثيقة على «ملصق» افتراضى لشركة **مصر للسياحة** يحمل العنوان التالى:

> **اعرف إسرائيل:**
> - **زيارات شعبية.**
> - **في الأماكن المقدسة.**
> - **في الكيوبستات.**
> - **في مراكز العلم والطب.**

تصـــوروا أن هذا الملصق، الذى تم تصميمه بواسطة كاتبى الوثيقة عام ١٩٦٨، يكاد يصبح ملصقا حقيقيا يصدر عام ٢٠٠٠.

٤ - التعليم والبحث العلمي:

تحاول الوثيقة تسويق «الشرق أوسطية» من خلال إعطائها طابعا تحديثيا براقا، حيث يجرى الحديث عن آهمية التعليم والإنفاق على البحث العلمى والتطوير، بدلا من الإنفاق على الدفاع. وقد جاء هذا الكلام بالنص فى كتاب «**شمعون بيريز**» «**الشرق الأوسط الجديد**»، حيث تم التركيز على الأهمية المركزية لنظم التعليم والتبادل التكنولوجى ووصلات الكمبيوتر بين الجامعات العربية والاسرائيلية. وذلك للترويج للصفقة فى الدوائر الغربية والمحافل العالمية، تحت شعار «التحديث» و«الخروج من التخلف».

التقاء العلم والدين

ثم تتحدث الوثيقة فى النهاية، عن ضرورة **التقاء العلم والدين**، وأن القدس سوف تصبح نقطة اللقاء بين العلماء ورجال الدين لمناقشة القضايا التى تهم الإنسانية جمعاء! وذلك دون أدنى إشارة إلى وضع **القدس** السياسى المستقبلى.

إذ إن الوثيقة تفترض أن هذا الموضوع محسوم، وغير مطروح للتفاوض، المستقبلى، على النحو الذى نشهده هذه الأيام.

وجدير بالذكر أن تلك الرؤية «للشرق أوسطية» كانت تشمل **إيران**، فى الماضى، حيث كانت إيران آنذاك مازالت تزرح تحت «**نظام الشاه**». بينما نجد «المشروعات الشرق أوسطية» الجديدة تستبعد إيران من الترتيبات الراهنة، نظرا لطبيعة النظام السياسى المعادى لإسرائيل هناك ويجرى الآن استبدال **تركيا** بها.

كما يلاحظ أنه، عبر هذه الوثيقة، تم القفز على كل المشاكل السياسية والنفسية والتاريخية المرتبطة بالصراع العربى الإسرائيلى عبر مائة عام. ولعل هذا مقصود فى حد ذاته، فى إطار محاولات **محو الذاكرة التاريخية** للأمة العربية وخاصة شبابها، حتى يتم التعامل المستقبلى مع إسرائيل باعتبارها مجرد «**دولة جوار**»، مثل غيرها من الجيران مثل: تركيا أو قبرص. وكأنها لم تغتصب أرضا ولم تطرد شعبا، ولم تشن الحروب على البلدان العربية الناهضة.

كما تحوى الوثيقة إشارات واضحة إلى **عبث الصراعات**، التى تهدر الموارد وتؤخر التقدم الحقيقى (على نحو ما نرى فى بعض الوثائق الصادرة عن منظمات دولية، ويتم تداولها هذه الأيام) وكأنه ليس هناك «حقوق» وأراضٍ يجب أن تسترد! وكأن العرب هم الشعب الوحيد فى العالم المطالب **بالتطبيع الفوري والقسري**، بعد تاريخ مرير من الصراعات، دون أن تكون هناك تسوية عادلة للصراع.

إنهم يعرفون ما يريدون!

أعرفتم الآن أين تم طبخ مشروع «الشرق الأوسط الجديد»، عند نهاية الستينات، وكيف تم «تسويقه» دوليا خلال التسعينات.

ولعل الفرق بيننا وبينهم، أنهم يعرفون جيدا ماذا يريدون، ولا يحيدون عنه قيد أنملة، بينما نحن «نائمون فى العسل»، غارقون حتى آذاننا فى ثرثرة الندوات «حيث الضجيج بلا طحين».

مطلوب إذن أن يتم تكثيف الجهود الفكرية والمؤسسية (الرسمية وغير الرسمية) لكى نشارك فى صنع مستقبلنا بأيدينا، بدل أن يصبح «مقررا سلفا» لآجال طويلة قادمة. مطلوب أن تتضافر الجهود لكى تضيق الفجوة المتزايدة بين «الوجدان العربى» الذى يرفض الكثير مما يجرى، وبين تلك «العقلانية الجديدة» التى تنظر إلى الأمور بواقعية مفرضة وأحيانا مفرطة. ذلك هو التحدى الذى يواجهنا اليوم حتى لا ندخل القرن الواحد والعشرين أسرى مخططات تعيد تركيب كيمياء البشر والموارد والعقل والوجدان فى وطننا العربى.



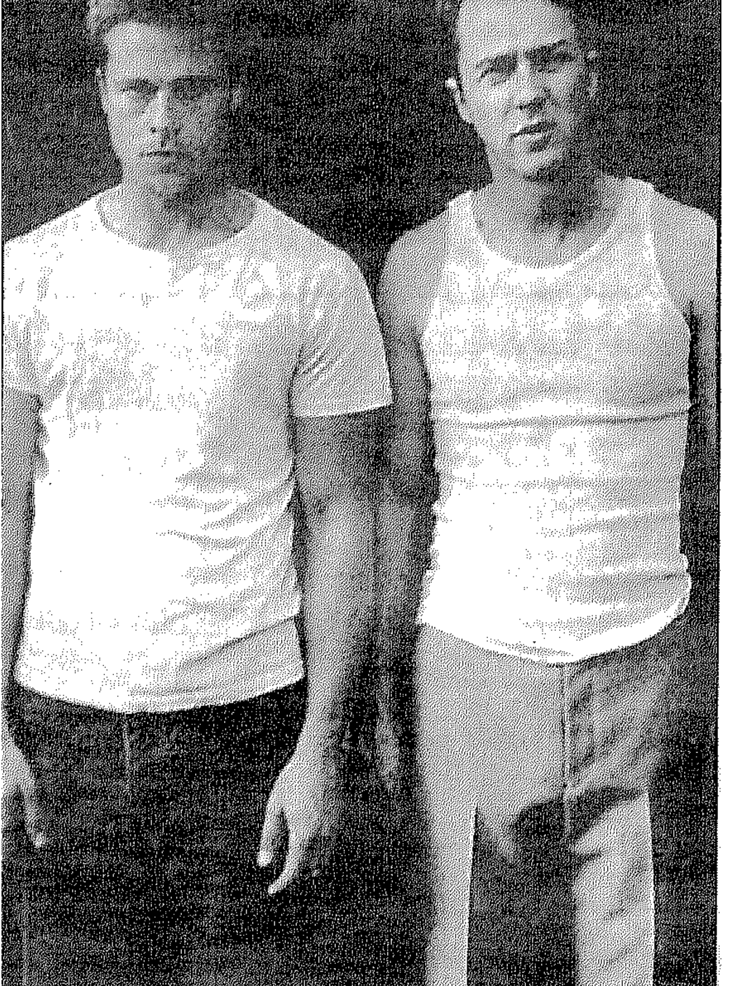
سليبى هولو - أو اسطورة القارس الغامض

عِلم وإيمان وأمريكي عليل

بقلم : مصطفي درويش



انتصار المتمرد



ادوارد وبراد فى نادى المحاربين

نظرة طائرة على الأفلام التى جرى عرضها فى دور السينما بمصر، بدءا من انتهاء أيام العيد، وحتى يومنا هذا، تكفى لرسم صورة قاتمة لوضع السينما المصرية، المتردى على نحو لابد وأن يثير القلق الشديد فخلال مدة قاربت ربع عام، لم يعرض سوى ثلاثة أفلام، هى «فل الفل» لمدحت السباعى «ورجل له ماضٍ» لأحمد يحيى و«جنون الحياة» لسعيد مرزوق.

ورغم أنه من بين ممثلى الأفلام الثلاثة، كوكبة من المشاهير، مثل ليلى علوى وإلهام شاهين وفاروق الفيشاوى وكمال الشناوى رغم ذلك لم يستمر عرضها العام سوى بضعة أيام.

ولا أحد ممن شاهدوها إلا ولعنها، ولعن الزمن الوغد الذى فتح الباب على مصراعيه، لانتاج مثل هذا النوع الهابط من الأفلام.

والغريب أن فيلمين من بين هذا البلاء من إنتاج التليفزيون المصرى الذى ولد عملاقا، ثم أخذ يتأقزم على مر الأعوام.

ومع هذا الانهيار، وغياب الفيلم المصرى عن الساحة، سدَّت الفراغ أفلام مصنع الأحلام.

هيمنة أوسكار

فلأول مرة، ربما منذ نصف قرن من عمر الزمان، ها هى ذى الأعمال السينمائية التى كانت مرشحة لأوسكار أفضل فيلم، وهى خمسة لا تزيد، معروضة على شاشات دور السينما فى القاهرة والاسكندرية، أو على وشك أن تعرض عليها، فى وقت جد قريب.

فمنذ أكثر من شهرين والجمال الأمريكى الفائز بخمس جوائز أوسكار معروض فى المدينتين دون انقطاع، وبنجاح قل أن يكون له نظير خاصة وأنه بجدة أسلوبه، خارج عن المألوف فيما ينتجه مصنع الأحلام من أفلام.

وكذلك الحال مع «الحاسة السادسة» فهو الآخر كان مرشحا لأكثر من جائزة بينها أوسكار أفضل فيلم ومنذ عدة أسابيع يجرى عرضه فى المدينتين بنجاح رغم أنه لم يفز بأية أوسكار.

وقبل أيام جرى عرض «المساحة الخضراء»، ذلك الفيلم الذى كان مرشحا بدوره لأوسكار أفضل فيلم، وكان أحد نجومه، الممثل الأسود مايكيل كلارك دانكان مرشحا لأوسكار أفضل ممثل مساعد.

ومما هو جدير بالذكر هنا أن النجم «توم هانكس» الفائز بأوسكار أفضل ممثل رئيسى مرتين، يلعب فى الفيلم دورا محوريا.

وما هى إلا بضع ساعات، ويجرى عرض «المطلع» المسمى عندنا بالدخيل أحد الأفلام الخمسة التى كانت مرشحة للأوسكار.

وعلى شاشات دور السينما يجرى عرض مقدمة فيلم شروط عصارة التفاح الذى كان مرشحا لسبع جوائز أوسكار، بينها أوسكار أفضل فيلم.

وخرج من مضمار التنافس، متوجا بأوسكارى أفضل سيناريو مبتكر، وممثل مساعد «مايكيل كين».

القاعدة والاستثناء

أما الأفلام التى كانت مرشحة لجوائز أخرى غير جائزة أوسكار أفضل فيلم، فجميعها، فيما عدا «الأولاد لايبكون» أما جرى عرضها، أو جار عرضها حاليا، وأما فى طريقها إلى شاشاتنا فى أجل غير بعيد.

ومن بين تلك الأفلام أذكر على سبيل التمثيل «طرزان» «سليبى هولو» «نادى المحاربين»، «نهاية علاقة غرامية»، «السيد

ريبلى الموهوب» و«المتمرد» – الماتريكس والفيلم الأخير قد جرى تتويجه بأربع جوائز أوسكار، وهو ثانى أفلام الأخوين «دانى» و«لارى تشوفسكى» ولأمر غير مفهوم، تخوفت إدارة الرقابة على المصنفات الفنية، فى عهد بائد، من مخاطر الترخيص له بالعرض العام، فاستأنست برأى اللجنة العليا للرقابة، المشكلة من رجال فكر يشهد لأرائهم بالإتزان.

ورغم أن تلك اللجنة لم تر فى الفيلم ما يشين على نحو يتهدد حسن الآداب والنظام العام، فإن إدارة الرقابة جنحت إلى إصدار قرار يحظر عرضه، الأمر الذى حدا بأصحابه إلى الطعن فى قرارها أمام لجنة التظلمات.

ولحسن الحظ كانت تلك اللجنة أكثر فهما لطبيعة الفيلم، وتقبلا له، فالغت القرار الطعين.

وهنا، قد يكون من المناسب أن أذكر أن فيلم «سليبى هولو» – «أسطورة الفارس الغامض» الفائز بأوسكار أفضل تصميم للمناظر، كان أوفر حظا.

فلم يمر بمحنة المنع التى مر بها «المتمرد»

أما لماذا نجا من تلك المحنة، فذلك لأن الرقابة لم تر فيه من السيئات سوى سيئة واحدة، فاكتفت بحذف اللقطة المنطوية عليها.

وهكذا أراحت واستراحت..

وقبل الحديث عن هذا الفيلم المحظوظ، أرى من المفيد أن أتناول بالحديث فيلما آخر أشاد به النقاد فى شبه اجماع، ورشحه البعض لأكثر من جائزة أوسكار، لاسيما ما كان منها متصلا بالاخراج والتمثيل، وأكبر الظن أنه مرشح لها مع بداية عام ٢٠٠١ ذلك الفيلم، ويعرض عندنا منذ عدة أسابيع، هو ايرين بروكوفيتش لصاحبه ستيفن سودربرج الفائز أول أفلامه «جنس، أكاذيب وشريط فيديو» بجائزة مهرجان كان الكبرى «السعفة الذهبية».

ولأنه هو والمطلع – الدخيل كلاهما فيلم ذو رسالة، وكلاهما مستوحى من قصة حقيقية تدور حول نضال امرأة «بروكوفيتش» فى الفيلم الأول حيث تؤدى دورها النجمة جوليا روبرتس، وحول نضال رجل «جيفرى وايجند» ويجند فى الفيلم الثانى حيث يؤدى دوره النجم راسيل كراو.

وكلاهما مفخرة للسينما الأمريكية ما فى ذلك شك، يضاف إلى رصيدها من الأفلام ذات المضمون الاجتماعى فلذلك الحديث عنهما يطول.

ونظرا إلى ضيق المجال، أرى من اللازم تأجيل ذلك الحديث إلى الهلال القادم مكتفيا هنا بالحديث عن أربعة أفلام ملأت الفراغ بجدارة لأن أصحابها مخرجون ذو منزلة كبيرة بين صانعى الأطياف.

وابدأ «بسليبى هولو» لأقول أنه مأخوذ عن قصة «اسطورة سليبى هولو» لصاحبها الأديب الأمريكى واشنطن ايرفنج ترجمها إلى لغة السينما تيم بيرتون ذلك المخرج المتميز برؤية خاصة، جعلته وحيد نوعه بين صانعى الأفلام.

ومن بين رصيده الفيلمى، أذكر رائعتيه، ادوارد صاحب الأيدى الفضية واد وود.

وفى كلتيهما لعب الدور الرئيسى نجمه المفضل جونى ديب، وسليبى هولو ثالث فيلم لهما معا وفيه يلعب ديب دور كونستابل ايكابود كرين، عاش فى نيويورك، والقرن الثامن عشر على وشك الرحيل.

ولأنه كان عقلانيا لا يؤمن بالخرافات والخزعبلات، أرسله قاضى نيويورك ويؤدى دوره النجم كريستوفر لى عقابا له إلى قرية سليبى هولو وذلك للتحقيق فى جرائم قتل، يقال أن مقترفها فارس بلا رأس، يقوم بفصل رءوس ضحاياه عن أجسامهم، ثم يعود فيلتقطها من الأرض حيث سقطت، بسيفه البتار، ويذهب بها إلى حيث يحتفظ بالرءوس المقطوعة فى مكان أمين.

ومع وصوله إلى سليبى هولو، نكتشف أنها قرية ظالمة، رجالاتها جشعون، يحبون المال حبا جما، لا يتورعون فى سبيله عن ارتكاب أمهات الكبائر.

وفى البداية لم يعر روايتهم الغريبة عن ذلك الفارس التفاتا، بل سخر منها، بوصفها اسطورة وليدة خيال متخلف، غير مساير لروح العصر.

غير أن ثقته بنفسه، وبعلمه، سرعان ما تبخرت، عندما رأى رأس قاضى القرية، تبتر أمام عينيه، بسيف ذلك الفارس، ثم تتدحرج حتى تصل إلى جواره، حيث يعود إليها الفارس القاتل، فيلتقطها بسيفه، ثم يختفى من حيث جاء.

وفى جو اسطورى يذكرنا بحكايات ألف ليلة وليلة، وغيرها من حكايات مدهشة، مشحونة بشطحات الخيال، ظل المحقق كرين، حائراً لا يدرى من أين جاء الفارس المقطوع الرأس، ولا إلى أين يمضى.

وتختلف عليه الأحداث إلى أن ينتهى به الأمر بعد كثير من الأهوال إلى أن يجد للغز الفارس الغامض حلا .

و«نادى المحاربين» و«نهاية علاقة غرامية» شأنهما شأن سليبى هولو من الأفلام القليلة التى تمنح النفوس خصبا وفطنة وذكاء.

ولا غرابة فى هذا، فالفيلم الأول من إخراج دافيد فنش الذى بهرنا بفيلمه «سبعة» قبل ثلاثة أعوام.

والفيلم الثانى صاحبة نيل جوردان ذلك المخرج الذى سبق له وأن سحرنا بفيلمه «اللعبة الباكية» حيث عرض لارهاب الجيش الجمهورى الايرلندى، برؤية

جديدة، وبأسلوب مبتكر، وبإيقاع لاهث، فيه من التشويق الشئ الكثير.

وفى استطلاع رأى دأبت مجلة استديو الفرنسية على إجرائه بين قرائها، قريبا من نهاية كل عام، وقع الاختيار على نادى المحاربين باعتباره أحسن فيلم جرى عرضه فى فرنسا، خلال العام الأخير من القرن العشرين.

وفضلا عن ذلك، فقد كان من بين الأفلام المرشحة لأوسكار أفضل توليف للمؤثرات الصوتية.

و«نهاية علاقة غرامية» كان مرشحا هو الآخر لأكثر من أوسكار وبالتحديد أوسكار أفضل ممثلة رئيسية جوليان مور، وأفضل تصوير.

مقص غليظ!

وكلا الفيلمين جرى عرضهما عندنا، ولكن بعد حذف لقطات كثيرة بواسطة مقص الرقيب.

ومن بين ما يقال عن تلك اللقطات المحذوفة، أن مدتها تجاوزت التسع دقائق بالنسبة لفيلم نيل جوردان، وهى مدة طويلة، حتى وفقا لمعايير رقابتنا الساهرة على حمايتنا من أنفسنا.

ومع ذلك فمجرد الترخيص بعرضهما، وإن كان فى صورة منقوصة، يعد عملا إيجابيا، من جانب رقابة تهاب أى فكر جديد.

والجمع بين الفيلمين فى الحديث، لا يعنى أن ثمة أشياء مشتركة بينهما، خلاف التقدير لهما سواء من جانب المتفرجين، أو جانب أصحاب الأمر والنهى فى شأن جوائز أوسكار.

وخلاف تربص رقابتنا بهما، ووقوفها بالمرصاد لبعض اللقطات.

فنادى المحاربين مأخوذ عن قصة للكاتب الأمريكى شك بالانويك، لعلها قصته الوحيدة، فهو ليس كاتبا محترفا، ونهاية علاقة غرامية مأخوذ عن قصة للأديب الانجليزى الأشهر جراهام جرين لعلها أقرب قصصه إلى سيرته الذاتية.

فكلاهما مختلف، وكأنهما من عالمين متنافرين، وكل فى سبيل، فالسرد فى نادى المحاربين، كل ما فيه غريب عجيب.

فثمة بطلان، أو هكذا نتصور فى البداية أحدهما، وهو الراوى، ويؤدى دوره النجم ادوارد نورتون، تستهل به أحداث الفيلم ساخطا على طريقة حياته، مغاليا فى التمرد عليها، رغم الظروف الطيبة التى تحيط به.

فهو يشغل مركزا مرموقا فى إحدى الشركات الكبرى، يقيم فى شقة فاخرة، توافرت فيها كل أسباب الاستمتاع بحياة لذيذة، خالية من المنغصات.

وفجأة، وهو على هذا الحال يلتقى بتايلر دردن، ويؤدى دوره النجم براد بت، فإذا به ينجذب إليه، ويجد نفسه عضوا فى نادى المحاربين.

هيكل وهايد

وشيئا فشيئا أخذ الراوى فى التحول إلى شخص آخر أقرب فى تصرفاته إلى الفتوات المشاغبين.

ولن أعرض شيئا من تفصيل ذلك التحول العجيب، لأنني لو عرضت تفصيله لتنقلت بالقارئ في تيه من الرموز والألغاز.

فالراوى، حتى نهاية الفيلم، لا نعرف له اسما والأغرب، أننا والأحداث تقترب من الختام، نأخذ في التساؤل أهو، أى الراوى، وتايلر شخص واحد، أم هما شخصان، كما أوهمنا سياق الأحداث.

ونظل نتساءل عما أراد إليه المخرج وكاتب السيناريو «جيم أولس» بفيلمهما هذا الرائع.

وأغلب الظن أنه إنما أراد أن يصور حالة الانفصام الحاد التى يعانيها الانسان المعاصر، والأمريكى بالذات.

فإذا ما انتقلنا إلى نهاية علاقة غرامية فسنجد أن السرد لقصة الحب بين سارة مايلز الزوجة الخائنة للرباط المقدس وتؤدى دورها النجمة جوليان مور، وبين الأديب موريس بندريكس الذى يعيش فى جو مظلم من الشك والغيرة ويؤدى دوره رالف فينيس سنجده من نوع السرد الأقرب إلى التقليد منه إلى التجديد.

وهذا لا يقلل من قيمة الفيلم الفنية، وأن كان يجعله أقل منزلة من نادى المحاربين.

فالفيلم الأخير حدث يؤرخ به، وربما هو والمتمرد الماتريكس، الفيلمان الوحيدان من حصاد آخر عام فى الألفية الثانية، اللذان سيتركان فى فن السينما آثارا بعيدة.

الأمريكى العليل

و«توم ريبلى» هو الآخر شاب أمريكى ساخط على طريقة حياته، مغال فى التمرد عليها.

وحول مأساته يدور فيلم «السيد ريبلى الموهوب» لصاحبه المخرج البريطانى المنحدر من أصل إيطالى انطونى مينجيللا مبدع الانجليزى العليل، الفيلم الفائز بتسع جوائز أوسكار قبل أربعة أعوام.

وفيلمه الأخير مأخوذ عن قصة بنفس الاسم للأديبة الراحلة باتريشيا هايسميث.

ولقد سبق للمخرج الفرنسى الراحل رينيه كليمه أن قام بترجمتها إلى لغة السينما فى فيلم تحت اسم «شمس الظهيرة» (١٩٥٩).

والأكيد أنه واحد من أنجح أفلام السينما الفرنسية، وذلك بفضل اتقان إخراجه، وروعة أداء النجم آلان ديلون لدور ريبلى المخادع الوسيم، والآن، وبعد أربعين عاما، تعود شخصيات تلك القصة الشيقة إلى الشاشة الفضية، حيث نراها حية تسعى.

غير أنها فى هذه المرة الثانية، نراها مرسومة بكاميرا جون سيل، مدير تصوير الانجليزى العليل.

ويالها من كاميرا أبدعت تصوير ربوع ايطاليا، خاصة الجزر المواجهة لنابلى ومدينة فينيسيا و«ريبلى» ويؤدى دوره مات دامون فى الفيلم، ليس معتلا بداء جسدى قد يكون له دواء، مثل داء رالف فينس فى دور الانجليزى العليل.

انه مـعـتل بداء من ذلك النوع الأكـثـر خطورة، وتعقيدا واستعصاء على الشفاء، داء نفسى سببه وضاعة المنبت، والتنكر للجذور.

فـهـو يعيش فى نيويورك ضـائعـا، محروما، بينه وبين مجتمع الحياة اللذيذة حواجز من حديد.

هذا، ومن فـرط هيامه بتلك الحيـاة، أخذ يأكل فى نفسه، اتخذ موقفا معاديا من شخصيته، أخذ يتقمص شخصية أخرى زائفة بين الحين والحين، لعله بذلك يخرج من مغارة الفقراء.

والفيلم يبدأ به، وهو على هذا الحال، فمع اللقطات المواكبة للعناوين، يظهر لنا وقد نمّت حركات مفاصله عن خلل فى اتزان الأعصاب، وعبر وجهه أحيانا كثيرة عن أبلغ ذل يعقب الإعياء النفسى، وأبشع غلظة وقسوة يسفر عنهما الغل المكتوم.

إنه عليل، وعلته تثير الاشمئزاز والعطف والرثاء فى آن واحد.

وجاءته الفرصة سانحة فى نيويورك، حيث التقى مصادفة بواحد من أقطاب صناعة السفن الواسع الثراء، اختلط عليه الأمر، فظنه زميل ابنه الوحيد ديك أيام الدراسة فى الجامعة.

الكذبة الكبرى

ولأن ديك هذا ابن ضـال، يعيش فى إيطاليا حياة ماجنة، كلها لهو ولعب، فقد عرض الأب الثرى على ريبلى أن يسافر على حسابه إلى حيث يوجد ديك، كى يقنعه بالعودة إلى أمريكا، خاصة وأن أمه تعانى من مرض عضال، وعلى وشك الرحيل وفى ربوع إيطاليا جرى اللقاء بين ريبلى وديك، ويؤدى دوره الممثل البريطانى جودلو ،ولعله من المفيد هنا أن أذكر أنه قد جرى ترشيح «لو» عن أدائه لدور ديك لأوسكار أفضل ممثل مساعد.

وبحكم تركيبته النفسية المعقدة أشد تعقيد، انبهر ريبلى بحياة الفتى اللعوب ديك، وفتاته الحسناء مارج، وتؤدى دورها النجمة «جينيث بالترو»، الفائزة بأوسكار أفضل ممثلة رئيسية عن أدائها المتميز فى فيلم «شكسبير عاشقا» (١٩٩٩).

ومع هذا الانبهار، يبدأ السقوط المروع، الذى يصل إلى حدّ قتل ديك، وتقمص شخصيته على نحو أتاح له فرصة العيش مستمتعا بالحياة، كما تحياها الطبقة الراقية، متجنبا بذلك طبقته الدنيا، تجنبه للجذام.

وبطبيعة الحال لم يكن دوام الحال على هذا المنوال أمرا ممكنا.

الجريمة لا تفيد

فبدءا من ارتكابه جريمة القتل تلك، ومن أجل إخفاء معالمها، قام بارتكاب جرائم قتل أخرى، يشيب من هولها الولدان.

وهكذا تحول إلى ما يشبه القاتل العشوائى، فأخذت تضيق به السبل، وأصبح حائرا بين شخصيتى ريبلى وديك، فهو تارة أحداهما، وتارة الأخرى.

وانتهى به الأمر، وقد ضاق من حوله الحصار شخصا مطاردا لا يذوق طعم الراحة والاستقرار.

خواطر عن الفن الشعبى

●● سيطرة أمريكية على تليفزيون إيطاليا وخوف شديد من سيطرة مطاعم الهامبورجر!.
●● د. صبرى السوربونى يصنع ألذ أكلة شعبية فى «طاجن ستة» !

بقلم : حسن سليمان

أهدت إليّ زوجتى كتاباً عن الأطعمة فى العالم أجمع. تعجبت لهذا الاختيار. ذات ليلة لم أكن أريد أن أقرأ شيئا يرهقنى . أمسكت بالكتاب ، ولدهشتى فوجئت بأنه ممتلىء بصور فوتوغرافية جيدة عن المطاعم والطرقات في كل البقاع وكذلك أنواع الأطعمة المختلفة. الكلمات كانت قليلة مقتضبة : أسطر للمؤلفة أو أسطر أخذتها من كتابات بعض الشعراء والكتاب العالميين عبر التاريخ. ففى صفحة كتب «لكى تعرف شعبا لابد أن تعرف ماذا يأكل وكيف يأكل» ، وفى صفحة كتب «من مستوى الأطعمة التى تأكل فى الطرقات نستطيع أن ندرك الموقف الحضارى والمادى لهذا المجتمع» ، وفى صفحة أخرى نجد أسطرا مضمونها أن أهم فن شعبى عبر التاريخ هو الطعام، وهو يتطور حسب حالة المجتمع.

أغلقت الكتاب ورجعت إلى سنوات مضت، تذكرت أنه فى إحدى المرات وكان ذلك فى الخمسينات بمنزل خالى فى الهرم وقد دعا اثنين من أساتذة التاريخ - وكنت حاضراً - وهما الدكتور شفيق غربال والدكتور صبرى السربونى. تطرق الحديث إلى السياسة وأن بريطانيا تخلت عن المنطقة كلية لأمريكا وأن النظام الأمريكى مبنى على سيطرة الأنماط الأمريكية. وأكبر دليل أن اللغة الإنجليزية بدأت تحل فى الاقتصاد والثقافة بدلا من الفرنسية. وفى يوم من الأيام ستعم سلسلة المطاعم

الأمريكية، كما سيعم البنطلون (الجينز) الأمـــريكى الذى يرتديه (الكاوبوى) فى إعلانات السجائر الأمريكية - سيعم بين طبقات الشعب . ضحك الجميع وقال أحدهما لخالى وكان قد عاد حديثاً من أمـريكا : أخـبـرنا عن آخـر التـقـاليع الأمريكية ، فقال لهما إسكتا سيأتى لكما بهـا. ثم دخل وأتى بملابس داخليـة من النايلون الشفاف وكان اكتشاف النايلون فى ذلك الوقت حـدثاً غـريبـاً . الملابس الداخليـة عـبـارة عن (شـورت) شـفـاف مزخرف بداخله قطعة قماش تستر العورة فقط. ثم أتى لهما بحزام للوسط شفاف جـداً من النايلون ، وأتى بقـمـيـص من القماش المطبوع بزخارف ومعه حبل - كرباط الحذاء (الكوتشى) الآن يوضع فى رقـبـة القـمـيص ويحكم الطرفين بقطعـة مـعدنية ، وحذاء بلاستيك ضخم . قال لهـمـا : تصـوروا هذا الحـذاء لا يدهن ويضـعـونه فى الغـســالة مع الملابس، ويرتديه أساتذة الجامعة . ضحك الثلاثة وقال الدكتور صبرى السربونى : «إنى على استعداد أن أدفع نصف عمرى كى أرى فـخـرى مـرتدياً هذه الملابس - هل هذه الأشـيـاء هى الفن الشـعـبى الأمـريكى؟» . أمـا شـفـيق غـربال فـقال مـتـهكمـا لم يبق لك من العـمـر بقـيـة يا صبرى كى تتحداه . أما خالى فأجاب : هيـهات !! إنى أتيت بها فقط كنوع من البدع الأمريكية التى ربما ستسود يوماً من الأيام . وأجاب شفيق غربال : قطعاً أنها ستسود، فأمريكا هى الإمبراطورية الرومـانيـة الحـديثـة، وأردف صـبـرى السـربونى : لقـد عـمت الإمـبـراطورية الرومـانيـة وسـيطرت فـى سـبـعين عـامـاً ولكنهـا انهارت فى ثلاث مائة سنة وكـان الانهـيـار من داخلهـا لأنهـا كـانت دون حضـارة تذكر. هز خالى رأسه موافقاً ثم قال جملة لاتينية ترجمت بعد ذلك مؤداها : أن هناك مـقـولة فى وقت حكم الرومان وهى أنهم كـانوا حينمـا يجدون شـخـصـاً أنيقاً ويتصرف بارستقراطية يقولون عنه إنه كـــأخــــر (الأوترسك) فى رومــــا ، والأوترسك هـم السكان الذين كــــانوا يسـيطرون على إيطاليـا قـبل الرومـان، ولازال يحتار العالم إلى الآن فى أصلهم . هل هم فينقيون أم هم من العالم القديم أتوا بمراكبهم واستوطنوا .

والجلسة كلها لم تخرج عن الثقافة أو التاريخ أو الفن الشـعـبى. إلى حـد أنهم ضـحكوا على أن أمـريكا تريد أن تصنع اللحم من فول الصويا .

سألنى صـبرى السربونى عن بعض أعمال الفنانين وأسمائهم، وحينما أجبته كـان فى كل مـرة يقـول لى مـعك حق، بالضبط كما كنت أتصور. لكنه فجأة قال لىّ : لابد أن تأتى إلىّ مـعـهـم لكى ترى مجموعتى الفنية. تهكم شفيق غربال قائلا : لقد اشـتـريتـهـا بملاليم هـى ومراجـعك لأنك اشـتـريتـهـا وقت انهـيـار العـملة الفرنسية فى العشرينات. اتفقوا على يوم نذهب فيه .

دعاية مطاعم أمريكا

مـضت سنوات حـتى ذهبت إلى إيطاليـا سنة ١٩٦٦ ، وفى مترو الأنفـاق وأنا على السلم المتحرك وجدت إعلانات

ضخمة لصبى وجهه منتفخ أحمر يعلوه النمش. يقضم «سندويتشا» به شيء يشبه اللحم. كتب تحته بخط كبير جداً كلمات بالإيطالية ولجهلى باللغة فى ذلك الوقت سألت رفيقى قال لىّ : أن المكتوب «ليس مهما أن يكون اسمك ليڤى وأمك راشيل حتى تتذوق سندويتش الهامبورجر»، وإنها دعاية عن سلسلة مطاعم أمريكية فى روما. كنت أقيم عند عائلة الصحفى اليسارى الشهير فى ذلك الوقت (كلانتى) وزوجته (ڤيڤيان كلانتى) كانت بالنسبة للموضة فى ذلك الوقت فى إيطاليا (كشانيل) فى فرنسا، وعن طريقهما وصلت إلى (جاليرى چور جنيونا) حتى أصبحت أحد فنانيه. وفى منزلهم تعرفت على الشاعر الإيطالى الكبير (الفونس جاتو) والشاعر (دانيل دولشى) و(فيتريو دى سيكا) وغيرهم من المشاهير.

وكانت المناقشات تطول حتى الفجر، وقصيدة (الفونس جاتو) «الأشرعة الحمراء» أصبحت شعاراً لفئة من اليساريين المؤمنين بالعنف وقد سموا أنفسهم (بالرايات الحُمر) وذات مرة طال النقاش واحتدم حول السيطرة الأمريكية وشرائهم خمسة وخمسين فى المائة من أسهم التليفزيون الإيطالى حتى أصبحت صورة (جونسون) مقررة عليهم وكذلك شرائهم للفنانين والكتاب وترويجهم لموسيقاهم وأغانيهم التى يطلقون عليها شعبية. لكنهم انتقلوا إلى أن الخوف من السيطرة والتغلغل فى الذوق الشعبى بالشارع الإيطالى من سلسلة المطاعم الأمريكية التى تبيع الهامبورجر. كان (دانيل دولشى) قد خرج حديثاً من تحقيق السلطات معه عن أن بعض كتاباته كانت سبباً فى إثارة الشبان وتحطيمهم لبعض هذه المطاعم.

●●●●

ومضت سنوات. وذات مرة رأيت أحمد غنيم وقد كان المحامى العام للقاهرة. لكنه أصر على الاستقالة بعد أن أفرج عن (انتفاضة الحرامية)، وامتهن المحاماة بشكل حر. كنا فى رمضان ولم يكن يأتى إلىّ إلا حينما يكون مهموما. قال لىّ : تصور أنهم يريدون أن يلفقوا قضية إلى عامل مسكين فى مطعم يبيع الهامبورجر. فقد أخذ مفتش الصحة سندويتشاً من الهامبورجر ليحلل اللحم فإذ بالتحليل يثبت أنه لا أكثر أو أقل من دهن خنزير مضافاً إليه فول الصويا، وإذا بهم يلصقون التهمة بالعامل الصائم لتتنصل الشركة المستوردة من التهمة. وقد رفض أحمد غنيم قضية الشركة وتبنى الدفاع عن العامل مجاناً.

وذات مرة أتى إلى (روبرت ترنر) وهو الآن مضيف ضمن أشهر مهندسى القرن الواحد والعشرين. كنا نعمل سوياً فى مشروع حين كان على رأس مهندسى التجمع المعمارى (إسيكدمور آند ماير). قلت له ليس لدينا وقت، دعنا نذهب إلى (ماكدونالدز) لنأكل بسرعة ونتمم العمل. فجأة وجدته ساخطا وصاح : «هل تسبنى؟ إننا نطلق على هذا الطعام فى أمريكا (الزبالة). إن سندويتش فول

أحسن وأفيد بكثير».

●●●●

ولنرجع ثانية لموضوعنا . جاء يوم ذهابنا إلى الدكتور صبرى السربونى أنا وخالى والدكتور شفيق غربال ، ونحن فى العربة قال خالى : حتى لا تفاجأوا سأخبركم بما سيلى - ذات مرة رجع إلى زوجته الفرنسية مهللاً وهو يقول وجدتها . وجدت حلم حياتى . وجدت المنزل فى الزيتون واستأجرته وسننتقل إليه أخيرا. حينما رأت زوجته المنزل كاد يغمى عليها. فهو منزل تركى قديم . أشجاره جفت والحديقة ممتلئة بأوراق الشجر التى سقطت عبر سنوات متتالية، وهناك نافورة ضخمة رخامية فى وسط الحديقة . المنزل غطاه التراب. وزجاج النوافذ محطم . تصورت زوجته ما ستقوم به عبر أشهر وأشهر حتى تجده يليق بالسكن . أصر صبرى السربونى على ألا تزال أوراق الشجر الجافة من الحديقة، فصوتها تحت وطء قدميه يحمل إليه همس موسيقى الحياة! ولكى يكمل حلمه بنى فى ركن من الحديقة فرنا بلدياً، وأخذ ينقل مكتبته الضخمة جداً بمراجعها وصوره الفنية التى يدعى أنها أصلية لكن خالى كان يشك فى أنها نسخ متقنة عن الأصل . حينما ذهبنا إلى المنزل وجدناه كما وصفه خالى . وزوجته وأولاده كانوا غائبين فى فرنسا .

قال لىّ الدكتور صبرى وهو يحشو غليونه : «تعال يا جاهل أريك مجموعتى. أما هما فدعهما للتاريخ فهما لا يفهمان شيئا فى الفن». أخذنى من يدى لأرى صورة صورة. يقص علىّ ظروف شرائها . بعض الصور كان أصلياً. والبعض الآخر منقول عن الأصل باتقان وقلة كانت سيئة. تناقشنا . قال لى : «اسمع يا جاهل ، ولا تظن أن جاهل هنا صيغة ذم بل هى مديح، فالآخرون أميون بالنسبة لىّ. تعالى معى نطبخ حتى أريك كيف يكون الطبخ وندعهما مع الكتب . أولاً سنعد السلطة الأمر ليس سهلاً بل هى نسب دقيقة من أنواع خضار السلطة البلدى وكذلك الدقة بالنسبة للبقدونس والشبت المفروم والبصل ثم تقطع قطعا صغيرة جدا ويضاف إليها نصف قرن من الفلفل الأخضر الحامى . قال هذا وهو يعمل فى التقطيع ثم نضيف الخل ولابد أن ندقق فى اختيار الخل فالخل المغشوش يفسد السلطة ، ونعصر الليمون ونضيف زيت الزيتون ثم نقلب الكل مع قليل من الملح ثم ندعها تختمر قليلاً.

كانت قائمة الطعام التى سأساعده فيها هى صلصلة الطماطم بلحم الضأن والثوم التى تسمى (الدمعة)، ولدهشتى فعل شيئا لم أر أحدا من قبل يفعله .

أخذ قطعة من الخبز وقال لابد أن تكون خبزاً بلدياً وحمرها فى السمن ثم سحقها حتى أصبحت ناعمة وأضافها على الصلصة حتى يكون لها قوام . أما الطبق الرئيسى فكان أرز معمر فى الفرن البلدى بالكلاوى، وحينما وضع الطعام على المائدة قال خالى : من أين أتيت بهذا الطاجن إنه من العصر العثمانى. قال الدكتور صبرى : لقد أخذته من منزل جدتى . ضحك شفيق غربال وقال : «يعنى

إنت اللى شايل طاجن سته»، وسألا خالى كأنهما يمتحناه : كيف عرفت ؟ فأخبرهم أنه عرف من استدارته ومن موقع أذنيه ثم أردف لقد بنى (بترى) نظرياته عن التاريخ القديم من الفخار الشعبى المستخدم فى الحياة اليومية. فحفرياته فى (تل الهيسبى) فى فلسطين ، والتى طبقت نتائجها على حفرياته فى مصر. أخذ قطاعا من التل يزيل منه الأتربة إلى أسفل طبقة طبقة وفى كل طبقة كان يجد نوعا مختلفاً من الأنية الفخارية حتى وصل إلى وقت الفراعنة. بنى نظرياته عن الحياة الاجتماعية من فقر وغنى ونزوح وهجرة من بقايا هذه الآنية. وله مقولة شهيرة : أن الذهب والحلى لا تعطينا التاريخ الحقيقى للشعوب، ولكن الإناء الشعبى فقط هو الذى يعطينا الوضع الحقيقى لمستوى الشعب. من فقر وغنى وثقافة أو جهل. تطور الحديث وأخذت المناقشات تطول حول الفنون الشعبية وماهيتها وهل يمكن أن نستطيع إطلاق فن شعبى على أشكال أو أنماط خالى، حتى الزخارف بدأت بدلالة رمزية ثم استمرت وأحيانا ما كانت دلالة عن طقوس، ولا يمكن أن يكون بأى شكل من الأشكال شىء بلا معنى أو وظيفة.. حتى الرقص بدأ كنوع من الطقوس واستمر كتعبير عما به الناس من فرح ووجد، ومن الخطأ أن يؤخذ الرقص الشعبى ويجرد لكى يعرض على مسرح. فهو هنا شكل بلا مضمون، شىء بلا روح أو حس أو عاطفة . مثلاً ارتبطت كل مفردات الحضارة الفرعونية بالموت والبعث .

وانتقلوا إلى الأغانى وفوجئت أنهم يقولون أغانى لا أعلم عنها شيئاً .

قالوا : أحياناً كانت الأغانى الشعبية فى أواخر القرن التاسع عشر تحض على النظافة مثل :

ليه يا بن عمى تتجوز علىّ ليه
أجوز عليكى من وسخ رجليكى
قومى إغسليهم وأنا أرضى عليكى
ليه يا بن عمى تتجوز علىّ ليه
أجوز عليكى من عماص عينيك
قومى اغسليهم وأنا أرضى عليكى

أو تعبر كما قال أحدهم عن خفر المرأة وحيائها مثل:

لما قالوا لىّ عليه سقا وحبال القربة فضة
قلت أدل وأروح الملائة
وأقول الامرى عطش منى
ولما قالوا لىّ عليه نجار ويا سلام عليه نجار
قلت أدلى وأروح الدكان
وأقول درج البوريه إنكسر منى

وفجأة قال الدكتور صبري تصوروا كان كل شيء وقت عباس الأول بالقروش.كان المدرس يأخذ سبعين قرشاً. ثم غنى أغنية مطلعها:

حدش شاف حبيبى يا ناس
على قنطرة عباس
لابس الطربوش أحمر منقوش
بثلاثة قروش

تصوروا الطربوش المنقوش بالقصب وخيوط الذهب والفضة بثلاثة قروش!! لا أريد أن أطيل ولكن فجأة قال أحدهم: هل تعرفون هذه الأغنية ثم أكمل:

جوزينى يا أما
حـــــــاضــــــــر يا ولدى

دنك تقولى حاضر
لما خضر شنبى
بكرة سوق الاتنين
لما أبيعلك حلقى
خسارة يا أما حلقك
فيه بنت الرفضى

- انتهت الجلسة بأن الثلاثة أخذوا يغنون :

يا عم حمزة .. يا عم حمزة
إحنا التلامذة .. إحنا التلامذة
واخدين على العيش الحاف
والنوم من غير لحاف

احتدم النقاش حول أن هذا المطلع هل هو لأحد الطلبة ثم أكمل عليه سيد درويش أم أنها كلها لسيد درويش ارتجلها وهو وسط الطلبة. انهم جيل ولى ولن يعود ثانية . لم أسمع أحدهم فى هذه الجلسة يقول كلمة بلا معنى أو يخوض فى سيرة زملائه ، وكنت أنا كالاسفنجة الجافة المتطلعة والمنتظرة إلى قطرات من المعرفة حتى تتشبع من ماء الثقافة.

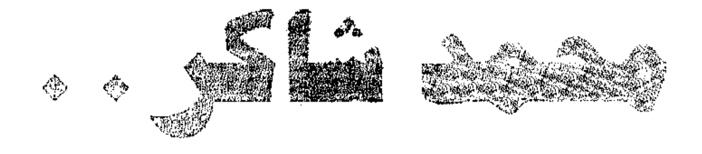
أما الآن فأنا لم أعد أفهم شيئا خصوصاً فى الفنون الشعبية ولا أفهم معناها ، فأحيانا أرى شباناً وفتياناً يؤدون حركات بلا معنى. حتى وصل الأمر إلى أنه كتب فى الصحف تحت صورة : أنهم استقبلوا السياح بالفنون الشعبية، وتظهر الصورة الفتيان والفتيات وقد ارتدوا الملابس الفرعونية. لقد اختلط الحابل بالنابل. أذكر أنه منذ عشرين سنة مضت قص علىّ صاحب شركة سياحية (ر . غ) هذه القصة : أنه فوجىء بخطاب وشيك من قساوسة إنجيليين مضمونه : نرسل إليكم ثمن رحلتنا إلى مصر متضمنة حفلاً شعبياً للقرآن بما فيه الأكل.

احتار الرجل وخصوصا أنه قبطى وأخذ يسأل عن المرشد السياحى الذى رافقهم فى رحلة الأقصر، وأخيراً أتى به وسأله :

ما هى حفلة القرآن التى ذهب بالقساوسة إليها؟ فقال له كنت أمر معهم أمام سرادق عزاء لمأتم، فسألونى ما هذا وما هذا الشخص الذى يغنى ، فقلت لهم : إنه حفل لتلاوة القرآن ، فأجابوا أنهم يريدون أن يحضروه فقلت لهم : أتريدونه ناقصاً أم كاملاً بالطعام . فقالوا: كاملاً. أخبرتهم ، اصبروا حتى أسأل ، ثم دخلت إلى أقارب الميت وأخبرتهم أن المرحوم كان واسع الصلات الخارجية حتى أن هؤلاء القساوسة أتوا من أمريكا وأوروبا خصيصاً ليقدموا واجب العزاء فيه وأنه يجب أن نكرمهم نحن المصريين، ويجب أن يتناولوا الطعام، فقام كل من بالمأتم يرحب بهم . أدخلوهم وأجلسوهم فى الصدارة وقاموا على خدمتهم وقت الطعام. ثار وماج صاحب الشركة قائلاً : تعلم أنى قبطى أحترم القرآن والطقوس الدينية. قال له المرشد : لماذا الغضب أنا سعيد بالنقود التى أخذتها منهم وأهل الميت مازلوا يتحاكون عن الأجانب الذين أتوا للعزاء فى الميت من الخارج ، والقساوسة أسعدتهم تلك الليلة بدليل أنهم طلبوا تكرارها ثانية . طرد المدير وصاحب الشركة المرشد من مكتبه وألغى الرحلة نهائياً .

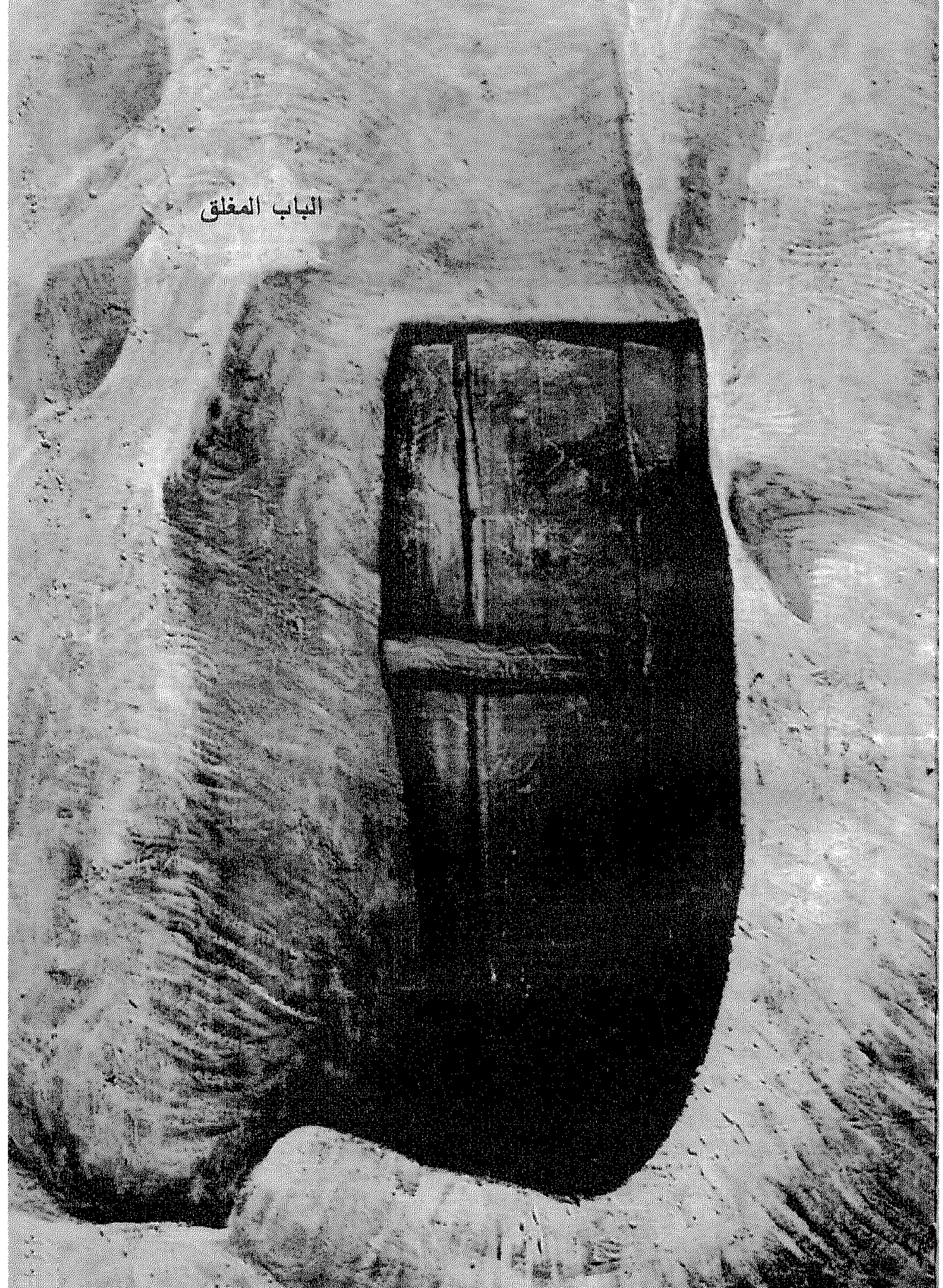
لقد امتهن كل شىء باسم الفن الشعبى.

قضبان



بين «الفن النافع» و«الفن الجميل»

بقلم : محمود بقشيش



الباب المغلق

فى أعقاب كارثة ١٩٦٧ جاءت أول محاولة رسمية لتسويق الأعمال الفنيـة، كنوع من العزاء للفنانين المصريين الذين لم يتمكنوا حتى ذلك الوقت من تسويق أعمالهم الفنية بصورة تسمح لهم بأن يتعيشوا من عوائدها مثلما يفعل فنانو الدنيا الآن، حيث يُتاح لهم ذلك عبر قنوات الأسواق الدولية للفنون وعبر التعاقدات الشخصية مع الوسطاء الفنيين وأصحاب قاعات العرض الخاصة. وتُعد «السوق الدولية للفن المعاصر» ومقرها «باريس» أشهر تلك الأسواق وهى قاصرة على قاعات العرض الخاصة، المتعاقدة مع فنانيها المختارين. بادر المثال الكبير المرحوم «عبدالقادر رزق» - عندما كان رئيساً للهيئة العامة للفنون الجميلة بإقامة سوق سنوية بقاعة الفنون الجميلة بباب اللوق «أصبح مكانها الآن مشغولاً بمقر البنك الوطنى للتنمية» وبعد أن أتاحت الدولة المكان للسوق تركت الفنانين يقومون بدور مزدوج : دور الفنان المنتج ودور الوسيط المفاوض.

وكانت المساومات بين البائع والمشترى تدور وقتها فى حدود العشرات من الجنيهات، قبل أن يرفع صنّاع القرار الثقافى - من الفنانين - أسعار لوحاتهم إلى ما هى عليه من أرقام فلكية، لا علاقة لها - بالطبع - بالندرة والتميز. ومع ذلك فليس كلُّ فنانٍ يستطيع أن يقوم وحده بهذين الدورين المختلفين فى نفس الوقت، لهذا لم يفلح من بينهم إلا القليلون. ولم يستجب المقتنون - بدورهم - إلا إلى الأعمال ذات الطابع السياحى السطحى. وعلى الرغم من العائد الاقتصادى الضئيل فقد كان الفنانون ينتظرونه عاماً بعد عام، فهو - فى حدوده الدنيا - فرصة لتكوين علاقات مباشرة بين منتج الفن ومقتنيها. وقد نجح بالفعل بعضُ الفنانين فى تحقيق تلك الغاية، خصوصاً بعد أن حفز هذا السوق بعض الوسطاء إلى ترويج أعمال فنانين بعينهم، كانوا موضع اهتمام رجال المال، لما تتميز به أعمالهم من ميل صريح إلى الطابع السياحى. وكان لظهور الأثرياء الجدد دور فاعل فى انتقال بعض مبدعى «لوحة الحامل» إلى مجال إبداعى آخر هو مجال «الديكور» الذى سمح بتحالف المجالات الفنية المختلفة والصلح بين الأشكال المسطحة والمجسمة والساكنة والمتحركة، والتعايش بين الخامات المتخالفة والمتعارضة، فبخيال المصمِّم

البارع والمنفذ الماهر يُمكن للعمل الديكورى أن يجمع فى إحكام بين ما هو شديد الصلابة وشديد الهشاشة والعتامة والنعومة والخشونة في نسق واحد. ولم يكن الفنان «محمد شاكر» الذى نقدمه إلى قارىء العربية هذا الشهر من نجوم «سوق الفنون» بل لمع اسمه فى أواخر السبعينيات كرسام متميز. وهو يعمل حالياً أستاذاً بقسم التصوير بكلية الفنون الجميلة بالاسكندرية، وقد أقام ثلاثة وعشرين معرضاً فى مجال الرسم والتصوير والفسيفساء و«الكولاج» عبر قنوات وزارة الثقافة وبعض المراكز الثقافية الأجنبية وغيرها من قاعات العرض الخاصة.

انطباع الوهلة الأولى

كان لقائى الأول بأعماله طيباً، لهذا ظلّت آثاره فى الذاكرة زمناً غير قصير - أذكر أن قدمى قادتنى ، بالمصادفة، إلى معرض جماعى كان هو أحد أفراده . وكان ممثلاً بعدد لا بأس به من اللوحات (خمس أو ست لوحات) وكانت كلها تدل على أن صاحبها ينتمي إلى حوض البحر الأبيض المتوسط، ولم أكن فى حاجة إلى قراءة بطاقة تعريفه بنفسه أو بانتمائه الشخصى إلى مدينة الإسكندرية فقد كانت اللوحات كفيلة بتجسيد هذا الانتماء، فالبحر يتجلّى فى لوحاته بصور مختلفة: تارة يشرق بزرقة تميل إلي اللون الفيروزى وتارة يستسلم لدكنة بعيدة الغور. وفجأة يشق الظلال الكثيفة شقاً بقذيفة ضوئية غير متوقعة ، نحسبها لحدتها أنها انتصرت على العتمة، غير أنها تغيب بالسرعة التى فاجأتنا بها عند الظهور. ولاشك أن هذا الحضور العاصف وتوقع الغياب السريع يترك فى النفس شعوراً بالقلق.

مكونات عالم لوحاته

يستلهم الفنان «محمد شاكر» مادة لوحاته من البحر ومن الأطلال الرومانية المتناثرة فى الاسكندرية. وهى مادة أولية تُلهم الرسامين والشعراء، على السواء، بما يحرك المشاعر والرغبة فى التأمل وإعادة النظر فى بحر الواقع وأطلاله. لهذا احتلت النوافذ ركيزة محورية في عالمه الرمزى. وهى نوافذ مفتوحة تطلّ على فضاءات سديمية.. تبدو أحياناً عميقة العتمه، أشبه بقاع محيط.

طريق مغلق

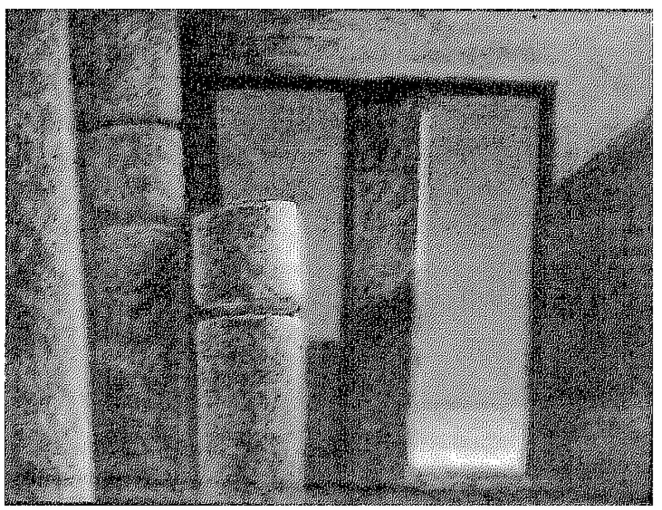
فى لوحة بعنوان «نافذة فى معبد قديم» تبدو النافذة المنحوتة فى الجدار أشبه بواحة تريح العين من رحلتها المتاهية مع تضاريس الجدار وتتعارض معه، غير أن الخدعة سرعان ما تكشف النقاب عن نفسها، فإذا بالواحة الموعودة محاصرة فى مستطيل صارم الحدود. ويبدو أن «محمد شاكر» يميل إلى هندسة الحواجز والنفور من الرحابة، ففى نافذة أخرى من نوافذ لوحاته يعترض فضّاءها المخنوق بما يشبه القضبان. ويبدو أن الفنان قد أدرك أن نوافذه المحاصرة، والمعاقة كانت عبئاً ثقيلاً على النفس فأغلقها إغلاقاً صريحاً، وإن كان الغلق من نصيب باب ريفى هذه المرة! ويبدو أن التصميمات الصارمة التى صمم بها لوحاته قد أعلت من شأن القصدية الباردة على حساب دفء التلقائية وصدق المشاعر، وقد يكون هذا سبباً فى تركه فن التصوير إلى الفسيفساء، وقد شاهدت له معرضاً بالمركز الثقافى الفرنسى والمعرض أقرب إلى حالة شاء لها الفنان أن تكون تعبيراً



عن رغبة الفنان الشخصية فى أن يمتع نفسه ومشاهديه بالمسرّات الصغيرة. وكان المعرض قاصراً على اللعب الابتكارى بكل النفايات المتاحة فى البيت وصناديق القمامة: هشيم الزجاج، بلْى ، أقلام من كل نوع، سلك الخ.. وحاولَ أن يُهندس هذا الشتات. ولست أظن أن الدافع الوحيد هو مسايرة الحداثة والفن الحديث قد أتاح للفنانين التعبير بكل الخامات دون قيد. وفى ظنى أن الصرامة المتجهمة التى تحكم تكويناته هى التى أفضت به – ولو لفترة قصيرة إلى تلك الواحة أو المنتجع – كما تحب – ليستعيدّ الفنان حيويته. وكان من الطبيعى أن يمتد ذلك اللعب المتمرد على «لوحة الحامل» إلى الحيز المكانى فى الواقع، والواقع هنا: قصور الأثرياء الجدد الذين يحب أصحابها أن يحاطوا بكل أسباب الرفاهية، وقد نفذ «محمد شاكر» الكثير من واجهات تلك الدور الجديدة، كما نفّذ مساحات ضخمة بالفسيفساء الزجاجية، ونفّذ أيضاً جدارية بالحديقة الداخلية. ومن أهم أعماله جدارية ضخمة (حفر على الزجاج) مساحتها ٥٢ متراً مسطحاً. ونافس مثالى المطروقات النحاسية وقدّم مطروقة نحاسية كبيرة مقاسها: (٢,٥٠م × ١٥,٠٠ م) ومعالجة بالأكاسيد والأحماض الملونة بقرية سياحية بالبحر الأحمر. وهو يفضّل أن ينفذ مشروعاته داخل مدينته الإسكندرية. وإذا كان «محمد شاكر» يفضّل أثرياء الاسكندرية فإن غيره من رسامى «البورتريه» المهرة يفضلون الأثرياء العرب الذين يسعدهم أن يجدوا الرسام الحاذق الذى يستطيع أن ينقل ملامحهم الشخصية وأن يحيطها بكل مظاهر



الفنان محمد شاكر



تكوين

الأبهة والعظمة والمجد، حتى لو لم يكن لها وجود فى حياتهم ! .. وقد تاهت مواهب كثيرة – للأسف – وهى تلهث وراء الذهب . أمّا تلك القصور والدور الفاخرة التى يمتلكها الأثرياء الجدد فلن تكون إلا سجناً للأعمال الفنية، ولن تكون مزاراً إلا للمقرّبين من الأصدقاء والأقارب، وللأسف فإن الأثرياء الجدد ليسوا مشغولين إلا بأنفسهم ، ولن يوصى أحدهم بمقتنياته الفنية للدولة لتكون متحفاً ومزاراً يؤمّه الناس للمتعة والثقافة الرفيعة. نتمنى بالطبع أن يكون بين هؤلاء محمد محمود خليل وحرمه !! .

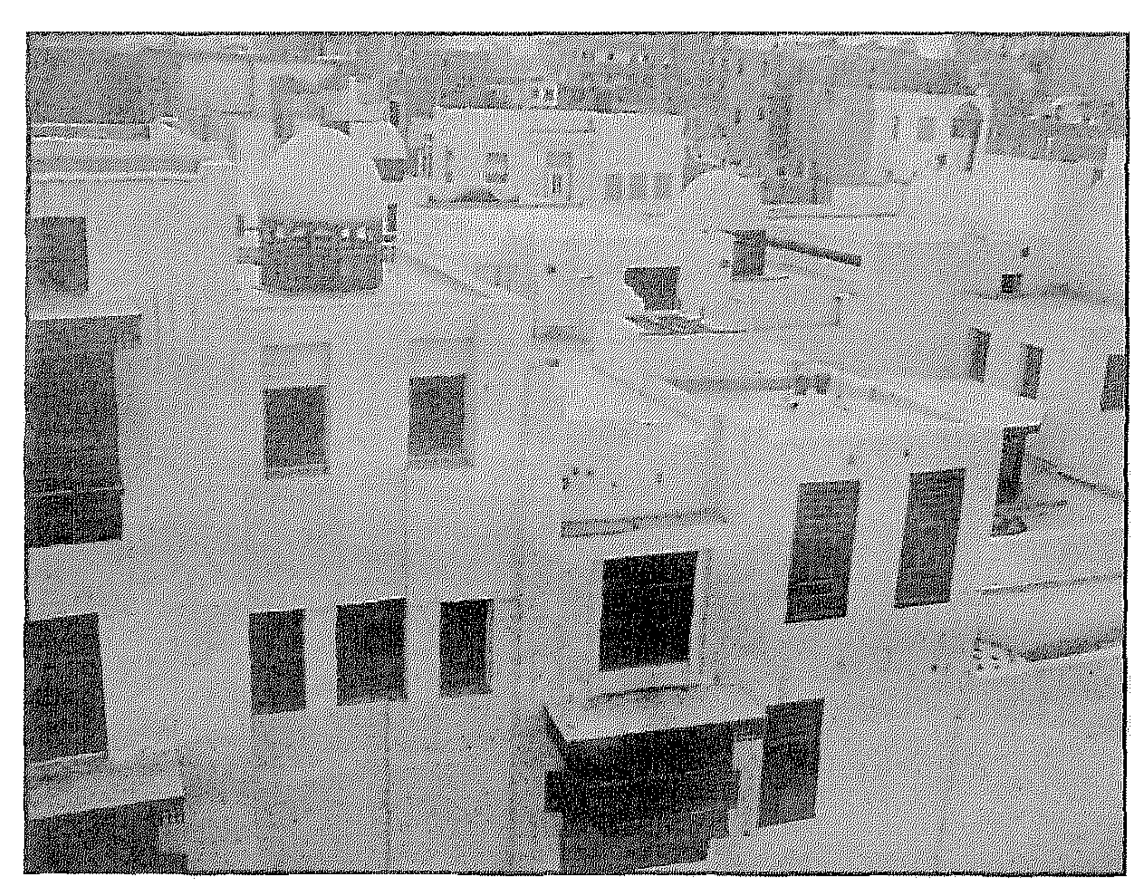
بيت السحيمى والدرب الأصفر

نموذج لما ستكون عليه القاهرة الفاطمية

أحمد أبو كف

●● بدأ تأسيس عاصمة جديدة للفاطميين حين جاءوا لمصر، والتى اتفق على تسميتها «المنصورية»..

أسسها جوهر الصقلى قائد جيوش الفاطميين.. وبدأ البناءون يحددون مساحة المدينة إلى الشمال الشرقى من الفسطاط والعسكر والقطائع، وحددوا أركانها ومدوا الحبال حولها ووضعوا في تلك الحبال مجموعة من الأجراس، ثم طلبوا من الفلكيين أن يبحثوا في النجوم والكواكب التي تكون فأل سعد، وإذا رأوها أشاروا للبنائين والصناع بتحريك الأحبال ودق الأجراس ليضعوا الأساسات فى الأركان لتكون إيذانا بإنشاء مدينة جديدة، ثم جاءت مجموعة غربان ووقفت على الحبال فدقت الأجراس، ووضع البناءون أساس المدينة الجديدة ●●

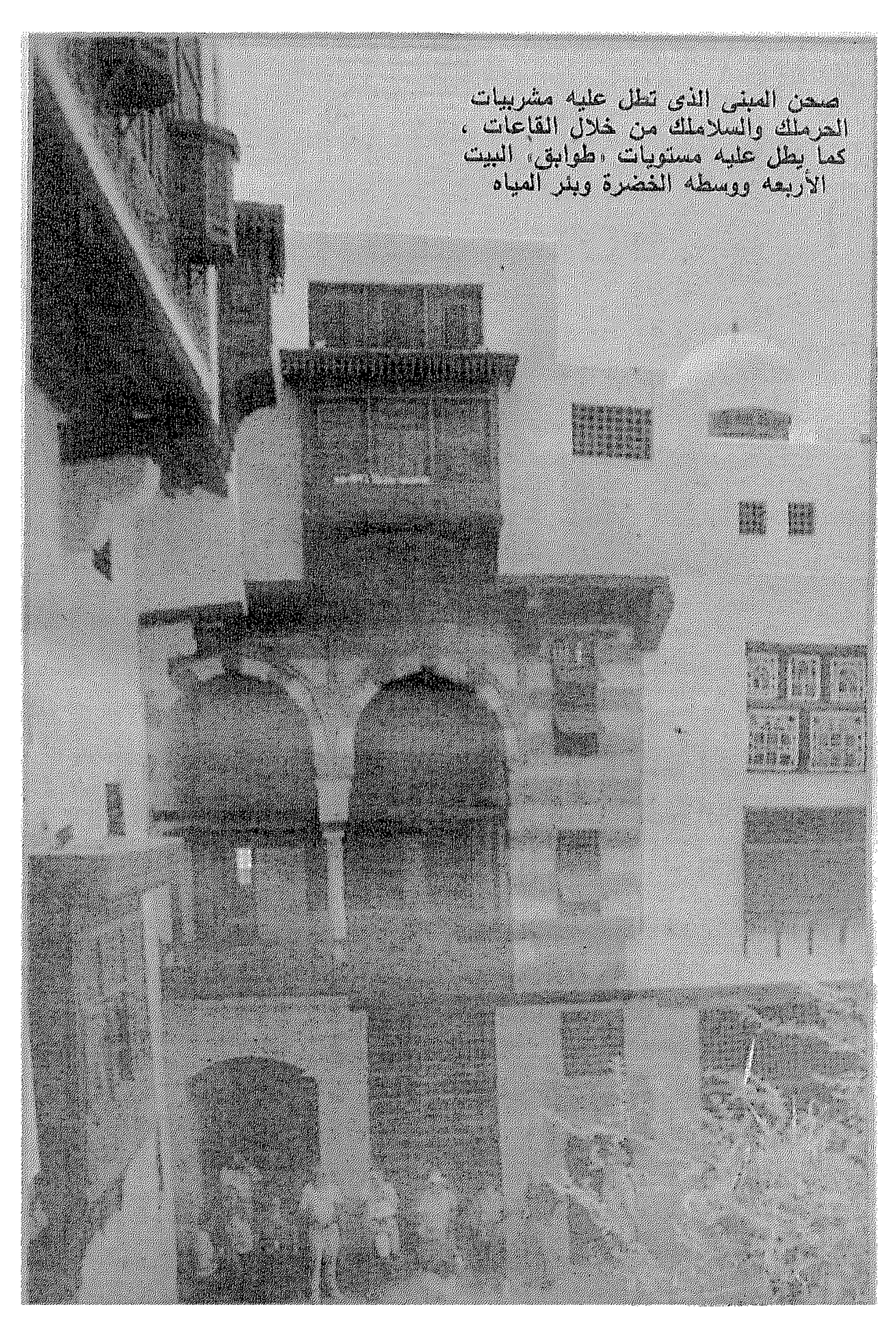


بيت السحيمي ولقطة من الخارج   جمرة الدرب الأصفر بعد تجديده وتوثيقه وترميمه

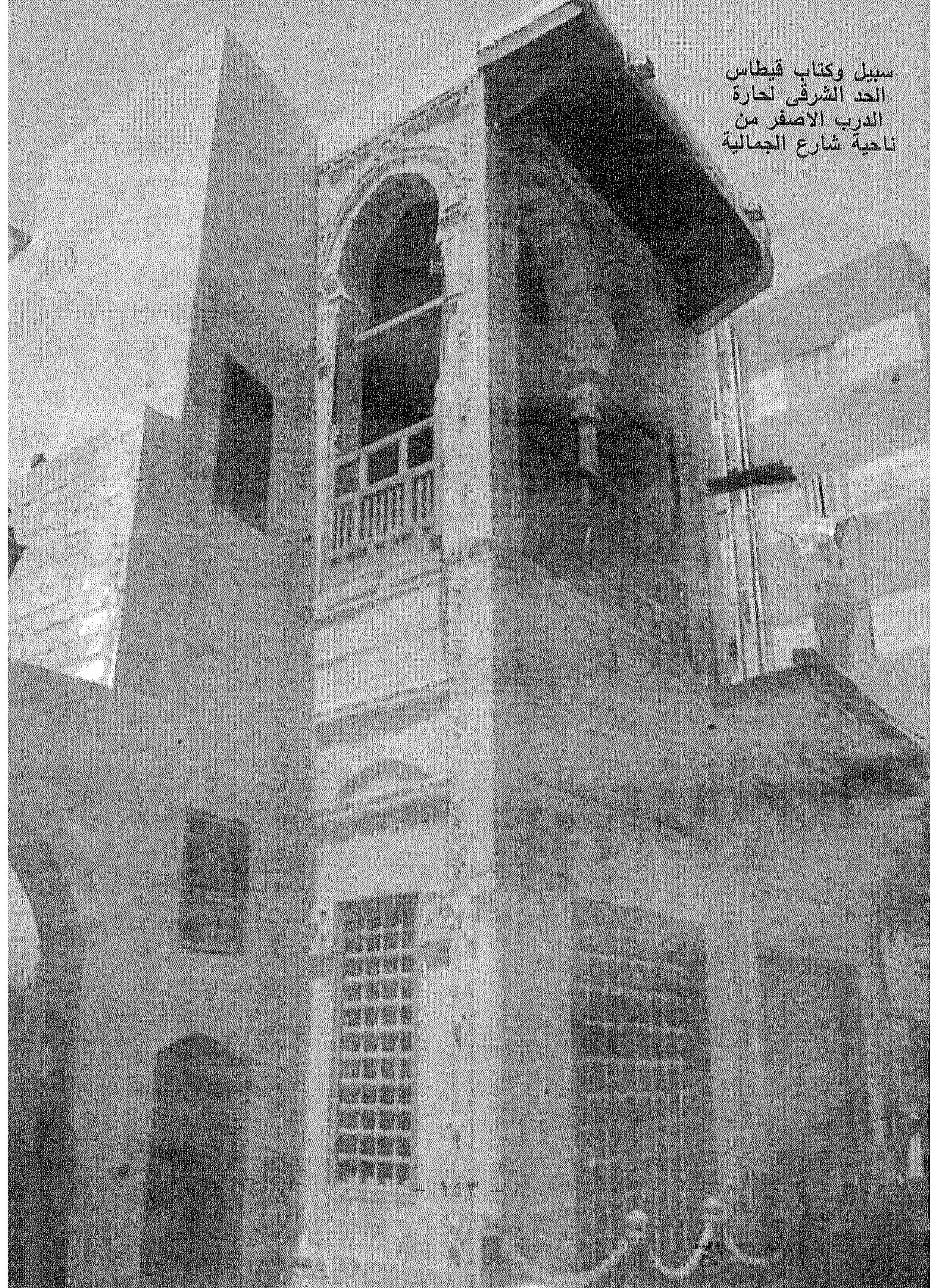
ولما استتب الأمر سأل الفلكيون عن النجم فقالوا هذا هو النجم القاهرة فسميت المدينة القاهرة.

وقد جعل الفاطميون من هذه المدينة ملكية لا يدخلها العامة ولا يسكنها إلا الأمراء، ومن أجل ذلك شيدوا قصرين فى قصبة المدينة، أحدهما إلى الشرق من الشارع الرئيسى وهو شارع المعز الذى يمتد من باب الفتوح شمالا إلى باب زويلة أو المتولى جنوبا، هذا الشارع بنوا شرقه قصرا كبيرا للخليفة المعز – كما قلنا – وإلي الغرب بنوا قصرا آخر صغيرا عرف باسم القصر الغربى الصغير لحريم السلطان والمسافة بينهما عرفت باسم شارع بين القصرين.

كان للقاهرة ثمانية أبواب فى كل من جوانبها الأربعة، فى الجنوب باب زويلة وباب الفرج، وفى الشمال باب النصر وباب الفتوح، وفى الشرق باب البرقية وباب الفراخين، أما فى الغرب «شارع بورسعيد» فكان باب سعادة وباب القنطرة، كما ضمت القاهرة الكثير من الحارات والأزقة والدروب، والعطوف، ومن أشهرها حارة الروم، وحارة الأمراء وحارة الباطنية، أما أشهر العطوف فهى عطفة الديلم، وقد تطورت هذه الحارات أيام الأيوبيين والمماليك، وأنشئت بها ـ خاصة شارع المعز ـ المدارس منذ



صحن المبنى الذى تطل عليه مشربيات الحرملك والسلاملك من خلال القاعات ، كما يطل عليه مستويات «طوابق» البيت الأربعه ووسطه الخضرة وبئر المياه



سبيل وكتاب قيطاس
الحد الشرقى لحارة
الدرب الاصفر من
ناحية شارع الجمالية

العصر الأيوبى لنشر المذهب السنى، فبنى صلاح الدين الأيوبى المدرسة الشافعية بالقرب من المشهد الحسينى، فضلا عن بناء المدرسة القمحية، ودار الحديث الكاملية، كما بنيت الخانقاوات، أيضا وأنشأ الصالح نجم الدين أيوب أيضا المدارس.

وفى العصر المملوكى انتشرت المدارس فى شارع المعز ولعل أشهرها مجموعة السلطان المنصور قلاوون والتى تجمع بين المسجد والمدرسة والقبة للدفن، والبيمارستان «أى المستشفى».. وتجاورها المدرسة الناصرية لابنه الناصر محمد بن قلاوون.

وهناك أيضا الكثير من المساجد، لعل أشهرها مجموعة السلطان الغورى «٩٠٦ ـ ٩٢٢» هـ، ثم المسجد عند باب زويلة، وهو مسجد المؤيد شيخ المحمودى والذى بنى كبديل للسجن المعروف باسم «شمايل» أو خزانة شمايل وهو الوعد الذى وعد به المؤيد شيخ عندما كان محبوسا فى السجن.

تلك هى ملامح القاهرة التى امتدت من جميع جهاتها واتسعت، وهي القاهرة التى عاشها وعاصرها فى القرن الخامس عشر المؤرخ المقريزى وكتب عنها وعن تخطيطها.. ومن الواضح أن القاهرة امتدت من جهتها الشرقية، وتكونت ضاحية جديدة باسم الحسينية، وانتشرت بمنشآتها إلى الغرب حيث كانت تلك المساحة يحدها النيل، وسور القاهرة الفاطمية، كما نشأت موانيء على النيل هى بولاق أبوالعلا.وبولاق ليس كما سماها الفرنسيون «البحيرة الجميلة»، لكنها تعنى الكثبان الرملية على النيل، ولازالت توجد في منطقة بولاق - وكالة البلح - الذى كان ينقل إليها البلح عبر النيل من أسوان والصعيد.

●●●

ليس المقصود بالحارة الطريق مثل ماهو معروف الآن، لكن الحارة منذ عهد الفاطميين هى قسم من مجموعة مبانى المدينة تخترقها الشوارع والدروب والأزقة وبها المساجد والمدارس والأسواق والحمامات، وحتى زمن قريب كان لكل حارة شيخ يوكل إليه مباشرة أعمال الحارة، ومن أشهر حارات شارع المعز حارة البرقية، وحارة برجوان، وبرجوان كان يسكن فيها وكان أحد خدم القصر الكبير، فى المنطقة التى نعرفها الآن بالجمالية.

أما ما يتعلق بحارة الدرب الأصفر، فكانت موجودة فى العصر الفاطمى حارات تتفرع منها دروب صغيرة منها هذا الدرب الذى اشتمل على عديد من الآثار ومن أهمها مابنى على أنقاضه عدة بيوت التى من أشهرها بيت مصطفى جعفر، وبيت الخرزاتى وبيت السحيمى فى العصر العثمانى.

وسميت الدرب الأصفر لأن المنشآت كانت تطل على جبل معروف بصفرته، وهناك تفسير آخر نذكره فى حينه.

●●●

الذى حدث لمنطقة بيت السحيمى هو فى الأصل تنمية وتطوير المنطقة وتجديد جميع مرافقها وترميم مبانيها الجديدة

والقديمة، والحارة طولها حوالى ٢٥٠ مترا من بيت مصطفى جعفر المطل على شارع المعز إلى سبيل وكتاب قيطاس بشارع الجمالية، أمام مسجد السلطان برسباى.

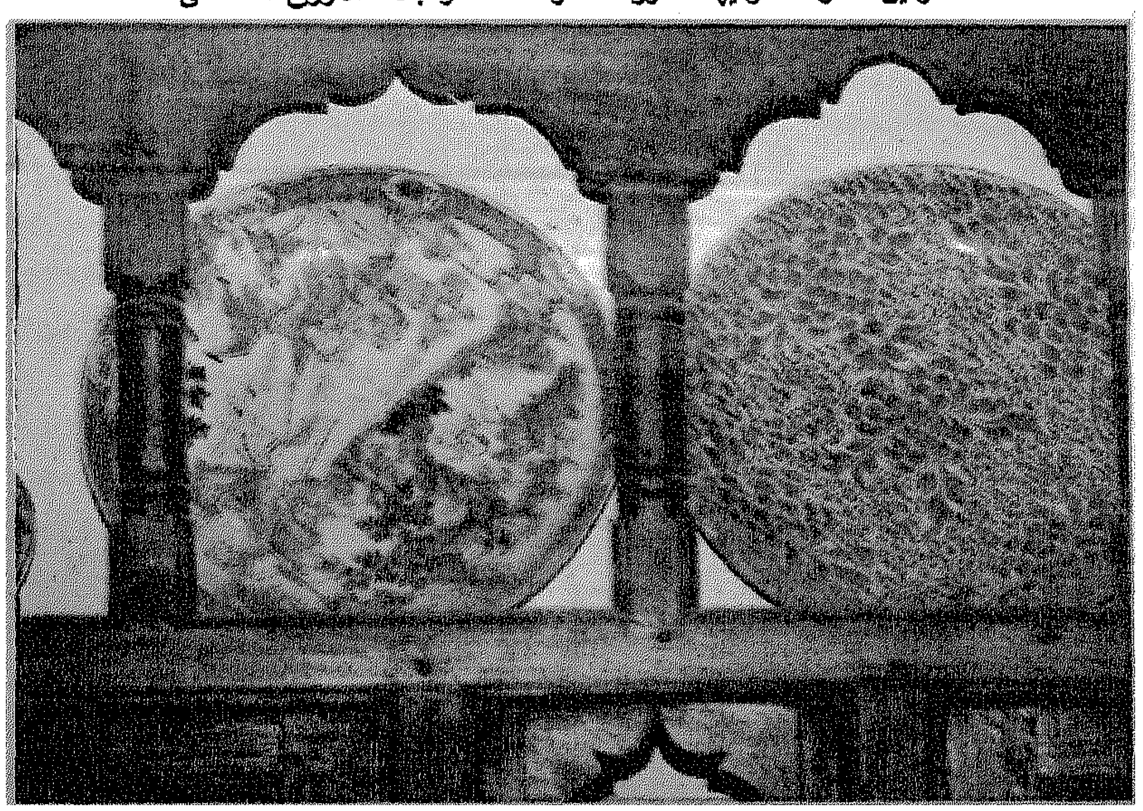
والمنطقة أصلا تعود إلى القاهرة الفاطمية، يدل على ذلك تلك الآثار التى عثر عليها فى الجزء الجنوبي من بيت السحيمى أثناء ترميمه، وبجوار الساقية والطاحونة، كما يقول د. أسعد نديم، كانت حارة الدرب الأصفر انشئت على مساحة عليها مجزر القصر الكبير الفاطمى، ثم بنيت عليها البيوت الإسلامية الثلاثة، وهذه البيوت من طراز العمارة الإسلامية العريق والدقيق، والبيت الإسلامى يتكون من صحن مكشوف أو سماوى، المستوى الأرضى منه كان عبارة عن قاعات ومخازن وحواصل، تحتها أيضا سراديب كما حدث فى بيت السحيمى . أما الدور الأول أو المستوي الأول فكان يحوى قاعات مزخرفة، وحمام ساخن وبارد ودورة مياه وكان للرجال واسمه السلاملك وبه أيضا مقعد الهواء وواجهته تطل على البحرى الذى كان يجلس فيه الرجال في فصل الصيف، والقاعات ، وكلها تطل على الصحن. والمستوى الثالث كان اسمه الحرملك، وبه المشربيات التى تطل على الصحن كما أن به القاعات وكل قاعة بجوارها غرفة نوم، وبينها وبين القاعة باب مطعم بالزخارف المصنوعة من العاج.. وكانت كل قاعة تحتوي على وحدات معمارية من نوافذ ومشربيات بالخشب الخرط وإزارات خشبية أما تحوى آيات قرآنية أو أشعار أهمها أشعار قصيدة البوصيرى فى مدح النبى. كما كانت كل قاعة خاصة القاعة الكبيرة المتحف فى الدور الثانى وبها القيشانى الأزرق العثمانى، كما أن بها الصفة وهى رف من الرخام على أعمدة رخامية توضع عليها الشمعدانات والأباريق وعدة القهوة وعليها الآن الأطباق الجميلة التى جيء بها من المتحف الاسلامى وايضا بعض المقاعد وبعض النافورات.

ومدخل البيت الإسلامى كما فى السحيمى كان مدخلا منكسرا على شكل زاوية قائمة، وكان لكل بيت بابان رئيسيان بحيث أن الذى يمر فى الحارة لايرى أحدا فى البيت، ولم يكن هناك شبابيك فى المستويات فوق باب الدخول والخروج، وأن وجدت فعليها مشربية ترى من في الخارج ولايراها.

وكان صحن البيت عادة ما تتوسطه نافورة وبئر، وكان المدخل والقاعات الأرضية من الحجر الجيرى الكبير والسميك، والذي يعتبر كأساس متين للبيت نفسه، وكان البناء بالقصرمل كمونة وبودرة الطوب الأحمر بخلطة يعرفها البناءون.

وكان فى كل بيت ساقية وطاحونة وآبار محفورة، وفي البيت مكان أو اسطبل حسب الحاجة وقد رممت الساقية، بعد أن نجحوا فى جعل الشجرة تنمو بعيدا عن الساقية وهذه الشجرة قديمة وعمرها من عمر بناء البيت، كما أزيحت شجرة نبق كانت مائلة على البيت فى مكان آخر مقابل ، والشجرتان أخذتا سنوات حتى استطاعوا أن يعدلوهما ولا

لقطتان من القاعة الكبيرة التى فرشت وتحولت إلى متحف بعد تزويدها بأطباق وأثاثات تعود إلى القرنين ١٧و ١٨ وفيها الخورنقات والصفات والبلاط الأزرق العثمانى



يتسببان فى كسر أو تدمير مبانى البيت أو تدمير الساقية التى رممت .

●●●

بيت السحيمى سكنه ثلاثة أشخاص، أولهم الشيخ عبدالوهاب الطبلاوى، وهو الجزء الأساسى من المنزل.. والثانى هو اسماعيل شلبى فى أواخر القرن العاشر الهجرى، وكان تاجرا، أما الثالث فهو الشيخ محمد أمين السحيمى، شيخ رواق الأتراك بالأزهر فى العصر العثمانى، وبيت الخرزاتي بين بيت السحيمي وبيت مصطفى جعفر، يبدو أن صاحبه كان متخصصا فى صناعة وبيع الخرز، ويقال أنه من نسل العائلات الفاطمية وكان تاجرا مشهورا.

وحارة الدرب الأصفر نفسها بما فيها من أزقة جرى تبليطها ببلاط معصرانى أى بعد أن جرى التعامل مع تجديد الكابلات الكهربائية وشبكات المياه وشبكات الصرف الصحي والتليفونات، كما جرى ترميم ودهان بيوت الدرب الاصفر كله وخاصة الأساسات وحجارة الأدوار الأرضية والمداخل وجرى عمل فوانيس إسلامية تضيء الحارة بالليل، وحتى مناشر الغسيل جري استبدالها بحديد مزخرف، وعمل مناشر إسلامية مثل القديمة ، كما تقول د. نوال المسيرى زوجة د. أسعد نديم، وهى أستاذة علم الاجتماع التى تعاملت مع السكان الذين رحلوا من المنطقة والموجودين فيها حتى الآن.

قال لى د. أسعد نديم بعد أن أوشك العمل على الانتهاء وفى أثناء زيارة وفد سياحى أجنبى للبيت : أن المشروع ليس ترميم وتوثيق بيت السحيمى فقط، لقد أصبح تنمية حارة الدرب الأصفر بكاملها، ولهذا جاء المشروع تنمية المنطقة وبداية لاحياء القاهرة الإسلامية وفك مشكلاتها ومعضلاتها، والاهتمام بالبشر الذين يعيشون وسط الآثار بحيث يكون نموذجا يحتذى فى القاهرة الفاطمية.

●●●

تصل مساحة بيت السحيمى إلى حوالى ٢٠٠٠ متر، أى حوالى نصف فدان وهو فى جانبه الشرقى والبحرى محاط بسور جرى إقامته، والبيت يقع فى منطقة جذب سياحى وشيد على عدة مراحل إلى أن وصل إلى وضعه اليوم، ويتضح ذلك من الكتابات الموجودة فى مناطق مختلفة بحيث صار متحفا كبيرا.

وأقدم جزء فى البيت هو الجنوبي الشرقى الذى شيده الشيخ عبدالوهاب الطبلاوى عام ١٦٤٨م، أما الجزء الثانى فقد شيده الحاج اسماعيل شلبى عام ١٦٩٩م، ويتضمن القاعة الرئيسية فى الدور الأرضى التى تتوسطها نافورة، وهناك إضافات أخرى تمت عام ١٧٣٠م، وعام ١٧٩٦ .

والدرب الأصفر يقع بالقرب من بابى الفتوح والنصر، وهو على الضفة الشرقية من شارع المعز كما يقع فى مواجهته حارة برجوان على الضفة الغربية من شارع المعز وقد ولد وعاش فيها المؤرخ تقى الدين المقريزى عام ١٣٤١م، وبيت السحيمى تحفة فى العمارة الإسلامية والنقوش الإسلامية والقاعات، وفى الدرب

الأصفر ثلاثة بيوت إسلامية متلاصقة، لكن بيت السحيمي هو النموذج المتكامل للبيوت الإسلامية في القرنين ١٧ و١٨ الميلاديين، وهو تحفة هندسية إسلامية لبيوت القاهرة الفاطمية التي تحدت الزمن

●●●

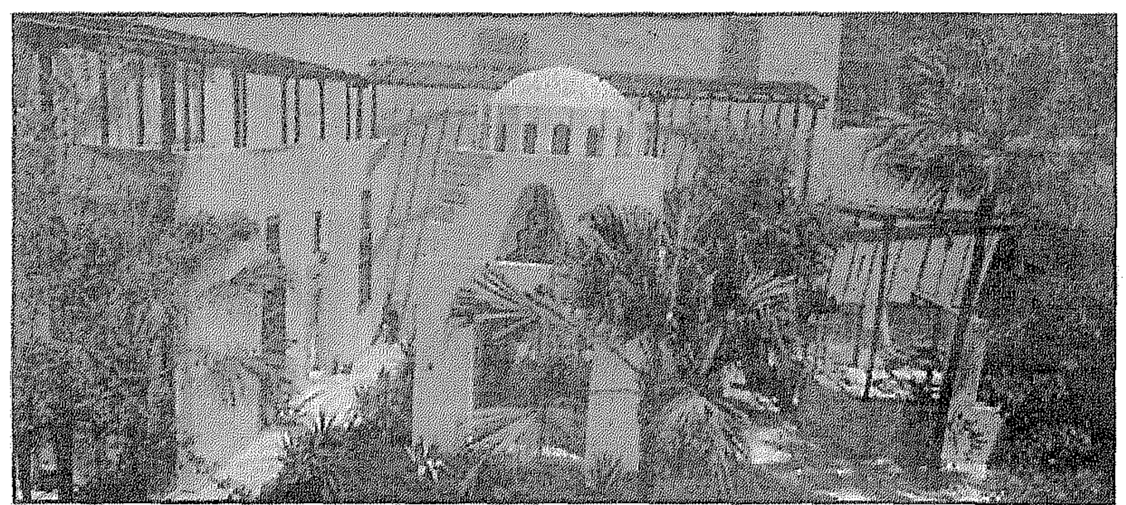
ود. نوال المسيرى تولت مسئولية التنمية الاجتماعية فى المشروع واتضح أن حارة الدرب الأصفر فيها ١٠٤ أسرات، وبها ٦٢ ورشة منها ١٧ ورشة ألومنيوم وفيها معمل طرشي، وهذا المعمل قديم ربما من عصر المماليك.

ويضيف د. أسعد نديم :التراث المصرى الإسلامى ليس ملكا للتاريخ بل لذاكرة الإنسان المصرى لأنه يعيش بين أحضانه وبين حوائطه، والعمارة الإسلامية في بيت السحيمي قدمت قبل القرن التاسع عشر مجموعة كبيرة من الحلول العبقرية التى توصل إليها البناءون والحرفيون التقليديون، وكان لبيت السحيمى خصوصية أثرية مهمة جاءت فى عدة مراحل من تاريخ العمارة مما تطلب التدقيق فى كشف العلاقة بينها، فهو نموذج كامل لبيوت القرن ١٧ و١٨ م، يكفل الخصوصية حيث المدخل المنحرف ليحجب أهل الدار عن خارجها، والأجنحة المستقلة ذات المناور والقاعات والحجرات المزينة بالزخارف، والتختبوش، وهو الجزء الملحق بالفناء البحرى لجلوس الرجال صيفا، وكذلك المقعد فى الجزء الجنوبى وهو يستقبل الريح البحرية، وهو يعتبر ملقف هواء، ولذلك فالبناء سقفه مائل ومرتفع لاستقبال الرياح البحرية، ويدفع بها إلى الحجرات الجنوبية لتلطيف الحرارة، وتوجد المشربيات والأسقف الخشبية المزخرفة والملونة والدواليب والخورنقات المعشقة والنافورات وفنون الرخام والنحت على الحجر.

وقد تم إنشاء جمعية تنمية الدرب الأصفر لحل أى مشكلة وبالذات النظافة والقضاء على التلوث البيئى الذى يؤذى الأثر والناس، ولأنه لولا تكاتف الأهالى مع المسئولين لاحترق سبيل وكتاب قيطاس مثلما احترقت المسافرخانة، وكان لابد من تهجير ٣٠ أسرة تسكن فى تكدس بشع حجرات كبيرة مقسمة بقواطع خشبية فى بيت الخرزاتى الملاصق للسحيمي، وهجرة وتهجير هذه الأسر فى مساكن جديدة فى مدينة السلام، والأهالى رفضوا فى البداية، فاصطحبت د. نوال المسيرى شباب هذه الأسر إلى المنطقة الجديدة ثم عادوا بعد أن اقتنعوا بالنقل، وبعد أن وافقت وزارة الثقافة أن تدفع لهم ٦٠ ألف جنيه ثمنا لشققهم الجديدة وألف جنيه مساعدة أيضا لكل أسرة. وأيضا نقل حارس بيت السحيمي واسرته.

●●●

شارع المعز هو الشارع الأعظم للقاهرة الفاطمية وأطلق عليه عام ١٩٣٧ اسم شارع المعز منشيء القاهرة. هذه التسمية ضمت أخطاطا وأسواقا منها ماهو قديم ومنها ماهو حديث وتمتد هذه التسمية مابين باب الفتوح إلى باب زويلة



الجزء القبلي من بيت السحيمي وفيه الساقية والطاحونة والبئر وايضا شجرة الزيتون القديمة وشجرة النبق .. يمكن أن تتحول إلى قاعة كبيرة للاجتماعات والحفلات

وتشمل شارع باب الفتوح وشارع أمير الجيوش والنحاسين وبين القصرين والصاغة والاشرفية والعقادين والمناخلية والسكرية وغيرها، كما تشمل دروبا كبيرة منها الدرب الأصفر.

ولم تكن تلك المسميات كلها ولا الأسواق التى أنشئت بعد ذلك موجودة عند إنشاء القاهرة الفاطمية، لأن القاهرة الفاطمية كانت مخصصة لسكنى الخليفة وفيها القصران الكبير والصغير.

وقد وصف المقريزى مؤرخ مصر ومحتسبها الأسواق فى الشارع الأعظم للقاهرة حسب مشاهدته فى القرن الـ١٥ بقوله: وقد أدركت هذه المسافة بأسرها عامرة بالحوانيت مملوءة بأنواع المآكل، والمشرب والأمتعة، تبهج العيون برؤيتها ويعجز العامة عما فيها من أشخاص وسمعت الكافة مما أدركت يفاخرون بمصر على سائر البلاد، ويقولون: يرمى عصر كل يوم ألف دينار على الكيمان والمذابل، يعنون بذلك مايلقى عليها من الشقاف الحمر التى يستعملها البناءون والجبانون والمتخلفة من حوانيت الطباخين، هذا عدا مايلقى من ورق البضائع وخيوطها، ومن كثرة عمران هذا الشارع والإقبال عليه أن الباعة كانوا يعرضون سلعهم فى الطريق حول الشارع ، كما كان رجال الشرطة يطاردونهم بين آونة وأخرى، لتضييقهم الطريق ومزاحمتهم لأصحاب الحوانيت.

والمقريزى لم يكن وصفه لهذا الشارع فى القرن ١٥ الميلادى الذى عاش فيه وبالقرب منه فحسب بل هو وصفه لما كان عليه الشارع فى القرن ١٣ الميلادى أيضا «أى القرن السابع الهجرى» وهو صورة حية لما كان عليه الثراء فى مصر حول شارع المعز أو الشارع الكبير.

هل تعود

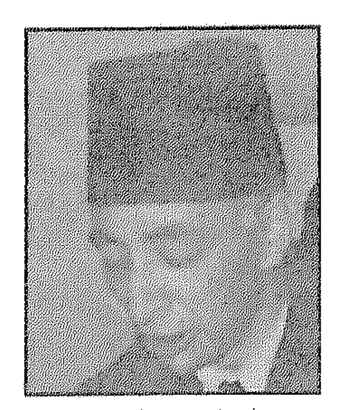




بعد أن كثر الكلام عن موت الشعر؟

بقلم : محمد إبراهيم أبو سنة

يتصور البعض أن التقدم العلمى وما يحمله من إنجازات تكنولوجية ووسائل للاتصال تغير معنى الزمن بسبب السرعة فى تحقيق رسالتها وتدفق المعلومات من خلالها، كل هذا سوف يقضى على الشعر ويوغل بالإنسان فى أعماق الآلية والبعد عن الأحاسيس المرهفة وتأمل الطبيعة والجمال، والذى لا شك فيه أن الإنسان وهو يصنع الأجهزة الاليكترونية يخضع على المدى البعيد لشروطها التى تفرضها على حياته.



إبراهيم ناجى





على محمود طه

وكمـا صـبغت الآلة البسـيطة وجـود الإنسـان بالنمطيـة والآليـة فى بداية ومع تطور العصـر الصناعى، فإن الإنسـانيـة مقبلة على تطور نوعى هائل يصعب التنبؤ بعواقبه ومداه ، والذى يحدث بالنسبة للفنون والآداب أنهـا تدفع الإنسـان لمواجهة مصيره ومقاومة الانهيار الروحى والأخلاقى، فقد ظهرت الرومانسية مع ظهـور الطبقـة الوسطى ونشـوء عصـر الصناعة وبعد أن جاءت مراحل زاد فيها الوعى بحقوق البشر والاهتمام بتكافؤ الفرص وظهرت صيحات الاستقلال والتنمية البشرية، فإن الفنون والآداب ومنها الشعر قد انعطفت نحو الواقعية، وحين هددت الحروب بويلاتها والانهيارات والتحولات المتلاحقة، القيم المستقرة فإن الفنون والآداب تحـولت إلى لون من الصـراخ العـدمى السـريالى فى بعض الأحيان، والرمزى فى أحيان أخرى وفى مواجهة الهيمنة للقوى الكبرى وعبودية المؤسسة ونمطية الآلة، والبطش العصرى بوسـائل من الصعب التغلب عليها، فإن الشاعر وجد أن القيمة الأساسية للوجود هى قيمة الحرية فى مواجهة القهر والتسلط ، الذى تعددت أشكاله وأنماطه ولم يعد فقط قهر سلطة سياسية أو قوانين ظالمة، بل هناك قهر التيارات المنغلقة المتعصبة.. ورأينا فى الآونة الأخيرة أن الشعر يسعى نحو الحرية بطريقة تنكرت لكل القيود والتقاليد، وانفرط النسيج الإيقاعى لينهمر النثر الهلامى.. وإزاء التساؤلات حول مصير الشعر، فإن منطق التاريخ يطمئنا على أن الشعر جزء من الظاهرة الإنسانية ، فهو فطرة إيقاعية تخيلية تسعى للارتقاء بالمشاعر والوجدان .. وإذا كان التقدم العلمى سيقوم برسالته فعلا وهى حل المعضلات الأساسية التى تواجه البشرية، وتوفير الحاجات الضرورية والكمالية فى زمن أقصر وبتكاليف منخفضة، والحيلولة دون التخلف والعودة إلى الوراء، والقضاء على الفقر والمرض والجهل، إذا قام العلم

برسالته الحقيقية فإن البشرية ستنعطف نحو عصر أكثر إنسانية يسود فيه العدل والسلام والتعاطف والتعاون. وهنا سيكون الوقت المكرس للاستمتاع بالفنون والآداب أكبر من الوقت الذى يتيحه زمان الأزمات.. وسيحاول الشعر أن يقوم بواجبه أيضا ضد تحول الإنسان إلى الفردية المطلقة والانعزال عن الطبيعة وعن أخيه الإنسان، وسيعود التوازن إلى العواطف الإنسانية إذا ما تمت تلبية الاحتياجات المادية الأساسية، قد تكون هذه رؤية متفائلة فهل تعود الرومانسية إلى الوجود ؟

الاقتراب من الفطرة

إن النظرة السائدة حول الرومانسية هى أنها تعبير عن الذاتية فى وعيها بواقعها، والدفاع عن هذه الذات فى مواجهة ما يهدد حريتها وحقها فى الحياة، كما أنها تمثل ضجر الإنسان من حياة المدنية بما فيها من آلية ونمطية وتعقيد واغتراب، فهى تخلق مناخا من التواصل مع قيم الحق والخير والعدل وتنشد الحب وتتعلق بالطبيعة سعيا إلى مزيد من الانطلاق، والبحث عن البراءة والاقتراب من الفطرة. وهى تتخذ من الحب شاغلا أساسيا فى مواجهة البغض والكراهية، وهى كلها عناصر تؤكد حنين الإنسان إلى التوازن الروحى والوجدانى والعقلى من خلال نفى الغربة والتعامل مع الآخرين ولا شك أننا فى عصر تتراءى فيه القيم المثالية وكأنها معرضة للتصدع والانهيار وهو ما يستدعى إطلاق نوع جديد من الرومانسية تختلف بكل تأكيد عن الرومانسية التى عرفتها أوربا فى مطلع القرن التاسع عشر وعرفها الأدب العربى فى الثلاثينيات من القرن العشرين .. ذلك أن رومانسية الثلاثينيات اتسمت بالتهويم والهرب من هجر الحبيب إلى العتاب بالأحلام والعذاب - يقول على محود طه :

أنا من ضيع في الأوهام عمره
نسي التاريخ أو أنسي ذكره
غير يوم لم يعد يذكره غيره
يوم أن قابلته أول مرة

ويقول إبراهيم ناجى فى قصيدة العائد :

أجر غربتى أيها العائد
فقد ملني الداء والعائد
أجر غربتى فبلادى الهموم
وليل بطىء الخطى راكد
تقاسمنى فى نواك الديار
وأنت لى الوطن الواحد
محياك دارى ومنك نهارى
إذا ضمك الصدر والساعد
أجز شفتى من عذاب الظما
أما أذن الله أن ترحما
أنمعن فى الهجر حتى ترانا
بكينا دما واحترقنا فما ؟
ولى رمق صنته كى أراك
فأشفق على رمقى ريثما
إذا طلب الحب برهانه
من الموت لبيت كى تعلما
ليالى مرت هباء عقيما

فهل تتوالى البواقى سدى
أسائل جرحى عمن جناهِ
وأرنو فأستخبر العودا
فما طلعوا اليوم بالبشريات
ولا عللوا بالتلاقى غدا
فلما تنكر حتى المحب
تلفت أسأل عنك العدا
سلام على غائب عن عيونى
حملت حطامى إلى داره
وقلت لقلبى تمهل بنا
وخبىء شقاءك أو داره
تناسى الأسى ها هنا أو يقال
حملت الظلام لأنواره
أتغدو إلى عتبات النعيم
بلفح الجحيم وإعصاره

ولا شك أن هذه الرومانسية كانت انعكاسا لواقع رازح تحت ثقل العادات والتقاليد القديمة ، قبل أن تهب روح الحداثة وتتحرر المرأة وتخرج إلى العمل، فيراها الرجل فى المكتب والشارع والمتجر ويتحدث إليها ويشاركها الرأى فى كثير من قضايا المجتمع، وتسقط عنها أقنعة العصور الوسطى والغموض الذى خلقه حجبها وراء الأستار الكثيفة، فتحولت بسبب ذلك كله إلى أسطورة وحلم إذا أحبه الشاعر أحاطه بالقداسة، وها هو إبراهيم ناجى ينظر إلى دار المحبوبة فيحولها إلى مكان مقدس حيث يقول :

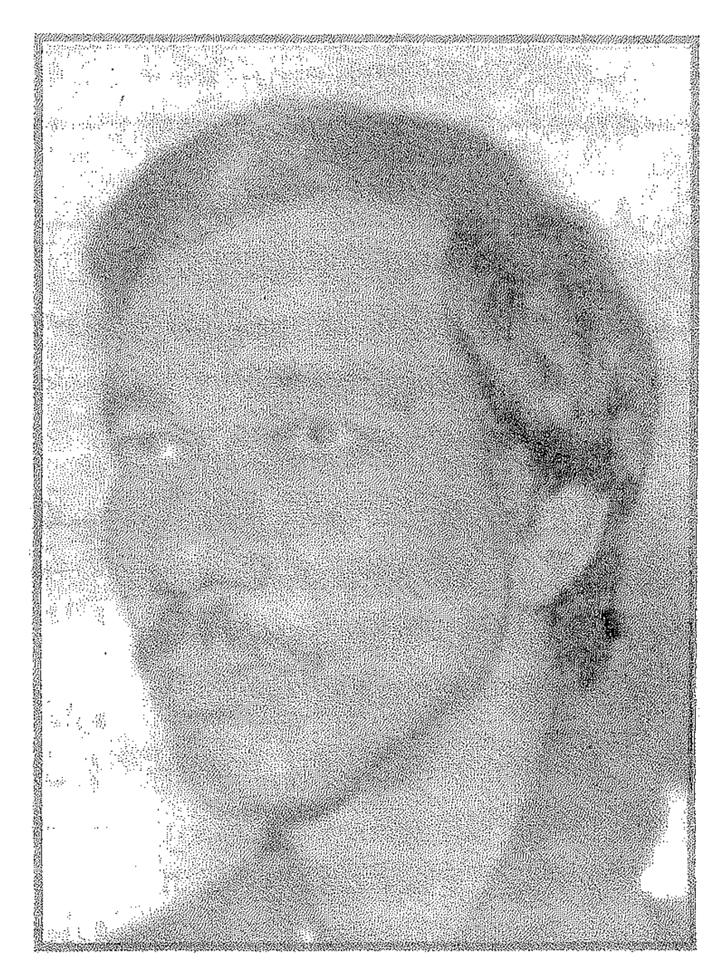
هذه الكعبة كنا طائفيها
والمصلين صباحا ومساء
كم سجدنا وعبدنا الحسن فيها
كيف بالله رجعنا غرباء

وبعد سقوط الأقنعة عادت المرأة إلى هيئتها الإنسانية بدلا من هيئتها الأسطورية، وأصبح الشاعر يراها ويحبها ويهجرها وتهجره.. وترى رأيها فيه كما يرى رأيه فيها.. وهكذا تتداعى أول ملامح رومانسية التهويم.. وتبدأ رومانسية تتمسك بالحب ولكن على أساس جديد، أساس يقوم على المعرفة والمشاركة بدلا من الظن والوهم والتخمين، وهنا لن يكون مجال لصدمة تطيح بالعقل كما حدث مع الشعراء المجانين، بل حب يرتبط بالحياة ويعرف أبعادها، ويجعل من مشاركة الرجل والمرأة سلاحا فى معركة الحياة ضد الغربة والأنانية والعزلة. كما أن الرومانسية الجديدة إذا عادت ستحمل الطبيعة إلى المنزل ،بما تتيحه أجهزة الإرسال والاستقبال من إمكانيات تنقل بها صور الطبيعة فى البلاد المختلفة إلى كل إنسان ، وبدلا من أن يقع الإنسان فى عشق طبيعة بلاده وحدها سيرى تجليات جديدة لطبيعة بلاد ربما لا يتاح له رؤيتها طوال عمره، إذا عادت الرومانسية ستعود بقيم جديدة تتأثر بتطور العلوم والفنون، وبدلا من الحماس لوطن واحد ربما ظهر الحماس للإنسانية بأسرها ، وإذا كانت الأجهزة ستصنع إنسانا جديدا من الإنسان الذى صنعها ، فقد يستخدمها الشاعر ليصنع منها أجهزة أكثر إنسانية تعيد إلى الإنسان حريته وعشقه للجمال والسلام والحق والخير والحرية .

دفاعا

عن الراحل

الكبير



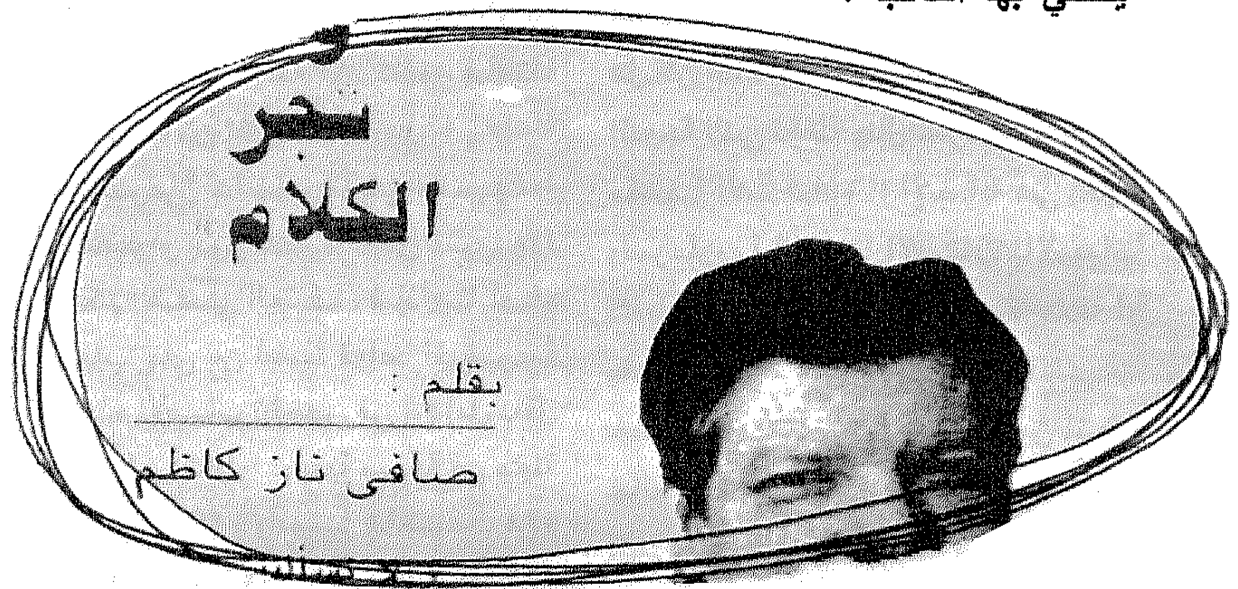
أمل دنقل .. الإنسان والشاعر

شجر الكلام وكلام المشاجرة

«إليك عني يامن لم تعرف عينيه الدموع
ولم يعرف قلبه البكاء»
«جوتيه»

بقلم : د. فهمى عبدالسلام

في عدد الهلال مايو ٢٠٠٠ ، اتخذت الاستاذة صافي ناز كاظم فرصة الاحتفاء بديوان «شجر الكلام» للشاعر محمد إبراهيم أبو سنة ، تكأة لشن هجوم ضار علي الشاعر الراحل الكبير أمل دنقل ، الذي لا يملك الآن القدرة على الدفاع عن نفسه ، فقد رحل عن دنيانا الفانية منذ ١٧ عاما. ولن نقول إن العرف كان يحتم علي الاستاذة صافي ناز ، أن تشن هجومها الضاري وأمل على قيد الحياة ولن نقول إن الاستئساد على الموتي مسألة قد لا يراها البعض من شيم الكرام ، لأن الرد موجود وجاهز ، ألا وهو أن أمل دنقل شخصية عامة ، وأن تقييم الشخصيات العامة لا يمكن أن يندرج تحت بند اذكروا حسنات موتاكم ، فأمل دنقل شخصية عامة ، وتجربتاه الشعرية والحياتية ، أصبحتا الآن ملكا للجميع ، لكن المشكلة في كيفية التقييم ، وفي مدى الموضوعية التي ينبغي أن يتحلي بها الكاتب .



السؤال الآن ، هل تسلحت الاستاذة صافى ناز بالموضوعية الواجبة وهى تتناول تجربة أمل دنقل الشعرية ، الحقيقة أن الاستاذة صافى ناز أساءت الى نفسها كثيرا بمقالها العجيب ، والذى جاء مخيبا للآمال على كل الوجوه ، بابتعادها المدهش عن الموضوعية فى أحكامها . فهى على حد قولها وبنص كلماتها «فى كل شعر أمل دنقل لم أستسغ إلا قصيدتين البكاء بين يدى زرقاء اليمامة عام ٦٧ ولا تصالح ولو قلدوك الذهب عام ١٩٧٧» .

ولن نقول حكم جائر ظالم ، وبالمناسبة القصيدة الثانية هى «لا تصالح» وليست «لا تصالح ولو قلدوك الذهب» ، ويحق للأستاذة ألا يروق لها شعر أمل دنقل كله، وبلا حتى استثناءات ، لكن لا يحق لها أن تصدر هذه الأحكام القاطعة دون دليل أو برهان أو حيثيات من أى نوع . فهى لم

تأت بقصيدة واحدة من دواوين شاعرنا الراحل لتنير لنا نحن القراء موضع الضعف أو الركاكة فى شعر أمل وشاعريته ، ولم تحدد لنا موضعا للعثمة الشعرية أو لاضطراب المعنى أو لسخافة الفكرة أو هشاشة البناء أو ترهل القصيدة أو طيش المعنى . لم تفعل الاستاذة شيئا من هذا أو من ذاك ، فقد اكتفت برمى شاعرية أمل دنقل بحجارة من سجيل ؛ إلا القصيدتين اللتين استساغتهما ذائقة الاستاذة ، فأفلتتا والحمد لله من المذبحة .

سرعان ما تخبرنا هىَ بنفسها - بقصد أو بدون قصد - عن سبب هذا الحكم القاسى العنيف ، فإذا بنا أمام أسباب تنأى عن أبسط قواعد الموضوعية ، وهذه الأسباب تتلخص فى أن أمل دنقل كان ينشر أشعارا حسية سمجة فى مجلة الكواكب (!!!) ، وأنها هاجمت هذه الأشعار ، فكرهها أمل دنقل ، وبادلته الاستاذة كراهية بكراهية ، لدرجة أنها قذفت الشاعر أمل دنقل بكوب من الشاى الساخن (!!!) .. الحقيقة واضحة إذن ، فالحكم القاسى لم يأت إلا إثر خلافات شخصية بحتة ، لا علاقة لها بالشعر أو بشاعرية الشاعر ، السؤال الآن هل يستطيع المرء أن يثق فى أحكام تحتوى على كل هذا القدر من الذاتية !! .

الحقيقة أن الاستاذة الناقدة الكبيرة صافى ناز كاظم ، لها سوابق فى هذا المضمار ، ولا أقصد القذف بأكواب الشاى لا سمح الله ، لكننى أقصد إطلاقها أقسى الأحكام الذاتية ، والتى لا علاقة لها بأى تقييم موضوعى يناشد وجه الفن أو يتحلى بالأمانة الواجبة ، فحينما مات الروائى الكبير فتحى غانم ، كتبت الاستاذة وفى «الهلال» أيضا ، أنها ومنذ فترة طويلة وضعت كل إنتاج الروائى فتحى غانم فى سلة الزبالة (!!!) ، لماذا ؟! هل لأن انتاج فتحى غانم لا يرقى إلى الدرجة التى تجعله ينال شرف الوجود فى مكتبة الاستاذة ؟! الإجابة هى نعم ، وسرعان ما أخبرتنا الاستاذة بالأسباب كالعادة ، وكالعادة كان السبب لا علاقة له بقدرات فتحى غانم الروائية ، فقد دب خلاف شخصى بين الاستاذة وبين فتحى غانم ، حينما كان فتحى غانم رئيسا لتحرير مجلة روز اليوسف ، فأجرم فتحى غانم عندما رفض نشر مقال لها ، فغضبت الاستاذة ، وهرعت الى منزلها ، وألقت بكل أعمال فتحى غانم إلى مكانها اللائق ، إلى صفيحة زبالة الاستاذة ، والسؤال الآن هل المسألة أن يرفض رئيس تحرير إحدى المجلات ، نشر مقال لأى سبب من الأسباب ، فأقوم بإلقاء كل انتاجه فى الزبالة ، حنانيك يا أستاذة ... كرهت الاستاذة أمل دنقل ، فلم تستسغ له سوى

القصيدتين وبالعافية ، أما الراحل المسكين فتحي غانم ، الذى كان أقل حظا من أمل دنقل ، كرهته الاستاذة ، فكان مكان كل إنتاجه هو صفيحة الزبالة . (....)

نزار والإعجاب بأشعار أمل

لا يسعنا حيال هذا ، سوى القول : لله الأمر من قبل ومن بعد ، لقد جاء حكمك يا أستاذة عنيفا وقاسيا ، وجاء مثل الكلام المرسل الذى لا يعتد به ولا يمكن أن نأخذه مأخذ الجد ، فشاعرية أمل دنقل لا ينقصها الاعتراف من سيادتك ، فقد نفدت أعمال أمل دنقل الشعرية الكاملة أكثر من مرة ، ومنذ فترة قصيرة ظهر كتاب ضخم (١٢٠٠ صفحة تقريبا) يضم جزءا مما كتب عن قدرات أمل دنقل الشعرية الهائلة واسم الكتاب هو سفر أمل دنقل ، وأحيل سيادتك الى الكلمة العظيمة التى كتبها الشاعر الكبير الاستاذ أحمد عبد المعطى حجازى ، فى جريدة الاهرام ، وكانت بمناسبة مرور ١٥ عاما على وفاة أمل دنقل ، كتب الشاعر الكبير حجازى أن حضور أمل دنقل الشعرى يزداد كثافة بغيابه ، ومنذ فترة وجيزة صرح د . جابر عصفور فى حديث صحفى ، بأنه مازال متوقفا عند شعر أمل دنقل . والشاعر الكبير نزار قبانى صرح فى حديث له قبل وفاته ، بإعجابه الشديد بإنتاج أمل دنقل الشعرى . والذى قدم أمل دنقل الى الحياة الأدبية ، لم يكن سوى الراحل الكبير لويس عوض حينما كان مشرفا على الصفحة الأدبية فى الأهرام ، والذى نظم أمسية لتأبين أمل دنقل فى أتيليه القاهرة فى ذكرى الأربعين لوفاة شاعرنا الراحل ، كان لويس عوض ، وحضر الأمسية حشد هائل ، وتحدث خلالها الدكتور عز الدين اسماعيل والأديبة الدكتورة رضوى عاشور والشاعر الكبير عبد الرحمن الأبنودى وألقى الشاعر فاروق شوشة مرثية لأمل دنقل واستمرت الأمسية أربع ساعات .

والاستاذة صافى ناز تشعر بالدهشة الشديدة كما تذكر فى المقال إياه «من الدعم المعنوى الذى يلقاه من صلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطى حجازى فى مواضع سلطوية (!!) فى النشر والثقافة وغيرهما (!!) ، وبغض النظر عن التلميحات الواردة فالاستاذة صافى ناز تشعر بالدهشة الشديدة (والأدق هو الغيظ الشديد) إذ كيف يحظى أمل بدعم صلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطى حجازى؟، لأنهما من كبار الشعراء يا أستاذة ، وموهبة أمل كانت واضحة لهم ، وعرفنا قيمته كشاعر وكإنسان ، فشاعرية أمل دنقل تملأ عين الشمس ، وحضور أمل كشاعر ، يزداد بغيابه كما كتب الشاعر

الكبير أحمد عبد المعطى حجازى ، ولا يزال الكثير من القراء وكبار النقاد، متوقفين عند أشعار أمل دنقل ، كما صرح د . جابر عصفور .

كنت أتمنى أن تحذو الكاتبة الاستاذة صافى ناز كاظم حذو الناقد الكبير الاستاذ رجاء النقاش ، الذى اعترف بخلافاته الشخصية مع أمل دنقل ، وتسامى على هذه الخلافات وأشاد بشاعرية أمل دنقل وبموهبته الكبيرة . فلم ينكر الاستاذ رجاء هذه الموهبة على الرغم من الخلاف الشخصى ، وعندما كان الاستاذ رجاء رئيسا للتحرير فى مجلة الدوحة ، نشر للشاعر حسن طب قصيدة اسمها زبرجدة الى أمل دنقل ، لكن الاستاذة صافى ناز كما انهالت على قامة أمل دنقل الشاعر ، انهالت على أمل دنقل الإنسان بوابل من القذائف الجارحة الثقيلة ، فهو كما ذكرت نمام حقود ، يحقد على أبو سنة لوسامته (مع أنها صفة تليق بكاظم الساهر أو بحسين فهمى ولا علاقة لها بالشعر) ، وأمل دنقل (أسمته أمل قابيل) مشعل حرائق وينقل حطب النميمة ، له نفس إله الشر المزعوم ست (!!) يبدو على الرغم من صغر سنه عجوزا دائما ، أكثر المخالب تجريحا ، يسيل الدماء ، ينغرس فى كل اسم ويدميه ... وهكذا فيض مما لذ وطاب من الشتائم ، فصورت شاعرنا الكبير الراحل وكأنه شيطان رجيم يستحق أن نخرج عظامه من القبر حتى تهيم روحه معذبة فى ظلام الأبدية .

أمل .. إبن موت !

عرفت أمل دنقل عام ٧٣ ، وتوطدت بيننا صداقة حميمة ، امتدت حتى وفاته الفاجعة عام ٨٣ ، والحقيقة والأمانة تقتضيان منى أن أصحح للقارىء الكريم ، الصورة الرهيبة التى رسمتها الاستاذة لشاعرنا الراحل .

لم أر فى حياتى من يكافىء أمل دنقل رحمة الله عليه رقة وإنسانية وفروسية ونبلا، كان أمل دنقل نسيجا وحده ، كان «إبن موت» كما يقول شعبنا الطيب على الافذاذ والنوابغ الذين يموتون مبكرا ، تألق أمل دنقل بسرعة كالشهاب توهجا وألقا فى حياتنا الثقافية والأدبية ، وذوى سريعا كما يذوى الشهاب ، ومات أمل دنقل وهو على عتبات النضج فى الثانية والأربعين من عمره ، عشرة أعوام لم أر أمل دنقل خلالها يعتدى على فنان حقيقى أو على شخص ضعيف أو على إنسان مسالم، وبقدر ما كان موهوبا كشاعر ، كان على نفس القدر من الموهبة الفذة فى قراءة الناس والتعامل معهم بما يستحقون، فالفنانون الحقيقيون والطيبو القلب ، كان لهم الحب والتقدير والتعاطف مع ضعفهم الإنسانى والتسامح معهم، أما الأدعياء والمزيفون والمتنطعون ، كان أمل يجيد التعامل معهم ، وكان يتفنن فى الإيقاع بهم ثم جلدهم بلا رحمة .

أزعم أن كل ضحايا عدوانية أمل دنقل

المزعومة ، كانوا من تلك النوعية الرديئة من البشر ، وأزعم أننى لم أر مثل أمل دنقل تعففا فى النأى عن الدنايا وفى الكبرياء النبيلة وفى الاعتداد بالنفس . كان يجلس على مقهى ريش وهو الشاعر الكبير جائعا على الطوى ، وحوله من يتمنون أن يطلب أمل من أحدهم أى نقود أو دعوة للطعام أو للشراب ، فيظل جالسا يعبث بأصابعه الطويلة النحيلة كأصابع قاتل أو فنان ، فى خصلات شعره ، منتظرا مجىء صديق ، فإذا ما جاء الصديق يطلب منه أمل ثمن سندويتش فول بالبيض من محل فلفلة ليقيم الأود . كان عارا على مصر كلها ، أن هذه القامة الشعرية المديدة ، وهو إبن الأسرة الكريمة فى دشنا – محافظة قنا ، والذى هج منها بهياج شعرى طاغ ، كان عارا على مصر كلها أن يحاصر ، وأن يتم تهميشه ، فيقطن فى لوكاندة رثة بالقرب من ميدان العتبة ، وكان يخجل منى أن أراها ، فكنا نفترق فى الميدان .

كان أمل خشنا مثل شعره ، وكان رقيقا مثل شعره ، وأحبه أصحاب المواهب الكبيرة الذين يحملون بالضرورة ، نفوسا كبيرة ، فكان د . لويس عوض بجلالة قدره ، خريج كامبريدج ، والذى كان يقول عن نفسه المعلم العاشر (قائمة من معلمى الإنسانية كانت تبدأ بأرسطو وتضم السيد المسيح وتنتهى بالدكتور لويس عوض)، كان الدكتور لويس عوض يسعى إلى أمل دنقل ، وكان يبحث عنه ، ويجلس معه بالساعات ، يتحدثان فى ندية ، وكان لى شرف حضور عدة لقاءات من هذا النوع .

ذات مرة كنت فى زيارة لأمل فى معهد الأورام ، وكنا مساء يوم من أيام الجمعة ، وحضر د . يوسف إدريس الذى كان يحب أمل ويقدره ، فرأى يوسف إدريس أن أمل لم يكن مشرق المزاج كالعادة فشكا إليه أمل أن فاتورة علاجه بمعهد الأورام قد تضخمت ، وأن جهات كثيرة والعديد من المحبين والأصدقاء من العالم العربى ، عرضوا عليه خدماتهم بدفع نفقات العلاج، منهم منظمة التحرير الفلسطينية ، ومنهم الشاعر الكبير محمود درويش ، وأن أمل رفض كل هذه العروض الكريمة ، حتى لا يتم علاجه بنقود غير مصرية ، فتأثر الدكتور يوسف إدريس تأثرا شديدا ، وطلب من أمل أن يكتب قصيدة بشكل عاجل ، لأنه (د . يوسف إدريس) سيمر على أمل يوم السبت ليأخذها، وفى يوم الاثنين فتحت جريدة الاهرام ، لأجد مفكرة يوسف إدريس (مقالات كانت تنشرها له الأهرام صباح كل اثنين) قد ازدانت بقصيدة «ضد من...؟!» الرائعة ، ومع القصيدة الجميلة الشجية كتب يوسف إدريس خطابا

مفتوحا إلى د . فؤاد محيي الدين رئيس وزراء مصر ، خلال الرسالة يناشد د . يوسف إدريس في رئيس الوزراء الحالي ، ويخاطب فيه طالب الطب الثوري الذي قبض عليه مع د . يوسف إدريس في مظاهرات الطلبة عام ٤٦ ، أن تتدخل الدولة لعلاج شاعر أقام من لونين (الأبيض والأسود) دراما شعرية عميقة مليئة بالشجن وبالذات المتوحدة على نفسها وعلى آلامها وعلى آلام الوطن ، دراما الحياة والموت والتطلع الى المجهول.

كان أمل دنقل رحمة الله عليه ، يتمتع بقوة باطنية فذة هائلة، قوة غير إنسانية فوق طاقة البشر ، وبصلابة لم أر مثلها ، وكما واجه أمل الحصار والتهميش والتجويع وإساءات العامة والأدعياء، تحمل كل هذا لاهدف له سوى الشعر ، محافظا على سلامة روحه وموهبته من أدنى تلوث، وحينما لاحت نذر الموت واجهها أمل دنقل في شجاعة نبيلة تستحق أن تكون مضربا للأمثال . وحتى نعرف الفارق ، سنقارن بين أشعار أمل دنقل خلال محنة الموت، وأشعار قامة شعرية كبيرة كقامة أمل ، فحينما لاحت نذر الموت وتبدت لعيني الشاعر العراقي الكبير بدر شاكر السياب، وكان السياب شاعرا كبيرا مثل أمل ، وكان السياب عاطلا عن الوسامة مثل أمل ، ولمع السياب سريعا مثل أمل، ومات السياب صغيرا مثل أمل، وحينما رأى السياب شبح الفناء ، انهار واضطرب وبكى نفسه شعرا وطلب النجاة وكتب سفر أيوب الحزين الرائع «لك الحمد مهما استبد البلاء» ، أما شاعرنا الكبير فازداد صلابة ونبلا في مواجهة الموت، فكتب أمل قصائد أوراق الغرفة ٨، كانت الغرفة ٨ هي مسرح أمل الأخير ، يتحلق حوله الأصدقاء المحبون من مصر والعالم العربي ، فيتوهج أمل شعرا وحديثا وحكايات تمتعنا وتضحكنا من قلوبنا ، وهو المريض الذي يتنفس بالكاد وهو نجم الجلسة الذي لا يباري ، والحقيقة المرعبة ماثلة أمام عينيه ، كان أمل يراها في عيون الاصدقاء ونظراتهم العميقة ، كان أمل يراها سوداء بلون تراب الوطن ، ولم ينخدع وهم «يوهمونه أن السرير سريره»، كان يعلم أن سرير معهد الأورام لم يكن إلا قبرا وطريقا إلى العدم، فكتب أجمل أشعاره وأرقها وأكثرها عمقا ونفاذ بصيرة، ومات الشاعر في صيف ٨٣ ، أما أشعاره فستظل حية خالدة في قلوب وفي وجدان محبي الشعر الجميل ومتذوقيه من أبناء أمتنا العربية .

كان لابد من تقديم صورة أمل دنقل لأجيال جديدة شابة ، قرأت شعر أمل وأحبته ، لتصحيح الصورة الأليمة التي رسمتها الاستاذة صافي ناز كاظم ، فلم يكن أمل دنقل بالشيطان الرجيم ، فقد عاش أمل دنقل شاعرا رقيقا نبيلا ومات شاعرا رقيقا نبيلا .

كتاب الهلال

يقدم

أفكار تافهة لرجل كسول

تأليف

جيروم ك. جيروم

ترجمة

د. أحمد مستجير

يصدر

٥ يونيو - ٢٠٠٠

روايات الهلال

تقدم

بوح الأسرار

بقلم

محمد جبريل

تصدر

١٥ يونيو - ٢٠٠٠

مرثيات دنانية

شعر :

عماد غزالى



نحلةٌ

من كونك المصهور فى عينى
تولد نحلةُ الرُّؤيا،
وأنت نثرت هذا الضوء
فى كهف المرايا فاستبان،
وفى فضاءٍ من إبرْ

تتهيأ

للنُّور عاصفةٌ،
ولستُ مهيأً للورد،
أشهد،
ما الأكفُّ تشدُّ صارية المدى،
والطير ليس بصاحبى
ياريحُ
حتى يصطفينى بالنذرْ.

تغشي

ها أنت تعلم،
ما امتشاقُ الحلم،
ما ومض البراح،
إذا استشاطت بالجنى الأرواحُ
آماق البرايا بالصور.

الدُّخان

ها أنت تشهد ما تفيض من الدخان
ومايرينُ على ثريات الأفق
نسجٌ من الفوضى يفجر غابة،

فإذا يداك
تعيدُ تشكيل الوجود،
لتتجلى صورٌ أُخرْ

علي برزخ

ها أنت تقرئنا انكسارات المدى،
هل نحن فى الأعراف تآلفنا
وتوحشنا المدائن ثرةً باللون
والزّهر المشاكس؟
أم توزعنا على جنبات هذا النهر،
قلنا :
تلك جنات بعادُ
ذاك يمٌ لايلوحُ
وهذه روح شريدة

وتطير

ها أنت تبرىء،
يفلتُ الخـفقُ الجسـور إلى هيـولى
العطر،
يطرق واحداً بابا . فننصتُ،
نكتوى بالتوق،
يرجع راقصاً
فنشدُّ غيمتنا ونبحرُ
خلفنا رملٌ،
وتدفعُ خفقنا ..
نارُ
على الجزر البعيدة.



المكان فى الرواية

نهاية الصحراء بداية الأرض

بقلم: يوسف أبو ريه



فى صيف عام ٧٩، كنت أعمل بقسم المخطوطات بدار الكتب المصرية ، وعندما اقترب يوم العمل من نهايته، وهيأت نفسى لترك المكان ، وانتشر العمال لغلق النوافذ، على لهيب الشمس المقتحم للمكان عبر الزجاج المطل على النيل ، دخل علينا رجال يسيل العرق من جباههم، يرتدون الجلابيب الإفرنجية ، ويلهثون بسبب صعود درجات السلم . كانوا ثلاثة شممت عرقهم حين دنوا من مكتبى الواقع فى زاويه من قاعة الاطلاع الرحيبة، نظرنا إليهم - أنا وزملاء العمل - بدهشة ، لم نعتد مثل هؤلاء، فالمترددون على المكان دارسون ، وبحاث، ومحققون متخصصون فى التراث القديم بينما القادمون الجدد لاينسبون لمثل هذه الطبقة، وحين تحدث أحدهم، التقطت أذنى لهجة ريفية ، تقارب لهجة البلدة التى نشأت بها.

قالوا إنهم جاءوا للبحث عن مخطوط، يتضمن تاريخ قريتهم وتاريخ الولى الذى تنسب إليه القرية، فقد أبدى فى الأيام الأخيرة كرامات جليلة ، استدعت الاهتمام الفائق به، والسؤال عن تاريخه، وإنهم يريدون الحصول على نسخة مصورة من هذا المخطوط يصدروا بها مقامه، حتى يلم شبان القرية بتاريخه المجيد، تعاطفت معهم ، وأمرت عدداً من زملاء العمل بالبحث عن هذا المخطوط.

وفى طريق عودتى إلى شقتى التى أقطنها وحيداً ، عاتبت نفسى:

- هؤلاء أناس بسطاء جاءوا للسؤال عن أصل قريتهم وتاريخها البعيد ، وأنت



يوسف أبو ريه فى رحلة بين أبناء قرية تابعة لمدينته

الجالس بين هذه الكنوز لم تحاول البحث عن تاريخ بلدتك المجهول ، ولم تحاول البحث عن أصل اسمها الغريب (ههيا) ، لتتخلص من تهكم أهل البلاد المجاورة الذين يطلقون عليها بلد النصف ضحكة!

وأجابت نفسي على نفسي:

– لقد أهملت ذلك ظناً منك أنها بلدة بلا تاريخ ، فمن المؤكد أنها لم تلفت نظر المؤرخ القديم ولا المؤرخ الحديث ، فهى بلدة لا قيمة لها ، لا تملك شيئاً يميزها، ولم يقع بها حدث كبير يسجل اسمها في صفحات التاريخ ، ولم تمتلك أثراً عريقاً يؤكد أهميتها ، ويلفت الانتباه إليها.

ووصلت فى النهاية إلى قرار.

– حاول .. ولك شرف المحاولة.

وبدأت رحلة البحث المضنى.

ها هى ببوسطة تقع إلى جنوبها على مسافة عشرة كيلومترات ، وها هي صان الحجر تقع إلى شمالها الشرقى على مسافة تقارب الأربعين كيلومترا.

وعلى مسافة قريبة تقع هربيط التى تخفى أرضها عدداً من الآثار الفرعونية قليلة الشأن .

وإذا كانت كل من ببوسطة وصان لاتملكان أهمية حاسمة فى التاريخ الفرعونى كما كان لطيبة (الأقصر) وكما كان – من قبلها – لمنف – البدرشين ، والاسكندرية – راقودة فى العصر البطلمى والرومانى .

دعك من القاهرة فهى مدينة الطبقات الچيلولوچية للعصور التاريخية التى

تلخص التاريخ المصرى كله. فقد نشأت كلا المدينتين المنسوبتين لاقليمك الشرقى فى العصور الفرعونية الأخيرة ، بعد نهاية عصر الأسرات العظمى.

مونولوج شجى

فماذا يكون موقع بلدتك بينهما ؟ لاشيء.. مثلها مثل كثير من المدن الصغيرة المنتشرة على امتداد الوادى والدلتا.

وخرجت من الرحلة المعذبة بهذا المونولوج الشجى فى روايتى الأخيرة (الجزيرة البيضاء):

«من الذى منحك اسمك؟

السلطان الأيوبى الصالح نجم الدين أعطى اسمه للصالحية. والعباسة أخت أحمد بن طولون أعطت اسمها لبلدة العباسة. والمقاول إبراهيم زقزوق ترك اسم عائلته للزقازيق . (وهبه محمد على الكبير هذه العطية لدوره العظيم فى جلب العمال الذين رفعوا على أكتافهم حجارة القناطر التسعة التى كانت سبباً لنشأة هذه المدينة الحديثة).

المدينة الغلابة التى كانت على موعد مع العصر الجديد. فقضت على بلبيس العريقة ، سحبت منها الأوراق والأختام والموظفين والتجار والأعيان ، وكانت نشأتها فارقاً فى الزمان ، غلقت على بلبيس أبواب التاريخ ، وفتحت لنفسها نوافذ ، ومهدت طرقاً نحو عالم المدينة المعاصر ، قطعت جيوش الغزاة الطريق بعيداً عنك.

كنت قابعة على أرضك السوداء إلى جوار النهر كامنة فى سذاجتك ، كأن الأمر لايعنيك ، واكتفيت بإرسال الخراج لمن غلب ، وتطهرت أرضك من دنس أقدام الجند ، تدور المعارك فى ساحات بعيدة ، تنصتين إلى عجيجها ، ولا ينتفض لك عرق . فهل كنت عليمة بالنهايات؟

دوماً هناك فوق تلك الأرض قابضة على أذيال ثوبك البالى من ماء الفيضان، وترفعين أقدامك خشية السقوط فى مهوى البرك والمستنقعات التى يخلفها وراءه.

هؤلاء أول القادمين ، إنهم الرعاة الذين أسمتهم كتب التاريخ الهكسوس . هاهم يدقون أوتاد خيامهم من وبر على أطراف الصحراء ، بينك وبينهم مسافة كافية ، تكفل لك الحماية.

يمر قمبيز فلا يقف على أعتابك..

ويأتى الاسكندر من الغرب فتنأى عنك المسافات، فهذه المرة يأتى الأغراب من الجهة المعاكسة، وصارت أرضك طرفاً شرقياً لا تطاله اليد، فهل كنت بعيدة حقاً؟.

ويجئ يوليوس قيصر، ثم أكتافيوس، وتبدل أسماء المدن، هل حقا كنت موجودة؟ هل كان لك اسم؟ أولدت فى زمن الفراعين أم فى عصر البطالسة؟ هل كنت نواة قرية حين كانت أرضك تسمى جاشان؟ هل منحك يهوه إلههم الدموى اسمك؟

وجاء عمرو ليعيد للطريق الشرقى الحياة.

فأين كنت يوم عبر بجيشه؟

وانتهت الرحلة إلى العثور على سطور

قليلة فى كتاب محمد رمزى القاموس الجغرافى، وسطور أخرى، خطها علماء الحملة الفرنسية حين عبروا هذه القرية للوصول إلى نهاية النهر عند بحيرة المنزلة.

★★★

يقول محمد رمزى (ههيا اسم قبطى قديم ذكرها جوتييه فى قاموسه تحت اسم Heha وكانت تتبع مركز الصوالح، ثم نقل المركز إليها عام ١٨٩٦ نظرا لوقوعها على السكة الحديد).

انتهى عصر البلدان التى تقع على حافة الأرض السوداء وبداية الصحراء، البلدان التى تمثل مستقراً للقوافل العابرة من الشرق إلى العاصمة، وارتفع شأن المدن النهرية والتى تقع فى عمق الأراضى الزراعية، وزاد فى إحيائها وتوسعها السريع إنشاء السكك الحديدية.

تماما كما حدث للزقازيق التى سلبت دور بلبيس العريقة.

وقلت أنا فى «الجزيرة البيضاء» روايتى الأخيرة، وقد آثرت أن أطلق عليها الاسم الخرافى الذى ابتدعه العامة من أهل البلد، حيث تقول أسطورتهم - حين عجزوا عن تفسير الاسم عربياً- إن أحد الأعراب قدم من صحرائه القريبة ليسأل عن قرية بهذا الاسم، فأشار إليه أحدهم وقال: ها هى الجزيرة البيضاء، واختفى - بعدها - الاسم الأول ليتخذ من اسم الإشارة «ها هى» الاسم الحالى للبلد.

قلت فى «الجزيرة البيضاء»:

«النهر وسكة القطار وأنت بينهما تعافرين لتقفى على قدميك، متوكئة على خطين، خط من ماء وآخر من حديد».

ليس فى نشأتك غرابة، فأنت لم تولدى بمعجزة، ككثير من البلدان، فلا التفت حول ضريح ولى ذى كرامات، ولا تخلفت عن ثكنة عسكرية فى موقعة مشهورة، ولاقام على أرضك أثر، ينتهى إلى عصر من العصور، بداية عادية لقرية عادية، لايسكنها سادة، ولا منحها اسمه قائد من القواد.

لتاريخك سحنة نهرك، انسياب ساكن، لا يسمع له هدير، ولا خرير، لو ألقى الحجر على صفحة الماء لخرجت تستطلعين الخبر.

أضنانى البحث عن أصل لك فى الكتب القديمة.

مدينة محاطة بالنخيل

طالعت قوانين الدواوين لابن مماتى، وقرأت كتاب ياقوت «معجم البلدان فى معرفة المدن والقرى والخراب والعمار والسهل والوعر فى كل مكان» وقلبت صفحات البكرى «معجم ما استعجم من أسماء الأماكن والبدان» وكتاب ابن الجياع «التحفة السنية فى أسماء البلاد المصرية» وجدتك فى صفحة وحيدة فى كتاب علماء الحملة حين قدموا مستطلعين رحلة «مويس» الذى يصب فى المالح بأقصى الشمال، قال كتاب وصف مصر: على بعد ثلاثة فراسخ من بوباسطة، وعلى نفس الشاطئ توجد مدينة صغيرة حديثة محاطة بغابة كثيفة من النخيل، وعلى الرغم من أن اسمها كان مجهولاً من كل الجغرافيين، ومن أنها لم تكن معروفة فى

ذلك الجزء من البلاد الذى يعد متحضراً، فإنها فيما يبدو كانت تضم سكاناً كثيرين كما كانت توجد حول أسوارها زراعة ممتازة ليست لدى البلدان المحيطة بها، والجزء من غابة النخيل القريب من السكان، يزرع على شكل تخميسة «أربع فى زوايا المربع وواحدة فى الوسط» وبعناية تشبه العناية التى تلقاها الحدائق الأوربية، وتحاط المدينة بسور به فتحات يبلغ ارتفاعه خمسة أمتار وهو فى حالة جيدة تعلوه أبراج قوية مسلحة بصف مزدوج من متاريس الطوابى.

وتعلو أبوابها التى صفت بشكل أسطوانى جزءاً من السور، ويبدو سكان هذه المدينة أكثر تحضراً من جيرانهم.

ومنذ غادرنا النهر وجدنا الناس فى كل مكان يحملون السلاح، يسودهم روح من التمرد والضجر، وفى هذه المدينة. وعلى الرغم من أننا كنا - ربما - أول أوربيين يمثلون أمام ناظرهم، خرج الناس فى شكل جمهور ليقدموا لنا الأطعمة ولم نلمح من بينهم رجلاً مسلحاً.

وابتداءً من ضواحى المدينة، وحتى الجزء الأدنى من الترعة لاحظنا على الشاطئين وجود عدد كبير من الأبراج المبنية بلا أبواب ولا نوافذ والتى يخترقها بعض الطوب، وهذه الأبراج تستخدم كمأوى للسكان عندما يفاجئهم أويلاحقهم عريان الصحراء فيصعدون إليها بسلالم من حبال.

البحث المضنى أوصلنى إلى نتيجة نهائية.

لا شئ مهما هناك، يتعلق بتاريخها وناسها، وهى مدينة مجهولة تماما حتى أن بطل قصة «حب الزعيم» تمنى أن يأتى العدو إليها يوما ليشتبك معها فى معركة يسجلها التاريخ ليكون لها شرف هبوط الزعيم إلى أرضها، لأن البطل يتحسرعند مرور الزعيم عليها، وهو ذاهب إلى مدينة المنصورة التى نشأت أثناء الصراع مع الصليبيين، ونجح أهلها فى أسر لويس التاسع فى دار ابن لقمان.

وكذلك حين يمر الزعيم ليحضر احتفالات بورسعيد بانتصارها على العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦.

وقلت لنفسى لاسبيل أمامك غير إحالتها إلى عالم فنى يحمل خصوصية، فاقترب معه جوهرها لتضع يدك على سماتها الخاصة فى الزمان والمكان. ومهما تشابهت القرى والمدن فإننا نستطيع الوصول إلى جذورها الأولى.

حاولت الإنصات جيداً إلى لهجتها المميزة عن القرى والمدن المحيطة بها، لماذا هذه اللهجة بالذات؟ ما أصلها التاريخى؟ ولهذا سيلحظ القارئ سماتها فى حوار الشخصيات القصصية والروائية.

كذلك راقبت بل عايشت طقوسها وشعائرها، فى أفراحها وأتراحها، وإذا وفقت فى هذا أكون قد توصلت إلى صوتى الذى لا يشبه صوت الآخرين. خاصة أن تراث الكتابة الريفية هو الأوفر حظاً فى تاريخ الكتابة الإبداعية المصرية فى القصة والرواية، فقد تأخر كثيراً حتى ظهر فى القصائد الشعرية.

وكانت «الضحى العالى» مجموعتى القصصية الأولى - ولاحظ اسم المجموعة - إنه يحمل تعبيراً أظن أنه يخص هذا المكان.

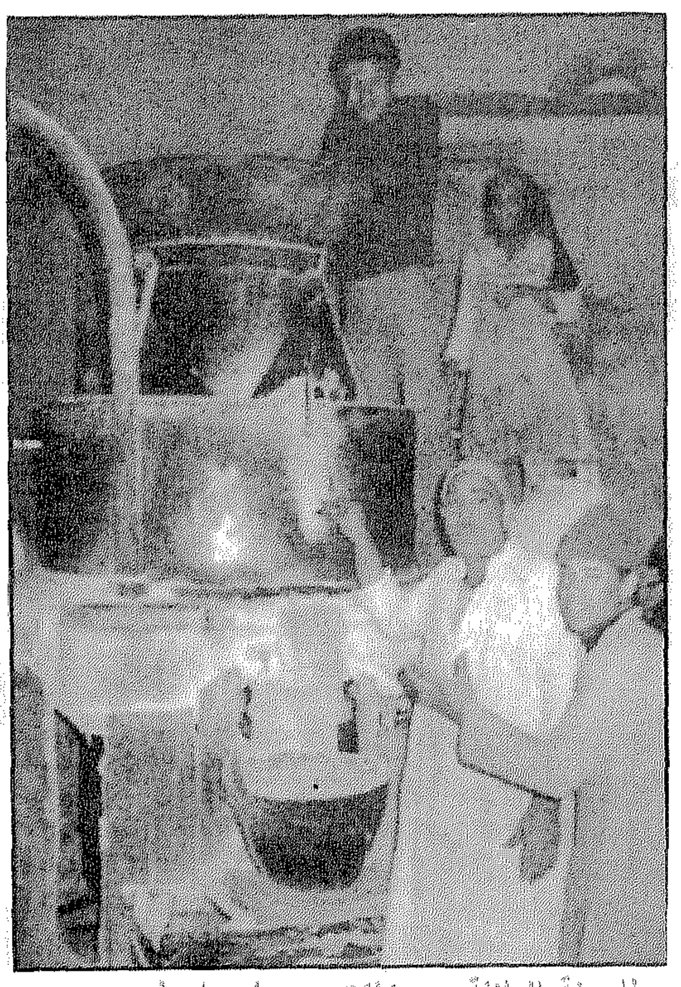
وظهر هذا أيضاً فى اسم المجموعة القصصية الثالثة «وش الفجر» كما ظهر فى عنوان روايتى الأولى: «عطش الصبار» حيث للموت حضور باذخ فى مكان النشأة الأولى.

ولم تبعد الكتابة للطفل كثيراً عن هذه الخصوصية، ولاحظ معى قصتى الأولى «خبز الصغار» التى ترصد لعب الأطفال بالطين كعالم طفلى موازٍ لعالم الكبار من حولهم، ثم تظهر أكثر فى روايتى الأولى للأطفال «الأيام الأخيرة للجمل» فى رصدها لتحولات الريف الذى راح يستغنى عن أدوات انتاجه التقليدية ليحل مكانها أدوات مستحدثة بديلة.

يتعذب الفلاح بها ما بين شجنه وحنينه لقديمه، ونزوعه للدخول إلى العالم الحديث.

وكان المكان يتبدى لى من حين لآخر ليكشف لى مزيداً من أسراره، وأقترب منه أكثر حتى تم التماهى بينى وبينه فيما يشبه الحلول الصوفى.

كل فرد من أبناء هذا المكان يعيش كالطريد إذا ضربته الرغبة فى الخروج منه، وجاءت روايتىّ الأخيرتين لتحمل اسمين للمكان فى تنوع يغنى التجربة الفنية ولايفقرها، رواية «تل الهوى» اسم لجزء صغير من نطاق المكان يظهر أكثر من خلال الرواية التى تحمل اسمه



طاحونة العائلة .. وكانت محورا سياسيا فى العديد من القصص وخاصة رواية (عطش الصبار

الخرافى «الجزيرة البيضاء» التى صدرت مع بدايات الألفية الجديدة، والرحلة فى هذا النص مبهظة فهى ممتدة فى تاريخه القديم، والحديث، إنها الرواية الشاملة التى تحتويه كلية.

فماذا سأفعل به فى الأعمال القادمة؟.

هذا سؤال القلق الأبدى، هل سأخرج منه أم سأظل فى فلكه، عاجز عن الانفلات من جاذبيته الغلابة؟



قــصــة
قــصــيـرة

السّلعة

قصة : عصام الزهيرى ● بريشة: جوده خليفة

انتشر الخبر مثل البرق، السلعوة في بلدنا فعلا. منذ أسابيع كنا نترقب وصولها بعد وصول أخبار دخولها النجوع القريبة من الجبل، ثم ظهورها في عزبة بعيدة، وظهورها أخيرا فى أقرب القرى من بلدنا. خمّنا وقتها أن السلعوة ضلت طريقها نحو الجبل وأنها تتخذ طريقا عكسيا يمر بالاستقامة على بلدنا. وطبقا لحساباتنا كان لابد أن تظهر بين وقت وآخر قبل ثلاثة أسابيع على الأقل.

كانت لنا مخاوفنا بالطبع، لكن أخبارها ظلت غير مؤثرة. المحلات والمقاهى وعربات الفاكهة والصيدليات ظلت مفتوحة الأبواب حتى ساعة متأخرة قبل منتصف الليل. ورغم أننا تتبعنا أخبار مداهمتها للبلاد الأخرى وروينا حوادثها بتلذذ الخائف من خطر لا يتهدده إلا أن بلدنا ظل محتفظا فى عيوننا وعيون أهل البلاد التابعة له بأبهته كمركز، ليس فى حجم عاصمة، لكنه يتلألأ بالنور والعمار حتى بعد منتصف الليل.

ليس من شاف كمن سمع لكننا كنا نحفظ أوصافها عن ظهر قلب قبل أن يراها أحدنا، قالوا إنها من فصيلة الذئاب وأنها تشبه كلبا أجرب متساقط الشعر، سريعة الحركة لحد الدهشة، لا مثيل لنهمها بين الذئاب . كانت موصوفة لنا بدقة استرجعناها ونحن نتناقل خبر مداهمتها لرجب الصاوى وصراعه معها حتى الموت تحت أنظار جيرانه.

كان الوقت فجرا فى المزارع، رجب كان ساهرا فى موعد سقاية أرضه (على عادته رغم أنه موظف)، ولم يدر أحد ما الذى وسوس له بالابتعاد عن النار التى أوقدها وتدفأ بها منذ بداية الليل، سمع الجيران أصوات صراخ مختلط بزمجرة وحشية لذئب كما ظنوها فى البداية، هرعوا ناحية الصوت وبيد كل منهم سلاحه، بجوار النار رأوا رجب ممددا على بطنه فوق الأرض، ذراعه ترتعش ارتعاش النزع ولا تزال تحاول الوصول إلى سلاحه المخبأ تحت فرش كان ينام عليه، وعلى نور القمر ووهج النار الخابى رأوها تمتطى ظهره، كانت تضع اللمسات الأخيرة فى شغلها الدموى إلا أنها انتبهت لوجودهم فى اللحظة نفسها التى اقتربوا فيها، عندها لاذت بالفرار ولم تنفع أعيرة بنادقهم التى لاحقتها فى الظلام.

على مبعدة من النار وجدوا عصاه وأجزاء من ملابسه وأذنه المقطوعة المدممة فوق التراب، ولم يعرف أحد بعد ما الذى دفعه إلى الابتعاد عن النار كل هذه المسافة. وزاد هذا الغموض من رهبة الحادث ورعبنا.

يوم الجمعة تقابلنا على عتبات المساجد . فى الخطبة أعلن الشيخ ضرار أن ظهور السلعوة رغم أنه اختبار من الله فإنه خدم إسرائيل لأن الخوف من ظهورها منع الناس من التفكير فى تحرير القدس.

ورغم أنه لا وجه للشبه بين السلعوة وإسرائيل فإن كلام الشيخ ضرار كان منطقيا، فليس ثمة أمر آخر مهما كان له من أهمية قادر على أن يصرف تفكيرنا بعيدا عن خطورة الوحش. لم نبحث وقتها عن السر الذى

السلعوة

اكتشفناه فيما بعد وراء كل هذا الرعب المبالغ فيه والذى أشعرنا هذا الكائن به . فالخوف على حياتنا يمكن تجنبه ببساطة بالبقاء فى منازلنا. وكان هذا بالضبط ما فعلناه . بقينا فى منازلنا منذ الغروب وقبله، أصبحت شوارع مركزنا لا تختلف عن شوارع أى نجع أو قرية صغيرة لأن أكثر أصحاب التجارة مجازفة احتفظوا بمحلاتهم مفتوحة حتى العشاء.

وكانت الأيام الخمسة التالية كفيلة بوضع حد لمخاوفنا التى بدت لنا فجأة مبالغا فيها. لم تظهر السلعوة فى بلدنا مرة أخرى، والخفراء الساهرون كل ليلة بالقرب من مصالح الحكومة كنا نراهم كل صباح سالمين.

عاد مركزنا بعد الأيام الخمسة إلى كونه مركزا من جديد، عمرت المقاهى وأضاءت المحلات حتى منتصف الليل. وفى اليوم السادس فاجأتنا السلعوة بالظهور من جديد.

كان الوقت عصرا فى البوابة، والبوابة فسحة واسعة مكان بوابة أملاك عمدة البلد قبل أن تستقل بما حولها وتصبح مركزا، أدخل بلية ابن فتوح بهائمه إلى زريبة داره، لاحظ فجأة وجود كلب أجرب فى الزريبة، تذكر أنه لمحه خلف بهائمه فى الطريق ولم يعره التفاتا، هش بلية الكلب بعصاه، وبدلا من أن ينهش هجم على مؤخرة البقرة ونهش حافرها. انهال بلية بالعصا على الكلب وهو لا يزال يعتقد أنه كلب مسعور، عندئذ جمده الرعب من وثبة الحيوان

نحوه، افترسته السلعوة داخل زريبته دون أن يشعر به أحد.

فى الخارج جلست أم فتوح (رحمها الله) على عتبة الدار، رقبتها تسقط على صدرها من النعاس وهى تهش على كتاكيتها بمنشة من الليف تحفظهم فى حوزتها، عندما رأت الكلب يقترب منهم لوحت فى وجهه، فتراجع خطوات جعلتها تفكر فى إسبال جفنيها، وخلال هذه اللحظة الخاطفة كانت مخالب الذئب تنغرس فى وجهها.

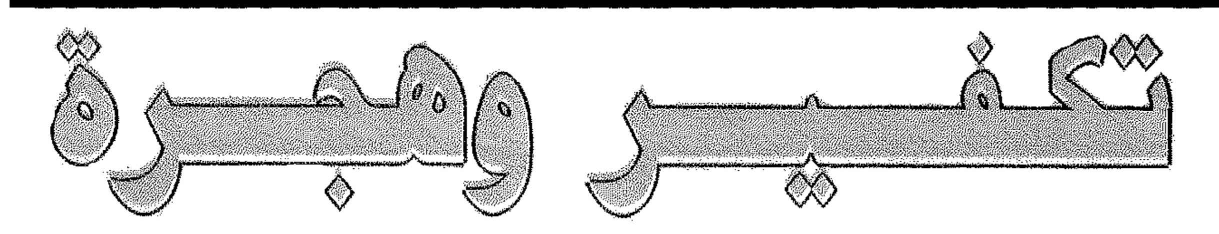
فى نفس اللحظة خطا ربيع حنفى أولى خطواته وآخرها فى فسحة البوابة، ففى وثبة واحدة أغمد القاتل فكيه فى عنقه وتركه جثة بعد صراع بينهما لم يستمر طويلا . مذبحة.. لم ينج منها أحد رأى الحيوان البشع سوى طفل صغير هو الذى روى تفاصيل المشهد كله، ولم يفلح سؤال الناس للطفل: أين كنت؟! فى تفسير نجاته، لأن الولد أشار ببساطة نحو ركن مكشوف من الساحة وقال: هنا.

كانت صدمتنا قوية ورعبنا أقوى . لكن الصدمة والرعب لم يمنعا الكثيرين من التلذذ بوضوح الحكاية (كنا أحيانا نتلذذ بالرعب مثل صغار يصغون من مكمنهم لحكايات السلعوة)، وضح أمام عيوننا فجأة سر ابتعاد الصاوى عن النار ليلة مقتله. مؤكدا لنا الآن أنه فارق النار كى يطارد الكلب الأجرب بعصاه، فارقها لنفس المسافة التى وجدت فيما بعد بين العصا والنار.

عقب الحادث بيوم واحد أغلقنا باب المسجد وجلسنا نستمع لخطبة الشيخ ضرار. نسى الشيخ حكاية إسرائيل وأخبرنا فى موضع من الخطبة أن نتمهل بعد الجمعة لإقامة صلاة الخوف. وفى موضع آخر طالب مأمور المركز الذى كان يصلى معنا بأن يخلص بلدنا من هذا الشر. وفى موضع متأخر جسَّم لنا رعبه - أو رعبنا - وهو يدعو الله أن يرفع هذا المقت عنَّا ويصف الحيوان بأنه جبار فى الأرض لا يقتل من أجل مطمع ولا مطعم بل من أجل عقاب سلطه الله علينا.

جعلنا الشيخ ضرار نكتشف جميعا فى نفس اللحظة السر الأكيد للرعب الذى أدمن ملاحقتنا. فالقتل من أجل الطعام سبب كاف لتبرير القتل، سواء كان القاتل وحشا أو إنسانا. أما هذه البلوى التى داهمتنا دون أن نسمع مرة واحدة أنها افترست ضحيتها فلا يمكن أن تكون شيئا سوى عقاب، صرخ الشيخ ضرار: عقااب..

اسرة شيينر امام المنزل



تيار جديد بدأ يظهر بوضوح فى المجتمع الامريكى وهو أكثر ميلا للتشدد ويختلف عن الحياة العلمانية التى تسود الولايات المتحدة الأمريكية، ويطلقون على هذا التيار اسم «المسيحى المحافظ» ويفضل أنصاره إقامة مجتمع خاص بهم ويختلف عن المجتمع الأمريكى. العلماء يفسرون هذه الظاهرة بأنها نتيجة للانقسامات فى المجتمع الأمريكى والتى شجعت على ازدهار كل الأقليات بدءا من الشواذ وحتى المحافظين.

ويعيش فى الولايات المتحدة الأمريكية نحو ٢٠ مليون مسيحى إنجيلى، هذا إلى جانب المتطرفين الذين يميلون للانسحاب من الحياة العامة، والمزيد من المحافظين دينيا ويشكلون نحو ٢٥٪ من المجتمع الأمريكى والعديد منهم يعيشون حياة أقل انعزالية وأكثر اعتدالا من الناحية الثقافية.

والمسيحيون المحافظون يتميزون بالثقة فى النفس عن أى مجموعة اجتماعية أخرى. وقد نجحوا فى تكوين ما يسمى «بالمجتمع المضاد» وأصبح أكثر تماسكا وأكثر نشاطا.

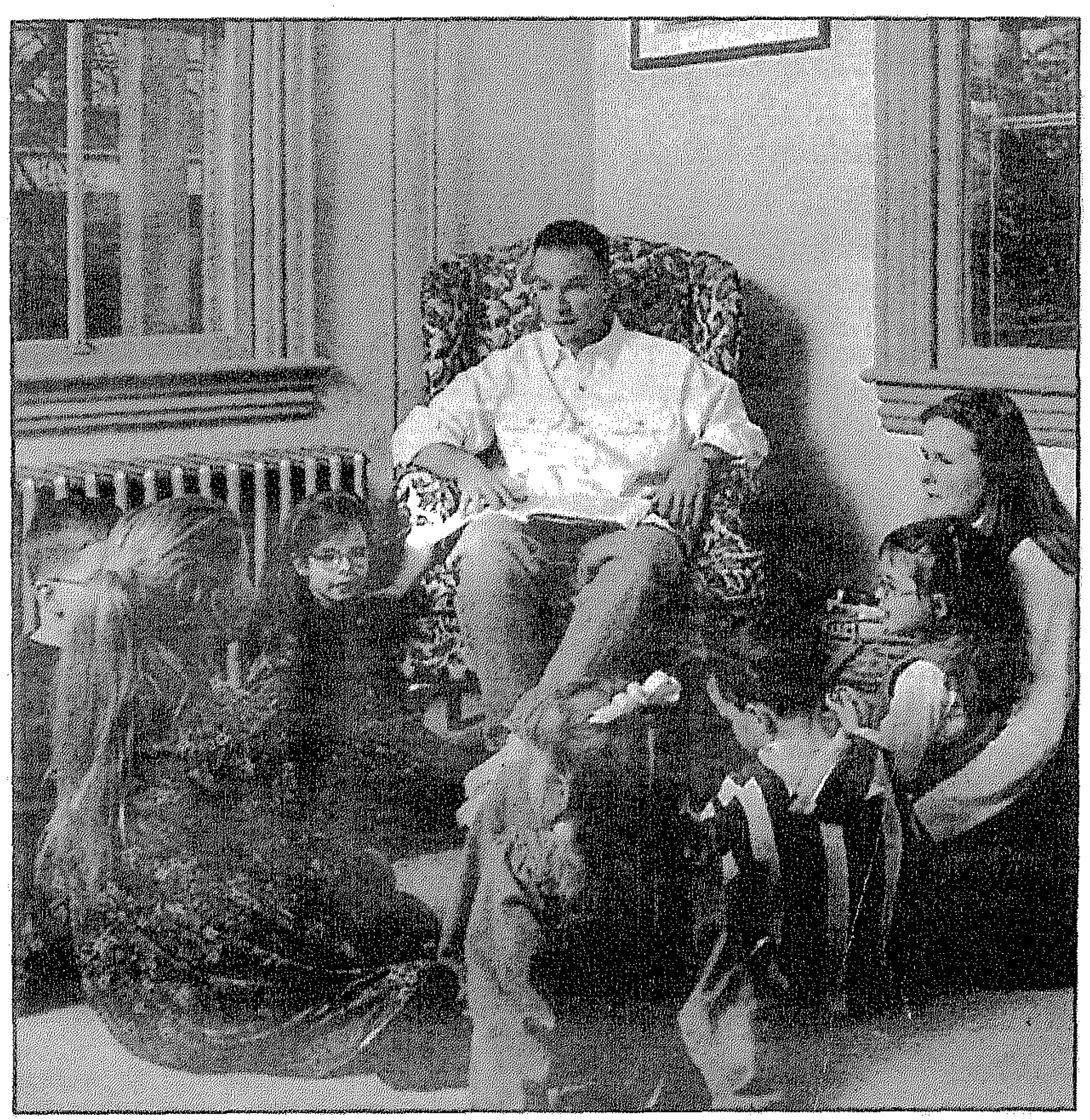
العبادة أولا

ويمارس الآباء فيها رقابة صارمة على أبنائهم فعلى سبيل المثال تخلو منازلهم من ألعاب الأطفال الشهيرة وتخلو من صور النجوم وحتى أغانى المشاهير، كما أنهم لا يشاهدون التليفزيون إنما يتابعون برامج مختارة فى أجهزة الفيديو. ولا توجد أدوات رياضية لديهم فمن وجهة نظرهم أن التنافس الرياضى لا يعتبر سلوكا دينيا والأفضل والأهم منه المشاركة فى التراتيل الدينية الأسبوعية والعبادة.

وأصبح من السهل الآن الانغماس فى

فى أمريكا

سناء حنفى



اسرة شينر فى جلسة عائلية

الحياة الدينية وذلك بسبب ازدهار وسائل الإعلام الخاصة بهم كما أن لدى بعض الأتباع محلات خاصة ببيع السلع وتقديم الخدمات، يمكن لأعضاء هذا التيار اللجوء إليها، للاستمتاع بها دون ارتكاب ذنب أو خطيئة، والكتب الدينية والتليفزيون مازالت فى بدايتها . والموسيقى المسيحية المعاصرة بالاضافة للفرق التى تحمل أسماء غريبة، والكلاب التى يستخدمها فاقدو البصر وكلها تعتبر مشروعات تجارية تحقق نحو بليون دولار سنويا بل إن الكمبيوتر والانترنت تتوافر لديهم فرص شراء ألعاب الكمبيوتر لشخصيات شهيرة فى الكتاب المقدس كما توفر فى أسواق

الفيديو أفلام للأطفال عن حكايات من الإنجيل وهى تتمتع بشهرة واسعة . ولم يتوقف نشاط المحافظين عند هذا الحد ولكنهم أيضا وفروا الأفلام العاطفية التى تخلو من الإباحية كما أن لهم مجلات خاصة بجميع الأعمار ومنها مجلات للأطفال من سن ٦ إلى ١٣ سنة وهى خالية من العلاقات بين الأولاد والبنات أو التجميل أو الموضة أو العنف كما أنها تخلو من الإعلانات.

***

ويركز هذا التيار على ضرورة الفصل بين الجنسين ويعارضون العلاقة بين الشباب بدون زواج . لذلك اتجهوا للمدرسة المنزلية وترجع أهمية ذلك إلى أن الأطفال الأكبر سنا سيقومون بمساعدة الأصغر منهم، أما الصغار فإنهم سيقلدون الكبار بدلا من تقليد زملائهم. فوجود الأطفال فى مدرسة خاصة حتى ولو كانت مسيحية يجعلهم يهتمون بما يفعله الزملاء وليس ما تفعله الأسرة.

وقد تزايدت المدارس المنزلية منذ عام ١٩٨٥ بنسبة تتراوح بين ١٥٪ إلى ٢٠٪ فى العام ويوجد الآن نحو ١.٢ مليون مدرسة منزلية فى الوقت الذى ترتفع فيه نسبة المسجلين فى الجامعات الانجيلية بنحو ٢٤٪ بين العامين ١٩٩٠ وعام ١٩٩٦ بالمقارنة بزيادة ٥٪ فقط فى الجامعات الخاصة الأخرى.

ولم يقتصر الأمر على المدارس فقط وإنما امتد إلى الكنائس أيضا. ويعتبر ستيف شيبنر من زعماء هذا التيار . ونظرا لرفض الأسلوب الذى تبعد فيه الكنائس الأطفال عن الصلاة مع الكبار إلى مكان آخر يستمعون فيه إلى القصص الدينية لذلك يقوم شيبز بإلقاء المواعظ الدينية على أبنائه، خاصة وأنه يؤمن بقدرة الأطفال على متابعة المواعظ من سن الثالثة.

وهذه المواعظ لم تقتصر على أفراد عائلته لكنها امتدت إلى عائلات الأصدقاء. وتحيط عائلة شيبنر نفسها بمجتمع من صنعهم وبأصدقاء من اختيارهم يشاركونهم عقيدتهم. فهم يرون ان الحياة فى مجتمع يشعر فيه الإنسان بالغربة ولا يثق بمساعدته فى تدعيم مبادئه تعتبر حياة مملة تدعو للحذر منها وتجبره على تذكير الأبناء دائما بأنهم مختلفون .

شهادة الثبات الروحى

وتقول زوجة شيبنر أنها لا تعزل أسرتها ولكن يجب عليها حمايتها من الشرور حتى تكون لدى أفرادها القدرة على الوقوف بثبات روحى، وحمايتهم من الثقافة السائدة.

والمسيحيون المعتدلون أقل احتمالا للحياة فى المناطق الريفية اكثر من أى اتجاه آخر والمراكز الجديدة لولايات وسط الغرب مثل كنساس وأوكلاهوما .

ويرى البعض أن هذا الاتجاه المنشق قد ساعد على قوته الاحباطات السياسية.. فقد ساهم الفضيحة التى كان بطلها الرئيس كلينتون لدرجة أثارت شعور بعضهم باليأس من السياسة. فكيف يمكن أن يأمل المتدينون فى التأثير على دولة تساند رئيسا فاسقا؟! وحتى هؤلاء الذين لا يشعرون بفجوة كبيرة تفصل بينهم وبين الناخب الأمريكى فمازالوا يجدون شيئا ذا معنى مستقز فى الدعوة للتركيز على الأمور الدينية فقط وليس على السياسة.

وفي مقال نشرته مجلة «المسيحية اليوم» كتب مساعد الرئيس الأسبق رونالد ريجان وهو «دون إبرلى» أن أعظم وهم ظهر فى السنوات الأخيرة هو توقع تولى الساسة الأقوياء والسلطات المدنية الزعامة فى خلق أمريكا مسيحية باستخدام نفوذهم.

ومن السابق لأوانه الآن إعلان نهاية اليمين السياسى المتدين فهناك العديد من القضايا مثل الاجهاض والشذوذ مازالت تحدث صدمات بين المتدينين ولكن لا يمكن إنكار انه كقوة سياسية فإن اليمين الدينى واهن وضعيف. والتحالف المسيحى يدعو الى إحداث تغييرات اجتماعية وسياسية جذرية، ربما كان ذلك السبب وراء خروج مرشحى المسيحيين المحافظين: جارى بور، وستيف فوربس من سباق الانتخابات . ولكن مع ذلك فحتى مع تخبط التحركات السياسية المسيحية فالاستراتيجيات التى يعتقد أنها «مجتمع مضاد» مثل المدارس المنزلية بدأت تنتعش

ويرى بعض المعتنقين للمسيحية المحافظة أنهم يجب ان يحرروا أنفسهم من عبودية السلطة السياسية ويركزوا على إقامة حياة جديدة. ويؤكد شيبز ان القضية الأساسية بالنسبة له هو تدريب الآخرين على ضبط النفس والطاعة الدينية. ويرى أن معظم الآباء اليوم يتركون لأطفالهم حرية شديدة وعند وصولهم سن الثالثة أو الرابعة عشرة يحكمون السيطرة عليهم فى حين أنه يرى أن العكس هو الأفضل فيجب البدء بالتشديد وعند بلوغ الأولاد لسن التمرد يمكن الثقة بهم.

وهم يرفضون الفكرة الحديثة عن المراهقة وأن انفصال المراهق عن والديه ضرورة حتمية حتى لو كانت ضرورية فى الطريق لتحقيق ذاته. وبالنسبة لميجان وزوجها ستيف شيبنر فالتمرد داخل الأسرة أمر ليس مطلوبا وهم فى حاجة إلى جبهة متحدة فى البيت للتمرد على المجتمع الأكبر على أى حال، فإذا كانت عودة ظهور تيار اليمين المسيحى قد أثارت دهشة الأكاديميين الليبرالية والصحفيين الذين دعوا للاستعداد له خاصة، وأنهم يعتبرونهم جماعة تأخرت عن العالم المتحضر اقتصاديا ،وثقافيا ونفسيا إلا أن حركة المسيحيين المحافظين يمكن أن تكون لصالح المجتمع ككل إذا التزمت بمجرد إلقاء التعاليم الدينية.

النيويورك تايمز ماجازين

صفحات مجهولة من أوراق القرن العشرين !

كيف تتخلص السى آى إيه من أعدائها ؟ !

بقلم : مجدى نصيف

كنا نعرف أن «وكالة المخابرات المركزية الأمريكية»، السى آى إيه CIA تقوم بعمليات كبيرة مثل تسليح وتدريب قوات «الكونترا» أى المعادية لثورة الساندينيستا بنيكاراجوا، وعملية «المجاهدين» فى أفغانستان من خلال المخابرات الباكستانية، وكنا نعلم أنها تقف وراء عمليات اغتيال كثيرين. لكن عندما أفرج عن الوثائق السرية الأمريكية لجواتيمالا خلال الحرب الأهلية التى دامت ثلاثة عقود، علمنا أن جيش جواتيمالا قتل خلال الحرب مائتى ألف شخص جواتيمالى، وعلمنا لأول مرة وبالتفصيل عن نشاط وكالة المخابرات الأمريكية وعن عمليات التعذيب والقتل والاغتيال التى تقوم بها. وقام صحفى فرنسى بدراسة هذه الوثائق لينشر سلسلة من المقالات بمجلة «لونوفيل أوبزيرسفاتير» أحدها صدر فى عدد ٢٩ أغسطس ١٩٩٩.

قتل جيش جواتيمالا مائتى ألف مواطن فى ثلاثة عقود حتى عام ١٩٩٦، بالأسلحة الأمريكية ومساعدة «وكالة المخابرات المركزية» خلال كل هذه السنوات . وساندت واشنطن سرا الحكام العسكريين الدكتاتوريين، الذين تتابعوا على حكم جواتيمالا ، وحكموا شعبها بالحديد والنار، وارتكبوا من الجرائم أكثر مما ارتكب حكام شيلى والأرجنتين وأوراجواى ، كلهم مجتمعين.

وتحت ستار الحرب المقدسة ضد الشيوعية، ساعدت السى آى إيه، ووزارة الخارجية الأمريكية، والبنتاجون، حكام جواتيمالا عسكريا واقتصاديا وسياسيا، وكانت الإدارة الأمريكية هى التى تسيّر الدولة كأنها «عزبة» وقتلت وكالة المخابرات

المركزية الأمريكية كما تظهر التقارير، مقاتلين من أجل التحرير، وسياسيين، ونقابيين، ومكافحين من أجل حقوق الإنسان، وفنانين . وصحفيين وكتّابا، وفلاحين وسيدات، بل وأطفالاً ، والدليل على هذا التحالف غير المقدس مع حكام جواتيمالا موجود فى «صندوق» ثقيل يحتوى على أكثر من ألف تقرير وخطاب وتلغراف سرى.

ففى ابريل عام ١٩٩٨، سلمت إدارة كلينتون هذا «الصندوق»، بعد تردد شديد. إلى «لجنة الصدق» التى تشكلت فى جواتيمالا، ورأت أن أولى مهامها هى «تقصى حقائق الماضى» فكان أول ما فعلته أن طلبت هذه التقارير الموجودة سرا فى حوزة الإدارة الأمريكية. وعندما افتضحت المسألة. أعلنت «أرشيفات الأمن القومى الأمريكى» عن كل ما فى الحقيبة».

★★★

بدأت القصة فى نهاية عام ١٩٦٥، عندما كان على رأس حكومة جواتيمالا الكولونيل إنريك بيرالتا أزورديا الذى أراد أن ينهى تمردا يساريا يقوم بحرب عصابات ضارية. وأعلن «أنا على استعداد أن أحول البلاد كلها إلى قبر كبير، فى سبيل أن يسود السلام». لم يكن خادعا ولا يستخدم «التهويش». طلب من السفير الأمريكى خبيرا لينصحه بما يقوم به، وأرسلت له وزارة الخارجية جون لوجان الذى كان قد ساعد حكومة فنزويلا على سحق ثورة شعبية . وأرسل جون لوجان تحت غطاء العمل بوكالة للغوث أمريكية غير حكومية . أما فى الحقيقة فلم يكن غير عميل مغطى لـ «وكالة المخابرات الأمريكية» CIA، بل كان من أقسى ضباطها، وفى نهاية ديسمبر عام ١٩٦٥، كان جون لوجان قد درب جنود جواتيمالا فى الجيش، والبوليس، والبوليس السرى، ووضع مع قياداتهم خطة عمل لمكافحة الإرهاب تتكون من ثلاثة فروع:

الأول : تشكيل غرفة قيادة سرية، مقرها قصر الرئاسة، ووظيفتها التنسيق بين كل الجهات التى تقوم بمكافحة الشيوعية. وتصبح هذه الغرفة السوداء الغامضة - كاسا نيجرا - التى كان يخشاها كل سكان جواتيمالا ، ويرسل اسمها الرعب والفزع فى قلوبهم.

والثاني : أن تقوم الوحدات بهجوم فى الوقت نفسه، على جميع أماكن اختباء الشيوعيين ليخرجوا منها.

والثالث : أن تحكم الولايات المختلفة حكما مباشرا من مسئولين بالحكومة المركزية.

كتب جون لوجان فى تقرير مؤرخ فى ٤ يناير عام ١٩٦٦، إلى رئاسة «وكالة المخابرات المركزية الأمريكية». أنه فى حاجة إلى معونة «عملاء آخرين من الوكالة يرسلون إلى جواتيمالا للمشاركة فى العمليات التى يقوم بها بوليس جواتيمالا» وكتب فى التقرير نفسه عن اجتماع مع الرئيس الجواتيمالى بيرالتا : «قال لى الكولونيل بثقة زائدة، عن كل قائد شيوعى يقبض عليه أو يقتل». هكذا دارت عجلة القتل بأموال ومساعدات واشنطن.

بعد ثلاثة أشهر من ذلك التاريخ تكشف الوثائق عن أول مذبحة جماعية سرية بجواتيمالا . فقد كتب رئيس

العمليات السى آى إيه بجواتيمالا إلى مركز قيادة الوكالة بلانجلى بفيرجينيا ، فى مارس ١٩٦٦.

«ليلة السادس من مارس عام ١٩٦٦، أعدم سرا الشيوعيون والإرهابيون التالى أسماؤهم «قائمة بالأسماء»، ولن يعلن عند هذه الإعدامات ، وستنكر حكومة جواتيمالا علمها بها».

وكان من بين الذين أعدموا رئيس «الحزب الاشتراكى الشعبى» ورمز المقاومة الشعبية ضد النظام آنذاك، فيكتور جوتيريز جاربين، ولم تعلم زوجته ولا أقاربه ولا أصدقاؤه لعدة أشهر ما حدث له. أما فى لانجلى فجرت احتفالات لقتله، وكتب رئيس وكالة المخابرات المركزية الأوربية بجواتيمالا لرؤسائه بلانجلى دون خجل بعد يومين من عملية القتل ، «كان جوتيريز مثقفا، أمينا ، وشجاعا مما جعله أكثر الزعماء تأثيرا على العمال».

جنون القتل

وما إن حل عام ١٩٦٧، حتى كان الإرهاب الذى تقوم به «الغرفة السوداء» قد تحول إلى جنون قاتل، كتب رئيس قسم المخابرات بوزارة الخارجية الأمريكية.

«فى قلب قوة مكافحة الشيوعية، يجب ألا ننسى الوحدة الخاصة بالجيش التى أسسناها خصيصا . لتقوم بعمليات الاختطاف والقتل فى الشوارع، وتضع القنابل ، وتعدم الشيوعيين والمشتبه فيهم، وتعمل ضد أعداء جواتيمالا من كل نوع».

الغريب أن كاتب التقرير أعرب عن قلقه البالغ، لا عن انتهاك حقوق الإنسان التى تتشدق بها الإدارة الأمريكية، وتشن الحروب من أجلها الآن، ولكن لأن «الشيوعيين يمكن أن يستخدموا ذلك كله من أجل منفعتهم» وخاصة عمليات الإرهاب التى تقوم بها «الحجرة السوداء» وتنظمها.

لكن القلق كان يزداد فى العالم أجمع، لارتكاب هذه المذابح التى لم يكن من الممكن إخفاء أخبارها. وكان ينبغى تهدئة الرأى العام العالمى. وبناء على نصيحة السفير الأمريكى بجواتيمالا ، قام الكولونيل الرئيس بتعيين وزير دفاع جديد، كأنما «السابق» هو المسئول عن الجرائم والأهم من ذلك أنه أرسل عدة ضباط الى الخارج، وفى الوقت نفسه قام رجل «السى آى إيه» بتفسير ما حدث لرؤسائه فى أحد تقاريره إلى رئاسته:

«حكومة جواتيمالا لا تريد أن تبدو المسألة كما لو أن المتمردين قد قتلوا فى عمليات عسكرية، والمفروض أن يذهب قضاة إلى أماكن هذه العمليات ـ الوهمية – فى وقت تالٍ».

واستمرت المذابح بعيدا عن الرأى العام ، لكن واشنطن وحدها هى التى كانت تعلم كل شىء وبالتفصيل بطبيعة الحال. يقول أحد تقارير ـ السى آى إيه ـ عام ١٩٧١.

«يقوم جيش جواتيمالا والبوليس: بتصفية عدد كبير من الإرهابيين سرا».

انتهاك حقوق الإنسان

بدأت فى ذلك العام أول معونة عسكرية أمريكية لجواتيمالا، وكانت هناك حاجة لتجديدها، وكانت السى آى إيه فى حاجة إلى إقناع لجنة المساعدات

بالكونجرس. فماذا تفعل الوكالة وكل الصحف الأمريكية تقريبا، تحمل تقارير عن انتهاك حقوق الإنسان ، والجرائم التى ترتكب بجواتيمالا؟ قامت السفارة الأمريكية بالعاصمة الجواتيمالية - جواتيمالا سيتى - بإرسال خطاب ملىء بالأكاذيب إلى لجنة المساعدات بالكونجرس ، حول ضرورة تقديم المساعدات العسكرية لحكومة جواتيمالا، جاء فيه أن «حكومة جواتيمالا تقوم بمكافحة الشيوعية بطرق بدائية، حتى لو كانت هناك انتهاكات فى بعض الأحيان، ولقد كانت مشاركتنا إيجابية . مكنت بوليس جواتيمالا بمهمته بطريقة مهنية صحيحة، وقانونية».

ثم تهدد السفارة حتى تصب أموالا أكثر فى آلة الإرهاب والقتل «إذا توقفنا عن تأييد حكومة جواتيمالا، فسيلجأون إلى عمليات غير قانونية.»

وقررت لجنة الكونجرس أن تستمر المساعدات الأمريكية العسكرية لجواتيمالا، فاستمرت مساندة الدكتاتورية العسكرية. معظم عقد السبعينات، ولما فاحت رائحة الجرائم ولم تستطع الأكاذيب تخبئتها، أنهى الرئيس الأمريكى جيمى كارتر المساعدات العسكرية لجواتيمالا عام ١٩٧٧ لأن حكومتها «تنتهك حقوق الإنسان». لكن الرئيس رونالد ريجان أعاد عام ١٩٨١ مراجعة السياسة الأمريكية فى دول أمريكا الوسطى، فأرسل إليها مبعوثا خاصا هو الجنرال ڤيرنون والترز، الذى كان رئيس السى آى أيه فى جواتيمالا سيتى عاصمة جواتيمالا. وفى العام التالى، استؤنفت المساعدات العسكرية لجواتيمالا، حتى بعد أن علمت الإدارة الأمريكية أن حكومة جواتيمالا شنت حملة قمع لم يسبق لها مثيل على المواطنين والديمقراطيين والشيوعيين. إذ جاء فى تقرير للسى آى إيه بجواتيمالا إلى الرئاسة «تهدف حكومة جواتيمالا إلى شن أكبر حملة لـ «تنظيف» «مثلث إكسيل» بريف جواتيمالا، حيث تجمع أكبر قدر من المقاتلين ولاشك أن العملية سيكون من نتيجتها انتهاكات صريحة على يد العسكر، إذ قد يكون من الضرورى هدم عدد من القرى وتسويتها بالأرض».

القتل بالطريقة المناسبة !

وفى تقرير آخر للسى آى إيه شرح كامل وتفصيلى للأوامر التى أصدرها رئيس جواتيمالا الجديد الجنرال إيفرين ريوس مونت لقسم البوليس السرى:

«أعطيكم أمرى بالقبض على أى مقاتل، أو سجنه ، أو التحقيق معه. أو قتله، بأى طريقة ترونها مناسبة».

حولت قاعدة السلاح الجوى بريتالهولو إلى مركز تعذيب كبير، استجلبت له كل أدوات التعذيب الأمريكية الجديدة، واستحدثت أساليب تعذيب وحشية سادية، فكان يلقى بالمسجونين بعد تعذيبهم فى حفر عميقة مليئة بالمياه، وبعدها يلقى بهم فى قبور جماعية «تغلق» بالأسمنت.

وقتل فى الثمانينات، كما تقول الوثائق ٧٠ ألف جواتيمالى . قدمت الولايات المتحدة الأمريكية خلالها المساعدات العسكرية ولم تتوقف ليوم واحد، بل وصلت عام ١٩٨٣ مثلا إلى ٥٠ مليون دولار لهذا البلد الصغير، وفى هذا العام بالذات اتهمت الإدارة الأمريكية «منظمة

العفو الدولية» بأنها «تقدم معلومات غير صحيحة عن جواتيمالا، وتقوم بحملة لصالح الشيوعيين»، واستمرت المساعدات العسكرية لجواتيمالا حتى عام ١٩٩٠.

استمرت الأعمال الوحشية بنفس المستوى، فى أوائل التسعينات، ورغم أن واشنطن أصدرت إدانة رسمية لما يحدث، إلا أن علاقاتها بجواتيمالا استمرت سرا، كانت السى أى إيه وعملياتها فى جواتيمالا مكشوفة للعالم، لكنها كذبت على وزارة الخارجية الأمريكية، وعلى البرلمان الأمريكى .و فى عام ١٩٩٢، وقع حادث، بالمصادفة، قلب الأمور رأسا على عقب، ولم تستطع حكومة جواتيمالا أن تستمر فى أكاذيبها.

اختفى إيمرين باماسا فيلاسكويز، أحد قادة المقاومة ضد الحكومة. وقالت الحكومة إنه «قتل فى صدام مسلح مع قواتها». لكن زوجته الأمريكية المحامية جنيفر هاربيرى، لم تقبل هذا القول، وقابلت أحد رفاق زوجها، وهو جواتيمالى أيضا، الذى ادعى أنه رأى زوجها فى غرفة تعذيب، وقالت له وزارة الخارجية الأمريكية التى اشتكت لها أنها «تصدق أكاذيب لا صحة لها» لكن القصة احتلت عناوين الصحف الأمريكية لمدة شهر، ولم تصرح حكومة جواتيمالا بأى شىء. لكن الوثائق الحالية عندما كشف عنها الستار، قالت إن «السى آى إيه» كانت تعلم ما حدث لزوج المحامية بالضبط، لقد «قبض عليه. وعذب، ثم قتل، عندما لم يعترف بأى شىء» . هذا ما ذكره تلغراف للسى أى إيه من جواتيمالا للمركز بالولايات المتحدة، ولم تذع وكالة المخابرات الأمريكية الحقيقة حتى عندما طلب «البيت الأبيض» الذى اشتكت له المحامية الأمريكية.

الإفراج عن الأرشيف السري

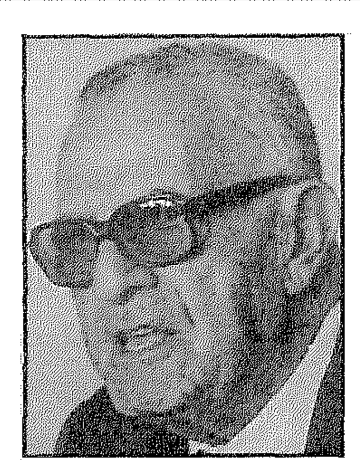
السبب أن الذى عذب باماسا وقتله وكذا الأمريكى مايكل ديفين، هو «خبير التعذيب الكولونيل جوليو روبرتوالبيريز» الذى كان يقبض مرتبه من السى آى إيه.

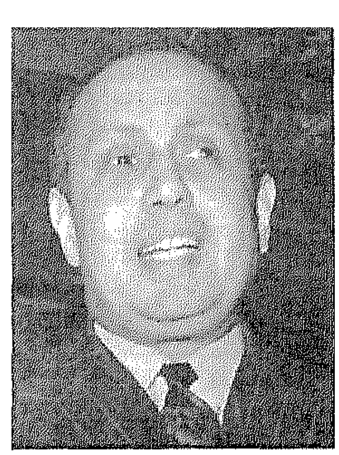
لكن حماية السى آى إيه للكولونيل ألبيريز أدت الى سقوط النظام العسكرى فى جواتيمالا. ذلك أن صحيفة «النيويورك تايمز» الأمريكية فجرت القصة عام ١٩٩٥، وأصاب «القرف» الرأى العام الأمريكى من أفعال السى آى إيه، ثم من إخفائها للحقيقة، فقرر الرئيس الأمريكى بيل كلينتون أن يوقف حماية الانقلابيين العسكريين فى جواتيمالا، ويساعد على «إعادة السلام» إلى ربوعها، ويأمر بالإفراج عن الأرشيف السرى ليساعد التحقيقات الجارية فى جواتيمالا، كانت المرة الأولى فى تاريخ أمريكا التى يفرج فيها «البيت الأبيض» عن مثل هذه الوثائق التى تدين الولايات المتحدة. وفى مثل هذه الفترة القصيرة على حدوث ما جاء بها .

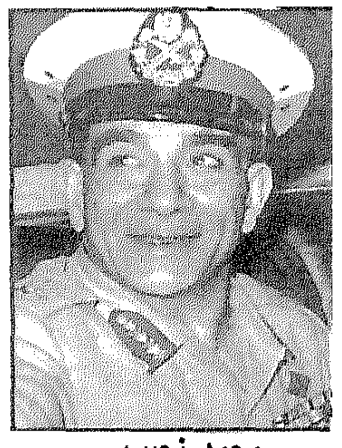
وفى رحلة قام بها الرئيس الأمريكى بيل كلينتون لدول أمريكا الوسطى، اعترف بأن الولايات المتحدة كانت تؤيد الحكومة التى عذبت شعب جواتيمالا. لكن لم يقدم أحدا للمحاكمة لإقدامه على فعلته. ووعد الرئيس كلينتون أن «التأييد الأمريكى لأى نظام يقوم بالتعذيب والقمع لن يتكرر».

صفحات سقطت من سجل مؤرخى الأدب

بقلم : وديع فلسطين


ابراهيم بيومى مدكور

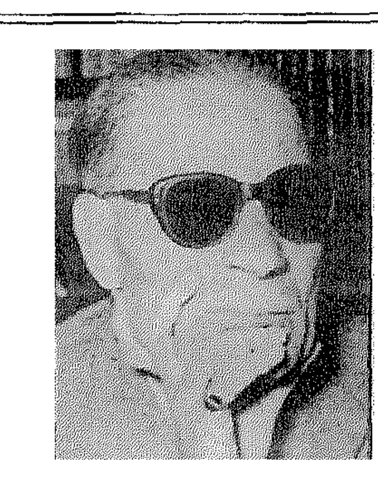

د. محمد صلاح الدين


محمد نجيب

عقاديات

حكايات عباس محمود العقاد كثيرة، ومعاركه الصحفية والأدبية اشتعلت على مدى العمر، فكان يتصدى لمن يواجهونه فى حلبة النزال بوجوه سافرة، أما الذين كانوا يطعنونه من الخلف أو يهاجمونه خارج الساحة، فقد كان يغفل أمرهم اعتدادا بنفسه وقلمه، وازدراء لمسلكهم الذى لايستقيم مع الأخلاقيات الأدبية، وقد قال لى مرة انه كره الشاعر أحمد شوقى كراهة لا سبيل الى التراجع فيها لأنه كان يستأجر حثالة الأدباء فيهاجمونه فى الصحف، عوضا عن أن يخرج اليه الى مبارزة كما كان يفعل الفرسان فى زمن

تهيأ - لى بحكم التداول بين الصحافة والأدب - الوقوف على أشياء عزّ على مؤرخى الأدب أن يلمسوا بها فى ما دونوه عن الماضى القريب الذى يرتد الى الأربعينيات من القرن الماضى . وفى هذه السطور بعض من حكايات الصحافة والأدب التى انتهت الىّ أخبارها من واقع الاحتكاك الشخصى، وليس عن طريق المطالعة أو السماع .



طه حسين



عباس العقاد

عزيز اباظة

مضى.

وكنت ألاحظ أن بعض ناشئة الأدب، الذين طالت أيديهم فعرفوا الطريق الى الصحف التى تصدر خارج مصر، يهاجمون العقاد بشراسة ويسخرون من آرائه، وهم مطمئنون الي أنه لن يطلع علي ما ينشرونه بعيدا عن عينيه، فكنت من ناحيتى أجمع للعقاد هذه المقالات وأوافيه بها ليكون على اطلاع على ما يقال عنه فى صحف لا تصل الى يديه. وكان من عادته أن يكتفي بالسخرية من هؤلاء الناشئين، فيصفهم مرة بأنهم «عيال الأدب» ، ومرة أخرى بأنهم من «الشباب الناهد» ، ولم يحاول أبدا أن يدخل فى نقاش مع أى منهم حتى لا يكون ذلك سببا فى ذيوع شهرتهم ورفع أقدارهم .

ومن حكايات العقاد أنه كان شديد الالتزام الصارم بالمواعيد، رافضا أى عذر

يساق لمن يتخلف عن موعد معه. وعندما كان عضوا فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية مع زملائه طه حسين وعزيز أباظة وابراهيم بيومى مدكور ومن اليهم، توجه من بيته فى مصر الجديدة الى مقر المجلس فى الزمالك فى الموعد المحدد لحضور اجتماع يعقده المجلس برياسة الوزير كمال الدين حسين. ونظر العقاد فى ساعته وقال إن موعد افتتاح الجلسة أزف ولن ننتظر أحدا، فليتفضل الدكتور طه حسين برياسة الجلسة وافتتاحها. ولكن الدكتور طه قال : لا بأس من الانتظار قليلا ريثما يحضر الوزير . فما كان من العقاد الا أن قال : اذن أرأس أنا الجلسة ، وأعلن افتتاحها قائلا : لابد من احترام المواعيد واحترام الحاضرين وكلهم من أعلام الفكر. وشرع ينظر فى البنود المدرجة فى جدول الأعمال، فلما حضر الوزير متأخرا، أفسح له العقاد ليرأس الجلسة وأخطره بما تم أثناء غيابه.

ومنذ وفاة العقاد فى ١٢ مارس ١٩٦٤، درج عامر العقاد ابن شقيقه على الاحتفال فى كل عام بذكرى ميلاد العقاد التى تحل فى ٢٨ يونيو (وهو من مواليد ١٨٨٩) ، وكان يطلب منى المشاركة فى هذه المناسبة. وفى احدى المرات اعددت كلمة لالقائها فى هذا الحفل، وتوجهت الى بيت العقاد حيث استقبلنى عامر قائلا : إن الرئيس محمد نجيب والدكتور محمد صلاح الدين باشا يجلسان فى الصف الأول، فقم بتحيتهما. كان الرئيس أنور السادات قد أفرج عن الرئيس محمد نجيب، فصار يتردد على المنتديات الأدبية، ورأيته غير مرة فى مكتبة الانجلو المصرية يختار مجموعة من الكتب، فاذا همَّ بدفع ثمنها رفض صاحب المكتبة صبحى جريس ان يتقاضى منه شيئا قائلا : إن هذه هدية متواضعة من المكتبة التى شرفتها بزيارتك. ولم تكن لى سابقة معرفة بالرئيس محمد نجيب، ولا رغبت فى أن أتزلف إليه. أما الدكتور صلاح الدين باشا وزير الخارجية فى حكومة الوفد الأخيرة فكان صديقا قديما لى لم أره من سنوات طويلة، ومع ذلك آثرت أن أجلس فى آخر صف فى القاعة دون أن أحييه مادام يجلس الى جوار الرئيس محمد نجيب.

وعندما نودى باسمى لالقاء كلمتى المعدّة سلفا، توجهت الى ما وراء مكتب عامر الذى يفصلنى عن الجالسين فى الصف الأول، وشرعت فى القائها . وختمت كلمتى المكتوبة بعبارة استعرت جزءا منها من أستاذنا أحمد حسن الزيات حيث وصف عبدالناصر بأنه من «الطوال من ذوى السلطان» وقلت : إن العقاد عرف كيف يحترم نفسه ويحترم قلمه ففرض احترامه على الطوال

والعراض والقصار من ذوى السلطان ! وهممت بالانصراف، فوقف الرئيس محمد نجيب وصافحنى ، فقلت له : انما قصدتك بالعراض من ذوى السلطان ! .

وحل موعد صلاة الجمعة، فانصرف الرئيس محمد نجيب، وأنست بعد ذلك بصحبة صديقى الدكتور محمد صلاح الدين باشا فكان هذا آخر لقاء لى معه .

مؤرخ اليمن

فى عام ١٩٤٨ التقيت فى ندوة المجاهد الفلسطينى الكبير محمد على الطاهر، المعروف بأبى الحسن، بمؤرخ اليمن الشيخ عبدالواسع الواسعى ، وهو رجل قصير القامة، يرسل لحية تكاد تكون أطول من كل دماغه. ويتحدث بصوت هامس وبلهجة يمنية. فأخبرنى أنه يزور القاهرة لكى يطبع كتابا كبيرا يسجل فيه تاريخ اليمن من أقدم العصور والى العصر الحديث ، ووعد بأن يزورنى فى الجريدة التى أعمل بها لكى يقدم الى نسخة منه بمجرد صدوره. وبعيد ذلك، وفى الشيخ الواسعى بوعده، وزارنى لتقديم الكتاب الكبير بجزئيه عن تاريخ بلاده التى كان يحكمها اذ ذاك الامام يحيى حميد الدين . ولم يكد كتابه يظهر حتى تواردت أنباء من اليمن عن قيام عبدالله بن الوزير المستشار الشخصى للامام يحيى بانقلاب، وأعلن نفسه إماما خلفا للامام يحيى الذى أشيع أنه لقى حتفه، وشرع ابن الوزير فى اختيار وزرائه للقيام بحركة اصلاحية فى البلاد، وأنشأ مجلسا تشريعيا من ٦٠ عضوا .

ولما كان مؤرخ اليمن راغبا فى تسجيل تاريخ بلاده الى آخر لحظة ، فقد أصدر لكتابه ملحقا عن حركة ابن الوزير الاصلاحية التى رأى فيها الشيخ الواسعى انقاذا لليمن (السعيد!) من جهالات عهد الامام يحيى، وزارنى فى مكتبى وهو متهلل لكى يقدم الىّ هذا الملحق قائلا إن ابن الوزير سيحقق لليمن عصرا زاهرا .

ولكن ثورة ابن الوزير أخمدت بأسرع مما يتصور، وتبين أن الإمام يحيى على قيد الحياة خلافا للشائعة الكاذبة، وخشى الشيخ عبدالواسع الواسعى أن يقع هذا الملحق فى أيدى حكومة الامام فتقطع عنقه، ولما توجهت فى الصباح الى مكتبى وجدت الشيخ عبدالواسع فى انتظارى منذ الفجر، وطلب استرداد هذا الملحق الذى أعمل فى جميع نسخه الإعدام متكتما أمره تماما، وعندما تسلم الملحق منى قال: لقد أنقذت حياتى . ومن حسن حظه أن آلات الاستنساخ والتصوير التى انتشرت اليوم لم تكن معروفة فى ذلك الوقت ، والا لخشى من أن أكون قد احتفظت بنسخة من الملحق تعرضه للمهالك .

ومن قبيل الاستطراد أذكر انني

التقيت فى ندوة أبى الحسن بالأمير البدر ولى عهد الامام يحيى قبل زوال مملكته، كما التقيت فى جنازة بالمشير عبد الله السلال الذى قاد الثورة على عهود الائمة ، وكان وقتها مجرد لاجيء سياسى عافته جميع مظاهر السلطة .

كما التقيت بالأمير على عبدالكريم ولى عهد سلطان لحج قبل ان تندمج جميع مشيخات الجنوب فى دولة اليمن .

الشاعر جورج صيدح وجارته الحسناء

عندما قرر الشاعر المهجرى جورج صيدح (١٨٩٣ ـ ١٩٧٨) الهجرة من بلاده سورية، توجه أولا الى القاهرة حيث اشتغل بتجارة الدخان التى لم تمنعه من نظم الشعر، ولكنه سمع أن أمريكا الجنوبية هى القارة التى تحقق الثراء لمن يهاجرون اليها، فأزمع الرحيل الى هناك واختار فى عام ١٩٢٧ فنزويلا مستقرا يجرب فيه حظه، وبعد عشرين عاما من الاقامة فيها ارتحل الى الارجنتين وبقى فيها الى أن زهد فى الهجرة وعاد عام ١٩٥٢ الى لبنان أولا ثم الى باريس التى عاش فيها الى آخر العمر بعد هجرة امتدت ربع قرن .

وفى بداية عهد جورج صيدح بالهجرة، لم يكن يحسن اللغة الاسبانية المتداولة فى فنزويلا ، ولكنه أجادها بعد ذلك بحكم اقامته فيها . ومن طريف ما حدثنى به أنه أقام فى بدء هجرته فى منزل لا يعرف أحدا من سكانه ولا من المقيمين بالقرب منه ، كما أن حاجز اللغة كان من أسباب عدم التواصل بينه وبين ذوى الجيرة، وذات يوم اكتشف أن صبية حسناء تقيم فى منزل مجاور ، ولكن كيف السبيل الى خطب ودها وهو لا يعرف لغتها، فاستنجد بشعره العربى عساه يستدر عطفها، ولكنها لم تفهم منه حرفا، ولا كان له أى تأثير فى الاقتراب منها. أما قصيدته التى ذهبت هباء بسبب معضلة اللغة فهى :

أنت لو كنت شعرت
بأسى الجار الغريب
ربما كنتِ مررت
تحت شباكي القريب
أنت لو كنت سمعت
أَنَّةً من جانبيّا
ربما كنتِ رفعت
نظرة منك إليّا
أنت لو كنت فهمت
سر قلبي من عيوني
ربما كنت ابتسمت
بسمة الأخت الحنون
أنت لو كنت عرفت
أنني في الدار وحدي
ربما كنت وقفت
عند بابي، دون قصد
أنت لو كنت علمت
بالذى يقضى صباك
ربما كنت دخلت
(أوصدى الباب وراك) !

ولئن انتشر شعراء المهجر الجنوبى فى البرازيل والأرجنتين بصورة أكبر وفى المكسيك وشيلى والاكوادور والجمهوريات الأخرى بصورة أقل، فقد كان عدد الشعراء فى فنزويلا صغيرا جدا، ولهذا سرنى أن أتلقى مؤخرا ديوان الشاعر جورج يوسف شدياق المقيم فى فنزويلا، والذى يحاول استعادة مجد الشعر المهجرى الذى تقلص برحيل أعلامه الكبار فى كل القارة الجنوبية مثل : الشعر القروى رشيد سليم الخورى، والياس فرحات، وشفيق وفوزى معلوف، وجورج صيدح. وزكى والياس قنصل، ونظير زيتون وغيرهم وغيرهم .

سكرتير طه حسين

أخبرنى الأديب يوسف الشارونى، زميلى فى المرحلة الثانوية، بعد اطلاعه على ما كتبته عن طه حسين وسكرتيره فى عدد شهر مايو من مجلة «الهلال»، بأنه عرف من أسرة زوجة فريد شحاته بأنه توفى فى كندا التى كان قد هاجر اليها بعد تركه العمل مع طه حسين. ولعل هذا يفسر فشلى فى تسقط اخباره من واقع أدلة التليفون فى الولايات الكندية المختلفة.

الزحف النسائي في قطر

فى رسالة تلقيتها من الدوحة أن الديوان الأميرى أصدر مؤخرا مرسوما بتعيين الأديبة الدكتورة هدى النعيمى عضوا فى المجلس الوطنى للثقافة والفنون فى قطر . وهو مجلس يؤدى مهمة وزارة الثقافة فى هذه البلاد، وكانت الأديبة الدكتورة كلثم جبر قد عينت عضوا فى هذا المجلس بمرسوم سابق .

وهاتان الأديبتان ظفرتا بدرجة الدكتوراه من مصر ولكن فى غير المجال الأدبى. فالدكتورة هدى النعيمى نالت درجتها فى الفيزياء النووية، فى حين نالت الدكتورة كلثم جبر درجتها فى علوم الاجتماع، ولكنهما تهويان الأدب، إذ أصدرت الدكتورة هدى مجموعتين قصصيتين عنوانهما «المكحلة» و«أنثى»، وأصدرت الدكتورة كلثم مجموعة بعنوان «وجع امرأة عربية» كتب مقدمتها رجاء النقاش .

وهناك زميلة ثالثة لهما هى الدكتورة هيا محمد الدرهم التى نالت درجة الدكتوراه من القاهرة فى موضوع الأدب المهجرى، وهى تعمل أستاذة فى كلية البنات بجامعة قطر، ولها كتاب كبير عن «صورة البحر فى الشعر العربى الحديث بالخليج» .

ولهؤلاء الأديبات الثلاث مشاركات فى عدد من المؤتمرات الأدبية التى عقدت فى العواصم العربية المختلفة، فكنَّ صورة مشرفة لقطر فى هذه المجتمعات .

أمريكيتان تحملان اسم على شلش

كان الأديب الدكتور على شلش متزوجا من سيدة أمريكية أنجب منها

ابنتين، وكان فى سنواته الأخيرة قد قرر أن يقيم فى لندن التى توسع فيها النشاط الثقافى العربى بسبب هجرة عدد غير قليل من الأدباء العرب اليها ملتمسين مزيدا من الحرية فى التعبير عن آرائهم، وبسبب كثرة المطبوعات العربية التى باتت تصدر عن العاصمة البريطانية من صحف ومجلات وكتب، حتى قرر عدد من الناشرين العرب اعتبار لندن منطلقا لنشر كتبهم وتوزيعها فى ربوع العالم العربى.

وعندما توفى الدكتور على شلش فجأة فى القاهرة فى ٢٣ أكتوبر ١٩٩٣ ظلت أرملته تقيم مع طفلتيها فى لندن، وهى اقامة فقدت مبررها بعد ارتحال الزوج، فقررت أن تعود الى الولايات المتحدة مع طفلتيها اللتين اكتسبتا الجنسية الأمريكية وان بقيتا تحملان اسم على شلش وكان علي شلش يشرف علي سلسلة «نقاد الأدب» الصادرة عن هيئة الكتاب، ولا أدري لم لا تخصص حلقة من هذه السلسلة لمنشئها، إذ كان علي شلش بدوره من نقاد الأدب .

عيسى خليل صباغ

توفى فى الولايات المتحدة مؤخرا عيسى خليل صباغ، وهو أمريكى من أصل عربى قابلته للمرة الأولى فى القاهرة فى عام ١٩٥٣ عندما زارها لحضور العرض الأول لرواية «مجد العرب» التى قام فيها بتمثيل دور الملك عبدالعزيز آل سعود فى فتح الرياض ودحر آل الرشيد وتوحيد بلاد الحجاز تحت إمرته . وقد اشترك فى تمثيل هذا الفيلم ممثلون أمريكيون وممثلون هواة من العرب وصورت مناظره فى أرض الجزيرة العربية وفى المواقع التى شهدت معارك ابن سعود.

وكان عيسى خليل صباغ يعمل الى جانب ذلك مديرا للقسم العربى لراديو صوت امريكا سنوات طويلة، كان من كبار أعوانه فى برامجه رائد أبولو الدكتور أحمد زكى أبو شادى .

وكان صباغ رشيق القوام جميل الصورة له لحية صغيرة (سكسوكة) يسميها المجمعيون «الثعنون»، وهى مؤهلات كانت ترشحه للظهور على شاشة التليفزيون ولكنه كان يختبيء دائما وراء ميكرفون الاذاعة .

ولعل أكبر شهادات ظفر بها عيسي خليل صباغ في حياته هي القصائد التي وجهها اليه أبو شادى فى دواوينه المهجرية الأربعة التى أشرفت بنفسى على تحقيق مخطوطاتها ونشرها وهى ديوان «الانسان الجديد» وديوان «النيروز الحر» وقد صدرا فى عامى ١٩٨٣ و ١٩٨٨ على التوالي عن دار ومطابع المستقبل فى القاهرة، وديوان «من أناشيد الحياة»، وديوان «ايزيس» وقد صدرا عام ١٩٩٩ فى مجلد واحد عن دار الجديد فى لبنان .

وقد أحصيت فى هذه الدواوين الأربعة ٩ قصائد نظمها أبو شادى فى تحية صباغ فى مناسبات شتى، وهى قصائد لا تخلو من الدعابة مثل الابيات التى قالها ابو شادى عند حصول صباغ على الجنسية الامريكية وفيها يقول :

بُشراك! هذا العم عيسى صار فينا العم سام

انظر الي عثنونه فلقد تزايد واستقام

قد كان في حزم الشيوخ فصار في زهو الغلام

من ذا يطاوله، وهذي الناطحات له تقام

وختمها بقوله :

فاليوم عيسي كالرشيد وحقه حق الغرام !

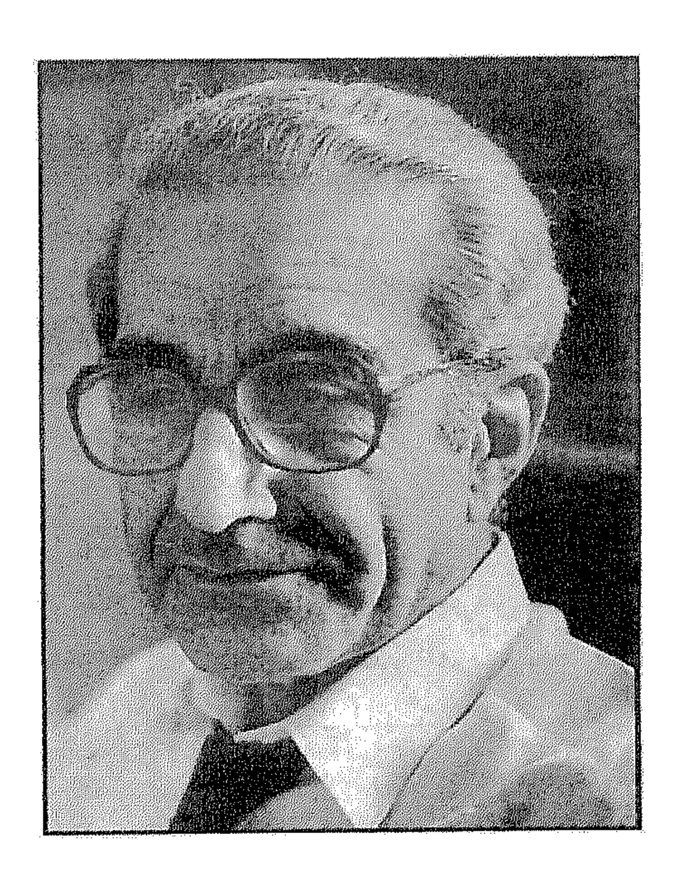
المكتبات الخاصة

مازالت المكتبات الخاصة التى يدأب الباحثون فى اقتنائها على مدى العمر تؤرق أصحابها بشأن مصيرها، ولا سيما اذا كان «الورثة» مبتوتى الصلة بالعوالم التى شغلت صاحب المكتبة. وقد أخبرنى الروائى السورى الدكتور عبدالسلام العجيلى أنه على استعداد للتنازل عن مكتبته الخاصة لمن يتعهد برعايتها والحفاظ عليها فلا يفرط فى أى من مفرداتها لأن نجليه الطبيبين لا يشاركانه فى اهتماماته الأدبية .

أما الأديب التونسى ابو القاسم محمد كرّو، وهو الذاكرة الحية للثقافة والوطنية فى تونس، فقد وهب مكتبته الخاصة التى تضم أكثر من ١٣ ألف مجلد الى كلية الآداب بمنوبة (وهى الجامعة التونسية الأولى) فأقيم بهذه المناسبة حفل أكاديمى كبير لافتتاح قاعة «أبو القاسم محمد كرو» التى تتصدرها صورة للمهدى بحضور ممثل لرئيس الدولة وبإشراف وزير التعليم العالى، وتبارى الخطباء فى الاشادة بهذه الهبة الثمينة التى يفيد منها الباحثون والعلماء.

وللأديب «أبو القاسم محمد كرو» أكثر من أربعين كتابا مؤلفا، وهو عضو فى مجامع اللغة العربية فى مصر وسورية والأردن والعراق، وعضو فى عشرات من الجمعيات العلمية العربية والتونسية، وشغل منصب المستشار الثقافى فى تونس سنوات طويلة ومنح وسامان للاستحقاق وكذلك وسام الجمهورية التونسية وجائزة الدولة التقديرية فى النقد

وقد قام ابو القاسم منذ يفاعته بدور السفير الأدبى التونسى ، فزار جميع البلدان العربية وعقد صلات وثيقة مع أعلام الأدب فيها، وبفضله أطللنا على الساحة الأدبية فى تونس وعرفنا إعلامها الكبار . وهو أول من عُنى بنشر آثار الشاعر الكبير «أبو القاسم الشابى» فصار ملء السمع والبصر فى العالم العربى كله .



حياتى نظام
صارم حتى
انتسب لفوضى
إلى الفكر ..
مصطفى سويف

شـهـادتى فى هذا المقـال تتناول النصف الثـانى من أربعينيات القرن العشرين ، كيف سرت . وسارت مصر ، وسار العالم من حولنا . فأما أنا فقد كنت حديث التخرج ، أقف عند مفرق الطريق الذى سوف أسلكه لأكمل من خلاله صياغة هويتى الفكرية . وأمـا مصر فكانت ممتلئة بالأمل فى قرب رحيل الجنود البريطانيين عن أرضها بما أن ذريعة الحرب قد انتهت ، ولكنها كـانت فى الوقت نفسه مشدودة بين واقع سياسى متهرئ يديره حفنة من السياسيين



زحام المحامين فى القاعة أثناء نظر اغتيال قضية أحمد ماهر

المتهافتين ، ومشروعات مستقبلية متضاربة تروّج لها مجموعات من المواطنين يتناثر فكرها على اتساع الطيف السياسى من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار . وكان العالم من حولنا جميعا يعى أنه خارج لتوه من أتون الحرب فى أوروبا ، وأنه لم يفرغ بعد من الحرب فى آسيا ، ومع ذلك فقد بدأ بالفعل يواجه مشكلات السلام ويعى أنها لا تقل خطرا عن مشكلات الحرب سواء من حيث مستوى تعقدها ، أو باعتبار فاعليتها فى تشكيل المستقبل .

حسم المخاض فى مسيرتى

جبلت منذ صباى على الإلحاح فى استيضاح المواقف الغامضة من حولى فى الحاضر ، وتوظيف الناتج من التخطيط لما هو آت . ولأمر ما اعتدت أن أمارس هذا السلوك بجميع حلقاته بمثابرة أحسد عليها ، وفى إطار من التوتر النفسى بالغ الشدة وإن ظل محكوما دائما . هكذا جرت أمورى فى أواخر مرحلة الدراسة الجامعية ، فقد استقر قرارى بعد حوارات نفسية مضنية على أن أضحى بإرهاصات الكتابة الأدبية ، وأكرس مستقبل العمر للاشتغال بالفكر العلمى ، متمركزا فى العلوم النفسية وجوبيا ومتجولا فى مساحات الفكر العلمى العام جوازا حيثما شعرت بالحاجة والاقتدار . وأنا أذكر الآن كيف كنت أفكر عندئذ فى كل صغيرة وكبيرة لكى أحسن توظيف هذا القرار . ويبدو أن قاعدة انطلاقى كانت تنطوى على قدر كبير من الشعور بالحسرة على ما قررت التضحية به ، الانتاج فى الصناعتين ، النثر والشعر ، ومن ثم فقد أصبح لسان حالى : كيف أضمن للصفقة أن تكون رابحة فى نهاية المطاف ؟ وكان طريقى إلى الإجابة هو التخطيط لتوفير أفضل الشروط . وكنت أعى أننى أعيش فى واقع اجتماعى غير موات . وكانت هذه الحقيقة تعنى فى نظرى مزيداً من الإلحاح على قيمة التخطيط . وأرى الآن استرجاعا لذكرى تلك الفترة أن مفتاحى الرئيسى لكل ما صممت من تدابير كان يتمثل فى مفاهيم ثلاثة ملكت على عقلى ووجدانى : هى الجدية ، والاتساق ، والمثابرة لضمان التراكم . وجدير بالذكر أن الآليات النفسية التى قامت وراء هذه المفاهيم الثلاثة عاشت معى وتطورت فيما بعد لتصبح محكات أحتكم إليها فيما أرتضيه وما لا أرتضى الإقدام عليه من نشاطات ، فما ارتضيته دخل فى الحسبان ، وما لم أرتضه كان نصيبه الترك والنسيان . ومن ثم فقد اتخذت من فترة السنوات الخمس التى أعقبت التخرج فترة لتثبيت التوجه الرئيسى للمسيرة ، وكان ذلك باتخاذ القرارات التأسيسية التى لا غنى عنها ، وتنفيذ الخطوات التى لا رجعة فيها ؛ فكان من أهم قراراتى أن يكون لى عمل يضمن لى راتبا شهريا ثابتا كشرط ضرورى لاستقرار الحياة ، وألا تكون إقامتى الدائمة خارج القاهرة لأن ذلك قد ينطوى على أخطار تهدد مشروعى الفكرى ، وألا أتخذ من قلمى أداة رئيسية لكسب قوتى حتى لا أضطر إلى تعريضه للمهانة ، وأن أتزوج حتى أضمن حدا أدنى من الاستقرار العاطفى، وأن أضع لحياتى نظاما صارما حتى لا تتسرب فوضى السلوك إلى الفكر فتفسده. ولست أذكر الآن الكيفية التى صنعت بها هذه القرارات ، ولا التسلسل الذى ظهرت به ، ولكن ما أذكره أنها كانت فى جملتها ناصعة الوضوح ، شديدة التماسك حتى بدا لى أن التهاون فى الالتزام بأىٍّ منها كفيل بانهيار الهيكل الذى يضمها ، ويبقى فى الذاكرة كذلك أن المادة التى حفظت عليها تماسكها الداخلى كانت وجدانية بقدر ما كانت عقلانية .

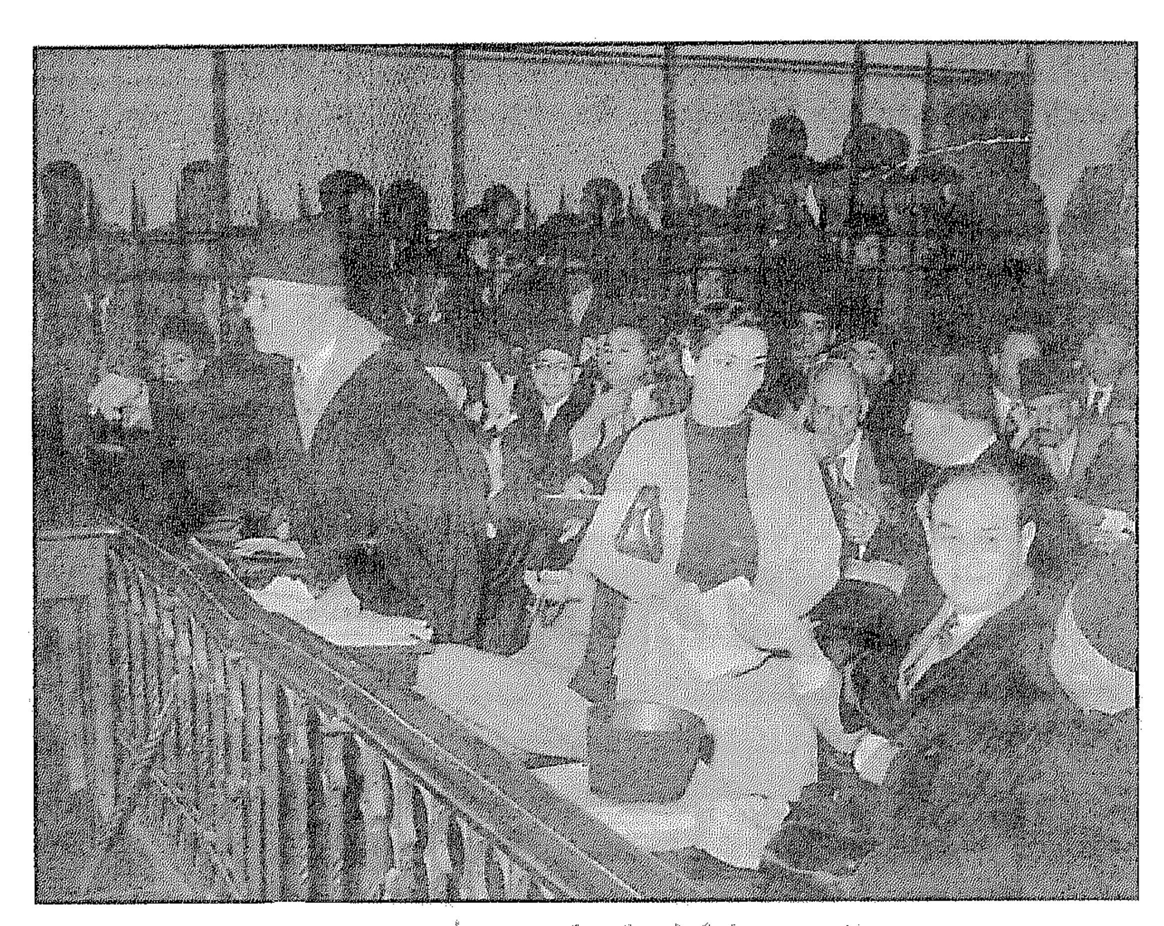
السعى فى ظل الإطار

أنظر الآن إلى الخلف بقدر معقول من الرضا ، فقد أظلتنى بمظلة وقتنى شر التوهان . وأسلست خطواتى بما أشاعته فى نفسى من ثقة فى الحاضر واطمئنان للمستقبل . كانت أولى خطواتى فى هذه المرحلة بدء العمل فى البحث الذى اخترته لأنال به درجة الماجستير ، «الأسس النفسية للإبداع الفنى : فى الشعر خاصة» . كان البدء فى سنة التخرج نفسها ، سنة ١٩٤٥ . ثم جاءت آخر إنجازاتى فى المرحلة نفسها عندما عينت معيدا بكلية الآداب وبدأت مهامى التعليمية فعلا فى أول نوفمبر سنة ١٩٥٠ ، وبين هذين التاريخية امتلأت أيامى بوقائع كثيرة تحمل دلالة المخاض ..ففى تلك الفترة نعمت بنوعين جديدين من الصداقة كان لهما فيما بعد نصيب كبير فى إثراء حياتى الفكرية والوجدانية ، صداقتى مع ثلاثة من الكتاب هم أحمد بهاء الدين ، وفتحى غانم ، وعبدالرحمن الشرقاوى ، وصداقتى مع ثلاثة من المصورين هم محمد نبيه عثمان ، ومحمد حامد عويس ، ويوسف سيده . وفى تلك الفترة بدأت أرتاد صالونات الفن التشكيلى ، وكانت إذ ذاك ظاهرة ثقافية محدودة . وبدأت أدرب قلمى على الكتابة الثقافية العامة ، وجرى ذلك على صفحات «الفصول» لمحمد زكى عبدالقادر . وفى الوقت نفسه بدأت أنشر المقالات المتخصصة على صفحات «مجلة علم النفس» . وبدأت الإعداد لبحث الدكتوراه بعد بضعة أسابيع من إنجازى بحث الماجستير ، وكانت الفصول الأخيرة من هذا البحث هى الرحم الذى تخلق بداخله جنين الدكتوراه . وفى يناير سنة ١٩٤٩ عقدت قرانى على السيدة التى أنست إليها ، وأكبرت إمكاناتها الإنسانية عامة والفكرية خاصة وما كانت تنبئ عنه . وفى مارس سنة ١٩٥٠ أنجبنا كريمتنا «أهداف» ، وأضافت أهداف إلينا شيئا فريدا ، كأنما هو عطر خاص بهذه الأسرة. هكذا حملنى المخاض فى ختام الأربعينيات إلى حيث تخلقت هويتى الإنسانية بأركانها الأربعة ، الأبوة ، والصداقة ، وارتضاء أمانة الفكر الاجتماعى ، والعضوية العاملة فى أسرة العلم والعلماء .

مصر فى مخاضها

كان اغتيال أحمد ماهر . رئيس الوزراء فى فبراير سنة ١٩٤٥ افتتاحية صاخبة لمخاض مصر فى مرحلة النصف الثانى من الاربعينيات . وأذكر أن وقع الحادث علينا جاء مثيرا لمشاعر مختلطة من الدهشة والخوف والترقب . وقد تولى الوزارة بعد ذلك محمود فهمى النقراشى ، الرجل الثانى فى حزب السعديين . وفى حدود ما تناثر من معلومات أثناء محاكمة القاتل لم نفهم شيئا عن حقيقة التوجهات التى دفعت به إلى الاغتيال . وقيل فيما بعد إنه كان ينتمى إلى الحزب الوطنى . وانتشرت فى ذلك الوقت شائعات بأن النقراشى كان يشرف بنفسه على التحقيق. ورأينا حينئذ أن هذا التدخل نذير سئ يضاف إلى نذير الاغتيال

فكلاهما يدفع بالصراع السياسى بين القوى الوطنية إلى مستوى من العنف واللاقانونية يصعب التراجع عنهما فيما بعد . وفى غضون شهور قليلة تراجعت سيرة حادث الاغتيال هذا ، وحلت محلها أنباء حادث اغتيال سياسى آخر ، فى هذه المرة كان القتيل أمين عثمان . أحد الأعضاء البارزين فى حزب الوفد (فى يناير سنة ١٩٤٦) . وأحاطت بهذا الحادث مجموعة ظواهر قبيحة ، فقد اتجهت بعض الكتابات الصحفية المعادية لحزب الوفد إلى أسلوب دس السم فى العسل ، وكان العسل هو متابعة جهود مبذولة لضبط الجناة ومتابعة إجراءات التحقيق ، أما السم فكان تحسين صورة الجناة إلى ما يقرب من ملامح البطولة ، على أساس أن القتيل كان من المقربين إلى الانجليز . وبدأنا نقرأ بين السطور ما يشير إلى تورط بعض رجال الملك إن لم يكن بالتشجيع قبل وقوع الجريمة فبالحماية بعد وقوعها . ثم كانت أسابيع قليلة تراجعت بعدها سيرة هذا الحادث أيضا ، ولكن لتحل محلها هذه المرة أنباء الحركة الوطنية . وكان خروج المظاهرات الطلابية إلى الشوارع مظهرا رئيسيا لهذا التحرك. وفى أوائل فبراير سنة ١٩٤٦ خرجت إحدى هذه المظاهرات من جامعة القاهرة (فؤاد الأول حينئذ) متجهة إلى ميدان الجيزة ومنه اتجه المتظاهرون إلى كوبرى عباس قاصدين عبوره إلى حى الوزارات (ولم يكن كوبرى الجامعة الذى نعرفه الآن قائما فى ذلك الزمان) ، وهناك وجدوا الكوبرى مفتوحا فتوقفت المسيرة ، وعندئذ أطبق جنود الشرطة عليهم من ناحية الجيزة ومن بعض الشوارع الجانبية وانهالوا عليهم ضربا بالعصى الغليظة . وشعر الطلبة والمواطنون أن المظاهرة وقعت فى كمين نصب لها ، وأثارت الواقعة استياء شديدا فى دوائر واسعة من الرأى العام ، وكنت أسمع التعليقات الساخطة عليها تتناثر من أفواه الناس العاديين فى الشوارع وفى المواصلات العامة . وأدرك الملك وحاشيته أن الأمور توشك أن تفلت من أيدى السلطة ، فأزيح النقراشى من الحكم بعد أسبوع من الواقعة ، ودعى لتشكيل الوزارة اسماعيل صدقى ، وتوقع الناس مزيدا من السوء مع إعلان التشكيل الوزارى الجديد ، اعتمادا على ما لرئيس الوزارة الجديدة من ماض سيئ فى إدارة شئون الحكم فى أوائل الثلاثينيات وكان الرجل على وعى بأن ماضيه السياسى يطارده ، ومن ثم فقد انصرفت جهوده عند بدء تعيينه إلى تحسين صورته العامة ، واستعان على ذلك ببعض الحيل الرخيصة ، منها احتواء وزارته على أسماء رجال لهم قدرهم فى الوجدان العام، وكان على رأس هؤلاء أحمد لطفى السيد كوزير للخارجية ، ومنها الإدلاء للصحف بأحاديث تقطر خديعة بمعسول الكلام ، ومنها كذلك أن رتب لنفسه تدابير للمشاركة فى إحدى المظاهرات وشارك فعلا ، وفى هذه المظاهرة حمل على الأكتاف (أكتاف المخبرين السريين طبعا) وأخذ يهتف والمتظاهرون يرددون الهتاف ،



أثناء المرافعة في قضية اغتيال أمين عثمان

ولما كان دعاة التزلف للحكومة موجودين فى كل زمان : فقد ظهر من أخذ يدعو إلى تصديق الرجل ومهادنته بدعوى إعطائه فرصة ليثبت حسن نواياه ، وجازت الخديعة فعلا على كثيرين ؛ وفجأة أسفر الرجل عن وجهه الحقيقى ، وإذا به يصدر قرارا بتحريم المظاهرات بحجة أن الدهماء يندسون فيها : وأصدر قرارات أخرى تقضى بتعطيل سبع صحف إلى أجل غير مسمى ، وكان على رأس هذه الصحف جريدة «الوفد المصرى» ، ومجلة شهرية يصدرها اتحاد خريجى الجامعة ، وأصدر كذلك قرارات بإغلاق عدد من مقار الجماعات اليسارية .

ولكن رغم هذه الإجراءات والقرارات استمرت أحداث المد الثورى : فقد وقعت صدامات كثيرة مع الشرطة . داخل الجامعة ، وداخل عدد من المدارس الثانوية، وبدا واضحا للجميع أن المشورة التى أتت بصدقى إلى الوزارة لم تكن من الحكمة فى شئ ، وبدا واضحا للجميع كذلك أن الرجل قد أدى المهمة الصعبة ، مهمة إغلاق بعض النوادى ومصادرة صحف بعينها ومن ثم فلا حاجة تدعو إلى استمراره وجها للسلطة والأفضل أن يضحى به كبش فداء وأزيح صدقى فعلا عن كرسى السلطة ، وأعيد النقراشى إلى رئاسة الوزارة مرة أخرى (فى ديسمبر سنة ١٩٤٦) ، وكشفت هذه الخطوة نفسها عن أن محركى خيوط التغيير

والتعديل يعانون من تخبط فى قراراتهم ، وربما كانوا يعانون كذلك من عجز عن فهم متغيرات جديدة تمس علاقات القوى الاجتماعية السياسية ببعضها البعض . على أية حال استمر الموقف السياسى يزداد تدهورا نحو اضطراب أكثر فأكثر ؛ فقد استمرت مظاهرات الطلبة وانطلقت فى بعضها هتافات ضد الملك (خاصة داخل الجامعة) ، ومما زاد الطين بلة سريان موجة من تفجير القنابل داخل دور السينما ، وكانت قد بدأت قبيل عهد صدقى ، واستمرت فى العهد الجديد أيضا . ولم تذكر الأنباء أن الحكومة عثرت على الجانى فى أى من هذه التفجيرات ، وكان السؤال الرئيسى الذى يشغلنا جميعا هو : من الذى يستفيد من هذه التفجيرات الموجهة إلى «المصريين العاديين» فى هذه الظروف ؟ وكانت الإجابة التى تفرض نفسها بطريق المنطق أن الإنجليز وعملاءهم هم المستفيد الأول . أم تكون هناك أصابع أخرى ؟ ثم زادت أمور البلد تفاقما بأن فوجئ المواطنون بتفشى وباء الكوليرا بينهم فى أواخر سنة ١٩٤٧ . وقرأنا فى تفشى الوباء إشارة بأصبع الاتهام إلى نظام الحكم كله ؛ فاللاعبون جميعا على المسرح المكشوف ، والمحركون من وراء الكواليس ، والمخرجون والملقنون مشغولون بتسخير كل شئ لأغراض اللحظة ، ولا أحد يهتم بخطط البناء طويلة الأجل .

وسط هذا الفيض من الأحداث المزعجة التى تزلزل الأرض من تحت أقدام الجميع ، وتشيع بينهم الخوف والترقب ، وتباعد بينهم وبين أقل القليل من الطمأنينة، كنت أواصل العمل فى رسالة الماجستير ، وكنت أطلب من عبدالرحمن الشرقاوى ومحمود العالم أن يعطيانى مسودات أحدث قصائدهم ، وكنت أجلس فى أى وقت من الليل أو النهار إلى أوراقى وكتبى لأواصل التفكير المدقق فى مشكلاتى البحثية ، ولينتهى بى التفكير إلى نوع الكتابة التى أرتضيها ؛ وكنت فى ذلك الوقت على وجه التحديد أجتاز أصعب مراحل البحث وأحوجها إلى أعلى مستوى من إحكام قبضة الذهن على جميع خيوط التفكير . وأنا الآن أتذكر هذا كله ، وأتذكر معه أننى كنت فى ذلك الوقت على درجة عالية من الوعى بما يجرى فى البلد ، وما يجرى فى ذات الوقت داخل رأسى من عمليات تتناول وثائق البحث بالنظر ابتغاء الفهم والتحليل واستخلاص النتائج الكاشفة ، وفى خضم هذا كله كنت أسمع من حين لآخر بعض الأصوات التى تنتقد هذا الانشغال من جانبى بعمل أكاديمى لا يضر ولا ينفع بدلا من أن أخرج للمشاركة فى أحداث البلد السياسية . كنت أستمع إلى هذا النقد أو اللوم ، وكنت أتحاشى الرد على أصحابه ، وألوذ بالصمت والابتسام ، وكنت فى كل مرة انتهى إلى رفضه فى سريرة نفسى ولكن سياق شعور بالمشقة لا يفارقنى . كنت أشعر أنه نقد غير صائب ، وأنه وليد نظرة سطحية للأمور ، وكانت حجتى الرئيسية فى الرفض أن النشاطات الإنسانية الإيجابية

من قبيل العلوم والفنون والحب والزواج والإنجاب .. إلخ لا يجوز أن تتوقف تحت أي شعار وأمام أي تبرير . وأن المشكلة الحقيقية إنما تكمن في الكيفية التي نضمن بها لهذه النشاطات أن تستمر رغم كل ما يدور حولها من صراعات . وكثيرا ما كان ينتابني شعور بأن بلادنا معرضة لكثير من الصراعات السياسية أكثر من غيرها من الدول القوية ، فهل يعني ذلك أن نتوقف نهائيا عن الإسهام في نشاطات الفكر بدعوى أننا بلد صغير. هكذا كان الحوار يدور في سريرتي ، وبصورة أكثر تفصيلا في جميع الأحوال .

على أية حال فوجئنا في ديسمبر سنة ١٩٤٨ بأن أصدرت حكومة النقراشي قرارا بحل جماعة الإخوان المسلمين . وبعد عشرين يوما من صدور قرار الحل اغتيل النقراشي في بهو وزارة الداخلية إمعانا في تحدي سلطان الدولة . وبعد أقل من شهر ونصف الشهر اغتيل حسن البنا (فبراير ١٩٤٩) المرشد العام للإخوان المسلمين . وأشارت جميع أصابع الاتهام إلي ضلوع الحكومة في ارتكاب الجريمة . وبدا واضحا للجميع أن ابراهيم عبدالهادي ، خليفة النقراشي في رئاسة الوزارة بات مهددا بالقتل ثأرا لحسن البنا. وثاب محركو الخيوط إلى شئ من التعقل، أو جاء تهم النصيحة ممن يعرفون كيف تساس مثل هذه المواقف بحسابات متبصرة ، فأزيح ابراهيم عبدالهادي عن الحكم . ودعي حسين سري ليشكل وزارة تجري انتخابات تشريعية محايدة ، وأجريت الانتخابات فعلا ، وفاز الوفد بالأغلبية ، ودعي مصطفى النحاس إلى تشكيل الوزارة (في يناير سنة ١٩٥٠) . وبعد فترة وجيزة أعلن النحاس إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ من طرف واحد . وتوالت على إثر ذلك أحداث جسيمة ، كان أشدها جسامة انتقال الكفاح الوطني إلى مرحلة جديدة من العمل المسلح ضد معسكرات الإنجليز في منطقة القنال ، هكذا كان مخاض مصر في تلك الفترة ، بدأ بالعنف ، وانتهى بعنف أقسى . وكان كل ما فيه ينبئ بأن هوية جديدة لمصر في طريقها إلى التخلق . وكنت أرى أن أسوأ ما في المشهد هو أن كل طرف من المشاركين يريد أن ينفرد بتشكيل المستقبل.

نذر الحرب الباردة في مخاض العالم

انتهت الحرب العالمية الثانية بفاجعة التفجير الذري فوق اليابان (في أغسطس سنة١٩٤٥) . ومع نهاية الحرب بدأت عدة صراعات تأخذ مجراها مما أفقد السلام جزءا كبيرا من قيمته ، وكان يعني استمرار معاناة الشعوب من اتصال التهديد والافقار ، التهديد بحروب تالية ، والإفقار بمزيد من الإنفاق على أسلحة الدمار . هكذا بدأت نذر الحرب الباردة بين القوى الكبرى ، ولم يكن قد جف بعد مداد وثائق الاستسلام التي وقع عليها مندوبو الدول المغلوبة .

وفي ذلك الوقت أيضا بدأت تظهر في الأفق انتفاضات الشعوب التي عانت من

الاستعمار قبل الحرب وتلقت وعودا بالاستقلال بعد النصر . وفى توقيت مقارب أيضا بدأت خطوات التهجير المنظم لليهود إلى أرض فلسطين ، والتهجير المنظم أيضا لعرب فلسطين من وطنهم ، كذلك اندلع القتال فى بعض بؤر الصراع فى أنحاء العالم . كان هذا هو ما انطوى عليه مضمون المخاض العام مؤذنا بتشكيل عالم جديد .

بدأت نذر الحرب الباردة تكشف عن نفسها فى قرارات اتخذت مبكرا . ففى نوفمبر سنة ١٩٤٥ أعلن الحلفاء الغربيون أنهم لا ينوون اطلاع الاتحاد السوفييتى على أسرار القنبلة الذرية . وفى سبتمبر سنة ١٩٤٦ أصدرت الولايات المتحدة قانونا يحرم إفشاء أية معلومات عن الطاقة الذرية . ثم إذا بالاتحاد السوفييتى يعلن فى نوفمبر سنة ١٩٤٧ أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تعد وحدها التى تملك أسرار القنبلة الذرية . ثم إذا بوكالات الأنباء تتحدث فى أغسطس سنة ١٩٤٩ عن أول تفجير ذرى يقوم به السوفييت ، هكذا شهد العالم أول جولة فى سباق التسلح الذرى للقوتين العظميين . وأترك لفطنة القارئ بعد ذلك أن يتخيل القدر الهائل من التهديدات الذرية التى تبادلها الطرفان فى هذه الجولة ، وبدا بكل وضوح عندئذ أن العالم يدفع دفعا إلى شكل جديد من أشكال الصراع تعلو فيه أصوات الطواقم الحاكمة وتتأكد إراداتهم بينما تخفت أصوات الأفراد من سواد الشعب وتتوارى إراداتهم .

هنا أتوقف عن الاسترسال فى سرد عشرات الأحداث والأسماء التى تجسدت من خلالها مفردات هذه الجولة ، لأن القارئ المستزيد يستطيع أن يجدها فى العديد من كتب التاريخ . أما ما أرى أنه يستحق الوقوف والتأمل حتى ولو كان ذلك على حساب التنويه مؤقتا إلى أن يحين السياق المناسب للإفاضة فى الحديث عنه فهو ما عساه أن يكون قد ترسب فى نفوس شعوب الأرض من تغير فى المزاج نتيجة للأجواء المكفهرة التى استولت على مناخ العالم حينئذ . يخيل إلى أن هذا الموضوع يستحق النظر لأنه ينطوى على دروس فى الكيفية التى يلزمنا أن نفهم بها الكثير من اضطراباتنا النفسية والاجتماعية الراهنة . ولكننا نترك هذا الرافد الآن ونعود إلى المجرى الأصلى للحديث .

حركات الاستقلال

إلى جانب نذر الحرب الباردة كان هناك رافد آخر يزيد من سخونة المناخ العالمى ، وكان هذا الرافد يتمثل فى بدء تحرك شعوب المستعمرات طلبا للاستقلال. شعوب كثيرة ، نذكر منها مصر والهند الصينية وإندونيسيا والجزائر وتونس ... إلخ كان هذا الرافد محملا بطبيعة الحال بمعانى الحق والآمال المشروعة بالإضافة إلى معانى التضحية والبطولة .. ولكن الوجه الآخر للعملة هو المعاناة التى كابدتها الملايين من أفراد تلك الشعوب ، لا لشئ إلا لأن المستعمر فرض عليها الصراع ثمنا للاستقلال . واتخذ هذا

الصراع أشكالا بالغة السوء فى قسوتها ، ومما زاد من نصيب العنف والقسوة فى هذا الرافد أنه اختلط فى بعض مساحاته (فى الهند الصينية مثلا) مع مساحات كانت تغطيها الحرب الباردة بين القوتين العظميين .

فلسطين وغرس إسرائيل

أما الرافد الثالث فكان إنشاء دولة إسرائيل على أرض فلسطين ، وكان واضحا فى هذا الرافد ، أنه يمثل نصيبا إضافيا تتحمله المجتمعات العربية بالإضافة إلى نصيبها الأصلى الذى تشارك به مع شعوب الأرض فى المخاض العالمى العام ، وقد بدأنا فى المعاناة منه منذ كنا تلاميذ صغارا فى مرحلة تعليمنا الثانوى . وكان ذلك فى أواخر الثلاثينيات. ولكن عندما أذنت الحرب العالمية بالانتهاء فى سنة ١٩٤٥ تبلورت القضية وبدأت المعاناة المصاحبة تتخذ أبعادا جديدة . ففى يناير سنة ١٩٤٦ أعلنت الحكومة البريطانية قرارا بجعل الهجرة المنظمة ، هجرة اليهود الأوروبيين ، إلى فلسطين فى حدود ١٠٥٠٠ عشرة آلاف وخمسمائة مهاجر شهريا . وفى منتصف نوفمبر سنة ١٩٤٧ بدأ انسحاب القوات البريطانية من أرض فلسطين ، كما أعلنت الولايات المتحدة أن الانتداب البريطانى على فلسطين ينتهى بنهاية مايو سنة ١٩٤٨م. وفى نوفمبر سنة ١٩٤٧ أيضا أعلنت الأمم المتحدة تقسيم فلسطين إلى دولتين إحداهما عربية والأخرى يهودية ، على أن تظل القدس تحت إدارة الأمم المتحدة .

وفى التاسع من أبريل سنة ١٩٤٨ أعلنت وكالات الأنباء عن وقوع مذبحة دير ياسين . وفى هذا الشهر نفسه استولى اليهود على ميناء حيفا . وفى ١٤ مايو أعلن عن قيام دولة إسرائيل ، كما أعلن أن عصابات الهاجاناه تصبح هى النواة للقوات المسلحة الإسرائيلية . وفى الشهر نفسه أيضا أعلن عن نزوح مائة ألف عربى عن الأراضى التى احتلتها القوات الإسرائيلية . كما أعلنت جامعة الدول العربية الحرب على إسرائيل . وفى يونية سنة ١٩٤٨ تم عقد أول هدنة بين العرب واليهود . وفى ديسمبر من السنة نفسها احتل اليهود صحراء النجف . وفى مايو سنة ١٩٤٩ قُبلت إسرائيل عضوا فى الأمم المتحدة ، وأعلنت بعد ذلك رفع أية قيود على هجرة اليهود إليها من جميع أنحاء العالم . وتوالت بعد ذلك فصول المأساة فى فلسطين ، وتوالت بعد هذه الفصول توابعها فى العالم العربى .

وبعد

هكذا سرت ، وسارت مصر . وسار العالم من حولنا فى النصف الثانى من أربعينيات القرن العشرين ، وتشابهت المسارات الثلاثة فى توجهاتها ، فقد كانت جميعا مخاضات فى الطريق إلى تشكيل الهوية ، وعندما حانت سنة ١٩٥٠ كانت الملامح المبكرة للهويات الثلاث قد بزغت ، أما معالم التشكيل الذى سوف تنتهى إليه كل هوية فكانت لا تزال تبحث عن مستقر لها .

أنت والهلال

تعليق حول المستبد العادل

قرأت بسرور زائد ما كتبه الكاتب بلال فضل فى عدد مايو الماضى حول ما كتبته عن محمد عبده والمستبد العادل فى العدد الذى قبله أى فى ابريل عام ٢٠٠٠م ، وأنا معه فى كل ما قال .

وليته يعلم أن هذا المقال فصل من كتاب مخطوط لدى عن مواقف الإمام ، وكانت مهمتى أن أشرح وجهة نظره هو ، وأن أحلل أبعادها وعواملها كما أتضحت فى فكره .

وقد فاتنى أن أعقب على مخالفتى إياه فى هذا الفصل ، مرجئا ذلك إلى نقد عام يأتى فى آخر الكتاب ، فشاء الله أن يكون التعقيب الرائع بقلم الأستاذ بلال فضل .

وإنى أعتب عليه فى شئ واحد ، هو عنوان المقال (لماذا المستبد العادل الآن ؟) فقد يوحى بأنى أؤيد إتجاها اندفع إليه بوحى خاص ، ولكن هذا يبعد كل البعد عن واقعى الملموس .

د. محمد رجب البيومى
المنصورة

الصبر

دع الأيام وأصبر للقضاء ... فما يغنى العويل ولا البكاء
فأنت اليوم فى حزن وهم ... غدا ستنال يسرك والرخاء

ولا تجزع وكن جلداً صبوراً ... ولا تحزن فيسر الله جاء
وكم طالت بأقوام هموم ... وكم سعدت بأقوام هناء

ولكن الإله إله عدل ... فلا دام الهناء ولا البلاء
وكم جاءت علينا من الشدائد ... تزلزل كل جدران البناء

فصبراً للبلاء بكل أرض ... وصبراً للإله على البلاء
وكم صبر النبيون قديماً ... وأيوب له قصص العناء

أحمد نادى بهلول - المندرة بحرى - ديروط - أسيوط

دفاعا عن د . عبدالرحمن بدوى

آلمنى مقال الأستاذ حسين أحمد أمين عن كتاب السيرة الذاتية للدكتور عبدالرحمن بدوى المنشور بعدد ابريل ٢٠٠٠ من مجلة الهلال ، فالمقال الذى يقع فى اثنتى عشرة صفحة كاملة هجوماً صارخا فى حق هذا الرجل من بدايته حتى نهايته .

وباعتبار أنى كنت تلميذا للدكتور بدوى لعدة سنوات ، فإنى أورد هنا ما له وما عليه من واقع إنطباعى ورؤيتى لهذه الشخصية .

فقد كان الرجل مختلفا عن أى أستاذ آخر بكلية الآداب ، والحديث عنه من قبلنا نحن طلبة الفلسفة يختلف أيضا عن أى حديث آخر ولا ينقطع ، فقد كان يضع نفسه فى هالة من الغموض أو نحن الذين وضعناه فى هذه الهالة .

ولم يكن يتحاور مع أى طالب إلا فيما ندر ، فإذا قام أحدنا وألقى سؤالا فإنه يقابل غالبا بأحد أمرين ، إما أن يرده كاسف البال برد مقتضب لاذع ، وإما أن يطلب منه الجلوس بإشارة خفيفة من يده ، ثم يمضى فى محاضرته وكأنه لم يسمع شيئا .. ورغم ذلك فقد كنا نحب هذا الرجل ونكن له الاحترام والتقدير .

كان من بين ما درسناه على يديه فرع من علم المنطق يسمى القياس الأرسطى ، يتضمن مسائل رياضية ذات صبغة رمزية وهندسية بحته يحتاج حلها إلى خبير حسابات حذق كما قرر علينا دراسة نظرية النسبية لأينشتاين على يد أحد أساتذة الرياضيات فى كلية العلوم التى تتضمن أيضا معادلات رياضية مطولة غاية فى التعقيد لا قبل لنا بها، هذا بجانب دراستنا لأربع لغات أجنبية هى اليونانية واللاتينية والفرنسية والألمانية ، ولاشك أن هذا يعكس ولعه باللغات ورغبته فى أنت تخرج له الكلية ولو طالبا واحدا يسير على منواله ، وهو ما لم يحدث فى اعتقادى .

كان لاذع اللسان ما من شىء يعجبه سوى الكتاب ، قد يهجو وقد يهاجم وقد ينتقم ولكنه أبدا لم يكن سىء السريرة .

لقد رأى الرجل أن يتفرغ تماما للكتاب فضحى بحقوقه كإنسان ولم يتزوج أو يعاشر الناس ، وقد يكون ذلك خطأً من جانبه ، فالعلاقات الحميمة تثرى الأعمال الفكرية - وإن كانت تزاحمها - وبذلك يكون الدكتور بدوى قد أضر بنفسه وبأعماله الفكرية على حد سواء إذ خلع عنها رداءها الإنسانى .

إلا أن هذه التضحية لاينبغى أن تحسب عليه بل تحسب له ، كما لايجب أن نلوم الرجل لأنه كرس حياته لدراسة الفلسفة، أو نصف حياته بالكآبة والبؤس كما ذكر المقال.

وإذا كان كاتب"المقال قد أطلق عليه هذه الصفات فهل له أن يطلق اللعنة أيضا على الفلسفة حين قال «فبعدا للفلسفة أى بعد ، ولعنة الله على من أولادها اهتماما أو نظر من اليوم فى كتاب فيها» .

فالذى نعرفه أن الفلسفة هى بداية الحضارات فى أى مكان من العالم منذ فجر التاريخ حتى الآن .

عادل شافعى الخطيب - عضو اتحاد الكتاب

طرائف فى الشعر والنثر

كان أحد الشعراء يعمل كحالا للعيون سأله أحدهم : ما حرفتك ومن أى شىء تكسب رزقك ؟ فقال له :

يا سائلى عن حرفتى فى الورى   واضيعتى فيهم وافلاسى
ما حال من درهم انفاقه   يأخذه من أعين الناس

كان الأديب الشاعر حفنى ناصف يجلس يوما فى أحد الأندية فأقبل عليه رجل وأعطاه ورقه مكتوب فيها :

جارت على الليالى فى تصرفها   وأغرقتنى فى لجج من المحن
فيا سيدى أنت ومعتصمى   أقل عثارى وأنقذنى من الزمن

ولما قرأ حفنى ما فى الورقة أخرج من جيبه «شلنا» وأعطاه للرجل ثم أعطاه الورقة بعد أن كتب عليها :

كاد شعرك يبكينى ويضحكنى   ولم أزل ساخرا من ظنك الحسن
فاقبل عطائى بلا شكر ولا غضب   فليس والله فى جيبى سوى شلن

كان رجل نحوى يوقد نارا للتدفئة فى إحدى ليالى الشتاء الباردة وهو يرتدى جبة من الصوف ومعه ابنه فقال له ناصحا : إذا أردت أن تتكلم بشىء فأعرضه على عقلك وفكر فيه بجهدك قبل أن تنطق به بلسانك فقال له ابنه :

– يا أبتى أنى أريد أن أقل لك شيئا فهل تأذن لى
– هل هو حق ؟
– نعم يا أبتى .
– إذن فتكلم ولكن لا تنسى ما نصحتك به قبل أن تقل شيئا .
– إنى لم أنس يا أبتى وهذا ما فعلته .
– قل ما تريد .
– إنى رأيت جمرة من النار تسقط على ذيل جبتك فانتفض الرجل واقفا ليرى النار قد أتت على نصف الجبة فصاح فى ابنه قائلا :
– وامصيبتى فيك فوالله لن تسمع منى نصيحة بعد اليوم فإن الحمار أعقل منك !

محمد أمين عيسوى
الإسماعيلية

تكلمى !

تكلمى !
وأمطرى القلب بعذب النغم
واضاحكى .. وابتسمى
وأشرقى كالصبح فى سديم عمرى المبهم !
تكلمى !
وخدرى مسامعى ..
فصوتك الشهى يحبو فى دمى !
وأقبلى ..
لا تخجلى ..
كى يقبل الربيع فى مواسمى
صغيرتى ، تكلمى !
ورتلى أنشودة الفرح ..
وسكنى جرحى ..
من قسوة الذبح !

محمد محمود الشناوى
بورسعيد

أمنيات للهلال

أتمنى أن أرى مجلة الهلال وهى تصدر مطبوعة بورق أكثر صقلا من الورق الذى تطبع عليه الآن حتى وإن كان ذلك على حساب إضافة بعض الإعلانات الشيقة فيها التى يمكن أن تقدم فائدة معينة للقراء ، على ألا يتجاوز عددها بضع صفحات فقط لكى لا تؤدى إلى تشويه صفتها الثقافية والفكرية .

أتمنى أن أرى مجلة الهلال مزدانة بصفحات ملونة تزيد عن الصفحات التى تحتويها الآن، وأن تركز ولو ببعض الصفحات على التحقيقات الصحفية عن مدن وقرى مصرنا الحبيبة ودولنا العربية الكثيرة أو دول العالم الواسعة على شاكلة التحقيق الصحفى الذى كتبه السيد مصطفى نبيل عن مدينة أصفهان على سبيل المثال .

أتمنى أن أرى مجلة الهلال وهى تفتح صفحاتها أكثر فأكثر إلى المفكرين والأدباء العرب ، فهى ليست حكرا على المفكرين والأدباء المصريين فقط ، بل إنها مطمح لجميع العرب وفى كل مكان سواء فى الدول العربية الأخرى أو لكل قارىء للغتنا العربية الجميلة فى جميع أنحاء العالم .

أتمنى أن تهتم مجلة الهلال بالقضايا العلمية المعاصرة أكثر فأكثر وخاصة فيما يتعلق بشئون الكمبيوتر والاتصالات والأقمار الإصطناعية ، التى تمثل اليوم نواة تلتحم بحياتنا اليومية وتستكمل جميع جوانبها .

وأتمنى أخيرا وليس آخراً أن أرى مجلة الهلال وهى تصدر مرتين فى الشهر الواحد ، وهو أمل يصعب تحقيقه على المدى القصير إلا أن التفكير فيه ربما يؤدى إلى نتيجة على المدى البعيد حيث أن القارىء الشغوف قادر على التهام مواد مجلة الهلال خلال بضعة أيام ثم يبقى وهو يتشوق إلى صدورها فى مطلع الشهر القادم .

وفى النهاية أتمنى أن ترسل لى مجلة الهلال عدد شهر ابريل لهذه السنة الذى استلمته وهو بحالة مؤلمة نتيجة تجعد صفحاته بشكل جعل من احتفاظى به فى مكتبتى أمرا يصعب تحقيقه ، خاصة وأننى أحب مداعبة أوراق أعداد مجلة الهلال بأصابعى التى قد تجرحها تجعدات هذه الصفحات .

فخرى المهدى / باريس

● الهلال ●

ياصديقى ونحن معك أيضا فى هذه الأمنيات التى يصعب تحقيق البعض منها وعلى سبيل المثال ، هذا الورق المصقول وعدد الصفحات الملونة وغير ذلك من أمنياتك الجميلة والتى لايستطيع القارىء أن يتحمل تكلفتها ، عندما تزيد تلك الأسعار عالميا وبشكل متسارع ..

لكن بالنسبة للكتاب العرب فنحن نوجه الدعوة التى لاتتوقف عن مشاركة المبدعين العرب فى الكتابة فى الهلال .

شكراً على هذه الأمنيات ، وقد أرسلنا لك العدد الذى طلبته لكى تستمتع بقراءته والأحتفاظ به بعد قراءته فى مكتبتك .

هدير القوافى

أمـــات الشعـــر أم مــات الشعـــور
فصـــرنـــا لا نحس بمـــا يـــدور ؟!

وهــل بــات الـبـيـان عـديـم سحـــر
فـلـم يـقـدر يـثـيـــر ولا يـثـور ؟!

وهــذا الحـرف أيــن الــروح منـــه ..
أفـــارقـــه فضمتــــه القـبـــور ؟!

أأمــــواج القـــوافـــى استـكـــانـت ..
فجـاوزهـــا إلـى البحـر الهـديـــر ؟!

وهــل عجـزت عـن الــبـــوح المعانـــى ..
أأضحـــى البـوح لايقـوى الظهـور ؟؟!

★★★

تهــاونـــا فهنــا حـــيــث كــنـا
فــأســد الشــرق بارحهـــا الزئيـــر
نقــــدس ظـــالمـــاً ونهيــن عــــدلاً
ولا نــصــغى إذا صـــرخ الضمــيـــر
عجـــزنـــا أن ندافـــع عـــن حمــانـــا
أيحمــــى أرضـــه جيــش أســيـر ؟!
نهـــرول للـعـــدو عـســـاه يـرضـى
ليغــدو عـبـده مــنـــا الأمــيـر !!
ونـــزعـــم أنـنـــا للنصـــر نمضـــى
وفـــى وهـــم الـســلام لـنـا ســرور !!

درهم جبارى - سان فرانسيسكو

قراءة ذكية لمذكرات سعد

أسجل إعجابى الشديد بهذا التنوع فى الهلال ، وكل ما أتمناه أن أحظى بنشر هذا التعليق وخاصة حول مقال الدكتور عاصم الدسوقى «سعد زغلول والوفد فى المنفى» وهو نتاج قراءة ذكية ومتأنية لمذكرات سعد زغلول ..

لقد شعرت وأنا أقرأ هذا المقال بأننى أقرأ عن زعيم حزب الوفد لأول مرة ، فضلا عما اشتمل عليه من طرافة فى التناول ..

شكراً للهلال على ما تقدمه فى مجال عرض الكتب التى تصدرها المطابع تباعا ، وبأقلام كبار أساتذتنا المتخصصين .

محمود محمد أحمد

دراسات عليا - كلية الآداب

بنى سويف

إبداعات مضيئة

عن الإبداع ليس دمى مـعـاقـاً
ولا يخشى التنافس والسباقا
ولم أفـقـد من الأقـدام جـزءاً
وجـزئى للعـلا أضـحـى نطاقـا
وتشـهـد لى المياه صـفـاء نفسى
ومـا حـملت شـهـادتهـا نفـاقـا
أمـام ضـيـاء إصـرارى تتـالت
ليـالى اليـأس تنفلق إنفـلاقـا
مـددت إلى الفـضـائل كل حـبل
فـأبرمـا بيننا النور اتفـاقـا
ومـا بين الهـوامش صـرت أرمى
لجـوع المهـمـلات وأن أراقـا
فلست بفـحـمـة جـزت لتـبـقى
كـبـائعـة إلى النار اشـتـيـاقـا
فليس على الظلال الذنب حـتـى
بسـوط الشـمس تحـتـرق احـتـراقـا
ومـا مـثـلى الأثاث وفى لحن
جـمـيل للبـلابل أن يسـاقـا
يقـولون الإعـاقـة سـوف تنمى
لأغـصـان الندى فـينا شـقـاقـا
ومن قـال المعـاق فـراق مـجـد
وفـيـه يكره المجـد الفـراقـا
ومن قـال الإعـاقـة سـوف تغـدو
أمـام تفـتـح الدنيـا إنغـلاقـا
رمـيت إلى الدنا أجـزاء همى
لأنى فى السـمـا أحلى مـذاقـا

عبدالله على الأقزم - السعودية - القطيف

جمعية نهوض

واحدة من الجمعيات التى تهدف إلى الحرص على المواطن المصرى وخدمته فى مجالات عديدة من بينها خدمة البيئة ، ومحاربة بعض القيم الخاطئة الدخيلة على شبابنا.

كما تهدف إلى تقديم رؤى عقلانية متكاملة تستند إلى مرجعية ذاتية مصرية ، حول الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لمشروع النهضة المصرية ، ولقضايا تهيئة الوطن ليتبوأ المكان اللائق به وبتاريخه فى حضارة الألفية الثالثة .

يوسف إدريس .. المسرحى الثائر

قدم يوسف إدريس العديد من المسرحيات والتى تناولت المجتمع المصرى وشرائحه وكتب النقاد عن مسرح يوسف إدريس خاصة د. محمد مندور ود. رشاد رشدى وغيرهما وتناولوا تأثره بكوميديا . ديلارتى الإيطالية فى مسرحية الفرافير ، ثم كتب بعدها «المهزلة الأرضية» «المخططين» والتى تناولت موضوعا بالغ الحساسية فقد واجهت السلطة بعيوبها ومنع عرضها حتى عام ١٩٦٩ ،ثم عرضت في عام ١٩٧٣ .

ويوسف إدريس الذى احتفل بميلاده فى الشهر الماضى كاتب مسرحى ثائر ، طرق الموضوعات الحساسة والجريئة ، والتى تعبر عن عقل مفكر مدقق ينبض ويشعر بالام شعبه ، ويضع إصبعه علي مكان الداء ، كيف لا وهو طبيب !

وإننى فى هذه العجالة وفى ذكرى هذا العبقرى د. يوسف إدريس أسجل تقديرى له لما بذله من جهد وعصارة تفكيره ليقدمه لنا على شكل مسرحيات وروايات وقصص ومقالات أزددنا بها معرفة وثقافة ، وأستمتعنا بها قراءة ومشاهدة .. ولقد كان لى مساهمة في كتابة بحث عنوانه (المسرح السياسى عند يوسف إدريس) تحت إشراف الدكتور أحمد زكى.

صخر مصطفى الشافعى
غزة - فلسطين
بيت لاهيا

● إلى الأصدقاء ●

الصديق نافع خليل يوسف : عمان - الأردن

وصلتنا قصيدتان الأولى بعنوان «الصحف العربية» تقول فى بدايتها :

ليس فى الصحف إفادة   لا ابتكار ، أو إجادة
كل ما فيها قديم   ورغاء وإعادة

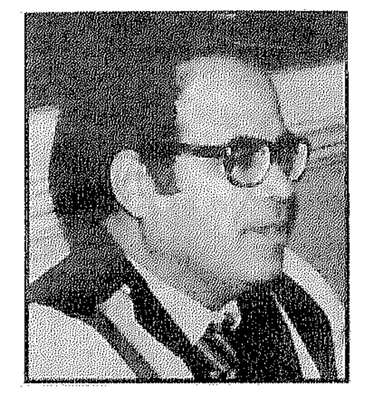
وفى القصيدة الثانية بعنوان «المرأة» تقول :

المرأة لغز قد حير   حرمتنا الجنة والكوثر
بالفتنة غذت دنيانا   وسقتنا كأسا قد أسكر
أغوت فى يوم أقواماً   والشاهد إبليس الأحقر

... ما هذا يا سيد نافع ! .. هجوم حاد على الصحافة وهجوم حاد على المرأة أيضا... لماذا كل هذه القسوة وقد تعودنا أن يكون الشعر هو أعذب الكلم ، وهو ما نستروح منه ومن جمالياته مايضفى الصفاء النفسى والروح الشاعرة .. نود أن نرى شعرك المتفائل !.

الصديقة : إيمان محمد العطيفى - الشيخ شبل - المراغة - سوهاج .

قصيدتك «مرهون الجفاء» أفضل من سابقاتها ، لكن تحتاج إلى إعادة نظر فى الوزن ، وهذا يحتاج منك إلى وقت لن يطول حتى تتمكنى من أدواتك الشعرية، وثقى تماما أننا نحرص على قراءة الإنتاج الذى يصل إلى «أنت والهلال» من كل الأصدقاء .



الكلمة الأخيرة:

علمـــاء وأمـراء ومـواقف

بقلم: د. الطاهر أحمد مكى

نحن فى القرن الرابع الهجرى، فى مسجد متواضع بجوار قصر الخلافة، فى قرطبة، وقد نفقت ساحته بطلاب العلم، لحضور دروس الفقيه (دكتور) أبو ابراهيم، شيخ طاعن فى السن، تجاوز الخامسة والسبعين، يحاضر فى الحديث. وفجأة انشقت الصفوف عن رسول من الخليفة، وقف وسلّم وقال:

– يا فقيه، أجب أمير المؤمنين، فإن الأمر خرج فيك، وأُمرت بإعجالك!

فرد أبو إبراهيم: سمعا وطاعة، ولكن لا عجلة، فارجع إلى الخليفة، وعرّفه عنى، أنك وجدتنى فى بيت من بيوت الله، أسمع طلاب العلم حديث رسول الله، وهم يقيّدونه عنى، ولا يمكننى ترك ما أنا فيه، حتى يتم المجلس، فإذا انتهيت منه، مشيت إليه إن شاء الله تعالى، ثم أقبل على درسه.

انصرف الرسول ضجرا ومتعجبا، وعاد بعد قليل ليقول: جزاك الله خيرا عن الدين، وأمير المؤمنين، وجماعة المسلمين، فإذا أكملت درسك فامض إليه، وقد أُمرت أن أبقى معك حتى تنتهى، وأصحبك.

– حسن، ولكنى أضعف عن المشى إلى باب القصر الذى يدخل منه عامة الناس، ويصعب علىّ ركوب دابة لشيخوختى، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بفتح الباب الملاصق للمسجد، هوّن علىّ، وأراح جسمى، فعد إليه حتى تعرف رأيه.

لحظات وعاد الرسول: يافقيه، أجابك الخليفة إلى ما سألت، وأُمرت بملازمتك.

أكمل أبو ابراهيم درسه، غير منزعج ولا قلق ولا متسرع، ثم قام إلى داره فأصلح شأنه، ومضى إلى الخليفة من الباب الذى فُتح له خصيصا.

★★★

يروى أحد طلابه: لقد تعمدنا أن ننتظر لنرى ما يصنعون بهذا الباب المغلق عادة، فإذا الخدم والأعوان، ما بين كنّاس وفراش، وسجاد يمدّ، فى انتظار الفقيه أبو ابراهيم.

ويختم المؤرخ الذى أورد الحكاية كلامه: هكذا يكون العلماء مع الرؤساء، والرؤساء مع العلماء، قدّس الله تلك الأرواح العظيمة.

★★★

حين اختفى العالم المخلص الصادق الشجاع وافتقد الحاكم المستشار الأمين، الناصح تدهورت الدولة وأصبح الأندلس أثرا بعد عين.

والتاريخ ليس مجرد حكايات تروى، فإذا لم تدرك ما تومىء إليه الحكاية، فاقرأها من جديد!.

أهلا بك معنا

شبكة خطوط تمتد إلى

٧٢ مدينة عالمية

فى اوروبا و امريكا و آسيا
و افريقيا و استراليا

و ١٢ مدينة داخلية
باحدث طرازات الطائرات





www.Egyptair.com.eg



النغمة الجميلة العذبة فى ربوع الوطن العربى من مشرقه إلى مغربه
زهور
71
رجل أحببته
دائرة الفل
روايات مصرية للجيب
لفتح آفاق الثقافة والمعرفة فى عقول الأولاد والبنات
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع